تفسير القرآن العظيم

المسمى

تأويلات أهل السنة

جنة السنة

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة

مؤسسة الرسالة

مؤسسة الرسالة ناشرون

منشورات
مؤسسة الرسالة ناشرون
رضوان دعبول

هاتف: ٥٤٦٧٢١ _ ٥٤٦٧٢٠
فاكس: ٥٤٦٧٢٢ (٩٦١١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠
بيروت ـ لبنان

Resalah Publishers

Tel: 546720 - 546721
Fax: (9611) 546722
P.O. Box: 117460
Beirut - Lebanon
Email: resalah@resalah.com
Web site: http://www.resalah.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤م

ISBN 9953-32-096-9

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠٤م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكّن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

١

جنة السنة

تفسير القرآن العظيم

المسمى

تأويلات أهل السنة

تصنيف

أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي الحنفي
(ت ٣٣٣ هـ)

تحقيق

فاطمة يوسف الخيمي

المجلد الثاني

مؤسسة الرسالة ناشرون

جنة السنة

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمَّ

اجْعَلْني ومَنْ كانَتْ لهُ يدٌ في

إخراجِ هذا الكتابِ ومنْ يقْرَؤهُ مِمَّنْ يُرَدِّدُ

دعاءَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

فاطمة يوسف الخيمي

جنة السنة

سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ اجمعَ أهلُ التأويلِ على أنَّ العُقودَ ههنا، هي العُهودُ.

ثمّ العُهودُ على قِسْمَينِ؛ عُهودٌ في ما بَينَ الخَلقِ، أمَرَ اللهُ ﷻ بوَفائها، وعُهودٌ في ما بَيْنَهُمْ وبَينَ رَبِّهِمْ؛ وهي المَواثيقُ التي أخَذَ عليهِمْ: مِنْ نَحْوِ الفَرائضِ التي فَرَضَ اللهُ عليهِمْ والنُّذورِ التي يَتَوَلَّونَ هُمْ إيجابَها، وغَيرِ ذلكَ أمَرَ ﷻ بِوَفائِها.

وأمّا العُهودُ التي في ما بَينَهُمْ مِنْ نَحْوِ الأيمانِ وغيرِها [فقد][1] أمَرَ بِوَفاءِ ذلكَ إذا لم يَكُنْ فيها مَعْصيَةُ الرَّبِّ كَقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] أمَرَ ههنا بِوَفاءِ الأيمانِ، ونَهَى عن تَرْكِها ونَقْضِها.

ثمّ جاءَ في الخَبَرِ أنَّهُ قالَ: «مَنْ حَلَفَ على يمينٍ، فَرَأى غيرَها خيراً مِنها فَلْيَأتِ الذي هوَ خَيْرٌ، ولْيُكَفِّرْ يَمينَهُ» [مسلم: ١٦٥٠] أمَرَ في ما فيهِ مَعْصيَةٌ بِفَسْخِها، أو أمَرَ بِوَفاءِ ما لم يَكُنْ فيه مَعْصيَةٌ، ونَهَى عَنْ نَقْضِها بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ الآية [النحل: ٩١].

وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﵄ [أنهُ][2] قالَ: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ هي: العُهُودُ؛ هي[3] ما أحَلَّ وما حَرَّمَ وما فَرَضَ وما حَلَّ في القرآنِ كُلِّه، وهي[4] ما ذَكَرْنا.

وَقيلَ: إنَّ العُقودَ التي أمَرَ اللهُ تعالى بِوَفائِها، هي العُهودُ التي أخَذَ اللهُ تعالى على أهلِ الكتابِ: أنْ يُؤمِنوا بمحمَّدٍ ﷺ ويأخُذوا بِشرائعِهِ، ويَعْمَلُوا بما جاءَ بِهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ الآية [المائدة: ١٢]. فالخِطابُ لَهُمْ على هذا التأويلِ لأنهُمْ كانُوا آمَنوا بِهِ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ، فلمّا بُعِثَ كَفَروا بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هي الوُحُوشُ، وهو قولُ الفَرّاءِ. ألا تَرى أنَّهُ قالَ: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾؟ وقالَ الحَسَنُ: (هي الإبِلُ والبَقَرُ والغَنَمُ) وقالَ آخرونَ: البَهيمَةُ كُلُّ مَرْكُوبٍ.

لكنْ عِنْدَنا كُلُّ مأكولٍ مِنَ الغَنَمِ والوَحْشِ والصَّيدِ وغيرُهُ، وإنْ لم يُذْكَرْ. دليلُهُ ما استَثْنَى: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾ كأنهُ قالَ ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ والصَّيدُ ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ مِنَ ﴿ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾ الآية [المائدة: ٣] ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾ على أنَّ الصَّيدَ فيهِ كالمَذكُورِ، وإنْ لم يُذْكَرْ، لأنهُ استَثْنَى الصَّيدَ منهُ.

وأبداً إنما يُستَثْنَى الشَّيءُ مِنَ الشَّيءِ إذا كانَ فيهِ ذلكَ. وأمّا إذا لم يَكُنْ فلا مَعْنَى لِلاسْتِثناءِ. فإذا اسْتَثْنَى الصَّيدَ دلَّ الاسْتِثناءُ على أنَّ الصَّيدَ فيهِ، وإنْ لَمْ يُذكَرْ. ودَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾ [المائدة: ٢] على أنَّ النَّهيَ كانَ عنِ الاصْطِيادِ في حالِ الإحرامِ لا عن أكلِهِ لأنَّ لِلْمُحْرِمِ أنْ يأكُلَ صيداً صادَهُ حَلالاً[5].

ودَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾ على أنَّ الصَّيدَ قَد دَخَلَ في قولِهِ تعالى: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾ على ما ذُكِرَ في ما تَقَدَّمَ أنَّ البَيانَ في الجَوابِ يَدُلُّ على كَونِهِ في السُّؤالِ [وإنْ لم يكنْ مَذكُوراً في السؤالِ][6]. فَعَلَى ذَلِكَ تَدُلُّ الثُّنْيا مِنَ الصَّيدِ على كونِهِ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هو. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: حلال. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

ويَحتمِلُ [قولُهُ تعالى][١] ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ثمانيةَ[٢] الأزواجِ التي ذَكَرَها في سُورةِ الأنعامِ ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ [الآية: ١٤٣]. والآيةُ تَدُلُّ على أنَّ الذي أُحِلَّ مِنَ البَهائِمِ الأنعامُ؛ مِنها ثمانيةٌ دَلَّ عليها قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]. ثُمَّ قولُهُ[٣]: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] فَصَلَ[٤] بَينَ الأنعامِ وبَينَ الخَيلِ والبِغالِ والحَميرِ؛ [خَلَقَ هَذِهِ][٥] لِلرُّكوبِ، والأنعامَ لِلأكْلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ كأنَّهُ قالَ: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهيمَةُ الأنعامِ والصَّيدُ إلا ما يُتْلَى عَلَيكُم. يَحتَمِلُ ﴿يُتْلَىٰ﴾ على الوَعْدِ أي يُتْلَى عليكُمْ مِنْ بَعْدِ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة: ٣] إلى آخرِهِ. ويَحتَمِلُ ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وهو ما ذَكَرَ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فيها في سورةِ الأنعامِ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ [الآية: ١٤٥] إلى آخِرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، أي إلى اللهِ الحُكْمُ، يَحْكُمُ بِما يَشاءُ مِنَ التحريمِ والتَّحْليلِ في ما شاءَ على ما شاءَ، لَيسَ إلَيكُمُ الحُكْمُ[٦] عليهِ، وهذا يَنْقُضُ قولَ [مَن يَقُولُ][٧]: لَمْ يُرِدْ لأنَّهُ لو أرادَ لَحَكَمَ، وباللهِ العِصْمَةُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنَّهُ][٨] قالَ: كانَ المُشرِكُونَ يَحُجُّونَ البَيتَ الحَرامَ، ويُهْدونَ الهَدايا، ويُعَظِّمُونَ حُرْمَةَ المَشاعِرِ، ويَنْحَرونَ في حَجِّهِمْ، فأرادَ المُسْلِمونَ أنْ يُغَيِّرُوا عليهِمْ، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ يَعْني لا تَسْتَحِلُّوا قِتالاً فِيهِ ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ الآية.

وقالَ غَيرُهُ[٩]: قولُهُ تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ يَعني المَناسِكَ؛ لا تَسْتَحِلُّوا تَرْكَ شَعائِرِ اللهِ. والشَّعائِرُ هُنَّ المَناسِكُ.

ألا تَرَى أنَّ اللهَ تعالى سَمَّى كُلَّ نُسُكٍ مِنَ الحَجِّ شَعيرَةَ[١٠] اللهِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] وكقولِهِ[١١] تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾؟ [الحج: ٣٦]. كُلُّ هذا مِنْ شعائِرِ اللهِ، وهُنَّ مَعالِمُ اللهِ في الحَجِّ.

وقِيلَ: ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ فَرائِضُ اللهِ؛ كأنَّهُ قالَ: لا تَسْتَحِلُّوا تَرْكَ ما فَرَضَ اللهُ عَليكُمْ. وقالَ الحَسَنُ: ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ دِينُ[١٢] اللهِ، وهو واحِدٌ، وقيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ حتَّى بَلَغَ ﴿وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [هي حَواجِزُ أبقاها][١٣] اللهُ بينَ الناسِ مِنَ[١٤] الجاهِلِيَّةِ؛ فكانَ الرجُلُ لو جَرَّ جَريرَةً، وارْتَكَبَ كَبيرةً، ثُمَّ لَجَأَ إلى حَرَمِ اللهِ تعالى، لَمْ يُتَناوَلْ، ولم يُطْلَبْ، ولو لَقِيَ [المَرْءُ][١٥] قاتِلَ أبيهِ في الأشْهُرِ الحُرُمِ لم يَتَعَرَّضْ لَهُ، وكانَ الرَّجُلُ لو لَقِيَ الهَدْيَ مُقَلَّداً، وهو يأكُلُ العَصَبَ مِنَ الجُوعِ ،لم يَتَعَرَّضْ لَهُ، ولم يَقْرَبْهُ، وإذا[١٦] أرادَ [الحاجُّ البيتَ يُقَلِّدُ البَدَنَةَ][١٧] قِلادةً مِن شَعْرٍ [تُحَرِّمُها، وتَمْنَعُها][١٨]/ ١٢٢ ـ أ/ مِنَ الناسِ حتَّى يأتِيَ [مَحِلَّهُ. تلكَ][١٩] حَواجِزُ [أبقاها اللهُ مِنَ الجاهِلِيَّةِ أماناً لَهُمْ][٢٠] واللهُ أعْلَمُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي لا تَسْتَحِلُّوا ما أشْعَرَكُمُ اللهُ حُرْمَتَهُ، وهو مِنَ الأعلامِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ أرادَ بِهِ مَشاعِرَ الحَرامِ الذي ذَكَرْنا، وقالَ: لا تُحِلُّوا الحَرامَ ولا الشَّهْرَ الحَرامَ ولا الهَدْيَ ولا القَلائِدَ؛ وهَذِه أمُورٌ كانَتْ مِنْ قَبْلُ، فَنُسِخَتْ[٢١] بقولِهِ تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥].

وعَنِ الشَّعْبِيِّ أنَّهُ قالَ: لم يُنْسَخْ مِنَ المائدةِ غَيرُ هذِهِ الآيةِ؛ نَسَخَها [قولُهُ تعالى][٢٢]: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨] وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الثمانية. (٣) في الأصل وم: قال. (٤) في الأصل وم: ففصل. (٥) في الأصل وم: خلقها. (٦) في الأصل وم: التحكم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: غيرهم. (١٠) في الأصل وم: شعائر. (١١) في الأصل وم: وقال. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (١٣) في الأصل وم: فقال: حواجز أبقاه. (١٤) في الأصل وم: في. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: البيت يقلد. (١٨) في الأصل وم: فحرمته ومنعته. (١٩) في الأصل وم: أهله. (٢٠) في الأصل وم: أبقاه الله في الجاهلية أمان. (٢١) في الأصل وم: فنسخ. (٢٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقالَتْ عائشةُ ﵂ إنها آخِرُ ما أُنْزِلَ، فما وَجَدْتُمْ فيها مِنْ حَلالٍ فَاسْتَحِلُّوهُ، وما وَجَدْتُمْ مِنْ حَرامٍ فَحَرِّمُوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ هو[1] كقولِهِ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧] وقد ذَكَرْنا أنّ اللهَ ﷻ أَطْلَقَ الحَرامَ في الشَّهْرِ الحَرامِ بَعْدَ ما كان مَحْظوراً بقولِهِ تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وأمّا قَولُهُ تعالى: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ فهو[2] ما ذَكَرْنا مِنْ صَنيعِهِمْ في الجاهليّةِ في ما ذَكَرَ[3]، وفيهِ دَليلٌ لِقولِ أصحابِنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، حينَ[4] قالوا: إنَّ الغَنَمَ لا تُقَلَّدُ، والإبلَ والبَقَرَ تُقَلَّدُ لأنهُ ذَكَرَ الهَدْيَ والقلائِدَ، فَدَلَّ أنَّ مِنَ الهَدْيِ [ما][5] يُقَلَّدُ.

[وقوله تعالى][6]: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي آتينَ[7] البيتَ الحرامَ ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ قيلَ: إنَّ المُشْرِكِينَ كانُوا يَقْصِدونَ البَيْتَ الحَرامَ، يَلْتَمِسُونَ فَضْلَ اللهِ ورِضوانَهُ بما يُصْلِحُ لَهُمْ دُنْياهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقد يجوزُ أنْ يكونوا إنما التَمَسُوا، عند أنْفُسِهِمْ رِضوانَ اللهِ، أمْرَ المُؤمِنينَ بالكفِّ عنهُمْ، وإنْ كانُوا قد غَلِطُوا في تَوجيهِ العِبادةِ، فَجَعلُوهَا لِغَيرِ اللهِ، كقولِهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ [هود: ١٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ دلَّ هذا على أنَّ النَّهْيَ في قولِهِ: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١] في أخْذِ الصيدِ والاصْطِياد[8] في الإحرامِ لا أكْلِهِ، وهو إباحةٌ وإطلاقُ ما حُظِرَ عليهم بالإحرامِ، وإنْ كانَ ظاهِرُهُ أمْراً. ومَعْناهُ: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ لَكُمْ أنْ تَصْطادُوا.

وأصلُهُ أنَّ كُلَّ أمْرٍ خَرَجَ على إثْرِ مَحْظورٍ فَهُوَ أمْرُ إباحَةٍ وإطلاقِ ذلكَ المَحْظورِ المُحَرَّمِ لا أمْرُ إلزامٍ و إيجابٍ مِنْ نَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩] ثُمّ قولُهُ[9] تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] هو إطلاقُ المَحْظورِ المُقَدَّمِ، وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ثم قولُهُ[10] تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ [الأحزاب: ٥٣] أمْرُ إطلاقٍ وإباحَةِ ما حُظِرَ عَلَيهِمْ، ومِثْلُهُ كثيرٌ في القرآنِ مِمّا يَكْثُرُ ذِكْرُهُ. وفي حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ ﵁ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ ولا تَؤُمُّوا، وكذلكَ في حَرْفِهِ: فَأْمُّوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦].

وقيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ حَجَّهُمْ، فلا يُقْبَلُ منهُمْ[11] حتّى يُسْلِمُوا، فَنَهى اللهُ تعالى رَسُولَهُ عن قِتالِهِمْ. وقال بَعْضُهُمْ: «إنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في رَجُلٍ مِنْ أهلِ اليَمامَةِ، يُقالُ لَهُ: شُرَيحٌ، وذَلِكَ [أنهُ أتى المدينةَ][12]، فَدَخَلَ على النَّبِيِّ ﷺ فقالَ: أنتَ مُحمدٌ النَّبيُّ ﷺ؟ فقالَ: نعم. فقالَ: إلامَ تَدْعُو؟ قالَ: أدْعُو إلى أنْ تَشْهَدَ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وأنّي محمدٌ رسولُ الله، [فقالَ شُرَيحٌ][13]: هذا شَرْطٌ شَديدٌ، وإنَّ لي أمراءَ خَلْفي، أرجِعُ إليهِمْ، فأعْرِضُ عليهِمْ ما اشْتَرَطْتَ عليَّ، وأسْتأمِرُهُمْ في ذلكَ. فإنْ أقْبَلُوا أقْبَلْتُ، وإنْ أدْبَرُوا أدْبَرْتُ؛ فأكُونُ[14] مَعَهُمْ. ثم انْصَرَفَ خارِجاً مِنْ عِنْدِ رسولِ اللهِ ﷺ، فلما خَرَجَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لقد خَرَجَ مِنْ عندي بِعُقْبَي غادِرٍ، ولقد دَخَلَ عليَّ بِوَجْهِ كافِرٍ، وما الرجلُ بِمُسْلِمٍ، فَمَرَّ شُرَيحٌ بِسَرْحٍ لِأهْلِ المدينةِ [فَساقَهُ مَعَهُ][15]. فلما كانَ مِنَ العامِ الثاني قَدِمَ شُرَيحٌ إلى مكةَ، ومعهُ تِجارةٌ عَظيمةٌ في حُجّاجٍ، وكانَتِ العَرَبُ في الجاهليّةِ يُغيرُ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ. فإذا كانَ الشهرُ الحَرامُ أمِنَ الناسُ كُلُّهُمْ بَعْضُهُمْ بَعْضاً؛ فَمَنْ أرادَ أنْ يُسافِرَ قَلَّدَ بَعيرَهُ مِنَ الشَّعْرِ والوَبَرِ[16]، فيأمَنُ بذلكَ الهَدْيَ حَيثُ ما ذَهَبَ. فلما سَمِعَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ بِحَجِّ شُرَيحٍ وقُدومِهِ إلى مكّةَ، أرادُوا[17] أنْ يُغيروا على شُرَيحٍ فَيأخُذوا ما [مَعَهُ، ويَقْتُلُوهُ][18] كما أغارَ شُرَيحٌ على سَرْحِ أهْلِ المدينةِ

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: فآمين، في م: فآتين. (٨) في الأصل وم: واصطياد. (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) في الأصل وم: قال. (١١) في الأصل وم: عنهم. (١٢) في الأصل وم: أتى بالمدينة. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: فكنت. (١٥) في الأصل وم: فساقها معهم. (١٦) في الأصل وم: الوبر. (١٧) في الأصل وم: فأرادوا. (١٨) في الأصل وم: معهم ويقتلوهم. وقد ذكرت هذه القصة في تفسير ابن جرير الطبري عن رجل آخر غير شريح، اسمه الحطم ٦/ ٥٩.

جنة السنة

قَبْلَ ذَلِكَ، فاستَأمَرُوا رسولَ الله ﷺ في ذلكَ، فَنَزَلَتِ الآيةُ فيهِمْ: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخرِهِ؛ فلا نَدْري كيفَ كانتِ القِصَّةُ؟ وليسَ بنا إلى مَعْرِفَةِ القِصَّةِ حاجَةٌ إلّا القَدْرَ الذي ذَكَرَ اللهُ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨] كقولِهِ[1] في آيةٍ أُخرى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ الآية [النساء: ١٣٥].

ذَكَرَ في بَعْضِها الاِعْتِداءَ، ونَهَى عنهُ، وهو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي حَدَّ لَهُمْ، وذَكَرَ في بَعْضِها العَدْلَ، ونَهَى عنِ الظُّلْمِ والجَورِ، ثُمَّ الأسبابَ [التي][2] تَحمِلُهُمْ، وتَبعَثُهُمْ على[3] الاِعْتِداءِ والظُّلْمِ، وتَمْنَعُ القِيامَ بالشَّهادةِ.

وأخبَرَ ألّا تَمنَعَكُمُ الوِلايةُ والقُرْبُ القِيامَ بالشَّهادةِ أو طَمَعُ غِنىً أو خَوفُ فَقْرٍ. هٰذِهِ الوجوهُ التي ذَكَرْنا تَمنَعُ الناسَ القِيامَ بالشَّهادةِ، وتَمنَعُهُمْ[4] عنِ الجَورِ والاِعْتِداءِ. فَنَهاهُمُ اللهُ ﷻ أنْ يَحمِلَهُمْ بُغْضُ قومٍ أو عَداوَةُ أحَدٍ على الجَورِ والاِعْتِداءِ، أو تَمنَعُهُمُ الشَّفَقَةُ[5] أوِ القُرْبُ أو طَمَعُ غِنَى أحَدٍ أو خوفُ فَقْرٍ القِيامَ بالشَّهادةِ وما عليهِمْ مِنَ الحقِّ. وأمَرَ أنْ يَجعَلُوهُ كُلَّهُ للهِ بقولِهِ: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥].

فإذا كانَ كُلُّهُ للهِ قَدَرَ أنْ يَعْدِلَ في الحُكْمِ، وتَرْكَ مُجاوَزَةِ الحَدِّ الذي حُدَّ لَهُ، وقَدَرَ على القِيامِ بالشهادةِ وما ذَكَرَ، وما يَمنَعُ شَيءٌ مِنْ ذلكَ القِيامَ بهِ مِنْ نَحْوِ ما ذَكَرَ مِنَ البُغْضِ والعَداوةِ والقُرْبِ والشَّفَقَةِ أو طَمَعِ الغِنَى وخَوفِ الفَقْرِ. إذا جَعَلَ الحُكْمَ للهِ عَدَلَ فيهِ، ومَنَعَهُ عَنِ الجَورِ فيهِ و الاِعْتِداءِ. وكذلكَ الشَّهادةُ إذا جَعَلَها للهِ قامَ بأدائِها، ولو على نَفْسِهِ. أمّا ذَكَرَ [أنّهُ لا][6] يَمنَعُهُ شَيءٌ عنِ القِيامِ بهِ مِنْ نَحْوِ ما ذَكَرَ مِنَ البُغْضِ والعَداوةِ والقُرْبِ والشَّفَقَةِ أو طَمَعِ الغِنَى أو خَوفِ الفَقْرِ إذا جَعَلَ الحُكْمَ للهِ تعالى عَدَلَ فيهِ، ومَنَعَهُ عنِ الجَورِ فيهِ والاِعْتِداءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ كانَ البِرُّ اسمَ كُلِّ خيرٍ، والتَّقوى هو تَرْكُ كُلِّ شَرٍّ[7]، والاِنتِهاءُ عنْ كُلِّ شَرٍّ ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ ألا تَرى أنهُ ذَكَرَ بإزاءِ البِرِّ الإثْمَ، والتَّقوى العُدْوانَ؟ فهذا يُبَيِّنُ أنَّ البِرَّ اسمٌ لِكُلِّ خيرٍ، والتَّقوى هو الاِنتِهاءُ عنْ كُلِّ شَرٍّ.

ويجوزُ أنْ يكونَ [التَّقوى][8] ما ذَكَرَ في الآيةِ الأُولى، وأمَرَ بهِ، وهُوَ قولُهُ: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾. يقولُ: عاوِنُوهُمْ على ما يأتونَ بهِ مِنْ ذلكَ فإنهُمْ إلى البِرِّ يَقْصِدُونَ عندَ أنفسِهِمْ، وإنْ لم يكُنْ فِعْلُهُمْ بِرّاً لِعِبادَتِهِمْ غَيرَ اللهِ تعالى. وإنما أُمِروا بِمُعاوَنَتِهِمْ وتَرْكِ التَّعَرُّضِ لَهُمْ إنْ ثَبَتَ ما ذُكِرَ في القِصَّةِ إذا أجرَمُوا، أو قَلَّدُوا، أو قَصَدُوا البَيْتَ الحَرامَ في الوَقْتِ الذي جازَ أنْ يُعاهِدُوا فيهِ كما يجوزُ لَنا مُعاهَدَةُ أهلِ الكِتابِ على ألا نَتَعَرَّضَ[9] لِكنائِسِهِمْ وبِيَعِهِمْ، وإنْ كانُوا يَعْصُونَ اللهَ فيها لأنهُمْ يَدِينونَ بِذلكَ، ويَقْصِدونَ بهِ البِرَّ عندَ أنفسِهِمْ. فلمّا أمَرَ بِنَقْضِ عُهودِ مُشْرِكي العَرَبِ أمَرَ بِمَنْعِهِمْ مِنْ دُخولِ المَسْجِدِ وأنْ يُقْتَلُوا حَيثُ وُجِدُوا.

إلى هذا المَعْنَى ذهبَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ/ ١٢٢ ـ ب/ تعالى، واللهُ أعلَمُ، في فَرْقِهِمْ بَيْنَ شهادةِ أهلِ الذِّمَّةِ على أمثالِهِمْ وشَهادةِ فُسّاقِ المُسْلِمينَ، وإنَّ[10] أهْلَ الذِّمَّةِ مُتَدَيِّنونَ بِكُفْرِهِمْ، والفُسّاقَ مُتَدَيِّنونَ[11] بِفِسْقِهِمْ. وكذلكَ فَرْقُهُمْ بينَ ما يَغْلِبُ عليهِ المُشْرِكُونَ مِنْ أموالِ المُسْلِمينَ وبَيْنَ ما يَغْلِبُ عليهِ الفُسّاقُ مِنها لأنَّ أمْرَ المُتَدَيِّنِ[12] بدينٍ خَطَإٍ مُخالِفٌ في الحُكْمِ أمْرَ المُقِرِّ بالذَّنْبِ فيهِ.

ألا تَرَى أنهُ يَجوزُ أنْ تُطْلَقَ لِمَنْ يُعاقِدونَهُ[13] مِنْ أهْلِ الكتابِ الصلاةُ في كَنائِسِهِمْ [وبِيَعِهِمْ][14] وإنْ كانَ ذلكَ عِندَنا [مَعْصِيَةً حَراماً][15]، ولا يَجوزُ أنْ تُطْلَقَ المَعْصِيَةُ لِفُسّاقِ المُسْلِمينَ؟.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: عن. (٤) في الأصل وم: وتبعثهم. (٥) في الأصل وم: النفقة. (٦) في الأصل وم: لم. (٧) من م، في الأصل: شيء. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: نعرض. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: متدينين. (١٢) من م، في الأصل: المبتدين. (١٣) في الأصل وم: يعاقِدوهُ. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: معصية حرام.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي نَقْمَةَ اللهِ وعذابَهُ في تَرْكِ ما أمَرَكُم به وارْتِكابِ ما نهاكُم عنهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

قال ابنُ عباسٍ ﷺ في قولِهِ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي لا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ قومٍ لِصَدِّهِمْ إياكُمْ عنِ البَيْتِ، فَتَأْثَمُوا فيهِمْ ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾ فَتَقْتُلُوهُمْ، وتأخذُوا أموالَهُمْ. وقالَ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ البِرُّ هو ما أُمِرْتَ بِهِ، والتَّقْوَى الكَفُّ عَمّا نُهِيتَ عنهُ. وقالَ: ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ هو المُجاوَزَةُ عن حَدِّ اللهِ الذي[1] حَدَّهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا يُؤثِمَنَّكُمْ بُغْضُ قومٍ ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾. وقالَ آخرونَ: لا يَحْمِلَنَّكُمْ. وفيهِ لُغتانِ: يُجْرِمَنَّكُمْ بِرَفْعِ[2] الياءِ وبِنَصْبِها ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ وهو ما ذكَرْنا.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ هو على الإضمارِ، واللهُ أعلَمُ؛ كأنهُ قالَ: حُرِّمَ عَلَيْكُمْ أكْلُ المَيْتَةِ والدَّمِ وأكْلُ لَحْمِ الخِنْزيرِ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. ألا تَرى أنهُ قالَ: يَجوزُ الانْتِفاعُ بِصوفِ المَيْتَةِ وبِعَظْمِها. دَلَّ أنهُ على الإضمارِ: إضمارِ: أكلٍ. وأمّا الانْتِفاعُ بِجِلْدِها فَلا[3] يجوزُ إلّا بَعْدَ الدِّباغِ لأنَّ الجِلْدَ رُبَّما يُشْوَى مع اللحمِ، فيؤكَلُ، فهو حَرامٌ كاللَّحْمِ، إلا أنْ يُدْبَغَ[4].

ثم في الآيةِ دَليلُ الامْتِحانِ مِنْ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: إباحَةُ التَّناوُلِ مِنْ جوهَرٍ وحَظْرٌ: امْتَحَنَ بِحُرْمَةِ الخِنزيرِ والدَّمِ، لم يُحِلَّهُ بِسَبَبٍ ولا بِغَيْرِ سَبَبٍ، وامْتَحَنَ بِحِلِّ الآخَرِ بِسَبَبٍ، وحَرَّمَ بِسَبَبٍ.

والثاني: امْتَحَنَ بِسَبَبِ حِلٍّ لِنَفْرِ الطَّبْعِ عنهُ لأنَّ كُلَّ رُوحٍ يتألَّمُ بالذَّبْحِ واسْتِخْراجِ الرُّوحِ منْهُ، وجَعَلَ طَبيعةَ كُلِّ أحَدٍ مِمّا يَنْفُرُ عنهُ لِما يَتألَّمُ بِهِ لِتَطيبَ أنفُسُهم بذلكَ.

ثم جَعَلَ ما يَخْرُجُ مِنَ الأرضِ كلَّهُ حَلالاً بِلا سَبَبٍ يكْتَسِبونَ إلّا ما لا يَقْدِرونَ على التَّناوُلِ منهُ لِخَوفِ الهَلاكِ لأنهُ مَواتٌ، لا تَنْفُرُ الطِّباعُ عنهُ.

ثم جَعَلَ أسبابَ الحِلِّ أسباباً يَكْتَسِبونَ[5] مِمّا لا يَعْمَلُ في اسْتِخْراجِ ذلكَ الدَّمِ المُحَرَّمِ منهُ حَلَّ أكْلُهُ. وإذا لم يَعْمَلْ في اسْتِخْراجِ ذلكَ الدَّمِ، فَهَلَكَ فيهِ، أفْسَدَهُ لأنهُ تَلِفَ فيهِ ما هو مُحَرَّمٌ، فأفْسَدَهُ، فاسْتِخْراجُ ذلكَ الدَّمِ مِمّا يُطَيِّبُ ذلكَ، ويَمْنَعُ عَنِ الفَسادِ إلّا في طُولِ الوَقْتِ. والذي هَلَكَ فيهِ الدمُ يَفْسُدُ في قَليلِ الوَقْتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ قالَ الكِسائيُّ: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي ذُكِرَ وسُمِّيَ عليهِ غَيْرُ اسمِ اللهِ مُشْتَقَّةٌ مِنِ اسْتِهلالِ الصَّبِيِّ، ومِنهُ إهْلالُ الهِلالِ [وإهلالُ المُهِلِّ][6] بالحَجِّ إذا لَبَّى.

قال قَتادَةُ: كانَ أهلُ الجاهِلِيَّةِ يَخْنُقونَ الشاةَ حتّى إذا ماتَتْ أكَلُوها. والكافِرُ في الحَقيقةِ يُهِلُّ لِغَيرِ اللهِ لأنهُ لا يَعْرِفُ اللهَ حَقيقَةً. لكنَّهُ أجازَ[7] ذبائِحَ الكِتابِيِّ لأنهُ يُسَمّي عليهِ اسْمَ اللهِ تعالى ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ كانوا يَضْرِبونَ بالعَصا حتى إذا ماتَتْ ثُمَّ أكَلُوها ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ كانَتْ [تَرَدَّتْ في بِئْرٍ أو مِنْ جَبَلٍ، فماتَتْ][8] ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ كانَ الكَبْشانِ يَتَناطَحانِ، فَيَموتُ أحدُهُما، فيأكُلونَهُ ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾. كانَ أهْلُ الجاهِلِيَّةِ إذا قَتَلَ السَّبُعُ مِنْ هذا، وأكَلَ مِنْهُ، أكَلُوا ما بَقِيَ. فقالَ اللهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

ثم رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][9] قالَ: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ فما أدْرَكْتَ مِنْ هذا كُلِّهِ يَتَحَرَّكُ بالذَّنَبِ[10]، أو يَطْرِفُ بالعَينِ[11]، فاذبَحْ، واذكُرِ اسْمَ اللهِ عليهِ، فهو حَلالٌ.

ورُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ [أنهُ][12] قالَ: إذا طَرَفَتْ بِعَيْنِها، أو رَكَضتْ بِرِجْلِها، أو حَرَّكَتْ ذَنَبَها، [فَذَبَحَها، فهو

---

(١) من م، في الأصل: الذين. (٢) هي قراءة ابن مسعود والأعمش، انظر المختصر في شواذ القرآن ص (٣١). (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) إشارة إلى الحديث الشريف «أيما إهاب دبغ فقد طهر» [الترمذي: ١٧٢٨]. (٥) في الأصل وم: يكسبون. (٦) في الأصل وم: وأهل المحل. (٧) في الأصل وم: أجيز. (٨) في الأصل: تردى في بر أو في جبل فتموت، في م: تردى في بر أو من جبل فيموت. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: له بالذنب. (١١) في الأصل وم: له العين. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

تَذْكِيَةٌ][1] وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ الزُّبَيرِ أنهُ سَمِعَ عُبَيدَ بنَ عُمَيرٍ ﷺ يقولُ: ذلكَ. وكأنهُ رُوِيَ مَرْفُوعاً عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ كذلكَ.

وهذا، واللهُ أعلَمُ، إذا خَنَقَها، أو وَقَذَها[2]، يُغْمَى عليها. فإذا ذَبَحَها[3]، فَحَرَّكَتْ ذَنَبَها، أو [طرفَتْ بِعَينِها]، أو رَكَضَتْ بِرِجْلِها، أفاقَتْ، فاستَدَلَّ بذلكَ على حَياتِها. وليسَ هذا كَشاةٍ يَنْزِعُ الذِّئْبُ أوِ السَّبُعُ ما في بَطْنِها، أو صارَتْ[4] بِحالٍ لا تَتحامَلُ [فاستَدَلَّ بذلكَ أنها حَيَّةٌ][5] وإنْ تَحرَّكَتْ، أو طَرَفَتْ [بِعَينِها][6] فإنها لا تُؤكَلُ.

وأصْلُهُ أنَّ كلَّ ما لو [قُطِعَتْ عُروقُها][7]، فَتَرَكَتْ[8]، فماتتْ، تكونُ مَيْتَةً. فإذا أُدْرِكَتْ[9] في تلكَ الحالِ، فَذُكِّيَتْ[10] كانَتْ ذَكِيَّةً، وكُلُّ ما لو [صارَتْ بِحالٍ، وماتَتْ كما][11] كانَتْ ذَكِيَّةً. فإذا أُدْرِكَتْ[12] في تلكِ الحالِ، [فَذُكِّيَتْ ما][13] كانَتْ مَيْتَةً. والمُتَرَدِّيَةُ المُمْتَنِعَةُ عنِ الذبحِ. فالذَّبحُ إذا ذُبِحَ مِنْ غَيرِ الذَّبحِ يَجوزُ أكْلُهُ.

«رُوِيَ عنْ [رَافِعِ بْنِ خَديجٍ أنهُ][14] قالَ: أَصَبْنَا إبِلاً وغَنَماً، فَنَدَّ مِنها بَعيرٌ، فَرَماهُ رجلٌ بِسَهْمٍ، فَحَبَسَهُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنَّ لِهذِهِ الإبِلِ أوابِدَ كأوابِدِ الوَحْشِ. فإذا كانَ غَلَبَكُمْ شَيءٌ منها فاصْنَعُوا بِهِ هكذا». [البُخاري: ٣٠٧٥].

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ في البَعيرِ يَتَرَدَّى في البئرِ[15]: إذا لم يُقْدَرْ على مَنْحَرِهِ فهو بِمَنْزِلَةِ الصَّيدِ، يُنْحَرُ[16] مِنْ حَيثُ أُدرِكَ.

وسُئِلَ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ ﷺ عنْ بَعيرٍ تَرَدَّى في بِئْرٍ، فَصارَ أعلاهُ أسفَلَهُ؟ فقالَ: (قَطِّعُوهُ أعضاءً، وكُلُوهُ). وعنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ رُوِيَ[17] أنهُ سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ فَقِيلَ: هلْ تكونُ الذَّكاةُ إلّا في الحَلْقِ واللَّبَّةِ؟ فقالَ: «أمَا إنكَ لو طَعَنْتَ في فَخِذِها لأجْزَأَ عَنْكَ، وإذا ذُكِّيَ بِغَيرِ السِّكِّينِ مِنْ نَحْوِ المَرْوَةِ والقَصَبةِ مِمّا يَقْطَعُ يَجوزُ». [أبو داوود: ٢٨٢٥].

«ورُوِيَ أنَّ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ ﷺ قالَ: يا رسولَ اللهِ أُرسِلُ كلبي، فيأخُذُ الصَّيْدَ، وليسَ معي ما أُذَكِّيهِ [بِهِ][18] فأَذْبَحُهُ بالمَرْوَةِ أو القَصَبَةِ[19]. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: أَمِرِ الدَّمَ بِما شِئتَ، واذْكُرِ اسْمَ اللهِ عليهِ» [أبو داوود: ٢٨٢٤].

وكذلكَ رُوِيَ عنْ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ﷺ ورَوَى أنَّ رجلاً أشاطَ دَمَ جَزورٍ بِجَذْلٍ، فسألَ النَّبِيَّ ﷺ [فقالَ:][20] «إنْ أنْهَرْتَ الدَّمَ فَكُلْ» [البخاري: ٥٤٩٨]. وعَنْ خَديجةَ ﷺ [أنها قالَتْ][21]: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اذْبَحْ بِكلِّ ما أفْرَى الأوْداجَ، وأهْرَاقَ الدَّمَ، ما خلا السِّنَّ والظُّفرَ» [الموطأ٢: ٤٨٩].

وإلى هذا يذهبُ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، في ذلكَ، ويَرَونَ كلَّ ما أنْهَرَ الدَّمَ مِنْ حَجَرٍ أو مَرْوَةٍ أو نَحْوِ ذلكَ مُذَكًّى، ويُؤكَلُ، ويَحمِلُونَ قولَ رسولِ اللهِ ﷺ «إلّا السِّنَّ والظُّفرَ» على أنهما إذا كانا غَيرَ مَنْزوعَينِ لأنَّ ذلكَ خَنْقٌ، وليسَ بِذَبْحٍ. تفسيرُ ذلكَ قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ حينَ[22] قالَ: خَنْقٌ. وفي الخَبَرِ بَيانُ [الآلةِ][23] لأنهُ قالَ: «كُلُّ ما أنْهَرَ الدَّمَ، وأفْرَى الأوْداجَ ما خلا السِّنَّ والظُّفرَ فإنهما مُدَى الحَبَشَةِ» [بنحوه البخاري: ٣٠٧٥] وهم إنما كانُوا يذبَحُونَ بِسِنٍّ أو ظُفْرٍ غيرِ مَنْزوعةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ أي لِلنُّصُبِ. قِيلَ: كانُوا يَذْبَحُونَ للأوثانِ والأصنامِ التي يَعْبُدُونَها؛ يَتَقَرَّبُونَ بذلكَ إليها كما كانَ أهْلُ الإسلامِ يَتَقَرَّبُونَ بالذبائحِ، يَذبَحُونَها، إلى اللهِ، فَحَرَّمَ اللهُ ﷻ ما كانُوا يَذْبَحُونَ لِلنُّصُبِ ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ لِما ذَكَرْنا أنَّ الأمْرَ بِهِ خَرَجَ مَخْرَجَ قَبولِ النِّعْمَةِ والشُّكْرِ لهُ في ما أنْعَمَ مِنْ[24] عَظيمِ النِّعَمِ. فإذا أهَلُّوا بِهِ لِغَيرِ اللهِ أي لِغَيرِ وَجْهِ اللهِ لم يَقْبَلُوا نِعَمَهُ، وَوَجَّهُوا الشُّكْرَ إلى غَيرِهِ، فَحُرِّمَ لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: فهو ذكية. (٢) في الأصل وم: وأوقذها. (٣) في الأصل وم: ذبح. (٤) في الأصل وم: صار. (٥) في الأصل وم: بذلك أنها. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: قطع العروق. (٨) ساقطة من م. (٩) في الأصل وم: أدرك. (١٠) في الأصل وم: فزكاه. (١١) في الأصل وم: صار بحال لو ماتت. (١٢) في الأصل وم: أدركه. (١٣) في الأصل وم: فزكاه. (١٤) في الأصل وم: نافع بن خديجة، في م: نافع بن خديج. (١٥) في الأصل وم: البر. (١٦) في الأصل وم: ينحره. (١٧) في الأصل وم: وروي. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) في الأصل وم: والقصبة. (٢٠) ساقطة من الأصل وم. (٢١) في الأصل وم: قال. (٢٢) في الأصل وم: حيث. (٢٣) ساقطة من الأصل وم. (٢٤) من م،في الأصل: في.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ قيلَ: سِهامُ العَرَبِ وكِعابُ فارِسَ التي يَتَقامَرونَ بها. وقيلَ: الأزلامُ هي القِداحُ؛ كانُوا يَقْتَسِمُونَ بها الأمورَ. وكانَ الرجلُ إذا أرادَ سَفَراً/ ١٢٣ ـ أ/ أخذَ قدحاً، فقالَ: هذا يأمُرُهُ بالخُروجِ؛ [فإنْ هو خَرَجَ][1] فهو مُصيبٌ في سَفَرِهِ خيراً. ويأخذُ قدحاً آخرَ، فيقولُ: هذا يأمُرُهُ بالمُكْثِ؛ فإنْ هو خَرَجَ فليسَ بِمُصيبٍ خيراً في سَفَرِهِ. والمَنيحُ بَيْنَهما. فنَهى اللهُ تعالى عنْ ذلكَ، وأنبأَ أنَّ ذلكَ فِسْقٌ بقولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][2] قالَ: كانُوا يَعْمَدُونَ إلى قِداحٍ، فَيَكْتُبُونَ على أحدِها: مُرْني، وعلى الآخرِ: انْهَني، ثم يُجيلونَها إذا أرادُوا الأمْرَ. فإنْ خَرَجَ [الذي][3] عليهِ: مُرْني مَضى في وجْهِهِ، وإنْ خرَجَ الذي عليهِ انْهَني لمْ يَخْرُجْ.

قالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: إنَّ في النَّهْيِ عنِ العَمَلِ بالأزلامِ دَليلَ النَّهْيِ عنِ العَمَلِ بالنُّجُومِ. فإذا نُهِيَ عنِ العَمَلِ بقولِ [المُسْتَقْسِمِينَ يُنْهى][4] أيضاً عنِ العَمَلِ بقولِ المُنَجِّمَةِ لأنهمْ يقولُونَ حينَ ما يقولُ أولئكَ، ويَعْمَلُونَ بهِ. لكنَّ المُنَجِّمَةَ لَيسُوا يقولُونَ: إنَّ نَجْمَ كذا يأمُرُكُمْ كذا، ونَجْمَ كذا يَنْهى عنْ كذا على ما كانَ يَفْعَلُ أولئكَ.

ويَجوزُ أنْ يكونَ اللهُ ﷻ [قدْ جَعَلَ][5] في النجومِ أعلاماً ومعانِيَ يُدْرِكُونَ بها، ويَسْتَخْرِجونَ أشياءَ تَحْتَمِلُ ذلكَ، وتكونُ على ما يَسْتَخْرِجُ أهْلُ الاِجْتِهادِ بالاِجْتِهادِ أشياءَ مِنْ مَعْنَى النُّصوصِ وأحكاماً لم تُذْكَرْ في المَنْصوصِ. فَعَلى ذلكَ المُنَجِّمَةُ يجوزُ أنْ يَسْتَخْرِجوا أشياءَ مِنَ النجومِ بدلائلَ ومَعانٍ تكونُ في النُّجومِ، ولا عَيْبَ عليهِمْ في ذلكَ، ولا لائِمَةَ. وإنما اللائِمَةُ عليهِمْ في ما يَحْكُمُونَ على اللهِ، ويَشْهَدُونَ عليهِ.

قالَ القُتَبِيُّ: الأزلامُ القِداحُ، واحِدُها زَلَمٌ وزُلَمٌ. والاِسْتِقْسامُ بها أنْ تُضْرَبَ. فَأَخْذُ الاِسْتِقْسامِ مِنَ القِسْمِ، وهو النَّصيبُ، كأنهُ طَلَبُ النَّصيبِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: اسْتَقْسَمْتُ أي ضَرَبْتُ بالقداحِ، قالَ: كأنهُ مِنَ القِسْمِ. وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: إنما سُمِّيَ اسْتِقساماً لأنهمْ كانوا يطلبونَ قِسْمَ الرزقِ وطَلَبَ الحَوائِجِ بها، فكانوا يسألونَها أنْ تُقْسِمَ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فِسْقٌ﴾ أي العملُ بالأزلامِ والشهادةُ على اللهِ أمْرٌ، فذلكَ فِسْقٌ. وعلى هذا مَنْ يستجيزُ العملَ بالقُرعةِ، لأنهُ يقولُ بقَرْعٍ؛ فمنْ خرَجَتْ قُرْعَتُهُ يُحْكَمْ لهُ، فإنما يُحكَمُ لهُ بأمرِ القُرعةِ، كأنَّ القُرعةَ تأمُرُهُ بالحُكْمِ بهذا لهذا، وتنهاهُ عنِ الحُكْمِ بهذا لهذا، فهو بالأزلامِ والقِداحِ التي نَهى اللهُ عنِ العملِ بذلكَ أشبهُ، وبها أمثلُ مِنْ غَيرِهِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أيِ التناوُلُ ممّا ذَكَرَ مِنَ المُحَرَّماتِ مِنَ المَيْتَةِ والدمِ ولحمِ الخِنزيرِ وما أُهِلَّ لِغَيرِ اللهِ بهِ وما ذُبِحَ على النُّصُبِ وما ذَكَرَ في أولِ السورةِ مِنَ الاِصْطِيادِ في الإحرامِ والتناوُلِ منهُ، ذلكَ كُلُّهُ فِسْقٌ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ إنهمْ [كانوا][6] يطمعونَ دخولَ أهلِ الإسلامِ في دينِهِمْ وعَودَهُمْ، فأياسَهُمُ اللهُ ﷻ مِنْ ذلكَ، فقالَ: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن﴾ تركِكُمْ دينَ الإسلامِ ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ أَمِنْتُمْ مِنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ الآية. قالَ أبو عُبَيدٍ: كانَ دينُهُمْ إلى ذلكَ اليومِ ناقصاً، فحينئذٍ كَمُلَ دينُهُمْ. فَعَلى زَعمِهِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ يدعو الخَلْقَ إلى دينٍ ناقصٍ، ومَنْ ماتَ منْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ مِنَ المهاجرينَ والأنصارِ رضي الله عنهم ماتوا على دينٍ ناقصٍ، ويُحشَرونَ يومَ القيامةِ على دينٍ ناقصٍ، وأيُّ قولٍ أوحَشُ منْ هذا وأسمجُ؟

وقالَ آخرُ مِنْ أصحابِهِ: كانَ الدينُ كاملاً إلى ذلكَ الوقتِ، فلما بَعَثَ اللهُ بالفرائضِ، وافترضَ عليهِمْ، صارَ الدينُ ناقصاً إلى أنْ يُؤدُّوا الفرائضَ وما افْتَرَضَ عليهِمْ. فعندَ ذلكَ يكمُلُ. فهذا القولُ أيضاً في الوحشةِ والسماجةِ والقبحِ مثلُ الأولِ، ويقالُ لأبي عُبَيدٍ: قُلْ أيضاً: إنهُ لم يكنْ رَضِيَ لهمْ بالإسلامِ قبلَ ذلكَ رِضاً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: المقتسمين وينهى. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

والأصلُ في تأويلِ الآيةِ [في][1] وجوهٍ:

أحدُها: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي برسولِهِ وبعثِهِ ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وبهِ أتممتُ ﴿عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾.

[والثاني][2]: قولُهُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي اليومَ أظهرتُ لكم دينَكُم، ولم يكنْ قبلَ ذلكَ ظاهراً حتى قالَ رسولُ الله ﷺ: «نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شهرَينِ» [الطبراني في الكبير: ١١٠٥٦] وقالَ: «ألا لا يَحُجَّنَّ بعدَ العامِ مُشرِكٌ» [البخاري: ٣٦٩] وذلكَ لِظُهورِهِ ولِغَلَبةِ أهلِ الإسلامِ عليهِمْ وأنهُ[3] لم يكنْ هذا قبلَ ذلكَ.

[والثالثُ][4]: قولُهُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ لمّا أَمِنوا مِنَ العدوِّ والعَودِ إلى دينِ أولئكَ وإياسِ أولئكَ مِن رُجوعِهِم إلى دينِ الكفرِ. وأيُّ نعمةٍ أتمُّ وأكملُ مِنَ الأمنِ مِنَ العدوِّ؟ ويقولُ الرجلُ: اليومَ تَمَّ ملكي إذا أهْلَكَ[5] عدوَّهُ، ولأمنِهِ مِن عدوِّهِ، وإنْ كانَ لم يوصفْ ملكُهُ قبلَ ذلكَ بالنقصانِ. فَعَلى ذلكَ هذا، والله أعلَمُ.

[والرابعُ: قولُهُ][6]: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي أمْرَ دينِكُمْ بما أُمِروا بأمورٍ وشرائعَ، لم يكونوا أُمِروا بها قبلَ ذلكَ. وهذا جائزٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ أي أكرمْتُكُمْ بالدِّينِ المَرْضِيِّ، وهو الإسلامُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾ قيلَ: المَخْمَصةُ المَجاعةُ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: رجلٌ خَميصٌ أي جائعٌ، وقالَ غيرُهُ: هو مِنْ ضِيقِ البَطْنِ، وهو واحدٌ لأنهُ مِنَ الجوعِ ما يَضِيقُ البَطْنُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ أي مُتَعَمِّدٍ[7] لإثمٍ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما وقالَ الكِسائيُّ: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾ غيرَ مُتمايلٍ، والجَنَفُ المَيْلُ. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ. وقالَ أبو عوسَجةَ أيضاً: الجَنَفُ المَيْلُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ يَحْتَمِلُ [وُجوهاً]:

أحدُها[8]: قيلَ: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾ غيرَ مُستَحِلٍّ أكْلَ المَيتةِ في حالِ الاضطِرارِ وما[9] حُرِّمَ عليهِ التَّناوُلُ مِنَ الصيدِ. وقيلَ[10]: غيرَ مُتَلَذِّذٍ ولا مُشتَهٍ؛ يَتَناوَلُ على التَّكَرُّهِ منهُ لا على التَّلَذُّذِ والشَّهْوَةِ. وقيلَ[11] أيضاً: إنهُ لا يَتَناوَلُ إلّا في حالِ الاضطِرارِ كقولِهِ[12] تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة: ١٧٣والأنعام: ١٤٥والنحل: ١١٥] وتفسيرُ قولِهِ تعالى: ﴿ٱضْطُرَّ﴾ هذا، والله أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مِنْ رَحمَتِهِ: أي جَعَلَ لَكُمُ التَّناوُلَ مِنَ المُحَرَّمِ، ورَخَّصَ لَكُمْ؛ إذْ لَهُ أنْ يَتْرُكَكُمْ تَموتونَ جُوعاً كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ الآيةَ [النساء: ٦٦].

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ ليسَ في السُّؤالِ بيانُ عمَّ[13] كانَ سُؤالُهُمْ؟ ولكنْ في الجوابِ البيانُ[14] والمُرادُ مِنْ سُؤالِهِمْ، فقالَ: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ﴾ دلَّ قولُهُ تعالَ: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ﴾ أنَّ سُؤالَهُمْ كانَ عنِ الطَّيِّباتِ وما يُصطادُ مِنَ الجوارحِ.

ثمَّ اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هُنَّ المُحَلَّلاتُ. لكنَّهُ بَعيدٌ لأنهُ قالَ تعالى: ﴿لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ﴾ المُحَلَّلاتُ على هذا التأويلِ. لكنهُ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: أحدُهُما: أنهُ أحَلَّ لَكُمْ بأسبابٍ تَطيبُ بها أنفُسُكُمْ مِنْ نَحوِ الذبحِ والطَّبخِ والخَبْزِ وغيرِهِ. لم يُحِلَّ لَكُمْ ما تَكَرَّهُ بِهِ أنفُسُكُمْ: التَّناوُلَ منهُ غيرَ مَطبوخٍ ولا مَذبوحٍ ولا مَشْوِيٍّ. ولكنْ أحَلَّ لَكُمْ بأسبابٍ طابَتْ بها أنفسُكُمْ: التَّناوُلَ منهُ، والله أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يَحْتَمِلُ. (٣) في الأصل وم: وأن. (٤) في الأصل وم: ويَحْتَمِلُ. (٥) من م، في الأصل: ملك. (٦) في الأصل وم: وقيل. (٧) في الأصل وم: معتمد. (٨) في الأصل وم: وجهَينِ. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) هذا هو الوجه الثاني. (١١) هذا هو الوجه الثالث. (١٢) في الأصل وم: وكقوله. (١٣) في الأصل وم: مم. (١٤) في الأصل وم: بيان.

جنة السنة

ويحتمِلُ[1] وجهاً آخرَ؛ وهو أنْ أحلَّ لكُم ما تَطيبُ بِهِ طباعُكُم لا مِمّا تَكرَهُهُ طِباعُكُم، وتَنفُرُ عنهُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ كأنهم سألوا رسولَ اللهِ ﷺ عَمّ يَحِلُّ مِنَ الجوارحِ؟ فَذَكَرَ لَهُم ذلكَ مَعَ ما ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمّا أمَرَ بِقَتْلِ الكِلابِ، فأتاهُ أناسٌ؛ فقالُوا: ماذا يَحِلُّ لنا مِن هذهِ الأُمَّةِ التي أمَرْتَ بِقَتْلِها؟ نَزَلَ[2] قولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ الآية.

وقيلَ: سُمّي جَوارِحَ لِما يُكْتَسَبُ بها، والجَوارِحُ مِنَ الكَواسِبِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ/ ١٢٣ ـ ب/ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية: ٢١] قيلَ: اكْتَسَبُوا، وجَرَحَ كَسَبَ، وقالَ أبو عُبَيدٍ: سُمِّيَتْ جَوارِحَ لأنها صوائِدُ، وهو ما ذَكَرْنا مِنَ الكَسْبِ؛ يُقالُ: فُلانٌ جارحُ أهلَهُ أي كاسِبُهُم. وقالَ غيرُهُ: سُمِّيَتْ جَوارِحَ لأنها تَجْرَحُ، وهو مِنَ الجِراحَةِ، فإذا لم يَجْرَحْ لم يَحِلَّ صَيدُهُ. واحتَجَّ محمدٌ، رَحِمَهُ اللهُ، بهذا المَعْنى في صَيدِ الكَلْبِ إذا قَتَلَ. ولم يَجْرَحْ.

مسألةٌ مِنْ كتابِ الزِّياداتِ: ومما يَدلُّ على صحةِ ذلكَ ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ «أنَّ عَدِيَّ بْنَ حاتِمٍ ﷺ قالَ: سألْتُ رسولَ اللهِ ﷺ ما[3] المِعْراضُ؟ فقالَ: ما أُصِيبَ بِعَرْضِهِ، فلا تأكُلْ، فَهُوَ وَقِيذٌ، وما أُصِيبَ[4] بِحَدِّهِ فَكُلْ» [البخاري: ٥٤٧٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ الآية، قال بعضُهُم: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ مِنَ الكِلابِ، يُكالِبْنَ الصَّيدَ، وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أصحابُ الكلابِ. وكذلكَ قالَ الفَرّاءُ والكِسائِيُّ: المُكَلِّبونَ هم أصحابُ الكلابِ، والمُكَلِّبُ: الكَلْبُ المُعَلَّمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ قالَ الحَسَنُ وأبو بَكْرٍ: تُضْرُونَهُنَّ، يُقالُ: [كليبٌ ضارياتٌ][5] على كلابِ[6] الصَّيدِ، وهما يُبيحانِ الصيدَ، وإنْ أكَلَ منهُ الكَلْبُ. فَعَلَى قولِهِما يَصِحُّ تأويلُ الإضراءِ[7]؛ إذْ يُبيحانِ التَّناوُلَ وإنْ أكلَ منهُ. [وقالا: تُؤَدِّبونَهُنَّ لِيُمسِكنَ][8] الصَّيدَ لَكُم. وهو عندَنا على حَقيقَةِ التَّعلُّمِ لِتَعلَمَ مَسْكَ[9] الصَّيدِ لَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ يَتَوَجَّهُ وَجهَينِ: أحدُهما: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ أي مما جَعَلَ بِنْيَتَكُم بحيثُ احْتِمالُ تعليمِ هؤلاءِ، ولم يَجْعَلْ غيرَكُم مِنَ الخَلائِقِ مُحْتَمِلاً لِذلكَ ولا أهلاً. ويحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ أنْ قالَ لَكُم: عَلِّموهُنَّ بِكذا، وافْعَلُوا كذا. فكيفَ ما كانَ ففيهِ دليلُ جَعْلِ العِلْمِ شَرْطاً فيهِ.

ثم تخصيصُ الكلابِ بالذِّكْرِ دونَ غيرِها مِنَ الأشياءِ، وإنْ كانتِ الكِلابُ وغيرُها سَواءً إذا عُلِّمَتْ، لِخُبْثِ الكلابِ ومُخالَطَتِها الناسَ حتى جاءَ النَّهْيُ عنِ اقْتِنائِها، وجاءَ الأمرُ بِقَتْلِها في وَقْتٍ لم يَجِيءْ بِمِثْلِهِ في سائرِ السِّباعِ لِيُعْلَمَ أنَّ ما كَسَبَ هؤلاءِ مع خُبْثِها، إذا كُنَّ مُعَلَّماتٍ[10] يُحْتَمَلُ التَّناوُلُ منهُ مما لم يَجِئْ فِيهِ ذلكَ أُخرى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إنما أباحَ أكْلَ ما أمسَكَ على نَفْسِهِ لأنَّ الكَلْبَ وغَيرَهُ مِنَ السِّباعِ مِنْ [طباعِها إذا أخَذَتِ الصَّيدَ تأخُذُها لِنَفْسِها، ولا تَصْبِرُ على ألّا تَتناوَلَ منهُ فإذا أخَذَتِ الصَّيدَ، ولم تتناوَلْ منهُ دلَّ أنهُ إنما أمْسَكَتْ لِصاحِبِهِ. وإذا تَناوَلَتْ منهُ لم تُمْسِكْ لِصاحِبِهِ لأنَّ الباقِيَ لا يُدْرَى أنها أمْسَكَتْهُ لِصاحِبِهِ أو أمْسَكَتْهُ لِنَفْسِها لِوَقْتٍ آخرَ لَمّا شَبِعَتْ][11].

وعلى ذلكَ جاءَتِ الآثارُ: رُوِيَ عن عَدِيِّ بْنِ حاتِمٍ [أنهُ][12] قالَ: قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ إننا قومٌ نَتَصَيَّدُ بهذهِ الكلابِ والبُزاةِ، فهل يَحِلُّ لَنا منها؟ فقالَ: «يَحِلُّ لكم ما ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾

---

(١) هذا هو الوجه الثاني. (٢) في الأصل وم: فنزل. (٣) في الأصل وم: من. (٤) في الأصل وم: أصاب. (٥) في الأصل وم: كلب مضرات. (٦) في الأصل وم: كلب. (٧) من م، في الأصل: الإضراع. (٨) في الأصل وم: وقال: تؤدبونهن ليمسكوا. (٩) في الأصل وم: ليمسكوا. (١٠) في الأصل وم: معلمين. (١١) في الأصل وم: طباعهم إذا اخذوا الصيد يأخذون لأنفسهم ولا يصبرون على أن لا يتناولون منه فإذا أخذوا الصيد ولم يتناول منه دل أنه إنما امسك لصاحبه وإذا تناول منه لم يمسك لصاحبه لأن الباقي لا يدرى أنه امسكه لصاحبه أو امسك لنفسه لوقت آخر لما شبع. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

مِمّا عَلَّمتُم مِن كَلْبٍ أو بازٍ، فَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عليهِ، قُلْتُ: وإنْ قَتَلَ [الصَّيدَ][1]؟ قالَ: إذا قَتَلَهُ، ولم يأكُلْهُ، فإنما أمْسَكَ عليكَ، وإنْ أكَلَ فلا تأكُلْ فإنما أمْسَكَ لِنَفْسِهِ[2]. فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أرأيتَ إنْ خالَطَتْ كلابَنا كلاباً أُخرَى؟ قالَ: إذا خالَطَ كَلْبَكَ كلاباً فلا تأكُلْ فإنكَ إنما ذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ على كَلْبِكَ ولم تَذْكُرْهُ على كَلْبِ غَيرِكَ» [البخاري: ٥٤٨٧ ومسلم: ١٩٢٩].

عَنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: إذا أكلَ الكَلْبُ فَليسَ بِمُعَلَّمٍ. وعنهُ أيضاً [أنهُ][3] قالَ: إذا أكَلَ الكَلْبُ مِنَ الصَّيدِ فلا تأكُلْهُ، وإذا أكَلَ الصَّقْرُ فَكُلْ لأنَّ الكَلْبَ تستطيعُ أنْ تَضرِبَهُ، والصَّقرَ لا. وعَنْ عليٍّ رضي الله عنه [أنهُ][4] قالَ: إذا أكَلَ الكَلْبُ فلا تأكُلْ، واضرِبْهُ.

وقد ذَكَرْنا مِنَ الأخبارِ ممّا يدلُّ على أنَّ الكَلْبَ إذا كانَ غيرَ مُعَلَّمٍ يُؤكَلُ صَيدُهُ مِنْ خَبَرِ عَدِيِّ بْنِ حاتِمٍ قالَ: «قُلْتُ يا رسولَ اللهِ: إنّا قومٌ نَتَصَيَّدُ[5] بهذِهِ الكلابِ، فقالَ: إذا أرسَلْتَ كلابَكَ المُعَلَّمةَ، وذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عليها، فَكُلْ ممّا أمْسَكْنَ عليكَ، وإنْ قَتَلْنَ، إلّا أنْ يأكُلَ الكَلْبُ، فإنْ أكَلَ فلا تأكُلْ» [بنحوه البخاري: ٥٤٨٧].

وعلى هذا يَخرُجُ قولُنا: إنهُ إذا أكَلَ [الكلبُ][6] مِنْ دَمِهِ يُؤكَلُ لأنهُ لو أمْسَكَهُ علينا كُنّا لا نأكُلُهُ؛ وذلكَ مِنْ غايةِ تَعليمِهِ لأنهُ تناوَلَ الخَبيثَ، وأمْسَكَ الطَّيِّبَةَ على صاحِبِهِ. ولو كانَ صيدُ الكَلْبِ إذا أكَلَ منهُ حَلالاً لكانَ المُعَلَّمُ وغَيرُ المُعَلَّمِ سَواءً، وكانَ ما أمْسَكَ على نفسِهِ وعلى صاحِبِهِ سَواءً، لأنَّ كُلَّ الكلابِ تَطلُبُ الصَّيدَ إذا أُرسِلَتْ عليهِ، وتُمسِكُهُ حتى يَموتَ، وتأكُلُ منهُ، إلّا المُعَلَّمَ منها. فما مَعْنَى المُعَلَّمِ منها والمُمْسِكِ على صاحِبِهِ؟ لو كانَ الأمْرُ على ما قالَ مُخالِفُنا.

وقد رُوِيَ عن أبي حَنيفَةَ رضي الله عنه أنهُ قالَ: إنْ عُلِّمَ الكَلْبُ حتى صارَ لا يأكلُ مِنْ صَيدٍ، ثم أكَلَ مِنْ صَيْدٍ يَصيدُ لم يَجُزْ أنْ يُؤكَلَ مِنْ صَيدِهِ الأوَّلِ إذا كانَ باقياً.

ومذهبُهُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، أنَّ صَيدَ الكَلْبِ لا يُؤكَلُ حتى يكونَ مُعَلَّماً. وإنْ أمْسَكَ في أوَّلِ ما يُرْسَلُ، فلم يأكُلْ، فإذا أمْسَكَ مِراراً، ثم أكَلَ، وَلَنا أكْلُهُ على إمْساكِهِ عنِ الأكلِ، لم يكُنْ لأنهُ مَعلومٌ؛ إذ قد يُمسِكُ غَيرُ المُعَلَّمِ لِلشِّبَعِ، ولو كانَ مُعَلَّماً ما أكَلَهُ. فاسْتُدِلَّ بأكلِهِ في الرابعةِ على أنَّ إمساكَهُ في الثالثةِ كانَ على غَيرِ حَقيقةِ تَعليمٍ.

وهذا عندَنا في صَيدٍ، يَقْرُبُ بَعضُهُ مِنْ بَعضٍ. فأمّا إذا كَثُرَ إمساكُهُ، ثم تُرِكَ إرسالُهُ مُدَّةً، يجوزُ أنْ يَنْسَى فيها ما عُلِّمَ، ثم أُرسِلَ، فأكَلَ، فليسَ فيها رِوايةٌ عنهُ. ويجوزُ أنْ يُقالَ: يُؤكَلُ ما بَقِيَ مِنْ صَيدِهِ الأوَّلِ، ويُفَرَّقُ بينَ المسألتَينِ بأنَّ الثانيَ قد يَنْسَى، والأوَّلَ يَبْعُدُ مِنَ النِّسيانِ لِتقارُبِ ما بيْنَ الصَّيدَينِ فلا وَجْهَ إلّا أنْ يُجعَلَ غَيرَ مُسْتَحكِمِ التَّعَلُّمِ في صَيدِ المُتَقَدِّمِ.

وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنَّ الصَّقْرَ والبازِيَ مِنَ الجوارِحِ، واسْتَدْلَلْنا على ذلكَ بما أوْضَحْنا ما لَيسَ بِمُعَلَّمٍ مِنَ الطيرِ لا يُؤكَلُ إلّا أنْ تُدرَكَ ذَكاتُهُ. ثم يكونُ تَعليمُ البازي والصَّقرِ بإجابتِهِ صاحِبَهُ ورُجوعِهِ إليهِ، وتَعليمُ الكلابِ تَرْكَ الأكلِ منهُ؛ لأنَّ البازِيَ ونَحوَهُ مُستَوحِشٌ عنِ الناسِ، يَنفُرُ طَبْعُهُ عنهُم، فدلَّتْ[7] إلْفَةُ الناسِ وإجابةُ أصحابِهِ[8] على التَّعَلُّمِ، وإنْ أكَلَ منهُ. ولا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ بالتَّناوُلِ منهُ يَخرُجُ عن حَدِّ التَّعليمِ لأنهُ إنما يُعَلَّمُ بالأكلِ مِنَ الصَّيدِ.

وأمّا الكَلْبُ فإنهُ يَأْلَفُ الناسَ، ولا يَسْتَوحِشُ، ومِنْ طَبْعِهِ الأكلُ إذا أخَذَ الصَّيدَ. فَدَلَّ إمساكُهُ عنِ التَّناوُلِ منهُ على أنهُ مُعَلَّمٌ. وقد رُوِيَ عن عليٍّ رضي الله عنه ما يَدُلُّ على تأييدِ ما ذَكَرْنا؛ قالَ: إذا أكلَ الصَّقرُ فَكُلْ، وإنْ أكَلَ الكَلْبُ فلا تأكُلْ. وعَنْ سَلْمانَ كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تَستَحِلُّوا ما لم يُذكَرِ اسْمُ اللهِ عليها فإنها مَيْتَةٌ. ويَحتَمِلُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في تَرْكِ ما أمَرَ ونَهى كُلِّهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. وتَحتَمِلُ السرعةُ كِنايةً عنِ الشِّدَّةِ: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ شديدُ العِقابِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: على نفسه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: نصيد.
(٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل وم: فدل. (٨) في الأصل وم: أصحابهم.

جنة السنة

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ [كَوْنَهُ][1] حَرْفَ افْتِتاحٍ يُفْتَتَحُ [بِهِ][2] الكلامُ لا إشارةً إلى وقتٍ مَخْصوصٍ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣] وقد يُتَكَلَّمُ باليَوْمِ لا على إشارةِ وَقْتٍ مُشارٍ إليهِ، وهو، واللهُ أعلَمُ، ما حَرَّمَ عليهِمْ مِنَ ثمانيةِ[3] الأزواجِ التي ذَكَرَها اللهُ تعالى في سورةِ الأنعامِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ [الآية: ١٤٣] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، ثم قولُهُ[4] تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٦] وما حَرَّمُوا هُمْ على أنْفُسِهِمْ مِنَ البَحيرةِ[5] والسائِبَةِ والوَصيلَةِ والحامِ وغيرِها مِنَ المُحَرَّماتِ التي كانَتْ، فأحَلَّ اللهُ ذلكَ، فقالَ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾ وكانَتْ مُحَرَّمَةً عليهِمْ، قبلَ ذلكَ.

لكنَّ أهْلَ التَّأويلِ صَرَفُوا الآيةَ إلى الذبائِحِ، لم يَصْرِفوا إلى ما ذَكَرْنا: المَعْنَى الذي بِهِ صارَتِ الذبائِحُ طَيِّباتٍ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾ وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][6] قالَ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾ أي ذبائِحُهُمْ ﴿حِلّٞ لَّكُمۡ﴾ وذبائِحُكُمْ/ ١٢٤ ـ أ/ ﴿حِلّٞ لَّهُمۡۖ﴾ إلى هذا حَمَلَ أهْلُ التَّأويلِ. فإنْ قيلَ: أليسَ جَعَلَ ذبائِحَنا مُحَلَّلَةً لَهُمْ وذَبائِحَهُمْ مُحَلَّلَةً لنا، ثم يُحِلُّ ذبائِحَنا لَهُمْ ولِغَيرِهِمْ؟ كيفَ لا حَلَّ ذبائِحَهُمْ وذبائِحَ غيرِهِمْ وهي ذبائِحُ المَجوسِ؟ قيلَ: حِلُّ الذبائِحِ شَرْعِيٌّ، وليسَ لِلْمَجوسِ كِتابٌ آمَنُوا بِهِ، فيَحِلُّ ذبائِحَهُمْ. وأمّا أهْلُ الكِتابِ فإنَّهُمْ آمَنُوا بما أنْزَلَ الكتابُ: حِلِّهِ وحُرْمَتِهِ، لذلكَ افْتَرَقا، واللهُ أعلَمُ.

والآيةُ على قولِ أصحابِ العُمومِ تُوجِبُ جَميعَ طعامِنا لَهُمْ لأنهُ قالَ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ﴾ فَعَلَى قولِهِمْ لِكلِّ واحدٍ مِنَ الفريقَيْنِ أنْ يَتَناوَلَ طعامَ الفريقِ الآخَرِ. دلَّ أنَّ مَخْرَجَ عُمومِ اللَّفْظِ لا يُوجِبُ الحُكْمَ عامّاً لِلَفْظِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قالَ بَعْضُهُمْ ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾ أرادَ بِهِ الحرائِرَ، وقالَ آخَرونَ: أرادَ بِهِ العَفائِفَ منهُنَّ غيرَ زانِياتٍ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ﴾ [النور: ٣] نَهى عنْ نِكاحِ الزانياتِ، ورَغَّبَ في نِكاحِ العفائِفِ، وهذا أشْبَهُ مِنَ الأوَّلِ لأنهُ قالَ في آخِرِ الآيةِ ﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾ دلَّ هذا على أنهُ أرادَ بالمُحْصَناتِ العَفائِفَ مِنْهُنَّ[7] لا الحَرائِرَ. ودلَّتِ الآيةُ على حِلِّ نِكاحِ الحرائِرِ مِنَ الكتابيّاتِ. وعلى ذلكَ اتِّفاقُ أهلِ العِلْمِ. لكنْ يُكْرَهُ ذلكَ.

رُوِيَ عنِ ابنِ[8] عُمَرَ ﷺ أنهُ كَرِهَ تَزَوُّجَهُنَّ فهذا عندَنا على غَيرِ تَحريمٍ منهُ لِتَزَوُّجِهِنَّ[9]. ولكنْ رَأى تَزَوُّجَ[10] المُسلِماتِ أفْضَلَ وأحسَنَ لِمُشارَكَتِهِنَّ[11] المُسْلِمَ في دِينِهِ[12].

ورُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ كُرْهُهُ ذلكَ؛ وذلكَ لأنَّ حُذَيفَةَ ﷺ تَزَوَّجَ يهوديّةً، فكتَبَ إليهِ عُمَرُ ﷺ يأمُرُهُ بطلاقِها؛ ويقولُ: كَفَى بذلكَ فِتْنَةً لِلْمُسْلِماتِ. فهذا أيضاً لا على سَبيلِ التحريمِ، ولكنْ لِما ذَكَرَ مِنَ الفِتْنَةِ فِتْنَةِ المُسْلِماتِ.

فأصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى، يَكْرَهونَ أيضاً تَزَوُّجَ[13] الكتابيّاتِ، ولا يُحَرِّمونَهُ.

واخْتَلَفَ أهلُ العِلْمِ في تَزَوُّجِ[14] إمائِهِنَّ؛ فتَأوَّلَ قومٌ قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على الحَرائِرِ، وتَأوَّلَهُ آخَرونَ على العَفائِفِ. وقد ذَكَرْنا أنَّ صَرْفَ التَّأويلِ إلى العَفائِفِ أشْبَهُ بدلالةِ قولِهِ تعالى: ﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾ مَعَ ما لو كانَتِ المُحْصَناتُ هَهُنا هُنَّ الحَرائِرَ لم يَكُنْ فيهِ حَظْرُ نِكاحِ الإماءِ[15] الكتابيّاتِ لأنهُ إباحةُ نِكاحِ الحرائِرِ مِنَ الكتابيّاتِ. وليسَ في إباحَةِ شيءٍ في حالِ حَظْرِ غيرِهِ [تحريمٌ، وقد][16] ذكَرْنا الوَجْهَ في ذلكَ في ما تَقَدَّمَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الثمانية. (٤) في الأصل وم: قال. (٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾ [المائدة: ١٠٣]. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: منهم. (٨) من م، في الأصل: أبي. (٩) في الأصل وم: لتزويجهن. (١٠) في الأصل وم: تزويج. (١١) في الأصل وم: لمشاركتها. (١٢) في الأصل وم: دينها. (١٣) في الأصل وم: تزويج. (١٤) في الأصل وم: تزويج. (١٥) في الأصل وم: إماء. (١٦) في الأصل وم: فيه قد.

جنة السنة

فالمجوسيةُ ليسَتْ عندنا مِنْ أهلِ الكتابِ، والدليلُ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٥، ١٥٦] فأخبرَ اللهُ تعالى أنَّ أهلَ الكتابِ طائفتانِ[1]، فلا يجوزُ أنْ يجعَلوا ثلاثَ طوائفَ؛ وذلكَ خِلافُ ما دلَّ عليهِ القرآنُ.

ألا ترَى أنَّ رجلاً لو قالَ: إنما لي عليكَ يا فلانُ دِرْهَمانِ، لم يكُنْ لهُ أنْ يَدَّعِيَ عليهِ أكثرَ مِنْ ذلكَ. ولو قالَ: إنما لَقِيتُ اليومَ رَجُلَينِ، وقد لَقِيَ ثلاثةً، كانَ كاذباً؛ لأنَّ قولَهُ: إنما لَقِيتُ رَجُلَينِ كقولِهِ: لَقِيتُ اليومَ رجلَينِ. ولا يجوزُ مِثْلُ هذا في أخبارِ اللهِ تعالى لأنهُ الصادقُ في خبَرِهِ ﷻ؟

فإنْ قِيلَ: هذا شيءٌ حكاهُ اللهُ ﷻ عنِ المُشركِينَ، وقد يَجوزُ أنْ يكونُوا غَلِطُوا، فَحكَى اللهُ تعالى عنهُمْ ما قالُوا. قِيلَ لهُ: لم يَحْكِ اللهُ تعالى هذا القولَ عنِ المُشركِينَ، ولكنْ قَطَعَ بالقرآنِ عُذرَهُمْ، فقالَ: [﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ لِئَلّا يقولُوا: أُنزِلَ][2] الكتابُ ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ فهذا كلامُ اللهِ واحتِجاجُهُ على المُشركِينَ، ولَيسَ حِكايةً عنهُمْ.

ومِنَ الدليلِ أنَّ المَجُوسيَّ ليسَ مِن أهلِ الكتابِ ما قالَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ ﷺ وهو في مَجلِسٍ بينَ القبرِ والمِنْبَرِ: ما أدري كيفَ أصْنَعُ بالمجوسِ، وليسُوا بأهلِ الكتابِ؟ فقالَ عبدُ الرحمن بْنُ عوفٍ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «سُنُّوا بالمجوسِ سُنَّةَ أهلِ الكتابِ» [الطبراني ١٩: ٤٣٧ رقمه ١٠٥٩] صَرَّحَ عُمَرُ ﷺ بأنهُمْ ليسُوا أهلَ الكتابِ، ولم يُنْكِرْ عبدُ الرحمنِ ذلكَ عليهِ ولا أحدٌ مِنَ الصحابةِ ﷺ فلو كانُوا أهلَ كتابٍ لم يَقُلْ: سُنُّوا بهم سُنَّةَ أهلِ الكتابِ.

وكذلكَ «رُوِيَ عنِ الحَسَنِ بْنِ محمدٍ أنهُ قالَ: كَتَبَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى مَجوسِ هَجَرٍ، فقالَ: أدعُوكُمْ إلى الشهادةِ: أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وأني رسولُ اللهِ فإنْ أسلَمْتُمْ فلَكُمْ ما لنا وعلَيكُمْ ما علَينا، ومَنْ أبى فعَلَيهِ الجزيَةُ، غيرَ آكلي ذبائِحِهِمْ ولا ناكِحي نِسائِهِمْ» إلى هذا ذهبَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، في قولِهِمْ: إنَّ المَجوسَ ليسُوا بأهلِ كتابٍ.

وأمّا نصارَى بَني تَغْلِبَ فإنَّ علياً ﷺ قالَ: لا تَحِلُّ ذبائحُ نصارَى العَرَبِ فإنهُمْ ليسُوا بأهلِ كتابٍ، وقرأ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨] وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ تُؤكَلُ، وقرأ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

والآيةُ الأولى تَدُلُّ على أنهُمْ أهلُ كتابٍ لأنَّ اللهَ ﷻ قد جعَلَهُمْ منهُمْ بقولِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] فحُكمُهُمْ حُكمُهُمْ؛ إذْ أخبَرَ اللهُ ﷻ أنهُمْ منهُمْ. وممّا يَدُلُّ على ذلكَ أيضاً قولُ رسولِ اللهِ ﷺ حينَ[3] قالَ: «لا يَتَخَلَّجَنَّ في صَدرِكَ طعامٌ ضارَعْتَ فيهِ النَّصرانيَّةَ» [الترمذي: ١٥٦٥] لأنهُ عَمَّ فيهِ النصارَى، فدخَلَ فيهِ عَرَبُهُمْ وعَجَمُهُمْ لأنهُمْ دانُوا بِدِينِهِمْ. وكُلُّ مَنْ دانَ بِدِينِ قومٍ فهُوَ مِنهُمْ.

ومِنَ الدليلِ على أنَّ العَرَبَ، إذا دانُوا بِدِينِ أهلِ الكتابِ فهُمْ مِنْ أهلِ الكتابِ، أنَّ العَجَمَ لَمّا أسلَمُوا صارَ حُكمُهُمْ حُكمَ عَرَبِ أهلِ الإسلامِ. فإذا ارتَدَّ أحدٌ مِنهُمْ، وسألَ [سائلٌ هلْ تُؤخَذُ منهُ][4] الجِزيَةُ كما تُؤخَذُ في الابتِداءِ [مِنَ المجوسِ][5] لم يُجَبْ إلى ذلكَ، وقِيلَ لهُ: إمّا أنْ تُسْلِمَ، وإمّا أنْ تُقتَلَ؛ فهُوَ بِمَنزلَةِ عَرَبيٍّ مُسْلِمٍ لَوِ ارتَدَّ عنِ الإسلامِ. فلما كانَ حُكمُ[6] العَجَمِيِّ إذا دانَ بدِينِ النَّبيِّ ﷺ حُكمَ العَرَبِ وَجَبَ أنْ يكونَ حُكمُ العَرَبيِّ إذا دانَ بِدِينِ العَجَمِيِّ مِنْ أهلِ الكتابِ أنْ يُجعَلَ حُكمُهُ حُكمَهُمْ، وباللهِ التَّوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وقد يَحْلُلْنَ لنا إذا لم نُؤتِ أُجورَهُنَّ. دلَّ أنَّ ذِكْرَ الحُكْمِ في حالٍ لا يُوجِبُ حَظْرَهُ في حالٍ أُخرَى، فهو دليلٌ لنا في جَوازِ نِكاحِ الإماءِ مِنْ أهلِ الكتابِ، وإنْ ذَكَرَ في الآيةِ المُحْصَناتِ.

---

(١) في الأصل وم: طائفتين. (٢) في الأصل وم: أنْزَل الكتابَ لئلا يقولوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ﴾. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: أن يؤخذ منهم. (٥) في م: في المجوس، في الأصل: في المحسوس. (٦) في الأصل وم: حكمي.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ الآية؛ أي وَمَنْ يَكْفُرْ بالذي عليهِ الإيمانُ بهِ، وهو المُؤمَنُ بهِ أي اللهِ، لأنهُ لا يُكْفَرُ بالإيمانِ، ولكنْ يُؤمَنُ بهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي المُوقَنُ بهِ. فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ؛ مَعْناهُ مَنْ يَكْفُرْ بالذي عليهِ الإيمانُ بهِ، وهو المُؤمَنُ بهِ، ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وباللهِ العِصْمَةُ والهدايةُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ لو حُمِلَتِ الآيةُ على ظاهِرِها لَكانَ لا سَبيلَ لِأحدٍ القِيامُ بأداءِ ما فَرَضَ اللهُ عليهِ مِنَ الصلاةِ لأنهُ كلّما قامَ إلى الصلاةِ يَلْزَمُهُ الوُضوءُ، فلا يَزالُ يَبْقَى فيهِ، لكِنّها على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: يُقالُ ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وأنتُمْ مُحدِثونَ ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ وإلّا ظاهِرُ الآيةِ يُوجِبُ ما ذَكَرْنا. لكنَّ الحَدَثَ مُضْمَرٌ فيهِ.

ومِنَ الناسِ مَنْ يُوجِبُ الوضوءَ لِكُلِّ صلاةٍ بظاهِرِ هذِهِ الآيةِ. وقد جاءَ مِنَ الصحابةِ ﷺ الفِعْلُ بذلكَ؛ رُوِيَ عن أبي بَكْرٍ وعُمَرَ وعُثمانَ ﷺ أنهم تَوَضَّؤوا لِكُلِّ صلاةٍ/ ١٢٤ ـ ب/ ورُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوُ ذلكَ.

ورُوِيَ أنَّ عليَّ بنَ أبي طالِبٍ ﷺ صلّى الظُّهْرَ، ثم قَعَدَ في الرَّحْبَةِ. فلمّا حَضَرَتِ العَصْرُ دَعا بِكوزٍ مِنْ ماءٍ، فَغَسَلَ يديهِ وَوَجْهَهُ وذِراعَيهِ ورِجلَيهِ، وشَرِبَ فَضْلَهُ، وقالَ: هكذا رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَفْعَلُ، وقالَ: هذا وُضوءُ مَنْ لم يُحْدِثْ. ورُوِيَ عن عُبَيدِ بنِ عُمَيرٍ أنهُ كانَ يَتَوَضَّأُ لِكُلِّ صلاةٍ، وتأوَّلَ هذهِ الآيةَ.

«ورُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ يَتَوَضَّأُ لِكُلِّ صلاةٍ. فلمّا كانَ يومُ فَتْحِ مكَّةَ صَلَّى الصَّلَواتِ كُلَّها بوُضوءٍ واحِدٍ(١) فَقالَ عُمَرُ ﷺ: يا رسولَ اللهِ إنكَ فَعَلْتَ شَيئاً لم تَكُنْ تَفْعَلُهُ، قالَ: إني عَمْداً فَعَلْتُهُ يا عُمَرُ» [مسلم: ٢٧٧ وأحمد: ٥/ ٣٥٨]. ورُوِيَ عن أبي هُرَيرَةَ ﷺ [أنهُ](٢) قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لولا أنْ أشُقَّ على أمّتي لأمَرْتُ في كُلِّ صلاةٍ الوُضوءَ ومعَ كُلِّ وُضوءٍ السِّواكَ» [أحمد: ٢/ ٤٦٠].

وكُلُّ ما رُوِيَ مِنَ الأخبارِ بالوضوءِ لِكُلِّ صلاةٍ، هو(٣) على الفَضْلِ عندَنا والاستِحبابِ لا على الحَتْمِ. ألا تَرَى أنهُ رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ أنهُ ﷺ صلّى الصَّلَواتِ(٤) كلَّها بوُضوءٍ واحِدٍ، وقالَ: إني فَعَلْتُهُ عَمْداً. ذلكَ ما ذَكَرْنا.

وقد يَحْتَمِلُ تأويلُ الآيةِ مَعْنىً آخَرَ ما رُوِيَ عن بَعْضِ الصحابةِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ إذا أراقَ ماءً، نُكَلِّمُهُ، فلا يُكَلِّمُنا، ونُسَلِّمُ عليهِ، فلا يَرُدُّ علينا حتى يأتيَ أهْلَهُ، فَيَتَوَضَّأُ وضوءَهُ لِلصَّلاةِ، فَقُلْنا لهُ في ذلكَ حتى نَزَلَتْ آيةُ الرُّخْصَةِ [في](٥) قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فهذا يَدُلُّ أنَّ مَعْنى الآيةِ على الإضمارِ ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وأنتُمْ مُحدِثونَ ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾.

ورُوِيَ في تأويلِ الآيةِ: إذا قُمْتُمْ مِنَ المَضْجَعِ إلى الصلاةِ فاغْسِلُوا وجوهَكُمْ. وقد رُوِيَتِ الأخبارُ عن رسولِ اللهِ ﷺ «أنهُ كانَ يَنامُ، ثم يُصَلّي الصُّبْحَ ولا يَتَوَضَّأُ، فَسُئِلَ عن ذلكَ فقالَ: إني لَسْتُ كَأحَدٍ مِنْكُمْ؛ تنامُ عَينايَ ولا يَنامُ قلبي، ولو أحدَثْتُ لَعَلِمْتُ» [بنحوه البخاري: ١١٤٧].

ورُوِيَ عن صَفْوانَ بنِ عَسّالٍ [أنهُ قالَ](٦): «إذا كنا معَ النَّبِيِّ ﷺ في سَفَرٍ يأمُرُنا ألّا نَنْزِعَ خِفافَنا إذا أدخَلْناهما طاهِرَتَينِ، ولا نخلَعَهما مِنْ غائطٍ ولا بَولٍ إلّا مِنْ جَنابةٍ» [النسائي: ١/ ٨٤].

فهذِهِ الأحاديثُ تُوجِبُ الوضوءَ مِنَ النومِ مُجمَلاً. وجاءَ حديثٌ آخَرُ مُفَسَّراً بإيجابِ الوضوءِ إذا نامَ مُضْطَجِعاً؛ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «ليسَ على مَنْ نامَ قاعداً وضوءٌ حتى يَضْطَجِعَ. فإذا اضْطَجَعَ اسْتَرْخَتْ مَفاصِلُهُ» [بنحوه الترمذي: ٧٧] فهذِهِ الأخبارُ التي جاءَتْ مُجمَلَةً.

---

(١) في الأصل وم: واحدة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وهو. (٤) من م، في الأصل: الصلاة. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقد جاءتِ الأخبارُ أنهُ إذا نامَ في الصلاةِ قائماً أو قاعداً أو ساجداً فلا وُضوءَ عليهِ. فَيَدُلُّ ذلكَ على أنَّ النومَ في الصلاةِ ليسَ بِحَدَثٍ. ورُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ [أنهُ](١) قالَ: لا يُوجِبُ الوضوءَ حتى يَضَعَ الجنبَ، وينامَ. فهذا يؤيِّدُ [ما](٢) قُلنا مَعَ ما اجْتَمَعَ أهْلُ العلمِ في أنَّ الوُضوءَ ليسَ بِواجبٍ على مَنْ قامَ إلى الصلاةِ، وهو غيرُ مُحْدِثٍ. فكانَ التَّأويلُ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ الخِطابُ مِنَ اللهِ ﷻ بِغَسْلِ الوَجْهِ ما يُعْرَفُ أصلُ(٣) الوَجْهِ. فالتَّكَلُّمُ فيهِ والتَّحديدُ أنهُ مِنْ كذا فَضلُ تكلُّمٍ، والأمْرُ بِالغَسْلِ يرجِعُ إلى ما ظَهَرَ، وعُرِفَ أصْلُهُ(٤) أنهُ وجهٌ.

وكذلكَ الأمْرُ بِمَسْحِ الرأسِ يَرْجِعُ إلى ما عُرِفَ أصْلُهُ(٥) أنهُ رأسٌ، وليسَ كالأُذُنَينِ لأنَّ مَعْرِفَةَ الأُذُنَينِ أنهما مِنَ الرأسِ سَمْعِيٌّ لأنهما لا تُعْرَفانِ أنهما مِنَ الرأسِ إلا بالسَّمْعِ.

وكذلكَ الأمْرُ بِغَسْلِ اليَدِ وغَسْلِ الرِّجْلِ يَقَعُ على ما يَعْرِفُ النَّاسُ. وعَرَفَ النَّاسُ اليدَ إلى الإبْطِ والرِّجْلَ إلى الرُّكْبَةِ، فَخَرَجَ ذِكْرُ المَرافِقِ في غَسْلِ الأيدي إلى ما وراءَ المَرافِقِ، وكذلكَ ذِكْرُ الكَعْبِ في الرِّجْلِ لإخراجِ ما وراءَ الكَعْبِ، لأنَّ اسْمَ اليَدِ على الإطلاقِ يَقَعُ مِنْ أطرافِ الأصابعِ إلى الإبْطِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ قَرَؤُوا بالنَّصْبِ، وقَرَؤُوهُ بالخفضِ(٦). قالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ قَرَأَ بالنَّصْبِ فهو يرجِعُ إلى الغَسْلِ نَسَقاً على الوجهِ، وبالخَفْضِ إلى المَسْحِ مَسْحِ الخِفافِ نَسَقاً على مَسْحِ الرأسِ. لكنَّ هذا بعيدٌ لأنهُ تناقُضٌ؛ لا يجوزُ أنْ يُؤْمَرَ(٧) بالغَسْلِ والمَسْحِ جميعاً، ومَعْنَى الخَفْضِ لِقُرْبِ جوارِهِ. يَقولُ تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ وقد يجوزُ ذلكَ نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢١و٢٢و٢٣] فَمَنْ قرأَ بالخَفْضِ(٨) إنما قَرَأَ(٩) لِقُرْبِ جِوارِهِ بالخَفْضِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

ثم الحِكْمَةُ بالأمْرِ بِغَسْلِ هذهِ الأعضاءِ لِيُذَكِّرَهُمْ تَطْهيرَ باطِنِهِمْ. والمَعْنَى في غَسْلِ هذِهِ الأعضاءِ الظاهِرَةِ، واللهُ أعلَمُ، بوجهَينِ(١٠):

أحدُهُما: شُكْرٌ. أمّا اليَدُ [فَلِما](١١) بها يُتَناوَلُ، ويُقْبَضُ، وأمّا الرِّجْلُ فَلِما(١٢) بها يُمْشَى، وبها يَصِلُ إليهِ. والوجهُ مَجْمَعُ الحَواسِّ التي تُعْرَفُ عَظيمُ نِعَمِ اللهِ ﷻ مِنْ نَحْوِ البَصَرِ والشَّمِّ(١٣) وغَيرِهِما مِنَ الحَواسِّ التي بها يكونُ التَّلَذُّذُ والتَّشَهِّي.

والثاني(١٤): أمرَ بذلكَ تَكْفيراً لِما ارْتُكِبَ بهذِهِ الحَواسِّ مِنَ الأجرامِ لأنهُ بِها تُرْتَكَبُ جُلُّ الآثامِ، وبها يُوصَلُ إليها مِنَ المَشْيِ والقَبْضِ وغَيرِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ قِيلَ فاغْتَسِلُوا بِأخْذِ الجَنابَةِ الظَواهِرَ مِنَ البَدَنِ وبواطِنَهُ، والحَدَثُ لا يَأْخُذُ إلّا الظَّواهِرَ مِنَ الأطرافِ لأنَّ السَّبَبَ الذي يُوجِبُ الجَنابَةَ لا يكونُ إلّا باسْتِعْمالِ جَميعِ ما فيهِ مِنَ القُوَّةِ. ألا تَرَى أنهُ بهِ يَضْعُفُ إذا كَثُرَهُ، وبِتَرْكِهِ يَقْوَى. فَعَلَى ذلِكَ أخْذُ جميعِ البَدَنِ ظاهِرِهِ وباطِنِهِ. وأمّا الحَدَثُ فإنَّ سَبَبَهُ يكونُ بِظَواهِرِ هذِهِ الأطرافِ مِنْ نَحْوِ الأكْلِ والشُّرْبِ والحَدَثِ، وليسَ باسْتِعمالِ كُلِّ البَدَنِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ الآية. ذَكَرَ المَرَضَ والسَّفَرَ والمَجِيءَ مِنَ الغائِطِ والمُلامَسَةَ. ثُمَّ الحُكْمُ لمْ يَتَعَلَّقْ باسْمِ المَرَضِ ولا باسْمِ السَّفَرِ ولَكِنْ باسْمِ الغائِطِ، ولكِنْ كانَ مُتَعَلِّقاً لِمَعْنًى فيهِ دلالةُ جَوازِ القِياسِ لأنَّهُ ذَكَرَ الغَائِطَ [والمَجِيءَ منهُ، والغَائِطُ](١٥) هو المَكَانُ الذي تُقْضَى فيهِ، والمُرَادُ منهُ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: آهل. (٤) في الأصل وم: أهله. (٥) في الأصل وم: أهله.
(٦) قرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص بالفتح، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وأبو بكر خفضاً، انظر حجة القراءات ص (٢٢١). (٧) في الأصل وم: يأمر. (٨) قرأ حمزة والكسائي: وحورٍ عينٍ بالخفض، وقرأ الباقون بالرفع، انظر حجة القراءات ص (٦٩٥). (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) في الأصل وم: لمعنيين. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل: لما، ساقطة من م (١٣) في الأصل وم: والغم. (١٤) في الأصل وم: أو. (١٥)من م، ساقطة من الأصل.

المَعْنَى، وهو قضاءُ الحاجاتِ. فهذا أصلٌ لنا أنَّ النَّصَّ إذا ورَدَ بِمَعْنًى، فوُجِدَ ذَلِكَ المَعْنَى في غَيرِهِ وَجبَ ذَلِكَ الحُكْمُ في ذَلِكَ الغَيرِ. فإذا عَدِمَ المَاءَ في المَكَانِ الذي يُعْدَمُ، وإنْ لَمْ يَكُنْ سَفَراً، يَجوزُ التَّيَمُّمُ فيهِ، وكَذَلِكَ إذا خَافَ الضَّرَرَ مِنَ المَاءِ جَازَ لَهُ التَّيَمُّمُ، يكُونُ مَريضاً لأنَّهُ لَيسَ أباحَ ذَلِكَ، هذا هو المعنى الثاني لِلْمَرِيضِ بِاسْمِ المَرَضِ ولا بِاسْمِ السَّفَرِ، ولكنْ لِمَعْنًى فيهِ.

وقَولُهُ تعالى: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنَّ المُلامَسَةَ هو الجِمَاعُ. [كَذَلِكَ][1] رُوِيَ عن عليٍّ وابنِ عباسٍ ﷺ وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: المُلامَسَةُ والمُبَاشَرَةُ والإفْضاءُ والرَّفَثُ والغَشَيانُ، كُلُّهُ جِمَاعٌ، ولكنَّ اللهَ كريمٌ يُكَنِّي.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ جَعَلَ الطَّهارَةَ بالمَاءِ والتُّرابِ لأنَّهُ بِهِما مَعاشُ الخَلقِ، وبِهِما قِوامُ الأبْدانِ حتَّى جَعَلَ جَمِيعَ أغذِيَةِ الخَلْقِ وجُلَّ مَصالِحِهِمْ منهما. فعَلَى ذَلِكَ جَعَلَ قِيامَ هذِهِ العِبادَاتِ بِهِما، واللهُ أعْلَمُ.

ثُمَّ الحِكْمَةُ في وُجوبِ الطَّهارةِ [في وَجهَينِ][2]:

أحَدُهُما: ما ذَكَرْنا أنْ يُذَكِّرَهُمْ طهارَةَ البَاطِنِ.

والثاني: تَكْفِيرٌ[3] لِما ارْتَكَبُوا بِهَذِهِ الجَوارِحِ مِنَ الأجْرَامِ، أو شُكْرٌ[4] لِما أنْعَمَ عليهِمْ مِنَ المَنَافِعِ التي جَعَلَ لَهُمْ فِيها مِنَ القَبْضِ والبَسْطِ والتَّنَاوُلِ والأخْذِ والمَشْيِ وغيرِ ذَلِكَ مِمَّا يَكْثُرُ.

ثُمَّ الحِكْمَةُ في جَعْلِ الطَّهارَةِ في أطرافِ البَدَنِ للتَّزَيُّنِ والتَّنْظِيفِ لأنَّهُ يُقْدِمُ على المَلِكِ الجَبَّارِ، ويَقُومُ بَينَ يَدَيهِ ويُنَاجِيهِ. ومَنْ أتَى مَلِكاً مِنْ مُلُوكِ الأرضِ يَتَكَلَّفُ التَّنْظِيفَ والتَّزَيُّنَ. ثُمَّ يَدْخُلُ عليهِ. فعلى ذَلِكَ هذا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ قالَ عَبدُ اللهِ بْنُ مَسْعودٍ وعُمَرُ/ ١٢٥ ـ أ/ ﷺ المُلامَسَةُ ما دُونَ الجِماعِ، فَلَمْ يَدْخُلِ الجُنُبُ في هذه الآيةِ، وأوجَبا[5] عليهِ الغُسْلَ بِقَولِهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ وجَعَلا قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ [النِّساء: ٤٣] على مرورِ الجُنُبِ في المَسْجِدِ. ولمْ يَجْعَلاهُ[6] على أنَّهُ يُصَلِّي إذا كَانَ مُسافِراً، ولَمْ يَجِدِ المَاءَ. فهذا الذي مُنِعَ عِندَ اللهِ أنْ يُطْلَقَ لِلْجُنُبِ أنْ يُصلِّيَ بالتَّيَمُّمِ على حالٍ.

فأمَّا عليٌّ وابنُ عباسٍ ﷺ فإنَّهُما جَعَلا اللَّمْسَ الذي ذَكَرَهُ اللهُ تعالى في هَذِهِ الآيةِ الجِماعَ، وقالا: كَنَى اللهُ تعالى عنِ الجِمَاعِ بالمَسِيسِ والغَشَيانِ والمُبَاشَرةِ. وجَعَلا[7] قولَ اللهِ تعالى: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ [النساء: ٤٣] في المُسافِرِ الذي لَمْ يَجِدِ المَاءَ، وهو جُنُبٌ.

وقد رُوِيَ عنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ أذِنَ لِلْجُنُبِ مِنَ الجِماعِ أنْ يَتَيَمَّمَ[8] إذا لَمْ يَجِدِ الماءَ، فكانَ ذَلِكَ حُجَّةً على مَنْعِ الجُنُبِ مِنَ التَّيَمُّمِ.

ثُمَّ قَولُ الشَّافِعِيِّ قولٌ ثَالِثٌ خارجٌ عنْ قَولِ الصَّحابَةِ والسَّلَفِ ﷺ لأنَّهُ يَزْعُمُ أنَّ اللَّمْسَ هوَ الجِماعُ وما دُونَهُ. فَذَلِكَ ابْتِداعٌ في الآيةِ قَولاً وتَفْسِيراً خالَفَ فيهِ ما رُوِيَ في تَفْسِيرِها عنِ الصحابَةِ [ﷺ][9] جُمْلَةً والسَّلَفِ. لذلكَ كانَ مُحيطاً.

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ الوُضوءَ، وأمَرَ بِهِ في الآيةِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ الآية، ولم يَذْكُرِ [الحَدَثَ، وأمَرَ][10] بالاغْتِسالِ مِنَ الجَنَابَةِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ ولمْ يَذْكُرْ مِنْ أيِّ جَنابَةٍ. ثُمَّ ذَكَرَ الحَدَثَ[11] في قولِهِ: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ فعَلَى ذلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ كانَ بَياناً لِما تقدَّمَ مِنَ الأمْرِ بالاغْتِسالِ مِنَ الجَنابَةِ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وجهان. (٣) في الأصل وم: تكفيرا. (٤) في الأصل وم: شكراً. (٥) في الأصل وم: وأوجبوا. (٦) في الأصل وم: يجعلوه. (٧) في الأصل وم: وجعل. (٨) في الأصل وم: يتيمموا. (٩) في الأصل ﷺ ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: الحديث وأمره. (١١) في الأصل وم: الحديث.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ قِيلَ: اقْصِدُوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. والصعيدُ هو وَجْهُ الأرضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿طَيِّبًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الطَّيِّبُ ما يُنْبِتُ مِنَ الزَّرْعِ وغيرِهِ. وقالَ آخَرُونَ: الطَّيِّبُ هَهُنا هو الطاهِرُ.

رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ [أنَّهُ][1] قال: «جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسْجِداً وطَهُوراً، أينما أدركَتْني الصَّلاةُ تَيَمَّمْتُ وصَلَّيتُ» [البخاري: ٣٣٥] أخبَرَ أنَّ الأرضَ جُعِلَتْ[2] لَهُ مَسْجِداً وطَهُوراً. فَكانَ قولُهُ: «طَهُوراً» تَفْسِيراً لِقَولِهِ تعالى: ﴿طَيِّبًا﴾ واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنَّ التَّيَمُّمَ ضَرْبَتانِ: ضَرْبَةٌ لِلْوَجْهِ وضَرْبَةٌ لِلْيَدَيْنِ إلى المِرْفَقَيْنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجْهَيْنِ:

يَحْتَمِلُ ما يُرِيدُ أنْ يُضَيِّقَ عليكُمْ لِيَأْمُرَكُمْ بِحَمْلِ الماءِ إلى حَيْثُ ما كُنْتُمْ في الأسْفارِ وغَيْرِهِ. ولكنْ جَعَلَ لَكُمُ التَّيَمُّمَ، ورَخَّصَ لَكُمْ أنْ تُؤَدُّوا ما فَرَضَ عليكُمْ بِهِ، ولم يُكَلِّفْكُمْ حَمْلَ الماءِ في الأسْفارِ وغَيْرِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

ووجْهٌ آخَرُ: ما أرادَ اللهُ بِما تَعَبَّدَكُمْ مِنْ أنْواعِ العِباداتِ أنْ يَجْعَلَ ﴿عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ ولكِنْ أرادَ ما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ بالتوحيدِ والإيمانِ بِهِ وبالرُّسُلِ[3] جَمِيعاً. ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ مِنَ الذنوبِ والآثامِ التي ارْتَكَبُوها كقَوْلِهِ تعالى: ﴿الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] ويَحْتَمِلُ التَّطْهِيرَ مِنَ الأحْداثِ والجَناباتِ كما قالَ أهلُ التَّأويلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ تَمامُ ما ذَكَرْنا مِنَ التوحيدِ والإيمانِ والهِدايَةِ لِدِينِهِ والتَّكْفِيرِ مِمَّا ارْتَكَبُوا. ويَجُوزُ أنْ يَكُونَ هذا في قومٍ عَلِمَ اللهُ أنَّهُمْ يَمُوتُونَ على الإيمانِ حِينَ أخْبَرَ أنَّهُ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيهِمْ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أمْرٌ، واللهُ أعْلَمُ، بِشُكْرِ ما أنْعَمَ عليهِمْ مِنْ أنْواعِ النِّعَمِ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم﴾ يَحْتَمِلُ المِيثاقُ مِيثاقَ الخِلْقَةِ[5] وشَهادَتَها، إذْ خِلْقَةُ كُلِّ أحدٍ تَشْهَدُ على وحْدانِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ، ويَحْتَمِلُ المِيثاقُ الذي ذَكَرَ قولَ ما قالُوهُ، وقَبِلُوا ما دُعُوا إلَيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: أجَبْنا دَعْوَتَكَ، وأطَعْنا أمْرَكَ. وقالَ آخَرُونَ: سَمِعْنا قولَكَ، وأطَعْنا أمْرَكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في تَرْكِ ما أمَرَكُمْ رَبُّكُمْ وارتِكابِ ما نَهاكُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وهو على الوعِيدِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ الآية. يَحْتَمِلُ أنْ تَكُونَ الآيةُ في الشَّهادَةِ نَفْسِها، كأنَّهُ قالَ كُونُوا[6] شُهَداءَ للهِ، واجْعَلُوا الشَّهادَةَ لَهُ. فإذا فَعَلُوا هذا لا يَمْنَعُهُمْ بُغْضُ أحدٍ وولايَتُهُ القِيامَ بِها. نَدَبَهُمُ اللهُ أنْ يَقُولُوا في الشَّهادَةِ للهِ والحُكْمِ لَهُ؛ يَحْكُمُ لِلْعَدُوِّ كما يَقُومُ لِلْوَلِيِّ، واللهُ أعْلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تَكُونَ في بَيانِ الحَقِّ والحُجَجِ وتَعْلِيمِ الأحْكامِ والشَّرائِعِ؛ كأنَّهُ يَقُولُ، واللهُ أعْلَمُ، قُومُوا في بَيانِ الحُجَجِ والحَقِّ وتَعْلِيمِ الأحْكامِ للهِ، لا يَمْنَعْكُمْ بُغْضُ قَومٍ ولا رِضاهُمْ على ألّا تُبَيِّنُوا الحَقَّ لَهُمْ، ولا تُعَلِّمُوا الحُجَجَ والأحْكامَ لَهُمْ إشارةً إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنَّهُ][7] قالَ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي ولا يَحْمِلَنَّكُمْ ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ أي بُغْضُ قَومٍ ﴿عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ فِيهِمْ. فإنَّما العَدْلُ للهِ في الرِّضا والسُّخْطِ ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ يَقُولُ: قُولُوا العَدْلَ بالحَقِّ فإنَّهُ ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: جعل. (٣) الواو ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. (٦) في الأصل وم: قوموا. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ أي اعدِلُوا هو التَّقوى كقَولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] لأنَّ العَدْلَ لَيسَ إلّا التَّقوى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ في تَرْكِ ما أمَرَكُمْ بِهِ وارْتِكابِ ما نَهاكُمْ عَنْهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وتُضمِرُونَ مِنَ العَدْلِ والجَوْرِ. خَرَجَ على الوعيدِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: هذِهِ الآيَةُ هِيَ صِلَةُ ما تَقَدَّمَ في قولِهِ ﷻ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرْنا. فإذا فَعَلُوا وقامُوا في الشَّهادَةِ والعَدْلِ في الحُكْمِ كانَ لَهُمْ ما ذَكَرَ مِنَ الوَعْدِ، واللهُ أعْلَمُ.

ولكنْ يَحتَمِلُ على الإبْتِداءِ، واللهُ أعْلَمُ؛ كأنَّهُ قالَ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وَعداً، ثُمَّ بَيَّنَ ما في ذَلِكَ الوَعْدِ، فقالَ: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾؛ يَستُرُ على ذُنُوبِهِمْ، ويَتَجاوَزُ عنها ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ الجَنَّةُ. قالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ في الدنيا لِذُنُوبِهِمْ ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ في الآخِرَةِ الجَنَّةُ، وهوَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ قيلَ: ﴿كَفَرُواْ﴾ بِآياتِ اللهِ ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ بِآياتِهِ؛ يَعْني مُحَمَّداً ﷺ والقرآنَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وقيلَ: ﴿كَفَرُواْ﴾ بِتَوحِيدِ اللهِ ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بِالقُرآنِ بِأنَّهُ لَيسَ مِنَ اللهِ تعالى، وهُمَا واحِدٌ. وهذا يَدُلُّ أنَّ الآيَةَ على الإبْتِداءِ. [خَرَجَتْ لَيسَتْ][1] على الصِّلَةِ على ما قالُوا.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾ يَحتَمِلُ أنْ تكونَ هذِهِ النِّعْمةُ[2] التي ذَكَرَ اللهُ تعالى في هذِهِ الآيَةِ مِنْ كَفِّ الأعداءِ عَنْهُمْ بَعْدَ ما بَسَطُوا إليهِمْ أيدِيَهُمْ في جُملَةِ المؤمِنِينَ لأنَّ المُؤمِنِينَ كانُوا في ابْتِداءِ الأمْرِ مُختَفِينَ ما بَينَ الكَفَرَةِ؛ لا يَقدِرُونَ على إظْهارِ الإسْلامِ وإعلانِهِ، وقدْ هَمُّوا بِقَتْلِ المُؤمِنِينَ غَيرَ مَرَّةٍ. وفي ما كَفَّ ﴿أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾ مِنَّةٌ عَظِيمَةٌ عَلَينا وعلى جَمِيعِ المُسلِمِينَ. ويَحتَمِلُ أنْ يكُونَ في قومٍ خاصٍّ؛ قد أحاطُوا بِهِمْ، وبَسَطُوا أيدِيَهُمْ إلَيهِمْ، وهَمُّوا بِقَتلِهِمْ، فَكَفَّ اللهُ ﷻ بِفَضْلِهِ أيديَهُمْ عَنْهُمْ ومَنَعَ[3] أيدِيَهُمْ.

ثُمَّ اختُلِفَ فيهِ: عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنَّهُ][4] قالَ: هُمْ بَنُو قُرَيظَةَ، وبَسَطُوا أيدِيَهُمْ بِالقَتْلِ، فَكَفَّ اللهُ تعالى/ ١٢٥ ـ ب/ أيدِيَهُمْ عنهُمْ بِالمَنْعِ.

وقيلَ: نَزَلَتْ في اليَهُودِ؛ دَخَلَ النَّبيُّ ﷺ حائِطاً لَهُمْ في النَّخْلِ، وأصحابُهُ وراءَ الجِدارِ، واستَعانَهُمْ في مَغْرَمِ دِيَةٍ غَرِمَها، ثُمَّ قامَ مِنْ عِندِهِمْ، فائْتَمَرُوا بَيْنَهُمْ بِقَتْلِهِ، فَخَرَجَ يَمشي القَهْقَرَى مُعتَرِضاً يَنْظُرُ مِنْ خِيفَتِهِمْ، ثُمَّ دَعا أصحابَهُ ﷺ إلَيهِ رَجُلاً رَجُلاً حتّى تَناهَوا إلَيهِ. فَلا نَدْرِي كيفَ ما كانَتِ القِصَّةُ؟ وليسَ لنا في مَعْرِفَةِ القِصَّةِ حاجَةٌ بَعْدَ أنْ نَعْرِفَ مِنَّةَ اللهِ التي مَنَّ علينا بِكَفِّ الأعداءِ عَنْهُمْ، ونَشْكُرُ لَهُ على ذَلِكَ.

وفي هذِهِ الآيَةِ دَلالَةُ إثْباتِ رِسالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لأنَّهُ أخْبَرَ عَمّا كانَ مِنْهُمْ مِنْ غَيرِ أنْ يَشْهَدَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أنَّهُ بِاللهِ عَلِمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي على اللهِ يَتَّكِلُ المُؤمِنُ في كُلِّ أمْرِهِ، وبِهِ يَثِقُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾ هذا، واللهُ أعْلَمُ، تَعْليمٌ مِنَ اللهِ تعالى هذِهِ الأمَّةَ وإنباءٌ مِنْهُ أنَّهُ قدْ أخَذَ العُهُودَ والمَواثِيقَ على الأُمَمِ السالِفَةِ كَما أخَذَ مِنكُمْ لأنَّهُ ذَكَرَ أنَّهُ قدْ أخَذَ مِنْ هَؤلاءِ المِيثاقَ بِقَولِهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ الآيةَ [المائدة: ٧] ثُمَّ أعْلَمَهُمْ بِما وَعَدَ لَهُمُ الثوابَ إنْ وَفَوا بِتِلْكَ العُهُودِ والمَواثِيقِ التي أُخِذَتْ عليهِمْ وبِما أوْعَدَ لَهُمْ مِنَ العِقابِ إنْ نَقَضُوا العُهُودَ التي أَخَذَ عليهِمْ لِيَكُونُوا على حَذَرٍ مِنْ نَقْضِها ولِيُقِيمُوا على وفائِها: أنْ[5] يُقالَ: إنَّما ذَكَرَ ما أَخَذَ على أولَئِكَ مِنَ العُهُودِ والمَواثِيقِ لِيَكُونَ ذَلِكَ آيَةً مِنْ آياتِ رِسالَةِ نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ لأنَّهُ إخبارٌ عَنِ الأُمَمِ السالِفَةِ، وهوَ لَمْ يَشْهَدْها، ولا حَضَرَها، لِيَعْلَمُوا أنَّهُ إنَّما عَلِمَ ذَلِكَ بِاللهِ.

---

(١) في الأصل وم: خرج ليس. (٢) في الأصل وم: المنة. (٣) في الأصل وم: ومن. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: و.

ثُمَّ تَحتَمِلُ تِلْكَ العُهُودُ والمَواثِيقُ التي أُخِذَتْ عَلَيهِمْ ما ذَكَرَ على إِثْرِهَا وسِياقِهَا، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

ويَحتَمِلُ ما قالَ ابْنُ عَباسٍ [وهوَ إِحلالُ ما][(١)] أَحَلَّ اللهُ وتَحريمُ ما حَرَّمَ اللهُ وحُسْنُ مُوازَرَتِهِمْ، ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ﴾ يعني مَلِكاً، وهُمُ الذينَ بَعَثَهُمْ موسى إلى بَيتِ المَقْدِسِ لِيَعلَمُوا لَهُ عِلْمَها.

ويَحتَمِلُ أنْ يَكُونُوا[(٢)] اختارُوا مِنْ بَيْنِهِمْ أولئِكَ، فَسألُوا موسى أنْ يَجعَلَهُمْ عليهِمْ قُدْوَةً يَقتَدُونَ بِهِمْ، ويُعَلِّمُونَهُمُ الدِّينَ والأحكامَ، ويَأْخُذَ عليهِمُ المَواثِيقَ والعُهُودَ، واللهُ أعْلَمُ.

ثُمَّ اخْتُلِفَ في النَّقِيبِ؛ قالَ بعضُهم: النَّقِيبُ هو المَلِكُ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه وقالَ أبو عَوسَجَةَ: النَّقِيبُ هو المَنْظُورُ إِلَيهِ والمَصْدُورُ عن رأيِهِ، وهوَ مِنْ وُجُوهِ القَومِ، وجَمْعُهُ النُّقَباءُ مِثْلُ العُرَفاءِ. وقالَ أبو عُبَيدٍ: النَّقِيبُ الأميرُ والضامِنُ على القومِ. وقالَ الكِسائيُّ والفَرّاءُ: يُقالُ مِنْهُ: نَقِيبٌ، عليهِ أَنْقَبَ، نِقابَةً، وهوَ فوقَ العَرِيفِ، ويُقالُ[(٣)] مِنَ العَرِيفِ: عَرَفْتُ عليهِم عَرافَةً، وهُمُ النُّقَباءُ والعُرَفاءُ والمَناكِبُ، واحِدُهُمْ مَنْكَبٌ، وهُمْ كالعَونِ يَكُونُ مَعَ العَرِيفِ. وقالَ القُتَبِيُّ: الكَفِيلُ على القَومِ، والنِّقابَةُ والنِّكابَةُ شَبِيهَتانِ[(٤)] بالعَرافَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: قالَ للنُّقَباءِ ﴿إِنِّي مَعَكُمْۖ﴾ في النَّصْرِ والدَّفْعِ عنكُمْ ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، وهوَ قولُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه ويَحتَمِلُ أنْ يَكُونَ هذا الوَعدُ لِكُلِّ مَنْ قامَ بِوَفاءِ ذَلِكَ [مِنَ][(٥)] النُّقَباءِ وغَيرِ النُّقَباءِ، وما ذَكَرَ مِنَ الوَعِيدِ في الآيةِ التي هي على إِثْرِ هذهِ على كُلِّ مَنْ نَقَضَ ذَلِكَ العَهْدَ النَّقِيبُ وغَيرُ النَّقِيبِ.

ثُمَّ قولُهُ تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يَحتَمِلُ وجْهَينِ:

يَحتَمِلُ أنَّهُ أرادَ بالصَّلاةِ الخُضوعَ والثَّناءَ لَهُ وبالزَّكاةِ تَزكِيَةَ النَّفْسِ وطَهارَتَها، وذَلِكَ في الفِعْلِ؛ على كُلِّ أحَدٍ القِيامُ بِهِ في كُلِّ وقْتٍ.

ويَحتَمِلُ أنْ يَكُونَ أرادَ بِالصَّلاةِ المَعْرُوفَةَ المَعْهُودَةَ والزَّكاةِ المَعْرُوفَةَ. فَفِيهِ دَلِيلُ وُجوبِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ على الأُمَمِ السالِفَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ يَحتَمِلُ أنْ تُؤمِنُوا بِرُسُلِي جَمِيعاً، ولا تُفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ: أنْ تَكْفُرُوا بِبَعْضٍ، وتُؤمِنُوا بِبَعْضٍ كَقَولِهِمْ: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠] ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ قالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ، قالا: وعَظَّمْتُمُوهُمْ، والتَّعْزِيرُ التَّعْظِيمُ. وقالَ بَعضُهُم: نَصَرْتُمُوهُمْ.

وعَنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنَّهُ][(٦)] قالَ ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أَعَنْتُمُوهُمْ؛ يَعني الأنبياءَ عليهم السلام.

[وقولُهُ تعالى][(٧)]: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [أي صادِقاً مِنْ كُلِّ أنفُسِكُمْ [ابْتَغَيْتُمْ بِهِ][(٨)] وَجْهَ اللهِ. وقالَ بَعضُهُمْ: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾][(٩)] أي مُحْتَسِباً، طَيِّبَةً [بِهِ أنْفُسُكُمْ][(١٠)]. ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي جَعَلْتُمْ[(١١)] عِنْدَ اللهِ أنفُسَكُمْ أيادِيَ ومَحاسِنَ؛ تَسْتَوجِبُونَ بِذَلِكَ الثَّوابَ الجَزِيلَ.

وقولُهُ[(١٢)] تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُۚ﴾ وَعْدٌ لَهُمْ بِتَكْفِيرِ[(١٣)] ما ارْتَكَبُوا مِنَ المَآثِمِ إذا قامُوا بِوَفاءِ ما أخَذَ اللهُ عليهِمْ مِنَ المَواثِيقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يكون. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم شبيه. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الاصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: ابتغى بها. (٩) ساقطة من م. (١٠) في الأصل وم: بها نفسا. (١١) في الأصل وم: اجعلوا. (١٢) في الأصل وم: ثم قال. (١٣) في الأصل وم: وتكفير.

جنة السنة

ذَٰلِكَ﴾ أي بَعْدَ المَواثِيقِ والعُهُودِ التي أخذَ علَيهِمْ. ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي مَنْ كَفَرَ ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي أخطأ سَواءَ السَّبِيلِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي فَبِنَقْضِهِمْ: قيلَ: ما زائدةٌ؛ فَبِنَقْضِهِمْ ﴿مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ يَحتَمِلُ ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ أي طَرَدْناهُمْ. والمَلْعُونُ هو المَطْرُودُ عنْ كُلِّ خَيرٍ. ويَحتَمِلُ ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ أي دَعَونا عليهِمْ باللَّعنِ، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ بما نُزِعَ منها الرَّحمَةُ والرَّأفَةُ إذا نقَضُوا العُهُودَ، وتَرَكُوا أمرَ اللهِ لأنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ أنهُ جعَلَ في قُلُوبِ الذينَ اتَّبَعُوا أمرَ اللهِ، وأطاعُوا رَسُولَهُ، الرَّحمَةَ(1) والرَّأفةَ بِقَولِهِ تعالى ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧] فَإذا نُزِعَتِ الرَّحمَةُ صارَتْ ﴿قَٰسِيَةً﴾(2) يابِسَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يَكُونُوا يُغَيِّرُونَ تَأويلَهُ، ويَقُولُونَ: هَذا مِنْ عِندِ اللهِ، ويَحتَمِلُ التَّحرِيفُ تَحرِيفَ النَّظْمِ والمَتْلُوِّ؛ [يَمحُونَهُ، ويَكتُبُونَ](3) غَيرَهُ ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ قِيلَ: ضَيَّعُوا كِتابَ اللهِ بَيْنَ أظهُرِهِمْ، ونَقَضُوا عَهْدَهُ الذي عَهِدَ إليهِمْ، وتَرَكُوا أمْرَهُ.

وقَولُهُ تعالى: ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي وُعِظُوا بِهِ، وقِيلَ: تَرَكُوا نَصيباً مِمَّا أُمِرُوا بِهِ في كِتابِهِمْ مِنَ اتِّباعِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ إخبارٌ عَنْ تَمَرُّدِهِمْ في المُعانَدَةِ وكَونِهِمْ في الخِيانَةِ وإياسٍ مِن إيمانِهِمْ. ثُمَّ استَثنَى، فَقالَ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهمُ الذينَ أسلَمُوا مِنهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ ولا تُكافِئْهُمْ لِما آذَوْكَ. ثُمَّ قالَ بَعْضُهُمْ: هو مَنسُوخٌ بِآيَةِ القِتالِ في سُورَةِ [﴿بَرَآءَةٌ﴾](4) وهوَ قولُهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [الآية: ٢٩]. ويَحتَمِلُ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ إلى أنْ تُؤمَرَ بِالقِتالِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ أي كُونُوا أنصارَ اللهِ، فَقالُوا: بَلْ نَكُونُ نَصارَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ ما مِنْ أحَدٍ إلا وقد أخَذَ اللهُ ﷻ علَيهِ العَهْدَ والمِيثاقَ. وقدْ أخذَ المِيثاقَ على المُؤمِنِينَ بِقَولِهِ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ الآيةَ [المائدة: ٧] وأخذَ المِيثاقَ على اليَهُودِ بِقَولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآيةَ [المائدة: ١٢]. وأخبَرَ أيضاً أنَّهُ قَدْ أخذَ المِيثاقَ على النَّصارَى في هذهِ الآيةِ بِقَولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ وقد تَقَدَّمَ ذِكْرُ المِيثاقِ ومعناهُ في غَيرِ مَوضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجهَينِ:

يَحتَمِلُ أي تَرَكُوا حَظَّهُمْ ممّا أُمِرُوا بِهِ مِنْ توحيدِ اللهِ والإيمانِ بالرُّسُلِ كُلِّهِمْ والتَّمَسُّكِ(5) بِكِتابِ/ ١٢٦ ـ أ/ اللهِ تعالى والوفاءِ بالعُهُودِ التي عُهِدَتْ(6) إلَيهِمْ، فَتَرَكُوا ذلِكَ كُلَّهُ، وضَيَّعُوا.

ويَحتَمِلُ ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي لَمْ يَحفَظُوا ما وُعِظُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قِيلَ:

أغرَيْنا ألقَيْنا ﴿بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ قالَ الحسَنُ: مِنْ حِكَمِ اللهِ تعالى أنْ يُلْقِيَ بَيْنَهُمُ العَداوَةَ والبَغْضاءَ، ويَجعَلَ(7) قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً، ومِنْ حِكَمِهِ أنْ يَكُونَ بينَ المُسلِمِينَ رَأفَةٌ ورَحمَةٌ.

وقالَ بَعضُ المُعتَزِلَةِ: قولُهُ تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ أي خَذَلْناهُمْ، وتَرَكْناهُمْ. لكِنَّ هذا كُلَّهُ مِنهُمْ احتِيالٌ وفِرارٌ عمَّا يَلزَمُهُمْ مِنْ سُوءِ القَولِ وقُبْحِهِ، فَيُقالُ لَهُمْ: إنْ شِئتُمْ جَعَلْتُمْ خِذلاناً، وإنْ شِئتُمْ تَركاً جَعَلْتُمْ(8) ما شِئتُمْ.

---

(1) في الأصل وم: والرحمة. (2) في الأصل: قَسِيَّةً وهي قراءة حمزة، انظر حجة القراءات ص (٢٢٣). (3) في الأصل وم: ومحوه ويكتسبون.
(4) ساقطة من الأصل وم. (5) في الأصل وم: وتمسك. (6) في الاصل وم: عهد. (7) الواو ساقطة من الأصل وم. (8) في الأصل وم: جعلوا.

ولكنْ هل كانَ مِنَ اللهِ في ذَلِكَ صُنْعٌ، أو أضافَ ذَلِكَ إلى نَفْسِهِ؟ ولا فِعْلَ لَهُ في ذَلِكَ، ولا صُنْعَ لَهُ في ذَلِكَ. وذَلِكَ الحَرفُ على غَيرِ إثْبَاتِ الفِعْلِ فِيهِ أو شيءٍ حَرْفِ ذَمٍّ، لا يَجُوزُ أنْ يُضِيفَ ذَلِكَ إلى نَفْسِهِ، ولا فِعْلَ لَهُ في ذَلِكَ ولا صُنْعَ، فَدَلَّ أنَّ[1] لَهُ فِيهِ صُنعاً، وهوَ ما ذَكَرْنا: أنْ خَلَقَ ذَلِكَ مِنْهُمْ. وكَذَلِكَ في ما أضافَ إلى نَفْسِهِ [مِنْ جَعْلِ][2] الرأفَةِ والرَّحْمَةِ في قُلوبِ المؤمِنينَ. فلو لمْ يَكُنْ لهُ في ذَلِكَ صُنْعٌ لكانَ لا يُضِيفُ ذَلِكَ إلى نَفْسِهِ، وذَلِكَ الحَرْفُ حَرْفُ الحَمْدِ والمَدْحِ.

فَدَلَّ أنَّ لَهُ فيهِ صُنعاً، وهو أنْ خَلَقَ الرَّأفَةَ والرَّحْمَةَ في قلوبِ المؤمِنينَ وخَلَقَ القَساوَةَ والعَداوَةَ في قُلُوبِ أولَئِكَ الكَفَرَةِ، وباللهِ التَّوفِيقُ.

وفي الآيَةِ دَلالَةُ إثْبَاتِ رِسالَةِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ لأنَّهُ أخبَرَ أنَّهُ ألقى ﴿بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وأخبرَ ألا ﴿تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] وكانَ كما قالَ على عِلْمٍ مِنهُمْ أنَّهُ لا [يَزالُ][3] يَطَّلِعُ على ما في قُلُوبِهِمْ مِنَ الخِيانَةِ والقَساوَةِ وغَيرِ ذَلِكَ مِنَ الأمُورِ. فَدَلَّ أنَّهُ باللهِ عَلِمَ ذَلِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ﴾ في الآخِرةِ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ في الدنيا، وهوَ قولُ ابْنِ عباسٍ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الآية. قالَ ﷻ: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ ولَمْ يَقُلْ: فلانُ بْنُ فُلانٍ لِيَعْلَمَ أنَّ الرُّسُلَ، عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، لَيسُوا يُعرَفُونَ بالأسَامِي والأنسابِ، ولكنْ إنَّما يُعرَفُونَ بالآياتِ المُعجِزَةِ والبَراهِينِ النَّيِّرَةِ.

وفِيهِ دَلِيلٌ أنَّ مَنْ آمَنَ بالرُّسُلِ، ولَمْ يَعرِفْ بِأسْمائِهِمْ إنَّما[4] يَكُونُ مُؤمِناً. ولَمْ يُؤخَذْ علينا مَعرِفَةُ أسامِي الرُّسُلِ، إنَّما أُخِذَ عَلَينا الإيمانُ بِهِمْ جُملَةً. ألا تَرى أنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يَذْكُرْ في الكِتابِ الأنبياءَ والرُّسُلَ جَميعاً واحِداً فَواحِداً، ولا ذَكَرَ أسْماءَهُمْ؟ إنَّما ذَكَرَ بَعضاً مِنهُمْ. أفَتَرى أنَّ مَنْ لَمْ يَعرِفْ أسْماءَهُمْ لَمْ يَكُنْ مؤمِناً؟ هذا بَعِيدٌ.

وفِيهِ دَلالَةُ إثْبَاتِ رِسالَةِ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ لأنَّهُ قالَ: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وهُمْ إذْنَ كَتَمُوا ذَلِكَ، وأخفَوهُ [أعْنِي الرؤساءَ، فَلَمْ يُخبِرُوا واحِداً أنَّهُمْ كَتَمُوا ذَلِكَ، وأخفَوهُ][5] حتّى يَبْلُغَ الخَبَرُ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ ولا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اخْتَلَفَ إلى أحَدٍ مِنهُمْ، أو أنْظَرَ في كِتابِهِمْ قَطُّ لِيَعْلَمَ ما كَتَمُوا. فَلَمَّا بَيَّنَ لهُمْ ما قد كَتَمُوا، وأخفَوا عَنِ[6] النَّاسِ، دَلَّ ذَلِكَ لَهُمْ أنَّهُ إنَّما عَلِمَ ذَلِكَ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِهِ وقِراءَتِهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: نُبَيِّنُ بالنونِ ونَعْفُو، كَثِيراً أي اللهُ يُبَيِّنُ لَهُمْ كَثِيراً [مِمَّا يُخفُونَ مِنَ الكِتابِ][7] ويَعفُو [اللهُ تعالى][8] عَن كَثِيرٍ إذا آمَنُوا، ورَجَعُوا عَمَّا كانُوا يُخفُونَ، ويَكْتُمُونَ[9].

وقالَ آخَرُونَ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ أي جَمِيعَ ما كانُوا يُخفُونَ، ويَعفُو عَن جَمِيعِ ذَلِكَ.

وأمَّا عِنْدَنا فَقَولُهُ: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ بالياءِ أي رَسُولُ اللهِ يُبَيِّنُ لَهُمْ كَثِيراً ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ على قَدْرِ ما أذِنَ لَهُ البيانُ لَهُمْ لأنَّ الرُّسُلَ إنما يأتُونَ بالبَراهِينِ والحُجَجِ على قَدْرِ ما أُذِنَ لَهُمْ مِنَ الآياتِ. ألا تَرَى أنَّ سَحَرَةَ فِرْعَونَ لَمَّا ألقَوا ﴿حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ [الشعراء: ٤٤] فَصارَت حَيَّاتٍ، ولَمْ يُلْقِ مُوسى عَصاهُ حتّى أَذِنَ اللهُ لَهُ في ذَلِكَ، وهُوَ قَولُهُ تعالى ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧] إنَّما أتى بالآيَةِ بعْدَما أذِنَ لَهُ بِذلِكَ؟ فَعلى ذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا﴾ إنما يُبَيِّنُ على[10] قَدْرِ ما أُذِنَ لَهُ بالبَيانِ والحُجَّةِ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أنه. (٢) من م، في الأصل: ولا فعل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أنه. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: من. (٧) في الأصل: ما يخفون، في م: مما كنتم تخفون. (٨) ساقطة من م. (٩) لم أعثر على هذه القراءة وقارنها.
(١٠) في الأصل وم: أن.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مِنَ الشَّرائِعِ والأحْكامِ، ويَحْتَمِلُ: كَتَمُوا ما في الكِتابِ مِنْ بَعْثِ[1] مُحمدٍ ﷺ وصِفَتِهِ الكَرِيمَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ هُوَ القُرآنُ؛ سَمَّاهُ نوراً لِما يُوضِحُ، ويُضِيءُ كُلَّ شَيءٍ على ما هُوَ عَلَيهِ حَقِيقَتُهُ. وعلى ذَلِكَ يَخْرُجُ قَوْلُهُ ﷻ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ [النور: ٣٥] أي بِهِ يَتَّضِحُ كُلُّ شَيءٍ على ما هوَ عليهِ في الحَقِيقَةِ، وبِاللهِ التَّوفيقُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: ﴿يَهْدِى بِهِ﴾ أي اللهُ بِمُحمدٍ[2] ﷺ ويَحْتَمِلُ بِالقُرآنِ، أي يَهْدِي اللهُ ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ يَحْتَمِلُ رِضاهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾: ﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ قِيلَ: هوَ اللهُ كَقَولِهِ تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ الآيةَ [الحشر: ٢٣] أي بِهِ يَهْدِي ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ سَمَّى سُبُلاً لأنَّ سَبِيلَ اللهِ، وإنْ كانَ كَثِيراً في الظاهِرِ فَهُوَ في الحَقِيقَةِ واحِدٌ. وسَمَّى سَبِيلَ الشَّيطانِ سُبُلاً، وقالَ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ الآيةَ [الأنعام: ١٥٣] لأنَّ سُبُلَهُ مُتَفَرِّقَةٌ مُخْتَلِفَةٌ لَيْسَتْ تَرجِعُ إلى واحِدٍ. وأمّا سَبِيلُ اللهِ، وإنْ كانَ[3] سُبُلاً في الظاهِرِ فَهِيَ[4] تَرجِعُ إلى واحِدٍ، وهُوَ الهُدَى والصِّراطُ المُسْتَقِيمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ كَفَرُوا كُفْرَ مُكابَرَةٍ ومُعانَدَةٍ لا كُفْرَ شُبْهَةٍ وجَهْلٍ لأنَّهُمْ أقَرُّوا أنَّهُ ابنُ مَرْيَمَ، ثُمَّ يَقُولُونَ: إنَّهُ إلهٌ، فإذا كانَ هُوَ ابنُ مَرْيَمَ، وأُمُّهُ أكْبَرُ مِنْهُ، فَمِنَ البَعِيدِ أنْ يَكُونَ مَنْ هُوَ أصْغَرُ مِنْهُ إلهاً لِمَنْ هُوَ أكْبَرُ مِنْهُ ورَبًّا، وإلّا الكُفْرُ قَدْ يَكُونُ بِدُونِ ذَلِكَ القَولِ. لَكنَّ التَّأويلَ هُوَ ما ذَكَرْنا أنَّهُمْ كَفَرُوا مُعانَدَةً ومُكابَرَةً مَعَ إقْرارِهِمْ أنَّهُ ابنُ مَرْيَمَ حِينَ جَعَلُوا الأصْغَرَ إلَهَ الأكْبَرِ ورَبًّا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي لا أحَدَ يَمْلِكُ مِنْ دُونِ اللهِ شيئاً إنْ أرادَ إهْلاكَ المَسِيحِ وأُمِّهِ[5]، أي لو كانَ إلهاً كما تَقُولُونَ لَكانَ يَمْلِكُ دَفْعَ الإهْلاكِ عَنْ نَفْسِهِ وعن أُمِّهِ ومَنْ عَبَدَهُمْ[6] في الأرضِ.

وَقِيلَ: ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾ أنْ يَمْنَعَ ﴿مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ مِن عَذابِهِ ﴿أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ﴾ بِعَذابٍ ﴿وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بِعَذابٍ أو مَوتٍ، وهُما واحِدٌ.

ثُمَّ عَظَّمَ نَفْسَهُ عَنْ قَولِهِمْ، ونَزَّهَها حِينَ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ فَقالَ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كُلُّهُمْ عَبِيدُهُ وإماؤُهُ، يَخْلُقُ مِنْ بَشَرٍ وغَيرِ بَشَرٍ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادِرٌ على خَلْقِ الخَلْقِ مِنْ بَشَرٍ ومِنْ غَيرِ بَشَرٍ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ الآيةَ. يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ هَذا القَولُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الفَرِيقَينِ جَمِيعاً، ولَكِنْ ما كانَ مِنْ أحَدِ الفَرِيقَينِ هذا، ومِنَ الفَرِيقِ[7] الآخَرِ غَيرُهُ، وكانَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] كأنَّ هذا القَولَ كانَ [مِنْ][8] كُلِّ فَرِيقٍ نَفَى دُخُولَ الفَرِيقِ الآخَرِ الجَنَّةَ لا أنْ قالوا جَمِيعاً ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾.

ويَحْتَمِلُ[9] أنْ كانَ مِنَ النَّصارَى ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ﴾ لِما ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ عِيسى، على نَبِيِّنا وعليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، قالَ لِقَومِهِ: «أدْعُوكُمْ إلى أبي وأبِيكُمُ الذي في السماءِ» فَقالُوا عِنْدَ ذَلِكَ ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ﴾ وكانَ مِنَ اليَهُودِ [قَولُهُمْ][10]: «نحنُ أحِباءُ اللهِ».

ويَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ هذا القَولُ كُلُّهُ مِنْهُمْ[11] جَمِيعاً؛ قالَ كُلُّ واحِدٍ مِنَ الفَرِيقَينِ ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾.

---

(١) في الأصل وم: نعت. (٢) في الأصل وم: محمد. (٣) في الأصل وم: كانت. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) أدرج في الأصل وم بعدها: الآية. (٦) في الأصل وم: عبدهما. (٧) في الأصل وم: الفريقين. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: منهما.

جنة السنة

وقيلَ: إنّهُمْ قالُوا ذٰلِكَ فِي المَنْزِلَةِ/ ١٢٦ ـ ب/ والقَدْرِ عِنْدَ اللهِ تعالى؛ أي لَهُمْ عِنْدَ اللهِ مِنَ المَنْزِلَةِ والقَدْرِ كَقَدْرِ الوَلَدِ عِنْدَ والِدِهِ ومَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ، ولا يُعَذِّبُنا. فَقالَ: ﴿قُلْ﴾ يا مُحمدُ ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ إنْ كانَ ما تَقُولونَ حَقًّا، ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ حِينَ جَعَلَ القِرَدَةَ والخَنازِيرَ، ولا أَحَدَ مِنَ الخَلْقِ يَحْتَمِلُ قَلْبُهُ أنْ يَكُونَ وَلَدُهُ أو صَدِيقُهُ قِرْداً أو خِنْزِيراً. وقالَ: لا أحدَ يَحْتَمِلُ قَلْبُهُ تَعْذِيبَ وَلَدِهِ وحِبِّهِ بِذَنْبِهِ بالنارِ، وقَدْ أقْرَرْتُمْ أنَّكُمْ تُعَذَّبُونَ في الآخِرَةِ قَدْرَ ما عَبَدَ آباؤُكُمُ العِجْلَ.

ثُمَّ قالَ: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي مَنِ اتَّخَذَ وَلَداً وحِبًّا [فإنما يَتّخِذُهُ][1] مِنْ شَكْلِهِ وجِنْسِهِ فَاللهُ تعالى إنّما خَلَقَكُمْ مِنْ بَشَرٍ كَغَيْرِكُمْ[2] مِنَ الخَلْقِ، وأنْتُمْ وهُمْ في ذٰلِكَ سواءٌ، فَكَيْفَ خَصَصْتُمْ أنْفُسَكُمْ بِذٰلِكَ؟ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] دليلُ أنَّ مَنْ رَفَعَ أحداً مِنَ الرُّسُلِ فوقَ قَدْرِهِ [فهو][3] في الكُفْرِ كَمَنْ حَطَّ عَنْ قَدْرِهِ ومَرْتَبَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي مَنْ تابَ، وأسْلَمَ ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ مَنْ دامَ على الكُفْرِ، وماتَ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي كُلُّهُمْ عَبِيدُهُ وإماؤُهُ وخَلْقُهُ؛ يُعَظِّمُ نَفْسَهُ عَنْ قولِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ ولا أحدَ يَتَّخِذُ عَبْدَهُ وَلَداً ولا حِبّاً، فأنْتُمْ إذ أقْرَرْتُمْ أنَّكُمْ عَبِيدُهُ كيفَ ادَّعَيْتُمُ البُنُوَّةَ والمَحَبَّةَ؟ واللهُ أعْلَمُ.

وفي الآيَةِ دَلالَةُ رِسالَةِ نَبِيِّنا مُحمدٍ ﷺ لأنَّهُمْ قالُوا قَولاً في ما بَيْنَهُمْ، ثُمَّ أخْبَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذٰلِكَ لِيُعْلَمَ أنَّهُ إنَّما عَرَفَ ذٰلِكَ باللهِ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ مِنْ بَعْثِهِ[4] وصِفَتِهِ، وتُحَرِّفُونَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥] ويَحتَمِلُ: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ مِمَّا لَكُمْ وعَلَيْكُمْ مِنَ الأحْكامِ والشَّرائِعِ. ويَحْتَمِلُ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ مِمَّا كانَ عليهِ الأنبياءُ والرُّسُلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ قِيلَ: انْقِطاعٍ مِنَ الرُّسُلِ مِنْ لَدُنْ إسرائيلَ إلى عِيسَى ﷺ لأنَّهُ قِيلَ: إنَّهُ كانَ [رَسولاً على إثْرِ][5] رسولٍ، لَمْ يَكُنْ بَيْنَ رَسُولَيْنِ انْقِطاعٌ. فَأَخْبَرَ ﷻ أنَّهُ بَعَثَ مُحمداً ﷺ على حِينِ ﴿فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ لَيسَ على انْقِطاعٍ مِنْهُمْ، ولكِنْ على ضَعْفِ أُمُورِ الرُّسُلِ وآثارِهِمْ[6] مِنَ الفُتُورِ؛ يُقالُ: فَتَرَ يَفْتُرُ فُتُوراً. يُخْبِرُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّما بَعَثَ الرَّسُولَ بَعْدَما دَرَسَ آثارُ الرُّسُلِ، وضَعُفَتْ[7] ووقَعَ في ما بَيْنَهُمُ الاختِلافُ لِلضَّعْفِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ما ذَكَرَ ﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ يَقْطَعُ احْتِجاجَهُمْ بِذٰلِكَ، وإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ في الحَقِيقَةِ، وهو كما قالَ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وكَقَولِهِ: ﴿أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩] ﴿بَشِيرٌ﴾ بالجَنَّةِ لِمَنْ أطاعَ ﴿وَنَذِيرٌ﴾ بالنارِ لِمَنْ عَصاهُ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مِنْ بَعْثِ الرُّسُلِ على فَتْرَةٍ مِنْهُمْ وإحياءِ ما دَرَسَ مِنْ آثارِ الرُّسُلِ وما ضَعُفَ مِنْ رُسُومِهِمْ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ما ذَكَرَ مِنْ بَعْثِ الرُّسُلِ والأنبياءِ ﷺ على فَتْرَةٍ مِنْهُمْ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ، وهو قولُهُ: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ كأنَّهُ يقولُ: اشْكُرُوا نِعْمَتِيَ التي أنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ جَعْلِ الأنبياءِ فِيكُمْ، ولَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ لأُمَّةٍ[9] مِنَ الخَلْقِ، وجَعَلَكُمْ مُلُوكاً تُسْتَنْصَرُونَ مِنَ الأعداءِ لأنَّ المُلُوكَ في بَنِي إسرائيلَ هُمُ الذينَ كانُوا يَتَوَلَّوْنَ القِتالَ وأمْرَ الحَرْبِ مَعَ الأعْداءِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] فَأَخْبَرَ أنَّهُ جَعَلَ فِيهِمُ الأنبياءَ يُعَلِّمُونَهُمْ أُمُورَ الدُّنْيا والآخِرَةِ، ويَحْتاجُ غَيْرُهُمْ إلى مَعْرِفَةِ ذٰلِكَ؛ وإنَّما يَعْرِفُونَ ذٰلِكَ بِهِمْ، وجَعَلَ فِيهِمْ مُلُوكاً يَسْتَنْصِرُونَ مِنَ الأعْداءِ، ويَقْهَرُونَهُمْ، فَيَقَرُّونَ، ويَشْرُفُونَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ.

---

(١) في الأصل وم: أن يتخذ. (٢) في الأصل وم: كغيره. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: نعته. (٥) في الأصل: رسول على إثر، في م: رسول على. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وضعف. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: الآية.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يحتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ الأنبياءِ والمُلوكِ فيهِمْ. ويَحتَمِلُ ما رَزَقَهُمْ في التِّيهِ مِنَ المَنِّ والسَّلْوى وغيرِهِما[1] مِنَ النِّعَمِ. وقيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي جَعَلَكُمْ بِحَيثُ تَمْلِكونَ أنفُسَكُمْ، وكُنتُمْ قَبلَ ذَلِكَ يَستَعْبِدُكُمْ فِرْعَونُ، ويَتَّخِذُكُمْ خَوَلاً لِنَفسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قيلَ: قولُهُ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي كَتَبَ اللهُ عَلَيكُمْ قِتالَ أهلِ تِلْكَ الأرضِ لِيُسلِمُوا، وهوَ كَقَولِهِ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣والأنفال: ٣٩] يَعْني الكُفْرَ. فَعلى ذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قِتالَ أهلِها لِيُسلِمُوا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ أي عَلَيكُمْ، وهذا جائِزٌ في اللُّغَةِ كَقَولِهِ: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] أي فَعَلَيها. وقيلَ: قولُهُ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فَتحَها؛ أي إنْ أطَعتُمْ أمرَ اللهِ في ما أمَرَكُمْ بِهِ، وانْتَهَيتُمْ عَمّا نَهاكُمْ عَنهُ، وأجَبْتُمْ رَسولَهُ إلى ما دَعاكُمْ إليهِ؛ أي إذا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ يَفتَحُ اللهُ [لَكُمْ][2] تِلْكَ الأرضَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى﴾ قيلَ: الشّامُ، وقيلَ: غيرُها. ثُمَّ سَمّاها مَرَّةً مُقَدَّسَةً ومَرَّةً مُبارَكَةً، وهوَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١] بِكَثرَةِ الثِّمارِ والفَواكِهِ وسَعَةِ عَيشِها وكَثرَةِ رَيْعِها. ويَحتَمِلُ أنْ سَمّاها مُبارَكَةً لِما كانَتْ مَعْدِنَ العُبّادِ والزُّهّادِ مُنَزَّهَةً[3] عَنِ الشِّرْكِ وجَميعِ الفَواحِشِ والمَناكيرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، كِنايَةٌ عَنِ الرُّجوعِ عَنِ الدِّينِ وهوَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤] وإنَّما صارَ ذَلِكَ كِنايَةً عنِ الرُّجوعِ عَنِ الدِّينِ، واللهُ أعلَمُ، لِما ذَكَرْنا في أحَدِ التَّأويلَينِ أنَّهُ كتبَ عليهِمْ قِتالَ أهلِ تِلْكَ الأرضِ، فَتَرَكوا أمرَ اللهِ وطاعَتَهُ. ويَحتَمِلُ أنْ وَعَدَ اللهُ لَهُمْ فَتْحَ تِلْكَ الأرضِ، فَلَمْ يُصَدِّقُوا رَسولَهُ في ما أخبَرَ عَنِ اللهِ مِنَ الفَتحِ لَهُمْ، فَكَفَروا بِذَلِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾. يَحتَمِلُ أنْ يَكونَ ذَلِكَ لَهُمْ في الآخِرَةِ، ويَحتَمِلُ في الدُّنيا مُنْهَزِمينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ لا تَرجِعوا وَراءَكُمْ، ولكِنِ ادْخُلوها.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يَكونَ هذا، واللهُ أعلَمُ، لَمّا رَأوا فِرْعَونَ مَعَ قَومِهِ وكَثرَةِ جُنودِهِ مَعَ ادِّعاءِ ما ادَّعى مِنَ الرُّبوبِيَّةِ لِنَفسِهِ لَمْ يَقدِرْ على فَتحِ تِلْكَ الأرضِ، وعَجَزَ عَنْ غَلَبَةِ أهلِها وقَهرِهِمْ وجَعلِهِمْ تَحتَ يَدَيهِ رَأوا هؤلاءِ أنَّهُمْ[4] لا يَقدِرونَ على ذَلِكَ مَعَ ضَعْفِهِمْ في أنفُسِهِمْ وقِلَّةِ عَدَدِهِمْ وقُصورِ أسْبابِهِمْ؛ لِذَلِكَ امْتَنَعوا عَنِ الدُّخولِ فيها إلا بَعدَ خُروجِ مَنْ فيها مِنَ الجَبّارينَ عنها خَوفاً مِنهُمْ على أنفُسِهِمْ. لَكِنَّ موسى ﷺ كانَ وَعَدَ لَهُمُ الفَتحَ والنُّصرَةَ مَعَ ضَعفِهِمْ وقِلَّةِ عَدَدِهِمْ إذا دَخَلوا فيها.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ اختُلِفَ في الرَّجُلَينِ اللَّذَينِ قالا ذَلِكَ لَهُمْ؛ [قالَ][5] قائِلونَ: كانَ ذَلِكَ الرَّجُلانِ مِنْ أولئِكَ الذينَ بَعَثَهُمْ موسى، على نَبِيِّنا وعليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، إلى أهلِ تِلْكَ الأرضِ وأمَرَهُمْ بِالدُّخولِ فيها، وهُما مِمَّنْ قَدْ ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ مِنْ تَصديقِ ما وَعَدَ لَهُمْ موسى مِنَ الفَتحِ والنُّصرَةِ، فَقالا: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ صَدَّقا[6] موسى بِما وَعَدَ لَهُمْ مِنَ الفَتحِ، وقالَ قائِلونَ: كانَ ذَلِكَ الرَّجُلانِ اللَّذانِ قالا ذَلِكَ لَهُمْ هُما/ ١٢٧ ـ أ/ مِنْ أهلِ تِلْكَ الأرضِ؛ لأنَّهُمْ إذا سَمِعوا أنَّ موسى قَصَدَ نَحْوَهُمْ خافُوا مِنْ ذَلِكَ. فَذَلِكَ مَعنى قولِهِ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ مِنَ الإسلامِ، فقالا: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ لِما عَلِموا مِنْ خَوفِ أهلِها مِنْ موسى ومَنْ مَعَهُ وفَزَعِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي مُصَدِّقينَ بِوَعْدِ موسى بِالفَتحِ لَكُمْ والنَّصرِ. ويَحتَمِلُ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنَّ كُلَّ مَنْ تَوَكَّلَ على اللهِ، ووَثِقَ [بِهِ][7] نَصرَهُ اللهُ، وجَعَلَهُ غالِباً على عَدُوِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وغيره. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: منزه. (٤) في الأصل وم: أنه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: صدقوا. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ كأنَّ المُرادَ مِنَ البابِ لَيسَ نفسَ البابِ ولكنْ جِهةٌ مِنَ الجِهاتِ التي يَكُونُ الدُّخولُ عليهِمْ مِنْ تِلْكَ الجِهَةِ أوْفَقَ وأهْوَنَ؛ كأنّهُ قالَ ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ﴾ جِهَةَ كذا، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ مَنْ تَعرَّضَ لِرَسُولٍ مِنَ الرُّسُلِ بِمِثْلِ ما[1] تَعرَّضَ هَؤلاءِ لِمُوسَى ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ يَكْفُرُ لأنَّ مُوسَى ﷺ قَدْ وَعَدَ لَهُمُ النَّصْرَ والفَتْحَ إذا دَخلُوها، فقالُوا ﴿لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا﴾ لَمْ يُصدِّقُوا مُوسَى ﷺ في ما وَعَدَ لَهُمْ مِنَ الفَتْحِ. ومَنْ كَذَّبَ رَسُولاً مِنَ الرُّسُلِ بِشيءٍ يُخبِرُ فَهُوَ كافِرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ الآية. دَلَّ قولُهُ تعالى ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ على أنَّ المُرادَ بالدُّخولِ فِيهَا أمْرٌ بالقِتالِ، واللهُ أعْلَمُ.

ثُمَّ قِيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ مِنْ وَجْهَينِ:

[أحَدُهُمَا][2]: قِيلَ: اذْهَبْ أنْتَ ورَبُّكَ فَقاتِلْ وَحْدَكَ، ولْيُعِنْكَ[3] رَبُّكَ ويَنْصُرْكَ، لأنَكَ تَقُولُ: إنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَكَ فَتْحَها والنَّصْرَ عليهِمْ، فَالوَاحِدُ والجَمَاعَةُ فِيهَا سَوَاءٌ إذا كانَ[4] اللهُ نَاصِرَكَ ومُعِينَكَ.

والثّاني: اذْهَبْ أنتَ وأخُوكَ بِرَبِّكَ فَقاتِلا لأنَّهُمَا كَانَا جَمِيعاً مَأمُورِينَ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ لأنَّهُمَا إذا قَاتَلا إنَّمَا قَاتَلا بِرَبِّهِمَا. وتَجوزُ الإضَافَةُ إلَيهِ والنِّسْبَةُ إلَيهِ لِمَا كانَ يُفعَلُ بِهِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] هُمُ المُبَاشِرُونَ لِلْقَتْلِ والرَّمْيِ في الحَقِيقَةِ، لكنهُ أُضِيفَ إلَيهِ بِنَصْرِهِ ومَعُونَتِهِ قَتَلُوا ورَمَوا. فَعلى ذَلِكَ الأوَّلُ، واللهُ أعْلَمُ، أُضِيفَ إلَيهِ لِمَا بِمَعُونَتِهِ ونَصْرِهِ يُقَاتِلُونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ أي لَيسَ يُرِيدُ بِهِ القُعُودَ نَفْسَهُ، ولَكِنْ، واللهُ أعْلَمُ، إنَّا هَهُنَا مُنْتَظِرُونَ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ الآية؛ يَحْتَمِلُ ﴿إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ﴾ في الإجَابَةِ والطَّاعَةِ لَكَ إلَّا نَفْسِي وأخِي، وأخِي أيضاً لِمَا عَرَفْتُ بالعِصْمَةِ التي أعْطَيتَ لَهُ أنْ يُجِيبَنِي، ويُطِيعَنِي في ذَلِكَ. وأمَّا هَؤلاءِ فَإنِّي لا أمْلِكُ إجَابَتَهُمْ ولا طَاعَتَهُمْ ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

ويَحْتَمِلُ[5] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي﴾ وأخِي أيضاً لا يَمْلِكُ إلا نَفْسَهُ، وعلى الإضْمَارِ لأنَّهُمَا كَانَا جَمِيعاً رَسُولَينِ مَأمُورَينِ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ بِقَولِهِ تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ الآية [طه: ٤٤].

وقولُهُ تعالى ﷻ: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ قالَ قَائِلُونَ: إنَّما طَلَبَ مُوسَى، ﷺ، الفُرْقَةَ [بَيْنَهُ][6] وبَينَ الذينَ أبَوُا الدُّخُولَ فِيهَا، وقالُوا ﴿لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ وقالَ قَائِلُونَ: إنَّما طَلَبَ مُوسَى ﷺ الفُرْقَةَ بَيْنَهُمْ وبَينَ الجَبَابِرَةِ الذينَ كانُوا في الأرضِ التي أُمِرُوا بالدُّخُولِ فِيهَا والقِتَالِ مَعَهُمْ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ﴾ الآية، قولُهُ تعالى: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ مِنَ الحِرْمَانِ والمَنْعِ هو، واللهُ أعْلَمُ، لَيسَ على التَّحْرِيمِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ﴾ [القصص: ١٢] لَيسَ هُوَ مِنَ التَّحْرِيمِ الذي هُوَ تَحْرِيمُ حُكْمٍ، ولكنْ مِنَ المَنْعِ والحِرْمَانِ. فعلى ذَلِكَ الأوَّلُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقالَ قَائِلُونَ ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ﴾ أبداً، لَمْ يَدْخُلُوهَا حَتَّى مَاتُوا، لكنْ وُلِدَ لَهُمْ أولادٌ، فَلَمَّا مَاتُوا دَخَلَ أولادُهُمْ لأنَّهُمْ قالُوا: ﴿لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا﴾. وقالَ قَائِلُونَ: قولُهُ تعالى ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ﴾ أي[7] التَّوبَةُ مُحَرَّمَةٌ عَلَيهِمْ؛ لَنْ يَتُوبُوا أبداً، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فَالمُدَّةُ هُنَا لِلتِّيهِ، واللهُ أعْلَمُ، لا لِقَولِهِ تعالى: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ﴾.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: هذا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وليعينك. (٤) من م، في الأصل: كانت. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: أو.

جنة السنة

ثُمّ اختُلِفَ في التّيهِ: قالَ قائلُونَ: لَمْ يَكُنْ مُوسَى وهارُونُ ﷺ مَعَهُمْ في التّيهِ لأنَّ ذَلِكَ لَهُمْ مِنَ اللهِ كَانَ عُقُوبَةً، ولا يَحْتمِلُ أنْ يَكُونَ اللهُ تعالى ﷻ يُعَذِّبُ رَسُولَهُ بِذَنْبِ قَومِهِ لأنّهُ لَمْ يُعَذِّبْ قوماً(١) بِتَكْذِيبِ الرَّسُولِ قَطُّ إلا بَعْدَ ما أَخْرَجَ الرَّسُولَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ. فَعَلى ذَلِكَ لا يَحْتمِلُ أنْ يَكُونَ مُوسَى يُعَذَّبُ بِعِصْيانِ قَوْمِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقالَ آخرُونَ: كانَ مُوسَى مَعَهُمْ في(٢) الأرضِ مُقيماً، فِيهَا ولَكِنَّ الحَيرَةَ والتِّيهَ كانَتْ لِقَومِهِ؛ قِيلَ: كانُوا يَرْتَحِلُونَ، ثُمَّ يَنزِلُونَ مِنْ [حيثُ](٣) أصْبَحُوا أرْبَعِينَ سَنَةً، وكانَ مأواهُمُ [والحَجَرُ](٤) الذي كانَ مع مُوسَى، كانَ(٥) إذا نَزَلَ ضَرَبَهُ مُوسَى بِعَصاهُ ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] لِكُلِّ سِبْطٍ عينٌ، ولَمْ يَكُنْ حَلَّ [بِمُوسَى ما كَانَ حَلَّ](٦) بِقَومِهِ قَلِيلٌ ولا كَثِيرٌ. إنَّمَا أُمِرَ بِالمُقامِ فِيهَا مِنْ غَيرِ أنْ كانَ بِهِ حَيرةٌ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ﴾ وقالَ الحَسَنُ وغَيرُهُ: لَمْ يَكُونا ابْني آدمَ مِن صُلْبِهِ، ولكنْ كَانَا رَجُلَينِ مِنْ بَني إسْرائيلَ ﴿قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ﴾ قُرْبانُ أحَدِهِما ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ وقَدْ(٧) نَسَبَهُمَا إلى آدَمَ لأنَّ كلَّ البشرِ وُلْدُ آدَمَ يُنْسَبُ إلَيهِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦و...] افْعَلُوا كذا، ولا تَفْعَلُوا كَذا؛ لَيسَ يُرِيدُ بِهِ ولدَ آدمَ لِصُلْبِهِ [ولكنّهُ يُرِيدُ](٨) البَشَرَ كُلَّهُ. فَعَلى ذَلِكَ الأوَّلُ، واللهُ أعْلَمُ.

وأمّا ابنُ عباسٍ والكَلْبِيُّ وغَيرُهُما مِنْ أهْلِ التّأويلِ فإنّهُمْ قالوا: إنّهُمَا كَانَا ابْنَي آدَمَ لِصُلْبِهِ؛ أحَدُهُمَا يُسَمّى قابيلَ والآخَرُ هابيلَ، وكانَ لِكُلِّ واحِدٍ أُخْتٌ وُلِدَتْ معهُ في بَطنٍ واحِدٍ، وكانَتْ إحداهما جميلةً والأخرى دَميمةً، فأرادَ كلُّ واحِدٍ منهما نِكاحَ الجميلةِ منهما، فَتَنازعا في ذلك، فَقَالَ أحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ نُقَرِّبْ قُرْبَاناً، فإنْ تُقُبِّلَ قُرْبَانُكَ فَأنْتَ أحَقُّ بِهَا، وإنْ تُقُبِّلَ قُرْبَانِي فَأنَا أحَقُّ بِهَا، فَقَرَّبَا قُرْبَانَهُما، فَقُبِلَ قُرْبانُ قَابِيلَ، فَحَسَدَهُ، فَهَمَّ أنْ يَقْتُلَهُ. فَذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ولـكـنْ لا نَـدْري كَـيْـفَ كـانَـتِ [القِصّةُ](٩)؟ وفِيمَ كانَتِ؟ وكانَا ابْنَي آدَمَ لِصُلْبِهِ أو لَمْ يَكُونَا؟ وليسَ لَنا إلى مَعْرِفَةِ هَذا حَاجَةٌ إنّمَا الحَاجَةُ في هَذا إلى مَعْرِفَةِ مَا فِيهِ مِنَ الحِكْمَةِ والعِلْمِ لِنَعْلَمَ ذَلِكَ، وَنَعْمَلَ بِهِ. فَهُوَ، واللهُ أعْلَمُ، مَا ذَكَرَ ﷻ في مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَولِهِ تَعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: ١٥] وقولِهِ(١٠): ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩] لِتَعْلَمُوا أنّهُ إنّمَا عَلِمَ ذَلِكَ بِاللهِ لا بِأحَدٍ مِنَ البَشَرِ لأنّهُ إنّمَا بُعِثَ عِنْدَ دُرُوسِ آثارِ الرُّسُلِ وانْقِطاعِ العُلُومِ، فَبَيَّنَ لَكُمْ(١١) وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ.

فَفِيهِ دَليلُ إثْبَاتِ رِسَالَةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وسُورَةُ المَائِدَةِ كَانَ أكْثَرُهَا نَزَلَ(١٢) في مُخَاطَبَةِ أهْلِ الكِتَابِ لأنّهُ يَقُولُ في غَيرِ مَـوْضِـعٍ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الآيـة: ١٥] ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾(١٣) [الآية: ١٩] يَدْعُوهُمْ إلى الإيمانِ بالرُّسُلِ. ونَزَلَتْ(١٤) سُورَةُ الأنْعَامِ في مُخَاطَبَةِ أهْلِ الشِّرْكِ لأنّ فِيهَا دُعَاءً إلى التَّوحِيدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ يَحْتمِلُ وَجْهَينِ: يَحْتمِلُ ﴿بِالْحَقِّ﴾ المَعْلُومِ المَعْرُوفِ على مَا كَانُوا لِيَعْلَمُوا أنّهُ بِاللهِ عَلِمَ، وأنّهُ عِلْمٌ سَمَاوِيٌّ.

وقولُهُ تَعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ هَذا يَحْتمِلُ وَجْهَينِ: يَحْتَمِلُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ قُرْبَانَ مَنِ اتَّقى، لا يَتَقَبَّلُ مَنْ لَمْ يَتَّقِ. وإلى هَذا يَذْهَبُ الحَسَنُ، ويَقُولُ(١٥): كَانَا رَجُلَينِ مِنْ بَني إسْرَائِيلَ؛ أحَدُهُمَا مُؤْمِنٌ والآخَرُ مُنَافِقٌ، فَتَنَازَعَا فِي شَيءٍ، فَقَرَّبَا لِيَعْلَمَ المُحِقُّ مِنْهُمَا، فَتُقُبِّلَ مِنَ المُؤمِنِ/ ١٢٧ ـ ب/ ولَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ.

(١) في الأصل وم: قوم. (٢) من م، في الأصل: تلك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: في الحجر. (٥) في الأصل وم: فكان. (٦) في الأصل: حل بموسى بما كان حل، ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: وإن. (٨) في الأصل وم: ولكن. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: لهم. (١٢) في الأصل وم: نزلت. (١٣) أدرج قبل الآية في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: نزل. (١٥) في الأصل وم: وقال.

جنة السنة

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: كانا رَجلَينِ مُصدِّقَينِ لأنَّ الكافِرَ لا يُقرِّبُ القُرْبانَ، لكِنَّ أحدَهما كانَ أتقى قَلْباً، فَتُقُبِّلَ قُرْبانُهُ، والتَّقوى شَرْطٌ في قَبُولِ القَرابِينِ وغيرِها مِنَ القُرَبِ، كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والكافِرُ لا يُقرِّبُ القُرْبانَ. يُقالُ: قَدْ تَقرَّبَ لِمَا يَدَّعِي مِنَ الدِّينِ أنَّ الذي هُوَ حَقٌّ عليهِ، لِيَظْهَرَ المُحِقُّ مِنْهُمْ. ألا تَرى أنَّهُمْ يَدَّعُونَ أنَّ فِيهِمْ مَنْ هُوَ أحَقُّ بالرِّسالَةِ مِنْ مُحمَّدٍ ﷺ بِقولِهِمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وغيرِ ذلِكَ مِنْ أباطِيلَ قالُوهَا؟ وباللهِ التَّوفيقُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ قالَ بَعْضُ النَّاسِ: إنَّ الواجِبَ علينا أنْ نَفعَلَ مِثْلَ فِعْلِ أولَئِكَ، لا يَنْبَغِي لِمَنْ أرادَ أحدٌ قَتْلَهُ أنْ يَقتُلَهُ، ولَكِنْ يَمتَنِعُ[1] عَنْ ذلِكَ على مَا امْتَنَعَ أحَدُ ابْنَي آدَمَ حِينَ[2] قالَ لَهُ: لَأَقتُلَنَّكَ فقالَ لَهُ الآخَرُ: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ واحتَجُّوا في ذلِكَ بِأخبارٍ رُوِيَتْ: رُوِيَ عَنْ أبي مُوسَى الأشعَرِيِّ [أنَّهُ قالَ][3]: كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقولُ: «إذا تَوجَّهَ المُسْلِمانِ بِسَيفِهِما، فَقَتَلَ أحَدُهُما صاحِبَهُ، فهُمَا في النَّارِ، فَقِيلَ: يا رَسُولَ اللهِ: [هذا القاتلُ، فما بالُ][4] المَقتُولِ؟ فقالَ: إنَّهُ أرادَ أنْ يَقتُلَ صاحِبَهُ» [ابن ماجه: ٣٩٦٤].

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ [أنَّهُ][5] قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنِ اسْتَطَعْتَ أنْ تَكُونَ عَبْدَ اللهِ، ولا تَقْتُلْ أحَداً مِنْ أهْلِ القِبْلَةِ فَافْعَلْ» [أحمد ٥/ ٢٩٢].

وعَنِ الحَسَنِ ﷺ [أنَّهُ][6] قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ ابْنَي آدَمَ ضَرَبا لِهَذِهِ الأُمَّةِ مَثَلاً فَخُذُوا بِالخَيرِ مِنْهُمَا» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٦/ ١٩٩].

وعنْ أبِي ذَرٍّ ﷺ [أنَّهُ][7] قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيفَ تَصْنَعُ يا أبا ذَرٍّ إذا كانَ بالمَدِينَةِ قَتْلٌ بِغَيرِ حِجارَةٍ؟ قالَ: قُلْتُ: ألْبِسُ سِلاحِي، قالَ: شارَكْتَ القَوْمَ إذَنْ، قالَ: قُلْتُ: كَيفَ أصْنَعُ يا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: إنْ خَشِيتَ أنْ يَبْهَرَكَ شُعاعُ السَّيفِ فَألْقِ نَاحِيَةَ ثَوبِكَ على وَجْهِكَ حَتَّى يَبُوءَ بِإثمِكَ وإثمِهِ» [أبو داوود: ٤٢٦١]. يَحْتَجُّونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الأخْبارِ.

وقالَ آخَرُونَ: لَهُ أنْ يُقاتِلَ إذا لَمْ يَتَّعِظْ صاحِبُهُ باللهِ، وأرادَ قَتْلَهُ، فَهُوَ في سَعَةٍ مِنْ قَتْلِ مَنْ يُرِيدُ أنْ يَبْتَدِئَهُ بِالقَتْلِ اسْتِدْلالاً بِمَا أمَرَ اللهُ تعالى بِقِتالِ أهْلِ البَغْيِ كَقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] فَصارَ الحُكْمُ في أُمَّتِنا مَا أمَرَهُمُ اللهُ بِهِ مِنْ قِتالِ البُغاةِ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. على أنَّ قِتالَ المُشْرِكِينَ كانَ مَحْظُوراً في أوَّلِ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ وقَبْلَ ذلِكَ بِأوقاتٍ. وقالُوا: فَغَيرُ مُنْكَرٍ أنْ يَكُونَ الوَقْتُ الذي ذَكَرَهُ اللهُ في هَذِهِ الآيَةِ كانَ قِتالُ المُشْرِكِينَ، وتَجْرِيدُ السَّيفِ فِيهِ مَحْظُوراً، فَأذِنَ اللهُ في قِتالِهِمْ وقِتالِ أهْلِ البَغْيِ، فَصارَ الحُكْمُ في أُمَّتِنا مَا أمَرَ اللهُ بِهِ مِنْ قِتالِ البُغاةِ والمُشْرِكِينَ، واللهُ أعْلَمُ.

وأمَّا مَا احتَجُّوا بِهِ مِنَ الأخْبارِ التي رُوِيَتْ مِنِ اقْتِتالِ المُسْلِمِينَ وأشْباهِها فَإنَّ ذلِكَ، واللهُ أعْلَمُ، مَا احتَجُّوا بِهِ مِنَ الأخْبارِ التي رُوِيتْ في حالِ الفِتَنِ وقِتالِ الفِئَتَينِ اللَّتَينِ لا إمامَ فِيهِمَا يَسْتَحِقُّ الإمامَةَ لِحَمِيَّةٍ أو أمْرِ جاهِلِيَّةٍ أو عَصَبِيَّةٍ، فَهُمَا على خَطَإٍ. فالصَّوابُ في مِثْلِهِ مَا ذُكِرَ مِنَ الأخْبارِ.

وأمَّا إذا كانَ لِلنَّاسِ إمامُ هُدًى، فَعَقَدُوا[8] لَهُ البَيْعَةَ، فَخَرَجَتْ عليهِ خارِجَةٌ ظالِمَةٌ، فَقِتالُهُمْ واجِبٌ اتِّباعاً لِعَلِيٍّ ﷺ ومَنْ حارَبَ مَعَهُ مِنْ أصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أهْلَ البَغْيِ والخَوارِجِ، فَهُوَ كانَ لإجْماعٍ لأنَّ جَمِيعَ الطَّوائِفِ قَدْ حارَبُوهُمْ. ورُوِيَتْ في ذلِكَ آثارٌ كَثِيرَةٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إلى هَذا يَذْهَبُ مَنْ رَأى قَتْلَ مَنْ يَهُمُّ بِهِ قِبَلَهُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ أنْ تَرجِعَ ﴿بِإِثْمِى﴾ بِقَتلِكَ إيَّايَ ﴿وَإِثْمِكَ﴾ الذي عَمِلْتَهُ قَبلَ قَتْلِي [إيَّاكَ][9].

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿بِإِثْمِى﴾ أنْ تَقْتُلَنِي ﴿وَإِثْمِكَ﴾ مَا أضْمَرْتَ في نَفْسِكَ مِنَ الحَسَدِ والعَداوَةِ. وقالَ الحَسَنُ: تَرجِعُ ﴿بِإِثْمِى﴾

---

(١) في الأصل وم: يمنع. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أرأيت. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فقد عقدوا. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

بقتلِكَ إيّايَ ﴿وَإِثْمِكَ﴾ يَعني الكُفرَ الذي كانَ عليهِ، لأنَّهُ يقولُ: كانَ أحدُهُما كافِراً، فَقَتَلَ صاحِبَهُ، فَيَرجِعُ بِالكُفرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ يَجوزُ أنْ يَتكلَّمَ بالإرادةِ على غَيرِ تَحقيقِ الفِعلِ كَقَولِ القائِلِ: أُريدُ أنْ أسقُطَ مِنَ السَّطحِ، وهُوَ لا يُريدُ سُقوطَهُ مِنهُ، وكَقَولِهِ تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] والجِدارُ لا فِعلَ لَهُ. فإذا جازَتْ إضافَةُ الإرادةِ إلى مَن لا فِعلَ لَهُ، يَكونُ مِنهُ، دَلَّ أنَّهُ لَيسَ على حَقيقَةِ الفِعلِ، ولكنْ على ما يَقَعُ أنَّهُ يَكونُ كَذلِكَ، ويَؤولُ أمرُهُ إلى ذلِكَ، أو أرادَ أنْ يَبوءَ بإثمِهِ لِما عَلِمَ مِنهُ أنْ يَقتُلَهُ، لا مَحالَةَ، ويَعصِيَ رَبَّهُ، أرادَ أنْ يَبوءَ بإثمِهِ. وذلِكَ جائِزٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: أي شايَعَتهُ، وانقادَتْ لَهُ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ﴾ أي أمَرَتْ، وزَيَّنَتْ لَهُ. وقالَ مُجاهِدٌ: أي شَجَّعَتهُ، وأعانَتهُ، وكُلُّهُ يَرجِعُ إلى واحِدٍ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ كقولِهِ[1] في آيةٍ أُخرى: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١] يَحتَمِلُ وَجهَينِ: يَحتَمِلُ أصبَحَ نادِماً لأنَّ النَّدامَةَ تَوبَةٌ؛ وذلِكَ أنَّ مَن أذنَبَ ذَنباً، فَنَدِمَ عليهِ، كانَ ذلِكَ مِنهُ تَوبَةً. فإنْ لَم يَكُنْ تَوبَةً فتأويلُ قولِهِ: ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ أي يُصبِحُ في الآخِرةِ ﴿مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾، وهُوَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] أي يَقولُ في الآخِرةِ، لا أنْ قالَ لَهُ. فَعَلى ذلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ في الآخِرةِ، واللهُ أعلَمُ، ويُصبِحُ مِنَ الخاسِرينَ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾ استَدَلَّ مَن قالَ: بأنَّ القِصَّةَ كانَتْ في ابنَي آدَمَ لِصُلبِهِ بِقَولِهِ[2] تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾ لأنَّ القِصَّةَ لو كانَتْ في بَني إسرائيلَ لَم يَكُنْ لِيَجهَلَ دَفنَ المَيِّتِ، إذ قَد رأى ذلِكَ غَيرَ مَرَّةٍ، وعايَنَهُ، فَدَلَّ أنَّهُ كانَ في أوَّلِ مَيِّتٍ جُعِلَتْ[3] السُّنَّةُ فيهِ.

وقالَ مَن قالَ: إنَّهُما كانا رَجُلَينِ مِن بَني إسرائيلَ؛ إذ قَد يَجوزُ أنْ يَخفى على المَرءِ شَيءٌ عَلِمَهُ قَبلَ ذلِكَ، وعايَنَهُ، إذا اشتَدَّ بِهِ الخَوفُ، ونَزَلَ بِهِ الهَولُ كَقَولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾ [الآية: ١٠٩] وقَد كانَ لَهُم عِلمٌ بِذلِكَ، لكنْ ذَهَبَ عَنهُم، واللهُ أعلَمُ.

ثُمَّ اختُلِفَ في ما أخبَرَ عَن بَحثِ التُّرابِ في الأرضِ؛ قالَ الحَسَنُ ﷺ يَبحَثُ التُّرابَ على ذلِكَ المَيِّتِ لِيُرِيَ ذلِكَ القاتِلَ، لا أنَّهُ كانَ يَبحَثُ التُّرابَ على غُرابٍ آخَرَ على ما ذَكَرنا في القِصَّةِ أنَّ غُراباً قَتَلَ آخَرَ، ثُمَّ جَعَلَ يَبحَثُ التُّرابَ عليهِ لأنَّهُ ذَكَرَ السَّوأةَ، ولَيسَ لِلغُرابِ سَوأةٌ، والسَّوأةُ العَورةُ، لَكِنَّهُ لِيُرِيَهُ كَيفَ يُواري سَوأةَ أخيهِ[4] [لَم يَذكُرِ السَّوأةَ في الغُرابِ، إنَّما ذَكَرَها في أخيهِ، وأخبَرَ أنَّهُ يُريدُ أنْ [يُرِيَهُ][5] كَيفَ يُواري سَوأتَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ [فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾][6] ﴿أَعَجَزۡتُ﴾ في الحِيلَةِ ﴿أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾؟

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ الآية، يَحتَمِلُ وُجوهاً: يَحتَمِلُ: أنَّ[7] مَنِ استَحَلَّ قَتلَ نَفسٍ حَرَّمَ اللهُ قَتلَها بِغَيرِ حَقٍّ فَكَأنَّما استَحَلَّ قَتلَ النّاسِ جَميعاً لأنَّهُ باستِحلالِ قَتلِ نَفسٍ مُحَرَّمٍ قَتلُها، فَكانَ كاستِحلالِ قَتلِ النّاسِ جَميعاً لأنَّ [مَن يَكفُرْ بآيَةٍ][8] مِن كِتابِ اللهِ يَصيرُ كافِراً بِالكُلِّ. فَعَلى ذلِكَ الأوَّلُ: إذا استَحَلَّ قَتلَ نَفسٍ مُحَرَّمَةٍ يَصيرُ كأنَّهُ استَحَلَّ قَتلَ الأنفُسِ كُلِّها.

ويَحتَمِلُ أنْ يَكونَ هذا في أوَّلِ قَتيلٍ قُتِلَ لَم يَكُنْ [قُتِلَ][9] قَبلَ ذلِكَ أحَدٌ فَلَمّا قَتَلَ هذا قَتيلاً جَعَلَ النّاسَ يَقتُلونَ بَعدَ

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: يقول. (٣) في الأصل وم: جهل. (٤) في م: أخي. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من م. (٧) من م، في الأصل: أي. (٨) في الأصل وم: يكفر بآياته. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ذلِكَ/ ١٢٨ ـ أ/ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وكانَ ذلِكَ واحِداً. وكانَ مِنْهُ سُنَّةٌ اسْتَنَّ النَّاسُ بها. فَهُوَ كَما رُوِيَ في الخَبَرِ أنّ «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَلَهُ وِزْرُها ووِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِها إلى يَومِ القِيامَةِ مِنْ غَيرِ أنْ يُنْقِصَ مِنْ وِزْرِهِم شَيْئاً، لِيَشْتَرِكُ هذا القاتِلُ في وِزْرِ قَتْلِ كُلِّ قَتِيلٍ إلى يَومِ القِيامَةِ بِغَيرِ حَقٍّ» [أحمد ٤ : ٣٦١]. وتَحْتَمِلُ الآيةُ وَجْهاً آخَرَ؛ وهُوَ ما قِيلَ: إنّهُ يَجِبُ عَلَيهِ مِنَ القَتْلِ مِثْلُ ما أنّهُ لو قَتَلَ النَّاسَ جَميعاً.

[وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أعطاهُ [اللهُ][(٢)] مِنَ الأجرِ مِثْلَ ما لَوْ أنّهُ أحيَى النَّاسَ جَميعاً إذا أحْياها فَلَمْ يَقْتُلْها، وعَفا عَنْها.

وعَنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنّهُ][(٣)] قالَ: ﴿مِنْ أَجْلِ﴾ [أحدِ][(٤)] ابْني آدَمَ حِينَ قَتَلَ أخاهُ ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ بِلا نَفْسٍ وَجَبَ عَلَيها القِصاصُ ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يَقُولُ: الشِّرْكُ في الأرضِ ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ يقولُ: يُعَذَّبُ عَلَيها كَما لَو أنّهُ لو قَتَلَ النَّاسَ جَميعاً بِها[(٥)]، وهُوَ مِثْلُ الأوّلِ.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ [أنّهُ قَرَأَ][(٦)]: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ الآيةَ، وقالَ[(٧)]: لو لم يَكُنْ يُؤْخَذُ في بَنِي إسْرائيلَ أرْشٌ إنّما كانَ قِصاصاً بِقِصاصٍ، يَقُولُ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي مِن اسْتَنْقَذَ [نَفْساً][(٨)] مِنْ مَهْلَكَةٍ فَكأنَّما اسْتَنْقَذَ النَّاسَ جَميعاً في الآخِرةِ. وقِيلَ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ بالعَفْوِ أُجِرَ في إحْيائِها كَما يُؤْجَرُ مَنْ أحيَى النَّاسَ جَميعاً؛ إذْ على النَّاسِ مَعُونَةُ ذلِكَ. فإذا عَفا عَنْها فَكأنَّما عَفا [عَنِ][(٩)] النَّاسِ جَميعاً.

قالَ الحَسَنُ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ في الأجرِ، أمَا واللهِ مَنْ يَسْتَطِيعُ أنْ يُحْيِيَها إذا جاءَ أجَلُها؟ ولكنّهُ أُقِيدَ فَعَفا.

ووَجْهٌ آخَرُ: أنّهُ يُلْزِمُ النَّاسَ جَميعاً دَفْعَ ذلِكَ عَنْ نَفْسِهِ ومَعُونَتَهُ لَهُ. فإذا قَتَلَها بِها[(١٠)] أو سَعَى عَلَيها بالفَسادِ فَكأنَّما سَعَى بِذلِكَ على النَّاسِ كافّةً. فَعَلى ذلِكَ مَنْ أحْياها فَكأنَّما أحيَى النَّاسَ جَميعاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ في الآيةِ قِلَّةُ تَصَبُّرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ على تَكْذِيبِ الكَفَرَةِ الفَجَرَةِ إيّاهُ، وإنّهُ لَيسَ بأوّلِ مُكَذَّبٍ في الحَقِّ، بَلْ كانَتِ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلُ يُكَذَّبُونَ في ما يَأْتُونَ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ والبَيانِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ الآيةَ، قالَ بَعْضُهُمْ: الآيةُ نَزَلَتْ في أهْلِ الكُفْرِ وبَيانِ الحُكْمِ فِيهِمْ، وهُوَ قَولُ الحَسَنِ وأبي بَكْرٍ الأصَمِّ، وقالا: لأنّ اللهَ ﷻ ذَكَرَ مُحارَبَةَ اللهِ ورَسُولِهِ، وذَكَرَ السَّعْيَ في الأرضِ بالفَسادِ. وكُلُّ كافِرٍ قَدْ حارَبَ اللهَ ورَسُولَهُ، وذَكَرَ السَّعْيَ في الأرضِ بالفَسادِ، فَلِلإمامِ أنْ يَقْتُلَهُمْ بأيِّ أنْواعِ القَتْلِ شاءَ ما دامَ الحَرْبُ في ما بَيْنَهُمْ قائِماً. فإذا أثْخَنُوا في الأرضِ بِتَرْكِ ذلِكَ يَمُنُّ عَلَيهِمْ إنْ شاءَ. وأمّا المُسْلِمُ إذا قَطَعَ الطَّرِيقَ، فإنّهُ لا يُقالُ: إنّهُ حارَبَ اللهَ ورَسُولَهُ. فَدَلَّ أنّها نَزَلَتْ في أهْلِ الكُفْرِ لِلْكُفْرِ لا لِقَطْعِ الطَّرِيقِ.

وقالَ آخَرُونَ: نَزَلَتْ في المُشْرِكِينَ إذا قَطَعُوا الطَّرِيقَ على النَّاسِ، وأخافُوهُمْ «رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَباسٍ رضي الله عنه [أنّهُ][(١١)] قالَ: وادَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أبا بُرْدَةَ هِلالَ بْنَ عُوَيْمِرٍ الأسْلَمِيَّ فَجاءَ أُناسٌ يُرِيدُونَ الإسْلامَ، فَقَطَعَ الطَّرِيقَ عَلَيهِمْ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ على رَسُولِ اللهِ ﷺ بالحَدِّ فِيهِمْ: أنّ مَنْ قَتَلَ، ولَمْ يَأْخُذِ المالَ، قُتِلَ، ومَنْ أخَذَ المالَ، ولَمْ يَقْتُلْ، قُطِعَتْ يَدُهُ ورِجْلُهُ مِنْ خِلافٍ، ومَنْ جاءَ مُسْلِماً هَدَمَ[(١٢)] بالإسْلامِ ما كانَ في الشِّرْكِ» [القرطبي ٣/ ٢٦٦] فَدَلَّ حَدِيثُ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه على أنّ الآيةَ نَزَلَتْ في المُوادِعِينَ غَيرِ المُحارِبِينَ.

ورُوِيَ عَنْ أنَسٍ [أنّهُ][(١٣)] قالَ: «إنّ أُناساً[(١٤)] مِنْ عُكْلٍ أو عُرَيْنَةَ أتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَشَكَوا إلَيهِ الجَهْدَ، فَبَعَثَ مَعَهُمْ بِلِقاحٍ ورَاعٍ، وقالَ لَهُمْ: اشْرَبُوا ألْبانَها، وتَداوَوا بِأبْوالِها، فَلَمّا أنْ صَحُّوا [قَتَلُوا][(١٥)] راعِيَ النَّبِيِّ ﷺ واسْتاقُوا الإبِلَ، وارْتَدُّوا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لهم. (٦) في الأصل وم: وقرأ. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لها. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في م: عدم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: أناس. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

عَنِ الإسلامِ، فَبَعَثَ في آثارِهِمْ، فأتى بِهِمْ بَعْدَ مَا تَرَجَّلَ بِهِمُ النَّهارُ، فأمَرَ بِهِمْ ، فَقُطِعَتْ أيديهِمْ وأرْجُلُهُمْ، وسُمِلَتْ[١] أعْيُنُهُمْ، وقُطِعَتْ[٢] ألسِنَتُهُمْ، وتُرِكُوا بالمَكانِ حَتّى مَاتُوا، فَنَزَلَتِ الآيةُ» [البخاري: ٢٣٣].

ورُوِيَ عن عليٍّ ﷺ مَا يُخالِفُ هذا؛ رُوِيَ أنَّ حارِثَةَ بْنَ بَدْرٍ حارَبَ اللهَ ورَسُولَهُ، وسَعَى في الأرضِ فَساداً، وتابَ مِنْ قَبْلِ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِ، فَكَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أبي طالِبٍ إلى عامِلِهِ بِالبَصْرَةِ أنَّ حارِثَةَ [بْنَ بَدْرٍ][٣] قَدْ تابَ قَبْلَ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِ، فلا تَتَعَرَّضْ لَهُ إلا بِالخَيرِ.

ألا تَرَى أنَّ حارِثَةَ [بْنَ بَدْرٍ][٤] قَدْ تابَ، أُطْلِقَ فِيهِ أنَّهُ حارَبَ اللهَ ورَسُولَهُ ﷺ وكانَ مُؤمِناً؟ فَهذا يَدُلُّ على أنَّ الحُكْمَ الذي أُجْرِيَ على قُطَّاعِ الطُّرُقِ الكَفَرَةِ يَجْرِي ذَلِكَ الحُكْمُ في المُسْلِمِينَ إذا كانَ مِنْهُمْ مَا كانَ مِنَ المُشْرِكِينَ مَعَ قَطْعِ الطريقِ على النَّاسِ وإخافَتِهِ عَلَيهِمْ. وقد يُتَوَهَّمُ أنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ في أهْلِ الحَرْبِ، وقَدْ أُبِيحَ لَنا قَتْلُ مَنْ ظَفِرْنا بِهِ مِنْهُمْ كَيفَ شِئْنا، وإنْ لَمْ يُفْسِدُوا في الأرضِ، ولَمْ يَقْطَعُوا الطَّرِيقَ.

وهذا يَدُلُّ [على][٥] أنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ بِالحُكْمِ في أهْلِ الكَفَرَةِ وأهْلِ الإسْلامِ جَمِيعاً إذا سَعَوا في الأرضِ بِالفَسادِ.

ومِنَ الدَّليلِ على ذَلِكَ أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُوا۟ عَلَيۡهِمۡ﴾ [المائدة: ٣٤] وأجْمَعُوا أنَّ الكافِرَ إذا قَتَلَ مُسْلِماً، وأظْهَرَ في الأرضِ الفَسادَ، فَقَدَرْنا عَلَيهِ، وأسَرْناهُ، ثُمَّ أسْلَمَ، أنهُ يَزُولُ عَنْهُ القَتْلُ والقَطْعُ والصَّلْبُ. فَدَلَّ ذَلِكَ على أنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ بِالحُكْمِ في المُسْلِمِينَ لأنَّهُ يَخْتَلِفُ حُكْمُهُ إذا تابُوا مِنْ قَبْلِ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِمْ، أو بَعْدَ قُدْرَتِنا عليهِمْ.

فأمّا الذينَ رَوَوا[٦] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ فِعْلِهِ بِالعُرَنِيِّينَ مِنْ نَحْوِ ابْنِ سِيرِينَ وغَيرِهِ فَالوَاجِبُ على مَنِ ادَّعَى أنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ في العُرَنِيِّينَ دَعْواهُ. وكانَ أصْحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، يَذْهَبُونَ إلى مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ ﷺ ويَرَونَ أنْ يُؤْخَذَ المُحارِبُ إذا تابَ قَبْلَ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِ بِمَا أصابَ مِنْ دَمٍ ومَالٍ على سَبِيلِ القِصاصِ، ولا يُصْلَبُ، ولا تُقْطَعُ يَدُهُ ورِجْلُهُ في مَا أصابَ مِنْ مَالٍ. فَكَأنَّهُمْ ذَهَبُوا إلى أنْ يُزالَ الحَدُّ الذي للهِ على المُحارِبِ بِتَوبَتِهِ قَبْلَ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِ، وهُوَ مَا كانَ إلى الإمامِ إقامَتُهُ، ولا أمْرَ لِلوَلِيِّ فِيهِ.

وأمّا الحُقُوقُ التي هِيَ لِلعِبادِ فَإنَّ التَّوبَةَ لا تَعْمَلُ في إبْطالِها، ولِكُلِّ ذي حَقٍّ أنْ يَأْخُذَ بِحَقِّهِ؛ لا حَقَّ للإمامِ لأنَّ الحَقَّ صارَ لِلوَلِيِّ دُونَ الإمامِ.

وفي قَولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُوا۟ عَلَيۡهِمۡ﴾ دَلالَةٌ على أنَّ السّارِقَ إذا رَدَّ السَّرِقَةَ قَبْلَ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِ أنْ لا قَطْعَ عَلَيهِ. وكَذَلِكَ رَوى بَعْضُ المُتَقَدِّمِينَ أنَّهُمْ قالُوا لَيسَ على تائِبٍ قَطْعٌ. ودَلَّ قَولُهُ تعالى: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ على أنَّ السارِقَ في المِصْرِ لَيلاً ونَهاراً لا يَكُونُ مُحارِباً، وإنَّما هوَ سارِقٌ تُقْطَعُ يَدُهُ دُونَ رِجْلِهِ لأنَّهُ ذَكَرَ السَّعْيَ في الأرضِ بِالفَسادِ، والسّارِقُ في المِصْرِ لا يُقالُ: سَعَى في الأرضِ. ألا تَرَى إلى قَولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النساء: ١٠١] لَمْ يُرِدِ الضَّربَ في المِصْرِ، ولكنْ أرادَ الأسفارَ. فَعلى ذَلِكَ الأوَّلُ.

وأمّا الكَلامُ في القَتْلِ والصَّلْبِ والقَطْعِ فَرُوِيَ عنِ ابْنِ عَبّاسٍ ﷺ [أنَّهُ][٧] قالَ: إذا حارَبَ، وقَتَلَ، وأخَذَ المالَ، قُطِعَتْ يَدُهُ ورِجْلُهُ مِنْ خِلافٍ، وصُلِبَ. فَإنْ قَتَلَ، ولَمْ يَأْخُذِ المالَ، قُتِلَ: وإنْ أخَذَ المالَ ولَمْ يَقْتُلْ، قُطِعَتْ يَدُهُ ورِجْلُهُ مِنْ خِلافٍ. وتأويلُ الآيَةِ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية على أنَّ الواجِبَ على المُحارِبِ مِنَ العُقُوبَةِ لَهُ على قَدْرِ جِنايَتِهِ، ويُزادُ في عُقُوبَتِهِ بِقَدْرِ زِيادَتِهِ في جُرْمِهِ.

وتأوَّلَ غَيرُهُ الآيَةَ على أنَّها نَزَلَتْ في المُحارِبِ الذي يُصِيبُ المالَ أو[٨] النَّفْسَ. وإذا أصابَ الأمْرَينِ كانَ لِلإمامِ أنْ يَقْتُلَهُ كَيفَ شاءَ؛ إنْ شاءَ قَتَلَهُ بِالسَّيفِ قَتْلاً، وإنْ شاءَ قَطَعَ يَدَهُ ورِجْلَهُ، ثُمَّ يَتْرُكُهُ حَتّى يَمُوتَ، وإنْ شاءَ صَلَبَهُ حَيّاً./١٢٨ ـ ب/ وإنْ أبْطَأَ عَلَيهِ المَوتُ طُعِنَ بِالرِّماحِ حَتّى يَمُوتَ. وإلى هَذا ذَهَبَ أبو حَنِيفَةَ ﷺ. وأمّا أبو يُوسُفَ ومُحَمَّدٌ، رَحِمَهُما اللهُ،

(١) في الأصل وم: وسمل. (٢) في الأصل وم: وقطع. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: روي. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: و.

جنة السنة

فَقَالا[1]: إذا صُلِبَ لَمْ تُقطَعْ [يَدُهُ ورِجلُهُ][2] مِنْ خِلافٍ، وجَعَلا عُقُوبَتَهُ مُختَلِفَةً على قَدْرِ جِنايَتِهِ. فَإنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى التَّخْيِيرِ فِيهِ؟ قِيلَ مَعْنَاهُ، والله أعْلَمُ: أنْ يُقتَلَ بِالسَّيفِ، أو يُقتَلَ بِالصَّلْبِ أو يُقتَلَ بِقَطْعِ اليَدِ والرِّجْلِ.

وأصلُهُ أنَّ حَرْفَ التَّخْيِيرِ إذا كَانَ في مُتَّفِقِ الأسْبَابِ يَخْرُجُ مَخْرَجَ التَّخْيِيرِ مِنْ نَحْوِ التَّخْيِيرِ في كَفَّارَةِ اليَمِينِ وكَفَّارَةِ الظِّهَارِ وكَفَّارَةِ المُتَأذِّي لأنَّ سَبَبَ وُجُوبِهِ واحدٌ. وإذا كانَ في مُختَلِفِ الأسْبَابِ فَيَخْرُجُ مَخْرَجَ بَيانِ الحُكْمِ لِلكُلِّ في نَفْسِهِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] لا يَحْتَمِلُ التَّخْيِيرَ. ولكِنَّهُ على بَيانِ الحُكْمِ لِكُلٍّ في نَفْسِهِ لأنَّ سَبَبَ وُجُوبِهِ مُختَلِفٌ؛ فَتَأوِيلُهُ: إمَّا أنْ تُعَذِّبَ مَنْ ظَلَمَ، [وإمَّا أنْ][3] تَتَّخِذَ الحُسْنَ في مَنْ آمَنَ باللهِ. ألا تَرَى أنَّهُ قَالَ: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾؟ [الكهف: ٨٧ و٨٨] وقولُ مَنْ جَعَلَ الحُكْمَ في مَنْ جَمَعَ القَتْلَ وقَطْعَ الطَّرِيقِ أقْرَبُ إلى التَّأوِيلِ، والله أعْلَمُ، مِمَّنْ لَمْ يَجْمَعْ لأنَّهُ قالَ ﷻ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية فَمَنْ حَارَبَ، وأفسَدَ في الأرضِ فَقَدْ أتَى بِالأمْرَينِ لأنَّ مُحَارَبَتَهُ أنْ يَقْتُلَ، وإفْسادَهُ في الأرضِ [أنْ][4] يَقْطَعَ الطَّرِيقَ. فَإذا جَمَعَ هُوَ بَينَ الأمْرَينِ يُجْمَعُ بَيْنَ عُقُوبَتَينِ. وأصْلُهُ أنَّ أمْرَ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ مَحْمُولٌ على فَضْلِ تَغْلِيظٍ مِنْ نَحْوِ مَا يُجْمَعُ بَينَ قَطْعِ اليَدِ والرِّجْلِ في أخْذِ المَالِ، وذَلِكَ لا يُجْمَعُ في أخْذِ المَالِ في المِصْرِ، ومِنْ نَحْوِ الصَّلْبِ. وذَلِكَ لَمْ يُجْعَلْ في غَيرِهِ مِنَ القَتْلِ في المِصْرِ، فَدَلَّ أنَّهُ مَحْمُولٌ على فَضْلِ تَغْلِيظٍ، فَجَازَ أنْ يُجْمَعَ مَا ذَكَرْنَا.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَوْ يُنفَوْا۟﴾ على إسْقاطِ الألِفِ، ويَكُونُ في القَتْلِ والصَّلْبِ نَفْيُهُ إذا قَتَلَ، وأخَذَ المَالَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: نَفْيُهُ أنْ يُطْلَبَ[5] فَلا يُقْدَرَ عَلَيهِ.

وعنِ الحَسَنِ [أنَّهُ][6] قالَ: يُطْلَبُ[7] حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ أرضِ الإسْلامِ؛ وذَلِكَ إلى الإمَامِ. وأصْلُهُ مَا ذَكَرْنَا أنَّهُ إذا قُدِرَ عَلَيهِ، وقدْ قَتَلَ، وأخَذَ المَالَ، يُقتَلُ، وفي القَتْلِ نَفْيُهُ. وإذا لَمْ يَقْتُلْ، ولَمْ يَأخُذْ، حُبِسَ إنْ قُدِرَ عَلَيهِ، وفي الحَبْسِ نَفْيُهُ، وإنْ لَمْ يُقْدَرْ عَلَيهِ يُطْلَبُ[8] حَتَّى يَبْرَحَ الطَّرِيقَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُ أبي عُبَيدٍ حِينَ[9] قالَ: إنَّهُ يُصْلَبُ بَعْدَ القَتْلِ لأنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَهَى عنِ المُثْلَةِ، [فَيُقَالُ لَهُ: المُثْلَةُ][10] يُرادُ بِهَا على مَا قالَ مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ، رَحِمَهُ اللهُ تعالى: إنَّ الصَّلْبَ جُعِلَ عُقُوبَتَهُ، والمَيِّتُ لا يُعَاقَبُ، ولو جَازَ [له أنْ يقولَ][11] يُصْلَبُ بَعْدَ القَتْلِ جَازَ لِغَيرِهِ أنْ يَقُولَ: تُقْطَعُ يَدُهُ ورِجلُهُ بَعْدَ القَتْلِ، فَذَلِكَ بَعِيدٌ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ قَدْ ذَكَرْنا في مَا تَقَدَّمَ أنَّ قُطَّاعَ الطَّرِيقِ إذا تَابُوا، قَبْلَ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِمْ سَقَطَتْ عَنْهُمُ الحُدُودُ التي هِيَ لله تعالى، لا يُؤاخَذُونَ بِهَا، ولَيسَتْ[12] كَغَيرِهَا مِنَ الحُدُودِ التي تَلْزَمُ في غَيرِ المُحَارَبَةِ. إنَّ التَّوبَةَ لا يُعْمَلُ في إسْقَاطِهَا لِوَجْهَينِ:

أحَدُهُمَا: أنَّ التَّوبَةَ مِنْ غَيرِ المُحَارِبِ لا تَظْهَرُ حَقِيقَةً، فإذا لَمْ تَظْهَرْ لَمْ يُعْمَلْ في إسْقَاطِ مَا وَجَبَ، ومِنَ المُحَارِبِ تَظْهَرُ لأنَّهُ في يَدَي نَفْسِهِ إذا تَرَكَ المُحَارَبَةَ والسَّعْيَ في الأرضِ بِالفَسَادِ، وظَهَرَتْ مِنْهُ التَّوبَةُ، فَلَمْ يُؤاخَذْ بِهِ، وفي سَائِرِ الحُدُودِ لا يَظْهَرُ مِنْهُ تَرْكُ مَا كَانَ يَرْتَكِبُ لِذَلِكَ [افْتَرَقَا.

والثَّاني: أنَّهُ لَو لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ ذَلِكَ][13] لَتَمَادَى في السَّعْيِ بِالفَسَادِ في حَقِّ المُسْلِمِينَ مِنَ الضَّرَرِ أكْثَرَ مِمَّا لَو آخَذُوهُ[14] بِذَلِكَ، فَاسْتُحْسِنَ[15] قَبُولُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَدَرْءُ مَا وَجَبَ عَلَيهِمْ مِنَ الحُدُودِ التي هِيَ للهِ تعالى. وأمَّا الحُقُوقُ التي هِيَ لِلعِبَادِ فَذَلِكَ إلى الأوْلِيَاءِ؛ إنْ شَاؤُوا تَرَكُوا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ[16]: «ومَنْ جاءَ مُسْلِماً هَدَمَ بِالإسْلامِ مَا كَانَ بِالشِّرْكِ» [القرطبي: ٣/ ٢٦٦] مَعْنَاهُ: إذا جَاءَ تَائِباً لأنَّ الحُدُودَ

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أيديهم وأرجلهم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم، يصلب. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) و(٨) في الأصل وم: يصلب. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: أن. (١٢) في الأصل وم: وليس. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: آخذوهم. (١٥) في الأصل وم: فاستحسنوا.
(١٦) الضمير يعود على الرسول ﷺ والمقصود بالقول رواية ابن عباس قصة هلال بن عويمر الأسلمي التي أدرجت في بداية تفسير الآية (٣٣).

جنة السنة

زَواجِرُ، والإسلامَ يَزيدُ في الزَّجْرِ والتَّغليظِ، فَلا يَجوزُ مَا كَانَ سَبباً لِلتَّغليظِ [أن يَكونَ][1] سَبباً لإسقاطِهِ. دَلَّ أنَّ المَعنى مِنْهُ: مَنْ جاءَ مُسلِماً تائِباً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ يُحتَمَلُ أنْ تكونَ الآيةُ صِلَةَ مَا مَضى مِنَ الآياتِ: مِنْ ذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] أخبَرَ أنَّهُ إنَّما يَتَقرَّبُ بِقُربانِهِ المُتَّقِي، وقولُهُ[2] تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [المائدة: ٣٣] ثُمَّ قولُهُ[3] تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي ابْتَغُوا بِتَقوى اللهِ عَنْ مَعاصيهِ القُرْبَةَ، والوَسيلَةُ القُرْبَةُ. وكَذَلِكَ الزُّلفَةُ. يُقالُ: تَوَسَّلَ إليَّ بِكَذا أي تقرَّبَ، وهو قولُ القُتَبِيِّ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠ وق: ٣١] أي قُرِّبَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ الآية؛ يَحتَمِلُ هذا وَجهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾ أنفُسَكُمْ في صَرْفِها عَنْ مَعاصيهِ إلى طاعَتِهِ، وهوَ كَقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والثاني[4]: ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾ مَعَ أنفُسِكُمْ وأموالِكُمْ أعداءَ اللهِ في نُصرَةِ دينِهِ، وباللهِ التَّوفيقُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ كانَ الذي يَمنَعُهُمْ عَنِ الإسلامِ والإيمانِ باللهِ والرُّسُلِ قَضاءُ شَهَواتِهِمْ وطَلَبُ العِزِّ والشَّرَفِ بالأموالِ، فَأخبَرَ: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾ في صَرْفِ العَذابِ عَنْ أنفُسِهِمْ ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ ولا يَنفَعُهُمْ ذَلِكَ. يَذكُرُ هَذا، واللهُ أعلَمُ، لِيَصرِفُوا أنفُسَهُمْ عَنْ مَعاصِي اللهِ والخِلافِ لَهُ بِأدنى شَيءٍ يَطلُبُونَ مِنَ الأموالِ والشَّهَواتِ. وأخبَرَ أنَّهُ لَو كانَ ﴿لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ما نَفَعَهُمْ ذَلِكَ، و﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾. والحِكمَةُ في هَذا، واللهُ أعلَمُ، لِيَعلَموا أنَّ الآخِرَةَ لَيسَتْ بِدارٍ تُقبَلُ فيها الرُّشا كَما تُقبَلُ في الدُّنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دَلَّ هذا على أنَّ مِنَ العَذابِ ما لا ألَمَ فيهِ مِنْ نَحوِ الحَبْسِ والقَيدِ. فأخبَرَ أنَّ عَذابَ الآخِرَةِ أليمٌ كُلُّهُ، لَيسَ كَعَذابِ الدُّنيا؛ مِنْهُ مَا يَكونُ أليماً، ومِنْهُ ما لا يَكونُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ الآية. يَحتَمِلُ قولُهُ ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ﴾ منها أي يطلُبُونَ، ويَسألُونَ الخُروجَ مِنها مِنْ غَيرِ عَمَلِ الخُروجِ نَفسِهِ. ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ﴾ منها ولَكِنْ يُرَدُّونَ، ويُعادُونَ إلى مَكانِهِمْ كَقولِهِ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢] أي يَجْهَدونَ في الخُروجِ مِنها ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ فيهِ دَليلُ أنَّهُمْ يَعمَلونَ عَمَلَ الخُروجِ. ولكنْ يُرَدُّونَ، ويُعادُونَ فيها.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ الآيةُ عامَّةٌ في السُّرّاقِ خاصَّةٌ في السَّرِقَةِ لأنَّهُ يُدخِلُ جَميعَ أهلِ الخِطابِ في ذَلِكَ، وإنْ كانَ يَجوزُ أنْ يُدرَأَ الحَدُّ عَنْ بَعضِ السُّرّاقِ إذا سَرَقُوا مِنْ[5] مَحارِمِهِمْ أو مِمَّنْ لَهُ تأويلُ المُلْكِ في مالِهِ أو شُبهَةُ[6] التَّناوُلِ مِنْهُ لأنَّهُ إذا سَرَقَ مِمَّنْ لَيسَ لَهُ ذَلِكَ التَّأويلُ ولا تِلكَ الشُّبهَةُ، قُطِعَ. فَدَلَّ أنَّها عامَّةٌ. وعلى هذا يُخَرَّجُ قولُ ابنِ عَباسٍ رضي الله عنه حِينَ[7] سُئِلَ عَنْ قَولِهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ أخاصٌّ هُوَ أمْ عامٌّ؟ فَقالَ: لا بَلْ عامٌّ أي عامٌّ في السُّرّاقِ. ألا تَرى أنَّهُ قالَ في خَبَرٍ آخَرَ حِينَ[8] سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فقالَ: ما كانَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ قُطِعَ؟ وأمَّا قَولُنا فَخاصٌّ[9] في السَّرِقَةِ لأنَّهُ [لا][10] يَحتَمِلُ قَلبُ أحَدٍ قَطعَ اليَدِ في الشَّيءِ التافِهِ الخَسيسِ الذي إذا أُخِذَ مِنْهُ. دَلَّ أنَّ الخِطابَ بِذَلِكَ مِنَ اللهِ ﷻ رَجَعَ إلى سَرِقَةٍ لا إلى كُلِّ ما يَقَعُ عَلَيهِ اسمُ [المَسروقِ][11]. وكَذَلِكَ الخِطابُ بِقَطعِ اليَدِ رَجَعَ إلى بَعضٍ، وهوَ الكَفُّ وإنْ كانَ اسمُ اليَدِ يَقَعُ مِنَ الأصابِعِ إلى الإبطِ، لأنَّ النَّاسَ مَعَ اختِلافِهِمْ/ ١٢٩ ـ أ/

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: قال. (٤) في الأصل وم: ويحتمل. (٥) في الأصل وم: عن. (٦) في الأصل وم: شبه. (٧) و(٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: خاص. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

اتّفقوا على أنّ اليدَ لا تُقطعُ مِنَ الإبْطِ ولا مِنَ المِرفَقِ لكِنّهُمُ اختلَفُوا في مَا دُونَ ذَلِكَ. فَعَلى قولِ بَعْضِهِمْ تُقْطَعُ الأصَابعُ دُونَ الكَفِّ. وعِنْدَنا أنّهُ تُقطَعُ الأصَابعُ بِالكَفِّ لأنَّهُ بِهَا يُقْبَضُ الشَّيءُ، ويُؤخَذُ. فَخرَجَ الخِطَابُ بالقَطعِ عامًّا[1]، والمُرادُ مِنْهُ رَجَعَ إلى بَعْضِ اليدِ دُونَ بَعْضٍ. وكَذَلِكَ قَولُهُ تعالى: ﴿فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ فَخرَجَ الخِطَابُ بِالقَطْعِ عَامًّا[2]، لَيسَ فِيهِ بَيانُ مَنْ يَتولَّى القَطْعَ؛ فَالمُرادُ مِنْهُ رَجَعَ إلى الوُلاةِ. فَهَذا كُلُّهُ يَدُلُّ على أنْ لَيسَ في مَخْرَجِ عُمُومِ اللَّفْظِ دَليلُ عُمُومِ المُرَادِ، ولا في مَخرَجِ خُصوصِ اللَّفظِ دَليلُ خُصوصِهِ. بَلْ يُعْرَفُ ذَلِكَ كُلُّهُ بِدَليلٍ يَقومُ العُمومُ بِدَليلِ العُمُومِ والخُصوصُ بِدَليلِ الخُصوصِ. فَهذا يَنْقُضُ قَولَ مَنْ يَقُولُ: إنَّهُ على العُمومِ حَتَّى يَقُومَ دَليلُ الخُصوصِ، واللهُ أعْلَمُ.

فَإِنْ قِيلَ لَنا: إيشِ الحِكْمَةُ في إقامَةِ الحَدِّ في السَّرِقَةِ على مَا بِهِ تُكْتَسَبُ السَّرِقَةُ، وهُوَ اليدُ؟ ولَمْ يُقِمِ الحَدَّ في سَائِرِ الحُدُودِ في مَا بِهِ كَانَ اكْتِسابُهَا مِنْ نَحْوِ القِصاصِ [في الزِّنَى][3] وغَيرِهِ: إنَّهُ إذا قَتَلَ [فُلانٌ][4] آخَرَ لا تُقْطَعُ يَدُهُ، وبِهَا كَانَ اكْتِسابُ القَتْلِ، وكَذا الزِّنَى لَمْ يُقَـمِ الحَدُّ على مَا بِهِ كَانَ الزِّنَى، بَلْ أُقِيمَ على غَيرِ مَا بِهِ كَانَ ذَلِكَ الفِعْلُ؟ وفي السَّرِقَةِ أُقِيمَ على مَا بِهِ كَانَ ذَلِكَ الفِعْلُ خَاصَّةً؟. قِيلَ، واللهُ أعْلَمُ، لِخِلَّتَينِ: إمّا لِقُصُورٍ في الاسْتِيفَاءِ مِنَ الحَقِّ أو لِخَوفِ الزِّيادَةِ في الاسْتِيفَاءِ على الحَقِّ لأنَّهُ إذا قُتِلَ، أو قُطِعَتْ يَدُهُ، بَقِيَتْ لَهُ النَّفْسُ، وقَدْ تَلِفَتْ نَفْسُ الآخَرِ، فَكَانَ في ذَلِكَ قُصُورٌ في اسْتِيفَاءِ الحَقِّ. وفي الزِّنَى لَو أُقِيمَ بِهِ على الذي بِهِ كَانَ اكْتِسابُ الفِعْلِ لَخِيفَ تَلَفُ نَفْسِهِ بِهِ، فَكَانَ في ذَلِكَ اسْتِيفَاءُ الزِّيادَةِ على الحَقِّ. وأمّا السَّرِقَةُ فَإنَّهُ أمْكَنَ اسْتِيفَاءُ الحَقِّ مِمّا كَانَ بِهِ اكْتِسابُهَا على غَيرِ قُصُورٍ يَقَعُ في الاسْتِيفَاءِ ولا خَوفِ الزِّيادَةِ في الاسْتِيفَاءِ. لِذَلِكَ كَانَ مَا ذُكِرَ، واللهُ أعْلَمُ.

فَإنْ قِيلَ: مَا الحِكْمَةُ في يَدٍ؛ قِيمَتُها ألُوفٌ بِسَرِقَةِ عَشَرَةٍ؟ وذَلِكَ مِمّا لا يُماثِلُهُ في الظَّاهِرِ، وقَدْ أخْبَرَ أنَّ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠ وغافر: ٤٠] كَيفَ جَزَى هَذا بِأضْعافِ ذَلِكَ؟. قِيلَ: لِهَذا جَوابانِ:

أحَدُهُما: أنَّ جَزاءَ الدُّنيا مِحْنَةٌ، يَمْتَحِنُ عِبادَهُ بِأنْواعِ المِحَنِ ابْتِداءً على غَيرِ جَعْلِ ذَلِكَ جَزاءً لِكَسْبٍ يُكْتَسَبُ. فَمَنْ لَهُ الامْتِحانُ بِأنْواعِ المِحَنِ على غَيرِ جَعْلِها جَزاءَ الشَّيءِ كَانَ لَهُ الامْتِحانُ بِأنْ يَجْعَلَ مَا يُساوِي ألُوفًا فَلْسًا[5] أو حَبَّةً. وباللهِ العِصْمَةُ والنَّجَاةُ.

والثاني: أنْ لَيسَ القَطْعُ في السَّرِقَةِ جَزاءَ مَا أخَذَ مِنَ المالِ، ولَكِنَّهُ جَزاءُ مَا هَتَكَ مِنَ الحُرْمَةِ. ألا تَرَى أنَّهُ قَالَ: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ ولَمْ يَقُلْ جَزاءً بِمَا أخَذا مِنَ الأمْوالِ؟ فَيَجُوزُ أنْ يَبْلُغَ جَزاءُ هَتْكِ تِلْكَ الحُرْمَةِ قَطْعَ اليَدِ، وإنْ قَصُرَ عِلْمُ البَشَرِ على ذَلِكَ لأنَّ مَقادِيرَ العُقُوباتِ إنَّما يَعْرِفُها[6] مَنْ يَعْرِفُ مَقادِيرَ الأجْرامِ. ولَيسَ أحَدٌ مِنَ الخَلائِقِ يَحْتَمِلُ عِلْمُهُ مَبْلَغَ مَقادِيرِ الأجْرامِ. فَإذا لَمْ يَحْتَمِلْ عِلْمُهُمْ مَبْلَغَ مَقادِيرِ عُقُوباتِها مَاذا[7] كَانَ؟ فَحَقُّ القَولِ فِيهِ الاتِّباعُ والتَّسْلِيمُ بَعْدَ العِلْمِ في الإتْباعِ أنَّ اللهَ لا يَجْزِي السَّيِّئَةَ إلّا مِثْلَهَا، وباللهِ التَّوفِيقُ.

ثُمَّ الكَلامُ في قَطْعِ اليُمْنَى مَا رُوِيَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: فَاقْطَعُوا أيْمَانَهُما. وعَنْ عَلِيٍّ ﷺ [أنَّهُ قَالَ][8] إذا سَرَقَ الرَّجُلُ قُطِعَتْ يَدُهُ اليُمْنَى. وعلى ذَلِكَ اتِّفاقُ الأئِمَّةِ[9].

ثُمَّ المَسْألَةُ في مِقْدارِ السَّرِقَةِ، ولَيسَ في الآيَةِ ذِكْرُ مِقْدارِهَا. واخْتَلَفَ أهْلُ العِلْمِ في ذَلِكَ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ: تُقْطَعُ في رُبْعِ دِينارٍ فَصَاعِداً. وقَالَ أصْحَابُنا: لا تُقْطَعُ اليَدُ إلّا في عَشَرَةِ دَراهِمَ فَصَاعِداً أو دِينارٍ.

وقَدْ رُوِيَ مِنَ الأخْبارِ مَا احْتَجَّ بِهِ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ: رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْطَعُ في رُبْعِ دِينارٍ فَصَاعِداً، وعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيرِ يَقُولُ: كَانَتْ عَائِشَةُ ﷺ تُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: «لا تُقْطَعُ اليَدُ إلّا في المِجَنِّ أو في ثَمَنِهِ» [النسائي ٨/ ٨١] وتَزْعُمُ أنَّ قِيمَةَ المِجَنِّ أرْبَعَةُ دَراهِمَ، فَدَلَّ قَولُ عَائِشَةَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لا يَقْطَعُ اليَدَ إلّا في ثَمَنِ المِجَنِّ. وقَولُها[10]: (إنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لا يَقْطَعُ اليَدَ إلّا في رُبْعِ دِينارٍ) [يَدُلُّ على][11] أنَّ ثَمَنَ المِجَنِّ كَانَ عِنْدَها رُبْعَ دِينارٍ، أو لا يَكُونُ كَذَلِكَ. وعلى ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَطَعَ في مِجَنٍّ، قِيمَتُهُ ثَلاثَةُ دَراهِمَ[12].

---

(١) و (٢) في الأصل وم: عام. (٣) في الأصل وم: والزنا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فلس. (٦) في الأصل وم: يعرف.
(٧) في الأصل وم: فإذا. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: الأمة. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.
(١٢) أدرج بعدها في الأصل وم: العبارة التالية: في الخبر أنه قطع في مجن.

جنة السنة

وأمّا التّقويمُ فإنّما هُوَ مِن عِندِ عَبدِ اللهِ وأنسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ قَطَعَ في مِجَنٍّ، فَقيلَ يا أبا حَمزَةَ كَم كَانَت؟ قالَ: وَزنُ خَمسَةِ دَرَاهِمَ. هَذا يَدُلُّ على أنّ التّقويمَ، كَانَ مِن [أنسٍ](١): كَانَ ذَلِكَ كَتَقويمِ ابنِ عُمَرَ وعَائِشَةَ ﷺ وليسَ في التّقويمِ حُجّةٌ في واحِدٍ مِنَ المُقوِّمينَ لِمُخالَفَةِ كُلِّ واحِدٍ صَاحِبَهُ، وإنّما قَوّمُوهُ مِن قِبَلِ أنفُسِهِم. فأمّا إن كَانَ في مِجَنّينِ مُختَلِفَينِ فَهُوَ على التّناسُخِ. وأمّا إن كَانَ في مِجَنٍّ واحِدٍ في وَقتَينِ مُختَلِفَينِ: فَإن كَانَ في وَقتَينِ مُختَلِفَينِ لَم يَكُن لِمُخالِفِنا فِيهِ حُجّةٌ لِمَا يَحتَمِلُ الزّيادَةَ والنُّقصانَ على اختِلافِ الأوقاتِ. وإن كَانَ في مِجَنّينِ مُختَلِفَينِ فَهُوَ على التّناسُخِ، فَلَم يَظهَر، فلا يُقدَمُ على القَطعِ بالشّكِّ. ثُمّ الأخبارُ التي تَمنَعُ القَطعَ بِدونِ العَشَرَةِ مَا رُوِيَ عَن عَمرِو بنِ شُعَيبٍ [أنّهُ](٢) قَالَ: (دَخَلتُ على سَعيدِ بنِ المُسَيّبِ، فَقُلتُ لَهُ: إنّ أصحابَكَ عُروَةَ ومُحَمّدَ بنَ مُسلِمٍ [وفُلاناً ورَجُلاً](٣) آخَرَ يَقُولُونَ: ثَمَنُ المِجَنِّ خَمسَةُ دَرَاهِمَ أو ثَلاثَةٌ، فقالَ: أمّا هذا فَقَد مَضَتِ السُّنّةُ فِيهِ عَن رَسُولِ الله ﷺ عَشَرَةُ دَرَاهِمَ). وعَنِ ابنِ عَبّاسٍ ﷺ [أنّهُ](٤) قالَ: (ثَمَنُ المِجَنِّ في عَهدِ رَسُولِ الله ﷺ عَشَرَةُ دَرَاهِمَ). وعَن عَمرِو بنِ شُعَيبٍ عَن أبيهِ عَن جَدِّهِ عَن رَسُولِ الله ﷺ أنّهُ كَانَ لا يَقطَعُ اليَدَ إلّا في ثَمَنِ المِجَنِّ، وهُوَ يَومَئِذٍ يُساوِي عَشَرَةَ دَرَاهِمَ. فَلَمّا اختَلَفَ المُقوِّمُونَ في قِيمَةِ المِجَنِّ رَجَعنا إلى مَا رُوِيَ عَن سَعيدِ بنِ المُسَيّبِ حِينَ(٥) قالَ: مَضَتِ السُّنّةُ مِن رَسُولِ الله ﷺ بِعَشَرَةِ دَرَاهِمَ وإن كَانَ مُرسَلاً إذ لا مُعارِضَ لَهُ. ويُؤيّدُ هَذا مَا رُوِيَ عَن نُجَباءِ الصّحابَةِ ﷺ مِن نَحوِ عُمَرَ وعُثمانَ وعَليٍّ وعَبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ ﷺ.

ورُوِيَ أنّ عُمَرَ أُتِيَ بِسارِقٍ، فأمَرَ [بِقَطعِ يَدِهِ، فقالَ](٦) عُثمانُ ﷺ: سَرِقَتُهُ لا تُساوِي عَشَرَةَ دَرَاهِمَ. فَأمَرَ بِهَا فَقُوِّمَت بِثَمانِيَةِ(٧) دَرَاهِمَ، [فقالَ](٨): (لا تُقطَعُ اليَدُ إلّا في دِينارٍ أو عَشَرَةِ دَرَاهِمَ).

ورُوِيَ عَن عَائِشَةَ [ﷺ أنّها](٩) قالَت: لَم تَكُنِ اليَدُ تُقطَعُ على عَهدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ في الشّيءِ التّافِهِ). فَأخَذَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى، بِهَذِهِ الأخبارِ، ولَم يَرَوا قَطعَ اليَدِ بِدُونِ العَشَرَةِ لأنّهُم مع اختِلافِهِم اتّفَقُوا على أنّ اليَدَ تُقطَعُ في سَرِقَةِ عَشَرَةِ دَرَاهِمَ. واختَلَفُوا في وُجُوبِ القَطعِ في مَا دُونَ العَشَرَةِ، وهُوَ حَدٌّ قد رُئِيَ لِلإشكالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ؛ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي عِظَةً(١٠) وزَجراً مِنَ اللهِ لِغَيرِهِ لأنّ مَن عَايَنَ آخَرَ قُطِعَت يَدُهُ في سَرِقَةٍ اتّعَظَ بِهِ، وزَجَرَهُ ذَلِكَ عَنِ الإقدامِ عَلَيهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ الآيةَ أي تابَ عَنِ الشّركِ، ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ ما كَانَ يُفسِدُهُ، ويَرتَكِبُهُ في حَالِ شِركِهِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ وَعَدَ لَهُ المَغفِرَةَ والرّحمَةَ إذا تابَ عَنِ الشّركِ، وأصلَحَ مَا كَانَ يُفسِدُهُ، ويَرتَكِبُهُ في حالِ الشّركِ حَتّى لا(١١) يُؤاخَذَ بِشَيءٍ مِمّا كَانَ يَرتَكِبُهُ في حَالِ الشّركِ، ويَتَعاطاهُ إذا أسلَمَ.

ألا تَرَى أنّهُ قالَ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾؟ [الأنفال: ٣٨] والمُسلِمُ في حَالِ الإسلامِ إذا ارتَكَبَ حُدُوداً/ ١٢٩ ـ ب/ وتَعاطاها(١٢)، ثُمّ تابَ، أُوخِذَ(١٣) بِهَا لِوَجهَينِ:

أحَدُهُما: أنّ الكافِرَ لَو أُوخِذَ(١٤) بَعدَ مَا أسلَمَ بِمَا كَانَ ارتَكَبَ في حالِ الكُفرِ، وتَعاطاهُ، فَذَلِكَ يَمنَعُهُ عَنِ الإسلامِ، ويَزجُرُهُ. فَإذا كانَ كَذَلِكَ فَكانَ في إقامَةِ ذَلِكَ والأخذِ بِهَا مِنَ الفَسادِ أكثَرَ مِنَ الصلاحِ، وأمّا المُسلِمُ إذا لَم يُؤاخَذ بِمَا ارتَكَبَ، وتَعاطى بَعدَ التّوبَةِ يُدخِلُ في ذَلِكَ مِنَ الفَسادِ مَا يَفحُشُ، وذَلِكَ أنّهُ لَمّا(١٥) أُرِيدَ أن يُقامَ عَلَيهِ الحَدُّ تابَ، فَسَقَطَ ذَلِكَ عَنهُ، ثُمّ عادَ ثانياً ثُمّ ثالِثاً إلى مَا لا يَتَناهَى. فَعَمِلَ في الأرضِ بِكُلِّ الفَسادِ مِن غَيرِ أن لَحِقَهُ ضَرَرٌ، لِذَلِكَ أُوخِذَ بِهِ بَعدَ التّوبَةِ، والكافِرُ لا، واللهُ أعلَمُ.

والثّاني: أنّ الكافِرَ مَا يَرتَكِبُ في حَالِ الكُفرِ إنّما يَرتَكِبُهُ تَدَيُّناً بِدِينٍ [يَدِينُ](١٦) بِهِ. فإذا رَجَعَ عَن ذَلِكَ الدِّينِ، ودَانَ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وفلان ورجل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: بقطعه قال. (٧) في الأصل وم: ثمانية. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: عظمة. (١١) في الأصل وم: لم. (١٢) في الأصل وم: وتعاطاه. (١٣) في الأصل وم: أخذ. (١٤) في الأصل وم: أخذ. (١٥) في الأصل وم: كما. (١٦) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

بِدِينٍ آخَرَ، مَا يَكُونُ ذَلِكَ حَرَاماً في دِينِهِ الذي تَمَسَّكَ بِهِ، تَرَكَ مَا كَانَ يَرْتَكِبُ في دِينِهِ الأوَّلِ تَدَيُّناً، فَيظْهَرُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمْ يُقَلْ عَلَيْهِ لِمَا يَظْهَرُ مِنْهُ: تَرَكَ مَا تَعَاطَى قَبْلَ ذَلِكَ. وأمَّا المُسْلِمُ فَلَيْسَ يَتَعَاطَى مَا يَتَعَاطَى تَدَيُّناً بِدِينٍ [بَدِينٍ][1] بِهِ، ولَكِنَّهُ يَتَعَاطَاهُ شَهْوَةً؛ وذَلِكَ مِمَّا لا تَظْهَرُ مِنْهُ التَّوْبَةُ حَقِيقَةً. لِذَلِكَ اخْتَلَفَا، واللهُ أعْلَمُ.

وفِيهِ دَلِيلُ جَوَازِ تَأَخُّرِ البَيَانِ لأنَّهُ قَالَ تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً﴾ ولا يَحْتَمِلُ أنْ يُبَيِّنَ لَهُ جَمِيعَ شَرَائِطِ السَّرِقَةِ التي يَجِبُ فِيهَا القَطْعُ وَقْتَ قَرْعِ الخِطَابِ السَّمْعَ. فَدَلَّ أنَّهُ إنَّمَا بَيَّنَ لَهُ على قَدْرِ الحَاجَةِ بَعْدَ السُّؤَالِ والبَحْثِ عَنْهَا، واللهُ أعْلَمُ.

وكَانَ جَمِيعُ مَا ذَكَرَ مِنَ العُقُوبَاتِ إنَّمَا نَزَلَ في أهْلِ الكُفْرِ لأنَّهُمْ هُمُ الذينَ كانوا يَتَعَاطَوْنَ ذلكَ دونَ المسلمينَ، وتَرَكَ عَامَّةَ العُقُوبَاتِ[2] في المسلمينَ لأنهمْ هُمُ الذينَ [لا][3] يَرْغَبُونَ فِيهَا. ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية، [المائدة: ٣٣] ومَا ذَكَرَ في ابْنَي آدَمَ[4] وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً﴾ الآية، [المائدة: ٣٨].

وذُكِرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أنَّهُ قَالَ: نَزَلَتْ في طُعْمَةَ بْنِ أُبَيْرِقٍ سَرَقَ دِرْعَ جَارِهِ، فَنَزَلَتْ الآيَةُ. وعلى ذَلِكَ قَالَ عَامَّةُ أهْلِ التَّأوِيلِ. ثُمَّ صَارَ الحُكْمُ في المُسْلِمِينَ إذا ارْتَكَبُوا تِلْكَ الأجْرَامَ. وفِيهِ دَلِيلُ جَوَازِ القِيَاسِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ هذا، واللهُ أعْلَمُ، على إثْرِ قولِهِ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً﴾ [المائدة: ٣٨] وعلى إثْرِ قولِهِ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [المائدة: ٣٣]. إنَّ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولَهُ أنْ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بَعْدَ التَّوبَةِ وقَبْلَ التَّوبَةِ ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ولا يُعَذِّبُ بَعْدَ التَّوبَةِ. وذَلِكَ أنَّ المُحَارِبَ إذا تَابَ قَبْلَ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِ الحَدُّ الذي وَجَبَ في حَالِ المُحَارَبَةِ، والسَّارِقَ إذا تَابَ قَبْلَ أنْ يُقْدَرَ عَلَيهِ الأخْذُ[5] بِهِ أخْبَرَ أنَّ لَهُ أنْ يُعَذِّبَ مَنْ يَشَاءُ.

وفِيهِ نَقْضٌ على المُعْتَزِلَةِ لأنَّهُمْ يَقُولُونَ: الصَّغِيرَةُ مَغْفُورَةٌ، لَيْسَ لَهُ أنْ يُعَذِّبَ عَلَيْهَا، والكَبِيرَةُ يُخَلَّدُ صَاحِبُهَا في النَّارِ، لَيْسَ لَهُ أنْ يَعْفُوَ عَنْهَا. فَلَو كَانَ على مَا قَالُوا لَذَهَبَ مَعْنَى التَّخْيِيرِ بِقَولِهِ تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ إنْ عَفَا عَفَا مَا عَلَيهِ أنْ يَعْفُوَ، وكَذَلِكَ مَا عَذَّبَ عذَّبَ مَا عَلَيهِ أنْ يُعَذِّبَ، فَتَذْهَبُ فَائِدَةُ التَّخْيِيرِ، وقَدْ أخْبَرَ أنَّهُ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ الآية، يَحْتَمِلُ وُجُوهاً:

أحَدُهَا: ألا يَحْزُنْكَ كُفْرُ مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ، لَيْسَ على النَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ، ولَكِنْ ألا يَحْمِلَ على نَفْسِهِ بِكُفْرِهِمْ مَا يَمْنَعُهُ عَنِ القِيَامِ بِأمْرِهِ كَقَولِهِ[6] تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وكَقَولِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ونَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ مِمَّا يَشْتَدُّ بِهِ الحُزْنُ بِكُفْرِهِمْ لِشِدَّةِ رَغْبَتِهِ في إسْلامِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي لا يَحْزُنْكَ تَمَرُّدُ هَؤلاءِ وتَكْذِيبُهُمْ إيَّاكَ فَإنَّ اللهَ نَاصِرُكَ ومُظْفِرُكَ[7] عَلَيهِمْ.

ويَحْتَمِلُ ﴿لَا يَحْزُنكَ﴾ صُنْعُ هَؤلاءِ الكَفَرَةِ وسُوءُ عَمَلِهِمْ فَإنَّكَ لا تُؤاخَذُ بِصَنِيعِهِمْ كَقَولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] وكَقَولِهِ تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

وفي قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ دَلالَةُ تَفْضِيلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ على غَيرِهِ مِنَ الأنبياءِ والرُّسُلِ لأنَّهُ تعالى في جَمِيعِ مَا خَاطَبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ و لَمْ يُخَاطِبْهُ[8] بِاسْمِهِ، وسَائِرُ الأنْبِيَاءِ، عَلَيهِمُ الصَّلاةُ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: العبادات. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) هو قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ [المائدة: ٢٧]. (٥) في الأصل وم: أخذ. (٦) من م، في الأصل بقوله. (٧) من م، في الأصل: ونظفر لك. (٨) في الأصل وم: يخاطب.

جنة السنة

والسَّلام، إنَّما خاطَبَهُمْ بِأسمائِهِمْ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ و﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ و ﴿يَٰنُوحُ﴾ وجَميعُ مَنْ خاطَبَ مِنهُمْ، أو ذَكَرَ [إنَّما خاطَبَهُمْ][1] بِأسمائِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ قال: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ ولم يَقُلْ: آمَنُوا بِأفواهِهِمْ لِيُعْلَمَ أنَّ القولَ بِهِ لَيسَ مِنْ شَرْطِ الإيمانِ، إنَّما الإيمانُ هُوَ تَصديقُ القلبِ، لكِنْ [يُعَبِّرُ][2] بِهِ اللِّسانُ عَنْ قَلْبِهِ. ألا تَرى أنَّهُ قال: ﴿وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾؟ والإيمانُ هُوَ التَّصديقُ في اللُّغَةِ، لأنَّ ضِدَّهُ التَّكذيبُ، فَيَجِبُ أنْ يَكونَ ضِدَّ التَّكذيبِ التَّصديقُ. [والإيمانُ][3] يَكونُ بِالقلبِ حِينَ[4] قال ﷻ: ﴿وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ لكِنَّ اللِّسانَ يُعَبِّرُ عَنْ ضَميرِهِ، فَهُوَ تَرجُمانُ القَلْبِ في ما بَيْنَ الخَلْقِ.

فَهذا يَدُلُّ أيضاً على أنَّ الإيمانَ لَيسَ هُوَ المَعرِفَةَ لأنَّ الإيمانَ لَو كَانَ مَعْرِفَةً لَكانَ يَجِبُ أنْ يَكونَ ضِدُّهُ جَهلاً. فَلَمَّا كَانَ ضِدُّ الإيمانِ تَكذيباً وَجَبَ أنْ يَكونَ ضِدُّ التَّكذيبِ التَّصديقَ، والتَّصديقُ والإيمانُ في اللُّغَةِ سَواءٌ. ولأنَّ المَعرِفَةَ قَدْ تَقَعُ في القَلْبِ على غَيرِ اكْتِسابِ فِعْلٍ، والتَّصديقُ[5] لا يَكونُ إلّا بِاكْتِسابِ تَرْكِ مُضادَّتِهِ، وهُوَ التَّكذيبُ. لِذلِكَ قُلْنا: إنَّ الإيمانَ لَيسَ هُوَ المَعرِفَةَ، ولَكِنَّهُ تَصديقٌ.

ثُمَّ اخْتُلِفَ في هَؤلاءِ: قالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ المُنافِقونَ الذين كَانُوا يُظْهِرونَ الإيمانَ بِاللِّسانِ، وقُلوبُهُمْ[6] كافِرَةٌ، وقالَ آخَرُونَ، هُمُ اليَهودُ والمُنافِقونَ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾، وهُوَ قَولُ ابنِ عَباسٍ ﷺ ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ ويَدُلُّ[7] قولُهُ تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ [على أنَّهُ][8] في المُنافِقِينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾ يَحْتَمِلُ: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ إلى النَّبِيِّ ﷺ خَبَرَهُ ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾ خَبَرَهُ بِالكَذِبِ. ومَعْناهُ، واللهُ أعْلَمُ، أنَّهُمْ كانُوا يَستَمِعونَ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ خَبَرَهِ ومَا يقولُ لَهُمْ، ثُمَّ يَأتونَ الذينَ لَمْ يَأتُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَيُخْبِرُونَهُمْ خِلافَ خَبَرِهِ وغَيرَ مَا سَمِعُوا مِنْهُ.

وقِيلَ: إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: إنَّ في التَّوراةِ كَذا مِنَ الأحْكامِ والشَّرائِعِ، فَإذا سَمِعَ هَؤلاءِ مِنْهُ ذَلِكَ أتَوا أُولَئِكَ الذينَ لَمْ يَأتُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَيَقُولُونَ: إنَّهُ كاذِبٌ، ولَيسَ فِي التَّوراةِ مَا يَقُولُ هُوَ، ونَحْوَ ذَا. وقِيلَ: إنَّهُمْ كَانُوا طَلائِعَ الكَفَرَةِ وعُيوناً لَهُمْ. فَإذا أتَى لَهُمْ خَبَرٌ يُخْبِرُونَ ضَعَفَةَ أصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ خِلافَ مَا أتاهُمْ نَحْوَ قَولِهِمْ ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٧٣] [لأنَّهُمْ كَانُوا][9] يَخْشَوْنَهُمْ، لِئَلّا يَغْزُوهُمْ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ يَحْتَمِلُ التَّحريفُ وَجْهَينِ:

[يَحْتَمِلُ][10] تَبْدِيلَ الكِتابَةِ مِنَ الأصلِ، كَقَولِهِ تعالى: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

ويَحْتَمِلُ تَغْييرَ المَعْنَى في العِبارَةِ على غَيرِ تَبْدِيلِ الكِتابِ؛ يُغَيِّرُونَ على السَّفَلَةِ والذينَ لا يَعْرِفُونَ غَيرَ مَا فَهِمُوا مِنْهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا﴾ يَعْنُونَ بِـ ﴿هَٰذَا﴾ مَا حَرَّفُوهُ، وغَيَّرُوهُ ﴿فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ عَنِ ابنِ عَباسٍ ﷺ [أنَّهُ][11] قال: نَزَلَتِ الآيةُ في رَجُلٍ وامْرأةٍ مِنَ اليَهودِ، زَنَيا، وإنْ كَانَ حُكْمُ اللهِ في التَّوراةِ في الزِّنى الرَّجْمَ، وكَانُوا يَرْجُمُونَ الوَضِيعَ مِنْهُمْ إذا زَنَى، ولا يَرْجُمُونَ الشَّرِيفَ، وكَانا في شَرَفٍ ومَوْضِعٍ، وكَانا قَدْ أُحْصِنا، فَكَرِهَتِ اليَهودُ رَجْمَهُما [وكانَ][12] في كِتابِهِمُ الرَّجْمُ، وكَانُوا أرادُوا أنْ يَرْتَفِعَ الرَّجْمُ مِنْ بَينِهِمْ وأنْ يَكُونَ/ ١٣٠ ـ أ/ حَدُّهُمُ الجَلْدَ. فَذلِكَ قَولُهُ تعالى: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا﴾ يَعْنُونَ الجَلْدَ ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ فَكَتَبُوا بِذَلِكَ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَألُوا عَنْ ذَلِكَ،

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل: ربما والتصديق، في م: ربما التصديق. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: هذا ويدل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: كما، في م: كانوا. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

فَقَالُوا: يا مُحَمَّدُ أَخبِرْنَا عن الزاني والزَّانِيَةِ إذا أُحصِنَا ما حَدُّهُمَا؟ وهَلْ تَجِدُ فِيهِمَا الرَّجْمَ في مَا أَنزَلَ اللهُ تعالى عَلَيكَ؟ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: وهلْ تَرْضَونَ بِقَضَائِي في ذَلِكَ؟ قَالُوا: نعم. فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ وقالَ لَهُ: إنْ أَبَوا أن يَأْخُذُوا بِهِ، فاسْأَلْهُمْ عَنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ، يُقَالُ لَهُ: ابْنُ صُورِيا، ووَصَفَه[1] لَهُ، فَاجْعَلْهُ بَيْنَكَ وبَيْنَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: نَعَمْ أَجِدُ في مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ أَنَّ الزَّانِيَةَ والزَّانِي، إذا أُحصِنَا، وفَجَرَا، فإنَّ عَلَيْهِمَا الرَّجْمَ، فَنَفَرُوا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ أَتَعْرِفُونَ رَجُلاً شابًّا، صِفَتُهُ كَذا، يُقَالُ لهُ: ابنُ صُورِيا؟ قَالُوا: نَعَمْ. قالَ: فَأَيُّ رَجُلٍ، هُوَ فِيكُمْ؟ قَالُوا: وهُوَ أَعْلَمُ [اليهودِ على ظَهْرِ][2] الأرضِ بِمَا أَنزَلَ اللهُ على مُوسَى، قالَ: فَأَرْسِلُوا إليهِ، فَفَعَلُوا، فَأَتَاهُمْ ابنُ صُورِيا، فقالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: أَنتَ ابنُ صُورِيا؟ قالَ: نَعَمْ. قالَ: أنتَ أَعْلَمُ اليَهُودِ؟ قالَ: كَذَلِكَ يَزْعُمُونَ. قالَ: اجْعَلُوهُ بَيْني وبَيْنَكُم. قالُوا: نَعَمْ رَضِينَا بِهِ إذا رَضِيتَ. قالَ: فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: فَأنّى تُشْرِكُ بِاللهِ الذي لا إِلَهَ إلا هُوَ الذي أَنزَلَ[3] التَّوْرَاةَ على مُوسَى؟ هَلْ تَجِدُونَ في كِتَابِكُمْ الذي أَتَاكُمْ بِهِ مُوسَى في التَّوْرَاةِ الرَّجْمَ على مَنْ أُحصِنَ؟ قالَ ابنُ صُورِيا: نَعَمْ، والذي ذَكَّرْتَني لَولا خَشْيَةُ أنْ تُحْرِقَني النَّارُ إنْ كَذَبتُ، أو غَيَّرْتُ، ما اعتَرَفْتُ لَكَ. فَفِي هذا وجوهٌ مِنَ الدَّلائِلِ:

أحدُهَا: أنْ سَأَلَهُمْ عَمَّا كَتَمُوا مِنَ الأحْكَامِ والحُقُوقِ التي بَيْنَهُمْ و بَينَ الله تعالى لِيُظْهِرَ خِيانَتَهُمْ وكَذِبَهُمْ في مَا كَتَمُوا مِنْ بَعْثِ[4] رَسُولِ اللهِ ﷺ وصِفَتِهِ، لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ إنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِاللهِ. وفِيهِ إثْبَاتُ رِسَالَتِهِ.

والثاني: أنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ الرُّخْصَةَ والتَّخْفِيفَ في الحَدِّ: أنَّهُمْ عَرَفُوا أنَّهُ رَسُولُ اللهِ، لَكِنَّهُمْ كَابَرُوا في الإنكارِ بَعْدَ مَا عَرَفُوا أنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَقًّا. وفِيهِ دَلالَةُ شَهادَةِ بَعْضِهِمْ على بَعْضٍ لأنَّهُ قَبِلَ شَهادَةَ ابنِ صُورِيا عَلَيهِمْ حِينَ[5] شَهِدَ بِالرَّجْمِ.

[والثالثُ: ما][6] قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ الآيةَ إنَّهَا نَزَلَتْ في قَتِيلٍ قُتِلَ عَمْدًا بَينَ قَبِيلَتَينِ بَني قُرَيظَةَ [وبَني][7] النَّضِيرِ. وكانَ القَتِيلُ مِنْ بَني قُرَيظَةَ. وكانَ[8] بَنُو النَّضِيرِ إذا قَتَلُوا مِنْ بَني قُرَيظَةَ، لَم يُعْطُوهُمُ القَوَدَ، ولَكِنْ يُعْطُونَهُمُ[9] الدِّيَةَ، [وإذا][10] قَتَلَ بَنُو قُرَيظَةَ مِنْ بَني النَّضِيرِ لَمْ يَرْضَوا إلا بِالقَوَدِ؛ يَتَعَزَّزُونَ عليهِمْ. فَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ، فَأَرَادُوا أنْ يَرْفَعُوا أمْرَهُمْ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ المُنَافِقِينَ: إنَّ قَتِيلَكُمْ قُتِلَ عَمْدًا، وأنا أَخْشَى عَلَيْكُمُ القَوَدَ. فإنْ كَانَ مُحَمَّدٌ أَمَرَكُمْ بِالدِّيَةِ لِقَتِيلٍ مِنكُمْ، فَأَعْطُوهُ ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ فلا نَدْري فِيمَ كانَتِ القِصَّةُ؟ وفِيهِ مِنَ الدَّلائِلِ ما ذَكَرْنَا مِنْ إثْبَاتِ الرِّسَالَةِ والنُّبُوَّةِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ قِيلَ: مَنْ يُرِدِ اللهُ عَذَابَهُ وإهْلاكَهُ فلا يَمْلِكُ أحَدٌ دَفْعَ ذَلِكَ العَذَابِ عَنْهُ.

وقِيلَ: الفِتْنَةُ المِحْنَةُ أي مَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يَمْتَحِنَ بِالرَّجْمِ أو القَتْلِ فَلَنْ يَمْلِكَ لَهُ أحَدٌ رَفْعَ ذَلِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ قالتِ المُعْتَزِلَةُ: قولُهُ: ﴿لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ تأويلُهُ يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

[الأوّلُ][11]: يَحْتَمِلُ ﴿لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ﴾ أي لَمْ يُطَهِّرِ اللهُ قُلُوبَهُمْ.

والثاني: [يَحْتَمِلُ][12] ﴿لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ بِالشِّرْكِ والكُفْرِ، وذَلِكَ بَعِيدٌ لأنَّهُ كَيفَ يُطَهِّرُ بِالكُفْرِ؟ وبِالكُفْرِ يَتَنَجَّسُ.

لكنَّ الوجهَ عِندَنا في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ أي ﴿لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ إنْ عَلِمَ مِنْهُمْ أنَّهُمْ يَخْتَارُونَ ما اخْتَارُوا، ويُرِيدُونَ ما أرادُوا فإنَّمَا أرادَ ما كَانَ عَلِمَ مِنهم [أنَّهُم][13] يُرِيدُونَ ما أرادُوا[14]، وإنَّمَا أرادَ ما كانَ عَلِمَ مِنْهُمْ أنَّهُمْ يُرِيدُونَ، ويَخْتَارُونَ. وكَذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ إنْ[15] عَلِمَ أنَّهُ يُرِيدُهَا، ويَخْتَارُهَا فإنَّمَا يُرِيدُ مَا أرادَ هُوَ، ويَخْتَارُ.

---

(١) في الأصل وم: وصف. (٢) في الأصل: يهودي على، في م: يهودي على ظهر. (٣) في الأصل وم: أنزلت. (٤) في الأصل وم: نعت.
(٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كانت. (٩) في الأصل وم: يعطوهم.
(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: أراد.
(١٥) في الأصل وم: من.

جنة السنة

وظاهِرُ الآيةِ على المُعتزِلَةِ لأنَّهُ قالَ: ﴿لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ وذلكَ ظاهِرُ الخِلافِ، وباللهِ العِصْمَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ الخِزيُ في الدُّنيا القَتْلُ والعَذابُ والخِزيَةُ ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

يَحتَمِلُ: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ أي مُستَمِعونَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَعرِفُوا، فيَكذِبُوا عليهِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي قابِلونَ: ما[1] أُلقِيَ إليهِم مِنَ الكَذِبِ كانوا يَقبَلونَ[2]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ قالَ بعضُهُم: كلُّ حَرامٍ، هوَ سُحتٌ. وإنْ كانَ السُّحتُ اسمَ كلِّ حَرامٍ فذلكَ يَعُمُّ كلَّ حَرامٍ وجَميعَ الكَفَرَةِ أو أكثَرَهُم. وقالَ بعضُهُم: السُّحتُ هوَ الرِّشوَةُ في الحُكمِ. فإنْ كانَ السُّحتُ هذا فذلكَ يَرجِعُ إلى رُؤَسائِهِمُ الذينَ يَحكُمونَ في ما بينَهُم، ويأخُذونَ على ذلكَ رِشوَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ اختُلِفَ فيهِ، قالَ بعضُهُم: هوَ على التَّخييرِ إذا رَفَعوا إلى الإمامِ [أمرَهُم][3] إنْ شاءَ حَكَمَ بينَهُم، وإنْ شاءَ أعرَضَ، ولَم يَحكُم. [وقالَ بعضُهُم: إنَّهُ][4] مَنسوخٌ بِقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ﴾ [الآية: ٤٩] أمرٌ بالحُكمِ بينَهُم، إذا جاؤوا، ونَهيٌ أنْ يَتَّبِعَ أهواءَهُم، وفي تَركِ الحُكمِ بينَهُم اتِّباعُ هَواهُم. قالوا منسوخٌ بهذهِ الآيةِ.

وأمكَنَ الجَمعُ بينَهُم، وهوَ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ في قومٍ مِن أهلِ الحَربِ دَخَلوا دارَ الإسلامِ بأمانٍ، فرَفَعوا إلى الإمامِ أمرَهُم، فالإمامُ بالخِيارِ إنْ شاءَ رَدَّهُم إلى مَأمَنِهِم، ونَقَضَ عليهِم أمانَهُم، ولم يَحكُم بينَهُم، وإنْ شاءَ [ما][5] تَرَكَهُم، وحَكَمَ بينَهُم، فذلكَ معنى التَّخييرِ، واللهُ أعلَمُ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ﴾ ذلكَ في أهلِ الذِّمَّةِ الرَّاضينَ بِحُكمِنا؛ إذا رَفَعوا إلى الحاكِمِ [أمرَهُم][6] يَجِبُ أنْ يَحكُمَ بينَهُم، ولا يَرُدَّ عليهِم ما طَلَبوا مِن إجراءِ الحُكمِ عليهِم لأنَّهُم بهِ ليسَ لهُ فَسخُ ما أعطى لَهُم مِنَ العُهودِ والمَواثيقِ، وهُم قد رَضُوا بِحُكمِنا. لِذلكَ أُلزِمَ الحُكمَ بينَهُم، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

يَحتَمِلُ أنْ يَقَعَ الإعراضُ عنهُم موقِعَ الجَفاءِ، ويَعُدُّوا[7] ذلكَ جَفاءً، فأمَّنَ[8] ﷻ نَبِيَّهُ ﷺ عن أنْ يَلحَقَهُ ضَرَرٌ مِنهُم.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ أي ليسَ عليكَ ضَرَرُ ما هُم فيهِ؛ فإنَّما ضَرَرُ ذلكَ عليهِم، وهوَ كَقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] وكَقولِهِ تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعَدلِ كَقولِهِ تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥] وكَقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ الآية [النساء: ٥٨].

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي العادِلينَ في الحُكمِ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ يُعجِبُ نَبِيَّهُ ﷺ [مِن][10] شِدَّةِ سَفَهِهِم وتَعَنُّتِهِم بِتَركِهِمُ الحُكمَ بالذي صَدَّقوا وطَلَبِ الحُكمِ بِما كَذَّبوا لأنَّهُم صَدَّقوا التَّوراةَ وما فيها مِنَ الحُكمِ، وكَذَّبوا ما أُنزِلَ على مُحمَّدٍ، [عليهِ أفضلُ/ ١٣٠ ـ ب/ الصَّلواتِ][11]. يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنَّهُم إذا لم يَعمَلوا[12] بالذي صَدَّقوا كيفَ يَعمَلونَ بالذي كَذَّبوا؟ وذلكَ تَعجيبٌ مِنهُ إيَّاهُ [مِن][13] شِدَّةِ السَّفَهِ والتَّعَنُّتِ.

---

(١) في الأصل: لا، في م: لما. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: لما ألقي إليهم من الكذب. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: لكنه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ويعدون. (٨) في الأصل وم: فامنه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في م: ﷺ. (١٢) في الأصل وم: يعلموا. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ أي حُكْمُ اللهِ الذي تَنازَعُوا فيهِ، وتَشاجَرُوا رَجْماً كانَ أو قِصاصاً أو ما كانَ، واللهُ أعْلَمُ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

يَحْتَمِلُ: ﴿يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ﴾ ما تَحْكُمُ بينَهُم عمّا حَكَمْتَ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ﴾ ما عَرَفُوا مِنَ الحُكْمِ علَيهِم بِمَا في التَّوراةِ](١).

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾ في ما تَحْكُمُ علَيهِم ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ أمَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَرَّهُم ونَكَبَتَهُم، وأمَرَ أنْ يَخْشَوهُ، يَكْفِيهِ شَرَّهُم وأذاهُم.

ثُمَّ اخْتُلِفَ في ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الرَّبّانِيُّونَ عُلَماءُ اليَهودِ، والأحْبارُ عُلَماءُ النَّصارَى، وهُما واحِدٌ؛ سُمُّوا بِاسْمَينِ مُخْتَلِفَينِ. وقِيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ إنَّما خاطَبَ عُلَماءَهُمْ؛ أي ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾ إنْ تُخْبِروهُمْ بِالحُكْمِ الذي في التَّوراةِ ﴿وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لَهُمْ خَرَجَ الخِطابُ بِهَذا على التَّأويلِ الثّاني.

[وقولُهُ تعالى](٢): ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هكذا مَنْ جَحَدَ بِمَا أنْزَلَ اللهُ، ولَمْ يَرَهُ(٣) حَقّاً فَهُوَ كافِرٌ. ذُكِرَ في القِصَّةِ أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في قَتِيلٍ كانَ بَيْنَ بَني قُرَيظَةَ وبَني النَّضِيرِ؛ إنَّ بَني النَّضِيرِ إذا قَتَلُوا [مِنْ](٤) بَني قُرَيظَةَ لَمْ [يُعطوهُمُ القَوَدَ](٥)، ولكنْ يُعْطونَهُمُ الدِّيَةَ فَنَزَلَ ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ إلى آخِرِهِ. أخْبَرَ اللهُ ﷻ أنَّهُ كانَ كَتَبَ على أهْلِ التَّوْراةِ ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ وقَدْ كَتَبَ علَينا أيضاً قَتْلَ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ بِقَولِهِ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] كأنَّهُ قالَ: كَتَبْتُ(٦) علَيكُمُ القِصاصَ في القَتْلِ بِالنَّفْسِ كَما كُنْتُ كَتَبْتُ علَيهِمْ. وأمّا القِصاصُ في ما دُونَ النَّفْسِ فإنَّهُ لَمْ يُبَيِّنْ في الآيةِ التي أخْبَرَ ﷻ أنَّهُ كَتَبَ علَينا القِصاصَ في القَتْلِ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾ إلى ما ذَكَرَ وَجْهَينِ:

يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ إخْباراً عَمّا كانَ مَكْتُوباً علَيهِمْ مِنَ القِصاصِ في ما دُونَ النَّفْسِ كالنَّفْسِ. ألا تَرى أنَّهُ قُرِئَ في بَعْضِ القِراءاتِ بِالنَّصْبِ نَسَقاً(٧) على الأوَّلِ؟

ويَحْتَمِلُ على الابْتِداءِ على غَيرِ إخْبارٍ مِنْهُ، ولكنْ على الإيجابِ ابْتِداءً.

والذي يَدُلُّ على ذلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ هذا في الخَبَرِ لأنَّ ذلِكَ تَرْغِيبٌ في العَفْوِ في الحادِثِ مِنَ الوَقْتِ. دَلَّ أنَّهُ لَيسَ على الإخْبارِ، ولكنْ على الابْتِداءِ. ألا تَرى أكْثَرَ القُرّاءِ قَرَؤُوا بِالرَّفْعِ غَيرَ قَولِهِ: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ فإنَّهُ بِالنَّصْبِ؟

ثُمَّ ذَكَرَ ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ ولَمْ يَذْكُرِ اليَدَ والرِّجْلَ. وذلِكَ يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحَدُهُما: لِمْ يَحْتَمِلْ أنْ يَكُونَ القِصاصُ في اليَدِ ظاهِراً(٨)، فَيُسْتَدَلُّ بِوُجُوبِهِ في ما هُوَ أظْهَرُ مِنْهُ لأنَّ المُنْتَفِعَ بِالبَصَرِ والأنْفِ والسَّمْعِ لَيسَ إلّا صاحِبُهُ، وقَدْ يَنْتَفِعُ غَيرُهُ بِيَدِ آخَرَ و بِرِجْلِهِ.

والثّاني: أنْ يَكُونَ وُجوبُ القِصاصِ في اليَدِ في قَولِهِ: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

---

(١) ساقطة من م. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يرى. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: يرضوا إلا بالقود. انظر ما أدرج في بيان سبب نزول قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [الآية: ٤١]. والحكم في القتل بين بني النضير وبني قريظة ص٨٠ و٨٩. (٦) في الأصل وم: كتب. (٧) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر كلها بالنصب والجروح رفعاً وقرأ نافع وعاصم وحمزة جميع ذلك بالنصب، وقرأ الكسائي كلها بالرفع. انظر حجة القراءات ص (٢٢٥). (٨) في الأصل وم: ظاهر.

جنة السنة

ثُمَّ تَخصيصُ الأسْنانِ بِوجُوبِ القِصاصِ دُونَ غَيرِهَا مِنَ العِظَامِ لأنَّ الأسْنَانَ بَادِيةٌ ظَاهِرَةٌ، ويَقَعُ عَلَيهَا البَصَرُ، ويُقْدَرُ[1] على الاقْتِصاصِ.

وأمَّا غَيرُهَا مِنَ العِظَامِ مِمَّا لا يَقَعُ عَلَيهَا البَصَرُ، ولا يُقْدَرُ على الاقْتِصاصِ إلَّا بَعْدَ كَسْرٍ آخَرَ وقَطْعِ لَحْمٍ، لِذَلِكَ خُصَّتِ الأسْنَانُ بِالاقْتِصاصِ دُونَ سَائِرِ العِظَامِ، واللهُ أعْلَمُ.

ثُمَّ فِيهِ دَلِيلُ وُجُوبِ القِصَاصِ في العُضْوِ[2] الذي لا مَنْفَعَةَ فِيهِ سِوَى البَهَاءِ بِذَهَابِ البَهَاءِ لأنَّهُ ذَكَرَ الأنفَ والأُذُنَ، ولَيسَ في الأنفِ والأُذُنِ إلا[3] ذَهَابُ البَهَاءِ، فَأَوْجَبَ في ذَهَابِ البَهَاءِ القِصاصَ كَمَا أَوجَبَهُ[4] في ذَهَابِ المَنْفَعَةِ. وعلى هَذا يَخرُجُ قَولُنَا: وجُوبُ الدِّيَةِ في ذَهَابِ البَهَاءِ على الكَمَالِ كَوُجُوبِهَا في ذَهَابِ المَنْفَعَةِ على الكَمَالِ. على [أنَّ][5] أهْلَ العِلْمِ مُجْمِعُونَ أنَّ القِصاصَ وَاجِبٌ بَينَ الرِّجَالِ الأحْرَارِ في العَينِ والأنفِ والأُذُنِ والسِّنِ والجُرُوحِ التي لَيسَ فِيهَا كَسْرُ عَظْمٍ إذا جُنِيَ على شَيءٍ مِنْ ذَلِكَ عَمْداً تَحْدِيدُهُ. وأمَّا القِصَاصُ بَينَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والعَبِيدِ والأحْرَارِ في مَا دُونَ النَّفْسِ فَأَهْلُ العِلْمِ اختَلَفُوا فِيهِ، وكَانَ أصْحَابُنَا، رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى، لا يَرَونَ القِصَاصَ بَينَهُمْ في ذَلِكَ، ويَرَونَ القِصَاصَ في الأنفُسِ. فَأَهْلُ العِلْمِ اختَلَفُوا فِيهِ. والفَرْقُ بَينَهُمَا أنَّ جَمَاعَةً لَو قَتَلُوا رَجُلاً قُتِلُوا بِهِ، ولَو قَطَعَ جَمَاعَةٌ يَدَ رَجُلٍ لَمْ تُقْطَعْ أيدِيهِمْ. فَالتَّفَاضُلُ في النَّفْسِ غَيرُ مُعْتَبَرٍ بِهِ، ويُعْتَبَرُ في مَا دُونَ النَّفْسِ، وقَدْ ذَكَرْنَا هَذِهِ المَسْأَلَةَ في مَا تَقَدَّمَ ذِكْراً كَافِياً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ اختُلِفَ فِيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صَاحِبُ الدَّمِ، كَفَّارَةٌ لِمَا كَانَ ارْتَكَبَ هُوَ. وعلى ذَلِكَ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ [أنَّهُ][6] قَالَ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِدَمٍ فَمَا دُونَهُ كَانَ لَهُ كَفَّارَةٌ مِن يَومِ وُلِدَ إلى يَومِ تَصَدَّقَ» [أبو يعلى: ٦٨٦٩] وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ يَعْنِي كَفَّارَةً لِلقَاتِلِ إذا عَفَا الوَلِيُّ؛ وهُوَ قَولُ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه. وعَنْ مُجَاهِدٍ هُوَ كَفَّارَةٌ لِلجَارِحِ وأجْرٌ لِلمُتَصَدِّقِ على اللهِ. والأوَّلُ كَأنَّهُ أقْرَبُ وأشْبَهُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هَذا إذا تَرَكَ الحُكْمَ بِمَا أنْزَلَ اللهُ جُحُوداً مِنْهُ فَهُوَ[7] كَافِرٌ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ قولُهُ تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي أتْبَعْنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ وهُوَ مِنَ القَفَاءِ. وقولُهُ: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ: يَحتَمِلُ ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ الرُّسُلَ. ويَحْتَمِلُ على آثَارِ الذينَ أنزلَ فِيهِمُ التَّوْرَاةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ مِنَ الضَّلالَةِ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ ﴿وَنُورٌ﴾ لِمَنِ استَنَارَهُ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ فَهَذا يَدُلُّ أنَّ الكُتُبَ كَانَتْ مُصَدِّقَةً بَعْضُهَا بَعْضاً على بُعْدِ أوْقَاتِ النُّزُولِ. جَلَّ اللهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يَحْتَمِلُ: مَوْعِظَةً لِلْمُؤْمِنِينَ[8] لأنَّ المُؤْمِنَ هُوَ الذي يَتَّعِظُ بِهِ. وأمَّا غَيرُ المُؤْمِنِ فَلا يَتَّعِظُ بِهِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذينَ اتَّقَوُا المَعَاصِيَ كُلَّهَا.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾، وكَذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] دلالةٌ [على][9] أنَّ القِصَاصَ لِلعِبَادِ خَاصَّةً [حِينَ رَغَّبَهُمْ][10] في العَفْوِ عَنْهُ والتَّرْكِ لَهُ. لَيسَ كَالحُدُودِ التي هِيَ للهِ لأنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ في الحُدُودِ العَفْوَ ولا التَّصَدُّقَ بِهِ، وذَكَرَهُ[11] في القِصَاصِ والجِرَاحَاتِ. دَلَّ أنَّ ذَلِكَ لِلعَبْدِ؛ لَهُ تَرْكُهُ، وسَائِرَ الحُدُودِ للهِ، لَيسَ لأحَدٍ إبْطَالُهُ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ذَكَرَ في مَوْضِعٍ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الآية: ٤٤] وفي مَوْضِعٍ: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الآية: ٤٥] وفي

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل العفو. (٣) في الأصل وم: لا. (٤) في الأصل وم: أوجب، وأدرج قبل كلمة أوجب في الأصل وم: كما أوجب في ذهاب الهاء القصاص. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: ما ذكر. (٨) في الأصل وم: للمتقين. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث رغبه. (١١) في الأصل وم: ذكر.

جنة السنة

موضع ﴿ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الآية: ٤٧] فأمكن أن يكون كُلُّهُ واحداً[(١)]؛ مَن لَم يَحكُم بِمَا أنزلَ الله جُحُوداً مِنهُ لَهُ واستِخفافاً فَهُوَ كافِرٌ ظالِمٌ فاسِقٌ. ويَحتَمِلُ أن يَكُونَ مَا ذَكَرَ مِنَ الكُفرِ بِتَركِ الحُكمِ بِهِ جُحُوداً مِنهُ وإنكاراً وما ذَكَرَ مِنَ الظُّلمِ والفِسقِ في المُسلِمِينَ لأنَّهُ قال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾ إلى آخِرِ مَا ذَكَرَ [الآية: ٤٥]، ثُمَّ قال: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ ثُمَّ قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الآية: ٤٥] تَرَكُوا الحُكمَ بِمَا أنزلَ الله اتِّباعاً لأهوائِهِم[(٢)] لا جُحُوداً فَقَد ظَلَمُوا أنفُسَهُم لأنَّ الظُّلمَ هُوَ وَضعُ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِهِ، والفِسقُ هُوَ الخُرُوجُ عَنِ[(٣)] الأمرِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] أي خَرَجَ. ثُمَّ يَجِيءُ أن يَكُونَ هذا في حَالِ الجَهلِ والعِلمِ سَواءً لأنَّهُ إذا/ ١٣١ ـ أ/ ﴿لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الآية: ٤٥] فَقَد وَضَعَ الشَّيءَ في غَيرِ مَوضِعِهِ، وخَرَجَ عَن أمرِهِ. لَكِنَّ هذا في القولِ يَقبُحُ أن يُقالَ: هُوَ ظالِمٌ فاسِقٌ. وهُوَ إنَّما يَفعَلُ عن جَهلٍ بِهِ، ويَجُوزُ[(٤)] أن يُقالَ: فِعلُهُ فِعلُ ظُلمٍ وفِسقٍ. وأمَّا في القولِ فَهُوَ قَبِيحٌ لِمَا ذَكَرنا.

[وقولُهُ تعالى][(٥)]: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فِيهِ مِنَ الأحكامِ: أيُّ حُكمٍ كانَ فَهُوَ مَا ذَكَرنا، والله أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ قولُهُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ قَد ذَكَرنا في مَا تَقَدَّمَ في غَيرِ مَوضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قَد ذَكَرنا أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنَّهُ][(٦)] قال: مُؤتَمِناً عليهِ، والكسائِيُّ: المُهَيمِنُ الشَّدِيدُ. وقِيلَ: الرَّقِيبُ على الشَّيءِ، وقِيلَ[(٧)]: هَيمَنَ فُلانٌ على هذا الأمرِ، فَهُوَ مُهَيمِنٌ إذا كانَ الحافِظَ لَهُ و الرَّقِيبَ عليهِ. وعنِ الحَسَنِ [أنَّهُ][(٨)] قال: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ مُصَدِّقاً بِهَذِهِ الكُتُبِ وأمِيناً عَلَيها. والقُتَبِيُّ قال: أمِيناً عليهِ، وأبو عَوسَجَةَ قال: مُسَلَّطاً عليهِ. وقِيلَ: مُفَسِّراً يُفَسِّرُ التَّفسِيرَ. وقالَ أبو بَكرٍ الكَيسانِيُّ: قولُهُ تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ هِيَ كَلِمَةٌ مَأخُوذَةٌ مِن كُتُبِهِم غَيرُ مُعَرَّبَةٍ مِن لِسانِ العَرَبِ. وفِيهِ إثباتُ رِسالَتِهِ ﷺ وتأويلُهُ: هُوَ شاهِدٌ وحافِظٌ على غَيرِهِ مِنَ الكُتُبِ ومُصَدِّقٌ[(٩)] لَها مِن عِندِ اللهِ نَزَلَت سِوى مَا غَيَّرُوا فِيهَا، وحَرَّفُوهُ لِيَمِيزَ المُغَيَّرَ مِنها والمُحَرَّفَ. قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ القُرآنُ شاهِدٌ على الكُتُبِ كُلِّها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مِنَ الرَّجمِ في الزَّانِي الثَّيِّبِ على مَا ذُكِرَ في بَعضِ القِصَّةِ أنَّهُم رَفَعُوا إلى رَسُولِ الله ﷺ [أمرَهُم][(١٠)] في الزَّانِي والزَّانِيَةِ مِنهُم، فَطَلَبُوا مِنهُ الجَلدَ، وكانَ في كُتُبِهِمُ الرَّجمُ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ بِقَولِهِم: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: ٤١] أو أن يُقالَ: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ مِنَ القَتلِ لأنَّهُ ذُكِرَ في بَعضِ القِصَّةِ أنَّ [بَني النَّضِيرِ][(١١)] كانُوا يَرَونَ لأنفُسِهِم فَضِيلَةً على بَني قُرَيظَةَ[(١٢)]، وكانُوا إذا قَتَلُوا مِنهُم أحداً لَم يُعطُوهُمُ القَوَدَ، [ولكن][(١٣)] يُعطُونَهُمُ الدِّيَةَ، والله أعلَمُ بِالقِصَّةِ أن كَيفَ كانَت؟ ولَيسَ بِنا إلى مَعرِفَةِ القِصَّةِ ومَاهِيَّتِها حاجَةٌ بَعدَ مَا أُودِعَ فِيهِ، وأُدرِجَ مِنَ المَعانِي.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ الآية، فإن قِيلَ: كَيفَ نَهاهُ عَنِ اتِّباعِ أهوائِهِم، وقَد أخبَرَ ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وقَد يَجُوزُ أن يَكُونَ مَا هَوَوا هُم شَرِيعَةً لَهُم؟ قِيلَ: يَحتَمِلُ النَّهيُ عَنِ اتِّباعِ هَواهُم، لا يَجُوزُ أن يَهوَوا الحُكمَ بِشَرِيعَةٍ، قَد نُسِخَ الحُكمُ بِها، لِمَا اعتادُوا العَمَلَ بِها. فالعَمَلُ بِالمُعتادِ مِنَ الحُكمِ أيسَرُ، فَهَوَوا ذَلِكَ، أو كانَ مَا نُسِخَ أخَفَّ، فَيَهوَونَ، فَنَهاهُ عَنِ اتِّباعِ هَواهُم لأنَّ العَمَلَ بِالمَنسُوخِ حَرامٌ. وإن كانَ هُوَ في بَعضٍ على غَيرِها شَرَعَ، وفي بَعضِ مَا شَرَعَ، فَما[(١٤)] نَهى عَنِ اتِّباعِ هَواهُم بِمَا لَم يَشرَع، فإنَّما نَهى.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ولَيسَ في نَسخِ شَرِيعَةٍ بِشَرِيعَةٍ خُرُوجٌ عَنِ الحِكمَةِ؛ مِن عُرفِ النَّسخِ بَيانُ مُنتَهى الحُكمِ إلى وَقتٍ، لَيسَ على مَا فَهِمَتِ اليَهُودُ مِنَ البَدءِ والرُّجُوعِ عَمَّا كانَ، وقَد ذَكَرنا الوَجهَ في ذَلِكَ في مَا تَقَدَّمَ، مَا فِيهِ مُقنِعٌ بِحَمدِ اللهِ ومَنِّهِ وقولِهِ ﷻ.

---

(١) في الأصل وم: واحد. (٢) في الأصل وم: لهوائهم. (٣) من م، في الأصل: عند. (٤) الواو ساقطة من الاصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: قال. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ومصدقا. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قريظة. (١٢) في الأصل وم: النضير. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل: ما نها، في م: فإنما.

جنة السنة

قالَ ابنُ عَباسٍ ﷺ: الشِّرْعَةُ هِيَ السَّبِيلُ، وهِيَ الشَّرِيعَةُ، وجَمْعُهَا شَرائِعُ، وبِهَا سُمِّيَتْ شَرائِعُ الإِسْلامِ، وكُلُّ شَيءٍ شَرَعْتَ فِيهِ فَهُوَ شَرِيعَةٌ. وقالَ: المِنْهَاجُ السُّنَّةُ، والشِّرْعَةُ هِيَ السَّبِيلُ. وقِيلَ: الشِّرْعَةُ السُّنَّةُ، والمِنْهَاجُ السَّبِيلُ؛ يَعني الطَّرِيقَ الواضِحَ الذي يَتَّضِحُ لِكُلِّ سالِكٍ فِيهِ إِلّا المُعانِدَ والمُكابِرَ فَإِنَّهُ يَتْرُكُ السُّلُوكَ فيهِ مُكابَرَةً. يُخْبِرُ ﷻ واللهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُ لَمْ يَتْرُكِ النّاسَ حَيارَى، لَمْ يُبَيِّنْ لَهُمُ الطَّرِيقَ الواضِحَ يَسْلُكُونَ فِيهِ، بَلْ يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا يَتَضِحُ لَهُمْ، إِنْ لَمْ يُعانِدُوا لِيَقْطَعَ لَهُمُ العُذْرَ والحِجاجَ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ حِجاجٌ، وبِاللهِ التَّوفِيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ اخْتُلِفَ فِيهِ:

قِيلَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ جَمِيعاً على شَرِيعَةٍ واحِدَةٍ لا تُنْسَخُ بِشَرِيعَةٍ أُخْرى، لَكِنْ نَسَخَ بِشَرِيعَةٍ أُخرى لِفَضْلِ امْتِحانٍ، وللهِ أنْ يَمْتَحِنَ [عِبادَهُ بِمِحَنٍ][1] مُخْتَلِفَةٍ كَيْفَ شاءَ وبِمَا شاءَ.

وقِيلَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي على دِينٍ واحِدٍ، وهُوَ دِينُ الإِسْلامِ، لم يَجْعَلْ كافِراً ولا مُشْرِكاً، ولَكِنِ امْتَحَنَكُمْ بِأَدْيانٍ مُخْتَلِفَةٍ على مَا تَخْتارُونَ، وتُؤْثِرُونَ. ثُمَّ اخْتُلِفَ في المَشِيئَةِ: قالَتِ المُعْتَزِلَةُ: هِيَ مَشِيئَةُ الجَبْرِ والقَسْرِ. وقالَ أَصْحابُنا: المَشِيئَةُ مَشِيئَةُ الاخْتِيارِ، وقَدْ ذَكَرْناها في غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وقَولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قِيلَ: سابِقُوا يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ الأُمَمَ كُلَّها بِالخَيْراتِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ إلى مَا بِهِ تَسْتَوْجِبُونَ المَغْفِرَةَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]. وأَصْلُ قَولِهِ: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي اعْمَلُوا الخَيْراتِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ الآية، [المؤمنون: ٥١].

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ نَهى رَسُولَ اللهِ ﷺ أنْ يَتَّبِعَ أَهْواءَهُمْ. والوَجْهُ فِيهِ مَا ذَكَرْنا أَنَّ العِصْمَةَ لا تَمْنَعُ النَّهْيَ، بَلْ يُؤَيِّدُ، وقَدْ ذَكَرْنا في مَا تَقَدَّمَ. ويَحْتَمِلُ أنْ يَرْجِعَ النَّهْيُ إلى غَيْرِهِ؛ ويُرادُ بِالنَّهْيِ والأمْرِ غَيْرُ المُخاطَبِ بِهِ عَلى مَا ذَكَرْنا مِنْ عادَةِ المُلُوكِ أَنَّهُمْ إذا خاطَبُوا مَنْ هُوَ أَجَلُّ عِنْدَهُمْ وأَعْظَمُ [اتَّبِعُوا أَهْواءَهُمْ كَمَا طَلَبُوا مِنْكَ][2] الجَلْدَ مَكانَ الرَّجْمِ والدِّيَةَ مَكانَ القِصاصِ وكَمَا رَأَى بَنُو النَّضِيرِ إلى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الفَضْلِ على بَنِي قُرَيْظَةَ، واللهُ أَعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾ أنْ[3] يَصُدُّوكَ عنِ الحُكْمِ ﴿عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ والفِتْنَةُ هِيَ المِحْنَةُ، وهِيَ تَتَوَجَّهُ إلى وُجُوهٍ، وقَدْ ذَكَرْنا الوُجُوهَ فِيمَا تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنِ الحُكْمِ الذي تَحْكُمُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ اخْتُلِفَ فِيهِ:

قالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا يُعَذِّبُهُمُ اللهُ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ، لا يُعَذِّبُهُمْ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ.

وقالَ آخَرُونَ: عَذابُ الدُّنْيا عَذابٌ بِبَعْضِ الذُّنُوبِ لَيْسَ هُوَ عَذاباً[4] بِكُلِّ الذُّنُوبِ لأَنَّهُ لا يَدُومُ؛ وأَمَّا في الآخِرَةِ فَإِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ لأَنَّ عَذابَ الآخِرَةِ دائِمٌ؛ فَهُوَ عَذابٌ بِجَمِيعِ الذُّنُوبِ، وعَذابُ الدُّنْيا زائِلٌ؛ فَهُوَ عَذابٌ بِبَعْضِ الذُّنُوبِ، واللهُ أَعْلَمُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ هَذا صِلَةُ قَولِهِ تعالى: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ [الآية: ٤١] فَقالَ ﷻ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ وقالَ آخَرُونَ: رُوِيَ عَنِ [ابْنِ][5] عباسٍ ﷺ [أَنَّهُ قالَ: أَفَحُكْمَهُمْ][6] في الجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ عِنْدَكَ يا مُحَمَّدُ فِي القُرْآنِ؟ يَعْنِي بَنِي النَّضِيرِ.

---

(١) من م، ساقطة من الاصل. (٢) في الأصل وم: أهواءهم في ما طلبوا منك من. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: عذاب.
(٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: فحكمهم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أيْ لا أحَدَ أحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً على إقْرارِهِمْ أنَّ اللهَ إذا حَكَمَ لا يَحْكُمُ إلّا بالعَدْلِ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ وُجوهاً:

[أحَدُها][1]: يَحْتَمِلُ: لا تَتَّخِذُوهُمْ أوْلِياءَ في الدِّينِ؛ أي لا تَدِينُوا بِدِينِهِمْ فَإنَّكُمْ إذا دِنْتُمْ بِدِينِهِمْ صِرْتُمْ أوْلِياءَهُمْ[2] في النَّصْرِ والمَعُونَةِ.

[والثّاني[3]: يَحْتَمِلُ: لا تَتَّخِذُوهُمْ أوْلِياءَ في النَّصْرِ والمَعُونَةِ][4] لأنَّهُمْ إذا اتَّخَذُوهُمْ أوْلِياءَ في النَّصْرِ والمَعُونَةِ صارُوا أمْثالَهُمْ[5]، لأنَّهُمْ إذا نَصَرُوا الكُفّارَ على المُسْلِمِينَ، وأعانُوهُمْ، فَقَدْ كَفَرُوا، وهُوَ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١١٨] نَهاهُمْ أنْ يَتَّخِذُوا أولَئِكَ مَوْضِعَ سِرِّهِمْ/ ١٣١ ـ ب/ وخَفِيّاتِهِمْ. فَعَلى ذَلِكَ الأوَّلُ، واللهُ أعْلَمُ.

والثّالِثُ: [يَحْتَمِلُ][6]: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ في المَكْسَبِ والدُّنْيا فَإنَّهُمْ إذا فَعَلُوا ذَلِكَ لابُدَّ مِنْ أنْ يَمِيلُوا إلَيْهِمْ، ويَصْدُرُوا عَنْ رَأْيِهِمْ في شَيْءٍ، فَذَلِكَ مِمّا يُفَسِّقُهُمْ، ويُخْرِجُ شَهادَتَهُمْ. فَهَذا النَّهْيُ يَحْتَمِلُ هَذِهِ الوُجُوهَ الثَّلاثَةَ التي ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

وفي الآيةِ دَلالَةُ [على][7] أنَّ الكُفْرَ مِلَّةٌ واحِدَةٌ، وإنِ اخْتَلَفَتْ مَذاهِبُهُمْ، فالواجِبُ أنْ يَرِثَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِقَوْلِهِ[8] تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ كَما أنَّ أهْلَ الإسْلامِ يَرِثُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وإنِ اخْتَلَفَتْ مَذاهِبُهُمْ.

ألا تَرى أنَّهُ قالَ [ﷻ][9] ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ الآية [التوبة: ٧١] ولَيْسَ ذَلِكَ بِداخِلٍ في قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ «لا يَتَوارَثُ أهْلُ مِلَّتَيْنِ» [الترمذي: ٢١٠٨] لِما عَلَيهِ الآيةُ أنَّهُمْ كُلَّهُمْ مِلَّةٌ واحِدَةٌ؟ ولَكِنَّ أحَداً مِنْهُمْ لا يَرِثُ المُسْلِمَ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «لا يَتَوارَثُ أهْلُ مِلَّتَيْنِ» فالإسْلامُ مِلَّةُ حَقٍّ، والكُفْرُ مِلَّةُ باطِلٍ، ولا نَرِثُهُمْ، ولا يَرِثُونَنا، وما رُوِيَ [عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ][10]: «لا نَرِثُ أهْلَ الكِتابِ، ولا يَرِثُونَنا إلا أنْ يَرِثَ الرَّجُلُ عَبْدَهُ وأمَتَهُ» [الطبراني في الأوسط: ٨٩١١] لَيْسَ بِمِيراثٍ؛ إنَّما هُوَ مُلْكٌ كانَ يَمْلِكُهُ قَبْلَ مَوْتِهِ، فَعَلى ذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِهِ. ورُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لا يَرِثُ المُسْلِمُ الكافِرَ ولا الكافِرُ المُسْلِمَ» [البخاري: ٦٧٦٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ الوُجُوهُ التي ذَكَرْنا: الوِلايَةُ في الدِّينِ والوِلايَةُ في النَّصْرِ والمَعُونَةِ فَإنَّهُمْ إذا فَعَلُوا ذَلِكَ صارُوا مِنْهُمْ في حُكْمِ الدُّنْيا والآخِرَةِ، والوِلايَةُ[11] في المَكْسَبِ والدُّنْيا [فَإنَّهُمْ إذا فَعَلُوا ذَلِكَ][12] فَيَصِيرُونَ مِنْهُمْ في حُكْمِ الدُّنْيا. فَإنْ قِيلَ: ألَيْسَ يَرِثُ المُسْلِمُ المُرْتَدَّ؟ وقَدْ قالَ [ﷻ][13]: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ أخْبَرَ أنَّ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ[14] مِنَ المُسْلِمِينَ فَسَيَصِيرُ[15] مِنْهُمْ، ونَحْنُ لا نَرِثُ اليَهُودَ والنَّصارى، كَيْفَ وَرِثَ مَنْ صادَ[16] المُسْلِمِينَ؟ قِيلَ: مَعْنى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ في الدِّينِ والكُفْرِ لا في الحُكْمِ والحُقُوقِ، لأنَّ المُرْتَدَّ إلى النَّصْرانِيَّةِ لَيْسَ بِمَتْرُوكٍ على دِينِهِ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْ أهْلِ تِلْكَ المِلَّةِ، وإنَّما المِلَّةُ ما تُقارَنُ على أهْلِها.

ألا تَرى أنَّ المُرْتَدَّ لا يَرِثُ النَّصْرانِيَّ إنْ [كانَ قَرِيبَهُ][17]؟ فَلَو كانَتِ النَّصْرانِيَّةُ لَهُ مِلَّةً ورِثَهُ بِأهْلِها لأنّا نَعْلَمُ أنَّ النَّصارى يَرِثُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فَلَمّا لَمْ يَرِثُوهُ دَلَّ ذَلِكَ على أنَّهُ لَيْسَ مِنْ مِلَّتِهِمْ، وأنَّ حُكْمَهُ في المِيراثِ حُكْمُ المِلَّةِ التي يُخْبِرُ عَنِ الرُّجُوعِ إلَيْها. وعلى ذَلِكَ جاءَتِ الآثارُ عَنِ الصَّحابَةِ ﷺ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: أولياء. (٣) في م: و. (٤) ساقطة من الأصل. (٥) أدرج بعدها في الأصل بعد هذه الكلمة العبارة التالية: لأنهم إذا نصروا أمثالهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كقوله. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: أو الولاية. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: تولاهم. (١٥) في الأصل وم: صار. (١٦) في الأصل وم: صار. (١٧) في الأصل وم: كانوا أقرباءه.

جنة السنة

رُوِيَ عَن عَليٍّ ﷺ أنَّهُ أُتِيَ بِرَجُلٍ، ارْتَدَّ عَنِ الإسْلامِ، فَعَرَضَ عَلَيهِ الإسْلامَ، فَأَبَى، فَضَرَبَ عُنُقَهُ، وجَعَلَ مِيرَاثَهُ لِوَرَثَتِهِ المُسْلِمِينَ. وعنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ ﷺ كَذَلِكَ. ورُوِيَ عَنْ زَيدِ بْنِ ثَابِتٍ مِثْلُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قَدْ ذَكَرْنَاهُ في مَا تَقَدَّمَ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هُمُ المُنافِقُونَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٢٩و٣٠] وهُوَ وَصْفُ المُنافِقِينَ ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ كَانُوا يظْهِرُونَ المُوَافَقَةَ لِلْمُسْلِمِينَ خوفاً مِنْهُمْ، وفي السِّرِّ مَعَ الكَفَرَةِ لأنَّهُمْ كَانُوا أهْلَ رَيبٍ وشكٍّ، ولا دِينَ لَهُمْ، يَمِيلُونَ إلى مَنْ رَأَوُا السَّعَةَ مَعَهُمْ والأمْنَ، وكَانُوا على شَكٍّ مِنْ أمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ ورَيبٍ ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ لَعَلَّ مُحَمَّداً لا يُنْصَرُ، ولا يَتِمُّ أمْرُهُ، فَيُسِرُّونَ[1] في أنْفُسِهِمُ المُوافَقَةَ لِلْكُفْرِ والغِشَّ لِلإسْلامِ وأهْلِهِ، ويُظْهِرُونَ المُوافَقَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ لَمَّا كَانُوا يَسْتَمِعُونَ [إلى][2] رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ النَّصْرِ والظَّفَرِ، لِلْمُؤْمِنِينَ، لَكِنَّ ذَلِكَ لا يَتَحَقَّقُ عِنْدَهُمْ، وكَانُوا كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآية [النساء: ١٤٣] وكَانُوا يَنْتَظِرُونَ النَّصْرَ والظَّفَرَ، فَيَمِيلُونَ إلى حَيثُ كَانَ النَّصْرُ والظَّفَرُ، فَيَقُولُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ إنْ كَانَ الظَّفَرُ لَهُمْ: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ أي بِالنَّصْرِ نَصْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ الظَّفَرِ لَهُ على أعْدائِهِ وفَتْحِ البُلْدَانِ والأمْصَارِ وإظْهَارِ دِينِهِ دِينِ الإسْلامِ على مَا رُوِيَ [عَنِ النَّبِيِّ ﷺ][3]: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرَينِ» [الطبراني في الكبير: ١١٠٥٦] وعلى مَا فُتِحَ لَهُ البُلْدانُ كُلُّهَا[4].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ قِيلَ: عَذَابُ أُولَئِكَ الكَفَرَةِ وهَلاكُهُمْ في الدُّنْيا ﴿فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ عِنْدَ العَذابِ والهَلاكِ، أو يَنْدَمُونَ في الآخِرَةِ لِمَا أصَابَهُمْ مِنَ العَذابِ بِمَا[5] أسَرُّوا في أنْفُسِهِمْ في الدُّنْيا مِنَ المَوَدَّةِ لَهُمْ والعَدَاوَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، واللهُ أعْلَمُ.

وفي قَولِهِ: ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ دَلالَةُ إثْبَاتِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ [ﷺ][6] لأنَّهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَقُولُوا ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ مِنْ حَيثُ يَسْمَعُ أهْلُ الإسْلامِ ذَلِكَ مِنْهُمْ. دَلَّ ذَلِكَ لَهُمْ أنَّهُ إنَّمَا عَرَفَ ذَلِكَ بِاللهِ [وذَلِكَ مَا][7] أخْبَرَ مِنَ الوَعْدِ بِالنَّصْرِ لَهُ والظَّفَرِ، ثُمَّ كَانَ على مَا أخْبَرَ[8] ووَعَدَ، دَلَّ أنَّهُ أخْبَرَ[9] عَنِ اللهِ تعالى.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَمَّا ظَهَرَ نِفَاقُ أهْلِ النِّفَاقِ، وقُتِلُوا[10] وافْتَضَحُوا كَقَولِهِ تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١]. قَالَ المُؤْمِنُونَ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ وقَدْ كَانُوا يُظْهِرُونَ المُوافَقَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ، ويَحْلِفُونَ بِاللهِ على ذَلِكَ، ويُضْمِرُونَ الخِلافَ لَهُمْ والعَدَاوَةَ والمَوَدَّةَ لِلْكَفَرَةِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ [التوبة: ٧٤] [وكَقَولِهِ تعالى][11]: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أي ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التي عَمِلُوهَا مِثْلُ[12] إسْرارِ ﴿مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [المائدة: ٥٢] إذِ[13] أسَرُّوا في ذَلِكَ ﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾ أي صَارُوا ﴿خَٰسِرِينَ﴾ بَعْدَ الافْتِضَاحِ حِينَ[14] ذَهَبَتْ مَنَافِعُهُمُ التي كَانَتْ قَبْلَ الافْتِضَاحِ وظُهُورِ نِفاقِهِمْ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التي عَمِلُوهَا ظَاهِراً مُرَاآةً لِلنَّاسِ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ إنَّ قولَهُ تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ﴾ وإنْ كَانَ حَرْفَ تَوحِيدٍ وتَفْرِيدٍ فَإنَّ المُرَادَ مِنْهُ الجَمَاعَةُ والعِصَابَةُ، ولأنَّ الوَاحِدَ أوِ الاثْنَينِ إذا ارْتَدَّ عَنِ الإسْلامِ يُؤْخَذُ، ويُحْبَسُ، ويُقْتَلُ، إنْ أبَى الإسْلامَ، والجَمَاعَةُ إذا ارْتَدُّوا عَنِ الإسْلامِ احْتِيجَ إلى نَصْبِ الحَرْبِ والقِتالِ على [مَا][15] نُصِبَ مَعَ أهْلِ الرِّدَّةِ.

---

(١) في الأصل وم: وأسروا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فكلهم. (٥) في الأصل وم: ما.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وكذلك بما. (٨) في الأصل وم: أخبره. (٩) في الأصل وم: خبر. (١٠) في الأصل وم: قتلوا.
(١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: قبل. (١٣) في الأصل وم: إذا. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وفي الآيةِ دَلالَةُ إمامَةِ أبي بَكْرٍ الصِّدّيقِ ﷺ لأنَّ العَرَبَ لَمّا ارْتَدَّتْ عَنِ الإسلامِ بَعْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ حارَبَهُمْ، وكانَ هُوَ ومَنْ قامَ بِحَرْبِهِمْ مِمَّنْ أحَبَّ اللهَ، وأحَبَّهُ اللهُ.

وعَنِ الحَسَنِ ﷺ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾. أنه[1] قالَ، واللهُ [أعْلَمُ: هُمْ:][2] أبو بَكْرٍ وأصْحابُهُ ﷺ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الفتح: ١٦] يَدُلُّ على إمامَةِ أبي بَكْرٍ ﷺ لأنَّهُ كانَ الدّاعِيَ إلى حَرْبِ أهْلِ الرِّدَّةِ.

فإنْ[3] قيلَ: يَجوزُ أنْ يَكونَ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ الذي دَعاهُمْ قيلَ لَهُ: قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣] فَمُحالٌ أنْ يَدْعُوَهُمْ، فَيُطيعوا، وقَدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾. فإنْ قيلَ: قَدْ يَجوزُ أنْ يَكونَ عُمَرُ ﷺ هُوَ الذي دَعاهُمْ قيلَ لَهُ: فإنْ كانَ فَإمامَةُ[4] عُمَرَ ﷺ ثابِتَةٌ بِدَليلِ الآيةِ. وإذا صَحَّتْ إمامَتُهُ صَحَّتْ إمامَةُ أبي بَكْرٍ ﷺ لأنَّهُ المُخْتارُ لَهُ والمُسْتَخْلَفُ. فإنْ قيلَ: قَدْ يَجوزُ أنْ يَكونَ عَلِيٌّ ﷺ هُوَ الذي دَعاهُمْ إلى مُحارَبَةِ مَنْ حارَبَ، قيلَ: قالَ اللهُ تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] وهَذِهِ صِفَةُ مَنْ يُحارِبُ/ ١٣٢ ـ أ/ مِنْ مُشْرِكي العَرَبِ الذينَ لا تُقْبَلُ مِنْهُمُ الجِزْيَةُ. وعَلِيٌّ ﷺ إنَّما حارَبَ أهْلَ البَغْيِ، وهُمْ مُسْلِمونَ. ولَمْ يُحارِبْ أحَدٌ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ أهْلَ الرِّدَّةِ غَيْرُ أبي بَكْرٍ ﷺ فَكانَتْ[5] الآيَةُ دَليلاً على صِحَّةِ إمامَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾؛ ﴿فَسَوْفَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَعَسَى﴾ [الآية: ٥٢] وال: عَسَى واجِبٌ. أخْبَرَ ﷺ أنَّهُ ﴿يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ﴾ لِبَذْلِهِمْ أنْفُسَهُمْ في مُجاهَدَةِ أعْداءِ اللهِ وتَرْكِهِمْ في اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ، فَذَلِكَ لِحُبِّهِمُ اللهَ لأنَّهُ لا أحَدَ يَبْذُلُ نَفْسَهُ لِلْهَلاكِ وتَرْكِ لَوْمَةِ لائِمٍ إلّا [مَنْ يُحِبّونَ][6] اللهَ، ويُحِبُّهُمُ اللهُ لِما أثْنى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ وحُبُّهُمْ للهِ لِما بَذَلوا أنْفُسَهُمْ في مُجاهَدَةِ أعْدائِهِ وتَرْكِهِمْ لَوْمَةَ لائِمٍ. وفيهِ دَلالَةُ إثْباتِ إمامَةِ أبي بَكْرٍ ﷺ لأنَّهُ ﷺ أثْنى عَلَيْهِمْ: بِخُروجِهِمْ في سَبيلِ اللهِ ومُجاهَدَةِ أعْدائِهِ. فَلَوْ كانَ غاصِباً ذَلِكَ على عَلِيٍّ ﷺ أو كانَ غَيْرَ مُحِقٍّ بِذَلِكَ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيُثْنِيَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ لأنَّهُ كانَ آخِذَ ما لَيْسَ لَهُ ومُضَيِّعاً حَقّاً لِغَيْرِهِ. ومَنْ كانَ هذا سَبيلُهُ لَمْ يَكُنْ يَسْتَوْجِبُ كُلَّ هذا الثَّناءِ مِنَ اللهِ تعالى. فَهَذا يَنْقُضُ على الرَّوافِضِ قَوْلَهُمْ وما رُوِيَ [عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ][7]: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ» [الترمذي: ٣٧١٣] وغَيْرُهُ مِنَ الأخْبارِ. وذَلِكَ في الوَقْتِ الذي طَلَبَ عَلِيٌّ ﷺ الخِلافَةَ، وحارَبَ عَلَيْها لأنَّهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَعْلَمَ أنَّ لَهُ الخِلافَةَ في زَمَنِ أبي بَكْرٍ ﷺ ويَرى الحَقَّ لِنَفْسِهِ، ثُمَّ يَتْرُكُ طَلَبَها لأنَّهُ كانَ مُضَيِّعاً حَقَّ اللهِ عَلَيْهِ. فَدَلَّ سُكوتُهُ وتَرْكُ طَلَبِهِ على أنَّ الحَقَّ لَيْسَ لَهُ، ولَكِنْ كانَ لأبي بَكْرٍ ﷺ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لِلْمُؤْمِنينَ أي ذَوِي[8] رَحْمَةٍ ورَأْفَةٍ لِلْمُؤْمِنينَ ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي [ذَوِي مُشاقَّةٍ][9] شَديدَةٍ على الكافِرينَ، وهُوَ ما وَصَفَهُمْ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ أي في طاعَةِ اللهِ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾. وقيلَ: ذَلِكَ الإسلامُ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ قَدْ ذَكَرْنا هذا في غَيْرِ مَوْضِعٍ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآيةَ. قالَ بَعْضُ أهْلِ التَّأويلِ: قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ هُوَ صِلَةُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الآية: ٥١] وكَذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ [الآية: ٥٧] هُوَ صِلَةُ ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ. نَهى المُؤْمِنينَ أنْ يَتَّخِذوا ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ والذينَ لَمْ يُؤْتَوا الكِتابَ أوْلِياءَ في غَيْرِ آيَةٍ[10] مِنَ القُرْآنِ وأخْبَرَ أنَّ اللهَ ورَسولَهُ هُوَ وَلِيُّ الذينَ آمَنوا، والمُؤْمِنينَ أيْضاً بَعْضُهُمْ أوْلِياءُ بَعْضٍ بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فإنه. (٤) من م، في الأصل: فإقامة. (٥) من م، في الأصل: لكانت.
(٦) في الأصل وم: لمن يحب. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ذوو. (٩) في الأصل وم: شاقة. (١٠) في الأصل وم: آي.

جنة السنة

[التوبة: ٧١]. فإذا كانَ اللهُ ﷻ ﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أولياءَ لِمَن آمَنَ لَمْ يَنْبَغِ أنْ [يَتَّخِذَ المُؤْمِنُونَ][١] الكُفّارَ أولياءَ. وذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلامٍ قالَ لِلنَّبيِّ ﷺ: إنَّ اليَهودَ أظْهَرُوا لَنا العَداوَةَ مِن أجْلِ إسْلامِنا، وحَلَفُوا ألّا يُكَلِّمُونا، ولا يُخالِطُونا في شَيْءٍ، ومَنازِلُنا فِيهِمْ، وإنّا لا نَجِدُ مُتَحَدَّثاً دُونَ هَذا المَسْجِدِ، فَنَزَلَتِ الآيَةُ، فَقالُوا: قَدْ رَضِينا باللهِ وبِرَسُولِهِ والمُؤْمِنِينَ أوْلياءَ. ثُمَّ اخْتُلِفَ في نُزُولِها[٢]: قالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَتْ في شأنِ عَلِيٍّ ﷺ تَصَدَّقَ بِخاتَمِهِ. وهُوَ في الرُّكُوعِ. ويَقُولُونَ: «خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فإذا هُوَ بِمِسْكِينٍ، فَدَعاهُ النَّبِيُّ ﷺ [فَقالَ: هَلْ أعْطاكَ أحَدٌ شَيْئاً؟ قالَ: نَعَمْ يا رَسُولَ اللهِ. قالَ النَّبِيُّ ﷺ][٣] ماذا؟ قالَ: خاتَمَ فِضَّةٍ. قالَ: مَنْ أعْطاكَ؟ قالَ: ذَلِكَ الرَّجُلُ القائِمُ؛ يَعْنِي عَلِيّاً. قالَ النَّبِيُّ ﷺ على أيِّ حالٍ أعْطاكَ؟ قالَ: أعْطانِيهِ، وهُوَ راكِعٌ. فَكَبَّرَ النَّبِيُّ ﷺ ودَعا، لَهُ وأثْنى عليهِ» [ابن الجوزي في زاد المسير ٢/ ٢٩٢].

فاحْتَجَّ الرَّوافِضُ بِهَذِهِ الآيَةِ على تَفْضِيلِ عَلِيِّ بْنِ أبي طالِبٍ ﷺ وإثْباتِ الخِلافَةِ لَهُ دُونَ غَيْرِهِ. ويَقُولُونَ: نَزَلَتْ في شَأْنِهِ ﷺ لِما رُوِيَ عن أبي جَعْفَرٍ ﷺ [أنَّهُ][٤] قالَ: تَصَدَّقَ عَلِيُّ بْنُ أبي طالِبٍ ﷺ بِخاتَمِهِ وهُوَ راكِعٌ، فَنَزَلَ [قولُهُ تعالى][٥]: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [فَيُقالُ لَهُمْ: هَبُوا][٦] أنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ في شَأْنِهِ، ولَيْسَ فِيها دَلالَةُ إثْباتِ الخِلافَةِ في زَمَنِ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ[٧] ﷺ لِأنّا قَدْ ذَكَرْنا في الآيَةِ الأولى ما يَدُلُّ على إثْباتِ الإمامَةِ لَهُ في الوَقْتِ الذي كانَ هُوَ إماماً، ونَحْنُ لا نَجْعَلُ لِعَلِيٍّ، كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ، الخِلافَةَ لَهُ في الوَقْتِ الذي لَمْ يَرَ لِنَفْسِهِ[٨] الخِلافَةَ لأنَّهُ رُوِيَ عَنْهُ أنَّهُ قالَ: إنَّ أبا بَكْرٍ هُوَ خَيْرُ النّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أو كَلامٌ نَحْوُ هذا.

وفي الخَبَرِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «لو وَلَّيْتُمْ أبا بَكْرٍ لَوَجَدْتُمُوهُ قَوِيّاً في دِينِهِ ضَعِيفاً في بَدَنِهِ، ولَوْ وَلَّيْتُمْ عُمَرَ لَوَجَدْتُمُوهُ قَوِيّاً في دِينِهِ وبَدَنِهِ، ولَو وَلَّيْتُمْ عَلِيّاً لَوَجَدْتُمُوهُ هادِياً مَهْدِيّاً مُرْشِداً» [أحمد١: ١٠٩] فَنَقُولُ نَحْنُ على ما كانَ مِن عَلِيٍّ وسائِرِ الصَّحابَةِ ﷺ مِن تَسْلِيمِ الأمْوالِ إلى أبي بَكْرٍ وتَفْوِيضِهِمْ إلَيْهِ مِن غَيْرِ مُنازَعَةٍ ظَهَرَتْ عَنْ عَلِيٍّ، كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ، في ذَلِكَ: لَوْ[٩] كانَ الحَقُّ لَهُ في ذَلِكَ الوَقْتِ لَظَهَرَتْ مِنْهُ المُنازَعَةُ على ما ظَهَرَتْ في الوَقْتِ الذي كانَ لَهُ، فَقالُوا: لأنَّ عَلِيّاً ﷺ لَمْ يَكُنْ لَهُ أنْصارٌ، وفي الوَقْتِ الذي ظَهَرَتِ المُنازَعَةُ مِنْهُ والطَّلَبُ كانَ لَهُ أنْصارٌ. قِيلَ: لا يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ الحَقُّ لَهُ فِيها، ثُمَّ لا يَطْلُبُ لِما لَمْ يَكُنْ لَهُ أنْصارٌ. ألا تَرى أنَّ أبا بَكْرٍ ﷺ مَعَ ضَعْفِهِ في بَدَنِهِ، خَرَجَ وَحْدَهُ لِحَرْبِ أهْلِ الرِّدَّةِ حَتّى لَمّا رَأوْهُ خَرَجَ وَحْدَهُ حِينَئِذٍ تَبِعُوهُ؟ فَأبُو بَكْرٍ لَمْ يَتْرُكِ الحَقَّ لِعَدَمِ الأنْصارِ مَعَ ضَعْفِهِ في بَدَنِهِ. فَعَلِيٌّ ﷺ مَعَ شِدَّتِهِ وقُوَّتِهِ وفَضْلِ عِلْمِهِ بِأمْرِ الحَرْبِ حَتّى لَمْ يُبارِزْ أحَداً مِنَ الأعْداءِ إلّا غَلَبَهُ، وأهْلَكَهُ. فَكَيْفَ تَوَهَّمْتُمْ فِيهِ تَرْكَ طَلَبِ الحَقِّ لِفَقْدِ الأنْصارِ لَهُ والأعْوانِ في ذَلِكَ؟ هذا لَعَمْرِي لا يُتَوَهَّمُ في أضْعَفِ أصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضْلاً أنْ يُتَوَهَّمَ في عَلِيٍّ ﷺ فَدَلَّ تَرْكُ طَلَبِ ذَلِكَ مِنْهُ على أنَّهُ تَرَكَ لَمّا رَأى الحَقَّ [لَيْسَ][١٠] لَهُ، واللهُ أعْلَمُ.

واحْتَجُّوا بِما رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قالَ لِعَلِيٍّ: «أنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِن مُوسى غَيرَ أنْ لا نَبِيَّ بَعْدِي» [مسلم: ٢٤٠٤] وهارُونُ كانَ خَلِيفَةَ [مُوسى، وما][١١] فَكَرْتُمْ أيضاً أنَّ عَلِيّاً ﷺ كانَ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. قِيلَ: لِهَذا جَوابانِ:

أحَدُهُما: أنَّ قَوْلَهُ «أنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِن مُوسى» يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ في الأُخُوَّةِ التي آخاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ولَيْسَ في إثْباتِ الأُخُوَّةِ إثْباتُ الخِلافَةِ لَهُ.

والثّانِي: إنْ كانَتْ لَهُ الخِلافَةُ في الوَقْتِ الذي كانَ هُوَ، ولَيْسَ في الخَبَرِ جَعْلُ الخِلافَةِ لَهُ في الأوْقاتِ كُلِّها. وهَكَذا جَوابُ ما رُوِيَ عَنْهُ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ» [الترمذي: ٣٧١٣] واللهُ أعْلَمُ.

ثُمَّ إنَّ الحَدِيثَ الذي رُوِيَ عَنْ أبي جَعْفَرٍ ﷺ صَحِيحاً فَفِي الآيَةِ مَعْنَيانِ:

أحَدُهُما: فَضِيلَةُ عَلِيٍّ، كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ، وقَدْ كانَ كَثِيرَ الفَضائِلِ مُسْتَكْمِلاً خِصالَ الخَيْرِ.

---

(١) في الأصل وم: يتخذوا. (٢) في الأصل وم: نزوله. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فقال لهم حب. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: نفسه. (٩) في الأصل وم: فلو. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل: موسى ما، في م: ما.

جنة السنة

والآخَرُ: أنّ العَمَلَ اليَسِيرَ فِي الصَّلاةِ لا يُفْسِدُهَا.

وَقد رُوِيَ فِي بَعْضِ الأخْبَارِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ/ ١٣٢ ـ ب/ أنَّهُ خَلَعَ نَعْلَهُ فِي الصَّلاةِ وأنَّهُ لَمَسَ لِحْيَتَهُ وأنَّهُ أشارَ بِيَدِهِ وغيرُ ذَلِكَ مِنَ العَمَلِ اليَسِيرِ فَعَلَهُ فِي الصَّلاةِ. فَيُقَاسُ كُلُّ عَمَلٍ يَسِيرٍ على مَا دَلَّ عَلَيهِ الخَبَرُ على جَوَازِ الصَّلاةِ.

وفِيهِ وَجهٌ آخَرُ هُوَ أنَّ صَدَقَةَ[1] التَّطَوُّعِ تُسَمَّى زَكَاةً لأنَّ صَدَقَةَ عَلِيٍّ ﷺ بِالخَاتَمِ لَمْ تَكُنْ صَدَقَةً مَفْرُوضَةً، بَلْ كَانَتْ تَطَوُّعاً، فَسَمَّاهَا اللهُ زَكَاةً، وإنْ كَانَتْ تَطَوُّعاً. ألا تَرَى أنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أُخرَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾؟ [الروم: ٣٩] فَسَمَّاهَا اللهُ زَكَاةً كَمَا سَمَّى صلاةَ الفَرْضِ والتَّطَوُّعِ صلاةً، وصَومَ التَّطَوُّعِ والفَرْضِ صِيَاماً. فَعَلى ذَلِكَ هَذا. وظَاهِرُ الآيَةِ فِي جُمْلَةِ المُؤمِنِينَ لَيسَ عَلِيٌّ ﷺ أولَى بِهَا مِنْ غَيْرِهِ. فَإنْ [كَانَتْ فِيهِ نَزَلَتْ][2] فَهُوَ مَا ذَكَرْنَا، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ ظَاهِرُ هَذا لَوْ صُرِفَ إلى أبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ كَانَ أقْرَبَ لأنَّهُ كَانَ هُوَ الغَالِبَ على أهْلِ الرِّدَّةِ مِنْ أوَّلِ مَا وَقَعَ بَيْنَهُمْ إلى آخِرِهِ. وعَلِيٌّ ﷺ إنَّمَا صَارَ الأمْرُ لَهُ فِي آخِرِهِ حِينَ حَارَبَ الخَوَارِجَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ إلى آخِرِهِ يَحْتَمِلُ النَّهْيُ عَنِ اتِّخاذِ أُولَئِكَ وُجُوهاً:

يَحْتَمِلُ [النَّهيُ][3] بَعْدَ مَا اتَّخَذُوا أوْلِياءَ لا فِي الدِّينِ ولكنْ فِي بَعْضِ المَكَاسِبِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ النَّهْيُ لِلْمُنَافِقِينَ ألّا يَكُونُوا مَعَ أولَئِكَ على المُؤْمِنِينَ. وقَدْ ذَكَرْنَا هَذا فِي مَا تَقَدَّمَ. والحِزْبُ هُوَ العَونُ والنَّصْرُ فِي اللُّغَةِ. قَالَ الكِسَائِيُّ: تقولُ العَرَبُ: فُلانٌ حِزْبِي أي نَاصِرِي وعَوْنِي.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ يُخبِرُ نَبِيَّهُ ﷺ غَايَةَ سَفَهِهِمْ بِصَنِيعِهِمْ إذا نُودِيَ إلى الصَّلاةِ لأنَّهُ ذُكِرَ فِي القِصَّةِ أنَّهُمْ إذا سَمِعُوا المُنَادِيَ يَقُولُ: أشهَدُ أنْ لا إلَهَ إلّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ [قَالَ رِجَالٌ مِنَ النَّصارَى][4] حُرِقَ الكَاذِبُ، وقَالُوا: واللهِ مَا نَعْلَمُ أهْلَ دِينٍ مِنْ هَذِهِ الأدْيانِ أقَلَّ حَظّاً فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ مِنْهُمْ؛ يَعْنُونَ مُحَمَّداً ﷺ وأصْحَابَهُ ﷺ فَدَخَلَتْ خَادِمُهُمْ لَيْلَةً مِنَ اللَيالِي بِنَارٍ وهُمْ[5] نِيَامٌ، فَسَقَطَتْ شَرارَةٌ، فَحَرَقَتِ البَيْتَ وأهْلَهُ[6].

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ نَفَى عَنْهُمُ العَقْلَ لِمَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا عَقَلُوا، وإلّا كَانُوا يَعْقِلُونَ. وعلى ذَلِكَ يَخْرُجُ قَولُهُ [تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾][7] [الأعراف: ١٧٩] إنّا نَعْلَمُ أنَّهُمْ كَانُوا يُبْصِرُونَ، ويَسْمَعُونَ. لكنْ نَفَى عنهمْ لِمَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِالبَصَرِ والسَّمْعِ واللِّسانِ كَمَنْ لَيسَ لَهُ ذَلِكَ فِي أصْلٍ، واللهُ أعْلَمُ.

ويَحْتَمِلُ وَجْهاً[8] آخَرَ، وهُوَ أنَّ شِدَّةَ بُغْضِهِمْ وحَسَدِهِمْ لِنَبِيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ تَمْنَعُهُمْ عَنْ فَهْمِ مَا خُوطِبُوا بِهِ، وتَحُولُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ مَعْرِفَةِ ذَلِكَ. كَانُوا كَمَنْ لَيسَ لَهُمْ ذَلِكَ رَأساً.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ الآية، قِيلَ: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ تَطْعَنُونَ عَلَيْنا، وهُوَ قَولُ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ وقِيلَ: هَلْ تَعِيبُونَ علينا. وقالَ أبُو عَوْسَجَةَ: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ أي تُنْكِرُونَ مِنّا، وهُوَ يَرْجِعُ إلى وَاحِدٍ. والنَّقْمُ هُوَ العَيبُ والطَّعْنُ، والانتِقَامُ هُوَ الانتِصَارُ. ومَعْنَاهُ ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي كَيفَ تَطْعَنُونَ عَلَينا، وتَعِيبُونَ، وأنْتُمْ مِمَّنْ قَدْ دُعِيتُمْ إلى الإيمَانِ بِمَا أُنْزِلَ فِي الكُتُبِ، وأنْتُمْ مِمَّنْ قَدْ أُوتِيتُمُ الكِتَابَ، وفِي كِتَابِكُمُ الإيمَانُ بِاللهِ والإيمَانُ بِالكُتُبِ كُلِّهَا؟ فَكَيفَ تُنْكِرُونَ الإيمَانَ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وتَعِيبُونَ عَلَينا ولا تَعِيبُونَ على أنْفُسِكُمْ بِفِسْقِكُمْ وخُرُوجِكُمْ عَنْ أمْرِ اللهِ تعالى وعَمَّا[9] أمَرَكُمْ كِتَابُكُمْ، ودَعَاكُمْ إلَيهِ، ونَهَاكُمْ عَمَّا أنْتُمْ فِيهِ. ومَا أُنْزِلَ إلَينا، هُوَ[10]

(١) في الأصل وم: الصدقة. (٢) في الأصل: كان فيه نزل، في م: كان فيه نزول. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: قالوا. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: واحترق هو وأهله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وجه. (٩) في الأصل وم: ومما. (١٠) في الأصل وم: وهو.

جنة السنة

القرآن، وهو يصدق ما قبله من الكتب وما أنزل من قبل من الكتب المتقدمة من التوراة والزبور والإنجيل، وهي تصدق القرآن؛ بعضها يصدق بعضاً؟ فكيف تنكرون الإيمان به؟

الآية ٦٠ وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ الآية؛ ذكر هذا، والله أعلم، على إثر قوله تعالى: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ على إثر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ الآية [الآية: ٥٨] وذلك أنهم كانوا يستهزئون بالمؤمنين، ويضحكون منهم، ويطعنون في دينهم، ويعيبون عليهم. فقال على إثر ذلك: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي مما المؤمنون عليه؟ ﴿مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ قالوا: من؟ قال: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ الآية. فمن كان هذا وصفه فهو شر مما عليه المؤمنون؛ وقد كان فيهم جميع ذلك مما غضب الله عليهم، ولعنهم. أي حول جوهرهم إلى أقبح جواهر وأوحشها، وهي القردة والخنازير بسوء صنيعهم، أو يكون ذلك على إثر قول ما قالوا ما ذكر في بعض القصة: والله ما نعلم من أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة من هؤلاء؛ يعنون المؤمنين[١]، لأنهم كانوا يدعون أن الدنيا والآخرة لهم، وليس لهؤلاء دنيا ولا آخرة. قال الله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ أي ثواباً ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ الآية، فقالوا: من هم؟ قال ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ والملعون هو المطرود عن الخيرات. وجعل من حول جوهره إلى جوهر [القرد والخنزير][٢] أقبح جوهر في الطبع والعقل وأوحشه.

[وقوله تعالى][٣]: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ يعني الشيطان ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ في الدنيا لما حول جوهرهم إلى أقبح جوهر في الأرض من الذين لم يحول جوهرهم إلى ذلك؛ إذ لم يروا أحداً من المؤمنين حول جوهره إلى جوهر من ذكر، وقد رأوا كثيراً من أوائلهم قد حولوا من جوهرهم إلى هذه الجواهر المستقبحة في الطبع المؤذية. ويحتمل[٤] أن يكون على الإضمار على إثر أمر كان، ونحن لم نعلم به، فنزل عند ذلك.

وعن الحسن [أنه][٥] قال: قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذين لعنهم الله، والذين غضب عليهم والذين عبدوا الطاغوت والذين جعل منهم القردة والخنازير؛ منهم من جعله قرداً[٦]، ومنهم من أبقى على جوهره الذي كان ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي أخطأ طريقاً وديناً، والله أعلم بالقصة.

الآية ٦١ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ قيل: إن الآية في اليهود، وقيل: إنها في المنافقين، وهي في المنافقين أشبه؛ ذكر أنهم كانوا يدخلون على النبي ﷺ ويظهرون الموافقة له، ويخبرونه أنهم يجدون بعثه[٧] ﷺ وصفته في كتبهم، ويضمرون الخلاف له في السر، ويهزؤون[٨] به. فقال عند ذلك: ﴿وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أخبر تعالى ﷺ نبيه ﷺ أنهم دخلوا بالكفر لأنهم يقولون ذلك استهزاء، وعلى ذلك خرجوا.

ففيه دلالة إثبات رسالة سيدنا محمد ﷺ لأنه أخبر عما أضمروا ليعلموا أنه إنما علم ذلك بالذي يعلم الغيب مع علمهم أنه لا يعلم إلا الله، والله أعلم، بما كانوا يكتمون، ويضمرون من الكفر والهزء.

الآية ٦٢ وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ الآية. يحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من ملوكهم وعوامهم ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ أي في قول الكفر ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ هو المجاوزة عن الحد الذي حد لهم، ويسارعون أيضاً في أكل السحت. والسحت قيل: هو كل محرم، وقيل هو الرشوة في الحكم.

وعن عمر ﷺ أنه قال: الرشوة هي الكفر، وأما السحت هو أن يدفع[٩] حاجة أخيه إلى السلطان، [فيأكلها معه][١٠]، وقد ذكرنا هذا في ما تقدم[١١].

---

(١) في الأصل وم: المؤمنون. (٢) في الأصل وم: القردة والخنزير وهو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: قردة. (٧) في الأصل وم: نعته. (٨) في الأصل وم: وهزؤوا به. (٩) في الأصل وم: يرفع. (١٠) في الأصل وم: فيأكل عنده. (١١) كان ذلك في تفسير الآية (٤٢) من السورة.

جنة السنة

الآية ٦٣ [وقولُهُ تعالى:](١) على إثْرِ ذَلِكَ: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ/ ١٣٣ ـ أ/ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ عاتَبَ اللهُ ﷻ الرَّبَّانِيِّينَ والأحبارَ على تَرْكِهِمْ نَهْيَ أُولَئِكَ عَنْ صَنِيعِهِمْ واشْتِراكِهِمْ(٢) في الإثْمِ شَرْعاً سَوَاءً لِيَعْلَمُوا أنَّ العامِلَ بالإثْمِ والمَعْصِيَةِ والرّاضِيَ بِهِ والتّارِكَ النَّهْيَ عَنْ ذَلِكَ سَوَاءٌ. وفِيهِ دَلالَةُ أنَّ تارِكَ النَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ يَلْحَقُهُ مِنَ الإثْمِ مَا يَلْحَقُ الفاعِلَ بِهِ.

[وقولُهُ تعالى](٣) ﴿ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ قَدْ ذَكَرْنا فِي مَا تَقَدَّمَ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ الآيَة. قالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أيْ مَحْبُوسَةٌ مَمْنُوعَةٌ عَنْ تَعْذِيبِنا لِقَوْلِهِمْ ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [الآية: ١٨]. وقولُهُ تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ في الآخِرَةِ بِالسَّلاسِلِ إلى أعْنَاقِهِمْ. وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾. بِالمَغْفِرَةِ والتَّعْذِيبِ ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٤٨ وآل عمران: ١٢٩و...].

وقالَ ابْنُ عَبّاسٍ ﵄ قولُهُمْ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ لا يَعْنُونَ بِذَلِكَ أنَّ يَدَهُ مُوثَقَةٌ مَغْلُولَةٌ حَقِيقَةَ اليَدِ والغُلِّ، ولكنْ وَصَفُوهُ بِالبُخْلِ، وقالُوا: أمْسَكَ مَا عِنْدَهُ بُخْلاً مِنْهُ. تعالى اللهُ عنْ ذَلِكَ.

وقالَ آخَرُونَ: إنَّ اللهَ، تَبارَكَ، وتعالى، قَدْ كَانَ بَسَطَ عَلى اليَهُودِ الرِّزْقَ فَكَانُوا(٤) مِنْ أخْصَبِ النّاسِ وأكْثَرِهِمْ خَيْراً. فَلَمّا عَصَوُا اللهَ فِي مُحَمَّدٍ، [عَلَيْهِ أفْضَلُ الصَّلَواتِ](٥)، وكَفَرُوا بِهِ، وبَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً بِالنِّعْمَةِ، كَفَّ اللهُ تعالى عَنْهُمْ بَعْضَ الذي كَانَ بَسَطَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّعَةِ فِي الرِّزْقِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ قالُوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ لَمْ يَقُولُوا: يَدُهُ مَغْلُولَةٌ إلى عُنُقِهِ، ولكنْ مُمْسِكَةٌ عَنْهُمُ الرِّزْقَ، فَلا تُبْسَطُ كَمَا كَانَ يَبْسُطُ، وهُوَ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] نَهْيٌ عَنِ البُخْلِ فِي الإنْفَاقِ، لا أنَّهُ أرادَ حَقِيقَةَ [غُلِّ يَدِهِ](٦) إلى عُنُقِهِ. فَعَلى ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ كِنَايَةٌ عَنِ البُخْلِ ووَصْفٍ بِهِ، لا حَقِيقَةَ الغُلِّ، وبِاللهِ العِصْمَةُ.

وتَأْوِيلُ قولِهِ تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ على هَذا التَّأْوِيلِ أيْ أيْدِيهِمْ هِيَ المُمْسِكَةُ عَنِ الإنْفَاقِ، وهُمُ المَوْصُوفُونَ بِالبُخْلِ والشُّحِّ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أيْ نِعْمَةُ مَبْسُوطَةٌ؛ يُوسِعُ عَلى مَنْ يَشاءُ، ويَقْتُرُ عَلى مَنْ يَشاءُ. وفِي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁ بَلْ يَدَاهُ بُسْطَانِ. قالَ الفَرّاءُ: يُقالُ: وَجْهٌ مَبْسُوطٌ(٧)، ووَجْهٌ بُسْطٌ.

ثُمَّ لا يُحْتَمَلُ أنْ يُفْهَمَ مِنْ إضافَةِ اليَدِ إلى اللهِ مَا يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ لِما وُجِدَ إضافَةُ اليَدِ إلى مَنْ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ لَهُ اليَدُ. مِنْ ذَلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]. لا يُفْهَمُ مِنَ القُرْآنِ اليَدُ كَمَا يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ فَعَلى ذَلِكَ لا يَجُوزُ أنْ يُفْهَمَ مِنْ إضافَةِ اليَدِ إلى اللهِ تعالى كَمَا فُهِمَ مِنَ الخَلْقِ. ألا تَرَى أنَّهُ قالَ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] [وقال](٨): ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] لَمْ يُفْهَمْ مِنْهُ اليَدُ نَفْسُها؟(٩) وكَذَلِكَ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؟ [آل عمران: ١٨٢] لكنْ أُضِيفَ ذَلِكَ إلى اليَدِ لِما بِاليَدِ يُقَدِّمُ، ويُعْطِي، ويَكْسِبُ. ألا تَرَى أنَّهُ قالَ تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؟ [الحجرات: ١]؟ ومَعْلُومٌ أنَّهُ لَمْ يُفْهَمْ مِنَ اليَدِ نَفْسُها، ولكنْ أُضِيفَ ذَلِكَ إلَيْهِ لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ قِيلَ: عُذِّبُوا بِمَا قالُوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ واللَّعْنُ هُوَ الطَّرْدُ. كَأنَّهُ قالَ: طُرِدُوا عَنْ رَحْمَةِ اللهِ، ولا يُؤْمِنُونَ(١٠)، فَماتُوا عَلى ذَلِكَ. فَذَلِكَ دَلِيلُ رِسالَتِهِ، ﷺ واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ قِيلَ فِيهِ بِوَجْهَيْنِ:

قِيلَ: يَزِيدُ مَا أنْزَلَ اللهُ إلَيْكَ مِنَ القُرْآنِ كَثِيراً مِنْهُمْ، يَعْنِي اليَهُودَ ﴿طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾.

---

(١) في الأصل وم: ثم قال. (٢) في الأصل وم: وأشركهم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: فكانت. (٥) في م: ﷺ. (٦) في الأصل وم: عن اليد. (٧) في الأصل وم: مبسوطة. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: نفسه. (١٠) في الأصل م: يؤمنوا.

جنة السنة

وقيلَ: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ مِنَ البيانِ عمَّا تركُوا مِن بَعْثِهِ وصِفَتِهِ[1] [اللَّذينِ كَانَا][2] في كِتابِهِمْ، وما حرَّفُوا فيهِ، وغيَّرُوهُ مِنَ الأحكامِ. فذلِكَ مِمَّا زادَهُمْ ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

قِيلَ: ﴿طُغْيَانًا﴾ أي تمادياً بالمَعصيةِ ﴿وَكُفْرًا﴾ بالقرآنِ. وقيلَ: الطُّغيانُ هوَ العُدْوانُ، وهُوَ المُجاوزةُ عنِ الحدِّ الذي حُدَّ. فإنْ قِيلَ: ما معنى إضافةِ زيادةِ الطُّغيانِ إلى القرآنِ، والقرآنُ لا يَزيدُ طُغياناً ولا كُفراً؟ قِيلَ: إضافةُ الأفعالِ إلى الأشياءِ تكونُ لِوُجوهٍ[3] ثلاثةٍ: مِنْها ما يُضافُ لِحقيقةِ الفِعلِ لَها[4]. ومِنْها ما يُضافُ لِلأحوالِ. ومِنْها ما يُضافُ لِمكانِ ما بِهِ يكونُ الفِعلُ. وهَهُنا أُضِيفَ ذلِكَ إلى القرآنِ لِما كانَ فِيهِمْ مِنَ الطُّغيانِ والكُفرِ لِما كانَ ما أُنزِلَ إليهِمْ بالكُفرِ الذي كانَ فِيهِمْ. وهُوَ كَقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. ﴿إِنَّهُنَّ﴾ لا يُضْلِلْنَ أحداً في الحقيقةِ، ولكن لِما صارُوا بِهِنَّ ضُلّالاً، أُضِيفَ [الإضلالُ][5] إليهِنَّ كَقولِهِ تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧] والحياةُ الدُّنيا لا تَغُرُّ أحداً. ولكنْ لِما لو كانتْ لَها حَواسُّ لَكانَ ما بَدَتْ مِنَ الزِّينةِ، لَغَرَّتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ اختلَفُوا فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾ بينَ اليهودِ والنَّصارى أي لا يُحِبُّ اليهوديُّ نصرانيًّا ولا النَّصرانيُّ يهوديًّا. وقالَ آخَرونَ: ﴿بَيْنَهُمُ﴾ أي بينَ اليهودِ؛ لأنَّ اليهودَ على مذاهِبَ مُختلِفةٍ وأهواءٍ مُشتَّتةٍ؛ مِنهُمْ مَنْ يقولُ: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ومِنهُمْ مَنْ يَذهَبُ مذهَبَ التَّشبيهِ. هُمْ على أهواءٍ مُختلِفةٍ؛ فَبينَهُمْ عداوةٌ وبغضاءُ على ما ذَكَرَ الاختلافَ الواقِعَ بينَهُمْ. ثُمَّ إنَّ مَعنى ما أضافَ مِنْ إلقاءِ العداوةِ بينَهُمْ إلى نفسِهِ لا يَخلُو: إمَّا أنْ يكونَ لهُ في نفسِ العداوةِ فِعلُهُ. وإمَّا[6] أنْ يكونَ في سَبَبِ العداوةِ.

ولا يَجوزُ أنْ يكونَ لهُ في فِعلِ العداوةِ صُنعٌ لأنَّهُ فِعلُهُمْ، ولا في سَبَبِ العداوةِ أيضاً لأنَّ سَبَبَها[7] الاختلافُ، والاختلافُ فِعلُهُمْ أيضاً. فإذا بَطَلَ أنْ يكونَ لهُ في واحدٍ مِنْ هذينِ صُنعٌ دَلَّ أنَّ لهُ ذلِكَ مِنَ الوجهِ الآخَرِ؛ وهُوَ أنْ خَلَقَ فِعلَ العداوةِ وسَبَبَ العداوةِ مِنْهُ، وباللهِ التَّوفيقُ والعِصمةُ.

فإنْ قِيلَ: ذَكَرَ هَهُنا أنَّهُ تعالى ألقى بينَهُمُ العداوةَ، وذَكَرَ في آيةٍ أُخرى أنَّ بعضَهُمْ أولياءُ بعضٍ بِقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الآية: ٥١] كيفَ يَجمَعُ بينَهُما؟ قِيلَ: ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في أصلِ الدِّينِ، وهُوَ الكُفرُ، وبينَهُمْ عداوةٌ لاختلافِ الأهواءِ والمذاهِبِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيةِ دَلالةُ الامتنانِ على رسولِ اللهِ ﷺ بما أخبرَ أنَّهُ ألقى بينَهُمُ العداوةَ. ولو كانُوا على مذهَبٍ واحدٍ، ولَمْ يَكُنْ بينَهُمْ اختلافٌ وعداوةٌ لَكانَ ذلِكَ عليهِ أشدَّ، وفي المُقامِ بينَهُمْ أصعَبَ. لكنْ مَنَّ عليهِ بالاختلافِ في ما بينَهُمْ لَمَّا جَعَلَ الاختلافَ والتَّنازُعَ سَبَبَ الفَشَلِ كَقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ الآية [الأنفال: ٤٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما[8]: كُلَّما أرادُوا مَكْرَ رسولِ اللهِ ﷺ وأجمَعُوا أمرَهُمْ على قَتْلِهِ أطلَعَ نبيَّهُ ﷺ على ذلِكَ حتّى لَمْ يَقدِرُوا على مَكرِهِ.

والثّاني: كُلَّما انتصَبُوا لِلحربِ مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ واجتمَعُوا عليهِ، فَرَّقَ اللهُ شَملَهُمْ، وجعَلَهُمْ بحيثُ لا يَجتمِعُونَ على ذلِكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ أيضاً:

أحدُهُما[9]: السَّعيُ بالفَسادِ على حقيقةِ المَشيِ على الأقدامِ، وهُوَ ما كانُوا يَسعَونَ في نَصبِ الحربِ مَعَ المُؤمنينَ والاتِّصالِ بِغيرِهِمْ مِنَ الكَفَرةِ والاستِعانةِ بِهِمْ، فذلِكَ هُوَ السَّعيُ في الأرضِ بالفَسادِ.

والثّاني: ما كتَمُوا مِنْ بَعْثِ[10] الرَّسولِ وصِفتِهِ، وحَرَّفُوا ما في كُتُبِهِمْ مِنْ أعلامِ نُبُوَّتِهِ وآياتِ رِسالتِهِ، ودَعَوا النّاسَ إلى غيرِ ما نَزَلَ فيهِ؛ وذلِكَ سَعيٌ في الأرضِ بالفَسادِ، وباللهِ التَّوفيقُ.

---

(١) في الأصل وم: نعته. (٢) في الأصل وم: التي كانت. (٣) من م، في الأصل: الوجوه. (٤) ساقطة من م. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: سببه. (٨) في الأصل وم: يحتمل. (٩) في الأصل وم: يحتمل. (١٠) في الأصل وم: نعت.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لأنَّهُ لا يُحِبُّ الفَسادَ، ولا يَرْضى بِهِ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا/ ١٣٣ ـ ب/ وَٱتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ عامَلَ اللهُ ﷻ خَلْقَهُ مُعامَلَةَ أكرَمِ الأكرَمِينَ حِينَ[(1)] وَعَدَ لَهُمُ المَغْفِرَةَ وتَكْفِيرَ ما ارْتَكَبُوا فِي حالِ الكُفْرِ قَولَهُمْ فِي اللهِ مِنَ القَبِيحِ الوَحْشِ، لَو آمَنُوا، واتَّقَوُا الذي قالُوا فِي اللهِ، وهُوَ كَما قالَ اللهُ: ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، واللهُ أعْلَمُ: إنهُ إنْ تابَ، ورَجَعَ عَنْ صَنِيعِهِ، يَرْجِعْ عنْ جَمِيعِ ما كانَ مِنْهُ، ويَنْدَمْ على ذلِكَ، ويَتَمَنَّ أنْ يَكُونَ ما كانَ مِنْهُ فِي تِلْكَ الحالِ مِنَ الشَّرِّ خيراً. فَهُوَ كَقَولِهِ تعالى: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] لأنَّهُمْ يَنْدَمُونَ على تِلْكَ السَّيِّئاتِ التي كانَتْ مِنهُمْ، ويَتَمَنَّوْنَ أنْ يَكُونَ الذي كانَ مِنْهُم فِي تِلْكَ الحالِ خَيراً لا شَرًّا.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: [﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وَجْهَينِ: يَحْتَمِلُ أنَّهُمْ لو عَمِلُوا بِمَا فِي التَّوراةِ والإنْجِيلِ وبِمَا أُنزِلَ إليهِمْ مِنَ القُرآنِ ﴿لَأَكَلُوا مِن﴾ كذا. ويَحْتَمِلُ][(2)] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ ورَجَعُوا عَمَّا حَرَّفُوا فِيهِما[(3)]، وغَيَّرُوهُ، وكَتَمُوهُ مِنْ بَعْثِ[(4)] سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ وصِفَتِهِ وما فِيهِما[(5)] مِنَ الأحْكامِ لَكانَ لَهُمْ مَا ذَكَرَ، واللهُ أعْلَمُ.

وذلِكَ لأنَّهُمْ[(6)] كانُوا يَخافُونَ الضِّيقَ إذا أسْلَمُوا؛ وهُوَ، واللهُ أعْلَمُ، وذلِكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓا إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧] فأخْبَرَ اللهُ ﷻ أنهُمْ لو آمَنُوا، واتَّقَوُا الشِّرْكَ، لَوَسَّعَ عليهِمُ العَيْشَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ ليسَ على حَقِيقَةِ الأكْلِ، ولكنْ يَخْرُجُ على المُبالَغَةِ في الوَصْفِ والذِّكْرِ كما يُقالُ: فلانٌ مِنْ قَرْنِ رأسِهِ إلى قَدَمِهِ في نِعْمَةٍ [ليسَ][(7)] على حَقِيقَةِ ما وَصَفَ، ولكنْ على المُبالَغَةِ في الوَصْفِ بالسَّعَةِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على حَقِيقَةِ الأكلِ.

أمّا ما يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ الأرجلِ فهوَ ما يَخْرُجُ مِنَ الأرضِ مِنَ المَأكولِ والمَشْرُوبِ، و﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ مِنَ الثِّمارِ والفَواكِهِ فهوَ[(8)] مِنَ الأشجارِ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ الجبالَ[(9)]، و﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ الأرضَ إخباراً أنْ يكونَ [ما أُنزِلَ في][(10)] الجَبَلِ والسَّهْلِ جميعاً.

وقيلَ: ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ﴾ أي أرْسَلَ اللهُ عليهِمْ مِدْراراً ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ تُخْرِجُ الأرضُ بَرَكَتَها، وتُنْبِتُ الثَّمَرَةَ. وقالَ قَتادةُ: لأَعْطَتْهُمُ الأرضُ نَباتَها، والسماءُ بَرَكَتَها، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ قِيلَ فيهِ بوجهَينِ: [قيلَ: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ مَنْ أسْلَمَ، وقيلَ:][(11)] ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ على كتابٍ لم يُحَرِّفُوهُ، ولا غَيَّرُوهُ، ولا كَتَمُوا شيئاً، ولا سَعَوا في الأرضِ بالفَسادِ على ما عَمِلَ أكْثَرُهُمْ مِنَ التَّحْرِيفِ والتَّغْيِيرِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ هذا، واللهُ أعْلَمُ، وذلكَ أنَّ أهلَ الكُفْرِ كانُوا على طَبَقاتٍ ثَلاثٍ: مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَنْ نُؤْمِنَ بهذا القرآنِ ولا بالذي بَيْنَ يَدَيهِ، وقولُهُمْ: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا﴾ [فصلت: ٢٦]، ومِنْهُمْ مَنْ كانَ يُخَوِّفُهُ، ويَمْكُرُ بِهِ، لِيَقْتُلُوهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠]، ومِنْهُمْ مَنْ كانَ يَعْرِضُ عليهِ النساءَ والقُصُورَ لِيَتْرُكَ ذلكَ، وألّا يَدْعُوَهُمْ إلى دِينِهِ الذي هو عليهِ.

كانُوا على الوجوهِ التي ذَكَرْنا، فأمَرَ اللهُ ﷻ أنْ يَقُومَ على تَبْلِيغِ رِسالَتِهِ، وألّا يَمْنَعَهُ ما يَخْشَى مِنْ مَكْرِهِمْ وكَيْدِهِمْ على قَتْلِهِ. لأنَّ المرءَ قد يَمْتَنِعُ عنِ القِيامِ بِما[(12)] عليهِ إذا كُذِّبَ في القومِ، ولَحِقَهُ أذًى بذلكَ[(13)]. فَأمَرَ اللهُ ﷻ نَبِيَّهُ [ﷺ][(14)] بِتَبْلِيغِ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: فيها. (٤) في الأصل وم: نعت. (٥) في الأصل وم: فيها. (٦) في الأصل وم: أنهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يخرج. (٩) في الأصل وم: وهذ الجبال. (١٠) في الأصل وم: نزل. (١١) من م، في الأصل: قيل. (١٢) في الأصل وم: لما. (١٣) في الأصل وم: لذلك. (١٤) ساقطة من م.

جنة السنة

ما أُنزلَ إليهِ، وإنْ خشِيَ على نَفْسِهِ الهلاكَ أوِ التكذيبَ في القولِ والأذى وتَرْكِ طَلَبِ المُوالاةِ. أي لا يَمْنَعْكَ شَيءٌ مِن ذلكَ مِنْ تَبْليغِ ما أُنزِلَ إليكَ.

أو أنْ يكونَ الأمرُ بِتَبْليغِ الرسالةِ في حادثِ الوَقْتِ أنْ تُبَلِّغَ ما أُنزِلَ إليكَ مِنَ البَيانِ كما بُلِّغَتْ تَنْزيلاً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] أخبَرَ ﷻ أنهُ إنما [أرسَلَ][1] الرسلَ على لِسانِ قومِهِمْ لِيُبَيِّنوا لَهُمْ. فَعَلَى ذلكَ هذا، والله أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي وإنْ [لم][2] تُبَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ لِما تَخشَى مِنَ الهَلاكِ والمَكْرِ بكَ فكأنكَ[3] لم تُبَلِّغِ الرسالةَ رَأساً. لم يُعذِّبْ نَبِيَّهُ ﷺ في تَرْكِ تَبْليغِ الرسالةِ. وإنْ خافَ على نَفْسِهِ الهَلاكَ، ليسَ كَمَنْ أُكْرِهَ على الكُفرِ أُبيحَ لهُ أنْ يَتَكَلَّمَ بكلامِ الكُفرِ بَعْدَ أنْ يكونَ قَلْبُهُ مُطمَئِناً بالإيمانِ[4] إذا خافَ الهَلاكَ عَلَى نَفْسِهِ. ولم يُبِحْ لهُ تَرْكَ تَبْليغِ الرِّسالةِ، وإنْ خَشِيَ على نَفْسِهِ الهَلاكَ.

ذلكَ، والله أعْلَمُ، أنَّ تَبْليغَ الرسالةِ يَتعلَّقُ[5] باللسانِ دونَ القَلْبِ، والإيمانُ تَعلُّقُهُ بالقَلْبِ دونَ اللسانِ. فإذا أُكْرِهَ على الكُفرِ أُبيحَ لهُ التَّكَلُّمُ بهِ بَعْدَ أنْ يكونَ القَلْبُ على حالِهِ مُطمَئِناً بالإيمانِ.

وأمّا الرسالةُ فلا سَبيلَ أنْ يُبَلِّغَها إلّا باللِّسانِ. لِذلكَ لم يُبِحْ لهُ تَرْكَها، وإنْ خافَ[6] الهلاكَ. ولهذا يَدُلُّ قولُنا في المُكْرَهِ بالطلاقِ والعِتاقِ: إنهُ إذا تكَلَّمَ بهِ عَمِلَ لِتَعلُّقِهِما باللِّسانِ دونَ القَلْبِ. فالإكراهُ لا يَمْنَعُ نَفاذَ ما تَعَلَّقَ باللِّسانِ دونَ القَلْبِ كالرسالةِ التي ذَكَرْنا، والله أعْلَمُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ أي لم تُبَلِّغِ الرِّسالةَ في حادثٍ فكأنَّ لم تُبَلِّغْ في ما مَضى أو إنْ لم تُبَلِّغِ البَيانَ كما بَلَّغْتَ التَّنْزيلَ في ما بَلَّغْتَ الرِّسالةَ، والله أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ دليلُ إثباتِ رسالَتِهِ ﷺ لأنهُ ﷻ أخبَرَ أنهُ عَصَمَهُ مِنَ الناسِ، فكانَ ما قالَ، فَدَلَّ أنهُ عَلِمَ ذلكَ باللهِ. وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥] كانَ يقولُ بَيْنَ ظَهْرانَي الكَفَرَةِ[7]: كِيدوني جَميعاً، ثم لَمْ يَلْحَقْهُ مِنْ كَيدِهِمْ شَيءٌ. دلَّ أنهُ كانَ باللهِ تعالى [مُعْتَصِماً][8].

وعنْ عائشةَ ﵂ [أنها قالَتْ][9]: كانَ النَّبِيُّ ﷺ [يَحْرُسُهُ أصحابُهُ][10]. فلمّا نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ قالَ: «انْصَرِفوا إلى منازِلِكُمْ فإنَّ الله عَصَمَني مِنَ الناسِ» [القرطبي ٦/ ١٨٠] فانْصَرَفوا.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ أي بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ والبراهينِ التي جَعَلَها الله أعلاماً لِرِسالَتِكَ وآثاراً لِنُبوَّتِكَ، لِيُلْزِمَهُمُ الحُجَّةَ بذلكَ، والله أعْلَمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ لابتِداءِ الكلامِ بِمِثْلِ هذا لا[11] عن قولٍ أو دَعْوَى تَسْبِقُ، وليسَ في الآيةِ بيانُ ما كانَ مِنْهُمْ ما ادَّعوا أنهُمْ على دينِ اللهِ وعلى وَلايَتِهِ، أو ما قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [الآية: ١٨] أو [ما][12] قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] أو نَحْوُ ذلكَ مِنْ أمانِيهِمْ ودَعاواهُمُ التي ادَّعوا لأنفُسِهِمْ. فقالَ لِرسولِهِ: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

قالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي حتى تُقيمُوا ما حَرَّفْتُمْ، وغَيَّرْتُمْ مِنَ التَّوراةِ والإنْجيلِ، وبَدَّلْتُمْ، وتَسْتَوُوا على ما أُنزِلَ، وتُؤْمِنُوا بهِ. وقالَ غَيْرُهُ: قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ بالشَّهادةِ والتَّصديقِ لِما فيهِما.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: كأن. (٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]. (٥) في الأصل وم: تعلق. (٦) في الأصل وم: خافه. (٧) في الأصل وم: الكفر. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يحرس. (١١) من م، في الأصل: إلا. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنه قال](١): ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ حتى تعلَموا بما في التوراةِ والإنجيلِ مِن صِفَةِ محمدٍ ونعتِهِ ومبعثِهِ ونبوَّتِهِ ﷺ وتبيِّنوهُ للناسِ، ولا تكتُموهُ(٢). وما ذكَرْنا واحدٌ.

[وقولُهُ تعالى](٣): ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مِن كُتُبِ أنبيائِكُمْ، وحتى تُقِيموا أيضاً ما أُنزِلَ مِنَ الكُتُبِ كُتُبِ الرُّسُلِ أجمَعَ. لأنَّ الإيمانَ ببعضِ الرُّسُلِ وببعضِ الكتبِ، والكُفرَ ببعضٍ لا ينفَعُ حتّى يُؤمِنَ بالرسلِ كلِّهِمْ وبالكُتُبِ جُملَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ قد ذكَرْنا. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ القرآنُ مِن أمرِ الرَّجمِ والقِصاصِ ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ هوَ [ما](٤) أمرَ اللهُ نبيَّهُ [ﷺ](٥) أن يُبلِّغَ ما أُنزِلَ عليهِ بقولِهِ: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الآية: ٦٧]

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لا تحزَنْ على كُفرِهِم كقولِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ونحوُ قولِهِ تعالى/ ١٣٤ ـ أ/ : ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما هُمُ الذينَ آمَنوا بألسِنتِهِمْ، ولم تُؤمِنْ قُلوبُهُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: هُمُ الذينَ، آمَنوا ببعضِ الرُّسُلِ، لم يتَسمَّوا باليهوديَّةِ، ولا بالنَّصرانيَّةِ ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ قد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ مَن هُم.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ تأويلُ الآيةِ، واللهُ أعلَمُ: وإنِ اختلَفَتْ أديانُهُم، وتفرَّقَتْ مَذاهِبُهُم، لو آمَنوا باللهِ وما ذكَرَ فلا خِلافَ عليهِمْ بما كانَ مِنهُمْ في حالِ كُفرِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فَوتِ ما أعطاهُمْ أي لا يَفوتُهُمْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قد أخَذَ اللهُ عز وجل الميثاقَ على جَميعِ البَشَرِ، وخَصَّهُمْ بهِ دونَ غيرِهِمْ مِنَ الخلائِقِ لِما ركَّبَ فيهِمْ ما يَعرِفُ كلٌّ بهِ شَهادَةِ الخِلقَةِ على وَحدانيَّةِ ربِّهِ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثم خصَّ بَني إسرائيلَ مِنَ البَشَرِ بفضلِ الميثاقِ كما أرسَلَ إليهِمُ الرُّسُلَ مِنهُم، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ وكأنَّهُمْ قد قَبِلوا تلكَ المَواثيقَ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى آخِرِهِ [الآية: ١٢] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] كانَ مِنَ اللهِ عَهْدٌ، فأخبَرَ أنهُمْ إذا أوفَوا بعَهْدِهِ يُوفي بعَهْدِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ في الآيةِ دلالةُ أنهُمْ كانُوا يُخالِفونَ دينَ الرُّسُلِ بأجمَعِهِمْ لِما أحدَثوا مِن اتِّباعِ أهوائِهِمْ(٦)، وأنَّ الرُّسُلَ، وإنِ اختلَفَتْ أوقاتُ مَجيئِهِمْ، فإنهُمْ إنما يَدْعونَ بأجمَعِهِمْ إلى دينٍ واحِدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ مِنهُمْ مَن كَذَّبَ، ومِنهُمْ مَن قَتَلَ. لكنَّ القَتلَ إنْ كانَ فهُوَ في الأنبياءِ غيرِ الرُّسُلِ لأنهُ تعالى قالَ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١] أخبَرَ أنهُ يَنصُرُ رُسُلَهُ، وليسَ في القَتلِ نَصرٌ. ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أي فَريقاً قَصَدوا قَصدَ قَتلِهِم. وقد ذكَرْنا هذا في ما تقدَّمَ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ ولم يُبيِّنْ ما الفِتنَةُ التي حَسِبوا ألّا تكونَ؟ فأهلُ(٧) التأويلِ اختلَفوا فيها: قالَ قائِلونَ: الفِتنَةُ المِحنَةُ التي فيها الشِّدَّةُ؛ حَسِبوا ألّا يأتيَهُمُ الرُّسُلُ بامتِحانِهِم على خِلافِ هَواهُمْ. بلْ جاءَهُمُ الرُّسُلُ ليَمتَحِنوا على خِلافِ ما أحدَثوا مِن هَوى أنفُسِهِمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تكتمونه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في م: ﷺ. (٦) في الأصل وم: هوائهم. (٧) في الأصل وم: قائل.

جنة السنة

وقالَ بَعْضُهُم: قولُهُ تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي هَلاكٌ وعَذابٌ تكذيبِهِمُ الرُّسُلَ وَقَصْدُهُمْ قَصْدَ قَتْلِهِمْ.

وقالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ: ألّا يكونَ شَرٌّ. وقيلَ: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي حَسِبُوا ألّا يُبْتَلَوا بِتَكْذيبِهِمُ الرُّسُلَ وبِقَتْلِهِمُ الأنبياءَ بالبَلاءِ والقَحْطِ ﴿فَعَمُواْ﴾ عنِ الهُدى، فَلَمْ يُبْصِرُوهُ ﴿وَصَمُّواْ﴾ عَنِ الهُدَى فَلَمْ يَسْمَعُوا لِما لم يَنْتَفِعُوا بِهِ.

[وقولُهُ تعالى:][1] ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ﴾ فَدَفَعَ عنهُمُ البَلاءَ، فَلَمْ يَتُوبُوا بَعْدَ رَفْعِ البلاءِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ ما ذَكَرَهُ في آيةٍ أُخرى، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الإسراء: ٤ و٥ و٦]. تابوا مَرَّةً، ثم رَجَعُوا، ثم تابوا. فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ الآيةَ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ الآيةَ. يَحْتَمِلُ قولُهُ ﷺ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ [وجهَين:

أحدُهُما:][2]: أي كَفَروا بِعيسَى لأنَّ عِيسَى كَذَّبَهُمْ في قولِهِم[3]: إنهُ ابنُ الله بقولِهِ: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ الآية، وبقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [آل عمران: ٥١] وبقولِهِ: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية [مريم: ٣٠]. أخبَرَ أنهُ عَبْدُ اللهِ لَيسَ هو إلهاً ولا ابْنَهُ. تعالَى اللهُ عَنْ ذلكَ.

والثاني: كَفَروا بِعِلْمِهِمْ لأنَّهُمْ عَلِمُوا أنهُ ابْنُ مَرْيَمَ، وسَمَّوهُ ابْنَ مَرْيَمَ، ثم قالُوا: هو اللهُ أوِ ابْنُ اللهِ. فإنْ كانَ ابْنَ مَرْيَمَ أنَّى تكونُ لهُ أُلوهيَّةٌ؟ فإذا كانَتْ أمُّهُ لم تَسْتَحِقَّ الأُلوهيَّةَ، وهي أقْدَمُ مِنْهُ، كيفَ تكونُ لِمَنْ بَعْدَها؟ ولكنْ لِسَفَهِهِمْ قالُوا ذلكَ. تَعالَى اللهُ عَنْ ذلكَ عُلُوّاً كَبيراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ إذا حَرَّمَ عليهِ الجَنَّةَ صارَ مَأْوَاهُ النارَ.

وقيلَ: سُمِّيَ مَسيحاً؛ قالَ الحَسَنُ: سُمِّيَ ذلكَ لأنهُ مَمْسوحٌ بالبَرَكاتِ، وسُمِّيَ الدَّجالُ مَسيحاً لأنهُ مَمْسوحٌ باللَّعْنَةِ.

وقيلَ: المَسيحُ بِمَعْنَى الماسِحِ، وذلكَ جائزٌ: الفَعيلُ بِمَعْنَى الفاعِلِ؛ وهو ما كانَ يَمْسَحُ المَريضَ والأكْمَهَ، فَيَبْرَأُ، ويَمْسَحُ المَوْتَى، فَيَحْيَوْنَ، ومِثْلُ ذلكَ، فَسُمِّيَ بذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

والفَعيلُ بِمَعْنَى المَفْعولِ جائزٌ أيضاً؛ يُقالُ: جَريحٌ ومَجْروحٌ، وقَتيلٌ ومَقْتولٌ. هذا كُلُّهُ جائزٌ في اللُّغَةِ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحدُهُما][4]: كَفَروا بِعِلْمِهِمْ [لأنَّهُمْ][5] عَلِمُوا بِوَحْدانيَّتِهِ، فكيفَ يكونُ ثالِثَ ثَلاثَةٍ، وهو واحِدٌ؟ فإذا قالُوا: هو اللهُ، فلا يكونُ هناكَ ثانٍ، ولا ثالِثٌ، وذلكَ تَناقُضٌ في العَقْلِ.

والثاني: [كَفَروا لأنَّهُمْ][6] لم يَرَوا غيرَ اللهِ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ[7]، ولا رَأَوا أحداً خَلَقَهُمْ سِوَى اللهِ[8]، كيفَ سَمَّوا [مَنْ][9] دُونَهُ إلهاً، ولم يَخْلُقْ ما ذَكَرْنا؟ إنما خَلَقَ ذلكَ اللهُ الذي لا إلهَ غَيْرُهُ؛ وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي يَعْلَمونَ أنهُ لا إلهَ إلّا اللهُ، إلهٌ واحِدٌ. لكنَّهُمْ يَتَعَنَّتُونَ، ويُكابِرونَ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ عمّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ عن مَقالَتِهِمُ الشِّرْكَ؟ فإنْ فَعَلُوا فإنَّ اللهَ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وباللهِ العِصْمَةُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: قوله. (٤) في الأصل وم: قوله تعالى. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أنهم. (٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١و...]. (٨) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ في الآيةِ دَلالةُ المُحاجَّةِ مَعَ الفريقَينِ [في وجهَينِ]:

أحدُهما: أنهُمْ[1] كانُوا فريقَينِ؛ أحَدُ الفريقَينِ كانُوا يكفُرونَ أنهُ رسولٌ، والفريقُ الآخَرُ يَدَّعُونَ لهُ الرُّبُوبِيَّةَ والأُلُوهِيَّةَ. فقالَ: إنهُ ابنُ مَرْيَمَ، وابنُ مَرْيَمَ لا يُحتَمَلُ أنْ يكونَ إلهاً.

والثاني: أخبَرَ أنهُ ﴿رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِ عِيسَى رُسُلٌ مَعَ آياتٍ وبراهِينَ. لم يَقُلْ أحَدٌ مِنَ الأُمَمِ السالِفَةِ أنهُمْ كانُوا آلِهةً، فكيفَ قُلْتُمْ أنتُمْ بأنَّ عِيسَى إلهٌ؟ وإنْ كانَ مَعَهُ آياتٌ وبراهِينُ لِرسالتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ قيلَ: مُطَهَّرَةٌ مِنَ الأقذارِ كُلِّها صالحةٌ. وقيلَ: ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ تُشبِهُ النَّبِيِّينَ؛ وذلكَ أنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام لَمّا أتاها، وقالَ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] صَدَّقَتْهُ كَتَصْدِيقِ الأنبياءِ والرُّسُلِ الملائكةَ. وأمّا سائِرُ الخَلائِقِ إنَّما يُصَدِّقونَ المَلائكةَ بإخبارِ الرُّسُلِ إيّاهُمْ، وهي إنما صَدَّقَتْ جِبْرِيلَ بإخبارِهِ [إياها][2] أنهُ مَلَكٌ وأنهُ رسولٌ. لِذلكَ سُمِّيَتْ صِدِّيقَةً، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: كُلُّ مُؤمِنٍ صِدِّيقٌ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ الآية [الحديد: ١٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ فيهِ الاحتِجاجُ عَلَيهِمْ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ الجُوعَ كانَ يَغلِبُهُما، ويُحوِجُهُما إلى أنْ يَدفَعا ذلكَ عَنْ نَفْسَيهِما[3]. ومَنْ غَلَبَهُ الجُوعُ، وقَهَرَهُ، كيفَ يَصْلُحُ أنْ يكونَ رَبّاً إلهاً؟.

والثاني: أنهُما إذا احْتاجا إلى الطَّعامِ لابُدَّ مِنْ أنْ يَدفَعهُما ذلكَ إلى إزالَةِ الأذى عَنْ نَفسَيهِما[4] ودَفعِهِ والقِيامِ في أخبَثِ الأماكِنِ وأقبَحِها. فَمَنْ دُفِعَ إلى ذلكَ لا يكونُ إلهاً. تعالى اللهُ عَنْ ذلكَ عُلُوّاً كَبيراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ والآياتُ ما ذَكَرَ مِنْ وَجهَيِ[5] المُحاجَّةِ عليهِمْ:

أحَدُهُما[6]: أنهُ ابنُ/ ١٣٤ ـ ب/ مَرْيَمَ؛ ومَنْ كانَ ابنَ آخَرَ لا يكونُ إلَهاً.

والثاني: مَنْ أكَلَ الطَّعامَ احْتاجَ أنْ يَدفَعَ عَنْ نَفسِهِ الأذى، ويَقُومَ في أخبَثِ مكانٍ. ومَنْ كانَ هذا أمْرُهُ لَمْ يَكُنْ رَبّاً. وليسَ في القُرآنِ، واللهُ أعلَمُ، آيَةٌ أكثَرُ ولا أبيَنُ احتِجاجاً على النَّصارى[7] ولا أقطَعُ لِقولِهِمْ [مِنْ][8] هذهِ الآيَةِ لِلمَعاني[9] التي وَصَفْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي مِنْ أينَ يَكْذِبُونَ؟ قالَ أبو عُبَيدَةَ: يُؤفَكُونَ يُصْرَفُونَ، ويُحادُّونَ عَنِ الحَقِّ. كُلُّ مَنْ صَرَفْتَهُ عَنْ شيءٍ فَقَدْ أفِكْتَهُ. ويُقالُ: أُفِكَتِ الأرضُ إذا صُرِفَ عَنْهَا القَطْرُ كقولِهِ[10] تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩].

وقالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه: ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨] قالَ: أضَلَّهُمْ فَقَدْ صَرَفَهُمْ عَنِ الهُدَى.

قالَ أبو عوسَجَةَ: الإفْكُ عِندي الصَّرفُ عَنِ الحَقِّ، وفي الأصلِ: الإفْكُ الكَذِبُ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرَفُونَ عَنِ الحَقِّ، ويَعْدِلُونَ. وقِيلَ: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يُخْدَعُونَ بِالكَذِبِ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ إنْ خالَفْتُمُوهُ ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ إنْ أطَعْتُمُوهُ. وقِيلَ: يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ إنْ كانَ اللهُ أرادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ إنْ أحَلَّ[11] بِكُمُ الضُّرَّ أي لا تَملِكُونَ دَفْعَهُ عَنكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لِنِسْبَتِكُمْ عِيسَى إليهِ، تعالى ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بِعِبادَتِكُمْ غَيرَ اللهِ. ويَحتَمِلُ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ المُجِيبُ لِدُعائِكُمْ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ لِنِيّاتِكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: لأنهم. (٢) ساقطة من الاصل وم. (٣) في الأصل وم: أنفسهما. (٤) في الأصل وم: أنفسهما. (٥) في الأصل وم: وجوه. (٦) في الأصل وم: أحدُها. (٧) في الأصل وم: وأولئك. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: المعاني. (١٠) في الأصل وم: وقوله. (١١) في م: حل.

جنة السنة

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ خاطَبَ اللهُ ﷻ بالنَّهيِ عَنِ الغُلُوِّ في الدِّينِ أهْلَ الكتابِ، لم يُخاطِبْ أهْلَ الشِّرْكِ بذلكَ في ما خاطَبَ كقولِهِ[1]: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] وذلكَ أنَّ أهْلَ الكِتابِ ادَّعَوا أنَّهُمْ على دِينِ الأنبياءِ والرُّسُلِ كانُوا مِنْ قَبْلُ، فَنَهاهُمُ اللهُ ﷻ عَنِ الغُلُوِّ فِي الدِّينِ. والغُلُوُّ هوَ المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي حُدَّ والإفراطُ فيهِ والتَّعَمُّقُ. فكأنَّهُ، واللهُ أعْلَمُ، قالَ: لا تُجاوِزُوا فِي الدِّينِ الحَدَّ الذي حُدَّ فِيهِ بِنِسْبَتِهِ الألُوهِيَّةَ إلى غَيرِ اللهِ والعِبادَةِ لَهُ.

وأمّا أهْلُ الشِّرْكِ فَإنَّهُمْ يَعْبُدُونَ ما يَسْتَحْسِنُونَ، ويَتْرُكُونَ ما يَسْتَقْبِحُونَ، لَيْسَ لَهُمْ دِينٌ، يَدِينُونَ بهِ. وأمّا هؤلاءِ فإنَّهُمْ يَدَّعُونَ أنَّهُمْ على دِينِ الأنبياءِ والرُّسُلِ. كذلكَ خَرَجَ الخِطابُ لَهُمْ بذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟﴾ يَعْني مِنْ قَبْلِ الرسولِ بذلكَ، واللهُ أعْلَمُ، ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ أي أتْباعَهُمْ ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي عَنْ قَصْدِ طَريقِ الهُدَى.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: لُعِنُوا بِكُلِّ لِسانٍ؛ لُعِنُوا على عَهْدِ مُوسَى ﷺ في التَّوْراةِ وعلى عَهْدِ داوودَ في[2] الزَّبُورِ وعلى عَهْدِ عِيسَى فِي الإنْجيلِ وعلى عَهْدِ [رسولِ اللهِ محمدٍ، عليهِ أفْضَلُ الصَّلَواتِ وأكْمَلُ التَّحِيّاتِ][3] في القُرآنِ، وهُوَ قَولُ ابْنِ عباسٍ ﷺ.

وقِيلَ: مُسِخُوا [بِدُعاءِ الرسلِ][4] بِمَا اعْتَدَوا قِرَدَةً وخَنازِيرَ. قالَ ابْنُ عَباسٍ ﷺ القِرَدَةُ والخَنازِيرُ مِنْ نَسْلِ الذينَ مُسِخُوا. وقالَ الحَسَنُ: انْقَطَعَ ذلكَ النَّسْلُ. وأصْلُ اللَّعْنِ هو الطَّرْدُ، كأنَّهُمْ طُرِدُوا عَنْ رَحْمَةِ اللهِ.

ويَحْتَمِلُ تَخْصِيصُ اللَّعْنِ على لِسانِ داوودَ، ﷺ، كانَ بِهِ غِلْظَةٌ وخُشُونَةٌ، وهو الذي كانَ اتَّخَذَ الأسْلِحَةَ وآلاتِ الحَرْبِ، وعِيسَى كانَ بهِ لِينٌ ورِفْقٌ لِيُعْلَمَ أنَّ اللَّعْنَ الذي كانَ مِنْهُمَا كانَ لاعْتِدائِهِمُ الحُدُودَ حُدُودَ اللهِ وعِصْيانِهِمْ رَبَّهُمْ، وكانُوا مُسْتَوجِبِينَ لذلكَ [مُحِقِّينَ. ولذلكَ][5] اسْتُجِيبَ دُعاؤُهُمْ عليهِمْ بِاللَّعْنِ؛ أعْني دُعاءَ الرُّسُلِ ﷺ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ [أنهُ][6] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا وقَعَتْ بَنُو إسْرائِيلَ فِي المَعاصِي نَهاهُمْ عُلَماؤُهُمْ، فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجالَسُوهُمْ فِي مَجالِسِهِمْ، وآكَلُوهُمْ، وشارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ولَعَنَهُمْ ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾، قالَ: فَجَلَسَ رسولُ اللهِ ﷺ وكانَ مُتَّكِئاً، فقالَ: لا والذي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطِرُوهُمْ على الحَقِّ أطْراً» [أحمد ١/ ٣٩١] قالَ أبو عُبَيْدٍ: يَعْنِي تَعْطِفُوهُمْ عَطْفاً. وقالَ غَيرُهُ: حَتَّى تَكْسِرُوهُمْ كَسْراً.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قِيلَ: قولُهُ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ يَعْني المُنافِقِينَ ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يَعْني اليهودَ ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مِنْ مُشْرِكِي العَرَبِ وغَيرِهِمْ؛ كانُوا يُظاهِرُونَ على رسولِ اللهِ ﷺ والمُؤْمِنِينَ، ويُعاوِنُونَ عَلَيهِمْ، قد كانَ مِنَ الفَرِيقَينِ جَمِيعاً ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ وَجْهاً آخَرَ: قولُهُ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ مِنْ هؤلاءِ الذينَ شَهِدَ لَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يَعْني أسْلافَهُمْ ورُؤَساءَهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ الآية [الآية: ٧٧] تَوَلَّى هؤلاءِ أولئكَ، واتَّبَعُوا أهْواءَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي ما قَدَّمَتْ أنْفُسُهُمْ سُخْطُ اللهِ عَلَيهِمْ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ﴾ فِي المُنافِقِينَ فِي أحدِ التَّأْوِيلَينِ. وفي تَأْوِيلٍ آخَرَ [في][7] اليهودِ، أي لو صَدَّقَ هؤلاءِ رسولَ اللهِ ﷺ وآمَنُوا بِهِ، وصَدَّقُوا ما ﴿أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ القُرآنَ ما اتَّخَذُوا أولئكَ أوْلِياءَ.

---

(١) في الأصل وم: بقوله. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في م: رسولنا محمد ﷺ. (٤) في الأصل وم: بدعائهم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ثم يَحتَمِلُ قَولُهُ تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ في الدِّينِ أو في النَّصرِ والمَعُونَةِ والمُظاهَرَةِ ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾ تَحتَمِلُ الآيةُ وُجوهاً: تَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِن شِدَّةِ العَداوَةِ[١] لِلَّذينَ آمَنوا قوماً مَخصوصِينَ مِنهُم، وتَحتَمِلُ اليهودَ الذينَ كانُوا بِقُربِ رسولِ اللهِ [ﷺ][٢] وأصحابِهِ، هُم أشَدُّ عَداوةً لَهُم، وتَحتَمِلُ اليهودَ جُملَةً.

فَهُوَ، واللهُ أعلَمُ، على ما كانَ مِنهُم مِن قَتلِ الأنبياءِ وتَكذيبِهِم إيّاهُم ونَصبِ القِتالِ والحَربِ مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ والمُؤمنِينَ، وما كانَ مِنهُم مِن قَولِ الوَحشِ في اللهِ سُبحانَهُ ما لم يَستَقِمْ أحدٌ بِمِثلِ ما وصَفُوا اللهَ ﷻ بالبُخلِ والفَقرِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ [الآية: ٦٤] [وقولُهُ تعالى][٣]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ [آل عمران: ١٨١] وغَيرُ ذلكَ مِنَ القَولِ؛ وذلكَ لِشِدَّةِ بُغضِهِم وعَداوَتِهِم وقَساوَةِ قُلُوبِهِم. فَعَلى ذلكَ كُلُّ مَن دَعاهُم إلى دِينِ اللهِ تعالى؛ فَهُم لَهُ أشَدُّ عَداوةً وأقسَى قَلباً.

وأمّا النَّصارَى فلم يَكُنْ مِنهُم واحِدٌ مِمّا كانَ مِنَ اليَهودِ مِن[٤] قَتلِ الأنبياءِ ونَصبِ الحُروبِ والقِتالِ مَعَهُم. ولم يَرَوا في مَذهَبِهِمُ القِتالَ ولا الحَربَ، ولا كانَ مِنهُم مِنَ القَولِ الوَحشِ ما كانَ مِنَ اليَهودِ. بَلْ كانَ فيهِمُ اللِّينُ والرِّفقُ حتى حَمَلَهُم ذلكَ على القَولِ في عِيسَى ما قالُوا .وذلكَ مِنهُم لَهُ تَعظِيمٌ فَوقَ القَدرِ الذي جَعَلَ اللهُ لَهُ حتى رَفَعُوهُ مِن قَدرِ العُبُودَةِ إلى قَدرِ الرُّبُوبِيَّةِ. لِذلكَ كَفَرُوا. وإلّا كانُوا يُؤمِنُونَ بالكُتُبِ والأنبياءِ ﷺ مِن قَبلُ.

ألا تَرى أنَّهُ قالَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا﴾ أخبَرَ ﷻ أنَّ ﴿مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا﴾ والرُّهبانُ هُمُ العُبّادُ؟ وقيلَ: القِسِّيسُونَ[٥] هُمُ الصِّدِّيقُونَ. ولم يَكُنْ مِنَ اليَهودِ رُهبانٌ ولا قِسِّيسُونَ[٦]. لِذلكَ كانَ النَّصارَى أقرَبَ مَوَدَّةً وألْيَنَ قَلباً مِنَ اليَهودِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ كانَ ذلكَ في قومٍ مَخصوصِينَ مُشارٍ إليهِم، فَهُوَ[٧] ما ذُكِرَ في القِصَّةِ أنَّ بَنِي قُرَيظَةَ والنضيرِ كانُوا يُعاوِنُونَ، ويُظاهِرُونَ مُشرِكِي العَرَبِ على قِتالِ رسولِ اللهِ ﷺ ويأمُرُونَهُم. بذلكَ ظاهَرُوا، وأعانُوا لِمَن لم يُؤمِنْ بِنَبِيٍّ ولا كُتُبٍ/ ١٣٥ - أ/ قَطُّ على مَن قد آمَنَ بالأنبياءِ والكُتُبِ جَميعاً؛ وذلكَ لِسَفَهِهِم وشِدَّةِ تَعَنُّتِهِم حتى قاتَلَهُم رسولُ اللهِ ﷺ وأجلاهُم مِن بِلادِهِم إلى أرضِ الشّامِ.

وإنْ [كانَ ذلكَ في][٨] قومٍ بِقُربِ رسولِ اللهِ ﷺ والمُؤمنِينَ فَهُوَ[٩] ما كانَ مِن يَهودِ المَدينَةِ حِينَ[١٠] بايَعُوا أهلَ مَكَّةَ على قِتالِ رسولِ اللهِ ﷺ وكانُوا عُيُوناً لَهُم عليهِم وطَلائِعَ. ولم يُذكَرْ في قِصَّةٍ مِنَ القِصَصِ أنَّهُ كانَ مِن[١١] النَّصارَى [شَيءٌ مِن ذلكَ [لِذلكَ كانُوا][١٢] أقرَبَ مَوَدَّةً لِلمُؤمنِينَ، واللهُ أعلَمُ.

وما قالَهُ بَعضُ أهلِ التَّأويلِ بأنَّ مَن أسلَمَ مِنهُم كانَ أقرَبَ مَوَدَّةً لِلمُؤمنِينَ مِنَ اليَهودِ.

فَحاصِلُ هذا الكلامِ أنَّ المؤمنَ أقرَبُ [مَوَدَّةً][١٣] للمؤمنينَ مِنَ الكافرِينَ، وذلكَ لا يُفِيدُ مَعنًى.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ سُروراً على أنفُسِهِم بِمَا ظَفِرُوا بِمَا كانُوا يَسمَعُونَ مِن نَعتِهِ ﷺ ويُطعِمُونَ مَن وَجَدُوا[١٤]. وقد يَعمَلُ السُّرورُ هذا العملَ إذا اشتَدَّ بهِ، وفَرِحَ القَلبُ، فاضَتْ عَيناهُ سُروراً.

ويَحتَمِلُ قَولُهُ تعالى: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ حُزناً على قَومِهِم حِينَ[١٥] لم يُؤمِنُوا بَعدَ أنْ بَلَغَهُم ما بَلَغَ هؤلاءِ مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ وآثارِ الرِّسالةِ إشفاقاً عليهِم أنْ كيفَ لم يُؤمِنُوا؟ كقولِهِ تعالى: ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢] قد فاضَتْ [أعيُنُهُمْ ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ واللهُ أعلَمُ][١٦].

---

(١) في الأصل وم: عداوة. (٢) من م، في الأصل: ﷺ. (٣) في الأصل وم: وقالوا. (٤) في الأصل وم: ومن. (٥) في الأصل وم: القسيسين. (٦) في الأصل وم: قسيس. (٧) في الأصل وم: وهو. (٨) في الأصل وم: ذلك عن. (٩) في الأصل وم: وهو. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في م: في. (١٢) ساقطة من الأصل. (١٣) ساقطة من م. (١٤) في الأصل وم: وجده. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا﴾ بما أنزلْتَ، واتَّبَعْنا الرسولَ ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ قيلَ مَعَ أصحابِ محمدٍ ﷺ وهو واحدٌ.

ثم ذُكِرَ في القِصَّةِ أنها نَزَلَتْ في النَّجاشيِّ وأصحابِهِ. وقيلَ: نَزَلَتْ في أربعينَ رجلاً مِنْ مُسْلِمِي أهلِ الإنجيلِ؛ بَعْضُهُمْ قَدِمُوا مِنْ أرضِ الحَبَشَةِ، وبَعْضُهُمْ قَدِمُوا مِنْ أرضِ الشامِ، فَسَمِعُوا القرآنَ مِنَ النبيِّ ﷺ فقالُوا: ما أشْبَهَ هذا بالذي نُحَدَّثُ مِنْ حديثِ عِيسَى! فَبَكَوا، وصَدَّقُوا، فَنَزَلَتِ الآيةُ فيهِمْ. فلا نَدْري كيفَ كانَتِ القِصَّةُ؟ وفي مَنْ نَزَلَتْ؟ إذْ لَيسَ في الآيةِ بَيانُهُ، ولَيسَ بِنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ سِوَى ما فيهِ مِنْ شِدَّةِ رَغْبَتِهِمْ في القرآنِ وسُرورِهِمْ على ذلكَ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ الحقُّ يَحْتَمِلُ الرسولَ ﷺ ويَحْتَمِلُ القرآنَ، ويَحْتَمِلُ كِلَيهِما[1].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَنَطْمَعُ﴾ أي نَعْلَمُ ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ الجَنَّةَ إذا آمَنَّا ﴿بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ قيلَ: ﴿وَنَطْمَعُ﴾ وهو الطَّمَعُ والرِّضا أي نَطْمَعُ، ونَرْجُو ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ في دِينِ قومٍ صالِحِينَ. و ﴿الصَّالِحِينَ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنَ الأنبياءِ والرُّسُلِ، ويَحْتَمِلُ أصحابَ محمدٍ [صَلَواتُ اللهِ عليهِ، وسلامُهُ][2].

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ الثَّناءَ الحَسَنَ في الدنيا حينَ[3] ذَكَرَهُمْ في القرآنِ، فيُذْكَرونَ إلى يومِ القيامةِ، ويُثْنَى عليهِمْ، وفي الآخِرَةِ الجَنَّةَ ونَعِيمَها ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ المُحْسِنُ كأنَّهُ هو الذي يَتَّقِي المَعاصِيَ، ويأتي بالخيراتِ والحَسَناتِ جميعاً؛ يَعْمَلُ عَمَلَينِ جميعاً. والتَّقِيُّ هو الذي يَتَّقِي المَعاصِيَ والمَكارِهَ خاصَّةً.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الجحيمُ هو اسمُ مُعْظَمِ النارِ. وقالَ غيرُهُمْ: هو اسمُ دَرَكٍ مِنْ دَرَكاتِ النارِ، وكذلكَ السَّعِيرُ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآيةُ تَرُدُّ على المُتَقَشِّفَةِ لأنهُ [ما][4] نهانا أنْ نأكُلَ طَيِّباتِ ما أحلَّ اللهُ لَنا، وهُمْ يُحَرِّمونَ ذلكَ. وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. ثم لا فَرْقَ بَيْنَ ما أحلَّ اللهُ لنا مِنَ الطَّيِّباتِ وتَحْريمِ ما حَرَّمَ اللهُ علَينا مِنَ الخَبائِثِ. ثم يُلْزِمُهُمْ ألّا[5] يُحَرِّمُوا على أنْفُسِهِمُ التَّناوُلَ مِنَ الخُبْزِ والماءِ، وهما مِنْ أطْيَبِ الطَّيِّباتِ.

ألا تَرَى أنَّ المَرْءَ قد يَمَلُّ، ويَسْأَمُ مِنْ غيرِهِما مِنَ الطَّيِّباتِ إذا أكْثَرَ [مِنْ][6] ذلكَ، ولا يَمَلُّ مِنَ الخُبْزِ والماءِ؟ دلَّ أنهُما مِنْ أطْيَبِ الطَّيِّباتِ. إلا أنْ يَتَّقُوا مِنَ التَّناوُلِ مِنْ غيرِهِما إيثاراً منهُمْ غيرَهُمْ على أنفُسِهِمْ لِما يَلْحَقُ القومَ مِنَ المُؤَنِ[7] في غيرِهِما مِنَ الطَّيِّباتِ ولا يَلْحَقُ في الخُبْزِ والماءِ، لأنَّهُما مَوجودانِ، يَجِدُهُما كُلُّ أحدٍ، ولا يَجِدُ غيرَهُما مِنَ الطَّيِّباتِ إلا مَنْ تَحَمَّلَ مُؤْنَةً عَظيمةً. فإنْ كانَ تَرْكُهُمُ التَّناوُلَ منها لِهذا الوجهِ فإنهُ لا بأسَ.

وبَعْدُ فإنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ الأطْعِمَةَ والأشْرِبَةَ والفواكِهَ لِلْبَشَرِ في الوَقْتِ والحالِ التي تَطِيبُ أنْفُسُهُمْ بها، وتَلَذُّ، لأنهُ لم يُحِلَّ لَهُمْ في أوَّلِ خُروجِها مِنَ الأرضِ، والنَّخيلُ إنما أحلَّ لَهُمْ بَعْدَ نُضْجِها ويَنْعِها واتِّخاذِها خُبْزاً وبُلُوغِها في الطِّيبِ نِهايَتَهُ. وجَعَلَ لِلْبَهائِمِ ذلكَ في أوَّلِ ما يَخْرُجُ. فإذا كانَ البَشَرُ خُصُّوا بذلكَ لم يَجِبْ أنْ يُحَرِّمَ ذلكَ، ويُبْطِلَ ذلكَ التَّخْصِيصَ والتَّفْضِيلَ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: إنما لم يَتَناوَلْ مِنها لِما يُعْجِزُ عنْ شُكْرِ اللهِ، لذلكَ يُقْتَصَرُ على ما يُقِيمُ الرَّمَقَ فيهِ، قيلَ لهُ: فَيَجِبُ ألّا يَتَزَوَّجَ مِنَ النِّساءِ إلا أدْوَنَهُنَّ جمالاً وأكْبَرَهُنَّ سِنّاً لأنها [تَصُونُهُ مِنَ][8] الفُجُورِ. فإنْ لم يَكُنْ في تَزَوُّجِ[9] العجائزِ والقَبائِحِ وتَرْكِ

---

(١) في الأصل وم: كلاهما. (٢) في م: ﷺ. (٣) في الأصل وم: حيث (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: المؤمن. (٨) من م، في الأصل: عن. (٩) في الأصل وم: تزويج.

جنة السنة

الشُّبَّانِ الحِسانِ زَهادةٌ فَلَيسَ في أكْلِ خُبْزِ الشَّعيرِ وتَرْكِ الحُوَرِ والمَيْدَةِ زَهادةٌ، ولكِنْ لِما خافَ أنْ تُدْخِلَهُ الرَّغْبَةُ في طِيبِ الطَّعامِ في شُبْهَةٍ مَكْسَبَةٍ. فَواجِبٌ عليهِ ألّا تُدْخِلَهُ في ذلكَ المَكْسَبِ، ويُنَزِّهَ نَفْسَهُ عنْهُ، ويَقْتَصِرَ على القُوتِ الذي لابُدَّ لهُ مِنْهُ.

وقيلَ: الآيةُ نَزَلَتْ في أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ منهُمْ عُمَرُ وعَلِيٌّ وابْنُ مَسْعُودٍ وعُثْمانُ بْنُ مَظْعُونٍ والمِقدادُ وسالِمٌ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعِينَ، وهؤلاءِ حَرَّمُوا على أنْفُسِهِمُ الطَّعامَ والنِّساءَ، وهَمُّوا أنْ يَقْطَعُوا مَذاكِيرَهُمْ وأنْ يَلْبَسُوا المُسُوحَ، ويَدْخُلُوا(١) الصَّوامِعَ، فَيَتَرَهَّبُوا(٢) فيها، فَبَلَغَ ذلكَ النَّبِيَّ ﷺ [فَأتى مَنْزِلَ عثمانَ، فلم يَجِدْهُ النَّبِيُّ ﷺ](٣) فقالَ: النَّبِيُّ [ﷺ](٤) لِامْرَأَةِ عثمانَ: أحَقٌّ ما بَلَغَني عن عُثْمانَ وأصحابِهِ؟ قالَتْ: ما هو يا رسولَ اللهِ؟ فأخْبَرَها النَّبِيُّ ﷺ بالذي بَلَغَهُ، فَكَرِهَتْ أنْ تُكَذِّبَ النَّبِيَّ ﷺ وتُبْدِيَ على زَوجِها، فقالَتْ: إنْ كانَ عُثْمانُ أخْبَرَكَ فَقَدْ صَدَقَكَ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ قُولي لِزَوجِكِ إذا جاءَ: إنهُ لَيسَ مِنّا مَنْ لم يَسْتَنَّ بِسُنَّتِنا، ويأكُلْ مِنْ ذَبيحَتِنا» [بنحوه السيوطي في الدر المنثور ٣/١٣٩ـ١٤٢] فَلَمّا رَجَعَ عُثْمانُ وأصحابُهُ أخْبَرَتْهُ امْرَأَتُهُ بِقَولِ النَّبِيِّ ﷺ فقالَ عُثْمانُ: واللهِ لَقَدْ بَلَغَ النَّبِيَّ أمْرُنا، فما أعْجَبَهُ! فَذَرُوا الذي كَرِهَ، فأنزَلَ اللهُ: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية. فَلا نَدْري كيفَ كانَتِ القِصَّةُ؟ ولكنَّ فيهِ بَيانَ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ الحَلالُ هوَ الطَّيِّبَ، والطَّيِّبُ هو الحَلالَ، سَمّاهُما بِاسْمَينِ، وهما واحدٌ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا﴾ بالشَّريعَةِ والدِّينِ، و﴿طَيِّبًا﴾ بالطَّبيعَةِ لأنَّ الحِلَّ والحُرْمَةَ مَعْرِفَتُهما بالشَّريعَةِ، والطَّيِّبُ ما تَسْتَطيبُ بهِ الطَّبائِعُ.

وفي الآيةِ دليلٌ أنهُ قد يَرْزُقُ ما هو خَبيثٌ، ليسَ بِطَيِّبٍ، لأنهُ لو [لم](٥) يَرْزُقْ لم يَكُنْ لِشَرْطِ الحَلالِ والطَّيِّبِ مَعْنًى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ في الآيةِ دَلالَةٌ أنَّ الخِطابَ لِلْمُؤمِنِينَ لأنهُ قالَ: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ ولم يَقُلْ: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، ونَحْوُ هذا قَدْ سَمّاهُمْ مُؤْمِنِينَ مُطْلَقًا.

دَلَّ أنهُ يَجوزُ أنْ يُسَمِّيَ ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ و ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أنهُ لا يُحِلُّ، ولا يُحَرِّمُ، إلّا هُوَ. وليسَ/ ١٣٥ ـ ب/ إلى مَنْ [هو](٦) دونَهُ تَحْليلٌ أو تَحْريمٌ.

الآية ٨٩ مَسْأَلَةٌ(٧): اخْتَلَفَ النّاسُ في تَأويلِ أحْرُفٍ ذُكِرَتْ في قولِهِ ﷻ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ إلى قولِهِ تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لِما لِلنّاسِ حاجَةٌ إلى مَعْرِفَةِ حَقيقَةِ ما في كُلِّ حَرْفٍ مِنْها. إنهُ لم يَزَلْ تَنازُعُ أهلِ الفِقْهِ في أحكامِهِ مِمّا يُعْلَمُ أنَّ حَقَّ البَيانِ في الخِطابِ لا يَبْلُغُ ما يَقْطَعُ مَوضِعَ التَّنازُعِ فيهِ ولا بِحَيثُ يَبْلُغُ حَقيقَةَ كُلِّ سامِعٍ. وأنَّ في شَرْطِ المِحَنِ بالأسبابِ التي يُمْتَحَنُ بها لُزومَ الفِكْرِ فيها والبَحْثِ عَنها [والسُّؤالِ عَنها الذينَ](٨) خُصُّوا بِفَهْمِها بِسُؤالِهِمْ(٩): مَنْ وُلِّيَ الإبانَةَ عَنْها ومقابَلَتِهِمْ بِما سَبَقَ لهمُ العِلْمُ بِها، في مَعْرِفَةِ ذلكَ بَيانُ ما خَفِيَ مِنْ مَعْنى الذي قَرَعَ سَمْعَهُ، أو بِغَيرِ ذلكَ مِمّا فيهِ دليلُ ذلكَ؛ إذْ لا تَجوزُ المِحْنَةُ بالذي لا يَحْتَمِلُ الوُسْعُ الوُصولَ إليهِ، ولا في جُمْلَةِ ما بِهِ امْتُحِنَ إيضاحُ ذلكَ لِما يُوجِبُ الأمْرُ بِفِعْلِ ما هو عنهُ مَمْنوعٌ، وذلكَ بعيدٌ. بل يكونُ البَيانُ السَّمْعِيُّ على قَدْرِ البَيانِ العَقْلِيِّ؛ إنَّ مِنَ المَعارِفِ ما يكونُ بالحَواسِّ، ومِنْها ما بِها يُوصَلُ إليها إمّا بالتَّعليمِ وإمّا بالاسْتِدْلالِ، فَمِثْلُهُ حَقُّ السَّمْعِيِّ، واللهُ أعلَمُ.

مِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥ والمائدة: ٨٩] إنهُ ﷻ ذَكَرَ يَميناً لا يُؤاخِذُ فيها في مَوضِعَينِ مِنْ غَيرِ أنْ ذَكَرَ أنَّها: أيُّ يَمينٍ هِيَ؟ ولا بِأيِّ شَيءٍ، لا يُؤاخِذُ فيها؟ والحاجةُ لازِمَةٌ. إنَّ ذلكَ في مَوضِعِ الامْتِنانِ مِنهُ، جَلَّ، وعَلا، في العَفْوِ عَنْ أمْرٍ كانَ لهُ المُؤاخَذَةُ. وحَقٌّ على السامِعِ مَعْرِفَةُ مِنَّةِ اللهِ تعالى لِيَشْكُرَهُ عليها.

---

(١) في الأصل وم: ويدخلون. (٢) في م: فيترهبون. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في م:ﷺ. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في م: وقوله. (٨) في الأصل: الذي، في م: والسؤال عنها الذي. (٩) في الأصل وم: بسؤالهما.

جنة السنة

ثم مَعْلومٌ أنَّ اليَمينَ لو كانَتْ بالطَّلاقِ والعِتاقِ كانَ صَاحبُ ذلكَ يُؤاخَذُ بِما رُوِيَ عن نَبِيِّ اللهِ ﷺ: «أنَّ ثَلاثاً جَدُّ هُنَّ جَدٌّ، وهَزْلُهُنَّ جَدٌّ: الطلاقُ والعِتاقُ والنِّكاحُ» [أبو داوود: ٢١٩٤]. واللاغي لا يَعْدُو أمْرَينِ معَ ما كانَ يُلْزِمانِ بلا شَرْطٍ، يَصِيرُ بِهِ المُوقِعُ حالِفاً. وأعْظَمُ ما في دَفْعِ المُؤاخَذَةِ في اليَمينِ أنْ يَدْفَعَ عنْهُ اليَمِينَ، وهما يَجِبانِ دونَهُما، فيَقَعانِ مِن غَيرِ أنْ كانَ في الآيةِ ذِكْرُ التَّفْصِيلِ. ولكنْ تَجِبُ مَعْرِفَةُ حَقِيقَةِ ذلكَ بالذي بَيَّنَّا مِنَ الخَبرِ والنَّظَرِ مَعَ ما يُعْرَفُ في ذلكَ خِلافاً. وهذا يُوَضِّحُ أنَّ العَفْوَ في ما كانَتِ الأيمانُ باللهِ تعالى.

فَعَلى ذلِكَ ما نَسَقَ على ما لا يُؤاخِذُ مِنَ المُؤاخَذَةِ؛ وذلكَ يَمْنَعُ مَنِ احْتَجَّ بإيجابِ الكَفَّارَةِ على الحالِفِ بالقُرَبِ مِن حَيثُ كانَ ذلكَ منْهُ يَميناً. واللهُ أوْجَبَ باليَمِينِ كَفَّارَةً. وإنما ذلكَ في اليَمينِ لا في اليَمينِ بالقُرَبِ.

ثم كانَتِ اليَمِينُ بالقُرَبِ: لو كانَتْ على مَخْرَجِ اليَمينِ باللهِ لم يَجِبْ فيها شَيءٌ نَحْوَ أنْ تَقولَ بالعِتْقِ: لا أفْعَلُ كذا أو بالصَّلاةِ أو بالصِّيامِ، ولو قالَ: باللهِ يَجِبُ. ثَبَتَ أنَّ وجوبَ ذلكَ وصَيرورَتَهُ يميناً كانَ بِحَقِّ النُّذورِ.

وقد أمَرَ اللهُ ورسولُهُ في النُّذُورِ بالوفاءِ. فكذلكَ اليَمِينُ بها. ومِمّا يُبَيِّنُ ذلكَ أنهُ لو قالَ: إنْ فَعَلَ كذا فَعَلَيهِ قَتْلُ فُلانٍ أو إتلافُ مالِهِ إنهُ لا يَلْزَمُهُ شَيءٌ. ثَبَتَ أنَّ ما لَزِمَ لَزِمَ بِحَقِّ لُزومِ ذلكَ في النُّذُورِ. وحَقُّ ذلكَ الوَفاءُ لا غَيرَ معَ ما جاءَ الخَبَرُ بالأمْرِ بالحَلْفِ باللهِ والنَّهْيِ عنِ الحَلْفِ بِغَيرِهِ. والنُّذُورُ أبداً لا تكونُ بِغَيرِهِ. ثَبَتَ أنَّ وُجوبَ ذلكَ بِحَقِّ النَّذْرِ. فَلِذلكَ يَجِبُ الوفاءُ بِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الأصْلُ في ذلكَ أنَّ الحَلْفَ بِغَيرِ اللهِ يكونُ على قِسْمَينِ: قِسْمٍ ألّا يَجِبَ فيهِ شيءٌ وقِسْمٍ أنهُ لو وَجَبَ لَأوجَبَ[1] المُسَمّى نَحْوَ الطَّلاقِ والعِتاقِ في ما يَجِبُ. فلمّا كانَ في الحَلْفِ بالقُرَبِ في الذِّمَّةِ، وهو حَلْفٌ بِغَيرِ اللهِ تعالى، يَجِبُ أنْ يكونَ الواجِبُ في ذلكَ ما أوجَبَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في مَعْنى اللَّغْوِ، فقالَ القومُ: هو الإثْمُ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة: ٢٥] وقولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا﴾ [مريم: ٦٢].

ثم اخْتُلِفَ [في][2] مَنْ قالَ بهذا على قَولَينِ:

أحدُهما: أنه لا يُؤاخِذُ بالإثْمِ في أيمانِكُم التي لم تَعْقِدُوها[3]، لكنَّها جَرَتْ على اللِّسانِ. وبِمِثْلِ ذلكَ رُوِيَ عَنْ عائِشَةَ رضي الله عنها أنَّها قالَتْ: هو قَولُ الرجلِ: لا واللهِ ما كانَ كذا. وبِهِ قالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانِيُّ في تَفْسِيرِهِ. وأيَّدَ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]. دلَّ أنَّ الأوَّلَ بما يَجْرِي على اللِّسانِ دونَ ما يَقْصِدُهُ قَلْبُهُ.

والثاني: ألّا يُؤاخِذَ بِتَرْكِ المُحافَظَةِ في ما كانَ في المُحافَظَةِ مَأثَمٌ. دليلُهُ صِلَةُ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٤] فَكَأنَّهُمْ يَخْرُجونَ عن تَرْكِ المُحافَظَةِ في ما سَبَقَتْ مِنْهُمُ الأيمانُ قَبْلَ النَّهْيِ بِقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي﴾ بَعْضِ أيمانِكُم إذا كانَ حِفْظُها مَأثماً؛ وذلكَ نَحْوُ ما رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «مَنْ حَلَفَ على يمينٍ، فَرَأى غَيرَها خَيراً مِنها، فَلْيَأتِ بالذي هو خَيرٌ، ولْيُكَفِّرْ عنْ يَمِينِهِ» [مسلم: ١٦٥٠].

وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَـٰنَ﴾ ولا يَحْتَمِلُ أنْ يُؤاخِذَ بالعَقْدِ، وهو بهِ مُعَظِّمٌ رَبَّهُ، ولكنْ لِمُحافَظَةِ ما ﴿عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَـٰنَ﴾ إذا كانَتِ المُحافَظَةُ إثماً، وفي ما لم يَكُنْ فهو في قولِهِ تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ [الآية: ٨٩] واللهُ أعلَمُ.

وإلى هذا يَذْهَبُ سَعِيدُ بنُ جُبَيرٍ في تأويلِ الآيةِ.

وقالَ قائِلُونَ[4]: هو الشَّيءُ الذي لا حَقِيقَةَ لهُ نَحْوُ اللَّعِبِ. وعلى ذلكَ [قولُهُ تعالى][5]: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا

(١) في الأصل وم: ليجب. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: تعتقدوها. (٤) هذا وجه ثان في معنى اللغو. (٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] أنهُمْ لم يَقْصِدُوا تَحقيقَ أمْرٍ يُظْهِرُونَهُ، ولكنْ قَصَدُوا التَّلْبِيسَ بِما نَطَق بِهِ: ما كانَ كذا. قِيلَ: لا يَسْمَعُونَ فيها لَغْواً باطِلاً بل كُلُّ ما يُسْمَعُ فيها فَهُوَ حَقٌّ وحِكْمَةٌ.

ثم رَجَعَ تأويلُهُ إلى وجهَينِ:

أحَدُهُما: يَجري على اللِّسانِ مِنْ غَيرِ عَقْدِ القَلْبِ على ما مَرَّ بهِ تفسيرُهُ.

والثاني: أنْ يكونَ بِهِ الحَلْفُ بِما لا حَقيقَةَ لهُ على ظَنِّ أنَّ حَقيقَةَ ما حَلَفَ عليهِ الحالفُ كما حَلَفَ.

وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ والحَسَنِ ﷺ في تأويلِ الآيةِ.

ثم لو كانَتِ الآيةُ على التَّأويلِ الأوَّلِ لَكانَتْ في رَفْعِ المَأثَمِ خاصَّةً، وهو التَّأويلُ الذي ذَكَرَهُ سَعيدُ بْنُ جُبيرٍ ﷺ.

وأمّا الكَفّارةُ فَهِيَ لازِمَةٌ على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ المَرْفُوعِ في ما ذلكَ، وبِما هي واجبةٌ لِلْحِنْثِ في اليَمينِ وتَرْكِ الوفاءِ بالعَهْدِ، والمعنى في الأمْرَينِ مَوجودٌ. لذلكَ لَزِمَتِ الكَفّارةُ في الوَجهَينِ جَميعاً مَعَ ما لابُدَّ مِنَ الإلزامِ في ما أخطأ أو تَعَمَّدَ مِن حَيثُ لم يكُنِ اسْتِثناءٌ حالاً منهُما صاحِبَهُ. وذلكَ مُبَيِّنٌ أنَّ ذلكَ لِلْحَلْفِ في عَقْدِ اليَمينِ أو لِما يَخْرُجُ الفِعْلُ مَخرَجَ الاسْتِحْقاقِ إذا قُوبِلَ فِعْلُهُ بِعَقْدٍ. وإنْ كانَ المُسْلِمُ قد عُصِمَ عنْ ذلكَ الوجهِ، فأُمِرَ بِتَكْفيرِ ذلكَ، وذلكَ المعنى مَوجودٌ في الوجهَينِ. لذلكَ لَزِمَتِ الكَفّارةُ في الأمْرَينِ، واللهُ أعلَمُ.

ولو كانَتْ على التَّأويلِ الثاني أو على أحدِ وَجْهَي تأويلٍ لأمْكَنَ أنْ يُؤاخَذَ بالمَأثَمِ ولا بالكفّارةِ جَميعاً.

والذي يُبَيِّنُ أنَّ هذا التَّأويلَ أنهُ ذَكَرَ المؤاخَذَةَ في الآيَتَينِ:

احداهما[1]: بِكَسْبِ القُلوبِ.

[والثانيةُ: بِكَسْبِها][2] تَعَمُّدُها. والمؤاخَذَةُ بهِ تكونُ بالمَأثَمِ لا بالحُقوقِ والكفّاراتِ؛ إذ لا يُؤاخِذُ بشيءٍ يُكْسِبُ القَلْبَ خاصَّةً كَفّارةً أو حقّاً يُوجِبُ. وإنْ كانَ قد يُؤاخِذُ لِذلكَ عندَ أفعالِ الجَوارِحِ. فأمّا [ما][3] لهُ خاصَّةً فَلا، وقد يكونُ بِهِ الطاعةُ والمَعْصِيةُ.

وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]. وإذا ثَبَتَ أنَّ ذلكَ في المَأثَمِ فلا يُؤاخِذُ. ثم لا مَأثَمَ في ما ذُكِرَ مِنْ عَقْدِ اليَمينِ في العَقْدِ؛ إذْ هو يَخْرُجُ مَخرَجَ التَّعظيمِ للهِ، وقد رُوِيَتْ عُقودُ الأيمانِ عنِ الرُّسُلِ، فَثَبَتَ أنَّ المؤاخَذَةَ بالكفّارةِ. فلا يُؤاخِذُ بِها في اللَّغْوِ أيضاً.

وأيَّدَ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ ما لا يُؤاخِذُ مَرَّتَينِ، وذَكَرَ المُؤاخَذَةَ كذلكَ. فلو كانَتِ المؤاخَذَةُ بِواحِدٍ لَكانَ الذِّكْرُ الواحِدُ كافِياً. فَثَبَتَ/ ١٣٦ ـ أ/ أنهُ بأمْرَينِ مُخْتَلِفَينِ.

فَعَلى ذلِكَ أمْرُ العَفْوِ، واللهُ أعلَمُ، مَعَ ما أنهُ قد تَبَيَّنَ في آيةِ المُعاقَدَةِ كَيفِيَّةُ المُؤاخَذَةِ، ولم يُبَيِّنْ في كَسْبِ القَلْبِ أنْ يكونَ العَفْوُ عمّا جَرَى بِهِ بَيانُ المُؤاخَذَةِ أحَقَّ مِنْهُ مِمّا لم يَجِئْ بهِ، فَثَبَتَ أنهُ في دَفْعِ المُؤاخَذَةِ بالكَفّارةِ.

ولو كانَ على ما يَقولُهُ سَعيدُ [بْنُ جُبَيرٍ][4] لَكانَتْ تَجِبُ الكَفّارةُ بِما سَلَفَ بَيانُهُ. لِذلكَ قُلْنا: إنَّ هذا أحَقُّ بالآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إذا ثَبَتَ أنَّ اللَّغْوَ مِمّا لا تَجِبُ فيهِ الكَفّارةُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ لم تَجِبْ مِنْ حَيثُ لم يَعْصِ اللهَ بهِ، ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ لم تَجِبْ لأنَّ يَمينَهُ كانَتْ على ما كانَتْ، الحِنْثُ به مَعَهُ أو قَبْلَهُ، فَيَمْنَعُ صِحَّةَ اليَمينِ. وإنْ أطلَقَ لَها الاسْمَ إنْ كانَتِ الأسماءُ مُطْلَقَةً لِما فَسَدَ مِنَ العُقودِ، وصَحَّتْ. وإنما تَخْتَلِفُ لها الأحكامُ والمَقاصِدُ منها.

فإنْ كانَ لِما لَمْ يَعْصِ اللهَ فَيَجِبُ أنْ يكونَ في كلِّ حِنْثٍ يُؤْمَرُ بهِ، لا تَجِبُ بهِ الكَفّارةُ. فإذا جَرَتِ السُّنَّةُ بإيجابِها على

---

(١) في الأصل وم: احدهما، والمقصود قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]. (٢) في الأصل وم: وكسبها، والمقصود قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩]. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الأمرِ بالحِنثِ قد يَجِبُ أيضاً في ما كانَ فِعْلُ الحِنثِ على حالِ خَطأٍ أو لَوم أو جُنونٍ أو فِعْلُ غيرِ الحالِفِ في ما الحِنثُ بِهِ على تَعَمُّدِ أنْ يَأثَم بِغَيرِهِ، إذ قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤و. . .] ثَبَتَ أنَّها تَجِبُ لا لأنهُ لَم يَعْصِ اللهَ، ولكنْ لِلْوَجْهِ الذي ذَكَرْتُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم كانَ ذلكَ المَعْنَى قائماً في اليَمينِ الذي تَعَمَّدَ عليهِ الكَذِبَ، وهو ما قِيلَ: اليَمينُ الغَمُوسُ، يَجِبُ ألّا تَلْزَمَهُ كَفّارَةُ اليَمينِ إنما يَلْزَمُهُ كفّارةُ الجُرْأةِ والمُخالَفَةِ للهِ، واللهُ أعلَمُ.

وأيَّدَ هذا الأصلَ وَجهانِ:

أحَدُهُما: اسْتِواءُ الأمْرَينِ في اليَمينِ المَعْقُودةِ على الحادِثِ في ما عَصَى مِنَ الحِنثِ فيها، أو أطاعَ، أنْ يَسْتَوِيا في اليَمينِ على الماضِي في الوَجْهَينِ جَميعاً. فإذا لم تَجِبِ الكَفّارةُ في أحَدِ الوَجْهَينِ لم تَجِبْ في الآخَرِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ما رُوِيَ عَنْ نَبِيِّ الرَّحمَةِ ﷺ في شَأنِ اللِّعانِ بَعْدَ الفَراغِ مِنهُ: «إنَّ اللهَ يَعْلَمُ أنَّ أحَدَكُما كاذِبٌ، فهلْ مِنكُما تائِبٌ؟» [البخاري: ٤٧٤٧] ومَعْلُومٌ أنَّ صاحِبَتَهُما لو كانَتْ تَجِبُ فيهِ الكَفّارةُ [لَاحتيجَ][1] إلى البيانِ عنها أكثرَ مِن صاحِبَتِها إلى بيانِ كَذِبِ أحدِهِما.

ثم لُزومُ التوبةِ إذْ ذلكَ يَعْرِفُهُ كلُّ سَفيهٍ وحَكيمٍ بلا سَمْعٍ، والكفّارةُ لا تُعْرَفُ إلا بالسَّمْعِ، ثَبَتَ أنّها غَيرُ واجِبَةٍ.

وكذا الأخبارُ التي رُوِيَتْ في الخَصْمَينِ أنهُ قُضِيَ لِأحَدِهِما حتى ذُكِرَ فيهِ الوعيدُ الشديدُ حتى أمَرَهُما بالتَّساهُمِ بَيْنَهُما وأنْ يُحَلِّلَ كلُّ واحدٍ منهُما الآخَرَ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ فيهِ كَفّارةٌ، ولا تُبَيَّنْ. وكذلكَ عُلِمَ في المَوضِعِ الذي أُمِرَ بالحِنثِ؛ إذْ قد يَشْتَبِهُ على بَعْضٍ مَنْ ليسَ لهُ رُؤْيَةٌ.

وقد قالَ إسحاقُ: أجْمَعَ المُسْلِمونَ على ألّا تَجِبَ فيهِ الكَفّارةُ. فَقَولُ مَنْ يُوجِبُها ابْتِداءُ شَرْعٍ ونَصْبُ حُكْمِ اللهِ تعالى على الخَلْقِ، وهو لم يُشْرِكْ في حُكْمِهِ أحداً.

ثم الأصلُ في ذلكَ أنَّ الأسبابَ التي تَرْفَعُ العُقودَ تُوجِبُ الحُرُماتِ إذا تأخرتِ[2] العقودُ وأسبابُ الحِلِّ؛ فهي على اختِلافِها مُتَّفِقَةٌ على مَنْعِ ابْتِدائِها إذا قارَنَتْها. فَعَلَى ذلِكَ أمْرُ سَبَبِ الحِنثِ. فَلِذلكَ تُطْلَبُ اليَمينُ والكَفّارةُ؛ وهي كَفّارةُ اليَمينِ فلا تَجِبُ في ما لا يَمينَ تَجِبُ فيها. وليسَ ذلكَ كالقولِ بِمَسِّ السماءِ ونَحْوِ ذلكَ لأنَّ اليَمينَ في هذا على ما يكونُ. فَسَبَبُ الحِنثِ لم يَقْتَرِنْ بها، فَصَحَّتْ. لذلكَ اخْتَلَفَ الأمْرانِ.

وهذهِ المَسألةُ تُوضِحُ حالَ رجلَينِ: [حالَ][3] الشافِعِيِّ في قولِهِ: إنَّ الكفّارةَ تَجِبُ لِلْحِنثِ، وههنا لا حِنثَ لِما لم يَصِحَّ العَقْدُ لِيَحْنَثَ فيهِ. ويكونُ الحِنثُ أيضاً بَعْدَ العَقْدِ، ولم يكنْ مع ما كانَ النَّصُّ بالكفّارةِ في اليَمينِ المعقودةِ[4] التي أَمَرَ فيها بالحِفْظِ في هذهِ اليَمينِ، وإنما يَجِبُ الحِفْظُ عنها أنْ يُحْلَفَ بهِ، واللهُ أعلَمُ، وحالَ أبي عُبَيدٍ حيثُ يُوجِبُ الكَفّارةَ بِعَقْدِ اليَمينِ. وعندَهُ: اليَمينُ الغَمُوسُ يَمينٌ لا تَجِبُ فيها الكَفّارةُ. فهذا يُوضِحُ أنَّ الكفارةَ تَجِبُ لِلَّذي يَرِدُ في اليَمينِ لا لِنَفْسِها، واللهُ أعلَمُ.

ثم احْتَجَّ قومٌ بِوُجوبِ الكَفّارةِ بِعَقْدِ اليَمينِ بقولِهِ: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ ثم بقولِهِ[5] ﴿فَكَفَّارَتُهُۥٓ﴾ أي عندَهُمْ كَفّارةُ ما عُقِدَ مِنَ الأيمانِ بما فيها الإضافةُ. ولم يَسْبِقْ غَيرُ ذلكَ العَقْدِ يُضافُ إليهِ.

وكقولِهِ ذلكَ تَسْمِيَةُ [عقدِ اليمينِ][6] مع ما فيهِ وَجهانِ مِنَ المُعْتَبَرِ:

أحدُهُما: ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ لَمّا رَأى بِحَمْزَةَ الطَّعْنَةَ أقْسَمَ لَيُمَثِّلَنَّ بكذا مِنْ قُرَيشٍ، فَنَزَلَ النَّهْيُ عنِ الوفاءِ بذلكَ، فَكَفَّرَ عنْ يَمينِهِ. ومَعْلُومٌ أنهُ لا يَحْنَثُ في يَمينِهِ إلّا في الوقتِ الذي لا يَحْتَمِلُ بِرَّ مَسألةٍ في حياتِهِ. ثَبَتَ أنها كانَتْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تأخر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: المعقود. (٥) في الأصل وم: قال.
(٦) في الأصل وم: المؤمنين.

جنة السنة

لِليمينِ. وكذا ما جاءَ: «مَنْ حَلَفَ على يَمينٍ» إلى أنْ قالَ: «ولْيُكَفِّرْ عن يَمينِهِ» [مسلم: ١٦٥٠] إنما أُمِرَ بِتَكْفيرِ يَمينِهِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ذَكَرَ أبو عُبَيدٍ أنَّ اللهَ إنْ نَهَى عنِ الوَعْدِ [فإنهُ لا يَنْهَي][1] إلّا بالثُّنيا بقولِهِ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣و٢٤] فذلكَ النَّهْيُ في اليَمينِ أوكَدُ وأشَدُّ. فَمَنْ حَلَفَ بِلا ثُنْيا عَصَى اللهَ، فَتَلْزَمُهُ الكَفّارةُ.

والأصلُ عندَنا أنَّ الكَفّارةَ تَجِبُ لِلْحِنْثِ في اليَمينِ؛ إذْ هي كَفّارةٌ، والكَفّاراتُ إنما تكونُ لِلسَّيِّئاتِ كقولِهِ تعالى: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] وغيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ. ومِنَ البَعيدِ في العَقْلِ تَكْفيرُ الحَسَناتِ، بل الحَسَناتُ تُكَفِّرُ[2] السيئاتِ. والحِنْثُ في التَّحْقيقِ اسْمُ الإثْمِ. ثم مَعْنَى الذَّنْبِ فيهِ، لأنهُ كانَ عاهَدَ اللهَ ألّا يَفْعَلَ كذا، فَفَعَلَهُ، يَخْرُجُ مَخْرَجَ نَقْضِ العَهْدِ فيهِ، فَيَأْثَمُ لا بالعَهْدِ. ولِذلكَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

وفي الجملةِ أمَرَ اللهُ أنْ يُوفُوا بِعَهْدِهِ لا أنْ يَنْقُضُوا، وقد جُعِلَتِ اليمينُ عَهْدَهُ، وأمَرَنا بوفائِهِ، فَنَقْضُهُ يُوجِبُ الخُلْفَ في وَعْدِهِ والنَّقْضَ لِعَهْدِهِ، فَيَأْثَمُ الحالِفُ لا بالحَلْفِ. فلذا تَجِبُ الكَفّارةُ. ولو كانَتْ لِلْيَمينِ كَفّارةٌ لَكانَ الحِنْثُ أحَقَّ أنْ يُوجِبَ الكَفّارةَ.

ثم لا يَجوزُ أنْ يكونَ مَنْ حَلَفَ أنْ يُطيعَ يكونُ بهِ عاصياً. ثَبَتَ أنَّ الكَفّارةَ لو كانَتْ تَجِبُ لِلْيَمينِ على المَعْصِيَةِ، لَوَجَبَ[3] ثَمَّ حَقُّ كَفّارةٍ؛ مِثْلُها الحِنْثُ فيها. وعلى ذلكَ رَوَى أبو هُرَيرَةَ ﷺ: «أنَّ مَنْ حَلَفَ على شَيْءٍ فَرأى غَيرَهُ خَيراً منها فإنما كَفّارَتُهُ أنْ يأتِيَ بالذي هو خيرٌ ولْيُكَفِّرْ عن يمينِهِ» [مسلم ١٦٥٠] فكذلكَ تكونُ كَفّارةُ اليمينِ لو حُمِلَتْ أنْ تَرْجِعَ عنِ الوفاءِ بها.

وأمّا كَفّارةُ ما لا وجهَ لِدَفْعِهِ؛ فتكونُ[4] بالتوبةِ، والحَسَنةُ تُكَفِّرُ لا بالرجوعِ. وعلى ذلكَ جميعُ أنواعِ الكَفّاراتِ أنَّ ما احْتَمَلَ دَفْعَ المَعْصيةِ[5] والرُّجوعَ عنهُ ونَقْضَ ما قد فَعَلَ، وما لا يَحْتَمِلُ، فَيُعْتَبَرُ ذلكَ. فلو كانَ لِلْيَمينِ كفّارةٌ، فكانَتْ توبةً وفَسْخاً لا غَيْرَ، فإذا أوجَبَ اللهُ غيرَ الرجوعِ، ثَبَتَ أنَّ ذلكَ لِلْحِنْثِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الدليلُ على[6] أنهُ لا يَحْتَمِلُ إيجابَ الكَفّارةِ بِعَقْدِ اليمينِ بأوجهٍ[7]:

أحدُها: أنَّ العَقْدَ يَخْرُجُ مَخْرَجَ التَّعْظيمِ للهِ والتَّبْجيلِ، جَعَلَهُ مَفْزَعاً إليهِ، ومَأمناً لِلْخَلْقِ عندَهُ. ولِذلكَ جُعِلَتِ الأيمانُ لِدَفْعِ التُّهَمِ وتَحْقيقِ الأمْرِ لِلْخَلْقِ عندَ الحالِفينَ.

وأيَّدَ ذلكَ أوجهٌ:

أحَدُها: ما رُوِيَ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «إذا حَلَفْتُمْ فاحْلِفُوا باللهِ» [بنحوه مسلم ١٦٤٦/٣] وقالَ: «لا تَحْلِفُوا بآبائِكُمْ ولا بالطواغيتِ» [مسلم ١٦٤٨] فَحَذَّرَ الحَلْفَ بِغَيرِهِ بما فيهِ تَعْظيمُ ذلكَ ودَفْعُهُ عَنْ قَدْرِهِ، وألْزَمَ ألّا تَجْعَلُوا لِأحَدٍ ذلكَ القَدْرَ إلّا للهِ ﷻ.

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] ولا يجوزُ أنْ يُنْهَى عنِ الرجوعِ عنِ المَعْصِيَةِ، ويُؤْمَرَ بالوفاءِ بها.

والثالثُ: الأمْرُ الظاهرُ عَنْ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ لِحَلْفِهِ وقَسَمِهِ في غَيرِ مَوضِعٍ، وما ذُكِرَ في قصةِ يَعْقُوبَ وأولادِهِ وأمْرِ إبراهيمَ، عليه/١٣٦ ـ ب/ الصَّلاةُ والسَّلامُ، في شأنِ الأصنامِ وأمْرِ أيُّوبَ ﷺ لم يَجُزْ أنْ يكونَ عُصاةً بِفِعْلِهِمْ؛

---

(١) من م، في الأصل: تكفير. (٢) من م، في الأصل: تكفير. (٣) في الأصل وم: فيجب. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الحقيقة. (٦) من م، في الأصل: لا. (٧) في الأصل وم: أوجه.

جنة السنة

وذلكَ يَنْهَى عَنْ جُرْأَةٍ مَنْ زعَمَ أنَّ الحالِفَ عاصٍ بِما تَرَكَ الثُّنيا. ومَنْ ذَكَرْنا مِنَ الأنبياءِ ﷺ قد تَرَكُوا الثُّنيا، وليسَ ذلكَ كالوَعْدِ لأنهُ إلى نفسِهِ يُضيفُ الفِعْلَ، وهو يَفْعَلُهُ تحتَ مَشيئَةِ اللهِ تعالى.

وفي اليَمينِ باللهِ يَسْتَغيثُ، وإليهِ يَفْرُغُ، فلذلكَ اختَلَفَ الأمرانِ، واللهُ أعلَمُ.

والدليلُ على أنَّها لم تَجِبْ باليَمينِ قولُ رسولِ اللهِ ﷺ «مَنْ حَلَفَ على يَمينٍ، فرَأى غَيرَها خَيراً منها، فَلْيَأتِ بالذي هو خيرٌ، ولْيُكَفِّرْ عنْ يَمينِهِ» [مسلم: ١٦٥٠] أو قولُهُ[1]: «مَنْ حَلَفَ على يَمينٍ فَلْيُكَفِّرْ يَمينَهُ ولْيَأتِ بالذي هو خيرٌ».

ولو كانتِ الكَفّارَةُ واجبَةً باليَمينِ لَكانَ لا[2] وَجْهَ لِلأمرِ بالذي يأتي، وهي واجبَةٌ. ويقولُ: «مَنْ حَلَفَ على يَمينٍ فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمينِهِ» فإذا لم يَقُلْ، ولكنْ قالَ في ما كانَ، ثم حَنِثَ، ثَبَتَ أنها لهُ تَجِبُ، واللهُ أعلَمُ.

وَوَجْهٌ آخَرُ اتِّفاقُ القَولِ: إنهُ إذا كانَ معَ اليَمينِ بِرٌّ فلا كَفّارَةَ عليهِ، وإذا كانَ مَعَها حِنْثٌ تَجِبُ. فلو كانَتْ تَجِبُ لِلْيَمينِ لَكانَتْ هي عندَ الوفاءِ أوجَبَ. فالكَفّارَةُ فيهِ تكونُ أوجَبَ. فإذا لم يكُنْ إذا بَرَّ ثَبَتَ أنها بالحِنْثِ وَجَبَتْ، واللهُ أعلَمُ.

وأيضاً ما أُجْمِعَ [على][3] أنَّ مَنْ حَلَفَ ألّا يَقْرَبَ امرأتَهُ بِشَيءٍ لا يَلْزَمُهُ، لو حَنِثَ بهِ لم يَلْزَمْ فيهِ حُكْمُ الإيلاءِ. فلو كانَتِ الكَفّارَةُ تَجِبُ باليَمينِ لَكانَ الحالِفُ بهِ عندَ الفراغِ عنْ يَمينِهِ صارَ بحَيثُ لا يَلْزَمُهُ مِنْ بَعْدُ شَيءٌ. فَيَجِبُ أنْ يَسْقُطَ حَقُّ الإيلاءِ. فإذا بَقِيَ عليهِ حُكْمُهُ جاءَ بذلكَ كتابٌ، وجَرَتْ بهِ السُّنَّةُ. ثَبَتَ أنَّ القولَ بوُجُوبِها قولٌ مَهجورٌ[4]، واللهُ أعلَمُ.

ثم إذا ثَبَتَ هذا رَجَعَ تأويلُ الآيةِ إلى وجهَينِ:

أحَدُهُما: قولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم﴾ بِمُحافَظَةِ ما عَقَدْتُمْ مِنَ الأيمانِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلۡأَیۡمَـٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِیدِهَا﴾ [النحل: ٩١] فإنْ تَرَكْتُمْ ذلكَ فَكَفّارَتُهُ كذا.

والثاني: أنْ يكونَ على إضمارِ حينَ[5] يؤاخِذُكُمْ بِحِنْثِكُمْ في ما عَقَدْتُمْ. وذلكَ غيرُ مَدْفوعٍ في حقِّ الكفّاراتِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾ الآيةِ [البقرة: ١٩٦] وقولِهِ تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِیضًا أَوۡ بِهِۦۤ أَذࣰى مِّن رَّأۡسِهِۦ﴾ الآيةِ [البقرة: ١٩٦] لا على الوُجوبِ لِلعُذْرِ ولكنْ باستِعْمالِ الرُّخصَةِ فيهِ، إذْ لا يكونُ العُذْرُ سَبَباً لإيجابٍ. فَمِثْلُهُ في الأوَّلِ لا يكونُ تَعْظيمُ الرَّبِّ سَبَبَ إيجابِ الكَفّارَةِ، فَيَصيرُ الحِنْثُ فيهِ مُضْمَراً، واللهُ أعلَمُ.

والإضافَةُ إلى الأيمانِ على إرادَةِ الحِنْثِ فيها كَإضافَةِ كَفّارَةِ الفِطْرِ إلى الصِّيامِ والدَّمِ إلى الحَجِّ والسُّجودِ إلى السَّهوِ[6]، وإنْ كانتِ الكَفّاراتُ لَيْسَتْ لِما أُضيفَتْ إليهِ. أيَّدَ ذلكَ[7] ما ذَكَرْتُ، واللهُ أعلَمُ.

وتَكْفيرُ رسولِ اللهِ ﷺ يَمينَهُ لأنهُ قد عُصِمَ عنِ المَعْصيَةِ، وفي الوفاءِ بذلكَ مَعْصيَةٌ، إذْ نُهِيَ عنهُ، ويَمينُهُ كانَتْ قبلَ النَّهْيِ، فصارَ آيِساً عنِ البِرِّ بذلكَ، وبذلكَ يكونُ الحِنْثُ لا بِعَدَمِ إمكانِ الوفاءِ، لكنْ بِغَيرِهِ[8] إذْ لا يُؤْمَنُ منهُ العِصيانُ؛ فذلكَ وقتُ إياسِهِ عنهُ. ورسولُ اللهِ ﷺ إذْ قد عُصِمَ عنْ ذلكَ، فَوَقْتُ إياسِهِ وَقْتُ النَّهْيِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ ﷻ.

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥۤ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِینَ﴾ في مُتعارَفِ اللُّغَةِ على التَّقريبِ لِيَأكُلوا لا على التَّمليكِ. وكذلكَ الأمْرُ المُتَعارَفُ بَينَ الخَلْقِ في ما يَنْسُبُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ الإطْعامَ.

وأيَّدَ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِیكُمۡ﴾ ولا نَعْرِفُ التَّمليكَ في إطعامِ الأهلِ، ولا خَطَرَ ببالِ أحدٍ ذلكَ. وقد عَرَّفَهُمُ اللهُ تعالى ما فَرَضَ عليهِمْ بالذي كانَ عِلْمُهُ عندَ كلِّ أحدٍ مَعْلوماً؛ إذْ قَلَّ إنسانٌ يَخْلو مِنْ أنْ يكونَ أهلاً لِأحَدٍ، أو لهُ أهلٌ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يُظَنَّ بأحدٍ الجَهْلُ بهِ حتى يَسألَهُ، فيكونَ ذلكَ إلزامَ الفَرْضِ مَعَ رَفْعِ وَهْمِ الجَهْلِ بهِ عنِ العُقولِ، ثم لا نَعْرِفُ بها، واللهُ أعلَمُ.

والذي يُوَضِّحُ[10] هذا مِنْ طريقِ العِبْرَةِ أنهُ ذَكَرَ في ذلكَ إطعامَ عَشَرَةِ مَساكينَ. والمَسْكَنَةُ هي الحاجَةُ، وحاجَةُ

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) من م، في الأصل: إلا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: مجهورٌ. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، في الأصل: السجود. (٧) ادرج قبلها في الأصل: إلى. (٨) في الأصل وم: غيره. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: يوضع.

جنة السنة

المِسكينِ إلى الطعامِ، مَعلومٌ أنها تكونُ إلى أكلِهِ دُونَ مُلكِهِ، وَجِهاتُ حاجاتِ الأملاكِ مِمّا يَعُمُّ المَساكينَ وغيرَهُمْ مَعَ ما قُدِّرَ ذلكَ بالكِفايَةِ والشِّبَعِ. وحَقُّ ذلكَ في التَّقريبِ لِلتَّطعيمِ لا في التَّمليكِ عليهِ، ولكنْ يجوزُ التَّمليكُ بما بهِ التَّمكينُ لِذلكَ، فيجبُ بذلكَ الجوازُ بِكُلِّ ما فيهِ تَمكينُ ذلكَ بِهِما، أو ما كانَ، أو جوازُ التَّمليكِ بِحَقِّ التَّمكينِ لا بِحَقِّ النَّظرِ معَ ما كانَ في تَمليكِ الثَّمَنِ الوُصولُ إلى ما يَختارُ الاعْتِذارَ، فإنَّ ذلكَ أقرَبُ إلى قضاءِ حاجتِهِ.

ولو كانَ الأمرُ على تَمليكِ المأكولِ خاصَّةً لَكانَ الدُّعاءُ والتَّقريبُ إليهِمْ لِلمُلكِ أحَقَّ أنْ يَجوزَ لِوَجهَيْنِ:

أحدُهُما: أنهُ أقرَبُ إلى دفعِ الجوعِ وسَدِّ المَسْكَنَةِ مِنْ تَمليكِ بِرٍّ لا يَصِلُ إليهِ إلّا بَعْدَ تَحَمُّلِ المُؤنَةِ وطولِ المُدَّةِ.

والثاني: أنَّ الكَفّارَةَ جُعِلَتْ بِما يَنْفِرُ عنهُ الطَّبعُ لِيُذيقَهُ ألَمَ الإخراجِ مِنَ المُلْكِ والبَذْلِ، فَيُكَفِّرُ ما أعطى نَفْسَهُ مِنَ الشَّهْوَةِ التي لم يُؤذَنْ فيها. وكذلكَ مَعنى الحَسَناتِ المُكَفِّرَةِ لِلسَّيِّئاتِ.

ثم كانَ دعاءُ المَساكينِ وجَمْعُهُمْ على الطعامِ وخِدْمَتُهُمْ والقيامُ بِما فيهِ الاختيارُ إليهِمْ أشَدَّ على الطَّبعِ مِنَ التَّصدُّقِ[1] عليهِمْ، فَيَجيءُ أنْ يكونَ أقرَبَ لِلتَّكفيرِ بهِ.

وعلى ذلكَ يَجوزُ بَذْلُ الثَّمَنِ لِما فيهِ تَحَمُّلُ المَكروهِ على الطَّبعِ كَهُوَ في الطعامِ، فَيَجوزُ مَعَ ما إنْ جُعِلَ ذلكَ حقاً لِلمساكينِ [أنْ][2] يَخرُجَ مَنْ عليهِ التَّسليمُ إليهِمْ مِنْ طَوعٍ منهُمْ. ويَجوزُ مِثْلُهُ مِنَ التَّبادُلِ في جميعِ الحُقوقِ؛ فَمِثْلُهُ عنِ الكَفّاراتِ، واللهُ أعلمُ. على أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦] ويَجوزُ فيهِ غَيْرُ ذلكَ النوعِ، وكذلكَ في كلِّ الصَّدَقاتِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم جَعَلَ ذلكَ أكلَتَيْنِ لِوَجْهَيْنِ:

أحدُهُما: القَولُ بإطعامِ المساكِينِ، ثم أُريدَ بهِ دَفْعُ المَسْكَنَةِ. والمِسْكِينُ هو الخاضِعُ، فَأَحَقُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ اسْمَ السائِلِ يَخْضَعُ لِلْمَسؤولِ بالسُّؤالِ.

وقد رُوِيَ عَنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ في يَومِ الفِطرِ «اغْنُوهُمْ عَنِ المَسْألَةِ في مِثْلِ هذا اليومِ» [الدارقطني ٢١١٤] ثم كانَ أقلُّ ما أخبَرَ فيهِ نِصْفُ صاعٍ مِنْ حِنْطَةٍ. فَعَلى ذلكَ صَدَقَةُ المِسْكينِ. ومِثْلُ ذلكَ إذا أطْعَمَ يكفي مَرَّتَيْنِ. وكذلكَ رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ في كفّارةِ المُتَأذّي ثلاثَةُ أصْوُعٍ بَيْنَ سِتَّةِ مساكينَ. فَمِثْلُ مِقدارِ طعامِ المِسْكينِ في ما أُريدَ [الإطعامُ قَدْرَ][3] ذلكَ. فَمِثْلُهُ ما نَحْنُ فيهِ، وذلكَ يَعْدِلُ أكلَتَيْنِ. وبهِ قالَ عُمَرُ وعَلِيٌّ رضي الله عنهما.

والثاني[4]: أنهُ ﷻ قالَ: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾. والأوْسَطُ في مَالَهُ حَدودٌ ثلاثَةٌ: [يَرْجِعُ ذلكَ إلى أوجُهٍ ثلاثَةٍ][5]:

أحَدُها: إلى الأوْسَطِ مِنْ صِفاتِ المَأكولِ.

والثاني: إلى الأوْسَطِ مِنْ مِقدارِ الأكلِ.

والثالثُ: إلى الوَسَطِ مِنْ أحْوالِ الأكلِ. فالأوَّلُ نَحْوُ الأجْوَدِ والأرْدَإِ وبَيْنَ ذلكَ، والثاني: نَحْوُ السَّرَفِ والقَتْرِ وبَيْنَ ذلكَ، والثالثُ: نَحْوُ مَرَّةٍ وثَلاثِ مَرّاتٍ في يومٍ واحدٍ وبَيْنَ ذلكَ.

فإذا لم يَثْبُتْ في خَبَرٍ ما إليهِ رَجَعَ المُرادُ فَحَقُّ الاحْتِياطِ أنْ يَكونَ الوَسَطُ مِنَ الكُلِّ لِيَخْرُجَ بِما فَرَضَ عليهِ. فلذلكَ[6] وجَبَتْ أكلَتانِ مَعَ ما حَقيقَةُ الواسِطِ مِنَ الأنواعِ والمَقاديرِ لِما لا مُنْتَهى لِطَرَفَيهِ. وقد تُعْرَفُ حَقيقَةُ الأكْثَرِ والأقَلِّ مِنَ الوَقْتِ، فَهوَ أنْ يُعْتَبَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم كانَ الأمْرُ في الظاهِرِ بالإطعامِ، وأُجْمِعَ على رُجوعِ الأمرِ إلى الحَدِّ، وإنْ لم يُذْكَرْ، فهوَ، واللهُ أعلَمُ، يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ انْتُزِعَ حَدُّهُ مِنْ حُكْمِ الكتابِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

(١) من م، في الأصل وم: التصديق. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لإطعام القدر. (٤) ساقطة من م. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وذلك.

جنة السنة

أحدُهما: أنَّ الآيةَ إذا كانَتْ على ما يُؤكَلُ، ويُطعَمُ، كانَ في ما عليهِ العُرفُ ألّا يُقرِّبَ إلى آخرِ ما يُطعِمُهُ، فيُقتصَرَ على أقلِّ ما يُستحقُّ/١٣٧ ـ أ/ اسمُهُ. وقد يُتصدَّقُ بالقليلِ في العُرفِ. فلِذلكَ في الأمرِ بهِ تحديدٌ، إذا كانَ بما يُعرَفُ فيهِ التَّحديدُ. ولِذلكَ يُذكَرُ فيهِ التَّفسيرُ مَرفوعاً.

وذُكِرَ في قِصَّةِ المُتأذّي لِما لَيسَ في لَفظِها دلالةُ الحُدودِ، وفي لَفظِ الإطعامِ دلالتُهُ؛ إذْ فيهِ عُرفٌ، وعلى هذا أمرُ ما جاءَ مِنَ البيانِ في الصَّدَقاتِ. ولم يُذكَرْ في الإطعامِ إلّا لِمكانِ النَّوازلِ. وعلى هذا يَجِبُ أنْ يجوزَ الإطعامُ أيضاً، وإنْ لم يَكُنْ تَمليكٌ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ ومَعلومٌ [أنَّ كُلَّ شيءٍ لهُ واسِطٌ، فهو ذو حُدودٍ وأطرافٍ، على أنهُ رُدَّ إلى طعامِ الأهلِ، وفيهِ الإشباعُ لا مَحالَةَ؛ لِذلكَ وَجَبَ القَولُ بالحَدِّ، واللهُ أعلَمُ.

وإذا ثَبَتَ القَدْرُ فيهِ بِحَقِّ الخِطابِ يَجِبُ][1] وَصْلُ ذلكَ بهِ لِيُعرَفَ بهِ حقيقةُ[2] المَقصودِ، واللهُ أعلَمُ؛ وكأنهُ قالَ: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ إذ إطعامُ عَشَرَةٍ في العُرفِ عبارةٌ عَنْ قَدْرِ طَعامِهِمْ، وإطعامُ عَشَرَةٍ عبارةٌ عن فِعلِ الإطعامِ، وقد ثَبَتَ أنهما ارتَدّا جَميعاً، فكأنَّهُما ذُكِرا مَوصولَينِ، ولو توَهَّمْنا ذلكَ لم يكُنْ بحَقِّ حِفظِ العَدَدِ بلْ بِحَقِّ حِفظِ مِقدارِ ذلكَ العَدَدِ مِنَ الصِّيامِ كانَ مَدفوعاً إلى الواحِدِ أو أكثَرَ، واللهُ أعلَمُ.

لِذلكَ أجازَ أصحابُنا جَمْعَ الكُلِّ في مِسكينٍ واحدٍ عَشَرَةَ أيّامٍ، ولم يُجيزوا في يومٍ واحدٍ في الأمرِ على أنْ يُغَدّى، ويُعَشّى. وإنْ كانَ يَجوزُ الدفعُ لِما فيهِ حَقُّ الإطعامِ، فيصيرُ طعامَ كمالِ ذلكَ، وهو قَدْرُ طَعامِ مِسكينٍ، فتَزولُ عنهُ المَسْكَنَةُ، لكنَّ الإطعامَ فيهِ لا يَجوزُ. وإذا كانَ حَقُّ ما ذَكَرْتُ الجوازَ فَفَسادُهُ لِمعنًى اعتَرَضَ، فَمَنَعَ؛ لا لأنهُ خارجٌ عنْ أنْ يُرادَ لهُ على ذلكَ؛ وذلكَ كَخُروجِ بَعضِ المَساكينِ لِعِلَلٍ عنِ الدَّفعِ إليهِمْ؛ لا لأنهُ لو أُجيزَ كالخِلافِ لِلذِّكرِ، فَمِثْلُهُ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

ودَليلٌ آخَرُ مِمّا لهُ جَرى ذِكرُ عَشَرَةٍ؛ لا لأنْ يَجعَلَ العَشَرَةَ شَرطاً أنهُ مَعلومٌ بالمَعنى الذي لهُ جُعِلَ الدَّفعُ إليهِمْ والإطعامُ لَهُمْ سَبَباً لِلجَوازِ أنَّ ذلكَ بِحَيثُ تَحمُّلُ المَكروهِ على الطَّبعِ وكَفُّ الهَوى عن مِثلِها وإذاقةُ النَّفسِ مَرارةَ الدَّفعِ للهِ، جَلَّ ثَناؤُهُ، يُكَفِّرُ ما أتبَعَها هَواها، وأَوصَلَها إلى مُناها في ما خالَفَ اللهَ في فِعلِهِ حينَ[3] لم يَفِ بالعَهدِ الذي عَهِدَ اللهُ، أو ألزَمَ نَفسَهُ عَهداً مِنْ مَنْعٍ عنِ الوَفاءِ، فيَخرُجُ فِعلُهُ مَخرَجَ فِعلِ ناقِضِ العَهدِ ومُخلِفِ الوَعدِ باللهِ. وذلكَ المَعنى في البَذلِ لا في مُراعاةِ[4] العَدَدِ ولا في أنهُ كانَ حَقاً لَهُمْ قَبلَ الدَّفعِ بلْ باختيارِ الدَّفعِ إليهِمْ يَجعَلُهُمْ مُحِقِّينَ فيهِ بما لهُ إيثارُ غيرِهِمْ والخروجُ عن ذلكَ بالعِتقِ والصِّيامِ الذي لا يَعودُ إليهِمْ نَفعُهُ.

ولكنَّ الكَفّارةَ إذا جُعِلَتْ مِمّا يُغَدّى، ويُعَشّى، ونَحوُ ذلكَ إذا أُريدَ الخُروجُ بهِ منهُ بِمِسكينٍ واحدٍ يَحتاجُ إلى تَحديدِ الأيامِ ومُرورِ الأوقاتِ. وفي ذلكَ خَوفُ بَقاءِ الذُّنوبِ عليهِ. ولَعَلَّهُ يُعَجِّلُهُ المَوتُ[5]، فيَبقى ذَنْبُهُ غيرَ مُكَفَّرٍ، جَعَلَ اللهُ لهُ التَّكفيرَ في المَساكينِ تَيسيراً وتَمكيناً مِنَ الخُروجِ الذي رَكَنَهُ لا لِفَوتِ مَعنًى مِمّا لهُ التَّكفيرُ. فلِذلكَ يجوزُ على ما ذَكَرْتُ. وهذا الوَجهُ يُوجِبُ مَنعَ الجوازِ في يومٍ واحدٍ، واللهُ أعلَمُ.

وبَعدُ فإنهُ مَتى أطعَمَ مِسكيناً بَقِيَ عليهِ خِطابُ إطعامِ تِسعَةٍ؛ وذلكَ لو ابتَدأَ الخِطابُ بِتِسعَةٍ مِمّا يَتَضَمَّنُهُ الخِطابُ، فكذلكَ إذا كانَ بَعدَ إسقاطِ الواحِدِ مِنَ الخِطابِ، واللهُ أعلَمُ. ثم لو كانَ العَدَدُ شَرطاً لَكانَ بُوجودِ مَعنى العَدَدِ في الواحِدِ إسقاطُهُ أنَّ ذلكَ في مَوضِعِ التَّكفيرِ والتَّطهيرِ، وكلُّ ذلكَ يَتَعَلَّقُ بالمَعاني مِمّا ذُكِرَ فيها مِنَ الأعدادِ نَحوُ الغَسلِ مِنَ الأحداثِ والجَنابَةِ والأنجاسِ، فَمِثلُهُ الكَفّارةُ.

وبَعدُ فإنهُ مَعلومٌ أنَّ لِكُلِّ مِسكينٍ قَدْراً مِنَ الطَّعامِ، ثم كانَ القَدْرُ الواحِدُ بِتَفَرُّقِ الإملاكِ عليهِ يَستوجِبُ حَقَّ قَدْرِ العَشَرَةِ[6]. فَعَلى ذلكَ المِسكينُ الواحِدُ بما تَتَفَرَّقُ عليهِ المَسكَنَةُ كلَّ يومٍ، وتَتَجَدَّدُ الحاجةُ يَصيرُ عَدَدَ المَساكينِ. وذلكَ أيضاً

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: حقية. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، في الأصل: المراعاة. (٥) في الأصل وم: الميتة. (٦) في الأصل وم: العشر.

جنة السنة

شَبيهٌ بما رُويَ مِنَ الاسْتِنجاءِ بثلاثةِ أحجارٍ على اسْتِحقاقِ كُلِّ حَرْفٍ مِنْ ذلكَ حَقَّ حَجَرٍ على حِدَةٍ مِنْ حَيثُ كانَ غَيْرَ مُسْتَنْجًى به. فكذلكَ ما نَحنُ فيهِ؛ إذ لهُ كُلَّ يومٍ حَقُّ مِسكينٍ آخرَ مِن حِينٍ[1] حَدَثَتْ لهُ حاجةٌ لم تُدفَعْ بالإطعامِ الأوّلِ، واللهُ أعلَمُ.

وليسَ كالأعدادِ في الشَّهادةِ لِما جَعَلَ العَدَدَ فيها بِما يَلْحَقُ الواحدَ تُهَمَةٌ أولهُ بهِ مَنْفَعَةُ التَّصديقِ أو نوعُ عِبادةٍ في مَوضِعِ الحُكْمِ والقضاءِ وتَسْليمِ الأمْرِ لِغَيرِهِ مِنَ الحُجَجِ. وفي هذا مَعْنَى التَّكْفيرِ قد بيَّنّا. وذلكَ كَمَعْنَى التَّطهيرِ في الذي وَصَفْنا. على أنَّ الشَّهادةَ في اليَومِ الثّاني إعادةُ الأوّلِ، والإطعامَ هو تَحديدُ الدَّفعِ، والواحدَ قد يَقومُ في الشَّهادةِ مَقامَ مِئةٍ إذا كانَ لِكُلِّ حَقٍّ التَّحديدُ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ مِن غَيرِ ذِكْرِ القَريبِ والبَعيدِ أوِ المُؤمِنِ والكافِرِ أو الصَّغيرِ والكَبيرِ أو قَدْرِ المَسْكَنَةِ أوِ العِلْمِ الذي بهِ نَعْرِفُ. ومَعْلومٌ أنَّ لِكُلِّ جِهَةٍ مِمّا بيَّنّا حدًّا بالناسِ إلى مَعْرِفَتِهِ حاجةٌ، ولِلناسِ في كلِّ جهةٍ تَنازُعاً[2]، والاجْتِهادَ في الوُقوفِ على الحَقيقةِ. على أنَّ الاتِّفاقَ، وعلى أنهُ لم يُجْعَلِ الأمْرُ على الاسْمِ خاصَّةً، وأنَّ الذي هو في حَدِّ الفَقْرِ في ما ذُكِرَ فيهِ المِسكينُ والفَقيرُ، قائمٌ مَقامَ المِسكينِ ههنا في الجَوازِ لِيُعْلَمَ أنَّ المَعْنَى فيهِمْ مَقصودٌ، يَجِبُ طَلَبُهُ والبَحْثُ عنهُ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم أُجْمِعَ أنَّ الصَّغيرَ الذي قَدْرُ لُقْمَتِهِ لُقْمَةُ الكَبيرِ لم يَقُمْ في حَقِّ الإطعامِ إلّا مِن حَيثُ التَّمْليكِ؛ إذِ الجَمْعُ على أقَلِّ المِقْدارِ أنهُ مُدٌّ، والمُدُّ يَكْفي عَشَرَةً مِثْلَهُ، ثَبَتَ أنهُ لا إلى مِثْلِهِ رَجَعَ الخِطابُ. وأيَّدَ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أنَّ مِثْلَهُ لا يَبْلُغُ أقَلَّ ما يُطعِمُ الأهْلَ. على أنهُ لو أُريدَ بالأهلِ الزَّوجةُ لَكانَ مِثْلُها لا يُطْعِمُها الزَّوجُ، فَثَبَتَ أنَّ المُرادَ راجعٌ إلى الخُصوصِ، واللهُ أعْلَمُ.

والأصْلُ في ذلكَ ما بيَّنّا مِن تألُّمِ الطَّبْعِ بِدَفْعِ مِثْلِهِ، وابنُ يومٍ يَميلُ الطَّبْعُ إلى إرضاعِ مِثْلِهِ، بل لا يَحْتَمِلُ إمهالَهُ. وبَعْدُ فإنَّ مِثْلَهُ لا يُطْعَمُ، فَثَبَتَ أنَّ الأمْرَ راجعٌ إلى واحدٍ، واللهُ أعْلَمُ. وعلى ما ذَكَرْنا قالوا في الوالِدَينِ والوَلَدِ أنهُ لا يَجوزُ لأنَّ الطَّبْعَ يألَمُ بِمَسْكَنَةِ هؤلاءِ لا لِما بهِ دَفْعُ المَسْكَنَةِ عنهُمْ، بل جَعَلَ اللهُ تعالى الطَّبائعَ بَيْنَ هؤلاءِ بِحَيثُ لا يَحْتَمِلُ نُزولُ البَلاءِ والشِّدَّةِ بِهِمْ، وبِحَيثُ يَجْتَهِدُ كُلٌّ بِدَفْعِ الضَّرَرِ عنهُمْ على مِثْلِ الدَّفْعِ عن نَفْسِهِ وبَذْلِ المالِ لِصَونِ عِرْضِهِمْ حتى لقد يُشْتَمُ مَن لم يَتَعاهَدْ منهُمْ ذلكَ، ويُلامُ أعْظَمَ اللَّومِ. وإذا كانَ كذلكَ لم يَتَضَمَّنْهُمْ هذا الأمْرُ؛ إذْ هُمْ لا بِهذا يَقومُونَ بذلكَ بِحَقِّ الطَّبيعةِ لا بأمْرٍ. وقد بيَّنّا وَجْهَ الكَفّارةِ أنهُ في مُخالَفَةِ الطَّبْعِ، واللهُ أعْلَمُ.

وعلى ذلكَ ما رُويَ عنِ الذي أمَرَ بِتَفريقِ زَكاتِهِ، فأعْطَى ابْنَهُ، فاختَصَما إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: يا فلانُ: «لَكَ ما نَوَيتَ» وقالَ لِلآخَرِ: «لَكَ ما أخَذْتَ» [البخاري١٤٢٢] ولو كانَ يَجوزُ اختيارُ فِعْلِهِ لَكانَ ذلكَ أحَبَّ ما صارَ إليهِ، وآثَرَ.

وقد رُويَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «أنتَ ومالُكَ لأبيكَ» [ابن ماجه ٢٢٩٢] فلا يُحْتَمَلُ مَعَ هذا الجَوازُ بالاختيارِ، ويَصيرُ ما يَدْفَعُ إلى ابْنِهِ كأنهُ لِنَفْسِهِ دَفَعَ. فَلِذلِكَ لم يَجُزْ.

والأصْلُ في هذا وفي الزَّكاةِ أنها حُقوقٌ، جَعَلَها اللهُ تعالى في الأموالِ لِوَجْهَينِ:

أحَدُهُما: بما ابْتَدَأَ اللهُ عَبيدَهُ بالنِّعَمِ، وخَصَّهُمْ بإعطاءِ ما اشْتَهَتْ أنْفُسُهُم، ومالَتْ طِباعُهُمْ، فاسْتَأداهُمْ شُكْرَ ذلكَ بالذي جَعَلَ في طِباعِهِمُ النِّفارَ عنهُ وفي أنفُسِهِمُ الألَمَ بِهِ مِنَ الإخراجِ عنِ المُلْكِ ومَعُونَةَ مَن لم يُكْرِمْهُمْ بِهِ ولا أنْعَمَ عليهِمْ بِهِ.

والثاني: أنْ يكونوا قَرَفُوا مَأثَماً بما أعْطَوا أنفُسَهُمْ ههنا، وأوصَلُوا[3] طِباعَهُمْ إلى هَواها بِغَيرِ الوَجْهِ الذي أَذِنَ لهُ في ذلكَ مَنْ هُوَ لَهُ في الحَقيقةِ، وهو الذي اخْتَصَّهُمْ، فَعَلَيهِمُ الخُروجُ بما فَعَلُوا مِنَ الوَجْهِ الذي في الطَّبْعِ النِّفارُ عنهُ، وفي النَّفسِ/ ١٣٧ ـ ب/ الألَمَ لِيُذيقُوا أنفُسَهُمْ بَدَلَ[4] ما أعْطَوها مِنَ اللَّذَّةِ المَرارةَ. فَمَنْ هو مِنَ المُتَصَدِّقِ بالمَحَلِّ الذي يَجِدُ بِهِ

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: تنازع. (٣) من م، في الأصل: وأصلوا. (٤) في الأصل وم: بالدال المنقوطة: بذل.

جنة السنة

هذا فهو مُقابِلُ ما لَهُ أُكْرِمَ، وبِهِ أُقْرِفَ. ومَنْ لا يَجِدُ بِهِ هذا فَلَيسَ بِمُقابِلِ ذلكَ، فَلَمْ يَفِ بِحَقٍّ، فلم يُخْرِجْ مِمّا عليهِ مِنَ الفَرْضِ، وإنْ كانَ اللهُ بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ بِحَيثُ يُرْجَى [مِنْهُ العَفْو، ومِنْهُ القَبولُ][1]، واللهُ أعْلَمُ.

وعلى ذلكَ عِنْدَنا أَمْرُ الزَّوجَينِ؛ إذْ يُوجَدُ بَيْنَهما في البَدَلِ شَهْوَةٌ ومَيلُ الطَّبيعَةِ؛ وتكونُ الطَّبيعَةُ، ويكونُ التَّناكُحُ بِمِثْلِهِ على ما ذُكِرَ النِّكاحُ لِأربعةِ أوجُهٍ أحَدُها: لِمالِها، وما كذلكَ المَوجودُ في الطِّباعِ، واللهُ أعْلَمُ.

وعلى هذا المَعْنَى يَخْرُجُ أَمْرُ الشهادةِ، إذْ هيَ مُؤَسَّسَةٌ على دَفْعِ السَّهْمِ عنِ المُدَّعِينَ. فإذا رَجَعَتْ مَنافِعُهُمْ إلى حُجَجِهِمْ تَمَكَّنَتْ فيهِمْ ذلكَ، فلم تُقْبَلْ.

وجُمْلَةُ ذلكَ أنَّ الشهادةَ ودَفْعَ الزَّكَواتِ والكَفّاراتِ بِحَقِّ الأماناتِ، وهي بِحَيثُ لِلأُمَناءِ الانْتِفاعُ بها. فكُلٌّ وَجَدَ فيهِ انْتِفاعَ المُؤتَمِنِ، فإنّها، لهُ الانْتِفاعُ بلا تَمانُعٍ في العُرْفِ أو بِما في الطَّبْعِ إيثارُ نَفْعِهِ، فكانَ لهُ فيهِ ما بِزَوالِهِ جُعِلَ أميناً، فلا تَثْبُتُ لهُ الأمانَةُ فيهِ، واللهُ أعْلَمُ.

وعلى هذا يَخْرُجُ أَمْرُ الدَّفْعِ إلى المُكاتَبِ والشَّهادةِ لهُ، واللهُ أعْلَمُ. ثم الدَّفْعُ إلى الكَفّارَةِ: القِياسُ أنْ يجوزَ جميعُ ذلكَ مِنْ حَيثُ كانَ المَعْنَى الذي يَخْتارُ في الدَّفْعِ إليهِمْ، أو يَجِدُ مِنْ ثِقَلِ الطَّبْعِ وألَمِ النَّفْسِ.

وعلى ذلكَ أُجِيزَتْ عِنْدَنا الكَفّاراتُ. وأيَّدَ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ إلى قولِهِ تعالى: [﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] صَيَّرَ][2] الصَّدَقاتِ مُكَفِّرَةً لِما ذُكِرَ. ثم يَدُلُّ على ذلكَ في ما قالَ أهلُ التَّفسيرِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٢] إنَّ ذلكَ في التَّصَدُّقِ على أهلِ الكُفرِ؛ أي لا يَمْنَعُكَ ذلكَ. وكانَ على إثْرِ الوَعْدِ بالتَّكفيرِ بالصَّدَقَةِ، فأمْكَنَ أنْ يكونوا هُمْ في ذلكَ مَعَ ما كانتِ الكَفّاراتُ جُعِلَتْ بِشَرْطِ المَسْكَنَةِ. وقبيحٌ في المُسْلِمِ دَفْعُ السُّؤالِ، وإنْ كانوا كَفَرَةً، فجائزٌ الدَّفْعُ إليهِمْ.

وجُمْلَةُ ذلكَ أنَّ ذلكَ بِما اخْتارَ مِنْ إعطاءِ النَّفْسِ شَهَواتِها في ما لم يُؤْذَنْ لهُ. فتكونُ كَفّارَتُها بالكَفِّ عن شَهَواتِها في ما كانَ يَحِلُّ، والبَذْلُ بالذي كانَ يَسَعُهُ مَنْعُ ذلكَ. وذلكَ المَعْنَى موجودٌ، في ذلكَ عُلِمَ أنَّ [تَرْكَ][3] التَّصَدُّقِ عليهِمْ نَقْضُ ما يُرَغِّبُهُمْ في الإسلامِ، لم يَجُزِ المَنْعُ، واللهُ أعْلَمُ.

وأمّا الزَّكَواتُ فَهِيَ[4] مَخْصُوصَةٌ بِما جاءَ مِنْ إضافَةِ الدَّفْعِ إلى ما[5] يُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ، ولما بَيَّنَ أهْلَها، وجَعَلَ أهْلَها سَفارَةً لِيَتَحَرَّوُا المَواضِعَ.

وأمّا الكَفّاراتُ [فَقَدْ][6] جُعِلَ على أربابِها إيجابُها، والخُروجُ عنها في تَخَيُّرِ أهْلِها مع ما كانَتِ الزَّكَواتُ أُوجِبَتْ بلا كَسْبٍ بِحَقِّ الشُّكْرِ، وحَقُّ الشُّكْرِ الإنفاقُ في الطاعةِ. ثم كانَ الإنفاقُ على مَنْ يُطِيعُ اللهَ بِهِ يَخْرُجُ مَخْرَجَ المَعونَةِ على الطاعةِ، وعلى الكافِرِ لا [فلا يَقْتَصِرُ][7] على شَرْطِ التَّمامِ في مَعْنَى الشُّكْرِ، والكَفّارَةُ[8] في حَقِّ إعطاءِ النَّفْسِ الشَّهْوَةَ، فَيَمْتَحِنُها بإخراجِ ما في شَهْوَتِها المَنْعُ، وذلكَ المَعْنَى مَوجودٌ في الكافِرِ على التَّمامِ، لِذلكَ اخْتَلَفا.

وبَعْدُ فإنَّ الزَّكَواتِ تَجِبُ بلا إيجابٍ، وقد قَطَعَ اللهُ الحَقَّ الذي ذلكَ سَبيلُهُ، ثم بَيَّنَ مُخْتَلِفِي المُلْكِ بِحَقِّ المَواريثِ. والكَفّاراتُ تَجِبُ بِما اكْتَسَبُوا. وبَيْنَ الفَريقَينِ في الحُقوقِ المُكْتَسَبَةِ اشْتِراكٌ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

والأصلُ في ذلكَ أنَّ الزَّكَواتِ أُوجِبَتْ في الأموالِ حَقّاً لِلفُقَراءِ. ثم هيَ تَخْرُجُ إلى مَنْ أوجَبَ لَهُمْ؛ فَمَنْ لم يَعْلَمْ مَنْ أُوجِبَتْ لهُ لم يَخْرُجْ على مِثْلِ حُقوقِ المَواريثِ لِلقَرابَةِ، وغيرِ ذلكَ.

والكَفّاراتُ لَيسَتْ بِواجِبَةٍ في الأموالِ تُخْرَجُ، بل يُنْظَرُ إلى وَقْتِ الدَّفْعِ والقِيامِ بالتَّكْفيرِ. فإنْ كانَتْ لهُ أموالٌ دَفَعَها مِنها، وإلّا لَيسَتْ عليهِ، فَصارَتِ الحُقوقُ كأنها بالدَّفْعِ؛ إذْ لو تُوُهِّمَ وَقْتَ الوُجوبِ لهُ الغِنَى والفَقْرُ لَكانَ الأمْرُ لا

---

(١) في الأصل وم: من العفو ومنه القبول منه. (٢) من م، في الأصل ﴿إِن تُبْدُوا﴾. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: فهو. (٥) في الأصل وم: من. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: فيقتصر. (٨) من م، في الأصل: الكفارة.

جنة السنة

يَختلفَ(١)، وإذا كانَ كذلكَ، ولهُ ابْتِداءُ التَّصدُّقِ عليهِمْ بِحَقِّ التَّطَوُّعِ والنُّذورِ وغيرِها، فتجوزُ فيهِمْ. والزَّكَواتُ إذِ الدَّفْعُ مِنْها تَسْليمٌ إلى مَنْ كانَ لهُ الحَقُّ احْتِيجَ في ذلكَ إلى مُبَيِّنِ ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وصَدَقَةُ الفِطْرِ بِحَقِّ إظهارِ السُّرورِ ودَفْعِ السؤالِ كما رُوِيَ عَنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «أغْنُوهُمْ عنِ المَسْأَلَةِ في مِثْلِ هذا اليَومِ» [الدارقطني: ٢١١٤] لا بِحَقِّ ما كانَ جُعِلَ في مالِهِ يُخْرَجُ منهُ، بل بِحَقِّ المَعونَةِ؛ وذلكَ لازِمٌ في العقولِ لِكُلِّ سائلٍ ولِخاصَّةِ الدَّفْعِ(٢) إليهِمْ لِيَتَمَتَّعُوا(٣) هُمْ بما فيهِ سُرورُ أهلِ الإسلامِ، واللهُ أعْلَمُ.

وأيضاً إنَّ الزَّكَواتِ أُوجِبَتْ في الابْتِداءِ حَقّاً لِلفُقَراءِ؛ إذِ اللهُ ﷻ أخْرَجَ أرزاقَ الخَلْقِ أموالاً(٤) لِبَعْضِهِمْ، وأَلْزَمَهُمْ تَحَمُّلَ كِفايَةِ مَنْ لم يُمَلِّكْهُمْ أعْيُنَ تلكَ الأموالِ، إذْ لم يَخْلُقِ ابْتِداءً [الرِّزْقَ لَهُمْ جُمْلَةً](٥). وإذا كانَ مَحَلُّ الزَّكَواتِ في الابْتِداءِ، وجَعَلَ لِأهْلِها بها الغِنَى، وأهلُ الكُفْرِ أبَوا قَبولَ الدِّينِ الذي ذلكَ حَقٌّ، جَعَلَ لِلمُحتاجينَ في أموالِ الأغنياءِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ في مَذْهَبِهِمْ ذلكَ الحَقُّ، بل لو كانَ في أموالِ الأغنياءِ(٦) مَذْهَبُهُمْ، ولِأهلِ الإسلامِ أنَّ ذلكَ الحَقَّ في أموالِ أغنيائِهِمْ، وكذلكَ مَنْ عليهِمُ الحَقُّ قَبِلُوهُ بالدِّينِ لِأهلِهِ لم يَدْخُلْ في ذلكَ غيرُهُمْ.

ثم كانَتِ الكَفّاراتُ والنُّذورُ ونَحْوُها لَيْسَتْ بِمَجْعُولَةٍ بالدِّينِ لِحَقِّ الفُقَراءِ، وإنما هي واجبةٌ يَتعاطى أربابُ مَنْ لَزِمَهُمْ لِيَتَقَرَّبُوا بِها إلى رَبِّهِمْ، ويُخْرِجُوا بها مِمّا جَنَوا على أنْفُسِهِمْ(٧). وقد جُعِلَ ذلكَ في جُمْلَةِ الصَّدَقاتِ وفي أنواعِ العِباداتِ التي لا عِبْرَةَ فيها لِمَنافِعِ الخَلْقِ، فَثَبَتَ أنها لم تَجِبْ لَهُمْ، وإنما الشَّرْطُ عليهِمْ فيها ما يكونُ عِبادَةً وقُرْبَةً إلى اللهِ تعالى.

وقد جَعَلَ اللهُ تعالى في الدَّفْعِ إلى مَساكِينِهِمْ قُرْبَةً وعِبادَةً فجازَتْ. وعلى هذا يَخْرُجُ قَوْلُنا في العِتْقِ. على أنَّ قَوْلَنا لِجَميعِ المُخالِفِينَ لَنا في هذا أَوْلَى؛ لأنَّ مَذْهَبَهُمُ اعْتِمادُ العُمومِ إلّا في قَدْرِ ما يَمْنَعُهُمْ عنْ ذلكَ. والعُمومُ لِجَميعِ الفِرَقِ كُلِّهِمْ بِاسْمِ المَساكِينِ واسْمِ تَحْرِيرِ الرَّقَبَةِ. ولا دَليلَ لَهُمْ على الخُصوصِ إلّا ضَرْبٌ مِنَ القِياسِ. ومَنْ مَذْهَبُهُ أنَّ إخراجَ بَعْضِ ما تَضَمَّنَهُ الاسْمُ لا يُوجِبُ خُصوصَ ذلكَ، فكذا يُلْزِمُهُمْ ألّا يَخُصُّوا الوُجودَ بالتَّخْصِيصِ(٨) في غَيْرِهِ. فإنَّ(٩) ذلكَ أبْعَدُ. على أنهُمْ أجْمَعُوا أنْ يُقاسَ ما لَيسَ فيهِ ذِكْرُ التّابِعِ على المَذْكورِ، فَمِثْلُهُ أمْرُ الأيمانِ. وجُمْلَتُهُ(١٠) أنهُ قد يَجوزُ في العِتْقِ مَعَ قِيامِ كَثيرٍ مِنَ العُيوبِ التي لا تَحْتَمِلُ القَفِيزَ، فَعَيْبُ الدِّينِ الذي يُمْكِنُهُ أحَقُّ. وكذلكَ مِنْ قَولِ الجَميعِ أنَّ العَجْزَ بالمَرَضِ عنِ المَكاسِبِ لا يَمْنَعُ؛ إذْ هو قد يَزولُ. فالذي لا عَجْزَ فيهِ، ويُمْكِنُهُ اخْتِيارُهُ، أحَقُّ أنْ يَجوزَ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم الأصلُ أنَّ اللهَ تعالى في الكَفّارَةِ التي جَعَلَ الأيمانَ فيها شَرْطاً ذَكَرَ العِتْقَ في ذلكَ في قَتْلِ ثلاثَ مَرّاتٍ(١١)؛ ذَكَرَ في كُلِّ مَرَّةٍ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ، لم يَدَعْ ذِكْرَ ذلكَ في شَيْءٍ مِنْها لِلذِّكْرِ في نَوْعٍ مِنْ ذلكَ على قُرْبِ ما بَيْنَ أولئكَ الأسبابِ. فلو كانَ يَحْتَمِلُ الاقْتِصارَ على بَيانِ الكِفايَةِ دونَ المُبالَغَةِ أو يَجِبُ ذلكَ في النَّظَرِ لَكانَ يُذْكَرُ مَرَّةً(١٢) كِفايَةً على نَحْوِ الصَّومِ. فإذا لم يَكْتَفِ على تَقارُبِ المَعْنَى بانَ أنَّ ذلكَ نَوْعٌ ما لَمْ يُؤْذَنْ فيهِ تَعْليقُ الحُكْمِ بالمَعْنَى. بل لو كانَ مأذوناً فيهِ لَكانَ يُوجَدُ في القَتْلِ مَعانٍ لا تُوجَدُ في غَيْرِ ذلكَ، فَلا يَجوزُ قِياسُ غَيْرِهِ عليهِ، واللهُ أعْلَمُ.

فإنْ قالَ قائلٌ: إذْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠] ثم قد جَعَلَ سَيِّئَةَ(١٣) الظِّهارِ والقَتْلِ عِتْقَ رَقَبَةٍ والصِّيامِ صَوْمَ ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء: ٩٢ والمجادلة: ٣] فكيفَ جَعَلَ مِثْلَ سَيِّئَةِ الحِنْثِ بالعِتْقِ عِتْقَ رَقَبَةٍ وبالصِّيامِ [صَومَ](١٤) ثلاثةِ أيامٍ؟ فلو كانَ [صَومُ](١٥) ثلاثةٍ عَدِيلَ العِتْقِ، فإذنْ زادَ في الظِّهارِ والقَتْلِ/ ١٣٨ ـ أ/ في الجَزاءِ. نَقُلْ(١٦)، وباللهِ التوفيقُ، لِذلكَ أجْوِبَةٌ ثلاثةٌ:

[أحدُها](١٧): أنَّ الجزاءَ في الدنيا هو ما تَجوزُ بِهِ المِحْنَةُ ابْتِداءً لا على الجَزاءِ. فَعَلَى ذلكَ يَجوزُ فيهِ الزِّيادَةُ بِحَقِّ

---

(١) من م، في الأصل: يخلف. (٢) في الأصل وم: في الدفع. (٣) في الأصل وم: ليمتنعوا. (٤) في الأصل وم: أملاكا. (٥) في الأصل وم: الخلق لهم جملة. (٦) في الأصل وم: أغنياء. (٧) في الأصل وم: مذهبهم. (٨) الباء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: إن. (١٠) من م، في الأصل: جعلته. (١١) في الأصل وم: فرق، والآيات المقصودة في النساء: ٩٢ والمائدة: ٨٩ والمجادلة: ٣. (١٢) الآية المقصودة في النساء: ٨٩. (١٣) في الأصل وم: سببه. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: نقول. (١٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

المِحْنَةِ لا الجَزاءِ والنُّقصانُ بِحَقِّ العَفْوِ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقالَ: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. وفي الآخِرَةِ لا يَكونُ بِحَقِّ ابْتِداءِ المِحْنَةِ، إنما ذلكَ بِحَقِّ الجَزاءِ، وهو ﷻ حَكيمٌ، عَدْلٌ، لا يَزيدُ على ما تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ، ويُجيزُ التَّجاوُزَ بِما هو عَفُوٌّ كريمٌ. فلذلكَ اخْتَلَفَ الأمرانِ.

والثاني: أنْ يُقالَ: حَقُّ جَزاءِ كُلِّ ما فيهِ العِتْقُ صِيامُ شَهرَينِ مُتَتابِعَينِ، ولِما العَفْوُ فيهِ عامِلَ الحانِثَ، فَرَضِيَ مِنْهُ بِصَومِ ثلاثةِ أيامٍ لِما عَلِمَ ﷻ في ذلكَ مِنَ المَصالِحِ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: أنْ يكونَ حَقُّ الجَزاءِ في اليَمينِ بالصِّيامِ ما ذُكِرَ. وكذلكَ في القَتْلِ والظِّهارِ؛ وفيهما حَقُّ العِتْقِ كذلكَ، وفي اليَمينِ دُونَهُ. ولكنَّهُ تَمَّمَ بِما لا يَحْتَمِلُ التَّجزِئَةَ على حَقِّ كُلِّ شَيءٍ لا يَتَجزَّأُ أنَّ جُزْأً مِنْهُ متى وَجَبَ يَجِبُ كُلُّهُ؛ فَعَلَى ذلكَ العِتْقُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم نقولُ: وظاهِرُ هذا يَشْهَدُ لِأبي يُوسُفَ، رَحِمَهُ اللهُ، ومحمدٍ، رَحِمَهُ اللهُ، أنهُ متى أوجَبَ جُزءاً منهُ أُعْتِقَ[1] كُلُّهُ، إذ لا يَحْتَمِلُ التَّجزِئَةَ. دليلُهُ أمْرُ الكَفاراتِ، واللهُ أعلَمُ.

ومَذْهَبُ أبي حَنيفَةَ ﷺ أنهُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا لِما لا يَحْتَمِلُ العِتْقُ التَّجزِئَةَ، وإنْ كانَ العِتْقُ في نَفْسِهِ مُحْتَمِلاً فيجبُ عَرْضُ ذلكَ على ما فيهِ بَيانُهُ، فَوَجَدَ الأمرَ بالتَّحريرِ حيثُ كانَ يَذْكُرُ الرَّقَبَةَ. ولو كانَ لا يُحْتَمَلُ مِن حَيثُ التَّحريرُ [كانَ][2] كافِياً عن ذِكْرِ الرَّقَبَةِ. فإنْ ذَكَرَ في كلِّ ما أمَرَ بانَ أنهُ ذَكَرَ لِيَتَمَّمَ بالإعتاقِ، لا أنهُ يَتِمُّ بِلا ذِكْرٍ. فَعَلَى ذلكَ أمْرُ الطَّلاقِ لم يَذْكُرْ فيها مَعْنَى رَقَبَتِها لِما لا يَحْتَمِلُ، واللهُ أعلَمُ، بَعْضَ ذلكَ.

ثم كانَتِ الحُقوقُ تَرْجِعُ إلى الانْتِفاعِ أو إلى قَولٍ أو مَضَرَّةٍ أو نَحْوِ ذلكَ، لا يَحْتَمِلُ نفوذَ جُزءٍ[3] المُعْتَقِ منهُ دُونَ غيرِهِ. ثَبَتَ أنَّ ذلكَ إنْ كانَ كذلكَ فهو لا يَحْتَمِلُ؛ إذ في تَرْكِ إكمالٍ فَوْتُ نَفْعِ ما أوجَبَ، واللهُ أعلَمُ. ثم قد يجوزُ إعتاقُ الجُزْءِ مِن حَيثُ كانَ المُلْكُ والحُرِّيَّةُ بأخذِ العَيْنِ، والمَنافِعُ تَصِلُ إلى المُباشَرَةِ لا تَحْتَمِلُ التَّمْييزَ. وفي القولِ فيهِ جُمْلَةً يَحْتَمِلُ لِذلكَ الاخْتِلافاً. وعلى ذلكَ أمْرُ الطَّلاقِ لا مُلْكَ. ثم في النَّفْسِ إنما حَقيقَةُ المُباشَرَةِ والانْتِفاعِ؛ وذلكَ لا يَحْتَمِلُ الجُزْءَ المُطْلَقَ منها [أو جُزءاً][4] دُونَ غيرِهِ. فَلِذلكَ أُكْمِلَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ﴾ الآيةَ. عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][5] قالَ: المَيْسِرُ القِمارُ.

وعنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][6] قالَ: «اجْتَنِبُوا الكِعابَ المَوسُومَةَ التي تُزْجَرُ زَجْراً فإنها مَيْسِرُ العَجَمِ» [بنحوه أحمد: ٤/ ٣٩٢] وعنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ مِثْلُهُ، وعنْ أبي مُوسَى الأشعَرِيِّ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدِ فَقَدْ عَصَى اللهَ ورسولَهُ» [أبو داوود ٤٩٣٨].

وعنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: المَيْسِرُ قِمارٌ. وعَنْ عليٍّ ﷺ [أنهُ قالَ][8]: لَأَنْ آخُذَ جَمْرَتَينِ مِن نارٍ فأُقَلِّبَهُما في يَدَيَّ أحَبُّ إليَّ من أنْ أُقَلِّبَ كَعْبَتَي نَرْدٍ. وعَنْ عليٍّ ﷺ [أنهُ قالَ][9] أيضاً: الشِّطْرَنْجُ مَيْسِرُ الأعاجِمِ. وعَنْ مُجاهِدٍ وسَعيدِ بنِ جُبَيْرٍ والشَّعْبِيِّ وهؤلاءِ السَّلَفِ [أنهم][10] قالوا: المَيْسِرُ القِمارُ كُلُّهُ حتى الجَوزُ الذي يَلْعَبُ بهِ الصِّبْيانُ.

وعنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][11] قالَ: «لا جَلَبَ ولا جَنَبَ ولا شِغارَ ولا وِراطَ في الإسلامِ» [الترمذي ١١٢٣] وقيلَ: الوِراطُ القِمارُ، وقيلَ: الجَلَبُ هو أنْ يُجْلَبَ وراءَ الفَرَسِ حتى يَدْنُوَ، أو يُحَرَّكَ وراءَهُ الشَّيءُ، يَسْتَحِثُّ السَّبْقَ، والجَنَبُ هو الذي يُجْنَبُ مَعَ الفَرَسِ الذي بهِ يُسابِقُ فَرَساً آخَرَ حتى إذا داناهُ تَحَوَّلَ راكِبُهُ إلى الفَرَسِ الجَنُوبِ، فأخَذَ السَّبْقَ.

وأجْمَعَ أهلُ العِلْمِ على أنَّ القِمارَ حرامٌ، وأنَّ الرِّهانَ هو المُخاطَرَةُ مِثْلُ القِمارِ. وما رُوِيَ عن أبي بَكْرٍ ﷺ أنهُ خاطَرَ

---

(١) في الأصل وم: عتق. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حر. (٤) في الأصل وم: أوجب. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: قال: مدرجة بعد أيضاً. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

أهلُ مَكَّةَ في غَلَبَةِ الرومِ فارسَ، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «زِدْهُمْ في الخَطَرِ، وأَبْعِدْهُمْ في الأجَلِ» فكانَ ذلكَ، والنَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ في الوَقْتِ الذي لم يَنْفُذْ حُكْمُهُ.

فأمّا في دارِ الإسلامِ فلا خِلافَ في أنَّ ذلكَ لا يَجوزُ إلا ما رُخِّصَ فيهِ مِنَ الرِّهانِ في السَّبْقِ في الدَّوابِّ والإبِلِ إذا كانَ الآخِذُ واحداً: إنْ سَبَقَ أَخَذَ، وإنْ سَبَقَ لم يُدْفَعْ شيءٌ، وكذلكَ إنْ كانَ السَّبْقُ بَينَ الرَّجلَيْنِ: أيُّهُما سَبَقَ أخذ، وإنْ دَخَلَ بَيْنَهُما فَرَسٌ: إنْ سَبَقَ أخَذَ، وإنْ سُبِقَ [لم][1] يُغْرَمْ صاحِبُهُ شيئاً، فهو جائزٌ. ويُسَمَّى الداخِلُ بَيْنَهُما المُحَلِّلَ.

فأمّا الرُّخْصَةُ فيهِ فَما رُوِيَ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «لا سَبَقَ إلّا في خُفٍّ أو حافِرٍ أو نِصالٍ» [أبو داوود ٢٥٧٤].

هذا الذي وصَفْنا، كُلُّهُ مِنَ المَيْسِرِ. والأنصابُ هي الأحجارُ، والأوثانُ التي كانُوا يَنْصِبونَها، ويَعْبُدونَها، ويَذْبَحونَ بها. وأمّا الأزلامُ فالقِداحُ التي يَسْتَقْسِمونَ بها في أمورِهِم، ويَسْتَعْمِلُونَها. ففيهِ دليلُ بُطلانِ الحُكمِ بالقُرْعَةِ لأنَّ الإسْتِقْسامَ بالقِداحِ هو أنْ كانُوا يَجْعَلُونَ الثَّمَنَ على الذي خَرَجَ سَهْمُهُ أخيراً، ويَتَصَدَّقونَ بما اشْتَرَوا على الفُقَراءِ. ففيهِ إيجابُ الثَّمَنِ على الغَيرِ، فَيَجْعَلُونَ الأمْرَ إلى مَنْ ليسَ لهُ تَمْييزٌ. فَعُوتِبُوا على ذلكَ الحُكْمِ بالقُرْعَةِ، تُسَلِّمُ[2] إلى مَنْ ليسَ لهُ تَمْييزٌ بَيْنَ المُحِقِّ وغَيرِ المُحِقِّ، فَيَلْحَقُ هذا ما لَحِقَ أُولئكَ.

ثم أخْبَرَ أنَّ ذلكَ كُلَّهُ ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وليسَ في الحَقيقةِ عَمَلَ الشَّيطانِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ لا يَفْعَلُ هذا حَقيقَةً. لكنْ نَسَبَ ذلكَ إليهِ لِما يَدْعُوهُمْ إلى ذلكَ، ويُزَيِّنُ لَهُمْ.

وكذلكَ قَولُ مُوسَى عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ﴾ [القصص: ١٥] كذا، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦] وهو، لَعَنَهُ اللهُ، لم يَتَوَلَّ إخراجَهُما، ولكنْ كانَ بِهِ سَبَبُ الإخراجِ والإذلالِ؛ وهو الدُّعاءُ إلى ذلكَ والمُراآةُ لَهُما[3]، فَنَسَبَ ذلكَ إليهِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ هُمْ في الظاهِرِ لم يَجْتَمِعُوا على العَداوةِ والبَغْضاءِ، بل يكونُ اجْتِماعُهُمْ على الإلْفَةِ والمَوَدَّةِ، على ذلكَ يَجْمَعُهُمْ في الابْتِداءِ. لكنْ لَمّا شَرِبُوا، وأخَذَهُمُ الشرابُ، وَقَعَتْ[4] بَيْنَهُمُ العَداوةُ. فكانَ قَصْدُهُ[5] إلى جَمْعِهِمْ في الإبْتِداءِ على المَحَبَّةِ والمَوَدَّةِ لِما ظَهَرَ مِنْهُ في العاقِبَةِ مِنْ إيقاعِ العَداوَةِ بَيْنَهُمْ وتفريقِ جَمْعِهِمْ. وهو كَقولِهِ تعالى: ﴿يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]. ولو دَعاهُمْ إلى عذابِ السَّعيرِ لَكانوا لا يُجيبُونَهُ، لكنْ دَعاهُمْ إلى العَمَلِ الذي يوجِبُ لَهُمْ عذابَ السَّعيرِ.

فَعَلى ذلكَ هو يَدعُوهُمْ إلى الإجتِماعِ في الخَمْرِ والمَيْسِرِ إلى ما يُوجِبُ، ويُوقِعُ[6] بَيْنَهُمُ العَداوَةَ والبَغْضاءَ. فَفيهِ أنَّ الأعمالَ تُنْظَرُ فيها العواقِبُ كما رُوِيَ [عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قولُهُ][7]: «الأعمالُ بالخَواتيمِ» [البخاري: ٦٦٠٧].

وفي الآيَةِ دليلُ تَحْريمِ الخَمْرِ لأنهُ قالَ: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ والرِّجْسُ حَرامٌ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وكذلكَ رُوِيَ عَنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قامَ، فَخَطَبَ الناسَ، فقالَ: «أيُّها الناسُ إنَّ اللهَ يُعَرِّضُ على الخَمْرِ تَعْريضاً لا أدري لَعَلَّهُ سينزِلُ فيها أمرٌ» ثم قالَ: «يا أَهْلَ المدينةِ قد أنْزَلَ تَحْريمَ الخَمْرِ فَمَنْ كَتَبَ هذِهِ الآيَةَ وعِندَهُ منها شَيءٌ فلا يَشْرَبْها، ولا يَبِعْها، فَسَكَبُوها في طَريقِ المَدينَةِ» [مسلم ١٥٧٨].

وعن عُمَرَ رضي الله عنه [أنه][8] قالَ لَمّا نَزَلَ تحريمُ الخَمْرِ: اللهمَّ بَيِّنْ لنا في الخَمْرِ بَيانَ شِفاءٍ، فنزلَتِ الآيَةُ التي في البقرةِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [الآية: ٢١٩] فَقُرِئَتْ عليهِ، فقالَ عُمَرُ رضي الله عنه اللَّهُمَّ بَيِّنْ لنا في الخَمْرِ بَيانَ شِفاءٍ، فَنَزَلَتِ الآيةُ التي في النساءِ: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [الآية: ٤٣] فكانَ مُنادِي رسولِ اللهِ ﷺ إذا قامَ إلى الصَّلاةِ قالَ: لا يَقْرَبِ الصَّلاةَ سَكْرانُ، فَدُعِيَ عُمَرُ رضي الله عنه /١٣٨ ـ ب/ فَقُرِئَتْ عليهِ، فقالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لنا في الخَمْرِ بَيانَ شِفاءٍ، فَنَزَلَتِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تسليم. (٣) في الأصل وم: لهم. (٤) في الأصل وم: وقع. (٥) من م، في الأصل: تصدقوا.
(٦) في الأصل وم: ويقع. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآيةُ التي في المائدة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [الآية: ٩١] فَدُعِيَ عُمَرُ رضي الله عنه فَقُرِئَتْ عليهِ. فلما بَلَغَ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قالَ انْتَهينا.

وعَنْ أنَسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه [أنهُ][1] قالَ: كُنْتُ ساقِيَ القَوْمِ، ونَبِيذُنا تَمْرٌ وزَبِيبٌ وبُسْرٌ، خَلَطْناهُ جَميعاً، فَبينا نَحْنُ كذلكَ، والقَوْمُ يَشْرَبُونَ، إذْ دَخَلَ عَلَينا رجلٌ منَ المُسْلِمِينَ، فقالَ: ما تَصْنَعُونَ؟ واللهِ لقد أُنزِلَ تَحْرِيمُ الخَمْرِ، فأَهْرَقْنا الباطِيَةَ، وكَفَأْنا [كُؤوسَنا][2]، ثم خَرَجْنا، فَوَجَدْنا رسولَ اللهِ ﷺ قائماً على المِنْبَرِ، يَقْرأُ هذِهِ الآيَةَ، ويُكَرِّرُها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فالخَليطانِ حرامٌ. فأَجْمَعَ أهلُ العِلْمِ على أنَّ الخَمْرَ حرامٌ: قَلِيلُها وكَثِيرُها، وأنَّ عَصيرَ العِنَبِ، إذا غَلَى، واشْتَدَّ، فصارَ سَكَراً، خَمْرٌ.

واخْتَلَفُوا في ما سِوَى ذلكَ مِنَ الأَشْرِبَةِ؛ فكانَ أبو حَنيفَةَ وأبو يُوسُفَ، رَحِمَهُما اللهُ تعالى، يَقولانِ: ما كانَ مِنَ الأشْرِبَةِ نِيئاً مُتَّخذاً مِنَ النَّخْلَةِ والعِنَبِ فهو حرامٌ كَنَبِيذِ البُسْرِ والتَّمْرِ والزَّبيبِ، إذا أَسْكَرَ كَثيرُه، فهو حَرامٌ عِنْدَهُما. وعلى ذلكَ جاءَ الخَبَرُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «الخَمْرُ مِنْ هاتَيْنِ الشَّجَرتَيْنِ: مِنَ النَّخْلَةِ والعِنَبِ» [مسلم١٩٨٥] فلا يَحْرُمُ، وإنْ كانَ نِيئاً، إلّا المُسْكِرُ منهُ؛ لأنَّ غَيرَهما مِنَ الأشْرِبَةِ قد يُتَّخذُ لا لِلسُّكْرِ[3]، وإنْ كانَ في مَكانٍ، لا يُتَّخذُ إلّا لِلسُّكْرِ، فهو مَكْروهٌ قَليلُهُ وكَثيرُه كالمُتَّخَذِ مِنَ النَّخْلَةِ والعِنَبِ.

وكانا يَقولانِ: ما كانَ مِنَ الأنبِذَةِ مَطْبوخاً فهو حلالٌ، وإنْ قَلَّ طَبْخُهُ، إلّا العَصيرَ، فإنهُ لا يَحِلُّ بالطَّبْخِ حتى يَذْهَبَ ثُلُثاهُ، ويَبْقَى ثُلُثُهُ. وكانا يُفَرِّقانِ بَيْنَ العَصيرِ وغَيرِهِ؛ فإنَّ العَصيرَ لَيسَ فيهِ شَيءٌ مِن غَيرِهِ، وإنْ تُرِكَ بِحالِهِ غَلَى، فأَسْكَرَ. فإذا طُبِخَ حتى يَذهَبَ ثُلُثُهُ أو نِصْفُهُ فهو يَغْلِي، ويُسْكِرُ؛ فلم يُخرِجْهُ الطَّبْخُ مِن حَدِّهِ الأوَّلِ إذا كانَ يُسْكِرُ قَبْلَ أنْ يُطْبَخَ، وهو الآنَ يُسْكِرُ بِنَفْسِهِ إذْ لم يُجْعَلْ فيهِ شَيءٌ غَيْرُهُ.

وسائِرُ ما يُتَّخَذُ منهُ الأنبِذَةُ، إنْ بَقِيَتْ، لم[4] تَشْتَدَّ، ولم تُسْكِرْ حتى يُلْقَى عليهِ الماءُ، ويُخْلَطَ بها غَيْرُهُ، فَحِينَئِذٍ يُسْكِرُ، فَهِيَ مِثْلُ العَصيرِ إذا ذَهَبَ ثُلُثاهُ، وبَقِيَ ثُلُثُهُ، إنْ بَقِيَ دَهْراً، لم يُسْكِرْ حتى يُلْقَى عليهِ الماءُ، فَحِينَئِذٍ يُسْكِرُ.

فإذا صارَ العَصيرُ في حالٍ، إنْ بَقِيَ مُدَّةً لم يَغْلِ بِنَفْسِهِ حتى يُلْقَى عليهِ غَيرُهُ كانَ بِمَنزِلَةِ الزَّبيبِ والتَّمْرِ إذا أُلْقِيَ عَلَيهِما الماءُ، فَطُبِخا.

وعلى ذلكَ ما رُوِيَ عنْ عُمَرَ رضي الله عنه في الطِّلاءِ أنهُ لا يَحِلُّ حتى يَذْهَبَ عنهُ سُلْطانُهُ؛ يَقولُ: إذا كانَ يَغْلِي بِنَفْسِهِ مِن غَيرِ أنْ يُصَبَّ عليهِ الماءُ ففيهِ سُلْطانُهُ، فإذا صارَ لا يَغْلِي بِنَفْسِهِ، وهو أنْ يُطْبَخَ حتى يَذْهَبَ ثُلُثاهُ، فقد ذَهَبَ سُلْطانُهُ.

ورُوِيَ عنْ أنَسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه أنَّ أبا عُبَيدَةَ ومُعاذَ بْنَ جَبَلٍ وأبا طَلْحَةَ رضي الله عنهم كانوا يَشْرَبُونَ مِنَ الطِّلاءِ ما ذَهَبَ ثُلُثاهُ، وبَقِيَ ثُلُثُهُ. وقد وَصَفْنا فَرْقَ أبي حَنيفَةَ وأبي يُوسُفَ، رَحِمَهُما اللهُ، بَيْنَ المَطْبوخِ وبَيْنَ المُثَلَّثِ والمُنَصَّفِ مِنَ العَصيرِ.

وأمّا فَرْقُهُمْ بَيْنَ المَطْبُوخِ ما يُتَّخَذُ مِنَ النَّخْلَةِ والعِنَبِ والنَّيءِ منهُ فهو الخَمْرُ التي لا خِلافَ في تَحْريمِها في العَصيرِ النَّيءِ يَصيرُ خَمْراً. فَكُلُّ ما كانَ نِيئاً مِنَ الشَّجَرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ سَمّاهُما النَّبِيُّ ﷺ فَهُوَ حرامٌ إذا أَسْكَرَ. فإذا كانَ مطبوخاً، فَقَدْ عُمِلَ فيهِ، خَرَجَ بهِ مِن حَدِّ الخَمْرِ.

فإنْ قيلَ: يَجِبُ أنْ يُقاسَ ذلكَ على النَّيءِ لأنهُ يُسْكِرُ، وفيهِ صِفاتُ الخَمْرِ قيلَ: الخَمْرُ حُرِّمَتْ لِعَيْنِها لِما لا تُتَّخَذُ إلّا لِلسُّكْرِ[5]، ولا يُقاسُ عليها غَيرُها. وإنما يُقاسُ على ما حَرُمَ، وحَلَّ لِعِلَّةٍ دُونَ ما حَرُمَ بِعَيْنِهِ. وأمّا غَيرُهُ مِنَ الأنبِذَةِ فإنما يَحْرُمُ منهُ السُّكْرُ.

ألا تَرَى أنهُ في الخَبَرِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لمّا بَعَثَ أبا مُوسى ومُعاذاً إلى اليَمَنِ قالَ لهُ أبو مُوسَى: إنَّ شَرابَنا يُقالُ له: البِتْعُ، فما نَشْرَبُ منهُ؟ وما نَدَعُ؟ قالَ: «اشْرَبُوا ولا تَسْكَروا» [البيهقي في الكبرى ٨/ ٢٩٨]

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: السكر. (٤) من م، في الأصل: لهم. (٥) في الأصل وم: السكر.

جنة السنة

وعن ابن عباس رضي الله عنه [أنه][(١)] قال: حُرِّمَتِ الخمرُ بِعَينِها، قليلُها وكثيرُها، والسُّكرُ مِن كلِّ شراب.

وعن عليٍّ رضي الله عنه [أنه][(٢)] قال: فما أسكرَ مِنَ النبيذِ ثمانٍ، وفي الخمرِ قليلِها وكثيرِها ثمانون.

فدلَّ قولُ عليٍّ رضي الله عنه في ما أسكرَ مِنَ النبيذِ معناهُ: في السُّكرِ ثمانون. وذلك يدلُّ أنَّ قولَ النبيِّ ﷺ: «كلُّ مُسكرٍ حرام» [البخاري ٤٣٤٤ و٤٣٤٥] أنَّ السُّكرَ منهُ حرامٌ.

وعن عُمرَ رضي الله عنه أنهُ أُتِيَ بِسكرانَ، قال: يا أميرَ المؤمنينَ إنما تَشرَبُ مِن نبيذِكَ الذي في الإداوةِ، فقالَ عُمرُ رضي الله عنه: لَستُ أضرِبُكَ على النبيذِ، إنما أضرِبُكَ على السُّكرِ. فهذهِ الأخبارُ التي ذَكَرنا دلَّت على تحريمِ الخمرِ بعَينِها والسُّكرِ مِن كلِّ شرابٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَوٰةِ﴾ يدلُّ على تحريمِها لأنهُ إذا سَكِرَ صَدَّهُ عن ذِكرِ اللهِ. وعنِ الصلاةِ.

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في تحريمِ الخمرِ والمَيسِرِ والأزلامِ والأنصابِ ﴿وَاحْذَرُوا﴾ مَعصيتَها ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعتِهما في ما حَرَّمَ عليكُم، وحذَّركُم عنهُ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ في تحريمِ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ أي شَرِبوا مِنَ الخمرِ قبلَ تحريمِها ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا﴾ شُربَها بعدَ التحريمِ ﴿وَّآمَنُوا﴾ أي وصدَّقوا بالتَّحريمِ ﴿ثُمَّ اتَّقَوا﴾ شُربَها ﴿وَّآمَنُوا﴾ في حادثِ الوقتِ ﴿وَّأَحْسَنُوا﴾.

وذُكِرَ في بعضِ القصةِ أنهُ لَمَّا نَزَلَ تحريمُ الخمرِ قالوا: كيفَ بإخوانِنا الذينَ ماتوا، وهُم يشربونَ الخمرَ؟ فنَزَلَ ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآيةَ لكنَّ هذا لا يَحتمِلُ أن يكونَ كما ذُكِرَ لأنهُم شرِبوا الخمرَ في وقتٍ كانَ شرابُها مُباحاً، ولم يَشربوا بعدَ تحريمِها. لكنَّ هذا إن كانَ فإنما قالوا في أنفُسِهِم، فنَزَلَ أن ليسَ عليكُم جُناحٌ في ما شرِبتُم قبلَ تحريمِها بعدَ أنِ اتَّقيتُم شُربَها بعدَ نُزولِ حُرمتِها، واللهُ أعلمُ.

وقالَ بعضُهُم: إنَّ في الآيةِ تَكراراً في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذكرنا ليسَ على التَّكرارِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ﴾ وليسَ فيهِ بيانُ أنهُ ابتَلى بالأمرِ فيهِ أو بالنَّهيِ، لكنْ بيانُهُ في آيةٍ أُخرى؛ إنما كانَ الابتِلاءُ بالنَّهيِ عنِ الاصطيادِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [الآية: ٢]. ودَلَّ هذا على أنَّ المُحرِمَ كانَ مَنهيّاً عنِ الاصطيادِ بقولِهِ: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ وأنَّ الابتِلاءَ الذي ذُكِرَ في الآيةِ كانَ بالنَّهيِ عنِ الاصطيادِ، واللهُ أعلمُ.

ثم اختُلِفَ في الآيةِ: قالَ بعضُهُم: النَّهيُ ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ﴾ لأهلِ الحَرَمِ. ألا تَرى أنهُ رُوِيَ في الخبرِ [أنهُ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ][(٣)]: «لا يُنفَّرُ صَيدُها، ولا يُختَلى خَلاها، ولا يُعضَدُ شَجَرُها»؟ [البخاري ١٨٣٣] فكانَ الابتِلاءُ بالنَّهيِ عنِ الصَّيدِ لأهلِ الحَرَمِ لِما أخبَرَ أنهُ «لا يُنفَّرُ صَيدُها». وأمّا المُحرِمُ فإنما نُهِيَ عنِ الاصطيادِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [الآية: ٢] وبقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [الآية: ٩٥].

وقالَ آخَرونَ: الابتِلاءُ بالنَّهيِ عنِ الاصطيادِ لِلمُحرِمينَ. وفي قولِهِ تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [الآية: ٩٥] نَهيٌ عن قَتلِهِ. وهناكَ نَهيٌ عن أخذِهِ بقولِهِ تعالى: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾ [الآية: ٩٤] وقولِهِ تعالى: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ﴾ أي في بعضِ الصَّيدِ دونَ بعضٍ؛ لأنَّ المُحرِمَ لم يُنهَ عن أخذِ صيدِ البحرِ بقولِهِ تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ وقولِهِ[(٤)] تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [الآية: ٩٦]. فذلكَ معنى قولِهِ تعالى: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ﴾، واللهُ أعلمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: قال. (٤) في الأصل وم: وقال.

جنة السنة

ويُحتمَلُ على التَّقديمِ والتأخيرِ كأنهُ قال: لَيَبلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيءٍ تَنالُهُ أيديكُم ورِماحُكُم مِنَ الصَّيدِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ﴾ قالَ بعضُهُم: ما تَنالُهُ الأيدي هو البَيضُ، وعلى هذا يَخرُجُ قولُنا: إنَّ المُحرِمَ مَنهِيٌّ عن أخذِ البَيضِ. فإنْ أخذَ بَيضاً فإنَّ عليهِ الجَزاءَ.

والذي يَدُلُّ على ذلكَ ما رَوى أبو هُرَيرَةَ ﷺ؛ قالَ: قالَ/ ١٣٩ ـ أ/ رسولُ اللهِ ﷺ «في بَيضِ النَّعامِ صِيامُ يَومٍ أو إطعامُ مِسكينٍ» [البيهقي في الكبرى ٥/٢٠٧] وعنْ كَعبِ بنِ عُجرَةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَضى في بَيضِ نَعامٍ أصابَهُ مُحرِمٌ بِثَمَنِهِ، وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ بِثَمَنِهِ[1] أو قيمَتِهِ. وعنِ ابنِ مَسعودٍ ﷺ مِثلُهُ.

وقالَ بعضُهُم: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ﴾ هو صَيدُ الصِّغارِ، وهي الفِراخُ التي لا تَطيرُ، فَيُؤخَذُ بالأيدي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرِمَاحُكُمۡ﴾ قالَ بعضُهُم: ما رَمَيتَ، وطَعَنتَ. وقيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ﴾ ما يُؤخَذُ بِغَيرِ سِلاحٍ ﴿وَرِمَاحُكُمۡ﴾ ما يُؤخَذُ بالسِّلاحِ مِن نَحوِ النَّبلِ والرِّماحِ وغَيرِهِما مِنَ السِّلاحِ.

ثم في الآيةِ دلالةٌ أنَّ المُحرِمَ قد نُهِيَ عنْ أخذِ الصَّيدِ، وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱصۡطَادُواْۚ﴾ [الآية: ٢] والِاصطِيادُ هو الأخذُ لا القَتلُ. وإنَّما النَّهيُ عنِ القَتلِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾ [الآية: ٩٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ لِيَعلَمَ ما قد عَلِمَ أنهُ يكونُ كائناً، أو يُقالُ: لِيَعلَمَ ما قد عَلِمَ غائباً عنِ الخَلقِ شاهداً كقولِهِ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ الآية [الأنعام: ٧٣و...]

وقولُهُ تعالى: ﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ اختُلِفَ فيه: قالَ بعضُهُم: ﴿يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ بِغَيبِ الناسِ أي يخافُهُ وإن لم يكُن بِحَضرَتِهِ أحَدٌ. وقالَ آخَرونَ: يخافُ العذابَ بالإخبارِ، وإنْ لم يَشهَدْ، ويُصدِّقْ. واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي مَنِ استَحَلَّ قَتلَ الصيدِ بَعدَ ما وَرَدَ النَّهيُ والتَّحريمُ ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ إن شاءَ عَذَّبَ، وإنْ شاءَ عَفا. وإذا عَذَّبَ كانَ عذابُهُ أليماً.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾ أي وأنتُم مُحرِمونَ. الآيةُ في ظاهِرِها على قَتلِ الصَّيدِ كُلِّهِ. ثم إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ رَخَّصَ في أشياءَ، أذِنَ في قَتلِها؛ فَيُقالُ: في خَمسٍ مِنَ الدَّوابِّ لا جُناحَ على مَن قَتَلَهُنَّ، وهو مُحرِمٌ في الحَرَمِ: الحِدَأةُ والغُرابُ والعَقرَبُ والفأرَةُ والكَلبُ العَقورُ.

وعَنْ عائِشَةَ ﷺ أمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ بِقَتلِ خَمسٍ فَواسِقَ في الحِلِّ والحَرَمِ: الحِدَأةُ والغُرابُ والعَقرَبُ والفأرَةُ والكَلبُ العَقورُ. وفي بَعضِ النُّسَخِ والأخبارِ: والذئبُ، فَيُحتَمَلُ أنْ يكونَ العَقورُ: الذِّئبَ.

ورُوِيَ عَنْ أبي سعيدٍ الخُدرِيِّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عمّا يَقتُلُ المُحرِمُ، فقالَ: «الحَيَّةُ والعَقرَبُ والفُوَيسِقَةُ والغرابُ والحِيلَةُ والكَلبُ العَقورُ والسَّبُعُ العادي» [أبو داوود ١٨٤٨]. والكَلبُ العَقورُ الذي أمَرَ المُحرِمَ بِقَتلِهِ ما قَتَلَ الناسَ، وعَدا عليهِم مِثلُ الأسَدِ والنَّمِرِ والذِّئبِ. وما كانَ [مِنَ][2] السِّباعِ لا يَعدو مِثلَ الضَّبُعِ والثَّعلَبِ والحُرِّ وما أشبَهَهُنَّ فلا يَقتُلُهُنَّ المُحرِمُ. فإنْ هو قَتَلَ شيئاً منهُنَّ فَداهُ. وإنْ قَتَلَ شيئاً مِنَ الطَّيرِ سِوى ما ذُكِرَ في الخَبَرِ فَعَلَيهِ جَزاؤُهُ.

وفي بَعضِ الأخبارِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][3] قالَ: «يَقتُلُ المُحرِمُ الفأرَةَ فإنها تُوهِنُ المَشقَّ» [بنحوه البخاري ١٨٢٧و١٨٢٨]. وقالَ بَعضُ الناسِ: ما قَتَلَ المُحرِمُ مِنَ السِّباعِ الذي[4] لا يؤكَلُ لَحمُهُ فلا فِديَةَ عليهِ. فكانَ تارِكاً لِظاهِرِ الآيةِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾.

فَإنِ احتَجَّ بِحَديثِ ابنِ عُمَرَ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَخَّصَ لِلمُحرِمِ في قَتلِ خَمسٍ مِنَ الدَّوابِّ، وذلكَ ما لا يُؤكَلُ لَحمُهُ، قِيلَ: أباحَ النَّبِيُّ ﷺ قَتلَ الخَمسِ لِعِلَّةِ أنهُ لا يُؤكَلُ لَحمُها؟ فإنْ قالَ: نَعَم، قيلَ: ما الدليلُ على ذلك؟ فإنْ قالَ: لِأنَّها لا تُؤكَلُ؛ فَكُلُّ ما لا يُؤكَلُ مِنَ الصَّيدِ فَقَتلُهُ مُباحٌ. فَيُقالُ لهُ: قولُكَ: لا يُؤكَلُ، ليسَ بِعِلَّةٍ؛ لأنَّ ذلكَ لا يَزولُ، لا يَتَغَيَّرُ. والعِلَّةُ هي التي تَحدُثُ في وَقتٍ، وتَزولُ في وَقتٍ.

(١) في الأصل: ثمنه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: التي.

جنة السنة

ولو كانَ قولُ القائلِ: لا يُؤكَلُ، عِلَّةً في ما لا يُؤكَلُ، كانَ قولُهُ: يُؤكَلُ، عِلَّةً في ما يُؤكَلُ، وكانَ الشَّيءُ عِلَّةً لِنَفسِها. وهذا بَيِّنُ الخَطَإِ. وإذا لم يكُنْ تَحريمُ أكْلِ الخَمْسَةِ التي أَذِنَ النَّبيُّ ﷺ في قَتْلِها لِلْمُحْرِمِ عِلَّةً في إطلاقِ قَتْلِها كانَ القِياسُ عليها على ما لا يَحِلُّ أكْلُهُ مُخطِئاً لأنَّ القِياسَ إنما يكونُ على العِلَلِ. وما لا عِلَّةَ فيهِ لا يَجوزُ القِياسُ عليه.

وعندَنا أنَّ هذِهِ الخَمْسَةَ المُسَمَّاةَ تَبْتَدِئُ المُحرِمَ وغَيرَهُ بالأذى، وإنْ لم يَبْتَدِئْها المُحْرِمُ. وما سِوَى ذلكَ مِمّا لا يُؤكَلُ لَحْمُهُ لا يَكادُ يَبْتَدِئُ بالأذى حتى يَبْتَدِئَها الإنسانُ، فَحِينَئِذٍ تَعرِضُ لهُ.

وبَيانُ ذلكَ أنَّ الحِدَأَةَ ربَّما أغارَتْ على اللَّحمِ، تَراهُ في يَدَيِ الرَّجُلِ، والغُرابَ يَسْقُطُ على دُبُرِ الدّابّةِ[1]، فَيُفْسِدُهُ، والعَقْرَبَ تَقصِدُ مَنْ تَلْدَغُهُ، وتَتَبَّعُ حِسَّهُ، والكَلْبَ العَقُورَ لا يَكادُ يَهْرُبُ مِنَ الناسِ كما تَهْرُبُ السِّباعُ غَيْرُهُ.

فأمّا الضَّبُعُ والخِنزيرُ والكَلْبُ والذِّئْبُ وأشْباهُها فهيَ تَرْهَبُ مِنْ بَني آدَمَ، ولا تكادُ تُؤذِيهِمْ حتى يَبْتَدِئَهَا بالأذى.

جَعَلْنا العِلَّةَ في ما رَخَّصَ النَّبيُّ ﷺ لِلْمُحْرِمِ قَتْلَهُ ما يُعْرَفُ مِنْ قَصْدِها لأذى المُحْرِمِ، وأنْ يُؤذِيَها المُحْرِمُ إنْ كانَ مَعْرُوفاً فيها مَعْلُوماً أنهُ أكثَرُ شَأْنِها. فلمّا لم يكُنْ في سائِرِ الطَّيرِ المُحَرَّمَةِ والسِّباعِ هذهِ العِلَّةُ، وكانَ المَعْرُوفُ فيها أنها لا تَبْتَدِئُ بالأذى لم يَجُزْ أنْ تُشَبَّهَ بالخَمْسَةِ المُسَمَّاةِ في الخَبَرِ. فإذا ابْتَدَأَ مِنها مُبْتَدِئٌ المُحْرِمَ بالأذى كانَ حِينَئِذٍ مِثْلَ الخَمْسَةِ، فَجازَ لهُ قَتْلُها بِغَيرِ فِدْيَةٍ.

وبَعْدُ فإنَّ الذي لا يُؤكَلُ لَحْمُهُ يُسَمَّى صَيداً. والصَّيَّادُونَ يَصِيدُونَهُ، فكانَ داخِلاً تَحْتَ عُمومِ الخِطابِ. ومخالِفُنا تارِكٌ لأَصْلِهِ في العُمومِ لأنهُ خَصَّ الآيَةَ بِغَيرِ دليلٍ.

وأصحابُنا، رَحِمَهُمُ الله، يَجْعَلُونَ الصَّيدَ كُلَّهُ مَحْظوراً أُكِلَ أو لم يُؤكَلْ إلّا ما عدا منها فإنْ قَتَلَهُ قَبْلَ أنْ يَعْدُوَ عليهِ لَزِمَهُ الفِداءُ. ذَهَبُوا في ذلكَ إلى ما رُوِيَ في الخَبَرِ خَبَرِ أبي سَعيدٍ [الخُدْرِيِّ][2] ﷺ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: يَقْتُلُ المُحْرِمُ كذا وكذا والسَّبُعَ العادِيَ. فالعادِي ما يَعْدُو على المُحْرِمِ، وإلى ما رُوِيَ عن عليِّ بنِ طالبٍ ﷺ، وغَيْرِهِ مَعَ ما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ جَعَلَ على المُحْرِمِ قَتْلَ ضَبُعاً جَزاءَهُ. وكذلكَ عن عُمَرَ وابنِ عبّاسٍ وابنِ عُمَرَ ﷺ وهي ممّا لا تُؤكَلُ.

وعَنْ جابرٍ [أنهُ][3] قالَ: سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عنِ الضَّبُعِ، فقالَ: هو صَيدٌ، وفيهِ كَبْشٌ. وعَنْ عُمَرَ ﷺ كذلكَ، وابنِ عباسٍ وابنِ عُمَرَ ﷺ كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ اخْتُلِفَ في الآيةِ في تأويلِها على وجهَيْنِ:

فأحَدُهُما: مَنْ جَعَلَ الآيَةَ على ظاهِرِها فلم يُوجِبْ في الخَطَإِ كَفّارَةً. عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][4] قالَ: إذا أصابَ المُحْرِمُ الصيدَ خَطَأً فَلَيسَ عليهِ شَيءٌ. وكذلكَ رُوِيَ عن عطاءٍ وسالِمٍ وقاسِمٍ أنهُمْ قالُوا: لا شيءَ عليهِ، مِثْلَ قولِ ابنِ عباسٍ ﷺ.

والقَوْلُ الثاني: ما قالَهُ أكثَرُ أهلِ التأويلِ؛ قالوا: قولُهُ تعالى ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ لِقَتْلِهِ ناسِياً لإحرامِهِ فذلكَ الذي يُحْكَمُ عليهِ، وهو الخَطأُ المُكَفَّرُ. وإنْ قَتَلَهُ مُتَعَمِّداً لِقَتْلِهِ ذاكِراً لإحرامِهِ يُحْكَمُ[5] عليهِ. وكذلكَ رُوِيَ عنِ الحَسَنِ أنه قالَ: مُتَعَمِّداً لِصَيدِهِ ناسِياً لإحرامِهِ، وقالَ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ مُتَعَمِّداً لِلصَّيدِ وذاكِراً لإحرامِهِ. فكأنهُمْ ذَهَبُوا إلى أنَّ المُحْرِمَ لا يَقْصِدُ قَصْدَ الصَّيدِ، وهو ذاكِرٌ لإحرامِهِ، أحْسَنُوا الظَّنَّ بهِ.

وعندَنا لأنَ الإحرامَ مِمّا لا يَجوزُ أنْ يَخْفَى على المُحْرِمِ، ويَنْسَى، لأنَّ لِلْمُحْرِمِ أعلاماً؛ تُذَكِّرُهُ تلكَ الأعلامُ الحالَ التي هو فيها. وعندَنا أنَّ ما لا يَجوزُ أنْ يُنْسَى، ويَخْفَى على المَرْءِ لم يُعْذَرْ صاحِبُهُ في نِسيانِهِ. وعِندَنا أنَّ على قاتِلِ الصَّيدِ الكفّارَةَ؛ عَمْداً قَتَلَهُ، أو خَطأً.

ولَيسَتْ تَخلُو الآيَةُ مِنْ أنْ تكونَ أوجَبَتِ الكفّارَةَ على المُتَعَمِّدِ لِلْقَتْلِ الناسي لإحرامِهِ كما قالَ الحَسَنُ ومُجاهِدٌ، أو تكونَ أوجَبَتِ الكَفّارَةَ على المُتَعَمِّدِ لِلْقَتْلِ ذاكِراً لإحرامِهِ أولَى بالكَفّارَةِ/ ١٣٩ ـ ب/ لأنَّ ذَنْبَهُ أعظَمُ وجُرْمَهُ أكبَرُ.

---

(١) في الأصل وم: الدواب. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الاصل وم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: لم.

فإنْ قيلَ: إنكُمْ لا تُوجِبونَ الكَفارَةَ على قاتِلِ النَّفسِ عَمْداً فما مَنَعَ أنْ يكونَ قَتْلُ الصَّيدِ مِثْلَ ذلكَ؟ وإنْ كانَ جُرْمُهُ[1] أعظمَ كما قيلَ [نَقْلٌ][2] إنَّ قاتِلَ النَّفسِ عَمْداً، وإنْ كُنّا لم نُوجِبْ عليهِ الكَفّارَةَ فَقَدْ أوجَبْنا عليهِ القِصاصَ، وهو أعْظَمُ مِنَ الكَفّارَةِ. وقاتِلُ الصَّيدِ عَمْداً لِقَتْلِهِ ذاكراً لإحرامِهِ، لو أزَلْنا عنهُ الكَفّارَةَ فَلا شَيْءَ عليهِ سِواها. لِذلكَ اخْتَلَفا

ثم نقولُ: إنّا عَرَفْنا الحُكْمَ في قَتْلِ الصَّيدِ في الخطإِ؛ إنما يُعْرَفُ بِغَيرِهِ، وليسَ في ذِكْرِ الحُكْمِ وبيانِهِ في حالٍ دليلُ نَفْيِهِ في حالٍ أُخْرَى. ولَنا على هذا في ما تَقَدَّمَ في غَيرِ مَوضِعٍ [أقوالٌ][3] كَرِهْنا إعادَتَها في هذا المَوضعِ.ثم تَخْصِيصُ ذِكْرِ الكَفّارَةِ في قَتْلِ العَمْدِ يَحْتَمِلُ وجُوهاً:

أحَدُها: أنَّ الكَفّارَةَ في قَتْلِ النَّفْسِ إنما ذُكِرَتْ في قَتْلِ الخَطإِ، لم تُذْكَرْ في قَتْلِ العَمْدِ لِيُعْلَمَ أنها إذا وَجَبَتْ في العَمْدِ فهيَ[4] في الخطإِ أوجَبُ.

والثاني: أنَّ الكَفّارَةَ إنما وَجَبَتْ بِجنايَتِهِ على صَيدٍ آمِنٍ بهِ في الحَرَمِ. وكُلُّ ذي أمانةٍ إذا أتْلَفَ الأمانَةَ لَزِمَ الغُرْمَ، عَمْداً كانَ إتلافُهُ أو خَطأً. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعْلَمُ.

والثالثُ: أنَّ ذِكْرَ التَّخْيِيرِ في حالِ الضَّرُورةِ يَخْرُجُ مَخْرَجَ التَّوسِيعِ والتَّخْفيفِ على أهْلِها. ولا يكونُ ذلكَ في غَيرِ حالِ الضَّرُورةِ، فَدَلَّ ذِكْرُهُ في غَيرِ حالِ الضَّرُورةِ على أنَّ ذلكَ كالمذكورِ في حالِ الضَّرُورَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ اخْتَلَفَ أهلُ العِلْمِ في ما يَجِبُ مِنَ المِثْلِ؛ فقالَ قومٌ: في الظَّبْيِ شاةٌ، وفي النَّعامَةِ بَدَنَةٌ، وفي حِمارِ الوَحْشِ[5] بقرَةٌ، وأشباهُ ذلكَ.

وقالَ آخرونَ: المِثْلُ قِيمَةُ الصَّيدِ يُقَوِّمُهُ عَدْلانِ، فَيُوجِبانِ قِيمَتَهُ دراهِمَ، فَيَشْتَري بِتِلْكَ الدَّراهِمِ شاةً، أو يَجْعَلُهُ طعاماً، فَيَتَصَدَّقُ بِهِ؛ على كُلِّ مِسْكينٍ نِصْفُ صاعٍ، أو يَصومُ عن كُلِّ نِصْفِ صاعٍ يَوماً.

وقالَ غَيرُهُمْ: إنْ بَلَغَ دماً ذَبَحَ شاةً، وإنْ لم يَبْلُغْ دماً يَصَّدَّقُ به.

وأمّا قولُنا: إنَّ المِثْلَ هو القِيمةُ لا المِثْلُ في رَأيِ[6] العينِ، ذَهَبْنا في ذلكَ إلى وُجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ المُحْرِمَ إذا أصابَ صَيداً في هذا الوَقْتِ حَكَمَ بِجَزائِهِ حَكَمانِ. فلو كانَ مِثْلُ الظَّبْيِ شاةً في كُلِّ الدُّهورِ والأوقاتِ كانَ ما تَقَدَّمَ مِنْ أصحابِ النَّبِيِّ ﷺ والسَّلَفِ مِنَ الحكمِ في ذلكَ كافِياً لا يَحْتاجُ إلى حُكْمِ غَيرِهِمْ. فَدَلَّ اجْتِماعُهُمْ على أنَّ حُكْمَ الحَكَمَينِ باقٍ، وعلى أنَّ المِثْلَ غَيرُ مُوَقَّتٍ؛ بل هو مُخْتَلِفٌ على قَدْرِ الأزمِنَةِ والمَواضِعِ والأوقاتِ.

وإذا جَعَلْنا المِثْلَ قيمةً كانَتِ الحاجةُ إلى الحَكَمَينِ قائمةً. وإذا جَعَلْناهُ هَدْياً فالحاجةُ إليها زائلةٌ. ولا يجوزُ أنْ يُعَطَّلَ أمْرُ الحَكَمَينِ، وقد ذَكَرَهُ اللهُ تعالى في كتابِهِ.

والثاني: ما أجْمَعُوا عليهِ أنَّ ما لا مِثْلَ لَهُ في الأنعامِ مِنَ الصَّيْدِ إذا أصابَهُ المُحْرِمُ فَعَلَيهِ قِيمَتُهُ. فإذا كانَ المِثْلُ في بَعْضِ الصَّيدِ قِيمَتَهُ فَهُوَ في كلِّ الصَّيدِ قِيمَتُهُ. وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ وغَيرِهِ مِنَ السَّلَفِ ﷺ أنهُمْ قالُوا ذلكَ. فإنْ قِيلَ: ما لا مِثْلَ لَهُ مِنَ النَّعَمِ لا يُمْكِنُ [تَقْديرُ][7] قيمتِهِ أكثرَ مِنْ قِيمَتِهِ. قيلَ لهُ: فَتَجْعَلُ ذلكَ مَثَلاً؟ فإنْ قالَ: بَلَى، قِيلَ: فقدْ صارَتِ القِيمةُ مَثَلاً في بَعْضِ الصَّيدِ، فما مَنَعَ أنْ يكونَ مَثَلاً في كُلِّ الصَّيدِ؟ فإنْ قالَ: المِثْلُ هو الهَدْيُ في ما لَهُ مِثْلٌ. فأمّا ما لا مِثْلَ لَهُ مِنَ الهَدْيِ فَلَيسَ الواجِبُ فيهِ بِمِثْلٍ، إنّما ذلكَ قِيمَةٌ. ولم يَجِبْ ذلكَ بِنَصِّ الكتابِ، وإنّما وَجَبَ ذلكَ بِنَصِّ الكتابِ: المِثْلُ مِنَ الهَدْيِ. فأمّا ما لا مِثْلَ لهُ فإنما وَجَبَتْ[8] قيمتُهُ بالإجماعِ.

قيلَ لهُ: حَدِّثْنا عن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ هل دَخَلَ في عُمومِ الآيةِ الفَرْخُ ونَحْوُهُ؟ فيكونَ مَنْهِيّاً عن قَتْلِهِ. فإنْ قالَ: نعمْ، قِيلَ: فإذا دَخَلَ الفَرْخُ في عُمومِ النَّهيِ عن قَتْلِ الصَّيدِ فَهُوَ أيضاً داخِلٌ في عُمومِ قولِهِ: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم

(١) في الأصل وم: حرمته. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) في الأصل وم: الوحشي.
(٦) في الأصل وم: دار. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وجب.

جنة السنة

﴿مُتَعَمِّدًا﴾ الآية. فإنْ قال: لا يَدخُلُ الفَرْخُ في عُمومِ قولِهِ تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ قيلَ لهُ: قد قال اللهُ تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [الآية: ٩٤] فرُوِيَ أنّ[1] ذلكَ في البَيضِ والفِراخِ. فإنْ لم يَجعَلِ الفِراخَ ولا شيئاً مِنها داخِلاً في الآيةِ فَما مَعنى الآيةِ؟ ونَحنُ لا نَنالُ بأيدينا مِنَ الصَّيدِ إلّا ضِعافَهُ وما يَعجَزُ عنِ الطيرانِ والعَدْوِ مِنهُ.

فالآيةُ تُوجِبُ أنّ الصَّيدَ كُلَّهُ قد دَخَلَ في عُمومِها ما قَلَّتْ قيمَتُهُ وما كَثُرَتْ. وذلكَ يُوجِبُ أنْ يكونَ الواجِبُ مِن قيمةِ الفَرخِ والعُصفُورِ مِثلاً، واللهُ أعلَمُ. ولأنّ النَّعامَةَ، لا مِثْلَ لَها مِنَ النَّعَمِ، فَمَنْ أوجَبَ فيها بَدَنَةً فقدْ أوجَبَ فيها ما لَيسَ بِمِثْلٍ لَها، ولا نَظيرٍ. ومَنْ أوجَبَ فيها قيمَتَها فقدْ أوجَبَ مِثْلاً لها، فَهُوَ مُوافِقٌ لِلنَّصِّ عندنا، واللهُ أعلَمُ.

وكذلكَ المُوجِبُ في الحَمامَةِ شاةً، لا تُشبِهُ الصَّيدَ المَقتُولَ في عَينِهِ ولا في صِفَتِهِ ولا في جِنسِهِ، فَهُوَ غَيرُ مُوجِبِ المِثْلِ بلِ المُوجِبُ فيهِ القيمَةَ أقرَبُ إلى إيجابِ المِثْلِ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: كيفَ سَمَّى قيمَةَ الشَّيءِ مِثلاً، ولَيسَتْ مِن جِنسِهِ، وإنما المِثْلُ ما كانَ مِن جِنسِ الشَّيءِ؟ قيلَ: قد ذَكَرنا أنّ قيمةَ ما لا مِثْلَ لَهُ مِنَ النَّعَمِ يُسَمَّى مِثلاً، ولأنّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ وإذا جازَ أنْ يُسَمَّى الصِّيامُ عَدلاً لِلطَّعامِ جازَ أنْ تُسَمَّى القيمَةُ عَدلاً لِلصَّيدِ. وإنما صارَ الصِّيامُ[2] عَدلاً بالتَّقويمِ[3]، والمِثْلُ والعَدْلُ في المَعنى مُتَقارِبانِ[4]، واللهُ أعلَمُ.

ولأنّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ ولو كانَ المُرادُ مِنَ المِثْلِ المَنظُورِ في رَأيِ العَينِ لم يَكُنْ بِشَرْطِ ذَوي عَدْلٍ فيهِ مَعنًى؛ لأنّ المِثْلَ في رَأيِ العَينِ يَعرِفُهُ كلُّ أحَدٍ بَصيرٍ فيهِ، أو لم يَكُنْ. فَدَلَّ ما شَرَطَ مِن نَظَرِ ذَوي عَدْلٍ باطِنٍ فيهِ وخَفِيٍّ لا[5] ما ظَهرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ تأويلُهُ ما ذَكَرنا: يَنظُرُ إلى رَجُلَينِ عَدْلَينِ بِهِما مَعرِفَةٌ[6] في ذلكَ، فَيُقَوِّمانِهِ، ثم يَشتَري بها هَدْياً، إنْ شاءَ، فَيُهْدي، وإنْ لم يَبْلُغْ هَدْياً قُوِّمَتِ الدَّراهِمُ طَعاماً. فإنْ لم يَجِدْ صامَ مَكانَ نِصفِ صاعٍ يَوماً.

رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما كذلكَ والحَسَنِ وإبراهيمَ والقاسِمِ[7] والسلفِ جُملَةً.

وعِندنا أنهُ مُخيَّرٌ بَينَ هذهِ الأشياءِ الثلاثةِ؛ يَفعَلُ أيَّ هذهِ الثَّلاثَةِ شاءَ لأنّ اللهَ تعالى قالَ في المُحصَرِ: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] ولا خِلافَ بَيْنَهما[8] في أنّ لِصاحِبِ الفِديَةِ في حَلْقِ الرأسِ أنْ يَفعَلَ أيَّ هذهِ الثَّلاثَةِ.

فالواجِبُ أنْ يكونَ في جَزاءِ الصَّيدِ مِثْلُهُ لأنّ الخِطابَ خَرَجَ على حَرْفِ التَّخييرِ، وكانَ سَبَبُ وُجوبِهِ واحِداً فَهُوَ على التَّخييرِ نَحْوُ كَفّارَةِ اليَمينِ وما ذَكَرنا في دَفعِ الأذَى عنْ رأسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ الْكَعْبَةِ﴾ شَرَعَ بُلوغَ الكَعْبَةِ، وهو لا يَبْلُغُ نَفسَ الكَعْبَةِ، فَدَلَّ أنّ المُرادَ رَجَعَ إلى بُلوغِهِ قُرْبَ الكَعْبَةِ. وعلى هذا يَخرُجُ قولُهُمْ في مَنْ حَلَفَ ألّا يَمُرَّ على بابِ فلانٍ. فَمَرَّ بِقُرْبِ بابِهِ حَنِثَ اسْتِدلالاً بِقولِهِ: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ الْكَعْبَةِ﴾ لم يُرِدْ بِهِ بُلوغُهُ عَينَ الكَعْبَةِ، ولكنْ مَرَّ بها أو مَكانِها. فَعَلى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وكانَ محمدُ بْنُ الحَسَنِ يقولُ: ﴿يَحْكُمُ﴾ عليهِ بِمِثْلِهِ مِنَ النَّعَمِ حَيثُ كانَ. وأبو حَنيفَةَ يَقولُ: ﴿يَحْكُمُ﴾ عليهِ بِقيمَةِ الصَّيدِ في المَوضِعِ الذي أصابَهُ فيهِ. واختِلافُهُما في هذا يَرْجِعُ إلى ما اخْتَلَفَا فيهِ مِنَ المِثْلِ عَيْناً أو قيمَةً.

وقد رُوِيَ عن عُمَرَ وعبدِ الرحمنِ رضي الله عنهما وغَيرِهِما أنّهُم حَكَمُوا في الظَّبيِ شاةً، ولَم يَسألُوا عنِ المَوضِعِ الذي أُصيبَ، فَدَلَّ تَركُهُمُ السُّؤالَ عنْ ذلكَ على أنّ المَواضِعَ كُلَّها كانَتْ عندَهُمْ سَواءً، وأنّهُمْ أجرَوهُ مَجرَى الكَفّاراتِ دُونَ القِيَمِ. لأنّهُمْ لو أجرَوا ذلكَ مَجرَى ضَمانِ القِيَمِ لَسألُوا عنْ أماكِنِ الجِناياتِ إذا كانَ الصَّيدُ تَختَلِفُ قيمَتُهُ، لا تَستَوي في ذلكَ الأماكِنُ كُلُّها. فهذا يُؤكِّدُ قولَ محمدٍ ومَنْ رافَقَهُ.

---

(١) من م، في الأصل: أنه. (٢) من م، في الأصل القيام. (٣) في الأصل وم: بالتقدير. (٤) في الأصل وم: متقارب. (٥) من م، في الأصل: إلا. (٦) في الأصل وم: ومعرفة. (٧) من م، الواو ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: بينهم.

جنة السنة

وأمّا عِندَ/ ١٤٠ ـ أ/ أبي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنّ المُلْكَ لِلْحَرَمِ في الصَّيدِ، وكلّ مَن أتلَفَ مُلْكَ آخَرَ، وجَنَى على مالِ أحَدٍ، وإنما يُنْظَرُ إلى قِيمتِهِ في المكانِ الذي أتلَفَهُ. فَعَلَى ذلكَ النَّظَرُ في الصَّيدِ إلى المكانِ الذي أصابَهُ.

ثم المَسْألَةُ في جَزاءِ الصَّيدِ: أينَ يُذْبَحُ؟ عِندَهُمْ جَميعاً لا يَجوزُ أنْ يُذْبَحَ إلّا بِمكّةَ لأنهُ لو جازَ أنْ يُذْبَحَ في غَيرِ الحَرَمِ حَيثُ شاءَ زالَتْ فائدةُ قولِهِ تعالى: ﴿هَدْيَا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ ولَيسَ في ذلكَ بَيْنَهُمْ خِلافٌ.

وأمّا الطّعامُ والصِّيامُ فإنّ اللهَ ﷻ لم يَذْكُرْ فِيهِما مَوضِعاً، ولا جَعَلَ لَهُما مَكاناً، فَلَهُ أنْ يُطْعِمَ، وأنْ يَصومَ حَيثُ شاءَ. فإنْ قيلَ: إنّ الهَدْيَ يُذْبَحُ في الحَرَمِ لِمَنْفَعَةِ أهْلِ الحَرَمِ بِهِ، ويُتَصَدَّقُ بِهِ عليهِمْ، فَعَلَى ذلكَ الإطعامُ يَجِبُ أنْ يُطْعَمَ أهْلُ الحَرَمِ لأنهُ جُعِلَ لِمَنْفَعَةِ لَهُمْ، قيلَ: لا خِلافَ بَيْنَهُمْ أنهُ لو ذُبِحَ الهَدْيُ في غَيرِ الحَرَمِ ألا يَجوزُ؟ دلّ أنهُ لا لِما ذُكِرَ، ولكنْ لِما الهَدايا لا تُذْبَحُ إلّا بِمكّةَ.

ألا تَرَى ما[1] قالَ اللهُ تعالى: عليهِ أنْ يَهْدِيَ، لَيسَ لهُ أنْ يَذْبَحَ إلّا بِمكّةَ؟ ولو قالَ: عليهِ الإطعامُ والصَّدَقةُ، لهُ أنْ يَتَصَدَّقَ حَيثُ شاءَ. دلّ أنّ الهَدْيَ مَخْصوصٌ ذَبْحُهُ بِمكّةَ لا يَجوزُ في غَيرِها[2]. فأمّا الصَّدَقَةُ فإنّها تَجوزُ في الأماكِنِ كُلِّها، لِذلكَ افْتَرَقا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي لِيَنالَ [عاقِبةَ][3] أمْرِهِ وألَمَهُ كما نالَ لَذَّتَهُ. وقيلَ: جَزاءَ ذَنْبِهِ، وهو الكَفّارةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ إذا تابَ، ورَجَعَ عمّا اسْتَحَلّ مِن قَتْلِ الصَّيدِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ﴾ أي مَن عادَ إلى اسْتِحْلالِ[4] الصيدِ في الحَرَمِ يَنْتَقِمِ اللهُ منهُ في النارِ. ويَحْتَمِلُ مَن عادَ إلى قَتْلِ الصَّيدِ يَنْتَقِمِ اللهُ منهُ بالكَفّارةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ. ويُقالُ: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي كلُّ عِزٍّ عندَ[5] عِزِّهِ ذُلٌّ، وغَنيٌّ أي كُلُّ غِنًى عِندَ غِناهُ فَقْرٌ، ونَحْوُهُ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أخبَرَ اللهُ تعالى أنّ صَيدَ البَحْرِ وطَعامَهُ حَلالٌ لِلْمُحْرِمِ. ثم اخْتَلَفَ أهلُ التّأويلِ في تأويلِهِ؛ قالَ بعضُهُمْ: صَيدُهُ ما صِيدَ، وطَعامُهُ ما قَذَفَ البَحْرُ. كذلكَ رُوِيَ عن عُمَرَ ﷺ أنهُ قالَ: صَيدُهُ ما صِيدَ، وطَعامُهُ ما قُذِفَ. وعن أبي بَكْرٍ وابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهما][6] قالا: طعامُهُ ما قَذَفَ، وقالَ بعضُهُمْ: صَيدُهُ ما أُخِذَ طَرِيّاً، وطعامُهُ: ما تَزَوَّدْتَ في سَفَرِكَ.

ثم يَجيءُ على قَولِ أصحابِ الظّواهِرِ أنْ يكونَ كلُّ صَيدِ البَحْرِ وطعامُهُ حَلالاً مُباحاً بِظاهِرِ قولِهِ تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ الآيةَ. وكذلكَ ما رُوِيَ عن نَبِيِّ اللهِ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: «هو الطَّهورُ ماؤُهُ والحِلُّ مَيْتَتُهُ» [أبو داوود ٨٣] إنهُ لم يَخُصَّ مَيْتَةً دونَ مَيْتَةٍ ولا طَعاماً دونَ طَعامٍ، غَيرَ أنّ المُرادَ عندَنا رَجَعَ إلى السَّمَكِ خاصّةً ما رُوِيَ عنهُ ﷺ [أنهُ][8] قالَ: «أُحِلَّتْ لنا مَيْتَتانِ ودَمانِ» [أحمد: ٢/ ٩٧] أمّا المَيْتَتانِ فالجَرادُ والسَّمَكُ. دلّ الخَبَرُ أنّ المُرادَ مِنَ الآيةِ والخَبَرِ رَجَعَ إلى السَّمَكِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][9] قالَ: بَهيمةٌ[10] لا يَحِلُّ لكَ أن تَصيدَهُ، ولا أنْ تأكُلَهُ. ورُوِيَ عن عليٍّ ﷺ وهو مُحْرِمٌ، أنهُ دُعِيَ إلى طَعامِهِ، فقُرِّبَ إليهِ بِعُقابٍ[11] وحَجَلٍ. فلمّا رأى ذلكَ عليٌّ قامَ، وقامَ مَعَهُ ناسٌ، فَقيلَ لِصاحِبِ الطّعامِ: ما قامَ هذا ومَن مَعَهُ إلّا كراهيةً لِطعامِكَ، فأرسَلَ إليهِ، فجاءَ، فقالَ: ما كَرِهْتَ مِن هذا، ما أشَرْنا، ولا أمَرْنا، ولا صِدْنا قالَ عليٌّ ﷺ ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ ثم انْطَلَقَ.

---

(١) في الأصل وم: من. (٢) في الأصل وم: غيره. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج قبلها في الأصل: قتل. (٥) من م، في الأصل: عنده. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: بهمة. (١١) في الأصل وم: يعاقب.

جنة السنة

وعنْ عثمانَ ﷺ مِثْلُهُ، وقريبٌ[١] منهُ.

وأمّا عندنا فإنهُ يَحِلُّ لِلْمُحْرِمِ أنْ يأكُلَ لَحْمَ الصَّيدِ إذا لم يَصِدْ هو، ولا صِيدَ لَهُ، ما رُوِيَ عنْ أبي قَتادةَ ﷺ أنهُ كانَ مع النَّبِيِّ ﷺ حتى إذا كانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ بِمكَّةَ يَختلِفُ معَ أصحابٍ لهُ مُحْرِمِينَ، وهو غيرُ مُحرِمٍ، فرَأى حِمارَ وَحْشٍ، فاسْتوَى على فَرَسِهِ، فَسألَ أصحابَهُ أنْ يُناوِلُوهُ سَوطاً، فأبَوا، فَسألَهُمْ رُمْحَهُ، فأخذَ، ثم اشْتَدَّ على الحِمارِ، فَقَتَلَهُ، فأكَلَ[٢] منهُ بَعْضُ أصحابِهِ، وأبَى بَعْضُهُم. فلمّا أدرَكُوا رسولَ اللهِ ﷺ فَسألُوهُ عنْ ذلكَ، فقالَ: إنما هي طُعْمَةٌ أطْعَمَكُمُوها اللهُ سُبْحانَهُ، وقالَ: هل مَعَكُمْ مِنْ لَحمِهِ شيءٌ؟

وفي خَبَرٍ آخَرَ عنْ جابِرِ بْنِ عبدِ اللهِ ﷺ [أنهُ][٣] قالَ: عَقَرَ أبو قَتادةَ حِمارَ وَحْشٍ، ونَحْنُ مُحرِمُونَ، وهو حَلالٌ، فأكَلْنا منْهُ، ومَعَنا رسولُ اللهِ ﷺ.

وفي خَبَرٍ آخَرَ عنْ أبي قَتادةَ ﷺ [أنهُ][٤] قالَ: أني أصَبْتُ حِمارَ وَحْشٍ، وعندِي منهُ، فقالَ لِلْقَومِ: كُلُوا، وهُمْ مُحرِمُونَ.

وفي بَعْضِ الأخبارِ عنْ جابِرِ بْنِ عبدِ اللهِ [أنهُ][٥] قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ «صَيدُ البَرِّ حَلالٌ لَكُمْ، وأنْتُمْ حُرُمٌ، ما لم تَصِيدُوهُ، أو يُصَدْ لَكُمْ» [أبو داوود ١٨٥١] رَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ في أكْلِ لَحمِ الصَّيدِ لِلمُحْرِمِ، إذا لم يَصِدْ، ولم يُصَدْ لَهُ. وبذلكَ أخذَ أصحابُنا.

وفي الآيةِ دليلٌ لِقولِنا، وهو قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [الآية: ٩٥]. وقالَ تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [الآية: ٩٦] فَمَنَعَنا، واللهُ أعلَمُ، اصْطِيادَهُ. ألا تَرَى أنَّ صَيدَ ما لا يُؤكَلُ لَحْمُهُ مَحْظُورٌ؟ فَدَلَّ ذلكَ على أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في الاصطِيادِ لا في أكْلِ لَحمِهِ؛ لأنَّ لَحْمَ الصَّيدِ مِنْ أنْ يُصادَ؛ فالتَّحريمُ غيرُ واقِعٍ عليهِ، ليسَ كالبَيضِ قد يَصيرُ صَيداً ،واللَّحمُ ليسَ كذلكَ ، ولأنَّ المحرِمَ لو أتْلَفَ البَيضَ غُرِّمَ قِيمَتَها، ولو[٦] أتلَفَ لَحْمَ الصَّيدِ لم يَضْمَنْ شيئاً. فما لَزِمَهُ الضَّمانُ مُنِعَ عنْ أكْلِهِ، وما لم يَلْزَمْهُ لا، ولأنهُ لو حُرِّمَ على المُحْرِمِ التَّناوُلُ مِنْ لَحمِ صَيدٍ، صادَهُ حَلالٌ [لَوَجَبَ أنْ يُحَرَّمَ][٧] على أهلِ مَكَّةَ التناوُلُ مِنْهُ؛ إذْ هُمْ أهْلُ حَرَمِ اللهِ، وذلكَ بَعيدٌ.

فأخَذَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى، بما رَوَينا مِنَ الأخبارِ [والأحاديثِ عنْ][٨] رسولِ اللهِ ﷺ مِثْلِ[٩] حديثِ أبي قَتادةَ وغَيرِهِ، وربما دَلَّ عليهِ ظاهِرُ الكتابِ، وهو قولُ عُمَرَ وعُثْمانَ وغَيرِهِما[١٠] ﷺ.

فإنْ قيلَ: رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ عنْ زَيدِ بْنِ أرْقَمَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهى المحرِمَ عنْ لَحمِ الصَّيدِ، وفي خَبَرٍ آخَرَ عَنْ زَيدِ بْنِ أرْقَمَ ﷺ [أنهُ][١١] قالَ: «أُهْدِيَ لِرسولِ اللهِ ﷺ عُضْوٌ[١٢] مِنْ لَحْمِ صَيدٍ، فَرَدَّهُ، فقالَ: إنّا حُرُمٌ لا نَأْكُلُهُ» [مسلم ١١٩٥] وفي خَبَرٍ آخَرَ «أنهُ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عنْ مُحْرِمٍ، أُتِيَ بِلَحمِ صَيدٍ [فقالَ: لا يَأكُلْ][١٣] منهُ».

لكنَّ هذا الحديثَ يَجوزُ أنْ يُحْمَلَ على أنْ كانَ صِيدَ بَعْدَ أنْ أحْرَمَ أنْ يكونَ صِيدَ مِنْ أجْلِهِ. وإذا صِيدَ مِنْ أجْلِهِ لَمْ يَحِلَّ لَهُ أكْلُهُ. دليلُهُ مِنْ خَبَرِ عُثْمانَ ﷺ: ما أمَرْتُ بِصَيدٍ، ولا صِيدَ مِنْ أجْلي، وخَبَرِ جابِرٍ ﷺ عنِ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][١٤] قالَ: «لَحْمُ صَيدِ البَرِّ حَلالٌ لَكُمْ، وأنْتُمْ حُرُمٌ، ما لَمْ تَصِيدُوهُ، أو يُصَدْ لَكُمْ» [أبو داوود ١٨٥١]

ثم المَسْألَةُ في مَعْرِفَةِ صَيدِ البَرِّ مِنَ البَحْرِ. قالَ بعضُهُمْ: ما كانَ يَعيشُ في البَرِّ والبَحْرِ فلا تَصِدْهُ، وما كانَتْ[١٥] حَياتُهُ في الماءِ فَذاكَ البَحْرِيُّ. وقالَ آخَرونَ: أكثرُ ما يكونُ في الماءِ حتىٰ يُفَرِّخَ. وقالَ غَيرُهُمْ: صَيدُ البَرِّ هو الذي أخَذَهُ الصائِدُ حَيّاً، فَماتَ في يَدِهِ لم يَحِلَّ [ولا يَحِلُّ إلّا إذا أدْرَكَ زَكاتَهُ بِتَزكِيَتِهِ][١٦]. فكلُّ ما كانَتْ هذهِ صِفَتَهُ فَهُوَ البَرِّيُّ، وإنْ كانَ يَعيشُ في الماءِ، وما كانَ الصائدُ أخَذَهُ حيّاً، وهو يَعيشُ في الماءِ، فماتَ في يَدِهِ، أكَلَهُ، فذلكَ صَيدُ البَحْرِ، وذلكَ السَّمَكُ.

---

(١) في الأصل وم: وقريبا. (٢) في الأصل وم: فأكله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ولم. (٧) في الأصل: ليجب أن يخرج، في م: ليجب أن يحرم. (٨) في الأصل وم: وعن. (٩) في الأصل وم: من. (١٠) في الأصل وم: وغيره. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: عضوا. (١٣) في الأصل وم: قال لا نأكله. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: كان. (١٦) في الأصل: إذا أدرك زكاته إلا بتزكيته، في م: ولا يحل إذا أدرك زكاته بتزكيته.

جنة السنة

وفي ذلكَ وجهٌ آخرُ؛ وهو أنَّ كُلَّ ما ألقاهُ البَحرُ، وقَذَفَهُ، فماتَ، فَحَلَّ لنا أكْلُهُ، فذلكَ طَعامُهُ. وما لم يَحِلَّ أكْلُهُ فَلَيسَ بِطَعامِهِ. فما كانَ طَعامَهُ، وألقاهُ، فماتَ، فهو إذَنْ صَيدُ البَحْرِ. وما لا يَحِلُّ أكْلُهُ، إذا ألقاهُ، فَلَيسَ بِصَيدِ البَحرِ إذا صِيدَ لأنَّ اللهَ تعالى أباحَ صَيدَ البَحرِ وطَعامَهُ. فما لَيسَ/ ١٤٠ ـ ب/ بِطَعامِهِ إذا ألقاهُ، فماتَ، فَلَيسَ بِصَيدٍ إذا أخَذَهُ حيّاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في استِحلالِ قَتلِ الصَّيدِ في حالِ الإحرامِ بَعدَ النَّهيِ. أوِ اتَّقُوا اللهَ في كُلِّ ما لا يَحِلُّ ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فتُجزَونَ بأعمالِكُم إنْ خَيرٌ فَخَيرٌ، وإنْ شَرٌّ فَشَرٌّ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي إلى حُكْمِهِ تَصيرونَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٧ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ الآية. اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُم: قولُهُ تعالى: ﴿قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ أي ثَباتاً لِلنّاسِ ودَواماً لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَها مَوضِعاً لإقامةِ العِباداتِ مِن نَحوِ الحَجِّ والطَّوافِ والصَّلَواتِ [وإقامةِ حُرُماتِهِ][2] والهدايا وغيرِ ذلكَ مِنَ العِباداتِ، جَعَلَها ثابتةً دائمةً، لا تُبَدَّلُ، ولا تُنسَخُ أبداً. فذلِكَ مَعنى القِيامِ لِلنّاسِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بَعضُهُمْ ﴿قِيَامًا﴾ بِمَعنى قِواماً أي جَعَلَها قِواماً لَهُمْ في مَعاشِهِمْ ومَعادِهِمْ لأنهُ جَعَلَها مَأمَناً لَهُمْ ومَلْجأً حتى إنَّ مَنِ ارتَكَبَ كَبيرةً، أو أجْرَمَ جَريمَةً، ثُمَّ لَجَأَ إليهِ، ثُمَّ لَمْ يُتَعَرَّضْ لَهُ بِشَيءٍ مِن ذلكَ، ولا يُنالُ[3] منهُ. وكانُوا إذا وَجَدُوا هَدْياً مُقلَّداً لم يَتَعَرَّضُوا لهُ، وإنْ كانَتْ حاجَتُهُمْ إليهِ شديدةً، ونَحْوُ هذا كَثيرٌ مِمّا يَطُولُ ذِكْرُهُ. وجَعَلَ فيها عِباداتٍ ومَقْصِداً ما لم يَجْعَلْ في غَيرِها مِنَ البِقاعِ مِنْ قَضاءِ[4] المناسكِ وغَيرِها.

وكذلكَ الشَّهرُ الحَرامُ كانَ جَعَلَهُ مَأمَناً لَهُمْ، إذا دَخَلُوا فيهِ يأمَنُونَ[5] مِنْ كُلِّ خَوفٍ كانَ بِهِمْ.

وجَعَلَ في الهَدايا والقَلائدِ مَنفَعَةً لأهلِها، فكانَ في ذلكَ قِواماً لَهُمْ في مَعاشِهِمْ ومَعادِهِمْ. وعَنْ سَعيدِ بْنِ جُبَيرٍ [أنهُ قالَ][6]: قالَ اللهُ تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ شِدَّةً لِدينِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا﴾ أي ذلكَ الأمْنُ، وما ذَكَرْنا مِنْ جَعْلِ الكَعْبَةِ قِواماً لَهُمْ في مَعاشِهِمْ ومَعادِهِمْ ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي على عِلْمٍ جَعَلَ هكذا قَبْلَ أنْ يكونَ.

وقالَ بَعضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنْ تَحْريفِ الكُتُبِ وتَغْيِيرِ[7] وتبديلِ بَعْثِهِ[8] ﷺ وصفتِهِ، أي على عِلْمٍ منهُ بالتَّحريفِ والتبديلِ، خَلَقَكُمْ لا عَنْ جَهْلٍ، لِيَمتَحِنَكُمْ، لِما لا يَضُرُّهُ كُفْرُ كافرٍ، ولا يَنْفَعُهُ إيمانُ مُؤمنٍ. بل حاصِلُ ضَرَرِ الكُفرِ يَرْجِعُ إلى الكافرِ، وحاصِلُ نَفْعِ الإيمانِ يَرْجِعُ إلى المؤمنِ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لِمَنْ عَصاهُ، و خالَفَ أمْرَهُ، على ما عَلِمْتُمْ أنهُ على عِلْمٍ منهُ كانَ جَميعُ ما كانَ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ واعْلَمُوا أيضاً أنَّ ﴿اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِمَنْ تابَ، وأنابَ إليهِ، ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [لأنَّ مِنَ العِقابِ ما لَيسَ بِشَديدٍ، ومنهُ ما هو بِشَديدٍ][9] وخاصَّةً عِقابُ[10] الآخِرَةِ، لا انْقِضاءَ لَهُ، ولا فَناءَ، لذلكَ وَصَفَهُ[11] بالشِّدَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ فيهِ وَجهانِ:

أحَدُهُما: رَدٌّ[12] على مَنْ يقولُ: الموعظَةُ لا تَنفَعُ، ولا تَنْجَعُ فيهِ، إذا لم يَكُنِ الواعِظُ مُسْتَعْمِلاً [لِما يَعِظُ غَيرَهُ][13]؛ إذْ لَيسَ أحَدٌ مِنَ الخَلْقِ أشَدَّ استِعْمالاً مِنَ الرُّسُلِ ﷺ ثم لا تَنفَعُ مَواعِظُهُمْ وذِكْرُهُمْ قَومَهُمْ، ولا تَنْجَعُ فِيهِمْ لِشُؤْمِهِمْ ولِشِدَّةِ تَعَنُّتِهِمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: وأراقة، في م: وإراقة حرماته. (٣) في الأصل وم: يتناول. (٤) في الأصل وم: القضاء. (٥) من م، في الأصل: مامنون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وتغييره. (٨) في الأصل وم: نعته. (٩) في الأصل: لا من العقوبات ما ليس بشديد، في م: لأن العقاب منه ما ليس بشديد. (١٠) في الأصل وم: عقوبة. (١١) في الأصل وم: وصف. (١٢) في الأصل وم: ردا. (١٣) من م، في الأصل: لا يعظ غير.

جنة السنة

والثاني: إنباءٌ أنْ ﴿مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ ولا ضَرَرَ عليهِمْ بتركِ القومِ إجابتَهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ ﴿مَا تُبۡدُونَ﴾ مِنَ العَداوةِ لِمُحمَّدٍ ﷺ ولِأصحابِهِ ونَصْبِ[1] الحرْبِ والقِتالِ معَهُمْ ﴿وما تكتُمونَ﴾ مِنَ المكرِ لَهُ والقَصدِ لِقتلِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] كانوا يَمْكُرُونَهُ، ويَقْصِدونَ قَصْدَ إهلاكِهِ، لكنَّ اللهَ ﷻ أطْلَعَ رسولَهُ على مَكْرِهِمْ، وأخبرَ أنهُ يَعْصِمُهُ مِنَ الناسِ، وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗا﴾ [الآية: ٦٤].

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾ الآية. يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهُما: خَرَجَ عنْ سؤالٍ قد سَبَقَ منْهُمْ عنْ كَثْرَةِ الأموالِ لمّا رَأَوا أُولئكَ كانُوا يَسْتَكْبِرونَ، ويَجْمعونَ مِنْ حَيثُ[2] يَحِلُّ، ولا يَحِلُّ، فَمالَتْ أنفُسُهُمْ إلى ذلكَ، ورَغِبَتْ، فقالَ: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ كأنهُ قالَ: إنَّ القَليلَ مِنَ الطَّيِّبِ خيرٌ مِنَ الكَثيرِ مِنَ الخَبيثِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنهمْ رَغِبوا في عِبادَةِ أُولئكَ مِنَ التَّرَهُّبِ والاعْتِزالِ عنِ الناسِ لِدَفْعِ أذى خُبْثِهِمْ[3] عنهُمْ وكَثْرَةِ ما كانُوا يَتَحمَّلونَ مِنَ الشَّدائدِ والمشَقَّةِ؛ رَغِبُوا[4] في ذلكَ، وهَمُّوا على ذلكَ على ما ذُكِرَ في القصةِ عنْ بَعْضِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُمْ هَمُّوا أنْ يَتَرَهَّبُوا، أو يَعْتَزِلُوا عنِ الناسِ، فقالَ[ﷻ][5]: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ إنَّ العَمَلَ القليلَ مع أصلٍ طَيِّبٍ خيرٌ مِنَ الكثيرِ مع خُبْثِ[6] الأصلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مَخافَةِ أمْرِهِ ونَهْيِهِ ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ فيهِ دلالةٌ أنَّ اللهَ لا يُخاطِبُ أحداً إلا مَنْ كَمُلَ عَقْلُهُ، وتَمَّ. وباللهِ العِصْمَةُ.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ النَّهْيُ عنِ السُّؤالِ عنْ أشياءَ[7]، عنْ أسْئِلَةٍ كانَتْ مِنهُمْ لم تَكُنْ لَهُمْ حاجةٌ إليها، فَنُهُوا عنْ ذلكَ إلى أنْ تَقَعَ لَهُمُ الحاجةُ. فَعِنْدَ ذلكَ يَسألُونَ. كأنَّهُمْ سألوهُ عنِ البَيانِ والإيضاحِ قَبْلَ أنْ يَحتاجوا إليهِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ [ﷻ][8]: ﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾ الآيةَ؟

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ خَرَجَ النَّهْيُ عنِ السُّؤالِ ابْتِداءً على غيرِ تَقَدُّمِ سُؤالٍ كانَ مِنْهُمْ. ولكنْ نُهُوا عنِ السُّؤالِ عنها. ثُمَّ يَحْتَمِلُ بَعْدَ هذا أنْ كانَ على ابْتِداءِ سُؤالٍ كانَ مِنْ أهلِ النِّفاقِ؛ يَسْأَلُونَ سُؤالَ تَعَنُّتٍ لا سُؤالَ اسْتِرشادٍ؛ يَسْألونَ عنْ[9] آياتٍ بَعْدَ ما ظَهَرَتْ لَهُمْ، وثَبَتَتْ عندَهُمُ الحُجَجُ، وعَرَفُوا أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ فإنْ كانَ النَّهْيُ لِلمُؤمنينَ فَهُوَ ما ذَكَرْنا مِنْ سُؤالِ البَيانِ قَبْلَ وُقوعِ الحاجَةِ إليهِ. وقيلَ: نَزَلَتْ في قومٍ سَألُوا رسولَ اللهِ ﷺ [عنِ][10] الحَجِّ، فقالَ رجلٌ: أفي كلِّ عامٍ يا رسولَ اللهِ؟ «[فَرَدَّ عليهِ رسولُ اللهِ][11]: «لو قُلْتُ: نعمْ صارَ مَفْروضاً، فإذا صارَ مَفروضاً تَرَكْتُمْ، وإذا تَرَكْتُمْ جَحَدْتُمْ، وإذا جَحَدْتُمْ كَفَرْتُمْ» [السيوطي في الدر المنثور ج٣/٢٠٦]. لأنَّ مَنْ جَحَدَ فَرْضاً مِمّا فَرَضَهُ اللهُ كَفَرَ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

ولا يَجِبُ أنْ يُفَسَّرَ هذا أنهُ كانَ في كذا؛ إذْ لَيسَ في كتابِ اللهِ بَيانُهُ سِوَى أنَّ فيهِ النَّهْيَ عنْ سُؤالِ ما لا يُحتاجُ إليهِ. وعَنِ ابْنِ عبّاسٍ ﷺ [أنه][12] قالَ: لا تَسألُوا عنْ أشياءَ، قد عَفَا اللهُ عنها. ﴿إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ إنْ[13] تُظْهَرْ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ إنْ[14] أُمِرْتُمُ العَمَلَ بها، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ النَّهْيَ عنِ السُّؤالِ في

---

(١) في الأصل وم: وينصب. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: أنفسهم. (٤) في الأصل وم: فرغبوا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: خبيث. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: خرج. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: منه. (١٠) و(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) و (١٣) و (١٤) في الأصل وم: أي.

جنة السنة

الآيِ لأحدِ شيئَينِ: إمّا أنْ يَسْألُوا [عنِ الآياتِ][1] بعدَ ما ظَهَرتْ، وثَبَتتْ[2] لهمْ رسالَتُهُ. فلمّا أتى بها كَفَرُوا بِها. ألا تَرى أنهُ قالَ تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ وقد كانَ الأمَمُ السالِفَةُ يَسْألونَ مِنَ الرُّسُلِ، عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، الآياتِ بَعْدَ ظُهورِها عندَهُمْ؟.

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ قولِهِمْ: أينَ نَحْنُ؟ ومَنْ أبي؟ ومَنْ أنا؟ ونَحْوه. فلمّا أنْ أخْبَرَهُمْ بذلكَ كَفَرُوا بهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ أي ما جَعَلَ الله قُرْباناً مِمّا جَعَلُوا هُمْ لأنهُم كانُوا يَجْعَلُونَ ما ذَكَرَ مِنَ البَحِيرَةِ والسائبَةِ وما ذَكَرَ قُرْباناً يَتَقرَّبونَ بذلكَ إلى الأصنامِ والأوثانِ التي كانُوا يَعْبُدُونَها دونَ اللهِ، فقالَ: ما جَعَلَ اللهُ مِنْ ذلكَ شَيئاً مِمّا جَعَلْتُمْ أنتُمْ مِنَ البَحِيرةِ والسائبَةِ.

فقولُهُ تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ﴾ وما ذَكَرَ أي ما أمَرَ بذلكَ، ولا أذِنَ بها. قِيلَ: حَرَّمَ أهْلُ الجاهِلِيَّةِ هذِهِ الأشياءَ؛ مِنْها ما حَرَّمُوهُ على نِسائِهِمْ/ ١٤١ ـ أ/ دُونَ رجالِهِمْ، ومِنْها ما حَرَّمُوهُ على الرِّجالِ والنِّساءِ، ومِنْها ما جَعَلُوهُ لآلِهَتِهِمْ بِهِ.

ثم قيلَ: البَحِيرَةُ: ما كانُوا يَجْدَعونَ آذانَها، ويَدَعُونَها لآلِهَتِهِمْ. والسائِبَةُ: ما كانُوا يُسَيِّبُونَها. والوَصِيلَةُ: ما كانَتِ النّاقَةُ إذا وَلَدَتْ ذَكَراً أو أُنْثى في بَطْنٍ قالُوا وصلَتْ أخاها، فلم يَذْبَحُوها، وتَرَكُوها[3] لآلهتِهِمْ.

قالَ أبو عُبَيْدَةَ: البَحِيرَةُ إذا نُتِجَتْ خَمْسَةَ أبْطُنٍ قُطِعَتْ آذانُها، وتُرِكَتْ. والسائِبَةُ إذا وَلَدَتْ خَمْسَةَ أبْطُنٍ سُيِّبَتْ، فلا تُرَدُّ عنْ حَوضٍ ولا عَلَفٍ. والوَصِيلَةُ مِنَ الغَنَمِ إذا وَلَدَتْ عَناقَينِ تُرِكا، وإذا وَلَدَتْ عَناقاً وجَدْياً قالُوا: وَصَلَتِ العَناقُ الجَدْيَ، وتُرِكا، وإذا نُتِجَتْ [ذكراً][4] ذُبِحَ، والحَامِي إذا نُظِرَ إلى عَشَرَةٍ مِنْ وَلَدِه قيلَ: حُمِيَ ظَهْرُهُ، فلا يُرْكَبُ، ولا يُحْمَلُ عليه شَيْءٌ.

وقالَ مُجاهِدٌ: ﴿وَلَا حَامٍ﴾ إذا ضَرَبَ [الفَحْلُ عَشْراً تركوه][5] فهو الحامي، والحامي اسْمٌ. والسائِبَةُ مِنَ الغَنَمِ على نَحْوِ ذلكَ، إلّا أنّها [ما][6] وَلَدَتْ مِنْ وَلَدٍ بَيِّنِها[7] سِتَّةَ أولادٍ كانَتْ على هَيْئَتِها، فإذا وَلَدَتِ السابِعَ ذَكَراً أو ذَكَرَينِ، نُحِرَ، فأكَلَهُ رِجالُهُمْ دونَ نِسائِهِمْ. وإنْ أتْأمَتْ بِذَكَرٍ أو أُنْثى فَهِيَ[8] وَصِيلَةٌ؛ يُتْرَكُ ذَبْحُ الذَّكَرِ بالأُنْثى. وإنْ كانَتا اثْنَتَينِ تُرِكَتا.

وقالَ القُتَبِيُّ: البَحِيرةُ الناقَةُ إذا نُتِجَتْ خَمْسَةَ أبْطُنٍ، والخامِسُ ذَكَرٌ، نُحِرَ، فأكَلَهُ الرِّجالُ والنِّساءُ. وإنْ كانَ الخامِسُ أُنْثى شَقُّوا أُذُنَها، وكانَ حَراماً على النِّساءِ لَحْمُها ولَبَنُها. فإذا ماتَتْ حَلَّتْ لِلنِّساءِ. والسائِبَةُ البَعِيرُ يُسَيَّبُ بِنَذْرٍ يكونُ على الرجلِ إنْ سَلَّمَهُ اللهُ مِنْ مَرضِهِ، أو بَلَّغَهُ مَنْزِلَهُ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ.

والوَصِيلَةُ مِنَ الغَنَمِ: كانوا إذا وَلَدَتِ الشاةُ سَبْعَةَ أبْطُنٍ نَظَرُوا، فإنْ كانَ السابِعُ ذَكَراً، ذُبِحَ، فأكَلَ منهُ الرجالُ والنساءُ، وإنْ كانَ[9] أُنْثى تُرِكَتْ في الغَنَمِ، وإنْ [أتْأمَتْ ذَكَراً أو أنثى][10] قالُوا: وَصَلَتْ أخاها فلم يُذْبَحْ لِمكانِها، وكانَتْ[11] لُحومُها حراماً على النساءِ، ولَيسَتِ[12] الأنثى حَراماً على النِّساءِ إلّا أنْ يَمُوتَ مِنْهُما شَيْءٌ، فيأكُلُهُ الرِّجالُ والنساءُ.

والحامي الفَحْلُ إذا رُكِبَ وَلَدُ وَلَدِهِ، ويُقالُ: إذا نُتِجَ مِنْ صُلْبِهِ عَشَرَةُ أبْطُنٍ قالُوا: حُمِيَ ظَهْرُهُ، ولا يُرْكَبُ، ولا يُمْنَعُ مِنْ كَلَإٍ ولا ماءٍ.

كانُوا يُحَرِّمُونَ الانْتِفاعَ بما ذَكَرْنا، ويَقُولونَ: إنَّ اللهَ حَرَّمَ ذلكَ علَينا. وهو ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخْرَى: قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ الآية [الأنعام: ١٣٦] يُحَرِّمُونَ أشياءَ على أنْفُسِهِمْ، ويُضِيفُونَ تَحْرِيمَها إلى اللهِ.

ثم سَفَّهَ أحلامَهُمْ بقولِهِ تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا

---

(١) في الأصل وم: الآيات عنه. (٢) في الأصل وم: وثبت. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الحمل من ولد البحير. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ادرج بعدها في الأصل وم: وبين. (٨) في الأصل وم: فهو. (٩) في الأصل وم: كانت. (١٠) في الأصل وم: ذكراً. (١١) في الأصل وم: وكان. (١٢) في الأصل وم: ليس.

جنة السنة

﴿ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] لم يكُنْ تَحريمُهُمْ هذِهِ الأشياءَ بالسَّمعِ، ولكنْ رياءً مِنْهُمْ وتَنجُّؤٌ. واحتجَّ اللهُ عليهِمْ على ذلكَ الوجْهِ لِيُظهِرَ فَسادَ قولِهِمْ مِنَ الوجْهِ الذي ادَّعَوا، فقالَ: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فإنْ قالُوا: الذَّكَرَينِ فقد كانَ مِنَ الذَّكَرِ ما لم يُحَرَّمْ. فإنْ قالوا: أُنثَى فقد كانَ مِنَ الأُنثى لم[1] يكُنْ فيها تَحريمٌ. ففيهِ دليلٌ أنَّ الحُكْمَ إذا كانَ بِعِلَّةٍ يَجِبُ وُجوبُ ذلكَ الحُكْمِ ما كانَتْ تلكَ العِلَّةُ قائِمَةً، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ الآيةَ كأنَّها نَزَلَتْ في مُشْركي العَرَبِ، وكانُوا أهلَ تَقْليدٍ لا يُؤمِنُونَ بالرُّسُلِ، ولا يُقِرُّونَ بِهِمْ، إنما يُقَلِّدُونَ آباءَهُمْ في عبادةِ الأوثانِ والأصْنامِ. فإذا ما دَعاهُمْ رسُولُ اللهِ ﷺ إلى ما أنزَلَ اللهُ إليهِ، أو دَعاهُمْ أحدٌ إلى ذلكَ ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [الآية: ١٠٤]، [وقالُوا][2]: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] ونَحْوَ ذلكَ؛ يُقَلِّدُونَ آباءَهُمْ في ذلكَ.

فقالَ اللهُ ﷻ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي تَتْبَعُونَ آباءَكُمْ، وتَقْتَدُونَ بِهِمْ، وإنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أنَّ آباءَكُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيئاً في أمْرِ الدِّينِ، ولا يَهْتَدُونَ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤] تَتْبَعُونَ آباءَكُمْ، وتَقْتَدُونَ بِهِمْ، وإنْ جِئْتُكُمْ بأهْدَى مِمّا كانَ عليهِ آباؤُكُمْ؛ يُسَفِّهُهُمْ في أحْلامِهِمْ في تَقْليدِهِمْ آباءَهُمْ، وإنْ ظَهَرَ عندَهُمْ أنَّهُمْ على ضَلالٍ وباطلٍ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ ظَنَّ بَعْضُ النّاسِ أنَّ الآيةَ دَفَعَتِ الأمْرَ بالمَعْروفِ والنَّهْيَ عنِ المُنْكَرِ والسَّعْيَ[3] في تَرْكِ ذلكَ. ولَيسَ فيهِ دَفْعُ الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ. ولكنْ إنباءٌ أنْ لَيسَ عَلَينا في ما يُرَدُّ، ولا يُقْبَلُ مِنَ الأمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ شَيءٌ، وهو كَقَولِهِ[4] تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ الآيةَ [النور: ٥٤] لَيسَ فيهِ رُخصَةُ تركِ تَبليغِ الرِّسالةِ إليهِمْ ودَفْعِها عنهُمْ. ولكنْ إخبارٌ أنْ لَيسَ عليهِ في ما يُرَدُّ وتَرْكِ القَبولِ شَيءٌ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨] فَعلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعْلَمُ.

ويُحتَمَلُ أنْ تكونَ [الآيةُ ليس فيها][5] رُخصَةُ دليلِ الأمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ لأنهُ قالَ: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ بِتَرْكِ قَبولِ الأمرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ أنْتُمْ بالأمْرِ [بالمَعْرُوفِ][6] والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ. بلِ الأمْرُ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عنِ المُنْكَرِ واجِبٌ. وبذلكَ وصفَ اللهُ تعالى هذِهِ الأمَّةَ بقولِهِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وعَنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: «مَنْ لم يَرْحَمْ صَغيرَنا، ولم يُوَقِّرْ كَبيرَنا، ولم يَأمُرْ بالمَعروفِ، ولم يَنْهَ عنِ المُنْكَرِ فَلَيسَ مِنّا» [أبو داوود ٤٩٤٣] وعَنْ عائِشَةَ ﵂ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عليَّ، وقد حَضَرَهُ النَّفَسُ، فَتَوَضّأ، ثم خَرَجَ إلى المَسْجِدِ، فَقُمْتُ مِنْ وراءِ الحِجابِ، فَصَعِدَ المِنْبَرَ، ثم قالَ: «أيُّها النّاسُ إنَّ اللهَ يَقولُ: مُرُوا بالمَعْرُوفِ وانْهَوا عنِ المُنْكَرِ قَبْلَ أنْ تَدْعُوني فلا أُجيبُكُمْ، وتَسْألُوني فلا أُعطِيكُمْ، وتَسْتَغيثُوني فلا أُغيثُكُمْ، وتَسْتَنْصِرُوني فلا أنصُرُكُمْ» [أحمد: ٦/ ١٥٩].

وعنْ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﵁ [أنهُ][8] قالَ: «يا أيُّها النّاسُ إنكُمْ تَقرَؤُونَ هذهِ الآيةَ، وإني سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ النّاسَ إذا رَأَوا مُنْكَراً فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ يُوشِكُ أنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقابِهِ»» [ابن ماجة ٤٠٠٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾ الآية [الآية: ٦٢] ثم الأمرُ بالمَعْروفِ والنَّهْيُ عنِ المُنْكَرِ على مَراتِبَ مَعَ الكَفَرَةِ بالقتالِ والحَرْبِ ومَعَ المُؤمِنينَ باليَدِ واللِّسانِ.

---

(١) في الأصل وم: وليس. (٢) في الأصل وم: ولم. (٣) في الأصل وم: السعة. (٤) في الأصل وم: قوله. (٥) في الأصل وم: في الآية ليس فيه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الأمرُ بالمَعْروفِ والنَّهْيُ عنِ المُنْكرِ واجِبٌ فَرْضٌ ما لَمْ يَدْخلْ في ذلكَ فسادٌ، ويَصيرُ الأمْرُ بهِ والنَّهْيُ عنهُ مُنْكراً. فإذا خَشوا ذلكَ يُرَخّصُ لَهُمُ التّرْكُ، وإلّا.

رُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ ﷺ [أنهُ][١] قالَ: قُولُوها ما لم يكُنْ دُونَها السَّيْفُ والسَّوْطُ. فإذا كانَ دُونَها السَّيْفُ والسَّوْطُ فَعلَيكُمْ أنْفُسَكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الذي يَأمُرُ بالمَعْروفِ ويَنْهى عنِ المُنْكَرِ، والذي يَرِدُ عنهُ الأمرُ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عنِ المُنْكرِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ خَرجَ على الوَعيدِ والتَّحْذيرِ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ الآيةَ. اخْتُلِفَ فيهِ:

عنْ قَتادَةَ [أنهُ][٢] قالَ: رجلٌ ماتَ بِقَرْيَةٍ مِنَ الأرضِ، وتَرَكَ تَرِكَةً، وأوصَى وَصِيَّةً، وأشْهدَ على وَصِيَّتِهِ رجُلَينِ [قالَ: إنّهُما][٣] في شهادَتِهِما اسْتُحْلِفَا بَعْدَ صلاةِ العَصْرِ. وكانَ يُقالُ: عندَها تَصيرُ الأيمانُ. فإنْ عُثِرَ أي أُطْلِعَ مِنْهُما على خِيانةٍ على أنّهُما كَتَمَا، أو كَذَبا، وشَهِدَ رجلانِ أعْدَلُ مِنْهُما بخِلافِ [ما][٤] قالا أُجيزَتْ شَهادَتُهُما، وأُبطِلَتْ/ ١٤١ - ب/ شَهادَةُ الأوَّلَيْنِ. ﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ مِنَ المُسْلِمينَ ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ مِنْ أهلِ الكتابِ؛ إذا كانَ بِبَلَدٍ لا يَجِدُ إلّا هؤلاءِ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][٥] قالَ: ﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي مِنْ عَشِيرَتِكُمْ ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ﴾ غيرِ عَشِيرَتِكُمْ، فنقولُ: إنَّ الحَقَّ على المُسْلِمِ إذا أرادَ أنْ يُوصِيَ أنْ يُسْنِدَ الوصايَةَ إلى أحدِ عَشيرَتِهِ، وكذلكَ أنْ يُشْهِدَ على ذلكَ مِنْ أهلِ عَشيرَتِهِ لأنَّ أهلَ عَشيرَتِهِ أحْفَظُ لِذلكَ وأحْوَطُ وأكثَرُ عِنايةً ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. ولا كذلكَ الأجْنَبِيّانِ.

فإنْ [قالَ][٦] قائلٌ: خاطبَ اللهُ ﷻ المؤمنينَ جُمْلَةً بِقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآيةَ فكيفَ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ مِنْ غيرِ دينِكُمْ؟ فنقولُ: سُبْحانَ اللهِ ما أعْظَمَ هذا القولَ: يَرُدُّ شَهادَةَ مُوَحِّدٍ مُخْلِصٍ دينَهُ للهِ لِفِسْقٍ يَرْتَكِبُهُ، ويأمُرُ بِقولِ شهادَةِ كافِرٍ كاذِبٍ قائلٍ للهِ بالوَلَدِ والشَّريكِ! هذا مِمّا لا يُحْتَمَلُ. وقالَ أيضاً: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وهُمْ كانُوا يَسْتَهْزِئونَ بالصلاةِ إذا نُودِيَ لَها بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [الآية: ٥٨] دلَّ أنهُ لا يُحْتَمَلُ ما ذَكَرُوا.

وعنْ سَعيدِ بْنِ جُبَيرٍ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [أنهُ][٧] قالَ: إذا حَضَرَ المُسْلِمَ المَوتُ في السَّفَرِ، فلم يَجِدْ مُسْلِمَيْنِ، فأوْصَى إلى أهلِ الكتابِ، فإنْ جاؤوا بِتَرِكَتِهِ، فاتُّهِمُوا، حَلَفَ هؤلاءِ أنَّ مَتاعَهُ كذا وكذا، وأخَذوهُ. وبَعْضُ الناسِ يُجيزونَ شهادَةَ النَّصارَى واليَهُودِ في السَّفَرِ في الوَصِيَّةِ بِظاهِرِ الآيَةِ.

وقالَ مُجاهِدٌ: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ مِنْ غيرِ مِلَّتِكُمْ. وعَنْ عامِرٍ الشَّعْبِيِّ [أنهُ][٨] قالَ: شَهِدَ نَصْرانِيّانِ على وَصِيَّةِ مُسْلِمٍ ماتَ عندَهُمْ، فَارْتابَ أهلُ الوَصِيَّةِ، فأتَوا بِهِما إلى أبي مُوسَى الأشْعَرِيِّ، فاسْتَحْلَفَهُما بَعْدَ صلاةِ العَصْرِ باللهِ: ما اشْتَرَيْنا[٩] بِهِ ثَمَناً قليلاً، ولا كَتَمْنا[١٠] شهادَةَ اللهِ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾. ثم قالَ أبو مُوسَى الأشْعَرِيُّ: واللهِ إنَّ هذهِ القِصَّةَ ما قُضِيَ بها مُنْذُ ماتَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى اليومِ.

قد بَيَّنَ الشَّعْبِيُّ أنَّ أبا مُوسَى إنما اسْتَحْلَفَهُما في ما اتَّهَمَهُما بِهِ من تَرِكَةِ[١١] المَيتِ. وهذِهِ يَمينٌ واجِبَةٌ عندَ المُسْلِمِينَ جَميعاً، ولم يُحَلِّفْهُما على أنَّ ما شَهِدا بِهِ كما شَهِدَا بِهِ كما زَعَمَ قومٌ أنَّ شَهادَتَهُما تَصِحُّ بِيَمينِهِما.

وعَنْ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ ﷺ [أنهُ][١٢] قالَ: خَرَجَ رجلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَمَرَّ بِقَرْيَةٍ، ومَعَهُ رجلانِ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَدَفَعَ إليهِما مالَهُ، ثم قالَ: ادْعُوَا إليَّ مَنْ أُشْهِدُ على ما قَبَضْتُما، فلَمْ يَجِدا[١٣] أحداً مِنَ المُسْلِمِينَ في تِلْكَ القَرْيَةِ، فَدَعَوَا ناساً

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: فان اتمها. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: اشتريتما. (١٠) في الأصل وم: كتما. (١١) في الأصل وم: تركته. (١٢) ساقطة في الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يجدوا.

جنة السنة

مِنَ اليَهُودِ والنَّصارَى، وأشْهَدَهُمْ على ما دَفَعَ إليهما. ثم إنَّ المُسْلِمَيْنِ قَدِما إلى أهلِهِ، فَدَفَعا مالَهُ إلى أهلِهِ. فقالَ الوَرَثَةُ: لقد كانَ مَعَهُ مِنَ المالِ أكثَرُ ممّا أتَيْتُما، فاسْتَحْلَفُوهُما باللهِ: ما دَفَعَ إليهِما غَيْرَ هذا؟ ثم قَدِمَ ناسٌ مِنَ اليَهُودِ والنَّصارَى، فَسَألَهُمْ أهلُ المَيتِ، فأخْبَرُوهُمْ أنهُ هَلَكَ بِقَرْيَتِهِمْ [رجلٌ][1] وتَرَكَ كذا وكذا مِنَ المالِ، فَعَلِمَ أهلُ المُتَوَفَّى أنْ قد عَثَرُوا على أنَّ المُسْلِمَيْنِ قدِ اسْتَحَقّا إثْماً، فانطَلَقُوا إلى ابْنِ مَسْعُودٍ، فأخْبَرُوهُ بالذي كانَ مِنْ أمْرِهِمْ، فقالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: ما مِنْ كتابِ اللهِ مِنْ شَيءٍ إلّا قد جاءَ على الدَّلالَةِ إلّا هذهِ الآيةُ، فالآنَ جاءَ تأويلُها، فأمَرَ المُسْلِمَيْنِ أنْ يَحْلِفا باللهِ ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾.

ثم أمَرَ اليهودَ والنَّصارَى أنْ يَحْلِفُوا باللهِ: لَقد تَرَكَ مِنَ المالِ كذا وكذا، ولَشَهادَتُنا أحَقُّ مِنْ شَهادَةِ هذينِ المُسْلِمَيْنِ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثم أمَرَ أهلَ المَيتِ أنْ يَحْلِفُوا باللهِ: أنْ كانَ ما شَهِدَتْ بهِ اليَهودُ والنَّصارَى حَقاً[2]، فَحَلَفُوا، فأمَرَهُمُ ابْنُ مَسْعودٍ [أنْ][3] يأخُذُوا مِنَ المُسْلِمَيْنِ ما شَهِدَتْ بِهِ اليهودُ والنَّصارَى. وكانَ ذلكَ في خِلافَةِ عثمانَ بْنِ عَفّانَ.

فإنْ ثَبَتَ هذا عنِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ فَهُوَ خِلافُ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لو يُعْطَى النّاسُ بِدَعْواهُمْ لادَّعَى قَوْمٌ دِماءَ قَوْمٍ وأموالَهُمْ. [ولكنَّ اليمينَ على المُدَّعَى عليه» [مسلم ١٧١١] وقالَ: «البَيِّنَةُ][4] على المُدَّعِي واليَمِينُ على المُدَّعَى عليه» [الترمذي: ١٣٤١] وهو أيضاً غَيرُ موافِقٍ لِظاهِرِ الآيةِ، فلا نَراهُ.

ثَبَتَ هذا عن عبدِ الله بْنِ مَسْعودٍ ﷺ قالَ: كانَ تَميمٌ الداريُّ وعَدِيُّ بْنُ بَداءٍ يَخْتَلِفانِ إلى مَكَّةَ في التِّجارَةِ، فَخَرَجَ رجلٌ مِنْ بَني سَهْمٍ، فَتُوُفِّيَ بأرضٍ، ليسَ فيها مُسْلِمٌ، فأوْصَى إليهما، فَدَفَعا تَرِكَتَهُ إلى أهلِهِ، وحَبَسا جاماً مِنْ فِضَّةٍ، فاسْتَحْلَفَهُما رسولُ اللهِ ﷺ ما كَتَمْتُما، ولا أطْلَعْتُما. ثم عَرَضَ [رجلان][5] الجامَ بمكةَ، فقالا: اشْتَرَيْناهُ مِنْ عَدِيٍّ وتَميمٍ، فقامَ رجلانِ مِنْ أولياءِ السَّهْمِيِّ [فقالا][6]: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ فأخذا الجامَ. وفيهِمْ نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ.

وفي الحديثِ أنَّ اليَمِينَ وَجَبَتْ على المُدَّعَى عليهما لَمّا ادَّعَى عليهِمُ الوَرَثَةُ أنَّهما تَرَكا بَعْضَ تَرِكَةِ المَيتِ، وفيهِ أنَّ الإناءَ لَمّا ظَهَرَ ادَّعاهُ[7] تَميمٌ وصاحِبُهُ، وهذانِ حُكْمانِ مُوافِقانِ لِسائِرِ الأحكامِ والسُّنَنِ. فإنْ كانَ الأمْرُ كما ذُكِرَ في هذا فَلَيسَ في الآيةِ نَسْخٌ، ولا فيها ما يُخالِفُ الأحكامَ الظاهِرَةَ. وليسَ يَجوزُ عندَنا أنْ يَحْلِفَ الشاهِدانِ إنْ كانا كافِرَيْنِ مَعَ شَهادَتِهِما لأنَّ ظاهِرَ الآيةِ نُسِخَ، ولا فيها أحكامٌ تُوجِبُ اليَمينَ على العَدْلَيْنِ مِنّا ومِنْ غَيرِنا.

فلمّا لم يَجُزْ أنْ يُحَلَّفَ الشُّهودُ المُسْلِمِينَ على الوَصِيَّةِ التي يَشْهَدُونَ لَها، وإنما يُحَلَّفُونَ على شيءٍ إنِ [ادُّعِيَ أنهما حَبَساهُ][8]، كانَ سَبيلُ الكَفّارَةِ كذلكَ.

وإذا كانَتِ الآيةُ نَزَلَتْ في قصةِ تَميمٍ وصاحِبِهِ، وكانا نَصْرانِيَّيْنِ، فإنَّ ذلكَ يدلُّ على أنَّ شهادةَ بَعْضِهِمْ على بَعْضٍ جائزةٌ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ فَمَعْنَى الآيةِ على هذا التأويلِ، واللهُ أعْلَمُ، أنْ يكونَ المَيتُ خَلَّفَ تَرِكَتَهُ عندَ ذِمِّيَّيْنِ على ما ذُكِرَ في القِصَّةِ، وقالا: تَرَكَ في أيدينا كذا وكذا، وادَّعَى الوَرَثَةُ أكثَرَ مِنْ ذلكَ، واسْتُحْلِفَ المُدَّعَى عليهما قِبَلَهُمْ، وقولُهُ: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ على هذا التأويلِ هما[9] المُدَّعَى عليهما.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ يُريدُ، واللهُ أعْلَمُ، أنْ يَشْهَدَ عليهما شاهِدانِ مِنّا أو مِنْهُمْ بِشَيءٍ جَحَداهُ أنهُ مِنْ تَرِكَةِ المَيتِ، فهذا اسْتِحْقاقُ الوَرَثَةِ. فإذا قالَ المُدَّعِي قِبَلَهُما: اشْتَرَيْناهُ مِنَ المَيتِ فَعَلَى الوَرَثَةِ أنْ يَحْلِفُوا. فهذا، واللهُ أعْلَمُ، مَعْنَى قولِهِ: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ لأنَّ الوَرَثَةَ صارُوا مُدَّعًى عليهِمْ، فَقامُوا في هذهِ الحالِ في وُجُوبِ اليمينِ عليهِمْ مَقامَ الأوَّلِينَ لَمّا كانَتِ الدَّعْوَى عليهِمْ.

فهذا، واللهُ أعْلَمُ، أقْرَبُ الوُجوهِ في تأويلِ الآيةِ وأشْبَهُها؛ وهو، إنْ شاءَ اللهُ، مَعْنَى ما رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ وإنْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حق. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: لكن البينة. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ادعى. (٨) في الأصل وم: ادعوا أنهم حبسوه. (٩) في الأصل وم: هو.

جنة السنة

لم يَذكُرْ تفسيرَ قولِهِ: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ وهو، واللهُ أعْلَمُ، على غيرِ دِينِنا لأنهُ ذَكَرَ المؤمنِينَ جُمْلَةً. وأصحابُنا لا يُجيزونَ شهادةَ أهلِ الكُفرِ في الوَصِيَّةِ لِمُسْلِمٍ لا في ضَرُورةٍ ولا في غَيرِها لأنَّهُمْ على اخْتلافِهِمْ اتَّفَقُوا في أنَّ شَهادةَ الكُفّارِ لا تَجوزُ على غَيرِ الوَصِيَّةِ في حالِ ضَرُورةٍ ولا في غيرِها. فَشهادَتُهُمْ في الوصِيَّةِ على المُسْلِمِينَ مِثْلُ ذلكَ.

وأمْكَنَ أنْ يكونَ تأويلُ الآيةِ: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ في بَيانِ ما يُجوِّزُ شهادَةَ ذَوِي العَدْلِ منّا في الحَضَرِ والسَّفرِ في الوصِيَّةِ وفي غَيرِ الوَصِيَّةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] وقولِهِ تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا/ ١٤٢ ـ أ/ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٢] هذا في السَّفَرِ والحَضَرِ في الدَّينِ وغَيرِ الدَّينِ سَواءٌ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

ثم ابْتَدَأَ الحُكْمُ في غَيرِهِ، فَقالَ تعالى: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

الآية ١٠٨ فإنْ قيلَ: فَما مَعْنى قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾؟ قيلَ: في ذلكَ بيانُ أنَّ المؤمِنَ إذا ادُّعِيَتْ عليهِ الخِيانَةُ، وقالَ هو: ما رَدَدْتُ ما كانَ في يَدي فإنهُ لا يُصَدَّقُ إلّا بَعْدَ أنْ يَحْلِفَ. فإذا عَلِمَ أنهُ لا يُقْبَلُ قولُهُ إلّا بِيَمينٍ كانَ أحْرَى أنْ يَقولَ حَذِراً مِنْ أنْ يَحْلِفَ على كَذِبٍ، أو يُقِرَّ خَوفاً مِنَ الإثمِ في اليَمينِ، فَتَتَبَيَّنُ خِيانَتُهُ.

فإنْ قيلَ: ما مَعْنَى قولِهِ: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾؟ قيلَ: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على زيادَةِ التَّغْليظِ في اليَمينِ. ولِلْحاكِمِ أنْ يُغَلِّظَ في اليَمينِ على الخَصْمِ إذا اتَّهَمَهُ بأكْثَرَ مِنْ هذا، وهو أنْ يَحْضُرَ يَمينَهُ جماعةٌ، إذا سأَلَ الخَصْمُ ذلكَ، أو ذَكَرَ بَعْدَ الصلاةِ لِما كانَ ذلكَ الوقتُ هو وَقْتٌ لِجُلُوسِ الحاكِمِ بَعْدَ صلاةِ الفَجْرِ أو بَعْدَ صلاةِ العَصْرِ على التَّغْليظِ.

وإنْ كانَتِ الآيةُ نَزَلَتْ في ما ذَكَرَ ابْنُ عباسٍ ﷺ في نَصْرانِيَّيْنِ فقد يَجوزُ أنْ يكونَ اللهُ أمَرَ بذلكَ تَغْليظاً عليهِما، وهُما تَميمٌ وصاحِبُهُ، إذْ كانُوا يُعَظِّمُونَ وقتَ غُروبِ الشَّمْسِ وما قَرُبَ مِنْ ذلكَ وَوَقْتَ طُلُوعِها لأنهُ وقتُ عِبادَتِهِمْ إيّاها، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: فإنِ اطُّلِعَ مِنهما على خيانَةِ أنهما كَتَما، وكَذَبا، فجاءَ آخَرانِ يَشْهَدانِ على غَيرِ ما شَهِدا عليهِ، أُجيزَتْ شَهادةُ الآخَرينِ، وأُبْطِلَتْ شَهادةُ الأوَّلَينِ.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ أي ظَهَرَ، وقالَ أبو عَوسَجَةَ: قولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ أي عُلِمَ واطُّلِعَ عليهِ؛ يُقالُ: عَثَرْتُ على فلانٍ وعلى ما يَفْعَلُ فلانٌ؛ أي عَلِمْتُ بِهِ، واطَّلَعْتُ عليهِ، أعْثُرُ عَثْراً. وكذلكَ: ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في سورةِ الكهفِ [الآية: ٢١] مِنْ هذا؛ أي أطْلَعْنا عليهِمْ، وأعْلَمْناهُمْ بِمَكانِهِمْ. ويُقالُ: أعْثَرْتُ فلاناً على سِرِّ فلانٍ أي أعْلَمْتُهُ.

ثم وَعَظَ اللهُ المؤمِنِينَ، وحَذَّرَهُمْ أنْ يَفْعَلُوا مِثْلَ ذلكَ، فَقالَ: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا﴾ مَواعِظَهُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ماداموا في فِسْقِهِمْ، أو قالَ ذلكَ لِقَومٍ عَلِمَ اللهُ مِنْهُمْ أنهُمْ لا يَرْجِعُونَ عن ذلكَ أبداً.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ دَلَّ أنهُ لا لِما ذَكَرُوا، ولكنْ لِلْوَجْهَينِ. قالَ أهلُ التَّأويلِ: بلْ إنما يَقولُونَ ذلكَ لِفَزَعِهِمْ مِنْ هَوْلِ ذلكَ اليومِ وشِدَّتِهِ تَطيرُ قُلُوبُهُمْ، وتَذهَلُ أفْئِدَتُهُمْ، فَيَقُولُونَ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

فَلَو كانَ ذلكَ مِنْهُمْ لِلْهَولِ والفَزَعِ على ما قالَهُ أهلُ التَّأويلِ لَكانَ لا تَتَهَيّأ لَهُمُ الإجابَةُ، وقد قالُوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ دلَّ أنهُ لا لِما[1] ذَكَرُوا، ولكنْ لِلْوَجْهَينِ الآخَرَينِ، واللهُ أعْلَمُ:

أحدُهُما: أنْ سَألَهُمْ عن حَقيقَةِ إجابَةِ قَومِهِمْ لَهُمْ بالضَّمائِرِ؛ أي لَمْ تُطْلِعْنا على عِلْمِ الضَّمائِرِ والغُيُوبِ، فأنتَ أعْلَمُ بذلكَ.

---

(١) من م، في الأصل: لأنه.

والثاني: أنْ أحدَثوا أموراً، وأبدَعوها(١) من ذاتِ أنفُسِهِمْ، فَنَسَبُوا ذلكَ إلى الرُّسُلِ كقولِهِ تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ إلى قولِهِ ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ [الآيتين: ١١٦و١١٧] كأنَّهُمْ قالوا: إنَّ عيسى [صَلَواتُ اللهِ على نبيِّنا وعليهِ السلامُ](٢) هو الذي دَعاهُمْ إلى ذلكَ، فَيَقولُ لَهُمْ: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ﴾ فَقالوا ﴿لَا عِلْمَ لَنَآۖ﴾ في ما ادَّعَوا علينا مِنَ الأمورِ التي أتَوها ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ بأنا لم نَقُلْ لهُمْ، ولم نَدْعُهُمْ إلى ما ادَّعَوا مِنَ الأمورِ.

على هذينِ الوجهَينِ يَخرُجُ تأويلُ الآيةِ، واللهُ أعلَمُ. ومِثْلُ هذا السُّؤالِ لَهُمْ بما أخبَرَ في آيةٍ أُخرى أنهُ يَسألُهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] يَسألُ الرُّسُلَ عن تَبليغِ الرسالةِ إلى قومِهِمْ، ويَسألُ قومَهُمْ عن إجابَتِهِمْ لَهُمْ لِيَقطَعَ احتِجاجَهُمْ، وإنْ لم يَكُنْ أمْرُ الحِجاجِ.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ أمّا نِعَمُهُ عليهِ فما(٣) ذَكَرَ على إثرِهِ ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ﴾. وقولُهُ(٤): ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ الآيةَ [مريم: ٣٠و٣١]. شَهِدَ في حالِ طُفولَتِهِ بِوَحدانيَّةِ اللهِ تعالى ورُبوبيَّتِهِ وإخلاصِ عُبوديَّتِهِ لهُ؛ وذلكَ مِنْ أعظَمِ نِعَمِ اللهِ عليهِ وأجَلِّ مِنَنِهِ. وما ذَكَرَهُ أيضاً: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ الآيةَ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ مِنْ إحياءِ المَوتى وإبراءِ الأكمَهِ والأبرَصِ وكَفِّ(٥) بني إسرائيلَ عنهُ عندَ مَجيءِ الآياتِ، وهو كَقولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [الآية: ٦٧]؛ ففيهِ أعظَمُ النِّعَمِ عليهِ. وما ذُكِرَ أيضاً في بَعْضِ القِصَّةِ، إنْ ثَبَتَتْ، أنَّ عِيسَى لَمّا دَفَعَ [المُعَلِّمُ إليهِ الكِتابَ جَعَلَ](٦) يقولُ لهُ: بِسْمِ، فَيَقولُ هو: بِسْمِ اللهِ، [فإذا قالَ](٧) المعلمُ: بسْمِ اللهِ فيقولُ هو: الرحمنِ، وإذا قالَ: الرحمنِ فيقولُ هو: الرحيمِ، فَيَقولُ المُعَلِّمُ: كيفَ أُعلِّمُ مَنْ هو [أعلَمُ](٨) مني. ونحوُ هذا كثيرٌ مِمّا يَكثُرُ، ويَطولُ ذِكرُهُ(٩).

وأمّا ما أنعَمَ اللهُ على والدتِهِ فهو(١٠) ما ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ﴾ الآية [آل عمران: ٣٧] وما ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] طَهَّرَها مِنْ(١١) جميعِ ما ابْتُلِيَ بِهِ بَناتُ آدمَ؛ فذلكَ مِنْ أعظَمِ النِّعَمِ وأجَلِّ المِنَنِ.

ثم أمَرَ عِيسَى بِشُكْرِ ما أنعَمَ عليهِ وعلى والدتِهِ حِينَ(١٢) قالَ: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ وفي ذِكْرِ النِّعَمِ شُكْرُها. وأمَرَ أيضاً بِشُكْرِ ما أنعَمَ على والدتِهِ لِيُعلَمَ أنَّ على المَرْءِ شُكْرَ ما أنعَمَ على والدتِهِ كما يُلزِمُ شُكْرَ ما أنعَمَ على نَفْسِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: بِرُوحِهِ المُبارَكِ الذي بِهِ كانَ يُحْيِي المَوتَى، ويُبْرِئُ الأكمَهَ والأبرَصَ بِدُعائِهِ. وقالَ أهلُ التَّأويلِ: الرُّوحُ جِبْريلُ، والقُدُسُ هو اللهُ كقولِهِ تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] أي جِبْريلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قالَ الحَسَنُ: الكتابُ والحِكْمَةُ واحِدٌ: الكتابُ هو الحِكْمَةُ، والحِكْمَةُ هي الكتابُ لأنَّ جَميعَ كُتُبِ اللهِ كانَ حِكْمَةً. وقالَ بعضُهُمْ: الكِتابُ ما يُكْتَبُ مِنَ العِلْمِ، والحِكْمَةُ هي ما يُعطَى الإنسانُ مِنَ العِلْمِ على غَيرِ تَعَلُّمٍ. وقالَ بعضُهُمْ: الكتابُ هو ما يُحفَظُ، والحِكْمَةُ هي القِصَّةُ، وهو واحِدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ قولُهُ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾ أي تُصَوِّرُ، وتُقَدِّرُ ﴿مِنَ ٱلطِّينِ

---

(١) في الأصل وم: وأبدعوهما. (٢) في م: ﷺ. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) في الأصل وم: إلى قوله. (٥) من م، في الأصل: وكيف.
(٦) في الأصل وم: إلى الكتاب جعل له المعلم. (٧) من م، في الأصل: وإن. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: ذكرها.
(١٠) في الأصل وم: هو. (١١) في الأصل وم: عن. (١٢) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ كانَ مِنْ عِيسَى لِيكونَ لهُ آيةً لِصِدْقِهِ ونُبُوَّتِهِ. وعلى ذلكَ الآياتُ التي يَأتي بها الرُّسُلُ ليسَتِ الرُّسُلُ يأتُونَ بها في الحَقيقَةِ، بل كانَ اللهُ هو الآتيَ بها والمُنْشِئَ تِلْكَ الآياتِ حَقيقَةً، لكنَّهُ يُجْريها على أيدي الرُّسُلِ لِتَكونَ آياتِ صِدْقِهِمْ ودَلالاتِ رِسالَتِهِمْ. فأمّا أنْ يأتيَ الرُّسُلُ بالآياتِ والحُجَجِ مِنْ عندِ أنْفُسِهِمْ فَلا.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَخْلُقُ﴾ ذَكَرَ التَّخْليقَ لِما تُسَمّي العَرَبُ تَصْويرَ الشَّيْءِ وتقديرَهُ[1] تَخْليقاً. فعَلى ذلكَ خَرَجَ الخِطابُ، وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ قيلَ: الأكْمَهُ الذي يُولَدُ أعْمَى، وأمّا الأعْمَى فهو الذي يَذْهَبُ بَصَرُهُ بَعْدَ ما كانَ بَصيراً. وقيلَ: الأكْمَهُ هو الذي لا حَدَقَ لهُ، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ/ ١٤٢ ـ ب/.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ والحَوارِيُّونَ قيلَ: هُمْ خَواصُّهُ، وكذلكَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ هُمْ حَوارِيُّوهُ. وقد ذَكَرْنا هذا، في سورةِ آلِ عمرانَ[2]، الاخْتِلافَ فيهِ. ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ يَحْتَمِلُ الوَحْيُ إليهِمْ وَجْهَيْنِ:

أحَدُهُما: أنهُ أوحَى إلى رسولِ الله عِيسَى ﷺ فَنَسَبَ ذلكَ إليهِمْ، وأُضيفَ لأنَّ[3] الوَحْيَ إلى عِيسَى كالوَحْيِ إليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وما أُنْزِلَ على كذا ما أُنْزِلَ إلى رسولِ اللهِ كالمُنْزَلِ إلَينا. فعَلى ذلكَ الوَحْيُ إلى عِيسَى هو كالوَحيِ إليهِمْ.

والثاني: [أنهُ][4] أوحَى إليهِمْ وَحْيَ إلْهامٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ الآية [النحل: ٦٨] وقولِهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] ونحوِهِ أنهُ وَحْيُ إلْهامٍ وقَذْفٍ لا وَحْيُ إرسالٍ. والقَذْفُ في القَلْبِ مِنْ غيرِ تَكَلُّفٍ ولا كَسْبٍ، وهو الإخْطارُ بالقَلْبِ على السُّرْعَةِ ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ والخَطَرُ يكونُ مِنَ اللهِ تعالى، ويكونُ مِنَ الشَّيطانِ. لكنْ ما يكونُ مِنَ اللهِ تعالى يكونُ خَيراً؛ يَتَبَيَّنُ ذلكَ في آخِرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ؛ يَحْتَمِلُ قالُوا لِعِيسَى: واشْهَدْ أنتَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴿بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ ويَحْتَمِلُ أنْ سألُوا رَبَّهُمْ أنْ يَكْتُبَهُمْ مَعَ الشاهِدينَ كقولِهِ تعالى: ﴿ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الآية: ٨٣].

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قيلَ: إنَّ قوماً سألُوا[5] الحوارِيِّينَ أنْ يَسْألُوا عِيسَى ﷺ حتى يَسْألَ رَبَّهُ أنْ يُنَزِّلَ عليهِمْ مائِدَةً مِنَ السَّماءِ لأنَّ الحَوارِيِّينَ قد قُلْنا: إنهُمْ كانُوا خَواصَّ عِيسَى ﷺ فكانَ كَمَنْ بَدَتْ لهُ حاجَةٌ إلى بَعْضِ المُلُوكِ فإنهُ إنما يَرْفَعُ[6] إلى خواصِّهِ؛ فَهُمُ الذينَ يَتَوَلَّونَ رَفْعَها إلى المَلِكِ. فعَلى ذلكَ رَفَعُوا حاجَتَهُمْ إلى الحَوارِيِّينَ لِيَسْألُوا هُمْ نَبِيَّ اللهِ عِيسَى ﷺ لِيَسْألَ رَبَّهُ.

وقالَ آخَرُونَ: لم يَسْألْهُمْ[7] قومُهُمْ ذلكَ، ولكنَّ الحَوارِيِّينَ هُمُ الذينَ سألُوا عِيسَى ﷺ أنْ يَسْألَ رَبَّهُ حتَّى يُنَزِّلَ عليهِمْ مائِدةً مِنَ السَّماءِ.

لكنْ سُؤالُهُمْ[8] ذلكَ يَحْتَمِلُ [وُجوهاً:

أحَدُها:][9] سألُوا ذلكَ لِما أرادُوا أنْ يُشاهِدُوا الآيَةَ، ولم يَكُونُوا شاهَدُوا قَبْلَ ذلكَ، فأحَبُّوا أنْ يُشاهِدُوها، وإنْ كانُوا قد آمَنُوا بِهِ، وصَدَّقُوهُ مِنْ قَبْلُ [لِيَزْدادُوا هُمْ][10] بذلكَ طَمَأْنينَةً ويَقيناً، وهو كقولِ إبراهيمَ ﷺ ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] لِما يَحْتَمِلُ أنَّ نَفْسَهُ كانَتْ تُحَدِّثُ، وتُنازِعُ في ذلكَ، وأحَبَّ أنْ يُعايِنَ ذلكَ، ويُشاهِدَهُ لِيَزْدادَ هو[11] طمأنينةً ويَقيناً. فعَلى ذلكَ أولئكَ كانَتْ[12] أنفسُهُمْ تُحَدِّثُ، وتُنازِعُ في مُشاهَدَةِ الآياتِ، فأحَبُّوا أنْ يُرِيَهُمْ بذلكَ [لِيَزْدادُوا هُمْ][13] طمأنينةً ويَقيناً وصَلابَةً في التَّصْديقِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في تفسير الآية [٥٢]. (٣) من م، في الأصل: أن. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: من. (٦) من م، في الأصل: وقع. (٧) في الأصل وم: يسألوا. (٨) في الأصل وم: سألهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ليزداد لهم. (١١) في الأصل وم: له. (١٢) في الأصل وم: كان. (١٣) في الأصل وم: ليزداد لهم.

جنة السنة

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عِيسَى يُخْبِرُهُمْ أنَّ لَهُمْ كَرَامَةً ومَنْزِلَةً عندَ اللهِ، فأحَبُّوا أن يَعْرِفُوا مَنْزِلَتَهُمْ عندَ اللهِ وكرامَتَهُمْ.

والثالثُ: سألُوا ذلكَ لِيَعْرِفُوا مَنْزِلَةَ عِيسَى ﷺ عندَ اللهِ وكَرامَتَهُ؛ هلْ يُجِيبُ ربُّهُ دُعاءَهُ إذا سألَ رَبَّهُ، واللهُ أعلَمُ؟

وإنْ كانَ السُّؤالُ مِنْ قومٍ غيرِ الحَوارِيِّينَ فهو لِما بَدَتْ لَهُمْ مِنَ الحاجَةِ إليها، لا يُعْلَمُ ذلكَ إلّا بالخَبَرِ الصادِقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ يُقرَأُ بالتاءِ والياءِ جميعاً[1]. فمنْ قَرَأَ بالتاءِ ذَهَبَ في التَّأويلِ إلى أنَّ فيهِ إضماراً؛ كأنَّهُمْ قالُوا: هل تستطيعُ أنْ تَسْأَلَ رَبَّكَ ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ﴾. ومَنْ قَرَأَ بالياءِ قالَ: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أي هل يُجِيبُ ربُّكَ دُعاءَكَ إذا دَعَوْتَهُ؟ ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ﴾.

قالَ الفَرّاءُ: قد يكونُ مِثْلُ هذا السُّؤالِ على غيرِ الجَهْلِ مِنَ السائِلِ بالمَسْؤولِ لأنهُ يَجوزُ أنْ يُقالَ في الكلامِ: هل يَسْتَطِيعُ فلانٌ أنْ يَقومَ بحاجَتِنا وفي أمْرِنا على عِلْمٍ منهُ؟ هل يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ على عِلْمٍ منهُمْ أنَّ عِيسَى يَسْتَطِيعُ السُّؤالَ لِرَبِّهِ؟ لكنَّهُمْ قالُوا ذلكَ لِما ذُكِرَ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

ويجوزُ أنْ يُرادَ بالاسْتِطاعةِ الإرادةُ؛ يقولُ الرجلُ لآخَرَ: لا أستطيعُ أنْ أنظُرَ إلى فلانٍ، وهو يَقْدِرُ النَّظَرَ، لكنهُ يُريدُ بذلكَ: لا أُريدُ أنْ أنظُرَ إليهِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هل يأذَنُ ربُّكَ بالسُّؤالِ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أيِ اتَّقُوا اللهَ؛ لا تَسْألُوا شيئاً لَمْ يَأذَنْ لكُمْ في ذلكَ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

الآية ١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ قولُهُ ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ يدلُّ أنهُمْ سألُوا ذلكَ لِما كانَتْ تُحَدِّثُ أنفُسُهُمْ، وتُنازِعُ في مُشاهَدَةِ الآياتِ ومُعايَنَتِها، وإنْ كانُوا صَدَّقُوا عِيسَى ﷺ في ما يقولُ لهُمْ، ويُخْبِرُ عنِ اللهِ لِلْمَعْنَى الذي ذَكَرْنا في إبراهيمَ ﷺ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ اخْتُلِفَ في تِلاوَتِهِ [وفي تأويلِهِ بوَجْهَينِ:

أحدُهما:][2] قالَ بعضُهُمْ: بالنَّصْبِ نَعْلَمَ، فهيَ القراءةُ الظاهِرةُ المَشْهورةُ، ومَعْناهُ: وأنْ نَعْلَمَ ما قد صَدَقْتَنا.

والثاني: [قَرَأَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: وتُعْلَمَ، ويُعْلَمَ، وقَرَأَ الأعمَشُ: وتَعْلَمَ][3]: [ومعناهُ:][4] أنَّ العِلْمَ بالشَّيْءِ مِنْ جِهَةِ الخَبَرِ ربما تَعْتَرِضُهُ[5] الوَساوِسُ والشُّبَهُ، فَطَلَبُوا آيةً مِنْ جِهَةِ الحِسِّ والعِيانِ لِيكونَ ذلكَ أدْفَعَ لِما يَعْتَرِضُ مِنَ الشُّبَهِ والوَساوِسِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي نكونَ عليها لِمَنْ أنكَرَها مِنَ الشاهِدِينَ أنها نَزَلَتْ.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي طعاماً دائماً. قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي مُجْتَمَعاً، وسَمَّى يومَ العيدِ [عيداً][6] لاجْتِماعِ الخَلْقِ.

ثم قيلَ: نَزَلَتْ يومَ الأحَدِ، فَجَعَلُوا ذلكَ اليومَ يومَ عيدِهِمْ.

ثم اخْتُلِفَ في نُزولِ المائدةِ [بوَجْهَينِ:

أحدُهما: ما][7] قالَ الحَسَنُ: لم[8] تنزِلِ المائدةُ لأنهُ سألَ أنْ تكونَ ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ ونَحْنُ مِنْ آخِرِهِمْ، فلم يَكُنْ لَنا ما ذَكَرَ.

الآية ١١٥ والثاني: [قولُهُ تعالى][9] ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ وقد كَفَرَ مِنْهُمْ، ثم لم يَظْهَرْ أنهُ عَذَّبَهُمْ عَذاباً لَمْ يُعَذِّبْ أحداً مِنَ العالَمِينَ.

---

(١) قرأ الكسائي: تستطيع بالتاء، ربك بالنصب وقرا الباقون: يستطيع بالياء، ربك بالرفع، انظر حجة القراءات ص(٢٤٠). (٢) في م: وفي تأويله، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية (ح٢ص٢٤٨). (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يعترض. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: ثم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقالَ بعضُهُمْ: ليسَ فيهِ دَلالةٌ أنها لم تَنزِلْ لأنه يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ ما لَمْ يأتِ النَّسْخُ. فكانَ لهمْ ذلكَ إلى أنْ يُبْعَثَ نَبِيُّنا محمدٌ ﷺ فَنَسَخَ ذلكَ يومُ الجمعةِ. وقالوا: قولُهُ تعالى: ﴿فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ذُكِرَ في بعضِ القِصَّةِ أنَّ مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذلكَ مَسَخَهُمْ خنازيرَ. فذلكَ تَعْذيبٌ لم يُعَذِّبْ ﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقيلَ: يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ كُلِّهِ.

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ. يَحْتَمِلُ هذا القولُ أوجُهاً ثلاثةً:

أحدُها: أنْ كانَ هذا القولُ منهُ في الوَقْتِ الذي كانَ عِيسَى بَيْنَ أظْهُرِهِمْ ليكونَ ذلكَ آيةً وحُجَّةً لِمَنْ تَبِعَهُ على مَنْ زاغَ عَنْ طَريقِهِ، وضَلَّ عن سَبيلِ الهُدَى لأنهُ تَبَرَّأَ أنْ يكونَ قالَ لهمْ ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قالَ ذلكَ لهُ وَقْتَ رَفْعِهِ إلى السماءِ؛ قَرَّ[1] عندَهُ أنَّ قومَهُ يَقولونَ ذلكَ القولَ بعدَ مُفارقَتِهِ قومَهُ.

وقيلَ: يقولُ ذلكَ لهُ يومَ القيامَةِ، ويكونُ قالَ بِمَعْنَى يقولُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٤٩] وكقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [الآية: ١٠٩] أي[2] يقولونَ، وذلكَ جائزٌ: قالَ بِمَعْنَى يقولُ. وذلكَ في القرآنِ كثيرٌ.

واتِّخاذُهُمْ عِيسَى وأمَّهُ إلهَيْنِ قولٌ مُتناقِضٌ لأنهُمْ سَمَّوها أُمَّ عِيسَى. فإذا ثَبَتَتْ لها الأُمُومَةُ بَطَلَ أنْ يكونَ إلهاً لأنهُ لا يكونُ ابْنُ غيرِهِ إلهاً. لكنَّهُمْ قومٌ سُفَهاءُ؛ يقولونَ ذلكَ عنْ سَفَهٍ

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ أي لأنهُ لا ينبغي أنْ أقولَ ما ليسَ لي ذلكَ ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ يُتَكَلَّمُ على وجهَيْنِ:

أحدُهُما: يُرادُ ما يُضْمَرُ.

والثاني: على إرادةِ الذَّاتِ. فإنْ كانَ اللهُ، تعالى عَنْ أنْ يُوصَفَ بالذَّاتِ كما يُوصَفُ الخَلْقُ، دلَّ أنما يُرادُ/ ١٤٣ ـ أ/ بذلكَ غَيْرُهُ؛ وهو أنْ يُقالَ: تَعْلَمُ ما عندي، ولا أَعْلَمُ ما عِنْدَكَ، أو يقولَ: تَعْلَمُ ما كانَ مِنِّي، ولا أَطَّلِعُ على غَيْبِكَ ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي أنتَ علّامُ ما غابَ عنِ الخَلْقِ.

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ أي ما دَعَوتُهُمْ إلّا ما أمَرْتَني أنْ أدْعُوَهُمْ إليهِ مِنَ التوحيدِ والعبادةِ لكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي شاهِداً عليهِمْ. هذا يدُلُّ على أنَّ ذلكَ القولَ كانَ منهُ وقتَ رفعِهِ إلى السماءِ، ويكونُ يومَ القيامةِ. ويُقالُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي كُنْتُ عليهم حَفيظاً ما كُنْتُ بَيْنَ أظهُرِهِمْ ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بما أمَرْتُهُمْ مِنَ التوحيدِ والعبادةِ لكَ وشاهداً عليهِمْ بما قالوا مِنَ البُهْتانِ.

وذُكِرَ في بعضِ القِصَّةِ لمّا قالَ اللهُ تعالى لِعِيسَى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١١٦] قيلَ: فارْتَعَدَتْ مَفاصِلُهُ، وخَشِيَ أنْ يكونَ قالَها، فقالَ: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ الآيةَ.

وذُكِرَ أيضاً: مُتَكَلِّمانِ يَتَكَلَّمانِ يومَ القيامةِ: نَبِيُّ اللهِ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ ﷺ وعَدُوُّ اللهِ إبليسُ، لَعَنَهُ اللهُ، فأمّا كلامُ عيسى ﷺ [فهو][4] يقولُ اللهُ تعالى ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيقولُ[5] عيسى ابنُ مَرْيَمَ: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ إلى قولِهِ ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الآيات: ١١٦ـ ١١٨].

وأمّا كلامُ اللعينِ فهو[6]: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ الآيةَ [إبراهيم: ٢٢].

---

(١) في الأصل وم: قرر. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فقال. (٦) في الأصل وم: فيقول.

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ [بوجوهٍ:

أحدُها](1): عنِ الحسَنِ [أنهُ](2) قالَ: يقولُ: ذلكَ في الآخِرَةِ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي إنْ تُعَذِّبْ مَنْ ماتَ على ما كانَ منهُ مِنَ القولِ الوَحيشِ في اللهِ ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي وإنْ تغفِرْ لِمَنْ أكرَمْتَهُ(3) بالإسلامِ والهُدَى ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لأنَّ منهُمْ مَنْ أسلَمَ(4) مِنْ بَعْدِ هذا القولِ الوَحْشِ في اللهِ.

وقالَ(5) آخرونَ: هذا القولُ كانَ مِنْ عيسَى في الدنيا: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ يقولُ: إنْ تُعذِّبْ مَنْ ماتَ على الكُفرِ الذي كانَ منهُمْ ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ﴾ لِمَنْ [أكرَمْتَهُ بالهُدَى](6) ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أنتَ العزيزُ، وهم عبادُكَ أذِلاءُ.

وفي حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ فإنكَ أنتَ الغَفورُ الرَّحيمُ؛ وهو ظاهِرٌ لأنهُ ذَكَرَ أنهُ غَفورٌ على إثْرِ المَغفِرَةِ.

ورُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ نَبيَّ اللهِ ﷺ كانَ أحْيَى لَيلَةً بقولِهِ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قامَ، وبهِ سَجَدَ، وبهِ قَعَدَ، فهو، واللهُ أعلَمُ، على التَّشَفُّعِ لهُ والتَّضَرُّعِ إليهِ؛ كأنهُ قالَ: إنْ خَذَلْتَهُمْ فَمَنِ الذي يَنْصُرُهُمْ، ويَدْفَعُ ذلكَ عنهُمْ دُونَكَ، وهُمْ عِبادُكَ أذِلاءُ؟ وإنْ أكرَمْتَهُمْ فَمَنْ ذا الذي يَمْنَعُكَ عنْ إكرامِهِمْ؟

والثالثُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ فَلَكَ سُلْطانٌ عليهِمْ. ولَسْتَ أنت في تَعْذيبِهِمْ إياهُمْ جائراً لأنهُمْ عِبادُكَ؛ لأنَّ الجَورَ هو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي لهُ إلى الحَدِّ الذي ليسَ لهُ.

الآية ١١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا﴾ قيلَ: قالَ بِمَعْنَى يَقُولُ اللهُ يومَ القِيامةِ ﴿يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي اليومُ يَنفَعُ الصّادِقِينَ صِدْقُهُمْ في الدنيا، ويَنفَعُ صِدْقُ الصّادِقِ أيضاً في الدنيا؛ لأنهُ إذا عُرِفَ بالصِّدْقِ قُبِلَ قولُهُ، وإنْ لم يَظْهَرْ صِدْقُهُ في قولِهِ.

ثم اخْتُلِفَ في الصادِقِينَ مَنْ هُمْ؟ قالَ بعضُهُمْ: هُمُ المؤمنونَ جُمْلَةً أي يومَئِذٍ يَنفَعُ إيمانُ المؤمنينَ وتوحيدُ المُوَحِّدينَ في الدنيا كقولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩] وقالَ بعضُهُمْ: الصادِقونَ هُمُ الأنبياءُ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وخالدينَ وأبداً واحدٌ، لكنَّهُ يَذْكُرُ على التأكيدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لِسَعْيِهِمْ في الدنيا ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بالثوابِ لِسَعْيِهِمْ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما وَفَّقَهُمْ على سَعْيِهِمُ المَحْمودِ في الدنيا ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنهُ ليسَ بَعْدَهُ خَوفُ الهَلاكِ ولا خَوفُ الفَوتِ، فهو الفَوزُ العَظيمُ؛ ليسَ كَفَوزِ الدنيا لأنه لا يَذْهَبُ عنهُ خوفُ الهلاكِ ولا خوفُ الفوتِ.

الآية ١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ كانَ خَرَجَ هذا على إثْرِ قولِهِ: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ﴾ أي كيفَ يَتَّخِذُ أرباباً وَوَلَداً ولهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ ومُلْكُ ما فيهِنَّ مِنَ الخَلْقِ، كُلُّهُمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ؟ [واللهُ المُوَفِّقُ](7).

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أكرمت له. (٤) في الأصل وم: قرأ. (٥) هذا هو الوجه الثاني.
(٦) في الأصل وم: أكرمت له الهدى. (٧) في م: ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

جنة السنة

سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ [قولُهُ تعالى:][(١)] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الحَمْدُ هو الثَّناءُ عليهِ بما صَنَعَ إلى خَلْقِهِ مِنَ الخيرِ. ألا تَرَى أنَّ الذَّمَّ نَقيضُهُ في الشاهِدِ؟ ويُحْمَدُ المَرْءُ بما صَنَعَ مِنَ الخيرِ، ويُذَمُّ على ضِدِّهِ. فالتَّحْميدُ هو تَمْجيدُ الرَّبِّ والثَّناءُ عليهِ والشُّكْرُ لهُ بِما أنْعَمَ عليهِ، والتَّسْبيحُ هو تَمْجيدُ الرَّبِّ وتَنْزيهُهُ عَمّا قالَتِ المُلْحِدَةُ فيهِ مِنَ الوَلَدِ وغَيْرِهِ. والتَّهْليلُ هو تَمْجيدُ الرَّبِّ وتَنْزيهُهُ عَمّا جَعَلُوا لَهُ مِنَ الشُّرَكاءِ والأضْدادِ والوَصْفُ لهُ بالوَحْدانيَّةِ والرُّبوبيَّةِ. والتَّكْبيرُ هو تَمْجيدُ الرَّبِّ والوَصْفُ لهُ بالعَظَمَةِ والجَلالِ وتَنْزيهُهُ عَمّا وَصَفُوهُ بالعَجْزِ والضَّعْفِ عن أنْ يكونَ يُنْشِئُ مِنَ العِظامِ البالِيَةِ خَلْقاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ سَفَّهَهُمْ ﷻ بما جَعَلُوا لهُ مِنَ الشُّرَكاءِ والأضْدادِ على إقرارٍ مِنْهُمْ أنهُ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ[(٢)]، ولم يَجْعَلْ[(٣)] لهُ شُرَكاءَ في خَلْقِهِما، وعلى عِلْمٍ مِنْهُمْ أنهُ عَلَّقَ[(٤)] منافعَ الأرضِ بِمنافِعِ السماءِ مَعَ بُعْدِ ما بَيْنَهُما، كيفَ جَعَلُوا شُرَكاءَ يُشْرِكُونَهُمْ في العِبادةِ والرُّبُوبِيَّةِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [قالَ الحسنُ][(٥)]: الكُفْرَ والإيمانَ، وقالَ غيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ: الليلَ والنهارَ. والنورُ في الحَقيقَةِ ما يَكْشِفُ عَمّا اسْتَتَرَ مِنَ الأبصارِ إبصارَ الوُجوهِ وإبصارَ القلوبِ. والظُّلْمَةُ[(٦)] ما تَسْتُرُ، وتُغَطّي على الأبصارِ إبصارَ الوجُوهِ وإبصارَ القُلوبِ. فالظُّلْمَةُ تَجْعَلُ كلَّ شَيْءٍ مَسْتوراً عليهِ، والنورُ يَجْعَلُ كلَّ شَيْءٍ كانَ مَسْتوراً ظاهِراً بادِياً عليهِ. هذا هو تَفسيرُ الظُّلْمةِ والنُّورِ حَقيقَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ قيلَ: يُشْرِكُونَ مَعَ ما بَيَّنَ لَهُمْ ما يَدُلُّ على وَحدانيَّةِ الرَّبِّ ورُبُوبِيَّتِهِ، أي جَعَلُوا كُلَّ ما يَعْبُدُونَهُ دُونَ اللهِ عَدِيلاً لِلّهِ، وأثْبَتُوا المُعادَلَةَ بَيْنَهُ وبَيْنَ اللهِ تعالى، ولَيْسَ لِلّهِ تعالى عَدِيلٌ ولا نَدِيدٌ ولا شَرِيكٌ ولا وَلَدٌ ولا صاحِبَةٌ؛ تعالى اللهُ عَمّا يَقولُ الظالِمُونَ ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

وقالَ الحَسَنُ: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يُكَذِّبونَ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أي خَلَقَ آدَمَ أبا البَشَرِ ﴿مِّن طِينٍ﴾. فأمّا خَلْقُ بَني آدَمَ مِنْ ماءٍ [فهو][(٧)] كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] أخْبَرَ اللهُ أنهُ خَلَقَ آدمَ مِنَ الطينِ، وخَلَقَ بَني آدمَ سِوَى عِيسَى ﷺ مِنَ النُّطْفَةِ، وخَلَقَ عِيسَى ﷺ [لا][(٨)] مِنَ الطينِ ولا مِنَ الماءِ لِيَعْلَمُوا[(٩)] أنهُ قادرٌ على إنْشاءِ الخَلْقِ لا مِنْ شَيْءٍ وأنهُ لا اخْتِصاصَ لِلْخَلْقِ بشَيْءٍ، ولا يُنْكِروا[(١٠)] أيضاً [أنهُ قادرٌ على][(١١)] إنْشاءِ الخَلْقِ وإحيائِهِمْ ومَوتِهِمْ؛ وذلكَ لا يَخْلُو إمّا أنْ صارُوا تُراباً أو ماءً أو لا ذا ولا ذا.

فإذا رَأَوا أنهُ خَلَقَ آدمَ مِنَ الطّينِ، وخَلَقَ سائِرَ الحَيَوانِ مِنَ الماءِ، وخَلَقَ عِيسَى ﷺ لا مِنْ هذَينِ، كيفَ أنْكَرُوا إنْشاءَ الخَلْقِ/ ١٤٣ ـ ب/ بَعْدَ الموتِ، وهو لا يَخْلُو مِنْ هذهِ الوُجوهِ التي ذَكَرْنا؟ فيكونُ دليلاً على مُنْكِرِي البَعْثِ بَعْدَ الموتِ وعلى الدَّهْرِيَّةِ في إنْشاءِ الخَلْقِ لا مِنْ شَيْءٍ؛ فإنَّهُمْ يُنْكِرونَ ذلكَ، ويُحِيلُونَهُ. ولهذا وقَعُوا في القَوْلِ بِقِدَمِ العالَمِ، واللهُ الهادي.

---

(١) في م: وقوله ﷻ، ساقطة من الأصل. (٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١ ولقمان: ٢٥ والزمر: ٥٨ والزخرف: ٩٨]. (٣) في الأصل و م: يجعلوا. (٤) في الأصل و م: تعلق. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل و م: والظلم. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) في الأصل و م: ليعلمن. (١٠) في الأصل و م: ينكرون. (١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أنْ يُرادَ بهِ في خَلقِ[1] جميعِ بَني آدَمَ وإضافةِ خَلقِنا إلى الطِّينِ، وكانَ الخَلقُ مِنَ الماءِ لِما[2] أبقى في خَلقِنا مِن قُوَّةِ ذلكَ الطِّينِ الذي في آدَمَ وأثرِهِ، وإنْ لَم يُرِهِ تِلكَ القُوَّةَ وذلكَ الأثرَ. وهذا كما أنَّ الإنسانَ يَرى أنهُ يأكُلُ، ويَشرَبُ، ويَغتَذِي، ويَحصُلُ بهِ زيادةُ قُوَّةٍ في سَمعِهِ وبَصَرِهِ وفي جَميعِ جَوارِحِهِ، وقد تَحيَى بها جَميعُ الجَوارِحِ، وإنْ لَم يَرَ تِلكَ القُوَّةَ، فكذلكَ هذا. ويَحتَمِلُ أيضاً على ما رُوِيَ في القِصَّةِ أنهُ يُمازِجُ مَعَ النُّطفَةِ شَيْءٌ مِنَ الترابِ، فَيُؤمَرُ المَلَكُ بأنْ يأخُذَ شَيئاً مِنَ التُّرابِ مِنَ المكانِ الذي حَكَمَ أن يُدفَنَ فيهِ، فَيَخلِطَ بالنُّطفَةِ، فَتَصيرَ عَلَقَةً ومُضغَةً. فإنما نَسَبَهُم إلى التُّرابِ لهذا.

وتَحتَمِلُ النِّسبَةُ إلى التُّرابِ، وإنْ لم يَكونوا مِنَ الترابِ، لِما أنَّ أصلَهُم مِنَ التُّرابِ، وهوَ آدَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ فالقَضاءُ يَتَوجَّهُ إلى وُجوهٍ؛ كُلُّها تَرجِعُ إلى مَعْنَى انقِطاعِ الشَّيءِ وتَمامِهِ؛ وقد يكونُ لابتِداءِ فِعلٍ وإنشائِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] [ويُقالُ: قَضيتُ هذا الثَّوبَ أي عَلِمتُهُ، وأحكَمتُهُ، وقد يكون بِمَعْنَى الأمرِ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي أمَرَ ربُّكَ لأنهُ أمرٌ قاطِعٌ حَتمٌ، وقد يكونُ بمَعْنَى الإعلامِ؛ قالَ تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٤] أي أعلَمْناهُم إعلاماً قاطعاً، وقد يكونُ لِبيانِ الغايةِ والانتِهاءِ منهُ والخَتمِ كقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أي خَتَمَ ذلكَ، وأتمَّهُ، وقد][3] يكون غَيرَ ما ذَكَرْنا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ﴾ يَحتَمِلُ هذا كُلَّهُ سِوى الأمرِ. ثم قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ﴾ المَوتَ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ﴾ يومُ القِيامةِ. أطلَعَنا على أحَدِ الأجَلَينِ، وهو المَوتُ لأنّا نَرى مَن يَموتُ، ونُعايِنُ، ولم يُطلِعْنا على الآخَرِ، وهو الساعةُ والقِيامةُ. وقيلَ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ﴾ أجَلَ الدنيا مِن خَلقِهِ[4] إلى أن يَموتَ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ﴾ يومُ القِيامةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي تَشُكُّونَ، وتُكَذِّبُونَ بَعدَ هذا كُلِّهِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، صِلَةُ قولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فإذا كانَ خالِقَهُما، لم يَشرَكْهُ أحدٌ في خَلقِهِما كانَ إلهَ مَن في السَّمواتِ وإلهَ مَن في الأرضِ لم يَشرَكْهُ أحَدٌ في أُلوهِيَّتِهِ ولا رُبوبِيَّتِهِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي إلى اللهِ تدبيرُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، وحِفظُهُ إليهِ لأنهُ هو المُتَفَرِّدُ بِخَلقِ ذلكَ كُلِّهِ، فإليهِ حِفظُ ذلكَ وتَدبيرُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ ما تُضمِرونَ في القُلوبِ ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ ما تَنطِقونَ ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ مِنَ الأفعالِ التي عَمِلَتِ الجَوارِحُ. أخبَرَ أنهُ يَعلَمُ ذلكَ كُلَّهُ يُحصِيهِ[5] لِيُحاسِبَهُم على ذلكَ كقولِهِ: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [البقرة: ٢٨٤] أخبَرَ أنهُ يُحاسِبُهُم بِما أبدَوهُ وما أخفَوهُ. فعَلى ذلكَ الأوَّلُ[6]؛ فيهِ إخبارٌ أنَّ ذلكَ كُلَّهُ يُحصِيهِ عليهِم، ويُحاسِبُهُم في ذلكَ لِيَكونوا على حَذَرٍ مِن ذلكَ وخَوفٍ.

وقيلَ: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ ما خَلَقَ فيهِم مِنَ الأسرارِ مِن نَحوِ السَّمعِ والبَصَرِ وغَيرِهِما لأنَّ البَشَرَ لا يَعرِفُونَ ماهِيَّةَ هذِهِ الأشياءِ وكَيفِيَّتَها، ولا يُبصِرُونَ ذلكَ كما يَرَونَ غَيرَها مِنَ الأشياءِ، ولا يَعرِفونَ حقائِقَها. أخبَرَ أنهُ يَعلَمُ ذلكَ، وأنتُم لا تَعلَمُونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ أي الظَّواهِرَ مِنكُم ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ مِنَ الأفعالِ والأقوالِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يَحتَمِلُ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ

(١) في الأصل و م: حق. (٢) من م، في الأصل: لا. (٣) من م، في الأصل: ويكون بيان الغاية ويكون الأمر و. (٤) في الأصل و م: خلقك. (٥) في الأصل و م: يحصيها. (٦) في الأصل و م: الأولى.

جنة السنة

ءَايَٰتِ﴾ التوحيدِ[1]. أو مِنْ آياتِ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ونُبُوَّتِهِ ﷺ في إثباتِ البَعثِ والنُّشورِ بَعْدَ الموتِ لمّا أخبَرَ أنهُ خلَقَهُمْ مِنْ طِينٍ، فإذا ماتُوا صارُوا تُراباً. فإذا كانَ[2] بَدْءُ إنشائِهِمْ مِنْ طِينٍ، فإذا عادُوا إليهِ يَقْدِرُ على إنْشائِهِمْ ثانياً، إذْ لَيسَ إنشاءُ الثاني بِأعْسَرَ مِنَ الأوَّلِ.

ثم تَحْتَمِلُ الآياتُ آياتِ القرآنِ، وتَحْتَمِلُ الآياتُ ما كانَ أتَى بِها رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الآياتِ سِوَى آياتِ القرآنِ.

ثم أخبَرَ عنْ تَعَنُّتِهِمْ ومُكابَرَتِهِمْ بقولِهِ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فإذا أعْرَضُوا عنها لم يَنْتَفِعُوا بِها لِيُعْلِمَ اللهُ[3] أنهُ إنما يَنْتَفِعُ بالآياتِ مَنْ تأمَّلَها، ونَظَرَ فيها لا مَنْ أعْرَضَ[4] عنها.

ثم سُورَةُ الأنعامِ إنما نَزَلَتْ في مُحاجَّةِ أهْلِ الشِّرْكِ. ولو لم يَكُنِ القرآنُ مُعجِزاً كانَتْ سُورَةُ الأنعامِ مُعجِزَةً لأنّها نَزَلَتْ في مُحاجَّةِ أهْلِ الشِّرْكِ في إثباتِ التَّوحيدِ والألُوهيَّةِ لِلّهِ والبَعْثِ، فكيفَ وقد جَعَلَ اللهُ القرآنَ آيَةً مُعجِزَةً أعْجَزَ البَشَرَ عَنِ [الإتيانِ بِمِثْلِهِ][5]؟ ولم يَكُنْ يَومَئِذٍ يُعْرَفُ التَّوحيدُ والبَعْثُ، كانُوا كُلُّهُمْ كُفاراً عَبَدَةَ الأصنامِ والأوثانِ، لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ [ألِفَ ذلكَ][6] وأنْشَأَ مِنْ ذاتِ نَفْسِهِ لِيُعْلَمَ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ المُحاجَّةِ في التَّوحيدِ والمُناظَرَةِ فيهِ لأنَّ أكثَرَها نَزَلَتْ في مُحاجَّةِ أهلِ الشِّرْكِ، وهُمْ كانُوا أهْلَ شِرْكٍ، ويُنْكِرُونَ البَعْثَ والرسالةَ، فَنَزَلَ أكثَرُها في مُحاجَّتِهِمْ في التَّوحيدِ وإثباتِ البَعْثِ والرسالةِ.

وفيهِ أنهُ إذا ثَبَتَ فَسادُ قَولِ أحدِ الخَصْمَينِ ثَبَتَتْ صِحَّةُ قولِ الآخرِ لأنَّ إبراهيمَ لَمّا ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] أثبَتَ فَسادَ عِبادَةِ مَنْ يَعْبُدُ الآفِلَ بالأفولِ[7].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ الحَقُّ الآياتِ التي كانَ يَأتي بها رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ آياتِ التَّوحيدِ وآياتِ البَعْثِ، ويَحْتَمِلُ القرآنَ. ولو لم يَكُنْ يَأتي رسولُ اللهِ ﷺ بآيَةٍ كانَتْ نَفْسُهُ آيَةً عظيمةً مِنْ أوَّلِ نَشْأتِهِ[8] إلى آخِرِ عُمْرِهِ لأنَّهُ عُصِمَ حتى لم يَأتِ منهُ ما يَسْمُجُ[9]، ويُسْتَقْبَحُ قَطُّ. فَدَلَّ أنَّ ذلكَ لِما جَعَلَهُ آيَةً في نَفْسِهِ ومَوضِعاً لِرسالَتِهِ. وعلى ذلكَ إجابَةُ أبي بَكْرٍ ﷺ في أوَّلِ دَعْوَةٍ دَعاهُ إلى ذلكَ لِما كانَ رَأى منهُ آياتٍ. فلمّا دَعاهُ أجابَهُ في ذلكَ مَعَ ما كانَ مَعَهُ آياتٌ عَظِيمةٌ وأعلامٌ عَجِيبَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنْ يَأتِيَهُمْ، ويَنْزِلَ بِهِمْ ما نَزَلَ بالمُسْتَهْزِئينَ. وإلّا كانَ أتاهُمْ أنباءُ ما نَزَلَ بالمُسْتَهْزِئينَ. ولكنَّ مَعْناهُ ما ذَكَرْنا: أي يَنْزِلُ بهِمْ، ويَحِلُّ ما نَزَلَ وحَلَّ بالمُسْتَهْزِئينَ. ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ قولُهُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهو العذابُ، لأنَّ الرُّسُلَ كانُوا يُوعِدُونَهُمْ أنْ يَنْزِلَ بِهِمُ العذابُ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ. فَعِنْدَ ذلكَ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] وغيرَ ذلكَ ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فأخبَرَ أنهُ يَنْزِلُ بِهِمْ ذلكَ كما نَزَلَ بأولئكَ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾. وقالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ قد رَأوا أنّا ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ وهو واحِدٌ؛ قد رَأوا آثارَ الذينَ أُهْلِكُوا بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وتَعَنُّتِهِمْ ومُكابَرَتِهِمْ. لكنَّهُمْ لم يَعْتَبِرُوا بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: أعْطَيْناهُمْ مِنَ الخيرِ والسَّعَةِ والأموالِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ يا أهلَ مَكَّةَ، أي لم نُعْطِكُمْ، ثم إذا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أهْلَكَهُمُ اللهُ تعالى، وعاقَبَهُمْ بأنواعِ العُقوبةِ. ويَحْتَمِلُ ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِنَ القُوَّةِ والشِّدَّةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] ثم مَعَ شِدَّةِ قُوَّتِهِمْ أُهْلِكُوا إذْ[10] كَذَّبُوا الرُّسُلَ. ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في قلوبِ الناسِ مِنْ نَفاذِ القَولِ وخُضوعِ الخَلْقِ لأنهم كانُوا / ١٤٤ ـ أ/ مُلُوكاً

---

(١) في الأصل وم: توحيد. (٢) في الأصل وم: كانوا. (٣) ساقطة من م. (٤) من م، في الأصل: إعراض. (٥) في الأصل و م: إثبات مثله.
(٦) في الأصل و م: ذلك ألف. (٧) من م، في الأصل: بالأقوال. (٨) في الأصل و م: نشاءة. (٩) في الأصل وم: يستسمح. (١٠) في الأصل و م: إذا.

جنة السنة

وسَلاطِينَ الأرْضِ مِنْ نَحْوِ نَمْرودَ وفِرْعَونَ وعادٍ مَعَ ما كانُوا كذلكَ أُهلِكُوا إذْ[1] كَذَّبوا الرُّسُلَ. وأنْتُم يا هؤلاءِ لَيسَ لَكُمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ أفَلا تُهلَكُونَ إذا كَذَّبتُمُ الرُّسُلَ؟

وإنَّما حَمَلَهُمْ على تكذيبِ الرُّسُلِ، واللهُ أعْلَمُ، لِما كانُوا ذَوِي[2] سَعَةٍ وقُوَّةٍ، فَرَأَوُا[3] الخُضوعَ لِمَنْ دُونَهُمْ في ذلكَ جَوراً[4] غَيرَ حِكْمَةٍ، وإنما أخذُوا ذلكَ مِنْ إبليسَ اللَّعِينِ حِينَ[5] قالَ عندَ أمْرِهِ بالسُّجودِ لآدمَ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢ وص: ٧٦]. فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ الكَفَرَةُ رَأَوُا الأمْرَ بالخُضوعِ لمحمدٍ ﷺ جَوراً[6] منهُ حتى قالُوا: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ قالَ القُتَبِيُّ: مِدْراراً بالمَطَرِ أي غَزيراً مِنْ دَرَّ يَدُرُّ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: أي دَرَّتْ عليهِمُ السَّماءُ بالمَطَرِ أي كَثُرَ، ودامَ، وتَتابَعَ واحداً بَعْدَ واحِدٍ في وقتِ الحاجةِ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ أخبَرَ عنْ سَعَةِ أولئكَ[وما][7] أنْعَمَ عليهِمْ مِنْ كَثْرَةِ الأمطارِ والأنهارِ ما لم يَكُنْ ذلكَ لِهؤلاءِ. ثم مَعَ ما كانَ أعطاهُمْ إذْ[8] كَذَّبُوا الرُّسُلَ.

فإنْ قِيلَ: ذَكَرَ إهلاكَ هؤلاءِ وخَوفَ أولئكَ؛ ذلكَ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسلَ، وقد أهلَكَ الرُّسُلَ والأولياءَ مِنْ قَبْلُ، قِيلَ: لأنَّ إهلاكَ أولئكَ إهلاكُ عُقوبةٍ وتَعْذيبٍ لأنَّهُ كانَ أهْلَكَهُمْ إهلاكَ[9] اسْتِئصالٍ واسْتِيعابٍ خارجاً مِنَ الطَّبْعِ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ يُخبِرُ لِشِدَّةِ تَعَنُّتِهِمْ [أنَّهُمْ، وإنْ أُوتُوا][10] ما سَأَلُوا مِنَ الآياتِ لم يؤمِنُوا بهِ، لأنَّهُمْ كانُوا سَألُوا رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يُنَزِّلَ كتاباً يُعايِنُونَهُ[11]، ويَقرَؤُونَهُ كقولِهِ: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣] وكقولِهِ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] ونَحوَهُ مِنَ الآياتِ.

يقولُ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ أي في صَحِيفَةٍ مَكتوباً[12] يَعلَمُونَ أنهُ لم يُكْتَبْ في الأرضِ، ولَمَسُوهُ بأيدِيهِمْ، وعايَنُوهُ، لم يُؤمِنُوا بهِ، ولا صَدَّقُوهُ، وقالُوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يُصَبِّرُ رسولَ اللهِ ﷺ أنهم لا يُؤمِنُونَ، ويُخبِرُهُ بِشِدَّةِ تَعَنُّتِهِمْ أنهُمْ لا يُؤْمِنُونَ، وإنْ جِئْتَ بِكُلِّ آيةٍ؛ إذْ قد آتاهُمْ مِنَ الآياتِ ما إنْ تَأَمَّلُوا، ولم يَتَعَنَّتُوا دَلَّتْهُمْ على ذلكَ، لكنَّهُمْ أعْرَضُوا عنها، ولم يَتَأمَّلُوا فيها لِتَعَنُّتِهِمْ وشِدَّةِ مُكابَرَتِهِمْ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ إنَّ مُشْرِكي العَرَبِ كانُوا لا يَعْرِفونَ الرُّسُلَ ولا الكُتُبَ، ولا كانُوا آمَنُوا برسولٍ ولا كتابٍ، فقالُوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] ونَحوَهُ مِنَ السُّؤالِ يَسألونَ إنزالَ المَلَكِ.

ثم يَحْتَمِلُ سُؤالُهُمْ إنزالَ المَلَكِ لِما لم يكونُوا رَأَوُا الرُّسُلَ يَكونونَ مِنَ البَشَرِ، وإنما رَأَوُا الرَّسولَ، إنْ كانَ، يكونُ مَلَكاً، فقالُوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١] ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ سُؤالُهُمْ إنزالَ المَلَكِ سُؤالَ عِنادٍ وتَعَنُّتٍ لا سُؤالَ طَلَبِ الرَّسولِ مِنَ الملائكةِ، فقالَ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ على ما سَألُوا ﴿لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي إنَّ المَلَكَ إذا نَزَلَ على إثْرِ سُؤالِ العِنادِ والتَّعَنُّتِ لَنَزَلَ[13] بالعذابِ والهلاكِ، فهذا يُبَيِّنُ أنَّ سُؤالَهُمْ سُؤالُ تَعَنُّتٍ وعِنادٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أنهُمْ كانُوا يَسألونَ إنزالَ المَلَكِ آيةً لِصِدْقِهِ ﷺ فقالَ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾. أي يُهلَكُونَ لأنَّ الآياتِ إذا نَزَلَتْ على إثْرِ سُؤالِ القَومِ، ثم خالَفُوا تلكَ الآياتِ، وكَذَّبُوها، لَنَزَلَ بِهِمُ العذابُ والهلاكُ. وإنْ جاءَتِ الآياتُ على غَيرِ سُؤالٍ، فكَذَّبُوها، [يُمْهَلُوا، ولا يُعَذَّبُوا][14] عندَ تكذيبِهِمْ إيّاها، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل و م: إذا. (٢) في الأصل و م: ذا. (٣) في الأصل وم: فلم يروا. (٤) في أ في الأصل: جوازاً. (٥) في الأصل و م: حيث. (٦) من م، في الأصل: جوازاً. (٧) في الأصل و م: و. (٨) في الأصل و م: إذا. (٩) في الأصل و م: هلاك. (١٠) في الأصل: وإن أتوا، في م: أنهم وإن أتوا. (١١) في الأصل و م: يعاينوه. (١٢) في الأصل و م: مكتوب. (١٣) في الأصل وم: ينزل. (١٤) في الأصل وم: يمهلون ولا يعذبون.

جنة السنة

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ قيلَ: آدمياً بشراً. يَحتَمِلُ هذا [وَجْهَينِ:

أحَدُهما][1] أنه لو بَعَثْنا الرسولَ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ على صُورَةِ البَشَرِ. لأنهُ لو كانَ على صُورَةِ الملائِكَةِ لَصَعِقُوا، ودُهِشُوا لأنهُ لَيسَ في وُسْعِ البَشَرِ رُؤيَةُ المَلَكِ على صُورَتِهِ.

ألا تَرَى أنَّ جِبْرِيلَ ﷺ إذا نَزَلَ على رسولِ اللهِ ﷺ لم يَنْزِلْ على صُورَتِهِ، ولكن كانَ يَنْزِلُ على صُورَةِ البَشَرِ حَتَّى ذُكِرَ أنَّهُ كانَ يَنْزِلُ إليهِ على صُورةِ دِحْيَةَ الكَلْبِيِّ، وأنهُ متى رآهُ على صورتِهِ صَعِقَ[2]، وتَغَيَّرَ حالُهُ. فإذا رَأَوا ذلكَ في وَجْهِهِ قالُوا: إنهُ مَجنونٌ، فقالَ تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ ويكونُ فيهِ ما في رسولِ اللهِ مِنَ اللَّبْسِ بِهِ.

والثاني: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ لأنهُمْ لا يَعْرِفونَ صِدْقَهُ، فَيَحتاجُونَ إلى الدلائِلِ والآياتِ تَدُلُّهُمْ على أنهُ مَلَكٌ وعلى صِدْقِهِ. فذلكَ لا يُعْرَفُ إلّا بالبَشَرِ. لأنهم لا يَعْرِفُونَهُ، ولا [يَعْرِفُونَ][3] صِدْقَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ الآيةَ قالُوا: لا يَجوزُ إضافةُ اللَّبْسِ إلى اللهِ إلّا على المُجازاةِ لِلَّبْسِ كالاستِهْزاءِ والمَكْرِ والخِداعِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي لو جَعَلْناهُ مَلَكاً ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا﴾ لَبَسَ أولئكَ على ضَعَفَتِهِمْ حِينَ[4] قالُوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤ و٣٣] وقالُوا[5]: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠ ويس: ١٥] وغيرَ ذلكَ مِنَ الكلامِ. لكنّا لا نَفْعَلُ حَتَّى لا يكونَ ذلكَ لَبْساً؛ إذْ لَيسَ في وُسْعِهِمُ النَّظَرُ إلى المَلَكِ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾ لَكانَ ذلكَ لَبْساً.

فإنْ قالَ لنا مُلْحِدٌ: في قولِهِ تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [الأنعام: ٨] سألُوا أنْ يَنْزِلَ على رسولِ اللهِ ﷺ المَلَكُ، وقالَ: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ وأنْتُم تقولُونَ: إنَّهُ قد أُنْزِلَ عَلَيهِ المَلَكُ، وهوَ أخْبَرَ لو أُنْزِلَ عليهِ المَلَكُ لَقُضِيَ الأمْرُ، ولَمْ يُقْضَ الأمْرُ. كيفَ لا بانَ لَكُمْ أنَّهُ إنَّما اخْتَرَعَ ذلكَ مِنْ نَفْسِهِ، لا أنَّ اللهَ أنْزَلَ عليه[6]؟

قِيلَ: إنهُمْ إنَّما سألُوا أنْ يَنْزِلَ عليهِمُ المَلَكُ، وإنْ لم يُذْكَرْ في الآيةِ السُّؤالُ ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخْرَى كقولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، وسألُوا أنْ تأتِيَهُمُ الملائِكَةُ، ويأتِيَهِ؛ قالُوا: كيفَ يُخَصُّ بإتيانِ الملائِكَةِ دُونَنا؟ وهو كَواحِدٍ مِنّا كقولِهِ: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر: ٧].

وهذا جائزٌ أنْ يكونَ أسْئِلَةً لم تُذْكَرْ، ويكونُ في الجوابِ بَيانُ ذلكَ على ما ذَكَرْنا مِنْ قَبْلُ في غيرِ مَوضِعٍ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يُصَبِّرُ رسولَهُ على تكذيبِ قومِهِ لِيُعْلِمَ أنهُ لَيسَ هو أوَّلَ مُكَذَّبٍ، ولكنْ قد كُذِّبَ الرُّسُلَ الذينَ مِنْ قَبْلِكَ، ويُخْبِرُهُ أنهُ يَلْحَقُ هؤلاءِ بِتَكْذيبِكَ كما لَحِقَ أُولئكَ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَحَاقَ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: حاقَ أي رَجَعَ، يُقالُ: حاقَ يَحيقُ حَيقاً أي رَجَعَ عليهِمْ. وقالَ الكِسائِيُّ: حاقَ بِهِمْ أي أحاطَ بِهِمْ، ونَزَلَ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ لَيسَ على الأمْرِ بالسَّيْرِ في الأرضِ، ولكنْ على الاعْتِبارِ والتَّفَكُّرِ في ما نَزَلَ بأولئكَ بِتَكْذيبِهِمُ الرُّسُلَ لأنهُ ﷻ أراهُمْ آياتٍ عَقْلِيَّةً وسَمْعِيَّةً، فلم يَنْفَعْهُمْ ذلكَ، فأرادَ أنْ يُرِيَهُمْ آياتٍ حِسِّيَّةً لِيَمْنَعَهُمْ ذلكَ عنِ التَّكْذيبِ والعِنادِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل﴾ الآية يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنْ يَخْرُجَ مَخْرَجَ البَيانِ لَهُمْ أنهُ لَيسَ على الأمْرِ [لأنهُ لو كانَ على الأمْرِ][7] لَكانَ يَذْكُرُ سُؤالَهُ[8] لَهُمْ، ولم يَذْكُرْ أنَّ سُؤالَهُمْ لا يَحْتَمِلُ ألّا يُخْبِرُوهُ ذلكَ. فلمّا لم يَذْكُرْ سُؤالَهُ لَهُمْ عنْ ذلكَ، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يأمُرَهُ بالسُّؤالِ، ثم لا يُسْأَلَ، أو يَسْأَلَ هو، ولا [يُخْبِرُوهُ، دَلَّ][9] أنهُ على البَيانِ خَرَجَ لا على الأمْرِ.

---

(١) في الأصل وم: وجوهاً. (٢) في الأصل وم: اصعق. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) في الأصل و م: حيث. (٥) في الأصل و م: و. (٦) في الأصل و م: عليك. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) أدرج قبلها في الأصل: أن. (٩) في الأصل و م: يخبرونه فدل.

جنة السنة

والثاني: على أمرٍ سَبَقَ كقولِهِ تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤ و٨٥] وكقوله] تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ إلى قولِهِ: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨ و٨٩] وكقولِهِ[1] تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٦] ونَحْوُهُ كانَ على أمْرٍ سَبَقَ، فَيُخبِرُهُمْ ﷺ حتى قالُوا: للهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١ ولقمان: ٢٥ والزمر: ٣٨ والزخرف: ٩] ذلك مُسْتَخْبَرٌ مِنْهُ إياهُمْ حتى قالوا: ﴿ٱللَّهُ﴾.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قُلْ لِمَنْ ما في السَّمواتِ والأرضِ قُلْ للهِ. أي سَلْهُمْ فإنْ أجابُوكَ، فقالوا: للهِ، وإلّا فَقُلْ لَهُمْ أنتَ: لِلّهِ.

وقالَ قائلونَ: فإنْ سألُوكَ: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ للتَّوَّابِينَ أنْ يُدْخِلَهُمُ/ ١٤٤ ـ ب/ الجَنَّةَ. لا أحَدَ يَدخلُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، إنما يدخلُونَ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ. وعلى ذلكَ جاءَ الخَبَرُ عن نَبِيِّ اللهِ ﷺ قالَ: «لا يَدْخُلُ أحَدٌ الجَنَّةَ إلّا بِرَحْمَتِهِ. قِيلَ: ولا أنْتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ولا أنا إلّا أنْ يَتَغَمَّدَني اللهُ بِرَحْمَتِهِ» [مسلم ٢٨١٦/ ٧١ و... ٢٨١٨/ ٧٨].

وقيلَ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أنْ يَجْمَعَهُمْ إلى يوم القيامَةِ؛ أي مِنْ رَحْمَتِهِ أنْ يَجْمَعَهُمْ إلى يوم القِيامَةِ حيثُ جَعَلَ لِلعَدُوِّ عذاباً ولِلْوَلِيِّ ثَواباً؛ أي مِنْ رَحْمَتِهِ أنْ يَجْمَعَهُمْ جميعاً يُعاقِبُ العَدُوَّ، ويُثِيبُ الوَلِيَّ. وقيلَ: أي مِنْ رَحْمَتِهِ أنْ[2] جَعَلَ لَهُمُ الجَمْعَ، فأوعَدَ العاصِيَ العذابَ، ووَعَدَ المُطيعَ الثوابَ لِيَمْنَعَ العاصِيَ بذلكَ[3] عن عِصْيانِهِ ولِيُرَغِّبَ المُطيعَ في طاعَتِهِ. وذلكَ مِنْ رَحْمَتِهِ.

وقالَ قائلونَ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ لأمَّةِ محمدٍ ألّا يُعَذِّبَهُمْ عندَ التَّكذيبِ، ولا يَسْتَأصِلَهُمْ كما عَذَّبَ غَيْرَها[4] مِنَ الأُمَمِ، واسْتَأصَلَهُمْ عندَ التكذيبِ. فالتَّأخيرُ الذي أخَّرَهُمْ إلى يومِ القيامَةِ مِنَ الرَّحْمَةِ التي كَتَبَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قِيلَ: ﴿إِلَىٰ﴾ صِلَةٌ، ومَعْناهُ: لَيَجْمَعَنَّكُمْ يومَ القِيامَةِ. وقيل: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي لِيَومِ القِيامَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩] وقالَ قائلونَ: قولُهُ تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ في القُبورِ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ثم لَيَجْمَعَنَّكُمْ يومَ القِيامَةِ والقُرونَ السالِفَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا رَيْبَ في الجَمْعِ والبَعْثِ بَعْدَ المَوتِ عند مَنْ يَعْرِفُ أنَّ خَلْقَ الخَلْقِ لِلْفَناءِ خاصَّةً لا لِلْبَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ والثَّوابِ[5] والعِقابِ لَيْسَ بِحِكْمَةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ قد ذَكَرْنا.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في الآيةِ، واللهُ أعْلَمُ، إنْباءٌ أنَّ الخَلْقَ كُلَّهُمْ تَحْتَ قَهْرِ اللَّيلِ والنَّهارِ وسُلْطانِهِما مَقْهورينَ مَغْلوبينَ، إذْ لم يَكُنْ لأحَدٍ مِنَ الجَبابِرَةِ والفَراعِنَةِ الامتِناعُ عَنْهُما أو صَرْفُ أحدِهِما إلى الآخَرِ، بل يُدْرِكانِهِمْ شاؤوا، أو أبَوا، وسُلْطانُهُما جارٍ عليهِمْ لِيَعْلَمُوا أنَّ لِغَيْرٍ فيهِما تدبيراً وأنَّ قَهْرَهُما الخَلْقَ وسُلْطانَهُما كانَ بِسُلْطانِ مَنْ لَهُ التَّدبيرُ والعِلْمُ. ثم جَرَيانُهُما على سَنَنٍ واحِدٍ يَدُلُّ على أنَّ مُنْشِئَهُما واحدٌ ومُدَبِّرَهُما عَليمٌ حَكيمٌ.

وقالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وما اسْتَقَرَّ في اللَّيلِ والنَّهارِ مِنَ الدَّوابِّ والطَّيرِ في البَرِّ والبَحْرِ، فَمِنْها ما يَسْتَقِرُّ نَهاراً، ويَنْتَشِرُ لَيلاً، ومنها ما يَسْتَقِرُّ باللَّيلِ، ويَنْتَشِرُ بالنَّهارِ.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][6] قالَ: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وذلكَ أنَّ كُفّارَ أهلِ مَكَّةَ أتَوا رسولَ اللهِ ﷺ وقالوا:

---

(١) في الأصل و م: وقوله. (٢) من م، في الأصل: أي. (٣) في الأصل و م: ذلك. (٤) في الأصل و م: غيره. (٥) في الأصل و م: للثواب. (٦) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

يا محمدُ إنّا قد عَلِمْنا أنهُ ما يَحمِلُكَ على هذا الذي تدعو إليهِ إلّا الحاجةُ. فَنَحْنُ نَجعَلُكَ في أموالِنا حتّى تكونَ أغنانا رجلاً، وترجعَ عمّا أنتَ عليهِ، فنَزَلَ: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمقالةِ[1] أولئك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ مِن أينَ يَرزُقُهُمْ.

لكنّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا آنفاً أنَّ الخَلْقَ كُلَّهُمْ تَحتَ قَهرِهما وسُلطانِهما. وفيهما وُجوهٌ مِنَ الحِكْمَةِ: أحدُها بَعْضُ ما ذَكَرْنا لِيُعلَمَ أنَّ مُدبِّرَهما واحدٌ. وفيهِ نَقضُ قولِ الفلاسفةِ لأنهم يَقولونَ: الظُّلمَةُ كثافةٌ سَتّارةٌ، والنورُ رَقيقٌ دَرّاكٌ. وفيهما مِنَ المَنافعِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧] وغيرُها[2] مِنَ المنافعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِمَن دَعا لَهُ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالحِ الخَلْقِ وحاجتِهِمْ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ رَبّاً. كانَّ هذا صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قالوا للهِ. فإذا أقْرَرْتُم أنَّ ذلكَ كُلَّهُ لِلَّهِ فكيفَ تَتَّخِذونَ لَهُ شُركاءَ، فَتَعْبُدونَ غيرَ اللهِ؟ وهو ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومُنشِئُهُما ومُنشِئُ ما فيهما. كيف صَرَفْتُمُ العِبادَةَ إلى غيرِ اللهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ قالَ أهْلُ التأويلِ: هو يَرزُقُ، ولا يُرزَقُ، ولَيسَ كَمَنْ لهُ عَبيدٌ في الشاهِدِ يَرزُقُهُمْ بَعضُهُمْ بَعضاً الموالي مِنَ العَبيدِ والعَبيدُ مِنَ الساداتِ؛ يَنتَفِعُ بَعضُهُمْ مِن بَعْضٍ. فأمّا اللهُ ﷻ [فقد][3] خَلَقَ الخَلْقَ لا لِمَنفَعَةِ نَفسِهِ لأنهُ غَنيٌّ بذاتِهِ، والخَلْقُ فُقَراءُ إليهِ كقولِهِ تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ قالَ الحَسَنُ: أوَّلُ مَن أسلَمَ مِن قَومِهِ. وأصلُهُ: ﴿إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي أُمِرْتُ أنْ أُسلِمَ، واختَضِعَ[4] أنا أوَّلاً، ثم آمُرَكُمْ بذلكَ.

واحتَجَّ بَعضُ الناسِ بِظاهِرِ هذِهِ الآيةِ أنَّ الإسلامَ لا يُلْزَمُ إلّا بالأمْرِ والدُّعاءِ إليهِ، وقالوا: إنَّ مَن ماتَ قَبْلَ أنْ يُؤمَرَ بهِ وقَبْلَ أنْ يُدْعَى إليهِ فإنهُ لا شَيءَ عليهِ. وعلى ذلكَ مَنْ ماتَ في وَقْتِ الفَتْرَةِ وانْقِطاعِ الرُّسُلِ والوَحْيِ لأنهُ قال: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أخبَرَ أنهُ أُمِرَ بذلكَ. وإذا لم يكُنْ ثَمَّ أمرٌ لم يُلْزَمْ. لكنَّ الوجهَ في الآيةِ ما ذَكَرْنا؛ أي أُمِرْتُ أنْ أُسلِمَ، واخضَعَ أوّلاً، ثم آمُرَ غيري. فإذا كانَ التأويلُ هذا بَطَلَ أنْ يكونَ في ذلكَ حُجَّةٌ لَهُمْ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ قل يا محمدُ لِكُفّارِ أهلِ مكّةَ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ أي أعْلَمُ ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ فَعَبَدْتُ غيرَهُ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. هذا التأويلُ صحيحٌ، إنْ كانَ ما ذَكَرَ مِن سُؤالِهِمْ رسولَ اللهِ ﷺ وعَرْضِهِمُ المالَ عليهِ لِيَعودَ، ويَرْجِعَ إلى دينِهِمْ، فَيَخْرُجُ هذا على الجَوابِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ على الخوفِ. لكنْ لِقائلٍ أنْ يَقولَ: كيفَ خافَ عذابَ يومٍ عظيمٍ، وقد أخبَرَ أنهُ غَفَرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذنبِهِ وما تأخَّرَ؟ وكيفَ قال: ﴿إِنْ عَصَيْتُ﴾ وقد أخبَرَ أنهُ عَصَمَهُ، وغَفَرَ لَهُ؟ قِيلَ: يُحتَمَلُ أنْ تكونَ المَغفِرةُ لهُ على شَرْطِ الخَوفِ. غَفَرَ لَهُ لِيَخافَ عذابَهُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ قالَ بَعضُ المُعتَزِلَةِ: الرَّحمَةُ ههنا الجَنَّةُ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ في الآخِرَةِ دارَيْنِ: إحداهُما[5]: النارُ، سَمّاها سَخطَةً، والأُخرى: الجَنَّةُ، سَمّاها رَحمَةً. وإنما حَمَلَهُم على هذا لأنهُمْ لا يَصِفونَ اللهَ بالرحمَةِ في الأزَلِ. فَعَلى قَولِهِمْ يكونُ قولُ رسولِ اللهِ ﷺ حينَ[6] قال «لا يدخُلُ أحَدُ الجَنَّةَ إلّا بِرَحْمَتِهِ. قِيلَ: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ولا أنا إلّا أنْ يَتَغَمَّدَني اللهُ بِرَحْمَتِهِ، فأدخُلَ فيها» [مسلم: ٢٨١٦/ ٧١ و ٢٨١٨/ ٧٨].

وعلى هذا يَخرُجُ ما سَمّى المَطَرَ رَحمَةً لِما بِرَحْمَتِهِ يَنزِلُ[7]، وكذا كلُّ ما سَمّى رَحمَةً في الشاهِدِ يَخرُجُ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: لمقابلة. (٢) في الأصل وم: وغيره. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في م: وأخضع. (٥) في الأصل وم: أحدهما. (٦) في الأصل و م: حيث. (٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ...﴾ [الروم: ٥٠].

جنة السنة

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ﴾ قيلَ: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ﴾ العذابُ ﴿يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥ﴾. وكذلكَ رُوِيَ في حَرْفِ حَفْصَةَ: مَنْ يُصْرَفْ عنهُ شَرُّ ذلكَ اليومِ فَقَدْ رَحِمَهُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥ﴾ صِلَةَ قولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٥]. وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][1] قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ قُلْ لِكُفّارِ أهلِ مكّةَ حينَ يَدْعُونَكَ[2] إلى دينِهِمْ على ما ذُكِرَ في بَعْضِ القِصّةِ ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ وذلكَ الصَّرْفُ؛ يعني صَرْفُ العذابِ الفوزُ المُبِينُ. وإنما ذَكَرَهُ، واللهُ أعلَمُ، فوزاً مُبيناً لأنهُ فوزٌ دائمٌ، لا زوالَ لهُ، وليسَ كفوزِ هذهِ الدنيا؛ يكونُ في وَقْتٍ، ثم يزولُ عن قريبٍ. وكذلكَ فوزُ الآخِرةِ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ﴾ فيهِ إخبارٌ أنَّ ما يُصيبُ العَبْدَ مِنَ الضَّرَرِ والخيرِ إنّما يُصيبُهُ بِهِ.

ثم الضَّرَرُ المذكورُ في الآيةِ لا يَخلُو مِنْ أنْ يُرادَ سُقْمُ النَّفْسِ أو ضِيقُ العَيْشِ أو شِدّةٌ وظُلْمٌ يكونُ مِنَ العِبادِ لا يَخلو مِنْ هذهِ الأوْجُهِ الثلاثةِ. فإذا كانَ كذلكَ، دَلَّتْ[3] إضافةُ ذلكَ إلى اللهِ تعالى على أنَّ للهِ فيهِ فِعْلاً، وهو أنْ خَلَقَ فِعْلَ ذلكَ مِنهُمْ ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ مِنْ كَشْفِ الضُّرِّ لهُ والصَّرْفِ عنهُ وإصابةِ الخَيْرِ، لا يَمْلِكُ ذلكَ غيرُهُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [في][4] هذهِ الآيةِ والآيةِ/ ١٤٥ ـ أ/ الأولى ذِكْرُ أصْلِ التوحيدِ لأنهُ أخْبَرَ أنَّ ما يُصيبُ العِبادَ مِنَ الضَّرَرِ والشِّدّةِ لا كاشِفَ لِذلكَ إلّا هُوَ، ولا يَدْفَعُ ذلكَ عنهُمْ، ولا يَصْرِفُ إلّا اللهُ، وأنَّ ما يُصيبُهُمْ مِنَ الخيرِ إنّما يُصيبُ ذلكَ باللهِ، وأخبرَ أنهُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ إخبارٌ أنهُ قاهرٌ، يَقْهَرُ الخَلْقَ عزيزٌ قادرٌ، ولَهُ سُلْطانٌ عليهِمْ، وأنهُمْ أذِلّاءُ تَحْتَ سُلْطانِهِ. وفي قولِهِ تعالى: ﴿فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ إخبارٌ بالعُلُوِّ لَهُ والعَظَمةِ وبالتعالي عَنْ أشْباهِ الخَلْقِ ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ يَضَعُ كُلَّ شيءٍ مَوْضِعَهُ ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ بما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنُونَ؛ إخبارٌ أنهُ[5] لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ وأنهُ يَمْلِكُ وَضْعَ كلِّ شيءٍ مَوْضِعَهُ وأنَّ ما يُصيبُهُمْ مِنَ الضُّرِّ والشِّدّةِ إنما يكونُ بِهِ لا يَمْلِكُ أحَدٌ صَرْفَهُ، وأنَّ ما ضَرَّ أحَدٌ أحداً في الشاهِدِ أو نَفَعَ أحَدٌ أحداً إنما يكونُ ذلكَ باللهِ في الحَقيقةِ.

وفي هذهِ الأحْرُفِ إخبارٌ عنْ أصْلِ التّوحيدِ، وما يُحتاجُ إليهِ لِما ذَكَرْنا مِنَ الوَصْفِ لَهُ بالقُدْرةِ والقَهْرِ والوَصْفِ لَهُ بالعُلُوِّ والعَظَمةِ والتّعالي عنْ أشباهِ الخَلْقِ والوَصْفِ لَهُ بالحِكْمةِ في جَميعِ أفعالِهِ والعِلْمِ بِكُلِّ ما كانَ، ويكونُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ كأنَّ في الآيةِ إضماراً[6]، واللهُ أعلَمُ، أنْ قُلْ يا محمدُ ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ فيَقولونَ ﴿ٱللَّهُ﴾ لأنهُمْ كانُوا يُقِرُّونَ أنهُ خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ وأنهُ أعظَمُ مِنْ كُلِّ شيءٍ، لكنّهُمْ يُشْرِكونَ غيرَهُ في عِبادَتِهِ، ويَقُولونَ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وإلّا كانُوا يُقِرُّونَ بالعَظَمةِ والجَلالِ. فإذا سألُوا ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ فإنّكَ إذا قُلْتَ لَهُمْ ذلكَ يَقولونَ هُمْ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ في كلِّ اخْتِلافٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُمْ في التّوحيدِ والبَعْثِ بَعْدَ الموتِ ونَحْوِهِ. ويَحْتَمِلُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ في كُلِّ حُجّةٍ وبُرْهانٍ أتاها الرسولُ إليهِمْ[7].

وفي قولِهِ: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ﴾ دلالةُ أنهُ يُقالُ لَهُ شيءٌ لأنهُ لو لم يَجُزْ أنْ يُقالَ لهُ شيءٌ لم يَسْتَثْنِ الشَّيءَ منهُ، وكذلكَ في قولِهِ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١] أنهُ شيءٌ لأنهُ[8] لا شَيءَ في الشّاهِدِ. إنما يُقالُ: إمّا لِلنَّفْيِ وإمّا لِلتَّصْغيرِ، فلا يَجوزُ في الغائبِ النَّفْيُ ولا التَّصْغيرُ، دلَّ أنهُ إنما يُرادُ بالشَّيءِ الإثباتُ، لا غَيْرَ، وباللهِ العِصْمَةُ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل وم: دعوك. (٣) في الأصل و م: فدل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل و م: أن.
(٦) في الأصل و م: إضمار. (٧) في الأصل و م: بهم. (٨) في الأصل و م: لن.

جنة السنة

ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ في قولِهِ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ أنَّ رُؤساءَ مَكَّةَ أتَوا رسولَ اللهِ، فَقالُوا: يا محمدُ أمَا وَجَدَ اللهُ رسولاً يُرْسِلُهُ غَيْرَكَ؟ ما نَرى أحداً يُصَدِّقُكَ بِما تَقولُ. وقد سَألْنا عنكَ اليَهودَ والنَّصارَى، فَزَعَموا أنهُ لَيسَ لكَ عندَهُمْ ذِكْرٌ ولا صِفَةٌ ولا مَبْعَثٌ، فأرِنا مَنْ شهِدَ لَكَ أنكَ رسولُ اللهِ؟ فقالَ اللهُ ﷺ: يا محمدُ قُلْ لَهُمْ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ يقولُ: أعْظَمُ شهادةً؛ يعني البُرْهانَ: محمدٌ حُجّةٌ وبُرْهانٌ، وكُلُّ نَبيٍّ حُجّةٌ وبُرْهانٌ. فإنْ أجابُوكَ، فَقالُوا: اللهُ، وإلّا فَقُلْ لَهُمْ: اللهُ أكْبَرُ شهادةً مِنْ خَلْقِهِ. أنيِ رسولُهُ، واللهُ ﴿شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ في كُلِّ اختلافٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُم: في التَّوحيدِ وإثباتِ الرسالةِ والبَعْثِ وكُلِّ شيْءٍ.

وذُكِرَ في هذِهِ القِصّةِ أنَّهُم لمّا قالُوا: مَنْ يَشْهَدُ أنَّ اللهَ أرْسَلَكَ رسولاً؟ قالُوا: فَهلّا[1] أُنْزِلَ إليكَ مَلَكٌ؟ فقالَ لِنَبيِّهِ: قُلْ لَهُمْ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فقالوا: اللهُ أكبرُ شهادةً مِنْ غَيرِهِ، فقالَ اللهُ: قُلْ يا محمدُ: ﴿ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أني رسولُ اللهِ وأنهُ أُوحِيَ ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ القرآنُ مِنَ الجنِّ والإنسِ فهو نذيرٌ لَهُ. ثم قالَ لَهُمْ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ قالوا: نَعَمْ نَشْهَدُ. فقالَ اللهُ لِنَبيِّهِ قُلْ لَهُمْ: ﴿لَّآ أَشْهَدُ﴾ بِما شَهِدْتُمْ، ولكنْ أشْهَدُ أنما ﴿هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ كأنهُ قالَ: أوحِيَ إليَّ هذا القرآنُ الذي يَعْرِفُونَهُ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ جاءَ لأنهُ قالَ لَهُمْ: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣ ويونس: ٣٨] فَعَجِزُوا عن إتيانِ مِثْلِهِ، فَدَلَّ عَجْزُهُمْ عن إتيانِ مِثْلِهِ أنهُمْ عَرَفُوا أنهُ جاءَ مِنْ عندِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ كأنهُ قالَ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ ومَنْ[2] بَلَغَ القرآنُ صارَ رسولُ اللهِ نَذيراً بِبلوغِ القرآنِ لِمَنْ بَلَغَهُ. فإذا صارَ نَذيراً بِهِ لِمَنْ بَلَغَهُ، وإنْ كانَ هو في أقصى الدنيا، يَصيرُ هو نَذيراً في أقصى الزمانِ في كُلِّ زمانٍ. وهو، واللهُ أعْلَمُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] ورسولُ اللهِ هادٍ لِقومِهِ إلى يومِ القِيامَةِ.

وفي الآيةِ دلالةُ أنَّ البِشارةَ والنِّذارةَ تَكُونانِ بِبَعْثِ آخَرَ يُبَشِّرُ، أو يُنْذِرُ. وهو دليلٌ لِقولِ أصحابِنا: إنَّ مَنْ حَلَفَ: أيُّ عبدٍ مِنْ عَبيدي، بَشَّرَني بكذا، فهو حُرٌّ، فَبَشَّرَهُ برسولٍ بكتابٍ فيكونُ بِشارةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ هذا في الظاهِرِ اسْتِفْهامٌ، ولكنهُ في الحَقيقةِ إيجابُ أنكُمْ تَشْهَدُونَ أنَّ معَ اللهِ آلهةً أُخرى بَعْدَ ما ظَهَرَ عندَكُمْ آياتُ وَحْدانِيَّتِهِ[3] وحُجَجُ رُبوبِيَّتِهِ[4] لَمّا عَرَفْتُمْ أنه خالِقُكُمْ وخالِقُ السمواتِ والأرضِ؛ بِهِ تَعِيشُونَ، وتَحْيَوْنَ، وبِهِ تَمُوتُونَ بعدَما[5] ظَهَرَ لكُمْ هذا أشْرَكْتُمْ معَ اللهِ آلهةً أُخرى. ولَيسَ ذلكَ لكُمْ مِمّا تُشْرِكونَ في عِبادَتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ، وأنا ﴿لَّآ أَشْهَدُ﴾ وإنما أشْهَدُ أنهُ ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ قِيلَ: نَزَلَتْ سورةُ الأنعامِ في مُحاجّةِ أهْلِ الشِّرْكِ إلّا آياتٍ نَزَلَتْ في مُحاجّةِ أهلِ الكتابِ: إحداها هذِهِ. وجائزٌ أنْ يكونَ أهْلُ الشِّرْكِ يَعْرِفونَ أنهُ رسولٌ كما يَعْرِفونَ أبناءَهُمْ، ويكونَ الكتابُ هو القرآنَ ههنا لمّا قَرَعَ أسْماعَهُمْ هذا القرآنُ، وأُمِرُوا أنْ يأتُوا بِمِثْلِهِ، فَعَجِزُوا عنهُ، أو بما كانُوا يَخْتَلِفُونَ إلى أهلِ الكتابِ، ويَسْألُونَهُمْ عن بَعْثِهِ[6] وصِفَتِهِ، ويُخْبِرُونَهُمْ. فَعَرَفَ أهْلُ الشِّرْكِ أنهُ رسولٌ كما عَرَفَ أهلُ الكتابِ بوجودِ بَعْثِهِ[7] وصِفَتِهِ، ويُخْبِرُونَهُمْ في كتابِهِمْ.

ورُوِيَ عن عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ أنهُ قالَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلامٍ: وإنَّ اللهَ قد أنْزَلَ على نَبيِّهِ ﷺ بِمَكّةَ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ فكيفَ يا عبدَ اللهِ المَعْرِفَةُ؟ فقالَ عبدُ اللهِ: يا عُمَرُ لقد عَرَفْتُهُ فيكُمْ حِينَ رَأيْتُهُ كما أعْرِفُ ابْني إذ رَأيْتُهُ معَ الصِّبْيانِ يَلْعَبُ، وأنا أشَدُّ مَعْرِفةً بِمحمدٍ مِنّي لابْني. فقالَ: كيفَ ذلكَ؟ فقالَ: أنا أشْهَدُ أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ حَقٌّ مِنَ اللهِ. ولا أدْري ما صَنَعَ النِّساءُ؟ أو ما أحْدَثَ النِّساءُ؟ وقد نَعَتَهُ في كِتابِنا. فقال عُمَرُ: صَدَقْتَ، وأصَبْتَ.

---

(١) في الأصل و م: فهل لا. (٢) في الأصل وم: وأنذر من. (٣) في الأصل و م: وحدانية. (٤) في الأصل و م: ربوبية. (٥) في الأصل و م: عما. (٦) في الأصل و م: نعته. (٧) في الأصل و م: نعته.

جنة السنة

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: لا أحدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ لكنَّ هذا في الحقيقةِ كأنَّهُ سُؤالٌ واستِفهامٌ؛ كأنَّهُ قالَ: مَنْ أظلَمُ مِنَ الظالِمينَ؟ قالَ: مَنِ ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾. يُقالُ: مَنْ فَعَلَ هذا؟ قالَ: فُلانٌ، أو مَنْ قالَ هذا؟ قالَ: فُلانٌ. فهوَ، واللهُ أعلَمُ، على السُّؤالِ والاستِفهامِ.

ثم قيلَ: الذينَ افتَرَوا على اللهِ كَذِباً أنَّ مَعَهُ شريكاً لِقولِهِمْ: إنَّ مَعَ اللهِ آلهةً أُخرى.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ قيلَ: محمدٌ ﷺ وقيلَ القرآنُ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ بِظُلْمِهِمْ. لكنْ عندَ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ ما داموا في ظُلْمِهِمْ، ونقولُ[1]: لا يُفلِحُ الظالِمونَ إذا ختَموا، وماتُوا على الظُّلْمِ والكُفرِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ذكَرَ ههنا شُركاءَكُمْ؛ أضافَ ذلكَ إليهِمْ لأنهُمْ كانوا مِنْ جِنسِهِمْ وجوهَرِهِمْ يَفنَونَ كما يَفنَونَ. وذكَرَ في آيةٍ أُخرى ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٧٤].

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: الآيةُ نزَلَتْ في المُنافِقينَ؛ وذلكَ أنَّهُمْ كانوا يُكَذِّبونَ في الدنيا في ما بَيْنَهُمْ، فظَنّوا أنْ يتروَّجَ كَذِبُهُمْ في الآخِرةِ كما كانَ يَتروَّجُ في الدنيا. وسمّاهُمْ مُشركِينَ لأنهُمْ كانوا أشرَكوا في السِّرِّ، فقالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وقالَ غيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ: الآيةُ /١٤٥ - ب/ نزَلَتْ في أهلِ الشِّرْكِ مِنَ العرَبِ؛ وذلكَ أنَّهُمْ كانوا يُشرِكونَ معَ اللهِ آلِهةً، وكانوا يُنكِرونَ البَعْثَ بَعْدَ الموتِ، ويُنكِرونَ الرسالةَ. فلمّا أنْ عايَنوا ذلكَ أنكَروا أنْ يكونوا أشرَكوا غيرَهُ في أُلوهِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ أي لم يَكُنِ افتِتانُهُمْ في الدنيا بافتِرائِهِمْ على اللهِ الكَذِبَ وإشراكِ غيرِهِ[2] مَعَهُ وتكذيبِهِمْ بآياتِ اللهِ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ في الآخِرةِ ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وذُكِرَ في بَعْضِ القِصّةِ أنَّ المُشرِكينَ في الآخِرةِ لَمّا رَأَوا كيفَ يَتجاوَزُ اللهُ عن أهلِ التوحيدِ، فقالَ بعضُهُمْ لِبَعْضٍ: إذا سُئِلْنا فقُولوا: إنّا كُنّا مُوَحِّدينَ، فلمّا جمَعَهُمُ اللهُ وشُركاءَهُمْ، فقالَ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ في الدنيا بأنهُمْ مَعي شُركاءُ[3]؟

[وقولُهُ تعالى][4] ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: مَعذِرَتُهُمْ وجوابُهُمْ. إلا[5] الكَذِبَ حينَ سُئِلوا، فقالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ تبرَّؤُوا مِنْ ذلكَ.

الآية ٢٤ ثم قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ في الدنيا قيلَ: لَمّا أنكَروا أنْ يَكونوا مُشرِكينَ في الدنيا ختَمَ اللهُ على ألسِنَتِهِمْ، وشَهِدَتِ الجوارحُ عليهِمْ بالشِّرْكِ. وقيلَ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يقولُ: كيفَ صارَ وَبالُ كَذِبِهِمْ عليهِمْ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ قيلَ: واشتَغَلَ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ يقولونَ؛ يُكَذِّبونَ.

وأصلُهُ أنهُ يُذَكِّرُ نبيَّهُ شِدَّةَ تَعَنُّتِهِمْ وسَفَهِهِمْ أنهُمْ كيفَ يُكَذِّبونَ عندَ مُعايَنةِ العذابِ؟ فإذا كانوا بِنَأْيٍ منهُ وبُعْدٍ كانوا أشَدَّ تَكذيباً وأكثَرَ تعَنُّتاً[6] لأنهُمْ يَطلُبونَ الرَّدَّ إلى الدُّنيا [كقولِهِمْ][7] ﴿فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] [وكقولِهِ][8] ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

أحدُها][9]: كانوا يَستَمِعونَ إليهِ لِيُجادِلُوهُ على ما ذكَرَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ﴾ دلَّ هذا أنَّهُمْ كانوا يَستَمِعونَ إليهِ لِلمُجادَلةِ مَعَهُ والخُصومةِ.

---

(١) في الأصل و م: ويقول (٢) من م، في الأصل: غير. (٣) في الأصل و م: شريك. (٤) ساقطة في الأصل و م. (٥) في الأصل و م: إلا أن. (٦) في الأصل و م: تعنتهم. (٧) و(٨) و(٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقيلَ في بَعْضِ الحكاياتِ أنّ الناسَ كانُوا ثلاثَ[1] فِرَقٍ في أخبارِ الرُّسُلِ والأنبياءِ عليهم السلام مِنهُمْ مَنْ يَستَمِعُ لِلْجَمْعِ والاسْتِكْثارِ، ومِنهُمْ مَنْ يَستَمِعُ لِيأخُذَ عليهِمْ سَقَطاتِهِمْ وما يَجري على لِسانِهِمْ مِنَ الخَطَإِ، ومِنهُمْ مَنْ يَستَمِعُ لِيأخُذَ الحَقَّ منهُ، ويَترُكَ الباقيَ. لكنّ هؤلاءِ يَستَمِعُونَ إليهِ لِيُخاصِمُوا في ذلكَ، ولِيُجادِلُوهُ لِيَعرِفَ قومُهُمْ أنهُمْ يَستَمِعُونَ إليهِ، ويَعرِفونَ ما يَقولُ لِيَصِدُّوا بذلكَ أتْباعَهُمْ.

والثاني: يَستَمِعُونَ، ويُحاجُّونَ في ذلكَ لِيُعرَفُوا أنهُمْ أهلُ حِجاجٍ وعِلْمٍ لِيَصِدُّوهُمْ عنهُ.

ثم يَحتَمِلُ[2] أنْ يكونُوا أهلَ نِفاقٍ لأنهُمْ كانُوا يُرَوْنَ يُظهِرونَ[3] المُوافَقَةَ لِرَسولِ اللهِ ﷺ ويُضمِرُونَ الخِلافَ لَهُ.

ويَحتَمِلُ[4] [أن يكونُوا][5] أهلَ الشِّرْكِ أي رؤساءَهُمْ يَستَمِعُونَ إليهِ، ويُجادِلُونَهُ[6] في ما يَستَمِعُونَ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [أخبَرَ أنّ على قُلُوبِهِمْ أكِنَّةً وفي آذانِهِمْ وَقراً][7]، وقالَ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨ و١٧١] نَفَى عَنهُمْ ذلكَ لِما [لَمْ][8] يَنتَفِعُوا بذلكَ كُلِّهِ. وإنْ لم يَكُونُوا في الحَقيقَةِ صُمّاً ولا بُكماً ولا ما ذُكِرَ لِما لمْ يَنتَفِعُوا بما أنشأَ فِيهِمْ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ والعَقْلِ فَنَفَى عنهُمْ ذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ لا تَخلُو إضافَةُ ذلكَ إلى نَفسِهِ مِنْ أنْ يكونَ خَلَقَ مِنهُمْ فِعلَ الكُفرِ، أو خَلَقَ الظُّلْمَةَ في قُلُوبِهِمْ؛ يعني ظُلْمَةَ الكُفرِ لأنّ ظُلْمَةَ الكُفرِ تَستُرُ، وتُغَطّي كلَّ شيءٍ، ونُورَ الإيمانِ يُنيرُ منهُ كُلَّ شيءٍ. فإضافَةُ الفِعْلِ إليهِ لا تَخلُو مِنْ أحَدِ هذينِ الوَجْهَينِ؛ إمّا لخلقِ فِعْلِ الكُفرِ منهُمْ فَفِيهِ دَلالَةُ خَلْقِ أفعالِهِمْ، وإمّا لِخَلْقِ ظُلْمَةِ الكُفرِ في قُلُوبِهِمْ فَفِيهِ رَدُّ قولِ المُعتَزِلَةِ لإنكارِهِمْ خَلْقَ فِعْلِ العِبادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قِيلَ: الوَقْرُ هو الثِّقَلُ في السَّمْعِ؛ يُقالُ: وُقِرَتْ أُذُنُهُ تُوقَرُ وَقْراً، فهيَ مَوقُورَةٌ. وأمّا الوِقْرُ فهوَ الحِمْلُ، وقالَ أبو عوسَجَةَ: الوَقْرُ الصَّدْعُ في العَظْمِ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ يَحتَمِلُ ﴿كُلَّ ءَايَةٍ﴾ آيَةَ وَحدانِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ وقُدْرَتِهِ على البَعْثِ وآيَةَ رِسالَتِهِ ونُبُوَّتِهِ. ويَحتَمِلُ ﴿كُلَّ ءَايَةٍ﴾ سَألُوا أنْ يأتِيَ بها؛ يقولُ: وإنْ[9] أُوتِيتَ بِكُلِّ آيَةٍ سَألُوكَ لا يُؤمِنُوا[10] بكَ بَعْدَ ذلكَ أبداً كَقَولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] ونَحْوُ ذلكَ مِمّا سَألُوا مِنَ الآياتِ؛ يَقولُ: وإنْ جِئْتَ بما سَألُوكَ مِنَ الآياتِ لا [يُؤمِنُوا بكَ، ولا يُصَدِّقُوكَ، ويَقولُوا][11]: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قِيلَ: أحاديثُ الأوَّلِينَ. والأُسطُورَةُ: الكِتابُ.

يَقولُونَ ذلكَ تَعَنُّتاً مِنهُمْ لأنهُمْ كانُوا يَعرِفونَ أنهُ حَقٌّ وأنهُ لَيسَ بِكلامِ البَشَرِ لأنهُمْ عَجَزُوا عن إتيانِ مِثْلِهِ. ولو كانَ مُفتَرًى على ما قالُوا لَقَدَرُوا هُمْ على أنْ يأتُوا بِشَيءٍ مِثْلِهِ حِينَ[12] قِيلَ لَهُمْ: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣ ويونس: ٣٨] فَعَلِمُوا بِعَجْزِهِمْ عَنْ إتيانِ مِثْلِهِ أنهُ لَيسَ مِنْ كَلامِ البَشَرِ وأنهُ سَماوِيٌّ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي يَتَباعَدُونَ منهُ؛ يَنهَونَ غَيرَهُمْ عنِ اتّباعِهِ، ويَتَباعَدُونَ[13] هُمْ. ويَحتَمِلُ ما ذُكِرَ في القِصّةِ أنّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ عندَ أبي طالبٍ، يَدْعُوهُ إلى الإسلامِ، اجْتَمَعَتْ قُرَيشٌ عندَهُ لِيُرِيدُوا بالنَّبِيِّ سُوءاً. قالَ أبو طالبٍ، وأنشَدَ فيهِ:

والله لَنْ يَصِلُوا إليكَ بِجَمْعِهِمْ ... حتى أُوَسَّدَ في التُّرابِ دَفِينا
فاصْدَعْ بِأمْرِكَ ما عَلَيكَ غَضاضَةٌ ... وَابْشِرْ، وَقَرَّ بِذاكَ مِنكَ عُيُونا
فَدَعَوتَنِي، وزَعَمْتَ أنّكَ ناصِحٌ ... ولَقَدْ صَدَقْتَ، وكُنْتَ ثَمَّ أمِينا

---

(١) في الأصل و م: ثلاثة. (٢) هذا هو الوجه الثالث. (٣) في الأصل و م: ويظهرون. (٤) هذا هو الوجه الرابع. (٥) ساقطة من الأصل و م.
(٦) في الأصل و م: ويجادلوه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) من م، في الأصل: وأنا. (١٠) في الأصل وم: يؤمنون. (١١) في الأصل وم: يؤمنون بك ولا يصدقونك ويقولون. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: وتباعدون.

جنة السنة

وعَرَضْتَ دِيناً، قَدْ عَلِمْتُ بأنَّهُ مِنْ خَيْرِ أَدْيانِ البَرِيَّةِ دِينا
لولا الذَّمامَةُ، أو أحاذِرَ سَبَّةً لَوَجَدْتَنِي سَمْحاً بِذاكَ مُبِينا[1]

كانَ يَنْهَى الناسَ عن أذى محمدٍ ﷺ ويَتباعَدُ هو عنهُ، فلا يَتْبَعُهُ في دينِهِ، فَتَرَكَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إنهُمْ بذلكَ يَسْعَونَ في هَلاكِ أَنْفُسِهِمْ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ عنِ الحَسَنِ [أنهُ][2] قال: سَتَرَى ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾. وفي حرفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ: وَلَو تَرَى إذْ عُرِضُوا على النارِ. وكذلكَ في ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]: إذْ عُرِضُوا على رَبِّهِمْ. وَلولا ما رُوِيَ عنِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ وُقِفُوا: عُرِضُوا على النارِ، لَجازَ[3] أنْ يُحْمَلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي عندَ النارِ أو في النارِ: على مَكانَ عِنْدَ أو مَكانَ في. و ذلكَ جائِزٌ في اللغةِ. ولكنْ ما رُوِيَ عنِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ أغنانا[4] عن ذلكَ.

ثم يُحْتَمَلُ، واللهُ أعْلَمُ، أنْ يكونَ هذا صِلَةَ [قولِهِ تعالى][5]: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] وهكذا الواجِبُ على كُلِّ أحدٍ أنْ يَرْحَمَ عَدُوَّهُ إذا كانَ عاقِبَتُهُ النارَ والتَّخَلُّدَ فيها، وألا يَطْلُبَ الانْتِقامَ مِنْهُ بما كانَ منهُ بِمَكانِهِ أو أنْ يُقالَ: ولَو تَراهم ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ مِنَ الذُّلِّ والخُضوعِ لَرَحِمْتَهُمْ بما كانَ مِنْهُمْ مِنَ التَّكَبُّرِ والاسْتِكْبارِ في الدنيا، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] الآية، أخْبَرَ عنْ ذُلِّهِمْ وخُضوعِهِمْ في الآخِرَةِ بِما كانَ مِنْهُمْ في الدنيا مِنَ الاسْتِكْبارِ والاسْتِنْكافِ. فَعَلَى ذلكَ يُخْبِرُ نَبِيَّهُ عمّا يُصيبُهُمْ مِنَ الذُّلِّ بِتَكَبُّرِهِمْ في الدنيا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تَمَنَّوا عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ العَودَ والرَّدَّ.

ثم فيهِ دَليلانِ:

أحَدُهُما: أنَّهُمْ عَرَفُوا أنَّ ما أصابَهُمْ بِتَكذيبِهِمُ الآياتِ وتَرْكِهِمُ الإيمانَ حينَ قالُوا: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾.

والثاني: أنَّ الإيمانَ هو التَّصْديقُ الفَرْدُ لا غيرَ لأنهُمْ فَزِعُوا عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ، تَمَنَّوُا الرَّدَّ والعَودَ إلى الدنيا أنْ يَكونُوا مِنَ المؤمنينَ، لم يفْزَعُوا إلى شَيءٍ آخَرَ مِنَ الخيراتِ. دلَّ أنَّ الإيمانَ هو التَّصْديقُ الفَرْدُ لا غيرَ، وأنهُ ضِدُّ التَّكْذيبِ. والتَّكْذيبُ هو فَرْدٌ. فَعَلَى ذلكَ التَّصْديقُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ قيلَ فيه بِوُجوهٍ: قالَ بَعْضُهُم: قولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: ٢٥] إنها نَزَلَتْ في المُنافِقينَ. يدلُّ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ / ١٤٦ - أ/ مِن قَبْلُ﴾ وهو سِمَةُ[6] أهلِ النِّفاقِ: أنَّهُمْ يُظْهِرُونَ المُوافَقَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ، ويُضْمِرُونَ الخِلافَ، ويُخْفُونَ العَداوَةَ لَهُمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ رُؤساءَهُمْ؛ كانُوا عَرَفُوا في الدنيا أنهُ رسولُ اللهِ، وأنَّ ما أُنْزِلَ عليهِ، هو مِنَ اللهِ، وعَرَفُوا أنَّ البَعْثَ حَقٌّ، لكنَّهُمْ أخفَوا ذلكَ على أتباعِهِمْ، وأسَرُّوهُ، ثم ظَهَرَ ما كانُوا يُخْفُونَ على أتباعِهِمْ.

وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ وذلكَ أنَّهُمْ حِينَ قالُوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧] أي حُبِسُوا؛ إذِ الوُقُوفُ حَبْسٌ، ولو وُقِفَ: حُبِسَ، والنارُ لا يُوقَفُ عليها، بل يَكونُ فيها كما قالَ ﷻ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وقالَ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

---

(١) أدرجت هذه الأبيات في البحر المحيط مع اختلاف في اللفظ [٤/٤٧١]. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وإلا يجوز. (٤) في الأصل وم: أقنعنا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: سمته.

جنة السنة

ويَحتَمِلُ الوَقفُ عِندَها قَبلَ الدُّخولِ في حالِ الحِساب[1] لِلمُساءَلةِ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ الآية [الصافات: ٢٢]، وكقولِهِ[2] تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ أي لو تَرى ذُلَّهُمْ وخُضوعَهُمْ، وكقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾ [السجدة: ١٢].

ولم يُبيِّنْ جوابَ لو. وقد يُترَكُ جوابُ لو لِما يُعلَمُ: رُبَّما يُعلَمُ بالتَّأمُّلِ أو بالذِّكرِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾ [النور: ١٢] بِمَعنى ظَنَنْتُمْ أو على ما ذَكَرَ في مَوضِعٍ آخَرَ نَحوِ قولِهِ تعالى ﴿قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ [النور: ١٦] وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠] إنما يُجيبُ لِـ: لَو وغَيرِ ذلكَ. فلَعلَّ مَعناهُ: لو تَرى ذُلَّهُمْ بَعدَ استِكبارِهِمْ لَرَحِمتَهُمْ على ما هُمْ عليهِ، ولَهانَ عليكَ التَّصبُّرُ لأذاهُمْ، ولاشْفَقتَ عليهِمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ ما يَنزِلُ بهِمْ مِنْ نَقمَةِ اللهِ؛ ويَحِلُّ بِهِمْ مِنْ عَذابِهِ لَعَلِمْتَ أنَّ القُوَّةَ للهِ جميعاً وأنهُ بِحِلْمِهِ[3] ورَحمَتِهِ يُملِي لَهُمْ، وتَستَرجِعُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ١٦٥] ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ جَوابُهُ في ما ذَكَرَ مِنْ تَمَنِّيهِمُ العَودَ ونَدامَتِهِمْ على ما سَلَفَ مِنهُمْ وشِدَّةِ تَلَهُّفِهِمْ على صَنيعِهِمْ لَرَأيْتَ ذلكَ كافياً وجُزءاً بالغاً [لِما يكونُ ما][4] يَنزِلُ بِهِمْ أعظَمَ عِندَكَ مِمّا تَلَقّى مِنهُمْ.

وقد يَخرُجُ الخِطابُ لِرَسولِ اللهِ على تَضَمُّنِ تَنبيهِ كُلِّ مُمَيِّزٍ وتَذكيرِ كُلِّ مُتأمِّلٍ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾ قيلَ: إلى الدنيا، وقيل: إلى المِحْنَةِ مِنْ حَيثُ لا يُحتَمَلُ كَونُ الدنيا بَعدَ كَونِ الآخِرَةِ. لكنَّ هذا تَكَلُّفُ تحقيقِ مُرادِ قَومٍ ظَهَرَ سَفَهُهُمْ. ولَعَلَّهُ لَيسَ عندَهُمْ هذا التَّمييزُ، أو يَقولونَ سَفَهاً كما قالُوا كَذِباً بِقولِهِ: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

[وقولُهُ][6] ﷻ ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [قالَ الحَسَنُ: بِدِينِ رَبِّنا][7]. وقالَ قومٌ: بِحُجَجِ رَبِّنا، فَيكونُ في الآيةِ اعتِرافُ أنَّهُمْ على التَّعَنُّتِ كَذَّبُوا في الأوَّلِ لا على الجَهلِ. وإنْ كانَ ثَمَّ آياتٌ عانَدُوها، وهُمْ قومٌ قد سَبَقَ مِنَ اللهِ الخَبَرُ عَنهُمْ مِمّا فيهِ العِنادُ مِنْهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. وذلك يَدُلُّ على تَعَنُّتِهِمْ في القَولِ لِيَتخلَّصُوا[8] مِمّا بُلُوا بِجَميعِ ما يَحتَمِلُ وُسعُهُمْ، لا أنَّ ذلكَ كذلكَ في قُلوبِهِمْ. لذلكَ، واللهُ أعلَمُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾.

ثم دلَّ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [على أمرَينِ:

الأوَّل:][9] أنهُمْ قد عَرَفُوا أنَّ الإيمانَ هو التَّصديقُ.

والثاني: أنهُمْ ذَكَرُوا الآياتِ، والآياتُ يُكَذَّبُ بها، ويُصَدَّقُ، لا أنْ يُعمَلَ.

وبَعدُ فإنَّ الذي في حدِّ إمكانِ الإتيانِ مِمّا فاتَ هو التَّصديقُ؛ إذِ الغَيرُ لو تَوَهَّمَ الأمرَ لَوَجَدَ[10] ما سَبَقَ مِنَ التَّركِ. والتَّصديقُ لو أُمِرَ فهوَ لِما سَبَقَ مِنَ التَّكذيبِ. على أنهُ أُجمِعَ ألّا يُؤمَرَ مَنْ آمَنَ بِقضاءِ مِمّا فاتَ، فَثَبَتَ أنهُمْ أرادُوا بِهِ التَّصديقَ. وفيهِ أنهُ اسمٌ لِذلِكَ حتّى عَرَفَهُ أهلُهُ وغَيرُ أهلِهِ مَعرِفةً واحدةً، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][11] ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾ يَخرُجُ على وُجوهٍ:

أحدُها: على أنَّ الآيةَ في أهلِ النِّفاقِ تُظهِرُ[12] ما قد أضمَرُوا مِنَ الكُفرِ.

والثاني: أنْ تكونَ الآيةُ في رُؤساءِ الكَفَرَةِ العُلَماءِ بالبَعثِ وبأنَّ الرُّسُلَ يَكونونَ[13] مِنَ البَشَرِ.

---

(١) من م، في الأصل: الحسنات. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بحمله. (٤) من م، في الأصل: أو يكون لما. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل، (٨) من م، في الأصل: ليستخلصوا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ليوجد. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: ظهر. (١٣) في الأصل وم: تكون.

جنة السنة

[والثالث][1]: أنْ لا شريكَ لِلّهِ؛ فَبَدا لِلأتباعِ[2] ما كانَ الرُّؤساءُ يُخفُونَ في الدنيا، ويَحْتَمِلُ: وبَدَا لَهُمْ مِنْ صَنيعِهِمْ ما قد أسَرُّوهُ، وأضمَروهُ في أنفُسِهِمْ؛ ظَنُّوا ألّا يَطَّلِعُ على ذلكَ أحدٌ، وذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] وقولِهِ تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] وغيرِ ذلكَ، ويَحْتَمِلُ: ما كانُوا يُخْفُونَ مِنَ الخَلْقِ أو بَدَا لَهُمْ ذلكَ بالجَزاءِ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ﴾ أي إلى ما تَمَنَّوا أنْ يُرَدُّوا إليهِ ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ أخْبَرَ اللهُ عَنْ عِلْمِهِ بما قد أسَرُّوهُ في ذلكَ الوقتِ أنَّ ما كانَ في عِلْمِهِ أنْ يكونَ، وإنْ كانَ مِنْ حُكْمِهِ، ألّا يُرَدُّوا في ذلك [أنّ][4] الآيةَ لا تُضْطِرُ صاحِبَها، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقالَ قومٌ: إن الخُلودَ يُلْزِمُ في النارِ بما هُمْ في عِلْمِ اللهِ أنهُمْ يَلْزَمُونَ ما هُمْ عليهِ لو مَكَثُوا لِلأبَدِ. وقالَ قومٌ: إذا لم يَجُزْ لُزومُ العذابِ بِما لم يَعْلَمِ اللهُ مِنَ العِنادِ مِنْ أحَدٍ لوِ امْتُحِنَ بلا مِحْنةٍ ولا خِلافٍ. فَعَلَى ذاكَ أمْرُ الخِلافِ لكنَّ الآيَةَ في خاصٍّ مِنْهُمْ، وهُمُ الذينَ اعْتَدَوا، وعانَدُوا[5] الحَقَّ بَعْدَ الوُضوحِ على ما ذُكِرَ في كَثيرٍ مِنَ الكَفَرَةِ أنهُمْ لا يُؤْمِنونَ أبداً. ثم أمْهَلَهُمْ على ذلكَ. وهذا يُبَيِّنُ أنْ لَيسَ تَمْنَعُ الإعادةُ لِما يَعُودُونَ لَهُ لو كانَ تَحْتَمِلُ في الحِكْمَةِ الإعادةَ؛ إذْ قد أمْهَلَ، وأبْقَى على العِلْمِ بذلكَ. فَعَلَى ذلكَ الإعادةُ. لكنَّهُ أخْبَرَ عَنْ تَعَنُّتِهِمْ.

ثم ظَنَّتِ المُعْتَزِلَةُ أنَّ اللهَ لو عَلِمَ أنهُمْ لا يُؤمِنونَ لَرَدَّهُمْ إلى ذلكَ؛ إذْ بَيَّنَ أنهُمْ لا يُؤْمِنونَ، فَيَسْتَدِلُّونَ بهذا أنْ لَيسَ لِلّهِ قَبْضُ رُوحِ يَعْلَمُ أنهُ لو لم يَقْبِضْهُ يُؤْمِنُ يوماً مِنَ الدَّهرِ. وقد بَيَّنّا نَحْنُ أنَّ ذلكَ لا يُوجِبُ، إنْ كانَ أولئكَ في عِلْمٍ، أنْ يَعُودُوا إلى ذلكَ بِما قد يَتْرُكُ في الدنيا مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يَلْزَمُ الكُفْرَ، ويُنَجِّي مِنَ المَهالِكِ مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يَعُودُ. ثم قد يَتْرُكُ مَنْ يَعودُ إلى الكُفْرِ على وُجودِ ما بِهِ النَّجاةُ عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

وبَعْدُ فإنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٢٧] فَبَيَّنَ أنهُ لا[6] يَبْسُطُ لِئَلّا يَبْغُوا، وقالَ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الآية [الزخرف: ٣٣].

ثم قد جَعَلَ [البَسْطَ][7] لِكَثيرٍ مِمَّنْ ضَلَّ بِهِمْ قومٌ نَحْوُ الفراعِنَةِ ولِكَثيرٍ مِنْهُمْ، وقد بَغَوا في الأرضِ إذْ [لو][8] لم يَكُنِ البَسْطُ لِفِرْعَونَ لم يكُنْ لِيَدَّعِيَ الإلهِيَّةَ. لكنَّ الأوَّلَ طَريقُ الفَضْلِ يَفْضُلُ بِهِ، والثاني طَريقُ العَدْلِ وما يَجوزُ في الحِكْمَةِ. فَعَلَى ذلكَ الإمهالُ؛ يُبَيِّنُ ذلكَ ما كانَ اللهُ يأمُرُ بِقَتْلِ مَنْ لَعَلَّهُ يُؤْمِنُ لو أُمْهِلَ بِما نُدِبَ إلى القِتالِ. ولا يَحْتَمِلُ أنْ يَأمُرَ في قَتْلِ مَنْ لَيسَ لَهُ قَبْضُ رُوحِهِ. وقد يُبْقِي مَنْ بِهِ يُهْلِكُ، ويُضِلُّ، وإنْ قَبَضَ كثيراً مِنْهُمْ بما يُضَلُّ بِهِ، لو بَقِيَ، كما قالَ: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ [الكهف: ٨٠] واللهُ أعلَمُ.

وظَنَّتِ الخَوارِجُ بهذِهِ الآيَةِ أنَّ كلَّ مَنْ يَرْتَكِبُ كَبيرَةً يَظْهَرُ منهُ كَذِبُهُ في ما وَعَدَ أنهُ لا يَفْعَلُ؛ إذِ اللهُ سَمّاهُمْ كَذَبَةً بِما في عِلْمِهِ أنهُمْ يَعُودُونَ إلى ذلكَ.

فإذا تَقَرَّرَ عِنْدَنا مِنْ أحَدٍ نُكوثُ[9] ما كانَ في عَهْدِهِ وإيمانِهِ أنهُ يَرْتَكِبُ [ما][10] يَظْهَرُ بِهِ كَذِبُهُ، فذلكَ خَطأٌ لِما لو كانَ كذلكَ لَكانَ الصَّغائِرُ والكَبائِرُ واحِدَةً[11]. ومَنْ كَذَبَ في أمْرِ الكَبائِرِ[12] في العَهْدِ، أو [رَدَّهُ، يَكْفُرُ][13]، ومَنِ ارتكَبَ الصَّغيرَةَ لم يَصِرْ كذلكَ[14].

لكنَّ الآيَةَ تُخَرَّجُ على وُجوهٍ:

أحَدُها: أنها في قومٍ أرادُوا بذلكَ دَفْعَ العَذابِ لا أنْ عَزَمُوا على ما ذَكَرُوا. دَليلُهُ فِتْنَتُهُمْ بقولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾.

---

(١) في الأصل و م: و. (٢) من م، في الأصل: لأتباع. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: وعندوا. (٦) في الأصل و م: لو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل و م: ركوب. (١٠) ساقطة من الأصل و م. (١١) في الأصل و م: واحداً. (١٢) في الأصل و م: الصغائرَ. (١٣) في الأصل: رد، ويكفر، في م: رد، يكفر. (١٤) أدرج بعدها في الأصل وم العبارة التالية: فعلى ذلك الكبائر.

جنة السنة

والثاني: أنهُ ذَكَرَ كَذِبَهُمْ؛ أنْطَقَ اللهُ جوارِحَهُم، فَشَهِدَتْ عليهِمْ بِما كَتَمُوا مِنَ الشِّرْكِ، فَتَمَنَّوا عندَ ذلكَ العَوْدَ والرَّدَّ.

والثالثُ[1]: ﴿بَدَا لَهُم﴾ ظَهَرَ لَهُمْ ﴿مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ﴾ مِنْ بَعْثِ[2] محمدٍ وصِفَتِهِ ﷺ في الدنيا، وكَتَمُوهُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ تَعَلَّقَ بظاهِرِ هذهِ الآيةِ الخَوارِجُ والمُعْتَزِلَةُ.

أمّا المُعْتَزِلَةُ فإنهُمْ قالُوا: إنهم لَمّا طَلَبُوا الرَّدَّ لم يَرُدَّهُمْ لِما عَلِمَ أنهُمْ لو ﴿رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟﴾ إلى التَّكْذيبِ ثانياً. ولو عَلِمَ منهُمْ أنهمْ لا يَعُودُونَ لَكانَ لا يَرُدُّهُم. فَدَلَّ أنهُ إنما لم يَرُدَّهُمْ لِما عَلِمَ منهُمْ أنَّهُمْ يَعُودُونَ إلى ما كانُوا مِنْ قَبْلُ. فَيَسْتَدِلُّونَ بِظاهِرِ هذِهِ الآيةِ على أنَّ اللهَ لا يَفْعَلُ بالعَبيدِ[3] إلاّ الأصْلَحَ/ ١٤٦ ـ ب/ لَهُمْ في الدينِ. وقالُوا: لو عَلِمَ مِنْهُمُ الإيمانَ لَكانَ لا يَجوزُ لهُ ألاّ يَرُدَّهُم. ومِنْ قولِهِمْ: إنهُ إذا عَلِمَ مِنْ كافرٍ أنهُ يُؤْمِنُ في آخِرِ عُمُرِهِ لم يَجُزْ لَهُ أنْ يُمِيتَهُ، وغيرُ ذلكَ مِنَ المخايِلِ والأباطِيلِ.

وقالَتِ الخَوارِجُ: أخْبَرَ أنهُ لو رَدَّهُمْ ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ وسَمّاهُمْ بالقولِ كاذِبِينَ لِما في عِلْمِهِ أنهُمْ لا يَفْعَلُونَ بِما يَقُولُونَ. فَعَلَى ذلكَ كلُّ صاحِبِ كبيرةٍ إذا كانَ في اعْتِقادِهِ الذي أظْهَرَهُ أنهُ لا يأتي بها، فإذا أتَى بِها يَصِيرُ في ما اعْتَقَدَهُ كاذِباً. ولذلكَ يَجْعَلُونَ أصحابَ الكبائِرِ كَذَبَةً في القولِ الأوّلِ: إنهمْ لا يأتونَ بها. وعلى ذلكَ المُبايَعَةُ بِقَولِهِ: ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [الممتحنة: ١٢] فإذا سَرَقْنَ صِرْنَ كاذباتٍ في البَيْعَةِ كما جَعَلَ مَنْ ذَكَرَ كاذباً في الوَعْدِ إذا أخْلَفَ. وعلى ذلكَ يَجْعَلُونَهُ كافراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ أي لَيَكْذِبونَ لو رُدُّوا، أو ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ في قَولِهِمْ، ويَكُونُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ؛ أي يُضْمِرُونَ أنهُمْ لا يُؤْمِنُونَ كقولِهِ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] يَقُولُونَ ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ لكنَّهُمْ لَمّا أضْمَرُوا خِلافَ ذلكَ في قُلوبِهِمْ سَمّاهُمْ كاذِبِينَ. فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ لَمّا أضْمَرُوا في أنْفُسِهِمُ التَّكْذيبَ، وإنْ رُدُّوا، فَهُمْ كاذِبُونَ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟﴾ [فيهِ وُجوهٌ:

أحَدُها:][4] قِيلَ: إلى الدنيا، ولكنْ رُدُّوا إلى المِحْنَةِ ثانياً ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾.

والثاني: أنهُ ذَكَرَ كَذِبَهُمْ بِما اعْتادُوا العِنادَ، وظَهَرَ منهُمُ الجُحودُ في القَديمِ. فَبِذلكَ سَمّاهُمْ كَذَبَةً كما سَمّى أهْلَ النارِ كَفَرةً بِما كانَ مِنْ كُفْرِهِمْ قَبْلَ أنْ يَصِيرُوا إليها. فَعَلَى ذلكَ هذا.

والثالثُ: أنْ يكونَ على الخَبَرِ عَنْ عاقِبَتِهِمْ أنهُمْ يَصِيرونَ كاذِبِينَ لو رُدُّوا، وعُرِضَ عليهِمْ ذلكَ، وبُعِثَ إليهِمُ[5] الرُّسُلُ بالآياتِ لا أنْ يَكْذِبُوا في ذلكَ الوَعْدِ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هِىَ﴾ يَحْتَمِلُ: هِيَ الحَياةُ الدنيا، ويَحْتَمِلُ: هي الدنيا. ثم هذا القَولُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مِنَ الدَّهْرِيَّةِ لأنهُمْ يُنْكِرونَ البَعْثَ والحَياةَ بَعْدَ المَوتِ، ويقولُونَ: إنَّ هذا الخَلْقَ كالنَّباتِ، يَنْبُتُ، ثم يَتَلاشَى. فَعَلَى ذلكَ الخَلْقُ، يَمُوتُونَ، ويَصِيرونَ تُراباً، ثم يَحْيَونَ في الدنيا كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. ويَحْتَمِلُ أنَّ هذا القولَ كانَ مِنْ مُشْرِكي العَرَبِ لِما لم يَرَوا إلاّ الدَّهْرَ، ولم يُشاهِدُوا غيرَهُ، فَظَنُّوا أنهُ لَيسَ يُهْلِكُهُمْ إلاّ ذلكَ الدَّهْرُ الذي تَدورُ الدنيا عليهِ. فإنْ كانَ ذلكَ مِنْهُمْ فإنما كانَ ذلكَ مِنْ كُبَرائِهِمْ، ورُؤَساؤُهُمْ على عِلْمٍ مِنْهُمْ بذلكَ أي بالبَعْثِ يَلْبِسُونَ على السَّفَلَةِ والأتباعِ لِيَكُونُوا أشَدَّ اتِّباعاً لَهُمْ وانْقِياداً لأنهُمْ لو أعْلَمُوا الأتباعَ بالبَعْثِ بَعْدَ المَوتِ لَعَلَّهُمْ يَتْرُكونَ طاعَتَهُمْ واتِّباعَهُمْ لِما يَشْتَغِلُونَ بالاسْتِعْدادِ لذلكَ والعَمَلِ لَهُ؛ فَفي ذلكَ تَرْكُ اتِّباعِهِمْ وطاعَتِهِمْ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي لِرَبِّهِمْ كقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]

---

(١) في الأصل وم: يحتمل. (٢) في الأصل و م: نعت. (٣) في الأصل و م: العبد. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل و م: عليهم.

جنة السنة

وكقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنُّصُبِ. وأصلُهُ ما رُوِيَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا﴾ إنْ عُرِضوا[١] ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي البَعْثُ بَعْدَ المَوتِ لأنهُمْ كانوا يُنْكِرون البَعْثَ، ويَقولونَ: إنهُ باطِلٌ. ويَحْتَمِلُ بِما كانوا أُوعِدوا بالعَذابِ إنْ لم يُؤمِنوا، فَكَذَّبوا ذلكَ، فقالَ: أَلَيسَ ما أُوعِدْتُمْ في الدنيا حَقّاً[٢]، فَأَقَرّوا، فقالوا ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ في الدنيا.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي كَذَّبوا لِقاءَ وَعْدِ اللهِ وَوَعِيدَهُ في الدنيا. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ ما رُوِيَ في الخَبَرِ: «مَنْ أَحَبَّ لِقاءَ اللهِ» أي أَحَبَّ لِقاءَ ما وَعَدَ اللهُ لَهُ «ومَنْ كَرِهَ لِقاءَ اللهِ» أي كَرِهَ ما وَعَدَ لَهُ. وأصلُهُ: «مَنْ أَحَبَّ الرُّجوعَ إلى اللهِ أَحَبَّ اللهُ رُجوعَهُ ومَنْ كَرِهَ الرجوعَ إلى اللهِ كَرِهَ اللهُ رُجوعَهُ إليهِ» [البخاري ٦٥٠٧ و٦٥٠٨] والمَحَبَّةُ لِلّهِ اختيارُ أمْرِهِ وطاعَتِهِ. وعلى ذلكَ ما رُوِيَ في الخَبَرِ عَنْ رسول اللهِ ﷺ [أنهُ][٣] قالَ: «الدنيا جَنَّةُ الكافِرِ يَلْعَبُ فيها، ويَرْتَكِضُ في أمانيها، وسِجْنُ المؤمِنِ، وراحَتُهُ بالموتِ» [مسلم: ٢٩٥٦].

وأصلُهُ أنها سِجْنُ المؤمِنِ؛ لأنَّ المؤمِنَ يَمْنَعُهُ دينُهُ مِنْ قَضاءِ شَهَواتِهِ لِما يَخافُ هَلاكَهُ، ويُحَذِّرُهُ عَمّا يُفيضُهُ إلى الهَلاكِ. والكافِرُ لا يَمْنَعُهُ شَيءٌ مِنْ ذلكَ عمّا يُريدُ مِنْ قَضاءِ شَهَواتِهِ في الدنيا، فتكونُ لهُ كالجَنَّةِ ولِلْمُؤمِنِ كالسِّجْنِ على ما ذَكَرْنا.

ويَحْتَمِلُ وَجْهاً آخَرَ وهو أنَّ الكافِرَ عندَ الموتِ يُعايِنُ مَكانَهُ وما أُوعِدَ لَهُ في النارِ؛ فَتَصيرُ عندَ ذلكَ الدنيا كالجَنَّةِ لَهُ؛ [يُريدُ الرُّجوعَ إليها][٤]، والمؤمِنُ يُعايِنُ مَوضِعَهُ في الجَنَّةِ، فَتَصيرُ [الدنيا][٥] كالسِّجْنِ لَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ قيلَ: سُمِّيَتِ القِيامَةُ ساعةً لِسُرْعَتِها لَيْسَتْ كالدنيا؛ لأنَّ في الدنيا تَتَغَيَّرُ فيها على المَرْءِ الأحْوالُ؛ يكونُ نُطْفَةً، ثم يَصيرُ عَلَقَةً، ثم مُضْغَةً، ثم يَصيرُ خَلْقاً آخَرَ، ثم إنساناً، ثم يكونُ طِفْلاً، ثم رَجُلاً؛ تَتَغَيَّرُ عليهِ الأحْوالُ.

وأمّا القِيامَةُ فإنها لا تَقومُ على تَغَيُّرِ الأحْوالِ؛ فَسُمِّيَتِ الساعةُ لِسُرْعَتِها بِهِمْ، وقيلَ: سُمِّيَتِ القِيامَةُ الساعةَ لأنها تقومُ في ساعةٍ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] وقيلَ: سُمِّيَتِ الساعةُ لِما[٦] تقومُ ساعةً فَساعَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَغْتَةً﴾ أي فَجْأَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ قيلَ: التَّفْريطُ هو التَّضْييعُ؛ فَيَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي ما ضَيَّعْنا في الدنيا مِنَ المَحاسِنِ والطاعاتِ، ويَحْتَمِلُ: ضَيَّعْنا في الآخِرَةِ مِنَ الثوابِ والجَزاءِ الجَزيلِ بِكُفْرِهِمْ في الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ هو، واللهُ أعْلَمُ، على التَّمْثيلِ لَيسَ على التَّحْقيقِ؛ وهو يَحْتَمِلُ [وُجُوهاً]:

أحَدُها[٧]: يَحْتَمِلُ أنهُ أخْبَرَ أنهُمْ ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ بِما لَزِمُوا أوزارَهُمْ وآثامَهُمْ، لم يُفارِقُوها قَطُّ؛ وَصَفَهُمْ بالحَمْلِ على الظَّهْرِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]. ولكنْ لِما لَزِمَ ذلكَ صارَ كأنهُ في عنقِهِ.

والثاني: إنما ذَكَرَ الظَّهْرَ[٨] [لِما على الظَّهْرِ] يُحْمَلُ ما يُحْمَلُ، فكانَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الشورى: ٣٠] [وكقولِهِ تعالى][٩]: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] لأنَّ الكُفْرَ لا يُكْتَسَبُ بالأيْدي، ولا يُقَدَّمُ بها، لكنَّ اكْتِسابَ الشَّيءِ وتَقْديمَهُ لِما كانَ باليَدِ ذَكَرَ اكْتِسابَ اليدِ وتَقْديمَهُ، وكقولِهِ تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ

(١) انظر ما ذكره المؤلف في تفسير الآية ٢٧ ص ١٠٦. (٢) في الأصل وم: حق. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل و م، يكره الرجوع. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) من م، في الأصل: ما. (٧) في الأصل: على وجهين، في م: وجهين. (٨) في م: لما بالظهر، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل و م: و.

جنة السنة

ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] إنهُمْ لَمّا تَرَكُوا العَمَلَ بِهِ والانْتِفاعَ صارَ كالمَنبوذِ وراءَ الظَّهرِ لأنَّ الذي يُنْبَذُ وراءَ الظَّهْرِ هو الذي لا يُعْبَأُ بِهِ، ولا يُكْتَرَثُ إليهِ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ [هو ما ذُكِرَ][1] في بَعْضِ القِصَّةِ أنهُ يَأْتِيهِ عَمَلُهُ الخَبيثُ على صُورةٍ قَبيحَةٍ، فيقولُ لَهُ: كُنْتُ أحْمِلُكَ في الدنيا باللَّذّاتِ والشَّهواتِ، وأنْتَ اليومَ تَحْمِلُني، فَيَرْكَبُ ظَهْرَهُ، فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أيِ الحَياةُ الدنيا لِلدُّنيا خاصَّةً لأنَّ العَمَلَ إذا لم يكُنْ لِعاقِبَةٍ، تُتَأمَّلُ، فهو عَبَثٌ، كَبانٍ يَبْني بِناءً لا لِعاقِبَةٍ، يَتَأمَّلُ، ويَقْصِدُ [عاقبةَ][2] بُنْيانِهِ، فهو لَعِبُ عَبَثٌ. فَعَلى ذلكَ [العملُ في][3] الحَياةِ الدُّنيا لا لِدارِ أُخرَى، يُتَأمَّلُ، ويُرْجَى بِهِ الثَّوابُ والعِقابُ لَيسَ بِحِكْمَةٍ، وإنما هو لَعِبٌ ولَهْوٌ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. أخبَرَ أنَّ خَلْقَهُ إيّاهُمْ إذا لم يكُنْ لِلرُّجوعِ إليهِ فهي عَبَثٌ. فَعَلى ذلكَ الحياةُ الدنيا إذا لم يكُنْ هناكَ بَعْثٌ ولا حَياةٌ بَعْدَ المَوتِ لِلثَّوابِ والعقابِ فهو لَعِبٌ ولَهْوٌ. واللَّهْوُ ما يُقْصَدُ بِهِ قَضاءُ الشَّهْوَةِ خاصَّةً، لا تُقْصَدُ بِهِ العاقِبَةُ. واللَّعِبُ هو الذي لا حَقيقَةَ لَهُ، ولا مَقْصِدَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أيِ الدارُ الآخِرَةُ خَيرٌ لِلَّذينَ يَتَّقُونَ/ ١٤٧ ـ أ/ الشِّرْكَ والفَواحِشَ كُلَّها مِنَ الحَياةِ الدنيا.

وأصْلُهُ أنَّ الحَياةَ الدنيا على ما عِندَ أُولئكَ الكَفَرَةِ لَعِبٌ ولَهْوٌ لأنَّ عندَهُمْ لا بَعْثَ، ولا ثَوابَ، ولا عِقابَ، فإذا كانَ عندَهُمْ هكذا، فَيَصيرُ لَعِباً ولَهْواً لأنهُ يَحْصُلُ إنشاءً لا عاقِبَةَ لهُ، فيكونُ كَبِناءِ البَنّاءِ الذي ذَكَرْنا إذا كانَتْ[4] عاقِبَتُهُ غَيرَ مَقْصُودَةٍ، فهوَ لا انْتِفاعَ بِهِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ هذا، واللهُ أعْلَمُ، إخبارٌ منهُ نَبِيَّهُ ﷺ أنهُ على[5] عِلْمٍ منهُ بِتَكذيبِهِمْ إيّاكَ [حين][6] بَعَثَكَ إليهِمْ رسولاً، وأمَرَكَ بِتَبليغِ الرِّسالَةِ إليهِمْ، وكانَ عالِماً بما يَلْحَقُكَ مِنَ الحُزْنِ بِتَكذيبِهِمْ إيّاكَ، ولكنْ بَعَثَكَ إليهِمْ رسولاً مَعَ عِلْمٍ منهُ بهذا كُلِّهِ لِتُبَلِّغَهُمْ بِذِكْرِ هذا، واللهُ أعْلَمُ لِيُعْلِمَ رسولَهُ أنْ لا عُذْرَ لهُ في تَرْكِ تَبليغِ الرِّسالَةِ، وإنْ كَذَّبُوهُ في تَبليغِها.

ثم الذي يَحْمِلُهُ على الحُزْنِ يَحْتَمِلُ وجوهاً: يَحْتَمِلُ يُحْزِنُهُ افْتِراؤُهُمْ وكَذِبُهُمْ على اللهِ، أو كانَ يَحْزَنُ لِتَكذيبِ أقربائِهِ وعشيرَتِهِ إيّاهُ؛ فإنْ أكْذَبَتْهُ عَشيرَتُهُ انْتَهى الخَبَرُ إلى الأبْعَدِينَ، فَيُكَذِّبُونَهُ، فَيَحْزَنُ لِذلكَ، أو يَحْزَنُ حُزْنَ طَبْعٍ لأنَّ طَبْعَ كلِّ أحدٍ، يَنْفِرُ عَنِ التَّكذيبِ، أو كانَ يَحْزَنُ إشْفاقاً عليهِمْ بما يَنْزِلُ عليهِمْ مِنَ العذابِ بِتَكذيبِهِمْ إيّاهُ وأذاهُمْ لَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ الآية [الكهف: ٦، والشعراء: ٣] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ اخْتُلِفَ في تِلاوَتِهِ[7]: قَرَأَ بَعْضُهُمْ بالتَّخفيفِ، وبَعْضُهُمْ بالتَّشديدِ والتَّثقيلِ؛ فَمَنْ قَرَأَ بالتَّخفيفِ لا يُكْذِبونكَ أي لا يَجِدُونَكَ كاذباً قَطُّ، ومَنْ قَرَأَ بالتَّثقيلِ ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي لا يَنْسِبُونَكَ إلى الكَذِبِ، ولا يُكَذِّبونكَ في نَفْسِكَ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ في السِّرِّ، ولكنْ يَقُولُونَ ذلكَ في العَلانِيَةِ. والتَّكذيبُ هو أنْ يُقالَ: إنكَ كاذبٌ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [أي عادةُ الظالمينَ][9] التكذيبُ بآياتِ اللهِ. و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحدُهُما: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على نِعَمِ اللهِ؛ عادَتُهُمُ التَّكذيبُ بآياتِ اللهِ.

[والثاني][10] ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على أنْفُسِهِمْ لأنهُمْ وَضَعُوها في غَيرِ مَوضِعِها.

---

(١) في الأصل و م: ما ذكره. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل و م: كان. (٥) في الأصل وم: من. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) قرأ نافع والكسائي بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد، انظر حجة القراءات ص(٢٤٧). (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل و م: و.

جنة السنة

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ يُخبِرُ نبيَّهُ ﷺ ويُصبِّرُهُ على تكذيبِهِم إيّاهُ وأذاهُم بتبليغِ الرِّسالةِ؛ يقولُ: لستَ أنتَ أوّلَ مُكذَّبٍ مِنَ الرُّسُلِ، بل كُذِّبَ إخوانُكَ مِن قَبْلِكَ على تبليغِ الرِّسالةِ، فصبَرُوا على ما كُذِّبوا، وأوذُوا، ولم يترُكوا تبليغَ الرِّسالةِ مع تكذيبِهِمْ إيّاهُم. فَعَلى ذلكَ لا عُذرَ لكَ في تَرْكِ تَبليغِ الرِّسالةِ، وإنْ كَذَّبوكَ في التَّبليغِ، ويُؤذُوكَ؛ وهو ما ذَكَرْنا أنهُ يُخبِرُهُ أنه بَعَثَكَ رسولاً على عِلْمٍ منهُ بكلِّ الذي كانَ منهُمْ مِنَ التَّكذيبِ والأذى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ أخبرَ اللهُ أنهُ نَصَرَ رُسُلَهُ. ثم يَحتَمِلُ هذا النَّصرُ وُجوهاً: أحَدُها: نَصرَهُمْ إذْ[1] أظهرَ حُجَجَهُ وبَراهينَهُ حتى عَلِمُوا جميعاً أنّها هيَ الحُجَجُ والبَراهينُ وأنَّهُمْ رُسُلُ اللهِ، لكنَّهُمْ تعانَدُوا، وكابَرُوا. ويَحتَمِلُ[2] النَّصرَ لَهُمْ بما جعَلَ آخِرَ أمرِهِم لَهُمْ، وإنْ كانَ قد أصابَهُمْ شدائدُ في بَدْءِ الأمرِ، ويَحتَمِلُ نَصرَهُمْ لَمّا استأصَلَ قومَهُمْ، وأهلَكَهُمْ بتكذيبِهِمُ الرُّسُلَ. وفي استِئصالِ القومِ وإهلاكِهِ إيّاهُمْ وإبقاءِ الرُّسُلِ نَصرُهُمْ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢] يَخرجانِ[3] على الوُجوهِ التي ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ هو ما ذَكَرْنا مِنَ النَّصرِ لَهُمْ واستِئصالِ قومِهِمْ وما أوعَدَهُمْ مِنَ العذابِ. فذلكَ كلماتُ اللهِ. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ حُجَجَهُ وبَراهينَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [يونس: ٨٢] أي بِحُجَجِهِ وآياتِهِ وكقولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩] أي حُجَجُ رَبّي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ يَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِن إهلاكِ القومِ وإبقاءِ الرُّسُلِ قد جاءَكَ ذلكَ النَّبأُ. ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ مِن تكذيبِ قومِهِمْ لَهُمْ وأذاهُمْ. فإنْ كانَ هذا ففيهِ تَصبيرُ رسولِ اللهِ ﷺ [على ما][4] يَشُقُّ عليهِ كُفرُ قومِهِ وإعراضُهُمْ عنِ الإيمانِ حتى كادَتْ نَفْسُهُ تَتلَفُ، وتَهلِكُ لذلكَ إشفاقاً عليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨] وقولِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ونَحوُ ذلكَ مِنَ الآياتِ يُشفِقُ عليهِمْ بتَرْكِهِمُ الآياتِ لِما يُعَذَّبونَ أبداً في النارِ.

الآية ٣٥ فَعَلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ إذْ[5] كانَ يَكبُرُ عليهِ، ويَثقُلُ إعراضُهُمْ لَمّا يَطلُبونَ منهُ الآياتِ. حتى إذا جاءَ بها لا يُؤمِنونَ مِن نَحوِ ما قالوا ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣] وغيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي سَألُوها.

فَطَمِعَ رسولُ اللهِ ﷺ في إيمانِهِمْ إذا جاءَ بما سألُوا مِنَ الآياتِ، فكانَ اللهُ عالماً بأنهُ، وإنْ جاءَتْهُمْ آياتٌ، لم يُؤمِنُوا. وإنما يَسألونَ سؤالَ تَعَنُّتٍ لا سُؤالَ طَلَبِ آياتٍ لِتَدُلَّهُمْ على الهُدَى.

فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ أي أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ نَهياً عَنِ الحُزنِ عليهِمْ؛ أي لا تَحزَنْ عليهِمْ كُلَّ هذا الحُزنِ بما يَنزِلُ بِهِمْ، وقد تَعلَمُ صَنيعَهُمْ وسُوءَ مُعامَلَتِهِمْ آياتِ اللهِ.

وكذلكَ رُوِيَ في القِصَّةِ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنَّ نَفَراً مِن قُرَيشٍ قالوا: يا محمدُ ائتِنا بآيتَينِ عَنْ ذلكَ. كما كانتِ الأنبياءُ تأتي قومَها بالآياتِ إذا سألُوهُم[6]، فإنْ أتَيتَنا آمَنّا بكَ، وصدَّقْناكَ. فَيأبى اللهُ تعالى أنْ يأتِيَهُمْ بما قالُوا، فأعرَضُوا عنهُ، فَكَبُرَ ذلكَ عليهِ، وشَقَّ، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ يقولُ: إنْ قَدَرْتَ ﴿أَن تَبْتَغِيَ﴾ يقولُ: إنْ تَطلُبْ ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ كَنَفَقِ اليَربُوعِ نافِذاً أو مَخرَجاً، فَتَوارَى فيهِ[7] منهُمْ ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ يكونُ سَبَباً إلى صُعودِ السماءِ، فَتأتِيَهُمْ بالآيةِ[8] التي سألُوها فافعَلْ.

---

(١) في الأصل وم: أي. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل و م: يخرج. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: سألوه. (٧) في الأصل وم: منه. (٨) في الأصل وم: بآية.

جنة السنة

قالَ القُتَبِيُّ: النَّفَقُ في الأرضِ: المَدْخَلُ، وهوَ السَّرَبُ، والسُّلَّمُ في السماء: المَصْعَدُ. وقالَ أبو عوسَجَة: النَّفَقُ الغارُ، والأنفاقُ الغِيرانُ، والغارُ واحِدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ قالَ الحَسَنُ: أي ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لَقَهَرَهُمْ على الهُدَى، وأكرَهَهُمْ كما فَعَلَ بالملائكةِ [إذْ مِنْ قولِهِ: أنَّ الملائكةَ][1] مَجْبورونَ مَقْهورونَ. ثم هو يُفَضِّلُ الملائكةَ على البَشَرِ، ويَجْعَلُ لَهُمْ مَناقِبَ، لا يَجْعَلُ ذلكَ لأحَدٍ مِنَ البَشَرِ. فلو كانَتِ الملائكةُ مَجْبورينَ مَقْهورينَ على ذلكَ لم يَكُنْ في ذلكَ لَهُمْ كَبيرُ مَنْقَبَةٍ، ففي قولِهِ اضطِرابٌ.

وأمّا تأويلُهُ عندَنا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي لَجَعَلَهُمْ جميعاً بِحَيثُ اختاروا الهُدَى، وآثَرُوهُ على غَيرِهِ. ولكنْ لَمّا عَلِمَ مِنْهُمْ أنْ يَختارُوا الكُفْرَ على الهُدَى لم يَشَأْ أنْ يَجْمَعَهُمْ على الهُدَى، وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ ألّا يكونَ الهُدَى في حالِ القَهْرِ والجَبْرِ، وإنّما يكونُ في حالِ الاختيارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وُجوهاً؛ يَحْتَمِلُ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ مِنْ قَضاءِ اللهِ وحُكْمِهِ، ويَحْتَمِلُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ مِنْ إحسانِهِ وفَضْلِهِ، أي مِنْ إحسانِهِ جَعَلَ لَهُمُ الهُدَى، ويَحْتَمِلُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أنهُ يُؤْمِنُ بكَ بعضُهُمْ، وبَعْضُهُمْ لا يُؤْمِنُ.

قالَ أبو بكرٍ الكيسانيُّ في قولِهِ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ابْتَلاهُمْ بِدونِ ما ابْتَلاهُمْ بِهِ لِيَخِفَّ عليهِمْ، فَيُجيبونَ بأجمعِهِمْ، أو يقولُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لَوَفَّقَهُمْ جميعاً لِلْهُدَى، فَيَهْتَدُونَ، وهو قولُنا. لكنْ لم يَشَأْ لِما ذَكَرْنا أنهُ لم يُوَفِّقْهُمْ لِما عَلِمَ مِنْهُمْ أنهُمْ يَختارُونَ الكُفْرَ[2].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ بأنَّ اللهَ قادرٌ؛ لو شاءَ لَجَعَلَهُمْ جميعاً مُهْتَدِينَ. ثم معلومٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ مَعْصوماً، لا يجوزُ أنْ يُقالَ: إنهُ يكونُ مِنَ الجاهِلِينَ أو مِنَ الشاكِرِينَ على ما ذَكَرَ. ولكنْ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعْلَمُ، لِيُعْلِمَ أنَّ العِصْمَةَ لا تَرْفَعُ الأمْرَ والنَّهْيَ والامتِحانَ، بل تزيدُ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعْلَمُ، إنما يَسْتَجيبُ الذينَ يَنْتَفِعونَ بما يَسْمَعُونَ، وإلّا كانُوا يَسْمَعُونَ جميعاً. لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا: أنهُ إنما يُجيبُ الذينَ يَنْتَفِعُونَ بما يَسْمَعُونَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] كانَ النَّبيُّ ﷺ /١٤٧ ـ ب/ يُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ومَنْ لم يَتَّبِعْ. لكنِ انْتَفَعَ بالإنذارِ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، ولم يَنْتَفِعْ مَنْ لم يَتَّبِعْ، وهو ما ذَكَرَ ﷻ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] أخْبَرَ أنَّ ﴿ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا تَنْفَعُ غيرَهُمْ[3].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ على الابْتِداءِ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾. وقالَ قائلونَ: أرادَ بالمَوتَى الكُفّارَ؛ سَمَّى الكافرَ مَيتاً والمؤمنَ حَيّاً في غيرِ مَوضِعٍ مِنَ القرآنِ كقولِهِ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فهو، واللهُ أعْلَمُ، أنْ جَعَلَ لِكُلِّ بَشَرٍ سَمْعَيْنِ وبَصَرَيْنِ وحَياتَيْنِ [سَمْعاً أبَدِيّاً][4] في الآخِرَةِ [وبَصراً أبَدِيّاً][5] في الآخِرَةِ. وكذلكَ جَعَلَ لِكُلِّ أحَدٍ حَياتَيْنِ: حَياةَ الآخِرَةِ وحَياةً مُنْقَضِيَةً[6]، وهيَ حَياةُ الدنيا، وكذلكَ [جَعَلَ لِكُلِّ أحَدٍ سَمْعاً أبَدِيّاً][7] وهو سَمْعُ الآخِرَةِ [وسَمْعاً ذا][8] مُدَّةٍ، لها انْقِضاءٌ، وهو سَمْعُ الدنيا. ثم نَفَى السَّمْعَ والبَصَرَ والحياةَ عَمَّنْ لم يُدْرِكْ بهذا السَّمْعِ والبَصَرِ والحياةِ التي جَعَلَ لهُ في الدنيا، ولم يُبْصِرْ سَمْعَ الأبَدِيَّةِ لأنهُ إنما جَعَلَ لَهُمْ هذا في الدنيا لِيُدْرِكوا بهذا ذاكَ.

وكذلكَ العُقولُ التي رُكِّبَتْ في البَشَرِ إنّما رُكِّبَتْ لِيُدْرِكُوا بها، ويُبْصِرُوا ذلكَ الأبَدِيَّ، وإلّا كانَ[9] تَرْكيبُ هذِهِ العقولِ في البَشَرِ لِهذِهِ الدنيا خاصَّةً لا لِعَواقِبَ تُتَأَمَّلُ لِلْجَزاءِ والعِقابِ. فالبَهائِمُ قد تُدْرِكُ بالطَّبْعِ ذلكَ القَدْرَ، وتَعْرِفُ ما يُؤْتَى،

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: الكفرة. (٣) من م، في الأصل: فيهما. (٤) في الأصل وم: سمع أبدي. (٥) في الأصل وم: وبصر أبدي. (٦) في الأصل و م: منقبضة. (٧) في الأصل و م: سمع أبدي. (٨) في الأصل و م: وسمع ذو. (٩) في الأصل و م: كانت.

جنة السنة

ويُتّقى[١]، وما يَصلُحُ لها. فَدَلّ أنّ تَركيبَ العقولِ في مَنْ رَكّبَ إنما رَكّبَ لا لِما يُدرِكُ هذا، إذ يُدْرِكُ ذلكَ المِقدارَ بالطّبْعِ مَنْ لم يُرَكّبْ فيهِ، وهي[٢] البَهائِمُ التي ذَكَرْنا.

والسّمْعُ والبَصَرُ والحياةُ قد [جَعَلَها اللهُ][٣] في الدنيا لِمَعاشِهِمْ ومَعادِهِمْ، وكذلكَ جَعَلَ لَهُمُ اللّسانَ لِيَنْطِقَ بِحَوائِجِهِمْ في الدنيا، ويَعْرِفَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضِ المُحاجّةَ[٤] في الدنيا، ويُدْرِكَ بِهِ الأزَليّ. فإذا لم يَنْتَفِعُوا بذلكَ أزالَ عنهُمْ ذلكَ، وسَمّاهُمُ العُمْيَ والصّمّ والبُكْمَ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨ و١٧١] لِما لم يَنْتَفِعُوا بذلكَ؟ ألا تَرى أنهُ إذا لم يُدْرِكِ الأزَليّ والأبَديّ مِنْ ذلكَ سَمّاهُ أعْمى حِينَ[٥] قالَ: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾؟ [طه: ١٢٥].

والحياةُ حياتانِ: مُكْتَسَبَةٌ، وهي الحياةُ التي تُكْتَسَبُ بالهُدى والطاعاتِ، وحياةٌ مُنْشَأةٌ؛ وهي حياةُ الأجسادِ. فالكافِرُ لهُ حياةُ الجَسَدِ، وليسَ لهُ حياةٌ مُكْتَسَبَةٌ. وأمّا المُؤْمِنُ فَلَهُ حَياتانِ جميعاً المُكْتَسَبَةُ والمُنْشَأةُ. فَسَمّى كُلاً بالأسماءِ[٦] التي اكْتَسَبَها. فالمؤمنُ اكْتَسَبَ أفعالاً طيّبةً، فَسَمّاهُ بذلكَ، والكافِرُ اكْتَسَبَ أفعالاً قَبيحَةً، فَسَمّاهُ بذلكَ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ هؤلاءِ قومٌ هَمُّهُمُ العِنادُ والمُكابَرَةُ؛ قد كانَ أنْزَلَ عليهِ آياتٍ عَقْلِيّاتٍ وسَمْعِيّاتٍ وحِسّيّاتٍ.

فأمّا الآياتُ العَقْلِيّاتُ فهيَ[٧] ما ذَكَرَ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ الآية [الإسراء: ٨٨]. وأمّا الآياتُ السّمْعِيّاتُ فهيَ[٨] ما أنْبَأهم عن أشياءَ كانَتْ غائبةً عنهُ مِنْ غيرِ أن كانَ لهُ اخْتِلافٌ إلى مَنْ يَعْلَمُها، ويُنْبِئُهُ[٩] عنها. والآياتُ الحِسّيّاتُ هي ما سَقى أقواماً كثيرةً بِلَبَنٍ قَليلٍ مِنْ قَصْعَةٍ وما قَطَعَ مَسيرَةَ شَهْرَيْنِ بِلَيْلَةٍ واحدةٍ، ونُطْقُ العَناقِ الذي [شُوِيَ][١٠] لَهُ، وحَنِينُ المِنْبَرِ، وغَيرُ ذلكَ مِنَ الأشياءِ مِمّا يَكْثُرُ ذِكْرُها. لكنّهُمْ عانَدُوا، وكانَتْ هِمّتُهُمُ العِنادَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ التي سألُوكَ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَحْتَمِلُ [وُجوهاً]:

أحَدُها][١١]: يَحْتَمِلُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهُ [لو][١٢] أنْزَلَ آيةً على إثْرِ السّؤالِ لأنزَلَ عليهِمُ العَذابَ، واسْتَأصَلَهُمْ إذا عانَدُوا.

والثاني[١٣]: قولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه لا يُنْزِلُ الآيةَ إلاّ عندَ الحاجةِ بِهِمْ إليها.

والثالثُ[١٤]: لا يَسْألونَ الآيةَ لِيَعْلَمُوا، ولكنْ يَسْألُونَ لِيَتَعَنّتُوا.

والرابعُ[١٥]: إذا أنْزَلَ آيةً على إثْرِ السّؤالِ[١٦]، فلم يَقْبَلُوها، ولم يُؤْمِنُوا بها أهلَكَهُمْ على ما ذَكَرْنا مِنْ سُنّتِهِ في الأوّلِينَ. ولكنّهُ وَعَدَ على إبْقاءِ هذِهِ الأمّةِ[١٧] إلى يومِ القِيامَةِ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ لأنهُ ذَكَرَ دابّةً، والدّابّةُ كُلُّ ما يَدِبُّ على وجهِ الأرضِ مِنْ ذي الرّوحِ، وذَكَرَ الطائرَ، وهو اسْمُ كلِّ ما يَطيرُ في الهواءِ؛ لَمّا كانَ قادراً على خَلْقِ هذِهِ الجواهِرِ المُخْتَلِفَةِ وسَوْقِ رِزْقِ كلٍّ مِنْهُمْ إليهِ [فإنهُ][١٨] لَقادِرٌ على أنْ يُنَزّلَ آيةً، ويَضْطَرّهُمْ[١٩] جميعاً إلى القَبولِ لَها والإقرارِ بها. ولكنّهُ لا يُنَزّلُ لِما لَيْسَتْ لَهُمُ الحاجَةُ إليها. والآياتُ لا تَنْزِلُ إلاّ عندَ وقوعِ الحاجَةِ لَهُمْ إليها.

وإلى هذا يَخْرُجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مِنَ الناسِ مَنِ اسْتَدَلّ بهذِهِ الآيةِ على أنّ البَهائِمَ والطّيرَ مُمْتَحَنتانِ حِينَ[٢٠] قالَ: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ ثم قالَ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

---

(١) في الأصل و م: وتبقى. (٢) في الأصل و م: وهو. (٣) في الأصل و م: جعل. (٤) في الأصل و م: حاجة. (٥) في الأصل و م: حيث. (٦) في الأصل و م: بأسماء. (٧) في الأصل وم: هي. (٨) في الأصل وم: هي. (٩) في الأصل وم: وينبؤها. (١٠) في م: سوى، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: وجهين: أحدهما. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يحتمل. (١٤) في الأصل وم: ويحتمل أنه. (١٥) في الأصل وم: أو. (١٦) في الأصل وم: الرسول. (١٧) في الأصل وم: الآية. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) في الأصل وم: لاضطروا. (٢٠) في الأصل و م: حيث.

جنة السنة

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ عن أبي هُرَيرَةَ ﷺ [أنهُ][1] قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ أي إلّا سيُحشَرونَ يومَ القيامةِ، ثم تقتصّ البهائمُ بعضُها مِنْ بعضٍ. ثم يُقالُ لها: كوني تُراباً؛ فعِنْدَ ذلكَ ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠] كالبهائِمِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ [ﷺ أنهُ][2] قالَ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ أي يَفقَهُ بعضُها مِن بعضٍ كما يَفقَهُ بَعضُكُمْ مِن بَعضٍ، و﴿أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ في مَعْرِفَةِ ما يُؤتى، ويُتّقى.

ويَحتَمِلُ: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ في الكَثْرَةِ والعَدَدِ والخَلْقِ، والصُّنوفُ تُعرَفُ بالأسامي كما تُعرَفُونَ أنتُمْ.

وأصْلُهُ إنما ذَكَرَ مِنَ الدوابِّ والطَّيرِ ﴿أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ سَخَّرَها لَكُمْ، لم [يكنْ][3] منهُمْ ما يكونُ منكُمْ مِنَ العِنادِ والتكذيبِ لِلرُّسُلِ والخُروجِ عليهِمْ، بل خاضِعةٌ[4] لكُمْ مُذَلَّلَةٌ[5]، تنتفِعونَ بها.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ في مَعْرِفَةِ وَحدانيّتِهِ وأُلوهيّتِهِ أو حَقِّ الطاعةِ للهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا﴾ أي ما تَرَكْنا شيئاً إلّا وقد ذَكَرْنا أصلَهُ في القرآنِ. وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][6] قالَ: ما تَرَكْنا شيئاً إلّا قد كَتَبْناهُ في أُمِّ الكتابِ، وهو اللّوحُ المَحفوظُ. وقيلَ ﴿مَّا فَرَّطۡنَا﴾ ما ضيَّعنا ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ ما قد تقَعُ لكُمُ الحاجةُ إليهِ أو مَنفَعَةٌ إلّا قد بيَّنّا لكُمْ في القرآنِ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ قيلَ: الطّيرُ والبهائمُ يُحشَرونَ مَعَ الخَلْقِ، وقيلَ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ يَعْني بَني آدَمَ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قالَ الحسَنُ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ دينِنا، وقالَ غيرُهُ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ حُجَجِنا: حُجَجِ وَحدانيّتِهِ وأُلوهيّتِهِ وحُجَجِ الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ. ويَحتَمِلُ آياتِ البَعْثِ؛ كَذَّبوا بذلكَ كُلِّهِ. وقد ذَكَرْنا هذا في غيرِ مَوْضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿صُمّٞ وَبُكۡمٞ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ نَفى عنهُمُ السَّمْعَ واللِّسانَ والبَصَرَ لِما لَمْ يعرِفُوا نِعمَةَ السَّمْعِ ونِعمَةَ البَصَرِ ونِعمَةَ اللِّسانِ. ولا يجوزُ أن يَجْعَلَ لَهُمُ السَّمْعَ والبَصَرَ واللِّسانَ، ثم لا يُكلِّمَهُمْ ما يَسْمَعونَ بالسَّمْعِ وما يَنطِقونَ باللِّسانِ.

دلَّ أنهُ يَحتاجُ إلى رسولٍ يَسْمَعُونَ منهُ، ويستَمِعونَ إليهِ، ويَنطِقونَ ما علَّمَهُمْ. فإذا لم يَفعَلُوا صاروا كما ذَكَرَ ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: ١٨ و١٧١] لِما لم يَنتفِعُوا بهِ، ولم يَعرِفوا نِعمَهُ التي جَعَلَ لَهُمْ في ما ذَكَرَ، ونَفى عنهُمُ السَّمْعَ والبَصَرَ واللِّسانَ لِما ذَكَرْنا أنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والحَياةَ على ضربَينِ: مُكتَسَبٍ ومُنشَإٍ، فَنَفى عنهُمُ السَّمْعَ المُكتَسَبَ والبَصَرَ المُكتَسَبَ والحَياةَ المُكتَسَبَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما:[7] ظُلماتُ الجَهْلِ والكُفرِ.

والثاني: هُمْ في ظُلماتٍ؛ يَعْني ظُلُماتِ السَّمْعِ والبَصَرِ والقَلْبِ، وهم في ظُلمَتَينِ جميعاً في ظُلمَةِ الجَهْلِ والكُفرِ وظُلمَةِ السَّمْعِ والبَصَرِ كقولِهِ تعالى: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ [النور: ٤٠] والمُؤمِنُ في النورِ كقولِهِ تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ [النور: ٣٥]

وقولُهُ تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يَهْدِهِ. وصفَ ﷻ نفسَهُ بالقُدرَةِ، وجعَلَهُمْ جميعاً مُنقَلِبينَ في مَشيئَتِهِ، وأخبَرَ أنهُ شاءَ لِبَعْضِهِمُ الهُدى. فَمَنْ قالَ: إنهُ شاءَ لِلْكُلِّ الهُدى، لكنْ لم يَهتَدُوا، أو شاءَ لِلْكُلِّ الضَّلالَ، فهو/١٤٨ ـ أ/ خِلافُ ما ذَكَرَهُ ﷻ لأنهُ أخبَرَ أنهُ شاءَ الضَّلالَ لِمَنْ ضَلَّ، وشاءَ الهُدى لِمَنِ اهْتَدى.

وأصْلُهُ أنهُ إذا عَلِمَ مِنَ الكافِرِ أنهُ يَختارُ الكُفرَ، شاءَ أنْ يُضِلَّ، وخَلَقَ فِعْلَ[8] الكُفرِ منهُ. وكذلكَ إذا عَلِمَ مِنَ المؤمِنِ أنهُ يَختارُ الإيمانَ والاهْتِداءَ، شاءَ أنْ يَهْدِيَ، وخَلَقَ فِعْلَ الاهْتِداءِ منهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: خاضعين. (٥) في الأصل وم: مذللين. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل و م: يحتمل. (٨) من م، في الأصل: كل.

جنة السنة

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ الذي وَعدَ لَكُمْ في الدنيا أنهُ يأتيكُمْ ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ لأنهُ كانَ وَعدَ لَهُمْ أنْ يأتِيَهُمُ[1] العذابُ، وكانَ يَعِدُ لَهُمْ أنْ تقُومَ الساعةُ، فقال: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ في دَفْعِ ذلكَ وكَشْفِهِ عنكُمْ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ مَعَهُ شُركاءَ وآلهةً، و﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ ما تَعْبُدونَ شُفَعاؤُكُمْ[2] عندَ اللهِ، أو تُقَرِّبُكُمْ عِبادتُكُمْ[3] إيّاها إلى اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ حَقيقَةَ الدعاءِ عندَ نُزُولِ البلاءِ، ويَحْتَمِلُ العِبادةَ؛ أي أغَيْرَ اللهِ تَعْبُدُونَ على رَجاءِ الشَّفاعةِ لكُمْ، وقد رَأيتُمْ أنها لم تَشْفَعْ لَكُمْ عندَ نُزولِ البَلاءِ.

الآية ٤١ [وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾][4] أخبرَ أنهُمْ لا يَدْعُونَ غَيرَ اللهِ في دَفْعِ ذلكَ وكَشْفِهِ عنهُمْ، وأخبَرَ أنهُمْ إلى اللهِ يَتَضرَّعُونَ في دَفْعِ ذلكَ عنهُمْ، وهو ما ذَكَرَ ﷺ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ذَكَرَ هذا، واللهُ أعْلَمُ، أنكُمْ إذا مَسَّتْكُمُ الشَّدائِدُ والبَلايا لا تَفْزَعُونَ إلى الذينَ تُشْرِكُونَ في عِبادَتِهِ وأُلُوهِيَّتِهِ، كيفَ أشْرَكْتُمْ أولئكَ في رُبُوبِيَّتِهِ في غَيرِ الشَّدائدِ والبَلايا؟ ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾؟ أي تَتْرُكُونَ ما تُشْرِكُونَ باللهِ مِنَ الآلِهةِ، فَلا تَدْعُونَهُمْ أنْ يَكْشِفُوا عَنْكُمْ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: البَأْساءُ: الشَّدائِدُ التي تُصيبُهُمْ مِنَ العَدُوِّ، والضَّرَّاءُ: ما يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ البَلاءِ والسَّقَمِ السَّماوِيِّ، وقالَ بَعْضُهُمْ: البَأْساءُ: هو ما يَحُلُّ بِهِمْ مِنَ الفَقْرِ والقَحْطِ والشِّدَّةِ.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ][5] قالَ: قولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ الزَّمانَةُ والخَوفُ، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ البلاءُ والجوعُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي ابْتَلاهُمْ بهذا، أوِ امْتَحَنَهُمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ ويرجِعُونَ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ يُذْكَرُ في هذا أنهُ قد أصابَهُمُ البلاءُ والشِّدَّةُ، ولم يَتَضَرَّعُوا، ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ويُذْكَرُ في غَيرِهِ مِنَ الآياتِ أنهُ إذا أصابَهُمُ البلاءُ والشَّدائِدُ تَضَرَّعُوا، ورَجَعُوا عمّا كانُوا عليهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وغَيرِهِما مِنَ الآياتِ.

لكنْ يَحْتَمِلُ هذا وجوهاً:

أنَّ هذا كانَ مِنْ قومٍ، والأوَّلَ كانَ مِنْ قومٍ آخَرِينَ؛ وذلكَ أنَّ الكَفَرَةَ كانُوا على أحوالٍ ومَنازِلَ:

مِنهُمْ مَنْ كانَ على حالٍ، فإذا أصابَهُ خَيرٌ اطْمأنَّ بِهِ، وإذا زالَ عنهُ، وتَحَوَّلَ، تَغَيَّرَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآيةَ [الحج: ١١].

ومنهُمْ مَنْ يَتَضَرَّعُ، ويَلِينُ قَلْبُهُ إذا أصابَهُ الشِّدَّةُ والبلاءُ، وعِنْدَ السَّعَةِ والنِّعْمَةِ [يَصيرُ][6] قاسِيَ القَلْبِ مُعانِداً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ [العنكبوت: ٦٥] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

ومنهُمْ مَنْ كانَ فَرِحاً عِندَ الرَّحْمةِ، وعِنْدَ البلاءِ والشِّدَّةِ كَفُوراً حزيناً كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩].

---

(١) في الأصل و م: يأتيكم. (٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. (٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. (٤) في الأصل و م: ثم. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

ومنهُم مَنْ كانَ لا يَخضعُ، ولا يَتضرَّعُ في الأحوالِ كُلِّها لا عندَ الشِّدَّةِ والبَلاءِ ولا عندَ الرخاءِ والنِّعمَةِ، ويَقولُونَ. إنَّ مِثْلَ هذا يُصِيبُ غيرَنا، وقد ﴿مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف: ٩٥].

كانُوا على أحوالٍ مُختلِفَةٍ ومَنازِلَ مُتفرِّقَةٍ؛ فَيُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في القومِ الذينَ لم يَتضرَّعُوا عندَما أصابَتْهُمُ الشدائدُ والبلايا.

وجائزٌ أنْ يكونُوا تَضرَّعُوا عندَ حُلولِ الشَّدائِدِ؛ فإذا انْقطَعَ ذلكَ، وارْتَفَعَ، عادُوا إلى ما كانُوا مِنْ قَبْلُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] في ما بَيْنَهُمْ وبَينَ رَبِّهِمْ، وهذا في ما بَيْنَهُمْ وبَينَ الرُّسُلِ لأنَّ الرُّسُلَ كانُوا يَدعُونَ إلى أنْ يُقِرُّوا برسالَتِهِمْ، ويُصَدِّقُوهُمْ في ما يَقولونَ لَهُمْ، ويُخبِرُونَ، فَتَكبَّرُوا عليهِمْ، وأقَرُّوا للهِ، وتَضرَّعُوا إليه؛ تَكبَّرُوا عليهِمْ، ولم يَتكبَّرُوا على اللهِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ في الأُمَمِ السالِفَةِ إخباراً منهُمْ أنهمْ لم يَتضرَّعُوا.

ويَحتَمِلُ قولُهُ أيضاً: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُمْ لم يَتضرَّعُوا إذْ جاءَهُمْ بَأسُ اللهِ، ولكنْ عانَدُوا، وثَبَتُوا على ما كانُوا عليهِ.

والثاني: تَضرَّعُوا عندَ نُزُولِ بأسِهِ، لكنْ إذا ذَهَبَ ذلكَ، وزَالَ عادُوا إلى ما كانُوا عليهِ، فَيَصِيرُ كأنهُ قالَ: فَلولا لَزِمُوا التَّضرُّعَ إذْ جاءَهُمْ بأسُنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي زَيَّنَ لهمْ صنيعَهُمُ الذي صَنَعُوا، ويَقولُونَ: إنَّ هذا كانَ يُصيبُ أهلَ الخيرِ، ويُصيبُ آباءَنا، وهمْ كانُوا أهْلَ خيرٍ وصَلاحٍ، أو زَيَّنَ لهمُ الشيطانُ ما كانُوا يَعمَلُونَ مِنَ الشِّرْكِ والتَّكذيبِ، ويَقولُ لهمْ: إنَّ الذي أنْتُمْ عليهِ حَقٌّ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ ابْتِداءَ تَرْكٍ؛ أي تَرَكُوا الإجابَةَ إلى ما دُعُوا، وتَرَكُوا ما أُمِرُوا بِهِ، ويَحتَمِلُ ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ مِنَ الشَّدائِدِ والبلايا.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ: يَحتَمِلُ ﴿أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ممّا يحتاجُونَ إليه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾.

ويَحتَمِلُ ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي تَرَكُوا ما وُعِظُوا بهِ؛ يعني بالأُمَمِ الخاليةِ مِمّا دعاهُمُ الرُّسُلُ، فَكَذَّبُوهُمْ ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي أنزَلْنا عليهِمْ ﴿أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مِنْ أنواعِ الخيرِ بَعْدَ الضَّرَرِ والشِّدَّةِ الذي كانَ نَزَلَ بِهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: [المُبْلِسُ][3] الآيِسُ مِنْ كُلِّ خيرٍ، وقالَ[4] القُتَبِيُّ: المُبْلِسُ الآيِسُ المُلْقِي بِيَدَيهِ، وقالَ أبو عَوسَجَةَ: المُبْلِسُ هو الحَزينُ المُغْتَمُّ الآيِسُ مِنَ الرحْمَةِ وغَيرِها مِنَ الخَيرِ، وقالَ الفَرّاءُ: المُبْلِسُ هو المُنْقَطِعُ الحُجَّةِ. وقيلَ: لذلكَ سُمِّيَ إبليسُ، لعنَهُ اللهُ، إبليسَ لِما أيِسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قيلَ: اسْتُؤصِلَ القَوْمُ الذينَ ظَلَمُوا بالهلاكِ جَميعاً، والظُّلْمُ ههنا الشِّرْكُ، وقيلَ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي أصْلُهُمْ، وقيلَ: ﴿دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي آخِرُهُمْ، وكُلُّهُ واحِدٌ؛ وذلكَ أنه إذا هَلَكَ آخِرُهُمْ، وقُطِعُوا، فَقَدِ اسْتُؤصِلُوا. ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي قُطِعَ افْتِخارُهُمْ وتَكبُّرُهُمُ الذي كانُوا يَفتَخِرُونَ بِهِ، ويَتكبَّرُونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الحَمْدُ في هذا المَوْضِعِ على إثْرِ ذلكَ الهَلاكِ يُخرَّجُ على وُجوهٍ:

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) الواو ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

أحدها: الحَمْدُ(١) إنّما يُذكَرُ على إثرِ ذلكَ للكرامةِ والنِّعْمَةِ؛ لكنْ ههنا، وإنْ كانَ نِقْمَةً وإهلاكاً، فيكونُ لِلأولياءِ كَرامَةً ونِعْمَةً؛ لأنَّ هَلاكَ العَدُوِّ يُعَدُّ مِنْ أعْظَمِ الكَرامَةِ والنِّعْمَةِ مِنَ اللهِ. فإذا كانَ في ذلكَ شَرٌّ لِلأعداءِ والانتِقامُ، فَيكونُ خَيْراً لِلأولياءِ وكَرامَةً. وما مِنْ شَرٍّ يكونُ لأحَدٍ إلّا ويجوزُ أنْ يكونَ في ذلكَ خَيْراً(٢) لآخَرَ. فيكونُ الحَمْدُ في الحاصِلِ في الخَيْرِ والنِّعْمَةِ.

والثاني: أنهُ يَجوزُ أنْ يكونَ في الهَلاكِ نَفْسِهِ الحَمْدُ، إذا كانَ الهَلاكُ بالظُّلْمِ لأنهُ هَلاكٌ بِحَقٍّ؛ إذْ للهِ أنْ يُهلِكَهُمْ. ولم يَكُنِ الهَلاكُ على الظُّلْمِ خارجاً عنِ الحِكْمَةِ، فَيُحْمَدُ ﷻ [ولَهُ](٣) في كُلِّ فِعْلٍ حِكْمَةٌ.

والثالثُ: يَقولُ: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على إظهارِ حُجَجِهِ بِهلاكِهِمْ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: يُرادُ بأخذِ السَّمْعِ والبَصَرِ والخَتْمِ على القُلوبِ أخذُ مَنافِعِ هذهِ الأشياءِ: أي أخذَ مَنافِعَ سَمْعِكُمْ ومَنافِعَ بَصَرِكُمْ ومَنافِعَ عُقولِكُمْ ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ بِمَنافِعِ سَمْعِكُمْ ومَنافِعِ بَصَرِكُمْ ومَنافِعِ عُقولِكُمْ؟ فإذا كانَتِ الأصنامُ والأوثانُ التي تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ، وتُشْرِكُونَ /١٤٨ - ب/ في أُلوهِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ، لا يَمْلِكُونَ رَدَّ تلكَ(٤) المنافِعِ التي أخَذَ اللهُ عَنْكُمْ، فَكيفَ تَعْبُدُونَها، وتُشْرِكونَ في أُلوهِيَّتِهِ؟

وقيلَ: يُرادُ بأخذِ السَّمْعِ والبَصَرِ وما ذَكَرَ أخذُ أعْيُنِها(٥) وأنْفُسِها؛ أي لو أخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وبَصَرَكُمْ وعُقولَكُمْ لا يَمْلِكُ ما تَعْبُدونَ رَدَّ هذهِ الأشياءِ إلى ما كانَتْ(٦)؛ لا يَمْلِكُونَ رَدَّ السَّمْعِ إلى ما كانَ ولا رَدَّ البَصَرِ والعَقْلِ الذي كانَ إلى ما كانَ. فَكيفَ تَعْبُدونَ دُونَهُ، وتُشْرِكونَ في أُلوهِيَّتِهِ؟ يُسَفِّهُ أحلامَهُمْ، [مَعَ ما](٧) يَعْلَمونَ أنَّ(٨) ما يَعْبُدُونَ، ويَجْعَلُونَ لَهُمُ الأُلوهِيَّةَ، لا يَمْلِكُونَ نَفْعاً ولا ضراً، ومعَ(٩) ما يَعْرِفُونَ ذلكَ مِنْهُمْ يَجْعَلُونَهُمْ(١٠) آلِهَةً مَعَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي نُبَيِّنُ لَهُمُ الآياتِ في خَطَئِهِمْ في عِبادةِ هؤلاءِ وإشراكِهِمْ في أُلوهِيَّتِهِ ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي يُعْرِضُونَ عنْ تلكَ الآياتِ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: أنهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّ العذابَ لا يَأتي، ولا يأخُذُ إلّا الظالِمَ، ثم أنهُمْ ظَلَمَةٌ لِعِبادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ مَعَ عِلْمِهِمْ أنهُمْ لا يَمْلِكُونَ نَفْعاً ولا ضَرّاً يَسْألُونَ العذابَ بِقَولِهِ: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] وقولِهِ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] وقولِهِ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أخبَرَ أنهُ لم يُرْسِلِ الرُّسُلَ إلّا معَ بِشارَةٍ لأهْلِ الطاعةِ ونِذارَةٍ لأهلِ(١١) مَعْصِيَتِهِ. وفيهِ أنَّ الرُّسُلَ لَيسَ إليهِمُ الأمْرُ والنَّهْيُ إنما إليهِمْ إبلاغُ الأمرِ والنَّهْيِ.

ثم بَيَّنَ البِشارَةَ، فقالَ: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا خوفٌ عليهِمْ لِما لَيسَ لِذلكَ فَوتٌ(١٢)، ولا زَوالٌ؛ لَيسَ كَثَوابِ الدنيا ونَعيمِها لأنهُ(١٣) على شَرَفِ الفَوتِ والزَّوالِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لأنه سُرُورٌ، لا يَشُوبُهُ الحُزْنُ، لَيسَ كَسُرورِ الدنيا، يكونُ مَشُوباً بالحُزْنِ والخَوفِ.

الآية ٤٩ [وقولُهُ تعالى:](١٤) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ هذهِ هي(١٥) النِّذارَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ذَكَرَ المَسَّ، واللهُ أعْلَمُ، لِما لم يُفارِقْهُمُ العذابُ، ولا يَزُولُ عنهُمْ. والفِسْقُ في هذا المَوضِعِ الكُفْرُ والشِّرْكُ، وما ذَكَرَ مِنَ الظُّلْمِ هو ظُلْمُ شِرْكٍ وكُفْرٍ.

---

(١) في الأصل وم: وإلا الحمد. (٢) في الأصل وم: خير. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل و م: ذلك. (٥) من م، في الأصل: عينها.
(٦) في الأصل وم: كان. (٧) في الأصل وم: لما. (٨) في الأصل و م: أنه. (٩) في الأصل و م: فمع. (١٠) في الأصل و م: يجعلون لهم.
(١١) من م، في الأصل: الأهل. (١٢) من م، في الأصل: فوق. (١٣) في الأصل و م: أنه. (١٤) ساقطة من الأصل و م. (١٥) من م، في الأصل: في.

جنة السنة

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ لم يَحتَمِلْ ما قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ حينَ[1] قالَ: إنهُمْ قالُوا لرسولِ اللهِ ﷺ: [لَمْ][2] لَمْ يُنَزِّلِ اللهُ عليكَ[3] كَنزاً تستغني بِهِ، فإنكَ مُحتاجٌ، ولا جَعَلَ لكَ جَنَّةً تأكُلُ منها، فتَشبَعُ مِنَ الطعامِ، فإنكَ تَجوعُ. فنَزَلَ عندَ ذلكَ هذا.

لا يُحتَمَلُ أنْ يَقولُوا لَهُ ذلكَ، فيقولَ لَهُمْ: إني مَلَكٌ، وليسَ عندي خزائنُ اللهِ ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ فإنْ كانَ مِنَ السُّؤالِ شيءٌ مِنْ ذلكَ فإنما يكونُ على سُؤالٍ سألُوا لأنفُسِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٠ و٩١] ونَحوِ ذلكَ مِنَ الأسئلَةِ التي سألُوهُ لأنفُسِهِمْ، فنَزَلَ عندَ ذلكَ ما ذُكِرَ.

فهذا لَعَمْري يَحتَمِلُ [وجهَينِ]:

أحدُهما: يقولُ[4] لَهُمْ: لَيسَ عندي خزائنُ اللهِ، فأجعَلَ لكُمْ هذا ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

والثاني: جائزٌ أنْ يكونَ النَّبيُّ ﷺ أوعَدَهُمْ بالعذابِ، وخَوَّفَهُمْ، فسألُوا العذابَ استِهزاءً وتكذيباً، فقالُوا: مَتى يكونُ؟ كقولِهِمْ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥] فقالَ عندَ ذلكَ ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ ومفاتيحُهُ؛ أُنزِلُ عليكُمُ العذابَ مَتى شِئتُ ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ مَتى وَقتُ نُزولِ العذابِ عليكُمْ؟ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ نَزَلْتُ مِنَ السماءِ بالعذابِ، إنما أنا رسولٌ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ [﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ أي][5] ما أَتَّبِعُ ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ هذا مُحتمَلٌ جائزٌ أنْ يكونَ على إثْرِ ذلكَ نَزَلَ.

ويَحتَمِلُ وجهاً آخرَ؛ وهو أنهُ يُخبِرُ ابتِداءً، أي ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ لأني لو قُلْتُ: عندي خزائنُ اللهِ، وأنا أعلَمُ الغَيبَ، وإني مَلَكٌ، كانَ ذلكَ أشدَّ اتِّباعاً وأرغَبَ وأكثَرَ لِطاعتي. لكنْ يقولُ أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، يُوحى إلَيَّ، ما أَتَّبِعُ إلا ما يُوحى إلَيَّ؛ لِتَعلَمُوا أني صادِقٌ ومُحِقٌّ في ما أدْعُوكُمْ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ يَعلَمُ بالإحاطةِ.

إنَّ هذا ونَحوَهُ خَرَجَ على الجَوابِ لأسئِلَةٍ كانَتْ منهُمْ لِرَسولِ اللهِ ﷺ لكنْ لَسنا نَعلَمُ ما كانَتْ تلكَ الأسئِلَةُ؛ كانَتْ مِنْ أولئكَ حتى كانَ هذا جَواباً لَهُمْ، فلا نُفسِّرُ، ولكنْ نَقِفُ مَخافَةَ الشهادَةِ على اللهِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ جَواباً لِما ذُكِرَ في آيَةٍ أُخرى، وهو قولُهُمْ: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ [الإسراء: ٩٠ و٩١] فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ جَواباً لِسُؤالِ وَقتِ الساعةِ أو وَقتِ نُزولِ العَذابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ جوابٌ لقولِهِمْ: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء: ٩٣] فقالَ عندَ ذلكَ: لا أقولُ: إني ﴿أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ حتى أعلَمَ وَقتَ نُزولِ العذابِ أو قِيامِ الساعةِ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ حتى أرْقَى في السَّماءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي تَعرِفونَ أنتُمْ أنهُ لا يَستَوي الأعمَى أي مَنْ عَمِيَ والبَصيرُ أي مَنْ لم يَعْمَ بَصَرُهُ. كيفَ لا تَعرِفونَ أنهُ لا يَستَوي مَنْ عَمِيَ عنِ الآياتِ ومَنْ لَمْ يَعْمَ عنها؟ أو نقولُ: [إذا لم يَستَوِ][6] الأعمَى والبَصيرُ كيفَ يَستَوي مَنْ يَتَعامَى عَنِ الحَقِّ ومَنْ لم يَتَعامَ؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أنهما لا يَستَوِيانِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ في آياتِ اللهِ وما ذُكِّرَكُمْ، أو نقولُ: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ في [ما][7] وعَظَكُمْ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ اختُلِفَ فيهِ:

(١) في الأصل و م: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل و م: عليكم. (٤) في الأصل و م: فيقول. (٥) ساقطة من الأصل و م.
(٦) في الأصل: إنا لم يستوي، في م: إذا لم يستوي. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

قالَ بَعْضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ إياسُ الكَفَرةِ عمّا سألوا مِنَ الأشياءِ رسولَ اللهِ ﷺ ثم أمَرَ بإنذارِ الذينَ يَخافُونَ أنْ يُحشَرُوا إلى ربِّهِم، وهمُ المؤمِنُونَ[1]؛ أي يَعْلَمُونَ أنهُمْ يُحشَرُونَ إلى ربِّهِمْ، وأنْ لَيسَ لَهُمْ وَلِيٌّ يدفَعُ عنهُمْ ما يَحِلُّ بِهِمْ، ولا شَفيعٌ يَسْأَلُ لَهُمْ ما لم يُعْطَوا.

وجائزٌ أنْ يكونَ تَخصِيصُ الأمْرِ بإنذارِ المُؤمِنينَ لِما كانَ الإنذارُ يَنفَعُهُمْ، ولا يَنفَعُ غَيْرَهُمْ. ولَيسَ فيهِ [أنهُ][2] لا يُنذِرُ غَيْرَهُمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١] لَيسَ فيه [بيانٌ][3] أنهُ لا يُنذِرُ مَنْ لم يَتَّبِعِ الذِّكْرَ، ولا خَشِيَ الرحمنَ. [ولكنْ أنبأَ أنهُ إنما يَنفَعُ هؤلاءِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] أخبَرَ أنَّ الذِّكرى تَنفَعُ المُؤمِنينَ، ولا تَنفَعُ أُولئكَ؛ يُنذِرُ الفَريقَينِ: مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ومَنْ لم يَتَّبِعْ ومَنْ نَفَعَ ومَنْ لم يَنفَعْ][4].

ويكونُ قولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يعني لَيسَ لأُولئكَ أولياءُ ولا شُفَعاءُ لأنهُمْ يَقولُونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ويَقُولُونَ[5]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ونَحْوَهُ؛ أخبَرَ أنْ ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ يُذكَرُ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ رِجالاً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ كانُوا يَسْبِقُونَ إلى مَجْلِسِ رسولِ اللهِ ﷺ فَيَجْلِسُونَ قَريباً منهُ، فَيَجيءُ أشرافُ القَومِ وسَاداتُهُمْ، وقد أخذ[6] أولئكَ المَجْلِسَ، فَيَجْلِسُ هؤلاءِ ناحِيَةً، فَقالُوا: نَحْنُ نَجيءُ، فَنَجْلِسُ ناحِيَةً، فَذَكَرُوا ذلكَ لِرَسولِ اللهِ ﷺ فقالُوا: إنّا سَاداتُ قَومِكَ وأشرافُهُمْ، فَلَو أدْنَيْتَنا منكَ المَجْلِسَ، فَهَمَّ أن يَفعَلَ ذلكَ، فأنزَلَ اللهُ هذه الآيةَ، يُعاتِبُ نَبِيَّهُ ﷺ بِقولِهِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ الآيةَ. [إلى][7] هذا يَذْهَبُ عامَّةُ أهلِ التَّأويلِ. لكنَّهُ بَعيدٌ؛ يَنسِبُونَ رسولَ اللهِ ﷺ إلى أوحَشِ [فِعْلٍ[8] وأفحَشِ قولٍ][9] ما لو كانَ فيهِ إسقاطُ نُبُوَّتِهِ ورسالَتِهِ؛ إذْ لا يُحتَمَلُ أنْ يكونَ النَّبيُّ ﷺ يُقَرِّبُ أعداءَهُ، ويُدْني مَجْلِسَهُمْ مِنْهُ، ويُبْعِدُ الأولياءَ/ ١٤٩ - أ/ هذا لا يَفعَلُهُ سَفيهٌ فَضْلاً أنْ يَفعَلَهُ رسولُ اللهِ المُصطَفَى على جَميعِ بَرِيَّتِهِ، أو يَخطُرَ بِبالِهِ شَيءٌ مِنْ ذلك، أو[10] كانَ فيهِ ما يَجِدُ الكَفَرَةُ عليهِ مَطْعَناً؛ يَقُولُونَ: يَدْعُو الناسَ إلى التوحيدِ والإيمانِ بهِ والاتِّباعِ لَهُ، فإذا فَعَلُوا ذلكَ، وأجابُوهُ، طَرَدَهُمْ، وأبعَدَ مَجْلِسَهُمْ مِنْهُ.

هذا لَعَمْري مَدفوعٌ في عَقْلِ كُلِّ عاقِلٍ. ولكنْ، [إنْ كانَ، فجائزٌ أنْ يكونَ][11] مِنهُمْ طَلَبَ[12] ذلكَ؛ طَلَبُوا مِنْهُ أنْ يُدْنِيَ مَجلِسَهُمْ، ويُبْعِدَ أولئكَ؛ هذا يُحتَمَلُ. وأمّا أنْ يَهُمَّ أنْ يَفعَلَ ذلكَ أو خَطَرَ بِبالِهِ شيءٌ مِن ذلك فَلا يُحتَمَلُ.

وجائزٌ أن يكونَ هذا مِنَ اللهِ ابتِداءَ تأديبٍ وتَعليمٍ؛ يُعَلِّمُ رَسولَهُ صُحْبَةَ أصحابِهِ ومُعامَلَتَهُ مَعَهُمْ كقولِهِ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ [الكهف: ٢٨]، [ولَهْيًا عن][13] أنْ يَمُدَّ عَينَيهِ إلى ما مَتَّعَ أولئكَ كقولِهِ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية [الحجر: ٨٨]، ويُخبِرُهُ عن عظيمِ قَدْرِهِمْ عندَ اللهِ. وقد ذَكَرْنا أنَّ العِصْمَةَ لا تَمنَعُ الحَظْرَ، بلِ العِصْمَةُ تزيدُ في النَّهْيِ والزَّجْرِ.

وأخبَرَ أنْ لَيسَ عليهِ ﴿مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ فإنَّما عليكَ البلاغُ، وعليهِمُ الإجابةُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونُوا يَجتَمِعُونَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ في كُلِّ غَداةٍ ومَساءٍ، فَيَسْمَعُونَ منهُ، ثم يَفتَرِقُونَ على ما عليهِ أمْرُ الناسِ مِنَ الاجتِماعِ كُلَّ غَداةٍ ومَساءٍ عندَ الفُقَهاءِ وأهْلِ العِلْمِ.

---

(١) من م، في الأصل: من المؤمنون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: و.
(٦) في الأصل وم: أخذوا. (٧) في م: وإلى. ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: الناس وأفحشه، في م: فعل وأوحشه. (٩) من م، في الأصل: الناس وأفحشه، في م: فعل وأوحشه. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، في الأصل: يغلب.
(١٣) في الأصل وم: ولهي.

جنة السنة

وجائزٌ أنْ يكونَ ذِكرَ الغداةِ والعَشِيِّ كِنايةً عَنِ اللَّيلِ كُلِّهِ وعَنِ النهارِ جُملَةً كقولِهِ تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ﴿وَالَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١و٢] لَيسَ يُريدُ بالضُّحى الضَّحْوَةَ خاصَّةً ولكنْ [يُريدُ][1] النَّهارَ كُلَّهُ. ألا ترَى أنهُ قالَ: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾؟ ذِكرُ اللَّيلِ دَلَّ أنهُ كانَ الضُّحى كِنايةً عنِ النَّهارِ جُملَةً. فَعَلى ذلكَ [ذِكرُ][2] الغَداةِ والعَشِيِّ يجوزُ أنْ يكونَ كِنايةً عنِ اللَّيلِ والنَّهارِ جُملَةً[3]، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يَكُونُوا أصحابَ الحِرَفِ والمَكاسِبِ لا يَتَفرَّغُونَ لِلاجْتِماعِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ والاِسْتِماعِ منهُ في عامَّةِ النَّهارِ، ولكنْ يَجْتَمِعُونَ إليهِ، ويَسْتَمِعُونَ منهُ بالغَداةِ والعَشِيِّ، فكانَ ذِكرُ الغَداةِ والعَشِيِّ لِذلكَ أو لِما ذَكَرْنا.

وجائزٌ نْ يكونَ المُرادُ بِذِكرِ الغَداةِ والعَشِيِّ صلاةَ الغَداةِ وصلاةَ العِشاءِ؛ يقولُ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ مَنْ يَشْهدُ هاتَينِ الصلاتَينِ، وإنما يَشْهَدُهُمَا أهْلُ الإيمانِ. وأمّا أهْلُ النِّفاقِ فإنهُمْ لا يَشْهَدُونَ هاتَينِ الصلاتَينِ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الظُّلْمُ][4] على وُجوهٍ: ظُلْمُ كُفرٍ، وظُلْمُ شِرْكٍ، وظُلْمٌ يكونُ بِدونِهِما[5]؛ وهو أنْ يُمنَعَ [أحدٌ، أو يُؤخذَ منهُ حَقُّهُ][6] بِغَيرِ حَقٍّ. فهو كلُّهُ ظُلْمٌ. والظُّلْمُ ههنا، واللهُ أعلَمُ، يُشبِهُ أنْ يكونَ هو وضعَ الحِكْمَةِ في غَيرِ أهلِها؛ لأنهُ لو كانَ منهُ ما ذَكَرَ مِنْ طَرْدِ أُولئكَ وإدناءِ أُولئكَ، لم يكونُوا أهْلاً لِلحِكْمَةِ، ويجوزُ أنْ يُوصَفَ واضِعُ الحِكْمَةِ في غَيرِ مَوضِعِها بالظُّلْمِ على ما رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ «مَنْ وَضَعَ الحِكْمَةَ في غَيرِ أهْلِها فَقَدْ ظَلَمَها، ومَنْ مَنَعَها عن أهْلِها فَقَدْ ظَلَمَهُمْ».

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ وقولُهُ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ لا يُتَكَلَّمُ إلاّ عن أمرٍ سَبَقَ؛ فهو، واللهُ أعلَمُ، يَحْتَمِلُ أنْ يَقولَ لَمّا قالُوا: يا محمدُ أرَضِيتَ بِهؤلاءِ الأعْبُدِ مِنْ قومِكَ؟ أفَنَحْنُ نَكونُ تَبَعاً لِهؤلاءِ؟ ونَحْنُ سادَةُ القومِ وأشْرافُهُمْ، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي كما فَضَّلْتُكُمْ على هؤلاءِ في أمْرِ الدنيا، فكذلكَ فَضَّلْتُهُمْ عليكُمْ في أمْرِ الدينِ، ويكونونَ[7] هُمُ المُقَرَّبِينَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ والمُدْنَيْنَ مَجْلِسُهُمْ إليهِ، وأنْتُمْ أتباعُهُمْ في أمْرِ الدينِ، وإنْ كانُوا هُمْ أتباعَكُمْ في أمْرِ الدنيا، وذلكَ[8] امْتِحانُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ؛ وهو أنْ يُقالَ: كما كانَ لهُ امْتِحانُ كُلٍّ في نَفْسِهِ ابْتِداءَ مِحْنَةٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] وكقولِهِ[9] تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥]، فَعَلَى ذلكَ لهُ أنْ يَمْتَحِنَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ.

وأشَدُّ المِحَنِ أنْ يُؤْمَرَ المَتْبُوعُ ومَنْ يَرَى لِنَفْسِهِ فَضْلاً بالخُضوعِ لِلتابعِ ومَنْ هو دُونَهُ. عندَهُ يَشْتَدُّ ذلكَ عليهِ، ويَتَعَذَّرُ كما[10] كانُوا يَرَونَ هُمْ لأنْفُسِهِمُ الفَضْلَ والمَنْزِلَةَ في أمْرِ الدنيا، فَظَنُّوا أنهُمْ كذلكَ يكونُونَ في أمْرِ الدينِ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ، لَمّا امْتُحِنَ إبليسُ بالسجودِ لآدمَ رَأى لِنَفْسِهِ فَضْلاً عليهِ، قولُهُ[11]: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢ وص: ٧٦]، ولم يَرَ الخُضوعَ لِمَنْ دُونَهُ عَدْلاً وحِكْمَةً، فصارَ ما صارَ.

فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ لم يَرَوا أولئكَ الضَّعَفَةَ أنْ يكونوا مَتْبوعِينَ عَدْلاً وحِكْمَةً، [وظَنُّوا أنهم][12] لَمّا كانُوا مُفَضَّلِينَ في أمْرِ الدنيا، وكانَ لِهؤلاءِ إليهِمْ حاجةٌ يَكونُونَ في أمْرِ الدينِ كذلكَ، ويَقولُونَ: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] ونَحْوَهُ مِنَ الكلامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هو مَوصُولٌ بالأوَّلِ بقولِهِ: ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟﴾: يَقولُ الكافرُ قَولَ الكُفرِ والمؤمنُ قَولَ الإيمانِ ثُمَّ ابْتِداءً، فقالَ هؤلاءِ: أي يَقولُ الكَفَرَةُ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ لَيسَ بِمَفْصُولٍ مِنْ قَولِهِ: ﴿لِّيَقُولُوٓا۟﴾ ولكنْ مَوصولٌ بِهِ ﴿لِّيَقُولُوٓا۟﴾ يَعْني الكَفَرَةَ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وجملة. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: بدونه. (٦) في الأصل وم: أحداً حقه أو أخذ من حقاً. (٧) في الأصل وم: ويكون. (٨) في الأصل وم: وكذلك. (٩) في الأصل وم: وقوله. (١٠) في الأصل وم: لما. (١١) في الأصل وم: فقال. (١٢) من م، في الأصل: وأنهم.

جنة السنة

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ بالحِفظِ بالتَّقريبِ والإدناءِ في المَجلِسِ وجَعْلِهِمْ متبوعِينَ مِن بَيْنِنا بَعْدَ ما كانُوا أتباعاً لَنا؟ فقالَ عندَ ذلك: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي عَرَفَ هؤلاءِ نِعْمَةَ اللهِ تعالى، وَوَجَّهُوا شُكرَ نِعَمِهِ إليهِ، وأنتُمْ وَجَّهتُمْ شُكرَ نِعَمِهِ إلى غَيْرِه بَعْدَ ما عَرَفْتُمْ انهُ هو المُنْعِمُ عليكُمْ والمُسْدِي إليكُمْ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ هذا يَدُلُّ على أنَّ النَّهيَ عنِ الطَّرْدِ ليسَ لِلإبعادِ خاصَّةً في المَجلِسِ، ولكنْ في كُلِّ شَيءٍ: في بَشاشَةِ الوَجْهِ واللُّطفِ في الكلامِ وفي كُلِّ شَيءٍ لأنهُ قالَ ﴿فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾ هو أنْ يَبْدَأَهُمْ بالسَّلامِ؛ فذلكَ الذي كَتَبَ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ. وقالَ بَعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾ أي لم يَأخُذْهُمْ[1] في أوَّلِ ما وقَعُوا في المَعْصِيَةِ، ولكنْ أمْهَلَهُمْ إلى وَقْتٍ، وجَعَلَ لَهُمُ المَخرَجَ مِنْ ذلكَ بالتوبَةِ. وعلى ذلكَ ما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنهُ قالَ: فَتَحَ اللهُ لِلْعَبْدِ التوبَةَ إلى أنْ يَأتِيَهُ المَوتُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي كُلُّ ﴿مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فإنَّهُ[2] يَغْفِرُ لَهُ ما كانَ منهُ. ومَنْ قَرَأها بالنَّصبِ[3] عطفَهُ على ﴿ٱلرَّحۡمَةَ﴾[4].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾ أي كَتَبَ على خَلْقِهِ الرَّحْمَةَ أنْ يَرْحَمَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً. وجائزٌ ما ذَكَرْنا أنهُ كَتَبَ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أي أوجَبَ أنْ يَرْحَمَ، ويَغْفِرَ لِمَنْ تابَ[5].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ جائزٌ أنْ تكونَ الآيةُ في الكافِرِ إذا تابَ يَغفِرُ اللهُ لَهُ ما كانَ منهُ في حالِ الكُفرِ والشِّرْكِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ الآية [آل عمران: ١٣٥] وقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وجائزٌ أنْ تكونَ في المُؤْمِنِ[6]، ثم ذَكَرَ عَمَلاً بجهالةٍ، وإنْ لم يكُنْ يَعْمَلُ بالجَهْلِ، لأنَّ الفِعْلَ فِعْلُ الجَهْلِ، وإنْ كانَ فِعْلُهُ لم يكُنْ على الجَهْلِ، وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ النِّسْيانِ والخَطَإِ في الفِعْلِ لأنَّ فِعْلَهُ فِعْلُ ناسٍ وفِعلُ مُخطِئٍ، وإنْ لم يَفْعَلْهُ الكافِرُ على النِّسْيانِ والخَطَإِ. وإلّا لو كانَ على حَقيقَةِ الخَطَإِ والنِّسْيانِ لَكانَ لا يُؤاخَذُ بِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ لكنَّ الوَجْهَ ما ذَكَرْنا أنَّ الفِعْلَ فِعْلُ نِسْيانٍ وخَطَإٍ، وإنْ لم يكُنْ ناسِياً ولا مُخطِئاً فيه. وعلى ذلكَ فِعْلُ جَهْلٍ، وإنْ لم يكُنْ جاهلاً، والفِعْلُ فِعْلُ جَهْلٍ، وإنْ لم يكُنْ بالجَهْلِ.

والمؤمِنُ جَميعُ ما يَتَعاطى مِنَ المَساوِئِ يكونُ لِجَهالةٍ لأنهُ إنما يَعْمَلُ / ١٤٩ ـ ب/ السُّوءَ لِغَيْرِ[7] شَهْوَةٍ أو لِلاعْتِمادِ على كَرَمٍ بِهِ بالعَفْوِ عنهُ والصَّفْحِ عَنْ ذلكَ، أو يَعْمَلُ السُّوءَ على نِيَّةِ التوبَةِ والعَزْمِ عليها في آخِرِه. على هذِهِ الوُجوهِ الثلاثةِ يَقَعُ المؤمِنُ في المَعْصِيَةِ. وأمّا على التَّعَمُّدِ فلا يَعْمَلُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ قُرِئَ[8] بالياءِ والتاءِ جميعاً؛ فَمَنْ قَرَأَ بالتاءِ نَصَبَ السَّبِيلَ بِجَعْلِ الخِطابِ لرسولِ اللهِ ﷺ أي لِتَعْرِفَ سَبِيلَ المُجرِمينَ، ومَنْ قَرَأَ بالياءِ رَفَعَ السَّبِيلَ؛ كأنه قالَ: ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ وُجوهاً:

[أحدُها][9]: أي نُبَيِّنُ الآياتِ ما يَعْرِفُ السامِعُونَ أنها آياتٌ مِنْ عندِ اللهِ غَيْرُ مُختَرَعَةٍ مِنْ عندِ الخَلْقِ ولا مُفتَراةٌ ما نُبَيِّنُ سَبِيلَ المُجْرِمِينَ مِنْ سَبِيلِ المُهْتَدِينَ.

---

(١) في الأصل وم: يأخذ. (٢) في الأصل وم: أنه. (٣) انظر حجة القراءات ص(٢٥٢). (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لذلك. (٥) من م، في الأصل: يشاء. (٦) في الأصل وم: المؤمنين. (٧) من م، في الأصل: لغير. (٨) انظر حجة القراءات ص(٢٥٣). (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

والثاني: ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ ما بالخَلْقِ حاجةٌ إليها وإلى مَعْرِفَتِها.

والثالثُ: نُبَيِّنُ مِنَ الآياتِ ما نُبَيِّنُ بَيْنَ المُخْتَلِفِينَ أي بَيْنَ سَبِيلِ المُجْرِمِينَ وبَيْنَ سَبِيلِ المُهْتَدِينَ.

[وقولُهُ تعالى][1] ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ تأويلُهُ ما ذَكَرْنا أنَّ مَنْ قَرَأَ بالتاءِ حَمَلَهُ على خِطابِ رسولِ اللهِ ﷺ بالتاءِ أي نُبَيِّنُ مِنَ الآياتِ لِتَعْرِفَ سَبِيلَ المُجْرِمِينَ بالنَّصْبِ. ومَنْ قَرَأَ بالياءِ نُبَيِّنُ مِنَ الآياتِ لِيَتَبَيَّنَ سَبِيلُ المُجْرِمِينَ مِنْ سَبِيلِ غَيْرِ المُجْرِمِينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعْلَمُ: إني نُهِيتُ بما أُكْرِمْتُ مِنَ العَقْلِ واللُّبِّ أنْ أعْبُدَ الذينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، أو يَقُولُ: إني نُهِيتُ بما أُكْرِمْتُ مِنَ الوَحْيِ والرسالةِ ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾.

[وقولُهُ تعالى][2] ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ ثم أخبَرَ أنَّ ما يَعْبُدُونَ هُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنما يَعْبُدُونَ اتِّباعاً لِهَوَى أنْفُسِهِمْ، وإنما يَعْبُدُ هو لَيسَ يَتَّبِعُ هَوَى نَفْسِهِ، وإنما يَتَّبِعُ الحُجَّةَ والسَّمْعَ وما يَسْتَحْسِنُهُ العَقْلُ.

ألا تَرَى أنه قالَ: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾؟ [الأنعام: ٥٧] أي على حُجَّةٍ مِنْ رَبِّي؛ يُخْبِرُ أنَّ ما يَعْبُدُ هو[3] أنْ يَعْبُدَ اتِّباعاً لِلْحُجَّةِ والعَقْلِ، وما يَعْبُدُونَ اتِّباعاً لِهَوَى أنْفُسِهِمْ. وما يُتَّبَعُ بالهَوَى: يَجُوزُ أنْ يُتْرَكَ[4] اتِّباعُهُ، ويُتَّبَعَ غَيْرُهُ لِما تَهْوَى النَّفْسُ[5] هذا، ولا تَهْوَى الأوَّلَ. وأمّا ما يُتَّبَعُ بالحُجَّةِ والسَّمْعِ وما يَسْتَحْسِنُهُ[6] العَقْلُ فإنَهُ لا يَجُوزُ أنْ يُتْرَكَ اتِّباعُهُ، ويُتَّبَعَ غَيْرُهُ.

وفيهِ تَعَرُّضٌ لِسَفِيهِهِمْ لأنهُ قالَ: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ أي لَوِ اتَّبَعْتُ أهْواءَكُمْ لَضَلَلْتُ إذَنْ، وأنْتُمْ، إذا اتَّبَعْتُمْ أهْواءَكُمْ لِعِبادَتِكُمْ غَيْرَ اللهِ، ضُلّالٌ، ولَسْتُمْ بالمُهْتَدِينَ، فهو عَرَضُ[7] التَّسْفِيهِ لَهُمْ والشَّتْمِ منهُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ﴾ قِيلَ على بَيانٍ مِنْ رَبِّي وحُجَّةٍ، وقِيلَ: على دِينٍ مِنْ رَبِّي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ﴾ قِيلَ: بالقرآنِ، وقِيلَ: العذابُ ما أوْعَدْتُكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾ أي العذابُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] وغيرِهِ، فقالَ: ﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾ مِنَ العذابِ.

ثم هذا يدُلُّ على أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [الأنعام: ٥٠] أنَّ المُرادَ بالخزائِنِ العَذابُ؛ أي لَيسَ عِنْدِي ذلكَ إنما ذلكَ إلى اللهِ، وعِنْدَهُ ذلكَ؛ وهو قولُهُ تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ أي ما الحُكْمُ والقضاءُ إلّا للهِ، [أي ما الحقُّ][8] ﴿يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾ اخْتُلِفَ في تِلاوتِهِ وتأويلِهِ:

قَرَأَ بَعْضُهُمْ بالضادِ وآخرونَ بالصادِ[9]؛ فَمَنْ قَرَأَ بالصادِ: ﴿يَقُصُّ﴾ يقولُ: يُبَيِّنُ الحقَّ لأنَّ القَصَصَ هو البيانُ، وقالَ آخَرُ: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾ أي خيرُ المُبَيِّنِينَ. ومَنْ قَرَأَ بالضادِ يقولُ: يقضي يَحْكُمُ. ثم اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ أي يَقْضِي بالحَقِّ، وكذلكَ رُوِيَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ أنهُ قَرَأَ: يقضي بالحقِّ، وقيلَ: فيهِ إضمارٌ أي يَقْضِي، ويَحْكُمُ، وحُكْمُهُ الحَقُّ ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾ أي القاضِينَ[10]، والفَصْلُ والقضاءُ واحدٌ؛ لأنهُ بالقضاءِ يَفْصِلُ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ﴾ عن ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ:][11] ﴿لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ﴾ مِنَ العَذابِ ﴿لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ﴾ لأهْلَكْتُكُمْ. وقيلَ ﴿لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: هم. (٤) في الأصل و م: ينزل. (٥) في الأصل وم: نفسه. (٦) من م، في الأصل: يحسنه. (٧) في الأصل: تعرض. في م: تعريض. (٨) ساقطة من م. (٩) انظر حجة القراءات ص(٢٥٤). (١٠) من م، في الأصل: الفاضلين. (١١) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

﴿وَبَيْنَكُمْ﴾ أي لَعَجَّلْتُهُ لَكُمْ بالقضاءِ في ما بَيْنَنا؛ يُخْبِرُ عن رَحْمَةِ اللهِ وحِلْمِهِ، أي لو كانَ بِيَدي لأَرْسَلْتُ عليكُمْ، لكنَّ اللهَ بِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ يُؤَخِّرُ ذلكَ عنكُمْ.

ثم فيهِ نَقْضٌ على المُعْتَزِلَةِ في قولِهِمْ: إنَّ[1] اللهَ لا يَفْعَلُ بالعَبْدِ إلّا الأَصْلَحَ في الدينِ، لأنهُ قالَ: ﴿لَوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ ثم لا يُحْتَمَلُ أنَّ تأخيرَ العذابِ والهلاكِ خيرٌ لَهُمْ وأصلَحُ. ثم هو يُهْلِكُهُمْ، ويكونُ عِظَةً لِغَيرِهِمْ وزَجْراً لَهُمْ. ثم إنَّ اللهَ تعالى أَخَّرَ ذلكَ العذابَ عنهُمْ، وإنْ كانَ فيهِ شَرٌّ لَهُمْ، فَدَلَّ أنَّ اللهَ قد يَفْعَلُ بالعَبْدِ ما لَيسَ ذلكَ بأَصْلَحَ لهُ في الدينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي عليمٌ بِمَنِ الظالِمُ مِنّا، وهمْ كانُوا ظَلَمَةً.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ هذا، واللهُ أعْلَمُ، يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠] وَصِلَةَ قولِهِ: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٥٧].

كانُوا يَطْلُبُونَ منهُ ﷺ ويَسْأَلونَهُ أشياءَ مِنَ التَّوسيعِ في الرِّزْقِ وغَيرِ ذلكَ ممّا كانَ يَعِدُهُمْ مِنَ الكَرامَةِ والمَنْزِلَةِ والسَّعَةِ، وكانَ يُوعِدُهُمْ بالعذابِ، ويُخَوِّفُهُمْ بالهلاكِ، فَيَسْتَعْجِلُونَ ذلكَ منهُ ما وَعَدَ لَهُمْ، فقالَ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ لَيسَ ذلكَ عِنْدِي، لا يَعْلَمُ ذلكَ إلّا هُوَ.

ومَفاتِحُ مِنَ المَفْتَحِ لَيسَ مِنَ المِفْتاحِ، يكونُ جَمْعُهُ مَفاتِيحَ. والفَتْحُ؛ يُقالُ في النَّصْرِ والمَعونَةِ، يُقالُ: فَتَحَ اللهُ عليهِ بَلْدَةَ كذا، أي نَصَرَهُ، وجَعَلَهُ غالباً عليهِمْ، ويُقالُ في ما يُحْدِثُهُ، ويُسْتَفادُ[2] مِنْهُ: فَتَحَ فلانٌ على فلانٍ بابَ كذا، أي عَلَّمَهُ عِلْمَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي عندَهُ [ما][3] يُسْتَفادُ ذلكَ، ومِنْهُ يكونُ. ومَنْ نَصَرَ آخَرَ فإنما يَنْصُرُ بِهِ، ومَنْ عَلَّمَ آخَرَ فإنما يُعَلِّمُهُ بِهِ، ومَنْ وَسَّعَ على[4] آخَرَ رِزْقاً فإنما يُوَسِّعُهُ باللهِ. كلُّ هذا يُشْبِهُ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

[أحدُها][5]: يَحْتَمِلُ ﴿مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ مِنَ الدَّوابِّ وما يَسْكُنُ فيها مِنْ ذَوي الرُّوحِ: كَثْرَتَها وعَدَدَها وصَغيرَها، لا يَخْفى عليهِ شيءٌ.

والثاني: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي يَعْلَمُ رِزْقَ كُلِّ ما في البَرِّ والبَحْرِ، ويَعْلَمُ حاجَتَهُ، ثم يَسوقُ إلى كُلٍّ مِنْ ذلكَ رِزْقَهُ. يُخْبِرُ هذا، واللهُ أعْلَمُ، لِيَعْلَمُوا أنهُ لَمّا ضَمِنَ لِلْخَلْقِ لِكُلٍّ منهُمْ رِزْقَهُ يَسوقُ إليهِ رِزْقَهُ مِنْ غَيرِ تَكَلُّفٍ ولا طَلَبٍ كما يَسوقُ أرزاقَ ما في البَرِّ والبَحْرِ مِنْ غَيرِ طَلَبٍ ولا تَكَلُّفٍ، لا تَضِيقُ قلوبُهُمْ لِذلكَ، فما بالُكُمْ تَضِيقُ قلوبُكُمْ على ذلكَ، وقد ضَمِنَ ذلكَ لكُمْ كما ضَمِنَ لأُولئكَ؟

والثالثُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ مِنَ اخْتِلاطِ الأَقْطارِ بَعْضِها بِبَعْضٍ ومِنْ دخولِ بَعْضِها في بَعْضٍ؛ يَخْرُجُ هذا على الوَعيدِ أنهُ لَمّا كانَ عالماً بهذا كُلِّهِ يَعْلَمُ بأعمالِكُمْ ومَقاصِدِكُمْ. فإنْ قِيلَ: هذا الذي ذَكَرَ، كُلُّهُ في الظاهِرِ دَعْوى، فما الدليلُ على أنهُ كذلكَ؟ قِيلَ: اتِّساقُ التَّدبيرِ في كُلِّ شيءٍ وآثارُهُ فيهِ يَدُلُّ على أنهُ كانَ بِتَدْبيرِ واحدٍ لأنَّ آثارَ التَّدْبيرِ في كلِّ شيءٍ واتِّساقِهِ على سَنَنٍ واحدٍ ظاهِرَةٌ باديَةٌ. فذلكَ يَدُلُّ على ما ذكرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ الآيةَ. ويَحْتَمِلُ الكِتابُ ههنا التَّقْديرَ والحُكْمَ. اخْتُلِفَ فيهِ: قيلَ: قولُهُ ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي مَحْفوظٍ كلُّهُ عندَهُ؛ يقولُ الرجلُ لآخَرَ: عَمَلُكَ كُلُّهُ عندي مكتوبٌ؛ يُريدُ الحِفْظَ، أي مَحْفوظٌ عندي، وذلكَ جائزٌ في الكَلامِ، وقيلَ: الكِتابُ ههنا هو اللَّوحُ المَحْفوظُ أي كُلُّهُ مُبَيَّنٌ فيهِ.

(١) في م: بأن. (٢) في الأصل و م: يستفيد. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) من م، في الأصل: إلى. (٥) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

وقالَ الحَسَنُ، رَحِمَهُ اللهُ: إنَّ اللهَ يُخرِجُ كتاباً في كلِّ لَيلةِ القَدْرِ، ويَدْفَعُهُ[1] إلى الملائكةِ، وفيهِ مَكْتوبٌ كُلُّ ما يكونُ في تلكَ السنةِ لِيَحْفَظُوهُ[2] / ١٥٠ ـ أ/ على ما يكونُ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا، والله أعْلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ وقالَ بَعْضُ أهلِ الكلامِ: إنَّ لِكُلِّ حاسَّةٍ مِنْ هذِهِ الحَواسِّ رُوحاً، يُقْبَضُ عندَ النَّومِ، ثُمَّ يُرَدُّ إليها سِوَى رُوحِ الحياةِ، فإنهُ لا يُقْبَضُ، لأنهُ يكونُ أصَمَّ بَصيراً مُتَكَلِّماً ناطِقاً، ويكونُ أعْمَى سَمِيعاً، ويكونُ أخْرَسَ سَمِيعاً بَصيراً. فَثَبَتَ أنَّ لِكلِّ حاسَّةٍ مِنْ حَواسِّ النَّفْسِ رُوحاً على حِدَةٍ، يُقْبَضُ عندَ النَّومِ، ثم يُرَدُّ إليها، إذا ذَهَبَ النَّومُ.

وأمّا الرُّوحُ الذي بِهِ يُحْيِي النَّفْسَ فإنهُ لا يُقْبَضُ ذلكَ منهُ إلّا عندَ انْقِضاءِ أجَلِهِ، وهو المَوتُ. وقالَتِ الفَلاسِفَةُ: الحَواسُّ هي التي تُدْرِكُ صُوَرَ الأشياءِ بِطِينَتِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ فيهِ دَلالَةُ أنْ لَيسَ ذِكْرُ الحُكْمِ في حالٍ أو تَخْصِيصُ الشَّيءِ في حالٍ دَلالَةَ سُقوطِ ذلكَ في حالٍ أُخرَى، لأنهُ قالَ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ لَيسَ فيهِ أنهُ لا يَعْلَمُ ما جَرَحْنا باللَّيلِ، بل يَعْلَمُ ما يكونُ مِنّا باللَّيلِ والنَّهارِ جميعاً، ولَيسَ فيهِ أنهُ لا يَتَوَفّانا بالنَّهارِ، وألّا نَجْرَحَ باللَّيلِ، لكنَّهُ ذَكَرَ الجُرْحَ بالنَّهارِ والوَفاةَ باللَّيلِ لِما أنَّ الغالِبَ مِمّا يُبْصَرُ إنّما يكونُ بالنَّهارِ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ. ثم فيهِ دَلالَةُ أنَّ النائمَ غَيرُ مُخاطَبٍ في حالِ نَومِهِ حِينَ[3] ذَكَرَ الوَعِيدَ في ما يَجْرَحُونَ بالنَّهارِ، ولم يَذْكُرْ باللَّيلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿جَرَحْتُم﴾ أي أثِمْتُمْ ﴿بِالنَّهَارِ﴾. وقيلَ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا﴾ كَسَبْتُمْ ﴿بِالنَّهَارِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ يُسْتَدَلُّ بقولِهِ: ﴿يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ على الإحياءِ بَعْدَ المَوتِ لأنهُ يُذْهِبُ أرواحَ هذِهِ الحَواسِّ، ثم يَرُدُّها إليها مِنْ غَيرِ أنْ يَبْقَى[4]، فكيفَ تُنْكِرونَ البَعْثَ بَعْدَ المَوتِ، وإنْ لم يَبْقَ مِنْ أثرٍ لِلْحَياةِ[5]؟

ثم القولُ في الجَمْعِ بَعْدَ التَّفَرُّقِ مِمّا الخَلْقُ يَفْعَلُ ذلكَ، ويَقْدِرُ عليهِ، نَحْوَ ما يَجْمَعُ مِنَ التُّرابِ المُتَفَرِّقِ، فَيَجْعَلُهُ طِيناً، ورَفْعِ البِناءِ مِنْ مَكانٍ وَوَضْعِهِ في مَكانٍ آخَرَ وغَيرِ ذلكَ مِنْ جَمْعِ بَعْضٍ إلى بَعْضٍ وتَرْكِيبِ بَعْضٍ على بَعْضٍ، فَدَلَّ أنَّ الأُعْجُوبَةَ في رَدِّ ما ذَهَبَ كُلُّهُ حتى لم يَبْقَ لَهُ أثَرٌ لا في جَمْعٍ [ولا في][6] تَفَرُّقٍ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي يُوقِظُكُمْ، ويَرُدُّ إليكُمْ أرواحَ الحَواسِّ ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي مُسَمَّى العُمْرِ إلى المَوتِ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ خَرَجَ هذا على الوَعِيدِ لِما ذَكَرْنا لِيَكُونُوا على حَذَرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ وقولُهُ: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٥٩] يَعْلَمُ [كُلَّ][7] ما يَغيبُ عنِ الخَلْقِ، ولا يَخْفَى عليهِ شَيءٌ، لأنهُ عالِمٌ بذاتِهِ، لا يَحْجُبُهُ شيءٌ، لَيسَ [عِلْمُهُ][8] كَعِلْمِ مَنْ يَعْلَمُ بِغَيرِهِ، فَيَحُولُ بينَهُ وبَيْنَ العِلْمِ بالأشياءِ الحُجُبُ والأستارُ. فأمّا اللهُ ﷻ [فهو][9] عالِمٌ بذاتِهِ، لا [يَحْجُبُ عِلْمَهُ][10] شَيءٌ، ولا يكونُ لهُ حِجابٌ عنْ شَيءٍ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ فيهِ جَميعُ ما يَحتاجُ أهْلُ التَّوحيدِ [إليهِ][11] لأنهُ أخبَرَ أنهُ قاهِرٌ لِخَلْقِهِ، وهُم مَقْهُورُونَ. ومِنَ البَعيدِ أنْ يُشْبِهَ القاهِرُ المَقْهُورَ بِشيءٍ، أو يُشْبِهَ المَقْهُورُ القاهِرَ بِوَجْهٍ، أو يكونَ شَرِيكَ القاهِرِ في مَعْنىً، لأنهُ لو كانَ شَيءٌ مِنْ ذلكَ لم يَكُنْ قاهِراً مِنْ جَميعِ الوُجُوهِ، ولا كانَ الخَلْقُ مَقْهُوراً في الوُجُوهِ كُلِّها. فإذا كانَ اللهُ قاهِراً بذاتِهِ الخَلْقَ كُلَّهُ كانتْ آثارُ قَهْرِهِ فيهِمْ ظاهِرَةً وأعلامُ سُلْطانِهِ فيهِمْ بادِيَةً على تَعالِيهِ عَنِ الأشباهِ والأضْدادِ وأنهُ كما وَصَفَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) في الأصل و م: ويدفع. (٢) في الأصل و م: ليحفظوهم. (٣) في الأصل و م: حيث. (٤) في الأصل و م: بقي. (٥) في الأصل و م: الحياة. (٦) في الأصل و م: ما. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يحجبه. (١١) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ يكونُ على وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ وهو ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

والثاني: على التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ وهو فوقَ عبادِهِ القاهِرُ. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ بالنَّصرِ لَهُمْ والمَعُونَةِ والدَّفعِ عنهُمْ كقولِهِ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بالنَّصرِ والمَعونَةِ والعَظَمَةِ والرِّفعَةِ والجَلالِ ونفاذِ السلطانِ والرُّبوبِيَّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ]:

أحدُهما[1]: أخبَرَ أنهُ القاهِرُ فوقَ عِبادِهِ وأنهُ أرسَلَ عليهِمُ الحَفَظَةَ لِيَعلَمُوا أنَّ إرسالَ الحَفَظَةِ عليهِمْ لا لِحاجَةٍ لهُ؛ لم يكُنْ قاهِراً لأنَّ مَنْ وَقَعَتْ لهُ حاجَةٌ صارَ مقهوراً تَحتَ قَهرِ آخرَ. فاللهُ، تعالى أنْ تَمَسَّهُ حاجَةٌ، أو يُصيبَهُ [مِثْلُ ما يُصيبُ الخَلْقَ، بل وإنما أرسَلَهُمْ عليهم لِحاجَةِ الخَلْقِ][2] إمَّا امتِحاناً منهُ لِلحَفَظَةِ على مُحافَظَةِ أعمالِ العِبادِ والكِتابَةِ عليهِمْ مِنْ غيرِ أنْ تَقَعَ لهُ في ذلكَ حاجَةٌ، يَمتَحِنُهُمْ بذلكَ[3]. ولِلَّهِ أنْ يَمتَحِنَ عبادَهُ بما شاءَ مِنْ أنواعِ المِحَنِ، وإنْ أكرَمَهُمْ، وَوَصَفَهُمْ بالطاعةِ في الأحوالِ كُلِّها بِقولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وغيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

والثاني: [يرسِلُ الحَفَظَةَ][4] عليهِمْ بِمُحافَظَةِ أعمالِهِمْ والكِتابِ عليهِمْ لِيكونُوا على حَذَرٍ في ذلكَ؛ [وذلِكَ][5] في الزَّجرِ أبلَغُ وأكثَرُ [نَظَراً][6] لأنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ عليهِ رَقيباً في عَمَلِهِ وفِعلِهِ كانَ أحذَرَ في ذلكَ [العَمَلِ وأنظَرَ][7] فيه وأحفَظَ لَهُ مِمَّنْ لم يكُنْ عليهِ ذلكَ، وإنْ كانَ يَعلَمُ كُلُّ مُسلِمٍ أنَّ اللهَ عالِمُ الغَيبِ، لا يَخفَى عليهِ شيءٌ، عالِمٌ بما كانَ منهُمْ، وبما يكونُ أنْ يكونَ، ومَتَى يكونُ؟

ثم اختُلِفَ في الحَفَظَةِ هَهُنا: قالَ بَعضُهُمْ: هُمُ الذينَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ﴾ ﴿كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ و١١ و١٢] يَكتُبُونَ أعمالَهُمْ، ويَحفَظُونَ عليهِمْ. وقالَ آخَرُونَ: هُمُ الذينَ يَحفَظُونَ أنفاسَ الخَلْقِ. ويَعُدُّونَ عليهِمْ إلى وَقتِ انقِضائِها وفَنائِها، ثُم تُقبَضُ منهُ الروحُ، ويَموتُ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ على إثرِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾؟ دلَّ على أنَّ الحَفَظَةَ ههنا هُمُ الذينَ سُلِّطُوا على حِفظِ الأنفاسِ والعَدِّ عليهِمْ إلى وَقتِ المَوتِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ دلالةُ خَلْقِ أفعالِ العِبادِ؛ لأنهُ ذَكَرَ مَجيءَ المَوتِ وتَوَفِّيَ الرُّسُلِ، وقالَ: خَلَقَ المَوتَ والحياةَ، ومَجيءُ المَوتِ هو بِتَوَفِّي الرُّسُلِ[8]، ثم أخبَرَ أنهُ خَلَقَ المَوتَ. دَلَّ انهُ خَلَقَ تَوَفِّيَهُمْ[9].

فاحتالَ بَعضُ المُعتَزِلَةِ في هذا، وقالَ: إنَّ المَلَكَ هو الذي يَنزِعُ الرُّوحَ، ويَجمَعُهُ في مَوضِعٍ، ثم إنَّ اللهَ يُتلِفُهُ، ويُهلِكُهُ. فَلَأنْ كانَ ما قالَ فإذنْ لا يموتُ بِتَوَفِّي الرُّسُلِ أبداً؛ لأنهُمْ إذا نَزَعُوا، وجَمَعُوا في مَوضِعٍ، تَزدادُ حياةُ المَوضِعِ الذي جَمَعُوا فيهِ، لأنهُ اجتَمَعَ كُلُّ رُوحِ النَّفسِ في ذلكَ. فإنْ لم يكُنْ، دَلَّ أنَّ ذلكَ خَبالٌ. والوجهُ فيهِ ما ذَكَرنا مِنَ الدَّلالَةِ، وهو ظاهِرٌ بِحَمدِ اللهِ؛ يَعرِفُهُ كُلُّ عاقِلٍ، يَتَأمَّلُ فيهِ، ولم يُعانِدْ[10]، وباللهِ التوفيقُ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ قالَ بَعضُهُمْ: هو مَلَكُ المَوتِ وَحدَهُ، وإنْ خَرَجَ الكلامُ مَخرَجَ العُمومِ بِقَولِهِ: ﴿رُسُلُنَا﴾ والمُرادُ منهُ الخُصوصُ: ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] أخبَرَ أنهُ المُوَكَّلُ والمُسَلَّطُ على ذلكَ؟

وقالَ آخَرونَ: يَتَوَفَّاهُ أعوانُ مَلَكِ [المَوتِ][11]، ثم يَقبِضُهُ مَلَكُ المَوتِ، ويَتَوَفَّاهُ. وقالَ قائِلُونَ: يكونُ مَعَهُ ملائكةٌ تَقبِضُ الأنفاسَ، ويَتَوَفَّاهُ مَلَكُ المَوتِ. لكنَّ ذلكَ لا يُدرَى[12] أنْ كيفَ هو؟ ولَيسَ بِنا إلى مَعرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ، ولكنْ إلى مَعرِفَةِ ما ذَكَرْنا.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) من م، في الأصل: الخلق. (٣) في الأصل و م: على ذلك. (٤) في الأصل و م: يرسله. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: وذلك. (٨) أدرج بعدها في الأصل و م: هو مجيء الموت. (٩) من م، في الأصل: الموت لهم. (١٠) من م، في الأصل: يعاندوا. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل: تدرى، في م: ندري.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ فيهِ إخبارٌ عن شِدَّةِ طاعةِ الملائِكَةِ رَبَّهُمْ، وأنَّ الرأفَةَ لا تأخُذُهُمْ في ما فيهِ تأخيرُ أمْرِ اللهِ وتَفْريطُهُ، لأنَّ مَنْ دَخَلَ على مَنْ في النَّزْعِ أخَذَتْهُ مِنَ الرَّأفَةِ ما لو مَلَكَ حَياتَهُ لَبَذَلَ لَهُ. فأخبَرَ ﷻ أنهمْ ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾ في ما أُمِرُوا، ولا يُؤَخِّرُونَهُ لِتَعْظِيمِهِمْ أمْرَ اللهِ وشِدَّةِ طاعَتِهِمْ لَهُ.

وعلى ذلكَ وَصَفَهُمْ: ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾/ ١٥٠ ـ ب/ [التحريم: ٦]. وقالَ ﷻ: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] وقالَ: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ و٢٠].

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ ذَكَرَ الرَّدَّ إلى اللهِ، وأنهُ مَولاهُمُ الحَقُّ، وإنْ كانُوا في الأحوالِ كُلِّها مَرْدُودِينَ إلى اللهِ، وكانَ مَولاهُمُ الحَقَّ في الدنيا والآخِرَةِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [إبراهيم: ٢١] وكذلكَ قولُهُ: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ﴾ [غافر: ١٦] كانَ المُلْكُ لهُ في الدنيا والآخِرَةِ، وكانُوا بارِزِينَ لَهُ جَميعاً في الأوقاتِ كُلِّها لِما كانُوا أصحابَ الشُّكُوكِ، فارْتَفَعَ ذلكَ عنهُمْ، وخَلَصَ بُروزُهُمْ ورَدُّهُمْ إلى اللهِ خالِصاً لا شَكَّ فيهِ. وكذلكَ كانَ المُلْكُ في الدنيا والآخِرَةِ [وفي الأيامِ][1] كُلِّها، لكنْ نازَعَهُ[2] غَيْرُهُ في المُلْكِ في الدنيا، ولا أحَدَ يُنازِعُهُ في ذلكَ اليَومِ في المُلْكِ ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ كانَ مَولاهُمُ الحَقَّ في الأوقاتِ كُلِّها والأحوالِ. ولكنْ عندَ ذلكَ يَظْهَرُ لهمْ أنَّهُ كانَ مَولاهُمُ الحَقَّ. وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ يَحْتَمِلُ رُدُّوا إلى ما وَعَدَ لَهُمْ، وأوعَدَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ في تأخيرِ المَوتِ والحياةِ وقَبْضِ الأرواحِ وتَوَفِّي الأنْفُسِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ في التَّعْذيبِ في النارِ والثَّوابِ والعِقابِ، لَيسَ يَدْفَعُ ذلكَ عنهُمْ دافِعٌ سِواهُ، ولا يُنازِعُهُ أحَدٌ في الحُكْمِ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [رُوِيَ عنِ الحَسَنِ أنهُ][4] قالَ: هو سَريعُ العِقابِ لأنهُ إنما يُحاسِبُ لِيُعَذِّبَ لِما رُوِيَ [عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ][5]: «مَنْ نُوقِشَ الحِسابَ عُذِّبَ» [البخاري: ٦٥٣٦]، ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ لأنهُ لا يُحاسِبُ عنْ حِفْظٍ ولا تَفَكُّرٍ، ولا يَشْغَلُهُ شَيءٌ، وأمّا غَيرُهُ فإنما يُحاسِبُ عنْ حِفْظٍ وتَفَكُّرٍ وعنْ شُغْلٍ، فهو أسْرَعُ الحاسِبِينَ، ولا يَشْغَلُهُ شَيءٌ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ لَيسَ هذا على الأمْرِ لَهُ، ولكنْ على المُحاجَّةِ كقولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ﴾ [الروم: ٤٢] لَيسَ على الأمْرِ بالسَّيْرِ ولكنْ على الاعْتِبارِ بأُولئكَ الذينَ كانُوا مِنْ قَبْلُ والنَّظَرِ في آثارِهِمْ وإعلامِهِمْ كيفَ صارُوا بتَكذيبِهِمُ الرُّسُلَ؟ وماذا أصابَهُمْ بذلكَ؟ فَعَلَى ذلكَ هذا فيهِ الأمْرُ بالمُحاجَّةِ مَعَهُمْ في آلِهَتِهِمْ أنهُ ﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ آلِهَتُكُمُ التي تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، وتُشْرِكُونَها في أُلُوهِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ؟ أمِ اللهُ الذي خَلَقَكُمْ؟ فَسَمَرَهُمْ[6] حتّى قالُوا: هو الذي يُنَجِّينا مِنْ ذلكَ.

فقالَ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ﴾ [الأنعام: ٦٤] فإذا كانَ هو الذي يُنَجِّيكُمْ منْ هذا، لا آلِهَتُكُمُ التي تَعْبُدُونَها، فكذلكَ هو الذي يُنَجِّيكُمْ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ومِنْ كُلِّ شِدَّةٍ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ قولَهُ[7]: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ [الأنعام: ٢١ و...] أي لا أحَدَ أظْلَمُ؛ تَخافُونَ على آلِهَتِكُمُ الهَلاكَ كما تَخافُونَ على أنْفُسِكُمْ، فلا أحَدَ سِواهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ذلكَ ومِنْ كلِّ كَرْبٍ.

قالَ أبو بكرٍ الكَيسانِيُّ: هَمْ عَرَفُوا في الدنيا أنهُ هو الذي يُنَجِّيهِمْ في الآخِرَةِ، ويُهْلِكُهُمْ. وهمْ[8] هكذا؛ عَرَفُوا اللهَ في الدنيا، ولم يَعْرِفُوهُ في الآخِرَةِ.

---

(١) في الأصل: وهي الأمر، في م: وهي الأيام. (٢) في الأصل وم: نازع. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: عن الحسن. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فسحرهم. (٧) في الأصل وم: كقوله. (٨) في الأصل وم، وهو.

جنة السنة

ثم اختُلِفَ في ظلماتِ البَرِّ والبَحْرِ: قالَ بَعْضُهُمْ: الظُّلُماتُ هي الشَّدائِدُ والكُرُوبُ التي تُصِيبُهُمْ بالسلوكِ في البَرِّ والبَحْرِ، وقالَ آخَرُونَ: الظُّلُماتُ [هي الأسفارُ][1] لأنَّ أسفارَ البِحارِ والمَغاوِرِ إنما تُقْطَعُ بأعلامِ السماءِ؛ فإذا أظْلَمَتِ[2] السماءُ بَقُوا مُتَحَيِّرِينَ لا يَعْرِفونَ إلى أيِّ ناحِيَةٍ يَسْلُكُونَ، ومِنْ أيِّ طَرِيقٍ يأخذونَ. فَعِنْدَ ذلكَ يَدْعُونَ اللهَ ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

قالَ الحَسَنُ: التَّضَرُّعُ هو ما يُرْفَعُ بِهِ الصوتُ، والخُفْيَةُ هي ما يُدْعَى سِرّاً، وهو مِنَ الإخفاءِ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وخِيفَةً[3]؛ وهي مِنَ الخوفِ. قالَ الكَلْبِيُّ: في خَفْضٍ وسُكونٍ وتَضَرُّعٍ إلى اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ قال أبو بَكْرٍ: قولُهُ تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي لا نُوَجِّهُ الشُّكْرَ إلى غيرِكَ. والشُّكْرُ ههنا هو التَّوحيدُ؛ أي لَئِنْ أنجيتنا لَنَكُونَنَّ مِنَ المُوَحِّدِينَ لكَ مِنْ بَعْدُ؛ لأنهم كانوا يُوَحِّدُونَ اللهَ في ذلكَ الوَقْتِ. لكنَّهُمْ إذا نَجَوا مِنْ ذلكَ أشْرَكُوا غَيْرَهُ.

ألَا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾؟ [الأنعام: ٦٤].

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ بَعْدَ عِلْمِكُمْ أنَّ الأصنامَ التي تَعْبُدُونَها لم تَمْلِكِ الشَّفاعَةَ لَكُمْ ولا الزُّلْفَى إلى اللهِ[4]، يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ في عبادَتِهِمُ الأوثانَ على عِلْمٍ مِنْهُمْ أنها لا تَشْفَعُ، ولا تَمْلِكُ دَفْعَ شَيْءٍ عنهُمْ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ اختُلِفَ في نُزولِ الآيةِ في مَنْ نَزَلَتْ؟ في مُشْرِكي العَرَبِ؟ وهو قولُ أبي بَكْرٍ الأصَمِّ لأنها نَزَلَتْ على إثْرِ آياتٍ، نَزَلَتْ في أهلِ الشِّرْكِ: مِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠] وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٤٦] وقولُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦١ و٦٢] هذِهِ الآياتُ كلُّها نَزَلَتْ في أهلِ الشِّرْكِ. فهذِهِ كذلكَ نَزَلَتْ فيهِمْ، لأنها ذُكِرَتْ على إثْرِها، ولأنَّ سورةَ الأنعامِ نَزَلَ أكْثَرُها في مُحاجَّةِ أهلِ الشِّرْكِ [إلا][5] آياتٍ مِنْها نَزَلَتْ في أهلِ الكتابِ، وسورةَ المائدةِ نَزَلَ أكْثَرُها في مُحاجَّةِ أهلِ الكتابِ.

ومِنْهُمْ مَنْ يقولُ: نَزَلَتْ في أهلِ الإسلامِ، وهو قولُ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ؛ وقالَ: هُنَّ أرْبَعٌ؛ فجاءَ مِنْهُنَّ اثْنتانِ بَعْدَ وَفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ ألْبَسَهُمْ شِيَعاً، وأذِيقَ بَعْضُهُمْ بأسَ بَعْضٍ: أمَّا لِبْسُ الشِّيَعِ فهي[6] الأهواءُ المُخْتَلِفَةُ، ويُذِيقَ بَعْضَهُمْ بأسَ بَعْضٍ هو السيفُ والقَتْلُ؛ هذانِ قد كانا في المُسْلِمِينَ. وبَقِيَتْ[7] ثِنْتانِ، لا بُدَّ واقِعتانِ. ومنهُمْ مَنْ يقولُ: كانَتْ[8] ثِنْتانِ في المُشْرِكِينَ مِنْ أهْلِ الكتابِ، وثِنْتانِ في أهلِ الإسلامِ؛ وهو قولُ الحَسَنِ؛ قالَ: قد ظَهَرَ في أهلِ الإسلامِ الأهواءُ المُخْتَلِفَةُ والقَتْلُ والفِتَنُ، وأمّا اللَّتانِ[9] في أهلِ الشِّرْكِ مِنْ أهلِ الكتابِ فَهُما[10] الخَسْفُ في الأرضِ والحِجارَةُ مِنَ السماءِ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ عنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][11] قالَ: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي مِنْ أُمَرائِكُمْ ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ أي مِنْ سَفَلَتِكُمْ؛ لأنَّ الفِتَنَ ونَحْوَها إنما تَهِيجُ مِنَ الأمَراءِ الجائِرَةِ ومِنْ أتْباعِهِمْ، وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ قالَ: الأهواءُ المُخْتَلِفَةُ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي يُسَلِّطُ بَعْضَهُمْ[12] على بَعْضٍ بالقَتْلِ[13] والعذابِ.

ومَنْ قالَ بأنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في أهلِ الشِّرْكِ يقولُ: كانَ في أشياعِهِمْ ذلكَ كُلُّهُ؛ أمّا العذابُ مِنَ الفوقِ فهو[14] الحَصْبُ بالحجارَةِ كما فَعَلَ بِقَومِ لوطٍ ومِنْ تَحْتِ أرجُلِهِمْ، فهو[15] الخَسْفُ كما فَعَلَ بِقارُونَ، ومن مَعَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ يقولُ: فِرَقاً وأحزاباً. وكانَتِ اليَهودُ والنَّصارى فِرَقاً مُخْتَلِفَةً؛ اليَهودُ فِرَقاً والنَّصارى

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أظلم. (٣) في الأصل وم: وخفية. انظر معجم القراءات القرآنية: ج٢/٢٧٨ (٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل و م: هي. (٧) في الأصل و م: وبقي. (٨) في الأصل و م: كان. (٩) في الأصل و م: اللذان. (١٠) في الأصل و م: هو.
(١١) ساقطة من الأصل و م. (١٢) في الأصل و م: عليهم. (١٣) في ا لأصل و م: القتل. (١٤) في الأصل و م: هو. (١٥) في الأصل و م: وهو.

جنة السنة

كذلكَ كقولِهِ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ٦٤] وقولِهِ: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ هو الحَرْبُ والقتالُ. وقولُ[1] الحَسَنِ ما ذَكَرْنا أنهُ ظَهَرَ في أهلِ الإسلامِ الأهواءُ المُخْتَلِفَةُ، وظَهَرَ الحَرْبُ والنَّصْلُ. وأمّا الخَسْفُ والحَصْبُ فلم يَظْهَرْ، فهو في أهلِ الشِّرْكِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ مِنَ السماءِ أرْسَلَهُ[2] عليهِمْ، لأنهمْ قد أقَرُّوا أنهُ رَفَعَ السماءَ[3]. فَمَنْ قَدَرَ على رَفْعِ شَيءٍ يَقْدِرُ على إرسالِهِ، [ويَحْتَمِلُ][4] قولُهُ ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الخَسْفَ][5] لأنهُمْ عَرَفُوا أنهُ بَسَطَ الأرضَ[6]. ومَنْ مَلَكَ بَسْطَ شَيءٍ يَمْلِكُ طَيَّهُ، ويَخْسِفُ بِهِمْ.

وقولُهُ تعالى:/ ١٥١ ـ أ/ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ قيلَ: أي نَرُدُّ. والآياتُ كلُّ مُزْدَجِرَةٍ، أو نقولُ: ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ لِيَعْلَمَ كُلٌّ صِدْقَها وحَقِيقَتَها أنّها مِنَ اللهِ جاءَتْ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

[أحَدُها:][8] صَرْفُها لِيَفْقَهُوا. وذلكَ يَرجِعُ إلى المؤمنينَ خاصَّةً.

والثاني: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي لِيُلْزِمَهُمْ أنْ يَفْقَهُوا، وقد ألْزَمَ الكُلَّ أنْ يَفْقَهُوا. لكنْ مَنْ لم يَفْقَهْ إنما لم يَفْقَهْ لأنهُ نَظَرَ إليهِ بِعَينِ الاسْتِخْفافِ.

والثالثُ: ﴿نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي نُصرِّفُ الرُّسُلَ[9]، ونُبَلِّغُها إليهِمْ على رَجاءِ[10] أنْ يَفْقَهُوا: لكي يَفْقَهُوا، إنْ نَظَرُوا فيها، وتأمَّلُوها. وذَكَرَ لَعَلَّ لأنَّ مِنْهُمْ مَنْ فَقِهَ، ومِنْهُمْ مَنْ لم يَفْقَهْ.

الآية ٦٦ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿بِهِۦ﴾ بالقرآنِ، ويَحْتَمِلُ بما ذَكَرَ مِنَ الآياتِ، ويَحْتَمِلُ الإيمانَ بهِ والتَّوحِيدَ ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾، ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ وهُمْ أحَقُّ أنْ يُصَدِّقُوكَ بما جِئْتَ بِهِ وإنبائِهِمْ لأنكَ نَشَأْتَ بَينَ أظْهُرِهِمْ، فلم تأخُذْ كَذِباً[12] قَطُّ، ولا رَأَوكَ تَخْتَلِفُ[13] إلى أحدٍ، يُعَلِّمُكَ، فَهُمْ أحَقُّ أنْ يُصَدِّقُوكَ بما جِئْتَ وإنبائِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التَّأويلِ: الوَكيلُ: الحَفيظُ، والوَكيلُ: هو القائِمُ في الأمرِ؛ أي لَسْتُ بِقائِمٍ عليكُمْ لأُكْرِهَكُمْ على التَّوحِيدِ والإيمانِ، شِئْتُمْ، أو أبَيْتُمْ. ولَسْتُ بِحافِظٍ على أعمالِكُمْ، إنَّما عَلَيَّ التَّبليغُ كقولِهِ تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩].

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: لِكُلِّ أمرٍ حَقيقَةٌ، وقيلَ: لِكُلِّ خَبَرٍ غايةٌ ينتهي إليها[14]. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ تعالى: ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾][15] لكنْ ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ في أنْ أغْنَمَ أموالَكُمْ، وأسْبِيَ ذَرارِيَكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ [الغاشية: ٢٢ و٢٣].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ أي بما كانَ وَعَدَ، وأوعَدَ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ دَلالَةُ نَقْضِ المُعْتَزِلَةِ لأنّا نَعْلَمُ أنَّ لِلْخَلْقِ حَقِيقَةَ الفِعْلِ في القَتْلِ والحَرْبِ والأهواءِ المُخْتَلِفَةِ. ثم أضافَ ذلكَ إلى نَفْسِهِ. دلَّ أنَّ لهُ صُنْعاً في أفعالِهِمْ، وليسَ كما تقولُ المُعْتَزِلَةُ: إنهُ[16] لا يَمْلِكُ ذلكَ. وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ إضافَةِ تَلْبِيسِ الشِّيَعِ إليهِ رَدٌّ لِقولِهِمْ لأنهُمْ يَقولُونَ: هُمْ يَخْتَلِفُونَ، وقد أخْبَرَ أنهُ هو يَجْعَلُهُمْ شِيَعاً. وذلكَ ظاهِرُ النَّقْضِ عليهِمْ لأنهُ أخْبَرَ أنهُ يُذيقُ بَعْضَهُمْ بأسَ بَعْضٍ، وهُمْ يَقُولُونَ: هو لا يُذيقُ، ولكنَّ ذلكَ القاتِلَ

---

(١) من م، في الأصل: وهو. (٢) في الأصل و م: أرسلها. (٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩]. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: الرسول. (١٠) في الأصل وم: جاه. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: كذب. (١٣) في الأصل وم: أن نختلف. (١٤) في الأصل وم: إليه. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) في الأصل وم: لأنه.

جنة السنة

أوِ الضاربَ أو المُعَذِّبَ هو يُذيقُهُمْ دُونَ ربِّ العالَمِينَ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] وهُمْ يَقُولُونَ: هو لا يُعَذِّبُهُمْ، ولكنَّ الخَلْقَ يُعَذِّبونَهُمْ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] وهُمْ يَقُولُونَ: [هو لا يَملِكُ][1] تعذيبَهُمْ بأيديهِمْ. وذلكَ رَدٌّ لِظاهِرِ[2] الآيةِ، وتَرْكُها خَيْبَةٌ[3].

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي يَكْفُرونَ بها، ويَسْتَهْزِئونَ بها كما قالَ في سورةِ النساءِ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [الآية: ١٤٠] فيكونُ الخَوضُ في آياتِ [اللهِ][4] الكُفْرَ بها والاِسْتِهْزاءَ بها، ويكونُ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي لا تَقْعُدْ معهمْ كما قالَ: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ النَّهْيَ عنِ القُعودِ مَعَهُمْ على ما ذُكِرَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾ ويَحْتَمِلُ الإعْراضُ الصَّفْحَ عَنْهُمْ وتَرْكَ المُجازاةِ لِمَساوِئِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ [الزخرف: ٨٩] وكقولِهِ[5] تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣] [فيهِ النَّهْيُ][6] عَنِ القُعودِ مَعَهُمْ، وفيهِ الأمْرُ بالتَّبْليغِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعْلَمُ: أنَّ الشيطانَ إذا أنساكَ القُعودَ مَعَهُمْ بعدَ ذِكْرِ الذِّكْرى [فلا تَقْعُدْ][7] ومَعْناهُ النَّهْيُ بَعْدَما أنْساهُ الشيطانُ: أي لا تَكُنْ بالمَحَلِّ الذي يَجِدُ الشيطانُ إليكَ سَبيلاً في ذلكَ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ قِيلَ: فيه رُخْصةُ الجُلوسِ مَعَهُمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] ثم نُسِخَ ذلكَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [النساء: ١٤٠].

وكانَ النَّهْيُ عنْ مُجالَسَتِهِمْ لَيسَ الجُلوسَ نَفْسَهُ، ولكنْ ما ذَكَرْنا مِنْ خَوضِهِمْ في آياتِ اللهِ بالاِسْتِهْزاءِ بها والكُفْرِ بها، هو الذي كانَ يَحْمِلُهُمْ على ذلكَ، لَيسَ ألّا يَجوزُ أنْ تُجالِسُوهُمْ، وكذلكَ ما نَهانا أنْ نَسُبَّهُمْ لَيسَ ألّا يَجوزُ لنا أنْ نَسُبَّهُمْ، ولكنْ لِما كانَ سَبُّنا إيّاهُمْ هو الذي يَحْمِلُهُمْ على سَبِّ اللهِ ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

يَحْتَمِلُ النَّهْيُ عَنِ القُعودِ مَعَهُمْ [وَجْهَينِ:

أحَدُهُما:][8] أنهُ نَهَى هؤلاءِ عَنِ القُعودِ مَعَهُمْ لِما كانَ أهْلُ النِّفاقِ يُجالِسُونَهُمْ، ويَسْتَهْزِئونَ بالآياتِ، ويَكْفُرونَ بها، فَنَهى هؤلاءِ عَنْ ذلكَ لِيَرْتَدِعَ أهْلُ النِّفاقِ عَنْ مُجالَسَتِهِمْ.

والثاني: أنهُ نَهى المؤمنينَ عنْ مُجالَسَتِهِمْ لِيَمْتَنِعُوا عَنْ صَنِيعِهِمْ حَياءً مِنْهُمْ لأنهُمْ لو امْتَنَعُوا عَنْ مُجالَسَتِهِمْ، لَمَنَعَهُمْ[9] ذلكَ عنِ الاِسْتِهْزاءِ بها والكُفْرِ بها لِما كانُوا يَرْغَبُونَ في مُجالَسَةِ المُؤْمِنِينَ، فَيَتَذَكَّرُونَ عندَ قِيامِهِمْ عَنْهُمْ، فَيَتَّقُونَ الخَوضَ والاِسْتِهْزاءَ، وإلّا[10] يَخافُونَ أنْ [يُعْرَفُوا في الناسِ بِتَرْكِ المؤمِنِينَ مُجالَسَتَهُمْ][11]، فَيَحْمِلُهُمْ ذلكَ على الكَفِّ عَنِ الاِستهزاءِ بالآياتِ وبرسولِ اللهِ ﷺ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحُدُهُما][12]: أي وذَرِ الذينَ اتَّخَذُوا لَعِباً ولَهْواً ديناً لَهُمْ على التَّقْدِيمِ والتَّأْخيرِ.

---

(١) في الأصل وم: هؤلاء يملك. (٢) من م، في الأصل: الظاهر. (٣) في الأصل: خائباً، في م: حديثاً. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل و م. (٦) في الأصل و م: وفيه الأمر بالتبليغ فينهى. (٧) من م، أدرجت في الأصل بعد: القعود معهم. (٨) في الأصل وم: وجوها. (٩) في الأصل و م: فيمنعهم. (١٠) في الأصل و م: ولا. (١١) في الأصل و م: يصرفوك في الناس بترك مجالستهم المؤمنين. (١٢) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

والثاني: اتَّخذُوا اللَّعِبَ واللَّهْوَ دينَهُمْ حتى لا يُفارِقُوا اللَّعِبَ واللَّهْوَ؛ لأنَّ الدِّينَ إنّما يُتَّخذُ لِلأبَدِ. فعَلى ذلكَ اتَّخذَ[(١)] أُولئكَ اللَّعِبَ واللَّهْوَ لِلأبَدِ كالدِّينِ. ثم هو يُخَرَّجُ على وُجوهٍ:

أحدُها: اتَّخذُوا دينَهُمْ عبادَةَ ما لا يَنْفَعُ، ولا يَضُرُّ، ولا يُبْصِرُ، ولا يَسْمَعُ، ولا يَعْلَمُ، ومَنْ عِنْدَهُ[(٢)]، هذا وَصْفُهُ، واتَّخَذَ ذلكَ ديناً، فهو عابِثٌ لاعِبٌ.

والثاني: اتَّخذُوا دينَهُمْ ما هَوَتْهُ أنْفُسُهُمْ، ودَعَتْهُمُ الشياطِينُ إليه، ومَنِ اتَّخَذَ دينَهُ بِهَوَى نَفْسِهِ وما دَعَتْهُ نَفْسُهُ إليهِ، فهو عابِثٌ لاعِبٌ.

والثالثُ: صارَ دينُهُمْ لَعِباً وعَبَثاً لأنهُمْ كانُوا لا يُؤْمِنُونَ بالبَعْثِ. ومَنْ لم يَقْصِدْ بدِينِهِ الذي دانَ بهِ عاقِبَةً فهو عابِثٌ مُبْطِلٌ كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ الآية: [المؤمنون: ١١٥] صَيَّرَ عَدَمَ الرُّجوعِ إليهِ عَبَثاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي شَغَلَهُمْ ما اختارُوا مِنَ الحَياةِ الدُّنْيا والمَيلِ إليها عَنِ النَّظَرِ في الآياتِ والبَراهِينِ والحُجَجِ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾ أيِ اغْتَرُّوا بالحَياةِ الدُّنْيا؛ أضافَ[(٣)] التَّغْرِيرَ إلى الحَياةِ الدُّنْيا لِما بِها اغْتَرُّوا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ قِيلَ ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ قَبْلَ ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ وإنما يُذَكِّرُهُمْ بهذا لِئَلَّا يَقُولُوا غداً: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وأصلُ الإبْسالِ الإهلاكُ أوِ الإسلامُ لِلْجِنايَةِ والهَلاكِ. ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾:

عَنِ ابْنِ عباسٍ [ﷺ أنهُ][(٤)] قالَ: أنْ تُفْضَحَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ. وقيلَ ﴿تُبْسَلَ﴾ تُؤْخَذَ، وتُحْبَسَ، وهو قولُ قَتادَةَ، وكذلكَ قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟﴾. وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ][(٥)] ﴿أُبْسِلُوا۟﴾ أي فُضِحُوا على ما قالَ في ﴿تُبْسَلَ﴾. وعَنِ الحَسَنِ [أنه قال][(٦)]: ﴿تُبْسَلَ﴾ أي تُسْلَمَ لِلْهَلَكَةِ. وعَنِ الكِسائِيِّ: [أنهُ قالَ][(٧)] ﴿تُبْسَلَ﴾ تُجزَى ﴿نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾. وقالَ الفَرّاءُ: ﴿تُبْسَلَ﴾ تُوهَنَ.

وأصلُ الإبسالِ هو الإسلامُ؛ وتَفْسِيرُهُ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ كما يكونُ بَعْضُهُمْ شَفيعاً لِبَعْضٍ في الدُّنْيا وأعْواناً لَهُمْ وأنْصاراً في دَفْعِ المَضارِّ والمَظالِمِ عَنْهُمْ وجَرِّ المَنافِعِ إليهِمْ. وأمّا في الآخِرَةِ فإنَّ كُلَّ نَفْسٍ تُسْلَمُ بما كَسَبَتْ / ١٥١ ـ ب/ لا شَفِيعَ لها، ولا وَلِيَّ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ [البقرة: ١٦٧] وغيرُ ذلكَ مِنَ الآياتِ تُسْلَمُ كلُّ نفسٍ إلى كَسْبِها؛ لا شَفِيعَ لها، ولا وليَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ يَحْتَمِلُ بالقرآنِ والآياتِ. ويَحْتَمِلُ ﴿بِهِۦٓ﴾ أي باللهِ، أي عِظْ بِهِ [قَبْلَ][(٨)] أنْ تَهْلِكَ ﴿نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: العَدْلُ الفِداءُ، يقولُ: وإنْ فَدَتْ نَفْسٌ كُلَّ الفِداءِ لِتَتَخَلَّصَ مِمّا حُمِّلَ بها لم يُؤْخَذْ، ولم يُقْبَلْ منها ذلكَ. وقالَ الحَسَنُ: العَدْلُ كلُّ عَمَلِ البِرِّ والخَيرِ؛ أي وإنْ عَمِلَتْ كُلَّ عَمَلِ البِرِّ والخَيرِ مِنَ الفِداءِ والتوبَةِ لم يُقْبَلْ منها ذلكَ.

يُخْبِرُ أنَّ الدارَ الآخِرَةَ لَيسَتْ بِدارِ العَمَلِ، ولا يُقْبَلُ فيها الرُّشا كما تُقْبَلُ في الدُّنْيا. وأخْبَرَ ألّا يكونَ شُفَعاءُ، يَشْفَعُونَ[(٩)] لَهُمْ، ولا أولياءُ يَنْصُرُونَهُمْ. لَيسَتْ[(١٠)] كالدنيا؛ لأنَّ مَنْ أصابَهُ في هذِهِ الدُّنْيا شَيءٌ، أو حَلَّ بِهِ عذابٌ أو غَرامَةٌ فإنما يَدْفَعُ بإحْدَى هذِهِ الخِلالِ: إمّا[(١١)] بِشُفَعاءَ يَشْفَعُونَهُ وإمّا[(١٢)] بأولياءَ يَنْصُرُونَهُ وإمّا[(١٣)] بالرُّشا.

---

(١) في الأصل و م: اتخذوا. (٢) في الأصل و م: عندهن. (٣) أدرج بعدها في الأصل: إلى. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) في الأصل و م: فيشفعون. (١٠) في الأصل و م: ليس. (١١) في الأصل و م: وإما. (١٢) و(١٣) في الأصل وم: أو.

فأخبرَ أنَّ الآخِرَةَ لَيسَتْ بِدارٍ تُقبَلُ فيها الرُّشا، فَتَدفَعُ ما حَلَّ بهِمْ، أو أولياءُ يَنْصُرُونَهُمْ في دَفْعِ ذلكَ، أو شُفعاءُ يَشْفَعُونَهُمْ. فإنْ قِيلَ: ما مَعْنَى ذِكْرِ العَدْلِ والفِداءِ، ولَيسَ عِنْدَهُ ما يَفْدِي وما يَبْذُلُ وما يُمْكِنُ مِنَ العَمَلِ؟ قيلَ: مَعْناهُ، واللهُ أعْلَمُ، أي لو مُكِّنَ لَهُمْ مِنَ الفِداءِ ما يَفْدُونَ في دَفْعِ ذلكَ عنْ أنْفُسِهِمْ، ومُكِّنَ لَهُمْ مِنَ العَمَلِ ما لو عَمِلُوا، لم يُقْبَلْ ذلكَ مِنْهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قِيلَ: الحَمِيمُ هو ماءٌ حارٌّ، يَنْتَهِي حَرُّهُ، يُغْلِي ما في البَطْنِ إذا وَصَلَ إليهِ، فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ لَهُمْ مِنَ الشَّرابِ ما ذَكَرَ لو تَناوَلُوا في الدُّنْيا مِنَ الشرابِ المُحَرَّمِ، فكانَ لَهُمْ في الآخِرَةِ الحَمِيمَ مَكانَ ذلكَ والعذابَ الأليمَ لِما أعْطَوا أنْفُسَهُمْ في الدُّنْيا مِنَ الشَّهَواتِ واللَّذَّاتِ جزاءَ ذلكَ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ يَحْتَمِلُ هذا وُجوهاً:

[أحدُها][1]: أنْ يكونَ أُولئكَ الكَفَرَةُ دَعَوا رسولَ اللهِ ﷺ والمُؤْمِنِينَ إلى عِبادَةِ الأصنامِ التي كانُوا يَعْبُدُونَها، فقالَ عندَ ذلكَ: أنَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُنا، ولا يَضُرُّنا بَعْدَما عَبَدْنا اللهَ الذي يَمْلِكُ نَفْعَنا وضَرَّنا.

والثاني[2]: كانَ أهْلُ الكُفْرِ يَدْعُونَ أهْلَ الإسلامِ إلى عِبادَةِ الأوثانِ التي كانُوا يَعْبُدُونَها إمّا طَمَعاً بِشَيءٍ يَبْذُلُونَهُ[3] لِيَرْجِعُوا إلى عبادَةِ الأصنامِ عَنْ عِبادَةِ [اللهِ وإمّا][4] تَخْويفاً منهُمْ لَهُمْ. فقالَ: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا﴾ يَمْلِكُ نَفْعَنا، إنْ عَبَدْناهُ، ولا يَمْلِكُ ضَرَّنا، إنْ تَرَكْنا عِبادَتَهُ.

وعَنِ[5] ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ قالَ][6] ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلأصنامِ التي عَبَدوها دُونَ اللهِ ومَنْ يَدْعُو إليها، ولِلدُّعاةِ الذينَ يدعُونَ إلى اللهِ وإلى عبادَتِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ ضَلَّ بِهِ الطريقُ؛ فإنهُ ضالٌّ، إذا ناداهُ مُنادٍ: يا فُلانُ ابْنَ فُلانٍ، هَلُمَّ إلى الطريقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ في الكُفْرِ والشِّرْكِ ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥ أَصْحَٰبٌ﴾ يَقُولُ: مَثَلُهُمْ، إنْ كَفَرُوا بَعْدَ الإيمانِ، كَمَثَلِ رجلٍ كانَ مَعَ قومٍ على الطريقِ، فَضَلَّ الطَّرِيقَ، فَحَيَّرَتْهُ الشياطينُ في الأرضِ، وأصحابُهُ على الطريقِ، فَجَعَلُوا يَدْعُونَهُ إليهِمْ؛ يَقولونَ ﴿ائْتِنَا﴾ فإنّا على الطريقِ. قالَ: فَلَمْ يأتِهِمْ. فذلكَ مَثَلُ مَنْ تَبِعَكُمْ بَعْدَ المَعْرِفَةِ بمحمدٍ. ومحمدٌ ﷺ هو الذي يَدْعُوهُمْ إلى الطريقِ، وهو الهُدَى.

ويَحْتَمِلُ أنْ يَكونَ المَثَلُ الذي ضَرَبَهُ مِنْ وَجْهٍ آخرَ؛ وهو أنَّ مَثَلَ هؤلاءِ كَمَثَلِ مَنْ كانَ في بَعْضِ المَفاوِزِ والبَراري، فَضَلَّ الطريقَ، فَذَهَبَ بِهِ الغِيلانُ حتى أوقَعُوا في الهَلَكَةِ، وهو الذي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قَولُهُ: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ أنهُ ما مِنْ أحدٍ مِنْ مُشْرِكٍ ومؤمِنٍ إلّا ولَهُ أصحابٌ يَدْعُونَهُ. أمّا المؤمنُ فَلَهُ أصحابٌ مِنَ الملائِكَةِ ﴿يَدْعُونَهُۥ إِلَى الْهُدَى﴾ والكافِرُ [تَدْعوهُ الشياطينُ][7] إلى الشِّرْكِ. هذا أشْبَهُ أنْ يُحْمَلَ عليهِ.

لكنَّ أهْلَ التّأويلِ حَمَلُوا على ما ذَكَرْنا؛ قالَ قَتادَةُ: هذِهِ خُصُومَةٌ، عَلَّمَها اللهُ محمداً يُخاصِمُ بها أهْلَ الشِّرْكِ؛ لأنَّ سورةَ الأنعامِ نَزَلَ أكْثَرُها في مُحاجَّةِ أهْلِ الشِّرْكِ. قال ابْنُ عباسٍ رضي الله عنه: اسْتَهْوَتْهُ: أضَلَّتْهُ. قالَ أبو عوسَجَةَ: أي ذهبَتْ بِهِ، اسْتَهْوَتْهُ، وأهْوَتْهُ، واحِدٌ، أي دَعَتْهُ إلى الهَلَكَةِ، وقيلَ: أضَلَّتْهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي نَرْجِعُ عنِ الإيمانِ إلى الشِّرْكِ بَعْدَ أنْ هَدانا اللهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ قِيلَ: بَيانُ اللهِ هو الهُدَى[8]، وقِيلَ: إنَّ دِينَ اللهِ، هو الهُدَى[9].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قِيلَ: هذا صِلَةُ قَولِهِ: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ

---

(١) في الأصل وم: يحتمل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل و م يبذلونهم. (٤) في الأصل: أو، في م: الله أو. (٥) هذا هو الوجه الثالث. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل وم: يدعونه. (٨) في الأصل وم: البيان. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: وهو الدين.

جنة السنة

عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الآية ٧٢ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾. وقالَ بَعْضُهُمْ: لَيسَ على الصِّلَةِ، ولكنْ على الابْتِداءِ ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقُلْ لَهُمْ: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ قد ذَكَرْنا.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ قيلَ: قولُهُ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ لم يَخْلُقْها باطِلاً كقولِهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧] قيلَ: لم يَخْلُقْهُما باطِلاً، ولكنْ خَلَقَهُما بالحَقِّ.

وهو يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[أحَدُها][2]: قيلَ: خَلَقَهُما لِلعاقِبَةِ لأنَّ كُلَّ أمْرٍ لا عاقِبَةَ لهُ، هو باطِلٌ، لَيسَ بحقٍّ؛ فإنما خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ وما بَيْنَهُما لِلعاقِبَةِ، وذلكَ لأمْرٍ عَظيمٍ كقولِهِ تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٥ و٦].

وقيلَ[3]: قولُهُ تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي خَلَقَهُما لِيَمْتَحِنَ فيهما ولِمِحْنَةِ سُكّانِهِما، لم يَخْلُقْهُما لِغيرِ شيءٍ.

وقيلَ:[4] ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي خَلَقَهُما بالحِكْمَةِ؛ مَنْ نَظَر فيهما، وتَدَبَّرَ لِدَلالَةٍ[5] على أنَّ لَهُما خالِقاً ومُدَبِّراً أو لِدَلالَةٍ[6] على أنَّ مُدَبِّرَهُما ومُنْشِئَهُما واحدٌ، فإذا كانَ كذلكَ فكانَ خَلَقَهُما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالحِكْمَةِ والعِلْمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [فيهِ وجوهٌ:

أحَدُها:][7] قد ذَكَرْنا أنَّ قولَهُ: ﴿كُن﴾ هو أوْجَزُ كلامٍ في لسانِ العَرَبِ؛ يُعَبِّرُ بِهِ، فَيُفْهِمُهُمْ[8] منهُ، لا أنْ كانَ مِنَ اللهِ كافٌ أو نونٌ، لكنَّهُ ذَكَرَهُ[9] واللهُ أعْلَمُ، لِيَعْلَمُوا أنْ لَيسَ على اللهِ في الإحياءِ والإنشاءِ بَعْدَ المَوتِ مُؤْنَةٌ كما لم يَكُنْ على الخَلْقِ في التَّكَلُّمِ بـ ﴿كُن﴾ مُؤْنَةٌ، ولا يَصْعُبُ عليهِمْ ذلكَ. فَعَلى ذلكَ لَيسَ على اللهِ في البَعْثِ بَعْدَ الموتِ مُؤْنَةٌ ولا صُعوبَةٌ.

والثاني: ذَكَرَ هذا لِسُرْعَةِ نَفاذِ البَعْثِ كقولِهِ تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أخْبَرَ أنَّ خَلْقَهُمْ[10] وبَعْثَهُمْ لَيسَ إلا كَخَلْقِ نَفْسٍ واحدةٍ وبَعْثِ نَفْسٍ واحدةٍ، وكقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] يُخْبِرُ لِسُرْعَةِ نَفاذِ[11] الساعةِ وبَعْثِهِمْ؛ وذلكَ أنَّ الرجلَ قد يَلْمَحُ البَصَرَ، وهو لا يَشْعُرُ بِهِ. فَعَلى ذلكَ القِيامَةُ، قد تَقومُ، وهُمْ لا يَشْعُرُونَ.

والثالِثُ: يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعْلَمُ، أنَّ البَعْثَ بَعْدَ المَوتِ [هو إحياءٌ][12]، والإحياءُ إعادَةٌ، وإعادَةُ الشَّيءِ عِندَهُمْ أهْوَنُ مِنِ ابْتِداءِ إنشاءٍ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أي هو أهْوَنُ عليهِ عندَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي البَعْثُ بَعْدَ المَوتِ حَقٌّ على ما أخْبَرَ، ويَحْتَمِلُ ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي ذلكَ القولُ منهُ حَقٌّ، يكونُ كما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ مُلْكُ ذلكَ اليوم كقولِهِ تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. وكقولِهِ تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦] ذَكَرَ هذا، واللهُ أعْلَمُ، لِما [لا يُنازِعُهُ][13] أحدٌ في مُلْكِ ذلكَ اليومِ، وقد نازَعَهُ الجَبابِرَةُ في المُلْكِ في الدنيا، وإنْ لم يَكُنْ لَهُمْ مُلْكٌ ولا أُلُوهِيَّةٌ[14].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي مُلْكُ جَميعِ الملوكِ لهُ في الحَقيقَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل و م: البيان. (٣) هذا هو الوجه الثاني. (٤) هذا هو الوجه الثالث. (٥) من م في الأصل: له لاه. (٦) من م، في الأصل: له لاه. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) من م، في الأصل: فيهم. (٩) في الأصل و م: ذكر. (١٠) في الأصل و م: قولهم. (١١) من م، في الأصل: فنفاذ. (١٢) ساقطة من الأصل و م. (١٣) من م، في الأصل: يتنازعه. (١٤) من م، في الأصل: ألوهيته.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: النَّفْخُ هو الرُّوحُ، والرُّوحُ مِنَ الرِّيحِ، والرُّوحُ إنما يَدْخُلُ [كقولِهِ تعالى][١]: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وقالَ بَعْضُهُمْ: لا يكونُ هناكَ / ١٥٢ ـ أ/ في الحقيقةِ نَفْخٌ، ولكنْ يَذْكُرُهُ[٢] لِسُرْعَةِ نَفاذِ السّاعةِ؛ لأنَّ الرجلَ قد يَتَنَفَّسُ، وهو لا يَشْعُرُ بِهِ، فَذَكَرَ هذا لِسُرْعَةِ نَفاذِ الساعةِ، لأنَّهُ لَيسَ شَيءٌ أسْرَعَ جَرَياناً ونَفاذاً مِنَ الرِّيحِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: هو على حَقِيقَةِ النَّفْخِ، وهو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ أي يَعْلَمُ ما يُغَيِّبُ الخَلْقُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ ما يَشْهَدُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً. ويَحتَمِلُ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ أي يَعْلَمُ ما يكونُ، إذا كانَ كيف كانَ؟ أو يَعْلَمُ وقتَ كونِهِ ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ ما كانَ، وشُوهِدَ. يُخبِرُ أنهُ لا يَغيبُ عَنهُ شَيءٌ، ولا يَعْزُبُ مِنْهُ ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وخَلْقِ ما فيها. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في بَعْثِهِمْ. والحَكِيمُ هو واضِعُ الشَّيءِ مَوضِعَهُ. ﴿الْخَبِيرُ﴾ بِكُلِّ شَيءٍ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ قِيلَ: آزَرُ هو اسْمُ أبي إبراهيمَ ﷺ والحَسَنُ يَقرأُ: آزَرُ بالرفعِ[٣]، ويَجْعَلُهُ اسْمَ أبيهِ. وقالَ آخرونَ: هو اسْمُ صَنَمٍ، فهو على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ كأنهُ قالَ: وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ أتَتَّخِذُ آزرَ أصناماً آلِهَةً؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ﴾ استِعْظاماً لِما يَعْبُدُ مِنَ الأصنامِ دُونَ اللهِ؛ لأنَّ مِثْلَ هذا إنما يُقالُ على العَظيمِ مِنَ الفِعْلِ. وقالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: قولُهُ: ﴿آزَرَ﴾ قِيلَ: هو اسْمُ عَيْبٍ عندَهُمْ كأنهُ قالَ: يا ضالُّ أتَتَّخِذُ أصناماً آلِهَةً؟ كقولِ الرجلِ لآخَرَ: يا ضالُّ. ولَيسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ [أنْ][٤] كانَ اسْمَ أبِيهِ أو اسْمَ صَنَمٍ.

وفي الآيةِ دَلالَةٌ أنَّ أباهُ كانَ مِن رُؤساءِ قومِهِ بقولِهِ: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وفيهِ دلالةٌ أنْ لا بأسَ لِلرَّجُلِ أنْ يَشْتُمَ أباهُ لِمكانِ رَبِّهِ؛ لأنَّ إبراهيمَ ﷺ سَمّاهُ ضالاً. وفيهِ دَلالَةٌ أنَّ الإيمانَ والتَّوحِيدَ يَلْزَمُ أهْلَ الفَتْرَةِ لأنَّ إبراهيمَ ﷺ سَمّاهُمْ ضُلالاً، [وجَعَلَ ضلالَهُمْ][٥] لا شَكَّ فيهِ، ولا شُبْهَةَ؛ وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى حِينَ[٦] عَبَدَ ما ذَكَرَ بقولِهِ[٧]: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] هذا الضَّلالُ البَيِّنُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ ذَكَرَ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ واللهُ أعلَمُ، على مَعْنى كما أريناكَ ﴿مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والآياتِ. كذلكَ كُنّا أرَينا إبراهيمَ. و﴿نُرِي﴾ بِمَعْنى أرينا، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ. وكذلكَ لا تُذْكَرُ إلّا على تَقَدُّمِ شَيءٍ. لكنَّ الوَجْهَ فيهِ ما ذَكَرْنا: كما أريناكَ مِنَ السمواتِ والأرضِ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ والبَراهِينِ كذلكَ كُنّا أرينا إبراهيمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: سُلْطانُ السَّمواتِ والأرضِ، وقيلَ: الشمسُ والقمرُ والكواكبُ، وقيلَ: فُرِجَتْ لَهُ السَّمواتُ السَّبْعُ حتى نَظَرَ إلى ما تَحتَ العَرْشِ، وما فِيهِنَّ، وكذلكَ فُرِجَتْ لَهُ الأرضونَ حتى رَأى ما فِيهِنَّ، وقِيلَ: ﴿مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خَبْءُ إبراهيمَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، مِنَ الجَبابِرَةِ في سَرَبٍ، فَجَعَلَ اللهُ في أصابِعِهِ رِزْقاً، فإذا مَصَّ إصْبعاً مِنْ أصابِعِهِ وَجَدَ مِنها رِزْقاً، فلمّا خَرَجَ أراهُ اللهُ الشَّمْسَ والقَمَرَ، فكانَ ذلكَ ﴿مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومَلَكُوتَ الأرضِ الجِبالَ والبِحارَ والأشجارَ. وقِيلَ: نَظَرَ إلى مُلْكِ اللهِ فيها حتى نَظَرَ إلى مَكانِهِ، ورَأى الجَنَّةَ، وفُتِحَتْ لَهُ الأرضونَ حتى نَظَرَ إلى أسْفَلِ الأرَضِينَ، فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: ٢٧] قِيلَ[٨]: أُرِيَ مَكانَهُ في الجَنَّةِ، وقيلَ: أجْرُهُ الثناءُ الحَسَنُ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: مَلَكُوتُ السَّمواتِ والأرضِ مِنَ المُلْكِ، وكذلكَ قالَ أبو عُبَيدٍ، وهو كَجَبَرُوتٍ ورَحَمُوتٍ ورَهَبُوتٍ، فكذلكَ مَلَكُوتٌ. وأصْلُهُ ما ذُكِرَ مِنَ الآياتِ والعجائبِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ الإيقانُ بالشَّيءِ هو العِلْمُ بالشَّيءِ حَقيقَةً بَعْدَ الاستِدْلالِ والنَّظَرِ فيهِ والتَّدَبُّرِ. ولِذلكَ لا يُوصَفُ اللهُ باليَقِينِ، ولا يَجوزُ لِلّهِ أنْ يُقالَ: مُوقِنٌ لِما ذَكَرْنا: هو العِلْمُ الذي يَعْقُبُ[٩] الاستِدلالَ وذلكَ مَنْهِيٌّ عنهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل و م: يذكر. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٢٨٣. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث قال. (٨) في الأصل و م: قال. (٩) في الأصل و م: يعقبه.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ وقيل في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي كما أريناكَ[1] مَلَكُوتَ ما ذَكَرَ، فقولُهُ: نُرِي بِمَعْنَى أرَيْنا[2].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ لهُ وَجهانِ:

أحَدُهُما: أنهُ كما أريناكَ ما أيقنْتَ بِهِ أنَّ الرُّبُوبِيَّةَ لِلَّهِ، وأنه الواحدُ لا شريكَ لهُ مِنَ الآياتِ والأدلَّةِ، أراهُ أيضاً ما ذَكَرَ حتّى أيقنَ. فهو، واللهُ أعْلَمُ، على التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الأسبابِ الدالَّةِ[3] على الوَحْدانيَّةِ للهِ، والرُّبُوبِيَّةِ في المَعْنى، وإنْ كانَتْ بأنبائِها[4] مُخْتَلِفةً، وعلى أنَّ طريقَ المَعْرِفةِ الاستِدْلالُ بما أنشأَ اللهُ مِنَ الدَّلالَةِ لا السَّمْعِ والحِسِّ، وإنْ كانَ في حُجَّةِ السَّمْعِ تأكيدٌ.

والثاني: أنْ يكونَ يُريهِ على ما أظْهَرَ مِنَ الحُجَجِ على قَومِهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] وأعطاهُ ما أراهُ، وأشعَرَ قَلْبَهُ مِنَ الحُجَجِ التي ألْزَمَ قومَهُ بِما أنْطَقَ بها اللهُ ﷻ بِلِسانِهِ، يُلْزِمُ حُجَجَهُ خَلْقَهُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ المُلْكُ في الحَقيقةِ مِنَ الوَجْهِ الذي يكونُ آيةً لِلإيقانِ ودليلاً للإحاطَةِ بالحَقِّ. ثم اخْتُلِفَ في وَجْهِ ذلكَ.

فَمِنهُمْ مَنْ قالَ: هو ما أُرِيَ بَصَرَهُ؛ أعني بَصَرَ الوَجْهِ نَحْوَ الذي ذَكَرَ مِنْ فَتْحِ السماءِ حتى أُرِيَ ما فيها مِنَ العَجائِبِ والآياتِ إلى العَرْشِ أو [حينَ مدَّ][6] الأرضَ حتى رَأى ما فيها مِنْ أنواعِ الخَلْقِ إلى الثَّرى أو حيثُ بَلَغَ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: رَفْعُ السماءِ حتى كانَتِ الأرضُ بِمَنْ فيها رَأْيَ العَيْنِ، وكانَ لَهُ ﷺ مِثْلُ هذا مِنَ الأمورِ نَحْوُ أمْرِ الناسِ بالهِجْرَةِ[7] إلى حيثُ لا ضَرْعَ، ولا زَرْعَ، وما جُعِلَ رِزْقُهُ في أصابِعِهِ، وأمْرِ بُلُوغِ صوتِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] أنْ كانَ ما سُمِعَ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ هو ما أُرِيَ بَصَرُ قلبِهِ مِنْ وُجوهِ البِرِّ وأنواعِ الأدِلَّةِ عندَ التَّأَمُّلِ في خَلْقِ اللهِ بالكُفرِ مِنْ غَيرِهِ[8] إنْ كانَ في الخَلْقِ تَغَيُّرٌ على الأحوالِ التي كانَتْ عليهِ. وهو أحَقُّ بأنْ[9] يكونَ لهُ في الذي كانَ كِفايَةٌ عَنْ حُدوثِ أحوالٍ تَدُلُّ [على أنها][10] حُجَجُ اللهِ يُسْتَدَلُّ [بها على قولِهِ][11] مِنَ الوَجْهِ الذي جُعِلَ لِجميعِ الخَلْقِ لا مِنْ جِهَةِ خُصوصِ الآياتِ. فَثَبَتَ أنَّ ذلكَ كانَ لهُ بهذا الوجهِ.

ثم هو يُخَرَّجُ على وُجوهٍ: منها ما رَأى مِنْ تَسْخيرِ القمرِ والشَّمسِ والنجومِ وقَطْعِها في كل يَوْمٍ ولَيْلَةٍ أطرافَ السماءِ والأرضِ جميعاً ومَسيرِها فوقَ الأرضِ إلى أنْ يَعُودَ كُلٌّ إلى مَطْلَعِهِ؛ يَسيرُ كُلُّ ذلكَ ما فوقَ الأرضِ إلى السماءِ.

ومنها[12] اسْتِواءُ أحوالِ ذلكَ على ما عليهِ حدٌّ في كلِّ عامٍ وشَهْرٍ لا يَزْدادُ، ولا يَنْقُصُ، ولا يَتَقدَّمُ، ولا يَتأخَّرُ، مع عظيمِ ما بها مِنَ المَنافِعِ لأنواعِ دَوابِّ الأرضِ والطيرِ جميعاً ما يُوقِنُ كُلُّ مُتأمِّلٍ أنَّ مِثْلَ هذا لا يَعْمَلُ بالطِّباعِ إلّا أنْ يَكونَ لَهُ مُدَبِّرٌ حكيمٌ، جَعَلَهُ بذلكَ[13] الطَّبْعِ، وسَوّاهُ على ما شاءَ مِنَ الحَدِّ، وألّا يَسْبِقَ الأمْرَ على التَّدبُّرِ والحِكْمَةِ إلّا أنْ يكونَ مُدَبِّرُ ذلكَ بِحَيثُ لا يَحْتاجُ إلى مُعينٍ، ولا يَجوزُ أنْ يكونَ لهُ منهُ منافِعُ.

ثم[14] هو بِذاتِهِ عليمٌ قديرٌ على ما في الأرضِ مِنْ تدبيرِ اللَّيلِ والنهارِ؛ يَتَعاقَبانِ أبداً، ويَسيرانِ؛ يَقْهَرانِ ما فيها مِنَ الجبابِرَةِ والفراعِنةِ حتى إنِ اجْتَهَدَ جَمْعُ أهلِ الأرضِ على زِيادةٍ أو نُقْصانٍ أو تقديمٍ أو تأخيرٍ لِما لَهُمْ مِنَ الحاجَةِ أو بما فيهِمْ مِنَ القُوَّةِ والقُدْرَةِ مَعَ مَعُونَةِ الجَمْعِ لَهُمْ في ذلكَ لَما تَهَيّأ[15] لَهُمْ، ولا بَلَغَ تَوَهُّمُ أحدٍ مِنَ احْتِمالِ ذلكَ؛ حتى يَصيرَ

---

(١) في الأصل و م: إنبائك. (٢) من م، في الأصل: أريناه. (٣) في الأصل و م: الدلالة. (٤) في الأصل و م: لإنبائها. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) في الأصل وم: حيث قدر. (٧) في الأصل و م: الهجرة. (٨) في الأصل و م: غير. (٩) في الأصل وم: من أن. (١٠) في الأصل وم: إذ هو. (١١) في الأصل وم: على قومه. (١٢) في الأصل وم: و، وهو الوجه الثاني. (١٣) في الأصل وم: ذلك. (١٤) هذا هو الوجه الثالث. (١٥) في الأصل وم: يتهيأ.

جنة السنة

عندَ وجودِ كلٍّ كأنَّ الآخرَ لم يكنْ قطُّ، ثم عندَ العَودِ إليهِمْ كأنهُ لم يُفارِقْهُمْ قَطُّ مع ما لِجَميعِ أهلِ الأرضِ بهما مِنَ المنافعِ، وعليهِمْ منهما[1] أنواعُ مَضارَّ، ولَهُما سُلْطانٌ على أعمالِهِم[2] على ما فيهما مِنَ التَّسْخيرِ والتَّذْليلِ الذي كُلٌّ مَقْهورٌ بالآخَرِ، إذا جاءَ سُلْطانُهُ، وبَلَغَ حَدَّهُ، ولَيسَ في واحدٍ منهما امْتِناعٌ مِنْ قَهْرِ الآخَرِ، وإنْ كانَ هو الظاهرَ القَوِيَّ جَرْياً جَميعاً على حدٍّ واحدٍ وسَنَنٍ /١٥٢ - ب/ واحدةٍ، ولا على ما دَلَّ عليهِ الأولَى مع ما فيهما مِنْ أثَرِ البَعْثِ أمْرٌ[3] ظاهِرٌ، لا يَحْتَمِلُ أنْ يَجْهَلَهُ إلّا سَفيهٌ مُعانِدٌ، واللهُ أعلَمُ.

ثم النُّورُ والظُّلْمَةُ والظِّلُّ ونَحْوُ ذلكَ الذي يَنْبَسِطُ بساعةٍ على جَميعِ أطرافِ السَّماءِ والأرضِ؛ يَسْتُرُ واحدٌ كُلَّ شيءٍ، ويُبْدِي آخَرُ عنْ كُلِّ شيءٍ، ويُحيطُ الثالثُ بكلِّ شيءٍ. ثم تَعَلُّقُ مَنافِعِ الأهْلِ بها على اخْتِلافِها بالسماءِ والأرضِ على تَباعُدِ ما بَيْنَهما وبالسَّهْلِ والجَبَلِ والبَحْرِ والبَرِّ على تَضادِّ مَعانيها.

وعلى ذلكَ جميعُ الأمورِ؛ فكانَ ﷺ بما أُرِيَ مِنَ المَعْنَى وغَيْرِهِ مِنَ المُوقِنِينَ أنْ لا إلَهَ إلّا اللهُ، وَجَّهَ إليهِ نَفْسَهُ، وأنَّ كُلَّ شيءٍ، نَسَبَ إليهِ الأُلوهيَّةَ، مُحالٌ أنْ يكونَ مِنْهُ[4]، أوْ لَهُ إمكانُ ذلكَ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

الآيات ٧٦ - ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ إلى قولِهِ: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تكَلَّموا في تأويلِ الآيةِ على أوجُهٍ ثلاثةٍ:

فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ الأمْرَ على ما عليهِ الظاهِرُ أنهُ عارفٌ بربِّهِ حَقَّ المَعْرِفَةِ إلى أنْ عَرَفَ مِنَ الوجْهِ الذي بانَ لَهُ عندَ الفراغِ مِنْ آخِرِ ما نَسَبَ إليهِ الرُّبُوبيَّةَ أنهُ لا يُعْرَفُ مِنْ جِهَةِ دَرْكِ الحَواسِّ ووُقوعِها عليهِ، ولكنْ مِنْ جِهَةِ الآياتِ وآثارِ العَقْلِ، فقالَ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية [الأنعام: ٧٩].

لكنَّ أهْلَ هذا القولِ اخْتَلَفُوا على وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: ما رُوِيَ في التَّفْسيرِ أنَّهُ رُبِّيَ في السَّرَبِ، ولم يَكُنْ نَظَرَ إلى شيءٍ مِنْ خَلْقِ السَّماءِ، فَنَظَرَ مِنْ[5] بابِ السَّرَبِ في أوَّلِ اللَّيلِ، فَرَأى الزُّهَرَةَ بِضَوئِها وتَلأْلُئِها، وكانَ في عِلْمِهِ أنَّهُ لَهُ رَبّاً، وأنهُ يُرَى، فَلَمْ يَرَ أضْوأَ[6] منها ولا أنْوَرَ، فقالَ: ﴿هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ ولَهُ عِلْمٌ أنَّ الرَّبَّ دائمٌ، لا يَزولُ، فقالَ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ﴾ بِمَعْنى: لَيسَ هذا بِرَبٍّ كقولِهِمْ[7] ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٨] أي لَيسَ لَنا، وقولِ عيسى حِينَ[8] ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦] بِمَعْنَى: ما قُلْتُ ذلكَ.

ولكنَّ أهْلَ التَّفْسيرِ حَمَلُوا الأُفولَ على غَيبوبَتِهِ بِنَفْسِهِ، وهو عندَنا على غَيبُوبَتِهِ بِسُلْطانِ[9] القَمَرِ، وقَهْرِ سُلْطانِ القَمَرِ، لَمّا طَلَعَ سُلْطانُ النَّجْمِ.

وعندَهُ أنَّ الرَّبَّ لا يُقْهَرُ، وأنَّ سُلْطانَهُ لا يَزولُ. وعلى ذلكَ أمْرُ القَمَرِ والشَّمْسِ بِظُلْمَةِ الليلِ. وفي ذلكَ أنهُ لو كانَ عندَهُ أنَّ الرَّبَّ لا يُقْهَرُ، وأنَّ سُلْطانَهُ لا يَزولُ، وأنهُ لا يُرَى، لأنْكَرَ مِنْ ذلكَ الوجْهِ أنْ يكونَ ربَّهُ، بل أقَرَّ بِهِ، وأنْكَرَ الأُفولَ والزَّوالَ. وهذا يَنْقُضُ قولَ مَنْ يَصِفُهُ بالزَّوالِ والانْتِقالِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ.

ومِنْهُمْ[10] مَنْ يَقولُ: كانَ هذا مِنْهُ في وَقْتٍ، لم يَكُنْ جَرَى عليهِ القَلَمُ، سَمِعَ الخَلْقَ يَقُولُونَ[11] في خَلْقِ السماءِ والأرضِ ونَحْوِ ذلكَ، ويَنْسِبُونَ ذلكَ إلى اللهِ. وعلى ذلكَ أمْرُ جميعِ أهلِ الشِّرْكِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١ و...] وقولِهِ تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ﴾ إلى قولِهِ ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩١] ثم رآهُمْ عَبَدُوا الأصنامَ، وسَمَّوها آلِهةً، فتأمَّلَ، فَوَجَدَها لا تَسْمَعُ، ولا تُبْصِرُ، ولا تَنْفَعُ، ولا تَضُرُّ، فَعَلِمَ[12] أنَّ مِثْلَها لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يَخْلُقُ ما ذَكَرْتُ، وإنَّ الذي ذلكَ فِعْلُهُ لَعَلِيٌّ عظيمٌ، يَجِبُ طَلَبُ مَعْرِفَتِهِ مِنَ العُلُوِّ بما كانَ يَسْمَعُ نِسْبَةَ

---

(١) في الأصل وم: فيها. (٢) في الأصل وم: أعمارهم. (٣) في الأصل و م: أمرا. (٤) في الأصل و م: فيه. (٥) في الأصل و م: عن.
(٦) في الأصل و م: ضوء. (٧) في الأصل و م: بقوله. (٨) في الأصل و م: حيث. (٩) في الأصل و م: في سلطان. (١٠) هذا هو الوجه الثاني من وجوه أقوال أهل التأويل في هذه الآية. (١١) في الأصل و م: يقول. (١٢) في الأصل و م: علم.

جنة السنة

الملائكةِ إلى السَّماءِ ونُزولَ الغيثِ منها ومَجيءَ النُّورِ والظُّلمةِ وكُلَّ أنواعِ البَرَكاتِ وغَيرَها منها. فَصَرَفَ تدبيرَ الطَّلَبِ الذي نَسَبَ إليهِ الخَلْقُ إليها، ثم أوَّلَ ما أخذَ في التَّأمُّلِ والنَّظَرِ لم يَقَعْ بَصَرُهُ على أحْسَنَ وأبْهَى مِنَ الذي ذَكَرَ، فَظَنَّ ذلكَ.

ثم لمَّا قُهِرَ، وقد كانَ عَلِمَ بأنَّ خالِقَ مَنْ ذَكَرَ لا يَجوزُ أنْ يُقْهَرَ، فَمِنْ ذلكَ عَلِمَ أنَّهُ لَيسَ هو، وقالَ: [﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾][1] إلى أنْ قَهَرَ الليلُ ضوءَ الشَّمسِ، أو صارَتْ بحيثُ لا يجري لهُ السُّلطانُ، أو رَأى في الكُلِّ آثارَ التَّسخيرِ والتَّذليلِ، ولم يَرَ فيها أعلامَ مَنْ لَهُ الأمرُ والخَلْقُ، فَعَلِمَ أنَّ الرَّبَّ لا يُدْرَكُ مِنْ ذلكَ الوَجْهِ، ولا يُعْرَفُ مِنْ جِهَةِ الحَواسِّ، فَرَجَعَ إلى ما سَمِعَ مِنْ أنَّهُ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، فَوَجَّهَ نَفْسَهُ إليه بالعُبُودِيَّةِ، واعْتَرَفَ لهُ بالرُّبوبيَّةِ بما في الخَلْقِ مِنْ آثارِ ذلكَ وفي القَولِ مِنْ تَسْمِيَةِ مَنْ لَهُ الخَلْقُ رَبّاً وإلهاً، فآمَنَ بِهِ. وذلكَ كانَ أوَّلَ أحوالِ احْتمالِهِ عِلْمَ الاسْتِدْلالِ وبُلُوغَهُ المَبْلَغَ الذي مَنْ بَلَغَهُ يَجْرِي عليهِ الخِطابُ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

ومِنْهُم[2] مَنْ قالَ: إنهُ كانَ بالغاً قد جَرَى عليهِ القَلَمُ، وقد كانَ رَأى ما ذَكَرَ غَيْرَ مَرَّةٍ، لكنَّ اللهَ لمّا أرادَ أنْ يَهْدِيَهُ أَلْهَمَهُ ذلكَ، وألْقى في نَفْسِهِ، فانْتَبَهَ انْتِباهَ الإنسانِ بِشَيءٍ كانَ عنهُ غافِلاً مِنْ قَبْلُ، فَرَأى كوكباً أحْمَرَ يَطْلُعُ عندَ غروبِ الشَّمسِ، فَراعاهُ إلى أنْ أفَلَ، فأرادَ مِنَ اللهِ قُرْبَةً، وعَلِمَ أنَّ رَبَّهُ لا يزولُ، ولا يَتَغَيَّرُ، فَفَزِعَ إليهِ، وقالَ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ﴾ وكذا ذَكَرَ في القَمَرِ والشَّمسِ إلى أنْ عَرَّفَهُ اللهُ، فَتَبَرَّأ[3] مِمّا كانُوا يُشْرِكُونَ، وتَوَجَّهَ[4] بالتَّوحيدِ والعبادةِ إليهِ.

وإلى هذا التَّأويلِ ذَهَبَ الحَسَنُ، وإلى الأوَّلِ [ما][5] رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ.

والثاني: قالَ بِهِ جماعةُ أهلِ الكلامِ، ونَحْنُ نَتَبَرَّأُ الى أنْ نَجْعَلَهُ رجلاً بالغاً جَرَى عليهِ القَلَمُ، وهو كانَ عَنِ اللهِ بهذِهِ الغَفْلَةِ حتى يَتَوَهَّمَهُ في مَعْنَى نَجْمٍ أو قَمَرٍ أو شَمْسٍ مَعَ ما يَرَى فيها الظُّهورَ بَعْدَ أنْ لم يَكُنْ والأُفولَ[6] بَعْدَ الوُجودِ ثُمَّ آثارَ التَّسْخيرِ والعَجْزِ عنِ التَّدْبيرِ بما هو في جَهْدٍ وبلاءٍ ومَنْ لَهُ يَعْمَلُ في راحةٍ وسُرورٍ. ثم [لا][7] يَرَى في شَيءٍ مِنَ العالَمِ أنَّ[8] لَهُ مَعْنًى يَدُلُّ على رُجوعِ التَّدبيرِ، فَيَتَحَقَّقُ لهُ القولُ بذلكَ، واللهُ يَصِفُهُ بقولِهِ: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]. وقيل: ﴿سَلِيمٍ﴾ مِنَ الشِّرْكِ، لم يَشُبْهُ شَيءٌ.

وقالَ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] وما يَذْكُرونَهُ إنما أتاهُ على نَفْسِهِ؛ إذ هو في الغَفْلَةِ عنها والجَهْلِ بِمَنْ لهُ الآياتُ، وقد قالَ أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] ومعلومٌ أنَّ ذلكَ على مُعايَنَةٍ أو ذلكَ قد أُرِيَ كُلّا منا.

ولكنْ على ما بَيَّنْتُ مِنَ الوَجْهَينِ، وفيهما حَقيقةٌ، ولَيسَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ دلالةٌ لِلشَّكِّ في الاِبْتِداءِ والجَهْلِ في الحالِ التي يُحْتَمَلُ بِهِ ﷺ ولكنْ على أنهُ على ذلكَ الوَجْهِ يكونُ الإيقانُ بِمَنْ لا تَقَعُ عليهِ الحَواسُّ، ولا[9] تُوجِبُ عِلْمَهُ الضَّروراتُ، إنما هو الاسْتِدلالُ بالآثارِ أو تَلَقِّي الأخبارِ ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ﴾ [الرعد: ٢] لا عَنْ وَضْعٍ، وقولِهِ تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [المائدة: ١٦] لا أنْ كانُوا[10] مِنْ قَبْلُ في الظلماتِ، وقولِ يُوسفَ: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧] لا عَنْ كونٍ فيها. وهكذا أمْرُ الإيمانِ أنْ يكونَ العَبْدُ في كلِّ وَقْتٍ مُوقناً باللهِ وأنْ لا إلهَ غَيْرُهُ، لا عَنْ شَكٍّ في ما تَقَدَّمَهُ مِنَ الوَقْتِ والجَهْلِ. فَمِثْلُهُ أمْرُ إبراهيمَ ﷺ.

والوَجْهُ الثاني مِمّا تُكُلِّمَ في التأويلِ أنْ يكونَ إبراهيمُ، صلواتُ اللهِ عليهِ، كانَ مُؤْمناً في ذلكَ الوَقْتِ عارفاً بِرَبِّهِ حَقَّ المَعْرِفَةِ، ولكنَّهُ كَلَّمَ قَومَهُ كلامَ مُسْتَدْرِجٍ بإظهارِ المُتابَعَةِ لَهُمْ على هَواهُمْ، فَيَكُونُونَ بِهِ أولَى وإليهِ أمْيَلَ. وذلكَ أبْلَغُ في الحِجاجِ والَّطفُ في المَكيدَةِ، فَيُبَيِّنُ لَهُمْ ما[11] أرادَ مِنْ غيرِ جِهَةِ النَّقْضِ والعِنادِ، فبدأ بِتَعْظِيمِ ما عَظَّمُوهُ؛ إذ هُمْ قومٌ كانوا

---

(١) في الأصل وم: لمن قهر وذلك. (٢) هذا هو الوجه الثالث من وجوه أقوال أهل التأويل في هذه الآية. (٣) في الأصل و م: فيتبرأ. (٤) في الأصل و م: ووجه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: والأقوال. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل و م: أو.
(٩) في الأصل وم: ولو. (١٠) في الأصل و م: قالوا. (١١) في الأصل و م: من.

جنة السنة

يُعظِّمونَ النجومَ، وبالعِلْمِ بأمرِها أخبَرُوا نَمْرُوذَ بِولادَةِ مَنْ يَهْلِكُ على يَدِهِ هو، ويَزولُ مُلْكُه، وهذا كما ذَكَرَ أنهُ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ [الصافات: ٨٨] في مَقاييسِها وعِلْمِها نَظَرَ(١) إليها، ثم قالَ الذي ذَكَرَ لا مِنْ حَيثُ علمُ النُّجومِ، ولكنْ مِنْ حَيثُ عِلْمُهُ أنهُ يَموتُ، ومَنْ يموتُ يَسْقَمُ، لكنْ أراهُمُ المُوافَقَةَ في العِلْمِ الذي لَهُمْ في ذلكَ البابِ دَعْوَى.

فكذلكَ ما نَحْنُ فيهِ. وعلى ذلكَ أمْرُ البُدِّ الذي كانَ يَعْبُدُهُ(٢) قومٌ، عَظَّمَتْهُ [الحَوارِيّونَ الذينَ](٣) أرْسَلَ إليهِمْ حتى اطْمأنُّوا، وصَدَرُوا عَنْ تَدْبيرِهِ، وبُلُوا بِعَذابٍ(٤)، وكادَ يُحيطُ بِهِمْ، فَدَعاهُمْ إلى دُعاءِ البُدِّ لِيَكْشِفَ لَهُمْ، إذْ لِمِثْلِهِ يُعْبَدُ، حتى أيِسُوا، فَدَعاهُمْ إلى اللهِ، فَكَشَفَ عنهُمْ، فآمَنُوا بِهِ. فَمِثْلُهُ الأوَّلُ.

وإلى هذا التَّأويلِ يَذْهَبُ القُتَبِيُّ، لكنهُ ذَكَرَ أنهُمْ كانُوا أصحابَ نُجومٍ وكَهانَةٍ. ومِنْ ذلكَ قولُهُ: لا يَعْبُدُ النَّجْمَ(٥)، ولا يَراهُ رَبّاً، كيفَ أظْهَرَ المُوافَقَةَ بِتَسْمِيَةِ النَّجْمِ رَبّاً؟ ثم النَّقْضَ عليهِ/ ١٥٣ ـ أ/ بالأُفولِ؟ ولكنْ على ذلكَ لو كانَ فإنما كانَ في قومٍ يَعْبُدُونَ النُّجومَ والشَّمْسَ والقَمَرَ، فألْزَمَهُمْ بالأُفولِ؛ إذْ فيهِ تَسْخيرٌ وغَلَبَةُ سُلْطانٍ.

وهذا الوَجْهُ يَجوزُ أنْ يَظْهَرَ على إضمارِ مَعْنًى، في نَفْسِهِ مُسْتَقيمٌ، كالمُكْرَهِ على عِبادَةِ صَليبٍ، يَقْصِدُ قَصْدَ عِبادَةِ اللهِ، والمُكْرَهِ على شَتْمِ محمدٍ ﷺ يَقْصِدُ قَصْدَ محمدٍ آخَرَ، يُصَوِّرُهُ في وَهْمِهِ ونَحْوُ ذلكَ. وهو على ما ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] على جَعْلِ أنْ كانُوا يَنْطِقُونَ شَرْطاً في نفسِهِ في قولِهِ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] واللهُ أعْلَمُ.

وقيلَ في الاِسْتِدْراجِ مِنْ غَيرِ هذا الوَجْهِ على التَّسْليمِ أنهُمْ أهلُ كَهانَةٍ(٦) ونُجومٍ؛ وهو أنهُ لَمّا رَآهُمْ يَعْبُدُونَ الأصنامَ والأوثانَ دَعاهُمْ مِنْ طَريقِ المُقابَلَةِ، إذْ هُمْ مالُوا إلى ذلكَ بما رَأَوا مِنْ حُسْنٍ في المُبْصَرِ بما قد زُيِّنَ بأنواعِ الزِّيَنِ(٧) وحُلِّيَ بأنواعِ الحُلِيِّ، فأراهُمْ أنهُ يَعْبُدُ النَّجْمَ، وما ذَكَرَ(٨)، وأنَّ الذي ذَكَرَ أحْسَنُ وأعْظَمُ نُوراً وضِياءً؛ إذْ هو بِجَوهَرِهِ ونَفْسِهِ كذلكَ، وما كانُوا يَعْبُدُونَ بما فَعَلُوا بِهِ، وجَعَلُوهُ(٩) كذلكَ، لِيَكْرَهَ إليهِمْ عِبادَتَهُمُ الأصنامَ، ويَسْتَنْقِذَهُمْ عمّا اعْتادُوهُ بالمَعْنَى الذي ذَكَرْتُ، ثم ألْزَمَهُمْ فَسادَ ما مالُوا إليهِ، وقَبِلُوا منهُ قَبْلَ أنْ يَقِرَّ ذلكَ في قُلوبِهِمْ، وتَطْمَئِنَّ إلى ذلكَ أنْفُسُهُمْ بما أظْهَرَ مِنْ فَسادِ أنْ يكونَ الذي بِذلكَ الوَصْفِ مِنَ التَّسْخيرِ أو مُلْكِهِ على شَرَفِ الزَّوالِ، أو يَصيرَ بِحَيثُ يَقِرُّ في قُلوبِهِمْ عِبادَةُ مَنْ لا يَشْهَدُونَهُ وَقْتَ العِبادَةِ، فَيُلْزِمُهُمْ على ذلكَ عِبادَةَ المُسْتَحِقِّ لَها(١٠)، أو أنْ يَقولَ: إذا كانَتِ النُّجومُ وما ذَكَرَ مِنْ ضِيائِها ونُورِها وكَثْرَةِ مَنافِعِ الخَلْقِ بها لم يَصْلُحْ لَها الأُلوهِيَّةُ عندَ الجميعِ بالأُفولِ والتَّسْخيرِ. فالذي كانُوا يَعْبُدُونَ على ما [سَخَّرُوهُ كانَ](١١) تَحْتَ البَشَرِ ذَليلاً(١٢)؛ لا يَسْمَعُ، ولا يُبْصِرُ، ولا يَنْفَعُ، أحَقُّ ألّا يكونَ لهُ الرُّبُوبِيَّةُ، وألّا يُوَجَّهَ إليهِ العُبُودَةُ، واللهُ أعْلَمُ. فهذا النوعُ مِنَ الاِسْتِدْراجِ في ما لو ظَهَرَ لهم(١٣) لم يكونُوا يَتَّخِذونَ النجومَ أرباباً يَعْبُدُونَها، وكذلكَ الذي ذَكَرَهُ القُتَبِيُّ.

والتأويلُ الثالثُ للآيةِ يَخْرُجُ مَخْرَجَ الإنكارِ والاِسْتِهْزاءِ. ويكونُ في ذلكَ مَعْنَى الاِسْتِدْراجِ؛ إذْ هو الإلزامُ مِنْ حَيثُ لا يُشْعَرُ بِهِ أو نَقْضُ أسبابِ الشُّبَهِ دَرَجَةً فَدَرَجَةً في حُلولِ الوَقْتِ وحُلولِ المَقْصُودِ وتَعاطِي ذلكَ الاِبْتِداءِ بالكَشْفِ عنِ الأسبابِ.

ثم قِيلَ في هذا بأوجُهٍ:

أحَدُها: أنهُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ النُّجومَ وما ذَكَرَ، ويَدْعُونَ إلى ذلكَ الأولادَ والصِّبيانَ، وإبراهيمُ مِنْهُمْ في ما كانُوا يَدْعُونَهُ إليهِ. فقالَ لَمّا رأى النَّجْمَ: هذا الذي تَعْبُدُونَ رَبِّي، أي إلى عِبادَتِهِ تَدْعونَني، أي هذا رَبِّي الذي تَدْعونَني إلى عِبادَتِهِ. فلَمّا رَآهُ طالِعاً سابِحاً غابِياً ثَبَتَ عندَهُ أنهُ مُسَخَّرٌ، فقالَ: لا أُحِبُّ عِبادَتَهُ. لكنَّ ذا قد يكونُ في خاصِّ نَفْسِهِ مُتَفَكِّراً في الذي دَعْوَةُ

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: لأنه. (٢) في الأصل و م: يعبدهم. (٣) في الأصل وم: الحواري الذي. (٤) في الأصل و م: بعد. (٥) من م، في الأصل: النجوم. (٦) في الأصل وم: كفاية. (٧) من م، في الأصل الذي. (٨) في الأصل: ذكروا. (٩) في الأصل و م: وجعلوا. (١٠) من م، في الأصل: ما. (١١) في الأصل وم: سخرهم. (١٢) في الأصل وم: أذلاء. (١٣) في الأصل و م: أنهم.

إليهِ لِيَعْرِفَ وقعَ قولِهِمْ مِنَ الوجهِ الذي يُقِرُّ ذلكَ في القُلوبِ إذا قابلَهُمْ. وقد يكونُ في مَلإٍ مِنْهُمْ، يُظْهِرُ لهمْ قولَهُ: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦ و٧٧ و٧٨] على إضمارِ: تَدْعُونَني إليهِ، لِيُلْزِمَهُمْ بما بانَ لهُ فسادُ الرُّبوبيَّةِ، فيكونُ اسْتِدْراجاً أيضاً لأنهُ ألْزَمَهُمْ بَعْدَ ظُهورِ الوِفاقِ مِنْهُ لَهُمْ، وقد يكونُ ذَكَرَ هذا الذي تَدْعُونَني [إليهِ][1] رَبِّي سِرّاً، ويَهْزَأُ بِهِمْ بإظهارِ المُوافَقَةِ؛ يُبَيِّنُ لهمْ ذلكَ بِما أَلْزَمَهُمْ أنَّ الابْتِداءَ لم يكُنْ على المُساعَدَةِ، إذْ ذلكَ المَعْنَى الذي بِهِ أَلْزَمَ كانَ ظاهِراً عِنْدَهُ في الابْتِداءِ وعندَهُمْ جميعاً.

والثاني: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على ما يُقالُ: هذا فلانٌ الذي تُخْبِرونَني عنهُ، بِمَعْنَى أهذا هو؟ على إنكارِ أنهُ لَيسَ بالمَحَلِّ الذي أخبَرْتُموني عنهُ، أو على الاسْتِفهامِ لِيُقَرِّرَهُ عنهُ، أو على الوَجهَينِ كانَ، وقد هَزِئَ بِهِمْ، وظَهَرَ في المُتَعَقَّبِ أنَّ الأوَّلَ كانَ[2] على الهُزْءِ بِهِمْ والإنكارِ أوِ الاسْتِفهامِ؛ وذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ [الرعد: ١٦] على أنهُمْ لم يَخْلُقُوا كَخَلْقِهِ، يُوَضِّحُ قولَهُ: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] في الأوَّلِ ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾.

والثالثُ[3]: أنْ يكونَ هذا يُضْمَرُ في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ أي رَبُّ هذا رَبِّي إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، ثم رَجَعَ إليه عِندَهُمْ أنهُ لا تَلِيقُ الرُّبوبيَّةُ بالذي ظَنُّوا أنهُ ساعدَهُمْ عليهِ. ثم قد بَيَّنَّا الدَّليلَ على أنهُ لم يكُنْ كافراً في ذلكَ الوَقْتِ مَعَ ما قد ثَبَتَتْ عِصْمَةُ الرُّسُلِ عنِ الكبائرِ؛ فكيفَ يُبْلَوْنَ بالكُفْرِ؟ واللهُ يقولُ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وكُلُّ مُتَمَكِّنٍ فيهِ الكُفْرُ شَريكُ أمثالِهِ، فلا وَجْهَ لِتَخْصِيصِ الأصْلِ.

ثم جُمْلَةُ ذلكَ أنَّ اللهَ، سُبْحانَهُ، لو أرادَ أنْ يُبَيِّنَ حَقيقةَ الحالِ، أو كانَتْ بِنا إلى مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ ذلكَ مِنَ المُرادِ والوَقْتِ الحاجَةُ[4] في أَمْرِ الدينِ لَكانَ يُبَيِّنُ ذلكَ، أو يَرِدُ في ذلكَ [حديثٌ][5] عن رسولِ اللهِ ﷺ لكنَّ العِلْمَ بِحقيقةِ ذلكَ، إذْ هو عِلْمُ الشَّهادةِ بِما لَيسَ لَنا وعَلَينا [لِلْوصولِ إليهِ عَمَلُ تَحالُفٍ][6]، ولا نُكَلَّفُ الشهادةَ بِوَقْتِ القَولِ. وما يَتَمَكَّنُ فيهِ، فَحَقُّهُ أنْ يَتَأمَّلَ وَجْهُ الحِكْمَةِ في ذِكْرِ القِصَّةِ وما فيها مِنَ الحُجَّةِ في أمْرِ الدينِ

فهو، واللهُ أعْلَمُ، يَخْرُجُ على وجُوهٍ:

أحَدُها: على جَعْلِ ذلكَ حُجَّةً لِرسالةِ رسولِهِ؛ إذْ هو مِنْ أنْباءِ الغَيْبِ، ونَبِيُّ اللهِ نَشأَ بِمَكَّةَ، ولم يكُنْ ثَمَّ مَنْ يَعْلَمُ ذلكَ، ولا فارَقَ قومَهُ [ولا][7] اخْتَلَفَ إلى مَنْ عِندَهُ عِلْمُ الأنباءِ بِتَوارُثِهِمْ كُتُبَ الأنبياءِ، ولا كانَ رسولُ اللهِ ﷺ مِمَّنْ يَخُطُّ بِيَمِينِهِ[8]، ويَقِفُ على المكتوبِ. دلَّ أنهُ عَلِمَهُ باللهِ ﷻ مَعَ ما كانَ في القِصَّةِ [مِنْ][9] حُجَجِ التَّوحيدِ ودَفْعِ عبادةِ الأصنامِ وتَسْفِيهِ أهلِ ذلكَ، لم يَحْتَمِلْ أنْ يكونَ تَعْلِيمُ مِثْلِ ذلكَ مِنَ الدَّافِعِينَ لذلكَ، المُدَّعِينَ على إبراهيمَ اليهوديةَ والنصرانيَّةَ.

[والثاني: أنَّ][10] كُتُبَهُمْ بِغَيرِ لِسانِهِ، وفي العِبادةِ بِلِسانٍ [آخَرَ][11] يُوهِمُ الاختلافَ والتَّغْيِيرَ، فلا يَحْتَمِلُ الاحتِجاجَ بِمِثْلِهِ ما يَحْتَمِلُ الإنكارَ والدَّفْعَ، وفيهِ اسْتِعطافُ قومِ رسولِ اللهِ ﷺ إذْ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ ﷺ بما يَدْعُوهُمْ إلى دينِ آبائِهِمْ، مَعَ ما كانُوا هُمْ أصحابَ تَقْليدٍ وحِفْظِ آثارِ الآباءِ، فألْزَمَهُمُ القولَ في آبائِهِمْ بما لا [يَدْفَعُ بِهِمُ القَولُ بِغَيرِ الذي قالُوا][12]؛ إذْ إبراهيمُ ﷺ عندَ جَميعِ المُشْرِكينَ إمامٌ، يُؤتَمُّ بِهِ، أحقُّ مِنْ كُلِّ أبٍ، مَعَ ما كانَ كُلُّ مولودٍ على دِينِهِ مَذْكُوراً مَحْفوظاً في الخَلْقِ، ومَنْ خالَفَهُمْ فهو مَمْحُوقُ الاسْمِ والذِّكْرِ جميعاً. فكانَ في ذلكَ أعظَمُ الدليلِ أنَّ هؤلاءِ مِنَ الأنبياءِ أحَقُّ بالتَّقْليدِ مِنَ الذينَ اتَّبَعُوهُ. وعلى ذلكَ اتِّفاقُ أهْلِ الكتابِ على مُوالاةِ إبراهيمَ مِنْ غيرِ أنْ تَهَيَّأَ لَهُمْ دَفْعُ ما أثْبَتَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ تَوحِيدِهِ ولا ما قَرَّ عندَهُمْ مِنْ دينِهِ بِشَيءٍ يَجِدونَهُ خِلافاً لِذلكَ في كُتُبِهِمْ.

والثالثُ: أنَّ إبراهيمَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، صَرَفَ مَعْرِفَةَ الرَّبِّ مِنْ جِهَةِ خَلْقِهِ، ودانَ بِدينِهِ مِنْ جِهَةِ النَّظَرِ في الآياتِ والبَحْثِ عنْها دُونَ أن يُقَلِّدَ أباهُ أو قَومَهُ لِيَعْرِفَ سَبيلَ طَلَبِ الحَقِّ، وَوَجَّهَ أتباعَهُ لِيَكونَ ذلكَ تذكِرَةً لِجَميعِ ذُرِّيَّتِهِ.

---

(١) في الأصل و م: فيه. (٢) من م، في الأصل: لكان. (٣) في الأصل وم: يجوز. (٤) في الأصل وم: والحاجة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: بالوصول عمل تحالف. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل: بيمينا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وبعد فإن. (١١) ساقطة من الأصل و م. (١٢) في الأصل و م: معرفتهم القول بغير الذي قالوا.

جنة السنة

والرابعُ: أنهُ ذَكَرَ الخَبَرَ عنْ أحوالِهِ بِمَخْرَجٍ: ظاهِرُهُ يُوهِمُ المَكْروهَ؛ ولَهُ وجهُ الصَّرْفِ إلى ما [لَيسَ فيهِ نِفارُ الطَّبْعِ مِنْهُ ولا تَأَبٍّ][(١)] لِلعَقْلِ لِيَمْتَحِنَ عِبادَهُ بالقَولِ فيهِ والوَقْفِ في أمْرِهِ.

والخامسُ: لِيُعْلَمَ أنَّ المُحاجَّةَ في الدينِ قَدْرَ ما تَحْتَمِلُهُ العُقولُ لازِمَةٌ؛ إذْ بها أفْحَمَ إبراهيمُ قومَهُ، وأظهَرَ دينَ ربِّهِ، فَيَبْطُلَ بذلكَ قولُ كثيرٍ مِنَ المُسْلِمِينَ الذينَ يَكْرَهُونَ المُناظَرَةَ في الدينِ، ويَرَونَ في ذلكَ تقليدَ الأُستاذِينَ أو ظواهِرَ ما جاءَ بِهِ الآثارُ التي في اتِّباعِ أمثالِها تناقُضٌ عندَ /١٥٣ ـ ب/ العُقَلاءِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

والسادسُ: أنَّ المُناظَرَةَ تكونُ بوجهَينِ: بِطَلَبِ[(٢)] الدَّلالَةِ في إثباتِ القَولِ وبإظهارِ الفَسادِ بما يَتَمَكَّنُ فيهِ مِنَ العَيبِ؛ إذْ هو رَدُّ ما ادَّعَوا مِنَ الرُّبوبِيَّةِ في مَنْ ذَكَروا[(٣)] بما في ذلكَ مِنْ آثارِ التَّدبيرِ لِغَيرِهِ؛ ولِذلكَ[(٤)] قالَ في الأصنامِ: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] وقالَ: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس: ٢٢] وقالَ في موضِعٍ آخَرَ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ [الشعراء: ٧٨]. فَمَرَّةً أبْطَلَ قولَهُمْ بالمَعْنَى الذي بِضِدِّهِ احْتَجَّ، و[مَرَّةً بالمَعْنَى الذي فيهِ إثباتُ الحَقيقَةِ][(٥)]. وجائزٌ في كُلِّ ذلكَ أنْ يَقولَ لَهُمْ: ما الدليلُ على ما تَدْعُونَ لِما تَذْكُرُونَ مِنَ الرُّبوبِيَّةِ؟

والسابِعُ: جوازُ التَّسْليمِ بإظهارِ المُوافَقَةِ، وإنْ كانَ المُسْلِمُ بِحَقيقَةِ ذلكَ مُنْكِراً، ولَهُ دافِعاً[(٦)]، إذا كانَ في المُساعَدَةِ بذلكَ في الظاهِرِ نَيْلُ الفُرْصَةِ والظَّفَرِ بالبُغْيَةِ؛ إذْ على ذلكَ خَرَّجَ مُناظَرَتَهُ قومَهُ، وعلى ذِكْرِ ما احْتَجَّ بِهِ في قولِهِ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] إذْ قالَ خَصْمُهُ: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وعلى[(٧)] إقبالِهِ على حُجَّةٍ هي أوضَحُ مِنْ ذلكَ وأقْهَرُ لِلعَقْلِ والزَمُ في الطَّبْعِ، فقالَ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

والثامنُ: أنْ يُعْلَمَ أنَّ اللهَ لم يُهْمِلِ القَومَ في شَيءٍ مِنَ الأزمنَةِ دونَ أنْ يَجْعَلَ[(٨)] لَهُمْ أدِلَّةً لِلْحَقِّ يَظْفَرُونَ بها لو تَأَمَّلُوا، ولا الزَمَ خَلْقَهُ في زمانٍ مِنَ الأزمانِ بِشَيءٍ، لو بُحِثَ عنهُ، لا يُوقَفُ عليهِ، ولا يَتَهَيَّأُ لهُ. ولِذلكَ أظْهَرَ الحُجَجَ، وأنارَ[(٩)] البَيِّناتِ لِيُعْلَمَ أنهُ جَعَلَ أوامِرَهُ كُلَّها تالِيَةَ الأدِلَّةِ والبَراهِينِ لِيَقْطَعَ بها عُذْرَ مَنْ تَأبى نَفْسُهُ القِيامَ بِهِ.

والتاسِعُ: أنْ يُعْلَمَ أنهُ لا أحَدَ يَقومُ بالحِجاجِ، ولا يَنْطِقُ بِحُسْنِ البَيانِ إلّا بِعَطِيَّةِ اللهِ وامْتِنانِهِ عليهِ بما يَنْطِقُ بِهِ لِسانُهُ، ويُوَفِّقُهُ لِلقِيامِ بِهِ بقولِهِ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ثم العاشِرُ: أنْ يكونَ بِفَضْلِهِ تُنالُ الدَّرَجاتُ في أمْرِ دينِهِ، ويُرْتَقى إلى مَنازِلِ الفَضْلِ والشرفِ بِمَشِيئَتِهِ كما قالَ: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣] وأنهُ متى شاءَ الرَّفْعَ كانَ، واللهُ أعلَمُ.

وقد قالَ بَعْضُ أصحابِنا: الإمامةُ في تَأويلِ الآيةِ، رَغْمَ أنهمْ أخَذُوهُ مِنْ شَرْحٍ، على أنَّ تَأويلَ النَّجْمِ المَأذونِ وتَأويلَ[(١٠)] القَمَرِ اللاحِقِ وتَأويلَ[(١١)] الشمسِ الإمامِ؛ بِمَعْنَى أنهُ قالَ [عَنِ المَأذونِ][(١٢)]: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ يَعْنِي بِهِ رَبَّ التَّرْبِيَةِ؛ رَبّاهُ بالعِلْمِ. وقولُهُ ﷺ ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي فَنِيَ ما عِنْدَهُ، رَغِبَ عنهُ، وقالَ: ﴿لَآ أُحِبُّ﴾ ثم ظَهَرَ باللاحِقِ ثم كذلكَ بالإمامِ.

ثم تَوَجَّهَ نَحْوَ التالي بالقَبولِ؛ إذِ التالي عندَهُمْ، هو الذي يِظُنُّ ما ذُكِرَ. فلمّا جاوَزَ دَرَجَةَ المَؤُومِ، وهو الإمامُ، صارَ إلى دَرَجَةِ الرسالةِ، وهو القائلُ عَنِ[(١٣)] التالي بالخَبالِ، والمُصَوِّرُ لِلشَّرائِعِ عندَهُمْ، فَأَلْزَمُوا بهذا عِبادَةَ أربابٍ.

وإنَّ الارْتِفاعَ مِنْ دَرَجَةٍ إلى دَرَجَةٍ بأولئكَ، وذلكَ أمْرٌ مُتناقِضٌ على المُتَأَمِّلِ؛ لأنهُ لمّا فَنِيَ ما عِنْدَ المأذونِ صارَ إلى اللاحِقِ، واللاحِقُ[(١٤)] كانَ بِهِ مأذوناً، فلم يَكُنِ الثاني بما يَصيرُ إليهِ أحْمَدَ مِنَ الأوَّلِ؛ إذْ ما كانَ بِهِ صارَ مأذوناً، ولو كانَ ثَمَّ دَرَجَةٌ أُخرَى.

فأمّا أنْ يكونَ يَنالُ[(١٥)] تلكَ في الوَقْتِ الذي يُلْقِي المأذونُ ذلكَ إلى غَيرِهِ، أوْ لَا؛ فإنْ كانَ لا يُنالُ فلا أسْفَهَ مِنَ المأذونِ حينَ[(١٦)] امْتَنَعَ عما يُلْقِيهِ[(١٧)] إلى الدَّرَجَةِ الثانيةِ، وبَلَّغَهُ[(١٨)] غيرَهُ، وإمّا يَنالُ مَعَهُ في دَرَجَةِ المَؤُومِ.

---

(١) في الأصل: فيه نفار عنه الطبع ولا تأبي، في م: ليس فيه نفار منه للطبع ولا تأبي. (٢) في الأصل وم: لطلب. (٣) في الأصل وم: ذكر. (٤) في الأصل وم: وكذلك. (٥) في الأصل وم: في ثبات فيه. (٦) في الأصل وم: واقعاً. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: جعل. (٩) في الأصل وم: وأثار. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: للمأذون. (١٣) في الأصل وم: من. (١٤) في الأصل وم: والمأذون. (١٥) في الأصل و م: بيان. (١٦) في الأصل و م: حيث. (١٧) في الأصل و م: يقبله. (١٨) في الأصل و م: وبلغ.

جنة السنة

فكيف قالَ: لا أحِبُّهُ، وهو إثرُ الذي ذلكَ وَصْفُهُ؟ ثم كيفَ قالَ: ﴿لَآ أُحِبُّ﴾ ذهابَ ما بهِ آخِذٌ بِحَظِّهِ عنِ الآخِذِ مِنَ الآخَرِ؟ وكيفَ صارَ رَبَّهُ قَبْلَ أنْ يُرَبِّيَهُ؟ فلمّا ربّاهُ تَبرّأَ مِنْ رُبُوبِيَّتِهِ، وآثَرَ رَبّاً آخَرَ. فإذا عاقِبَةُ شُكْرِهِ سَعْيَ ربِّهِ في شأنِهِ كُفرانُهُ بِهِ.

وكذلكَ [أمرُهُ](١) دَرَجَةً فَدَرَجَةً حتى يَكْفُرَ بالتالي. ثم بالعَقْلِ يَصيرُ إلى رَبِّ العالَمِينَ. وهو الرَّبُّ في الابْتِداءِ والانْتِهاءِ؛ لا رَبَّ سِواهُ ﷻ عنِ الشُّرَكاءِ؛ إذْ إليهِ حاصِلُ الأمْرِ ومَصيرُ الخَلْقِ. ولو كانَ [كُلٌّ](٢) مُرْتَقٍ حَدّاً يَرْتَقيهِ(٣) آخَرَ لكانَتْ تلكَ الحدودُ، ويكونُ(٤) أبداً آخِرُها، فيكونُ الكُلُّ تواليًا(٥) أو نُطَفاً، ويَبْطُلُ الأولاءِ والمَأذونونَ والأئِمَّةُ جميعاً. وقد كَرَّمَ اللهُ تعالى عَلِيّاً، كَرَّمَ اللهُ وجْهَهُ، عنْ هذا الخيالِ، وعَصَمَهُ عَنْ هذا الوَسْوَاسِ، والحمدُ للهِ.

الآية ٨٠ [وقولُهُ تعالى](٦): ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ ذَكَرَ مُحاجَّةَ قومِهِ، ولم يُبَيِّنْ فيمَ حاجُّوهُ؟ لكنْ في الجَوابِ بَيانُ أنَّ المُحاجَّةَ في ما كانَتْ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ ثم تَحْتَمِلُ المُحاجَّةُ ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ في تَوحيدِ اللهِ ودينِهِ، وتَحْتَمِلُ في أمْرِ اللهِ وطاعَتِهِ.

وذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ عَنِ ابْنِ عباسٍ ﵄ [أنهُ](٧) قالَ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ في آلِهَتِهِمْ، وخَوَّفُوهُ بها، وقالُوا: إنّا نَخافُ آلِهَتَنا، وأنتَ تَشْتُمُها، ولا تَعْبُدُها، إنَّ تَخَبُّلَكَ وتُفْسِدَكَ [ظاهِرانِ](٨)، وذلكَ مُحْتَمَلٌ، وهو كقولِ قومِ هُودٍ لِهُودٍ ﵇: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤].

ثم قالَ لَهُمْ إبراهيمُ: لِمَ تَخافُونَ أنْتُمْ منها؟ قالُوا كيفَ [لا](٩) نَخافُ، ونَحْنُ نَعْبُدُها؟ قالَ: إنَّكُمْ تُسَوُّونَ بَيْنَ الصَّغيرِ والكَبيرِ والذَّكَرِ والأُنثى. أمّا تَخافُونَ الكَبيرَ إذْ سَمَّيْتُمُوهُ بالصَّغيرِ، وما تَخافُونَ الذَّكَرَ إذ سَمَّيْتُمُوهُ بالأُنثى.

ويَحْتَمِلُ أنهُمْ خَوَّفُوهُ باللهِ بِتَرْكِ عِبادَةِ آلِهَتِهِمْ لِما كانُوا يَقُولُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ويقولونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] [فَخَوَّفُوا بها](١٠) إبراهيمَ بِتَرْكِ عِبادَتِهِمْ لِما كانَ عندَهُمْ أنَّ عبادَتَهُمْ إيّاها تُقَرِّبُهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى، وتَرْكَ العِبادَةِ لها يُبْعِدُهُمْ. فقالَ: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ الدينَ والتَّوحيدَ، وهداني طاعَتَهُ والاتِّباعَ لأمْرِهِ. فقالَ كيفَ أخافُ ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾؟

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۚ﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وجهَينِ:

أحَدُهُما](١١): لا أخافُ إلّا إنْ عَصَيْتُ ربِّي في شَيْءٍ، فَعِنْدَ ذلكَ أخافُ. وأمّا إذا هداني ربِّي فإني [لا](١٢) أخافُ بِتَرْكي عِبادَتَهُمْ.

والثاني: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي﴾ إلّا أنْ يَبْتَلِيَني ربِّي بِشَيْءٍ مِنَ المَعْصِيَةِ؛ فَعِنْدَ ذلكَ أكونُ في مَشيئَتِهِ؛ إنْ شاءَ عَذَّبَني، وإنْ شاءَ لم يُعَذِّبْني.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ﴾ أي عِلْمُ ذلكَ كُلِّهِ عِنْدَهُ، عَصَيْتُ، أو أطَعْتُ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ باللهِ مِنَ الأصنامِ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ﴾ يَقولُ عُذْراً في كتابِهِ: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ﴾ أي أهْلُ أنا أمْ(١٣) أنْتُمْ؟ ﴿أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنا أعْبُدُ إلهاً واحِداً، وأنْتُمْ تَعْبُدُونَ آلِهَةً شَتّى.

وقِيلَ: إنهُمْ كانُوا يُخَوِّفُونَهُ بِتَرْكِهِ عِبادَةَ آلِهَتِهِمْ وعَدَمِ(١٤) إشراكِهِ إيّاها في عِبادَةِ اللهِ، فقالَ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ أنْتُمْ باللهِ مِنَ الآلِهَةِ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ غيرَهُ ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ﴾ أي حُجَّةً بأنَّ مَعَهُ شَريكاً. ثم قالَ: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ﴾ أنا أمْ(١٥) أنْتُمْ؟ مَنْ عَبَدَ إلهاً واحداً [آمَنُ عِنْدَهُ أمْ](١٦) مَنْ عَبَدَ آلِهَةً شَتّى صِغاراً

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل و م: يرتقي. (٤) الواو ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل و م: توالي. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) لا: ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فخوفوها. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: و. (١٥) في الأصل وم: و. (١٦) في الأصل وم: أن يأمن عنده.

جنة السنة

وكِباراً ذكوراً وإناثاً. وقالَ(١): كيف أخافُ آلِهَتَكُمُ التي تَعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ بِتَركي عِبادَتَها، وهي لا تَملِكُ ضَراً، إن تَركْتُ ذلكَ، ولا نَفعاً إن أنا فَعلْتُ ذلكَ؟ ولا تخافونَ أنتُم بِتَركِكُم عِبادَةَ إلهي، وهو يَملِكُ الضُّرَّ، إن تَركْتُم عِبادَتَهُ، والنَّفعَ، إن عَبدْتُموهُ. ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ [مَن](٢) عَبدَ إلهاً يَملِكُ الضُّرَّ والنَّفعَ أم(٣) مَن عَبدَ إلهاً لا يَملِكُ ذلكَ؟.

الآية ٨٢ فَقيلَ: رَدَّ عليهِ قومُهُ، فَقالُوا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بربٍّ واحدٍ، يَملِكُ الضُّرَّ والنَّفعَ ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قيلَ: لم يَخلِطُوا تَصديقَهُمْ وإيمانَهُمْ بِشِركٍ، ولم يَعبُدُوا غَيرَهُ دُونَهُ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ مِنَ الضَّلالَةِ والشِّرْكِ. قِيلَ: الظُّلْمُ ههنا الشِّرْكُ.

قيلَ: رُوِيَ عن ابنِ مَسعُودٍ ﷺ [أنهُ](٤) قالَ: لمّا نَزلَتْ هذهِ الآيةُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذلك على المسلِمِينَ، فقالُوا: يا رسولَ [اللهِ](٥) فأيُّنا لا يَظلِمُ نَفسَهُ؟ قالَ: لَيسَ / ١٥٤ - أ/ ذلكَ، إنما هو الشِّرْكُ. أوَلَمْ تَسمَعُوا ما قالَ لُقمانُ لِابنِهِ: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟ [لقمان: ١٣].

وعن أبي بَكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ [أنهُ](٦) قالَ لأصحابِهِ: ما تَقولونَ في هاتَينِ الآيتَينِ..﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] ثم عَمِلُوا له، واستَقامُوا على أمرِهِ، و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي لم يُذنِبُوا، فقالَ: ولقد حَمَلتُمُونا على أمرٍ شديدٍ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ بِشِركٍ، و﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ عليها، فلم يَعدِلُوا عنها بِشِركٍ ولا غَيرِهِ.

فإنْ ثَبَتَتْ هذِهِ الأخبارُ فهو ما ذَكَرَ فيها أنَّ الظُّلْمَ هو الشِّرْكُ. وإلّا احتَمَلَ الظُّلْمُ ما دونَ الشِّرْكِ؛ أنَّ مَن لم يَظلِمْ، ولم يُذنِبْ، فهو في أمْنٍ مِنَ اللهِ، ومَنِ ارتَكَبَ ذنباً أو ظُلماً فَلَهُ الخَوفُ؛ وهو [في](٧) مشيئَةِ اللهِ؛ إنْ شاءَ عَذَّبَهُ، وإنْ شاءَ غَفَرَ لهُ، وعَفا عنهُ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ الآية يَنقُضُ قولَ مَن يَقولُ بأنَّ إبراهيمَ كانَ غيرَ مُؤمِنٍ في ذلكَ الوقتِ وغيرَ(٨) عارفٍ بربِّهِ؛ لأنهُ أخبَرَ أنهُ آتاهُ حُجَجَهُ على قومِهِ. ولو كانَ هو على ما قالُوا لَكانَتِ الحُجَّةُ التي [آتاهُ إيّاها](٩) عليهِ. فلمّا أخبَرَ أنهُ [آتاهُ إيّاها](١٠) حُجَجَهُ على قومِهِ دلَّ أنهُ لَيسَ على ما قالُوا. لكنْ كانَ عارفاً بربِّهِ مُخلِصاً لهُ على ما سَبَقَ ذِكرُهُ.

فإنْ قالَ قائلٌ: إنَّ الحُجَّةَ التي أخبَرَ أنهُ آتاها ﴿إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ قولُهُ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٨٠] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، فَيُقالُ: إنَّ هذِهِ لَيسَتْ بِمُحاجَّةٍ إنما هو تَقريرُ التَّوحيدِ والدينِ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾؟ والمُحاجَّةُ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وقولِهِ: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، وغَيرُها مِنَ الآياتِ التي فيها وَصفُ توحيدِ الرَّبِّ ﷻ وألوهيَّتِهِ وفسادُ آلهتِهِم.

مِنْ ذلكَ قَولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾؟ [الصافات: ٩٥ و٩٦] وقولُهُ تعالى: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾؟ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾؟ [الشعراء: ٧٢ - ٨٠].

وفيه نَقضُ قَولِ المُعتَزِلَةِ لأنهُ قالَ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ والإيتاءُ هو الإعطاءُ، والنجومُ والشَّمسُ والقَمَرُ وما ذَكَرَ كانَتْ. دَلَّ أنَّ الذي آتى إبراهيمَ هو مُحاجَّتُهُ قومَهُ بما ذَكَرْنا، واحتِجاجُهُ عليهِمْ بذلكَ؛ دَلَّ أنَّ لهُ في مُحاجَّةِ إبراهيمَ قومَهُ صُنعاً حينَ(١١) أضافَ إلى نفسِهِ، وهو أنْ خَلَقَ مُحاجَّتَهُ قومَهُ، وباللهِ العِصمةُ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ

---

(١) في الأصل وم: أو أن يقال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: آتاها. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.
(١١) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

﴿ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ والذينَ كانوا يعبدونَ الأصنامَ، وهو ما بَيَّنَ سَفَهَهُمْ في عبادتِهِمُ الأصنامَ حينَ(١) قالَ [في غيرِ آيةٍ، وردَّ على](٢) نمرودَ قولَهُ(٣): ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ إلى آخرِ الآيةِ [البقرة: ٢٥٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ فيهِ أيضاً دلالةُ نقضِ قولِ المُعتزلةِ لأنهم يقولونَ: إنَّ اللهَ قد شاءَ لِكُلِّ أحدٍ أنْ يَبْلُغَ المَبْلَغَ الذي إذا بَلَغَ ذلكَ يَصْلُحُ لِلنُّبُوَّةِ والرسالةِ. لكنَّهُمْ شاؤوا ألّا يَبْلُغُوا ذلكَ المَبْلَغَ؛ يَجْعَلُونَ المَشِيئَةَ في ذلكَ إلى أنفُسِهِمْ دونَ اللهِ. واللهُ أخبرَ أنهُ يَرْفَعُ درجاتِ مَنْ يَشاءُ، وهُمْ يقولونَ: لا يَقْدِرُ أنْ يَرْفَعَ، بَلْ هم يَمْلِكُونَ(٤) أنْ يَرْفَعُوا دَرَجاتِ أنفُسِهِمْ. فَدَلَّتِ الآيةُ على أنَّ مَنْ نالَ دَرَجَةً أو فَضِيلَةً إنما يَنالُ بفضلِ اللهِ ومَنِّهِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ﴾، تَحْتَمِلُ الدَّرجاتُ [وُجوهاً: تَحْتَمِلُ النُّبُوَّةَ، وتَحْتَمِلُ الدَّرجاتِ](٥) في الآخِرَةِ أنْ تُرْفَعَ لَهُمْ، وتَحْتَمِلُ الذِّكْرَ والشَّرَفَ في الدنيا لِما يُذْكَرُونَ في المَلإِ مِنَ الخَلْقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ أي ﴿حَكِيمٌ﴾ في خَلْقِ الخَلائِقِ؛ خَلَقَ خَلْقاً يَدُلُّ على وَحدانِيَّتِهِ، ويدلُّ على أنهُ مُدَبِّرٌ لَيسَ بِمُبْطِلٍ في خَلْقِهِمْ، ثم ﴿عَلِيمٞ﴾ بأعمالِهِمْ، و﴿عَلِيمٞ﴾ بِمَصالِحِ الخَلْقِ وبما يَصْلُحُ. والحَكيمُ هو الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في التَّدبيرِ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ رَفْعِ الدَّرجاتِ ما ذَكَرَ مِنْ هِبَةِ هؤلاءِ. وفيهِ دَليلٌ أنَّ ما يكونُ لهُ مِنَ الفَضْلِ في هِبَةِ أولادِهِ يكونُ ذلكَ في أولادِ أولادِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ﴾ والهِدايةُ هِدايتانِ: هِدايةُ إصابةِ الحَقِّ وهِدايةُ العِلْمِ بالحَقِّ؛ وهي هِدايةُ البَيانِ، فهذِهِ الهِدايةُ ممّا يَشْتَرِكُ فيها المُسْلِمُ والكافِرُ جَميعاً. وأمّا هِدايةُ إصابةِ الحَقِّ فهيَ خاصَّةٌ بِالرُّسُلِ والأنبياءِ والمُسْلِمِينَ. والهِدايةُ ههنا هي إصابةُ الحَقِّ لا العِلْمُ بالحقِّ لأنَّهُمُ اشْتَرَكُوا جميعاً في العِلْمِ بالحَقِّ: [الكفارُ والمُسْلِمون](٦).

[وقولُهُ تعالى](٧): ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ قِيلَ: ذُرِّيَّةُ إبراهيمَ، وقيلَ: ذُرِّيَّةُ نوحٍ؛ كانُوا جميعاً مِنْ ذُرِّيَّةِ نوحٍ: إبراهيمَ ومَنْ ذَكَرَ مِنَ الرُّسُلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بالذِّكْرِ والشَّرَفِ والثَّناءِ الحَسَنِ إلى يومِ القِيامَةِ كما جَزَى هؤلاءِ الرُّسُلَ بالذِّكْرِ والشَّرفِ والثَّناءِ الحَسَنِ في مَلإِ النّاسِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يُذْكَرُوا في مَلإِ الملائكةِ كما ذُكِرُوا في مَلإِ الخَلْقِ في الأرضِ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في الآخِرَةِ بالثَّوابِ ورَفْعِ الدَّرجاتِ والجَزاءِ الجَزيلِ. ذَكَرَ في فَريقٍ أنهُ كذلكَ ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

الآية ٨٥ وذَكَرَ في فَريقٍ آخَرَ ﴿كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

الآية ٨٦ وذَكَرَ في فَريقٍ آخَرَ: ﴿وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهذا، واللهُ أعْلَمُ، لَيسَ على تَخْصِيصِ كُلِّ فَريقٍ بما ذَكَرَ مِنَ الذِّكْرِ، ولكنْ على الجَمْعِ أنهُمْ مُحْسِنُونَ صالِحُونَ مُفَضَّلُونَ على العالَمِينَ.

ثم يَحْتَمِلُ التَّفْضِيلُ لَهُمْ بالنُّبُوَّةِ أنهُمْ فُضِّلُوا على العالَمِينَ بالنُّبُوَّةِ. ويَحْتَمِلُ أنهُمْ كانُوا مُتَفَضِّلِينَ على العالَمِينَ بالإحسانِ والصَّلاحِ، ولم يكُنْ لَهُمْ رسالَةٌ ولا نُبُوَّةٌ. ثم يَحْتَمِلُ أنهُ سَمّاهُمْ مُحْسِنِينَ بِاخْتِيارِهِمُ الحالَ التي كانُوا أهْلاً لِلرِّسالَةِ والنُّبُوَّةِ. فإنْ كانَ هذا فَهُمُ الرُّسُلُ خاصَّةً. ويَحْتَمِلُ [قولُهُ تعالى: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الآية: ٨٤] مُحْسِنِينَ](٨) باخْتِيارِهِمُ الهِدايَةَ وإصابَةَ الحَقِّ. فإنْ كانَ هذا فهو ممّا يَشْتَرِكُ الأنبياءُ وأهْلُ الإسلامِ فيهِ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ﴾ أمّا آباؤُهُمْ فَمَنْ(٩) تَقَدَّمَهُمْ وذُرِّيّاتُهُمْ مَنْ تَأخَّرَهُمْ وإخوانُهُمُ الذينَ يُقارِنُونَهُمْ. وقيلَ: ذُرِّيّاتُهُمْ محمدٌ ﷺ وقيلَ: المُؤمِنونَ مِنْ بَعْدِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: أي وعلى. (٣) في الأصل وم: حيث قال. (٤) من م، في الأصل: يقولون. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: الكافر والمسلم. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل وم: محسنين. (٩) في الأصل وم: من.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ بالنُّبوَّةِ والرسالةِ ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فذلكَ لَهُمْ خاصَّةً. ويَحْتَمِلُ ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ بالتَّوحيدِ ودينِ الإسلامِ؛ فذلكَ يَعُمُّ الأنبياءَ والمؤمنينَ[1] جميعاً لأنهُ اجْتَباهُمْ بذلكَ جميعاً. ويَحْتَمِلُ ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ بما ذَكَرَ مِنْ رَفْعِ الدَّرَجاتِ والفَضائِلِ، ويكونُ صِلَةَ قولِهِ تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣] وذلكَ أيضاً يَعُمُّ الرُّسُلَ والمؤمنِينَ، واللهُ أعْلَمُ بذلكَ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ الآية دلالةٌ أنَّ مِنْ آبائِهِمْ وذُرِّيّاتِهِمْ مَنْ لم يَجْتَبِهِمْ بقولِهِ: ﴿وَمِنْ﴾ إذْ مِنْ هو حَرْفُ التَّبْعِيضِ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي ذلكَ الهُدَى الذي هَدَى هؤلاءِ، فَبِهُداهُمُ اهْتَدُوا.

وفي الآيةِ نَقْضُ قولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهُمْ يَقُولُونَ: إنَّ اللهَ قد شاءَ أنْ يَهْدِيَ الخلائِقَ كلَّهُمْ، لكنْ لم يَهْتَدُوا. وعلى قولِهِم: لم يكُنْ مِنَ اللهِ إلى الرُّسُلِ والأنبياءِ مِنَ الهِدايَةِ والفَضْلِ إلّا كانَ ذلكَ إلى جَميعِ الكَفَرَةِ. فالآيةُ تكونُ مَسْلُوبَةَ الفائِدَةِ على قولِهِمْ لأنهُ ذَكَرَ أنهُ يَهْدِي مَنْ يشاءُ، وهم يَقُولونَ: شاءَ أنْ يَهْدِيَ الكُلَّ، لكنْ لم يَهْتَدُوا. فإنْ كانَ كما ذَكَرُوا لم يكُنْ لِقَولِهِ تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فائِدَةٌ. دلَّ أنهُ مِنَ الخلائِقِ مَنْ قد شاءَ ألّا يَهْدِيَهُمْ إذا عَلِمَ منهُمْ أنهُمْ / ١٥٤ ـ ب/ لا يَهْتَدُونَ، ولا يَخْتارُونَ الهُدَى، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذا نَبَأٌ عنِ الحُكْمِ فيهِمْ لو أشْرَكُوا. إلّا أنهُمْ لا يُشْرِكُونَ لأنَّ اللهَ قد عَصَمَهُمْ، واخْتارَهُمْ لِرِسالَتِهِ، واخْتَصَّهُمْ لِنُبُوَّتِهِ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يُشْرِكوا. لكنْ ذَكَرَ هذا لِيَعْلَمُوا أنَّ حُكْمَهُ واحدٌ في مَنْ أشْرَكَ في اللهِ غَيْرَهُ: وَضِيعاً كانَ، أو شريفاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الحَسَناتِ والخَيراتِ التي كانَتْ قَبْلَ الإشْراكِ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قِيلَ: الكُتُبُ التي أعطى الرُّسُلَ ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ قِيلَ: العِلْمُ والفِقْهُ والفَهْمُ، وقِيلَ: الأحكامُ التي أعطاهُمْ ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ هي أنْباءُ الغَيْبِ. وقد ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قِيلَ: ﴿بِهَا﴾ كِنايَةٌ عنْ أنْباءِ الغيبِ والنُّبُوَّةِ التي ذَكَرَ، وقِيلَ: ﴿بِهَا﴾ كِنايَةٌ عنِ الكُتُبِ التي أنْزَلَها على الرُّسُلِ، وقِيلَ: هي كِنايَةٌ عنِ الآياتِ والحُجَجِ التي أعْطى رسولَ اللهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يَعْني أهلَ مَكَّةَ ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [يَعْني][2] أهلَ المَدينةِ مِنَ الأنْصارِ والمُهاجِرِينَ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ. وقِيلَ: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ يَعْني مَنْ عُدَّ مِنَ الرُّسُلِ والأنبياءِ. وقِيلَ: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يَعْني أهلَ قرابَتِكَ[3] وأهلَ صِلَتِكَ[4] ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ مِنْ غيرِ أهلِ قرابَتِكَ ﴿لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾. وقِيل: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يَعْني أهلَ زَمانِكَ ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ آبائِهِمْ وأجدادِهِمْ ﴿لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾. وقِيلَ: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يَعْني أهلَ الأرضِ ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ يَعْني أهلَ السماءِ ﴿لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ، رَحِمَهُ اللهُ، ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يَعْني أُمَّتَكَ فَقَدْ وَكَّلَ اللهُ بها النَّبِيِّينَ والصالِحِينَ مِنَ الأُمَمِ الخالِيَةِ ﴿لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [وهو كما ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ][5].

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ الذي[6] هَدَوا أُمَّتَهُمْ اهْدِ أنْتَ أُمَّتَكَ. ويَحْتَمِلُ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ الذي[7] هَدَوا هُمْ اهْتَدِ أنْتَ بأمْرِهِ ﷻ بالأمْرِ بالاقْتِداءِ بإخوانِهِ الذينَ مَضَوا مِنَ الرُّسُلِ. والهُدَى

---

(١) من م، في الأصل: وبالمؤمنين. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) من م، في الأصل: قربتك. (٤) في الأصل وم: وصلتك. (٥) في الأصل وم: والله أعلم بذلك وهو كما ذكرنا. (٦) و(٧) في الأصل وم: الذين.

جنة السنة

هو اسمُ ما يُزانُ بِهِ، لَيسَ هو اسْمَ الأفعالِ، فلا(١) يُقالُ لِتارِكِ(٢) الصلاةِ والزكاةِ والصيام ذلكَ(٣)، إنما يُقالُ ذلكَ لِمَنْ دانَ بِضِدِّ الهُدَى. أمَرَ رسُولَهُ أنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ بذلكَ. وذلكَ(٤) يَدُلُّ على [أنّ](٥) الأنبياءَ والرسلَ كانُوا على دينٍ واحدٍ، وأنَّ الدينَ لا يَحتمِلُ النسخَ والتَّغْيِيرَ. ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾؟ [الشورى: ١٣] وذلكَ(٦) يَدُلُّ على أنَّ الدينَ واحدٌ، لا يَحتمِلُ النَّسْخَ، وأمّا الشَّرائعُ فهي مُختلِفَةٌ لأنها تَحتَمِلُ النَّسْخَ، ويَحتَمِلُ الأَمْرُ بالاقْتِداءِ بِهِمْ ما ذَكَرَ.

[وقولُهُ تعالى](٧): ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي اقْتَدِ بِمَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الرُسلِ، ولا تأخُذْ على تَبْليغِ الرسالَةِ أجراً كما لم يأخُذوا هُمْ. وفي قولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ دليلُ نَقْضِ قولِ مَنْ يُجيزُ أخذَ الأجرِ على تَعليمِ القرآنِ والعِلْمِ ورِوايَةِ الحديثِ وغيرِ ذلكَ مِنَ العِباداتِ(٨). وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠] كأنهُ، واللهُ أعلَمُ، يَجعَلُ لهمُ العُذرَ في تَرْكِ الإجابَةِ لهُ بما يَلْحَقُهُمْ مِنْ ثِقَلِ الأجرِ والغُرْمِ، واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ أيضاً دلالةُ نَقْضِ مَذْهَبِ القَرامِطَةِ لأنهُمْ يَفرضُونَ(٩) مَذْهَبَهُمْ على الناسِ، ويَأخُذونَ مِنْهُمُ المَواثِيقَ والجُعْلَ في ذلكَ. وإنما أَخْذُ المَواثِيقِ مِنَ الرُّسُلِ على تَبليغِ الرسالةِ إلى قَومِهِمْ، وأمَرَهُمْ(١٠) بِتأليفِ قُلوبِ الخَلْقِ. وفي أخذِ الجُعْلِ مِنْهُمْ نُفُورُ قُلوبِهِمْ وطِباعِهِمْ عنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآنُ إلّا ذِكْرَى أي عِظَةٌ وزَجْرٌ لِلعالَمينَ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ قِيلَ: نَزَلَتْ سورةُ الأنعامِ في مُحاجَّةِ أهْلِ الشِّرْكِ إلّا آياتٍ نَزَلَتْ في مُحاجَّةِ أهْلِ الكتابِ:

إحداها(١١): هذهِ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ الآية، وذُكِرَ في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ الآية [الزمر: ٦٧] ثم قالَ بَعْضُ أهْلِ التَّأويلِ: ما عَرَفُوا اللهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، وقالَ غيرُهُمْ: ما عَظَّمُوا اللهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ؛ ذَكَرُوا أنَّ هؤلاءِ لم يُعَظِّمُوا اللهَ حَقَّ عَظَمتِهِ، ولا عَرَفوهُ حَقَّ مَعْرِفتِهِ. ومَنْ يَقْدِرُ أنْ يَعْرِفَ [اللهَ](١٢) حَقَّ معرفَتِهِ؟ أو مَنْ يَقدِرُ أنْ يَعْبُدَ اللهَ حَقَّ عِبادَتِهِ؟

وكذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ الملائكةَ يَقولُونَ يومَ القِيامَةِ: يا رَبَّنا ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتِكَ مَعَ ما أَخْبَرَ عنهمْ أنهُمْ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وقالَ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩] فَهُمْ مَعَ هذا كُلِّهِ يَقُولُونَ: ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتِكَ. ومَنْ يَقْدِرُ أنْ يَعْرِفَهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، أو يُعَظِّمَهُ(١٣) حَقَّ عَظَمَتِهِ؟ ولكنَّ تأويلَهُمْ، واللهُ أعلمُ: أي ما عَرَفوا اللهَ حَقَّ المعرفةِ التي تُعرَفُ بالاِسْتِدلالِ، ولا عَظَّموهُ حَقَّ عَظَمتِهِ التي تَعظُمُ بالاِسْتِدلالِ. ألا لا أحَدَ(١٤) يَقْدِرُ أنْ يَعْرِفَ اللهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، ولا يُعَظِّمَهُ(١٥) حَقَّ عَظَمَتِهِ حَقيقَةً!

وهو يَخْرُجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ ولا اتَّقَوْا [اللهَ](١٦) حَقَّ تَقْواهُ مِمّا كُلِّفُوا بِهِ، وأطاقُوهُ، ومِمّا جَرَى الأمْرُ بذلكَ. وإنما تَجري الكُلْفَةُ منهُ على قَدْرِ الطاقَةِ والوُسْعِ، ألا لا يَقْدِرُ أحَدٌ أنْ يُعَظِّمَ رَبَّهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ، ولا اتِّقاهُ(١٧) حَقَّ تَقْواهُ. ولكنْ ما ذَكَرْنا مِمّا جَرَتِ الكُلْفَةُ.

والثاني: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ ولا [اتَّقَوُا اللهَ](١٨) حَقَّ تُقاتِهِ على القَدْرِ الذي يَعْمَلُونَ لأنفُسِهِمْ؛ أي لَوِ اجْتَهَدُوا في تَقْواهُ وتَعْظِيمِهِ(١٩) القَدْرَ الذي لو كانَ ذلكَ العَمَلُ لَهُمْ، فَيَجْتَهِدُونَ، ويَبْلُغُ جَهْدُهُمْ ذلكَ [لَكانوا مُتَّقِينَ](٢٠).

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: التارك. (٣) في الأصل وم: هناك. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: أخبر وذلك. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: العباد. (٩) في الأصل وم: يعرضون. (١٠) في الأصل وم: وأمروا. (١١) في الأصل وم: أحدها. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يعظموه. (١٤) من م، في الأصل: حد. (١٥) في الأصل وم: عظمه. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: اتقى. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) في الأصل وم: عظمته. (٢٠) في الأصل وم: فقد اتقوا.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ لو كانَ هؤلاءِ في الحَقيقةِ أهلَ الكتابِ ما أنكَروا الرُّسُلَ ولا الكُتُبَ لأنّ أهلَ الكِتابِ يُؤمِنونَ ببَعضِ الرُّسُلِ وببَعضِ الكُتُبِ، وإنْ كانُوا يكْفُرُونَ بِبَعْضٍ. لكنْ أنكَرُوا الرُّسُلَ لِما كانُوا أهلَ نِفاقٍ. ويكونُ مِنَ اليَهودِ أهلُ نِفاقٍ كما يكُونُ مِنْ أهلِ الإسلامِ. كانُوا يُظهِرُونَ المُوافَقَةَ لَهُمْ، ويُضمِرونَ الخِلافَ لَهُمْ والمُوالاةَ لأهلِ الشِّرْكِ، ويُظاهِرُونَ عليهِمْ كما كانَ يَفعَلُ ذلكَ مُنافِقُو أهلِ الإسلامِ؛ كانُوا يُظهِرونَ المُوافَقَةَ لِرَسولِ اللهِ ﷺ ويُضمِرُونَ الخِلافَ لهُ، ويُظاهِرُونَ المُشرِكينَ عليهِ. فأطْلَعَ اللهُ رسولَهُ على نِفاقِهِمْ لِيَعْلَمَ قومُهُمْ خِلافَهُمْ، وأنّ ما كانَ مِنْ تحريفِ الأحكامِ وتَغْييرِها وكِتْمانِ بَعْثِ[1] محمدٍ [عليهِ أفضلُ الصلواتِ][2] وصِفَتِهِ إنما كانَ مِنْ هؤلاءِ.

وذُكِرَ في بَعْضِ القِصّةِ أنها نزلَتْ في شأنِ مالِكِ بْنِ الصَّيْفِ، وكانَ سَمِيناً، فَدَخَلَ على رسولِ اللهِ ﷺ يوماً فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: هل تَجِدُ في التَّوراةِ أنّ اللهَ يَبْغُضُ كُلَّ حَبْرٍ سَمِينٍ، فقالَ: نعم، فقالَ لهُ النَّبيُّ ﷺ فأنتَ حَبْرٌ سَمِينٌ يَبْغُضُكَ اللهُ، فَغَضِبَ، فقالَ: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ﴾ أنكَرَ الرسُلَ والكُتُبَ جميعاً، فَأَكْذَبَهُ بِهِ تعالى، وأظهَرَ نِفاقَهُ عندَ قومِهِ. فـقـالَ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ قـيـلَ ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ يَعْني صُحُفاً، ثم تَكْتُبُونَهُ[3] في الصُّحُفِ، ثم تُنْكِرونَ أنهُ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ أي فالذي كُنْتُمْ كَتَبْتُمُوهُ: أنْ لم يُنْزِلِ ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾/ ١٥٥ - أ/ [تَكْتُبُونَ ما تُظْهِرُونَ][4] في الصُّحُفِ ما لَيْسَ فيهِ صِفَةُ رسولِ اللهِ[وبَعْثُهُ][5] ﷺ [وتُخْفُونَ ما فيهِ صِفَتُهُ وبَعْثُهُ][6]، وتُغَيِّرُونَ. وقيلَ: ﴿تُبْدُونَهَا﴾ أي تُظهِرونَ قراءَتَها ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ مِمّا فيهِ بَعْثُهُ[7] ﷺ][8]، وما[9] فيهِ مِنَ الأحكامِ التي لا تَطيبُ فيها أنْفُسُهُمْ مِنْ أمرِ الرَّجْمِ والقِصاصِ وغَيرِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ سَمّى ﷺ جميعَ كُتُبِهِ ﴿نُورًا وَهُدًى﴾ وهو نورٌ مِنَ الظُّلُماتِ؛ أي يَرْفَعُ الشُّبُهاتِ، ويُجَلِّيها، وهُدًى مِنَ الضَّلالاتِ أي بَياناً ودليلاً مِنَ الحَيرةِ والهَلاكِ، وباللهِ العِصْمَةُ والنَّجاةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ قالَ مُجاهِدٌ: الآيةُ في المُسلِمِينَ؛ يقولُ: عُلِّمُوا ما لم يَعْلَمُوا ولا آباؤُهُمْ. وقالَ الحَسَنُ: الآيةُ في الكَفَرَةِ؛ أي ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ مِنْ تَحْريفِ أُولئكَ الكُتّابِ وتَغْييرِهِمْ إيّاهُ. وقيلَ: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا﴾ في التَّوراةِ ﴿لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ﴾ يَعْلَمُهُ ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾.

ثم قالَ: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا﴾؟ يا محمدُ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أنزَلَهُ على مُوسى. وقيلَ: صِلَةُ قولِهِ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا﴾؟ قُلْ: يا محمدُ ﴿ٱللَّهُ﴾ ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ قالَ: قُلْ يا محمدُ اللهُ عَلَّمَكُمْ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ﷺ سَحَرَهُمْ حتى قالُوا ذلكَ، فكانَ ذلكَ حُجّةً عليهِمْ.

[وقولُهُ][10] تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وَجْهَينِ:

أحَدُهُما][11]: ﴿ذَرْهُمْ﴾ ولا تُكافِئْهُمْ بِصَنيعِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣].

والثاني: أنهُ قد أقامَ عليهِمُ الحُجَجَ، وظَهَرَتْ عِندَهُمُ البَراهِينُ، لكِنَّهُمْ كابَرُوا، وعانَدُوا، فأمَرَهُ أنْ يَذَرَهُمْ، ولا يُقيمَ عليهِمُ الآياتِ والحُجَجَ بَعْدَ ذلكَ. ولكنْ تدعُوهُمْ إلى التَّوحيدِ، لا تَذَرْ دعاءَهُمْ إلى التَّوحيدِ، ولكنْ [عليكَ أنْ][12] تَذَرَهُمْ، ولا تُقيمَ عليهِمُ الحُجَجَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى خَوْضِهِمْ﴾ أي في باطِلِهِمْ وتَكْذيبِهِمْ ﴿يَعْمَهُونَ﴾.

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ قِيلَ: القرآنُ ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ سَمّاهُ مَرّةً مُباركاً، ومَرّةً هُدًى ورَحْمَةً، ومَرّةً شِفاءً، ومَجيداً، وكَريماً، وحَكيماً. ولَيسَ يُوصَفُ هو في الحَقيقةِ بِـ: نُورٍ ولا مُبارَكٍ ولا رَحْمَةٍ ولا هُدًى ولا

(١) في الأصل وم: نعت. (٢) في م: ﷺ. (٣) في الأصل وم: كتبتموه. (٤) في الأصل و م: يقولون يظهرون ما. (٥) في م: ونعته، ساقطة من الأصل. (٦) في م: ونعته. (٧) في م: نعته. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: أي ما. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في م: وجهين يحتمل، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

شفاءٍ، ولا مَجيدٍ ولا كَريمٍ ولا حَكيمٍ لأنه صِفَةٌ، ولا يكونُ لِلصِّفَةِ صِفَةٌ تُوصَفُ بها، ولو كانَ هو في الحَقيقَةِ نوراً ورَحْمَةً وهُدًى أو ما ذَكَرَ.

فلمّا ذَكَرَ أنهُ ﴿عَمًى﴾ على بَعْضٍ(١)، وأخبَرَ أنهُ يَزيدُهُمْ(٢) بذلكَ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ، دلَّ أنهُ لَيسَ هو في الحَقيقَةِ كذلكَ، لأنهُ لو كانَ كذلكَ لَكانَ لِكُلِّ أحدٍ. لكنْ سَمّاهُ بهذِهِ الأسماءِ؛ سَمّاهُ نوراً لِما يَصيرُ نُوراً لِلْمُسْتَرْشِدِينَ، ويُصيرُ شِفاءً ورَحْمَةً لِلْمُتَّقِينَ(٣) لِيَشْفُوا الداءَ الذي يَحُلُّ في الدينِ، وسَمّاهُ روحاً لِما يُحْيِي بهِ الدينَ، وسَمّاهُ حَكيماً لِما يَصيرُ مَنْ عَرَفَ بَواطِنَهُ، واتَّبَعَهُ، حَكيماً. وكذلكَ سَمّاهُ مَجيداً كريماً لِما يَدْعُو الخَلْقَ إلى المَجدِ والكَرَمِ؛ فَمَنِ اتَّبَعَهُ تَخَلَّقَ بأخلاقٍ حَميدَةٍ، فَيَصيرُ مَجيداً كَريماً. وسَمّاهُ مُبارَكاً لِما بهِ تُنالُ كُلُّ بَرَكَةٍ، والبَرَكَةُ اسْمٌ لِكُلِّ ما يُثْمِرُ، ويَنْمُو في الحادِثِ؛ فَمَنِ اتَّبَعَهُ نالَ بهِ كُلَّ بِرٍّ وخَيرٍ وكُلَّ ثَمَرَةٍ، ونَما في الحادِثِ. هذا وجهُ الوَصْفِ بما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِنَ الكُتُبِ لأنهُ كانَ يَدْعُو الخَلْقَ إلى ما كانَتْ تَدعُو سائِرُ الكُتُبِ التي أنزَلَها [اللهُ](٤) على الرسلِ مِنْ تَوحيدِ اللهِ والنَّهيِ عنْ إشراكِ غَيرِهِ في الألُوهِيَّةِ والرُّبُوبِيَّةِ، وتَدْعُو إلى كُلِّ عَدْلٍ وإحسانٍ، وتَنْهَى عن كُلِّ فاحِشَةٍ ومُنْكَرٍ. وكذلكَ سائِرُ الكُتُبِ دَعَتِ الخَلْقَ إلى دُعاءِ هذا؛ لم يُخالِفْ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، بل كانَتْ مُوافِقَةً بَعْضُها البَعْضَ. لِذلكَ قالَ: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [واللهُ أعلَمُ](٥).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قِيلَ(٦): أمُّ القُرَى مَكَّةُ، وسُمِّيَتْ أمَّ القُرَى لِوَجْهَينِ:

أحَدُهما: لأنها مُتَقَدِّمَةٌ، ومنها دُحِيَتِ الأرضُ على ما ذَكَرَ أهْلُ التَّأويلِ.

والثاني: سُمِّيَتْ أُمَّ القُرَى لأنها مَقْصِدُ الخَلْقِ في الحَجِّ؛ وفيها تُقْضَى(٧) المَناسِكُ، وإليها يَقْصِدُونَ، ويَؤُمُّونَ، وإليها يَتَوَجَّهونَ في الصَّلَواتِ. وهي مَقْصِدُ أهْلِ القُرَى. وقولُهُ ﷺ ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي أهلَ أمِّ القُرَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ فإنْ قيلَ: أخبَرَ أنَّ مَنْ آمَنَ بالبَعْثِ يُؤْمِنُ بهذا الكتابِ، وأهلُ الكتابِ يُؤْمِنُونَ بالبَعْثِ، ولا يؤمِنُونَ بهِ، فَما مَعْناهُ؟ قيلَ: يَحْتَمِلُ هذا وُجوهاً:

أحَدُها: أنْ يكونَ هذا مِنْ قَومٍ مَخْصُوصِينَ؛ إذا آمَنُوا بالبَعْثِ آمَنُوا به كقولِهِ تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦ ويس: ١٠] هذا مِنْ قَومٍ مَخْصوصِينَ، لأنهُ قد آمَنَ كَثيرٌ مِنهُمْ بالإنذارِ. فعلى ذلكَ الأوَّلُ.

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ بالعِلْمِ والحُجَجِ آمَنُوا بالقرآنِ لأنَّ القرآنَ جاءَ في تَأْييدِ حُجَجِ البَعْثِ وتَأكِيدِهِ فلا يَجوزُ أنْ يُؤْمِنُوا بما يُؤَيِّدُهُ القُرآنُ، ولا يُؤْمِنُوا بالقُرآنِ.

والثالثُ: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ إخباراً عنْ أوائِلِهِمْ أنهُمْ كانُوا مُؤْمِنِينَ بالبَعْثِ بالآياتِ والحُجَجِ راغِبِينَ فيهِ. فلما جاءَ آمَنُوا بهِ، وأمكَنَ أنْ تكونَ الآيَةُ في المؤمنِينَ [لأنهُ](٨) أخبَرَ أنهُمْ آمَنُوا بالآخِرَةِ، وآمَنُوا بالقرآنِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؟

ويَحْتَمِلُ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ يَحِقُّ لَهُمْ أنْ يُؤْمِنُوا بالقرآنِ لأنهُ بِهِ يُتَزَوَّدُ للآخِرَةِ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنَ الوُجوهِ.

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ هذا في الظاهِرِ اسْتِفْهامٌ وسُؤالٌ لم يُذْكَرْ لهُ جوابٌ. لكنَّ أهْلَ التَّأويلِ فَسَّرُوا، فَقالُوا: لا أحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وهذا جوابٌ لهُ، هو تَفْسِيرُهُ. لكنْ تَرَكَ ذِكْرَ الجوابِ لِمَعْرِفَةِ أهلِ الخِطابِ بِهِ، وقد يكونُ(٩) الجوابَ لِمَعْرِفَةِ أهْلِهِ بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أكثَرُهُمْ قد ظَلَمُوا، أو كُلُّهُمْ قد ظَلَمُوا. لكنْ كأنَّهُ قالَ: لا أحَدَ أفْحَشُ ظُلْماً مِمَّنِ افْتَرَى على اللهِ لأنهُ يَتَقَلَّبُ في أنْعُمِ اللهِ في لَيلِهِ ونَهارِهِ وإحْسانِهِ فهو أفْحَشُ ظُلْماً، وأوحَشُ كَذِباً.

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]. (٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]، في الأصل و م: يزداد. (٣) من م، في الأصل للمتبعين. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وقيل. (٧) من م، في الأصل تقتضى. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يقول.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ في الآيَةِ دَلالَةُ أنَّ نافِيَ الرسالةِ عَمَّنْ لهُ الرسالَةُ في الإفْتِراءِ على اللهِ والكذبِ كَمُدَّعِي الرسالَةِ لِنَفْسِهِ، ولَيستْ لهُ الرسالَةُ. سَواءٌ كلاهُما مُفْتَرٍ على اللهِ كَذِباً. وكذلكَ مَنِ ادَّعى أنهُ يُنْزِلُ مِثْلَ ما أنْزَلَ اللهُ، أو مَنِ ادَّعى أنَّهُ لم يُنْزِلِ اللهُ شيئاً، فهو في الإفْتِراءِ على اللهِ كالذي ادَّعى أنهُ يُنْزِلُ مِثْلَ ما أنْزَلَ اللهُ: النافي والمُدَّعي في ذلكَ سَواءٌ شَرْعاً. فَعَلى ذلكَ يكونُ نافي[1] الشَّيءِ ومُثْبِتُهُ في إقامةِ الحُجَّةِ والدَّليلِ سَواءً، واللهُ أعلَمُ.

وذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ نَزَلَ في مُسَيلِمَةَ الكَذّابِ، ونَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في عبدِ اللهِ بْنِ سَعْدِ[2] بْنِ أبي سَرْحٍ. لكنْ لَيسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ هذا حاجَةٌ؛ هُمْ وغَيرُهُمْ ومَنِ ادَّعى، وافْتَرى على اللهِ كَذِباً، سَواءٌ في الوعيدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ادَّعى بَعْضُهُمْ أنهُمْ يَقولُونَ مثلَ ما قالَ اللهُ إنكاراً مِنْهُمْ لهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ عن ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][3] قالَ: قولُهُ تعالى: ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ سَكَراتُهُ وغَشَياتُهُ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ يَقولُ مَلَكُ الموتِ وأعوانُهُ الذينَ مَعَهُ مِنْ ملائكةِ العذابِ ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ يقولُ: ضاربُو ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ أنْفُسَهُمْ؛ يَقولُونَ لَها: اخرُجي؛ يَعْني الأرواحَ؛ وهو قولُهُ تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ وهو عندَ الموتِ. وكذلكَ يَقولُ قَتادَةُ.

وقالَ الحَسَنُ: ذلكَ في النارِ في الآخِرَةِ: ضَرْبُ الوُجوهِ والأدْبارِ[4].

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي كَثْرَةِ العَذابِ وشِدَّتِهِ؛ يُقالُ لِلشَّيءِ الكَثيرِ الغَمْرُ، وهو كَقولِهِ تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ / ١٥٥ ـ ب/[إبراهيم: ١٧] أي أسبابُ الموتِ. ولو كانَ هناكَ مَوتٌ يَموتُ لِشِدَّةِ العذابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ بِضَرْبِ الوجوهِ والأدبارِ ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ على حَقيقَةِ الخُروجِ منها كقولِهِ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] والأوَّلُ لَيسَ على حَقيقَةِ الخُروجِ، ولكنْ كما يُقالُ عندَ نُزولِ الشَّدائِدِ: أخرِجْ نَفْسَكَ. وقالَ مُجاهِدٌ: هذا في القِتالِ بِضَرْبِ الملائكةِ وجوهَهُمْ وأدبارَهُمْ، يَعْني الأسْتاهَ. ولكنهُ يكونُ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ وقتادَةَ، عندَ الموتِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: غَمَراتُ الموتِ: سَكَراتُهُ وشَدائِدُهُ، والغَمْرُ هو الماءُ الكثيرُ، والغِمْرُ الحِقْدُ والغُمْرُ الذي لم يُجَرِّبِ الأمورَ، والغَمَرُ الدَّسَمُ، والغُمَرُ القَدَحُ الصَّغيرُ مِنَ الخَشَبِ، وغَمْرَةُ الحَرْبِ وَسَطُها.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ قيلَ: عذابُ الهُونِ لا رَأفَةَ فيهِ، ولا رَحْمَةَ، أي الشَّدائِدُ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ بأنَّ مَعَهُ شَريكاً وآلِهَةً ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أنهُ لم يُنْزِلْ شَيئاً، ولم يُوحِ إليهِ بِشَيءٍ، وإنما أوحَى إليهِ، وغَيرُ ذلكَ مِنَ الإفْتِراءِ الذي ذَكَرُوا، وباللهِ العِصْمَةُ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يَحْتَمِلُ هذا، واللهُ أعلَمُ، وُجوهاً:

[أحدُها:][5] أي أعَدْناكُمْ، وبَعَثْناكُمْ فُرادَى بِلا مُعِينٍ ولا ناصرٍ ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بِلا مُعينٍ ولا ناصِرٍ.

والثاني: أُعيدُكُمْ وأبْعَثُكُمْ فُرادَى بِلا أعوانٍ ولا شُفَعاءَ يَشْفَعُونَ لكُمْ، ويُعِينُ[6] بَعْضُكُمْ بَعْضاً، كما خَلَقْناكُمْ في الإبْتِداءِ لم يَكُنْ لَكُمْ شُفَعاءُ ولا أعْوانٌ.

وقيلَ[7]: يَبْعَثُكُمْ، ويُعِيدُكُمْ بِلا مالٍ ولا شَيءٍ مِنَ الدُّنياوِيَّةِ كما خَلَقَكُمْ في الإبْتِداءِ، ولم يَكُنْ لَكُمْ مالٌ ولا شَيءٌ مِنَ الدُّنياوِيَّةِ.

---

(١) في الأصل و م: في. (٢) في الأصل و م: مسعود. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠ ومحمد: ٢٧]. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) الواو ساقطة من الأصل و م. (٧) هذا هو الوجه الثالث.

جنة السنة

وجائزٌ[١] أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ لَيسَ معَكُمْ ما تفتخِرونَ بِهِ مِنَ الخدَمِ والأموالِ والقراباتِ التي افتخرْتُمْ في الدنيا ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وجائزٌ[٢] أنْ [يكونَ][٣] قولُهُ ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مُنفصِلاً [عنْ][٤] قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ فيكونُ[٥] جوابَ سؤالٍ: أنْ كيفَ نُبعَثُ[٦]؟ فقالَ: تُبعَثونَ[٧] كما خلقْناكُمْ أوَّلَ مرَّةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ يَحتمِلُ [وَجهَينِ:

أحدُهما:][٨] تَركتُمْ ﴿مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ولا تَلتفِتونَ إليهِ، ولا تَنظُرونَ، كالمَنبوذِ وراءَ ظُهورِكُمْ. إنما نَظَرُكُمْ إلى أعمالِكُمْ التي قَدَّمْتُموها.

والثاني: لم تُقدِّموا ﴿مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ ولم تَنتفِعوا منهُ، بل تَركْتُموهُ[٩] ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ لا تنتفِعونَ[١٠]. إنما منفَعَتُكُمْ ما قَدَّمْتُموهُ، وأنفقْتُمْ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ قيلَ: أعطيناكُمْ، وقيلَ: رزقْناكُمْ، وقيلَ: مكَّنّاكُمْ، وهو واحِدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ إنهم كانوا يَجعلونَ للهِ شُركاءَ في عبادتِهِ وألوهيّتِهِ، ويقولونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ويقولونَ ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ للهِ في عِبادتِكُمْ، وزعمْتُمْ أنهمْ شُفعاؤُكُمْ عندَ اللهِ، بل شُغِلوا هُمْ بأنفُسِهِمْ؛ يُخبِرُ عَنْ سَفَهِهِمْ وقِلّةِ نَظَرِهِمْ مِنهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قُرِئ بالرَّفعِ والنَّصبِ جميعاً[١١]؛ فَمَنْ قرأَ بالرَّفعِ يقولُ: لقد تقطَّعَ تواصُلُكُمْ، ومَنْ قرأَ بالنَّصبِ يقولُ: لقد تقطَّعَ ما كانَ بَيْنَكُمْ مِنَ التَّواصُلِ وتعاوُنِ بَعضِكُمْ[١٢] بَعضاً في هذهِ الدنيا؛ إنهُمْ كانُوا يَتعارَفونَ، ويَتناصَرونَ[١٣].

يُخبِرُ أنَّ ذلكَ كُلَّهُ يَنقطِعُ في الآخِرةِ، ويَصيرُ بَعضُهُمْ أعداءً لِبَعضٍ، ويَتبَرَّأُ بَعضُهُمْ مِنْ بَعضٍ كقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦] وكقولِهِ تعالى ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] وكقولِهِ تعالى: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ الآية [مريم: ٨٢] يَصيرُ المَعْبُودونَ أعداءً لِلْمَعْبودينَ، وتَصيرُ الوُصْلةُ والمَوَدّةُ التي في ما بَيْنَهُمْ في هذهِ الدنيا عَداوةً، والرَّحِمُ والقَرابةُ [التي كانَتْ بَيْنَهُمْ مُنقطِعةً][١٤] حتى يَفِرَّ بَعضُهُمْ مِنْ بَعضٍ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ و٣٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي ذَهَبَ عنكُمْ، وبَطَلَ ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهُمْ شُفَعاؤُكُمْ عندَ اللهِ، وباللهِ العِصْمةُ والنَّجاةُ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ قيلَ: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] وكقولِهِ تعالى: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١] أي خلَقَكُمْ؛ يُخبِرُ أنهُ ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ خصَّ الحَبَّ [والنَّوى][١٥] بالذِّكرِ لِما مِنهُما خلَقَ جميعَ ما في الدنيا مِنَ الأنزالِ والحُبوبِ كقولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] منهُ ما خَلَقَ ما في الدنيا مِنَ البَشَرِ، فأضافَ ذلكَ إليهِ. فَعَلى ذلكَ لِما خَلَقَ هذهِ الأنزالَ كُلَّها مِنَ الحَبِّ والنَّوى، ومِنهُما[١٦] أخرَجَ، أضافَ إليهِ[١٧] ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) هذا هو الوجه الرابع. (٢) هذا هو الوجه الخامس. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لكن. (٦) في الأصل وم: يبعثون. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: تركتم. (١٠) في الأصل وم: تنتفعوا. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٢٩٦. (١٢) في الأصل وم: بعضهم. (١٣) أدرج بعدها في الأصل وم: بعضهم بعضاً. (١٤) في الأصل وم: الذي مات بينهم منقطعاً. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) من م، في الأصل: ومنها. (١٧) في الأصل وم: إليهما.

جنة السنة

ويَحتَمِلُ لَيسَ بإخبارٍ عنِ ابْتِداءِ إنْشاءٍ، ولكنْ إخبارٌ عنْ لُطفِهِ [وقُدرَتِهِ][1]. والفَلَقُ هو الشَّقُّ. يُخبرُ أنهُ يَشقُّ النواةَ مع شدَّتِها وصلابَتِها، ويُخرِجُ منها نبْتاً أخضرَ ليِّناً ما لوِ اجتَمَعَ كلُّ الخلائقِ على إنفاذِهِ وإخراجِ مِثْلِهِ من غيرِ أذىً يُصيبُ ذلكَ النَّبتَ ما قَدَروا عليهِ؛ يُخبِرُ عنْ لُطفِهِ وقُدرتِهِ. أي مَنْ قَدَرَ على هذا [فهو قادرٌ][2] على إعادةِ الخَلْقِ وبَعْثِهِمْ بَعْدَ إماتَتِهِمْ وإفنائِهِمْ، وإنْ لم يَبْقَ لَهُمْ أثرٌ، ما قَدَرَ على هذا؛ يُعرِّفُهُمْ قُدرَتَهُ أنها غيرُ مُقدَّرةٍ بِقُدرَةِ الخَلْقِ وبِقُوَّتِهِمْ، بل خارجَةٌ عن قُوَّتِهِمْ لأنَّ قُوَّتَهُ وقُدرَتَهُ ذاتيَّةٌ أزَليَّةٌ بلا سَبَبٍ، وقُوَّتَهُمْ وقُدرتَهُمْ بأسبابٍ. وكذلكَ ما يَشقُّ مِنَ الوَرَقِ الضَّعيفِ اللَّيِّنِ [مِنَ][3] الشَّجَرِ والنَّخْلِ مع شِدَّتِهِ وصَلابَتِهِ ما لَوِ اجْتَمَعَ الخَلائِقُ كُلُّهُمْ على شَقِّ ذلكَ الشَّجَرِ بذلكَ الوَرَقِ مَعَ لِينِهِ ما قَدَرُوا عليهِ؛ يُعَرِّفُهُمْ لُطفَهُ وقُدرَتَهُ أنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

وفيهِ أنَّ ذلكَ فِعْلُ واحدٍ لأنهُ لو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ لَكانَ إذا أرادَ هذا شَقَّهُ مَنَعَ الآخَرَ عن ذلكَ. وفيهِ أنهُ على تَدْبيرٍ خَرَجَ لا جُزافاً حِينَ[4] اتَّفَقَ ذلكَ في كُلِّ عامٍ على قَدْرٍ واحدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ إنَّ الحَبَّ والنَّوَى التي ذَكَرَ مَيِّتٌ يُخرِجُ[5] منها النَّباتَ الأخضَرَ حيّاً، ثم يُميتُ ذلكَ، ويُخرِجُ منهُ حَبّاً ونَوًى[6]. وفيهِ دَلالَةُ البَعْثِ بَعْدَ الموتِ؛ يَقولُ: إنَّ الذي قَدَرَ على إخراجِ النَّباتِ الأخضرِ الحَيِّ من حَبَّةٍ مَيْتَةٍ ونَواةٍ مَيْتَةٍ، ولَيْسَ فيها مِن أثَرِ ذلكَ الحَيِّ شَيءٌ، لَقادرٌ أنْ يَبْعَثَهُمْ، ويُحْيِيَهُمْ بَعْدَ المَوْتِ، وإنْ لم يَبْقَ مِنْ أثَرِ الحَياةِ شَيءٌ. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ في غَيرِ مَوْضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي ذلِكُمُ الذي يَفْعَلُ ذلكَ؛ هو اللهُ تعالى، لا الأصنامُ التي تَعْبُدُونها، وأشرَكْتُمْ في عِبادَتِكُمُ اللهَ[7] وألوهيَّتِهِ. أيُّ حُجَّةٍ تَصْرِفُكُمْ عَمّا ذَكَرَ؟ أيُّ حُجَّةٍ لَكُمْ في صَرْفِ الأُلوهيَّةِ عنهُ إلى غَيرِهِ وفي[8] صَرْفِ العِبادَةِ إلى الأصنامِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ قيلَ: فأنَّى تُصْرَفُونَ عَمّا ذَكَرَ مِنْ دَلالاتِ وَحْدانيَّتِهِ وأُلوهيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ. والإفكُ هو الصَّرْفُ في اللُّغَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢] أي[9] لِتَصْرِفَنا. وقيلَ: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ تُكَذِّبُونَ؛ أي ما الذي حَمَلَكُمْ على الكَذِبِ؟ والكَذِبُ والصَّرْفُ واحِدٌ في الحَقيقَةِ، لأنَّ الكَذِبَ هو صَرْفُ قولِ الحَقِّ إلى الباطِلِ، وهما واحِدٌ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ هو يَحْتَمِلُ الوجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْتُهُما في قولِهِ تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [يَحْتَمِلُ الإخبارَ][10] مِن ابتداءِ خَلْقِهِ، ويَحْتَمِلُ الشَّقَّ أي يَشُقُّ النَّهارَ مِنَ اللَّيلِ واللَّيلَ مِنَ النَّهارِ بَعْدَ ما تَلَفَ كلُّ واحدٍ منهُما، ولَمْ[11] يَبْقَ لهُ أثَرٌ. ففيهِ دليلُ البَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ المَوتِ؛ أي إنَّ الذي قَدَرَ على إنشاءِ النَّهارِ مِنَ اللَّيلِ واللَّيلِ مِنَ النَّهارِ بَعْدَ ما تَلَفَ، وذهَبَ أثَرُهُ لَقادِرٌ على إنشاءِ الخَلْقِ وبَعْثِهِمْ بَعْدَ المَوتِ وذَهابِ آثارِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ وراحَةً لِلخَلْقِ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١] لَهُمْ يَعيشُونَ فيهِ، وجَعَلَهُما آيَتَينِ مِنْ آياتِ رُبوبيَّتِهِ وَوَحدانيَّتِهِ مُسَخَّرَينِ يَغْلِبانِ الخلائِقَ، ويَقْهَرانِهِمْ، ويَكونُونَ / ١٥٦ - أ/ تَحْتَ سُلطانِهِما، ويَجْرِيانِ على سَنَنٍ واحِدٍ أنَّ لهما مُدَبِّراً خالِقاً عليهِما، ولو كانا يَجْرِيانِ بِطِباعِهِما لَكانَ يَخْتَلِفُ جَرَيانُهُما، [ولو لم يَتَّسِقْ عَدْلُ اتِّساقِهِما وجَرَيانِهِما][12] مَجْرًى واحداً لَكانَ[13] لِغَيْرِ فيهما تدبيرٌ[14]. وكذلكَ الشَّمْسُ والقَمَرُ جَعَلَهُما مُسَخَّرَينِ لِمَنافِعِ الخَلْقِ لِنُضْجِ الأنزالِ ويَنْعِها ولِمَعْرِفَةِ عَدَدِ الأيّامِ والشُّهورِ والسِّنينَ، ويَجْرِيانِ مَجْرًى واحداً ومَسْلَكاً واحداً غيرَ مُخْتَلِفٍ؛ دلَّ ذلكَ أنهما كانا بِمُدَبِّرٍ عَليمٍ حَكيمٍ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ دلالَةُ نَقْضِ المُعْتَزِلَةِ لأنَّ الإصباحَ هو فِعْلُ الخَلْقِ لأنهُ مَصْدَرُ أصْبَحَ، وكذلكَ السَّكَنُ هو فِعْلُ الخَلْقِ، ثم أضافَ ذلكَ كُلَّهُ إلى نَفْسِهِ، دلَّ أنهُ خالقُ أفعالِهِمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: لقادر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: فيخرج. (٦) في الأصل وم: والنواة. (٧) في الأصل وم: لله. (٨) في الأصل وم: ولا. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: خبر. (١١) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: أن. (١٤) في الأصل وم: تدبيراً.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ اختُلِفَ فيه: قالَ أبو عُبيدٍ: هو مِنَ الحِسابِ، وهو حِسابٌ وحُسْبانٌ مِثلُ شِهابٍ وشُهْبانٍ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقيلَ: ﴿حُسْبَانًا﴾ أي جَرياناً يَجْرِيانِ، ويَدُورانِ أبداً، لا يَسْتَرِيحانِ؛ دلَّ أنهما كانا [لَيسا][1] بِغَيرِ مُسَخَّرَينِ لِلخَلْقِ لأنهما لو كانا بِطِباعِهِما لكانا يَسْتَرِيحانِ، وقيلَ: ﴿حُسْبَانًا﴾ أي ضِياءً كقولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥] واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي ذلكَ الجَرَيانُ الذي ذَكَرَ، وتلكَ المنافِعُ التي جُعِلَتْ فيهما ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ هو الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، و﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ هو الذي يُعِزُّ كلَّ عَزيزٍ. وقالَ بَعْضُ أهلِ التَّأويلِ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ المَنيعُ في سُلْطانِهِ المُنْتَقِمُ مِنْ أعدائِهِ ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بمصالِحِ الخَلْقِ وبما كانَ، ويكونُ، وبِحوائِجِهِمْ، وباللهِ التَّوفيقُ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ والمُرادُ منهُ الظُّلماتُ. وذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣] وأرادَ بالظلماتِ الشدائدَ والأهوالَ التي تُصيبُهُمْ. ألا تَرى أنه قالَ ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾؟ [الأنعام: ٦٣] عندَ الشَّدائِدِ والأهوالِ كانُوا يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣] على ما ذَكَرَهُمْ هَهنا عَظيمَ سُلْطانِهِ وقُدْرتِهِ لِما يَدْفَعُ عَنْهُمُ الشَّدائدَ والأهوالَ التي تَنْزِلُ بِهِمْ. إنما[2] الدافِعُ عَنْهُمْ ذلكَ لا هؤلاءِ الأصنامُ التي يَعْبُدُونَ دُونَ اللهِ، ويُشْرِكُونَها في عِبادَتِهِ.

ويَذْكُرُ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ عَظِيمَ ما أنْعَمَ عليهِمْ بما جَعَلَ لَهُمْ في السماءِ نُجوماً لِيَهْتَدُوا بها لِلطُّرُقِ والمَسالِكِ في البِحارِ والبَراري عندَ اشْتِباهِها عليهِمْ.

وفيهِ دَليلُ وَحْدانِيَّةِ الرَّبِّ وتَدْبيرِهِ وحِكْمَتِهِ لأنهُ جَعَلَ في السَّماءِ أدِلَّةً يَهْتَدُونَ بها، ويَسْتَدِلُّونَ على مَعْرِفَةِ الطُّرُقِ مع بُعْدِ ما بَيْنَهُما مِنَ المَسافَةِ، وتَسْوِيَةِ أسْبابِ الأرضِ بأسبابِ السَّماءِ، وتَعَلُّقِ مَنافِعِ بَعْضِها بِبَعْضٍ لِيَعْلَمُوا أنهُ كانَ بِواحِدٍ مُدَبِّرٍ عَليمٍ حَكيمٍ؛ إذْ لو كانَ بِعَدَدٍ أو بِمَنْ لا تَدْبيرَ لهُ [ولا][3] حِكْمَةَ لا يَحْتَمِلُ ذلكَ، ولم يَتَّسِقْ ما ذَكَرْنا. دلَّ أنهُ بالواحِدِ العَليمِ الحَكيمِ مَعَ عِلْمِهِمْ أنَّ الأصنامَ التي يَعْبُدُونَها، ويُشْرِكُونَها[4] في عِبادَتِهِ لا تَقْدِرُ[5] على ذلكَ، لكنَّهُمْ يَعْبُدُونَها، ويُشْرِكُونَها في أُلوهِيَّتِهِ سَفَهاً منهُمْ وعِناداً، وباللهِ العِصمةُ والتوفيقُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ وقولِهِ تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ وقولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي ذَكَرَ تذكيرُ نِعَمِهِ وإحسانِهِ إليهِمْ لِيَسْتَأْدِيَ[6] بذلكَ شُكْرَهُ وجَعْلَ السَّعْيِ لَهُ.

وجائزٌ أنْ يُسْتَدَلَّ بِهِ على تَذْكيرِ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ أنَّ مَنْ قَدَرَ على ما ذَكَرَ لا يَحْتَمِلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ. وفيهِ تذكيرُ تَدْبيرِهِ وعِلْمِهِ وحُكْمِهِ على ما ذَكَرْنا مِنِ اتِّساقِ الأمورِ [والأحوالِ على سَنَنٍ][7] واحِدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ قِيلَ: صَرَفْنا الآياتِ أي صَرَفْنا كُلَّ آيةٍ إلى مَوضِعِها الذي يكونُ لَهُمْ دليلاً عندَ الحاجةِ إليها. وقِيلَ: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لِقَومٍ يَنْتَفِعُونَ بِعِلْمِهِمْ؛ فإذا انْتَفَعُوا بها صارَتِ الآياتُ لَهُمْ لأنَّ مَنِ انْتَفَعَ بِشيءٍ يَصيرُ ذلكَ لهُ. لِذلكَ ذَكَرَ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهُمْ[8] إذا [لم يَنْتَفِعُوا بها][9] لم تَصِرِ الآياتُ لَهُمْ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ فيه دَلالةُ أنهُ ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣] مِنْ غَيرِ شَيءٍ؛ لأنهُ أخْبَرَ أنهُ خَلَقَ البَشَرَ كُلَّهُ مِنْ نَفْسٍ واحِدةٍ. والخلائِقُ كُلُّهُمْ لو اجْتَمَعُوا ما [قَدَرُوا على ذلكَ][10]، ولم تَكُنِ الخَلائِقُ بِأجْمَعِهِمْ في تلكَ النَّفْسِ الواحِدَةِ. دلَّ أنهُ قادِرٌ على الابْتِداءِ والإعادَةِ لا مِنْ شَيءٍ؛ إذْ لم يَكُنْ لِتِلْكَ النَّفْسِ التي خَلَقَ الخَلائِقَ منها تَقَدُّمَةُ شَيءٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بما. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وأشركوا. (٥) في الأصل: لا يقتدرون، في م: لا يقدرون. (٦) في الأصل وم: يستادي. (٧) في الأصل وم: والحال على أمر. (٨) من م، في الأصل: أنهم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: احتملت الأرض.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الآخرةِ بِعِلْمِهِ الذي خَتَمَ بِهِ؛ إنْ خَتَمَ بِعَمَلِ الخيرِ يَبْقَ[1] أبداً في الخيرِ، وإنْ خَتَمَ بِشرٍّ يَبْقَ[2] أبداً في الشَّرِّ. ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في أجلِهِ؛ يَنْتَقِلُ مِنْ وَقْتٍ إلى وَقْتٍ ومِنْ حالٍ إلى حالٍ. وقِيلَ: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الدنيا، ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في كلِّ [وَقْتٍ. وكُلُّ حالٍ، هو][3] مُسْتَقَرٌّ في حالِ القِيامِ حتى يَنْتَقِلَ إلى حالٍ أُخرى ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في الآخرةِ بالجَزاءِ لأعمالِهِمُ التي عَمِلُوا ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في الدنيا.

ويَحْتَمِلُ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ باللَّيالي ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في الآخرةِ بالنَّهارِ، والأوَّلُ لِبَني آدَمَ خاصَّةً.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧] وقولُهُ تعالى ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ الفِقْهُ هو مَعْرِفَةُ الشَّيءِ بِمَعْناهُ الدالِّ على نَظيرِهِ. والعِلْمُ ما يُعْرَفُ بِنَفْسِهِ. ولِهذا لا يُقالُ [عَنِ اللهِ][4] فَقيهٌ، ويُقالُ: عالِمٌ لأنهُ عالِمٌ بالأشياءِ بِذاتِهِ لا بِاعْتِبارِها ونَظائِرِها ودَلائِلِها.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يُذَكِّرُهُمْ ﷻ عَظيمَ مِنَّتِهِ بِما يُنْزِلُ مِنَ السماءِ مِنَ الماءِ، ويُخْرِجُ بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيءٍ، كما ذَكَّرَهُمْ مِنَ النِّعَمِ بِما جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الشَّمْسِ والنُّجُومِ ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي﴾ الظُّلُماتِ واشْتِباهِ الطريقِ، وما جَعَلَ اللَّيلَ لِلسُّكُونِ والرَّاحةِ والنَّهارَ لِلمعاشِ والتَّقَلُّبِ، وما جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الشَّمْسِ والقَمَرِ، وجَعَلَ لَهُمْ فيهِما مِنَ المَنافِعِ مِنْ نُضْجِ الأنزالِ والزُّروعِ ويَنْعِها ومَعْرِفَةِ عَدَدِ السِّنِينَ والحِسابِ والآجالِ التي أنْعَمَها عليهِمْ لِئَلا يُوَجِّهُوا شُكْرَ هذهِ النِّعَمِ إلى غيرِهِ، ولا يَتَّخِذوا آلِهَةً[5] سِواهُ.

وقد ذَكَرْنا أنَّ سُورَةَ الأنعامِ نَزَلَ أكْثَرُها في مُحاجَّةِ أهلِ الشِّرْكِ في إثباتِ الوحدانيَّةِ[6] والألوهيَّةِ لِلَّهِ وإثباتِ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ [لِمحمدٍ ﷺ][7] وإثباتِ البَعْثِ بَعْدَ الموتِ لأنهم كانوا يُنْكِرُونَ ذلك كلَّهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ما بالخَلْقِ حاجَةٌ إليهِ لِيُعْلَمَ أنَّ كُلَّ ما يَخْرُجُ في الأرضِ أصْلُهُ مِنَ الماءِ، بِهِ يَنْبُتُ مِمّا يكونُ غِذاءَ البَشَرِ وغِذاءَ الحَيَوانِ كُلِّهِمْ والطُّيورِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠] يُذَكِّرُهُمْ عَظيمَ ما جَعَلَ لَهُمْ في الماءِ مِنَ المَنافِعِ على ما أخْبَرَ أنهُ بِهِ يُخْرِجُ نَباتَ كُلِّ شَيءٍ، وبِهِ حَياةُ كُلِّ شَيءٍ. ثم مِنَ الأوقاتِ ما لو نَزَلَ مِنَ السماءِ ما لم يَنْبُتْ. دَلَّ أنهُ إنما يَنْبُتُ بِتَدْبيرِ غَيرِهِ، لا بالماءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ قِيلَ بِهِ: يَخْرُجُ أوَّلَ ما يَخْرُجُ خَضِراً؛ يكونُ ابْتِداءُ كُلِّ نَبْتٍ أخْضَرَ، ثم يَتَحَوَّلُ إلى لونٍ [آخرَ][8] يُخْبِرُ عنْ لُطْفِهِ وصُنْعِهِ بِما يُخْرِجُ مِنَ الحَبِّ مُتَراكِباً بَعْضُهُ على بَعْضٍ ما لَوِ اجْتَمَعَ الخَلائِقُ كُلُّهُمْ لم يَقْدِرُوا على تَرْكِيبِ مِثْلِهِ لِيَعْلَمُوا أنَّ لِغَيْرٍ في ذلكَ تَدْبيراً وصُنْعاً.

وفيهِ دَلالَةُ أنهُ قد يُنْشِئُ الأشياءَ مِنْ لا شَيءٍ، ولا سَبَبَ، وإنْ كانَ قد أنْشَأَ بَعْضَها بِأسبابٍ نَحْوَ أنْ أخْرَجَ مِنْ ذلكَ النَّباتِ الأخْضَرِ حُبوباً، ولم تَكُنِ الحُبوبُ في النَّباتِ لِيَعْلَمُوا أنهُ قادِرٌ على إنْشاءِ الأشياءِ لا مِنْ شَيءٍ ولا سَبَبٍ.

وفيهِ نَقْضُ قولِ الدَّهْرِيَّةِ في كَوْنِ الأشياءِ في شَيءٍ واحِدٍ، كما هي لا تَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عَشَرَةُ آلافِ نَواةٍ أو حَبَّةٍ في نَواةٍ واحدةٍ، أو تكونَ الشَّجَرَةُ مَعَ طولِها وغِلَظِها وعِظَمِها في نَواةٍ واحِدَةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾ أي يَخْرُجُ مِنَ النَّخْلِ طَلْعُها بالماءِ. وفيهِ مِنْ عظيمِ لُطْفِهِ وتَدْبيرِهِ أنْ جَعَلَ النَّخيلَ والأشجارَ يَتَسَرَّبُ /١٥٦ ـ ب/ بِعُروقِها الماءُ، ثم يَنْتَشِرُ في أصْلِها إلى أغصانِها، ثم يَخْرُجُ مِنْهُ، ويَظْهَرُ خَضِراً لِيُعْلَمَ عظيمُ تَدْبيرِهِ ولُطْفِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ قِيلَ: القِنْوانُ العُذُوقُ، يكونُ فيها الثَّمَرُ والثِّمارُ، واحِدُها قِنْوٌ.

---

(١) في الأصل وم: يبقى. (٢) في الأصل وم: يبقى. (٣) في الأصل: وقت وكل وقت. في م: حال وكل وقت. (٤) في الأصل وم: لله.
(٥) في الأصل و م: إنها. (٦) أدرج بعدها في الأصل و م: له (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿دَانِيَةٌ﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿دَانِيَةٌ﴾ بَعْضُها إلى بَعْضٍ مُجتمِعةٌ غَيْرُ مُتفرِّقَةٍ على ما يكونُ مِنَ الأعنابِ والثَّمرِ والحُبوبِ. فإنْ كانَ هذا فهو في الكُلِّ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿دَانِيَةٌ﴾ قَريبةٌ مُلتزِقَةٌ بالأرضِ، ينالُها[1] القائمُ والقاعِدُ جميعاً. وعنِ ابنِ عباسٍ: ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ قِصارُ النَّخلِ اللاصِقةُ عُذوقُها بالأرض.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي أخرجَ الماءُ جنّاتٍ وكُرومها ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ قيلَ: أخرجَ بالماءِ أيضاً الزَّيتونَ والرُّمّانَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ أي يُشْبِهُ وَرَقُ الزَّيتونِ في النَّظرِ وَرَقَ الرُّمّانِ ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ ثَمَرُهُما[2] في اللَّونِ والطَّعْمِ. ولكنْ هو على الكُلِّ على كُلِّ الثِّمارِ، ولا يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضاً؛ مِنها ما يُشْبِهُ ساقُ هذا بِساقِ آخَرَ، والثِّمارُ والحبوبُ مُخْتَلِفَةٌ[3]، ومِنها ما يُشْبِهُ في اللَّونِ، والطَّعْمُ مُخْتَلِفٌ، ومِنها ما يُشْبِهُ في الطَّعْمِ، واللَّونُ مُختلِفٌ؛ لِيَعْلَموا أنَّ لِغَيْرٍ في ذلكَ تَدْبيراً وصُنْعاً لَطيفاً، لم يكنْ كذلكَ بالماءِ؛ لأنهُ لو كانَ كذلكَ بالماءِ لكانَ لا يَختلِفُ كُلُّ هذا الاِخْتِلافِ في اللَّونِ والطَّعْمِ والسّاقِ والوَرَقِ دلَّ أنهُ كانَ كذلكَ بغَيرٍ: عَليمٍ مُدَبِّرٍ حَكيمٍ؛ أنْشأهُ على ما أرادَ بِلُطْفِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ يَحتمِلُ الأمْرُ بالنَّظرِ [وجهَينِ:

أحَدُهُما][4]: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ كيفَ[5] يُقَلِّبُها، ويُحَوِّلُها مِنْ حالٍ إلى حالٍ ومِنْ لَوْنٍ إلى لَوْنٍ؟

والثاني[6]: أنهُ يَخْرُجُ في ساعةٍ لَطيفةٍ ما لَوِ اجْتَمَعَ الخَلائِقُ على تَقْديرِهِ ومَعْرِفَتِهِ أنْ كَمْ خَرَجَ؟ وأيَّ مِقْدارٍ خَرَجَ؟ لم يَقْدِروا عليهِ؛ لِيَعْلَموا أنه قادِرٌ على إحياءِ الخَلْقِ بِمَرَّةٍ واحدةٍ.

وفي إنزالِ المَطَرِ مِنَ السَّماءِ مَعَ بُعْدِها آيةٌ عَجيبةٌ وحِكْمَةٌ بالِغَةٌ؛ وهو أنْ يُنْزِلَهُ واحداً، لا يَختلِطُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ مَعَ كَثْرَةِ المَطَرِ وازْدِحامِهِ وبُعْدِ السماءِ. ولَوِ اجْتَمَعَ الخَلائِقُ على حِفْظِ مِثْلِهِ ما قَدَروا عليهِ. دَلَّ عليهِ أنهُ كانَ بِمُدَبِّرٍ عَليمٍ حَكيمٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قد ذَكَرْنا أنها تَصيرُ آياتٍ لِمَنْ صَدَّقَ بِها، وآمَنَ. وأمّا مَنْ عانَدَ، وكابَرَ، ولم يَتأمَّلْ فيها، لم يَفْهَمْ ما فيها مِنْ عَجيبِ آياتِهِ وعَظيمِ مِنَنِهِ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ وَجْهانِ آخَرانِ مِنَ الحِكْمَةِ:

[أحَدُهُما][7]: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ أنهُ أوَّلَ ما يَخْرُجُ يَخْرُجُ على لَوْنٍ واحِدٍ وعلى قَدْرٍ واحِدٍ وعلى طَعْمٍ واحِدٍ، ثم تَختلِفُ ألوانُها وطُعومُها[8]، وتَتفاوَتُ أقدارُها لِيَعْلَموا أنهُ كانَ بِتَدْبيرِ واحِدٍ عَليمٍ حَكيمٍ قادِرٍ على خَلْقِ الأشياءِ بلا سَبَبٍ؛ لأنهُ لو كانَ كذلكَ بِسَبَبٍ، لا بِتَدْبيرٍ فيهِ، كانَ سَبَبُ هذا كُلِّهِ واحداً، فَيَجيءُ أنْ يَخْرُجَ كُلُّهُ على سَنَنٍ واحِدٍ. دَلَّ أنهُ خالِقٌ بذاتِهِ لا بِسَبَبٍ[9].

والثاني[10]: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ أنهُ جَعَلَ ما يَطيبُ منهُ لِلْبَشَرِ، وعَلَّمَهُمْ أسباباً يَتَّخِذونَ بِها الطَّيِّباتِ مِنْ ذلكَ مِنْ نَحْوِ النُّضْجِ والطَّبْخِ وغَيْرِهِ، وجَعَلَ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الحيوانِ كما هو خارِجٌ مِنَ الأرضِ لِيَعْلَموا أنَّ غَيْرَهُمْ مِنَ الحَيَوانِ والدَّوابِّ إنما جَعَلَهُمْ لِمَنافِعِ البَشَرِ مُسَخَّرينَ لَهُمْ، وأنَّ البَشَرَ هُمُ المَقْصودونَ في خَلْقِ الأشياءِ كُلِّها، وباللهِ الحَوْلُ والقُوَّةُ، ولَهُ المِنَّةُ والفَضْلُ.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ أي قالوا: للهِ شُرَكاءُ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ [النحل: ٥٧] أي يَقولونَ: لِلهِ البَناتُ، أو وَصَفوا اللهَ؛ دَليلُهُ ما ذَكَرَ في آخِرِهِ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ دلَّ هذا أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي وَصَفوهُ[11] بالشُّرَكاءِ والوَلَدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]. وقيلَ: إنهُمْ لم يَعْبُدوا الجِنَّ، ولا قَصَدوا قَصْدَ عِبادَةِ الشيطانِ حِينَ[12] قالَ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ

(١) في الأصل و م: يناله. (٢) في الأصل و م: ثمرتها. (٣) في الأصل و م: مختلف. (٤) في الأصل وم: وجوهاً أي. (٥) في الأصل: أي كيف، في م: أن كيف. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: أن. (٨) في الأصل وم: طعمها. (٩) من م، في الأصل: سبب. (١٠) في الأصل و م: والثالث: أن. (١١) في الأصل و م: وصفوا. (١٢) في الأصل و م: حيث.

جنة السنة

مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠] لأنَّ جَميعَ أهْلِ الكُفرِ[١] على اخْتِلافِ مَذاهِبِهِمْ يَبْغُضونَ الشيطانَ، ويَلْتَعِنونَ[٢] عليهِ. ولكنَّ مَعْناهُ أنَّ الشيطانَ هو الذي دَعاهُمْ إلى عِبادَةِ الأصنامِ والأوثانِ؛ فإذا عَبَدُوا الأصنامَ بِدُعائِهِ فكأنَّهُمْ عَبَدُوهُ؛ إذْ بأمْرِهِ وبِدُعائِهِ يَعْبُدُونَها، أو كَما رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ الشمسَ إذا طَلَعَتْ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَي شيطانٍ، فإذا عَبَدُوها فَكَأنَّهُمْ عَبَدُوا الشيطانَ، مِثْلُ هذا يُحْتَمَلُ، واللهُ أعْلَمُ.

فإنْ قِيلَ: فإذا صارُوا كأنَّهُمْ عَبَدُوا الشيطانَ ومَنْ ذَكَرَ مِنَ الجِنِّ بِدُعائِهِمْ إلى ذلكَ وبأمْرِهِمْ بذلك حتى نَسَبَ، وأضافَ العِبادَةَ إليهِمْ، كيفَ لا صارَ المُؤْمِنونَ كأنَّهُمْ عَبَدُوا الرُّسُلَ؟ كأنهُمْ إنما عَبَدُوا اللهَ بدعاءِ الرُّسُلِ وبأمْرِهِمْ؟ قِيلَ: لأنَّ الرُّسُلَ إنما دَعَوهُمْ إلى عِبادَةِ اللهِ، وأمَرُوهُمْ بذلك. وأمّا أولئكَ فإنما دَعَوهُمْ إلى عِبادَةِ مَنْ ذَكَرَ مِنْ ذاتِ أنْفُسِهِمْ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ إخبارٌ لأوليائِهِ وتَذْكيرٌ لَهُمْ حُسْنَ صَنيعِهِ إلى أعدائِهِ مِنَ الإنعامِ عليهِمْ والإحسانِ إليهِمْ، وقُبْحَ صَنيعِ أولئكَ إليهِ مِنْ وَصْفِهِمْ إيّاهُ بالوَلَدِ والشُّرَكاءِ [لِيُعامِلُوهُمْ معاملةَ][٣] الأعداءِ أو مُعامَلَةَ أمثالِهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][٤]: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما:][٥] يَعْلَمُونَ أنهُ هو خَلَقَهُمْ، ثم يُشْرِكُونَ غَيْرَهُ في أُلوهِيَّتِهِ وعِبادَتِهِ، لا يُوَجِّهُونَ شُكْرَ نِعَمِهِ إليهِ[٦].

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أي خَلَقَ هذِهِ الأصنامَ التي يَعْبُدُونَها، [ويَعْلَمُونَ أنها][٧] مَخْلوقَةٌ مُسَخَّرَةٌ مُذَلَّلَةٌ. فَمَعَ ما يَعْلَمُونَ[٨] هذا يُشْرِكُونَ في أُلوهِيَّتِهِ وعِبادَتِهِ. فكيفَ يكونُ المَخْلوقُ المُسَخَّرُ شَريكاً لَهُ؟.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هُمْ كانُوا فِرَقاً وأصْنافاً؛ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بأنَّ عيسى ابْنُهُ، وهُمُ النَّصارى، ومِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بأنَّ عُزَيراً ابْنُهُ، وهُمُ اليهودُ[٩]، وقالَ مُشْرِكُو العَرَبِ: الملائكةُ بَناتُ اللهِ، فَقالَ تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١ و٢٢]، وقالَ تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] وقالَ تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧] فإذا أنِفْتُمْ[١٠] أنْتُمْ مِنَ البَناتِ كيفَ نَسَبْتُمْ [البَناتِ][١١] إليهِ؟

وفي[١٢] الآيةِ يُصَبِّرُ رسولَ اللهِ على أذاهُمْ؛ يقولُ: مَعَ كَثْرَةِ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنَ النِّعَمِ والمِنَنِ يُشْرِكُونَ في عبادَتِهِ غَيْرَهُ، فأنْتَ إذا لم يَكُنْ مِنْكَ إليهِمْ شَيءٌ مِنْ ذلكَ أولَى أنْ تَصْبِرَ على أذاهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي يَعْلَمُونَ هُمْ أنْ لَيسَ لَهُ وَلَدٌ ولا شَريكٌ. ولكنْ كانُوا يُكابِرُونَ. ويَحْتَمِلُ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على جَهْلٍ يَقُولُونَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ هو حَرْفُ تَعْظيمٍ وتَنْزيهٍ؛ جَعَلَهُ[١٣] في ما بَيْنَ الخَلْقِ، بِهِ يُعَظِّمُونَ، وبه يُنَزِّهُونَ، وبِهِ يَنْفُونَ كُلَّ عَيبٍ فيه. فَعَلَى ذلكَ ذِكْرُهُ[١٤] عندَ وَصْفِ الكَفَرَةِ [اللهَ][١٥] بالوَلَدِ والشَّريكِ والعُيوبِ تَنْزيهاً [وتَبْرِيئاً مِنْ][١٦] كُلِّ عَيبٍ وَصَفُوهُ [بِهِ][١٧] وتَعالياً عَنْ جَميعِ ما قالُوا فيهِ، وهو، واللهُ أعلَمُ، كَما يَقُولُونَ: مَعاذَ اللهِ تَعْظيماً وتَبْرِيئاً مِنْ[١٨] ذلكَ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نَقْضُ قولِ المُعْتَزِلَةِ[١٩]: إنَّ صِفاتِ اللهِ لَيسَتْ إلّا وَصْفَ الواصِفِينَ. فَلَو لم يَكُنْ إلّا وَصْفَ الواصِفِينَ لا غَيرَ لكانَ لا مَعْنَى لِذَمِّ بَعْضِ الواصِفِينَ وحَمْدِ بَعْضِهِمْ. ثَبَتَ أنَّ في ذلكَ صِفَةً سِوَى وَصْفِ الواصِفِينَ.

---

(١) من م، في الأصل: الكفرة. (٢) في الأصل و م: يلعنون. (٣) من م، في الأصل: ليعاملون. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أي. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: معاملة الأعداء أو معاملة أمثالهم وخلقهم أي يعلمون أنه هو خلقهم ويشركون غيره في الوهيته وعبادته لا يوجهون شكر نعمه إليه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: يعملون. (٩) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. (١٠) من م، في الأصل: أنفقتم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: جعل. (١٤) في الأصل وم: ذكر. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: وتبرئة عن. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) في الأصل وم: عن. (١٩) أدرج بعدها في الأصل وم: لقولهم.

جنة السنة

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ قولُهُ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي أنشأهُما بلا احتِذاءٍ /١٥٧ ـ أ/ ولا امْتِثالٍ بِغَيرٍ. هذا يَرُدُّ على القرامِطَةِ قولَهُم؛ لأنهُمْ يَقُولونَ: فهو مُبْدِعٌ، ويَقُولُونَ: المُبْدَعُ الثاني هو أوَّلُ مَخلُوقٍ خُلِقَ منهُ جميعُ العالَمِ. فلو كانَ أوَّلُ خَلْقٍ خُلِقَ مُبْدَعاً فهو مُبْدِعٌ. والإبداعُ هو إحداثُ شَيءٍ، لم يَسْبِقْ لهُ أصْلٌ ولا مِثالٌ. ولهذا ما يُقالُ لِمَنْ أحدَثَ في دِينِهِ شيئاً: مُبْتَدِعٌ لأنهُ أحدَثَ فيهِ شيئاً لم يَسْبِقْ لهُ أصلٌ ولا مِثالٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما أنّ][1] مَنْ قَدَرَ على إبداعِ السَّمواتِ والأرضِ لا عَنْ أصلٍ سَبَقَ ولا عَنْ مِثالٍ تَقَدَّمَ فأنّى تَقَعُ لهُ الحاجَةُ إلى الوَلَدِ؟ والوَلَدُ في الشاهِدِ إنما يُتَّخَذُ لإحْدَى خِصالٍ ثَلاثٍ: إمّا لِلانْتِصارِ على الأعداءِ والانْتِقامِ مِنْهُمْ وإمّا لِوَحْشَةٍ تأخُذُهُم، وإمّا لِحاجَةٍ تَمَسُّهُمْ. فاللهُ، سُبْحانَهُ، يَتعالى عَنْ ذلكَ كلِّهِ، فأنّى يَتَّخِذُ وَلَداً؟

والثاني: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ أي تَعْرِفُونَ أنَّ الوَلَدَ لا يكونُ في الشاهِدِ إلّا عَنْ صاحِبَةٍ، ولَيسَتْ لهُ صاحِبَةٌ، فأنّى يكونُ لهُ وَلَدٌ؟ كأنَّ الخِطابَ كانَ في قومٍ يَنْفُونَ عنهُ الصاحِبَةَ لِلشَّهَواتِ التي مُكِّنَتْ فيهِمْ؛ فالشَّهْوَةُ هيَ التي تَقْهَرُ المَرْءَ، وتَحْمِلُهُ على الحاجَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فيهِ نَقْضُ قولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهُ أخبَرَ أنهُ خَلَقَ كُلَّ شيءٍ. وعلى قَولِهِمْ: لم يَخْلُقْ جُزْءاً مِنْ ألفِ جُزْءٍ مِنَ الأشياءِ؛ لأنهُمْ يَقولونَ: إنَّ اللهَ لم يَخْلُقْ أفعالَ العِبادِ ولا حَرَكاتِهِمْ ولا سَكَناتِهِمْ ولا قِيامَهُمْ ولا قُعُودَهُمْ ولا شيئاً مِنْ ذلكَ.

ثم لا يَجوزُ أنْ تُصْرَفَ الآيةُ إلى الخُصوصِ، وهي[2] تَخْرُجُ مَخْرَجَ العُمومِ[3]، ولو جازَ أن يُصْرَفَ هذا إلى[4] شَيءٍ دُونَ شَيءٍ لَجازَ لِغَيرِهِمْ أنْ يَصْرِفُوا قولَهُ تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إلى شَيءٍ دونَ شَيءٍ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦ والزمر: ٦٢] [هو رَدٌّ][5] على قَولِ المُعْتَزِلَةِ: هو خالِقُ بَعْضِ الأشياءِ، لَيسَ هو بِخالِقِ الأشياءِ كُلِّها على ما أخبَرَ فلانٌ. [فلو][6] جازَ صَرْفُهُ إلى بَعْضِ الأشياءِ دُونَ بَعْضٍ لَجازَ أيضاً صَرْفُ قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢ و...] إلى بَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ [لأنهُ][7] حَفِظَ بَعْضَ الأشياءِ، ولم يَحْفَظِ الكُلَّ. فإنْ لم يَجُزْ هذا لأنهُ[8] خَرَجَ مَخْرَجَ العُمومِ[9]، فَعَلَى ذلكَ لا يَجوزُ صَرْفُ الأوَّلِ إلى بَعْضٍ دونَ [بَعْضٍ][10] لأنهُ عُمومٌ[11]. ولَئِنْ جازَ أنْ يُقالَ: إنَّ العَبْدَ هو خالِقُ ذلكَ جازَ أنْ يُقالَ: هو خالِقُ الكُلِّ والقادرُ عليهِ؛ فهذا سَمِجٌ بَيِّنٌ، نَسْألُ اللهَ العِصْمَةَ عَنِ السَّرَفِ في القولِ والزَّيغِ عَنِ الحَقِّ، فإنهُ لا حَوْلَ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي ابْتَدَعَ خَلْقَ السَّمواتِ والأرضِ وما ذَكَرَ مِنْ أنواعِ المِنَنِ والنِّعَمِ التي أنْعَمَها عليهِمْ مِنْ نَحْوِ ما جَعَلَ لَهُمْ مِنَ النُّجومِ لِيَهْتَدُوا بها في الظُّلُماتِ وما ذَكَرَ أنهُ أنْشَأَهُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وما ذَكَرَ مِنْ إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ وإخراجِ ما أخْرَجَ بهِ مِنَ النَّباتِ والثِّمارِ والحُبوبِ والأعنابِ وغَيرِ ذلكَ مِنْ عَجيبِ حِكْمَتِهِ؛ ذلكَ كُلُّهُ باللهِ الذي لا إلهَ إلّا هو مُنْشِئُ ذلكَ كلِّهِ ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي إليهِ وَجِّهُوا شُكْرَ نِعَمِهِ، ولا تُوَجِّهوهُ[12] إلى غَيرِهِ.

قال[13] الكِسائِيُّ: أي بَديعُ السَّمواتِ وبادِئُ السَّمواتِ واحِدٌ كما يُقالُ: عالِمٌ وعليمٌ، وبَدَعَ، وابْتَدَعَ، بِمَعْنًى واحِدٍ. وقالَ بَعْضُهُمْ: هو مِثْلُ قولِهِ: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ قيلَ: كَنّى بالأبصارِ عنِ الخَلْقِ؛ كأنهُ قالَ: لا يُدْرِكُهُ الخَلْقُ، وهو يُدْرِكُ الخَلْقَ، وإنما كَنّى بالأبصارِ عنِ الخَلْقِ لِما بالأبصارِ تُدْرَكُ الأشياءُ، ويُحاطُ بها لِذلكَ كانَ مَعْنَى الكِنايَةِ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أي. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: الامتداح. (٤) في الأصل وم: على. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) من م، في الأصل: أنه. (٩) في الأصل وم: الامتداح. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: امتدح. (١٢) في الأصل وم: توجهوا. (١٣) في الأصل وم: قاله.

جنة السنة

وقيلَ: هو على حَقيقَةِ الإبْصارِ لكنَّهُ بَصَرُ القَلْبِ لِما بِهِ تَقَعُ المَعارِفُ. فإنْ كانَ بَصَرَ الوجْهِ ففيهِ دليلُ إثْباتِ الرُّؤيَةِ لأنهُ نَفى عنهُ الإدراكَ. فلو لم يَكُنْ لِنَفْيِ الإدراكِ مَعْنًى، لأنهُ لا يُدرِكُ ما لا يَرَى، دَلَّ[1] نَفْيُ الإدراكِ على أنَّ هناكَ رُؤيَةً. لكنهُ لا يُدرَكُ، ولا يُحاطُ بِهِ على ما ذَكَرَ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]؛ إذْ مِنَ الأشياءِ الظاهِرَةِ ممّا يَقَعُ عليها البَصَرُ يكونُ لها سِرٌّ، وفيها خَفِيٌّ، مِنْ نَحْوِ البَصَرِ والسَّمْعِ والأنفِ واليَدِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الأشياءِ ممّا لا تُدرَكُ حَقيقَةُ ماهِيَّتِها وكَيفِيَّتِها، ولا تَقْديرُها.

يُبْصَرُ بالبَصَرِ أشياءُ لا تُعْرَفُ حَقيقَةُ كَيفِيَّةِ البَصَرِ ولا ماهِيَّتُهُ، وكذلكَ السَّمْعُ لا يُدْرَى أنهُ كيفَ؟ ولا بِمَ يُسْمَعُ؟ وكذلكَ هذا في كلِّ جارِحَةٍ وحاسَّةٍ تَجِدُ اليدُ[2] خُشونَةَ الشَّيءِ الذي تَمَسُّهُ ولِينَهُ، لا تَعْرِفُ بِمَ تَجِدُ ذلكَ، وتَعْرِفُهُ؟ وكذلكَ الكلامُ مِنَ اللسانِ والشَّمُّ مِنَ الأنفِ لا يُدْرَى ما هو؟ ولا كيفَ؟ وبِمَ يَجِدُ تلكَ الرائحةَ والنَّتْنَ؟

فإذا كانَتْ مَعارِفُ الخَلْقِ في الأشياءِ الظاهِرَةِ التي يَقَعُ عليها البَصَرُ لا تُدرِكُ حَقيقَةَ ماهِيَّتِها ولا تُعْرَفُ كَيفِيَّتُها، ولا يُحاطُ بها عِلْماً، فاللهُ[3] ﷻ الذي بِحِكْمَتِهِ وَضَعَ ذلكَ، وبِلُطْفِهِ رَكَّبَ، أبْعَدُ عنِ الإدراكِ وأحْرَى ألّا يُحاطَ بِهِ، ولا يُدْرَكَ.

وهذا يَرُدُّ على المُجَسِّمَةِ مَذْهَبَهُمْ لأنهُمْ يُصَوِّرونَ رَبَّهُمْ في قلوبِهِمْ، ويُمَثِّلونَهُ. فَعَلَى ذلكَ يَعْبُدونَهُ؛ فَهُمْ مُشَبِّهَةٌ.

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ، تَبارَكَ، وتَعالى، عُرِفَ بالآياتِ والدلائِلِ لا بالمَحْسوساتِ والمُشاهَداتِ. وكُلُّ شيءٍ سَبيلُ مَعْرِفَتِهِ الآياتُ والدَّلائِلُ فهو غيرُ مُحاطٍ بِهِ ولا مُدْرَكٍ، فهو على ما وَصَفَ نَفْسَهُ [بقولِهِ تعالى][4] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] [وقولِهِ تعالى][5]: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] لأنَّ الإدراكَ والإحاطةَ [لا تُعْرَفُ][6] بالمَحْسوساتِ إنما[7] تُعْرَفُ بالآياتِ والدلائِلِ.

وعلى ذلكَ جاءَتْ دلائلُ الرُّسُلِ نَحْوَ ما قالَ موسَى حِينَ سألَهُ فرعونُ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩ و٥٠] وما[8] قالَ: ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] [هاتانِ دلالتانِ][9] على أُلوهِيَّتِهِ ووَحدانِيَّتِهِ مِنْ جِهَةِ الآياتِ والدلائِلِ لا مِنْ غَيرِها[10]. وعلى ذلكَ دلَّ اللهُ الخَلْقَ على مَعْرِفَةِ وَحدانِيَّتِهِ ورُبوبِيَّتِهِ بقولِهِ[11] تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا﴾ [الأنعام: ٩٧] وقولِهِ[12] تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥] وقولِهِ[13] تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ دَلَّهُمْ على ما يَعْرِفونَ أُلوهِيَّتَهُ مِنْ جِهَةِ الآياتِ والدلائِلِ لا مِنْ جِهَةِ ما تَقَعُ الإحاطَةُ والإدراكُ، وباللهِ الهِدايَةُ والرَّشادُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ قيلَ ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ في أفعالِهِ ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بِخَلْقِهِ وبأعمالِهِمْ، وقيلَ: ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ البارُّ الرَّحيمُ، وقيلَ: ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ هو العَليمُ بِخَفِيّاتِ الأشياءِ و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بِظَواهِرِ الأشياءِ. ثم هو ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ العَظيمُ؛ والعَظيمُ في الشاهِدِ غيرُ اللَّطيفِ، واللَّطيفُ غَيرُ العَظيمِ لأنَّ العَظيمَ في الشاهِدِ هو الذي بِهِ كَثافَةٌ، واللَّطيفُ ما يَلْطُفُ في نَفْسِهِ، ويَرِقُّ، وكُلُّ واحِدٍ مِنْهُما مِمّا يُناقِضُ الآخَرَ؛ لِيُعْلَمَ أنهُ لَطيفٌ عَظيمٌ لا مِنَ الوُجوهِ التي تُعْرَفُ في الخَلْقِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] وهو أوَّلٌ وآخِرٌ، وظاهِرٌ وباطِنٌ. وفي الخَلْقِ مَنْ كانَ أوّلاً لم يَكُنْ آخِراً، ومَنْ كانَ ظاهِراً لم يكُنْ باطِناً لِيُعْلَمَ أنهُ أوَّلٌ وآخِرٌ وظاهِرٌ وباطِنٌ لا مِنَ الوجهِ الذي يُعرَفُ، ويُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ، ولكنْ مِمّا[14] وصَفَ نَفْسَهُ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما:][15] قيلَ: بَيِّناتٌ مِنْ رَبِّكُمْ، وقيلَ: البصائِرُ الهُدَى [وهي][16] بَصائِرُ في قُلوبِهِمْ، ولَيسَتْ بِبَصائِرِ الرُّؤوسِ،

---

(١) في الأصل وم: فدل. (٢) في الأصل وم: اليوم. (٣) من م، في الأصل: والله. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: إنما تقع. (٧) في الأصل وم: لا بما. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: دلاه. (١٠) في الأصل وم: غيره. (١١) في الأصل وم: وقال. (١٢) في الأصل وم: وقال. (١٣) في الأصل وم: وقال. (١٤) في الأصل وم: ما. (١٥) ساقطة من الأصل و م. (١٦) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

وهو قولُ عَبْدِ الرحمنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وقيلَ ﴿بَصَآئِرُ﴾ أي بَيانٌ، وهو واحدٌ، وقيلَ: ﴿بَصَآئِرُ﴾ شَواهِدُ؛ أي قد جاءَكُمْ مِنَ اللهِ شَواهِدُ تدُلُّكُمْ على أُلوهِيَّتِهِ؛ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤] أي بَلِ الإنسانُ مِنْ نَفْسُهُ بَصِيرةٌ أي شاهِدَةٌ، تَشْهدُ كُلُّ جارحَةٍ منهُ على وَحْدانيَّتِهِ وأُلوهيَّتِهِ.

ألا تَرَى أنهُ قال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؟ [النور: ٢٤] هذا، واللهُ أعلَمُ، لأنهُمْ كانُوا يُقلِّدُنَ آباءَهُمْ في عِبادَةِ الأوثانِ / ١٥٧ - ب/ والأصنامِ، ويَقولُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فيقولُ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ مِنَ الآياتِ والرُّسُلِ ما لَوِ اتَّبَعْتُمُوهُمْ لكانُوا لَكُمْ شُفَعاءَ عندَ اللهِ.

والثاني: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ما لو تَفكَّرُوا، وتَدَبَّرُوا، ونَظَرُوا فيها، لَعَرفُوا أنها بَصائِرُ مِنَ اللهِ؛ لأنَّ البَشَرَ أُنشِئُوا بحيثُ يَنْظُرُونَ في العَجِيبِ مِنَ الأشياءِ. فكانُوا على أمْرَينِ؛ مِنْهُمْ مَنْ نَظَرَ، وتفكَّرَ، وعَرَفَ أنها بَصائِرُ، لكنهُ عانَدَ، وكابَرَ، ولم يَعْمَلْ بها، ومِنْهُمْ مَنْ تَرَكَ النَّظَرَ فيها، فَعَمِيَ عنها، ما لو تَفكَّرُوا، ونَظَرُوا، لَتَبيَّنَ لَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ﴾ أي أبْصَرَ الحَقَّ والهُدَى، وعَمِلَ بِهِ، فَلِنَفْسِهِ عَمِلَ، ومَنْ أبْصَرَ، وعَمِيَ عنها، أي تَرَكَ العَمَلَ، فعَلَيها تَرَكَ، كقولِهِ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [الجاثية: ١٥] فإنْ قِيلَ: ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] أخبَرَ أنَّ مَنْ هَلَكَ هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ ومَنْ حَيَّ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وههنا يَقولُ: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ ذَكَرَ عَمِيَ عنها، فكيفَ وجهُ التَّوفيقِ بَيْنَهُما؟.

قِيلَ: يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿عَمِىَ﴾ بَعْدَ [ما][1] تَبيَّنَ لهُ، فتَرَكَ العَمَلَ بِها ﴿فَعَلَيْهَا﴾ لأنهُ أبْصَرَها، وعَرَفَ أنها مِنَ اللهِ، لكنَّهُ عانَدَها[2]، وكابَرَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فَلَيْسَ عَلَينا إلّا التَّبْلِيغُ كقولِهِ تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩].

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي نَرُدُّها في الوُجوهِ التي تَتَبيَّنُ لِقَومٍ يَطْلُبُونَ البَيانَ، أو نَقُولُ: ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي نَضَعُ كُلَّ آيةٍ، ونَصْرِفُها إلى الوُجوهِ التي يكونُ بالخَلْقِ حاجةٌ إليها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ فيهِ لُغاتٌ[3]: دَرَسْتَ، ودارَسْتَ، ودَرَسَتْ؛ ودَرَسْتَ قَرأْتَ، ودارَسْتَ تَعلَّمْتَ، وقيلَ: دارَسْتَ أَهْلَ الكِتابِ: جادَلْتَهُمْ، ودَرَسَتْ بالجَزْمِ قِيلَ: تَقادَمَتْ. فهذا الاختلافُ فيهِ لاختلافِ قولٍ كانَ مِنَ الكَفَرَةِ لِرَسولِ اللهِ؛ مِنهُمْ مَنْ يَقولُ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣] وهو تأويلُ: ﴿دَرَسْتَ﴾ فَعلى اختلافِ تأويلِهِمْ خَرَجَتِ القِراءةُ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ فهو صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ أي ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ لأنَّ [مِنْ][4] قولِهِ: أنهُ بَعَثَ الرُّسُلَ، وأنزَلَ الكُتُبَ ليكونَ مِنَ الكافِرِ[5] قولُ كُفْرٍ ومِنَ المؤمنِ قولُ إيمانٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ يَخْرُجُ، واللهُ أعلَمُ، على التَّعجيبِ، يُعَجِّبُ أصحابَ النَّبِيِّ ﷺ عن قُبْحِ صَنيعِ الكَفَرَةِ وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ رسولَ اللهِ ﷺ وقد جاءَ بصائِرُ[6] مِنْ رَبِّهِمْ وبَيِّناتٌ وحُجَجٌ، ثم هُمْ بَعْدَ هذا كُلِّهِ يَسْتَقْبِلُونها بالرَّدِّ والتَّكذيبِ وهو ما قُلْنا: إنَّ اللهَ ذكَرَ نِعَمَهُ عليهِمْ بِما أنشأَ لَهُمْ مِنَ الأنعامِ والجَنَّاتِ والمَعْروشاتِ والزَّرْعِ والنَّخِيلِ وما أخبَرَ عنهُ، وقد عَلِمُوا ذلكَ كُلَّهُ ثم ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ﴾ بَعْدَ معرِفَتِهِمْ هذا[7] ﴿شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠] ولا بَيِّنَةٍ. فهو على التَّعجيبِ أنهُمْ كيفَ جَعَلُوا لَهُ شُرَكاءَ، وقد عَلِمُوا أنَّ الذي جَعَلَ هذا كُلَّهُ لَهُمْ، هو اللهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: عاند. (٣) انظر حجة القراءات (٢٦٤). ومعجم القراءات القرآنية (٢/ ٣٠٤). (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: الكافرين. (٦) من م، في الأصل: بصائرهم. (٧) من م، في الأصل: لرد.

جنة السنة

فَعلَى ذلكَ هذهِ الآيةُ أنهُمْ كيفَ قَذَفُوهُ بالدِّراسَةِ، وقد تَبيَّنَ لَهُمْ صِدْقُهُ وأنهُ مِنْ عندِ اللهِ بالآياتِ في الدلائِلِ وبما كانَ لا يَخُطُّ كتاباً، ولا شَهِدُوهُ يَخْتَلِفُ إلى مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لِنُبيِّنَهُ؛ يَعْني القرآنَ، وقيلَ: البَصائِرُ التي ذَكَرَ لقومٍ يَنْتَفِعُونَ بِعِلْمِهِمْ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فإنْ قِيلَ: ما مَعْنَى قولِهِ تعالى ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؟ وإنما أُوحِيَ إليهِ مِنْ رَبِّهِ، ويَكْفِي قولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾. قيلَ[1] مَعْناهُ على الإضمارِ، واللهُ أعْلَمُ، كأنهُ قالَ لِلَّذي أوحَى إليهِ على يَدَيهِ: قُلْ ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ثم أمَرَ نَبِيَّهُ باتِّباعِ ما أُوحِيَ إليهِ مِنْ رَبِّهِ، أي اعْمَلْ بِما أُوحِيَ.

ثم الأمْرُ بالعَمَلِ يَحْتَمِلُ وجْهَينِ: يَحْتَمِلُ الأمْرَ بالاعْتِقادِ بذلكَ، ويَحْتَمِلُ [العَمَلَ نَفْسَهُ][2] أي اعْمَلْ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ الأمْرُ[3] بالاتِّباعِ اتِّباعَ ما أُوحِيَ إليهِ صِدْقاً في الخَبَرِ وعَدْلاً في الحُكْمِ كَقَولِهِ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] قيلَ: صِدْقاً في الأخبارِ وعَدْلاً في الأحكامِ. فَعلَى ذلكَ أمْكَنَ أنْ يكونَ الأمْرُ بالاتِّباعِ اتِّباعَ ما أُوحِيَ إليهِ صِدْقاً في الأخبارِ وعَدْلاً في الأحكامِ.

ثم على ما أمَرَ نَبِيَّهُ باتِّباعِ ما أُوحِيَ [إليهِ][4] مِنْ رَبِّهِ أمَرَ أُمَّتَهُ كذلكَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣] [ونَهاهُمْ عنِ اتِّباعِ][5] ما اتَّخَذُوا مِنْ دونِهِ أولياءَ. فَعلَى ما نَهاهُمْ عَنِ اتِّخاذِ أولياءَ [مِنْ][6] دونِهِ قالَ في الآيةِ التي أمَرَ رسولَهُ باتِّباعِ ما أُوحِيَ إليهِ مِنْ رَبِّهِ، فقالَ: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ واحدٌ، لأنهُ أمْرٌ باتِّباعِ ما أُوحِيَ إليهِ مِنْ رَبِّهِ، ونَهْيٌ أنْ يَتَّبِعَ مِنْ دُونِهِ أولياءَ، لأنهُ أخْبَرَ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أمْرُهُ بالإعراضِ عنِ المُشْرِكينَ وُجوهاً: يَحْتَمِلُ ألّا تُكافِئَهُمْ على أذاهُم، ولكنِ اصْبِرْ، ويَحْتَمِلُ الإعْراضُ عَنْهُمُ النَّهْيَ عَنْ قِتالِهِمْ كأنهُ نَهَى عَنْ قِتالِهِمْ في وقْتٍ، ويَحْتَمِلُ[8] أنْ تكونَ الآيةُ في قومٍ خاصٍّ، قالَ أعْرِضْ عَنْهُمْ فإنهُمْ لا يُؤْمِنُونَ، ولا تُقِمْ عليهِمُ الآياتِ والحُجَجَ لِما عَلِمَ مِنْهُمْ انهُمْ[9] لا يُؤْمِنُونَ.

ثم على ما أمَرَ نَبِيَّهُ بالإعراضِ عنهُمْ أمَرَ المؤمنينَ أيضاً بالإعراضِ عنهُمْ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥].

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ قالَتِ المُعْتَزِلَةُ: المَشيئَةُ ههنا مَشيئَةُ قَهْرٍ وَجَبْرٍ؛ أي لو شاءَ اللهُ لأعْجَزَهُمْ، ومَنَعَهُمْ عَنِ الشِّرْكِ على دَفْعِ الابْتِلاءِ والامْتِحانِ.

وأمّا عِنْدَنا فالمَشيئَةُ[10] مَشيئَةُ اخْتِيارٍ وطَوعٍ[11] على قِيامِ الابْتِلاءِ والامْتِحانِ. وبَعْدُ فإنَّ مَشيئَةَ الجَبْرِ هيَ خِلْقَةٌ، وقد كانُوا جميعاً غَيْرَ مُشْرِكينَ بالخِلْقَةِ، فلا مَعْنَى لِتَأويلِهِمُ الذي تَأوَّلُوا، ثم لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ مَشيئَةَ قَهْرٍ وقَسْرٍ لأنهُ لا يكونُ في حالِ الجَبْرِ والقَهْرِ إيمانٌ ولا كُفْرٌ، إنما يكونُ ذلكَ في حالِ الاخْتِيارِ والطَّوعِ؛ لأنَّ الجَبْرَ والقَهْرَ يَمْنَعُ مِنْ أنْ يكونَ لهُ فِعْلٌ حَقيقَةً، بل يَتَحَوَّلُ[12] الفِعْلُ منهُ، ويَسْقُطُ، ويَثْبُتُ لِلَّذي جَبَرَ، وقَهَرَ، وذلكَ[13] بعيدٌ، فَدَلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا، وباللهِ الرَّشادُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ دلالةُ أنَّ طريقَ الإسلامِ الإفْضالُ والإنعامُ، ولِلّهِ أنْ يَخُصَّ بِهِ مَنْ كانَ أهْلاً لِلإفْضالِ والإنْعامِ باللطائِفِ التي عِنْدَهُ، ويَحْرِمَ ذلكَ، ولَهُ أنْ يَجْعَلَ بَعْضَهُمْ أهلاً لِذلكَ إفضالاً منهُ، ولا يَجْعَلَ البَعْضَ عَدْلاً منهُ.

---

(١) في الأصل وم: ولكن. (٢) في الأصل وم: نفس العمل. (٣) في الأصل وم: بالأمر. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: أمرهم باتباع. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: لأنهم. (١٠) في الأصل وم: المشيئة. (١١) في الأصل وم: والطوع. (١٢) في الأصل وم: تحول. (١٣) في الأصل وم: فذلك.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي لم يُؤخَذْ عَليكَ حِفظُ أعمالِهِمْ، أو [لا][1] تُسألُ أنتَ عن صَنيعِهِمْ، إنما عَليكَ التَّبليغُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢] وكقولِهِ[2] تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] ونَحوُهُ. وقيلَ: الحَفيظُ والوَكيلُ واحدٌ. وقيلَ: الوَكيلُ هو الكَفيلُ، وقد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ في ما تقَدَّمَ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نهانا عن سَبِّ مَنْ يَسْتَحِقُّ السَّبَّ مَخافَةَ سَبِّ مَنْ لا يَسْتَحِقُّ، وقد أمَرَنا بِقِتالِهِمْ، وإذا قاتَلْناهُمْ قاتَلُونا. وقيلَ: سَبُّ المُؤمِنِ بِغَيْرِ حَقٍّ مِنَ المَناكيرِ. وكذلكَ أمْرُ رسولِ اللهِ ﷺ بِتَبليغِ الرسالةِ والتِّلاوةِ عليهِمْ، وإنْ كانُوا يَستَقبِلُونَهُ بالتَّكذيبِ.

وقيلَ[3]: السَّبُّ لأولئكَ [مُباحٌ][4] غَيرُ مَفروضٍ، [والقِتالُ مَعَهُمْ فَرضٌ][5] وكذلكَ التَّبليغُ فَرضٌ، يُبَلِّغُ[6] إليهِمْ، وإنْ كانُوا يُنكِرونَ ما يُبَلِّغُونَ[7]، وكذلكَ القِتالُ نُقاتِلُهُمْ، وإنْ كانَ في ذلكَ إهلاكُ أنفُسِنا.

وأصلُهُ أنَّ ما خَرَجَ الأمْرُ بِهِ مَخرَجَ[8] الإباحةِ فإنَّهُ[9] يُنهَى عمّا يَتَوَلَّدُ منهُ، ويَحدُثُ، وما كانَ الأمْرُ بِهِ أمْرَ فَرضٍ ولُزومٍ، فلا[10] يُنهَى عنِ المُتَوَلِّدِ منهُ والحادِثِ. ويَجوزُ /١٥٨ ـ أ/ أنْ يُستَدَلَّ بهذا على تأييدِ مَذهَبِ أبي حَنيفةَ رحمه الله في قولِهِ: مَنْ[11] قَطَعَ يَدَ آخَرَ بِقِصاصٍ، فماتَ في ذلكَ، أُخِذَ بالدِّيَةِ. وإذا قَطَعَ اليَدَ بِحَدٍّ، لَزِمَهُ، فماتَ، لم يُؤخَذْ بِهِ؛ لأنهُ أُبيحَ لهُ قَطعُ يَدِهِ، والقِصاصُ لم يُفرَضْ عليهِ [المَوتَ][12] وفي الحَدِّ يَلزَمُ إقامَةُ الحَدِّ للهِ، فإذا كانَ قِيامُهُ بِفِعلٍ، أُبيحَ لهُ الفِعلُ، يُنهَى عمّا يَتَوَلَّدُ منهُ، ويُؤخَذُ بِهِ، وإذا كانَ قِيامُهُ بِفِعلٍ، فُرِضَ عليهِ، لم يُؤخَذْ بما تَوَلَّدَ منهُ.

وعلى هذا يَخرُجُ قولُهُ في الأمْرِ بالخِتانِ، إذا تَوَلَّدَ مِن ذلكَ المَوتُ، لأنهُ أمْرٌ بإقامةِ السُّنَّةِ، وكذلكَ الأمْرُ بالحِجامةِ، لأنهُ يَفرِضُ عليهِ الحِجامةَ في حالٍ إذا خافَ عليهِ الهَلاكَ إذا لم يَحتَجِمْ[13].

وأمّا الأمْرُ بالدَّقِّ وغَيرِهِ مِمّا يُشاكِلُهُ فأمْرُ[14] إباحةٍ لا أمْرُ إلزامٍ؛ لذلكَ ضَمِنَ ما تَوَلَّدَ منهُ.

فَعَلَى ذلكَ السابُّ[15] الذي يَسُبُّ آلِهَتَهُمْ؛ إذا حَمَلَهُمْ ذلكَ على سَبِّ اللهِ عز وجل وسَبِّ رسولِهِ لا يُسَبُّونَ، وإنْ كانُوا مُستَحِقِّينَ لِذلكَ؛ لأنهُ قد يُنهَى الرَّجُلُ أنْ يُعَوِّدَ نَفسَهُ السَّبَّ. فَعَلَى ذلكَ يجوزُ أنْ يُنهَوا عن سَبِّ آلهتِهِمْ مَخافَةَ الاعتِيادِ؛ لِذلكَ نُهُوا عَنْ سَبِّ آلِهَتِهِمْ.

ثم ذُكِرَ في القِصَّةِ أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ كانُوا يَسُبُّونَ آلِهَتَهُمْ، فَيَسُبُّونَ ﴿اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِسُوءٍ، فقالُوا: لَتَنتَهِيَنَّ عَنْ ذلكَ أو لَنَهْجُوَنَّ رَبَّكَ. عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه: وذلكَ حِينَ قالَ لَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآيةَ [الأنبياء: ٩٨] فقالُوا عندَ ذلكَ ما قالُوا، فنَزَلَ [قولُهُ تعالى][16]: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآيةَ. ولكنْ لا نَدري كيفَ كانَتِ القِصَّةُ، ولكنَّ فيهِ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قالَ الكِسائيُّ وأبو عَوسَجَةَ ﴿عَدْوًا﴾ مِنَ الاعتِداءِ، وهو مُجاوَزَةُ الحَدِّ. وقالَ أبو عَمرٍو عَدُوًّا بالرَّفعِ[17]، وقالَ: إنما العُدُوُّ مِن عُدُوِّ الرِّجلَينِ، وكذلكَ قالَ في يونسَ: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [الآية: ٩٠]. وقيلَ: فلمّا نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ «لا تَسُبُّوا رَبَّكُمْ» فأمْسَكُوا عن سَبِّ آلهتِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ قالَ أبو بَكرٍ الكَيسانيُّ: إنهُ صِلَةُ قولِهِ ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إنهم كانُوا يَعبُدُونَ هذهِ الأصنامَ والأوثانَ، [رَجاءَ أنْ تُقَرِّبَهُمْ][18] عِبادَتُهُمْ إيّاها إلى اللهِ لأنهُمْ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) أدرج قبلها في م: وقيل. (٧) في الأصل وم: يبلغهم. (٨) في الأصل: نخرج. (٩) من م، في الأصل: أنه. (١٠) في الأصل وم: لا. (١١) في الأصل وم: أن. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يحتجم. (١٤) في الأصل وم: أمر. (١٥) في الأصل وم: السب. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) هي قراءة بعض المكيين، انظر مختصر في شواذ القرآن (٤٠) ومعجم القراءات القرآنية (٢/٣٠٧).
(١٨) في الأصل: أن تقرب، في م: رجاء أن تقرب.

جنة السنة

كانوا يَعْبُدُونها، ويتَّخِذُونها آلِهَةً دونَ اللهِ، فإذا سَبُّوا معبودَهُمْ فكأنَّهُمْ سَبُّوا ﴿ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إذِ العِبادَةُ في الحَقيقَةِ لِلّهِ، فَيَرْجِعُ سَبُّهُمْ إيّاها إلى اللهِ. لِذلكَ كانَ مَعْنى السَّبِّ. فقالَ: فَعَلَى ذلك رَجَعَ قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ حتى امْتَنَعُوا عنْ سَبِّ اللهِ. فذلكَ الذي زَيَّنَ لَهُمْ عَمَلَهُمْ.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي زَيَّنّا عليهِمْ أعمالَهُمْ في ما أُمِرُوا بِهِ، وفُرِضَ، ووَجَبَ[1] عليهِمْ أنْ يَفْعَلُوا إلّا في ما يُفْرَضُ، ولا يَحِلُّ لَهُمْ أنْ يَفْعَلُوا. وكذلكَ يقولُ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ وغَيْرُهُ مِنَ المُعْتَزِلَةِ: إنهُ زَيَّنَ عليهِمْ عَمَلَهُمُ الذي فَرَضَ عليهِمْ أن يَعْمَلُوا، أو يَأْتُوا بِهِ[2]. وأمّا ما لا يَنْبَغي أنْ يكونَ[3] فلا كقولِهِ تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ الآية [الحجرات: ٧] ذَكَرَ في الإيمانِ التَّزْيينَ وفي الكُفْرِ التَّكْرِيهَ. ويَقُولُونَ: إنهُ أضافَ التَّزْيينَ إلى الشيطانِ بِقولِهِ: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨ و...] وقولِهِ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

فالشيطانُ يُزَيِّنُ لَهُمُ المَعاصِيَ والفُسُوقَ، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ اللهُ يُزَيِّنُ لَهُمْ ما يُزَيِّنُ الشيطانُ. فَدَلَّ أنهُ إنما يُزَيِّنُ لَهُمْ ما يُؤْمَرُونَ بِهِ، ويُفْرَضُ عليهِمْ، ولكنْ يُضافُ إليهِ التَّزْيينُ ما أُضِيفَ إليهِ حرفُ الإضلالِ والإغواءِ.

وأمّا عندَنا فالتَّزْيينُ على وَجْهَيْنِ:

[أحدُهما:][4] تَبْيِينٌ مِنْ طريقِ الآياتِ والبراهينِ، فذلكَ لا يَحْتَمِلُ فِعْلُ الكُفْرِ والضَّلالِ أنْ يكونَ مُزَيَّناً مِنْ جِهَةِ الآياتِ والحُجَجِ.

والثاني: تَزْيِينٌ في الطِّباعِ بالشَّهَواتِ والأماني، وفِعْلُ كُلِّ أحدٍ مُزَيَّنٌ بالشَّهْوَةِ والحاجَةِ التي مُكِّنَتْ فيهِ. ولا شَكَّ أنَّ كُلَّ كافِرٍ لو سُئِلَ عنْ فِعْلِهِ الكُفْرَ والضلالَ، فيقولُ: هذا الذي زُيِّنَ لي، ولَيسَ إضافةُ فِعْلِ التَّزْيينِ إلى اللهِ بأكْبَرَ وأبْعَدَ مِنْ إضافَةِ الإضلالِ والإغواءِ، وقد ذَكَرْنا مَعْنى إضافَةِ الإضلالِ والإغواءِ إليهِ في غَيْرِ مَوْضِعٍ. فَعَلى ذلكَ التَّزْيينُ. ويَقولُ أيضاً: إنَّ التَّزْيِينَ تَزْيِينُ وَعْدٍ وثوابٍ؛ فالكافِرُ مَتى يُؤْمِنُ بالوَعْدِ في الآخِرَةِ والثوابِ فيها؟ وهو ليسَ يُؤْمِنُ فهذا بَعِيدٌ.

ولا يُحْتَمَلُ ما قالَ الكَيْسانيُّ أيضاً لأنهُ لا كُلُّ الكَفَرَةِ كانُوا يَعْبُدُونَ الأصنامَ لِيُقَرِّبَهُمْ ذلكَ إلى اللهِ زُلْفَى، بل أكْثَرُهُمْ لا [يُقِرُّونَ][5] أنَّ لَهُمْ خالقاً وربّاً.

وتُحْتَمَلُ إضافَةُ التَّزْيينِ إلى الشيطانِ على جِهَةِ التَّمَنّي والتَّشَهّي كقولِهِ ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ [المجادلة: ١٤] وإضافَتُهُ إلى اللهِ على القُدْرَةِ عليها والسلطانِ، أو أنْ يَخْلُقَ أعمالَهُمْ مُزَيَّنَةً عندَهُمْ مُسَوَّلَةً، وإضافَةُ فِعْلِ الضَّلالِ والغِوايَةِ إلى الشيطانِ على الدعاءِ إليهِ والتَّرْغِيبِ فيهِ وإضافَتُهُ إلى اللهِ على أنْ يَخْلُقَ فِعْلَ الضلالِ منهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ قد ذَكَرْنا ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في جَزيلِ الثوابِ أو في أليمِ عذابٍ، فهو على الوَعيدِ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ قالوا: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ باللهِ؛ فهذا يُخَرَّجُ على وُجُوهٍ:

أحدُها: أنَّ الحِنْثَ في اليَمينِ يُخَرَّجُ مُخْرَجَ الاسْتِخْفافِ والتَّهاوُنِ، وإنْ كانَ في اليَمينِ التَّعْظيمُ، وفي الحِنْثِ اسْتِخْفافٌ، وفي اليَمينِ باللهِ جَهْدُ اليَمينِ. ويَحْتَمِلُ وجهَيْنِ سِوَى هذا:

أحدُهما[6]: ما قِيلَ: إنَّ الكَفَرَةَ كانُوا لا يَحْلِفُونَ باللهِ إلّا عِنْدَ العَظيمِ مِنَ الأمورِ، [وفي][7] الجَليلِ منها كانُوا يَحْلِفُونَ بدونِهِ، فَسُمِّيَ اليَمِينُ باللهِ جَهْدَ اليمينِ تَعْظيماً لِلّهِ وتَبْجيلاً.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنهُمْ كانُوا يَحْلِفونَ بأشياءَ، ويُؤَكِّدُونَ اليَمينَ باللهِ، ويُشَدِّدُونَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

---

(١) في الأصل وم: ويجب. (٢) في الأصل وم: بها. (٣) في الأصل وم: يقول. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل و م: وذلك. (٧) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ قِيلَ: إنهمْ كانُوا يُقسِمُونَ ﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ كانُوا يَسألُونَ رسولَ اللهِ ﷺ آياتٍ لَئِنْ جاءَتْهُمْ يؤمِنُوا[1] بها مِنْ نَحْوِ ما قالُوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠] وكقولِهِمْ: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ. فقالَ [﴿قُلْ﴾][2] يا محمدُ ﴿إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هو الذي يُرْسِلُها، وأنا لا أمْلِكُ إرسالَها ولا إنزالَها كقولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٠] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ إنباءً منهُ أنهُ لا يَملِكُ إنزالَ ما كانُوا يَسألُونَهُ مِنَ الآياتِ.

ثم قالَ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ الحَسَنُ وأبو بَكْرٍ الأصَمُّ: إنهُ خاطب [المؤمنينَ][3] وما يُشعِرُكُمْ أهلَ القَسَمِ الذينَ[4] أقسَمُوا ﴿بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ فقالَ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ أي ما يُدريكُمْ [أنهُمْ يُؤمِنونَ إذا جاءَتْهُمْ][5] آيةٌ، ثم استأنَفَ، فقالَ إنَّها: ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهكذا كانَ يَقرؤُهُ الحَسَنُ بالخَفضِ[6] إنَّها: ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على الاستِئنافِ والابْتِداءِ.

وقالَ غيرُهما[7] مِنْ أهلِ التأويلِ: الخطابُ لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وذلكَ لأنهمْ[8] لَمّا قالُوا: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ ظَنُّوا أنهُمْ لَمّا أقسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيمانِهِمْ أنهمْ يُؤمِنونَ إذا جاءَتْهُمْ آيةٌ؛ يَفعَلُونَ ذلكَ، ويُؤمِنونَ على ما يَقولُونَ، فقالَ لَهُمْ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على طَرْحِ ﴿لَا﴾ أي ما يَدريكُمْ أنها إذا جاءَتْ يُؤمِنونَ.

ويُحتَملُ فيه وَجهٌ آخرُ على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ فاعلَمُوا ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على الوقفِ في قولِهِ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ ثم ابتَدأَ، فقالَ: اعلَمُوا ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا كأنهُ أقرَبُ.

ويَحتَمِلُ [وَجهَينِ آخرَينِ:

أحدُهما: أنَّ أهْلَ الإسلامِ قالُوا:][9] إنهُمْ إنْ[10] جاءَتْهُمْ آيةٌ لا يؤمِنوا[11]، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ خاطَبَ بهِ هؤلاءِ: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

والثاني: أنهُمْ وإنْ آمَنُوا بها إذا جاءَتْ فنُقلِّبُ أفئِدَتَهُمْ / ١٥٨ - ب/ مِنْ بَعْدُ. وعلى هذا التأويلِ أنْ خَلَقَ تقلُّبِ أفئِدَتِهِمْ وأبصارِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] أي خَلَقَ زَيْغَ قُلُوبِهِمْ، فكذلكَ الأوَّلُ.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ أي نُقلِّبُ أفئدتَهُمْ وأبصارَهُمْ بالحُجَجِ والآياتِ، ونُردِّدُها، فلا يُؤمِنونَ ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ أي نَحولُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الإيمانِ لو جاءَتْهُمْ تلكَ الآياتُ فلا يُؤمِنونَ كما حُلْنا بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الإيمانِ أوَّلَ مَرَّةٍ.

ويَحتَمِلُ وجهاً آخرَ؛ وهو أنْ يُقلِّبَ في أفئدتِهِمْ وأبصارِهِمْ آياتِ وَحدانيَّتِهِ والوهيَّتِهِ، فلا يؤمِنونَ ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

ثم تَخصِيصُ الأفئِدَةِ والأبصارِ دُونَ غَيرِها[12] مِنَ الجَوارِحِ لأنَّ القَلْبَ والبَصَرَ لا يَقَعُ إلّا على ما يَشْهَدُ كُلٌّ على وَحدانيَّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: إنَّ هؤلاءِ، وإنْ جاءَتْهُمْ آيةٌ فإنهُمْ لا يُؤمِنونَ [بها][13] كما لم يُؤمِنْ أوائِلُهُمْ مِنَ الأُمَمِ الخاليَةِ لَمّا سألُوا الآياتِ قَبْلَهُمْ، فكذلكَ هؤلاءِ لا يؤمِنونَ بها، وإنْ جاءَتْهُمُ الآيةُ بَعدَ السُّؤالِ.

---

(١) في الأصل و م: يؤمنون. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الذي. (٥) في الأصل و م: إنكم تؤمنون إذا جاءتكم. (٦) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر: إنها بكسر الألف وقرأ الباقون ﴿أَنَّهَآ﴾ بالفتح، انظر حجة القراءات (٢٦٥) ومعجم القراءات القرآنية (٢/٣٠٨). (٧) في الأصل وم: غيرهم. (٨) من الأصل وم: أنهم. (٩) في الأصل: وجهاً آخر وهو أن كأنه أقرب فقالوا، في م: وجهاً آخر وهو أن أهل الإسلام. (١٠) في الأصل وم: وإن. (١١) في الأصل وم: غيرهم. (١٢) في الأصل وم: غيرهم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقالَ غَيرُهُم: قولُهُ تعالى: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي قد جاءَتهُم آياتٌ قَبلَ هذا على غَيرِ سُؤالٍ، فلم يُؤمِنُوا بها، فكذلكَ، وإنْ جاءَتهُم بالسُّؤالِ فلا يُؤمِنُونَ.

ويَحتَمِلُ وَجهاً آخَرَ؛ وهو أنَّ مُشرِكي العَرَبِ كانُوا يُقسِمُونَ باللهِ أنهُ إنْ جاءَهُم نذيرٌ يُؤمِنُوا[1] بِهِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] يعنُونَ، واللهُ أعلَمُ، اليهودَ والنَّصارى؛ أي لو جاءَهُم نذيرٌ ليَكونُنَّ[2] أهدَى مِنَ اليهودِ والنَّصارى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] يُخبِرُ أنهُم كما لم يُؤمِنُوا بالنَّذيرِ عِندَ سُؤالِهِمُ النَّذيرَ في الابتِداءِ، إذا جاءَهُم نَذيرٌ، فكذلكَ أيضاً لا يُؤمِنُونَ عندَ سُؤالِهِمُ الآياتِ. وإنْ جاءَتهُم آياتٌ، يُخبِرُ نَبيَّهُ أنهُم لَيسُوا يَسألونَ الآياتِ سُؤالَ استِرشادٍ، ولكنْ يَسألونَ سُؤالَ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ. وهذا التَّأويلُ كانَ أقرَبَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ إذا عَلِمَ أنهُم لا يُؤمِنُونَ تَرَكَهُم في ظُلُمتِ ضَلالَتِهِم يَعمَهُونَ، ويَتَحَيَّرُونَ. والعَمَهُ الحَيرَةُ في اللغةِ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾ قيلَ: الآيةُ صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩] ثم قالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ الآية أخبَرَ أنهُم وإنْ [نزّلَ][3] إليهِمُ الآياتِ بَعدَ السُّؤالِ منهُمُ الآياتِ مِن إنزالِ الملائكةِ وتكليمِ المَوتى فإنهُم[4] لا يُؤمِنُونَ؛ إذْ سُؤالُهُمُ الآياتِ سُؤالُ تَعَنُّتٍ واستِهزاءٍ وعِنادٍ لا سُؤالَ استِرشادٍ لأنهُم قد جاءَتهُم آياتٌ، لو لم يُعانِدُوا لآمَنُوا. ثم إذْ عَلِمَ منهُم أنهُم لا يُؤمِنُونَ وأنَّ ما يَسألُونَ، إنما يَسألونَ سُؤالَ تَعَنُّتٍ وعِنادٍ، جَعَلَ فيهِم خِصالاً على الخِذلانِ مِن قَساوةِ القَلبِ حتى أخبَرَ أنَّ قُلوبَهُم أقسَى مِنَ الحِجارَةِ ومِن نَحوِ البُغضِ والجَهالَةِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ الخِصالِ ما يَدُلُّ على ما ذَكَرنا، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [الحجر: ١٤] عَن تَعَنُّتِهِم ومُكابرَتِهِم.

وفيهِ دليلٌ على أنَّ الآياتِ لا تَضطَرُّ أهلَها إلى[5] الإيمانِ لأنهُ قالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ لأنهُ لو كانَتْ آيةٌ تَضطَرُّهُم إلى الإيمانِ لَكانَتْ هذِهِ.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ مَعنَى قولِهِ تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] أنهُم لا يُؤمِنونَ بالآيةِ. ولكنْ إذا شاءَ أنْ يُؤمِنُوا لآمَنُوا، ولو كانَتِ الآياتُ تَضطَرُّ أهلَها إلى الإيمانِ بهِ لكانَ لا آيةَ أعظَمُ مِن [مُعايَنةِ][6] القيامَةِ، ولا أبيَنُ منها.

ثم أخبَرَ عنهُم أنهُم لو ﴿رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وقالَ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] قد كَذَّبوا عندَ مُعايَنَتِهِمُ القيامَةَ والعذابَ. فبهذا يَدُلُّ على أنَّ الآيةَ لا تَضطَرُّ أهلَها إلى[7] الخُضوعِ بالدلائلِ التي ذَكَرنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ قالَ الحَسَنُ: هذِهِ المَشيئَةُ مَشيئَةُ القُدرَةِ؛ أي لو شاءَ اللهُ أنْ يُعجِزَهُم حتى يُؤمِنُوا، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ [يس: ٦٦ و٦٧] ونَحوُهُ. فهذِهِ المَشيئَةُ مَشيئَةُ القُدرَةِ. لكنّا نقولُ: إنهُ أخبَرَ أنهُ لو شاءَ أنْ يَمسَخَهُم لَمَسَخَهُم، وقالَ أيضاً: إنهُ لو شاءَ أنْ يَهدِيَهُم لَهَداهُم، ولو شاءَ أنْ يَهتَدُوا لاهتَدَوا. وكذلكَ يقولُ المُعتَزِلَةُ: إنَّ المَشيئَةَ ههنا مَشيئَةُ القَهرِ والجَبرِ، وقد ذَكَرنا ألّا يكونَ في حالِ القَهرِ والجَبرِ إيمانٌ، فَيَصيرُ على قولِهِم ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أنْ يُؤمِنُوا، فآمَنُوا، فلا يكونُ إيماناً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ اختُلِفَ في تِلاوَتِهِ وتأويلِهِ. [رُوِيَ عنِ الحَسَنِ أنهُ][8] قالَ: قُبلاً مُقابَلَةً[9]

---

(١) في الأصل وم: يؤمنون. (٢) في الأصل وم: ليكونوا. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: إنهم. (٥) في الأصل وم: على.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: على. (٨) في الأصل وم: عن الحسن. (٩) في الأصل وم: عياناً، انظر حجة القراءات (٢٦٧) ومعجم القراءات القرآنية (٢/ ٣١١).

جنة السنة

وعَنْ قَتادةَ(١): قِبَلاً عِياناً حتى يُعايِنُوا ذلكَ مُعايَنَةً ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنْ يُؤْمِنُوا، فَيُؤْمِنُوا. وعَنْ مُجاهِدٍ ﴿قُبُلًا﴾ أي أفواجاً ﴿قُبُلًا﴾.

وفي حَرْفِ أبي عَمْرِو بْنِ العلاءِ: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ يقولُ: جَبيلاً فَجبيلاً، وفي حَرْفِ أُبَيٍّ [بْنِ كَعْبٍ](٢): ﴿قُبُلًا﴾ أي [جمعَ قَبيلٍ](٣). وقالَ القُتَبِيُّ ﴿قُبُلًا﴾ أي جَماعةً جَماعةً و﴿قُبُلًا﴾ أي أصْنافاً.

ويُقالُ: القَبيلُ الكَفيلُ، كقولِهِ تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢] أي ضَمِيناً كَفيلاً. قالَ الكِسائيُّ: مَنْ قَرَأها ﴿قُبُلًا﴾ فقد يكونُ جَمْعَ القَبيلِ مِثْلَ الجَبيلِ والجُبُلِ، وقد يكونُ القُبُلُ أيضاً مِنْ مَعْنى الإقْبالِ كقولِهِ تعالى: ﴿مِن قُبُلٍ﴾ وقولِهِ(٤): ﴿مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٦ و٢٧] ومَنْ قَرَأها قِبَلاً أرادَ مُعايَنَةً.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: كلُّ شَيْءٍ: قُبُلُ(٥)، يُقالُ: أتانا الناسُ قُبُلاً أي كُلُّهُمْ وقُبُلاً مِنَ المُقابَلَةِ.

وتأويلُهُ ما ذَكَرْنا: أنْ لو فَعَلْنا هذا كُلَّهُ مِنْ إنْزالِ الملائِكةِ إليهِمْ وتَكْليمِ المَوتَى إيّاهُمْ ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فأخْبَرُوهُمْ بالذي يقولُ محمدٌ: إنهُ حَقٌّ ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ به ﴿إِلَّا أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ لَهُمُ الإيمانَ، فَيُؤْمِنُوا.

وفيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ الدليلِ أنَّ الآياتِ لا تَضْطَرُّ أهْلَها إلى الإيمانِ بها ﴿إِلَّا أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنْ يُؤْمِنُوا، فَحِينئذٍ يُؤْمِنُونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أي لكنَّ أكْثَرَهُمْ لا يَنْتَفِعُونَ بِعِلْمِهِمْ.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ قيلَ: كما جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ قَبْلُ عَدُوّاً كذلكَ يَجْعَلُ لكَ عَدُوّاً.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ قالَ الحَسَنُ: إنَّ مِنْ حِكَمِ اللهِ أنْ يَبْعَثَ رُسُلاً، وأنَّ كلَّ مَنِ اتَّبَعَ رسولَهُ يكونُ وَلِيّاً لَهُ، ومَنْ عَصَى رَسُولَهُ يكونُ عَدُوّاً لَهُ. هذا حُكْمُ اللهِ في الكُلِّ.

وقالَ جَعْفَرُ بنُ حَرْبٍ والكَعْبِيُّ وغَيرُهُما(٦) مِنَ المُعْتَزِلَةِ: إنَّ قولَهُ: ﴿جَعَلْنَا﴾ أي خَلَّينا بَيْنَهُمْ وبَيْنَ ما اخْتارُوا مِنَ الكُفْرِ والعَداوَةِ، يُقالُ: جَعَلَ فلاناً(٧) كذا، إذا كانَ مُسَلَّطاً على ذلكَ، وهو يَقْدِرُ أنْ يَمْنَعَهُ ذلكَ. ويَصيرُ التأويلُ على قولِ المُعْتَزِلَةِ: أي لم نَجْعَلْ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً، ولكنْ هُمْ جَعَلُوا أنْفُسَهُمْ أعداءً لِكُلِّ نَبِيٍّ.

وقُلْنا نحنُ: إنَّ قولَهُ تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ [يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحدُهُما:](٨) خَلَقْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَداوَةَ كُلِّ عَدُوٍّ. والجَعْلُ مِنَ اللهِ الخَلْقُ كقولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] وقولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢] وقولِهِ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣]. كُلُّ جَعْلٍ أُضِيفَ إلى اللهِ فهو خَلْقٌ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أي خَلَقْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَداوَةَ كُلِّ عَدُوٍّ. ولو كانَ الجَعْلُ(٩) على ما قالَ الحَسَنُ وما قالَ أولئكَ مِنَ التَّخْلِيَةِ لَكانَ يجوزُ أنْ يُضافَ فِعْلُ الكُفْرِ وفِعْلُ الضَّلالِ إلى اللهِ، وذلكَ بَعيدٌ.

والثاني: لم يُوَفِّقْ لَهُمْ فِعْلَ الوِلايَةِ لَمَّا عَلِمَ منهُمْ أنهُمْ يَخْتارُونَ فِعْلَ العَداوَةِ على فِعْلِ الوِلايَةِ.

وقولُهُ /١٥٩ ـ أ/ تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: الشياطينُ كُلُّهُمْ تكونُ مِنَ الجِنِّ، ثم إنهُمْ يُوحُونَ إلى الإنْسِ، فيكونُونَ هُمُ الذينَ يَدْعُونَ الخَلْقَ إلى مَعْصِيَةِ اللهِ، فيكونُ مِنَ الجِنِّ وَحْياً إلى الإنْسِ، ومِنَ الإنْسِ إلى الخَلْقِ قَولاً ودُعاءً.

وقالَ بَعْضُهُمْ: يكونُ مِنَ الجِنِّ شياطِينُ، تَدْعُو شياطِينُ الجِنِّ الجِنَّ إلى مَعْصِيَةِ اللهِ، فهو شيطانٌ، وكذلكَ كُبَراءُ الكَفَرَةِ ورُؤَساؤُهُمُ الذينَ كانُوا يَدْعُونَ أتباعَهُمْ وسَفَلَتَهُمْ إلى الكُفْرِ، والضُّلّالُ مِنْهُمْ شَياطِينُهُمْ. ألا تَرى أنهُ قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: كذلك. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: قبيلة. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: قُبلاً. (٦) في الأصل وم: وغيرهم. (٧) في الأصل وم: فلان. (٨) في الأصل و م: أي. (٩) في الأصل و م: الحكم.

جنة السنة

جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣] وقولهُ تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦] وقولهُ تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] وغيرُهُ مِنَ الآياتِ؟.

إنَّ كُلَّ مَنْ دَعا غَيْرَهُ [إلى مَعْصِيَةِ اللهِ][(١)] والكُفرِ بِهِ، فهو شيطانٌ، والشيطانُ هو البَعيدُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، شَطَنَ أي بَعُدَ. وقيلَ: إنَّ إبليسَ وَكَّلَ شياطينَ الإنسِ [لِيُضِلُّوهُمْ، ويَدْعُوهُمْ][(٢)] إلى مَعْصِيَةِ اللهِ، وَوَكَّلَ[(٣)] شياطينَ الجِنِّ لِيُضِلُّوهُمْ[(٤)]، وهو تأويلُ الأوَّلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي يُزَيِّنُ بَعْضُهُمْ لِبَعضِ القوالَ غُروراً؛ يَغُرُّونَ بِهِ.

قالَ القُتَبِيُّ، رَحِمَهُ اللهُ، ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ ما زُيِّنَ منهُ، وحُسِّنَ، ومُوِّهَ، وقالَ: وأصْلُ الزُّخرُفِ الذَّهَبُ، ويُقالُ: زَخْرَفَ الشيءَ حَسَّنَهُ. قالَ أبو عوسَجَةَ: الوَحْيُ أنْ يُوحِيَ[(٥)] بِعَيْنِهِ أو بِشَفَتِهِ، وهو[(٦)] إشارةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ لَخَلَقَهُمْ خلقاً، لم يُرَكِّبْ [فيهِمْ][(٧)] الشَّهَواتِ والحاجاتِ حتى أطاعُوهُ، ولم يَعْصُوهُ كما خَلَقَ الملائكةَ، لم يُرَكِّبْ فيهِمُ الشَّهَواتِ والحاجاتِ والأمانِيَّ، فَلَمْ يَعْصُوهُ.

وقالَتِ المُعْتَزِلَةُ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ لأعْجَزَهُمْ، وقَهَرَهُمْ حتى لا يَقْدِروا على مَعْصِيَةِ اللهِ والكُفرِ بِهِ، فآمَنُوا، واهْتَدَوا، إنهُ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ لَهَداهُمْ، فاهْتَدَوا، ولكنْ لمّا عَلِمَ منهم أنَّهُمْ يَخْتارُونَ الضَّلالَ على الهُدَى شاءَ ألّا يَهْدِيَهُمْ. وقد ذَكَرْنا قُبْحَ تأويلِهِمُ الآيةَ في غَيرِ مَوضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ هذا يَخرُجُ على الوَعيدِ لَهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ [الحجر: ٣] وكقولِهِ تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] كذا؛ أي ذَرْهُمْ وما يَختارُونَ فإنكَ تراهُمْ في العذابِ.

الآية ١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ﴾ قيلَ: ولِتَميلَ قُلوبُ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى زُخْرُفِ القولِ الذي يُوافِقُ هَواهُمْ، وكُلُّ مَنْ ظَفِرَ بِما يُوافِقُ هَواهُ فإنهُ يَرْضَى بِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ [يونس: ٧] لأنهُمْ لا يُؤمِنُونَ بالآخِرَةِ، ولا يَرْجُونَ لقاءَهُ، وكانَ هَمُّهُمْ هذهِ الدنيا، ورَضُوا بها ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ﴾ أي إلى الكتابِ ﴿أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي لَيسَ [مَيْلُهُمْ مَيلَ قَبولٍ][(٨)] مِنْهُمْ، ولكنْ مَيْلُ طَلَبِ الطَّعْنِ فيهِ. وهكذا [كانَ مَيْلُ][(٩)] أولئكَ الكَفَرَةِ، وعادَتُهُمْ طَلَبُ الطَّعْنِ، والأوَّلُ أشْبَهُ.

ثم إنْ كانَ زُخْرُفُ القولِ الذي أوحَى بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ مِنْ كُبَرائِهِمْ وعُظَمائِهِمْ فقد أشْرَكَ تعالى هؤلاءِ بأولئكَ[(١٠)] في الكَذِبِ الذي كانَ منهُمْ؛ كانَ مِنَ الكُبَراءِ الدعاءُ إلى ذلكَ، ومِنَ الأتباعِ الرِّضا والإجابةُ، وكانَ منهُمُ التَّزيينُ والزَّخْرَفَةُ، ومِنَ الأتباعِ القَبُولُ والرِّضا بِهِ؛ فقدِ اشْتَرَكُوا[(١١)] جميعاً في ذلكَ الكَذِبِ بالقولِ[(١٢)] الغَرُورِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قالَ قائلونَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ يَعْني هؤلاءِ الأتباعَ ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ أي لِيَكْتَسِبَ[(١٣)] هؤلاءِ الأتباعُ مِنَ الكَذِبِ ما كانَ أولئكَ مُكْتَسِبِينَ[(١٤)] مِنَ الكَذِبِ.

وقيلَ: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ أولئكَ المَتْبُوعُونَ مِنَ الكَذِبِ ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ يَعْني هؤلاءِ الأتباعُ مُقْتَرِفونَ مِنَ القولِ الغَرُورِ والزُّخْرُفِ.

ثم اخْتُلِفَ في الاقْتِرافِ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: الاكْتِسابُ: اكْتِسابُ كُلِّ شَيءٍ، وقالَ قائلُونَ: الاقْتِرافُ، هو مُوافَقَةُ الذَّنْبِ والإثْمِ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: معصية. (٢) في الأصل وم: يضلونهم ويدعونهم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يضلونهم. (٥) في الأصل وم: يحيي. (٦) في الأصل وم: وهي. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: ميل قبولهم، في م: ميل قبول. (٩) في الأصل وم: كانت. (١٠) الباء ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: اشركوا. (١٢) في الأصل وم: كالقول. (١٣) في الأصل وم: ليكتسبوا. (١٤) في الأصل وم: مكتسبون.

جنة السنة

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾؟ كانَ أُولئكَ الكَفَرَةُ دَعَوا رسولَ اللهِ ﷺ إلى حَكَمٍ يَحكُمُ بَينَهُم في مُنازَعةٍ، وقَعَتْ بَينَهُم: إمّا في الرسالةِ وإمّا في الكتابِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾؟ ثم بَيَّنَ، فقالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ كيفَ أبتغي حَكَماً غيرَ اللهِ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ ما تَعلَمونَ أنهُ نَزَّلَ ما عَجِزَ الخلائقُ عن إتيانِ مِثْلِهِ؟

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿مُفَصَّلًا﴾ [قيلَ ﴿مُفَصَّلًا﴾](١) بالحُجَجِ والبراهينِ ما يَعرِفُ كُلُّ عاقلٍ، لم يُكابِرْ عَقْلَهُ، أنهُ مِن عندِ اللهِ نَزَلَ.

وقيلَ: ﴿مُفَصَّلًا﴾ بالأمرِ والنَّهيِ والتَّحليلِ والتَّحريمِ، فيقولُ: أأبتغي(٢) حَكَماً غيرَ ما أنزَلَ اللهُ، وقد أنزَلَ كتاباً مُفَصَّلاً ومُبَيَّناً، فيهِ وَعْدٌ ووَعيدٌ؟ وقيلَ: ﴿مُفَصَّلًا﴾ مُفرَّقاً أي أنزَلَهُ بالتَّفاريقِ، لم يُنزِلْهُ مَجموعاً جُملَةً، ما يَقَعُ بِمَسامِعِ كُلِّ أحدٍ عِلْمُ ذلكَ وبيانُهُ. فأنّى يَقَعُ إلى الحاجةِ إلى حُكمِ غيرِهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قيلَ: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي(٣) أهلُ التوراةِ والإنجيلِ ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ وقيلَ: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني مَن أُعطى هذا ﴿الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ لَمّا عَجِزوا عن إتيانِ مِثْلِهِ وتأليفِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يَحتَمِلُ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أنهُم قد غَيَّروا ما في كتابِهِم مِنَ الأحكامِ ومِن بَعْثِكَ(٤) وصِفَتِكَ. ويَحتَمِلُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أنهُ مِن عندِ اللهِ نَزَلَ، مَعَ عِلْمِهِ أنَّ رسولَهُ لا يكونُ مِنَ المُمتَرينَ، لِيَعلَمَ الخَلْقُ أنهُ إذا نَهى رسولَهُ عن مِثلِ هذا، فغَيرُهُ أحَقُّ أنْ يُخاطَبَ مَن طَلَبَ حُكمَ غيرِهِ، ويقولُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أنهُ مِن عندِ اللهِ.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قيلَ: ﴿صِدْقًا﴾ في الأنباءِ ﴿وَعَدْلًا﴾ في الأحكامِ، تَمَّتْ أنباؤُهُ بالصِّدقِ وأحكامُهُ بالعَدْلِ حتى يَعرِفَ كُلُّ أحدٍ صِدقَ أنبائِهِ وعَدْلَ أحكامِهِ. وقيلَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ بالحُجَجِ والبراهينِ لِما يَعرِفُ كُلُّ مَن تأمَّلَ فيها، ونَظَرَ صِدقَها وعَدلَها، أنها مِنَ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ هذا تفسيرُ التَّمامِ أنها تَمَّتْ تماماً(٥)، لا يَرِدُ عليها النَّقضُ ولا الجَورُ ولا الخُلْفُ، لَيسَتْ(٦) كَكَلِماتِ الخَلْقِ أنها تُبَدَّلُ، وتُنقَضُ، وتُمنَعُ، لِما يكونُ فيها مِنَ النُّقصانِ والفَسادِ، فإنها تُبَدَّلُ، وتُنقَضُ. ويَعجِزونَ عن وَفاءِ ما وَعَدوا، ويُمنَعونَ عن ذلكَ. فاللهُ، تعالى، يَتَعالى عن أنْ يُبَدِّلَ كلماتِهِ، أو يَمنَعَ عن وفاءِ ما وَعَدَ، وأنبأ، [أو يَجورَ](٧) في حُكمِهِ. ويَجوزُ أنْ يُستَدَلَّ بقولِهِ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ لِقَولِ أصحابِنا حِينَ(٨) قالوا: مَن قالَ لامرأتِهِ: أنتِ طالِقٌ، أتَمَّ الطلاقِ وأعدَلَ الطلاقِ، فإنهُ يَقَعُ بما وافَقَ السُّنَّةَ، لَيسَ يَرجِعُ ذلكَ إلى العَدلِ(٩)؛ لأنهُ أخبَرَ أنْ تَمَّتْ كَلِمَتُهُ صِدقاً وعَدلاً، والمُوافِقُ لِلسُّنَّةِ هو الحَقُّ، وهو العَدلُ.

ويَحتَمِلُ ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا مُبَدِّلَ لِحُجَجِهِ وبَراهينِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي ﴿السَّمِيعُ﴾ بما ألقى الشيطانُ، وأوحى بَعضُهُم إلى بَعضٍ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعالِ هؤلاءِ وإجابتِهِم إيّاهُم. وأهلُ التأويلِ يَصرِفونَ إلى خاصٍّ مِنَ القَولِ: بَعضُهُم يقولونَ: إنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ هو قولُهُ تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣]. وقالَ آخَرونَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دَعاهُ أهلُ الكُفرِ إلى عبادةِ الأوثانِ.

ولكنْ هو يَرجِعُ، واللهُ أعلَمُ، إلى كُلِّ نَبَإٍ وَوَعْدٍ وَوَعيدٍ وكُلِّ خَبَرٍ يُخبَرُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أبتغي. (٣) في الأصل وم: إلى. (٤) في الأصل وم: نعتك. (٥) من م، في الأصل: تمام.
(٦) في الأصل وم: ليس، وأدرج قبلها في الأصل وم: أنها. (٧) في الأصل وم: إذ يجوز. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: العدد.

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآيةُ دلالةٌ أنَّ أكثَرَ أهلِ الأرضِ كانُوا ضُلّالاً وعُبّادَ الأوثانِ والأصنامِ لأنهُ قال: ﴿أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُضِلُّوكَ﴾ لأنهُمْ إلى أهْلِ الضَّلالِ كانُوا يَدْعُونَهُ. ثم الخِطابُ، وإنْ كانَ لِرَسولِ اللهِ في الظاهِرِ، فهو لِكُلِّ[1] مُؤمِنٍ؛ إذْ مَعْلُومٌ أنّ رسولَهُ لا يُطيعُهُمْ في ما يَدْعُونَهُ إلى عِبادةِ الأوثانِ. [وفيهِ أنَّ في الأرضِ مَنْ كانَ][2] يَعْبُدُ اللهَ، وكانَ على دينِ الأنبياءِ والرُّسُلِ.

وقولُهُ تعالى/ ١٥٩ ـ ب/: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ذُكِرَ في القِصّةِ أنَّ أهلَ الكُفرِ دَعَوا رسولَ اللهِ ﷺ إلى عبادةِ الأوثانِ، [وأنهم][3] يقولونَ: إنهُمْ يَعْبُدونَ اللهَ في الحقيقةِ كقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وكقولِهِمْ[4]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وأنهُمْ[5] يَعْبُدونَ الأوثانَ، ويَرْتَكِبونَ الفواحِشَ، ويَقُولونَ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] فأخبَرَ رسولَهُ أنكَ لو أطَعْتَ هؤلاءِ إلى ما يَدْعُونَكَ مِنْ عِبادةِ هذهِ الأصنامِ [لأضَلّوكَ، فما هُمْ][6] إلّا ظَنّاً يَظُنُّونَ كقولِهِ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي ما يَتَّبِعُونَ إلّا الظَّنَّ ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ما هم إلّا يَكْذِبونَكَ على اللهِ في قولِهِمْ: إنَّ ذلكَ يُقَرِّبُهُمْ ﴿إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ يَعلَمُ مَنْ يَزيغُ، ويَضِلُّ عَنْ سَبيلِهِ، ويَعْلَمُ مَنْ يَهْتَدي بِهِ. وفي[7] قولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ دَلالةٌ على أنهُ على عِلْمٍ منهُ بالضَّلالِ والتَّكذيبِ؛ بَعَثَ الرُّسُلَ إليهِمْ، وأرْسَلَ الكُتُبَ لا عَنْ جَهْلٍ منهُ، لكنْ صارَ بَعْثُ مَنْ بَعَثَ مِنَ الرُّسُلِ والكُتُبِ إليهِمْ حِكْمَةً على عِلْمٍ منهُ بما يكونُ منهُمْ؛ لأنهُ إنما يَبْعَثُ لِمَكانِ الرُّسُلِ إليهِمْ ولِحاجتِهِمْ.

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ صَرَفَ أهلُ التّأويلِ الآيةَ إلى أهلِ الكُفرِ، وقالُوا: ما بالُكُمْ تَأكُلونَ ذبائحَكُمُ التي ذبَحْتُمْ، ولا تَأكُلونَ مما ذُكِرَ عليهِ اسْمُ[8] اللهِ، وزَكّاهُ؛ صَرَفُوا الخِطابَ بهِ إلى أهلِ الشِّرْكِ، والأشبَهُ أنْ يُصْرَفَ الخِطابُ بهِ إلى أهلِ الإسلامِ لأنهُ ذَكَرَ في آخِرِهِ: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾. ومِثْلُ هذا لا يُذْكَرُ في أهلِ الشِّرْكِ، إنما ذِكْرُ الخطابِ [إلى][9] أهلِ الإسلامِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقولِهِ تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] ونَحْوُهُ مِنَ الآياتِ.

فَعَلى ذلكَ الأشبَهُ أنْ يُصْرَفَ الخِطابُ بها إلى أهلِ الإسلامِ؛ كانَ قومٌ[10] مِنْ أهْلِ الإسلامِ مَنَعُوا أنفُسَهُمْ عَنِ التَّناوُلِ مِنْ هذهِ الذَّبائحِ واللُّحومِ، فَنُهُوا عَنْ ذلكَ نَحْوَ ما رُوِيَ في بَعْضِ القِصّةِ أنَّ نَفَراً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ هَمُّوا أنْ يُخْصُوا[11] أنفُسَهُمْ، وألّا يُعْطوا أنفُسَهُمْ شَهَواتِها، وألّا يَتَناوَلُوا[12] مِنَ الطَّيِّباتِ، فَنُهُوا عَنْ ذلكَ. وقيلَ: فيهِمْ نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧] فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فيهِمْ، أو لَمّا عَلِمَ أنَّ قوماً مِنَ المُتَقَشِّفَةِ والمُتَزَهِّدَةِ[13] يُحَرِّمونَ ذلكَ على أنفُسِهِمْ، فَنُهُوا عَنْ ذلكَ.

فإنْ كانَ [هذا][14] ما قالَ أهلُ التّأويلِ فهوَ، واللهُ أعْلَمُ، كأنهُ قالَ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ بما تَعْلَمونَ أنَّ الخَلْقَ والأمرَ لَهُ، وقد أنْشَأَ لَكُمْ مِنَ الآياتِ ما تَعْلَمُونَ ذلكَ، فيكفَ تُحَرِّمونَ ما[15] ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليهِ؟

---

(١) في الأصل وم: كل. (٢) في الأصل: في الأرض كان من، في م: في الأرض وفيه أن في الأرض كان من. (٣) ساقطة من الأصل وم.
(٤) في الأصل وم: ويقولون. (٥) في الأصل وم: كأنهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: في. (٨) في الأصل وم: تأكلوا ما ذبح. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قوماً. (١١) في الأصل وم: يخصموا. (١٢) في الأصل وم: يتناول. (١٣) في الأصل وم: والمتوصدة. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: مما.

جنة السنة

الآية ١١٩ ثم أمَرَ بأكْلِ ما ذُكِرَ اسْمُ اللهِ [عليهِ](١)، وعاتَبَ عنْ تَرْكِ ما ذُكِرَ اسْمُ اللهِ [عليهِ](٢) بقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ولم يُبيِّنْ بِمَ؟ وبأيِّ وجهٍ؟ بالذَّبحِ أو بغَيْرِهِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥] ولم يُبيِّنْ مِنْ أيِّ وجهٍ؟ لكنَّ الناسَ اتَّفقُوا على صَرْفِ ذلكَ إلى الذَّبحِ، فكانَ الذَّبحُ مُضمَراً فيهِ؛ كأنهُ قالَ: فكُلُوا مِمَّا ذُبِحَ بذِكْرِ اسْمِ اللهِ عليهِ.

ثم لا يَخلُو اتِّفاقُهُم بمَعرِفَةِ ذلكَ؛ إمّا أنْ عَرَفُوا ذلكَ بالسَّماعِ مِنْ رسولِ اللهِ، وإمّا أن](٣) عَرَفُوا ذلكَ بنَوازِلِ الأحكامِ، إذْ لَيسَ في الآيةِ بَيانُ ذلكَ. فكيفَ ما كانَ ففيهِ دَلالةُ نَقْضِ قولِ مَنْ يَقولُ بأنَّ مَنْ عرَفَ نَوازِلَ الأحكامِ، أو كانَ عندَهُ دِرايةٌ، يَفسُقُ لأنهُ لم يَذكُرْ هنا النَّوازِلَ ولا السَّماعَ. دَلَّ أنهُ لا يَفْسُقُ إنْ كانَ قولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ذُكِرَ لِمكانِ قولِ الوَثَنِيَّةِ لأنهُم يُحرِّمُونَ الذبائحَ، ويقولُونَ: لَيسَ مِنَ الحِكمَةِ إيلامُ مَنْ لا ذَنْبَ لَهُ، أو ذُكِرَ لِمكانِ قولِ مَنْ يَقولُ: إنكُم أكَلْتُم ما تَذبَحُونَ بأيديكُم، ولا تأكُلونَ ما يُولي اللهُ قَتْلَهُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] أباحَ ﷻ مِنَ الأنعامِ ما ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليهِ، وحَظَرَ ما لم يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عليهِ، ونَهَى عَنْ أكْلِهِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وبقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣ و...] جعَلَ المُهَلَّ لِغيرِ اللهِ [بهِ](٤) مَيْتَةً حراماً، وجَعَلَ المَذكورَ اسْمُ اللهِ عليهِ ذكيّاً حَلالاً، فَدَلَّ أنَّ التَّسمِيَةَ شَرْطٌ في حِلِّ الذَّبيحَةِ؛ لأنهُ لو لم يَكُنْ شَرْطاً في حِلِّ الذَّبيحَةِ لم يَكُنِ المُهَلُّ بهِ لِغَيْرِ اللهِ مَيْتَةً حراماً، ولأنهُ سَمَّى ما لم يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عليهِ فِسقاً؛ والفِسْقُ هو الخُروجُ عَنْ أمْرِ اللهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، فَدَلَّ أنَّ التَّسمِيَةَ شَرْطٌ فيها. ولهذا يَحِلُّ(٥) لنا ذَبائحُ أهْلِ الكتابِ إذا سَمِعْناهُم يَذكُرُونَ اسْمَ اللهِ عليهِ، وإنْ كانُوا لا يَذكُرُونَ في الحَقيقَةِ غَيْرَ اللهِ؛ لأنهُم لا يَعْرِفونَ اللهَ حَقيقَةً، ولكنْ إذا ذَكَرُوا اسْمَ اللهِ عليهِ يَحِلُّ لنا.

ولا يَحِلُّ [لنا](٦) ذبائحُ أهلِ الشِّرْكِ؛ لأنَّ أهْلَ الشِّرْكِ لا يَرَونَ الذَّبائحَ رأساً؛ يَذهَبُونَ مَذهَبَ الزَّنادِقَةِ، والزَّنادِقَةُ لا يَرَونَ الذَّبائحَ؛ يَقولُونَ لنا: تَقولُونَ: إنَّ رَبَّكُم رَحيمٌ حكيمٌ، ولَيسَ مِنَ الحِكمَةِ أوِ الرَّحمَةِ أنْ يأمُرَ أحداً بِذَبْحِ آخَرَ، ويَقتُلَهُ، فيَأكُلونَ المَيْتَةَ، ولا يَرَونَ أكْلَ الذَّبيحَةِ، ويَقولُون: لَيسَ هذا أمْرَ مَنْ كانَ مَوصوفاً بالرَّحمَةِ أو بالحِكمَةِ.

لكنّا نَقولُ: [إنَّ ذلكَ في أمْرَينِ:

أحَدُهُما:](٧) أنَّ كَراهَةَ الذَّبحِ والنُّفورَ عنهُ نُفُورُ طَبْعٍ، [وكَراهَتُهُ كراهَةُ الطَّبْعِ لا كَراهَةُ العَقْلِ](٨)؛ [يَجوزُ أنْ يُباحَ [أمْرٌ](٩) لِما يُعقِبُ نَفْعاً في المُتَعَقَّبِ نَحْوُ ما يُباحُ الافتِصادُ والحِجامَةُ والتَّداوِي بأدويَةٍ كَريهَةٍ لِنَفْعٍ يَعقُبُ، ويُؤمَلُ(١٠)، وإنْ كانَ الطَّبْعُ يَكرَهُهُ، ويَنفُرُ عنهُ](١١)، ولَيسَ هو مِمّا يُقَبِّحُهُ العَقْلُ. إنَّ ما لا يجوزُ أنْ يُباحَ فِعْلُ، ويُؤمَرَ بهِ، مِمّا يُقبِّحُهُ العَقْلُ، [ويَكرَهُهُ العَقْلُ](١٢).

وأمّا كراهَةُ الطَّبْعِ ونُفورُهُ فإنهُ يجوزُ أنْ يُباحَ لِما ذَكَرْنا، ويَرْتَفِعُ ذلكَ بالعادَةِ. فعَلَى ذلكَ الذَّبحُ(١٣)؛ كَراهَتُهُ [لَيسَتْ](١٤) كَراهَةَ العَقْلِ ونُفورَهُ.

والثاني: أنَّ هذِهِ الأشياءَ كُلَّها إنما [خُلِقَتْ لَنا، وسُخِّرتْ](١٥) لِمَنافِعِنا، لم تُخْلَقْ لأنْفُسِها. فإذا كانَ ذلكَ(١٦) يَحِلُّ لنا ذَبْحُها والتَّناوُلُ مِنْها بِأمْرِ الذي أنْشَأها، وسَخَّرَها(١٧) لنا.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) أدرج قبلها في الأصل: لم، وفي م: ما. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: وكراهة طبع لا كراهة العقل مما يكرهه الطبع وينفر عنه، في م: وكراهته كراهة طبع يكرهه وينفر عنه. (٩) ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل: ويتأمل. (١١) ساقطة من م. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: الذبيحة. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: خلق لنا، وسخر. (١٦) في الأصل و م: كذلك. (١٧) في الأصل وم: لنا وسخر.

جنة السنة

وبَعْدُ فإنَّ مَذْهبَهُمْ أنَّ العالَمَ إنما كانَ بامْتِزاجِ النورِ والظُّلْمَةِ، والرُّوحُ مِنَ النُّورانيِّ، والجِسْمُ مِنَ الظُّلمانيِّ. ففي الذَّبْحِ اسْتِخراجُ الرُّوحِ وردُّهُ إلى أصْلِهِ؛ إذْ مِنْ قولِهِمْ: إنَّهُ يَرْجِعُ كُلٌّ إلى أصْلِهِ في العاقِبَةِ على ما كانَ في الأوَّلِ.

وأمّا جوابُ[1] ما قالَهُ أهْلُ الشِّرْكِ: أكَلْتُمْ ما ذَبَحْتُمْ أنْتُمْ، وترَكْتُمْ ذَبيحَةَ اللهِ [ففي وجهَيْنِ][2]:

أحَدُهُما: ما قالَهُ أهْلُ التَّأويلِ: إنَّ الخَلْقَ لهُ، ولهُ الحُكْمُ عليهِمْ، فأحَلَّ لَهُمْ هذا، وحَرَّمَ عليهِمْ هذا.

والثاني: تَعَبَّدَنا بِذِكْرِ اسْمِهِ عليها، فصارَ اسْمُ اللهِ إقامَةَ عبادَةٍ تَعَبَّدَنا بها، وفي ما لم نَذْكُرْ لم تَكُنْ عِبادَةٌ. كذلكَ حَلَّ لنا ما كانَ في ذلكَ إقامَةُ عِبادَةٍ، ولم يَحِلَّ لنا ما لم يَكُنْ فيهِ[3] إقامَةُ عبادَةٍ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ هو في الظّاهِرِ أمْرٌ. لكنَّ الأمْرَ الذي يَرْجِعُ إلى شَهَواتِ النَّفْسِ ولَذّاتِها فإنهُ يَخرُجُ على وجهَيْنِ؛ إمّا أن يَخرُجَ على بَيانِ ما يَحِلُّ والنَّهْيِ عمّا[4] لا يَحِلُّ. فهَهُنا خَرَجَ على ما يَحِلُّ، وتَحْريمِ ما لا يَحِلُّ؛ كأنهُ قالَ: كُلُوا مِمّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليهِ، ولا تأكُلُوا مِمّا لم يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي ما لَكُمْ ألّا تأكُلُوا كذا، وقد بيَّنَ[5] لَكُمْ ما حَرَّمَ عليكُمْ مِنَ المَيْتَةِ والدَّمِ ولَحْمِ الخِنْزيرِ إلّا ما اضْطُرِرْتُمْ إليهِ.

قالَ الحَسَنُ: لَهُ أن يَتَناوَلَ مِنَ المَيْتَةِ حتّى يَشْبَعَ؛ لأنهُ أحَلَّ لهُ التَّناوُلَ. وعلى قولِنا: لا يَحِلُّ لهُ الشِّبَعُ؛ لأنهُ إنما أحَلَّ عندَ /١٦٠ ـ أ/ الاضْطِرارِ لا الشِّبَعِ. ويَقولُ الحَسَنُ: لو تَرَكَ التَّناوُلَ منها حتى هَلَكَ لا شيءَ عليهِ؛ يقولُ: إنما أُحِلَّتْ لَهُ رُخْصَةً ورَحْمَةً، ولَيسَ على مَنْ لم يَعْمَلْ بالرُّخَصِ إثْمٌ.

ولكنْ عندَنا: أنها أُبيحَتْ في حالِ الاضْطِرارِ؛ فإذا تَرَكَ التَّناوُلَ منها حتى هَلَكَ صارَ مُلْقِياً نَفْسَهُ في التَّهْلُكَةِ، وقد حَرَّمَ اللهُ علينا أنْ نُهْلِكَ أنْفُسَنا، أو نُلْقِيَها في التَّهْلُكَةِ بقولِهِ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] ولا فَرْقَ بَيْنَ تَرْكِ التَّناوُلِ مِنَ المَيْتَةِ، وقد أحَلَّ لنا التَّناوُلَ مِنْ غَيْرِها[6] مِنَ الأطْعِمَةِ المُحَلَّلَةِ، أو [أنْ][7] نأتيَ بأسبابِ إتلافِ النَّفْسِ، فهُما سَواءٌ.

ويقولُ أيضاً: لهُ أنْ يَتَناوَلَ عِندَ الاضْطِرارِ مِنْ مالِ غَيْرِهِ بلا بَدَلٍ. وإذا نَهَى صاحِبُهُ عَنْ ذلكَ يَضْمَنُ بَدَلَ ذلكَ بالِغاً ما بَلَغَ، فهذا بَعيدٌ لا يَجوزُ أنْ يَتَناوَلَ مِنْ[8] مالِ غَيْرِهِ، ولا يَلْزَمُهُ البَدَلُ. وإذا نَهاهُ عن ذلكَ يَلْزَمُهُ البَدَلُ؛ لأنَّ مَنْ كانَ لَهُ حَقُّ التَّناوُلِ مِنْ مالٍ آخَرَ بِغَيْرِ بَدَلٍ، ثم إذا نُهِيَ، أو مُنِعَ، يَلْزَمُهُ البَدَلُ. دلَّ أنهُ لَيسَ لهُ التَّناوُلُ إلّا بِبَدَلٍ، وقد ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دلَّ هذا على أنَّ الكُلَّ منهُمْ لم يكونوا يُضِلُّونَ، ولكنَّ البَعْضَ هُمُ الأئِمَّةُ مِنهُمْ والرُّؤساءُ؛ لأنَّ الأتباعَ مِنهُمْ كانُوا لا يُضِلُّونَ الناسَ إنما [كان يُضِلُّهُمْ][9] الكُبَراءُ منهُمْ والعُظَماءُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قِيلَ: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾ بظاهِرِ الجَوارِحِ وباطِنِها؛ ظاهِرُ الجَوارِحِ مِنْ نَحْوِ اليَدِ والرِّجْلِ واللِّسانِ والعَيْنِ، وباطِنُ الجَوارِحِ القُلُوبُ والضَّمائِرُ. وقيلَ: ذَرُوا الإثْمَ في مَلإٍ مِنَ الخَلْقِ وفي الخَلاءِ. وقيلَ: ظاهِرُ الإثْمِ ما ذَكَرْنا، وباطِنُهُ الزِّنَى.

قالَ أبو بَكْرٍ الكَيْسانيُّ: كأنهُ قالَ: وذَرُوا المآثِمَ كُلَّها، ما ظَهَرَ منها، وما بَطَنَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ لا يُتْرَكُونَ وما عَمِلُوا، ولكنْ يُجْزَوْنَ جَزاءَ ما

---

(١) في الأصل وم: الجواب. (٢) في الأصل وم: وجهان. (٣) في الأصل وم: فيها. (٤) في الأصل وم: على ما. (٥) في الأصل وم: يبين، وهو إشارة إلى قولِهِ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]. (٦) في الأصل و م: غيره. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل و م: عن. (٩) في الأصل و م: كانوا يضلون.

جنة السنة

عَمِلُوا مِنَ الإثمِ، وهو وَعيدٌ [لأنهم](١) يَكْسِبُونَ الإثمَ، ويُصِرُّونَ عليهِ، ولا يَتُوبونَ، ولا يَنْقَلِعُونَ عنهُ حتى [إذا](٢) ماتُوا على ذلكَ ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا﴾ ذَكَرَ.

الآية ١٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هو المَيْتَةُ، وهو قولُ ابْنِ عباسٍ ﷺ وقالَ بَعْضُهُمْ: هو ما ﴿أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣ و...].

وقُلْنا نحنُ: هو ما ﴿لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ لأنَّ اللهَ قد صَرَّحَ بِتَحْريمِ المَيْتَةِ بقولِهِ: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [المائدة: ٣] وصَرَّحَ به بِتَحْريمِ ما ﴿أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ بقولِهِ: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣ و...] تَصْريحاً(٣) في غَيْرِ هذا المَوْضِعِ [إذْ](٤) رَجَعَ هذا الخِطابِ إلى تَحْريمِ ما ﴿لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

وكذلكَ صَرَّحَ بِتَحْريمِ المَيْتَةِ وما أهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ بقولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] كانَ لا يَجِدُ في ذلكَ الوقتِ، ثم وَجَدَ ما ﴿لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ مُحَرَّماً في حادِثِ الوَقْتِ. وكذلكَ وَجَدَ(٥) كُلَّ ذي نابٍ مِنَ السِّباعِ وكُلَّ ذي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ مُحَرَّماً في حادِثِ الوقتِ. كانَ لا يَجِدُ في تلكَ(٦) الأوقاتِ مُحَرَّماً إلّا ما ذَكَرَ، ثم وَجَدَ أشياءَ مُحَرَّمَةً مِنْ بَعْدُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ مِنْ أهْلِ التَّأويلِ: وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ حِينَ قالُوا: ما قَتَلْتُمْ، وذَبَحْتُمْ أنتُمْ، فَتَأْكُلُونَهُ، وما قَتَلَ رَبُّكُمْ فَتُحَرِّمُونَهُ، وأنتُمْ تُعَظِّمُونَ رَبَّكُمْ، وهو مِنْ زُخْرُفِ [القولِ](٧) الذي يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ وما ذَكَرُوا أنَّ ﴿الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾.

لكنّا نقولُ: [فيهِ وُجوهٌ:

أحدُها:](٨) أنَّ ما ذُبِحَ، وقُتِلَ، ذَبيحُ اللهِ وقَتيلٌ بهِ أيضاً، فقد أذِنَ لنا بأكلِ بَعْضِ الذَّبيحِ، وحَرَّمَ أكْلَ بَعْضٍ. ولِلَّهِ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ؛ لَهُ أنْ يأذَنَ في أكْلِ بَعْضٍ وتَحْريمِ أكْلِ بَعْضٍ على ما أذِنَ لنا في أكْلِ بَعْضِ ما خَلَقَ لنا مِنَ الأنعامِ، ولم يأذَنْ في أكْلِ بَعْضٍ. فَعَلى ذلكَ قد أذِنَ في أكْلِ بَعْضِ ما ذُبِحَ بِهِ، وقُتِلَ، ولم يأذَنْ في بعضٍ. وهو كُلُّهُ ذَبيحٌ باللهِ وقَتيلٌ بِهِ، ولَهُ ذلكَ.

والثاني: أنَّ الخَلْقَ كُلَّهُ لَهُ مُلْكُهُ، ولا يُقالُ لأحَدٍ في مُلْكِهِ: لِمَ فَعَلْتَ ذا؟ ولِمْ تَفْعَلْ ذا؟ إنما يُقالُ ذلكَ في غَيْرِ مُلْكِهِ كَشَريكٍ يَقولُ لِشَريكِهِ: لِمْ تُعْطِني حَقّي، ولِمْ تُوَفِّرْ عليَّ نَصيبي، فأمّا أنْ يَقولَ: لي(٩) مُلْكٌ في مُلْكِهِ فَلا.

والثالثُ: ما ذَكَرْنا أنَّ(١٠) تَعَبُّدَنا بِذِكْرِ اسْمِ اللهِ عليهِ عِبادَةٌ، لِذلكَ لم يَجُزْ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أخْبَرَ أنَّ(١١) ما ﴿لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فِسْقٌ كما أخْبَرَ أنَّ التَّناوُلَ مِنَ المَيْتَةِ ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣ و...] فِسْقٌ، والفِسْقُ هو الخُروجُ عن أمْرِ اللهِ. والذي تَرَكَ ذِكْرَ اسْمِ اللهِ عليهِ خارِجٌ عن أمْرِ اللهِ تعالى كالمَيْتَةِ التي ذَكَرْنا.

فإنْ قالَ قائلٌ: إنَّ قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فكيفَ يجوزُ لَكُمْ أنْ تُطْلِقُوا أكْلَ الذَّبيحَةِ إذا تَرَكَ ذِكْرَ اسْمِ اللهِ ناسِياً؟ لأنَّ الذبائحَ إنما هي مِنْ عَمَلِ القَصّابينَ والصِّبْيانِ؛ فَهُمْ لم يُعَوِّدوا أنْفُسَهُمْ ذِكْرَ اسْمِ اللهِ حتى يُؤاخَذُوا(١٢) بها على حِفْظِ ذلكَ.

وهذا أصْلُنا: أنَّ [مَنْ](١٣) لم يُعَوِّدْ نَفْسَهُ فِعْلاً يُعْذَرْ في تَرْكِهِ، وارْتِكابُهُ في حالِ السَّهْوِ والنِّسْيانِ كالأكْلِ في شَهْرِ رَمَضانَ ناسِياً؛ لأنهُ عَوَّدَ نَفْسَهُ الأكْلَ والشُّرْبَ، والصَّوْمُ هو الكَفُّ عَمّا اعْتادَ، فَعُذِرَ في التَّناوُلِ منهُ والعَوْدِ إلى العادَةِ على السَّهْوِ؛ لأنهُ يَشْتَدُّ على الناسِ حِفْظُ النَّفْسِ على خِلافِ العادَةِ، ولأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ ولا خِلافَ في أنَّ مَنْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: تصريح. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: وجه.
(٦) في الأصل وم: ذلك. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: في ذي. (١٠) في الأصل وم: أنه.
(١١) في الأصل وم: أنه. (١٢) في الأصل وم: يؤاخذون. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

نَسِيَ أنْ يُسَمِّيَ اللهَ على ذَبِيحَةٍ فَلَيس بِفاسِقٍ، وإنما يَفسُقُ مَنْ تَرَكَها عامِداً. فَدَلَّ أنَّ الخِطابَ بالآيَةِ رَجَعَ إلى الذَّبِيحَةِ التي تَرَكَتِ التَّسْمِيَةَ عَمْداً.

فإنْ قِيلَ: لَيسَ يَجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ يُريدُ بِهِ أنَّ الذي يَأكُلُ مِنْها إذا لَمْ يُسَمِّ اللهَ عليها عامِداً أو ساهِياً فاسِقٌ، وإنْ كانَ هذا هو التَّأويلَ فالآيةُ على الأكْلِ.

قِيلَ: الدليلُ على أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ إشارةٌ إلى الذَّبِيحِ الذي تُرِكَ ذِكْرُ اسمِ اللهِ عليهِ عَمْداً دُونَ أنْ يكونَ ذلكَ إشارةً إلى أنَّ الأكْلَ مِنْ تلكَ الذَّبِيحَةِ فِسْقٌ قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥] فكان الإهلالُ بالذَّبِيحَةِ لِغَيْرِ اللهِ فِسْقاً لِمَنْ فَعَلَهُ. فَواجِبٌ أن يكونَ تَرْكُ اسمِ اللهِ على الذَّبِيحَةِ فِسْقاً مِمَّنْ تَعَمَّدَهُ، وذلك يُوجِبُ أنْ يكونَ قولُ اللهِ: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ خاصّاً في المُتَعَمِّدِ لِقَوْلِهِ التَّسْمِيَةَ.

[فإنْ قِيلَ][(١)]: كيفَ لم يَجْعَلُوا تارِكَ التَّسْمِيَةِ ناسِياً كَتارِكِها عامِداً كما قُلْتُم في التَّكْبِيرَةِ الأولَى في الصلاةِ: إنَّ عَمْدَهُ وسَهْوَهُ سَواءٌ. قِيلَ: مَنْ قالَ[(٢)]: إنَّ الذَّبِيحَةَ إذا تَعَمَّدَ صاحِبُها تَرْكَ التَّسْمِيَةِ عليها إنما حُرِّمَتْ بِنَصِّ القرآنِ؛ لأنهُ فِسْقٌ، فَقُلْنا: مَتَى زالَ الفِسْقُ عنِ الذابِحِ زالَ التَّحْريمُ عنِ الذَّبِيحَةِ؛ لأنَّ التَّحْريمَ إذا وَقَعَ لِعِلَّةٍ، فَزالَتِ العِلَّةُ، زالَ التَّحْريمُ. ولم نَقُلْ: إنَّ صلاةَ [تارِكِ التَّكْبِيرَةِ الأُولَى فاسِدَةٌ][(٣)]؛ لأنهُ فَسَقَ بِتَرْكِهِ[(٤)] التَّكْبِيرَةَ عامِداً، فَيَلْزَمُنا أنْ نُفَرِّقَ بَيْنَ سَهْوِها وعَمْدِها، بل فَسَدَتْ صَلاتُهُ صَلَّى بِغَيْرِ تَكْبِيرٍ. فالتارِكُ التَّكْبِيرَ عامِداً أو ساهِياً تارِكٌ، فَهُما سَواءٌ.

وَرُوِيَ في الخَبَرِ ما يُؤَيِّدُ ما قُلْنا: رُوِيَ عن راشِدِ بْنِ سَعْدٍ [أنهُ][(٥)] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ذَبِيحَةُ المُسْلِمِ حَلالٌ، سَمَّى، أو لم يُسَمِّ، ما لَمْ يتعَمَّدْ» [البيهقي في الكبرى ٩/ ٢٤٠] وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ: في رجُلٍ، ذَبَحَ، ونَسِيَ أنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللهِ [أنهُ][(٦)]، قالَ: اسْمُ اللهِ في قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ، فَلْيَأكُلْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ أهْلُ التَّأويلِ صَرَفُوا تأويلَ هذا إلى أنَّ زُخْرُفَ القولِ الذي يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ في الآيةِ الأُولَى هو مُجادَلَتُهُمْ في الذَّبِيحَةِ حِينَ[(٧)] قالُوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون/ ٨٢ و...] فأخْبَرَ أنهُمْ لو أطاعُوهُمْ إنَّهُمْ لَمُشْرِكُونَ؛ أي لو أطَعْتُمُوهُمْ في ما يُجادِلُونَكُمْ، ويُوحُونَ إليكُمْ[(٨)] ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

الآية ١٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ/ ١٦٠ ـ ب/ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ يُشْبِهُ: أمَنْ[(٩)] أُخْرِجَ مِنْ ذلكَ، فأبْصَرَ، وسَمِعَ، وعَقَلَ، كَمَنْ تُرِكَ في تلكَ الظُّلُماتِ، ولم يُخْرَجْ منها؟ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، لا يَسْتَوِي مَنْ أُخرِجَ مِنْ ظُلُماتِ البَطْنِ بَعْدَ ما كانَ لا يُبْصِرُ، ولا يَسْمَعُ، ولا يَعْقِلُ، ولا يَفْهَمُ، ثم أبْصَرَ، وسَمِعَ، وعَقَلَ، والذي تُرِكَ في تلكَ الظُّلُماتِ على الحالِ التي كانَ [كما][(١٠)] هو لا يُبْصِرُ، ولا يَسْمَعُ، ولا يَعْقِلُ.

فَعَلَى ذلكَ لا يَسْتَوِي المُؤْمِنُ الذي يُبْصِرُ الحَقَّ، ويَسْمَعُ، ويَعْقِلُ كُلَّ خَبَرٍ، ويَعْلَمُهُ ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ بِنورِهِ [يمشي][(١١)] أصحابٌ يَدْعُونَ الناسَ إلى الهُدَى والخَيْرِ، والكافِرُ الذي لا يُبْصِرُ الحَقَّ[(١٢)]، ولا يَسْمَعُ، ولا يَعْقِلُ، ليس لهُ أصحابٌ يدعُونَه إلى الهُدَى والخيراتِ: أي ليس هذا كذلك الذي يُبْصِرُ، ويَسْمَعُ، ويَعْقِلُ، كالذي لا يُبْصِرُ، ولا يَسْمَعُ، ولا يَعْقِلُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المَثَلُ الذي ضَرَبَ اللهُ أنْ يكونَ المؤمِنُ والكافِرُ جَميعاً حَيَّيْنِ في الجَوْهَرِ. لكنَّ المؤمِنَ اكْتَسَبَ ما بِهِ يَحْيَى أبداً مِنَ العِلْمِ والقرآنِ والإيمانِ، والكافِرُ لم يَكْتَسِبْ مِنْ ذلكَ شيئاً؛ فهو كالمَيِّتِ الذي لا يُبْصِرُ، ولا يَسْمَعُ الحَقَّ، ولا يَعْقِلُ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قيل. (٣) في الأصل وم: التارك للتكبيرة الأولى فسوق صلاته. (٤) في الأصل وم: بتركها. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: إليهم. (٩) في الأصل وم: بم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: الخبر.

جنة السنة

ويَحتَمِلُ هذا المَثَلُ وَجهاً آخَرَ، وهو أنَّ المؤمِنَ يَكتَسِبُ في الدنيا الخيراتِ والأعمالَ الصالِحَةَ، ويكونُ لَهُ نورٌ في الآخِرَةِ بالأعمالِ التي اكْتَسَبَ في الدنيا، ويَمْشِي بِنُورِ ذلكَ في ما بَيْنَ الناسِ في الآخِرَةِ. وأمّا الكافِرُ فإنهُ لم يَكتَسِبْ مِن ذلكَ شيئاً، فَيَبقى في الظُّلماتِ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ والمُعتَزِلَةُ يَقولُونَ: هُمْ جَعَلُوا لأنفُسِهِمْ نُوراً يَمْشُونَ [بِهِ][1] في الناسِ، وقد أخْبَرَ أنهُ هو الذي يَجْعَلُ لَهُمْ ذلكَ [النورَ، فذلكَ][2] تَحْرِيفٌ مِنْهُمْ [في][3] ظاهِرِ القرآنِ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤] وهُمْ يَقُولُونَ: هو قَدَرَ على بَعْضِ الأشياءِ، وقالَ تعالى: ﴿هُوَ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢ و...] وهُمْ يَقُولُونَ: هو خالِقُ بَعْضِ الأشياءِ، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١٣٧] وهُمْ يَقُولُونَ: شاءَ ألّا يَفعَلُوا ما فَعَلُوا، ولكنْ فَعَلُوا غَيْرَ ما شاءَ اللهُ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢] وهُمْ يَقُولُونَ: شاءَ غَيْرَ الذي فَعَلُوا، وكذلكَ [قولُهُ تعالى][4]: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ [الأنعام: ١١٢] وهُمْ يَقُولُونَ: لم يَجْعَلْ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً، وهم جَعَلُوا أنفُسَهُمْ لَهُمْ أعداءً، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣] وهمْ يَقُولُونَ: جَعَلَ الأكابِرَ فيها لئلا يَمْكُرُوا فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: كما زَيَّنّا لِلْمُؤْمِنِينَ عِبادةَ اللهِ كذلكَ زَيَّنّا لِلكافِرِينَ عِبادةَ اللهِ، لكنَّهُمْ تَعانَدُوا، وصَرَفُوا العِبادَةَ إلى غَيْرِ اللهِ، وهو تأويلُ المُعْتَزِلَةِ.

وقالَ قائِلونَ: زَيَّنَ لَهُمْ أعمالَهُمُ التي يَعْمَلُونَها.

ثم اخْتُلِفَ في الذي زَيَّنَها؛ قالَ الحَسَنُ: زَيَّنَ[5] الشيطانُ أعمالَهُمْ، وقالَ غَيْرُهُ: زَيَّنَها الأكابِرُ على الأصاغِرِ، وقالَ[6] قائِلونَ: زَيَّنَها اللهُ، ولكنْ ما أُضِيفَ إلى الشيطانِ مِنَ التَّزيِينِ والإضلالِ إنما يُضافُ إلى ما يَدْعُوهُمْ، ويَحُثُّهُمْ على ذلكَ. وما يُضافُ إلى اللهِ مِنَ التَّزيِينِ والإضلالِ والإزاغَةِ وغَيْرِ ذلكَ، يُضافُ لِلْخَلْقِ؛ أي خَلَقَ مِنْهُمْ فِعْلَ الإضلالِ وفِعْلَ التَّزيِينِ وفِعْلَ الزَّيْغِ؛ يضافُ إلى اللهِ خَلْقاً وإلى الشيطانِ والأكابِرِ دعاءً وَوَحْياً وإلقاءً. وعلى[7] هذا تَخْرُجُ جَميعُ الإضافاتِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ أي جَعَلَ في كُلِّ قَرْيَةٍ مِن أهْلِ الكُفْرِ أكابِرَ مُجْرِمِيها وعُظَمائِها كما جَعَلَ في قَرْيَتِكَ أكابِرَ مُجْرِمِيها. يُصَبِّرُ رسولَ اللهِ ﷺ على ذلكَ لِيَعْلَمَ أنهُ لَيسَ بِمَخْصُوصٍ هو بهذا دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الأنبياءِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ وقد ذَكَرْنا أقاوِيلَهُمْ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ [الأنعام: ١١٢].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ قالَتِ المُعْتَزِلَةُ: لم يَجْعَلِ الأكابِرَ فيها لِيَمْكُرُوا فيها. ولكنْ لَمّا وَسَّعَ الدنيا، وبَسَطَها عليهِمْ مَكَرُوا فيها. وكذلكَ قالُوا في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] لا يجوزُ أنْ يَخْلُقَهُم [الجهنَّمَ][8]، ولكنْ لَمّا عَمِلُوا أعمالَ الكُفْرِ والضلالِ صارُوا لِجَهَنَّمَ.

وقالُوا: هو على الإضمارِ كأنَّهُ قالَ: وكذلكَ جَعَلْنا في كُلِّ قَرْيَةٍ أكابِرَ مُجْرِمِيها لِئَلّا يَمْكُرُوا، لكنَّهم مَكَرُوا فيها لِما ذَكَرْنا.

لكنَّ قولَهُ تعالى: ﴿جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟﴾ لِيَكُونَ أدْعَى وأظْهَرَ لِلْحُجَجِ؛ لأنهُ لو كانَ بَعَثَ الرُّسُلَ أكابِرَ لَكانَ الناسُ يَتَّبِعُونَ الأكابِرَ، وإنْ لم يَأْتُوا بالحُجَجِ، وغَيْرُهُمْ لا يَتَّبِعُونَ إلّا بالحُجَجِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: زينها.
(٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ومِنهُم مَنْ يَقْطَعُ قولَهُ تعالى: ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ عَن قولِهِ تعالى: ﴿جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾؛ يقولُ: مَعْناهُ ﴿جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ أكابِرَ ثم قالَ: ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ أي ما جَعَلَ ذلكَ لهُم لِيَمْكُرُوا.

ومِنهُم مَنْ يقولُ: هو إخبارٌ [عمّا][1] إليهِ صارَ أمْرُهُم كقولِهِ تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وهُمْ لم يَلْتَقِطُوهُ ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ إنما التَقَطُوهُ لِيَكونَ لَهُمْ وَلِيّاً، لكنَّهُ لِما صارَ في العاقِبَةِ عَدُوّاً لهم؛ أخْبَرَ عَمّا آلَ إليهِ أمْرُهُ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ أخْبَرَ عَمّا إليهِ صارُوا، مِنَ المَكْرِ.

وعِندَنا لا يَخْلُو هذا. إمّا أنْ يُقالَ: إنهُ يَخْلُقُهُمْ لِغَيْرِ المَكْرِ والضلالِ، وهو يَعْلَمُ ألّا يَكونُوا لِما يَخْلُقُهُمْ، فذلكَ لَيسَ فِعْلَ حَكيمٍ أنْ يَعْمَلَ عَمَلاً يَعْلَمُ أنهُ لا يكونُ؛ نَحْوُ مَنْ يَبْنِي بِناءً يَعْلَمُ أنهُ لا يُسْكَنُ، أو يَقْصِدُ قَصْدَ مَوْضِعٍ يَعْلَمُ أنهُ لا يَصِلُ إليهِ؛ فهو بالقَصْدِ عابِثٌ، لَيسَ بِحَكِيمٍ. فَعَلَى ذلكَ اللهُ، سُبْحانَهُ، لا يَجوزُ أن يَخْلُقَهُمْ لِلْهُدَى والعِبادَةِ لَهُ مَعَ عِلْمِهِ أنهُمْ لا يَكونونَ لِما يَخْلُقُهُمْ، وإمّا[2] أنْ يَخْلُقَهُمْ لذلك، وهو لا يَعْلَمُ أنهُمْ يَكُونُونَ كذلكَ، فهو جَهْلٌ بالعَواقِبِ؛ فاللهُ يَتَعالَى عن ذلكَ، فَدَلَّ أنهُ خَلَقَهُمْ لِيَكُونُوا على ما عَلِمَ أنّهُم يَكُونُونَ، ويَخْتارُونَ ذلكَ، وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] كانَ عِندَ اللهِ أنهُمْ يَلْتَقِطُونَهُ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي ما يَشْعُرُونَ أنَّ عاقِبَةَ مَكْرِهِمْ تَرْجِعُ إليهِمْ، [وهو][3] واقِعٌ بِهِمْ. وأصلُهُ أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَهُمْ، وخَلَقَهُمْ، على ما عَلِمَ مِنْهُمْ أنهُمْ يَخْتارُونَ، ويَكونُ مِنهُمْ ذلكَ.

الآية ١٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ يُخْبِرُ ﷺ [عَن][4] غايةِ سَفَهِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ وأنهُمْ عن عِلْمٍ يُعانِدُونَ، ويَتَكَبَّرُونَ على رسولِ اللهِ ﷺ لأنهُمْ عَلِمُوا أنَّ ما يُنَزَّلُ على رسولِ اللهِ ﷺ آيةٌ، وأنهُ رسولٌ حِينَ[5] ﴿قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [وعَلِمُوا أنَّ الرسالَةَ لا تُجْعَلُ إلّا في المُعَظَّمِ عندَ اللهِ والمُفَضَّلِ لَدَيهِ حِينَ[6] تَمَنَّوا أنهُمْ لا يؤمِنُونَ حتى يُؤتَوا[7] مِنَ الآياتِ مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ][8].

ولو لم يكنْ [ذلكَ ما تَمَنَّوا][9] إيتاءَ ما أُوتِيَ[10] الرُّسُلُ، [وقد][11] عَلِمُوا أنَّ هذا القرآنَ الذي أُنْزِلَ على محمدٍ ﷺ آيةٌ وحُجَّةٌ، وأنهُ مِنْ عِندِ اللهِ نَزَلَ حِينَ[12] قالُوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وعَلِمُوا أيضاً أنَّ الرسالةَ لا تُجْعَلُ إلّا في عُظَماءَ مِنَ البَشَرِ وكُبَرائِهِمْ حِينَ[13] قالُوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ لَكِنَّهُمْ ظَنُّوا أنها إنما تُجْعَلُ في[14] العُظَماءِ الذينَ هُمْ عندَ الخَلْقِ عُظَماءُ، فقالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ فَتَناقَضَتْ أقاوِيلُهُمْ وحِجاجُهُمْ بما ذَكَرْنا مِنْ إقرارِهِمْ بالرُّسُلِ والآياتِ وتَفْضِيلِهِمْ [أنْفُسَهُمْ][15] على غَيرِهِمْ مِنَ البَشَرِ.

ثم قولُهُ[16] تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ جملةُ جوابِ ما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ﴾ [الزخرف: ٣١] كذا؛ أنْ يُقالَ: إنكُمْ عَرَفْتُمْ أنَّ اللهَ عالِمٌ قادِرٌ فهو ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: جَعْلُ الرسالةِ في أوساطِ الناسِ أظْهَرُ لِلْحُجَجِ وأبْيَنُ مِنْ جَعْلِها في أكابِرِ الناسِ وعُظَمائِهِمْ في الدُّنْياوِيَّةِ /١٦١ - أ/ لأنَّ الناسَ مَجْبُولونَ على اتِّباعِ الأكابِرِ والأعاظِمِ؛ فلو جُعِلَتِ الرسالةُ فيهِمْ لَكانَتِ الحُجَجُ لا تَظْهَرُ لأنهُمْ جُبِلُوا على اتِّباعِهِمْ. وأمّا أوساطُ الناسِ في الدُّنْياوِيَّةِ إذا جُعِلَتْ فيهِمُ الرسالةُ لَظَهَرَتِ الحُجَجُ والبراهِينُ لأنهُمْ لم يُجْبَلُوا على اتِّباعِ الأوساطِ مِنَ الناسِ، فكانَ اتِّباعُهُمْ لِلْحُجَجِ والبراهِينِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي لا يَجْعَلُ الرسالةَ في مَنْ يُضَيِّعُ، ولَيسَ بأهْلٍ لها ولا مَوْضِعِها؛ لأنهُ لو جَعَلَ لكانَ في ذلكَ تَضْييعُ الرسالةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل: حيث. (٧) في الأصل: يؤتون. (٨) ساقطة من م. (٩) في الأصل وم: كذلك يتمنون. (١٠) في الأصل وم: أتوا. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) أدرج قبلها في الأصل: إلا. (١٥) ساقطة من الأصل و م. (١٦) في الأصل و م: قال.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ اخبرَ أنَّ مَن تكبَّرَ على رسولِ اللهِ، وعانَدَهُ، يَكُونُ لَهُ عندَ اللهِ صَغارٌ ومَذَلَّةٌ وعذابٌ شديدٌ بِصَنيعِهِمُ الذي صَنَعُوا.

الآية ١٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ قيلَ: «سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عن هذهِ الآيةِ، فقالَ: نُورٌ يُقْذَفُ فيهِ، فقالُوا: وَهَلْ لِذلكَ عَلامَةٌ؟ قالَ: نعم؛ إذا دَخَلَ النُّورُ في القَلْبِ انْشَرَحَ، وانفَسَحَ، قالُوا: يا رسولَ اللهِ وَهَلْ لِذلك مِنْ عَلامَةٍ يُعْرَفُ بها؟ قالَ: نَعَمْ؛ الإنابةُ إلى دارِ الخُلُودِ والتَّجافي عن دارِ الغُرُورِ والاسْتِعدادُ لِلْمَوتِ قَبْلَ نُزُولِ الموتِ» [السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٥٤].

فَلَو ثَبَتَ هذا عنْ رسولِ اللهِ ﷺ كانَ[1] انْشِراحُ الصَّدْرِ لِلإِسلامِ؛ فَقَلِيلاً ما يُوجَدُ على هذا الوَصْفِ إلّا أنْ يُرِيدَ بهِ الاعْتِقادُ والتَّيَقُّنَ بما ذَكَرَ.

ثم اخْتُلِفَ في تأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التَّأويلِ: الإرادةُ صِفَةُ كُلِّ فاعِلٍ يَفْعَلُ على الاخْتِيارِ؛ كأنهُ قالَ: فَمَنْ يَهْدِ اللهُ ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ [ومَنْ يُضِلُّهُ ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾][2].

وقالَ فَرِيقٌ مِنَ المُعْتَزِلَةِ مِنْ نَحْوِ جَعْفَرِ بْنِ حَرْبٍ والكَعْبِيِّ، وهؤلاءِ تأويلُهُمْ[3] ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ أي مَنْ قَبِلَ هِدايَةَ اللهِ في الابْتِداءِ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ بَعْدَ ذلكَ بِخيراتٍ ثواباً لِما قَبِلَ مِنَ الهِدايَةِ، ومَنْ تَرَكَ قَبولَ هِدايَةِ اللهِ في الابْتِداءِ عاقَبَهُ اللهُ بِضِيقِ صَدْرِهِ عُقُوبَةً لَهُ في تَرْكِ قَبُولِ الهِدايةِ، وإلّا قد أرادَ اللهُ أنْ يَهْدِيَ الخَلْقَ كُلَّهُمْ، ونْ يَشْرَحَ صُدُورَهُمْ[4] لِلإِسْلامِ، لكِنَّهُمْ لم يَهْتَدُوا. وقالَ فريقٌ مِنْهُمْ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ طريقَ الجنَّةِ في الآخِرَةِ جَعَلَ صَدْرَهُ في الدنيا ضَيِّقاً حَرَجاً.

فَيُقالُ لَهُمْ: كذلكَ هو كما تَقُولُونَ[5]: إنهُ أرادَ أنْ يُضِلَّهُمْ، ثم يُقالُ لَهُمْ: تَقُولُونَ: إنه أرادَ أنْ يَهْدِيَ الخَلْقَ كُلَّهُمْ، ويَشْرَحَ صُدُورَهُمْ[6] لِلإِسلامِ، ثم تَقُولُونَ: إنهُ [أرادَ أنْ يُضِلَّهُمْ عنْ][7] طريقِ الجَنَّةِ في الآخِرَةِ؛ فهذا على زَعْمِكُمْ جَورٌ؛ لأنهُ أرادَ في الدنيا أنْ يَهْدِيَهُمْ، ويُرِيدُ في الآخِرَةِ[8] أيضاً لَهُمْ أنْ يُضِلَّهُمْ عَنْ طَرِيقِ الجَنَّةِ، لأولئكَ بِعَيْنِهِمْ؛ فَذَا جَورٌ على قولِكُمْ.

وظاهِرُ الآيةِ يَرُدُّ قولَهُمْ، ويَنْقُضُ مَذْهَبَهُمْ لأنهُ قالَ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ﴾ كذا. جَعَلَهُمْ على صِنْفَيْنِ: صِنْفٍ[9] أرادَ لَهُمْ[10] أنْ يَهْدِيَهُمْ، وصِنفٍ[11] أرادَ أنْ يُضِلَّهُمْ؛ مَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ الهُدَى، ويَقْبَلُهُ، أرادَ أنْ يَهْدِيَهُ، ويَشْرَحَ ﴿صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ ومَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ الضلالَ أرادَ أنْ يُضِلَّهُ، ويَجْعَلَ ﴿صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.

ولا يجوزُ أنْ يُرِيدَ هو مِمَّنْ يَعْلَمُ منهُ أنهُ يَختارُ الضلالَ وعَداوتَهُ الوِلايَةَ منهُ لأنَّ ذلكَ مِنَ الضَّعْفِ [في][12] مَنْ أرادَ عَداوتَهُ، وهو يُرِيدُ وِلايَتَهُ، أو يُرِيدُ منهُ غيرَ الذي عَلِمَ كَوْنَهُ منهُ واختِيارَهُ[13]. والمُعْتَزِلَةُ يَقولونَ: قد أرادَ أنْ يَهْدِيَ الكُلَّ، لكنَّهُمْ أرادُوا ألّا يَهْتَدُوا، فلم يَهْتَدُوا؛ غَلَبَتْ إرادَتُهُمْ إرادَةَ اللهِ تعالى، فذلكَ وَحْشٌ مِنَ القَولِ سَمِجٌ، فَنَعُوذُ باللهِ مِنَ السَّرَفِ في القَولِ والزَّيْغِ عنِ الحَقِّ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قِيلَ: الحَرَجُ ضِيقُ الضِّيقِ، وهو شِدَّةُ الضِّيقِ؛ وصَفَ قَلْبَ المُؤْمِنِ بالسَّعَةِ والفَسْحِ، ووَصَفَ [قَلْبَ][14] الكافِرِ بالضِّيقِ والحَرَجِ، ولَيسَ قَلْبُ هذا في رأيِ العَيْنِ أوسَعَ مِنْ قَلْبِ الآخَرِ، لكنَّهُ، واللهُ أعْلَمُ،

(١) في الأصل وم: وكان هذا. (٢) من م، في الأصل: ضيقاً حرجاً. (٣) في الأصل وم: تأويله. (٤) في الأصل وم: صدرهم. (٥) في الأصل: يقول قد قلتم، في م: تقولون قد قلتم. (٦) في الأصل وم: صدرهم. (٧) في الأصل وم: أن يضل. (٨) في الأصل وم: الآخر. (٩) في الأصل وم: صنفاً. (١٠) في الأصل وم: منهم. (١١) في الأصل وم: وصنفاً. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: واختاره. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وَصفَ قَلْبَ المؤمِنِ بالسَّعَةِ لِما انْتَفَعَ بِقَلْبِهِ في الدنيا والآخِرَةِ، والكافِرُ لم يَنْتَفِعْ بِقَلْبِهِ، فَوَصَفَهُ بالضِّيقِ والحَرَجِ، وهو كما وَصفَ الكافِرَ بالصَّمَمِ والبَكَمِ والخَرَسِ لِما لم يَنْتَفِعْ بهذِهِ الحَواسِّ، وكذلكَ سَمَّاهُ مَيْتاً لِما لم يَنْتَفِعْ بِحَياتِهِ. وسَمَّى المُؤمِنَ حَيّاً لِما انْتَفَعَ بِحَياتِهِ. فَعَلَى ذلكَ هذا؛ وصَفَ الكافِرَ بِضيقِ الصَّدْرِ لِما [لم][1] يَنْتَفِعْ بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قِيلَ: كالمُتَكَلِّفِ الصُّعُودَ إلى السماءِ، لا يَقْدِرُ عليهِ. وقِيلَ: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ كأنما يَشُقُّ عليهِ الصُّعُودُ. ورُوِيَ عَنْ عُمَرَ ﷺ أنهُ قالَ: ما [تَصَعَّدَني شَيءٌ ما تَصَعَّدَني][2] الخُطْبَةُ، أي ما شَقَّ عليَّ شَيءٌ ما شَقَّ عليَّ الخُطْبَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اخْتُلِفَ في الرِّجْسِ: قِيلَ: الرِّجْسُ الإثْمُ أي كما جَعَلَ قُلُوبَهُمْ ضَيِّقَةً حَرِجَةً بِكُفْرِهِمْ كذلكَ يَجْعَلُ في قُلُوبِهِمُ الإثْمَ، وقِيلَ: الرِّجْسُ اللَّعْنُ والغَضَبُ؛ أي جَعَلَ في قُلُوبِهِمُ اللَّعْنَ والغَضَبَ. دَليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١].

الآية ١٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ لم يُشِرْ بهذا إلى شَيءٍ. لكنْ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿وَهَٰذَا﴾ الإسلامَ الذي سَبَقَ ذِكْرُهُ أنْ يَشْرَحَ صَدْرَ المؤمِنِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ الذي يُدْعَى إليهِ الخَلْقُ، وهو التَّوحِيدُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي بيَّنّا، وأقَمْنا، دلائِلَ التَّوحيدِ وحُجَجَهُ، وقد ذَكَرْنا ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لِقَومٍ يَتَّعِظُونَ بالمَواعِظِ. ويَحْتَمِلُ لِقَومٍ يَقْبَلُونَ الدلائِلَ والحُجَجَ، ولا يُكابِرُونَ.

الآية ١٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ السَّلامُ اسْمَ الجَنَّةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ﴾ [يونس: ٢٥] ويَحْتَمِلُ السَّلامُ اسْمَ[3] اللهِ؛ أي لَهُمْ دارُ اللهِ، وهو الجَنَّةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قِيلَ: وهو أولَى بِهِمْ أي أولَى بالمُؤمِنِينَ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥] ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ حافِظُهُمْ وناصِرُهُمْ. وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ: ﴿يَصَّعَّدُ﴾ [الآية: ١٢٥] ويَصَّاعَدُ ويَصْعَدُ كُلُّهُ لُغاتٌ[4]، والمَعْنَى واحِدٌ.

والضَّيِّقُ: قالَ الكِسائِيُّ: الضِّيقُ مِنَ الضَّيِّقِ في المَعاشِ؛ فأمَّا في الأمْرِ فإنهُ الضَّيِّقُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]. وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿حَرَجًا﴾ ففيهِ[5] لُغَتانِ[6]: حَرَجٌ وحَرِجٌ. قالَ القُتَبِيُّ: الحَرَجُ الذي ضاقَ فلم يَجِدْ [بِهِ][7] مَنفَذاً. وقالَ أبو عوسَجَةَ: الحَرِجُ الضَّيِّقُ؛ يُقالُ فيهِ: حَرِجَ يَحْرَجُ، فهو حَرِجٌ.

الآية ١٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يَعْني مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الجِنِّ والإنسِ، أو يَحْشُرُ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ هو على الإضمارِ كأنهُ قالَ: [8] ويومَ يَحْشُرُهُمْ ﴿جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ والإنسِ، ثم نَقولُ لِلْجِنِّ: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] [أي تقولون][9]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، فكذلكَ هذا هو على الإضمارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ قالَ أهْلُ التَّأويلِ في قولِهِ تعالى: ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ وهُمْ قَدِ اسْتَكْثَرُوا مِنَ الأتباعِ مِنَ الإنسِ في عِبادَةِ غَيْرِ اللهِ ومُخالَفَةِ أمْرِ اللهِ وتوحيدِهِ، أوِ اسْتَكْثَرُوا[10] عُباداً مِنَ الإنسِ ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بَعْضُهُمْ: تَعاوَنَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ في مَعْصِيَةِ اللهِ ومُخالَفَةِ أمْرِهِ: هؤلاءِ بالدعاءِ وأُولئكَ بالإجابَةِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: تصعد في. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: هو. (٤) انظر حجة القراءات ص (٢٧١) ومعجم القراءات القرآنية (٢/٣١٧ و٣١٨). (٥) في الأصل وم: فيه. (٦) انظر حجة القراءات ص (٢٧١) ومعجم القراءات (٢/٣١٧). (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) على قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي، انظر معجم القراءات القرآنية (٢/٣١٨). (٩) من م، في الأصل: أن تقولوا. (١٠) في الأصل وم: استكثرتم.

جنة السنة

وقالَ قائِلونَ: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي انْتَفَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ بأنواعِ المَنافِعِ، ما ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ الرجلَ مِنَ الإنسِ إذا سافَرَ، فَأَدرَكَهُ المَساءُ بأرضِ القَفرِ، خافَ، فَيَقولُ: أعوذُ بِسَيِّدِ هذا الوادي مِن سُفَهاءِ قومِهِ، فَيأمَنُ في ذلكَ بالتَّعَوُّذِ إلى سَيِّدِهِمْ. فَذلكَ استِمْتاعُ الإنسِ بالجِنِّ. [وذلكَ قولُهُ تعالى:][1] ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الآية [الجن: ٦].

وأمّا استِمْتاعُ الجِنِّ بالإنسِ فما يزدادُ لَهُمُ الذِّكرُ والشَّرَفُ في قومِهِمْ؛ يَقولونَ: لقد سَوَّدَتْنا الإنسُ. ويَحتَمِلُ استِمْتاعُ / ١٦١ ـ ب/ الجِنِّ بالإنسِ[2] ما ذُكِرَ، إنْ ثَبَتَ، أنهُ جَعَلَ طعامَهُمُ العِظامَ التي يَسْتَعمِلُها الإنسُ، ويكونُ ذلك غِذاءَهُمْ، وعَلَفَ دَوابِّهِمْ أرْواثَ دَوابِّ الإنسِ. وقالَ الحَسَنُ: ما كانَ استِمْتاعُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ إلّا أنَّ الجِنَّ أمَرَتِ الإنسَ، فَعَمِلَتْ[3]، وذَكَرَ[4] جوابَ الإنسِ لَهُمْ، ولم يَذْكُرْ جوابَ الجِنِّ لَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ قِيلَ: المَوتُ، وقيلَ: البَعْثُ يومَ القِيامَةِ؛ لأنهُمْ كانوا يُنكِرونَ البَعْثَ، فأقَرّوا عندَ ذلك بأنّا قد بَلَغْنا ﴿أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ وكُنّا كَذَّبْناهُ. أقَرّوا بما كانوا يُنكِرونَ. [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ أي عِقابُكُمْ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ اختُلِفَ فيهِ؛ قالَ الحَسَنُ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وقد شاءَ اللهُ أنْ يُخَلِّدَهُمْ في النارِ.

وقالَ غَيْرُهُ: الاستِثْناءُ مِن وَقتِ البَعْثِ إلى وَقتِ الخُلودِ، وهو وَقتُ الحِسابِ، وَوَقتُ الحِسابِ هو وَقتُ الثُّنيا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ماداموا في الحِسابِ. وقيلَ: الاستِثْناءُ لِلمُؤمِنينَ الذينَ اتَّبَعوهُمْ في فِعلِ المَعاصي والجُرْمِ، ولم يَتَّبِعوهُمْ في الاعتِقادِ. ففيهِ دَليلُ إدخالِ المؤمِنينَ النارَ بالمَعاصي، والعُقوبَةِ لَهُمْ بِقَدْرِ مَعصِيَتِهِمْ، ودَليلُ إخراجِهِمْ، إنْ ثَبَتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يَحتَمِلُ وُجوهاً ثلاثَةً: أحَدُها: أنَّ خُلودَ الآخِرَةِ أكبَرُ مِن خُلودِ الدنيا؛ لأنَّ خُلودَ الدنيا على الانقِضاءِ، وخلودَ الآخِرَةِ لا على الانقِضاءِ. الثاني: وَقعُ الثُّنيا قَبلَ دُخولِهِمْ في النارِ. والثالثُ: لِمَنْ يَتَّبِعُهُمْ في الكُفرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي حَكيمٌ بما حَكَمَ، وَوَضَعَ كُلَّ شَيءٍ مَوضِعَهُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بذلكَ.

الآية ١٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ الآيةُ تَنقُضُ على المُعتَزِلَةِ قولَهُمْ؛ لأنَّ الوِلايَةَ منهُمْ، ثم ذَكَرَ أنَّ المُؤمِنينَ، بَعْضُهُمْ أولياءُ بَعْضٍ بقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وذَكَرَ أنَّ الكافِرينَ؛ بَعْضُهُمْ أولياءُ بَعْضٍ بقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١].

الآية ١٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: لم يَكُنْ مِنَ الجِنِّ رُسُلٌ؛ إنما كانَ الرُّسُلُ مِنَ الإنسِ، لكنَّهُ أضافَ إلى الفَريقَينِ جَميعاً كقولِهِ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يَخرُجُ مِن أحَدِهِما، وكقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦] وإنما جَعَلَ في واحِدَةٍ مِنهُنَّ، وكقولِ الناسِ: في سَبعِ قَبائِلَ مَسْجِدٌ واحِدٌ، وإنما يكونُ في واحِدٍ منها[6]. وقد يُضافُ الشَّيءُ إلى جَماعَةٍ، والمُرادُ واحِدٌ. فَعَلى ذلكَ ما ذَكَرَ مِن إضافَةِ الرُّسُلِ إلى الإنسِ والجِنِّ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: كانَ مِنَ الفَريقَينِ جَميعاً الرُّسُلُ؛ مِنَ الجِنِّيِّ جِنِّيٌّ، ومِنَ الإنسِيِّ إنسِيٌّ؛ لأنَّ الجِنَّ يَسْتَتِرونَ مِنَ الإنسِ، فإنما يُرسِلُ إلى الإنسِ رُسُلاً يَظهَرونَ لَهُمْ. فَبَعَثَ إلى كُلِّ فَريقٍ الرسولَ مِن جَوهَرِهِمْ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: كانَ الرُّسُلُ مِنَ الإنسِ إلى الفَريقَينِ جَميعاً، وكانَ الجِنُّ نَذيراً كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٩] ذَكَرَ النُّذُرَ مِنهُمْ، ولم يَذكُرِ الرُّسُلَ، ومَرتَبَةُ النُّذُرِ دونَ مَرتَبَةِ الرُّسُلِ كَمَرتَبَةِ الأنبياءِ مِنَ الرُّسُلِ.

(١) في الأصل وم: فذلك. (٢) من م، في الأصل: والإنس. (٣) في م: فعلمت. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل و م: منهما.

جنة السنة

ولكنْ يَجوزُ أنْ يَقوَى الرُّسُلُ، وإنْ كانَ مِنَ الإنْسِ، على الإظهارِ لَهُمْ، ولَيسَ في مالا يَستَتِرُونَ عنهُمْ مَنْعُ بَعْثِ الرُّسُلِ إليهِمْ مِنَ الإنْسِ.

وليسَ لنا إلى مَعْرفةِ هذا حاجَةٌ؛ إنما[1] الحاجَةُ إلى مَعْرفَةِ الآياتِ والحُجَجِ التي تَأتي الرُّسُلَ وعَجْزِ الخَلائِقِ جَميعاً عَنْ إتيانِ مِثْلِ هذا القرآنِ كقولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨] فقدْ أعْجَزَ الجِنَّ والإنسَ عَنْ أنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هذا القرآنِ، وإنْ كانَ الجِنُّ أقْوَى على أشياءَ مِنَ الإنْسِ.

فَدَلَّ أنهُ آيَةٌ، ودَلَّ عَجْزُ الجِنِّ عَنْ ذلكَ، وإنْ كانُوا أقْوَى، على أنَّ غَيْرَهُمْ أعْجَزُ. ألا تَرَى أنهُ أنْزَلَ هذا القرآنَ على لِسانِ العَرَبِ، ثم عَجِزُوا هُمْ عَنْ إتيانِ مِثْلِهِ؟ فَدَلَّ عَجْزُهُمْ عَنْ ذلكَ على أنَّ العَجَمَ لَهُ أعْجَزُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الرُّسُلُ، وإنْ كانُوا مِنَ الإنسِ، فإنَّ الجِنَّ يَسْتَمِعُونَ مِنَ الرُّسُلِ، فَتَلْزَمُهُمُ الحُجَّةُ والعَمَلُ بذلكَ والتَّبْلِيغُ إلى قَومِهِمْ[2] مِنْ غَيرِ أنْ يَعْلَمَ الرُّسُلُ بذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ يَحْتَمِلُ يَتْلُونَ عليكُمْ آياتي، ويَحتَمِلُ ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ يُبَيِّنُونَ لكُمْ آياتي آياتِ وَحدانِيَّتِهِ وألوهِيَّتِهِ وآياتِ البَعْثِ التي يُنْكِرُونَ ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي لِقاءَ يومِكُمُ الذي تَلْقَوْنَ.

ودَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ على أنَّ ذلكَ إنما يُقالُ لَهُمْ في الآخِرَةِ.

[وقولُهُ تعالى][3] ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ هذا مِنْهُمْ إقرارٌ لِما كانَ مِنْهُمْ مِنَ التَّكْذيبِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] أي شَهِدْنا على أنْفُسِنا بأنَّا كُنَّا كَذَّبْنا الرُّسُلَ في الدنيا بِما قالُوا، وأخْبَرُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ إنَّ للدنيا مَعْنَيَيْنِ [ظاهِراً وباطِناً][4]؛ فيكونُ الظاهِرُ غُرُورَ مَنْ كانَ نَظَرُهُ[5] إليهِ يَغُرُّهُ، ولها باطِنٌ، ومَنْ نَظَرَ إلى الباطِنِ يَعِظُهُ. أمَّا ظاهِرُها في تَزْيِينِها وزُخْرُفِها فالكافِرُ نَظَرَ إلى ظاهِرِها، فاغْتَرَّ بِها. وأمّا باطِنُها فهو انْتِقالُها مِنْ حالٍ إلى حالٍ وزَاوالُها وفَناؤُها.

فَمَنْ نَظَرَ إلى ذلكَ الباطِنِ اتَّعَظَ بِهِ، [وعَلِمَ مَعْناهُ، وعَرَفَ أنهُ][6] لم يُخْلَقْ لِهذِهِ، ولكنْ لِعاقِبَةٍ[7] تُتَأمَّلُ.

ثم إضافَةُ الغُرُورِ إليها أنْ[8] يكونَ مِنْها ما لو كانَ ذلكَ مِنْ [غَيْرِ][9] ذي عَقْلٍ وذِهْنٍ كانَ ذلكَ غُروراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ هذا اعْتِرافٌ بما كانَ منهُمْ.

الآية ١٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨] وقولِهِ تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] ونَحوِهِما[10] مِنَ الآياتِ التي ذَكَرَ فيها العِتابَ.

ويَحْتَمِلُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارَةً إلى الهَلاكِ الذي كانَ بالأُمَمِ الخالِيَةِ أنْ لم يَكُنْ يُهْلِكُ القُرَى بِظُلْمٍ، ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ، وإهلاكَ تَعْذيبٍ واسْتِئْصالٍ إلّا بَعْدَ تَقَدُّمِ الوَعيدِ لَهُمْ في ذلكَ وسُؤالٍ[11]، كانَ منهُمْ بالعذابِ، ولا يُهْلِكُ أيضاً ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ عَنِ الظُّلْمِ والعِصْيانِ، لا أنهُ لا يَسَعُ، ولكنْ سُنَّةٌ فيهِمْ ألّا يُهْلِكَ إلا بَعْدَ تَقَدُّمِ ما ذَكَرْنا لِئَلّا يَحْتَجُّوا ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

وإنْ لم يكُنْ لَهُمُ الاحتِجاجُ بذلكَ، لِما مَكَّنَ لَهُمْ، ورَكَّبَ فيهِمْ ما بِهِ يَعْرِفُونَ أنهُ لم يَخْلُقْهُمْ لِيَتْرُكَهُمْ سُدىً، ولكنْ خَلَقَهُمْ لِعاقِبَةٍ. لكنْ سُنَّتُهُ قد خَلَتْ في الأُمَمِ الماضِيَةِ ألّا يُهْلِكَ قوماً إهلاكَ تَعْذيبٍ واسْتِئْصالٍ إلّا بَعْدَ ما سَبَقَ منهُ وَعيدٌ وإنذارٌ والعِلْمُ لَهُمْ بالظُّلْمِ، وظُهُورُ العِنادِ منهُمْ والمُكابَرَةُ والسُّؤالُ بالعذابِ سُؤالَ تَعَنُّتٍ. وذلكَ منهُ فَضْلٌ ورَحْمَةٌ لأنه لا يَسَعُ ذلكَ.

---

(١) من م، في الأصل: إلى. (٢) من م، في الأصل: قواهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل و م: ظاهر وباطن. (٥) في م: نظر.
(٦) في الأصل: ويعلم معناه وعرف أنها، في م: ويعلم معناها ويعرف أنها. (٧) من م، في الأصل: العاقبة. (٨) في الأصل و م: أي.
(٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل و م: ونحوها. (١١) في الأصل وم: وسؤالهم.

جنة السنة

الآية ١٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ استَدَلَّ بَعْضُ الناسِ بِظاهِرِ هذِهِ الآيةِ أنَّ الجِنَّ لَهُمْ ثوابٌ بالطاعاتِ وعِقابٌ بالمَعاصِي؛ لأنهُ أخْبَرَ أنَّ لِكُلٍّ مِنهُمْ دَرَجاتٍ مِمَّا عمِلُوا، وأنَّ ما تَقَدَّمَ ذَكَرَ الفَرِيقَيْنِ جَميعاً بِقولِهِ تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام: ١٢٨] [وقولِهِ تعالى][(١)]: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٣٠] ذَكَرَ ما كانَ مِنَ الفَرِيقَيْنِ جَميعاً مِنَ المَعاصِي والجُرْمِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ راجِعٌ إلى الفَرِيقَيْنِ جَميعاً ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ إنْ عَمِلُوا خَيْراً فَخَيْرٌ، وإنْ عَمِلُوا شَرّاً فَشَرٌّ. وبِهِ قالَ أبو يُوسُفَ ومحمدٌ، رَحِمَهُما اللهُ، واحْتَجّا[(٢)] لأبي حَنِيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ إنما ذُكِرَ على إثْرِ آياتٍ كانَ الخِطابُ بها لِلْكَفَرَةِ دونَ المؤمِنِينَ. فَعَلَى قولِهِ تعالى ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ يكونُ لَهُمْ هذا الوعيدُ خاصَّةً، ويكونُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ أي دَرَكاتٌ ومَراتِبُ مِنَ العذابِ والعِقابِ بِما عَمِلُوا مِنَ المَعاصِي والتَّكذيبِ لِلرُّسُلِ، ولأنَّ الثوابَ لُزُومُهُ لُزومُ فَضْلٍ ومِنَّةٍ، والعذابَ تَوْجِيهُ الحِكْمَةِ لأنَّ في الحِكْمَةِ أنْ يُعاقِبَ مَنْ عَصاهُ، وخالَفَ أمْرَهُ.

وأمّا الثوابُ فَوُجُوبُهُ الفَضْلُ لأنَّهُ كانَ مِنَ اللهِ إلى الخَلْقِ مِنَ النِّعَمِ والإحسانِ ما لو جَهَدُوا كُلَّ جَهْدِهِمْ ما قَدَرُوا/ ١٦٢ ـ أ/ على أنْ يُؤدُّوا شُكْرَ واحِدٍ مِنْ ذلكَ، فتكونُ طاعَتُهُمْ شُكْراً لِما أنْعَمَ عليهِمْ. فإذا كانَ كذلكَ لا يكونُ لأعمالِهِمْ ثوابٌ إلّا بالبَيانِ مِنَ اللهِ كما يُقالُ لِلْملائكةِ: إنَّ لَهُمْ ثواباً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجْهَيْنِ:

[أحَدُهُما][(٣)]: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾ عَنْ أعمالِهِمْ التي يَعْمَلُونَها في مَعْصِيَةِ اللهِ تعالى، ولن يُؤَخِّرُ تَعْذيبَهُمْ رَحْمَةً منهُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢]

والثاني: عنْ عِلْمٍ بأعمالِهِمْ وصَنِيعِهِمْ خَلَقَهُمْ لا عَنْ جَهْلٍ. لكنْ خَلَقَهُمْ على عِلْمٍ بذلكَ لِما ضَرَرُ أعمالِهِمْ ومنافِعُها تَرْجِعُ إليهِمْ لا إليهِ.

الآية ١٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ هذا يَرُدُّ على الثَّنَوِيَّةِ مَذْهَبَهُمْ لأنهُمْ يَقولُونَ: إنهُ إنما خَلَقَ الخَلائِقَ لِمَنافِعِ نَفْسِهِ؛ لأنهُ لَيسَ بِحَكِيمٍ[(٤)] مَنْ فَعَلَ فِعْلاً، لا يَقْصِدُ مَنْفَعَةَ نَفْسِهِ. فأخْبَرَ ﷻ أنهُ غَنِيٌّ بذاتِهِ، [وأنَّ مَنْ][(٥)] يَقْصِدُ قَصْدَ المَنْفَعَةِ بِفِعْلِهِ لِحاجَةٍ، تَقَعُ لَهُ، [ودَفْعِ ضَرَرٍ][(٦)] يُصِيبُهُ؛ يَقْصِدُ بالفِعْلِ قَصْدَ قَضاءِ الحاجَةِ ودَفْعِ الضَّرَرِ[(٧)] عَنْ نَفْسِهِ. فأمّا اللهُ ﷻ فهو[(٨)] الغَنِيُّ بذاتِهِ، [وأمّا الخَلائِقُ فَهُمُ الفُقَراءُ إليهِ][(٩)] لِمَنافِعِ أنْفُسِهِمْ، وهو غَنِيٌّ عَنْ خَلْقِهِ على ما أخْبَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ﴾ يَحْتَمِلُ [هو][(١٠)] غَنِيٌّ عن تَعْذيبِ أولئكَ الكَفَرَةِ أي لا لِمَنْفَعَةٍ لهُ في تَعْذيبِهِمْ يُعَذِّبُهُمْ أو لِحاجَةٍ لهُ، ولكنَّ الحِكْمَةَ تُوجِبُ ذلكَ، أو أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] يَقولُ: لم يُرسِلْ إليكُمْ، ولا امْتَحَنَكُمْ بالذي امْتَحَنَكُمْ لِحاجَةِ نَفْسِهِ أو لِمَنْفَعَةٍ لَهُ؛ إذْ هو غَنِيٌّ بذاتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ يَحْتَمِلُ [وجوهاً:

أحَدُها:][(١١)] ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ فلا يَعْجَلُ عليهِمْ بالعُقوبةِ،

والثاني: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ ما خَلَقَ الخَلائِقَ، وجَعَلَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ لِلانْتِفاعِ بِهِمْ والاسْتِمْتاعِ، وإنما خَلَقَهُمْ لِمَنافِعِ أنْفُسِهِمْ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: واحتجوا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل لحكم. (٥) في الأصل وم: وإنما. (٦) في الأصل وم: وضرورة. (٧) في الأصل وم: الضرورة. (٨) في الأصل وم: هو. (٩) في الأصل وم: إنما الخلائق. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: : وجهين يحتمل.

جنة السنة

والثالثُ(١): ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ مَن قَبِلَ رَحمَتَهُ، وصارَ أهلاً لها، فأمّا مَن لم يَقبَلْ رَحمتَهُ فإنهُ ذو انتِقام منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ لأنهُ غَنِيٌّ بذاتِهِ، لم يَخلُقكُمْ لِمنافِعِ نَفسِهِ أو لِحاجَتِهِ؛ إنْ شاءَ أذهَبَكُمْ، واستَخلَفَ غيرَكُم. ولو كانَ خلقُهُ الخلقَ لِمنافِعِ نَفسِهِ لَكانَ لا يَذهَبُ بهِمْ.

[وقولُهُ تعالى](٢): ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ يُخبِرُ عن غِناهُ عَنهُمْ وعن سُلطانِهِ وقُدرَتِهِ أنهُ يَقدِرُ على إهلاكِكُمْ واستِئصالِكُمْ وإنشاءِ قومٍ آخرينَ. كانَ خَلَقَ الخلائِقَ مِنْ جواهِرَ مُختَلِفَةٍ، لا تَوالُدَ فيهِمْ، ثم جَعَلَ في الآخَرِ التَّوالُدَ والتَّناسُلَ، واستِخلافَ بَعضٍ مِنْ بَعضٍ بالتَّوالُدِ والتَّناسُلِ.

الآية ١٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ﴾ مِنَ الوَعدِ والوَعيدِ، أو أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ مِنَ النَّصرِ لِرَسولِهِ والمَعونَةِ لهُ ﴿لَءَاتٍ﴾ وكائِنٌ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ قيلَ: بِفائِتِينَ ربَّكُم، وقيلَ: وما أنتُم سابِقِينَ اللهَ بأعمالِكُمُ الخَبيثَةِ حتى لا يَجزِيَكُمُ اللهُ.

وأصلُهُ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لا تُعجِزونَ ربَّكُمْ عن تعذيبِكُمْ وعُقوبتِكُمْ.

الآية ١٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ قيلَ: على جَديلَتِكُمْ، وقيلَ: على منازِلِكُمْ وَجِدَتِكُمْ.

ولكنَّ تأويلَهُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي ما أنتُمْ عليهِ. ثم يَحتَمِلُ هذا وُجوهاً: يَحتَمِلُ ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي على ما أنتُمْ عليهِ مِنْ أمرِ الدِّينِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. ويَحتَمِلُ أنْ يكونوا هَمُّوا أنْ يَمكُروا برسولِ اللهِ ﷺ فيَقولُ(٣): امكُروا بي إنّي ماكِرٌ بِكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] ويَحتَمِلُ أنْ يكونوا يَطلُبُونَ الدَّوائرَ والهَلاكَ على رسولِ اللهِ ﷺ ويَكيدُونَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥] هذه الكلمةُ تُستَعمَلُ في انتِهاءِ المُكابَرَةِ نهايتِها ووُجودِ المُعانَدَةِ غايَتِها بَعدَ الفَراغِ مِنَ الحُجَجِ والآياتِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يَحتَمِلُ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مَنْ يَكونُ لهُ العاقِبَةُ، ويَحتَمِلُ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بالهلاكِ مَنْ كانَ مُحِقّاً(٤) بالوَعيدِ أو ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مَنِ المُحِقُّ مِنّا مِمّا أُوعِدَ، وخُوِّفَ(٥).

الآية ١٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ يُخبِرُ ﷻ عن سَفَهِهِمْ مِنْ وُجوهٍ:

أحَدُها: أنهُمْ كانُوا يَجعَلونَ للهِ نَصيباً مِمّا كانَ للهِ ذلكَ في الحَقيقَةِ، مَعَ عِلمِهِمْ أنَّ اللهَ هو الذي أنشأَ لَهُمْ تلكَ الأشياءَ، وهو ذَرَأَها، ثم يَجعَلونَ لِلّهِ في ذلكَ نَصيباً ولِلأصنامِ نصيباً بِسَفَهِهِمْ أنهُمْ إذا عَلِمُوا(٦) أنَّ اللهَ هو الذي ذَرَأَ لَهُمْ تلكَ الأشياءَ، وأنشَأَها(٧) لَهُمْ، فإليهِ الاختِيارُ في جَعلِ ذلكَ لا إليهِمْ، إذْ عَلِمُوا أنهُمْ إنما يَملِكونَ هُمْ [ما](٨) يَجعَلُ اللهُ لَهُمْ، وهو المالِكُ لَها(٩) حَقيقَةً.

والثاني: ما يُبيِّنُ سَفَهَهُمْ أيضاً أنهُمْ يَجعَلونَ لِلّهِ في ذلكَ نَصيباً ولِلأصنامِ نَصيباً مِنَ الثِّمارِ والحُروثِ وغيرِها، ثم إذا وَقَعَ شيءٌ(١٠) مِمّا جَعَلُوا للهِ وخالَطَ ما جَعَلُوهُ(١١) لِشُركائِهِمْ، تَرَكُوهُ، وإذا خالَطَ شيءٌ مِمّا جَعَلُوا لِشُرَكائِهِمْ، وَوَقَعَ في ما جَعَلُوهُ للهِ، أخَذُوهُ، وَرَدُّوهُ على شُرَكائِهِمْ، وانتَفَعُوا بِهِ، وتَرَكُوا الآخَرَ لِلأصنامِ إيثاراً لِلأصنامِ عليهِ وإعظاماً لها. وإذا زَكا نَصيبُ الأصنامِ، ونَما، ولم يَزكُ نَصيبُ اللهِ، ولم يَنمُ، تَرَكُوا ذلكَ لِلأصنامِ، ويَقولونَ: لو شاءَ اللهُ لأزكى نَصيبَهُ. وإذا زَكا الذي كانوا يَجعَلونَ لِلّهِ، [ولم يَزكُ](١٢) نَصيبُ الأصنامِ، أخَذُوا نَصيبَ اللهِ، فَقَسَمُوهُ بَيْنَ المَساكِينِ وبَيْنَ الأصنامِ نِصفَينِ.

يُسَفِّهُهُمْ ﷻ بِصَنيعِهِمُ الذي يَصنَعُونَ، ويُبيِّنُ جَوْهَرَهُمْ(١٣) بإيثارِهِمُ الأصنامَ وإعظامِهِمْ إيّاها والتَّفضيلِ في القِسْمَةِ

---

(١) في الأصل وم: يحتمل قوله. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل و م: فيقال. (٤) من م، في الأصل: محققاً. (٥) أدرج بعدها في الأصل: في قوم. (٦) من م، في الأصل: عملوا. (٧) في الأصل وم: وأنشأ. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: عليها. (١٠) أدرجت منصوبة بعد: لله. (١١) في الأصل وم: مما جزاء أو جعلوه. (١٢) في الأصل وم: ولا يزكو. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: عن.

والتَّجزئةِ مَعَ عِلمِهِمْ أنَّ اللهَ هو الذي ذَرَأَ ذلكَ، وأنشأهُ لَهُمْ، وأنَّ الأصنامَ التي أشْرَكُوها في أموالِهِمْ وعِبادَتِهِمْ للهِ لا تَمْلِكُ[1] مِنْ ذلك شيئاً [وذلكَ][2] مِنْهُمْ سَفَهٌ وجورٌ حِينَ أشْرَكُوا في أموالِهِمْ وعبادَتِهِمْ مَعَ اللهِ أحداً، لا يَسْتَحِقُّ بذلكَ شيئاً، وهو كما جَعَلُوا لِلَّهِ البَناتِ، وهُمْ كانوا يَأْنَفُونَ عنِ البَناتِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ﴾ الآية [النحل: ٥٨] وكقولِهِ[3] تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] وكقولِهِ[4] تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢٢] تأْنَفُونَ أنْتُمْ عنِ البناتِ، وتُضيفُونَها[5] إليهِ، فهو إذَنْ جورٌ وظُلْمٌ. فَعَلَى ذلكَ تَفضيلُ الأصنامِ في القِسْمَةِ وإيثارُهُمْ إيَّاها على اللهِ وإشراكُها[6] مَعَ اللهِ مَعَ عِلمِهِمْ أنهُ كانَ جميعُ ذلكَ [إشراكاً][7] باللهِ، وهو أنشأَهُمْ[8]، جَورٌ وسَفَهٌ.

ثم أخبَرَ أنهُمْ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بِئْسَ الحُكْمُ حُكْمُهُمْ.

الآية ١٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي كما زَيَّنَ لَهُمْ جَعْلَ النَّصيبِ لِلأصنامِ والتَّجزئَةَ لَها وصَرْفَ ما خَلَقَ اللهُ لَهُمْ عنهُ إلى الأصنامِ، كذلكَ زَيَّنَ لَهُمْ تَحريمَ ما أحَلَّ اللهُ لَهُمْ مِنَ السائبَةِ والوصيلةِ والحامي، كذلكَ زَيَّنَ لَهُمْ شُرَكاؤُهُمْ قَتْلَ أولادِهِمْ.

وأصْلُهُ أنَّ الشَّفَقَةَ التي جَعَلَ اللهُ في الخَلْقِ لأولادِهِمْ والرَّحْمَةَ التي جُبِلَتْ طبائعُهُمْ عليها تَمْنَعُهُمْ عَنْ قَتْلِهِمْ وخاصَّةً أولادَهُمُ الضُّعفاءَ والصِّغارَ. وكذلكَ الشَّهْوَةُ التي خَلَقَ فيهِمْ تَمْنَعُهُمْ عنْ تحريمِ ما أحَلَّ اللهُ لهمْ. لكنَّ ذلكَ زَيَّنَ لَهُمْ شُرَكاؤُهُمْ، وحَسَّنُوا عليهِمْ تَحريمَ ما أحَلَّ اللهُ لَهُمْ وقَتْلَ أولادِهِمْ. فما حَسَّنَ عليهِمُ الشُّركاءُ، وزَيَّنَ لَهُمْ مِنْ تَحريمِ ما أحَلَّ اللهُ لَهُمْ وقَتْلِ أولادِهِمْ، غَلَبَ على الشَّفَقَةِ التي جُبِلَتْ فيهِمْ والشَّهْوَةِ التي خَلَقَ، ومَكَّنَ فيهِمْ.

ثم اخْتُلِفَ في الشُّرَكاءِ: قالَ بَعْضُهُمْ: شُرَكاؤُهُمْ شَياطينُهُمُ التي تَدْعوهُمْ[9] إلى ذلكَ، وقيلَ: شُرَكاؤُهُمْ كُبَراؤُهُمْ ورُؤَساؤُهُمُ الذينَ يَسْتَتْبِعُونَهُمْ.

ثم يَحْتَمِلُ قَتْلَ الكُبَراءِ أولادَهُمْ تَكَبُّراً منهُمْ وتَجَبُّراً لأنهُمْ كانُوا يَأْنَفُونَ عنْ أولادِهِمُ الإناثِ، وقَتْلَ الأتباعِ [أولادَهُمْ][10] مَخافَةَ العَيلَةِ والفَقْرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ قيلَ: لِيُهْلِكُوهُمْ. إنهُمْ كانُوا يَقْصِدونَ/ ١٦٢ ـ ب/ في التَّحْسينِ والتَّزْيينِ إرادَةَ[11] الإهلاكِ، وإنْ كانُوا يُرُونَهُمْ في ذلكَ الشَّفَقَةَ. وكذلكَ كانُوا يَقْصِدُونَ بالتَّزيينِ تَلْبيسَ الدِّينِ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ يَحْتَمِلُ وُجوهاً: قالَ بَعْضُهُمْ: لو شاءَ اللهُ لأهْلَكَهُمْ، فلم يَفْعَلُوا ذلكَ. وقيلَ: لأعْجَزَهُمْ، ومَنَعَهُمْ عنْ ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦] وقيلَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي لأراهُمْ قُبْحَ فِعْلِهِمْ حتى لم يَفْعَلُوا.

وأصْلُهُ أنهُ إذا عَلِمَ مِنْهُمْ أنهُمْ يَفْعَلُونَ ما فَعَلُوا، ويَخْتارُونَ ما اختارُوا مِنَ التَّزْيينِ ولَبْسِ الدِّينِ عليهِمْ، شاءَ ما فَعَلُوا، واختارُوا، وقدْ ذَكَرْنا ذلكَ في غيرِ مَوضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي ذَرْهُمْ، ولا تُكافِئْهُمْ بافْتِرائِهِمْ على اللهِ. ويَحْتَمِلُ ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فإنَّ اللهَ يُكافِئُهُمْ، ولا يَفُوتُونَ. ويَحْتَمِلُ ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فإنَّ ضَرَرَ ذلكَ الافْتِراءِ عليهِمْ، ليسَ علينا، ولا عليكَ، واللهُ أعْلَمُ بذلكَ.

الآية ١٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ هذهِ الآيَةُ صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] هذا الذي جَعَلُوا لِلشُّرَكاءِ هو الحِجْرُ الذي ذُكِرَ في هذهِ الآيَةِ؛ لأنهُمْ كانُوا يَنْتَفِعُونَ بذلكَ، ويُحَرِّمُونَهُ، وهو حِجْرٌ.

---

(١) في الأصل وم: يملكون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: وتضيفون.
(٦) في الأصل وم: وإشراكهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في م: أنشأ لهم. (٩) من م، في الأصل: تدعون. (١٠) ساقطة من الأصل وم.
(١١) في الأصل و م: الإرادة.

جنة السنة

وأصْلُ الحِجْرِ المَنْعُ. وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][(١)] قالَ: الحِجْرُ ما حَرَّمُوا [على][(٢)] أنفُسِهِمْ مِنَ أشياءَ مِنَ الوَصِيلَةِ والسَّائِبَةِ والحامِي، وتَحرِيمُهُمْ ما حَرَّمُوا مِنَ أشياءَ؛ كانُوا يُحِلُّونَ أشياءَ، حَرَّمَها اللهُ، ويُحَرِّمُونَ أشياءَ أحَلَّها اللهُ في الجاهِلِيَّةِ مِنَ الحَرْثِ والأنعامِ.

وفي حَرْفِ [أُبَيِّ [بْنِ كَعْبٍ][(٣)] وابنِ عباسٍ ﷺ][(٤)] خَرَجَ على تأخِيرِ الجِيمِ وتَقْدِيمِ الراءِ. وعَنِ الحَسَنِ حُجْرٌ بِرَفْعِ الحَاءِ[(٥)].

وأصْلُ الحِجْرِ المَنْعُ، مَمْنُوعٌ مَحْجُورٌ؛ يُقالُ: حَجَرتُ عليهِ، أي مَنَعْتُهُ، والحِجْرُ أيضاً مَوضِعٌ بمكةَ، والاِحْتِجارُ الاِسْتِئثارُ، وهو أنْ يأخُذَ الشَّيءَ، ولا يُعْطِيَ منهُ أحداً شيئاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ يعني ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن﴾ يَشاءُ اللهُ؛ لأنهُمْ كانُوا يُحَرِّمُونَ أشياءَ، ويأْتُونَ بِفَواحِشَ، فَيَقُولُونَ: إنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بذلكَ كقولِهِ تعالى في الأعرافِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الآية: ٢٨].

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ يَعْنِي الذينَ سَنُّوا لَهُمْ، أي ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ قد ذَكَرْتُ لَكُمْ: أوَّلَ مَنْ بَدَّلَ دِينَ إسماعيلَ، وبَحَرَ البَحِيرَةَ والسَّائِبَةَ أولئكَ الذينَ سَنُّوا ذلكَ، وحَرَّمُوا ذلكَ على نِسائِهِمْ على ما رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «إنْ شِئْتُ قد ذكرتُ لَكُمْ أوَّلَ مَنْ بَدَّلَ دِينَ إسماعيلَ وبَحَرَ البَحِيرَةَ والسَّائِبَةَ» [بنحوه البخاري ٣٥٢١] فَعَلَى ذلكَ أضافُوا المَشِيئَةَ إلى أولئكَ الذينَ سَنُّوا ذلكَ، وحَرَّمُوا على إناثِهِمْ، وأحَلُّوا لِلذُّكُورِ[(٦)].

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ هؤلاءِ الرجالُ؛ كانَتْ مُضافَةً إلى الرِّجالِ دُونَ النِّساءِ. وفي ذلكَ تَسْفِيهُ أحلامِهِمْ؛ لأنهُمْ يُنْكِرُونَ الرِّسالةَ لِمكانِ ما يُحَرِّمُونَ مِنَ الطَّيِّباتِ، ثم يَتَّبِعُونَ الذي حَرَّمَ عليهِمْ مِنَ الطَّيِّباتِ التي أحَلَّها اللهُ لَهُمْ مِنَ البَحِيرَةِ والسَّائِبَةِ ونَحْوِهِما.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ هو ما ذُكِرَ مِنَ البَحِيرَةِ والسَّائِبَةِ والوَصِيلَةِ والحامِي، وهو الحِجْرُ الذي ذُكِرَ في هذه الآيةِ: يَجْعَلُونَ تلكَ الأشياءَ لِشُرَكائِهِمْ، لا يَنْتَفِعُونَ بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ قِيلَ فيهِ بِوُجُوهٍ: قيلَ: ﴿لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي لا يَنْتَفِعُونَ بها لِيَعْرِفُوا أنْعُمَ اللهِ، لِيَشْكُرُوا اللهَ عليها. وقِيلَ: ﴿لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي لا يَذْبَحُونَ لِلأكْلِ، و﴿لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾. ويَحْتَمِلُ ﴿لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ وَقْتَ الرُّكُوبِ كما يُذْكَرُ اسْمُ اللهِ عليها وَقْتَ الرُّكُوبِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ [الزخرف: ١٣] لأنهُمْ كانُوا لا يَرْكَبُونَها، ولكنْ يُسَيِّبُونَها. وقِيلَ: لا يَحُجُّونَ عليها. والأوَّلُ كأنهُ أقْرَبُ؛ كانُوا لا يَنْتَفِعُونَ بها لِيَعْرِفُوا أنْعُمَ اللهِ، ويَشْكُرُوا عليها.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ بأنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بذلكَ، وهو حَرَّمَ عليهِمْ، وهو أحَلَّ؛ فذلكَ هو الاِفْتِراءُ على اللهِ، أو بما أشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ في عِبادةِ اللهِ وفي نِعَمِهِ.

الآية ١٣٩ [وقولُهُ تعالى][(٧)]: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ قِيلَ: هو صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨] يُحَرِّمُونَ على النِّساءِ، ويُحِلُّونَ لِلرِّجالِ؟ يَعْنِي إذا وَلَدَتْ[(٨)] أحياءً كانَ يَنْتَفِعُ بذلكَ رِجالُهُمْ دونَ نِسائِهِمْ، وإذا وَلَدَتْ[(٩)] مَيْتاً اشْتَرَكَ[(١٠)] فيهِ الإناثُ والذكورُ. يَذْكُرُ في هذا كُلِّهِ سَفَهَ أولئكَ في صَنِيعِهِمْ، ويَذْكُرُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ﴾ إلى آخِرِهِ [الأنعام: ١٤١] نِعَمَهُ[(١١)] التي أنْعَمَ عليهِمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) في م: ابن عباس ﷺ. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية [٢/ ٣٢٢]. (٦) من م، في الأصل: الذكور لهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ولدوا. (٩) في الأصل وم: ولدوا. (١٠) في الأصل وم: اشتركوا. (١١) في الأصل وم: ونعمه.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي افتراءَهُم على اللهِ وتحريمَهُمْ ما أحلَّ اللهُ لَهُمْ وتحليلَهُمْ ما حرَّمَ عليهِمْ.

الآية ١٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً﴾ أخبرَ أنهُمْ خَسِرُوا بِقَتْلِهِمُ الأولادَ وتحريمِهِمْ ما أحلَّ [اللهُ][1] لَهُمْ، ورزقَهُمْ ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ وباللهِ الهِدايةُ والرَّشادُ.

الآية ١٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، مُقابلَ ما كانَ منهُمْ مِنْ تحريمِ ما أحلَّ اللهُ لَهُمْ، ورزَقَهُمْ مِنَ الحَرْثِ والزَّرْعِ والأنعامِ والانتِفاعِ بها، فقالَ: ﴿أَنْشَأَ جَنَّاتٍ﴾ وبساتينَ؛ مَنْ تأمَّلَ فيها، وتفكَّرَ، عَرَفَ أنَّ مُنشِئَها مالِكٌ حكيمٌ مُدبِّرٌ؛ لأنهُ يُنبِتُها. ويُخرِجُها مِنَ الأرضِ، في لَحْظةٍ ما لَوِ اجتمَعَ الخَلائِقُ على تقديرِها أنْ كيفَ خرَجَ؟ وكَمْ خرَجَ؟ وأيُّ قَدْرٍ ثَبَتَ؟ ما قَدَرُوا على ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]. ويُخرِجُ مِنَ الوَرْدِ والثِّمارِ على ميزانٍ واحدٍ ما لَوْ جَهَدُوا كُلَّ الجَهْدِ أنْ يَعْرِفُوا الفضلَ والتفاوُتَ بَيْنَ الأوراقِ والثِّمارِ ما قَدَرُوا، وما وَجَدُوا فيها تفاوُتاً. ويُخرِجُ أيضاً كُلَّ عامٍ مِنَ الثِّمارِ والأوراقِ ما يُشبِهُ العامَ الأوَّلَ.

فَدَلَّ ذلكَ كُلُّهُ أنَّ مُنشِئَها ومُخرِجَها مالِكٌ حكيمٌ؛ وَضَعَ كُلَّ شيءٍ موضِعَهُ، وأنَّ ما أنشأَ أنشأَ لِحِكْمَةٍ وتدبيرٍ لم يُنشِئْها عَبَثاً؛ فَلَهُ الحُكْمُ والتَّدبيرُ في الحِلِّ والحُرْمَةِ والقِسْمَةِ، لَيسَ لأحَدٍ دُونَهُ حُكْمٌ ولا تَدبيرٌ في التَّحريمِ والتَّحليلِ: هذا حَلالٌ، وهذا حَرامٌ، وهذا لِهذا، [وهذا لِهذا][2]؛ إنما ذلكَ إلى مالِكِها فَخَرَجَ هذا، واللهُ أعلَمُ، يُقابِلُ ما كانَ منهُمْ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨] [وقولِهِ تعالى][3]: ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] وقولِهِ تعالى ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٣٨] وغَيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ التي كانَ فيها ذِكْرُ حُكْمِهِمْ[4] على اللهِ وإشراكُ أنفُسِهِمْ في حُكْمِهِ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ [قيلَ: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾][5] مَبسوطاتٍ: ما تُنبِتُ مُنبسِطاً على وَجْهِ الأرضِ [﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ما يقومُ بساقِهِ، لا يَنبَسِطُ على الأرضِ، وقيلَ: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ ما يُتَّخَذُ لَهُ العَريشُ مِنْ نَحْوِ العُرْجُونِ والقَرْعِ وغَيْرِهِ][6] ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ما لا تقَعُ الحاجةُ إلى العَريشِ مِنْ نحوِ النَّخيلِ والأشجارِ المُثمِرَةِ، وهما واحِدٌ، وقيلَ: على القَلْبِ: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ ما تقومُ بِساقِها ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ما لا ساقَ لَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وتَعريشُهُ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ مِنها ما يكونُ مُتشابِهاً في اللَّونِ مُختلِفاً في الأكْلِ والطَّعمِ، ومنها ما يكونُ مُختلِفاً في اللَّونِ والمَنظَرِ مُتشابِهاً في الطَّعمِ والأكلِ لِيَعلَمُوا أنَّ مُنشِئَها واحِدٌ وأنهُ حَكِيمٌ؛ أنشأها على حِكْمَةٍ، وأنهُ مُدبِّرٌ؛ أنشأها عَنْ تَدْبيرٍ؛ لم يُنشِئْها عَبَثاً.

ومِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنَّ[7] قولَهُ تعالى ﴿مُتَشَابِهًا﴾ في الذي ذَكَرَ، وهو الرُّمَّانُ والزَّيتُونُ؛ لأنَّ وَرَقَهُما مُتَشابِهٌ، والثَّمرةُ مُختلِفةٌ، ومنهُمْ مَنْ يقولُ: [التَّشابُهُ][8] فيهِما وفي غَيرِهِما، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ ولا تُحرِّمُوا؛ خرَجَ على مُقابَلَةِ ما كانَ منهُمْ مِنَ التَّحريمِ؛ أي كُلُوا منها، ولا تُحرِّمُوا لِيَضيعَ، ويَفْسُدَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ ذَكَرَ ﷻ الإيتاءَ مِمَّا يُحصَدُ /١٦٣ ـ أ/ بَعْدَ ذِكْرِ النَّخيلِ والزَّرعِ والزَّيتونِ والرُّمَّانِ حَبّاً وغَيرَ حَبٍّ، وما يقَعُ في الكَيلِ، وما لا يقَعُ مُجمَلاً عامّاً، ولم يُفَصِّلْ بَيْنَ قَليلِهِ وكَثيرِهِ، ففيهِ دلالةُ وُجوبِ الصَّدَقَةِ والعُشْرِ في قَليلِ ما تُخرِجُ الأرضُ وكَثيرِهِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى في سورةِ البَقرةِ: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [الآية: ٢٦٧].

وحديثُ مُعاذِ [بْنِ جَبَلٍ][9] ﷺ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «في كُلِّ ما أخرَجَتِ الأرضُ العُشْرُ أو نِصفُ العُشْرِ» [بنحوه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٦٧] وحَديثُ ابنِ عُمَرَ ﷺ عنِ النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ][10] قالَ: «في كُلِّ ما أخرَجَتِ الأرضُ قَليلِهِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: تحكمهم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: وقيل. (٧) من م، في الأصل: أنه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وكثيرِهِ العُشْرُ» [بنحوه البخاري ١٤٨٣] وخَبَرُ مُعاذِ [بن جَبَلٍ أنهُ][(١)] قال: «بَعَثَني رسولُ اللهِ ﷺ إلى أهلِ اليَمنِ، فأمَرَني أنْ آخُذَ مِنْ [كُلِّ][(٢)] حالِمٍ ديناراً أو عِدْلَهُ مَعافِرَ، وأمَرَني أنْ آخُذَ مِنْ كُلِّ أربعينَ [بَقَرَةً][(٣)] مُسِنَّةً ومِنْ كُلِّ ثلاثينَ [بَقَرَةً تَبِيعاً حَوْلِيّاً][(٤)] ومِنْ كُلِّ ما سَقَتِ السماءُ العُشْرَ. وما سُقِيَ بالدَّوالي[(٥)] نِصْفَ العُشْرِ» [أحمد ٥/ ٢٣٣] إلى هذا كُلِّهِ يَذْهَبُ أبو حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، ويُوجِبُ الصَّدَقَةَ في قليلِ الخارجِ مِنَ الأرضِ وكثيرِهِ.

ثم اخْتَلَفَ أهْلُ التَّأويلِ في تأويلِ الحَقِّ الذي ذَكَرَهُ اللهُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ قال قومٌ: هي صَدَقَةٌ سِوى الزَّكاةِ، واحْتَجُّوا بأنَّ الآيةَ مَكِّيَّةٌ، وأنَّ الزَّكاةَ فُرِضَتْ بالمَدينَةِ، وهي مَنْسُوخَةٌ بآيَةِ الزَّكاةِ. وقال قومٌ: هي الزَّكاةُ فإنْ نُسِخَ فإنما[(٦)] نُسِخَ قَدْرُها، لم يُنْسَخِ الحَقُّ رأساً؛ لأنهُمْ كانُوا يَتَصَدَّقُونَ بالأكْلِ[(٧)]، فما نُسِخَ إنما نُسِخَ بآيَةِ الزَّكاةِ قَدْرُها.

ألا تَرى أنهُ قالَ تعالى في آخِرِهِ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؟ والإسرافُ في اللُّغَةِ هو المُجاوَزَةُ عَنِ الحَدِّ الذي حُدَّ لَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ أي لا تَمْنَعُوا الأكْلَ[(٨)]، ولكنْ كُلُوا مِنْ بَعْضِهِ، وآتوا حَقَّهُ مِنْ بَعْضِهِ، وقيلَ: الإسرافُ ههنا هو الشِّرْكُ، كأنهُ [قال][(٩)]: لا تُشْرِكُوا آلهتَكُمْ في ما رَزَقَكُمُ اللهُ مِنَ الحَرْثِ والأنعامِ، [فَتُحَرِّمُوا، ولا تَنْتَفِعُوا][(١٠)] بِهِ.

والإسرافُ هو الذي لا يَنْتَفِعُ بِهِ أحدٌ، وما كانُوا جَعَلُوا لِشُرَكائِهِمْ لا يَنْتَفِعُونَ بِهِ هُمْ، ولا انْتَفَعَ بِهِ أحدٌ، يكونُ مُقابِلَ[(١١)] قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ الآية [الأنعام: ١٣٨].

وأمّا أبو يُوسُفَ ومحمدٌ، رَحِمَهُما اللهُ [فإنهما][(١٢)]، يَذْهَبانِ إلى ما رُوِيَ عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ [أنهُ][(١٣)] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «لا صَدَقَةَ في الزَّرْعِ ولا في الكَرْمِ ولا في النَّخْلِ إلّا ما بَلَغَ خَمْسَةَ أوسُقٍ، وذلكَ مِئَةُ فَرَقٍ» [البيهقي في الكبرى ٤/ ١٢٨].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، وعنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُهُ، وما رَوى مُوسى بْنُ طَلْحَةَ [عَنْ أبيهِ][(١٤)] أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «لَيسَ في الخَضْراواتِ صَدَقَةٌ» [الطبراني في الأوسط ٥٩١٧] تُؤخَذُ إلّا في ما بَلَغَ كذا؛ وما[(١٥)] عليهِ في نَفْسِهِ صَدَقَةٌ يُؤَدِّيها هو.

ثم إنْ كانَ ذلكَ الحَقُّ الذي ذُكِرَ في الآيَةِ الزكاةَ فإنَّ الآيَةَ تدلُّ، واللهُ أعْلَمُ، على أنَّ زكاةَ الحَبِّ والثِّمارِ إنما تَجِبُ في ما [يَيْبَسُ مِنَ الجَنّاتِ][(١٦)] المَعْرُوشاتِ وغيرِ المَعْرُوشاتِ، فَدَخَلَ في ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ، العِنَبُ وغيرُ العِنَبِ والثِّمارُ كُلُّها [وما][(١٧)] قالَ تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ فجميعُ ما تُخْرِجُ الأرضُ مِنْ كُلِّ الأصنافِ التي سَبَقَ ذِكْرُها.

وقالَ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ فَجَعَلَ الحَقَّ الواجِبَ فيهِ يومَ يُحْصَدُ، فَيَجُوزُ أنْ يكونَ عَفا عَمّا قَبْلَ ذلكَ. فإنْ كانَ هذا هو التَّأويلَ، فهو، واللهُ أعْلَمُ، مَعْنى ما رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ولو لم يكُنْ قولُهُ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ عَفْواً عن صَدَقَةِ ما يُؤْكَلُ منهُ ما كانَ في ذلكَ فائدةٌ؛ لأنَّ الثَّمَرَةَ تُؤْكَلُ، ولا تَصْلُحُ لِغَيْرِ ذلكَ إلّا لِلْوَجْهِ الذي ذَكَرْنا؛ وهو أنهُمْ كانُوا يُحَرِّمُونَ، ولا يَنْتَفِعُونَ بها، فقالَ ﷺ ﴿كُلُواْ﴾ وانْتَفِعُوا بِهِ، ولا تُضَيِّعُوهُ.

وإذا كانَ قولُهُ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ عَفْواً عن صَدَقَةِ ما يُؤْكَلُ منهُ ظَهَرَتْ فائِدَةُ الكَلامِ، وهو على هذا التَّأويلِ، واللهُ أعْلَمُ، ما رُوِيَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «إذا خَرَصْتُمْ فَخُذُوهُ، ودَعُوا الثُّلُثَ فالرُّبُعَ» [النسائي ٥/ ٤٢].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: تبيعاً. (٥) في الأصل وم: بالديالي. (٦) في الأصل وم: إنما. (٧) في الأصل وم: بالكل. (٨) في الأصل وم: الكل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فتحرمون ولا تنتفعون. (١١) من م، في الأصل: تقابل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: وأما. (١٦) في الأصل: يسبق الجنايات، في م: ييس الجنات. (١٧) في الأصل وم: و.

وعَن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ ﷺ، عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][1] قالَ: «ليس في العَرايا صدقةٌ» [البيهقي في الكبرى ٤/ ١٢٥] وعنْ عُمَرَ بْنِ الخطاب ﷺ أنهُ كانَ يبعَثُ أبا حَثْمةَ خارصاً للنَّخلِ، ويقولُ لهُ: إذا وجَدْتَ أهلَ بيتٍ في حائطِهِمْ فلا تَخرُصْ بِقَدْرِ ما يأكلون. وعن مكحولٍ [أنهُ][2] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «خفِّفُوا على الناسِ في الخَرْصِ فإنَّ في المالِ العَرِيَّةَ والوَصِيَّةَ» [بنحوه البخاري ٢١٨٨ و٢١٩٣ و٢٣٨٠].

فَدَلَّتْ هذه الأحاديثُ على أنهُ لا صَدَقَةَ في ما يُؤكَلُ مِنَ التَّمرِ رَطْباً، إذا لم يكُنْ في ما يأكُلُونَ إسرافٌ، وقَدَّرَ النَّبيُّ ﷺ لِذلكَ الثُّلُثَ أوِ الرُّبُعَ. وذلكَ، واللهُ أعْلَمُ، يُشبِهُ ما دَلَّتْ عليهِ الآيَةُ على تَأويلِ مَنْ جَعَلَ الحَقَّ زكاةً؛ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ فاحتَمَلَ أنْ يكونَ أيضاً مَعنى ذلكَ ولا تُسرِفُوا في الأكْلِ، فَيُجحِفَ ذلكَ بأهْلِ الصَّدَقَةِ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ نَهْياً عنِ الإسرافِ في جميعِ الأشياءِ على ما ذَكَرْنا مِنْ قَبْلُ.

وإذا صَحَّ أنْ لا صَدَقَةَ في ما يُؤكَلُ مِنَ الرُّطَبِ والعِنَبِ والثِّمارِ بهذهِ الأخبارِ، وأنَّ الصَّدَقَةَ إنما تَجِبُ في ما يَلْحَقُهُ الحَصادُ يابساً، يُمكِنُ ادِّخارُهُ، فالواجِبُ ألّا يكونَ في شيءٍ مِنَ الخُضَرِ التي[3] تُؤكَلُ رَطْبَةً صَدَقَةٌ، وألّا تكونَ الصَّدَقَةُ واجِبَةً إلّا في ما يَبِسَ منها، ويُمكِنُ أنْ يُدَّخَرَ. فأمّا البُقولُ والرِّطابُ والبِطِّيخُ والقِثّاءُ والتُّفّاحُ وأشباهُها فلا صَدَقَةَ فيها. هذا كُلُّهُ يَدُلُّ لأبي يُوسُفَ ومحمدٍ، رَحِمَهُما اللهُ، إلّا أنّا لا نَعْلَمُ مُخالِفاً في أنَّ ما يُباعُ مِنَ الرُّطَبِ صَدَقَةٌ، وإنْ كانَ يُؤكَلُ بِهَيئَتِهِ[4]، فهذا يُفسِدُ ما احْتَجَجْنا[5] بِهِ لأبي يُوسُفَ ومحمدٍ، رَحِمَهُما اللهُ، ومَنْ وافَقَهُما. وتأويلُ ما رُوِيَ أنْ لا صَدَقَةَ في الخَضْراواتِ، ولَيسَ في أقَلَّ مِنْ خَمْسَةِ أوسُقٍ صَدَقَةٌ تُؤخَذُ، وما[6] عليهِ في نَفْسِهِ يُؤدِّيها[7]، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ على أُولئكَ خاصَّةً في ذلكَ الوَقْتِ، أو يقولَ: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ﴾ ولا تَصرِفُوا إلى الأصنامِ التي تَصرِفونَ إليها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ هو صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ، وأنشأ أيضاً مِنَ ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ﴾.

ثم اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: الحَمُولَةُ ما يُحمَلُ عليها؛ أنشأها لِلحَمْلِ، والفَرْشُ الصِّغارُ منها التي لا تَحتَمِلُ، وقيلَ: الحَمُولَةُ مِنْ نَحوِ الإبِلِ والبَقَرِ والبِغالِ وغيرِها مِنَ الحَيَوانِ، والفَرْشُ هو الغَنَمُ والمَعْزُ التي تُؤكَلُ، وأنشأها لِلَّحْمِ. ويَحتَمِلُ الفَرْشُ ما يُؤخَذُ مِنَ الأنعامِ، ويُتَّخَذُ منهُ الفُرُشُ والبُسُطُ. وقالَ الحَسَنُ: الحَمُولَةُ ما يُحمَلُ عليها، وهو خاصٌّ، والفَرْشُ كُلُّ شَيءٍ مِنْ أنواعِ المالِ مِنَ الحَيَوانِ وغيرِهِ. يُقالُ: أفْرَشَهُ اللهُ لَهُ؛ أي جَعَلَهُ. قالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ: الحَمُولَةُ الإبِلُ والخَيلُ والبِغالُ والحَميرُ وكُلُّ شَيءٍ يُحمَلُ عليهِ، وأمّا الفَرْشُ فالغَنَمُ. وعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ: الحَمُولَةُ الإبِلُ والخَيلُ والبِغالُ والحَميرُ وكُلُّ شَيءٍ يُحمَلُ عليهِ، وأمّا الفَرْشُ فالغَنَمُ. وعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ [أنهُ][8] قالَ: الحَمُولَةُ الإبِلُ، والفَرْشُ البَقَرُ والغَنَمُ. قالَ أبو عَوسَجَةَ: الحَمُولَةُ مَراكِبُ النِّساءِ، والفَرْشُ ما يكونُ لِلنِّتاجِ. وقالَ القُتَبِيُّ: الحَمُولَةُ كِبارُ الإبِلِ التي يُحمَلُ عليها، والفَرْشُ صِغارُها التي لم تُدرِكْ أنْ يُحمَلَ عليها، وهي ما دُونَ الحِقاقِ، والحِقاقُ هي التي تَصلُحُ أن تُركَبَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ووَجِّهوا شُكْرَ ذلكَ إليهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ في تحريمِ ما أحَلَّ اللهُ لَكُمْ، وجَعَلَ ذلكَ لَكُمْ رِزقاً، كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٦] وقولِهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦٓ/ ١٦٣ ـ ب/ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٣٨] وقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الذي. (٤) في الأصل وم: كهيئة. (٥) في الأصل وم: احتجنا.
(٦) في الأصل وم: وأما. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٨) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

يقولُ تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ١٤١] وانتَفِعُوا بِهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ في تَحريمِ ذلكَ على أنفُسِكُمْ، واعْرِفوا نِعْمَةَ التي أنعَمَها عليكُمْ، ووَجِّهُوا شُكرَ نِعَمِهِ إليهِ، ولا تُوَجِّهُوها إلى غَيرِهِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ قِيلَ: آثارُ الشيطانِ، وقِيلَ: أعمالُ الشيطانِ، وقِيلَ: دُعاءُ الشيطانِ وتزيينُهُ، وكُلُّهُ واحِدٌ. وأصلُهُ أنَّ كُلَّ مَنْ أجابَ آخَرَ [إلى][1] ما يَدْعُوا إليهِ، ويأتَمِرُ بِأمرِهِ[2]، يُقالُ: اتَّبَعَ أثَرَهُ، وقد ذُكِرَ هذا في ما تقدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي إنهُ في ما يَدْعُوكُمْ، أي تَحريمِ[3] ما أحلَّ اللهُ لَكُمْ، ورزَقَكُمْ؛ يَقصِدُ قَصْدَ إهلاكِكُمْ وتعذيبِكُمْ لا قَصْدَ مَنفَعَةٍ لَكُمْ في ذلكَ. وكُلُّ مَنْ قَصَدَ قَصْدَ إهلاكِ آخَرَ فهو عَدُوٌّ لهُ. وهو يَخرُجُ على ما ذَكَرْنا مِنْ تذكيرِ المِنَنِ والنِّعَمِ التي أنعَمَها عليهِمْ. يقولُ: هو الذي جَعَلَ لَكُمْ ذلكَ، فلا تَصرِفُوا شُكرَهُ إلى غَيرِهِ.

الآية ١٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ؛ أي أنشأ أيضاً ثمانيةَ أزواجٍ على ما ذَكَرَ ﴿أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١] وأنشأَ مِنَ الأنعامِ أيضاً ﴿حَمُولَةً﴾ وأنشأَ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ مِمَّا أعَدَّ[4] لنا.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ هو تفسيرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ ويكونَ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ التي ذَكَرَ في الآيةِ بيانَ الحَمُولَةِ والفَرْشِ التي ذَكَرَ في الآيةِ الأُولى.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ في الآيةِ تَعريفُ المُحاجَّةِ مَعَ الكَفَرَةِ وتَعليمُها مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنهُمْ كانوا يُحَرِّمُونَ أشياءَ على الإناثِ، ويُحَلِّلُونَها لِلذُّكُورِ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَٰجِنَا﴾ وإنْ تكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فيها[5] شُرَكاءُ.

فقالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ يُعَرِّفُنا المُحاجَّةَ مَعَهُمْ وطَلَبَ العِلَّةِ التي بِها حَرَّمَ، فقالَ: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ فإنْ قالوا: حَرَّمَ الذَّكَرَ يَجِبُ[6] أنَّ كُلَّ ذَكَرٍ مُحَرَّمٌ. ثم مِنَ الذُّكُورِ ما يَحِلُّ، فتناقَضُوا في قولِهِمْ. وإنْ قالوا: حَرَّمَ الأُنثى يَجِبُ[7] أنَّ كُلَّ أُنثى أيضاً تكونُ مُحَرَّمَةً. فإذا لم يُحَرِّمْ كُلَّ أُنثى ظَهَرَ[8] تناقُضُهُمْ؛ لأنهُ لا يَجوزُ أنْ توجِبَ حُرْمَةُ شَيءٍ أو حُكْمُهُ[9] لِمَعنًى، ثم يُرفَعُ ذلكَ الحُكْمُ، والمَعنى مَوجودٌ؛ أي[10] حَرَّمَ ما ﴿اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ فإنْ كانَ لِهذا [يَجِبُ فإنَّ][11] كُلَّ مُشتَمِلٍ عليهِ أرحامُ الأُنثَيَينِ مُحَرَّمٌ. فإذا لم يُحَرِّمْ ذلكَ دلَّ أنَّ التَّحريمَ لم يَكُنْ لِهذا.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ الحُكْمَ إذا وَجَبَ لِعِلَّةٍ فذلكَ الحُكْمُ واجِبٌ ما دامَتِ العِلَّةُ قائِمَةً موجودةً، وفيهِ الأمرُ بالمُقايَسَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي لَيسَ عِندَهُمْ عِلْمٌ، يُعلِمُونَ ذلكَ، ويُبَيِّنُونَهُ.

ذَكَرَ هَهنا ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في مَقالَتِكُمْ: إنهُ حَرَّمَ.

الآية ١٤٤ وقالَ في الآيةِ التي تَلِيها ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا﴾ أي بِتَحريمِها أي لَيسَ[12] لَكُمْ شُهَداءُ على تَحريمِ ما تُحَرِّمُونَ لا مِنْ جِهَةِ كِتابٍ ولا رسولٍ ولا استِدلالٍ؛ لأنَّ العلومَ ثلاثةٌ: عِلْمُ استِدلالٍ، وهو عِلْمُ العَقلِ، وعِلْمُ المُشاهَدَةِ والعِيانِ، وهو عِلْمُ الحِسِّ، وعِلْمُ السَّمعِ والخَبَرِ. فيُخبِرُ أنهُ لَيسَ لَهُمْ مِنْ هذِهِ العُلومِ شَيءٌ.

أمّا عِلْمُ الاستِدلالِ فلا عَقلَ يَدُلُّ على تَحريمِ ما حَرَّمتُمْ، ولا [لَكُمْ][13] عِلْمُ مُشاهَدَةٍ؛ لأنكُمْ لم تُشاهِدُوا اللهَ حَرَّمَ

---

(١) ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: إليه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: عد. (٥) في الأصل وم: فيه. (٦) في الأصل وم: فيجب. (٧) في الأصل وم: فيجب. (٨) في الأصل وم: ظهرت. (٩) في الأصل وم: حلمه. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: فيجب أن. (١٢) في الأصل وم: ليست. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ذلكَ، ولا [لهُمْ](١) عِلْمٌ مِنْ جهةِ السَّمعِ والخبَرِ؛ لأنهُمْ لا يُؤمِنُونَ بالكُتُبِ، ولا صَدَّقُوا الرُّسُلَ، فيَقُولُوا: أخبَرَنا الرُّسُلُ بتَحريمِ ذلكَ، أو وَجَدْنا في الكُتُبِ حُرْمَتَها، فبُهِتُوا في ذلكَ، وضَجِرُوا.

وفي الآيةِ دلالَةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ونُبُوَّتِهِ ﷺ لأنهُمْ كانُوا لا يُحَرِّمُونَ هذِهِ الأشياءَ ظاهِراً في ما بَيْنَهُمْ، ورسولُ اللهِ ﷺ نَشَأَ بَيْنَ أظهُرِهِمْ مُنْذُ أنْ كانَ صَغيراً إلى كِبَرِهِ، وعَرَفُوا أنهُ لم يَختَلِفْ إلى أحدٍ، عَرَفَ ذلكَ، ثم أخبَرَهُ(٢) اللهُ ﷻ ما حَرَّمُوا فَسادَ ما صَنَعُوا لِيَدُلَّهُمْ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ، وبِهِ عَلِمَ حِلَّ ما حَرَّمُوا وحُرْمَةَ ما أحَلُّوا لا بأحَدٍ مِنَ الخَلائِقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أحدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لأنهُ هو الذي أنشَأَهُمْ، وأنشَأَ لَهُمْ جميعَ ما يَحتاجُونَ إليهِ، ويَقْضُونَ حَوائِجَهُمْ، وبِهِ كانَتْ(٣) جميعُ نِعَمِهِمُ التي يَتَنَعَّمُونَ، ويَتَقَلَّبُونَ فيها؛ فلا أحدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فقالَ: حَرَّمَ كذا، ولم يَكُنْ حَرَّمَ، أو أمَرَ بكذا، ولم يكُنْ أمَرَ. ألا تَرى أنهُ قالَ ﷻ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾؟ [النساء: ٨٧] [وقالَ:](٤) ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾؟ [النساء: ١٢٢]. فكما لم يكُنْ أحدٌ أصدَقَ منهُ حديثاً، فعَلى ذلكَ لا أحدَ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بَعْدَ عِلْمِهِ أنهُ هو الفاعِلُ لذلكَ كُلِّهِ، وهو المُنْشِئُ ما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ في الظاهِرِ استِفهامٌ، ولكنْ في الحقيقةِ إيجابٌ؛ لأنه لا يَحْتَمِلُ الاستِعْظامَ؛ كأنهُ قالَ: لا أحَدَ أفحَشُ ظُلماً ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ على الإيجابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لأنهُ يَقصِدُ بالافْتِراءِ على اللهِ قَصْدَ إضلالِ الناسِ وإغوائِهِمْ.

[وقولُهُ تعالى](٥): ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يَهْدِي وَقْتَ اختيارِهِمُ الكُفْرَ والظُّلمَ. وقيلَ: لا يَهْدِي القَوْمَ الذينَ في عِلْمِهِ أنهُمْ يَجتَمِعُونَ بالكُفْرِ. ويَحتَمِلُ: لا يَهْدِيهِمْ إذا كانُوا هُمْ عندَ اللهِ ظَلَمَةً كَفَرَةً، وإنْ كانُوا عندَ أنفُسِهِمْ عُدُولاً على الحَقِّ.

الآية ١٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ﴾ يَحتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: أي لا أجِدُ مِمَّا تُحَرِّمُونَ أنتُمْ في ما أُوحِيَ إليَّ، وأمّا مِمّا لا تُحَرِّمُونَ [فإنني أجِدُ](٦).

والثاني: ﴿لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ في وَقْتٍ، ثم وَجَدَهُ في وَقْتٍ آخَرَ. وأيُّهُما كانَ فلَيسَ فيهِ دليلُ حِلِّ سِوَى ما ذَكَرَ في الآيةِ على ما يَقُولُهُ بَشَرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ مِثْلُ هذا الخِطابِ لا يكونُ إلّا في مَعْهُودِ سُؤالٍ. وإلّا مِثْلُ هذا الخطابِ لا يَستَقِيمُ على الابْتِداءِ. فإنْ كانَ في معهودٍ فهو يَخرُجُ جوابَ ما كانُوا يُحَرِّمُونَ مِنْ أشياءَ مِنَ الأنعامِ والحَرْثِ، وما ذَكَرَ في الآياتِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها، وما كانُوا يُحَرِّمُونَ مِنَ البَحِيرَةِ والوَصِيلَةِ والسّائِبَةِ والحامي.

فقالَ: ﴿لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ مِمّا تُحَرِّمُونَ أنتُمْ ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ جوابَ سُؤالٍ في نازِلَةٍ، فقالَ: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ في ما ذَكَرَ في الآيةِ، ولم يَجِدْهُ مُحَرَّماً في وَقْتٍ إلّا ما ذَكَرَ، ثم وجَدَهُ في وقْتٍ آخَرَ. ففي أيِّهِما كانَ لم يكُنْ لِلْبَشرِ عَلَينا في ذلكَ حُجَّةٌ حِينَ(٧) قالَ: إنَّ الأشياءَ كُلَّها مُحَلَّلَةٌ مُطْلَقاً بهذِهِ الآيةِ: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا﴾ ما ذَكَرَ مِنَ المَيْتَةِ والدَّمِ ولَحمِ الخِنزيرِ وما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ، فقالَ: لا تُحَرِّمْ مِنَ الحَيَوانِ إلّا ما ذَكَرَ.

ويَقُولُ: إنَّ النَّهْيَ الذي جاءَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ هو(٨) نَهْيٌ عَنْ كُلِّ ذي نابٍ مِنَ السِّباعِ وعَنْ كُلِّ ذي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيرِ. إنما هو خَبَرٌ خاصٌّ مِنْ أخبارِ الآحادِ، وخَبَرُ الواحِدِ لا يَعْمَلُ في نَسْخِ الكتابِ، وقد قالَ: ﴿لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: كان. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: فإنه يجد. (٧) في الأصل و م: حيث. (٨) في الأصل و م: أنه.

جنة السنة

وبَعْدُ فإنَّ ذلك الخَبَرَ مِنَ الأخبارِ المُتَواتِرَةِ؛ لأنهُ عَرَفَهُ الخاصُّ والعامُّ، وعَمِلُوا بِهِ، وظَهَرَ العَمَلُ بِهِ، حتى لا يَكادُ يُوجَدُ ذلكَ يُباعُ في أسواقِ المُسْلِمِينَ. دلَّ أنهُ مِنَ المُتَواتِرِ.

قالَ الشيخُ / ١٦٤ ـ أ/ ﷺ: وعندنا أنَّ لَفظَةَ التَّحريمِ في الحيوانِ [لا تكونُ][1] إلّا في ما ذَكَرَ في الآيةِ مِنَ المَيْتَةِ والدَّمِ المَسْفُوحِ والخِنزيرِ. ولكنْ يُقالُ: مَنهِيٌّ عنهُ، مَكرُوهٌ، ولا يُقالُ: مُحَرَّمٌ مُطلَقاً، ولا يقالُ: لا يُؤكَلُ، ولا يُطعَمُ.

وبَعْدُ فإنَّ الآيةَ لو كانَتْ في غَيرِ الوجهَينِ اللَّذينِ ذكَرْناهما لم يكُنْ فيها دليلُ حِلِّ ما عدا المذكورَ في الآيةِ؛ لأنهُ قالَ: ﴿لَآ أَجِدُ﴾ ولم يُوجَدْ في وقتٍ، ثم وَجَدَ في وقتٍ آخَرَ، هذا جائزٌ.

وفي قولِهِ: ﴿مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ دلالةٌ أنَّ الجِلْدَ يُحَرَّمُ بِحَقِّ اللَّحْمِيَّةِ؛ لأنهُ أمْكَنَ أنْ يُشْوَى، فيُؤكَلَ، فحُرْمَتُهُ حُرْمَةُ اللَّحْمِ. فإذا دُبِغَ خَرَجَ مِنْ أنْ يُؤكَلَ، فَظَهَرَ عن قولِهِ تعالى: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ واللهُ أعْلَمُ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ الآية دلالةٌ أنَّ الحُرْمَةَ التي ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ [المائدة: ٣] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ حُرْمَةُ الأكْلِ والتَّناوُلِ مِنها؛ لأنهُ لم يُبَيِّنْ في تلك الآيةِ ما الذي حُرِّمَ مِنها سِوَى ما ذَكَرَ حُرْمَتَهُ [التي][2] تُفَسِّرُها هذِهِ الآيَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ الأكْلُ[3] دلَّ هذا أنَّ الحُرْمَةَ في تِلكَ الآيةِ الأكْلُ والتَّناوُلُ منها، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥] ذَكَرَ الحِلَّ، ولم يَذكُرِ الحِلَّ لماذا؟ ثم جاءَ التَّفْسِيرُ في هذِهِ الآيةِ أنهُ لِلأكْلِ.

ثم المَيْتَةُ التي ذَكَرَ أنها مُحَرَّمَةٌ لَيسَتْ هي التي ماتَتْ حَتْفَ أنفِها خاصَّةً. ألا تَرَى أنهُ ذَكَرَ ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾؟ [المائدة: ٣] كُلُّ هذا الذي ذَكَرَ لم يَمُتْ حَتْفَ أنفِهِ، ولكنْ بأسبابٍ[4]، لم يُؤْمَرْ بها، فصارَتْ مَيْتَةً. فدلَّ أنَّ كُلَّ مَذبوحٍ أو مَقتُولٍ بِسَبَبٍ، لم يُؤْمَرْ بِهِ، هو[5] مَيْتَةٌ، لا يَحِلُّ التَّناوُلُ منها إلّا في حالِ الاضْطِرارِ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ دلالةٌ أنَّ المُحَرَّمَ مِنَ الدَّمِ هو المَسْفُوحُ، والدَّمَ الذي يكونُ في اللَّحْمِ، ويُخالِطُ اللَّحْمَ، لَيسَ بِحَرامٍ، والدَّمُ المَسْفُوحُ حرامٌ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: المَسْفُوحُ المَصْبُوبُ؛ تَقولُ: سَفَحتُ صَبَبْتُ، وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿مَّسْفُوحًا﴾ أي سائِلاً، وقالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ المَسْفُوحُ هو الذي يُهْرَاقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ ذَكَرَ اللَّحْمَ، وذَكَرَ حُرْمَةَ المَيْتَةِ، لِيُعْلَمَ أنَّ الخِنْزِيرَ بِجَوهَرِهِ حرامٌ، والمَيْتَةَ، حُرْمَتُها لا بِجَوهَرِها، لكنْ بِما[6] اعْتَرَضَ. لِذلكَ قُلْنا: لا بأسَ بالانْتِفاعِ بِصُوفِ المَيْتَةِ وَوَبَرِها وعَظْمِها، ولا يجوزُ مِنَ الخِنْزِيرِ شيءٌ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قِيلَ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ [غَيرَ مُسْتَحِلٍّ لَهُ][7] في دِينِهِ ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي ولا مُتَعَدِّياً ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ إليهِ، فأكَلَهُ. وقد ذَكَرْنا أقاوِيلَهُمْ والاخْتِلافَ في تأويلِهِ في صَدْرِ الكتابِ ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لأكْلِهِ الحرامَ في حالِ الاضْطِرارِ ﴿رَّحِيمٌ﴾ حِينَ[8] رَخَّصَ الحَرامَ في مَوضِعِ الاضْطِرارِ، وهذا أيضاً قد مَضَى ذِكْرُهُ[9].

الآية ١٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ قِيلَ: مِثْلُ النَّعامَةِ والبَعيرِ. وقِيلَ: ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ مِثْلُ الدِّيكِ والبَطَّةِ والبَعِيرِ وكُلِّ مُنْفَرِجِ الأصابِعِ والقَوائِمِ. وقِيلَ: حَرَّمْنا كُلَّ ذي حافِرٍ مِنْ نَحْوِ حمارِ الوَحْشِ والوَزِّ وغَيرِهِ. وقِيلَ: ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ كُلَّ ذي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيرِ وكُلَّ ذي نابٍ مِنَ السِّباعِ، ومِنَ الدَّوابِّ كُلَّ ذي ظُفُرٍ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إلا كذا. (٤) من م، في الأصل: بأسبابها. (٥) في الأصل و م: فهو. (٦) في الأصل و م: لما. (٧) في الأصل وم: يستحله. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، في الأصل: ذكر.

مُنشقّ مِثلَ الأرنَبِ والبَعِيرِ وأشباهِهما، وهو قولُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما. والأشبَهُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ قِيلَ: شُحومُ بُطونِهما مِنَ[1] الثُّروبِ وشَحمِ الكِلْيَتَينِ ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ وهي المَباعِرُ والمَصارِينُ أي الشَّحْمُ الذي عليها ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ قِيلَ الإليَةُ.

وقِيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ هو اسمُ[2] اللَّحمِ، وقيلَ[3] فيهِ أقاويلُ مُختلِفَةٌ في هذا وفي الأوَّلِ في قولِهِ تعالى: ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ لكنْ لَيسَ لَنا إلى مَعرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ؛ لأنَّ تلكَ شَريعَةٌ، قد نُسِخَتْ، والعَمَلُ بالمَنْسُوخِ حَرامٌ. فإذا لم يَكُنْ عَلَينا العَمَلُ بذلكَ لَيسَ لَنا إلى معرفةِ ذلكَ حاجةٌ؛ كانَ ذا، أو ذا[4]، وإنَّما عَلَينا أنْ نَعرِفَ لِمَ كانَ ذلكَ التَّحريمُ؟ وبِمَ كانَ تَحريمُ هذِهِ الأشياءِ علَيهِمْ؟

فهو، واللهُ أعلَمُ، ما ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

أخبَرَ أنَّ ما حَرَّمَ[5] عليهِمْ مِنَ الطَّيِّباتِ [بِسَبَبَينِ:

أحدُهما:][6] بِظُلْمِهِمْ لِلَّذينَ ظَلَمُوا؛ ولِذلكَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ أخبَرَ أنَّ ذلكَ جَزاءُ بَغيِهِمُ الذي[7] بَغَوا.

والثاني: أنهمْ كانُوا يَدَّعُونَ، ويَقولُونَ: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]؛ [يَقولُ: لو كُنْتُمْ صادِقِينَ في زَعمِكُمْ أنكُمْ ﴿أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾][8] لَكانَ لا أحَدَ يُعاقِبُ وَلَدَهُ أو حَبيبَهُ بأدنَى ظُلْمٍ، ولا يُحَرِّمُ عليهِ الطَّيِّباتِ. [فإذا كانَ اللهُ حَرَّمَ عليكُمُ الطَّيِّباتِ][9]، وجَزاكُمْ[10] بِتَحريمِ أشياءَ عُقوبَةً لَكُمْ بِظُلْمِكُمْ وبَغيِكُمْ ظَهَرَ أنكُمْ كَذَبْتُمْ في دَعاوِيكُمْ، وافتَرَيْتُمْ بذلكَ على اللهِ.

وفيهِ دليلُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ونُبُوَّتِهِ ﷺ لأنهُمْ كانُوا يُحَرِّمونَ هذهِ الأشياءَ في ما بَيْنَهُمْ، ولا يَقُولُونَ: إنهمْ ظَلَمَةٌ، وإنَّ ما حَرَّمَ عليهِمْ بِظُلْمٍ كانَ مِنهُمْ وبَغْيٍ.

ثم أخبَرَهُمُ النَّبيُّ ﷺ أنَّ ما حُرِّمَ عليهِمْ مِنَ الطَّيِّباتِ إنما حُرِّمَ بِظُلْمِهِمْ وبَغْيِهِمْ دلَّ أنهُ إنما أخبَرَ بذلكَ عنِ اللهِ، وبهِ عَرَفَ ذلكَ، فَدَلَّ أنهُ آيةٌ مِن آياتِ نُبُوَّتِهِ ﷺ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ أي ذلك التَّحريمُ عُقوبَةٌ لِبَغْيِهِمْ وظُلْمِهِمْ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ بالإنباءِ أنَّ ذلكَ كانَ بِظُلْمِهِمْ وبَغْيِهِمْ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في كُلِّ ما أخبَرْنا، وأنبأنا.

الآية ١٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ في ما تَدعُوهُمْ إليهِ وتَأْمُرُهُمْ بهِ مِنَ التَّصديقِ والتَّوحيدِ لَهُ والرُّبوبِيَّةِ ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ﴾ إذا رَجَعْتُمْ عنِ التَّكذيبِ، وصَدَّقْتُمْ، وعَرَفْتُمْ أنهُ واحِدٌ، لا شَريكَ لَهُ، يَغفِرُ لَكُمْ ما كانَ مِنكُمْ في حالِ الكُفرِ، ويُكَفِّرُ عنكُمْ سَيِّئاتِكُمُ التي كانَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كأنهُ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ يقولُ: فإنْ كَذَّبوكَ يا محمدُ فَقُلْ لا يُرَدُّ بأسُهُ عنِ القومِ المُجْرِمِينَ. ثم يقولُ[11]: رَبُّكُمْ ذو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ؛ يَسَعُ في رَحْمَتِهِ العَفْوُ إذا تُبْتُمْ.

وقالَ غَيرُهُ مِن أهلِ التَّأويلِ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يا مُحمدُ حِينَ أنبَأتَهُمْ بِما حَرَّمَ اللهُ عليهِمْ بِظُلْمِهِمْ وبَغْيِهِمْ ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ

---

(١) في الأصل وم: ومن. (٢) في م: سمن. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: أوفا. (٥) من م، في الأصل: أخبر. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: الذين. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: وجزاهم. (١١) في الأصل وم: قال.

جنة السنة

﴿ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ لا يُهلِكُ [أحداً][1] وقتَ ارتِكابِهِ المَعصيةَ، ولا يُعذِّبُهُ حالةَ ذلكَ، لكنَّهُ يؤخِّرُهُ[2] ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ أي عذابُهُ إذا نَزَلَ بقومٍ مُجرمينَ بِجُرْمِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ قيلَ: الآيةُ في مُشركي العَرَبِ؛ قالُوا ذلكَ حِينَ لَزِمَتْهُمُ المُناقضةُ، وانقَطَعَ حِجاجُهُمْ في تحريمِهِمْ ما حَرَّمُوا مِنَ الأشياءِ، وأضافُوا ذلكَ إلى اللهِ، وهو صِلةُ قولِهِ تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ إلى قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٤٣ و١٤٤] فلمّا لَزِمَتْهُمُ المُناقضةُ، وانقَطَعَ حِجاجُهُمْ، فَزِعُوا عنهُ.

إلى هذا القولِ: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾. فيَقولُ اللهُ لنَبِيِّهِ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الأُمَمِ الخاليةِ رُسُلَهُمْ كما كَذَّبَكَ هؤلاءِ، وكانُوا يَقُولُونَ لِرُسُلِهِمْ ما قالَ لكَ هؤلاءِ ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

ثم اختُلِفَ في تأويلِ قولِهِ: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ قالَ الحَسَنُ والأصَمُّ: إن المَشيئةَ هنا الرِّضا؛ قالوا: رَضِيَ اللهُ بِفِعْلِنا/ ١٦٤ ـ ب/ وصَنيعِنا حِينَ[3] فَعَلَ آباؤُنا مِثْلَ ما فَعَلْنا، فلم يَحُلِ اللهُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ ذلك، ولا أخَذَ على أيديهِمْ، ولا مَنَعَهُمْ عنْ ذلكَ، فلو لم يَرْضَ بذلكَ عنهُمْ لكانَ يَحُولُ ذلكَ عنهُمْ، ومَنَعَهُمْ عنهُ، وإنما استَدَلُّوا بالرِّضا مِنَ اللهِ والإذْنِ في ما كانُوا فيهِ يُخَوِّفُونَ آباءَهُمُ الهَلاكَ والعذابَ بِصَنيعِهِمُ الذي كانُوا صَنَعُوا، ثم رَأَوْهُمْ ماتُوا على ذلكَ، ولم يَأْتِهِمُ العذابُ، فاستَدَلُّوا بتأخيرِ نُزولِ العذابِ عليهِمْ على أنَّ اللهَ تعالى رَضِيَ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وبِظاهِرِ هذهِ الآيةِ لِلمُعتزِلَةِ أدنى تَعَلُّقٍ؛ لأنهُمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ تعالى قد رَدَّ ذلكَ القولَ الذي قالُوا، وعاتَبَهُمْ على ذلكَ القولِ بقولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ وأوعَدَهُمْ على ذلكَ وَعيداً شَديداً. فلو كانَ يجوزُ إضافةُ المَشيئةِ إلى اللهِ تعالى في ذلكَ على ما تُضِيفُونَ أنتُمْ لم يَكُنْ يَرُدُّ ذلكَ عليهِمْ، ولا عاتَبَهُمْ على ذلكَ، ولا أوعَدَهُمْ وَعيداً في ذلكَ. دَلَّ أنهُ لا يجوزُ أنْ يُقالَ ذلك ولا إضافةُ المَشيئةِ إليهِ في ذلكَ.

فنَقُولُ، وباللهِ التَّوفيقُ: إنَّ المَشيئةَ هنا تَحتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: ما قالَ الحَسَنُ والأصَمُّ مِنَ الرِّضا؛ قالُوا: إنَّ اللهَ تعالى رَضِيَ بذلكَ.

والثاني: الأمْرُ والدعاءُ إلى ذلكَ؛ يَقُولُونَ: إنَّ اللهَ أمَرَهُمْ بذلكَ، ودَعاهُمْ إلى ذلكَ.

والثالثُ: كانُوا يَقُولُونَ ذلكَ على الاستِهزاءِ والسُّخْرِيَةِ لا على الحَقيقَةِ.

وهكذا أمْرُ المَجُوسِ أنهُمْ إذا قِيلَ لهمْ هذا: لِمَ لا تُؤمِنُونَ [ولا][4] تُسلِمونَ؟ يَقُولُونَ ما قالَ هؤلاءِ: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لآمَنَّا، و﴿مَا أَشْرَكْنَا﴾. فهذا العتابُ الذي لَحِقَهُمْ والوَعيدُ الذي أوعَدَهُمْ إنما كانَ لِما قالُوا استِهزاءً منهُمْ ولِما ادَّعَوا مِنَ الأمرِ والادِّعاءِ[5] على اللهِ، وافتَرَوا عليهِ، والرِّضا أنهُ رَضِيَ بذلكَ.

على هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ تَخرُجُ المَشيئةُ في هذا المَوضِعِ، واللهُ أعلَمُ، لا على ما قالَتْهُ المُعتزِلَةُ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾؟ [مريم: ٦٦] هو كلمةُ حقٍّ. لكنْ قالَها استِهزاءً وهُزُواً، فلَحِقَهُ العِتابُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي هلْ عِندَكُمْ مِنْ بيانٍ وحُجَّةٍ مِنَ اللهِ دونَ أنْ يُمهِلَكُمْ[6] لِيُعذِّبَكُمْ. أوَلَيسَ قد تَرَكَ مَنْ خالَفَكُمْ في ذلكَ؟ ثم لم يَدُلَّ تَرْكُهُ إيّاهُمْ على أنهُ رَضِيَ بذلكَ، فقالَ اللهُ تعالى [: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي ما تَتَّبِعُونَ في ذلكَ ﴿إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾][7] أي ما هُمْ إلّا يَخرُصُونَ، ويُكذِّبُونَ في ذلكَ؛ لَيسَتْ لَهُمْ حُجَّةٌ ولا بيانٌ على ما يَدَّعُونَ مِنَ الأمرِ والدُّعاءِ إلى ذلكَ والتَّرْكِ على ما هُمْ عليهِ على الرِّضا بِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يؤخر. (٣) في الأصل و م: حيث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: والدعاء.
(٦) في الأصل وم: أمهلكم. (٧) في الأصل: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي ما تتبعون في ذلك ﴿إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، في م: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي ما تتبعون في ذلك ﴿إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، أدرج في معجم القراءات القرآنية: قرأ النخعي: إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون، وهي قراءة شاذة، انظر المعجم المذكور [٢/ ٣٣٢].

جنة السنة

الآية ١٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ التي إذا بَلَغَتْ كُلَّ شُبْهَةٍ أزالَتْها، وكلَّ غافلٍ نائمٍ نَبَّهَتْهُ، وأيقظَتْهُ. وقيلَ: الحُجَّةُ البالِغَةُ التامَّةُ القاهِرَةُ الظاهِرَةُ على كلِّ شيءٍ الغالِبَةُ عليهِ، لم تَبْلُغْ شيئاً إلّا قَهَرَتْهُ، وغَلَبَتْهُ.

وقالَ الحَسَنُ: الحُجَّةُ البالِغَةُ في الآخِرَةِ؛ ولا يُعَذِّبُ أحداً، ولا يُعاقِبُهُ إلّا لِحُجَّةٍ تَلْزَمُ، لا يُعاقِبُ بِهَوًى أوِ انْتِقامٍ أو شَهْوَةٍ على ما يُعاقَبُ في الشاهِدِ ولا غيرِهِ، ما مِنْ أحدٍ مِنَ الخَلائِقِ إلّا وللهِ عليهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ أمّا المَلَكُ المُقَرَّبُ فإنَّ اللهَ جَبَلَهُ على الطاعةِ، فلا يَعْصِيهِ، مَنّاً مِنَ اللهِ عليهِ وطَوْلاً وفَضْلاً، فهو مُقَصِّرٌ عن شكرِ نِعْمَةِ اللهِ عليه. وأمّا النَّبِيُّ المُرْسَلُ والعَبْدُ الصالحُ فَلِلّهِ عليهِما السَّبِيلُ والحُجَّةُ مِن غيرِ واحِدٍ.

ثم تَحْتَمِلُ الحُجَّةُ البالِغَةُ وجُوهاً:

أحدُها: هذا القرآنُ الذي أنْزَلَهُ على رسولِ اللهِ ﷺ آيةٌ مُعجِزةٌ وحُجَّةٌ بالِغَةٌ عَجِزَ[1] الخلائِقُ عن إتيانِ مِثْلِهِ. فَدَلَّ عَجْزُهُمْ عن إتْيانِ مِثْلِهِ على أنهُ آيَةٌ مِن آياتِ اللهِ وحُجَّةٌ مِن حُجَجِ اللهِ، أرْسَلَها على نَبِيِّهِ ﷺ.

والثاني: أنهُ جَعَلَ في كُلِّيَّةِ الخَلائِقِ والأشياءِ ما يَشْهَدُ أنَّ الخلائِقَ والأشياءَ كلَّها لها شهادةُ خَلْقِهِ، وتَدُلُّ كُلِّيَّةُ الأشياءِ على وَحْدانِيَّتِهِ، فهو حُجَّةٌ بالِغَةٌ.

والثالِثُ: ألْسُنُ الرُّسُلِ وأنباؤُهُمْ إذْ[2] لم يُؤاخِذُوهُمْ بِكَذِبٍ قَطُّ في ما بَيْنَهُمْ، ولا جَرَى على لسانِهِمْ كَذِبٌ قَطُّ، ولا فُحْشٌ. عَصَمَهُمْ ﷺ عن ذلك، فدلَّ على أنهُمْ إنما خُصُّوا بذلكَ لِما أنَّ اللهَ جَعَلَهُمْ حُجَجاً وآياتٍ على وجهِ الأرضِ؛ حُجَّةٌ بالِغَةٌ، وباللهِ العِصْمَةُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ في تَحْرِيمِ الأشياءِ وتَحْليلِها، لَيسَ لِهؤلاءِ الذينَ يُحَرِّمُونَ أشياءَ، لَهُمْ في تَحْريمِهِمْ حُجَّةٌ؛ إنما يُحَرِّمُونَ ذلكَ بِهَوى أنْفُسِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال الحَسَنُ: المَشِيئَةُ ههنا[3] مَشِيئَةُ القُدْرَةِ، وقالَ: لو شاءَ قَهَرَهُمْ، وأعْجَزَهُمْ حتى لم يَقْدِرُوا على مَعْصِيَةٍ قَطُّ على ما جَعَلَ الملائكةَ؛ جَبَلَهُمْ على الطاعةِ حتى لا يَقْدِرُوا على مَعْصِيَةٍ.

ثم هو[4] يُفَضِّلُ الملائكةَ على الرُّسُلِ والأنبياءِ والبَشَرِ جميعاً، ويقولُ: هم مَجْبُورونَ على الطاعةِ. فذلكَ تناقُضٌ في القولِ، لا يَجوزُ. مَنْ كانَ مَقْهوراً مَجْبُوراً على الطاعةِ يَفْضُلُ على مَنْ يَعْمَلُ بالإخْتِيارِ مع تَمَكُّنِ الشَّهَواتِ فيهِ والحاجاتِ التي تَغْلِبُ صاحِبَها، وتَمْنَعُهُ عنِ العَمَلِ بالطاعةِ، ويقولُ: فَضَّلَهُمْ بالجَوْهَرِ والأصلِ، فلا يَجوزُ أنْ يكونَ لأحدٍ بالجَوْهَرِ نَفْسِهِ فَضْلٌ على ذلكَ الجَوْهَرِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يَذْكُرْ فَضْلَ شيءٍ بالجَوْهَرِ إلّا مَقْروناً بالأعمالِ الصالِحَةِ الطَّيِّبَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] وقولِهِ[5] تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨] وقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] ونحوُهُ، لم يُفَضِّلْ أحداً[6] بالجَوْهَرِ على أحدٍ، ولكنْ إنما فَضَّلَهُ بالأعمالِ الصالِحَةِ. لِذلكَ قُلْنا: إنَّ قولَهُ[7] يَخْرُجُ على التَّناقُضِ.

وتأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [عندنا ظاهرٌ: لو][8] شاءَ اللهُ لَهداهُمْ جميعاً، ووَفَّقَهُمْ لِلطّاعَةِ، وأرشَدَهُمْ. لِذلكَ هو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ الآية [الزخرف: ٣٣]. فإذا كانَ المَيلُ إلى الكُفْرِ لِمكانِ ما جَعَلَ لَهُمْ مِنَ الفِضَّةِ والزِّينَةِ، وإذا كانَ [ذلكَ الإيمانُ][9] لِلْمؤمنينَ آمَنُوا، ثم لم يَجْعَلْ [لَهُمْ][10] كذلكَ، دلَّ على أنَّ قولَهُمْ ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] هو الأمْرُ والرِّضا، أو ذَكَرُوا على الإسْتِهْزاءِ حِينَ قالَ تعالى ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

والمُعْتَزِلَةُ يَقُولُونَ: المَشِيئَةُ ههنا مَشِيئةُ قَسْرٍ وقَهْرٍ، وقد ذَكَرْنا ألا يكونَ في حالِ القَهْرِ إيمانٌ، وإنما يكونُ في حالِ

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: هنا. (٤) الضمير يعود على الحسن. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: وغيره. (٦) من م، في الأصل: أحد. (٧) الضمير يعود على الحسن أيضاً. (٨) من م، في الأصل: فلو. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

الِاخْتِيارِ، والمَشِيئَةُ مَشِيئَةُ الِاخْتِيارِ، ولا تَحْتَمِلُ مَشِيئَةَ الخِلْقَةِ؛ لأنَّ كُلَّ أحدٍ بشهادةِ الخِلْقَةِ [يُؤْمِنُ][1]. فدلَّ أنَّ التأويلَ ما ذكَرْنا.

الآية ١٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ﴾ الذي تُحرِّمُونَ أنْتُمْ مِنَ الوَصِيلَةِ والسائِبَةِ والحامي، وما حرَّمُوا مِنَ الحَرْثِ والأنعام ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ أنَّ اللهَ حَرَّمَهُ ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ﴾. كيفَ قالَ: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ﴾؟ دعاهُمْ إلى أنْ يَأْتُوا بالحُجَّةِ؛ فإذا أقامُوها[2] لا تَشْهَدْ مَعَهُمْ.

ولكنَّ هذا، واللهُ أعلَمُ، أنهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّ التَّحْريمَ إلى اللهِ لَيسَ إلى أحدٍ مِنَ الخلائِقِ ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ بأنهُ حرَّمَ ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ﴾ فإنهُمْ شَهِدُوا بباطِلٍ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أمَرَهُ أنْ يَسْأَلَهُمْ شُهَداءَ مِنْ أهْلِ الكتابِ يَشْهَدون لَهُمْ بأنَّ اللهَ حَرَّمَ هذا؛ لأنَّ هؤلاءِ كانُوا أهْلَ شِرْكٍ، وعَبَدَةَ الأوثانِ يَسْأَلُونَ أهْلَ الكتابِ، وأهْلَ الرُّسُلِ[3]، يَشْهَدونَ لَهُمْ بذلكَ. ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ﴾ أي [فلايشهدوا][4] لَهُمْ بذلكَ، فلا تَشْهَدْ أنتَ أيضاً مَعَهُمْ على الإخبارِ أنهُمْ لا يَشْهَدُونَ.

وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ الآية [الحشر: ١٢] أخبرَ عنِ المُنافِقِينَ أنهُمْ قالُوا: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١] ثم أخبرَ عنهُمْ أنهُمْ ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ الآية [الحشر: ١٢] لكنهُ أخبرَ أنهُمْ / ١٦٥ ـ أ/ لا يُقاتِلُونَ رأساً، وإلّا ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [الحشر: ١٢] فَعَلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ﴾ لأنهُمْ لا يَشْهَدُونَ، واللهُ أعلَمُ.

ويُشْبِهُ أنْ يُسْأَلُوا حتى يأتُوا بآبائِهِمْ حتى يَشْهَدُوا؛ لأنهُمْ كانُوا يَقُولُونَ: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ [الأعراف: ٢٨] وإنَّ اللهَ رَضِيَ بِصَنِيعِ آبائِنا [حِينَ لم يُهْلِكْهُمْ][5]، وتَرْكَهُمْ على ذلكَ، فَيُسْأَلُونَ أنْ يَأْتُوا بأُولئكَ حتى يكونُوا هُمُ الذينَ يَشْهَدُونَ على ذلكَ، فلَنْ يَجِدُوا إلى ذلكَ سَبِيلاً أبداً. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] فلا يَجِدُونَ [سَبِيلاً إلى ذلكَ][6] أبداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ دلَّ أنَّما كانُوا يُحَرِّمُونَ إنما يُحَرِّمُونَ بِهَواهُمْ لا بِحُجَّةٍ وبُرْهانٍ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يَعْدِلُونَ الأصنامَ في العِبادةِ والأُلوهِيَّةِ بربِّهِمْ.

الآية ١٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ﴾ يقولُ[7] ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ﴾ أقرأْ ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ وأُبَيِّنْ لَكُمْ ما حَرَّمَ بحجَّةٍ وبُرْهانٍ، وأنَّ ما حَرَّمْتُمْ أنْتُمْ حَرَّمْتُمْ بِهَوى أنفُسِكُمْ، لا حَرَّمْتُمْ بأمرٍ أو حُجَّةٍ وبُرْهانٍ.

ثم بَيَّنَ الذي حَرَّمَ عليهِمْ، فقال: ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ﴾ الشِّرْكُ حرامٌ بالعقلِ، ويَلْزَمُ كُلَّ عقلِ التَّوحيدُ ومَعرِفةُ الرَّبِّ لِما كانَ منهُ مِنْ تَرْكِيبِ الصُّوَرِ وتَقْويمِها بأحْسَنِ صُوَرٍ، يَرَوْنَ، فَيَعْرِفُونَ[8] أنهُ لم يُصَوِّرْها أحدٌ سِواهُ، ولا قَوَّمَها، ولا يَشْرَكُهُ آخَرُ في ذلكَ، وما كانَ منهُ إليكُمْ مِنْ أنواعِ الإحسانِ والأيادِي، فكيفَ تُشْرِكُونَ غيرَهُ في أُلوهِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ؟ فذلكَ حرامٌ بالعقلِ والسَّمْعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهُما: على الوَقْفِ والقَطْعِ على قولِهِ ﴿رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ﴾ والِابْتِداءِ مِنْ قولِهِ: ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ﴾ كأنهُ قالَ ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ﴾ فقالُوا: أيش الذي حَرَّمَ علينا؟ فقالَ: ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ﴾.

والوجهُ الآخَرُ عل الوَصْلِ[9] بالأوَّلِ، ولكنْ على طَرْحِ: لا، فيكونُ كأنهُ قالَ: أتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عليكُمْ أنْ تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً، وحرفُ لا: قد [يُطْرَحُ، ويُزَادُ][10] في الكلامِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قاموها. (٣) في الأصل وم: رسل. (٤) في الأصل وم: لا يشهدون. (٥) في الأصل: حيث لم يهلكم، في م: حيث لم يهلكم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يقولون. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: الأصل. (١٠) في الأصل وم: تطرح وتزاد.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي برّاً بهما. فإنْ قِيلَ: قالَ تعالى: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ وههنا يَأمُرُ بالإحسانِ إليهما[١]، [ولم يَذكُرِ المُحَرَّمَ، قِيلَ: في الأمرِ بالإحسانِ إليهما][٢] تحريمُ تَرْكِ الإحسانِ. فكأنهُ قالَ: حَرَّمَ تَرْكَ الإحسانِ إلى الوالِدَينِ، وفَرَضَ عليكُمْ بِرَّهُما والإحسانَ إليهما.

ثم فيهِ أنكُمْ تَعرِفونَ بالعَقلِ أنَّ الإحسانَ إلى الوالِدَينِ واجبٌ والإساءةَ إليهما حَرامٌ عليكُمْ. ولم يكُنْ مِنهُمْ إليكُمْ مِنَ الإحسانِ أكثَرُ مِمّا كانَ مِنَ اللهِ إليكُمْ، فكَيفَ تَختارُونَ الإساءةَ إلى اللهِ والإشراكَ في عِبادةِ غيرِهِ، ولا تَختارُونَ الإساءةَ إلى الوالِدَينِ، بل تَختارُونَ الإحسانَ إليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ إنهُمْ كانُوا يَقتُلُونَ أولادَهُمْ خَشيَةَ الفَقرِ والفاقةِ، فهو مِمّا حَرَّمَ عليهِمْ. وهذا يَدُلُّ على أنَّ الحَظرَ في حالٍ لا يُوجِبُ الإباحَةَ في حالٍ أُخرَى؛ لأنهُ قالَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] لَيسَ فيهِ إباحَةُ القَتلِ إذا لم يكُنْ هنالكَ خَشيَةُ الإملاقِ. ولكنْ ذَكَرَ هذا لأنهُمْ إنما كانُوا يَقتُلُونَ في تلكَ الحالِ. ففي ذلكَ خَرَجَ النَّهيُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أي على ما نُخرِجُ لَكُمْ مِنَ الزَّرعِ والثّمارِ فَرِزقُكُمْ مِنْ ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ نَرزُقُ أولادَكُمْ مِمّا نُخرِجُ مِنَ الأرضِ مِنَ الزَّرعِ والثّمارِ، فلا تَقتُلُوهُمْ. فإذا لم تَقتُلُوا أنفُسَكُمْ خَشيَةَ الفَقرِ والفاقةِ كيفَ تَقتُلُونَ أولادَكُمْ لذلكَ؟ فالذي يَرزُقُكُمْ هو الذي يَرزُقُ أولادَكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ أي لا تُواقِعوها. ويَحتَمِلُ لا تَدْنُوا منها، ولكنِ اجعَلُوا بَيْنَكُمْ وبَينَ الفَواحشِ والمُحَرَّماتِ حِجاباً مِنَ الحَلالِ. وهكذا الحَقُّ على المُسلِمِ ألّا يَدْنُوَ مِنَ الحَرامِ، ويَجْعَلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ ذلكَ حِجاباً وسِتْراً مِنَ الحَلالِ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قِيلَ: الفَواحِشُ الزِّنَى ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ المُخالَطَةُ باللسانِ والمُجالَسَةُ مَعَهُنَّ ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ فِعلُ الزِّنَى نَفسُهُ؛ كانُوا يَجتَمِعُونَ، ويُجالِسُونَهُنَّ، ولكنْ لا يُجامِعُونَهُنَّ بَيْنَ أيدِي الناسِ. ثم إذا خَلَوا بِهِنَّ زَنَوا بِهِنَّ.

وقِيلَ: كانُوا يَزنُونَ بالحَرائِرِ سِرّاً وبالإماءِ[٣] ظاهِراً، فَحَرَّمَ ذلكَ عليهِمْ.

وقِيلَ: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ نِكاحُ الأُمَّهاتِ ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ هو الزِّنَى، وكانَ نِكاحُ الأُمَّهاتِ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ وسَعيدِ بنِ جُبَيرٍ ﷺ.

وقِيلَ: الفَواحِشُ المُحَرَّماتُ جُملَتُها؛ فما ظَهَرَ مِنها في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الخَلقِ ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ اللهِ تعالى.

وقِيلَ: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ما يكونُ بالجَوارِحِ ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ ما يكونُ بالقَلبِ.

وعن مجاهِدٍ [أنهُ][٤] قالَ: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الجَمعُ بَيْنَ الأُختَينِ وتَزَوُّجُ الرجلِ امرأةَ أبيهِ ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ منها: الزِّنَى وما حَرَّمَ أيضاً.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ما يَرَى غيرُهُ، ويُبصِرُ ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ ما يكونُ بالعَينِ والقَلبِ على ما رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «العَينانِ تَزنِيانِ واليَدانِ تَزنِيانِ ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ يكونُ زِناءُ العَينِ والقَلبِ» [مسلم ٢١٥٧/ ٢١] لأنهُ لا يَعلَمُهُ[٥] غيرُ النّاظِرِ، واللهُ أعلَمُ؛ يَصِيرُ كأنهُ ذَكَرَ التَّحريمَ في كُلِّ حَرفٍ مِنْ ذلكَ؛ أي حَرَّمَ عليكُمْ [الشِّركَةَ، وحَرَّمَ عليكُمْ][٦] تَرْكَ الإحسانِ إلى الوالِدَينِ، وحَرَّمَ قَتلَ الأنفُسِ إلّا بالحَقِّ؛ فَيَصِيرُ كأنهُ ذَكَرَ التَّحريمَ في كُلٍّ مِنْ ذلكَ.

---

(١) في م: إليهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، في الأصل: أو بالإماء. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يعلم. (٦) ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إذا ارْتَدَّ يُقْتَلُ بِهِ، وفي القِصاصِ، وفي الزِّنَى إذا كانَ مُحْصَناً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ ذلكَ، يَعْني المُحَرَّماتِ التي ذَكَرَ ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾اخْتُلِفَ فيهِ؛ قِيلَ: ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ فَرَضَ عليكُمْ، وقيلَ: ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أمَرَكُمْ بِهِ، وقِيلَ: ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ بَيَّنَ لَكُمُ المُحَرَّمَ.وكُلُّهُ راجِعٌ إلى واحِدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أنهُ لم يُحرِّمْ إلّا ما ذَكَرَ ههنا[1]، ولم يُحرِّمْ ما[2] حَرَّمْتُمْ أنْتُمْ مِنَ الأنعامِ وغَيْرِها. يقولُ[3]: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لِكَي تَنْتَفِعوا بعُقولِكُمْ، أو يَقُولُ: إنَّ ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ لِتَعْقِلُوا؛ لأنَّ حَرْفَ: لَعَلَّ مِنَ اللهِ على الوُجُوبِ. أو ﴿تَعْقِلُونَ﴾ عنِ اللهِ بما [خاطَبَكُمْ بِهِ، وأمَرَكُمْ][4].

الآية ١٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانِيُّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ أي لا تأكُلوا ﴿مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وقالَ: ثم اخْتُلِفَ في الوَجْهِ الذي يَحْسُنُ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: هو أنْ يَعْمَلَ لهُ، فَيَأكُلَ مِنْ مالِهِ أجْراً لِعَمَلِهِ. وقالَ آخَرونَ: يَأكُلُهُ قَرْضاً. وذلكَ مِمّا اخْتَلَفوا فيهِ. وقالَ غَيْرُهُمْ: هو أنْ يَنْتَفِعَ بِدَوابِّهِ، ويَسْتَخْدِمَ جَوارِيَهُ، ونَحْوُ ذلكَ. وقالَ [غيرُهُمْ][5]: وذلكَ مِمّا لا يَحْتَمِلُ تأويلَ الآيَةِ.

وعِنْدَنا أنَّ الآيَةَ بِاحْتِمالِ هذا أوْلى لِما تَقَعُ لَهُمُ الضَّرُورَةُ في اسْتِخْدامِ مَمالِيكِهِ ورُكُوبِ دَوابِّهِ والانْتِفاعِ بذلكَ لِما تَقَعُ لَهُمُ المُخالَطَةُ بأموالِ اليَتامَى كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ فإذا كانَ لَهُمُ المُخالَطَةُ لا يَسْلَمُونَ مِنَ[6] الانْتِفاعِ بِما ذَكَرْنا.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي إلّا بِالوَجْهِ الذي جُعِلَ لَهُ. والوَجْهُ الذي جُعِلَ لَهُ هو أنْ يكونَ فَقِيراً، وهو مِمَّنْ تُفْرَضُ نَفَقَتُهُ في مالِهِ، فَلَهُ أن يَقْرَبَ مالَهُ. وعِنْدَهُمْ أنَّ نَفَقَةَ المَحارِمِ تُفْرَضُ [في][7] مالِ اليَتِيمِ إذا كانُوا فُقَراءَ. فَبانَ أنْ جَعَلَ لهُ التَّناوُلَ في مالِهِ، وإنْ كانَ لا تُفْرَضُ نَفَقَتُهُ في مالِهِ.

ثم الآيَةُ تَحْتَمِلُ وجهَينِ عِنْدَنا:

أحَدُهُما: ألّا تَقْرَبُوا مالَ اليَتِيمِ إلّا بالحِفْظِ والتَّعاهُدِ لَهُ؛ أمَرَ كافِلَ اليَتِيمِ أنْ يَحْفَظَ مالَهُ ويَتَعاهَدَهُ،

والثاني: [أنْ][8] يَقْرَبَ مالَهُ بِطَلَبِ الزِّيادَةِ لهُ والنَّماءِ.

ولِذلكَ قالَ أبو حَنِيفَةَ ﷺ: إنهُ[9] يجوزُ لِكافِلِ اليَتِيمِ إذا كانَ وَصِيّاً أنْ يَقْرَبَ مالَهُ بَيْعاً إذا كانَ ذلكَ خَيْراً لِلْيَتِيمِ، إنْ وَقَعَ لهُ الفَضْلُ، وطَلَبَ لَهُ الزِّيادَةَ والنَّماءَ ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾.

وقالَ أبو بَكْرٍ: قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي حتى يَبْلُغَ الوَقْتَ الذي يَتَوَلّى أمورَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ الآيةَ [النساء: ٦].

وقالَ غَيْرُهُ مِنْ أهْلِ التَّأويلِ: الأشُدُّ ثماني عَشْرَةَ سَنَةً. ويُشْبِهُ أن يكونَ الأشُدُّ هو/ ١٦٥ ـ ب/ الإدراكَ حتى يُدْرِكُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ في اليَتامَى أيضاً؛

---

(١) في الأصل وم: ها. (٢) من م، في الأصل: وما. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: خاطبهم به وأمرهم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل و م: عن. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: بانه.

جنة السنة

أمَرَ أنْ يُوفُوا[1] لَهُمُ الكَيلَ والمِيزانَ، ونَهاهُمْ ألا يُوفُوا[2] لَهُمْ على ما نَهاهُمْ عن قُرْبانِ مالِهِمْ ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾ في ذلكَ القَولِ ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ مِنكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾ أي بِعَهْدِ اللهِ الذي عَهِدَ إليكُمْ في اليَتامَى أوفُوا بقولِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وقولِهِ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ [النساء: ٦] وغَيرِ ذلكَ أوفُوا بما عَهِدَ إليكُمْ منهمْ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ في اليَتامَى وفي غَيرِهِمْ، في كلِّ الناسِ؛ وهو لِوَجْهَينِ:

أحَدُهُما: أنَّ في تَرْكِ الإيفاءِ اكْتِسابَ الضَّرَرِ على الناسِ ومَنْعَ حُقوقِهِمْ، فأمَرَ بإيفاءِ ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

والثاني: لِلرِّبا لأنهُ يُلْزِمُ[3] مِثْلَهُ كَيلاً في الذِّمَّةِ، فإذا لم يُوفِ[4] حَقَّهُ، وأعطاهُ دونَهُ، صارَ ذلكَ الفَضلُ لَهُ رِباً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يَحْتَمِلُ هذا وَجْهَينِ:

أحَدُهُما[5]: لا نُكَلِّفُ أحداً ما [في][6] تَكْليفِنا إيّاهُ تَلَفُهُ [وإنْ كانَ يجوزُ لهُ تكْليفُ ما في التَّكْليفِ تَلَفُهُ][7] كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ الآية [النساء: ٦٦] وعلى ما أمَرَ مِنْ بَني إسرائيلَ بِقَتْلِ أنْفُسِهِمْ.

والثاني: لا نُكَلِّفُ أحداً ما [في][8] تَكْليفِنا إيّاهُ مَنْعُهُ نَحْوَ مَنْ يُؤمَرُ بِشَيءٍ، لم يُجْعَلْ لهُ الوصولُ إلى ذلكَ أبداً. ويجوزُ أنْ يُؤمَرَ بأمرٍ، وإنْ لم يكُنْ لَهُ سَبَبُ ذلكَ الأمرِ بَعْدَ أنْ يُجْعَلَ لَهُ[9] الوصولُ إلى ذلكَ السَّبَبِ، نَحْوُ مَنْ يُؤمَرُ بالصلاةِ، وإنْ لم يكُنْ مَعَهُ سَبَبُ ذلكَ، وهو الطهارةُ، ونَحْوُ مَنْ يُؤمَرُ بالحجِّ بقولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ﴾ [آل عمران: ٩٧]. هذا يَدُلُّ على أنَّ مَنْ جُعِلَ في وُسْعِهِ الوصولُ إلى شَيءٍ يَجوزُ أنْ يُكَلَّفَ ذلكَ[10]، ويَصيرُ بِاشْتِغالِهِ بِغَيرِهِ مُضَيِّعاً أمْرَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾ قالَ بعضُ أهْلِ التَّأويلِ: هذا في الشهادةِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الآية [النساء: ١٣٥]. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾ كُلَّ قولٍ. والقولُ أحَقُّ أنْ تُحْفَظَ فيهِ العَدالَةُ مِنَ الفِعْلِ، لأنهُ بها[11] تَظْهَرُ الحِكْمَةُ مِنَ السَّفَهِ والحَقُّ مِنَ الباطِلِ، فهو أولى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾ أي بِعَهْدِ اللهِ الذي عَهِدَ إليكُمْ في التَّحْليلِ والتَّحْريمِ والأمْرِ والنَّهْيِ وغَيرِ ذلكَ.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ذَكَرَ ههنا ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وفي الآيةِ الأولى ﴿تَعْقِلُونَ﴾ وفي الآيةِ التاليةِ[12] ﴿تَتَّقُونَ﴾ إذا عَقَلُوا تَفَكَّرُوا، واتَّعَظُوا، وعَرَفُوا ما يَصْلُحُ، وما لا يَصْلُحُ، وقولُهُ تعالى: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أي تَتَّعِظُونَ بما وَعَظَكُمْ بِهِ، وزَجَرَكُمْ عنهُ، أو: ﴿تَتَّقُونَ﴾ مَهالِكَكُمْ، وتَتَّقُونَ مَحارِمَكُمْ.

الآية ١٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً: يَحْتَمِلُ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذَكَرَ في هذهِ الآياتِ مِنْ أمْرِهِ ونَهْيِهِ وتَحْليلِهِ وتحريمِهِ ﴿صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ على ما قالَهُ أهْلُ التَّأويلِ: إنها آياتٌ مُحْكَماتٌ لم يَنْسَخْهُنَّ شَيءٌ في جميعِ الكُتُبِ، وهُنَّ مُحْكَماتٌ[13] على بَني آدَمَ كُلِّهِمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الذي دعا إليهِ الرُّسُلُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ هو ﴿صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ لأنَّ الرُّسُلَ يَدْعُونَ إلى ما يَدْعُونَ بالحُجَجِ والبَراهِينِ.

---

(١) في الأصل وم: يعرفوا. (٢) في الأصل وم: يعرفوا. (٣) في الأصل وم: لزم. (٤) في الأصل وم: يعرف. (٥) في الأصل وم: يحتمل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل و م: لهم. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (١١) في الأصل وم: به. (١٢) في الأصل وم: الأخيرة. (١٣) في الأصل وم: محرمات.

جنة السنة

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ أصْلَ الدينِ وَوَحدانيَّةَ اللهِ وإخلاصَ الأنفُسِ لَهُ على غَيرِ إشراكٍ في عِبادَتِهِ وألُوهِيَّتِهِ، أو أنْ يكونَ قولُهُ تعالى ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ الذي جاءَ بِهِ محمدٌ ﷺ هو[1] الذي ذُكِرَ في القرآنِ أوّلاً[2] ذِكرَ هذا، ولم يُشِرْ إلى شَيءٍ بِعَينِهِ. فَيَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أمَرَ ﷺ باتّباعِ ما ذَكَرَ مِنَ الصِّراطِ المُستَقيمِ، ونَهى عنِ اتّباعِ السُّبُلِ؛ لأنَّ غَيرَهُ مِنَ الأديانِ المُختَلِفَةِ والأهواءِ المُتَشَتِّتَةِ لا حُجَّةَ لها[3]، ولا بُرْهانَ، وما ذَكَرَ مِنَ الصِّراطِ المُستَقيمِ هو دينٌ بِحُجَّةٍ وبُرهانٍ لا كَغَيرِهِ[4] مِنَ الأديانِ، وإنْ كانَ يَدَّعِي كلٌّ مِن [أصحاب تلكَ الأديانِ][5] أنَّ الذي هو عليهِ هو دينُ اللهِ وسَبيلُهُ ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المُحَرَّماتِ والمَناهِيَ والمَعاصِيَ التي ذَكَرَ في هذِهِ، و﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ السُّبُلَ والأديانَ المُختَلِفَةَ.

وأصْلُهُ أنَّ السَّبيلَ المُطلَقَ سَبيلُ اللهِ، والدينَ المُطلَقَ دينُ اللهِ والكِتابَ المُطلَقَ كتابُ اللهِ.

الآية ١٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا﴾ اختُلِفَ فيهِ: قال الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي أحسَنَ صُحْبَتَهُ، تَمَّتْ نِعمَةُ اللهِ وكَرامَتُهُ عليهِ في الآخِرَةِ. وقيلَ[6]: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ يَعْني على المُحْسِنينَ والمُؤمِنينَ. وعلى [الذي أحْسَنَ بِمَعنَى لِلّذي][7] آمنَ. ويجوزُ على في مَوضِعِ اللامِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنُّصُبِ. وقَتادةُ قالَ: فَمَنْ أحسَنَ في ما آتاهُ اللهُ تَمَّتْ عليهِ كَرامَةُ اللهِ في جَنَّتِهِ ورِضوانِهِ، ومَنْ لم يُحْسِنْ في ما آتاهُ اللهُ [ولا عُذْرَ لَهُ][8] نَزَعَ اللهُ ما في يَدِهِ، ثم أبْلاهُ[9].

وقالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي ثم آتيناكُمْ مِنَ الحُجَجِ والبَيانِ تَماماً مِنْ مُوسَى وكِتابِهِ؛ أي مُوسَى وكتابُهُ مُصَدِّقٌ ومُوافِقٌ لِما أعطاكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ الآية [هود: ١٧].

ويَحتَمِلُ [﴿تَمَامًا﴾ تَمامَ ما ذَكَرْنا][10] بالنِّعمَةِ والكَرامَةِ، ويَحتَمِلُ ﴿تَمَامًا﴾ بالحُجَّةِ والبَيانِ و﴿تَمَامًا﴾ بالحِكْمَةِ والعِلْمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي لِلَّذي أحْسَنَ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه ﴿تَمَامًا عَلَى﴾ الذينَ أحْسَنُوا ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي تَبياناً لِكُلِّ شَيءٍ ﴿وَهُدًى﴾ مِنَ الضَّلالاتِ والشُّبُهاتِ ونِعمَةً ﴿وَرَحْمَةً﴾ مِنَ العذابِ والعِقابِ ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي ولِيَكونُوا ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ على التَّحْقيقِ.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ][11] قالَ: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ يَقولُ: أتَمَّ لهُ الكتابَ على أحْسَنِهِ على الذي بَلَغَ مِنْ رِسالَتِهِ وتَفْصيلِ كلِّ شيءٍ [أي][12] بَيانِ كُلِّ شيءٍ ﴿وَهُدًى﴾ أي تَبياناً مِنَ الضَّلالَةِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي نِعمَةً ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ يُؤمِنونَ أي لِيَكُونُوا بالبَعْثِ [يؤمِنُونَ][13].

ومِنْهُمْ مَنْ يَقولُ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ إنهُ، وإنْ أتَى بِحَرْفِ التَّرتيبِ فإنهُ على الإخبارِ، كأنهُ قالَ: ثم قد كُنّا ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا﴾ مَعْناهُ: وقد آتيناهُ.

الآية ١٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يَعْني القرآنَ ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ قال أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: البَرَكَةُ هي التي مَنْ تَمَسَّكَ بها أوصَلَتْهُ إلى كُلِّ خَيرٍ، وعَصَمَتْهُ مِنْ كلِّ شَرٍّ. وهو المُبارَكُ لِمَنْ أخَذَهُ، واتَّبَعَهُ، وعَمِلَ بِهِ، فهو مُبارَكٌ لَهُ. سُمِّيَ هذا القرآنُ مُبارَكاً لِما يُبارِكُ فيهِ لِمَنِ اتَّبَعَهُ؛ هو مُبارَكٌ لِمُتَّبِعِهِ والعامِلِ بِهِ، ومَنْ[14] لم يَتَّبِعْهُ فَلَيسَ هو بِمُبارَكٍ لَهُ، بل هو عليهِ

---

(١) في الأصل: و، في م: أو. (٢) في الأصل وم: وإلا. (٣) في م: عليها. (٤) من م، في الأصل: كغير. (٥) في الأصل وم: تلك. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: بمعنى الذي أحسن وللذي. (٨) أدرجت في الأصل وم بعد: أبلى الله. (٩) في الأصل وم: أبلى الله. (١٠) في الأصل وم: تمام ما ذكرنا تماماً. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: وإلا من.

جنة السنة

شِدَّةٌ ورِجْسٌ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ و١٢٥] فهوَ ما ذَكَرْنا مُبارَكٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، وتَمَسَّكَ بِهِ.

وسُمِّيَ مَجيداً وكَريماً لِمَنِ اتَّبَعَهُ يَصيرُ مَجيداً كَريماً، وكذلكَ سُمِّيَ رُوحاً وحَياةً لِما يَحْيَى بِهِ مَنِ اتَّبَعَهُ.

واصْلُ البَرَكَةِ هو أنْ يُنْتَفَعَ بِشَيءٍ على غَيرِ تَبِعَةٍ، فهو البَرَكَةُ. وعلى ذلكَ يَخْرُجُ قولُ الناسِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ: بارَكَ اللهُ لَكَ في كذا؛ أي جَعَلَ لكَ فيهِ مَنافِعَ، لا تَبِعَةَ عليكَ. فَعَلَى هذا يَجيءُ أنْ يكونَ القرآنُ مُبارِكاً بِكَسْرِ الرّاءِ. لكنْ قِيلَ: مُبارَكٌ لِانْتِفاعِ الناسِ بِهِ.

والبَرَكَةُ تَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: اسْمٌ لِكُلِّ خَيرٍ يكونُ أبداً عل النَّماءِ والزِّيادَةِ.

والثاني: اسْمٌ لِكُلِّ مَنْفَعَةٍ، لا تَبِعَةَ عليهِ، ولا مُؤْنَةَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي اتَّبِعُوا إشاراتِهِ، واتَّقُوا نَواهِيَهُ ومَحارِمَهُ، تُرْحَموا[1].

الآية ١٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ/ ١٦٦ ـ أ/ ﴿أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ﴾ اليَهودِ والنَّصارَى، ومَتى أُنْزِلَ الكتابُ على اليَهودِ والنَّصارى فإنما[2] أُنزِلَ[3] على المُسْلِمِينَ. لكنَّ المَعْنى، واللهُ أعْلَمُ، إنما أُنْزِلَ الكِتابُ على طائِفَتَينِ؛ أي إنما ظَهَرَ نزولُ التَّوراةِ والإنجيلِ عندَ الخَلْقِ بطائِفَتَينِ مِنْ قَبْلِنا، سُمُّوا يَهوداً ونَصارَى، [يَهودَ التوراةِ ونَصارَى الإنجيلِ][4] وإلّا لم يَكُنْ وقتَ نُزولِ التوراةِ يَهودٌ ونزولِ الإنجيلِ نَصارَى.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ لِئَلّا تقولوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ ولم يُنْزَلْ علَينا.

ويجوزُ أنْ بِمَعْنى لَنْ؛ أي: لَنْ تقولوا إنما أُنْزِلَ الكتابُ كقولِهِ تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣] أي لن يُؤْتَى أحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي قد كُنّا عن دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ. ويَجيءُ أنْ نكونَ عنْ دِراسَتِهِمْ لأنها دِراسَةُ الكُتُبِ. لكنْ أُضِيفَ إليهِمْ أي أولئكَ القومِ.

الآية ١٥٧ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ هو ما ذَكَرْنا: لِئَلّا تَقُولُوا ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أنْزَلَ اللهُ ﷻ هذا القرآنَ قَطْعاً لِحِجاجِهِمْ ومَنْعاً لِعُذْرِهِمْ، وإنْ لم يكُنْ لَهُمُ الحِجاجُ والعُذْرُ. وعلى ذلكَ يَخرجُ قولُهُ تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] لا يكونُ لَهُمْ حُجَّةٌ على اللهِ، وإنْ لم يُنْزِلِ الرُّسُلَ والكُتُبَ.

ثم يَحْتَمِلُ عُذْرُ هؤلاءِ [واحتِجاجُهُمْ وَجهَينِ:

أحَدُهما][6]: إنما أُنْزِلَ الكتابُ بِلِسانِهِمْ، لم يُنْزَلْ بِلِسانِنا، ونَحْنُ لا نَعْرِفُ لِسانَهُمْ، وكُنّا ﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾. ولو كانَ لهمُ العُذْرُ والاحْتِجاجُ[7] بهذا لَكانَ لِلْعَجَمِ الاحْتِجاجُ والعُذْرُ في تَرْكِ اتّباعِ القُرآنِ لِما لم يُنْزَلْ بِلِسانِ العَجَمِ، ولم يَعْرِفُوا هُمْ لِسانَهُمْ؛ أعني لِسانَ العربِ. ثم لم يكُنْ لِلْعَجَمِ الاحْتِجاجُ بذلكَ لِما جَعَلَ لَهُمْ سَبِيلَ الوصولِ إلى مَعْرِفَتِهِ. فَعَلَى ذلكَ لا عُذْرَ لِلْعَرَبِ في تَرْكِ اتّباعِ ما في الكُتُبِ التي أُنْزِلَتْ بِغَيرِ لِسانِهِمْ لِما في وُسْعِهِمُ الوُصُولُ إلى مَعْرِفَتِها والتَّعَلُّمُ مِنْهُمْ والأخذُ عنْهُمْ. وهذا يَدُلُّ على أنْ يَجوزَ التَّكْلِيفُ بأشياءَ لَيْسَتْ مَعَهُمْ أسْبابُها بَعْدَ أنْ جَعَلَ لَهُمْ سَبِيلَ الوُصولِ إلى تلكَ الأسبابِ.

---

(١) في الأصل وم: رحم. (٢) في الأصل و م: انما. (٣) في الأصل وم: التوراة والإنجيل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) و (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

والثاني: في احتجاجِهِمْ أنْ يقولوا: إنَّ اليهودَ والنَّصارَى قدِ اختلَفتْ، وتفرَّقتْ فِرَقاً، لا اجْتِماعَ بَيْنَها[1] أبداً. فكيف نَتْبَعُهُمْ في ذلكَ؟ فقالَ: إنَّ مذاهِبَهُمْ وكُتُبَهُمْ إنما تفرَّقتْ بِهِمْ وبِقولِهِمْ؛ فقد أنْزَلَ مِنَ الحُجَجِ والبَيانِ ما يُعْرَفُ ذلكَ الذي تفرَّقَ بِهِمْ، فلا حُجَّةَ لَهُمْ في ذلكَ. وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩] وقد جاءَتْهُمْ آياتٌ، فلم يُؤمِنوا. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

وفي الآيةِ دلالةٌ على أنَّ المجوسَ لَيسُوا مِنْ أهْلِ الكتابِ لأنهُمْ لو كانُوا أهْلَ الكتابِ صارَ أهْلُ الكتابِ ثلاثَ طوائِفَ؛ وقد أخبَرَ انهُ ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ الْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ﴾ وذلكَ مُحالٌ. فإنْ قِيلَ: إنما هذا حِكايَةٌ عَنِ المُشْرِكينَ؛ ومَعْناهُ، واللهُ أعْلَمُ، إني أنْزلْتُ عليكُمُ الكِتابَ لِئلا تقُولُوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ الْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ فلم يقولُوا ذلكَ. ولكنَّ اللهَ قَطَعَ بإنزالِهِ الكتابَ حُجَّتَهُمْ التي عَلِمَ أنهُمْ كانُوا يَحتجُّونَ بها، لو لم يُنْزِلْهُ، وإنْ لم يكُنْ لَهُمْ في ذلكَ حُجَّةٌ ولا عُذْرٌ، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قِيلَ: القرآنُ، وقِيلَ: محمدٌ ﷺ ﴿وَهُدًى﴾ هُدًى مِنَ الضَّلالَةِ وكلِّ شُبْهَةٍ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي ذلك منهُ رَحْمةٌ ونعْمَةٌ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ﴾ أي لا أحدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ﴾ قِيلَ: ﴿بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ﴾ حُجَجُ اللهِ، وقِيلَ: دينُ اللهِ. وقد ذَكَرْناها في غَيْرِ مَوضِعٍ. وقد ذَكَرْنا أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ حَرْفُ اسْتِفْهامٍ في الظاهِرِ، ولكنَّ ذلكَ مِنَ اللهِ على الإيجابِ؛ كأنهُ قالَ: لا أحدَ أوْحَشُ ظُلْماً ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾.

الآية ١٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ﴾ كذا[2] قالَ أهْلُ التَّأويلِ: ما يَنْظُرونَ، [وحَرْفُ هَلْ: هو حَرْفُ اسْتِفْهامٍ وتَعَجُّبٍ، لكنَّ أهْلَ التَّأويلِ قالُوا: ما يَنْظُرُونَ][3] حمَلُوا على الجَوابِ؛ لأنهُ لم يَخرُجْ لهُ جوابٌ. فَجَوابُهُ ما قالُوا: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أحدَ أظلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ، هو جَوابٌ؛ لأنَّ جَوابَهُ لم يَخرُجْ. فَجَوابُهُ ما قالُوا: لا أحدَ أظْلَمُ؛ لأنهُ سُؤالٌ واسْتِفْهامٌ، فَجَوابُهُ ما ذَكَرُوا. فَعَلَى ذلك قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هو اسْتِفْهامٌ، ولم يَخرُجْ لهُ الجَوابُ، فَجَوابُهُ: لا يَنْظُرونَ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٤٩].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ هذا، واللهُ أعْلَمُ، يُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيَةُ في المُعانِدِينَ مِنْهُمْ والمُتَمَرِّدِينَ الذينَ هِمَّتُهُمُ العِنادُ والتَّعَنُّتُ؛ خَرَجَ على إياسِ رسولِ اللهِ ﷺ حَريصاً على إيمانِهِمْ مُشْفِقاً على أنْفُسِهِمْ حتى كادَتْ نَفْسُهُ تَذْهَبُ حَسَراتٍ عليهِمْ حِرْصاً على إيمانِهِمْ وإشفاقاً على أنْفُسِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ الآية [الكهف: ٦، والشعراء: ٢] ونَحْوَهُما[4].

فأيَسَهُ اللهُ تعالى مِنْ إيمانِ أولئكَ الكفَرةِ لِئَلاَّ يَطْمَعَ في إيمانِهِمْ وإسْلامِهِمْ بَعْدَ ذلكَ، ولا تَذْهَبَ نَفْسُهُ حَسَراتٍ عليهِمْ، وليَتَّخِذَهُمْ[5] أعداءً، ويُبْغِضَهُمْ، ويُخرِجَ الشَّفَقَةَ التي في قَلْبِهِ لَهُمْ، وليَتأهَّبَ لِعَداوتِهِمْ، ويَتَبَرَّأَ منهُمْ كما فَعَلَ إبراهيمُ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] وكما قالَ لِنُوحٍ ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] أيَسَهُ اللهُ مِنْ إيمانِ قَوْمِهِ إلاّ مَنْ قد آمَنَ، ونَهاهُ أنْ يَحْزَنَ عَلَيهِمْ، وعلى فَوتِ إيمانِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ هذا أيَسَ رسولَ اللهِ ﷺ مِنْ إيمانِهِمْ، ونَهاهُ أنْ يَحزَنَ عليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إلا لِلْوَقْتِ الذي ذَكَرَ أنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ في ذلكَ الوقْتِ، وهو[6] وَقْتُ نُزولِ الملائكةِ وإتيانِهِمْ بآياتِهِ[7]، وهو قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

ثم قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿تَأْتِيَهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بِقَبْضِ الأرواحِ مَعَ اللَّعْنِ والسُّخْطِ. فَعِنْدَ ذلكَ يُؤْمِنُونَ باللهِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يومَ القِيامَةِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢].

---

(١) في الأصل وم: بينهم. (٢) من م، في الأصل: كذاباً. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ونحوه. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج في الأصل قبلها: الذي. (٧) في الأصل وم: بآياتهم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ على الأمرِ؛ كأنهُ قالَ: أوْ يأتِيَ أمرُ رَبِّكَ على ما ذَكَرَ في سورةِ النَّحلِ: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [الآية: ٣٣]. ثم الأمرُ، فيهِ عذابُ اللهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٥٨ و...] يَعْني عذابَنا. فَعَلى ذلكَ في هذا أمْرُ اللهِ عذابُ اللهِ.

والأصلُ في ما أُضِيفَ إلى اللهِ في مَوضِعِ الوَعِيدِ، لا يُرادُ بهِ الذاتُ، ولكنْ يُرادُ بِهِ نَقْمَتُهُ وعَذابُهُ وعُقوبَتُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨ و٣٠]، لا يُريدُ بِهِ [ذاتَهُ][(1)]، ولكنْ يُريدُ نَقْمَتَهُ وعذابَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥] لا يُريدُ لِقاءَ ذاتِهِ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨ و...] [وقولُهُ تعالى][(2)]: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠ و...] وغيرُها مِنَ الآياتِ لا يُرادُ بهِ ذاتُهُ، ولكنْ يُرادُ بِهِ عذابُهُ ونَقْمَتُهُ. أو نَقولُ: إنَّ كلَّ شيءٍ، يُرادُ بِهِ تَعْظيمُهُ، يُضافُ إلى اللهِ تعالى، فَيُرادُ [بإضافَةِ اليومِ إلى اللهِ تعالى][(3)] تَعْظيمُ ذلكَ اليومِ أو تَعْظِيمُ عذابِهِ ونَقْمَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ تَحْتَمِلُ بَعْضَ آياتِهِ ما قالَ ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [غافر: ٨٤] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٤] وكقولِهِ تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] ونَحْوُها[(4)] مِنَ الآياتِ؛ يؤمِنُونَ عندَ مُعايَنَتِهِمُ العَذابَ، ولا يَنْفَعُهُمُ الإيمانُ.

ويَحْتَمِلُ ما قالَ أهلُ التأويلِ: طُلوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها وخُروجَ الدَّجّالِ وخُروجَ الدّابَّةِ. وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][(5)] قالَ: «ثَلاثٌ إذا خَرَجْنَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾» [مسلم ١٥٨].

وقالَ أبو هُرَيرَةَ رضي الله عنه: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «بادِرُوا بالأعمالِ سِتّاً: طُلوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها والدَّجّالَ والدُّخانَ ودابَّةَ الأرضِ وخُوَيْصَةَ أحدِكُمْ وأمرَ العامَّةِ» [مسلم ٢٩٤٧/١٢٩] وخُوَيْصَةُ/ ١٦٦ ـ ب/ أحدِكُمْ: الموتُ، وأمْرُ العامَّةِ: الساعةُ إذا قامَتْ.

وعنِ ابنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه [أنهُ][(6)] قالَ: التَّوبَةُ مَعْروضَةٌ حتى تَطْلُعَ الشمسُ مِنْ مَغْرِبِها. ثم قالَ: مَهْما يأتِ عليكُمْ عامٌ، فالآخَرُ شَرٌّ. ونَحْوُهُ مِنَ الأخبارِ. فإنْ ثَبَتَتْ فهيَ المُعْتَمَدَةُ.

وعنْ عائشةَ رضي الله عنها [أنها][(7)] قالَتْ: إذا خَرَجَ أوَّلُ الآياتِ طُرِحَتِ الأقلامُ، وحُبِسَتِ الحَفَظَةُ[(8)] وشَهِدَتِ الأجسادُ على الأعمالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ أخبرَ أنَّ الإيمانَ، لا يَنْفَعُ في ذلكَ الوقتِ [لِوُجُوهٍ]:

أحدُها: أنهُ[(9)] لَيسَ بإيمانِ اختيارٍ في الحَقيقَةِ، إنما إيمانُ دَفْعِ العَذابِ والبَأْسِ عنْ أنفُسِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [غافر: ٨٤] وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] أخبرَ أنهُمْ لو رُدُّوا إلى الدنيا لَعادُوا إلى تكذيبِهِمُ الرُّسُلَ وكُفْرِهِمْ باللهِ. فَدَلَّ أنَّ إيمانَهُمْ في ذلكَ الوقتِ إيمانُ دَفْعِ العذابِ والبأسِ وإيمانُ خوفٍ، وهو كإيمانِ فِرْعَونَ حِينَ[(10)] ﴿أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] لم يَنْفَعْهُ إيمانُهُ في ذلكَ [الوَقتِ][(11)] لأنهُ إيمانُ دَفْعِ الهَلاكِ عنْ نَفْسِهِ لا إيمانُ حَقيقَةٍ باختيارٍ.

والثاني: أنهُ في ذلكَ الوَقْتِ وَقْتِ نُزولِ العَذابِ لا يُقْدَرُ أنْ يُسْتَدَلَّ بالشاهِدِ على الغائِبِ لِيكونَ [قولُ المرءِ][(12)] قولاً عنْ مَعْرِفَةٍ وعِلْمٍ، وإنما هو قولٌ يَقولُهُ بِلِسانِهِ لا عَنْ مَعْرِفَةٍ في قَلْبِهِ في ذلكَ الوَقْتِ لِما ذَكَرْنا، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨] لأنهُ إيمانُ دَفْعِ البَأْسِ والعَذابِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: به. (٤) في الأصل وم: ونحوه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الخطبة. (٩) في الأصل وم: لأنه. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: قوله.

جنة السنة

[والثالثُ أنهُ](١): يُبالِغُ بِالاجْتِهادِ حتى يكونَ إيمانُهُ إيماناً باجْتِهادٍ؛ لِذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا.

والرابعُ(٢): أنْ يكونَ في طُلوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها وخُروجِ الدَّجّالِ ودابَّةِ الأرضِ وما ذُكِرَ مِنَ البلاءِ والشِّدَّةِ والعَذابِ ما يَضْطَرُّهُمْ إلى الإيمانِ بِهِ، فيكونُ إيمانُهُمْ إيمانَ اضطِرارٍ لا اختِيارٍ.

ويُشْبِهُ أنْ تكونَ [الأحاديثُ](٣) التي رُوِيَتْ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ لا تُقْبَلُ التَّوْبَةُ بَعْدَ طُلوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها وبَعْدَ خُروجِ الدَّجّالِ ودابَّةِ الأرضِ؛ أي لا يُثابونَ على طاعاتِهِمْ، وإلّا فَمِنَ البَعيدِ أنْ يَدْعُوَ إلى الإيمانِ والطاعاتِ. ثم إذا أَتَوا بها لم تُقْبَلْ مِنهُمْ، لكنهُ يُحْتَمَلُ ما ذَكَرْنا ألّا يُثابوا(٤) على ذلكَ، ويُعاقَبوا(٥) بما كانَ مِنْهُمْ مِنَ الكُفرِ وكُفرانِ النِّعَمِ؛ لأنَّ جِهَةَ الثوابِ إفضالٌ وإحسانٌ، وفي الحِكْمَةِ شِرْكٌ(٦) الإفضالِ بالثوابِ في الطاعاتِ، إذا كانَ مِنَ اللهِ ﷻ مِنَ النِّعَمِ ما يكونُ ذلكَ شُكْراً لَهُ، والعقابُ على الكُفرِ مِمّا تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ. لذلكَ كان ما ذَكَرْنا.

ولِهذا يَخْرُجُ قولُ أبي حَنيفَةَ ﵀ حينَ قالَ: لا ثَوابَ لِلْجِنِّ على طاعاتِهِمْ لأنَّ طَريقَ وُجوبِهِ الإفضالُ، ولم يُذْكَرْ [لهم](٧) ذلكَ، ويُعاقَبونَ بما كانَ منهُمْ مِنَ الكُفرانِ والأجرامِ ما ذَكَرْنا مِنَ المَعْنَى الذي وَصَفْنا، واللهُ أعْلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ عندَ مُعايَنَةِ العذابِ والبَأْسِ والآياتِ إذا ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أي لا يَنْفَعُ ذا إلّا بِذا؛ إذا عَمِلَتْ خَيراً، ولم تَكُنْ آمَنَتْ، لا يَنْفَعُها(٨) ذلكَ، [ولنْ يَنْفَعَها إيمانُها](٩) عندَ معايَنَةِ العذابِ والآياتِ إذا لم تكنْ كَسَبَتْ قَبْلَ ذلكَ خيراً.

وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أي لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمانُها إذا لم تَعْزِمْ ألّا تَرْتَدَّ، ولا تَرْجِعَ عنهُ أبداً. وقيلَ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي لا يَنْفَعُ إيمانُها ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ﴾ تَصْديقِها التَّعْظيمَ للهِ والإجلالَ. فَعِنْدَ ذلكَ يَنْتَفِعُ صاحِبُهُ، لأنهُ لا كلُّ تَصْديقٍ يكونُ فيهِ التَّعْظيمُ للهِ والإجلالُ، إذا لم يَكُنْ فيهِ التَّعْظيمُ لَهُ. وقيلَ: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أي لم تَكُنْ عَمِلَتْ في تَصْديقِها خَيراً قَبْلَ مُعايَنَةِ الآياتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ هو يَخْرُجُ على الوَعيدِ؛ أي انْتَظِروا إحْدَى هذِهِ الثلاثِ التي ذَكَرْنا فإنّا مُنْتَظِرونَ. وهو كقولِهِ: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣١] أي انْتَظِروا العذابَ فإنّا مُنْتَظِرونَ بِكُمْ ذلكَ.

الآية ١٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾(١٠) عَنْ عائِشَةَ وأبي هُرَيرَةَ ﵄ قالَ أحدُهُما: فيكُمْ في الكَفَرَةِ، وقالَ الآخَرُ: في أهلِ الصلاةِ، وقيلَ: هُمُ الحُرورِيَّةُ، وقيلَ: هُمُ اليَهودُ والنَّصارَى. ولكنْ لا نَدْري مَنْ هُمْ؟ وليسَ بِنا إلى مَعْرِفَةِ مَنْ كانَ حاجَةٌ.

ثم يَحْتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً: يَحْتَمِلُ ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ حقيقةً؛ لأنَّ [أصحابَ](١١) جميعِ الأديانِ عندَ أنْفُسِهِمْ انهُمْ يَدينونَ دينَ اللهِ، لا أحَدَ يقولُ: إنهُ يَدينُ بِدينِ غَيرِ [دينِ](١٢) اللهِ. ألا تَرَى أنهُمْ قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا(١٣): ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾؟ [يونس: ١٨] فَهُمْ وإنْ كانوا عندَ أنْفُسِهِمْ أنهُمْ يَدينونَ دينَ اللهِ فَهُمْ في الحَقيقَةِ فارَقوا دينَهُمْ وليسوا على دينِ اللهِ. ويَحْتَمِلُ فارَقوا دينَهُمُ الذي أُمِروا بِهِ، ودَعا إليهِ الرُّسُلُ والأنبياءُ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، فارَقوا ذلكَ الدينَ. ويَحْتَمِلُ: فارَقوا دينَهُمْ، الذي دانوا بِهِ في عَهْدِ الأنبياءِ والرُّسُلِ بِدينِ اللهِ، فَفارَقوا ذلكَ الدينَ، واللهُ أعْلَمُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩] وكقولِهِ تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦] كانوا مؤمنِينَ بِهِ ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي صاروا فِرَقاً وأحزاباً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ صَرَفَ تأويلَهُ ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ﴾ أي لَسْتَ أنتَ في قِتالِهِمْ في شيءٍ؛ كأنهُ نَهاهُ عَنْ قِتالِهِمْ في وَقْتٍ، ثم أذِنَ لهُ بَعْدَ ذلكَ حِينَ(١٤) نَسَخَتْهُ آيةُ السَّيفِ، وهذا بعيدٌ. ويَحْتَمِلُ ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ أي

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يثابون. (٥) في الأصل وم: ويعاقبون. (٦) في الأصل و م: ترك. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: لا ينفعه. (٩) في الأصل و م: لم ينفعه ذلك. (١٠) في الأصل و م: فارقوا، وهي قراءة حمزة والكسائي، انظر حجة القراءات ص(٢٧٨). (١١) و(١٢) ساقطة من الأصل و م. (١٣) في الأصل و م: و. (١٤) في الأصل و م: حيث.

جنة السنة

لَسْتَ مِنْ دينِهِمْ في شَيءٍ؛ لأنَّ دينَهُمْ كانَ تَقْليداً لآبائِهِمْ، ودينَكَ دينٌ بالحُجَجِ والبراهينِ، فَلَسْتَ منهُمْ أي مِنْ دينِهِمْ في شَيءٍ. ويَحْتَمِلُ ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ أي لا تُسْأَلُ أنتَ عنْ دينِهِمْ، ولا تُحاسَبُ على ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢]. أو يَخْرُجُ على إياسِ أولئكَ الكَفَرةِ مِنْ عَودِ رسولِ اللهِ ﷺ إلى دينِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ الحُكْمَ[1] فيهِمْ إلى اللهِ، لَيسَ إليكَ، هو الذي يَحْكُمُ فيهِمْ، أو أنْ يكونَ ﴿أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في القِتالِ حتى يَأذَنَ لكَ بالقِتالِ ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ هو وَعيدٌ.

الآية ١٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهُما][2]: لَيسَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ إيجابُ الجزاءِ في السَّيِّئةِ. وفي قولِهِ تعالى: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ﴾ إيجابُ الجَزاءِ؛ لأنهُ قالَ: فَلَهُ كذا، فيهِ إيجابُ الجزاءِ. [وإنما إيجابُ الجزاءِ][3] في السَّيِّئةِ بقولِهِ تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] وغَيْرِهِ مِنَ الآياتِ. وقد ذَكَرْنا أنَّ إيجابَ الجَزاءِ والثَّوابِ في الحَسَناتِ والخَيراتِ إفضالٌ وإحسانٌ؛ لأنهُ قد سَبَقَ مِنَ اللهِ تعالى إلى كُلِّ أحَدٍ مِنَ النِّعَمِ ما يكونُ منهُ تلكَ الخَيراتُ جزاءً لِما أنْعَمَ عليهِ وشُكْراً، ولا جَزاءَ للجازي إلّا مِنْ جِهَةِ الإفضالِ والإكرامِ.

وأما جَزاءُ السَّيِّئةِ فمِمّا تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ لِما خَرَجَ الفِعْلُ منهُ مَخْرَجَ الكُفْرانِ لِما أنْعَمَ عليهِ، فَيَسْتَوجِبُ بالكُفْرانِ العقوبَةَ والجزاءَ على ذلكَ.

والثاني: أنهُ خرجَ الفِعْلُ منهُ في الخيراتِ والحَسَناتِ على مُوافَقَةِ خِلْقَتِهِ وصُورَتِهِ وتَقْييمِهِ[4] على ما خَلَقَها اللهُ وأنْشأها، وبَناها، فلم يَخْرُجِ الفِعْلُ بهِ على خِلافِ ما هو بُنِيَ عليهِ، فلم يَسْتَوجِبْ بهِ الجزاءَ. وأما السَّيِّئاتُ فهِيَ إخراجُها على خِلافِ خِلْقَتِها وتَقْويمِها وصَرْفُها إلى غَيرِ الوجْهِ الذي كانَتْ خِلْقَتُها وتَقْويمُها، فاسْتَوجَبَ بذلكَ العُقوبَةَ والجزاءَ عليها لِقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ / ١٦٧ ـ أ/[الذاريات: ٥٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ لَيسَ على التَّحديدِ حتى لا يُزادُ عليهِ، ولا يُنْقَصَ منهُ، إنما خَرَجَ، واللهُ أعْلَمُ، على التَّعظيمِ لِذلكَ والإجلالِ؛ لأنهُ أخْبَرَ في النَّفَقةِ التي تُنْفَقُ في سَبيلِ اللهِ أنها تَزدادُ، وتَنمو، إلى سَبْعِ مِئةٍ، ولا يَجوزُ أنْ يكونَ لهُ في الحَسَنةِ التي جاءَ بها في التَّوحيدِ تَبْلُغُ إلى ما ذُكِرَ، وإذا جاءَ بِنَفْسِ ذلكَ [في][5] التَّوحيدِ لا تَبْلُغُ ذلكَ. أو تَقْصُرُ عَنْ ذلكَ. ولكنّها، واللهُ أعْلَمُ، على التَّعْظيمِ لهُ أو على التَّمْثيلِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] ذَكَرَ هذا لِما لا شَيءَ عندَ الخَلْقِ أوسَعُ مِنهُما وكقولِهِ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ [مريم: ٩٠] ومِثْلُهُ غَيْرُهُ على التَّمْثيلِ خَرَجَ لِعَظيمِ ما قالوا في اللهِ، لَيسَ أنها تَنْشَقُّ، أو تتفَطَّرُ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ أنهُ يَخْرُجُ لِما ذَكَرْنا لا على التَّحْديدِ لهُ والوَقْتِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ كذا ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا﴾ كذا. ذَكَرَ مَجيءَ الحَسَنةِ ومَجيءَ السَّيِّئةِ، ولم يَقُلْ: مَنْ عَمِلَ بالحَسَنةِ فَلَهُ كذا، ومَنْ عَمِلَ بالسَّيِّئةِ [فَلَهُ كذا][6] لِيُعْلَمَ أنَّ النَّظَرَ إلى ما خَتَمَ بهِ، وقُبِضَ عليهِ؛ فكأنهُ قالَ: مَنْ خَتَمَ بالحَسَنةِ، وقُبِضَ عليها، فَلَهُ كذا؛ لأنهُ قد[7] يَعْمَلُ الحَسَنةَ، ثم يُفْسِدُها، ويَنْقُضُها بارْتِكابِ ما [يَنْقُضُها، ويُفْسِدُها][8] مِنَ الشِّرْكِ وغَيرِهِ، وعلى ما رُوِيَ: «الأعمالُ بالخَواتيمِ» [البخاري ٦٤٩٣ و٦٦٠٧].

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ بَعْدَ التَّوحيدِ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بَعْدَ التوحيدِ ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

وقالَ بَعْضُ أهْلِ التَّأويلِ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ يَعْني بالتَّوحيدِ ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ لكنهُ لَيسَ على التَّحديدِ لِما ذَكَرْنا، ولكنْ على التَّعظيمِ والقَدْرِ عندَ اللهِ أو على التَّمْثيلِ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وتقديمه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: فيه. (٨) في الأصل وم: ينقضه ويفسده.

جنة السنة

لكنَّ التَّخليدَ في النارِ مِثْلُ الشِّرْكِ؛ لأنَّ الشِّرْكَ أعظَمُ السَّيِّئاتِ. وفي الآيةِ دَلالةٌ أنَّ المِثْلَ قد يكونُ مِن غَيرِ نوعِهِ حين[1] أوجَبَ في الحَسَنَةِ مِنَ الثوابِ عَشْرَ أمثالِها وفي السَّيِّئةِ مِثْلَها. وليس واحدٌ منها مِن نوعِ الأصلِ والعَمَلِ الذي يُثابُ عليه.

وقيلَ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ في الآخرةِ بالتوحيدِ ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ في الأضعافِ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ في الآخرةِ؛ يَعني الشِّرْكَ ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ في العِظَمِ. فَجَزاءُ الشِّرْكِ النارُ؛ لأنَّ الشِّرْكَ أعظَمُ الذنوبِ، والنارَ أعظَمُ العُقوبَةِ، وذلك كقولِهِ تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ جميعاً؛ لا يُزادُ على المِثْلِ، ولا يُنْقَصُ مِمّا ذُكِرَ.

الآية ١٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: قولُهُ تعالى: ﴿هَدَىٰنِى﴾ أي دَلَّني ﴿رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لكنَّ هذا بعيدٌ؛ لأنهُ خَرَجَ مَخرَجَ ذِكْرِ ما مَنَّ عليهِ بِلُطفِهِ، وليسَ في الدَّلالَةِ والبيانِ ذلك، إنما عليهِ البَيانُ. كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَدُلُّ على الهُدى، ويُبَيِّنُ لَهُمْ طريقَهُ.

ثم أخبَرَ أنهُ لا يَدُلُّ مَن أحبَّ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] دلَّ أنَّ ذلك إكرامٌ مِنَ اللهِ تعالى بالهِدايَةِ والتَّوفيقِ لَهُ والعِصمَةِ بِلُطفِهِ لا بالدلالَةِ والبَيانِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ الآية [الحجرات: ١٧] فلو كانَ على الدَّلالَةِ والبَيانِ لَكانَ منهُ ذلكَ. ثم إنَّ المِنَّةَ عليهِمْ لِلّهِ تعالى لا لِرَسولِهِ. دلَّ أنهُ لِما ذَكَرْنا مِنَ الهِدايَةِ نفسِها لا الدَّلالَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ قيلَ: قائماً مُستقيماً، لا عِوَجَ فيهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ ﴿قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١ و٢] والعِوَجُ هو الذي فيهِ الآفَةُ. فأخبَرَ أنْ لا آفَةَ فيهِ، ولا عِوَجَ.

وقولُهُ تعالى ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إنَّ أهلَ الإيمانِ جميعاً يَدَّعونَ أنَّ [الدِّينَ][2] الذي هُمْ عليهِ، هو دِينُ إبراهيمَ، فأخبَرَ أنَّ دِينَ إبراهيمَ هو الذي، عليهِ [رسولُ اللهِ ﷺ][3] لا هُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ قيلَ: مُسلِماً. والحَنَفُ هو المَيلُ، وهو الحَنيفُ أي مائلٌ إلى دينِ اللهِ. أخبَرَ أنهُ يَدْعو إلى دِينِ اللهِ تعالى وإلى الدينِ الذي كانَ عليهِ آباؤُهُ وأجدادُهُ؛ أعني بِهِ [دينَ][4] الأنبياءِ والرُّسُلِ ﷺ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. بَرّأَهُ ﷺ مِنَ الشِّرْكِ. وقيلَ: كانَ حَنيفاً خالِصاً لِلّهِ مُخلِصاً؛ لَم يُشرِكْ أحداً في رُبوبِيَّتِهِ ولا في عِبادَتِهِ، على فِعْلِ أولئكَ الكَفَرةِ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ وحَفْصَةَ ﴿قِيَمًا﴾ فِطرَتَكُمُ التي فُطِرتُمْ عليها ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ ويُقرأُ قَيِّماً بالتَّشديدِ، وقِيَماً بالتَّخفيفِ[5].

ويَخرُجُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على الشُّكرِ لهُ والحَمْدِ على ما أنعَمَ عليهِ، والفَضلَ لَهُ مِنَ الإكرامِ لَهُ بالهِدايَةِ [إلى الطريقِ][6] المُستَقيمِ، ويَحتَمِلُ[7] القائمَ بالحَقِّ والبُرهانِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ بالحُجَجِ والبراهينِ، ودينُ أولئكَ بِهَوَى أنفُسِهِم. ولذلكَ قالَ: ﴿حَنِيفًا﴾ وقالَ[8]: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الآية ١٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤] خاطبَ اللهُ تعالى بهذهِ الآياتِ رسولَهُ ﷺ والمُرادُ بِهِ الخَلْقُ كُلُّهُ. فَمَنْ بُلِيَ بِمِثْلِ ما كانَ بُلِيَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ السُّؤالِ والدُّعاءِ فَلَهُ أنْ يَقرَأ؛ أي يَذْكُرَ ما في الآياتِ.

ولو كانَ المُرادُ بالخِطابِ بهذا رسولَ اللهِ ﷺ خاصَّةً لَكانَ لا يَقولُ لَهُ: [﴿قُلْ﴾][9] ولكنْ يَقولُ لَهُ: افْعَلْ كذا، ولا تَفْعَلْ كذا. وعلى ذلكَ الخِطابُ في الشاهِدِ في خِطابِ بَعْضٍ بَعضاً ألّا يَقولوا: قُلْ. فَدَلَّ أنهُ على ما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل و م: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية [٢/٣٣٩]. (٦) في الأصل وم: بالطريق. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل و م: وقوله. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]. ومَن[1] اسْتوصِفَ صِفاتِ اللهِ فَعَلَيهِ أن يَصِفَ لَهُ ما في سورةِ الإخلاصِ. ورسولُ اللهِ ﷺ وغَيْرُهُ مِنَ الخَلائِقِ سواءٌ في ذلكَ الخِطابِ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ الآية ذِكْرُ مِنَّتِهِ بِما هَداهُ والاِسْتِيداءِ إلى شُكْرِ ما أنعَمَ عليهِ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ الأمْرُ بإخلاصِ العِبادَةِ للهِ ﷻ وإسلامِ النَّفْسِ لَهُ في جَميعِ أحوالِهِ: مَحْياهُ ومَماتِهِ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ فيهِ الدُّعاءُ إلى وَحْدانيَّةِ اللهِ ورُبوبيَّتِهِ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ دلالَةُ رَدِّ قولِ مَنْ يَسْتَثْني في إيمانِهِ؛ لأنهُ أمَرَهُ أنْ يقولَ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مِن غَيْرِ أنْ أمَرَهُ بالثُّنيا. فَمَنِ اسْتَثْنى فيهِ لا يَخْلُو اسْتِثْناؤُهُ مِن أحَدِ مَعْنَيَيْنِ: إمّا أنْ يكونَ لِشَكٍّ فيهِ وإمّا[2] لِكِتْمانِ ما أنْعَمَ عليهِ. فَعَلَى كُلِّ مَنْ أنعَمَ اللهُ عليهِ أنْ يُظْهِرَ ذلكَ، وأنْ يَشكُرَ لَهُ[3] على ما أمَرَ رسولَهُ ﷺ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَخرُجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: يَخرُجُ على الأمرِ بالدُّعاءِ لِنَفْسِهِ؛ لأنهُ قالَ: ﴿قُلْ﴾ أجعَلُ ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والثاني: على المُنابَزَةِ[4] مَعَ أولئكَ الكَفَرَةِ والفَجَرَةِ؛ يقولُ: أنا أجعَلُ صَلاتي وعِبادَتي ومَحْيايَ ومَماتي للهِ، لا أجعَلُ لِغَيْرِهِ شِرْكاً كما جَعَلْتُمْ أنتُمْ شُرَكاءَ[5] في عِبادَتِهِ وصلاتِهِ ونُسُكِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿صَلَاتِي﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الصَّلاةُ: المَفْرُوضَةُ، وقالَ بَعْضُهُمْ: الصَّلاةُ: الخُضوعُ والثَّناءُ؛ يَقولُ: إنَّ خُضوعي وثَنائي لِلّهِ. والصَّلاةُ، هي الثَّناءُ في اللُّغَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُسُكِي﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ الحَسَنُ: ﴿وَنُسُكِي﴾ ديني كقولِهِ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ [الحج: ٣٤] أي ديناً. وقِيلَ: ﴿وَنُسُكِي﴾ وذَبيحتي لِلّهِ في الحَجِّ والعُمْرَةِ وغيرِهِما[6]. وقِيلَ: ﴿وَنُسُكِي﴾ وعِبادَتي. والنُّسُكُ اسْمُ كُلِّ عِبادَةٍ. وعلى ذلكَ يُسَمّى[7] كُلُّ عابِدٍ ناسِكاً./ ١٦٧ - ب/

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أنا حَيٌّ ومَيِّتٌ للهِ، لا أُشْرِكُ أحداً في عِبادَتي [ونُسُكي. بل كُلّي للهِ، لا شريكَ لَهُ][8] في ذلكَ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا على التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ كأنهُ قالَ: إني أُمِرْتُ أنْ أجعَلَ صَلاتي ونُسُكي للهِ، أو إني أُمِرْتُ أنْ أدْعُوَ، وأسْأَلَ اللهَ أنْ يَجْعَلَ صَلاتي ونُسُكي وعِبادَتي لَهُ، لا أُشْرِكُ غَيْرَهُ فيه.

الآية ١٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي وأنا أوَّلُ مَنْ خَضَعَ، وأسْلَمَ بالذي أُمِرْتُ: [أُمِرْتُ][9] أنْ أُبَلِّغَ؛ لأنهُ أُمِرَ بِتَبليغِ ما أُنْزِلَ إليهِ، فيقولُ: أنا أوَّلُ مَنْ أسْلَمَ بالذي أُمِرْتُ بالتَّبليغِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ لا على تَوقيتِ الإسلامِ ولكنْ على سُرْعَةِ الإجابَةِ والطّاعَةِ لَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨] هو على الوَصْفِ بِغايَةِ العِظَمِ لَيسَ على أنَّ بَعْضَها[10] أكْبَرُ وأعْظَمُ، وبَعْضَها أصْغَرُ، ولكنْ كُلُّها أعْظَمُ وأكْبَرُ.

فَعَلَى ذلكَ هذا لَيسَ على وَقْتِ الإسلامِ ولكنْ لِسُرْعَةِ الإجابَةِ والطّاعَةِ لَهُ، [والإسلامُ، واللهُ أعْلَمُ][11]، هو جَعْلُ النَّفْسِ وكُلِّيَّةِ الأشياءِ لِلّهِ سالِمَةً. أي أنا أوَّلُ مَنْ جَعَلَ نَفْسَهُ لِلّهِ سالِمَةً.

الآية ١٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يَحتَمِلُ هذا وَجْهَينِ: يَحتَمِلُ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾

---

(١) الواو ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) من م، في الأصل: لا. (٤) في م: بالدال المنقوطة. (٥) من م، في الأصل: شركا. (٦) في الأصل وم: وغيره. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: قوله. (٨) في الأصل وم: ونفسي بل كله لله لا شريك له. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، في الأصل: بعظها. (١١) في الأصل وم: والله أعلم الإسلام.

جنة السنة

وأنتم[1] تعلمونَ أنْ لا رَبَّ سِواهُ، ويَحتَمِلُ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ سِواهُ، وفي كُلِّ أحَدٍ أثَرُ رُبوبيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ قائمٌ ظاهِرٌ، وفي ما تَدعُونَني إليه أحَدُ آثارِ العُبوديَّةِ والرُّبوبيَّةِ لِلّهِ فيه. فكيفَ أتَّخِذُ رَبًّا سِواهُ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ: يَحتَمِلُ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِنْ سُوءٍ ﴿إِلَّا عَلَيْهَا﴾ لا يَتحمَّلُ ذلكَ غَيْرُهُ عنهُ في الآخِرةِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وكقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤]. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أي لا تَكسِبُ كُلُّ نَفسٍ، لو تُرِكَتْ وما تَختارُ إلّا عليها. لكنَّ اللهَ بِفَضلِهِ يَمنَعُ [بَعْضَ ما][2] تَختارُ على نَفسِها كقولِ يُوسُفَ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣] أخبَرَ أنها كاسِبَةُ السُّوءِ إلّا ما عَصَمَها ربِّي.

وجائزٌ أنْ يكونَ على الإضمارِ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ ولها. ومِثْلُهُ جائزٌ في القرآنِ كقولِهِ تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وهو نَذيرٌ لِقومٍ، بَشيرٌ لِقومٍ آخرينَ؛ نَذيرٌ في حالٍ، وبَشيرٌ في حالٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ هو على الوَعيدِ.

ورُويَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ كانَ إذا كَبَّرَ لِلصَّلاةِ أتبَعَ التَّكبيرَ بِهذهِ الآيةِ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ إلى آخِرِهِ.

وعنْ عليٍّ ﷺ [أنهُ][3] قالَ «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا افْتَتَحَ الصَّلاةَ كبَّرَ، ثم قالَ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾» [الأنعام: ١٦١ و١٦٢]. [أبو داوود ٢٧٩٥] وذُكِرَ أنهُ كانَ يَدعُو دُعاءً طويلاً.

ورُويَ عن عائشةَ وأبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ أنهما قالا: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا افْتَتَحَ الصَّلاةَ رَفَعَ يَدَيهِ حِذاءَ مَنْكِبَيهِ، ثم يقولُ: سُبْحانَكَ اللهمَّ، وبِحَمْدِكَ، وتَبارَكَ اسْمُكَ، وتعالى جَدُّكَ، ولا إلهَ غيرُكَ» [أبو داوود ٧٧٦].

فكانَ أبو حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، يَختارُ مِنْ ذلكَ هذا في الفرائضِ.

وكذا رُوِيَ عن عُمَرَ بْنِ الخطابِ ﷺ أنهُ [إذا][4] قامَ إلى الصَّلاةِ كَبَّرَ[5]، ثم قالَ: سُبْحانَكَ اللهمَّ، وبِحَمْدِكَ، وتَبارَكَ اسْمُكَ، وتعالى جَدُّكَ، ولا إلهَ غيرُكَ.

وكانَ أبو يُوسُفَ يَستَحِبُّ أنْ يقولَ بهذهِ الكلماتِ. والكلماتُ التي رَواها عليُّ ابْنُ أبي طالبٍ ﷺ مِنْ غَيرِ إيجابٍ لذلكَ ولا حَظْرٍ لِما سِواهُ.

وكانَ أبو حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، لا يَستَحِبُّ أنْ يَزيدَ في الفرائضِ على ما رُوِيَ عن أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ عن رسولِ اللهِ ﷺ وما رَوَتْ عائشةُ ﷺ عن رسولِ اللهِ ﷺ وما رُوِيَ عن عُمَرَ وعبدِ اللهِ ﷺ. وأمّا في النَّوافِلِ فَلَهُ أنْ يَزيدَ ما شاءَ فيها مِنَ الثَّناءِ والدَّعَواتِ، فيَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما رواهُ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ ﷺ مِنْ فِعْلِ رسولِ اللهِ ﷺ كانَ ذلك في النَّوافِلِ.

الآية ١٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ يَعْني أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ لِيَحذَرُوا تَكذيبَهُ والخِلافَ لَهُ، ويَرْغَبُوا في تَصديقِهِ والمُوافَقةِ لهُ والطاعةِ ليكونَ لَهُمْ بِمَنْ تَقَدَّمَهُمْ عِبْرَةٌ في التَّحذيرِ والتَّرغيبِ، ويكونَ لَهُمْ بِمَنْ تَقدَّمَهُمْ قُدْوَةٌ وعِبْرَةٌ لِيَعرِفُوا صُحْبَةَ رسولِ اللهِ ﷺ أنْ كيفَ يَجِبُ أنْ يَصْحَبُوهُ، ويُعامِلُوهُ مِنَ الإحسانِ إليهِ والتَّعظيمِ لهُ والتَّصديقِ، ويَجتَنِبُوا الإساءةَ إليهِ والتَّكذيبَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ يَعْني البَشَرَ كُلَّهُمْ؛ جَعَلَ بَعْضَهُمْ خلائِفَ بَعْضٍ في الوجودِ وفي الأحوالِ في الحياةِ والمَوتِ والغِنى والفَقْرِ والصِّحةِ والسَّقَمِ وفي العِزِّ والذُّلِّ وفي كلِّ شيءٍ وفي الصِّغَرِ والكِبَرِ ليكونَ لَهُمْ في ذلكَ عِبَراً ودليلاً على مَعْرِفةِ مُنْشِئِهِمْ وخالِقِهِمْ؛ لأنهُ لو أنْشَأَهُمْ جَميعاً مَعاً لم يَعرِفُوا أحوالَ أنْفُسِهِمْ وتَغَيُّرَهُمْ مِنْ حالٍ

---

(١) في الأصل وم: وقد. (٢) في الأصل وم: بعضها وما. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل و م: فكبر.

جنة السنة

[إلى حالٍ][(١)]. ولكنْ أنشأَهُمْ واحداً بَعْدَ واحدٍ وقَرْناً بَعْدَ قَرْنٍ لِيَعْرِفُوا أحوالَ أنْفُسِهِمْ وانتِقالَهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ لِيَعْرِفُوا أنَّ مُنْشِئَهُمْ واحدٌ، ولأنهُمْ لو كانُوا جَميعاً مَعاً لم يَعْرِفُوا مَبادِئَ أحوالِهِمْ مِنْ حالِ نُطْفَةٍ ثمَ من عَلَقَةٍ ثم مِنْ مُضْغَةٍ ثم مِنْ حالِ الصِّغَرِ إلى حالِ الكِبَرِ. وكذلكَ هذا في جَميعِ الأحوالِ مِنَ الغِنى والفَقْرِ والصِّحَةِ والسَّقَمِ. ولو [كانُوا كُلُّهُمْ][(٢)] على حالةٍ واحدةٍ لم يَعْرِفُوا ذلكَ. لكنْ جَعَلَ بَعْضَهُمْ خَلائِفَ بَعْضٍ لِيَدُلَّهُمْ على ما ذَكَرْنا.

ويَحْتَمِلُ ما قالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ إنهُمْ صارُوا خُلَفَ الجانِّ.

[وبَعْدُ][(٣)] فالأوَّلُ يكونُ في بَيانِ صُحْبَةِ رسولِ اللهِ ﷺ، والثاني في بَيانِ وحدانيةِ الرَّبِّ ﷻ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ يَحْتَمِلُ هذا في الأحوالِ، ويَحْتَمِلُ في الخِلْقَةِ؛ جَعَلَ لِبَعْضٍ فضائِلَ ودَرَجاتٍ على بَعْضٍ، وجَعَلَ بَعْضاً فَوقَ بَعْضٍ بِدرَجاتٍ في الدنيا لِيَكْتَسِبُوا لأنْفُسِهِمْ في الآخِرَةِ الدَّرجاتِ والفَضائِلَ على ما رَغِبُوا في الدنيا في فضائِلِ الخِلْقَةِ ودَرَجاتِ بَعْضٍ فوقَ بَعْضٍ، ونَفَرُوا عَنِ الدُّونِ مِنْ ذلكَ، لِيُرَغِّبَهُمْ ذلكَ في اكْتِسابِ الدَّرَجاتِ في الآخِرَةِ، ويُنَفِّرَهُمْ عنِ اكْتِسابِ ما يَنْفُرُونَ عنهُ في الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ مِنَ الأحوالِ المُخْتَلِفَةِ مِنَ الفَقْرِ والغِنى والسَّقَمِ والصِّحَةِ والصِّغَرِ والكِبَرِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأحوالِ. ويَحْتَمِلُ ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ مِنَ النِّعَمِ أي لِيَبْلُوَكُمْ بالشُّكْرِ على ما آتاكُمْ مِنَ النِّعَمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هو إخبارٌ عَنْ سُرْعَةِ إتيانِ العذابِ؛ لأنَّ كُلَّ آتٍ قريبٌ، كأنْ قد جاءَ، وكقولِهِ تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] [وكقولِهِ تعالى][(٤)]: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] [وكقولِهِ تعالى][(٥)]: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] ونَحْوُهُ أنهُ إذا كانَ آتٍ، لا مَحالَةَ، جَعَلَ كأنْ قد جاءَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ذلكَ إنباءٌ عنْ شِدَّةِ عذابِهِ لِمَنْ عَصاهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قِيلَ: يَبْتَلِي المُوسِرَ في حالِ الغِنى والصَّحِيحَ في حالِ صِحَّتِهِ،/ ١٦٨ ـ أ/ ويَبْتَلِي الفَقِيرَ في حالِ فَقْرِهِ والمَرِيضَ في حالِ مَرَضِهِ.

والابْتِلاءُ مِنَ اللهِ تعالى على وجهَينِ: إمّا أمْرٌ[(٦)] بالشُّكْرِ على ما أنْعَمَ [وإمّا صَبْرٌ][(٧)] على ما ابْتَلاهُ بالشدائِدِ. والابْتِلاءُ منهُ هو ما بَيَّنَ السَّبِيلَينِ جَميعاً سَبِيلَ الحَقِّ وسَبِيلَ الباطِلِ، وبَيَّنَ أنَّ كُلَّ سَبِيلٍ إلى ماذا أفْضاهُ لو سلَكَهُ؛ لو سَلَكَ سَبِيلَ الحَقِّ أفضاهُ إلى النِّعَمِ الباقِيَةِ والسُّرُورِ الدائِمِ، وإنْ سَلَكَ سَبِيلَ الباطِلِ أفْضاهُ إلى عذابٍ شديدٍ وحُزْنٍ دائمٍ. ثم خَيَّرَهُ بَيْنَ هذَينِ. فهو مَعْنَى الابْتِلاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِلْمُؤمِنِينَ. وقد ذَكَرْنا. [والحمدُ لِلّهِ ربِّ العالمينَ][(٨)].

---

(١) من م: ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: كان كله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: أمراً. (٧) في الأصل وم: أو صبراً. (٨) ساقطة من م.

جنة السنة

سورة الأعراف

[مئتان وست آيات: مكية][١]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ العَليمِ بِخَلقِهِ اللَّطيفِ لِرُشدِ عِبادِهِ، ضَرَبَ لَهُمُ الآياتِ والبيانَ لِيَنقُلَهُمْ بِحِكْمَتِهِ وتَدبيرِهِ مِنَ الجَهالةِ إلى العِلْمِ ومِنَ الضَّلالَةِ إلى الهُدَى، وَوَصَّى به[رسولَهُ أن يَدْعُوَ عِبادَهُ إلى سَبيلِهِ بالحِكْمَةِ والمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ، فَبَعَثَ محمداً][٢] ﷺ إلى الناسِ كافَّةً، وأنزَلَ[٣] إليهِ الكتابَ، تَلا فيهِ ما في الكُتُبِ الأُولَى لِيُبَيِّنَ لأَهْلِ الكتابِ والمُشرِكِينَ أنَّ النَّبيَّ الأُميَّ العَرَبيَّ لم يَعْلَمْ [ما][٤] في الكُتُبِ الأعجَمِيَّةِ إلّا مِنْ عندِ اللهِ ليكونَ ذلكَ أوضَحَ لَهُمْ في الحُجَّةِ.

وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ، قَبْلَ الرسالةِ معروفاً عند الفَريقَينِ أنهُ لم يَتْلُ كِتاباً، ولا خَطَّهُ بِيَمينِهِ، ولا كانَ عندَهُمْ مِنْ شُعَرائِهِمْ ولا[مِنَ العارفِينَ][٥] بأنسابِهِمْ وعِلْمِ أنبائِهِمْ، وذلكَ أبْلَغُ في البرهانِ، فأنْبَأهُ [اللهُ][٦] فيهِ عِلْمَ الغُيوبِ وفَرْضَ الفرائِضِ، وحَكَمَ فيهِ الأحكامَ، وأنزَلَ فيهِ الحُجَجَ بِتَأليفٍ، يَعْجِزُ[٧] عنهُ مَنْ دُونَ اللهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ.

فأنِفَ قومُهُ، وأبَوا أنْ يَسْمَعُوهُ، واستَكْبَرُوا عليهِ، وقالُوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، و[قالوا][٨]: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فأتاهُمُ العَليمُ الخَبيرُ مِنْ قِبَلِ أنفُسِهِمْ وكِبَرِهِمْ، فأنزَلَ في الكتابِ كلاماً افْتَتَحَ بِه السورةَ، لم يكُنْ مِنْ كلامِ قومِهِ. فلمّا سَمِعُوا ظَنُّوا أنهُ بَديعٌ ابْتَدَعَ محمدٌ كابْتِداعِهِمُ البَلاغاتِ والأوابِدَ، وأيْقَنُوا أنْ يكونَ محمدٌ يَقْدِرُ مِنْ ذلكَ على ما لا يَقْدِرُونَ، فَتَدَبَّرُوا الكتابَ لِيَعْلَمُوا صُدُورَهُ بما بَعْدَهُ مِنَ الكلامِ، فَسَمِعُوا كلاماً مَجيداً حَكيماً، وبِناءً عظيماً وحُجَجاً نَيِّرَةً ومَواعِظَ شافِيَةً، فَدَخَلَ أكثَرُهُمْ في الإسلامِ، وقَعَدَ عَنْهُ رجلانِ: مُعانِدٌ مُتَعَمِّدٌ وجاهِلٌ مُقَلِّدٌ، لا يَنْظُرُ.

وفي ما أنزَلَ مِمّا وَصَفَ: [قولُهُ][٩] ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١] وقولُهُ[١٠]: ﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء: ١]وقولُهُ[١١]: ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١] وقولُهُ[١٢]: ﴿الٓمٓرٰ﴾ [الرعد: ١] وما أشبَهَها.

الآيتان ١و٢ قالَ[١٣]: ﴿الٓمٓصٓ﴾ لِتَعطِفَ بها على النَّظَرِ في ما بَعْدَها، ثم ابْتَدَأ، فقالَ: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يَقولُ: كتابٌ مِنْ ربِّكَ ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ عبادَهُ ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ يقولُ: فلا يَضِيقَنَّ صَدْرُكَ عنِ الذي فَرَضَ اللهُ عليكَ فيهِ مِنَ البَلاغِ إلى قومِكَ وبما فَرَضَ عليكَ مِنَ البَراءةِ مِنْهُمْ ومِمّا يَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللهِ.

فكانَ الرسولُ ﷺ، يَخافُ ما خافَتِ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ؛ فقالَ مُوسَى: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]وقد كان يَعرِفُ قومَهُ بالتَّسَرُّعِ إلى القَتْلِ في ما لَيسَ مِثْلَ ما يأتيهِمْ بهِ. فأمَّنَهُ اللهُ مِنْهُمْ بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وقالَ في آخِرِ هذِهِ السورةِ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الآية: ١٩٥] يَفْهَمُونَها عنِ اللهِ بأنها[١٤] مِنْ أعظَمِ آياتِ اللهِ لرسولِهِ ﷺ أعْلَمَهُ أنهُمْ لا يَصِلُونَ إلى ما يَخافُ مِنْهُمْ.

وفي الأثَرِ أنَّ اللهَ تعالى لمّا أرْسَلَهُ إلى قومِهِ قالَ[١٥]: إي ربِّ إذا شَعَلُوا رأسي يَذْرونَهُ[١٦] مِثْلَ خُبْزِهِ، فَأمَّنَهُ اللهُ تعالى

---

(١) في م: قيل: إنها مكية. (٢) من م، في الأصل: رسول. (٣) من م، في الأصل: ولو أنزل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: المعروف. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يعجزه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: فقال. (١٤) في الأصل وم: فإنها. (١٥) في الأصل وم: فقال. (١٦) في الأصل وم: فيذرونه.

جنة السنة

منْ ذلكَ، فقال: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ منَ البَلاغِ، ولا يَضيقَنَّ صَدْرُكَ عمّا فَرَضَ اللهُ عليكَ مِنَ العِبادَةِ والحُكْمِ الذي تُخالِفُ فيهِ قومَكَ.

ثم وَصَفَ الكتابَ، فقالَ: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقولُ: يَتَذَكَّرونَ ما[1] فيه، ويَتَدَبَّرونَهُ، فَيَعْلَمُونَ بِهِ الحَقَّ مِنَ الباطِلِ، ويَذكُرونَ بِهِ ما فَرَضَ عليهِمْ.

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ هذِهِ الحُروفُ المُقَطَّعَةُ خِطاباً، خاطَبَ اللهُ بها رُسُلَهُ، يَفْهَمُونَها، ولا يَفْهَمُها[2] غَيْرُهُمْ على ما يكونُ لِمُلوكِ الأرضِ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ خواصِّهِمْ [إشاراتٌ يَفْهَمُها خواصُّهُمْ][3] ولا يَفْهَمُها غَيْرُهُمْ. هذا مُتعارَفٌ في ما بَيْنَ الخَلْقِ أنْ يكونَ لَهُمْ في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ خواصِّهِمْ ما ذَكَرْنا. فَعَلى ذلكَ يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ هذِهِ الحروفُ المُقَطَّعَةُ خِطاباتٍ مِنَ اللهِ تعالى، خاطَبَ بها رُسُلَهُ، وهُمْ خَواصُّهُ؛ يَفْهَمُونها، ولا يَفْهَمُها[4] غَيْرُهُمْ.

ثم وَجْهُ فَهْمِهِمْ لِوَجْهَيْنِ[5]: يُخْبِرُهُمْ، فيقولُ: إني[6] إذا أنْزَلْتُ إليكُمْ كذا فَمُرادي مِنْ ذلك كذا، أو كانَ البَيانُ والمُرادُ مِنْها مَقْروناً بِها وَقْتَ إنْزالِها فَهِمُوا المُرادَ منها بِما أفْهَمَهُ اللهُ، وأراهُمْ ما لَمْ يَرَ ذلكَ غَيْرُهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] أرَى رُسُلَهُ شيئاً لم يُرِ ذلك غَيْرَهُمْ ولا أطْلَعَهُمْ على ذلكَ؛ فَهُوَ[7] مِنَ المُتَشابِهِ [على غَيْرِهِمْ، وأمّا على الرُّسُلِ فَلَيسَ مِنَ المُتَشابِهِ][8].

وقالَ الفَرّاءُ: يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ هذِهِ الحُروفُ المُقَطَّعَةُ المُتَفَرِّقَةُ التي أنْزَلَها اللهُ مِنْ: أ ب ت ث إلى آخِرِها، كأنَّهُ قالَ: إني جَمَعْتُ هذِهِ الحُروفَ المُتَفَرِّقَةَ، فَجَعَلْتُها كتاباً، فأنْزَلْتُها مِنْ نَحْوِ ﴿الٓمٓصٓ﴾ [الأعراف: ١] و﴿الٓمٓ﴾ ﴿ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١، ٢] و﴿الٓمٓ﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢] و ﴿الٓمٓر﴾ [الرعد: ١] ونَحْوِهِ، واللهُ أعْلَمُ بِما أرادَ بِهِ. ذلك، وقد ذَكَرْنا هذا في صَدْرِ الكتابِ مِقْدارَ ما حَفِظْنا، وفَهِمْنا مِنْ أقاويلِ أهلِ العِلْمِ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ قِيلَ: الحَرَجُ هو الضِّيقُ في الصَّدْرِ. [ثم يَحْتَمِلُ ضِيقُ الصَّدْرِ وُجوهاً][9]: يَحْتَمِلُ ضِيقُ الصَّدْرِ ما يُحَمَّلُ عليهِ مِنَ الشَّدائِدِ والخَطَراتِ بِتَبْليغِهِ إلى الكَفَرَةِ الذينَ نَشَؤوا على الكُفْرِ والشِّرْكِ، وخاصَّةً الفَراعِنَةِ والمُلوكِ الذينَ هَمُّهُمْ[10] القَتْلُ والإهلاكُ لِمَنِ اسْتَقْبَلَهُمْ بالخِلافِ، أو أنْ يُوَسْوِسَ في صُدورِهِمُ الشَّيطانُ أنهُ لَيسَ مِنْ عندِ اللهِ، أو أن يقولَ لَهُمْ[11]: إنهُ مِنْ أساطيرِ الأوَّلينَ على ما قالَ أولئكَ الكَفَرَةُ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ على النَّهْيِ أي لا [يَكُنْ في صَدْرِكَ][12] حرجٌ؛ أي لا يَضيقَنَّ صَدْرُكَ مِمّا حُمِّلَ عليكَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي شَكٌّ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ نَزَلَ. وقد ذَكَرْنا أنَّ العِصْمَةَ لا تَمْنَعُ النَّهْيَ؛ لأنهُ بالنَّهْيِ ما تكونُ عِصْمَتُهُ.

ويَحْتَمِلُ لَيسَ على النَّهْيِ، ولكنْ على ألّا تحْمِلَ على نَفْسِكَ ما فيهِ هَلاكُكَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] لَيسَ على النَّهْيِ، ولكنْ على ألّا تَحْمِلَ على نَفْسِكَ ما فيهِ هَلاكُكَ. فَعَلى ذلكَ هذا، واللهُ أعْلَمُ.

ثم إنَّ اللهَ ﷻ: أمَّنَهُ عمّا كانَ يَخافُ مِنْ هؤلاءِ بقولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وأمَّنَهُ مِنْ وَساوِسِ الشَّيطانِ على مارُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ قِيلَ [لَهُ][13]: «ألَكَ شيطانٌ؟ فقالَ: كانَ ولكِنْ أُعِنْتُ عليهِ، فأسْلَمَ» [بنحوه مسلم ٢٨١٥] أمَّنَ ﷺ رَسُولَهُ عَنْ ذلكَ كلِّهِ لِما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل وم: بما. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: يفهمون. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: يكون. (٦) من م، في الأصل: إلى. (٧) في الأصل وم: فهم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: وجوها يحتمل ضيق الصدر. (١٠) في الأصل: وم: همتهم. (١١) في الأصل وم: له. (١٢) في الأصل وم: يكون في درك. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ يَحتمِلُ أنهُ أمَرَهُ أنْ يُنذِرَ بِهِ الكَفَرَةَ، ويُبَشِّرَ المؤمِنِينَ كقولِهِ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢] فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ الكَفَرَةَ ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بُشْرَى على ما ذَكَرْنا. ويكونُ في الإنذارِ بُشرَى؛ لأنهُ إذا أُنذِرَ، فَقَبِلَ الإنذارَ، فهو بُشرَى.

ويَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ الكُلَّ[الموافِقَ][1] والمُخالِفَ جميعاً كقولِهِ تعالى: ﴿لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الذي يَنتَفِعُ بهِ المؤمنونَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾ الآية. لا تَتَّبِعُوا أولياءَ في التَّحليلِ والتَّحريمِ وفي الأمرِ والنَّهيِ؛ لأنهُ لَيسَ إلى الخَلْقِ التَّحليلُ والتَّحريمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أمَرَ المُؤمِنِينَ أنْ يَتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليهِم مِنْ رَبِّهِم على[ما][2] أمَرَ رسولَهُ أنْ يَتَّبِعَ ما أُنزِلَ إليهِ مِنْ رَبِّهِ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦] لِيُعْلَمَ أنَّ ما أُنزِلَ إلى رسولِ اللهِ/ ١٦٨ ـ ب/ هو مُنْزَلٌ إلى المُؤمنينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في ما ذُكِرَ، وما يَحِلُّ، وما يَحرُمُ، وما يُؤمَرُ، [وما][3] يُنهَى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ قِيلَ: أرباباً؛ أي ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ في ما يُحِلُّونَ، ويُحَرِّمُونَ، ويأمُرونَ، وينهَونَ؛ أي إنما عليهِمُ اتِّباعُ ما حَرَّمَ عليهِمْ واستِحلالُ ما أَحَلَّ لهُمْ، و أمّا إنشاءُ التَّحليلِ والتَّحريمِ فَلا.

وقالَ بَعضُ أهلِ التأويلِ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ الأصنامُ والأوثانُ. ولكنْ لا يُحتَمَلُ ههُنا. ولكنْ ما ذَكَرْنا أنهُمْ كانُوا يَتَّبِعونَ عُظَماءَهُمْ في التَّحليلِ والتَّحريمِ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وكانُوا لا يَتَّخِذُونَ أُولئكَ الأحبارَ أرباباً في الحَقيقَةِ، ولكنْ كانُوا يَتَّبِعُونَهُمْ في ما يُحِلُّونَ ويُحَرِّمُونَ، ويُصْدِرُونَ[4] آراءَهُمْ، فَسُمُّوا بذلكَ بِشِدَّةِ اتِّباعِهِمْ أولياءَ في التَّحليلِ والتَّحريمِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قالَ أهلُ التَّأويلِ: يَعْني بالقَليلِ المؤمِنينَ. ولكنْ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي لا يَتَذَكَّرُونَ رَأساً؛ لأنَّ الخِطابَ جَرَى فيهِ لِأولئكَ الكَفَرَةِ، وفيهِمْ نَزَلَتِ الآيَةُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ قالَ أهلُ التَّأويلِ: كانَ يُخَوِّفُ أهلَ مكةَ بِتكذيبِهِمُ الرسولَ بإهلاكِهِ الأُمَمَ الخالِيَةَ بِتكذيبِهِمُ الرسولَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ بِتكذيبِهِمُ الرُّسُلَ. فأنتُمْ يا أهلَ مَكَّةَ تهلَكُونَ بِتكذيبِكُمْ[5] الرسولَ. وإنْ كانُوا لا يَعْرِفونَ هُمْ إهلاكَ الأُمَمِ الماضِيَةِ أنهُ إنما أُهلِكُوا بِتكذيبِهِمُ الرُّسُلَ غيرَ أنهُمْ، وإنْ كانُوا لا يَعْرِفونَ هُمْ ذلكَ بأنفُسِهِمْ لِما لَيسَ عندَهُمْ كتابٌ، لكنْ يَصِلُونَ إلى عِلْمِ ذلكَ بِمَنْ عِندَهُمُ الكُتُبُ، وهُمْ[أهلُ][6] الكتابِ، فَتَلْزَمُهُمُ الحُجَّةُ كالعَجَمِ، وإنْ كانُوا لا يَعْرِفونَ الكتابَ الذي أُنزِلَ بِلِسانِ العَرَبِ فإنَّ الحُجَّةَ تَلْزَمُهُمْ بذلكَ لِما كانَ لَهُمْ سَبيلُ الوُصولِ إلى عِلْمِ ذلكَ بالعَرَبِ. فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ، وإنْ لم يَكُنْ عندَهُمْ عِلْمٌ بإهلاكِ هؤلاءِ تَلْزَمُهُمُ[7] الحُجَّةُ بإعلامِ أهلِ الكتابِ إياهُمْ.

وفي الآيَةِ دلالَةُ إثباتِ رسالَةِ محمدٍ ﷺ، لأنهُ أخبَرَ عن[8] إهلاكِ الأممِ الخالِيَةِ بتكذيبِهِمُ الرُّسُلَ، وهو لم يَنْظُرْ في كُتُبِهِمْ، ولا اختَلَفَ إليهِمْ لِيُعْلِمُوهُ عن ذلكَ، ثم أخبَرَهُمْ بذلكَ. فَدَلَّ أنه إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ ﷻ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا﴾ قالَ أبو بكرٍ الكَيسانِيُّ[9]: البأسُ هو كلُّ أمرٍ مُعْضِلٍ شديدٍ مِنَ المَرَضِ والحَرَجِ وغَيرِهِ، ويقولُ: رُوِيَ[عن][10] عُمَرَ لَمّا طُعِنَ قِيلَ لهُ: لا بأسَ عليكَ، فقالَ: إنْ كانَ في القَتْلِ بأسٌ ففي[11] ذلكَ.

وأمّا غَيرُهُ مِنْ أهلِ التَّأويلِ فَقالُوا: البأسُ العذابُ، و بأسُنا عذابُنا.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: ويعبدون. (٥) في الأصل وم: بتكذيبهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فتلزمهم. (٨) في الأصل وم: على. (٩) من م، في الأصل: الكسائي. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: في.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ البياتُ بالليلِ، والقَيلُولَةُ بالنهارِ[عند الظَّهيرةِ][١]، وهما وَقتا الغَفلَةِ أو وَقتا الأمنِ. أخبَرَ أنهُ إنما يأتيهِمْ عذابُهُ في حالِ الغَفلَةِ أو في حالِ الأمنِ لِئلا يكونُوا غافِلِينَ عن أمرِهِ، ولا يكونُوا آمِنِينَ عذابَهُ

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ﴾ أي ما كان دَعْواهُمْ قَبْلَ نُزولِ العذابِ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ نَحنُ على الحَقِّ، وإنَّ غَيرَهُمْ على الباطِلِ. فإذا جاءَهُم بأسُنا اعتَرَفُوا بِظُلْمِهِمْ بِقولِهِمْ [٢] ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

وقالَ بَعضُهُمْ ﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ حِينَ نُزولِ العذابِ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ يَذكُرُ في الآيةِ أنهُ يَسألُهُم جميعاً: الرُّسُلَ والمُرْسَلَ إليهِمْ.[٣]. وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ولكنْ قولُهُ تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٣٩] أي لا يُسأَلُ عمّا فَعَلَ وعنْ نَفسٍ ما ارتَكَبَ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ [غافر: ٨٤]. ما أذنَبتَ؟ وما فَعَلتَ؟ ولكنْ يُسأَلُ: لِماذا فَعَلتَ؟ يُسأَلُ عنِ الحُجَّةِ: لِمَ أذنَبتَ؟ ولِمَ فَعَلتَ ذا؟ أو يُسأَلُ في وَقتٍ، ولا يُسأَلُ في وَقتٍ.

وقالَ بَعضُهُمْ ﴿لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ غَيرُهُ، وإنما يُسأَلُ صاحِبُهُ وفاعِلُهُ.

يُخبِرُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ الآخِرَةَ على خِلافِ أمرِ الدنيا؛ لأنَّ في الدنيا قد يُؤاخَذُ غَيرٌ بِذَنبِ آخَرَ، ربما، ويُسأَلُ إحضارَ قَريبِهِ، وأمّا في الآخِرَةِ فإنهُ لا يُؤاخَذُ غَيرٌ بِذَنبِ آخَرَ، كذلكَ كانَ ما ذَكَرْنا. أو أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّا يُسۡـَٔلُ﴾ عمّا أظهَرَ، وأبدَى، ولكنْ يُسأَلُ عمّا أسَرَّ، وأخفى؛ لأنَّ الملائكةَ قد يَكتُبونَ ما أبدَوهُ، وأظهَرُوهُ، كقولِهِ تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨] فَيَقَعُ السُّؤالُ عمّا أسَرُّوا على التَّقريرِ، ولا يُسأَلُ بَعدَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ قالَ بَعضُ أهلِ التأويلِ: يَسأَلُ الرُّسُلَ عن تَبليغِ الرِّسالَةِ إلى الأُمَمِ، ويَسأَلُ قومَهُمْ: هل بَلَّغَ الرُّسُلُ إليهِمُ الرِّسالَةَ؟ ويكونُ سؤالُهُ[٤] الرُّسُلَ سؤالَ شَهادةٍ كقولِهِ تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الآية [١٤٣] [أنهم قد بَلَّغُوا][٥] الرِّسالَةَ.

وقالَ بَعضُهُمْ: يَسأَلُ الملائكةَ عن تَبليغِ الرِّسالَةِ إلى الأنبياءِ، ويَسأَلُ الأنبياءَ ﷺ عن تَبليغِ الملائكةِ إليهِمْ. وأمكَنَ أنْ يكونَ السؤالُ[٦] لِلرُّسُلِ عمّا أُجِيبُوا، وكانَ سُؤالُ الأُمَمِ عمّا أجابُوا الرُّسُلَ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٩] وقولِهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]. أو يكونُ سؤالُ القومِ سؤالَ تقريرٍ عندَهُمْ وإقرارٍ لِما كانُوا يُنكِرونَ التَّبليغَ إليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة: ١١٦] هذا السُّؤالُ سُؤالُ تقريرٍ وتَعييرٍ، لا غَيرُ؛ لأنهُ كانَ يَعلَمُ أنهُ لم يَكُنْ قالَ لَهُمْ ذلكَ، لكنّهُ يَسأَلُهُمْ سُؤالَ تَقريرٍ لِيُقِرُّوا بذلكَ لِئلّا يَقولُوا: هو قالَ لَهُمْ ذلكَ؛ لأنهُمْ قالُوا: عِيسَى هو الذي قالَ لهمْ ذلكَ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عن عَمَلِهِمْ وصَنيعِهِمْ. ولكنْ يُسأَلُونَ لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

يُشبِهُ أنْ يكونَ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ ذَكَرَ هذا لِما يَحتَمِلُ أنْ يُظَنَّ بهِ الخَفاءُ عليهِ لِما ذَكَرَ مِنَ المَسألَةِ لَهُمْ والسُّؤالِ، وهو الاستِخبارُ عمّا يُسِرُّ، ويُضمِرُ، لِيُظهِرَ ذلكَ.

هذا هو مَعنَى السُّؤالِ في الشاهِدِ والاستِخبارِ. فأخبَرَ ﷻ، بقولِهِ تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ﴾ على أنَّ سُؤالَهُ لَيسَ بِسُؤالِ استِخبارٍ واستِظهارٍ لَهُ، ولكنْ سُؤالُ تَوبيخٍ وتَقريرٍ أو سؤالُ شهادةٍ.

---

(١) من م، في الأصل: هذا الظهرة. (٢) في الأصل وم: كقوله. (٣) في الأصل وم: عليهم. (٤) في الأصل وم: سؤالهم. (٥) في الأصل وم: أنه قد بلغ. (٦) ساقطة من م.

جنة السنة

وعلى هذا يُخرَّجُ الابتلاءُ منهُ والامتِحانُ لِتقريرِ الأمرِ والنَّهيِ لا لإظهارِ شيءٍ خَفِيَ عليهِ، وإنْ كانَ في الشاهِدِ يكونُ لذلكَ، أو أنْ يَصِيرَ ما قد خفِيَ عليهِمْ بادِياً ظاهراً عندَهُمْ، فَسُمِّيَ ذلكَ الأمْرُ منهُ والنَّهيُ ابْتِلاءً وامْتِحاناً لِما [هو][1] عند الخَلْقِ ابْتِلاءٌ وامْتِحانٌ، وإنْ كانَ عندَ اللهِ لا يَحْتَمِلُ ذلكَ، فَسُمِّيَ بالذي في ما بَيْنَهُمْ، واللهُ أعلمُ.

الآيتان ٨ و٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ كذا قالَ الحَسَنُ: يكونُ ميزانٌ[2] لهُ كِفَّتانِ، يُوزَنُ فيهِ الحَسَناتُ والسَّيِّئاتُ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ دَخَلَ الجنَّةَ، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ دَخلَ النارَ. وقالَ غَيْرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ: يُرِيد بالمَوازينِ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ نَفْسَها؛ فَمَنْ رَجَحَتْ حَسَناتُهُ على سَيِّئاتِهِ دَخلَ الجنَّةَ، ومَنْ رَجَحَتْ سَيِّئاتُهُ على حَسَناتِهِ دَخلَ النارَ.

[إلى هذا][3] ذَهَبَ أكثرُ أهلِ التأويل. ولا يَحْتَمِلُ ما قالوا. أمّا قولُ الحَسَنِ: ميزانٌ لهُ كِفَّتانِ يُوزَنُ فيه الحَسَناتُ والسَّيِّئاتُ فلا[4] يَحْتَمِلُ، لأنهُ قالَ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ إذا[ثَقُلَتْ إحدى الكِفَّتَيْنِ][5] خَفَّتِ الأخرى، وإذا خفَّتْ إحداهُما ثَقُلَتِ الأخرى. فَكُلُّ واحدٍ مِنْهُما مِمَّنْ[6] تَثْقُلُ مَوازينُهُ، وتَخِفُّ، وقد أخبرَ في الآيةِ أنَّ مَنْ ﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾.

ولا يَحْتَمِلُ أيضاً ما قالَ غيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ: إنهُ أرادَ بالموازينِ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ، لأنَّ الآيةَ في المؤمنينَ والكافِرينَ؛ فلا سَيِّئةَ تَرْجُحُ في المؤمنِ معَ إيمانِهِ، ولا حَسَنَةَ تَرْجُحُ في الكافرِ مَعَ شِرْكِهِ إلّا أنْ يُقالَ: المؤمنُ[7] تُوزَنُ حَسَناتُهُ، وتُقابَلُ بِسَيِّئاتِهِ دونَ إيمانِهِ. وكذلكَ/ ١٦٩ ـ أ/ الكافرُ تُقابَلُ سَيِّئاتُهُ بِحَسَناتِهِ دونَ الشِّرْكِ؛[تَذْهَبُ حَسَناتُ الكُفّارِ][8] التي كانَتْ لَهُمْ في الدنيا بما أنْعَمَ عليهِمْ في الدنيا. وأمّا المؤمنُ فَيُتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِ، ويُتَقَبَّلُ عنهُ[9] أحْسَنُ ما عَمِلَ لِقولِهِ[10] تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنَ الميزانِ هو الكتابَ الذي ذُكِرَ في [آياتٍ أُخَرَ كقولِهِ][11] تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ٧ و٨ و١٠] وكما[12] قالَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩ و٢٥].

وقالَ بَعْضُهُمْ: الوَزْنُ العَدْلُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] لم يَقُلْ: ونَضَعُ الموازينَ بالقِسْطِ، ولكنْ قالَ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ والقِسْطُ هو العَدْلُ، فهو إخبارٌ عنِ العَدْلِ أنهُ يَعْدِلُ بَيْنَهُمْ يومَئِذٍ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ أي الجزاءُ يومئذٍ الحَقُّ؛ يَجْزي للطاعةِ الحَسَنَةَ والثوابَ ولِلسَّيِّئةِ [العقابَ والعذابَ][13]؛ فهو حَقٌّ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ أي الطاعةُ، حَقُّ كلِّ مُطيعٍ يومئذٍ، فهو حقٌّ؛ ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الوزنُ الحُدودَ والتقديرَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩] أي محدودٍ فَعَلَى ذلك قولُهُ: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ أي الحَدُّ يومَئِذٍ الحَقُّ، لا يُزادُ على السَّيِّئاتِ، ولا يُنْقَصُ مِنَ الحَسَناتِ التي عَمِلُوا في الدنيا، واللهُ أعلمُ بما أرادَ مِنَ الوَزْنِ.

ثم قالَ أهلُ التأويلِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ أي غَبَنُوا؛ وذلكَ أنهُ ما مِنْ أحدٍ مِنْ مُؤمِنٍ وكافرٍ إلّا ولَهُ في الجنَّةِ والنارِ مَنْزِلٌ وأهلٌ؛ فَيَرِثُ المؤمِنُ المَنْزِلَ الذي كانَ للكافِرِ في الجنَّةِ، ويَرِثُ الكافرُ المَنْزِلَ الذي لِلْمؤمنِ في النارِ، فهذا الخُسْرانُ الذي خَسِرُوا. لكنَّ هذا لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى يَجْعَلُ للكافِرِ في الجنَّةِ مَنْزِلاً وأهلاً مَعَ عِلْمِهِ أنهُ لا يُؤمِنُ، ويُخْتَمُ على كُفْرِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل و م: ميزانا. (٣) في الأصل وم: هذا. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ثقل إحدى الكفتان. (٦) في الأصل وم: فمن. (٧) في الأصل وم: إن. (٨) في الأصل وم: فذهب حسناتهم. (٩) في الأصل وم: عنهم. (١٠) في الأصل وم: كقوله. (١١) في الأصل وم: آية أخرى لقوله. (١٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل: وم: عقاب وعذاب.

ويَحتمِلُ الخُسْرانُ الذي ذَكَرَ هو أنهُمْ خَسِرُوا في الدنيا والآخِرَةِ لِما فاتَ عنهُمُ النِّعَمُ التي كانَتْ لهُمْ في الدنيا، ولم يَصِلُوا إلى نَعيمِ الآخِرَةِ، فذلكَ هو الخُسْرانُ المُبينُ في الدنيا والآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ قال الحسنُ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ حُجَجِنا ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ أي يَضَعُونَها في غَيرِ مَوضِعِها؛ وهو ما ذَكَرَ مِنْ ظُلْمِهِمُ الآياتِ؛ لأنَّ الظُّلْمَ وضعُ الشَّيءِ في غيرِ مَوضِعِهِ.

ثم المسألةُ في مَنِ ارْتَكَبَ كلَّ ذنبٍ وكبيرةٍ في حالِ كُفْرِهِ مِنَ الكبائرِ مَغْفوراً مَعْفُوًّا عنهُ غَيْرَ مُؤاخَذٍ بها، ومَنِ ارْتَكَبَ ذلكَ في حالِ إيمانِهِ، وخُتِمَ على الإيمانِ، لم تَعْمَلِ الكبائرُ[١] في تَكْفِيرِه، وكانَ مُؤاخذاً بها[٢]، واللهُ أعْلَمُ، لِوجهَيْنِ:

أحدُهما: أنْ لَيسَ على الكافِرِ [أفعالُ الطاعاتِ نَفْسُها وعَينُها][٣] إنما عليه قبولُ تلكَ [الطاعاتِ][٤]. فإذا أسْلَمَ فقد قَبِلَها، ولم يَكُنْ عليهِ في ذلكَ الوَقْتِ إلّا القبولُ؛ لذلكَ لم يؤاخَذْ بما كانَ منهُ مِنَ الأفعالِ.

وأمّا المؤمِنُ فعليهِ [أفعالُ تلكَ الطاعاتِ نَفْسُها][٥] وتلكَ الأعمالُ، وقد كانَ منهُ القبولُ والتفريطُ في تلكَ الأعمالِ.

والثاني: أنَّ الكافِرَ إذا أسْلَمَ بعدما ارْتَكَبَ مِنَ الكبائرِ لم يُخرِجْ إيمانَهُ، ولا أدْخَلَ فيهِ نَقْصاً، فلا يُؤاخَذُ بما كانَ منهُ لمّا قَدِمَ على ربِّهِ بإيمانٍ كامِلٍ.

وأمّا المؤمنُ إذا ارْتَكَبَ كبائرَ [فما أخرجَ الإيمانَ، ولكنْ][٦] أدْخَلَ النُّقْصانَ بِعَمَلِهِ الذي يُخالِفُ الإيمانَ، ولا يُوافِقُهُ لِذلكَ افْتَرَقا.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ على التَّمْثيلِ، ليسَ على تحقيقِ الثِّقَلِ[٧] والخِفَّةِ، ولكنْ على الوَصْفِ بالعِظَمِ لِأعمالِ المؤمنينَ وبالخِفَّةِ والتَّلاشي لِأعمالِ الكافِرينَ؛ لأنَّ اللهَ ﷻ ضَرَبَ لِأعمالِ المؤمِنِينَ المَثَلَ بالشَّيءِ الثابتِ والطَّيِّبِ، ووصفَ أعمالَهُمْ بالثَّباتِ والقَرارِ فيهِ، وضَرَبَ لِأعمالِ الكافِرِينَ المَثَلَ، وشَبَّهَها بالشَّيءِ التافِهِ، ووصَفَها بالبُطْلانِ والتَّلاشي كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وَصَفَ أعمالَهُمْ بالطِّيبِ والثَّباتِ والقرارِ، وَوَصَفَ أعمالَ الكافِرينَ بالخُبْثِ والتَّلاشي والبُطْلانِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ [إبراهيم: ٢٦] وكقولِهِ[٨] تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ [الأعراف: ٥٨]. وكقولِهِ[٩] تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٣٩] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد: ١٧] ونَحْوُهُ مِنَ الآياتِ وَصْفُ أعمالِ المؤمِنينَ بالثباتِ والقرارِ وأعمالِ الكَفَرَةِ بالذَّهابِ والبطلانِ.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وَصْفٌ بالعِظَمِ والقرارِ والثَّباتِ ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وَصْفٌ بالبُطلانِ والتَّلاشي [حتى لا][١٠] يكونَ لَهُمْ مِنَ الخيراتِ شيءٌ يَنْتَفِعونَ بِهِ[١١] في الآخِرَةِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ ﴿مَكَّنَّٰكُمۡ﴾ أي مَلَّكْناكُمْ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ تتَعَيَّشُونَ بها، يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ ومِنَّتَهُ بما مَلَّكَهُمْ في الأرضِ، وجَعَلَ لَهُمْ مطامِعَ لِيَشْكُروا لَهُ عليها.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿مَكَّنَّٰكُمۡ﴾ أي جَعَلْناكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ عَمَّنْ تَقَدَّمَكُمْ[١٢] بِمكانِهِمْ؛ يُذَكِّرُهُمْ ﷻ، أيضاً نِعَمَهُ عليهِمْ بما جَعَلَهُمْ خُلَفاءَ الأَوَّلِينَ، وجَعَلَ لَهُمْ معايشَ، ويُخَوِّفُهُمْ زَوالَ ذلكَ عنهُمْ بِما صارَ ذلكَ لَهُمْ بِزَوالِها عَنِ الأَوَّلِينَ. [وقولُهُ تعالى: ﴿مَكَّنَّٰكُمۡ﴾][١٣] يُذَكِّرُهُمْ بِما جَعَلَ لَهُمْ مَكانَ القَرارِ ومَوضِعَ الإنْتِشارِ والتَّقَلُّبِ والتَّعَيُّشِ، والبَشَرُ لا بُدَّ لهُ مِنْ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: الإيمان. (٢) في الأصل وم: به. (٣) في الأصل وم: أنفس أفعال الطاعات وأعنيها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أنفس أفعال تلك الطاعات. (٦) في الأصل وم: فقد خرج الإيمان. (٧) في الأصل وم: الميزان. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: وقال. (١٠) في الأصل وم: بها. (١١) في الأصل وم: ألا. (١٢) في الأصل وم: تقدمهم. (١٣) في الأصل وم: وأمكن أن.

جنة السنة

وكُلُّهُ يرجِعُ إلى واحدٍ كقولِهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي جَعَلْنا الحَرَمَ مأمناً لَكُمْ بِحَيثُ تأمَنُونَ فيهِ، وتتَقلَّبُونَ، وتتَعيَّشُونَ فيهِ ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ويُذَكِّرُهُمْ عَظيمَ نِعَمِهِ ومِنَنِهِ التي جَعَلها لَهُمْ.

هذا إذا كان الخِطابُ بِهِ أهلَ مكةَ. وإنْ كانَ الخِطابُ بِهِ الناسَ كافَّةً يُخرَّجُ[1] على تذكيرِ النِّعَمِ لَهُمْ، حَيثُ جَعَلَ الأرضَ لَهُمْ بِحَيثُ يَقِرُّونَ فيها، ويتقلَّبُونَ فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨]

أحَدُها: أنهُمْ كانوا يُقِرُّونَ أنهُ خالِقُهُمْ كقولِهِ تعالى[2]: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١ و..] كانوا يُقِرُّونَ بألوهيَّتِهِ، ويَصرِفونَ العِبادةَ إلى غيرِهِ. فلذلكَ قالَ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

والثاني: أي لا تَشكُرُونَهُ، ولا تَذكُرُونَهُ البَتَّةَ. ويَحتَمِلُ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي [المؤمِنونَ يَشكُرونَ، ولا يَشكُرُ][3] أولئكَ، والمؤمِنُونَ قليلٌ، وهُمْ أكثَرُ.

والثالثُ[4]: أي لَيسَ في وُسْعِهِمُ القِيامُ بِشُكرِ الجَميعِ، فذلكَ الشُّكرُ قليلٌ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [قالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾][5] أرادَ آدَمَ خاصَّةً؛ لأنهُ قالَ: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ أخبَرَ أنهُ أمَرَ[6] المَلائكةَ بالسُّجودِ لآدَمَ بَعدَ الخَلْقِ. ولو كانَ المُرادُ نَحنُ لَكانَ بَعدَ ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ وقد كانَ السجودُ قبلَ ذلكَ.

وقالَ غَيرُهُ: المُرادُ[7] منهُ البَشَرُ كُلُّهُ؛ لأنهُ قالَ: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ ولو كانَ المُرادُ لآدمَ بقولِهِ تعالى: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ خاصَّةً لَكانَ لا يَذكُرُ آدمَ ثانياً. فَدَلَّ [أنهُ][8] أرادَ ذُرِّيَّتَهُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ آدمَ ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ في أرحامِكُمْ. ويَحتَمِلُ ما قالَ الحَسَنُ. ويَحتَمِلُ وجهاً آخَرَ؛ وهو أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي قَدَّرْناكُمْ مِنْ ذلكَ الأصلِ، وهو نَفْسُ آدَمَ؛ لأنَّ الخَلْقَ هو التَّقديرُ كما تَقولُ: أنا خَلَقْتُهُ؛ أي قَدَّرْتُهُ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي قَدَّرْناكُمْ جميعاً مِنْ ذلكَ الأصلِ والكِيانِ. ومنهُ صَوَّرْناكُمْ ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي وقد قُلْنا لِلملائكةِ ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

وقد يقولُ بَعضُ أهلِ الكلامِ: إنَّ النُّطْفَةَ هي إنسانٌ بِقُوَّةٍ، ثم تَصيرُ إنساناً بِفِعْلٍ. ويقولُ بَعْضُهُمْ: هي كِيانُ الإنسانِ. فجائزٌ أنْ يكونَ أضافَ إلى ذلكَ الطِّينِ لِما هو كِيانٌ وأصلٌ لنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قالَ الحَسَنُ: إبليسُ لم يكُنْ مِنَ الملائكةِ/ ١٦٩ ـ ب/ وذلكَ أنَّ اللهَ ﷻ، وصَفَ الملائكةَ جُمْلَةً بالطاعةِ والخُضوعِ بقولِهِ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] وقولِهِ[9]: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وغيرهما[10] مِنَ الآياتِ، ولم يكُنْ من إبليسَ إلا كُلُّ شَرٍّ. وقالَ أيضاً: خُلِقَ الملائكةُ مِنْ نورٍ وإبليسُ من نارٍ، والنارُ لَيسَتْ مِنْ جَوهَرِ النورِ. دلَّ أنهُ لَيسَ مِنَ الملائكةِ.

وقالَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ مِثْلُ هذا يجوزُ أنْ يُقالَ: [في][11] هذهِ الدارِ أهلُ البَصرةِ إلا رَجُلاً[12] من أهلِ الكوفةِ. دلَّ الإسْتِثناءُ: على[13] أن يَدْخُلَ هنالكَ أهلُ الكوفةِ. فَعَلى ذلكَ يَدُلُّ اسْتِثناءُ إبليسَ على أنْ قالَ: هنالكَ أمْرٌ بالسُّجودِ لآدَمَ لِغَيرِ الملائكةِ أيضاً. ولكنْ لَيسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ أنهُ كانَ مِنَ الملائكةِ أو مِنْ غَيرِهِ، إنما علينا أنْ نَعْرِفَ أنهُ عَدُوٌّ لَنا. وقد ذَكَرْنا هذِهِ في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ قِيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥] على ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرَى، ولا زائدةٌ.

---

(١) في الأصل وم: فيخرج. (٢) في الأصل وم: بقوله. (٣) في الأصل: المؤمنين يشكرون ولا يشكر، في م: المؤمنينَ يشكرون ولا يشكروا.
(٤) في الأصل وم: والرابع. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: و. (٧) أدرج قبلها في الأصل: و. (٨) ساقطة من الأصل وم.
(٩) في الأصل: وم: وقال. (١٠) في الأصل وم: غيره. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: رجل. (١٣) في الأصل وم: إلا.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ بِمَ عَلِمَ عَدُوُّ اللهِ أنَّ المَخلوقَ مِنَ النارِ خَيرٌ مِنَ المَخلُوقِ بالطينِ؟ إلّا أن يُقالَ بأنَّ النارَ جُعِلَتْ لِصالحِ الأغذِيَةِ. فَمِن هنا وَقَعَ لهُ ذلكَ أنها خيرٌ مِنَ الطِّينِ، فَيُقالُ: إنَّ النارَ، وإنْ جُعِلَتْ لِإصلاحِ الأغذِيَةِ فالطينُ جُعِلَ لِوُجودِ الأغذيَةِ. فالذي جُعِلَ لِوُجودِ الشَّيءِ هو أنفَعُ وأكبَرُ مِنَ الذي جُعِلَ لِصالِحِهِ، ولَعَلَّ الأغذيَةَ تَصلُحُ لِلأكلِ بِغيرِها بالشَّمسِ وغيرِها. وبَعْدُ فإنَّ الطينَ مِمّا يَقُومُ للنارِ، ويُطيقُها، ويُتلِفُها، والنارَ لا تقومُ للطينِ، ولا تُتلِفُهُ. فإذا كانَ كذلكَ فلا يجوزُ أنْ يَقَعَ مِنْ هذا الوجهِ أنها أفضَلُ وأخيَرُ مِنَ الطينِ.

ثم اختُلِفَ في الجِهَةِ التي كَفَرَ عَدُوُّ اللهِ إبليسُ؛ قال بعضُهُمْ: إنَّ إبليسَ عَدُوَّ اللهِ لم يَرَ لِنَفْسِهِ طاعة بأمرِ السُّجودِ لِآدَمَ. لذلكَ كَفَرَ. وقالَ آخرونَ: إنما كَفَرَ عَدُوُّ اللهِ إبليسُ لِما لَمْ يَرَ الأمْرَ بالخُضوعِ والطاعَةِ مِنْ فَوقِهِ لِمَنْ هو دُونَهُ حِكْمَةً؛ فَكَفَرَ لِما لم يَرَ أنهُ وُضِعَ الأمْرُ بالسُّجودِ مَوضِعَهُ؛ رآه لَعَنَهُ اللهُ، واضعاً أمرَهُ في غَيرِ مَوضِعِه. وقالَ غيرُهُمْ: كَفَرَ عَدُوُّ اللهِ بالاستِكبارِ والتَّكبُّرِ على آدَمَ لِمَعْنًى آخَرَ. وقيلَ: أوَّلُ مَنْ أخطأ في المِقياسِ، وزَلَّ فيهِ إبليسُ، لعَنَهُ اللهُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ اختُلِفَ فيهِ: قال بعضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ يَعْنِي مِنَ السماءِ؛ لأنهُ، لَعَنَهُ اللهُ، كانَ في السماءِ، فَأُمِرَ بالهبوطِ منها لِما جَعَلَ السماءَ مَعْدِناً ومَكاناً للخاضِعِينَ المُتواضِعِينَ، فأُمِرَ بالهبوطِ مِنْها إلى مكانٍ؛ جُعِلَ ذلكَ المكانُ مكانَ الخاضِعِينَ والمُتَكبِّرينَ جَميعاً، وهي الأرضُ؛ إذِ الأرضُ مَعْدِنُ الفريقَينِ جَميعاً.

وقالَ بَعضُهُمْ: الأمْرُ بالهُبوطِ منها أمْرٌ بالخُروجِ مِنَ الأرضِ إلى جَزائِرِ البُحورِ لأنَّ الأرضَ هي قَرارُ أهلِها، وجَزائرُ البُحور لَيسَتْ مَكانَ قرارٍ لِأحدٍ لِيكونَ فيها على الخَوفِ أبداً. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾؟ [الأنبياء: ٣١] والبِحارُ ممّا لا تَميدُ بأهلِها. وأمكَنَ أن يكونَ الأمْرُ بالهبوطِ منها أمراً بالخُروجِ مِنَ الصورةِ التي كانَ فيها إلى صورةٍ أُخرَى لا تُعرَفُ أبداً، ولا تُرَى، عُقُوبَةً لهُ لِتَرْكِهِ أمرَ اللهِ وارتِكابِهِ نَهْيَهُ. ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ في تلكَ الصورةِ وفي تلكَ الأرضِ حتى لا يَقَرَّ أبداً، ويكونَ على خوفٍ أبداً. ويَحتَمِلُ في السماءِ لِما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ وَجْهُ صَغارِهِ أنهُ ما مِنْ أحدٍ ذَكَرَهُ إلّا وقد لَعَنَهُ، ودَعا عليهِ باللَّعنِ، فذلكَ صَغارُهُ. وأمكَنَ أنْ يكونَ صَغارُهُ لِما صَيَّرَهُ بحالٍ يَغيبُ عنِ الأبصارِ، ولا يَقَعُ عليهِ البَصَرُ، أو لِما طَرَدَهُ عن رَحْمَةِ اللهِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ اختُلِفَ فيه: قال بعضُهُمْ: أنظَرَهُ إلى النَّفخَةِ الأولى لِئلا يَذوقَ [المَوتَ][1]، فَتَتَّصِلَ حياةُ الدنيا بحياةِ الآخرةِ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧ و٣٨].

الآية ١٥ وقال بَعضُهُمْ: أنظَرَهُ إلى يومِ البَعْثِ ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ خَرَجَ ذلكَ جواباً لِسؤالِهِ، وما ذَكَرَ مِنَ الوَقتِ المَعلومِ في [الآيةِ الأُخرَى][2] يَجِيءُ أنْ يكونَ هو ذلكَ اليومَ.

وقالَ غَيرُهُمْ[3]: أنظَرَهُ، ولم يُبيِّنْ لَهُ ذلكَ الوَقتَ الذي أنظَرَهُ إلى ذلكَ الوَقتِ، حتى يكونَ أبداً على خَوفٍ وَوَجَلٍ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾؟ [الأنفال: ٤٨] لو كانَ الوَقتُ [الذي][4] أنظَرَهُ مَعلوماً عندَهُ لَكانَ لا يَخافُ الهَلاكَ بدونِ ذلكَ الوَقتِ. دلَّ أنه كانَ غَيرَ مَعلُومٍ عندَهُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ قالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ أي بما لَعَنْتَني. والاغواءُ هو اللَّعنُ كقولِهِ تعالى: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] أي مِنَ المَلعونينَ فَعلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ أي لَعَنْتَني.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: آية أخرى. ولعل المقصود قولُهُ الآنف الذكر [الحجر: ٣٨]. (٣) في الأصل وم: غيره.
(٤) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقال أبو بكرٍ الكَيسانِيُّ[1]: أضافَ الإغواءَ إلى نَفْسِهِ لِما كانَ سَبَبُ ذلكَ منهُ، وهو الأمْرُ الذي أمَرَهُ بالسُّجودِ لآدمَ والخُضوعِ لَهُ. ويجوزُ أنْ يُضافَ مِثْلُ ذلكَ لِما كانَ منهُ السَّبَبُ نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التوبة: ٤٩] سألَ منهُ الإذْنَ بالقُعودِ، ولا تُكلِّفْني بما لا أقومُ، فتَفْتِنِّي بذلكَ. وقالَ: إنما أضافَ ذلكَ إليهِ لِما كانَ منهُ سَبَبُ ذلكَ الافْتِتانِ. فَعَلى ذلكَ هذا.

وقالَ بَعْضُ المُعْتَزِلَةِ: هذا قولُ إبليسَ: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ وقد كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ، لم يُغْوِهِ اللهُ، فَيُقالُ لَهُمْ: فإنْ كانَ إبليسُ عَدُوُّ اللهِ قد كَذَبَ في قولِهِ ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ فَيَقُولُونَ بأنَّ نوحاً، صلواتُ اللهِ عليه، قد كَذَبَ حينَ[2] قالَ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] أضافَ الإغواءَ إليهِ. دلَّ هذا على أنَّ إبليسَ لم يَكْذِبْ بإضافةِ الإغواءِ إلى اللهِ.

ولكنْ عندَنا أنهُ أضافَ الإغواءَ إلى نَفْسِهِ لِما خَلَقَ فيهِ فِعْلَ الغِوايةِ والضَّلالِ على ما ذَكَرْنا في غيرِ موضعٍ لَيسَ كما قالَ هؤلاءِ: إنهُ أُضِيفَ إليهِ لِمكانِ ما كانَ منهُ سَبَبُ ذلكَ، لأنهُ لو جازَ أنْ يُضافَ فِعْلُ الإغواءِ إليهِ لِسَبَبِ الإغواءِ لَجازَ أنْ يُضافَ إلى الرُّسُلِ والأنبياءِ؛ لأنهُ كانَ منهُمُ الأمْرُ لِقومِهِمْ والدعاءُ إلى توحيدِ اللهِ، ثم كَذَّبُوا في ذلكَ، فكانَ سَبَبُ إغواءِ أولئكَ هُمُ الرُّسُلَ. فذلكَ بَعيدٌ، وكذلكَ[لو كانَ][3] الإغواءُ لَكانَ كلُّ لاعِنٍ عليهِ هو[4] مُغْوِيَهِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ أي خذَلْتَني[5]، والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا أنهُ خَلَقَ فيهِ فِعْلَ الغِوايةِ والضَّلالِ، وكذلكَ مِنْ كلِّ كافرٍ: خَذَلَهُ لَمّا عَلِمَ منهُ أنهُ يَخْتارُ الغِوايَةَ والضَّلالَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ لَيسَ على حقيقةِ القُعودِ، ولكنْ على المَنْعِ عنِ السُّلُوكِ في الطَّريقِ، أو على التَّلْبيسِ عليهِمُ الطريقَ المُستقيمَ والسَّتْرِ عليهِمْ؛ لأنَّ مَنْ قَعَدَ في الطريقِ مَنَعَ[6] الناسَ عنِ السلوكِ فيهِ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية. قالَ الحَسَنُ: ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ مِن قِبَلِ الآخرةِ تكذيباً بالبَعْثِ والجنةِ والنارِ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ قالَ: مِنْ قِبَلِ دُنياهُمْ، يُزَيِّنُها لَهُمْ، ويُشَهِّيها إليهِمْ ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ قالَ: مِنْ قِبَلِ الحَسَناتِ يُبَطِّئُهُمْ عنها ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ قالَ: مِنْ قِبَلِ السَّيِّئاتِ؛ يَأْمُرُهُمْ بها، ويَحُثُّهُمْ عليها، ويُزَيِّنُها في أعْيُنِهِمْ.

وعَنْ مُجاهِدٍ ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ [أنهُ][7] قالَ: مِنْ حيثُ يُبْصِرُونَ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ مِنْ حيثُ لا يُبْصِرُونَ. وقيلَ: ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنْ قِبَلِ آخرتِهِمْ فلأُخْبِرَنَّهُمْ أنهُ لا جَنَّةَ ولا نارَ ولا بَعْثَ على ما ذَكَرَ الحَسَنُ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ مِنْ قِبَلِ دُنياهُمْ يَأْمُرُهُمْ بِجَمْعِ الأموالِ فيها لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ ذَراريهِمْ وأُخَوِّفُ عليهِمُ الضَّيعَةَ، فلا يَصِلُونَ في أموالِهِمْ رَحِماً، ولا يُعْطُونَ لها حَقّاً، ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ مِنْ قِبَلِ دينِهِمْ، فأُزَيِّنُ لِكُلِّ قومٍ ما كانوا يَعْبُدُونَ؛ فإنْ كانُوا على ضَلالَةٍ زَيَّنْتُها لَهُمْ، وإنْ كانُوا على هُدىً شَبَّهْتُهُ عليهِمْ حتى أُخْرِجَهُمْ منهُ ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ مِنْ قِبَلِ اللَّذّاتِ والشَّهَواتِ، فأُزَيِّنُها لَهُمْ.

هذا الذي ذَكَرَ أهْلُ التَّأويلِ يَحْتَمِلُ. ثم ذَكَرَ الأمامَ والخَلْفَ وعَنْ أيمانٍ وعَنْ شمائلَ، ولم يَذْكُرْ ما فوقَ ولا تَحْتَ/ ١٧٠ ـ أ/ فَيَحْتَمِلُ أنْ يَدْخُلَ ما فوقُ وما تَحْتُ بِذِكْرِ الأمامِ واليَمينِ والشِّمالِ والخَلْفِ كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩] دَخَلَ ما فوقُ بِذِكْرِ ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ [فَعَلى ذلكَ هذا يَدْخُلُ ما تَحْتُ][8] [وما فوقُ بِذِكْرِ ما ذَكَرَ، فَيَصِيرُ كأنهُ قالَ ﴿لَآتِيَنَّهُم﴾ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

ويَحْتَمِلُ أنهُ لم يَذْكُرْ هذا لِما أنهُ لا سلطانَ لَهُ على مَنْعِ أرزاقِ[9] الخَلْقِ والبَرَكاتِ لأنَّ أرزاقَ الخَلْقِ والبَرَكاتِ مِمّا تَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ مِنَ المَطَرِ، ويَخْرُجُ مِنَ الأرضِ النَّباتُ، فَلَيسَ لَهُ سُلْطانٌ على مَنْعِ إنزالِ المَطَرِ وإخراجِ النَّباتِ مِنَ

(١) في الأصل وم: الكسائي. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: لكان. (٤) في الأصل وم: فهو. (٥) من م، في الأصل: أخذلتني. (٦) من م، في الأصل: مع. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في م: دخل تحت. وقد سقط الكلام بعد كلمة تحت من م: في الورقة التي لم تصور والتي فيها تتمة تفسير هذه الآية وتفسير الآيات التي تليها إلى الآية (٢٣) ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ والتي أولها: وما فوق، وآخرها وقال بعض أهل العلم: إن. انظر الحاشية (٤) ص (٢١٨). (٩) في الأصل: الأرزاق.

جنة السنة

الأرض، ولَهُ سُلْطانٌ على غيرِ ذلكَ، أو لِما يَشْغَلُهُمْ، ويُشَهِّيهِمْ ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ مِنَ اللَّذَّاتِ والشَّهَواتِ لِما إذا رأى شيئاً، أعْجَبَهُ، أتْبَعَ النَّظَرَ إليهِ، واحداً بَعْدَ واحدٍ مِنْ أمامٍ وَوَراءٍ ويَمينٍ وشِمالٍ، ولا كذلكَ مِنْ تَحْتُ ولا مِنْ فوقُ.

أو أنْ يكونَ لِما رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهُ إذا تَلا هَذِهِ الآيةَ قال: اللهُ مَنَعَهُ مِنْ أنْ يأتِيَهُمْ مِنْ فَوقِهِمْ. ولو كانَ ذلكَ لَما نَجا أحَدٌ؛ فأعمالُهُمْ تَصْعَدُ إلى اللهِ، ورَحْمَتُهُ تَنْزِلُ عليهِمْ.

وقالَ قَتادةُ: أتاكَ اللَّعينُ مِنْ كُلِّ نَحْوٍ يا ابْنَ آدَمَ غَيْرَ أنهُ لا يَسْتَطيعُ أنْ يَحُولَ بَيْنَكَ وبَيْنَ رحمةِ ربِّكَ، إنما تأتيكَ الرَّحْمَةُ مِنْ فَوقِكَ. والذي ذَكَرْنا أنهُ على التَّمثيلِ أنهُ يأتيهِ مِنْ كُلِّ جانبٍ أشْبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: لَيسَ على إرادةِ بَيْنِ [أيدٍ][1] وخَلْفٍ وأيمانٍ وشمائلَ، ولكنْ على إرادةِ الجهاتِ كُلِّها. كأنه يَقولُ: لَأٓتِيَنَّهُم مِنْ كُلِّ جِهَةٍ.

والثاني: ما ذَكَرَ الحَسَنُ وأهْلُ التأويلِ: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الآخِرةُ[2] تكذيباً بها ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ الدنيا تَزْييناً بها عليهِمْ ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ الحِسابُ ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ السَّيِّئاتُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ هذا مِنْ عَدُوِّ اللهِ ظَنٌّ ظَنَّهُ لا قالَهُ حَقيقةً. لكنَّ اللهَ عز وجل، [قالَ][3] إنهُ أخْبَرَ أنهُ صَدَّقَ ظَنَّهُ بقولِهِ: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠].

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ يَحْتَمِلُ ﴿مِنۡهَا﴾ مِنَ السَّماءِ، ويَحْتَمِلُ مِنَ الصُّورةِ التي كانَ فيها ما قُلْنا في قولِهِ: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] وقيلَ: الجنةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ قيلَ: ﴿مَذۡءُومٗا﴾ مَلُوماً أي [مَذموماً مَلُوماً][4] عندَ الخَلْقِ جميعاً ﴿مَّدۡحُورٗاۖ﴾ قيلَ: مُقْصًى مُبْعَداً مِنْ كُلِّ خيرٍ. قال أبو عَوْسَجَةَ: [مَذْءوماً واحداً][5] ومَدْحُوراً مُباعَداً مَطْرُوداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أخْبَرَ اللهُ عز وجل، أنه يَمْلأُ جَهَنَّمَ مِنْ إبليسَ ومِمَّنْ تَبِعَهُ، وأطاعَهُ؛ لِأنَّهُمْ يَتْبَعُونَهُ في الكُفْرِ والشِّرْكِ باللهِ.

تَعَلَّقَ الخوارجُ بِظاهِرِ قولِهِ تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ [فقالُوا: كُلُّ][6] مُرْتَكِبِ معصيةٍ تابعٌ لَهُ، لِذلكَ اسْتَوجَبَ الخُلُودَ.

وقالَتِ المُعْتَزِلَةُ: كُلُّ مُرْتَكِبِ كَبيرةٍ بَوَعيدِ هذِهِ الآيةِ؛ لأنهُ تابعٌ لَهُ.

وعندَنا: لَيسَ لَهُمْ في الآيةِ حُجَّةٌ في تَخْليدِ مَنْ ذَكَرُوا في النارِ؛ لأنهُ إنما ذُكِرَتْ على إثْرِ نَقْضِ الدِّينِ ورَدِّ التَّوحيدِ. فكأنهُ قالَ: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ﴾ في نَقْضِ الدِّينِ ورَدِّ التَّوحيدِ ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ كانَ السُّكونُ في مَوضِعٍ مِنَ القَرارِ فيهِ والأمْنِ كقولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ﴾ [القصص: ٧٣] لِتَقِرُّوا فيه، وتأمَنُوا. فقولُهُ تعالى لِآدَمَ: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ اسْكَنَهُما عليه السلام لِيَقِرّا[7] فيها، ويأمَنا[8] مِنْ كُلِّ [ما يُنَغِّصُ عليهما][9] تلكَ النِّعَمَ التي أنْعَمَ عليهما[10] لأنَّ الخوفَ مِمّا يُنَغِّصُ[11] النِّعَمَ، ويَذْهَبُ بِلَذَّتِها.

فلمّا أسْكَنَهُما عليه السلام الجنةَ أمَّنَهُما عنْ ذلكَ كُلِّهِ.

ثم فيهِ أنَّ أوَّلَ المِحْنَةِ والابْتِلاءِ مِنَ اللهِ تعالى لِعِبادِهِ إنما يكونُ بالإنعامِ والإفضالِ عليهِمْ ثم الجَزاءِ والعَدْلِ لِسُوءِ ما

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: الآخر. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: مذموم ملوم. (٥) في الأصل: مذموم واحد.
(٦) من م، في الأصل: وكل من. (٧) في الأصل وم: ليقروا. (٨) في الأصل وم: ويأمنوا. (٩) في الأصل: ينقصهما. (١٠) في الأصل: عليها. (١١) في الأصل: ينقص.

جنة السنة

ارتكبُوا؛ لأنهُ ﷺ امتحنَ آدمَ أولاً بالإفضالِ والإنعام عليهِ حينَ[1] أسجدَ ملائكتهُ لهُ، وأسكنَهُ جنّتهُ، ووسّعَ[2] عليهِ نِعَمَهُ، ثم امتحنَهُ بالشدائدِ وأنواعِ المشقّةِ وجزاءِ ما ارتكبا[3] مِنَ التناوُلِ مِنَ الشّجرةِ التي نَهاهُما[4] عن قُربِها. فهو ما ذكَرْنا أنَّ شرْطَ امتحانِهِ عبادَهُ في الابتداءِ يكونُ بالإفضالِ والإنعامِ ثم بالعَدْلِ والجَزاءِ لِسُوءِ صنيعِهِم.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾؟ [الشورى: ٣٠] أخبرَ أنَّ ما يُصيبُنا هو مِن كَسْبِ أيدينا، وهو جَزاءُ ما كَسَبْنا. وفيهِ وفي غَيرِها مِنَ القَصَصِ [الذي ذَكَرَ][5] دليلُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ ونُبُوّتِهِ؛ لأنهُ أخبَرَ عمّا كانَ مِنْ غَيرِ أنِ اختلَفَ إلى أحدٍ مِمَّن[6] يَعرِفُ ذلكَ، ولا نَظَرَ في الكُتُبِ التي فيها دلَّ أنهُ عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

ثم اختلَفَ أهلُ التأويلِ في الجنّةِ التي أسكَنَ ﷺ آدمَ فيها وزوجَتَهُ؛ قالَ بعضُهُم: هي الجنّةُ التي يكونُ عَودُ أهلِ الإسلامِ إليها في الآخرةِ، ولهُم وَعَدَ ﷺ تلكَ، وقالَ بعضُهُم: هي جنّةٌ أنشأها لآدمَ ليَسكُنَ فيها في السّماءِ، ولكنْ لا نَدري ما تلكَ الجنّةُ؟ وليسَ لنا إلى مَعرِفةِ تلكَ الجنّةِ حاجةٌ، إنما الحاجةُ إلى ما ذُكِرَ مِنَ المِحَنِ.

اختلَفوا أيضاً في الشّجرةِ التي نَهى آدمَ عَن قُربِها: قالَ بعضُهُم: هي شَجرةُ الحِنطةِ، وقد ذكَرْنا أقاويلَ أهلِ التأويلِ واختلافَهُم في صَدْرِ الكتابِ[7] قَدْرَ ما حَفِظْناهُ.

وكذلكَ اختلَفوا في وَسْوَسةِ الشيطانِ لآدمَ وحوّاءَ: أنهُ كيفَ وسوسَ إليهما[8]؟ ومِن أينَ كانَ؟ وهذا أيضاً قد ذكَرْناهُ في تلكَ القِصّةِ. والحسَنُ يقولُ: إنما وَسْوَسَ إليهما مِنَ الدنيا لا [حينَ كانا في][9] الجنّةِ. وقالَ بعضُهُم: وَسْوَسَ إليهما: مِن رأسِ الحيّةِ ومِن فيها يُكلّمُهُما[10].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾لم يُرِدْ بهِ الدُّنُوَّ مِنها، ولكنْ أرادَ الذّوقَ والأكلَ مِنها. ألا ترى أنهُ قالَ: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾؟ [الأعراف: ٢٢] دَلَّ أنَّ النّهيَ لم يكُنْ لِلدُّنُوِّ منها، ولكنْ لِلذّوقِ والأكلِ منها.

وفيهِ أنَّ الامتِحانَ مِنَ اللهِ مرّةً يكونُ بالحِلِّ ومرّةً بالحُرمةِ لأنهُ أذِنَ لهُ التّناوُلَ ممّا فيها مِن أنواعِ النِّعَمِ.

وحرّمَ عليهِ التّناوُلَ مِن واحدةٍ منها[11]، فذلكَ مِحنةٌ منهُ.

ثم النّهيُ عَنِ التّناوُلِ مِنَ الشّيءِ يَخرُجُ على وجوهٍ: أحدُها: نَهيٌ بِحَقِّ الحُرمةِ لِنفسِهِ، ونَهيٌ بحقِّ إيثارِ الغيرِ عليهِ، ونَهيٌ عنِ التّناوُلِ منهُ لِداءٍ فيهِ وآفةٍ، ونَهيٌ لِما يَخرُجُ التّناوُلُ منهُ[12] بِحقِّ الجَزاءِ، فلم يكُنْ بَعْدُ وقتَ الجَزاءِ لهُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾ قولُهُ: ﴿مَا وُۥرِيَ﴾ أي سُتِرَ، وغُطّيَ، وقولُهُ[13]: ﴿سَوۡءَٰتِهِمَا﴾: عوراتِهِما[14]، والسّوأةُ العَورةُ في اللغةِ.

وفيهِ أنهُ يَجِبُ أنْ نكونَ على حَذَرٍ مِن شَرِّ إبليسَ اللّعينِ لئلا يَجِدَ فُرصةً علينا، فإنهُ أبدَى على سَلْبِ نِعمةٍ أنعمَها اللهُ على عِبادِهِ حينَ[15] احتالَ كُلَّ حِيلةٍ حتى أبدَى لهما ما وُورِيَ، وسُتِرَ عنهُما، مِنَ العَورةِ، وعَمِلَ في إخراجِهما مِنَ النِّعَمِ واللّذّاتِ، وأوقعَهُما في الشّدائدِ والمشقّةِ، وفيهِ أنهُ ليسَ حالٌ عليهِ أشدَّ مِن أنْ يَرَى[16] أحداً في النِّعَمِ والسَّعةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾ قد ذكَرْنا مَعنى هذا أيضاً في صَدْرِ الكِتابِ[17].

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ قالَ الحسَنُ: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ في وَسْوَستِهِ إياهُما ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ وهذا الذي يقولُ الحسَنُ: يُومِئُ إلى [أنَّ][18] آدمَ قد عَلِمَ أنهُ الشيطانُ.

---

(١) في الأصل: حيث. (٢) الواو ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: ارتكبوا. (٤) في الأصل: نهاه. (٥) في الأصل: الذكر. (٦) في الأصل: من. (٧) في تفسير الآية (٣٥) من سورة البقرة. (٨) في الأصل: إليه. (٩) في الأصل: أن كانَ دخل. (١٠) في الأصل: بكلهما. (١١) في الأصل: منهما. (١٢) في الأصل: منهما. (١٣) في الأصل: و. (١٤) في الأصل: عورتهما. (١٥) في الأصل: حيث. (١٦) في الأصل: رأى. (١٧) في تفسير الآية (٣٥) من سورة البقرة. (١٨) ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وقالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: إنهُ قد وَقَعَ عندَ آدَمَ أنَّ الشَّجَرَةَ التي نَهاهُ رَبُّهُ أنْ يَتناوَلَ منها هي المُفَضَّلَةُ على جَميعِ الشَّجَرِ، فلما وَسْوَسَ إليهِ الشيطانُ، وقالَ لهُ ما ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾؟ [طه: ١٢٠] فوافَقَ ظَنُّهُ قولَ اللَّعينِ وما دَعاهُما إليه، ثم اشْتَغَلَ، فَنَسِيَ ذلكَ، فَتَناوَلَ على النِّسْيانِ على وجهَينِ: نِسْيانِ التَّرْكِ على العَمْدِ / ١٧٠ ـ ب/ ونِسْيانِ السَّهْوِ، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ آدمُ تَرَكَ عَمْداً، فهو على نِسْيانِ السَّهْوِ.

إلى هذا يَذْهَبُ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ أو كلامٍ نحوِهِ. وقَرَأ بَعْضُهُم قولَهُ: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا﴾ مَلِكَينِ بِكَسْرِ اللامِ مِنَ المُلْكِ(١)، ذَهَبَ في ذلكَ إلى ما قالَ: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] وقراءةُ العامَّةِ الظاهِرَةُ ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ بِنَصْبِ اللامِ مِنَ الملائكةِ. وقد ذَكَرْنا جِهَةَ رَغْبَةِ آدمَ في أنْ يَصيرَ مَلَكاً حِينَ(٢) تناوَلَ منها في صَدْرِ الكتابِ على قَدْرِ ما حَفِظْنا.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي أورَدَهُما؛ يُقالُ: دَلّاني فُلانٌ بِحَبْلِ غُرورٍ؛ أي إنهُ زَيَّنَ النُّصْحَ(٣) حتى يَرْكَبَهُ. وأصْلُ التَّدْلِيَةِ مِنَ الدَّلْوِ، وهو مِنَ الدُّعاءِ؛ أي دَعاهُما بِغُرورٍ، [أي دَعا](٤) إياهُما بِغُرورٍ؛ وهو قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [وفيهِ وَجهانِ:

أحدُهما: إنْ](٥) قِيلَ: كيفَ خَصَّ السَّوأةَ بالذِّكْرِ، ومِنَّتُهُ في كُلِّ البَدَنِ لا في السَّوأةِ خاصَّةً؟ وكذلك قولُهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦] ذَكَرَ مِنَّتَهُ في ما أنْعَمَ علينا مِنْ سَتْرِ العَورَةِ وفي غَيرِهِ مِنَ البَدَنِ مِنْ دَفْعِ البَرْدِ والحَرِّ وغَيرِ ذلكَ.

قيلَ: لِأنَّ كَشْفَ العَورَةِ مُسْتَقْبَحٌ في الطَّبْعِ والعَقْلِ جميعاً. وأمّا كَشْفُ غَيرِها(٦) مِنَ البَدَنِ فَلَيسَ هو مُسْتَقْبَحٌ في الطَّبْعِ ولا في العَقْلِ، ورُبَّما يُبْدِي المَرْءُ غَيْرَها(٧) مِنَ البَدَنِ سِوى العَورَةِ عندَ الحاجَةِ، ويَسْتُرُ عندَ غيرِ الحاجَةِ. وأمّا العَورَةُ فإنهُ لا يُبْدِيها(٨) إلّا في حالِ الضَّرورَةِ؛ لِذلكَ كانَ ما ذَكَرُوا: أنْ يُقالَ: إنَّ المَفْروضَ(٩) مِنَ السَّتْرِ هو قَدْرُ الضَّرُورَةِ، والآخَرَ يَلِيهِ إمّا بِحَقِّ التَّحَمُّلِ وإمّا بِحَقِّ دَفْعِ البَرْدِ والحَرِّ والأذى؛ لِذلكَ تَخْصيصُها(١٠) بالذِّكْرِ، والمِنَّةُ(١١) والنِّعْمَةُ عَظيمَةٌ في لِباسِ غَيرِها(١٢) مِنَ البَدَنِ.

فإنْ قِيلَ: إنَّ اللهَ كَنّى عنِ الجِماعِ مَرَّةً باللَّمْسِ ومَرَّةً بالغَشَيانِ، وعَنِ الخَلاءِ بالغائِطِ، وهو المكانُ الذي تُقْضى فيهِ الحَوائِجُ، وكذلكَ جَميعُ ما لا يُسْتَحْسَنُ ذِكْرُهُ مُصَرَّحاً فإنما ذَكَرَهُ بالكِنايَةِ، وههنا ذَكَرَ السَّوأةَ في العَورةِ، قيلَ: السَّوأةُ والعَورَةُ هما كِنايَةٌ [عَنِ الدُّبُرِ، لَمْ يَذْكُرْهُ مُصَرَّحاً، فَهُما](١٣) كِنايَةٌ.

والثاني: في ذِكْرِ تَخْصيصِ السَّوأةِ؛ وذلكَ أنَّ قَصْدَ الشيطانِ إنما كانَ إلى إبداءِ عَوْرَتَيهِما(١٤) لا غَيرُ. ألا تَرى أنَّ ذلكَ لم يُجْعَلْ لِغَيرِ البَشَرِ عَورَةٌ تُسْتَرُ؟ ولِذلكَ خَصَّ السَّتْرَ بالقَبْرِ، إذا ماتَ يُقْبَرُ لِأجْلِ عَورَتِهِ، ولا يُقْبَرُ غَيرُهُ مِنَ الدَّوابِّ إذا هَلَكَ، ولا يُسْتَرُ في حالِ حَياتِهِ، كانَ قَصْدُهُ إلى ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَطَفِقَا﴾ أي أخَذا؛ تقولُ: طَفِقْتُ أفْعَلُ كذلكَ، أي أخَذْتُ والخَصْفُ الخِياطَةُ في النَّعْلِ والخُفِّ، وهو مُسْتَعارٌ ههنا. وقالَ مُجاهِدٌ: ﴿يَخْصِفَانِ﴾ أي يَرْقَعانِ كَهَيئَةِ الثوبِ، وقيلَ: ﴿يَخْصِفَانِ﴾ يُغَطِّيانِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ إمّا حَياءَ أحَدِهِما مِنَ الآخَرِ وإمّا(١٥) حَياءً مِنَ اللهِ تعالى، ولِهذا

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية [٢/ ٣٤٨]. (٢) في الأصل: حيث. (٣) في الأصل: الصبح. (٤) في الأصل: ودعاه. (٥) في الأصل: فإن. (٦) في الأصل: غيره. (٧) في الأصل: غيره. (٨) في الأصل: يبدي. (٩) في الأصل: الفروض. (١٠) في الأصل: تخصيصه. (١١) في الأصل وم: وإلا المنة. (١٢) في الأصل: غيره. (١٣) في الأصل: لم يذكروا الدبر فهو. (١٤) في الأصل: عورتهما. (١٥) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

نقولُ: إنهُ يُكرَهُ لِلرَّجلِ في الخَلْوَةِ أن يَكْشِفَ عورَتَهُ، ويُبْدِيَها. وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ قالَ: «فاللهُ أحَقُّ أنْ يُسْتَحْيَى منهُ» [بنحوه البخاري: ٢٧٨] وأمّا حَياءُ أحَدِهِما مِنَ الآخَرِ فَلَمّا[1] بَدَتْ لِكُلِّ واحدٍ منهما عَوْرَةُ صاحِبِهِ. ولهذا كَرِهَ أبو حَنيفَةَ ﷺ أنْ يَنْظُرَ الرجلُ إلى فَرْجِ زَوجَتِهِ والمَرْأةُ إلى فَرْجِ زَوجِها، أو لِما وَقَعَ بَصَرُ كُلِّ واحدٍ مِنْهُما على فَرْجِهِ[2]، فذلكَ يُكرَهُ أيضاً أنْ يَنْظُرَ المَرْءُ إلى فَرْجِهِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٠] ولم يَقُلْ: لِيُبْدِيَهِما؟ فهذا يَدُلُّ على أنهُ لا يَنْبَغي أنْ يَنْظُرَ إلى فَرْجِ زَوجَتِهِ ولا الزَّوجَةُ إلى فَرْجِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ الآيةَ. يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ وَحْياً أوحَى إليهما على يَدَيْ مَلَكٍ كقولِهِ تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] أضافَ إلى نَفْسِهِ لِما يَنْفُخُ فيهِ بأمْرِهِ. فَعَلى ذلكَ هذا، وإلهاماً أَلْهَمَهُما كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] وقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ [طه: ٣٨ و٣٩]. [وقولِهِ تعالى][3]: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] ونَحْوِهِ، وإنما هو إلهامٌ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ حِينَ[4] أوقَعْناها في الشَّدائِدِ وكَدِّ العَيْشِ. والظُّلْمُ هو وضعُ الشَّيءِ في غيرِ مَوضِعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ قالَ الحَسَنُ: هُنَّ الكلماتُ[5] التي تَلَقّاها آدمُ مِنْ رَبِّهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]؛ قالَ آدمُ ما ذُكِرَ في الآيةِ، وكذلكَ قالَ نوحٌ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]. وقالَ إبراهيمُ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [إبراهيم: ٤١] وقالَ نوحٌ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ [نوح: ٢٨] بعضُهُ خَرَجَ على الأمرِ، وبعضُهُ على السُّؤالِ، وكُلُّهُ على الدعاءِ.

والسُّؤالُ لَيسَ على الأمرِ، وإنْ خَرَجَ ظاهِرُهُ مَخرَجَ الأمرِ؛ لأنَّ الأمْرَ مِمَّنْ هو دُونَهُ لِمَنْ فوقَهُ أمْرٌ؛ لو أنَّ مَلِكاً مِنَ المُلوكِ إذا أمَرَهُ بَعْضُ خَدَمِهِ أو رَعِيَّتِهِ شيئاً[6]، فهو لَيسَ بأمْرٍ، لَكِنَّهُ سُؤالٌ ودعاءٌ. فَعَلى ذلكَ دُعاءُ الأنبياءِ ﷺ رَبَّهُم.

فإنْ قِيلَ: إنَّ الرُّسُلَ سألوا رَبَّهُمُ المَغفِرَةَ لِزَلّاتِهِمْ في المَلإ فلا يَخلُو: إمّا أنْ يُجابُوا[7] في ذلكَ، [وإمّا ألّا][8] يُجابُوا؛ فإنْ لم يُجابُوا في ما سألُوا فهو عظيمٌ، وإنْ[9] أُجيبُوا في ذلكَ [غَفَرَ لَهُمْ][10]، والمَغْفِرَةُ في اللغةِ السَّتْرُ. كيفَ ذُكِرَتْ زَلّاتُهُمْ في المَلإِ إلى يومِ القِيامةِ؟

قِيلَ: لِوُجوهٍ: أحَدُها: لَمّا ارْتَكَبُوا تلكَ الزَّلّاتِ عَظُمَ [الأمْرُ عليهِمْ][11] واشْتَغَلَتْ قُلوبُهُمْ بذلكَ لِعِظَمِ ما ارْتَكَبُوا عندَهُمْ، لم يَخْطُرْ بِبالِهِمْ عندَ سُؤالِهِمُ المَغْفِرَةَ سَتْرُ ذلكَ على الناسِ وكِتْمانُها عنهُمْ بَعْدَ أنْ أجابَ اللهُ بالتَّجاوُزِ عنهُمْ في ذلكَ.

أو أنْ يُقالَ: أرادَ بإفشاءِ ذلكَ وإظهارِهِ إيقاظَ غَيرِهِمْ وتَنْبيهاً في ذلكَ لِيَعْلَمُوا أنَّ الرُّسُلَ مَعَ جَليلِ قَدْرِهِمْ[12] وعَظيمِ مَنْزِلَتِهِمْ عندَ اللهِ لم يُحاسِبْهُمْ في العِتابِ والتَّوبيخِ بما ارْتَكَبُوا، فَمَنْ دُونَهُمْ أحقُّ [بذلكَ، أو أنهُ][13] ذَكَرَ ذلكَ لِيَعْلَمُوا أنهُ لَيسَ بِغافِلٍ عَنْ ذلكَ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، واللهُ أعْلَمُ بذلكَ.

وقالَ[14] تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ وقالَ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] وقالَ: ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] فأعْلَمَنا اللهُ ﷻ أنَّ آدَمَ نَسِيَ أمْرَ رَبِّهِ. فقالَ قومٌ مِنْ أهلِ العِلْمِ [لو][15] أكَلَ آدَمُ مِنَ الشَّجَرَةِ، وهو ناسٍ لَنَهَى اللهُ

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: بصره. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل: حيث. (٥) في الأصل: كلمات. (٦) أدرج قبلها في الأصل: الأمير. (٧) في الأصل: أجيبوا. (٨) في الأصل: أو أن لم. (٩) في الأصل: فإن. (١٠) ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل: قدر. (١٣) في الأصل: ذلك أو أن. (١٤) في الأصل: وقوله. (١٥) ساقطة من الأصل.

جنة السنة

إيّاهُ عَنْ أَكْلِها، وكانَ أكْلُهُ منها ظُلْماً منهُ لِنَفْسِهِ وعِصْياناً لِرَبِّهِ، وإنْ فَعَلَ[1] ذلكَ ناسِياً، ثم إنَّ اللهَ تَفَضَّلَ على أُمَّةِ محمدٍ، فَرَفَعَ عنهُمْ [الخَطَأَ والنِّسيانَ][2] وما اسْتُكْرِهُوا عليهِ[3].

وقالَ قومٌ: مَعْنَى قولِهِ تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي تَرَكَ أمْرَ ربِّهِ مِنْ غيرِ نِسْيانٍ، وقالُوا: هذا كَقولِ اللهِ تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] ولا نَدري كيفَ كانَ ذلكَ؟

وقالَ بَعضُ أهلِ العِلْمِ: إنَّ[4] الخَطَأَ والنِّسيانَ في الأحكامِ مَوضوعٌ بهذا الحديثِ؛ فَيُقالُ: فَما تَقولونَ في قَتْلِ الخَطَإِ؟ هل فيهِ الدِّيَةُ والكَفّارَةُ؟ وما تقولونَ في رجلٍ أفْسَدَ مَتاعَ رجلٍ، وأحْرَقَهُ، ناسِياً أو مُخطِئاً؟ فإنْ قالُوا: ذلكَ لازِمٌ عليهِ فكيفَ قُلْتُمْ: إنَّ الحديثَ الذي جاءَ في [وَضعِ][5] الأحكامِ، وأنْتُمْ تُوجِبونَ الضَّمانَ؟ وقالَ بَعْضُهُمْ: وجهُ الحديثِ عندنا أنَّ الأُمَمَ قَبْلَ أُمَّتِنا كانَتْ مأخُوذَةً بالخَطَإِ والنِّسيانِ في ما بَيْنَها وبَيْنَ رَبِّها، فَرَفَعَ اللهُ تعالى الحَرَجَ عن هَذِهِ الأُمَّةِ في ذلكَ تَفْضِيلاً منهُ عَلَينا مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ.

وأمّا الغراماتُ والضّماناتُ في الأحكامِ التي بَيْنَ الناسِ فهيَ لازِمةٌ عليهِمْ[6]؛ خَطَأً فَعَلُوا أو عَمْداً، واللهُ أعْلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ دلالةُ النَّقْضِ على المُعْتَزِلَةِ: إنهُمْ يقولونَ: الصَّغائِرُ مَغْفُورَةٌ باجْتِنابِ الكَبائِرِ، ثم مِنْ قولِهِ. إنَّ الرُّسُلَ والأنبياءَ مَعْصُومونَ عنِ الكَبائِرِ، فَزَلَّةُ آدمَ، لاشَكَّ أنها صَغيرَةٌ لِما ذَكَرْنا، ثم قالَ تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فإذا لم يكُنْ لَهُ إلّا أنْ يُعَذِّبَهُ، يَصيرُ كأنهُ قالَ: إنْ جُرْتَ، وظَلَمْتَ، علينا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وفائدةُ تَعْزيزِ آدَمَ أنْ يكونا مِنَ الملائكةِ؛ لأنَّ المَلَكَ [على][7] ما ذَكَرَ لا يَفْتُرُ عَنِ العبادَةِ[8]، ولا يَعْصِي[9] رَبَّهُ، ولا يَحتاجُ إلى شَيءٍ مِنَ المُؤْنَةِ./ ١٧١ - أ/ ومَنْ قَرَأَ مَلِكَينِ[10] لأنَّ المَلِكَ يكونُ نافِذَ الأمْرِ والقولِ في مَمْلَكَتِهِ وذلك مِمّا يُرْغَبُ فيه، أو أنْ يكونَ بذلكَ لِيَشْغَلَهُما عَنْ نَهْيِ رَبِّهِما حتى يَنْسَيا ذلكَ، فَيَتَناوَلا مِنْ تلكَ الشَّجَرَةِ على ما فَعَلا، وفي ما ذَكَرَ الخَلْقُ، ولأنهُ لَيسَ شَيءٌ[11] ألَذَّ ولا أشْهَى مِنَ الحياةِ.

والأشْبَهُ أنْ يُقالَ: إنهما[12] لم يَنْسَيا نَهْيَ اللهِ إيّاهُما عنِ التَّناوُلِ منها، ولكنْ نَسِيا[13] قولَهُ تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩] لِذلكَ تناوَلا. ولو ذَكَرا قولَهُ تعالى ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ما تناوَلا، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ عنِ ابْنِ عباسٍ [أنهُ][14] قالَ: آدمُ وحَوّاءُ وإبليسُ والحَيَّةُ، وقالَ الحَسَنُ: آدمُ وَوَسْوَسَةُ الشيطانِ؛ لأنَّ قولَهُ تعالى [دَلَّ على][15] أنَّ الشَّيطانَ لم يكُنْ في السماءِ، إنما وَسْوَسَ لآدَمَ[16] وحَوّاءَ مِنْ بُعْدٍ. فالأمْرُ بالهُبوطِ لِوَسْوَسَتِهِ، ولذلكَ بَقِيَتْ في أولادِهِ إلى يومِ القِيامَةِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: دلَّ قولُهُ تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ على أنَّ الهُبوطَ إنما كانَ مِنَ السماءِ، وكانُوا في السماءِ. ثم قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ كانَ الأمْرُ بالهُبوطِ لم يكُنْ [لَهم] معاً[17]؛ لأنَّ إبليسَ أُمِرَ بالهُبوطِ حِينَ أبَى السُّجودَ، وآدَمَ وحَوّاءَ [أُمِرَا][18] حينَ تناوَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ. ثم جَمَعَهُمْ في الأمرِ بالهُبوطِ لِيُعْلَمَ أنْ لَيسَ في الجَمْعِ بالذِّكْرِ دلالةُ وجُوبِ الحُكْمِ والأمْرِ مَجْمُوعاً.

وقولُهُ تعالى ﴿اهْبِطُوا﴾ لا يُفْهَمُ منهُ الهُبوطُ مِنَ الأعْلَى. الا تَرَى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١]

---

(١) في الأصل: فعلى (٢) في الأصل: في الخطإ والعصيان. (٣) إشارة إلى قوله ﷺ «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» انظر سنن البيهقي في الكبرى [٧/ ٣٥٧]. (٤) عند هذه الكلمة نهاية الورقة الساقطة التي لم تصور من م والتي كان أولها تتمة تفسير الآية/ ١٧/ ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ والتي أولها: وما فوق، وآخرها: وقال بعض أهل العلم: إن [انظر الحاشية (٨) ص (٢١٣). (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. (٩) إشارة إلى قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية [٢/ ٣٤٨]. (١١) في الأصل وم: بشيء. (١٢) في الأصل وم: أنه. (١٣) في الأصل وم. نسبي (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: آدم. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

أي انزلوا فيه؟ وقولُهُ تعالى: ﴿عَدُوٌّ﴾ إمّا بالكفرِ وإمّا بما يَسْعَى في هَلاكِنا. وكلُّ مَنْ يَسْعَى في هَلاكِنا فهو عَدُوٌّ لنا، ونَحْنُ أعداءٌ لَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قيلَ: إلى مُنْتَهَى آجالِكُمْ، وإبليسَ إلى النَّفْخَةِ الأُولَى.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا ليسَ على التَّوقيتِ، ولكنْ على الدَّوامِ والقَرارِ فيها.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ قيلَ: في الأرضِ تَعِيشُونَ ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ عند انْقِضاءِ آجالِكُمْ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ في القيامَةِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ والحَسَنُ: أنْزَلْنا ماءَ القَراحِ مِنَ السَّماءِ لِيُتَّخَذَ منهُ اللِّباسُ ما يُواري عَورتَهُمْ، ويُتَّخَذُ منهُ الطعامُ والأشياءُ التي بها قِوامُ أنْفُسِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ أنْزَلَ الماءَ والأسبابَ التي بها يُتَّخَذُ اللِّباسُ والأطْعِمَةُ والأشربَةُ، والعِلْمَ في ذلكَ الماءِ [وأسبابَ العِلْمِ][1] بذلكَ. وإلّا ما عَرَفَ الخَلْقُ أنْ كيفَ يَتَّخِذُ ذلكَ لِباساً والأطْعِمَةَ والأشْرِبَةَ؟.

وفيهِ دليلُ إثباتِ الرسالةِ لأنهُمْ لم يَعْرِفُوا ذلكَ إلّا بِوَحْيٍ مِنَ السَّماءِ. أو أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ أي جَعَلَ لَكُمْ، وأنْشأَ لَكُمْ ما تَتَّخِذونَ منهُ اللِّباسَ والطعامَ والشرابَ، لَيسَ على الإنزالِ، ولكنْ على أنْ جَعَلَ لَكُمْ ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: ٧٩]. وقولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾ أي أنشأَ لَكُمْ ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١] وهو أنْ خَلَقَ لنا ذلكَ.

وفيهِ دليلُ خَلْقِ أفعالِ الخَلْقِ فيه؛ لأنهُ إنما صارَ لِباساً وطَعاماً؛ وما لا يُفْعَلُ مِنَ العِبادِ أنهُ أُنْزِلَ مِنَ السماءِ هكذا.

ثم أخْبَرَ أنهُ جَعَلَ لنا ذلكَ. دلَّ أنهُ خَلَقَ فِعْلَ الخَلْقِ فيه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: مالاً، وقالَ بَعْضُهُمْ مَعاشاً، وقالَ القُتَبِيُّ: الريشُ ما ظَهَرَ مِنَ اللِّباسِ، وريشُ الطائرِ وما سَتَرَ بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِبَاسَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ بالرَّفْعِ على الابْتِداءِ، أي لِباسُ التَّقْوَى خَيْرٌ، ومَنْ نَصَبَهُ أيضاً [فإنما][2] يَنْصِبُهُ على الجوابِ لِما تَقَدَّمَ، وإلّا الحَقُّ فيهِ الرَّفْعُ.

ثم اخْتَلَفَ فيهِ أهلُ التَّأويلِ: قالَ الحَسَنُ: لِباسُ التَّقْوَى الدِّينُ، وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: القرآنُ، وقِيلَ: العَفافُ، وقِيلَ الحَياءُ، وقيلَ: الإيمانُ، فَكُلُّهُ واحِدٌ؛ أي كُلُّ ما ذَكَرَ مِنْ لِباسِ التَّقْوَى خَيْرٌ من اللِّباسِ الذي يُرْتَدَى[3]؛ لأنَّ الدِّينَ والإيمانَ والقرآنَ والحَياءَ يَزْجُرُهُ، ويَمْنَعُهُ عَنِ المَعاصِي، فهو خيرٌ، لأنهُ لباسٌ في الدنيا والآخِرَةِ؛ لأنَّ المؤمِنَ التَّقِيَّ العَفِيفَ الحَيِيَّ، لا تَبْدُو [منهُ][4] عورةٌ، وإنْ كانَ عارِياً مِنَ الثِّيابِ، وإنَّ الفاجِرَ لا يَزالُ تَبْدُو منهُ عَورتُهُ، وإنْ كانَ كاسِياً مِنَ الثِّيابِ، ولا يَتَحَفَّظُ في لِباسِهِ. فالتَّقْوَى خَيْرٌ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٩٧] هذا التأويلُ لِلْقِراءَةِ التي تُقرأُ بالرَّفْعِ ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ على الابْتِداءِ، وأمّا مَنْ قرأَ بالنَّصْبِ فهو رَدُّهُ إلى قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ ثم أنْزَلْنا عليكُمْ أيضاً ريشاً تَتَّقُونَ بِهِ الحَرَّ والبَرْدَ والأذَى، فيكونُ فيه ذِكْرُ لِباسٍ لِسائِرِ البَدَنِ، وفي الأوَّلِ ذِكْرُ لِباسِ العَوْرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي اتُّخِذَ منهُ اللِّباسُ والأطْعِمَةُ والأشْرِبَةُ مِنْ آياتِ الرسالةِ؛ لأنَّ كُلَّ ذلكَ إنما عُرِفَ بالرُّسُلِ بِوَحْيٍ؛ وهو ما ذَكَرْنا أنَّ فيهِ دَليلَ إثباتِ الرسالةِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مِنْ آياتِ وَحْدانِيَّةِ اللهِ ورُبُوبِيَّتِهِ لَمّا جَعَلَ منافِعَ السَّماءِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ الأرضِ مَعَ ما بُعْدَ ما بَيْنَهُما. دلَّ ذلكَ أنَّ مُنْشِئَهُما ومُدَبِّرَهُما واحِدٌ؛ لأنه لو كانَ تَدْبِيرَ اثْنَينِ ما اتَّسَقَ تَدْبِيرُهُما لِاتِّصالِ منافِعِ أحَدِهِما بالآخَرِ.

---

(١) في الأصل وم: والأسباب والعلم. (٢) من م، ساقطة من الأصل، أنظر معجم القراءات القرآنية [٢/ ٣٥١]. (٣) في الأصل وم: ذكر. (٤) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لَعَلَّهُمْ [يُوَفَّقُونَ لِلتَّذَكُّرِ، وقولُهُ تعالى][1]: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧ و...] أي لَعَلَّهُمْ يُوَفَّقُونَ لِلتَّقْوَى، ولَعَلَّهُمْ يُوَفَّقُونَ لِلشُّكْرِ؛ لأنهُ حرفُ شَكٍّ. هذا يَحْسُنُ أنْ يُقالَ، واللهُ أعْلَمُ. أو نقولُ: لكي يُلزِمَهُمُ التَّذَكُّرَ والتَّشَكُّرَ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: خاطَبَ بِهِ أهْلَ مكةَ في تكذيبِهِمْ رسولَ اللهِ ومُخالفتِهِمْ أمْرَهُ في ألّا يُخرِجَكُمْ مِنَ الأمنِ والسَّعَةِ ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ﴾ دارِ الأمنِ والسَّعَةِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي احذَرُوا دعاتَهُ إلى ما يَدْعُوكُمْ إليهِ فإنهُ يَمْنَعُ عنكُمْ في الآخرةِ الكرامةَ والثوابَ ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ﴾ دارِ الكرامةِ والمَنْزِلَةِ.

وقال أهلُ التأويلِ: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي لا يُضِلَّنَّكُمُ الشيطانُ [ولا][2] يُغوِيَنَّكُمْ كما فَعَلَ بأبوَيْكُمْ[3]: أخرجَهُما مِنَ الجنَّةِ، وقالَ آخرونَ: قولُهُ تعالى: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بما تَهْوَى بِهِ أنفُسُكُمْ، وتَمِيلُ[4] إلى شهواتِها وأمانيِّها ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ بما هَوَتْهُ [نفساهُما وشهواتُهُما؛ يُحَذِّرُهُما][5] اتِّباعَ هَوَى النَّفْسِ وشهواتِها وأمانيِّها؛ فإنَّ السَّببَ الذي بِهِ كانَ إخراجُهُما هو هَوَى النَّفْسِ وأمانيُّها.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ وهذا في القرآنِ كثيرٌ: يَفْعَلُ بِمَعْنَى فَعَلَ، ويَحْتَمِلُ على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: أرادَ أنْ يَنْزِعَ ﴿عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ وقد ذَكَرَ أنَّ المفروضَ مِنَ السَّتْرِ هو سَتْرُ العورةِ، احتيجَ إليهِ، أو لم يُحتَجْ. وأمّا غيرُهُ مِنَ السَّتْرِ فإنما هو لِدَفْعِ الأذى مِنَ الحَرِّ والبَرْدِ. والمَفْتُونُ بالشيءِ هو المَشْغُوفُ بِهِ والمُولَعُ بِهِ؛ يقولُ: لا يَمْنَعُكُمْ عن دخولِ الجنةِ ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ هو كانَ قَصْدُهُ ما ذَكَرَ مِنْ نَزْعِ اللِّباسِ وإبداءِ العورةِ، وهو ما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ قِيلَ: قَبيلُهُ: جُنودُهُ وأعوانُهُ. حَذَّرَنا [مِنْ][6] إبليسَ وأعوانِهِ بما يَرَوْننا، ولا نَراهُمْ. فإنْ قيلَ: كيفَ كَلَّفَنا مُحارَبَتَهُ، وهو بحيثُ لا نَراهُ، وهو يَرانا، ومِثْلُهُ في غيرِهِ مِنَ الأعداءِ لا يُكَلِّفُنا مُحارَبَةَ مَنْ لا نَراهُ، ولا نَقْدِرُ [على][7] القيامِ بِمُحارَبَتِهِ، ولَيسَ في وُسْعِنا القيامُ بِمُحارَبَةِ مَنْ لا نَراهُ؟

قيلَ: إنهُ لم يُكَلِّفْنا مُحارَبَتَهُ إذْ لم يَجْعَلْ لهُ السلطانَ / ١٧١ ـ ب/ على أنفُسِنا وإفسادِ مَطاعِمِنا ومَشارِبِنا ومَلابِسِنا. ولو جَعَلَ لَهُمْ لَأهْلَكُوا أنفُسَنا، وأفْسَدُوا غذاءَنا. إنما جَعَلَ لهُ السلطانَ في الوَساوِسِ في ما يُوَسْوِسُ في صُدورِنا، وقد جَعَلَ لنا السَّبيلَ إلى مَعْرِفَةِ[8] وَساوِسِهِ بالنَّظَرِ والتَّفَكُّرِ نَحْوَ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٠] وقولِهِ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] وقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠١] عَلِمْنا ما بِهِ نَدْفَعُ وَساوِسَهُ وهَمَزاتِهِ، وجَعَلَ لنا الوُصولَ إلى دَفْعِ وَساوِسِهِ بِحُجَجٍ وأسبابٍ جَعَلَها[9] لنا.

فهذا يَدُلُّ على أنَّ اللهَ يَجُوزُ أنْ يُكَلِّفَنا بأشياءَ، لم يُعْطِنا أسبابَ تلكَ الأشياءِ بَعْدَ أن جَعَلَ في وُسْعِنا الوُصولَ إلى تلكَ الأسبابِ، وإنْ لم يَكُنْ وقتُ التكليفِ بتلكَ الأسبابِ مِنْ نَحْوِ الأمْرِ بالصلاةِ، وإنْ لم نَكُنْ على الطهارةِ؛ إذْ جَعَلَ في وُسْعِنا[10] الوُصولَ إلى الطهارةِ، ونَحْوِ الأمْرِ بأداءِ الزكاةِ، وإنْ لم يَكُنْ وقتُ الأمرِ مَنْ تُؤدّى إليهِ حاضراً، ونَحْوِ الأمْرِ بالحَجِّ وغيرِهِ مِنَ العباداتِ، وإنْ كانَ لا يَصِلُ إلى أداءِ ما [فَرَضَ اللهُ][11] عليهِ إلّا بَعْدَ أوقاتٍ مَعَ احتمالِ الشدائدِ.

وهذا يَرُدُّ أيضاً على قولِ مَنْ يقولُ[12]: لا تَلْزَمُ الأوامِرُ والمَناهي مَنْ جَهِلَها، ولا يُكَلَّفُ إلا بَعْدَ العِلْمِ بها، لأنهُ لا يَتَكَلَّفُ مَنْ لا يَلْزَمُهُ فَرْضٌ مِنْ فَرائِضِ [اللهِ][13] وعبادةٌ مِنْ عباداتِهِ؛ لأنهُ لا يَكْتَسِبُ أسبابَ العِلْمِ لِئَلّا يَلْزَمَهُ[14] ذلكَ. فهذا بَعيدٌ مُحالٌ، والوَجْهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل وم: للتذكير و. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: أبويكم. (٤) في الأصل وم: وأمالت. (٥) في الأصل وم: أنفسهما واشتهائها يحذرهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: معرفته. (٩) في الأصل وم: جعل. (١٠) من م، في الأصل: وسعها. (١١) في الأصل وم: افترض. (١٢) أدرج بعدها في الأصل وم: أن. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: يلزم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اختَلَفَ أهلُ الاعتزالِ فيهِ؛ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: الجَعْلُ مِنَ اللهِ على وجوهٍ:

أحدُها: السَّبَبُ الذي أعطَينا لهمْ [هو](١) السَّبَبُ الذي بِهِ صارُوا أولياءَ لَهُمْ كما يَقولُ الرجلُ لآخَرَ: جَعَلْتُ لكَ الدارَ والعَبيدَ والمالَ، ولم يَجعَلْ لهُ ذلكَ، ولكنْ أعطاهُ ما بِهِ صارَ ذلكَ [لَهُ](٢)، وهو إنما أعْطاهُ سَبَبَ ذلكَ، فأضافَ(٣) الجَعْلَ إليهِ. فَعَلى ذلكَ ما أضافَ الجَعْلَ إليهِ لِما أعطاهُ السَّبَبَ.

وقالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ: الجَعْلُ هو التَّخْلِيَةُ، خَلَّى بَيْنَهُمْ وبَيْنَ ذلكَ، فأضافَ ذلكَ إليهِ بالجَعْلِ كما يُقالُ لِلرَّجُلِ: جَعَلْتَ عبدَكَ قَتّالاً ضَرّاباً إذا خَلَّى بَيْنَهُ وبَيْنَ ما يَفعَلُهُ، وهو قادِرٌ على مَنْعِهِ(٤). فَعَلى ذلكَ في ما أضافَ الجَعْلَ إلى نَفْسِهِ، هو أنْ خَلَّى بَيْنَهُمْ وبَيْنَ أُولئكَ يَعْمَلُونَ ما شاؤُوا.

وقالَ الحَسَنُ: مِنْ حِكَمِ اللهِ أنَّ مَنْ عَصَى يكونُ عَدُوّاً لَهُ، ومَنْ أطاعَ يكونُ وَلِيّاً لَهُ، ومَنْ أطاعَ الشيطانَ فهو وَلِيُّهُ، ومَنْ عصاهُ يكونُ عَدُوّاً لَهُ. فكذا حُكْمُ اللهِ تعالى في كُلِّ مَنْ أطاعَهُ، يكونُ وَلِيّاً لَهُ، ومَنْ عَصاهُ يكونُ عَدُوّاً لَهُ.

وقالَ غَيْرُهُمْ مِنَ المُعْتَزِلَةِ: قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي [أوجَدْناهُمْ لِذلكَ](٥) أولياءَهُمْ.

ولكنْ لو جازَ إضافَةُ ذلكَ إلى اللهِ تعالى [لِما](٦) ذَكَرَ هؤلاءِ لَجازَ إضافَةُ ذلكَ إلى الأنبياءِ، لأنهُ قد كانَ مِنهُمُ التَّخْلِيَةُ في ذلكَ والتَّسْمِيَةُ لَهُمْ بذلكَ والحُكْمُ على ما قالَ الحَسَنُ والوجودِ. فإنْ لم يَجُزْ إضافَةُ ذلكَ إليهِمْ دَلَّ أنهُ قد كانَ مِنَ اللهِ في ذلكَ صُنْعٌ، لم يكُنْ مِنَ الأنبياءِ، وهو أنْ خَلَقَ مِنْهُمْ فِعْلَ الوِلايَةِ لَهُمْ لَمّا عَلِمَ مِنْهُمْ أنهُمْ يَختارُونَ ولايَتَهُمْ، ويَتَوَلَّوْنَهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠] وباللهِ العِصْمَةُ والنَّجاةُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه كُلُّ مَعْصِيَةٍ فاحِشَةٌ، والفاحِشَةُ كُلُّ ما عَظُمَ فيهِ النَّهْيُ، فإذا ارْتَكَبُوا ذلكَ فهو فاحِشَةٌ.

وقالَ مُجاهِدٌ: فاحِشَتُهُمْ أنهُمْ كانُوا يَطوفُونَ بالبَيْتِ عُراةً. وقالَ غَيْرُهُ مِنْ أهلِ التَّأويلِ: هو ما حَرَّمُوا مِنَ الحَرْثِ والأنعامِ والنَّباتِ وغَيْرِهِ مِنْ نحوِ السائِبَةِ والحامي وغيرِهِما(٧).

لكنَّ الفاحِشَةَ ما ذَكَرْنا أنَّ كلَّ ما عَظُمَ النَّهْيُ فيهِ والزَّجْرُ فهو فاحِشَةٌ، والفاحِشَةُ هو ما عَظُمَ فيهِ الأمْرُ. ويُعْرَفُ ذلكَ بوَجْهَينِ:

أحَدُهُما: يَعْظُمُ ذلكَ في العَقْلِ.

والثاني: بالسَّمْعِ يَزِيدُ(٨) فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهما](٩) ادَّعَوا في ذلكَ أمْرَ اللهِ ورِضاهُ فيهِ، ويَقولُونَ: لو لم يَرْضَ بذلكَ، [ولو لم يأمُرْهُمْ](١٠) لَكانَ يُنَكِّلُهُمْ، ويَنْتَقِمُ منهُمْ؛ يَعْنُونَ آباءَهُمْ، فاسْتَدَلُّوا بِتَرْكِهِمْ وما فَعَلُوا أنَّ اللهَ قد كانَ رَضِيَ بذلكَ، وأمَرَهُمْ [أنْ يَفْعَلُوا](١١) ذلكَ. فَدَلَّ تَرْكُهُ إيّاهُمْ على ذلكَ على أنهُ قد أمَرَهُمْ بذلكَ، ورَضِيَ عنهُمْ كَمَنْ يُخالِفُ في الشاهِدِ مَلِكاً مِنَ الملوكِ في أمرِهِ ونَهْيِهِ، فإنهُ يُنَكِّلُهُ على ذلكَ، ويَنْتَقِمُ منهُ، إذا كانَ قادِراً على ذلكَ. فإذا لم يَفْعَلْ ذلكَ بِهِ دَلَّ ذلكَ منهُ على الرِّضا بِهِ. فَعَلى ذلكَ اللهُ لَمّا لم يَنْتَقِمْ منهُمْ، ولم يُنَكِّلْهُمْ، دلَّ ذلكَ على الرِّضا والأمرِ به.

والثاني: كأنهُمْ أخذوا ذلكَ مِنَ المُسْلِمِينَ لَمّا سَمِعُوا مِنَ المسلمينَ [ما](١٢) قالُوا: ما شاءَ اللهُ كانَ. ظَنُّوا أنَّ ما كانَ

---

(١) و(٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فيضاف. (٤) من م، في الأصل: منه. (٥) في الأصل وم: وجدناهم كذلك. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: غيره. (٨) في الأصل وم: يرد. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لم يأمر. (١١) في الأصل وم: إذا فعلوا. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

مِنْ آبائِهِمْ كانَ بأمْرٍ مِنَ اللهِ ورضاهُ؛ لم يَفْصِلُوا بينَ المَشِيئَةِ والأمْرِ. والمشيئةُ والإرادةُ هي صِفةُ فِعْلِ كُلِّ فاعِلٍ يَفْعَلُهُ على الاختِيارِ نَحْوُ أنْ يُقالَ: شاءَ فِعْلَ كذا، أو أرادَ أمْرَ كذا. ولا يَجُوزُ أنْ يُقالَ: أمَرَ نَفْسَهُ بِكذا، أو نَهى نَفْسَهُ عنْ كذا.

وأمّا قولُهُمْ: [لم][1] يُنَكِّلُ آباءَهُمْ، ولم يَنْتَقِمْ مِنْهُم بما فَعَلُوا، دلَّ أنهُ رَضِيَ بذلكَ، فَيُقالُ: إنَّ فيهِمْ مَنْ فَعَلَ على خِلافِ فِعْلِهِمْ وغَيْرِ صَنيعِهِمْ ضِدَّ ما فَعَلَ أولئِكَ، ثم لم يَفْعَلْ بِهِمْ ذلكَ، فَهَلْ دَلَّ على الرِّضا منهُ بذلكَ؟

فإنْ قُلْتُمْ: بَلى فإذَنْ[2] رَضِيَ بِفِعْلَيْنِ مُتضادَّيْنِ. وإنْ قُلْتُمْ: لا، كيفَ ذلكَ في أولئكَ على الرِّضا والأمْرِ؟ ولم يَدُلَّ في مَنْ فَعَلُوا بخلافِ فِعْلِهِمْ؟ فذا تناقُضٌ. وقد ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ، واللهُ أعْلَمُ [قولَهُ تعالى][3] ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يا محمدُ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ اللهَ أمَرَ بهذا، وحَرَّمَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ هو ما ذَكَرْنا: ما عَظُمَ النَّهْيُ فيهِ، أو كُلُّ ما يَشْتَدُّ فيهِ النَّهْيُ، أو يَغْلُظُ، أو يَكْثُرُ، هو الفَحْشاءُ. ألا تَرى أنهُ يُقالُ لِكُلِّ شَيْءٍ يَكْثُرُ فُحْشُهُ مِنْ نَحْوِ الكلامِ وغَيْرِهِ: إنهُ إذا خَرَجَ عنْ حَدِّهِ، وجاوزَ حَدَّهُ في القُبْحِ، أو جاوزَ الحَدَّ مِنَ الكَثْرَةِ؟ وهمْ أكْثَرُوا الافْتِراءَ على اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: بل ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: أنهُ أمَرَ بذلكَ.

وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أتَعْلَمُونَ أنكُمْ ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لأنهُمْ لم يكونوا يُؤْمِنونَ بالرُّسُلِ، ولا كانَ لَهُمْ كتابٌ، فكيفَ تَعْلَمونَ أنَّ اللهَ أمَرَكُمْ بذلكَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] لا يجوزُ أنْ [يُقالَ]:[4] لا يَعْلَمُ اللهُ، ولكنْ على النَّفْيِ لذلكَ لَيْسَ كما تَقُولُونَ، وتُنَبِّئونَ. ولكنْ يَعْلَمُ خِلافَ ذلكَ وضِدَّهُ، ويكونُ في نَفْيِ ذلكَ إثباتُ غَيْرِهِ. فَعَلى ذلكَ لا يَعْلَمُونَ أنهُمْ يَقولُونَ على اللهِ ما لا يَعْلَمُونَ.

وأسبابُ العِلْمِ هذا: إمّا الرُّسُلُ يُخْبِرُونَ عنِ اللهِ ذلكَ، وإمّا[5] الكتابَ يَجِدُونَ فيهِ مَكتوباً، فَيَعْلَمُونَ، فَتَسَعُ الشهادةُ بذلكَ، وهم قومٌ لا يُصَدِّقُونَ الرُّسُلَ، ولا يُؤْمِنُونَ بِخَبَرِهِمْ، ولَيْسَ [لَهُمْ][6] كتابٌ أيضاً يَقْرَؤُونَهُ. فما بَقِيَ إلّا وَحْيُ الشيطانِ إليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ والقِسْطُ هو العَدْلُ في كلِّ شَيْءٍ في القَوْلِ والفِعْلِ وغيرِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢] وكقولِهِ تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥] وأصلُ العَدْلِ هو مُحافظةُ الشَّيْءِ على[7] الحَدِّ الذي جُعِلَ لَهُ، وَوَضْعُ مَوْضِعَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ اخْتُلِفَ فيه: قيلَ ﴿وَأَقِيمُوا﴾ أي وَسُّوا وُجُوهَكُمْ نَحْوَ الكَعْبَةِ ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي مِنْ كلِّ مكانٍ تكونونَ فيهِ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧] أي اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ نَحْوَ الكَعْبَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤ و١٥٠] وقيلَ: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي اجْعَلُوا عِبادَتَكُمْ للهِ ولا تُشْرِكُوا فيها غَيْرَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩ وغافر: ٦٥]. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ الوَجْهُ / ١٧٢ ـ أ/ كِنايَةً وعِبارةً عنِ الأنفُسِ[8]، كأنهُ قالَ: أقِيمُوا أنفُسَكُمْ للهِ، لا تُشْرِكُوا فيها، [ولا تَجْعَلُوا][9] لأحَدٍ [فيها][10] شِرْكاً كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٢] أي يَجْعَلْ نَفْسَهُ للهِ سالِماً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يَحْتَمِلُ الدعاءَ نَفْسَهُ؛ أي ادْعُوهُ رَبّاً خالِقاً ورَحْماناً ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ بالوَحْدانِيَّةِ والأُلوهِيَّةِ والرُّبُوبِيَّةِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَادْعُوهُ﴾ أي اعْبُدُوهُ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ العِبادةَ [المُخْلِصَةَ][11] ولا تُشْرِكُوا غَيْرَهُ فيها. ويَحْتَمِلُ أي دِينُوا بِدِينِهِ الذي دَعاكُمْ إلى ذلكَ، وأمَرَكُمْ بِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل فإذا، في م: قادرا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: عن. (٨) من م، في الأصل: الانس. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.
(١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال قائلون: هو[1] صِلَةُ قولِهِ ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥] كأنهُمْ سألُوا: كيفَ[2] يعودُونَ إذا بُعِثوا؟ فقالَ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ [كما][3] خلقَكُمْ ﴿تَعُودُونَ﴾ مِثْلَهُ. ويَحْتَمِلُ أن يكونَ هو صِلَةَ قولِهِ تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] تعودُونَ كما كُنتُمْ[4] في البَداءةِ؛ الكافرُ كافراً، والمؤمنُ مؤمناً.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ هو مِنَ الدَّوامِ[5] لَيسَ مِنَ الابْتِداءِ؛ لأنهُ لا يَجوزُ أنْ يُقالَ: الصَّبِيُّ[6] كافرٌ أو مؤمِنٌ، وهو الدَّوامُ والمُقامُ فيهِ إلى وَقْتِ المَوتِ، وهو في البَداءةِ. وفي الآخِرةِ الإعادَةُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧] وقولُهُ تعالى: ﴿يَبْدَؤُا﴾ لَيسَ يُريدُ ابْتِداءَ نُشوئِهِ ولكنْ كونَهُ في الدنيا. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الآيةَ: يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُمَا: أي كما كُنتُمْ في الدنيا تَعُودونَ في الآخِرَةِ. كذلكَ المؤمِنُ مُؤمِنٌ والكافِرُ على كفرِهِ.

والثاني: كما أنشأكُمْ في الدنيا لا مِنْ شَيءٍ. فَعَلَى. ذلكَ يَبْعَثُكُمْ. لِذلكَ لا يُعجِزُهُ شَيءٌ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ بما هداهُمُ اللهُ بِفَضْلِهِ ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَٰلَةُ﴾ بما اختاروا مِنْ فِعْلِ الضَّلالِ، فأضَلَّهُمُ اللهُ كقولِهِ تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٧] وقولِهِ تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيهِ لُزومُ الحُجَّةِ والدليلُ في حالِ الحِسابِ والظَّنِّ إذا كانَ بِحَسَبِ الإدراكِ والوُصولِ إليهِ؛ لأنهُ قالَ ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وفيهِ[7] أنهُمْ عندَ أنْفُسِهِمْ مُهْتَدونَ، ولم يكونُوا، ثُمَّ عُوقِبُوا على ذلكَ.

دَلَّ أنَّ الدليلَ والحُجَّةَ قد تُلْزِمانِ[8]، وإنْ لم يُعرَفْ بَعْدُ أنْ يكونَ سَبيلُ الوُصولِ إلى ذلكَ، وهذا يَرُدُّ قولَ مَنْ يقولُ بأنَّ فرائِضَ[9] اللهِ لا تَلْزَمُ إلّا بَعْدَ العِلْمِ بها والمَعْرِفَةِ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الخِطابُ، وإنْ خُرِّجَ مُخْرَجَ الأمْرِ بِأَخْذِ الزِّينَةِ واللِّباسِ فهو على النَّهْيِ عَنْ نَزْعِها لأنَّ الناسَ[10] يَكونُونَ آخِذينَ الزِّينَةَ وساتِرينَ عَوراتِهِمْ غيرَ بادِينَ بها. فإنْ كانَ كذلكَ فهو على النَّهْيِ عَنْ نَزْعِ لِباسِهِمْ وإبداءِ عَوراتِهِمْ، وهو ما ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ: أنَّ أهْلَ الشِّرْكِ كانُوا إذا طافُوا بالبَيتِ نَزَعُوا ثِيابَهُمْ، ويقولونَ: لا نَطوفُ في ثِيابِنا التي أذْنَبْنا فيها.

فإنْ كانَ التَّأويلُ [ما][11] قالَ ابْنُ عباسٍ وهؤلاءِ [ففيهِ إضمارٌ][12]، كأنهُ قالَ: خُذوا زِينَتَكُمْ عندَ هذا المَسْجِدِ كما تَأْخُذونَ عندَ كلِّ مَسْجِدٍ سَواءً. وإلّا خُرِّجَ تأويلُ الآيةِ على وُجوهٍ:

أحدُها: يقولُ: صَلُّوا في كُلِّ مَسْجِدٍ، ذَكَرَ هذا لِمَنْ لا يَرَى الصلاةَ إلّا في مَسْجِدِهِ على ما رُوِيَ أنْ لا صلاةَ لِجارِ المَسْجِدِ إلّا في المَسْجِدِ.

والثاني: صَلُّوا بِكُلِّ مَسْجِدٍ وبِكُلِّ مكانٍ كقولِهِ ﷺ «جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسْجداً وطَهوراً» [البخاري ٣٣٥].

والثالثُ: يَجْعَلُ الزِّينَةَ العِبادَةَ نَفْسَها بقولِهِ تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾.

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَهُ أهْلُ التَّأويلِ [كانَ أهلُ اليمنِ][13] يَسْتَعيرونَ مِنْ أهلِ مكةَ ثِياباً، يَطوفُونَ فيها، وإنْ لم يجدوا طافوا[14] عُراةً مُبْدِينَ عوراتِهِمْ، فَنَهاهُمُ اللهُ تعالى عنْ ذلكَ، وقالَ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي [لا][15] تَنْزِعُوا ثِيابَكُمْ عنْ عوراتِكُمْ. فهو على النَّهْيِ عَنْ نَزْعِ الثيابِ وإبداءِ العَورَةِ.

(١) في الأصل وم: هم. (٢) في الأصل وم: مم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كانوا. (٥) في الأصل وم: الدائمة. (٦) في الأصل وم: لصبي. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يلزم. (٩) من م، في الأصل: يقول. (١٠) من م، في الأصل: الإنسان. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: فيكون فيه. (١٣) في الأصل وم: كانوا. (١٤) في م: بها طافوا فيها. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وكذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ يَخرُجُ على النَّهيِ عمّا حَرَّموا على أنفُسِهِمْ مِن أنواعِ المنافعِ والنِّعَمِ التي أحَلَّ اللهُ لَهُمْ مِنْ تَحريمِ البَحيرَةِ والسائبَةِ والوَصيلَةِ والحامي ومِنْ نَحوِ ما حَرَّموا مِنَ الزَّرْعِ والطَّعامِ وكقولِهِ تعالى: ﴿وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ الآية [الأنعام: ١٣٨].

خُرِّجَ قولُهُ تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ على النَّهيِ عَمّا حَرَّموا مِمّا أحَلَّ لهمْ لا على الأمرِ بالأكلِ والشُّربِ؛ لأنَّ كُلَّ أحدٍ يأكُلُ، ويَشرَبُ، ولا يَدَعُ ذلكَ. فَدَلَّ أنهُ خُرِّجَ على النَّهيِ لِما حَرَّموا. كأنهُ قال: لا تُحَرِّموا، ولكنْ كُلوا، واشرَبُوا، وانتَفِعُوا بها.

فإن كانَ على ابْتِداءِ الأمرِ بأخذِ الزِّينَةِ والتَّجَمُّلِ عندَ كُلِّ مَسْجِدٍ، والمَسْجِدُ هو مكانُ كُلِّ عبادَةٍ ونُسُكٍ على ما يكونُ في غَيرِ ذلكَ مِنَ الأوقاتِ يَتزَيَّنونَ، ويَتجَمَّلُونَ عندَ اجتِماعِ الناسِ. فَعَلى ذلكَ يَكونونَ في مكانِ العِبادَةِ والنُّسُكِ، أو أنْ يكونَ كما في المَسْجِدِ اجْتِماعُ الناسِ لِلْعِبادَةِ[1]، فأُمِروا بِسَتْرِ عَوراتِهِمْ في ذلكَ. ويكونُ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ أي كُلوا، واشرَبُوا، واحفَظُوا الحَدَّ في ذلكَ، ولا تَجاوَزُوا. وهو النَّهيُ عنِ الكَثْرَةِ. وما ذَكَرْنا أنهُ نَهاهُمْ عنِ التحريمِ[2] وتَرْكِ الانْتِفاعِ بها. وفي تَحريمِ ما أحَلَّ اللهُ وتَرْكِ الانْتِفاعِ بها إسرافٌ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ لأنهُ لا يُحِبُّ الإسرافَ.

وقد ذَكَرْنا أنَّ المَفْروضَ مِنَ السَّتْرِ هو ما يُستَرُ بِهِ العَورَةُ. وأمّا غَيرُهُ فإنما هو على دَفْعِ الأذى والتَّجَمُّلِ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقالَ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾؟ [الأعراف: ٢٦] مَنَّ علينا بما أنْزَلَ مِمّا نَستُرُ به عوراتِنا، وإنْ كانتْ لهُ المِنَّةُ في الكُلِّ. وذلكَ قَبيحٌ في الطَّبْعِ أنْ يَنظُرَ أحدٌ إلى عَورَةِ آخَرَ. وعلى ذلكَ جاءتِ الآثارُ في الأمْرِ بِسَتْرِ العَورَةِ: رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ، أنهُ قالَ: «احفَظْ عورَتَكَ إلّا مِنْ زوجَتِكَ أو ما مَلَكَتْ يَمينُكَ، فَقيلَ: يا رسولَ اللهِ فإنْ كانَ بَعضُنا مِنْ بَعْضٍ؟ فقالَ: إنِ استَطَعْتَ أنْ لا تُظهِرَ عَورَتَكَ فافعَلْ، فقيلَ فإذا كانَ أحَدُنا خالياً؟ فقالَ: فاللهُ أحَقُّ أنْ يُستَحيَى منه» [بنحوه البخاري: ٢٧٨] وعنهُ ﷺ [أنهُ][3] قالَ: «لا يَنظُرُ الرجلُ إلى عَورَةِ الرجلِ ولا المرأةُ إلى عَورَةِ المرأةِ» [ابن ماجه ٦٦١] ومثلُهُ كثيرٌ، وفي ما ذَكَرْنا كِفايَةٌ.

وعلى ذلكَ يَخرُجُ الأمرُ بالإقبارِ لِسَتْرِ العَورَةِ. ألا تَرى أنهُ قالَ تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ﴾ الآية [المائدة ٣١] لِئلا يَرى عَورَتَهُ؟ لأنهُ يكونُ جَفاءً.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ قالَ أبو بَكرٍ الأصَمُّ: الزينةُ ههنا هو اللباسُ؛ لأنهُ ذَكَرَ على إثْرِ ذلكَ اللباسَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ والطَّيِّباتُ مِنَ الرِّزقِ ما حَرَّموا، وأحَلَّ اللهُ لهمْ مِنَ البَحيرَةِ والسائبةِ والوَصيلَةِ والحامي وغَيرِ ذلكَ مِمّا كانوا يُحَرِّمونَ الانْتِفاعَ بهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

وقالَ الحَسَنُ: زينةُ اللهِ هو المَركَبُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] جَعَلَ اللهُ ما يُرْكَبُ زينَةً لِلْخَلْقِ، وهُمْ كانوا يُحَرِّمونَ الرُّكوبَ والانْتِفاعَ بها، فقالَ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ وقالَ: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ ألبانُها ولُحومُها.

وقالَ غَيرُهُ مِن أهلِ التأويلِ ﴿زِينَةَ﴾ ههنا النَّباتُ وما يَخرُجُ مِنَ الأرضِ مِمّا هو رزقٌ لِلْبَشَرِ والدَّوابِّ جميعاً كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ الآية [الكهف: ٧] وكقولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ [يونس: ٢٤] أخرَجَ مِنَ الأرضِ زينَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ الحَسَنُ: ﴿هِىَ﴾ يعني الطَّيِّباتِ ﴿خَالِصَةً﴾ لِلْمُؤمنينَ في الآخرةِ لا يُشارِكُهُمُ الكَفَرَةُ فيها. فأمّا في الدنيا فقد شارَكوهُمْ. فالتأويلُ الأوَّلُ يَخرُجُ على التَّقديمِ

(١) في الأصل وم: العبادة. (٢) في الأصل وم: التحريك. (٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

والتأخيرِ كأنهُ قالَ: قُلْ هي للذينَ آمنُوا خالِصةً يومَ القيامَةِ وفي الحياةِ الدنيا لَهُمْ جميعاً بقولِهِ تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لأنهُمْ لم يُحرِّمُوا الطَّيِّباتِ التي أحَلَّ اللهُ لَهُمْ، بَلِ انْتَفعُوا بها، وحَرَّمَ أولئكَ، ولم ينتَفِعُوا بها، فكانَتْ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لِما انْتَفعُوا في الدنيا، وتَزَوَّدُوا بها لِلآخِرةِ، وكانَتْ ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ / ١٧٢ ـ ب/ وإنما كانَتْ[1] خالِصةً لَهُمْ يومَ القِيامَةِ لِما لا يكونُ لِأهلِ الشِّرْكِ ذلكَ لِما لم يَتَزَوَّدُوا لِلْمعادِ؛ قد كانَتْ لَهُمْ في الدنيا لو لم يُحرِّمُوها، وانْتَفعُوا بها.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ دليلُ إباحةِ الزِّينَةِ والتَّناوُلِ مِنَ الطَّيِّباتِ. وقد يَحتَمِلُ أنْ يكونَ خَرَّجَ على النَّهْيِ والإنكارِ على ما كانَ يَفعَلُهُ أهلُ الشِّرْكِ مِنْ نَحْوِ تَحريمِ البَحِيرةِ والسائبةِ والوَصِيلَةِ، فقالَ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ﴾ ما حَرَّمْتُمْ إذا لم يُحرِّمْهُ اللهُ؟ ألا ترى أنهُ قالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾؟[الأعراف: ٣٣] يقولُ، واللهُ أعلَمُ، لم يُحرِّمْ ما حَرَّمْتُمُوهُ مِنْ هذِهِ الأشياءِ، ولكنْ حَرَّمَ الفواحِشَ وما ذَكَرَ.

[وأمّا][2] جوابُهُمْ أنهمْ ماذا يقولُونَ؟ فهو يُخرَّجُ على وجهَينِ:

إنْ قالُوا: حَرَّمَ اللهُ: قِيلَ لهمْ: متى[3] حَرَّمَ، وأنتُمْ قومٌ لا تُؤمِنونَ بالرسُلِ والكتبِ؟ وإنْ[4] قالُوا: حَرَّمَ فلانٌ قِيلَ[5]: كيفَ صَدَّقْتُمْ فلاناً في تحريمِ ذلكَ، ولا تُصدِّقونَ الرُّسُلَ في ما يُخبِرُونَ عنِ اللهِ تعالى معَ ظهورِ صِدْقِهِمْ؟ يَذكُرُ سَفَهَهُمْ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ كأنهُ يقولُ: لَيسَ لِأحدٍ تَحريمُ ما ذَكَرْنا إنما التَّحْريمُ إلى اللهِ، وإنما حَرَّمَ ما ذَكَرَ. وقد يَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ نَزْعِهِمُ الثيابَ عندَ الطَّوافِ وطوافِهِمْ[6] عُراةً على ما ذُكِرَ في القصةِ. وإلى هذا يذهَبُ ابْنُ عباسٍ والحَسَنُ وقَتادةُ وعامّةُ أهلِ التأوِيلِ. وعلى ذلكَ يُخرَّجُ ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ: «ألا لا يَطوفَنَّ بهذا البيتِ عُرْيانٌ ولا مُحدِثٌ» [البخاري: ٣٦٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي نُبيِّنُ الآياتِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لِقومٍ يَنتَفِعونَ بِعِلْمِهِمْ. أو نقولُ: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي كذلكَ نُفَصِّلُ حُكْمَ آيةٍ مِنْ حُكْمِ آيةٍ أخرَى؛ نُفَصِّلُ هذا مِنْ هذا وهذا مِنْ هذا. وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ إنهُ إذا لم يُفْهَمْ مِنْ زِينةِ اللهِ ما يُفْهَمُ مِنْ زِينةِ الخَلْقِ ما يَتَزيَّنُونَ بهِ، ويَتجمَّلُونَ[7]، لا يَجِبُ أنْ يُفْهَمَ مِنِ اسْتِوائِهِ اسْتِواءُ الخَلْقِ ولا مِنْ مَجيئِهِ مَجيءُ الخَلْقِ لأنَّ اسْتِواءَ الخَلْقِ هو انْتِقالٌ مِنْ [حالٍ إلى حالٍ][8]، ولا يجوزُ أنْ يُفْهَمَ منهُ ذلكَ على ما لم يُفْهَمْ مِنْ زِينةِ اللهِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يُشْبِهُ أنْ تكونَ هذِهِ الآيةُ مُقابِلَ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠] كما خَرَجَ آخِرُ الآيةِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠] مُقابِلَ الأوّلِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ والنَّهْيُ هناكَ نَهْيُ تَحريمٍ كالتَّنصِيصِ على التَّحْريمِ، وتكونُ الفَحْشاءُ التي[9] ذَكَرَ في هذِهِ الآيةِ الفواحِشَ التي ذَكَرَ في تلكَ[10]، والمُنكَرُ الذي ذَكَرَ ههنا هو الإثْمُ الذي ذَكَرَ في ذلكَ، وذِكْرُ البَغْيِ ههنا وهناكَ البَغْيَ.

ثم الفحشاءُ هو الذي ظَهَرَ قُبْحُهُ في العَقْلِ والسَّمْعِ، والمُنكَرُ هو الذي ظَهَرَ الإنكارُ فيهِ على مُرْتَكِبِهِ، والإثْمُ هو الذي يأثَمُ المَرْءُ فيهِ، والبَغْيُ هو مِنْ مَظالِمِ الناسِ؛ يَظْلِمُ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: الفواحِشُ الكبائرُ، والإثْمُ هو الصَّغائرُ، والبَغْيُ هو ما أخْذَ ما عُصِمَ مِنْ مالٍ أو نَفْسٍ بِعَقْدِ الإسلامِ

---

(١) في الأصل وم: كان (٢) في الأصل وم: ولم يذكر. (٣) في الأصل وم: من. (٤) في الأصل وم: فإن. (٥) في الأصل وم: فقيل. (٦) في الأصل وم: ويطوف. (٧) في الأصل وم: ويتجملوا. (٨) من م، في الأصل: حلال إلى حلال. (٩) في الأصل وم: الذي. (١٠) في الأصل وم: ذاك.

جنة السنة

على ما رُوِيَ عن نَبِيِّ اللهِ ﷺ، أنهُ قال: «أمِرْتُ أنْ أقاتِلَ الناسَ حتى يَقولُوا: لا إلهَ إلّا اللهُ. فإذا قالُوها عَصَمُوا مِنّي أنْفُسَهُمْ وأموالَهُمْ إلّا بِحَقِّها» [البخاري ٢٥] فكُلُّ ما صارَ مَعْصوماً بالإسلامِ مِنْ مالٍ أو نفسٍ، فأَخْذُ فذلكَ[1] بَغْيٌ وظُلْمٌ إلّا ما ذُكِرَ بِحَقِّها.

وأصْلُ البَغْيِ هو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ. وقالَ أهلُ التَّأويلِ ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هو الزِّنى ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ علانِيَةً ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ منها سِرّاً. لكنَّ الفواحِشَ ما ذَكَرْنا أنَّ ما قَبُحَ في العَقْلِ والسَّمْعِ، وفَحُشَ فيهما، فهيَ الفاحِشَةُ. وأصْلُ المُنْكَرِ كلُّ ما [لا][2] يُعْرَفُ كقولِ إبراهيمَ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٢] والمُنْكَرُ ما أنْكَرَهُ العَقْلُ والسَّمْعُ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ أي وحَرَّمَ أيضاً أنْ تُشْرِكُوا باللهِ. وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ لَيسَ على أنهُ يُنَزِّلُ [به][3] سُلْطاناً على الإشراكِ بحالٍ، ولكنْ على أنَّهُمْ يُشْرِكُونَ باللهِ مِنْ غَيرِ حُجَجٍ وسُلطانٍ؛ لأنَّ أهلَ الإسلامِ هُمُ الذين يَدينُونَ بِدِينٍ ظَهَرَ بالحُجَجِ والآياتِ، وهُمْ يَدينُون بِدِينٍ، لا يَظْهَرُ بالحُجَجِ والآياتِ ولكنْ بما هَوَتْ بِهِ أنفُسُهُمْ، واشْتَهَتْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ [وجهَينِ:

أحَدُهُما][4] أي عُذْراً، لأنهُ يجوزُ أنْ يُعْذَرَ المرءُ بِحالٍ في إجراءِ كلمةِ الكُفْرِ على لِسانِهِ عندَ الإكراهِ، ولا يَصيرُ بِهِ كافراً، إذا كانَ قلبُهُ مُطمئِنّاً بالإسلامِ ومُنْشَرِحاً كقولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]؛ [أي، يُشْرِكُونَ][5] باللهِ مِنْ غَيرِ أنْ يَنْزِلَ بهِمْ حالُ عُذْرٍ، وقولِهِ تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

والثاني: أي تَعْلَمونَ أنهُمْ يَقولُونَ على اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ أنهُ حَرَّمَ كذا، وأمَرَ بِكذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا على الجَهْلِ والأوَّلُ على العِلْمِ كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ [يونس: ١٨] أي أتُنَبِّئُونَ[6] اللهَ [بِما لا يَعْلَمُ؛ أي أتُنَبِّئُونَ[7] اللهَ][8] بما يَعْلَمُ أنهُ لَيسَ ما تَقولُونَ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيه: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ هو بَعْثُ الرُّسُلِ إليهِمْ، فإذا أتاهُمُ الرَّسُولُ [كَذَّبُوهُ، وعانَدوهُ][9] فَعِنْدَ ذلكَ يُهْلَكُونَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩].

ويَحْتَمِلُ أنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أجلاً، لا تَهْلَكُ قَبْلَ بلوغِ أجَلِها؛ لا تَسْتَأْخِرُ، ولا تَسْتَقْدِمُ. فهذا يَرُدُّ على المُعْتَزِلَةِ؛ لأنهمْ يقولُونَ: إنَّ مَنْ قُتِلَ إنما هَلَكَ قَبْلَ بُلُوغِ أجَلِهِ، ويَجعَلُونَ القاتِلَ منهُ مُسْتَقْدِماً لِأجَلِ ذلكَ المَقْتُولِ، واللهُ تعالى يَقولُ: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ قالَ أهلُ التَّأويلِ: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾] سَيأتِيكُمْ[10] رُسُلٌ منكُمْ، أو سوف يأتيكُمْ[11] ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى﴾ أي هُدايَ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] وقولِهِ تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

فعَلى ذلكَ ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى﴾ أي هُدايَ ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وتَحْتَمِلُ الآياتُ الحُجَجَ والبَراهِينَ التي يُضْطَرُّ أهْلُها إلى قَبولِها إلّا مَنْ عانَدَ، وكابَرَ ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ اتَّقى الشِّرْكَ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ وآمَنَ باللهِ، وعَمِلَ صالحاً ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

---

(١) في الأصل وم: ذلك. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: أن تشركوا. (٦) الهمزة ساقطة من الأصل. (٧) الهمزة ساقطة من م. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: فكذبوه وعاندوا. (١٠) في الأصل وم: سيأتينكم. (١١) في الأصل وم: يأتينكم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ يَحتَمِلُ اتَّقى ما نَهى الرُّسُلُ، أو اتَّقى المَهالِكَ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ في ما أمَرَ بِهِ الرُّسُلُ، أو أصْلَحَ أمْرَهُ وعَمَلَهُ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في ذهابِ ما أكْرَمَهُم بِهِ مَولاهُمْ ولا فَوتِهِ؛ لأنَّ خَوفَ الفَوتِ مِمّا يُنَغِّصُ النِّعَمَ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [مِنْ](١) تَبِعاتِهِ وآفاتِهِ، يُخبِرُ أنَّ نَعيمَ الآخِرَةِ على خِلافِ نَعيمِ الدنيا.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ظاهِرُ تأويلِها قد ذَكَرْناهُ في غيرِ مَوضِعٍ حِينَ(٢) لم يَأخُذوا على أحدٍ مِنهُمْ [الصِّدْقَ](٣).

وقولُهُ(٤) تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ﴾ به على خَلْقِهِ مِنَنٌ كَثيرةٌ، ونِعَمُهُ عظيمةٌ حِينَ(٥) بَعَثَ الرُّسُلَ مِنْ جِنسِ المُرسَلِ إليهِمْ:

أحَدُها: أنَّ كلَّ ذي جِنسٍ وجوهرٍ مُستَأنِسٌ بِجِنسِهِ وجَوهَرِهِ، ويَستَوحِشُ بِغَيرِهِ، فَمَنَّ عليهِمْ حِينَ(٦) بَعَثَ الرُّسُلَ مِنْ جِنسِهِمْ وجَوهَرِهِمْ؛ يَستَأنِسُ بَعضُهُمْ بِبَعضٍ، ويألَفُ(٧) بَعضُهُمْ بَعضاً، فذلكَ آخَذُ لِلقُلوبِ وأدْعَى إلى الاتِّباعِ والإجابَةِ.

والثانيةُ(٨): بَعْثُ الرُّسُلِ مِنْ قَومِهِمُ الذينَ نَشَؤوا بَيْنَ أظْهُرِهِمْ، وعَرَفُوا صِدْقَهُمْ وأمانَتَهُمْ لِيَعْلَموا أنهُمْ صادِقُونَ(٩) في ما يَدعُونَ مِنَ الرسالةِ حِينَ(١٠) لم يَظْهَرْ مِنهُمُ الكذبُ والخِيانةُ قَطُّ حتى لم يأخُذوا على أحدٍ مِنهُمُ الكَذِبَ.

والثالثةُ(١١): أنَّ الرُّسُلَ لو كانُوا مِنْ غَيرِ جِنسِهِمْ وغَيرِ جَوهَرِهِمْ لم يَعرِفُوا ما أُوتُوا مِنَ الآياتِ والبَراهِينِ / ١٧٣ ـ أ/ أنها آياتٌ وحُجَجٌ لِما لا يَعْلَمُونَ أنَّ وُسْعَهُمْ لا يَبلُغُ هذا، وطَوقَهُمْ لا يَصِلُ إلى ذلكَ. وإذا كانوا مِنهُمْ يَعرِفونَ ذلكَ، إذا أُوتُوا بِشَيءٍ خَرَجَ عَنْ وُسْعِهِمْ، أنها آياتٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قالَ الحَسَنُ: بِدِينِنا(١٢) ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ وتَحتَمِلُ: آياتُنا حُجَجُنا؛ أي كَذَّبُوا بِحُجَجِنا فإذا كَذَّبُوا بِحُجَجِهِ كَفَرُوا بِهِ؛ لأنهُ ﷻ لا يُعرَفُ مِنْ طَريقِ الحِسِّ والعِيانِ، ولكنْ إنما يُعرَفُ مِنْ طَريقِ الحُجَجِ والآياتِ والدَّلائلِ، فيكونُ الكُفْرُ بآياتِهِ وحُجَجِهِ كُفْراً بِهِ. ويُشبِهُ أنْ تكونَ آياتُهُ آياتِ الرسالةِ وحُجَجَها.

وتَحتَمِلُ آياتُهُ ههنا رُسُلَهُ أي كَذَّبُوا بِرُسُلِنا؛ سَمَّى رُسُلَهُ آياتِهِ؛ لأنَّ [الرسلَ أنفسَهُمْ كانوا آياتٍ](١٣) لِلخَلْقِ تَدُلُّهُمْ على وَحدانِيَّةِ اللهِ، ورسالَتَهُمْ مِنْ أعلامٍ جُعِلَتْ مِنْ أنْفُسِهِمْ مِنْ صِدقِهِمْ وأماناتِهِمْ ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ أي استَكْبَرُوا(١٤) التَّدَبُّرَ فيها والنَّظَرَ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ لأنَّهُمْ يَصْحَبُونَ النارَ والسَّبَبَ الذي يُوجِبُ لَهُمُ النارَ أبداً، فَسُمُّوا أصحابَ النارِ بذلكَ كما يُقالُ: صاحِبُ الدارِ وصاحِبُ الدّابَّةِ، لأنهُ يَصْحَبُها دائماً. فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ سُمُّوا أصحابَ النارِ لِما هُمْ يَصْحَبُونَها دائماً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ إنما هو حرفُ استِفْهامٍ وسُؤالٍ، لم يَخْرُجْ لَهُ جوابٌ. لكنَّ أهْلَ التأويلِ عَرَفُوا ذلكَ، فقالوا: لا أحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ مَعَ عِلْمِهِ أنهُ خالِقُهُ، وأنهُ مُتَقَلِّبٌ في نِعَمِهِ، وأحاطَتْ به أيادِيهِ وإحسانُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أفْحَشَ ظُلْماً، ولا أقْبَحَ ظُلْماً ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ قِيلَ: الافتِراءُ هو اختِراعُ الكَذِبِ مِنْ نَفْسِهِ مِنْ غَيرِ أنْ سَبَقَ لَهُ أحدٌ في ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢] وإمّا قد يكونُ مِمّا أنْشأ هو، وما سَبَقَ لَهُ أحدٌ، فَسَمِعَ عنهُ.

ثم افتِراؤُهُمْ على اللهِ أنواعٌ، يكونُ بما قالُوا: إنَّ لهُ ولداً، وبما قالُوا بأنَّ لَهُ شَريكاً وصاحِبَةً، وبما عَبَدُوا غَيْرَ اللهِ، وقالُوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالُوا(١٥): ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ويكونُ بما

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حتى. (٣) ساقطة في الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وفي قوله. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وتأليف. (٨) في الأصل وم: والثاني. (٩) في الأصل وم: صادقين. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: والثالث. (١٢) في الأصل وم: ديننا. (١٣) في الأصل: أنفس الرسل كانت، في م: أنفس الرسل كانت آيات.
(١٤) في الأصل: استكبرت، في م: استكبر. (١٥) في الأصل وم: و.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ويكونُ بما حَرَّمُوا مِن أشياءَ على أنفُسِهِمْ، فأضافُوا ذلكَ إلى اللهِ ونَحوَ ذلكَ مِنَ الافتِراءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ الحَسَنُ: مَنْ أطاعَ اللهَ في أمْرِهِ ونَهْيِهِ، وأطاعَ رُسُلَهُ، فقد كُتِبَتْ لهُ الجَنَّةُ خالداً فيها أبداً؛ فذلكَ نَصيبُهُ وحَظُّهُ مِنَ الكتابِ الذي كُتِبَ[1] لَهُ، ومَنْ عَصَى اللهَ، وخالَفَ رُسُلَهُ كُتِبَتْ[2] لَهُ النارُ، فهيَ[3] نَصيبُهُ مِنَ الكتابِ.

وقالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: قولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي حَظُّهُمْ مِنَ الجزاءِ[4] والعِقابِ في الآخرَةِ، وهو قولُ القُتَبيِّ.

ويَحتَمِلُ وجهَينِ آخَرَينِ غيرَ هذَينِ:

أحدُهُما: ما حَرَّفُوا مِنَ الكُتُبِ، وغَيَّرُوهُ، ثم أضافُوا ذلكَ، ونَسَبُوهُ إلى اللهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩] وقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨] فصارَ ما حَرَّفُوهُ[5]، وغَيَّرُوهُ سُنَّةً مِنهُمْ، يَعمَلُونَ بها إلى يَومِ القِيامةِ، فَيَنالُونَ هُمْ جزاءَ ذلكَ يومَ القِيامةِ.

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم﴾ مِمّا كَتَبَ لَهُمْ مِنَ الرِّزْقِ والنِّعْمَةِ؛ يَستَوفُونَ ذلكَ المَكتوبَ لَهُمْ، ثم يَموتُونَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ على هذا التأويلِ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ، تَقبِضُ أرواحَهُمْ، وهو ظاهِرٌ.

وعلى تأويلِ مَنْ حَمَلَ ذلكَ على الجَزاءِ في الآخِرَةِ فهو يَجعَلُ المُتَوَفَّى في النارِ لِشِدَّةِ العذابِ، وإنْ كانُوا لا يَموتُونَ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] أي تأتيهِ أسبابُ المَوتِ.

وعلى تأويلِ مَنْ يَجعَلُ قولَهُ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ في الدنيا في استِيفاءِ الرِّزْقِ وما كَتَبَ لَهُمْ، يكونُ قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ﴾ على الإثباتِ. وعلى تأويلِ مَنْ يَقولُ بأنَّ ذلكَ في الآخِرَةِ يَجيءُ[6] أنْ يكونَ على الصِّلَةِ والإسقاطِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يقولُ لَهُمُ المَلائكةُ في النارِ على تأويلِ هؤلاءِ وعلى تأويلِ أولئكَ عندَ قَبْضِ أرواحِهِمْ أو بَعْدَ قَبْضِ أرواحِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [أينَ ما][7] تَعبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، وتَقولُونَ ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وتَقولُونَ[8]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] والأكابِرُ التي ذَكَرَ بقولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾؟ [الأنعام: ١٢٣] ﴿أَيْنَ﴾ أولئكَ الذينَ كُنتُمْ تَعبُدُونَ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ وهَلَكُوا؟ أي بَطَلَتْ[9] عِبادَتُنا التي عَبَدْناهُمْ. ألا تَرى أنهُ قالَ في آيةٍ أُخرى ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾؟ [السجدة: ١٠] أي هَلَكْنا، وبَطَلْنا ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

فإنْ كانَ قولُهُ تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الكُبَراءَ منكُمْ والرُّؤساءَ [يكُنْ قولُهُمْ][10] ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ وإنْ كانَتِ[11] الأصنامُ [يَكُنْ قولُهُمْ][12]: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي بَطَلَ ما كُنّا نَطمَعُ مِنْ عِبادَتِنا إياهُمْ، وهو قولُهُمْ[13] ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ قولُهُ تعالى: ﴿فِي أُمَمٍ﴾ يَحتَمِلُ مَعَ أُمَمٍ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ، يُقالُ:

---

(١) في الأصل وم: كتبت. (٢) في الأصل وم: كتب. (٣) في الأصل وم: فهو. (٤) في الأصل وم: الخير. (٥) في الأصل وم: حرفواهم. (٦) في الأصل وم: فيجيء. (٧) في الأصل وم: أي. (٨) في الأصل وم: وقولهم. (٩) في الأصل وم: بطل. (١٠) في الأصل وم: يكون قوله تعالى. (١١) في الأصل وم: كان. (١٢) في الأصل وم: يكون قوله تعالى. (١٣) في الأصل وم: قوله.

جنة السنة

جاء فلانٌ في جُنْدِهِ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ المَتْبوعِينَ والأتباعِ جميعاً معاً. والعَرَبُ تَضَعُ حُروفَ الخَفْضِ بَعْضَها في مَوضِعِ بَعْضٍ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٩ و٣٠] قيلَ: مَعَ عِبادي.

ويَحْتَمِلُ ﴿فِىٓ﴾ في مَوضِعِهِ؛ كأنَّ المَتْبوعِينَ يدخُلونَ[1] النارَ قَبْلَ الأتباعِ بهؤلاءِ ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ وفيهِ دليلٌ أنَّ الكُفّارَ مِنَ الجِنِّ يُعَذَّبُونَ كما يُعَذَّبُ الكُفّارُ مِنَ الإنسِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ لَعَنَ الأتباعُ المَتْبوعِينَ لِما هُمْ دَعوهُمْ إلى ذلكَ، وهُمْ صَرَفُوهُمْ[2] عَنْ دينِ اللهِ كقولِهِمْ: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبإ: ٣٣] وكقولِهِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ [سبإ: ٣٣] وغيرُ ذلكَ مِنَ الآياتِ. ولَعَنَ [المَتْبوعونَ الأتباعَ][3] لِما يَزدادُ لَهُمُ العذابُ بِكَثْرَةِ الأتباعِ وبِقَدْرِهِمْ؛ فَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

وفيهِ دلالَةٌ أنَّ أهلَ الكُفرِ، وإنِ اختَلَفُوا في مذاهِبِهِمْ فَهُمْ إخوةٌ وأخواتٌ، بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ كالمُؤمنينَ، بَعْضُهُمْ إخوةٌ وأخواتٌ لِبَعْضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هو مِنَ التَّدارُكِ؛ أي حتى إذا تدارَكُوا، وتتابَعُوا فيها.

وقيلَ: هو مِنَ الدَّرْكِ؛ لأنَّ لِلنارِ[4] دَرَكاتٍ، لا يَزالُ أهلُ النارِ يَهْوُونَ فيها، لا قَرارَ لَهُمْ في ذلكَ؛ إذْ في القَرارِ بَعْضُ التَّسَلّي والرّاحةِ، فلا يَزالُونَ يَهْوُونَ فيها دَرْكاً فَدَرْكاً. وقيلَ: ولذلكَ سُمِّيَتْ[5] هاوِيةً.

وقيلَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي اجْتَمَعُوا فيها؛ فَعِنْدَ ذلكَ يَلُومُ[6] بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

فإنْ كانَ على التَّدارُكِ فهو كقولِهِ تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] وإنْ كانَ على الاجْتِماعِ فهو لِلتَّضْييقِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ الآية: [الفرقان: ١٣] ويَجْتَمِعُونَ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿أُخْرَىٰهُمْ﴾ الذينَ في آخِرِ الزمانِ، وأُولاهُمُ الذينَ شَرَعُوا لَهُمْ ذلكَ الدِّينَ ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿أُخْرَىٰهُمْ﴾ الذينَ دَخَلوا النارَ أخيراً، وهُمُ الأتباعُ ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ الذينَ دخَلُوا النارَ أوّلاً، وهُمُ القادةُ والمَتْبوعونَ ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يَعْني القادةَ والسّادةَ ﴿أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦].

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ / ١٧٣ ـ ب/ لَيسَ على القولِ: بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، ولكنْ على الدعاءِ عليهِمْ واللَّعْنِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: لِكُلٍّ ضِعْفٌ مِنَ النارِ، [لا][7] تزالُ تَزْدادُ، وتَعْظُمُ، وتَكْبُرُ، فذلكَ الضِّعْفُ، وذلكَ لِلأتباعِ والمَتْبوعِينَ[8] جميعاً. وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي لِلْمَتْبوعِينَ والقادةِ ضِعْفٌ. وقالَ لَهُمْ مَلَكٌ أو خَزَنَةُ [جَهَنَّمَ][9] أو مَنْ كانَ، وليسَ[10] لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ بَعْدَ أنْ يُقالَ لَهُمْ: ذلكَ قولُهُ[11] تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ في الدنيا أنَّ لكُمْ ضِعْفاً منها. وقيلَ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ لِلحالِ بأنَّ لِكُلٍّ ضِعْفاً مِنَ النارِ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿أُولَىٰهُمْ﴾ ما ذَكَرْنا: الذينَ شَرَعُوا لَهُمْ ذلكَ الدِّينَ، وسَنُّوا لَهُمْ ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ الذينَ كانُوا في آخِرِ الزَّمانِ. ويَحْتَمِلُ ﴿أُولَىٰهُمْ﴾ الذينَ دَخَلُوا أوّلاً ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ لِلَّذينَ دَخَلُوا النارَ أخيراً، وهُمُ الأتباعُ: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قِيلَ فيهِ بوجهَيْنِ: يَحْتَمِلُ ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ في شَيءٍ؛ فقد

---

(١) من م، في الأصل: يدخل. (٢) في الأصل وم: صرفوا. (٣) من م، في الأصل: المتبوع. (٤) في الأصل وم: النار. (٥) في الأصل وم: سمى. (٦) في الأصل وم: يتلاوم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: والمتبوع. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وقوله.

جنة السنة

ضَلَلْتُمْ كما ضَلَلْنا، أي لم يكُنْ لنا عليكُمْ فَضْلُ سلطانٍ، ولا كانَ معنا حُجَجٌ وآياتٌ، قَهَرْناكُمْ عليهِ، إنما دَعَوْناكُمْ إلى ذلكَ، فاسْتَجَبْتُمْ لنا، وقد كانَ بُعِثَ إليكُمُ الرُّسُلُ مَعَ حُجَجٍ وآياتٍ، فلم تُجيبوهُمْ.

وهو كَخُطْبَةِ إبليسَ حِينَ[1] قالَ: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢] فيقولُ هؤلاءِ القادةُ لِلأتباعِ مِثْلَ قولِ الشيطانِ لِجُمْلَتِهِمْ.

وقِيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ يَعْنِي تخفيفَ العذابِ، أي نحنُ وأنتُمْ في العذابِ سَواءٌ؛ لا فَضْلَ لَكُمْ علينا مِنْ تخفيفِ العذابِ في شيءٍ.

أحَدُ التأويلَيْنِ في قولِهِ كانَ ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ يَرْجِعُ إلى الآخِرَةِ، والآخَرُ إلى الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ والتكذيبِ لآياتِ اللهِ، وكذلكَ ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢ و٩٥] وكذلكَ[2]: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧ و...].

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ هذا قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ[3].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: يَعْنِي بأبوابِ السماءِ أبوابَ الجِنانِ، لأنَّ الجِنانَ تكونُ في السماءِ، فَسَمَّى أبوابَ السماءِ لِما الجِنانُ فيها. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾؟ [الذاريات: ٢٢] وما يُوعَدُ لنا هو الجنّةُ.

ثم أخْبَرَ أنها في السماءِ؛ ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أيضاً؟

وقالَ آخرونَ: ﴿أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ هي[4] أبوابُ السماءِ؛ وذلكَ أنَّ أعمالَ المُؤمِنينَ تُرْفَعُ إلى السماءِ، وتَصْعَدُ[5] إليها أرواحُهُمْ؛ وأعمالَ الكَفَرَةِ وأرواحَهُمْ تُرَدُّ إلى أسْفَلِ السافِلِينَ كقولِهِ تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وقالَ في الكافِرِ: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٥ و٦] فإذا كانَتْ أعمالُ المؤمِنينَ وأرواحُهُمْ تُرْفَعُ إلى السماءِ، وتَصْعَدُ إليها أخْبَرَ أنهُ لا تُفْتَحُ لِلكافِرِينَ[6] أبوابُ السماءِ ولا لأعمالِهِمْ، ولكنْ تُرَدُّ إلى السِّجِّينِ.

وأمكَنَ أنْ يكونَ على التَّمْثيلِ، لَيسَ على تحقيقِ السماءِ، ولكنْ ذَكَرَ السماءَ لِما أنَّ السماءَ هيَ مَكانُ الطَّيِّباتِ مِنَ الأشياءِ وقَرارُها، لا مَكانُ الخَبائِثِ والأقذارِ، والأرضُ هي مكانُ ذلكَ، وأعمالُ الكَفَرَةِ خَبيثةٌ، فَكَنَّى عنْ أعمالِهِمُ الخبيثةِ بالأرضِ [التي][7] هي مَعْدِنُ الخَبائِثِ والأنجاسِ، وكَنَّى عنْ أعمالِ المؤمِنينَ الطَّيِّبَةِ بالسماءِ، وهو كما ضَرَبَ مَثَلَ الإيمانِ بالشَّجَرَةِ[8] الطَّيِّبَةِ الثابِتَةِ ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] وضَرَبَ مَثَلَ الكُفْرِ[9] بالشَّجَرَةِ الخبيثةِ المُجتَثَّةِ ﴿مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: ٢٦] لَيسَ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] على تَحْقيقِ السماءِ، ولكنْ على الوَصْفِ بالطِّيبِ والقَبولِ، فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لا يَسْتَقيمُ مِثْلُهُ على الابتِداءِ إلا عَلَى نَوازِلَ تَسْبِقُ. خَرَجَ ذلكَ جَواباً لها نَحْوَ قولِهِ تعالى: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ الآية [البقرة: ١١١] أو أنْ ذَكَرُوا أعمالَ أنْفُسِهِمْ أنهُمْ يَعْمَلُونَ كذا، فقالَ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

فإنْ قِيلَ: كيفَ خَوَّفَهُمْ بِما ذَكَرَ مِنْ سَدِّ الأبوابِ عليهِمْ؟ وجَعَلَ لَهُمْ مِهاداً وغَواشِيَ، وهُمْ لا يُؤمِنونَ بذلكَ كُلِّهِ، كيفَ خُوِّفُوا بِهِ؟ قِيلَ: المَرْءُ إذا خُوِّفَ بِشيءٍ، فإنهُ يَخافُ، ويهابُ[10] ذلكَ، وإنْ لم يَتَيَقَّنْ بذلكَ، ولا تَحَقَّقَ عندَهُ ما خُوِّفَ بِهِ حتى يَسْتَعِدَّ لِذلكَ، ويَتَهَيَّأَ، وإنْ كانَ على شَكٍّ مِنْ ذلكَ وظَنٍّ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في تفسير الآية (٣٦) من السورة. (٤) في الأصل وم: هو. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الشجرة. (٩) في الأصل وم: الكفرة. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: له.

جنة السنة

فَعَلى ذلكَ هؤلاءِ خُوِّفُوا بالنارِ وأنواعِ العذابِ، وإنْ كانُوا شاكِّين في ذلكَ غَيْرَ مُصدِّقِينَ لِما يجوزُ أنْ يهابَهُمْ ذلكَ، أو أنْ يُخوِّفَهُمْ بذلكَ المؤمنونَ[1] كقولِهِ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ۱۳۱] وقولِهِ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] أو أنْ يكونَ التَّخويفُ لِمَنْ آمَنَ مِنهُمْ بالبَعْثِ لأنَّ مِنهُمْ مَنْ قد آمَنَ بالبَعْثِ والجزاءِ والثوابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: حتى تَلِجَ البَعِيرةُ في خَرْقِ الإبرةِ، وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ حتى يدخُلَ الجَمَلُ الذي تُشَدُّ بِهِ السفينةُ في خَرْقِ الإبرةِ، وقالَ أبو عَوسَجَةَ: يَعْني خَرْقَ الإبرةِ أوِ المَسَلَّةِ، والجَمَلُ الجَبَلُ، والخِياطُ الإبرَةُ أو المَسَلَّةُ. وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: لَيسَ بالجَمَلِ ذي[2] القوائمِ يَعْني القَلْسَ، وقالَ ابنُ مَسْعودٍ، هو الجَمَلُ ذو القَوائِمِ الأربعِ، واللهُ أعْلَمُ بما أرادَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كذلكَ نَجزي كُلَّ مُجرِمٍ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قِيلَ: الفُرُشُ ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ هي اللُّحُفُ أوِ الحَواشِي ما يَتغشّاهُمْ فيها[3]؛ النارُ تُحيطُ بهِمْ مِنْ تَحْتُ ومِنْ فوقُ وأمامٍ وخلفٍ كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٢٤] أي لا يَتَّقي لِما يُحيطُ بِهِمُ العذابُ، وهو[4] كقولِهِ تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ الآية [الزمر: ١٦] أخبَرَ أنَّ النارَ تُحيطُ بهِمْ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: قولُهُ تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لَيسَ مِنْ جِنْسِ ما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لكنهُ صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ [الأعراف: ٣٥] [كأنهُ][5] يقولُ في ما تَقدَّمَ ذِكْرُهُ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

وأمّا عِنْدَنا فإنهُ يَستقيمُ أنْ يُجْعَلَ صِلَةَ ما تَقدَّمَ؛ أي لا نُكلِّفُ نَفْساً مِنَ الأعمالِ الصالحاتِ إلّا وُسْعَها ودُونَ طاقَتِها ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا﴾ ما تَسَعُ، ويَحتَمِلُ [أنْ يكونَ][6] صِلَةَ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨] [كأنهُ][7] يقولُ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا﴾ ما تَسَعُ، ويَحِلُّ، لا ما تَسَعُ، ولا يَحِلُّ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ قالَ القُتَبيُّ: الغِلُّ الحَسَدُ والعَداوةُ، وقِيلَ: الغِلُّ والغِشُّ واحدٌ؛ وهو ما يُضمِرُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِنَ العَداوةِ والحِقْدِ، وقِيلَ: الغِلُّ الحِقْدُ.

ثم اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ في الدنيا يَنْزِعُ اللهُ ﷻ مِنْ قُلُوبِهِمُ الغِلَّ؛ يَعْني قُلوبَ المؤمنينَ، ويَجْعَلُهُمْ إخواناً بالإيمانِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣]؛ أخبَرَ أنهُمْ كانُوا أعداءً، فألَّفَ بَيْنَ قُلوبِهِمْ بالإيمانِ الذي أكرَمَهُمْ بِهِ حتى صارُوا إخواناً بَعْدَ ما كانُوا أعداءً.

قالَ الحَسَنُ: لَيسَ في قُلُوبِ أهلِ الجَنّةِ الغِلُّ والحَسَدُ، إذْ هُما يُهِمّانِ، ويُحْزِنانِ، إنما فيها الحُبُّ.

قالَ بَعْضُهُمْ: هذا في الآخِرةِ؛ يَنْزِعُ اللهُ تعالى مِنْ قُلُوبِهِمُ الغِلَّ الذي كانَ في ما بَيْنَهُمْ في الدنيا، ويَصِيرُونَ جميعاً إخواناً كقولِهِ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

ورُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ [أنهُ][8] قالَ: لأرجُو أنْ أكونَ أنا وعُثمانُ وطَلْحَةُ والزُّبَيرُ مِنَ الذينَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي

---

(١) في الأصل وم: المؤمنين. (٢) في الأصل وم: ذو. (٣) في الأصل وم: فيه. (٤) في الأصل وم: وهي. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وهو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]. وعَنِ ابْنِ عبّاسٍ / ١٧٤ ـ أ/ ﷺ [أنهُ][(١)] قالَ: نَزَلَتْ في عليٍّ[(٢)] وأبي بَكْرٍ وعُثمانَ وطَلْحَةَ والزُّبيرِ وابْنِ مَسْعُودٍ وعَمّارٍ وسَلْمانَ وأبي ذَرٍّ، رِضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجْمَعينَ، سَيَنْزِعُ[(٣)] في الآخِرَةِ ما كانَ في قُلُوبِهِمْ مِنْ غِشٍّ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ في الدنيا مِنَ العَداوَةِ والقَتْلِ الذي كانَ بَعْدَ رسولِ اللهِ ﷺ، والأمْرِ الذي اخْتَلَفُوا فيهِ، فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ.

هذا، واللهُ [أعْلَمُ][(٤)]؛ لأنَّ الذي كانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الاخْتِلافِ والقِتالِ كانَ دُنْيَوِيًّا[(٥)] لم يَكُنْ بِحَقِّ[(٦)] الدِّينِ؛ فذلكَ يرتفِعُ في الآخِرَةِ، ويَزولُ. وأمّا العَداوَةُ التي هي بَيْنَنا وبَيْنَ الكَفَرَةِ فَهِيَ لا تَزولُ أبداً في الدنيا والآخِرَةِ، لأنها عَداوَةُ الدِّينِ والمَذْهَبِ، ذلكَ لا يَرْتَفِعُ أبداً.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ على ابْتِداءِ النَّزْعِ لا على أنْ كانُوا فيهِ كقولِهِ تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إلى قولِهِ تعالى][(٧)] ﴿مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ على ابْتِداءِ[(٨)] المَنْعِ؛ أي لولا إخراجُهُ إيّاهُمْ مِنْ ذلكَ لَكانُوا[(٩)] فيهِ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ أي لم نَجْعَلْ في قلوبِهِمُ الغِلَّ رَأساً، ولو تَرَكَهُمْ على ما هُمْ عليهِ لَكانَ فيهِمْ ذلكَ.

وفيهِ دلالةُ أنَّ للهِ في فِعْلِ العِبادِ صُنْعاً؛ لأنَّ الغِشَّ مِنْ فِعْلِ العِبادِ، يُذَمُّونَ على ذلكَ. ثم أخْبَرَ أنهُ نَزَعَ ذلكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ، واسْتَأدَى مِنْهُمُ الشُّكْرَ بذلكَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ الآيةَ. وقد ذُمَّ مَنْ طَلَبَ الحَمْدَ على ما يَفْعَلْ، فَدَلَّ طَلَبُ الحَمْدِ مِنْهُمْ على أنَّ لَهُ فيهِ صُنْعاً، بذلكَ طَلَبَ منهُمُ الحَمْدَ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعْلَمُ، لِما عَلِمَ ﷻ مِنْ طِباعِ الخَلْقِ الرغبةَ في هذهِ الأنهارِ الجارِيَةِ في الدنيا في ما يَقَعُ عليها الأبصارُ، فَرَغَّبَهُمْ في الآخِرَةِ بما كانَتْ طِباعُهُمْ وأنْفُسُهُمْ تَميلُ إلى ذلكَ في الدنيا لِيَرْغَبُوا في ما أمَرَ، ويَنْتَهُوا عَمّا نَهى. وكذلكَ جميعُ ما ذَكَرَ في القرآنِ مِنَ القُصورِ والخيامِ والجواري والغِلْمانِ والأكوابِ والأباريقِ وغَيرِ ذلكَ مِمّا تَرْغَبُ طِباعُ الخَلْقِ في ذلكَ في الدنيا، وتَميلُ أنْفُسُهُمْ إلى ذلكَ. وَعَدَ لَهُمْ في الآخِرَةِ تَرْغيباً منهُ لَهُمْ في ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ قالَ الحَسَنُ وغَيْرُهُ: هَدانا دَلَّنا ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

وأمّا[(١٠)] عندَنا [فهو لَيسَ][(١١)] هدايةَ الدلالةِ والبَيانِ [لِوجوهٍ]:

أحَدُها: أنَّ[(١٢)] الهدايَةَ التي أكْرَمَهُمُ اللهُ بها بِفَضْلِهِ ولُطْفِهِ، هي[(١٣)] توفيقُهُ إياهُمْ على الهُدى، إنهُ خَرَجَ مَخْرَجَ الاعْتِناءِ والفَضْلِ. ولو كانَ دلالةً وبَياناً لكانَ لا مَعْنى لِتِلْكَ[(١٤)] المِنَّةِ والفَضْلِ؛ لأنَّ عليهِ الدلالةَ والبَيانَ.

والثاني: لو كانَ على الدلالةِ والبَيانَ لكانَ ذلكَ على كُلِّ أحدٍ على الرُّسُلِ وغَيرِهِمْ؛ لأنَّ عليهِمُ البَيانَ والدلالةَ، فَدَلَّ أنهُ لَيسَ على الدلالةِ والبَيانِ ولكنْ [على][(١٥)] غَيرِهِ.

والثالثُ: أنهُ لا أحَدَ عندَ نَفْسِهِ أنهُ يَزيغُ، ويَضِلُّ، وقتَ ما هَداهُ اللهُ، وَوَفَّقَهُ. وقد يجوزُ أنْ يكونَ ذلكَ في الدلالةِ والبَيانِ. دلَّ أنهُ لم يَحْتَمِلْ ما قالَ أُولئكَ مِنَ الدلالةِ والبَيانِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقالَ بَعْضُ الناسِ: إنَّ المُعْتَزِلَةَ خالَفُوا اللهَ مِمّا أخْبَرُوا، وخالَفُوا الرُّسُلَ، عَمّا أخْبَرُوا عنِ اللهِ تعالى، وخالَفُوا أهْلَ الجَنَّةِ والنارِ، وخالَفُوا إبْليسَ.

أمّا مُخالَفَتُهُمُ اللهَ [فهيَ][(١٦)] قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ ونَحْوُهُ، ومُخالَفَتُهُمُ الرُّسُلَ [هي][(١٧)] قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ الآيةَ [هود: ٣٤]، [ومُخالَفَتُهُمْ أهلَ النارِ بقولِهِ تعالى][(١٨)]: ﴿قَالُوا۟ لَوْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج بعدها في الأصل: رضي الله تعالى عنه. (٣) في الأصل وم: فينزع. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: دنيوية. (٦) في الأصل وم: بحيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الابتداء. (٩) في الأصل وم: وإلا كانوا. (١٠) من م، في الأصل: وما. (١١) في الأصل وم: ليس هو. (١٢) في الأصل وم: ولكن (١٣) في الأصل وم: وهو. (١٤) في الأصل وم: لذلك. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) في الأصل وم: وقول أهل النار.

جنة السنة

هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١] [ومُخالفتَهُمْ إبليسَ بقولِهِ تعالى](١): ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩] هو أعْلَمُ باللهِ مِنَ المُعْتَزِلَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالدِّينِ الذي هو حَقٌّ، أو جاؤوا بالأعمالِ التي مَنْ عَمِلَ بها كانَ صَواباً ورُشْداً. وكُلُّ حَقٍّ هو صوابٌ ورُشْدٌ. ويَحْتَمِلُ: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالصِّدْقِ ونَحْوِهِ.

[وقولُهُ تعالى](٢): ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لَهُ وجهانِ:

أحدُهما: بالحَقِّ الذي اسْتَحَقَّهُ على عبادِهِ،

والثاني: أنهمْ جاؤوا بالذي هو حَقٌّ في العُقولِ وصَوابٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ وقولُهُ: ﴿تِلْكُمُ﴾ إنما يَتَكَلَّمُ عنْ غائبٍ، وهُمْ فيها. لكنَّ تأويلَهُ، واللهُ أعْلَمُ، أنَّ تِلْكُمُ الجَنَّةَ التي كُنْتُمْ وُعِدْتُمْ في الدنيا، وأُخْبِرْتُمْ عنها، هذِهِ ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وإنما يُورِثُ ذلكَ بالإيمانِ. وسائِرُ الأعمالِ إنما تَصِحُّ بالإيمانِ؛ ذَكَرَ أنهُمْ أُورِثُوا الجَنَّةَ بِما عَمِلُوا، وإنْ كانُوا يَنالونَها بِفَضْلِ اللهِ جَزاءً وشكْراً بِقَولِهِمُ الذي قالُوا ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ وما وعَدَ المؤمنينَ ﷻ ما(٣) فيها مِنَ النَّعيمِ واللَّذَّاتِ والشَّهَواتِ بِقولِهِ تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] وقولِهِ تعالى ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦ومحمد: ١٥].

هذا الذي وَعَدَ لِلمؤمِنِينَ، ووَعَدَ لِلكافِرِينَ النارَ وما (٤) فيها مِنَ الشدائِدِ وأنواعِ العذابِ، فأقَرُّوا أنهُمْ قد وَجَدُوا ما وَعَدَ لَهُمْ رَبُّهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ إنَّ المُرادَ بالحَقِّ الذي ذَكَرَ الوعْدُ الذي وَعَدَهُمْ، وتَفْسيرَ الحَقِّ الصِّدْقُ، وإنْ كانَ الموعودَ فتَأويلُهُ: وَجَدْتُموهُ كائناً حاضِراً، وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كذا.

[وقولُهُ تعالى](٥): ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وَجَبَتْ لَعْنَةُ اللهِ على الظالِمِينَ الذين وُعِدوا في الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ المَلَكَ. ويَحْتَمِلُ غَيْرَهُ. ولَيسَ يُعْرَفُ ذلكَ إلّا بالخَبَرِ. ولَيسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ.

فإنْ قِيلَ: يَذْكُرُ في الآيةِ نِداءَ أهْلِ الجَنَّةِ أهْلَ النارِ ونداءَ أهْلِ النارِ أهْلَ الجَنَّةِ، ونداءُ بَعْضِهِمْ لا يكونُ إلّا بِحَيثُ يكونُ بَعْضُهُمْ قَريباً مِنْ بَعْضٍ.

وقد جاءَ في الأخبارِ مِنْ وَصْفِ الجَنَّةِ وسَعَتِها ما رُوِيَ أنَّ أقَلَّ ما يكونُ لِواحِدٍ مِنَ الجَنَّةِ مِثْلُ عَرْضِ الدنيا، وما ذُكِرَ أنَّ الحُورَ العِينَ لو نَظَرَتْ نَظْرَةً إلى الدنيا لامْتَلأتِ الدنيا مِنْ ضَوئِها ونُورِها وكذلكَ مِنْ رِيحِها وعِطْرِها.

وقد جاءَ في وَصْفِ النارِ أنَّ شَرارَةً منها [لَو](٦) وقَعَتْ في الدنيا لأحْرَقَتْها(٧)، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

فإذا كانَ بَعْضُهُمْ [قَريباً](٨) مِنْ بَعْضٍ بِحَيثُ يَسْمَعُ(٩) بَعْضُهُمْ نِداءَ بَعْضٍ ألا يَتأذّى أهْلُ الجَنَّةِ بالنارِ؟ [ولا يَنْتَفِعُ أهلُ النارِ](١٠) بِنَعيمِ الجَنَّةِ؟ وكيفَ يُعْرَفُ ذلكَ؟ قِيلَ: واللهُ أعْلَمُ، [إنه ﷻ لَقادِرٌ](١١) أنْ يَضَعَ(١٢) نِداءَ هؤلاءِ بِمَسامِعِ أولئكَ، ونِداءَ أولئكَ بِمَسامِعِ هؤلاءِ مَعَ بُعْدِ ما بَيْنَهُما، فَيَسْمَعَ كُلُّ فَرِيقٍ نِداءَ الفَريقِ الآخَرِ على غَيْرِ هذِهِ البِنْيَةِ مَعَ ارْتِفاعِ الآفاتِ والحُجُبِ التي تَمْنَعُ ذلكَ. فإذا ارْتَفَعَ ذلكَ كانَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعْلَمُ، أو يُقَرِّبُ الجَنَّةَ مِنَ النّارِ والنّارَ مِنَ الجَنَّةِ بِحيثُ يَسْمَعُ

---

(١) في الأصل وم: وقول إبليس. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: وما. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: لأحرقته. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يسمعون. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: وقادر. (١٢) في الأصل وم: يوضع.

جنة السنة

بَعْضُهُمْ منْ بَعْضٍ ما ذَكَرَ مِنَ السماءِ، أو يَجْعَلُ ذلكَ في مَسامِعِهِمْ بِما شاء وكيفَ شاءَ؟ كَتَسْبيحِ الجبالِ وخِطابِ النَّمْلِ وجَوابِهِ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الصَّدُّ يكونُ مَنْعَ غَيْرِهِ[1]، ويكونُ مَنْعَ نَفْسِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: دِينُ اللهِ. قالَ الحَسَنُ: سَبيلُ اللهِ دِينُ اللهِ الذي ارْتَضَى لِعِبادِهِ، وأمَرَهُمْ بذلكَ، وإلى ذلكَ دعا[2] رُسُلَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يَبْغونَ الدِّينَ الذي فيهِ عِوَجٌ، وهو دِينُ الشيطانِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فالعِوَجُ هو التَّفَرُّقُ الذي ذَكَرَ في تلك الآيةِ. وأمْكَنَ أنْ يَكونَ قولُهُ ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي طَعْناً في دينِ اللهِ. وقد كانوا يَبْغُونَ طَعْناً في دينِ اللهِ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الحِجابِ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخْرَى، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] فأمْكَنَ أنْ يكونَ الحِجابُ المَذْكورُ بَيْنَهُما هو السُّورَ الذي/ ١٧٤ ـ ب/ ذُكِرَ[3]، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هُمْ[4] قومٌ اسْتَوَتْ حَسَناتُهُمْ بِسَيِّئاتِهِمْ، لم يُبَشَّروا بالجَنَّةِ حتّى [إنهم][5] لا يَخافُونَ عقوبَتَهُ، ولا أيسوا حتى [إنهم][6] لا يَطْمَعُونَ ولا يَرْجُونَ دخولَهُمْ فيها. وقالَ آخَرُونَ: هُمْ أهْلُ كَرامةِ اللهِ، أكرمَهُمُ اللهُ بذلكَ، يرفَعُهُمُ اللهُ على ذلكَ السورِ لِيَنْظُرُوا إلى حُكْمِ [اللهِ][7] في الخَلْقِ وعَدْلِهِ فيهِمْ، ويَنْظُرُونَ إلى إحسانِ اللهِ في مَنْ يُحْسِنُ إليهِ وعَدْلِهِ في مَنْ يُعاقِبُهُمْ. وقيلَ: هُمُ الأنبياءُ.

والأشْبَهُ أنْ يكونُوا الأنبياءَ؛ يكونونَ على الأعرافِ، يَشْهَدونَ على الأُمَمِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقالَ قائلونَ: هُمُ الملائكةُ لكنَّ ملائكةَ اللهِ ما يُسَمَّونَ رجالاً[8]، ولم نَسْمَعْ بذلكَ، واللهُ أعْلَمُ بذلكَ.

ثم اخْتُلِفَ فيهِ: قيلَ: سُمُّوا أصحابَ الأعرافِ، وهو سورٌ بَيْنَ الجَنَّةِ والنارِ؛ سُمِّيَ بذلكَ لِارْتِفاعِهِ، وكُلُّ مُرْتَفِعٍ عندَ العرَبِ عُرْفٌ[9]، وهو قولُ القُتَبِيِّ. وقالَ غَيْرُهُ: الأعرافُ هو عُرْفٌ كَعُرْفِ الدِّيكِ والفَرَسِ، وهو أيضاً مِنَ الارْتِفاعِ.

وقالَ الحَسَنُ: هُمْ أصحابُ التَّعْريفِ؛ يُعَرِّفُونَ أهلَ النارِ وَعْدَ اللهِ فيهِمْ وحُكْمَهُ، وأنَّ ما حَلَّ بِهِمْ مِنَ الشَّدائِدِ والعذابِ إنما حَلَّ بِهِمْ مِمّا كانَ منهُمْ في الدنيا مِنْ صَدِّهِمُ الناسَ عنْ سَبيلِ اللهِ واسْتِكْبارِهِمْ على الرُّسلِ؛ يُعَرِّفُونَهُمْ أنَّ ما نَزَلَ بِهِمْ إنما نَزَلَ بِعَدْلٍ منهُ، ويُعَرِّفُونَ أهلَ الجنَّةِ فَضْلَ اللهِ وإحْسانَهُ إليهِمْ أنَّ ما نالُواهُمْ إنما نالُوا بِفَضْلٍ وإحسانٍ، أو قومٌ نَصَبَهُمُ اللهُ لِمُحاجَّةِ أهلِ [النارِ][10] كقولِهِ تعالى: ﴿أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨] فهذِهِ المُحاجَّةُ التي يُحاجُّونَ بها أهْلَ النارِ.

وقيلَ[11]: هُمْ قومٌ نُصِبُوا يُتَرْجِمُونَ بينَ أهْلِ الجنةِ وأهل النارِ، يُؤَدُّونَ كلامَ بَعْضِهِمْ إلى بَعْضٍ، ويُنْهُونَ مُخاطَباتِ بَعْضِهِمْ إلى بَعْضٍ. مِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤] ونَحْوُهُ، واللهُ أعْلَمُ مَنْ هُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ قيلَ: المؤمِنُ يُعْرَفُ بِبَياضِ وَجْهِهِ، والكافِرُ بِسَوادِ وَجْهِهِ. ويَحْتَمِلُ ما قالَ الحَسَنُ: هو أنْ يُعَرِّفُوا بالمَنازِلِ والأماكِنِ.

---

(١) في الأصل وم: غير. (٢) في الأصل وم: دعاهم. (٣) في الأصل وم: ذكروا. (٤) في الأصل وم: هو. (٥) و(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: رجلا. (٩) في الأصل وم: أعراف. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: أو أن يقال.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ يَعْني نادَى أصحابُ الأعرافِ ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ لَيسَ أنْ يَقولُوا: سلامٌ عليكُمْ باللِّسانِ خاصَّةً، ولكنْ في كُلِّ كلامٍ سَديدٍ وقولٍ حَسَنٍ وصَوابٍ كقولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢] أي سَديداً صَواباً، وكذلكَ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] لَيسَ على أنْ يَقولُوا سلامٌ عليكُمْ، ولكنْ يَقولونَ لهمْ قولاً صَواباً مُحكَماً. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: هُمْ أصحابُ الأعرافِ، لم يَدْخُلوها، وهُمْ يَطْمَعونَ دخولَها. وقيلَ: هُمْ كُفّارُ أهلِ النارِ يَطْمَعونَ أنْ يَنالُوا منها كقولِهِ تعالى: ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] إلى هذا الوَقْتِ يَطْمَعونَ دُخولَها والنَّيلَ منها. ثم أيِسُوا بهذا.

وقالَ بَعْضُهُمْ: هُمْ أهلُ الجنَّةِ يَطْمَعونَ دخولَها قَبْلَ أنْ يدخلَ أهلُ الجنَّةِ [الجنَّةَ][1] وقبلَ أنْ يَدْخلَ أهلُ النارِ النارَ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ قُلْنا [أبصارُ][2] أصحابِ النارِ. قِيلَ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ﴾ أبصارُ الأعرافِ إلى أهلِ النارِ ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِنْ شِدَّةِ ما يَرَوْنَ مِنَ العذابِ وما نَزَلَ بِهِمْ. وقِيلَ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ﴾ أبصارُ أهلِ الجنَّةِ ﴿تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفي حَرْفِ أُبَيٍّ [بْنِ كَعْبٍ][3]: وإذا قُلِبَتْ أبصارُهُمْ نَحْوَ ﴿أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟﴾ [إنا][4] عائِذُونَ بكَ أنْ تَجْعلَنا ربَّنا ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إنْ كانَ ذلكَ الدعاءُ مِنَ الأنبياءِ أو مِنْ أهلِ كرامَةِ اللهِ الذينَ كانُوا على الأعرافِ فذلكَ منهُمْ شهادَةٌ أنهُمْ ظَلَمَةٌ وكَفَرَةٌ، ومَعْنَى التَّعَوُّذِ منهُمُ النارَ لأنهُمْ لم يَدْخُلوا الجنَّةَ بَعْدُ، فَيخافونَ لِقُصورٍ كانَ مِنهُمْ في شُكْرِ المُنْعِمِ، أو بالطَّبْعِ يَتَعَوَّذُونَ كما[5] يَتَعَوَّذُ كُلُّ أحَدٍ إذا رَأى أحَداً في البَلاءِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التَّأويلِ: يُعْرَفونَ بِسَوادِ الوُجوهِ وزُرْقَةِ العُيونِ، ولكنْ أمْكَنَ أنْ يُعْرَفوا بالأعلامِ التي كانَتْ لَهُمْ في الدنيا سِوَى سَوادِ الوُجُوهِ؛ لأنهُمْ يخاطِبُونَهُمْ بقولِهِ: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلو لم يَعْرِفُوهُمْ[6] بآثارٍ كانَتْ لَهُمْ في الدنيا لم يكونُوا يُعاتِبونَهُمْ بِجَمْعِ الأموالِ والاسْتِكْبارِ في الدنيا، ولا يُقالُ لِلْفُقَراءِ ذلكَ، إنما يُقالُ لِلأغنياءِ لأنهُمْ هُمُ الذينَ يَجْمَعُونَ الأموالَ، وهُمُ المُسْتَكْبِرُونَ على الخَلْقِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]. ويُشْبِهُ أنْ يُخاطِبَ الكُلَّ فيهِمْ مَنْ قَدْ جَمَعَ، واسْتَكْبَرَ، وذلكَ جائزٌ. هذا على تأويلِ مَنْ يَجْعَلُ أصحابَ الأعرافِ الذينَ اسْتَوَتْ حَسَناتُهُمْ بِسَيِّئاتِهِمْ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التَّأويلِ: ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ [يا][7] أهلَ النارِ أنَّ أصحابَ الأعرافِ لا يدخُلُون الجنَّةَ، ولكنْ يدخُلُونَ النارَ مَعَكُمْ[8].

فيقولُ الملائكةُ لأهلِ النارِ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ القَسَمُ الذي ذُكِرَ في الآيةِ كانَ منهُمْ في الدنيا؛ كانُوا[9] يُقْسِمُونَ ألّا يدخُلَ[10] هؤلاءِ الجنَّةَ؛ يَعْنُونَ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ، كقولِهِ تعالى: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] كانُوا [يَقُولُونَ:][11] إنَّ الذي هُمْ عليهِ لو كانَ خيراً لَنالُوا هُمْ ذلكَ إذْ نالُوا هُمْ كُلَّ خيرٍ في الدنيا، يَعْنُونَ أنفُسَهُمْ. فَعَلَى ذلكَ يَنالُونَ في الآخرةِ مِثْلَهُ، ونَحْوُ ذلكَ مِنَ الكلامِ الذي يَقولونَ في الدنيا: يَقُولونَ[12] لَهُمْ في الآخرةِ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ وأمْكَنَ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ قَبْلَ أنْ يَدْخُلوها.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ قالَ الأصَمُّ: يكونُ الحُزْنُ في فَوتِ كُلِّ مَحْبوبٍ، والخَوْفُ في نَيلِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لما. (٦) في الأصل وم: يعرفهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: معهم. (٩) في الأصل وم: قالوا. (١٠) في الأصل وم: أن يدخلون. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: فيقولون.

جنة السنة

كلِّ مكروهٍ كقولِ يعقوبَ ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] ذَكَرَ الحُزنَ عندَ فوتِ مَحْبوبِهِ والخوفَ عندَ نيلِ المَكْروهِ.

ولكنْ عندَنا الحُزنُ إنما يكونُ بفَوتِ المَوجودِ مِنَ المَحْبوبِ، والخوفُ بما سيُصيبُهُ مِنَ المَكْروهِ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ قالَ الحَسَنُ: الماءُ مِمّا رَزَقَهُمُ اللهُ، ولكنْ مُكَرَّرٌ مُثَنّى، وقالَ أبو بَكْرٍ: طلبُوا الماءَ لِيَدْفَعُوا عن أنفُسِهِمْ ما اشْتَدَّ بِهِمْ مِنَ الظَّمإِ والعَطَشِ. ثم تَقَعُ لَهُمُ الحاجةُ إلى الطاعةِ، لأنَّ الرجلَ إذا اشْتَدَّ بِهِ العَطَشُ والظَّمأُ لا يَتَهَيَّأُ لَهُ الأكلُ، ولكنْ يُشْبِهُ أنْ يكونَ طَلَبُ بَعْضِهِمُ الماءَ وبَعْضِهِمُ الطعامَ الذي رزقَهُمُ اللهُ. وهذا جائزٌ، وإنْ لم يُذْكَرْ كقولِهِ: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] لم يَكُنْ هذا القولُ مِنَ الفريقَينِ، ولكنْ كانَ مِنَ اليَهودِ ﴿إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ [ومِنَ النَّصارى][1] ﴿أَوْ نَصَارَىٰ﴾ فَعَلى ذلكَ هذا، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قيلَ: هذا مُقابلُ قولِهِمْ في الدنيا لِلمُؤْمِنينَ: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧] قالَ لهمُ المؤمنونَ في الآخِرَةِ مُقابِلَ[2] ما قالُوا لهُمْ في الدنيا: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وهذا واللهُ أعلَمُ، لَيسَ على التَّحْريمِ، ولكنْ على المَنْعِ؛ لأنَّ الكَفَرَةَ لا يَنالُونَ بَعْدَ أنْ نالوا[3] ذلكَ حَراماً كانَ أو حَلالاً، ولكنْ على المَنْعِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢] لَيسَ هو تَحريمَ حُرْمَةِ أكلٍ، ولكنْ مَنْعٌ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ذلكَ مُحَرَّماً على المؤمنينَ: إطعامُ الكافرينَ مِنْ ذلكَ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ قالَ الحَسَنُ: اتَّخذوا دينَهُمُ الذي[4] كُلِّفُوا/ ١٧٥ - أ/ بِهِ، وأُمِرُوا أنْ يأتُوا بِهِ، لَهْواً ولَعِباً.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ اتَّخذُوا دينَهُمُ المَلاهِيَ التي كانُوا يَلْهُونَ، ويَلْعَبُونَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] أي اتَّخذُوا دينَهُمُ الذي أتَوا بِهِ لَهْواً ولَعِباً؛ لأنهُمْ كانُوا يُنْكِرونَ البَعْثَ، وفي إنكارِهِمُ البَعْثَ إنكارُ الجزاءِ لِلحَسناتِ والسَّيِّئاتِ، وفي الحِكْمَةِ إيجابُ ذلكَ. فَمَنْ لمْ يَرَ ذلكَ فهو لاهٍ لاعِبٌ، واللَّهْوُ واللَّعِبُ هو الذي لا عاقِبَةَ لَهُ. وكُلُّ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً، لا عاقِبَةَ لَهُ، فهو [لاعبٌ ولاهٍ][5]. وكُلُّ مَنْ يَعْمَلُ [عَمَلاً][6] لعاقِبَةٍ فهو لَيسَ [بلاعبٍ ولا لاهٍ][7]. وهم كانُوا يَعْمَلُونَ لا لِعاقِبَةٍ، لذلكَ كانَ عَمَلُهُمْ لَهْواً ولَعِباً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ الحَياةَ الدنيا لا تَغُرُّ أحداً، ولكنْ أُضيفَ إليها[8] التَّغريرُ لِما كانَ سَبَباً مِنْ أسبابِ الاغْتِرارِ بها، فأُضيفَ إليها كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦] أضافَ الفِرارَ إلى الدعاءِ، وقد يُضافُ الشَّيءُ إلى سَبَبِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] أي يُبْصَرُ بِهِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: أُضيفَ ذلكَ إليها لِما كانَ منها مِنَ السَّبَبِ مِنَ الهَيْئَةِ ما لو كانَ ذلكَ مِنْ ذي العَقْلِ والتَّمْييزِ كانَ ذلكَ غُروراً مِنْ نَحْوِ التَّزْيينِ وغَيرِهِ.

وجائزٌ إضافَةُ التَّغريرِ إليها على إرادةِ أهلِها؛ أي غَرَّهُمْ أهلُها، وهُمُ القادةُ والرُّؤساءُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ لا يَجوزُ أنْ يُضافَ النِّسيانُ إلى اللهِ تعالى بِحالٍ. ولكنْ يَجوزُ أنْ يُقالَ: نَجْزيهِمْ جزاءَ نِسيانِهِمْ، فَسَمّى الثاني بِاسْمِ الأوَّلِ، وإنْ لم يَكُنِ الثاني نِسياناً نَحْوَ قولِهِ تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] والثانيةُ لَيسَتْ بِسَيِّئَةٍ، ولكنْ جزاءُ السَّيِّئَةِ لكنهُ سَمّاها بِاسْمِ السَّيِّئَةِ لِما هي جَزاءٌ لها. فَعَلى ذلكَ هذا، وكقولِهِ تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] والثاني لَيسَ بِاعْتِداءٍ، ولكنهُ جزاءُ الاعتِداءِ، فَسَمّاهُ بِاسْمِ الاعْتِداءِ لِما هو جَزاءٌ. وعَلى[9] ذلكَ سُمِّيَ الثاني نِسياناً، لأنهُ جَزاءُ النِّسيانِ، وإنْ كانَ اللهُ لا يَجوزُ أنْ يَنسى، أو

---

(١) في الأصل وم: أو نصارى. (٢) من م، في الأصل: متقابل. (٣) من م، في الأصل: نائوا (٤) من م، في الأصل: الذين. (٥) في الاصل وم: لعب ولهو. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: بلعب ولا لهو. (٨) في الأصل وم: إليه. (٩) في الأصل وم: فعلى.

جنة السنة

يَسْهُوَ عن شيءٍ، أو يَغْفلَ، ولأنَّ في النِّسيانِ تَرْكاً، وكُلُّ مَنْسِيٍّ مَتْرُوكٌ، فَيَتْرُكُهُمْ في العَذابِ والهَوانِ كما تَرَكُوا هُمْ أَمْرَ اللهِ ونَهْيَهُ في الدنيا.

وقالَ الحَسَنُ: إنَّ اللهَ لا يَنْسَى شيئاً، ولا يَسْهوهُ، ولكنَّ الكَفَرَةَ يكونُونَ على الكَرامَةِ والرَّحْمَةِ والمَنْزِلَةِ كالشَّيءِ المَنْسِيِّ، وعنِ العذابِ والهَوانِ لا، أو كلاماً[1] نَحْوَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ما ههنا صِلَةٌ، كأنهُ قالَ: وكانُوا بآياتِنا. وقالَ بَعضُهُمْ: هو على ما ذُكِرَ؛ أي ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ كما ﴿كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

الآية ٥٢

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ بيَّنّاهُ، والتَّفْصيلَ لِلتَّبيينِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي فَرَّقْناهُ في إنزالِهِ؛ لَمْ نُنْزِلْهُ جُمْلَةً واحِدَةً كقولِهِ تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ١٠٦] أي فَرَّقْناهُ في الإنزالِ على قَدْرِ النَّوازِلِ بِهِمْ لِيَعْلَمُوا حُكْمَ كُلِّ آيَةٍ نَزَلَتْ بالنَّوازِلِ التي وَقَعَتْ بِهِمْ، لا تَقَعُ لَهُمُ الحاجَةُ إلى مَعْرِفَةِ ما في كُلِّ آيَةٍ نَزَلَتْ عليهِمْ على حِدَةٍ، بَلْ يَعْرِفُونَ ذلكَ في النوازِلِ، أو أنْزَلَهُ مُفَرَّقاً، أو أنْ تكونَ معرفةُ ما فيهِ مِنَ الأحكامِ، إذا كانَ مُنْزَلاً بالتَّفاريقِ، أهْوَنَ وأيْسَرَ على الطِّباعِ مِنْ مَعْرِفَةِ ما فيهِ إذا نَزَلَ جملَةً.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً: يَحْتَمِلُ ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي بَيَّنّاهُ بالحُجَجِ والبَراهِينِ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أنَّ الخَلائِقَ لا تقومُ بإتيانِ مِثْلِهِ لِيُعْلَمَ أنهُ مِنْ عِنْدِهِ نَزَلَ، أو أنْزَلَهُ مُفَصَّلاً ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مِنْهُ بِمَنْ يُصَدِّقُهُ ويَتْبَعُهُ، وبِمَنْ يُكَذِّبُهُ، ولا يَتْبَعُهُ، أو ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مِنْهُ بِمصالِحِ الخَلْقِ؛ إنْ أنْزَلَهُ صَلَحَ لِلْخَلْقِ: أي ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مِنْهُ بِمعامَلَةِ القومِ إيّاهُ؛ أنْزَلَهُ لأنَّ المَنْفَعَةَ في إنزالِهِ لِلْمُنْزَلِ عليهِمْ لا لِلْمُرْسَلِ، فَقَرَّرَ الرَّدَّ والمَنْفَعَةَ لهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ: هو هُدىً لِلْكُلِّ لِلْمُؤْمِنِ والكافِرِ جميعاً، ورَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ خاصَّةً.

وأمّا عِنْدَنا فهوَ هُدىً لِلْمُؤْمِنِينَ وعَمىً لِلْكافِرِينَ على ما ذَكَرَ أنهُ[2] عَلَيهِمْ عَمًى: خَصَّ المُؤْمِنِينَ بالهُدى لَهُمْ لأنهُمْ هُمُ المَخْصوصونَ بالانْتِفاعِ بِهِ دُونَ أولئكَ، وعلى أولئكَ عَمًى ورِجْسٌ على ما ذَكَرَ، وصارَ لِلْمُؤْمِنِينَ حُجَّةً على أولئكَ، فقولُهُ تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] هذا لِلْكافِرِينَ، وقولُهُ[3] تعالى لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

الآية ٥٣

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي ما يَنْظُرُونَ إلّا وُقوعَ ما وَعَدَ لَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ نُزولِ بأسِ اللهِ بِهِمْ، أي لا يُؤمِنونَ إلّا بَعْدَ وُقوعِ البأسِ بِهِمْ. لكنْ لا يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ في ذلكَ الوقتِ ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾.

والتَّأويلُ هو ما يَنْتَهِي إليهِ الأمْرُ، ويَؤُولُ، وما يَقَعُ بِهِمْ مِنَ البَأْسِ المَوْعودِ لَهُمْ، وإيمانُهُمْ بما ذَكَرَ مِنْ قولِهِمْ: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ يَعْنِي بالحَقِّ الواقِعِ بِهِمْ مِنْ بأسِ اللهِ الذي كانَتِ الرُّسُلُ تَعِدُ لَهُمْ؛ أي ما[4] وُعِدُوا مِنْ وقوعِ البأسِ بِهِمْ[5] كانَ حقّاً.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالتَّوحِيدِ أي إنَّ الذي جاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ التَّوحِيدِ كانَ حَقّاً، أو إنَّ الذي أخْبَرَ الرُّسُلُ مِنْ هذا اليَومِ كانَ حَقّاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ كأنهُمْ إذا حَلَّ بِهِمْ، ووَقَعَ ما أوعَدَ لهمُ الرسولُ مِنَ البأسِ تَمَنَّوا عندَ ذلكَ الشُّفَعاءَ الذينَ كانُوا يَعْبُدونَهُمْ في الدنيا كقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] أو طَلَبُوا الشُّفَعاءَ كما كانُوا يَطْلُبُونَ في الدنيا شُفَعاءَ إذا بدا لَهُمْ أمْرٌ عظيمٌ، فَيَشْفَعُ بَعْضُهُمْ ببعضٍ[6] في هذِهِ الدنيا. فَعَلى ما كانَ لَهُمْ في الدنيا تَمَنَّوا في

(١) في الأصل وم: كلام. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٥) في الأصل وم: بنا.
(٦) في الأصل وم: بعضا.

جنة السنة

الآخِرةِ ذلكَ. فإذا أيِسُوا مِنْ ذلكَ، وأيقَنُوا أنْ لا شَفيعَ يَشفَعُ لهمْ فَعِنْدَ ذلكَ قالُوا: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ لا أنهُمْ قالُوا مَجموعاً كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ إلى قولِهِ تعالى ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٧ و٢٨].

وقالَ بَعْضُهُمْ: لو رُدُّوا إلى الدنيا: ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ وقالَ آخَرُونَ: لو رُدُّوا إلى المِحْنَةِ إلى الأمْرِ والنَّهْيِ لَعادوا[1] إلى العَمَلِ الذي كانُوا يَعْمَلُونَ.

ثم أخْبَرَ أنهم ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بِعَمَلِهِمُ الذي عَمِلُوا وبِعبادَاتِهِمْ غيرَ اللهِ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي بَطَلَ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أنَّ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ويقُولُونَ[2]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وغَيْرَ ذلكَ مِنَ الافتِراءِ. ذلكَ كُلُّهُ قد بَطَلَ عنهُمْ، فَبَقُوا حَيارَى، وانْقَطَعَ رجاؤُهم وأمَلُهُمُ الذي طَمِعُوا.

وقيلَ:[3] ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وقيلَ: مِمّا وُعِدُوا، وأطاعوا، وقيلَ: أهْلِكُوا.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وذَكَرَ ما بَيْنَهما في مَواضِعَ، ولم يَذْكُرْ في مَواضِعَ؛ وذلكَ داخلٌ بذلكَ بقولِهِ تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [فصلت: ٩] الذي صَنَعَ ذلكَ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾.

ثم جَمَعَ[4] اليومَينِ الأوَّلَينِ معَ هذا الذي ذَكَرَ ذا فيهِ، وقالَ: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠] لِيُعْلِمَ أنَّ ذا خلَقَ في يومَينِ. ثم قالَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١١ و١٢] فَتَصِيرُ سِتَّةَ الأيَّامِ التي أبْهَمَها في غَيْرِ ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم قد بَيَّنَ ﷻ، فَسادَ قَولِ كُلِّ مَنْ عَبَدَ غَيْرَهُ، وعَجْزَ كُلِّ ذلكَ عَمّا لهُ يُعْبَدُ، وجَهْلَهُ بِمَعْنَى العِبادةِ، وخُروجَهُ عنِ الاستِحْقاقِ بِما فيهِ مِنْ آثارِ التَّدْبيرِ وعليهِ مِنْ دلالةِ التَّقْديرِ، واستِحْقاقِ جَميعِ مَعاني الخِلْقَةِ، ودخولَهُ تَحْتَ الصَّنْعَةِ، وحاجَتَهُ إلى مَنِ احْتاجَ إليهِ كُلٌّ مِمّا هي التي تَبْعَثُ على العِبادَةِ، وتُوجِبُ إظهارَ الذِّلَّةِ والخُضوعِ لِمَنْ هو كذلكَ في الخِلْقَةِ والجَوْهَرِ، فألْزَمَهُمُ الفَزَعَ إلى مَنْ يَدُلُّهُمْ إلى الرَّبِّ الحَقِّ، ويَدْعُوهُمْ إلى المَعْبودِ / ١٧٥ ـ ب/ المُتَعالي عنِ الأشباهِ والأضْدادِ بِما يُوجِبُ الشِّبَهَ والمُشاكَلَةَ.

وفي وُجوبِ ذلكَ دليلٌ جاعلٌ آخِذٌ لهُ شَكْلاً. وذلكَ آيةُ الصَّنْعَةِ ودلالةُ الحَدَثِ. وفي تَحْقيقِ الضِّدِّ خوفُ ذهابٍ وفَسادٍ، فَتَضْمَحِلُّ الألوهِيَّةُ، ويَسْتَوْجِبُ حقَّ الدُّخولِ تَحْتَ التَّقْديرِ والقِيامِ على ما شاءَ مَنْ لهُ التدبيرُ، جَلَّ اللهُ، سُبْحانَهُ، عن تَوَهُّمِ ذلكَ، فأكْرَمَ مَنْ بَعَثَتْهُ الحاجَةُ إلى مَعْرِفَتِهِ، ودَفَعَتْهُ الخِلْقَةُ إلى العِلْمِ بِمَنْ أنْعَمَ عليهِ، واخْتَصَّهُ مِنْ بَيْنِ كَثيرٍ مِنْ خَلْقِهِ بِما رَكَّبَ فيهِ ما بهِ يُدَبِّرُ أمْرَ غيرِهِ، وبِهِ يَعْرِفُ قَدْرَ النِّعَمِ عليهِ لِمَنْ أكْرَمَهُ بِهِ لِيَشْكُرَ[5] لهُ في ما أولاهُ، ويَحْمَدَهُ على [ما][6] أعطاهُ، فَمَنَّ بإظْهارِ ذلكَ على لسانِ رسولِهِ الذي عَرَّفَ خَلْقَهُ بِما نَصَبَ مِنْ أدلَّةِ صِدْقِهِ، وأنارَ مِنْ حُجَجِ عِصْمَتِهِ عَنِ الكَذِبِ في ما يُنْبِئُ وإصابَتِهِ في ما يُخْبِرُ، فقالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾ لا ربَّ لَكُمْ[7] سِواهُ ولا لأحَدٍ من الخَلائِقِ.

هو اللهُ الذي لا إلهَ غَيْرُهُ لِيُوَجِّهُوا إليهِ العِبادَةَ في الحَقيقةِ، ولِيُؤَدُّوا إليهِ شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِم، وإنْ كانَتْ نِعَمُهُ أعْظَمَ مِنْ أنْ يَجْزِيَها العِبادُ، وحَقُّهُ أجَلَّ مِنْ أنْ يَقومَ بِهِ العِبادُ، لولا أنَّ اللهَ، سُبْحانَهُ، لم يُرِدْ مِنَ البَيانِ على رُبوبِيَّتِهِ والدليلِ على ألوهِيَّتِهِ سِوَى ما أنْطَقَ بِهِ على لسانِ رسولِهِ [بِهِ][8] الإيضاحَ أنهُ لا يَنْطِقُ إلّا بالحَقِّ، ولا يَقولُ إلّا الصِّدْقَ لَكانَ ذلكَ بَياناً شافِياً.

لكنهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ بَيَّنَ الأدلَّةَ التي تُحَقِّقُ ذلكَ، وتُعْلِمُ أنهُ كما أجابَهُ رسولُهُ إلّا أنْ يُعانِدَ الحَقَّ، ويُكابِرَ العَقْلَ فقالَ ﷻ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلى آخِرِ [ما ذَكَرَ][9] دلالةَ خَلْقِ ما ذَكَرَ مِنْ آثارِ التَّدْبيرِ وعَجيبِ التَّقْديرِ الذي بِهِ قِوامُ كُلِّ مِمَّنْ يَحْتَمِلُ المَنافِعَ والمَضارَّ واتِّصالَ ما بَيْنَ السماءِ والأرضِ على تَباعُدِ بَعْضٍ مِنْ بَعْضٍ في المَنافِعِ مَعَ جَمْعِ الأضْدادِ التي مِنْ

---

(١) في الأصل وم: لصاروا. (٢) في الأصل وم: وقوله. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) من م، في الأصل: رجع. (٥) من م، في الأصل: يشكر. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: غيركم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: نا.

جنة السنة

طَبْعِها التَّنافُرُ في أصْلِ ما ذَكَرَ حتى صارَتْ كالأشكالِ بَعْدَ أنْ كانَتِ السمواتُ والأرضُ مُشْتَبِهَةً[(١)] لا تُشْعِرُ بما فيها مِنَ الحِكْمَةِ ولا بالذي فيهِ مِنْ أيِّ وَجْهٍ تُقْضَى الحاجةُ لِيَدُلَّ أنَّ مُدبِّرَ الكُلِّ واحدٌ؟ وأنهُ عَليمٌ حكيمٌ، وضَعَ كلَّ شَيءٍ مَوضِعَهُ، ودَلَّ كلَّ ذي عَقْلٍ على الوَجْهِ [الذي][(٢)] يَظْفَرُ بِحاجَتِهِ، ويُقيمُ بهِ أوَدَهُ، ويَصِلُ إلى بُغْيَتِهِ، وسَخَّرَ الذي ذَكَرَ، فَصَيَّرَ كُلّاً مِنْ ذلكَ جارياً ذاتِيّاً بِما لا يَنْتَفِعُ هو بِهِ، ولا مَضَرَّةَ عليهِ فيهِ، لِيَعْلَمَ أنهُ لِغَيْرِهِ قُدِّرَ، ولِحاجَةِ غَيْرِهِ سُيِّرَ، وكذلكَ الذي جَبَلَ على القرارِ، وأمْسَكَ عنِ الزَّوالِ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ لهُ في حَقيقةِ أحدِ الوجْهَينِ نَفْعٌ أو ضَرَرٌ لِيَعْلَمَ أنَّ تدبيرَ ذلكَ جَرى لا لَهُ، ولكنْ لأهلِ المُمْتَحَنينَ الذينَ بِهِمْ يَظْهَرُ العِزُّ والشَّرَفُ، ويَنْبُلُ الجودُ والكَرَمُ، ويَعْظُمُ المُلْكُ والسُّلْطانُ؛ إذْ عندَهُمْ تَمْييزُ الأحوالِ وتَفْريقُ الأمورِ وتوجيهُ كُلٍّ إلى حَقِّهِ وإعطاءُ كُلِّ ذي فَضْلٍ فَضْلَهُ، فَيُعْلَمُ مَنْ هذا وَصْفُهُ أنهُ لم يُنْشِئْ عَبَثاً، ولا خَلَقَ باطلاً؛ إذْ بِهِ يَعْظُمُ قَدْرُ كُلِّ خَلْقٍ، ويُشْرِفُ جَلالُهُ كُلَّ جَليلٍ. لم يَجُزْ إهمالُ[(٣)] مِثْلِهِ، فيكونَ خَلْقُ الجميعِ لِغَيرِ شيءٍ مَعَ ما في ذلكَ مِنْ فَنائِهِ وتَبَدُّدِهِ الذي في الحِكْمَةِ قَصْدُ مِثْلِهِ في العَقْلِ يُوجِبُ العَبَثَ.

ثَبَتَ أنهُ خَلَقَ لِلْمِحْنَةِ ولِدارِ البقاءِ. لكنْ جَعَلَ البقاءَ جَزاءً والفَناءَ مِحْنَةً لِيكونَ البَقاءُ هو المُنْتَهى، فَيَعْظُمَ القَصْدُ في الابتداءِ؛ إذْ فاسِدٌ أنْ يَجْعَلَ المِحْنَةَ لِلْبَقاءِ، فَيَدُلُّ على حاجَةِ المُمْتَحَنِ مَعَ ما في ذلكَ زَوالُ الجَزاءِ؛ إذْ مُحالٌ تَقْديمُهُ على مالَهُ الجَزاءُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

ثم الأصْلُ أنَّ اللهَ، سُبْحَانَهُ، جَعَلَ العَقْلَ جُزْءاً مِنَ عالَمِهِ، وجَعَلَهُ دليلاً لأهلِهِ في مَعْرِفَةِ المَساوِئِ والمَحاسِنِ وعَلَماً لِلتَّمييزِ بَينَ الحِكْمَةِ والسَّفَهِ وبَيْنَ الإتقانِ والعَبَثِ، وجَعَلَهُ بالذي يَعْرِفُ المَحْمُودَ مَنَ المَذْمُومِ والمَرْغوبَ فيهِ مِنَ المَزْجورِ عنهُ، فلم يَجُزْ أنْ يكونَ إنشاءُ كُلِّ العالَمِ على غَيرِ الحِكْمَةِ، لأنهُ سَفَهٌ. وهو بالذي هو جُزءٌ مِنَ العالَمِ يَعْلَمُ بِهِ الذميمَ مِنَ الحَميدِ. ثَبَتَ أنهُ أُنْشِئَ لِلْحِكْمَةِ.

وعلى ذلكَ تَقْديرُ كُلِّ عاقلٍ على احْتِمالِ ما يَضُرُّهُ، ويَنْفَعُهُ، بِحَقِّ الجَزاءِ والمِحْنَةِ. فَثَبَتَ أنَّ ذلكَ لِلْمِحْنَةِ، وأنَّ المِحْنَةَ ثم الهَلاكَ بلا جَزاءٍ ولا نَفْعٍ لِلْمُمْتَحَنِ عَبَثٌ أيضاً وسَفَهٌ، فَلَزِمَ بهِ القولُ بالبَعْثِ وإثباتِ دارَينِ مَعَ ما كانَ لِكُلِّ شاهِدٍ دليلُ غائبٍ، يُحْمَدُ عليهِ، أو يُذَمُّ، وكذا فِعْلُ كُلِّ ذي عَقْلٍ إنما هو لعاقِبَةٍ يُحْمَدُ عليهِ، أو [يَغْفُلُ عنهُ، فَيُلامُ][(٤)] عليهِ.

فَعَلى ذلكَ أمْرُ تَدبيرِ هذهِ الدارِ مِنْ أُخْرَى، فلا يَجوزُ أنْ تُخَلَّى الجملةُ مِنَ الدلالةِ، ولا يَخْلو كُلُّ جُزْءٍ منها أو جملةُ الأفعالِ مِنَ[(٥)] العَواقِبِ. والواحِدُ منها إذا خَرَجَ يَصيرُ عَبَثاً وسَفَهاً، فَثَبَتَ بالذي ذَكَرْتُ القولُ بالتَّوحيدِ وبالدارَينِ وبالرسالةِ؛ إذْ بها تُعْرَفُ العَواقِبُ بِما هي غائبةٌ، وحقائقُ كلِّ غائبٍ تُعْرَفُ بالإخبارِ عنها والدلالةِ عليها.

ثم لا دلالةَ على ماهِيَّةِ الجزاءِ ولا الشُّكْرِ والعِبادَةِ، إنما الدلالةُ مِنْ حَيثُ التَّدْبيرُ على العِلْمِ بها جُمْلَةً لُزومِ القولِ بالرُّسُلِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: خَلْقُ أصولِ الأشياءِ التي يكونُ غَيْرُها بِحَقِ التَّوَلُّدِ عنْ ذلكَ والانْقِلابِ.

والثاني:[(٦)] يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على خَلْقِ كُلِّيَّةِ كُلِّ شَيءٍ مِمّا عليهِ تركيبُ هذا العالَمِ إلى أنْ يُبَدَّلَ بعالَمٍ آخَرَ، لا يَبيدُ، ولا يَفْنَى. فإنْ كانَ على الأوَّلِ فهو سِتَّةٌ مِنَ السَّبْعَةِ التي عليها[(٧)] مَدارُ المُدَدِ والأزمِنَةِ؛ إذْ جَعَلَ، جَلَّ ثناؤُهُ، جَميعَ ما ذَكَرَ مِنَ الخَلائِقِ تَحْتَ الأزمِنَةِ والأوقاتِ، ويزولُ بِزَوالِ مَدارِها.

وكذلكَ عندَنا كُلُّ الحوادِثِ؛ إذْ[(٨)] كُلٌّ منها بَدَأ يَصيرُ ذلكَ وقتَ ابْتِدائِهِ، وذلكَ يَنْقُضُ على الباطِنِيَّةِ قولَهُمْ: [إنَّ][(٩)] المُبْدَعَ الأوَّلَ لا يَقَعُ عنِ الزمانِ والمكانِ، وإنهُ لا يَبيدُ، ولا يَفْنَى. ولو كانَ كذلكَ لم يَكُنْ مُبْدَعاً، ولَكانَ[(١٠)] قديماً لا يَقَعُ

---

(١) في الأصل: منشبهة، في م: مشبهه (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: إمهال. (٤) في الأصل وم: يفعل عنه فيلزم. (٥) في الأصل وم: عن. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: عليهما. (٨) في م: إذا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ولكن كان.

جنة السنة

عليهِ الإبداعُ، فلمّا وَقَعَتْ ثَبَتَ لَهُ البَدْءُ، فيجبُ وصفُهُ بالوَقْتِ مِنْ حَيثُ الابْتِداءُ، وهو أيضاً مَعْلُولٌ[1] عندَهُ، وعِلَّتُهُ فيهِ، وهو الإبداعُ، مِمّا لو زالَتْ عِلَّتُهُ لَبادَ. وإذا ثَبَتَ أنهُ مَعْلولٌ ثَبَتَ أنَّ عِلَّتَهُ أوجَبَتْهُ، وأحْدَثَتْهُ، بَعْدَ أن لم يكُنْ، فَوَجَبَ لَهُ وَقْتٌ، بِهِ كانَ، أو كانَ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم على هذا كانَ إنشاءُ مَنْ ذَكَرَ في الأيامِ السِّتَّةِ، ولم يَذْكُرْ فيهِ مُمْتَحناً، فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ وقتُ كَونِ المُمْتَحَنِينَ اليومَ[2] السابعَ، وبِهِمْ تَمَّ ظُهورُ المُلْكِ [بقولِهِ تعالى][3]: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وهو المُلْكُ؛ إذْ[4] لم يكُنْ قَبْلَ ذلكَ مَنْ لهُ التَّمييزُ.

ومعرفةُ المُلْكِ والسُّلْطانِ وقَدْرِ العِلْمِ بالمَحامِدِ والمَعالي وأضدادِ ذلكَ إنما يكونُ بأولئكَ الذينَ رُكِّبَتْ فيهِمُ العُقولُ، وأُكرِمُوا بالتَّمْييزِ [وبما لَهُمْ جَعَلَ][5] العالَمَ، وهُمُ المَقصودُونَ مِنَ الإنشاءِ. لِذلكَ جَعَلَ كُلَّ مَنْ سِواهُمْ مُسَخَّراً لِمَنافِعِهِمْ داخِلَةً تَحْتَ أفهامِهِمْ مِمّا تَحْتَمِلُ أكثَرَ. ذلكَ تدبيرٌ لِيُعْلَمَ أنهُمْ قُصِدُوا لأنْفُسِهِمْ أو لمعرفةِ ما عليهِمْ مِنْ شُكْرِ النِّعَمِ والعِبادةِ. فكانَ بهِمْ تمامُ ظُهورِ المُلْكِ وبُلوغِهِ النهايةَ، فأخْبَرَ بالاستِواءِ؛ إذ هو وَصْفُ العُلُوِّ والرِّفْعَةِ وَوَصْفُ التَّمامِ في الرُّتْبَةِ والقَدْرِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤] وذلك في مَعْنَى الاستِواءِ على العَرْشِ مِنْ حَيثُ ظُهورُ المُلْكِ وبيانُ الحُجَّةِ والرُّبوبيَّةِ لِلمُسْتَدِلِّينَ والمُعْتَبِرِينَ.

وإنْ كانَ التَّأويلُ هو الثاني [فإنهُ][6] يَخْرُجُ على وَجهينِ:

أحَدُهما: [ما][7] قالَ بَعْضُ أهلِ التَّفْسيرِ: إنَّ كُلَّ يومٍ مِنْ أيّامِ الآخِرَةِ، وذلكَ ألفُ سَنَةٍ، لم يُبَيِّنْ لنا مِقْدارَ ذلكَ. فجائزٌ أنْ يكونَ مُنْتَهى تَدْبيرِ هذا العالَمِ إلى ذلكَ سِتَّةَ أيامٍ: بِمَعْنَى سِتَّةِ آلافِ سَنَةٍ على القَدْرِ الذي قَدَّرَهُ اللهُ.

ثم يكونُ اليومُ السابعُ هو يومُ القيامَةِ، لا يَبِيدُ[8] أبداً، ولا يَنْقَضِي. فيهِ يتبدَّلُ[9] العالَمُ، ويُقِرُّ كُلُّ مُمتَحَنٍ لهُ بالمُلْكِ والجَلالِ، وإنْ كانَ كذلكَ في الأزلِ، ففي ذلكَ اتِّفاقُ القَولِ مِنْ طريقِ الاختيارِ والعِلْمِ بذلكَ مِنْ كُلِّ جَبّارٍ وغيرِهِ. وعلى نَحْوِهِ[10] ما قِيلَ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] وقيلَ: /١٧٦ - أ/ ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] وقِيلَ: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الإنفطار: ١٩] ونَحْوُ ذلكَ على أنَّ لهُ المُلْكَ أبداً.

وكذلكَ لم يكُنْ يَخْفَى عليهِ شَيءٌ؛ لكنَّ ذلكَ مِمّا يَعْلَمُ كُلٌّ أنهُ كذلكَ. فبذلكَ تَمَّ ظُهورُ كُلِّ مَعْنًى مِنْ ذلكَ، وإنْ كانَتْ حقيقَتُهُ[11] موجودةً قبلَ ذلكَ. وعلى ذلكَ القولُ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] ونَحْوُ ذلك أنهُ إذْ ذلكَ يَظْهَرُ لِكُلِّ مَعْلُومُهُ، فأُضيفَ إليهِ بِحَرْفِ الابْتِداءِ، وهو عَنْ ذلكَ مُتَعالٍ. فَعَلَى ذلكَ ما بيَّنّا، وبذلكَ ظُهورُ تمامِ شرائطِ المُلْكِ والاعْتِرافِ مِنَ الكُلِّ بذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

والثاني: أنْ تكونَ تلكَ الأيامُ السِّتَّةُ على ما في عِلْمِ اللهِ تعالى، تقديرُها لا يَعْلَمُ سِواهُ إلّا مِنْ طريقِ الجُمْلَةِ التي أدّى؛ وقد بَيَّنَ يوماً ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] ويوماً ﴿عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ [الحج: ٤٧] حدٌّ، لا يَعْلَمُ غيرُهُ.

ثم كانَ اليومُ السابعُ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] وتَقَعُ العُقوبَةُ، والمَثوبَةُ، وهو المَقصودُ مِنْ خَلْقِ العالَمِ الأوَّلِ، فيكونُ ما ذَكَرْتُ مِنْ إتمامِ الظُّهورِ، واللهُ الموفِّقُ.

وعلى هذا لو قيلَ: ﴿يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ [غافر: ٧] [وقيلَ:][12] ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] قِيلَ: لَيسَ أنَّ المُرادَ مِنَ العَرْشِ الأوَّلُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا هو السريرَ المَعْروفَ مُنشأً مِنَ النورِ ومِمّا شاءَ لِيُكْرِمَ بِهِ أولياءَهُ يومَ القِيامَةِ.

والأوَّلُ هو المُلْكُ الذي ظَهَرَ تَمامُهُ وعُلُوُّهُ على ما بيَّنّا.

---

(١) من م، في الأصل: معلوم. (٢) في الأصل وم: يوم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: إذا. (٥) في الأصل وم: ومما لهم يجعل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل يبدأ. (٩) في الأصل وم: تبدل. (١٠) في الأصل وم: نحو. (١١) من م، في الأصل: حقيقة. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

ثم لو كانَ العَرْشُ الذي قالَ ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] هو ما فَهِمَهُ أهلُ التَّشبيهِ مِنْ مكانٍ، لم يكُنْ، لَوَجبَ(١) أنْ يُفْهَمَ مِنَ الاِسْتِواءِ عليهِ الاِسْتِقرارُ وأنْ يكونَ للهِ مكانٌ يوصَفُ بالكَونِ فيهِ، وعليهِ، لأنهُ ليسَ مِنْ كَونِ أحدٍ في مَكانٍ، وإنْ جَلَّ قدرُهُ، وعَظُمَ خَطَرُهُ، رِفْعَةٌ ولا نباهَةٌ في ما يُتَعارَفُ مِنْ أمْرِ المُلوكِ والأجِلَّةِ، بل كُلٌّ مَنْسوبٌ إلى مَكانٍ مِنْ جِهةِ التَّمكينِ فيهِ، والقَرارُ مَنْسوبٌ إلى اسْتِعانَةٍ وحاجَةٍ منهُ إليهِ جَلَّ عن ذلكَ.

وعلى أنهُ إمّا يكونُ مثلَهُ أو أعظمَ منهُ؛ [فلو كانَ كذلكَ](٢) لَكانَ لَهُ عَديلاً بالعظمَةِ أو دُونَهُ. ومِنَ السُّخْفِ الجُلوسُ على مكانٍ، لا يطمئِنُّ بهِ، أو يَقْصُرُ عنهُ؛ إذْ قد يجوزُ أنْ يُزادَ فيهِ، فيكونَ أعْظَمَ منهُ، جَلَّ اللهُ عَنْ هذا الوَصْفِ، وتعالَى. بل كانَ، ولا مَكانَ؛ فهو على ما كانَ يَتَعالى عنِ الاِسْتِحالَةِ والتَّغَيُّرِ؛ إذْ هو أثرُ الحَدَثِ وأمارَةُ الكَونِ بَعْدَ أنْ لم يَكُنْ، ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

ثم الأصْلُ أنهُ لو كانَ فهو بإضافةِ اللهِ إلى العُلُوِّ عليهِ تَعْظيمٌ لهُ. وعلى ذلكَ في كلِّ[ما](٣) يُضافُ إلى اللهِ أو [يُضافُ](٤) اللهُ إليهِ مِنْ جِهةِ الخُصوصِ، فهو على تعظيمِ ذلكَ، لا على أنْ يُفْهَمَ منهُ ما يُفْهَمُ مِثْلُهُ مِنَ الخلائقِ نَحْوُ القَولِ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] والقَولِ(٥): ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] والقولِ(٦): ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢] والقَولِ(٧): ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٨٧] ونَحْوُ ذلكَ.

فما بالُ المُشَبِّهةِ فَهِمَتْ مِنْ إضافَةِ الاِسْتِواءِ على العَرْشِ المَعْنَى المَكْروهَ على احْتِمالِ الاِسْتِواءِ مَعانيَ سِوَى الذي ذَكَروا؟ إذْ يُقالُ: اسْتَوَى تَمَّ، واسْتَوَى على، واسْتَوَى اسْتَقَرَّ، واسْتَوَى اسْتَولَى.

فإذا كانَ مَعْناهُ يَتَوَجَّهُ إلى هذهِ الوُجوهِ لم يَحْتَمِلْ أنْ يكونَ أحدٌ بِقُدْرَةٍ(٨) مِنْ ذلكَ آدمَ ما يَتَوَجَّهُ إليهِ، ويَعْتَمِدُ عليهِ، لو لا الجَهْلُ بهِ.

ثم الأصلُ أنَّ الإضافاتِ إلى الأشياءِ يَفْتَرِقُ المَقْصودُ بها، وإنْ كانَ في ظاهِرِ المَخْرَجِ واحداً باخْتِلافِ مَنْ إليهِ القَصْدُ بالإضافةِ والإضافةِ جَميعاً، يُقالُ: جاءَ الحَقُّ، وجاءَ فلانٌ، وبَيتُ فلانٍ، وبَيتُ اللهِ، وقالَ(٩) في الملائكةِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣١] وقالَ في الفَسَقَةِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٣٩] ونَحْوَ ذلكَ لا على الجَمْعِ في المَعْنَى. فالاِسْتِواءُ الذي يَتَوَجَّهُ إلى وجوهٍ أحَقُّ بذلكَ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم قيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بوجوهٍ:

أحَدُها(١٠): ما قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ [على](١١) التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ كأنهُ قالَ: إنَّ ربَّكُمُ اللهُ الذي اسْتَوَى على العرشِ، ثم خَلَقَ ما ذَكَرَ، فيكونُ مَعْناهُ خَلَقَ كذا، وقد اسْتَوَى على العَرْشِ كقولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

وعلى هذا لَيسَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الشُّبْهَةُ التي في الأوَّلِ كما لم تكُنْ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] إذا صُرِفَ ﴿عَلَىٰ﴾ إلى عندَ، شُبْهَةٌ. فيكونُ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾ خَلَقَ العَرْشَ كقولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] بِمَعْنَى ثم خَلَقَ السماءَ، أو قَصَدَ خَلْقَهُ، ونَحْوَ ذلكَ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي اسْتَوَى عليهِ أمْرُهُ وصُنْعُهُ، أي لم يَخْتَلِفْ عليهِ صنعُ العَرْشِ وأمْرُهُ، وإنْ جَلَّ أمْرُ غَيرِهِ وصُنْعُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] على اسْتِواءِ الأمْرِ في التَّدبيرِ والصُّنْعِ.

---

(١) في الأصل وم: ليجب. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: يقدر. (٩) في الأصل وم: وقيل. (١٠) من م، في الأصل: أحدهما. (١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقالَ الحُسَينُ: معناهُ اسْتولَى على العَرْشِ كما يقالُ: اسْتَوَى فلانٌ على بغدادَ بِمَعْنَى اسْتولَى. وقالَ قومٌ: معناهُ: اسْتولَى عليهِ، وهو فوقَ كُلِّ شيءٍ في القُدْرَةِ والعَظَمَةِ تعظيماً لهُ على غيرِ اختِلافٍ عليهِ في التَّحقيقِ بَيْنَهُ وبينَ غيرِهِ كالذي ذُكِرَ بأنَّ الأمْرَ كُلَّهُ يومَ القِيامَةِ لهُ، والمَساجِدَ لهُ على التَّفصيلِ دُونَ تَخصِيصٍ لهُ في ذاتِهِ مِنْ حَيثُ ذلكَ. وقالَ قومٌ: إذْ كانَ العَرْشُ فوقَ كلِّ شيءٍ في تقديرِ العارفِ، فقالَ: هو عَلاهُ بِمَعْنًى لا يُوصَفُ في الخَلْقِ، ولكنْ [عَلا ما كانَ][1] ولا خَلْقَ.

ونَحنُ نَقولُ، وباللهِ التوفيقُ، قد ثَبَتَ مِنْ طريقِ التَّنزيلِ بأنهُ اسْتَوَى على العَرْشِ، وقد لَزِمَ القولُ بأنهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] في الأرضِ. وعلى ذلكَ اتِّفاقُ القولِ: ألا يُقَدَّرَ كلامُهُ بما عُرِفَ مِنْ كلامِ الخَلْقِ ولا فِعْلُهُ بهِ، وما يُوجِبُهُ، ولا عِلْمُهُ ولا ما قِيلَ: هو ربُّ كذا أو مالكُ كذا، لا يُرادُ بهِ المَفهومُ مِنَ الخَلْقِ. لكنَّ الوجهَ الذي يَليقُ بهِ وما يُوجِبُهُ حَقُّ الرُّبوبيَّةِ. فَمِثْلُهُ في الأوَّلِ، ثم يَلْزَمُ تَسْليمُ المُرادِ لِما عندَهُ؛ إذْ لم يُبَيِّنْهُ لنا، وقد ثَبَتَ ما يُفْهَمُ مِنْ غَيرِهِ.

وبَعْدُ فإنَّ القولَ فيهِ بالمكانِ يَفْسُدُ بالذي بهِ يُحْتَجُّ بوجوهٍ:

أحدُها: أنَّ قولَهُ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إخبارٌ عنْ فِعْلِهِ الذي في التَّحْقيقِ يُضافُ إليه في خَلْقِ الخَلْقِ على اختِلافِ المَخرَجِ في القَولِ نَحْوُ ذِكْرِ مَرَّةٍ: أبْدَعَ، ومَرَّةً فَطَرَ، وجَعَلَ، وأنزَلَ، وأثبتَ، وكتَبَ، وأعطَى، وأنشأَ، وغَيرُ ذلكَ مِنَ الألفاظِ؛ حَقيقَةُ ذلكَ أنهُ خَلَقَ إذ ذلكَ مَعْنَى فِعْلِهِ في الحَقيقَةِ. وعلى ذلكَ كَونٌ وفِعْلٌ وأمْرٌ في بَعْضِ المَواضِعِ.

ثم يَجِبُ تَوجيهُ كُلٍّ مِنْ ذلكَ إلى الوجهِ الذي يَليقُ فيهِ القَولُ بـ: خَلَقَ، وكذا في: هَدَى، وأضَلَّ، وزَيَّنَ، وأتقَنَ، وأحكَمَ، ونَحوِ ذلكَ. فكذلكَ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يَجِبُ أنْ يُقابَلَ بذلكَ بـ: خَلَقَ؛ إذْ هو إضافَتُهُ إلى فِعلِهِ.

ثم يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ثم خَلَقَ العَرْشَ، ورَفَعَهُ، وأعلاهُ، بَعْدَ أنْ كانَ العَرْشُ على الماءِ كقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] ولَيسَ ﴿ثُمَّ﴾ يَنْتَقِلُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ؛ إذْ لو كانَ كذلكَ لَكانَ يَصيرُ حَيثُ، ثم يَنْتَقِلُ مِنْ خَلْقٍ إلى خَلْقٍ في ما يَخْلُقُ، فيكونُ في الوَقْتِ الذي يَصيرُ إلى العَرْشِ صائراً إلى الثَّرَى، وفي الوَقتِ الذي يَحْدُثُ خَلْقُ ما في الأرضِ وما في السمواتِ مُنْتَقِلاً مِنْ ذا إلى [ذا][2]. وذلكَ تَناقُضٌ فاسدٌ، وفي ذلكَ بُطلانُ مَعْنَى القولِ بالاسْتِواءِ على العَرْشِ، بل يكونُ أبداً غَيرَ مُسْتَوٍ عليهِ حتى يَفْرَغَ مِنْ خَلْقِ جميعِ ما يكونُ أبداً، وذلكَ مُتَناقِضٌ فاسدٌ. جَلَّ اللهُ عنْ هذا التَّوَهُّمِ، وباللهِ التوفيقُ.

والثاني: أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي إلى العَرْشِ في خَلْقِهِ ورَفْعِهِ وإتمامِهِ دليلُ احْتِمالِ ﴿عَلَىٰ﴾ [إلى][3]. ذلكَ لانهُ[4] مِنْ حروفِ الخَفْضِ، وقد يُوضَعُ مَوضِعَ بَعْضٍ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين: ٢] بِمَعْنَى عنِ الناسِ، وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] بِمَعْنَى عندَ ربِّهِمْ مَعَ ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩] [وقالَ][5]: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] بِمَعْنَى إليهِ. وعلى ذلكَ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إلى العَرْشِ، وهو على الماءِ كما ذَكَرَ، فَرَفَعَهُ، وأتَمَّهُ، كما قالَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] فَخَلَقَ ما ذَكَرَ، واللهُ أعْلَمُ.

والوجهُ الثاني: المذكورُ في الآيةِ مِنِ اسْمِ الرَّبِّ وخَلْقٍ/ ١٧٦ ـ ب/ وتَسْخيرِ الذي وَصَفَ. ثم لم يَتَوَهَّمْ في شيءٍ مِنْ ذلكَ المَعْنَى الذي يُضافُ إلى الخَلْقِ أنهُ ربُّ كذا، وسَخَّرَ كذا، أو صَنَعَ كذا، مُلْحِدٌ أو مُوَحِّدٌ. فكيفَ احْتَمَلَ قَلْبُ المُشَبِّهِينَ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] في[6] جَهْلِهِ بهِ وتقديرِهِ بالذي عليهِ أو نفسِهِ؟ واللهُ الموفِّقُ.

والثالثُ: إنَّ الناسَ في خَلْقِ اللهِ مُخْتَلِفونَ[7]:

فَمِنْهُم مَنْ جَعَلَهُ الخَلْقَ نَفْسَهُ دونَ أن يكونَ اللهُ بذاتِهِ يَلْحَقُهُ وَصْفٌ سِوَى إضافَةِ الخَلْقِ إليهِ في أنْ كانَ بهِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إنما هو ما ذَكَرَ مِنْ غيرِ أنْ كانَ، سُبْحانَهُ، يَلْحَقُهُ وَصْفٌ لم يكُنْ لهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: أن. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: لو. (٧) في الأصل وم: مختلفين.

جنة السنة

ومنهُم مَنْ يَراهُ خالقاً بذاتِهِ لِيكونَ جَميعُ الخلائقِ إلى الأبدِ بتكوينِه الذي يُعَبِّرُ عنهُ بقولِهِ: ﴿كُن﴾ مِنْ غيرِ أنْ كانَ. ثم كافٌ ونونٌ[1] على كَونِ كُلِّ شَيءٍ عليهِ بهِ مِنْ غيرِ تغييرٍ عليهِ ولا زَوالٍ عمّا كانَ عليهِ؛ إذ لا شَيءَ غيرُهُ. فَكُلُّ مَعْنى لو حُقِّقَ أوجَبَ تَغَيُّراً أو زَوالاً أو قَراراً أو نَحوَ ذلكَ، فاللهُ يَجِلُّ عنهُ، ويَتَعالى إذ ذلكَ عِلْمُ الحَدَثِ وأمارةُ الغَيريَّةِ ولا قوةَ إلّا باللهِ.

والرابعُ: هو الذي يُرَى فِعلُهُ على ما عليهِ فِعلُ الخَلقِ مِنَ التَّحرُّكِ والزَّوالِ والسُّكونِ والقَرارِ إضافتُهُ. مِنْ ذلكَ وَصْفُهُ [بالتَّحرُّكِ مِنْ مَكانٍ][2] إلى مكانٍ وحالٍ دُونَ حالٍ مُحالٌ فاسدٌ. لذلكَ بَطَلَ القولُ بالمكانِ في جَميعِ الأقاويلِ.

وأيَّدَ الذي ذَكَرتُ ما خَتَمَ بهِ الآيةَ مِنْ قولِهِ: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وَصفَ ذاتَهُ بالرُّبوبيَّةِ بالتَّعالي على[3] جميعِ مَعاني المَربوبينَ؛ إذ مِنْ حَيثُ التَّشاكُلُ يُوجِبُ خُروجَهُ مِنْ أنْ يكونَ رَبّاً والآخرُ مَرْبوباً. فإذا ثَبَتَ أنَّ كُلَّ شيءٍ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مَرْبُوباً ثَبَتَتْ سُبحانيَّتُهُ مِنْ ذلكَ الوجهِ، واللهُ المَوَفِّقُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هو على وجهَينِ:

أحَدُهُما: إظهارُ ما بَيْنَهما على ما جَرَى الذِّكْرُ بهِ في غَيرِهِ.

والثاني: أنْ ذَكَرَ مِنْ وقتِ ابْتِداءِ الكَونِ إلى الانْتِهاءِ لا على تَحقيقِ ذلكَ في كُلِّ وَقْتٍ كما يُقالُ: كانَ كذا [في شَهرِ كذا][4] لا على إحاطةِ كُلِّيَّةِ أجزاءِ الشَّهرِ بهِ.

فَمِثْلُهُ مَعْنى سِتَّةِ أيامٍ، ومَعْنى التَّوقيتِ لَيسَ إلى حاجةٍ إلى ذلكَ، إذِ الوَقْتُ داخِلٌ في ما خَلَقَ. لكنْ على وُجوهٍ، وإنْ كانَ اللهُ، سُبحانَهُ، قادراً على إنشاءِ ما ذَكَرَ بِدَفعَةٍ:

أحدُها[5]: ما ذَكَرتُ مِنْ مَعْنى الأيامِ لِمَدارِ مُدَدِ الخَلقِ، وأطوَلُ ما عليهِ يُغني الأعمالَ.

والثاني: على بَيانِ مُنْتَهى العالَمِ.

والثالثُ: على إدخالِ كُلِّ ذلكَ مَعَ عُلُوِّ دَرَجاتِ كثيرٍ منها وجلالَةِ أقدارِها في الأعيُنِ حتى لا أحَدَ يَنْظُرُ إليها إلّا بالتَّعظيمِ، وحتى بكثيرٍ منها قامَ تدبيرُ العالَمِ، وحتى عُبِدَ دونَ اللهِ تعظيماً، وإنْ كانَ في ذلكَ دلالَةُ خُروجِهِ عنِ الاسْتِحقاقِ، فَصَيَّرَها اللهُ داخِلَةً تحتَ الأزمِنَةِ والمُدَدِ مَقْهورةً بها حتى لو أُريدَ بكُلِّ جَهْدٍ وحِيَلٍ إخراجُ شيءٍ مِنْ ذلكَ أو تَخليصُ الجبابِرَةِ مِنْ ذلكَ لَما تَهَيَّأَ لَهُمْ لِتُعلَمَ ذِلَّةُ الخِلْقَةِ وأماراتُ الحَدَثِ وعلامةُ الحاجَةِ.

ثم كانَتِ الأوقاتُ مُترادِفَةً[6] مُتَتابِعَةً؛ لو أُسقِطَتْ عنها الأوَّلِيَّةُ لَبَطَلَ الكُلُّ، ولَمّا جاوزَ الحسابُ بالواحِدِ ولَمّا انْتَهى إلى ما هو أبْعَدُ لِما مَضَى لِتُعلَمَ بهِ أوَّلِيَّةُ كلِّ شَيءٍ مِنَ العالَمِ وحَدَثُهُ مَعَ ما جُعِلَتِ الأيامُ تدورُ على أمْرٍ واحدٍ بها بِجَميعِ المُحتاجينَ مِمَّنْ ذَكَرتُ، فَثَبَتَ لذلكَ بأسماءٍ معروفةٍ، أمْكَنَ قَصْدُ كُلٍّ منها على الإشارةِ إليهِ باسْمِهِ المَعْروفِ لِتُحفَظَ فيهِ المَواعيدُ، ويُعْلَمَ بهِ ما يَجِبُ مِنَ الحقوقِ، ويَبْطُلَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الأصلُ إذْ جُعِلَتْ هذهِ الدارُ دارَ المِحْنَةِ. والمِحْنَةُ إنما تكونُ بِمُختَلِفِ الأحوالِ جُعِلَتْ لأحوالٍ[7] مُختَلِفَةٍ نَحوِ موتٍ وحياةٍ وصحةٍ وسُقْمٍ وغِنًى وفَقْرٍ، وفي جَميعِ الخَلقِ على حالةٍ منها الجَهْلُ بأضدادِها. وفي ذلكَ الجَهْلُ باللَّذّاتِ والآلامِ، فَيَجِبُ بذلكَ اخْتِلافُ الأحوالِ، وعلى ذلكَ جَرَى أمْرُ خَلْقِ الخَلائقِ، [وعلى ذلكَ][8] أمْرُ الأرزاقِ وغَيرُ ذلكَ.

فَعَلى ذلكَ أمْرُ خَلْقِ ما ذَكَرَ في أيامٍ مُختَلِفَةٍ، ثم يَجْمَعُ في البَعْثِ بِمَرَّةٍ وفي حالٍ مِنْ حالِ اللَّذّاتِ والتَّعَبِ بِمَرَّةٍ مع ما كانَ اخْتِلافُ الأحوالِ أقرَبَ إلى الدلالةِ وأوضَحَ لِلْحُجَّةِ. فلذلكَ جَعَلَ في هذهِ الدارِ إلزامَ الحُجَّةِ وإظهارَ المِحْنَةِ والكُلْفَةِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

والأصلُ أنَّ العقولَ أُنشِئَتْ مُتَناهِيَةً نَقْصٍ عنِ الإحاطةِ بِكُلِّيَّةِ الأشياءِ، والأفهامَ مُتَناقِصَةً عن بلوغِ غايةِ الأمورِ، إذْ هُنَّ

---

(١) في الأصل وم: أو نون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: من. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: وجهان. (٦) من م، في الأصل: مرادفة. (٧) في الأصل وم: الأحوال. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

مِنْ أجزاءِ العالَمِ الذي هو بِكُلِّيَّتِهِ مُتناهٍ، وأسبابَ الإدراكِ التي يُدرَكُ بها بأداءِ المَشاعِرِ التي تَعجَزُ عن كُنْهِ لِما يَقَعُ عليها مِنَ الظَّواهِرِ فَضلاً عمّا اسْتَتَرَ منها. وإذا كانَ وَصْفُ ما يُدرَكُ بِهِ مَبْلَغُ الحِكْمَةِ، فهي قاصِرَةٌ عنِ الإحاطَةِ بالحِكْمَةِ المَوضوعَةِ مِنَ البَشَرِ. فَمَنْ رامَ الإحاطَةَ بها أو بُلوغَ حِكْمَةِ الرُّبوبيَّةِ مِن غَيرِ إشارةٍ منهُ، فهو يَظْلِمُ العَقْلَ، يَحْمِلُ عليهِ ما يَعْلَمُ عَجزَهُ عنه.

ومعلومٌ أنَّ المذكورَ مِنَ الأيامِ في خَلْقِ ما ذَكَرَ حِكْمَةٌ بالِغَةٌ، وإنْ قَصُرَتِ العقولُ عنِ الإحاطَةِ، إذِ الذي قَدَّرَها، هو الذي حَمِدَ الحِكْمَةَ، وأوجَبَ لأهلِ العَقْلِ ذَمَّ السَّفَهِ وأهلَهُ، فأوجَبَ ذلكَ تَحقيقَ الحِكْمَةِ لذلكَ، وإنْ لم يَبْلُغْها إلّا مِقْدارَ ما يُكرَمُ بِهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: [﴿وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ بِأَمْرِهِۦٓ﴾][1] وسَخَّرَ ما ذَكَرَ، فكذلكَ سَخَّرَهُنَّ بالسَّيرِ في ما يرجِعُ إلى مَنافِعِ الخَلْقِ، وجَعَلَ فيهنَّ آيةً لولا العِيانُ لم يكُنْ يُصَدِّقُ بِهِ أحدٌ مِمَّنْ يَجحَدُ البَعْثَ والرُّسُلَ ونحوَهُم؛ إذِ الخَبَرُ عنْ سَيرِ جَوهرٍ واحدٍ في اليومِ الواحِدِ مَسيرَةَ أكثرَ مِنَ ألفِ سَنَةٍ، وتَوَلُّدِ جواهِرَ بِمَعُونَةِ مَنْ يَبْعُدُ عنهُ مِقْدارَ خَمْسِمِئَةِ عامٍ، وصِحَّةُ[2] كلِّ شيءٍ؛ وصلاحُهُ[3] بِهِ أبعَدُ عنِ احْتِمالِ القَبولِ عَنْ إعادةِ عندَ الفَناءِ، أو إرسالُ الرُّسُلِ بإعلامِ ما خَفِيَ مِنَ المَصالِحِ والأمورِ إذ ذلكَ أمْرٌ مُتعالَمٌ في صُنْعِ الخَلْقِ مَعَ ما في ذلكَ في ما بِهِ تَقَلُّبُ الزَّمانِ مِنَ الليلِ والنهارِ.

ولكنَّ اللهَ، سُبحانَهُ، أظهَرَ لَهُمْ مِنْ قُدرَتِهِ وعَظيمِ حِكْمَتِهِ بِما بَسَطَ لَهُمُ [الأرضَ][4] بِغِلَظِها وسَعَتِها، ورفَعَ عليها السماءَ بغيرِ عَمَدٍ تُرَى، فأقَرَّ كُلًّا مِنْ ذلكَ لِحاجَةِ أهلِها إلى قَرارِها، وسَيَّرَ فيها بالتَّسْخيرِ ما ذَكَرَ لِحاجَةِ الأهلِ في تَيسيرِ ذلكَ لِيُعْلَمَ [أنهُ لا يُعجِزُهُ][5] شيءٌ، ولا يَخفَى عليهِ أمْرٌ، ولا يَدْخُلُ في تدبيرِهِ عِوَجٌ ولا في خَلْقِهِ تفاوُتٌ، وأنَّ الذي أظهَرَ إذا قُوبِلَ بالذي وَعَدَ يُضاعِفُ عليهِ بِوُجوهٍ لَهُ مَعَ ما كانَ الذي أظهَرَ، هو إبداعٌ على غَيرِ احْتِذاءٍ، وإنشاءُ الإعادَةِ لا، واللهُ المُوَفِّقُ.

ثم مِنْ عَجيبِ قُدرَتِهِ، سُبحانَهُ، في قولِهِ تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أنَّ اللهَ تعالى يُظهِرُ النورَ في ابْتِداءِ النهارِ مِنْ طَرَفِ السماءِ والظُّلمَةَ في أوَّلِ الليلِ، ثم يَنْشُرُ ذلكَ، ويَبْسُطُهُ في جميعِ أطرافِ السماءِ والأرضِ وما بَيْنَهما مِنْ جَميعِ الأقطارِ والجوانِبِ في قَدْرِ لَحْظَةِ بَصَرٍ وطَرْفَةِ العَينِ ممّا لو أُريدَ تَقديرُ ذلكَ بالهندسَةِ وبجميعِ ما في الخَلْقِ مِنَ المَقاديرِ لَما أُحيطَ بالذي انْبَسَطَ [مِنْ][6] ذلكَ النورِ والظَّلامِ لِيُعْلَمَ أنَّ اللهَ على ما يَشاءُ قَديرٌ، وأنهُ لو أرادَ لَخَلَقَ جميعَ ما ذَكَرَ في أدَقِّ مُدَّةٍ والْطَفِ وَقْتٍ، وأنهُ القادِرُ على البَعْثِ وجميعِ ما جاءَتْ بالخَبَرِ عنهُ الرُّسُلُ.

على أنهُ بالذي ذَكَرْتُ يُلْبِسُ وُجوهَ كُلِّيَّةِ الأشياءِ السُّتْرَ، ويُجَلِّيها بِطَرْفِ عَينٍ بالتَّدبيرِ والعِلْمِ الذي بِما يُوجِبُ ذلكَ مِمّا يَعْجَزُ عن تَوَهُّمِ مِثْلِهِ جميعُ الحُكَماءِ فَضْلٌ عنْ إدراكِهِ لِيُعْلَمَ أنهُ عليمٌ، لا يَجْهَلُ، عزيزٌ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ، حكيمٌ، لا يَتَفاوَتُ صُنْعُهُ، ولا يَتَناقَضُ تَدبيرُهُ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقريباً مِنْ ذلكَ ما جَعَلَ في جَوهرِ الإنسانِ مِنَ البَصَرِ الذي يُبْصِرُ بأوَّلِ أحوالِ الفَتْحِ قَدْرَ خَمسِمِئَةِ سَنَةٍ، والفِكْرِ[7] الذي يَبْلُغُ بِهِ مِنْ غَيرِ أنْ يَزولَ عنْ مكانِهِ مُنْتَهَى مَرجِعِ الخَلْقِ مِنَ الجَنَّةِ والنارِ[8]، ويُبْصِرُ بِهِ المَعادَ والمَعاشَ، والعَقْلِ الذي يَعْرِفُ حَقائِقَ مَنْ غابَ عنهُ، وحَضَرَ، ممّا لَهُ صورةٌ وطينَةٌ أو أحَدُهُما، وما لَيسَ لهُ واحدٌ مِنَ الأمرَينِ على قُصورِ الحَواسِّ عَنْ إدراكِ صورةِ شيءٍ، لا طِينَةَ لَهُ لِيُعْلَمَ أنَّ الذي قَدَرَ على تَقديرِ مِثْلِهِ في جَوهَرٍ واحدٍ، وعَلِمَ كيفَ يَصْنَعُ؟ لِيُعْلَمَ ذلكَ العِلْمَ، قادِرٌ على كلِّ شيءٍ حكيمٌ عليمٌ / ١٧٧ ـ أ/ وهذا مَعْنَى ما قِيلَ: إنَّ الإنسانَ هو العالَمُ الصَّغيرُ؛ بِمَعْنَى أنهُ يُوجَدُ فيهِ لِكُلِّ أمْرٍ مِنَ الأمورِ العالَمُ الكَبيرُ فيه مِثالاً ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ: يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُ أمْرُهُ كما يُقالُ: أتاهُ أمْرُ اللهِ؛ أي المَوتُ والعذابُ ونَحْوُ ذلكَ على إرادَةِ ذلكَ نَزَلَ[9] بِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وتصح. (٣) من م، في الأصل: وتصلاحه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: أن لا يعجز، في م: أن لا يعجزه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: الكفر. (٨) في الأصل: والنهار. (٩) في الأصل وم: ترك.

والثاني: أنْ يَطْلُعْنَ، ويَغرُبْنَ بأمْرٍ بتَوحيدِ اللهِ والإيمانِ فيهِ بما فيهِنَّ مِنْ عَجيبِ الحِكْمَةِ ورفيعِ التَّقْديرِ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ الذي بهِ كَونُ الأشياءِ مِنْ قولِهِ: ﴿كُن﴾ فالقولُ الأوّلُ هو قولُ مَنْ لا يَرَى خَلْقَ الخالقِ[1] غيرَ الخَلْقِ. والثاني قولُ مَنْ يَرَى ﴿كُن﴾ عِبارةً عن التَّكوينِ الذي بِهِ الخَلْقُ أبَدَ الآبِدينَ مِنْ غَيْرِ أنْ كانَ ثَمَّ في الحقيقَةِ كافٌ ونونٌ، لكنهُ جاءَ ما يُفْهَمُ بهِ المُرادُ مِنَ الكلامِ، يُرادُ في ذلكَ نَفْيُ الصُّعُوبَةِ عنهُ وتَيسيرُ الأمرِ عليه، ويكونُ في الحَقيقَةِ غَيْرَ الخَلْقِ؛ إذْ أخْبَرَ في الخَلْقِ أنهُ كانَ بِهِ، وكُلُّ شَيءٍ يكونُ بِشَيءٍ في المُتَعارَفِ مِنَ القولِ يكونُ غَيْرَهُ، وكذلكَ غَيْرُهُ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ فيهِ وجهانِ:

أحَدُهُما: الإخبارُ عَنْ تكوينِ الخَلْقِ الذي هو لهُ.

والثاني: [الإخبارُ][2] عَنِ الأمرِ في خَلْقِهِ بِمَ شاءَ؟ ولا يُرَدُّ شَيءٌ مِنَ الوجهِ الذي أمَرَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يُذهِبُ بِضَوءِ النهارِ ظُلْمَةَ الليلِ، وضوءَ النهارِ بِظُلْمَةِ الليلِ، إذا جاءَ هذا ذَهَبَ سُلْطانُ الآخَرِ ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ وقيلَ: سريعاً، وهو أنَّ اللهَ ﷻ يُظهِرُ النورَ في ابْتِداءِ النَّهارِ في طَرَفٍ مِنْ أطرافِ السماءِ والظُّلْمَةَ في أوّلِ الليلِ، ثم يَنْشُرُ ذلكَ في جَميعِ أطرافِ السماءِ والأرضِ وما بَيْنَهُما مِنْ جَميعِ الأوقاتِ والجَوانِبِ في قَدْرِ لَحْظَةِ بَصَرٍ وطَرْفَةِ عَينٍ ممّا لو أُريدَ تَقْديرُ ذلكَ بِجَميعِ ما في الخَلْقِ مِنَ المَقاديرِ ما[3] قَدَرُوا عليهِ لِيُعْلِمَ أنَّ اللهَ على ما يَشاءُ قديرٌ، وأنهُ لو أرادَ أنْ يَخْلُقَ جَميعَ ما ذَكَرَ أنهُ خَلَقَ في سِتَّةِ أيامٍ لَقَدَرَ[4] أنْ يَخْلُقَ في طَرْفَةِ عَينٍ، لكنهُ خَلَقَ في سِتَّةِ أيامٍ لِحِكْمَةٍ[5] في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ لا يكونُ مِمّا ذَكَرَ طَلَبَ حَقيقَةٍ، لكنْ ذَكَرَ الطَّلَبَ لأنَّ ما كانَ مِنْ كُلِّ واحِدٍ منهُما لِلآخَرِ لو كانَ مِمَّنْ يكونُ لَهُ الطَّلَبُ كانَ طَلَباً وهَرَباً مِنْ غَلَبَةِ كُلِّ واحِدٍ منهُما صاحِبَهُ؛ وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] أنها أُنْشِئَتْ على هَيئَةٍ وَجِهَةٍ، لو كانَ ذلكَ مِمَّنْ يكونُ منهُ التَّغريرُ كانَ غُروراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ أي بِتَكوينِهِ أي أنشأها، وكَوَّنَها مُسَخَّراتٍ لَهُمْ. وقالَ[6] بَعْضُهُمْ: ﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ يَنْفَعْنَ البَشَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الأمْرُ ههنا هو التَّكوينُ، وقيلَ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ﴾ والتَّدبيرُ في الخَلْقِ، وقيلَ: لَهُ الأمْرُ في الخَلْقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تعالى اللهُ عمّا فَهِمَتِ المُشَبِّهَةُ مِنْ[7] قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ٱدۡعُواْ﴾ أي اعْبُدُوا رَبَّكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠] ذَكَرَ في الابْتِداءِ الدُّعاءَ، وفي آخِرِهِ العِبادَةَ، فكانَ الأمْرُ بالدُّعاءِ أمْراً بالعِبادَةِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: الدُّعاءُ ههنا هو الدُّعاءُ، وقد جاءَ أنَّ «الدُّعاءَ مُخُّ العِبادَةِ» [الترمذي: ٣٣٧١] [لأنَّ العِبادةَ][8] قد تكونُ بالتَّقْليدِ، والدُّعاءُ لا يَحْتَمِلُ التَّقْليدَ، ولكنْ إنما يكونُ عندَ الحاجَةِ لَمّا [يَرى المَرْءُ][9] في نَفْسِهِ مِنَ الحاجَةِ والعَجزِ عنِ القيامِ بذلكَ؛ فَعِنْدَ ذلكَ يَفْزَعُ إلى رَبِّهِ، فهو مُخُّ العِبادَةِ مِنْ هذا الوَجْهِ.

وقالَ بَعْضُ أهلِ التَّأويلِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أي وَحِّدوا رَبَّكُمْ ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ إخلاصاً، وقيلَ: ﴿تَضَرُّعٗا﴾ ظاهِراً ﴿وَخُفۡيَةًۚ﴾ سِرّاً. وأصْلُهُ أنِ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ في كُلِّ وقتٍ وكُلِّ ساعَةٍ، أوِ ادْعُوا خاضِعينَ مُخْلِصينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ قيلَ: المُجاوِزِينَ الحَدَّ بالإشراكِ باللهِ، وقيلَ: لا يُحِبُّ الاعْتِداءَ في الدُّعاءِ نَحْوَ أنْ يقولَ: اللهُمَّ اجْعَلْني نَبِيّاً أو مَلِكاً أو أنزِلْني في الجَنَّةِ مَنْزِلَ كذا ومَوضِعَ كذا. ورُوِيَ عَنْ عبدِ اللهِ بنِ مُغَفَّلٍ [أنهُ][10]

---

(١) في الأصل وم: الخلق. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: وما. (٤) في الأصل وم: قادر. (٥) من م، في الأصل: بحكمة. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ثم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: رأى. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

سَمِعَ ابنَهُ يقولُ: اللّهُمَّ إني أسألُكَ الفِرْدَوسَ، وأسألُكَ كذا، فقالَ لهُ عبدُ اللهِ: سَلِ اللهَ الجَنَّةَ، وتَعَوَّذْ بِهِ مِنَ النارِ فإني سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: «سيكونُ قومٌ يَعْتَدونَ في الدُّعاءِ»[1] [أبو داوود ١٤٨٠].

ويَحْتَمِلُ الاعْتِداءُ في الدعاءِ أنْ[2] يَسْألَ ربَّهُ ما لَيسَ هو بأهلٍ لهُ نَحْوَ أنْ يَسْألَ كرامَةَ الأخيارِ والرُّسُلِ.

وأصْلُ الاعْتِداءِ هو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ. وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][3] قالَ: في قولِهِ تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ عَلَّمَكُمْ كيفَ تدعُونَ ربَّكُمْ؟ وقالَ لِلْعَبْدِ الصالحِ حِينَ[4] رَضِيَ دُعاءَهُ ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣] وقالَ أنَسٌ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «عَمَلُ البِرِّ كُلِّهِ نِصْفُ العِبادَةِ والدعاءُ نِصْفُ العِبادَةِ» [المطالب العالية ٣٣٢٩].

ومنهُمْ مَنْ صَرَفَ قولَهُ تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ إلى الدعاءِ، وقالَ يُكْرَهُ لِلرَّجُلِ أنْ يَرْفَعَ صَوتَهُ في الدعاءِ. ويَرْوُونَ على ذلكَ حديثاً عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ سَمِعَ قوماً يَرْفَعُونَ أصواتَهُمْ في الدُّعاءِ، فقالَ: «أيها الناسُ لا تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائباً، ولكنْ كذا» [مسلم ٢٧٠٤/٤٤].

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ بَعْدَ ما بَعَثَ الرُّسُلَ بإصلاحِها مِنَ الدعاءِ إلى عبادةِ اللهِ والطاعةِ، ويأمُرُونَ بالحلالِ، ويَنْهَونَ عنِ الحَرامِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ بَعْدَ ما خَلَقَها طاهِرَةً عن جميعِ أنواعِ المَعاصِي والفواحِشِ وسَفْكِ الدِّماءِ وغيرِ ذلكَ. ويُقالُ: ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ بَعْدَ ما أعطاكُمْ أسباباً تَقْدِرُونَ على الإصلاحِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ بإصلاحِ الأرضِ أهْلَها، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا﴾ [الطلاق: ٨] والقريةُ لا تُوصَفُ بالعُتُوِّ، ولكنْ أهْلُها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿خَوۡفٗا﴾ لِما كانَ في العِبادَةِ مِنَ التَّقْصِيرِ ﴿وَطَمَعًا﴾ في التَّجاوُزِ والقَبولِ؛ لأنهُ لا أحَدَ يَقْدِرُ أنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ حَقَّ عبادَةٍ، لا تقصِيرَ في ذلكَ.

وعلى ذلكَ ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ أحدٌ إلّا برَحْمَتِهِ، قيلَ: ولا أنْتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ولا أنا إلّا أنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ برَحْمَتِهِ» [مسلم ٢٨١١/ ٧١ و٢٨١٨/٧٨] وعلى ذلكَ ما رُوِيَ أنَّ الملائكةَ يقولُونَ يومَ القِيامَةِ: ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتِكَ ويَجِبُ على كُلِّ مؤمنٍ أنْ يكونَ في كُلِّ فِعْلِ الخَيرِ خائفاً راجياً الخوفَ لِلتَّقْصِيرِ والرجاءَ لِلْقَبولِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: خوفاً مِنْ عذابِهِ ونَقْمَتِهِ وطَمَعاً في جَنَّتِهِ.

[وقولُهُ تعالى][5] ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ الجَنَّةَ ﴿قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ويقولُونَ: أرادَ بالقَريبِ الوقوعَ فيها والنُّزُولَ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ بالرَّحْمَةِ صِفَتَهُ فيكونُ تأويلُهُ: إنَّ مَنْفَعَةَ رَحْمَةِ ﴿ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وقالَ الحَسَنُ: إنَّ رحْمَةَ اللهِ، وهي الجَنَّةُ قريبٌ مِنَ الخائفِينَ. وقالَ بَعْضُهُمْ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي [إجابَةُ اللهِ قريبٌ مِمَّنْ][6] استَجابَ دعاءَهُ.

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ مَنْفَعَةِ رَحْمةِ اللهِ ﴿قَرِيبٞ﴾ مِمَّنْ[7] ذَكَرَ. ثم ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إلى أنفُسِهِمْ أي ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إلى خَلْقِهِ، أي ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إلى نِعَمِ اللهِ، أي أحْسَنُوا صُحْبَةَ نِعَمِهِ بالقِيامِ[8] لِشُكْرِها واجْتِنابِ الكُفْرانِ بها، أو يُرِيدُ المُوَحِّدِينَ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ يُذَكِّرُهُمْ ﷻ في هذا حكمتَهُ وقُدْرَتَهُ ونِعْمَهُ لِيَحْتَجَّ بها عليهِمْ بالبَعْثِ. أمّا حِكْمَتُهُ [ففي ما][9] يُرْسِلُ الرياحَ والأمطارَ، ويَسوقُها إلى المكانِ الذي يُرِيدُ أنْ يُمْطِرَ فيهِ ما لم يَعْلَمُوا ذلكَ، [ولا شاهَدُوهُ، وما][10] عَرَفُوا أنْ كيفَ يُرسِلُ المَطَرَ مِنَ السماءِ؟ وكيفَ يُرسِلُ الريحَ، ويَسوقُ السَّحابَ؟ ففي ذلكَ تَذْكِيرُ حِكْمَتِهِ إيّاهُمْ.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: والطهور. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: هو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل: إجابة قريب إلى من، في م: إجابة الله قريب إلى من. (٧) في الأصل وم: إلى من. (٨) في الأصل وم: القيام. (٩) في الأصل وم: فيما. (١٠) في الأصل وم: وشاهدوه ما.

جنة السنة

وأمّا نِعمةُ [فهي ما يَسوقُ مِنَ][1] السّحابِ بالرّيحِ إلى المكانِ الذي فيهِ حاجةٌ إلى المَطرِ؛ وذلكَ مِن عَظِيمِ نِعَمِهِ لِيُعلِمَ أنّ ذلكَ كانَ بِرَحمتِهِ، لا أنهُمْ كانُوا مُستوجِبِينَ لذلكَ.

وأمّا ما ذَكَّرَهُمْ مِنْ قُدرَتِهِ فهو[2] ما ذَكَرَ مِنْ إحياءِ الأرضِ بَعْدَ ما كانَتْ مَيّتةً لِيُعلِمَ أنّ الذي قَدَرَ على إحياءِ الأرضِ وإخراجِ النباتِ والثّمرِ بَعْدَ ما كان مَيّتاً قادرٌ[3] على / ١٧٧ ـ ب/ إحياءِ الموتَى وبَعْثِهِمْ بَعْدَ مَوتِهِمْ على ما قَدَرَ على إحياءِ الأرضِ بالنباتِ وإحياءِ النّخلِ بالثّمارِ بَعْدَ ما كانَ عَلِمَ كُلٌّ أنْ لا نباتَ فيها، ولا ثِمارَ فيهِ. فإذا خَرجَ النباتُ منها والثّمارُ مِنَ النّخيلِ على ما خَرجَ في العامِ الأوّلِ دَلّ ذلكَ على وَحدانيّتِهِ وقُدرَتِهِ على إحياءِ الموتَى وبَعْثِهِمْ بَعْدَ ما ماتُوا، وصارُوا تُراباً على قَدْرِ ما ذَكَرْنا، واللهُ [أعلَمُ][4]

وفي قولِهِ تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾ دلالةُ ألّا يُفهَمَ مِنَ اليَدينِ الجارحَتَينِ [ما][5] يُفهَمُ مِنَ الخَلْقِ كما لم يَفهَمْ أحدٌ [مِنْ ذِكْرِ][6] اليَدِ في المَطَرِ الجارحةَ؛ لأنهُ لا جارِحَةَ لهُ. فَعَلَى ذلكَ لا يُفهَمُ مِنْ ذِكْرِ اليَدِ لَهُ الجارحةُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ لم يُفهَمْ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ الجارحَتَينِ[7] لِلقرآنِ. فَعَلَى ذلكَ لا يُفهَمُ مِمّا ذَكَرَ مِنْ يَدَيهِ الجارحَتَينِ[8]. ومَنْ فَهِمَ ذلكَ إنما يَفهَمُ لِفسادِ اعتِقادِهِ. وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ الاستواءِ على العَرْشِ والاستواءِ إلى السماءِ لا يُفهَمُ مِنَ استِواءِ الخَلقِ؛ لأنهُ بَريءٌ عَنْ جَميعِ مَشابِهِ الخَلقِ ومَعانِيهِمْ، وهو ما وَصَفَ حِينَ[9] قالَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وقولُهُ تعالى: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾ ونُشُراً [ونَشْراً][10] وبُشْرَى؛ والنُّشُرُ هو مِنْ جَمعِ نُشورٍ [والنَّشْرُ هو][11] مِنَ الإحياءِ، ومِنَ[12] التّفريقِ، وبُشْرَى بالباءِ مِنَ البِشارةِ.

ثم قِيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿نُشُرًا﴾ اللهُ ﷻ هو الذي يُفرّقُ، ويَسوقُ ذلكَ السّحابَ، وقِيلَ: الريحُ هو الذي يُرسِلُ، ويَسوقُ ذلكَ السحابَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ قِيلَ: ﴿أَقَلَّتْ﴾ حَمَلَتْ، وقِيلَ: وَفَتَحَتِ الماءَ، وهو واحدٌ ﴿ثِقَالًا﴾ مِمّا فيهِ مِنَ الماءِ ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ إلى بَلَدٍ مَيّتٍ ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ أي بالبَلَدِ ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ما يُشاهِدونَ مِنَ الثّمراتِ ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بَعْدَما ماتُوا، وذَهَبَ أثرُهُمْ كما أخرَجَ النّباتَ والثّمارَ مِنَ الأرضِ والنّخلِ مِنْ بَعْدِ ما ماتَ، وذَهَبَ أثرُ ذلكَ النّباتِ وتلكَ الثّمارِ. فَعَلَى ذلكَ نُخرِجُ الموتَى بَعْدَ ما ذَهَبَ أثرُهُمْ حتى لم يَبقَ شَيءٌ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وتَتَفكّرُونَ، وتَعرِفونَ قُدرَتَهُ وسُلطانَهُ على الإحياءِ بَعْدَ الموتِ، أو تَذَكّرُونَ، وتَتّعِظُونَ.

وبَعْدُ فإنّ إعادةَ الشّيءِ في عُقولِ الخَلقِ أهوَنُ وأيسَرُ مِنَ ابتِداءِ الإنشاءِ. ألا تَرَى أنّ الدّهريّةَ والثّنويّةَ وهؤلاءِ قد أنكرُوا الإنشاءَ مِنْ لا شَيءٍ، ورأوا وجودَ الأشياءِ مَطرُوحَها وإعادَتَها عَنْ أصلٍ وكِيانٍ؟ وهو ما ذَكَرَ، وهو أهوَنُ عليهِ أي في عُقولِكُمْ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ ذَكَرَ المَثَلَ، ولم يذكرِ المضرُوبَ.

وأهلُ التّأويلِ قالوا: ضَرَبَ المَثَلَ لِلمؤمنِ والكافرِ. ثم يَحتَمِلُ ضَرْبُ المَثَلِ وجُوهاً:

أحَدُها: أنهُ وَصَفَ الأرضَ التي يَخرُجُ منها النباتُ بالطّيبِ، وَوَصَفَ الأرضَ التي لا يَخرُجُ منها النباتُ بالخُبْثِ.

فَعَلَى ذلكَ المؤمنُ لِما كانَ منهُ مِنَ الأعمالِ الطاعةُ[13] لِرَبّهِ والائتِمارُ لأمرِهِ، موصوفٌ هو بالطّيبِ، وجَعَلَهُ مِنْ جَوهَرِ

---

(١) في الأصل وم: فهو ما يسوق. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لقادر. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: بذكر. (٧) في الأصل وم: الجارحة. (٨) في الأصل وم: الجارحة. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية [٢/ ٣٧١]. (١١) في الأصل وم: وهو. (١٢) في الأصل وم: ونشرا من. (١٣) في الأصل وم: من الطاعة.

جنة السنة

الطَّيبِ، والكافرُ لِما يكونُ منهُ الأعمالُ الخبيثةُ، ولا يكونُ [لَهُ](١) مِنَ الأعمالِ الصالحةِ الطاعةِ(٢) لِربِّهِ خبيثٌ، كما أنَّ الأرضَ التي يَخرُجُ منها النباتُ الذي يُنتفَعُ بِهِ موصوفةٌ بِطيبِ الأصْلِ والجوهَرِ، والتي لا يَخرُجُ منها النباتُ، ولا يُنتفَعُ بِهِ، مَوصوفةٌ بِخُبثِ الأصلِ.

وأمْكَنَ مِنْ وجهٍ آخرَ؛ وهو أنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ هذا القرآنَ مُباركاً شِفاءً لِلْخَلْقِ على ما وَصَفَهُ اللهُ تعالى في غيرِ مَوضعٍ مِنَ الكتابِ، وَوَصفَ الماءَ الذي يَنزِلُ مِنَ السماءِ بالبَرَكَةِ والرَّحْمَةِ. فإذا أنزَلَ ذلكَ الماءَ المُبارَكَ في الأرضِ الطَّيبَةِ الجَوهَرِ خَرَجَ منها النباتُ والأنزالُ يُنتفَعُ بها. وإذا نَزَلَ في الأرضِ السَّبخَةِ الخبيثةِ لم يَخرُجِ [النباتُ](٣) لِخُبثِ أصلِها.

فَعَلَى ذلكَ هذا القرآنُ هو مباركٌ شِفاءٌ؛ يَسمَعُهُ(٤) المؤمنُ، فَيتَّبِعُهُ بِهِ، ويَعمَلُ بِهِ، والكافرُ يَسمَعُهُ، ولا يَتَّبِعُهُ، ولا يَعمَلُ به. فصارَ مَثَلُ المؤمنِ الذي يَسمَعُ هذا القرآنَ، ويَتَّبِعُهُ، ويَعمَلُ بما فيهِ كَمَثَلِ الماءِ الذي يَدْخُلُ في الأرضِ، فَيَخرُجُ منهُ النباتُ لِطِيبِ جَوْهَرِها وأصْلِها. والكافرُ مِثْلُ الأرضِ التي لا يَخرُجُ منها النباتُ لِخُبثِ أصلِها وجَوهَرِها.

وأصْلُهُ أنهُ ضَرَبَ مَثَلَ الذي هو مُستَحسَنٌ بالعَقلِ بالذي هو مُستَحسَنٌ بالطَّبعِ؛ لأنَّ ما حَسُنَ في الطَّبعِ فإنما مَعرِفَتُهُ حُسْنَى، وما حَسُنَ في العَقلِ فإنما يُعرَفُ حُسْنُهُ بالدلائِلِ، وهو غائبٌ. فَضَرَبَ مَثَلَ مَعرِفَةِ حُسْنِهِ بالعَقلِ بالحُسْنِ والمُشاهَدَةِ، وهو ما ذَكَرَ مِنَ النباتِ الذي يَخرُجُ مِنَ الأرضِ، وذلكَ يدلُّ على طِيبِ أصلِها وجَوهَرِها. [والذي لا يَخرُجُ](٥) لِخُبثِ جَوهَرِها وأصلِها. فَعَلَى ذلكَ المؤمنُ والكافرُ.

ثم حُسْنُ عَمَلِ هذا وَطِيبُهُ وقُبحُ عَمَلِ الآخرِ وخُبثُهُ إنما يَظهَرُ في الآخِرَةِ؛ وذلكَ يُوجِبُ البَعْضَ أنهما اسْتَوَيا في هذهِ الدنيا، فَدَلَّ أنَّ هناكَ داراً أخرى فيها يَظهَرُ الطَّيبُ مِنَ الخبيثِ؛ طابَ عَمَلُ المؤمنِ وجميعُ ما يكونُ منهُ حُسْناً لِطِيبِ أصلِهِ، وخَبُثَ عَمَلُ الكافرِ، وقَبُحَ ما يكونُ منهُ لِخُبثِ أصلِهِ؛ كالأرضِ التي ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ﴾ يَحتَمِلُ بِعلمِهِ وتكوينِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا نَكِدٗا﴾ قالَ الحَسَنُ: خَبيثاً؛ أي لا يَخرُجُ إلَّا خبيثاً، وقالَ أبو بكرٍ ﴿نَكِدٗا﴾ أي لا مَنفعَةَ فيهِ، وقِيلَ: إلَّا عَسِيراً، وقِيلَ: إلَّا قليلاً، وهو واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ أي لِقَومٍ يَنتفِعونَ بالآياتِ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ كما أرسَلْناكَ إلى قومِكَ، وَلَسْتَ أنتَ بأوَّلِ رسولٍ كقولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]

وفيهِ دلالةُ أنَّ الإيمانَ يَصِحُّ بالأنبياءِ والرُّسُلِ [وإنْ لم تُعرَفْ أنسابُهُمْ؛ لأنَّ اللهَ ﷻ ذَكَرَ الأنبياءَ والرُّسُلَ](٦) بِأساميهِمْ، ولم يَذكُرْ أنسابَهُمْ. دلَّ ذلكَ أنَّ الإيمانَ يكونُ بِهِمْ، و إنْ لم تُعرَفْ أنسابُهُمْ، وكذلكَ يَصِحُّ الإيمانُ وإنْ لم تُعرَفْ أسماؤُهُمْ؛ لأنَّ(٧) [مِنَ الأنبياءِ مَنْ لا يُعرَفُ اسْمُهُ، فَيَصِحُّ الإيمانُ بِجُملَةِ](٨) الأنبياءِ، وإنْ لم تُعرَفْ أسماؤُهُمْ.

وفي ذلكَ دلالةُ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبَرَ عَنْ رسالةِ نوحٍ، فَدَلَّ أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلك.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ قِيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي وَحِّدوا اللهَ، سَمَّوا التَّوحيدَ عِبادةً، لأنَّ العِبادَةَ لا تكونُ، ولا تَصِحُّ إلَّا بالتَّوحيدِ فيها للهِ خالصاً، سُمِّيَ بذلكَ مجازاً أنْ يكونَ عِبادةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ أي ما لَكُمْ مِنَ الإلهِ الحَقِّ الذي تَثبُتُ ألوهيَّتُهُ ورُبوبيَّتُهُ بالدلائلِ مِنْ إلهٍ غيرُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ إني أعلَمُ أنهُ يَنزِلُ عليكمْ عذابُ يومٍ عظيمٍ إنْ كُنتُمْ على هذا. وقالَ بَعضُهُمْ: الخوفُ هو(٩) خَوفُ إشفاقٍ، وذلكَ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ في الوَقتِ الذي كانَ يطمعُ إيمانَ قومِهِ، ثم آيَسَهُ اللهُ عَنْ إيمانِ قومِهِ بِقولِهِ تعالى: ﴿لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل (٢) في الأصل وم: ومن الطاعة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فيسمع. (٥) في الأصل وم: والتي لا تخرج شيئا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من م. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وهو.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لِلخلقِ كقولِهِ تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٥ و٦] وهو عظيمٌ لِلخلْقِ على ما وَصَفَ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ هم أشرافُ قومِهِ وسادَتُهُم كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ الآية [الأحزاب: ٦٧] وكانوا هُمْ أضدادَ الأنبياءِ والرُّسلِ لأنهُمْ كانوا يَدْعونَ الناسَ إلى ما يُوحِي إليهِمُ الشياطِينُ، والرُّسُلُ كانُوا يدعُونَ إلى ما يوحي إليهِمُ اللهُ، ويُنزِلُ عليهِمْ. لذلكَ قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لأنهُمْ ظَنُّوا أنَّ ما أُوحَى إليهِمُ الشيطانُ هو الحَقُّ، وأنَّ ما يَدْعو[1] إليهِ الرُّسُلُ هو ضَلالٌ وباطِلٌ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أي لَسْتُ أنا بِضالٍّ؛ لأنهُ إذا نَفَى الضلالَ عنهُ نَفَى أنْ يكونَ ضالاًّ، وهو حَرْفُ رِفْقٍ ولينٍ. وعلى ذلكَ أمْرُ الأنبياءِ والرُّسُلِ أنْ يُعامِلُوا قومَهُمْ؛ لأنَّ ذلكَ أنْجعُ في القُلوبِ، وإلى القبولِ أقْرَبُ.

﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والعالَمُ هو جوهَرُ الكُلِّ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ/ ١٧٨ ـ أ/ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي في خَطإٍ مُبينٍ. ثم يُخَرَّجُ على وجْهَينِ:

أحدُهُما: نَسَبُوهُ إلى الخَطإِ لمّا رَأوهُ خالَفَ الفراعِنَةَ والجَبابِرَةَ الذينَ هَمُّهُمُ القَتْلُ لِمَنْ خالفَهُمْ.

الثاني: نَسَبُوهُ إلى الخَطإِ لأنهُ دينُ آبائِهِ وأجدادِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ التي أمَرَني بِتَبْليغِها إليكُمْ؛ قَبِلْتُمْ، أو رَدَدْتُمْ. ثم لأني أُبَلِّغُها على أيِّ حالٍ اسْتَقْبَلْتُموني، أو يقولُ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ رسالةَ ربي التي أرسلَها إليَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ [يحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾][2] أي ادعوكُمْ، وآمُرُكُمْ إلى ما فيهِ صلاحُكُمْ، وأنهاكُمْ عَمّا فيهِ فَسادُكُمْ. والنصيحةُ هي الدعاءُ إلى ما فيهِ [الصلاحُ والنَّهْيُ عَمّا فيهِ][3] الفَسادُ. وتكونُ النصيحةُ لَهُمْ ولجميعِ المؤمنينَ.

رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][4] قالَ: «ألا إنَّ الدينَ النَّصيحةُ، قيلَ: لِمَنْ يارسولَ اللهِ؟ قالَ: للهِ ولِرَسولِهِ» [البخاري: ٥٧] قالَ أبو القاسِمِ الحكيمُ، رحمةُ اللهِ عليهِ: النصيحةُ هي النهايةُ مِنْ صِدْقِ العِنايةِ.

ثم أخْبَرَ أنهُ يُبَلِّغُهُمْ ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ ولم يُبَيِّنْ في ماذا؟ في كتابٍ أنْزَلَهُ عليه، أو يوحي [إليهِ في غيرِ كتابٍ][5]، ولَيسَ لنا إلى مَعْرِفةِ ذلكَ حاجةٌ سِوَى التَّصديقِ لهُ في ما يُبَلِّغُ إليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قد آتاهُ مِنَ اللهِ العِلْمُ بأشياءَ ما لم يأتِ أولئكَ مِثْلُهُ، وهو كقولِ إبراهيمَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، لأبيهِ ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي﴾ [مريم: ٤٣] ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِنَ العذابِ أنْ يَنْزِلَ بِكُمْ ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنْتُمْ إذا دُمْتُمْ على ما أنْتُمْ عليهِ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي أتَعْجَبُونَ[6] بما جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنَ اللهِ على يَدَيْ ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ ما لا أقْدِرُ أنا، ولا تَقْدِرونَ أنتُمْ على مِثْلِهِ؟ كانُوا يَعْجَبُونَ، ويُنْكِرُونَ أنْ يكونَ رُسُلُ اللهِ مِنَ البَشَرِ بقولِهِمْ: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] ونحوِ ذلكَ.

هكذا[7] كانوا يُنْكِرُونَ رسالةَ البَشَرِ، وما يَنْبَغي لَهُمْ أنْ يُنْكِرُوا ذلكَ لأنهُمْ قد كانُوا رَأَوا تَفْضِيلَ بَعْضِ البَشَرِ على بَعْضٍ [وتَفْضِيلَهُمْ في][8] وضْعِ الرسالةِ فيهِمْ؛ أعني [تَفْضيلَهُمْ في الرسالةِ][9]؛ وذلكَ قد رَأَوا في ما بَيْنَهُمْ. ولِلّهِ تَفْضِيلُ بَعْضِهِمْ على بَعْضٍ؛ إذْ لَهُ الخَلْقُ، ولِكُلِّ ذي مُلْكٍ وسلطانٍ أنْ يَصْنَعَ في مُلْكِهِ ما شاءَ مِنْ تفضيلِ بَعْضٍ على بَعْضٍ وغَيرِهِ.

---

(١) في الأصل وم: يدعون. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: في غير كتاب يوحي إليه. (٦) في الأصل وم: تعجبون. (٧) في الأصل وم: هذا. (٨) في الأصل وم: وفي. (٩) في الأصل وم: في المرسل تفضيلهم.

جنة السنة

أو يقول: قد عجبتُم ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ﴾ يدي ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ ولو كانَ جاءَ الذِّكْرُ على مَنْ هو مِنْ غيرِ جوهَرِكُمْ كانَ في ذلك لَبْسٌ واشتِباهٌ عليكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ عذابَ اللهِ ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ معاصِيَهُ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إنِ اتَّقَيْتُمْ ما نَهَيْتُكُمْ عنهُ، أو كانَ في قومِهِ مَنْ يجوزُ أنْ يُرْحَمَ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني نُوحاً [كذَّبوهُ حينَ][1] دعاهُمْ إلى عِبادةِ اللهِ تعالى وَوَحدانِيَّتِهِ، ونهاهُمْ عَنْ عِبادةِ غيرِ اللهِ، أو كَذَّبُوهُ في ما آتاهُمْ مِنْ آياتِ نُبُوَّتِهِ ورسالَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ يعني نُوحاً ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

إذا كانَ إهلاكُ القومِ إهلاكَ تَعْذيبٍ وعُقوبَةٍ يَنْجي أولياءَهُ، ويُبْقيهِمْ إلى الآجالِ التي هي[2] قَدَّرَ لَهُمْ. ويكونُ ذلكَ نجاةً لَهُمْ مِنْ ذلكَ العذابِ الذي حَلَّ بالأعداءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التي جعَلْناها[3] لإثباتِ رسالَتِهِ ونُبُوَّتِهِ. ويَحْتَمِلُ ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التي أعطَيْنا [لإثباتِ وَحدانيَّةِ][4] اللهِ وأُلوهِيَّتِهِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ عَمُوا عَنِ الحَقِّ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي إلى عادٍ أرْسَلْنا هُوداً. ثم تَحْتَمِلُ الأُخُوَّةُ وُجوهاً أربَعَةً: أُخُوَّةُ الجَوهرِ؛ وهو [أنْ يُقالَ: هذا أخوهُ][5] إذا كانَ مِنْ جَوهَرِهِ، ولا يُقالُ ذلكَ مِنْ غَيرِ جوهَرِهِ، وأُخُوَّةُ المَوَدَّةِ والمَحَبَّةِ، وأُخُوَّةُ الدِّينِ [وأُخُوَّةُ النَّسَبِ][6].

ثم لم يكُنْ بَيْنَ هُودٍ وقومِهِ أُخُوَّةُ [الدينِ ولا أُخُوَّةُ المَوَدَّةِ، لكن تَحْتَمِلُ الأُخُوَّةُ أُخُوَّةَ][7] النَّسَبِ؛ لأنَّ البَشَرَ على بُعْدِ مِنْ آدَمَ، كُلُّهُمْ أولادُهُ. فإذا كانُوا كذلكَ فَهُمْ في ما بَيْنَهُمْ، بَعْضُهُمْ إخْوَةُ بَعْضٍ، وأُخُوَّةُ الجَوهرِ على ما ذَكَرْنا؛ يقالُ: هذا أخو هذا إذا كانَ مِنْ جِنْسِهِ وجَوهَرِهِ، [فهذانِ الوَجْهانِ يُحْتَمَلانِ][8] والآخرانِ لا.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي اعْبُدوا اللهَ الذي يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي لَيسَ لَكُمْ مِنْ مَعْبودٍ سِواهُ، وهو المَعْبودُ في الحَقيقَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عِبادَةَ غَيرِ اللهِ، أو ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ اللهَ في عِبادَتِكُمْ غَيْرَهُ وفي تكذيبِكُمْ هُوداً. أو يَقولُ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذابَهُ ونَقْمَتَهُ عليكُمْ بِمُخالَفَتِكُمْ إيّاهُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ قد ذَكَرْنا قولَ المَلإِ مِنْ قومِهِ، أي أشرافِ قومِهِ وسادَتِهِ ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ذَكَرَ ههنا ظَنَّهُمْ في تكذيبِهِمُ الرَّسولَ، وفي[9] مَوضِعٍ آخَرَ قَطَعَهُمْ في التكذيبِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨].

فكانَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في ابْتِداءِ ما دَعاهُمْ إلى عبادَةِ اللهِ وَوَحدانِيَّتِهِ؛ كانُوا على ظَنٍّ فيهِ لِما كانَ عندَهُمْ صَدوقاً أميناً قَبْلَ دُعائِهِمْ إلى ما دَعاهُمْ. فلمّا أنْ أقامَ عليهِمْ آياتِ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ، وأظْهَرَ عِنْدَهُمْ عَيْبَ ما عَبَدُوا غَيرَ اللهِ، وأبْطَلَهُ، وتَحَقَّقَ [ذلكَ عندَهُمْ، عندَ][10] ذلكَ قالُوا ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨] لِيُعْلِمَ أنهُمْ عن عِنادٍ كَذَّبُوا[11] الرُّسُلَ.

الآية ٦٧ وقولُهُ[12] تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ إنَّ الرُّسُلَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، كانُوا أُمِرُوا أنْ يُعامِلُوا الخَلْقَ بأحْسَنِ مُعامَلَةٍ، وهو ما أَمَرَ رسولَ اللهِ ﷺ، حينَ[13] قالَ تعالى لَهُ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: هو، ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: جعلناه. (٤) في الأصل وم: لوحدانية. (٥) في الأصل وم: يقال هذا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: فهذين الوجهين. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في م: وكذبوا. (١٢) في الأصل وم: فقال. (١٣) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وقال[1] تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] ونحوَهُ. فَعَلى ذلكَ الرُّسُلُ الذينَ كانُوا مِن قَبْلُ؛ كانُوا مَأْمُورِينَ بذلكَ. لِذلكَ قالَ لهمْ هو، ولمّا بَلَّغُوهُ بالتَّكذيبِ والتَّسفيهِ، قالَ: لَيسَ بي ما تقولونَ، وتَنسِبونني ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي أدْعُوكُمْ إلى وَحدانيَّةِ اللهِ وعبادَتِهِ والتَّمسُّكِ بالدينِ الذي بِهِ نَجاتُكُمْ. وكُلُّ مَنْ دعا آخَرَ إلى ما بِهِ نَجاتُهُ فهو ناصِحٌ لهُ.

ويَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي كُنتُ ناصِحاً لَكُم قبلَ هذا أميناً[2] فيكُمْ. فكيفَ تكذِّبونَني، وتَنسُبونَني إلى السَّفَهِ؟ وأنا أمينٌ على الرسالةِ والوَحْيِ الذي وَضَعَ اللهُ عِندي.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ خَوَّفْتُمونَني، أولم تُخوِّفوني، قَبِلْتُمْ عني، أو لم تَقْبَلُوا، أو يقولُ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ فكيفَ تَنسُبونَني إلى السَّفَهِ والافتِراءِ على اللهِ؟

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ [وجُوهاً]:

أحدُها: أنهُ جعَلَكُم خُلفاءَ[3] قومٍ أهلَكَهُمْ بتكذيبِهِمُ الرُّسُلَ، ولم يُهلِكْكُمْ، فاحذَرُوا أنْتُم هَلاكَكُم بتكذيبِكُمُ الرَّسُولَ كما أهلَكَ أولئكَ بتكذيبِهِمُ الرُّسُلَ. أو أنْ يُقالَ: ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ قومٍ صَدَّقُوا رسولاً مِنَ البَشَرِ، وهو نوحٌ، فكيفَ كَذَّبتُموني في دَعْوَى الرسالةِ لأني بَشَرٌ، ودُعائي إلى عبادةِ اللهِ وَوَحدانيَّتِهِ؟ هذا تناقُضٌ.

والثاني: أنِ اذكُرُوا نوحاً، وهو كانَ رسولاً مِنَ البَشَرِ، فكيفَ تُنكِرونَ أنْ يكونَ الرَّسُولُ مِنَ البَشَرِ، وكانَ الرُّسُلُ جميعاً مِنَ البَشَرِ.

والثالثُ: أنِ اذكُروا نِعمَتَهُ التي أنعَمَها عليكُمْ مِنَ السَّعَةِ في المالِ والقُوَّةِ في الأنْفُسِ وحُسْنِ الخِلْقَةِ والقامَةِ، وكانَ لِعادٍ ذلكَ كُلُّهُ كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ﴿الَّتِي﴾ الآية [الفجر: ٦ و٧ و٨] هذا في السَّعَةِ في المالِ. وأمّا القُوَّةُ في الأنفُسِ والقامةِ [فهي][4] ما ذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] وقولِهِ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] وَصَفَ لَهُمْ بالقُوَّةِ وطولِ القامَةِ. وعلى ذلكَ فَسَّرَ بَعضُ أهلِ التأويلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ يَعْني قُوَّةً/ ١٧٨ ـ ب/ وقُدْرَةً. وقيلَ[5]: هو الطُّولُ والعِظَمُ في الجِسْمِ.

ذَكَرَ اللهُ في عادٍ[6] أشياءَ ثلاثةً خَصَّهُمْ بها مِنْ غيرِهِمْ: أحَدُها: العِظَمُ في النَّفْسِ بِقولِهِ[7] تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ وفي القُوَّةِ بقولِهِ تعالى: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] [والثانيةُ][8]: السَّعَةُ في الأموالِ بقولِهِ تعالى: ﴿بِعَادٍ﴾ ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦ و٧] و[الثالثةُ][9] فَضْلُ العِلْمِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الآلاءُ هي في دَفْعِ البَلايا، والنَّعْماءُ هي في سَوْقِ النَّعْماءِ إليهِ. ولكنهما واحدٌ؛ لأنهُ ما مِنْ بَلاءٍ يَدْفَعُ عنهُ إلّا وفي ذلكَ سَوْقُ نِعْمَةٍ أُخرى إليهِ، ولأنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ في سورةِ الرحمنِ الآلاءَ بجميعِ ما ذَكَرَ إنما ذَكَرَ على سَوقِ النِّعَمِ إليهِ بقولِهِ[10] تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ حينَ[11] قالَ تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الآيات: ١ و٢ و٣ و٤] إلى [آخِرِ][12] ما ذَكَرَ مِنَ السورةِ، وهو ذِكْرٌ في سَوقِ النِّعَمِ لا في دَفْعِ البَلايا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إنْ ذَكَرْتُمْ نِعَمَهُ، وشَكَرْتُمْ لَهُ عليها، ولم تَصْرِفُوا عِبادَتَكُمْ وشُكْرَكُمْ إلى غَيْرِهِ، أو يقولُ: لِكَي يَلْزَمَكُمُ الفَلاحُ، أو حتى تكونُوا مِنْ أهلِ الفَلاحِ.

---

(١) في الأصل وم: قوله. (٢) في الأصل وم: أمين. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وقال غيره. (٦) من م، في الأصل: عادة. (٧) في الأصل وم: كقوله. (٨) في الأصل وم: و (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: قوله. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٧٠ وقولُه تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ هذا يدلُّ على أنَّ رسالتَه التي يُبلِّغُها إليهِمْ في دعائِهِ إيّاهُمْ إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَهُ وتركِهِمْ عِبادةَ مَنْ دُونَهُ حِينَ[1] قالُوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ ولا شَكَّ أنهُ إنما جاءَهُمْ لِيَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ، وجاءَهُمْ لِيَذَرُوا ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُهُم.

ثم في فِعْلِهِمْ تناقُضٌ؛ لأنهُمْ كانُوا يُنْكِرونَ أنْ يكونَ مِنَ البَشَرِ [يأكُلُ ممّا يأكُلونَ، ويَشْرَبُ][2] ممّا يَشْرَبُونَ؛ لم يَرْضَوا برسالةِ البَشَرِ، ورَضُوا بإلهيّةِ الأحجارِ والخَشَبِ، ثم يُقَلِّدونَ آباءَهُمْ في عِبادَتِهِمْ غيرَ اللهِ، وفي آبائِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ، لا يَعْبُدُ غَيْرَهُ؛ وهُمُ الذينَ مَعَ نُوحٍ. فكيفَ لم يُقَلِّدُوا مَنْ نجا منهُمْ، ولم يَعْبُدُوا غَيْرَ اللهِ دونَ أنْ يُقَلِّدُوا[3] الذينَ عَبَدُوا غَيْرَ اللهِ؟ فذلكَ تناقُضٌ حينَ[4] اتَّبعوا [مَنْ][5] هَلَكَ منهُمْ بِتَكذيبِهِمُ الرُّسُلَ وعِبادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ، ولم يَتَّبِعُوا مَنْ نَجا مِنْهُمْ.

يَذْكُرُ ﷻ سَفَهَهُمْ وتَناقُضَهُمْ في القولِ في إنكارِهِمُ الرسولَ مِنَ البَشَرِ. ولكنَّ ذِكْرَ سَفَهِهِمْ وتناقُضِهِمْ بالتَّعْرِيضِ لا بالتَّصْريحِ. وكذلكَ عامَّةُ ما ذَكَرَ في كتابِهِ مِنْ سَفَهِهِمْ إنما ذَكَرَهُ[6] بالتَّعْرِيضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إنهُ كانَ يَعِدُ العذابَ إنْ لم يُصدِّقُوهُ في ما يَدْعُوهُمْ إليهِ وتَرْكِ تَقْلِيدِهِمْ آباءَهُمْ في عِبادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الرِّجْسُ العذابُ؛ أي وَجَبَ عليكمُ العذابُ بتكذيبِكُمْ[7] هوداً أو تَقْلِيدِكُمْ آباءَكُمْ في عِبادَتِكُمْ غَيْرَ اللهِ ﴿وَغَضَبٌ﴾ وهو العذابُ أيضاً.

وجائزٌ أنْ يكونَ الرِّجْسُ ههنا الخِذْلانَ وحِرْمانُ التَّوفيقِ والمَعونةِ؛ أي وَقَعَ عليكُمْ، وَوَجَبَ، الخِذْلانُ وحِرْمانُ التَّوفيقِ باخْتِيارِكُمْ ما اخْتَرْتُمْ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: الرِّجْسُ هو الإثْمُ والخُبْثُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] وقولِهِ تعالى: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠] وقولِهِ [ﷺ][8]: «اللَّهُمَّ إني أعوذُ بكَ مِنَ الرِّجْسِ النَّجِسِ الخَبيثِ المُخْبِثِ مِنَ الشيطانِ الرَّجِيمِ» [ابن ماجة ٢٩٩]

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ ومجادلتُهُمْ ما قالُوا ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ ويَحْتَمِلُ ﴿فِىٓ أَسْمَآءٍ﴾ أي بأسماءِ ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ قِيلَ: مِنْ حُجَّةٍ، أي لم يُنَزِّلْ لهمْ حُجَّةً في عِبادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ، وقِيلَ: السلطانُ ههنا عُذْرٌ؛ أي لم يُنَزِّلْ لهمْ عُذْراً في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ أي انْتَظِرُوا أنْتُمْ وَعْدَ الشيطانِ ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ وَعْدَ الرحمنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي مِنْ حُجَّةٍ في تَسْمِيَتِهِمُ الأصنامَ التي عَبَدُوها دونَ اللهِ لَمّا سَمَّوها آلهةً وشُفعاءَ ونَحْوَهُ؛ كأنهُمْ إنما جادَلُوهُ في تَسْمِيَتِهِمْ آلهةً وشُفعاءَ وأنْ لَيسَ لَهُمْ حُجَّةٌ ولا عُذْرٌ في عِبادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ ولا في إشراكِهِمْ غَيْرَهُ في العِبادةِ والألوهيَّةِ ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾. وقالَ الحَسَنُ: انْتَظِرُوا أنتمْ مواعِدَ الشيطانِ ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لِمَواعِدِ اللهِ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ يَعْني هُوداً ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ إنَّ حُكْمَ اللهِ أنهُ إذا أهلَكَ قوماً إهلاكَ تَعْذيبٍ اسْتَأْصَلَهُمْ، وأنْجى أولياءَهُ، ونَصَرَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى بِرَحْمَتِهِ التي هَداهُمْ ﷻ ولولا رَحْمَتُهُ ما اهْتَدَوا، لكنَّهُ أنجاهُمْ برحمَتِهِ وفَضْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: قلدوا. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: ذكر. (٧) من م، في الأصل: بتكذيبهم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وفيه أنَّ مَنْ نَجا برحمَتِهِ وفَضْلِهِ، وإنْ كانَ رسولاً، لا باستِيجابٍ منهُ النجاةَ، وهو ما رُوِيَ [ﷺ حين](١) قال: «لا يدخُلُ الجَنَّةَ أحدٌ إلّا برَحْمَةِ اللهِ، قيلَ: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا إلّا أنْ يتغمَّدَني اللهُ برحْمَتِهِ» [مسلم ٢٨١٦/١٧ و . . . و٢٨١٨/٧٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي أصلَ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ولم يُبيِّنْ لنا آياتِهِ التي أعطى هوداً. ولَيسَ لَنا إلى مَعرفةِ ذلكَ حاجةٌ سِوى ما أخْبرَ ما حلَّ بتكذيبِهِمُ الرسولَ؛ وذلكَ كانَ سُنَّةً وحِكْمَةً في الأمَمِ السالفَةِ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ قد ذكَرْنا أنهُ تحتَمِلُ الأُخوَّةُ وجوهاً أربعةً: أُخوَّةُ النَّسَبِ وأُخوَّةُ الجَوهَرِ والشَّكْلِ على ما يُقالُ: هذا أخو هذا، إذا كانَ مِنْ جوهَرِهِ(٢) وشَكْلِهِ، وأُخوَّةُ المَوَدَّةِ والخُلَّةِ، وأُخوَّةُ الدينِ.

ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ(٣) ذكَرَ مِنْ أُخوَّةِ صالحٍ [أنهُ](٤) كانَ أخاهُمْ(٥) في النَّسَبِ أو في الجَوهَرِ على ما ذَكَرَ في هودٍ، ولا يَحْتَمِلُ أن يكونَ في المَوَدَّةِ والدينِ. وأمّا أُخوَّةُ النَّسَبِ فإنها (٦) تَحْتَمِلُ لِما ذكَرْنا أنَّ بَني آدمَ كلَّهُمْ إخوةٌ، وإنْ [لَمْ](٧) يُعَدُّوا؛ [هُمْ مِنْ أولادِهِ](٨).

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ قد ذكَرْنا أنَّ الرسُلَ بأجمَعِهِمْ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، إنما بُعِثوا لِيَدْعُوا الخَلْقَ إلى وَحْدانيَّةِ اللهِ والعِبادَةِ لهُ؛ إذ لا مَعْبودَ سِواهُ، يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ مِنَ الخَلْقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ: قيلَ: ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ما ذَكَرَ مِنَ الناقةِ التي جعَلَها اللهُ تعالى آيَةً لِرسالةِ صالحٍ، وهو [قولُهُ تعالى](٩): ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ وقيلَ: ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ آياتٌ ظَهرَتْ لهُمْ على لسانِ صالحٍ، وجرَتْ على يَدَيهِ، تدلُّ(١٠) على رسالةِ(١١) صالحٍ ونُبوَّتِهِ. لكنهُمْ كابَروا تلكَ الآياتِ في التكذيبِ، وعانَدوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ وَجْهُ تخصيصِ إضافةِ تلكَ الناقةِ إلى اللهِ يَحْتَمِلُ وجوهاً، وإنْ كانَتِ النُّوقُ كلُّها للهِ في الحَقيقَةِ:

أحدُها: لَمّا خُصَّتْ تلكَ بتذكيرِ عبادتِهِ تعالى إيّاهُمْ وَوَحْدانيَّتِهِ تعظيماً لها على ما خُصَّتِ المساجدُ بالإضافةِ إليهِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] لَمّا جُعِلَتْ تلكَ البقاعُ لإقامةِ عبادةِ اللهِ، خُصَّتْ بالإضافةِ إليهِ لَمّا جعَلَها اللهُ آيَةً مِنْ آياتِهِ خارجَةً عَنْ غَيرِها مِنَ النُّوقِ، مخالِفَةً بُنْيَتُها بُنْيَةَ غيرِها: إمّا [في](١٢) خِلْقَةٍ، وإمّا في ابْتِداءِ إحْداثِها وإنْشائِها، أو في أيِّ شَيءٍ كانَ، فأضافَها إليهِ لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم لا يَجِبُ أنْ يُتَكَلَّفَ المَعْنَى الذي لهُ جَعَلَ الناقَةَ آيةً؛ لأنهُ، جَلَّ، وعَلا، لم يُبيِّنْ لنا ذلكَ المَعْنَى، فلو تُكُلِّفَ ذِكْرُ ذلكَ فَلَعَلَّهُ يُخَرَّجُ على خِلافِ ما كانَ في الكُتُبِ الماضِيَةِ؛ فهذِهِ القِصَصُ وأخبارُ الأُمَمِ الماضِيَةِ إنما ذُكِرَتْ في القرآنِ لِتكونَ آيةً لِرسالةِ محمدٍ ﷺ فلو ذُكِرَتْ على خِلافِ ما كانَ لهُمْ في ذلكَ مَقالٌ.

ويَحْتَمِلُ مَعنى الإضافةِ إليهِ وَجْهاً آخَرَ؛ وهو أنهُ لم يَجْعَلْ مَنافِعَ هذهِ الناقةِ لهُمْ، ولا جَعَلَ عليهِمْ مُؤْنَتَها، بل أخبَرَ أنْ ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ جَعَلَ مُؤْنَتَها في ما يَخْرُجُ مِنَ الأرضِ، ولَيسَتْ كسائرِ النُّوقِ التي جَعَلَ مُؤْنَتَها عليهِمْ ومنافِعَها لَهُمْ بإزاءِ ما جَعَلَ /١٧٩ ـ أ/ عليهِمْ مِنَ المُؤَنِ. فَمَعْنَى التَّخْصيصِ بالإضافةِ إليهِ لِما لم يُشْرِكْ [في مُؤْنَتِها](١٣) أحداً ولا في منافِعِها، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ دلالةُ أنَّ تلكَ الناقةَ كانَ غِذاؤُها مِثْلَ غِذاءِ سائرِ النُّوقِ، وإنْ كانَتْ خارجَةً عَنْ طِباعِ سائرِ النُّوقِ مِنْ جِهَةِ الآيةِ لِيُعْلَمَ أنها، وإن كانَتْ آيةً لِرسالَتِهِ ودلالةً لِلنُّبوَّةِ فَتشابُهُها لِسائرِ النُّوقِ في هذِهِ

(١) في الأصل وم: حيث، (٢) من م، في الأصل: جوهر. (٣) في م: يكونها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أخوهم. (٦) في الأصل وم: فإنه. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لأنهم من أولادهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (١١) من م، في الأصل: رسالته. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: فيها.

جنة السنة

الجِهَةِ، لا يُخرِجُها عن حُكمِ الآية. فعَلَى ذلكَ الرُّسُلُ، وإنْ كانوا ساوَوا غَيرَهُمْ مِنَ الناسِ في المَطْعَمِ والغِذاءِ، لا يَمنَعُ ذلكَ مِنْ أنْ يَكونوا رُسُلاً، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ يَحتَمِلُ: لا تَتَعرَّضُوا لها قتلاً ولا قطعاً ولا عقراً لِما لَيسَتْ هي لَكم[1] ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفي مواضِعَ أُخَرَ [كقولِهِ تعالى][2]: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤] فهذا يدلُّ على أنهُ إنما أرادَ بالعذابِ الأليمِ عذابَ الدنيا لا عذابَ الآخِرَةِ؛ لأنهُ قد يأخُذُهُمْ عذابُ الآخِرَةِ بِكُفرِهِمْ؛ فالوعيدُ بأخذِ العذابِ لَهُمْ في الدنيا، و اللهُ أعلمُ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ في قصةِ هودٍ ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قيلَ: أنزلَكُمْ فيها ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ يُذَكِّرُهُمْ ﷺ ما أنعَمَ عليهِمْ مِنْ سَعَةِ المالِ وبَسْطِ الرِّزْقِ لَهُمْ وما خَصَّهُمْ مِنِ اتِّخاذِ البُيوتِ مِنَ الجِبالِ دونَ غَيرِهِمْ مِنَ الناسِ.

خَصَّ هؤلاءِ بِسَعَةِ الرِّزْقِ وبَسْطِ الأموالِ، وقومَ هودٍ بالقُوَّةِ والبَطْشِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] وقولِهِ[3] تعالى في آيةٍ أُخرَى ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وقولِهِ[4] تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]

كانَ خَصَّهُمْ بِفَضلِ القُوَّةِ والبَطْشِ والطُّولِ مِنْ بَيْنِ غَيرِهِمْ، وهؤلاءِ بِسَعَةِ الأرزاقِ لَهُمْ وبَسْطِ الأموالِ ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ مِنَ السَّعَةِ في الأموالِ والبَسْطِ وبما ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ وبما أقدَرَكُمْ مِنِ اتِّخاذِ البُيوتِ مِنَ الجِبالِ، لم يَقدِرْ على مِثلِهِ أحدٌ؛ لأنَّ غَيرَهُمْ مِنَ الخَلائِقِ إنما يَنتَفِعونَ بالجِبالِ على ما هِيَ عليها، وأمّا هُمْ فَقَدْ مَكَّنَ لَهُمْ على نَحتِها واتِّخاذِها بُيوتاً ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي اذكُروا نِعمَتَهُ، ولا تُشرِكُوا في عبادَتِكُمْ غَيرَهُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ المَلأَ مِنْ قومِهِ هُمْ كُبَراؤُهُمْ وساداتُهُمْ استَكبَرُوا عليهِ لَمّا رَأَوهُ دونَ أنفُسِهِمْ في أمرِ الدنيا، فلم يَتَّبِعُوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ فيهِ دلالةُ أنَّ مِنَ المُستَضعفينَ مِنْ قومِهِ مَنْ لم يكُنْ آمَنَ [في حِينٍ][5] خَصَّ لِمَنْ آمَنَ منهُمْ. وفيهِ أنَّ أوّلَ مَنِ اتَّبَعَ الرُّسُلَ هُمُ الضعفاءُ [كذلكَ كانَ الأتباعُ لِلرُّسُلِ جميعاً الضُّعفاءَ][6].

وقولُهُ[7] تعالى: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ قولُ هؤلاءِ الذينَ آمَنُوا بصالحٍ ﷺ وصَدَّقُوهُ برسالتِهِ [وهو يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما][8]: لَمْ يَخرُجْ في الظاهِرِ جوابَ ما سألُوا لأنهُمْ قالُوا: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟ إنما سَألُوهُمْ عنْ عِلْمِهِمْ برسالتِهِ، لم يَسألُوهُمْ عنْ إيمانِهِمْ. فهُمْ إنما أجابُوا عَنْ غَيرِ ما سَألُوا في الظاهِرِ.

لكنْ يجوزُ أنْ يُكَنَّى بالعِلْمِ [عنِ][9] الإيمانِ، فكأنهُمْ[10] قالُوا لهُمْ: تؤمِنُونَ بصالحٍ، وتُصَدِّقونَهُ؛ لأنَّ العِلْمَ بالشيءِ، فيهِ يَقَعُ بلا صُنعٍ، والإيمانُ لا يكونُ بِصُنعٍ منهُمْ، فكأنهُمْ إنما سَألُوهُمْ عنِ الإيمانِ بهِ، لذلكَ قالُوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

والثاني: كأنهُمْ قالُوا: بل عَلِمْنا أنهُ مُرسَلٌ مِنْ ربِّهِ، وإنا ﴿بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾

وفيهِ دلالةُ أنَّ مَنْ مُكِّنَ لهُ مِنَ العِلْمِ بأسبابٍ، جُعِلَتْ لهُ، يَصِلُ بها إلى العِلْمِ بهِ، لم يُعذَرْ[11] بِجَهلِهِ في ذلكَ بَعْدَ ما أُعطِيَ أسبابَ العِلْمِ حين[12] قالُوا: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي لا تَعلَمُونَ.

---

(١) في الأصل وم: لهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل: من حيث. (٦) من م: ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: وقولهم. (٨) ساقطة من الأصل وم (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: فكأنها.
(١١) في الأصل وم: يقدر. (١٢) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ فيهِ دلالةٌ [أنَّ][1] الإيمانَ هو التَّصديقُ في اللغةِ.

والتكذيبُ هو ضِدُّ ما يكونُ بهِ التَّصديقُ حينَ[2] أجابُوا بالتَّكذيبِ لإيمانِهِمْ بهِ لِقولِهِمْ ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥] فهؤلاءِ لم يَعْرِفُوا جميعَ الطاعاتِ إيماناً، على ما عَرَفَ[3] بَعْضُ الناسِ، إنما عَرَفُوهُ تَصديقاً.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ أضافَ ههنا العَقْرَ إليهِمْ جَميعاً. وفي مَواضِعَ[4] أُخَرَ أضافَ إلى الواحِدِ بِقَولِهِ تعالى ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩] وفي سورة ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ كذلكَ أضافَ إلى الواحِدِ [بقولِهِ تعالى][5]: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ [الآية: ١٢]

لكنْ في ما كانَ مُضافاً إليهِمْ جميعاً يَحْتَمِلُ أنْ يَتَوَلَّى واحِدٌ منهُمْ عَقْرَها بِمَشُورَتِهِمْ جميعاً ومَعُونَتِهِمْ وتَدْبيرِهِمْ وتَراضِيهِمْ على ذلكَ، فأُضِيفَ على ذلكَ إليهِمْ لِذلكَ لِاجْتِماعِهِمْ على ذلك، وإلى الواحِدِ في ما تَوَلَّى جَرْحَها ومَنْعَها عنِ السَّيْرِ.

ففيهِ دلالةٌ لِمَذْهَبِ أصحابِنا: أنَّ قُطَّاعَ[6] الطَّريقِ، إذا تَوَلَّى بَعْضُهُمُ القَتْلَ وأخْذَ الأموالِ، ولم يَتَوَلَّ بَعْضُهُمْ، يُشارِكُونَ جميعاً: مَنْ تَوَلَّى مِنهمْ ومَنْ لم يَتَوَلَّ في حُكْمِ قُطَّاعِ الطَّريقِ بَعْدَ أنْ يكونَ بَعْضُهُمْ عَوناً لِبَعْضٍ. وكذلكَ إذا اجْتَمَعَ قومٌ على قَتْلِ واحِدٍ، فَتَوَلَّى بَعْضُهُمُ القَتْلَ، ولم يَتَوَلَّ بَعْضٌ، بَعْدَ أن كانُوا في عَوْنِ أُولئكَ، فإنهُمْ يُقْتَلُونَ جميعاً.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُ عُمَرَ ﷺ حينَ[7] قالَ: لو تَمالأَ عليهِ أهلُ صَنْعاءَ [لَقَتَلْتُهُمْ. وأهلُ صَنْعاءَ][8] إذا اجْتَمَعُوا لا سَبيلَ لِلْكُلِّ أنْ يَتَوَلَّوا قَتْلَهُ. فدلَّ أنهُ على العَوْنِ والنَّصْرِ لِبَعْضِهِمْ بَعْضاً، فَيُشارِكُونَ جميعاً في القِصاصِ على ما شارَكَ أُولئكَ جميعاً في العذابِ: مَنْ تَوَلَّ عَقْرَها ومَنْ لم يَتَوَلَّ بَعْدَ أنْ كانَ ذلكَ العَقْرُ بِمَعُونَتِهِمْ وبِتَراضِيهِمْ على ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ إنما أخَذَهُمُ العذابُ لَمّا اسْتَعْجَلُوا منهُ العذابَ، وكَذَّبُوهُ في ما يُوعِدُهُمُ العذابَ، ويَعِدُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ العُتُوُّ هو النِّهايَةُ في التَّمَرُّدِ والخِلافِ لِأمْرٍ على العِلْمِ مِنْهُمْ بالخِلافِ لا على الغَفْلَةِ والجَهْلِ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ قِيلَ: الزَّلْزَلَةُ، وقِيلَ: الصَّيحةُ. وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ [الذاريات: ٤٤] والقِصَّةُ في ذلكَ كلِّهِ واحدةٌ[9]. فجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ [واحداً، وإنِ اخْتَلَفَتِ الألفاظُ][10]، وهو عِبارةٌ عنِ العذابِ، وجائزٌ أنْ تكونَ الصَّيحةُ: لَمّا صِيحَ بِهِمْ صَعِقُوا جميعاً، فماتُوا، وهو واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ قِيلَ: مَيِّتِينَ ولازِقِينَ بالأرضِ؛ قد ماتُوا، وذَهَبُوا. ويُقالُ: جَثَمَ الطائرُ إذا لَزِقَ في الأرضِ؛ يُقالُ: أجْثَمْتُهُ أي ألْزَقْتُهُ بالأرضِ، والمُجَثَّمَةُ: يُقالُ: طائرٌ يُشَدُّ جَناحاهُ ورِجْلاهُ، ثم يُوضَعُ بالأرضِ، ثم يُرْمَى بالنَّبْلِ حتى يموتَ، يُقالُ: جَثَّمْتُ الطائرَ أي شَدَدْتُ رِجْلَيهِ وجَناحَيهِ، ويُقالُ: جَثَمَ يَجْثُمُ [جُثوماً][11] وجَثْماً إذا فَعَلَ ما ذَكَرْنا.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي أعْرَضَ عنهُمْ، وخَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ حينَ عَلِمَ أنَّ العذابَ سَيَنْزِلُ[12] بِهِمْ ﴿وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ والنَّصِيحةُ ما ذَكَرْنا أنَّ كلَّ مَنْ دَلَّ آخَرَ على ما بِهِ نَجاتُهُ، وسَعَى على دَفْعِ البلاءِ والهلاكِ عنهُ. فهو ناصِحٌ لهُ. فَعَلَى ذلكَ صالِحٌ وغَيْرُهُ مِنَ الرُّسُلِ، قد دَلُّوا قومَهُمْ على ما بِهِ نَجاتُهُمْ، وسَعَوا على دَفْعِ الهلاكِ عنهُمْ. لكنَّهُمْ لم يَقْبَلُوا النَّصِيحَةَ منهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: عرفوا. (٤) في الأصل وم: موضع. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: قاطع. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: واحد. (١٠) في الأصل وم: واحد وأن اختلف ألفاظ. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ينزل.

جنة السنة

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ ذَكَرَ في غيْرِهِ مِنَ الأنبياءِ دُعاءَهُم قومَهُمْ إلى عِبادَةِ اللهِ وَوَحدانِيَّتِهِ على ما قال نُوحٌ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩ و..] وكذلكَ قال هودٌ وصالِحٌ وشُعَيبٌ وغيرُهُم مِنَ الأنبياءِ، ولم يَذْكُرْ في لوطٍ ذلكَ إلّا ههنا، ولا يُحتَمَلُ أنْ لم يكُنْ منهُ الدعاءُ إلى ما كانَ مِنْ غيْرِهِ مِنَ الأنبياءِ إلى توحيدِ اللهِ وعِبادَتِهِ قَبْلَ النَّهْيِ عنِ الفواحِشِ والتَّعْيِيرِ عليها، وهو ما ذَكَرَ في سورةٍ[1] أُخرى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٦٠ و١٦١ و١٦٢ و١٦٣] كانَ مِنَ الأنبياءِ، صَلَواتُ اللهِ عليهِم، دعاءُ قومِهِم إلى عِبادَةِ اللهِ وَوَحدانِيَّتِهِ أوّلاً، ثم النَّهْيُ عمّا ارْتَكَبُوا مِنَ الفواحِشِ/ ١٧٩ ـ ب/ والمَعاصي والتَّعْيِيرِ عليها.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقولُهُ تعالى ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ منهُمْ ما كانَ مِنْ سائِرِ الأقوامِ تَقْليدُ الآباءِ في العِبادَةِ لِغيْرِ اللهِ كقولِهِم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] وقولِهِمْ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] وقولِهِمْ[2] ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وقولِهِمْ[3] ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤] ونَحْوَ ما قالُوا.

فَعَلى ذلكَ مِنْ قومِ لُوطٍ لِلُوطٍ لَمّا دعاهُمْ إلى عِبادَةِ اللهِ وَوَحدانِيَّتِهِ، فأجابَهُمْ بما أجابَ الأقوامُ لِأنبيائِهِمْ مِنَ التَّقْليدِ لآبائِهِمْ، فقالَ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي تَعْمَلونَ أنتُمْ أعمالاً لا يَعْمَلُها آباؤُكُمْ، ولا تُقَلِّدونَ آباءَكُمْ في تَرْكِها مِنْ نَحْوِ ما ذُكِرَ مِنْ إتيانِ الفاحِشَةِ فقالَ: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يُعَيِّرُهُمْ، ويُسَفِّهُ أحلامَهُمْ في إتيانِ ما يأتونَ مِنَ الفاحِشَةِ التي لم يَسْبِقْهُمْ أحَدٌ[4] بها مِنَ العالَمينَ على عِلْمٍ منهُمْ أنَّ ذلكَ فاحِشَةٌ.

ألا تَرى [أنهم][5] قالُوا: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾؟ [الأعراف: ٨٢] ذَكَرَ هذا القولَ على ما يأتونَ مِنَ الفَواحِشِ؛ يأتونَ على عِلْمٍ منهُمْ أنها فَواحِشُ حينَ[6] قالُوا ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ لِما [هو][7] في العَقْلِ والشَّرْعِ [فاحِشٌ][8]؛ لأنَّ ما حَرَّمَ مِنَ المُحَرَّماتِ على الخَلْقِ [وأحلَّ المُحَلَّلاتِ نِعْمَةٌ وفَضْلٌ][9] منهُ لَهُمْ على ذلكَ. ثم جَعَلَ في ما أحَلَّ لَهُمْ مِنَ الأطْعِمَةِ والأشْرِبَةِ والاسْتِمْتاعِ بالنساءِ والجَواري دَواماً[10] لهذا العالَمِ؛ لأنهُمْ لو تَرَكُوا التَّناوُلَ مِنْ ذلكَ لَهَلَكُوا، وانْقَطَعَ هذا العالَمُ لِما يَنْقَطِعُ نَسْلُهُمْ. ثم رَكَّبَ فيهِمُ الشَّهَواتِ والحاجاتِ التي تَبْعَثُهُمْ على التَّناوُلِ ممّا أحَلَّ لَهُمْ لِيَدومَ هذا العالَمُ؛ لأنهُ أحَلَّ لَهُمُ الشَّهْوَةَ[11] خاصّةً، ولكنْ لِما ذَكَرْنا. فأخبَرَ أنَّ ما يأتونَ هُمْ فاحِشَةٌ لِما لَيسَ إتيانُهُمْ إيّاها[12]؟ إلّا لِنَفْسِ قَضاءِ الشَّهْوَةِ؛ إذْ لَيسَ في ذلكَ دَوامُ العالَمِ وبَقاؤُهُ. فهو في العَقْلِ فاحِشٌ مُحَرَّمٌ، وإنْ لم يَرِدْ فيهِ النَّهْيُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ الإسرافُ هو الإكثارُ مِنَ الشَّيءِ والمُجاوَزَةُ عَنِ الحَدِّ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] القَتْرُ هو التَّضْييقُ، والإسرافُ هو الإكثارُ حِينَ[13] قالَ: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ فإذا كانَ الإسرافُ الإكثارَ مِنَ الشَّيءِ، فكانَ لُوطٌ سَمّاهُمْ مُسْرِفينَ لِما أكثَرُوا مِنْ ذلكَ النَّوعِ مِنَ الفَواحِشِ، وجاوَزُوا الحَدَّ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ وجُوهاً ثلاثَةً:

أحَدُها: ما ذَكَرْنا مِنْ إكثارِ الفِعْلِ.

والثاني: ﴿مُّسْرِفُونَ﴾ لِما ضَيَّعُوا ما أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ حِينَ[14] أعْطَى لهمُ الأزواجَ فَضْلاً مِنْهُ ونِعْمَةً حِينَ[15] أخْبَرَ

(١) في الأصل وم: آية. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) في الأصل وم: هم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: وأهل المحلات، في م: وأهل المحللات. (١٠) في الأصل وم: دوام. (١١) في الأصل وم: للشهوة. (١٢) في الأصل وم: اباهم. (١٣)و(١٤)و(١٥) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

[بقوله][1] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الروم: ٢١] وبقوله[2] ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النحل: ٧٢] ونحوِهِ ما جعَلَ لهمْ مِنَ الأزواجِ، ثم هُمْ لم يَشكُرُوهُ على ما أنعَمَ عليهِمْ، بل ضَيَّعُوها، وجعَلُوها في غيرِ ما جعَلَ هو لَهُمْ. فذلكَ إسرافٌ منهُمْ.

والثالثُ: الإسرافُ هو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي جعَلَ لهمْ، فهُمْ قد جاوَزوهُ.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قولُهُ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ [يَحتمِلُ وجوهاً]:

أحدُها[3]: كذا كانَ مِنْ قومِهِ أجوبةٌ، لَيسَ على أنهُ لم يَكُنْ منهُمْ مِنْ أوّلِ الأمرِ إلى آخِرِهِ هذا، ولكنْ لم يكُنْ مِنْ جوابِ قومِهِ وقتَ ما نَهاهُمْ عمّا ارْتكبُوا مِنَ الفَواحِشِ، وعَيَّرَهُمْ عليها إلّا ما ذَكَرَ ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ لِما يَنْهاهُمْ، ويُعَيِّرُهُمْ على ذلكَ.

والثاني:[4] ما قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ مِنْ أدبارِ الرِّجالِ، وقيلَ: يَتحَرَّجُونَ عن ذلكَ، ويَعيبُونَ عليهِمْ في ذلكَ.

والثالثُ: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ [إمّا][5] لِبَعْضِهِمْ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ وإمّا لِلُوطٍ كانَ منهُمُ الأجوبةُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ كذا وقولِهِ[6] تعالى في آيةٍ أُخرى ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩] هذا في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ لوطٍ، والأوّلُ[7] في ما بَيْنَهُمْ: قالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أخرِجُوهُمْ، وذلكَ[8] لِاختلافِ المَشاهِدِ والمَجالِسِ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الغابِرُ: الغائِبُ؛ يُقالُ: غُبِرَتْ أي غُيِّبَتْ أي كانَتْ مِنَ الغائِبِينَ عَنْ لوطٍ وأهْلِهِ وقتَ العذابِ. وقيلَ: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي مِنَ الباقينَ في العذابِ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: قُلِبَتْ قُرياتُ لوطٍ، وجُعِلَ عالِيها سافِلَها على ما ذَكَرَ في الآيةِ: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢ والحجر: ٧٤] ثم أُمطِرَ على مَنْ غابَ منهُمُ الحجارةَ، وقالَ بَعْضُهُمْ: قُلِبَتِ القرياتُ، فأُمطِرَتْ على أهْلِها كالمَطَرِ، وقالَ آخرونَ: قُلِبَتِ الأرضُ، وأُمطِرَ ﴿عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢ والحجر ٧٤] لِتُسَوّى[9] الأرضُ، أو كلاماً[10] نَحوَ هذا.

ثم العذابُ في الأُمَمِ لم يأْتِهِمْ في الدنيا بِنَفْسِ الكُفْرِ، ولكنْ لِما كانَ مِنْهُمْ من اسْتِحْلالِ أشياءَ [حُرِّمَتْ عليهِمْ مِنْ][11] قَتْلِ الأنبياءِ وأذاهُمْ والمُكابَراتِ التي كانَتْ[12] منهُمْ بَعْدَ عِلْمِهِمْ أنهُمْ على باطلٍ وعِنادٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هذا الخِطابُ جائزٌ أنهُ لَيسَ لِرسولِ اللهِ خاصّةً، ولكنْ لِكُلِّ أحدٍ أُمِرَ بالنَّظَرِ في ما حَلَّ بالأُمَمِ السالِفَةِ بِتَكذيبِهِمُ الرُّسُلَ وعِنادِهِمْ لِيكونُوا على حَذَرٍ مِنْ[13] صَنيعِهِمْ لِئلا يَحِلَّ بِهِمْ ما حَلَّ بأولئكَ، وجائزٌ أنْ يكونَ الخِطابُ لِرسولِهِ خاصّةً. فإنْ كانَ لهُ كانَ[14] أمْرُهُ أنْ يَنْظُرَ في عاقِبَةِ المُجْرِمِينَ [لئلا يرحَمَهُمْ][15] ولا يَدْعُو عليهِمْ بالهَلاكِ والعذابِ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ هو ما ذَكَرْنا في ما تقَدَّمَ؛ أي أرسَلْنا شُعَيباً إلى مَدْيَنَ رسولاً. وقولُهُ تعالى: ﴿أَخَاهُمْ﴾ قد ذكَرْنا في ما تقَدَّمَ الأُخُوّةَ أنها تكونُ لِوُجوهٍ: أُخُوّةِ النَّسَبِ وأُخُوّةِ الجوهَرِ وأُخُوّةِ المَوَدّةِ والخُلّةِ وأُخُوّةِ الدينِ. فلا تَحتَمِلُ أُخُوّةُ الأنبياءِ أولئكَ إخوةَ الدينِ والمَوَدّةِ، لكنْ تَحتَمِلُ أُخُوّةَ الجوهرِ والنَّسَبِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وكقوله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ويحتمل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) من م، في الأصل: سوى. (١٠) في الأصل وم: كلام. (١١) في الأصل وم: حرم عليهم ومن. (١٢) في الأصل وم: كان. (١٣) في الأصل وم: عن. (١٤) في الأصل وم: فكان. (١٥) في الأصل وم: ليرحمهم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ قد ذَكَرْنا أيضاً أنَّ الرسلَ، إنما جاؤوا، وبُعِثُوا بالدعاءِ إلى توحيدِ اللهِ والعِبادَةِ لهُ، وأنْ لا مَعْبودَ يَسْتَحِقُّ العِبادَةَ سِوَاهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: كانَتْ نَفْسُ شُعَيبٍ بَيِّنَةً وحُجَّةً لِقَومِهِ، لكنا لا نَعْلَمُ ذلكَ، غيرَ أنا نَعْلَمُ أنهُ كانَتْ مَعَهُ آياتٌ وبراهينُ، لكنَّ اللهَ تعالى لم يُبيِّنْ لنا ذلكَ.

ونَفْسُ محمدٍ، عليهِ أفضلُ الصَّلَواتِ وأكْمَلُ التَّحِيّاتِ، كانَتْ حُجَّةً وبَيِّنَةً بالأعلامِ[1] التي جَعَلَ لهُ في نَفْسِهِ: مِنْ ذلكَ الخَتْمُ الذي كانَ بَيْنَ كَتِفَيهِ، والنورُ الذي كانَ في وَجْهِ مَنْ كانَ في صُلْبِهِ وَقْتَ كَونِهِ فيهِ، والضَّوءُ الذي رُئِيَ أنهُ كانَ وقتَ وِلادَتِهِ، والغَمامُ الذي أظَلَّهُ وقتَ غَيْبَتِهِ عَنْ أهلِهِ، وحِفْظُهُ نَفْسَهُ عن جَميعِ ما كانَ يَتَعاطاهُ قومُهُ مِنْ عِبادَتِهِمُ الأصنامَ وتعاطِيهِمُ الفَواحِشَ؛ فهو ﷺ كانَ بَرِيئاً مِنْ ذلكَ كُلِّهُ، وما لم يُؤخذْ عليهِ كَذِبٌ قَطُّ، وقد كانَ نَشأَ بَيْنَ أظهُرِهِم، وغَيْرُ ذلكَ مِنَ الأعلامِ التي كانَتْ في نَفْسِهِ ظاهِرَةً لِقومِهِ. فلو لم يكُنْ لهُ آياتٌ غيرُها لَكانَتْ واحدةٌ منها كافيةً لِمَنْ لم يُكابِرْ، فكيفَ وقد كانَتْ لهُ آياتٌ حِسِّيَّةٌ وعَقْلِيَّةٌ سِوَى ما ذَكَرْنا، تَقْهَرُ [غيرَ][2] المُنْصِفِينَ على قَبولِها؟

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي حُجَّةٌ في أنهُ رسولٌ أو على تَوحيدِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ وذَكَرَ في هودٍ في قِصَّتِهِ ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الآية: ٨٥] ولَيسَ في قولِهِ ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أنهم كانُوا لا يُوفُونَ في سورةِ هودٍ ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ [الآية: ٨٥] ودلَّ قولُهُ: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ [الأعراف: ٨٥] أنَّ الأشياءَ مُلْكٌ لَهُمْ، وإنْ كانَتْ[3] في قَبْضِ أُولئكَ وفي أيديهِمْ.

ثم يَحْتَمِلُ الأمْرُ بإيفاءِ الكيلِ[4] والمِيزانِ وجوهاً[5]:

أحَدُها: لِما كانُوا أُمَناءَ لِئلا تذهَبَ عنهُمْ تلكَ الأمانَةُ التي كانَتْ لَهُمْ في قومِهِ.

والثاني: لِئلا يَظْلِمُوا الناسَ في مَنْعِ حُقوقِهِمْ وأموالِهِمْ.

والثالثُ: لِلرِّبا؛ كانَ ما مَنَعُوا منهُمْ مِنَ [الكَيلِ والوَزْنِ][6] رِباً لَهُمْ.

يَدُلُّ [على][7] ذلكَ قولُهُ: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ ذِكْرُ العَدْلِ. فلو كانَتْ[8] تجوزُ / ١٨٠ ـ أ/ تلكَ الزيادةُ والنُّقصانُ، إذا طابَتْ أنفُسُهُمْ بالزيادةِ والنُّقصانِ لَكانَ لا مَعْنَى لِذِكْرِ القِسْطِ فيهِ؛ لأنَّ مَنْ زادَ آخَرَ على حَقِّهِ لم يُمْنَعْ عَنْ ذلكَ، ولم يُذَمَّ. دلَّ النَّهْيُ عنْ ذلكَ على أنهُ لِلرِّبا ما مُنِعُوا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ أي بَعْدَ أنْ جَعَلَها لَكُمْ صالِحَةً لِمعاشِكُمْ ومُقامِكُمْ فيها، وبَعْدَ ما أمَرَ، وبَيَّنَ لَكُمْ ما بِهِ صَلاحُكُمْ وصَلاحُ دينِكُمْ، أو بَعْدَ ما أرْسَلَ مِنَ الرُّسُلِ ما بِهِمْ صلاحُ الأرضِ وأهلِها ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي وَفاءُ الكَيلِ والمِيزانِ خَيرٌ لَكُمْ مِنَ النُّقصانِ لِما يَنمو ذلكَ الباقي، ويَزْدادُ. فذلكَ خَيرٌ لَكُمْ مِنَ النُّقصانِ الذي تَمْنَعُونَ، فلا يَنمو شيءٌ[9]. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [هود: ٨٦].

ويَحْتَمِلُ: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي أمْنُكُمْ في الآخِرَةِ خَيرٌ لكُمْ مِنْ نُقصانِ الكَيلِ والمِيزانِ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنَّ كُبَراءَ أهلِ الشِّرْكِ ورُؤَساءَهُمْ كانُوا يُقْعِدُونَ في الطُّرُقِ أُناساً يَصُدُّونَ الذينَ يَأتُونَ شُعَيباً لِلإيمانِ [ويَمْنَعُونَهُمْ][10] مِنَ الإيمانِ مِنَ الآفاقِ والنواحِي. ويكونُ مَعْنَى ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ على هذا التَّأويلِ: أي مَنْ أرادَ أنْ يُؤمِنَ.

---

(١) في الأصل وم: بأعلام. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: كان. (٤) من م، في الأصل: الأمر. (٥) في الأصل وم: وجوه.
(٦) في الأصل وم: الكيلي والوزني. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كان. (٩) في الأصل وم: شيئا. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ويَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾ ليسَ على القُعودِ نَفْسِهِ، ولكنْ على المَنْعِ مِنْ إقامةِ الشَّرائعِ التي شَرَّعَ اللهُ لِشُعيبٍ كقولِ إبليسَ ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] ليسَ هو على القُعودِ نَفْسِهِ ولكنْ على المَنْعِ؛ يَمْنَعُهُمْ عَنْ صِراطِهِ[1] المُستقيم. فعَلَى قولِهِ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ كانُوا يَمْنَعُونَ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ عَنْ إقامةِ الشَّرائعِ والعِباداتِ التي دُعُوا إلى إقامتِها، ويوعِدونَ على ذلكَ، ويُخَوِّفُونَهُمْ. فعَلَى هذا التأويلِ يكونُ معْنَى قولِهِ: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ على وجودِ الإيمانِ. وعلى التأويلِ الأوَّلِ يكونُ مَنْ أرادَ أنْ يُؤمِنَ بِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ قِيلَ: تَلْتَمِسُونَ لها أهْلَ الزَّيغِ، وقِيلَ: تَبْغُونَ هَلاكاً للإسلامِ وإبطالاً، وقِيلَ: تَبْغُونَ السَّبِيلَ عِوَجاً عَنِ الحَقِّ، وكُلُّهُ واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي كَثَّرَ لَكُمُ الأموالَ، ووَسَّعَ عليكُمُ الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أمَرَ بالنَّظَرِ في ما حَلَّ بالأُمَمِ الخاليةِ بإفسادِهِمْ في الأرضِ وتكذيبِهِمُ الرُّسُلَ؛ لأنَّ مَنْ نَظَرَ في ذلكَ، وتفكَّرَ ما حلَّ بِهِمْ، مَنَعَهُ ذلكَ عَنِ الفَسادِ في الأرضِ والتكذيبِ للرُّسُلِ؛ إنْ عَلِمَ أنَّ ما حلَّ بِهِمْ [إنما حَلَّ لِما ذُكِرَ، واللهُ][2] أعْلَمُ. كأنهُ أمَرَ بالنَّظَرِ في الأسبابِ التي [بها][3] صارَ مَنْ تقدَّمَهُمْ أهلَ فَسادٍ، ونَزَلَ بِهِمُ الهلاكُ، لِيَنْزَجِرُوا عن مِثْلِ صَنِيعِهِمْ، وإلّا كانُوا عندَ أنْفُسِهِمْ أهلَ صلاحٍ لا أهلَ فَسادٍ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَٱصْبِرُوا﴾ قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه: كانَ قومُ شُعيبٍ قليلاً حِينَ أدرَكَ ذلكَ، وقومٌ آخرونَ مَعَهُ؛ يقولُ لَهُمْ ذلكَ شُعيبٌ عليه السلام: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَٱصْبِرُوا﴾ يا مَعْشَرَ المؤمنينَ ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ يَقْضِي عليهِمْ بالهلاكِ، ولم يكُنْ شُعيبٌ أُمِرَ بالقِتالِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ﴾ يَعْنِي المؤمنينَ ﴿ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ مِنَ العذابِ ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ يَعْنِي الكفارَ ﴿لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ بالعذابِ ﴿فَٱصْبِرُوا﴾ يا مَعْشَرَ الكفارِ ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ في أمْرِ العذابِ في الدنيا ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

ويَحتمِلُ غَيْرَ هذا؛ وذلكَ أنهُمْ كانُوا يَعْبُدونَ الأصنامَ، ويقولُونَ[4] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ويقولُونَ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] اللهُ أمَرَهُمْ بذلكَ في أشياءَ يَفْعَلُونَ، ويقولُ هؤلاءِ: إنَّ الذي نَحْنُ عليهِ هو الذي أمَرَنا اللهُ بذلكَ. فيقولُ لَهُمْ: ﴿فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ بأنهُ بماذا أمَرَ: بالذي عليهِ الكفارُ أم[5] الذي نَحْنُ عليهِ؟

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ﴾ قد ذكَرْنا في غيرِ مَوضِعٍ أنَّ المَلأَ مِنْ قومِهِ: هم كُبَراؤُهُمْ ورؤساؤُهُمْ. وقولُهُ ﴿ٱسْتَكْبَرُوا﴾ أي استكبَرُوا عنِ الخُضوعِ والطاعةِ لِمَنْ هو دُونَهُمْ عِنْدَهُمْ[6] لأنهُمْ كانُوا يُضَعِّفُونَ شُعيباً في ما بَيْنَهُمْ، ويَزْدَرُونَهُ، بقولِهِمْ[7]: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

ثم لم يَرَوُا الأمْرَ بالخُضوعِ لِمَنْ هو دونَهُمْ في أمرِ الدنيا عَدْلاً، وهُمْ إنما أخَذُوا مِنْ إبليسَ اللَّعينِ [رأيَهُ، وقلَّدوهُ حينَ][8] قالَ: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢ وص: ٧٦] [حِينَ أُمِرَ][9] بالسجودِ لآدَمَ، ولم يَرَ اللعينُ الأمْرَ بالخُضوعِ لآدَمَ مِنَ اللهِ عَدْلاً. فعَلَى ذلكَ هؤلاءِ لم يَرَوُا الخُضوعَ لِمَنْ دُونَهُمْ عندَهُمْ عَدْلاً، فاسْتَكْبَرُوا عليهِ، فكَفَرُوا لِذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ أي لَنَقْتُلَنَّكَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ وقالَ غيرُهُ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ الإخراجَ نَفْسَهُ؛ أي لَنُخْرِجَنَّكَ ومَنْ مَعَكَ مِنَ المؤمنينَ مِنْ قَرْيَتِنا إنْ لم تَتَّبِعْ دِينَنا.

---

(١) من م، في الأصل: صراط. (٢) من م، في الأصل: لما ذكروا الله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: ويفعلون. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) من م، في الأصل: عند. (٧) في الأصل وم: كقولهم. (٨) في الأصل وم: رأياه قلدوا حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وقد كانَ منهُمْ للأنبياءِ المعْنَيانِ[1] جميعاً: التَّوعُّدُ بالقتْلِ والإخراجُ جميعاً كما قالُوا: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ [هود: ٩١] وكقولِ قوم لُوطٍ لِلُوطٍ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧] وكقولِ قوم نوح ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦] وما أخبَرَ عنْ قولِ هؤلاءِ لِرسولِنا حينَ[2] قالَ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٣٠] قد كانَ مِنَ القومِ إلى الأنبياءِ والرُّسُلِ ﷺ المعْنَيانِ[3] جميعاً: التَّوعُّدُ بالقتْلِ والإخراجُ جميعاً.

فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ ذلكَ مِنْ قَومِ شُعَيبٍ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

وكذلكَ كانُوا يقولونَ لِلرُّسُلِ جميعاً حِينَ[4] قالُوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ الآية [إبراهيم: ١٣] هذهِ[5] كانَتْ عادَةَ جميعِ الكَفَرَةِ يُخَوِّفُونَ الرُّسُلَ بالإخراجِ مَرَّةً وبالقَتْلِ ثانياً.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ لِما عِندَهُمْ أنهُ كانَ على دينِهِمُ الذي هُمْ عليهِ لِما يَرَونَ منهُ عبادَتَهُ لِلّهِ في ما يَعْبُدُهُ[6] سِرّاً، فقالُوا: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ على ما كانَ عندَهُمْ أنهُ على ذلكَ.

وهو كما قالُوا لِصالحٍ: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢] كانَ عندَهُمْ أنهُ على دينِهِمْ قَبْلَ ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ قولُ[7] هؤلاءِ ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ مِنَ العَودِ إلى ما كانَ عندَهُمْ أنهُ على ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ على الابتِداءِ [ابتِداءِ][8] الدُّخولِ فيها والاختِيارِ كقولِهِ تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] على مَنْعِ الدخولِ فيها لا أنهُمْ كانُوا فيها، ثم أخرَجَهُمْ، فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ يقولُ: أو لَنَعُودَنَّ في مِلَّتِكُمْ، وإنْ كُنّا كارِهينَ: أي تَأبى عُقولُنا، وتكْرَهُ طِباعُنا الدخولَ[9] في مِلَّتِكُمْ، فكيفَ نعودُ فيها؟

الآية ٨٩ [وقولُهُ تعالى][10]: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ [يَحْتَمِلُ][11] وجوهاً ثلاثةً:

أحدُها: أنَّ ذلكَ منهُ إخبارٌ عنْ قومِهِ لا عَنْ نَفْسِهِ؛ أي افْتَرَوا على اللهِ كَذِباً إنْ عادُوا في مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إذْ أنجاهُمُ اللهُ منها، وما يَجوزُ أنْ يَعودُوا فيها. وأمّا هو فإنما أجابَهُمْ عنْ نَفْسِهِ ما ذَكَرَ في سورةِ هُودٍ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ [الآية: ٩٣] أجابَ هو قومَهُ كما أجابَ غَيْرُهُ مِنَ الرُّسُلِ قَومَهُمْ حينَ أوعَدُوهُمْ[12] بالقَتْلِ والعُقوبةِ كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥] وكما قالَ هُودٌ: ﴿وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤ و٥٥] ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الجَواباتِ التي كانَتْ مِنَ الأنبياءِ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، لِأقوامِهِمْ.

والثاني[13]: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الابتِداءِ مِنْ غيرِ أنْ كانَ فيها كقولِهِ تعالى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الرعد: ٢] رَفَعَها ابتِداءً مِنْ غَيْرِ أنْ كانَتْ مَوضوعةً وكقولِهِ تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] إخراجَ ابتِداءٍ، لا أنْ كانُوا فيها، ثم أخرَجَهُمْ.

والثالثُ[14]: يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا أنهُ أجابَهُمْ على ما عِندَهُمْ أنهُ كانَ على دينِهِمْ، فأجابَ لَهُمْ على ما عِندَهُ[15] أنه على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ أي ما يَجوزُ لَنا أنْ نَعودَ فيها.

وقولُ شُعيبٍ: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾/ ١٨٠ ـ ب/ [تَعْريضٌ بِتَسْفيهِ منهُ إيّاهُمْ أنكُمْ[16] قَدِ افْتَرَيْتُمْ على اللهِ كَذِباً][17]

---

(١) في الأصل وم: المعنيين. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: المعنيين. (٤) في الأصل وم: حيث (٥) في الأصل: وم: هذا.
(٦) في الأصل وم: بعده. (٧) في الأصل وم: قوله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ادرج قبلها في الأصل وم: عن. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: أوعدهم. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: و. (١٥) في الأصل وم: عندهم.
(١٦) في م: أنهم. (١٧) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

لا تصريحٌ حينَ[1] لم يَقُلْ: قدِ افْتَرَيْتُمْ أنتُمْ على اللهِ كذباً. ولكنْ[2] قالَ: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ وذلكَ منهُ تَلَطُّفٌ بهِمْ وتَرَفُّقٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ اختُلِفَ في تأويلِهِ: قالَ الحَسَنُ: مِنْ حِكَمِ اللهِ ﷻ أنَّ مَنْ قَبِلَ دينَهُ، وأطاعَ رسولَهُ كانَ[3] وَليًّا لهُ، وسَمّاهُ[4] مؤمناً، ومَنْ رَدَّ دينَهُ، وعَصَى رسولَهُ، يَتَّخِذْهُ عَدُوّاً لهُ، ويكُنْ كافراً.

وقالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانيُّ: قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنْ يَتَعَبَّدَنا، ويَمْتَحِنَنا بِبَعضِ ما كانُوا يَتقرَّبُونَ بهِ، ويُشْرِّعُ لهمْ ممّا يَحِلُّ، ويَسَعُ، لم يُرِدْ بهِ الدينَ الذي هُمْ عليهِ. لكنَّ هذا لا يَحْتَمِلُ لأنَّ سؤالَهُمْ كانَ العَودَ إلى مِلَّتِهِمْ، فَعَلَى ذلكَ خرَجَ الثُّنْيا.

وقالَ جَعْفَرُ[5] بْنُ حَرْبٍ: قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلّا أنْ يَأمُرَنا اللهُ بما يُؤْيِسُهُمْ على ذلكَ على الإياسِ وقَطْعِ الرجاءِ، أي لا يشاءُ اللهُ البَتَّةَ ذلكَ كما يُقالُ: كانَ كذا أنْ صَعِدَتِ السماءُ وكقولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] وفَعَلْتُ كذا مِمّا يُعلَمُ أنهُ لا يكونُ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

لكنَّ هذا كُلَّهُ بَعيدٌ مُحالٌ.

أمّا قولُ الحَسَنِ: إنَّ مِنْ حِكَمِ اللهِ أنهُ مَنْ رَدَّ دينَهُ، وعَصَى رسولَهُ، فإنهُ[6] يكونُ مِنَ الكافرينَ، ومَنْ قَبِلَ دينَهُ، وأطاعَ رسولَهُ، فيكونُ[7] مِنَ المؤمنينَ، فَليسَ فيهِ سوى أنهُ يقولُ: إنهُ يَعْلَمُ مَنْ كَفَرَ بهِ، فلا مَعْنَى لِلاسْتِثْناءِ لو كانَ التأويلُ ما ذَكَرَ.

وأمّا قولُ أبي بكرٍ: إنهُ يَتَعَبَّدُهُمْ، ويمتَحِنُهُمْ بما يَتَقَرَّبُونَ بهِ في دينِهِمْ ومِلَّتِهِمْ [مِمّا][8] يجوزُ أنْ يأذَنَ في ذلكَ، فذلكَ لا يُحتَمَلُ لأنهُ ذَكَرَ المِلَّةَ التي كانُوا هُمْ عليها، فإليهِ تَرْجِعُ الثُّنْيا، لا تجوزُ إلى غَيرِهِ.

وأمّا قولُ مَنْ يقولُ بالإياسِ[9] وقَطْعِ الطَّمَعِ عنْ ذلكَ، فذلكَ أيضاً بعيدٌ؛ لأنَّ الإياسَ إنما يكونُ البَتَّةَ مِنْ نَحْوِ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] ونَحْوِهِ.

وأمّا مِثْلُ هذا فإنهُمْ لا يَفْهَمُونَ منهُ الإياسَ وقَطْعَ الرجاءِ، بل كانُوا يأتُونَ بالفَواحشِ، ويقولُونَ: اللهُ أمَرَهُمْ بذلكَ.

وأمّا عندَنا فإنهُ على حقيقَةِ المَشيئةِ؛ وذلكَ أنَّ مَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يَكْفُرُ[10]، ويُؤْثِرُ ذلكَ على فِعْلِ الإيمانِ والطاعةِ يَشاءُ ذلكَ لهُ على ما عَلِمَ أنهُ يَختارُ، ومَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ لا يَختارُ ذلكَ لا يَشاءُ؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يَعْلَمَ منهُ غَيرَ الذي يكونُ، أو أنْ يشاءَ غَيرَ الذي يكونُ، أو أنْ يَشاءَ غَيرَ الذي عَلِمَ أنهُ منهُ لأنهُ جَهلٌ، وعَجزٌ.

وأصْلُهُ أنَّ شُعيباً خافَ، إنْ سَبَقَ منهُ زلَّةٌ أو تقصيرٌ منهُ، الاختيارَ لِذلكَ، فيشاءُ اللهُ بذلكَ الزَّيغَ والضَّلالَ. وكذلكَ جميعُ الأنبياءِ خافُوا ذلكَ كقولِ إبراهيمَ ﷺ حينَ[11] قالَ: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ٨٠] وقولُ يُوسُفَ حينَ[12] قالَ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ٧٦] كانَ خوفُ الأنبياءِ ﷺ أكثرَ[13] مِنْ خوفِ غيرِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعْلَمُ: أنهُ لا نَعْلَمُ إلى ماذا تَصِيرُ عاقبةُ أمْرِنا؟ عَلِمَ اللهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ قِيلَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ اعْتَمَدْنا في ما يُخَوِّفونَنا مِنَ الإخراجِ، وإليهِ نَلْجأُ في سُلْطانِهِ ومُلْكِهِ، وبهِ نَثِقُ في وَعْدِهِ بما يَعِدُنا مِنَ النَّصْرِ والظَّفَرِ على الأعداءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ قِيلَ: قولُهُ: ﴿ٱفْتَحْ﴾ أي احْكُمْ بَيْننا وبَيْنَ قومِنا بالحَقِّ.

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][14] قالَ: ما كُنْتُ أعلَمُ ما مَعْنَى الفَتْحِ في الآيةِ حتى تزوَّجْتُ امْرَأةً مِنْ بَني كذا، فوقَعَتْ بَيْننا مُخاصَمَةٌ، فقالَت لي: تعالَ حتى أفاتِحَكَ إلى فلانٍ؟ فَعِنْدَ ذلكَ عَرَفْتُ أنَّ المفاتَحَةَ هي المُحاكَمَةُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: أن يكون. (٤) في الأصل وم: وسمى. (٥) في الأصل وم: أبو جعفر. (٦) و(٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: لا ياس. (١٠) في الأصل وم: الكفر. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: كان. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ قِيلَ: هو العذابُ الذي كانَ وَعَدَ لَهُمْ أنْ يَنْزِلَ عليهِمْ بتكذيبِهِمْ شُعَيباً وبأذاهُمْ إيّاهُ.

ثم لِلْمُعْتَزِلَةِ أدنى تَعَلُّقٍ [بقولِهِ تعالى][1]: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ يقولونَ: هو الدعاءُ والسُّؤالُ، وإنْ كانَ لا يَحْكُمُ إلّا بالحَقِّ. فَعَلَى ذلكَ يقولونَ في قولِهِ تعالى: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] نَحْوَهُ[2].

فكذلكَ يقولونَ في قولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

لكنْ عندَنا يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ على وُجوهٍ:

أحدُها: يقولُ: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾ بِحُكْمِكَ، وهو الحَقُّ.

والثاني: يقولُ: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] في حادثِ الوَقْتِ كما حَكَمْتَ في الوَقْتِ الماضي، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وهو النُّبُوَّةُ والهِدايَةُ.

والثالثُ: على استِعْمالِ العذابِ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ المَلأَ هُمْ كُبَراؤُهُمْ[4] وسادَتُهُمْ؛ يقولونَ لِلأتباعِ والسَّفَلَةِ ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ: الجاهلونَ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ وُجوهاً:

أحدُها: أنَّ شُعَيباً كانَ يُحَذِّرُ قومَهُ بالتَّطفيفِ في الكَيلِ والوَزْنِ، ويأمُرُهُمْ بوَفاءِ حُقوقِ الناسِ بقولِهِ تعالى: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: ٨٥] ولا تكونُوا كذا وقولِهِ تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥] فيقولُ الكُبراءُ والرُّؤساءُ لِلسَّفَلَةِ ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ في دينِهِ وما يأمُرُكُمْ بِهِ مِنْ وَفاءِ الحَقِّ لِلناسِ فإنكُمْ ﴿إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ لِلأرباحِ.

والثاني: أنهُ كانَ يُحذِّرُهُمْ، ويَمْنَعُهُمْ عن عبادةِ الأصنامِ والأوثانِ، ويَدْعُوهُمْ إلى عبادةِ اللهِ، ويُرَغِّبُهُمْ في ذلكَ، وهُمْ كانُوا يَعْبُدونَ تلكَ الأصنامَ لِتُقَرِّبَ عبادَتُهُمْ إياها إلى اللهِ زُلْفَى، وتكونَ لَهُمْ شُفعاءَ في الآخِرَةِ[5] فقالُوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ في ما يَدْعُوكُمْ إليهِ، ويَنْهاكُمْ عنهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الخاسِرينَ؛ لا شُفَعاءَ لكم في الآخِرَةِ.

والثالثُ: أنهُمْ كانُوا يُوعِدونَ شُعَيباً بالإخراجِ بقولِهِمْ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ [الأعراف: ٨٨] فقالُوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ وهو[6] يُخرَجُ، لا محالَةَ، فَتُخرَجونَ أنتُمْ، فَتَصِيرونَ[7] مِنَ الخاسِرينَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ قِيلَ: الصَّيحَةُ، وقِيلَ: الزَّلْزَلَةُ. قِيلَ: أصابَهُمْ حَرٌّ شديدٌ، فَرُفِعَتْ لهمْ سَحابَةٌ، فَخَرَجُوا إليها، يَطْلُبُونَ الرَّوحَ تَحْتَها، فَسالَ عليهِمُ العذابُ، ورَجَفَتْ بهمُ الأرضُ، فَهَلَكوا، وهو ما ذَكَرَ في آيَةٍ أُخرَى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩] واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ قد ذَكَرْنا قولَهُ ﴿جَٰثِمِينَ﴾ في ما تَقَدَّمَ[8].

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ هو، واللهُ أعْلَمُ. مُقابِلُ قولِهِمْ ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ وجوابُ لَهُمْ: يقولُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لا الذينَ اتَّبَعُوهُ[9].

وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ قِيلَ: كَأنْ لم يَعيشُوا فيها، ولم يَنْعَمُوا قَطُّ، وقِيلَ: كَأنْ لم يُقيموا فيها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ونحوه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كبراء. (٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. (٦) في الأصل وم: وهي. (٧) في الأصل وم: فصرتم. (٨) كان ذلك في تفسير الآية [٧٨]. (٩) في الأصل وم: اتبعوا.

جنة السنة

قالَ القُتَبِيُّ: يُقالُ: غَنِينا بِمَكانِ كذا وكذا، أي أقَمْنا، ويُقالُ لِلْمنازِلِ مَغانٍ؛ واحِدُها: مَغْنًى، ويُقالُ: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي كَأنْ لم يكونُوا فيها قَطُّ.

وهو، واللهُ أعْلَمُ، لِما كانُوا يَسْتَقِلُّونَ نِعَمَ اللهِ عليهِمْ، ويَسْتَحْقِرُونَها، حتى ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ﴾ [الكهف: ١٩ والمؤمنون: ١١٣] وقالَ[1] تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥] ونَحْوُهُ. وكُلُّهُ إخبارٌ عن قَطْعِ آثارِهِمْ أنهُ لم يَبْقَ منهُمْ أحدٌ، يَحْزَنُ عليهِمْ، أو يبكي عليهِمْ، حتى قالَ شُعَيبٌ ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُ شُعَيبٍ حينَ[2] قالَ: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ حينَ عَلِمَ أنهُمْ يَهْلِكُونَ، ويَنزِلُ بهِمُ العذابُ أي لا أحْزَنُ عليهِمْ لِما[3] ذَكَرَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: هو على التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ قالَ ذلكَ في الوقتِ الذي قالَ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ [الأعراف: ٨٦] يقولُ: كيف أحْزَنُ على قومٍ، وعَمَلُهُمْ ما ذَكَرَ؟

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ حينَ رآهُمْ هَلْكى، فقالَ: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي كيفَ أحْزَنُ على قومٍ، قد كَذَّبُوني، واختارُوا عَداوَتي، وصارُوا عليَّ أعداءً؟ فكيفَ أحْزَنُ عليهِمْ بالهَلاكِ، وهُمْ أعدائي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ قد ذَكَرْنا[4].

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في الآيةِ إضمارٌ، واللهُ أعلَمُ، مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهُما: قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ فَكَذَّبُوهُ.

[والثاني: قولُهُ تعالى][5] ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا﴾ قبلَ الهَلاكِ ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾.

ثم لم يأخُذِ اللهُ قوماً بالهَلاكِ قَبْلَ أنْ يَبْعَثَ إليهِمُ الرسولَ، وقَبْلَ أنْ يُغَيِّروا هُمْ[6] بما أنعَمَ عليهِمْ [ما][7] بأنفُسِهِمْ/ ١٨١ ـ أ/ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩] وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقولِهِ[8] تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] وقولِهِ[9] تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

أخبَرَ أنهُ لا يأخُذُهُمْ بالعذابِ والهَلاكِ إلّا بَعْدَ قَطْعِ العُذْرِ لهمْ مِنْ جميعِ الوُجوهِ، وإنْ كانَ لهُ الإهلاكُ قَبْلَ أنْ يَبْعَثَ إليهِمُ الرسولَ، لِما رَكَّبَ فيهِمْ مِنَ العُقولِ السليمَةِ ما[10] بها يُوصَلُ إلى فَهْمِ كُلِّ ما جَعَلَ فيهِمْ مِنْ آثارِ [وآياتِ وَحدانيَّتِهِ][11] وما جعَلَ لهمْ مِنَ السَّمْعِ ما بِهِ يُوصَلُ إلى سَمْعِ كلِّ ما غابَ والنُّطْقِ بكُلِّ ما يُريدونَ ما لم يَجْعَلْ ذلكَ بِغَيرِهِمْ مِنَ البَهائِمِ، وما أنْعَمَ عليهِمْ مِنْ تَصويرِ الصُّوَرِ ما لم يَتَمَنَّ أحدٌ تأويلَهُ منها إلى غيرِها مِنَ الصُّوَرِ.

لكنَّهُ لا يُهْلِكُهُمْ إلّا بَعْدَ بَعْثِ الرُّسُلِ إليهِمْ لِما أنَّ الخَلْقَ على مراتِبَ: منهُمْ مَنْ يَفْهَمُ بالعَقْلِ لا يَحْتاجُ إلى مَعُونَةِ[12] السَّمْعِ، وهُمُ الحُكَماءُ والعُلَماءُ الذينَ يُدْرِكونَ الأشياءَ بالبَديهَةِ، ومنهُمْ مَنْ لا يَدْرِكُ إلّا بِمَعُونَةِ السَّمْعِ وهُمْ كالصِّبْيانِ: إنهُمْ لا يُدْرِكونَ إلا بالسَّمْعِ وفَضْلِ التَّنْبيهِ، ومنهُمْ مَنْ لا يُدْرِكُ بالعَقْلِ ذلكَ ولا بالسَّمْعِ حتى تُصيبَهُمُ الشدائِدُ والغِيَرُ في أنْفُسِهِمْ وفي ما أنْعَمَ عليهِمْ، وهُمْ كالبهائِمِ الذينَ لا عَقْلَ لَهُمْ، ولا سَمْعَ، ولكنْ يَعْرِفُونَ الشدائِدَ وما يُصيبُهُمْ مِنَ البَلايا.

فَعَلَى ذلكَ يَمْتَحِنُهُمْ ﷻ ويَبْتَلِيهِمْ بالشدائِدِ والبلايا أو لا. فإنْ رَجَعُوا عنْ ذلكَ، وعَرَفُوا نِعَمَهُ، وإلّا أهْلَكَهُمْ بَعْدَ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: وقوله. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: ما. (٤) كان ذلك في تفسير الآيتين ٧٨ و٧٩. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ما. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: وقال. (١٠) في الأصل وم: مما. (١١) في الأصل وم: وحدانيته وآيات. (١٢) في الأصل وم: مونة.

جنة السنة

فعِندَ ذلكَ يَنتهُونَ، ويتذكّرُون. وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤١] وقولُهُ تعالى: ﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [البقرة: ١٧٧] قد ذكَرْنا في صَدْرِ الكتابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي لِكَي يكونَ عليهِمُ التَّضرُّعُ، أو لِكَي يَلْزَمَهُمُ التَّضرُّعُ والتَّذكُّرُ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ وهو ما ذكَرَ أهلُ التأويلِ: السَّعةُ والرَّخاءُ بَعْدَ الشِّدَّةِ والقَحطِ وما حَلَّ بهِمْ مِنَ البَلايا ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ قِيلَ: جَمَعُوا، وأكثَرُوا، أي كَشفَ عنهُمْ ذلكَ حتى كَثُرُوا. فعِنْدَ ذلكَ أهلَكَهُمْ بغْتَةً؛ لأنَّ الهلاكَ في حالِ الشِّدَّةِ والبَلاءِ لا يكونُ أخذَ بَغْتَةٍ؛ لأنَّ كُلَّ مَنْ حَلَّ بِهِ بَلاءٌ وشِدَّةٌ يَخافُ فيهِ الهلاكَ، فإذا أُهلِكَ في تلكَ الحالِ لم يكنْ أخذُهُ بالهلاكِ بغْتَةً.

ألا تَرَى أنهُ سَمَّى الموتَ الذي يموتُ المرءُ مِنْ غَيرِ مَرَضٍ حَلَّ بِهِ، مَوتَ فُجاءَةٍ؟ والذي يَمرَضُ يَتقدَّمُ الموتَ لِأذانِ المَوتِ في الوجْهَينِ جَميعاً، لا يَعْلَمُ بِحُلُولِهِ. لكنَّهُ إذا لم يَتقَدَّمْ مَرضٌ فهو لا يُخافُ منهُ. فإذا كانَ بِهِ مَرَضٌ خافَ بِهِ، فلم يكنْ فُجاءةً. فَعَلَى ذلكَ إذا أُخِذُوا في حالِ الشِّدَّةِ لم يكُنْ أخذاً بالبَغْتَةِ لِما يَخافُونَ فيهِ الهلاكَ. وإذا كانُوا في سَعَةٍ ورَخاءٍ لا يَخافُونَ، فيُؤخَذُونَ في تلكَ الحالِ، فذلكَ أخذٌ بَغْتَةٍ.

وقولُهُ(١) تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ قِيلَ: كانَ أهلَكَ بَعْضَهُمْ، وتَرَكَ بعْضاً ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي كَثُرُوا مِنْ ذلكَ البَعْضِ. ولكنَّ الوَجْهَ فيهِ ما ذكَرْنا مِنَ البأساءِ والضَّرَّاءِ والشَّدائدِ والقَحطِ. ثم كَشَفَ ذلكَ عنهُمْ، فكَثُرُوا، ثم أهلَكَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ قالُوا: إنَّ آباءَنا قد كانَ يَنزِلُ ذلكَ بِهِمْ، ويُصيبُهُمْ مَرَّةً شِدَّةٌ ومَرَّةً نِعْمَةٌ، فلم يكنْ ذلكَ بِعُقوبَةٍ لَهُمْ. فَعَلَى ذلكَ ما يُصيبُنا مِنَ الشَّدائِدِ والبَلايا، لَيسَ ذلكَ بِعُقوبَةٍ لنا، ولكنْ دَورانُ الدَّهرِ وتَصرُّفُهُ على الشِّدَّةِ والبَلاءِ مَرَّةً ومَرَّةً على الخِصْبِ والسَّعَةِ. ثم أخبَرَ أنهُ أخَذَهُمْ بَغْتَةً بَعْدَ قولِهِمْ: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ قيلَ ﴿ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ قَبلَ أنْ يَهْلِكُوا بَعْدَ ما أصابَهُمْ مِنَ الشَّدائِدِ والبَلايا ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ﴾ الآيةَ؛ أي لأعْطُوا كُلَّ خيرٍ، يُنالُ مِنَ السماءِ والأرضِ. البَرَكَةُ [كُلُّ ما يُنالُ مِنْ خيرٍ](٢) على غيرِ مُؤْنَةٍ، والبَرَكَةُ(٣) كلُّ شيءٍ يُنالُ بلا تَبِعَةٍ عليهِ ولا شِدَّةٍ. ذكَرَ ههنا أنهُ يَفتَحُ عليهِمْ بركاتٍ مِنَ السماءِ والأرضِ، لو آمَنُوا، ونَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ، أنهُ يَفتَحُ عليهِمْ أبوابَ كُلِّ شيءٍ، ولم يَذكُرِ البَرَكةَ. ففي ما لم يَذكُرِ البَرَكَةَ يُنغِّصُهُمْ ما فَتَحَ عليهِمْ مِنْ كُلِّ شيءٍ، ويَسوؤُهُمْ. وفي ما ذكَرَ فيهِ البَرَكةَ بَعْدَ الإيمانِ لا يَلحَقُهُمْ مِنْ ذلكَ تَبِعَةٌ، ولا غُرْمٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ الرُّسُلَ ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ النِّعَمَ التي أنعَمَها عليهِمْ أي الرُّسُلَ ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ مِنَ التكذيبِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ خرَجَ هذا في الظاهرِ مَخرَجَ الاستِفهامِ، ولكنْ في الحَقيقةِ على الإيجابِ كقولِهِ تعالى: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ﴾ الآيةَ [النور: ٥٠] هذا في الظاهرِ وإنْ خرَجَ مَخرَجَ الشكِّ(٤) والارْتِيابِ، فهو في الحَقيقةِ على الإيجابِ. كأنهُ قالَ: في قلوبِهِم مَرَضٌ، وارتابُوا، وخافُوا ﴿أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النور: ٥٠] فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ على الإيجابِ كأنهُ قالَ: قد أَمِنَ ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ وأَمِنَ ﴿أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨].

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [وقولِهِ تعالى](٥) ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: ٩٨] إلى آخِرِ ما ذكَرَ: قالَ الحَسَنُ: هذِهِ الآياتُ في الأُمَمِ السالِفَةِ؛ أخبَرَ عن أُمَمِهِمْ(٦) بِنُزولِ بأسِ اللهِ وعذابِهِ بِهِمْ لكنْ ذكَرَ في هذِهِ الأُمَّةِ لِيكونُوا على حَذَرٍ مِنْ مِثْلِ صَنيعِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل: كل ينال من كل خير، في م: ما ينال من كل خير. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: الثلث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أمتهم.

جنة السنة

وقالَ الآخَرُونَ: هذِهِ الآياتُ في قُرَى هذِهِ الأمّةِ[1] لا في الأُمَمِ السالِفَةِ؛ يقولُ: أمِنَ هؤلاءِ بأسَنا كما أمِنَ أولئكَ عنهُ، فإنهُمْ إذا صَنَعُوا مِثْلَ صَنِيعِهِمْ يُنْزِلُ [بهِمْ][2] في الآخِرَةِ مِنَ العذابِ مِثْلَ ما أنْزَلَ بأولئكَ في الدنيا مِنَ العذابِ.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [وقولُهُ تعالى][3] ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أخبَرَ أنَّ العذابَ إنما نَزَلَ بِهِمْ في حالِ الأمنِ، وهو وقتُ النومِ واللّعِبِ؛ لأنهُ هو وقتُ الغفلَةِ والسَّهْوِ، وآمَنُ ما يكونُ الإنسانُ إنما يكونُ في حالِ النَّومِ. وإنما نَزَلَ بِهِمْ في وقتِ الغفلَةِ والسَّهْوِ؛ يُذَكِّرُ بهذا، واللهُ أعلَمُ، أهلَ مَكّةَ وغيرَهُمْ مِنَ الكفَرَةِ بِتَكْذِيبِهِمْ رسولَ اللهِ لِئَلا يكونُوا آمِنِينَ عنْ بأسٍ أبداً في وَقْتٍ مِنَ الأوقاتِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ المَكْرُ في الشاهِدِ هو أن يُراقِبَ مِنْ عَدُوِّهِ حالَ غَفْلَةٍ لِيَنْتَقِمَ منهُ، وينْتَصِرَ[4]. فإذا كانَ ما ذَكَرْنا، سَمَّى ما يُنْزِلُ بِهِمْ مِنَ العَذابِ في حالِ الغَفْلَةِ مَكْراً[5]، وعلى ذلكَ الامْتِحانُ في ما بَيْنَ الخَلْقِ هو اسْتِظْهارُ ما خَفِيَ على بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَيَأْمُرونَ بذلكَ، ويَنْهَوْنَ، فَسَمَّى اللهُ تعالى ذلكَ امْتِحاناً لِمَعْنَى الأمْرِ والنَّهْيِ، وإنْ كانَتِ الخَفِيّاتُ عنِ الخَلْقِ ظاهِرَةً باديَةً عندَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ الآيةُ على المُعْتَزِلَةِ لأنهُمْ يَأْمَنُونَ[6] مَكْرَ اللهِ في الصَّغائِرِ، [ويقولُونَ: الصَّغائِرُ][7] مَغْفورَةٌ، لَيسَ لهُ أنْ يُعَذِّبَهُمْ عليها؛ [فَهُمْ آمِنونَ][8] عنْ مَكْرِهِ، ويَيْأَسُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ. لِقولِهِمْ في الكبائِرِ لَيسَ[9] لهُ أن يَعْفُوَ عَنْهُمْ. وقد أخبَرَ ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وهُمْ قد أَيِسُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ في الكبائِرِ، وأمِنُوا مَكْرَهُ في الصَّغائِرِ. فهاتانِ الآيتانِ على المُعْتَزِلَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ هو[10] جزاءُ مَكْرِهِمْ؛ سَمَّى جَزاءَ المَكْرِ مَكْراً [كما][11] سَمَّى جزاءَ السَّيِّئَةِ سَيِّئَةً وجزاءَ الاعْتِداءِ اعْتِداءً، وإنْ لم يكُنِ الثاني اعْتِداءً ولا سَيِّئَةً، فَعَلى ذلكَ تَسْمِيَةُ جَزاءِ المَكْرِ مَكْراً، وإنْ لم يَكُنِ الثاني مَكْراً، واللهُ أعلَمُ.

ألا تَرَى أنهُ لم يَجُزْ أنْ يُسَمَّى مَكّاراً، ولو كان على حَقِيقَةِ المَكْرِ يُسَمَّى بذلكَ؟ دلَّ أنهُ جزاءٌ. وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ مَكْرِهِ جَزاءَ مَكْرِهِمْ، [ولِذلكَ][12] سَمَّى الجَزاءَ بِاسْمِ المَكْرِ لأنهُ جَزاؤُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] والثانيةُ لَيسَتْ بِسَيِّئَةٍ.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ على تأويلِ مَنْ يَجْعَلُ الآيَةَ في الأُمَمِ السالِفَةِ؛ يقولُ: أو لَمْ يُوَفَّقُوا، ولم يُهْدَوا لِلصَّوابِ بِهَلاكِ أُمّةٍ بَعْدَ أُمّةٍ وقومٍ بَعْدَ قومٍ؟

وعلى تأويلِ [مَنْ يَجْعَلُ الآيَةَ][13] في هذِهِ الأُمّةِ، يقولُ: أو لَم يَتَبَيَّنْ لهؤلاءِ / ١٨١ ـ ب/ الذينَ وَرِثُوا الأرضَ مِنْ بَعْدِ هَلاكِ أهلِها ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم﴾ بعذابِ ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أصابَ أولئكَ العذابُ بذنوبِهِمْ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ [يَحْتَمِلُ وُجُوهاً]:

أحَدُها[14]: قولُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾على إسقاطِ الواوِ والألفِ؛ أي لم يهدِ للذينَ يرِثونَ الأرضَ[15] ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: لم يَهْدِ لَهُمْ، أي[16] لم يَتَفَكَّرُوا بما أهْلَكَ الأوَّلِينَ وما حَلَّ بِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ أنهُمْ إذا تَرَكُوا التَّفَكُّرَ والنَّظَرَ فيهِمْ وما نَزَلَ بهِمْ لم يَهْدِ لهمْ.

والثاني: قد هداهُمْ لكنْ نَفَى ذلكَ عنهُمْ لِما لم يَنْتَفِعُوا بهِ، وهو ما نَفَى عنهُمْ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ والعَقْلِ لِما لم يَنْتَفِعُوا بِهِ.

---

(١) في الأصل وم: الآية. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من م، في الأصل: وينتظر. (٥) في الأصل وم: مكروا.
(٦) في الأصل وم: يأمنوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فهو آمن. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (١٠) في الأصل: و، في م: أو. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل: ويقولون بالآية، في م: من يقول بأن الآية. (١٤) في الأصل وم: و. (١٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٣٨٤. (١٦) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

ويَحتَمِلُ على غَيرِ إسقاطِ أي[1] كأنهُ قال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾ أو لَمْ يَهْدِهِمُ الرَّسُولُ قُدْرَةَ اللهِ في هلاكِ الأُمَمِ الخاليةِ. فَعَلَى ذلكَ هو قادرٌ على إهلاكِ الذينَ ﴿يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ يَحتَمِلُ هذهِ الوجوهَ التي ذكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

أو يقولُ: أو لَمْ يَهْدِ لَهُمْ وراثةُ الأرضِ مِنْ بَعْدِ هَلاكِ أهلِها أنهُمْ بِمَ أُهلِكُوا؟ حتى يَرْتَدِعُوا، ويَمْتَنِعُوا عن مِثْلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: قد هَداهُمْ، وبَيَّنَ لهم أنَّ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ إنما هَلَكُوا بِما أصابُوا مِنْ ذُنوبِهِمْ مِنَ التَّكذيبِ والعِنادِ، لكنْ لم يَهْتَدُوا لِعنادِهِمْ.

والثاني: لم يَهْدِهِمْ لِما لم يَتَفَكَّرُوا فيها، ولم يَنْظُرُوا، على التِّلاوَةِ [التي قُرِنَتْ بإسقاطِ أو][2].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ فإنْ كانتْ في الأُمَمِ السالِفَةِ فقولُهُ ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ﴾ أصَبْنا قوماً بَعْدَ قومٍ بِذُنوبِهِمْ، وإنْ كانتْ في المُتأخِّرينَ فقولُهُ: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم﴾ لا بِذُنوبِهِمْ على ما أصابَ أولئكَ ﴿بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

والطَّبْعُ يَحتَمِلُ الخَتْمَ، أي خَتَمَ على قُلوبِهِمْ، ويَحتَمِلُ الطَّبْعُ ظُلْمَةَ الكُفْرِ؛ أي سَتَرَ قُلوبَهُمْ بِظُلْمَةِ الكُفْرِ، فيكونُ قولُهُ: كلُّ شيءٍ سَتَرَ شيئاً، وتَغَشّاهُ، فهو طَبْعٌ.

[وقولُهُ تعالى][3] ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ: يَحتَمِلُ: لا يَسْمَعُونَ لِما يَنْتَفِعُونَ بِهِ. ويَحتَمِلُ: لا يَسْمَعُونَ أي لا يَجِيبُونَ كقولِهِ ﷺ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» [البخاري: ٦٩٠] قِيلَ: أجابَ لِمَنْ حَمِدَهُ؛ أي دعاهُ.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ قولُهُ: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي قَصَصْنا عليكَ، مِمّا قَصَّ عليهِ مِنَ الأنباءِ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما][4]: يُخبِرُ رسولَهُ أنَّ القُرى التي كانتْ مِنْ قَبْلُ قد سألُوا رُسُلَهُمُ الآياتِ، فَجاؤُوا بها، ولم يُصَدِّقُوها. فَعَلى ذلكَ هؤلاءِ: أنكَ لو أتَيْتَ ما سألُوكَ مِنَ الآياتِ لم يؤمِنُوا بها، ولم يُصَدِّقوها؛ يُخبِرُهُ عن تَعَنُّتِهِمْ ومكابَرَتِهِمْ وعِنادِهِمْ.

والثاني: يَذْكُرُ أنَّ الآياتِ لَيسَ يَجِبُ أنْ يَأتُوا بها مِنَ الجِهَةِ التي يُريدونَ، إنما يَجِبُ أنْ يأتُوا بها، وهي[5] حُجَّةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يَحتَمِلُ الأنباءَ التي أنْبَأتِ الرُّسُلُ أقوامَهُمْ مِنْ نُزولِ العذابِ بِهِمْ بالتَّكذيبِ والكُفرِ بها، ويَحتَمِلُ البَيِّناتِ التي تَدُلُّ على صِدْقِ الرُّسُلِ بما يَقولُونَ، ويُخبِرُونَ بَعْدَ ما سألُوهُمُ الآياتِ، لكنْ رَدُّوها رَدَّ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ بَعْدَ ما عَرَفُوا أنها حَقٌّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [يَحتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً:

أحدُها: أي ما][6] كانُوا لِيُؤمِنُوا لَمّا رَأوا بأسَنا ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي لا يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ عندَ رُؤيَتِهِمْ بأسَ اللهِ كقولِهِ[7] تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

والثاني[8]: يَحتَمِلُ: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ بِسُؤالِهِمُ الآياتِ إذا آتاهُمُ الآياتِ بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ، لأنَّ تركَهُمُ الإيمانَ وتكذيبَهُمُ الرُّسُلَ لَيسَ لِما لم تَكُنْ لَهُمُ الآياتُ، ولكنْ لِلْعَنَتِ. فأخبَرَ أنهُمْ، وإنْ سألُوا الآياتِ، فإنهُمْ لا يؤمِنُونَ.

والثالثُ: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ بما يُخبِرُهُمُ الرَّسُولُ مِنْ إتيانِ العذابِ بِهِمْ بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ الأنبياءَ ﷺ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ يَحتَمِلُ العَهْدُ المذكورُ وجوهاً ثلاثةً:

---

(١) في الأصل وم: أو، وهو الوجه الثالث. (٢) في الأصل وم: قرنت بإسقاط، انظر الحاشية الـ (١٥) في الصفحة السابقة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل: أي، في م: أي ما. (٧) في الأصل وم: كقولهم. (٨) الأصل وم: و.

أحدُها: عَهْدُ الخِلْقَةِ لِما في خِلْقَةِ كُلِّ أحدٍ الشهادةُ بالوَحدانيَّةِ لهُ والألوهيَّةِ، فَلَمْ يُوفُوا بِتِلكَ العُهودِ، بل نَقَضُوها.

والثاني: العَهْدُ الذي أخذَ اللهُ عليهِمْ على ألْسُنِ الرُّسُلِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾ الآية [المائدة: ١٢] فَلَمْ يُوفُوا بذلكَ.

والثالثُ: ما أعْطوا هُمْ مِنْ أنفُسِهِمْ مِنَ العَهْدِ كَقولِ فِرْعَونَ لِموسَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩] فَلَمْ يُوفُوا بما أعْطَوا هُمْ مِنَ العُهودِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ﴾ وقد وجَدْنا أكْثَرَهُمْ فاسِقِينَ بِنَقْضِ العَهْدِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ﴾ بَعْدِ هَلاكِ قُرونٍ[1] كَثيرةٍ ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ حُجَجَنا، ثم يَحْتَمِلُ حُجَجَ وحدانيَّةِ اللهِ وأُلوهيَّتِهِ، ويَحْتَمِلُ آياتِ رِسالَتِهِ ونُبُوَّتِهِ، وعلى قولِ الحَسَنِ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ دِينَنا، وعلى ذلكَ يَتَناوَلُ جميعَ الآياتِ التي ذُكِرَتْ في القرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ إنَّ موسَى كانَ مَبْعُوثاً إليهِمْ جميعاً إلى فِرْعَونَ والمَلإِ والأتباعِ[2] جميعاً، لا إنهُ كانَ مَبْعُوثاً إلى فِرْعَونَ ومَلَئِهِ خاصَّةً دُونَ الأتباعِ. وكذلكَ ذَكَرَ في أمْكِنَةٍ[3] أُخَرَ إلى فِرْعَونَ خاصَّةً، وهو بُعِثَ إليهِمْ جميعاً.

لكنْ يُخَرَّجُ تَخْصِيصُ ما ذَكَرَ لِهؤلاءِ[4] القادةِ، واللهُ أعْلَمُ، لِما أنَّ الذي يُنازِعُ الأنبياءَ والرُّسُلَ هُمُ الكُبَراءُ والرُّؤساءُ دونَ الأتباعِ والسَّفَلَةِ. والأتباعُ هُمُ الذينَ يَصْدُرُونَ[5] لآراءِ الكُبَراءِ، ويَتَّبِعُونَهُمْ في ما يَدْعُونَهُمْ إليهِ. وعلى ذلكَ سُمِّيَ[6] الكُبَراءُ والرُّؤساءُ أضدادَ الرُّسُلِ، وإلّا كانَ موسَى مَبْعُوثاً إليهِمْ جميعاً الوَضِيعِ مِنْهُمْ والرَّفِيعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي ظَلَمُوا الآياتِ والحُجَجَ التي أتى بها مُوسَى إلى فِرْعَونَ وقَومِهِ. سُمِّيَ [ذلكَ][7] ظُلْماً لأنهُمْ سَمَّوا تلكَ الآياتِ سِحراً بَعْدَ ما عَرَفُوا أنها مُنَزَّلَةٌ مِنَ اللهِ، فَوَضَعُوها [في][8] غَيرِ مَوضِعِها. والظُّلْمُ هو وَضْعُ الشيءِ في غَيرِ مَوضِعِهِ.

وقالَ قائِلُونَ: قولُهُ تعالى: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي ظَلَمُوا نِعَمَ اللهِ التي أنْعَمَها عليهِمْ حِينَ[9] عَبَدُوا غَيْرَهُ، فَصَرَفُوا شُكْرَ تلكَ النِّعَمِ إلى غَيرِ الذي أنْعَمَها عليهِمْ؛ فذلكَ ظُلْمٌ: شَكَرُوا مَنْ لم يُنْعِمْ عليهِمْ، وصَرَفُوا [الشُّكْرَ][10] عَمَّنْ أنْعَمَ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ ظَلَمُوا الأتباعَ بِتِلكَ الآياتِ حِينَ[11] مَنَعُوهُمْ عَنِ اتِّباعِ الرَّسُولِ، واسْتَتْبَعُوهُمْ. أو يقولُ: ظَلَمُوا بها[12] أنفُسَهُمْ حِينَ تَرَكُوا اتِّباعَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ هذا الخِطابُ في الظاهِرِ لِرَسولِ اللهِ ﷺ، فكانَ المُرادُ بالخِطابِ غَيْرَهُ؛ أمَرَ كُلّاً بالنَّظَرِ في عاقِبَةِ المُفسِدِينَ لِما حَلَّ بِفَسادِهِمْ؛ لأنَّ مَنْ نَظَرَ في عاقِبَةِ ما حَلَّ بِمَعْصِيَةٍ أو فَسادٍ يَمْتَنِعُ عَنْ مِثْلِهِ.

وأمْكَنَ أنْ يكونَ الخِطابُ لِرسولِ اللهِ ﷺ، لِوَجْهَينِ:

أحَدُهُما: لِما لَهُ بِما حَلَّ بِهِمْ بَعْضُ التَّسَلِّي لِأذاهُمْ إيّاهُ؛ لأنَّ مَنْ تَوَهَّمَ حُلولَ الهلاكِ على عَدُوِّهِ في العاقِبَةِ صَبَرَ على أذاهُ، ويكونُ له بَعْضُ التَّسَلِّي في ذلكَ.

والثاني[13]: يُنَبِّئُهُمْ بِما يَحُلُّ بِهِمْ في العاقِبَةِ لِيَمْتَنِعُوا عمّا يَرْتَكِبُونَ[14] مِنَ المعاصي، لأنَّ ذلكَ أزْجَرُ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ قالَ: إني رسولُ اللهِ، وذلكَ يُخَرَّجُ في الظاهِرِ مُخْرَجَ الِامْتِداحِ والتَّزكِيَةِ، وقد نَبَّهْنا عنْ ذلكَ؛ لأنَّهُ أخْبَرَ بِمَحَلِّ الذي تُوضَعُ الرسالَةُ فيهِ، وأنَّهُ أهْلٌ لها؟ قيلَ: لَيسَ فيهِ امْتِداحُ نَفْسِهِ ولا تَزْكِيَةٌ لهُ؛ لأنَّهُ إنما يَذْكُرُ مِنَّةَ اللهِ تعالى أنَّهُ جَعَلَهُ بِحَيثُ تُوضَعُ فيهِ الرسالةُ، وجَعَلَهُ أهْلاً لها.

---

(١) من م، في الأصل: القرون. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: مكان. (٤) في الأصل وم: هؤلاء. (٥) من م، في الأصل: يصدون. (٦) في الأصل وم: سموا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: لها. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: ارتكبوا.

جنة السنة

والتَّزكيةُ والامْتِداحُ إنما يَقَعُ في ما هو فِعْلُهُ حقيقةً لا فِعْلُ اللهِ، أو إنْ كانَ تزكيَةً وامْتِداحاً فهو قد أُمِرَ بذلكَ، فجازَ بالأمْرِ، أو أرادَ بذلك تعريفَهُ لِما كانَ مِنْ عادةِ الملوكِ أنهُمْ إذا بَعَثَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ رسولاً فإنهُمْ لا يَسْتَقْبِلُونَ الرُّسُلَ بالمَكْروهِ والشرِّ، .بل يُعَظِّمُونَ الرُّسُلَ، ويُكْرِمُونَهُمْ، وإنْ كانَ بَيْنَهُمْ مُعاداةٌ.

فذَكَرَ أنَّهُ ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لِئَلا يُسْتَقْبَلَ بالمَكْرُوهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيلَ: العالَمُ هو جَوهَرُ الكُلِّ، وهو قَولُ الفلاسِفَةِ. وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي مَليكِ العالَمِينَ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ قالَ أهلُ التَّأويلِ: إنَّ مُوسَى لَمّا قالَ لِفِرْعَونَ: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فقالَ لَهُ: كَذَبْتَ، فعِنْدَ ذلكَ قالَ لهُ مُوسَى:/ ١٨٢ ـ أ/ ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وأمكَنَ أنْ يكونَ ذلكَ منهُ على غَيرِ تَكْذيبِ القَولِ مِنْ فِرْعَونَ، ولكنَّهُ قالَ ذلكَ لِما أنَّهُ حَقيقٌ على كُلِّ أحَدٍ، أكْرَمَهُ اللهُ بالرسالةِ، واختارَهُ لها، ألّا يَقولَ على اللهِ إلّا الحَقَّ، أو أنْ يَقولَ: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن﴾ [ما][1] أكْرَمَني بالرسالةِ ﴿لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ لا يَصِحُّ الابْتِداءُ بهذا إلا بَعْدَ أنْ يَسْبِقَ مِنْ فِرْعَونَ كلامٌ، خَرَجَ هذا الكلامُ مِنْ مُوسَى جَواباً لِما كانَ مِنْهُ؛ وهو ما قالَ أهلُ التَّأويلِ: إنهُ[2] قالَ لهُ [لَمّا قالَ: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليكَ: كَذَبْتَ، لم يُرْسِلْكَ إلينا، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

فعِنْدَ ذلكَ قالَ: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وهو[3]] كما قالَ عِيسَى: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ لَمّا قالَ لهُ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] كانَ ذلكَ القولُ مِنْ عِيسَى لَمّا ادّعَى قومُهُ على عِيسَى أنهُ قالَ لَهُمْ ذلكَ.

وكذلكَ قولُ الملائكةِ ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤١] بَعْدَ ما قالَ لَهُمْ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠] فعِنْدَ ذلكَ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ خَرَجَ ذلكَ القولُ مِنْهُمْ جوابَ ما تقدَّمَ.

فعَلَى ذلكَ قولُ مُوسَى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ على تَقَدُّمِ قولٍ كانَ منهُمْ، واللهُ أعْلَمُ.

ومَنْ قرَأ: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ فتَأويلُهُ: [أنا حقيقٌ بألّا][4] أقولَ على اللهِ إلّا الحَقَّ.

ومَنْ قرأ بتَشديدِ عليَّ[5] فتَأويلُهُ: حَقٌّ عليَّ بألّا أقولَ على اللهِ إلّا الحَقَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ما يُبَيِّنُ وَحْدانيَّةَ اللهِ وأُلُوهيَّتَهُ، ويَحْتَمِلُ بِبَيِّنَةِ الرُّسُلِ لهُ ما يُبيِّنُ أني ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤] غَيرَ كاذِبٍ عليهِ، ولا مُفْتَرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي لا تَسْتَعْبِدْهُمْ فإنهُمْ لَيسُوا بِعَبيدٍ. لم يُرِدْ إرسالَهُمْ مَعَهُ، ولكنْ طَلَبَ اسْتِنْقاذَهُمْ مِنَ العُبودةِ كقولِهِ تعالى: ﴿عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢].

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ دلَّ قولُ فرعَونَ ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ أنَّ مُوسَى أرادَ بقولِهِ ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآيةَ، ودلَّ قولُهُ ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أنهُ كانَ عَرَفَ أنهُ لَيسَ بإلهٍ، وعَرَفَ عُبودةَ نفسِهِ حِينَ[6] طَلَبَ منهُ الآيةَ على صِدْقِ ما ادَّعَى مِنَ الرِّسالةِ. ولو كانَ عندَهُ أنهُ إلهٌ لكانَ قالَ لِمُوسَى: أنا الإلهُ، فَمَتَى أرْسَلْتُكَ؟ ولم يَطْلُبْ منهُ الآيةَ.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: الثُّعْبانُ الحيَّةُ، قالَ: كُلُّ حَيَّةٍ تُسمَّى ثُعباناً، أوِ الثَّعابِينُ جماعةٌ. وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ، [أنهُ][7] قالَ: الثُّعبانُ هيَ الحَيَّةُ الذَّكَرُ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: إن. (٣) ساقطة من م. (٤) في الأصل: للحوق على، في م: لمحقوق على. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية [٢/ ٣٨٥]. (٦) في الأصل وم: حين. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ﴾ أي مُبِينٌ أنها حيَّةٌ، وهو كما ذكَرْنا ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ٢٠] لا يَشُكُّ أحدٌ أنها لَيسَتْ بحَيَّةٍ. ويَحتَمِلُ ﴿مُّبِينٞ﴾ أي مُبِينٌ أنَّ ذلكَ التَّغْيِيرَ والتَّحويلَ لا يكونُ إلّا منَ اللهِ.

الآية ١٠٨

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ ذَكَرَ: نَزَعَ يَدَهُ، ولم يذكُرْ مِمّاذا؟ فهو ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرى ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ [النمل: ١٢] أي مِنْ غيرِ أذىً ولا آفةٍ. وقالَ أهلُ التأويلِ: مِنْ غيرِ بَرَصٍ.

ولكنْ عندَنا ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ مِنْ غيرِ أنْ تُستَقْبَحَ، أو تُستَقذَرَ؛ لأنَّ خُروجَ الشَّيءِ عن خِلْقَتِهِ وجوهَرِهِ مِمّا يُستَقذَرُ. فأخبَرَ أنها لم تكنْ كذلكَ.

فإنْ قِيلَ لَنا: ما الحكْمَةُ في إدخالِ يَدِهِ جَيْبَهُ على ما هيَ عليها وإخراجِهِ إيّاها بَيضاءَ مِنْ غيرِ أنْ كانَتْ كذلكَ قَبلَ أنْ يُدخِلَها؟ وكذلكَ [ما الحكمةُ في][1] صَيرُورَةِ العَصا حَيَّةً بَعْدَ ما طَرَحَها على الأرضِ دونَ أنْ تَصيرَ حَيَّةً، وهي في يَدِهِ؟

قيلَ: ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ، أنهُ إنما أراهُمْ آيةً بَعْدَ ما أخرَجَ العَصا عن سُلْطانِهِ وتَدبيرِهِ لِيُعْلِمَ أنها إنما صارَتْ لا بِتَدْبِيرِهِ وتَغْيِيرِهِ، ولكنْ باللهِ ﷻ، وكذلكَ اليَدُ صَيَّرَها آيةً بَعْدَ ما غَيَّبَها عَنْ بَصَرِهِ، وتدبيرِهِ[2] لِيُعْلِمَ أنها صارَتْ كذلكَ لا بِهِ، ولكنْ باللهِ ﷻ الآيةُ هي التي تَخرُجُ عن وُسْعِ الخَلْقِ وتدبيرِهِمْ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾ [الشعراء: ٣٤] يَحتَمِلُ أنْ يكونَ فِرعَونُ قالَ لِلْمَلإِ: إنَّ هذا كذا، ثم قالَ المَلأُ لِقومِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾ أرادَ، واللهُ أعْلَمُ، تَلْبِيسَ ما أتَى بِهِ مُوسَى مِنَ الآيَةِ على قومِهِ، وأرادَ بقولِهِ ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾ [الشعراء: ٣٥] إغراءَ قومِهِ عليهِ.

والسِّحْرُ عندَنا هو منْ آياتِ الرسالةِ. ولو كانَ ما أتَى مُوسَى كانَ ذلكَ مِنْ آياتِ رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ لأنهُ لا يُستَفادُ إلّا بِعِلْمٍ مِنَ السَّماءِ وخَبَرٍ منها، وكذلكَ هذهِ الحِرَفُ والمَكاسِبُ التي تُكتَسَبُ في الخَلْقِ؛ لأنهُ لا يَعْلَمُ إلّا بالوَحْيِ مِنَ السماءِ، لكنهُ لَيسَ بآيةٍ على الإشارةِ. ولو كانَ ما أتى بِهِ سِحْراً لَكانَ لهُ آيةً؛ لأنهُ نَشَأَ بَيْنَ أظْهُرِهِمْ؛ لم يَرَوْهُ اختَلَفَ إلى ساحِرٍ قَطُّ، ولا[3] عُرِفَ أنهُ تَعَلَّمَ ذلكَ مِنْ أحدٍ. فَدَلَّ ذلكَ أنهُ مِنَ اللهِ[4]، لكنهُ أخرَجَ ذلكَ عمّا عَرَفُوا مِنَ السِّحْرِ لِما لا كُلُّ أحدٍ يَعْرِفُ أنهُ لم يَختَلِفْ في ذلكَ [إلى أحدٍ][5]، ولا تَعَلَّمَ مِنْ أحدٍ، فأخرَجَهُ عَنْ وُسْعِ السَّحَرَةِ وتدبيرِهِمْ لِيَعْرِفَ كُلُّ أحدٍ أنهُ [آيَةٌ مِنْ][6] آياتِ رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ، لا السِّحْرُ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡ﴾ كانَ مُوسَى لا يُريدُ أنْ يُخرِجَهُمْ مِنْ أرضِهِمْ، ولكنْ، واللهُ[7] أعلَمُ، كأنهُ قالَ فِرعَونُ لِقَومِهِ: لَو اتَّبَعْتُمْ مُوسَى، وأجَبْتُمُوهُ إلى ما يَدْعُوكُمْ إليهِ لأخرَجَكُمْ، لكنْ أضافَ ذلكَ إلى مُوسَى لِما كانَ هو سَبَبَ إخراجِهِمْ، واللهُ أعْلَمُ.

أو يَقولُ: يُريدُ أنْ يَذهَبَ بِعَيشِكُمُ الطَّيِّبِ وراحَتِكُمْ وتَلَذُّذِكُمْ بأنواعِ التَّلَذُّذِ؛ لأنهُمْ كانُوا يَستَعْبِدُونَ بني إسرائيلَ، ويَستَخدِمُونَهُمْ، ويَستَرِيحُونَ بهِمْ، ويَنْعَمُونَ. فيقولُ لِلْقِبْطِ: يُريدُ أنْ يَذهَبَ بذلك كلِّهِ عنكُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مُوسَى لم يَكُنْ يُريدُ أنْ يُخرِجَهُمْ[8] مِنْ أرضِهِمْ، ولكنْ يريدُ أنْ يُخرِجَهُمْ[9] مِنْ دِينِهِمُ الذي كانُوا عليهِ، ولكنَّهُ كانَ يُغْرِي قَومَهُ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ دلَّ هذا القولُ مِنْ فِرْعَونَ أنهُ كانَ يَعْرِفُ أنهُ لَيسَ بإلهٍ ولا رَبٍّ، لأنهُ لو كانَ ما يقولُ ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] لَكانَ لا يَطْلُبُ مِنْ قومِهِ الأمْرَ والإشارةَ في ذلكَ. دلَّ ذلكَ أنهُ كانَ يَعْرِفُ عَجْزَهُ وضَعْفَهُ، لكنَّهُ يُكابِرُ، ويُلَبِّسُ على قومِهِ، ويُمَوِّهُ بقولِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾ [الأعراف: ١٠٩].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: وتدبير. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: الآية. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) و (٩) من م، في الأصل: يخرجوا.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ هذا الحَرْفُ حَرْفُ إغراءٍ وتَحْريشٍ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ هو حَرْفُ تَقْريبِ حينَ[1] جَعَلَ إليهمُ الأمْرَ والإشارَةَ، وجَعَلَهُمْ مِنْ أهلِ مَشُورَتِهِ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ هذا الحَرْفُ لا يُقالُ ابْتِداءً إلّا أنْ يكونَ هنالكَ تَقَدُّمُ شَيءٍ؛ فكأنَّهُ هَمَّ بِقَتْلِهِ كقولِهِ ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦] فقالوا لَهُ: ﴿أَرْجِهْ﴾ أي[2] أخِّرْهُ، واحْبِسْهُ، ولا تَقْتُلْهُ، لِيَتَبَيَّنَ سِحْرُهُ عندَ الخَلْقِ جميعاً. كانُوا يَمْنَعُونَ فِرْعونَ عنْ قَتْلِهِ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦] لو لم يكُنْ منهُمْ مَنْعٌ عَنْ قَتْلِهِ لم يكُنْ لِيَقولَ لَهُمْ ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾؟

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ هارُونَ. يَقُولُ: احْبِسْهُ، أي أخِّرْهُ. ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: ٥١] ومنهُ سُمِّيَتِ المُرْجِئَةُ.

وقالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ ولا تَقْتُلْهُما ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي أرْسِلْ إلى المدائنِ الشُّرَطَ، فَأْتُوهُ مِنَ المَدائِنِ حاشِرِينَ؛ أي يَحْشُرُونَ عليهِ[3] السَّحَرَةَ والناسَ. إلى هذا يَذْهَبُ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي [لا تَقْتُلْهُ][4] حتى ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي لِيَجْتَمِعَ كُلُّ أنواعِ السِّحْرِ لِتُبَيِّنَ سِحْرَهُ، وإلّا كانَ ساحِرٌ واحدٌ كافياً[5]، ولكنْ أرادُوا، واللهُ أعلَمُ، بقولِهِمْ[6] ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ لِيَجْتَمِعَ جَميعُ أنواعِ السِّحْرِ عِنْدَهُ، لِيَتَبَيَّنَ سِحْرَهُ.

الآيتان ١١٣ و١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ في المَنْزِلَةِ والقُدْرَةِ عندي.

هذا يَدُلُّ أنَّ هِمَّةَ الساحِرِ لَيسَتْ[7] إلّا الدنيا، لأنهُمْ طَلَبُوا مِنْ فِرْعَونَ الأجْرَ والقَدْرَ والمَنْزِلَةَ عِنْدَهُ، إنْ كانُوا هُمُ الغالِبِينَ. ولا يَجوزُ مَنْ هِمَّتُهُ الدنيا، وما ذَكَرَ، أنْ تكونَ لهُ الرسالةُ بِحالٍ. / ١٨٢ ـ ب/ وهِمَّةُ الأنبياءِ كانَتِ الدينَ وطَلَبَ الآخِرَةِ.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ هذا لَيسَ على إلقاءٍ هذا وتَرْكِ أُولئكَ الإلقاءَ؛ لأنهُ لو كانَ على إلقاءِ أحَدِهِما لَكانَ لا يُتَبَيَّنُ السِّحْرُ مِنَ الآيَةِ. لكنْ إلقاءُ الأوَّلِ؛ كأنهُمْ ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ أوَّلاً، وإمّا[8] نَحنُ المُلْقُونَ أوَّلَ مَرَّةٍ، وهو ما ذَكَرَ في آيَةٍ أُخرى. ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥].

الآية ١١٦ [وقولُهُ تعالى][9]: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟﴾ كأنهُ أمَرَهُ رَبُّهُ أنْ يأمُرَ بذلكَ، فقالَ[10] موسى ﴿أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ السِّحْرَ إنما يأخُذُ الأبصارَ على غَيْرِ حقيقةٍ كانَتْ لَهُ؛ وهو كالسَّرابِ الذي يُرى مِنْ بَعيدٍ كقولِهِ تعالى: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ الآية: [النور: ٣٩] فَعَلى ذلكَ السِّحْرُ يأخُذُ الأبصارَ ظاهراً، فإذا هو في الحَقيقةِ باطِلٌ، لا شَيءَ، وكالخَيالِ[11] في القُلوبِ لا حَقيقَةَ لَهُ. وكانَ قَصْدُهُمْ بالسِّحْرِ اسْتِرْهابَ الناسِ وتَخْويفَهُمْ بِهِ.

ألا تَرى [أنهُ][12] ذَكَرَ في آيَةٍ أُخرى ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾؟ [طه: ٦٧] وقد ذَكَرْنا أنَّ ما جاءَ بِهِ الرُّسُلُ لو كانَ سِحْراً في الحَقيقةِ لَكانَ ذلكَ حُجَّةً لَهُمْ في إثباتِ الرسالةِ؛ لأنَّ قومَهُمْ لَمْ يَرَوهُمُ اخْتَلَفُوا إلى ساحِرٍ؛ فَيَدُلُّ ذلكَ [أنهُمْ إنما عَرَفُوا ذلكَ][13] باللهِ تعالى، وهو كالأنباءِ[14] التي أتى بها رسولُ اللهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل: إلى. (٣) في الأصل وم: عليك. (٤) من م، في الأصل: ليجتمع. (٥) في الأصل وم: كاف. (٦) في الأصل وم: بقوله. (٧) في الأصل وم: ليس. (٨) في الأصل: و، في م: أو. (٩) في الأصل وم: وقول موسى. (١٠) الفاء ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: وكالجبال. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، في الأصل: كالأنبياء.

جنة السنة

أحدُهما: أخذَ سِحْرُهُمْ بَصَرَهُ كما أخذَ أعْيُنَ الناسِ.

والثاني: خافَ أنْ سِحْرَهُمْ يَمْنَعُ أولئكَ عنْ رؤيَةِ حقيقَةِ ما جاءَ بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أخذوا[1] كقولِهِ تعالى: ﴿نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥] أي [مأخوذَةٌ أعيُنُنا][2].

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ﴾ فيهِ أنَّ موسى كانَ لا[3] يُلْقي عَصاهُ إلا بَعْدَ الأمرِ بالإلقاءِ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ [البقرة: ٦٠] [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] ونَحْوُهُ. كانَ لا يَضْرِبُ العَصا، ولا يُلْقي، إلّا بَعْدَ الأمرِ بالإلقاءِ والضَّرْبِ لِيُعْلِمَ أنَّ في ذلكَ امْتِحاناً لِموسى في ما يأمُرُهُ[5] بالإلقاءِ على الأرضِ، لِتَصيرَ حَيَّةً، وفي ما يأمُرُهُ بالضَّرْبِ بِها الحَجَرَ والبَحْرَ.

وللهِ أنْ يَمْتَحِنَ عَبْدَهُ بِما شاءَ مِنْ أنواعِ المِحَنِ، وإلا [ما][6] كانَ قادراً أنْ يَفْلُقَ البَحْرَ على غَيرِ الأمْرِ بالضَّرْبِ بالعَصا، وكذلكَ [أنْ يُفَجِّرَ الماءَ، ويَشُقَّ البَحْرَ][7] على غَيرِ ضَرْبٍ بالعَصا، وكذلكَ [أنْ][8] تَصيرَ تلكَ العَصا حَيَّةً، وهيَ في يَدِهِ. ولكنْ أمْرُهُ بذلكَ كُلِّهِ، واللهُ أعْلَمُ، امْتِحاناً منهُ إيّاهُ وابْتِلاءً، وهي دارُ مِحْنَةٍ وابْتِلاءٍ؛ إذْ في زَمَنِ موسى كانَ السِّحْرُ هو الظاهِرَ، وكانَ الناسُ وَقْتَئِذٍ يَعْمَلونَ بالسِّحْرِ، فجاءَ موسى مِنَ الآياتِ على رسالَتِهِ بِنَوعِ ما كانُوا يَعْمَلونَ بِهِ ومِنْ جِنْسِ ذلكَ لِيَعْرِفُوا خُروجَهُ عنْ وُسْعِهِمْ وأنَّ ذلكَ لَيسَ كَسِحْرِهِمْ[9]، ولكنْ آيَةٌ سَماوِيَّةٌ.

وكذلكَ ما جاءَ عِيسى مِنَ الآياتِ جاءَ بِنَوعِ ما كانَ يَعْمَلُهُ قومُهُ، وهو الطِّبُّ، فجاءَ بِنَوعِ الطِّبِّ لِيَعْلَمُوا[10] أنهُ باللهِ عَرَفَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: تَلْقَفُ تَلْتَقِمُ، وتَلْتَقِمُ اشْتِقاقُهُ مِنَ اللَّقْمِ والابْتِلاعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾ قِيلَ: ما يُكَذِّبونَ. قالَ الحَسَنُ: ﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾ حِبالَهُمْ وعِصِيَّهُمْ. وقِيلَ: ﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾ ما جاؤُوا بِهِ مِنَ الكَذِبِ.

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾ قِيلَ: أي ظَهَرَ الحَقُّ ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي بَطَلَ ما عَمِلوا مِنَ السِّحْرِ.

والثاني: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي [أبْطَلَ أولئكَ][11] السَّحَرَةُ العَمَلَ بالسِّحْرِ؛ إذْ[12] ظَهَرَ الحَقُّ لَهُمْ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ﴾ [أي عندَ ذلكَ غُلِبَ السَّحَرَةُ لأنهُمْ قالُوا لِفِرْعَونَ في الابْتِداءِ ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ فَذَكَرَ ههنا أنهُمْ غُلِبُوا عندَ ظُهورِ الحَقِّ، لا أنهُمْ صارُوا غالبِينَ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ﴾][13] لَيسَ غَلَبَةَ القَهْرِ والقَسْرِ، ولكنْ غَلَبَةً بالحُجَجِ والبَراهينِ؛ أي غُلِبُوا بالآياتِ والحُجَجِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: رَجَعَ السَّحَرَةُ لَمّا غُلِبُوا صاغِرِينَ مُذَلَّلِينَ. لكنْ نَقولُ: رَجَعَ فِرْعَونُ وقومُهُ إلى مَنازِلِهِمْ مُذَلَّلِينَ، لا السَّحَرَةُ، لأنَّ السَّحَرَةَ قد آمَنُوا، فلا يُحْتَمَلُ أنْ يوصَفُوا بالرُّجوعِ صاغِرِينَ مذلَّلِينَ، وقد رَجَعُوا مَعَ الإيمانِ.

الآية ١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَأُلۡقِيَ﴾ أي أُمِرُوا بالسُّجودِ فَسَجَدُوا. وقالَ آخَرُونَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَأُلۡقِيَ﴾ أي لِسُرْعَةِ ما سَجَدُوا كأنهُمْ أُلْقُوا.

والآيةُ تَرُدُّ على المُعْتَزِلَةِ لأنهُمْ يُنْكِرُونَ أنْ[14] يكونَ للهِ تعالى في فِعْلِ العِبادِ صُنْعٌ، وههنا قد أُضِيفَ الفِعْلُ إلى غَيرِهِمْ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ دلَّ أنَّ للهِ[15] في فِعْلِ العِبادِ صُنْعاً[16] وهو أنْ خَلَقَ فِعْلَ السُّجودِ منهُمْ.

---

(١) في الأصل وم: حيروا. (٢) في الأصل وم: مأخوذ أعينكم. (٣) في الأصل وم: لما. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: يأمر.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يفجر الحجر ويشق. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: بسحرهم، في م: لسحرهم.
(١٠) من م، في الأصل: ليعملوا. (١١) في الأصل وم: تلك. (١٢) في الأصل وم: إذا. (١٣) من م. (١٤) من م، في الأصل: أي. (١٥) من م، في الأصل: الله. (١٦) في الأصل وم: صنع.

جنة السنة

وقال جعفرُ بنُ حَرْبٍ، يجوزُ أنْ يُضافَ الفِعْلُ إلى غَيرِ، وإنْ لم يكُنْ لذلكَ الغَيرِ في ذلكَ الفِعْلِ صُنْعٌ، نَحْوَ ما يُقالُ في السَّفَرِ: إنَّ هؤلاءِ خَلَّفُوا أولئكَ، [وهُمْ لم يُخَلِّفُوا أُولئكَ][1] في الحَقيقَةِ، ولا صُنْعَ لَهُمْ في التَّخلُّفِ، ثم أُضِيفَ إليهِمْ فِعْلُ التَّخليفِ. فَعَلى ذلكَ هذا يُقالُ: إنَّ لَهُمْ في ذلكَ تَخليفاً[2]؛ وهُمْ إنهُمْ إذا لم يَنْتَظِروهُمْ خَلَّفُوهُمْ، ولَهُمْ في ذلكَ صُنْعٌ، فأُضِيفَ الفِعْلُ إليهِمْ، أو أنْ يُقالَ: إنهمْ لا يَمْلِكُونَ إلقاءَ هؤلاءِ، فأمّا اللهُ ﷻ [فهو][3] قادرٌ أنْ يُلقِيَهُمْ؛ أي بما يَخْلُقُ مِنهُمْ فِعْلَ السُّجودِ، فأُضِيفَ الفِعْلُ إليهِ.

الآيتان ١٢١و١٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ قال بَعْضُ أهلِ التَّأويلِ: إنهُمْ لَمّا ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال لَهُمْ فِرْعَونُ: إيّايَ تَعْنُونَ؟ فعِنْدَ ذلكَ قالُوا: لا، ولكنْ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ولكن لا نَدْري هذا، ومُوسَى أوّلَ ما جاءَ فِرْعَونَ، ودعاهُ إلى دِينِهِ، قال لَهُ: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤] فلا يُحتَمَلُ أنْ يُشكِلَ عليهِ قولُهُمْ: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [فَيظُنَّ][4] أنهُمْ إيّاهُ عَنَوا بذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي أرسَلَ مُوسَى وهارُونَ رَسُولَيْنِ[5].

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ الإيمانَ هو التَّصديقُ، لا غَيْرُ؛ [لأنَّ السَّحَرَةَ لَمّا][6] ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال لَهُمْ: ﴿فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ وهُمْ لم يأتُوا بِسِوَى التَّصديقِ الفَرْدِ، لا غَيْرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ أيْ شَيءٍ صَنَعْتُمُوهُ في ما بَينَكُمْ وبَينَ مُوسَى؟ وهُو كما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١].

الآية ١٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ هذا لِجَهْلِهِ بأشدِّ العُقوبَةِ والنَّكالِ، وإلّا لم يُوعِدْهُمْ بِقَطعِ الأيدي والأرجُلِ مِن خِلافٍ، إذْ ذلكَ أيْسَرُ، وأقلُّ في العقوبَةِ مِنَ القَطعِ مِنْ جانِبٍ. والقَطْعُ مِنْ جانبٍ أشَدُّ وأنْكَلُ مِنَ القَطعِ مِنْ خِلافٍ، إذِ القَطْعُ مِنْ خِلافٍ لا يَمْنَعُ القِيامَ بِبَعْضِ المنافِعِ، ولا يَعْمَلُ في إتلافِ النَّفْسِ؛ إذْ جَعَلَ ذلكَ حدّاً في بَعْضِ العقوباتِ، ولم يَجْعَلِ القَطْعَ مِنْ جانبٍ عُقوبَةً بحالٍ دَلَّ أنهُ أشدُّ وأنكَلُ، ويَعْمَلُ في إهلاكِ النفسِ، والقَطْعُ مِنْ خِلافٍ لا يَعْمَلُ.

دلَّ أنهُ لِجَهْلِهِ ما قالَ، أو أنهُ[7] اختارَ القَطْعَ مِنْ خلافٍ لِتكونَ مُؤْنَةُ الطَّلَبِ عليهِمْ لا عليهِ؛ لأنَّ المَقطوعَ مِنْ خِلافٍ قد يُمْكِنُ لهُ الصُّعودُ على الخَشَبَةِ، والثاني لا، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ وقولُهُ[8] في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠] هذانِ[9]، واللهُ أعلَمُ، يُخرَّجانِ[10] على وَجْهَينِ:

[أحدُهُما:][11]: على الإقرارِ منهُمْ بالبَعْثِ والإيمانِ بهِ.

والثاني: وعيدٌ منهُمْ لِفرعَونَ حِينَ[12] أوعَدَهُمْ بِقَطعِ الأيدي والأرْجُلِ والصَّلْبِ وغيرِ ذلكَ مِنَ العقوباتِ، فقالُوا: ﴿إِنَّآ﴾ وأنْتَ ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ فيَجزي، ويُعاقِبُ جزاءَ صَنيعِكَ ربُّنا.

الآية ١٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ قِيلَ: لِوجهَينِ: قِيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ أي وما تَعيبُ علينا، وتَطْعَنُ الإيمانَ بما كانَ منّا مِنَ الإيمانِ ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وهو ما جاءَهُمْ مِنَ الآياتِ. وقِيلَ: وما تعاقِبُنا، وما تَنْتَقِمُ ﴿مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ وكانَ الحَقُّ علينا، وعليكَ أنْ تُؤمِنَ بها كما آمَنّا نَحْنُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: تخليف. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: رسولا. (٦) في الأصل وم: لأنهم قالوا السحرة. (٧) في الأصل وم: أن. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: هذا. (١٠) في الأصل وم: يخرج. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ قولُهُ تعالى: ﴿أَفۡرِغۡ﴾ قِيلَ: أنزِلْ ﴿عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ وقِيلَ: أتمِمْ لنا صَبْراً. وقِيلَ أصْبِبْ ﴿عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ وهو كُلُّهُ واحدٌ.

ثم يَحتَمِلُ سؤالُهُمُ الصَّبْرَ لِما لَعَلَّهُ إذا فَعَلَ بِهِمْ بما أوْعَدَ مِنَ العُقوباتِ لم يَقْدِروا على التَّصَبُّرِ، فَيَترُكوا[1] الإيمانَ. لِذلك سألوا ربَّهُمُ الصَّبْرَ على ذلكَ لِيَثْبُتوا على الإيمانِ بِهِ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ سألوا ربَّهُمْ أيضاً التَّوَفِّيَ على الإسلامِ. وهكذا كانَ دُعاءُ الأنبياءِ كما قالَ يُوسُفُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ الآية: [يوسف: ١٠١] وكذلكَ كانَ أوصى / ١٨٣ ـ أ/ إبراهيمُ بَنِيهِ حِينَ[3] قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] وهكذا الواجِبُ على كُلِّ مُؤمِنٍ ومُسْلِمٍ أنْ يَتَضَرَّعَ إلى اللهِ في كُلِّ وقتٍ، ويَبْتَهِلَ إليهِ في كُلِّ ساعةٍ لِئلا يُسْلَبَ الإيمانَ لِكَسْبٍ يَكْتَسِبُهُ؛ إذِ الأنبياءُ والرُّسُلُ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، مَعَ عِصْمَتِهِمْ كانُوا يَخافُونَ ذلكَ لِيُعْلَمَ أنَّ العِصْمَةَ لا تُسْقِطُ الخَوفَ، ولا تُؤمِنُ مِنَ الزَّلّاتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ دلالةٌ على أنهُمْ عَلِمُوا أنهُمْ إذا أفْرَغَ عليهِمُ الصَّبْرَ صَبَرُوا؛ إذْ لو لم يَعْلَمُوا ذلكَ لم يكُنْ لِسُؤالِهِمُ الصَّبْرَ مَعْنًى.

فهذا على المُعْتَزِلَةِ في قولِهِمْ: إنهُ [لا][4] يُفْرِغُ، ولا يُصَبِّرُ، وإنهُ قد أعطاهُمْ غايَةَ ما يَصْلُحُ في الدينِ، فَدَلَّ سُؤالُهُمْ ذلكَ على أنهُ لم يُعْطِهِمْ، وأنَّ عِندَهُ مَزيداً[5] لو أعْطَى لهم ذلكَ كانَ.

الآية ١٣٧ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: في إخراجِكُمْ مِنْ أرضِ مِصْرَ وإفسادِهِمْ[7] العَيشَ عليكُمْ، أو ما ذُكِرَ مِنْ تَرْكِ عِبادةِ فِرْعَونَ وخدمَتِهِ [بقولِهِمْ][8]: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ وقد قُرِئَ بآلِهتِكَ فَمَنْ قَرَأَ ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ حَمَلَهُ على العِبادةِ: أي ﴿وَيَذَرَكَ﴾ وعبادتَكَ. ومَنْ قَرَأَ بآلِهتِكَ[9] وهو قولُ ابْنِ عباسٍ ومُجاهِدٍ، وقالُوا: إنَّ فِرعونَ قد كانَ جَعَلَ لِقَومِهِ آلِهَةً يَعْبُدُونَها لِيَتَقَرَّبُوا بعبادَتِهِمْ تلكَ الأصنامَ إلى فِرْعَونَ على ما كانَ يَعْبُدُ أهْلُ الشِّرْكِ الأصنامَ دُونَ اللهِ، ويَقولونَ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ التي جَعَلْتَ لَهُمْ.

وقالَ آخَرُونَ: إنَّ فرعونَ كانَ يَعْبُدُ الأصنامَ والأوثانَ على ما عَبَدَ غَيرُهُ. وقالَ غَيرُهُمْ: لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ هو [يَعْبُدُ][10] الأصنامَ على ما ذَكَرْنا. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؟ [النازعات: ٢٤] ثم ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾؟

وقالَ[11] بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ يَعْني رجالَهُمْ ﴿وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ لأنهُ لا يَحتَمِلُ قَتْلَ الأبناءِ ولم يكُنْ منهُمْ إليهِ صُنْعٌ؛ إنما كانَ ذلكَ مِنَ الرجالِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قد كانَ فِرْعَونُ يَقْتُلُ أبناءَ بَني إسرائيلَ في العامِ الذي قِيلَ لهُ: إنهُ يُولَدُ مولودٌ، يَذْهَبُ بِمُلْكِكَ، ويُغَيِّرُ دينَ الأرضِ، فلم يَزَلْ يَقْتُلُ[12] في ذلكَ العامِ الأبناءَ، ويَتْرُكُ البَناتِ، فذلكَ قولُهُ: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ قِيلَ: مُسَلَّطونَ عليهِمْ. فإن قِيلَ لَنا: ما الحِكْمَةُ في ذِكْرِ هذهِ القِصَصِ والأنباءِ السالِفَةِ في القرآنِ؟ قِيلَ: لِوُجوهٍ، واللهُ أعلَمُ:

[أحدُها][13]: أنَّ فيها دليلَ إثباتِ رسالةِ محمد ﷺ ونُبُوَّتِهِ؛ لأنَّ هذهِ القِصَصَ والأنباءَ كانَتْ في كُتُبِهِمْ مُبَيَّنَةً، وقد عَلِمُوا أنَّ لِسانَهُ كانَ على غيرِ ما كانَتْ كُتُبُهُمْ، وعَرَفُوا أنهُ لم يَختَلِفْ إلى أحدٍ مِمَّنْ يَعْرِفُ ذلكَ لِيَتَعَلَّمَ منهُ، ولا سَمِعَ عن أحدٍ منهُمْ، ثم أنْبَأَهُمْ على ما كانَتْ. دلَّ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ بِمَنْ يَعْلَمُ عِلْمَ الغَيبِ.

---

(١) في الأصل وم: فيتركون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: مزيد. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وإفسادكم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية [٢/ ٣٩٣]. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: يقتلهم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

والثاني: أنَّ البَشَرَ جُبِلُوا على حُبِّ السَّماعِ إلى الأخبارِ والأحاديثِ، وحُبِّبَ ذلكَ [إلى][1] قُلوبِهِمْ حتى إنَّ واحداً منهُمْ يُوَلِّدُ أحاديثَ، ويُنْشِئُها مِنْ ذاتِ نَفْسِهِ لِأنْ يَسْتَمِعُوا في ذلكَ إليهِ، ويَسْمَعُوا منهُ فَذَكَرَ لهمْ هذِهِ الأنباءَ والقِصَصَ لِيكونَ اسْتِماعُهُمْ إليها وسَماعُهُمْ لها. وذلكَ أحْسَنُ وأوفَقُ؛ إذْ أخبَرَ أنَّ ذلكَ أحْسَنُ القَصَصِ بقولِهِ تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

والثالثُ: ذَكَرَ لهمْ هذا لِيَعْلَمُوا ما حَلَّ بهِمْ في العاقبةِ مِنَ الهَلاكِ والاسْتِئصالِ وأنواعِ العذابِ بِفَسادِهِمْ وتَكْذيبِهِمُ الرُّسُلَ، وما عاقبةُ المُفْسِدِ منهُمْ والمُصْلِحِ لِيكونَ ذلك زَجْراً لَهُمْ عنْ صَنيعِ مِثْلِهِمْ.

والرابعُ: ذَكَرَ لِيَعْرِفُوا كيفَ كانَتْ مُعامَلَةُ الأنبياءِ والرُّسُلِ أعداءَهُمْ ومُعامَلَةُ الأعداءِ الرُّسُلَ لِيُعامِلُوا أعداءَهُم مِثْلَ مُعامَلَتِهِمْ.

والخامسُ: أنهُمْ كانُوا يُنْكِرُونَ أنْ يكونَ مِنَ البَشَرِ رسولٌ[2]، فأخبَرَ أنَّ الرُّسُلَ الذينَ[3] كانُوا مِنْ قَبْلُ كانُوا كُلُّهُمْ مِنَ البَشَرِ.

والسادسُ: أنهُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ هذهِ الأصنامَ والأوثانَ، ويَقولُونَ: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤] [ويقولونَ][4]: ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] فأخبَرَ أنَّ في آبائِهِمُ السُّعَداءَ، وهُمُ الأنبياءُ، والأشقياءَ، فكيفَ اقْتَدَيْتُمْ أنْتُمْ بالأشقياءِ منهُمْ؟ وهَلّا اتَّبَعْتُمُ السُّعَداءَ[5] دونَ الأشقياءِ.

والسابعُ: فيها أنْ كيفَ الأمْرُ بالمَعْروفِ والنَّهْيُ عنِ المُنْكَرِ؟ عَرَّفَنا الأمْرَ بالمَعْروفِ والنَّهْيَ عنِ المُنْكَرِ، ومَنْ يأمُرُ بِهِ، ومَنْ يَنْهَى عنهُ، وأيضاً أنَّ فيهِ ذِكْرَ الصالِحِينَ منهُمْ، بَعْدَما ماتُوا، وانقَرَضُوا كانُوا[6] بالذِّكْرِ كالأحياءِ.

الآية ١٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا﴾ على أداءِ طاعَتِهِ ﴿وَاصْبِرُوا﴾ ربما تَتَقَرَّبُونَ بِهِ إلى اللهِ.ويكونُ لكُمْ[7] زُلْفَى لديه. أو أنْ يقولَ[8] لهُمْ: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ لِلنَّصْرِ[9] لكُمْ والظَّفَرِ ﴿وَاصْبِرُوا﴾ على أذاهُمْ والبَلاءِ.

[وقولُهُ تعالى][10]: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَيْنِ: يَحْتَمِلُ أنْ يَخْرُجَ ذلكَ مِنْ مُوسَى مَخْرَجَ الوَعْدِ لَهُمْ بالنَّصْرِ والظَّفَرِ على الأعداءِ وجَعْلِ الأرضِ لهمْ مِنْ بَعْدِ إهلاكِ العَدُوِّ. وهو كما ذَكَرْنا في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

ويَحْتَمِلُ أنْ يَخْرُجُ ذلكَ منهُ مَخْرَجَ التَّصْبِيرِ على الرِّضا بقضاءِ اللهِ تعالى أنَّ الأرضَ لهُ، يُصَيِّرُها لِمَنْ يَشاءُ، فاصْبِرُوا أنْتُمْ على البَلايا، وارْضَوا بِقَضائِهِ.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [قالَ الحسنُ][12] أي الآخِرَةُ لِلْمُتَّقِينَ خاصَّةً، وأمّا الدنيا فإنها بالشَّرِكَةِ بَيْنَ أهلِ الكُفْرِ وأهْلِ الإسلامِ؛ يكونُ لِهؤلاءِ ما لأولئكَ. وأمّا الآخِرَةُ فَلَيْسَتْ لِلْكُفّارِ، إنما هي لِلْمُؤمِنِينَ خاصَّةً. وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ الآية [الزخرف: ٣٣] فَعَلى ذلكَ هذا، واللهُ أعْلَمُ.

وقالَ غَيْرُهُ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي عاقبةُ الأمْرِ بالنَّصْرِ والظَّفَرِ لِلْمُتَّقِينَ على أعدائِهِمْ، وإنْ كانَ في الوَقْعَةِ[13] الأُولَى عليهِمْ.

الآية ١٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ يُخَرَّجُ هذا على وَجْهَيْنِ.

أحدُهُما: أنْ يُخَرَّجَ مَخْرَجَ اسْتِبْطاءِ النَّصْرِ والظَّفَرِ لهُمْ؛ كأنَّهُمْ اسْتَبْطَؤوا النَّصْرَ وإهلاكَ العَدُوِّ والظَّفَرَ عليهِمْ، فقالَ لهُمْ مُوسَى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل، في م: في. (٢) في الأصل وم: رسولا. (٣) في الأصل وم: الذي. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: بالسعداء. (٦) في الأصل وم: فكانوا. (٧) في الأصل وم: لهم. (٨) في الأصل وم: يقولوا. (٩) في الأصل وم: بالنصر. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من م، في الأصل: الدفعة.

جنة السنة

والثاني: أنْ يُخرَّجَ مُخرَجَ الاعتذارِ لِموسَى لَمّا خَطَرَ ببالِ مُوسَى أنهُمْ يَقولونَ: إنَّ ما أصابَهُم مِنَ البَلايا والشَّدائِدِ إنما كانَ لِسَببِهِ ولمكانِهِ، فقالُوا ذلكَ لهُ اعْتِذاراً منهُمْ لهُ: أن قد أصابَنا ذلكَ نَحْنُ ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ لِئلا يُوهَمَ أنهُمْ يَقولُونَ ذلكَ، أو يَخْطُرَ بِبالِهِمْ ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونُوا قالُوا ذلكَ على التَّعْييرِ لهُ والتَّوبيخِ؛ يقولُونَ: لم يَزَلْ[1] يُصيبُنا مِنَ الأذى لِسَبَبِكَ ولأجلِكَ ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ مِنَ الاستِخدامِ ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ مِنْ أنواعِ الضَّرَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ والـ ﴿عَسَىٰ﴾ مِنَ اللهِ واجبٌ، فَوَعَدَ لَهُمْ إهلاكَ العَدُوِّ واستِخْلافَهُمْ في الأرضِ.

وقالَ بَعْضُ أهلِ التَّأويلِ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوذِينَا﴾ في سبيلِكَ ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالةِ، ويَعْنُونَ بالأذى قَتْلَ الأبناءِ واستِخدامَ النساءِ ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ بالرسالةِ مِنَ الشَّدائدِ التي أصابَتْهُمْ مِنْ بَعْدُ؛ لكنَّ الأوَّلَ أقربُ وأشْبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا أيضاً وجهَيْنِ:

أحدُهما: أنْ يَجْعَلَ لَكُمُ الأرضَ، ويُوَسِّعَ عليكمُ الرِّزْقَ؛ يمتَحِنُكُمْ في ذلكَ، ويَبْتَليكُمْ، لا أنهُ يَجْعَلُ لَكُمْ ذلكَ على غَيرِ امْتِحانٍ؛ تَعْمَلُونَ ما شِئْتُمْ في ذلكَ.

والثاني: يَمْتَحِنُكُمْ بالشَّدائدِ والبَلايا لِيَنْظُرَ كيفَ تَصْبِرُونَ على ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخرَ؛ وهو أنْ يقولَ لهمْ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ﴾ كيف تشكُرُونَ ربَّكُمْ في ما أنْعَمَ عليكُمْ؟ وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ﴾ الواقعُ لكُمْ من الجزاءِ والثوابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ أمَرَهُمْ، واللهُ أعلَمُ. بِطَلَبِ المَعونةِ مِنَ اللهِ تعالى على قَضاءِ جَميعِ حَوائِجِهِمْ دِيناً ودُنْيا. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على طَلَبِ التوفيقِ لِما أَمَرَ بِهِ والعِصْمَةِ عمّا حَذَّرَهُمْ عنهُ.

وكذلكَ الأمْرُ البَيِّنُ في الخَلْقِ مِنْ طَلَبِ التَّوفيقِ والمَعونةِ مِنَ اللهِ والعِصْمَةِ / ١٨٣ ـ ب/ عنِ المَنْهِيِّ عنهُ جَرَتْ بِهِ سُنَّةُ الأخيارِ، وباللهِ المَعونةُ.

ثم لا يَصِحُّ ذلكَ على قولِ المُعتزلَةِ لأنَّ الدُّعاءَ بالمَعونةِ على أداءِ ما كَلَّفَ، وقد أعْطَى؛ إذْ على قولِهِمْ: لا يجوزُ أنْ يكونَ المَرْءُ مُكَلَّفاً، قد بَقِيَ شيءٌ مِمّا به أداءُ ما كُلِّفَ عندَ اللهِ، وطَلَبُ ما أعْطَى كِتْمانٌ لِلْعطِيَّةِ، وكِتْمانُ العطِيَّةِ كُفرانٌ، فَيَصيرُ كأنَّ اللهَ أمَرَ بكُفرانِ نِعَمِهِ وكِتْمانِها وطَلَبِها منه تعنُّتاً، وظَنُّ مِثْلِهِ باللهِ كُفْرٌ. ثم لا يَخْلُو مِنْ أنْ يكونَ عندَ اللهِ ما يَطْلُبُ، فلم يُعْطِ التَّمامَ إذنْ، أو لَيسَ عندَهُ، فيكونُ طَلَبُهُ منهُ استِهزاءً بهِ، إذْ مَنْ طَلَبَ إلى آخَرَ ما يَعْلَمُ أنهُ لَيسَ عندَهُ فهو هازِئٌ بهِ في العُرْفِ معَ ما كانَ الذي يَطْلُبُ إمّا أنْ يكونَ للهِ ألّا يُعطِيَهُ معَ التَّكْليفِ، فَيَبْطُلُ قولُهُمْ: لا يجوزُ أنْ يُكَلِّفَ، وعندَهُ ما بهِ الصَّلاحُ في الدينِ، فلا يُعطِي، وإمّا[2] لَيسَ لهُ ألّا يُعطِيَ، فكأنهُ قالَ: اللهمَّ لا تَجُرْ، ولا تَظْلِمْ. ومَنْ هذا عِلْمُهُ بربِّهِ فالإسلامُ أولَى بهِ، فهذا مع ما يَدْعُو اللهَ أحدٌ بالمعونةِ إلّا[3] يَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ أنهُ لا يَزِلُّ عندَ المَعونةِ، ولا يَزيغُ عندَ العِصْمَةِ، ولَيسَ مثلُهُ يَمْلِكُ اللهُ عندَ المُعتزلَةِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

الآية ١٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ عنِ ابنِ مَسعودٍ ﷺ [أنهُ قالَ: ﴿بِالسِّنِينَ﴾][4] بالجُوعِ، وقيلَ: بالقَحطِ، [وقالَ مُجاهِدٌ: ﴿بِالسِّنِينَ﴾][5] بالحوائِجِ ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ دُونَ ذلكَ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿بِالسِّنِينَ﴾ بالجَدْبِ؛ يُقالُ: أصابَ الناسَ سَنَةٌ أي جَدْبٌ.

فإنْ قِيلَ: ذَكَرَ أنهُ أخذَ آلَ فِرْعَونَ، وكانَ فيهِمْ بنو إسرائيلَ، فما مَعْنَى التَّخْصيصِ؟ قِيلَ: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ لَهُمْ خاصَّةً

(١) من م، في الأصل: ينزل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: وإلا. (٤) في الأصل وم: ﴿بِالسِّنِينَ﴾ قال. (٥) في الأصل وم: ومجاهد ﴿بِالسِّنِينَ﴾ قال.

جنة السنة

دونَ بَني إسرائيلَ، وإنْ كانَ فيهِمْ، على ما ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ القِبْطَ كانُوا يَشْرَبُونَ الدَّمَ، وبَنو إسرائيلَ الماءَ، أو كانَ الجَدْبُ والنَّقصُ مِنَ الثَّمراتِ يَضُرُّ آلَ فِرْعَونَ، ولا يَضُرُّ بَني إسرائيلَ، لِما أنهُمْ كانُوا يَأكُلونَ لِشَهْوَةٍ، وبَنو إسرائيلَ لِلْحاجَةِ.

فَمَنْ يأكُلُ لِلْحاجَةِ كانَ أقَلَّ حاجَةً إلى الطعامِ مِمَّنْ[1] يأكُلُ لِلشَّهْوَةِ. فإذا لم يَجِدُوا ما يأكُلونَ لِلشَّهْوَةِ كانَ لَهُمْ ما أضَرَّ بِهِمْ. ألا تَرَى أنهُ قِيلَ: يأكُلُ المؤمنُ في مِعًى واحِدٍ، والكافِرُ بِسَبْعَةِ أمْعاءٍ؟

أو خَرَجَ تَخصِيصُ ذلكَ لَهُمْ لِما أنَّ في عَقْدِ بَني إسرائيلَ أنَّ اللهَ[2] أنْ يَمْتَحِنَهُمْ بِجَميعِ أنواعِ المِحَنِ مَرَّةً بالشِّدَّةِ ومَرَّةً بالسَّعَةِ، وفي[3] عَقْدِ القِبْطِ لا، فأُضِيفَ إليهِمْ ذلكَ لِما لم يَكُنْ في عَقْدِهِمْ ذلكَ، وإنْ كانُوا جميعاً في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي يَتَّعِظُونَ و: لَعَلَّ مِنَ اللهِ واجِبٌ [أنْ يَتَّعِظُوا][4] لكنَّهُمْ عانَدُوا، وكابَرُوا، وإلّا قد لَزِمَهُمُ الاتِّعاظُ.

الآية ١٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي الخِصْبُ والسَّعَةُ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي هذا ما كُنّا نَعْرِفُهُ أبداً، وما جَرَينا على اعْتِيادِهِ. أو أنْ يَقولُوا: ﴿لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ بِفِرعَونَ وبِعِبادَتِنا لهُ.

[قولُهُ تعالى][6]: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ قِيلَ: الضِّيقُ والقَحْطُ ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ﴾ ويَقولُوا[7]: بِشُؤمِهِ. وهذا كما قالَ العَرَبُ لِمحمدٍ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨] كانُوا يُضِيفونَ ما يُصيبُهُمْ مِنَ الحَسَنَةِ إلى اللهِ؛ لأنهُمْ كانُوا يُقِرُّونَ باللهِ، والقِبْطُ لا يَقولُونَ ذلكَ، بل يَقولُونَ لِلناسِ مِنْ فِرْعَونَ، أو على الاعْتِيادِ، فقالَ ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

فَعَلى ذلكَ قالَ هَهُنا ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ثم يَحْتَمِلُ هذا وُجوهاً: قِيلَ: جَزاءُ تَطَيُّرِهِمْ عندَ اللهِ في الآخِرَةِ؛ وقِيلَ: طائِرُهُمْ وشُؤمُهُمُ الذي كانوا تَطَيَّرُوا بِمُوسَى كانَ بِتَكذيبِهِمْ موسى، أضافَ ذلكَ إلى ما عِندَهُ مِنَ الآياتِ؛ لأنهُمْ بِنُزولِ تلكَ الآياتِ تَجَدَّدَ تَطَيُّرُهُمْ وتَشاؤُمُهُمْ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فكذلكَ قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ [الإسراء: ١٣] وهو كما ذَكَرْنا: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] لَمّا كَذَّبُوا تلكَ الآياتِ زادَ ما نَزَّلَ مِنَ الآياتِ مِنْ بَعْدُ رِجساً إلى رِجْسِهِمْ. فَعَلى ذلكَ شُؤْمُهُمْ وطائِرُهُمُ الذي كانَ[8] بِتَكذيبِهِمْ مُوسَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَطَّيَّرُوا۟﴾ مِنَ الطِّيَرَةِ، وهو مِنَ التَّشاؤُمِ، تَشاءَمْتُ بِفلانٍ؛ أي قُلْتُ: هو غَيرُ مُبارَكٍ[9] وتَطَيَّرْتُ بِفلانٍ أيضاً. مِثْلُهُ يُقالُ[10]: تَبَرَّكْتُ بِهِ إذا قُلْتُ: هو مُبارَكٌ. ويُقالُ: تَطَيَّرْتُ، واطَّيَّرْتُ مِنْهُ وبِهِ.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾ أي شُؤمُهُمْ ذاكَ الذي يَخافُونَ مِنْهُ؛ هو مِنْ عندِ ﴿ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأنهُ مِنْ عندِ اللهِ، كانَ بِتَكذيبِهِمْ مُوسَى.

الآية ١٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الكَيسانِيُّ: تأويلُهُ: كلّما تأتِينا آيَةً تريدُ أنْ تَسْحَرنا ﴿بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وقالَ ابنُ عباسٍ والحَسَنُ وهؤلاءِ: أي ما ﴿تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ الآيةَ، وقولُهُ: مَهْ زيادةٌ، وهو قولُ القُتَبِيِّ. ومَعناهُ: أي ما تأتِنا مِنْ آيةٍ.

وقالَ الخليلُ: هو في الأصلِ: ما ما إحداهُما زيادةٌ، فَطُرِحَتِ الألِفُ، وأُبدِلَتْ مكانَها هاءٌ طَلَباً لِلتَّخفيفِ.

وقالَ سِيبَوَيهِ النَّحويُّ: قولُهُ تعالى: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ﴾ أي مَهْ، كأنهُمْ قالُوا لَهُ: مَهْ؛ أيِ اسْكُتْ كما يَقولُ الرجلُ لآخَرَ: مَهْ؛ أيِ اسْكُتْ، ما ﴿تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) في الأصل وم: فمن. (٢) في الأصل وم: الله. (٣) في الأصل وم: ومن. (٤) في الأصل وم: قد اتعظوا. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: وقالوا. (٧) في الأصل وم: وقالوا. (٨) في الأصل وم: كانوا. (٩) من م، في الأصل: عبادك. (١٠) في الأصل وم: ويقال. (١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

والسِّحْرُ هو التَّحْيِيرُ وأخذُ الأبصارِ، ولا حقيقةَ [لَهُ][1] كقولِهِ تعالى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] أي مُتَحَيِّراً، وقولِهِ تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦].

ثم دَلَّ قولُهُمْ: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ ما قالُوا: إنَّ هذا ساحرٌ، وإنهُ سَحَرَ عَنْ عِلْمٍ بالآيةِ والنُّبُوَّةِ لَهُ، قالوا ذلكَ لا عَنْ جَهْلٍ وغَفْلَةٍ حِينَ[2] قالُوا: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ذلكَ منهُمْ إياسٌ عنِ الإيمانِ بهِ وقَبولِ الآياتِ، لأنهُمْ أخبَرُوا أنهُمْ لا يَقْبَلُونَ الآياتِ، ولا يُصَدِّقُونَهُ في ذلكَ.

الآية ١٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ. قالَ أهلُ التأويلِ: قالُوا: ذلكَ أرسَلَ اللهُ بَعْدَ السِّنِينَ ونَقْصِ الثَّمراتِ الطوفانَ والآياتِ التي ذُكِرَ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا، وإنْ كانَ مُؤخَّراً في الذِّكْرِ، فهو مُقَدَّمٌ لِما قالَ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ﴾ إلى آخِرِهِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي يَتَّعِظُونَ.

ثم اختلَفَ أهلُ التأويلِ في الطوفانِ: قالَ بَعْضُهُمْ: الطوفانُ الماءُ والمَطَرُ حتى خافُوا الهلاكَ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ.

وعَنْ عائشةَ [أنها][3] قالَتْ: «سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الطوفانِ، فقالَ: الموتُ» [أبو داوود: ٣٨١٣].

فإنْ ثَبَتَ فهو هو. وقِيلَ: الطوفانُ هو أنواعُ العذابِ.

والجَرادُ هو المَعْروفُ، والقُمَّلُ هو بَناتُ الجَرادِ؛ يُقالُ: الدَّبَى، وقِيلَ: هو الجرادُ الصِّغارُ التي لا أجْنِحَةَ لها ﴿وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي مُفَرَّقاتٍ [واحدةً بَعْدَ واحدةٍ][4] لم يُرْسِلْ آيةً إلّا بَعْدَ ذَهابِ أُخْرَى [بل أرْسَلَ][5] بَعْضَها على إثْرِ بَعْضٍ.

وقيلَ: ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي بَيِّناتٍ واضِحاتٍ ما عَلِمَ كُلُّ أحدٍ [أنها لَيسَتْ مِنْ أحدٍ، ولَيسَتْ][6] مِنْ عَمَلِ السِّحْرِ، ولكنْ آياتٌ سَماوِيَّةٌ؛ [فلو كانَتْ][7] سِحراً لَتَكَلَّفُوا في دَفْعِهِ[8]، واشتَغَلُوا بالسِّحْرِ على ما اشْتَغَلُوا بِسِحْرِ العَصا والحِبالِ.

فإذا لم يَتَكَلَّفُوا في ذلكَ لم يَشْتَغِلُوا بِدَفْعِ ذلكَ، بل فَزِعُوا إلى مُوسَى لِيَكْشِفَ ذلكَ عنهُمْ، وَوَعَدُوا لهُ الإيمانَ بهِ وإرسالَ بَني إسرائيلَ مَعَهُ.

دَلَّ فَزَعُهُمْ إليهِ في كَشْفِ ذلكَ عنهُمْ على أنهُمْ قد عَرَفُوا [أنها لَيْسَتْ بِسِحْرٍ، ولكنَّها آياتٌ][9] أقَرُّوا بها أنها لَيسَتْ بِسِحْرٍ، وأنها آياتٌ. إلّا أنهُمْ فَزِعُوا عندَ ذلكَ إلى مُوسَى.

الآية ١٣٤ فـقـالُـوا[10]: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وَوَعَدُوا لَهُ الإيمانَ بِهِ وبَعْثَ بَني إسرائيلَ مَعَهُ إنْ كَشَفَ عَنْهُمُ الرِّجْزَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ ما عَهِدَ لكَ أنكَ متى دَعَوْتَهُ أجابَكَ، وقيلَ: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أنّا متى آمَنّا بكَ، وصَدَّقْناكَ، كَشَفَ عنّا الرِّجْزَ، فقالُوا: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ قِيلَ: الرِّجْزُ ألوانُ العذابِ الذي كانَ نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الطوفانِ والجرادِ والقُمَّلِ والدَّمِ وما ذُكِرَ. ﴿لَئِن/ ١٨٤ ـ أ/ كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ كلَّما حَلَّ بِهِمْ نوعٌ مِنَ العذابِ، فسألوا أنْ يَكْشِفَ عنهُمْ، فـقـالُـوا: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ [الأعـراف: ١٣٥] نَكَثُوا ذلكَ، وعادُوا إلى ما كانُوا عليهِ مِنْ قَبْلُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: واحد بعد واحد. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أنه ليس من أحد وليس. (٧) في الأصل وم: أن لو. (٨) في الأصل وم: وقعه. (٩) في الأصل وم: أنه ليس بسحر ولكنه آية. (١٠) في الأصل وم: فقالَ.

جنة السنة

ويَحتَمِلُ أن يكونَ قولُهُم لِموسَى: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ بَعْدَ ما حَلَّ بهِمْ أنواعُ العذابِ. عندَ ذلكَ قالُوا: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ فلما كَشَفَ عنهمُ الرِّجزَ نكثُوا عَهْدَهُم، وهو قولُهُم: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ وعادُوا إلى ما كانُوا. فعندَ ذلكَ كانَ ما ذَكَرَ: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٦] وقولُهُ تعالى: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ بما تدَّعِي بأنكَ رسولٌ ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أمْكَنَ أنْ يكونَ لَيسَ على نَفْسِ الإرسالِ، ولكن على تَرْكِ الاستِعْبادِ؛ أي لا نَسْتَعْبِدُهُمْ بَعْدَ هذا؛ لأنهُمْ كانُوا يَسْتَعْبِدونَ بَني إسرائيلَ.

الآية ١٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ قالَ الحَسَنُ: قولُهُ ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ﴾ ولو أطاعُوا، وأوفَوا بالعَهْدِ الذي عَهِدُوا، ولكنَّهُم لمّا نكثُوا ذلكَ انْتَقَمَ منهُم.

وهذا الحَرْفُ يُؤدِّي إلى مَذْهَبِ الاعتِزالِ؛ لأنهُم يقولُونَ: إنَّ مَنْ قُتِلَ، أو عُذِّبَ تَعْذيبَ إهلاكٍ، إنما هَلَكَ قَبْلَ أجَلِهِ، وأجَلُهُ الموتُ. لكنْ هذا يَصْلُحُ مِمَّنْ يَجْهَلُ العَواقِبَ.

وأمّا اللهُ سُبحانَهُ يَتَعالَى عن ذلكَ أنْ يَجْعَلَ لهُ أجَلَينِ: أحَدُهُما: المَوتُ، والآخَرُ القَتْلُ. ولكنْ جَعَلَ مَنْ في عِلْمِهِ أنهُ يُقتَلُ القَتْلَ، ومَنْ يَموتُ حَتْفَ أنفِهِ الموتَ. وكذلكَ ما رُوِيَ في الخَبَرِ «إنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ تزيدُ في العُمُرِ» [ابن عساكر: ٥/ ٢١٠] أي مَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يَصِلُ رَحِمَهُ جَعَلَ عُمُرَهُ أزيَدَ مِمَّنْ يَعْلَمُ أنهُ لا يَصِلُ رَحِمَهُ، لا إنهُ يَجْعَلُ عُمُرَهُ إلى وقتٍ، ثم إذا وَصَلَ رَحِمَهُ زادَ لِما ذَكَرْنا أنَّ ذلكَ أمْرُ مَنْ يَجْهَلُ العَواقِبَ. وأمّا مَنْ يَعْلَمُ ما كانَ وما يكونُ أنهُ لو كانَ كيفَ يكونُ؟ فلا.

الآية ١٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ مِنَ الغَرَقِ ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ مِنَ الطوفانِ وأنواعِ العذابِ الذي كانَ حَلَّ بِهِمْ، ثم كانَ الإغراقُ مِن بَعْدُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يَحتَمِلُ الآياتِ التي جاءَ بها مُوسَى على وَحْدانِيَّةِ اللهِ تعالى ورُبوبِيَّتِهِ، وهي الحُجَجُ والآياتُ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها مِنَ الطوفانِ والجرادِ والقُمَّلِ وما ذَكَرَ. وقالَ الحَسَنُ: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ دينِنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ قيلَ: مُعْرِضينَ مُكَذِّبينَ بها، لا أنهُمْ كانُوا على غَفْلَةٍ وسَهْوٍ عنها، لكنَّهُم أعْرَضُوا عنها مُكابِرينَ مُعانِدينَ كأنهُمْ غافِلُونَ[1] عنها. وجائزٌ أنْ يكونُوا[2] غافِلِينَ عَمّا يَحِلُّ بِهِمْ بِتَكْذيبِهِم.

الآية ١٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ هو ما سَبَقَ مِنَ الوَعْدِ بوراثةِ الأرضِ فيها وإنزالِهِمْ فيها، وهو قولُهُ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]. كانَ وَعَدَلَهُمُ الاستِخلافَ والإنزالَ في أرضِ[3] عدوِّهِم. ثم أخبَرَ أنهُ أنزلَهُم، وأورثَهُم على ما وَعَدَ لَهُم بقولِهِ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ باستِعْبادِهِم ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ.

قيلَ: ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ مَمْلَكَةُ فِرعَونَ مِصْرُ ونَواحيها ما يلي ناحِيَةَ الشَّرقِ وناحِيَةَ الغَرْبِ.

وقيلَ: ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ كانَ في بَني إسرائيلَ مَنْ بَلَغَ مُلْكُهُ ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ كقولِهِ تعالى ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] قيلَ: عالَمي زمانِهِمْ مِنْ نَحْوِ ذي القَرنَينِ وداوُودَ وسُليمانَ.

وقيلَ: ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ أنْ تُصَلُّوا على أهلِ مَشارِقِ الأرضِ ومَغارِبِها كقولِهِ تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] قيلَ: عالَمي زمانِهِم. ثم تَفْضيلُهُ إيّاهُمْ على البهائمِ بالجَوهَرِ والخِلْقَةِ، وعلى الجِنِّ بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ والمنافِعِ، وعلى جَوهَرِهِمْ مِنْ بَني آدمَ بالرسالةِ والحِكْمَةِ والمُلْكِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

---

(١) في الأصل وم: غافلين. (٢) في الأصل وم: يكون. (٣) من م، في الأصل: الأرض.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ قيلَ: أرضُ الشامِ، وقيلَ: أرضُ مصرَ ونواحِيها، وقيلَ: [سمّاها مباركةً][1] لأنها مكانُ الأنبياءِ ﷺ وقيلَ: مباركةٌ لِكثرةِ أنزالِها وسَعَتِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ قيلَ: هي الجنّةُ، أي تَمّتْ لَهُمُ الجنّةُ ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ وقيلَ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ بما كانَ وَعدَلَهُمْ أنْ يُنْزِلَهُمْ فيها، ويَستخلِفَهُمْ، تَمَّ ذلكَ الوَعْدُ؛ وهو ما قالَ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: ٥] ثم ما وَعَدَ لَهُمْ أنْ يَمُنَّ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ يَحتمِلُ ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ على أذى فرعونَ. ويَحتمِلُ ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ على[2] أداءِ ما أوجبَ عليهِمْ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾ على الوَقْفِ على ﴿وَقَوۡمُهُۥ﴾ [فيكونُ قولُهُ تعالى][3] ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ مَعْطوفاً على قولِهِ تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ وهو مِنَ العَرْشِ الذي يَتّخِذُهُ الملوكُ.

وقيلَ: ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ أيضاً أي أهْلَكْنا ما كانوا يَعْرِشُونَ.

قالَ القُتَبيُّ: يَعْرِشُونَ أي يَبْنُونَ، والعَرْشُ البيوتُ[4]، والعُرُشُ السُّقوفُ[5]. وقالَ أبو عَوسَجةَ: ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾ أي أهْلَكْنا، وأفْسَدْنا ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ [يَعْرِشُونَ، ويَفْرِشُونَ][6]؛ يعني يَبْنُونَ مِنَ البيوتِ والكُرومِ والأشجارِ.

وقيلَ: في قولِهِ تعالى: ﴿كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ يَعني بالاستِضْعافِ قَتْلَ الأبناءِ واستِحْياءَ النساءِ بأرضِ مِصْرَ. ورَّثَهُمُ اللهُ ذلكَ. وقيلَ: في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وهي[7] النِّعْمةُ التي أنْعَمَ على بَني إسرائيلَ ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ على البلاءِ حِينَ كُلِّفوا مالا يُطيقُونَ مِنِ اسْتِعْبادِ فِرْعَونَ إياهُمْ. والكَلِمةُ التي ذَكَرَ ما ذُكِرَ في [سورةِ][8] القَصَصِ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الآية: ٥].

الآية ١٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ دلَّ هذا على أنَّ للهِ في فِعْلِ العِبادِ [صُنْعاً وفِعْلاً حينَ][9] أضافَ، ونَسَبَ المُجاوزَةَ إلى نَفْسِهِ، وهُمُ الذينَ جاوَزُوا البَحْرَ. دلَّ [أنَّ لهُ][10] في فِعْلِهِمْ صُنْعاً[11]. وهذا يَنْقُضُ على المُعْتزِلَةِ [قولَهُمْ حينَ][12] أنكَرُوا خَلْقَ أفعالِ العِبادِ، وباللهِ المَعونةُ والعِصْمَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾ العُكوفُ هو المُقامُ والدّوامُ. وقولُهُ تعالى: ﴿يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾ أي وجَدُوهُمْ[13] عُكوفاً على عِبادةِ الأصنامِ مُقيمِينَ على ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ سُؤالُهُمْ إلهاً يَعْبُدُونَهُ لا على الكُفْرِ برَبِّهِمْ والتّكْذيبِ لِرَسولِهِ، ولكنْ لِما لَمْ يَرَوا أنْفُسَهُمْ أهلاً لِعِبادةِ اللهِ والخِدْمَةِ لهُ لَمّا رَأَوا في الشاهِدِ أنهُ لا يَخْدِمُ المُلوكَ إلا الخواصُّ لَهُمْ والمُقرَّبُونَ إليهِمْ، ومَنْ بَعُدَ منهمْ يَخْدِمُ خواصَّهُمْ.

فَعَلى ذلكَ هؤلاءِ سألُوا مُوسَى إلهاً يَعْبُدونَهُ لِما لَمْ يَرَوا أنْفُسَهُمْ أهلاً لِعِبادةِ اللهِ والخِدْمَةِ لهُ لِتُقرِّبَهُمْ عبادةُ تلكَ الأصنامِ إلى اللهِ. ويَخْرُجُ ذلكَ مَخْرَجَ التّعْظيمِ لِلّهِ والتّبْجيلِ لا على الكُفْرِ وصَرْفِ العِبادةِ عنهُ إلى غَيْرِهِ. وكذلكَ كانَ عادةُ العَرَبِ أنهُمْ يَعْبُدُونَ الأصنامَ لِتُقرِّبَهُمْ عِبادَتُها إلى اللهِ زُلْفَى.

---

(١) في الأصل وم: سماه مباركاً. (٢) في الأصل وم: من. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بيوت. (٥) في الأصل وم: سقوف. (٦) في الأصل وم: يعرش ويفرش. (٧) من م، في الأصل: وهو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: صنع وفعل حيث. (١٠) من م، في الأصل: انه. (١١) في الأصل وم: صنع. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: وجدهم.

جنة السنة

وكذلكَ ما ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ فِرعَونَ كانَ يَتَّخِذُ لِقومِهِ أصناماً يَعْبُدونَها لِتُقَرِّبَهُمْ عِبادةُ تلكَ الأصنامِ إليهِ زُلْفى.

فَعلَى ذلكَ سُؤالُ هؤلاءِ لِموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا﴾ واللهُ أعلَمُ. أو كانَ سُؤالُهُمْ ذلكَ لِما لَمْ يَرَوا في الشاهدِ أحداً يَخدِمُ إلّا لِحاجَةٍ تَقَعُ لهُ إلى ذلكَ، فرَأوا أنَّ اللهَ يتعالى أنْ يُعْبَدَ، ويُخدَمَ لِلْحاجَةِ؟ ويَخدِمُونَ القادةَ والرُّسُلَ، ويَعْبُدونَهُمْ لِما رَأوا [أنهمْ][1] يَنالُونَ مِنَ النِّعَمِ وأنواعِ المنافِعِ مِنَ الرُّؤساءِ والكُبَراءِ. لِذلكَ كانُوا يَخدِمُونَهُمْ.

وأمّا أهلُ التَّوحيدِ فإنهُمْ لا يَرَونَ العِبادةَ لِغَيرِ اللهِ لأنهُ ما مِنْ أحدٍ، وإنْ بَعُدَتْ[2] مَنزِلَتُهُ ومَحَلُّهُ، إلّا وآثارُ نِعَمِ اللهِ عليه ظاهرةٌ، حتى عَرَفَ كُلُّ أحدٍ/ ١٨٤ ـ ب/ حتى لو بُذِلَ لَهُ جميعُ حُطامِ الدنيا، أو أُوعِدَ بِكُلِّ أنواعِ الوَعيدِ لِيَتْرُكَ الدينَ الذي هو عليهِ ما تَرَكَ البَتَّةَ.

وفي أمْرِ موسَى، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، خَصْلَتانِ:

إحداهُما: أنْ يُعلَمَ أنْ كيفَ يُؤمَرُ بالمَعْروفِ ويُنْهَى عنِ المُنْكَرِ؟ وكيفَ يُعامَلُ مُرْتَكِبُ الفِسْقِ والمُنْكَرِ[3] على ما عامَلَ موسَى قَوْمَهُ باللِّينِ والشَّفَقةِ، وإنْ [كانُوا يَسْتَقبِلُونَهُ][4] بِالعَظيمِ مِنَ الأمْرِ والمناكِيرِ.

والثانيةُ[5].

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ سُؤالُهُمْ إلهاً يَعْبُدونَهُ لِما أهْلُ الكُفرِ قالُوا لَهُمْ: إنَّ الرُّسُلَ هُمُ الذينَ أمَرُوهُمْ بِعبادَةِ الأصنامِ كقولِهِ تعالى ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] فَعلَى ما قالُوا: إنَّ الرُّسُلَ هُمُ الذين أمَرُوهُمْ بذلكَ سَألُوا موسى أن يَجعَلَ لَهُمْ إلهاً كما لَهُمْ آلهةٌ.

الآية ١٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي إنَّ عِبادَتَهُمْ لهؤلاءِ ﴿مُتَبَّرٌ﴾ أي مُهْلِكُهُمْ ومُفْسِدُهُمْ ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي باطِلٌ ما يأمُلُونَ بِعبادَتِهِمْ هؤلاءِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: التَّبارُ الهَلاكُ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: المُتَبَّرُ المُفْسِدُ؛ يُقالُ: تَبَّرْتُ الشَّيءَ أي أفسَدْتُهُ، ويُقالُ: رَجُلٌ مُتَبَّرٌ أي مُفسِدٌ.

الآية ١٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بِما هداكُمْ، ووَفَّقَكُمْ لِلْهِدايَةِ بِما لم يُوفِّقْ، ولم يَهْدِ أحداً مِنَ العالَمِينَ مِنْ عالَمِي زمانِكُمْ.

الآية ١٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ دونَهُ وقد فَضَّلَكُمْ بما اسْتَنْقَذَكُمْ مِنِ اسْتِخدامِ فِرعَونَ وقَهْرِهِ إيّاكُمْ وإخراجِكُمْ مِنْ يَدِهِ، وأعطاكُمْ رسولاً يُبَيِّنُ لكُمْ عبادَةَ إلهِكُمُ الحَقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ﴾ يقولُ: أما تَسْتَحْيُونَ رَبَّكُمْ أنْ تَسألُوا إلهاً تَعْبُدُونَهُ دونَهُ، وقد فَضَّلَكُمْ بِما ذَكَرَ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ، واللهُ أعلَمُ، وهو ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية: يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ عليهِمْ بِما اسْتَنْقَذَهُمْ مِنْ فِرعَونَ وآلِهِ وإهلاكِهِمْ[6].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ قِيلَ: يُعذِّبونَكُمْ ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ قَتْلَ الأبناءِ واسْتِحياءَ النساءِ. فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قِيلَ في ذلكَ: يَعْني في ما ﴿أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾. ويُقالُ: البلاءُ بالمَدِّ هو النِّعْمَةُ، وبِغَيرِ المَدِّ مَقصوراً الشِّدَّةُ.

الآية ١٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ ذَكَرَ هُهنا ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ ثم ذَكَرَ التَّمامَ بالعَشْرِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بعد. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: يعامل. (٤) في الأصل وم: استقبلوه. (٥) ترك الناسخان في الأصل وم فراغا بعد هذه الكلمة، وأثبتنا العبارة التالية: بياض في الأصل. (٦) في الأصل: والهكم، في م: وأهلكم.

جنة السنة

وذَكَر في السورةِ التي [فيها][1] ذِكْرُ البَقَرةِ ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الآية: ٥١]. وهو واحدٌ. [فالميعادُ لهُ أربعونَ][2] ليلَةً، لكنَّهُ يَحْتَمِلُ ذِكْرُ ﴿ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ وعشراً وجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ ثَلاثِينَ لَيلَةً كانَ لِأمرٍ وعشراً كانَ لِأمرٍ آخرَ، فَذَكَرَها[3] مُتَفرِّقَةً لِما كانَ لِأمرَينِ مُختَلِفَينِ.

والثاني: أنهُ كانَ في وقتَينِ؛ كان هذا في وَقْتٍ، والآخرُ في وَقْتٍ، والقِصَّةُ واحِدَةٌ، والمِيعادُ واحدٌ.

فذِكْرُ التَّمامِ ﴿بِعَشْرٍ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦] أي ثلاثةٌ ﴿أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾ وسَبْعَةٌ ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ وإنْ كانَ في وَقْتَينِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ فإنْ قيلَ: ما مَعنَى قَولِ مُوسَى لأخيهِ هارونَ ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ وهو كانَ مَبْعُوثاً [رسولاً معهُ][4] إلى فِرْعَونَ مُشتَركاً في تَبليغِ الرسالةِ إلى فِرْعَونَ كقولِهِ: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٣٢] وقولِهِ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] وقولِهِ: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] وقولِهِ: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ [القصص: ٣٤]. فإذا كانَ هو رسولاً كَمُوسَى في تَبليغِ الرسالةِ كيف احتاجَ إلى أن يقولَ مُوسَى ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ وهما شَرْعاً سَواءٌ في الرسالةِ؟ قِيلَ: يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ.

يَحْتَمِلُ أنْ يكونا كما ذُكِرَ رسولَينِ. لكنْ مَنْ وَلَّى اثنَينِ أمراً لم يكُنْ لواحِدٍ منهُما أنْ يَتَفَرَّدَ بِهِ إلّا بأمرِ الآخرِ. فَعَلَى ذلكَ هذا. كأنَّهُ قالَ: اخلُفْني في الحُكمِ بَيْنَهُمْ، وأصلِحْ ذاتَ بَيْنِهِمْ، ولا تَتَّبِعْ مَنْ دَعاكَ إلى سَبيلِ المُفسِدِينَ. أو يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مُوسَى كانَ هو الرسولَ، إذنْ، وكانَ إليهِ الحُكْمُ، وهارونَ كانَ دَخِيلاً في أمْرِهِ رِدْءاً على ما قالَ: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾ [القصص: ٣٤] [كانَ موسى][5] هو المأمورَ بها أوّلاً والمَبْعُوثَ إليهِمْ دونَهُ.

ألا تَرَى أنهُ هو المُناجِي رَبَّهُ دونَ هارونَ [وكانَ هو المُعْطَى الألواحَ دُونَ هارونَ][6] كقولِهِ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وهو الذي قالَ: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠] وهو الذي نُودِيَ بالبَرَكَةِ دونَ هارُونَ، وغيرِ ذلكَ منَ الآياتِ. فإذا كانَ كذلكَ استَخْلَفَهُ مُوسى في قومِهِ.

الآية ١٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ أي لِميعادِنا الذي وعَدْناهُ ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ لا يجوزُ لنا أنْ نَصِفَ كَيْفِيَّةَ الكلامِ وماهِيَّتَهُ سِوىَ أنهُ أنشأَ كلاماً وصَوتاً أسْمَعَهُ مُوسَى كيفَ شاءَ بِما شاءَ بكلامٍ مَخلوقٍ [وصوتٍ مَخلوقٍ][7] ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ الآية. قالَ قائلونَ: إنَّ مُوسَى لم يَسأَلْ رَبَّهُ الرُّؤيَةَ لِنَفْسِهِ، ولكنْ سأَلَ لِقَومِهِ لِسُؤالِ القومِ لهُ كقولِهِ تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] لكنَّ هذا بعيدٌ؛ لأنهُ لو كانَ سُؤالُهُ إيّاهُ لِسُؤالِ قومِهِ لَكانَ لا يقولُ: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ ولكنْ يقولُ أرِهِمْ يَنظُروا[8] إليكَ. فَدَلَّ أنهُ لم يكُنْ لذلكَ.

وقالَ قائلونَ: لم يكُنْ سُؤالُ رَبِّهِ رؤيَةَ الرَّبِّ، ولكنْ سألَ رَبَّهُ رُؤيَةَ الآياتِ والأعلامِ والأدِلَّةِ التي بها يُرَى. وذلكَ جائزٌ سُؤالُ الرؤيَةِ سُؤالَ رُؤْيَةِ الآياتِ والأعلامِ. وذلكَ بَعيدٌ، لأنهُ قد أعطاهُ مِنَ الآياتِ مِنْ نَحْوِ العَصا التي كانَ ضَرَبَ[9] بها الحَجَرَ ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] وما كانَ مِنْ فَرْقِ البَحْرِ وإهلاكِ العَدُوِّ واليَدِ البَيضاءِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ. فإذا بَطَلَ ذلكَ دلَّ أنهُ سألَ حقيقةَ الرُّؤيَةِ.

والقَوْلُ بها لازمٌ عندَنا في الآخِرَةِ، وحقٌّ مِنْ غَيرِ إدراكٍ ولا تَفْسِيرٍ. والدليلُ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولو كانَ لا يُرَى لم يكُنْ لِنَفْيِ الإدراكِ حِكْمَةٌ؛ إذ لا يُدْرَكُ غَيْرُهُ بِغَيرِ الرُّؤيَةِ، فَوَضْعُ نَفْيِ الإدراكِ وغَيرِهِ مِنَ الخَلْقِ، لا يُدْرَكُ إلّا بالرُّؤيَةِ، لا مَعْنَى لَهُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: كالميعاد له أربعين. (٣) في الأصل وم: فذكر. (٤) في الأصل وم: رسولان. (٥) في الأصل وم: وإلا موسى. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: ينظرون. (٩) في الأصل وم: يضرب.

جنة السنة

وأيضاً قولُ موسَى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ الآية: ولو [كانتْ لا تَجوزُ][1] الرُّؤيَةُ لَكانَ منهُ جَهْلٌ بِرَبِّهِ، ومَنْ يَجْهلُهُ لا يَحْتَمِلُ أن يكونَ مَوضِعاً لِرسالَتِهِ أميناً على وَحْيِهِ.

وبَعْدُ فإنهُ لم يَنْهَهُ، ولا آيَسَهُ، وبِدُونِ ذلكَ قد نَهَى نُوحاً، وعاتَبَ آدَمَ وغَيْرَهُ مِنَ الرسُلِ. وذلكَ لو كانَ لا يَجوزُ لَبَلَغَ الكُفْرَ.

ثم قال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ فإنْ قِيلَ: لَعَلَّهُ سأَلَ آيَةً لِيَعْلَمَ[2] بها. قِيلَ لا يَحْتَمِلُ ذا لِوُجُوهٍ:

أحَدُها: أنهُ قالَ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ وقد أراهُ الآيَةَ.

والثاني[3]: أنَّ طَلَبَ الآياتِ[4] يُخرِّجُ [مُخرَجَ][5] التَّعَنُّتِ، إذْ قد أراهُ الآياتِ على ما ذَكَرْنا؛ وذلكَ صَنيعُ الكَفَرَةِ أنهُمْ لا يَزالُونَ يَطْلُبُونَ الآياتِ، وإنْ كانَتِ الكِفايَةُ قد ثَبَتَتْ لَهُمْ، فَمِثْلُهُ ذلكَ أيضاً.

والثالِثُ[6]: أنهُ قالَ: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ [والآيةُ التي يَستَقِرُّ][7] معَها الجَبَلُ هي دُونَ التي لا يَسْتَقِرُّ مَعَها. ثَبَتَ أنهُ لم يُرِدْ بذلكَ الآيَةَ.

والرابِعُ[8]: مُحاجَّةُ إبراهيمَ ﷺ قومَهُ في النُّجومِ، وما ذَكَرَ بالأُفولِ والغَيبَةِ، ولم يُحاجَّهُمْ بألّا يُحِبَّ ربّاً، يُرَى، ولكنْ حاجَّهُمْ بألّا يُحِبَّ ربّاً، يَأْفُلُ؛ إذْ هو دليلُ عَدَمِ الدَّوامِ، ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

والخامِسُ[9]: قولُهُ تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٢ و٢٣] ثم لا يَحْتَمِلُ ذلكَ الانْتِظارَ لِوُجُوهٍ:

أحَدُها: أنَّ الآخِرَةَ[10] لَيسَتْ بِوَقْتِ الانْتِظارِ، وإنَّما هي الدُّنيا، وهي دارُ الوُقوعِ [والوُجودِ إلى][11] وقْتِ الفَزَعِ وقَبْلَ أنْ يُعايِنُوا في أنْفُسِهِمْ مالَهُ حَقُّ الوُقوعِ.

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] وذلكَ وُقوعُ الثوابِ.

والثالِثُ: قولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٣] و﴿إِلَىٰ﴾ حَرْفٌ يُستَعْمَلُ في النَّظَرِ إلى الشيءِ لا في الانْتِظارِ.

والرابعُ: أنَّ القولَ بهِ يُخرِّجُ مُخرَجَ البِشارَةِ لِعَظيمِ ما نالُوهُ مِنَ النِّعَمِ. / ١٨٥ - أ/ والانْتِظارُ لَيسَ منهُ مَعَ ما كانَ الصَّرْفُ عن حَقيقَةِ المَفْهُومِ قضاءً على اللهِ. فَيَلزَمُ القولُ بالنَّظَرِ إلى اللهِ كما قالَ على نَفْيِ جميعِ مَعاني[12] الشُّبَهِ عَنِ اللهِ سُبحانَهُ على ما أُضيفَ إليهِ مِنَ الكلامِ والفِعْلِ والقُدْرَةِ والإرادَةِ: إنهُ يَجِبُ الوَصْفُ بهِ على نَفْيِ جميعِ مَعاني الشُّبَهِ.

وكذلكَ القولُ بالشُّبَهِ. فَمَنْ زَعَمَ أنَّ اللهَ لا يَقْدِرُ أنْ يُكْرِمَ أحداً بالرُّؤيَةِ فهو يَقْدِرُ في الرؤيَةِ التي فَهِمَها مِنَ الخَلْقِ.

وإذا كانَ القولُ بالرَّحمنِ ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وغَيْرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ، لا يجوزُ دَفْعُها بالعَرْضِ على المَفهومِ مِنَ الخَلْقِ، بل يَحقِّقُ ذلكَ على نَفْيِ الشُّبَهِ فَمِثْلُهُ خَبَرُ الرُّؤيَةِ.

وأيضاً قولُهُ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦] وجاءَ في غَيرِ خَبَرٍ: النَّظَرُ إلى اللهِ. وقد يَحتَمِلُ غَيرَ ذلكَ مِمّا جاءَ فيهِ التَّفْسِيرُ. لكنَّهُ لولا أنَّ القولَ بالرُّؤيَةِ، كانَ أمراً ظاهِراً لم يَحْتَمِلْ صَرْفَ ظاهِرٍ، لم يَجِئْ فيها [إليها][13] ويدفَعُ بهِ الخَبَرَ، واللهُ أعْلَمُ.

وأيضاً[14] ما جاءَ عن رسولِ اللهِ ﷺ، في غَيرِ خَبَرٍ أنهُ قالَ: «ستَرَونَ ربَّكُمْ يومَ القيامَةِ [كما تَرَونَ القَمَرَ][15] ليلةَ البَدْرِ لا تُضامُونَ» [البخاري: ٦٥٧٣] وسُئِلَ: «هل رَأَيتَ ربَّكَ؟ فقالَ: بِقَلْبِي قَلْبي» [مشكاة المصابيح ٥٧٢٩] فلم يُنْكِرْ على السائِلِ السُّؤالَ، وقد عَلِمَ السائلُ رُؤيَةَ القَلْبِ، إذْ هي عِلْمٌ قد عَلِمَهُ، وإنهُ لم يَسْأَلْ عنْ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: كان لا يجوز. (٢) من م، في الأصل: يعلم. (٣) في الأصل وم: وأيضاً. (٤) من م، في الأصل: الابان. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وأيضاً. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل م، وأيضاً. (٩) في الأصل وم: وأيضاً. (١٠) في الأصل وم: الآخر. (١١) في الأصل: والوجود إلا، في م: والجود إلا. (١٢) من م، في الأصل: المعاني. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، في الأصل: أيضاً. (١٥) من م، ساقطة من الأصل.

وقد حذَّرَ اللهُ المؤمنينَ [السُّؤالَ](١) عنِ الأشياءِ التي(٢) كفُّوا عنها بقولِهِ: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ [المائدة: ١٠١] فكيفَ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ السُّؤالُ عن مِثْلِهِ يَجيءُ؟ وذلكَ كُفرٌ في الحقيقةِ عندَ قومٍ، ثم يَنهاهُمْ عنْ ذلكَ، ولا يُوَبِّخُهُمْ في ذلكَ، بل يَليقُ القولُ في ذلكَ، ويُرْوَى أنَّ ذلكَ لَيسَ بِبَديعٍ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وأيضاً إنَّ اللهَ وَعَدَ أنْ يَجزيَ أحسَنَ ما(٣) عَمِلُوا بِهِ في الدنيا، ولا شَيءَ أحسَنَ مِنَ التوحيدِ، وأرفَعُ قَدْراً مِنَ الإيمانِ بِهِ؛ إذْ هو المُستَحسَنُ(٤) بالعقولِ، والثوابُ المَوعودُ مِنْ جَوهَرِهِ(٥) الجَنَّةُ، حُسْنُهُ حُسْنُ الطَّبعِ؛ وذلكَ دونَ حُسْنِ العَقلِ؛ إذ لا يجوزُ أنْ يكونَ شَيءٌ حَسَنٌ في العُقولِ، لا يَستَحسِنُهُ ذو عَقلٍ.

وجائزٌ ما استَحسَنَهُ الطَّبعُ طَبْعاً لا يَتَلَذَّذُ بِهِ كَطَبعِ المَلائكةِ، ومِثْلُهُ في العُقوبَةِ. لِذلكَ لَزِمَ القولُ بالرُّؤيَةِ لِتكونَ كَرامَةَ تَبليغٍ في الجَلالَةِ ما أُكرِمُوا بِهِ، وهو أنْ يَصيرَ لَهُمُ المَعبودُ بالغَيبِ شُهوداً كما صارَ المَطلوبُ مِنَ الثوابِ حُضوراً. ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

ولا يَحتَمِلُ العِلْمُ، لأنَّ كُلّاً يُجمِعُ على العِلْمِ باللهِ في الآخِرَةِ، العِلْمَ الذي لا يَعتَريهِ الوَسْواسُ. وذلكَ عِلْمُ العِيانِ لا عِلْمُ الاستِدلالِ. وكَثرَةُ الآياتِ لا تُحَقِّقُ عِلْمَ الحَقِّ الذي لا يَعتَري ذلكَ. دَليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ الآية [الأنعام: ١١١] وما ذَكَرَ مِنِ استِعانَةِ الكَفَرَةِ بالتَّكذيبِ في الآخرةِ وإنكارُ الرُّسلِ وقولُهُمْ: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وغَيرُ ذلكَ.

وبَعدُ فإنَّهُ إذ لا يَجوزُ أنْ يَصيرَ عِلْمُ العِيانِ نَحوَ عِلْمِ الاستِدلالِ لم يَجُزْ أنْ يَصيرَ عِلْمُ الاستِدلالِ نَحوَ علمِ العِيانِ، فَثَبَتَ أنَّ الرُّؤيَةَ تُوجِبُ ذلكَ. وبَعدُ فإنَّهُ(٦) في ذلكَ العِلْمِ يَستَوي المُؤمِنُ والكافِرُ. والبِشارَةُ بالرُّؤيَةِ خُصَّ بها المؤمنُ ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

ولا نَقولُ بالإدراكِ بِقولِهِ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فَقَدِ امتُدِحَ بِنَفيِ الإدراكِ لا بِنَفيِ الرُّؤيَةِ، وهو كَقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] كانَ في ذلكَ إيجابُ العِلْمِ ونَفيُ الإحاطَةِ. فَمِثْلُهُ في الحَقِّ الإدراكُ، وباللهِ التوفيقُ.

وأيضاً إنَّ الإدراكَ إنما هو الإحاطَةُ بالمَحدودِ، واللهُ يَتَعالَى عَنْ وَصفِ الحَدِّ؛ إذ هو نِهايَةٌ وتَقصيرٌ عمّا هو أعلَى منهُ، على أنَّهُ واحِديُّ الذاتِ. والحَدُّ وَصفُ المُتَّصِلِ الأجزاءِ حتى يَنقَضيَ مَعَ إحالَةِ القَولِ بالحَدِّ؛ إذا كانَ، ولا ما يُحَدُّ، أو بِهِ يُحَدُّ، فهو على ذلكَ لا يَتَغَيَّرُ. على أنَّ لِكُلِّ شَيءٍ حَدّاً(٧)، يُدرَكُ سَبيلُهُ، نَحوَ الطَّعْمِ واللَّونِ والذَّوقِ، والحَدُّ وغَيرُ ذلكَ مِن حُدودِ خاصِّيَّةِ الأشياءِ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيءٍ مِنْ ذلكَ وَجهاً يُدرَكُ، ويُحاطُ بِهِ حتى العُقولِ والأعراضِ.

فأخبَرَ اللهُ تعالى أنهُ لَيسَ بِذي حُدودٍ وجِهاتٍ؛ هي طُرُقُ إدراكِهِ بالأسبابِ(٨) الموضوعَةِ لِتلكَ الجِهاتِ. وعلى ذلكَ القولُ بالرُّؤيَةِ والعِلْمِ جميعاً، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وبَعدُ فإنَّ القَولَ بالرُّؤيَةِ يَقَعُ على وُجوهٍ لا تُعلَمُ حَقيقَةُ كُلِّ وجهٍ مِنْ ذلكَ إلّا بالعِلْمِ بذلكَ الوجهِ حتّى إذا عُبِّرَ عنهُ بالرُّؤيَةِ صُرِفَ إلى ذلكَ، وما لا يُعرَفُ لهُ الوَجهُ بِدونِ ذِكرِ الرُّؤيَةِ لَزِمَ الوَقفُ في ماهِيَّتِها على تَحقيقِها.

[أحَدُها: الإدراكُ](٩): هو مَعنَى الوقوفِ على حُدودِ الشَّيءِ. ألا تَرَى أنَّ الظِّلَّ في التَّحقيقِ يُرَى؟ لكنَّهُ لا يُدرَكُ إلّا بالشَّمسِ، وإلّا كانَ مَرئِيّاً على ما يُرَى لِوَقتِ نَسْخِ الشَّمسِ، ولكنْ لا يُدرَكُ إلّا بما يَتَبَيَّنُ لهُ الحَدُّ.

وكذلكَ ضَوءُ النهارِ يُرَى؛ لكنَّ حَدَّهُ لا يُعرَفُ بذاتِهِ، وكذلكَ الظُّلمَةُ؛ لأنَّ طَرَفَها، لا يُرَى، فَيُدرَكُ، ويُحاطُ بِهِ، وبالحُدودِ يُدرَكُ الشَّيءُ، وإنْ كانَ يُرَى لا بِها. ولذلكَ ضُرِبَ المَثَلُ بالقَمَرِ؛ لأنهُ لا يُعرَفُ حَدُّهُ ولا سَعَتُهُ لِيُعرَفَ، ويُحاطَ بِهِ، ويُرَى بِيَقينٍ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قد. (٣) في الأصل وم: مما. (٤) من م، في الأصل: المحسن. (٥) من م، في الأصل: جوهر. (٦) من م، في الأصل: فإن. (٧) في الأصل وم: حد. (٨) في الأصل وم: بالأسنان. (٩) في الأصل وم: وأما الإدراك إنما.

جنة السنة

والأصلُ فيهِ القولُ بذلكَ على قَدْرِ ما جاءَ بهِ، ونَفَى كُلَّ مَعنىً مِن مَعاني الخَلْقِ، ولا يُفَسِّرُ لِما لم يَجِئْ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم زعَمَ الكَعْبِيُّ أنَّ الغائبَ، إنْ لم يَخرُجْ عنِ الوُجوهِ التي بها يُعلَمُ، فكذلكَ لا يُرَى إلّا بالوُجوهِ التي بها يُرَى مِنَ المُبايَنَةِ لِلمَرْئِيِّ ولِما حلَّ فيهِ المَرْئِيُّ بالمَسافةِ والمُقابَلَةِ واتِّصالِ الهَواءِ والصِّغَرِ [وعَدَمِ الصِّغَرِ][1] والبُعْدِ. ولو جازَتِ الرُّؤيَةُ بِخلافِ هذهِ لَجازَ العِلْمُ بهِ.

قالَ الشيخُ [رَحِمَهُ اللهِ عليهِ][2]: وهذا خَطأٌ، لأنهُ قَدَّرَ رُؤيَةَ جَوهَرِهِ،[وقد عُلِمَ أنَّ غَيْرَ جَوهَرِهِ][3] جَوهَرٌ يُرَى[4] مِنَ الوَجْهِ الذي لا يُقدَرُ على الإحاطةِ بِجَوهَرِهِ فَضْلاً عَن إدراكِ بَبَصَرِهِ، نَحْوُ المَلائكةِ والجِنِّ وغَيرِهِمْ مِمّا يَرَوننا مِن حيثُ لا نَراهُمْ، والجُثَّةِ الصَّغيرةِ نَحْوِ البَقِّ ونَحْوِ ذلكَ مِمّا يرى لِما لو تَوَهَّمَ مِثْلَ ذلكَ البَصَرُ لَما احْتَمَلَ الإدراكَ.

ويَرَى المَلَكُ الذي يَكتُبُ جميعَ أفعالِنا، ويَسْمَعُ جميعَ أقوالِنا على ما لو أرَدْنا تَقديرَ ذلكَ بِما عليهِ جُبِلْنا لَلَزِمَ إنكارُ ذلكَ كُلِّهِ، وذلكَ عظيمٌ، وكذلكَ ما ذَكَرَ مِن نُطْقِ الجُلودِ وغَيرِها مِمّا لَوِ امْتُحِنَ بِمِثْلِها أمرُ الشاهِدِ لَوُجِدَ عظيماً.

وبَعْدُ فإنهُ في الشاهِدِ يَفصِلُ بَينَ البَصَرينِ في الرُّؤيَةِ والتَّمييزِعلى قَدْرِ تفاوُتِهِما بِما اعْتَراها في الحَجْبِ مِمّا لو قابَلَ أحَدُهُما حالَ الآخَرِ على حالِهِ وَجَدَهُ مُستَنكَراً. وإذا كانَ كذلكَ بَطَلَ التَّقديرُ بالذي ذَكَرَ، واللهُ المُوَفِّقُ.

والثاني[5]: أنهُ في الشاهِدِ بِكُلِّ أسبابِ العِلْمِ لا يُعلَمُ غَيْرُ العُضْوِ والجِسْمِ. ثم جائزٌ العِلْمُ بالغائبِ خارجاً مِنهُ، فَمِثْلُهُ الرُّؤيَةُ.

والثالثُ: ما ذَكَرْنا مِن رُؤيَةِ الظِّلِّ والظُّلْمَةِ والنُّورِ مِن غَيرِ شَيءٍ مِن تلكَ الوُجوهِ.

والرابعُ: أنهُ قد يجوزُ وجودُ تلكَ المعاني كُلِّها مَعَ عَدَمِ الرُّؤيَةِ إمّا [بالحَجْبِ وإمّا][6] بالجَوهَرِ، فجازَ تَحقيقُ الرُّؤيَةِ على نَفْيِ تلكَ المَعاني نَحْوَ ما أُجيبَ القائلُ بالجِسْمِ عندَ مُعارَضَتِهِ بالفاعِلِ.

والعالَمُ، إذْ وُجِدَ، جِسْمٌ لا كذلكَ، فَيَجوزُ وجودُ ذلكَ، ولا جِسْمٌ؛ فَمِثْلُهُ في الرُّؤيَةِ. على أنَّ البُعْدَ الذي يَحجُبُنا عَنِ[7] الرُّؤيَةِ يجوزُ أنْ يَبْلُغَهُ بَصَرُ غيرِنا، فصارَ ارْتِفاعُ الرُّؤيَةِ بالحِجابِ، فإذا ارْتَفَعَ جازَ، ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

وبَعْدُ فإنَّ الذي يقولُهُ تَقديرٌ بِرُؤيَةِ الأجسامِ، ولم يُمتَحَنْ بَصَرُهُ بِغَيرِ الأجسامِ والأغراضِ أنْ كيفَ سَبيلُ الرُّؤيَةِ لَهُ؟

وبَعْدُ فإنَّ كُلَّ جِسْمٍ يُرَى، وإنْ كانَتِ الدِّقَّةُ والبُعْدُ يَحجُبانِ، فيجوزُ ارْتِفاعُهُما عَن بَصَرِ غَيرٍ، فَيَرَى مَلَكُ المَوتِ مَن بأطرافِ الأرضِ وَوَسْطِها لوِ اعْتُبِرَ ذلكَ بِبَصَرِ البَشَرِ لَما احْتَمَلَ الإدراكَ. فَثَبَتَ أنَّ الذي قَدَّرَ بِهِ لَيسَ هو سَبَبَ تعريفِ ما يُبصِرُهُ، ولكنْ سَبَبُ تَعريفِ ما يُحجَبُ بِهِ البَصَرُ. فإذا ارْتَفَعَ رأى مَعَ ما كانَ المَنفِيُّ رُؤيَتُهُ لِذاتِهِ عَرَضٌ.

فإنْ لَزِمَ إنكارُ الرُّؤيَةِ لِما لَيسَ بِجِسْمٍ أو لِما لا يُرَى إلّا بِما ذَكَرَ لِيَلْزَمَ الإقرارُ بهِ؛ لأنَّ الذي لا يُرَى لِذاتِهِ، هو العَرَضُ، وإلا فَكُلُّ غَيرِ يُرى، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وإنْ[8] عُورِضَ بأمرِ الدنيا، وبِحالِ العَرَضِ بذلكَ فلا[9] يُسقِطُ المِحْنَةَ، ويَرْفَعُ الكُلْفَةَ. والدنيا هي لهما. ثم ذُكِرَ في أمرِ مُوسى أنَّ ذلك على عِلْمِ الإحاطةِ بالآياتِ، وقد بَيَّنّا فسادَ ذلكَ، وما ذلكَ بالذي يُسألُ، وهو رسولٌ، بُعِثَ إلى ما بِهِ نجاةُ الخَلْقِ، وذلكَ لا يكونُ بِغيرِ /١٨٥ ـ ب/ المُمتَحَنِ؛ إذْ هو تَبليغُ الرسالةِ والدعاءِ إلى العبادَةِ، وهي مِحْنَةٌ.

بل سألَ الرُّؤيَةَ لِيُجِلَّ قَدْرَهُ، ويَعرِفَ[10] عظيمَ مَحَلِّهِ عندَ اللهِ، أو أنْ يكونَ اللهُ أمَرَهُ بِهِ لِيَعْلَمَ الخَلْقُ جوازَ ذلكَ، وباللهِ التوفيقُ.

ثم اسْتَدَلَّ بأنهُ لم يُرَ مَن يَعقِلُ، إنما أُرِيَ الجَبَلَ، والجَبَلُ لا يَعقِلُ لِيَعْلَمَهُ، ولِيَراهُ، فَيُقالُ لهُ: ولو كانَتِ الآيَةُ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في م: رحمة الله. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل: يرون. (٥) في الأصل وم: وأيضاً. (٦) في الأصل: بحجب أو، في م: بالحجب أو. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: و. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ليعرف.

جنة السنة

[الجبَلَ][1] فالجبَلُ لا يَراها، ولا يَعْقِلُ. فإذا كانَ كذلكَ فالآيةُ إذن صارتِ[2] اندِكاكَ الجبَلِ، لا أنْ أراهُ الآيةَ يَستَدِلُّ بها.وفي هذا آيةٌ؛ قد رأى موسَى الآيةَ، وهي اندِكاكُ الجبَلِ، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ وجُمْلَتُهُ على الآيةِ، وقد رآها، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

فإنْ قِيلَ: ما مَعْنى تَوبَتِهِ، لو كانَ سُؤالُهُ على الأمرِ؟ قِيلَ: على العادةِ في الخَلْقِ لِما[3] يُحدِثُهُ عندَ الأهوالِ بلا حُدوثِ ذنبٍ، أو لِما رأى مِنْ جَلالِ اللهِ وعَظَمَتِهِ، فَزِعَ إلى التوبةِ وإحداثِ الإيمانِ به، وإنْ لم يَكُنْ يُوجِبُ ذلكَ، وذلكَ مُتعارَفٌ في الخَلْقِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ وكانَ عندَهُ جوازُ الرُّؤْيَةِ في الشاهِدِ واحْتِمالُ وُسْعِهِ ذلكَ بما وَعَدَ اللهُ في الآخِرةِ، رَجَعَ عمّا كانَ عندَهُ، وآمَنَ بالذي قالَ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ وإنْ كانَ في أصْلِ إيمانِهِ داخلاً على نَحْوِ إحداثِ المؤمنينَ الإيمانَ بكُلِّ آيةٍ تَنزِلُ وبِكُلِّ فريضةٍ تَتَجدَّدُ، وإنْ كانُوا في الجُملَةِ مُؤمِنينَ بالكُلِّ، واللهُ الموفقُ.

وقد بيَّنّا ما قالُوا في قولِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، [القيامة: ٢٢و٢٣].

والأصلُ في الكلامِ أنهُ إذا كانَ على أمرٍ مَعْهودٍ، أو يُقْرَنُ بهِ المَقصُودُ إليهِ، صُرِفَ عن حَقيقَتِهِ، وإلّا، لا؛ وذلكَ نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] وقولِهِ[4]: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦].

وأصلُهُ أنَّ مَنْ قالَ: رَأيتُ فلاناً، أو نَظَرتُ إلى فلانٍ لم يَحتَمِلْ غَيْرَ ذاتِهِ، وإذا قالَ: رأيتُهُ يقولُ: كذا، ويَفْعَلُ كذا، إنهُ لا يريدُ بهِ رُؤْيَةَ ذاتِهِ فَمِثْلُهُ أمرُ قِصَّةِ موسَى وهذهِ الآيةِ.

ورُوِيَ عن ضِرارِ بنِ عَمْرٍو أنهُ أتَى البَصْرَةَ، فقالَ: يا أهلَ البَصْرَةِ إمّا أنْ كانَ موسَى مُشَبِّهاً وإمّا أنْ كانَ اللهُ يُرَى؛ لأنهُ لو كانَ الذي لا يُرَى، فسألَ رَبَّهُ رؤيَتَهُ كانَ جاهلاً بهِ مُشَبِّهاً خَلْقَهُ بهِ، فَدَلَّ أنهُ يُرَى.

ثم الأصلُ أنَّ مَنْ تأمَّلَ الذي ذَكَرَهُ الكَعْبيُّ عَرَفَ أنهُ مُشَبِّهِيُّ المَذْهَبِ؛ لأنهُ لم يَذكُرِ المَعْنى الذي لهُ يَجِبُ أنْ تكونَ الرُّؤْيَةُ بِتِلكَ الشرائطِ، إنما أخبَرَ أنهُ كذلكَ وَجَدَ، وهو قولُ المُشَبِّهَةِ: إنهُ وَجَدَ كلَّ فاعلٍ في الشاهِدِ جسماً، وكذا كلَّ عالِمٍ، فَيَجِبُ مِثْلُهُ في الغائبِ.

ثم ذَكَرَ مَعْنى رُؤْيَةِ الجِسْمِ، ولم يَذكُرْ مَعْنى رُؤْيَةِ غيرِ الجِسْمِ، حتى يكونَ لهُ دليلاً. وبَعْدُ فإنهُ نَفَى بالدِّقَّةِ والبُعْدِ وهما زائلانِ عنِ اللهِ تعالى. ثم احْتَجَّ بامْتِداحِ اللهِ تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وقد قالَ: لا يجوزُ أنْ يَزولَ. فَمِثْلُهُ عليهِ في قولِهِ: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠ و..] فلا يَجوزُ أنْ يزولَ.

ثم قد وَصَفَ اللهُ بالرُّؤْيَةِ على إسقاطِ ما ذَكَرَ، فَثَبَتَ أنَّ ذلكَ طريقٌ، لا يُؤدِّي عَنْ كُنْهِ ما بِهِ الرُّؤْيَةُ.

فإنْ قِيلَ: كيفَ يُرَى؟ قِيلَ: بلا كيفٍ؛ إذِ الكَيْفِيَّةُ تكونُ بالذي[5] صُوِّرَهُ، بل يُرَى بلا وَصْفِ قيامٍ وقُعودٍ واتِّكاءٍ وتَعَلُّقٍ واتِّصالٍ وانْفِصالٍ ومُقابَلَةٍ ومُدابَرَةٍ وقَصيرٍ وطويلٍ ونورٍ وظُلْمَةٍ وساكِنٍ ومُتَحرِّكٍ ومُماسٍّ ومُبايِنٍ وخارِجٍ وداخِلٍ، ولا مَعْنىً يأخُذُهُ الوَهْمُ، أو يُقَدِّرُهُ العَقْلُ، لِتعاليهِ عَنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ الآيةَ. قالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: تَجَلّى بالآياتِ والأعلامِ التي بها يُرَى، وكذلكَ قالَ في قولِهِ ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ إنهُ إنما سألَ ربَّهُ الآياتِ والأعلامَ التي تُرَى لا رُؤْيَةَ الذاتِ. وقد بيَّنّا بُعْدَهُ وإحالَتَهُ لِما قد أعطاهُ مِنَ الآياتِ والأعلامِ [ما][6] لَهُ غُنْيَةٌ عن غيرِها، فلا[7] يَحتاجُ إلى غيرِها.

وقالَ الحَسَنُ: إنَّ موسَى سألَ ربَّهُ الرُّؤْيَةَ في غيرِ وَقْتِ الرُّؤْيَةِ، وهو يُقِرُّ بالرُّؤْيَةِ، لكنهُ يقولُ: سَألَها في الدنيا، وبِنْيَتُهُ هذا العالَمِ، لا تَحتَمِلُ ذلكَ. ألا تَرَى أنهُ قالَ ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ أخبَرَ أنَّ الجبَلَ لا يَستَقِرُّ لهُ فكيفَ تَستَقِرُّ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: صار. (٣) في الأصل: وم: من. (٤) في الأصل وم: و. (٥) بالأصل وم: الذي. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

أنتَ؟ لكنَّهُ يُنْشِئُ بَيِّنَةً تَحْتَمِلُ ذلكَ. وقال الحَسَنُ: لِذلكَ قالَ مُوسَى: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنْ لَيسَ في الدنيا الرُّؤْيَةُ. إلى نَحْوِ هذا يَذْهبُ الحَسَنُ. وقد ذَكَرْنا نَحْنُ الوجهَ على قَدْرِ ما حَضَرَ لنا.

وقالَ أهلُ التَّأويلِ: قولُهُ تعالى: ﴿تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ﴾ أي ظَهَرَ. لكنْ لا يُفْهَمُ مِنْ ظهورِهِ ما يُفْهَمُ مِنْ ظُهورِ الخَلْقِ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقولِهِ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] وغَيرِهما[1] مِنَ الآياتِ؛ [لأنهُ][2] لا يُقَدَّرُ اسْتِواؤُه باسْتِواءِ الخَلْقِ، وكذلكَ مَجيئُهُ. فَعَلَى ذلكَ ظُهورُهُ، وباللهِ العِصْمَةُ.

ورُوِيَ أنَّ في التَّوراةِ أنهُ جاءَ مِنْ طُورِ سِيناءَ، وظَهَرَ مِنْ جَبَلِ ساعُورا، واطَّلَعَ من جَبَلِ فارانَ وتأويلُهُ: جاءَ وَحْيُهُ على مُوسى في طُورِ سيناءَ، وظَهَرَ على عِيسَى في جَبَلِ ساعُورا، وطَلَعَ على محمدٍ في جَبَلِ فارانَ.

ثم العَجَبُ أنْ كيفَ اجْتَرَأَ مُوسَى بالسُّؤالِ بِسُؤالِ مِثْلِهِ ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾؟ لكنَّهُ يَحْتَمِلُ وُجوهاً:

أحَدُها: على الأمْرِ بالسؤالِ عَنْ[3] ذلكَ لِيُعْلِمَ أنهُ يُرى، ويَعْتَقِدُوا ذلكَ، أو على الظَّنِّ مِنهُ لَمّا رأى أنهُ أعطاهُ أشياءَ، لا يكونُ مِثْلُها في الدنيا، إنما يكونُ في الآخِرَةِ، خُصَّ بها، مِنْ نَحْوِ انفِجارِ العُيونِ مِنَ الحَجَرِ مِنْ غَيرِ مُؤْنَةٍ تكونُ لَهُمْ في ذلكَ في[4] حَفْرِ الأنهارِ وإصلاحِها وأنواعِ المُؤَنِ، ونَحْوِ ما أعطاهُمْ مِنَ اللباسِ الذي يَنْمُو، ويَزْدادُ على قَدْرِ قامَتِهِمْ وطُولِهِمْ، ومِنْ نَحْوِ ما أعطاهُمْ مِنَ المَنِّ والسَّلْوَى على غَيرِ مُؤْنَةٍ ولا جَهْدٍ. وذلكَ كُلُّهُ وَصْفُ الجَنَّةِ.

فلمّا رَأى ذلكَ ظَنَّ أنَّ الرُّؤْيَةَ أيضاً، تكونُ في الدنيا على ما كانَتْ لهُ مِنْ أشياءَ، لم يَكُنْ مِثْلُها لِأحَدٍ في الدنيا. أو لمّا رَأى أنهُ سَمِعَ كلامَ رَبِّهِ، والْقَى [على][5] مَسامِعِهِ كلامَهُ؛ لا مِنْ مكانٍ ولا مِنْ قريبٍ ولا بَعيدٍ ولا مِنْ أسْفَلَ ولا مِنْ أعْلَى ولا مِنْ فَوقٍ ولا مِنْ تَحْتٍ. لكنَّهُ سَمِعَ بما شاءَ، وكيفَ شاءَ؟ بِلُطْفِهِ، فَعَلَى ظَنٍّ أنهُ يجوزُ لَهُ أنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ الرُّؤْيَةَ، فَيُرِيَهُ بما شاءَ، وكيفَ شاءَ؟ بِلُطْفِهِ كَما ذَكَرْنا.

الآية ١٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ سَمَّى اللهُ ﷻ، مُوسى وسائرَ الأنبياءِ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ وسَلامُهُ، بأسْماءِ الجَوهَرِ مُوسَى وعِيسَى ونوحٍ وإبراهيمَ وإسماعيلَ وإسْحاقَ، وسَمَّى نَبِيَّنا محمداً ﷺ، نَبِيًّا رسولاً وذلكَ يَدُلُّ على تَفْضِيلِهِ، وكذلكَ سَمَّى سائرَ الأُمَمِ [illegible]

[illegible] على غيرِها مِنَ الأُمَمِ.

[illegible] يا بَني إسرائيلَ، ويا بني آدَمَ، وسَمَّى أُمَّةَ محمدٍ [illegible][6] وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] ونَحْوَهُ. فذلكَ يَدُلُّ على تَفْضِيلِ أُمَّةِ [illegible] وسمى نَبِيَّنا محمداً ﷺ، [illegible] قولُهُ تعالى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [illegible]؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يُكَلِّمْ [illegible]

[illegible]

وهذا يَنْقُضُ على المُعْتَزِلَةِ قولَهُمْ: إنَّ اللهَ تعالى لا يُرْسِلُ رسولاً، وهو يَسْتَحِقُّ الرسالةَ، ولو كان طريقُهُ الاسْتِحْقاقَ لا [illegible]

[illegible] أنفُسَهم.

[illegible]

أحَدُهُما: القَبولُ؛ أيِ اقْبَلْ ما أعْطَيْتُكَ كقولِهِ[6] تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣].

والثاني[7]: يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أيِ اعْمَلْ بأحْسَنِ العَمَلِ ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [لِنِعَمِهِ التي][8] أنْعَمَها عليكَ مِنَ التَّكْليمِ والرِّسالةِ [وغيرِهِما مِنَ النِّعَمِ][9] واللهُ الموفِّقُ.

---

(١) في الأصل وم: وغيره. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: على. (٤) في الأصل وم: من. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: كقولهم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وغيرها من النعيم.

جنة السنة

الآية ١٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ﴾ وجْهَينِ:

أحدُهُما: أنهُ إنما أضافَ ذلكَ إلى نَفْسِهِ كما تولّى كتابتَها الملائكةُ البَرَرَةُ الكرامُ؛ أضافَ إلى نفسِهِ تَفْضِيلاً لَهُمْ وتعظيماً على ما ذُكِرَ في الكتابِ في غَيرِ مَوضِعٍ مِنْ نَحوِ [قولِهِ تعالى][1]: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وقولِهِ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] أخبَرَ أنَّ طاعةَ الرَّسُولِ لهُ طاعةٌ، وغيرَ ذلكَ، فكذلكَ هذانِ، واللهُ أعلمُ.

[والثاني أنهُ][2]: أضافَ /١٨٦ - أ/ ذلكَ إلى نَفْسِهِ لِما كانَ، ويكونُ إلى يومِ القِيامَةِ إنما يكونُ بـ: ﴿كُن﴾ الذي كانَ مِنهُ في الأوقاتِ التي أرادَ أنْ يكونَ. فعَلى ذلكَ [كتابتُهُ ذلكَ في][3] الألواحِ كانَتْ[4] تَحْتَ ذلكَ الـ ﴿كُن﴾.

وإنْ كانَ أضافَ بَعْضَ تلكَ الأشياءِ إلى نَفْسِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [القصص: ٧٣]، وقولِهِ[5] تعالى: ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، [وقولِهِ تعالى][6]: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [النمل: ٦٠] [وقولِهِ تعالى][7]: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، [وقولِهِ تعالى][8]: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [النحل: ٨٧ و..] ونَحْوَ ذلكَ. فذلكَ كُلُّهُ كانَ[9] تَحتَ قولِهِ ﴿كُن﴾ فكانَ[10] على ما أرادَ أنْ يكونَ[11] في الأوقاتِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن أمْرِهِ ونَهْيِهِ وحِلِّهِ وحَرامِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّوْعِظَةً﴾ قالَ المَوعِظَةُ هي التي تَحمِلُ القُلوبَ على القَبولِ والجَوارِحَ على العَمَلِ. قال بَعْضُهُمْ: المَوعِظَةُ هي التي تَنْهى عمّا لا يَحِلُّ. قالَ أبو بَكْرٍ: المَوعِظَةُ هي التي تُلِينُ القُلوبَ القاسِيَةَ، وتُدْمِعُ العُيونَ الجامِدَةَ، وتُصْلِحُ الأعمالَ الفاسِدَةَ.

قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ: وعِندَنا المَوعِظَةُ: هي [التي][12] تُذَكِّرُ العواقِبَ، وتَحمِلُ[13] على العَمَلِ بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ قِيلَ: تَفْصِيلاً لِما أُمِرُوا بِهِ، ونُهُوا عَنْهُ. وقِيلَ: بَياناً لِكُلِّ ما يُحتاجُ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [يَحْتَمِلُ][14] أيضاً وجْهَينِ: يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَخُذْهَا﴾ أيِ اقْبَلْها[15] على ما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. ويَحْتَمِلُ: اعْمَلْ بِما فِيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ قالَ أهلُ التَّأويلِ: بِجِدٍّ ومُواظَبَةٍ. ولكنَّ قولَهُ تعالى ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ القُوَّةُ المعروفةُ. وعلى قولِ المُعتَزِلَةِ: لا يكونُ أخذُ قوةٍ، وقد أخبَرَ أنْ أخذَها بقوةٍ؛ لأنهُمْ يقولُونَ: إنَّ القُوَّةَ تكونُ قبلَ الفِعْلِ، ثم يَقولُونَ: إنها لا تَبْقَى وقتَينِ. فيكونُ في الحاصِلِ: لو كانَتْ قَبلَ الفِعْلِ أخذاً بِغَيرِ قوةٍ. دلَّ أنها مع الفِعْلِ.

وتَقولُ المُعتَزِلَةُ: دَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ على أنَّ القُوَّةَ قد تَقَدَّمَتِ الأمْرَ بالأخذِ. لكنْ لا يكونُ ما ذَكَرُوا لأنهُ أمْرٌ بأخذٍ بقوةٍ، دلَّ أنها تُقارِنُ الفِعْلَ لا تَتَقَدَّمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿يَأْخُذُوا﴾ ما ذَكَرْنا مِنَ الوَجْهَينِ القَبُولُ أو العَمَلُ؛ أي مُرْهُمْ يَقْبَلُوا بأحْسَنِ القَبولِ. ويَحْتَمِلُ مُرْهُمْ يَعْمَلُوا بأحْسَنِ ما فيها مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ والحَلالِ والحَرامِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ أي بِما هو أحْكَمُ وأتْقَنُ أو بأحْسَنِ مِمّا عَمِلَ بِهِ الأوَّلُونَ؛ إذْ فيهِ أخبارُ الأوَّلِينَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: كتبه ذلك. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: كذا و. (٨) في الأصل وم: كذا. (٩) في الأصل وم: كانت. (١٠) في الأصل وم: فكانت. (١١) في الأصل وم: تكون. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: وتحمله. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: اقبل.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قالَ بَعْضُ أهْلِ التَّأويلِ: قالَ ذلكَ لِبَني إسرائيلَ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يَعْني سُنَّةَ الفاسِقِينَ، وهو الهَلاكُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وسُنَّتُهُ في أهْلِ الفِسْقِ والكُفْرِ الهَلاكُ.

وقالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ جَهَنَّمَ.

وأمْكَنَ أنْ يكونَ الخِطابُ لِلْفَسَقَةِ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾ يا أهْلَ الفِسْقِ ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

الآية ١٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ الآيةَ يُخَرَّجُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهما: سأصْرِفُهُمْ عنْ قَبولِها وتَصْديقِها إذا[1] لم يَسْتَقْبِلُوها بالتَّعْظيمِ لها. بل اسْتَهْزَؤوا بها، واسْتَخَفُّوا بها على عِلْمٍ منهُمْ أنها آياتٌ مِنَ اللهِ وحُجَجٌ.

والثاني: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ﴾ وُجودِ الطَّعْنِ والقَدْحِ فيها والكَيدِ لها.

ثم إنَّ كُلَّ[2] واحدٍ مِنْ هذينِ الوَجْهَينِ يَتَوَجَّهُ على وجهَينِ:

[أحَدُهما: ما][3] قالَ الحَسَنُ: إنَّ لِلْكُفْرِ حدّاً[4] إذا بَلَغَ الكافرُ ذلكَ الحَدَّ يُطْبَعُ عليهِ، فلا يَقْبَلُ، ولا يُصَدِّقُ آياتِهِ بَعْدَ ذلكَ.

والثاني: أنهُمْ كانُوا يَتَعَنَّتُونَ في آياتِهِ، ويُكابِرونَ في رَدِّها مَعَ عِلْمِهِمْ أنها آياتٌ وحُجَجٌ مِنَ اللهِ تعالى. فإذا تَعانَتُوا صَرَفَهُمْ عَنْ قَبولِها وتَصْديقِها، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧] أي خَلَقَ منهُمْ فِعْلَ الزَّيغِ وفِعْلَ الانْصِرافِ. وهكذا كُلُّ مَنْ يَخْتارُ عَداوَةَ اللهِ، فاللهُ لا يَخْتارُ لهُ وِلايَتَهُ، ولكنْ يَخْتارُ لهُ ما اخْتارَ هو.

وأمّا قولُهُ[5]: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ﴾ وجودِ الطَّعْنِ فيها والقَدْحِ؛ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما][6]: أنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ لِلرُّسُلِ والأنبياءِ أضداداً مِنْ كُبَراءِ الكَفَرَةِ وعُظَمائِهِمْ، وكانُوا يَطْعَنُونَ في الآياتِ، ويَقْدَحُونَ فيها. فأخْبَرَ أنهُ يَصْرِفُهُمْ عنْ وُجودِ الطَّعْنِ فيها والقَدْحِ والكَيدِ لها، أي لا يَجِدونَ فيها مَطْعَناً ولا قَدْحاً.

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ الهَلاكَ والإبطالَ بلِ المُهْلِكِينَ[7]، والآياتُ هي الباقِيَةُ.

ثم اخْتُلِفَ في الآياتِ: قالَ الحَسَنُ: ﴿ءَايَٰتِيَ﴾ ديني؛ وتأويلُهُ ما ذَكَرْنا أنهُمْ إذا بَلَغُوا ذلكَ الحَدَّ صَرَفَهُمْ عنها.

وقالَ غَيرُهُ: آياتُهُ حُجَجُهُ وبراهِينُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ كانُوا يَتَكَبَّرُونَ على[8] الرُّسُلِ لِما لم يَرَوهُمْ أمثالاً لأنفُسِهِمْ وأشكالاً. وهكذا كُلُّ مَنْ يَتَكَبَّرُ على آخَرَ يَتَكَبَّرُ لِما [لم][9] يَرَهُ مَثَلاً لِنَفْسِهِ ولا شَكْلاً، أو يَتَكَبَّرُ لِما يَرَى نَفْسَهُ سَليمَةً مِنَ[10] العُيوبِ، ويَرَى في[11] غَيرِهِ عُيوباً، أو يَرَى لِنَفْسِهِ حُقوقاً عليهِ، فيَتَكَبَّرُ.

لهذا فالخَلْقُ كُلُّهُمْ أكفاءُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ؛ لأنهُمْ أمْثالٌ وأشكالٌ، وفيهِمُ العُيوبُ والحاجاتُ، فلا يَسَعُ لِأحَدٍ الكِبْرُ على أحَدٍ، وإنما التَّكَبُّرُ لِلَّهِ تعالى، فَلَهُ يَليقُ لِما لا مِثْلَ لَهُ، ولا شَكْلَ، مُنَزَّهٌ عنِ العُيوبِ كلِّها والحاجاتِ. لذلكَ كانَ هو الموصوفَ بالكِبرياءِ والعَظَمَةِ.

وقولُهُ تعالى ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي لَيسُوا هُمْ بأهلِ الكِبْرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ أمْكَنَ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَرَوْا۟﴾ أي وإنْ عَلِمُوا أنهُ آيةٌ فلا[12] يُؤْمِنُونَ بِهِ أبداً. هذا في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهُمْ لا يُؤْمِنونَ أبداً، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي وإنْ عَلِمُوا أنّ ذلكَ هو سَبِيلُ الغَيِّ والباطِلِ ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

(١) في الأصل وم: إذ. (٢) من م، في الأصل: لكل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حد. (٥) الضمير يعود إلى الحسن. (٦) في الأصل وم: وذلك. (٧) في الأصل وم: المهلكون. (٨) من م، في الأصل: هم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: عن. (١١) من م، في الأصل: عن. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الصَّرْفَ الذي ذَكَرَ عن آياتِهِ لَمّا كَذَّبُوا الآياتِ بَعْدِ عِلْمِهِمْ أنها آياتٌ مِنَ اللهِ ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ غَفْلَةَ الإعراضِ والعِنادِ لا غَفْلَةَ الجَهْلِ والسَّهْوِ.

الآية ١٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي الذينَ كَذَّبوا بالآياتِ والبَعْثِ بَعْدَ المَوتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ: يَحْتَمِلُ أنهُمْ كانُوا مُؤمِنينَ مِنْ قَبْلُ، فَكَذَّبُوا الآياتِ، فَكَفَرُوا بها فَحَبِطَتِ الأعمالُ التي كانَتْ لَهُمْ في حالِ الإيمانِ، وبَطَلَتْ، ويَحْتَمِلُ: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ المَعْرُوفُ الذي كانُوا يَفْعَلُونَ في حالِ الكُفرِ مِنْ نَحْوِ صِلَةِ الرَّحِمِ والصَّدَقاتِ وغَيرِهِ مِنَ المَعْرُوفِ، والخَيراتِ التي عَمِلُوا بها، حَبِطَتْ [أي حَبِطَ][1] ثوابُ ذلكَ كُلِّهُ إذا لم يأتُوا بالإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ما ﴿يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الاستِهزاءِ بالآياتِ والاستِخفافِ.

الآية ١٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ وقولُهُ: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾ كَيفِيَّةُ وَصْفِ اتِّخاذِ العِجلِ ما ذُكِرَ في سورةِ طه بقولِهِ تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [الآية: ٨٨] الآيةُ وَصْفُ اللهِ ﷻ، قومَ مُوسَى بَعضَهُمْ بالهِدايَةِ والعَدالَةِ واتِّباعِ الحَقِّ بقولِهِ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، و بعضُهُمْ وَصَفَهُمْ بالسَّفاهَةِ وقِلَّةِ الفَهْمِ والضَّعْفِ في الدينِ بقولِهِمْ: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

[وقولُهُ تعالى][2] ههنا ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ اتَّخَذُوا العِجْلَ إلهاً عَبَدُوهُ، يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ، لِما لم يَعرِفُوا نِعَمَ اللهِ، ولم يَتَفَكَّرُوا في آياتِهِ وحُجَجِهِ، يَذْكُرُ هذا لنا لِنَنْظُرَ في آياتِهِ وحُجَجِهِ ولِلتَّفَكُّرِ في نِعَمِهِ، فَنُؤَدِّيَ شُكرَها، ونَتَدَبَّرَ في آياتِهِ وحُجَجِهِ لِنَتَّبِعَها، ولا نُضَيِّعَها على ما ضَيَّعَ قومُ مُوسَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ أي مِنْ بَعْدِ مُفارَقَةِ مُوسَى قومَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ وقالَ في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧] وكانَتْ تِلْكَ الحُلِيُّ عارِيَةً عندَهُمْ مِنْ قومِ فِرعَونَ. بقولِهِ: ﴿أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ أضافَ إلى فِرْعَونَ، وأضافَ ههنا إلى قومِ موسَى بِقولِهِ: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ دلَّ أنَّ العارِيَةَ يَجوزُ أنْ تُنْسَبَ إلى المُسْتَعِيرِ.

وفيهِ[3] دلالَةٌ أنَّ مَنْ حَلَفَ ألّا يَدْخُلَ دارَ فُلانٍ، فَدَخَلَ داراً، لَهُ عارِيَةٌ عِنْدَهُ، يَحْنَثُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: صُورَتُهُ كانَتْ صُورَةَ عِجْلٍ، ولم يَكُنْ عِجْلاً في خُوارِهِ، وقيلَ: الجَسَدُ، هو الذي لا تدبيرَ لهُ، ولا تَمْييزَ، ولا بيانَ، لكنَّهُ ذَكَرَ فيهِ هذا لِما[4] يَحتاجُ إلى هذا، وهو قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ولكنَّهُ كأنهُ قالَ ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ أنهُمْ عَبَدُوا مَنْ لا تدبيرَ لَهُ، ولا كَلامَ، ولا سَبَبَ[5] يُعَبِّرُ بِهِ، أو دُعاءَ، واختارُوا إلهِيَّةَ مِنْ وَصْفِهِ ما ذُكِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ قيلَ: إنَّ السامِرِيَّ قد أخَذَ ﴿قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦]، فألْقَى تلكَ القَبْضَةَ في الحُلِيِّ [التي ألْقَوها][6] في النارِ، فَصارَ /١٨٦ ـ ب/ شِبْهَ عِجْلٍ لَهُ خُوارٌ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: صاغَ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً، فَنَفَخَ فيهِ مِنْ تلكَ القَبْضَةِ، فَخارَ خُواراً. وقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ السامِرِيَّ كانَ هَيَّأَ ذلكَ العِجْلَ الذي اتَّخَذَهُ بِحالٍ حتى إذا مَسَّهُ خارَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: كانَ وَضَعَهُ[7] في مَهَبِّ الرِّيحِ، فيَدْخُلُ الرِّيحُ في دُبُرِهِ، ويَخْرُجُ مِنْ فِيهِ، فعِنْدَ ذلكَ يَخُورُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقالوا. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ما لا. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: الذي. (٦) في الأصل وم: الذي القوه. (٧) في الأصل وم: وضع.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ذَكَرَ ﴿أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ وفي سورة طه ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [الآية: ٨٩] لَيسَ فيه أنهُ إنْ كانَ ﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾أو ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ يَجُزْ[1] أنْ يُعْبَدَ لِيُعْلَمَ أنَّ ذِكْرَ حَظْرِ الحُكْمِ في حالٍ لا يُوجِبُ إباحَةَ ذلكَ في حالٍ أُخرَى.

وفيهِ أنَّ امْتِناعَ العِلَّةِ عَنِ اطِّرادِها يُوجِبُ نَقْضَهَا، وإنْ كانَ اطِّرادُها في الابْتِداءِ في مَعْلُولاتِها لم يَدُلَّ على صِحَّتِها.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [وقولِهِ تعالى][2]: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ذِكْرُ سَفَهِهِمْ لِعِبادَتِهِمْ شَيئاً لا يَمْلِكُ ﴿لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ إلهاً عَبَدُوهُ ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ في عِبادتِهِمُ العِجلَ؛ لأنهُمْ وضَعُوا العِبادَةَ في غيرِ مَوضِعِها.

الآية ١٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ هذا حَرفٌ تَسْتَعْمِلُهُ العَرَبُ عندَ وقوعِ النَّدامَةِ وحُلُولِها. وتأويلُهُ: لَمّا رَأوا أنهُمْ قد ضَلُّوا: ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي نَدِمُوا على ما كانَ منهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ أي ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ ويُوَفِّقْنا الهِدايةَ والعِبادَةَ لَهُ[3] ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ لِما كانَ مِنّا مِنَ العِبادَةِ لِلْعِجلِ والتَّفرِيطِ في العِصْيانِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ابْتِداءَ سَبَبِ الرَّحْمَةِ والمَغْفِرَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ الآية [هود: ٩٠] ويَحْتَمِلُ التَّجاوُزَ لِما كانَ مِنْهُمْ والعَفْوَ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ بَعْدَ قولِهِ تعالى: ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ دلالةٌ أنَّ الكلامَ هو ما يُفْهَمُ به المُرادُ، لَيسَتِ الحروفُ نَفْسُها؛ لأنهُ أخْبَرَ أنَّ لَهُ خُواراً[4]. ثم أخبَرَ ﴿أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ دلَّ أنَّ الصوتَ، وإنْ كانَ ذا هِجاءٍ وحُروفٍ لَيسَ بِكلامٍ، وذلكَ يَدُلُّ لِأصحابِنا في مَسألةِ مَنْ[5] حلَفَ ألّا يُكَلِّمَ فُلاناً، ثم خاطَبَهُ بِشَيءٍ لا يُفْهَمُ مُرادُهُ فإنَّ[6] ذلكَ لَيسَ بِكلامٍ، ولا يَحْنَثُ.

الآية ١٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ الأسَفُ هو النِّهايَةُ في الحُزْنِ والغَضَبِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] هو النِّهايَةُ في الحُزْنِ. والأسَفُ في مَوضِعِ الغَضَبِ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] أي أغْضَبُونا. لكنَّ الغَضَبَ يكونُ على مَنْ دُونَهُ، والأسَفَ والحُزْنَ على مَنْ فَوقَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿غَضْبَانَ﴾ أي للهِ على قومِهِ لِعِبادَتِهِمُ العِجلَ وتَرْكِهِمْ عِبادةَ اللهِ حُزناً على قومِهِ لِما يَلْحَقُهُمْ بِعِبادَتِهِمُ العِجلَ مِنَ العُقوبَةِ. وهكذا الواجبُ على مَنْ رأى المُنكَرَ أنهُ يَغْضَبُ لِلّهِ على مُرْتَكِبِ ذلكَ المُنكَرِ لِمُعايَنَةِ المُنكَرِ، ويأسَفُ عليهِ لِما يَلْحَقُهُ مِنَ العُقوبَةِ والهَلاكِ رَحْمَةً منهُ لَهُ ورأفَةً، ويَلْزَمُ الشُّكرَ لِرَبِّهِ لِما عَصَمَهُ عن مِثْلِهِ.

وكذلكَ وَصَفَ رسولَهُ ﷺ[7] بالأسَفِ والحُزْنِ لِتَكذيبِهِمْ إياهُ حتى كادَتْ نَفْسُهُ تَهْلِكُ حُزناً عليهِمْ حينَ قالَ: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقالَ[8]: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨].

ذَكَرَ هذِهِ القِصَّةَ لنا لِنَعْرِفَ أنْ كيفَ نُعامِلُ أهلَ المَناكِيرِ وقتَ ارْتِكابِهِمُ المُنكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ بِئْسَما اخْتَرْتُمْ مِنْ عِبادَتِكُمُ العِجلَ على عِبادَةِ اللهِ.

والثاني: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ باتِّباعِكُمُ السامِرِيَّ إلى ما دَعاكُمْ إليهِ بَعْدَ اتِّباعِكُمْ إيّايَ وأخِي رسولَ اللهِ وما أمَرْكُمْ به، ودَعاكُمْ إلى عِبادَةِ اللهِ، واللهُ أعْلَمُ.

(١) في الأصل وم: يجوز. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لك. (٤) في الأصل وم: خوار. (٥) في الأصل وم: إذا. (٦) في الأصل وم: إن. (٧) في م، ﷺ. (٨) في الأصل وم: وقوله.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: أعَجِلْتُمْ ميعادَ ربِّكُمْ؟ كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ [طه: ٨٦] أي أعَجِلْتُمُ الوَعْدَ الحَسَنَ الذي وَعَدَ لَكُمْ ربُّكُمْ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]. وقالَ آخَرونَ: قولُهُ تعالى: ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ عذابَ ربِّكُمْ وغضبَهُ بِعِبادَتِكُمُ العِجلَ واتِّخاذِكُمْ إلهاً. وقد سَمّى اللهُ تعالى الأمْرَ في غيرِ موضِعٍ مِنَ القرآنِ عذاباً كقولِهِ: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١] ونَحْوِهِ: ﴿جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ قالَ أكثَرُ أهلِ التأويلِ ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ أي طَرَحَها على الأرضِ غَضَباً منهُ، فَرُفِعَ منها كذا وكذا، وبَقِيَ كذا. لكنْ لا يَجوزُ أنْ يُفْهَمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ طَرْحُها، لا غَيرُ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾؟ [النحل: ١٥] لَيسَ يُفْهَمُ منهُ الطَّرْحُ والإلقاءُ، لكنْ إنما فُهِمَ منهُ الوَضْعُ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ أي وَضَعَها[1] لأنهُ أخَذَ رأسَهُ ولِحْيَتَهُ؛ أعني رأسَ أخيهِ هارونَ، ولا سَبيلَ لهُ إلى أنْ يأخُذَ رأسَهُ ولِحْيَتَهُ، والألواحُ في يَدِهِ، فَوَضَعَها على الأرضِ، ثم أخَذَ رأسَهُ ولِحيَتَهُ، وجَرَّهُ إليهِ.

وعَلَى ما ذَكَرَ في سورةِ طه حِينَ[2]: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [الآية: ٩٤] دَلَّ هذا أنْ كانَ أخَذَ رأسَهُ ولِحْيَتَهُ جَميعاً لِشِدَّةِ غَضَبِهِ لِلّهِ على صَنيعِ قومِهِ.

وفي الآيةِ دلالَةُ العَمَلِ بالاجتِهادِ؛ لأنهُ قالَ: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ موسى يأخُذُ رأسَهُ بالوَحْيِ والأمرِ مِنَ اللهِ، ثم يقولُ لهُ هارونُ: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾ ولا بكذا، ولا تَفعَلْ كذا.

وفيهِ أيضاً أنَّ هارونَ لَمّا قالَ لهُ: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ﴾ إنما قالَ ذلكَ بالاجتِهادِ حِينَ[3] قالَ: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: ٩٤] لأنهُ لو كانَ يقولُ لهُ بالوَحْيِ أو بالأمرِ لم يكُنْ لِيَعتَذِرَ إليهِ بقولِهِ: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ﴾ فيهِ دلالَةُ أنهُ إنما أخذَ شَعْرَ رأسِهِ؛ لأنهُ لو كانَ أخذَ رأسَهُ لكانَ لا يَحتاجُ إلى أنْ يَجُرَّهُ إليهِ. دَلَّ أنهُ كانَ أخَذَ بِشَعرِ رأسِهِ. وكذلكَ قولُهُ ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: ٩٤]

وفيهِ دلالَةٌ لِأصحابِنا أنَّ مَنْ مَسَحَ رأسَهُ، ثم أزالَ شَعْرَهُ، لم يَسقُطْ عنهُ حُكْمُ المَسْحِ، وإذا مَسَحَ على لِحْيَتِهِ، ثم سَقَطَتْ[4]، زالَ عنهُ حُكْمُهُ، ولَزِمَ غَسلُ ذَقْنِهِ، لِما سَمّى الشَّعْرَ رأساً، وسَمّى اللِّحْيَةَ لِحيَةً؛ وسُقُوطُها يُسقِطُ حُكْمَ المَسْحِ، وسُقوطُ شَعْرِ الرأسِ لا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ خَرَجَ هذا صِلَةَ قَولِ موسى لِهارونَ لَمّا [قالَ لَهُ][5]: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢ و٩٣] فقالَ عندَ ذلكَ ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

الآية ١٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ قالَ بَعْضُهُمْ إنما خَصَّ أخاهُ بسؤالِ المَغفِرَةِ، وقالَ بَعْضُهُمْ: إنما قالَ ذلكَ جَواباً لما[6] قالَ هارونُ: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ الآيةَ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ تَخصيصُ السؤالِ لهُ بالمَغفِرَةِ لَمّا سألَ رَبَّهُ أنْ يَجعَلَ هارونَ لهُ وزيراً بقولِهِ: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩ - ٣٢] لَمّا سألَ رَبَّهُ أنْ يُشرِكَهُ في أمرِهِ، ويَشُدَّ بهِ أزْرَهُ. فَعَلَى ذلكَ خَصَّهُ بسؤالِ المَغفِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لأنَّ كُلَّ مَنْ يَرحَمُ [مَنْ دونَهُ فإنما][7] يَرحَمُ بِرَحمتِهِ.

---

(١) في الأصل وم: وضع. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: سقط. (٥) من م، في الأصل: قاله.
(٦) في الأصل وم: مما. (٧) في الأصل وم: دونه.

جنة السنة

الآية ١٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ أي عَبَدُوا العِجلَ ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ القَتْلُ والهلاكُ في الدنيا. وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ القَتْلُ والهَلاكُ ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الجزيَةُ والسَّبْيُ والقَهْرُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ذِكْرَ الذَّمِّ بِصَنيعِهِمْ وثناءِ الخيرِ على ما كانَ بِصَنيعِ الخيرِ والمَحْمَدَةِ في الدنيا وثناءِ الخيرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهُما: أي قد نالَهُمْ ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وما ذُكِرَ.

والثاني: أنْ يكونَ هذا مذكوراً في كُتُبِهِمْ: أنَّ مَنِ اتَّخَذَ العِجلَ مَعْبوداً ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فإنْ كانَ هذا خَبَراً عمّا في كُتُبِهِمْ فَسينالُهُمْ على الوعدِ صحيحٌ، وإلّا على الخَبَرِ أي قد نالَهُمْ.

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ أي كذلكَ نَجْزي كُلَّ مُفْتَرٍ على اللهِ تعالى.

الآية ١٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: قولُهُ: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ يَعْني الذينَ عبدُوا العِجلَ ﴿ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهو في كلِّ مَنْ عَمِلَ السَّيِّئاتِ /١٨٧ ـ أ/ أيَّ سَيِّئةٍ كانَتْ: إذا تابَ عنها، ونَدِمَ عليها، وطَلَبَ مِنَ اللهِ المَغْفِرَةَ، غَفَرَ لَهُ.

الآية ١٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ الذي غَضِبَ للهِ على قومِهِ بِعِبادَتِهِمُ العِجلَ. ولا يَحْتَمِلُ ما قالَهُ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: إنَّ الغَضَبَ عُقوبةٌ وشَتْمٌ؛ لأنَّ الغَضَبَ مَعْروفٌ، لا يَجوزُ أنْ يُتَأوَّلَ ما قالَ هو.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ يَعْني الألواحَ التي وضَعَها على الأرضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: يَعْني في نُسْخَةِ الألواحِ لَمّا كانَتْ قد نُسِخَتْ مِنَ اللوحِ المَحفوظِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أي الكُتُبِ التي انْتَسَخَها بَنو إسرائيلَ مِنْ تلكَ الألواحِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي هُدىً مِنْ كُلِّ ضَلالَةٍ وبيانٌ مِنْ كُلِّ عَمىً وشُبْهةٍ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ مِنْ كُلِّ سَخْطَةٍ وغَضَبٍ ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي لِلذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، فَيَعْمَلُونَ.

الآية ١٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿لِّمِيقَاتِنَا﴾ أي لِتَمامِ المَوعِدَةِ التي وَعَدَ، وهو الأربعونَ الذي وَعَدَ. ولكنْ لا نَدْري ما ذلكَ المِيقاتُ الذي ذَكَرَ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ قالَ بَعْضُهُم: السَّبْعينَ الذينَ اخْتارَهُم مُوسَى لِيَكُونُوا مَعَ هارونَ، فَعَبَدوا العِجلَ في أفْنِيَتِهِمْ، فلم يُنْكِرُوا، ولم يُغيِّروا عليهما[2]، ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ وقالَ الحَسَنُ: إنهُمْ[3] جميعاً قد عَبَدُوا العِجلَ إلّا هارونَ، فالرَّجْفَةُ التي أخَذَتْهُمْ إنما أخَذَتْهُمْ عُقوبَةً لِما عَبَدُوا العِجلَ. ولَسْنا نَدْري مَنْ أولئكَ السَّبْعونَ[4] الذين اختارَهُمْ مُوسَى؟

وأمْكَنَ أنْ يكونَ مُوسَى اختارَ السَّبْعينَ لِيَخْرُجُوا مَعَهُ، فيكونُوا شُهداءَ لهُ على إنزالِ التوراةِ عليه كلامَ ربِّهِ.

وقيلَ: هُمُ الذينَ تركَهُمْ في أصْلِ الجَبَلِ، فلَمّا جاءَهُمْ مُوسَى بالتوراةِ قالُوا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فَأخَذَتْهُمُ الصاعقةُ، وهَلَكُوا، لِقَولِهِمْ ذلكَ. وقد ذَكَرْنا أنّا لا نَدْري مَنْ كانُوا؟

وقِيلَ: اختارَهُمْ مُوسَى لِيَتُوبُوا إلى اللهِ مِمّا عَمِلَ قومُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: لو شِئْتَ أمَتَّهُمْ وإيّايَ بِقَتْلِ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عليهم. (٣) في الأصل وم: إنه. (٤) في الأصل وم: السبعين.

جنة السنة

القِبطيّ. وقالَ آخرونَ ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم﴾ على نَفسِ الإهلاكِ ﴿وَإِيَّايَ﴾ على القُدرَةِ؛ أي تَقدِرُ على إهلاكي، ولكنْ لا تُهلِكُنا لِما لم يَكُن ما نَستَحِقُّهُ[1] ذلكَ. ويُشبهُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم﴾ إهلاكَ فِتنَتِهِ وإيّايَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: يقولُ، واللهُ أعلَمُ، لَكَ أنْ تُهلِكَنا ابتِداءَ إهلاكٍ [وتُهلِكَ السفهاءَ][2] بِما فَعَلوا.

والثاني: يقولُ: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ وما تُهلِكُنا بقَومِنا[3] لأنّ موسى أتى قومَهُ وأخبَرَهُم أنهُم أهلكوا بِسَبَبِ كذا، لم يُصدِّقْهُ[4] قومُهُ بذلكَ، ولكنَّهُم يَتَّهِمُونَهُ، ويقولونَ: أنتَ قَتَلتَهُم[5] على ما ذُكِرَ في بَعضِ القصةِ أنهُ خَرَجَ بِهارونَ إلى بَعضِ الجبالِ، فماتَ هارونُ هناكَ، فأخبَرَ قومَهُ بذلكَ، فَكَذَّبوهُ، وقالوا: أنتَ قَتَلتَهُ.

فَعَلى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ههنا خافَ أنْ يَتَّهِمَهُ قومُهُ في أولئكَ، ولا يُصدِّقوهُ في ما حَلَّ بِهِم، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجوهاً: يَحتَمِلُ ما يُرادُ بِهِ التَّقريرُ، ويَحتَمِلُ الإنكارَ والرَّدَّ، ويَحتَمِلُ الإيجابَ.

أمّا الإنكارُ فيكونُ مَعناهُ ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ﴾ أي لا تَفعَلُ، ولا تُهلِكُنا ﴿بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ ومِثلُ هذا قد يُقالُ: يقولُ رجلٌ لِآخَرَ: أتَفعَلُ أنتَ كذا على الإنكارِ؟ أي لا تَفعَلُ، فَعَلى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ، ويرادُ بِهِ الإيجابُ، كأنهُ قالَ: لَكَ ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أنْ يكونَ ذلكَ امتِحاناً وابتِلاءً ابتِداءً؛ أي تَفعَلُهُ امتِحاناً وابتِلاءً لا تَعذيباً.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ على الاستِفهامِ، لكنْ لم يُخرِجْ لهُ الجوابَ كقولِهِ تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١] ونَحوَهُ ممّا لم يُخرِجْ لهُ جوابٌ. فَعَلى ذلكَ هذا.

ويجوزُ أنْ يكونَ إهلاكُهُ إيّاهُم مِحنَةً بِتَفريطٍ كانَ مِن بَعضِهِم يَراهُ مِن ذلكَ على ما كانَ مِن أهلِ المَركَزِ منَ العِصيانِ، وكانَ الفَشَلُ والهزيمةُ عليهِم مِحنَةً منهُ إيّاهُم كقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٢].

فَعَلى ذلكَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ﴾ قالَ أبو بَكرٍ: ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي تَنهى مَن فَعَلَ الاهتِداءَ، لكنَّ حَرفَ مَن إنما يُعَبَّرُ بِهِ[عَن][6] الأشخاصِ دونَ الأفعالِ. فلو كانَ على ما ذَكَرَ هو لَقالَ: تُضِلُّ به ما[7] تَشاءُ. فإنْ لم يَقُلْ ذا ثَبَتَ أنهُ لَيسَ على ما ذَكَرَ.

وتأويلُهُ عندَنا أنهُ يَخلُقُ فِعلَ الضَّلالِ مِمَّنْ يَعلَمُ أنهُ يَختارُ ذلكَ، ويَخلُقُ فِعلَ الهُدى مِمَّنْ يَعلَمُ أنهُ يَختارُ ذلكَ [لِقولِهِ تعالى][8]: ﴿هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وأصلُ ذلكَ أنّ جَميعَ ما يُضافُ إلى اللهِ مِن طريقِ الأفعالِ على اختِلافِ الإضافةِ باختِلافِ[9] وُجوهِها، حقيقةُ ذلكَ مِنَ اللهِ؛ خَلقُ ما أُضيفَ إليهِ مِنَ الوَجهِ الذي يَحِقُّ وَصفُهُ بأنهُ خالِقُهُ. فَعَلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَتَهْدِي﴾ و﴿تُضِلُّ﴾. ويَحتَمِلُ: تُوَفِّقُ، وتَخذُلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي أنتَ وَليٌّ بنا، ويَحتَمِلُ: أنتَ وَليُّ هِدايَتِنا أو أنت وليُّ نِعمَتِنا؛ ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [كقولِهِ تعالى][10] ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩ و١١٨] لأنّ كُلَّ أحدٍ دونَهُ إنما يَرحَمُهُ[11] ويَغفِرُ [لهُ][12] بِرَحمَتِهِ.

---

(١) في الأصل وم: يستحقه. (٢) في الأصل وم: والسفهاء. (٣) الباء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يصدقوا. (٥) من م، في الأصل: قتلهم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: من. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: بالاختلاف. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: يرحم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ١٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ يَحْتَمِلُ الإيجابَ: أي أوجِبْ ﴿لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ حسنةً. وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا﴾ أي وَفِّقْ لنا العَمَلَ الذي نَسْتوجِبُ به الحَسَنَةَ في الدنيا والآخِرَةِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا﴾ في الدنيا الحَسَناتِ، ولا تَكْتُبْ علينا السَّيِّئاتِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ تُخْتَمُ بها الدنيا، وتَنْقَضِي بها. وإلّا ما مِنْ مُسْلِمٍ إلّا وَلَهُ في الدنيا حَسَنَةٌ آتاها إياهُ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] أنهُمْ إنما سألُوا حَسَنَةً أنْ يُخْتَمُوا[١] عليها، ويكونُ كقولِهِ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٠] كذا. واللهُ أعْلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي مِلْنا إليكَ، وقالَ غَيْرُهُمْ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي تُبْنا إليكَ. وقيلَ: ولذلكَ سَمَّى[٢] اليهودُ أنْفُسَهُمْ يَهوداً؛ أي تائِبِينَ إلى اللهِ. لكنْ لو كانَ كما ذُكِرَ كانَ قولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧] أي تائباً، وذلكَ بعيدٌ، ولكنْ، إن كانُوا سُمُّوا، فهو، واللهُ أعْلَمُ، ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ أي لم يكُنْ على المَذْهبِ الذي عليهِ اليهودُ ﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ وكذلكَ لم يكُنْ على المذهبِ الذي ادَّعَتِ النَّصارى أنهُ كانَ عليهِ ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قالَ الحَسَنُ: يَشاءُ أنْ يُصِيبَ عذابُهُ مَنْ كَفَرَ باللهِ، وكَذَّبَ رسولَهُ، وشاءَ مَنْ أطاعَ اللهَ، وصَدَّقَ رُسُلَهُ، أنْ يُصيبَ رَحْمَتَهُ.

ودلَّ قولُهُ تعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ أنهُ لمّا شاءَ العَمَلَ والفِعْلَ الذي كانَ به يُصيبُهُمْ؛ لأنَّ حَرْفَ مَنْ إنما يُعَبَّرُ بهِ عنْ بني آدَمَ، ولا جائزٌ أنْ يَشاءَ لَهُمُ الإيمانَ، ثم يَشاءُ لَهُمْ أنْ يُصيبَهُمْ عذابُهُ. ولكنْ إنْ عَلِمَ منهُمْ أنهُمْ لا يُؤمِنونَ، ويَختارُونَ فِعْلَ الضَّلالِ على فِعْلِ الهُدَى، شاءَ لَهُمْ ما اختارُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ما مِنْ أحدٍ مِنْ مُسْلِمٍ وكافِرٍ إلا وعليهِ مِنْ آثارِ رَحْمَتِهِ في هذهِ الدنيا؛ بها يَتَعَيَّشونَ، ويُؤاخُونَ، ويُوادُّونَ، وفيها يَنْقَلِبُونَ. لكنَّها[٣] لِلْمُؤمِنينَ خاصَّةً في الآخِرَةِ، لا حَظَّ للكافِرِ فيها. وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ مَعْصيَةَ اللهِ ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وكقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

جَعَلَ طَيِّباتِ الحياةِ الدنيا ونِعَمَها[٤] مُشْتَرَكَةً بينَ المُسْلِمِ والكافِرِ خالِصَةً لِلَّذينَ آمَنُوا يومَ القيامَةِ، لا حَظَّ لِلْكافِرِ فيها. فَعَلى ذلكَ رَحْمَتُهُ نالَتْ كُلَّ أحدٍ في هذهِ الدُّنيا، لكنها لِلَّذينَ آمَنُوا، واتَّقَوُا الشِّرْكَ، خاصَّةً في الآخِرَةِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى، واللهُ أعْلَمُ، ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أنهُمْ إنما سَألُوا الرحمَةَ، فقالَ: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ مَعاصِيَ اللهِ/ ١٨٧ ـ ب/ ومُخالَفَتَهُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المَعْرُوفَةَ، ويَحْتَمِلُ تَزْكِيَةَ النَّفْسِ كقولِهِ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ و١٠] ومَعْلُومٌ أنهُ لم يُرِدْ بِهِ زكاةَ المالِ، ولكنْ زكاةَ النَّفْسِ بالتَّوحِيدِ والتَّقْوَى، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، هو تلكَ الزَّكاةُ، لا الزَّكاةُ المَعْرُوفَةُ زكاةُ المالِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ على الزَّكاةِ المَعْرُوفَةِ فذلكَ في قومٍ، ثَقُلَ عليهِمْ، واشْتَدَّ إخْراجُ الزَّكاةِ مِنْ أموالِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ [هُمْ كَٰفِرُونَ]﴾[٥] [فصلت: ٧].

---

(١) في الأصل وم: يختمون. (٢) في الأصل وم: سميت. (٣) من م، في الأصل: لكنا. (٤) في الأصل وم: ونعيمها. (٥) أدرج بدلها في الأصل وم: كذا.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ قد ذكرْنا في غيرِ موضعٍ أنَّ مَنْ آمنَ بآياتِ اللهِ، وصدَّقَها، فقد آمنَ باللهِ وبرَسولِهِ، ومَنْ كَذَّبَ [بآياتِهِ كَذَّبَ](1) باللهِ، وخالفَ رُسُلَهُ؛ لأنَّ طريقَ معرفةِ اللهِ ورُسُلِهِ إنما هو مِنْ طريقِ الآياتِ والحُجَجِ، لَيسَ مِنْ طريقِ المُشاهداتِ والمَحْسُوساتِ. لذلكَ كانَ الإيمانُ بالآياتِ إيماناً باللهِ وبِرُسُلِهِ، وبالتَّكذيبِ بها كُفْرٌ باللهِ ورُسُلِهِ.

الآية ١٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ أي يقتفُونَ(2) أثرَ الرَّسولِ في كُلِّ سِيرَتِهِ، وفي كُلِّ أَمْرِهِ ونَهْيِهِ، ويُطيعُونَهُ.

سَمَّاهُ رَسُولاً ونبيّاً بقولِهِ تعالى: ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ﴾. والرَّسُولُ المَبْعُوثُ على تَبْليغِ الرسالةِ، والمَأمُورُ بها على كُلِّ حالٍ. والنَّبيُّ كالمُنبِئِ لَهُمْ أشياءَ عندَ السؤالِ والاستِخْبارِ. والرَّسُولُ هو المَأمُورُ بالتَّبْليغِ سَأَلُوهُ، أو لم يَسْألُوا، شاؤوا، أو أبَوا، وكانَ لمحمدٍ ﷺ، كِلاهُما: الإنباءُ والتَّبْليغُ كقولِهِ تعالى: ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد: ١٩] وقولِهِ تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ ﴿الْأُمِّيَّ﴾ ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى، وهو قولُهُ ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٨].

[وقولُهُ تعالى](3): ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ أي يَجِدُونَهُ مكتوباً في التوراةِ أنهُ رسولٌ نَبِيٌّ، وأنهُ أمِّيٌّ.

[وقولُهُ](4) تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ﴾ لئلا يَقُولُوا إنكَ أخذْتَ هذا مِنَ الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ ومِنْ علومِها وحِكْمَتِها ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ لئلا يقولُوا: إنهُ مِنْ تأليفِكَ، ويَعْلَمُوا أنهُ مِنْ عندِ اللهِ جاءَ بِهِ لا مِنْ ذاتِ نَفْسِه.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ، لأنَّ أولئكَ لم يَأتُوا بالتوراةِ والإنجيل، فيقولُوا(5): لا نَجِدُ ما تَذْكُرُ في التوراةِ والإنجيلِ.

دلَّ ذلكَ منهُمْ على أنهُمْ وجَدُوهُ كذلكَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أي يَجِدُونَهُ مكتوباً عندَهُمْ في التَّوراةِ أنهُ يَأمُرُ بما أمَرَ اللهُ بِهِ، ويَنْهى عمّا نَهى اللهُ عنهُ ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ ما أحَلَّ اللهُ لَهُمْ ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ ما حَرَّمَ اللهُ عليهِمْ يَجِدُونَهُ في التَّوراةِ أنهُ لا يأمُرُ بِشَيءٍ، ولا يَنْهى عَنْ شيءٍ، ولا يُحِلُّ شيئاً، ولا يُحَرِّمُ إلّا بأمْرٍ مِنَ اللهِ لَهُ. لكنَّهُمْ يُنْكِرونَهُ إنكارَ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ كقولِهِ تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] وغيرَهُ.

ويحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ الآية أي يأمُرُ بما هو مَعْروفٌ في العَقْلِ وشَهادَةِ الخِلْقَةِ [وهو التَّوحيدُ، وكذلكَ يَنهاهُمْ عمّا هو في العَقْلِ وشهادةِ الخِلْقَةِ](6) مُنْكَرٌ، وهو الكُفْرُ وجَميعُ المَعاصِي ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي يُحِلُّ ما هو طَيِّبٌ في العَقْلِ والطَّبْعِ، ويُحَرِّمُ ما هو خَبيثٌ في العَقْلِ والطَّبْعِ جميعاً؛ لأنَّ مِنَ الأشياءِ ما هو مُسْتَخْبَثٌ في الطَّبْعِ. لم يُجْعَلْ غذاءَ البَشَرِ فيهِ وإنما جُعِلَ غِذاءَهُمْ في ما هو مُستطابٌ في الطَّبْعِ، بَلَغَ غايَتَهُ في الطِّيبِ. ولا كذلكَ جُعِلَ غِذاءُ البهائِمِ والأنعامِ. هذا يَحْتَمِلُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم المَعْرُوفُ والطَّيِّباتُ لو تُرِكَتِ العقولُ والطباعُ على ما هيَ عليهِ لكانَتْ لا حاجةَ تَقَعُ إلى رسولٍ يُخْبِرُ أنَّ [هذا معروفٌ وأنَّ](7) هذا طَيِّبٌ أو خَبيثٌ أو مُنْكَرٌ. ولكنْ تَعْرِفُ العقولُ والطِّباعُ ذلكَ كُلَّهُ. لكنْ تَعْرِضُ العُقولُ عَنِ الشُّبَهِ، فَتَمنَعُها عَنْ مَعْرِفةِ ذلكَ، فاحتاجَتْ إلى رسولِ اللهِ يُخْبِرُ عنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ قِيلَ: ما غَلَّظُوا على أنْفُسِهِمْ مِنَ الشدائدِ، وقيلَ ﴿إِصْرَهُمْ﴾ شِدَّةٌ مِنَ العِبادَةِ والعَمَلِ، وقِيلَ: ﴿إِصْرَهُمْ﴾ عَهْدَهُمْ، وقيلَ: ﴿إِصْرَهُمْ﴾ الثِّقَلَ الذي كانَ بَنو إسرائيلَ أُلْزِمُوهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: يقفون. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيقولون. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

وقال القُتَبِيُّ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي ذنبَهُمُ الذي كانُوا يُذْنِبُونَ، أي عُقوبةَ الذَّنْبِ الذي أذنَبُوا في الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ قالَ الحَسَنُ: إنَّ اليهودَ قالُوا ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي مَحْبوسَةٌ[1] عن عقوبتِنا، فقال ﷻ: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤] أي غُلَّتْ أيديهِمْ إلى أعناقِهِمْ في النارِ.

فأخبَرَ أنَّ أمَّةَ محمدٍ ﷺ لَمّا آمَنُوا بِهِ، وصَدَّقُوهُ، رَفَعَ تلكَ الأغلالَ التي كانَتْ عليهِمْ عن هذهِ الأمَّةِ بطاعَتِهِمْ رسولَ اللهِ ﷺ.

وقيلَ: الأغلالُ الشدائدُ التي كانَتْ عليهِمْ مِنْ نَحْوِ ما لا يجوزُ لَهُمْ: العَفْوُ[2] عنِ الدمِ العَمْدِ وأخذُ[3] الدِّيَةِ وغَسْلُ[4] النجاساتِ إلّا القَطْعَ وغيرُ ذلكَ مِنَ الأشياءِ التي لم تَحِلَّ لَهُمْ، فأُحِلَّتْ لهذِهِ الأمَّةِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الإصْرُ والأغلالُ التي كانَتْ عليهِمْ مِنْ نحوِ ما حُرِّمَتْ مِنْ أشياءَ بِظُلْمٍ كانَ مِنْهُمْ وتَحريمِ نَحْوَ قولِهِ تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ﴾ [النساء: ١٦٠] وقولِهِ تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] حُرِّمَتْ تلكَ الأشياءُ عليهِمْ عُقُوبةً لِبَغْيِهِمْ وظُلْمِهِمُ الذي كانَ منهُمْ.

أخبَرَ أنهُ وَضَعَ عَنْ هؤلاءِ ذلكَ، لم يُحَرِّمْ ذلكَ عليهِمْ.

وفي الآيةِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبَرَ أنهُ أُمِّيٌّ، والأُمِّيُّ ما ذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ثم أخبَرَ على ما كانَ في كُتُبِهِمْ مِنْ غَيرِ أنْ عَرَفَ ما في كُتُبِهِمْ، أو نَظَرَ فيها، وعَرَفَ لِسانَهُمْ. دَلَّ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صَدَّقُوا بمحمدٍ ﷺ، ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ قيلَ: أعانُوهُ بأموالِهِمْ، ونَصَرُوهُ بأيديهِمْ بالسَّيفِ.

وقال الحَسَنُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ إنما هو كلامٌ مُثَنًّى، وهو إعانَةٌ، وقيلَ: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي عَظَّمُوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ يَعْني القرآنَ؛ سَمّاهُ نُوراً لِما يُنِيرُ الأشياءَ عَنْ حقائقِها بالعُقولِ؛ لأنَّ النورَ في الشاهِدِ هو الذي يَكْشِفُ عنِ الأشياءِ سواتِرَها. فَعَلى ذلكَ القرآنُ، وهو نورٌ لِما يَرْفَعُ الشُّبَهَ عنِ القُلوبِ، ويَكْشِفُ عنْ سَواتِرِها.

وقالَ بَعْضُهُمْ: سُمِّيَ نوراً لِما يُنِيرُ الأشياءَ، ويُعْرَفُ بِهِ ما غابَ، وما شَهِدَ، فَيَصيرُ الغائبُ بِهِ لهُ كالشاهِدِ.

الآية ١٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ فيه دلالةُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، كانَ مَبْعُوثاً إلى الناسِ كافَّةً، وكذلكَ رُوِيَ أنهُ ﷺ، قالَ: «بُعِثْتُ إلى الأحمَرِ والأسودِ وسائرُ الأنبياءِ بُعِثُوا إلى أقوامٍ خاصَّةٍ وإلى البُلْدانِ والقُرى المَعْروفةِ المَحْدُودَةِ» [أحمد ١/ ٢٥٠].

وفيهِ أنهُ لَمّا خاطَبَهُ [أمْرُهُ][5] أنْ يقولَ للناسِ، ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أنهُ لا سَبيلَ لهُ إلّا[6] أنْ يُخاطِبَ الناسَ والخَلْقَ جَمِيعاً، فيقولَ: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ولكنْ إنما يكونُ بِبَعْثِ الرُّسُلِ إليهِمْ، فَيَنْزِلُ قولُ الرسولِ: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ مَنْزِلَةَ قولِهِ[7] نَفْسِهِ: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ فانتَشَرَ[8] ذِكْرُهُ بتبليغِ الرُّسُلِ إليهِمْ؛ كأنهُ هو بَلَّغَ ذلكَ، وقالَ لهمْ: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أو أنَّ اللهَ ﷻ، سَخَّرَ الخَلْقَ حتى بَلَّغَ بَعْضُهُمْ بَعضاً رسالَتَهُ، وحتى فَشا خَبَرُهُ، وانْتَشَرَ ذِكْرُهُ في جميعِ آفاقِ الأرضِ شَرْقاً وغَرْباً. وذلكَ مِنْ عظيمِ آياتِ نُبُوَّتِهِ ورسالَتِهِ.

ثم بَيَّنَ أنهُ رسولٌ مِنَ اللهِ، فقالَ: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

---

(١) من م، في الأصل محسوسة. (٢) من م، في الأصل: العقول. (٣) في الأصل: ولا أخذ. (٤) في الأصل وم: وما لا يجوز غسل.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: إلى. (٧) في الأصل وم: قول. (٨) من م، في الأصل: فانتشروا.

جنة السنة

وذَكَرَ تَخصِيصَ السَّمواتِ والأرضِ، وإنْ كانَ لهُ مُلكُ الكُلِّ، لِما هما النهايَةُ في مُلْكِ البَشَرِ، أو ذَكَرَ هذا لِيَعْلَمُوا أنَّ [مَنْ][1] في السَّمواتِ والأرضِ لهُ عَبيدُهُ وإماؤُهُ، أو ذَكَرَ هذا لِيَعْلَمُوا /١٨٨ ـ أ/ أنَّ التَّدبِيرَ فيهما جميعاً لِواحِدٍ حيثُ اتَّصَلَ منافعُ السَّماءِ بمنافِعِ الأرضِ على بُعْدِ ما بَيْنَهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ذَكَرَ هذا لأنَّ العَرَبَ سَمَّتْ كلَّ مَعْبودٍ إلهاً، وهُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ الأصنامَ ويُسَمُّونَها آلهةً، فَنَفَى الألوهِيَّةَ عَمَّنْ يَعْبُدُونَهُمْ دونَهُ، وأثْبَتَها لهُ.

وأخبَرَ أنهُ هو المُستَحِقُّ لِاسْمِ الألوهِيَّةِ والعِبادَةِ، لا غيرُ؛ لأنهُ يُحْيِي، ويُمِيتُ، ومَنْ يَعْبُدُونَ دونَهُ لا يَمْلِكُ الإحياءَ ولا الإماتَةَ. وذَكَرَ هذا، واللهُ أعْلَمُ، الحياةَ والمَوتَ؛ لأنهُ لَيسَ شَيْءٌ ألَذَّ وأشهَى في الشاهِدِ مِنَ الحياةِ، ولا أمَرَّ ولا أشَدَّ مِنَ المَوتِ، لِيَرْغَبُوا في ألَذِّ ما غابَ عنهُمْ، ويَنْفِرُوا عنِ الأمَرِّ والأكْرَهِ ممَّا غابَ عنهُمْ، واللهُ أعلمُ، أو ذَكَرَ أنهُ يُحْيِي ويُمِيتُ لِيَدُلَّ أنهُ فِعْلُ واحِدٍ لا عَدَدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ كانَ ﷺ، هو السابقَ إلى كلِّ خيرٍ. فَعَلَى ذلكَ دَعا الخَلْقَ كقولِهِ ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] [وقولِهِ][2]: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣] فَعَلَى ذلكَ إنما أمَرَ بالإيمانِ بَعْدَ ما آمَنَ هو.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي آمَنَ رسولُ اللهِ باللهِ وكلماتِهِ التي كانَتْ في الكتبِ الماضيَةِ فَأخْبَرَ بها في ما كُتُبِهِمْ لِيَعرِفُوا أنهُ إنما عَرَفَها باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ القرآنُ، وذُكِرَ في بَعْضِ القراءاتِ وكَلِمَتِهِ بلا ألِفٍ[3]، فَصُرِفَ التأويلُ إلى عِيسَى؛ كأنهُ قالَ: آمِنُوا باللهِ وبمحمدٍ وبعِيسَى. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ما أعطاهُ مِنَ الحلالِ والحرامِ والأمرِ والنَّهيِ والحِكْمَةِ والأحكامِ التي أمَرَ بها، وشَرَعَها لنا، على ما ذُكِرَ في إبراهيمَ أنهُ ابْتَلاهُ ﴿بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ قد ذَكَرْنا الاتِّباعَ، فإذا اتَّبَعُوهُ اهْتَدَوا.

الآية ١٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ قِيلَ: أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى سَبيلِ اللهِ ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ في ما بَيْنَهُمْ، ولكنَّ الأوَّلَ أقْرَبُ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ جائزٌ أنْ تكونَ الأُمَّةُ التي أكْرَم [مِنْ قومِ][4] مُوسَى؛ كانُوا[5] في زَمَنِهِمْ يَدْعُونَ الناسَ إلى الإيمانِ بِرسولِ اللهِ، أو أنْ تكونَ الأُمَّةُ مِنْ قومِهِ في زَمَنِ رسولِ اللهِ ﷺ، بَقِيَّةٌ مِنْ مُوسَى مُؤْمِنِينَ بهِ يَدْعُونَ الناسَ إليهِ ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

الآية ١٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ، هو ماذَكَرَهُ ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨] أي جماعةً، وقيلَ: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ أي جَعَلْناهُمْ ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ فِرَقاً، وقالَ غيرُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أي جاوَزْنا بِهِمُ البَحْرَ، وجَعَلْناهُمْ ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الأسباطُ الأفخاذُ، والسِّبْطُ واحِدٌ، وقالَ القُتَبِيُّ: الأسباطُ القبائِلُ، واحِدُها سِبْطٌ.

وقِيلَ: الفَخِذُ دُونَ القَبيلَةِ، وقِيلَ: إنَّ أولادَ إسحاقَ تُسَمَّى أسباطاً، وأولادَ إسماعيلَ قبائلُ وأفخاذٌ، ولذلكَ يُقالُ لِلعَرَبِ: قَبيلَةُ كذا [وفَخِذُ كذا][6]. ولَسْنا نَدْري كيفَ هو[7]؟ وقيلَ: سِبْطُ الرَّجلِ وَلَدُ وَلَدِهِ على ما رُوِيَ أنَّ الحَسَنَ والحُسَيْنَ سِبْطا رسولِ اللهِ ﷺ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية (٢/ ٤١١). (٤) من م ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: كان. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: وهو.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ قِيلَ: ﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ أنهُمْ كانُوا في المفازَةِ لا في البُلْدانِ والقُرَى؛ لأنهُمْ لو كانُوا في القُرَى، والقُرَى لا تَخْلُو مِنْ أنهارٍ، تَجْرِي فيها، أو عُيُونِ الأرضِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ دلَّ أنهُم كانُوا في المَفازَةِ؟ لأنهُ هنالكَ تَقَعُ الحاجَةُ إلى الغَمامِ، وأمّا في القُرَى فَلا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: انفَجرَتْ على ما ذَكَرَ في سورةٍ أُخرَى[1]. وقِيلَ: إنَّ هذِهِ الكَلِمَةَ بِلِسانِهِمْ لا بِلِسانِ العَرَبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: تَعَبُّدُهُمْ ﷻ بِمَعْرِفَةِ كُلٍّ منهُمْ مَشْرَبَهُ، وقالَ بَعْضُهُمْ: لا، ولكنْ لئلا يَزْدَحِمُوا في ذلكَ، فَيَقَعَ[2] في أولادِهِمُ التَّقاتُلُ[3] والإفسادُ والتَّنازُعُ والاِخْتِلافُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ فيهِ أنَّ جَمِيعَ مُؤَنِهِمْ كانَتْ مِنَ السَّماءِ بِلا مُؤْنَةٍ ولا تَعَبٍ على أنْفُسِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ما ذَكَرَ مِنَ المَنِّ والسَّلْوَى[4] وغَيرِهِ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي لا أحَدَ يَقْصِدُ قَصْدَ ظُلْمِ اللهِ، ولكنْ إذا تَعَدَّوا حُدودَ اللهِ التي جَعَلَ لَهُمْ، وجاوَزُوها، فقد ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ، لِما رَجَعَ ضَرَرُ ذلكَ التَّعَدِّي إليهِمْ. وهذِهِ النِّعَمُ التي ذَكَرَ لهُمْ: جَلَّ، وعَلا، إنما جَعَلَها لَهُمْ في حالِ العُقوبَةِ والاِبْتِلاءِ مِنَ المَنِّ والسَّلْوَى والعُيونِ والغَمامِ.

ويَدُلُّ هذا على أنَّ عُقوباتِ الدنيا، قد يَشُوبُها لَذَّةٌ ونِعْمَةٌ، وكذلكَ لَذّاتُ الدنيا قد يُمازِجُها شدائدُ وهُمومٌ؛ فإنما تَخْلُصُ، وتَصْفُو هذِهِ النِّعَمُ في الآخِرَةِ، وكذلكَ العُقوبَةُ هنالكَ تَخْلُصُ، وتفارِقُ اللَّذاتِ.

الآية ١٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: قَولُهُ تعالى: ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ بَيْتَ المَقْدِسِ، وأمْكَنَ أنْ تكونَ القريةُ التي ذَكَرَ ههنا، هي[5] الأرضَ التي ذَكَرَ في سورةِ المائدةِ، وهي[6] قولُهُ تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ [الآية: ٢١] أمَرَهُمْ بالدُّخولِ فيها، ونَهاهُمْ عَنِ الاِرْتِدادِ على[7] أدبارِهِمْ. فأمَرَهُمْ ههنا بالسُّكونِ فيها، وأباحَ لَهُمُ التَّناوُلَ منها مِمّا شاؤوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي ارْجِعُوا إلى السَّبَبِ الذي يَحُطُّ الأوزارَ، لا [قولِكُمْ: حُطَّ عَنّا][8] كذا؛ وهو ما قالَ هودٌ ﷺ ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [هود: ٥٢] أي ائْتُوا بالسَّبَبِ الذي بِهِ يَغْفِرُ، وهو التَّوحِيدُ ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ الآية: قد مَضَى ذِكْرُ هذا في السورةِ التي فيها ذِكْرُ البَقَرةِ[9].

الآية ١٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ هذا أيضاً ذَكَرْنا فيها[10] سِوَى أنهُ ذَكَرَ ههنا: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وذَكَرَ في سورةِ البَقَرةِ ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ والقِصَّةُ واحدةٌ لِيُعْلَمَ أنَّ اخْتِلافَ الألفاظِ لا يُوجِبُ اخْتِلافَ المَعاني والأحكامِ ولا تَغْيِيرَها.

وذَكَرَ ههنا ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ وهنالكَ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ والفِسْقُ هو الخُروجُ عَنِ الأمرِ، والظُّلْمُ هو وَضْعُ الشَّيءِ [في][11] غيرِ مَوضِعِهِ. وقد كانَ منهُمُ الأمْرانِ جَميعاً: الخُرُوجُ عَنْ أمْرِ اللهِ، ووَضْعُ الشَّيءِ أيضاً في غَيرِ موضِعِهِ.

أكْرَمَ اللهُ ﷻ هذِهِ الأمَّةَ كَراماتٍ مِنَ الطاعةِ لِرَسولِها والخُضوعِ لهُ والتَّعْظِيمِ لهُ حتى لم يَخْطُرْ بِبالِ أحدِ الخلافُ لهُ بعدَ ما اتَّبَعَهُ، وآمَنَ بهِ، وأكْرَمَهُمْ أيضاً مِنَ الفَهْمِ والحِكْمَةِ والفِقْهِ حتى ذُكِرَ كأنَهُمْ مِنَ الفِقْهِ أنبياءُ، وقومُ مُوسَى ﷺ وغَيرُهُ مِنَ الأمَمِ لم يَكُونُوا مِثْلَ ذلكَ. ألا تَرَى أنَّ قومَ مُوسَى قد خالَفُوهُ في أشياءَ أمَرَهُمْ مُوسَى بها؟

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ﴾ [البقرة: ٦٠] (٢) في الأصل وم: ليقع. (٢) من م، في الأصل: التقابل. (٤) وذلك في سورة البقرة الآية (٥٧) وسورة طه الآية (٨٠). (٥) في الأصل وم: وهي. (٦) في الأصل وم: وهو. (٧) في الأصل وم: عن. (٨) في الأصل: قولهم حط علينا، في م: قولهم حط عنا. (٩) كان ذلك في الآية (٥٨). (١٠) كان ذلك في الآية (٥٩). (١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ١٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التَّأْوِيلِ: القَرْيَةُ ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ هي أيْلَةُ، وقالَ آخَرُونَ: أريحا. ولَسْنا نَدْري ما تلكَ القَرْيَةُ؟ ولَيسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ تلكَ القَرْيَةِ حاجَةٌ؛ إذْ لا مَنْفَعَةَ لنا في مَعْرِفَتِها، ولو كانَتْ لنا حاجَةٌ إليها لَبَيَّنَ لنا ﷻ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ﴾ كذا أمْرَهُ بالسُّؤالِ عنها. ثم كانَ هو المُبَيِّنَ لَهُمْ بقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ والسؤالُ هو الاسْتِخْبارُ، والإخبارُ إنما يَلْزَمُ المَسْؤُولَ دُونَ المُسْتَخْبِرِ. لكنَّ الاسْتِخْبارَ يكونُ مِنْ وجهَين:

أحَدُهُما: ابْتِداءُ إخبارٍ.

والثاني: طَلَبُ التَّصديقِ.

فههنا لم يَحْتَمِلِ ابْتِداءَ الخَبَرِ، وهو على طَلَبِ التَّصْدِيقِ، كأنهُ قالَ: ألم يكُنْ كذا؟ فيقولُونَ: بَلَى[1]؛ يُصَدِّقُونَهُ بما يقولُ لهمْ.

وقالَ قائلونَ: لم يأمُرْهُ بالسُّؤالِ حَقيقةً، ولكنَّهُ على التَّمْثيلِ؛ كأنهُ قالَ: لو سَألْتَهُمْ يقولونَ لكَ كذا، كقولِهِ: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١] لَيسَ على الأمْرِ انِ اسْألْهُمْ، ولكنْ لو سَألْتَهُمْ [عَنْ كَيفَ][2] كانَ كذا لأجابُوكَ[3] بكذا. فَعَلى ذلكَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ /١٨٨ ـ ب/ حِيتَانُهُمْ﴾ عنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ][4] قالَ: ابْتَدَعُوا السَّبْتَ، فَعَظَّمُوهُ، فابْتُلُوا فيهِ، فَحُرِّمَتْ عليهِمْ فيهِ الحِيتانُ يومَ السَّبْتِ، فكانَتْ تأتيهِمْ يومَ السَّبْتِ ﴿شُرَّعًا﴾ بلا مُؤْنَةٍ وتَكَلُّفٍ. ابْتُلُوا بِهِ، ولا تأتيهِمْ في غيرِهِ مِثْلَهُ.

وقالَ أبو عَوْسَجَةَ: قولُهُ تعالى: ﴿شُرَّعًا﴾ التي قَدْ دَنَتْ مِنَ الشَّطِّ، والواحدُ شارِعٌ، وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي لا يدخلونَ في السَّبْتِ كما يُقالُ: لا يَرْبِعُونَ، ولا يَخْمِسُونَ؛ أي لا يدخُلُونَ فيهِ. ويَسْبِتُونَ أي يدخُلُونَ فيهِ، وكذلكَ يَرْبِعُونَ، ويَخْمِسُونَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿شُرَّعًا﴾ أي شوارِعَ ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ أي يَتَعَدَّونَ الحَقَّ. ويُقالُ: عَدَوْتُ على فلانٍ إذا ظَلَمْتُهُ.

وقالَ الكِسائيُّ: يُقْرأُ يُسْبِتونَ بالرَّفعِ، ويُقرأُ بالفَتحِ. فَمَنْ قَرَأها[يُسْبِتُونَ مِنْ أسْبَتَ القومُ يُسْبِتُونَ][5] دخلُوا في السَّبْتِ.

وقالَ قائلونَ: قولُهُ تعالى: ﴿شُرَّعًا﴾ أي كثيرةً أي تَكْثُرُ لَهُمُ الحِيتانُ، وتَقِلُّ في غَيرِ ذلكَ، وقالَ بَعْضُهُمْ: ابْتلاهُمُ اللهُ بِتَحريمِ السَّمَكِ في السَّبْتِ لِيَرَى الخَلْقُ المُطيعَ منهُمْ مِنَ العاصي. وقالَ قائلونَ: ابْتلاهُمْ بذلكَ لِما كانُوا يَفْسُقُونَ في السِّرِّ ليكونَ فِسْقُهُمْ وتَعذيبُهُمْ ظاهِراً عندَ الخَلْقِ كما كانَ عندَ اللهِ لئلا يقولُوا عندَ التَّعْذيبِ: إنهُمْ عُذِّبُوا بِلا ظُلْمٍ وتَعَدٍّ، واللهُ أعلَمُ. وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

وقالَ قائلونَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ إنما أمَرَهُ أنْ يَسألَهُمْ: أمَا عَذَّبَهُمُ اللهُ بذنوبِهِمْ؟ ثم أخْبَرَ عنْ ذنوبِهِمْ، فقالَ: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ يَتَعَدَّونَ في السَّبْتِ، وفي قولِهِ تعالى: ﴿شُرَّعًا﴾ أي مُشارَعاتٍ مِنْ غَمْرَةِ الماءِ أي خارجاتٍ.

الآية ١٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ذَكَرَ في الأوَّلِ أنهُمْ كانُوا [ثلاثةَ فِرَقٍ: فريقاً][6]: عَدَوا، وتَرَكُوا أمْرَ اللهِ، وتَرَكُوا ما نُهُوا عنهُ، وفَريقاً[7]: نَهَوا أُولئكَ الذينَ اعْتَدَوا، وانْتَهَكُوا حُرَمَ اللهِ، وفَريقاً[8]: قِيلَ: لم يَعْتَدُوا، ولم يَرْتَكِبُوا نَهْيَهُ، ولا نَهَوا أولئكَ الذينَ اعْتَدَوا، وهُمُ الذينَ قالُوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ الآيةَ.

---

(١) في الأصل وم: نعم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وأجابوك. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية (ح٢/ ٤١٤). (٦) في الأصل: ثلاث فرق، في م: ثلاث فرق فريق. (٧) و(٨) في الأصل وم: فريق.

جنة السنة

وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﵄: [أنهُ][1] قالَ: هُمْ كانُوا ثلاثَ فِرَقٍ؛ فِرقَةٌ، وعَظَتْ، وفِرقَةٌ مَوعوظَةٌ، وفِرقَةٌ ثالثَةٌ، وهُمُ الذينَ قالُوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وهو ما ذَكَرْنا أنهُمْ ذَكَرَهُمْ في الابْتِداءِ: ثلاثَ فِرَقٍ. وذَكَرَ في آخِرِ[2] الحالِ فِرْقَتَينِ: فِرقَةٌ هي التي هَلَكَتْ بالاعْتِداءِ: وفِرقَةٌ هي التي نَهَتْ، ونَجَتْ.

ثم اخْتَلَفَ أهلُ التأويلِ في الفِرقَةِ الثالثةِ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: كانُوا في الفِرقَةِ التي هَلَكَتْ لِوَجهَينِ.

أحَدُهُما: لمّا لم يَنْهَوا أولئكَ الذينَ اعْتَدَوا، وكانَ فُرِضَ عليهِمُ النَّهْيُ عنِ المُنْكَرِ والأمْرُ بالمَعروفِ. فإذا لم يَنْهَوا أولئكَ هَلَكُوا، وأُشرِكُوا في العذابِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ الآية: [المائدة: ٦٣].

والثاني: كانوا مَعَهُمْ لَمّا نُهُوا [مِنَ][3] الناهِينَ، وقالوا[4]: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾.

وقالَ قائِلونَ: كانُوا مِنَ النّاجِينَ. قالَ الحَسَنُ: لأنهُمْ كانُوا نَهَوا أولئكَ عنِ الاعْتِداءِ والظُّلْمِ الذي كانَ[5] منهُمْ، وكانَ قولُهُمْ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ بَعْدَ ما نَهَوهُمْ، وَوَعَظُوهُمْ[6]، فلم يَتَّعِظُوا، فإنما قالُوا لِأولئكَ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾بَعْدَ مانُهُوا، وَوُعِظُوا؟ فقالُوا: كيفَ تَعِظونَ قوماً لا يَتَّعِظُونَ، ولا يَنْتَهُونَ؟ فإنما قالُوا ذلكَ بَعْدَ ما نُهُوا.

وقالَ قائِلونَ: هذا القولُ منهُمْ نَهْيٌ لأنهُمْ أتَوا بِوَعيدٍ شديدٍ بقولِهِمْ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فَنَفْسُ هذا القولِ منهُمْ نَهْيٌ و زَجْرٌ عمّا ارْتَكَبُوا حِينَ[7] أتَوا بالنهايةِ مِنَ الوَعيدِ، وهو الهلاكُ والعذابُ الشديدُ.

ولكنْ لَسْنا نَعْلَمُ أنهُمْ كانُوا في الهَلْكَى أو في الناجِينَ، ولَيسَ لنا إلى معرفةِ ذلك حاجةٌ. ولو كانَ لنا حاجةٌ إلى ذلكَ لَبَيَّنَ لنا ﷺ، ولم يَتْرُكْ[8] ذلكَ، لا رأينا سِوَى أنهُ بَيَّنَ مَنْ يُنْجِي منهُمْ بالانْتِهاءِ[9] عنِ الظُّلْمِ والعُدوانِ، وبَيَّنَ مَنْ أهلَكَ، وعَذَّبَ بالظُّلْمِ والعُدوانِ بقولِهِ تعالى: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ قُرِئَ بالرَّفعِ والنَّصبِ[10] أيضاً مَعْذِرَةً. فَمَنْ قَرَأَ بالرَّفعِ أضْمَرَ فيهِ: هذِهِ؛ كأنهُمْ قالُوا: هذِهِ مَعْذِرَةٌ إلى رَبِّكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا﴾ [النور: ١] قِيلَ: هذِهِ سورةٌ أنزَلْناها. ومَنْ قَرَأَ بالنَّصبِ قالَ: مَعْذِرَةً أي اعْتِذاراً منهُمْ إلى رِبِهِمْ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ عمّا نُهُوا.

الآية ١٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي تَرَكُوا، وأعْرَضُوا عمّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾.

قالَ القُتَبِيُّ: شَديدٍ، وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ، وقالَ غَيرُهُ: أي مُوجِعٍ، وهو واحدٌ. وقالَ الحَسَنُ ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍ﴾ على الوقفِ، ثم قالَ: ﴿بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

الآية ١٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿عَتَوْا۟﴾ اسْتَكْبَرُوا؛ يُقالُ: عَتا يَعْتُو عُتُوّاً، وكانَ العُتُوُّ هو النهايةُ في البَأسِ، فلذلكَ قِيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨ و٦٩] بأساً. لكنْ سُمِّيَ مَرَّةً قَساوةً ومَرَّةً اسْتِكْباراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: حُوِّلَتْ صُوَرُهُمْ وجَسَدُهُمْ [إلى][11] صُورَةِ القِرَدَةِ، وكانَتْ عُقولُهُمْ على حالِها عُقولَ البَشَرِ، لم تُحَوَّلْ، لِيَعْلَمُوا تعذيبَ اللهِ إياهُمْ وما أصابَهُمْ بِهَتْكِهِمْ حُرَمَ اللهِ

[وقالَ][12] قائلونَ: حَوَّلَ طِباعَهُمْ [إلى][13] طِباعِ القِرَدَةِ، وأما الصُّورَةُ والجَسَدُ [فَبَقِيا على حالِهِما][14]، ولَيسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الآخر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بقوله. (٥) في الأصل وم: كانوا.
(٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: ينزل. (٩) في الأصل وم: بالنهي. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية (ج٢/ ٤١٥). (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: على حاله.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ قالَ بَعضُهُم: هو من خَسأ الكَلْبَ، صارَ قاصياً مُبْعَداً، يُقالُ: خَسأتُهُ. وقالَ أبو عوسجَةَ: ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ مُبْعَدِينَ، وكذلكَ قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٨] أي ابْعُدُوا فيها، وارجِعُوا فيها؛ يُقالُ: خَسأتُ فُلاناً، واخسأتُهُ، أي باعَدْتُهُ، فَخَسأ، أي تباعَدَ. وقيلَ: الخاسئُ الذليلُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ مِنَ القِصَّةِ وجهانِ.

أحَدُهما: دليلُ إثباتِ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ لهُ حينَ[1] أخبَرَ ما كانَ مِنْ غيرِ نَظَرِهِ في كُتُبِهِمْ ولا اختلافِ إلى أحدٍ مِمَّنْ لهُ عِلْمٌ في ذلكَ. دلَّ أنهُ إنما عَرَفَ باللهِ تعالى.

والثاني: إنباءٌ عَنْ عَواقِبِ الظَّلَمَةِ والفَسَقَةِ وما حَلَّ بِهِمْ بِظُلْمِهِمْ وانتِهاكِهِمْ حُرَمَ اللهِ ليكونَ ذلكَ بِهِ زَجْرٌ لنا عن ارْتِكابِ مِثْلِهِ.

الآية ١٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ تأذَّنَ أي قالَ ربُّكَ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ هو مِنَ الأذانِ؛ أي أعْلَمَ ربُّكَ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ الآية قالَ[2] نزلَتْ هذهِ الآيةُ بمكةَ في شأنِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، لأنَّ الكفارَ كانُوا يَمْنَعُونَ مَنْ أرادَ الإسلامَ اتِّباعَ محمدٍ ﷺ، فَوَعَدَهُمُ اللهُ ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ مَنْ يُقاتِلُهُمْ، ويأخُذُ منهُمُ الجِزْيَةَ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ جزاءَ ما كانُوا يَمْنَعُونَ الناسَ عنِ اتِّباعِ محمدٍ ﷺ، والإجابَةِ لهُ في ما يَدْعُو إليهِ.

وقالَ قائلونَ: هو في بني إسرائيلَ، وهو ما قالَ تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٤-٨] أخبَرَ إنْ عادُوا عُدْنا. ولم يُبيِّنْ إنْ عادُوا عُدْنا بماذا؟

ثم بيَّنَ في هذهِ الآيةِ بقولِهِ: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وقالَ قائلونَ: هذا إنما كانَ في هؤلاءِ الذينَ سَبَقَ ذكرُهُمْ في قولِهِ: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: الآيةُ لا تُحْتَمَلُ في هؤلاءِ؛ لأنَّ مَنْ آمنَ منهُمْ لم يَحْتَمِلْ ذلكَ، ومَنْ صارَ منهُمْ قُروداً لم تَحْتَمِلْ أيضاً بَعْدَ ما صاروا قروداً

فهيَ[3] واللهُ أعْلَمُ على الوجهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْناهُما.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ يأخُذُهُمْ في حالِ أمْنِهِمْ، لَيسَ كما يأخُذُ مُلوكُ الأرضِ قومَهُمْ بَعْدَ ما يَتَقَدَّمُ منهُمْ إليهِمْ تَخْويفٌ، فَعِنْدَ ذلكَ يأخُذُهمْ بالعذابِ. أو يُقالُ ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي عَنْ سَريعٍ يأخُذُ عِقابَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لِمَنْ كَفَرَ، وكَذَّبَ ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِمَنْ آمَنَ، وصَدَّقَ باللهِ ورسولِهِ/ ١٨٩ ـ أ/.

الآية ١٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ يَحْتَمِلُ فَرَّقْناهُمْ في وَقْتٍ بَعْدَ ما كانُوا مَجْمُوعِينَ. ثم يَحْتَمِلُ الجَمْعُ وجهَيْنِ: كانُوا مَجْموعِينَ ثم تفرَّقُوا، فصارَ بَعْضُهُمْ كُفّاراً، وبَعْضُهُمْ مؤمنينَ. أو كانُوا مَجْمُوعِينَ في المَكانِ والمَعاشِ والماءِ والكَلإِ، ثم تفرَّقُوا، فصاروا مُتَفَرِّقِينَ في المكانِ والمَعاشِ وغيرِهِ، أو كانُوا في الدِّينِ واحداً، فَصارُوا[4] أصحابَ أهواءٍ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ وجماعةً بَعْدَ جَماعَةٍ: بَعْضُهُمْ خَلَفٌ[5] لِبَعْضٍ على ما ذَكَرَ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الأنعام: ١٦٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فإنْ كانَ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في الدِّينِ والمَذْهَبِ، فَيكونُ تأويلُهُ ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ المؤمنونَ ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ الكُفّارُ، ويكونُ قولُهُ تعالى: ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي غيرَ ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٧٦] أي غيرَ اللهِ.

وإنْ كانَ في المَعاشِ فَبَعْضُهُمْ دُونَ بَعْضٍ في المَعاشِ؛ وسَّعَ على بَعْضِ المَعاشَ، وشَدَّدَ على بَعْضٍ، وضَيَّقَ؛ فيكونُ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: قالت. (٣) في الأصل وم: فهو. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: خلفا.

جنة السنة

بَعْضُهُمْ دونَ بَعْضٍ في المعَاشِ والرِّزْقِ، أو بَعْضُهُمْ دُونَ بَعْضٍ في الدِّينِ؛ بَعْضُهُمْ على الصَّلاحِ، وبَعْضُهُمْ أصحابُ أهواءٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ابْتَلَى بَعْضَهُمْ في الخِصْبِ والسَّعَةِ، وبَعْضَهُمْ بالشِّدَّةِ والضِّيقِ لِيُذَكِّرَهُمُ المَوعودَ مِنَ الثوابِ في الحَسَناتِ، ويَزْجُرَهُمْ [عنِ](1) المَوعودِ مِنَ العِقابِ عنِ السَّيِّئاتِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يَتوبُونَ، ويَرْجِعونَ عَنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فهو يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: بَلَوناهُمْ بالنَّعيمِ والخِصْبِ والسَّعَةِ لِيَعْرِفُوا فَضلَ اللهِ وإحسانَهُ، فَيَرْجِعُوا إليه بالشُّكْرِ والثناءِ. [وبَلَوناهُمْ بالسيئاتِ](2) أي بالبَلايا في أنْفُسِهِمْ والمَصائِبِ والضِّيقِ لِيَعْرِفُوا قُدْرَةَ اللهِ وسُلْطانَهُ، فيرجِعُوا(3) إليهِ بالتَّضَرُّعِ والفَزَعِ والدعاءِ والتوبةِ.

والثاني: مَعْناهُ أي بَلَوناهُمْ بالحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ لِيَتَقَرَّرَ عِنْدَهُمْ أنَّ غَيرَهُمْ أمْلَكُ بِهِمْ مِنْ أنفُسِهِمْ، فَيَرْجِعُوا إليهِ النَّفْسَ لأمْرِهِ وحُكْمِهِ.

والثالثُ: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ المُؤمِنَ منهُمْ والكافِرَ حتى إذا رَأَوُا الاسْتِواءَ في الدنيا، وفي الحِكْمَةِ التَّفريقُ بَيْنَهُمْ، فَيَضْطَرُّ الجميعُ إلى الإيمانِ بالبَعْثِ، إذ خُروجُهُمْ مِنَ الدنيا على سَواءٍ.

والرابعُ: أنهُ إنما جَعَلَ النَّعيمَ في الدنيا لِيَعْرِفُوا لَذَّةَ المَوعودِ في الآخِرَةِ، وكذلكَ الشِّدَّةَ، فابْتَلاهُمْ بالأمرَينِ جميعاً لِيَسْتَعِدُّوا لِلرُّجوعِ إلى المَوعودِ لَهُمْ في الآخِرَةِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ قالَ قائلونَ: هو صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ والصالِحونَ هُمُ الذينَ آمَنوا باللهِ، وحَفِظُوا حُدودَهُ وحَلالَهُ وحَرامَهُ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ يعني الصالِحِينَ ﴿خَلْفٌ﴾ مَنْ لم يَحْفَظُوا حُدودَهُ ومَحارِمَهُ.

وقالَ قائلونَ: هو صِلَةُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذِكْرِ الأنبياءِ والرُّسُلِ؛ كأنهُ أخْبَرَ أنهُ خَلَفَ ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ يَعْني خَلْفَ الرُّسُلِ والأنبياءِ، وَرِثُوا الكتابَ، وهو كما ذُكِرَ في سورةِ مريمَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [الآية: ٥٩] وإنما ذَكَرَ الأنبياءَ والرُّسُلَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وعَلِمُوا ما فيه ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ إنَّ أهْلَ الكتابِ كانُوا يأخُذونَ الدُّنيا على أحَدِ وجوهٍ ثلاثةٍ: منهُمْ مَنْ كانَ يأخُذُها مُسْتَحِلًّا لها كقولِهِ تعالى: ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩] وكقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] ومنهُمْ مَنْ كانَ يأخُذُها بالتَّبديلِ؛ أعني تَبْديلَ الكتابِ[كقولِهِ تعالى](4): ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الآية: [آل عمران: ٧٨] وقولِهِ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا﴾ [البقرة: ٧٩] ومنهُمْ مَنْ كانَ [تَناوَلَ على ما](5) تَناوَلَ أهْلُ الإسلامِ على قَدْرِ(6) الحاجَةِ. وهذا لا يَحْتَمِلُ الأخذَ إلّا أخْذَ الاسْتِحلالِ أوِ التَّبديلِ.

والأخْذُ بالاسْتِحْلالِ ههنا أقْرَبُ؛ كانُوا ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ مُسْتَحِلِّينَ لهُ ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ويَحْتَمِلُ(7) هذا [وجهَينِ:

أحدُهُما](8): يَحْتَمِلُ ما قالُوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] فَيَغْفِرُ لنا؛ كانُوا يَسْتَحِلُّونَ أموالَ الناسِ، ويأخُذونَها، ثم يَقولونَ ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لأنّا أبناءُ اللهِ وأحِبّاؤُهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وبالسينات. (٣) في الأصل وم: فيرجعون. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: قدره. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وجوهاً.

جنة السنة

والثاني: يَحتمِلُ أنهم قالوا: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ مَع علمِهِم أنهُ لا يُغفَرُ لهُمْ لِما في كتابِهِمْ ألاّ يُغفَرَ لَهُمْ إذا تناوَلُوا مُستحِلّين، أو أنهُمْ إذا عُوتِبُوا على ما فَعلُوا قالُوا ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ انهُمْ إذا استَحلُّوا ذلكَ أضافُوا ذلكَ إلى اللهِ [بقولِهِمْ]: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] فقالَ: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي لا يُضِيفونَ إلى اللهِ ما استَحلُّوا، أو انْ يُقالَ: أخذَ بَعضُهُمْ ألاّ يَقولوا ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

وقالَ بَعضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ في ما يُوجِبونَ على اللهِ مِن مَغفِرَةِ ذنوبِهِمُ التي لا يَزالونَ يَعودُونَ لها، ولا يَتوبونَ عنها.

وقالَ[1] بَعضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ قالَ: يأخُذونَهُ إنْ كانَ حَلالاً أو حَراماً ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ وقالَ: قولُهُ تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ سُوءٌ ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بَعدَ أنبيائِهِمْ، ورَّثَهُمُ اللهُ الكتابَ، وعَهِدَ إليهِمْ في سورةِ مريمَ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [الآية: ٥٩] ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ وهو ما ذَكَرْنا.

وقالَ القُتَبيُّ: الخَلْفُ الرَّديءُ مِنَ الناسِ ومِنَ الكلامِ؛ يقالُ: هذا خَلْفٌ مِنَ القَولِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ أي قَرَؤُوا ما فيهِ، وعَلِمُوهُ ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي يَتَّقونَ الشِّرْكَ، أو يَتَّقونَ مُخالَفَةَ اللهِ ومعاصِيَهُ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما في كتابِهِمْ أنَّ تَرْكَ مُخالَفَةِ اللهِ خيرٌ في الآخِرَةِ.

الآية ١٧٠ ثم أخبَرَ عنِ المُؤمِنينَ، فقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ ما فيهِ مِنَ الحَلالِ والحَرامِ ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

الآية ١٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ قِيلَ: دفَعْنا الجبَلَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤]. وقِيلَ: نَتَقَ: قَطَعَ. وقالَ بعضُهُمْ: حَرْفٌ أخَذَ مِنْ كُتُبِهِمْ، فلا نَدْري كيفَ كانَ؟ وقِيلَ: حَرَّكْنا، وهو قولُ القُتَبيِّ.

وقالَ أبو عُبَيدَةَ[2]: كلُّ شيءٍ قَلَعْتَهُ[3] مِنْ مَوضِعِهِ، فَرَمَيتُ بِهِ. ذكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، لِيُبَصِّرَ رسولَ اللهِ ﷺ، على سَفَهِ قومِهِ؛ لِأنَّ قومَ مُوسَى مَعَ كَثْرَةِ ما عايَنُوا مِنَ الآياتِ التي جرَتْ على يَدَيْ مُوسَى، وعظيمِ ما كانَ لهمْ مِنْ مُوسَى مِنَ النِّعَمِ مِنِ اسْتِنقاذِهِ إيّاهُمْ مِنِ اسْتِرْقاقِ فِرعَونَ وإخراجِهِمْ[4]، وفَرْقِ البَحْرِ لَهُمْ، ومُجاوَزَتِهِ بِهِمْ، وتَفْجيرِ الأنهارِ مِنَ الحَجَرِ، وإنزالِ المَنِّ والسَّلْوَى.

فَجَميعُ ما كانَ لَهُمْ مِنْ مُوسَى ما ذَكَرْنا، لم يَقْبَلُوا التَّوراةَ، ولم يَقرَؤُوا بهِ إلاّ بَعْدَ رَفْعِ الجَبَلِ والإرسالِ. فَعِندَ ذلكَ قَبِلُوا. يَصبِرُ رسولُنا لِئلا يَضجَرَ على مُخالَفَةِ قومِهِ إيّاهُ وكَثْرَةِ سَفَهِهِمْ.

ثم يَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ رَفْعِ الجَبَلِ فوقَهُمْ وجهَينِ:

أحَدُهُما: لَمّا عايَنُوا ذلكَ آمَنُوا، وقَبِلُوا الكتابَ. لكنَّ ذلكَ منهُمْ إيمانُ دَفْعٍ؛ إذ ذلكَ قَهْرٌ، ولا يكونُ في حالِ القَهْرِ إيمانٌ.

والثاني: صَيَّرَ ذلكَ آيةً عظيمةً وحُجَّةً واضِحَةً مُعجِزَةً، فَقَبِلُوها، وحَقَّقُوا الإيمانَ، ثم تَرَكُوا ذلكَ. يَدُلُّ على ذلكَ ما ذَكَرَ في [السورةِ الثانيةِ حينَ][5] قالَ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٤].

وقِيلَ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ﴾ بَعْدِ بني إسرائيلَ خَلْفُ السُّوءِ، وهُمُ اليَهودُ، ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قِيلَ: التَّوراةَ عنْ آبائِهِمْ وأوائِلِهِم

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: عبيد. (٣) من م في الأصل: فعلته. (٤) في الأصل وم: وإخراجه. (٥) في الأصل وم: سورة الأولى حيث.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ قالَ: رِشْوَةً ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وكانوا يَرْتَشونَ، ويقولونَ: يُغْفَرُ لنا؛ لأنهُمْ زعَموا أنهُمْ ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ﴾ قيلَ: رِشْوَةٌ مِثْلُهُ أخذُوها.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قالُوا: لقد أخَذَ عليهِمْ في التوراةِ ألا يَسْتَحِلُّوا مُحَرَّماً/ ١٨٩ ـ ب/ [و]﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ في التَّوراةِ ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ استِحْلالَ المَحارِمِ وأكلَهُمُ الحرامَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ قيلَ: بالتوراةِ، ولا يُحَرِّفُونَهُ عن مَواضِعِهِ، ولا يَسْتَحِلُّونَ مُحَرَّماً[(١)] ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾: أي أيْقَنُوا أنهُ، إنْ لم يَقْبَلوا، واقِعٌ بِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ قد ذَكَرَ هذا في ما تَقَدَّمَ. قولُهُ تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجْهَيْنِ:

أحَدُهُما: خُذُوا؛ أي اقْبَلُوا ما فيهِ.

والثاني: اعْمَلُوا بِما فيهِ. وفيهِ دلالةُ كونِ [اسْتِطاعةِ الفِعْلِ مَعَ الفِعْلِ][(٢)].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ قيلَ: اعْمَلُوا بما فيهِ مِنَ الحَلالِ والحَرامِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ العُقوبَةَ والمَعْصِيَةَ.

الآية ١٧٢ تَكَلَّمَ الناسُ في تأويلِ[(٣)] قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ الآيةَ:

فَمِنهُمْ مَنْ يقولُ: ذلكَ عندما خَلَقَ آدمَ أخرجَ مَنْ يكونُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مِثْلَ الذَّرِّ، فَعَرَضَ عليهِمْ قولَهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ لكِنِ اخْتَلَفُوا:

فَمِنهُمْ مَنْ يقولُ: جَعَلَ بالمَبْلَغِ الذي يَجْرِي على مِثْلِهِ القَلَمُ، وهو قولُ الحَسَنِ.

ومِنهُمْ مَنْ يقولُ: عَرَضَ ذلكَ على الأرواحِ دُونَ الأجسادِ ودونَ[(٤)] ذلكَ.

ومِنهُمْ مَنْ يقولُ بِلا عَرْضٍ: إنهُ خَلَقَ صِنْفَيْنِ، فقالَ: «هؤلاءِ في الجَنَّةِ، وهؤلاءِ للنارِ، ولا أُبالي» [الحاكم في المستدرك ١/ ٣١].

ومِنهُمْ مَنْ يقولُ: عَرَضَ الكُلَّ على ما عليهِ أحوالُهُمْ وآجالُهُمْ في الدنيا، واللهُ أعلَمُ كيفَ كانَتِ القِصَّةُ؟ أو كيفَ يَرَى أحوالَ الفَقْرِ والغِنَى في الذَّرِّ؟ أو كيفَ [قالَ][(٥)]: هؤلاءِ في كذا ولا أُبالي مَعَ إجماعِهِمْ على القولِ: بَلَى[(٦)] لَمَّا عَرَضَ عليهِمْ قولَهُ[(٧)]: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ وقد رأينا في تلكَ الأخبارِ ما كانَ الكَفُّ عَمَّا لَهُ المُرادُ وبِخاصَّةٍ حِفْظُ العَوامِّ وأهلِ الضَّعْفِ عَنْ تَبْليغِها ألْزَمَ وأعظَمَ في النَّفْعِ وأبْعَدَ عنِ الشُّبَهِ مِنْ رِوايَتِها وتَكَلُّفِ الكَشْفِ عنها. فَنَسْألُ اللهَ العِصْمَةَ عَمَّا بِهِ الهَلاكُ والتَّوفيقَ لِلنُّصْحِ بِما بِهِ نَجاةُ كُلِّ سامِعٍ ودَفْعَ كُلِّ شُبْهَةٍ وحَيْرَةٍ، فإنهُ لا قُوَّةَ إلا باللهِ.

ومِنهُمْ مَنْ ذَهَبَ في تأويلِ الآيةِ إلى المَعْرُوفِ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ والأخْذِ مِنَ الأصلابِ والإنشاءِ في الأرحامِ على ما كانَ، ويكونُ إلى يومِ القِيامَةِ على ما قالَ اللهُ ﷻ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥ ـ٧] وقالَ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ الآيةَ: [الحج: ٥] وقالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] وقالَ تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] وغيرَ ذلكَ مِمَّا احْتَجَّ مِنْ أوَّلِ ما جَرَى بِهِ تدبيرُ البَشَرِ إلى آخِرِ ما يَنْتَهِي بِهِ أمْرُهُ مِمَّا يَعْجَزُ عَنْ تَقْديرِهِ وُسْعُ الخَلْقِ، ويَسْتَتِرُ عَنْ عُقولِهِمْ كَيْفِيَّةُ بَدْءِ ذلك، وما عليهِ تَنَقُّلُهُ مِنْ حالٍ إلى [حالٍ][(٨)] مِنْ كُلِّ طَرْفِ عَيْنٍ ولَحْظِ بَصَرٍ مَعَ ما فيهِ مِنْ عَجيبِ التَّدْبيرِ وحُسْنِ التَّقْويمِ الذي لو تَكَلَّفَ الخَلْقُ تَصْويرَ مِثْلِهِ بِكُلِّ أنواعِ الحِيَلِ مِنَ الأصولِ الظاهِرَةِ بِحَيْثُ يُبْصِرُهُ كُلُّ بَصَرٍ لَكانَ يَعْجَزُ عنهُ. فكيفَ في الظُّلُماتِ الثلاثِ مع ما رَكَّبَ فيهِ مِنَ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: الفعل، في م: الفعل مع الفعل. (٣) في الأصل وم: تأويله. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ب بلى. (٧) في الأصل وم: في قوله. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

العَقلِ والسَّمعِ والبَصَرِ وما جَعَلَ في كُلٍّ ما أنشأ فيهِ ومِنهُ مِمَّا تَبلُغُ الأوهامُ فَضلاً مِنَ الإحاطةِ في ذلكَ مِنَ الحِكمَةِ؟ ولذلكَ قال اللهُ تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وكانَ ذلكَ هو العَهْدَ إلى جميعِ الذُّرِّيَّةِ وإشهادَ أنفُسِهِمْ عليهِم، يَتعالى مَنْ دَبَّرَهُمْ على ذلكَ، وأنشأهُمْ على ما فيهِمْ، عنْ أنْ يكونَ لهُ كذا، أو يَقدِرَ أحدٌ قَدْرَهُ.

فهذا هو مَعنى إشهادِهِمْ على أنفُسِهِمْ؛ أي جَعَلَهُمْ على أنفسِهِمْ شُهوداً أنْ يَعلَمُوا أنَّ مُدَبِّرَهُمْ رَبُّهُمْ، لا رَبَّ لَهُمْ غيرُهُ، وأنهُ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَىۡءٌۖ﴾ [الشورى: ١١] مَعَ ما في جَعلِ ذلكَ ذُرِّيَّةً؛ يَعرِفُ كُلٌّ بما يَرى مِنْ عَجزِ تدبيرِ وَلَدِهِ وجَهلِهِ بأحوالِهِ في حالِ كونِهِ في رَحِمِ أبَوَيهِ بيانٌ على أنهُ لا كانَ بآبائِهِ وأُمَّهاتِهِ عِلْمٌ. ولكنْ بربِّ العالَمينَ.

وذلكَ هو الذي يَمنَعُهُمْ عنِ القولِ بالفضيلَةِ عنْ ذلكَ؛ إذْ قد عَلِمَهُ كُلٌّ منهُمْ، لا حالَ كونُهُمْ في الوقتِ الذي لا يذكُرُهُ أحدٌ.

والذي يُبَيِّنُ أنَّ هذا التأويلَ أحقُّ من الأوَّلِ ما دَلَّ عليهِ سياقُ الآيةِ مِنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [فيهِ أقاويلُ:

أحدُها] [1]: مَنْ ذَكَرتُ على الأخذِ [مِنْ ظَهرِ] [2] آدَمَ.

والثاني: قولُهُ تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ [وقولُهُ تعالى: ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾] [3].

والثالثُ: قولُهُ تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ وفي التأويلِ ألَّا تقولوا. فكيفَ يُحذَرُ عنِ القولِ بذلكَ؟ وقد عَلِمَ أنهمْ كذلكَ لَيسَ أحدٌ منهُمْ يَذكُرُ ذلكَ، ولا يَتقرَّرُ [4] عندهُ ذلكَ لو نُبِّهَ بِكُلِّ أنواعِ التَّنبيهِ.

والرابعُ: قولُهُ تعالى ﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ ما في ذلكَ العَرْضِ ممَّا يَمنَعُ عن هذا القولِ، وأيضاً: إنهُ ذَكَرَ في بَعضِ هذا القولِ أنَّ [5] «وهؤلاءِ في النارِ ولا أُبالي» [الحاكم في المستدرك ١/ ٣١].

وفي القرآنِ الجَمْعُ بَينَهُمْ في القولِ [6]: ﴿بَلَىٰ﴾. وذلكَ عُدَّ توحيداً منهُمْ، مَعَ ما في القرآنِ [قولُهُ تعالى] [7]: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا﴾ الآية [البقرة: ٢٨] [وقولُهُ تعالى] [8]: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ الآية [غافر: ١١]. وفي بيانِ ذلكَ إثباتُ الموتِ والحياةِ أكثرَ مِنَ العَدَدِ الذي جاءَ القرآنُ في الكُلِّ، ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ.

ثم قد يَتَوَجَّهُ التأويلُ الثاني ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ إلى أوجُهٍ.

فأمَّا ابتِداءُ [9] الآيةِ فهو ذلكَ عندَ التَّحقيقِ لأنهُ ذَكَرَ الأخذَ مِنْ بَني آدَمَ ثم مِنْ ظُهورِهِمْ. والأخذُ مِنْ بني آدمَ ثم مِنْ ظُهورِهِمْ هو النُّطَفُ، وهو الماءُ الدافِقُ ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٧] وأشهَدَهُمْ على أنفُسِهِمْ، أعلَمَهُمْ ما مِنهُ إنشاؤُهُمْ وقَلْبُهُمْ مِنْ حالٍ إلى [حالٍ إلى] [10] أنْ تَمَّتِ النَّسَمَةُ، وظَهَرَتِ البَشَرِيَّةُ، على ما أعلَمَ، كُلٌّ في ذُرِّيَّتِهِ: خُروجُ بَدْوِهِ مِنْ تَدبيرِ والدَيهِ وقيامُهُ على ما عليهِ مدارُهُ وقرارُهُ وتَدبيرُ مَنْ لا يُعجِزُهُ شَيءٌ، ولا يَخفَى عليهِ أمرٌ، لِيقولوا: إنَّ الذي ذَكَرَ هذا هو ربُّهُمُ الذي رَبّاهُمْ على ذلكَ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَىۡءٌۖ﴾ [الشورى: ١١].

فكانَ ذلكَ إعلاماً مِنَ اللهِ إيّاهُمْ على أنفُسِهِمْ وشهادةً منها بالخِلْقَةِ أنهُ ربُّهُمْ؛ رَبّاهُمْ، ومَلَّكَهُمْ على ما جَرى فيهِمْ مِنْ تدبيرِ اللهِ، جَلَّ ثناؤُهُ، ولِئلّا يقولوا [11] غداً إنهُمْ [كانوا] [12]: ﴿عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ إذْ عَرَفَ ذا كُلُّ ذي عَقلٍ، وعَرَفَ أنهُ كانَ باللهِ ﷻ لا بوالِدَيهِ، لِيَجعَلُوا شِرْكَ الآباءِ والأمهاتِ لأنفسِهِمْ حُجَّةً مِنْ حَيثُ كانوا منهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أن يكونَ اللهُ أشهَدَهُمْ على أنفُسِهِمْ بِما أراهُمْ مِنْ أحوالِ ذُرِّيَّتِهِمْ في الإنتِقالِ على أحوالٍ على [أنَّ] [13] أنفُسَهُمْ كذلكَ، دخَلَ كُلُّ مَنْ بِجوهَرِهِمْ [14] في ذلكَ التدبيرِ لِيَعلَمُوا أنَّ الذي ذَكَرَهُمْ على ذلكَ دَبَّرَ الكُلَّ، فَيَزولُ عنهُمْ شُبَهُ

---

(١) في الأصل وم: وأقاويل. (٢) من م، في الأصل: انطوى. (٣) في الأصل وم: وفي قولهم: منْ ظهر آدم. (٤) من م، في الأصل: يتفرد. (٥) في الأصل وم: بان. (٦) في الأصل وم: القول بـ. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وَ. (٩) هذا هو الوجه الأول. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) من م، في الأصل: يقول. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، في الأصل: جوهرهم.

جنة السنة

الكونِ بغيرِ الرَّبِّ الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فيَزولُ عنهُمْ بهِ عُذرُ الغَفْلَةِ وعلاقةُ الشُّبْهَةِ بكُفرِ الوالِدَينِ مِن حَيثُ حَقُّ التَّبعِيَّةِ، أو سَفَهُ التَّقليدِ بما يُعلَمُ خُروجُ[1] الجميعِ مِنَ التَّدبيرِ ورُجوعُ التَّدبيرِ إلى غَيرٍ ليكونَ مَوضِعَ الاستِدلالِ بما أراهُمْ هو، ودعاهُمْ إليهِ، لا بما أَمَرَهُمْ بهِ الآباءُ والأُمَّهاتُ.

ثم القولُ بـ ﴿بَلَىٰ﴾ يكونُ نُطقاً، ويكونُ خِلقَةً، ويكونُ جوابَ الفِطرَةِ بحَقِّ التَّأمُّلِ. فالنُّطقُ أنهُ لا يُسأَلُ أحدٌ قَبلَ التَّلقينِ إلّا وهو يقولُ بالرَّبِّ والخالِقِ. وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] والخِلقَةُ بما كانَ مِن حاجَتِهِ إلى مُقيمٍ وإلى مُدَبِّرٍ على شِركَةٍ كلٌّ في ذلكَ إقرارٌ لهُ بالرُّبوبِيَّةِ وذلكَ مَعنَى نَفيِ التَّفاوُتِ عن خَلقِهِ وفِطرَتِهِ بما يُقَلِّبُهُ عن أحوالٍ؛ لو تأمَّلَ الخَلائقُ إدراكَ كلِّ حالٍ منها وَوَجهَ التَّنَقُّلِ وقَدْرَ التَّغَيُّرِ في كُلِّ حالٍ لَما تَهَيَّأَ لَهُم لِيَعلَمَ أنَّ في الفِطرَةِ شهادةً بالتَّوحيدِ. وهذا مَعنَى ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ، أنهُ قالَ: «كُلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطرَةِ» [البخاري ١٣٨٥] أي على حالٍ لو تُرِكَتِ العُقولُ والفِكَرُ فيها لَشَهِدَتْ بالتَّوحيدِ.

وذلكَ قولُهُ: ﴿بَلَىٰ﴾ لا أنْ ثَمَّ قولُ لِسانٍ بل نُطقُ حالٍ كما قالَ الحكيمُ: كُلُّ صامتٍ ناطِقٌ، لأنَّ صَمتَهُ دليلُ تدبيرِ آخَرَ، فهو ناطِقٌ بالبَيانِ عنِ الواحِدِ العَزيزِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقد يَحتَمِلُ الإشهادُ أنْ جعَلَهُمْ[2] شُهداءَ على أنفُسِهِمْ بالعُبودِيَّةِ للهِ، وأنهُ رَبُّهُمْ والمالِكُ عليهِمْ، والقولُ بـ ﴿بَلَىٰ﴾ بما يلزمُ بالتَّأمُّلِ. فكأنهُ قالَ، واللهُ أعلمُ: وفي الآيةِ دلالةُ إثباتِ خَلقِ اللهِ فِعلَ الخَلقِ، وقد أخبَرَ اللهُ أنهُ أخذَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قِيلَ: على ماذا يُخَرَّجُ تأويلُ السَّلَفِ؟ قيلَ: لَعَلَّهُمْ وجَدُوا فيهِ خَبَراً ظَنُّوا أنَّ الآيةَ تَخرُجُ عليهِ، فأوَّلُوها على ذلكَ.

فإذا أُريدَ تَسوِيَةُ ذلكَ بالآيَةِ لا بُدَّ مِن زِياداتٍ تُلحَقُ بها، ولا[3] تَخرُجُ عنها[4] / ١٩٠ ـ أ/.

مِن ذلكَ أنْ يقولَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ أنْ تُجعَلَ ﴿مِن﴾ صِلَةً؛ كأنهُ قالَ: وإذْ أخذَ رَبُّكَ بَني[5] آدَمَ.

وقد تكونُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] وبنو آدمَ يُؤخَذونَ[6] من ظَهرِ آدمَ كما يُؤخَذُ ابنُ كُلٍّ مِن ظُهورِهِمْ؛ أي أصلُ ابنِ كُلٍّ مِن ظَهرِهِ. وذَكَرَ ظهورَهُمْ لِما كانَ منسوباً إليهِمْ، وإنْ كانَ، لو طُرِحَ حَرفُ الصِّلَةِ، تزولُ الشُّبَهُ، فَحُفِظَ في ذِكرِ حَقِّ الوَصلِ، وإنْ كانَ حَقُّهُ الإسقاطَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ﴾ الآية [الطلاق: ٨] وغيرُ ذلكَ مِمّا كَنّى عن أهلِ القَريَةِ باسْمِها.

وعلى ذلكَ أُجرِيَ ذِكرُ الفِعلِ، وإنْ لم يكن لها في الحَقيقَةِ فِعلٌ. فَعَلى ذلكَ هذا، فَيَصيرُ في التَّحصيلِ كأنهُ قالَ: وإذْ أخذَ رَبُّكَ بَني آدَم مِن ظَهرِهِ، ثم يكونُ المأخوذُ الذي عُرِضَ عليهِ مَجعولاً على حَدٍّ، يَعقِلُ الخِطابَ ومَعنَى قولِهِ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فأجابَ بالذي ذَكَرَ.

والخَبَرُ الذي فيهِ القِسمَةُ إمّا أنْ كانَ لا في هذا، فوُصِلَ بهِ، [وإمّا أنْ][7] كانَ في الآيةِ ذِكرُ إجابَةِ أحدِ الفريقَينِ، [وإمّا أنْ][8] كانَ بَينَ الجَمعِ اتِّفاقٌ في هذا الحَرفِ واختِلافٌ في ما جاوَزَ هذا، فالقِسمَةُ لِما عدا. وقد يوجَدُ في هذا القَدْرِ أيضاً اتِّفاقٌ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ على إضمارِ بَعثِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكتابِ بالإخبارِ عن ذلكَ لِئلا يَدَّعُوا الغَفلَةَ بِما كانَتْ مِنهُم. ذلكَ بما أُوقِظوا، أو نُهوا، أو بما لا يَحتَجُّونَ بما اعتَرَضَهُمْ مِنَ الغَفلَةِ؛ إذ قَطَعَ عُذرَهُمْ بِغَيرِ ذلكَ مِنَ الأدِلَّةِ والرُّسُلِ، واللهُ أعلَمُ، أو لا يقولونَ.

الآية ١٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي [قَبلَ][9] بَعثِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ لِقَطعِ هذا النَّوعِ مِنَ الشُّبَهِ على الوجهَينِ اللَّذَينِ ذكَرتُ [كقولِهِ تعالى][10]: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ [طه: ١٣٤] وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ الآية [القصص: ٤٧] وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

---

(١) من م، في الأصل: خرج. (٢) من م، في الأصل: جعلتم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: وألا تخرج. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: من. (٦) في الأصل وم: يؤخذ. (٧) و(٨) في الأصل وم: أو. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ويكونُ في التأويلِ الأولِ ظُهورُ أمرِ الذُّرِّيَّةِ للأولادِ في الخُروجِ عَنْ تدبيرِ الآباءِ والأمهاتِ بِقَطعِ الحِجابِ بهذينِ الحَرفَينِ.

وفي الثاني نُزولُ الكُتُبِ وإرسالُ الرُّسُلِ مع ما أمْكَنَ جَعْلُ هذا في التأويلَينِ[1] جميعاً، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على البَيانِ أي نُبَيِّنُ ما يَكْشِفُ الغُمَّةَ[2] ويُزيلُ الشُّبْهَةَ.

والثاني: أنْ نُفَرِّقَ، ونَضَعَ كُلَّ واحدةٍ منها في أحقِّ مَواضِعِها[3] وأولَى. ذلكَ لِقَطْعِ العُذْرِ ودَفعِ العِلَلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي تأمَّلُوا عمَّا هُمْ عليهِ مِنَ الباطِلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ.

أحَدُها: أنْ يكونَ ذلكَ الإهلاكُ، لَيسَ هو التَّعذيبَ، لكنَّهُ الإماتةُ، كقولِهِ تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ [النساء: ١٧٦] أي تُميتُنا إذا فَعَلَ السُّفهاءُ ما [فَعَلوا، ولا][4] تُبْقِيهِمْ لِما يُرْجَى مِنَ التَّوبَةِ، أو تُحْدِثُ منهُمْ مَنْ لم يَسْفَهْ.

والإضافةُ[5] إلى الجُمْلَةِ بِوَجهينِ:

[أحَدُهما][6]: على إرادةِ مَنْ سَفِهَ منهُمْ.

والثاني: على الكُلِّ؛ إذِ المَوتُ حَقٌّ مكتوبٌ على جَميعِ البَشَرِ إلا على التَّعذيبِ على مَعْنَى لا تَفْعَلُ أنتَ كذلكَ كما يقولُ الرجلُ: أنا أفْعَلُ هذا؟ أو أنتَ تَفْعَلُ هذا على التَّبَرِّي والتَّبْرِئَةِ كقولِهِ[7] تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي تَفْعَلُها[8] ابْتِلاءً لا تَعْذيباً.

والثالثُ: أنْ يكونَ على الإيجابِ بِجَمْعِهِمْ في ذلكَ، وإنْ كانَ الذي اسْتَحَقَّ بَعْضُهُمْ في حقِّ المِحْنَةِ؛ إذ لهُ ذلكَ ابْتِداءً، وذلكَ نَحْوُ أمْرِ أحدٍ بما ابْتلاهُمْ، وإنْ لم يَكُنْ منهُمْ جميعاً المَعْصِيَةُ. وعلى ذلكَ أمْرُ جميعِ أنواعِ المَصائِبِ، يَجْمَعُ فيها بَيْنَ أهلِ الخَيرِ والشَّرِّ بِحَقِّ المِحْنَةِ لا العُقوبةِ، وإنْ كانَ في بَعْضِهِمْ عُقوبَةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ اخْتَلَفَ أهلُ التأويلِ في هذا:

قالَ بَعْضُهُمْ: كانَ هذا نَبِيّاً ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ يَعْني مِنَ النُّبُوَّةِ، وكَفَرَ بها. لكنَّ هذا بَعيدٌ، مُحالٌ أنْ يَجْعَلَ اللهُ الرسالةَ في مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يَكْفُرُ بهِ، أو يَخْتارُهُ لِوَحْيِهِ، وهو يَعْلَمُ أنهُ لَيسَ بِأهْلٍ لها، لِقولِهِ[9] تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]

وقالَ بَعْضُهُمْ: كانَ بَلْعَمُ بْنُ باعورا أعطاهُ اللهُ تعالى آياتٍ، فَكَفَرَ بها، وانْسَلَخَ منها. وقيلَ: عَصَى الاسْمَ المَخْزونَ، كانَ يُسْتَجابُ لهُ بهِ جَميعُ ما يَسْألُ رَبَّهُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: كانَ أُمَيَّةُ بْنُ أبي الصَّلْتِ على ما قالَ[10] عنهُ ﷺ «إنهُ آمَنَ بِشِعْرِهِ، وكَفَرَ بقَلْبِهِ» [كشف الخفاء للعجلوني ١٩].

وقالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَتِ الآيةُ في مُنافِقي أهْلِ الكتابِ؛ قد كانَ أعطاهُمُ اللهُ الآياتِ، فَكَفَروا بِها، وكَذَّبوها. ولكنْ لا نَدْري في مَنْ نَزَلَتْ؟ وهو في جَميعِ مُكَذِّبي الآياتِ، ولَيسَ يَجِبُ أنْ نَخُصَّ[11] واحداً، أو يُشارَ إلى أحدٍ نَزَلَ فيهِ.

ولكنْ نقولُ: إنها نَزَلَتْ في جَميعِ مُكَذِّبي الآياتِ.

---

(١) في الأصل وم: التأويل. (٢) في الأصل: وم: النعمة. (٣) في الأصل وم: مواضعه. (٤) في الأصل وم: فعل وإلا. (٥) هذا هو الوجه الثاني. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) في الأصل وم: تفعله. (٩) في الأصل وم: يقول. (١٠) في الأصل وم: قيل. (١١) في الأصل وم: ننص.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ خَرجَ منها، ونَزَعَ منها، وقيلَ: تَرَكَها، وكُلُّهُ واحدٌ. ثم يَحْتَمِلُ ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي كانوا قَبِلُوها مَرّةً، ثم رَدُّوها مِنْ بَعْدِ القبولِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يَقْبَلُوها ابْتِداءً، فَخرجوا منها، وكَذَّبُوها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فيهِ دلالةٌ أنّ اللهَ لا [يُتبِعُ الشيطانَ أحداً][1] ولا يُزيغُهُ إلّا بَعْدَ ما كانَ منهُ الاختيارُ لِلضلالِ والمَيلِ إليهِ [حِينَ قالَ][2]: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ إنما أتْبَعَ الشيطانُ بَعْدَ ما كانَ منهُ الانسِلاخُ والنَّزْعُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ قيلَ: كانَ في عِلْمِ اللهِ أنْ يكونَ في ذلكَ الوقتِ مِنَ الغاوِينَ، وقيلَ: كانَ مِنَ الغاوينَ؛ أي صارَ مِنَ الغاوِينَ، إذِ[3] انْسَلَخَ منها، وخَرَجَ. والغاوي: الضّالُّ.

الآية ١٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ عَصَمْناهُ حتى لا يَنْسَلِخَ منها، ولا يُكَذِّبَ بها؛ أي لو شِئْنا لَوَفَّقْناهُ بها حتى يَعْمَلَ بها. أو أنْ يُقالَ: لو شِئْنا لَعَصَمْناهُ حتى لا يَخْتارَ ما اختارَ، لكنَّهُ إذْ عَلِمَ منهُ أنهُ يختارُ ذلكَ، ويَمِيلُ إليهِ شاءَ ألّا يَعْصِمَهُ، ولا يُوَفِّقَهُ.

فكيفَ ما كانَ فهو على المُعْتَزِلَةِ؛ لأنهُ أخبَرَ لو شاءَ لَرَفَعَهُ بها، وكانَ لهُ مَشيئةُ الرَّفْعِ. ثم أخبَرَ أنهُ لم يرفَعْهُ[4]، ولو رَفَعَهُ بها كانَ أصْلَحَ لهُ في الدينِ. دلَّ أنهُ قد يَفْعَلُ بهِ ما لَيْسَ هو بِأصْلَحَ في الدينِ. وهُمْ يَقولونَ: المَشيئةُ ههنا مَشِيئةُ القَهْرِ والقَسْرِ لا مَشِيئةُ الاختيارِ. لكنْ ما ذَكَرْنا أنَّ الإيمانَ في حالِ الاضْطِرارِ والقَهْرِ لا يكونُ إيماناً. فلا مَعْنى لذلكَ، ولا يكونُ ذلكَ رفعاً، فَيَبْطُلُ قولُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ وهو ما ذَكَرْنا: لَمّا عَلِمَ منهُ أنهُ يَخْلُدُ إلى الأرضِ، ويَميلُ إليها لم يَعْصِمْهُ[5] ولم يرفَعْهُ. والإخلادُ إلى[6] الأرضِ: قالَ الحَسَنُ: سَكَنَ إلى الأرضِ. وكذلكَ قالَ الكِسائيُّ: الإخلادُ في كلامِهِمُ السُّكونُ إلى الشّيءِ والرُّكونُ إليهِ. وقالَ أبو عُبَيدَةَ: هو اللُّزومُ لِلشّيءِ.

وفي[7] قولِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ دلالةٌ أنَّ الإزاغَةَ مِنَ اللهِ وتَرْكَ العِصْمَةِ كما يكونُ مِنَ العَبْدِ المَيْلُ والرُّكونُ[8] إلى مُخالَفَتِهِ وتَرْكُ الائْتِمارِ لهُ واتِّباعُ الهَوَى.

قالَ قَتادَةُ: قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ يقولُ: لو شِئْنا مِنْ إتيانِهِ الهُدَى فلم [يَكُنْ][9] لِلشّيطانِ عليهِ سَبيلٌ، ولكنْ يَبْتَلي مِنْ عِبادِهِ مَنْ يَشاءُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ذِكْرُ الأرضِ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ كِنايةً عَنِ الدنيا كقولِهِ تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠]. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ كِنايةً عَنِ الذُّلِّ والهَوانِ؛ لأنّ كلَّ خَيرٍ وبَرَكَةٍ إنما يُطْلَبُ مِنَ السماءِ، وهُمْ إذا اختاروا ذلكَ اختاروا الذُّلَّ والهَوانَ.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ الآية: قالَ: حالَ الشيطانُ بَيْنَهُ وبَيْنَ أنْ يَصْحَبَ الهُدَى بِما مَنّاهُ، وزَيَّنَ لهُ ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ قالَ: هذا مِثْلُ الكافِرِ، أُمِيتَ فُؤادُهُ كما أُمِيتَ فُؤادُ الكلْبِ [كقولِهِ تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الآية: ١٧٧] أي ساءَ مَثَلُ الأفعالِ التي ضَرَبَ اللهُ مَثَلَها بالذي ذُكِرَ في القرآنِ][10] قالَ: ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ صَدَقَ اللهُ، وبِئْسَ المَثَلُ ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فَتَدَبَّرُوا، فَتَفَكَّرُوا في أمثالِ اللهِ التي ضَرَبَ، واعْقِلُوها. إلى هذا ذَهَبَ الحَسَنُ.

وقالَ غَيْرُهُ: وَجْهُ ضَرْبِ مَثَلِ الذي كَذَّبَ بالآياتِ بالكَلْبِ، مِنْ عادَتِهِ أنْ يَذِلَّ، ويَخْضَعَ لِكُلِّ أحدٍ لِما يَطْمَعُ أنْ ينالَ منهُ أدْنى شيءٍ، ولا يُبالي ما يُصيبُهُ مِنَ الذُّلِّ والهَوانِ في ذلكَ بَعْدَ أنْ ينالَ منهُ شيئاً[11]. فَعَلى ذلكَ الكافِرُ والمُكَذِّبُ بالآياتِ لا يُبالي ما يَلْحَقُهُ مِنَ الذُّلِّ / ١٩٠ ـ ب/ والهَوانِ بَعْدَ أنْ يُصيبَ مِنَ الدنيا شيئاً.

---

(١) في الأصل وم: يتبعه الشيطان أحد. (٢) في الأصل: حيث، في م: حيث قال. (٣) في الأصل وم: إذا. (٤) في الأصل وم: يرفع. (٥) من م، في الأصل: يعصمه. (٦) في الأصل وم: في. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: بشيء.

جنة السنة

ويُشبِهُ أنْ يكونَ وَجهُ ضَرْبِ المَثَلِ بالكلْبِ لِما أنَّ مِن عادةِ الكِلابِ إذا ظَفِرَتْ بالجِيَفِ تَنْكَبُّ عليها[1]، حتى إذا تُنادى[2] وتُدْعى، لا تَكْتَرِثُ إليهِ، ولا تَلْتَفِتُ. فَعَلى ذلكَ هذا الكافِرُ يَنْكَبُّ [على كُلِّ][3] جِيفَةٍ، ويَخضَعُ، ولا يَلْتَفِتُ إلى ما نُودِيَ، ودُعِيَ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ﴾ أي يُخرِجُ لسانَهُ، ويَتَنَفَّسُ تَنَفُّساً ﴿أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ ومَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، إذا أصابَهُ العَطَشُ والجوعُ لَهَثَ، وإذا لم يُصِبْهُ لَهَثَ أيضاً. فَعَلى ذلكَ الكافِرُ يَميلُ إلى ذلكَ، ويَختارُ، أصابَهُ شِدَّةٌ، أولم تُصِبْهُ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا.

وقالَ قتادةُ: هذا مَثَلُ الكافِرِ؟ مَيْتُ الفُؤادِ كما أُميتَ فُؤادُ الكَلْبِ ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾ ضَرَبَ اللهُ ﷻ، مَثَلَ الكافِرِ مَرَّةً بالكَلْبِ ومَرَّةً بالمَيْتِ ومَرَّةً بالأعمَى ومَرَّةً بالتُّرابِ ومَرَّةً بالأنعامِ ونَحْوَ هذا، وذلكَ لِما فيهِ مِن مَعاني ما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ﴾ كذا؛ وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]. أمَرَ رسولَهُ لِيَقُصَّ أنباءَ الأممِ السالفةِ على هؤلاءِ لِيكونَ زَجْراً وتَحذيراً لِلْكُفارِ لِيَعْلَمُوا ما حَصَلَ بأولئكَ بِصَنيعِهِمْ لِيَحْذَرُوا مِنْ صَنيعِهِمْ، ويكونَ عِظَةً وتَذْكيراً لِلمؤمنينَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾.

الآية ١٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآية قد[4] ذكَرنا في غيرِ مَوضِعٍ أنَّ آياتِهِ، قِيلَ: دينُهُ، وقِيلَ: حُجَّتُهُ وبَراهينُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ الأفعالُ التي ضَرَبَ اللهُ تعالى مَثَلَها بالذي في القرآنِ.

الآية ١٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾ شَهِدَ اللهُ تعالى مَنْ هَداهُ فهو المُهْتَدي؛ أي مَنْ هَداهُ اللهُ في الدنيا فهو المُهْتَدي في الآخرةِ ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾ في الدنيا فهو الخاسِرُ في الآخِرَةِ. فلو كانتِ[5] الهدايةُ البيانَ والأمرَ والنَّهْيَ على ما ذَكَرَهُ قومٌ لَكانَ الكافرُ والمؤمنُ في ذلكَ سَواءً؛ إذْ كانَ البيانُ والأمرُ والنَّهْيُ للكافِرِ على ما كانَ لِلمؤمِنِ، فلم يَهْتَدِ.

فَدَلَّ أنَّ في ذلكَ مِنَ اللهِ زيادةَ مَعْنًى لِلمؤمِنِ، لم يَكُنْ ذلكَ منهُ إلى الكافِرِ، وهو التوفيقُ والعِصْمَةُ والمَعونةُ. ولو كانَ ذلكَ لِلكافِرِ لَاهْتَدى [كما اهْتَدى][6] المؤمنُ. ولو كانَتْ[7] بَياناً لَكانَ ذلكَ البَيانُ مِنَ الرُّسُلِ وغيرِهِمْ[8] على قولِهِمْ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾ اللهُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أخبَرَ أنَّ مَنْ أضلَّهُ فقد خَسِرَ. دلَّ أنهُ كانَ منهُ زيادةُ مَعْنًى، وهو الخِذْلانُ والتَّرْكُ، أو خَلْقُ فِعْلِ الضلالِ.

ولَيسَ على ما يقولُهُ المُعتزلَةُ: إنهُ قد هَداهُمْ جميعاً، لكنْ لم يَهتَدُوا، فَيُقالُ لَهُمْ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ أمِ اللهُ تعالى كما قالَ تعالى لليهودِ: ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾؟ [البقرة: ١٤٠] فظاهرُ الآيةِ على خِلافِ ما يَقولونَ، ويَذْهَبونَ.

الآية ١٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ قالَتِ المُعتزلَةُ: لم يَخلُقْهُمُ اللهُ تعالى لِجَهَنَّمَ، ولكنْ خَلَقَهُمْ، وذَرَأَهُمْ، وأعطاهُمْ مِنَ القُوَّةِ ما يَكْسِبُونَ الجَنَّةَ، غيرَ أنهمْ عَمِلُوا أعمالاً اسْتَوجَبُوا بها النارَ، فصاروا لِلنارِ بما عَمِلُوا مِنَ الأعمالِ، لا أنْ خَلَقَهُمْ لِجَهَنَّمَ.

ثم اختَلَفُوا هُمْ في تأويلِ[9] قولِهِ: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ذَكَرَ بما إليهِ آلَتْ عاقِبَةُ أمْرِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: ٨] لم يَلْتَقِطُوهُ لِيكونَ لَهُمْ ما ذَكَرَ، ولكنْ إنما الْتَقَطُوهُ لِيكونَ لَهُمْ ما ذَكَرَ كقولِهِ تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [القصص: ٩] لهذا التَقَطُوهُ، لكنَّهُ صارَ لَهُمْ ما ذَكَرَ. أخبَرَ عمّا إليهِ آلَ أمْرُهُ. فَعَلى ذلكَ هذا، وكما يُقالُ: لِدُوا لِلْمَوتِ، وابْنُوا لِلْخَرابِ، ولا أحَدَ يَلِدُ لِلْمَوتِ، ولا يَبْني لِلْخَرابِ، ولكنهُ إنباءٌ عمّا[10] تَؤُولُ إليهِ عاقِبَةُ أمْرِهِ مِنَ المَوتِ والخرابِ.

---

(١) في الأصل وم: لها. (٢) في الأصل وم: ينادى لها. (٣) في الأصل وم: لكل. (٤) في الأصل وم: وقد. (٥) في الأصل وم: كان.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: كان. (٨) في الأصل وم: وغيره. (٩) في الأصل وم: تأويله. (١٠) في الأصل وم: ما.

جنة السنة

إلى هذا يَذهَبُ عامَّةُ المُعتزِلَةِ. وقالَ أبو بَكرٍ الأصَمُّ: الآيةُ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ كأنه قالَ: ولقد ذَرأنا كثيراً مِنَ الجنِّ والأنسِ لَهُمْ قلوبٌ لا يَفقَهونَ، ولَهُمْ أعيُنٌ لا يُبصِرونَ، ولَهُمْ آذانٌ لا يَسمَعُونَ بها: أولئكَ لِجَهنَّمَ وأولئكَ كالأنعامِ.

لكنَّ هذا بعيدٌ لأنهُ لو جازَ هذا في هذا لَجازَ مِثلُهُ في جميعِ القرآنِ أنْ يَجعَلَ أوَّلَ الآيةِ في آخِرِها وآخِرَها في أوَّلِها، فهذا محالٌ.

وأمّا قولُهُمْ: أنهُ إخبارٌ عمّا إليهِ آلَتْ عاقبةُ أمرِهِمْ، واستِشهادُهُمْ بقولِهِ تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ [القصص: ٨] كذا فهو يَصلُحُ لِمَنْ[1] يَجهَلُ عَواقِبَ الأمورِ، يَخرُجُ ذلكَ منهُ على التَّنبيهِ والإيقاظِ لِما لم يَعرِفُوا عاقِبَةَ ما صارَ إليهِ الأمرُ.

فأمّا اللهُ، سُبحانَهُ، عالِمُ السِّرِّ والعَلانِيَةِ وما كانَ، ويكونُ في الأوقاتِ التي يكونُ، فلا[2] يَحتَمِلُ ذلكَ؛ وقولُ الناسِ: لِدُوا لِلموتِ، وابْنُوا لِلخَرابِ فهو إنما يَذكُرونَ هذا عندَ التَّنبيهِ والإيقاظِ لِجَهلِهِمْ بِعواقِبِ الأمورِ، وإنْ كانُوا لا يَبنُونَ ولا يَلِدُونَ لِلموتِ والخرابِ، وما قَصَدُوا لهُ.

وأمّا التأويلُ عندَنا على ما ذَكَرَ في ظاهِرِ الآيَةِ أنهُ خَلَقَ لِجَهنَّمَ كثيراً مِنَ الجنِّ والإنسِ [لأنهُ][3] أعْلَمُ في الأزلِ أنهمْ يَختارُونَ فعلَ الكُفرِ والأعمالَ الخبيثةَ التي يَستَوجِبونَ بها النارَ؛ خَلَقَهُمْ لجهنَّمَ لِما عَلِمَ منهُمْ ذلكَ في الأزلِ أنهُمْ يختارُونَ الأعمالَ الخبيثةَ، فَذَرَأهُمْ على ما عَلِمَ[4]، منهُمْ ما[5] يختارونَ، ويكونُ منهمْ.

وكذلكَ خَلَقَ المؤمنينَ لِلجنَّةِ لِما عَلِمَ في الأزلِ أنهُمْ يختارُونَ فِعلَ الهُدى، ويَعمَلُونَ أعمالاً طَيِّبَةً يَستوجِبونَ بها الجنَّةَ. خلقَهُمْ لِلجنَّةِ لا أنْ خلَقَهُمْ لِلجنَّةِ مُرسَلاً، أو خلَقَهُمْ لجهنَّمَ مُرسَلاً، ولكنْ لما ذكَرنا، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] إنما خَلَقَ منهُمْ لِلعبادَةِ مَنْ عَلِمَ أنهُ يَعبُدُهُ، ويُطيعُهُ، وأمّا مَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يكفُرُ بهِ، ويَعصِيهِ فهو إنما خَلَقَهُ لِما عَلِمَ [أنَّ كُفرَهُ][6] يكونُ منهُ. فَمَنْ كانَ عَلِمَ منهُ في الأزلِ أنهُ يكونُ منهُ العِبادَةُ خَلَقَهُ لِلعبادَةِ، ومَنْ كانَ عَلِمَ منهُ أنهُ يكونُ منهُ الكُفرُ خَلَقَهُ لِذلكَ؛ لأنهُ لا يجوزُ أنْ يَعلَمَ منهُ المَعصِيَةَ وفِعلَ الكُفرِ، فَيَخلُقَهُ على خِلافِ ذلكَ. دَلَّ أنهُ ما ذكَرنا، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ[7] أنْ يُقالَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] الفريقَ الذي عَلِمَ منهُ العِبادَةَ لا الكُلَّ. دليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ ولم يَقُلْ: ذَرَأنا الكُلَّ. فهذِهِ في فريقٍ، وهذِهِ في فريقٍ آخَرَ.

وهذا التأويلُ يَرجِعُ إلى الخُصوصِ. ألا تَرى أنَّ الصِّبيانَ والمَجانِينَ لم يَدخُلُوا فيهِ؟ أو أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي إلّا لِأُكَلِّفَهُمُ العِبادَةَ، وآمُرَهُمْ بها. فإنْ كانَ هذا فهيَ على الكُلِّ على الكافِرِ والمؤمنِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي ما خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلّا لِتَشهَدَ خِلقَتُهُمْ على وحدانيَّةِ اللهِ وصَرفِ العبادَةِ إليهِ. وقد شَهِدَتْ خِلقَةُ كُلِّ كافرٍ ومؤمنٍ على وَحدانيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الفِقهُ هو مَعرِفَةُ الشَّيءِ بِمَعناهُ الدالِّ على نَظِيرِهِ، أو معرفةُ الشَّيءِ بِمعناهُ الدالِّ على مُدَبِّرِهِ. فهؤلاءِ الكَفَرَةُ لم يَفقَهُوا لِما لم يَنظُرُوا إلى الأشياءِ لِمَعناها وحَقائِقِها، إنما نَظَرُوا إلى الأشياءِ لِظواهِرِها. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ لِما نَظَرُوا إلى ظواهِرِها لم يَنظُرُوا إلى مَعانِيها وحقيقَتِها لِيَدُلَّهُمْ على تَدبيرِ مُنشِئِها وحِكمَتِهِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ كما كانَتْ لِلأنعامِ قلوبٌ وأعيُنٌ وآذانٌ، لكنْ لا يَفقَهُونَ مَعناها وحَقيقَتَها، وإنْ كانُوا يَسمَعُونَ النداءَ، ويَنظُرونَ إلى ظَواهِرِ الأشياءِ. فَعَلى ذلكَ الكفارُ، وإنْ كانُوا يَسمَعُونَ، ويَنظُرُونَ ما ذَكَرنا بَعدَ أنْ لم يَفقَهُوا معانِيَها وتدبيرَ مُدَبِّرِها. فهم كالأنعامِ.

---

(١) أدرج في الأصل قبلها: هذا. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: عمل. (٥) في الأصل وم: أنهم. (٦) في الأصل وم: أنه خلقه. (٧) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

وأصلُهُ: أنهُم لم يَستعمِلُوا تلكَ الحواسَّ في ما جُعِلَتْ لَهُمْ لِمَعْرِفةِ حقائقِ الأشياءِ وما أُدرجَ فيها مِنَ المعاني والحِكْمَةِ، فصارُوا في الحقيقَةِ كَمَنْ لا حَواسَّ لَهُ، أو لم يَنْتَفِعوا بها انْتِفاعَ مَنْ لَهُمْ تلكَ، بل كانُوا كَمَنْ لَيسَ لهمْ تلكَ. لذلكَ نَفَى عنهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقال/ ١٩١ ـ أ/ قائلونَ: نَفَى عنهُمْ هذِهِ الحَواسَّ لِما لم يَنْتَفِعُوا بها انْتِفاعَ مَنْ لَهُمْ تلكَ، بَل كانُوا كَمَنْ لَيسَ لهُمْ تلكَ الحَواسُّ لِلْمَعْنَى الذي جُعِلَتْ تلكَ الحَواسُّ فَهمْ ﴿كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ لأنَّ هؤلاءِ إذا ضَلُّوا الطريقَ، فَهُدُوا، وأُرْشِدُوا، لا يَهْتَدُونَ، ولا يَرجِعُونَ عنْ ذلكَ، والدَّوابُّ إذا ضَلُّوا الطريقَ، فَهُدُوا [اهْتَدَوا، وَوَعَوا][1]، ومَالُوا إليهِ: فَهُمْ أضَلُّ مِنَ الأنعامِ لِما ذَكَرَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ لأنَّ بُنْيَةَ الأنعامِ لا تَحْتَمِلُ فَهْمَ ذلكَ، وبُنْيَةَ هؤلاءِ تَحْتَمِلُ، إذ جَعَلَ لَهُمْ عُقولاً تُمَيِّزُ، وتَعْرِفُ حِكْمَةَ مُدَبِّرِها ومُنْشِئِها، لكنَّهُمْ ضَيَّعُوها، ولَم يكُنْ مِنَ الأنعامِ تَضْيِيعٌ، لذلكَ كانَ أولئكَ أضَلَّ.

قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾ لِما خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة: ٧] فَمِنْ ثَمَّةَ لم تَفْقَهْ قُلُوبُهُمْ، ولم تُبْصِرْ أعْيُنُهُمْ، ولم تَسْمَعْ آذانُهُمْ. وقالَ: ثم ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلاً فقالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ في الأكْلِ، لأنَّ هَمَّهُمْ[2] لَيسَ إلاَّ الأكلَ والشربَ كَهَمِّ[3] الأنعامِ والبهائِمِ لَيسَ هَمُّهُمْ[4] إلا الأكلَ والشربَ وقَضاءَ الشَّهْوَةِ؛ فهيَ تَسْمَعُ النداءَ، ولا تَعْقِلُ. فَعَلَى ذلكَ الكافِرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ في فَهْمِ ما أُلْقِيَ إليهِمْ ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ لأنهُمْ أُعْلِمُوا سَبَبَ فَهْمِ ذلكَ، والأنعامُ لا.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ لأنَّ الأنعامَ تَعْرِفُ ربَّها، وتُوَحِّدُهُ، وتَذْكُرُهُ كقولِ[5] اللهِ تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ الآيةَ [الإسراء: ٤٤] وكقولِهِ تعالى: ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ [النور: ٤١] وهؤلاءِ لا يعرفونَهُ، ولا يُوَحِّدُونَه، فَهُمْ أضَلُّ.

ويَحْتَمِلُ[6] أن يُقالَ: هُمْ أضَلُّ، ولا يَهْتَدُونَ، وإنْ هُدُوا، ودُعُوا، والأنعامُ تَهْتَدي. وهُمْ أضَلُّ لأنهُمْ يَضِلُّونَ، ويُضِلُّونَ غَيرَهُمْ، والأنعامُ لا. أوهُمْ أضَلُّ لأنهُمْ لا يُنْتَفَعُ بِهِمْ، والأنعامُ يُنْتَفَعُ بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ عَنْ فَهْمِ ما أُلْقِيَ إليهِمْ، وأُمِرُوا بِهِ، وغافِلونَ عمّا أُوعِدُوا.

الآية ١٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ: يَحْتَمِلُ أنهُمْ قد ظَنُّوا أنَّ في إثباتِ عَدَدِ الأسماءِ إيجابَ إثباتِ عَدَدٍ مِنَ الذَّواتِ[7]، فأخْبَرَ أنْ لَيسَ في إثباتِ عَدَدِ الأسماءِ إثباتُ أعدادٍ مِنَ الذَّواتِ[8]؛ إذ قد يُسَمَّى الشَّيءُ الواحِدُ بأسماءٍ مُخْتَلِفَةٍ. ثم لا يُوجِبُ ذلكَ إثباتَ عَدَدِ ذلكَ ولا تَجْزِئَتَهُ مِنْ نَحْوِ ما تُسَمَّى الحَرَكَةُ حَرَكَةً عَرَضاً شيئاً خَلْقاً مِنْ غَيرِ أنْ أوجَبَ ذلكَ إثباتَ عَدَدِ الحَرَكَةِ أو تَجْزِئَتَهُ، وكذلكَ في جَميعِ الأشياءِ. فَعَلَى ذلكَ يُخْبِرُ أنهُ لَيسَ في إثباتِ عَدَدِ الأسماءِ إثباتُ عَدَدٍ مِنَ الذواتِ على ما ذَكَرْنا.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ خَرَجَ هذا مُقابِلَ قولٍ كانَ منهُمْ، وهو أنْ وَصَفُوا اللهَ بِشَيءٍ، لا يَحْسُنُ أنْ يُوصَفَ بِهِ، وأضافُوا إليهِ أشياءَ لا تَصِحُّ أنْ تُضافَ مِنْ قولِهِمْ: يا خالِقَ الخَنازيرِ ويا خالِقَ الخبائِثِ ويا إلهَ القِرَدَةِ ونَحْوِهِ. فأخبَرَ انِ ادْعُوهُ بالأسماءِ الحُسْنَى ممّا ثَبَتَ عندَ[9] الخَلْقِ أنهُ مُسَمًّى [بِها بِما هداهُمْ][10]؛ يُقالُ: يا هادِيَ يا مُرْشِدُ ونَحْوُهُ، ويُقالُ: بِما[11] أعطاهُمْ مِنَ النِّعَمِ: يا كريمُ يا جَوادُ يالطيفُ ونَحْوُهُ، ويُقالُ: يا خالِقُ يا رزّاقُ يا اللهُ يا رَحمنُ يا رَحِيمُ لِما ظَهَرَ في أنْفُسِهِمْ مِنْ أُلوهِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ، فقالَ: لا تَدْعُوا بكذا، ولكنِ ادْعُوا بالأسماءِ التي ثبتَ عندَ الخَلْقِ تَحْقِيقاً [أنهُ يُسَمَّى بها][12]، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) من م في الأصل: وعرفوا. (٢) في الأصل وم: همتهم. (٣) في الأصل: وم: كهمة. (٤) في الأصل وم: همتهم. (٥) في الأصل وم: لقول. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) و(٨) في الأصل وم: الذات. (٩) في الأصل وم: عنه. (١٠) في الأصل وم: به من نحو ما أعطاهم. (١١) في الأصل وم: ما. (١٢) في الأصل وم: وإنه يسمى به.

جنة السنة

وقد رُوِيَ على هذا المَعْنَى أنَّ رجلاً دعا في صلاتِهِ فقالَ: يا اللهُ ويا رحمنُ ويا رحيمُ، فقالَ رَجُلٌ مِنَ المُشْرِكينَ: أليس بزَعْمِ محمدٍ وأصحابِهِ أنهُمْ يَعْبُدُونَ إلهاً واحداً؟ فما بالُ هذا يَدْعُو رَبَّينِ نَحْوَ ماسَمَّوها آلهةً وأرباباً؟ فقالَ: هذهِ الأسماءُ التي تَدْعُونَ بها الأصنامَ للهِ، فادْعُوهُ بها، ولا تَدْعُوا الأصنامَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ يَحْتَمِلُ أي لا تكافِئْهُمْ بصَنيعِهِمْ، ولا تُجازِهِمْ بأذاهُمْ إيّاكَ، فإنَّ اللهَ هو المُكافِئُ لَهُمْ والمُجازي بِصَنيعِهِمْ. ألا تَرَى أنهُ قالَ في آخِرِهِ: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؟

وقولُهُ تعالى: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قيلَ: الإلحادُ هو الجورُ، والمَيلُ عنِ الحَقِّ والوَضْعُ في غَيرِ مَوضِعِهِ. وهُمْ سُمّوا مُلْحِدينَ لِما سَمَّوا غَيرَهُ بأسمائِهِ أو لإشراكِ غَيرِهِ في أسمائِهِ، أو سُمّوا بذلكَ لِما صَرَفُوا شُكْرَ نِعَمِهِ إلى غَيرِهِ(١)، وعَبَدُوا دُونَهُ مَعَ عِلْمِهِمْ أنهُ لم يَكُنْ مِنْهُمْ إليهِمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ. إنما كانَ ذلكَ لَهُمْ مِنَ اللهِ.

قالَ ابْنُ عباسٍ: الإلحادُ المَيلُ في جَميعِ القرآنِ، وقيلَ: الإلحادُ: التَّكْذيبُ. قال القتبيُّ: يُلْحِدُونَ يَجُورُونَ، [وعَنِ الحَقِّ يَعْدِلُونَ](٢) وأصلُهُ: الجَورُ والمَيلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قالَ: هذهِ بِشارةٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ، بالنَّصْرِ لَهُ والظَّفَرِ على أعدائِهِ في الدنيا. وقالَ قائلونَ: هو حَرْفُ وعيدٍ أوعَدَهُمْ ﷻ بأذاهُمْ رسولَ اللهِ ﷺ.

الآية ١٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي يَهْدُونَ الخَلْقَ بالحَقِّ الذي عندَهُمْ، وهو القرآنُ والكُتُبُ التي عِنْدَهُمْ، وأمْكَنَ أن يكونَ الحَقُّ هو رسولَ اللهِ ﷺ، [بهِ](٣) يَهْدُونَ الناسَ، وبهِ يَعْمَلُونَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي يَهْدُونَ الخَلْقَ إلى سَبيلِ اللهِ على ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخْرَى حَيثُ قالَ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]. ويَحْتَمِلُ ﴿بِالْحَقِّ﴾ ههنا [أنْ يكونَ](٤) هو اللهَ كقولِهِ تعالى ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أيِ الحَقِّ الذي يَهْدُونَ، ويَعْمَلُونَ[بهِ](٥) كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ الآية [هود: ٨٨].

الآية ١٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ قد ذَكَرْنا هذا في غَيرِ مَوضِعٍ. وقولُهُ تعالى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قالَ قائلونَ: هذا صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٧] الآية. وقالَ بَعْضُهُمْ: فيهِ الوَعْدُ لِرسولِ اللهِ بالنَّصْرِ والظَّفَرِ على أعدائِهِ. والاسْتِدْراجُ هو الأخْذُ في حالِ الغَفْلَةِ(٦) مِنْ حَيثُ أَمِنَ بَغْتَةً كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

وقالَ قائلونَ: الاسْتِدْراجُ المَكْرُ، لكنَّ مَعْنَى ما يُضافُ الاسْتِدْراجُ والمَكْرُ إلى الخَلْقِ غَيرُ المَعْنَى الذي يُضافُ إلى اللهِ، [والجِهَةُ التي تُضافُ إلى اللهِ غَيرُ الجِهَةِ التي تُضافُ إلى الخَلْقِ](٧)، والكَيدُ(٨) الذي يُضافُ إلى الخَلْقِ مذمومٌ، والكَيدُ(٩) الذي يُضافُ إلى اللهِ مَحْمودٌ، وكذلكَ ما أُضيفَ إلى اللهِ مِنَ المَكْرِ والخِداعِ والاسْتِهْزاءِ ونَحْوِهِ، وهو ما ذَكَرْنا على اخْتِلافِ الجِهاتِ.

والمَعْنَى في الجِهَةِ التي تُضافُ إلى اللهِ غَيرُ الجِهَةِ التي تُضافُ إلى الخَلْقِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يأخُذُهُمْ بِما يَسْتَوجِبُونَ، ويَسْتَحِقُّونَ بِحَقِّ الجَزاءِ والمُكافآتِ، فلا يَلْحَقُهُ في ذلكَ ذَمٌّ. وأمّا الخَلْقُ في ما بينَهُمْ يَمْكُرُونَ، ويَكيدُونَ لا على الاسْتِحْقاقِ والجَزاءِ.

وعَنِ الحَسَنِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [أنهُ](١٠) قالَ: كلَّما جَدَّدُوا المَعْصِيَةَ جَدَّدَ اللهُ لَهُمْ نِعْمَةً

---

(١) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عن الحق ويعدلون. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: الفضلة. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: والجهة. (٩) في الأصل وم: والجهة. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

لِيَستهزئوا، ويأشَرُوا، ويَبْطَرُوا، ثم يُهْلِكُهُمْ. وقالَ بَعْضُهُمْ: يُظْهِرُ لَهُمُ النِّعَمَ، ويُنْسِيهِمُ الشُّكْرَ. وجائزٌ أنْ يكونَ ممّا ذُكِرَ مِنَ الاِسْتِدْراجِ والمَكْرِ والكَيدِ عبارةٌ عنِ العذابِ، أي إنَّ أخذي إياهُمْ وعذابي شديدٌ حينَ[1] قالَ: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣] أي عُقوبَتي شديدةٌ.

الآية ١٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي كِيدُوهُ أنتم، وأُمْهِلُهُمْ، وأكِيدُ لَهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ و١٦]. فَيُخرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٦] مُخرَجَ جزاءِ كَيدِهِمْ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠] أي جَزَيناهُمْ جزاءَ مَكْرِهِمْ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي نَجْزِيهِمْ جزاءَ اسْتِدْراجٍ، وما [هو عندَهُمْ كيدٌ، كذلكَ نَفْعَلُ بهمْ ما][2] هو عندَهُمْ مَكرٌ وخِداعٌ، وإنْ لم يَكُنْ مِنَ اللهِ [مَكْرٌ وخِداعٌ][3] كقولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أي إعادةُ الشيءِ عندكُمْ أهْوَنُ مِنَ الاِبْتِداءِ، وإنْ كانَتِ الإعادةُ والاِبْتِداءُ سَواءً على اللهِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ وقولُهُ[4] ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢ و١٨٣] ونَحْوُهما[5] أي نَفْعَلُ بكُمْ ما هو اسْتِدْراجٌ وكَيدٌ عندَكُمْ، واللهُ أعْلَمُ.

ودَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ على أنهُ لم يُنْشِئْهُمْ، لِحاجةٍ لهُ إليهِمْ أو لِمَنْفَعَةٍ لهُ فيهِمْ، ولكنْ أنْشأهُمْ لِحَوائِجِ أنْفُسِهِمْ ولِمنافعَ تَرْجِعُ إليهِمْ حتى إنْ عَمِلوا نَفَعُوا أنْفُسَهُمْ، وإنْ تَرَكُوا ضَرُّوا أنْفُسَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَتِينٌ﴾ قِيلَ: شديدٌ أي عُقوبَتي شديدةٌ، والمَتِينُ المُحْكَمُ القويُّ/ ١٩١ ـ ب/.

الآية ١٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ إنَّ الكَفَرَةَ كانُوا يَنْسُبُونَ رسولَ اللهِ إلى الجُنونِ أحياناً. والذي حَمَلَهُمْ على ذلكَ، واللهُ أعلمُ، أنهُمْ كانُوا[6] أهْلَ العِزِّ والشَّرَفِ في الدُّنياوِيَّةِ، وكانَ لا يُخالِفُهُمْ أحَدٌ، ولا يَسْتَقْبِلُهُمْ بالمَكْروهِ إلّا أحَدُ رَجلَيْنِ: ذو هَيْبَةٍ وقُوَّةٍ، ولَهُ أعوانٌ وأنصارٌ، أو رجلٌ بهِ جُنونٌ لأنهُمْ كانُوا يَقْتُلُونَ مَنْ يُخالِفُهُمْ في شيءٍ مِنَ الأمْرِ. فلَمّا رأَوا رسولَ اللهِ خالَفَهُمْ، واسْتَقْبَلَهُمْ بما يَكْرَهُونَ، ولم يَرَوا مَعَهُ أنصاراً ولا أعواناً؛ [إنهُ لا يُخالِفُهُمْ][7] إلّا بِجُنونٍ فيهِ، فَنَسَبُوهُ إلى الجُنونِ لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ نِسْبَتُهُمْ إياهُ إلى الجُنونِ لِما حَرَّمَ عليهِمْ عبادةَ الأصنامِ والأوثانِ التي كانُوا يَعْبُدونَها، وهُمْ قد رَأَوا العُقَلاءَ منهُمْ قد عَبَدُوا الأصنامَ، ولم يُحَرِّمُوا ذلكَ. فلَمّا حَرَّمَ ذلكَ [عَلَيهِمْ ظَنُّوا أنهُ إنما حَرَّمَ ذلكَ][8] لآفَةٍ. لِذلكَ حَمَلَهُمْ نِسْبَتَهُ إلى الجُنونِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم عاتَبَهُمْ بِتَرْكِهِمُ التَّفَكُّرَ فيهِ بقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ لِيَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنهُ لَيسَ بهِ جُنونٌ. وذلكَ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

[أحدُهما][9]: أنهُمْ لو تَفَكَّرُوا في رسولِ اللهِ بما أخبَرَهُمْ مِنَ المَرْغوبِ والمَرْهوبِ والمَحْذورِ في كتابِهِمْ على غيرِ لِسانِهِمْ واختِلافٍ منهُ إلى أحدٍ منهُمْ ولا تَعَلُّمٍ لَعَلِموا[10] أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ و[أنَّ ما][11] أخبَرَ إنما أخبَرَ باللهِ.

والثاني[12]: أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي قد تَفَكَّرُوا، وعَرَفُوا أنْ لَيسَ بهِ جُنونٌ، وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية: [الأعراف: ١٨٥] أي قد تَفَكَّروا في ذلكَ، وعَرَفُوا أنَّ مِثْلَ هذا لم يُخْلَقْ عَبَثاً باطلاً كما يُقالُ: ألم تَفْعَلْ كذا؟ أي قد فَعَلْتَ. لكنَّهُمْ عانَدُوا، وكابَرُوا آياتِهِ وحُجَجَهُ.

وأمْكَنَ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ أي في أنْفُسِهِمْ وفي أولئكَ الذينَ عَبَدُوا [كثيراً][13] مِنَ الأصنامِ والأوثانِ[14] لِيَظْهَرَ لَهُمْ أنهُمْ على باطلٍ وسَفَهٍ، ولِيَتَبَيَّنَ لهمْ أنَّ الحَقَّ هو ما يَدْعُو إليهِ محمدٌ ﷺ لا ما كانُوا هُمْ عليهِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، ساقطة في الأصل. (٣) في الأصل وم: مكرا وخداعا. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: ونحوه. (٦) في الأصل وم: لأنهم. (٧) في الأصل وم: أنهم لا يخلفهم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: وم: بالنسبة. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل: وم: ليعلموا. (١٢) في الأصل و.م: و (١٣) ساقطة من لأأصل وم. (١٤) في الأصل وم: أو الأوثان.

جنة السنة

وفيه دلالةٌ أنّ الحقَّ يَلْزَمُ، وإنْ كانَ لا يُعْلَمُ ذلكَ إلّا بالتَّفكُّرِ والتَّدَبُّرِ، ما لَحِقَ هؤلاءِ مِنَ الوعيدِ الشديدِ والعِقابِ العَظيمِ لَمّا تَرَكُوا هُمُ التَّفكُّرَ، وكانَ لَهُمْ سبيلُ الوصولِ إلى معرفةِ ذلكَ. وقولُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ إنهُ لَيسَ بِهِ جِنَّةٌ، هو[1] جوابٌ مِنَ اللهِ. ويَحْتَمِلُ: لو تَفَكَّرُوا في صاحِبِهِمْ أنهُ لَيسَ بِهِ جِنَّةٌ.

ثم أخبَرَ أنهُ ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لَيسَ كما يَقولونَ: إنهُ مجنونٌ؛ إذْ مَعَهُ آياتٌ وبَراهينُ، فهو ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

الآية ١٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية: يَحْتَمِلُ هذا على الابْتِداءِ، ويَحْتَمِلُ على الصلةِ بالأوَّلِ، وهو أنهُمْ إذا تَفَكَّرُوا في مَلَكُوتِ السمواتِ والأرضِ عَرَفُوا أُلوهِيَّةَ اللهِ ورُبُوبِيَّتَهُ لِما يَرَونَ مِنَ اتّصالِ مَنافعِ بَعْضٍ بِبَعْضٍ على بُعْدِ ما بَيْنَهما واتّساقِ التَّدبيرِ في ذلكَ، فَعَرَفُوا أنَّ ذلكَ كُلَّهُ[2] مُسَخَّرٌ لِمَنْ لهُ التَّمييزُ، وأنَّ المَقْصُودَ في خَلْقِهِ أهْلُ التَّمييزِ.

فإذا عَرَفُوا ذلكَ عَرَفُوا أنهُمْ يَحتاجُونَ إلى مَنْ يُعَرِّفُهُمْ[3] ذلكَ، ويُعَلِّمُهُمْ ما يَحْتاجُونَ في ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ على ابْتِداءِ الأمرِ بالتَّفكُّرِ ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ لِيَدُلَّهُمْ على وَحدانيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ كانَ هذا نَزَلَ[4] في مَنْ عَرَفَ صِدْقَهُ لكنَّهُ عانَدَ في تَكْذِيبِهِ، فقالَ: ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ يُحَذِّرُهُمْ لِيَرْجِعُوا إلى تَصديقِهِ مَخافَةَ الخُرُوجِ مِنَ الدنيا على ما هُمْ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا يَتوجَّهُ وجهَينِ:

أحدُهُما: أنكُمْ مِمَّنْ تَقْبَلُونَ الأخبارَ والحديثَ.

فإذا لم تَقْبَلُوا حديثَ رسولِ اللهِ ﷺ وخَبَرَهُ، ولم تُصَدِّقُوهُ، فَبِأيِّ حديثٍ بَعْدَهُ تَقْبَلُونَ؟ وتُصَدِّقُونَ؟ ومَعَهُ حُجَجٌ وبراهينُ، واللهُ أعْلَمُ.

والثاني: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ بَعْدَ القرآنِ، وهو كما وصَفَهُ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ الآية: [فصلت: ٤٢] وقالَ ﴿لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] فإذا لم تَقْبَلُوا هذا، ولم تُصَدِّقُوهُ وهو بالوَصْفِ الذي ذُكِرَ، وأنتُمْ مِمَّنْ تَقْبَلُونَ الحديثَ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ تَقْبَلُونَ؟

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يُريدُ بهِ الآخِرَةَ؛ يقولُ: إذا اقْتَرَبَ أجَلُهُمْ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا حديثَ بَعْدَهُ يُؤمنونَ. والتَّأويلُ الآخَرُ في الدنيا.

الآية ١٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ وفي مَوضِعٍ آخَرَ ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧] ولو كانتِ الهِدايةُ الأمْرَ والبيانَ على ما قالَهُ قومٌ لكانَ ذلكَ مِنْ غَيْرِهِ[5] وكذلكَ لو كانَ الإضلالُ والإزاغةُ والنَّهْيُ هو التَّخْلِيَةَ لكانَ ذلكَ يكونُ مِنْ غيرِهِ، وكُلُّ مَنْ أرادَ اللهُ أنْ يَهْدِيَهُ أضَلَّهُ غَيْرُهُ، وكُلُّ مَنْ أضَلَّهُ اللهُ هَداهُ غَيْرُهُ. فذلكَ مُحالٌ مَعَ ما في كُلِّ ما أضافَ اللهُ الإضلالَ إلى الخَلْقِ ذَمَّهُ، وفي ما أضافَ الهِدايَةَ إليهِ مدَحَهُ. ثم أضافَهُما جميعاً إلى نَفْسِهِ.

دلَّ أنَّ هنالكَ زيادةَ مَعْنًى لَيسَ ذلكَ في الإضافَةِ إلى[6] الخَلْقِ، وهو ما ذُكِرَ في غَيرِ مَوضِعٍ: إمّا خَلْقُ فِعْلِ الضَّلالِ مِنَ الكافرِ وإمّا[7] خَلْقُ فِعْلِ الاهْتِداءِ والإيمانِ مِنَ المؤمِنِ، وكانَ مِنهُ التَّوفيقُ والمَعونَةُ في الهُدَى والخِذلانُ في الكُفْرِ.

وهذانِ الوَجْهانِ اللذانِ ذَكَرْناهُما لا يكونانِ مِنَ الخَلْقِ، إنما يكونانِ مِنَ اللهِ. لذلكَ كانَ مَعْنَى الإضافَةِ إليهِ.

وإنما يكونانِ مِنَ الخَلْقِ الدُّعاءُ وغَيرُهُ، لا ما قالَتْهُ المُعْتَزِلَةُ مِنَ البَيانِ والأمْرِ والنَّهْيِ والتَّخْلِيَةِ، إذْ يكونُ ذلكَ مِنَ الخَلْقِ. وباللهِ العِصمَةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ أي مَنْ أهانَهُ اللهُ بالضلالَةِ فلا أحَدَ يَمْلِكُ إكرامَهُ بالهُدَى.

---

(١) في الأصل وم: وهذا. (٢) من م، في الأصل: كل. (٣) من م، في الأصل: يعرفونهم. (٤) في الأصل: وم: ترك. (٥) في الأصل وم: غير. (٦) من م، في الأصل: التي. (٧) في الأصل وم: و.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ولا ضَرَرَ يَلْحَقُهُ في طُغيانِهِمْ. لِذلكَ تَرَكَهُمْ فيه. ودَلَّ ذلكَ على أنهُ لم يُنْشِئْهُمْ لِحاجَةِ نَفْسِهِ و لا لِدَفْعِ ضَرَرِ نَفْسِهِ، ولكنْ لِحاجَةِ أَنْفُسِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] وكقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣] وهو حَرْفُ الوعيدِ.

الآية ١٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ قِيلَ ﴿أَيَّانَ﴾ متى قيامُها؟ قالَ القُتَبِيُّ: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي متى ثُبوتُها؟ يُقالُ: رَسا في الأرضِ إذا ثَبَتَ، ورَسَا في الماءِ، ويُقالُ لِلجبالِ: رَواسِيَ لِثُبوتِها.

ثم اخْتُلِفَ في السؤالِ عَمَّ كانَ؟ قالَ بَعْضُهُمْ: كانَ السؤالُ عنِ الفَناءِ فَناءِ الخَلْقِ وهلاكِهِمْ، لأنهُ قالَ في آخِرِهِ ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ ونَحْوُهُ كقولِهِ[1] ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ الآية: [يس: ٤٩] وذلكَ يكونُ في الدنيا.

وقالَ قائلونَ: كانَ السؤالُ عنِ البَعْثِ وقِيامِ الساعةِ إنكاراً منهُمْ إياها واستِعْجالاً للعذابِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧] يَسْتَعْجِلُ الذينَ يُؤْمِنُونَ بها، وقولِهِمْ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا﴾ الآية: [المؤمنون: ٨٢] وغَيرُ تلكَ الآياتِ يدلُّ على أنَّ السُّؤالَ كانَ عنِ الساعةِ.

ولَيسَ قولُهُ: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أنهُ كانَ عنِ الفَناءِ، إذا[2] كانُوا يَعْنونَ الفَناءَ. ولا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ السُّؤالُ عنْ ذلكَ. ثم يَحْتَمِلُ بعدَ هذا وجهَينِ:

أحدُهُما: إنْ كانَ السُّؤالُ عنِ الكَذِبِ لها فهو سُؤالُ اسْتِهْزاءٍ واسْتِعجالٍ لِما ذَكَرْنا.

والثاني[3]: إن كانَ عَنِ الصِّدْقِ فهو سُؤالُ اسْتِعْلامٍ وإشفاقٍ لِيَتَأَهَّبُوا لها، ويَسْتَعِدُّوا كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ﴾ [الشورى: ١٨] لِما سَمِعُوا مِنَ الآياتِ ما يُقَرِّبُ وُقُوعَها كقولِهِ تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] وقولِهِ تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] وقولِهِ تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] ونَحْوُهُ مِنَ الآياتِ وما سَمِعُوا مِنْ رسولِ اللهِ: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتَينِ» [البخاري: ٦٥٠٤] وفي بَعْضِ الأخبارِ [أنهُ][4] قالَ: «كادتِ الساعةُ أنْ تَسْبِقَني» [الترمذي٢٢١٣] وغَيْرُ ذلكَ مِنَ الأخبارِ. حَمَلَهُمْ ذلكَ على السؤالِ عنها لِيَتَأَهَّبُوا لها، ويَسْتَعِدُّوا.

ثم أمَرَهُ أنْ يقولَ: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يَكْشِفُها، ولا يُظْهِرُ وَقْتَها / ١٩٢ ـ أ/ إلّا هو لَيسَ هو كالأمورِ التي تَجْري على أيدي الخَلْقِ، ويكونُ لَهُمْ فيها تدبيرٌ؛ أعني الملائكةَ الذينَ سُلِّطُوا على حِفْظِ المَطَرِ والنباتِ.

وأمّا الساعةُ فإنها تَقومُ مِنْ غَيرِ أنْ كانَ لِأحدٍ مِنَ الخَلائِقِ تدبيرٌ فيها أو عِلْمٌ، وهو ما وَصَفَها اللهُ ﷻ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] أَخْبَرَ أنَّ أمْرَ الساعةِ خارجٌ عنْ تدبيرِ الخَلْقِ. بلْ تقومُ بِتَدبيرِ اللهِ مِنْ غَيرِ أنْ يُجْرِيَها أحدٌ[5]، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قِيلَ: ثَقُلَتْ على أهلِ السمواتِ والأرضِ، ثم اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ قائلونَ: قولُهُ: ﴿ثَقُلَتْ﴾ أي خَفِيَتْ على أهلِ السمواتِ والأرضِ، فَذَكَرَ الثِّقَلَ لأنَّ كُلَّ مَنْ خَفِيَ عليهِ شيءٌ ثَقُلَ عليهِ، فَذَكَرَ أنها ثَقيلَةٌ عليهِمْ لِخَفائِها عليهِمْ. وقالَ قائلونَ: ثَقُلَ وُقُوعُها على أهلِ السمواتِ والأرضِ لِكَثْرَةِ أهوالِها وشِدَّةِ وُقوعِها.

وأَمْكَنَ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على نَفْسِ السمواتِ والأرضِ على ما ذَكَرَ في قولِهِ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] أي لو كانَتْ هي حيثُ تَعرِفُ، وتُمَيِّزُ، وبُنْيَتُها بُنْيَةُ مَنْ يَعْرِفُ ثِقَلَ شَيءٍ لَثَقُلَتْ، وهو ما قُلْنا في قولِهِ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] والدنيا لا تَغُرُّ أحداً، أي ما كانَ منها، لو كانَتْ مِمَّنْ يكونُ منهُ التَّغْريرُ لَكانَ تَغْريراً. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ قائلونَ: ﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ أي مُكَرَّمٌ مُشَرَّفٌ عِنْدَهُ ذو مَنْزِلَةٍ، فَيُعلِمُكَ عنها، وكذلكَ قِيلَ [في قولِهِ][6]: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] قِيلَ: بارّاً رَحيماً.

---

(١) في الأصل وم: وكقوله. (٢) في الأصل وم: إذ. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (٦) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقال قائلون: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي عالِمٌ بها. وقال قتادةُ: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ بِهِمْ كأنكَ يَجِبُ أنْ يَسألوكَ عنها، وقال غيرُهُ: هو على التَّقديمِ والتَّأخيرِ: يسألونَكَ عنها كأنكَ استَحْفَيتَ السُّؤالَ عنها حتى عَلِمْتَها، ثم قالَ: ﴿قُلْ﴾ مالي بها مِن عِلْمٍ ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها كائنةٌ[1].

ويَحتمِلُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنكَ لا تُعْلِمُ أنها متى تكونُ؟ أو لا يَعْلَمُونَ ما عليهِمْ ومالَهُمْ.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إذا جاءَتْ ثَقُلَتْ على أهلِ السمواتِ والأرضِ، وكَبُرَتْ عليهِمْ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ثَقُلَ ذِكْرُها على أهلِ السَّمواتِ والأرضِ، وقالَ قتادةُ: ثَقُلَ عِلْمُها على أهلِ السمواتِ والأرضِ.

وأَصْلُهُ ما ذَكَرْنا؛ أي خَفِيَ عِلْمُها على أهلِ السمواتِ والأرضِ، وإذا خَفِيَ الشَّيءُ ثَقُلَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ ما ذكرْنا من التأويلِ، واللهُ أعْلَمُ. وعلى قولِ بَعْضِهِمْ: الحَفِيُّ الخَبيرُ العالِمُ.

وقالُوا: هو المُشْرِفُ المُكْرِمُ البارُّ الذي لا يُسْتخفَى عنهُ شيءٌ، ولا يُلْبَسُ عليهِ.

الآية ١٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ قال بَعْضُ أهلِ التأويلِ: قولُهُ: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ الهُدَى والضلالَةَ.

وقالَ قائلونَ منْ أهلِ التأويلِ: ﴿لَّا أَمْلِكُ﴾ جَرَّ النَّفعِ [إلى نفسي][2] ولا دَفْعَ الضُّرِّ عنها ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إلا أنْ أَقْدَرَني اللهُ على ذلكَ، فأمْلِكُ ذلكَ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ قالَ[3] ذلكَ لئلا يَتَّخِذوهُ مَعْبوداً، ولا يَنْسِبوهُ إلى اللهِ بالذي لا تَليقُ النِّسْبَةُ بهِ ما قالَتِ النَّصارَى: المَسيحُ ابْنُ اللهِ، وقالتِ اليهودُ: عُزَيرٌ ابْنُ اللهِ،[4] وقالَ مُشْرِكو العَرَبِ: الملائكةُ بناتُ اللهِ لِعظيمِ ما وَقَعَ عندَهُمْ عنهُمْ مِنْ مَحَلِّ هؤلاءِ وقَدْرِهِمْ، فقالَ ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لئلا يَنْسِبوهُ إلى اللهِ مِنَ الوجهِ الذي نَسَبَ أولئكَ، أظْهَرَ مِنْ نَفْسِهِ العَجْزَ والعبادةَ، وهو ما قالَ عيسَى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ الآيةَ: [مريم: ٣٠]

وقالَ ابْنُ عباسٍ في قولِهِ: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ وذلكَ أنَّ أهلَ مكةَ قالُوا: ألا يُخْبِرُكَ رَبُّكَ يا محمدُ بالتجارةِ المُرْبِحَةِ؟ فَتَتَّجِرَ فيها، فَتَرْبَحَ، أوَ لا يُخْبِرُكَ بِسَنَةِ القَحْطِ والجُدوبَةِ؟ أو يُخْبِرُكَ بِوَقْتِ السَّعَةِ والخِصْبِ؟ فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ مِنْ جُدوبةِ الأرضِ والقَحْطِ ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [يقولُ: لَتَهَيَّأْتُ لذلكَ ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ مِنَ الضُّرِّ والشِّدَّةِ. إلى هذا ذهبَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ.

وقالُوا في قولِهِ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ لو[5] كُنْتُ أعْلَمُ الغيبَ متى أموتُ؟ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيرِ][6] ومنَ العَمَلِ الصالحِ.

ولكنَّ الوجهَ فيهِ غيرُ ما ذَهَبوا إليهِ، لأنهُ إنْ كانَ لا يَعْلَمُ متى يَموتُ؟ لا يَسْتَكْثِرُ مِنَ الخيرِ ومِنَ العَمَلِ الصالحِ. أو لو كانَ يَعْلَمُ الغيبَ لاسْتَكْثَرَ المالَ على ما قالَ بَعْضُهُمْ. وهذا بعيدٌ.

ولكنَّ التأويلَ، واللهُ أعْلَمُ، أنْ يَجْعَلَ قولَهُ: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي لا أعلَمُ لكُمْ نفعاً ولا ضرّاً ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ عندَ اللهِ؛ أي لو كُنْتُ أعلَمُ كلَّ ذلكَ لَصَدَّقْتُموني، وآمَنْتُم بي ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ عندَ اللهِ بإيمانِكُمْ باللهِ وتَصْديقِكُمْ إيّايَ، أو أنْ يَقولَ[7] ﴿لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ ولو كُنْتُ أَمْلِكُ لكُمْ ذلكَ ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ لأنكُمْ إذا رأيتُموني أمْلِكُ لكُمْ دَفْعَ ما غابَ عنكُمْ ودَفْعَ ضَرِّ ما غابَ لآمَنْتُمْ بي، وصَدَّقْتُموني، فأنا بذلكَ اسْتَوجَبْتُ عندَ اللهِ خيراً كثيراً؛ يَجْعَلُ قولَهُ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ جوابَ ما تَقَدَّمَ مِنَ الكلامِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل وم: كائن. (٢) من م، في الأصل: والنفسي. (٣) من م، في الأصل: وقال. (٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. (٥) أدرج قبلها في م: وقال بعضهم. (٦) ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: يقال.

جنة السنة

وقالَ بعضُهُم: قولُهُ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي[1] لا أعلَمُ الغَيبَ إلّا قَدْرَ ما أُوحِيَ إليَّ ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾. وقالَ بعضُهُم: لا أعلَمُ الغَيبَ قبلَ أنْ يُوحى إليَّ، ولو كنتُ أعلمُ ذلكَ ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾. بذلكَ.

وحاصلُ التّأويلِ في قولِهِ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ ما ذَكَرْنا بتصديقِكُمْ إيّايَ وإيمانِكُمْ بي، أو ما ذَكَرْنا مِنَ السَّعَةِ والخِصْبِ في الدنيا لأهلِهِ ولأصحابِهِ، أو ما ذَكَرْنا أي لو كُنْتُ أملكُ لَكُمْ نَفْعَ ما غابَ عنكُمْ ودَفْعَ ضَرَرِ ما غابَ أيضاً لَآمَنْتُمْ بي، وصَدَّقْتُموني، فأنا بذلكَ اسْتَوْجَبْتُ عندَ اللهِ خيراً كثيراً.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ أي لو كُنْتُ أعْلَمُ مَنِ المُصَدِّقُ؟ ومَنِ المُكَذِّبُ؟ ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ لأنهُ لا يَشْتَغِلُ بِمَنْ يَعْلَمُ أنهُ يَرُدُّ، ولايُجيبُ، وإنما يَشْتَغِلُ بِمَنْ يَعْلَمُ منهُ أنهُ يُجيبُ، ولا يُكَذِّبُ، فَيَسْتَكْثِرُ أتباعَهُ والمُطيعينَ للهِ.

[وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾][2] قالَ بعضُهُمْ: هو صلةُ قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٤] كانُوا يقولونَ: إنَّ بِهِ جنوناً[3]، فقالَ: ﴿وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ مِنَ النِّسْبَةِ إلى الجُنونِ [وقالَ بعضُهُمْ][4]: ﴿وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ مِنكُمْ سُوءُ رَدٍّ وتكذيبٍ؛ لأنه لو عَلِمَ عليهِ الذي يُجيبُهُ، ويُصَدِّقُهُ، مِنَ الذي لا يُجيبُهُ، ولا يُصَدِّقُهُ، لم يَمَسَّهُ سُوءٌ منهُ: [سُوءُ][5] الرَّدِّ والأذى لأنهُ لا يَشْتَغِلُ بهِ بَعْدَ ما أقامَ عليهِ الحُجَّةَ مِنَ المُجيبِ [منهمْ ومِنَ الرّادِّ بقولِهِ][6] تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية ١٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ الآية. قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ آدمَ وحَوّاءَ لَمّا هَبَطا تَغَشّاها آدمُ، فَحَمَلَتْ، فأتاها إبليسُ، فقالَ: يا حَوّاءُ: ما هذا الذي في بَطْنِكِ؟ قالَتْ: لا أدري، قالَ: لَعَلَّهُ بَهيمةٌ مِنْ هذِهِ البهائمِ ناقةٌ أو شاةٌ أو بَقَرةٌ، قالَتْ: لا أدري، فأَعْرَضَ عنها ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أتاها فقالَ: كيفَ تَجِدِينَكِ؟ قالَتْ: إني لأخافُ[7] أنْ يكونَ الذي ذَكَرْتَ؛ ما أستطيعُ القيامَ إذا قَعَدْتُ إلّا بِجَهْدٍ، قالَ: أفرأيتِ إنْ دَعَوتِ اللهَ [أنْ][8] يجعلَهُ إنساناً مِثْلَكِ ومِثْلَ آدمَ أتُسَمِّينَهُ[9] بي؟ قالَتْ نعم. فانصرَفَ، وقالَتْ لِآدمَ: لقد أتاني آتٍ، فَخَوَّفَني بكذا، وإني لأخافُ[10] مِمّا ذَكَرَ، فَدَعَوا اللهَ في ذلكَ.

فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ يقولُ: جَعَلْتَهُ إنساناً ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فكانَ هذا دُعاؤُهما قَبْلَ أنْ تَلِدَ. فَلَمّا وَلَدَتْ أتاها إبليسُ، وقالَ: ألا تُسَمِّينَهُ بي كما وَعَدْتِني؟ قالَتْ: نعم، ما اسْمُكَ؟ قالَ: اسْمِي الحارثُ. فذلكَ قولُهُ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠].

على هذا حَمَلَ أهلُ التّأويلِ الآيةَ،/ ١٩٢ ـ ب/ إلى آدمَ وحَوّاءَ صَرَفُوها، وذلكَ وَحْشٌ مِنَ القولِ قَبيحٌ في آدمَ وحَوّاءَ. ذلكَ، ولو ثَبَتَ ما قالُوا: إنهما سَمَّيا وَلَدَهُما باسْمِهِ، ونَسَباهُ[11] إليهِ، لم يَكُنْ في ذلكَ إشراكٌ، إذ لو كانَ في مِثْلِهِ إشراكٌ لَكانَ في ما أضافَ العَبيدُ والمَماليكُ إلى الخالِقِ[12] إشراكٌ في أُلوهيَّتِهِ.

ثم التّأويلُ عندَنا على غيرِ ما ذَهَبُوا إليهِ، واللهُ أعلَمُ، وهو أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يَعْني مِنْ آدمَ ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حَوّاءَ أنَّ خَلْقَ الذكورِ كِلِّهِمْ مِنْ آدمَ وخَلْقَ الإناثِ كُلِّهِنَّ مِنْ حَوّاءَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الروم: ٢١]؛ أخبرَ أنَّ الأزواجَ خَلَقَهُنَّ مِنْ نَفْسِ الأزواجِ، فلما أضافَ الزَّوجاتِ إلى نَفْسِ الزَّوجِ، وأنَّهُنَّ مِنْ أنْفُسِهِمْ خَلَقَهُنَّ؛ كانَ قولُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ كُلَّ زوجةٍ وزوجٍ، إذا تَغَشّاها، وحَمَلَتْ. دعا آدمُ وحَوّاءُ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إذْ جميعُ الأولادِ وأولادُهُمْ[13] يَدْعُونَ اللهَ في ذلكَ لِيكونَ صالحاً، فَمَنْ كانَ مُسْلِماً مِنْهُما كانَ بدعائِهِما.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: جنون. (٤) في الأصل وم: ويقول. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: منكم ومن الرد وقوله. (٧) في الأصل وم: لا أخاف. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: أتسميه. (١٠) في الأصل وم: لا أخاف. (١١) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: الخلق. (١٣) في الأصل وم: أولادهما.

جنة السنة

فَعَلَى هذا التأويلِ يَحْصَلُ دعاؤُهما لأولادِهما الذين يُولَدُونَ إلى يومِ القِيامَةِ؛ لأنهما أبٌ وأمٌّ، وقد يَدْعُو الوالدنِ لأولادِهما بالصلاحِ والخَيرِ. على هذا يجوزُ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ الآيَةِ.

وأمّا ما قالَهُ أولئكَ فهو بَعيدٌ مُحالٌ، واللهُ أعلمُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ العَرَبَ كانوا[1] إذا وُلِدَ لَهُمْ ذكورٌ يَنْسِبونَهُمْ[2] إلى الأصنامِ التي يَعْبُدونَها، ويُضِيفُونَهُمْ[3] إليها تَعْظيماً لها، يقولُونَ: ابنَ اللاتِ، وابنَ العُزّى، وابنَ المَناةِ، ونَحْوَ ذلكَ. وكانُوا يَقْتُلُونَ البناتِ، وكانوا[4] إذا أصابتْهُمُ الشِّدَّةُ يَفْزَعونَ إلى اللهِ، ويَتَضرَّعونَ إليهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] [وقولِهِ تعالى][5]: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ﴾ الآية [الزمر: ٨] [وقولِهِ تعالى][6]: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾ الآية [لقمان: ٣٢] فلما ذَهَبَ عنهُمْ ذلكَ، وانْجَلَى عادُوا إلى ما كانُوا كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ الآية [الزمر: ٨].

فإذا كانَ مِنْ عادةِ العَرَبِ ما ذَكَرْنا كانَ إذا حَمَلَتْ زوجةٌ منهُمْ، وثَقُلَ ما في بطنِها، جَعَلَا يَدْعُوانِ اللهَ ربَّهُما ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ ذَكَراً، وسَلِمَتْ مِنَ الوِلادةِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

الآية ١٩٠ [وقولُهُ تعالى][7] ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ يَعْني ذَكَراً ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ واللهُ أعلمُ بذلكَ.

وقالَ الحَسَنُ: الآيةُ في مُشْرِكي العَرَبِ إلّا قولَهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فإنَّ ذلكَ في آدَمَ وحَوّاءَ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؟ [الأعراف: ١٩١] دلَّ ما ذَكَرْنا.

وقالَ أبو بَكْرٍ الأصَمُّ: قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهي[8] نَفْسُ آدمَ ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي خَلَقَ كُلَّ نَفْسٍ مِنْكُمْ مِنْ تلكَ النَّفْسِ، وجَعَلَ لِكُلِّ نَفْسٍ مِنْكُمْ زوجةً مِنْ تلكَ النفسِ ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فَعَلَى هذا التأويلِ يَنْصَرِفُ آخِرُ الآيَةِ إلى غيرِ آدَمَ وحَوّاءَ.

وقالَ القُتَبيُّ: قولُهُ تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ اسْتَمَرَّتْ بالحَمْلِ، وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إنَّ العَرَبَ كانَتْ تَعْبُدُ الأصنامَ تَقْليداً لآبائِهِمْ وسَلَفِهِمْ، فَيَذْكُرُ سَفَهَهُمْ أنَّ النَّفْسَ التي منها لم تُقَلِّدْ أحداً، ولم تُشْرِكْ أحداً. إنما اتَّبَعَتْ ما في العَقْلِ حُسْنُهُ أو ما في السَّمْعِ مِنَ الأمْرِ. فكيفَ اتَّبَعْتُمْ أنتُمُ النَّفْسَ التي خُلِقْتُمْ منها؟ وهي لم تَتَّبِعْ إلّا ما ذَكَرْنا دونَ ما اتَّبَعْتُمْ في الإشْراكِ لهُ آباءَكُمْ.

ولو كانتِ القِصةُ في آدمَ على ما يقولُ أهلُ التأويلِ [لكانَ][9] للعَرَبِ تَعَلُّقٌ واقْتِداءٌ، فيقولونَ: إنهُ إشْراكٌ، ونَحْنُ نُشْرِكُ. فدلَّ أنهُ لَيسَ على ما قالُوا، ولكنْ على الوجوهِ التي ذَكَرْنا.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ دلالةُ أنْ لَيسَ لأحدٍ مِنَ البَشَرِ على آخَرَ [فَضلٌ][10] مِنْ جِهَةِ الخِلْقَةِ والنِّسْبَةِ؛ إذْ كُلُّهُمْ إنما خُلِقُوا مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ، وهُمْ إخْوَةٌ وأخواتٌ. وإن كانَ لأحدٍ فَضْلٌ على آخَرَ فإنما يكونُ لإعمالٍ يَكْتَسِبُها وأخلاقٍ مَحمودةٍ ومحاسِنَ يَخْتارُها. وأمّا مِنْ جِهَةِ الخِلْقَةِ فلا فَضْلَ لِبَعْضٍ على بَعْضٍ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

الآية ١٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ أنهُمْ يُشْرِكونَ في عِبادَتِهِ والُوهِيَّتِهِ مَنْ يَعْلمونَ أنهُ يَخْلُقُهُمْ، وإنما خَلَقَهُمُ اللهُ، سُبْحانَهُ، وهُمْ مَخلوقونَ. فَصَرْفُ العِبادَةِ إلى غيرِ الذي خَلَقَهُمْ سَفَهٌ وجَورٌ.

الآية ١٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ يُسَفِّهُهُمْ أيضاً، إنَّ في الشاهِدِ لا يَخْضَعُ أحدٌ

(١) في الأصل وم: كان. (٢) في الأصل وم: ينسبون. (٣) في الأصل وم: ويضيفون. (٤) في الأصل وم: وكان. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وهو. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

لِأحدٍ، ولا يَشكُرُ لهُ إلا مُجازاةً لِما سَبَقَ منهُ إليهِ مِنَ النِّعمةِ أو لِما يَأمُلُ في العاقِبَةِ مِنَ المَنفَعَةِ، وأنتُم تَعبُدُونَ هذِهِ الأصنامَ، ولم يَسبِقْ منها إليكُمْ شيءٌ، ولا لَكُمْ رجاءٌ يَقَعُ في العاقِبَةِ، فكيفَ تَعبُدونَ مَنْ[1] لا يَستَطيعُونَ لَكُمْ نَصراً؟ [ولا][2] يَدفَعُونَ عنكُمُ الضُّرَّ ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ أي ولا مَنْ قَصدَ قَصْدَهُمْ بالكَسْرِ والإتلافِ يَملِكونَ دَفْعَهُ عن أنفُسِهِمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجهَينِ:

[أحدُهما][3]: يَحتَمِلُ ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ يعني الأصنامَ ﴿إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ لِيَهتَدُوا ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾ أي لا يُجيبُوكُم، ولا يَهتَدُوا[4].

والثاني: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ إلى مالَكُمْ إليهِ مِنْ حاجَةٍ ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾ لا يَقضُوا[5]، ولا يَملِكُوا[6] ذلكَ.

ويَحتَمِلُ[7] أنْ يكونَ الخِطابُ لِلمُسلِمينَ؛ يقولُ: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ أي أهلَ مكةَ ﴿إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾ أي لا يُجيبُوكُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ يُخاطِبُ بهِ، أهلَ مكةَ، يقولُ: وإنْ تَدعُوا الأصنامَ التي تَعبُدونَها إلى الهُدى لا يَملِكُوا[8] إجابَتَكُمْ؛ يُسفِّهُهُمْ في عبادَتِهِمْ مَنْ حالُهُ ما وَصَفَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ أم أنْ تكونَ الآيةُ في قومٍ عَلِمَ اللهُ أنهُمْ لا يُؤمِنونَ أبداً كقولِهِ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦ ويس: ١٠] وقالَ بَعضُهُمْ: قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ يَعني المُشرِكينَ ﴿إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾. فَعَلَى ذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾. وأمكَنَ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾ في الأصنامِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى ﴿تَدۡعُونَ﴾ أي تَعبُدونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وقد كانُوا يَعبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أصناماً وأوثاناً، ويَحتَمِلُ ﴿تَدۡعُونَ﴾ أي تُسمُّونَهُمْ مِنْ دونِ اللهِ آلِهَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ في الخِلقَةِ، والدلالَةُ على وَحدانيَّةِ اللهِ في التَّدبيرِ دُونَهُمْ لِما قالَ: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٌ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٍ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ﴾ [الأعراف: ١٩٥] إلى آخرِ ما ذَكَرَ أي لَيسَ لَهُمْ ما ذَكَرتُمْ في التَّدبيرِ والمَعونَةِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ الملائكةُ الذينَ عَبَدُوهُمْ ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ فلا تُسمُّوهُمْ آلِهَةً، أي لا تَعبُدُوا عِباداً أمثالَكُمْ، ولكنِ اعْبُدُوا مَنْ لا مِثْلَ لَهُ، ولا نَظيرَ لَهُ، أو إنْ كانَ قولُهُ ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ الملائكةَ فقولُهُ تعالى: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٌ يَمۡشُونَ بِهَآۖ﴾ الآيةَ هو منهُ مَقطوعٌ مُنصَرِفٌ إلى الأصنامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ذَكَرَ الدُّعاءَ والاستِجابةَ، ولم يُبيِّنْ في ماذا [يَستَجيبونَ لَهُمْ؟ ولا يَجيبُ][9] أنْ تُفسَّرَ الاستِجابَةُ في الشَّفاعةِ أو في التَّقرُّبِ[10] إلى اللهِ أو في غَيرِهِ إلا أنْ يُعلَمَ أنهُمْ كانُوا يَدعُونَ بكذا، ويَطلُبُونَ منهُم كذا.

الآية ١٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٌ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٍ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٌ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٌ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ﴾ يُسَفِّهُ عقولَهُمْ بِعبادَتِهِمُ الأصنامَ التي لا أرجلَ لَهُمْ يمشونَ بها، يَهرُبُونَ مِمَّنْ يَقصِدُهُمْ بالسُّوءِ، أو يَقصِدُونَ بِهِمْ قَصْدَ مَنْ أرادَ الضُّرَّ بِهِمْ والسُّوءَ، وكذلكَ يَعبُدُونَ ما لا أيدِيَ لَهُمْ يَبطِشُونَ [بها][11] يدفعُونَ عن أنفُسِهِمْ مَنْ أرادَ [بِهِمْ][12] السوءَ، أو يأخذونَ مَنْ يَقصِدُهُم.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ/١٩٣ ـ أ/ أَعۡيُنٌ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ﴾ يُبصِرُونَ مَنْ يَقصِدُهُمْ بالسوءِ ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٌ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ﴾ مَنْ يَشتُمُهُمْ، ويَذكُرُهُمْ بالسوءِ؟ يُسفِّهُهُمْ في عبادَتِهِمْ مَنْ لا يَملِكُ دَفْعَ مَنْ يَقصِدُهُ بالسُّوءِ إمّا هَرَباً منهُ وإمّا قَصْداً منهُ إليهِ بالسُّوءِ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يهتدون. (٥) في الأصل وم: يقضون.
(٦) في الأصل وم: يملكون. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يملكون. (٩) في الأصل وم: يستجيبونهم ولا يجيب.
(١٠) في الأصل وم: التقريب. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

فإذا كانوا لا يملكونَ ذلكَ كيف تَعْبُدُونَ؟ وهو كقولِ إبراهيمَ ﷺ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢] فإذا كانوا لا يملكونَ دفعَ ما يَحُلُّ بِهِمْ كيف يملِكونَ جرَّ النَّفعِ إليكُمْ أو دَفْعَ الضُّرِّ عنكُمْ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التَّأويلِ: خاطبَ كُفَّارَ مكة بقولِهِ تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ الذينَ تَزْعُمونَ أنهُمْ آلهةٌ دونَ اللهِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى ﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي ادْعُوا مَنْ شاركوكُمْ في عِبادَةِ مَنْ دونَهُ ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الخِطابُ لِجَميعِ الكفارِ الذينَ يَعْبُدُونَ الأصنامَ والأوثانَ مِنْ دونِ اللهِ.

قالَ ذلكَ لَهُمْ رسولُ اللهِ بَيْنَ ظَهرانِيهِمْ ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ ثم لم يَقْدِرْ أحدٌ الكيدَ بِهِ والضَّرَرَ مع قُوَّتِهِمْ وعُدَّتِهِمْ بالكَثْرَةِ والأعوانِ وضَعْفِ رسولِهِ وقِلَّةِ أعوانِهِ.

دلَّ عَجْزُهُمْ عنْ ذلكَ أنَّهُ كانَ آيَةً في نَفْسِهِ، وأنهُ باللهِ تعالى يَنْتَصِرُ، وبِهِ قَوِيَ على أعدائِهِ. وذلكَ مِنْ عظيمِ آياتِهِ لأنهُ قالَ ذلكَ لِمَنْ هَمُّهُمُ القَتْلُ والإهلاكُ لِمَنْ خالَفَهُمْ في ما في هُمْ فيه.

ثم لم يَقْدِرْ أحدٌ منهُمُ الضَّرَرَ بِهِ. دلَّ أنهُ باللهِ حِفْظُهُ. وكذلكَ سائرُ الأنبياءِ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، حينَ[1] كانُوا بَيْنَ ظَهْرانِي قومِهِمْ مِنْ نَحْوِ هُودٍ ونُوحٍ و هؤلاءِ ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥] وقالَ نوحٌ: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ الآية [هود: ٣٨]

الآية ١٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية ذكَرَ هذا على إثْرِ قولِهِ ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ كما ذَكَرَ هُـــودُ ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٤-٥٦] وكمـا قـال نـوحٌ ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١] فَزِعُوا إلى اللهِ ﷻ عندَ وعيدِ قومِهِمْ بالإهلاكِ، وعليهِ اعْتَمَدُوا، وبهِ وَثِقُوا.

فَعَلَى ذلكَ رسولُ اللهِ [حينَ][2] قالَ: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي [هو][3] وَلِيِّي يَحْفَظُني، وهو يَتَوَلَّى حِفْظَ الصالحِينَ، أي يَتَوَلَّيهِ صَلَحُوا، أو يَتَوَلَّى، ويَحْفَظُ الصالحِينَ [مَعاً. بل هو وَلِيٌّ][4] مَنْ ذَكَرْنا مِنَ الرُّسُلِ وقومِهِمْ[5].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ﴾ يَحْتَمِلُ حافِظِي وناصِرِي، أو وَلِيُّ تَدْبيري ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [أووَلِيُّ أمْري][6] أو أَوْلَى بي ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي عَجِزَتِ الخَلائِقُ عَنْ إتيانِ مِثْلِهِ ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

الآية ١٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ يَذْكُرُ سَفَهَهُمْ بِعِبادَتِهِمْ مَنْ عَجِزَ عَنْ دَفْعِ الضُّرِّ عَنْ نَفْسِهِ فَضْلاً أنْ يَدْفَعَ ذلكَ منهُمْ، أو يَجُرُّوا إلى أنْفُسِهِمْ مَنْفَعَةً.

الآية ١٩٨ وأخْبَرَ عنْ جَهْلِهِمْ لأنهُمْ يَعْبُدُونَ مَنْ لا يَمْلِكُ دَفْعَ ضُرٍّ ولا جَرَّ نَفْعٍ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الآية: ١٩٨] الهُدَى. هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهُما: يُخاطَبُ بِهِ المؤمِنينَ بقولِهِ[7] تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ [يَعْني][8] أهلَ مكة ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟﴾ أي [لا][9] يُجِيبُوا ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي لا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، أو لِشِدَّةِ تَعَنُّتِهِمْ لا يُبصِرُونَ.

[والثاني: يخاطَبُ بِهِ الكافرينَ][10] وإنْ تَدْعُوا الأصنامَ التي تَعْبُدونَ ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟﴾ أي لا يُجِيبُوا، ولا يَمْلِكُوا[11] الإجابَةَ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: مقابل قوله. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) من م ، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وجائز أن يكون يقول. (١١) في الأصل وم: يملكون.

جنة السنة

ويحتمِلُ ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ حقيقةَ السمعِ ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ على التمثيلِ؛ كأنهُمْ ينظُرونَ إليكَ، وهم لا يُبصِرونَ حقيقةً.

الآية ١٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ يتوَجَّهُ وجهيْنِ:

أحدُهُما: على حقيقةِ الأخذِ.

والثاني: على العَمَلِ بالعفوِ.

فإنْ كانَ على الأخذِ فهوَ على وجهيْنِ:

[أحدُهُما][١]: يحتمِلُ أنْ خُذِ الفضلَ الذي لاحَقَّ فيهِ، وهو القليلُ مِنْ ذلكَ واليسيرُ.

والثاني: أنْ خُذْ ما يَفضُلُ مِنْ أنفُسِهِمْ وحوائجِهِمْ مِن غيرِ مَسألةٍ؛ أي اقبَلْ منهُمْ ما أعطوكَ، ولا تُلِحَّ في المسألةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ الآية [محمد: ٣٦ و٣٧] أخبرَ أنهُ إنْ يسألْهُمْ أموالَهُمْ حَمَلَهُمْ ذلكَ على البُخلِ.

وإنْ كانَ على العَمَلِ فهو على وُجوهٍ: أي اعفُ عنِ الظَّلَمَةِ عن ظُلمِهِمْ، اعرِضْ عنِ السُّفهاءِ، واحلُمْ معَهُمْ.

أمَرَ رسولَ اللهِ أنْ يُعامِلَ الخَلْقَ بأشياءَ ثلاثةٍ: أنْ يعفُوَ عنِ الظَّلَمَةِ عن ظُلمِهِمْ: لا تُكافِئْهُمْ بِظُلْمِهِمْ، وأمَرَ أنْ يُعْرِضَ عنِ السُّفهاءِ والجهّالِ، ويَحْلُمَ معَهُمْ، وأمَرَ أنْ يُعامِلَ المُؤمِنينَ[٢] باللِّينِ والرِّفقِ، ولذلكَ[٣] وصفَهُ بالرحمَةِ بقولِهِ تعالى ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ورُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ [أنهُ][٤] قالَ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ خُلُقٌ[٥] حسَنٌ؛ ما أنزَلَ اللهُ هذهِ الآيةَ إلا في أخلاقِ الناسِ[وعنْ قتادَةَ: [أنهُ قالَ][٦] ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾][٧] خُلُقٌ[٨] حسَنٌ، أمَرَ اللهُ نبيَّهُ، ودَعاهُ إليهِ. إلى هذا ذهبَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ، وإلى ذلكَ صَرْفُ تأويلِ الآيةِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: هو أخذُ الفضلِ مِنَ المالِ على ما ذَكَرْنا، فهو منسوخٌ بآيةِ الزكاةِ.

ورُوِيَ في حَرْفِ ابنِ مسعودٍ وأُبَيٍّ[بنِ كعبٍ][٩]: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ وانهَ عنِ المُنكَرِ ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وفيهِ دلالةٌ أنهُ أمرٌ بالأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنكَرِ، والمَعروفُ هو اسمُ كُلِّ خيرٍ، وأمرُهُ بأنْ يأخُذَ بالعفوِ عنِ الظَّلَمَةِ على ما ذَكَرْنا. وكذلكَ رُوِيَ عن عائشةَ [أنها][١٠] قالتْ: «كانَ رجلٌ يَشْتُمُ رسولَ اللهِ، ويُؤذيهِ، فَدَخَلَ على رسولِ اللهِ، فأوسَعَ لهُ، وأدناهُ، ورَحَّبَ بِهِ. قالَتْ: يا رسولَ اللهِ أليسَ هذا كانَ يَشْتُمُكَ؟ قالَ: بَلَى يا عائشةُ إنَّ مِنْ شِرارِ الناسِ الذينَ يُكرَمُونَ اتِّقاءَ شَرِّهِمْ وألسِنَتِهِمْ» [البخاري: ٦٠٣٢] إلى مثلِ هذا دعا رسولُ اللهِ ﷺ العَفوِ[١١] والصَّفحِ عنِ الظَّلَمَةِ وتركِ المُكافآتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي أْمُرِ الناسَ بالعُرفِ، وهو ما تَشهَدُ خِلقَتُكَ، وتأمُرُكَ بهِ أشياءُ ثلاثةٌ: اثنانِ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ ربِّهِ، والواحِدُ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الناسِ.

أمّا الاثنانِ اللذانِ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ ربِّهِ:

فأحدُهُما[١٢]: يأمُرُ خِلقَتَهُ، وتَشهَدُ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وتَدُلُّ[١٣] على أُلوهيَّتِهِ.

والثاني: يَشْهَدُ على نِعَمِ اللهِ إليهِ، فيدعُوهُ إلى الشُّكرِ لهُ في ما أنعَمَ اللهُ عليهِ.

وأمّا الوجهُ الذي يدعُو خِلقَتَهُ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الناسِ فهو[١٤] ما يُرَغِّبُ نَفسَهُ في كُلِّ[ما هو حَسَنٌ][١٥] ومَرغُوبٌ فيهِ، ويُنَفِّرُ نَفسَهُ عن كُلِّ أذىً وسُوءٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: المؤمنون. (٣) في الأصل وم: وكذلك. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٦) ساقطة من م. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (٩) ساقطة من الأصل وم.
(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: بالعفو. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: والدلالة. (١٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: محاسن.

جنة السنة

فأمرَ رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يُعامِلَ الخلقَ بما ترْغَبُ نفسُهُ، وتطْمَعُ[1] في [ما هو حَسَنٌ][2]، وتنفُرُ عنه، وتكرَهُهُ[3]، يفعَلُ إليهِمْ كُلَّ ما ترغَبُ نفسُهُ فيهِ، وتطْمَعُ، ويمْتَنِعُ عن كلِّ أذىً وسُوءٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ﴾ قال بعضُهُمْ: النَّزغَةُ هي أدنى أفعالِ المَعْصِيَةِ، وكذلكَ فسَّرَهُ ابنُ عباسٍ ﷺ يقولُ إذا أذنبْتَ ذنباً ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾.

وقالَ القُتَبِيُّ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ﴾ أي يَسْتَخِفَّنَّكَ. ويُقالُ: نَزَغَ شيئاً إذا أفسَدَ. وقال أبو عَوْسَجَةَ: النَّزْغُ التَّحْريكُ للفسادِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ﴾ أي يُوَسْوِسُكَ الشيطانُ وَسْوسَةً ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ ثم في الاسْتِعاذةِ وجهانِ.

أحدُهما: أمْرُهُ بالفَزَعِ إلى اللهِ عندما يُوَسْوِسُهُ الشيطانُ.

[والثاني: الْتِجاؤُهُ][4] إليهِ لِما يَرى[5] نفسَهُ عاجزةً عَنْ دَفْعِ ما يُوَسْوِسُ إليهِ ورَدِّ ما يكونُ هو الدافِعَ عنهُ ذلكَ، وهو الرادُّ.

وقالَ الخليلُ: أعوذُ باللهِ أي ألجأُ إلى اللهِ. وكذلكَ قولُهُ ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣ و٧٩] مَعْناهُ: أعوذُ باللهِ. ومنه الإعاذَةُ والتَّعَوُّذُ والتَّعْويذُ/ ١٩٣ ـ ب/ وقالَ غيرُهُ: أعوذُ باللهِ، أي أمْتَنِعُ باللهِ، أي أتَحصَّنُ باللهِ. وقيلَ: الاسْتِعاذةُ هي[7] الاسْتِغاثَةُ باللهِ تعالى لِدَفْعِ ما اعْتَرَضَ لهُ منَ الشيطانِ. وكُلُّهُ قريبٌ بعضُهُ مِنْ بَعْضٍ.

ثم الحِكْمَةُ في ما جعلَ عدُوَّهُمْ مِنْ غيرِ جِنْسِهِمْ مِنْ حَيْثُ لا يَرَوْنَهُ، ويَراهُمْ، وجهانِ:

أحدُهما: ليكونُوا أبداً على التَّيَقُّظِ والانتِباهِ غيرَ غافِلينَ عنهُ.

والثاني: ليكونُوا أبداً فَزِعِينَ إلى اللهِ تعالى مُتَضَرِّعِينَ إليهِ مُبْتَهِلِينَ ليكونَ هو الحافظَ لهُم والدافعَ عنهم شرَّهُ ووَسْواسَهُ.

وفي ما أمَرَ بالفَزَعِ إلى اللهِ والاسْتِعاذةِ بهِ عندَ نَزْغِ الشيطانِ نَقْضٌ على المُعْتَزِلَةِ؛ لأنهمْ يقولونَ: قد أعطاهُمْ جميعَ ما يَدفَعُونَ بهِ وَساوِسَهُ ونَزَغاتِهِ حتى لم يَبْقَ عندَهُ شيءٌ [يُعيذُهُمْ بهِ][8] فَعَلى قولِهِمْ يُخَرَّجُ طَلَبُ الإعاذَةِ مُخرَجَ كِتْمانِ النِّعْمَةِ أو مُخرَجَ الهُزءِ بهِ لأنهُ يسألُهُ ما يَعْلَمُ أنهُ لَيسَ ذلكَ عندَهُ.

الآية ٢٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ وقيلَ طيفٌ ﴿مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ فمَنْ قرَأ[9] طيفٌ قالَ: اللَّمَّةُ الخَطْرَةُ: الشَّيءُ يَغْشاكَ [ومَنْ قرَأ ﴿طَٰٓئِفٌ﴾ قالَ هو][10] مِنَ الطَّوافِ. وقيلَ الطَّيفُ ما يأتِيكَ مِنَ الشيطانِ، وقيلَ: الطائفُ والطَّيفُ سَواءٌ.

وعَنِ ابنِ عباسٍ ﷺ: [أنهُ قالَ:][11] ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ إذا أذنَبُوا ذَنباً ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ يقولُ: تَذَكَّرُوا ذنوبَهُمْ، فَتابُوا منها. وكذلكَ قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ﴾ هو أدنى ذَنْبٍ يَرْتَكِبُهُ. وإنْ كانَ على هذا فهو يُخَرَّجُ على النَّهْيِ عنْ ذلكَ، وهو كالخِطاباتِ[12] التي خاطَبَ بها رسولَ اللهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] [وقولِهِ تعالى][13]: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] [وقولِهِ تعالى][14]: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] وإنْ كانَ يَعْلَمُ أنهُ لا يَشُكُّ، ولا يَجْهَلُ، ولا يُشْرِكُ غيرَهُ في أمْرِهِ.

فَعَلى ذلكَ هذا الخِطابُ الذي خاطَبَهُ بقولِهِ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ﴾ وإن كانَ ما ذَكَرَ هو مِنْ أدنى ذَنْبٍ يَرْتَكِبُهُ فهو يُخَرَّجُ ذلكَ على تَعليمِهِ أُمَّتَهُ أنْ كيفَ يَفْعَلُونَ إذا اعْتَرَضَ لَهُمْ ذلكَ؟ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وطمع. (٢) في الأصل وم: المحاسن. (٣) في الأصل وم: ونكره. (٤) في الأصل وم: والتجاء. (٥) في الأصل وم: رأى. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: وهو. (٨) في الأصل وم: يعيذه. (٩) أنظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٤٣٢. (١٠) في الأصل وم: وقال: وأما الطائف فهو. (١١) في الأصل وم: قال: مدرجة قبل إذا أذنبوا. (١٢) في الأصل وم: كالمخاطبات. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ﴾ كذا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿اتَّقَوْا﴾ مَكايِدَ الشيطانِ إذا أصابَهُمْ شيءٌ مِنْ ذلكَ تَذَكَّرُوا ذلكَ، فَعَرَفُوا أنهُ مِنَ الشيطانِ ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي أبْصَرُوا أنهُ مِنَ الشّيطانِ، أو أنْ يُقالَ: أي هُمْ مِنْ أهلِ البَصَرِ، يُبصِرُونَ [ما اتَّقوهُ][1] أنهُ مِنَ الشيطانِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ المَعاصِيَ إذا أصابَهُمْ وَسْوَسَةٌ مِنَ الشيطانِ تَذَكَّرُوا ذلكَ.

وقالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي اتَّقَوُا الشِّرْكَ. لكنْ لا كُلُّ مَنِ اتَّقَى الشِّرْكَ يكونُ كما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ الآية يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: إذا مَسَّهُمْ بِذلكَ تابُوا عَمّا كانَ مِنْهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ الآية [آل عمران: ١٣٥]

والثاني: تَذَكَّرُوا وُجوهَ حِيَلِ دَفْعِ وَساوِسِهِ.

والثالثُ: تَذَكَّرُوا: اسْتَعاذُوا بهِ حينَ أمَرَهُمْ بالاسْتِعاذَةِ بهِ عندَ النَّزْغَةِ.

الآية ٢٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: قولُهُ تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ يَعْنِي إخوانَ الكُفّارِ والشياطِينِ ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ قالُوا: في الشِّرْكِ والمَعْصِيَةِ ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي لا يَنْتَهونَ عنها، ولا [يُقْصِرُونَها كما أقْصَرَ][2] الذينَ اتَّقَوا عنها حينَ أبْصَرُوها.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ يَعْنِي أصحابَ الذينَ اتَّقَوا، وهمْ شياطِينُهُمْ مِنَ الإنسِ، يَدْعُونَهُمْ إلى دِينِهِمْ، ولكنَّهُمْ لا يُجيبونَهُمْ، ولا يُطيعُونَهُمْ، في ما يَدْعُونَ إليهِ، إذْ يجوزُ أنْ يكونَ لِكُلِّ مؤمِنٍ شيطانٌ مِنَ الأنسِ وشيطانٌ مِنَ الجِنِّ كقولِهِ تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] فقد دَعا أولئكَ شياطِينُ الجِنِّ، فَتَذَكَّرُوا، فلم يُجيبُوهُمْ. ثم دَعاهُمْ شياطِينُ الإنسِ أيضاً، [فلم يُجيبوهُمْ][3] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ ظاهِرُ الآيةِ في سُؤالِ أهلِ الكُفرِ رسولَ اللهِ الآيةَ؛ إنَّهُمْ كانُوا إذا [أتاهُمْ بآيةٍ][4] اسْتَهْزَؤوا بها، وتَعَنَّتُوا. وإذا لم يأتِهِمْ بها سَألُوهُ الآيةَ سُؤالَ المُسْتَهْزِئينَ المُتَعَنِّتِينَ[5]، وإذا لم يأتِهِمْ بها ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ لولا ابْتَدَعْتَها، وأحْدَثْتَها، وأنْشَأْتَها، وهلّا أنْبَأْتَها مِنْ قِبَلِ نَفْسِكَ؟

فقالَ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي لا أفْتَعِلُها، ولا أُنْشِئُها مِنْ نَفْسي ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.

وأمْكَنَ أنْ يكونَ سُؤالَ الآيةِ مِنَ المُؤمِنينَ. فإنْ كانَ منهُمْ فهو سُؤالُ الاسْتِرْشادِ لِما يَزْدادُ لهُمْ بكلِّ آيةٍ تَنْزِلُ عليهِمْ يَقينٌ[6] وقُوَّةٌ في دينِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ الآية [التوبة: ١٢٤] ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ الآية [التوبة: ١٢٥] وكقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ الآية [محمد: ٢٠]. فإذا كانَ السُّؤالُ مِنَ المؤمِنِينَ فهو سُؤالُ الاسْتِرْشادِ[7] وطَلَبُ زِيادةِ الهُدَى. وإنْ كانَ مِنَ الكُفّارِ فهو سُؤالُ الاسْتِهْزاءِ والتَّعَنُّتِ.

ثم أخْبَرَ أنهُ لا يَتَّبِعُ إلّا ما يُوحَى إليهِ. ثم أخْبَرَ أنهُ ﴿بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ قيلَ: بَيانٌ أي هذا القرآن بَيانٌ مِنْ ربِّكُمْ يُبَصِّرُ بِهِ مَنْ لم يُعانِدْ، ولم يُكابِرْ عَقْلَهُ كلَّ مالَهُ وما عليهِ. وإنهُ بَيانٌ[8] الحَقِّ والباطِلِ، ﴿وَهُدًى﴾ مِنَ الضَّلالَةِ ﴿وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي ورَحْمَةٌ مِنَ العَذابِ.

الآية ٢٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ الآية أمَرَ اللهُ تعالى بالاسْتِماعِ إلى هذا القُرآنِ والإنْصاتِ لهُ إذا قُرِئَ. وإنْ كانَ في العَقْلِ أنَّ مَنْ خاطَبَ آخَرَ بِمُخاطَباتٍ يَلْزَمُهُ الاسْتِماعُ إلى مَنْ يُخاطِبُهُ، ويُشافِهُهُ. فاللهُ

---

(١) في الأصل وم: عما اتقوا به. (٢) في الأصل وم: يبصرونها كما أبصر. (٣) في الأصل وم: فلا يُجيبونهم. (٤) في الأصل وم: أتى بهم آية. (٥) من م، في الأصل: معتنين. (٦) في الأصل وم: يقيناً. (٧) من م، في الأصل: الاشتراك. (٨) في الأصل وم: البيان من.

جنة السنة

سُبحانَهُ إذا خاطَبَ بِخِطابٍ(١) أوْلَى أنْ يُسْتَمَعَ لهُ معَ ما ذُكِرَ في غَيرِ مَوضعٍ مِنَ القرآنِ آياتٍ ما يُوجِبُ في العَقْلِ الاسْتِماعَ إليهِ كقولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] وكقولِهِ تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣] وغَيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ، ولا سَبيلَ أنْ يَعْرِفَ أنهُ بَصائِرُ وأنهُ هُدىً وما ذَكَرَ [إلا](٢) بالاسْتِماعِ إليهِ. والتَّفكُّرِ فيهِ.

فَدَلَّ أنَّ الاسْتِماعَ لازمٌ في العَقْلِ لِمَنْ(٣) لَهُ أدْنَى عَقْلٍ على ما ذُكِرَ مِنَ الآياتِ. ولكنهُ [ذَكَرَ ههنا الاسْتِماعَ إليهِ](٤) واللهُ أعلَمُ لوجْهَينِ:

أحدُهما: مَقابلَ ما كانُوا يَقولُونَ: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] أمَرَ ﷻ المؤمِنِينَ بالاسْتِماعِ إليهِ مَكانَ قولِهِمْ: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ وأمَرَ بالإنصاتِ إلى(٥) ما يقولونَ ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾.

والثاني: يَجوزُ أنْ يكونَ أمَرَ بالاسْتِماعِ إليهِ في الصلاةِ على ما قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: إنهُ في الصلاةِ. وقالَ بعضُهُمْ: في حالِ الخُطْبَةِ لِما يَسْبِقُ إلى أوهامِهِمْ أنهُ لَمّا اشْتَغَلُوا بِغَيرِها مِنَ العِباداتِ، ولَزِمَهُمْ أنواعُ القُرَبِ أنْ يُسْقِطَ عنهُمْ حَقَّ الاسْتِماعِ، أمَرَ بالاسْتِماعِ إليهِ والإنصاتِ لهُ لِيَعْلَمُوا أنَّ حَقَّ الاسْتِماعِ لازمٌ في كُلِّ حالٍ.

ثم الاسْتِماعُ إليهِ يكونُ لِتَفَهُّمِ ما أودَعَ فيهِ مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ والوَعْدِ والوَعيدِ وغيرِهِ، والإنصاتُ للتَّعْظيمِ لهُ والتَّبجيلِ.

ثم الاسْتِماعُ لهُ [لم](٦) يَلْزَمْ لِنَفْسِ التِّلاوةِ، ولكنْ إنما يَلْزَمُ لِما أودَعَ فيهِ مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ والوَعْدِ والوَعيدِ وغيرِهِ لِيَفْهَمُوا ما فيهِ، ويَقْبَلُوا، ويَقومُوا بِوَفاءِ ذلكَ.

وأمّا سائرُ الأذكارِ فإنما صارَتْ عبادةً لِنَفْسِها. لذلكَ لم يَلْزَمِ الاسْتِماعُ إلى سائرِ الأذكارِ، ولَزِمَ لِتِلاوةِ القرآنِ كلامِ اللهِ وكتابِهِ. ومِنَ الجَفاءِ والاسْتِخْفافِ أنْ يَكْتُبَ إنسانٌ إلى أخيهِ كتاباً، لا يَنْظُرُ فيهِ، ولا يَسْتَمِعُ لهُ.

فَتَرْكُ الاسْتِماعِ إلى كتابِ اللهِ أعظَمُ في الجَفاءِ والاسْتِخْفافِ ولأنَّ القرآنَ يُجْهَرُ، وسائرُ الأذكارِ لا تُجْهَرُ. فإنْ كانَتْ تُجْهَرُ، يُسْتَمَعُ(٧) إليها كما يُسْتَمَعُ إلى القرآنِ، واللهُ أعْلَمُ.

وذُكِرَ في بعضِ القصةِ أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في الصلاةِ لأنَّ رسولَ اللهِ إذا قَرَأَ في صلاتِهِ كانُوا يقولونَ مِثْلَ ذلكَ، فَنَزَلَتِ الآيةُ بالنَّهْيِ عنْ ذلكَ والأمرِ بالاسْتِماعِ إليهِ كما يُسْتَمَعُ إلى القرآنِ، واللهُ أعلَمُ. / ١٩٤ ـ أ/ وذُكِرَ أنهُمْ كانُوا يرفَعُونَ أصواتَهُمْ في الصلاةِ حينَ يسمَعُونَ ذِكْرَ الجَنّةِ والنارِ. فَنَزَلَتِ الآيةُ. لِذلكَ لا نَدري كيفَ كانَتِ القِصَّةُ؟ وفيمَ كانَتْ؟ وقد يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا آنفاً.

ثم إنْ كانَتِ الآيةُ في الصلاةِ ففيهِ دلالةُ النَّهْيِ عنِ القراءةِ خَلْفَ الإمامِ لأنهُ أمَرَ بالاسْتِماعِ إليهِ والإنصاتِ لهُ.

وعلى ذلكَ جاءتِ الأخبارُ. رُوِيَ عن أبي العاليةِ [أنهُ](٨) قالَ «كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا صَلَّى قَرَأَ أصحابُهُ أجمَعُونَ خَلْفَهُ. حتى [نَزَلَتِ الآيةُ](٩) ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ فَسَكَتُوا» [السيوطي في الدر المنثور: ٣/ ٦٣٥].

وعنْ عليِّ بنِ أحْمَرَ «أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قَرَأَ في صلاةِ الفَجْرِ الواقِعَةَ، وقَرَأَها رجلٌ خَلْفَهُ، فَلَمّا فَرَغَ مِنَ الصلاةِ قالَ: مَنِ الذي يُنازِعُني في هذهِ السورةِ؟ فقالَ رجلٌ: أنا يا رسولَ اللهِ. فأنزَلَ اللهُ ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾»[بمعناه عن أبي هريرة: ابن ماجه: ٨٤٨]. وغيرُ ذلكَ مِنَ الأخبارِ.

وقالَ(١٠) قومٌ: إنَّ الإنصاتَ الذي أُمِرَ بهِ المُؤتَمُّ مَعْناهُ: ألّا يَجْهَرَ بقراءَتِهِ، ولَيسَ فيهِ نَهْيٌ أنْ يَقْرَأَ في نَفْسِهِ.

وزَعَمَ بَعْضُهُمْ أنَّ القارئَ مُخْفِياً يُسَمَّى ناصتاً مُنْصِتاً. واسْتَدَلَّ بما رُوِيَ عنْ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه [أنهُ](١١) قالَ «[كانَ](١٢)

---

(١) من م، في الأصل: يخاطب. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: من. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: فأمر. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: فيستمع. (٨) و(٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فقال. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

رسولُ اللهِ ﷺ، إذا كبّرَ سكَتَ بينَ التكبيرِ والقراءةِ. قلتُ: [بأبي أنتَ وأمي [أرأيتَ][1] سُكاتَكَ بينَ التكبيرِ والقراءةِ. أخبرني ما تقولُ: قالَ: أقولُ: اللهُمَّ باعِدْ بيني وبينَ خطايايَ كما باعَدْتَ بينَ المَغْرِبِ والمَشْرِقِ، وغيرَ ذلكَ منَ الدَّعَواتِ» [البخاري: ٧٤٤]. فقالَ هذا القائلُ: قد سَمّى النبيُّ ﷺ القارئَ مُخْفِياً ساكتاً. الصامتُ مِثْلُ الساكتِ. فيجوزُ أنْ يُسمّى صامتاً، وهو أنْ يقرأَ مُخْفِياً كما يُسمّى ساكتاً.

قالَ العَمّيُّ. غَلِطَ هذا القائلُ في تشبيهِ الصامتِ بالساكتِ لأنَّ الأسماءَ لا تُقاسُ، وإنما يُطْلَقُ في كلِّ واحدٍ منها ما أطْلَقَتْهُ اللغةُ فيهِ.

ومِمّا يُبَيِّنُ غَلَطَهُ أنَّ اللهَ يقولُ: ﴿فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا﴾ فلو كانَ القارئُ مُخْفِياً يُسمّى صامتاً ناصتاً مُستَمِعاً. وإنما يكونُ مُستَمِعاً صامتاً إذ صَمَتَ فلم يقرأْ. فَمَنْ أطْلَقَ لهُ أن يقرأَ، والإمامُ يقرأُ، فلم يَستَمِعْ، ولا أنصَتَ.

ومِمّا يَدُلُّ على غَلَطِهِ أيضاً أنَّ العُلَماءَ جميعاً يَنهَوْنَ المُؤتَمَّ عنِ القراءةِ. وإنما يأمُرُ بالقراءةِ خَلْفَ الإمامِ أنْ يَقرَأَ إذا سَكَتَ إمامُهُ، ويأمُرُ هؤلاءِ الإمامَ أنْ يَقِفَ ساعةً إذا فَرَغَ مِنْ قراءتِهِ حتى يَقرَأَ المؤتَمُّونَ. فلو كانُوا يَجعَلُونَ القارئَ في نَفْسِهِ، والإمامُ يقرأُ جَهْراً، صامتاً ما أمَرَهُ بتأخيرِ القراءةِ حتى يَفْرَغَ إمامُهُ مِنَ القراءةِ. فهذا يُبَيِّنُ غَلَطَ المُستَدِلِّ بحديثِ أبي هُرَيرَةَ في استِدْلالِهِ.

ومِمّا يدلُّ على أنَّ المُؤتَمَّ مَنهِيٌّ عنْ أنْ يَقرَأَ، والإمامُ يَجْهَرُ، ما رُوِيَ عنْ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه «أنَّ النَّبيَّ ﷺ صلّى بهِمْ صلاةً، فَظُنَّ أنها الصُّبحُ، فلمّا سَلَّمَ أقبَلَ على الناسِ، قالَ: هل يَقرَأُ أحدٌ منكُمْ؟ فقالَ رجلٌ: أنا، فقالَ النَّبيُّ: إني أقولُ: مالي أُنازَعُ القرآنَ؟» [الترمذي ٣١٢] قالَ أبو هُرَيرَةَ: فانْتَهى الناسُ عنِ القراءةِ في ما يَجْهَرُ فيه النبيُّ. فقالَ قومٌ: إنَّ أبا هريرَةَ قد نَهى[2] الناسَ عنِ القراءةِ خَلْفَ النَّبيِّ في ما جَهَرَ فيه. فيُقالُ: إنَّ أبا هُرَيرَةَ لم يَرْوِ ذلكَ عنِ النَّبيِّ ﷺ.

ثم مِمّا يَدُلُّ على أنَّ المؤتَمَّ لا يَقرأُ، جَهَرَ الإمامُ، أو خافَتَ، قولُ النَّبيِّ «مالي أُنازَعُ القرآنَ» وقد عَلِمْنا أنَّ المؤتَمَّ لم يَجْهَرْ بقراءتِهِ، فيُتأَوَّلُ مُتأَوِّلٌ مُنازَعَتَهُ النَّبيَّ ﷺ على أنهُ شُغِلَ، فَلا وَجهَ لقولِهِ «مالي أُنازَعُ القرآنَ»؟ إلّا بِنَهْيِهِ المُؤتَمَّ عن أنْ يَقرَأَ، جَهَرَ إمامُهُ، أو خافَتَ.

وقد رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ، ما يُبَيِّنُ النَّهيَ عنِ القراءةِ خَلْفَ الإمامِ في ما يَجْهَرُ فيهِ، أو يُخافِتُ، ما رُوِيَ عن عِمْرانَ [بْنِ حُصَينٍ][3] أنَّ النَّبيَّ ﷺ صَلّى بأصحابِهِ الظُّهرَ، فلما قَضى صلاتَهُ قالَ: أيُّكُمْ قَرَأَ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]؟ فقالَ بَعْضُ الناسِ: أنا يا رسولَ اللهِ، فقالَ: قد عَرَفْتُ أنَّ بَعْضَكُمْ خالَجَنيها» [الطبراني في الكبير ١٨/ ٢١١ ورقمه ٥٢٢] فَبَيَّنَ عِمْرانُ بْنُ حُصَينٍ أنَّ الرجلَ خافَتَ بقراءتِهِ، ودَلَّ أنَّ النَّهيَ الذي رَواهُ أبو هُرَيرَةَ لم يكُنْ في حالِ جَهْرِ الإمامِ دُونَ مُخافَتَتِهِ، وأنَّ المُؤتَمَّ مَنهِيٌّ عنِ القراءةِ خَلْفَ الإمامِ في كُلِّ الصَّلَواتِ.

وقد رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ بالنَّهْيِ عنِ القِراءةِ خَلْفَ الإمامِ أحاديثُ كثيرةٌ: ما رُوِيَ عَنْ أبي هُرَيرَةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ وعِمْرانَ [بْنِ][4] حُصَينٍ عنهُ، وما رُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ [بْنِ مسعودٍ][5]: «كُنّا نَقرَأُ خَلْفَ النَّبيِّ ﷺ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ، خَلَطْتُمْ عليَّ القرآنَ» [ابن أبي شيبة ١/ ٣٧٦].

فإنْ قِيلَ: لَعَلَّهُمْ كانُوا يَجهَرُونَ بالقرآنِ، فَنَهى عنِ الجَهْرِ. قيلَ لهُ: لم يُنْقَلْ لنا في شيءٍ مِنَ الأخبارِ أنَّ المُؤتَمِّينَ كانُوا يَقرَؤُونَ جَهْراً. ولو كانُوا يَقرَؤُونَ جاهِرِينَ لأدّى ذلكَ إلينا كما أدّى أنهُمْ كانُوا يَقرَؤُونَ.

وفي ذلكَ وَجهٌ آخَرُ أنهُ لم يكنِ النَّهيُ عنِ الجَهْرِ خاصّةً، ولكنْ للقراءةِ نَفْسِها[6]، ما رُوِيَ عنْ أبي وائِلٍ [أنهُ][7] قالَ: سألْتُ عبدَ اللهِ بْنَ مَسْعودٍ عنِ القراءةِ خَلْفَ الإمامِ، فقالَ: أنْصِتْ فإنَّ في الصلاةِ شُغْلاً، وسَيَكْفِيكَ ذلكَ الإمامُ.

---

(١) في الأصل وم: انتهى. (٢) في الأصل وم: انتهى. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: نفسه. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وعنْ عبدِ اللهِ بْنِ شَدّادٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «مَنْ كانَ لهُ إمامٌ فَقِراءةُ الإمامِ لهُ قِراءةٌ» [البيهقي في الكبرى ٢/ ١٦١] وعنْ جابرِ بْنِ عبدِ اللهِ أنَّ النَّبيَّ، [كانَ يُصَلّي](١) ورجلٌ خَلْفَهُ [يَقرأُ](٢) فَنَهاهُ رجلٌ مِنْ أصحاب النَّبيِّ عنِ القراءةِ في الصلاةِ فَتَنازعا فيهِ، حتى ذُكِرَ لِلنَّبيِّ ﷺ فقالَ: «مَنْ صَلّى خَلْفَ إمامٍ فَقِراءةُ الإمامِ لهُ قِراءةٌ» [الدار قطني ١٢٢١] وعنْ أبي مُوسَى عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «وإذا قَرَأَ الإمامُ فأنصِتُوا» [مسلم ٤٠٤/ ٦٣]

ورُوِيَ عنْ أبي هُرَيرةَ [أنهُ](٣) قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «إنما جُعِلَ الإمامُ لِيُؤتَمَّ بهِ، فإذا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وإذا قَرَأَ فأنصِتُوا» [النسائي ٢/ ١٤١] وغيرُ ذلكَ مِنَ الأحاديثِ.

وأكثرُ ما يَحتَجُّ بهِ المُخالِفُ لِعُلمائنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قالَ: «لا صلاةَ لِمَنْ يَقرَأْ بإمامِ القرآنِ» [مسلم ٣٩٤/ ٢٦] يَروِيهِ عُبادةُ بْنُ الصامتِ.

قالَ سفيانُ: هذا عندَنا في منْ يُصَلّي وحْدَهُ. فذلكَ مُحتَمَلٌ، والأحاديثُ التي جاءَتْ مُفَسَّرَةً في النَّهْيِ عنِ القراءةِ خَلْفَ الإمامِ.

فإنْ قالَ: [قائِلٌ](٤): يَترُكُ المُؤتَمُّ القراءَةَ في ما يَجْهَرُ فيهِ إمامُهُ بحديثِ أبي هُرَيرةَ، ويَقرأُ في ما يُخافِتُ بحديثِ عبادَةَ بْنِ الصامتِ لِيَصِحَّ(٥) حديثُ أبي هُرَيرةَ وحديثُ عبادةَ[بْنِ الصامتِ](٦) جميعاً، قِيلَ لهُ: فَهَلّا جَعَلْتَهُ في المُصَلّي وحْدَهُ لِيَصِحَّ حديثُ عُبادَةَ [بْنِ الصامتِ](٧) وحديثُ عِمْرانَ بْنِ حُصَينٍ لأنَّ حديثَ عِمْرانَ يَنْهى عنِ القرآنِ في ما خافَتَ [الأمامُ](٨)، وحديثَ أبي هُرَيرةَ في ما يَجْهَرُ فيهِ. فإنْ جَعَلْتَ حديثَ أبي هُرَيرةَ خارجاً عنْ عمومِ حديثِ عُبادَةَ فذلكَ يُوجِبُ ألّا يَقرَأَ المُؤتَمُّ في ما يَجْهَرُ فيهِ إمامُهُ [أو يُخافِتُ](٩). ويُقالُ لهُ: هل رأيتَ فَرْضاً مِنْ فرائضِ الصلاةِ ساقطاً(١٠) عنِ المُؤتَمِّ في حالٍ، وواجباً(١١) عليهِ في حالٍ؟ فإنْ قالَ: لا قِيلَ: ففي إسقاطِكَ تلكَ القراءةَ عنهُ في حالِ الجَهْرِ ما أوجَبَ عليكَ أنْ تُسقِطَها عنهُ في حالِ المُخافَتَةِ. وقد احْتَجَّ بَعْضُ أصحابِنا في ذلكَ بأنْ قالُوا: وجَدْنا الرجلَ إذا جاءَ إلى الإمامِ، وهو راكِعٌ، فَكَبَّرَ، ودَخَلَ في صلاتِهِ، ولم يَقرَأْ، فَكُلٌّ يُجمِعُ أنَّ صلاتَهُ تُجزيهِ. فدلَّ ذلكَ أنَّ القراءَةَ غيرُ فرضٍ عليهِ.

فإنْ قالَ [قائلٌ](١٢): إنما أُطْلِقَ لهُ ذلكَ لِلضَّرورَةِ، قيلَ: لو جاءَ إلى الإمامِ، وهو ساجدٌ، لم يُعْتَدَّ بتلكَ الركعةِ والضرورةُ قائمةٌ. فلو كانَتِ الضرورةُ تُزيلُ فَرْضاً لأزالت(١٣) الركوعَ عَمَّنْ لَحِقَ إمامَهُ، وهو / ١٩٤ ـ ب/ ساجدٌ، فهي لا تزيلُ فَرْضَ القراءةِ عَمَّنْ لَحِقَ إمامَهُ. ولكنْ لا تَلْزَمُهُ القراءةُ خَلْفَ الإمامِ. فلذلكَ أجزَتْهُ(١٤) صلاتُهُ لا لِلضَّرُورةِ التي ذَكَرْتَ، واللهُ أعلمُ.

وقد رُوِيَ عنْ جماعةٍ مِنَ الصحابَةِ [رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعِينَ](١٥) أنهُمْ قالُوا: لا قراءَةَ على مَنْ خَلْفَ الإمامِ: منهُمْ عليٌّ وابْنُ مَسْعودٍ وجابرٌ وأبو سعيدٍ وابْنُ عُمَرَ وابْنُ عباسٍ وزَيدُ بنُ ثابتٍ ﷺ.

أمّا عَنْ عليٍّ ﷺ [فقد](١٦) قالَ: مَنْ قَرَأَ خَلْفَ الإمامِ فقدْ أخطأَ الفِطْرَةَ وعَنْ عبدِ اللهِ [بْنِ مَسْعود أنهُ](١٧) قالَ: مَنْ قَرَأَ خَلْفَ الإمامِ مُلِئَ فُوهُ تُراباً. وعنْ زَيدِ بْنِ ثابتٍ [أنهُ](١٨) قالَ: مَنْ قَرَأَ خَلْفَ الإمامِ فلا صلاةَ لهُ. وعَنْ [أبي سعيدٍ أنهُ](١٩) قالَ: وَدِدْتُ أنَّ الذي يَقرَأُ خَلْفَ الإمامِ في فَمِهِ جَمْرَةٌ. [وكانَ ابْنُ عُمَرَ](٢٠) إذا سُئِلَ: هل يَقرَأُ أحَدٌ خَلْفَ الإمامِ؟ قالَ: لا. فإذا صَلّى أحَدُكُمْ وحْدَهُ فَلْيَقرَأْ. وكانَ ابْنُ عُمَرَ لا يَقرَأُ خَلْفَ الإمامِ. وعَنْ أبي سعيدٍ أنهُ سُئِلَ عنِ القراءةِ خَلْفَ الإمامِ. فقالَ(٢١): يَكْفيكَ ذلكَ الإمامُ. وعنِ ابْنِ عباسٍ أنَّ رجلاً سألَهُ: أقرأُ خَلْفَ الإمامِ؟ قالَ: لا. إلى مِثْلِ هذهِ الأحاديثِ ذهبَ أصحابُنا. وعلى ذلكَ دلَّ الكتابُ والسُّنَّةُ وإجماعُ الصحابةِ، وباللهِ التوفيقُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ليصلح. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وخافت. (١٠) في الأصل وم: بمسقط. (١١) في الأصل وم: ويجب. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: وزالة. (١٤) في الأصل وم: أخرته. (١٥) ساقطة من م. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) في الأصل وم: سعد. (٢٠) في الأصل وم: وعن ابن عمر كان. (٢١) في الأصل وم: قال.

جنة السنة

الآية ٢٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ اختلفَ أهلُ التأويلِ في الذِّكرِ الذي ذُكِرَ في الآيةِ. منهُمْ مَنْ صَرَفَ التأويلَ إلى كُلِّ ذِكرٍ، ومنهُمْ مَنْ صَرَفَ إلى التِّلاوةِ. فإنْ كانَ ذِكرُ الغُدُوِّ والآصالِ كنايةً عنِ الليلِ والنهارِ فهو ذِكرُ أحوالِهِ؟ يَذْكُرُ اللهَ ﷻ، بِنِعَمِهِ وإحسانِهِ، ويَذْكُرُهُ[1] بِنِعَمِهِ وشُكرِهِ، أو يَذْكُرُهُ[2] بِقُدرَتِهِ وسُلطانِهِ، وذلكَ يَحمِلُهُ[3] على الخُضوعِ لهُ والتواضعِ، أو يذكُرُ أمرَهُ ونَهيَهُ ووَعدَهُ ووَعيدَهُ.

وذلكَ يُوجِبُ الإقرارَ بالتَّقصيرِ والخوفَ لِعُقوبَتِهِ والرَّغبةَ في وعدِهِ. كأنهُ قالَ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي﴾ كُلِّ حالٍ مِنَ الليلِ والنهارِ إمّا لِنِعَمِهِ وإحسانِهِ وإمّا لإقرارٍ بالتَّقصيرِ في أمرِهِ ونَهيِهِ وإمّا لِخوفِ وعيدِهِ وإمّا لِرَغبةٍ بِوَعدِهِ. فكأنهُ قالَ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ تَضرُّعاً وتواضُعاً وخُفيَةً معَ الخوفِ.

وإنْ كانَ تأويلُ الغُدُوِّ والآصالِ كِنايةً عنِ الغَداةِ والعَشِيِّ فهو كِنايةٌ عنِ التِّلاوةِ، وهو ما سَبَقَ مِنْ ذِكرِ التِّلاوةِ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وقولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]. وتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ﴾، في بَعضِ صلاتِكَ ﴿وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ في بَعضِها، أو أنْ يُقالَ: لا تَجهَرْ جَهرَ العالي، ولا تُخافِتْ غايةَ المُخافَتةِ، ولكنْ بَينَ ذلكَ، أو أنْ يَقولَ: لا تَشتَغِلْ بالجَهرِ ولا بالمُخافَتةِ، ولكنِ اقرأْ لِما فيهِ.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ وقرأَ بَعضُهُم: وخُفْيَةً[4] وهو مِنَ الإخفاءِ حَيثُ قالَ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾ وأمّا ظاهِرُ القراءةِ فهو ﴿وَخِيفَةٗ﴾ وهو مِنَ الخوفِ.

وقالَ مُجاهِدٌ[5]: رَخَّصَ اللهُ أنْ تَذكُرَهُ: ﴿فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾ وأنتَ خَلفَ الإمامِ تَسمَعُ قراءتَهُ.

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾ قالَ أبو عَوسَجةَ: العَشِيّاتُ، الواحدُ: أَصلٌ وأَصيلٌ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ معلومٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، لم يكُنْ مِنَ الغافِلينَ في حالٍ، ولكنْ [قالَ ذلكَ][8] على النَّهيِ لِأُمَّتِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] [وقولِهِ تعالى][9]: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] ونَحوُهُ نَهاهُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ لِما ذَكَرنا نَهياً لِغَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ قالَتِ المُشَبِّهةُ: لو لم يكُنْ بَينَ اللهِ وبَينَ الملائكةِ قُربُ الذاتِ لَكانوا هُمْ والبَشَرُ بِقولِهِ تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ سواءً، ولَكانَ لا مَعنًى لِتَخصيصِ الملائكةِ بذلكَ.

ولكنَّ التأويلَ عندَنا في قولِهِ تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في الطاعةِ والخُضوعِ أو في الكَرامةِ والمَنزِلةِ لَيسَ على قُربِ الذاتِ، ولكنْ على ما وَصَفَ ﷻ، [بقولِهِ][10] ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وقولِهِ: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ و٢٠] وَصَفَهُمْ بالطاعةِ لهُ والخُضوعِ.

فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ لَيسَ على قُربِ الذاتِ، ولكنْ على ما ذُكِرَ مِنَ الطاعةِ والخُضوعِ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾؟ [العلق: ١٩] لَيسَ على أنهُ في الأرضِ يَقتَرِبُ منهُ إذا سَجَدَ.

وأصلُ ما يُضافُ إلى اللهِ مِنْ جُزئيّةِ الأشياءِ يُخرَّجُ مُخرَّجَ تَعظيمِ تلكَ الجُزئيّاتِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] خَصَّ المَساجِدَ بالإضافةِ إليهِ، وإنْ كانَتِ البِقاعُ كُلُّها لهُ تَعظيماً لها. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: ٩٧]. بيتُ اللهِ، وإنْ كانتِ البيوتُ كُلُّها لهُ، ونَحوُ ذلكَ مِمّا أضافَ ذلكَ إلى نَفسِهِ مِنْ جُزئيّاتِ الأشياءِ تعظيماً لذلكَ وإجلالاً.

---

(١) في الأصل وم: وذكره. (٢) في الأصل وم: يذكر. (٣) في الأصل وم: يحتمله. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ح٢/ ٤٣٤. (٥) في الأصل وم: المجاهد. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ أضافَهُمْ إلى نَفْسِهِ إمّا لِطاعةٍ لَهُمْ إيّاهُ والخُضوعِ وإمّا لِكَرامَةٍ لَهُمْ والمنزلَةِ.

وإضافةُ كُلِّيَّةِ الأشياءِ إلى اللهِ تُخَرَّجُ مُخْرَجَ تَعْظِيمِ الرَّبِّ: مِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] وقولُهُ تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

ومِنَ الناسِ مَنِ استَدَلَّ بِتَفضِيلِ الملائكةِ على البَشَرِ بهذِهِ الآيةِ. لكنْ نقولُ: إنَّ الأفضلَ عندَ اللهِ الأطوَعُ لهُ والأخضعُ والأتقى والأقوَمُ لأمرِهِ ونَهيِهِ على ما ذَكَرَ(١): ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] لا نُشيرُ إلى أنَّ هؤلاءِ أفضلُ مِنْ هؤلاءِ، وقد ذكَرْنا الوجهَ في ما ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ.

وتأويلُ الآيةِ، واللهُ أعْلَمُ، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ الآيةَ أي أنهُمْ، وإنْ لم يكُنْ لهُمْ حاجةٌ إلى المآكلِ والمَشْرَبِ وأنواعِ الحاجاتِ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ وأنتُمْ معَ حاجتِكُمْ إلى الأكْلِ والشُّرْبِ وأنواعِ الحوائجِ أحْرَى وأولَى ألّا تَستَكبِرُوا عنْ عِبادَتِهِ؛ لأنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يَعْبُدُ الملائكةَ، فَخُرِّجَ هذا جوابَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ التَّسبيحُ هو وصفُ الرَّبِّ ﷻ، بالرِّفْعَةِ والعَظَمَةِ والجَلالِ والتَّعالي عنِ الأشباهِ(٢) والأمثالِ وعمّا وَصَفَهُ المُلحِدُونَ. والتَّسبيحُ هو تَنزِيهُ الرَّبِّ وَتَبرِئَتُهُ مِنْ جميعِ معاني الخَلْقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ وهو الخُضوعُ في الغايةِ. ولَيسَ في الآيةِ وجوبُ السَّجدةِ لِمَنْ(٣) تَلاها، أو سَمِعَها إنما فيها الإخبارُ عنِ الساجِدِينَ أنهُمْ يَسْجُدُونَ(٤) غيرَ مُستَكبِرينَ. وفي ذلكَ ترغيبٌ في السُّجودِ. إلّا أنَّ النَّبيَّ ﷺ، رُوِيَ أنهُ سَجَدَ، وسَجَدَ مَنْ مَعَهُ.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ](٥) سَجدَ في ص. وفي بَعْضِ الأخبارِ عنِ ابنِ عُمَرَ [أنهُ](٦) قالَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَقرَأُ القرآنَ في غَيرِ صلاةٍ، فَيَسْجُدُ، ونَسْجُدُ مَعَهُ.

وعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ، [أنهُ قالَ](٧). كانَ رسولُ اللهِ ﷺ، قَرَأَ سورةَ النَّجمِ، فَسَجَدَ فيها، ولم يَبْقَ معهُ أحدٌ إلّا سَجَدَ إلّا شَيخٌ كبيرٌ مِنْ قريشٍ، أخذ كَفّاً مِنْ حِصًى، فَرَفَعَ إلى جَبْهَتِهِ. فَلَقدْ رأيتُهُ قُتِلَ كافراً.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ، أنهُ ذَكَرَ سجودَ القرآنِ، وعَدَّ، فقالَ: الأعرافُ والرعدُ والنحلُ وبَني إسرائيلَ ومريمَ والحجِ: سَجْدَةٌ واحدةٌ. والفرقانُ وطس وألم تنزيل وص وحم، وقالَ: ولَيسَ في المُفَصَّلِ سُجودٌ.

وعنِ ابنِ مسعودٍ [أنهُ](٨) قالَ: في السورةِ يكونُ في آخِرِها السجدةُ نَحْوُ الأعرافِ والنَّجمِ إنْ شِئْتَ فاسْجُدْ، ثم قُمْ، فاقْرَأْ، وإنْ شِئْتَ فارْكَعْ.

وعنِ ابنِ مَسْعودٍ [أنهُ](٩) كانَ يسجُدُ في الأعرافِ وفي بَني إسرائيلَ والنَّجمِ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾.

واحْتَجَّ / ١٩٥ ـ أ/ بَعْضُ مشايخنا أنَّ السجودَ على مَنْ تَلا آيةَ السجدةِ واجبٌ ما أجْمَعَ أهلُ العِلْمِ أنَّ على المُصَلِّي إذا تَلا الآيةَ، فيها السجدةُ، أنْ يَسْجُدَ في صلاتِهِ. فلو كانَ السجودُ تَطَوُّعاً ما كانَ لأحدٍ أنْ يَزيدَ في صلاتِهِ ما لَيسَ منها.

فدلَّ ذلكَ على أنَّ السجودَ واجبٌ في الصلاةِ، وإذا كانَ في الصلاةِ واجباً فهو على كُلِّ حالٍ واجبٌ.

ومِنَ الحُجَّةِ لنا أيضاً ما رُوِيَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قرَأَ آياتٍ، فَسَجَدَ فيها، فكانَ السُّجودُ بها واجباً كما أنهُ لَمّا صَلّى صلاةَ العيدِ كانَتْ واجبَةً.

---

(١) في الأصل وم: ذكرنا. (٢) من م، في الأصل: الأشياء. (٣) في الأصل وم: من. (٤) في الأصل: وم: سجدوا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

سورة الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ اختُلِفَ فيه؛ قالَ بَعْضُهُمْ: الأنفالُ: هي المَغانِمُ التي يَغْنَمُها المُسْلِمونَ مِنْ أهلِ الحَرْبِ، وقالَ بَعْضُهُمْ: الأنفالُ هي الفُضُولُ عن حُقوقِ أصحابِ الغنائمِ.

فالسؤالُ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

يَحْتَمِلُ أنهُمْ سألُوا عَنْ حِلِّها وحُرْمَتِها؛ لأنَّ الغنائمَ كانَتْ لا تَحِلُّ في الابْتِداءِ. قِيلَ: إنهُمْ كانُوا يَغْنَمُونها، ويَجْمَعُونَها[1] في مَوضِعٍ، فَتَجيءُ[2] نارٌ، فتحرِقُها. سألُوا عن حِلِّها وحُرْمَتِها، فقالَ: ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي الحُكْمُ فيها للهِ يَجْعَلُها لِمَنْ يَشاءُ.

ويَحْتَمِلُ السؤالُ عنها عن قِسْمَتِها؛ وهو ما رُوِيَ في بَعْضِ القصةِ أنَّ الناسَ كانُوا يَوْمَ بَدْرٍ ثلاثةَ أثلاثٍ: ثُلُثاً[3] في نَحْرِ العَدُوِّ وثُلُثاً[4] خَلْفَهُمْ رِدْءاً لَهُمْ وثُلُثاً[5] مَعَ رسولِ اللهِ يَحْرُسُونَهُ. فلمَّا فَتَحَ اللهُ عليهمُ اخْتَلَفُوا في الغَنائمِ، فقالَ الذينَ كانُوا في نَحْرِ العَدُوِّ: نَحْنُ أحَقُّ بالغنائمِ، نَحْنُ وُلِّينا القِتالَ. وقالَ الذينَ كانُوا رِدْءاً لَهُمْ: لَسْتُمْ بِأَوْلَى مِنّا، وكُنّا لَكُمْ رِدْءاً. وقالَ الذينَ أقامُوا مع رسولِ اللهِ: لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بها مِنّا؛ كُنّا نَحْنُ حَرَساً لِرسولِ اللهِ. فَتَنازَعُوا فيها إلى رسولِ اللهِ.

ونَزَلَ [قولُهُ تعالى][6] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ وقالَ أبو أُمامَةَ الباهليُّ: سألْتُ عُبادةَ بْنَ الصامتِ عنِ الأنفالِ، قالَ: فينا نَزَلَتْ مَعْشَرَ أصحابِ بَدْرٍ حينَ اخْتَلَفْنا [في النَّفَلِ][7] وساءَتْ فيهِ أخلاقُنا، فانْتَزَعَهُ اللهُ مِنْ أيدينا، فَجَعَلَهُ إلى رسولِهِ، فَقَسَمَهُ على السَّواءِ[8]. ومجاهدٌ وعِكْرِمَةُ قالا: كانَتِ الأنفالُ للهِ والرَّسولِ، فَنَسَخَها [قولُهُ تعالى][9]: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وكذلكَ رُوِيَ عن ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][10] قالَ: الأنفالُ المَغانِمُ؛ كانَتْ لِرسولِ اللهِ خالصةً لَيْسَ لأحدٍ فيها شَيْءٌ؛ ما أصابَ سَرايا المُسْلِمينَ مِنْ شَيْءٍ أتَوهُ بِهِ، فَمَنْ حَبَسَ منهُ إبرةً أو سِلْكاً فهو غُلُولٌ، فَسَألُوا رسولَ اللهِ أنْ يُعْطِيَهُمْ منها، فقالَ ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ لَيْسَ لَكُمْ فيها شَيْءٌ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تَكُونَ الأنفالُ هي فُضولُ المغانمِ على [ما][11] قالَ بَعْضُهُمْ نَحْوَ ما رُوِيَ في الأخبارِ أنَّ مِنْهُمْ مَنْ أخَذَ كُبَّةً، فقالَ: اجْعَلْها لي يا رسولَ اللهِ، وأخذَ الآخَرُ سَيفاً، وقالَ: اجْعَلْها لي، ونَحْوُ ذلكَ فكانُوا يَسْألُونَ رسولَ اللهِ ﷺ ذلكَ، فقالَ: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ سؤالُهُم عنِ التَّنْفيلِ أنْ يُنَفِّلَهُمُ الرسولُ بَعْدَ ما وَقَعَ في أيديهِم، أو بَعْدَ ما انْهَزَمَ الكُفّارُ، وأدْبَرَ العَدُوُّ. وإنما يجوزُ للإمامِ التَّنْفيلُ في حالِ إقبالِ الحربِ؛ وكذلكَ رُوِيَ عن عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ ﷺ قالَ: النَّفْلُ ما لم يَلْتَقِ الزَّحْفانِ أو الصَّفانِ، فإذا الْتَقَيا فهو مَغْنَمٌ.

[رُوِيَ عنْ سَعْدِ بنِ أبي وقاصٍ أنهُ قالَ: نَزَلَتْ فيَّ أربعُ آياتٍ... والثانيةُ: أني كنتُ أخذتُ سيفاً أعْجَبَني، فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ هَبْ لي هذا، فنزلَتْ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ...﴾][12] [الدر المنثور ج٤/ ٤].

---

(١) في الأصل وم: ويجمعون. (٢) في الأصل وم: فجاءت. (٣) في الأصل وم: ثلث. (٤) في الأصل وم: ثلث. (٥) في الأصل وم: ثلث.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: السؤال. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.
(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ورُوِي عن مصعب بن سعد قال: نزلت في أربع آيات.

جنة السنة

ورُوِيَ عن مُصْعَبِ بنِ سَعْدٍ [عن أبيهِ سَعْدِ بنِ مالكٍ أنهُ قالَ: «أَصَبْتُ يومَ بدرٍ][1] سيفاً، فأتيتُ بهِ النَّبِيَّ ﷺ، فقُلْتُ: نَفِّلْنِيهِ، فقالَ: ضَعْهُ مِنْ حيثُ أخذْتَهُ، فنَزَلَتْ هذهِ الآيةُ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾. ثم قالَ سَعْدٌ: دَعاني رسولُ اللهِ ﷺ فقالَ: اذْهَبْ، فَخُذْ سَيْفَكَ» [الدر المنثور ج٤/٤].

فَدَلَّ حديثُ سَعْدٍ أنَّ النَّبِيَّ لم يُنَفِّلْ قَبْلَ الحربِ أحداً شيئاً منهُ ممّا لا يَأْخُذُهُ [في الحرب][2] لأنه لو كانَ نَفَّلَهُمْ لم يَمْنَعْ سَعْداً ﷺ السَّيْفَ الذي جاءَ بهِ.

ويدُلُّ على أنَّ النَّبِيَّ لم يَأْمُرْ في الغَنِيمةِ بِشَيْءٍ حتى نَزَلَتْ آيةُ النَّفْلِ، فَرَدَّ اللهُ الأَمْرَ في الغَنِيمةِ إلى رسولِهِ، فأطْلَقَ لهُ رسُولُ اللهِ ﷺ لَمّا رُدَّ [إليه][3] الأمْرُ.

ويجوزُ أنْ يكونَ النَّبِيُّ [ﷺ][4] لم يُنَفِّلْ أحداً قَبْلَ الحَرْبِ شيئاً، ولكنَّهُ كانَ يُنَفِّلُ ممّا يُؤتى بهِ مَنْ يَشاءُ مِمَّنْ قَتَلَ بغيرِ إيجابٍ مُتَقَدِّمٍ. يُبَيِّنُ ذلكَ قولُ سَعْدٍ: أَجُعِلَ كَمَنْ لا عَمَلَ له؟ وحديثُ عبادة؛ يُخْبِرُ أنَّ النَّبِيَّ نَفَّلَ ما يأخذونَ مِنْ أهلِ الحَرْبِ قَبْلَ أنْ يأخُذُوهُ. وهذا مَوضِعُ الاِخْتِلافِ بَيْنَ الحَدِيثَيْنِ.

والظاهرُ مِنْ ذلك أنَّ الفِعْلَ قد كانَ وقَعَ في الغَنائِمِ؛ لأنَّ اللهَ قد سَمَّاها أنفالاً قَبْلَ أنْ يُحِلَّها. فلولا أنَّ النَّبِيَّ كانَ نَفَّلَهُمْ إياها قَبْلَ الحَرْبِ أو بَعْدَها لم يُسَمِّ اللهُ أنفالاً، واللهُ أعْلَمُ.

وفي حديثِ عُبادةَ أنَّ قولَهُ تعالى ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١] ذَكَرَهُ بَعْدَ ذِكْرِ النَّفْلِ، وأنهُ حُكْمُ الناسخِ الثابتِ. وكذلكَ قولُ ابنِ عباسٍ يَدُلُّ على ذلكَ، وقد أجْمَعَ أهلُ العِلْمِ على ما ذَكَرَهُ عُبادةُ في آخرِ حديثِهِ، فقالُوا جميعاً: إنَّ الغَنِيمةَ يُخرَجُ خُمُسُها لِلأصنافِ الذينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ إلّا ما اخْتَلَفُوا فيهِ مِنْ سَهْمِ ذي القُرْبى، ثم تُقَسَّمُ أَرْبَعَةُ[5] الأخماسِ بَيْنَ أهلِ القِسْمَةِ. وجَعَلُوا للإمامِ أنْ يُنَفِّلَ السَّلَبَ وغَيْرَهُ، فيقولُ: مَنْ قَتَلَ قتيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ؛ يُحَرِّضُ بذلك [على][6] المُقاتَلَةِ، ويُنَفِّلُ السَّرِيَّةَ، يُخْرِجُ مِنَ العَسْكَرِ شيئاً بَعْدَ الخُمسِ.

وممّا أجْمَعُوا عليه مِنْ قِسْمَةِ الغنيمةِ أخماساً نُزُولُ القرآنِ؛ وقد رُوِيَ عن النَّبِيِّ ﷺ [أنَّهُ][7] قالَ: «إنَّ الغنيمةَ لم تَحِلَّ لأحدٍ قَبْلَنا، وقد أُحِلَّتْ لنا» [مسلم ١٧٤٧].

ورُوِيَ عن أبي هُرَيْرَةَ [أنهُ][8] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «لم تَحِلَّ الغَنائِمُ لِقومٍ سُودِ الرُّؤوسِ قَبْلَكُمْ، كانَتْ نارٌ تَنْزِلُ مِنَ السماءِ فتأكُلُها» [الترمذي ٣٠٨٥]. فلمّا كانَ يومُ بدرٍ أسْرَعَ الناسُ في الغنائِمِ، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٨ و٦٩] ونَحْوَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً.

أحدُها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ عَمَّنْ لهُ الأنفالُ، فقالَ: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ﴾

والثاني: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ على إسقاط ﴿عَنِ﴾ وقد كانُوا يسألونَكَ الأنفالَ والمَغانِمَ.

والثالثُ: يَسْأَلُ كلٌّ عنِ النَّفْلِ[9] الذي جُعِلَ لهُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أخذِ الأموالِ، ولكنْ في الأنفالِ وفي غيرِها ﴿فَٱتَّقُوا۟﴾ مَعْصِيةَ اللهِ ومُخالَفَتَهُ في أمْرِهِ ونَهْيِهِ ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أمَرَ بإصلاحِ ذاتِ البَيْنِ لما ذُكِرَ مِنْ عظيمِ مِنَّتِهِ ونِعَمِهِ التي أنْعَمَ عليهِمْ بقولِهِ تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] أخْبَرَ أنهُمْ كانُوا أعداءً، فألَّفَ بينَ قُلوبِهِمْ[10]. وذلكَ مِنْ عظيمِ نِعَمِهِ عليهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: يرى أنه يوم بدر أصبت. (٢) ساقطة في الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: صلى، ساقطة من م.
(٥) في الأصل وم: الأربع. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: نفل له. (٩) في الأصل وم: نفل له.
(١٠) في الأصل وم: قلوبكم.

جنة السنة

فأمَرَ ههنا بإصلاحِ ذاتِ البَيْنِ ليكونُوا على النِّعمةِ التي أنْعَمَها عليهِمْ مُجتمِعِينَ غَيْرَ مُتفرِّقِينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي أطيعُوا اللهَ في أمرِهِ ونهْيِهِ، ورسولَهُ في آدابِهِ وسُنَّتِهِ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أو أطيعُوا اللهَ في ما دَعاكُمْ إليه، ورغَّبَكُمْ فيه، ورسولَهُ في ما بَيَّنَ لكُمْ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني مُصدِّقينَ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ/ ١٩٥ ـ ب/ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى آخرِ ما ذَكَرَ يَحْتَمِلُ وجوهاً.

[أحدُها][1]: يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ﴾ ظَهَرَ صدقُهُمْ عندَكُمْ بما ذَكَرَ مِنَ الأفعالِ مِنْ وَجَلِ القَلْبِ والخَشْيَةِ والثباتِ واليَقِينِ على ما كانَ عليهِ، لَيْسَ كالمنافقينَ الذينَ كانُوا مُرْتابِينَ في إيمانِهِمْ كما وَصَفَهُمْ في آيةٍ أُخرَى [في قولِهِ][2]: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢] وكانُوا إذا أنْفَقُوا أنْفَقُوا كارِهِينَ، وكانُوا لا يذكُرُونَ اللهَ إلّا قليلاً مُراآةً للناسِ.

وأمّا المؤمِنونَ فهُمُ الذينَ يقومونَ بوفاءِ ذلكَ كُلِّهِ حَقيقةً، فيَظْهَرُ صِدْقُهُمْ بذلكَ، وهو ما وَصَفَهُمْ في آيةٍ أُخرَى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

والثاني[3]: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الاعتقادِ خاصّةً، لَيْسَ على نَفْسِ العَمَلِ؛ كأنهُ قالَ: إنما المؤمِنونَ الذينَ اعْتَقَدُوا في إيمانِهِمْ ما ذَكَرَ مِنْ وَجَلِ القُلُوبِ والخَشْيَةِ عندَ ارْتِكابِ المَعْصِيةِ والتَّقْصِيرِ على القِيامِ بما عليهِ. وما يَرْتَكِبُ المُؤْمِنُ مِنَ المَعاصي إنما يَرْتَكِبُ عنْ جَهالةٍ، ثم يَتوبُ عنْ قريبٍ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧] يَرْتَكِبُ ذلكَ إمّا لِغَلَبَةِ شَهْوَةٍ، وإمّا يَعْتَقِدُ التوبةَ مِنْ بَعْدِهِ، وإمّا يرجُو رحمةَ اللهِ مِنْ فَضْلِهِ في العَفْوِ عنْ ذلكَ.

فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ﴾ اعْتَقَدُوا إيمانَهُمْ ما ذَكَرَ مِنَ الأفعالِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] هو الاعتقادُ والقَبُولُ لهُ أنهُمْ إذا اعْتَقَدُوا ذلكَ، وقَبِلُوا يُخَلَّى سَبِيلُهُمْ. وإنْ لم يُقيمُوا الصلاةَ وما ذَكَرَ فَعَلَى ذلكَ الأفعالُ [وهو كقولِهِ تعالى][4]: ﴿فَإِن تَابُوا﴾ [التوبة: ٥] يَحْتَمِلُ ذلكَ.

والثالثُ[5]: يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ﴾ فَعَلُوا هذا، وأَتَوا بذلكَ كلِّهِ. لكنهمْ أجمعُوا أنَّ مَنْ آمَنَ بقلبِهِ، وصَدَّقَ كانَ مؤمناً، وإنْ لم يأتِ بغيرِهِ مِنَ الأفعالِ [مِثْلُ مَنْ][6] يؤمِنُ، ثم يُخْتَرَمُ، ويموتُ مِنْ ساعتِهِ، ماتَ مؤمناً. فدلَّ أنهُ لم يُخَرِّجْ ذلكَ على الشرطِ لما ذَكَرْنا، واللهُ أعلمُ. وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ.

أحَدُها: يُخْبِرُ أنَّ المؤمنينَ هُمْ[7] على وَصْفِ ما ذَكَرَ.

والثاني[8] يقولُ: إنَّ المؤمنينَ الذينَ يَنْبَغي أنْ يكونوا ما ذَكَرَ.

والثالث[9] يقولُ: إنما المؤمنونَ المختارونَ ما ذَكَرَ جَعَلَ اللهُ تعالى ما ذَكَرَ [مِنْ][10] وَجَلِ القَلْبِ وغيرِهِ عَلَماً بَيْنَ الذينَ حَقَّقُوا الإيمانَ في الظاهِرِ والباطِنِ وبَيْنَ الذينَ أظْهَرُوا الإيمانَ، وأضْمَرُوا الكُفْرَ والخِلافَ. وكذلكَ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا﴾ [النور: ٦٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿ءَايَٰتُهُ﴾ حُجَجَهُ وبَراهِينَهُ ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ذلكَ زادَهُمْ[11] ثباتاً وقُوّةً على ما كانُوا.

وأما المنافقونَ فإنَّ الآياتِ التي نَزَلَتْ كانَتْ [تَزيدُهُمْ][12] رِجْساً وبُعْداً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث قال. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الاصل وم: والرابع. (٦) في الأصل وم: نحوان. (٧) في الأصل وم: هو. (٨) في الاصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: يزداد لهم. (١٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، في الأصل وم: تزداد لهم بها.

جنة السنة

فإنَّ [المؤمنينَ يزيدُهُم][١] ذلك ثباتاً وقُوَّةً. أو ذَكَرَ الزّيادةَ لأنَّ[٢] للإيمانِ حُكْمَ التَّجدُّدِ والحُدُوثِ في كُلِّ وقتٍ وساعةٍ. فإذا كانَ لهُ حُكْمُ الحُدوثِ والتَّجدُّدِ فهو زيادةٌ على ما كانَ. فإنْ شِئْتَ سَمَّيْتَها ثَباتاً.

وقالَ أبو حَنيفةَ، رحمَهُ اللهُ: يزيدُ الإيمانُ بالتفسيرِ على الإيمانِ بالجملةِ. فإذا فسَّروا له[٣]، وقالُوا: فلانٌ رسولٌ نَبِيٌّ ازدادَ بذلكَ لَهُ إيماناً، وإنْ كانَ قد آمَنَ بهِ بالجملةِ. وكذلكَ الإيمانُ بجميعِ الكُتُبِ والأمْرِ، وإنْ كُنّا نُؤمِنُ بالجُمْلَةِ أنَّ ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فإذا عَرَفَ ذلكَ الأمْرَ زادَ[٤] لَهُ إيماناً في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ مَن آمَنَ باللهِ وأنَّ ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فقد أتى بعُقْدَةِ الإيمانِ. فإذا جاءَ بالتَّفْسيرِ واحداً بَعْدَ واحدٍ ازدادَ لهُ إيمانُهُ بالتَّفْسيرِ على إيمانِهِ بالجملةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي على ربِّهم يتَّكِلُونَ[٥]، ويَعْتَقِدُونَ في كُلِّ أُمُورِهِمْ؛ لا يتَّكِلُونَ[٦] على غَيْرِهِ. إنما يَتَوكَّلُونَ على اللهِ. ولَيْسُوا[٧] كالمُنافِقِينَ هُمْ إنما يَتَوَكَّلُونَ على النِّعَمِ التي أُعْطُوا كقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١] ونَحْوَ ذلكَ.

وأمَّا المؤمنُ فإنهُ في جميعِ أحوالِهِ يَتَوَكَّلُ على اللهِ، ومنهُ يَخافُ، وإنْ كانَ يَصِلُ ذلكَ إليهِ، ويَجْري على يَدَيْ غَيْرِهِ. فهو في الحقيقةِ مِنَ اللهِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ بِحَقِّ اللهِ الذي عليهِمْ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

[أحدُهُما][٨]: يَحْتَمِلُ أولئكَ الذينَ حَقَّقُوا إيمانَهُمْ.

والثاني: [يَحْتَمِلُ][٩] أولئكَ المؤمنينَ[١٠] الذينَ وَعَدَ لَهُمْ وَعْداً حَقّاً؛ وهو ما وَعَدَ لَهُمْ مِنَ الدَّرَجاتِ والمَغْفِرَةِ. حَقٌّ لَهُمْ ذلكَ الوَعْدُ، واللهُ أعْلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][١١]: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ﴾ قيلَ: فَضائلُ عندَ رَبِّهِمْ ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي يَسْتُرُ عليهِم ذنوبَهُمُ التي كانتْ لهم في الدنيا [ويُنْسِيهِمْ إيّاها][١٢]؛ لأنَّ ذِكْرَ ذلكَ يُنَغِّصُ عليهِمْ نِعَمَهُمُ التي أَنْعَمَ عليهِمْ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قالَ[١٣] الحَسَنُ: ورزقٌ يُكْرَمُ بهِ أهلُهُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ لم يَخْرُجْ لهذا الحرفِ جوابٌ في الظاهرِ، لأنَّ جوابَهُ أنْ يقولَ ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يَفْعَلُ بكَ كذا.

ثم أهلُ التأويلِ اخْتَلَفُوا في جَوابِهِ: قالَ بعضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ يقولُ تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ كما كَرِهُوا الخروجَ، وجادَلُوكَ في قِسْمَةِ الأنفالِ جادَلُوكَ في أمرِ الغَيبِ[١٤].

ومنهُم مَنْ يقولُ: جوابُهُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] يقولُ: كما أجَبْتُمُ اللهَ في الخروجِ للقتالِ على غَيْرِ تدبيرٍ مِنْكُمْ في ذلكَ ولا نَظَرٍ. فَعَلَى ذلكَ يُجيبُكُمْ في النعاسِ ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ وإنزالِ الماءِ مِنَ السماءِ والتَّطْهيرِ بهِ وتَثْبيتِ الأقدامِ على غَيْرِ عِلْمٍ منكُمْ ولا تَدْبيرٍ.

ومنهم مَنْ يقولُ: [جوابُهُ في][١٥] قولِهِ تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ غَيرَ مُتَأَهِّبينَ لِلقتالِ ولا مُسْتَعِدِّينَ لهُ كذلكَ يَعِدُكُمُ النَّصْرَ والظَّفَرَ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: المؤمنون يزيد لهم. (٢) من م، في الأصل: لا. (٣) في الأصل وم: لهم. (٤) في الأصل وم: ازداد. (٥) في الأصل وم: يثقون.
(٦) في الأصل وم: يكلون. (٧) في الأصل وم: وليس. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: المؤمنون.
(١١) ساقطة في الأصل وم. (١٢) في الأصل وم ينسبونها. (١٣) في الأصل وم: قيل. (١٤) في الأصل وم: الغير. (١٥) ساقطة في الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً: يَحتَمِلُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لِلّهِ عليهِمْ مِنَ الأمرِ بالخروجِ والقِتالِ، ويَحتَمِلُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالوَعْدِ الذي وَعَدَ لَهُمُ النصرَ والظَّفَرَ، وقالَ بَعْضُ أهلِ التَّأويلِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالقرآنِ. ولَئِنْ[1] كانَ فهو ما ذَكَرْنا بالأمرِ الذي يأمُرُ القرآنُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ يَحتَمِلُ وجهَيْنِ: يَحتَمِلُ ﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في الظاهِرِ، وهُمُ المُنافِقونَ كَرِهُوا الخُروجَ لِلْقِتالِ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ المؤمنونَ في الحَقيقَةِ كَرِهُوا الخُروجَ لِلْقِتالِ كَراهةَ الطَّبْعِ لا كَراهةَ الاختيارِ لَمّا أُمِرُوا بالقِتالِ [غيرَ مُتأهِّبينَ لِلْقِتالِ][2] ولا مُستَعِدِّينَ، فكَرِهَتْ أنفُسُهُمْ ذلكَ كَراهةَ الطَّبْعِ لِما لم يكنْ مَعَهُمْ أسبابُ القتالِ لا لأنهُمْ[3] كَرِهُوا أمْرَ اللهِ كَراهةَ الاختيارِ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةُ أنَّ الأمْرَ قد يكونُ في الشَّيْءِ، وإنْ لم يُعْلَمْ وقتُ الأمرِ في ما يُؤمَرُ. وفيهِ دليلُ جوازِ تأخُّرِ البَيانِ لأنَّهُمْ أُمِرُوا بالخُروجِ لِلْقِتالِ، ولم يَعْلَموا وقتَ الخروجِ على ماذا يُؤمَرونَ؟

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ قيلَ: في القِتالِ. وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿فِى ٱلْحَقِّ﴾ الذي أُمِرْتَ بهِ أنْ تَسيرَ إلى القِتالِ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فِى ٱلْحَقِّ﴾ الوعدَ الذي وَعَدَ لَهُمْ بالنَّصرِ والظَّفَرِ ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ لهُمُ الوَعْدُ الذي وَعَدَ لهمُ اللهُ ﷻ بالنَّصرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ فإنْ كانتِ/ ١٩٦ ـ أ/ الآيةُ في المنافقينَ فهو ظاهرٌ، وهُمْ كذلكَ وُصِفُوا بالكَسَلِ في جميعِ الخَيراتِ والطاعاتِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وإنْ كانَتْ[4] في المؤمنينَ الذينَ حَقَّقُوا الإيمانَ فهو لِما كانُوا غيرَ مُستَعِدِّينَ لِلْقِتالِ ولا مُتأهِّبينَ لهُ كانُوا كارِهينَ لِذلكَ[5] كَراهةَ الطَّبْعِ لا كَراهةَ الاختيارِ.

وقالَ قائلونَ: قولُهُ تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ أي ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أجابُوا رَبَّهُمْ، وإنْ كانوا كارِهينَ لِلْخروجِ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ، وإنْ كانُوا مِنَ الخَوفِ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنفال: ٦] فأجابَ اللهُ تعالى لَهُمْ بالنَّصرِ والظَّفَرِ، وأمَّنَهُمْ مِنْ ذلكَ الخَوفِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ عِيرَ قُرَيشٍ حينَ أقْبَلَتْ مِنَ الشامِ خَرَجَ أصحابُ رسولِ اللهِ نَحوَهُمْ على ما يُخرُجُ إلى العِيرِ غيرَ مُتأهِّبينَ [للحربِ ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾][6] وخَرَجَتْ قُرَيشٌ مِنْ مكةَ تُغيثُ عِيرَها، فهي الطائفةُ الأُخرى. وَعَدَ لَهُمْ أنَّ إحْدَى الطائفتَيْنِ لَهُمْ إمّا العِيرُ وإمّا العَسْكَرُ أنَّهُمْ يُنْصَرُونَ عليهِمْ ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ أي لَيْسَ فيها حَرْبٌ، ثم ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ العِيرُ، وهي أهْوَنُ شَوْكَةٍ وأعظَمُ غَنيمةٍ كانُوا يَوَدُّونَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ لِما لم تكونُوا مُعِدِّينَ لِلْقِتالِ والحَرْبِ. وكانَ بِهِمْ ضَعْفٌ، وفي أولئكَ قُوَّةٌ وعِدَّةٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ[7] تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ، واللهُ أعلَمُ، يُريدُ أنْ يُظْهِرَ الحَقَّ بآيةٍ منهُ مِنْ غيرِ وجودِ الأسبابِ منهُمْ، وهو كما ذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣] أخبَرَ أنَّ في غَلَبَةِ أولئكَ مع ضَعْفِ أبدانِهِمْ وقِلَّةِ عَدَدِهِمْ وقُصورِ أسبابِ الحَرْبِ مِنَ السِّلاحِ والعُدَّةِ وغيرِ ذلكَ وقُوَّةِ أبدانِ أولئكَ وكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وعُدَّتِهِمْ وتأهُّبِهِمْ واستِعْدادِهِمْ لذلكَ آيةً عظيمةً.

---

(١) في الأصل وم: ولكن. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: انهم. (٤) في الأصل وم: كان. (٥) في الأصل وم: كذلك. (٦) في الأصل وم: ﴿انها لكم﴾ ذكر في بعض قصة للحرب. (٧) في الأصل وم: وقال.

جنة السنة

فأراد أنْ يُظهِرَ الحقَّ بالآيةِ لِيَعْلَمَ كُلٌّ منهُمْ أنهُ إنما كانَ ذلكَ باللهِ لا بِهِمْ. وهو ما قالَ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] أخبَرَ أنهُ كانَ باللهِ ذلكَ لا بِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بِعلمِهِ وأمرِهِ. ويَحْتَمِلُ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بِحُجَجِهِ أي يُوجِبُ، ويُظْهِرُ بِحُجَجِهِ وبَراهِينِهِ. ويَحْتَمِلُ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ البِشاراتِ التي بَشَّرَ بها المؤمنينَ بالنَّصْرِ والظَّفَرِ والعداوةِ التي كانتْ[1] منهُمْ. ويَحْتَمِلُ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ملائكتَهُ الذينَ بَعَثَهُمْ مَدَداً لَهُمْ يومَ بَدْرٍ على ما ذَكَرَ، فأضافَهُمْ إليهِ تعظيماً لهُمْ وإجلالاً على ما سَمَّى عيسى رُوحَ اللهِ وكَلِمَتَهُ[2] وموسى كليمَ اللهِ[3] تعظيماً لهمْ وإجلالاً. فَعَلَى ذلكَ [هذا][4]. واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ آثارَ الكافِرِينَ؛ يُقْتَلُونَ جميعاً، ويُسْتَأْصَلُونَ حتى لا يَبْقَى لَهُمْ أثَرٌ. ويَحْتَمِلُ يَقْطَعُ ما أدْبَرَهُمْ حتى لا يأتِيَهُمْ مَدَدٌ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي لِيُظْهِرَ الحَقَّ ويُوجِبَ. يُقالُ: حَقَّ كذا أي وَجَبَ. ويَحْتَمِلُ لِيُظْهِرَ حَقَّ الحَقِّ، ويُظْهِرَ بُطْلانَ الباطِلِ، أو أنْ يُقالَ: قولُهُ تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ ما ذَكَرْنا: لِيُوجِبَ[6] الحَقَّ، ويُذْهِبَ الباطِلَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١] أي ذهبَ. فَعَلَى ذلكَ هذا؛ يَجيءُ الحَقُّ، ويَجِبُ، ويَذْهَبُ الباطِلُ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

فإنْ قِيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنفال: ٦] وقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] كيف خافُوا كُلَّ هذا الخَوفِ حتى وصَفَهُمْ بِشِدَّةِ الخَوفِ كأنما يُساقُونَ إلى [المَوتِ][7] وقد وَعَدَ لَهُمُ النَّصْرَ والظَّفَرَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾؟ [الأنفال: ٧] كيف اسْتَغاثُوا ربَّهُمْ في ذلكَ، وقد سَبَقَ منهُ لَهُمُ الوَعْدُ بالظَّفَرِ والنَّصْرِ؟ [قِيلَ: يُمْكِنُ أنْ][8] تُصْرَفَ الآيةُ إلى المُنافِقِينَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

غيرَ أنهُ ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنهُ لم يكنْ بِبَدْرٍ مُنافِقٌ، بل كانُوا كُلُّهُمْ مؤمنِينَ حتى افْتَخَرَ بذلكَ مَنْ شَهِدَ بَدْراً، وإنْ كانَ في المؤمنِينَ فهو ما ذَكَرْنا لِقِلَّةِ عَدَدِهِمْ وضَعْفِهِمْ وكَثْرَةِ أولئكَ وعُدَّتِهِمْ؛ كانُوا كما وَصَفَ، واللهُ أعلَمُ.

لكنَّ الآيةَ تَحْتَمِلُ وجوهاً.

أحَدُها: أمْكَنَ أنْ يكونَ الوَعْدُ لَهُمْ بالنَّصْرِ بَيَّنَ لِرسولِهِ، ولم يُبَيِّنْ لَهُمْ.

[والثاني][9]: فألقَى في قُلوبِهِمُ الرُّعْبَ والخوفَ لِما لم يُبَيِّنْ لَهُمُ الوقتَ متى يكونُ ذلكَ؟ ألا تَرَى أنهُمْ أُمِرُوا بالخروجِ، ولا يَدْرُونَ إلى ماذا يُؤْمَرُونَ؟

والثالثُ: يَجوزُ أيضاً أنْ بَيَّنَ لَهُمُ الوَعْدَ بالنَّصْرِ، وبَلَّغَهُمْ ذلكَ غيرَ أنهُمْ خافُوا ذلكَ، وكَرِهُوا خوفَ طَبْعٍ وكَراهةَ النَّفْسِ لا كَراهةَ الاخْتِيارِ. وجائزٌ الخوفُ في مِثْلِ هذا وكَراهةُ الطَّبْعِ، وإنْ كانُوا على يَقِينٍ بالنَّصْرِ والظَّفَرِ وتَحقيقِ ذلكَ لَهُمْ.

والرابعُ: يجوزُ أنْ يكونَ الوَعْدُ لَهُمْ بالنَّصْرِ والظَّفَرِ بالتَّضَرُّعِ إليه والاسْتِغاثةِ بهِ على ما يكونُ في الدَّعَواتِ يكونُ شَقاوةُ بَعْضٍ ودخولُهُ النارَ بِمَعاصٍ يَرْتَكِبُها، وسَعادةُ آخَرَ ودخولُهُ الجَنَّةَ بِخَيْراتٍ يأتي بها، فَيَصيرُ مِنْ أهْلِها.

والخامسُ: جائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ مِنَ اللهِ تعالى لَهُمْ مِحْنَةً، يَمْتَحِنُهُمْ بها كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ الآيةَ [البقرة: ١٥٥] يَحْتَمِلُ مَعْنَى الآيةِ الوجوهَ التي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ الآيةَ [الأنفال: ٦] وقالَ بَعْضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٤] قالُوا: قولُهُ تعالى: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ

(١) في الأصل وم: كان (٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. (٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يجب. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: وقد يمكن، في م: وقد يمكن أن. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ ألفانِ، وقولُهُ تعالى ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤] فيكونُ ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

ومنهُم مَنْ يقولُ: ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾ كانَ في أُحُدٍ؛ إذ ذَكَرَ على إثْرِ قصةِ أُحُدٍ. فإنْ كانَ ما ذَكَرُوا، فكانَ قولُهُ: ﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ إمّا في إردافِ الكفَرةِ، وهو المُتَتابِعُ تابَعَ أهلَ بدْرِ المُشْرِكينَ، وهم مُنْهَزِمُونَ، أو أنْ يكونَ الإردافُ الإمدادَ، فيكونُ ألفَيْنِ[1].

وقال بعْضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ قولَهُ تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٦] هو رسُولُ اللهِ؛ وذلكَ أنَّ النبيَّ ﷺ [لمّا][2] رأى كَثْرَةَ المُشْرِكينَ ببَدْرٍ علِمَ أنهُ لا قُوّةَ لَهُمْ إلّا باللهِ، فدعا ربَّهُ، وتضرَّعَ [ولكنَّ قولَهُم][3] عِنْدنا، واللهُ أعْلَمُ، قولُ[4] المؤمنينَ. ألا ترَى أنهُ قالَ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾؟ [آل عمران: ١٢٤] بكذا، واللهُ أعلَمُ بذلكَ. وليسَ إلى معرفةِ ذلك حاجةٌ سِوَى أنَّ فيهِ البِشارةَ لَهُمْ بالنَّصْرِ والطُّمأنينةِ لِقُلُوبِهِمْ وإنباءَ أنَّ حَقِيقَةَ النَّصْرِ إنما تكونُ باللهِ لا بأحَدٍ سِواهُ.

الآية ١٠ وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لا يُذِلُّهُ شيءٌ، ولا يُعجِزُهُ ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمْرِهِ ونَهْيِهِ؛ لا يأمُرُ بِشَيْءٍ، ولا يَنْهَى عن شَيْءٍ إلّا وفيهِ حِكْمَةٌ.

وفائدةُ ما ذَكَرَ مِنْ بَعْثِ مَدَدِ ألفٍ وثلاثةِ آلافٍ وما ذَكَرَ لِطُمأنينةِ قلوبِ أولئكَ المؤمنينَ وإلّا فَمَلَكٌ[5] واحدٌ كافٍ لَهُمْ، وإنْ كَثُرُوا لأنهُ يراهُمْ، ولا يَرَوْنَهُ. وإهلاكُ مِثْلِهِ سَهْلٌ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ ذَكَرَ النُّعاسَ بَعْدَ شِدَّةِ خوفِهِمْ، والنُّعاسُ لا يكونُ مِمَّنْ اشْتَدَّ بهِ الخَوْفُ، ولا يَغْشاهُ إلّا بَعْدَ الأمْنِ. فذَكَرَ لُطْفَهُ ومِنَّتَهُ الأمْنَ بَعْدَ شِدَّةِ الخوفِ ذِكْرَ عظيمِ ما مَنَّ عليهِمْ مِنَ الأمْنِ لمّا ذَكَرَ مِنْ إلقاءِ النُّعاسِ عليهِمْ. والنُّعاسُ إنما يكونُ بَعْدَ الأمْنِ بَعْدَ ما كانَ مِنْ حالِهِمْ ما ذَكَرَ حينَ[6] قالَ: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ ذُكِرَ في بَعْضِ القِصّةِ أنَّ المُشْرِكينَ سَبَقُوا، فأخَذُوا الماءَ، فَبَقِيَ المُسْلِمُونَ في رَمْلٍ، لا تَثْبُتُ أقدامُهُمْ، عِطاشاً[7]، فَوَسْوَسَ إليهِمُ الشيطانُ أنهُمْ لو كانُوا على حَقٍّ ما بُلُوا بِمِثْلِ ذلكَ في رَمْلٍ، لا تَثْبُتُ أقدامُهُمْ، وعَطَشٍ[8]. فأبدَلَ اللهُ تعالى مكانَ الخَوْفِ أمْناً يأمَنُونَ بهِ، وأنزَلَ عليهِمْ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ ويَشْرَبُوا[9]/ ١٩٦ ـ ب/ ويَشُدُّ بهِ الرَّمْلَ، فَتَثْبُتَ أقدامُهُمْ.

فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

قال أهلُ التأويلِ: وَسْوَسَةُ الشيطانِ التي وَسْوَسَ إليهِمْ. وقيلَ: الرِّجْزُ الإثْمُ، ثم أذْهَبَ[10] ذلكَ عنهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿رِجْسًا﴾ [التوبة: ١٢٥] أي[11] فِسْقاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعْلَمُ، على المُبالَغَةِ؛ أخْبَرَ أنهُ أنزَلَ مِنَ السماءِ ما فَضَلَ عنْ حوائجِهِمْ حتى وجَدُوا ما يُطَهِّرُوا أنْفُسَهُمْ وأبدانَهُمْ، وأذْهَبَ[12] عنهُمْ رِجزَ الشيطانِ. ذَكَرَ السَّبَبَ الذي بهِ يَذْهَبُ الرِّجْزُ؛ لأنَّ الرِّجْزَ هو العذابُ. فذَكَرَ الرِّجْزَ، والمُرادُ منهُ سَبَبُ الرِّجْزِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي يَشُدُّها ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ يَحْتَمِلُ حقيقةَ تثبيتِ الأقدامِ، ويَحْتَمِلُ الثَّباتَ على ما هُمْ عليهِ. والرَّبْطُ هو الشَّدُّ لِشَيْءٍ. فيَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي يَشُدُّها حتى لا يُزالُ أحَدٌ عمّا هو فيهِ، ولا يَزِيغُ عنْ ذلكَ. وإنِ ابْتَلاهُ اللهُ تعالى بأنواعِ الشدائدِ والبَلايا.

---

(١) في الأصل وم: ألفان. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل: ذلك أن النبي ﷺ قولهم، في م: ذلك قولهم. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أعني. (٥) في الأصل وم: ملك. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: عطشا. (٨) في الأصل وم: عطشى. (٩) في الأصل: ويشربون. (١٠) في الأصل وم: ذهب. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) في الأصل وم: وذهب.

جنة السنة

ذُكِرَ في التَّوحيدِ والإيمانِ الرَّبْطُ والتَّثبيتُ بقولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] وقولِهِ: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال: ١١] وقولِهِ: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٤]. وذُكِرَ في الشِّركِ والكُفرِ الطَّبْعُ والخَتْمُ والقُفلُ ونَحْوُهُ. فهو، واللهُ أعلَمُ، عُقوبةٌ لَهُمْ لِما اختارُوا ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ قِيلَ: وَسْوَسَةُ الشيطانِ، وهو ما ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنَّ المسلمينَ أصابَهُمْ ضَعْفٌ شديدٌ، وألقى الشيطانُ في قُلوبِهِمُ القُنوطَ، [يُوَسْوِسُ لَهُمْ][1]، ويقولُ لَهُمْ: تَزْعُمونَ أنكُمْ أولياءُ اللهِ، وفيكُمْ رسولُهُ وقد غَلَبَكُمُ المُشرِكُونَ على الماءِ، وأنتُمْ تُصَلُّونَ مُجنِبِينَ، فأمطَرَ اللهُ عليهِمْ مطراً شديداً، فَشَرِبَ المُسلِمُونَ، وتَطَهَّرُوا، وأذهَبَ عنهُمْ رِجزَ الشيطانِ، ونَشَفَ الرَّمْلُ؛ حينَ أصابَهُ المَطَرُ مَشَى الناسُ عليهِ والدوابُّ، فَسارُوا إلى القومِ، وأمَدَّ اللهُ ﷺ نبيَّهُ بألفٍ من الملائكةِ بقولِهِ: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

الآية ١٢ ثم قال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الوَحْيُ كانَ يُسمَّى وَحياً لِسُرعَةِ قَذْفِهِ في القلوبِ وَوُقوعِهِ فيها. ولِذلكَ سمَّى، واللهُ أعلَمُ، وَساوِسَ الشيطانِ وَحياً بقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] أي يَقذِفُونَ في قُلوبِهِمْ، ويَدْعُونَ إلى أشياءَ مِن غَيرِ أن عَلِمُوا بذلكَ أنهُ مِمَّنْ جاءَ ذلكَ؟ وما سَبَبُ ذلكَ؟ لِسُرعَةِ قَذْفِهِ وَوُقوعِهِ في القُلوبِ. وكذلكَ سَمَّى الإلهامَ وَحياً لِسُرعَةِ وقوعِهِ. قالَ تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وقيلَ: هو الإلهامُ؛ أي أَلْهَمَ النَّحلَ ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨] وقال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١] أخبَرَ [أنْ ليسَ][2] لهُ ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ وهو ما أَلْهَمَهُ سَمَّى وَحياً لِسُرعَةِ وُقوعِهِ في القَلْبِ وقَذْفِهِ على غَيرِ عِلْمٍ منهُمْ أنهُ مِن أينَ كانَ؟ ومِمَّ كانَ؟

وفيه دِلالةُ أنَّ غَيرَهُ هو الذي أخطَرَ ذلكَ في القلوبِ، وقَذَفَ فيها، لا أنهُ يُحدِثُ بِنَفْسِهِ على غَيرِ إخطارِ أحدٍ ولا قذفِهِ. فإنْ كانَ ما قُذِفَ فيهِ خيراً فهو مِنَ المَلَكِ، وإنْ كانَ شرًّا فهو مِنْ قَذْفِ الشيطانِ وَوَسْوَسَتِهِ، ففيهِ دليلُ المَلَكِ والشيطانِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ قِيلَ: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ في النَّصْرِ والمَعُونَةِ ودَفْعِ العَدُوِّ عنكُمْ. أو يقولُ: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ في التوفيقِ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي أخبِرُوا[3] المؤمنينَ ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ لِما ذَكَرْنا مِنَ النَّصْرِ والمَعُونَةِ والدَّفْعِ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أمَرَ ملائكتَهُ أن يُثَبِّتُوا الذينَ آمَنوا بالنَّصْرِ والأمْنِ بَعْدَ ما كانُوا خائفِينَ [فُشلاً جُبناءَ][4]؛ لمَّا أجابُوا ربَّهُمْ مَعَ ضَعْفِ أبدانِهِمْ وقِلَّةِ عَدَدِهِمْ أبدَلَهُمُ[5] اللهُ مَكانَ الخَوفِ لهمْ أمناً ومَكانَ الضَّعْفِ القُوَّةَ والنَّصْرَ ومَكانَ الذُّلِّ العِزَّ، وأبدَلَ المُشرِكِينَ مَكانَ الأمْنِ لهمْ خوفاً ومكانَ العِزِّ الذُّلَّ ومَكانَ الكَثْرَةِ الضَّعْفَ والفَشَلَ. فذلكَ، واللهُ أعلَمُ، [مَعنى قولِهِ][6]: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ وقولِهِ ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. وجائزٌ أنْ يكونَ نَفْسُ نُزولِ الملائكةِ تَثْبيتَهُمْ؛ لأنهُمْ سَبَبُ تَثْبيتِهِمْ، أو يُثَبِّتُهُمْ مِنْ غيرِ أنْ عَلِمَ المؤمنونَ بهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قالَ قائلونَ: قولُهُ: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ إذا ظَفِرُوا بهِمْ، وَوَقَعُوا في أيديهِمْ، فَعِنْدَ ذلكَ يُضرَبُ فَوقَ الأعناقِ، وهو الفَصْلُ الذي يُبِينُ الرأسَ بالضَّرْبِ لِما نَهَى عنِ المُثْلَةِ. وفي الضَّرْبِ في غَيرِ ذلكَ مُثْلَةٌ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أيِ اضرِبُوا الأعناقَ وما فَوقَ الأعناقِ ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [مَعناهُ، واللهُ أعلَمُ، أي اضرِبوا على ما تَهَيَّأَ لكُم مِنَ الأطرافِ وغَيرِها. وأمَّا قولُهُ ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾][7] في الحربِ لأنهُ لا سَبِيلَ في الحَرْبِ إلّا[8] أنْ يُضرَبَ ضَرْبٌ[9] لا يَكُونُ مُثْلَةً. فكأنهُ قالَ: فاضرِبُوا فوقَ الأعناقِ، إذا قَدَرْتُمْ عليهِمْ، وَوَقَعُوا في أيديكُمْ ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ كيفَ ما تَقدِرُونَ وحَيْثُ ما تَقدِرُونَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: يوسوهم. (٢) في الأصل وم: الناس. (٣) في الأصل وم: أخبر. (٤) في الأصل وم: فشلين جبنين. (٥) في الأصل وم: فأبدلهم. (٦) في الأصل: قوله، ساقطة من م. (٧) من م، ساقطة في الأصل. (٨) في الأصل وم: إلى. (٩) في الأصل وم: ضرباً.

جنة السنة

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يَعني، واللهُ أعلَمُ، ذلكَ الضَّربَ والقَتلَ ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي حارَبُوا اللهَ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ والمُشاقَّةُ الخلافُ؛ خالَفُوا اللهَ ورسولَهُ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ في الآخِرَةِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ذلكُمُ العقابُ والعذابُ ﴿فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ بالخلافِ لِلّهِ ورسولِهِ والمُحارَبَةِ معهُمْ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ كانَ أوَّلَ الأمرِ بالقِتالِ؛ وفرضُهُ كانَ بَذْلَ الأنفسِ لِلهلاكِ؛ لأنهُ ذَكَرَ الزَّحفَ، والزَّحفُ هو الجماعةُ [يزحَفُونَ إلى][1] العَدُوِّ الذي لا يَجِدُ. ولَيسَ لِلواحِدِ القيامُ للجماعةِ، فكانَ فَرْضُ القِتالِ بَذلَ[2] الأنفسِ لِلقَتلِ.

وعلى ذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥] ولَيسَ في وُسْعِ الواحدِ القِيامُ لِعَشَرَةٍ، إذا أُحيطَ بِهِ.

ويجوزُ أنْ يُفرَضَ بَذلُ الأنفسِ لِلقتالِ كقولِهِ ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] أخبَرَ أنهُ لو أمَرَ بذلكَ امْتِحاناً منهُ لَهُمْ، فإنِ احتَمَلَ ما ذَكَرْنا، كانَ قولُهُ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنفال: ٦] هو على التَّحقيقِ إذْ إلى ذلكَ يُساقُونَ.

ويَحتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنَّ اللهَ ﷻ أمَرَ بذلكَ لِيكونَ آيةً، ويَعرِفَ كُلُّ أحدٍ أنهُ قامَ باللهِ لا بِقُوَّةِ نَفسِهِ؛ إذْ لَيسَ في وُسْعِ أحَدٍ القِيامُ لِعَشَرَةٍ أو لِجماعةٍ بقوَّتِهِ إذا أُحيطَ بِهِ، فهو على الآيةِ، إنْ كانَ فيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ والمُتَحَرِّفُ لِلقِتالِ هو المُنتَقِلُ مِنْ مكانٍ إلى مَكانٍ لِلحَربِ، والمُتَحَيِّزُ إلى فِئةٍ هو المُلتَجِئُ إلى فِئةٍ على جِهَةِ العَودِ إليهِمْ والحَربِ؛ يُقالُ: تَحَوَّزْتُ، وتَحَيَّزْتُ بالواوِ والياءِ جميعاً، وهو نَحْوُ الحربِ. وفيهِ النَّهيُ عنِ الانهِزامِ والتَّوَلّي عنِ العَدُوِّ إلّا ما ذَكَرَ مِنَ التَّحَرُّفِ لِلقتالِ، والتَّحَيُّزِ إلى الفِئَةِ، على جِهَةِ العَودِ إليهِمْ.

ثم أخبَرَ أنَّ مَنْ وَلّى دُبُرَهُ بِسِوى ما ذَكَرَ ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ قالَتِ المُعتَزِلَةُ: دَلَّ ما أوعَدَ المُتَحَرِّفَ بِغَيرِ قِتالٍ والمُتَحَيِّزَ إلى غَيرِ الفِئَةِ بقولِهِ: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ مَنِ ارتَكَبَ الكَبيرَةَ يَخلُدُ في النارِ لأنه ذَكَرَ في أوَّلِ الآيةِ المؤمنينَ،/ ١٩٧ ـ أ/ ولَهُمْ خَرَجَ الخطابُ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ ثم أوْعَدَ لَهُمُ الوَعِيدَ الشديدَ ما يُوعِدُ أهلَ النارِ غَيرَ أهلِ الإيمانِ. دلَّ أنهُ يَخرُجُ عنِ الإيمانِ بارْتِكابِ الكبيرةِ، ويَخلُدُ في النارِ. وقالُوا: لا يجوزُ صَرْفُ الآيةِ إلى أهلِ النِّفاقِ لِما ذُكِرَ في القصةِ أنهُ لم يكُنْ يومَ بَدرٍ مُنافِقٌ.

لكنَّ هذا غَلَطٌ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩] وإنما قالُوا ذلكَ يومَ بَدرٍ كذلكَ ذَكَرَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ فإنْ كانَ المُستَثنى مِنْ قولِهِ ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لم يَكُنْ فيهِ رُخصَةُ التَّوَلّي، ولكنَّ فيهِ دَفْعَ الوَعيدِ الذي ذَكَرَ. وإنْ كانَ المُستَثنى مِنْ قولِهِ ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ ففيهِ رُخصَةُ التَّوَلّي إلى ما ذَكَرَ.

ثم الدلالةُ على أنهُ مُستَثنى مِنْ هذا دُونَ الأوَّلِ ما جاءَ مِنْ غَيرِ واحِدٍ مِنَ الصحابةِ تَولِيَةُ الدُّبُرِ إلى ما ذَكَرَ. وكذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «أنا فِئَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ». [أحمد ٢: ٩٩].

وبَعْدُ فإنهُ لم يكُنْ لأهلِ الإسلامِ فئةٌ يومَ بَدرٍ، يَتَحَيَّزُونَ إليها، فَدَلَّ أنها في المنافِقِينَ وأهلِ الكُفرِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم يُقالُ: يَجُوزُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الوَعيدِ لِمَعنًى في التَّولِيَةِ عنِ الدينِ والإعراضِ لا لِنَفْسِ التَّولِيَةِ عنِ الدِّينِ؛ إذْ قد

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: البذل.

جنة السنة

ذَكَرَ التوليةَ عنِ الدينِ في آيةٍ أُخرى والعفوَ عنْ ذلك، وهو قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ الآية [آل عمران: ١٥٥].

فإنْ قِيلَ: لَعَلَّ التوبةَ مُضمَرةٌ فيهِ؛ تابُوا، فَعَفا عنهُمْ، قِيلَ: إنْ جازَ أنْ يَجْعَلَ التَّوْبَةَ مُضْمَرَةً فيها جازَ أن يُضْمِرَ في التَّوليَةِ عنِ الدِّينِ الرِّدَّةَ. فَلَيسَتْ تلكَ أولى بإضمارِ التَّوبَةِ مِنْ هذِهِ بإضمارِ الرِّدَّةِ.

وفي الآيةِ مَعانٍ، تدلُّ على الإضمارِ إضمارِ ما يُوجِبُ الوعيدَ الذي ذُكِرَ، واللهُ أعلَمُ:

أحَدُها: ذِكْرُ التَّحيُّزِ إلى الفِئَةِ، وإنْ لم يكُنْ لِلْمُسْلِمِ فِئَةٌ يَتَحيَّزُ إليها. فإذا تَحيَّزَ إنما يَتَحيَّزُ لِيَصِيرَ إلى العَدُوِّ، فهو الرِّدَّةُ التي ذَكَرْنا.

والثاني: ما ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنهُ لمَّا اصْطَفَّ القومُ رَفَعَ رسولُ اللهِ ﷺ يَدَيْهِ، فقالَ: «يا ربِّ إنْ تُهْلِكْ هذِهِ العِصابَةَ فَلَنْ تُعْبَدَ في الأرضِ أبداً» [مسلم ١٧٦٣] ومَنْ هَرَبَ أو وَلَّى الدُّبُرَ عَنْ مِثْلِ تلكَ الحالِ لم يُوَلِّ إلَّا لِقَصْدِ ألا يُعْبَدَ اللهُ فَقَدْ كَفَرَ.

والثالث: قد وَعَدَ لَهُمُ النَّصرَ والظَّفَرَ على العَدُوِّ، فَمَنْ وَلَّى الدُّبُرَ[1] لم يُوَلِّ إلَّا لِتَكْذِيبِ بالوَعْدِ الذي وَعَدَ لَهُمْ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ قِيلَ فيهِ بوجوهٍ: يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي لم تكنْ جِراحاتُكُمُ التي أصابَتْهُمْ بِمُصِيبَةِ المَقْتَلِ، ولا عامِلَةً في اسْتِخراجِ الروحِ، ولا كانتْ قاتلةً، ولكنَّ اللهَ تعالى صَيَّرَها قاتلةً مُصِيبةَ المَقْتَلِ عامِلةً في اسْتِخراجِ الروحِ؛ لأنَّ مِنَ الجِراحاتِ ما إذا أصابَتْ لم تُصِبِ المَقْتَلَ ولا تَعْمَلُ في اسْتِخراجِ الروحِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الآية يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ العَبْدَ لا صُنْعَ لهُ في القَتْلِ واسْتِخراجِ الروحِ منهُ، إنما ذلك فِعْلُ اللهِ، وإليهِ ذلكَ، وهو المالكُ لِذلكَ؛ لأنَّ الضَّرْبَةَ والجُرْحَ قد يكونُ، ولا مَوْتَ هنالكَ. وكذلكَ الرَّمْيُ؛ لَيسَ كُلُّ مَنْ أرسَلَ شَيْئاً مِنْ يَدِهِ، وقد[2] رَمَى، إنما يَصِيرُ رَمْياً باللهِ، إنْ شاءَ، السَّهْمَ حتى يَصِلَ بِطَبْعِهِ المَبْلَغَ الذي يَبْلُغُ. فكأنهُ لا صُنْعَ لهُ في الرَّمْيِ. ألا تَرى أنهُ لا يَمْلِكُ رَدَّ السَّهْمِ إذا أرسَلَهُ، ولو كانَ فِعْلَهُ مَلَكَ رَدَّهُ؟ ولهذا قالَ أبو حَنيفَةَ، رحِمَهُ اللهُ، إنَّ الاسْتِئجارَ على القَتْلِ باطلٌ.

والثاني: قَتَلُوا بمعونَةِ اللهِ ونَصْرِهِ كما يقولُ الرجلُ لآخَرَ: إنك لم تَقْتُلْهُ، وإنما قَتَلَهُ فُلانٌ؛ أي بِمَعُونَةِ فُلانٍ قَتَلْتَهُ. فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي أصابَ رَمْيُكَ المَقْصَدَ الذي قَصَدْتَ، ولكنَّ اللهَ بالِغٌ ذلكَ المَقْصَدَ الذي قَصَدْتَ.

والثالث[3]: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي لم تطمَعُوا بِخُروجِكُمْ إليهِمْ قَتْلَهُمْ؛ لأنهُمْ كانُوا بالمَحَلِّ الذي وَصَفَهُمْ مِنَ الضَّعْفِ وشِدَّةِ الخَوفِ والذِّلَّةِ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنفال: ٦]. فإذا كانُوا بالمَحَلِّ الذي ذُكِرَ، فيقولُ، واللهُ أعْلَمُ: لم تَطْمَعُوا بِخُروجِكُمْ إليهِمْ وقَصْدِكُمْ إياهُمْ قَتْلَهُمْ لِما كانَ فيكُمْ مِنَ الضَّعْفِ وقُوَّةِ أولئكَ، ولكنَّ اللهَ أذَلَّهُمْ، وألقَى في قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ والخَوفَ حتى قَتَلوهُمْ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ لا يَطْمَعُ الإنسانُ بِرَمْيِ كَفٍّ مِنْ ترابِ النَّكْبَةِ بأعدائِهِ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ حيثُ بَلَغَ ذلكَ، وغَطَّى أبصارَهُمْ وأعيُنَهُمْ بذلكَ الكَفِّ مِنَ الترابِ على ما ذُكِرَ في القِصَّةِ أنهُ رَمَى كَفّاً مِنْ تُرابٍ، فَغَشَّى أبصارَ المُشركينَ، فانهزَمُوا لذلكَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ نِسْبَةُ هذهِ الأفعالِ إلى نفسِهِ وإضافَتُها إليهِ كما نَسَبَ، وأضافَ كُلَّ خيرٍ ومَعْرُوفٍ إلى نفسِهِ. مِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ الآية [الحجرات: ١٧] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾

(١) في الأصل وم: عن الدبر. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: والثاني.

[البقرة: ٢٧٢] وقولُه[1] تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وغيرُ ذلك مِنَ الآياتِ التي فيها إضافةُ الأفعالِ التي خَلَصَتْ إلى اللهِ، وَصَفَتْ. فَعَلَى ذلكَ نَسَبَ فِعْلَهِمْ إلى نفسِهِ لِخُلُوصِهِ وصَفائِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي نِعْمَةً عظيمةً حينَ[2] نَصَرَهُمْ على عَدُوِّهِمْ مع ضَعْفِ أبدانِهِمْ وعُدَّتِهِمْ، وهو ما ذَكَرَ في هَلاكِ فِرْعَوْنَ وقومِهِ أنهُ بلاءٌ مِنْ ربِّكُمْ عظيمٌ بقولِهِ تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩] فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِدُعائِكُمُ الذي دَعَوْتُمْ وتَضَرُّعِكُمُ الذي تَضَرَّعْتُمْ إليهِ، أو أنْ يقولَ: ﴿سَمِيعٌ﴾، أي مجيبٌ لِدُعائِكُمْ ﴿عَلِيمٌ﴾ بأقوالِكُمْ وأفعالِكُمْ ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩ والتغابن: ٤] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ذلكَ كانَ بِهِمْ مِنَ القَتْلِ والأَسْرِ والهزيمةِ لَمَّا أوهَنَ، وأضعَفَ كَيْدَهُمْ، اللهُ تعالى.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ صلةَ قولِهِ: ﴿وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي ذلكَ الإنعامُ والإبلاءُ الذي[3] مِنَ اللهِ إليكُمْ لَمَّا أوهَنَ كيدَهُمْ. وذلكَ يكونُ في جملةِ المؤمنينَ؛ ما مِنْ مؤمنٍ إلَّا ولَهُ مِنَ اللهِ إليهِ إبلاءٌ وإنعامٌ في كلِّ حالٍ، لا يُوهِنُهُ[4] كيدُ الكافِرينَ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ الاسْتِفتاحُ يَحتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً: يَحْتَمِلُ الاسْتِكْشافَ وطَلَبَ البيانِ، ويكونُ طَلَبَ الحُكْمِ والقَضاءِ بَيْنَ الحقِّ والباطِلِ؛ يُقالُ: فَتَحَ بكذا أي حَكَمَ بِهِ، وقَضَى. فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ: على طَلَبِ بيانِ المُحِقِّ مِنَ المُبْطِلِ وطَلَبِ بيانِ أحقِّ الدِّينَينِ بالنَّصْرِ والحُكْمِ. فقد بَيَّنَ اللهُ لَهُمْ أحقَّ الدِّينَينِ ما ذُكِرَ في القصةِ أنَّ أبا جهلٍ قالَ: اللهمَّ افْضِ بَيْنَنا وبَيْنَ محمدٍ، وقالَ: اللهمَّ أيُّنا كانَ أوصَلَ لِلرَّحِمِ وأرضى عنكَ فانْصُرْهُ. فَفَعَلَ اللهُ ذلكَ، ونَصَرَ المؤمنينَ، وهَزَمَ المُشْرِكينَ، فَنَزَلَتْ هذهِ الآيةُ.

وقيلَ: إنهُ دعا: اللهمَّ انْصُرْ أعزَّ الجُنْدَيْنِ وأكْرَمَ الفِئَتَيْنِ وخيرَ القَبيلَتَيْنِ فكانَ ما ذَكَرْنا. فقد بَيَّنَ اللهُ ﷻ أحَقَّ الدينَيْنِ وأعزَّ الجُنْدَيْنِ لَمَّا هَزَمَ المُشْرِكينَ مع قُوَّتِهِمْ وعُدَّتِهِمْ وكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ بِفِئَةٍ ضَعيفةٍ ذليلةٍ قليلةِ العَدَدِ وضَعيفةِ الأبدانِ والأسبابِ.

دلَّ أنهُ قد بَيَّنَ لَهُمُ الأحقَّ مِنْ غيرِهِ.

وقيلَ: إنهُمُ استَفْتَحُوا بالعذابِ، وكانَ استِفْتاحُهُمْ ما ﴿قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فجاءَهُمُ العذابُ يومَ البَدْرِ، وأخبَرَهُمْ يومَ أُحُدٍ ﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا﴾ الآية. والاسْتِفتاحُ هو ما ذَكَرْنا.

قالَ الحَسَنُ: الفَتْحُ القضاءُ. وكذلكَ قالَ قتادةُ؛ قالا[5]: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ القضاءُ في يوم بَدْرٍ كقولِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ الآية [الأعراف: ٨٩] وقالَ/ ١٩٧ ـ ب/ القُتَبِيُّ: قولُهُ تعالى ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ فاسْأَلوا الفَتْحَ، وهو النَّصْرُ ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ وهو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عمَّا كُنْتُمْ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يُغْفَرْ لَكُمْ كقولِهِ ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وقيلَ: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عن قِتالِ محمدٍ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِنْ أنْ يَنْتَهِيَ محمدٌ عنْ قِتالِكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾ يَحتَمِلُ ﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ إلى قِتالِ محمدٍ نَعُدْ إليكُمْ مِنَ القَتْلِ والقِتالِ والأسْرِ والقَهْرِ. ويَحتَمِلُ ﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾ إلى البَيانِ والكَشْفِ إلى ما كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ البَيانِ مِنَ التَّكذيبِ والكُفْرِ لمحمدٍ، نَعُدْ إلى الانتِقامِ والتَّعْذيبِ كقولِهِ ﴿وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

---

(١) في الأصل وم، وهو قوله. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: الذين. (٤) في الأصل وم: يهانه. (٥) في الأصل وم: قالوا.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنَّصرِ والمَعُونَةِ. فإنْ قِيلَ: ذَكَرَ أنهُ لَنْ تُغْنِيَ عنكُمْ فِئَتُكُمْ وكَثْرَتُكُمْ، وقد أغناهُمْ كثرَتُهُمْ وفِئَتُهُمْ يومَ أُحُدٍ حينَ[1] ذَكَرَ أنَّ الهَزيمةَ كانَتْ على المؤمنينَ، قِيلَ: هذا لِوَجْهَيْنِ.

أحدُهما: أنَّ عاقبةَ الأمرِ كانَتْ للمؤمنينَ، وإنْ كانَتْ[2] في الابْتِداءِ عليهِمْ فَلَنْ يُغْنِيَ عنهُمْ ذلكَ على ما ذَكَرَ، لأنهُ لو أغناهُمْ ذلكَ لَكانَ لَهُمُ الابْتِداءُ والعاقبةُ.

والثاني: أنهُ لم تكُنِ النكبةُ والهزيمةُ على المؤمنينَ إلَّا لِعِصْيانٍ منهُمْ كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٢] فما أصابَ المؤمنينَ مِنَ النَّكَباتِ إنما كانَ بِسَبَبٍ كانَ منهُمْ لا بالعَدُوِّ. لِذلكَ كانَ الجوابُ ما ذَكَرَ[3]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أمرِهِ ونَهْيِهِ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في بيانِهِ وفي ما دَعا إليهِ. وقِيلَ: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في فرائِضِهِ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في سُنَّتِهِ وآدابِهِ ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ آياتِهِ وحُجَجَهُ.

الآية ٢١ [وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾][4] أي لا تكُونُوا في الإيمانِ والتوحيدِ والآياتِ ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ بذلكَ ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يُجِيبُونَ، ولا يَسْمَعُونَ، ولا يُؤمِنُونَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ الآياتِ والحُجَجَ ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يَنْتَفِعُونَ بِسماعِهِمْ، أو لا يَعْقِلُونَ كالدَّوابِّ وغيرِها.

وقال أبو بكرٍ الأصَمُّ: قولُهُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ اسْتِثْقالاً وبُغْضاً أي لا يَسْتَمِعُونَ إليهِ، لأنَّ مَنِ اسْتَثْقَلَ شيئاً، وأبْغَضَ لم يَسْتَمِعْ إليهِ كقولِهِ: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، إنَّ الذي هو مِنْ شَرِّ الدوابِّ عندَ اللهِ هو [الأصَمُّ الأبْكَمُ][5] لا يَنْتَفِعُ بِسَمْعِهِ وبِلِسانِهِ[6] ونُطْقِهِ، وهمْ[7] لم يَنْتَفِعُوا بِسَمْعِهِمْ لِما جُعِلَ لهُ السمعُ ولم يَنْتَفِعُوا بِنُطْقِهِمْ لِما جُعِلَ لهُ النُّطْقُ، ولم يَنْتَفِعُوا بِعَقْلِهِمْ لِما جُعِلَ لهُ العَقْلُ؛ فهُمْ شَرُّ الدَّوابِّ كقولِهِ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وأشَرُّ، لأنَّ الدَّوابَّ والأنعامَ انْتَفَعَتْ بهذِهِ الحَواسِّ لَمَّا جُعِلَتْ لها هذهِ الحَواسُّ عَرَفَتْ بهذِهِ الحواسِّ المَهالِكَ والمَضارَّ، فَتَوَقَّتْها[8]، وعَرَفَتِ اللَّاذَّ والنافِعَ بها، فَرَغِبَتْ[9] فيها، فانْتَفَعَتِ[10] الدَّوابُّ بالحَواسِّ التي جُعِلَتْ[11] لها لِما جُعِلَتْ، ولم تُجْعَلْ لها هذهِ الحواسُّ إلَّا لِلْمِقْدارِ الذي عَرَفَتْ، وفَهِمَتْ، وانْتَفَعَتْ.

وهؤلاءِ الكفَرَةُ لم يَنْتَفِعُوا بالحواسِّ التي جُعِلَتْ لَهُمْ لِما جُعِلَتْ [وإنما جُعِلَتْ لهم][12] لِيَعْرِفُوا المَنافِعَ لَهُمُ اللَّاذَّ في العاقبةِ، فَيَعْمَلُوا لِذلكَ، ويَعْرِفُوا الضَّارَّ لَهُمْ في العاقبةِ والمُهْلِكَ، فَيَتَوَقَّوْهُ، فلم يَنْتَفِعُوا بِحَواسِّهِمْ لِما جعِلَتِ الحواسُّ، والدَّوابُّ انْتَفَعَتْ بها. لِذلكَ كانُوا أضَلَّ وأشَرَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ الذينَ اكْتَسَبُوا الصَّمَمَ الدائِمَ والعَمَى الدائِمَ، وذلكَ في الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] وقولِهِ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] أي تَرَكُوا اكْتِسابَ البَصَرِ الدائِمِ والسَّمْعِ الدائمِ والحَياةِ الدائمةِ.

والباقي سَمَّاهُمْ صُمًّا وبُكْماً وعُمْياً لم يَكْتَسِبُوا بَصَرَ القَلْبِ ونُطْقَ القَلْبِ [وسَمْعَ القَلْبِ][13] فهذِهِ هي الحواسُّ التي تكونُ في الاكْتِسابِ، ولم يَكْتَسِبُوها، إنما لَهُمُ الحَواسُّ الظاهِرَةُ، أو يَقُولُ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ التي لم تَنْتَفِعْ[14] بالذي ذَكَرَ مِنَ الحواسِّ، وتَرَكَتِ[15] اسْتِعْمالَها، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: كان. (٣) في الأصل وم: ذكروا. (٤) ساقطة من م. (٥) في الأصل وم: الصم البكم. (٦) في الأصل: بلسانه، في م: والبكم الذي لا ينتفع بلسانه. (٧) في الأصل وم: لأنهم. (٨) في الأصل وم: فتوقت عنها. (٩) في الأصل وم: فترغب. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: ونفع. (١١) في الأصل وم: جعل. (١٢) في الأصل: وإنما جعلت لهم ذلك، في م: لهم ذلك. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: ينتفعوا. (١٥) في الأصل وم: وتركوا.

جنة السنة

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ قِيلَ: نَزَلَتِ الآيةُ في المَرَدَةِ مِنَ الكَفَرَةِ. وقالَ ابنُ عباسٍ: هُمْ نَفَرٌ مِنْ بَني [عَبْدِ][1] الدارِ، كانُوا يسألونَ رسولَ اللهِ آيةً بَعْدَ آيةٍ، وقد أعطاهُمُ [اللهُ][2] آيةً بَعْدَ آيةٍ قَبْلَ ذلكَ، فَلَمْ[3] يَقْبَلُوها، فقالَ تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أنهُمْ يَقْبَلُونَ جوابَ المسائِلِ التي سَألُوا لَأَوحَى إليهِمْ ولأسْمَعَهُمْ، ولكنْ عَلِمَ أنه وإنْ أسْمَعَهُمْ جوابَ مسائِلِهِمْ لا يَقْبَلُونَ.

وقالَتِ المُعْتَزِلَةُ: دَلَّتِ الآيةُ أنهُ قد كانَ أعطاهُمْ جميعَ ما كانَ عندَهُ، لكنَّهُمْ لم يَقْبَلُوا لأنهُ قالَ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ فَدَلَّ أنهُ لم يَكُنْ عندَهُ ما يُعْطِي، وإلّا لو كانَ ذلك عندَهُ ما يَقْبَلُونَ لأسْمَعَهُمْ.

لكنْ هذا بَعيدٌ لأنهُ لم يَقُلْ: لو عَلِمَ اللهُ خَيْراً لأسْمَعَهُمْ، ولكنْ قالَ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ فإنما نَفَى أنهُ[4] لَيسَ عندَ اللهِ خَيْرٌ. والوَجْهُ فيهِ ما ذَكَرْنا أنهُ لو عَلِمَ فيهِمْ خَيْراً يَعْلَمونَ بهِ لأَوحَى إليهِمْ، وأسْمَعَهُمْ، لكنهُ عَلِمَ أنهُمْ لا يَقْبَلُونَ بقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي مُكَذِّبُونَ جوابَ ما سَألُوا تَعَنُّتاً وتَمَرُّداً منهُمْ، وأخبَرَ أنهُمْ يَسْألونَ سؤالَ تَعَنُّتٍ وتَمَرُّدٍ لا سُؤالَ اسْتِرْشادٍ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هذهِ الآيةُ صلةُ قولِهِ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥] يقولُ، واللهُ أعلَمُ ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ إلى ما يدعوكُمْ، وإنْ كانَتْ أنفُسُكُمْ تَكرَهُ الخُروجَ لِذلكَ لِقِلَّةِ عَدَدِكُمْ وضَعْفِ أبدانِكُمْ وكَثْرَةِ عَدَدِ العَدُوِّ وقوتِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ بالذِّكْرِ والشَّرَفِ والثناءِ الحسنِ في الدنيا والحياةِ في الآخرةِ اللذيذةِ الدائمةِ؛ أي[5] إنْ مُتُّمْ، وهَلَكْتُمْ في ما يَدْعُوكُمْ إليه، يكُنْ[6] لكُمْ في الآخِرَةِ حياةُ الأبَدِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في جملةِ المؤمنينَ؛ أي ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ﴾ في أُمورِهِ ونواهيهِ ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ في ما يَدعوكُمْ إليهِ؛ وإنما كانَ يَدْعُو إلى دارِ الآخرةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] ودارُ الآخِرَةِ هي دارُ الحياةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] كأنهُ قالَ، واللهُ أعْلَمُ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ فإنهُ إنما دعاكُمْ إلى ما تَحْيَونَ فيها لَيسَ كالكافِرِ الذي ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤ والأعلى: ١٣] بِتَرْكِهِ الإجابَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أمكَنَ أنْ يُخرَّجَ هذا على الأوَّلِ؛ أي اعْلَمُوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ يَجْعَلُ القَوِيَّ ضَعيفاً والعَزيزَ ذَليلاً والضعيفَ قَوِيًّا والذليلَ عزيزاً والشُّجاعَ جَباناً والخائفَ أميناً والأمِنَ خائفاً. فأجِيبُوا الرسولَ بالخروجِ لِلْجِهادِ. وإنْ كُنْتُمْ تَخافُونَ لِضَعْفِكُمْ وقُوَّتِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ في جُمْلَةِ المؤمنينَ: أنَّ مَنِ اسْتَجابَ لِلَّهِ ولِلرَّسُولِ إذا دَعاهُ يَجْعَلُ قَلْبَهُ هو الغالبَ على نفسِهِ والحائلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ ما تَدْعُو إليهِ [النفسُ، وإذا تَرَكَ الإجابةَ يَجعَلُ نفسَهُ هي الحائلةَ بينَهُ وبينَ ما يدعو إليه][7]، والداعِيَةَ إلى ذلكَ ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. وقيلَ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بالطاعةِ في أمْرِ القِتالِ ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ إلى الحرب ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني بالحَرْبِ التي أعَزَّكُمُ اللهُ. يقولُ: أحياكُمُ اللهُ بَعْدَ الذُّلِّ، وقَوَّاكُمْ بَعْدَ الضَّعْفِ. وكانَ ذلكَ حياةً.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ: يَحُولُ بَيْنَ قَلْبِ المؤمنِ [وبَيْنَ الكُفْرِ][9] ويَحُولُ بَيْنَ الكافِرِ وبَيْنَ الإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ.

أحدُهُما: يَسْتَعْجِلُ التوبَةَ قَبْلَ أنْ يَنْزِلَ بِهِ الموتُ، [كأنهُ][10] يقولُ: أجِيبُوا اللهَ والرَّسُولَ قَبْلَ أنْ يُحالَ بَيْنَ المَرْءِ وبَيْنَ التوبَةِ بالموتِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: لهم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: يكون. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

والثاني: ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ بالأعمال التي يَكْتَسِبُها، يُنشِئُ بالفعلِ[١] الذي يَفْعَلُهُ طَبْعَ قَلْبِهِ وخَتْمَهُ، ويُنشِئُ ظُلْمَةً تَحولُ بَيْنَهُ وبينَ ما يَقْصِدُهُ، ويُدْعَى إليه، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ قال بَعْضُهُمْ: ﴿لَا﴾ ههنا صِلةٌ زائدةٌ؛ كأنهُ قال:/ ١٩٨ - أ/ ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً﴾ تُصيبُ[٢] ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ أي اتَّقُوا فِتْنَةَ الذين تُصيبُ الظَّلَمَةَ مِنكُم بِظُلْمِهِمْ، وهو العذابُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] فعلى ذلكَ قولُهُ ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً﴾ تُصيبُ[٣] ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ في الآخِرَةِ، وهو العذابُ. وذلكَ جائزٌ في الكلامِ، نَحْوُ ما قرأ بَعْضُهُمْ قولَهُ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩] بكسرِ الألِفِ وطَرْحِ﴿لَا﴾ [إنها إذا جاءتْ يؤمنون][٤] أي إنَّها وإنْ جاءتْ لا يؤمنونَ.

وأمَّا على إثباتِ ﴿لَا﴾ فإنهُ يَحْتَمِلُ وجوهاً.

قيلَ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي اتَّقُوا أنْ تكونوا فِتْنَةً للذينَ ظَلَموا كقولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الممتحنة: ٥] [وقولِهِ تعالى][٥]. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥].

وَوَجْهُ جَعْلِهِ إيَّاهُمْ فتنةً للذين كَفَرُوا هو أنْ يَجْعَلَ العَدُوَّ غالباً عليهِمْ ناصِرِينَ، وهُمُ المَغْلُوبُونَ، فَيَظُنُّونَ أنهُمْ على حقٍّ، والمؤمِنونَ على باطِلٍ، فذلكَ مَعْنَى دُعائِهِمْ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لئلا يقولوُا: لو كانُوا على حَقٍّ ما غُلِبُوا، ولا قُهِرُوا، ولا انْتَصَرُوا منهُمْ.

وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ﴾ نَهَى الأتباعَ منهُمْ ألاّ يَسْعَوا[٦] في ما بَيْنَ الظَّلَمَةِ بالفسادِ، ولا يُغْرِي بَعْضَهُمْ على بعضٍ، فَيقَعُ في ما بَيْنَهُمُ الفسادُ، فيكونُ هؤلاءِ الأتباعُ فِتْنَةً للذينَ ظَلَموا بإغراءِ بَعْضِهِم على بَعْضٍ. وذلكَ معروفٌ في ما بينَ الخَلْقِ في الظَّلَمَةِ، يُغْرِي الأتباعُ بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ، فذلكَ فتنةٌ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ؛ هو أنَّ اللهَ تعالى يُغَيِّرُ الأحوالَ في الخَلْقِ مَرَّةً سَعَةً وخِصْباً ومَرَّةً قَحطاً وضِيقاً ومرَّةً غَلَبَةً لِلعَدُوِّ[٧] على الأولياءِ، ونَحْوَهُ.

ويَدفَعُ العذابَ عن الظَّلَمَةِ بِمَنْ لم يَظْلِمْ ما لم يُشارِكوا الظَّلَمَةَ. فإذا شارَكُوا أولئكَ يَحُلُّ بأولئكَ [العذابُ][٨] بِظُلْمِهِمْ وأهلِ الصلاحِ والعَدْلِ بتَرْكِهِمُ الظَّلَمَةَ وأهلَ الفسادِ[٩]، ولَهُمْ قُوَّةُ المَنْعِ لَهُمْ عنْ ذلكَ. فيقولُ: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ ولكنْ تُصِيبُهُمْ، وتُصِيبُكُمْ، فقالَ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ﴾ أخذَ الظَّلَمَةَ بالعذابِ لِمُشاركةِ أهلِ العدلِ أولئكَ، فيكونُونَ فِتْنَةً لَهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، أي[١٠] يَدْفَعُ عنِ الظَّلَمَةِ البلاءَ والعذابَ ما دامَ أهلُ العَدْلِ يأمُرونَهُم بالمَعْرُوفِ ويُغَيِّرونَهُمْ[١١] المُنْكَرَ، فإذا [تَرَكُوهُمْ، وهُمْ لا يُغَيِّرونَهُمْ][١٢] المُنْكَرَ، تَرَكَ بِهِمُ البلاءَ [فَيَعُمُّهُمُ البلاءُ][١٣] الظالِمَ وغيرَهُ.

والفِتْنَةُ على وجهَينِ؛ فِتْنَةُ الجَزاءِ جَزاءِ أعمالِهِمْ، وذلكَ يأخُذُ أهلَهُ خاصةً، وفِتْنَةُ المِحْنَةِ وذلكَ يَعُمُّ الخَلْقَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ الآية، إنَّ أهلَ الإسلامِ في ابْتِداءِ الأمْرِ كانُوا قَليلي العَدَدِ مُسْتَضْعَفينَ عندَ الكَفَرَةِ حتى كانُوا يَخافُونَ أنْ يَسْلُبَ الكَفَرَةُ أزواجَهُمْ، وكانُوا لا يأمَنُونَ على أنْفُسِهِمْ بالمُقامِ في البُلْدانِ لِقِلَّةِ عَدَدِهِمْ وضَعْفِهِمْ خَوفاً على أنْفُسِهِمْ وإشفاقاً، فَتَرَكُوا المُقامَ بالبُلْدانِ، وخَرَجُوا إلى الجِبالِ والغِيرانِ، فأقامُوا فيها، وأكَلُوا الحَشِيشَ والكَلأَ طعامَ الأنعامِ خَوفاً على أبْدانِهِمْ وإشفاقاً على دِينِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: الفعل. (٢) و (٣) في الأصل وم: تصيبين. (٤) من م، ساقطة من الأصل، انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٣٠٨ وحجة القراءات ص ٢٦٥. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يسمعون. (٧) في الأصل وم: العدو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج بعدها في الأصل: عن الظلم والفساد. (١٠) في الأصل وم: أو أن. (١١) في الأصل وم: ويغيرون عليهم. (١٢) في الأصل وم: تركوا ولا يغيرون عليهم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

ثم إنَّ اللهَ ﷻ، آواهُم، وأنزَلَهُمْ في البُلدانِ والأمصارِ، وأيَّدَهُمْ، ونَصَرَهُمْ على عَدُوِّهِمْ، ورزَقَهُمُ الطَّيِّباتِ طعامَ البَشَرِ بَعْدَ ما أكَلُوا الحَشِيشَ طعامَ البَهائِمِ[1] ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لِيُلْزِمَهُمُ الشُّكرَ على ذلكَ. ولا يجوزُ لَهُمْ ألّا يشكُروا بَعْدَ ما أصابُوا. ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ بِنا، لِنكونَ نَحْنُ مِنَ الإشفاقِ في الدِّينِ مِثْلَ أولئكَ حينَ هَرَبُوا منهُمْ، واتَّخَذُوا الجبالَ والغِيرانَ بُيوتاً والحَشِيشَ طعاماً، وتَرَكُوا أموالَهُمْ ونِعَمَهُمْ، ورَضُوا بذلكَ إشفاقاً على دينِهِمْ.

وقالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: نَزَلَتِ الآيةُ في أهلِ بَدْرٍ، وكانوا قَليلي[2] العَدَدِ والعُدَّةِ ضَعيفي[3] الأبدانِ، والعَدُوُّ كَثيرُ العَدَدِ وقويُّ الأبدانِ، فاشتَدَّ عليهِمُ الخُروجُ لِذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ الآية [الأنفال: ٥] فكيفَ ما كانَ ففيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ﴾ أي إذْ كُنتُمْ قليلاً. وفيهِ دلالةٌ لِقولِ أبي حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، في مَنْ قالَ: هذا الشَّيءُ لِفلانٍ، اشتَرَيْتُهُ منهُ، صَدَقَ، ويَصيرُ كأنهُ قالَ: هذا الشَّيءُ كانَ لِفلانٍ [اشتَرَيْتُهُ][4] منهُ؛ دليلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ﴾ أي إذْ كُنتُمْ قليلاً، وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ على هذا التأويلِ بالملائكةِ ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ المغانِمِ التي رَزَقَهُمْ، وأحَلَّ لَهُمْ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ جَعَلَ اللهُ ﷻ، هذهِ الأمّةَ وَسَطاً عَدْلاً بقولِهِ: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] فكأنهُ قالَ: يا أيها الذينَ آمَنُوا قد جَعَلَكُمُ اللهُ أُمّةً عَدْلاً وَسَطاً، فلا تَخونُوا اللهَ فيهِ كقولِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية [النساء: ١٣٥] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨] وقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] أخبَرَ أنهُ ألزَمَهُمُ الأمانةَ؛ أعني البَشَرَ دونَ ما ذَكَرَ مِنَ الخلائقِ.

ثم منهُمْ مَنْ ضَيَّعَ تلكَ الأمانةَ مِنْ نَحْوِ المنافقينَ والمُشركينَ، وخانُوا فيها، فَلَحِقَهُمُ الوَعيدُ بالتَّضييعِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ الآية [الأحزاب: ٧٣] فكأنهُ قالَ: يا أيُّها الذينَ آمَنُوا قد قَبِلْتُمْ أمانةَ اللهِ فلا تُضَيِّعُوها، ولا تَخُونُوا فيها كما قالَ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١] [وقالَ:][5] ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وغيرَها مِنَ الآياتِ التي فيها ذِكْرُ الأماناتِ. نَهاهُمْ أنْ يَخُونُوا فيها، فيَكُونُوا[6] كأنهُمْ خانُوا أماناتِهِمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ أنَّ أنفُسَكُمْ وأموالَكُمْ للهِ، وهي عندَكُمْ أمانةٌ، اسْتَحْفَظَكُمْ فيها، فلا تَسْتَعْمِلُوها في غيرِ ما أذِنَ لَكُمْ؛ لأنَّ مَنِ اسْتَحْفَظَ أحداً في شيءٍ، ووضَعَ عندَهُ أمانةً، فاستَعْمَلَها في غيرِ ما أذِنَ لهُ، صارَ خائناً فيها مُضَيِّعاً[7] فَعَلى ذلكَ أنفُسُكُمْ وأموالُكُمْ للهِ عندَكُمْ أمانةٌ، اسْتَحْفَظَكُمْ فيها، فإذا اسْتَعْمَلْتُمُوها[8] في غيرِ ما أذِنَ لَكُمْ فيها خُنْتُمُ اللهَ والرسولَ فيها، فتَخُونونَ[9] أماناتِكُمُ التي لكُمْ عندَ اللهِ إذا ضَيَّعْتُمُ الأمانةَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ التي في ما بَيْنَكُمْ.

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ ﷻ امْتَحَنَهُمْ في ما امْتَحَنَهُمْ لِمَنافعِ أنفُسِهِمْ ولِحاجَتِهِمْ، فَيَصِيرُونَ في ما خانُوا في ما امْتَحَنَهُمْ كأنهُمْ[10] خانُوا أنفُسَهُمْ، وخانُوا أماناتِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧] وقولِهِ تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] وقولِهِ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ الآية [فصلت: ٤٦].

ثم خيانةُ المُنافقينَ والمُشركينَ في الدينِ، وخيانةُ المؤمنينَ في أفعالِهِمْ، وَعَدَ لَهُمُ التوبةَ عن خِيانتِهِمْ، وَوَعَدَ أولئكَ على ما خانُوا بقولِهِ تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

---

(١) من م، في الأصل: البشر. (٢) في الأصل وم: قليل. (٣) في الأصل وم: ضعيف. (٤) من م، ساقطة في الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فيكونون. (٧) في الأصل وم: صامناً. (٨) في الأصل وم: استعملتم. (٩) في الأصل وم: فتخونوا. (١٠) في الأصل وم: كانوا.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ أنفُسَكُم وأموالَكُم لَيسَتْ لكُم، إنما هي للهِ عندَكُمْ أمانةٌ، فلا تَخُونُوا فيها.

وعنِ ابنِ عباسٍ: [أنهُ][1] قالَ: الأمانةُ الأعمالُ التي ائْتَمَنَ اللهُ عليها العِبادَ؛ يَعْني الفَرِيضَةَ. يقولُ: لا تَخُونُوا اللهَ، أي لا تنقضُوا.

ثم اختَلَفَ أهلُ التأويلِ في نُزولِ الآيةِ: قالَ بَعْضُهُمْ: نزلَتْ في أبي لُبابةَ [بْنِ عبدِ المُنْذِرِ][2]؛ وذلكَ ما قيلَ في بَعْضِ القصةِ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ حاصَرَ يَهُودَ قُرَيْظَةَ، فَسَأَلُوا الصُّلْحَ على أنْ يَسِيرُوا إلى إخوانِهِمْ إلى أذْرِعاتٍ، فأبى النَّبِيُّ إلّا أنْ يَنزِلُوا على الحُكْمِ، فأبَوا، وقالُوا[3]: فارسِلْ إلينا أبا لُبابةَ، وكانَ مُناصِحَهُمْ، فَبَعَثَهُ النَّبِيُّ إليهِمْ. فلمّا أتاهُمْ قالُوا: يا أبا لُبابةَ أنَنْزِلُ على حُكْمِ محمدٍ، فأشارَ أبو لُبابةَ بِيَدِهِ؛ أي لا تَنْزِلُوا على الحُكْمِ، فأطاعُوهُ. وكانَ أبو لُبابةَ، مالُهُ وَوَلَدُهُ مَعَهُمْ/ ١٩٨ ـ ب/ ، فَخانَ المُسْلِمِينَ.

[وقيلَ: نَزَلَتِ][4] الآيةُ في شأنِ حاطبِ بْنِ [أبي][5] بَلْتَعَةَ، فَعَلَ ما فَعَلَ أبو لُبابةَ. وقيلَ: نزلَتْ في شأنِ قومٍ، بينهمْ وبينَ رسولِ اللهِ عَهْدُ الذينَ كانوا يعبدونَ الأصنامَ. لكنّا لا ندري في شأنِ مَنْ نزلَتْ؟ ولَيْسَ لنا إلى معرفةِ ذلكَ حاجةٌ سِوى أنَّ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ النَّهْيِ في الخيانةِ في أمانةِ اللهِ تعالى والأمْرِ بِحِفْظِها، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي لم يُعْطِهِمُ الأولادَ والأموالَ لَعِباً وباطلاً، أي لِيكونَ[6] لَهُمُ الأموالُ والأولادُ، ولكنْ أعطاهُم مِحْنَةً وابْتِلاءً. وكذلكَ جميعُ [ما][7] أنشأَ في الدنيا مِنَ الأشياءِ إنما أنشأَهُ[8] لنا فِتْنَةً ومِحْنَةً كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥] وقولِهِ تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقولِهِ[9] تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٨] وغيرُها[10] مِنَ الآياتِ يَدُلُّ أنَّ جميعَ ما أنشأَ فِتْنَةٌ ومِحْنَةٌ، يَمْتَحِنُ بِهِ البَشَرَ بقولِهِ تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي مِحْنَةٌ وابْتِلاءٌ امْتَحَنّا بِهِ في أنواعِ التأديبِ والتعليمِ والحِفْظِ والحقوقِ التي جَعَلَها عليهِمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية [التحريم: ٦]. وأوجَبَ في الأموالِ حُقوقاً، امْتَحَنّا بأداءِ تلكَ الحقوقِ التي فيها. وكذلكَ في جميعِ ما أمَرَ اللهُ بِهِ الخلائقَ بِأُمُورٍ، ونهاهُمْ. إنما أمَرَ ونَهى لِمَنْفَعَةِ الخلائقِ ودَفْعِ الضَّرَرِ عنهُمْ لا لِمَنْفَعَةِ نَفْسِهِ[11]؛ إذْ لَهُ مُلْكُ ما في السمواتِ والأرضِ، وهو العزيزُ بذلكَ بِذاتِهِ، لاتَمَسُّهُ حاجةٌ، يَتَعالى عَنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لِمَنْ [لم][12] يَخُنِ اللهَ والرسولَ وَعَدَ لَهُمُ الأجْرَ العظيمَ إذا قامُوا بوفاءِ ما امْتَحَنَهُمُ اللهُ، وابْتلاهُمْ بِهِ مِنَ الأولادِ حينَ[13] قالَ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التَّأْويلِ: إنَّ هذهِ الآيةَ صِلَةُ ما سَبَقَ مِنَ الأمْرِ بالجهادِ بِبَدْرٍ والخُرُوجِ إليهِ؛ كأنهُ قالَ: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وأطَعْتُمُ اللهَ، وأجَبْتُمْ لهُ في ما دَعاكُمْ إليهِ، ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي يَجْعَلْ خُرُوجَكُمْ إليهِ وجهادَكُمْ آيةً عظيمةً، يُظْهِرُ به المُحِقَّ مِنَ المُبْطِلِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنفال: ٧] وقولِهِ[14] تعالى ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الأنفال: ٨] أي يُظْهِرَ الحَقَّ مِنَ الباطِلِ.

وقد كانَ بِحَمْدِ اللهِ ذلكَ، وبانَ الحَقُّ مِنَ الباطِلِ، والمُحِقُّ مِنَ المُبْطِلِ. وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿فُرْقَانًا﴾ أي مَخْرَجاً في الدين مِنَ الشُّبُهاتِ. وقيلَ: مَخْرَجاً في الدنيا والآخِرَةِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿فُرْقَانًا﴾ أي بياناً لما ذَكَرْنا: جَعَلَ اللهُ تعالى التَّقْوى مُشْتَمِلاً على كُلِّ خَيرٍ وأصْلاً لكلِّ بِرٍّ، وصَيَّرَهُ مَخْرَجاً مِنَ[15] كُلِّ ضِيقٍ وشِدَّةٍ، وجَعَلَهُ سَبيلاً، ثم يُوصِلُ بِهِ إلى كُلِّ لَذَّةٍ وسُرُورٍ، ويُنالُ بهِ كُلُّ خَيرٍ وبَرَكَةٍ على ما ذَكَرَ في غيرِ آيةٍ[16] مِنَ القرآنِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فنزلت. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) من م، في الأصل ليكونوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وقال. (١٠) في الأصل وم: أو غيره. (١١) في الأصل وم: أو ضررا أو حاجة يدفع به عن نفسه. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: وقال. (١٥) في الأصل وم: لمن. (١٦) في الأصل وم: آي.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ التي سَبَقَتْ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي يَسْتُرُ عليكُمْ ذنوبَكُمْ، لا يُطْلِعُ أحداً عليها، وذلكَ مِنْ أعْظَمِ النِّعَمِ. وأصْلُ المَغْفِرَةِ السَّتْرُ. وقولُهُ تعالى ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي عندَ اللهِ فَضْلٌ؛ يُعْطِيكُمْ خيراً مِمَّا تطمَعُونَ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ بأنَّ هذِهِ الآيةَ صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ [الأنفال: ٢٦] كانُوا ضُعَفاءَ أذِلَّاءَ، في ما بَيْنَ الكَفَرَةِ خائِفِينَ في ما بَيْنَهُمْ، فَهَمُّوا أنْ يَمْكُرُوا برسولِ اللهِ. والمَكْرُ بِهِ ما ذُكِرَ مِنَ القَتْلِ والإثباتِ، وهو الحَبْسُ أو الإخراجُ. كأنَّهُمْ تَشاوَرُوا في ما بَيْنَهُمْ، واسْتَأْمَرُوا ما [يَفْعَلُونَ بِهِ][١].

فذُكِرَ في القصةِ أنَّ بَعْضَهُمْ أشارُوا إلى القَتْلِ، وبَعْضَهُمْ إلى الحَبْسِ، وبَعْضَهُمْ بالإخراجِ، فكانَتْ مُشاوَرَتُهُمْ وأمْرُهُمْ رَجَعَتْ إلى أحدِ هذِهِ الوجوهِ؛ إمّا القَتْلُ وإمّا الحَبْسُ [وإمّا الإخراجُ][٢].

ثم أخرَجَ اللهُ رسولَهُ مِنْ بَيْنِ أظْهُرِهِمْ على الوَجْهِ الذي يكونُ مطيعاً للهِ مُتَعَبِّداً لهُ في ما كانَ خُروجُهُ بأمْرِهِ، فيكونُ خُروجُهُ على غَيْرِ الجهةِ التي أرادُوا هُمْ به. وسُمِّيَ خُروجُهُ هِجْرَةً، لِيَعْلَمُوا أنه إنما [عَلِمَ][٣] بكيدِهِمْ ومَكْرِهِمْ بِهِ باللهِ لِيكونَ آيةً مِنْ آياتِ نُبُوَّتِهِ ورسالَتِهِ خُروجُهُ[٤] مِنْ بَيْنِ أظْهُرِهِمْ ومُفارَقَتُهُ إيّاهُمْ كما كانَ لهُ مِنَ الآياتِ وَقْتَ مُقامِهِ بينَ أظْهُرِهِمْ.

وهو كما كانَ لِعِيسَى آياتٌ وقْتَ مُقامِهِ بينَ أظْهُرِهِمْ، وآيةٌ كانَتْ لهُ بالرَّفْعِ بَعْدَ مُفارَقَتِهِ قومَهُ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، ولو كانوا يَتوافَقُونَ[٥] بما ذَكَرْنا مِنَ القَتْلِ أو الحَبْسِ دونَ الإخراجِ لم يكُنْ لِيُخْرِجَ رسولَهُ مِنْ بَيْنِ أظْهُرِهِمْ، وهُمْ قد هَمُّوا بإخراجِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ تَذْكِيرُ ما أنْعَمَ على رسولِهِ وأصحابِهِ لأنهُ آواهُمْ إلى الأمْنِ بَعْدَ ما كانُوا خائِفِينَ فيهِمْ، وأنزَلَهُمُ المدينةَ بَعْدَ ما كانُوا في الغِيرانِ في الجبالِ هارِبِينَ منهُمْ، ورزَقَهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ طعامَ البشرِ بعدما كانوا يتناولونَ مِنْ طعامِ البهائمِ والسِّباعِ، يذكُرُ نِعَمَهُ عليهم باستِنْقاذِهِ إياهُمْ مِنْ بَيْنِ ظَهْرانِيهِمْ والحَيْلُولَةِ بَيْنَهُ وبَيْنَ ما قَصَدُوا، وهَمُّوا بالمَكْرِ به والهلاكِ.

[وفي قولِهِ تعالى][٦]: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [وجوهٌ في الاحْتِجاجِ][٧] عليهِمْ.

أحدُها: ما ذَكَرْنا أنهُمْ تَشاوَرُوا في ما بَيْنَهُمْ بالمَكْرِ لهُ، ولم[٨] يُطْلِعُوا أحداً، ثم عَلِمَ ذلكَ، فخَرَجَ[٩]، لِيَعْلَمُوا أنَّ اللهَ هو الذي أطْلَعَهُ على ذلكَ.

والثاني: [كانوا يُخَوِّفونَ][١٠] الهلاكَ بِمَكْرِهِمْ برسولِهِ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ مِنْ غيرِ أنْ أصابَهُ ما هَمُّوا بِهِ.

والثالثُ[١١]: قد أصابَهُمْ مِنَ الهلاكِ الذي [كانوا يُخَوِّفونَ بِهِ][١٢]، وحَلَّ بِهِمْ ما كانوا قَصَدُوا[١٣]. وذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ مَكْرِ اللهِ بِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: أرادُوا بِمَكْرِهِمْ شَرًّا، وهو أنْ يُطْفِئُوا هذا النورَ لِيَذْهَبَ هذا الدينُ، وتَدْرُسَ آثارُهُ. وأرادَ اللهُ أنْ يُسْلِمَ منهُمْ نَفَرٌ لِيكونُوا أعواناً ونُصَراً لهُ لِيَأْخُذُوا حظَّهُمْ بذلكَ، فهو خَيْرُ الماكِرِينَ.

وقِيلَ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أي أرادُوا قَتْلَهُ ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أرادَ قَتْلَهُمْ، فَقَتَلَهُمْ بِبَدْرٍ ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي أفْضَلُ مَكْراً منهُمْ؛ غَلَبَ مَكْرُهُ مَكْرَهُمْ. وقالَ بَعْضُهُمْ. قولُهُ ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أي يَجْزِيهِمْ جزاءَ مَكْرِهِمْ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿آيَاتُنَا﴾ آياتِ القرآنِ التي كانَ يَتْلُو رسولُ اللهِ. وتَحْتَمِلُ ﴿آيَاتُنَا﴾ حُجَجَهُ وبراهِينَهُ التي تُوجِبُ التوحيدَ وتصديقَ الرُّسُلِ.

---

(١) في الأصل وم: يفعل بهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: بعد خروجه. (٥) في الأصل وم: يتوافقوا. (٦) في الأصل وم: بقوله. (٧) في الأصل وم: فيه من الوجوه احتجاجا. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: هو. (١٠) في الأصل وم: كان يخوفهم. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: كان يخوفهم. (١٣) في الأصل وم: به وقصدوه.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ قالوا ذلكَ مُتعنِّتِينَ؛ إذ[1] كانَ يَقرَعُ أسماعَهُمْ قولُهُ تعالى: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨] وقولُهُ تعالى ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ الآية [البقرة: ٢٣] ثم لم يكُنْ يَطمَعُ أحدٌ منهُمْ أنْ يأتِيَ بِمِثلِهِ لو تكلَّفُوا ذلكَ. دلَّ أنَّ قولَهُمْ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ تعنُّتٌ وعِنادٌ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كذلك كانَ يقولُ العربُ: إنهُ أساطيرُ الأوَّلِينَ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية؛ يَذكُرُ نهايةَ سَفَهِهِمْ وغايةَ جُرأتِهِمْ على اللهِ وبُغضَهُمُ الحقَّ مَعَ عِلمِهِمْ أنَّ اللهَ هو الإلهُ، وأنهُ قادِرٌ على إنزالِ العذابِ، ولهُ السُّلطانُ على إمطارِ الحِجارةِ بقولِهِم ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فلم يَنالُوا هلاكَ أنفُسِهِمْ لِشِدَّةِ سَفَهِهِمْ وجُرأتِهِمْ على اللهِ وبُغضِهِمُ الحَقَّ.

[وذَكَرَ هذا][2] واللهُ أعْلَمُ، لِيَعْلَمَ الناسُ ما لَحِقَ رسولَ اللهِ بدعائِهِ هؤلاءِ السفهاءَ إلى دينِ اللهِ الذينَ لم يَنالُوا هلاكَ أنفُسِهِمْ لِشِدَّةِ بُغضِهِمُ الحَقَّ وجُرأتِهِمْ على اللهِ/ ١٩٩ - أ/، وتحمَّلَ[3] منهُمْ مِنَ العظيمِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ أي في جملةِ المؤمنينَ أنهُ لا يُعَذِّبُ أحداً في الدنيا مادامَ هو فيهِمْ، ومادامَ [فيهِمْ مُؤمنٌ لقولِهِ تعالى][4]: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي يؤمِنُونَ، وهو[5] كما ذَكَرَ أنهُ أرسلَهُ رَحمةً بقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ومِنْ رَحمتِهِ ألا يُعذِّبَ أحداً مِنْ أُمَّتِهِ في الدنيا، إنما يؤخِّرُ ذلكَ إلى يومِ التَّنادي بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ [إبراهيم: ٤٢] كذا وقولِهِ: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ في أهلِ مكةَ خاصَّةً؛ إنهُ لا يُعذِّبُهُمْ مادامَ فيهِمْ أحدٌ مِنَ المُسلِمِينَ مِنْ نحوِ النساءِ والذَّراري كقولِهِ ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية [الفتح: ٢٥] أي لا نَعذِّبُهُمْ وأنتَ يا محمدُ فيهِمْ؛ أي بينَ أظهُرِهِمْ حتى نُخرِجَكَ مِنْ بَيْنِهِمْ.

[وقيلَ][6] ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي يُصلُّونَ، وقيلَ: يُؤمِنونَ.

وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه ولكنْ يُعذِّبُهُمْ تعذيبَ القتالِ والجهادِ، ولا يُعذِّبُهُمْ تعذيبَ استِئصالٍ على ما أهْلَكَ[7] سائرَ الأُمَمِ.

ثم إنَّ المُعتزلَةَ تعلَّقَتْ بظاهِرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي سَيُؤمِنونَ، أي لا يُعذِّبُهُمْ مادامَ يَعلَمُ أنَّ فيهِمْ أحداً يُؤمِنُ في آخرِ عُمُرِهِ، أو مِنْ قولِهِمْ: ألاّ يجوزَ للهِ أنْ يُهلِكَ أحداً إذا كانَ في عِلمِهِ أنهُ سيُؤمِنُ في آخِرِ عُمُرِهِ لِقولِهِمْ في الأصلحِ: إنَّ اللهَ لا يَفعَلُ بِخَلْقِهِ إلّا ما هو أصلَحُ لهمْ في الدينِ. فَعَلَى ذلكَ تأوَّلُوا ظاهِرَ هذِهِ الآيةِ أنهُ لا يُعذِّبُهُم، وهُمْ يَستَغفِرُونَ؛ أي سَيُؤمِنونَ.

لكنْ لو كانَ كما قالُوا لَكانَ لا يجوزُ الجهادُ مَعَهُمْ أبداً، ويَسقُطُ الأمرُ بالقتالِ؛ إذ لَعلَّ فيهِمْ مَنْ يُسلِمُ، فإذْنُ أمرِهِ بالجهادِ والقتالِ مَعَهُمْ دَلَّ أنَّ ذلكَ لَيسَ ما تَوهَّمُوا، واللهُ أعْلَمُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي وهُمْ يَدخُلُونَ في الإسلامِ. وقيلَ: يُسلِمُونَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بَقِيَّةُ مَنْ بَقِيَ في مكةَ مِنَ المُسلِمِينَ، فلمّا خَرَجُوا منها قالَ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية [الأنفال: ٣٤].

ورُوِيَ عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه [أنهُ][8] قالَ: فيكُمْ أمانانِ، أحَدُهُما: رسولُ اللهِ ﷺ لِقَوْلِ اللهِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ

---

(١) في الأصل وم: إذا. (٢) في الأصل وم: وهذا ذكر. (٣) في الأصل وم: ويتحمل. (٤) في الأصل وم: مؤمن فيهم بقوله. (٥) في الأصل وم: وهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: هلك. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ والآخرُ: الاستِغفارُ لِقولِ اللهِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قالَ: فذَهبَ أمانٌ، وهو رسولُ اللهِ، وبَقِيَ أمانٌ، وهو الاستِغفارُ.

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما [أنهُ][1] قالَ: إنَّ اللهَ جَعَلَ في هذِهِ الأُمَّةِ أمانَينِ، لايَزالونَ مَعصومِينَ[2] مِن قَوارِعِ العذابِ مادامَ بَينَ أظهُرِهِمْ؛ فأمانٌ قَبَضَهُ اللهُ إليهِ، وأمانٌ بَقِيَ فيهِمْ[3]، وهو الاستِغفارُ الذي ذَكَرَ.

ورُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ: «كانَ ساجداً في آخِرِ سُجودِهِ في صلاةِ [آيةِ الكسوفِ][4]، فقالَ: أفْ أفْ، فقالَ: ربِّ ألَمْ تَعِدْني ألاّ تُعَذِّبَهُمْ، وأنا فيهِمْ؟ ربِّ ألَمْ تَعِدْني ألاّ تُعذِّبَهُمْ وهُمْ يَسْتغفِرونَ؟» [بنحوه أبو داوود ١١٩٤].

وعنْ بَعْضِهِمْ: أمانانِ أنْزلَهُما اللهُ؛ أمَّا أحدُهما فمَضى، وهو نَبِيُّ اللهِ، وأمَّا الآخَرُ فأبقاهُ اللهُ تعالى بَينَ أظهُرِكُمْ، وهو الاستِغفارُ والتوبةُ.

وفي إثباتِ قولِ السفهاءِ ودُعائِهِمْ بإمطارِ الحجارةِ عليهِمْ وجَعْلِ ذلكَ [الاستِغفارِ][5] كتاباً يُتْلَى في الصَّلواتِ أوجُهُ ثلاثةٌ مِنَ الحكمةِ:

أحدُها: تعريفٌ لهذِهِ الأُمَّةِ المُعامَلَةَ مَعَ السُّفهاءِ عندَ ارْتِكابِ المَناكِيرِ مِنَ الأمرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ إذا[6] تَمادَوا في غَيِّهِمْ، واستَقْبَلُوا بالمَكْرُوهِ والأذى، ألّا يُتْرَكَ الأمرُ لَهُمْ بالمعروفِ، ولا يُيْأَسَ مِنْ خَيرِهِمُ اقْتِداءً بالنَّبِيِّ أنهُ لم يَتْرُكْ دعاءَهُمْ وأمْرَهُمْ بالمعروفِ مَعَ شِدَّةِ سَفَهِهِمْ وتَمَرُّدِهِمْ.

والثاني: لِيَعْلَمَ الخَلْقُ أنَّ حُجَّةَ اللهِ تُلْزِمُ العبادَ، وإنْ كانوا قد جَهِلُوهُ إذا كانَ لِتَضْيِيعٍ جاءَ مِنْ قِبَلِهِمْ في تَرْكِ النَّظَرِ والتَّفَكُّرِ؛ إذ لو عَلِمُوا حقيقةَ العِلْمِ أنهُ الحَقُّ لم يكونُوا لِيَدْعُوا على أنْفُسِهِمْ بالهلاكِ.

والثالثُ: يكونُ فيهِ بيانٌ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي ما لَهُمْ مِنْ عُذْرٍ في صَرْفِ العذابِ عنْ أنْفُسِهِمْ؛ إذْ قد كانَ منهُمْ مِنْ أنواعِ ما كانَ، لو كانَ واحدٌ مِنْ ذلكَ لكانُوا يَسْتوجِبُونَ العذابَ، مِنْ تكذيبِهِمُ الرسولَ والآياتِ التي أرسَلَها إليهِمْ وصَدِّهِمُ الناسَ عنِ المَسْجِدِ الحرامِ، وهو مكانُ العبادةِ، وسُؤالِهِمْ بقولِهِمْ: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] أي لَيسَ لَهُمْ عذرٌ في صَرْفِ العذابِ عنْ أنفُسِهِمْ، والاحتِجاجُ على اللهِ أنهُ لم يُرْسِلْ رسولاً بقولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الآية [طه: ١٣٤] بل أرسَلَ إليهِمُ الرسولَ فكَذَّبُوهُ، وبَعَثَ إليهِمُ الآياتِ فكَذَّبُوها، وصَدُّوا الناسَ عَنِ المَسْجِدِ الحرامِ.

فلا عُذْرَ لَهُمْ في وجهٍ مِنَ الوجوهِ أنْ يَصْرِفَ العذابَ. إلّا أنَّ اللهَ بِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ يَصْرِفُ العذابَ عنهُمْ بِبَرَكَةِ النَّبِيِّ ﷺ واستِغْفارِ المؤمنِينَ. وإلّا قد كانَ منهُمْ جميعُ أسبابِ العذابِ التي يَسْتَوجِبُونَ بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي عنِ الصلاةِ فيهِ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ صَدُّهُمُ[7] الناسَ عَنْ رسولِ اللهِ، لكنهُ ذَكَرَ المَسْجِدَ لِما كانَ رسولُ اللهِ فيهِ لئلاّ يَرَوا رسولَ اللهِ، فَيَتَّبِعُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي لم يكونُوا لِيَصْرِفُوا العذابَ عنْ أنفُسِهِمْ بالوِلايَةِ، وهو صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ﴾ وهُمْ لَيسُوا بأوليائِهِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أنهُمْ كانوا يَصُدُّونَ الناسَ عنِ المَسْجِدِ الحَرامِ لِما ادَّعَوا أنَّهُمْ أولياؤُهُ، وأنَّهُمْ أولَى بالمَسْجِدِ الحَرامِ. ثم أخبَرَ أنهُمْ لَيسُوا أولياءَهُ، إنما أولياؤُهُ المُتَّقُونَ الذينَ اتَّقَوا لَمَّا أتاهُمْ، وأولياؤُهُ المُوَحِّدونَ لا الذينَ أشرَكُوا غَيرَهُ في عِبادَتِهِ وأُلُوهِيَّتِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: معصومون. (٣) في الأصل وم: فيكم. (٤) في الأصل وم: الآيات. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أنهم إنما. (٧) في الأصل وم: صدوا.

جنة السنة

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانَ أحسَنُ حالِهِمْ التي هُمْ عليها هي حالَ الصلاةِ. فإذا كانَتْ[1] صلاتُهُمْ مُكاءً وتَصدِيةً فكيفَ حالُهُمْ في غيرِ الصلاةِ؟

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ وذلك أنَّ النَّبِيَّ ﷺ وأصحابَهُ إذا صَلُّوا في المَسْجِدِ الحرامِ قامَتْ طائِفَةٌ مِنَ المُشْرِكِينَ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ وأصحابِهِ، فَيَصْفِرُونَ كما يَصْفِرُ المُكاءُ، وطائفةٌ تَقُومُ عَنْ يَسارِهِ، فَيُصَفِّقُونَ بأيديهِمْ لِيَخْلِطُوا على النَّبِيِّ وأصحابِهِ صلاتَهُمْ. فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.

ثم اخْتُلِفَ في المُكاءِ والتَّصْدِيَةِ. قالَ بَعْضُهُمْ: المُكاءُ هو مِثْلُ نَفْخِ البوقِ، والتَّصْدِيَةُ هو طوافُهُمْ على الشِّمالِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: المُكاءُ الصَّفِيرُ؛ يقالُ: مَكَا يَمْكُو، وهو مِثْلُ ما قِيلَ للطائِرِ: مَكّا؛ لأنه يَمْكُو أي يَصْفِرُ؛ يَعْني يُصَوِّتُ. والتَّصْدِيَةُ هي[2] التَّصْفِيقُ؛ يقالُ: صَدَى إذا صَفَّقَ بِيَدَيْهِ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: المُكاءُ شِبْهُ الصَّفِيرِ، والتَّصْدِيَةُ ضربٌ باليَدَيْنِ، وهو مِنَ الصَّدَى مِنَ الصوتِ. وقيلَ: المُكاءُ صَفِيرٌ كانَ أهلُ الجاهِلِيَّةِ يَلْعَبُونَ بِهِ، والتَّصْدِيَةُ الصَّدُّ عنْ سَبِيلِ اللهِ ودِينِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التَّأْوِيلِ ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ يومَ بَدْرٍ، وهو الهَزِيمةُ والقَتْلُ الذي كانَ عليهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ في الآخِرَةِ بكُفْرِكُمْ[3] في الدنيا.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية؛ يُذَكِّرُهُمْ، واللهُ أعْلَمُ، النِّعَمَ التي أنْعَمَها عليهِمْ:

أحَدُها[4]: ما أنْزَلَهُمْ في بُقْعَةٍ؛ خُصَّتْ تلكَ البُقْعَةُ، وفُضِّلَتْ على غَيرِها مِنَ البِقاعِ، وهي[5] مكانُ العبادَةِ.

[والثانِيَةُ: ما أعطاهُمْ مِنَ الأموالِ، فأنْفَقُوها في الصَّدِّ صَدِّ الإنسانِ عنْ مكانِ العِبادَةِ وإقامةِ العبادةِ فيه.

والثالثةُ: بَعْثُ الرسولِ منهُمْ فيهِمْ، فَكَذَّبُوهُ][6]

ثم اخْتُلِفَ في مَعْنَى/ ١٩٩ ـ ب/ الصَّدِّ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ كفارَ قريشٍ اسْتَأْجَرُوا لِقِتالِ بَدْرٍ رجالاً مِنْ قبائِلِ العَرَبِ عَوناً لَهُمْ على قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ وأصحابِهِ. فتلكَ نَفَقَتُهُمُ التي أنْفَقُوا، فصارَ ذلكَ حَسْرَةً عليهِمْ لمّا كانَتِ الهزيمةُ عليهِمْ.

رَوَى ابْنُ عباسٍ رضي الله عنه، أنهُ سُئِلَ عنْ هذهِ الآيةِ، فقالَ: تلكَ قدْ خَلَتْ؛ إنَّ أُناساً في الجاهِلِيَّةِ كانُوا يُعْطُونَ ناساً أموالَهُمْ، فَيُقاتِلُونَ نَبِيَّ اللهِ [فما سَلِمُوا][7] عليها، فَغُلِبُوا[8]، فكانَتْ عليهِمْ [حَسْرَةً][9].

وعن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ [أنهُ][10] قالَ: نزلَتْ في أبي سفيانَ بْنِ حَرْبٍ اسْتَأْجَرَ يومَ أُحُدٍ مِنَ الأحابِيشِ مِنْ كِنانَةَ، فقاتَلَهُمُ النَّبِيُّ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ [قولُهُ تعالى][11]: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ يومَ القيامَةِ؛ أي النفقةُ التي أنْفَقُوها عليهِمْ حَسْرَةٌ في الآخِرَةِ لِما أنفَقُوها لِصَدِّ الناسِ عنْ سَبِيلِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي يُجْمَعُونَ إلى جَهَنَّمَ بِكُفْرِهِمْ باللهِ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى الخبيثَ مُخْتلطاً بالطَّيبِ في الدنيا في سَمْعِهِمْ وبَصَرِهِمْ ونُطْقِهِمْ وجَمِيعِ جوارِحِهِمْ ولِباسِهِمْ وطَعامِهِمْ وشَرابِهِمْ وجَمِيعِ منافِعِهِمْ مِنَ الغِنَى والفَقْرِ وأنواعِ المَنافِعِ. جَعَلَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ مُخْتَلِطِينَ[12] في الدنيا على ما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل وم: كان. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: بكفرهم. (٤) في الأصل وم: أحد. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: ثم صدوا الناس عن الدخول فيها والعبادة ومن ذلك بعث الرسول منهم فيهم فكذبوه وما أعطاهم من الأموار فأنفقوها في الصد صد الإنسان عن مكان العبادة وإقامة العبادة فيه. (٧) في الأصل وم: فاسلموا. (٨) في الأصل وم: فطلبوا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، في الأصل: مختلفين.

جنة السنة

لكنهُ ميَّزَ بينَ الطَّيِّبِ والخَبيثِ في الآخِرَةِ بأعلام؛ يُعْرَفُ بتلكَ الأعلامِ الخَبيثُ مِنَ الطَّيِّبِ مِنْ نَحْوِ ما ذُكِرَ في الطَّيِّبِ قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ و٢٣] وقولِهِ[1] تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس ٣٨ و٣٩]. وقالَ تعالى في الكَفَرةِ[2]: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠ و٤١] وقالَ: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] وقالَ[3]: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] وقالَ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ الآية [طه: ١٢٤] وغيرُ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

مَيَّزَ اللهُ تعالى بَيْنَ الخَبيثِ والطَّيِّبِ بالأعلامِ[4] التي ذَكَرْنا في سَمْعِهِمْ وبَصَرِهِمْ وَوُجوهِهِمْ ولِباسِهِمْ ومَآكِلِهِمْ ومَشْرَبِهِمْ حتى يُعْرَفُوا جَميعاً بالأعلامِ.

ويَحْتَمِلُ ما ذُكِرَ مِنَ التَّمْييزِ بَيْنَ الخَبيثِ والطَّيِّبِ بالمُباهَلَةِ التي جَرَتْ بَيْنَ أبي جَهْلٍ وبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ حينَ[5] قالَ أبو جَهْلٍ: انْصُرْ أَهْدانا سَبيلاً وأَبَرَّنا قَسَماً وأوصَلَ رَحِماً. فأُجيبَ، فَنَصَرَ رسولَهُ وأصحابَهُ، فَمَيَّزَ. ويَحْتَمِلُ ما ذُكِرَ مِنَ التَّمْييزِ في الآخِرَةِ قولَهُ[6] تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: أنْ يَجْعَلَهُمْ دَرَكاتٍ بَعْضُها أسْفَلَ مِنْ بَعْضٍ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

والثاني[7]: يَحْتَمِلُ أن يَجْعَلَ بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: ٤٩ وص: ٣٨].

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ قيلَ: يَجْمَعُهُ جميعاً، بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ. ويَحْتَمِلُ ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ إخباراً عنِ الضِّيقِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ [الفرقان: ١٣].

وقال القُتَبِيُّ: ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ أي يَجْعَلُهُ رُكاماً، بَعْضَهُ[9] فوقَ بَعْضٍ، وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ؛ يُقالُ: رَكَمْتُ المَتاعَ إذا جَعَلْتُ بَعْضَهُ فوقَ بَعْضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ الجَهَنَّمُ هو المكانُ الذي يَجْمَعُ أهلَ النارِ لِلتَّعْذيبِ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ ذَكَرَ ﷻ غايَةَ كَرَمِهِ وجودِهِ بما وَعَدَ لَهُمْ مِنَ المَغْفِرَةِ والتَّجاوُزِ عمَّا كانَ منهُمْ مِنَ الإشراكِ في ألوهِيَّتِهِ وصَرْفِ العِبادَةِ إلى غَيْرِهِ وصَدِّ الناسِ عَنْ عِبادَتِهِ وطاعَتِهِ ونَصْبِ الحروبِ التي نَصَبُوا بَيْنَهُمْ وبَيْنَ المُؤمنينَ وغَيْرِ ذلكَ مِنْ أنواعِ الهَلاكِ.

فَمَعَ ما كانَ منهُمْ وَعَدَ لَهُمُ المَغْفِرَةَ بالانْتِهاءِ مِنْ ذلكَ لِتُعْلَمَ غايَةُ كَرَمِهِ وَجودِهِ. والمَغْفِرَةُ تَحْتَمِلُ التَّجاوُزَ عَنْهُمْ ما كانَ منهُمْ؛ لا يُؤاخِذُهُمْ[10] بذلكَ، ويَحْتَمِلُ [أنْ يُسِرَّ][11] عليهِمْ معاصِيَهُمُ التي كانَتْ[12] منهُمْ، فلا يذْكُرونَ ذلكَ؛ لأنهُمْ لو ذَكَرُوا ذلكَ نَغَّصَ[13] عليهِمُ النِّعَمَ.

وفيه دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ لأنهُ أخْبَرَ أنهُمْ إنِ انْتَهَوا، وتابوا، غَفَرَ لَهُمْ ما قد كانَ منهُمْ، وإنما كانُوا مُنْتَهِينَ بالإيمانِ [ولم يُجْعَلْ بَيْنَ الإيمانِ][14] والكُفْرِ مَنْزِلَةٌ ثالثةٌ، وهم يَجعلُونَ بَيْنَهُما مَنْزِلَةً ثالثةً، ويقولونَ: إذا ارْتَكَبَ [المرءُ][15] كبيرةً خَرَجَ مِنَ الإيمانِ، ويُخَلَّدُ في النارِ أبداً، وإنْ[16] لم يَكُنْ داخلاً في الكُفْرِ.

وفيه دليلُ نَقْضِ قولِ مَنْ يقولُ بأنَّ على الكافِرِ فِعْلَ العِباداتِ مِنْ نَحوِ الصلاةِ والزكاةِ والصيامِ، لأنهُ ذَكَرَ الانْتِهاءَ، والانْتِهاءُ عمَّا كانَ مِنْ تَرْكِ العِباداتِ القِيامُ بِقَضائِها، وإذا ما تَرَكُوا فَلِما لم يَجِبْ عليهِمْ أداءُ شَيْءٍ مِنْ ذلكَ. دلَّ أنْ لم يَكُنْ عليهِمْ في حالِ كُفْرِهِمْ فِعْلُ تلكَ العِباداتِ، إنما عليهِمُ اعْتِقادُ تلكَ العِباداتِ؛ إذْ لو كانَتْ عليهِمْ لَكانَ الانْتِهاءُ عنها بِقَضاءِ

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: الكافر. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) في الأصل وم: بأعلام. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل: كقوله. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: بعضها. (١٠) من م، في الأصل يأخذهم. (١١) في الأصل: يسر، في م: يستر. (١٢) في الأصل وم: كان. (١٣) في الأصل وم: ينغص. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: و.

جنة السنة

ذلكَ كقولِهِ ﷺ «مَنْ نامَ عن صلاةٍ، أو نَسِيَها، فَعَلَيهِ أنْ يُصَلِّيَها إذا استَيْقَظَ، وذلكَ كفارَتُهُ» [التمهيد ٣/ ٢٨٩] وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] لَيسَ على الفِعْلِ، ولكنْ في حَقِّ الاعْتِقادِ أنهُ لا سَبيلَ إلى القِيامِ بِفِعْلِ ما ذَكَرَ إلّا بَعْدَ حَولٍ وَوَقْتٍ طويلٍ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ على أنْ لَيسَ بَيْنَ الشِّرْكِ والإيمانِ مَنْزِلَةٌ ثالثةٌ على [ما][1] يقولُهُ المُعْتَزِلَةُ في صاحِبِ الكبيرةِ؛ لأنهُ لو كانَ بينَ الكُفْرِ والإيمانِ مَنْزِلَةٌ لَكانوا دخَلُوا في الإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: وإنْ يَعودوا إلى الكُفْرِ وقتالِ محمدٍ بَعْدَ أنِ انْتَهوا عنهُ فقد مَضَى كذا؛ يَعْني القتالَ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَعُودُواْ﴾ أي داموا فيهِ، لا أنْ كانُوا خَرَجُوا منهُ نحوَ قولِهِ ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] كانُوا فيه لا أنْ كانُوا خَرَجُوا منهُ، ثم دَخَلُوا في غَيرِهِ.

ثم يَحْتَمِلُ وجهَينِ بَعْدَ هذا:

أحدُهُما: أنَّ لِلْكُفْرِ حُكْمَ التَّجَدُّدِ في كلِّ وقتٍ.

والثاني: ما ذَكَرْنا أنَّ ذِكْرَ العَودِ فيهِ لِدَوامِهِمْ فيهِ، وإنْ لم يَخْرُجُوا منهُ. وذلكَ جائزٌ في اللسانِ كقولِهِ تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ابْتِداء إخراجٍ مِنْ غيرِ أنْ كانُوا فيهِ، وكقولِهِ تعالى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [الرعد: ٢] ابْتِداءَ رَفْعٍ لا أنْ كانَتْ مَوضوعةً، فَرَفَعَها مِنْ بَعْدُ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يَحْتَمِلُ: أي داموا فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يَحْتَمِلُ [وجهَينِ:

أحدُهُما:][2] ما ذَكَرْنا مِنَ القِتالِ.

والثاني: ﴿سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الهلاكُ الذي كانَ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [قيلَ: الفِتْنَةُ: الشِّرْكُ؛ أي قاتلوهُمْ حتى لا يكونَ الشِّرْكُ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾][3] ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي مِحْنَةُ القِتالِ كأنهُ قالَ: قاتِلُوهُمْ إلى الوَقْتِ الذي تَرْتَفِعُ [فيهِ][4] المِحْنَةُ، وهو يومُ القيامةِ.

وفيه دلالةٌ لُزُومِ الجهادِ إلى يومِ الدينِ، والفِتْنَةُ هي المِحْنَةُ التي فيها الشِّدَّةُ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾. وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ.

أحدُهُما: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾ هو الدينُ ﴿كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ لا نَصيبَ لأحدٍ فيهِ؛ وهو السَّبيلُ التي كانَتْ للشيطانِ؛ كأنهُ قالَ: وتكونُ الأديانُ التي يُدانُ بها دِيناً واحداً، وهو دينُ اللهِ الذي يُدْعَى الخَلْقُ إليهِ، وبذلكَ بَعْثُ الرُّسُلِ والكُتُبِ، واللهُ أعْلَمُ.

والثاني[5]: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الحُكْمُ كُلُّهُ للهِ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦] أي في حُكْمِ المَلِكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ قيلَ: ناصِرُكُم، وقيلَ: المَوْلَى المَليكُ ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي نِعْمَ الناصِرُ والمُعِينُ ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لأنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وقيلَ ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي أولَى بكُمْ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ / ٢٠٠ ـ أ/ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ

(١) في الأصل وم: و. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: و.

جنة السنة

التأويلِ: إنَّ الغنيمةَ هي التي أصابَ المُسْلِمونَ مِنْ أموالِ المُشْرِكينَ بالقِتالِ عُنْوةً، والفَيْءُ ما يُعْطونَ بأيديهِمْ صُلْحاً. والغَنيمةُ: يأخُذُ الإمامُ الخُمُسَ منها، والباقي يُقْسَمُ بَيْنَهُمْ، والفَيْءُ يأخُذُهُ الإمامُ، فَيَضَعُهُ في مَصْلَحَةِ المُسْلِمينَ، ولَيسَ فيهِ الخُمُسُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: الغنيمةُ والفَيْءُ واحدٌ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ؛ ذَكَرَ الخُمُسَ، ولم يَذْكُرْ أربعةَ[1] الأخماسِ أنها لِمَنْ؟ لكنَّها لِلْمُقاتِلَةِ بقولِهِ تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩] فكانَتِ الغَنيمةُ كُلُّها لِمَنْ غَنِمَها بظاهِرِ هذِهِ الآيةِ إلَّا ما استَثْنى اللهُ منها بالآيةِ الأولى، وهو الخُمُسُ. وهذا مِمَّا أجمَعَ عليهِ أهْلُ العِلْمِ. وعلى ذلكَ تواتَرَتِ الأخبارُ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ وعَنْ صَحابَتِهِ مَوقوفَةً مِنْ بَعْدِهِ.

رُوِيَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ «سُئِلَ عنِ المالِ؛ يَعْني الغَنيمةَ، فقال[2]: لي خُمُسُهُ، وأربَعَةُ أخماسِهِ لِهؤلاءِ» [البيهقي في شعب الإيمان ٤٣٢٩] يَعْني المُسْلِمينَ. ورُوِيَ أنهُ قَسَمَها بينَ المُقاتِلَةِ؛ يَعْني أربعةَ[3] الأخماسَ.

وفي بَعْضِ الأخبارِ أنَّ أبا الدَّرْداءِ وعُبادَةَ بْنَ الصامِتِ والحارِثَ بْنَ مُعاويَةَ كانوا جُلوساً، فقالَ أبو الدَّرْداءِ: «أيُّكُمْ يَذْكُرُ حديثَ رسولِ اللهِ ﷺ حيثُ صَلَّى إلى بَعيرٍ مِنَ المَغْنَمِ، فلمَّا انْصَرَفَ، فَتَناوَلَ مِنْ وَبَرِ البَعيرِ، فقالَ: ما يَحِلُّ لي مِنْ غنائِمِكُمْ ما يَزِنُ هذِهِ إلَّا الخُمُسَ، ثم هو مردودٌ فيكُمْ»؟ [النسائي ٧/ ١٣١].

وعنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، [أنهُ][4] قالَ: كانتِ الغَنائمُ تُجَزَّأُ خَمْسَةَ أجزاءٍ، ثم يُسْهَمُ عليها، فلمَّا صارَ لِرسولِ اللهِ فهو لهُ.

وعَنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ][5] قالَ: كانتِ الغَنيمةُ تُقْسَمُ على خَمْسَةِ أخماسٍ؛ أربعةٌ منها لِمَنْ قاتَلَ عليها، وغَيْرُ ذلكَ مِنَ الأخبارِ، وعلى ذلكَ اتِّفاقُ الأُمَّةِ.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: تُقْسَمُ على سِتَّةٍ: سَهْمٌ لِلَّهِ يُجعَلُ في سِتْرِ الكَعْبةِ، وسَهْمٌ لِرسولِهِ يَنْتَفِعُ بهِ. ومنهُمْ مَنْ قال: يُقْسَمُ على خَمْسَةٍ: سَهْمٌ لِرَسُولِهِ وأربعةُ أخماسٍ لِمَنْ غَنِمَ. ومنهُمْ من يقولُ: تُقْسَمُ على أربَعَةٍ: سَهْمٌ لِرَسولِهِ وثلاثةُ أرباعٍ[6] لِمَنْ غَنِمَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ تَحْتَمِلُ إضافَةُ ذلكَ إلى نفسِهِ وجْهَيْنِ.

أحدُهُما: لِما جَعَلَ ذلكَ لإقامَةِ العِباداتِ وأنواعِ البِرِّ والخَيرِ والقُرَبِ التي هي للهِ، فأُضيفَتْ[7] إليهِ على ما أُضيفَتِ المساجِدُ إليهِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] وإنْ كانَتِ البِقاعُ كُلُّها للهِ. وكذلكَ ما سَمَّى الكَعْبَةَ بَيْتَ اللهِ وإنْ كانَتِ البُيوتُ كُلُّها لِلَّهِ لِما جَعَلَها لإقامَةِ العباداتِ وأنواعِ القُرَبِ. فأُضيفَ إلى اللهِ ذلكَ. فَعَلى ذلكَ تَحْتَمِلُ إضافَةُ ذلكَ السَّهْمِ إلى اللهِ لِما جَعَلَهُ لإقامَةِ العباداتِ والقُرَبِ وأنواعِ البِرِّ، واللهُ أعْلَمُ.

والثاني: أضافَ ذلكَ إلى نَفْسِهِ خُصوصِيَّةً، ولِرَسولِ[8] اللهِ إذا كانَ ذلكَ لِرَسُولِهِ، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ في جميعِ أحْوالِهِ وأُمورِهِ للهِ خالِصاً، لم يَكُنْ لِنَفْسِهِ ولا لأحدٍ مِنَ الخَلْقِ. فَعَلى ذلكَ جميعُ مالِهُ وما تَحْويهِ يَدُهُ لم يَكُنْ لهُ، إنما كانَ ذلكَ لِلَّهِ خالِصاً، يَصْرِفُ ذلكَ في أنواعِ القُرَبِ والبِرِّ في القرابَةِ واليَتامى والمساكينِ وابْنِ السَّبيلِ الأحياءِ منهُمْ والأمواتِ جميعاً، والقريبِ منهُمْ والبَعيدِ جميعاً.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: «إنّا معاشِرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ. ما تَرَكْنا صَدَقَةٌ»؟ [التمهيد ٧/ ١٧٥] هذا يدلُّ أنَّ ما يَتْرُكُ صَدَقةٌ، لا يُورَثُ منهُ، ولو كانَ لَهُ لَتوارَثَ وَرَثَتُهُ ما يُورَثُ مِنْ غيرِهِ. دلَّ أنَّ نَفْسَهُ ومالَهُ كانَ للهِ خالِصاً، وكذلكَ جميعُ أمورِهِ للهِ.

ألَا تَرَى أنهُ رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ كانَ يَجوعُ يوماً، ويَشْبَعُ يوماً، ويَجوعُ ثلاثاً، وكانَ يَرْبِطُ الحَجَرَ على بَطْنِهِ لِلْجوعِ؟

فإذا كانَتْ إضافَةُ ذلكَ الخُمُسِ إلى اللهِ لِخُصوصِيَّةٍ لَهُ وخُلوصِ نَفْسِهِ ومالِهِ لهُ، وإنْ كانَتْ جَميعُ الخلائقِ وما تَحْويهِ أيديهِمْ للهِ حقيقةً، لكنْ لهُمْ فيها الانْتِفاعُ وقضاءُ الحَوائجِ والتَّدْبيرُ لأنواعِ التَّصَرُّفِ في ذلك [ومُشارَكَتُهُ في غيرِ][9] ذلكَ، لم

---

(١) في الأصل وم: الأربعة. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) في الأصل وم: الأربعة. (٤) ساقطة في الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: أرباعه. (٧) في الأصل وم: فأضيف. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: ومشاركة غير.

جنة السنة

يَختصَّ(١) بالإضافةِ إليه، [وإنْ كانَ ذلكَ كلُّهُ لِلَّهِ حَقيقةً، ولما](٢) كانَتْ نَفْسُ رسولِ اللهِ وما تَحويهِ يَدُهُ للهِ(٣) لا تدبيرَ لهُ في ذلكَ، [ولا شِرْكَ لأحدٍ فيه، خُصَّ بإضافةِ(٤) ذلكَ](٥) إليهِ [لأنَّ ذلكَ](٦) كلَّهُ لِلَّهِ حَقيقةً.

وهذا كما قالَ تعالى: واللهُ أعلَمُ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦] وقالَ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ﴾ [غافر: ١٦] وقالَ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] خَصَّ بالذِّكْرِ مُلْكَ ذلكَ اليومِ والبروزَ لهُ لِما يَنْقطِعُ يومئذٍ تدبيرُ جميعِ ملوكِ الأرضِ، ويَذْهَبُ سُلْطانُهُمْ عنهُمْ، ويَصْفُو البُروزُ لهُ، وإنْ كانَ المُلْكُ في الأحوالِ كلِّها والأوقاتِ جميعاً وكذلكَ البُروزُ له، والمَصِيرُ إليه، وإنْ كانَ ذلكَ راجعاً إليهِ في كلِّ الأحوالِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم ليسَ في ظاهِرِ الآيةِ دليلٌ أنَّ المُرادَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قَرابةُ رسولِ اللهِ ﷺ بل في ظاهِرِهِ دلالةٌ أنهُ أرادَ بِهِ قَرابةَ أهلِ السِّهامِ في ذلكَ لأنهُ خاطبَ بهِ الكُلَّ بقولِهِ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وظاهِرُهُ أنهُ أرادَ بهِ قُرْبَى مَنْ خاطَبَ، وكانَ الخِطابُ لَهُمْ جميعاً.

ألا تَرَى أنهُ لم يُفْهَمْ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧] قَرابةُ رسولِ اللهِ ﷺ ولكنْ قَرابةُ المُخاطَبِينَ؟ وكذلكَ لم يُرْجِعْ قولُهُ تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] إلى قَرابةِ رسولِ اللهِ بل إلى قَرابةِ المُخاطَبِينَ بهِ؟

فَعَلَى ذلكَ الظاهِرُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلّا أنْ يُقالَ: أرادَ قَرابةَ رسولِ اللهِ بدلالةٍ أُخرَى سِوَى ظاهِرِ الآيةِ.

وهو ما رُوِيَ [أنهُ](٧) قَسَّمَ الخُمُسَ بَيْنَ بَني هاشمٍ، وما رُوِيَ أنهُ قالَ: «مالي مِنْ هذا المالِ إلّا الخُمُسُ، والخُمُسُ مَرْدُودٌ فيكُمْ» [النسائي ٧/ ١٣٢] وما رُوِيَ أنَّ نَجْدَةَ [بْنَ عُوَيمِرٍ الحَرُورِيَّ](٨) كَتَبَ إلى ابْنِ عباسٍ يَسْألُهُ عنْ سَهْمِ ذي القُرْبَى لِمَنْ هو؟ [فكَتَبَ إليهِ ابْنُ عباسٍ](٩): هو لنا أهلَ البيتِ.

وقد كانَ عُمَرُ دعانا إلى أنْ نَنْكِحَ منهُ أيّا مِنّا، ونَقْضِيَ منه مُغْرَمَنا، فأبَيْنا إلّا أنْ يُسَلِّمَهُ إلينا، فأبَى ذلكَ علينا. فَدَلَّ فِعْلُ عُمَرَ هذا على أنَّ التأويلَ في الخُمُسِ كانَ عندَهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَصِلُ بهِ قَرابتَهُ، ويَسُدُّ بالخُمُسِ حاجتَهُمْ؛ إذ كانَ جَعْلُ سُبُلِ الخُمُسِ ما ذَكَرْنا أنهُ لِلَّهِ بِمَعْنَى أنهُ يُصْرَفُ في وُجوهِ القُرَبِ إليه.

فلو كانَ الخُمُسُ حَقًّا بجميعِ القَرابةِ أعطَى مِنْ ذلكَ غَنِيَّهُمْ وفَقِيرَهُمْ، وما يأخُذُهُ الأغنياءُ مِنَ الخُمُسِ فإنه لا يَجْرِي مَجْرَى الصَّدَقةِ، ولا يَجْرِي [مَجْرَى](١٠) القُرْبَةِ، فَبانَ بذلكَ أنهُ لا يُعْطَى منهُ أغنياؤُهُمْ، بل يُصْرَفُ(١١) إلى فُقَرائِهِمْ على قَدْرِ حاجَتِهِمْ؛ إذْ لم يَكُنْ لِفَقِيرِهِمْ(١٢) مَكاسِبُ سِواهُ يُوصَلُ(١٣) بها كما يكونُ لِغيرِهِ مِنَ الناسِ مِنَ المكاسِبِ وأنواعِ الحِرَفِ.

ومِمّا يَدُلُّ على أنَّ رسولَ اللهِ أعطى بَعْضَ القَرابةِ دُونَ بَعْضٍ ما رُوِيَ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ [أنهُ](١٤) قالَ: لَمّا قَسَمَ رسولُ اللهِ ﷺ سَهْمَ ذي القُرْبَى بَيْنَ بَني هاشِمٍ وبَني [عبدِ](١٥) المُطَّلِبِ أتَيْتُ أنا وعُثْمانُ، فَقُلْنا: يا رسولَ اللهِ هؤلاءِ بَنو هاشِمٍ، لا نُنْكِرُ فَضْلَهُمْ لِمكانِكَ الذي وَضَعَكَ اللهُ فِيهِمْ. أرأيْتَ بني [عبدِ](١٦) المُطَّلِبِ، أعطَيْتَهُمْ، ومَنَعْتَنا، وإنما نَحْنُ وهُمْ مِنْكَ بِمَنْزِلَةٍ واحدةٍ؟ فقالَ: «إنهمْ لم(١٧) يُفارِقوني في جاهليَّةٍ ولا إسلامٍ؛ بَنُو هاشِمٍ وبَنو عبدِ المطَّلِبِ شيءٌ واحدٌ، وشَبَّكَ أصابِعَهُ» [أحمد ٤/ ٨١].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، بَيَّنَ أنَّ خُمُسَ الغنيمةِ يُصْرَفُ في وجوهِ البِرِّ والقُرَبِ إلى اللهِ.

ثم فَسَّرَ تلكَ الوجوهَ، فقالَ: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فكانتْ تَسْمِيَةُ هذهِ الأصنافِ،

---

(١) من م، في الأصل: يخص. (٢) من م، في الأصل: وإن. (٣) من م، في الأصل: الله. (٤) في م: بالإضافة. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم، انظر تفسير الطبري ج ١٣/ ٥٥٥. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من م. (١٢) في الأصل وم: له. (١٣) في الأصل وم: يصل. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: لا.

جنة السنة

واللهُ أعلَمُ، تعليماً لنا أنَّ الخُمُسَ يُصرَفُ في مَنْ ذَكَرَ مِنْ أهلِها/ ٢٠٠ ـ ب/ دونَ غيرِهِمْ. وليسَ إيجاباً منهُ لكلِّ صِنفٍ منها شيئاً مَعْلُوماً، ولكنْ بيانُ الأهلِ والموضِعِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الآية [التوبة: ٦٠].

حَمَلَ أصحابُنا ذلكَ على أنَّ الصدقةَ لا تجوزُ إلَّا لِمَنْ كانَ مِنْ أهلِ هذهِ الأصنافِ دونَ غيرِهِمْ، ولم يَحمِلُوا الأمْرَ على أنَّ لِكُلِّ صِنفٍ منهُمْ شيئاً مَعْلوماً مَحْدوداً، ولكنْ على بَيانِ أهلِها.

وعلى ذلكَ [ما][1] رُوِيَ عنْ جَماعَةٍ مِنَ الصحابةِ ﷺ، منهُمْ عُمَرُ وعليٌّ وحُذَيْفَةُ وابنُ عَباسٍ وجماعةٌ مِنَ السَّلَفِ ما يَكْثُرُ عَدَدُهُمْ [أنهم][2] قالوا: إذا وَضَعْتَ الصَّدقةَ في صِنفٍ واحدٍ أجزَأكَ. فلو كانَ لأهلِ كُلِّ صِنفٍ الثُّمُنُ منها كانَ المُعْطي بها صِنفاً واحداً مُخالِفاً لِما أُمِرَ بهِ.

فَعلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الآية مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: أنَّ الخُمُسَ الذي يُتَقرَّبُ بهِ مِنَ الغَنيمةِ إلى اللهِ لا يَسْتَحِقُّهُ إلَّا الرسولُ ومَنْ كانَ مِنَ الأصنافِ التي ذَكَرَه. فإلى أيِّهِمْ دَفَعَ ذلكَ الخُمُسَ أجزَأَهُ. وإذا كانَ التأويلُ ما وَصَفْنا لم يكُنْ لأحدٍ مِنْ هذهِ الأصنافِ أنْ يَدَّعِيَ منهُ خُمُساً أو رُبُعاً، ولكنْ يُعْطى كلُّ مَنْ حَضَرَ منهُمْ بِقَدْرِ فاقَتِهِ وحاجَتِهِ وعلى قَدْرٍ يَراهُ الإمامُ.

فإذا جاء فريقٌ آخَرونَ أُعْطُوا ممَّا يُدفَعُ إلى الإمامِ مِنْ ذلكَ الخُمُسِ مِنَ المالِ كِفايَتَهُمْ. وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابْنِ عُمَرَ أنَّ ابنَ عَباسٍ قال: كانَ عُمَرُ يُعْطِينا مِنَ الخُمُسِ نَحْواً ممَّا كانَ يَرى أنهُ لنا، فرَغِبنا عن ذلكَ، وقُلْنا: حَقُّ ذي القُرْبى خُمُسُ الخُمُسِ، فقالَ عُمَرُ: إنما جَعَلَ اللهُ الخُمُسَ لأصنافٍ سَمَّاها. [فأسْعَدَ بهِ][3] أكْثَرَهُمْ عَدَداً وأشَدَّهُمْ فاقةً، فأخَذَ ذلكَ ناسٌ، وتَرَكَهُ ناسٌ.

وكذلكَ فَعَلَ عُمَرُ لمَّا وُلِّيَ الأمْرَ، [وهو][4] ما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ؛ قالَ: عَرَضَ علينا عُمَرُ أنْ يُزَوِّجَ مِنَ الخُمُسِ أيِّمَنا، ونَقْضِيَ منهُ مَغْرَمَنا، فأبَيْنا عليهِ إلَّا أنْ يُسَلِّمَهُ إلينا، فأبَى ذلكَ علينا. فَدَلَّ فِعلُ عُمَرَ على أنَّ القرابةَ يُعْطَونَ مِنَ الخُمُسِ قَدْرَ حاجَتِهِمْ وما يَسُدُّ بهِ فاقَتَهُمْ؛ إذْ لو كانَ الخُمُسُ حقًّا بجميعِ القرابةِ أعطِيَ مِنْ ذلكَ غَنيُّهُمْ وفَقيرُهُمْ لِقِسْمَةِ رسولِ اللهِ ﷺ فيهِمْ كما قَسَّمَ أربعةَ الأخماسِ بَينَ المُقاتِلَةِ، بل أعْطى منهُ بَعْضَ القرابةِ، وحَرَمَ بَعْضاً لِما ذَكَرْنا في جُبَيرِ بْنِ مُطْعِمٍ.

وممَّا يدلُّ أيضاً على أنَّ ذلكَ لأهلِ الحاجةِ منهُمْ دونَ الكُلِّ ما رُوِيَ أنَّ الفَضلَ ابْنَ عباسٍ [وربيعةَ بنَ عبدِ المطلبِ][5] دَخَلا على رسولِ اللهِ ﷺ وهو يومئذٍ عندَ زينَبَ بنتِ جَحْشٍ، فقال [أحدُهما][6]: يا رسولَ اللهِ أنتَ أبَرُّ الناسِ وأوصَلُ الناسِ، وقد[7] بَلَغْنا النِّكاحَ، فَجِئْناكَ لِتُؤَمِّرَنا على هذهِ الصدقاتِ، فَنُؤَدِّيَ إليكَ ما يُؤَدِّي العُمَّالُ، ونُصيبَ منها ما يُصِيبونَ، فَسَكَتَ طويلاً حتى أرَدْنا [أنْ نُعلِمَهُ ثانياً]، قالَ: وجَعَلَتْ[8] زينبُ تُلْمِحُ إلينا مِنْ وراءِ الحجابِ ألَّا[9] تُكَلِّماهُ، ثم قالَ: «ألا إنَّ الصَّدقةَ لا تَنْبَغِي لآلِ محمدٍ؛ إنما هي أوساخُ الناسِ، ادْعُوا لي مَحْمِيَّةَ، وكانَ على الخُمُسِ، ونَوْفَلَ بْنَ الحارِثِ بْنِ عبدِ المطلبِ، فجاءاهُ، فقالَ لِمَحْمِيَّةَ: أنْكِحْ هذا الغلامَ [الفَضْلَ ابْنَتَكَ][10] فأنْكَحَهُ، وقالَ لنوفَلَ: أنْكِحْ هذا الغُلامَ [يعني ربيعَةَ بْنَ عبدِ المطلبِ][11] ابْنَتَكَ، فأنْكَحَهُ، ثم قالَ لِمَحْمِيَّةَ: [أَصْدِقْ عنهما][12] مِنَ الخُمُسِ كذا وكذا» [مسلم ١٢، الزكاة ٥١ رقمه ١٠٧٢] ودلَّ هذا على أنَّ الحقَّ لهمْ فيهِ لأهلِ الحاجةِ منهُمْ.

ومما يَدُلُّ أيضاً على ذلكَ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «ما لي مِنْ هذا المالِ إلَّا الخُمُسُ، وهو مردودٌ فيكُمْ» [النسائي ٧/ ١٣٢] لم يَخُصَّ القرابَةَ بِشَيءٍ منهُ؛ كانَ سَبيلُهُمْ سَبيلَ أمْرِ المُسْلِمينَ، يُعْطِي مَنْ يحتاجُ منهُمْ كِفايَتَهُ.

وعلى هذا ما[13] أمَرَ بهِ الأئمةُ الراشدونَ[14]، ولم يُغَيِّرْهُ عليٌّ ﷺ لمّا وُلِّيَ الأمْرَ. وكانَ ذلكَ عندَنا ممَّا لا يَجوزُ مُخالَفَتُهُمْ عليهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أسعدهم بها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وفلان. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: ولو. (٨) في الأصل وم: ثانياً وم: ثانيا حتى. (٩) في الأصل وم: أنه. (١٠) في الأصل وم: ابنتك المفضل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: أصدقهما. (١٣) في الأصل وم: مما. (١٤) في الأصل وم: الراشدين.

جنة السنة

فإنْ قِيلَ: لو كانتْ قرابةُ النَّبيِّ ﷺ إنما يُعطونَ مِنَ الخُمُسِ على سَبيلِ الفقْرِ والحاجةِ فهمْ على هذا يدخُلونَ في عُمومِ المساكينِ في ما وَجْهُ ذِكْرِهِ إيَّاهُمْ إذا قِيلَ: إنَّ اللهَ، تبارَكَ، وتعالى، قالَ في الصَّدقاتِ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] ثم رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][(1)] قال: «لا تَحِلُّ الصدقةُ لمحمدٍ ولا لآلِ محمدٍ» [مسلم: ١٠٦٩] فلو لم يُسَمِّهِمُ[(2)] اللهُ في الخُمُسِ جازَ أنْ يقولَ قائلٌ: لا يُعْطَونَ مِنَ الخُمُسِ، وإنْ يكونُوا فُقراءَ، كما لا يجوزُ أنْ يُعطَوا مِنَ الصدقةِ، ولو كانوا فُقراءَ، فكانُوا سَبَبَ ذِكْرِ اللهِ إيَّاهُمْ في الخُمُسِ لذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

ثم اخْتَلَفَ أهلُ العِلْمِ بَعْدَ وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ، في سَهْمِ الرسولِ وسَهْمِ ذي القُرْبَى، فقالَتْ طائفةٌ: سَهْمُ الرسولِ لِلْخليفةِ مِنْ بَعْدِهِ، وسَهْمُ ﴿وَلِذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ لِقرابةِ الخليفةِ. وقالَتْ طائفةٌ: سَهْمُ القُرْبَى لِقرابةِ الرسولِ، وقالَ الحَسَنُ: سَهْمُ القَرابةِ لِقرابةِ الخُلفاءِ. وقالَ غيرُهُ[(3)]: القرابةُ قَرابةُ رسولِ اللهِ.

وقد ذَكَرْنا أنهُ يَحْتَمِلُ أنهُ كانَ لهُ [أنْ][(4)] يَصِلَ بهِ قرابَتَهُ بِحَقِّ الصِّلَةِ، أو يُعْطِيَهُمْ بِحَقِّ القَرابةِ مادامَ حيًّا. ثم ثَبَتَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لا نُورَثُ، وما تَرَكْنا صَدَقَةٌ» [التمهيد ٧/ ١٧٥] فإذا لم يُورَثْ عنهُ ما قد حازَهُ مِنْ سِهامِهِ فكيفَ يُورَثُ عنهُ ما غُنِمَ بَعْدَ وفاتِهِ؟

ولو كانَ سَهْمُهُ الذي لم يَلْحَقْهُ مَوروثاً عنهُ كانَ سَهْمُهُ الذي حازَهُ أحرَى ألّا يُورَثَ عنهُ. فإذا لم يُورَثِ الذي قد حازَهُ، مَلَكَهُ عنهُ الآخَرُ، واللهُ أعلَمُ.

وعنْ عائشةَ أنَّ فاطمةَ والعباسَ أتَيا أبا بَكْرٍ يَلْتَمِسانِ ميراثَهُما مِنْ رسولِ اللهِ، وهما حينئذٍ يَطْلُبانِ أرضَهُ مِنْ فَدَكٍ وسَهْمَهُ مِنْ خَيبَرَ، فقالَ لهم أبو بكرٍ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «لا نُورَثُ، ما تركْنا صَدَقةٌ» إنما يأكُلُ آلُ محمدٍ في هذا المالِ أي حقِّ الغنائمِ. واللهِ لا أدَعُ أمراً رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَصْنَعُهُ إلّا أصنَعُهُ. وفي بعضِ الأخبارِ قالَ: «لا يَقْتَسِمُ وَرَثَتي ديناراً ولا درهماً، ما تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ عاملي ومُؤْنَةِ نسائي فهو صدقةٌ» [مسلم ١٧٦٠].

وعنْ عُمَرَ [أنهُ][(5)] قالَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُنْفِقُ مِمَّا أفاءَ اللهُ عليهِ سُنَّةً، ويَجْعَلُ ما بَقِيَ مالَ اللهِ. ورُوِيَ أيضاً عنهُ [أنهُ][(6)] قالَ: كانَتْ أموالُ بَني النَّضيرِ مِمَّا أفاءَ اللهُ على رسولِهِ، وكانَتْ لهُ خالصةً[(7)]. وكانَ يُنْفِقُ منها على أهلِهِ نَفَقَةَ سَنَةٍ، وما بَقِيَ جَعَلَهُ في الكُراعِ والسلاحِ.

فهذهِ الأخبارُ تُبَيِّنُ أنهُ لم يُورَثْ سَهْمُ النَّبيِّ بَعْدَ وفاتِهِ؛ فهيَ تدلُّ على أنْ لا نَقْدَ بَعْدَ موتِ النَّبيِّ مِنْ خُمُسِ الغنائمِ للخليفةِ شيءٌ[(8)]، وأنَّ ذلكَ كانَ خُصوصاً لرسولِ اللهِ ﷺ كالصَّفِيِّ الذي كانَ لهُ خاصةً دونَ غيرِهِ.

وكما لم يُوجِفْ عليهِ المُسْلِمُونَ بِخَيلٍ ولا رِكابٍ، فكانَ لهُ خاصةً، فَليسَ لأحدٍ لِغَيرِ النَّبيِّ ﷺ خُصوصٌ مِنَ الخُمُسِ كما ليسَ لهُ خُصوصٌ مِنَ الصَّفِيِّ وغَيرِهِ.

وإذا كانَ الأمْرُ في سَهْمِ الرسولِ كما وَصَفْنا، ولم يُنْقَصْ مِنَ الخُمُسِ هو للهِ بَعْدَ مَوتِ النَّبيِّ، ويُخْرَجْ ذلكَ الخُمُسُ كلُّهُ مِنَ الغنيمةِ، فذلكَ يدلُّ على أنَّ الخُمُسَ ليسَ لأهلِ هذهِ السهامِ حقًّا مَقْسوماً، ولكنْ يُعْطَونَ منهُ بِقَدْرِ فاقَتِهِمْ. ويدلُّ ذلكَ أيضاً على أنهُ لا يَجِبُ لِكلِّ صِنْفٍ مِنْ هذهِ الأصنافِ سَهْمٌ معلومٌ؛ لأنا قد رَدَدْنا سَهْمَ النَّبيِّ مِنَ الخُمُسِ على سائِرِ السهامِ.

فكما جازَ أنْ يُرَدَّ عليهِمْ سَهْمُ النَّبيِّ، فكذلكَ يجوزُ أنْ يُجْعَلَ سَهْمُ اليَتامَى أو بَعْضُهُ لِلْمَساكِينِ إذا حَضَرُوا، وطلَبُوا، ولم يَحْضُرِ اليَتامَى؛ لأنَّ المَعْنَى في الآيةِ، واللهُ أعْلَمُ، ألّا يُعْطَى إلّا مَنْ كانَ مِنْ أهلِ هذهِ الأصنافِ. فقد وُضِعَ الحَقُّ في مَوضِعِهِ، ولم يُتَعَدَّ بهِ إلى غَيرِهِ.

ثم الخِطابُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ لا يَحْتَمِلُ كُلًّا في نَفْسِهِ كالخطابِ بأداءِ الزكاةِ

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يسهم. (٣) من م، في الأصل: غير. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة في الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: خالصاً. (٨) في الأصل وم: شيئاً.

جنة السنة

وغيرِها، بلِ الخِطابُ راجعٌ إلى الجماعةِ الذينَ غَنِمُوا. ألَا تَرَى أنَّ العَسْكَرَ والسَّرايا إذا دَخلُوا/ ٢٠١ ـ أ/ دارَ الحربِ، فَتَفرَّقُوا فيها، فَغَنِمَ واحدٌ منهُمْ، يَجبُ ضمُّ ذلكَ إلى جميعِ العَسْكَرِ والسَّرايا، فَعِنْدَ ذلكَ يُخرجُ الخُمُسُ منهُ؟ دلَّ أنَّ الخطابَ بذلكَ راجعٌ إلى جماعةٍ، وهيَ الجماعةُ التي لهمْ مَنَعَةٌ، يقُومونَ للعَدُوِّ، لا أنهُ خاطَبَ كلَّ أحدٍ في نَفْسِهِ، فهذا يدلُّ على أنَّ الواحدَ أوِ الاثنَيْنِ إذا دَخَلَ[1] دارَ الحربِ بِغيرِ إذنِ الإمامِ، فَغَنِمَ غنائِمَ، لا يُخمَّسُ ولكنْ يُسَلَّمُ الكُلُّ.

وأما الغنيمةُ نَفْسُها لا يَحتَمِلُ أنْ تُرْجَعَ إلى أحدٍ مَعْلومٍ أو مِقْدارٍ محدودٍ كالزكاةِ وسائرِ الحقوقِ؛ لأنَّ الغنيمةَ شيءٌ يُؤخَذُ مِنَ الكَفَرةِ، وإنما يُؤخَذُ قَدْرُ ما يُظفَرُ بِهِ، ويُوجَدُ، فلا يُحتَمَلُ أنْ يَرْجِعَ الخطابُ بهِ إلى قَدْرٍ دونَ قدرٍ، بلِ القليلُ مِنْ ذلكَ والكثيرُ سَواءٌ، لا حَدَّ في ذلكَ، ولا مقدارَ، وليسَ كالزكاةِ وغيرِها مِنَ الحقوقِ التي جَعَلَ فيها حَدًّا ومقداراً للوَجْهِ الذي ذَكَرْنا. وأمّا المُصيبونَ لها والآخِذونَ فَلَهُمْ في ذلكَ مقدارٌ، وهُمُ الذينَ لهمْ مَنَعَةٌ.

ثم تُذكَرُ مَسألَةٌ في قِيمةِ السِّهامِ بينَ الرَّجّالةِ والفُرسانِ، وإنْ لم يكُنْ في الآيةِ ذِكْرُ ذلكَ. رُوِيَ عن ابنِ عُمَرَ. [أنهُ][2] قالَ: أعطى رسولُ اللهِ ﷺ يومَ خَيْبَرَ الراجلَ سَهْماً والفارسَ ثلاثةَ أسهُمٍ: سَهْماً له ولِفرسِهِ سَهْمَينِ. وعن ابْنِ عباسٍ ﷺ، [أنهُ][3] قالَ: أسْهَمَ رسولُ اللهِ ﷺ يومَ خَيبَرَ: للراجِلِ سَهْماً، وللفارسِ ثلاثةَ أسهُمٍ: سَهْماً لهُ وسَهْمَيْنِ لِلفَرسِ. ثم رُوِيَ أيضاً عنِ ابْنِ عُمَرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يُقسِمُ للفارسِ سَهْمَيْنِ وللراجِلِ سَهْماً[4] وعنِ المقدادِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أسْهَمَ لَهُ يومَ بَدْرٍ سَهْماً ولِفَرَسِهِ سهماً. وعن عليٍّ [أنهُ][5] قالَ: لِلفارسِ سَهْمانِ. وعنِ المُنْذِرِ [أنه][6] قالَ: بَعَثَهُ عُمَرُ في جَيشٍ إلى مصرَ، فأصابَ[7] غنائِمَ، فَقَسَمَ لِلفارسِ سَهْمَيْنِ[8].

وفي قولِ بعضِهِمْ: أَسْهَمَ لِلفارسِ سَهْمانِ[9] اختلافٌ وتَضادٌّ، فَحَمَلُوا على التناسُخِ. وقد يجوزُ ألّا يكونَ ذلكَ، وقد تكونُ زيادتُهُ التي زادَها[10] للفَرَسِ على سَهْمٍ، إنْ كانَ محفوظاً ثابتاً لِنَفْلٍ نَفَلَهُ لِلأفراسِ حينئذٍ ترغيباً منهُ لِلْمُقاتِلَةِ في اتّخاذِها وتَحريضاً كما يجوزُ أنْ يقولَ الإمامُ: مَنْ قَتَلَ قتيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ، ومَنْ جاءَ برأسٍ كذا فَلَهُ كذا؛ يُحَرِّضُ بذلكَ المُقاتِلَةَ على[11] القِتالِ. فَعَلَى ذلكَ زيادةُ سَهْمٍ لمكانِ الأفراسِ تَرغيباً منهُ وتحريضاً على اتّخاذِها. فأمّا إنْ كَثُرَتِ الأفراسُ فإنَّ سُهمانَها لا تكونُ أكثَرَ من سُهمانِ أصحابِها؛ لأنَّ الفارسَ أكثَرُ غِنًى مِنْ فَرَسِهِ، فإنْ لم يَزِدْ عليهِ لم يُنْقِصْ عمّا يُسْهِمُ.

وكانَ أبو حنيفةَ، رحمَهُ اللهُ، يُسْهِمُ للفارسِ سَهْمَيْنِ، وأبو يوسفَ يَرَى أنْ يُسْهِمَ لِلْفَرَسِ سهمَيْنِ ولصاحِبِهِ سَهْماً[12]. والحُجَّةُ في ذلكَ بقولِهِ: قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦] فكانَتْ [نَخْلُ بَني][13] النَّضِيرِ خالصةً لِرَسولِ اللهِ، ولم يكُنْ لِمَنْ حَضَرَها مِنَ المُسْلِمِينَ شيءٌ، إذْ لم يُوجِفُوا عليها بِخَيلٍ ولا رِكابٍ، وقد أتَوها مُشاةً. فلما مُنِعَ الرَّجّالةُ مِنَ السُّهمانِ لاستِغْنائِهِمْ في غُنْمِها[14] عنِ الخَيلِ جازَ أنْ تُزادَ الخيلُ في السُّهمانِ على سُهمانِ الرَّجالةِ إذا كانَ الرَّجّالةُ[15] يُمْنَعُونَ السهامَ، وإنْ حَضَرُوا، إذا لم يَلْجَؤُوا إلى ركوبِ الخَيلِ.

لكنَّ الحُجَّةَ على هذا ما ذَكَرْنا أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ لم يُحارِبُوا بَني[16] النَّضِيرِ فُرساناً ولا رَجّالَةً، ولوِ احْتاجُوا إلى الحربِ لاحْتاجُوا إلى الخيلِ. فَمِنْ حيثُ [لم][17] يُحارِبُوا عليها لم يَسْتَحِقُّوا منها شيئاً. وإنما [ذَكَرَ لنا][18] اللهُ تعالى سُهولةَ[19] أمرِها، وأنهُمْ لم يُحارِبُوا عليها خَيلاً ولا رِكاباً. وإذا لم يُحارَبْ على مَدينةٍ، فَغَنِمُوا مالاً[20]، فهو مَصروفٌ في مَصالِحِ المُسْلِمِينَ، لا تُجرَى فيهِ السِّهامُ. فكانَتْ [نَخْلُ بَني][21] النَّضِيرِ على ما ذُكِرَ خالِصةً لِلنَّبِيِّ يأخُذُ منها نَفَقَةَ نِسائِهِ، ويَصْرِفُ سائِرَها إلى مَصالِحِ المُسْلِمِينَ.

ومِنَ الدليلِ على أنَّ [بَني][22] النَّضِيرِ لوِ احْتِيجَ فيها إلى حربٍ حارَبَهُمُ النَّبِيُّ وأصحابُهُ رَجّالَةً جَرَتْ في غنائِمِهِمْ

---

(١) في الأصل وم: دخلوا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: سهم. (٥) ساقطة في الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فأصابه. (٨) في الأصل وم: سهمان. (٩) في الأصل وم: سهمين. (١٠) في الأصل وم: زادته. (١١) في الأصل وم: في. (١٢) في الأصل وم: بسهم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: فتحها. (١٥) في الأصل وم: الرجال. (١٦) في الأصل وم: على. (١٧) ساقطة في الأصل وم. (١٨) في الأصل وم: ذكرنا. (١٩) في الأصل وم: على سهولة. (٢٠) في الأصل وم: بمال. (٢١) ساقطة من الأصل وم. (٢٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

القِسْمَةَ؛ إنَّ قوماً مِنَ المُسْلِمينَ لو حَارَبُوا اليَومَ على مدينةٍ مِنْ مدائِنِ الشِّرْكِ رَجَّالَةً قُسِمَ ما يُغْنَمُ منها كما يُقْسَمُ لو كانَ معهمْ فرسانٌ.

ومِنَ الدَّليلِ على ذلكَ أيضاً أنَّ الرَّجالَةَ إذا كانُوا معَ الفرسانِ في الحَرْبِ قُسِمَ كما يُقْسَمُ لِلفارِسِ خاصَّةً. فلو كانَتِ الغنيمةُ إنما تُقْسَمُ لِسَبَبِ الخَيْلِ على ما أُعْطِيَ الرَّجَّالَةُ منها شيئاً؛ إذْ لا أفراسَ لَهُمْ. وذلكَ يُفْسِدُ ما ذَكَرْنا لأبي يوسف.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣ والأنفال: ٣٩] ثم قالَ: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٠] أي وإنْ تَوَلَّوهُمْ، وقد آمنْتُمْ أنتمْ فاعْلَموا أنَّ اللهَ مَولاكُمْ، ليسَ بِمَولًى لَهُمْ.

وقالَتْ طائفةٌ: قولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ ليسَ على الشرطِ على ألّا تكونَ غنيمةٌ إذا لم يكونوا مؤمِنِينَ، ولا يَجِبُ في العَدْلِ في القِسْمَةِ إذا كانُوا غَيرَ مُؤمِنِينَ، ولكنْ على التَّنْبِيهِ والإيقاظِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] ليسَ على أنهُ لا يَجِبُ أنْ يَذَرُوا إذا كانُوا مؤمِنينَ، ولا يَجِبُ أنْ يُطِيعُوا إذا لم يكونُوا مؤمِنِينَ، ولكنْ على ما ذَكَرْنا، فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ قيلَ: قولُهُ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ الملائكةَ الذينَ أرْسَلَهُمْ يومَ بَدْرٍ لِنُصْرَةِ المؤمِنينَ، وأنْزَلَ عليهِمُ المَطَرَ حتى شَدَّ الأرضَ بذلكَ، فاسْتَقَرَّتْ أقدامُهُمْ، وثَبَتَتْ بَعْدَ ما [لا][1] تَقِرُّ الأقدامُ فيها، ولا تَثْبُتُ، وشَرِبُوا منهُ، ورَوُوا، بعدَ ما أصابَهُمُ العَطَشُ؛ إذْ كانَ المُشْرِكُونَ أخذُوا الماءَ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يَوْمَ بَدْرٍ. وقولُهُ ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يوم فَرَّقَ بَينَ الحقِّ والباطِلِ؛ لأنهُ ﷺ، جَعَلَ يَوْمَ بَدْرٍ آيَةً حينَ[2] غَلَبَ المُؤمِنونَ المُشْرِكينَ مع قلةِ عَدَدِهِمْ وضَعْفِ أبدانِهِمْ وفَقْدِ الأسبابِ التي بها يُحارَبُ، ويُقاتَلُ، وكَثْرَةِ العَدُوِّ وقُوَّتِهِمْ وَوُجودِ أسبابِ الحَرْبِ والقتالِ لِيَعْلَمُوا أنهمْ غَلَبُوا أولئكَ، وهَزَمُوهُمْ، بِنَصْرِ اللهِ إيَّاهُمْ. فكانَ آيَةَ فَرْقِ المُحِقِّ منهُمْ والمُبْطِلِ.

وقيلَ: هو يَومُ الفُرْقانِ ويَومُ الجَمْعِ، جَمْعِ النَّبِيِّ والمؤمنِينَ وجَمِيعِ المُشْرِكينَ، ويَومُ الافْتِراقِ افْتِراقِ المشركينَ مِنَ المؤمنينَ انهزامُهُمْ. وهو كما سَمَّى يومَ القيامةِ يَومَ الجَمْعِ في حالٍ ويَومَ الافْتِراقِ في حالٍ أُخرَى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: العُدْوَةُ القُصْوى: شَفِيرُ الوادي الأقصى والعُدْوةُ الدنيا شَفيرُ الوادي الأدنَى. وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ: العُدْوةُ الشَّفيرُ شَفِيرُ الوادي.

وقالَ أبو عَوسَجةَ العُدْوةُ ناحِيةُ الوادِي التي تَلِيهِمْ، وقالَ: إنما سُمِّيَتِ الدنيا، لأنها دنَتْ منها، والآخِرَةُ لأنها استأخَرَتْ. وقيلَ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ: إذْ أنْتُمْ بالعُدْوَةِ العليا، وهُمْ بالعُدْوَةِ السُّفْلى. وقالَ أبو مُعاذٍ: العُدْوةُ والعَدْوَةُ لُغَتانِ، والرَّكْبُ والرُّكْبانُ والرُّكَّابُ والراكبونَ لُغَةٌ. وقالَ: في حَرْفِ حَفْصَةَ: إذْ أنْتُمْ بالعُدْوَةِ القُصْيا.

وقالَ بَعْضُهُمْ: إذْ أنتمْ مَعْشَرَ المؤمنينَ بالعُدْوَةِ الدُّنْيا مِنْ دُونِ الوادي على الشَّطِّ ممَّا يَلي المدينةَ ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ من الجانِبِ الآخرِ ممَّا يَلِي مكةَ؛ يعني مُشْركي مكةَ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني أصحابَ العِيرِ على ساحِلِ البَحْرِ أو على الماءِ. وقالَ قتادَةُ: جَمَعَ اللهُ المُشْرِكينَ والمُسْلِمينَ بِبَدْرٍ على غَيرِ مِيعادٍ عند[4] شَفيرِ الوادي. كانَ المُسْلِمونَ/ ٢٠١ ـ ب/ بأعلاهُ، والمشركونَ بأسفَلِهِ: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أبو سفيانَ انْطَلَقَ بالعِيرِ في رَكْبٍ نَحْوَ البَحْرِ[5]. وقيلَ: إذْ أنتمْ [بأدْنَى مِنَ][6] المدينةِ، وهم بأقصى مما يلي مكةَ على ما ذَكَرْنا.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل: عز وجل، في م، وقوله عز وجل. (٤) في الأصل وم: هما. (٥) في الأصل وم: الحرب. (٦) في الأصل وم: باد في.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ إمّا للخُروجِ نَفْسِهِ وإمّا لِلْمِيعادِ نَفْسِهِ؛ أتخرُجونَ، أو لا تَخرُجونَ؟ أو منكم مَنْ يُؤخِّرُ الخُرُوجَ عنْ وقتِ الميعادِ، ومنكُمْ منْ لا يَخْرُجُ رأساً لِيَنقَضِيَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ يَحْتَمِلُ[1] لِيُنجِزَ اللهُ ما كانَ وَعَدَ مِنَ الظَّفَرِ والنَّصْرِ، أو لِيَقضِيَ اللهُ أمراً كانَ في عِلْمِهِ مَفْعُولاً، لا أنَّ ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ كأنهُ قالَ: وَعَدَ اللهُ [أمراً، كانَ][2] مفعولاً أي مُنجزاً.

ولا[3] يَحْتَمِلُ القضاءُ ابْتِداءَ إنشاءٍ وخَلْقٍ، ولكنْ لِيُنْشِئَ اللهُ ما قد عَلِمَ أنهُ يكونُ كائناً، أو لِيَحْكُمَ ما قد عَلِمَ أنهُ يكونُ كائناً واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ليكفُرَ مَنْ كَفَرَ عن بَيِّنَةٍ وحُجَّةٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ على الحقِّ، وكانَ صادِقاً، ويؤمِنَ منْ آمنَ على مِثْلِ ذلكَ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه، [أنهُ][4] قالَ: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾ قالَ: لِيموتَ منْ ماتَ عن بَيِّنةٍ ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ يقولُ: عنْ بَيانٍ وحُجَّةٍ. وهو، واللهُ أعلَمُ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد كانَ أتاهُمْ بآياتٍ حِسِّيَّةٍ، فَسَمَّوهُ ساحراً، وأخبَرَهُمْ بأنباءٍ ماضيةٍ، كانتْ[5] في كُتُبِهِمْ، فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥ و...] وقالُوا: إنهُ مُعَلَّمٌ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُخالِفُهُمْ في جميعِ صَنيعِهِمْ: منْ عبادَتِهِمُ الأصنامَ والأوثانَ دونَ اللهِ، وكانَ يُخَوِّفُهُمْ، ويوعِدُهُمْ بأشياءَ، وكانَ لا يخافُهُمْ، وهم كانُوا رؤساءَ كُبراءَ، لا يُخالِفُهُمْ أحدٌ في أمْرِهِمْ ونَهْيِهِمْ إلّا مَنْ كانَ بهِ جنونٌ.

فلمّا رأوا رسولَ اللهِ خالَفَهُمْ في جميعِ أمورِهِمْ نَسَبُوهُ إلى الجُنونِ، وقالُوا: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات ٣٩ و٥٢] ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤] فأرادَ اللهُ أنْ يَجْعَلَ لهُ آيةً عظيمةً حتى لا يَقْدِرُوا [على نسبتِهِ][6] إلى شيءٍ ممّا كانُوا يَنْسِبُونَهُ مِنْ قَبْلُ، فَوَعَدَ لهمُ النصرَ والفتحَ يومَ بدرٍ بَعْدَ ما عَلِمَ أولئكَ ضَعْفَ المؤمنينَ وقلةَ عَددِهِمْ لِتكونَ حياةُ مَنْ حيَّ بَعْدَ ذلكَ عنْ بَيِّنَةٍ، وموتُ منْ ماتَ على مِثْلِ ذلكَ، وإنْ كانَ لهُ مِنَ الآياتِ ما لو لم يُعانِدُوا، ولا كابَرُوا عقولَهُمْ لَكانَتْ واحدةٌ منها كافيةً.

فإنْ قيلَ: ما الحِكْمَةُ في ذِكْرِ القصةِ منْ أوّلِها إلى آخِرِها، وهم قد عَلِمُوا ذلكَ كُلَّهُ، وشاهَدُوا؟ قيلَ: يُذَكِّرُهُمُ اللهُ، واللهُ أعلَمُ، بالحالِ التي كانُوا هُمْ عليها والقوةِ والأسبابِ، لئلّا[7] يَكِلُوا إلى الكَثْرَةِ، ولا يَعْتَمِدُوا على القوةِ، ولا يَضْعُفُوا، ولا يَجْبُنُوا، ولا يخافُوا غيرَهُ، لِيَعْرِفُوا أنَّ ما أصابَهُمْ مِنَ الهزيمةِ والغَلَبَةِ أصابَهُمْ لِمَعْصِيةٍ كانَتْ منهُمْ أو إعجاباً بالكَثْرَةِ واعْتِقاداً بالقُوَّةِ والأسبابِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ اختُلِفَ فيهِ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ المَنامُ نفسُهُ؛ كانَ اللهُ يُري رسولَهُ المشركينَ في مَنامِهِ قليلاً، فأخبَرَ [رسولُ][8] اللهِ بذلكَ أصحابَهُ بما رأى، فقالُوا: رُؤيا النَّبيِّ حقٌّ [والقومُ قليلٌ][9] ليسَ كما بَلَغَنا أنهُمْ كثيرٌ. فلمّا الْتَقَوا بِبَدْرٍ قَلَّلَ اللهُ المشركينَ في أعيُنِ المؤمنينَ تَصديقاً لِرُؤيا رسولِ اللهِ.

وقال الحَسَنُ: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ أي في عَينَيكَ التي تنامُ بهما، وهو في اليَقَظَةِ؛ لأنهُ ذُكِرَ أنهُ قالَ: رسولُ اللهِ ﷺ: «تنامُ عيني، ولا ينامُ قَلْبي» [البخاري ٣٥٦٩] وإنما أراهُ إيّاهُمْ قليلاً في العينِ [التي بها ينامُ، وهما][10] عَينا الوجهِ.

---

(١) أدرج قبلها في م: لا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: التي.
(٦) في الأصل وم: بالنسبة. (٧) في الأصل وم: لكن بالله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: القوم قليل، في م: القوم قليلاً.
(١٠) في الأصل وم: الذي به ينام وهو.

جنة السنة

ويدُلُّ على ذلك ما رُوِيَ عنِ ابنِ مَسْعودٍ[1] ﷺ، [أنهُ][2] قالَ: لقد قُلِّلوا في أعيُنِنا يومَ بَدْرٍ حتى قُلْتُ لِصاحِبٍ لي: تَراهُمْ سَبْعِينَ؟ فقالَ: أراهُمْ مِئةً حتى أخَذْنا رجلاً منهمْ، فسألْناهُ، فقالَ: كُنّا ألفًا.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا الثانيَ أنهُ أراهُمْ ورسولَهُ[3] قليلاً في اليَقَظَةِ بالذي [يَراهُ النائمُ][4] فهو ظاهرٌ، فإنْ أراهُ إيّاهُمْ في المنامِ حَقيقةً فَلِقائِلٍ أنْ يقولَ: إنَّ رُؤيا الرسولِ وَحْيٌ، فكيف أراهُ إيّاهُمْ قليلاً، وهُمْ كثيرٌ، خِلافَ ما هُمْ في الحقيقةِ؟ قيلَ: يَحتَمِلُ أنْ يكونَ أراهُ بعضَهُمْ لا الكُلَّ، فهو حقيقةُ ما أراهُ إيّاهُمْ. فلذلكَ قِيلَ: واللهُ أعلَمُ، جائزٌ أنْ يكونَ أرى أصحابَهُ إيّاهُمْ قليلاً، وإنْ أضافَ ذلكَ إلى رسولِ اللهِ.

دليلُهُ ما ذُكِرَ في آخِرِهِ حيثُ قالَ: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ [الأنفال: ٤٤] وذلكَ كثيرٌ في القرآنِ أنْ يُخاطِبَ بهِ رسولَهُ، والمرادُ غيرُهُ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] ومعلومٌ أنَّ نزولَ هذهِ الآيةِ بعد وفاةِ والديهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ أي لَجَبُنْتُمْ، ولَتَنازَعْتُمْ في الأمرِ، أي [اخْتَلَفْتُمْ في أمرِ][5] القتالِ والحربِ، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ قيلَ: ﴿سَلَّمَ﴾ أتَمَّ[6] للمسلمينَ أمرَهُمْ على عَدُوِّهِمْ، فَهَزَمَهُمْ، ونَصَرَهُمْ عليهِمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿سَلَّمَ﴾ أي أجابَ للمسلمينَ لَمّا استغاثُوا، واسْتَنْصَرُوهُ، بالنصرِ والظَّفَرِ لهُمْ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عَليمٌ بما في قلوبِ المؤمنينَ مِنَ الجُبْنِ والفَشَلِ وأمرِ عَدُوِّهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الآيةَ لَمّا رأوُا الملائكةَ لأنفُسِهِمْ أنصارًا وأعوانًا؛ إذْ كانَ قد وَعَدَ لَهُمُ النصرَ والإعانةَ بالملائكةِ وكانَ العَدُوُّ معَ الملائكةِ، فاستَقَلُّوا [العَدُوَّ][8] لأنَّ العَدُوَّ، وإنْ كانوا كثيراً، فهمْ قليلٌ مع الملائكةِ، فَرَأوهُمْ قليلاً على ما كانوا. وقَلَّلَ هؤلاءِ في أعيُنِ أولئكَ؛ لأنهمْ كذلكَ[9] كانوا قليلاً، فَرَأوهُمْ[10] على ما كانُوا، ولم يَرَوُا الملائكةَ. وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: قَلَّلَ هؤلاءِ في أعيُنِ هؤلاءِ، وهؤلاءِ في أعينِ هؤلاءِ إذِ الْتَقَوا لِيُغْرِيَ بَعْضَهُمْ على بعضٍ، ولِيُجَرِّئَ بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ على القتالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ لِيُنْجِزَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ النَّصْرِ والظَّفَرِ للمؤمنينَ والغَلَبَةِ والهزيمةِ على أولئكَ. وكذلكَ ذُكِرَ في القصةِ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] في بَدْرٍ فيهِ وَعَدَ ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥].

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ﴾ أي لِيَخْلُقَ اللهُ، ويُنْشِئَ ما قد عَلِمَ أنهُ يكونُ كائناً، أو لِيَفْصِلَ بينَ الحَقِّ والباطِلِ ممّا قد عَلِمَ أنه يكونُ كائناً.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ﴾ في عِلْمِهِ ﴿مَفْعُولًا﴾ كائناً؛ يقولُ، فَيُوجِبُ أمراً، لابُدَّ [أنهُ][11] كائنٌ لِيُعِزَّ الإسلامَ وأهلَهُ بالنَّصْرِ، ويُذِلَّ الشِّرْكَ وأهلَهُ بالقَتْلِ[12] والهزيمةِ، واللهُ أعلَمُ. وهو قريبٌ مما ذَكَرْنا.

[وقولُهُ تعالى][13]: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إلى اللهِ يَرْجِعُ تدبيرُ الأمورِ وتقديرُها[14]؛ إذْ لهُ التدبيرُ في ذلكَ في الدنيا والآخِرَةِ.

وذُكِرَ [في][15] بعضِ القصةِ أنَّ أبا جَهْلٍ لَمّا رَأى قِلَّةَ المُؤمنينَ بِبَدْرٍ قالَ: واللهِ لا يُعْبَدُ اللهُ بَعْدَ اليومِ، فأكْذَبَهُ اللهُ، وقَتَلَهُ، فقالَ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لا إلى الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: عباس. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: أخلفتم. (٦) في الأصل وم: وأتم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: لذلك. (١٠) في الأصل وم: فَرَأوا. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، في الأصل، بالنصر. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: وتقديره. (١٥) في الأصل وم: أمر.

جنة السنة

وأمْرُ بدرٍ مِنْ أوّلِهِ إلى آخِرِهِ كانَ آيَةً حتى عَرَفَ كُلُّ أحدٍ ذلكَ إلّا مَنْ عانَدَ، وكابَرَ عقلَهُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ﴾ قيلَ: الفِئةُ اسْمُ جَماعةٍ يُنحازُ إليها، وهو مِنَ الفَيْءِ والرجوعِ، يَفيئونَ إليها، ويَرْجِعُونَ. ذَكَرَ ههنا الفِئةَ، وذَكَرَ في الآيةِ التي تَقَدَّمَتْ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا﴾ مكانَ الفِئَةِ، ونَهَى أولئكَ عنْ تَولِيَةِ الأدبارِ بقولِهِ ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] وقالَ ههنا: ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ لِيُعْلَمَ أنَّ في النَّهْيِ عَنْ تولِيَةِ الأدبار أمْراً[1] بالثباتِ/ ٢٠٢ ـ أ/ وفي[2] الأمرِ بالثباتِ نَهياً[3] عنْ تولِيَةِ الأدبارِ [بقولِهِ ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] وقالَ ههنا: ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾][4] فيكونُ في النَّهْيِ عنِ الشيءِ أمْرٌ بِضِدِّهِ، والأمْرُ بالشيءِ نَهْيٌ عنْ ضِدِّهِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ قالَ أبو بكرٍ الكَيسانِيُّ: قولُهُ ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ أي اذْكُروا اللهَ في ما تَعبُّدَكُمْ مِنْ طاعَتِهِ، وَوَعَدَكُمْ مِنْ نَصْرِهِ، ولا تَنْظُرُوا إلى الكَثْرَةِ فَتَظْفَرُوا.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ في ما لَكُمْ مِنْ أنْفُسِكُمْ وأموالِكُمْ لهُ، إنْ شاءَ أخذَها منكُمْ بوجهٍ تَتَقرَّبُونَ بهِ إلى اللهِ، فاذْكُرُوا اللهَ على ذلكَ، وهو ما ذَكَرَ [في][5] قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ الآيةَ [التوبة: ١١١].

ويَحْتَمِلُ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ في النِّعَمِ التي أنْعَمَها عليكُمْ. أو يقولُ: اذكُرُوا المُقامَ بينَ يَدَي ربِّ العالَمينَ، وذلكَ يمنَعُكُمْ[6] مِنَ المَعاصي والخِلافِ لأمْرِهِ ويُبْغِضُ ما يُرَغِّبُكُمْ عنْ طاعَتِهِ، فيكونُ على هذا التأويلِ الأمْرُ بِذِكْرِ الأحوالِ.

ويَحْتَمِلُ الأمْرَ بِذِكْرِ اللهِ باللسانِ، وذلكَ بَعْضُ ما يُسْتَعانُ بهِ في أمْرِ الحربِ ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ لكي تفلحوا بالنَّصْرِ والظَّفَرِ، ﴿تُفۡلِحُونَ﴾ أي تَظْفَرُونَ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أطيعُوا اللهَ في ما يَأمُرُكم بالجِهادِ والثباتِ مع العَدُوِّ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في ما يَأمُرُكُمْ بالمُقامِ في المكانِ والثباتِ وتَرْكِ الاخْتِلافِ والتَّنازُعِ في الحَرْبِ، وذلكَ بَعْضُ ما يُسْتَعانُ بهِ في أمرِ الحَرْبِ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾ أي لا تُنازِعُوا رسولَ اللهِ ﷺ في ما يَأمُرُكُمْ بهِ، وعمَّا يَنْهاكُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦] لأنكُمْ إذا تَنازَعْتُمُ اخْتَلَفْتُمْ، فإذا اخْتَلَفْتُمْ تَفرَّقْتُمْ، فإذا تَفرَّقْتُمْ فَشِلْتُمْ، وجَبُنْتُمْ، فلا تُنْصَرُونَ، ولا تَظْفَرُونَ على عدوِّكُمْ [بل يَظْفَرُ بكُمْ عدوُّكُمْ][7].

أو يُقالُ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ لأنكُمْ إذا تنازَعْتُمْ تَباغَضْتُمْ، فَيَشْغَلُكُمُ التَّباغُضُ بأنْفُسِكُمْ، فيبقى الجهادُ مَعَ العَدُوِّ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَصْرُكُمْ وظَفَرُكمْ، وقالَ بَعْضُهُمْ: يَذْهَبُ ريحُ دَوْلَتِكُمْ، ويَحْتَمِلُ الريحَ التي بها تُنْصَرُونَ.

وعلى ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][8] قالَ: «نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهْلِكَ عادٌ بالدَّبُورِ» [البخاري ١٠٣٥] وهو ما [ذَكَرَ اللهُ تعالى][9] ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ [الأحزاب: ٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ﴾ أي اصْبِرُوا لِلجِهادِ لِقتالِ عدوِّكُمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنَّصْرِ لَهُمْ والظَّفَرِ.

وفي هذهِ الآيةِ تأديبٌ مِنَ اللهِ المؤمنينَ، وتَعْليمٌ منهُ في ما ذَكَرْنا؛ أي في أمْرِ الحَرْبِ وأسبابِ القتالِ والمُجاهَدَةِ مَعَ العَدُوِّ؛ لأنهُ أمَرَهُمْ بالثباتِ، وأمَرَهُمْ بِذِكْرِ اللهِ، ونَهاهُمْ عنِ التَّنازُعِ والاخْتِلافِ، وذلكَ بعضُ ما يُسْتَعانُ بهِ في الانْتِصارِ على عَدُوِّهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: أمر. (٢) الواو ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: نهي. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: بالذي. (٧) في الأصل: ظفر بكم عدوكم، في م: بل ظفر بكم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: وم: ذكرنا.

جنة السنة

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ قولُهُ ﴿بَطَرًا﴾أي كُفراً بِنِعَمِ اللهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ الآية [النحل: ١١٢] فعلى ذلكَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ كُفراً بأنْعُمِ اللهِ، لأنهُمْ خَرَجُوا إلى قِتالِ محمدٍ، وهو من أعظَمِ نِعَمِ [اللهِ][١]، كُفراناً وتكبُّراً؛ أي خَرَجُوا مُتَكَبِّرِينَ كافِرينَ.

و[قولُهُ تعالى][٢]: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ تحتمِلُ مُراآتُهُمْ وجهَينِ.

أحدُهما: مُراآتُهُمْ في الدينِ لأنهُمْ قالُوا: اللَّهُمَّ انصُرْ أهدانا سَبيلاً وأوصَلَنا رَحِماً وأقْرانا ضَيفاً، وعندَهُمْ[٣] أنهمْ على حَقٍّ، وأنَّ المؤمنينَ على باطلٍ.

والثاني[٤]: مُراآتُهُمْ في أمرِ الدنيا لأنهُمْ كانُوا أهلَ ثروةٍ ومالٍ وأهلَ عُدَّةٍ وقُوَّةٍ؛ خَرَجُوا مُرائينَ الناسَ؛ لأنهُمْ[٥] كانُوا أهلَ الشرفِ عندَهُمْ، فخرجُوا لِمُراآةِ الناسِ.

[وقولُهُ تعالى][٦] ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يَصُدُّونَ الناسَ عنْ دينِ اللهِ. أخبَرَ ﷺ، عنْ خروجِ أولئكَ الكَفَرَةِ أنهُمْ خَرجُوا لِما ذُكِرَ، فكانَ فيهِ أمْرٌ لِلمؤمنينَ بالخروجِ على ضِدِّ ذلكَ، كأنهُ قالَ: اخرُجُوا على ضِدِّ ما خَرَجُوا هُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحدُهما][٧]: عِلْمُهُ محيطٌ بهِمْ، لا يغيبُ عنهُ شيءٌ مِنْ مكائدِهِمْ وحِيَلِهِمْ والمكرِ برسولِ اللهِ لِلدَّفعِ[٨] عنهُ والنصرِ لهُ.

والثاني: محيطٌ بما يَعْمَلُونَ، يَجْزيهِمْ، ويُكافِئُهُمْ، ولا يَفوتُ عنهُ شيءٌ على الوعيدِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ بالوَساوِسِ، ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وإنما قالَ لَهُمْ هذا، ووَسْوَسَ لهمْ لَمَّا أُلقِيَ إليهِمْ أنكُمْ حَرَمُ اللهِ وسُكّانُ بيتِهِ وحُفّاظُهُ. فيقولُ: يدفعُ عنكُمْ نكبةَ هؤلاءِ؛ يعني أصحابَ محمدٍ، كما دَفَعَ عنكُمْ في ما كانَ من قَبْلُ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ قيلَ: مُجيرٌ لكُمْ مُغيثٌ. فعلى هذا التأويلِ كانَ قولُهُ ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ كأنَهُ يُخبِرُ عنِ اللهِ أنهُ يُغيثُهُمْ كما أغاثَهُمْ مِنْ قَبْلُ في غيرِ مَرَّةٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ الشيطانَ تَمَثَّلَ في صورةِ رجلٍ، يُقالُ لهُ سُراقةُ بْنُ مالكِ بْنِ جُعْشُمٍ، فأتاهُمْ، فقالَ: لا ترجِعوا حتى تَسْتأصِلوهُمْ، فإنكمْ كثيرٌ، وعَدُوُّكُمْ قليلٌ، فَيَأمَنَ غيرُكُمْ، ونَحْوَ هذا منَ الكلامِ.

وقالَ صاحبُ التأويلِ الأوّلِ: لا يَحْتَمِلُ هذا لأنَّ أهلَ مكةَ كانوا جَبابِرَةً، وأهلَ قوةٍ وبَطْشٍ وبأسٍ، فلا يَحْتَمِلُ أنْ يَصْدُرُوا لآراءِ رجلٍ، هو دونَهُمْ، وهم بالوصفِ الذي ذَكَرْنا. وعلى هذا التأويلِ أنهُ تَمَثَّلَ بهِ فلانٌ يكونُ قولُهُ ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ ما ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنَّ أبا جهلٍ وأصحابَهُ اعتَزَلُوا، واستشاروا في ما بَيْنَهُمْ، فأتاهُمْ إبليسُ مُتَمَثِّلاً بِسُراقَةَ، فامْتَنَعُوا عنهُ، واسْتَأخَرُوا. فلما رأى ذلكَ منهمْ، فقالَ: ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ وكانَ جاراً لهمْ. فتأويلُ هؤلاءِ أشبهُ بما ذُكِرَ في آخِرِ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي رَجَعَ مستأخِراً مُقبِلاً بوجهِهِ[٩] إليهِم ﴿وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إذا عاقبَ. قيلَ: رأى جبريلَ معَ الملائكةِ يَنزِلونَ، فخافَ منهُمْ. ففيهِ دلالَةُ أنهُ كانَ يخافُ الهلاكَ قبلَ اليومِ[١٠] المعلومِ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الذينَ في قلوبِهِمْ مَرَضٌ المشركونَ ﴿غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾. وعنِ الحسنِ ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [أنهُ][١١] قالَ: هُمْ قومٌ لم يَشْهَدُوا القِتالَ يومَ بَدْرٍ، فَسُمُّوا منافِقينَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وتحتمل. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: وقوله: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أي. (٨) في الأصل وم: في الدفع. (٩) الباء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يوم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ قوماً كانوا أسلَمُوا بمكةَ، فأقاموا بها معَ المُشركينَ، ولم يُهاجِرُوا إلى المدينةِ، فلمَّا خرجَ كُفَّارُ مكةَ إلى بدرٍ خرجَ هؤلاءِ مَعَهُمْ. فلمَّا عايَنُوا قلةَ المؤمنينَ وضَعفَهُمْ شَكُّوا في دينِهِم، وارْتابُوا، فقالوا[1]: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ يَعْنُونَ أصحابَ محمدٍ.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فَيَثِقْ بِوَعدِهِ في النَّصرِ ببدرٍ [رَغْمَ قولِهِمْ][2] ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لا يُعجِزُهُ شيءٌ.

قالوا[3]: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ لأنهُ لم يكُنْ معهمْ عُدَّةٌ ولا أسبابُ الحربِ مِنَ السلاحِ وغيرِهِ، فلم يكونوا يُقاتلونَ إلَّا لقوةِ دينِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾. إنْ[4] قِيلَ لنا: ما الحكمةُ في ذِكْرِ قولِ المنافِقِينَ في القرآنِ حتى نَتْلُوهُ في الصلاةِ؟ قيلَ: ذِكْرُهُ[5] واللهُ أعلَمُ، لِنَعْرِفَ عظيمَ منزلةِ الدينِ وخطيرَ قَدْرِهِ في قلوبِهِمْ؛ أعني قلوبَ المؤمنينَ، وذلكَ أنهمْ بذلُوا أنْفُسَهُمْ لِلْهَلاكِ لِخروجِهِمْ لقتالِ عَدُوِّهِمْ معَ ضَعْفِهِمْ وكَثْرَةِ أعدائِهِمْ وقوتِهِمْ رجاءَ أنْ يَسْلَمَ لهُمْ دينُهُمْ. يَذْكُرُ لنا لِنَعْرِفَ عظيمَ محلِّ الدِّينِ في قلوبِهِمْ ليكونَ مَحَلُّ الدينِ في قلوبِنا على مِثْلِ قَدْرِهِ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ لأنهمْ إنما قالوا ذلكَ سِرًّا في ما بَيْنَهُمْ، فأطلَعَ اللهُ رسولَهُ على ذلكَ، لِيُعْلَمَ أنهُ عَرَفَ باللهِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ/ ٢٠٢ - ب/ المشركونَ. قالَ المنافقونَ والمشركونَ [عنِ المؤمنينَ][6] ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ وقالَ بَعْضُهُمْ: همْ قومٌ أسلَمُوا، وقد كانوا ضُعَفاءَ في الإسلامِ والدينِ، فلمَّا خرجوا إلى بدرٍ فرأوا ضَعْفَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وقوةَ أولئكَ القومِ قالُوا عندَ ذلكَ: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾. وقد ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنَّ قوماً كانوا أسلَمُوا بمكةَ، ثم أقاموا مع المشركينَ، ولم يُهاجِرُوا إلى المدينةِ، فلمَّا خَرَجَ كُفَّارُ مكةَ إلى قِتالِ بدرٍ خَرَجَ هؤلاءِ مَعَهُمْ. فلمَّا عايَنُوا قِلَّةَ المسلِمينَ شَكُّوا في دينِهِمْ، وارْتابُوا، فقالُوا مع المُنافِقِينَ: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ يَعْنُونَ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ مِنَ المؤمنينَ، فَيَثِقْ بهِ في النصرِ [رَغْمَ قولِهِمْ][7] ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يَجِيءُ أنْ يكونُوا[8] هُمُ المنافقينَ[9] على ما فَسَّرَهُ في آيةٍ أُخرَى. فإنْ كانَ على ذلكَ فيكُونُ على إسقاطِ الواوِ، وكأنهُ يقالُ: يقولُ المنافقونَ الذينَ في قلوبِهِمْ مَرَضٌ إلَّا أنْ يُقالَ: إنَّ المنافقينَ هُمُ الذينَ أضْمَرُوا الكُفْرَ حقيقةً والذينَ لم يُضمِرُوا الكُفْرَ، لكنهمُ ارتابُوا، وشَكُّوا، واعْتَرَضَهُمْ[10] شَكٌّ وارتيابٌ مِنْ بعدِ أنْ[11] رَأَوا تأخُّرَ الموعودِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ.

أحَدُهُما: قالُوا: غَرَّ المَوعُودُ الذي وَعَدَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الفُتوحِ لهمْ والنصرِ في الدنيا. يقولونَ: غَرَّ ذلكَ الموعودُ الذي كانوا بهِ مِنَ الفتوحِ والنصرِ الذي وَعَدَ لهمْ.

والثاني: يقولونَ: غَرَّ هؤلاءِ المَوعودُ الذي وُعِدُوا في الآخِرَةِ مِنَ النَّعيمِ الدائمِ والحياةِ الدائمةِ.

فيكونُ أحدُ التأويلَينِ بالمَوعودِ في الآخِرَةِ، وهو بالإسلامِ يكونُ، والثاني بالمَوعودِ في الدنيا، وهو الفَتْحُ والنَّصْرُ الذي ذَكَرْناهُ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: لقولهم. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) في الأصل وم: فإن. (٥) الهاء ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: للمؤمنين. (٧) في الأصل وم: لقولهم. (٨) في الأصل وم: يكون. (٩) في الأصل وم: المنافقون. (١٠) في الأصل وم: واعترض. (١١) في الأصل وم: إذا.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾ لَمَّا رَأوا أنهم تَركُوا آباءَهُم وجميعَ شَهواتِهِم، وبذَلُوا أنْفُسَهُمْ لِلقتالِ لِيَسْلَمَ لهم دِينُهُمْ، لذلكَ قالُوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾ لِما لم يكُن خُروجُهُمْ وبذلُهُمْ أنفسَهُمْ لذلك إلّا إشفاقاً وخوفاً على دِينِهِمْ؛ وطَلَبُوا لمَّا بذلُوا أنْفُسَهُمْ حياةَ الأبَدِ في الآخِرَةِ، فقالوا ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي اعْتَمَدَ على اللهِ في حربِ بدرٍ على ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ والنصرِ فيهِ.

قولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ العزيزُ في هذا الموضعِ هو الغالِبُ ﴿حَكِيمٞ﴾ ممَّا أمَرَ بالقَتْلِ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ قال بعضُهُم: الآيةُ مُقابِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧] يقولُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي يَقْبِضُ أرواحَ الذين كَفَرُوا؛ كيفَ يَقبِضونَ أرواحَهُمْ؟ وكيفَ ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾؟ كأنهُ قالَ: واللهُ أعْلَمُ، لو رأيتَ الحالَ التي يَقْبِضُ فيها [الملائكةُ][1] أرواحَهُمْ وما يَنْزِلُ [بِهِمْ][2] لَرَأيتَ أنَّ ما عَمِلُوا مِنْ صَدِّ الناسِ عنْ سبيلِ اللهِ واسْتِكبارِهِمْ على المؤمنينَ وخُروجِهِمْ لقتالِ أصحابِ رسولِ اللهِ أنَّ ما عَمِلُوا بأنفُسِهِمْ لا بالمؤمنين.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذُكِرَ مِنْ فِعْلِ الملائكةِ يومَ بدرٍ؛ لأنَّ الآيةَ ذُكِرَتْ في قصةِ بدرٍ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ في كُلِّ كافرٍ أنَّ الملائكةَ يَفْعَلُونَ بهِ ما ذَكَرَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الآية [الأنعام: ٩٣] هذا في كلِّ كافِرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ لَيسَ على إرادةِ حقيقةِ الوجهِ والدُّبُرِ، ولكنْ على إرادةِ إيصالِ الألمِ إليهِمْ بكلِّ ضَرْبٍ وكُلِّ جِهَةٍ كقولِهِ تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ [الزمر: ١٦] لَيسَ على إرادةِ التَّحتِ والفَوقِ ولكنْ على إرادةِ إحاطةِ العذابِ بِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ﴾ في إقبالِهِمْ [على][3] المؤمنينَ ﴿وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ في حالِ إدبارِهِمْ وانْهِزامِهِمْ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ ذَكَرَ تقديمَ اليدِ، وإنْ كانَ الكُفْرُ مِنْ عَمَلِ القَلْبِ، لِما باليدِ يُقَدَّمُ في العُرْفِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ في[4] الآيةِ دلالةُ الرَّدِّ على المُجْبِرَةِ لأنهمْ لا يجعلُونَ للعبيدِ في أفعالِهِمْ صُنْعاً، يجعلونَ حقيقةَ الأفعالِ للهِ.

وذَكَرَ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ فلو لم لهمْ صُنْعٌ لم يكُنْ لقولِهِ ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ مَعْنًى، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ فلو لم يكنْ لَهُمْ لَكانَ التَّعْذِيبُ ظُلْماً. دَلَّ أنَّ لَهُمْ فِعلاً، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ في ما شَرَعَ مِنَ القتالِ والإهلاكِ والتعذيبِ في الآخِرَةِ؛ لأنهُ مَكَّنَ لهمْ ما يكسِبُونَ بهِ مِنَ النجاةِ والحياةِ الدائمةِ، فما لَحِقَهُمْ ممَّا ذَكَرَ إنما كانَ باكتسابِهِمْ واختيارِهِمْ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: صنيعُ هؤلاءِ أي صنيعُ أهلِ مكةَ بمحمدٍ كَصَنيعِ فِرْعَونَ وقومِهِ بموسى في التكذيبِ والكُفرِ بآياتِهِ. وقالَ قائلونَ: صُنْعُ اللهِ بأهلِ مكةَ بالعقوبةِ كصنيعِهِ بِفِرْعَونَ وآلِهِ ومَنْ سَبَقَ مِنَ الأمَمِ مِنَ الإهلاكِ والتعذيبِ. وقد فَعَلَ بأهلِ مكةَ يومَ بَدْرٍ بِسوءِ معامَلَتِهِمْ محمداً[5] [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿كَدَأۡبِ﴾ قِيلَ: كصنيعٍ، وقِيلَ: كَفِعْلٍ، وقِيلَ: كأشباهٍ، وقِيلَ كَعَمَلٍ، وهو واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي لا يُضْعِفُهُ شيءٌ، يَمْنَعُهُ عمَّا يُريدُ.

---

(١) و(٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وفي. (٥) في الأصل وم: موسى. (٦) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلكَ العَذابُ والعِقابُ الذي ذَكَرَهُ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

قالَ قائلونَ: النعمةُ التي أنعَمَها عليهِمْ همُ الرسلُ الذين[1] بَعَثَهُمْ إليهِمْ والكُتُبُ التي أنزَلَها عليهِمْ ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾ لتلكَ النِّعَمِ ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [مِنَ التكذيبِ][2] والرَّدِّ وتَرْكِ القَبولِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية [القصص: ٥٩].

وقالَ قائلونَ: قولُهُ تعالى: ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي حتى يَصْرِفوا شُكْرَ نِعْمَةٍ إلى غيرِ اللهِ، ويَعْبُدُوا[3] دونَهُ؛ أي يُغَيِّرُوا[4] ما بأنفسهم؛ يَعْبُدُونَ غيرَ اللهِ، ويَشكُرُونَ غيرَ الذي أنْعَمَ عليهِمْ. فعندَ ذلكَ يُغيِّرُ[5] اللهُ ما بِهِمْ مِنَ النِّعْمَةِ. وكذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ: [تغييرًا][6] نِعْمةٍ مِنَ النِّعَمِ أنْ يَتَوَلَّوا[7] عن شُكرِها يُغَيِّرُها اللهُ عليهِمْ، ويأخُذُها منهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: النعمةُ الدُّنياويَّةُ: لا تَتَغَيَّرُ تلكَ عليهِمْ إلا بتَغْييرٍ مِنْ قِبَلِهِمْ: إمّا بتَرْكِ الشُّكرِ[8] وإمّا بِصَرْفِهِ إلى غيرِ الذي أنعَمَها عليهِمْ، ولو غُيِّرَتْ عليهِمْ بِبَدَلٍ فَلَيسَ ذلكَ في الحقيقةِ تَغْييرًا[9].

[والثاني: تَحْتَمِلُ النعمةُ [النعمةَ][10] الدينيَّةَ، وهي[11] تكذيبُهُمُ الرسلَ وردُّهُمُ الكُتُبَ بَعْدَما أقسَمُوا أنهم يكونونَ ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] واختيارُهُمُ الشِّرْكَ والكُفرَ على الإسلامِ والتوحيدِ. فإذا اختاروا تَغْييرَ[12] ذلكَ غَيَّرَ عليهِمْ][13].

[وقولُهُ تعالى][14]: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قيلَ: أي ﴿سَمِيعٌ﴾ لِشُكرِ مَنْ يَشكُرُهُ، ويَحْمَدُهُ ﴿عَلِيمٌ﴾ لِزيادةِ النِّعْمَةِ إذا شُكِرَ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿سَمِيعٌ﴾ أي مُجيبٌ عليهِمْ بِمَصالِحِهِمْ./٢٠٣ - أ/ ويَحْتَمِلُ أنهُ ﴿سَمِيعٌ﴾ لِما أسَرُّوا مِنَ القَولِ، وجَهَرُوا بهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بما أضْمَرُوا مِنَ العَمَلِ والشُّرورِ.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ فإنْ قِيلَ: ما فائدةُ تَخْصيصِ ذِكْرِ آلِ فِرْعَونَ مِنْ بَيْنِهِمْ؟ وما الحكمةُ في تكرارِ قولِهِ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؟ قِيلَ: يَحْتَمِلُ ذِكْرُ آلِ فِرْعَونَ لِما كانُوا أقْرَبَ إلى هؤلاءِ مِنْ غَيرِهِمْ مِمَّنْ كانَ قَبلَهُمْ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾؟ [المزمل: ١٥] وأنهُ[15] يَذكُرُ أهلَ الكتابِ منهُمْ لِما كانوا يُنْكِرُونَ بَعْثَ الرسلِ مِنْ غَيرِهِمْ، ويقولونَ: إنَّ محمداً أُمِّيٌّ بُعِثَ إلى الأُمِّيِّينَ مِثْلِهِ؟ فقالَ: إنَّ موسَى لم يكُنْ مِنَ القِبْطِ، فَبُعِثَ رسولاً إليهِمْ. فَعَلَى ذلكَ محمدٌ كانَ أُمِّيًّا، فَبُعِثَ إلى الأُمِّيِّينَ وغيرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وأما فائدةُ التَّكْرارِ، واللهُ أعلَمُ، فهو[16] أنهُ ذَكَرَ في الآيةِ الأُولَى الأخذَ بالذنوبِ والتعذيبِ، ولم يُبَيِّنْ ما كانَ ذلكَ العذابُ، فَبَيَّنَ في الآيةِ الأُخرَى أنَّ ذلكَ العذابَ هو الإهلاكُ والاسْتِئْصالُ حينَ[17] قالَ: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٢] في الآخِرَةِ بِكُفْرِهِمْ بآياتِ اللهِ في الدنيا، وذَكَرَ في إحْدَى[18] الآيتينِ العذابَ في الآخِرَةِ، وفي الآيةِ الأُخرَى الإهلاكَ في الدنيا.

---

(١) في الأصل: التي. (٢) في الأصل وم: بالتكذيب. (٣) في الأصل وم: ويعبدون. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: لا. (٥) في الأصل وم: غير. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: تولوا. (٨) في الأصل وم: الشرك. (٩) في الأصل وم: تغيير. (١٠) ساقطة في الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وهو. (١٢) في الأصل وم: التغيير. (١٣) أدرج هذا الوجه في الأصل وم: بعد العبارة: وأخذها منهم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: وأن. (١٦) في الأصل وم: وهو. (١٧) في الأصل وم: حيث. (١٨) من م، في الأصل: أحد.

جنة السنة

ولأنهُ ذَكَرَ في الآيةِ الأُولى الكُفْرَ بآياتِ اللهِ، ولم يُبيِّنْ ذلك [وذكر][١] في الآيةِ الأُخرَى التكذيبَ بآياتِهِ. فَبيَّنَ أنَّ[٢] الكُفْرَ بآياتِهِ هو تكذيبُها.

ثم التكذيبُ إنما يكونُ في الأخبارِ، وكذلكَ التصديقُ. وفيهِ دلالةُ أنَّ الإيمانَ هو التصديقُ لأنهُ جَعَلَ مقابلَهُ وضِدَّهُ التكذيبَ. وفيهِ دلالةُ أنَّ الإيمانَ لَيسَ هو المَعْرِفَةَ لأنَّ مقابِلَهُ الجهلُ باللهِ، لَيسَ هو التكذيبَ، لكنْ بالمعرفةِ يكونُ التصديقُ، وبالجهلِ يكونُ التكذيبُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ذَكَرَ ههنا أنَّ ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرَى ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢] هُمْ شَرُّ الدوابِّ حينَ[٣] سَمِعُوا الآياتِ والحقَّ، وعَقَلُوها، فلم يُؤمنُوا بها؛ أي لم يَنْتَفِعُوا بما عَقَلُوا ممَّا وَقَعَ في مَسامِعِهِمْ وممَّا دَرَسُوا كَمَنْ لا سَمْعَ لهُ، ولا لِسانَ. نَفَى عنهُمْ ذلكَ لِما لم يَنْتَفِعُوا بما عَقَلُوا.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ في الآخِرَةِ؛ أي[٤] يُبعَثُونَ يومَ القيامَةِ عندَ اللهِ صُمًّا بُكماً لِما لم يَنْتَفِعُوا في الدنيا بهذِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ الآية [الإسراء: ٩٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي شَرٌّ مِنَ ﴿ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهو كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] أخبَرَ أنَّ الذينَ كَفَرُوا باللهِ، وكَذَّبُوا بآياتِهِ أضَلُّ مِنَ الأنعامِ. وقد ذَكَرْنا فائدةَ قولِهِ: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ في مَوضِعِهِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ أي شَرَّ مَنْ يَدُبُّ على وجهِ الأرضِ مِنَ المُمْتَحَنِينَ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. ثم يكونُونَ[٥] بهذا الوَصْفِ إذا خُتِمُوا بالكُفْرِ وتَرْكِ الإيمانِ.

ثم اختُلِفَ فيهِ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَ في بَني قُرَيظَةَ؛ عاهَدُوا رسولَ اللهِ، ثم أعانُوا مُشرِكي مكةَ على رسولِ اللهِ بالسلاحِ وغيرِهِمْ، فأقالَهُمْ رسولُ اللهِ، وكانُوا يَقُولُونَ: نَسِينا، وأخطأنا، ثم عاهَدَهُمْ ثانيةً، فَنَقَضُوا العَهْدَ.

الآية ٥٦ فذلكَ قولُهُ: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ نَقْضَ العَهْدِ، أو ﴿لَا يَتَّقُونَ﴾ الشِّرْكَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: نَزَلَ قولُهُ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ في المَرَدَةِ والفراعِنَةِ مِنَ الكفارِ؛ كانوا عَقَلُوا ما سَمِعُوا، ودَرَسُوا، ولكنْ غَيَّرُوها، فلم يُؤمِنُوا بهِ.

على هذا حَمَلَ أهلُ التأويلِ تأويلَ الآيةِ، وإلى ما ذَكَرْنا صَرَفُوا[٦]. وإلَّا صَرْفُ الآيةِ إلى أهلِ النِّفاقِ أولَى؛ لأنهُمْ هُمُ المَعْرُوفُونَ بِنَقْضِ العَهْدِ مَرَّةً[٧] بَعْدَ مَرَّةٍ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾ قِيلَ: تَأسِرَنَّهُمْ في الحربِ، وقِيلَ: تَلْقَيَنَّهُمْ في الحربِ، وقِيلَ: تَجِدَنَّهُمْ في الحربِ. ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ قِيلَ: نَكِّلْ بِهِمْ مَنْ بَعْدَهُمْ؛ أي اصْنَعْ بِهِمْ ما يُنَكِّلُونَ مَنْ خَلْفَهُمْ، أي يَمْنَعُونَ، وقِيلَ: فَعِظْ بهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ أي مَنْ سِواهُمْ.

الآيةُ نَزَلَتْ في قومٍ؛ عَلِمَ اللهُ أنهُمْ لا يُؤمنونَ، وكانَ مِنْ عادَتِهِمْ نَقْضُ العَهْدِ، فأمَرَ[٨] ﷺ رسولَهُ أنْ يُنَكِّلَ بِهؤلاءِ[٩] لِيكونَ ذلكَ عِبْرَةً وزَجراً لِمَنْ بَعْدَهُمْ، إنْ لم يَكُنْ ذلكَ لهمْ زجراً، فيكونُ في تنكيلِ هؤلاءِ مَنْفَعَةٌ لِغيرِهِمْ إذا رَأَى غيرُهُمْ أنهُ فَعَلَ بهؤلاءِ ما ذَكَرَ. يكونُ ذلكَ زَجْراً لهمْ عنْ مِثْلِ صَنِيعِهِمْ.

ولهذا ما قالَ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] مَنْ رَأَى أنهُ بهِ امْتَنَعَ عنْ قَتْلِ آخَرَ، فيكونُ في ذلكَ حياةُ الخَلْقِ، وكذلكَ ما جَعَلَ مِنَ القتالِ ونَصْبِ الحربِ في ما بَيْنَهُمْ رَحْمَةً؛ لأنَّ في الطباعِ النِّفارَ عنِ القَتْلِ. فإذا رأى أنهُ يُقْتَلُ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) أدرج في الأصل قبلها: هم. (٥) من م، في الأصل: يكون. (٦) ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: ومرة. (٨) في الأصل وم: فأمرهم. (٩) في الأصل وم: هؤلاء.

جنة السنة

بِتَرْكِهِ الإسلامَ أجابَ إلى اللهِ إشفاقاً على نَفْسِهِ وخَوفاً على تَلَفِ مُهْجَتِهِ، فيكونُ في القتالِ رَحْمَةٌ. وكذلكَ جميعُ ما جَعَلَ اللهُ في ما بَينَ الخَلْقِ مِنَ العقوباتِ في النَّقْضِ. وما دونَ النَّفْسِ جَعَلَ زواجِرَ وموانِعَ عنِ المُعاوَدَةِ إلى مِثْلِهِ.

فعَلَى ذلكَ قولُهُ ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ عِظَةً وزَجْراً لِمَنْ بَعْدَهُمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لكي يذكُروا[1] النَّكالَ فلا يَنْقُضوا العَهْدَ. وكذلكَ كُلُّ مَرغوبٍ في الدنيا ومَرهوبٍ جَعَلَ دَواعِيَ وزواجِرَ لِمَوعودٍ في النارِ، وجَعَلَ كُلَّ لذيذٍ وشَهِيٍّ في الدنيا داعياً لِما وَعَدَ في الآخِرَةِ، وكُلَّ كَريهٍ وقَبيحٍ زاجراً لهُ عنِ المَوعودِ في الآخِرَةِ في النارِ. على هذا بِناءُ أمْرِ الدنيا. والتَّشريدُ قالَ أبو عُبَيْدَةَ: معناهُ مِنَ التَّفْرِقَةِ؛ أي فَرِّقْ بِهِمْ.

وقالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي افْعَلْ بِهِمْ فِعْلاً مِنَ العُقوبَةِ والتَّنْكيلِ، يَتَفَرَّقُ بِهِ مَنْ وراءَهُمْ مِنَ الأعداءِ. وقالَ[2]: ويُقالُ: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾ سَمِّعْ بِهِمْ بلغةِ قُرَيشٍ، وقيلَ: [نَكِّلْ بِهِمْ أيِ اجْعَلْهُمْ][3] عِظَةً لِمَنْ وراءَهُمْ وهو ما ذَكَرْنا.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: التَّنْكيلُ: التَّخويفُ والرَّدُّ عَمَّا يُكْرَهُ، والنَّكالُ العذابُ. وقالَ غيرُهُ: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي اخْلُفْهُمْ بِهِمْ بما صَنَعَ هؤلاءِ.

وقالَ أبوعُبَيْدٍ: التَّشريدُ في كلامِهِمُ التَّبديدُ والتَّفريقُ، وبعضُهُ قريبٌ مِنْ بَعْضٍ.

قالَ أبو عوسجَةَ: قولُهُ: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي نَكِّلْ بِهِمْ حتَّى يَخافَكَ مَنْ خَلْفَهُمْ، والشريدُ الطريدُ، والشريدُ أيضاً القليلُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي لا تَفْعَلْ بِهِمْ مِثْلَ ما فَعَلُوا مِنَ الخيانةِ [فتكونَ أنتَ وهمْ في الخيانةِ][4] سَواءً؛ لأنَّ عندَكُمْ أنكُمْ مُعاهِدونَ على عهدٍ بَعْدَ عهدٍ. ولكنِ انْبِذْ إليهِمْ، ثم ناصِبْ في ما بَينَهُمُ الحربَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: هو على حَقيقةِ الخَوفِ، يقولُ: إذا خِفْتَ منهُمُ النَّقْضَ أوِ الخِيانَةَ ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي ألْقِ إليهِمْ نَقْضَكَ لتكونَ أنتَ وهُمْ في العِلْمِ بالنَّقْضِ سَواءً.

وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: قولُهُ: ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي أظْهِرْ لهمْ أنكَ عَدُوٌّ وأنكَ مُناصِبٌ حتى يَعْلَمُوا ذلكَ، فَتَصيرُوا على ذلكَ سَواءً. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي على أمْرٍ بَيِّنٍ.

قالَ أبوعُبَيْدٍ: قالَ غيرُ واحدٍ مِنْ أهلِ العِلْمِ ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أعْلِمْهُمْ أنكَ تريدُ أنْ تُحارِبَهُمْ حتى يَصيروا مِثْلَكَ في العلمِ، فذلكَ السَّواءُ.

قالَ الكِسائيُّ: السَّواءُ العَدْلُ، وقالَ: ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي سِرْ إليهِمْ، وقد علمُوا بكَ، وعلِمْتَ بهِمْ، وبَعْضُها[5] قريبٌ مِنْ بعضٍ.

وحاصِلُ التأويلِ/ ٢٠٣ ـ ب/ هو [التأويلانِ اللذانِ][6] ذَكَرْتُهما، واللهُ أعْلَمُ.

وأصْلُ العَهْدِ ما ذَكَرَ ﷻ في آيةٍ أخرى، وهو قولُهُ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤] أمَرَ ﷻ بإتمامِ العَهْدِ إلى المُدَّةِ إذا لم يَنْقُصُونا شيئاً، ولم يَخونُوا، ولم يُظاهِرُوا علينا أحداً منهُم. فإذا فَعَلُوا شيئاً مِنْ ذلكَ فَلَنا أنْ نَنْقُضَ العَهْدَ الذي كانَ بَيْنَنا وبَينَهُمْ، إذا سَألُونا؛ لَيسَ للإمامِ أنْ يُعْطِيَ لهمُ العَهْدَ إذا لم يكُنْ في العَهْدِ مَنْفَعَةٌ لِلْمُسلمينَ مَنْفَعَةٌ ظاهرةٌ، وخَيْرٌ[7] لهم مراعاةُ ذلكَ العَهْدِ وحِفْظُهُ. فإذا خافَ منهُمْ فَلَهُ نَقْضُهُ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: يذكرون. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: نكلهم أي جعلهم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وبعضهم. (٦) في الأصل وم: التأويلين اللذين. (٧) في الأصل وم: وخيرا.

جنة السنة

ثم إذا كانت[1] تلك الخيانةُ مِن جُمْلَتِهِمْ أو مِمَّنْ لهُ مَنْفَعَةٌ فَلَهُ أنْ يُناصِبَ مَعَهُمُ الحَرْبَ، وإنْ لم يَنْبِذُوا إليهِمْ. وإذا كانَ ذلكَ مِنْ بَعْضٍ على سَبيلِ التَّلَصُّصِ والسَّرِقَةِ فَلَيسَ لهُ أنْ يُحارِبَهُمْ إلّا بَعْدَ النَّبْذِ إليهِمْ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: لا تَحْسَبَنَّ الذينَ نَجَوا قد[2] تَخَلَّصُوا منكَ يا محمدُ مِنَ المشرِكينَ إني لأُظفِرُكَ بِهِمْ في غَيرِهِ مِنَ الحروبِ والمَغازِي، وإنهمْ يقولونَ، ويُعجِزونَ اللهَ عن ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ويَفُوتونَ عنْ نَقْمَةِ اللهِ وعذابِهِ.

وقَرَأَ بَعْضُهُمْ: بِنَصْبِ[3] الألِفِ: أَنَّهُمْ يُعجِزونَ فَمَنْ قَرَأَ بالنَّصْبِ طَرَحَ لا، وجَعَلَها صِلَةً، وقالَ: لا تَحْسَبَنَّ أنهم يُعجِزونَ وأمّا قراءةُ العامَّةِ فهيَ بالخَفْضِ ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ وقيلَ: المُعْجِزُ السابِقُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ قال بَعْضُهُمْ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ولا تَخْرُجُوا إلى الحروبِ والمَغازِي[4] كما خَرَجْتُمْ إلى بَدْرٍ بلا سلاحٍ ولا قوةٍ لأنهُ أرادَ أنْ يَجْعَلَ حَرْبَ بَدْرٍ آيةً لِيُمَيِّزَ بَيْنَ المُحِقِّ والمُبْطِلِ وبَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ. لِذلكَ أمَرَكُمْ بالخروجِ إليهِ بلا سلاحٍ ولا عُدَّةٍ. وأمّا غيرُها مِنَ الحُروبِ والمَغازِي فلا تَخْرُجوا إليها إلّا مُسْتَعِدِّينَ لها.

وبَعْدُ فإنهُمْ إنما تَرَكُوا الِاسْتِعْدادَ طاعةً لربِّهِمْ، وفي الِاشْتِغالِ بالِاسْتِعْدادِ تَرْكٌ للطاعةِ لهُ. وأمَرَ ﷻ بالإعدادِ[5] لهم ما اسْتَطاعوا مِنَ الأسبابِ لِما أنَّ ذلكَ أرْهَبُ لِلعَدُوِّ مِنْ تَرْكِ الِاسْتِعْدادِ، وإنْ كانَ ﷻ قادراً أنْ يَنْصُرَهُمْ على عَدُوِّهِمْ بلا أسبابٍ[6] يَجْعَلُها لأنفُسِهِمْ، وهو كقولِهِ ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣] فأمَرَ اللهُ بالأسبابِ في الحروبِ، وإنْ كانَ قادراً على نَصْرِ أوليائِهِ على عَدُوِّهِ بلا سَبَبٍ.

لكنهُ أمَرَ بالأسبابِ لِما أنَّ جميعَ أمورِ الدنيا جَعَلَها بالأسبابِ مِنْ نَحْوِ الموتِ والحياةِ وجميعِ الأشياءِ، وإنْ كانَ يَقْدِرُ على إبقاءِ الإنسانِ والخلائقِ جميعاً بلا غِذاءٍ؛ يَجْعَلُ لهمُ [الحياةَ][7] والموتَ بلا مَرَضٍ ولا سَبَبٍ، ولكنْ فَصَّلَ بما ذَكَرْنا.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: القوةُ: الرَّمْيُ. وعلى ذلكَ رَوَوا عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][8] قالَ: «﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ فقالَ: ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ» قالَ ذلكَ ثلاثاً [مسلم ١٩١٧].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ما تَقْوَوْنَ بِهِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: القُوَّةُ السِّلاحُ، وقالَ غَيرُهُمْ[9]: الخيلُ. وأمْكَنَ أنْ تكونَ جميعَ الأسبابِ لِلحَرْبِ[10].

وفيهِ دلالةٌ أنَّ القوةَ التي هي أسبابُ الفِعْلِ يجوزُ أنْ تَتَقَدَّمَ، ويكونُ قولُهُ ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٢] أرادَ اسْتِطاعَةَ الفِعْلِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أمَرَ بِرِباطِ الخَيلِ والإعدادِ لِلحَرْبِ رَهْبَةً لِلعَدُوِّ ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ اخْتَلَفَ أهلُ التأويلِ فيهِ:

قالَ بَعْضُهُمْ: تُرْهِبُونَ بِرِباطِ الخيلِ المشركِينَ. وقالوا[11] ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ اليهودَ والنَّصارى، وهؤلاءِ الذينَ كانُوا في ما بَيْنَهُمْ، يُرْهِبُونَ[12] هؤلاءِ أيضاً.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ الذينَ كانُوا بَيْنَهُمْ لا يَعْرِفُونَهُمْ كانُوا طلائعَ[13] لِلْمُشرِكينَ وعُيوناً لَهُمْ، يُخْبِرُونَهُمْ عنْ حالِ المؤمنينَ، يُرْهِبُونَ[14] هؤلاءِ أيضاً.

---

(١) في الأصل وم: كان. (٢) في الأصل وم: و. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ٢/ ٤٥٨ وحجة القراءات ص ٣١٢. (٤) في الأصل وم: من المغازي. (٥) في الأصل وم: بالاعتداد. (٦) في الأصل وم: سبب. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: غيره. (١٠) في الأصل وم: الحرب. (١١) في الأصل وم: وقال. (١٢) في الأصل وم: يرهب. (١٣) في الأصل وم: طلائعا. (١٤) في الأصل وم: يرهب.

جنة السنة

وقالَ آخَرونَ: قولُهُ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ هُمُ الشياطينُ، ورَوَوا على ذلكَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «هُمُ الشياطينُ» وقالَ: «لَنْ يُخبِلَ الشياطينُ إنساناً في دارِهِ فَرَسٌ عَتِيقٌ» [ابن حجر في المطالب العالية ٣٦٣٠].

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ هُمُ الأعداءُ الذينَ يكونونَ مِنْ بَعْدُ إلى يومِ القيامةِ ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فإنْ كانَ ذلكَ فَفيهِ دَلالةُ بقاءِ الجهادِ إلى يومِ القيامةِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ هُمُ الشياطينُ ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فإنْ قِيلَ: أيُّ رَهْبَةٍ تَقَعُ للشياطينِ في ما ذُكِرَ مِنْ رِباطِ الخَيلِ والسلاحِ الذي ذُكِرَ؟ قيلَ: ألّا يكونَ لأوليائِهِمْ رَهْبَةٌ في قَمْعِ أوليائِهِمْ، أو يكونَ لأوليائِهِمْ رَهْبَةٌ نَسَبَ ذلكَ إليهِمْ. وذلكَ كثيرٌ في القرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ سَمّى عَدُوَّ اللهِ [وعَدُوَّكُمْ عَدُوًّا][(1)] للمؤمنينَ لِيَعْلَمَ مَنِ اعْتَقَدَ عَداوةَ اللهِ صارَ عَدُوًّا للمؤمنينَ، ومَنِ اعْتَقَدَ وِلايةَ اللهِ صارَ وَلِيًّا للمؤمنينَ، ومَنْ كانَ وَلِيًّا للمؤمنينَ كانَ[(2)] وليًّا للهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أخبَرَ أنَّ ما أنفَقُوا في سَبيلِ اللهِ يُوَفّى إليهِمْ[(3)] ذلكَ. أمّا الخُلْفُ في الدنيا [فهو][(4)] لقولِهِ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩] وأمّا في الآخرةِ [فهو][(5)] الثوابُ.

[وقولُهُ تعالى][(6)]: ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [فيهِ وجهانِ]:

أحَدُهُما][(7)]: في ما يأمُرُكُمْ بالجهادِ في سَبيلِ اللهِ واتّخاذِ العُدَّةِ والإنفاقِ فيها؛ إذْ أنفُسُكُمْ وأموالُكُمْ لِلّهِ؛ لهُ أنْ يأخُذَها مِنكُمْ.

والثاني: ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ في الثوابِ في الآخِرةِ؛ أي يُعْطيكُمُ الثوابَ، أوِ الخُلْفَ في الدنيا، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ قُرِئَ بالنَّصْبِ ﴿لِلسَّلَمِ﴾ وقُرِئَ بالخَفْضِ لِلسِّلْمِ وقالَ[(8)] أهلُ اللغةِ: مَنْ قَرَأَ بالنَّصْبِ ﴿لِلسَّلَمِ﴾ حَمَلَ على المُصالَحَةِ والمُوادَعَةِ، ومَنْ قَرَأَ بالخَفْضِ لِلسِّلْمِ جَعَلَ ذلكَ في الإسلامِ العَهْدَ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال: ٥٦].

يقولُ: لا يَمْنَعُكَ عنِ الصُّلْحِ مَعَهُمْ ما كانَ منهُمْ مِنَ النَّقْضِ ونَكْثِ العُهودِ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تَخَفْ خِيانَتَهُمْ ونَقْضَهُمُ العَهْدَ فإنَّ اللهَ يُطْلِعُكَ، ويكفيكَ على ذلكَ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: قولُهُ: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾ أي إذا خَضَعُوا، وتواضَعُوا، للإسلامِ فاقْبَلْ منهُمْ، واخْضَعْ لَهُمْ. كقولِهِ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] أمَرَهُ بِخَفْضِ الجَناحِ لَهُمْ، وكقولِ أبي بكرٍ؛ ذَكَرَ ههنا أنهُمْ إذا طَلَبُوا الصُّلْحَ مِنّا يَلْزَمُنا أنْ [نَقْبَلَ ذلكَ منهُمْ][(9)] وإذا لَمْ يَطْلُبُوا مِنّا ذلكَ لا يَحِلُّ لنا أنْ نَطْلُبَ منهُمُ الصُّلْحَ إلّا أنْ نُضْطَرَّ إلى ذلكَ. وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى [حينَ قالَ][(10)] ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥] نَهانا أنْ نَدْعُوَهُمْ إلى الصُّلْحِ، ولنا قُوَّةٌ وعُدَّةٌ لِلقتالِ مَعَهُمْ. وأمّا إذا كانُوا طَلَبُوا مِنّا ذلكَ أوَّلاً فَيُجابُونَ إلى ذلكَ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا أي لا يَمْنَعُكَ ما[(11)] كانَ منهُمْ مِنْ نَقْضِ العَهْدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ يَحْتَمِلُ ذِكْرُهُ بالتأنيثِ؛ أي لِلْمُسالَمَةِ والمُصالَحَةِ. وقالَ بَعْضُهُمْ:

السِّلْمُ يَأْخُذُ مِنّا ما رَضِيتَ بِهِ ... والحَرْبُ تَكْفِيكَ مِنْ أنفاسِها جُرَعُ

فإنْ قيلَ: ما المَعْنى في قولِ مَنْ قالَ بالإسلامِ بقولِهِ: ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ وهو كانَ يَدْعُو إلى الإسلامِ، وهو/ ٢٠٤ ـ أ/ لا

---

(١) في الأصل: وعدوكم سمى عدو الله، في م: وعدوا. (٢) في الأصل وم: يكون. (٣) في الأصل وم: عليهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٤٦٠ وحجة القراءات ص ٣١٢. (٩) في الأصل وم: نعطيهم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: لما.

جنة السنة

شكَّ أنهُ كانَ يَقْبَلُ منهُمُ الإسلامَ؟ قيلَ: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الأمْرُ بالقَبولِ أمراً بِتَرْكِ المُؤاخَذَةِ لِما[1] كانَ منهُمْ في حالِ نَقْضِ العَهْدِ لأنَّ مِنْ قولِنا: إنَّ ما أصابُوا في حالِ العَهْدِ مِنَ الجِراحاتِ والأخذِ يُتْبَعُونَ بها، ويُؤاخَذونَ، إذا أسلَمُوا. وإذا نَقَضُوا العَهْدَ، ثم أصابُوا شيئاً مِنْ ذلكَ، ثم أسلَمُوا، لم يُؤاخَذُوا بذلكَ، فَيَحْتَمِلُ أنْ يقولَ لهمْ: ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ ولا تؤاخِذْهُمْ بِما كانَ منْهُمْ في حالِ نَقْضِ العَهْدِ.

وقالَ الحَسَنُ: هذا مَنْسُوخٌ؛ نَسَخَها قولُهُ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآيةَ [التوبة: ٢٩] وقالَ بَعْضُهُمْ: نَسَخَها قولُهُ: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ٣٦] وقالَ بَعْضُهُمْ: [نَسَخَها][2] قولُهُ: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥].

والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا أنَّ الإمامَ إذا رَأى الصُّلْحَ والمُوادَعَةَ نَصْراً لِلْمُسْلِمينَ أجابَهُمْ إلى ذلكَ، وصالَحَهُمْ. وإذا طَلَبُوا منهُ الصُّلْحَ، وبالمُسْلِمينَ قُوَّةُ القتالِ والحَرْبِ مَعَهُمْ، لم يُجِبْهُمْ إلى ذلكَ. وما ذَكَرَ هؤلاءِ مِنْ نَسْخِهِ فذلكَ لا نعرفُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ في الصُّلْحِ ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي أمكَنَكَ اللهُ منهُمْ كقولِهِ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ [الأنفال: ٧١].

وإنْ كانَ قولُهُ ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ في الإسلامِ فيكونُ قولُهُ: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي يُطْلِعُكَ اللهُ على ما في قلوبِهِمْ مِنَ النِّفاقِ؛ أي وإنْ خِفْتَ منهُمْ أنهُمْ يُظْهِرُونَ لكَ الإسلامَ في الظاهِرِ، ويكونونَ في السِّرِّ على ما كانُوا مِنْ قَبْلُ فلا يَمْنَعْكَ ذلكَ عَنْ قَبولِ الإسلامِ منهُمْ، فإنَّ اللهَ يُطْلِعُكَ [على][3] ذلكَ، ويَكْفيكَ ذلكَ[4]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالملائكةِ الذينَ أنْزَلَهُمْ مَعونةً للمؤمنينَ يومَ بَدْرٍ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المؤمنينَ [الذينَ][5] كانوا مَعَهُ. فأخبَرَ أنهُ يُؤَيِّدُهُ بِنَصْرِهِ وبِنَصْرِ المؤمنينَ. وكانَ النَّصْرُ لهُ باللهِ في الحقيقةِ.

فقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] النَّصْرُ مِنَ اللهِ يكونُ مَرَّةً في الأسبابِ: بالمؤمنينَ وبِغَيرِ ذلكَ مِنَ الأسبابِ، ومَرَّةً باللُّطْفِ منهُ بلا سَبَبٍ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بالدينِ الذي اجتَمَعُوا عليهِ كقولِهِ: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠٣] أخبَرَ أنهُمْ كانُوا أعداءً ماداموا في الكُفْرِ، فلمّا أسلَمُوا صارُوا إخواناً.

ولكنْ عندَنا الإسلامُ يُوجِبُ التأليفَ والاجتماعَ بَينَهُمْ[6]، ولكنْ يجوزُ ألّا يُوجَدَ التأليفُ، وإنْ أُوجِدَ[7]، لِيُعْلَمَ أنَّ اللهَ هو الذي يؤلِّفُ بَينَهُمْ بِلُطْفِهِ وفَضْلِهِ بقولِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ وقد يجوزُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ تأليفِ القلوبِ، يكونُ مَرَّةً بالدينِ ومَرَّةً باللُّطْفِ مِنَ اللهِ. فإذا كانَ الخِلافُ والعَداوةُ بَينَهُمْ بِسَبَبِ الدينِ فإنهُ إذا وُجِدَ الوِفاقُ ارْتَفَعَ الخلافُ والعَداوةُ، وإذا كانَ لِلأطماعِ فهو يَرْتَفِعُ باللُّطْفِ مِنَ اللهِ ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمْرِهِ وحُكْمِهِ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ وحَسْبُكَ مَنِ ﴿ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كَفاكَ اللهُ في العَوْنِ والنَّصْرِ لكَ، وكَفاكَ للمؤمنينَ أيضاً في ما ذَكَرْنا. وقالَ بَعْضُهُمْ ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ نُصْرَةُ اللهِ، وحَسْبُكَ نَصْرُ المؤمنينَ؛ وهو على ما ذَكَرَ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢] والأوَّلُ أشبَهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: ما. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: على ذلك. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: بينهما. (٧) في الأصل وم: وجد.

جنة السنة

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ التَّحريضُ على القِتالِ يكونُ بوجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يُعِدَّ لهمْ مِنَ المَنافِعِ في الدنيا، ويُطْمِعَ لهمْ ذلكَ مِنْ نَحْوِ ما جاءَ مِنَ التَّنفيلِ أنَّ مَنْ فَعَلَ كذا فلَهُ كذا، أو يُعِدَّ لهمُ المنافعَ في الآخرةِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١١] وما ذَكَرَ مِنَ الثوابِ في الآخِرَةِ بالنَّفَقَةِ التي يُنْفِقُونَها في سَبيلِ اللهِ قولُهُ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية [الصف: ١٠] في ما ذَكَرْنا فيهِ وَعْدُ المَنافِعِ لهمْ في الدنيا والآخِرَةِ وَوَعْدُ النَّصْرِ لهمْ.

والثاني: يكونُ التَّحريضُ بِضَرَرٍ يَلْحَقُ أولئكَ ونَكْبَةٍ تَصِلُ إليهِمْ كقولِهِ: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ إلى قولِهِ ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٣ و١٤ و١٥].

جَمَعَ اللهُ ﷻ في هذهِ الآيةِ جميعَ أنواعِ الخيرِ الذي يكونُ في القتالِ مَعَ العَدُوِّ ومِنْ وَعْدِ النصرِ للمؤمنينَ عليهِمْ وإدخالِ السرورِ في صدورِهِمْ ونَفْيِ الخوفِ عنهمْ وتعذيبِ أولئكَ بأيديهِمْ. وفيهِ إغراءٌ على العَدُوِّ بقولِهِ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فذلكَ كلُّهُ يُحَرِّضُ على القتالِ، ويُرَغِّبُهُمْ في الحَرْبِ مَعَ العَدُوِّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية اخْتُلِفَ في مَعْنَى هذا. قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟﴾ كذا على الأمرِ؛ كأنهُ قالَ: لِيَكُنْ منكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا كذا؛ أَمَرَ العَشَرَةَ القِيامَ لِمِئَةٍ، وقالَ: دليلُهُ أنهُ على الأمرِ قولُهُ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٦] ولو لم يكُنْ على الأمرِ والعَزيمَةِ لم يكنْ لِذِكْرِ التخفيفِ مَعْنًى.

وقالَ آخَرُونَ: هو على الوَعْدِ[1] أنهمْ إذا صَبَرُوا، وثَبَتُوا لِعَدُوِّهِمْ، غَلَبُوا عَدُوَّهُمْ على ما أَخْبَرَ ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] لَيسَ على الأمرِ لأنهُ قالَ ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ أخبَرَ أنهُمْ إذا صَبَرُوا غَلَبُوهُمْ، وهو كذلكَ. واللهُ أعلَمُ، إذْ ظاهِرُهُ وَعْدٌ وخَبَرٌ. والأشْبَهُ أنْ يكونَ على الأمرِ، ليسَ على الخَبَرِ على ما ذَكَرْنا مِنْ قولِهِ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ ما لَهُمْ، وما عليهِمْ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [فيهِ وجهانِ]:

أحَدُهما: إنْ[2] قيلَ: ما مَعْنَى قولِهِ ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ وقد كانَ يَعْلَمُ أنَّ فيهِمْ ضَعْفاً[3] وقْتَ ما أَمَرَ العَشَرَةَ القِيامَ لِمِئَةٍ والعِشرينَ لِمِئَتَيْنِ؟ قيلَ: أَمَرَ بذلكَ مَعَ عِلْمِهِ أنَّ فيهم ضَعْفاً، وإنْ كانَ في ذلكَ إهلاكُ أنْفُسِهِمْ، وذلكَ منهُ عَدْلٌ، إذْ لَهُ الأنفُسُ، إنْ شاءَ أتْلَفَها بالموتِ، وإنْ شاءَ بالقَتْلِ بِقَتْلِ العَدُوِّ.

والتَّخفيفُ منهُ رَحْمَةٌ وفَضْلٌ؛ أَمْرُ الواحدِ القِيامَ لِعَشَرَةٍ على عِلْمٍ منهُ بالضَّعْفِ ابْتِداءَ امْتِحانٍ منهُ، ولهُ أنْ يَمْتَحِنَ عبادَهُ بما فيهِ وُسْعُهُمْ وبما لا وُسْعَ لهمْ فيهِ. وفي الحكمةِ ذلكَ، إذْ لَهُ الأنفُسُ، لهُ أنْ يُتْلِفَها كيفَ شاءَ بما شاءَ؛ وهو ما ذَكَرَ قولَهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٦٦] ولو لم يكُنْ لهُ في الحكمةِ ذلكَ لا يَحْتَمِلُ أنْ يَكْتُبَ ذلكَ عليهِمْ.

والثاني: يَعْلَمُ فيهِمُ الضَّعْفَ، كائناً شاهِداً كما عَلِمَ أنهُ يكونُ؛ وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] أي يَعْلَمَ المجاهدَ كما عَلِمَ أنهُ يجاهِدُ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

ثم ذِكْرُ العَشَرَةِ والعِشْرينَ يَحْتَمِلُ على التحديدِ، ويَحْتَمِلُ لا على التحديدِ. ألا تَرَى أنهُ ذَكَرَ في الناسِخِ عَدَداً غيرَ العَدَدِ الذي في المَنْسُوخِ؛ لأنَّ في المَنْسُوخِ ذِكْرَ العِشرينَ لِمِئَتينِ، وفي الناسخِ ذِكْرَ الألفِ لا لِغَيرِ بقولِهِ: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؟

---

(١) في الأصل وم: الوعيد. (٢) في الأصل: فان. (٣) في الأصل وم: ضعف.

جنة السنة

فإنْ كانَ لا على التحديدِ فَيَلْزَمُ لِواحدٍ القِيامُ لاِثنَيْنِ، وفي الأوَّلِ الواحدُ لِعَشَرةٍ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ عن عُمَرَ ﷺ، [أنهُ](١) قالَ: إذا لَقِيَ الرجلُ رجلَيْنِ مِنَ الكفارِ، فاستَأْثَرَ، فلا فِداءَ لهُ علينا، فإذا لَقِيَ ثلاثةً فأكثرَ فَعَلَيْنا فِداؤُهُ، ولم يَجْعَلْ للواحدِ الفرارَ مِنِ اثْنَيْنِ حينَ(٢) جَعَلَ عليهِ الفِداءَ.

وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ، أنهُ قالَ ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ/ ٢٠٤ ـ ب/ على التحديدِ، إذا كَمُلَ العَدَدُ لم يَسْمَحْ بالفرارِ، ويَلْزَمُهُمُ القِيامُ لهمْ. وإذا كانوا دونَ ذلكَ لم يَلْزَمْ.

وكذلكَ قالَ الحَسَنُ: أَمَرَ أنْ يَصْبِرَ عشرونَ لِمِئَتَيْنِ، إنْ فَرُّوا منهُمْ لم يُعْذَرُوا، وأنْ يَصْبِرَ الألفُ لألفَيْنِ، إنْ فَرُّوا منهُمْ لم يُعْذَرُوا. قالَ: ثم أنزَلَ اللهُ ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ فأمَرَ أنْ يَصْبِرَ مِئَةٌ لِمِئَتَيْنِ، وإنْ فَرُّوا منهُمْ لم يُعْذَرُوا، وأنْ يَصْبِرَ الألفُ للألفَيْنِ؛ إنْ فَرُّوا منهُمْ لم يُعْذَرُوا. فإنْ كانَ على التَّحديدِ فهو ما يَقولُونَ: إنهُمْ لم يكونُوا مَنَعَةً، فإنهُ يَسَعُهُمْ ألاّ يُقاتِلُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الصَّبْرُ هو حَبْسُ النفسِ على ما أَمَرَ اللهُ، وكَفُّها عن جَميعِ شَهَواتِها ولَذَّاتِها. فإذا فَعَلَ ذلكَ غَلَبَ على العَدُوِّ، وقَهَرَهُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: الصَّبْرُ هو أنْ يُوَطِّنَ نفسَهُ في القِتالِ مَعَ العَدُوِّ، ويَحْبِسَها في ذلكَ. والشُّكْرُ قِيلَ: هو أنْ يَبْذُلَ نَفْسَهُ وما يَحْوِيهِ للهِ، لا يَجْعَلُ لِغَيْرِهِ، فيكونُ الشُّكْرُ والصَّبْرُ في الحاصِلِ سَواءً، وإنْ كانا في العبارةِ مُخْتَلِفَيْنِ لأنَّ الشُّكْرَ هو بَذْلُ النَّفْسِ وما حَوَتْهُ يَدُهُ للهِ، والصَّبْرُ هو الكَفُّ والاِحْتِباسُ على جَميعِ ما أَمَرَ اللهُ وأداءُ ما فَرَضَ عليهِ فإذا حَبَسَها عن غيرِهِ يكونُ باذلاً، ولهذا سَمَّى الصبرَ إيماناً بقولِهِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [هود: ١١] ذَكَرَ الصَّبْرَ ههنا مكانَ ما ذَكَرَ في غيرِهِ الإيمانَ بقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الانشقاق: ٢٥ و...].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ في النَّصْرِ لهُمْ على عَدُوِّهِمْ والغَلَبَةِ عليهِمْ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ أبو بَكْرٍ الكَيْسانِيُّ(٣): عاتَبَ اللهُ رسولَهُ وأصحابَهُ في أخذِ الأسارَى بقولِهِ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وبالَغَ في العِتابِ في أخذِ الفِداءِ مِنَ الأسارَى بقولِهِ: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾.

وكذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «أنهُ لمَّا استشارَ أصحابَهُ في الأسارَى أشارَ أبو بَكْرٍ إلى أخذِ الفِداءِ، وعُمَرُ إلى القَتْلِ، فقالَ: لو نَزَلَ مِنَ السماءِ عذابٌ ما نَجا إلا عُمَرُ» [السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٨]. عاتَبَهُمْ بالأخذِ أخذِ الأسارَى وأشَدَّ العِتابَ في أخذِ الفِداءِ، وأمَرَ بالقَتْلِ وضَرْبِ الرِّقابِ بقولِهِ: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] إنما أَمَرَ بِضَرْبِ الرِّقابِ وضَرْبِ البَنانِ.

وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على العِتابِ. إلى هذا يَذْهَبُ أبو بكرٍ الأصَمُّ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ [أنهُ](٤) قالَ: لم يكنِ الأنبياءُ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، في ما مَضَى يكونُ لَهُمْ أسارَى حتى يُثْخِنُوا في الأرضِ.

وعنْ سعيدِ بْنِ جُبَيْرٍ [أنهُ](٥) قالَ: لا يُفادَى أسارَى المُشْرِكينَ، ولا يُمَنُّ عليهِمْ حتى يُثْخِنُوا بالقَتْلِ، ثم تَلا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤] إلى هذا ذهبَ هؤلاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ يُخَرَّجُ تأويلُ الآيةِ على وجهَيْنِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: الكيساني. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

أحدُهما: يقولُ: ما كانَ لِنَبِيٍّ أنْ يأخذَ مِنَ الأسرَى الفِداءَ ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يَغْلِبَ؛ حتى إذا أخذَ الفِداءَ، وسرَّحَهُمْ بَعْدَ ما غَلَبَ في الأرضِ، يكونُ رجوعُهُمْ إلى غيرِ مَنَعَةٍ وشوكةٍ.

والثاني[1]: إذا لم يَغْلِبْ في الأرضِ؛ أي حتى يَصِيرَ الدينُ كُلُّهُ لِلَّهِ كقولِهِ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٩٣ والأنفال: ٣٩] هذا لِمَنْ كانَ قَبْلَهُ، فَرَخَّصَ لِرسولِهِ.

الآية ٦٨ وقيلَ: في قولِهِ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وُجوهٌ:

أحدُها: ما قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: تأويلُهُ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ ألاّ يُعَذِّبَ المُخطِئينَ في عَمَلِهِمْ على خِلافِ أمْرِهِ، وإلّا ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ العذابُ ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ [مِنَ الأسارَى والفِداءِ منهُمْ][2] ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

والثاني[3]: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أنهُمْ يتوبونَ عمّا عَمِلُوا مِنَ الأخذِ وغيرِهِ، وأنهُ يتوبُ عليهم، وإلّا ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ العذابُ.

[والثالثُ][4]: التأويلُ في هذا غيرُ هذا: كانَ في قولِهِ: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ دلالةُ إباحةِ الأمرِ ورخصتِهِ؛ لأنهُ قالَ: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ وهو[5] الإبانةُ مِنَ المَفصِلِ الذي [بِهِ إبانَةُ][6] الرؤوسِ؛ وذلكَ قَلَّ ما يُمْكِنُ في القِتالِ، ولا يُقْدَرُ [على][7] إبانةِ الرؤوسِ في الحربِ. إنما يمكنُ ذلكَ بعد ما أُخِذُوا، ودُفِعُوا في أيديهِمْ.

وأمّا ما ذَكَرَ مِنْ ضَرْبِ البَنانِ فهو في الحربِ؛ لأنهُ في الحربِ إنما يَضْرِبُ في ما ظَفِرَ، وَوَجَدَ السبيلَ إلى ذلكَ، ففيهِ دلالةُ وتأويلُ قولِهِ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ﴾ الآية يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مُلْحَقاً على ما سَبَقَ مِنْ قولِهِ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ الآية [الأنفال: ٥ و٦] أي ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أي لولا [ما سَبَقَ][8] مِنْ حُكْمِ اللهِ أنْ يَجْعَلَ لَكُمُ الظَّفَرَ على إحدى الطائفتينِ، وإلّا لَمَسَّكُمُ العذابُ بِمُجادَلَتِكُمْ رسولَ اللهِ ومُخالَفَتِكُمْ إيّاهُ في الخروجِ وإرادَتِكُمُ العِيرَ، أو أنْ يُقالَ: لولا [ما سَبَقَ][9] مِنْ حُكْمِ اللهِ ألّا يُعَذِّبَ أحداً، ولا يُؤاخِذَ لهُ في الخطإ في العملِ بالاجتهادِ، وإلّا لَمَسَّكُمْ كذا. أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَخَذْتُمْ﴾ أي عَلِمْتُمْ.

ثم قالتِ المعتزلةُ في قولِهِ: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ دلالةٌ على أنَّ اللهَ لا يريدُ ما أرادَ العبادُ إذا أرادوا المَعاصِيَ لأنهُ أخْبَرَ أنهُمْ أرادوا عَرَضَ الدنيا، وهو يريدُ الآخِرَةَ. فَهُمْ أرادوا المَعْصِيَةَ، وهو يُريدُ حياةَ الآخِرَةِ وعَرَضَها.

وبعدُ فإنهُ قد أرادَ لَهُمُ الآخِرَةَ وحَياتَها، وهُمْ أرادوا العِيرَ وعَرَضَ الدنيا. وقد كانَ ما أرادَ اللهُ لَهُمْ لا ما أرادوا هُمْ؛ أي اخْتارَ لَهُمْ غيرَ ما اختاروا هُمْ.

وأصلُهُ أنَّ اللهَ ﷻ أرادَ الآخِرَةَ لأهلِ البدرِ، فكانَ ما أرادَ، وأرادَ لأولئكَ الكَفَرَةِ النارَ، فكانَ ما أرادَ كقولِهِ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٧٦] والأشبهُ أنْ تكونَ الإرادةُ ههنا المَوَدَّةَ والمَحَبَّةَ؛ أي تَوَدُّونَ، وتُحِبُّونَ عَرَضَ الدنيا، واللهُ يُريدُ الآخِرَةَ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى حيثُ قالَ: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] كانُوا يَوَدُّونَ أنَّ القِتالَ مَعَ غيرِ ذاتِ الشوكةِ حتى تكونَ لهمُ الغنائمُ.

والإرادةُ التي تُضافُ إلى اللهِ تُخرَّجُ على وُجوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: الرِّضا كقولِهِ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] كانوا يَسْتَدِلُّونَ بِتَرْكِهِ إياهُمْ، وهم على [ظَنٍّ][10] أنَّ اللهَ قد رَضِيَ بِصَنيعِهِمْ.

والثاني: الإرادةُ الأمْرُ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

والثالث: الإرادةُ هي صفةُ فِعْلِ كُلِّ قائلٍ يَخرُجُ فِعلُهُ على غيرِ سَهْوٍ وغَفْلَةٍ ولا طَبْعٍ بل يخرُجُ على الاختيارِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) من م: في الأصل: وأسلحتهم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: بيان به. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: «إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ اسْتَشارَ في الأسارَى يومَ بدرٍ أصحابَهُ. فقالَ لأبي بكرٍ: «ما تقولونَ فيهِ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ قومُكَ وأهلُكَ، فاسْتَبْقِهِمْ. واسْتَبْقاؤُهُمْ لعلَّ اللهَ يَتوبَ عليهِمْ. وقالَ عُمَرُ: يا رسولَ اللهِ كَذَّبوكَ، وأخرَجُوكَ. قَدِّمْهُمْ فاضرِبْ أعناقَهُمْ، وقالَ عبدُ اللهِ بْنُ رُواحةَ: يا رسولَ اللهِ: انظُرْ وادياً كثيرَ الحَطَبِ، فأدخِلْهُمْ فيهِ، وأَضرِمْهُ عليهِمْ ناراً. فقالَ لهُ العباسُ: قَطَعْتَ رَحِمَكَ، فَسَكَتَ رسولُ اللهِ ﷺ فلمْ يُجِبْهُمْ شيئاً، ثم قامَ، فدخَلَ، فقالَ ناسٌ: يقولُ بقولِ أبي بكرٍ، وقالَ ناسٌ: يقولُ بقولِ عُمَرَ، وقالَ [ناسٌ][1]: يقولُ بقولِ عبدِ اللهِ. ثم خرجَ عليهِمْ رسولُ اللهِ فقالَ: إنَّ اللهَ لَيُلَيِّنُ قلوبَ رجالٍ فيهِ حتى تكونَ أَلْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ، وإنَّ اللهَ لَيُشَدِّدُ قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكونَ أشدَّ/ ٢٠٥ ـ أ/ مِنَ الحجارةِ، وإنَّ مَثَلَكَ يا أبا بكرٍ كَمَثَلِ عيسى حينَ[2] قالَ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] وإنَّ مَثَلَكَ يا عُمَرُ كَمَثَلِ موسى حينَ[3] قالَ: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨] وقالَ: يا عُمَرُ إنَّ مَثَلَكَ كَمَثَلِ نوحٍ حينَ[4] قالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] ولا [يَنفكَّنَّ أحدٌ منهمْ][5] إلَّا بِفداءٍ أو ضَرْبةِ عُنُقٍ. قالَ عبدُ اللهِ: إلَّا سُهَيلَ بْنَ بيضاءَ فإني سَمِعْتُهُ يَذكُرُ الإسلامَ. فَسَكَتَ رسولُ اللهِ، فما رَأيتُني في يومِ أخوَفَ مني أنْ تَقَعَ عليَّ حِجارةٌ في ذلكَ اليومِ حتى قالَ رسولُ اللهِ: إلَّا سُهَيلَ بْنَ بَيضاءَ، فأنزَلَ اللهُ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قَبْلَكُمْ، وأمَّا أنتُمْ فقد أُحِلَّتْ لَكُمُ الأسارى والغنيمةُ». [أحمد ١/ ٣٨٣ و٣٨٤].

ويدلُّ أيضاً ما رُوِيَ مِنَ الأخبارِ والآياتِ على أنهُ إذا أثْخَنَ في الأرضِ جازَ لهُ الأسْرُ لأنهُ لو لم يَجُزْ لهُ ذلكَ كما يَجوزُ قَبْلَ الإثخانِ في الأرضِ لَزالَتْ[6] فائدةُ الخُصوصِ، وقد بَيَّنَ اللهُ ذلكَ بقولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ﴾ [محمد: ٤].

ثم اختَلَفَ أهلُ العِلْمِ في فِداءِ الأسارَى بالمالِ. قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ، قالَ: ذلكَ يومَ بدرٍ، والمُسلمونَ قليلٌ، فلمَّا كَثُروا، واشتَدَّ سُلطانُهُمْ، أنزَلَ اللهُ تعالى: في الأسارَى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤] فَجَعَلَ النَّبيَّ والمؤمنينَ بالخِيارِ؛ إنْ شاؤوا فَدَوهُمْ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][7] قالَ: يَصْنَعُ بهِ ما صَنَعَ رسولُ اللهِ بأسارَى [بدرٍ][8]: يَمُنُّ عليهِ أو يُفادِي. وقالَ غيرُهما بِخِلافِ ذلكَ.

وقالَ أصحابُنا: إنِ احتاجَ الإمامُ إلى مالٍ فاداهُمْ. وقد دَلَّ ما ذَكَرْنا مِنَ الآياتِ والأخبارِ على جوازِ الفِداءِ بَعْدَ الإثخانِ فيهِمْ. فإنْ لم يكنْ إلى المالِ مُحتاجاً فَلَهُ قَتْلُهُمْ؛ لأنَّ ذلكَ الكافي العَدُوَّ، وأشدُّ [رَهْبةً لَهُمْ][9] مِنَ المؤمنينَ.

وقالَ[10]: فَلَهُ أنْ يَسْتَرِقَّهُمْ، فهو كما قالُوا: إذا كانَ الأسيرُ مِنْ أهلِ الكتابِ أو مِنَ العَجَمِ. فأمَّا عَرَبُ عَبَدَةِ الأوثانِ فلا يُسْتَرَقُّونَ لأنَّا لا نَعْلَمُ أحداً منهمْ اسْتَرَقَّهُ النَّبيُّ لَمَّا أسَرَهُ، ولم يَبْلُغْنا أنَّ أبا بكرٍ اسْتَرَقَّ واحداً مِنْ أهلِ الرِّدَّةِ، وكيف يجوزُ اسْتِرْقاقُهُمْ، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾؟ [الفتح: ١٦].

وأمَّا الفِداءُ والقَتْلُ فقد ظَهَرَ مِنْ فِعْلِ رسولِ اللهِ في أسارَى بدرٍ؛ وفي ما رُوِيَ مِنَ الاسْتِشارةِ اسْتِشارةِ النَّبيِّ أصحابَهُ في الأسارَى دلالةُ العَمَلِ بالاجْتِهادِ، وما رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ نَبيِّ اللهِ ﷺ [أنهُ][11] قالَ لأبي بكرٍ وعُمَرَ: «يا أبا بكرٍ ويا عُمَرُ إنَّ ربِّي يُوحي [إليَّ][12] أنْ أشاوِرَكُما، ولولا أنكما تَختلِفانِ ما عَصَيْتُكُما، أو عَمِلْتُ بِخِلافِ رأيِكُما».

فيهِ أنهُ لا يجوزُ لأحدٍ أنْ يُخالِفَهُما، ورسولُ اللهِ يقولُ: «لولا أنكما تَختلِفانِ ما عَصَيْتُكُما أو ما عَمِلْتُ بِخِلافِ رأيِكُما» ثم ما أخَذَ مِنَ الأسارَى مِنَ الفِداءِ لا يُدْرَى على أيِّ وَجْهٍ أخَذَ؛ على التَّرْكِ والرَّدِّ إلى أوطانِهِمْ مِنْ غيرِ أنْ تَرَكَهُمْ بالجِزْيَةِ؛ إذْ مِنْ قولِهِمْ: ألَّا يجوزَ أخْذُ الجِزْيَةِ منهُمْ والتَّرْكُ على ذلكَ، وفي الآيةِ دلالةُ ذلكَ، وهو قولُهُ: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ وفي الخبرِ: لا يَجْتَمِعُ دِينانِ في جزيرةِ العربِ إلَّا أنْ يُقالَ: إنِ المُفادُ إلَّا الذي[13] ذُكِرَ. كانَ هذا، وهذا كانَ يَعْمَلُهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: يستلن أحد منكم. (٦) في الأصل وم: زالت. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: رهبتهم. (١٠) الضمير يعود على الحسن. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: التي.

جنة السنة

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ واحدٌ؛ كلُّ حَلالٍ طَيِّبٌ، وكُلُّ حرامٍ خَبيثٌ. وإنما يَطيبُ إذا حَلَّ، ويَخْبُثُ إذا حَرُمَ. ولكنْ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [حلالاً][1] بالشَّرْعِ طَيِّباً في الطبعِ، وكذلكَ الحَرامُ هو حَرامٌ بالشَّرْعِ، وخبيثٌ بالطَّبْعِ. إنما يُتَكَلَّمُ بالحِلِّ والحُرْمَةِ مِنْ جهةِ الشَّرْعِ والطَّيِّبِ والخَبيثِ بالطَّبْعِ. والطَّيِّبُ هو الذي يُتَلَذَّذُ بهِ، ولا تَبِعَةَ فيهِ؛ لأنَّ خَوفَ التَّبِعَةِ يُنَغِّصُ عليهِ، ويَذْهَبُ بِطيبِهِ ولَذَّتِهِ.

وجائزٌ ما ذَكَرَ مِنَ الطَّيِّبِ ههنا لِما أنَّ أهلَ الشِّرْكِ كانوا يأخذونَ الأموالَ، ويَجْمَعُونَها مِنْ وَجْهٍ لا يَحِلُّ وبأسبابٍ فاسِدَةٍ، فَيَكْرَهُونَ التَّناوُلَ منها إذا غَنِمُوا لِتِلْكَ الأسبابِ الفاسِدَةِ، فَطَيَّبَ قلوبَهُمْ بقولِهِ ﴿طَيِّبًا﴾.

وفيهِ دليلُ جوازِ التَّقْليبِ[2] في البَيْعِ الفاسِدِ وطِيبِ التَّناوُلِ منهُ، وإنْ كانَ مُكْتَسَباً بأسبابٍ فاسدةٍ بَعْدَ أنْ يكونَ بإذْنٍ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا.

وفيهِ دلالةُ أنَّ أهلَ الكُفْرِ لا يُؤاخَذونَ بالأفعالِ التي كانَتْ في الكُفْرِ ولا بما تَرَكُوا مِنَ العباداتِ لِما لَيسَتْ عليهِمْ، إنما يُؤاخَذونَ بالاعْتِقادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ في ما أمَرَكُمْ بِهِ، ونهاكُمْ عنهُ، فلا تَعْصُوهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِمَنْ تابَ، ورَجَعَ عمَّا فَعَلَ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾.

قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ في العباسِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ وأصحابِهِ، وكذلكَ يقولُ ابنُ عباسٍ: قالوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: آتِنا بما جِئْتَ بهِ، ونَشْهَدُ أنكَ رسولُ اللهِ، فَنَزَلَ ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ اعْتِقادَ الإيمانِ والتَّصديقِ لَهُ ﴿فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أي إيماناً وتصديقاً، فَيُخْلِفْ عليكُمْ خيراً ممَّا أُصِيبَ منكمْ.

لكنَّها فيهِ وفي غيرِهِ: مَنْ فَعَلَ مِثْلَ فِعْلِهِ فهو في ذلكَ سَواءٌ؛ يكونُ مِنَ الموعودِ الذي ذَكَرَ ما يكونُ لَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ وهو الإيمانُ الذي عَلِمَ أنهُمُ اعْتَقَدُوا في قلوبِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أي ما آتاكُمْ خيرٌ، وهو الإيمانُ مِمَّا أُخِذَ منكُمْ مِنَ المالِ الذي ذُكِرَ في القصةِ.

ويجوزُ: يَفْعَلُ مكانَ فَعَلَ كَقولِهِ: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٤٩ والأحزاب: ١٢] أي قالَ المُنافِقونَ، وذلكَ كثيرٌ في القرآنِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ أي آتاكُمْ خيراً.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ أيضاً أي يُثِبْكُم، ويُعْطِكُمْ أفْضَلَ ممَّا أُخِذَ منكُمْ في الآخِرَةِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِما كانَ في الشِّرْكِ كَقولِهِ: ﴿فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٢] للذنوبِ، ذو تَجاوُزٍ ﴿رَّحِيمٌ﴾ يَرْحَمُهُمْ في الإسلامِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ مِنَ الفِداءِ أو ممَّا[3] أُخِذَ منكُمْ[4] بمكةَ. أخْبَرَ أنهُ يؤتِيهِمْ[5] خيراً مِنْ ذلكَ في الدنيا مِنَ الأموالِ وغيرِها.

والإثخانُ: قالَ ابنُ عباسٍ: القَتْلُ. قالَ أبو معاذٍ: يُثْخِنونَ أي يُذَلِّلونَ[6]، المُثْخَنُ الذليلُ. قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى الْأَرْضِ﴾ أي يُثْخِنَ في أهلِ [الأرضِ][7]؛ يُكْثِرُ القَتْلَى والجِراحاتِ. يُقالُ: أثْخَنْتُ في القومِ إذا كَثُرَتْ فيهِمُ القَتْلُ والجِراحاتُ. ويقالُ: ضَرَبَهُ حتى أثْخَنَهُ أي ضَرَبَهُ حتى لا يَقْدِرُ على القِيامِ، وهو ما ذَكَرَ محمدٌ في بَعْضِ مسائِلِهِ: أنهُ إذا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: التغلب. (٣) في الأصل: لما، في م: ما. (٤) في الأصل وم: منهم. (٥) في الأصل وم: يؤتهم. (٦) في الأصل وم: يذللوا. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

رَمَى صيداً بِسَهْمٍ، فأصابَهُ، حتى أَثْخَنَهُ، ثم رَمَى آخرُ بِسَهْمٍ فأصابَهُ، فإنهُ لِلأوَّلِ لِما أنهُ صَيَّرَهُ بالإثخانِ خارجاً مِنْ أنْ يكونَ صيداً، وهو الضَّرْبُ الذي وَصَفْناهُ. وثَخُنَ يَثْخُنُ ثَخانَةً، فهوَ ثَخِينٌ، وثَخُنَ يَثْخُنُ ثُخُونَةً واحدٌ أي غَلُظَ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ يَحتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ صِلَةَ ما سَبَقَ مِنَ الآياتِ، وهو قولُهُ: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ الآية [الأنفال: ٥٦] وقولُهُ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ الآية [الأنفال: ٦٢] وغيرُ ذلكَ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال: ٥٨] ونَحوُهُ. فقالَ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ في نَقْضِ العَهْدِ وغيرِ ذلكَ مِنَ الأماناتِ ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ في ما عاهَدُوا[1] أنْ يُوفُوا ذلكَ بقولِهِم[2]: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] كقولِهِ: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥] فقد آتاهُمُ اللهُ ذلكَ، فلم يَفُوا ما عاهَدُوا وغيرَ ذلكَ مِنَ العهودِ التي عاهدُوا[3] والأماناتِ التي ائْتُمِنُوا فيها، فخانُوا اللهَ في ذلكَ، أو ما عَهِدَ/ ٢٠٥ - ب/ فِيهِمْ في أمرِ محمدٍ وإظهارِ بَعْثِهِ[4] وَصِفَتِهِ في كتبِهِمْ فكَتَمُوا ذلكَ، وحَرَّفُوهُ، وأظهَرُوا خِلافَ بَعْثِهِ[5] وصِفَتِهِ فذلكَ منهُمْ خيانةٌ فيقولُ: إنهمْ قدْ ﴿خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ فإذا خانوكَ يُمَكِّنْكَ منهُمْ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي انْتَقَمَ منهُمْ جزاءَ خِيانَتِهِمْ. وقالَ: أمْكَنَكَ حتى انْتَقَمْتَ منهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ لَيسَ على الإرادةِ، ولكنْ على وقوعِ فِعْلِ الخيانةِ؛ كأنهُ قالَ: وإنْ خانوكَ ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ لكنهُ ذَكَرَ الإرادةَ لِما هي صِفَةُ كُلِّ فاعلٍ مُختارٍ لِما لا تكونُ الأفعالُ إلّا بإرادةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِما يُسِرُّونَ، ويُضْمِرُونَ مِنَ الخِيانَةِ ونَقْضِ العُهودِ ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمْرِهِ وحُكْمِهِ حينَ[6] أمكنَكَ منهُمْ.

وقالَ بَعْضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي خانُوكَ بَعْدَ إسلامِهِمْ بالكُفْرِ ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ فقد كفروا باللهِ قَبلَ هذا؛ يقولُ: إنْ خانوكَ أمْكَنَكَ منهُمْ، فَقَتَلْتَهُمْ، وأسَرْتَهُمْ، كما فَعَلْتَ بِهِمْ بِبَدْرٍ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمرِهِ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قولُهُ: ﴿آمَنُوا﴾ أي صَدَّقُوا آياتِ اللهِ وحُجَجِهِ، أو صَدَّقُوا رسولَهُ في جَميعِ ما جاءَ بِهِ. كأنهُ مُقابِلُ قولِهِ ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٥٤] وقولِهِ[7] ذَكَرَ ههنا التصديقَ مكانَ التكذيبِ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى﴿وَهَاجَرُوا﴾ في إظهارِ دينِ اللهِ ونَصْرِهِ ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي بَذَلُوا ذلكَ ﴿وَالَّذِينَ آوَوا﴾ أي ضَمُّوا النَّبِيَّ ﴿وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

قالَ ابنُ عباسٍ وعامّةُ أهلِ التأويلِ: الوِلايةُ التي ذُكِرَتْ في الآيةِ في التَّوارُثِ؛ جَعَلَ المِيراثَ لِلْمُهاجِرينَ والأنصارِ دُونَ ذَوِي الأرحامِ الذينَ آمَنُوا، ولم يُهاجِرُوا إلى المدينةِ. وكذلكَ قالُوا في قولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

ورُوِيَ عنْ عبدِ اللهِ [أنهُ][8] قالَ: قالَ: رسولُ اللهِ ﷺ المهاجِرُونَ والأنصارُ بَعْضُهُمْ أولياءُ بَعْضٍ في الدنيا والآخِرَةِ، والطُّلَقاءُ مِنْ قُرَيْشٍ والعُتَقاءُ مِنْ ثَقِيفٍ بَعْضُهُمْ أولياءُ بَعْضٍ في الدنيا والآخِرَةِ.

وعنْ جَريرِ بْنِ عبدِ اللهِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][9] قالَ كذلكَ. وعنِ المَسْعوديِّ عنِ القاسِمِ [أنهُ][10] قالَ: آخى رسولُ اللهِ ﷺ بَينَ أصحابِهِ، فآخَى بَينَ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ والزُّبَيرِ بْنِ العَوّامِ، [فَجَعَلَهُمْ][11] إخْوَةً، يَتَوارَثُونَ بها؛ لأنهُمْ هاجَرُوا، وتركوا قراباتِهِمْ حتى أنزلَ اللهُ آيةَ المَوارِيثِ.

---

(١) في الأصل وم: عهدوا. (٢) في الأصل وم: قولهم. (٣) في الأصل وم: عهدوا. (٤) في الأصل وم: نعته. (٥) في الأصل وم: نعته.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل و م: و. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.
(١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وعَنِ ابنِ عباسٍ في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣] [أنهُ][1] قالَ: كانَ المُهاجرُونَ حينَ قَدِمُوا المدينةَ يرثونَ[2] الأنصارَ دونَ أرحامِهِمْ[3] بالأُخوَّةِ التي آخى النَّبِيُّ بينَهُمْ. فلمّا نزَلَ قولُهُ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ نَسَخَهُ ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣] مِنَ النصرِ والنصيحةِ والرِّفادةِ، ويُوصِي لهُ، ولا ميراثَ.

وعن الحَسَنِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥ والأحزاب: ٦] فكانَ المُسْلِمونَ يَتوارَثُونَ بالهجرةِ؛ فكانَ الأعرابيُّ لا يَرِثُهُ المهاجرُ، ولا يَرِثُهُ الأعرابيُّ، فَحَرَّضَهُمْ بذلكَ على الهِجْرَةِ حتى كَثُرَ المسلمونَ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ الآية، فَوَرِثَ الأعرابيُّ المهاجرَ، وتوارَثُوا بالأرحامِ. إلى هذا يذهبُ عامَّةُ أهلِ التأويلِ.

وكانُوا يَرَونَ أنَّ الهِجرةَ كانَتْ مُفْتَرَضَةً، فَزالَ فَرْضُها بقولِ النَّبِيِّ ﷺ «لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ ولكنهُ جهادٌ ونِيَّةٌ» [البخاري ٢٧٨٣] وعن عائشةَ رضي الله عنها، [أنها][4] قالَتْ: انقَطَعَتِ الهِجْرَةُ بَعْدَ الفتحِ ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ؛ فإنما كانتِ الهجرةُ إلى اللهِ ورسولِهِ، والمؤمنونَ يَفِرُّونَ بدينِهِمْ مِنْ أنْ يقيموا عنهُ. وقد أفْشَى اللهُ الإسلامَ.

هذا الذي ذهبَ [إليهِ][5] هؤلاءِ في قولِهِ[6]: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التَّوارُثِ مُحْتَمَلٌ.

ويَحْتَمِلُ غيرَ هذا؛ وهو أنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي بعضُهُمْ أولياءُ بعضٍ في تَمامِ الوَلايَةِ في التَّناصُرِ والتَّعاوُنِ والحقوقِ والديانةِ، فهمْ أولَى بِبَعْضٍ مِنَ الذينَ آمَنُوا، ولم يُهاجِرُوا؛ لأنهم آمَنُوا، وهاجَرُوا، أي تَرَكُوا مَنازِلَهُمْ وأهْلَهُمْ وقراباتِهِم وبَلَدَهُمُ الذي كانوا فيهِ مُقيمينَ إشفاقاً على دينِهِمْ واستِسْلاماً لَهُمْ ولأنفسِهِمْ، والأنصارُ آوَوهُمْ، وأنزَلُوهُمْ في منازِلِهِمْ، وبَذَلُوا أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ، وتَحَمَّلُوا جميعَ مُؤَنِهِمْ مِنْ غيرِ أنْ كانَ سَبَقَ منهُمْ إليهِمْ شيءٌ، فصارُوا لهمْ أعواناً وأنصاراً، فصارَ بَعْضُهُمْ أولياءَ بَعْضٍ في تمامِ ما ذَكَرْنا مِنَ الوَلايَةِ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ أي ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ أي مِنْ تَمامِ ما ذَكَرْنا مِنَ الوَلايةِ لَهُمْ: وَلايةِ الذينَ [هاجَرُوا، أي][8] لَيسَ لهمْ وَلايَةُ التَّناصُرِ والتَّعاوُنِ والحقوقِ والمَنافِعِ التي تُكْتَسَبُ بالدينِ.

وفي قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ؛ لأنهُ ﷻ أبْقَى لِلَّذينَ لم يُهاجِرُوا اسْمَ الإيمانِ، وكانَتِ الهجرةُ عليهِمْ مُفْتَرَضَةً، وفي تَرْكِهِمُ الهجرةَ مُرْتَكِبُونَ[9] كبيرةً، لا يزولُ عَنْهُمْ[10] اسْمُ الإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥] مِنْ غيرِهِمْ لأنهُمْ آمَنُوا، وهاجَرُوا، ولَهُمْ قرابَةٌ سابقةٌ ورَحِمٌ مُتَقَدِّمٌ؛ كانُوا هُمْ أولَى مِنْ غيرِهِمُ الذينَ[11] لا قرابةَ بينَهُمْ، ولا رَحِمَ؛ إذا اجْتَمَعَ فيهِمُ الرَّحِمُ والمعونَةُ والديانَةُ والحقوقُ اجْتَمَعَ فيهِمْ[12] أشياءُ أربعةٌ، وفي أولئكَ ثلاثةٌ، فهمْ أولَى بهمْ مِنْ غيرِهِمْ. هذا على التأويلِ الذي ذَكَرْنا، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ يعني الذينَ لم يُهاجِرُوا، ويَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما[13]: إذا طَلَبُوا منكُمُ المَعونَةَ والنُّصْرَةَ على عَدُوِّهِمْ فعليكُمُ النَّصْرُ والمَعُونةُ لهُمْ، إذا لم يكنْ بينَكُمْ وبينَ أولئكَ ميثاقٌ.

والثاني: إذا علمْتُمْ أنهمْ يَخْشَونَ على أنفُسِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ، ويَخافُونَهُ، فانصُرُوهُمْ ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ فلا تَنصُرُوهُمْ؛ تأويلُهُ حتى تَنْبِذُوا إليهِمُ العَهْدَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يرث. (٣) في الأصل وم: رحمه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: قول. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: مرتكبين. (١٠) في الأصل وم: عنه. (١١) من م، في الأصل: الذي. (١٢) في الأصل وم: فيه. (١٣) في الأصل وم: يحتمل.

جنة السنة

يقولُ: إنِ استَنصَرَكُمْ[١] يا مَعشَرَ المُهاجِرينَ إخوانُكُمُ المؤمنونَ الذينَ لم يُهاجِرُوا إليكُمْ، فأتاهُمْ عَدُوُّهُمْ مِنَ المشركينَ، فقاتَلُوهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ عنِ الإسلامِ فانصُرُوهُمْ. ثم استَثْنى فقالَ: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ يقولُ: إنِ استَنصَرَكُمُ الذينَ لم يُهاجِرُوا إلى المدينةِ على أهلِ عَهدِكُمْ فلا تَنصُرُوهُمْ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ في المَعونةِ والنُّصرَةِ ونَحوِهِما[٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ قُرِئَ[٣] بالخفضِ: وِلايتِهِمْ، وبالنَّصبِ جميعاً وَلايَتِهِمْ أي بنصبِ الواوِ وخفضِها. وكذلكَ التي في الكهفِ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ﴾ [الآية ٤٤] بالخفضِ والنَّصبِ جميعاً[٤].

قالَ بَعضُ أهلِ الأدبِ: الوَلايةُ بِفَتحِ الواوِ النُّصرةُ والمَعُونَةُ، والوِلايةُ بِخفضِ الواوِ السطانُ؛ أي السلطانُ للهِ.

وقالَ بَعضُهُمْ: الوِلايةُ بالخفضِ المَعونَةُ والنُّصرَةُ، والوَلايةُ السلطانُ. وقالَ آخرونَ: هما سَواءٌ وهي[٥] النُّصرَةُ والمَعُونَةُ: الوَلايةُ في الإمارةِ والسلطانِ، والوَلايةُ في الدينِ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ/ ٢٠٦ - أ/ بَعْضٍ﴾ على قولِ ابنِ عباسٍ وعامَّةِ أهلِ التأويلِ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في التوراةِ على ما قالُوا في المهاجِرينَ والأنصارِ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في التَّناصُرِ والتَّعاوُنِ والدينِ والحقوقِ جميعاً على ما ذَكَرْنا في المؤمنينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ قِيلَ فيهِ بِوُجُوهٍ:

أحَدُها: إنَّ إخوانَكُمُ الذينَ لم يُهاجِرُوا إذا استَنصَرُوكُمْ على عَدُوِّهِمْ، فلم تَنصُرُوهُمْ، تكونُ ﴿فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي إنْ لم تكونُوا بَعضُكُمْ أعواناً وأنصاراً لِبَعضٍ على ما كانَ أهلُ الكُفرِ بَعضُهُمْ أنصاراً لِبَعضٍ، غَلَبَكُمُ العَدُوُّ، وقَهَرَكُمْ، فيكونُ في ذلكَ فِتنةٌ وفسادٌ، ويكونُ كأنهُ قالَ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

والثاني[٦]: قولُهُ ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ﴾ مُلحَقٌ[٧] بقولِهِ ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢] أي إنِ استَنصَرَكُمْ إخوانُكُمْ على قومٍ بينَكُمْ وبينَهُمْ مِيثاقٌ، فَنَصَرْتُمُوهُمْ تكن فِتنةٌ وفسادٌ كبيرٌ.

والثالثُ[٨]: قولُهُ ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ في ما أمَرَكُمْ بهِ مِنْ جَعلِ التوارُثِ في ما بَيْنَ المؤمنينَ، وجَعَلْتُمُ الميراثَ والتَّوارُثَ في ما بَينَكُمْ وبينَ الكفارِ ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ لأنَّ اللهَ ﷻ ذَكَرَ المَواريثَ، ثم ذَكَرَ في آخِرِ الآيةِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: ١٣] وما ذَكَرَ مِنْ تَرْكِ حُدُودِ اللهِ وطاعةِ رسولِهِ وجَعلِ الميراثِ وغَيرِ ما أمَرَ ﷻ ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ أي ضَمُّوا رسولَ اللهِ والمهاجِرينَ، ونَصَرُوهُمْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أيِ المُهاجِرُونَ والأنصارُ، الذينَ ضَمُّوا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لِما حَقَّقُوا إيمانَهُمْ باعمالِهِمْ لأنهُمْ هاجَرُوا، [وترَكُوا][٩] بلادَهُمْ وأهْلَهُمْ وأموالَهُمْ إشفاقاً على دِينِهِمْ واستِسلاماً لهُ، وأجابوا رسولَ اللهِ، وأطاعُوهُ في ذلكَ.

وأولئكَ الأنصارُ ضَمُّوهُمْ[١٠] إلى أنفسِهِمْ، وأنزَلُوهُمْ في مَنازِلِهِمْ، وبَذَلُوا أنفُسَهُمْ وأموالَهُمْ، ونَصَرُوهُمْ على عَدُوِّهِمْ، فقد حَقَّقُوا جميعاً إيمانَهُمْ بأعمالِهِمُ التي عَمِلُوا.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي صِدقاً في السِّرِّ والعَلانِيَةِ، لَيسَ كإيمانِ المُنافِقِينَ يكونُ في العلانيةِ، ولا

(١) في الأصل: وم: استنصروا. (٢) في الأصل وم: ونحوه. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٤٦٥ وحجة القراءات/ ٣١٤. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٣٦٩. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٧) في الأصل وم: ملحقاً. (٨) في الأصل وم: وقال بعضهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ضموا.

جنة السنة

يكونُ في السِّرِّ كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] وقولِهِ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١].

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ﴾ أي وَعدَ لَهُمْ وَعداً حقًّا، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرى ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

ويَحتمِلُ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ﴾ أي أولئكَ المؤمنونَ الذينَ حقَّقُوا الإيمانَ بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي حَسَنٌ يُكرِمُ أهْلَهُ بِهِ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ﴾ أي مَنْ آمنَ بَعْدَ هؤلاءِ، وهاجَرُوا بَعْدَ مُهاجرةِ أولئكَ، فإنهُمْ يَلحقُونَ أوائِلَهُمْ في جميعِ ما ذَكَرَ في قولِهِ[1]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٧٢ و٧٤ و٧٥]. مِن قَبْلُ. يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعْلَمُ، لِنَعْمَلَ نَحْنُ على ما عَمِلَ أولئكَ مِنَ الهِجرَةِ والنُّصرَةِ وبَذْلِ الأنفُسِ والأموالِ وغَيرِ ذلكَ لِلدِّينِ على ما بَذَلَ أولئكَ، وأشفَقُوا على دينِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنَّ أُولي الأرحامِ بَعْضُهُمْ أولَى بِبَعْضٍ بالتَّرِكةِ والتَّوارُثِ مِنْ جُملَةِ المؤمنينَ. فإذا لم يكُنْ أولُو الأرحامِ فجملةُ المؤمنينَ أولَى.

وعلى ذلكَ يُخرَّجُ قولُ أصحابِنا: إنَّ أُولي الأرحامِ بالميراثِ أولَى مِنْ جُملَةِ المؤمنينَ، مِنْ[2] بيتِ المالِ. فمادامَ واحدٌ مِنْ هؤلاءِ فهو أولَى بالميراثِ. وعلى ذلكَ يُخرَّجُ قولُهُمْ في العَقْلِ انهُ على ذوي الأرحامِ ماداموا هُمْ. فإذا لم يَكُنْ أحدٌ منهُمْ فهو على جُمْلَةِ المؤمنينَ في بيتِ المالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ بالعبادِ، وما يكونُ منهُمْ و ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ بِما يَحتاجونَ، وما لا يَحتاجونَ؛ وهو حرفُ وَعيدٍ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي بَعْضُهُمْ أولَى بِبَعْضٍ في حَقِّ التَّوارُثِ مِنَ المؤمنينَ الذينَ هاجَرُوا، فَنَسَخَتْ[3] هذهِ الآيةُ حكمَ الميراثِ الذي ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ لأنهُ كانَ جَعَلَ التَّوارُثَ بَيْنَهُمْ بِحَقِّ الإيمانِ والهجرةِ. ثم نَسَخَ ذلكَ، وجَعَلَ الميراثَ بالرَّحِمِ حينَ[4] قالَ: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ وكذلكَ ما ذَكَرَ في سورةِ الأحزابِ حينَ[5] قالَ: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ [الآية: ٦] فإذا لم يَبْقَ مِنَ الرَّحِمِ أحدٌ فَبَعْدَ ذلكَ يكونُ جُملَةُ المؤمنينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حُكْمِ اللهِ، أو ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ لأنهُ ذُكِرَ في كتابِ اللهِ.

ثم لُزومُ الهِجرَةِ على الذينَ هاجَرُوا مَعَ رسولِ اللهِ وعلى الذينَ تأخَّرَتْ هِجرَتُهُمْ سواءٌ؛ قد سَوَّى بَيْنَهُمْ في اللُّزومِ، وجَمَعَ بَيْنَ المُهاجِرينَ والأنصارِ في حَقِّ الشَّهادةِ لهم بالتَّصديقِ والإيمانِ حينَ[6] قالَ: ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ﴾ [الأنفال: ٧٤] وجَمَعَ بَيْنَهُمْ في حَقِّ الوَلايةِ وما يُكْتَسَبُ بها مِنَ المَنافِعِ حينَ[7] قالَ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢] وجَمَعَ بَيْنَهُمْ في الثوابِ والدَّرَجةِ حينَ[8] قالَ: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤] وجَمَعَ بَيْنَهُمْ في هذهِ الخِصالِ، وإنْ قَدَّمَ ذِكْرَ المهاجِرينَ في غيرِ واحدةٍ[9] مِنَ الآياتِ لِما كانُوا مُسْتَوينَ في الأسبابِ التي اسْتَوجَبَتْ[10] ذلكَ؛ لأنَّ مِنَ المهاجِرينَ تَرْكَ الأوطانِ والمنازِلِ والخُروجَ منها والمُفارَقَةَ عن أهْلِيهِمْ وأموالِهِمْ، وكانَ مِنَ الأنصارِ مُقابِلَ ذلكَ إنزالُهُمْ في مَنازِلِهِمْ وأوطانِهِمْ وبَذْلُ أموالِهِمْ وقيامُ أهليهِمْ في خدمَتِهِمْ، لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ واللهُ ﷻ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أولتك. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: فنسخ. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: واحد. (١٠) في الأصل وم: استوجبوا.

جنة السنة

سورة التوبة(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ وقولُهُ تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: ذلكَ في قومٍ كانَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ رسولِ اللهِ عَهْدٌ على غيرِ مُدَّةٍ مُبيَّنَةٍ، فأمَرَ بنقضِ العَهْدِ المُرْسَلِ، وجَعَلَهُ في أربَعَةِ(٢) الأشهُرِ التي ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾.

وقالَ بَعْضُهُمْ: هو(٣) في قومٍ كانَ لهمْ عَهْدٌ دُونَ أربعَةِ أشهُرٍ، فأمَرَ بإتمامِ أربعَةِ أشهُرٍ. دليلُهُ قولُهُ: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ [براءة: ٤].

وقالَ أبو بَكرٍ الكَيسانيُّ: الآيةُ في قومٍ كانتْ عادتُهُمْ نقضَ [العهدِ](٤) ونَكثَهُ كقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾ [الأنفال: ٥٦] فأمَرَ أنْ يُعطى العَهْدُ أربعَةَ الأشهُرِ(٥) التي ذَكَرَ في الآيةِ، ثم الحربِ بعدَ ذلكَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: لمّا نَزَلَ قولُهُ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ بَعَثَ رسولُ اللهِ عَلِيًّا إلى المَوسِمِ لِيقرَأَهُ على الناسِ، فقرأَ عليهِمْ ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ مِنَ العَهْدِ غيرَ أربعةِ أشهُرٍ ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ على ما ذَكَرْنا. حَمَلَ هؤلاءِ كُلُّهُمْ قولَهُ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ على النَّقْضِ.

وعندَنا يَحْتَمِلُ غيرَ هذا؛ وهو أنَّ قولَهُ ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ في إمضاءِ العَهْدِ ووفائِهِ. والبراءةُ هي الوفاءُ وإتمامُهُ، لَيسَ على النَّقْضِ لأنهُ قالَ: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ والبراءةُ إليهِمْ هو الأمانُ والعَهْدُ إليهِمْ. ولو كانَ على النَّقْضِ لَقالَ: مِنَ الذينَ عاهَدْتُمْ مِنَ المشركينَ، فَدَلَّ أنهُ هو إتمامُ إعطاءِ العَهْدِ لَهُمْ وإمضاؤُهُ إليهِمْ.

ويؤيِّدُهُ ما قالَ بَعْضُ أهلِ الأدبِ: إنَّ البراءةَ هي الأمانُ؛ يقالُ: كتبتُ لهُ بَراءةً أي أماناً. هذا الذي ذَكَرْنا أشبهُ /٢٠٦ ـ ب/ مِمّا قالوا؛ أعني أهلَ التأويلِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ أي سِيروا، واذهَبوا في الأرضِ أربعَةَ أشهُرٍ أي مُدَّةَ العَهْدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ أي اعلَموا [أيُّها المشركونَ(٦)]، وإنْ أعطِيَ لكُمُ العَهْدَ في وقتٍ فإنكُمْ ﴿غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ أوليائِهِ(٧)، ولا فائتِينَ عنهُ في تلكَ المدةِ.

[وقولُهُ تعالى](٨): ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الخِزْيُ هو العذابُ الفاضِحُ الذي يَفضَحُهُمْ، ويَظهَرُ عليهِمْ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ذلك العذابُ و الإخزاءُ الذي ذَكَرَهُ في الآخِرَةِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ قالَ القُتَبيُّ: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي إعلامٌ، ومنهُ أذانُ الصلاةِ، والإعلامُ(٩)؛ يُقالُ: آذَنتُهُمْ إيذانا، وكذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ يكونُ في قولِهِ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ دلالةُ ما قالَ أهلُ التأويلِ مِنَ النَّقْضِ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ يكونُ فيهِ إمضاءُ العَهْدِ وإتمامُهُ إلى المدةِ التي ذَكَرَ، ويكونُ ما رُوِيَ مِنَ الخَبَرِ في القصةِ أنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ لمّا نزلَتْ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ بَعَثَ أبا بكرٍ على حجِّ الناسِ، يُقيمُ للمؤمنينَ حَجَّهُمْ، وبَعَثَ

---

(١) من م، في الأصل: براءة. (٢) في الأصل وم: الأربعة. (٣) في الأصل و م: هم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الاصل وم: أشهر. (٦) في الأصل و م: إن المؤمنين. (٧) من م، في الأصل : أولياء. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) الواو ساقطة من الأصل.

جنة السنة

معهُ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ السورةَ، ثم أَتْبَعَهُ عليَّ بْنَ أبي طالبٍ، فأدْرَكَهُ، فأخذَها منهُ، ورجَعَ أبو بكرٍ إلى النَّبِيِّ، فقالَ للنَّبِيِّ: بأبي أنتَ وأمي: نَزَلَ فيَّ شيءٌ؟ قالَ: لا، ولكنْ لا يُبَلِّغُ غيري أو رجلٌ مني، أما تَرْضَى يا أبا بكرٍ أنت صاحبي في الغارِ، وأنتَ أخي في الإسلامِ، وأنت تَرِدُ عنِ الحَوضِ يومَ القِيامةِ؟ قالَ: بَلَى يا رسولَ اللهِ [الترمذي: ٣٦٧٠]. فَمَضَى أبو بكر على [حجٍّ[1]] الناسِ، ومَضَى عليُّ بنُ أبي طالبٍ بالبراءةِ، فقامَ عليٌّ بالمَوسِمِ، فَقَرأ على الناسِ ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ مِنَ العهدِ غيرَ أربَعَةِ أشْهرٍ، فإنهمْ يَسيحون فيها.

ثم قولُهُ: ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: هو يومُ النَّحْرِ لأنَّ فيهِ ذِكْرَ طوافُ البيتِ وحجُّ البيتِ وقالَ بعضُهُمْ: هو يومُ عَرَفَةَ لأنهُ هو الذي يوقفُ [فيهِ][2] بِعَرَفَةَ، وبهِ يَتِمُّ الحجُّ على ما رُوِيَ في الخَبَرِ: «الحجُّ عَرَفَةُ ومَنْ أدركَ عَرَفَةَ بِلَيلٍ، وصَلَّى معنا بِجُمْعٍ فقد تَمَّ حجُّهُ، وقَضَى تفَثَهُ، بإدراكِهِ يُتِمُّ الحجَّ، وبِفَوتِهِ يفوتُ» [النسائي ٥/٢٥٦] وعنِ الحَسَنِ أنهُ سُئِلَ، فقيلَ لهُ: ما الحجُّ الأكبَرُ؟ فقالَ: سنةَ حَجَّ المُسْلِمونَ والمُشْرِكونَ جميعاً، اجْتَمَعُوا بمكةَ، وكانَ في [ذلكَ][3] اليومِ لليهودِ عيدٌ وللنصارى عيدٌ، لم يكُنْ قبلَهُ ولا بَعْدَهُ، فَسَمَّاهُ اللهُ الحجَّ الأكبَرَ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: لا يَحْتَمِلُ أنْ يُسَمِّيَ اللهُ لِعيدِ النَّصارَى واليهودِ يومَ الحجِّ الأكبَرِ، وهو يومُ نُزولِ السَّخْطَةِ[4] عليهِمْ واللَّعْنَةِ. ولكنْ جائزٌ أنْ يُسَمِّيَ بذلكَ لِاجْتِماعِ[5] الخَلائِقِ فيهِ مِنْ كلِّ نوعٍ على ما سَمَّى يومَ الحشرِ يوماً كقولِهِ: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٥و٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي تُبْتُمْ عما كُنْتُمْ عليهِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنهمْ يأمنونَ مِنَ الرُّعْبِ الذي كانَ في قلوبِهِمْ. ويكونُ ذلكَ الخوفُ والرعبُ في قلوبِ المُشْرِكينَ على ما رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ قالَ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهرَينِ» [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦]

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عما ذَكَرْنا ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي غيرُ فائتينَ عن نَقْمَةِ اللهِ وعذابِهِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ عن نَقْضِ العَهْدِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ والأوَّلُ ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ وأسلَمْتُمْ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخِرَةِ [أقْرَبُ][6] ثم رُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عن عليٍّ ﷺ أنهُ سُئِلَ: بأيِّ شيءٍ بُعِثَ؟ قالَ: بأربعٍ: لا يدخُلُ الجنةَ إلّا نَفْسٌ مؤمِنَةٌ، ومَنْ كانَ بينَهُ وبينَ النَّبِيِّ ﷺ عَهْدٌ، فَعَهْدُهُ أربعةُ أشهرٍ، ولا يطوفُ بالبيتِ عُرْيانٌ، ولا يدخلُ الحَرَمَ مُشْرِكٌ، بَعْدَ هذا[7]. وفي بَعْضِ الأخبارِ: ولا يَحُجُّ المشركُ بَعْدَ عامِهِ هذا وكذلكَ قالَ في الآيةِ الأخرى: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

ففيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ لأنهُ قالَ في مَلإٍ مِنَ الناسِ بالمَوسِمِ: لا يَحُجُّ مُشْرِكٌ بعد هذا مع كَثْرَةِ أولئكَ وقُوَّتِهِمْ وقِلَّةِ المؤمِنينَ وضَعْفِهِمْ. ثم لم يتجاسَرْ بَعْدَ ذلكَ النداءِ أحدٌ أن يقولَ: مكةُ للحجِّ وغيرِهِ. دلَّ أنَّ ذلكَ كلَّهُ كانَ باللهِ تعالى لا بِهِمْ.

ثم مِنَ الناسِ مَنِ اسْتَدَلَّ بالخَبَرِ الذي رُوِيَ «أنهُ بَعَثَ أبا بكرٍ الصديقَ على الحجِّ، وبَعَثَ مَعَهُ بـ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ ثم أتْبَعَهُ عليًا، فأدرَكَها، فأخَذَ منهُ، ورجَعَ أبو بكرٍ إلى النَّبِيِّ، فقالَ: هل نَزَلَ فيَّ شيءٌ؟ قالَ: لا، ولكنْ لا يُبَلِّغُ عني غَيري أو رجلٌ مني» [بنحوه الترمذي ٣٦٧٠] على أنَّ عليًا هو المُسْتَحِقُّ للخِلافةِ، وهو الأحقُّ بها دونَ أبي بكرٍ حينَ[8] قالَ: «لا يُبَلِّغُ عني إلّا رجلٌ مني» لكنْ يَحْتَمِلُ أنهُ وَلَّى ذلكَ عليًا لِما كانَ مِنْ عادةِ العَرَبِ أنهمْ إذا عاهَدُوا عهداً أنهُ لا يَنْقُضُ ذلكَ عليهِمْ إلّا مَنْ هو مِنْ قومِهِمْ، فَوَلَّى ذلكَ عليًا لئلا يكونَ لهمُ الاحْتِجاجُ عليهِ، فيقولونَ: لِمَ يَنْقُضُ علينا العَهْدَ؟ أو أنْ يُقالَ: عليًا وَلَّى علينا أمْرَ الحربِ، وهو كانَ أبْصَرَ وأقْوى بأمرِ الحَرْبِ مِنْ أبي بَكرٍ؛ وَوَلَّى أبا بكرٍ أمْرَ إقامةِ الحجِّ والمَناسِكِ، وكانَ أبو بَكْرٍ هو المُوَلَّى أمْرَ العِباداتِ، وعليٌّ [هو المُوَلَّى][9] أمرَ الحروبِ. فالحاجةُ إلى الخلافةِ لإقامةِ العباداتِ، أو أنْ يُقالَ:

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) من م، في الأصل: السبحة. (٥) في الأصل وم: الاجتماع. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) إشارة إلى قوله ﷺ: «ألا لا يحجن بعد العام مشرك» [البخاري: ٣٦٩]. (٨) في الأصل و م: حيث. (٩) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

[إنّ][1] أبا بكرٍ كانَ أميرَ الموسمِ، وعليّاً كانَ مُناديَهُ؛ فالأميرُ في شاهِدِنا أجلُّ قَدْراً وأعظمُ مَنزلَةً مِنَ المُنادي، وأمَرَ عليّاً ذلكَ لِما أنَّ ذلكَ أنْ كانَ أقبلَ وأسمعَ مِنْ غيرِهِ مِنَ الأميرِ نفسِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أمرَ بإتمامِ العهدِ للذينَ لم يَنْقُضُوا المُسْلِمينَ، ولا ظاهَرُوا عليهِمْ أحداً. وأمّا الذينَ كانَتْ عادتُهُمْ نَقْضَ العَهْدِ ونَكْثَهُ فإنَهُ لا يُتَمُّ لهمْ، ولكنْ يُنْقَضُ. وكذلكَ تأوَّلُوا قولَهُ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ النقضَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ صلةَ قولِهِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣] ويكونَ العذابُ الأليمُ، هو القتلُ والأسرُ؛ كأنهُ يقولُ ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بالقتلِ والأسرِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لم يَخونوكُمْ شيئاً ما داموا في العَهْدِ ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي لم يُعاوِنوا، ولا أطْلَعوا أحداً مِنَ المشركينَ عليكُمْ ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ كقولِهِ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] أمَرَ بالنَّبْذِ إليهِمْ عندَ خوفِ الخِيانَةِ، وأمَرَ بالإتمامِ إذا لم يَخونُوا، ولم يُظاهِرُوا عليهِمْ أحداً.

ودلَّ قولُهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ على أنّ قولَهُ ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي غيرُ مُعْجِزي أولياءِ اللهِ في عذابِ الدنيا لأنهُمْ جميعاً سواءٌ في عذابِ الآخِرَةِ مشتركينَ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مُدَّةُ القومِ أربعةُ أشهرٍ بعدَ يومِ النَّحْرِ لِعَشْرٍ مَضَينَ مِنْ ربيعِ الآخرِ لِمَنْ كانَ لهُ عهدٌ، ومَنْ لا عَهْدَ لهُ إلى انْسِلاخِ المُحَرَّمِ خمسونَ ليلةً.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالحُدَيبِيَةِ فلم يَبْرَأِ اللهُ ورسولُهُ مِنْ عَهْدِهِمْ في الأشْهُرِ الأربعِ ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي لم يُعِينوا على قِتالِكُمْ أحداً مِنَ المُشرِكينَ، أي لم يَفْعَلُوا ذلكَ ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ وهو أربعَةُ الأشْهُرِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذينَ اتَّقَوُا المَعاصِيَ والشِّرْكَ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الأشْهُرُ الحُرُمُ هي أشْهُرُ العَهْدِ والأمانِ. فإذا انْسَلَخَتْ تلكَ الأشهُرُ، ومضَتْ ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

وقالَ بعضُهُم: الأشْهُرُ الحُرُمُ هي الأشْهُرُ التي خَلَقَها اللهُ، وجَعَلَها حراماً، كقولِهِ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ/ ٢٠٧ ـ أ/ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ قالَ بعضُهُم حيثُ وَجَدْتُموهُمْ في الأماكِنِ كُلِّها؛ لأنَّ حيثُ إنما يُتَرجِمُ عَنْ مكانٍ؛ أمَرَ بِقَتْلِهِمْ في الأماكِنِ كُلِّها لأنهُ لم يَخُصَّ مكاناً دونَ مكانٍ. وقالَ آخرونَ: هو في الأماكنِ كُلِّها إلّا مكانَ الحَرَمِ. دليلُهُ ما ذُكِرَ في السورةِ التي فيها ذِكْرُ البقرةِ، وهو قولُهُ: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وقولُهُ[2]: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الآية: ١٩١] أمَرَهُمْ بِقِتالِهِمْ في الأماكِنِ كُلِّها إلّا المَسْجِدَ الحَرامَ. وأمْكَنَ أنْ يكونَ أنهمْ يَقْتُلونَ [عدوَّهُمْ][3] إلّا أنْ يدخُلوا [المَسْجِدَ][4] الحرامَ، وقد نُهُوا عنِ الدخولِ فيهِ[5] والحَجِّ هنالكَ على ما رُوِيَ أنَّ عليّاً نادى بالمَوسِمِ: «ألا لا يَحُجَّنَّ بعدَ العامِ مُشْرِكٌ» [البخاري ٣٦٩]. فإذا دَخَلُوا يُقْتَلُونَ، ويكونُ دخولُهُمْ فيهِ بَعْدَ النَّهْيِ كابْتِداءِ مُقاتَلَتِهِمْ إيّانا. فإذا قاتَلُونا عندَ [المسجدِ الحرامِ قاتَلْناهُمْ] كقولِهِ: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ قيلَ: سُرُوهُمْ، وقولُهُ: ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ قيلَ: واحبِسوهُمْ ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل و م: وقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل و م: فيها.

جنة السنة

والمَرصَدُ الطريقُ؛ كأنهُ أمَرَ بقولِهِ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ بِقَتْلِهِمْ إذا قَدَرُوا عليهِمْ، وأمْكَنَ لَهُمْ ذلكَ، والأمرُ [عندَ][1] الإمكانِ، والحَبْسُ إذا دَخَلُوا الحِصْنَ، وحِفْظُ المراصِدِ عندَ غَيرِ الإمكانِ لئلّا يَفِرُّوا. ويُقالُ: أرْصَدْتُ لهُ أي انْتَظَرْتُ حتى[2] أجِدَ فُرْصَتِي. ويُقالُ: تَرَصَّدْتُهُ أي انْتَظَرْتُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي كُلَّ طريقٍ يَرْصُدُونَكُمْ. كأنهُ أمَرَ بذلكَ لِيَضيقَ عليهِمُ الأمْرُ، لِيَضْجَرُوا، ويَتَفادَوا. وفيهِ دليلُ النَّهْيِ عمّا يُحْمَلُ إلى دارِ الحربِ مِنْ أنواعِ الثيابِ والأمتعةِ وما يَنْتَفِعونَ بهِ؛ لأنهُ أمَرَ بالحَصْرِ وحِفْظِ الطُّرُقِ والمَراصِدِ لِيَضيقَ عليهِمُ الأمرُ، فيَشْتَدَّ، فيَتَفادَوا، وفي ما يَحْمِلونَ توسيعٌ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ﴾ أي أقيمُوا عليهِمُ الحُجَجَ والبراهِينَ ليضطرُّوا إلى قَبولِ ذلكَ. فإذا أنْقَذُوا لكمْ، وإلّا فاقْتُلُوهُمْ ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ فوَجَبَ بِظاهِرِ الآيةِ أنْ نُقاتِلَ مَنْ آمَنَ، ولم يُقِمِ الصلاةَ، ولم يُؤْتِ الزكاةَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى إنما رَفَعَ القَتْلَ عنهُمْ بالإيمانِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ. فإذا لم يأتُوا بذلكَ فالقَتْلُ واجبٌ عليهِمْ.

وكذلكَ [فَعَلَ أبو][3] بكرٍ الصِّدِّيقُ لمّا ارْتَدَّتِ العَرَبُ، ومَنَعَتْهُمُ الزكاةَ؛ حارَبَهُمْ حتى أذعَنُوا بأدائِها إليهِ. رُوِيَ عن أنسٍ [أنهُ][4] قالَ: لمّا تُوُفِّيَ رسولُ اللهِ ﷺ ارْتَدَّتِ العَرَبُ كافّةً، فقالَ عُمَرُ: يا أبا بكرٍ تُريدُ أنْ تُقاتِلَ العَرَبَ كافّةً، فقالَ أبو بكرٍ: إنما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا شَهِدوا أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ، وأقاموا الصلاةَ، وآتَوُا الزكاةَ مُنِعُوا مِنْ دمائِهِمْ وأموالِهِمْ. واللهِ لو مَنَعوني عِقالاً ممّا كانُوا يعطونَ رسولَ اللهِ ﷺ قاتَلْتُهُمْ عليهِ. قالَ عُمَرُ: فلمّا رأيتُ أبا بكرٍ قد شَرَحَ عَرَفْتُ أنهُ الحَقُّ.

وفي بَعْضِ الأخبارِ [أنهُمْ][5] قالُوا: نَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ، ونُصَلِّي، ولكنْ لا نُزَكِّي، فَمَشى عُمَرُ والبَدْرِيّونَ إلى أبي بكرٍ، فقالُوا: دَعْهُمْ فإنهُمْ إذا استَقَرَّ الإسلامُ في قلوبِهِمْ، وثَبَتَ، أدَّوا. فقالَ: واللهِ لو مَنَعوني عِقالاً ممّا أخَذَ رسولُ اللهِ ﷺ قاتَلْتُهُمْ عليهِ. [وقالوا: قاتَلَ][6] رسولُ اللهِ على ثلاثٍ: شهادةُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وإقامُ الصلاةِ وإيتاءُ الزكاةِ، وقالَ اللهُ: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ واللهِ [لا][7] أسألُ فَوقَهُنَّ، ولا أُقْصِرُ دونَهُنَّ، فقالوا: إنا نُزَكّي ولكنْ لا نَرْفَعُها، فقالَ: واللهِ حتى آخُذَها كما أخَذَها رسولُ اللهِ ﷺ وأضَعَها مواضِعَها.

وقالَ آخَرونَ: قولُهُ: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ في قبولِهِما[8] والاعْتِقادِ بهما دونَ فِعْلِهِما لِما لا يَحْتَمِلُ حَبْسَهُمْ ومَنْعَهُمْ إلى أنْ يحولَ الحولُ، فيأخُذُوا بأداءِ الزكاةِ. دَلَّ على أنهُ القَبولُ والإقرارُ بذلكَ، واسْتَدَلُّوا بما رُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][9] قالَ: «أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إلهَ إلّا اللهُ، وإني رسولُ اللهِ، فإذا قالُوا ذلكَ عَصَمُوا مني كذا». وفي بَعْضِها: «حتى يقولُوا: لا إلهَ إلّا اللهُ، وإني رسولُ اللهِ، وأقاموا الصلاةَ، وآتَوُا الزكاةَ، وإذا فَعَلُوا ذلكَ مَنَعُوا كذا» [مسلم: ٢١].

دلَّ ما ذَكَرْنا مِنَ الزياداتِ والنُّقصانِ أنَّ ذلكَ في قومٍ مُخْتَلِفينَ وأنهُ على القَبولِ لِذلكَ والاعْتِقادِ، لا على الفِعْلِ بِنَفسِهِ. فَمَنْ كانَ لا يُقِرُّ بِشيءٍ مِنْ ذلكَ، فإذا قالَ: لا إلهَ إلّا اللهُ، كانَ ذلكَ منهُ إيماناً في الظاهِرِ. ومَنْ كانَ يقولُ: لا إلهَ إلّا اللهُ، ولا يقولُ: محمدٌ رسولُ اللهِ؛ فإذا قالَ ذلكَ [كانَ ذلكَ][10] منهُ إيماناً. ومَنْ كانَ يُقِرُّ بهذينِ، ولا يُقِرُّ بالصلاةِ والزكاةِ، فإذا أقَرَّ بذلكَ كانَ ذلكَ منهُ إيماناً، فهو على الإقرارِ بهِ والاعْتِقادِ لا على الفِعْلِ.

ألا تَرى أنَّ لِلأئمّةِ أنْ يأخُذُوا منهُمُ الزكاةَ؛ شاؤُوا، أو أبَوا؟ فلو كانَ الأداءُ مِنْ شَرْطِ الإيمانِ لَكانُوا غيرَ مؤمنينَ بأخذِ هؤلاءِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل و م: يحل. (٣) في الأصل: فعلى أبي. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) في الأصل وم: قيل أو قاتل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: قبولها. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

واختلفَ الصحابةُ والرواياتُ في الحجّ الأكبرِ؛ رُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ [أنه قال:][1] قال: النبيُّ ﷺ يومَ عَرَفَةَ: «هل تَدرون أيُّ يومٍ هذا؟ قالوا نعم، اليومُ الحرامُ، يومُ الحَجِّ الأكبرِ، قال: فإنَّ اللهَ قد حَرَّمَ دماءَكُم وأموالَكُم عليكُم إلى يومِ القيامةِ كَحُرْمةِ يومِكُم هذا» [ابن ماجه ٣٠٥٧].

وعَنْ عُمَرَ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنِ الحَجِّ الأكبَرِ، فقالَ: يومُ عرفَةَ. وعنهُ أنهُ وقفَ عليهِمْ يومَ عَرَفَةَ فقالَ: إنَّ هذا يومُ الحَجِّ الأكبَرِ، فلا يَصومَنَّهُ أحدٌ. وعنِ ابنِ الزُّبيرِ [أنهُ كانَ][2] يقولُ: يومُ عرفةَ هذا يومُ الحجِّ الأكبرِ.

وفي بعضِ الأخبارِ عنهُ ﷺ أنهُ خَطَبَ على ناقةٍ حمراءَ يومَ النَّحرِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ «أتَدرونَ أيُّ يومٍ هذا؟ هذا يومُ النَّحرِ، وهذا يومُ الحَجِّ الأكبَرِ».

وفي بَعْضِ الأخبارِ عنِ ابنِ عُمَرَ [أنهُ][3] قالَ: رأيتُ، أو قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ يومَ النَّحرِ عندَ المحرابِ في حَجَّةِ الوداعِ: «أيُّ يومٍ هذا؟ قالُوا: هذا يومُ النَّحرِ. قالَ[4] فأيُّ بَلَدٍ هذا؟ قالُوا: هذا بَلَدٌ حرامٌ، قالَ: فأيُّ شهرٍ هذا؟ قالُوا: هذا شَهرٌ حرامٌ. قالَ: هذا يومُ الحَجِّ الأكبرِ؛ فدماؤُكُمْ وأموالُكُمْ وأعراضُكُمْ عليكُمْ حرامٌ كَحُرْمَةِ هذا البَلَدِ في هذا اليومِ، ثم قالَ: هل بَلَّغتُ؟» [مسلم ١٦٧٩/ ٣٠].

وعنِ الحارثِ [أنهُ][5] قالَ: سألتُ علياً عنِ الحَجِّ الأكبَرِ، فقالَ: يومُ النَّحرِ، وعنِ المُغيرةِ بنِ شُعْبَةَ أنهُ خَطَبَ يومَ العيدِ، فقالَ: هذا يومُ النَّحرِ، ويومُ الأضحى، ويومُ الحجِّ الأكبَرِ، وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][6] قالَ: الحَجُّ الأكبَرُ يومُ النَّحرِ.

وفيهِ قولٌ ثالثٌ: ما رُوِيَ أنهُ كانَ في كتابِ رسولِ اللهِ ﷺ الذي كتبَهُ لِعَمْرِو بنِ حَزْمٍ: والحَجُّ الأصغَرُ العُمْرَةُ. وعنِ ابنِ عباسٍ [أنهُ][7] قالَ: العُمْرَةُ الحَجَّةُ الصُّغرى، وسُئِلَ عبدُ اللهِ بْنُ شدادٍ عنِ الحَجِّ الأكبرِ، فقالَ: الحَجُّ الأكبَرُ يومُ النَّحرِ، والأصغَرُ العُمْرَةُ.

فأمّا حديثُ عمرِو بنِ حَزمٍ فهو حكايةٌ عَنْ كِتابٍ، وليسَ فيهِ بَيانٌ عن يومِ الحَجِّ الأكبَرِ إنما يُذكَرُ فيهِ الحَجُّ الأصغَرُ. ولولا خَبَرُ عليٍّ وابنِ عُمَرَ لجازَ أنْ يُقالَ: يومُ عرفةَ هو يومُ الحَجِّ الأكبَرِ؛ لأنهُ يُقضَى فيهِ فَرْضُ الحجِّ؛ وهو الوقوفُ. ومَنْ فاتَهُ ذلكَ فقدْ فاتَهُ الحَجُّ، وجازَ أنْ يُقالَ: هو يومُ النَّحرِ؛ لأنَّ فيهِ يُقضَى طوافُ الزيارةِ؛ وهو فرضٌ يُقتَضَى فيهِ أكثَرُ مناسِكِ الحَجِّ، بل هو يومُ النَّحرِ أولَى أنْ يكونَ يومَ الحَجِّ الأكبَرِ؛ لأنَّ الحاجَّ يَفعَلُ في يوم عَرَفَةَ فَرضاً مِن فرائِضِ الحَجِّ، وهو الوقوفُ، و يُقتَضى في يومِ النَّحرِ فَرضٌ[8] آخَرُ مِن فرائِضِهِ، وهو طوافُ الزيارةِ، ويُقتَضى مَعَ ذلكَ أكثَرُ مناسِكِ الحجِّ. فَقَدِ اسْتَوَى هذانِ اليومانِ في أنهُ يُقتَضى في كلٍّ/ ٢٠٧ ـ ب/ واحدٍ منهُما فَرضٌ مِن فرائضِ الحجِّ، و زادَ يومُ النَّحرِ على يومِ عَرَفَةَ بِما يُفعَلُ في يومِ النَّحرِ مِنْ مناسِكِ الحَجِّ، ولا يُفعَلُ في يومِ عرفةَ شيءٌ[9] مِنَ النُّسُكِ إلّا الوُقوفُ بِعَرَفَةَ.

واحتَجَّ بَعْضُ الناسِ بفريضةِ العُمْرَةِ بِما رَواهُ عَمْرُو بنُ حَزمٍ أنَّ الحَجَّ الأصغَرَ هو العُمْرَةُ، والحَجَّ الأكبَرَ هو الحَجُّ لِما[10] سُمِّيَتِ العُمْرَةُ حَجًّا، وقد ذَكَرْنا الوجهَ في ذلكَ في ما تَقَدَّمَ.

وعَنْ عليٍّ وأبي هُرَيرَةَ وابنِ أبي أوفَى ﷺ أنهُمْ قالُوا: الحَجَّةُ الكُبْرَى يومُ النَّحرِ، وعنْ عُمَرَ وابنِ عباسٍ أنهما قالا: يومُ عَرَفَةَ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ وقد قالَ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ الآية [التوبة: ٥] فأمَرَ بالآيةِ الأولى عندَ الوجودِ، وفي هذهِ بالقتلِ والأسْرِ، وأمَرَ في الأولى بتَبْليغِهِ مَأمَنَهُ، وفي[11] هذهِ بأنْ يَقْعُدَ لهُ في كلِّ مَرْصَدٍ. وحالُ هذهِ في حالِ الأُولى في رأيِ العَينِ، ويَتَهَيَّأُ لهُ في كلِّ وقتٍ، يَظْفَرُ بهِ، أنْ يَسْتَجيرَ لِما ذَكَرَ. وفي كلِّ حالٍ، يَرْصُدُ لهُ أنْ يَحتالَ لِيَرُدَّ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) من م، في الأصل: قالوا. (٥) ساقطة من الأصل و م.
(٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: فرضاً. (٩) في الأصل و م: شيئاً. (١٠) في الأصل: بما، في م: إنما. (١١) الواو ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

إلى مَأمَنِهِ. وفي ذلكَ زوالُ القِيامِ بما في إحدَى الآيتينِ في الظاهِرِ، فألزَمَ ذلكَ طَلَبَ المَعنَى المُوَفّقِ بينَ الأمرَينِ مِنْ طريقِ التأمّلِ بالأسبابِ التي هي تدلُّ على حقِّ المُعامَلَةِ بالآيتينِ جميعاً.

فقالَ أصحابُنا: إنهُ إذا قَصَدَ نَحوَ مَأمَنِ أهلِ الإسلامِ غيرَ مُظهِرٍ إعلامَ الحربِ، ولا بما يَدُلُّ أنهُ على ذلكَ مَجيئُهُ، بل يَمشي مَشيَ مَنْ يَنقَلِبُ لحاجَةٍ، ومَنْ يَتعاهَدُ مَنْ يُنادي إليهِ بالاستِجارَةِ، فَيُجارُ، ولو كانَ مُقبِلاً نَحوَ مَأمَنِنا كالطالِبِ لأحدٍ، عليهِ إعلامُ الحربِ، لكنَّهُ كالغافِلِ عنِ الذينَ يَرصُدونَ لهُ والذينَ لهمْ مَنَعَةٌ، ولا قوةَ بهِ، فلا يُقبَلُ قَولُهُ. وذلكَ[1] على تَسليمِ الأمرِ الغالبِ مِنَ الأحوالِ؛ إذْ لا وَجهَ لِعِلمِ الحقيقةِ في ذلكَ.

وعلى ذلكَ عامّةُ الأمورِ بينَ أهلِ الدارَينِ، وما ذَكَرتُ مِنَ الآيةِ في لُزومِ ذلكَ الاعتِبارِ؛ إذْ لا وَجهَ لهُ؛ غيرُهُ هو دليلُهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم دلَّ قولُهُ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ بعدَ العِلمِ بأنهُ مِنْ مأمَنِهِ أمِنَ الآخرُ؛ إذْ بهِ خوفُهُ، فَثَبَتَ أنهُ قد يُؤذَنُ لهُ الخروجُ للاستِجارَةِ مِنْ مأمَنِهِ والدخولُ في مأمَنِ المُسلمينَ إلى أنْ يَبلُغوا مَسامِعَهُمْ، فَيَستَجيروا. فلذلكَ لا يُوجِبُ ذلكَ الوجودُ حقَّ الأسْرِ ولا القَتلِ، ويَجِبُ رَدُّهُ لو لم يُجِرْ، ولا يَسَعُ تَعَرُّضُهُ لشيءٍ مِنْ ذلكَ ثَمَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ مِنْ غيرِ أنْ يُبَيِّنَ استِجارَتَهُ لماذا؟ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ تَرْكُ بَيانِهِ لِما في الجوابِ ذلكَ بقولِهِ: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وذلكَ كقولِهِ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] إنَّ[2] في الجوابِ بَيانَ ما استَفتَوا.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ لازماً أنْ ﴿يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ بمَعنَى حُجّتِهِ لأيِّ وجهٍ دَخَلَ بأمانٍ. وذلكَ قريبٌ؛ لأنّا أُمِرْنا بالتَّضييقِ عليهِمْ لِيُسلِموا. فإذا أبَحنا لهمُ الدخولَ لِلحاجاتِ بِلا عَرَضٍ، يُذهِبُ مَنفَعَةَ التَّضييقِ فيكونُ المَقصودُ بالعَهْدِ لِما يَرَونَ مِنْ آثارِ الإسلامِ وحُسنِ رِعايةِ أهلِ الإسلامِ، وتَسمَعونَ حُجَجَهُ وما بهِ ظُهورُ الحَقِّ فيهِ رَجاءَ أنْ يُجيبوا. فلذلكَ يُؤذَنونَ، وإنْ كانَ في ذلكَ قضاءُ حاجاتِهِمْ.

وقد رُوِيَ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ لم يكُنْ يُقاتِلُ حتى يدعُوَ إلى الإسلامِ. فما قد كانَ دَعاهُمْ غيرَ مَرَّةٍ، فذلكَ المَعنَى عندَ الأمانِ أولَى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ فالأصلُ أنَّ حَقيقةَ الكلامِ لا تُسمَعُ بالكلامِ؛ إذِ الذي بهِ يُؤدّي حروفَ الكلامِ بِما يُقَلِّبُ الحروفَ، ويُؤلِّفُهُ، ولا صَوتَ لَهُ، يُسمَعُ نَحوُ اللِّسانِ والشَّفَةِ ونَحوُ ذلكَ. وإنما يُسمَعُ بِصَوتٍ يَهيجُ مِنْ حيثُ [الحُروفُ][3] الخارجةُ التي تَتَكَلَّمُ وقولُهُ، فَتَبلُغُ، أو حروفُ كلامِهِ للمَسامِعِ. فالسَّمعُ يَقَعُ على الصوتِ الذي بهِ يُدرَكُ الكلامُ، ويُفهَمُ، فصارَ سَمعُ الكلامِ في الأصلِ مَجازاً لا حقيقةً. فَعَلَى ذلكَ ما قيلَ مِنْ سَماعِ كلامِ اللهِ.

ثم هو يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنْ يَسمَعَ المَعنَى الذي جُعِلَ لهُ الكلامُ، وهو الأمرُ والنهيُ والتحريمُ والتحليلُ وغيرُ ذلكَ. وذلكَ ممّا يُنسَبُ إلى اللهِ. فقيلَ بذلكَ: كلامُ اللهِ لِما إليهِ يُنسَبُ الكلامُ بهِ والنَّهيُ وَ نَحوُ ذلكَ.

والوجهُ الثاني: أنْ يكونَ أَلَّفَهُ، ونَظَمَهُ، على ما أعجَزَ خَلقَهُ عنْ مِثلِهِ، فَيُنسَبُ إليهِ بما منهُ تأليفُهُ على ما هو عليهِ، وإنْ كانَ مَسموعاً مِنْ غيرِهِ على ما نُسِبَتِ القَصائدُ إلى مُبدِيها والكُتُبُ إلى مُؤلِّفيها والأقاويلُ إلى الأوائلِ التي منهُمْ ظَهَرَتْ، وإنْ لم يكُنِ الذي يقولُهُ في الحقيقةِ قولَهُ أو كلامَهُ بما كانَ منهُ المَبدأُ الذي عليهِ يَتَكَلَّمُ. فَمِثْلُهُ مَعنَى قولِهِ ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

والثالثُ: أنْ يكونَ ذلكَ لِما لِكلامِهِ [يُعَبَّرُ، وبهِ][4] يُوصَفُ أنَّ لهُ كلاماً[5]، وبهِ يُرجَعُ إلى ذلكَ، وإنْ كانَ اللهُ تعالى يَجِلُّ عنِ الوصفِ لِكلامِهِ بالحروفِ والهجاءِ والإيماضِ ونَحوِ ذلكَ.

---

(١) من م، في الأصل: و. (٢) في الأصل و م: أنه. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) من م، في الأصل: يعبرون به. (٥) في الأصل و م: كلام.

جنة السنة

فلمّا كانَ إليهِ المَرجِعُ، وإنْ كانَ حَدُّ ذلكَ غيرَ مُتوهَّمٍ هنالكَ ولا مُتصَوَّرٍ، فَنُسِبَ إليهِ كما قالَ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] وقالَ: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] مِنْ غيرِ تَوهُّمِ كُلِّيَّةِ العالَمِ[1] في ذلكَ الترابِ أو النَّفسِ الواحدةِ لِما إليهِ مَرجِعُ الكُلِّ، نُسِبَ إليهِ.

وعلى ذلكَ أمرُ الكلامِ، وذلكَ على ما قيلَ مِنْ لِقاءِ اللهِ والمَرْجِعِ إلى اللهِ والمَصيرِ بما لا تَدبيرَ لأحدٍ هنالكَ؛ ذَكَرَ المَصيرَ إليهِ، [لأنهُ لا بُدّ][2] لذلكَ مِنْ صَيرورةٍ إليهِ في الحقيقةِ ورجوعٍ لم يكُنْ مِنْ قَبْلُ. فَمِثْلُهُ، لِما قيلَ، كلامُ اللهِ.

ثم اللهُ تعالى يُحِيلُ عنِ التَّصويرِ في الأوهامِ أو التقديرِ في العقولِ. فَعَلى ذلكَ صِفَتُهُ. بل ذلكَ أحقُّ وأولى؛ إذْ نَجِدُ صِفاتِ الخَلْقِ لا تُحَدُّ، ولا تُتَصَوَّرُ في الأوهامِ، ولا تُقَدِّرُها العقولُ إلّا مِنْ طريقِ القولِ بالحقيقةِ على [ماهي إخبارٌ][3] لَهُم. واللهُ تعالى المُتعالي عنِ التَّصَوُّرِ في الأذهانِ، وَوَصْفُهُ بالعِلْمِ والكلامِ ونَحْوِ ذلكَ أحَقُّ في إيصالِ ذلكَ، فَتَدَبَّرْ فيه.

وقالَ الثَّلْجِيُّ: يُقالُ: كلامُ اللهِ على المُوافَقةِ لا على الحقيقةِ كما يُقالُ: ذا قولُ فلانٍ وكلامُ فلانٍ، ولَيسَ غيرُهُ كلامَ المُتكلِّمِ به. فالقائلُ الشاهدُ.

وقالَ أبو بكرٍ: فهذا يدلُّ على أنَّ كلامَ اللهِ يُسْمَعُ مِنْ وجوهٍ؛ فكأنهُ يَذْهَبُ إلى مِثْلِ ما يُقالُ: يُعْرَفُ اللهُ مِنْ وجوهٍ على تَحقيقِ الوُجوهِ، فَمِثْلُهُ كلامُهُ، واللهُ [أعلمُ، مِنْ غيرِ تَوَهُّمِ المَعْنى الثاني يَفْتَرِقُ بهِ][4] عنِ اللهِ سبحانَهُ، كذلكَ سماعُ كلامِهِ.

وفي قولِهِ: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ دلالةٌ أنهُ لم يَقْبَلْ ما أُسْمِعَ، وعُرِضَ عليهِ؛ إذْ لو قَبِلَ لَكانَ يكونُ مأمَنُهُ هذهِ الدارَ، لا تلكَ ولَكانَ يَحِقُّ عليهِ الخروجُ منها، لا العَودُ إليها.

ثم معلومٌ أنَّ كلامَ اللهِ، هو حُجَّتُهُ، وأنَّ الحُجَّةَ قد لَزِمَتْهُ لِوجهَينِ:

أحدُهما: ما ظَهَرَ عَجْزُ الخَلْقِ عنْ مِثْلِهِ، وانْتَشَرَ الخَبَرُ في الآفاقِ[5] على قطعِ طَمَعِ المُقابِلينَ لِرسولِ اللهِ ﷺ بالرَّدِّ الباذِلينَ مُهَجَهُمْ وما حَوَتْهُ أيديهِمْ في إطفاءِ نورِهِ، فكانَ ذلكَ حُجَّةً بَيِّنَةً لَزِمَتْهُمْ.

والثاني: أنَّ جميعَ ما يُتْلَى منهُ لا يُؤْتَى عنْ آياتٍ إلّا وفيها ما يَشْهَدُ بالعقولِ على قُصورِ أفهامِ الخَلْقِ عنْ بلوغِ مِثْلِهِ مِنَ الحِكْمَةِ وعجيبِ ما فيهِ مِنَ الحُجَّةِ ممّا لو قُوبِلَ بما فيهِ مِنَ المَعْنى، وما يَحْدُثُ بهِ مِنَ الفائدةِ لِيُعْلَمَ أنَّ ذلكَ مِنْ كلامِ مَنْ يَعْلَمُ الغَيبَ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ. وإذا كانَ كذلكَ، صارَ هو بالرَّدِّ مُكابِراً، وحَقُّ مِثْلِهِ الزَّجْرُ والتأديبُ أنهُ لم يَفْعَلْ [ما][6] يَضْمَنُ أمانَةَ القَبولِ، ولا ألّا[7] يعارِضَهُ بالرَّدِّ وذلكَ أعظمُ ممّا فيهِ الحدودُ. فالحَدُّ أحقُّ ألّا[8] يُقامَ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يَدَعَهُ، ولا يَمْنَعَهُ عنِ العَودِ إلى مَأمَنِهِ لِيَعْلَمَ أنَّ حُكْمَ تلكَ الدارِ لم يَزَلْ عنهُ، وأنهُ لا يُلْزَمُ الجزيةَ /٢٠٨ـأ/ إلّا عَنْ طوعٍ أو دلالةٍ عليهِ.

والثاني: أنْ يكونَ عليهِ حِفْظُهُ إلى أنْ يُبْلِغَهُ مأمَنَهُ بدفعِ المُسلِمينَ منهُ. وفي ذلكَ لزومُ حَقِّ الأمانِ الجميعَ بإجازةٍ، وعلى ذلكَ كلُّ مُسْلِمٍ.

ثم سماعُ كلامِ اللهِ يُخَرَّجُ مِنَ القرآنِ، وفيهِ ما ذَكَرْتُ مِنَ الدلالةِ، وعلى سماعِ أوامِرِ اللهِ ونَواهيهِ في حَقِّ العَرْضِ عليه، وعلى سَماعِ حُجَجِ النُّبُوَّةِ وآياتِ الرسالةِ أوِ التَّوحيدِ مِنَ القرآنِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي ما لَهُم، وما[9] عليهِم. ويَحْتَمِلُ نَفْيَ العِلْمِ بما لم يَنْتَفِعُوا بِما أُعْلِمُوا. ويَحْتَمِلُ ذلكَ [تَعْليماً][10] مَعَ رسولِ اللهِ مِنْ كَيفِيَّةِ مُعامَلَةِ الكَفَرَةِ؛ إذْ هم لم يكونُوا يَعْلَمونَ مِنْ قَبْلُ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: العام. (٢) في الأصل: لا أن، في م: لأن لذلك. (٣) من م، في الأصل: هن أعيار. (٤) في الأصل: أعلم، في م: من غير توهم المعنى الثاني يتفرق به. (٥) من م، في الأصل: الأوقات. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) من م، في الأصل: أن. (٨) من م، في الأصل: أن. (٩) من م، في الأصل: و. (١٠) في الأصل و م: تعليم.

جنة السنة

الآية ٧ ثم قولُهُ ﷻ: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦ﴾ هو، واللهُ أعْلَمُ، أنْ كيفَ يَستحِقُّونَ العَهْدَ؟ وكيفَ يُعْطَى لهمُ العَهْدُ، وقد نَقَضُوا العُهودَ التي بينَهُمْ وبَيْنَ ربِّهِمْ والعُهودَ التي بينَهُمْ وبَيْنَ رسولِ اللهِ.

فأمّا العُهودُ التي بينَهُمْ وبَينَ ربِّهِمْ فهي[1] عَهْدُ الخِلْقَةِ؛ إذْ في خِلْقَةِ كُلِّ أحدٍ الشهادةُ على وَحْدانيَّةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ، والشهادةُ على الرسالةِ، وما عَهِدَ إليهِمْ في كتُبِهِمْ مِنْ إظهارِ صِفَةِ محمدٍ وبَعْثِهِ[2] لِلْخَلْقِ، فَنَقَضُوا ذلكَ كُلَّهُ، ونَقَضُوا العُهودَ التي بَيْنَهُمْ وبينَ رسولِ اللهِ، ولم يَحْفَظُوها.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ، كيفَ يَستَحِقُّونَ أنْ يُعْطَى العَهْدُ لَهُمْ، وقد نَقَضُوا العَهْدَ الذي عَهِدَ اللهُ إليهِمْ والعُهودَ التي أعطاهُمْ رسولُ اللهِ، لا يَسْتَحِقُّونَ ذلك. إلّا أنَّ اللهَ ﷻ بِفَضْلِهِ وإحسانِهِ أذِنَ أنْ تُعطَى لهمُ العُهودُ، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ أي أوفُوا لهُمُ العَهْدَ إذا وَفَوا لَكُمْ، وإنِ انْقَضَتِ المدةُ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ، إذا استقامُوا لكُمْ في وفاءِ العَهْدِ ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ في وِقايةِ العَهْدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ اسْتثنَى الذين عاهَدُوا عندَ المَسْجِدِ الحرام. يَحْتَمِلُ ألّا يُعْطَى العهدُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ﴾ كذا فإنهمْ إنْ أوفَوا لكُمْ [فأوفُوا لَهُمْ][3] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إنَّ اللهَ يحبُّ مَنِ اتَّقَى الشِّرْكَ، واتَّقَى مِنْ جَورٍ وظُلْمٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ يقولُ: كيفَ تُعطونَ لهُمُ العَهْدَ؟ وكيفَ يَسْتَحِقُّونَ العَهْدَ؟ ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾؟

وقالَ بَعْضُهُمْ: كيفَ لا تُقاتِلونَهُمْ ﴿وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾؟ قالَ: الإلُّ اللهُ، والذِّمّةُ العَهْدُ. وقيلَ: إلالُ القرابَةُ، وقيلَ: الإلُّ العَهْدُ والذِّمّةُ. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ حفصَةَ ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ﴾ عهداً ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾.

وقالَ القُتَبيُّ: الإلُّ العَهْدُ؛ قالَ: ويُقالُ: القرابَةُ، وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الإلُّ القرابَةُ. وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: الإلُّ العَهْدُ، والذِّمّةُ التَّذَمُّمُ. وقالَ ابْنُ عباسٍ: الإلُّ عندَ اللهِ بِمَنزلَةِ جِبريلَ؛ يُفَسِّرُهُ عبدُ اللهِ لِما قيلَ: جبريلُ هو عبدُ اللهِ.

وقيلَ: الإلُّ الحُرَمُ؛ يقولُ: كيفَ يعطونَهُمُ العَهْدَ، وهمْ ﴿وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ﴾ القرابَةَ ولا العَهْدَ، ولا يَرقُبوا[4] الحُرَمَ فيكُمْ؟ وقد كانُوا يَحْفَظُونَ في ما بَيْنَهُمُ القرابَةَ والرَّحِمَ حتى يُعاوِنَ بعضُهُمْ بَعْضاً، ويُناصِرَ، إذا وَقَعَ بَيْنَ قرابَتِهِمْ ورَحِمِهِمْ وبَيْنَ قومٍ آخرينَ مُباغَضَةٌ وعَداوَةٌ، وكانوا يرقُبونَ حُرَمَ اللهِ حتى لا يُقاتِلوا[5] في الأشهرِ الحُرُمِ وعندَ المَسْجِدِ الحرامِ، وكانوا يَحْفَظُونَ العُهودَ في ما بَيْنَهُمْ مِنْ قَبْلُ، ولا يَرْقُبُونَ فيكمْ، ولا يَحْفَظونَها. هذا، واللهُ أعلمُ تأويلُ قولِهِ: ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ وقد كانوا يرقُبونَهُ مِنْ قَبْلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بأنهمْ يُوفُونَ العَهْدَ، ويَحْفَظونَهُ ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ إلّا النَّقْضَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ في نَقْضِ العَهْدِ. والفِسْقُ هو الخُروجُ عنْ أمرِ اللهِ كقولِهِ ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تَحْتَمِلُ آياتُ اللهِ القرآنَ ومحمداً، وتَحْتَمِلُ آياتُهُ دينَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ أي صَدُّوا الناسَ عن متابَعَةِ النَّبِيِّ، وقيلَ: صَدُّوا الناسَ عنْ دينِ اللهِ الإسلامِ ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي بِئْسَ ما عَمِلُوا بِصَدِّهِمُ الناسَ عنْ دينِ الإسلامِ ومُتابَعَةِ محمدٍ ﷺ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ هذا قد ذَكَرْنا ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ في نَقْضِ العَهْدِ. والاِعْتِداءُ هو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لَهُمْ.

---

(١) في الأصل و م: هو. (٢) في الأصل و م: ونعته. (٣) في الأصل: فأوفوا، ساقطة من م. (٤) في الأصل و م: يرقبون. (٥) في الأصل و م: يقاتلون.

جنة السنة

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: أنظُرُوا إلى كَرَمِ ربِّكُمْ وجودِهِ: قومٌ قَدِ افْتَرَوا على اللهِ كَذِباً، وكَذَّبُوا رسولَ اللهِ، وهَمُّوا بِقَتْلِهِ وإخراجِهِ مِنْ بَيْنِ أظْهُرِهِمْ، وطَعَنُوا في دِينِهِمْ، وعَمِلُوا كُلَّ بَلِيَّةٍ مِنْ نَصْبِ الحُرُوبِ والقِتالِ في ما بَيْنَهُمْ، ثم إنهُ وَعَدَ لهمْ بالتوبَةِ المَغْفِرَةَ والتَّجاوُزَ عمّا كانَ منهُمْ بقولِهِ: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وجَعَلَ في ما بَيْنَهُمُ الأُخُوَّةَ والمَوَدَّةَ بقولِهِ: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ وقولِهِ[1]: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] وقولِهِ: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وغيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

وفيهِ: إنْ كانَ لهُ بمكانٍ آخرَ ذَنْبٌ أو جَفاءٌ، فإذا رَجَعَ عنْ ذلكَ، وتابَ، لَزِمَهُ أنْ يَتَجاوَزَ عنهُ، وألّا يُذْكَرَ بَعْدَ ذلكَ ما كانَ منهُ [مِنَ][2] الذنبِ على ما جَعَلَ اللهُ في ما بَيْنَ هؤلاءِ الأُخُوَّةَ والمَوَدَّةَ إذا تابُوا، وقالَ: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ وقد كانَ منهُمْ ما كانَ، ومِنْ حَقِّ الأُخُوَّةِ ألّا يُذْكَرَ ما كانَ منهُمْ مِنَ المَساوِئِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ مِنَ الشِّرْكِ وما كانَ منهُمْ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وجهَيْنِ:

تَحْتَمِلُ الصلاةُ: المعروفةَ، والزكاةُ: المعروفةَ زكاةَ المالِ، وهو ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ مِنَ الإقرارِ لهما والاعْتِقادِ والقَبولِ لذلكَ دونَ فِعْلِهِما، وهو في الكُبَراءِ والقادَةِ الذينَ كانُوا يأنَفُونَ عنِ الخُضوعِ لِأحَدٍ، ولا يُؤَدُّونَ الزكاةَ، ولا يَتَصَدَّقُونَ لِما ظَنُّوا أنهُمْ يُخَلَّدُونَ في الدنيا إشفاقاً على أنْفُسِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المرادُ مِنَ الصلاةِ والزكاةِ الخُضوعَ والخُشوعَ لا الصلاةَ المَعروفَةَ، والمُرادُ مِنَ الزكاةِ زكاةَ النَّفْسِ وإصلاحَها. فإنْ كانَ هذا فهو لازمٌ في الأوقاتِ كُلِّها؛ ما مِنْ وقتٍ إلّا ولَهُ على كُلِّ أحَدٍ الخُضوعُ والخُشوعُ لهُ، [وأنْ][3] يُزَكِّيَ نَفْسَهُ، ويُصْلِحَها، وهو كقولِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي نُبَيِّنُ الآياتِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يَنْتَفِعُونَ بِعِلْمِهِمْ. ويَحْتَمِلُ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لقومٍ إذا نَظَرُوا فيها، وتَدَبَّرُوا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ لا لقومٍ لا يَعْلَمُونَ

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿أَيْمَـٰنَهُم﴾ العُهودَ نَفْسَها كقولِهِ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ العهودَ، ثُمَّ قالَ: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أيماناً يَحْلِفُونَ [بها][4] بَعْدَ إعطاءِ العَهْدِ توكيداً بألّا[5] يَنْقُضُوا العَهْدَ، إذا [عاهدوكُمْ، ونَقْضُ العَهْدِ نَكْثُهُ][6].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ في الدينِ ظاهرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ وتَخْصِيصُ الأمرِ بِمُقاتَلَةِ الأئِمَّةِ [بوجوهٍ:

أحَدُها[7]]: لِما أنَّ الأتباعَ أبداً يُقَلِّدُونَ الأئِمَّةَ ويَصْدُرُونَ عنْ آرائِهِمْ وتَدبيرِهِمْ. فإذا قاتَلُوهُمُ اتَّبَعَ الأتباعُ فَلَهُمْ.

والثاني: لِنَفْيِ الشُّبَهِ أنْ لَيسَ الأئِمَّةُ /٢٠٨ - ب/ منهُمْ كأصحابِ الصوامعِ، وإنْ كانُوا هُمْ أئِمَّةً في العبادَةِ، فلا يَتْرُكُ مُقاتَلَتَهُمْ كما يَتْرُكُ مُقاتَلَةَ أصحابِ الصَّوامعِ قد عَزَلُوا[8] أنْفُسَهُمْ عنِ الناسِ عنْ جَميعِ المَنافِعِ، وحَبَسُوها للعبادَةِ، والأئِمَّةُ لَيسُوا كذلكَ.

والثالثُ: خَصَّ الأئِمَّةَ بالقتالِ لأنهُمْ إذا قَتَلُوهُمْ لم يَبْقَ لهمْ إمامٌ في الكُفْرِ، فيذهَبُ الكُفْرُ رأساً، وهو كقولِهِ ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الآيةَ [البقرة: ١٩٣].

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: و. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لئلا. (٦) في الأصل وم: عاهدتم نقض العهد ونكثه. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: عرفوا.

جنة السنة

[وقولُهُ تعالى](١): ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ يَحتَمِلُ ﴿لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ لا عَهْدَ لهمْ بَعْدَ نَقْضِهِمُ العَهْدَ؛ أي لاتُوفُوا لَهُمُ العَهْدَ الذي كانَ لهمْ إذا نَقَضُوا. ويَحتَمِلُ ﴿لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ أي لا يُعْطَى لهمُ العهدُ أبداً.

وفيهِ لُغَةٌ أُخرَى لا إيمانَ لهمْ بكسرِ(٢) الألِفِ؛ أي لا يؤمنونَ، أي لا يؤمنونَ أبداً. فإنْ كانَ كذلكَ [فذلكَ في قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمِنونَ أبداً(٣)].

وفائدةُ قولِهِ(٤)﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ تُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ أهلَ العَهْدِ إذا نَقَضُوا العَهْدَ يَنْقُضُ ذلكَ، ويَترُكونَ على النَّقْضِ، ويُقاتِلونَ بعدَ النقضِ.

[والثاني: لَيسُوا(٥)] كأهلِ الذِّمَّةِ إذا نَقَضُوا الذِّمَّةَ لا يَترُكونَ ذلكَ، ولكنْ يَرتدُّونَ(٦) إلى الذِّمَّةِ، ولا تُنقَضُ الذِّمَّةُ بينَهمْ.

وقالَ الحَسَنُ: قولُهُ: ﴿لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ يقولُ: لا تَصديقَ لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ عن نَقْضِ العَهْدِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ أي كيفَ ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ وأيمانُهُمْ: ما ذكَرْنا، وهو حرفُ الإغراءِ على مُقاتَلَةِ مَن اعتادَ(٧) نَقْضَ العُهودِ والتَّحريشَ عليهمْ ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ القَتْلَ أي هَمُّوا بقَتْلِهِ. وفي القَتْلِ إخراجُهُ، وهَمُّوا بإخراجهِ مِنَ المدينةِ [ما](٨) ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنَّ اليهودَ قالُوا لرسولِ اللهِ: إنْ كانَ لِلأنبياءِ(٩) والرسلِ بيتُ المقدسِ لا المدينةُ فانتَقِلْ إليهِ.

وفي الآيَةِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ معلومٌ أنهمْ أسَرُّوا في أنْفُسِهِمْ وفي ما بينَهُمْ إخراجَهُ وقَتْلَهُ، لا أنهمْ أظْهَرُوا ذلكَ، ثم أخبَرَهُمْ بذلكَ، دلَّ أنهُمْ إنما عَلِمُوا أنهُ عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في نَقْضِ العَهْدِ، أي هُمْ بَدَؤُوكُمْ بِنَقْضِ العَهْدِ. ويَحتَمِلُ: هُمْ بَدَؤُوكُمْ بالقِتالِ أوَّلَ مَرَّةٍ والإخراجِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ أي لا تَخشَوهُمْ، واخشَوْا اللهَ، فإنهُمْ لا يَقْدِرونَ أنْ [يَصِلُوا إليكم بنَكْبَةٍ](١٠) إلّا بإقدارِ اللهِ إيّاهُمْ. فلا تَخشَوهُمْ، واخشَوْا اللهَ. ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ﴾ قادرٌ؛ يَنْصُرُكُمْ، ويَقْهَرُ عَدُوَّكُمْ ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إذ هو قادرٌ على مَنْعِهِمْ عنكُمْ، ونصرِكُمْ عليهِمْ(١١).

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ﴾ الآيةَ؛ عَلِمَ اللهُ ﷻ كراهَةَ(١٢) القَتْلِ وثِقَلَهُ على الخَلْقِ، فأمرَ المؤمنينَ بِمُقاتَلَةِ الكفَرَةِ، ووَعَدَ لهمُ النَّصرَ والتعذيبَ. والتعذيبُ بأيديهِمْ يَحتَمِلُ وجهَينِ: القَتْلَ والإهلاكَ، ويَحتَمِلُ الأَسْرَ والسَّبْيَ. ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ يَحتَمِلُ أيضاً وجهَينِ: يَحتَمِلُ الهزيمةَ والإذلالَ [في الدنيا](١٣) ويَحتَمِلُ ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ في الآخرةِ كقولِهِ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢] الخِزْيُ هو العذابُ الذي فيهِ الفضيحةُ والذِّلَّةُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ دَلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ لِقولِهِمْ: لا(١٤) قُدْرَةَ للهِ على أفعالِ الخَلْقِ؛ وقد أخبَرَ أنهُ يُعَذِّبُهُمْ بأيديهِمْ، ولو كانَ غيرَ قادرٍ على أفعالِهِمْ كانَ يُعَذِّبُهُمْ بيدِهِ لا بأيديهِمْ، ويَنْصُرُكُمْ عليهِمْ.

وَعَدَ لَهُمُ النَّصرَ عليهِمْ والظَّفَرَ وخِزيَ الكفَرَةِ، وهو ما ذَكَرَ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] دلالةُ نَقْضِ قولِهِمْ لأنهُ أخبَرَ أنهُ يُصيبُهُمُ العذابُ مِنْ عندِهِ أو بأيدي المؤمنينَ لِما ذَكَرْنا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ٣/ ١٠ (٢)ساقطة من م. (٤) في الأصل و م: قولهم. (٥) في الأصل و م : يصل إليكم نكبة. (٦) في الأصل و م: يريدون. (٧) في الأصل و م: اعتقاد. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل و م: الأنبياء. (١٠) في الأصل و م: يصل إليكم نكبة. (١١) في الأصل و م : عليه. (١٢) من وم، في الأصل: كرامة. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) أدرج قبلها في الأصل وم: ان.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ تكونَ قلوبُهُمْ تَوَجَّعَتْ، وتألَّمَتْ بكفرِهِمْ باللهِ وتكذيبِهِمُ الرسولَ، فوعَدَ لهمْ شِفاءَ صدورِهِمْ. وذلكَ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: أنهمْ يُسْلِمون، فيَصِيرونَ إخواناً، فيُدْخِلُ فيهمُ السرورَ والفرحَ بإزاءِ ما حَزِنُوا وتألَّمُوا، وذلكَ شِفاءُ صُدورِهِمْ.

والثاني: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ بالقَتْلِ والهزيمةِ؛ يُقتَلُونَ، ويَهزِمونَ؛ ففي ذلكَ شِفاءُ صدورِهِمْ لِما تألَّمَتْ، وتَوَجَّعَتْ، بالتكذيبِ والكُفْرِ باللهِ وآياتِهِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ هذا يَحتَمِلُ أيضاً وجهَينِ: يُذْهِبُ الغيظَ الذي كانَ[1] في قلوبِهِمْ [ويُذْهِبُ الغَضبَ][2] عليهِمْ بالذي ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ أي مَنْ شاءَ عذَّبَ، ومَنْ شاءَ تابَ عليهِ.

وفي الآيةِ دلالةُ الرَّدِّ على المُعتَزِلَةِ لأنهمْ يقولونَ: شاءَ اللهُ أنْ يتوبَ على جميعِ الكفرةِ، لكنهمْ لا يتوبونَ، فأخبرَ أنهُ يُعذِّبُ، ويتوبُ على بَعْضٍ؛ فإنما شاءَ أنْ يُعذِّبَ غيرَ الذي شاءَ أنْ يتوبَ [وشاءَ أنْ يتوبَ على][3] غيرِ الذي شاءَ أنْ يُعذِّبَ.

[وقولُهُ تعالى][4] ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما كانَ، ويكونُ، أي على[5] عِلْمٍ بما كانَ منهُمْ، خَلَقَهُمْ لا عن جهلٍ؛ إذْ خَلْقُهُ إيّاهُمْ ليسَ لِمنافعِ نَفْسِهِ وحاجتِهِ، إنما خَلَقَهُمْ لحاجتِهِمْ ومَنفَعَتِهِمْ ﴿حَكِيمٌ﴾ بِوَضعِ كلِّ شيءٍ موضِعَهُ. ويَحتَمِلُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بما كانَ مِنْ هؤلاءِ مِنَ التكذيبِ لرسولِ اللهِ والكُفرِ بآياتِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ أي بما[6] جَعَلَ عليهِمْ مِنَ القتْلِ والتَّعذيبِ و الخِزْيِ، كأنهُ وَضَعَ الشيءَ مَوضِعَهُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ [قولُهُ تعالى][7]: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] [وقولُهُ أيضاً[8]]: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ الآيةَ [البقرة: ٢١٤] وقولُهُ: ﴿الم﴾ ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا﴾ الآيةَ [العنكبوت: ١و٢]هذهِ الآياتُ كُلُّها في المنافقِينَ الذينَ أظهَرُوا الإيمانَ باللِّسانِ، وراؤُوا المؤمِنينَ الذينَ حقَّقُوا الإيمانَ، وأخلصوا الإيمانَ والمُوافَقَةَ لهُ، فقالَ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا﴾ على ما أظهَرْتُمْ مِنَ الإيمانِ باللسانِ فلا تُبْتَلَوا[9] بالقِتالِ معَ الكَفَرَةِ؟ واللهُ أعلَمُ.

أمَرَ بهِ[10] لِمعْنَيَيْنِ:

أحدُهُما: تَطهيراً للأرضِ مِنَ الكُفْرِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

والثاني: امْتِحاناً لِلْمُنافِقِينَ لِيَتَبَيَّنَ نِفاقُ مَنْ أظهَرَ الإيمانَ باللسانِ مُراآةً، وصِدْقُ مَنْ أظهَرَهُ حقيقةً، لِيُعْرَفَ المُحِقُّ المُخْلِصُ مِنَ المُنافِقِ المُرائي؛لأنَّ القتالَ هو[11] أرفَعُ أعلامٍ يَظْهَرُ بها نِفاقُ المُنافِقِ لأنهمْ إنما كانُوا يُظْهِرونَ المُوافَقَةَ طَمَعاً لهمْ بالدنيا لِتَسْلَمَ لهُمُ المَنافِعُ التي كانُوا يَنْتَفِعونَ بها.

ففي الأمرِ بالقِتالِ خَوفُ الهلاكِ فإذا خافوا الهَلاكَ على أنفُسِهِمْ امْتَنَعُوا عنهُ كقولِهِ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ الآيةَ [الأحزاب:١٨] خوفاً و إشفاقاً على أنفُسِهِمْ لِما ذَكَرْنا أنهمْ إنما كانُوا يُظهِرونَ الإيمانَ باللسانِ لِيَسْلَمَ لهمْ ما طَمِعُوا[12] مِنَ المَنافِعِ كقولِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآيةَ [الحج: ١١].

---

(١) في الأصل و م: كانوا. (٢) في الأصل وم: غضبوا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: عن، في م: من. (٦) في الأصل و م: ما. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: وأيضاً قوله. (٩) في الأصل و م: تبتلون. (١٠) الضمير يعود على القتال. (١١) أدرج بعدها في الأصل: من. (١٢) من م، في الأصل: طعموا.

جنة السنة

هذا وصفُ المنافقِ. وأمّا المؤمنُ المُحقّقُ للإيمانِ المُخلِصُ للإسلامِ فإنهُ يُسلّمُ نفسَهُ للهِ في جميعِ أحوالِهِ، وإنْ كانَ فيهِ تَلَفُ نفسِهِ، لِما لم تكنْ عِبادَتُهُ اللهَ على حَرْفٍ وَوَجْهٍ كالمنافقِ، ولكنْ على الوُجوهِ كلِّها والأحوالِ جميعاً. عبادتُهُ تكونُ للهِ، لا يَمنَعُهُ خوفُ الهلاكِ عَنِ القِتالِ، بل نفسُهُ تَسخُو لذلكَ، وتَرضَى، ولا كذلكَ المنافقُ؛ وقد ذَكَرْنا أنّ حَرْفَ الاستفهامِ مِنَ اللهِ يكونُ على الإيجابِ والإلزامِ.

ثم قولُهُ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أي قد حَسِبْتُمْ أنْ تُترَكُوا على ما أظهَرتُمْ مِنَ المُوافَقةِ/ ٢٠٩ - أ/ والخِلافِ في السِّرِّ، ولا [تُبتَلَوا، ولا تُمتَحَنُوا بما][(١)] يَظهَرُ عنكُمْ ممّا أضمَرْتُم، فلا تَحسَبُوا ذلكَ.

والثاني: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾ أي لا تَحسَبُوا أنْ تُترَكوا على ذلكَ، ولا تُمتَحَنُوا بالجِهادِ والقِتالِ.

أحدُ التأويلَينِ يُخرَّجُ على النَّهيِ، والثاني على الإخبارِ عمّا حَسِبُوا وعمّا عندَهُمْ.

ثم قولُهُ: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ أي لِيَعْلَمَ مَنْ قد عَلِمَ أنهُ يجاهدُ مجاهداً، ويَعْلَمَ ما قد عَلِمَ أنهُ يكونُ كائناً لا على حدوثِ علمِهِ بذلكَ؛ إذ هو موصوفٌ بالعِلْمِ بكلِّ ما يكونُ على ما يكونُ، فيكونُ قولُهُ: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾ [محمد: ٣١] مِن كذا [وقولُهُ][(٢)]: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] مِن كذا: أي لِيَعْلَمَ مَنْ قد عَلِمَ أنهُ يجاهِدُ مجاهداً، ولِيَعْلَمَ ما قد عَلِمَ أنهُ يكونُ كائناً لأنهُ لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ اللهُ بالعِلْمِ بما ليسَ يكونُ أنهُ يَعْلَمُهُ كائناً كما لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ أنهُ يَعْلَمُ مِنَ الجالسِ القِيامَ في حالِ جُلوسِهِ، ومِنَ المُتحَرِّكِ السكونَ في حالِ حركتِهِ، ومِنَ المُتكَلِّمِ السكوتَ في حالِ كلامِهِ، إنما يُوصَفُ بالعِلْمِ على الحالِ التي الخَلْقُ عليهِ، لا يُوصَفُ بالعِلْمِ في حالٍ غيرِ الحالِ التي هو عليهِ، واللهُ الموفّقُ.

ويَحتَمِلُ هذا وجهاً آخَرَ: أنّ في ما أضافَ العِلْمَ إلى نَفْسِهِ كانَ المُرادُ منهُ أولياءَهُ كقولِهِ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧] أي إنْ تَنصُروا أولياءَهُ[(٣)] يَنصُرْكُم، أو إنْ تَنصُروا دينَهُ يَنصُرْكُم، أو إنْ تَنصُروا رسولَهُ يَنصُرْكُم. فعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ أي لِيُعلِمَ أولياءَهُ[(٤)] المُنافِقَ المُرائيَ والمؤمنَ المُحقّقَ [الإيمانَ][(٥)] المُخلِصَ، وليُبيِّنَ لَهُمْ، وقولُهُ[(٦)]: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٩] أي يُخادِعُونَ أولياءَهُ؛ إذِ اللهُ لا يُخادَعُ، ولا يُنْصَرُ؛ إذ هو ناصِرُ كُلِّ أحدٍ، ولا يَخفَى عليهِ شيءٌ، عالمٌ بما يكونُ، أو أنْ يكونَ المرادُ مِنَ العلمِ الذي ذَكَرَ المَعْلومَ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ جارٍ، وفي القرآنِ كثيرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗ﴾ أي لم يَجِدُوا مَلْجأً يَلْجَؤونَ إليهِ مِنْ دونِ ما ذَكَرَ. ولو وَجَدُوا ذلكَ لاتَّخذُوا ذلكَ، ولكنْ لمّا لم يَجِدُوا لم يتَّخِذوا كقولِهِ: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾ ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا﴾ الآيةَ [التوبة: ٥٦و٥٧] أخبَرَ أنهُمْ لو وَجَدوا مَلْجأً يَلْجَؤونَ إليهِ ﴿لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة: ٥٧] ولا يُظهِرونَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيجَةٗ﴾ قالَ بعضُ أهلِ الأدبِ: الوَليجةُ البِطانةُ مِنْ غيرِ المُسلِمِينَ. وأصلُها مِنَ الوُلوجِ، وهو أنْ يَتَّخِذَ الرجلُ مِنَ المُسلِمينَ دخيلاً مِنَ المُشرِكينَ وخَليطاً وَوِدًّا، وجَمْعُهُ الوَلائجُ.

وقالَ البَعْضُ: الوَليجةُ: أصلُها مِنَ الدخولِ كقولِهِ: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] يقالُ أيضاً: فلانٌ [وَليجةُ فلانٍ][(٧)]: أي خاصّتُهُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: الوَليجةُ الخيانةُ. وقالَ بَعْضُهم: الوَليجةُ ما يُلْجأُ [إليهِ][(٨)]. وقالَ بَعْضُهُمْ: كلُّ شيءٍ أدخَلْتَهُ في شيءٍ، ليسَ منهُ، فهو وَليجةٌ. وبعضُهُ قريبٌ مِنْ بَعْضٍ.

---

(١) في الأصل و م: تبتلون وتمتحنون ما. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: أولياء. (٤) من م، في الأصل: أوليائه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وكقوله. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

[وقولُهُ تعالى](1): ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ هو [على](2) الوعيدِ خرجَ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: نَزَلَتِ الآيةُ في العباسِ بْنِ عبدِ المُطَّلِبِ؛ حينَ(3) أُسِرَ يومَ بدرٍ، فأقبلَ ناسٌ مِنَ المُهاجرينَ والأنصارِ، منهُمْ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ وغيرُهُ، فَعَيَّرُوهُ بالكُفرِ باللهِ والقِتالِ مَعَ النَّبِيِّ وقَطيعةِ الرَّحِمِ، فقالَ: مالَكُمْ تذكُرُونَ مَساوِئَنا، وتَذَرُونَ مَحاسِنَنا؟ فقالُوا: أولَكُمْ مَحاسِنُ؟ قالَ: إي واللهِ: إنا لَنَعْمُرُ المسجدَ الحرامَ، ونَحْجُبُ البيتَ، ونَسْقِي الحاجَّ، ونَفُكُّ العانِيَ. فأنزَلَ اللهُ ردّاً عليهِ. لكنْ في آخرِ الآيةِ دلالةٌ أنهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ في العباسِ على ما قالُوا لأنهُ قالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ في الدنيا ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ والعباسُ قد أسلَمَ مِنْ بَعْدُ، فلا يَحْتَمِلُ هذا الوعيدَ بعدَ الإسلامِ.

وقالَ غيرُهُمْ من أهلِ التأويلِ: وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي ما كانَ بالمُشركينَ عِمارةُ مَساجِدِ اللهِ، إنما كانَ بهِمْ خَرابُ مساجِدِ اللهِ؛ إنَّ المساجِدَ إنما تَعْمُرُ بالذِّكْرِ فيها والصلاةِ و إقامةِ الخَيراتِ كقولِهِ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ الآية [النور:٣٦]، وهُمْ لم يَعْمُرُوها لِذِكْرِ اسمِ اللهِ فيها، إنما عَمَرُوها لِذِكْرِ الأصنامِ والأوثانِ. فكانَ بِهِمْ خَرابُ المَسْجِدِ لا العِمارةُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ على ما عندَهُمْ؛ لأنَّ الذي مَنَعَهُمْ عنِ الإيمانِ باللهِ حُبُّهُمُ الدنيا ومَيلُهُمْ إليها، فما ينْبَغي لهمْ أنْ يَعْمُرُوها، يُنْفِقُونَ(4)، ويُضَيِّعونَ أموالَهُمْ فيها، ولايَنْتَفِعُون،مَنَعَهُمْ عنِ التوحيدِ والإيمانِ حُبُّهُمُ الدنيا وشَهَواتُهُمْ ومَيْلُهُمْ إليها. فَعَلى ما عِندَهُمْ ما يَنْبَغي لهمْ أنْ يَعْمُرُوها.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي ما كانَ على المشركِينَ أنْ يَعْمُرُوا مساجدَ اللهِ، لأنهُمْ لا يَنْتَفِعُونَ بها في الآخِرَةِ؛ لأنهمْ لا يؤمِنونَ بالآخِرَةِ.وإنما يُقْصَدُ بِعِمارةِ المساجِدِ والإنفاقِ عليها الثوابُ في الآخِرَةِ، وهم لا يؤمِنونَ بها، فَتَضيعُ نَفَقَتُهُمْ في ذلكَ؛ إذْ لا مَقاصِدَ لهمْ، ولا مَنْفَعَةَ. إنما ذلكَ على المسلِمينَ. ويجوزُ (لَهُ) بِمَعْنَى (عليهِ) كقولِهِ: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ الآية [الإسراء: ٧] أي فَعَلَيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ هذا: أي [ما](5) كانَ بِالمُشْرِكِ عِمارةُ [مساجِدِ(6)] اللهِ إنما تكونُ عِمارَتُها بِمَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ [الآخِرِ](7) لا بِمَنْ أشْرَكَ باللهِ، وكَفَرَ بالآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم﴾ أي على نَفْسِ محمدٍ ومَنْ آمَنَ مَعَهُ؛سَمَّاهُمْ أنفُسَهُمْ لأنهمْ مِنْ قرابَتِهِمْ وأرحامِهِمْ، وقد سَمَّى اللهُ المُتَصِلِينَ بهِمْ بذلكَ كقولِهِ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [الآية: ١٢٨] وقولِهِ: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النور: ٦١] فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ يَحْتَمِلُ ما ذكَرْنا أو ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم﴾ عندَ الضروراتِ عندَ نزولِ العذابِ بهِمْ وعندَ الهَلاكِ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ الآية [غافر: ٨٤ و٨٥] وغيرَ ذلكَ مِنَ الأحوالِ التي كانُوا يُقِرّونَ بالكُفرِ يَرْجِعونَ عنه شَهِدوا عليهِمْ بالكُفرِ.

[وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ](8) ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ تَشْهَدُ بالكُفرِ عليهِمْ؛ لأنَّ خِلْقَتَهُمْ تَشْهَدُ على وحدانيَّةِ اللهِ، وأنْفُسَهُمْ تَشْهَدُ على فِعْلِهِمْ بالكُفرِ، وهو ما قالَ تعالى: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ [القيامة: ١٤] قيلَ: بلِ لِلإنسانُ مِنْ نفسِهِ بَصيرةٌ أي بَيانٌ مِنْ نَفْسِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ إلى آخرِ الآيةِ في قومٍ ماتُوا على الكُفرِ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [يحتمِلُ](9) الوجوهَ التي ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١٧] إذ لم يكنْ عليهِمْ؛ فذلكَ كلُّهُ على المسلِمينَ، أي عليهِمْ عِمارةُ

(1) ساقطة من الأصل و م. (2) ساقطة من الأصل و م. (3) في الأصل و م: إنه. (4) في الأصل و م: وينفقوها. (5) من م،ساقطة من الأصل. (6) ساقطة من الأصل وم. (7) من م، ساقطة من الأصل. (8) من م، في الأصل: أي. (9) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

المساجِدِ، وبهِمْ تَعْمُرُ المَساجِدُ، وهُمْ ينْبَغي أنْ يَعْمُرُوها [وقولُهُ تعالى](١) ﴿وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ﴾ قد ذكَرْنا في ما تقدَّمَ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ قال بَعْضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]. أمَرَ أنْ يَخْشَوُا اللهَ ولا يَخْشَوا غيرَهُ. ثم ذكَرَ ههنا ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

وقال بعضُهُمْ: الخَشْيَةُ العِبادَةُ؛ كأنهُ قالَ: ولم يَعْبُدْ إلّا اللهَ ﴿فَعَسَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ والـ: عَسى مِنَ اللهِ واجبٌ أي كانُوا مُهْتَدِينَ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ في الآيةِ إضمارُ فِعْلٍ أو فاعلٍ لكي تَصِحَّ المُقابَلَةُ؛ لأنهُ يُقابَلُ فِعلٌ بِفِعْلٍ أو فاعلٌ بفاعلٍ ولا فاعلٌ بِفِعْلٍ. فههنا ذكَرَ السِّقايَةَ وعِمارةَ المَسْجِدِ مُقابلَ ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾. فهو، واللهُ أعلَمُ، ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كإيمانِ مَنْ ﴿ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. أو يُقالُ: أجَعَلْتُمُ القائمَ بإصلاحِ سِقايَةِ الحاجِّ وعامِرَ المَسْجِدِ الحرامِ كَمَنْ آمنَ باللهِ لتكونَ مقابَلَةُ شَخْصٍ بِشَخْصٍ، أو فِعْلٍ بِفِعْلٍ.

ثم لا يَصِحُّ أنْ يُجْمَعَ بينَ الكافِرِ والمؤمِنِ، فيُقالُ: لا يَسْتَوِيانِ عندَ اللهِ/ ٢٠٩ - ب/ وإنْ كانَ الكافرُ قد أتى بالمَحاسِنِ، إلّا أنْ يُقالَ: ليسَ مَنْ فَعَلَ مَحاسِنَ في حالِ كُفْرِهِ، ثم آمَنَ مِن بَعْدِهِ كَمَنْ فَعَلَ محاسِنَ، وهو مؤمِنٌ. هذا يجوزُ أنْ يُجْمَعَ، فَيُقالُ: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ اللَّهِ﴾.

وأمّا الكافرُ الذي ماتَ على الكُفْرِ، وإنْ عَمِلَ خيراتٍ، والمؤمنُ الذي عَمِلَ الصالحاتِ، فماتَ على ذلكَ، فَيُجْمَعُ؟ فَيُقالُ: لا يَسْتَوِيانِ، فلا.

أو أنْ يُقالَ بالجهادِ الذي ذَكَرَ: لا يَسْتَوِي مَنْ بَذَلَ نَفْسَهُ لِلْقَتْلِ والتَّلَفِ كَمَنْ سَقَى الحاجَّ، وَعَمَرَ المَسْجِدَ الحَرامَ، ولم يَبْذُلْ نَفْسَهُ لذلكَ.

فأمّا أنْ يُقالَ: لا يَسْتَوِي الكافرُ والمؤمنُ فذلكَ غيرُ مَحَصَّلٍ؛ لأنهُ إنما يُقابَلُ الشيءُ بالشيءِ إذا قَرُبَ بَعْضُهُ مِن بَعْضٍ. وأمّا عندَ البُعْدِ منهُ فلا يُقالُ، ولا يُقابَلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ما داموا في ظُلْمِهِمْ، وما داموا اختارُوا الظُّلْمَ لا يَهْدِيهِمْ وقتَ اختيارِهِمُ الظُّلْمَ. أو لقومٍ مَخصوصِينَ، وقد ذكَرْنا معناهُ في غيرِ مَوْضِعٍ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قولُهُ: ﴿ءَامَنُوا﴾ أي صَدَّقُوا رسولَ اللهِ في جميعِ ما يُخْبِرُ عنِ اللهِ أنهُ صادقٌ، وفي جميعِ ما دَعاهُمْ(٢) إليهِ، وأمَرَهُمْ بهِ، ونَهاهُمْ عنهُ أنهُ مُحِقٌّ. وإلّا كانوا مُؤْمِنِينَ باللهِ لقولِهِمْ(٣): ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] كانُوا مؤمِنينَ باللهِ، لكنَّهُمْ يُكَذِّبونَ لِلرُّسلِ وَلِرِسالاتِهِمْ.

[وقولُهُ تعالى](٤): ﴿وَهَاجَرُوا﴾ أي فارَقُوا آباءَهُمْ وإخوانَهُمْ وعَشيرَتَهُمْ وأموالَهُمْ ومنازِلَهُمْ وبَلَدَهُمْ؛ هاجَرُوا، [وتركُوا](٥) جميعَ ما تُحِبُّهُ أنْفُسُهُمْ، وتَهْواهُ، وتَميلُ إليهِ القلوبُ، ما ذَكَرَ في الآيةِ التي تَلِي(٦) هذهِ الآيةَ(٧).

وفارَقُوا ذلكَ الكُلَّ إشفاقاً على دينِهِمْ لِيَسْلَمَ مالو أُعْطُوا قِبَلَ الإسلامِ الدنيا، وما فيها، إذْ أُوعِدُوا بكلِّ وَعيدٍ وخَوفٍ، ما فارَقُوا آباءَهُمْ وإخوانَهُمْ وعشائِرَهُمْ وأولادَهُمُ الذينَ ذَكَرَ في الآيةِ.

ثم إذا أسلَمُوا فارَقُوهُمْ، وأجابُوا رسولَ اللهِ ﷺ في ذلكَ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ وطَلَباً لِرِضوانِهِ لِيُعْلَمَ عِظَمُ قَدْرِ الدِّينِ في

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل و م: دعا. (٣) في الأصل و م: كقولهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: تتلو. (٧) الآية المقصودة / ٢٤.

جنة السنة

قُلوبِهِمْ وخَطيرُ مَنْزِلَتِهِ عندَهُمْ، وليُعْلَمَ[١] أنَّ مِحَنَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ أعظَمُ وأشَدُّ مِنْ مِحَنِنا؛ لأنَّ مِحَنَهُمْ كانَتْ على خِلافِ عادَتِهِمْ وخِلافِ ما طُبِعُوا؛ لأنَّ الإنسانَ مطبوعٌ على حبِّ ما ذَكَرْنا مَجْبولٌ عليهِ، فَهُمْ معَ ذلكَ تَرَكُوا، وفارَقُوا ذلكَ، وتَحَمَّلُوا كَراهةَ ذلكَ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ ربِّهِمْ.

وأمّا مِحَنُنا فإنها على [ما][٢] سَبَقَ مِنَ العادةِ، فهو أهْوَنُ وأيْسَرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي بَذَلُوا لِلّهِ ألَذَّ الأشياءِ وأحبَّها مِنَ[٣] الأموالِ والأنْفُسِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: مَنْ صَدَقَ بِتَوحيدِ اللهِ، وهاجَرَ إلى المدينةِ، وجاهَدَ العَدُوَّ [بأموالِهِ ونَفْسِهِ][٤] ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ﴾ مِنَ الذي افْتَخَرَ بِعُمْرانِ البيتِ وسِقايَةِ الحاجِّ، وهُمْ كفارٌ. [ولذلكَ قالَ][٥]: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ اللَّهِ﴾ ولكنَّ الوجهَ في ذلكَ عندَنا ومَعْنى المُقابَلَةِ أولئكَ [الذينَ][٦] ذَكَرَ أعظمُ درجةً عندَ اللهِ مِنَ الذينَ أسْلَمُوا، ونَحْوُا[٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْفَآئِزُونَ﴾ الفوزُ هو الظَّفَرُ في اللغةِ؛ أي أولئكَ هُمُ الفائزونَ[٨] بِنَعيمِ اللهِ وكرامتِهِ، والناجونَ مِنْ عذابِ اللهِ ونَقْمَتِهِ.

الآية ٢١ [وقولُهُ تعالى:][٩] ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي بالنَّصْرِ في الدنيا والظَّفَرِ لهمْ على عَدُوِّهِمْ كقولِهِ ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ[١٠] إنما كانَ بِرَحْمَتِهِ. ويَحْتَمِلُ الثوابَ لهمْ في الآخرةِ والكرامةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ أي يُبَشِّرُهُمْ أيضاً: إنَّ ربَّكُمْ، يُمَنِّيكُمْ بِرِضوانِهِ[١١] ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ أي يُبَشِّرُهُمْ بِجَناتٍ ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائمٌ، وكرامةٌ.

الآية ٢٢ [وقولُهُ تعالى:][١٢]: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قالَ الحَسَنُ: ما سَمّى اللهُ عظيماً فهو عظيمٌ لا تُدْرَكُ عَظَمَتُهُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوٓا ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ﴾ تَحْتَمِلُ الوَلايَةُ المُوافَقَةَ لهمْ في الحقيقةِ في الدينِ. ومَنْ تَوَلّاهُمْ في الحقيقةِ فهو منهُمْ، وهو ظالمٌ، لا شَكَّ. فإنْ كانَ هذا فهو ظالمٌ، لاشكَّ. فلم يكُنْ لقولِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ﴾ مَعْنى.

وتَحْتَمِلُ الوَلايَةُ إظهارَ المُوافَقَةِ لهمْ في الظاهرِ على غيرِ حقيقةٍ. لكنْ إظهارٌ على غيرِ حقيقةٍ يُباحُ في حالِ اضطرارٍ عندَ خَوفِ الهلاكِ وذهابِ الدينِ، فيجوزُ أنْ يكونَ قومٌ أسَرُّوا الإيمانَ في أنْفُسِهِمْ، وكَتَمُوهُ، وأظْهَرُوا[١٣] المُوافَقَةَ لهمْ في الظاهرِ إشفاقاً على دينِهِمْ وخوفاً على أنْفُسِهِمْ، فَيُباحُ لهمْ ذلكَ لِما ذَكَرْنا.

فلمّا جَعَلَ اللهُ الهِجرةَ، وجَعَلَ لِلْمؤمنينَ مَأْوًى وأنصاراً يَلْجَؤونَ، ويَأْوُونَ إليهِمْ لم يُعْذَرُوا في إظهارِ المُوافَقَةِ لهمْ، وإنْ كانوا في السِّرِّ لَيْسُوا على دينِهِمْ، لِما ذَكَرْنا.

فهذا يدلُّ على أنَّ مَنْ أجْرَى كلمةَ الكُفْرِ على لِسانِهِ مِنْ غيرِ اضطرارٍ يَصيرُ كافراً على ما جَعَلَ هؤلاءِ أولياءَ الكَفَرَةِ حقيقةً ظَلَمَةً مِثْلَهُمْ، إذا تَوَلّاهُمْ في الظاهرِ، وإنْ لم يكونوا في الحقيقةِ كذلكَ. وهذا أشْبَهُ. وهو ما قالَ ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [النساء: ٩٧] لم يُعْذَرُوا في تَرْكِهِم الهِجرةَ.

فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ إذا أظْهَرُوا المُوافَقَةَ لهمْ بَعْدَ ما جَعَلَ لهمُ المَأْوَى والأنصارَ صارُوا هُمْ في الحقيقةِ. كذلكَ نَهانا عنْ

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بين. (٤) في الأصل وم: بأموالهم وأنفسهم. (٥) في الأصل وم: وكذلك قالوا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: ويحقوا. (٨) في الأصل وم: الكافرون. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: كلمة. (١١) في الأصل وم: راض. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: ويظهرون.

جنة السنة

مُوالاةِ الكَفَرةِ جُملَةً بقولِهِ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقولِهِ[1]: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ﴾ [المائدة: ٥١] وقولِهِ[2]: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١].

هذا النَّهيُ لنا في جملةِ الكافرينَ. ثم نَهانا عنِ اتّخاذِ اليهودِ والنَّصارى أولياءَ بقولِهِ[3] ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١] ثم نَهانا أنْ نُواليَ المُتَّصِلِينَ مِنَ الآباءِ والأمهاتِ وغيرِهِمْ مِنَ القراباتِ[4] لِما تَقَعُ الشُّبَهُ في مُوالاةِ[5] المُختَصِّينَ بِهِمْ، فَخَصَّ النَّهيَ فيهِ. وكذلكَ تخصيصِ اليهودِ والنَّصارى لِما بَيْنَنا وبَيْنَهُمْ مُوافَقَةٌ في التوحيدِ والكُتُبِ، فَخَصَّ النَّهيَ في ذلكَ.

ثم الوَلايَةُ التي نَهانا عنها تُخرَّجُ على وُجوهٍ:

أحدُها: المَوَدَّةُ والمَحَبَّةُ؛ أي لا تَوَدُّوهُمْ، ولا تُحِبُّوهُمْ.

والثاني: ألّا نَتَّخِذَهُمْ مَوضِعَ سِرِّنا [وبطانَتِنا بِقولِهِ][6]: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١١٨].

والثالثُ: وَلايَةُ الطاعةِ لهمْ؛ أي لا تُطيعوهُمْ بقولِهِ[7]: ﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم﴾ الآيةَ [آل عمران: ١٠٠] وقولِهِ: ﴿إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

نَهانا أنْ نُحِبَّهُمْ، ونَوَدَّهُمْ، ونَهانا أيضاً أنْ نَتَّخِذَهُمْ مَوضِعَ سِرِّنا، ونُفْشِيَ إليهِمْ أسرارَنا، ونَهانا أنْ نُطيعَهُمْ في ما يَدعونَنا إليهِ، ويُسِرُّونَ، واللهُ أعلَمُ، لِلْخِلافِ الذي بَيننا وبَيْنَهُمْ في الدينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾؛ أي اختاروا الكُفرَ على الإيمانِ. والمَحَبَّةُ ههنا مَحَبَّةُ الاختيارِ والإيثارِ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ هو مُقابِلُ قولِهِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ إلى آخِرِهِ [التوبة: ٢٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ وما ذَكَرَ؛ أي إنْ كانَتْ طاعةُ هؤلاءِ ورِضاهُمْ أحَبَّ إليكُمْ مِنْ طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِهِ ورِضاهُ، وأحَبَّ مِنَ الجِهادِ في سَبيلِهِ ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ هو حَرفُ وَعيدٍ؛ أي انتَظِروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي بِعَذابِهِ.

قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ في فَتحِ مكةَ. ودَلَّ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ على أنَّ المُرادَ مِنْ قولِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ﴾ الآباءُ والأبناءُ جميعاً ﴿وَإِخْوَانَكُمْ﴾ الإخوانُ وجميعُ المُتَّصِلِينَ بِهِمْ. دليلُهُ ما ذَكَرَ في آخِرِهِ حيثُ قالَ: ﴿إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ/ ٢١٠ ـ أ/ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ ذَكَرَ الأبناءَ والأزواجَ والعَشيرةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ قالَ بَعضُهُمْ: اكْتَسَبْتُموها. وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي أموالٌ جَعَلوها حَلالاً وحَراماً، ويقولونَ: اللهُ أذِنَ لنا في ذلكَ كقولِهِ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس: ٥٩] في ذلكَ؟ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ كانوا يَخشَونَ فَواتَها وذَهابَها لا الكَسادَ؛ إذْ في الهِجرَةِ تَركُها رَأساً.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ أي نَصَرَكُمْ في مَواضِعَ كثيرةٍ؛ كانَ فَزَعُكُمْ إلى اللهِ تعالى، ونَصَرَكُمْ يَومَ حُنينٍ أيضاً بَعْدَما هَزَمَكُمُ العَدُوُّ، بإعجابِكُمْ [بكثرتِكُمُ التي صَرَفَتْكُمْ عنِ][8] الفَزَعِ إلى اللهِ، ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ يَعْنِي الكثرةَ؛ يُذَكِّرُهُمْ ﷺ مِنَّتَهُ عليهِمْ وفَضْلَهُ: أنَّ النُّصْرَةَ والظَّفَرَ متى كانَ

---

(١) في الأصل و م: كقوله. (٢) في الأصل و م: وقال. (٣) في الأصل و م: كقوله. (٤) من م، في الأصل: القربات. (٥) من م، في الأصل: الموالاة. (٦) في الأصل: وبطانتها كقوله، في م: وبطانتنا كقوله. (٧) في الأصل و م: كقوله. (٨) في الأصل وم: الكثرة يصرفكم.

إنما كانَ باللهِ لا بِكَثْرَتِهِمْ وقُوَّتِهِمْ؛ لأنهُ لو كانَ [بالكَثْرَةِ والقُوَّةِ، لم يكنْ لِلْمُسْلِمِينَ قوةٌ وكَثْرَةٌ ما كانَ يومَ حُنَينٍ، ثُمَّ كانتِ الهزيمةُ عليهِمْ في الابْتِداءِ لإعجابِهِمْ بالكَثْرَةِ واعْتِمادِهِمْ عليها، لِيُعْلَمَ أنَّ النُّصْرَةَ والظَّفَرَ إنما يكونُ باللهِ لا بالقوةِ والكَثْرَةِ لئلا يَعْتَمِدُوا][1] على الكَثْرَةِ، ولا يَكِلُوا إليها.

فإنْ قيلَ: قد أمَرَنا بأخذِ العُدَّةِ والقُوَّةِ ما استطعْنا بقولِهِ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الآية [الأنفال: ٦٠] فإنما أمَرَنا بما يُعْجِبُنا، فما مَعْنَى النَّهْيِ عنِ الإعجاب بالكَثْرَةِ والقُوَّةِ؟ وكذلكَ نَهانا عنِ التَّأَسِّي بما فاتَنا، ونَهانا أنْ نَفْرَحَ بما يُؤْتِينا، وقد كَلَّفَنا الشكرَ لِما آتانا والصَّبْرَ على ما فاتَ عنّا. فلو لم نَفْرَحْ بما آتانا لم يَكُنْ معناهُ الشكرَ ولا الصبرَ بما فاتَنا، فما مَعْناهُ؟

مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ نهانا أنْ نَفْرَحَ بما يُؤْتِينا لِنَفْسِ الإيتاءِ، ونَتَأَسَّى لِنَفْسِ ما يُصِيبُنا، ويَفُوتُنا، إنما علينا أنْ نَفْرَحَ بِفَضْلِ اللهِ وَمَنِّهِ الذي مَنَّ علينا، وخَصَّنا بهِ. وعلى ذلكَ نَشْكُرُهُ، وعلى ذلكَ الصبرُ بما يُصِيبُنا، ويَفُوتُنا، لِما جَعَلَ لنا لذلكَ ثواباً في الآخِرَةِ وأجراً عظيماً.

وكذلكَ الكَثْرَةُ أمَرَنا بها، فإذا أتانا ذلكَ يُعْجِبُنا فَضْلُ اللهِ ومِنَّتُهُ في ذلكَ الكَثْرَةِ لا الكَثْرَةُ لِنَفْسِها والقوةُ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: الإعجابُ بالكَثْرَةِ كانَ مِنْ بَعْضِهِمْ لا مِنَ الكُلِّ، فكيفَ هُزِمَ الكُلُّ؟ وكذلكَ العِصْيانُ يومَ حُنَينٍ إنما كانَ مِنْ بَعْضٍ، كيف عاقبَ الجميعَ؟ قيلَ: لأنَّ لهُ أنْ يُتْلِفَ الكُلَّ ابْتِداءً.

ألا تَرى في أمْرِ الواحدِ القِيامُ لِاثْنَينِ؟ ثم في الأمْرِ بالجهادِ أمْرٌ على غَيرِ وُسْعٍ؟ ولا كذلكَ في سائِرِ العباداتِ؟ لأنهُ أمْرُ الواحدِ القيامُ لِاثْنَينِ منهُمْ، وليسَ في وُسْعِ أحدِ القِيامُ لِاثْنَينِ؛ فهو، واللهُ أعلَمُ، لِما أنَّ لهُ أنْ يُكَلِّفَ قَتْلَ أنْفُسِهِمْ وإتلافَها.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾؟ الآية [النساء: ٦٦] ولو لم يَجُزْ لهُ أنْ يَكْتُبَ قَتْلَ أنْفُسِهِمْ لم يكنْ لِيَذْكُرَهُ دَلَّ أنَّ ذلكَ لهُ، وأنَّ لهُ أنْ يُمِيتَهُمْ، ويُهْلِكَهُمْ. فَعَلَى ذلكَ أنْ يأمُرَ بِقَتْلِ أنْفُسِهِمْ. فإذا كانَ لهُ ذلكَ؛ إذْ في وُسْعِهِمْ قَتْلُ أنْفُسِهِمْ، فَعَلَى ذلكَ أنْ يُكَلِّفَ الواحدَ القيامَ لِاثْنَينِ ولِعَدَدٍ، وإنْ كانَ في ذلكَ تَلَفُ أنْفُسِهِمْ.

وكذلكَ أمَرَنا بِمُجاهدةِ الشيطانِ عَدُوِّنا، وأخْبَرَ أنهُ يَرانا، ولا نراهُمْ نحنُ بقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] والمُحارَبةُ مع عَدُوٍّ، لا نَراهُ، وهو يَرانا، أمْرٌ صَعْبٌ شديدٌ. لكنْ عَلَّمَنا أسبابَ ما نُحارِبُ معَهُ، ونُجاهِدُهُ، فَنَغْلِبُهُ، وقالَ في الشياطينِ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ الآية [الأعراف: ٢٠١] عَلَّمَنا أسباباً نُقاتِلُ بها الشيطانَ، فَنَغْلِبُهُ، ونَقْهَرُهُ، وما ذَكَرَ مَنْ ذَكَرَهُ لا يقومُ هو لِذلكَ[2].

وكذلكَ قالَ في العدوِّ الذي نَراهُ مِنَ البَشَرِ حيثُ قالَ: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥] وقالَ: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] قد علَّمَنا أسبابَ الجهادِ معهُ، وأعْلَمَنا الحِيَلَ التي تُجيزُ لِواحدِ القيامَ لِاثْنَينِ فصاعداً، وإذا لم يكنْ لهُ الوُسْعُ[3] بهِ بالقوةِ نَفْسِها، ثم الفَرْقُ بينَ الجهادِ وبينَ غَيرِهِ مِنَ العباداتِ لِما يَحْتَمِلُ أنْ جَعَلَ الجهادَ آيةً من آياتِ الحقِّ والرسالةِ لِيَعْلَمَ الخلائِقُ أنَّ النَّصْرَ والظَّفَرَ كانَ باللهِ لا بِغَيرِهِ لِيَظْهَرَ الحقُّ مِنَ الباطِلِ والمُحِقُّ مِنَ المُبْطِلِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ هذا على التمثيلِ: يُقالُ عند شِدَّةِ الحُزْنِ والغَضَبِ وعند بُلوغِها ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ يُقالُ ذلكَ لِسَعَةِ الأرضِ في أوهامِ الخَلْقِ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: السَّكِينَةُ الملائكةُ، كقولِهِ: ﴿وَمَا

(١) ساقطة من م. (٢) من م، في الأصل: لك. (٣) في الأصل و م: الواسع.

جنة السنة

جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ الآية [آل عمران: ١٢٦] وقالَ بَعضُهم: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي نُصرَتَهُ، وقيلَ: وقارَهُ ورحمَتَهُ، وقيلَ: طُمأنينتَهُ.

وأصلُهُ: سَكَنَتْ قلوبُهُم، واطمأنَّتْ بعدَ شِدَّةِ الخوفِ والحُزنِ بأيِّ وجهٍ ما تَسكُنُ بالملائكةِ أو بِغَيرِهِ، فأسكَنَ قَلبَ رسولِ الله ﷺ لَمَّا اشتَدَّتْ عليهِ: رُجوعُ أصحابِهِ ومُفارَقَتُهُم إيّاهُ ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهُمُ الملائكةُ ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقِتالِ والهزيمةِ؛ وذلكَ جزاؤُهُم.

وفي قولِهِ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعتَزِلَةِ؛ لأنهُ سمَّاهُم مؤمنينَ بعدَ ما كانَ منهُم [منَ][1] التولّي. والتولّي لم يُخرِجْهُم مِنَ الإيمانِ على ما قالَ.

الآيتان ٢٧ و٢٨ [وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾][2].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُم: النَّهيُ عن دخولِ المَسْجِدِ الحَرامِ نفسِهِ. وعندَنا أنَّ النَّهيَ عن دخولِ المَسْجِدِ الحرامِ نَهيٌ عن دخولِ مكةَ نَفْسِهِ للحَجِّ وإقامةِ العباداتِ. دليلُهُ [في][3] وجوهٍ:

أحدُها: قولُهُ: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ﴾ ولو كانَ لدخولِ المَسْجِدِ لكانَ ذلكَ العامُ أحقَّ في المَنْعِ مِن دخولِهِ في غيرِهِ.

والثاني: قولُهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ وخوفُ العَيلَةِ إنما يكونُ عن دخولِ[4] مكةَ؛ لأنهُ لو كانَ النَّهيُ عنْ دخولِ المَسْجِدِ نَفْسِهِ لكانَ لا خَوفَ عليهِمْ في ذلكَ؛ لأنهُمْ يَحضُرونَ، ويَدخُلونَ مكةَ للتجارةِ، فلا خَوفَ عليهِمْ في ذلكَ.

والثالثُ[5]: أنْ يُقالَ: إنهُ ذَكَرَ المسجدَ الحرامَ لِما أنَّهُمْ كانُوا يَقصِدونَ البيتَ والحجَّ بهِ، فيكونُ النَّهيُ عنْ دخولِ المسجدِ نَهياً عنِ الحجِّ نفسِهِ: وهو ما رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ بَعَثَ علياً في الموسمِ بأربعٍ، وأمَرَهُ أن يُناديَ في الناسِ: «ألّا يدخُلَ الجَنَّةَ إلّا نفسٌ مؤمنةٌ، ومَنْ كانَ بينَهُ وبينَ رسولِ اللهِ عَهْدٌ، فأجَلُهُ إلى مُدَّتِهِ، فإنهُ ﴿بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣] ولا يَطوفَنَّ بالبيتِ عُريانٌ، ولا يَحُجُّ بعدَ العامِ مُشرِكٌ»[6] [البخاري: ٣٦٩].

فالنَّهيُ الذي وَرَدَ عنْ دخولِ المَسْجِدِ إنما هو نَهيٌ عنِ الحجِّ نَفسِهِ؛ لأنَّ البيتَ هو الذي يُقصَدُ إليهِ فيهِ. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ الآية [آل عمران: ٩٣] وقالَ ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ الآية [البقرة: ١٥٨] وقالَ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾؟ [الحج: ٢٩] ذَكَرَ البيتَ، وهو المقصودُ بالحجِّ في الإسلامِ والكُفرِ جميعاً. فعَلى ذلكَ خَرَجَ النَّهيُ، لكنهُ ذَكَرَ المَسْجِدَ لِما أنَّ البيتَ فيهِ. فإذنْ كانَ ما ذَكَرْنا.

فإنْ شِئتَ فاجعَلْ آخِرَ الآيةِ تفسيرَ أولِها [وهو][7] قولُهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ وهو ما ذَكَرْنا أنَّ النَّهيَ لو كانَ لدخولِ المسجدِ نَفسِهِ دونَ غَيرِهِ مِنَ البُقعَةِ لَكانَ ليسَ عليهِمْ خوفُ العَيلَةِ؛ لأنهُمْ يدخلونَ مكةَ، ويتَّجِرونَ فيها، ولا يدخُلونَ المسجدَ.

وإنْ شِئتَ فاجعَلْ أوَّلَ الآيةِ تفسيرَ آخرِها، وهو قولُهُ: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟/ ٢١٠ ـ ب/ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ﴾ وهو ما ذَكَرْنا. فإذا كانَ ما ذَكَرْنا دلَّ أنَّ المشركَ لا يدخُلُ المسجدَ الحرامَ، [وخَبَرُ][8] عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﷺ [يدلُّ أيضاً][9] على ذلكَ. فأمّا مَنْ كانَ مِنْ أهلِ الذِّمَّةِ، والعَبيدُ منهُمْ، فَلَيسُوا، واللهُ أعلمُ، بِداخِلينَ في الآيةِ، إذا كانُوا مِمَّنْ لا يَحُجُّ.

فإنْ قيلَ: إنهُ[10] رُوِيَ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﷺ أنهُ نادَى: [ألا لا يدخُلُ الحَرَمَ مُشرِكٌ، ولم يذكُرِ الحجَّ، قيلَ لَهُ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) من م، في الأصل: دخوله. (٥) في الأصل و م: أو.
(٦) أدرج هذا الخبر في تفسير الآية الخامسة (ص١٠٩). (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: أيضاً يدل.
(١٠) في الأصل وم: ان.

جنة السنة

رُوِيَ أنهُ قالَ: نادَيتُ ألّا يَحُجَّ بعدَ العامِ مُشرِكٌ، فيكونُ قولُهُ: لا يدخُلُ الحرمَ مُشرِكٌ على الحجِّ على ما ذَكَرْنا. وقد رُوِيَ عن رسولِ الله ﷺ [أنهُ][1] قالَ: «لايَقرَبُ المشركونَ المَسجدَ الحرامَ بَعْدَ عامِهِم هذا إلّا أنْ يكونَ عبداً أو أمَةً» يُحتَمَلُ استثناءُ العبدِ والأمَةِ لأنّ العبدَ لا يدخُلُ للحجِّ ولإقامةِ العبادةِ إنما يدخُلُ لِخدمةِ المَولَى إذا كانَ مسلماً. وفي بَعْضِ الأخبارِ «إلّا أحداً منْ أهلِ الذِّمّةِ» [السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٦٤] وفيهِ دلالةٌ لقولِ أبي حَنيفَةَ: إنْ لا بأسَ للكافرِ أنْ يدخُلَ المَسْجِدَ. وقولِهِ[2]: أرَأيتَ لو أرادَ أنْ يَسمَعَ كلامَ اللهِ لِيُؤمِنَ، فَيُمنَعُ عنْ ذلكَ، [ويَرومَ المُسمِعُ][3] إتيانَ ذلكَ المُشرِكَ، لِيَسمَعَ كلامَهُ، فيكونُ الأمرُ بإبلاغِ المأمَنِ لِذلكَ. وقد ذكَرْنا أنْ ليسَ في ظاهِرِ الآيةِ دلالةُ النَّهيِ عن دخولِ المَسْجِدِ بلِ المُرادُ مِنْ ذِكْرِ المَسْجِدِ ما ذَكَرْنا مِنَ الحجِّ وإقامةِ العِبادةِ لِغَيرِ اللهِ.

ألا تَرَى إلى قولِ اللهِ: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥] وأنّ سَبيلَ مكةَ كلِّها هذا السبيلُ؟ وكذلكَ قولُهُ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣] والحَرَمُ كُلُّهُ مَنحَرٌ إلّا أنّ المَعْنَى في ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ، ما ذَكَرْنا ألّا يدخُلَ المُشركونَ حُجّاجاً.

ألا تَرَى أنّا لا نَعْلَمُ أنّ المُشرِكينَ لم يَزالوا مُقيمينَ في الحَرَمِ بعدَ النداءِ، ولم يَنجَلُوا عنهُ؟ ومِمّا يَدُلُّ على ذلكَ أيضاً قولُ اللهِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧] فإنْ كانَ يَعْني بهِ مَوضِعَ العَهْدِ فإنّ ذلكَ العَهْدَ يومَ الحُدَيبِيَةِ عندَ الشَّجرةِ فقد صارَ ذلكَ المَوضِعُ مِنَ المَسْجِدِ الحرامِ، وهو في المسافةِ[4] بعيدٌ منهُ الذينَ عُوهِدُوا، فإنهُمْ [كانوا يومَ نادَى][5] عليٌّ ﷺ فذلكَ خارجٌ مِنْ مكةَ، لأنّ أهلَ [مكةَ][6] قد كانُوا قَبْلَ ذلكَ حِينَ فَتَحَها النَّبِيُّ مُحاصِري المَسْجِدَ الحرامَ، هُمْ لا خارجَ مكةَ [بل][7] في الحرمِ وما حَولَهُ وقولُهُ: «لايَقرَبُ المَسْجِدَ الحرامَ مُشرِكٌ» يُخَرَّجُ على وُجوهٍ: أحدُها: لا تَدْعُوهُمْ يَقرَبوا المَسْجِدَ الحرامَ، والثاني: قولوا لهمْ: لا تَقرَبُوا المسجدَ الحرامَ، والثالثُ: على اليَسارَةِ: أي إذا قُلْتُمْ لهمْ ذلكَ فلا تَقرَبوا بعدَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي أفعالُ المُشركينَ نَجَسٌ، والعِباداتُ التي يأتونَ فيها نَجَسٌ، وهو ما ذَكَرَ حينَ[8] قالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠] صَيَّرَ عملَ الشيطانِ رِجساً. فَعَلَى ذلكَ العباداتُ التي يُقيمونَها نَجِسَةٌ، فالنَّهْيُ عَنِ الحجِّ نَهْيٌ عنْ إقامةِ العباداتِ لِغَيرِ اللهِ لأنّ تلكَ البُقْعَةَ نُزِّهَتْ عنْ إقامةِ العباداتِ لِغَيرِ اللهِ.

ثم اختُلِفَ في[9] قولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ يُخَرَّجُ مُخرَجَ الذَّمِّ، ولا يُحتَمَلُ أنْ يُذَمُّوا، ويُشتَمُوا بنجاسةِ الأحوالِ. دلَّ أنهُ إنما لَحِقَهُمْ ذلكَ الذَّمُّ بما اكْتَسَبُوا مِنَ الأفعالِ الذميمةِ، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠] أخبَرَ أنّ عَمَلَ الشيطانِ رِجسٌ ونَجَسٌ. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي نَجَسُ[10] الأفعالِ لأنّ ذلكَ مِنْ كَسْبِهِمْ، فاستَوجَبُوا المَذَمّةَ لِكَسْبِهِمْ. وأمّا الأحوالُ فلا صُنْعَ لهمْ فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ قيلَ: خافوا مِنَ العَيلَةِ لَمّا نُفِيَ المشركونَ مِنْ مكةَ لأنّ معايشَ أهلِ مكةَ إنما [كانَتْ مِنَ الآفاقِ، وبأهلِ الآفاقِ][11] كانَ سَعْيُهُمْ وتجارَتُهُمْ. لكنّ اللهَ وَعَدَ لَهُمُ السَّعَةَ والغِنَى بقولِهِ: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

قالَ بعضُهُمْ: دلَّ قولُهُ: ﴿إِن شَآءَ﴾ على أنهُ إنما وَعَدَ لَهُمُ الإغناءَ في بَعْضِ الأوقاتِ، وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِن شَآءَ﴾ كانَ مِنْ رسولِ اللهِ لأنهُ أمَرَ رسولَهُ [أنْ يقولوا][12] ﴿إِن شَآءَ﴾ وهو مأمورٌ أنْ يَستَثْنِيَ في جميعِ [ما][13] يَعِدُهُ كقولِهِ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣و٢٤].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: ويوم. (٤) في م: المساجد. (٥) في الأصل وم: كانَ يوم بدر نادى. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: فيه. (١٠) في الأصل وم: نجسة. (١١) في الأصل: كان من الآفاق، في م: كان من الآفاق وبأهل الآفاق. (١٢) في الأصل: أنه يغنيهم، في م: أن يغنيهم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ بهؤلاءِ الذينَ نُفُوا عنهُمْ[1] لأنهُ حَبَّبَ إليهِمُ التجارَةَ والمكاسِبَ. وما يَنالونَ [مِنَ][2] الأرباحِ بها؛ يَحمِلُهُمْ ذلكَ على الإسلامِ فَيُسلِمونَ، فَيَدخُلونَ فيها، يَحمِلُهُمْ حُبُّ التجارةِ على الإسلامِ، فيكونُ لهمْ بهمْ غِنىً كما كانَ يحمِلُهُمْ حُبُّ التجارةِ والربحِ على[3] الهجرةِ بقولِهِ[4]: ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ [التوبة: ٢٤] فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ الجزيةُ التي ذكرَها في الآيةِ [التي تَلِي][5] هذهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بما أضمَرُوا مِنْ خوفِ العَيلَةِ، أو ﴿عَلِيمٌ﴾ بما لَهُمْ وعليهِمْ وبِمَنْ يكونُ[6] لهمُ الغِنى ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمرِهِ وحُكمِهِ.

[وفي قولِهِ تعالى][7]: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ معلومٌ أنهمْ أضمَرُوا ذلكَ في أنفُسِهِمْ، ثم أخبَرَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ بذلكَ. دلَّ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية ذكرَ أهلَ الكتابِ اليهودَ والنصارَى، وأخبَرَ أنهمْ لا يؤمنونَ باللهِ ولا باليومِ الآخرِ، وهُمْ في الظاهرِ يُقِرُّونَ بِوَحدانيَّةِ اللهِ واليومِ الآخِرِ في المَعنَى منهُ.

قيلَ: هُمْ، وإنْ آمنُوا في الظاهرِ باللهِ واليومِ الآخِرِ، فإنما يؤمنونَ بإلهٍ، لهُ ولدٌ، كما ذكَرَهُ على إثرِهِ، وهو قولُهُ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَٰرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] فالإيمانُ بإلهٍ، لَهُ ولدٌ، ليسَ بإيمانٍ باللهِ، فهمْ غيرُ مؤمنِينَ.

وكذلكَ آمَنُوا بالبَعثِ واليومِ الآخِرِ، ولكنْ لم يؤمِنُوا بالمَوعودِ في الآخرةِ. فالإيمانُ باليومِ الآخِرِ بغَيرِ الموعودِ فيهِ ليسَ بإيمانٍ بهِ. أو أنْ يُقالَ: إنهمْ، وإنْ أقرُّوا بما ذَكَرْنا، وآمَنُوا بهِ، فقدِ استَحَلُّوا أشياءَ، حَرَّمَها اللهُ عليهِمْ، وحَرَّمُوا أشياءَ، أحَلَّها اللهُ لهمْ. ومَنْ آمنَ بالكتبِ كلِّها والرسُلِ، ولم يؤمِنْ بآيةٍ منها أو برسولٍ منهُمْ فهو غيرُ مؤمنٍ باللهِ واليومِ الآخِرِ ولا مُصَدِّقٍ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية فإنْ قالَ لنا مُلحِدٌ: إنكُمْ تُقاتِلُونَ الكَفَرَةَ لِلكُفرِ، ثم إذا أعطَوكُمْ شيئاً مِنَ المالِ تَرَكتُمْ مُقاتَلَتَهُمْ. فلو كانَ قِتالُكُمْ إياهُمْ لِذلكَ لِطَمَعٍ في الدنيا لَكُنتُمْ لا تَترُكونَ [مقاتَلَتَهُمْ لِشَيءٍ، يَبذُلونَهُ لكُمْ][8] وكذلكَ لو كانتِ المُقاتَلَةُ لِلكُفرِ نَفسِهِ لَكانَ النساءُ في ذلكَ والرجالُ سَواءً؛ إذْ هُمْ في الكفرِ شَرْعٌ[9] سَواءٌ. وقالوا: لو كانتِ المُقاتَلَةُ معهُمْ لِما ذَكَرْنا، وهو حُكمُهُ، والأمرُ بذلكَ حكيماً، لَكانَ الناسُ جميعاً في ذلكَ سَواءً، ولا يَترُكونَ أحداً بشيءٍ مِنْ ذلكَ، بل يُقاتِلونَ أبداً، ولا يَرضَونَ منهُمْ غيرَهُ.

فَيُقالُ لهمْ: إنّا لا نُقاتِلُ الكَفَرَةَ لِلكُفرِ، ولكنّا نَدعُوهُمْ إلى الإسلامِ، فإنْ أجابُوا إلى ذلكَ، و إلّا قاتَلْناهُمْ لِيَضطَرَّهُمُ القَتلُ إلى الإسلامِ. لهذا ما نُقاتِلُهُمْ لا لِشيءٍ سِواهُ. فإذا كانَ في أخذِ الجزيةِ مَعنًى ما نَدعُوهُمْ إلى الإسلامِ: فإذا قَبِلُوا ذلكَ تَرَكْناهُمْ على ذلكَ لَعَلَّهُمْ/ ٢١١ - أ/ يرغَبونَ في الإسلامِ إذا رَأَوا شرائِعَنا وأحكامَنا، لا إنّا تركناهُمْ رغبَةً في ما نأخُذُ منهُمْ أو طَمَعاً في ذلكَ.

وأصلُهُ المِحنَةُ، إذِ الدارُ دارُ المِحنَةِ ليسَتْ بدارِ الجَزاءِ، والمِحنَةُ تكونُ بِمُختَلَفِ الأشياءِ لابِما يُتلِفُها[10]؛ مَرَّةً يَمتَحِنُهُمْ بالقتلِ، ومَرَّةً بأخذِ الأموالِ، ومَرَّةً بالشدائدِ كقولِهِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥] وقولِهِ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِالْحَسَنَٰتِ وَالسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ونَحوِ ذلكَ.

فإذا كانَ ذلكَ مِحنَةً لا جزاءً أجازَ ذلكَ حُكمُهُ. وأمّا قولُهُمْ بأنّا نُقاتِلُ الرجالَ، ولا نُقاتِلُ النساءَ، ونَستَرِقُّهُنَّ؛ لأنهنَّ

---

(١) في الأصل وم: عنه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: عن. (٤) في الأصل وم: وقوله. (٥) في الأصل وم: تتلو. (٦) في الأصل وم: يكن. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: لمقاتلهم لشيء يبذلونكم. (٩) في الأصل وم: شرعا. (١٠) في الأصل وم: تلفها.

جنة السنة

أتباعٌ لِلّرجالِ في جميعِ الأحوالِ وخدَمٌ لهمْ، فإذا أسْلَمُوا أسْلَمْنَ. هذا معروفٌ في ما بَيْنَهُمْ؛ إذْ هُنَّ في أيدي الرجالِ، يَفْعَلونَ بِهِنَّ ما شاؤوا.

وأصْلُهُ: ما ذَكَرْنا أنَّ القِتالَ مِحنَةٌ، ليسَ هو جزاءَ الكُفرِ؛ إذِ الدارُ دارُ المِحْنَةِ، فَلَهُ أنْ يَمْتَحِنَ بَعْضاً بالقَتْلِ وبَعْضاً بأخذِ المالِ [وبَعضاً][1] لا بِذا ولا ذاكَ. ولو كانَ جزاءً لَسَوّى بينَهُمْ، وهو التَّخْليدُ في النارِ أبداً.

فإنْ قيلَ: ما الحِكْمَةُ في أخذِ الجزيةِ مِنْ سائرِ الكَفَرَةِ، إذا كانُوا أهلَ الكتابِ أو المَجوسَ، وتَرْكِ الأخذِ مِنْ مُشْرِكي العَرَبِ؟ قيلَ لوجوهٍ:

أحَدُها: أنْ لَيسَ لِمُشْرِكي العَرَبِ دينٌ يَدينونَ بهِ، يُقاتلونَ عنْ ذلكَ الدينِ، ولا لهمْ أصلٌ يَعْتَمِدونَ عليهِ، ويُحاجّونَ الناسَ بالحِجاجِ التي لهمْ.

فإذا كانَ كذلكَ أمْكَنَ إقامةُ الحُجَجِ على هؤلاءِ وإلزامُ البراهينِ، ولا كذلكَ مُشركو العَرَبِ؛ إذْ لا دينَ لهمْ يُنْسَبونَ إليهِ، ومذاهبَ يَدْعُونَ غيرَهُمْ إليها[2] بالحِجاجِ. وأمْكَنَ في غيرِهِمْ. لِذلكَ افْتَرَقا، واللهُ أعلمُ بذلكَ.

والثاني: أنهمْ تَمَنَّوا أنْ يكونَ لهمْ رسولٌ مِنْ جِنْسِهِمْ يَتْبَعونَهُ في ما يَدْعُوهُمْ إليهِ، ونَذيرٌ يُجيبونَهُ، حتى أقْسَموا على ذلكَ، وأكَّدوا القولَ في ذلكَ كقولِهِ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ الآية[الأنعام: ١٠٩]ولم يكنْ مِنْ غيرِهِمْ مِنَ الكَفَرَةِ ما كانَ منهُمْ.

فإذا كانَ كذلكَ فهمْ يُقاتلونَ أبداً حتى يُوَفُّوا ما وُعِدوا كقولِهِ: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦].

والثالثُ: لِفَضْلِ رسولِ اللهِ ﷺ إذْ كانَ منهُمْ ومِنْ جِنْسِهِمْ، فلا يُتْرَكُ أحدٌ في تلكَ البُقْعَةِ على غيرِ دِينِهِ.

وأمْكَنَ أنْ يكونَ وجهٌ آخَرُ؛ وهو أنَّ مُشرِكي العربِ في حَدِّ القليلِ، أمْكَنَتِ المُقاتَلَةُ مَعَهُمْ و القيامُ لهمْ، فلا يَرْضى منهمْ إلّا الإسلامَ. وأمّا غيرُهُمْ مِنَ الكَفَرَةِ في بِقاعٍ مُخْتَلِفَةٍ، وهمْ كثيرٌ، إذا اجْتَمَعُوا لم يكنْ في وُسْعِ أهلِ الإسلامِ القِيامُ لهمْ والقِتالُ معهمْ، فَيَلْحَقُ المُسلِمِينَ في ذلكَ ضَرَرٌ بَيِّنٌ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية.قد ذَكَرْنا أنهمْ، وإنْ كانوا يؤمنونَ باللهِ واليوم الآخِرِ عند أنْفُسِهِمْ أنهمْ في الحقيقةِ غَيرُ مؤمنينَ بهِ؛ لأنَّ شَرْطَ إيمانِهِمُ الإيمانُ بالرسلِ جميعاً والكُتُبِ أجْمَعَ. فَهُمْ قد تَرَكُوا الإيمانَ ببعضِ الرسلِ. وببعضِ الكُتُبِ. ومَنْ كَفَرَ برسولٍ مِنَ الرسلِ أو بكتابٍ مِنَ الكُتُبِ أو بِحَرْفٍ منها كانَ كافراً باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ يَحْتَمِلُ أنهمْ لا يُحَرِّمونَ تَحْريفَ الكُتُبِ وكتمانَ بَعْثِ[3] رسولِ اللهِ، واللهُ حَرَّمَ ذلكَ عليهِمْ، أولا يُحَرِّمونَ عبادةَ الأوثانِ، واللهُ ورسولُهُ يُحَرِّمانِ[4] ذلكَ، أو لا يُحَرِّمونَ ما حَرَّمَ اللهُ ورسولُهُ مِنَ الخَمْرِ والخِنزيرِ وغَيرِهِما، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ وهو الإسلامُ، لأنهُ تُوجِبُهُ العقولُ كُلُّها، وتَشْهَدُ [به[5]] خِلْقَةُ الخلائقِ كلِّها، أو أنْ يقولَ: لا يدينونَ دينَ الذي [لَهُ الحَقُّ، إنما يدينونَ الدينَ الذي][6] لا حَقَّ لهُ، وهو دينُ الشيطانِ، وهو ما يدعوهُمْ إلى عبادةِ الأصنامِ، فَيُجيبونَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ[7] قولُهُ: ﴿يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي يَقْبَلُوها لا على الإعطاءِ نفسِهِ، وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: ٥ و١١] وهو على القَبولِ لها لا على الفِعْلِ نَفْسِهِ. ويَحْتَمِلُ نَفْسَ الإعطاءِ؛ وهو، واللهُ أعلَمُ، لمّا جُعِلَتِ الجزيةُ لِحَقْنِ الدماءِ؛ تَقَدَّمَ[8] لِتُحْقَنَ بها الدماءُ[9].

وقولُهُ تعالى: ﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ ﴿عَن يَدٍ﴾ أي لا يُؤَخِّرُ قَبْضَها عنْ وقتِ قَبولِها، بل تُؤخَذُ يداً بِيَدٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل وم: إليه. (٣) في الأصل و م: نعت. (٤) في الأصل وم: يحرم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: ويحتمل. (٨) في الأصل وم: فتقدم. (٩) من م، في الأصل: الدم.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿عَن يَدٍ﴾ أي عنْ قَهْرٍ وغَلَبَةٍ. وقيلَ: ﴿عَن يَدٍ﴾ أي عَنْ طَوعٍ وطِيبٍ. وقيلَ: عنْ [جَماعَتِهِمْ، لكنّا لا نَدري ما يَعْنونَ بالجماعةِ][(١)].

وقولُهُ تعالى: ﴿صَٰغِرُونَ﴾ قيلَ: ذَليلونَ، وهو مِنَ الذُّلِّ؛ يُقالُ: صَغُرَ الرجلُ يَصْغُرُ صَغاراً، فهو صاغرٌ أي ذَلَّ، فهو ذليلٌ. وقيلَ: ﴿صَٰغِرُونَ﴾ أي مَذْمُومونَ[(٢)]. وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ][(٣)] يمشونَ بها تَلبِينَ.

وأصْلُهُ: الذِّلَّةُ التي ذَكَرَ اللهُ في قولِهِ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ [آل عمران: ١١٢]فإذا قَبِلوا ذلكَ فقد أذهَبُوا الذُّلَّ والصَّغارَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية. أمّا اليهودُ والنَّصارى، فلا خِلافَ بينَ أهلِ العِلْمِ في أنَّ مَنْ بذلَ منهُمُ الجزيَةَ أُخِذَتْ منهُ، [وأُقِرَّ بهِ][(٤)] على دينِهِ.

وأمّا المجوسُ فإنهُ يُؤْخَذُ منهمُ الجزيةُ لِما رُوِيَ عن عُمَرَ ﷺ أنهُ قالَ: ما أدري ما أصْنَعُ بالمجوسِ فإنهمْ لَيسوا بمسلمِينَ ولا مِنْ أهلِ الكتابِ.

قالَ عبدُ الرحمنِ بنُ عَوفٍ: اشْهَدُ أني سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «سُنّوا بهِمْ سُنَّةَ أهلِ الكتابِ» [البيهقي في الكبرى٩١/ ١٨٩و١٩٠]. وفي بعضِ الرواياتِ. أشْهَدُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أخذَ الجزيةَ مِنْ مجوسِ هَجَرَ.

وعنْ عليٍّ أنَّ أبا بكرٍ وعُمَرَ أخذا الجِزْيَةَ مِنَ المَجوسِ، وقالَ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ: أنا أعلَمُ الناسِ بهِمْ كانوا أهلَ كتابٍ يقرؤونَهُ، وأهلَ عِلْمٍ يدرسونَهُ، فَنُزِعَ ذلكَ مِنْ صدورِهِمْ . وعنْ أبي ذَرٍّ عنْ أبي موسى [أنهُ][(٥)] قالَ: لولا أني رأيتُ أصحابي أخذوا الجِزْيَةَ مِنَ المجوسِ ما أخَذْتُها.

وعنْ أبي عُبيدَةَ بْنِ الجَرّاحِ [أنهُ][(٦)] قالَ: كتبَ النَّبيُّ ﷺ إلى المنذرِ أنهُ قالَ: «مَنِ اسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنا ، وصلّى صلاتَنا ، وأكلَ ذَبيحَتنا ، فذلكَ المُسْلِمُ الذي لهُ ذِمَّةُ رسولِهِ. ومَنْ أحَبَّ ذلكَ مِنَ المجوسِ فهو آمِنٌ. ومَنْ أبى فَعَلَيهِ الجِزْيَةُ» [بنحوه عبد الرزاق الصنعاني في المصنف ٢٠١١٣].

وعلى ذلكَ مَضَتِ الأئِمَّةُ، ولم يُنْكِرْ أحدٌ مِنَ السَّلَفِ حتى قالَ قومٌ مِنَ المَجوسِ: إنما أُخِذَتْ منهُمُ الجزيَةُ لأنهمْ أهلُ كتابٍ ولكنَّ الجزيَةَ تُؤْخَذ منهُمُ اتّباعاً لرسولِ اللهِ: «سُنّوا بهِمْ سُنَّةَ أهلِ الكتابِ غَيرَ ناكحي نساءَهُمْ ولا آكِلي ذبائِحَهُمْ» [البيهقي في الكبرى ٩١/ ١٨٩و١٩٠] ورُوِيَ عنِ الصحابةِ وأئِمَّةِ الهُدى.

ثم المسألةُ في تقديرِ الجزيَةِ. رُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «أنهُ بَعَثَ مُعاذاً إلى اليَمَنِ، فقالَ له: خُذْ مِنْ كلِّ حالمٍ ديناراً أو عِدْلَهُ مَعافِرَ» [السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٦٩].

ورُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ أنهُ بَعَثَ عثمانَ بْنَ عَفّانَ حَنيفاً إلى السَّوادِ، وأمَرَ أنْ يَضَعَ على أهلِ السَّوادِ الخراجَ ثمانيةً وأربعين درهماً أو أربعةً وعشرينَ درهماً أو اثْنَي عشرَ درهماً أوِ اثْنَي عشرَ درهماً، وفي بعضِ الرواياتِ أنهُ ضَرَبَ على أهلِ الذهبِ أربعةَ دنانيرَ وعلى أهلِ الورقِ أربعينَ درهماً مَعَ ذلكَ أرزاقاً للمسلمِينَ وضيافَةَ ثلاثةِ أيامٍ.

وأصحابُنا يَجْعلونَهُمْ ثلاثَ طبقاتٍ: أغنياءَ وأوساطاً وفقراءَ؛ فيؤخَذُ مِنَ الغَنِيِّ المُوسِرِ ثمانيةٌ وأربعونَ درهماً ومِنَ الوَسَطِ أربعةٌ وعشرونَ ومِنَ الفقيرِ المُحارَفِ اثْنا عَشَرَ درهماً، وفي بعضِ الأخبارِ أربعونَ درهماً أو أربعةُ دنانيرَ وضيافةُ ثلاثةِ أيامٍ أو عشرونَ درهماً أو دينارٌ أو هو ما ذكَرْنا ثمانيةٌ وأربعونَ بِغَيرِ ضيافةٍ وغَيرِ مُؤْنَةٍ.

وما رُوِيَ مِنْ أربعينَ درهماً أو أربعةِ دنانيرَ مع الضيافةِ والرزقِ الذي ذُكِرَ في الخَبَرِ، وهذا مِنْ عُمَرَ بِحَضرةِ المهاجرينَ والأنصارِ، فلم يأتِ عنْ أحدٍ النَّكيرُ عليهِ ولا الرَّدُّ، فهو كالاتِّفاقِ منهُمْ على ذلكَ.

---

(١) من م، في الأصل: جماعهم. (٢) في الأصل وم: مذمون. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: وأقرب. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ثم لا يَحتَمِلُ أنْ يكونَ عُمرُ قَدَّرَ ذلكَ التَّقديرَ رأياً منهُ لأنَّ المُقَدَّراتِ/ ٢١١ ـ ب/ والمُعَدَّراتِ، سبيلُ معرفَتِها التوقيفُ والسَّمْعُ لا العقلُ، فهو كالمسموعِ عن رسولِ اللهِ ﷺ وما رُوِيَ مِنْ حديثِ مُعاذٍ حينَ أمَرَهُ النَّبيُّ ﷺ أنْ يأخذَ مِنْ أهلِ اليَمَنِ مِنْ كلِّ حالمٍ ديناراً فذلكَ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ أمَرَ بذلكَ لِما كانوا أهلَ ضَعفٍ وفقرٍ على ما رُوِيَ عنْ عُمَرَ في الضعفاءِ مِنْ أهلِ مِصرَ والشامِ، وليسَ هو الحَدُّ الذي لا يُلزِمُ أكثرَ مِنْ ذلكَ لِمَا ذَكَرْنا أنَّ عمرَ ألْزَمَ المَياسِيرَ أكثَرَ مِنْ دينارٍ، ولم يُنكِرْ ذلكَ أحدٌ مِنَ الصحابةِ. فدلَّ فِعْلُهُمْ على ما وصَفْناهُ.

ثم المسألةُ في تمييزِ أصحابِ الطبقاتِ بَينَ الوَسَطِ والفَقيرِ: قالَ بعضُهُمْ: الفقيرُ مِمَّنْ يَحترِفُ، وليسَ لهُ مالٌ، يَجِبُ في مِثْلِهِ الزكاةُ على المسلمِينَ، وهُمُ الفقراءُ المُحتَرِفونَ، فَمَنْ كانَ[1] لهُ أقَلُّ مِنْ مِئَتَي درهمٍ فهو مِنْ أهلِ هذهِ الطبقةِ.

والطبقةُ [الثانيةُ[2]] أنْ يَبْلُغَ مالُ الرجلِ مِئَتَي درهمٍ، فقالَ بعضُهُمْ إذا بَلَغَ مالُهُ أربعةَ آلافِ درهمٍ، وزادَ عليها، صارَ مِنْ أهلِ الطبقةِ الثالثةِ، واحتَجّوا بقولِ[3] أبي طالبٍ ﷺ وابنِ عُمَرَ حينَ[4] قالا: أربعةُ آلافِ درهمٍ فمادُونَها نَفَقَةٌ وما فوقَ ذلكَ كَنْزٌ. وقد يَجوزُ أنْ تُجعَلَ الطبقةُ الثانيةُ مَنْ مَلَكَ مِئَتَي درهمٍ إلى عشرةِ آلافِ درهمٍ، وما زادَ على ذلكَ يُجعَلُ مِنَ الطبقةِ الثالثةِ لحديثٍ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ يَرويهِ أبو هريرةَ؛ قالَ: «مَنْ تَرَكَ عشرةَ آلافِ درهمٍ جُعِلَتْ صفائحَ يُعَذَّبُ بها يومَ القيامةِ» [بنحوه مسلم ٩٨٧/٢٦].

ثم في قولِهِ: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ دلالةٌ على أنَّ الجزيَةَ إنما تُؤخَذُ مِمَّنْ يَجبُ أنْ يُقاتَلَ، إنْ لم يَبْذُلْها، والنساءُ والصبيانُ [لايُقاتَلونَ][5]، ولايُقاتَلْنَ إنْ ظُهِرَبِهِمْ، فلا يَجبُ أنْ يُوضَعَ عليهمُ الجزيَةُ بدليلِ الكتابِ؛ إذْ كانَ اللهُ إنما أمَرَ أنْ تُؤخَذَ الجزيَةُ مِمَّنْ يُقاتَلُ.

وكذلكَ فَعَلَ عُمَرُ والأئِمَّةُ بَعْدَهُ؛ رُوِيَ أنَّ عُمَرَ ﷺ كتبَ إلى أميرِ الجيوشِ. لا تُقاتِلوا إلّا مَنْ قاتَلَكُمْ، ولا تَقْتُلوا الصِّبْيانَ والنساءَ، ولاتَقْتُلوا إلّا مَنْ جَرَتْ عليهِ المواشي. وكتبَ إلى عُمّالِهِ أنْ يَضرِبوا الجزيَةَ، ولايَضرِبوها على النساءِ والصِّبْيانِ. وفي بعضِ الرواياتِ أنهُ كتبَ إلى أميرِ الأجنادِ ألّا تَضرِبوا[6] الجزيَةَ إلّا على مَنْ جَرَتْ عليهِ المواشي. قالَ: والجزيَةُ أربعونَ درهماً أو أربعةُ دنانيرَ.

وفي خَبَرِ مُعاذٍ دلالةٌ لذلكَ حينَ[7] قالَ: بَعَثَني رسولُ اللهِ ﷺ إلى اليَمَنِ، وأمَرَني أنْ آخُذَ مِنْ كلِّ حالمٍ ديناراً أو عِدْلَهُ مَعافِرَ؛ بَيَّنَ مُعاذٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أمَرَهُ أنْ يأخُذَ ذلكَ مِنَ الرجالِ دونَ الصِّبْيانِ ودونَ النساءِ.

فإنْ قيلَ: رُوِيَ عنْ مُعاذٍ [أنهُ[8]] قالَ: أمرَني رسولُ اللهِ أنْ آخذَ مِنْ كلِّ حالمٍ وحالمةٍ ديناراً. وفي بعضِ الرواياتِ عنهُ أنهُ قالَ «خُذْ[9] مِنْ كُلِّ حالمٍ ذكرٍ أو أنثى ديناراً» [السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٦٩] فإنْ كانَ هذا مُثْبَتاً محفوظاً فهو دليلٌ لِما يُؤخَذُ مِنْ نَصارَى بَني تَغْلِبَ، ويكونُ حُكْمُ نساءِ العربِ مِنْ أهلِ الكتابِ في ما يُؤخَذُ منهم خِلافَ نساءِ العجمِ منهم، أو أنْ يُقالَ: إنهُ غيرُ محفوظٍ لِما عَلِمَ الأئمةُ[10] بخلافِهِ لأنَّ الوِفاقَ قد جَرَى على أنْ لا جزيَةَ على النساءِ. ولو كانَ محفوظاً لَظَهَرَ العملُ بهِ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: «خُذْ مِنْ كلِّ حالمٍ ديناراً» أي خُذْ منهما ديناراً كقولِهِ «لكلِّ سهوٍ سَجْدَتانِ» [أبو داوود ١٠٣٨] لا يَلْزَمُهُ أكثَرُ مِنْ ذلكَ.

ثم تُذْكَرُ مِنْ ذلكَ مسألةٌ، ليسَ في الآيةِ ذكرُها؛ وهي أن الجزيَةَ إذا ضُرِبَتْ، فَدَخَلَتْ سنةٌ أُخرى قبلَ أنْ يُؤدِّيَها أُخِذَتْ منهُ لِلسَّنَةِ الثانيةِ، ولم تُؤخَذْ لِلسَّنَةِ الماضِيَةِ، ليسَ كسائرِ الديونِ. فإنْ قيلَ: أليسَ الخراجُ يُطالَبُ بهِ مِنْ آخِرِه مِنْ سَنَةٍ إلى سَنَةٍ؟ قيلَ: ليستِ الجزيَةُ مِثْلَ الخراجِ، يَجِبُ على المُسلِمِ في أرضِهِ؛ فهو كسائرِ الديونِ.

فإنْ قيلَ: إنَّ المجوسِيَّ[11] إذا أسْلَمَ بَعْدَ مُضِيِّ السنةِ طُولِبَ بالجزيَةِ للسنةِ الماضِيَةِ. قيلَ: رُوِيَ عنْ عُمَرَ أنهُ رَفَعَ الجزيَةَ بالإسلامِ، فقالَ: واللهِ إنَّ في الإسلامِ لَمَعاذاً؛ إنْ فَعَلَ تُرْفَعُ عنهُ الجزيةُ.

---

(١) في الأصل وم: كانت. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: من قول. (٤) في الأصل و م: حيث. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: تأخذوا. (٧) في الأصل: وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أن آخذ. (١٠) في الأصل وم: الأمة. (١١) في الأصل وم: المجوس.

ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «ليسَ على مُسْلِمٍ جزيةٌ» [بنحوه الترمذي٦٣٣] فَمَنْ طالَبهُ بالجزيةِ بعدَ الإسلام فقد خالفَ الخَبَرَ. فإنْ قالَ: إنما يزولُ عنِ المسلمِ ما كانَ عليهِ مِنَ الجزيةِ في حالِ كُفْرِهِ لأنهُ صارَ إلى حالٍ لا يجوزُ أنْ تُوضَعَ عليهِ ابْتِداءً، قِيلَ: إنَّ الذِّمِّيَّ إذا اجْتَمَعَ عليهِ جزيةُ سَنَتَيْنِ، فصارَ إلى حالٍ لا يَجوزُ أنْ يُلْزَمَ في الابْتِداءِ في مِثْلِهَا أكْثَرَ مِنِ اثْنَي عشرَ درهماً لِفَقْرِهِ لم يَجُزْ أنْ يُلْزَمَ أكثرَ منها لأنهُ جَعَلَ حُكْمَ مُسْتَدْبِرِ الجزيةِ التي وجَبَتْ، فأسْلَمَ صاحبُها، حُكْمَ الابْتِداءِ في توظيفِ الجزيةِ عليهِ، فَوَجَبَ أنْ يَجْعَلَ حُكْمَ مَنْ أتَتْ عليهِ سَنَتانِ حُكْمَ ابْتِدائِهِ.

وأصْلُهُ أنَّ الجزيةَ إنما جُعِلَتْ لِحَقْنِ الدمِ فإذا مَضَتْ سنةٌ صارَ دمُهُ محقوناً في السنةِ الماضيةِ، لذلكَ لم تُؤخَذْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الخ تَضَمَّنَتْ هذهِ الآيةُ أحكاماً: منها الأمرُ بِقِتالِ مَنْ لم يؤمِنْ باللهِ واليومِ الآخِرِ، وهمْ لا يُقِرُّونَ بالأمرَينِ. لكنَّهُ يُخَرَّجُ على وجوهٍ ثلاثةٍ.

أحدُها: أنهمْ مُشَبِّهَةٌ، ومِنْ تشبيهِهِمُ اللهَ بِخَلْقِهِ احْتَمَلَ قلوبُهُمُ القولَ بالولدِ؛ إذِ الذينَ شَهِدُوا مِنَ الخَلائِقِ على ذلكَ وجَدُوا بوَلَدٍ بعضٍ مِنْ بَعْضٍ. وإذا كانَ كذلكَ [فهمْ غيرُ مؤمنينَ][1] في الحقيقةِ باللهِ الذي هو الحقُّ حتى يؤمِنُوا بهِ وأنهُ بهِ تكونُ الآخرةُ دونَ الذي ادَّعَوهُ.

والثاني: أنَّ الذي جُبِلَ عليهِ الخَلْقُ هو تعظيمُ رسُلِ الملوكِ وإجلالُهُمْ[2] حتى يُوَحِّدَ مِنْ بِرِّ الرسلِ بَيْنَ ملوكٍ قد ظَهَرَتْ بينَهُمُ العداوَةُ. فلما كذَّبُوا رسولَ اللهِ مع البراهينِ التي قد أعْجَزَتِ الخلائقَ وشهادةِ كتبِهِمْ، وتَظاهَرَ مَنْ عُرِفُوا أنهمْ مُكَذِّبونَ بكتبِهِمْ وبرسُلِهِمْ على مَنْ صَدَّقَ بذلكَ، ثبتَ أنهمْ في الحقيقةِ مكذِّبونَ جميعَ الرسلِ والكتبِ، وإنْ أظْهَرُوا الوِفاقَ، وأنَّ ذلكَ لا يكونُ إلّا لِتكذيبِ منهمْ باللهِ؛ يكونُ بإيمانِهِمْ باللهِ [ولا][3] يكونُ بإيمانِهِمْ بالرسلِ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ في وفدِ عبدِ قيسٍ أنهُ قالَ «آمُرُ بأربعٍ: آمُرُكُمْ بالإيمانِ باللهِ، ثم قالَ: أتَدْرونَ ما الإيمانُ باللهِ؟ أنْ تَشْهَدوا أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وأني رسولُ اللهِ» [البخاري٥٣] فلذلكَ لم يكُنْ إيمانُهُمْ باللهِ إيمانُهُمْ باللهِ إيماناً حتى يُؤْمِنوا برسولِ اللهِ، وعلى هذا يُحارَبونَ.

والثالثُ: أنْ يكونَ نَفَى عنهُمُ الإيمانَ نَفْيَ[4] مَنْفَعَةِ الإيمانِ عنهُمْ إذا قَلَّ لِمَنْفَعَةٍ بهِ الإيمانُ برسلِهِ والقَبولُ عنهُمْ بالتعظيمِ. فإذا ظَهَرَتْ منهُ هذهِ المَنْفَعَةُ، وتركُوا القتالَ، ثم التركُ على قبولِ الجزيةِ جائزٌ، وإنْ كانَ الأمرُ قد تقدَّمَ بالقَتْلِ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ دليلٌ [أنّا لأجلِ][5] ذلكَ المالِ نُقاتِلُ كما كتبَ على كلِّ نفسٍ الموتَ، ثم قد يُتْرَكونَ على ما هُمْ عليهِ مِنِ اخْتِلافِ الأديانِ وتَفَرُّقِ الأهواءِ، وإنْ كانَ لا يدلُّ ذلكَ على الأمرِ بما هُمْ عليهِ والرِّضا بِكُفْرِهِمْ ولا على القتالِ لأخذِ تلكَ الأموالِ منهُمْ.

ثم الأصلُ أنَّ القِتالَ لم يُجْعَلْ ليكونَ عقوبةً لِلْكُفْرِ؛ إذْ نوعُ القتلِ؛ ومعناهُ قد يوجَدُ في الأخيارِ والأشرارِ جميعاً، وهو الموتُ. ثَبَتَ أنهُ لم يُجْعَلْ لذلكَ، ولكنْ لوجهَيْنِ:

[أحدُهُما][6]: أنْ يَضْطَرَّهُمْ على الإجابةِ إلى مافيهِ نَجاتُهُمْ، وبهِ نَيْلُ كَرامةِ الأبدِ، وكانَ ذلكَ بَعْدَ أنِ الزَمْناهُمْ كُلَّ أنواعِ الحُجَجِ، فلم تُقنِعْهُمْ؛ قاتَلْناهُمْ بما كانَ الذي يَمْنَعُهُمْ عنِ النَّظَرِ في الحُجَجِ حبُّ اللَّذّاتِ، وألَذُّها الحياةُ، قاتَلْناهُمْ حتى يَيْأسُوا مِنْ تلكَ اللَّذّةِ المانعةِ عنِ النَّظَرِ في الحججِ والصّادَّةِ عنِ الإجابةِ، تَزولُ عنهُمْ.

وفي قَبولِ الجزيةِ قيلَ: /٢١٢ ـ أ/ بَعْضُ الذُّلِّ والصَّغارِ الذي تَنْفِرُ عنهُ الطِّباعُ، ويَدْعو إلى مافيهِ الزَّوالُ، فَيَنْظُرونَ في الحُجَجِ، ويَقْبَلُونَ[7] ما دُعُوا إليهِ، فيكونُ بهِ نَجاتُهُمْ، وزيادةٌ لنا في الكَرامَةِ.

والثاني: أنَّ المِحَنَ كلَّها مُنْقَسِمَةٌ على الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ والخَيراتِ والشُّرُورِ، ولذلكَ جُعِلَتْ بالموتِ والحياةِ، وعلى ذلكَ جميعُ أمورِ الدنيا هو التَّقَلُّبُ على مُخْتَلَفِ الأحوالِ. فَمِثْلُهُ الدعاءُ إلى الإسلامِ يكونُ مَرَّةً بِمُحاجَّةٍ إليهِ ومَرَّةً

---

(١) في الأصل وم: فهو غير مؤمن. (٢) في الأصل وم: وأجلتهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: عنهم. (٥) في الأصل وم: أما الأجل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ويقبلوا.

جنة السنة

باللسانِ ومرَّةً بالتَّرْكِ، لا أنْ جُعِلَ شيءٌ مِنْ ذلكَ لِشَيءٍ، ولكنْ بما عليهِ أمرُ المِحَنِ لِيُتَذَكَّرَ به وجوهُ الذُّلِّ في قومِ على [ما][1] في علمِ اللهِ مِنَ المصلحةِ وعلى ما عليهِ حقُّ الحِكْمَةِ.

ثم الفَرْقُ بَيْنَ مُشْرِكِي العربِ وغَيرِهِمْ يُخَرَّجُ على وُجوهٍ:

أحَدُها: أنهُمْ قد كانُوا ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] فجاءَهُمْ، فكذَّبوهُ.

والثاني[2]: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩] فجاءَتْهُمْ آياتٌ، فلم يؤمِنُوا، فاسْتَوجَبُوا القِتالَ إلى أنْ يَفُوا بالعَهْدِ الذي سَبَقَ والقَسَمِ الذي جَهَدوا بهِ، وليسَ لِغَيرِهِمْ هذا.

والثالث[3]: على قولِهِ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١١٠]. فَبَيَّنَ الإياسَ عن إيمانِهِمْ إلى أنْ يشاءَ اللهُ. فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: الإياسُ منْ إيمانِهِمْ، وقَبولُ الجزيَةِ لِيُخالِطوا أهلَ شريعةِ اللهِ، فَيَسْمَعُوا منهُم الحُجَجَ، ويُعايِنُوا الأفعالَ المحمودةَ في العقولِ والأخلاقَ الكريمةَ التي جاءَ بها الرسولُ، فيؤمِنُوا. وهؤلاءِ قد آيَسَ اللهُ عن إيمانِهِمْ، وأخْبَرَهُمْ أنهمْ يُؤيِسونَ أبداً. فلذلكَ لم يُعْطَ لهمْ عهدٌ وعلى ذلكَ ظَهَرَ نَقْضُهُمُ العقودَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنهُ اسْتَثْنَى فيهِمْ ألّا يؤمِنُوا بالآياتِ إلّا أنْ يشاءَ اللهُ. فَلَعَلَّ اللهَ شاءَ أنْ يكونَ إيمانُهُمْ بالقِتالِ خاصَّةً، فَفَرَضَ فيهِمْ ذلكَ إلى أنْ يؤمِنُوا.

ووجهٌ آخَرُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ هو بُعِثَ فيهِمْ ومنهُمْ. فأوجَبَتْ لهمُ الفضيلةُ بهِ ألّا يُقْبَلَ منهُمْ غيرُ الإيمانِ كما فُضِّلَتِ البُقْعَةُ التي فيها بُعِثَ رسولُ اللهِ ﷺ ومنها ألّا يُتْرَكَ فيها غيرُ المؤمنِ تفضيلاً.

ووجهٌ آخَرُ أنهمْ قومٌ لَيسَ لَهُمْ أُسُسٌ ولا أئِمَّةٌ في الدينِ، إليهِمْ يَرجِعُونَ في التَّأسيسِ. ومعلومٌ أنْ لا قِوامَ في العقولِ لأمرِ الدينِ إلّا بالأئمَّةِ كالسياساتِ كُلِّها والأمورِ؛ فيها القِوامُ مِنَ المَلِكِ وغيرِهِ. بل إنما كانُوا جَرَوا على عادتِهِمْ، وقاتَلُوهُمْ عنِ القبائِلِ، فلا يرجِعونَ في الحقيقةِ إلّا إلى عادةٍ خارجةٍ عنِ التدبيرِ. وغيرُهُمْ يرجِعونَ إلى مذاهِبَ أُسِّسَتْ مِمّا أُسِّسَ أمرُ الدياناتِ؛ فقد تَعَلَّقُوا بِضَرْبٍ مِنْ ذلكَ؛ [فتركُوا][4] إذا خَضَعُوا لا دُفِعُوا، وإذا عَنَوا لهمْ بِحَقِّ التَّبَعِ، يُتْرَكونَ رَجاءَ[5] أنْ يَتَأمَّلُوا؛ إذْ لكلِّ مذهبٍ نَظَرٌ، وليسَ لأولئكَ سِوَى[6] العادةِ وتقليدِ الآباءِ. ومَنْ ذلكَ وصفُهُ؛ لايَنْظُرُ، فَيُمْهَلُ لِلنَّظَرِ، واللهُ أعلَمُ.

وأيضاً أنَّ لِسائرِ المذاهبِ أصولاً يَتَكَثَّرُ أهلُها، وفي الإقامةِ على القتالِ إلى الفَناءِ يَتَضَمَّنُ بعضٌ إلى بعضٍ فَيَتَناصَرونَ، فَيُخافُ على المسلمينَ بما بهِ رَجاءُ التَّكَثُّرِ الفَناءُ. والعربُ [يَقِلُّ عَدَدُهُمْ][7] حتى لم يكونُوا يَقْدِرونَ على المُناوَأةِ إلّا بِمَعونَةِ أهلِ الكتابِ وغَيرِهِمْ، فأمكَنَ أنْ يضطَرُّوا بهِ إلى القَتْلِ معَ ما ليسَتْ لهمْ مذاهبُ معلومةٌ؛ إذْ لا يُذْكَرُ في شيءٍ مِنَ الكتبِ لهمْ مذاهبُ، وقد ذُكِرَ بجميعِ الفِرَقِ[8]؛ فإنما أمرُهُمْ على العادةِ، وقد تَنْزِلُ العاداتُ بما لا يَعْتَرِضُ فيها ما يَمْنَعُ الاسْتِمْرارَ عليها مِنَ القتالِ والحربِ، فَيَتْرُكونَها.

وأهلُ المذاهبِ عندَهُمْ أنهمْ لَزِمُوا بالحُجَجِ، ومِثْلُ ذلكَ لا يُتْرَكُ إلّا بالحُجَجِ، وذلكَ يكونُ بقبولِ الذِّمَّةِ والعهدِ. وأيضاً أنهُ يُمْكِنُ إلزامُ[9] كلِّ ذي مَذْهَبٍ بما يُوجَدُ في مَذْهَبِهِ ما يُثْبِتُ القولَ بالإسلامِ وبالعهدِ رجاءَ الوُصولِ[10] إليهِ، وليسَ لِمُشْرِكي العربِ ذلكَ لِما لم يُبَيِّنْ[11] مذهبُهُمْ على الحُجَجِ أو السنةِ، إنما هو تقليدٌ وعادةٌ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ثم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: سواء. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: الفريق. (٩) في الأصل وم: الزم. (١٠) من م، في الأصل: لا. (١١) في م: يبين.

جنة السنة

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وقولُهُ[1] تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠و٩١] أخبرَ أنَّ السمواتِ تكادُ تَتَفطَّرَ، وتنشقُّ الأرضُ، وتخِرُّ الجبالُ لِعظيمِ ما قالُوا في اللهِ سُبحانَهُ مِنَ البُهْتانِ والفِرْيَةِ عليهِ أنَّ لهُ وَلَداً. ثم بيَّنَ الذي ذَكَرَ ذلكَ، فقالَ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ فذَكَرَ الآيةَ، وأخبرَ، واللهُ أعلَمُ، أنهُمْ قالُوا في اللهِ ما قالُوا لِوُجوهٍ:

أحَدُها: دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنَّ هؤلاءِ المُتأخِّرينَ لم يقولوا هذا، ولكنْ إنما قالَ ذلكَ أوائِلُهُمْ، ولكنْ كَتَمُوا ذلكَ، فأخبَرَ رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ أوائِلَهُمْ قالوا ذلكَ، وهُمْ كانُوا يكتُمونَ عنْ رسولِ اللهِ ذلكَ، لِيَعْلَمُوا أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ باللهِ.

والثاني: يُخْبِرُ رسولَهُ سَفَهَ أوائِلِهِمْ، ويُصَبِّرُهُ على سَفَهِ هؤلاءِ لِيَصْبِرَ على سَفَهِهِمْ وأذاهُمْ.

والثالثُ: يُخبِرُ أنهم مُشَبِّهَةٌ لأنهمْ نَسَبُوا المَخْلوقَ إليهِ، وقالُوا: إنَّ فلاناً ابْنُهُ لِما رَأَوا منهُ أشياءَ. فلولا أنهمْ عَرَفُوا اللهَ بِمِثْلِ معرفتِهِمُ المَخْلوقَ، وإلّا ما قالوا ذلكَ، ولا اعْتَقَدُوا مِنَ التَّشْبِيهِ وغيرِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ذلكَ قولٌ قالوهُ بِلا حُجَّةٍ ولا برهانٍ، كانَتْ لهمْ في ذلكَ، أو قالُوا ذلكَ بأفواهِهِمْ على غَيرِ شُبَهٍ، اعْتَرَضَتْ لهمْ، فَحَمَلَتْهُمْ[2] على ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ يَحتمِلُ هذا أنْ قد كانَ قبلَ هؤلاءِ مَنْ قد قالَ مِثْلَ قولِ هؤلاءِ ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣] لَيسَ أنْ يُحْيِيَ المَوتى كلَّهُمْ إحياءً كما أحْيَى ذلكَ القَتيلَ بِضَرْبِ بَعْضٍ مِنَ البقرةِ، ولكنْ يُحْيِيهِمْ إحياءً، ذلكَ قولُهُ: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ في الكُفْرِ نفسِهِ.

ويَحتمِلُ: ضاهَى قولُ النَّصارَى قولَ اليهودِ. والمُضاهاةُ المُشابَهَةُ والإشباهُ. وقولُهُ: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أنْ يُشْبِهَ النَّصارَى بقولِهِمْ [عنْ عِيسَى][3] إنهُ ابنُ اللهِ قولَ اليهودِ مِنْ قَبْلُ ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ فَمُضاهاةُ النَّصارَى في عِيسَى اليهودَ قَبْلَهُمْ في عُزَيرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ هذهِ الكلمةُ كلمةُ اللَّعْنِ، تُسْتَعْمَلُ عندَ مناكيرِ القولِ والفعلِ مِنْ غيرِ حُصولِ المَنْفَعَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يَحتمِلُ مِنْ أينَ يُؤفَكونَ، ويَفْتَرُونَ على اللهِ على غَيرِ شُبْهَةٍ اعْتَرَضَتْ لهمْ؟

ويَحتمِلُ ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيفَ يُؤفَكونَ بلا مَنْفَعَةٍ تَحْصُلُ لهمْ؟

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ قيلَ: الأحبارُ هُمُ العلماءُ، والرُّهْبانُ العُبّادُ، وقيلَ: الأحبارُ أصحابُ الصوامِعِ مِنَ اليهودِ والرُّهبانُ مِنَ النَّصارى.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا في السفهاءِ والأتباعِ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ في العلماءِ منهُمْ والرؤساءِ، فاتَّخذَ الأتباعُ أولئكَ أرباباً يَتَّبِعُونَهُمْ في جميعِ ما يَدْعُونَهُمْ إليهِ [ويأتَمِرونَ بهِ][4] فَعَلَى ذلكَ هذا.

ويَحتمِلُ ما رُوِيَ في الخَبَرِ، إنْ ثَبَتَ، أنهم لم يَعْبُدُوهُمْ، ولكنَّهُمْ أحَلُّوا لهمْ أشياءَ، حَرَّمَها [اللهُ][5] عليهِمْ، فاستَحَلُّوها، أو حَرَّمُوا لهمْ أشياءَ، أحَلَّ اللهُ ذلكَ لهمْ، فَحَرَّمُوا ذلكَ. فقيلَ: اتَّخذوهُمْ أرباباً، واللهُ أعلَمُ، يُخَرَّجُ هذا في الأحبارِ والرهبانِ على التَّمْثيلِ، أي اتَّخذوها[6] في الطاعةِ لهمْ والإتّباعِ لأمرِهِمْ؛ كأنهُمْ اتَّخذوهُمْ أرباباً لا على التَّحقيقِ [وهو ما ذُكِرَ مِنْ عِبادَتِهِمُ الشيطانَ لا أحدَ يَقْصِدُ قَصْدَ عبادةِ الشيطانِ، لكنْ صاروا بالطاعةِ للشيطانِ والإتّباعِ لأمرِهِ كأنهُمْ

(١) في الأصل و م: وقال. (٢) في الأصل و م: تحملهم. (٣) في الأصل وم: لعيسى. (٤) في الأصل: ويأمرهم به، في م: ويأتمرونهم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: اتخذونها.

جنة السنة

عبَدوه، وأمّا في المسيحِ فهو على التحقيقِ[(١)] لأنهمْ قالوا: إنهُ إلهٌ، وقالُوا: أبْنُ إلهٍ. فهو يَخْرُجُ في المسيحِ على التحقيقِ وفي الأحبارِ والرهبانِ على التمثيلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ يَحْتَمِلُ إلّا لِيُوحِّدُوا إلهاً واحداً الذي لا إله إلّا هو. ويَحْتَمِلُ أي ما أُمِرُوا أنْ يَعْبُدوا آلهةً [على ما][(٢)] يَعْبُدونَ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ ولكنْ أُمِرُوا أنْ يَعْبدوا إلهاً واحداً.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ/ ٢١٢ ـ ب/ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ قيلَ: نورُ اللهِ ذِكْرُ اللهِ وتوحيدُهُ، وقيلَ: نورُ اللهِ القرآنُ، وقيلَ: نورُ اللهِ هو الإسلامُ. فإذا كانَ النورُ هو الذِّكْرُ والتَّوحيدُ فهو، واللهُ أعلَمُ، أنهُمْ لم يكونُوا يَعْرفونَ ذِكْرَ اللهِ، ولا يَذْكُرونَهُ، إنما كانوا يعرفونَ ذِكْرَ الأصنامِ، وإيّاها يذكُرونَ[(٣)]، وبِحَقِّ القرابَةِ والرَّحِمِ يَتَناصَرونَ [في ما][(٤)] بينَهُمْ. فلمّا أنْ بَعَثَ [اللهُ][(٥)] رسولَهُ محمداً [وأمَرَ][(٦)] بِذِكْرِ اللهِ وتَوحيدِهِ، وأمَرَ بالتَّناصُرِ بِحَقِّ الدينِ أرادُوا أنْ يُطْفِئُوا ذلكَ النورَ. ومَنْ أرادَ بِنورِ اللهِ القرآنَ أرادُوا إطفاءَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧] وقولِهِ[(٧)]: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة: ١١٠] وقولِهِ[(٨)]: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] ونَحْوِه. أرادوا إطفاءَهُ بِنَحْوِ ما ذَكَروا[(٩)]: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾ [سبإ: ٤٣] وقولِهِمْ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ الآية [النحل: ١٠٣]. ومَنْ قالَ: نورُ اللهِ هو الدينُ كقولِهِ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢] وقولِهِ[(١٠)] تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥] وفي[(١١)] حرفِ أُبَيٍّ: مَثَلُ نورِ المؤمنِ، ومِثْلُهُ، أرادوا إطفاءَ هذا النورِ لِتَسْلَمَ لهمُ المنافعُ التي كانَتْ لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: [يَحْتَمِلُ][(١٢)] ﴿يُرِيدُونَ أَن﴾ يَجْتَهِدونَ أنْ يُطْفِئُوهُ، فما يَقْدِرونَ على إطفائِهِ. ويَحْتَمِلُ ﴿يُرِيدُونَ أَن﴾ أي يَحتالونَ أنْ يُطْفِئُوهُ بأسبابٍ يَتَكَلَّفونَ، ويَحتالونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ بالحُجَجِ والبراهينِ أي بالنَّشْرِ والإظهارِ، وقد أتَمَّهُ كقولِهِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وقد كَرِهَ الكافرونَ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ هُدًى يَهْديهِمْ إلى ما بِهِ تكونُ جميعُ المحاسنِ والخَيراتِ مَحاسِنَ وخَيراتٍ؛ إنما تَقومُ بالإيمانِ، وبه يُنْتَفَعُ بها، بَعَثَهُ لذلكَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ وهو القرآنُ، يَهديهِمْ، ويُبَيِّنُ لهمُ المحاسِنَ مِنَ المَساوِئِ والحسناتِ مِنَ السَّيِّئاتِ، وهو يَهديهِمْ إلى ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ وهو دينُ الحقِّ أي الإيمانُ الذي يُصَيِّرُ المحاسنَ مَحاسِنَ والخيراتِ خيراتٍ، هو دينُ الحقِّ، ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي دينِ اللهِ كقولِهِ: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً: يَحْتَمِلُ ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ رسولَهُ على أهلِ الدينِ كلِّهِمْ[(١٣)] بالحُجَجِ والآياتِ، وقد[(١٤)] أظهَرَهُ بِحَمْدِ اللهِ على الأديانِ كلِّها بالحُجَجِ والبراهينِ حتى لم يَتَعَرَّضْ أحَدٌ في شُبَهٍ، ذلكَ فَضْلاً [عنْ أنْ لم][(١٥)] يَتَعَرَّضْ في إبطالِهِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ﴾ على أهلِ الدينِ كلِّهِمْ بالقَهْرِ و الغَلَبَةِ والإذلالِ، وقد[(١٦)] كانَ، حتى خَضَعُوا كُلُّهُمْ، وذَلُّوا، حتى لم يبقَ في جزيرةِ العربِ مُشْرِكٌ ولا كافِرٌ إلّا خَضَعَ لهُ، وصارَ أهلُ الكتابِ ذليلينَ صاغِرينَ في أيدي المسلِمينَ.

وإنْ كانَ المُرادُ مِنْ قولِهِ ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ فهو بالحُجَجِ والبراهينِ كلِّها. وإنْ كانَ أرادَ بِهِ الدينَ أنْ يُظْهِرَهُ على الأديانِ كلِّها فَبَعْدُ لم يكنْ، ويكونُ، إنْ شاءَ اللهُ، هو الظاهِرَ على الأديانِ كلِّها يومَ القيامةِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل م. (٣) في الأصل وم: يذكرونها. (٤) في الأصل وم: فيها. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: ذكرنا. (١٠) في الأصل وم: فقال. (١١) الواو ساقطة في الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: كله. (١٤) في الأصل وم: فقد. (١٥) في الأصل وم: أن. (١٦) من م، في الأصل: فهو.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ولم يَقُلْ على الأديانِ كُلِّها فالدينُ يتأوَّلُ الأديانَ كلَّها كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الانفطار: ٦] يدخلُ فيهِ كلُّ إنسانٍ. وجائزٌ أنْ يكونَ أدياناً مُختلِفَةً. وهو[1] واحدٌ لأنَّ الكُفرَ كلَّهُ مِلَّةٌ واحدةٌ [وهو دينُ][2] الشيطانِ، فسمّاهُ بذلكَ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾ قد ذُكِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ لأنهمْ كانُوا يأكلونَ أموالَهُمْ بما يُحَرِّفونَ كتابَ اللهِ، ويُبَدِّلُونَهُ، كقولِهِ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦] وقولِهِ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية [آل عمران: ٧٨] فهمْ إنما حَرَّفُوا ذلكَ، وبدَّلوهُ، لِتَسْلَمَ لهمْ تلكَ الأموالُ؛ فذلكَ أكلٌ بباطلٍ لأنهمْ خافُوا ذَهابَ تلكَ المَنافِعِ والأموالِ إذا أسْلَمُوا.

فيجوزُ أنْ يكونَ إنما سَمّاهُمْ أرباباً في الآيةِ الأولى لِما جَعَلُوا أموالَهُمْ أموالاً لأنفسِهِمْ وأنفُسَهُمْ عَبيداً لهمْ، فهمْ كالأربابِ لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ ما قالَ، ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي أخذُوا أموالَهُمْ لِصَدِّ الناسِ عن سَبيلِ اللهِ، وكَنَزوها، ولم يُنفِقُوها في سَبيلِ اللهِ، إنما أنفقُوها لِصَدِّ الناسِ عن سَبيلِهِ.

ومِنَ الناسِ مَنْ حَمَلَ الآيةَ في مَنْعِ الزكاةِ؛ رُوِيَ في الأخبارِ عن رسولِ اللهِ ﷺ وعن بَعْضِ الصحابة، رضوانُ اللهِ عليهمْ أجْمَعِينَ «أنَّ كلَّ مالٍ أُدِّيَتِ الزكاةُ عنهُ فهو ليسَ بكَنْزٍ، وإنْ كانَ[3] تحتَ سَبْعِ أرَضِينَ، وكلَّ مالٍ لم تُؤَدَّ زكاتُهُ[4] فهو كَنْزٌ، وإنْ كانَ على وجهِ الأرضِ» [أبو داوود ١٥٦٤] ومن أصحابِنا مَنِ اسْتَدَلَّ بِلُزومِ ضَمِّ الفضةِ والذهبِ بَعْضِهِ إلى بعضٍ في الزكاةِ في هذهِ الآيةِ لأنهُ ذَكَرَ كَنْزَ الذهبِ والفضةِ جميعاً، وألْحَقَ الوَعِيدَ بِتَرْكِ الإنفاقِ مِنَ الفضةِ بقولِهِ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فلولا أنَّ الضَّمَّ واجبٌ، أو يكونُ المُؤَدَّى عن أحدِهِما مؤدًى عنِ الآخرِ، وإلّا لم يكُنْ لذلكَ[5] معنًى.

ثم في مُتعارَفِ الناسِ أنهمْ يُؤَدُّونَ مِنَ الفضةِ عنِ الذهبِ لأنَّ الذهبَ أعزُّ عندَهُمْ، والفضةُ دُونَهُ.

ثم إنْ كانتِ الآيةُ في الكَفَرَةِ فهو في القَبولِ كقولِهِ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٧] وذلكَ على القولِ لا في الأداءِ نَفْسِهِ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ الآية جَعَلَ اللهُ تعذيبَ الكَفَرَةِ في الآخرةِ بالأسبابِ التي مَنَعَتْهُمْ[6] عن طاعةِ اللهِ، ودعَتْهُمْ إلى مُخالَفَةِ أمْرِهِ، ويَجْمَعُ بينَهما في النارِ كقولِهِ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وقولِهِ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] ونَحْوُ ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ ما كَنَزوا ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ يُعَذِّبُهُمْ بها لِما مَنَعَتْهُمْ تلكَ الأموالُ عن طاعتِهِ، ودعَتْهُمْ إلى صَدِّ الناسِ عن سَبيلِ اللهِ، يَجْعَلُ عذابَهُمْ في الآخرةِ بها.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿جِبَاهُهُمْ﴾ كنايةً عنِ التقديمِ إلى الآخرةِ أي لم يُقَدِّموها، ولم يُنْفِقُوها في سَبيلِ اللهِ، وقولُهُ: ﴿وَجُنُوبُهُمْ﴾ لِما أخذوها مِمّا يَحِلُّ ومِمّا لا يَحِلُّ مِنْ كُلِّ جهةٍ، وقولُهُ: ﴿وَظُهُورُهُمْ﴾ لِما أنفقُوها في الصدِّ عن سبيلِ اللهِ.

ويَحْتَمِلُ ذِكْرُ هذا إحاطةَ العذابِ بهمْ مِنْ كُلِّ الجهاتِ كقولِهِ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] وقولِهِ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] أي يُحيطُ العذابُ بهم. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ، وكقولِهِ: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] أي يُحيطُ بهمْ حتى لا يَقْدِروا على رفعِهِ عن وجوهِهِمْ.

---

(١) من م، في الأصل: فهو. (٢) من م، في الأصل: لان الكفر. (٣) في الأصل وم: أدى. (٤) في الأصل وم: الزكاة. (٥) في الأصل وم: كذلك. (٦) في الأصل وم: منعهم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الآية. رُوِيَ عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «ما مِن صاحبِ ذهبٍ ولا فضةٍ لا يُؤدِّي حقَّها إلّا جُعِلَتْ له يومَ القيامةِ صَفائحَ، ثم أُحْمِيَ عليها في نارِ جهنَّم، ثم يُكْوى بها جَبِينُهُ وجَبْهَتُهُ وظَهْرُهُ ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]حتى يُقْضى بينَ الناسِ فَيَرى سَبيلَهُ إمّا إلى الجنّةِ وإمّا إلى النارِ» [مسلم٩٨٧/٢٦] وقال[1]: «ما مِن صاحبِ بَقَرٍ ولا غَنَمٍ لا يُؤدِّي حَقَّها إلّا أتى يومَ القيامةِ تَطَؤُهُ بأظلافِها وتَنْطَحُهُ بِقُرونِها» [بنحوه البخاري١٤٠٢] ثم ذكرَ فيهِ ما ذكرَ في الأوّلِ، فقالوا[2]: يا رسولَ اللهِ فصاحِبُ الخيلِ؟ قالَ: «هي لِثلاثٍ: لِرَجُلٍ أجرٌ ولِرَجُلٍ سِترٌ ولِرَجُلٍ وِزرٌ؛ فأما مَن رَبَطَها عُدَّةً في سبيلِ اللهِ فإنهُ لو طَوَّلَ لها / ٢١٣ ـ أ/ في مَرْجٍ خَصيبٍ أو في رَوضةٍ خَصيبةٍ كَتَبَ اللهُ لهُ عَدَدَ ما أكلَتْ حَسناتٍ، وعَدَدَ أرْواثِها حَسَناتٍ، ولو انقَطَعَ طِوَلُها له ذلكَ، فاسْتَنَّتْ شَرَفاً أو شَرَفَينِ كتبَ اللهُ له عددَ آثارِها حسناتٍ، ولو مَرَّتْ بِنَهَرٍ ثَجّاجٍ[3]، يُريدُ السَّقْيَ بهِ، فَشَرِبَتْ منهُ كَتَبَ اللهُ لهُ عَدَدَ ما شَرِبَتْ حَسَناتٍ. ومَن ارْتَبَطَها فَخراً وعِزّاً على المُسْلِمينَ كانَتْ لهُ بُوراً[4] يومَ القيامةِ. ومَن ارْتَبَطها تَغَنِّياً وتَعَفُّفاً، ثم لم يَنْسَ حقَّ اللهِ في رِقابِها وظُهورِها كانتْ لهُ سِتْراً مِنَ النارِ يومَ القيامةِ» [الطحاوي في شرح معاني الآثار ٥٣٣٧].

فإنْ ثَبَتَ هذا الخَبَرُ عن رسولِ اللهِ ﷺ ففيهِ دلالةٌ وجوبِ الزكاةِ في الخيلِ، وهو حُجَّةٌ لأبي حنيفَةَ لأنهُ قالَ: «ثم لم يَنْسَ حقَّ اللهِ في رِقابِها وظُهورِها» والحقُّ الذي في رقابِها هو [الزكاةُ، والذي في ظُهورِها هو][5] الجهادُ عليها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ مِنَ الناسِ مَن يقولُ: إنَّ الشهورَ كانَتِ التَبَسَتْ عليهِمْ، واختَلَطَتْ لِكَثْرَةِ ما كانُوا يُؤخِّرُونَها، ويُقَدِّمونَها، حتى لو لم يكونُوا يَعرفونَ الشُّهُورَ بِعَينِها كلَّ شهرٍ على حِدَةٍ.

فَخَطَبَ رسولُ اللهِ ﷺ بمكةَ بالمَوْسِمِ، فقالَ: «ألا إنَّ الزمانَ قدِ اسْتدارَ كَهَيئَتِهِ يومَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ. السنةُ اثْنا عَشَرَ شهراً؛ منها أربعةٌ حُرُمٌ: ثلاثةٌ مُتوالِياتٌ: ذو القِعْدَةِ وذو الحِجّةِ والمُحَرَّمُ ورَجَبُ مُضَرَ الذي بَينَ جُمادى وشعبانَ ثم قالَ لهم: أيُّ بَلَدٍ هو؟ وأيُّ شَهرٍ هو؟ وأيُّ يومٍ هو؟ قالوا: بَلَدٌ حرامٌ وشهرٌ حرامٌ ويومٌ حرامٌ. ألا بَلَّغْتُ؟قالوا: بَلى، فقالَ: اللّهُمَّ اشْهَدْ» [البخاري ٤٦٦٢] وفي بعضِ الأخبارِ زيادةٌ؛ فقالَ: ألا و﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [التوبة: ٣٧].

وقالُوا: وذلكَ أنهُمْ كانُوا يجعلونَ صَفَرَ عاماً حَراماً وعاماً حَلالاً، فكانَ النَّسِيءُ مِنَ الشيطانِ. وصَفَ رسولُ اللهِ ﷺ في هذهِ الأحاديثِ الأشهُرَ، وبَيَّنَها، فَدَلَّ ذلكَ على أنَّ النَّبِيَّ كانَ يُحَرِّمُ القتالَ فيها على ماكانَ أهلُ الجاهليةِ يُحَرِّمونَهُ.

وزادَ ذلكَ بَياناً يَعيبُ أصحابَ النَّسيءِ إذْ[6] كانوا يَسْتَحِلُّونَ القِتالَ في المُحَرَّمِ ويُؤخِّرُنَهُ إلى صَفَرَ، فَيُحَرِّمونَ صَفَرَ مكانَ المُحَرَّمِ، فَعابَ اللهُ عليهِمْ تحليلَ ما حَرَّمَ مِنَ الشَّهرِ، وجَعَلَهُ زيادةً في الكُفْرِ وقالَ: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧]أي عدةَ الأشهُرِ الأربعةِ التي حَرَّمَها اللهُ. وقالَ: ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٧].

ومنهُمْ مَنْ قالَ: إنَّ اللهَ جَعَلَ عِدَّةَ الشهورِ اثْنَي عَشَرَ [شهراً][7] بالأهِلَّةِ على ما عَرَفَتْهُ العَرَبُ على ما وَقَفُوا على معرفةِ ذلكَ، ولم يُوقَفْ غيرُهُمْ، وإنما يَعُدّونَ السنةَ بالأيامِ، والعربُ تَعرِفُها بالأهِلَّةِ [على][8] ما خَلَقَها اللهُ ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾.

قالَ بَعْضُهُمْ: في الأشهرِ كُلِّها لِما جَعَلَ هذهِ الأشهرَ شُهوداً عليهِمْ يَشْهَدونَ بما يَعْمَلُونَ فيها مِنَ المَعاصِي والخَيراتِ، وبها تَنْقَضي آجالُهُمْ؛ يُخْبِرُ ألّا تَظْلِموا في هذهِ الأشهرِ التي تأتي بكُمْ بكُلِّ خيرٍ وبكُلِّ نِعْمَةٍ، فإنها تَنْصَرِفُ بما يَعْمَلونَ فيها مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: قالوا. (٣) في الأصل وم: عجاج لا. (٤) في الأصل وم: وزر. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في م: إذا. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وقال بَعْضُهُمْ: قولُهُ ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي في الأربعةِ الحُرُمِ. خصَّ الأربعةَ، وإنْ كانَ الظُّلْمُ في الأشهرِ [كُلِّها لا يُحْمَدُ على ما][1] خصَّ مكةَ بِتَرْكِ الظُّلْمِ حراماً في الأماكنِ كلِّها كقولِهِ: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۭ بِظُلْمٍ﴾ الآية [الحج: ٢٥] أي لا تُقاتِلوا فيها؛ إذْ كُلُّ ظُلْمٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ قيلَ: ذلكَ الحسابُ حِسابُ الأشهرِ قَيِّمٌ أي صحيحٌ مستقيمٌ على ما خَلَقَهُ اللهُ. وقيلَ: الحسابُ، هو القَضاءُ العَدْلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ كتابَ اللهِ اللوحَ المحفوظَ على ما قِيلَ: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي في حُكْمِ اللهِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنَ اللوحِ المحفوظِ: أنَّ ذلكَ عندَ اللهِ لم يُطْلِعْ عليهِ غَيْرَهُ. ويَحْتَمِلُ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في علمِهِ على ما عَرَفَتْهُ العَرَبُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿كَآفَّةًۚ﴾ أي مجتمعينَ[2] أي قاتِلوهُمْ مُجْتَمِعينَ على ما يُقاتِلونَكُمْ هُمْ مُجْتَمِعينَ. ويَحْتَمِلُ ﴿كَآفَّةًۚ﴾ أي جَماعةً. ويَحْتَمِلُ ﴿كَآفَّةًۚ﴾ إلى الأبدِ إلى يومِ القيامةِ؛ أي قاتِلوهُمْ إلى الوقتِ الذي يُقاتِلونَكُمْ ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ في النَّصْرِ والمَعونَةِ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية كانَّ هذهِ الآيةَ والتي[3] قبلَها: [وهي][4] قولُهُ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ في مُشْرِكي العَرَبِ، وسائرَ الآياتِ التي قبلَها، وهي[5] قولُهُ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وقولُهُ: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [التوبة: ٣٤] في أهلِ الكتابِ.

يُخْبِرُ أنَّ ملوكَ العربِ اتَّخذوا أنْفُسَهُمْ أرباباً والأتباعَ عَبيداً مِنْ دونِ اللهِ حتى يَتْبَعوهُمْ[6] في جميعِ ما يُحِلُّونَهُ، ويُحَرِّمونَهُ كما أنَّ اليهودَ والنَّصارى اتَّخذوا أنْفُسَ أولئكَ عبيداً. فكأنَهُ قالَ للمؤمنينَ: إنَّ ملوكَ العربِ وأحبارَ اليهودِ ورهبانَ النَّصارى اتَّخذوا أنْفُسَهُمْ أرباباً والأتباعَ عبيداً، فأنتم يا مَعْشَرَ المؤمنينَ لا تَتَّخِذُوا أنْفُسَكُمْ أرباباً والأتباعَ عَبيداً.

الآية ٣٨ ألا تَرى أنهُ قالَ في الآيةِ التي تلي[7] هذهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم﴾؟ قالَ بَعْضُهُمْ: الآيةُ في المُنافقينَ الذينَ تَخَلَّفوا عنْ رسولِ اللهِ في غَزْوَةِ تَبوكَ كقولِهِ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ الآية[التوبة: ١٠١] فَيُفْهَمُ [منْ][8] ذكرِ ذلكَ الوعيدِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: الآيةُ في المؤمنينَ أُمِروا أنْ يَنْفِروا ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ﴾ قِيلَ: استَثْقَلْتُمُ النَّفْرَ في سَبيلِ [اللهِ][9] وأقَمْتُمْ. ويَحْتَمِلُ التَّثاقُلَ، وهو[10] أنْ يَرَوا مِنْ أنْفُسِهِمُ الثِّقَلَ مِنْ غيرِ أنْ قاموا كما يُقالُ: يَتَصامَمُ، ويَتَعامَى مِنْ غيرِ أنْ كانَ بهِ الصَّمَمُ أوِ العَمَى، ولكنْ لِما يَرَى مِنْ نَفْسِهِ ذلكَ.

وقالَ بعضُ أهلِ الأدبِ: قولُهُ: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ [أي تثاقلتم][11] ورَكَنْتُمْ إلى المُقامِ، وذلكَ في القرآنِ كثيرٌ كقولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ٣٨] أي تَدارَكُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي ما مَتَّعَكُمْ في الدنيا قليلٌ بِما وَعَدَ أنْ يُمَتِّعَكُمْ في الآخرةِ.

---

(١) في الأصل: كله لا يحمد عاما، في م: كله لا يحمد على ما. (٢) في الأصل وم: مجتمعون. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: يتبعونهم. (٧) في الأصل وم: تتلو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

أو أنْ يُقالُ: مَتاعُ الحياةِ الدنيا مِنْ أوّلِها إلى آخِرِ ما تنتهي أقلُّ[1] مِنْ مَتاعِ الآخِرَةِ و كَراماتِها لأنَّ كَراماتِ الدنيا على شَرَفِ الزوالِ وكَراماتِ الآخِرَةِ على الدوامِ أبداً

أو أنْ يقولُ: متاعُ الحياةِ الدنيا أقلُّ[2] مِنْ مَتاعِ الآخِرَةِ لأنَّ مَتاعَ الدنيا ومَنافِعَها تَشوبُهُ الآفاتُ والمَضَرّاتُ، ومَتاعُ الآخِرَةِ لا تَشوبُهُ الآفاتُ والمَضَرّاتُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية عاتَبَ المؤمنين بالتَّثاقُلِ والإخلادِ[3] إلى الأرضِ ونَهاهُمْ عَنِ الرُّكونِ إلى الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي لَمّا أحْدَثَ أولئكَ الملوكُ مِنْ تَحْليلِ ما حَرَّمَ اللهُ و تَحْريمِ ماأحلَّ اللهُ زيادةً في كُفْرِ أولئكَ أحْدَثُوا مِنْ وقْتِ إحداثِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ: يَحْتَمِلُ ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي يُهْلِكُ بِهِ الذينَ كَفَرُوا أي الذينَ أحْدَثُوا. أو يَحْتَمِلُ ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ما أحْدَثَ أولئكَ الملوكُ إنما أحْدَثُوا لِيُضَلَّ بِهِ الأتباعُ، يُحِلّونَهُ.

فأمّا ما ذُكِرَ في القصةِ أنهمْ كانُوا يَسْتَحِلّونَ المُحَرَّمَ عاماً، فَيُصيبونَ فيهِ الدماءَ والأموالَ، ويُحَرِّمونَهُ عاماً فلا يَسْتَحِلّونَ فيهِ الدماءَ والأموالَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ/ ٢١٣ - ب/ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قيلَ: لِيُوافِقُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ: كانَ عندَهُمْ أنَّ التحريمَ إنما كانَ بِعَدَدِ الأشهرِ لِلأشهرِ، فَحَفِظُوا عددَ الأشهرِ، ولم يَحْفَظُوا الوقتَ. وذلكَ تأويلُ قولِهِ: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾ أي زُيِّنَ تأخيرُ المُحَلَّلِ وتقديمُ المُحَرَّمِ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قيلَ: لا يَهديهِمْ وقتَ اختيارِهِمُ الكُفْرَ، أو لا يَهديهِمْ في الآخِرَةِ طريقَ الجنةِ لِكُفْرِهِمْ في الدنيا. وقد ذَكَرْنا تأويلَهُ في غيرِ مَوْضِعٍ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: النَّسِيءُ التأخيرُ؛ يُقالُ: نَسَأْتُ الشهرَ أي أخَّرْتُهُ، ويُقالُ: أنسأَ اللهُ في أجَلِكَ أي أخَّرَ اللهُ، وقولُهُ: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ والمواطأةُ: أنْ يُدْخِلُوا شهراً مكانَ شهرٍ، وهو التَّتابُعُ؛ يُقالُ: تواطأَ القومُ على حديثِ كذا وكذا أي تتابَعوا، وواطأْتُ فلاناً أي تابَعْتُهُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: النَّسِيءُ التأخيرُ، وكانوا يُؤَخِّرونَ تحريمَ المُحَرَّمِ منها سَنَةً، ويُحَرِّمونَ غيرَهُ مكانَهُ لحاجَتِهِمْ إلى القتالِ فيهِ، ثم يَرُدُّونَهُ إلى التحريمِ في سَنَةٍ[4] أخرَى؛ كأنهمْ يَسْتَنُّونَ ذلكَ لِيُواطِئوا أي لِيُوافِقُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ بِقَولٍ: إذا حَرَّمُوا مِنَ الشهورِ عَدَدَ الشهورِ المُحَرَّمَةِ لم يَنالُوا أنْ يُحِلُّوا الحرامَ، ويُحَرِّمُوا الحلالَ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾فإنْ كانتِ الآيةُ في المُنافقينَ فهو ظاهرٌ، وإنْ كانَتْ في المؤمنينَ فَيَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ يَحِلُّ بهِمْ. ولم يُبَيِّنْ ماذلكَ العذابُ؟

وقالَ بعضُهُمْ: شَدَّدَ اللهُ الوعيدَ في تركِهِمُ النَّفْرَ والخُروجَ في سَبيلِ اللهِ على ما شَدَّدَ بِبَدْرٍ في التَّوليَةِ الدُّبُرَ بقولِهِ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾ الآية [الأنفال: ١٦] غيرَ أنهُ شَدَّدَ يومَ [بَدْرٍ][5] لَمّا لم يكنْ ملجأً، وكان نِفارُهُمْ نِفارَ نِفاقٍ.وههنا شَدَّدَ لِغَيرِ ذلكَ لوجوهٍ:

أحَدُها: لِما في تَخَلُّفِ المؤمنينَ عنهُ مَوضِعُ العُذْرِ لِلْمُنافِقينَ بالتَّخَلُّفِ عنهُ أنهم [تخلّفوا][6] للعذرِ، فَنَحْنُ نَتَخَلَّفُ أيضاً لِلْعُذْرِ، ولنا في ذلكَ عذرٌ.

والثاني: يكونُ للكفارِ مَوضِعُ الاحتِجاجِ عليهِمْ؛ يقولونَ: إنهمْ يُرَغِّبونَنا في الآخرةِ، ويَحُثّونَنا في ذلكَ، ثم إنهمْ يَنْفِرونَ عنْ ذلكَ، ويَرغَبونَ عنهُ.

(١) في الأصل وم: قليل. (٢) في الأصل وم: قليل. (٣) في الأصل وم: بالخروج. (٤) في الأصل و م: صفة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

والثالثُ: يكونُ في تَخلُّفِهِمُ الشوكةُ على المسلِمِينَ؛ إذْ يَقِلُّونَ[1] إذا تخلَّفُوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [على ما اسْتَبْدَلَكُمْ يا أهلَ مكةَ، فَيَنصُرُوهُ[2] وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾][3] أي يُنشِئ قوماً غيرَكُم. لكنّ تأويلَ الأوّلِ أشبهُ. ألا ترى أنهُ قالَ في آخِرِه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾؟ التوبة: ٤٠]

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ هو ما ذَكَرْنا أي لا تَضُرُّوا رسولَ اللهِ بالتَّخلُّفِ عنهُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: لا تَضُرُّوا اللهَ شيئاً. والأوّلُ أشبَهُ لِما ذَكَرْنا.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ يقولُ: إنْ لم تَنصُروا رسولَ اللهِ، فاللهُ يَنصُرُهُ على [ما][4] نَصَرَهُ في الوقتِ الذي كانَ في الغارِ لم يكنْ معهُ أحدٌ منَ البَشَرِ إلّا واحدٌ، فإنْ لم تَنصُروهُ فاللهُ كافيهِ في النَّصْرِ [على ما كفاهُ، ونَصَرَهُ][5] في الحالِ التي لم يكنْ معهُ بَشَرٌ إلّا واحدٌ. فاليومَ، ألا يَنصُرُهُ ومعهُ مِنَ الأنصارِ والأعوانِ مالا يُحصَى؟ وكانَ ما اسْتَنفَرَهُمْ رسولُ اللهِ، وأمَرَهُمْ بالخروجِ إلى العَدُوِّ، ولم يَكُنْ يَسْتَنفِرُهُمْ لِمكانِ نَفْسِهِ؛ إذْ يَعْلَمُ أنَّ اللهَ كافيهِ في نَصْرِهِ، ولكنْ إنما يَسْتَنفِرُهُمْ[6]، ويأمُرُهُمْ لِمكانِ أنفُسِهِمْ لِيَكْتَسِبُوا قُرَباً وثَواباً عندَ اللهِ وزُلْفَى.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وقالَ: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾؟ [التوبة: ٣٩]أي إنْ لم تَنفِروا، ولم تَنصُروا رسولَ اللهِ، فلا تَضُرُّوه شيئاً، إذِ اللهُ كافيهِ في نَصْرِهِ. وإنما غايَتُهُمْ بِتَرْكِ النَّفْرِ والخروجِ لِيَرْكَنوا إلى الدنيا، وحُبُّهُمْ إياها هو الذي مَنَعَهُمْ عنِ اتِّباعِ محمدٍ، وهو الذي حَمَلَهُمْ على الكُفْرِ باللهِ والتَّكذيبِ لرسولِهِ وتَرْكِ الإجابةِ لهُ في ما يَدْعُوهُمْ إليهِ.

فيقولُ، واللهُ أعلمُ، للمؤمنينَ: لا تَرْكَنُوا إلى الدنيا، ولا ترضَوا بها عنِ الآخرةِ لِيَمْنَعَكُمْ ذلكَ عنِ النَّفْرِ والخروجِ إلى ما يأمُرُكُمْ رسولُ اللهِ ﷺ على ما مَنَعَ أولئكَ الكَفَرَةَ على ما ذَكَرْنا.

وأصْلُهُ: أنهُ إنما اسْتَنصَرَهُمْ لا لِحاجةٍ لهُ إلى نَصْرِهِمْ؛ إذْ هو قادرٌ أنْ يَنصُرَ رسولَهُ بما شاءَ، لكنْ طَلَبَ منهُمُ النَّصْرَ لهُ لِيَكْتَسِبُوا بذلكَ ثواباً لأنفُسِهِمْ وما ذَكَرَ في الأجَلِ. وكذلكَ ما طَلَبَ منهُمُ الشكرَ لهُ على نِعَمِهِ لِحاجةٍ لهُ في ذلكَ، ولكنْ لِيَسْتَديموا النعمةَ، ويَصِلُوا إلى الباقيةِ الدائمةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ واضطَرُّوهُ إلى الخُروجِ حينَ هَمُّوا بِقَتْلِهِ حتى خَرَجَ مِنْ بَينِ أظهُرِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أي لم يكُنْ معهُ مِنَ البَشَرِ إلّا واحدٌ لِيَعْلَموا أنَّ النَّصْرَ لم يكنْ بأحدٍ مِنَ البَشَرِ، إنما كانَ باللهِ تعالى؛ إذْ بالواحدِ لا تكونُ النُّصْرَةُ والحِفْظُ مِنَ الوفِ أو بِذِكْرِ فَضْلِ أبي بَكْرٍ، وكانَ هو ثانِيَهُ في كلِّ أمْرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ﴾ لم يكنْ حُزْنُ أبي بَكْرٍ على نَفْسِهِ، ولكنْ إشفاقاً على رسولِ اللهِ ﷺ أنْ يُصابَ. وكذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ أنهُ قالَ لرسولِ اللهِ: يا رسولَ اللهِ إنكَ إنْ تُصَبْ يَذْهَبْ دينُ اللهِ، ولنْ يُعْبَدَ اللهُ على وجهِ الأرضِ.

وفي بَعْضِ الأخبارِ أنَّ أبا بَكْرٍ كانَ يَبْكي إشفاقاً على رسولِ اللهِ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ: ما يُبْكيكَ؟ فقالَ ما ذَكَرْنا، فقالَ لهُ: يا أبا بكرٍ: «ما ظَنُّكَ باثنَينِ، ثالثُهُما اللهُ؟» [البخاري٤٦٦٣].

وقيلَ: إنهما [لمّا][7] أتَيا بابَ الغارِ، سَبَقَ أبو بكرٍ، فدخَلَ الغارَ، وكانَ الغارُ مَعروفاً بالهَوامِّ، فألقَمَها أبو بكرٍ قَدَمَيهِ، فأطالَ ذلكَ، فقالَ: إنْ كانَ فيهِ شيءٌ بَدا [نادِني، أو كلاماً][8] نحوَ هذا، واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ][9] تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ لَيسَ بِنَهْيٍ عنِ الحُزْنِ، ولكنْ على تَخفيفِ الأمرِ عليهِ، وتَيْسيرِ الحالِ التي هو عليها.

---

(١) من م، في الأصل: يلقون. (٢) في الأصل: فينصرونه. (٣) ساقطة من م. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: يستنفر. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لي أو كلام. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ قيلَ: أنزلَ سَكينتَهُ على أبي بكرٍ حينَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «ما ظنُّكَ باثْنَينِ ثالثُهُما اللهُ؟» حتى سَكَنَ قلبُ أبي بكرٍ مِنَ الحُزْنِ والخَوفِ على رسولِ اللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أنزلَ السكينةَ[على رسولِ اللهِ؛ فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنهُ أنزلَ السكينةَ عليهِ][1] حتى رأى هو جنوداً لم يَرَوها هُمْ حينَ[2] قالَ: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾.

والثاني: [أنهُ][3] أنزلَ سَكينتَهُ بالحُجَجِ والبراهينِ.

لكنهُ إنْ كانَ ما ذُكِرَ فهو قد أنزلَ السكينةَ عليهِ في البَدْءِ، ولأنهُ كانَ رسولَ اللهِ، لا يَخافُ سِوى اللهِ، ويَعْلَمُ أنهُ يَنْصُرُهُ.

وكذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ [أنهُ][4] قالَ: فأنزَلَ سَكينتَهُ على أبي بكرٍ لأنَّ النَّبِيَّ لم تَزَلِ السَّكينةُ معَهُ، وهو أشْبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ يَحْتَمِلُ في ذلكَ الوقتِ، ويَحْتَمِلُ في الغَزَواتِ التي نَصَرَهُ بالملائكةِ يومَ بَدْرٍ وغيرِهِ؛ يُخبِرُ أنهُ قادرٌ أنْ يَنْصُرَهُ لا بالبَشَرِ لِيَعْلَموا أنهُ إنما يأمُرُهُمْ بالنَّفْرِ لا لِنَصْرِ رسولِ اللهِ، ولكنْ لِيَكْتَسِبوا بذلكَ ما ذَكَرْنا مِنَ الثوابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ أي مَكْرُ اللهِ بهِمْ[5] ونُصْرةُ رسولِهِ هي العُلْيا كقولِهِ: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دينَهُمُ الذي يَدينونَ به ومذهَبَهُمُ الذي يَنْتَحِلونَهُ ﴿ٱلسُّفۡلَىٰ﴾ أي جَعَلَ تلكَ السُّفْلى بالحُجَجِ، وجَعَلَ دينَ محمدٍ ﴿هِيَ ٱلۡعُلۡيَا﴾ بالحُجَجِ والبراهينِ على ذلكَ على ما كانَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰ﴾ أي جَعَلَ أهلَ كلمةِ[6] ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هُمُ السَّفَلَةُ[7] وأهلَ دينِ اللهِ هُمُ الأعلَونَ كقولِهِ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ اخْتُلِفَ فيهِ/ ٢١٤ ـ أ/ قيلَ: شَباباً وشيوخاً، وقيلَ: مَرْضى وأصِحّاء، وقيلَ: مَشاغيلَ وغَيرَ مَشاغيلَ، وقيلَ فُقراء وأغنياء، وقيلَ: نُشاطاً وغيرَ نُشاطٍ.

وأصْلُهُ: ﴿ٱنفِرُواْ﴾ مستخِفّينَ ومُستثقِلينَ؛ أي انفِروا خَفَّ عليكُمُ الخروجُ أو ثَقُلَ، وما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ مِنَ الشَّيخوخةِ والتَّسَفُّلِ والفقرِ والمَرَضِ لأنَّ ذلكَ بالذي يُثْقِلُ الخُروجَ والنَّصْرَ، وأصلُهُ ما ذَكَرْنا ﴿ٱنفِرُواْ﴾ خَفَّ عليكُمْ ذلكَ أو ثَقُلَ.

وقولُهُ تعالى ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ انفِروا خَفَّ على النَّفْسِ أو ثَقُلَ، أو خَفَّ على الطبعِ، أو ثَقُلَ، أو خَفَّ على العقلِ أو ثَقُلَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ في الدنيا والآخرة. أيِ اعلَموا أنَّ ذلكَ خيرٌ لكُمْ مِنَ المُقامِ وتَرْكِ النفرِ ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا﴾ أي غَنيمةً قريبةً ﴿وَسَفَرٗا قَاصِدٗا﴾ أي هَيِّناً ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ في غزاوتِكَ[8] ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ يعني المَسيرَ، وقيلَ: العَرَضُ: الدنيا ﴿وَسَفَرٗا قَاصِدٗا﴾ ليسَ فيه مَشَقَّةٌ.

وأصلُ قولِهِ: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا﴾ أي مَنافِعَ حاضِرَةً ﴿وَسَفَرٗا قَاصِدٗا﴾ أي مَنافعَ غائبةً، والعَرَضُ المنافعُ. يقولُ: لو كانَتْ لهمْ مَنافعُ حاضِرَةٌ أو مَنافعُ غيرُ حاضِرةٍ ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ في ما اسْتَتْبَعْتَهُمْ لأنَّ عادتَهُمُ اتِّباعُ المَنافِعِ؛ يعني المنافِقينَ كقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ [الحج: ١١] أخبَرَ أنهم يعبُدونَ اللهَ على حَرْفٍ؛ وهو ما ذَكَرَ ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ﴾ فمِنْ عادتِهِمْ أنهم إنما يَتَّبِعونَ المَنافِعَ، وإليها يَميلونَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) و(٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: الكلمة.
(٧) في الأصل وم: السفلى. (٨) في الأصل وم: غزاتك.

جنة السنة

وأمّا المؤمنونَ فإنهم يَعبُدونَ اللهَ في كلِّ حالٍ: في حالِ السَّعَةِ وفي حالِ الضِّيقِ، ويَتَّبِعونَ رسولَ اللهِ، ولا يُفارقونَهُ، كانَتْ لهمْ مَنافِعُ، أو لم تكُنْ، أصابَتْهُمْ مَشقّةٌ، أو لا؛ هُمْ لا يُفارقونَ رسولَ اللهِ على كلِّ حالٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي لو كانَ لنا ظَهْرٌ وسِلاحٌ ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ولو كانَ [مَعَنا][1] زادٌ وما نَشْتَري ما نحارِبُ بهِ ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

ثم أخبَرَ أنّ لهمُ استِطاعةً على ذلكَ، وأنهُمْ كاذبونَ أنهُ لا استِطاعةَ لهمْ حينَ[2] قالَ: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦].

وقالتِ المعتزلةُ: دَلَّ قولُهُ: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أنّ الاِستِطاعةَ تَتَقَدَّمُ الفِعْلَ لأنهُ أخبَرَ أنهمْ كاذبونَ في ما يقولونَ: إنهُ ليسَ مَعَنا ما نُنْفِقُ، وما نَشْتَري بهِ السلاحَ. لكنّا نقولُ: إنّ الاستطاعة على وجهَينِ: اسْتِطاعةُ الأسبابِ والأحوالِ واستِطاعةُ الأفعالِ.

واستِطاعةُ الأسبابِ والأحوالِ يجوزُ أنْ تَتَقدَّمَ، وهذهِ الاِستِطاعةُ هي اسْتِطاعةُ الأسبابِ والأحوالِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾؟ [التوبة: ٤٦].

ومِنْ قولِهِمْ أيضاً: أنّ اسْتِطاعةَ الأفعالِ لا تَبْقَى أوقاتاً. ثم إنّ هذهِ أخبَرَ أنها كانَتْ باقيةً أوقاتاً. دلَّ أنها اسْتِطاعةُ الأسبابِ والأحوالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ قيلَ ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بأيمانِهِمُ الكاذبةِ أنهمْ لا يَسْتَطيعونَ. وقيلَ: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بتَرْكِهِمُ الخُروجَ لأنهمْ يُقتَلونَ إذا تَركُوا الخُروجَ كقولِهِ ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ الآية [الأحزاب: ٦١]. ويَحتَمِلُ ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ في الآخرةِ بِنفاقِهِمْ في الدنيا.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ بالتَّخلُّفِ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي يُطْلِعُكَ اللهُ على نِفاقِهِمْ، فيكونُ ذلكَ آيةً من آياتِ النُّبُوّةِ[3]: إنْ لم تأذَنْ لهمْ بالتَّخلُّفِ، أو إنْ تأذَنْ[4] لهمْ يَتَبَيَّنْ لكَ نِفاقُهُمْ؛ لأنهمْ يَتخلّفونَ، ويُفارِقونَكَ، وإنْ لم تأذَنْ لهمْ، والذينَ صَدَقُوا لا يُفارِقونَكَ؛ فيَتَبيَّنُ هؤلاءِ من هؤلاءِ، ويَظْهَرُ كَذِبُ هؤلاءِ مِنْ صِدْقِ هؤلاءِ المؤمنينَ.

وفي قولِهِ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ﴾ دلالةٌ أنّ النَّبيَّ إنما أذِنَ لهمْ بالتَّخلُّفِ بلا أمْرٍ. وفيهِ دلالةُ العَمَلِ بالاِجْتِهادِ لأنهُ لو كانَ أذِنَ لهمْ بالتَّخلُّفِ بالأمْرِ لم تكنْ إجابَتُهُ على الإذنِ. دَلَّ أنهُ إنما أذِنَ لهمْ بالتَّخلُّفِ بالاِجْتِهادِ لِما ظَنَّ أنهمْ إنما يَسْتأذِنونَهُ بالقُعودِ لِلعُذْرِ.

فإنْ قِيلَ: كيفَ عاتَبَ رسولَهُ بِما أذِنَ لهمْ بالقُعودِ، وقد أخبرَ أنهُ إنما كانَ يَحكُمُ بما أراهُ اللهُ بقولِهِ: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] قيلَ: يَحتَمِلُ أنهُ إنما عاتَبَهُ على تَرْكِ [الأفضلِ لأنّ تَرْكَ][5] الإذنِ لهمْ بالقعودِ أفضلُ مِنَ الإذنِ؛ إذْ بهِ يَتَبيَّنُ لهُ الصادقُ مِنَ الكاذبِ، ويكونُ فيهِ آيةٌ مِنْ آياتِ الرسالةِ. ويجوزُ أنْ يعاتَبَ على تركِ الأفضلِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ تعليماً مِنَ اللهِ أنْ كيفَ يُعامِلُ الناسُ بعضُهُمْ بَعْضاً؟ ليسَ على العِتابِ.

ومِنَ الناسِ مَنِ اسْتَدَلَّ على تَفْضيلِ رسولِ اللهِ على غيرِهِ مِنَ الأنبياءِ، صَلَواتُ اللهِ عليهِمْ، بهذهِ الآيةِ لأنهُ يَذْكُرُ العَفْوَ، وكذلكَ في جميعِ ما ذَكَرَ مِنَ العِتابِ لم يَذْكُرْ زلَّتَهُ، وذَكَرَ في سائرِ الأنبياءِ الزّلاتِ.

الآيتان ٤٤ و٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ بالتَّخلُّفِ لِغيرِ عُذْرٍ ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بالقعودِ لِغيرِ عُذْرٍ ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: الله. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: لم. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وعنِ الحسنِ [أنهُ][1] قالَ: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ نَسَخَتْها الآيةُ التي في سورةِ النورِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الآية ٦٢] لكنَّ هذا لا يُحتَمَلُ لأنهُ ذَكَرَ أنَّ سورةَ التوبةِ مِنْ آخِرِ ما نَزَلَتْ، أو أنهمْ إذا كانوا في أمرٍ جامعٍ لم يذهَبُوا إلّا بعدَ الاستئذانِ لأنهمْ كانوا يُظْهِرونَ المُوافَقَةَ لِلْمُؤمنينَ في الأمورِ الجامعةِ، وأمّا في الخَلَواتِ فَلا.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا في غزوةِ تبوكَ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: أُمِرُوا بالخروجِ والتأهُّبِ لِلغَزْوِ؛ فَعَزَمُوا ألّا يَخْرُجوا، فَعُوتِبُوا على ذلكَ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ في جميعِ الغَزَواتِ؛ عَزَمُوا، واعتَقَدوا ألّا يَخْرُجُوا، ولا يَتأهَّبُوا لهُ قطُّ، فقالُوا: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٢] فَأَكْذَبَهُمُ اللهُ تعالى[بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢]][2] وأنهمْ أغنياءُ، لكنَّهُمْ عَزَمُوا ألّا يَخْرُجُوا، ولا يُعِدُّوا لهُ عُدَّةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي لم يَرْضَ اللهُ بخروجِهِمْ وانبعاثِهِمْ. ثم بَيَّنَ الوجهَ الذي لم يرضَ ما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] أي فساداً. لم يُرِدِ اللهُ خُروجَهُمْ لِما عَلِمَ منهمْ أنهُ لا يزيدُ خُروجُهُمْ في الجهادِ إلّا ما ذُكِرَ مِنَ الخَبالِ والفَسادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ قيلَ: حَبَسَهُمْ؛ أي إذْ[3] عَلِمَ منهُمْ أنَّ خُروجَهُمْ وانبعاثَهُمْ [لا يَزيدُهُمْ][4] إلّا فساداً حَبَسَهُمْ. ويَحتمِلُ: أنْ خَلَقَ منهُمُ الفِعْلَ الذي كانَ مِنَ الكَسَلِ والتَّثاقُلِ.

وفيهِ دلالةُ خَلْقِ اللهِ فِعْلَ الشَّرِّ. ويكونُ في ذلكَ خيرٌ[5] لِغَيرِهِ، وإنْ كانَ شَرّاً لهمْ. فَعَلَى ذلكَ خَلْقُ فِعْلِ المَعْصِيَةِ مِنَ العاصي[6]، وهو شَرٌّ لهُ، ويكونُ ذلكَ خيراً لِغَيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟﴾ لَمّا استأذَنُوا رسولَ اللهِ بالقعودِ أذِنَ لهمْ في ذلكَ على ما وَقَعَ عندَهُ أنَّ لهمْ عُذراً في ذلكَ. وإنْ كانَ مِنَ اللهِ ﷻ فهو على التَّهَدُّدِ والتَّوَعُّدِ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ مِنَ الشيطانِ؛ وَسْوَسَ إليهِمْ أنِ اقْعُدُوا ترغيباً منهُ إيّاهمْ بالقعودِ والتَّخَلُّفِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي لو كانُوا خَرَجُوا فيكُمْ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾؟ [التوبة: ٤٦] دلَّ هذا أنهُمْ لم يَكونُوا خرجُوا. ولو كانُوا خَرَجُوا لم يكُنْ ثَبَّطَهُمْ. دلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا والانبعاثُ هو الخروجُ، وكذلكَ في حرفِ ابنِ مسعودٍ: ولكنْ كَرِهَ اللهُ خروجَهُمْ، والتثبيطُ الحبسُ. وأصلُ التَّثبيطِ التَّثقيلُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: الانبعاثُ هو القيامُ، والخَبالُ: قيلَ: الفسادُ والشَّرُّ، وقيلَ: الغَيُّ، وهو واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا﴾ كذا. تَحتَمِلُ/ ٢١٤ ـ ب/ زيادةُ الخَبالِ وجوهاً: تَحتَمِلُ أنْ يكونوا عُيوناً لِلعَدُوِّ، ويُخبِروهُمْ عنْ عَوراتِ المسلمينَ؛ أو كانُوا يَجبُنونَ أهلَ الإسلامِ بقولِهِمْ[7]: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] [ونحوَ ذلكَ][8].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ﴾ قيلَ: هو مِنْ إيضاعِ الإبلِ خِلالَكُمْ، يَتَخَلَّلُ في ما بَينَكُمْ. وقيلَ: ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ﴾ أي رَواحِلَهُمْ حتى يَدخلوا بَينَكُمْ حتى لا يُصيبَهُمْ[9] الأذى؛ وكانُوا[10] يَتَستَّرونَ بالمسلمينَ لئلا يُصيبَهُمْ شيءٌ مِنَ البلاءِ والشدةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: انهم كذبة. (٣) في م: إذا، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: لم يزدهم. (٥) في الأصل وم: خيراً. (٦) في الأصل وم: المعاصي. (٧) في الأصل وم: كقولهم. (٨) في الأصل: ونحو، في م: ونحوه. (٩) في الأصل وم: يصيبكم. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: لا.

جنة السنة

وقالَ القُتَبيُّ: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَٰلَكُمْ﴾ مِنَ المَوضِعِ، وهو سُرعةُ السَّيرِ. وقالَ أبو عوسَجَة: هو مِنَ الإيضاعِ يكونُ على الإبلِ. وهو عندي: مِنْ عَدْوِ الإبلِ؛ يُقالُ: أوضَعْتُ البعيرَ، وركَّضتُ الفرَسَ، وأجرَيتُ الحمارَ، ﴿خِلَٰلَكُمْ﴾ بينَكُم. وقيلَ: الخِلالُ: القِتالُ، وهو ما ذَكَرْنا أنهمْ يُدخِلُونَ فيهمُ النقصانَ والقِتالَ والفَشَلَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ قيلَ يَبْغونَ منكمُ الفِتنَةَ، وهو الشركُ الذي كانوا هم عليهِ. ويَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنَ القتْلِ وإدخالِ الفَشَلِ والجُبْنِ فيهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ هذا يَحتَمِلُ أنَّ هؤلاءِ المُنافِقينَ يكونونَ سُمّاعاً وخُبُراً وعُيوناً؛ يُخبِرونَهُمْ عن عَوراتِ المسلمينَ وضَعْفِهِمْ، ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَفِيكُمْ﴾ مِنَ المؤمنينَ ﴿سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ الآيةَ: قيلَ: إنهُ كانَ في أصحابِ النَّبيِّ أهلُ مَحَبَّةٍ لهمْ وطاعةٍ لِشَرَفِهِمْ فيهِمْ.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][1] قالَ: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ كانَ الرجلُ يَرى الجماعةَ مِنَ المسلمينَ، فَيَضرِبُ دابتَهُ حتى يدخُلَ بينَهُمْ، ثم يقولُ: أبَلَغَكُمْ ما بَلَغَني أنَّ العدوَّ أمامَكُمْ غَوَّرُوا المِياهَ، وفَعَلُوا كذا، وهَيَّئوا؟

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي فيكُمْ مِنَ المُنافِقينَ الذينَ قَعَدوا، ولم يَخرُجُوا، يَسمَعُونَ للمؤمنينَ الذينَ لم يَخرُجُوا أيضاً ما يَكرَهونَ؛ يقولونَ: الدَّبْرَةُ على المؤمنينَ، ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الهزيمةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا عن جَهْلٍ أمْهَلَهُمْ على ما هم عليهِ، ولكنْ أخَّرَهُمْ ليوم كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾ الآيةَ [إبراهيم: ٤٢].

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ تَحتَمِلُ الفِتنَةُ الوجهَينِ اللَّذَينِ ذكرْتُهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أي تَكلَّفُوا، واجتَهَدوا لِيُطفِئوا هذا النورَ ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: دينُ اللهِ الإسلامُ. ويَحتَمِلُ حُجَجَ اللهِ وأدلَّتَهُ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢].

ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ ظَهْراً لِبَطْنٍ لِيَمْكُروا برسولِ اللهِ، ويقتلُوهُ، كقولِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ الآيةَ [الأنفال: ٣٠].

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ ما ذَكَرْنا مِنْ دينِ اللهِ وحججِهِ ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ لِذلكَ كقولِهِ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] فَظَهَرَ دينُ الإسلامِ ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ لهُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ فيه دلالةٌ أنهُ لا كلُّ المنافقينَ قالوا إنما قالَ ذلكَ بعضُهُمْ، قالَ غيرَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ [قيلَ فيهِ بوجهَينِ:

أحدُهما:][3] قيلَ: ولا تُؤثِمْني، وقيلَ: ولا تُخرِجْني، وقيلَ: ولا تُكفِرْني، وهو واحدٌ. يقولُ: مَنْ قالَ: ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ أي لا تكنْ سببَ فِتنَتي و مَعْصيَتي، أي لا تأمُرْني بالخروجِ، ولكنِ ائذَنْ لي بالقعودِ لأنكَ إنْ أمَرْتَني بالخروجِ، ولم تأذَنْ بالقعودِ والتَّخلُّفِ، فَقَعَدْتُ، وتخلَّفْتُ، وكنتُ عاصياً تاركاً لأمرِكَ، فكنتَ أنتَ سببَ عِصْياني وفِتنَتي.

والثاني: قولُهُ: ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ أي لا تأمُرْني بالمَشقَّةِ والشِّدَّةِ ولكنِ بالدَّعَةِ [لأنهم كانوا عُبّادَ ذوي السعةِ][4] والرَّخاءِ، حيثُ كانوا مالُوا إليهِمْ كقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ الآيةِ [الحج: ١١] يقولُ: لا تكنْ سَبَبَ إثمي وانقِلابي.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: إنَّ رجلاً منهُمْ، يُقالُ له: الجَدُّ بنُ قيسٍ، قالَ[5]: إني إذا رأيتُ النساءَ لم أصْبِرْ حتى أفْتَتِنَ، ولكنْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: هم كانوا عباد السعة، ساقطة من م.
(٥) أدرجت في الأصل وم: قيل: يقال.

جنة السنة

أعِينُك بمالٍ. ففيهِ نَزَلَ قولُهُ: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٣] وهو قولُ ابْنِ عباسٍ؛ يقولُ: لا تأمُرْني بالخروجِ فإنّي مُولَعٌ بالنساءِ، لا أصْبِرُ إذا رأيتُهُنَّ. ولا نَدْري كيف كانتِ القصةُ؟ لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا آنفاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ أي ولا تَمْتَحِنّي بالمِحْنةِ التي فيها الهلاكُ والمَشَقَّةُ، فقالَ: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي ألا في المَشَقَّةِ والبلاءِ والهَلاكِ سَقَطُوا. هذا يدلُّ أنَّ أهلَ النِّفاقِ، هُمْ كَفَرَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي ألا في الشَّرِّ والإثْمِ سَقَطُوا على تأويلِ مَنْ تأوَّلَ قولَهُ: ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ لا تُؤثِمْني، ولا تُخرِجْني. و على تأويلِ مَنْ قالَ: ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ لا تَشُقَّ عليَّ، ولا تأمُرْني بالمَشَقَّةِ والشِّدَّةِ والضِّيقِ؛ يقولُ: ألا في الشِّدَّةِ والضِّيقِ يَسْقُطونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي تُحيطُ بهِمْ حتى لا يَجِدوا[1] مَنْفَذاً ولا مَخْلَصاً، أو تُحيطُ بهِمْ مِنْ تحتٍ ومِنْ فَوقٍ وأمامٍ وخَلْفٍ ويمينٍ وشمالٍ، تُحيطُ بهِمْ حتى تُصيبَ كلَّ جارحةٍ منهُمْ كقولِهِ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ﴾ الآيةَ [الزمر: ١٦] أخْبَرَ أنها تُحيطُ بهِمْ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ المنافقينَ هم كفارٌ لأنهُ ذَكَرَ في أوّلِ الآيةِ صفةَ المنافقينَ، ثم أخْبَرَ أنَّ ﴿جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ قيلَ: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ أي الغَنيمةُ والظَّفَرُ والنَّصْرُ على الأعداءِ يَسُؤْهُمْ ذلكَ ﴿وَإِن تُصِبْكَ﴾ مُصيبةُ النكبةِ والهزيمةِ يَفرحُوا بها، يقولُوا: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي أخَذْنا أمْرَنا بالوثيقةِ والاحتياطِ حينَ[2] لم نَخْرُجْ مَعَهُمْ حتى لا يُصيبَنا ما أصابَهُمْ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي قد أظْهَرْنا المُوافَقَةَ لِلْمُؤمنينَ في الظاهرِ، وكُنّا مَعَ الكافرينَ في السِّرِّ، وَوالَيْناهُمْ[3] في الحقيقةِ. وهو ما ذُكِرَ مِنِ انْتِظارِهِمْ أحَدَ أمْرَينِ في قولِهِ: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ الآيةَ [النساء: ١٤١].

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَيَتَوَلَّوا﴾ أولئكَ الكَفَرَةُ ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾.

وفي الآيةِ دلالةُ إثْباتِ رسالةِ محمدٍ ونُبُوَّتِهِ لأنهُ معلومٌ أنَّ ما يَسُوؤُهُمْ كانُوا يُضْمِرونَ، ويَسْتُرونَ عنهُمْ، ثم أخْبَرَ عمّا أسَرُّوا، وأضْمَروا. دلَّ أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ باللهِ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي قَضى اللهُ لنا؛ أي لن يُصيبَنا إلّا ما قَضى اللهُ لنا. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي ما جاءَ بهِ القرآنُ، وهو قولُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [التوبة: ١١١].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ مِنَ الكرامةِ والمَنْزِلةِ والنِّعَمِ الدائمةِ في الآخِرةِ؛ أي لن يُصيبَنا إلّا ذلكَ. وإنْ كُنْتُمْ أنتمْ تفرحونَ بذلكَ فذلكَ الذي ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي هو ربُّنا، ونحنُ عَبيدُهُ، يكتُبُ لنا ما يَشاءُ مِنَ الخيرِ والشَّرِّ؛ أي ما أكْرَمَنا اللهُ بهِ[5]، أي ما أحَلَّ لنا، وأباحَ.

وأمّا القضاءُ فإنهُ كُلُّ ما يُقالُ في ما يكونُ لهمْ، وإنما يُقالُ في ما قَضى عليهِمْ. وأمّا الكتابُ لهمْ فهو[6] في ما [يُحَرِّمُ عليهِمْ][7] ويُحِلُّ لهمْ، ويُبيحُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: يَحْتَمِلُ على الإخبارِ؛ أي على اللهِ يَتَوَكَّلُ المؤمنونَ، لا يَتوكَّلونَ على غَيرِهِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الأمْرِ؛ أي على اللهِ تَوَكَّلُوا أيُّها المؤمنونَ.

---

(١) في الأصل وم: يجدون. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لنا. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٥٢ وقولُه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ قال[1] ابنُ عباسٍ ﷺ: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ يعني الشهادةَ والحياةَ والرزقَ الدائمَ والكَرامةَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ الآية [آل عمران: ١٦٩].

ويَحتمِلُ ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ في الدنيا الغَنيمةَ والظَّفَرَ؛ يقولُ: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ إمّا الحياةَ الدائمةَ في الآخِرةِ والرزقَ الحَسَنَ والكرامَةَ، وإمّا الغَنيمةَ والنصرَ في الدنيا: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ العذابُ في الآخِرةِ أنْ قُتِلتُم[2]، أو بأيدينا أيِ القتلِ[3] بأيدينا. ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ [بنا الشرَّ ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾][4] العذابَ بكُم.

هُمْ/ ٢١٥ ـ أ/ كانوا لا يَترَبَّصُونَ بنا إلّا الدَّوائِرَ والهَلاكَ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى حيثُ قالَ: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ [التوبة: ٩٨] هُمْ كانوا لا يَترَبَّصُونَ بنا الحُسْنَى، ولكنْ ما ذَكَرْنا مِنَ الدوائِرِ. لكنَّ ذلكَ، وإنْ كانَ عندَ أُولئكَ المنافِقِينَ هلاكٌ ودائرةٌ فهو للمؤمنينَ الحُسْنَى في الآخِرةِ.

الآية ٥٣ وقولُه تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ قال بعضُهُم: الآيةُ في الجِهادِ، وإنَّ المنافِقِينَ كانُوا يأمُرونَ بالجِهادِ والقِتالِ معَ الكَفَرةِ، على ما أمرَ أهلُ الإيمانِ بذلكَ.

ثم منهُمْ من كانَ يَخرُجُ للجهادِ، ومنهُمْ مَنْ كانَ يُجهِّزُ غيرَهُ، وَيَقْعُدُ، ومنهُمْ مَنْ كانَ يَخْرُجُ كارهاً، ونَحوُهُ. فنَزَلَ قولُهُ: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي خوفاً ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: الآيةُ في الزكاةِ؛ إنَّ اللهَ ﷻ فَرَضَ الزكاةَ في أموالِ المؤمنينَ. والمنافقونَ قد أظهَروا الإيمانَ، وكانُوا يُنْفِقونَ، ويُؤدُّونَ الزكاةَ. لكنَّ منهُمْ مَنْ كانَ يُؤدِّي طَوعاً، ومنهُمْ مَنْ يُؤدِّي كَرْهاً، فقالَ: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ لأنهُمْ كانُوا لا يَرَونَ قُرْبَةً، وكانُوا يُنفِقونَ، وهمْ كارهونَ في الباطِنِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾؟ [الآية: ٥٤].

دلَّ أنهمْ كانوا يُنفِقونَ جميعاً، وهُمْ كارِهونَ لذلكَ في الباطِنِ[5]. ثم بَيَّنَ ما بِهِ لم يَتَقَبَّلْ نَفَقاتِهِمْ، وهو ما ذَكَرَ ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

الآية ٥٤ وقالَ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾ الآيةَ. في الآيةِ وجهانِ:

أحدُهُما: دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبَرَ أنهمْ ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ وهُمْ في الظاهِرِ كانوا يأتونَ الصلاةَ على ما كانَ يأتي المؤمنونَ. ثم أخبَرَ أنهمْ يأتونَها كُسالَى. دلَّ [أنهُ][6] إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى. وكذلكَ أخبَرَ أنهمْ يُنفِقونَ، وهُمْ كارهونَ لذلكَ، وكانوا يُنفِقونَ في الظاهِرِ مُراآةً لِمُوافَقَتِهِم. ثم أخبَرَ أنهمْ كانوا كارِهينَ لِذلكَ في السِّرِّ. دلَّ أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ باللهِ تعالى.

والثاني: ألّا تقومَ قُرْبَةٌ، ولا تُقْبَلَ، إلّا على حقيقةِ الإيمانِ؛ هو شَرْطُ قيامِ هذه العباداتِ وقَبولِ القُرَبِ، لا أنَّ نَفْسَها إيمانٌ، لأنهُمْ يُظهِرونَ الإيمانَ، ويُسِرّونَ الكُفرَ. دلَّ أنهُ ما ذكَرْنا، وباللهِ التوفيقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي إنكُمْ كُنتُمْ فاسِقينَ. ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أي صِرتُمْ فاسِقينَ بما أنفَقتُمْ، وأنتُمْ كارِهونَ؛ إذْ هُمْ قد أظهَروا الإيمانَ، ثم تَركوهُ، كقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ [المنافقون: ٣] أخبَرَ أنهمْ آمَنوا، ثم كَفَروا، فعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ وكَسْلَى، وكُسالَى فيهِ لُغاتٌ ثلاثٌ[7]، والمَعْنَى واحدٌ؛ وهو أنهمْ لا يأتونَ الصلاةَ إلّا مُستَثْقِلِينَ لأنهمْ كانوا لا يَرونَها قُرْبَةً.

---

(١) في الأصل وم: عن. (٢) من م، في الأصل: قلتم. (٣) في م: القتيل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: الباطل. (٦) من م، ساقطة في الأصل. (٧) في الأصل وم: ثلاثة.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو على التقديمِ والتأخيرِ؛ كأنهُ قالَ: فلا تُعجِبْكَ أموالُهُمْ ولا أولادُهُمْ في الحياةِ الدنيا إنما يريدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بها في الآخِرَةِ وفي الحياةِ الدنيا. والتعذيبُ في الدنيا، هو ما فُرِضَ عليهِمْ بالجهادِ[1]، وأُمِروا بالخروجِ للقِتالِ، فكانَ يَشُقُّ ذلكَ عليهِمْ، ويَشْتَدُّ، فذلكَ التعذيبُ لهمْ. وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩] أوِ التعذيبُ في الدنيا، هو القتلُ؛ يُقْتَلُونَ إنْ لم يَخْرُجوا.

وفي الآيةِ دلالةُ الرَّدِّ على المُعْتَزِلَةِ لأنهُمْ يقولونَ: لا يُعْطِي [اللهُ][2] أحداً شيئاً إلّا ما هو أصْلَحُ لهُ في الدينِ، ثم قالَ لرسولِهِ[3]: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ ولو كانَ لم يُعطِهِمُ الأموالَ والأولادَ إلّا للخيراتِ والصلاحِ فذلكَ بعيدٌ. فدلَّ أنهُ قد يعطي خَلْقَهُ ما ليسَ بأصْلَحَ لهمْ في الدينِ، وكذلكَ في قولِهِ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الآية [المؤمنون: ٥٥و٥٦] دلالةُ الرَّدِّ على قولِهِمْ لأنهُ قالَ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ثم قالَ ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦] [أنَّ ما][4] يُمِدُّهُمْ بِهِ لا للخيراتِ. دلَّ أنهُ قد يُعطي خَلْقَهُ ماليسَ هو بأصْلَحَ لهمْ في الدينِ.

وفي قولِهِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ دلالةُ الرَّدِّ عليهِمْ أيضاً لأنهُ أخبَرَ أنهُ يعذبُهُمْ في الدنيا والآخِرَةِ، ولا يُعَذِّبُهُمْ مَجَاناً في ما لا فِعْلَ لهمْ في ذلكَ. دلَّ أنَّ [لهُ صُنعاً][5] في ذلكَ، وإنما يُعَذِّبُهُمْ بِفِعْلٍ اكْتَسَبُوهُ.

وفي قولِهِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ دلالةُ أنْ ليسَ كلُّ ما يُعْطِيهِمْ لِيَرْحَمَهُمْ بِهِ، ولكنْ يُعطِيهِمْ لِما عَلِمَ منهُمْ: فإنْ كانَ عَلِمَ منهمْ أنهمْ يَسْتَعْمِلونَ ما أعطاهُمْ مِنَ الأموالِ وغيرِها في ما فيهِ هلاكُهُمْ أعطاهمْ لذلكَ، ومنْ عَلِمَ منهمْ أنهُ يَسْتَعْمِلُهُ لِنَجاتِهِ أعطاهُ لِيَرْحَمَهُ[6] بِهِ. فإنما أعطى كُلّاً ما عَلِمَ أنهُ يكونُ منهُ[7]؛ لأنهُ لو أعطاهُمْ على غيرِ ما عَلِمَ منهُمْ يكونُ[8] في إعطائِهِ مُخطِئاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ قيلَ: تَخرُجُ، وتَهلِكُ خوفاً. قالَ أبو عوسَجَةَ: يُقالُ: خَرَجَتْ نَفْسُهُ مِنْ فَمِهِ، وقيلَ: تَذْهَبُ، وكذلكَ قالَ أبو عُبَيدٍ، تَزْهَقُ أي تَذْهَبُ[9].

وفي الآيةِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ رسولِ اللهِ لأنهُ أخبَرَ أنَّ أنفُسَهُمْ تزهَقُ ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فكانَ ما ذُكِرَ. دَلَّ أنهُ عَلِمَ ذلكَ باللهِ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ في الباطِنِ في الدينِ لأنهُمْ كانوا منهُمْ في الظاهِرِ، وقالَ: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ في الباطِنِ في الدينِ ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي يخافونَ القَتْلَ، فَيُظهِرونَ الموافَقَةَ لهُمْ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾ قيلَ: لو وَجَدوا حِرْزاً أو مَغاراتٍ؛ يعني الغِيرانَ في الجبالِ أو ﴿مُدَّخَلًا﴾ أي سِرْباً في الأرضِ في الجبالِ ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾ أي رَجَعُوا إليهِ ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾أي يَسْعَونَ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ المَلْجأُ: الحِرْزُ في الجِبالِ، والمغاراتُ: الغيرانُ، والمُدَّخَلُ: السِّرْبُ. قالَ أبو عَوسَجَةَ: المَغاراتُ مثلُ المَلْجإِ، وهو شيءٌ يَتَحَصَّنونَ فيهِ، ومُدَّخلاً هو موضعٌ يدخلونَهُ أيضاً ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يُسْرِعونَ. يُقالُ: جَمَحَتِ الدابَّةُ، تَجْمَحُ جِماحاً، وهو جامِحٌ، وهو مِنَ الإسراعِ.

وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ، وقالَ أبو مُعاذٍ: الجَموحُ الراكِبُ رأسَهُ وهَواهُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ لو[10] يَجدونَ ناساً يَدخُلونَ بينَهُمْ ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾ دونَكُمْ.

---

(١) في الأصل و م: الجهاد. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: لرسول الله. (٤) في الأصل وم: أنه. (٥) في الأصل وم: لهم صنع. (٦) في الأصل وم: ليرحمهم. (٧) في الأصل وم: منهم. (٨) أدرج في الأصل وم قبلها: أنه. (٩) في الأصل وم: ذهب. (١٠) في الأصل وم: لا.

وأصلُهُ: أنهمْ لو وجَدوا مأمناً يأمنونَ، ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾ أي لَصاروا إليهِ مُسْرِعِين، ولا يُظهِرونَ لكُمُ الإيمانَ، ولكنْ ليسَ لهمْ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم﴾ يَعْني المنافقينَ ﴿مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ اختُلِفَ فيه: قالَ بعضُهُمْ: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ يَزورُكَ لِمَكانِ الصَّدَقاتِ طَمَعاً فيها [لِتُعْطِيَهُ مِنَ][1] الصدقاتِ، ويَلْمِزُكَ أي يزورُكَ لِيَسألَكَ مِنَ الصَّدَقاتِ؛ أي إنما يَزورونَكَ لِمَكانِ الصَّدَقاتِ ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ﴾ وعظَّموكَ[2]، وإنْ لمْ تُعطِهِمْ ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ لأنَّ إتيانَهُمْ رسولَ اللهِ وزيارَتَهُمْ إياهُ لِمَكانِ الصَّدَقَةِ. فإذا لم يُعْطَوا منها شيئاً سَخِطوا.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: قولُهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي يطعَنُ عليكَ في الصدقاتِ أي في قِسْمةِ الصدقاتِ؛ رُوِيَ عنْ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ [أنهُ][3] قالَ: «بَيْنا رسولُ اللهِ يَقْسِمُ قِسْماً جاءَ[4] رجلٌ يُقالُ لهُ ابْنُ ذي الخُوَيْصِرَةِ التَّميميُّ، فقالَ: اعْدِلْ، فقالَ لهُ النَّبيُّ: وَيْلَكَ ومَنْ يَعْدِلُ إذا لم أعدِلْ أنا؟ فقالَ عُمَرُ: ائْذَنْ لي يا رسولَ اللهِ فأضرِبَ عُنُقَهُ، فقالَ لهُ النَّبيُّ: دَعْهُ، فإنَّ لهُ أصحاباً، يَحْقِرُ[5] أحدُكُمْ صلاتَهُ [مَعَ صلاتِهِمْ وصيامَهُ مَعَ صيامِهِمْ لِحُسْنِ صلاتِهِمْ وصيامِهِمْ، فَيَحْقِرُ][6] صلاتَهُ عندَ صلاةِ أولئكَ، يَمْرُقونَ مِنَ الدينِ كما يَمْرُقُ السهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ» [البخاري ٣٦١٠]. ذكَرَ[7] حديثاً طويلاً، وهو كانَهُ كانَ مِنَ الخوارِجِ، وهو الذي قَتَلَهُ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ ﷺ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾/ ٢١٥ - ب/ ما أتاهُمُ اللهُ مِنَ الرزقِ ورَسولُهُ مِنَ الصَّدَقاتِ ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾. [وقيلَ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ مِن فَضْلِهِ][8] أي مِنْ دينِهِ ﴿وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كانَ خيراً لهمْ ممّا طَمِعوا في هذِهِ الصَّدَقاتِ، وطَعَنوا رسولَ اللهِ في ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ مِنْ فَضْلِهِ ممّا رَزَقَ لهمْ ممّا فَعَلُوا. وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ مِنْ فَضْلِهِ أي مِنَ الصَّدَقاتِ التي كانَ أعطاهُمْ رسولُ اللهِ منها، وإلى اللهِ رَغِبوا لَكانَ خيراً ممّا طَمِعُوا في تلكَ الصَّدَقاتِ، وطَعَنُوا رسولَ اللهِ، وسَخِطوا عليهِ.

ويُقْرَأُ ﴿يَلْمِزُكَ﴾ ويُلْمِزُكَ برفعِ الميمِ[9]. قالَ أبو عوسَجَةَ: اللَّمْزُ الغيبةُ؛ يُقالُ لهُ: لَمّازٌ، ولامِزٌ، وهَمّازٌ، وهامِزٌ. وقالَ القُتَبيُّ: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ يَعيبُكَ، ويَطعَنُ عليكَ؛ يُقالُ: هَمَزْتُ فلاناً، ولَمَزْتُهُ، إذا اغْتَبْتُهُ، وغِبْتُهُ، وكذلكَ قولُ اللهِ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ يُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيَةُ في بَيانِ مَوضِعِ الصَّدَقةِ على ما تَقَدَّمَ مِنَ الذِّكْرِ بقولِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ﴾ الآية ما ذُكِرَ أنَّ المُنافِقينَ كانُوا يأتونَ رسولَ اللهِ، ويسألونَهُ مِنَ الصَّدَقاتِ، فإنْ أعطاهُمْ رَضُوا منهُ، وإنْ لم يُعْطِهِمْ طَعَنُوا فيهِ، وعابُوا عليهِ. فَبَيَّنَ أنَّ الصَّدَقاتِ ليستْ لِهؤلاءِ ولكنْ لِلْفُقَراءِ مِنَ المسلمينَ والمساكِينِ مِنَ المسلمينَ، وكذلكَ ما ذُكِرَ مِنَ الأصنافِ المُكاتَبِينَ والغارِمينَ. أنها لِهؤلاءِ مِنَ المسلِمينَ لا لَهُمْ.

ويدلُّ على ذلكَ ما جاءَ مِنَ الأخبارِ: رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ وضَعَ صَدَقتَيْنِ بأعيانِها، حُمِلَتْ إليهِ في صِنْفٍ واحِدٍ، ما رُوِيَ أنهُ أعْطَى الأقْرَعَ بْنَ حابسٍ مِئةً مِنَ الإبلِ[10] وأعْطَى فلاناً كذا.

ورُوِيَ عنِ الصحابةِ أنهُمْ[11] وضَعُوا الصدقةَ في صِنْفٍ واحدٍ؛ رُوِيَ [عنْ][12] حُذَيْفَةَ أنهُ قالَ: هؤلاءِ أهلُها، ففي أيِّ صِنْفٍ وضَعْتَها أجزاكَ، وعَنِ ابْنِ عباسٍ أنهُ قالَ كذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: لتعطيهم. (٢) في الأصل وم: ويعظمونك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل :له فجاء، في م:له فجاءه. (٥) في الأصل وم: يحتقر. (٦) في الأصل وم: إلى صلاته وصيامه إلى صيامه لحسن صلاته وصيامه فيحتقر. (٧) الضمير فيه يعود على أبي سعيد الخدري. (٨) ساقطة من م. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٣/ ٢٧. (١٠) انظر الحديث في البخاري ٣١٥٠. (١١) في الأصل و م: أنه. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وعنْ عُمَرَ أنهُ كانَ إذا جَمعَ صدقاتِ المَواشي والبَقرِ والغَنَمِ نَظَرَ ما كانتْ(١) مُنتِجَةً لِلَّبَنِ، فيُعطِي الأهلَ على قَدْرِ ما يكفيهِمْ؛ فكانَ يُعطِي العَشَرَةَ شاةً للبيتِ الواحدِ، ثم يقولُ: عَطِيَّةٌ تَكفي خيرٌ مِنْ عَطِيَّةٍ لا تكفي، أو كلاماً(٢) نَحْوَ هذا، وقد رُوِيَ عنهُ أنهُ سُئِلَ عنْ ذلكَ، فقالَ: واللهِ لأَرُدَّنَّ عليهِمُ الصَّدقَةَ حتى يَروحَ على أحدِهِمْ مِئَةُ ناقةٍ أو مِئَةُ بَعيرٍ.

وعنْ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ﷺ [أنهُ](٣) أُتِيَ بِصَدَقَةٍ عَنْ ذلكَ، فَبَعَثَها إلى أهلِ بيتٍ واحدٍ.

هؤلاءِ نُجَباءُ الصحابةِ اسْتجازوا وضْعَ الصدقةِ في صِنْفٍ واحدٍ. ولو كانَ حَقُّ كلِّ صدقَةٍ أنْ تُقْسَمَ بَيْنَ هؤلاءِ الأصنافِ الذينَ ذَكَرَ بالسَّوِيَّةِ على ما قالَ القومُ لِمكانِ [ما](٤) قالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ بَيْنَ الفقراءِ وبَيْنَ مَنْ مَعَهُمْ مِنَ الأصنافِ كما يُقالُ: المِيراثُ لِقَرابَةِ فلانٍ، أي ليسَ للأجْنَبِيِّينَ في ذلكَ حقٌّ.

وإذا قيلَ: المِيراثُ بَيْنَ قرابةِ فلانٍ كانَ لِكُلٍّ في ذلكَ حَقٌّ لأنَّ حَرْفَ بَيْنَ يَقتَضِي التَّسْوِيَةَ، وقولُهُ لَهُمْ يَقتَضي أنهُ لاحقَّ فيهِ لِغَيْرِهِمْ. ألا تَرَى أنه يُقالُ: الخِلافةُ لِوَلَدِ العباسِ؛ يُرادُ أنهُ لاحظَّ فيها لِغَيْرِهِمْ؟ والسِّقايَةُ لِبني هاشمٍ؟ ونَحْوُهُ، ليسَ يُرادُ ذلكَ أنْ لاحقَّ لِغَيْرِهِمْ فيها.

وبعدُ فإنهُ لو كانَ في الآيةِ: إنما الصَّدقاتُ بَيْنَ الفقراءِ. وبَيْنَ مَنْ ذَكَرَ مَعَهُمْ لَكانَ لا يجبُ قسمةُ كلِّ صَدَقَةٍ بَيْنَ هؤلاءِ الأصنافِ المذكورةِ في الآيةِ لأنهُ ليسَ لِلصَّدقاتِ انْقِطاعٌ بل لها مَدَدٌ؛ إذا دُفِعَتْ صَدَقَةٌ واحدةٌ إلى صِنْفٍ واحدٍ، فإذا أُتِيَ بِصَدَقةٍ أُخرَى دُفِعَتْ إلى صِنْفٍ آخرَ. هكذا يُعْمَلُ في الأصنافِ كُلِّها.

وبعدُ فإنهُ لم يُذْكَرْ عنْ أحدٍ مِنَ الأئِمَّةِ أنهُ تَكَلَّفَ طَلَبَ هؤلاءِ الأصنافِ، فَقَسَمَها بَيْنَهُمْ، وكذلكَ لم يُذْكَرْ عنْ أحدٍ مِنْ أربابِ الأموالِ [أنهُ دَفَعَ](٥) صدقةً واحدةً بَيْنَ هؤلاءِ الذينَ ذَكَرَ، فَدَلَّ أنهُ خُرِّجَ على ما ذَكَرْنا لأنهُ لو كانَ على تَسْوِيَةِ كلِّ صَدَقَةٍ بينَهُمْ لم يَجُزْ ألا يَقْسِموها كذلكَ، ويُضَيِّعوا(٦) حقَّ البَعْضِ مِنْ هؤلاءِ.

وبَعْدُ فإنهُ لو تَكَلَّفَ الإمامُ أنْ يَظْفَرَ بهؤلاءِ الثمانيةِ ما قَدَرَ على ذلكَ. دلَّ أنهُ لم يُخَرِّجِ الخِطابَ على ما تَوَهَّمَ خُصومُنا، ولأنَّ الحقَّ لو كانَ التَّسْوِيَةَ بينَهُمْ في كلِّ صَدَقَةٍ لكانَ إذا لم يَجِدْ في بلدةٍ مُكاتِبِينَ أو واحداً مِنْ هؤلاءِ الأصنافِ، فَيَجِبُ أنْ يُسْقِطَ مقدارَ حِصَّةِ مَنْ لم يَجِدْ مِنْ أربابِها، فذلكَ بعيدٌ، فقد جاءَ في الخَبَرِ أنهُ بَعَثَ مُعاذاً إلى اليمنِ، فقالَ لهُ: خُذْ مِنْ أغنيائِهِمْ، ورُدَّ في فُقَرائِهِمْ، ويُكْرَهُ إخراجُ صَدَقَةِ كلِّ بلدٍ إلى غَيْرِهِ مِنَ البلدانِ.

ثم تَحْتَمِلُ الآيةُ جميعَ الصَّدقاتِ التي يُتَصَدَّقُ بها على الفقراءِ والمساكينِ مِنَ الفَيْءِ وغَيْرِهِ، فَبَيَّنَ [اللهُ تعالى](٧) أنَّ هؤلاءِ مَوضِعٌ لذلكَ كلِّهِ مِنْ نَحْوِ قولِهِ: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] وقولِهِ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وتَحْتَمِلُ زكاةَ الأموالِ المفروضةِ، والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

فإنْ قيلَ: إنَّ الرجلَ إذا أوصَى، فقالَ: ثُلُثُ مالي لِفلانٍ وفلانٍ أليسَ هو مَقْسومٌ بَيْنَهما(٨) بالسَّوِيَّةِ ما مَنَعَ أنَّ الأوَّلَ بِمِثْلِهِ؟ قيلَ: لا تُشْبِهُ الصَّدقاتُ الوصايا.

وذلكَ أنَّ الوصيَّةَ إنما وقَعَتْ في مالٍ معلومٍ لا تَزيدُ فيه بَعْدَ مَوْتِ المَيِّتِ شيئاً، ولا يُتَوَهَّمُ لها مَدَدٌ. والصَّدقاتُ يزيدُ بَعْضُها بَعْضاً، وإذا فَنِيَ مالٌ جاءَ مالٌ آخَرُ، وإذا مَضَتْ سَنَةٌ جاءَتْ سَنَةٌ أُخْرَى بمالٍ جديدٍ. فإذا دَفَعَ الإمامُ صَدَقَةً بجميعِ ما عندَهُ إلى الفقراءِ، ثم حَضَرَهُ غارِمونَ تُحْمَلُ(٩) إليهِ صَدَقَةٌ أُخرَى، يَجْعَلُها فيهِمْ، فَيُصْلِحُ بذلكَ أحوالَ الجميعِ لِما لا انْقِطاعَ للأموالِ إلى يومِ القيامةِ.

وكيفَ تُقْسَمُ الصَّدَقَةُ على ثمانيةِ اسْهُمٍ؟ ولا خِلافَ في أنَّ للعامِلِينَ بِقَدْرِ عَمالَتِهِمْ [سَهماً](١٠)، زادَ ذلكَ على الثُّمُنِ، أو نَقَصَ منهُ. فإذا [زادَ الثُّمُنُ في](١١) القِسْمَةِ في بَعْضِ الأصنافِ زادَ(١٢) في الجَميعِ، فأُعْطِيَ كلُّ صِنْفٍ منهُمْ قَدْرَ حاجتِهِ كما أُعْطِيَ العامِلونَ.

---

(١) في الأصل و م: كان. (٢) في الأصل و م: كلام. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أنهم دفعوا. (٦) في الأصل وم: ويضيعون. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: بينهم. (٩) في الأصل و م: فتحمل. (١٠) ساقطة من الأصل و م. (١١) في الأصل زالت. (١٢) في الأصل و م: زالت.

جنة السنة

وكيف يُضنَعُ بِسَهمِ المُؤلَّفةِ قُلوبُهُمْ، وقدِ ارْتَفعَ ذلكَ، ونُسِخَ؟ وعلى ذلكَ جاءَ عنْ بَعْضِ الصحابةِ مِنْ نَحْوِ أبي بكرٍ وعُمَرَ أنهم لم يُعْطوهُمْ[١] شيئاً. أليسَ يُرَدُّ ذلكَ على سائرِ السهامِ؟ فإذا جازَ أنْ يُزادَ على الثَّمَنِ في وقتٍ جازَ أنْ يُنْقَصَ[٢] منهُ في وقتٍ.

وفي قولِهِ: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ﴾ دلالةٌ أنْ لا بأسَ لِلأئِمّةِ والقُضاةِ أخْذُ الكفايةِ مِنْ بَيتِ المالِ، ولكلِّ عاملٍ للْمُسْلِمينَ حَدُّ كفايتِهِ ورزقِهِ مِنْ ذلكَ إذا فَرَّغَ نَفْسَهُ لذلكَ، وكَفَّها عنْ غيرِها مِنَ المنافعِ والأعمالِ.

ثم اخْتُلِفَ في الفقراءِ والمساكينِ: قالَ بعضُهُمْ: الفُقراءُ هُمْ مِنَ المهاجرينَ كقولِهِ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [الحشر: ٨] والمساكينُ مِنَ الذينَ لم يُهاجِرُوا.

وقالَ بعضُهُمْ: الفقيرُ الذي بِهِ زَمانَةٌ، وهو محتاجٌ، وقالَ بعضُهُمْ: الفقراءُ هُمُ المُتَعَفِّفونَ الذينَ لا يَخْرُجونَ، ولا يَسْألونَ الناسَ كقولِهِ تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] والمساكينُ هُمُ الذينَ يَسْألونَ. وكذلكَ قالَ الحَسَنُ.

وعنْ عُمَرَ [أنهُ][٣] قالَ: ليسَ المسكينُ الذي لا مالَ لهُ، ولكنَّ المسكينَ الذي لا يُصيبُ المَكْسَبَ.

وعنِ ابنِ عباسٍ [أنهُ][٤] قالَ: فُقراءُ المسلِمينَ والمساكينُ الطَّوّافونَ، وهو قريبٌ ممّا قالَهُ الحَسَنُ.

وعنِ الأصَمِّ [أنهُ][٥] قالَ: الفقيرُ الذي لا يَسْألُ، وهو ما ذَكَرْنا بَدْءاً، والمسكينُ الذي يسألُ إذا احْتاجَ، ويُمْسِكُ إذا اسْتَغْنى.

ورُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ يَرْويهِ أبو هُريرةَ ﷺ [أنهُ][٦] قالَ: «ليسَ المسكينُ هذا الطَّوّافَ الذي يَطوفُ على الناسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتانِ والتَّمْرَةُ والتَّمْرَتانِ، قيلَ: فما المسكينُ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: الذي لا يَجِدُ ما يُغْنيهِ، ولا يُفْطَنُ بِهِ، يُتَصَدَّقُ عليهِ، ولا يَقومُ، فَيَسألُ الناسَ» [البخاري١٤٧٩] فهذا لو حُمِلَ/ ٢١٦ ـ أ/ على ظاهِرِهِ لَدَفَعَ قولَ مَنْ قالَ: إنَّ المسكينَ هو الذي لا يَسْألُ الناسَ، ولكنْ يَجوزُ أنْ يكونَ معناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ الذي لا يَسْألُ، وإنْ كانَ عندَكُمْ مسكيناً، فإنَّ الذي لا يَسْألُ أشدُّ مَسْكَنَةً منهُ. ولا يَحْتَمِلُ غيرَ ذلكَ لأنَّ اللهَ قد سَمّى الذين لا يَسْألونَ الناسَ فُقراءَ، ولا يجوزُ أنْ يُجْعَلَ الحديثُ مُخالِفاً للآيةِ ما أمكَنَ أنْ يكونَ مُوافِقاً لها.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٥و١٦] فقولُهُ: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ قيلَ: هو الذي لا حائلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ التُّرابِ لِفَقْرِهِ. فَدَلَّ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ، على أنَّ المسكينَ هو الشديدُ الفَقْرِ، والفقيرَ هو الذي لا يَمْلِكُ شيئاً، ولم يَبْلُغْ في الفَقْرِ والضَّرُورةِ حالَ المِسْكينِ، ويَدُلُّ على[٧] ذلكَ قولُ عُمَرَ: ليسَ المسكينُ مَنْ لا مالَ لهُ، ولكنَّ المسكينَ مَنْ لا مَكْسَبَ لهُ؛ كأنهُ يقولُ: إنَّ الذي لا مالَ لهُ، ولهُ مَكْسَبٌ، هو فقيرٌ، والمسكينُ أشَدُّ حالاً مِنَ الفقيرِ، وليسَ لهُ مالٌ، ولا مَكْسَبٌ.

وإنْ حُمِلَ قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «ليسَ المِسْكينُ الذي يسألُ، ولكنَّ المسكينَ الذي لا يُفْطَنُ بهِ، ولا يَسْألُ» [على أنَّ الذي لا يُفْطَنُ بهِ، هو أشَدُّ][٨] مَسْكَنَةً مِنَ الآخَرِ، وإنْ كانَ الآخَرُ مِسْكيناً أيضاً، كانَ موافِقاً لِلْمَعْنى الذي ذَكَرْنا؛ لِأنّا قُلْنا: إنَّ المسكينَ هو الشديدُ الفَقْرِ، وقد يكونُ فقيراً، وإنْ لم يَبْلُغْ بهِ الضُّرُّ مَبْلَغَ ضُرِّ الأوَّلِ.

وقد يُخَرَّجُ قولُ مَنْ قالَ: إنَّ المسكينَ الذي يُخَرِّجُ هذا المُخْرَجَ لأنَّ مِنْ شأنِ المُسلِمِ الفقيرِ أنهُ يَتَحَمَّلُ ما كانَتْ لَهُ حِيلَةٌ، ويَتَعَفَّفُ، ولا يَخْرُجُ، فَيَسألُ، ولَهُ حِيَلٌ. فَخُروجُهُ يدلُّ على شدةِ ضيقِهِ وعلى الزيادةِ في سُوءِ حالِهِ. فكانَ القولانِ جميعاً يَرْجِعانِ إلى مَعْنىً واحدٍ. وإذا كانَ الفقيرُ أحْسَنَ حالاً مِنَ المسكينِ لِما ذَكَرْنا فقد يجوزُ أنْ تُدْفَعَ الصَّدَقَةُ إلى مَنْ لَهُ مالٌ قليلٌ لأنهُ فقيرٌ، وإنْ لم يكنْ حالُهُ في فَقْرِهِ حالَ المسكينِ الذي لا يَمْلِكُ شيئاً، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل و م: يعطهم. (٢) في الأصل و م: ينقصوا. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل و م: ل. (٨) في الأصل: هو أشد، في م: على أن الذي لا يفطن به أشد.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ [بعضهُم][1]: يُعطى لهم [ثَمَنُ الوفاءِ][2]، وقالَ بَعْضُهُمْ: يُعْطى لهمْ قَدْرُ عمالَتِهِمْ، وقالَ بَعْضُهُمْ: يُعْطى لهمْ قَدْرُ كِفايَتِهِمْ وعِيالِهِمْ.

أمّا قولُ [مَنْ قالَ][3] يُعطى لهمُ الثُّمُنُ فلا[4] مَعْنى لهُ لِما لا يَجوزُ أنْ يَبْلُغَ الثُّمُنُ الوفاءَ، وعَمالَتُهُ لا تَبْلُغُ عُشْرَ عُشْرِ ذلكَ. ومَنْ قالَ: يُعْطى لَهُمْ قَدْرُ كِفايَتِهِمْ وكِفايةِ عِيالِهِمْ فهو، واللهُ أعْلَمُ، إذا كانَ هو لا[5] تَسْلَمُ نفسُهُ لِذلكَ، واسْتَعْمَلَهُ الإمامُ في جميعِ أمورِ المسلمينَ. فإذا كانَ كذلكَ يُعْطى لهُ عندَ ذلكَ الكفايةُ له ولِعِيالِهِ. وأما إذا تولّى شيئاً مِن تلكَ العَمالَةِ في وقتٍ، فَيُعْطى لهُ الكفايةُ، فلا.

والأشبهُ عندَنا أنْ يُعْطى لهمْ قَدْرُ عمالَتِهِمْ، وهكذا الإمامُ إذا اسْتَعْمَلَ أحداً في عملٍ من أعمالِ اليتيمِ فإنهُ يُعْطى لهُ قَدْرَ أجرِ عَمَلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنه ﷺ كانَ يُعْطي الرُّؤساءَ مِنَ المُنافِقِينَ مِنَ الصدقاتِ، يَتَألَّفُ بهِ قلوبَهُمْ لِيُسْلِمُوا على ما رُوِيَ أنهُ كانَ يُعْطي فُلاناً مِئَةً مِنَ الإبلِ وفلاناً كذا. ورُوِيَ أنهُ قَسَمَ ذَهَبَةً في أديمٍ مَقْروظٍ بَعَثَها عليٌّ ﷺ مِنَ اليَمَنِ بَيْنَ الأقْرَعِ بْنِ حابسٍ وبَيْنَ فلانٍ وفلانٍ. والحديثُ في هذا كثيرٌ أنَّ النَّبِيَّ كانَ يَخُصُّ بهِ الرؤساءَ منهُمْ بالصَّدَقَةِ، يَتألَّفُهُمْ، والإسلامُ في ضَعْفٍ، وأهلُهُ في قِلَّةٍ، وأولئكَ كثيرٌ ذَوُو[6] قوةٍ وعُدَّةٍ.

فأمّا اليومَ فقد كَثُرَ أهلُ الإسلامِ، وعَزَّ الدينُ، وصارَ أولئكَ أذلاءَ بِحَمْدِ اللهِ فقدِ ارْتَفَعَ ذلكَ، وذَهَبَ، إذْ قَوِيَ المسلمونَ، وكَثُروا، فَيُقاتِلونَ حتى يُسْلِموا.

وعلى ذلكَ جاءَ الخَبَرُ عنْ أبي بكرٍ وعُمَرَ ﷺ ما دَلَّ على ما ذَكَرْنا؛ رُوِيَ أنَّ الأقْرَعَ بْنَ حابسٍ وعُيَيْنَةَ بْنَ [حِصْنٍ جاءا[7]] إلى أبي بكرٍ ﷺ فقالا[8]: يا خليفةَ اللهِ إنَّ عندَنا أرضاً سَبْخَةً، ليسَ فيها كَلأٌ ولا مَنْفَعَةٌ، فإنْ رأيتَ أنْ تُقْطِعَناها [فأقْطَعَها إيّاهما][9] وكتَبَ لهما [بذلكَ][10] عليها كتاباً، وأشْهَدَ عُمَرَ ﷺ، وليسَ في القومِ[11]، فانطَلَقا إلى عُمَرَ لِيُشْهِداهُ. فلما سَمِعَ عُمَرُ ما في الكتابِ تناوَلَهُ[12] مِنْ أيديهما، ثم نظرَ فيهِ، فَمَحاهُ، فَتَذَمَّرا، وقالا[13] لهُ مَقالةً سَيِّئَةً، وقالَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَتألَّفُكُما، والإسلامُ يومئذٍ قليلٌ، وإنَّ اللهَ تعالى قد أعزَّ الإسلامَ، فاذْهَبا، فاجْهَدا جَهْدَكُما، لا أرْعَى اللهُ عليكُما إنْ رُعِيتُما.

ونحنُ نذهبُ إلى هذا الحديثِ لأنَّ أبا بكرٍ لم يُنْكِرْ على عُمَرَ قولَهُ وفِعْلَهُ، فصارَ ذلكَ وِفاقاً منهُ لهُ، فَكَفَى بقولِهِما حُجَّةً لنا. ولنا في ذلكَ وجوهٌ مِنَ الحُجَجِ:

أحَدُها: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يُعاهِدُ قوماً، وهو إلى مُداراتِهِمْ ومُعاهَدَتِهِمْ محتاجٌ لِما ذَكَرْنا مِنْ قلةِ أهلِ الإسلامِ وطَعْنِهِمْ. فلمّا أعزَّ اللهُ الإسلامَ، وأكْثَرَ أهلَهُ رَدَّ إلى أهلِ العُهودِ عُهودَهُمْ، ثم أمَرَ بِمُحارَبَتِهِمْ جميعاً.

والثاني: ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] فكانتِ الحالُ الثانيةُ التي فيها الإسلامُ [كثيرٌ][14]، وقَوِيَ أهلُهُ، وعَزُّوا، مُخالِفَةً للحالِ الأوَّلِ في هذهِ الأشياءِ، فكذلكَ أمرُ [المنافِقِينَ كانَ][15] جائزاً لِرُؤساءَ في الحالِ الأوَّلِ محظوراً في الحالِ الثانيةِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيةِ دلالةُ جوازِ النسخِ بالاجْتِهادِ لارْتِفاعِ المَعْنى الذي بهِ كانَ لِيُعْلَمَ أنَّ النَّسْخَ قد يكونُ بوجودِهِ.

وفي خَبَرِ أبي بكرٍ وعُمَرَ ﷺ دلالةٌ أنَّ إذنَ الإمامِ شرطٌ في إحياءِ الأرضِ المَواتِ، لا تُمَلَّكُ إلّا بالإذنِ لأنَّ ذانِكَ الرجلَيْنِ اللَّذَيْنِ أتَيا أبا بكرٍ، فقالا: الأرضُ، لا كَلأَ فيها، ولا ذلكَ، صورةُ أرضِ المَواتِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الثمن. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: ذو. (٧) في الأصل وم: فلان جاؤوا. (٨) في الأصل وم: فقالوا. (٩) في الأصل وم: فأقطعنا إياها. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قوم. (١٢) في الأصل وم: فتناوله. (١٣) الواو ساقطة من الأصل. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل: المنافقين، في م: المنافق.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ اختُلِفَ فيهِ [بوجوهٍ:

أحدُها](١): قالَ بَعْضُهُمْ: معناهُ العِتقُ، ويجوزُ أنْ يُعتَقَ عنِ الزكاةِ، وقالَ بعضُهُمْ: هُمُ المُكاتبونَ، يَسْتَأدونَهُمْ في كتابتِهِمْ، وقالُوا: لا يُشْبِهُ الإعتاقُ ما يُدفَعُ إلى المُكاتِبِ، فَيُؤدَّى، فَيُعتَقُ؛ لأنَّ العِتقَ ليسَ بتمليكٍ، وإنما هو إبطالُ مُلْكٍ، وما يُدفَعُ إلى المُكاتِبِ فهو تمليكٌ. فذلكَ مُختلِفٌ. وإنما تكونُ الزكاةُ زكاةً إذا زالَتْ مِنْ مالكٍ إلى مالكٍ.

والثاني: أنَّ العِتقَ يُوجِبُ الوَلاءَ لِلمُعتِقِ؛ فَحَقُّهُ فيهِ باقٍ، والذي يدفَعُ فيهِ الزكاةَ إلى مُكاتبِ لِغَيرِهِ، ولا يرجِعُ إليهِ بذلكَ حقٌّ، ولا يَجبُ فيه وَلاءٌ، فهما مُختلِفانِ.

والثالثُ: وهو أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ ولو أنَّ رجلاً، قَضَى عن غارمٍ دَيْنَهُ بِغَيرِ أمْرِهِ، لم يُجزِهُ مِنْ زكاةِ مالِهِ، وإنما تكونُ زكاةً إذا دَفَعَها إلى الغارمِ. فَعِتقُ المُزَكِّي العبدَ بمَنْزِلَةِ قضاءِ دَيْنِ الغارمِ لأنَهُ لا يحتاجُ في واحدٍ منهما إلى قبولٍ مِنَ الغارمينَ والعبدِ، وإعطاءُ المُكاتَبِ في الزكاةِ كَدَفعِهِ إياها إلى الغارمِ لأنهُ قد دَفَعَها إليه في كِلا الحالَينِ إلى مَنْ قَبِلَها منهُ مِنْ زكاةٍ، وقَبَضَها.

وفي ذلكَ وَجْهٌ آخرُ؛ وذلكَ: أنْ أشتريَ عبداً مِنْ رجلٍ لِأُعتِقَهُ، فقد صارَ ثمنُهُ دَيناً في ذِمَّتي قَبْلَ أنْ أنقُدَ المالَ. فإذا قَضَيتُهُ فإنما أقضِيهِ عنْ ذِمَّتي دَيناً، قد لزِمَني. ولا يجوزُ أنْ أقضِيَ عنْ دَيْني.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: همُ الغُزاةُ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في طاعةِ اللهِ؛ إنَّ كلَّ مَنْ سَعى في طاعةٍ وسَبيلِ الخيراتِ فإنَّهُ داخلٌ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قيلَ: الضَّيفُ، يَنْزِلُ بِهِ، وقيلَ: هو المارُّ عليكَ، وإنْ كانَ غَنيّاً، المُنْقطِعُ عنْ مالِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ بياناً مِنَ اللهِ، وأعلاها أهلُ الصَّدقاتِ منهُمْ مِنْ غيرِهِمْ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾أي واجباً مِنَ اللهِ وفَرْضاً ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ أخبَرَ أنهم يُؤذُونَ النَّبيَّ، ولم يُبيِّنْ بما كانُوا يُؤذُونَ؛ فَيَحْتَمِلُ: ﴿يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ بِتَكذيبِهِمْ إياهُ وتَركِهِمُ الإجابةَ لهُ والطاعةَ في ما يدعوهُمْ إليهِ، ويَحْتَمِلُ يُؤذُونَهُ بِكلماتٍ يُسْمِعونَهُ بِطعنٍ يَطْعَنونَهُ(٢)، ويَعيبونَ عليهِ.

[وقولُهُ تعالى](٣) ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ قيلَ: الأُذُنُ هو الذي يَقْبَلُ العذرَ مِمَّنِ اعتَذَرَ إليهِ، ويَسْمَعُ منهُ، سواءٌ كانَ لهُ عُذرٌ أم(٤) لا عُذرَ لهُ لِكَرَمِهِ وشرفِهِ وحُسْنِ خُلُقِهِ./ ٢١٦ ـ ب/ فَظَنَّ أولئكَ لَمّا رأوهُ أنهُ كانَ يُعامِلُهُمْ معامَلَةَ أهلِ الكَرَمِ والشَّرَفِ والمجدِ أنهُ إنما يُعامِلُهُمْ هذهِ المُعامَلَةَ لِسلامَةِ قلبِهِ وصِغَرِ هِمَّتِهِ وقُصورِ يدِهِ، وهُمْ كانوا أهلَ كِبْرٍ وأنَفَةٍ، قالُوا: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ نقولُ ما شِئْنا، ثم نَحْلِفُ، ونَعتَذِرُ إليهِ، فَيُصَدِّقُنا، ويَقْبَلُ عُذرَنا.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي الذي يَقْبَلُ العُذرَ، ويَسْمَعُ ﴿خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ مِنَ الذي لا يَقْبَلُ ولا يَسْمَعُ، فكيفَ تُؤذُونَهُ، وتَطْعَنونَهُ، وتَعيبونَ، ولا تُصَدِّقُونَ، ولا تُؤمنونَ بهِ؟ يُخبِرُ عنْ سَفَهِهِمْ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: الذي مَنْ قالَ لهُ شيئاً، أو حدَّثَهُ حديثاً صَدَّقَهُ، واسْتَمَعَ منهُ، وكذلكَ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُصَدِّقُ كلَّ مَنْ قالَ لهُ شيئاً، أو حدَّثَهُ حديثاً، واسْتَمَعَ منهُ لِكَرَمِهِ وشرفِهِ ومَجدِهِ وحُسْنِ خُلُقِهِ لا(٥) لِما ظَنَّ أولئكَ.

وقيلَ: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي لِيُسِرَّ في نفسِهِ، ويَكْتُمَ، ولا يُكافِئَ مَنْ آذاهُ، ولا يُجازِيَهُ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قالَ(٦) بعضُهُمْ: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ أي يُصَدِّقُ باللهِ بما يُنَزَّلُ عليهِ مِنْ آياتِهِ ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ أي يُصَدِّقُهُمْ في ما بَيْنَهُمْ مِنْ شهاداتِهِمْ وإيمانِهِمْ على حقوقِهِمْ وفُروجِهِمْ وأموالِهِمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) من م، في الأصل: يطعنون. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) في الأصل و م: أو. (٥) أدرجت في م بعد: لما. (٦) في الأصل و م: وقال.

جنة السنة

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ يُصَدِّقُهُ بما يُخبِرُهُ مِن سِرِّ المُنافِقينَ وما استكتَموهُ منهُ مِنَ الكَيدِ لهُ والمَكرِ بهِ ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما يُخبِرونَهُ مِن قِبلِ أولئكَ المُنافقينَ مِنَ الطَّعنِ فيهِ والعَيبِ عليهِ. والإيمانُ[1]: هو التَّصديقُ بجميعِ[2] ما فيهِ، والإيمانُ لهُ مِن خَبَرِهِ وحديثِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ في ما يَشهدونَ في الآخِرَةِ لهُ بالتبليغِ إليهِمْ كقولِهِ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] أو يكونُ قولُهُ ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يؤمنُ بالمؤمنينَ في ما بينَهُم بالأخُوَّةِ في الدينِ كقولِهِ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كانَ ﷺ رَحمَةً للمؤمنينَ لِما استَنقَذَهُم مِنَ الكُفرِ إلى الإيمانِ ومِنَ الهَلاكِ إلى النجاةِ؛ يَشفَعُ لهمْ في الآخِرَةِ بإيمانِهِمْ في الدنيا.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخِرَةِ بقيَّةٌ مِنَ الآيةِ الأولى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ جَعَلَ اللهُ الغارمَ مَوضِعاً للصَّدَقَةِ، وهو الذي عليهِ الدَّينُ والغُرْمُ مِن أيِّ وجهٍ لَحِقَهُ على ذلكَ. رُوِيَ في الخَبَرِ عَنْ نَبِيِّ اللهِ [أنهُ][4] قال: «إنَّ المَسألَةَ لا تَحِلُّ [لِغَنِيٍّ إلّا لإحدَى ثلاثٍ][5]: فَقرٍ مُدْقِعٍ أو غُرْمٍ مُفْظِعٍ أو لِذي دمٍ مُوجِعٍ» [بنحوه الترمذي٦٥٣] وفي بَعْضِ الأخبارِ «أنَّ الصدقَةَ لا [تَحِلُّ لِغَنِيٍّ إلّا لِخَمْسَةٍ: لِعامِلٍ][6] عليها، أو رجلٍ اشتَراها أو غارمٍ أو غازٍ في سبيلِ اللهِ [أو مسكينٍ تُصُدِّقَ عليهِ منها، فأهْدَى منها لِغَنِيٍّ»][7] [بنحوه ابن ماجه١٨٤١].

ورُوِيَ عنِ الحَسَنِ و الحُسَينِ وابنِ عُمَرَ وابنِ جَعْفَرٍ أنَّ رجلاً سألَهُمْ شيئاً، فقالُوا: إنْ كانَتْ مسألتُكَ في إحدَى ثلاثٍ فقد وَجَبَ حقُّكَ: في فَقرٍ مُدْقِعٍ أو غُرْمٍ مُفْظِعٍ أو دمٍ مُوجِعٍ.

هذهِ الأخبارُ كلُّها تدلُّ على أنَّ الغارِمَ موضِعٌ لِلصَّدَقَةِ؛ قَلَّ دَينُهُ، أو كَثُرَ. فإنْ قيلَ في الخبرِ: أو غُرْمٍ مُفْظِعٍ: قيلَ لا خِلافَ بَينَهُمْ في أنَّ مَنْ دَينُهُ غيرُ مُفْظِعٍ فَلَهُ أنْ يأخُذَ بِقَدْرِ دَينِهِ مِنَ الصَّدَقَةِ. فهذا يدلُّ أنَّ الذي رُوِيَ في الخَبَرِ إنما هو لِكَراهةِ المسألةِ لا على التحريمِ. وهكذا نقولُ: إنَّ المسألَةَ لا تَحِلُّ لهُ إذا كانَ غُرْمُهُ غيرَ مُفْظِعٍ، ولكنْ يَحِلُّ وَضْعُهُ فيه وأخذُهُ لَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ المُنقَطِعُ عن مالِهِ، جَعَلَهُ اللهُ مَوضِعاً للصَّدَقَةِ. فإنْ كانَ غَنِيّاً في مُقامِهِ للحاجةِ التي بَدَتْ لهُ. وعلى ذلكَ رُوِيَ عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ عنِ النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ][8] قالَ: «لاتَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إلّا لغازٍ في سَبيلِ اللهِ وابنِ السَّبيلِ أو رجلٍ لهُ جارٌ مسكينٌ، تُصُدِّقَ عليه، فأهْدَى لهُ» [أبو داوود١٦٣٥].

وفي بعضِ الأخبارِ عنهُ ما ذكرْنا [أنهُ][9] قالَ: «لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إلّا لِخَمْسَةٍ» وفيهِ: «أو فقيرٍ تُصُدِّقَ عليهِ فأهداها لِلغَنِيِّ» [أبو داوود١٦٦٥] وقد يكونُ الرجلُ غنياً بأنْ يكونَ لهُ دارٌ يَسكُنُها ومتاعُ تَهَيُّأَةٍ[10]، وثيابٌ، عَزَمَ على الخروجِ في سَفَرِ غَزْوٍ، احتاجَ إلى[11] آلاتِ سَفَرِهِ وسلاحٍ يَستَعمِلُهُ في غَزْوِهِ ومركَبٍ يَغزُو عليهِ وخادمٍ لِيَستَغْنِيَ بِخِدمَتِهِ ما[12] لم يكنْ محتاجاً إليهِ في حالِ إقامَتِهِ، فيجوزُ أنْ يُعطَى مِنَ الصَّدَقَةِ ما يَستَغْنِي بهِ في حوائجِهِ التي يُحدِثُها سَفَرُهُ[13].

فهو في مُقامِهِ غَنِيٌّ بما يَملِكُهُ لأنهُ غيرُ مُحتاجٍ حينئذٍ إلى ما وصَفْنا، وهو في حالِ سَفَرِهِ غيرُ غَنِيٍّ، فَيَحتَمِلُ أنْ يكونَ مَعنَى قولِهِ: «لا تَحِلُّ الصدقَةُ لِغَنِيٍّ إلا لِغازٍ في سَبيلِ اللهِ» على مَنْ كانَ غنيّاً في حالِ مُقامِهِ، فَيُعطَى بعضَ ما يَحتاجُ إليهِ لِسَفرِهِ لِما أحْدَثَ لهُ السَّفَرُ مِنَ الحاجةِ.

ألا تَرَى أنَّ الرجلَ قد يكونُ لهُ المَتاعُ لا يَحتاجُ إليهِ، والدابَّةُ لا يَركَبُها، فإذا صارَ ذلكَ مِئَتَي درهم لم يَجُزْ لهُ أنْ يأخُذَ مِنَ الزكاةِ، فإنْ عَرَضَ لهُ مَرَضٌ أو سَفَرٌ، فاحتاجَ إلى دابَّةٍ لِيَركَبَها فإنهُ[14] يَخرُجُ مِنَ الغِنَى بما حَدَثَ لهُ مِنَ الحاجةِ إلى الركوبِ، وكانَ لهُ أنْ يأخُذَ مِنَ الصَّدَقَةِ عندَنا لا يَستَغْنِي عما هو لهُ، وإنما الغَنِيُّ مَنِ استَغْنَى عمّا يَملِكُهُ؟

---

(١) في الأصل: والإيمان بآخر، في م: ولا إيمان بآخر. (٢) من م، في الأصل: جميع. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل: إلا بإحدى ثلاث من، في م: إلا إحدى ثلاث من. (٦) في الأصل وم: يحل إلا لخمس للعامل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل و م: يتهياه. (١١) في الأصل و م: من. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: إلى. (١٣) في الأصل و م: لسفره. (١٤) الفاء ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

فكذلكَ الغارِمُ على العُرْفِ قد تَحْدُثُ لهُ الحاجةُ إلى أكثَرَ ممّا يَمْلِكُ، ويَصيرُ[1] مِمّنْ يجوزُ أنْ يُعانَ، وإنْ كانَ مُلْكُهُ الذي كانَ بهِ غنيّاً قبلَ ذلكَ لم يَنْقُصْ. فهذا، واللهُ أعلمُ، يُحْتَمَلُ.

وابنُ السبيلِ أيضاً ما ذكَرْنا أيضاً مِنَ الخَبَرِ ألّا تَحِلَّ الصَّدَقَةُ لِغَنيٍّ إلّا لابْنِ السَّبيلِ ومَنْ ذُكِرَ معَهُ.

وعلى ذلكَ اتّفاقُ الأئِمّةِ[2]، وهو ما قِيلَ: المُجتازُ مِنْ أرضٍ إلى أرضٍ. وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما في تأويلِ قولِهِ: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ هوَ المسافرُ، وهو ما ذكَرْنا أنهُ المُنْقَطِعُ عنْ مالِهِ، وإنْ كانَ غَنيّاً في مُقامِهِ، والفقيرُ الذي يجوزُ أنْ يُعْطَى مِنَ الصَّدَقَةِ بما رُوِيَ عنِ الحَسَنِ بْنِ عليٍّ رضي الله عنهما [أنهُ][3] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «للسائلِ حقٌّ، وإنْ جاءَ على فَرَسٍ» [أبو داوود: ١٦٦٥] وعن أبي هُريرةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ][4] قالَ: «لا يَسْألُ عبدٌ أو أحدٌ مسألةً، ولهُ ما يُغْنيهِ إلّا جاءَتْ يومَ القيامةِ خُدوشاً أو كُدوحاً في وجهِهِ، قالَ: يارسولَ اللهِ وماذا يُغْنِيهِ؟ أو ما أغناهُ؟ قالَ: «خمسونَ درهماً أو حِسابُها مِنَ الذَّهَبِ» [عن ابن مسعود: أبو داوود ١٦٢٦].

وفي بعضِ الأخبارِ: «مَنْ سألَ، ولهُ أربعونَ درهماً، فقد ألْحَفَ» [النسائي ٥/ ٩٨] وعن عليٍّ وعبدِ اللهِ [أنهما][5] قالا: لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِمَنْ لهُ خمسونَ درهماً أو عِوَضُها مِنَ الذهبِ، وعنْ عُمَرَ كذلكَ. وعنِ ابنِ عباسٍ [أنهُ][6] قالَ: «سألَ رجلٌ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: إنَّ لي أربعينَ[7] درهماً، مُسْتَكْثِرٌ أنا؟ قالَ نعم» [أبو داوود ١٦٣٤].

وفي بَعْضِ الأخبارِ عنْ أبي هريرةَ [أنهُ][8] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنيٍّ ولا لِذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ» وفي بعضِ الأخبارِ «لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ» [أبو داوود ١٦٣٣] وإنما يَحْتَمِلُ قولُهُ: «لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنيٍّ ولا لِذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ» [تخريجَهُ على][9] الزَّجْرِ عنِ العَرْضِ على الصَّدَقَةِ والمسألةِ عليها.

ألا تَرَى أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ «إنَّ الصَّدَقَةَ لا تَحِلُّ لِغَنيٍّ إلّا لِثلاثٍ» فذكَرَ أحدَها «أو فَقْرٍ مُدْقِعٍ» فذلكَ يُبيحُ لِذي المِرَّةِ السَّويِّ أنْ يَقْبَلَ؟

ألا تَرَى أنَّ الرجلَيْنِ[10] اللّذينِ سألا رسولَ اللهِ ﷺ قالَ لهما: «إنْ شِئْتُما أعطيْتُكُما»؟ فلو كانَ حَراماً عليهما ما أعطاهما الحَرامَ، ولكنَّ ذلكَ على الزَّجْرِ عنِ المسألةِ.

ورُوِيَ عنْ سَلْمانَ أنهُ حَمَلَ إلى رسولِ اللهِ صدقةً، فقالَ لأصحابِهِ: كُلُوا، ولم يأكُلْ، هو، ولا يَتَوَهَّمُ مُتَوَهِّمٌ أنَّ أصحابَهُ كانُوا زَمْنَى، فهذا يُبيِّنُ أنَّ النَّبيَّ أرادَ الزَّجْرَ عنِ المسألةِ والتَّعَرُّضَ لها في حالِ الضرورةِ لا على التَّحْريمِ لها، وأنَّ مَنْ أخَذَها، ولهُ أقَلُّ مِنْ مِئَتَي درهمٍ، أو قيمتُها، فَلَهُ في ما يَمْلِكُ سَدادٌ مِنْ عَيْشٍ، فذلكَ مَكْروهٌ.

ألا تَرَى أنهُ رُوِيَ عنِ الحَسَنِ أنهُ قالَ: كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ/ ٢١٧ - أ/ يأخذونَ الصَّدَقَةَ، ولأحَدِهِمْ مِنَ السلاحِ والكُراعِ والعَقارِ قيمةُ عشرةِ آلافِ درهمٍ، فهذا حَسَنٌ، والتَّعَفُّفُ عنها أحْسَنُ لِقَوْلِ رسولِ اللهِ ﷺ «مَنِ اسْتَغْنَى أغناهُ اللهُ، ومَنِ اسْتَعَفَّ أعَفَّهُ اللهُ» [النسائي ٥/ ٩٨]. وقولِهِ: «لأنْ يأخذَ أحدُكُمْ حَبْلاً فَيَحْتَطِبَ خيرٌ لهُ مِنْ أنْ يَسْألَ الناسَ شيئاً: أعطَوْهُ، أو مَنَعُوهُ» [البخاري ١٤٧١]

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ بما حَلَفُوا عليهِ. ذكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أنَّ الأنصارَ مَشَتْ إليهِمْ؛ يعني إلى المنافقينَ، فقالوا: تُعَيِّرونَنا[11] وما نَزَلَ فيكمْ، حتى متى؟ فكانُوا يَحْلِفونَ للأنصارِ: واللهِ ما كانَ شيءٌ مِنْ ذلكَ، فأكذبَهُمُ اللهُ، فقالَ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ ماكانَ الذي بَلَغَكُمْ ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ بما حَلَفُوا ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ﴾ منكُمْ يا مَعْشَرَ الأنصارِ ﴿أَن يُرْضُوهُ﴾ حينَ[12] اطَّلَعَ على ما حَلَفُوا، وهُمْ كَذَبَةٌ ﴿إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يقولُ: ولكنْ لَيْسُوا بمصدِّقينَ.

(١) في الأصل و م: وصار. (٢) في الأصل و م: الأمة. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل و م: أربعون. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) في الأصل و م: خرج عن. (١٠) في الأصل: الرجل، في م: الرجلان. (١١) في الأصل وم: عيرنا. (١٢) في الأصل و م: حيث.

جنة السنة

والأشبَهُ أنْ تكونَ الآيةُ نَزَلَتْ في مُعاتَبَةٍ جرَتْ بينَ المؤمنينَ والمُنافقينَ باستهزاءٍ كانَ منهُمْ برسولِ اللهِ أو طَعْنٍ فيهِ أوِ استِهزاءٍ بدينِ اللهِ، فاعتَذَروا إليهِمْ، وحَلَفُوا على ذلكَ لِيَرْضَوا، فقالَ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ حقيقةً، ولكنْ لَيسُوا بمؤمنينَ.

وأمّا ما قالَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ: أنَّ رجلاً مِنَ المُنافقينَ قالَ: واللهِ لَئِنْ كانَ ما يقولُ محمدٌ حقّاً فَلَنَحْنُ شرٌّ مِنَ الحُمُرِ، فَسمِعَها رجلٌ مِنَ المُسلمينَ، فأخبَرَ بذلكَ رسولَ اللهِ، فَدَعاهُ، فقالَ: ما حَمَلَكَ على الذي قُلْتَ؟ فَحَلَفَ، والْتَعَنَ ما قالَهُ، فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾.

هذا لو كانَ ما ذُكِرَ لكانوا يَحْلِفونَ لرسولِ اللهِ، لا يَحْلِفونَ لهمْ. دلَّ أنَّ الآيةَ في غيرِ ما ذُكِرَ.

ويُذكَرُ عنِ ابنِ عباسٍ أنَّ الآيةَ نزلَتْ في ناسٍ مِنَ المُنافِقِينَ، تَخَلَّفُوا عنْ رسولِ اللهِ في غَزْوَةِ تبوكَ، فَجَعَلُوا يَحْلِفونَ لرسولِ اللهِ حينَ رجَعَ أنهمْ لا يَتَخَلَّفُونَ عنهُ أبداً. وكذلكَ قالَ غيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ: لو[1] كانَ ما قالُوا لَكانُوا يَحْلِفونَ لِرسولِ اللهِ، لِيُرضُوهُ[2] لا لِلمُؤمنِينَ.

دلَّ أنَّ الأشبَهَ ما ذَكَرْنا، وفيهِ وجوهٌ:

أحَدُها: أنَّ فيهِ دلالةَ تحقيقِ رسالتِهِ ﷺ لِيَعْلَمُوا أنهُ حقٌّ حينَ[3] اطَّلَعَ عليهِ بما أسَرُّوا في أنْفُسِهِمْ، وكَتَمُوا مِنَ المَكْرِ بهِ وأنواعِ السَّفَهِ.

والثاني: لِيَحْذَرُوا، ويَمْتَنِعُوا عنْ مِثْلِهِ والمُعاوَدَةِ إليهِ، لَمّا عَلِمُوا أنهُ يَطَّلِعُ على جميعِ ما يُسِرّونَ عنهُ، ويَكْتُمونَ.

والثالثُ: [أنَّ فيهِ][4] تنبيهاً للمؤمنينَ وتعليماً لهمْ منهُ بأنهُ إذا وقعَ لهمْ مثلُ ذلكَ لا يَشْتَغِلونَ بالحَلْفِ طَلَبَ[5] إرضاءِ بعضِهِمْ بعضاً، ولكنْ يَتوبونَ إلى اللهِ، ويَطلبونَ بهِ مَرْضاتَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ ذَكَرَ نَفْسَهُ ورسولَهُ، ثم أضافَ الرِّضا إلى رسولِهِ بقولِهِ: ﴿أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ ولم يَقُلْ: أحَقُّ أنْ يُرْضُوهُما. فهو، واللهُ أعلَمُ، لأنهمْ إذا أرضَوا رسولَهُ ﷺ، كانَ في إرضائِهِمْ رسولَهُ إرضاءُ اللهِ؛ وهو ما ذَكَرَ أنهمْ دُعُوا إلى اللهِ ورسولِهِ.

ثم أضافَ الحُكْمَ إلى رسولِهِ لأنهمْ إنما دُعُوا أنْ يَحْكُمَ الرسولُ بينَهُمْ بقولِهِ[6]: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ لأنَّ الخِلافَ والخِيانَةَ كانَ في حَقِّ اللهِ وفي حَقِّ رسولِهِ، لم يكنْ في حَقِّ المؤمنينَ. لِذلكَ قالَ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ مِنَ المؤمنِينَ.

ثم ذَكَرَ مُخادَعَةَ اللهِ ورسولِهِ، ثم اقْتَصَرَ على إرضاءِ رسولِهِ لأنهمْ لم يَقْصِدوا قَصْدَ مُخالَفَةِ رسولِهِ، أو أنْ يكونَ ذَكَرَ إرضاءَ أحَدِهِما لأنَّ في إرضاءِ رسولِهِ إرضاءَ الربِّ كقولِهِ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الآيةِ دلالةُ أنهمْ عُلِمُوا أنهمْ مُعانِدونَ[7] في صَنيعِهِمْ، وعَلِمُوا أنَّ منْ عانَدَ، وكابَرَ بغيرِ حقٍّ ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ يَحْتَمِلُ يُعانِدِ اللهَ، وقيلَ: يُشاقِقِ اللهَ، ويُخالِفِ اللهَ، وهو واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ يُخرَجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي قد عَلِموا ﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ﴾ ما ذَكَرَ، لكنهُمْ عانَدوا بالخِلافِ[8] والمُحادَّةِ مَعَ عِلمِهِمْ.

(١) أدرج قبلها في الأصل و م: ولكن. (٢) في الأصل وم: ويرضونه. (٣) في الأصل و م: حيث. (٤) ساقطة في الأصل و م. (٥) من م، في الأصل و م: طلباً. (٦) في الأصل و م: وقوله. (٧) في الأصل و م: معاندين. (٨) الباء ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

والثاني: أي عَلِمُوا ﴿أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ﴾ ما ذَكَرْنا أنَّ حَرْفَ الاستِفهامِ مِنَ اللهِ يُخَرَّجُ على الإيجابِ والإلزامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يَحتَمِلُ وجهَين: يَحتَمِلُ الخِزيُ[1] الفَضيحةَ العظيمةَ في الدنيا، ويَحتَمِلُ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ﴾ في الآخرةِ[2] نارُ جهنَّمَ خِزيٌ عظيمٌ.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ على[3] الحقِّ عليهِمْ أنْ يَحذَرُوا لِما أطْلَعَهُمْ[4] اللهُ ورسولَهُ مِراراً [على ما][5] أسَرُّوا، وكَتَمُوا، ويَحتَمِلُ على الخَبَرِ أنهمْ كانُوا يَحذَرونَ ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ لِكَثرَةِ ما اطْلَعَ اللهُ ورسولُهُ مِن سَرائِرِهِمْ وسَفَهِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ فهو، واللهُ أعلَمُ، ليسَ على الأمرِ، ولكنْ على الوَعيدِ؛ يقولُ: استَهزِئوا فإنَّ اللهَ مُظهِرٌ ومُبيِّنٌ ما أسرَرتُمْ، وكَتَمتُمْ مِنَ العَيبِ والاستِهزاءِ برسولِهِ والطَّعنِ فيهِ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ذَكَرَ السؤالَ، ولم يُبيِّنْ عمّ[6] يَسألُهُمْ. ولكنْ في الجوابِ بيانُ أنَّ السؤالَ إنما كانَ على الاستِهزاءِ حينَ[7] قالَ: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ ذَكَرَ أنَّ فقراءَ مِنَ المُنافقينَ كانوا اختَفَوا في بعضِ الطريقِ لِيَمُرَّ رسولُ اللهِ، [وهو راجعٌ][8] مِنَ الغَزوِ، فَيَقتُلونَهُ، فأطْلَعَ اللهُ نَبيَّهُ على إجماعِهِمْ في ذلكَ أنهُ لماذا؟ فقالَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

وذَكَرَ بَعضُ أهلِ التأويلِ أنَّ النَّبيَّ لَمّا رَجَعَ مِنْ غَزوَةِ تبوكَ، بَينا هو يَسيرُ إذا[9] هو برَهطٍ يَسيرونَ بَينَ يدَيهِ، يَضحَكونَ، ويَستَهزِئونَ بهِ[10]، فأطلَعَ اللهُ رسولَهُ أنهمْ يَستَهزِئونَ باللهِ وكتابِهِ ورسولِهِ، فقالَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ وقيلَ بغيرِ ذلكَ. وقيلَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي لو سألتَهُمْ ما تقولونَ؟ يقولونَ[11] لكَ مِمّا يَخوضُ فيهِ الركبُ إذا ساروا، وليسَ لنا إلى معرفةِ كيفيةِ استِهزائِهِمْ حاجةٌ ولا ماهيَّتِهِ سِوى أنَّ في ما ذُكِرَ لنا مِنْ خَبَرِ المنافقينَ تَنبيهاً[12] للمؤمنينَ وتَحذيراً[13] لهمْ لِيَحذَرُوا إسرارَ ما لم يُظهِروا على ألسِنَتِهِمْ، لِيَعلَمُوا أنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على ما يُسِرُّونَ، ويُضمِرونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ قولُهُ: ﴿أَبِٱللَّهِ﴾ تحتمِلُ الإضافةُ إلى نَفْسِهِ إضافةً إلى نفسِ المؤمنينَ لأنهُ لا أحدَ يَقصِدُ قَصدَ الاستِهزاءِ باللهِ، ولكنهُمْ كانوا يَستَهزِئونَ بالأحكامِ، فأضافَ الاستِهزاءَ إلى الآياتِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ [البقرة: ٢٣١] هُمْ لم يَتَّخِذوا آياتِ اللهِ هُزُواً، ولكنْ هَزِئوا بالأحكامِ التي لها آياتٌ. أضافَ الهُزءَ إلى آياتِهِ. ومَنِ استَخَفَّ بِحُكمٍ مِنَ الأحكامِ[14] التي لها آياتٌ كان [ذلكَ][15] استِخفافاً بآياتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أي لا تَعتَذِروا فإنهُ لا يَقبَلُ اعتِذارَكُمْ لِما لا عُذرَ لكُمْ في ما تَعتَذِرونَ بعدَ ما قُلتُمْ: إنهُ أُذُنٌ لِما ظَهَرَ منكُمْ [مِنَ][16] الخِلافِ والكذبِ في ذلكَ كقولِهِ: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤] أخبَرَ أنهُ لا يُصدِّقُهُمْ في ما اعتَذَروا لِما ظَهَرَ كَذِبُهُمْ، وتَبيَّنَ خِلافُهُمْ.

وقولُهُ تعالى/ ٢١٧ ـ ب/ ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ يَحتَمِلُ كَفَرتُمْ في الباطنِ بَعدَ ما أظهَرتُمْ باللسانِ، ويَحتَمِلُ ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ حقيقةً: قد كَفَروا بعد ما آمَنوا.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: أي. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: أي. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: اطلع. (٥) في الأصل وم: مما. (٦) في الأصل وم: مم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: ويرجع. (٩) في م: إذ. (١٠) في الأصل: بلك، ساقطة من م. (١١) في الأصل وم: فيقولون. (١٢) في الأصل وم: تنبيه. (١٣) في الأصل وم: وتحذير. (١٤) في الأصل وم: أحكام. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ قال بعضُهم: قولُهُ: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ﴾ وذلكَ أنَّ المنافِقِينَ قد آمَنَ منهُمْ [مَنْ آمَنَ][1] بعدَ النِّفاقِ، وتابَ، فأخبَرَ أنهُ إنْ يَعفُ عنهُمْ يُعَذِّبِ الطائفةَ الذينَ لم يؤمِنُوا ولم يتوبوا.

وقيلَ: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ لأنَّ المُنافِقِينَ [منهُمْ][2] مَنْ قد ماتَ على الكفرِ، فوَعَدَ العَفْوَ عَمَّنْ ماتَ على الإيمانِ كقولِهِ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤] أخبَرَ أنهُ إنْ شاءَ تابَ عليهِمْ. فقولُهُ: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ﴾ التي يتوبُ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: على الإيجابِ أي يَفْعَلُونَ باللهِ ورسولِهِ ذلكَ.

والثاني[3]: على التَّوعيدِ والتَّوبيخِ: أباللهِ يَفْعَلُونَ هذا؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ ذَكَرَ في أهلِ الإيمانِ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ بقولِهِ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] وذكَرَ في الكافرينَ الوَلايةَ لبَعْضِهِمْ بِبَعضٍ بقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣] وقالَ في المنافِقِينَ: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

فهو، واللهُ أعلمُ، أنَّ لأهلِ الإيمانِ دِيناً[4] يَدينونَ بهِ، ويَتَناصَرونَ، ويَدْعُونَ الناسَ إليهِ، وأهلَ الكُفْرِ يَدينونَ أيضاً بدِينٍ، يَتَناصَرونَ بهِ، ويُعاوِنُ[5] بعضُهُمْ بعضاً. فصارَ لكلِّ واحدٍ مِنَ الفريقَينِ مُوالاةٌ في ما بينَهُمْ مُولاةَ الدينِ.

وأمَّا المُنافِقونَ فإنهم لا دينَ لهمْ، يدينونَ بهِ، ولا مذهبَ، يَنْتَحِلُونَهُ، ولا يُناصِرُ [بعضُهُمْ بَعْضاً، ولا يُعاوِنُ بعضُهُمْ بعضاً ولا يَجْري بينَهُمُ التَّناصُرُ][6] والتَّعاوُنُ. فإنَّما هُمْ عُبّادُ النِّعْمَةِ والسَّعَةِ؛ مالُوا حيثما مالَتِ النِّعْمَةُ والسَّعَةُ، فلا مُوالاةَ في ما بَيْنَهُمْ لِما ذَكَرْنا.

وفي قولِهِ ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ دلالةُ أنَّ مَنْ نافَقَ بالتقليدِ لآخَرَ [ومَنْ][7] نافَقَ لا بِتَقليدٍ سَواءٌ في اسْتِيجابِ الاِسْمِ والتَّعْذيبِ في ذلكَ والوعيدِ؛ لأنَّ النساءَ هُنَّ[8] أتباعٌ وأهلُ تَقْليدٍ لِلرِّجالِ. ثم سَوَّى بَيْنَهُمْ وبينَ النساءِ في الاِسْمِ والوَعيدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ أي ما تُنْكِرُهُ العُقولُ، وهو الشِّرْكُ باللهِ والخِلافُ لهُ ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي يَنْهَونَ عما تَعْرِفُهُ العقولُ، وتَسْتَحْسِنُهُ، وهو التوحيدُ للهِ والإيمانُ بهِ. ويدخُلُ في ذلكَ كلُّ خيرٍ وحَسَنٍ، وفي المُنْكَرِ يدخُلُ الشِّرْكُ وكلُّ مَعْصِيَةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ قيلَ ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عنِ الإنفاقِ في سَبيلِ الخَيرِ. لكنْ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على التَّمْثيلِ لا على تحقيقِ قَبْضِ اليَدِ، ولكنْ على كَفِّ النَّفْسِ ومَنْعِها مِنَ الاِشْتِغالِ بالخيراتِ وخَوضِها فيها وفي جميعِ الطاعاتِ. ولكنهُ ذَكَرَ باليَدِ لِما بالأيدي يُعْمَلُ، وبها[9] تُكْتَسَبُ الخيراتُ والسَّيِّئاتُ كقولِهِ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨١و١٨٢]. وذلكَ ممّا لم تُقَدِّمْهُ الأيدي، ولا كَسَبَتْ، لكنهُ ذَكَرَ القَلْبَ لِما ذَكَرْنا أنهُ باليَدِ ما يُقَدَّمُ، وبها يُقْبَضُ في الشاهدِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ قَبْضٍ كنايةً عن بُخلِهِمْ وقِلَّةِ إنفاقِهِمْ في الجهادِ كقولِهِ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ قيلَ [فيهِ بوجوهٍ:

أحدُها][10]: جَعَلُوا اللهَ ﷻ كالشَّيءِ المَنْسِيِّ، لا يَذْكُرونَهُ أبداً، فَنَسِيَهُمْ؛ أي جَعَلَهُمْ كالمَنْسِيِّينَ في الآخِرَةِ من رَحْمَةٍ لا ينالُونَها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ويحتمل. (٤) في الأصل و م: دين. (٥) في الأصل و م: ويتعاون. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: من. (٩) أدرج قبلها في الأصل بها، في م: بها. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

والثاني[1]: يَحتَمِلُ ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي نَسُوا نِعَمَ اللهِ التي أنْعَمَها عليهِمْ، فلم يَشكُرُوها، فَنَسِيَهُمْ على المُجازاةِ لِذلكَ، وإنْ لم يكُنْ نَسْياً كما سَمّى جزاءَ السَّيئةِ سَيّئَةً، وإنْ لم يكنِ الثاني سَيّئَةً. فَعَلَى ذلك ذَكَرَ النسيانَ على مُجازاةِ النِّسيانِ، وإنْ لم يَحْتَمِلِ النِّسيانَ.

والثالثُ: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي بِسُؤالِ المَعونَةِ والنُّصْرَةِ وسُؤالِ التوفيقِ ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ اللهُ، أي لَمْ يَنْصُرْهُمْ، ولم يُوَفِّقْهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فإنْ قيلَ: اسْمُ النِّفاقِ أشَرُّ وأقْبَحُ مِنِ اسْمِ الفِسْقِ، فما مَعْنَى ذِكْرِ الفِسْقِ لهمْ؟ فهو، واللهُ أعلَمُ، لأنهمْ كانُوا يُظْهِرونَ المُوافَقَةَ للمؤمنينَ باللسانِ، فأخْبَرَ أنهمْ ليسُوا على ما أظْهَرُوا، واللهُ أعْلَمُ، وأنْ يكونَ اسْمُ النِّفاقِ أشَرَّ وأقْبَحَ عندَ الناسِ مِنِ اسْمِ الفِسْقِ فعندَهُمْ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ اسْمُ الفِسْقِ أكْبَرَ في القُبْحِ، أو سَمّاهُمْ فاسِقينَ لِما أنَّ كلَّ أهلِ هذهِ الأديانِ يأنَفُونَ مِنَ النسبَةِ إلى الفِسْقِ والتَّسْمِيَةِ بهِ، أو أنْ يكونوا يَعْلَمونَ في أنْفُسِهِمْ أنهمْ أهلُ نِفاقٍ، ولا يَعْرِفونَ أنهمْ فَسَقَةٌ. وأصلُ الفِسْقِ هو الخُروجُ عنْ أمرِ اللهِ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وعَدَ لهمْ نارَ جهنَّمَ. كأنَّ جهنَّمَ، هي المكانُ الذي يُعَذَّبونَ فيهِ، والنارُ فيهِ بها يُعَذَّبونَ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ جزاءُ لَصَنيعِهِمْ. يقولُ الرجلُ لآخَرَ: حسبُكَ كذا، أي كَفاكَ ذلكَ جزاءً لكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ قيلَ: اللَّعْنُ، هو الطَّرْدُ في اللغةِ؛ أي طَرَدَهُمْ عنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ لا يُفارِقُهُمُ البَتَّةَ.

الآية ٦٩

وقولُهُ تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ أي هؤلاءِ المنافقونَ[2] والكَفَرَةُ ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ولم يُبَيِّنْ كأولئكَ في ماذا؟ ولكنْ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ وبَطْشاً ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾.

وفي[3] الشاهدِ إنما يُدفَعُ العذابُ أو العقوبةُ بهذا. وبهِ يَتَناصَرُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ثم لم يَقْدِروا على دفعِ ذلكَ.

هذا قد قيلَ. وقيلَ: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي صِرْتُمْ وما اخْتَرْتُمْ مِنَ الأعمالِ كما صارَ أُولئكَ في ما اختاروا مِنَ الأعمالِ وكلِّ أنواعِ الخِلافِ للهِ وتكذيبِ الرسلِ وتَعاطِي ما لا يَحِلُّ، فَصِرْتُمْ أنتُمْ كما صارُوا هُمْ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ كما اسْتَمْتَعَ الذينَ مِنْ قبلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ. قيلَ: انْتَفَعُوا بِخلاقِهِمْ؛ أي أكَلْتُمْ أنتُمْ الدنيا بدِينِكُمْ كما أكَلَ أولئكَ الدنيا بدِينِهِمْ.

وقيلَ: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي بِنَصيبِهِمْ مِنَ الدنيا، ولم يُقَدِّمُوا شيئاً للآخِرَةِ، والخَلاقُ النَّصيبُ كقولِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧] أي لا نَصيبَ لهمْ. وقالَ أبو هريرَةَ: الخَلاقُ الدينُ، وكذلكَ قالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي بِدِينِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي خُضْتُمْ أنتُمْ في الباطِلِ والتكذيبِ كالذي خاضَ أولئكَ مِنَ الأُمَمِ الخالِيَةِ.

قالَ أبو عبيدةَ: قولُهُ ﴿وَخُضْتُمْ﴾ أي لَعِبْتُمْ ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي لَعِبوا بالتكذيبِ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فلا ثَوابَ لها في الدنيا والآخِرَةِ لأنها كانَتْ في غيرِ إيمانٍ. فَثَوابُ الأعمالِ إنما يكونُ في الآخِرَةِ بالإيمانِ ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ خُسْراناً بَيِّناً. وبُطْلانُ أعمالِهِمْ في الدنيا لِما لا يَقْبَلُ واحدٌ مِنَ الفريقَيْنِ مِنَ المؤمنينَ والكفارِ صَنيعَهُمْ لأنهمْ يُرُونَ مِنْ أنْفُسِهِمُ المُوافَقَةَ لِكلِّ واحدٍ منهُما، وما كانُوا مَعَ واحدٍ مِنَ الفريقَيْنِ كقولِهِ: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣]

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل و م: المنافقين. (٣) الواو ساقطة من م. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ﴾ إلى آخِرِهِ. يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحدُهما: قولُهُ: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ﴾ أي قد أتاهُمْ خَبَرُ ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وما حلَّ بِهِمْ وما انْتَقَمَ اللهُ منهُمْ بتكذيبِهِمُ الرسلَ وسَعْيِهِمْ في قَتْلِهِمْ وإهلاكِهِمْ، وهُمْ مِنْ جِنْسِ أنْفُسِكُمْ وأشَدُّ قُوّةً وبَطْشاً منكُمْ، وأنتُمْ تُقَلِّدونَهُمْ في ذلكَ. ثم حلَّ بهِمْ ما حلَّ بتكذيبِهِمْ والخِلافِ لهمْ. فأنْتُمْ دونَهُمْ في كلِّ شيءٍ، وأقَلُّ منهُمْ في القوةِ والبَطْشِ، أولَى بذلكَ أنْ يُصيبَكُمْ.

والثاني[1]: يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وما حلَّ بهِمْ كقولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ [البقرة: ٢٤٣و...] كذا، أي سَتَرى. فَعلى ذلكَ هذا يَحْتَمِلُ. وهو حَرْفُ وعيدٍ: يُحَذِّرُهُمْ ما حَلَّ بأولئكَ لِيَمْتَنِعوا عن مِثْلِ صَنيعِهِمْ.

وقولُهُ/٢١٨ ـ أ/ تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ في قرياتِ لوطٍ: مُؤْتَفِكاتٌ أي مُنقَلِباتٌ.

قالَ القُتَبِيُّ: ائْتَفَكَتْ: انقَلَبَتْ، وقالَ أبو عوسَجَةَ ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ هي مِنَ الإفكِ، وهو الصَّرْفُ [كقولِهِ تعالى][2]: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥و..] أي يُصْرَفونَ. وقالَ بَعْضُهُمْ ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ المُكَذِّباتِ ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فكَذَّبوهُمْ، فأُهلِكوا، وهو مِنَ الانْقِلابِ. كأنهُ أشبَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بِتَعْذيبِهِمْ إياهُمْ، وهُمْ غَيرُ مُسْتوجِبينَ لِذلكَ العذابِ ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حينَ[3] كَذَّبوا رُسُلَهُ، ورَدُّوا ما [جاؤوهُمْ بِهِ][4] مِنَ البَيِّناتِ والبَراهينِ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ على الإيجابِ والإخبارِ أنَّ الدينَ الذي اعْتَقَدوا، وتَمَسَّكوا بهِ، يُوجِبُ لهمُ الوِلايَةَ، ويَصيرُ بعضُهُمْ أولياءَ بعضٍ كقولِهِ ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣] وقولِهِ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ونَحْوُهُ؛ فهيَ أُخُوَّةُ الدينِ وَوِلايَتُهُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ على الأمرِ؛ أي اتَّخِذوا بَعْضَهُمْ أولياءَ بَعْضٍ، ولا تَتَّخِذوا غيرَهُمْ أولياءَ كقولِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١] وقولِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١] نَهى المؤمنينَ أنْ يَتَّخِذوا أولياءَ مِنْ غيرِهِمْ. فكأنهُ أمرَ أنْ يَتَّخِذَ المؤمنونَ بَعْضَهُمْ بعضاً أولياءَ، ولا يَتَّخِذوا مِنْ غيرِهِمْ.

ثم تَحْتَمِلُ الوَلايةُ وجهَينِ:

[أحدُهما][5]: وَلايةٌ روحانيَّةٌ، وهي وَلايةٌ في الدينِ، تُوجِبُ مُراعاةَ حقوقِ تَحْديثٍ بالدينِ الذي جَمَعَهُمْ وحِفْظَها.

والثانيةُ: وَلايةٌ نَفسانيَّةٌ، وهي الوَلايةُ التي تكونُ في الأنْفُسِ والأموالِ مِنْ نَحْوِ وَلايةِ النِّكاحِ والميراثِ وغيرِهِ؛ فهذهِ الوَلايةُ هي الوَلايةُ النَّفسانيَّةُ التي كانتْ بالرَّحِمِ والنَّسَبِ. فإذا اجْتَمَعوا في دينٍ واحدٍ وجَبَتْ تلكَ الوَلايةُ لهمْ، وهي الوَلايةُ نَفْسُها.

والوَلايةُ الروحانيَّةُ هي المَحَبَّةُ والمَوَدَّةُ، فيجبُ [مُراعاةُ الدينِ بها][6] وتَعاهُدُهُ. وهذا كما تقولُ: حياةٌ روحانيَّةٌ وَحياةٌ جَسَدانيةٌ. والحياةُ الروحانيَّةُ، هي العِلْمُ والآدابُ، تَرَى أشياءَ، وتَعْرِفُها مِنْ بُعْدٍ. والحياةُ الجَسَدانيَّةُ، وهي الروحُ الذي بِهِ يَحْيا الجَسَدُ، وبِذهابِهِ يموتُ الجَسَدُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يَحْتَمِلُ المَعْروفَ الذي توجِبُهُ العقولُ، وهو التوحيدُ للهِ والإيمانُ بهِ، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ يَنْهَونَ عمّا تُنْكِرُهُ[7] العقولُ، وهو الشِّرْكُ باللهِ والتكذيبُ لهُ. وهذا الأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عنِ المُنْكَرِ، هو في ما بينَ الكَفَرَةِ، يأمُرُهُمُ المؤمنونَ بذلكَ، ويَدعونَهُمْ إلى ذلكَ، ويَنْهَونَهُمْ[8] عَنْ ضِدِّ ذلكَ، وإنْ كانَ في مابينَ المؤمنينَ،

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: جاؤوا بهم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: مراعاته بالدين. (٧) في الأصل وم: تنكر به. (٨) في الأصل وم: وينهاهم.

فهو أمْرُ شَرْعٍ، ؛ يأمُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بما جاءَ بهِ الشَّرْعُ، ويَنْهاهُ عمّا لم يَجِئْ بهِ الشرعُ، أو يأمُرُ بعضُهُم بَعْضاً بكُلِّ خيرٍ وبِرٍّ، ويَنْهى عن كُلِّ شرٍّ ومَعْصِيَةٍ.

[وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في كُلِّ أمرِهِ ونَهْيِهِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ وَعَدَ أنهُ يَرْحَمُهُمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قيلَ: ﴿عَزِيزٌ﴾ تُرَى آثارُ عِزِّهِ في كلِّ شيءٍ ﴿حَكِيمٌ﴾ تُرَى آثارُ رَحْمَتِهِ وتدبيرِهِ في كلِّ شيءٍ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.

وقولُهُ تعالى ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي رِضا اللهِ عنهُمْ أكْبَرُ مِنْ كُلِّ ما أعطاهُمْ لأنَّ فيهِ حياةَ الروحِ، ولَذَّتَهُ، وما أعطاهُمْ مِنَ الجنّةِ والمساكِنِ الطّيِّبَةِ في حياةِ الجَسَدِ؛ لأنهُ لا تُؤَثِّرُ زيادةٌ في الجَسَدِ.

وكذلكَ العِزُّ والحَمْدُ وذِكْرُهُ[(٢)] الحَسَنُ: فيهِ حياةُ الروحِ ولذَّتُهُ؛ إذ ليسَ فيه زيادةٌ في الجَسَدِ، إنما هو فَرَحٌ وسرورٌ، يدخُلُ فيهِ. وإذا أصابَهُ شيءٌ مِنَ الذُّلِّ، وسَمِعَ مكروهاً، حِزِنَ، واهْتَمَّ مِنْ غيرِ أنْ يَتَألَّمَ جَسَدُهُ، أو يَجِدَ ألماً وشِدَّةً في نَفْسِهِ، وذلكَ لِما أصابَ روحَهُ، ولم[(٣)] يُصِبْ جَسَدَهُ.

وأصْلُهُ أنَّ العَمَلَ في الدنيا لِطَلَبِ مَرضاةِ اللهِ، ومَرضاتُهُ أكْبَرُ مِنَ العَمَلِ، يُطْلَبُ ثوابُهُ، لأنَّ العَمَلَ لِطَلَبِ الثوابِ أمرٌ لَهُ. فالذي قامَ بأداءِ ما عليهِ أعظَمُ درجةً وأكْبَرُ فَضْلاً مِنَ الذي قامَ بِعَمَلِ ما لَهُ [ثوابٌ][(٤)] لأنَّ كلَّ واحدٍ يَعْمَلُ ما لَهُ [ثوابٌ][(٥)] ولَهُ فيهِ نَفْعٌ. ولا كلُّ أحدٍ يَعْمَلُ لغيرِهِ. لذلكَ كانَ ما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنهُ فوزٌ ونَجاةٌ، لا خوفَ بَعْدَهُ، ولا هَوانَ، ولا ذُلَّ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ الأمرُ بالجهادِ الفريقَيْنِ جميعاً جِهاداً بالسيفِ. ويَحْتَمِلُ مُجاهَدَةً بالحُجَجِ والبراهينِ الفريقَيْنِ جميعاً. ويَحْتَمِلُ[(٦)] أيضاً الأمرُ بالمُجاهدةِ الكُفّارَ؛ يُجاهِدُهُمْ بالسيفِ، ويُغْلِظُ القولَ، ويُشَدِّدُهُ على المُنافِقِينَ، ويُقيمُ عليهِمُ الحُدودَ.

فإنْ كانَ على مُجاهدةِ الفريقَيْنِ جميعاً بالسيفِ فهو، واللهُ أعلَمُ في المنافِقِينَ الذينَ انْفَصَلُوا عنِ المؤمنينَ، وخرجوا مِنْ بَيْنِ أظْهُرِهِمْ، وأظْهَرُوا الخِلافَ للمؤمِنِينَ بَعْدَ ما أظْهَرُوا المُوافَقَةَ لهمْ. فأمثالُ هؤلاءِ يُجاهَدُونَ بالسيفِ، ويُقاتَلُونَ بهِ. وهو كقولِهِ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ الآيةَ[الأحزاب: ٦٠و ٦١] أخْبَرَ أنهم يُؤْخَذونَ، ويُقَتَّلُونَ أينما وُجِدوا. فَيُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيةُ في الأمرِ بالجهادِ في هؤلاءِ المنافقينَ[(٧)].

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنَّ المُنافِقِينَ كانُوا يَطْعَنُونَ في رسولِ اللهِ، ويَعيبونَ عليهِ، فأطْلَعَ اللهُ رسولَهُ على ذلكَ، وهُمْ قد عَلِمُوا أنَّ اللهَ أطْلَعَهُ على ما يَطْعَنونَ فيهِ، ويذكُرونَهُ بِسوءٍ، فيقولُ، واللهُ أعلَمُ: جاهِدْهُمْ إذا طَعَنُوا فيكَ، وذَكَروكَ بِسوءٍ بَعْدَ ذلكَ.

وإنْ كانَ الأمرُ على المُجاهَدَةِ بالحُجَجِ، فهو ﷺ قد كانَ حاجَّ الفريقَيْنِ جميعاً بالحُجَجِ، وخاصّةً سورةُ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ إنما نزلَتْ في مُحاجّةِ[(٨)] المُنافِقِينَ [ويَحْتَمِلُ الأمرُ بالجهادِ في الكُفّارِ خاصّةً، وفي المنافقينَ][(٩)] تغليظَ القولِ والتشديدَ وإقامةَ الحدودِ التي[(١٠)] ذَكَرْنا والتَّعزيرَ إذا ارْتَكَبُوا شيئاً ممّا يَجِبُ فيهِ الحَدُّ والتَّعزيرُ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ لِما أقاموا بَيْنَ أظْهُرِ المؤمنينَ مُظْهِرينَ لَهُمُ الموافقةَ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: الآيةُ نَزَلَتْ في شأنِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) و(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) الواو ساقطة من الأصل. (٧) من م، في الأصل: المنافقون. (٨) في الأصل وم: المحاجة. (٩) من م ساقطة من الأصل (١٠) في الأصل وم: الذي.

جنة السنة

رجلٍ مُنافقٍ قالَ[1] يوماً [[2]واللهِ لَئِنْ كانَ ما يَقولُ محمدٌ حقاً فَلَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الحَمير. فَسَمِعَ[3] ذلكَ غلامٌ، وهو ربيبُ ذلكَ القائلِ، فقالَ لهُ: تُبْ إلى اللهِ، وجاءَ هذا الغلامُ إلى النَّبِيِّ، فأخبَرَهُ، فأرسَلَ إليهِ النَّبِيُّ، فأتاهُ، فَجَعَلَ يَحلِفُ ما قالَ ذلكَ. فَنَزَلَتِ الآيةُ فيهِ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾.

لكنْ غيرَ هذا لكانَهُ أشبَهُ لأنَّ الآيةَ: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ وقولَ الرجلِ: لَئِنْ كانَ ما يَقولُ محمدٌ حقاً فَلَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الحَميرِ، هذا القولُ ليسَ هو كلامَ ذمٍّ ذمَّ بهِ نفسَهُ. وبَعْدُ فإنَّ الآيةَ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ هو[4] قولُ جماعةٍ.

وقيلَ: [نزلَتِ الآيةُ][5] في شأنِ عبدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ؛ قالَ لأصحابِهِ: واللهِ ما مَثَلُنا [ومَثَلُ][6] محمدٍ إلّا كما قالَ القائلُ: سَمِّنْ كلبَكَ يأكُلْكَ، وقالَ ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] فأخبرَ النَّبِيُّ بذلكَ، فدَعاهُ فسألَهُ، فَجَعَلَ يَحْلِفُ باللهِ ما قالَهُ.

لكنْ يُشبِهُ أن تكونَ الآيةُ صلةَ قولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية [التوبة: ٦٥] كانوا يَسْتَهْزِئونَ باللهِ وبآياتِهِ وبرسولِهِ، والاسْتِهْزاءُ بذلكَ كُفْرٌ. وإنْ قالوا قولَ كُفْرٍ، لم يُبَيِّنْ لنا ذلكَ فلا نُفَسِّرُهُ أنهمْ قالوا كذا لِما ليسَ لنا إلى معرفةِ ذلكَ القولِ الذي قالوهُ حاجةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ كَفَرُوا بَعْدَ ما أسْلَمُوا إسلامَ حقيقةٍ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ[﴿بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ بَعْدَ][7] ما أظهَروا الإسلامَ؛ أي رَجَعُوا عمّا أظْهَرُوا مِنَ الإسلامِ.

وفي الآيةِ دلالةُ أنَّ الإسلامَ والإيمانَ واحدٌ [لأنهُ][8] قالَ: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ وقالَ /٢١٨ - ب/ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ثم قالَ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ [آل عمران: ٨٥/ ٩٠] فدلَّ أنَّ الإسلامَ والإيمانَ واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ قيلَ هَمُّوا بقتلِ رسولِ اللهِ والمَكْرِ بهِ، فلم يَنالُوا ما هَمُّوا بهِ. وفيهِ دلالةُ إثباتِ الرسالةِ لَهُ، لأنهمْ أسَرُّوا ما هَمُّوا بهِ، ثم أُخْبِرَ عن ذلكَ، وهو غيبٌ، دلَّ أنهُ باللهِ عَلِمَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ الرجلَ الذي قالَ ذلكَ تابَ عن ذلكَ، فَقُبِلَ منهُ ذلكَ، وكانَ لهُ قَتْلٌ في الإسلامِ، فَوَداهُ رسولُ اللهِ ﷺ، فأعطاهُ دِيَتَهُ، فاسْتَغْنى بذلكَ.

وقالَ ابْنُ عباسٍ رضي الله عنهما: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُعْطي المُنافِقينَ مِنَ الغَنائِمِ والصَّدَقاتِ، يقولُ ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا﴾ ماأعطاهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الغَنيمةِ والصدقةِ.

وقولُهُ تعالى ﴿نَقَمُوا﴾ قالَ بعضُ أهلِ الأدبِ: أبو مُعاذٍ وغيرُهُ: نَقَمُوا أي طَعَنُوا، فيهِ لُغتانِ؛ نَقِمُوا بالخَفْضِ، ونَقَمُوا بالنَّصْبِ؛ يُقالُ: نَقِمَ يَنْقَمُ بِكسرِ القافِ فهو، واللهُ أعلَمُ، يقولُ: ما طَعَنوا رسولَ اللهِ ﷺ وما ذَكَرُوهُ بِسوءٍ ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ﴾ لأنهمْ لو كانوا أهلَ فَقْرٍ وحاجةٍ ما[9] اجْتَرَؤُوا على الطَّعْنِ على رسولِ اللهِ، وما ذَكَرُوه بِسوءٍ، ولكنْ طَعَنُوا عليهِ لِمّا أغناهُمُ اللهُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ ما عامَلَهُمْ رسولُ اللهِ معامَلَةَ الكِرامِ، وبَسَطَ إليهِمْ حتى قالُوا: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١] يَقْبَلُ العذرَ، فلذلكَ حَمَلَهُمْ على الطعْنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فيهِ أنَّ المنافِقينَ يَقْبَلُ منهم التوبَةَ ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَتَوَلَّوْا﴾ بعدَ ما أسْلَمُوا، ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَتَوَلَّوْا﴾ أي داموا على الكُفْرِ والنِّفاقِ ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بما ذَكَرْنا: في الدنيا الأمرَ بالجِهادِ والقَتْلِ والخَوفِ. هذا التعذيبُ في الدنيا. والتعذيبُ في الآخِرَةِ ظاهرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. قد ذَكَرْنا هذا في مَوضِعٍ غيرِ هذا.

---

(١) من م، في الأصل: قالوا. (٢) من هنا يبدأ النقص من م وسينتهي ص ٤٣٥، انظر الحاشية الرابعة فيها. (٣) في الأصل: فسمعه. (٤) في الأصل: فهو. (٥) في الأصل: نزل (٦) ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: وما.

جنة السنة

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: نزلَتِ الآيةُ في ثَعْلَبَةَ بْنِ حاطِبٍ؛ سألَ رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يَدْعُوَ اللهَ لِيَرْزُقَهُ مالاً، وقالَ: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: إنها نَزَلَتْ في حاطِبِ بْنِ أبي بَلْتَعَةَ؛ إنهُ كانَ لهُ أموالٌ في الشامِ، قالَ: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا﴾ تلكَ الأموالَ لأصَّدَّقَنَّ، وأكُنْ مِنَ الصالحينَ. فقد آتاهُ اللهُ تلكَ الأموالَ، فَبَخِلَ، ومَنَعَ ما وَعَدَ.

ومنهمْ منْ قالَ: نزلَتْ في المُنافِقينَ جُمْلَةً، ليسَتْ في شأنِ واحدٍ منصوصٍ مُشارٍ إليهِ، ولكنْ في المُنافقينَ جملةً. وهكذا كانَتْ عادتُهُمْ أنهمْ إذا وَعَدوا شيئاً أخلَفوا، ولم يُوفُوا الوعدَ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ أنهُ كانَ مُنافِقاً وقتَ ما وعدَ اللهَ لَئِنْ آتاهُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ لَيَصَّدَّقَنَّ. ويَحْتَمِلُ أنهُ لم يكنْ مُنافقاً في ذلكَ الوقتِ، لكنهُ صارَ بما بَخِلَ، وكذبَ، واعْتَقَدَ الخِلافَ، واسْتَحَلَّ الخُلْفَ لِما وعدَ [فصارَ][1] مُنافقاً.

فإنْ كانَ إنما صارَ مُنافقاً بما بَخِلَ، [واستحلَّهُ، وامتنعَ، يكُنْ][2] قولُهُ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٧] أي صارَ في قلوبِهِمْ نِفاقٌ[3]. وإنْ كانَ مُنافقاً في ذلكَ الوقتِ يكُنْ[4] قولُهُ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي أعقبَهُمُ الدوامَ على النفاقِ إلى يومِ القيامَةِ بِبُخْلِهِمْ ومَنْعِهِمْ ما وعَدُوا. فيكونُ هذا كقولِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ الآية [التوبة: ٥٨].

وفي قولِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ إلى قولِهِ ﴿أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧] دلالةُ أنَّ النُّذورَ تَلْزَمُ أهلَها، ويَجِبُ الوفاءُ بها، ويُؤاخَذونَ بها إنْ تَرَكوا الوفاءَ، ويَكْفُرونَ إنِ اسْتَحَلُّوا نَقْضَ ما عاهَدوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: مِنَ المؤمنينَ، فهو على تأويلِ مَنْ قالَ: إنهُ كانَ مُنافِقاً وقْتَئِذٍ. ويَحْتَمِلُ ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي مِنَ الشاكرينَ. وكذلكَ ذُكِرَ في الخَبَرِ أنَّ ثَعْلَبَةَ [بْنَ حاطبِ الأنصاريَّ][5] لمّا سألَ رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يسألَ اللهَ لهُ مالاً، قالَ[6] لهُ «قليلٌ تُؤَدّي شُكْرَهُ خيرٌ مِنْ كثيرٍ لا تُؤَدّي حقَّهُ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ج١٠/ ١٨٩] أو كلاماً[7] مِنْ نَحْوِ هذا.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عن وفاءِ ما وَعَدوا، أو ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عنْ طاعةِ اللهِ، أو ﴿وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عمّا وَعَدوا، وعاهَدوا أنْ يُوفوا.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أثابَهُمْ نِفاقاً بما بَخِلوا إلى يوم القيامةِ. وقالَ بعضُهُمْ: أعْقَبَهُمُ الدَّوامَ على النِّفاقِ بما أخْلَفوا اللهَ ما وَعَدوهُ وبما كانوا يُكَذِّبونَ. يَنْبَغي لِلْمُسْلِمِ أنْ يَجْتَنِبَ الكذبَ والخُلْفَ في الوعدِ فإنهُ سَبَبُ النِّفاقِ، أو نوعٌ مِنَ النِّفاقِ. وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ: «أنِ اجْتَنِبوا الكذبَ فإنهُ بابٌ مِنَ النِّفاقِ، وعليكُمْ بالصِّدْقِ فإنهُ بابٌ مِنَ الإيمانِ» [السيوطي في الدر المنثور٤/ ٢٤٨].

وفي بَعْضِها عنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كانَ منافِقاً: مَنْ إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ» [البخاري٣٤] وفي بَعْضِها: «وإذا ائْتُمِنَ خانَ».

فإنْ قيلَ: إنَّ أولادَ يَعْقوبَ ائْتُمِنوا، فخانوا، وحَدَّثوا، فَكَذَبوا، بقولِهِمْ ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧] ووَعَدوا، فأخلَفوا، فَنَرى أنهمْ نافَقوا. قيلَ: ما رُوِيَ أنَّ مَنْ إذا حدَّثَ كَذَبَ في أمْرِ الدينِ، وأمّا الكَذِبُ في غَيرِ أمرِ الدينِ فإنهُ لا يوجِبُ النِّفاقَ.

وفي الآيةِ دلالةُ ألّا يُنَصَّ بالسؤالِ في شيءٍ على غيرِ طَلَبِ الخِيرَةِ في ذلكَ مِنَ اللهِ.

ألا تَرى أنَّ ثَعْلَبَةَ [بْنَ حاطبِ الأنصاريَّ][8] لمّا ألَحَّ على رسولِ اللهِ ﷺ في السؤالِ أنْ يَسْألَ ربَّهُ لِيَرْزُقَهُ مالاً فَعَلَ[9]، فأعْقَبَهُ اللهُ النِّفاقَ إلى يومِ القيامةِ؟ وأنَّ[10] أولادَ يعقوبَ، قد قَدَّموا التوبةَ والإصلاحَ قبلَ صَنيعِهِمُ الذي صَنَعوا على خوفٍ منهُمْ بما فَعَلوا، فلم يَصيروا مُنافقينَ؟

(١) ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: واستحل له والمنع فيكون. (٣) في الأصل: نفاقاً. (٤) في الأصل: فيكون. (٥) ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل: فقال. (٧) في الأصل: كلام. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: ففعل. (١٠) في الأصل: ولأن.

جنة السنة

وأصلُهُ أنّ اعتِقادَ الكذبِ واستِحلالَ الخِلافِ لِما عَهِدوا الخُلفَ في الوعْدِ هو الموجِبُ لِلنِّفاقِ. فأمَّا نَزَلَ فِعْلُ الوفاءِ على غَيرِ استِحلالٍ مِنهُ فلا يُوجِبُ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجهَينِ:

[أحدُهُما][1]: أنْ قد عَلِموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ لكثرَةِ ما يُطْلِعُ رسولَهُ على ما أسَرُّوا مِنَ الخِلافِ لهُ وذِكْرِهِمُ السوءَ في رسولِ اللهِ ﷺ.

والثاني: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ أي ألَمْ يَعْلَمُوا أنّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ ونَجواهُمْ، ويُطْلِعُ[2] رسولَهُ على سِرِّهِمْ ونجواهُمْ؟ فاترُكوا الطَّعْنَ في رسولِ اللهِ وذِكْرَ السوءِ فيهِ والخِلافَ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي غَلّابُ الغُيوبِ، أو ﴿عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ بما يكونُ غائباً[3] عنِ الخَلْقِ؛ وعَلّامٌ[4] ليسَ شيءٌ، يغيبُ عنهُ ما غابَ عنِ الخَلْقِ ومالم يَغِبْ، عندَهُ بمحلٍّ واحدٍ، أو عَلّامٌ بما يكونُ أبداً في الأوقاتِ التي يكونُ.

وفيه دلالةٌ أنهُ لم يزلْ علّاماً لأنّ عِلْمَ الغَيبِ هو ما عَلِمَ أنهُ يكونُ لا ما عَلِمَ، وهو كائنٌ. دلَّ أنهُ كانَ لم يَزَلْ عالماً لِما ذَكَرْنا.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ الآية؛ يُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيةُ صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ إلى قولِهِ ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ [التوبة: ٧٦] إنّ أهلَ النفاقِ كانوا أهلَ بُخلٍ، لا يُنْفِقونَ إلّا مُراآةً وسُمْعَةً، فظَنُّوا بِمَنْ أنْفَقَ مِنَ المسلمينَ، وتَصدَّقَ / ٢١٩ ـ أ/ ظَنّاً بأنْفُسِهِمْ، فقالوا: إنهمْ أنفَقوا، وتَصدَّقُوا مُراآةً وسُمْعَةً.

ذُكِرَ في بعضِ القصةِ أنّ عبدَ الرحمنِ بْنَ عَوفٍ أتى بِنِصْفِ مالِهِ في غَزْوَةِ تَبوكَ، يَتَقَرَّبُ بهِ إلى اللهِ، وقالَ: يانَبيَّ اللهِ هذا نِصْفُ مالي أتيتُكَ بهِ، وتَرَكْتُ نِصْفَهُ لِعِيالي، فَدَعا لهُ نَبيُّ اللهِ أنْ يُبارِكَ في ما أعطَى، وفي ما أمْسَكَ، فَلَمَزَهُ المنافِقونَ، وقالوا: ما أعْطَى إلّا رِياءً وسُمْعَةً. وجاءَ رجلٌ آخَرُ مِنْ فُقَراءِ المسلمينَ بصاعٍ مِنْ تَمْرٍ، فَنَشَرَهُ في تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فقالَ لهُ نَبيُّ اللهِ خيراً، ودَعا لهُ، فقالَ المُنافقونَ: إنّ اللهَ لَغَنيٌّ عن صاعِ هذا. فذلكَ لَمْزُهُمْ.

فأنزَلَ اللهُ تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ يعني الذي جاءَ بصاعٍ. قالَ القُتَبيُّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ أي يَعيبونَ المُطَّوِّعينَ بالصدقةِ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي طاقَتَهُمْ، والجُهْدُ الطاقَةُ، وقالَ: والجَهْدُ المَشَقَّةُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: الجُهْدُ إنفاقُ الرجلِ مِنَ الشيءِ القليلِ؛ يُقالُ: جَهَدَ الرجلُ إذا كانَ مِنَ الضَّعْفِ أوِ الفَقْرِ، ويُقالُ: جَهَدَ في العَمَلِ يَجْهَدُ جُهْداً، فهو إذا بَلَغَ في العَمَلِ. قالَ: أبو عُبَيدٍ: الجُهْدُ الطاقةُ وكذلكَ قالَ أبو معاذٍ. وفي الآيةِ مَعْنَيانِ:

أحدُهُما: دلالةُ إثباتِ رسالةِ رسولِ اللهِ لأنهُ معلومٌ أنّ ما كانَ منهمْ[5] مِنَ اللَّمْزِ لم يكُنْ ظاهراً، ولكنْ كانَ سِرّاً.، ثم أخبَرَهُمْ رسولُهُ بذلكَ. دلَّ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ.

والثاني: أنّ الأمورَ التي في ما بَينَ الخَلْقِ تُحْمَلُ على ظواهِرِها، وإنْ كانَ في الباطِنِ على خِلافِ الظاهرِ حينَ[6] عُوتِبوا هُمْ بما طَعَنوا فيهِمْ بالرِّياءِ والسُّمْعَةِ لِيَعْلَمُوا أنّ الأمورَ التي ما بينَ الخَلْقِ تُحمَلُ على ظواهِرِها، ولا يُنْظَرُ فيها إلى غَيرِ ظاهِرِها.

والحقيقةُ هو ما بطَنَ، وأسَرُّوا به، يَخْلُصُ العملُ للهِ. والسِّرُّ هو ما يُسِرُّ المرءُ في نَفْسِهِ، والنَّجوى اجْتِماعُ جماعةٍ على نَجْوَةٍ مِنَ الأرضِ أيِ المُرْتَفِعِ مِنَ المكانِ.

(١) ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: غائب. (٤) في الأصل: وإلا. (٥) في الأصل: منه. (٦) في الأصل: حيث.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ قال بعضُهُم: إنَّ مِنَ اعْتَذَرَ إلى آخَرَ، فَيَقْبَلُ عُذْرَهُ على عِلْمٍ مِنَ المُعْتَذَرِ إليهِ أنهُ لا عُذْرَ لهُ في ما يَعْتَذِرُ إليهِ، وأنهُ كاذبٌ في ذلكَ، فَقَبولُ المُعْتَذَرِ إليهِ ما يُعْتَذَرُ مِنَ المُعْتَذِرِ سُخْرِيَةٌ مِنَ المُعْتَذَرِ إليهِ مِنَ[1] المُعْتَذِرِ.

وقالَ بعضُهُم: قولُهُ: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي يَجْزيهِمْ جزاءَ السُّخْرِيَةِ، فَسَمّى جزاءَ [السُّخْرِيَةِ][2] بِاسْمِ السُّخْرِيَةِ، وإنْ لم يكنِ الجزاءُ سُخْرِيَةً كما سَمّى جزاءَ السَّيِّئَةِ سَيِّئَةً، وإنْ لم تكنِ الثانيةُ سَيِّئَةً. وكذلكَ سَمّى جزاءَ الاعْتِداءِ، وإنْ لم يكُنِ الثاني اعْتِداءً. فَعَلى ذلكَ سَمّى جزاءَ السُّخْرِيَةِ سُخْرِيَةً، وإنْ لم تكُنْ سُخْرِيَةً.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي سَخِرَ أولياءُ اللهِ منهُمْ، فأُضيفَ إليهِ. وكذلكَ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] [أي][3] أولياؤُهُ، وقولُهُ ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]فذلكَ اسْتِهْزاءٌ بهِمْ. وكذلكَ جائزٌ في اللغةِ: إضافةُ الشيءِ إلى آخَرَ، والمُرادُ[4] منهُ غيرُ المضافِ إليهِ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنهُ لمّا ماتَ عبدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ أرادَ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يُصَلِّيَ عليهِ، فأخذَ عُمَرُ بْنُ الخطابِ بثوبِهِ، فقالَ: ما أمَرَكَ اللهُ بهذا؛ قالَ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ فقالَ «قد خَيَّرَني ربي، فقالَ: افْعَلْ، أو لا تَفْعَلْ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٠/ ٢٠٠].

وفي بَعْضِ الرواياتِ قالَ لهُ عُمَرُ: لا تَسْتَغْفِرْ فإنَّ اللهَ قد نَهاكَ عن هذا، فقالَ «يا عُمَرُ أفلا أسْتَغْفِرُ إحدى وسَبْعينَ مَرَّةً»؟ [السيوطي في الدر المنثور: ٤/ ٢٥٢] أو كلاماً نَحْوَ هذا. فأنزَلَ اللهُ عندَ ذلكَ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦].

لكنَّ هذا يَبْعُدُ؛ يَفْهَمُ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الآيةِ التَّخْييرَ، وعُمَرُ يَمْنَعُهُ عن ذلكَ، ولا يجوزُ أنْ يُفْهَمَ التَّخْييرُ في ذلكَ، أو يُخَرَّجَ ذلكَ على التَّحذيرِ، أو تكونَ هذهِ مَنسوخَةً بالتي في المنافقينَ لأنهُ وعيدٌ، والوعيدُ لا يَحْتَمِلُ النَّسْخَ.

والوجهُ فيهِ، واللهُ أعلَمُ: إنِ اسْتَغْفَرْتَ لهمْ فإنَّ اسْتِغْفارَكَ ليسَ بالذي يُرى، فلا يُجابُ، لكنهُمْ قومٌ كَفَروا باللهِ ورسولِهِ، وقد تَعْلَمُ من حُكْمي ألّا أغفِرَ لِمَن[5] ماتَ على ذلكَ، [وذلكَ][6] يُخَرَّجُ على الاعْتِذارِ لرسولِهِ في ذلكَ والنَّهْيِ لهُ عنِ الاسْتِغْفارِ لهمْ كقولِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣] وقد عَلِمَ شِرْكَ المُنافِقينَ وكُفْرَهُمْ باللهِ ورسولِهِ، فَنَهاهُ عنِ الاسْتِغفارِ لهمْ؛ إذ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ قَبْلَ أنْ يُطْلِعَ رسولَهُ على كُفْرِهِمْ. فَدَلَّ أنهُ بعدَ العِلْمِ بذلكَ نَهاهُ.

وفيهِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المُعْتَزِلَةِ في قولِهِمْ: إنَّ صاحبَ الكبيرةِ لا يُغْفَرُ لهُ لأنهُ أخبَرَ أنهُ لا يَغْفِرُ لهمْ بما ﴿كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فدلَّ [أنهُ][7] إنْ لم يكُنْ كَفَرَ باللهِ ورسولِهِ فإنهُ يُغْفَرُ لهُ، وإنَّ لهُ الشفاعةَ، وصاحِبُ الكبيرةِ ليسَ بكافِرٍ. دلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا.

ثم طَلَبُ المَغْفِرَةِ مِنَ اللهِ والشفاعةِ لِغَيْرٍ يَجيءُ ألّا يكونَ إلا لِلْخَواصِّ مِنَ الخَلْقِ، وهُمُ الرسلُ والأنبياءُ، على ما يكونُ في الشاهِدِ لا تُرْفَعُ إلى ملوكِ الأرضِ الحاجةُ لِغَيْرِهِمْ إلّا لِلْخَواصِّ[8] لهمْ، ولا يَشْفَعُونَ إلّا لأهلِ[9] الشرفِ عندَهُمْ والمنزلةِ.

لكنَّ اللهَ تعالى أذِنَ لنا في [الاسْتِغفارِ لِغَيْرِنا][10] بقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] وقولِهِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦].

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي سَواءٌ عندَهُمْ: أَسْتَغْفَرْتَ لهمْ أم لم تَسْتَغْفِرْ لهمْ، ويكونُ طَلَبُ اسْتِغفارِهِمْ مِنَ

---

(١) في الأصل: إلى. (٢) ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل. (٤) الواو ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: من. (٦) ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل: الخواص. (٩) في الأصل: أهل. (١٠) في الأصل: استغفار غيرنا.

جنة السنة

رسولِ اللهِ اسْتِهزاءً منهُمْ لهُ بقولِهِ[1] ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [الفتح: ١١]. يُخرَجُ قولُهُمْ ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ مُخرَجَ الاسْتِهزاءِ على هذا التأويلِ.

ويَحتَمِلُ ذِكْرُ السَّبْعِينَ لأنَّ السبعينَ هو النهايةُ والغايةُ في الاسْتِغفارِ على ما رُوِيَ أنهُ كانَ يَستَغفِرُ في كلِّ يومٍ سَبْعِينَ مَرَّةً استِغفاراً. فأخبَرَ أنكَ، وإنِ انتَهَيْتَ [إلى][2] النهايةِ فيهِ لا يُغفَرُ لهمْ، ولا يَنفَعُهُمْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ وقتَ اختيارِهِمُ الفِسْقَ، أو لا يَهديهِمْ طريقَ الجنةِ في الآخِرةِ لِفِسقِهِمْ في الدنيا إذا ماتوا على ذلكَ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ الآية جَمَعُوا؛ أعْني المُنافِقينَ جميعَ خِصالِ الشَّرِّ التي فَعَلُوا:

أحدُها: ما ذَكَرَ مِنْ فَرَحِهِمْ بالتَّخَلُّفِ عنْ رسولِ اللهِ.

والثاني: كراهَتُهُمُ الجهادَ مع رسولِ اللهِ وبُخلُهُمْ بأموالِهِمْ.

والثالثُ: صَدُّهُمُ الناسَ عنِ الجهادِ والخروجِ في سَبيلِ اللهِ بقولِهِمْ: ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ جَمَعَ اللهُ جميعَ خصالِ المنافِقينَ في هذهِ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ ذَكَرَ المُخلَّفينَ[3]، وهم كانوا مُتخلِّفينَ في الحقيقةِ، لكنهُ يَحتَمِلُ وجهَينِ][4]:

[**أحدُهما**: هُمْ][5] مُخلَّفونَ؛ خَلَّفَهُمُ اللهُ لِما ذَكَرَ أنَّ خروجَهُمْ لا يزيدُهُمْ ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ وأنهُمْ يَبغُونَ ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧] خلَّفَهُمُ اللهُ عنْ ذلكَ بقولِهِ[6] ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦] قيلَ: حَبَسَهُمْ.

فَعَلى ذلكَ [هُمْ][7] مُخلَّفونَ؛ خَلَّفَهُمُ اللهُ [لِما عَلِمَ أنَّ خروجَهُمْ لا يزيدُهُمْ ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] وفَساداً.

[**والثاني**: يَحتَمِلُ همْ][8] مُخلَّفونَ؛ خَلَّفَهُمْ أصحابُ رسولِ اللهِ لأنهُمْ لو أرادوا أنْ يُخرِجوهُمْ كَرْهاً لَقَدَرُوا على ذلكَ، فهُمْ كالمُخلَّفينَ مِنْ هذا الوجهِ لِما لو أرادوا إخراجَهُمْ أخرَجوهُمْ، وإنْ كانوا[9] مُتخلِّفينَ في الحقيقةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي مُخالَفَةَ رسولِ اللهِ. وقُرِئَ خَلْفَ رسولِ اللهِ[10] أي فَرِحوا بقعودِهِمْ بعدَ خروجِ رسولِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ يَحتَمِلُ القعودَ أي بقعودِهِمْ خَلْفَهُ. ويَحتَمِلُ ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي مَوضِعِ قُعودِهِمْ، وهو مَنازِلُهُمْ وأوطانُهُمْ، ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ بُخلُهُمْ وخِلافُهُمُ الذي في قلوبِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ /٢١٩ - ب/ هذا في الظاهِرِ يُخرَجُ على إظهارِ الشفقةِ للمؤمنينَ، ولكنْ [لم يكونوا][11] أرادوا ذلكَ، إنما أرادوا حَبْسَهُمْ عنِ الخروجِ في سبيلِ اللهِ. لكنَّ المؤمنينَ لا يَمتَنِعونَ عنِ الخروجِ إلى الغَزْوِ، وكانوا يَحتالونَ في مَنْعِهِمِ المؤمنينَ عنِ الخروجِ في سَبيلِ اللهِ، ولو أطلَقوا القولَ في المَنعِ، وصَرَّحوهُ، لَفَهِمَ المؤمنونَ[12] ذلكَ، ويَظْهَرُ نِفاقُهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُمْ ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ قالوا ذلكَ لأتباعِهِمْ لا للمؤمنينَ كقولِهِ: ﴿وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ [آل عمران: ١٥٦].

---

(١) في الأصل: حيث. (٢) ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: المخلفون. (٤) هنا ينتهي النقص من م الذي أشرنا إلى بدايته في بدء تفسير الآية (٧٤) من السورة.. قال بعض أهل التأويل.. قال يوما [(٢) والله لئن .. ص٤٣١، انظر الحاشية الثانية فيها. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) في الأصل و م: كقوله. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في م: ويحتمل، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل و م: كان. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٣٤. (١١) من م، في الأصل: لايكن. (١٢) في الأصل وم: المؤمنين.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي لو كانوا يفقهون ما أنزَلَ على رسولِ اللهِ لَعَلِموا أنَّ نارَ جهنَّمَ أشدُّ حراً من حَرِّ الدنيا، أو لو كانوا يَفْقَهونَ أنهم لم يُخلَقُوا في الدنيا للدنيا خاصة، ولكنْ خلَقَهُم فيها لِيَمْتَحِنَهُم، لِيَعْلَموا أنَّ الموعودَ في الآخِرَةِ أشَدُّ ممّا امْتُحِنوا في الدنيا.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ يُشْبِهُ أن يكونَ الضَّحِكُ كِنايةً عنِ الفرَحِ والسرورِ، والبكاءُ كِنايةً عنِ الحُزنِ؛ يقولُ: افرَحوا، وسُرُّوا قليلاً، فَسَتَحْزَنونَ[١] في الآخِرَةِ طويلاً كثيراً. وأمكنَ أنْ يكونَ على حقيقةِ الضَّحِكِ لأنهم كانوا يضحكونَ، ويَسْتَهزِئونَ بالمؤمنينَ في الدنيا؛ يقولُ: ضحكوا قليلاً لأنَّ الدنيا قليلةٌ، تَنْقَطِعُ، وسَيَبكونَ[٢] كثيراً في الآخِرَةِ لأنها لا تَنْقَطِعُ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ﴾ دلَّ قولُهُ ﴿رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أنْ ليسَ كلُّ مُتَخَلِّفٍ عنهُ في ذلكَ، هو[٣] مُنافِقٌ، ولا كلُّ المنافِقينَ امْتَنَعوا، وتَخَلَّفُوا عنهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ لأنهُ أخبَرَ أنَّ خروجَهُم معَهُم لا يَزيدُهُم ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] وفساداً؛ فيقولُ: ﴿لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي عُوقِبوا ﴿بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لِنِفاقِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ أي لنْ آذَنَ لكُم أنْ ﴿تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ ولَنْ آذنَ لكُم أنْ ﴿تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ ويَحتَمِلُ ﴿لَّن تَخْرُجُوا﴾ أي وإنْ[٤] أذِنتُ لكمْ بالخروجِ فَلَنْ تَخرُجوا أبداً ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ قيلَ: مع المُتَخَلِّفينَ، وهمُ المنافقونَ [على[٥]] ما ذُكِرَ. ويَحتَمِلُ: أنِ اقْعُدوا معَ أصحابِ الأعذارِ. وقالَ بَعْضُهُمْ [اقْعُدوا][٦] معَ النساءِ والزَّمْنَى، وهو واحدٌ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ يعني المنافِقينَ ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ وذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنهُ لمّا ماتَ عبدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ جاءَ[٧] ابنُهُ إلى رسولِ اللهِ، فقالَ: يارسولَ اللهِ إنَّ أبي ماتَ، وأوصانا أنْ [تُكَفِّنَهُ بقميصِكَ][٨] وأنْ تُصَلِّيَ عليهِ، فَخَلَعَ النَّبِيُّ قميصَهُ، فأعطاهُ، ومَشَى، فَصَلَّى، وقامَ على قَبْرِهِ. ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ أنهُ صلَّى عليهِ، وألْبَسَهُ قميصَهُ. وقيلَ لَهُ: تُلْبِسُ عَدُوَّ اللهِ قميصَكَ، وقالَ: «إني لأرجو أنْ يُسْلِمَ بِقَميصي منْ بَني الخَزْرَجِ ألفٌ» [ابن جرير الطبري في تفسيره ١٠/١٩٩] فَذُكِرَ أنهُ لمّا فَعَلَ ذلكَ أسْلَمَ ألفُ رجلٍ مِنَ المنافِقينَ.

ورُوِيَ أنهُ لم يُصَلِّ عليهِ. فلا ندري كيفَ كانَ الأمرُ بَعْدَ أنْ جاءَ النهيُ عنِ الصلاةِ على المنافِقينَ بقولِهِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ سَمّاهُم فَسَقَةً، واسمُ الكَفَرَةِ أقْبَحُ وأذَمُّ، لكنَّهُمْ جَمَعُوا مَعَ الكُفْرِ أنواعَ الفِسْقِ لِيُعْلَمَ أنَّ اعْتِقادَهُمُ الكُفْرَ والمذهبَ الذي يذهبونَ إليهِ؛ إنما اعْتَقَدوا لِهَواهُم؛ إذِ الفِسْقُ ممّا يُحَرِّمُهُ كلُّ مذهبٍ ودينٍ، وكلٌّ يأنفُ عنِ الفِسْقِ، ويَتَبَرَّأُ منهُ، ولا كذلكَ الكُفْرُ؛ لأنَّ كلَّ مَنْ آمنَ بشيءٍ كَفَرَ بِضِدِّهِ. وأصْلُ الفِسْقِ هو الخروجُ عنِ الأمرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: إنهُ على التقديمِ والتأخيرِ؛ كأنهُ قالَ: ولا تُعْجِبْكَ أموالُهُمْ وأولادُهم في الدنيا إنما يريدُ اللهُ أنْ يُعَذِّبَهُمْ في الآخرة. وفيهِ نَقْضُ قولِ المعتزلةِ في الأصْلَحِ، وقد ذَكَرْنا الوجْهَ الذي يدُلُّ على نَقْضِ قولِهِمْ في ما تَقَدَّمَ، ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ القتالَ، والحروفُ التي أُمِروا فيها ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١] التعذيبَ الذي ذُكِرَ لأنهُمْ يَصيرونَ مَقْتولينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ تذهبُ، وتَهْلِكُ ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

---

(١) في الأصل وم: وتحزنون. (٢) في الأصل وم: ويبكون. (٣) في الأصل وم: فهو. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل و م.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل و م: فجاء. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ لا إنها تنزلُ سورةٌ بهذا الحرفِ، ولكنْ فيها ذِكْرُ ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾ وهو كقولِهِ: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ [محمد: ٢٠]. وقولُهُ: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ بقلوبِكُمْ[1] لأنهمْ قد أظهَرُوا الإيمانَ باللسانِ، وهُمْ لم يكونوا مؤمنينَ باللهِ حقيقةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ قيلَ ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ﴾ هُمْ أهلُ الغِنى والسَّعةِ، وقيلَ ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ﴾ أهلُ الفَضلِ والشَّرفِ الذينَ كانُوا يَصْدُرُونَ لآرائِهِمْ، ويَنْظُرونَ إلى تدبيرِهِمْ، وقد كانَ في أهلِ النفاقِ أهلُ السَّعةِ والغِنى وأهلُ النظرِ والتدبيرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ استأذَنُوا القُعودَ عنِ الجهادِ، واللهُ أعْلَمُ، لِما كانُوا يُوالونَ أهلَ الكُفرِ سِرّاً، فكَرِهوا القِتالَ معَ الأولياءِ، أو كانوا يَتخلَّفونَ، ويَمْتَنِعونَ عنِ الخروجِ إلى القتالِ.

وأمّا أهلُ الإيمانِ فإنهمْ إنما يَعْمَلُونَ لِلعواقِبِ، وكذلكَ أهلُ الكُفرِ إنما يُقاتلونَ أهلَ الإيمانِ[وأمّا المُنافِقونَ فإنهُمْ يَأمُلونَ غنيمةً في العاقبَةِ][2] لكنهمْ كانوا يَسْتَأذنونَ القعودَ، ويكونونَ مع القاعِدينَ،[يَرَونَ][3] من أنفُسِهِمْ أنَّ لهمُ العُذْرَ في القعودِ.

ثم قولُهُ: ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ مِنَ الضُّعفاءِ والمَرْضى والصِّبيانِ حتى إذا أتاهُمُ العَدُوُّ مِنْ بَعْدِ ما خَرَجَ الرجالُ منهُمْ إلى قِتالِ العَدُوِّ، عنْ هؤلاءِ، أو يكونُ قولُهُمْ: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ من أهلِ العُذْرِ؛ يَرَونَ أنْفُسَهُمْ أنهمْ أهلُ العُذرِ، ولم يكُنْ لهمْ عذرٌ في ذلكَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ الآية[الأحزاب: ١٣] فعَلَى ذلكَ الأوّلُ يَحْتَمِلُ هذا.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ قيلَ: معَ النساءِ، فهذا حرفُ تَعْييرٍ وتوبيخٍ؛ أي رَضُوا بأنْ يكونوا في مَشاهِدِ النساءِ دونَ مَشاهِدِ الرجالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ إنّ[4] للإيمانِ نوراً تُبْصَرُ بهِ عواقبُ الأمورِ، ويُرفَعُ الحِجابُ والسِّتْرُ مِنَ القلوبِ ومِنَ الأمورِ، فَتَراها باديَةً ظاهرةً. ولِلكُفْرِ ظُلْمَةٌ تَسْتُرُ الظاهرَ مِنَ الأمورِ والباديَ منها، فتَسْتُرُ تلكَ الظُّلْمَةُ قلبَهُ، فذلكَ الطَّبْعُ، وقد ذكَرْنا الوجهَ فيهِ في غيرِ مَوضِعٍ، واللهُ أعلَمُ ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما يَلْحَقُهُمْ مِنَ التَّعْييرِ برضاهُمْ بالقعودِ معَ الخوالِفِ. والفِقْهُ هو مَعْرِفَةُ الشَّيءِ بِمعناهُ الدّالِّ على نظيرِهِ، مَنَعَتْ[5] تلكَ الظُّلْمَةُ أنْ تُعْرَفَ الأشياءُ بمعانيها وبنظائرِها لِلحجابِ الذي ذكَرْنا.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ الرسولَ والذينَ حَقَّقُوا الإيمانَ والتَّصْديقَ ﴿جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي بذلُوا أنْفُسَهُمْ وأموالَهُمْ لِنَصْرِ دينِ اللهِ وإظهارِ سَبيلِهِ، ولم يَبْخَلُوا كما بَخِلَ أهلُ النِّفاقِ في بَذْلِ أموالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ في نَصْرِ دينِهِ بالمُجاهدةِ معَ أعدائِهِ، ولم يُحَقِّقُوا الإيمانَ والتَّصْديقَ.

ثم أخْبَرَ أنَّ للمؤمنينَ الذينَ حَقَّقُوا الإيمانَ والتَّصْديقَ، وبذلُوا أنْفُسَهُمْ وأموالَهُمْ، وجاهدوا بها في نَصْرِ دينِ اللهِ وإظهارِ سَبيلِهِ ﴿لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾. قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ الذِّكْرُ في الدنيا والثَّناءُ الحَسَنُ وسلوكُ الناسِ طريقَهُمْ، وفي الآخِرَةِ/ ٢٢٠ ـ أ/ الثوابُ والجزاءُ. وقيلَ: ﴿لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ في الآخِرَةِ لِما بَذلُوا أنْفُسَهُمْ وأموالَهُمْ في نَصْرِ دينِهِ والمُجاهَدَةِ مع عَدُوِّهِ. وقيلَ: ﴿لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ الحورُ العِينُ كقولِهِ ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]واللهُ أعلَمُ. ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ المُفْلِحُ هو الذي يَظْفَرُ بحاجةٍ؛ وقد يُقالُ: أفْلَحَ، وقد ذكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ.

---

(١) في الأصل وم: بقلوبهم. (٢) في الأصل وم: إما غنيمة في العاقبة يتأملون. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من في الأصل: أي.
(٥) في الأصل وم: منع.

جنة السنة

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لِيُعلَمَ أنَّ العِظَمَ ليس يَقَعُ في ما فيهِ الغِلَظُ والكثافَةُ، ولكنْ القَدْرُ والمَنزِلةُ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ هُمُ الذينَ يَسْتأذِنونَ القعودَ، ولا عُذرَ لهمْ في ذلكَ. وقالَ الكلبيُّ: ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ هُمُ الذينَ لهمْ عُذْرٌ، وبِهِمْ عِلَّةٌ. وبَعْضُهُمْ قالَ: ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ هُمُ المُعْتَذِرونَ.

ورُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهُ قرَأ: المُعْذِرونَ(1) بالتَّخفيفِ، وقالَ: لَعَنَ اللهُ المُعَذِّرِينَ؛ كأنهُ ذهبَ إلى أنَّ المُعْذِرَ هو الذي لهُ عُذرٌ، والمُعَذِّرَ بالتشديدِ الذي لا عُذرَ لهُ، لذلكَ لَعَنَ المُعَذِّرَ.

قالَ أبو مُعاذٍ: وأكثرُ كلامِ العربِ المُعْذِرُ هو الذي لهُ عُذرٌ وهو قولُهُمْ: قد أعذَرَ مَنْ أنذَرَ.

وقالَ عوسَجَةُ: المُعَذِّرُ بالتشديدِ الذي لا يُناصِحُ، إنما يريدُ أنْ يُعذَرَ، ويُقالُ: عَذَرْتُ في الأمرِ إذا لم أبالِغْ(2) فيهِ، وأعذَرتُ في الأمرِ أي بالَغْتُ فيهِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ بالتَّشديدِ هُمُ الذينَ لا يَجِدُّونَ، إنما يَعْرِضونَ ما لا يُريدونَ أنْ يَفعَلوهُ، يُقالُ: عَذَرْتُ في الأمرِ إذا قَصَّرْتُ، وأعذَرْتُ: جَدَدْتُ.

ثم قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: دَلَّ هذا على أنَّ أهلَ النِّفاقِ كانوا صِنفَينِ؛ صِنفٌ كانوا يَستأذِنونَ القُعودَ، وصِنفٌ لا يَستأذِنونَ، ولكنْ يَقعُدونَ بقولِهِ: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على أنَّ مِنْ أهلِ النِّفاقِ مَنْ قد آمَنَ، وتابَ، وأنَّ مَنْ تابَ يُقْبَلُ منهُ لأنهُ قالَ: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولم يَقُلْ سَيُصيبُهُمْ عذابٌ أليمٌ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: المُعْذِرُونَ بالتخفيفِ: هُمُ المؤمنونَ الذينَ لهمُ العُذْرُ والتَّخَلُّفُ؛ أتوا رسولَ اللهِ لِيَنْظُرَ في أمرِهِمُ الأوفَقِ: إنْ كانَ الخروجُ لهمْ أوفَقَ يَخرُجوا(3)، وإنْ كانَ القعودُ أوفَقَ يَقعُدوا(4). يدلُّ على ذلكَ الآيَةُ التي تَلي هذهِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ الآيةَ [التوبة: ٩١]

فإنْ قِيلَ: كيفَ احتَمَلَ أنْ يكونَ آيَةٌ واحدةٌ في الفريقَينِ مُختلِفَينِ: إذا قُرِئَ بالتخفيفِ فهي في الذينَ لهمْ عُذرٌ، وإذا قُرِئَ بالتشديدِ كانتْ في الذينَ لا عُذرَ لهمْ؟ قيلَ: تصيرُ على اختلافِ القراءةِ كاثنَتَينِ(5) في حالَتَينِ وَوَقتَينِ مُختلِفَينِ.

وإنْ كانَ تأويلُ المُعَذِّرِ بالتشديدِ فهو(6) الذي يَعتَذِرُ، ولا عُذرَ لهُ، والمُعْذِرُ بالتخفيفِ هو الذي لهُ [عذرٌ، وإنْ](7) كانَ تأويلُ إحدَى القراءتَينِ على ضِدِّ(8) الأُخرَى كانَ لهمْ عُذرٌ في حالٍ، ولا عُذرَ لهمْ في حالٍ أُخرَى. وإلّا لا يَحتَمِلُ أنْ تكونَ القراءتانِ جَميعاً في وقتٍ واحدٍ، وتأويلُهما على الاختلافِ الذي ذَكَرُوا، وهو كقولِهِ: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] وقولِهِ(9) رَبُّنا بالرفعِ(10) باعَدَ ﴿بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾: أحدُهُما على الدعاءِ، والآخرُ على الإيجابِ، هما آيتانِ، صارتا آيةً واحدةً لاختلافِ القراءةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ لو لم يذكُرِ المَرْضَى ولا الذينَ لا يجدونَ ما يُنفقونَ لكانَ المفهومُ مِنْ قولِهِ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ المريضَ والذي لا يَجِدُ ما يُنفِقُ، وكذلكَ إذا ذَكَرَ المريضَ كانَ في ذِكرِهِ ما يُفهَمُ منهُ كُلُّ ضعيفٍ وكلُّ ما لا يَجِدُ ما يُنفِقُ، وفي كلِّ حرفٍ مِنْ هذا الحروفِ ما يُفهَمُ منهُ مَعنَى الآخَرِ. فلما ذَكَرَ دلَّ أنَّ المُرادَ مِنْ ذِكرِ الضُّعفاءِ الزَّمْنَى مِنْ نَحوِ الأعمَى والأعرَجِ، فكانَ كقولِهِ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] فتكونُ الآيتانِ واحدةً؛ أعْني مَعْناهُما واحدٌ.

---

(1) انظر معجم القراءات القرآنية ٣/ ٣٥. (2) في الأصل وم: يبالغ. (3) في الأصل وم: يخرجون. (4) في الأصل وم: يقعدون. (5) في م: كاثنين. (6) الفاء ساقطة من الأصل وم. (7) في الأصل وم: عذراً و. (8) في الأصل وم: ضدي. (9) في الأصل وم: و. (10) انظر معجم القراءات القرآنية ٥/ ١٥٥.

جنة السنة

وفيهِ دلالةٌ أنْ ليسَ في ذِكرِ عددٍ مِنَ الأشياءِ خَطَرُ دخولِ غيرِ المذكورِ إذا كانَ في مَعْناهُ. ولهذا قالَ أصحابُنا: إنْ ليسَ في ما ذَكَرَ رسولُ اللهِ عَدَدٌ[1] في الرِّبا بقولِهِ «والحنطةُ بالحنطةِ والذهبُ بالذهبِ والفَضلُ رِباً» [بنحوه مسلم١٥٨٧].

على أنهُ لا لِمَعْنىً وَرَدَ، ولا تَدخُلَ فيهِ ما لم يَذْكُرْ لِما ذَكَرْنا أنهُ لو ذَكَرَ الضُّعفاءَ لَذَكَرَ المريضَ والأعْمَى والأعرَجَ وجميعَ مَنْ ضَعُفَ عنِ الخروجِ مِنْ أنواعِ الأعذارِ.

ثم لم يَدُلَّ ما ذَكَرَ مِنَ العددِ وتخصيصِهِ على أنهُ لا لِمَعْنىً ذَكَرَ. فَعَلَى ذلكَ خَبَرُ الرِّبا.

ثم جَعَلَ العَمَى والعَرَجَ والمَرَضَ وعَدَمَ النَّفَقَةِ ونَحوَهُ عُذراً في تركِ الخروجِ، ولم يَجْعَلْ شدةَ الحرِّ وبُعْدَ المسافةِ ونَحوَهُ عُذراً بقولِهِ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: ٨١].

وأصلُهُ، واللهُ أعْلَمُ [في وجهَينِ:

أحدُهُما:][2] أنَّ كلَّ ما لم يَعمَلْ في المَنْعِ عنِ الخروجِ لِشهوةٍ أو لِطَمَعٍ، يَرْجُو نَيلَهُ مِنَ التجارةِ ونَحوِها لم يكنْ ذلكَ عُذراً في تركِ الخروجِ؛ إذْ شِدَّةُ الحَرِّ وبُعْدُ السَّفَرِ وخَوفُ العَدُوِّ ممّا لا يَمْنَعُهُمْ عنِ الخروجِ لِلتِّجارةِ، فلم يَصِرْ ذلكَ عُذراً لهمْ بالتَّخلُّفِ عنِ الخروجِ لِلْجهادِ. وأمّا حالُ المَرَضِ والزَّمانَةِ وعَدَمُ النَّفَقةِ يَمْنَعُ، ويُعْجِزُهُمْ عنِ الخُروجِ في كلِّ ما يَهْوَونَ، ويَشْتَهُونَ، صارَ ذلكَ عُذراً لهمْ بالتَّخلُّفِ عنِ الخروجِ للجهادِ.

والثاني: أنَّ كلَّ ما يُقْدَرُ على دفعِهِ بحالٍ لم يُجْعَلْ ذلكَ عُذراً في التَّخلُّفِ، وكلُّ ما لاسَبيلَ لهمْ إلى دفعِهِ فهو عُذرٌ. والحَرُّ وبُعْدُ السَّفرِ وخوفُ العَدُوِّ يجوزُ أنْ يُدْفَعَ، فَيَصِيرُ كانَ ليسَ [عُذراً][3]. وهو ما ذَكَرَ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: ٨١]. فإذا ذَكَرَ شِدَّةَ حَرِّ جهنَّمَ وبُعْدَ سَفَرِ الآخِرَةِ وأهوالَهُ هانَ عليهِ الخُروجُ، وسَهُلَ، فارْتَفَعَ ذلكَ. فلذلكَ صارَ أحدُهُما عُذراً، والآخَرُ لا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قيلَ: لم يَخدَعُوا أحداً في دِينِهِ، ولم يَغُشُّوا في دُنْياهُ، وقيلَ: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي أطاعُوا اللهَ ورسولَهُ في الحَضْرَةِ، ولم يَترُكُوا طاعَتَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بتركِهِمُ الخروجَ وتَخلُّفِهِمْ عنِ الجهادِ مَعَ الأعذارِ.

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ ذُكِرَ في بعضِ الأخبارِ عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ[4]] قالَ: «لولا أنْ أشُقَّ على أمتي» أو قالَ: «على المؤمنينَ، ولَا لَخرَجْتُ في كلِّ سَرِيَّةٍ بَعَثْتُها لأنهمْ لا يجدونَ ما يُنفقونَ فَيَخرَجوا[5]، ولا أجدُ ما أحمِلُهُمْ عليهِ، فَيَشُقُّ عليهِمْ مُفارَقَتُهُمْ إيانا، فلا حَرَجَ بِتَرْكِهِمُ الخروجَ إذا لم يَجِدوا ما يُنفِقونَ ولا ما يُحمَلُونَ[6] عليهِ» [بنحوه أحمد ٢/ ٢٤٥].

الآية ٩٣ ثم قالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ يَجِدونَ ما يُنفِقونَ، فَيَترُكونَ الخروجَ بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ يعني النساءَ ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا قد ذَكَرَ هُهنا ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [وذَكَرَ في الآيةِ الأُولى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧]][7] والفِقهُ هو معرفةُ الشَّيءِ بغيرِهِ، والعِلْمُ هو وقوعُ العِلْمِ لا بغيرِهِ. ولذلكَ يُقالُ: اللهُ عالمٌ، ولا يجوزُ أنْ يُقالَ فقيهٌ. فأخبَرَ ﷻ أنهمْ لا عَرَفوا الشيءَ بِغيرِهِ ولا بِنَفْسِهِ عِناداً منهُمْ ومُكابَرَةً.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ فيهِ إنباءُ عمّا يقولُ لهمُ المُنافِقونَ إذا رَجَعوا إليهِمْ وتَعليمٌ مِنَ اللهِ لرسولِهِ والمؤمنينَ ما يقولُ لهمْ وماذا يُجيبونَ لهمْ، فقالَ: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي لنْ نُصدِّقَكُمْ بما تعتذِرونَ أي بما تُظهِرونَ/ ٢٢٠ ـ ب/ لأنفُسِكُمْ مِنَ العُذْرِ.

وقولُهُ: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ﴾ ليسَ على النَّهيِ، ولكنْ على التَّوبيخِ.

---

(١) في الأصل وم: عدداً. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيحرجون.
(٦) في الأصل وم: يحمل. (٧) ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أنكُمْ لا تَصْلُحون أبداً كما قالَ: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [التوبة: ٩٥] وقيلَ: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ حينَ قالَ لهمْ ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ إلى قولِهِ ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧] وقالُوا: وهذا الذي ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ قالَ بَعضُهُمْ ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ في ما تَستأنِفون. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي سَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ باطلاً، أو يقولُ: سَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ؛ أي يَجزيكُمْ جزاءَ عَمَلِكُمْ ورسولُهُ، والمؤمنونَ يَشهَدونَ عليكُمْ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ قد ذَكَرْنا أنْ ليسَ شيءٌ يَغيبُ عنهُ، أو يكونُ شيءٌ عندَهُ أظهَرَ مِنْ شيءٍ، ولكنْ ما يَغيبُ عنِ الخَلْقِ وما لا يَغيبُ عندَهُ بِمَحَلٍّ واحدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يُخرَّجُ على الوعيدِ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي لِتَتجاوَزوا عنهُمْ، ولا تُكافِئوهُمْ، فيكونُ قولُهُ: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لِما سألوا مِنَ المُجاوَزَةِ عنهُمْ وتركِ المكافآتِ. ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي لا تُحاجُّوهُمْ، ولا تَشتَغِلوا بهِمْ، فإنهمْ لا يَصلُحونَ أبداً، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ وتَقبَلُوا[1] منهُمْ ما يُظهِرونَ مِنَ العذرِ، ثم أخبَرَ أنكُمْ إنْ رَضيتُمْ منهُمْ، وقَبِلتُمْ ما يَذكُرونَ مِنْ عذرِهِمْ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ﴾ عنهُمْ لِما يَعلَمُ أنهُ لا عُذرَ لهمْ في ما يُظهِرونَ لكُمْ مِنَ العُذرِ، واللهُ أعلَمُ، ليسَ على النَّهْيِ عنْ إرضاءِ أولئكَ لأنَّ إرضاءَ الخَلْقِ بَعضِهِمْ لِبَعضٍ إنما يكونُ بالحَلْفِ، وما يكونُ مِنَ الظاهِرِ، ولكنَّ النَّهْيَ عنْ تَرْكِ المُوافَقَةِ في الباطِنِ، وفيهِ يَتحقَّقُ رِضا اللهِ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها[2]:] أنَّ رسولَ اللهِ دعا كُفّارَ المدينةِ، فَآيَسَ مِنْ إيمانِهِمْ لِقولِهِ تعالى: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الآية. فلمّا أُويِسَ مِنْ إيمانِ هؤلاءِ أقبَلَ نَحْوَ طائفةٍ مِنَ الأعرابِ الذينَ كانوا بقربِ المدينةِ وحَوالَيها، [فأخبَرَهُ اللهُ][3] أنهمْ ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ مِنْ أهلِ المدينةِ.

والثاني[4]: أنهُ أرادَ بالأعرابِ جملةً أنهمْ: أي الكُفارَ منهُمْ وأهلَ النفاقِ ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ مِنْ أهلِ الأمصارِ والمدنِ؛ كانوا يَسمَعونَ الآياتِ والحُجَجَ، ويخالِطونَ أهلَ رَحمَةٍ وأهلَ مَوَدَّةٍ. وأمّا الأعرابُ وأهلُ الباديةِ، كانوا لا يَسمَعونَ الآياتِ والحُجَجَ، ولا خالَطوا أهلَ رَحمَةٍ ورأفَةٍ، فهمْ[5] أقسَى قلوباً وأضيَقُ صدوراً، وأهلُ المدنِ والأمصارِ ألْيَنُ قلوباً وأوسَعُ صدوراً؛ فهُمْ أسرَعُ للإجابةِ، وأولئكَ أبعَدُ وأبطأُ إجابةً.

[والثالثُ[6]: أنهمْ وُصِفوا بِفَضلِ الجَهْلِ ما لم يوصَفْ بهِ أهلُ المُدُنِ والأمصارِ][7] بذلكَ.

[رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ][8] عنْ نبيِّ اللهِ ﷺ [أنهُ][9] قالَ: «لا يُؤمَّنْكُمْ أعرابيٌّ» وفي بَعضِها: «لا يُؤمَّنَّ أعرابيٌّ مهاجِراً» [البيهقي في الكبرى ٣/ ١٧١] وفي بَعضِ الأخبارِ: «مَنْ بَدا جَفا» [أحمد٢/ ٣٧١].

وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، لأنهمْ لا يَدخُلونَ الأمصارَ لِيَتأدَّبوا، ويَتعلَّموا[10] الآدابَ. فإذا كانوا كذلكَ فهُمْ أجهَلُ. والإيمانُ هو التصديقُ، والتصديقُ إنما يكونُ بعدَ العِلمِ لأنهُ ما لم يَعلَمْ لا يُصَدِّقُ. فإذا كانوا بالجَهلِ ما وصَفْنا كانوا أشَدَّ إنكاراً وتكذيباً مِنْ غَيرِهِمْ، وهو ما ذَكَرَ.

---

(١) في الأصل و م: وتقبلون. (٢) في الأصل و م: وهو. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) في الأصل و م: ويحتمل. (٥) في الأصل وم: فهؤلاء.
(٦) في الأصل: والثاني. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل و م: ما روي. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ويتعلمون.

جنة السنة

[وقولُهُ تعالى][(1)]: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ وَصَفَهُمْ بالجهلِ يكونُ التكذيبَ، وبالعِلمِ التصديقَ، وهو ما ذكَرْنا. وأجْدَرُ وأخلَقُ وأحرَى واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ قال بعضُهُمْ: هُمْ أقلُّ عِلماً بالسُّنَنِ، وقيلَ: بالفرائضِ. ويُقالُ: الحُدودُ ما بيَّنَ مِنْ طاعةِ اللهِ ومَعْصيتِهِ.

واصْلُهُ أنهمْ أهلُ جَهْلٍ بجميعِ الأوامِرِ والمَناهي وجميعِ الآدابِ وما لا يَحِلُّ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي على عِلْمٍ بما يكونُ منهُمْ؛ خلَقَهُمْ ﴿حَكِيمٌ﴾ حينَ[(2)] وَضعَ الخلائِقَ بِمَوضِعٍ يدلُّ على وَحدانيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ لو تدَبَّروا فيهِن ونظَرُوا.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي كانَ لا يُنفِقُ حِسْبَةً. وقالَ بعضُهُمْ: يُنفِقُ، ولا يَراهُ حقًّا، إنما يَراهُ غُرْماً يَلْحَقُهُ وغُرْماً يُغْرَمُهُ. واصْلُهُ أنهمْ لو كانوا عِلِمُوا حقيقةَ أنهمْ وما حَوَتْهُ أيديهِمْ للهِ، ليسَ لهمْ، لم يَعُدُّوا ذلكَ غُرْماً غَرِموا، وتَبِعَةً لِحِقَتْهُمْ. ولكنْ لمّا لم يَرَوا لِلهِ تعالى في أموالِهِمْ حَقّاً، ولم يَعْلَموا أنَّ أموالَهُمْ لِلهِ حقيقةً، لا لَهُمْ، عَدُّوا ذلكَ غُرْماً وتَبِعَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ﴾ قيلَ: الدَّوائرُ هي انقِلابُ الأمرِ، وهو مِنَ الدَّوَرانِ. ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ ما قالَ بَعْضُهُمْ[(3)]: موتُ محمدٍ. وقيلَ: ﴿الدَّوَائِرَ﴾ دَوائرُ الزمانِ وحَوادِثُها ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي عليهِمُ انقِلابُ الأمرِ، وعليهِمْ ما يَتَرَبَّصونَ على المؤمنينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٧] ليسَ على حقيقةِ الإنزالِ مِنْ مَوضِعٍ، ولكنْ على خَلْقِ ذلكَ كقولِهِ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ [الزمر: ٦] كذا [وكقولِهِ][(4)]: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: ٢٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لِما قالُوا[(5)] ﴿عَلِيمٌ﴾ بما أسَرُّوا، واضْمَرُوا.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ﴾ ذَكَرَ في الآيةِ أنَّ ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لِيُعلِمَ أنَّ قولَهُ ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧] كانَ في طائفةٍ مُشارٍ إليها لا كلُّ الأعرابِ لأنهُ ذَكَرَ هَهنا أنَّ منهمْ مَنْ يُنفِقُ ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ﴾ وذَكَرَ [في][(6)] الآيةِ الأولى أنَّ منهمْ ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ [التوبة: ٩٨] أي لا يَراهُ حَقّاً واجباً، ولكنْ غُرْماً يَلْحَقُهُ، ومنهُمْ مَنْ يَرَى ذلكَ حَقًّا لِلهِ واجباً في اموالِهِمْ، فَيَجعَلونَ ذلكَ قُرْبَةً لهمْ عندَ اللهِ، واولئكَ يَرَونَ غُرْماً لَحِقَهُمْ لا قُرْبَةً.

ثم في الآيةِ خَوفُ دخولِ المؤمنينَ [الذينَ لا يُؤَدُّونَ الزكاةَ، ولا يُنفِقونَ][(7)] في وَعيدِ هذهِ الآيةِ، وخوفُ لُحوقِ النِّفاقِ [بهمْ][(8)] لأنهُ أخبَرَ أنهمْ يَتَّخِذونَ ما يُنفِقونَ مَغْرَماً؛ فَمَنْ تركَ أداءَ [الزكاةِ][(9)] فإنَّما يتركُ لأنهُ لا يَرَى ذلكَ حَقّاً لأنهُ لو رأى ذلكَ حَقًّا واجباً لأدّاهُ على ما أدّى غيرَهُ مِنَ الحقوقِ، أو لو كانَ مُوقِناً بالبَعْثِ لأنفَقَ، وجَعَلَ ذلكَ قُرْبَةً لهُ عندَ اللهِ لأنَّ المؤمنَ إنما يُنفِقُ، ويَعْمَلُ للعاقبةِ. فإذا تَرَكَ ذلكَ يُخافُ دخولُهُ في وَعيدِ الآيةِ ولُحوقِ اسمِ النِّفاقِ بهِ، وإنْ كنا لا نَشْهَدُ عليهِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: جَعَلوا ما أنفَقوا قُرُباتٍ عندَ اللهِ بِصَلَواتِ الرسولِ لأنهمْ إذا أنفَقُوا كانَ الرسولُ يَدْعُو لهمْ بذلكَ، ويَسْتَغفِرُ، فكانَ ذلكَ لهمْ قُرُباتٍ عندَ اللهِ باسْتِغفارِ الرسولِ ودعائِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: جَعَلُوا ما أنفَقُوا وَصَلَواتِ الرسولِ قُرُباتٍ عندَ اللهِ، ويكونُ لهمْ ما أنفَقُوا قُرْبَةً عندَ اللهِ وصَلَواتُ الرسولِ طُمَأنينةً وبراءةً مِنَ النِّفاقِ لأنَّ الرسولَ كانَ لا يَدْعُو لأهلِ الكُفْرِ والنِّفاقِ. فإذا دعا لهؤلاءِ، وصلّى عليهِمْ كانَ ذلكَ

---

(1) ساقطة من الأصل وم. (2) في الأصل وم: حيث. (3) من م، في الأصل: بعضكم. (4) ساقطة من الأصل وم. (5) في الأصل وم: قال. (6) من م، ساقطة من الأصل. (7) أدرجت هذه العبارة في الأصل و م بعد كلمة الآية. (8) ساقطة من الأصل و م. (9) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

طمانينةً لِقُلوبِهِمْ وعِلْماً لهمْ لِلْبراءَةِ مِنَ النِّفاقِ. وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] أي تَسْكُنُ قلوبُهُمْ بصلاةِ الرسولِ، وتَطْمَئِنُّ بأنهمْ ليسُوا مِنْ أهلِ النفاقِ وأنهمْ بُرَآءُ مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ ذَكَرَ هذا مُقابِلَ ما ذَكَرَ في الآيةِ الأولى، وهو قولُهُ: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [التوبة: ٩٨] أخبَرَ هناكَ[1] / ٢٢١ ـ أ/ أنَّ ما يَتَرَبَّصونَ هُمْ بهمْ مِنَ الدوائرِ عليهِمْ ذلكَ. وههنا أخبَرَ أنَّ ما يُنْفِقُ المؤمنونَ، ويَطْلُبونَ بذلكَ قُرْبَةً عندَ اللهِ ﴿إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾.

ثم وَعَدَ لهمُ الجنةَ بقولِهِ: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي جَنَّتِهِ. سَمَّى جَنَّتَهُ رَحْمَةً لِما بِرَحْمَتِهِ يدخُلُونَ لا اسْتِيجاباً لهمْ منهُ بذلكَ بل رَحْمَةً منهُ وفَضْلاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِما كانَ منهمْ مِنَ المَساوِئِ والشِّرْكِ إذا تابوا، وآمَنوا ﴿رَّحِيمٌ﴾ حينَ لم يُؤاخِذْهُمْ بذلكَ.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ يَحْتَمِلُ هذا أنْ يكونَ مربوطاً معطوفاً على قولِهِ ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ﴾ معَ السابقينَ الأوَّلينَ؛ أي أولئكَ الذينَ آمَنوا مِنْ بَعْدِ أولئكَ المُهاجرينَ والأنصارِ يُدْخِلُهُمْ في الجنةِ معَ السابِقينَ الأوَّلينَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الابْتِداءِ [لا][2] على العطفِ على الأوَّلِ.

ثم اخْتُلِفَ فيه: قالَ بعضُهُمْ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ في الإسلامِ والنُّصْرَةِ، وقالَ بعضُهُمْ: الأوَّلونَ في الهِجْرَةِ والنُّصْرَةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ على تأويلِ مَنْ جَعَلَ السابقةَ في الإسلامِ، وعلى تأويلِ مَنْ جَعَلَ على الهجرةِ ﴿ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ يَجْعَلُهُمْ فريقَينِ المهاجرينَ والأنصارَ، ولا يَجْعَلُ طبقةً ثالثةً. وأمّا قراءةُ[3] العامةِ مِنَ القُرّاءِ فهي على إثباتِ الواوِ وجعلِ طبقةٍ ثالثةٍ.

ثم منهمْ مَنْ قالَ مِنْ أهلِ التأويلِ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ هُمُ الذينَ بايَعوا بَيْعَةَ الرِّضْوانِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: هُمُ الذينَ صَلَّوا القِبْلَتَينِ. وقالَ بَعْضُهُمْ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ إلى الإسلامِ ﴿ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ الذينَ صَلَّوا القِبْلَتَينِ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ على دينِهِمْ إلى يومِ القيامةِ ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾.

ثم خصوصُ تسميةِ أهلِ المدينةِ أنصاراً، وإنْ كانُوا هُمْ والمهاجرونَ جميعاً نَصَروا رسولَ اللهِ ﷺ وكانوا أنصاراً لهمْ[4]، واللهُ أعلَمُ، لأنهمْ نَصَروا المهاجرينَ حينَ[5] آوَوهُمْ، وأنزَلوهُمْ في منازِلِهِمْ وأوطانِهِمْ، وبَذَلوا أنْفُسَهُمْ وأموالَهُمْ لهمْ، وإنْ كانُوا جميعاً في النَّصْرِ لِرسولِ اللهِ ﷺ شَرْعاً سَواءً.

ثم في الآيةِ دلالةُ الرَّدِّ على الرَّوافِضِ لأنهمْ يَجْعَلونَ أبا بكرٍ وعمرَ وهؤلاءِ ﷺ ظَلَمَةً لا على الحقِّ بِتَوَلّيهِمْ أمرَ الإمامةِ والخلافةِ لأنهُ معلومٌ أنهمْ كانوا في ما ذُكِرَ ﷺ بقولِهِ: ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ ثم أخبَرَ أنَّ اللهَ راضٍ عنهُمْ، وأنهمْ راضُونَ عنهُ. دلَّ أنهمْ كانوا على حقٍّ وصوابٍ مِنَ الأمرِ، وأنَّ مَنْ وصفَهُمْ بالظلْمِ والتَّعَدّي هو الظالِمُ، والمُتَعَدّي واضعُ الشيءِ [في][6] غيرِ موضِعِهِ.

وفيهِ جوازُ تقليدِ الصحابةِ والأتباعِ لهمْ والاقْتِداءِ بهمْ لأنهُ مَدَحَ ﷺ مَنِ اتَّبَعَ المُهاجرينَ والأنصارَ بقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾.

ثم أخبَرَ عنْ جُمْلَتِهِمْ أنَّ اللهَ راضٍ عنهُمْ. دلَّ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ التقليدَ لهمْ لازمٌ، والاقتداءَ بهمْ واجبٌ، وإذا أخبَروا [بخبرٍ][7] أو حَدَّثوا بِحَديثٍ يجبُ العملُ بهِ، ولا يَسَعُ تركُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أخبَرَ أنَّ مَنْ حولَهُمْ

---

(١) في الأصل وم: ههنا. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/٣٨. (٤) في الأصل و م: له. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

﴿مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أيضاً ﴿مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾. فقالَ بَعْضُهُمْ: المَرْدُ في الشيءِ هو النهايةُ في الشرِّ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي ثَبَتُوا عليهِ، وقاموا[1] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مَرَدُوا﴾ أي عَتَوا ﴿عَلَى النِّفَاقِ﴾ وبالَغوا فيهِ.

أخبر أنهمْ لِشِدَّةِ مكرِهِمْ وخِداعِهِمْ وعُتُوِّهِمْ ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لأنَّ مِنَ المُنافِقِينَ مَنْ كانَ يَعْرِفُهُمْ الرسولُ في لَحْنِ القولِ، ومنهُمْ منْ كانَ يَعْرِفُهُمْ في صَلاتِهِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢]، ومنهُمْ مَنْ كانَ يُعْرَفُ نِفاقُهُ في تَخَلُّفِهِ عنْ رسولِ اللهِ؛ يعني عنِ الغَزْوِ. فأخبَرَ ﷺ أنَّ هؤلاءِ لِشِدَّةِ عُتُوِّهِمْ ومَكْرِهِمْ وفَضْلِ خِداعِهِمْ لا تَعْرِفُ نِفاقَهُمْ، نحنُ نَعْرِفُ نِفاقَهُمْ.

ثم أخبَرَ أنهُ يُعَذِّبُهُمْ مَرَّتينِ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: القَتْلُ والسَّبْيُ، وعنِ الحَسَنِ [أنهُ][2] قالَ: عذابٌ في الدنيا وعذابٌ في القَبْرِ، وقالَ بَعْضُهُمْ: يُعَذِّبُهُمْ بالجوعِ مَرَّتَينِ. وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: قولُهُ ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ القَتْلُ والسَّبْيُ قبلَ الموتِ، والعذابُ الآخَرُ يُعَذَّبونَ في القبرِ ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ تعذيبُهُ إياهُمْ مَرَّتينِ [حينَ أُمِروا بالإنفاقِ][3] على المؤمنينَ، وبينَهُمْ وبينَ المؤمنينَ عداوةٌ، وأُمِروا أيضاً بالقتالِ مع الكفارِ، وهُمْ أولياؤهُمْ. هذا أحدُ العذابَينِ لأنهمْ أُمِروا بالإنفاقِ على أعدائِهِمْ، وأُمِروا أيضاً أنْ يُقاتِلوا أولياءَهُمْ. والعذابُ الثاني: القَتْلُ في القتالِ.

فإنْ قِيلَ: لم يُذْكَرْ أنَّ مُنافقاً قُتِلَ قيلَ: لم يُذْكَرْ لِعِلَّةِ أنهم كانوا لا يَعْرِفونَهُمْ لِقولِهِ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ إذا لم يُعْرَفوا [فكيف يُقتَلونَ][4] كما يُقْتَلُ غيرُهُمْ مِنَ المؤمنينَ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ عندَ الموتِ: ضَرْبُ الملائكةِ الوجوهَ والأدبارَ كقولِهِ: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] وفي القبرِ مُنْكَرٌ ونكيرٌ ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ في الآخِرَةِ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ قال عامَّةُ أهلِ التأويلِ: الآيةُ نزلَتْ في أبي لُبابَةَ وأصحابِهِ [لأنهم تَخلَّفوا][5] عنْ غزوةِ تبوكَ عنْ رسولِ اللهِ، فَنَدِموا على ذلكَ، واعْتَرَفوا، ورَجَعُوا عنْ ذلكَ، وتابوا، فَقَبِلَ اللهُ توبَتَهُمْ، وَوَعَدَ لهمُ المَغْفِرَةَ بقولِهِ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وذُكِرَ في بَعْضِ القِصةِ أنهُ لما رَجَعَ رسولُ اللهِ عَنْ غَزْوَتِهِ تلكَ جاءَ هؤلاءِ الذينَ تَخَلَّفوا عنهُ بأموالِهِمْ إلى رسولِ اللهِ، فقالُوا: يا رسولَ اللهِ هذه أموالُنا التي خَلَّفَتْنا عنكَ، فَخُذْها، فقالَ: لم أُؤمَرْ بذلكَ، فَنَزَلَ [قولُهُ تعالى][6]: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا الوعدُ لكلِّ مُسْلِمٍ ارتَكَبَ ذنباً لم يُخرِجْهُ مِنَ الإيمانِ، ثم نَدِمَ على ذلكَ، وتابَ، وتَرَجَّى[7]، واللهُ أعلَمُ، أن يكونَ في عَدِّ هذهِ الآيةِ لأنهُ ذَكَرَ المؤمنينَ، وما هُمْ عليهِ، وذَكَرَ المنافقينَ وما هُمْ عليهِ، ثم ذَكَرَ الذينَ خَلَطُوا أعمالَهُمُ الصالحةَ بأعمالِهِمُ السَّيِّئةِ، ثم نَدِمُوا على ما فَعَلُوا، وتابوا. وعَدَ اللهُ لهمْ قَبولَ التوبةِ والمَغْفِرَةِ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ اخْتُلِفَ في هذهِ الصَّدَقَةِ التي أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ بأخْذِها مِنْ أموالِهِمْ: قالَ بَعْضُهُمْ: هي صدقةٌ فَريضةٌ. ثم اخْتُلِفَ فيها: أيُّ[8] فَريضةٍ هي؟ فقالَ بَعْضُهُمْ: فَريضةُ زكاةِ الأموالِ، وقالَ بَعْضُهُمْ: هي فَريضةُ كَفّارةِ المأثَمِ؛ وذلكَ أنَّ أولئكَ الذينَ تَخلَّفوا عَنْ رسولِ اللهِ عَنْ غَزْوَةِ تبوكَ نَدِمُوا على تَخَلُّفِهِمْ، فلما رَجَعَ رسولُ اللهِ ﷺ جاؤوا بأموالِهِمْ، فقالوا لهُ: تَصَدَّقْ بأموالِنا عنّا فإنَّ أموالَنا هي التي خَلَّفَتْنا عنكَ، فأمَرَ اللهُ رسولَهُ أنْ يأخُذَ منهمْ ذلكَ، ويَتَصَدَّقَ بها كَفّارةً لِما ارْتَكَبوا.

---

(١) من م، في الأصل: وداموا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث أخذوا بالاتفاق. (٤) في الأصل وم: فيقتلون. (٥) في الأصل وم: تخلفون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أية.

جنة السنة

ومنْ قالَ: هي فريضةُ زكاةِ المالِ لِما رُوِيَ عنْ أبي أُمامةَ [الباهِليِّ أنهُ][١] قالَ «إنَّ ثَعْلَبَةَ بْنَ حاطِبٍ [الأنصاريَّ][٢] أتى رسولَ اللهِ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أنْ يَرْزُقَني مالاً، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ وَيْحَكَ يا ثَعْلَبَةُ قليلٌ تُؤدّي شُكْرَهُ خيرٌ مِنْ كثيرٍ لا تُطيقُهُ، ثم جاءَهُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أنْ يَرْزُقَني مالاً، قالَ: وَيْحَكَ يا ثَعْلَبَةُ أما تَرْضى أنْ تكونَ مثلَ رسولِ اللهِ، لو سَأَلْتُ اللهَ أنْ يُسِيلَ الجبالَ عليَّ ذهباً لَسالَتْ، ثم أتاهُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أنْ يَرْزُقَني مالاً، فواللهِ لَئِنْ آتانِيَ اللهُ مالاً لأُوتيَنَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فَدَعا لهُ، فقالَ: اللهمَّ ارزُقْ ثَعْلَبَةَ ثلاثَ مراتٍ». وذُكِرَ أنهُ اتَّخَذَ غنماً، فَنَمَتْ كما يَنْمو الدودُ حتى ضاقَتْ عليهِ أزِقَّةُ المدينةِ، فَتَنَحّى بها، وكانَ يُصَلّي الصَّلَواتِ كلَّها معَ رسولِ اللهِ، وَيَخْرُجُ إليها، ثم ضاقَتْ عليهِ مَراعي المدينةِ، فَتَنَحّى بها / ٢٢١ ـ ب/ فكانَ يُصَلّي الظُّهرَ والعَصْرَ معَ رسولِ اللهِ ﷺ ثم يَتْبَعُها، ثم تَنَحّى بها، فكانَ يُصَلّي الجمعةَ معَ رسولِ اللهِ، ثم بَلَغَ أمْرُهُ إلى أنْ يَتْرُكَ الجمعةَ والجماعاتِ، فَتَنَحّى بها يَتَلَقّى[٣] الرُّكبانَ، فَيَسْأَلُهُمْ عنِ الخَبَرِ عمّا أُنْزِلَ على رسولِ اللهِ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآيةَ، فَبَعَثَ رسولُ اللهِ ﷺ على الصَّدَقةِ رجلَيْنِ، فكتبَ لهما فرائضَ، وأَمَرَهُما أنْ يَسْعَيا في الناسِ، ويأخذا صدقاتِهِمْ، وأنْ يَمُرّا بِثَعْلَبَةَ ورجلٍ مِنْ بني سُلَيمٍ، فَيَأْخُذا صدقاتِهِما، فَخَرَجا يُصَدِّقانِ الناسَ، فَمَرّا بالسُّلَيْمِيِّ، فأقْرَآهُ كتابَ رسولِ اللهِ، فأطاعَ بالصدقةِ، ومَرّا بِثَعْلَبَةَ، فأقْرَآهُ كتابَ رسولِ اللهِ، فقالَ: واللهِ ما أدري؟ ما هذهِ إلّا جِزْيَةٌ أو أُخْتُ الجِزْيَةِ. فإذا فَرَغْتُما فَمُرّا بي، فلما فَرَغا مِنَ الناسِ مَرّا بِهِ، فقالَ لهما مِثْلَ مَقالَتِهِ الأولى، وقالَ: انْطَلِقا، فإني سَأَلْقى رسولَ اللهِ ﷺ فأنزلَ اللهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ إلى قولِهِ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾» [التوبة: ٧٥ـ٧٧] [ابن جرير الطبري في تفسيره: ١٠/ ١٨٩] إلى هذا ذَهَبَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: أنها نَزَلَتْ في شأنِ ثَعْلَبَةَ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ ما ذَكَرْنا أنها نزلَتْ في شأنِ أهلِ تبوكَ الذينَ[٤] تَخَلَّفُوا عنْ رسولِ اللهِ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: الصدقةُ التي أمَرَ اللهُ رسولَهُ[٥] أنْ يَأْخُذَها مِنْ أموالِهِمْ هي صدقةُ تَطَوُّعٍ وتَبَرُّعٍ وهي ما ذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَحُثُّ الناسَ على الإنفاقِ في غَزْوَةِ تبوكَ، فجاءَ عبدُ الرحمنِ بْنُ عوفٍ بكذا، [وفلانٌ بكذا][٦]، فأخَذَها منهُمْ، وفيهِمْ[٧] نَزَلَ قولُهُ ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ٧٩].

ومنهُمْ مَنْ قالَ: هو في كلِّ صدقةِ تَطَوُّعٍ، قَلَّتِ الصَّدَقَةُ، أو كَثُرَتْ؛ أمَرَ رسولَهُ أنْ يأخذَ مِنْ أموالِهِمْ ما رَأى، لا يأخُذُ الكُلَّ لأنَّ أخذَ الكلِّ يحوجُهُمْ، ويَشْغَلُهُمْ عنْ جميعِ الطاعاتِ والعِباداتِ. ولكنْ أمَرَ أنْ يأخُذَ قَدْراً منها [ومِنْ][٨] طائفةٍ مِقْدارَ ما يُكَفِّرُ ما ارْتَكَبُوا مِنَ المآثِمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ إنْ كانَتْ صدقةَ الزكاةِ فهيَ تُطَهِّرُ آثامَهُمُ التي لَحِقَتْهُمْ بذلكَ ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ قيلَ: وتُصْلِحُهُمْ، وهو ظاهرٌ، وإنْ كانَتْ صَدَقَةَ تَطَوُّعٍ فهي مِمّا يُطَهِّرُ أيضاً، ويُزَكّيهِمْ لِما يَنْفي عنهُمُ البُخْلَ، ويُؤدّي إلى الجودِ والكرمِ. ألا تَرى أنهُ مَدَحَ مَنْ أعطى، وذَمَّ مَنْ بَخِلَ، ومَنَعَ بقولِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ الآيةَ [الليل: ٥] ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ الآيةَ؟ [الليل: ٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا أتى أحدٌ بصدقةٍ دعا لهُ، واسْتَغْفَرَ. وكانَ لا يَسْتَغْفِرُ لأهلِ النِّفاقِ. وكانَتْ قلوبُهُمْ تَسْكُنُ، وتَطْمَئِنُّ باسْتِغْفارِ النَّبِيِّ لمّا عَلِمُوا بذلكَ أنهم ليسُوا مِنْ أهلِ النِّفاقِ. وهذا يُحْتَمَلُ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنَّ اللهَ أمَرَ رسولَهُ أنْ يَسْتَغْفِرَ لهمْ، ويُصَلِّيَ عليهِمْ. ثم لا يَحْتَمِلُ أنْ يأمُرَهُ بذلكَ، فلا يَفْعَلُ، أو يَفْعَلُ[٩]، فلا يُجيبُهُ، فكانَتْ قلوبُهُمْ تَسْكُنُ وتَطْمَئِنُّ، باسْتِغْفارِ النَّبِيِّ لهُمْ[١٠] لِما قُبِلَتْ توبَتُهُمْ، وكُفِّرَتْ سَيِّئاتُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][١١]: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قد ذَكَرْنا هذا غيرَ مرَّةٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل و م: ويتلقى. (٤) من م، في الأصل: الذي. (٥) من م، في الأصل: ورسوله. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل و م: وفيه. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: فعل. (١٠) في الأصل وم إياهم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وفي قولِهِ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ دلالةٌ أنَّ الصدقَةَ إذا وَقَعَتْ في يدِ المُتَوَلّي والعاملِ عليها سَقَطَتْ عن أربابِها، وإنْ لم تقَعْ في أيدي الفقراءِ، ولم تصِلْ إليهِمْ لأنَّ النبيَّ كانَ لا يُحِلُّ لَهُ[١] صَدَقَةٌ [ثم أخبرَ][٢] أنهُ إذا أخذَها منهُمْ كانتْ طهارةً لهمْ وتزكيَةً عن أربابِها.

وفيهِ استِدْلالٌ لِمحمدِ بْنِ الحَسَنِ في الوقفِ أنَّ الواقِفَ إذا وقَفَ، وأخرَجَهُ مِنْ يدِهِ، وجَعَلَهُ في يَدَيْ[٣] آخرَ مَنْ لا حَقَّ لهُ في ذلكَ كانَ جائزاً، وكانَ[٤] وقفاً صحيحاً.

ومِنَ الناسِ مَنِ استَدَلَّ بهذه الآيةِ على أنَّ للإمامِ أنْ يُطالِبَ بزكاةِ الأموالِ. وكذلكَ مَضَتِ السُّنَّةُ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ في بعثِ المُصَدِّقينَ إلى أحياءِ العربِ والبُلْدانِ والآفاقِ لأخذِ صَدَقاتِ الأنعامِ والمواشي في مواضِعِها. وعلى ذلكَ فَعَلَ الأئمةُ مِنْ بعدِهِ أبو بكرٍ وعُمَرُ والأئِمَّةُ الراشدونَ. وظَهَرَ العَمَلُ بذلكَ مِنْ بَعْدِهِمْ إلى هذا الوقتِ حتى قالَ أبو بكرٍ لمّا امْتَنَعَتِ العَرَبُ مِنْ إعطائِهِ الزكاةَ: واللهِ لو مَنَعوني عِقالاً كانوا يُؤدُّونَها إلى رسولِ اللهِ حارَبْتُهُمْ عليها. فذلكَ يُؤَيِّدُ ما ذَكَرْنا مِنْ مُطالَبَةِ أصحابِ الأنعامِ والمواشي بزكاةِ أنعامِهِمْ ومواشيهِمْ.

وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى وُجوبَ ذلكَ بَياناً شافياً بقولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ فَجَعَلَ للعامِلينَ عليها حَقاً. فلو لم يكنْ على الإمامِ أنْ يُطالِبَ بصدقاتِ[٥] الأنعامِ في أماكِنِها، وكانَ أداءُ ذلكَ إلى أربابِ الأموالِ ما كانَ لِذِكْرِ العامِلِينَ[٦] وجهٌ. ولم يَبْلُغْنا أنَّ النَّبِيَّ بَعَثَ في مطالبةِ المسلِمينَ بزكاةِ الورِقِ وأموالِ التجارةِ، ولكنَّ الناسَ كانوا يُعْطُونَ ذلكَ، أو مَنْ حَمَلَهُ منهُمْ إلى الأئِمَّةِ يَقْبَلونَ ما يُحْمَلُ إليهِمْ منهُ، ولا يَسْألونَ أحداً عن مَبْلَغِ مُلْكِهِ، ولا يُطالبونَهُ بهِ إلّا ما كانَ مِنْ تَوْجيهِ عُمَرَ العَشّارَ في الأطرافِ.

وكانَ ذلكَ منهُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، لِلتَّخفيفِ عَمَّنْ بَعُدَهُ عنْ دارِهِ، وشَقَّ عليهِ، أنْ يَحْمِلَ صدَقَتَهُ إلى إمامِهِ. فَجَعَلَ في كلِّ طَرَفٍ مِنَ الأطرافِ عَشّاراً لِتُجّارِ أهلِ الحَرْبِ والذِّمَّةِ، وأمَرَ أنْ يأخُذَ[٧] مِنْ تُجّارِ المسلِمِينَ ما يَدْفَعونَهُ إليهِ. وكانَ ذلكَ مِنْ عُمَرَ تخفيفاً على المسلِمِينَ [لا أنَّ][٨] على الإمامِ مطالَبَةَ أربابِ الأموالِ أموالَ العَيْنِ وأموالِ التجارةِ بأداءِ الزكاةِ سِوى المواشي والأنعامِ فإنَّ مطالَبَةَ ذلكَ إلى الأئمةِ إلّا أنْ يأتيَ أحدٌ منهُمُ الإمامَ بِشيءٍ مِنْ ذلكَ فَيَقْبَلَهُ منهُ، ولا يَتَعَدّى ما جَرَتْ بِهِ السُّنَّةُ إلى غَيْرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ أي قد عَلِمُوا أنَّ اللهَ يَقْبَلُ توبَةَ مَنْ تابَ، ويَحْتَمِلُ على الأمرِ؛ أي اعْلَمُوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ ويَحْتَمِلُ[٩] قولُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ مِمَّنْ تابَ ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؟ قيلَ: يَقْبَلُ.

وتُشْبِهُ إضافةُ الأخذِ إلى نَفْسِهِ إضافتَهُ إلى رسولِهِ بقولِهِ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ وذلكَ كثيرٌ في القرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ هو صِفَةُ العافي، وهو اسْمٌ لِلتَّأديبِ.

والتَّوّابُ عندَنا هو المُوَفِّقُ للتوبَةِ. ثم الكافرُ إذا أسْلَمَ، وتابَ، لم يُلْزَمْ معَ التوبَةِ [كَفّارةُ أُخرى سِوى التوبَةِ][١٠] وإنْ كانَ ارْتَكَبَ مساوِئَ وفواحِشَ سِوى الشِّرْكِ والكُفْرِ. والمُسلِمُ إذا ارْتَكَبَ مساوِئَ لِزِمَتْهُ التوبَةُ والكَفّارةُ جميعاً؛ وذلكَ لأنَّ المُسْلِمَ لمّا أسْلَمَ اعْتَقَدَ حِفْظَ ما لَزِمَهُ مِنَ الشرائعِ؛ فإذا ارْتَكَبَ ما ذَكَرَ خَرَجَ [عنْ][١١] شرائِعِهِ، وأدخَلَ نُقْصاناً في ما اعْتَقَدَ حِفْظَهُ؛ فإذا تركَ حِفْظَهُ أدْخَلَ[١٢] فيهِ النُّقصانَ الذي أدْخَلَ فيه.

وأمّا الكافرُ فليسَ عليهِ شيءٌ مِنَ الشرائعِ؛ إنما عليهِ أنْ يتوبَ عنِ الشِّرْكِ، ويأتيَ بالإيمانِ؛ لذلكَ افْتَرَقا.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: ذلكَ في الذينَ

---

(١) من م، في الأصل: لهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: أيدي. (٤) من م، في الأصل: أو يكون. (٥) الباء ساقطة من الأصل و م. (٦) من م، في الأصل: العالمين. (٧) في الأصل و م: يأخذوا. (٨) في م: لأن. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: فادخل.

جنة السنة

تَخلّفوا[1] عن تبوكَ، ثم نَدِموا، وتابُوا عن ذلكَ، فتابَ اللهُ عليهِمْ؛ يقولُ: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي إنْ عُدتُم إلى ما عنهُ تُبتُم، وهو التّخلّفُ، يُطْلِعِ اللهُ رسولَهُ والمؤمنينَ على ذلكَ ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في المنافقينَ؛ يقولُ: اعْمَلُوا في ما تُنافِقونَ[2] فإنّ اللهَ يُطْلِعُ رسولَهُ والمؤمِنِينَ على نِفاقِكُمْ، فَتَفْتَضِحونَ حينَ[3] يَطّلِعونَ على سرائِرِكُمْ/ ٢٢٢ ـ أ/ وسَتُرَدُّونَ إلى [ما أعَدَّ لكُمْ عالِمِ][4] الغَيبِ والشهادةِ؛ أي تُرَدّونَ إلى ما أعَدَّ لكُمْ عالِمُ الغَيبِ والشهادةِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يَجْزيكُمْ جزاءَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ.

يُخَرَّجُ ذلكَ على الوَعيدِ. وذُكِرَ في بَعْضِ الأخبارِ أنّ رسولَ اللهِ ﷺ شَهِدَ جَنازةً، والمؤمنونَ أيضاً شَهِدوها، فأثْنَى عليها، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ وَجَبَتْ، فقيلَ: يا رسولَ اللهِ ما وَجَبَتْ؟. قالَ: الملائكةُ شُهَداءُ اللهِ في السماءِ، وأنتمْ شُهَداءُ اللهِ في الأرضِ، فإذا شَهِدْتُمْ وَجَبَتْ، ثم قرأَ قولَهُ: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنْ ثَبَتَ هذا ففيهِ دلالةُ جوازِ الإجماعِ لأنهُ قالَ: الملائكةُ شُهَداءُ اللهِ في [السماءِ، وأنتمْ شُهَداءُ اللهِ في][5] الأرضِ، فإذا شَهِدْتُمْ وَجَبَتْ. فإذا [شَهِدَ المؤمنونَ][6] على شَرٍّ فهو شَرٌّ، وإذا شَهِدُوا على خَيرٍ فهو خيرٌ. فَعَلى ذلكَ إذا شَهِدوا على حُكْمٍ يَلْزَمُ العَمَلُ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ليسَ على الأمرِ أنْ يقولَ لهمْ جميعاً: اعْمَلُوا كذا، ولكنْ أنّ[7] كلَّ مَنْ يُلَقّنُهُ هذهِ الآيةَ يَتفَكَّرُ فيها، ويَتَدَبَّرُ، فلا يُقْدِمُ على عملٍ لا يَسْتَحْسِنُهُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ والمؤمنونَ بِحَضْرَةٍ[8]، فإذا خلا بهِ لا يَعْمَلُهُ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] ليسَ على الأمرِ بالسَّيْرِ في الأرضِ، ولكنْ على الأمرِ بالتّفَكُّرِ والتّدَبُّرِ في ما نَزَلَ بهِمْ بالتكذيبِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] ليسَ على الأمرِ أنْ يقولَ لهم ذلكَ، ولكنْ [على أنْ][9] يَتَفَكّرَ كلٌّ فيهِ أنهُ واحدٌ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] كانوا مَوقوفينَ مَحْبوسينَ، لا يَدْرُونَ ما يَحْكُمُ اللهُ فيهِمْ أيُعَذِّبُهُمْ أمْ[10] يَتوبُ عليهِمْ؟ فنَزَلَ قولُهُ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ وقالَ بعضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا﴾ وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قالَ: هُمُ الثلاثةُ الذينَ تَخَلّفُوا.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي مَحْبوسونَ؛ يُقالُ: أرْجَيْتُهُ أي حَبَسْتُهُ. وقالَ القُتَبيُّ: ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي مُرْجَونَ على أمرِهِ؛ كأنَّ هذِهِ الآيةَ نزلَتْ في الذينَ تَخَلّفُوا عنهُ لِلرُّكونِ إلى الدنيا، ورَغْبَةً فيها؛ وهُمُ المؤمنونَ، والآيةُ التي كانَتْ قبلَ هذهِ الآيةِ في المُنافِقينَ الذينَ تَخلّفوا لِلرُّكونِ في الدنيا وكُفْراً ونِفاقاً.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنّ المُنافقينَ اتّخذوا مَسْجِداً، فلما فَرَغوا منهُ جاؤوا إلى نَبيِّ اللهِ، وهو يَتَجَهّزُ لِغَزْوَةِ تبوكَ، فَقالُوا: يا رسولَ اللهِ بَنَينا مَسْجِداً لِذي العِلّةِ والحاجةِ واللّيلَةِ المَطيرَةِ، وإنا نُحِبُّ يا رسولَ اللهِ أنْ تأتِيَنا، فَتُصلّيَ فيهِ، قالَ رسولُ اللهِ: أنا على سَفَرٍ وحالِ شُغْلٍ، ولو قَدِمنا مِنْ سَفَرِنا أتيناكُمْ، فَصَلّينا لكُمْ فيهِ، إنْ شاءَ اللهُ، فأنزَلَ اللهُ على رسولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ الآيةَ أخْبَرَ فيهِ أنهمْ لم يَقْصِدوا بِبناءِ مَسْجِدِهِمْ ذلكَ ما ذَكَرُوا أنّا بَنَيناهُ لِذي العِلّةِ والحاجةِ واللّيلَةِ المَطيرَةِ والإشفاقِ على الدينِ وحِفْظِ الصلاةِ بالجماعةِ، ولكنْ يَقْصِدونَ بهِ ضَرّاً وكُفْراً وتفريقاً بَيْنَ المؤمِنِينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ بَيْنَ المؤمنينَ؛ يكونُ قولُهُ: ﴿وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تفسيراً لقولِهِ ﴿ضِرَارًا﴾ يَقْصِدونَ

---

(١) في الأصل وم: تخلفون. (٢) في الأصل وم: تستأنفون. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل: ما أعد لكم، في م: عالم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: شهدوا. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: بحضرته. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

بِناءِ المَسْجِدِ ﴿ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً﴾ [التوبة: ١١٠] أنْ يُفرِّقوا بَيْنَ المؤمِنينَ وبَيْنَ رسولِ اللهِ ﷺ حتى إذا جاءَهُمُ العَدُوُّ وَجَدَهُم مُتفرِّقينَ، فيكونُ أيْسَرَ وأهونَ عليهِمْ في الكَسْرِ عليهِمْ والظَّفَرِ بِهِمْ مِنْ أنْ كانوا مَجموعينَ.

رُوِيَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قال: «لَنْ يُغْلَبَ اثنا عَشَر ألفاً كَلِمَتُهُمْ واحدةٌ» [أبو داوود ٢٦١١]. [وقالَ تعالى][1]: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٠٣] جَعَلَ الاجْتِماعَ في الدنيا نِعْمَةً، ونهاهُمْ عنِ التَّفرُّقِ، وهُمْ كانوا يَقْصِدونَ بذلكَ أنْ يُفرِّقوا بَيْنَ ضَعَفَةٍ مِنَ المؤمِنينَ وبَيْنَ رسولِ اللهِ، فَيُلْبِسوا[2] عليهِمُ الدينَ لأنهُمْ كانوا أهلَ لِسانٍ وجَدَلٍ، وذلكَ كُلُّهُ كُفْرٌ على ما ذَكَرَ.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ لأنهُ معلومٌ أنهمْ أسَرُّوا، وأضمَرُوا في ما بَيْنَهُمْ مِنَ الضِّرارِ والكُفْرِ والتَّفريقِ بَيْنَ المؤمِنينَ، فأطْلَعَ اللهُ نَبِيَّهُ على ما أسَرُّوا لِيُعْلِمَ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي بَنَوا ذلكَ المَسْجِدَ إرصاداً لِمَنْ حارَبَ اللهَ ورسولَهُ.

قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: هو أبو عامرٍ [الراهبُ][3]؛ [ذُكِرَ أنَّ أبا عامرٍ][4] حارَبَ رسولَ اللهِ ﷺ ثم فَرَّ منهُ، فقالَ للمنافِقينَ[5]: ابْنُوا مَسْجِداً، واسْتَعِدُّوا، فإنِّي ذاهبٌ إلى قَيصَرَ بالشام، فآتٍ بِجُنْدٍ، فَنُخْرِجُ محمداً وأصحابَهُ مِنَ المدينةِ، فذهبَ إلى قَيْصَرَ بالشام، فَبَنَوا مَسْجِداً إرصاداً لِمَنْ حاربَ اللهَ ورسولَهُ؛ يعني أبا عامرٍ[6].

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿ضِرَارٗا﴾ أي مُضارَّةً ﴿وَإِرۡصَادٗا﴾ أي تَرَقُّباً بالعَداوةِ. وقالَ أبو عَوسجةَ: ﴿ضِرَارٗا﴾ مُضارَّةً ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي وقوفاً وانْتِظاراً الفرصةَ لِمَنْ حاربَ اللهَ على المؤمِنينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ﴾ أي حَلَفوا ما أرَدْنا باتِّخاذِ المَسْجِدِ ﴿إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ والخيرَ ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ الدلالةِ على إثباتِ الرسالةِ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾ قيلَ: لا تُصَلِّ فيهِ لأنهمْ سألُوهُ أنْ يُصَلِّيَ فيهِ، وقيلَ: ﴿لَا تَقُمۡ﴾ أي لا تأتِهِ، ولا تدخُلْ، وهو واحدٌ.

[وقولُهُ تعالى[7]]: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هو مَسْجِدُ قُباء، وقالَ بَعْضُهُمْ: هو مَسْجِدُ رسولِ اللهِ. ورُوِيَ عنْ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ [أنهُ][8] قالَ: اختُصِمَ، أو قالَ: اختَصَمْنا [في][9] المَسْجِدِ الذي أُسِّسَ على التَّقْوى، فقالَ النبيُّ ﷺ «هو مَسْجِدي هذا» [الترمذي ٣٠٩٩] «هو مسجدُكُمْ هذا» [مسلم ١٣٩٨/ ٥١٤] وعنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ [أنهُ][10] قالَ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عنِ المَسْجِدِ الذي أُسِّسَ على التَّقْوى، فقالَ: «هو مَسْجِدي هذا». وظاهِرُ ما ذَكَرَ أنْ يكونَ مَسْجِدَ قُباء لأنهُ ذُكِرَ لَمّا نَزَلَ ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ قالَ لأهلِ قُباء: «إنَّ اللهَ قد أحسَنَ عليكُمُ الثناءَ، فماذا تَصْنَعونَ؟ قالوا: إنا نَغْسِلُ عنا أثَرَ الغائِطِ أو البَوْلِ» [أحمد ٣/ ٤٢٢] وفي بعضِ الأخبارِ «قالوا: يا رسولَ اللهِ إنا نَجِدُ مكتوباً علينا في التوراةِ الاسْتِنْجاءُ بالماءِ فلا نَدَعُهُ، فقالَ: لا تَدَعُوهُ» [السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٩٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ يَحْتَمِلُ أي فيهِ رجالٌ يُؤْثِرونَ التَّطَهُّرَ بالإيمانِ والتوحيدِ والصلاةِ فيهِ، وفي كلِ مَسْجِدٍ هذا فيهِ فهو مُؤسَّسٌ على التَّقْوى أي تَقْوى الشِّرْكِ والخِلافِ لأمرِ اللهِ ومَناهيهِ، أو يقولُ: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ﴾ أي يُؤْثِرونَ التَّطَهُّرَ بالتَّقْوى والأعمالِ الصالحةِ على غَيرِها مِنَ الأعمالِ التي تُنَجِّسُهُمْ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ مِنَ التَّطَهُّرِ مِنَ الأقذارِ والأنجاسِ؛ كأنهُ قالَ: فيهِ رجالٌ يُؤْثِرونَ الإبلاغَ في التَّطَهُّرِ مِنَ الأقذارِ والأنجاسِ التي تُصيبُهُمْ.

---

(١) في الأصل و م: وقوله. (٢) في الأصل م: فيلبسون. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: للمنافق. (٦) في الأصل و م: عمر. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي على الطاعةِ لِلّهِ والإخلاصِ لهُ ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ لهُ وطَلَبِ مَرْضاتِهِ ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي بَنَى لِلاختِلافِ والتَّفريقِ بَيْنَ المؤمنينَ والكُفرِ باللهِ.

هذا المَثَلُ مُقابَلَةُ[1] مكانٍ بِمكانٍ؛ يقولُ: مَنْ بَنَى بِناءً[2] على قرارٍ مِنَ الأرضِ ممّا يُقَرُّ بِهِ، ويُنْتَفَعُ بِهِ خَيْرٌ مِمَّنْ بَنَى بِناءً على المكانِ الذي لا يُقَرُّ بِهِ، ويُؤدّي إلى الهَلاكِ، ولا يُنْتَفَعُ بِهِ. والأوَّلُ مُقابَلَةُ[3] فِعْلٍ بِفِعْلٍ؛ وهو قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا/ ٢٢٢ ـ ب/ بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧] كالذي بَنَى لِضِدِّ ذلكَ؛ أي لَيسا بِسَواءٍ. ثم قولُهُ[4]: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨] هذا مُقابَلَةُ فِعْلٍ بِفِعْلٍ؛ يقولُ: الذينَ بَنَوُا المَسْجِدَ على الطاعةِ للهِ والإخلاصِ لهُ وطَلَبِ مرضاتِهِ والاجْتِماعِ فيهِ خَيْرٌ أمْ مَنْ بَنَى لِلْكُفرِ باللهِ والتَّفريقِ بَيْنَ المؤمنينَ والضِّرارِ[5] بهِمْ؟ هذا مُقابَلَةُ فِعْلٍ بِفِعْلٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ هذا مُقابَلَةُ[6] مَكانٍ بِمَكانٍ كما[7] ذَكَرْنا. والأُسُّ والأَسَسُ والتأسيسُ والأساسُ واحِدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ قالَ: شَفاهُ فَمُهُ، والجَمْعُ شِفاهٌ، وجُرُفٌ أرضٌ يَسيلُ فيها السَّيلُ حتى يَحْفِرَها، والجِرَفَةُ جَمْعٌ، والهاري الهَشُّ الذي لَيسَ يَصْلُبُ، ويُقالُ: انهارَ يَنْهارُ أي انْهَدَمَ يَنْهَدِمُ، ويُقالُ: رجلٌ هارٍ؛ أي ضعيفٌ، وأرضٌ هَشَّةٌ أي رَخْوَةٌ سَريعَةُ الانْهِدامِ، والهَشُّ الرِّخْوُ.

وقالَ القُتَبيُّ: ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي جُرُفٍ هائِرٍ، والجُرُفُ ما يَنْجَرِفُ بالسُّيولِ [مِنَ][8] الأودِيَةِ، والهائِرُ الساقِطُ، ومنهُ يُقالُ: تَهَوَّرَ البناءُ إذا سَقَطَ، وانْهارَ.

وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: ﴿شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ الشَّفا هو الشَّفيرُ، والجُرُفُ ما تَجَرَّفَ بالسُّيولِ[9] مِنَ الأودِيَةِ، وهارٍ يُريدُ هائِرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قالَ بَعْضُهُم: خَسَفَ اللهُ مَسْجِدَهُمْ في نارِ جَهَنَّمَ. وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: فَخَرَّ مِنْ قَواعِدِهِ في نارِ جَهَنَّمَ، وقالَ: حُرِقَتْ فيهِ بُقْعَةٌ، فَرُئِيَ منها دُخانٌ، سَطَعَ، وقالَ: [فَهَوَى بِناؤُهُمْ][10] الذي بَنَوا في نارٍ. ولانَدْري كيفَ هو؟ وما مَعْناهُ؟

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [قالَ بَعْضُهُم: ﴿بَنَوْا۟ رِيبَةً﴾][11] أي حَسْرَةً وندامَةً. وقالَ بَعْضُهُمْ: رِيبَةً أي شَكًّا ورَيباً.

ومَنْ قالَ: حَسْرَةً ونَدامَةً فهو على وجهَينِ: يَحْتَمِلُ أنهمْ تابوا، ونَدِمُوا على ما صَنَعوا، ويَحْتَمِلُ: حَسْرَةً ونَدامَةً لِما افْتَضَحُوا بِما صَنَعوا وبِما[12] أرادوا بقولِهِ ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

ومَنْ قالَ: [﴿رِيبَةً﴾ أي][13] شَكّاً ونِفاقاً ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى المماتِ [أرادَ أنهم][14] على الشَّكِّ والنِّفاقِ [إلى][15] الموتِ، وهو كقولِهِ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ [التوبة: ٧٧]. وأصلُ الرِّيبَةِ التُّهَمَةُ؛ يُقالُ: فلانٌ مُريبٌ إذا كانت بِهِ تُهَمَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ هذا أيضاً على وجهَينِ:

أحَدُهُما: على التَّمثيلِ: أنَّ الخَوفَ والحُزْنَ إذا بَلَغَ غايَتَهُ يُقالُ: فلانٌ مُنْقَطِعُ القَلْبِ.

[**والثاني**: على الوَعيدِ كقولِهِ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾][16].

---

(١) في الأصل وم: مقابل. (٢) من م، في الأصل: فلان. (٣) في الأصل وم: مقابل. (٤) في الأصل وم: قال. (٥) في الأصل وم: وضوا. (٦) في الأصل وم: مقابل. (٧) في الأصل وم: لما. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) في الأصل و م: من السيول. (١٠) في الأصل و م: يهوي ببنائهم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) أدرج قبلها في الأصل: ويحتمل. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: أي هم. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) ساقطة من الأصل وم، انظر ما ذكر المؤلف في تفسير الآيات: ٧٥و ٧٦و ٧٧ من السورة.

جنة السنة

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ ﴿ٱشۡتَرَىٰ﴾ أي استامَ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿ٱشۡتَرَىٰ﴾ خبرٌ، ولكنْ يَحتمِلُ الاستيامَ، أيِ استامَ أنْ يَبذُلوا أنفُسَهُمْ وأموالَهُم لِيَجعَلَ لَهُمُ اللهُ الجَنَّةَ. ثم بيَّنَ، فقالَ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ خبراً عن قومٍ باعُوا أنفُسَهُمْ وأموالَهُمْ كقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢٠٧] وقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [النساء: ٧٤] فإذا صاروا بائِعِينَ أنفُسَهُمْ كانَ اللهُ مُشتريَها منهم.

ثم بيَّنَ أنْ كيفَ يُباعُ؟ وكيفَ يُشرَى؟ فقالَ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ أي يَقتُلونَ العَدُوَّ، ويُقتَلونَ أي يَقتُلُهُمُ العَدُوُّ. وقد قُرِئَ الأوَّلُ بالرفعِ فَيُقتَلونَ والثاني بنَصبِ الياءِ [ويَقتُلونَ][1]؛ فهو ليسَ على الجَمعِ: أنْ يُقتَلوا، ويَقتُلوا، ولكنْ أنْ يَقتُلوا العَدُوَّ، أو يَقتُلَهُمُ العَدُوُّ. وأيُّهما كانَ، أو يقاتلونَ، وإنْ لم يُقتَلوا كقولِهِ: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٧٤] وقولِهِ[2] ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ الآية [الصف: ١٠ و١١] سمَّى الإيمانَ باللهِ والمُجاهَدَةَ في سَبيلِ اللهِ تجارةً.

ثم قالَ: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ بِحَقِّ الوَعدِ لهم فَضلاً منهُ لا بِحَقِّ البَذلِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ ذَكَرَ شِرَى أنفُسِهِمْ وأموالِهِمْ منهُمْ؛ وأنفُسُهُمْ في الحقيقةِ لِلهِ؛[له][3]أنْ يأخذَ منهُمْ أنفُسَهُمْ وأموالَهُمْ، وأنْ يُتلِفَهُمْ بأيِّ وجهٍ ما شاءَ، لكنَّهُ عامَلَ عِبادَهُ معامَلَةَ مَنْ لا مُلْكَ لهُ في ذلكَ، ولا حَقَّ، كَرَماً منهُ وَجُوداً.

وَوَعَدَ لَهُمْ على ذلكَ أجراً وبَدَلاً. وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ القَرضِ لهُ، وَوَعَدَ لَهُمْ على ذلكَ الأجرَ مُضاعفاً، وكذلكَ ما وَعَدَ لَهُمْ مِنَ الثوابِ في ما يَعمَلُونَ لأنفُسِهِمْ كالعامِلِينَ لهُ حينَ[4] قال: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤]وقالَ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] ونَحوَهُ؛ وإنْ كانوا في الحقيقةِ عامِلِينَ لِأنفُسِهِمْ بقولِهِ: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ الآية [الإسراء: ٧].

ذَكَرَ ما ذَكَرَ فَضلاً منهُ وإكراماً؛ إذْ هي لهُ حَقٌّ في الحقيقةِ، وهو كما قالَ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [الحج: ٣٧] فإنما يَطلُبُ منهُمْ بَذلَ أنفُسِهِمْ وأموالِهِمْ.

أو ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ، شِرَى مالِهِ في الحقيقةِ لِيَعلَمَ الخَلقُ أنْ كيفَ يعامِلُ الناسُ بَعضُهُمْ [بَعضاً][5]، وكذلكَ قالَ اللهُ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البقرة: ٢٤٥]عامَلَهُمْ مُعامَلَةَ مَنْ لا حَقَّ لهُ في أموالِهِمْ وأنفُسِهِمْ لِيُعامِلَ[6] الناسُ بَعضُهُمْ بَعضاً في أموالِهِمْ وأنفُسِهِمْ كَمَنْ لا حَقَّ لهُ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ أي وَعداً واجباً ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ أي وَعَدَ ذلكَ في التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ. وفي حَرفِ ابنِ مَسعودٍ: عَهداً عليهِ حقاً في التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ هذهِ الآيةُ تَنقُضُ قولَ مَنْ يقولُ بأنَّ الإنجيلَ على التَّخفيفِ والتَّيسيرِ، والتوراةَ بالشدائدِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ [الصف: ١٤] وذلكَ مذكورٌ في حُكمِ الإنجيلِ، إلا أنْ يُقالَ بأنَّ قولَهُ: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ أي كانَ هذا مذكوراً لهذهِ الأمَّةِ، وما ذُكِرَ.

ثم قالَ: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ هذا على أنَّ قولَهُ ﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ الآيةَ إنما هو عَهدٌ إليهِمْ حينَ[7] قالَ: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ أي لا أحَدَ أوفَى وأصدَقُ بِعَهدِهِ مِنَ اللهِ إنْ[8] وَفَيتُمْ أنتُمْ بِعَهدِهِ الذي عَهِدَ إليكُمْ[9]، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٤٦. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) اللام ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) من م، في الأصل: أي. (٩) في الأصل وم: عليكم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ الاِسْتِبْشارُ الذي ذَكَرَ وقتَ الموتِ أنْ يقولَ لهمُ الملائكةُ ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾ في الحياةِ. هذا يدلُّ أنَّ البَيْعَ يكونُ بَيعاً بالبَدَلِ، وإنْ لم يُتَلَفَّظْ بِلَفْظَةِ البَيْعِ، وقد ذكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنَّ الأحكامَ لم تَتَعلَّقْ بالألفاظِ و الأسامي، إنما عُلِّقَتْ بِمَعانٍ فيها؛ فإذا وُجِدَتِ المَعاني حُكِمَ بها ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الذي][1] ذُكِرَ

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ إلى آخِرِهِ، قالَ بَعْضُهُمْ: على الصِّلَةِ بالأوَّلِ في ما ذَكَرَ مِنَ الشِّرى والوَعْدِ لهمُ الجنَّةَ إذا كانوا على الوصفِ الذي ذَكَرَ. وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ [ابْنِ كَعْبٍ][2] ﷺ أنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ المؤمنينَ التائبينَ العابدينَ الحامدينَ[3] على الصِّلَةِ بالأوَّلِ بالكَسْرِ إلى قولِهِ ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ قَرَآها: والقائمينَ على حدودِ اللهِ ﴿أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

ومنهم مَنْ قالَ: على الاِبْتِداءِ بالرَّفْعِ: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ إلى آخِرِه. ويُشْبِهُ أن يكونَ الشِّراءُ الذي ذَكَرَ في أوَّلِ[4] الآيَةِ، وما وَعَدَ لَهُمْ بِبَذْلِ أنْفُسِهِمْ وأموالِهِمْ في الجهادِ يكونُ ذلكَ أيضاً في غَيْرِهِ مِنَ الطاعاتِ والخَيراتِ مِنْ بَذْلِ النَّفْسِ للهِ في ما ذُكِرَ مِنَ العِبادَةِ لهُ والجهادِ. وما ذَكَرَ في الآيَةِ فهو بائعٌ نَفْسَهُ منهُ كقولِهِ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] ونَحْوَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿التَّائِبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ: ﴿التَّائِبُونَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ أو مِنْ جَميعِ المَعاصي/ ٢٢٣ - أ/ ﴿الْعَابِدُونَ﴾ يَحْتَمِلُ المُوَحِّدينَ[5]، ويَحْتَمِلُ ﴿الْعَابِدُونَ﴾ جميعَ أنواعِ العبادةِ. و﴿الْحَامِدُونَ﴾ قيلَ: الشاكرونَ، وقيلَ: المُثْنونَ على اللهِ.

فإنْ كانَ قولُهُ: ﴿الْعَابِدُونَ﴾ مِنَ العبادةِ [يَكُنِ ﴿الْحَامِدُونَ﴾ المُثْنينَ][6] على اللهِ لأنَّ العِباداتِ كلَّها شُكْرٌ. وإنْ كانَ قولُهُ ﴿الْعَابِدُونَ﴾ المُوَحِّدينَ [يَكُنْ قولُهُ ﴿الْحَامِدُونَ﴾ الشاكرينَ][7] النِّعَمَ التي أنْعَمَها اللهُ عليهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿السَّائِحُونَ﴾ قيلَ: الصائمونَ. وعلى ذلكَ رُوِيَ عنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنِ السائحينَ، فقالَ: همُ الصائمونَ، وقالَ: «وسِياحَةُ أمتي الصِّيامُ» [القرطبي في تفسيره: ٤/ ١٨٩].

وقالَ القُتَبِيُّ: وأصلُ السائحِ: الذاهبُ في الأرضِ، ومنهُ يُقالُ: سائحٌ إذا جَرى، وذَهَبَ، والسائحُ في الأرضِ مُمْتَنِعٌ مِنَ الشَّهَواتِ، فَشَبَّهَ الصائمَ[9] بهِ لإمساكِهِ في صومِهِ عنِ المَطْعَمِ والمَشْرَبِ وجميعِ اللذاتِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: همُ الذينَ يمضُونَ على وجوهِهِمْ في الأرضِ، لَيسَتْ [لهمْ][10] منازِلُ؛ يُقالُ: ساحَ يَسيحُ سَيحاً وسِياحَةً.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ قيلَ: المُصَلُّونَ، وقيلَ: الخاضِعونَ للهِ، والخاشِعونَ لهُ، وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ حَفْصَةَ.

[وقوله تعالى] [12]﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يَحْتَمِلُ التوحيدَ؛ أي آمِرونَ بتوحيدِ اللهِ، ويَحْتَمِلُ ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ لهمْ بالخَيراتِ كُلِّها ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ الشِّرْكِ، ويَحْتَمِلُ كلَّ مَعْصِيَةٍ.

[وقولُهُ تعالى][13]: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لِفرائضِ اللهِ التي فَرَضَها على عبادِهِ، وقالَ بَعْضُهُمْ: لِسُنَنِ اللهِ، وهُمْ[14] حافظونَ جميعَ أحكامِ اللهِ، لا يُجاوِزونَ ما حَدَّ لهمْ، ولا يُفَرِّطونَ فيها.

[وقولُهُ تعالى][15]: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ البِشارَةَ لهؤلاءِ الذينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ، ويَحْتَمِلُ على الاِبْتِداءِ؛ أي بَشِّرْ جميعَ المؤمنينَ ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧] واللهُ أعلمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٤٧. (٤) من م، في الأصل: الأول. (٥) في الأصل وم: الموحدون. (٦) في الأصل وم: فيكون المثنون. (٧) في الأصل وم: يكون قوله الشاكرون. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: الصيام. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: ولكن. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ١١٣ وقولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ دلَّتِ الآيةُ بما نهانا أنْ نَستغفِرَ لِمَنْ عَلِمْنا أنهُ مِنْ أهلِ النارِ لِما أنَّ اللهَ لا يَغفِرُ لهُ لِما عَلِمَ أنهُ لا يؤمِنُ. فَعَلى ما عَلِمْنا أنهُ لا يَغفِرُ لهُ لم نَستغفِرْ لهُ، ولم[1] يَجُز لنا أنْ نقولَ: [لهُ][2] إنهُ أرادَ الإيمانَ لِمَنْ يَعْلَمُ أنهُ لا يؤمِنُ أبداً كما لم يَجِبْ أنْ نَستغفِرَ[3] لِمَنْ وَجَبَتْ لهُ النارُ.

فهذا يَنْقُضُ على المُعتزلَةِ قولَهُم: إنَّ اللهَ قد أرادَ لكلِّ كافرٍ الإيمانَ، لكنهُ لم يؤمِنْ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَدِ استَغفَرَ لأحدِ والِدَيهِ، وذُكِرَ أنهُ دخلَ على أبي طالبٍ عمِّهِ، فَدعاهُ إلى شهادةِ أنْ لا إله إلّا اللهُ، فأَبَى، ثم استَغفَرَ لهُ، وقالَ: لأستَغفِرَنَّ لكَ مالم أُنهَ عنهُ، أو كلامٌ نَحْوُ هذا، فنزَلَ قولُهُ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ الآية.

قالَ الحَسَنُ: لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ رسولٌ مِنْ رُسُلِ اللهِ لا يَعْلَمُ أنَّ اللهَ لا يَغفِرُ للكافرِ؛ إذ في العَقلِ والحِكمَةِ ألّا يَغفِرَ لهُ والتعذيبُ لهُ أبداً.

وعندَنا في الحِكْمَةِ تعذيبُ الكافرِ أبداً وألّا يُغفَرَ [لهُ][4] لِوُجوهٍ:

أحدُها: أنَّ في ذلكَ تَسْوِيَةً بَيْنَ العَدُوِّ وَوَلِيِّهِ؛ فهو ليسَ بِحِكْمَةٍ[5]؛ إذْ في الحِكْمَةِ التَّمييزُ بَيْنَهُما.

والثاني: أنهُ إذا عبدَ غيرَ اللهِ معهُ إنما يَعْبُدُ غَيْرَهُ لِجَهْلِهِ، وتلكَ الجَهالةُ لا تَرْتَفِعُ أبداً؛ لأنهُ إذا غُفِرَ لهُ، فَيَقَعُ عندَهُ أنهُ إنما جُزِيَ [بما جُزِيَ][6] وغُفِرَ لعبادةِ غيرِ اللهِ.

والثالثُ: أنهُ لو غُفِرَ للكافرِ لَذَهَبَتْ حِكْمَةُ الأفعالِ؛ لأنَّ الأفعالَ إنما يُؤْمَرُ بها لِعَواقِبَ تُتَأَمَّلُ: إمّا حَمْداً وإمّا ذَمّاً. فإذا غُفِرَ لهُ حُمِدَ بأفعالٍ كانَ الحَقُّ لهُ الذَّمَّ بها. ففي [ذلكَ][7] خُروجُها عنِ الحكمةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ يَسْتَغْفِرُ لِلْمُنافِقِينَ قَبْلَ أنْ يَتَبَيَّنَ لهُ أنهمْ مُنافِقونَ. فلما تَبَيَّنَ لهُ نِفاقُهُمْ كَفَّ عنِ [استغفارِهِ لَهُمْ][8]. فأمّا أنْ يَستَغفِرَ للكافرِ على عِلْمٍ منهُ أنهُ كافرٌ فلا يُحْتَمَلُ على ما يقولُهُ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنهُ استَغفَرَ لِعَمِّهِ ولأحدِ والدَيهِ.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: وَعْدُهُ إيّاهُ الإسلامُ، فكانَ استِغفارُهُ لأبيهِ على وَعْدِ الإسلامِ، فإنما كانَ استِغفارُهُ بَعْدَ إسلامِهِ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؟ [إبراهيم: ٤٠و٤١] فإنما طَلَبَ لهُ المَغفِرَةَ في ذلكَ اليومِ، وقد كانَ وَعَدَ لهُ الإسلامَ، لذلكَ كانَ استَغفَرَ لهُ. ألا تَرى أنهُ تَبَرَّأَ منهُ إذ[9] تَبَيَّنَ لهُ أنهُ مِنْ أهلِ النارِ [بقولِهِ تعالى: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]][10].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ استِغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ طَلَبَ السَّبَبِ الذي بهِ منهُ يَسْتَوجِبُ المَغفِرَةَ، وهو التوحيدُ، وهو كقولِ هودٍ لِقومِهِ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢] وكقولِ نوحٍ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] ليسَ يأمُرُهُمْ أنْ يَقولوا: نَستغفِرُ اللهَ، ولكنْ يأمُرُهُمْ بالإسلامِ لِيَغفِرَ لَهُمْ، ويكونوا مِنْ أهلِ المَغفِرَةِ. فَعَلى ذلكَ استِغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] أي أعْطِهِ السَّبَبَ الذي بهِ يَستَوجِبُ المَغفِرَةَ؛ وهو التوحيدُ. كانَ سُؤالُهُ سُؤالَ التوحيدِ؛ إذْ لا يَحِلُّ طَلَبُ المَغفِرَةِ للكافرِ، وفي الحِكمَةِ لا يَجوزُ أنْ يُغفَرَ لهُ.

فإنْ قيلَ: فإنْ كانَ على ما ذَكَرْتُمْ فكيفَ[11] استَثْنى ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ بَعْدَ ما أخْبَرَ لنا أنَّ في إبراهيمَ

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: يغفر. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل و م: بحكيم. (٦) في الأصل: به بما جزي. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل و م: استغفارهم. (٩) في الأصل و م: إذا. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) الفاء ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

قُدْوةً بقولِهِ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾؟ [الممتحنة: ٤] قيلَ: يَحْتَمِلُ الاسْتِثْناءُ: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ أي حتى نَعْلَمَ المَعْنَى مِنِ اسْتِغْفارِهِ لأنّا لا نَعْرِفُ مُرادَ إبراهيمَ مِنِ اسْتِغْفارِهِ لأبيهِ. وكذلكَ اسْتِغْفارُ الأنبياءِ ﷺ لقومِهِمْ والمُتَّصِلِينَ بِهِمْ، فاسْتَثْنَى ذلكَ إلى أنْ نَعْلَمَ مُرادَهُمْ مِنِ اسْتِغْفارِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ قيلَ: الأوّاهُ الدَّعّاءُ. وعلى ذلكَ رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنِ الأوّاهِ، وقالَ: الدَّعّاءُ الخاشِعُ المُتَضَرِّعُ. وعنِ ابنِ عباسٍ ﵄ [أنهُ][(١)] قالَ: الأوّاهُ المُؤمِنُ، وقيلَ: الأوّاهُ الفقيهُ المُوقِنُ، وقيلَ: المَسيحُ، وقيلَ: الأوّاهُ المُتَأَوِّهُ حُزْناً وخوفاً.

و ﴿حَلِيمٌ﴾ قيلَ: الحَكيمُ ضِدُّ السَّفيهِ، وقيلَ: العَليمُ والحَليمُ هو الذي لا يَغْضَبُ، ولا يَسْفَهُ عندَ سَفَهِ السَّفيهِ.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ اختلفَ أهلُ التأويلِ: قالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في اسْتِغْفارِ المؤمنينَ للمُشْرِكينَ. وقالَ بَعْضُهُمْ: الآيةُ في نَسْخِ الأحكامِ والشرائعِ التي تَحْتَمِلُ النَّسْخَ.

فإنْ كانَ في [الاسْتِغْفارِ للمُشْرِكينَ][(٢)] فإنهُ لَيسَ هناكَ نَسْخٌ؛ لأنهُ لم يَسْبِقْ لهمُ الأمْرُ بالاسْتِغْفارِ ولا الإباحةُ لهمْ في ذلكَ؛ فإنهُ قالَ: ما كانَ اللهُ لِيَجْعَلَ قوماً ضُلّالاً بالاسْتِغْفارِ بَعْدَ إذْ جَعَلَهُمْ مُهْتَدينَ حتى يَعْلَمُوا بالنَّهْيِ عنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وهو يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنِ اسْتِغْفارِهِمْ لِلْمُنافِقينَ قَبْلَ أنْ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ؛ يقولُ: لا يَجْعَلُهُمْ ضُلّالاً بذلكَ ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾.

وإنْ كانَ في نَسْخِ الأحكامِ فكأنهُ، واللهُ أعْلَمُ، قالَ: ما كانَ اللهُ لِيَجْعَلَ قوماً ضُلّالاً جُهّالاً بِفِعْلِهِمِ الذي فَعَلُوا بالأمرِ ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أي حتى يَعْلَمُوا بالذي يَلْزَمُهُمُ الانْتِهاءُ عنهُ، وهو النَّسْخُ.

هذا في الأحكامِ التي تَحْتَمِلُ النَّسْخَ وأمّا الأحكامُ التي لا تَحْتَمِلُ النسخَ فلا. وأصْلُهُ: إنَّ كلَّ ما كانَ في العَقْلِ امْتِناعُ نَسْخِهِ فإنهُ لا يَرِدُ فيهِ النَّسْخُ، وكُلُّ ما كانَ في العَقْلِ لا امْتِناعَ على نَسْخِهِ فإنهُ يجوزُ أنْ يَرِدَ فيهِ النَّسْخُ.

ثم المسألةُ في ما عَمِلُوا بالمَنْسوخِ قَبْلَ العِلْمِ بهِ بالنَّسْخِ: ما حالُ العَمَلِ الذي عَمِلُوا بهِ؟ يَخْرُجونَ، ويَأْثَمونَ في عَمَلِهِمْ بذلكَ في حالِ نَسْخِهِ، ويُثابُونَ، ويُؤْجَرونَ على ذلكَ. فإنْ كانَ الفِعْلُ فِعْلَ طاعةٍ وقُرْبَةٍ فإنهُ يُثابُ في قَصْدِهِ وفِعْلِهِ/ ٢٢٣ - ب/ ، ولا يَخْرُجُ منهُ.

ولكنْ إنْ[(٣)] كانَ الفِعْلُ ليسَ بِفِعْلِ قُرْبَةٍ وطاعةٍ، ولكنْ فِعْلُ حِلٍّ وحُرْمَةٍ فإنهُ في فِعْلِهِ قَبْلَ بُلوغِ العِلْمِ بِنَسْخِهِ لا يَخْرُجُ في فِعْلِهِ نَحْوُ ما رُوِيَ أنهمْ كانُوا يَشْرَبونَ الخَمْرَ، ثم أتاهُمْ آتٍ فقالَ: ألا إنَّ الخَمْرَ قد حُرِّمَتْ، فَصَبُّوها، وكَفُّوا عنها. فَهُمْ في شُرْبِهِمْ بَعْدَ التحريمِ قَبْلَ بُلوغِ الخَبَرِ إليهِمْ لا يَخْرُجونَ.

وأمّا الفِعْلُ الذي هو فِعْلُ قُرْبَةٍ وطاعةٍ فإنَّ لَهُمُ القُرْبَةَ في فِعْلِهِمْ، وهو الصلاةُ، ونَحْوُهُ ما رُوِيَ أنَّ نَفَراً كانُوا يُصَلُّونَ إلى بيتِ المَقْدِسِ، فَمَرَّ عليهِمْ مارٌّ، فقالَ: ألا إنَّ القِبْلَةَ قد حُوِّلَتْ، وهُمْ في الركوعِ، إلى الكعبةِ، فَتَحَوَّلُوا نَحْوَها، فأخْبَرُوا عنْ ذلكَ رسولَ اللهِ، فلم يَأْمُرْهُمْ بالإعادةِ لأنَّ الفِعْلَ فِعْلُ قُرْبَةٍ وطاعةٍ. فالطاعةُ والقُرْبَةُ موجودةٌ في فِعْلِهِمْ لأنَّ الأفعالَ التي فُرِضَتْ لم تُفْرَضْ لِنَفْسِ الأفعالِ، إنما فُرِضَتْ لِلطاعةِ والقُرْبَةِ للهِ فيها. فإنهُ يُؤْجَرُ على ذلكَ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ بما فيهِ مَصالِحُ الخَلْقِ وما ليسَ فيهِ. كانَ هذا، واللهُ أعْلَمُ، خَرَجَ لإنكارِ مَنْ أنْكَرَ النَّسْخَ في الشرائعِ. يقولُ: إنَّ اللهَ يَعْلَمُ بما فيهِ مَصالِحُ الخَلْقِ، وأنْتُمْ لا تَعْلَمونَ. وفي الناسخِ مَصالِحُ لهمْ، وأنتُمْ لا تَعْلَمونَ.

الآية ١١٦ ويُؤَيِّدُ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي كما لَهُ أنْ يُميتَ بَعْدَ الحياةِ، ويُحْيِيَ بَعْدَ الموتِ فَلَهُ أنْ يَتَعَبَّدَهُمْ في حالِ عِبادةٍ وفي حالِ عبادةٍ أُخْرَى.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: استغفار المشركين. (٣) في الأصل و م: فان.

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ الآية؛ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: تابَ اللهُ عليهِمْ لِزَلَّاتٍ سَبَقَتْ منهُمْ ولِهَفَواتٍ تَقَدَّمَتْ مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهُمْ زَلَّاتٌ؛ في هذا يَعْني في غَزْوَةِ تبوكَ، وهَفَواتٍ.

أمّا التوبةُ على النَّبِيِّ بقولِهِ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [التوبة: ٤٣] وعلى[1] المُهاجِرينَ والأنصارِ بما[2] كانَ منهُمْ يومَ أُحُد ويومَ[3] حُنَينٍ بقولِهِ[4]: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥] وقالَ بَعْضُهُمْ: تابَ عليهِمْ لِهَفَواتٍ كانَتْ منهُمْ في غَزْوَةِ تبوكَ؛ هَمُّوا أنْ يَنْصَرِفوا في وَقْتٍ غيرِ وَقْتِ الانْصِرافِ.

ويُشْبِهُ أنْ تكونَ التوبةُ التي ذَكَرَ على وجهَينِ سِوَى ما ذَكَرُوا:

[أحدُهما: هو][5]: أنهُ تابَ عليهِمْ؛ أي جَدَّدَ عليهِمُ التوبةَ لِلْهَفَواتِ التي تَقَدَّمَتْ أوِ للثباتِ عليها مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهُمْ في الحدوثِ شيءٌ. ولكنْ يكونُ لذلكَ حُكْمُ التجديدِ والثباتِ عليها، فيكونُ كَسُؤالِ الهُدَى، وهُمْ على الهُدَى كقولِهِ ﷺ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦] أي يا أيها الذينَ آمَنُوا في ما مَضَى مِنَ الوَقْتِ [آمِنُوا][6] أوِ اثْبُتُوا في ذلكَ. فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ أي جَدَّدَ عليهِمُ التوبةَ مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهُمْ هفوةٌ، أو ثَبَّتَهُمْ على التوبةِ التي كانَتْ منهُمْ.

والثاني: أنهُ ذَكَرَ التوبةَ؛ وذلكَ أنهمْ حينَ[7] صَبَرُوا على ما أصابَهُمْ مِنَ الشدائدِ والجَهْدِ كشَفَ اللهُ عنهُمْ أشياءَ كانَتْ مَسْتورةً عنهمْ[8]، وجَلَا لَهُمْ أغطيةً كانَتْ لا تَنْجَلي لَهُمْ مِنْ قَبْلُ.

لكنِ انْجَلَى ذلكَ لهمْ، وانْكَشَفَ لِصَبْرِهِمْ على الشدائدِ التي أصابَتْهُمْ [كقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾][9] [البقرة: ١٥٦] لمّا صَبَرُوا على ما أصابَهُمْ مِنَ المَصائبِ [ازدادوا هُمْ][10] تفويضاً [وتَسْليماً للأمرِ][11] والمَرْجِعِ إليهِ، وكقولِهِ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التغابن: ١١] زادَ[12] لَهُمْ بِما صَبَرُوا هُدىً، وتَجَلَّى لَهُمْ أشياءُ، لم تكنْ مِنْ قَبْلُ.

فَعَلَى ذلكَ تَحْتَمِلُ التوبةُ التي ذَكَرَ أنهمْ لمّا صَبَرُوا على ما أصابَهُمْ مِنَ الشِّدَّةِ والجَهْدِ تَجَلَّى لهمْ أشياءُ كانَتْ مُغَطّاةً، واللهُ أعلَمُ؛ فإنهُ ذَكَرَ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ ولم يَذْكُرْ أنها زاغَتْ، وذَكَرَ قلوبَ فريقٍ منهُمْ، ولم يَذْكُرْ قلوبَ الكُلِّ كما ذَكَرْنا.

ويَحْتَمِلُ ذِكْرُ التوبةِ على النَّبِيِّ الإشراكَ[13] لهُ معَ المؤمنينَ مِنْ غيرِ أنْ كانَ لهُ ذنبٌ؛ لأنهُ أخْبَرَ أنَّ ذنبَهُ مغفورٌ بقولِهِ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فهو كما أشْرَكَهُ في الاسْتِغْفارِ كقولِهِ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] أمرُهُ بالاسْتِغْفارِ لِذَنْبِهِ على الإشراكِ لهُ معَ اسْتِغْفارِ المؤمنينَ؛ إذْ أخْبَرَ أنهُ غَفَرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخَّرَ.

والتوبةُ مِنَ اللهِ تعالى تُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: التوفيقُ؛ وفَّقَهُمْ لِلتوبةِ، وأكرَمَهُمْ بها، كقولِهِ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨] أي وفَّقَهُمْ لِلتوبةِ، فَتابُوا.

والثاني: التوبةُ منهُ قَبولُها منهُمْ؛ أي يَقْبَلُ مِنهُمُ التوبةَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

والثالثُ: تابَ عليهِمْ؛ أي تَجاوَزَ عنهُمْ، وعفَا، وصَفَحَ عنهُمْ.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) الباء ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقوله. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: عندهم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل: ازدادهم، في م: ازداد لهم. (١١) في الأصل وم: وتسليم الأمر. (١٢) في الأصل و م: ازداد لهم. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: على.

جنة السنة

على هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ تُخَرَّجُ إضافةُ التوبةِ إلى اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ قيلَ: في عُسْرَةِ النَّفَقَةِ، وعُسْرَةِ الظَّهرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ ذُكِرَ في بَعْضِ القِصَّةِ أنهُ قد أصابَهُمْ مِنَ الجَهْدِ والشِّدَّةِ، حتَّى إنَّ الرجُلَينِ ليَقْسِمانِ التَّمْرَةَ بَيْنَهما، وكانَتِ التَّمْرَةُ يَتداوَلُونَ بَيْنَهُمْ، يَمُصُّها هذا، ثم يَشْرَبُ عليها الماءَ، ثم يَمُصُّها هذا. ذُكِرَ نَحْوُ هذا، ولكنْ لا نَدري كيفَ كانَ الأمرُ؟ سِوَى أنهُ أخبَرَ أنَّ قلوبَهُم كادَتْ تَزيغُ مِنَ الجَهْدِ.

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ عنِ التوبةِ نَحْوُ قولِهِ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ كانوا يَبْتَهِلُونَ ويَدْعُونَ اللهَ، حتى تابَ اللهُ عليهِمْ، فَتابوا.

وقالَ قائلونَ: ﴿خُلِّفُوا۟﴾ عنْ رسولِ اللهِ لمّا تَقَدَّمَهُمُ القومُ، فهمُ المُخَلَّفُونَ بِتَقَدُّمِ أولئكَ، وقالَ قائِلونَ: ﴿خُلِّفُوا۟﴾ خَلَّفَهُمُ اللهُ؛ أي خَلَفَهُمْ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ هُمُ الذينَ تَخَلَّفُوا[1]، فَلَحِقوا رسولَ اللهِ، وهو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [يحتملُ هذا على التحقيقِ][2] ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على التَّمثيلِ. ولِلتَّحْقيقِ وجهانِ:

أحدُهما: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أنهُمْ شَدُّوا أنفُسَهُمْ بالسَّواري والأُسْطُواناتِ، وأتَوا بأموالِهِمُ التي مَنَعَتْهُمْ عنِ الخُروجِ معَ رسولِ اللهِ، وتَصَدَّقُوا بالأرضِينَ التي مَنَعَتْهُمْ عنِ الخُروجِ، وضاقَتِ عليهِمُ الأرضُ بَعْدَ ما كانَتْ عليهِمْ مُتَّسِعَةً؛ يَتَّسِعونَ فيها؛ لأنهُ ذُكِرَ في القصةِ أنَّ واحداً مِنْ هؤلاءِ مِمّا حَبَسَتْهُ أرضُهُ عنِ الخروجِ، فَتَصَدَّقَ بها على الفقراءِ، وكانَ لهُ التَّوسُّعُ بتلكَ الأرضِ، ثم ضاقَتْ عليهِ.

والثاني: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ لمّا حَبَسوا أنفُسَهُمْ عنْ أراضِيهِمْ، وتَركوا شَهَواتِهِمْ وأمانِيَّهُمْ وما يَتَلَذَّذونَ بهِ. فذلكَ ضِيقُ الأرضِ ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ لمّا شَدُّوا أنفُسَهُمْ بالأُسْطُواناتِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على التَّمثيلِ؛ وذلكَ أنَّ الخوفَ إذا اشْتَدَّ على الإنسانِ، وبَلَغَ غايَتَهُ، حتى يَمْنَعَهُ مِنَ القَرارِ في الأرضِ والتَّلَذُّذِ فيها، يُقالُ: ضاقَتْ عليهِ الأرضُ بسَعَتِها، وضاقَتْ عليهِمْ أنفُسُهُمْ لِما ذُكِرَ: كانَ الناسُ لا يُكَلِّمونَهُمْ، ولا يُخالِطونَهُمْ، ولا يُبايِعونَهُمْ، ولا يُكَلِّمُهُمْ أهالِيهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ظَنّوا أنْ لا نَجاةَ مِنْ عقوبةِ اللهِ إلّا عَفْوُهُ؛ أي أيْقَنوا أنْ لا مَخْلَصَ لهمْ ولا احْتِرازَ لهمْ مِنْ عِقابِهِ. وقيلَ: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ﴾ مِنْ عذابِ اللهِ إلّا إلى رَحْمَتِهِ. وقيلَ: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ﴾ مِنْ رسولِ اللهِ إلّا إلى اللهِ؛ لأنهُ ذُكِرَ أنهمْ سألوا رسولَ اللهِ/ ٢٢٤ ـ أ/ التَّجاوُزَ عنْ ذلكَ، فلمْ يَجِبْهُمْ، فأيقَنوا عندَ ذلكَ أنَّ الفَزَعَ والمَلْجَأَ إلى اللهِ، لا إلى أحدٍ دُونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي وفَّقَهُمُ التوبةَ، فتابُوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي يقبَلُ التوبةَ، أي قابِلُها.

الآية ١١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في ظاهرِ الآيةِ أنَّ قوماً عُرِفوا بالصِّدْقِ، فأُمِروا بالكَوْنِ مَعَهُمْ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ أمْرَ هؤلاءِ [الذينَ][3] تَخَلَّفُوا عنْ رسولِ اللهِ بالكونِ معَ المُهاجِرينَ والأنصارِ الذينَ كانوا معَ رسولِ اللهِ.

وفيهِ دَلالةٌ على أنَّ الإجماعَ حُجَّةٌ؛ لأنهُ أمَرَ بالكونِ معَ الصادِقينَ في دينِ اللهِ. فلو لم يُلْزِمْهُمْ قَبولَ قولِهِم لم يكنْ لِلأمْرِ بالكونِ مَعَهُمْ وَجْهٌ. وفي حَرْفِ ابنِ مسعودٍ ﷺ ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهو ظاهِرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

---

(١) في الأصل و م: تخلفهم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

أحدُها: احفَظُوا اللهَ في حقِّهِ، ولا تُضيِّعوهُ، ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في وفاءِ ذلكَ وحِفْظِهِ.

والثاني[1]: اتَّقُوا ما في تَرْكِ ما امْتَحَنَكُمْ بِهِ مِنَ الخروجِ والجِهادِ معَ رسولِ اللهِ ﷺ وغَيرِ ذلكَ مِنَ المِحَنِ.

والثالثُ[2] يقولُ: اتَّقُوا مخالَفَةَ اللهِ ورسولِهِ في ما يَأْمُرُكُمْ بِهِ، وكونوا مَعَ المُوافِقِينَ لأمْرِهِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ ما سَبَقَ منهُمْ مِنَ المُبايَعَةِ والعُهودِ التي جَرَتْ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ رسولِ اللهِ. يقولُ، واللهُ أعلَمُ ﴿مَا كَانَ﴾ أي لم يكُنْ ﴿لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ بَعْدَ ما قَبِلوا النَّصْرَ لهُ والمَعونَةَ، وبايَعُوهُ على ذلكَ. هذا مُحْتَمَلٌ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنْ يكونَ صِلَةَ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ، وهو قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [ما جَعَلَ كلَّ][3] ما يُصيبُهُمْ في أنفُسِهِمْ مِنَ العَناءِ والشِّدَّةِ وفي أموالِهِمْ مِنَ النُّقْصانِ وما يُنْفِقونَ مِنَ النَّفَقَةِ قليلةً كانتْ أو كثيرةً، أو يُصيبونَ مِنَ العَدُوِّ ومِنَ القَتْلِ والغَنيمةِ إلّا كَتَبَ لَهُمْ بذلكَ العَمَلَ الصالحَ؛ أي ما كانَ يَنْبَغي لَهُمْ أنْ يَتَخَلَّفُوا عنهُ، وقد كُتِبَ لهمْ بكلِّ ما يصيبُهُمْ مِنَ الشِّدَّةِ والعناءِ وما يُصيبونَ مِنَ الخيرِ العَمَلُ الصالحُ والأجْرُ لَهُمْ، واللهُ أعْلَمُ. أو يقولُ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ إذا اختَلَفوا مِنْ رسولِ اللهِ أنْ يَخْتَلِفوا عنهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي ولا يرْغَبوا بالتَّخَلُّفِ عن نَفْسِهِ. يُقالُ: جاءَ فلانٌ بنَفْسِهِ، ورأيتُ أنا بعَيني، ونَحْوُهُ؛ أي جاءَ هو، ورَأى هو. فَعَلَى ذلكَ هذا ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ﴾ أي ما كانَ يَنْبَغي لهمْ أنْ يَرْغَبوا عنْ رسولِ اللهِ. ويَحْتَمِلُ: ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي لِأنْفُسِهِمْ عنْ نَفْسِهِ. وذلكَ جائزٌ [على][4] ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ قيلَ: عَطَشٌ ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ [قيلَ: هو][5] العَناءُ والمَشَقَّةُ ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي مَجاعَةٌ ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ولا يَقِفُونَ مَوقِفاً، وقالَ بعْضُهُمْ: هو مِنَ الوَطْءِ، الشيءُ الذي يُوطَأُ ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ قيلَ: [قَتْلاً فيهِمْ][6] وإغارةً عليهِمْ ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ أي يُكْتَبُ مالَهُمْ وما عليهِمْ: العَمَلُ الصالحُ مكانَ مَنْ تَخَلَّفَ منهُمْ مَخافَةَ أنْ يُصيبَهُ ما ذُكِرَ مِنَ العناءِ والشِّدَّةِ؛ يقولُ: كُتِبَ لَهُمْ بِكُلِّ ما يُصيبُهُمُ العَمَلُ الصالحُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

الآية ١٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ يَجْزيهِمْ بِكُلِّ ما يُصيبُهُمْ مِنَ الشِّدَّةِ والعَناءِ في أنْفُسِهِمْ وفي أموالِهِمْ مِنَ النُّقْصانِ، وما يُنْفِقونَ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي يَجْزيهِمْ لِصالحِ أعمالِهِمْ وأحْسَنِها، ولا يَجْزيهِمْ لِسَيِّئاتِهِمْ؛ وهو كقولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦] أخبَرَ أنهُ يَتَقَبَّلُ منهُمْ أحسَنَ ما عَمِلُوا، ويُكَفِّرُ عنهُمْ سَيِّئاتِهِمْ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ؛ يُخْبِرُ أنهُ يَجْزيهِمْ أحْسَنَ ما عَمِلُوا في الغَزْوِ، ويَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ.

فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ؛ يُخْبِرُ أنهُ يَجْزيهِمْ أحْسَنَ ما عَمِلُوا في الغَزْوِ، ويَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ.

الآية ١٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ الآيةَ اختَلَفَ أهلُ التأويلِ: قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ نَبِيَّ اللهِ كانَ إذا خَرَجَ لِلْغَزْوِ خَرَجوا جميعاً، فتَبْقَى المدينةُ خاليةً مِنَ الرجالِ، فَنَهَى اللهُ عنْ ذلكَ، وقالَ: ما يَنْبَغي للمؤمنينَ أنْ يَنْفِروا كافَّةً مَعَ رسولِ اللهِ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾.

وقالَ بَعْضُهُمْ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا بَعَثَ سَرِيَّةً خَرَجوا جميعاً، فَبَقِيَ هو وحْدَهُ، لم يَبْقَ مَعَهُ أحدٌ مِمَّنْ يَشْهَدُ التَّنْزيلَ لِيُخْبِرَ[7] أولئكَ [حينَ يَحْضُرونَ][8].

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: وقد جعل بكل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في م: فيهم، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: منهم. (٧) في الأصل وم: ليخبروا. (٨) في الأصل وم: حضروا.

وقالَ آخرونَ: الآيةُ في الوفودِ؛ وذلكَ أنَّ الوفودَ إذا قَدِمُوا مِنَ الآفاقِ المدينةَ قَدِمُوا مَعَ النساءِ والذَّراريِّ جميعاً، فأُمِرُوا أنْ يَنْفِرَ[1] الرجالُ منهُمْ دونَ النساءِ والذَّراريِّ، ومِنْ كُلِّ قومٍ نفرٌ ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾.

ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ نَهَى الكلَّ أنْ يَنْفِروا، وأمَرَ في الآيةِ الأُخرَى بِنَفْرِ الكُلِّ بقولِهِ: ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١] فهو يُخرَّجُ على وجهَينِ؛

أحَدُهُما: أمَرَ بالنَّفْرِ الجميعَ عندَ قِلَّةِ المؤمنينَ لِيكونَ لهمُ الكِفايةُ معَ العَدُوِّ.

والثاني: أمَرَ بِنَفْرِ الكُلِّ عندَ النَّفيرِ.

فتكونُ إحدى الآيتَينِ في حالةِ النَّفيرِ، والأُخرَى في[2] غَيرِ حالِ النَّفيرِ وما ذَكَرْنا في وقتِ القِلَّةِ والكَثرَةِ.

فَمَنْ يقولُ: الآيةُ في الذينَ كانوا يَخرجونَ جميعاً مَعَ رسولِ اللهِ إذا خَرَجَ؛ كأنهُ نَهَى عنِ الخروجِ جُمْلَةً مَعَ رسولِ اللهِ خوفاً على أهاليهِمْ وذراريهِمْ، لَعَلَّ العَدُوَّ سَباهُمْ، وأخَذَ أموالَهُمْ. يقولُ اللهُ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي هَلَّا نَفَرَتْ[3] طائفةٌ منهُمْ، فَيُخبِروا الكفارَ المُقيمِينَ بما أنْزَلَ اللهُ على رسولِهِ مِنَ النَّصْرِ والمَعرفةِ والهزيمةِ على الكفارِ الذينَ قاتَلوا رسولَ اللهِ، فيكونُ ذلكَ سَبَبَ دعائِهِمْ إلى السلامِ. وإلى هذا يذهبُ الحَسَنُ والأصَمُّ.

ويقولونَ: إن هذهِ الآيةَ نَسَخَتِ الآيةَ التي [قبلَها، وهي][4] قولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ يقولُ الحَسَنُ: إنَّ عليهِمْ أنْ يَخرُجوا مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ إذا خَرَجَ، فيقولُ: هذا منسوخٌ بالآيةِ التي تَليها ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية.

ومَنْ يقولُ بأنَّ الآيةَ في الوفودِ الذينَ كانوا يأتونَ رسولَ اللهِ المدينةَ بالنساءِ والذَّراري فالنَّهْيُ لذلكَ لِما كانوا يُضيِّقونَ على أهلِ المدينةِ أوطانَهُمْ، ويُغلُونَ أسعارَهُمْ ونحوِهِ؛ يقولُ: الآيةُ في الذينَ خَرَجوا، أو نَفَروا مَعَ السَّرايا؛ نَهاهُمْ عن خُروجِ الكُلِّ لِما لَعَلَّهُ إذا نَزَّلَ على رسولِهِ شيئاً، فلم يكنْ معَهُ أحدٌ يُبلِّغُهُ إليه[5]، ثم يُبَلِّغُ إلى مَنْ هو غابَ عنهُ، ضاعَ ذلكَ، فيقولُ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي لِيُعلِّموا قومَهُمْ ما نَزَلَ على رسولِ اللهِ ولِيُبلِّغوا ذلكَ إلى مَنْ غابَ عنهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ قيلَ: مِنْ كُلِّ عُصبَةٍ ومِنْ كُلِّ قَبيلةٍ ومِنْ كُلِّ حَيٍّ.

ففي الآيةِ دلالةُ سُقوطِ فَرضِ السَّفرِ لِتَعَلُّمِ العِلْمِ والتَّفَقُّهِ في الدينِ عنِ الكُلِّ إذا قامَ بَعضٌ بذلكَ/ ٢٢٤ ـ ب/ يَخرُجونَ، ويَتعَلَّمونَ ثم يُعلِّمونَ قومَهُمْ لأنهُ قالَ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ الآية.

وفيهِ أيضاً دلالةُ سُقوطِ فرضِ الجهادِ عنِ الجماعةِ إذا قامَ بَعضُهُمْ عنْ بَعضٍ. وفيهِ دلالةٌ لزومِ العَمَلِ بِخَبَرِ الآحادِ، وإنِ احتَمَلَ الغَلَطَ؛ لأنَّ ما ذَكَرَ مِنَ الطائفةِ يَحتَمِلُ أنْ يَجتَمِعوا على ذلكَ كَذِباً أو غَلَطاً، ثم ألزَمَ قومَهُمْ قبولَ خَبَرٍ، وإنِ احتَمَلَ الغَلَطَ والكَذِبَ بقولِهِ: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ والآيةُ تُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: أنَّ أهلَ بَلْدَةٍ وأهلَ قبيلةٍ يَختارونَ مَنْ يَصلُحُ لِلتَّفَقُّهِ في الدينِ والتَّعَلُّمِ، فَيَنْفِرُ، حتى إذا تَفَقَّهَ، وتَعَلَّمَ، ورَجَعَ إلى [قومِهِ، عَلَّمَهُمْ][6].

والثاني: [أنْ][7] يأمُرَ مَنْ يَصلُحُ لِلتَّفَقُّهِ بالتَّخلُّفِ عنِ الجهادِ إذا كانَ بِهِمْ غُنْيَةٌ لِيَتَفَقَّهوا[8] عندَ رسولِ اللهِ، فَيُنْذِروا[9] قومَهُمْ إذا رَجَعُوا [إليهِمْ مِنْ غَزوِهِمْ][10].

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعضُهُمْ: الآيةُ قَبلَ أنْ يَنزِلَ قولُهُ: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] كانَ الأمرُ بالقِتالِ بالأدنَى، ثم جاء الأمرُ بِقتالِ الكُفّارِ عامَّةً.

---

(١) من م، في الأصل: ينفروا. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: أنها. (٣) في الأصل وم: نفر. (٤) في الأصل وم: قبله وهو. (٥) في الأصل وم: إليهم. (٦) في الأصل وم: قومهم فيعلمهم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ليتفقه. (٩) في الأصل وم: فينذر. (١٠) في الأصل وم: إليه من غزائهم.

وقالَ بَعْضُهُم: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ إذا غزَا ربما كانَ تَجاوَزَ كُفاراً، وتركَهُمْ وراءهُ، وقاتَلَ[1] غيرَهُمْ ليكونَ ذلكَ آيةً لِنُبُوَّتِهِ، ولِيُعْلَمَ أنهُ لا يبالي بِمَنْ يُقاتِلُ، ولا يَخافُ مَنْ تَرَكَهُمْ وراءَهُ. ثم أمَرَ اللهُ المؤمنينَ أنْ يُقاتِلوا الأقرَبَ فالأقرَبَ منهُمْ والأدنَى، وألّا يَتْرُكوا العَدُوَّ وراءَهُمْ.

إلى هذا ذهبَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ. وأَمْكَنَ أنْ يكونَ هذا تَعْليماً[2] مِنَ اللهِ المؤمنينَ أمْرَ الحَرْبِ وأسبابَهُ كما عَلَّمَهُمْ جميعَ ما يَقَعُ لهمْ مِنَ الحاجةِ إلى أسبابِ الحَرْبِ في غيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ: مِنْ ذلكَ قولُهُ[3] تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥] وقولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ الآية [الأنفال: ١٥] وقولُهُ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الآية [الأنفال: ٦٠] وغيرُ ذلكَ مِنَ الآياتِ، أو يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أمَرَ بِقِتالِ الأقرَبِ منهُمْ كسائرِ العِباداتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: ما ذَكَرْنا أنهُ يُخَرَّجُ على أمْرِ القتالِ منهُ لِلْمُؤمنينَ.

والثاني: إنباءٌ عَنْ دوامِ الجِهادِ والقِتالِ مَعَ الأعداءِ أبداً [لأنهمْ كلما فَتَحُوا ناحِيةً، وقاتَلوا[4]] قوماً صارَ الذينَ بَقُوا وراءَ هؤلاءِ الذينَ يَلونَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ قيلَ: شِدَّةً عليهِمْ. وفي حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ [بْنِ كَعْبٍ][5]: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي شِدَّةً. ويُقرأُ غُلْظَةً بِرَفْعِ الغينِ[6]، ويُقرأُ ﴿غِلْظَةً﴾ بكسرِها؛ وهما لُغتانِ [ومَعانيهما واحِدةٌ][7] ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي مَنِ اتَّقى الخِلافَ لهُ [وَعدٌ][8] بالنَّصْرِ لهمْ على عَدُوِّهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهينِ[9]:

أحَدُها: ما ذَكَرْنا أنَّ الخِلافَ لهُ في ما عَلَّمَهُمْ مِنْ أمْرِ الحَرْبِ يكونُ مَعَهُمْ بالنَّصْرِ.

والثاني: مَعَهُمْ في التوفيقِ والهِدايةِ.

والثالثُ: في الجَزاءِ.

الآية ١٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهُما]: قالَ أهلُ التأويلِ: قولُهُ: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ يعني: يَقولُ المنافِقونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إذا خَلَوا عنِ المؤمنينَ ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ اسْتِهزاءً منهُمْ بها وسُخْرِيةً، فأجابَ اللهُ تعالى.

الآية ١٢٥ فقالَ: [﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي شَكٌّ ونِفاقٌ ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي تكذيباً وكُفراً إلى تكذيبِهِمُ الذي كانَ منهُمْ؛ لأنَّ أهلَ النِّفاقِ][10] والكُفْرِ لَيسُوا هُمْ بأهلِ إنصافٍ؛ يَقْبَلونَ الحُجَّةَ والدلالَةَ إذا قامَتْ عليهِمْ، إنما هَمُّهُمُ العِنادُ والتكذيبُ ورَدُّ الحُجَجِ والدلائِلِ [فكلما زادَ لهُمْ][11] الحُجَجُ والبراهينُ [ازدادوا هُمْ][12] عِناداً في التكذيبِ والرَّدِّ.

وأمّا أهلُ الإيمانِ فإنَّ هَمَّهُمْ قَبولُ الحُجَجِ والإنصافُ؛ فكلما ازدادَ[13] لَهُمُ الحُجَجُ والبراهينُ [ازدادوا هُمْ][14] إيماناً وتَصْديقاً على ما كانَ لَهُمْ. ثم قولُهُ: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ زادَتْهُمْ ثَباتاً ودَواماً على ماكانُوا مِنْ قَبْلُ بما قَدَّمَتْ[15] لهمْ مِنَ الحُجَجِ والبراهينِ.

---

(١) في الأصل وم: ويقاتل. (٢) في الأصل و م: تعليم. (٣) في الأصل و م: وقوله. (٤) في الأصل و م: لأنه كلما فتح ناحية و. (٥) ساقطة من الأصل و م. (٦) انظر معجم القراءات ج٣/ ٥٢. (٧) في الأصل و م: ومعانيها واحد. (٨) ساقطة من الأصل و م. (٩) في الأصل وم: وجوه. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل: فلما زادوا، في م: فكلما زادوا. (١٢) في الأصل وم: ازداد. (١٣) في الأصل و م: ازداد لهم. (١٤) في الأصل و م: ازداد لهم. (١٥) في الأصل و م: قامت.

جنة السنة

وكذلكَ ازْدادَ لأهلِ النِّفاقِ والكُفرِ بها الثباتُ على العِنادِ في تكذيبِ الحُجَجِ والآياتِ.

والثاني: زادَتْهُمْ[1] إيماناً بالتَّفسيرِ على إيمانِهِمْ بالجملةِ، وإنْ كانوا مُصدِّقينَ لذلكَ كلِّهِ جُمْلَةً. فإذا نَزَلَتْ لهُمْ نوازِلُ وفرائضُ ازْدادَ لهمُ التصديقُ والثباتُ.

وأصْلُهُ أنهُ لوما[2] كانَ منهُمْ مِنَ الإيمانِ والتَّصديقِ لَكانَ هذا منهُمُ ابْتِداءً وإحداثَ تَصْديقٍ. وكذلكَ لو لم يكنْ مِنْ أهلِ النفاقِ ما سَبَقَ مِنَ العِنادِ لَكانَ ذلكَ منهُمْ إحداثَ تكذيبٍ وعِنادٍ. فإذا كانَ منهُمْ ما ذَكَرْنا كانَ ذلكَ زيادةً على ما كانَ لِما ذَكَرْنا.

وقالَ بَعْضُهُمْ: يَزدادُ لأهلِ الإيمانِ خيراتٌ ولأهلِ النِّفاقِ شَرٌّ. ولكنْ هو واحدٌ، وهو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ ...﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ يُخرَجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: زادَتْ للمؤمنينَ إيماناً على الذي كانَ لهمْ مِنَ الإيمانِ والتصديقِ.

والثاني: زادَتْ[3] لَهُمْ حُجَّةً وبُرهاناً لِما كانَ.

وكذلكَ يُزدادُ لأهلِ النِّفاقِ ضِدُّ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قيلَ: يَفرَحونَ بِنُزولِها.

ثم إضافةُ الزِّيادةِ إلى السُّورةِ بقولِهِ: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ لوجهَينِ:

أحَدُهُما: أُضِيفَ إليها الزِّيادةُ على ما أُضِيفَ الغُرورُ إلى الدنيا؛ وهو ما[4] ذَكَرْنا أنهُ يبدو منها لهمُ التَّزْيينُ ما لو كانَ مِنْ دونِ الأفعالِ والتَّغريرِ كانَ ذلكَ غُروراً.

والثاني: أضافَ التَّغريرَ إليها لِما بها اغْتِرارُ أهلِها، وكذلكَ إضافةُ الزيادةِ إلى السورةِ لما بها ازْدادَ لهمُ التكذيبُ والكُفرُ، وازْدادَ لأهلِ الإيمانِ بها [التصديقُ، فأُضيفَتِ[5] الزيادةُ إليها.

وقالَ بَعْضُهُمْ ما ذَكَرْنا أنها حُجَّةٌ ودلالةٌ، فبالحُجَّةِ يزدادُ لأهلِ الإيمانِ التصديقُ[6]][7] إذْ هُمْ قدِ اعْتَقَدوا قَبولَ الحُجَجِ والدلائلِ.

وأمّا أهلُ النِّفاقِ والكُفرِ فإنهمْ أهلُ عِنادٍ ومُكابَرَةٍ، إذْ قدِ اعْتَقَدوا العِنادَ ورَدَّ الحُجَجِ، فكلما ازْدادَ لهمُ [الحُجَجُ ازْدادوا][8] عِناداً وكُفراً.

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: إنما أُضيفَتِ الزيادةُ إليها لأنها كانت سَبَبَ الزيادةِ. وقد تُضافُ الأشياءُ إلى أسبابِها كما تُضافُ إلى حقيقةِ الأفعالِ. ولكنْ يُحتَمَلُ أنْ تكونَ السورةُ التي نزلَتْ سَبَباً لزيادةِ الكُفرِ، لكنَّ الوجهَ فيه ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قيلَ: يُبْتَلَونَ بالجهادِ والغَزْوِ، فيَتخلَّفونَ عنهُ، فَيَظْهَرُ بذلكَ نِفاقُهُمْ وكُفرُهُمْ، وقيلَ: يُبْتَلَونَ بالشدةِ والجوعِ، فَيَظْهَرُ أيضاً بذلكَ نِفاقُهُمْ كقولِهِ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ وقيلَ: ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ ذلكَ[9] أنهمْ كانوا إذا خَلَوا تَكلَّموا بالكُفرِ في ما بَيْنَهُمْ، ثم إذا أَتَوُا النَّبيَّ أخبَرَهُمْ بما تكلَّموا بهِ في الخَلْوَةِ، فَيَفْتَضِحونَ.

بذلكَ افْتِتانُهُ إيّاهُمْ وابتلاؤُهُ لهمْ؛ كانَ يَظْهَرُ بما ذَكَرَ نِفاقُهُمْ مَرَّةً في الجهادِ في سبيلِ اللهِ ومَرَّةً بالشِّدَّةِ والخوفِ ومَرَّةً بما يُطْلِعُ اللهُ نَبِيَّهُ [على ما][10] يُضمِرونَ، ويَتَكَلَّمونَ بهِ.

---

(١) في الأصل و م: ازداد لهم. (٢) من م، في الأصل: لولا. (٣) في الأصل وم: زاد. (٤) في الأصل وم: لما. (٥) في م: فاضيف. (٦) في م: بها. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل و م: وذلك. (١٠) في الأصل و م: فما.

جنة السنة

وتَحتَمِلُ هذهِ الآيَةُ الوجوهَ الثلاثَةَ: الجهادَ مَعَهُ والابْتِلاءَ بالشدائِدِ والإفزاعَ. وتَحتَمِلُ إظهارَ الأسرارِ التي أسَرُّوا في أنفُسِهِمْ والافتِضاحَ بِما أخفَوا. فإنْ[1] كانَ هذا فذلكَ مِمّا يكْثُرُ منهُمْ؛ أعني كتمانَ النِّفاقِ وإسرارَ الخِلافِ لهمْ، [وإنْ كانَ][2] ذِكْرُ المَرَّةِ والمَرَّتَينِ يرجِعُ [إلى][3] الافتِضاحِ والإظهارِ فذلكَ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ في العامِ مَرَّةً أو مَرَّتَينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عنْ نِفاقِهِمْ ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ما[4] ابتُلوا مِنَ الافتِضاحِ وظهورِ النِّفاقِ منهُمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الآيةُ صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾/ ٢٢٥ ـ أ/ أي كانَ ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ ثم يقولونَ ما ذَكَرَ ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾ إذا كانتِ السورةُ التي نزلَتْ حُجَّةً في إظهارِ الدينِ والإيمانِ يَسْمَعونَ، ويقولونَ ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ وإذا نزلَتْ في إظهارِ نِفاقِهِمْ وافتِضاحِهِمْ ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ ولا يَسْمَعونَ منهُ السورةَ إشفاقاً لئلا يَظْهَرَ نِفاقُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ يَحتَمِلُ خَلَقَ اللهُ منهُمُ انصِرافَهُمْ، فأضافَ[5] إليهِ الصَّرْفَ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عُقوبَةً؛ أي عاقَبَهُمُ اللهُ بِصَرْفِ قلوبِهِمْ بِاعْتِقادِهِمُ العِنادَ ورَدِّهِمُ الحُجَجَ، وتَرْكِهِمُ القَبولَ.

الآية ١٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ مِنَ البَشَرِ، وهو امْتِنانٌ منهُ عليهِمْ حينَ[6] بَعَثَ الرسولَ مِنَ البَشَرِ، ولهُ أنْ يَبْعَثَ مِنْ غيرِ البَشَرِ، لكنَّهُ بَعَثَ مِنَ البَشَرِ لِيَعْرِفوا الآياتِ التي يأتي بها مِنَ التَّمويهاتِ لأنهمْ يَعْرِفونَ مَبْلَغَ وُسْعِ البَشَرِ في الأشياءِ في التعليمِ عَرَفوا أنها آياتٌ لا تَمويهاتٌ معَ ما[7] أنْ يَتآلَفَ كلُّ جِنْسٍ بِجِنْسِهِ، ويَنْفِرَ مِنْ غيرِ جِنْسِهِ. هذا ظاهرٌ في الخلائِقِ أنَّ كُلَّ ذي جِنْسٍ يَألَفُ جِنْسَهُ[8]، ولا يألَفُ غيرَ[9] جِنْسِهِ، فَبَعَثَ الرسولَ مِنَ البَشَرِ ومِنْ جِنْسِهِمْ لِيَتآلَفوا بِهِ، ويَقْبَلوا منهُ ما يأتيهِمْ بِهِ، ويُجيبوهُ[10] إلى ما يَدْعوهُمْ إليهِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي مِنَ المكانِ الذي أنْتُمْ فيهِ، وهو الحَرَمُ. وقالَ آخَرونَ: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي مِنْ أنسابِكُمْ، هو أيضاً موضِعُ الامْتِنانِ عليهِمْ حينَ[11] بَعَثَهُ مِنْ أنسابِهِمْ؛ يَعْرِفونَ نَسَبَهُ ومَولِدَهُ ومَنْشَأَهُ[12] مِنْ بينِ أظْهُرِهِمْ سَليماً مِنْ جَميعِ الآفاتِ بَريئاً مِنْ جَميعِ المَطاعِنِ والعُيوبِ لأنَّ المَرْءَ إذا كانَ مَولِدُهُ ومَنْشَؤُهُ في قَبيلَةٍ أو في مكانٍ لا يُعْرَفُ لهُ النسبُ ربما يَتَمَكَّنُ فيهِ الطعنُ والعَيبُ، ويَقَعُ التَّناكُرُ في نَسَبِهِ لِجَهْلِهِمْ بِنَسَبِهِ ومَوْلِدِهِ ومَنْشَئِهِ[13] على السَّلامَةِ والصِّحَّةِ والبراءَةِ مِنَ العُيوبِ.

فَبَعَثَ رسولَهُ محمداً ﷺ لئلا يَتَمَكَّنَ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ المطاعِنِ، ولا يُعْرَفَ شَيْءٌ مِنَ العُيوبِ والآفاتِ التي ذَكَرْنا فيهِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ مِنَ العَرَبِ أُمِّيًّا كما هُمْ، لا يَكْتُبُ، ولا يَخُطُّهُ بِيَمينِهِ على ما وَصَفَهُ في كتابِهِ ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧] وقالَ: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وذلكَ أنَّ العربَ كانتْ تَتَمَنَّى أنْ يُبْعَثَ رسولٌ مِنْهُمْ بقولِهِمْ[14] ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] ذَكَرَ مَجيءَ الرسولِ مِنْ أنْفُسِهِمْ لِيَكونَ أبْعَدَ عنِ المطاعِنِ التي طَعَنوا فيهِ والآفاتِ التي ذَكَروا فيهِ والبراءَةِ مِنَ العُيوبِ التي قَرَفوا بها[15] مِنْ نَحْوِ السِّحْرِ والكَهانَةِ والجُنونِ والافْتِراءِ على اللهِ، وأقْرَبَ إلى المَعْرِفَةِ بأنهُ رسولٌ لأنهُ لمّا يأتيهِمْ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ يَعْرِفونَ أنها سَماوِيَّةٌ لِما عَرَفوا أنهُ لم يَتَعَلَّمِ السِّحْرَ، ولا أخَذوا عليهِ كَذِباً[16] قَطُّ، ولا جُنَّ قَطُّ بما كانَ نَشَأَ في ما بَيْنَ أظْهُرِهِمْ.

---

(١) في الأصل و م: لكن. (٢) في الأصل و م: لكن. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) في الأصل وم: بما. (٥) في الأصل وم: فأضيف. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: بجنسه. (٩) في الأصل وم: بغير. (١٠) في الأصل وم: ويجيبهم. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، في الأصل: نشأته. (١٣) في الأصل وم: به. (١٤) في الأصل وم: بقوله. (١٥) في الأصل وم: بكذب. (١٦) في الأصل وم: بكذب.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ قيلَ: شديدٌ عليهِ ما أعنَتَكُمْ؛ أي ما ضَيَّقَ عليكُمْ، وقالَ القُتَبِيُّ: العَنَتُ الضِّيقُ، وقالَ بَعْضُهُمْ: العَنَتُ الإثْمُ؛ أي شَديدٌ عليهِ ما أثِمْتُمْ، وقالَ أبو عوسَجَةَ: هو إلى الإثمِ أقربُ، وهو يَحْتَمِلُ كلَّ إثمٍ: الكُفرَ وغيرَهُ. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ قالَ بَعْضُهُمْ على مَنْ لم يَسْلَمْ أنْ يَسْلَمَ، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ بالهُدَى والرُّشْدِ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ رَحْمَةَ الدينِ والإسلامِ لا رَحْمَةَ الطَّبْعِ.

قالَ الشيخُ أبو منصورٍ الماتُريديُّ[1]، رَحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ سَمَّاهُ بِفِعْلِهِ العَمَلَ الحَسَنَ وبِرأفَتِهِ ورَحْمَتِهِ بذلكَ؛ أي اسْتَحَقَّ ذلكَ الاسْمَ بِفِعْلِهِ. وإنما سَمَّاهُ بذلكَ لأنَّ عَمَلَهُ كانَ لِلَّهِ لم يكُنْ عَمَلُهُ لِنَفْسِهِ شيئاً، وكذلكَ مالُهُ واكْتِسابُهُ بِهِ؛ فلذلكَ لم يكُنْ مالُهُ ميراثاً بَيْنَ وَرَثَتِهِ.

الآية ١٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي أعْرَضوا [عن][2] إجابَتِكَ ودُعائكَ إيَّاهُمْ إلى الإيمانِ والتَّوحيدِ ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي يكفيني اللهُ ﴿إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عنكَ، وردُّوا إجابَتَكَ والطاعةَ لكَ والانْقِيادَ، وهَمُّوا أنْ[3] يكيدوكَ، ويمكُروا بكَ ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي على [ما][4] وَعَدَني مِنَ النَّصْرِ والظَّفَرِ، تَوَكَّلْتُ أي اتَّكَلْتُ على وَعْدِهِ، وَوَكَلْتُ أمْري إلى اللهِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عنْ نُصْرَتِكَ ومَعونَتِكَ على الأعداءِ ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ في النَّصْرِ والمَعونَةِ على الأعداءِ، ويَكْفيني عليهِمْ. هذا في هذا[5] المَوضعِ أقربُ لأنهُ ذُكِرَ على إثْرِ ذِكْرِ المنافقينَ.

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنَ الإعراضِ عنِ التوحيدِ والإجابةِ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ قيلَ[6]: هو ربُّ المُلْكِ العظيمِ؛ أي كلُّ مَلِكٍ عندَ مُلْكِهِ صغيرٌ، لَيسَ بِمَلِكٍ. فإنْ كانَ العَرْشُ هو السَّريرَ على ما قالَهُ بَعْضُ أهلِ التأويلِ، واللهُ أعْلَمُ، [فالسَّريرُ هوَ][7] الذي يُكْرَمُ بهِ الأخيارُ مِنَ الخَلائِقِ والأبْرارِ منهُمْ، وقد ذَكَرْنا [مافيهِ الكِفايةُ][8] في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) في الأصل: ماتريدي، ساقطة من م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: أي. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من م. (٦) من م، في الأصل: أي كل. (٧) في الأصل و م: السرير. (٨) من م، في الأصل: فيه.

جنة السنة

سورة يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ وقولُهُ تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قد ذكَرْنا الوجهَ في الحُروفِ المُقَطَّعاتِ في صَدْرِ الكتابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ هو اللهُ؛ كأنهُ قالَ: الكتابُ آياتُ اللهِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ هو صفةُ القرآنِ. والكتابُ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما[1]: أنهُ: سَمّاهُ حَكيماً فَعيلاً بِمَعْنَى أنهُ مُحْكَمٌ. وجائزٌ تَسميةُ المَفْعولِ باسمِ الفَعيلِ نَحْوُ قَتيلٍ بِمَعْنَى مَقْتولٍ وجَريحٍ بِمَعْنَى مَجْروحٍ ونَحْوُ ذلكَ: فيهِ الحَلالُ والحَرامُ والأمْرُ والنَّهْيُ، أو مُحْكَمٌ مُتْقَنٌ مُبَرَّءٌ[2] مِنَ الباطِلِ والكَذِبِ والاختِلافِ. وهو ما وصَفَهُ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ الآيةَ [فصلت: ٤٢].

والثاني: [أنهُ سَمّاهُ][3] حكيماً لِما أنَّ مَنْ تأمَّلَ فيهِ، ونَظَرَ، وفَهِمَ ما أودَعَ فيهِ، وأدْرَجَ، صارَ حكيماً، وهو ما وَصَفَهُ تعالى، وسَمّاهُ مَجيداً[4]: أي مَنْ تأمَّلَهُ، ونَظَرَ فيهِ، صارَ مَجيداً شريفاً. والحكيمُ هو المُصيبُ في الحقيقةِ إنْ كانَ صِفَةَ القرآنِ أو صِفةَ اللهِ[5]؛ فهو حكيمٌ واضعٌ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ. فإنْ كانَ صِفَةَ القرآنِ فهو كذلكَ أيضاً واضِعٌ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَايَٰتُ﴾ يَحْتَمِلُ آياتِ الكتابِ المَعروفِ، ويَحْتَمِلُ الحُجَجَ والبراهينَ أي حُجَجَ الكتابِ المَعروفِ، ويَحْتَمِلُ الحُجَجَ والبراهينَ أي حُجَجَ الكتابِ وبَراهينَهُ أو أعلامَهُ، وقد تَقَدَّمَ ذِكْرُ الآياتِ في غَيْرِ مَوضِعٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ يَحْتَمِلُ/ ٢٢٥ ـ ب/ وجهَيْنِ؛ يَحْتَمِلُ أي قد عَجِبوا ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ ويَحْتَمِلُ أيَعْجَبونَ ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ على الاستِئْنافِ.

كانوا يَعْجَبونَ مِنْ ثلاثٍ: مِنْ إنزالِ القرآنِ على رَجُلٍ منهُمْ بِعَجْزِ الخَلائِقِ عنْ إتيانِ مِثْلِهِ، ويَعْجَبونَ مِنَ الوَحْيِ إلى رَجُلٍ منهُمْ، ومِنْ[6] إرسالِهِ رسولاً مِنْ بَيْنِ الكُلِّ أو مِنَ البَشَرِ كقولِهِ: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وكقولِهِ: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]. وكانوا يَعْجَبونَ مِنَ البَعْثِ كقولِهِمْ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ الآيةَ [الصافات: ١٦].

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ أي مِنَ البَشَرِ؛ أي لا يَعْجَبونَ أنْ أوحَينا إلى رَجُلٍ مِنَ البَشَرِ؛ فإنَّ الإيحاءَ إلى مَنْ هو مِنَ البَشَرِ أبْلَغُ في الحِجاجِ وأقْطَعُ لِلْعُذْرِ وأقْرَبُ إلى الرأفَةِ والرحمَةِ؛ لأنَّ البَشَرَ يَعْرِفونَ خروجَ ما هو خارِجٌ عنْ طَوقِ البَشَرِ وَوُسْعِهِمْ، ولا يَعْرِفونَ ذلكَ مِنْ غَيْرِ جَوهَرِهِمْ وغَيْرِ جِنْسِهِمْ، ويَألَفُ كلُّ جِنْسٍ جِنْسَهُ[7]. وكُلُّ جَوهرٍ جَوهَرَهُ[8]، ولا يَألَفُ غَيْرَ جوهَرِهِ ولا غَيْرَ جِنْسِهِ. فإذا كانَ ما وصَفْنا كانَ بَعْثُ الرسولِ مِنْ جِنْسِ المَبْعوثِ [إليهِمْ][9] وجَوهَرِهِمْ أبْلَغَ في الحِجاجِ وأقْطَعَ لِلْعُذْرِ وأقْرَبَ إلى الرأفَةِ والرحمَةِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ أي مِنَ الأُمِّيِّينَ؛ أي لا يَعْجَبوا ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ أي أُمِّيٍّ فإنَّ ذلكَ أبْلَغُ في التَّعريفِ والحِجاجِ لأنهُ بُعِثَ أُمِّياً، لم يَعْرِفوهُ بدراسةِ الكتبِ المُتَقَدِّمَةِ أو تِلاوَةِ شيءٍ منها، ولا عَرَفوهُ اختَلَفَ إلى أحدٍ منهُمْ يَتَعَلَّمُ[10] كُتُبَهُمْ، ولا عُرِفَ أنهُ كَتَبَ شَيئاً، أو خَطَّ خَطّاً قَطُّ.

---

(١) في الأصل وم: يحتمل. (٢) في الأصل وم: مبرم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) إشارة إلى قوله تعالى ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١] وقولِهِ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل و م: و. (٧) في الأصل و م: بجنسه. (٨) في الأصل و م: بجوهره. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) في الأصل وم: في تعليم.

جنة السنة

ثم أخبرَ عمّا [في](١) كُتُبِهِمْ على مُوافَقَةِ ما فيها، وكانَتْ كُتُبُهُمْ بِغَيرِ لسانِهِ. دَلَّ [هذا](٢) أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى. فذلكَ أبْلَغُ في إثباتِ الرسالةِ والحِجاجِ، واللهُ أعْلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الإنذارُ يكونُ في كلِّ مَكْروهٍ مَرْهوبٍ، والبِشارةُ في كلِّ مَحْبوبٍ مَرْغوبٍ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ يَعْني الكُفّارَ بالنارِ ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

اخْتَلَفوا في قولِهِ: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ عندَ ربِّهِمْ. وقيلَ: إنَّ لَهُمُ الأعمالَ الصالِحَةَ، يُقْدِمونَ عليها. وقيلَ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ محمدٌ ﷺ يَشْفَعُ لهمْ عندَ ربِّهِمْ. وقيلَ: إنَّ لَهُمُ الأعمالَ الصالِحَةَ، قَدَّموها بَيْنَ أيديهِمْ. [وقيلَ](٣) ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي سَلَفَ خيرٍ أو سَلَفَ وَعْدٍ، وَعَدَ لَهُمْ بذلكَ، وكُلٌّ(٤) أصلُهُ مِنَ القَدَمِ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: يُقالُ في الكلامِ: لِفُلانٍ عندي قَدَمُ صِدْقٍ ويَدُ صِدْقٍ؛ أي نِعْمَةٌ قد أسْلَفَها إليَّ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يَعْني عَمَلاً صالحاً قَدَّموهُ.

وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ](٥) قالَ: ما سَبَقَ لهمْ مِنَ السَّعادةِ في الذِّكْرِ الأوَّلِ؛ فَمَنْ(٦) قالَ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ هو الشفاعةُ؛ فالقَدَمُ كِنايَةٌ عنِ الشفاعةِ أي واقِعَةٌ، ومَنْ قالَ: وَعْدَ ثوابِ أعمالِهِمْ؛ فقد(٧) تَقَدَّمَ لهُمْ وَعْدُ حقٍّ وصِدْقٍ.

ويَحْتَمِلُ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي تَثْبُتُ قَدَمُهُمْ، لا تَزِلُّ على ما وَصَفَ مِنْ ثُبوتِ قَدَمِ المؤمنينَ وقَرارِها(٨)، وتَزِلُّ قَدَمُ الكافرينَ كقولِهِ: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ ومَنْ قَرَأ لَسِحْرٌ(٩) عَنى هذا القرآنَ، ومَنْ قَرَأ ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ بالألِفِ عَنى بهِ النَّبِيَّ.

ثم السِّحْرُ هو الذي يَتَراءى في الظاهِرِ أنهُ حقٌّ، وهو في الحقيقةِ باطِلٌ، ثم هو يأخُذُ الأبصارَ، ويأخُذُ العقولَ. فأمّا الذي يأخُذُ الأبصارَ فهو(١٠) ما يَتَراءى الشَّيءُ على غيرِ ما هو في الحقيقةِ، والذي يأخُذُ العُقولَ هو أنْ يَذْهَبَ بعَقْلِهِ، فَيَصيرَ مَجْنوناً كقولِ(١١) فِرْعَونَ لِموسى: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] أي مجنوناً. لكنَّ هؤلاءِ لم يُريدوا بقولِهِ: ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ السِّحْرَ الذي يأخُذُ [العُقولَ، ولكنْ أرادوا السِّحْرَ الذي يأخُذُ](١٢) الأبصارَ. يَقولونَ(١٣): إنهُ وإنْ كانَ أخَذَ الأبصارَ في الظاهِرِ فهو لا شَيءَ في الحقيقةِ، ولكنْ في قولِهِمْ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ دليلٌ أنهمْ عَجِزوا عن رَدِّهِ، وعَرَفوا أنهُ حقٌّ، ولكنهُمْ أرادوا التَّمْويهَ على الناسِ كقولِ فِرْعَونَ لِسَحَرَتِهِ حينَ(١٤) آمَنوا بِرَبِّ موسى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] أرادَ أنْ يُمَوِّهَ على الناسِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إنَّ القومَ [كانوا](١٥) يَعْبُدونَ الأصنامَ والأوثانَ، ويَتَّخِذونَ الأحبارَ والرُّهبانَ أرباباً مِنْ دونِ اللهِ، يقولُ [لَهُمْ](١٦): إنَّ ربَّكُمُ الذي يَسْتَحِقُّ العِبادةَ والألوهِيَّةَ هو الذي خَلَقَكُمْ، وخَلَقَ السمواتِ والأرضَ، لا الذي تَعْبُدونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قد تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ في صَدْرِ الكتابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ هو(١٧) أيضاً على الأوَّلِ: إنَّ الذي يَسْتَحِقُّ صَرْفَ العِبادةِ إليهِ وتوجيهِ(١٨) الشُّكْرِ إليهِ هو الذي يُدَبِّرُ الأمْرَ في مَصالِحِ الخَلْقِ في جَرِّ المَنافِعِ إليهِمْ ودَفْعِ المَضارِّ عنهُمْ لا الذينَ لا يَمْلِكونَ المَنافِعَ إلى أنْفُسِهِمْ أو دَفْعَ المَضارِّ عنهُمْ فَضْلاً ألّا(١٩) يَمْلِكوا [أجراً ما](٢٠) إلى مَنْ يَعْبُدُهُمْ أو دَفْعِ المَضارِّ عنهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وكان. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: من. (٧) في الاصل وم: أي. (٨) في الأصل و م: والقرار. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/٥٨. (١٠) الفاء ساقطة من الأصل و م. (١١) في الأصل وم: وقال. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: يقول. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) في الأصل وم: وهو. (١٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٩) في الأصل وم: إن. (٢٠) في م، في الأصل: أجرها.

جنة السنة

قال بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي يَقْضِيهِ، والتَّدبيرُ والقضاءُ واحدٌ، وقالَ بَعْضُهُمْ: يُدَبِّرُ يُقَدِّرُ، وهو ما ذَكَرْنا: التَّدبيرُ والتَّقديرُ سَواءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ الشَّفيعُ هو ذو المَنْزِلَةِ والقَدْرِ عندَ الذي يَشْفَعُ إليهِ، لا أحَدَ في الشاهِدِ يَشْفَعُ لآخَرَ إلّا بَعْدَ أنْ يكونَ الشَّفيعُ عندَ الذي يَشْفَعُ إليهِ ذا مَنْزِلَةٍ وقَدْرٍ. فإذا كانَ كذلكَ فَمَعَ ذلكَ أيضاً لا يَشْفَعُ إلّا مِنْ بَعْدِ ما أذِنَ لهُ بالشَّفاعَةِ لِمَنْ جاءَ بالتَّوحِيدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ يقولُ: ذلكُمُ الذي يستحقُّ العِبادةَ هو رَبُّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ، وخَلَقَ السمواتِ والأرضَ، ودَبَّرَ أمورَكُمْ ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ ولا تَعْبُدوا الذي لا يَمْلِكُ شَيئاً مِنْ ذلكَ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنهُ هو المُسْتَحِقُّ لِلْعِبادَةِ، وهو المُسْتَوجِبُ لِلشُّكْرِ لا الذينَ تعْبُدونَ أنتمْ، أو يقولُ[1] ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ الذي خَلَقَكُمْ، وَخَلَقَ السمواتِ والأرضَ هو ربُّكُمْ، وهو مدبِّرُ أمورَ الخَلائِقِ في مصالِحِهِمْ في دنياهُمْ ودينِهِمْ لا الذينَ[2] تَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ إليهِ مَرجِعُ الخَلائِقِ كُلِّهِمْ في جميعِ الأوقاتِ، لكنهُ خَصَّ ذلكَ اليومَ بالمَرْجِعِ إليهِ لِما أنَّ الخلائقَ كلَّهُمْ يَعْلَمونَ يومَئِذٍ أنهمْ راجعونَ إليهِ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] هُمْ بارِزونَ لَهُ في الدنيا والآخِرَةِ، لكنهُمْ يومئذٍ يَعرفونَ، ويُقِرُّونَ بالبُروزِ لهُ. وكذلكَ [قولُهُ][3]: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦] المُلْكُ للهِ في الدنيا والآخرةِ وفي الأوقاتِ جميعاً، لكنهُ خَصَّ ذلكَ اليومَ[4] لِما لا يُنازَعُ في الملكِ في ذلكَ اليومِ، وفي الدنيا مَنْ قد نازَعَ في مُلْكِهِ.

هذا، واللهُ أعلَمُ، وَجْهُ التَّخْصيصِ لِذلكَ اليوم بالمُلْكِ، وإنْ كانَ المُلْكُ لهُ في الدارَيْنِ جميعاً. فَعَلى ذلكَ المَرْجِعُ، أو سَمّى البَعْثَ رجوعاً إليهِ لِما المَقْصودُ مِنْ إنشائِهِ البَعْثُ، فَسَمّاهُ بذلكَ لِما ذَكَرْنا؛ لأنهُ لو لم يكنِ المَقْصودُ مِنْ إنشائِهِ [إيّاهُمْ سِوَى الإنْشاءِ][5] والإفناءِ كانَ خَلْقُهُ عَبَثاً باطلاً كقولِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ البَعْثَ الذي ذَكَرَ ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ويَحتَمِلُ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ مِنَ الثوابِ والعِقابِ في الآخِرَةِ الثوابَ لِلْمُحْسِنِ منهُمْ والعِقابَ لِلْمُسيءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي عَرَفْتُمْ أنهُ هو الذي بَرَأكُمْ والخَلْقَ جميعاً، وكذلكَ هو يُعيدُكُمْ بَعْدَ إفنائِكُمْ؛ إذْ بَدْءُ الشَّيءِ على غَيرِ مِثالٍ أشَدُّ عِندَكُمْ مِنْ إعادَتِهِ على مثالٍ كقولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ/ ٢٢٦ - أ/ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أي إعادةُ الشَّيءِ أهْوَنُ عِنْدَهُ[6] مِنْ بَدْئِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ قيلَ بالعَدْلِ، لكنَّ ما يَجْزيهِمْ إنما يَجْزيهِمْ إفضالاً وإحساناً استيجاباً واستِحْقاقاً.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾وُجوهاً:

أحَدُها: أنهُ يَجْزي المُحْسِنَ جزاءَ الإحسانِ والمُسيءَ جزاءَ الإساءَةِ، ويَفْصِلُ بَيْنَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ في الآخِرَةِ في الجزاءِ، ويَجْعَلُ لِلْوَلِيِّ علامَةً وأثراً يُعْرَفُ بها مِنَ العَدُوِّ؛ إذْ لم يَفْصِلْ في الدنيا بَيْنَ الأولياءِ والأعداءِ في الرِّزْقِ وما يُساقُ إليهِمْ مِنَ النَّعيمِ، ولم يَجْعَلْ علامَةً، يُعْرَفُ بها الوَلِيُّ مِنَ العَدُوِّ، وجَعَلَ في الآخِرَةِ ذلكَ حتى يُعْرَفَ هذا مِنْ هذا. فهذا العَدْلُ الذي ذَكَرْنا يُشْبِهُ أنْ يكونَ هو ذلكَ.

والثاني[7]: يَحْتَمِلُ القِسْطُ الوَزْنَ؛ أي يَجْزيهِمْ بالوَزْنِ على تَعْديلِ النَّوعِ بالنَّوعِ لا على القَدْرِ؛ أي يَجْزي بالحَسَنَةِ قَدْراً لا يزيدُ على ذلكَ، ولكنْ يَجْزي لِلْخَيرِ خيراً ولِلْحَسَنَةِ حَسَنَةً ولِلسَّيِّئَةِ سَيِّئَةً.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: الذي. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل: الذي. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: عندكم. (٧) في الأصل وم: و.

جنة السنة

والثالث(١): يحتمِلُ قولُهُ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بالعَدْلِ؛ أي يَجزي الذينَ عَمِلوا بالعَدْلِ، لم يَجوروا فيهِ، ولا جاوَزُوا الحَدَّ الذي حُدَّ لَهُمْ، ولكنْ عَمِلوا بالعَدْلِ فيهِ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ على تَقديمِ العَدْلِ؛ أي يَجزي الذينَ عَمِلوا بالعَدْلِ؛ أي لا يُعَذِّبُهُمْ في النارِ إذا آمَنوا. ثم الذينَ(٢) عَمِلوا الصالحاتِ يُوَفِّيهِمْ أُجورَهُمْ، ويَزيدُهُمْ مِنْ فَضلِهِ، واللهُ أعْلَمُ بالصوابِ مِنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي يَجزيهِمْ في الآخِرَةِ بِما أقْسَطوا في الدنيا، وعَدَلوا؛ ويكونُ القِسْطُ على هذا التأويلِ نَعْتاً لهمْ، وإنْ كانَ ما ذَكَرَ مِنَ القِسْطِ راجعاً إلى اللهِ وَوَصْفاً لهُ فهو يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: يَجزي فَريقاً مِنَ المؤمنينَ بالعَدْلِ؛ يَجزيهِمْ(٣) لإحسانِهِمْ جَزاءَهُمُ الإحسانَ، ويُكَفِّرُ عنْ سَيِّئاتِهِمْ، وهو كقولِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ الآية [الأحقاف: ١٦] وقولِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ﴾ الآية [النساء: ٤٨و..]

والثاني: يَجزيهِمْ بالفَضلِ؛ إذِ العَدْلُ هو وَضْعُ الشَّيءِ مَوضِعَهُ؛ أي يَضَعُ الفَضلَ في أهلِهِ، لا يَضَعُهُ في غيرِ أهلِهِ، وَوَضْعُ الفَضلِ في أهلِ الإيمانِ عَدْلٌ؛ إذْ هُمْ أهلٌ لهُ، واللهُ أعلَمُ. وهو كقولِهِ: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

والثالثُ: العَدْلُ الذي هو مُقابِلُ الإحسانِ، وهو الفَضلُ لا العَدْلُ الذي هو ضِدُّ الجَورِ كقولِهِ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ الآية؛ لا يَحتمِلُ أنْ يقولَ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ في العَدْلِ الذي هو ضِدُّ الجَورِ، في مِثْلِ هذا يَستطيعونَ أنْ يَعْدِلوا بينَهُنَّ(٤). فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بالعَدْلِ الذي هو مُقابِلُ الإحسانِ، وهو(٥) الفَضلُ؛ إذْ لِلْفَضلِ دَرَجاتٌ. وأصْلُهُ: أنَّ جزاءَ الآخِرَةِ كُلِّهِ إفضالٌ وإحسانٌ وإنعامٌ لا اسْتِحقاقاً واسْتِيجاباً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قيلَ: الحَميمُ الشَّرابُ الذي انْتَهى حَرُّهُ غايَتَهُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ ذَكَرَ في الشَّمْسِ الضِّياءَ والقَمَرِ النورَ. فهو، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ الليلَ مُظلِمٌ، يَظْهَرُ نورُ القَمَرِ فيهِ، ويَغلِبُ على ظُلْمَةِ الليلِ، ويَقهَرُها. وأمّا النهارُ فهو مُبصِرٌ على ما ذَكَرَهُ ﷻ ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]. جَعَلَ فيهِ النورَ، فلو جَعَلَ في الشَّمْسِ النورَ خاصَّةً لَكانَ [لا](٦) يَظْهَرُ نورُ الشَّمْسِ خاصَّةً، ولا غَلَبَ نُورُها على نُورِ النهارِ، فكانَتْ تَذهَبُ المَنافِعُ التي جَعَلَ فيها، وجَعَلَ ﷻ بِلُطْفِهِ فيها ضِياءً، لِيَظْهَرَ نُورُها على نورِ النهارِ، ويَغلِبَهُ، ويَقهَرَهُ، لِتَظْهَرَ المنافِعُ التي جَعَلَ فيها لِلْخَلْقِ، وهو ما ذَكَرَ أنَّهُ ﴿مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥].

وأخبَرَ أنَّهُ لو شاءَ لَجَعَلَهُ ساكناً [ولو كانَ ساكناً](٧) مُمتَدّاً على ما جَعَلَ بقولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] لَكانَ لا يَعرِفُ الظِّلَّ. ثم أخبَرَ أنَّهُ جَعَلَ الشمسَ دليلاً عليهِ لِيُعرَفَ بها الظِّلُّ المَمدودُ [فَنَسَخَتِ الشمسُ ذلكَ المَمدودَ](٨) وشَيئاً بَعْدَ شَيءٍ، فصارتِ الشمسُ يُعرَفُ بها الظِّلُّ، وبها يَظْهَرُ ذلكَ الضِّياءُ الذي في الشمسِ كانَ بِهِ يُعرَفُ نورُها مِنْ نورِ [النهارِ](٩) وبِهِ يُوصَلُ إلى مَنافِعِ الشمسِ. ولو كانَ نوراً لكانَ لا يُعرَفُ ولا يَظْهَرُ؛ إذْ لا يَغلِبُ أحَدُهُما صاحِبَهُ، واللهُ أعْلَمُ، ولا تُعرَفُ آيَةُ الشمسِ أنها(١٠) آيَةُ النهارِ.

ثم جَعَلَ آيَةَ الشمسِ غالِبَةً على جَميعِ الآياتِ؛ لا تُبصَرُ النُّجومُ بالنهارِ أصلاً، والقَمَرُ، وإنْ كانَ يُبصَرُ، ويُرَى بحالٍ فإنَّ نورَ الشمسِ قد يَغلِبُهُ، ويَقهَرُهُ، حتى لا يَظْهَرَ أبداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ التقديرُ الذي ذَكَرَ لهما جميعاً، ويُعرَفُ الحِسابُ وعَدَدُ السنينَ بهما جميعاً، وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ حَفصَةَ: وقَدَّرَهُما مَنازِلَ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: للذين. (٣) في الأصل وم: يجزي. (٤) في الأصل وم: بينهم. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل: في، ساقطة من م.

جنة السنة

وجائزٌ أنْ يكونَ [جَعَلَ][1] الشمسَ بالذي تُعرَفُ بها أوقاتُ الصلاةِ والأزمنةُ مِنَ الشتاءِ والصيفِ، لا يُعرَفُ ذلكَ بالقَمَرِ، وجَعَلَ في القَمَرِ مَعرِفَةَ الشهورِ والسِّنينَ، وفي الشمسِ مَعرِفةَ أوقاتِ الصلاةِ والأزمنةِ، لا تُعرَفُ الشهورُ والسِّنونَ [بها][2] إلا بَعْدَ جَهْدٍ، وبالقَمَرِ لا تُعرَفُ أوقاتُ الصلاةِ والأزمنةِ.

جَعَلَ اللهُ في الشمسِ مَنفَعَتَينِ: مَنفَعَةُ التَّقَلُّبِ ومَعرِفَةُ الأزمنةِ، ومَنفَعَةُ نُضجِ الأشياءِ ويَنْعِها، وفي القَمَرِ مَنفَعَتَينِ أيضاً: إحداهُما[3] مَعرِفَةُ حِسابِ الأيامِ والشهورِ والسِّنينَ والثانيةُ[4] مَنفَعَةُ نُضجِ الأنزالِ والأشياءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ لَيسَ أنْ يُعرَفَ هذا بهما، ولا يُعرَفُ غَيرُهُ، بل يُعرَفُ ما ذُكِرَ وأشياءُ كثيرةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قالَ أبو بَكرٍ الأصَمُّ الكَيسانيُّ: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ما خَلَقَ اللهُ ذلكَ إلّا وقد جَعَلَ فيهِ دلالةَ مَعرِفَتِهِ. وقالَ قائلونَ: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ما خَلَقَ اللهُ ذلكَ إلّا وقد جَعَلَ فيهِ الشهادةَ لهُ على الخَلْقِ، وهي شهادةُ الوَحدانيةِ والألوهيَّةِ. وقالَ بَعضُهُم: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا﴾ بالأمرِ الكائنِ لا مَحالَةَ، وهو البَعْثُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي بالحكمةِ، لم يَخلُقْ ذلكَ عَبَثاً باطلاً، وهو كقولِهِ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧] ولكنْ بِحِكْمَةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قيلَ: يُبيِّنُ، أو يَصرِفُها لِقومٍ يَنتَفِعونَ بِعِلْمِهِم. إنما ذَكَرَ الآياتِ في ما ذَكَرَ الآياتِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤أو..] و﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣ و..] و﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨] الآياتِ التي يَنتَفِعونَ بها، ويَعقِلونَ الشَّيءَ؛ إنما يَعقِلونَ، يكونَ لِلّذي يَنتَفِعُ بهِ لا لِلّذي لا يَنتَفِعُ به.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ آيةَ البَعْثِ ودلالةَ تَدبيرِ صانِعِهِما.

أمّا دلالةُ البَعثِ [فهي][5] أنَّ كلَّ واحدٍ منهما إذا جاءَ ذَهَبَ الآخَرُ، وفَنِيَ، حتى لا يَبقى لهُ الأثَرُ، ثم يَتَجَدَّدانِ، ويَحدُثانِ، على ذلكَ أمرُهُما، ويُتلِفُ كلُّ واحدٍ منهما صاحِبَهُ حتى لا يَبقى لهُ الأثَرُ. فَمَنْ قَدَرَ على ما ذَكَرْنا قَدَرَ على بَعْثِهِم وإنشائِهِم بَعْدَ المَوتِ بَعْدَ ما صاروا تُراباً.

وأمّا دلالةُ التَّدبيرِ فَهِيَ[6] جَرَيانُهما وسَيرُهُما على سَنَنٍ واحدٍ وتقديرٍ واحدٍ مِنْ غَيرِ تَغييرٍ يَقَعُ فيهما أو تَفاوُتٍ أو نُقصانٍ يَقَعُ فيهما أو زيادةٍ، وإنْ كانَ أحَدُهُما يدخُلُ في الآخَرِ.

دَلَّ ما ذَكَرْنا أنهما إنما يَجرِيانِ، ويَختَلِفانِ على سَنَنٍ واحدٍ وجَرَيانٍ واحدٍ، وفيهما[7] تدبيرٌ غَيرُ ذاتِيٍّ وعِلْمٌ أزَليٌّ وأنهُ واحدٌ، إذْ لو كانَ التدبيرُ [فيهما لِعَدَدٍ][8]؛ لكانا يَختَلِفانِ، ولا يَجرِيانِ على قَدْرٍ واحدٍ مِنْ غَيرِ تَفاوُتٍ. [وما فيهما مِنْ تَغييرٍ][9] أو نُقصانٍ أو زيادةٍ دلَّ أنه [تَقديرُ][10] واحدٍ، وباللهِ التوفيقُ.

وفي ذلكَ دلالةُ وَحدانيَّةِ مُنشِئِهِما وخالِقِهِما لأنهُ أنشأهُما، ويَبَّنَهُما، وجَعَلَ مَنافِعَ أحَدِهِما مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ الآخَرِ على بُعْدِ ما بَيْنَهُما. دلَّ أنَّ مُنشِئَهُما واحدٌ؛ إذ لو كانَ فِعلَ/ ٢٢٦ ـ ب/ عَدَدٍ مَنَعَ كُلُّ فِعْلَهُ عَنِ الوصولِ بالآخَرِ على ما هو فِعْلُ ملوكِ الأرضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ مُخالَفَةَ اللهِ، ويَتَّقونَ جميعَ الشرورِ والمَساوِئِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ قالَ قائلونَ: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ مِنَ الرجالِ؛ أي لا يَرجُونَ

---

(١) و(٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أحدهما. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: هو. (٧) في الأصل وم: أن فيهما. (٨) في الأصل وم: فيها العدد. (٩) في الأصل وم: أن فيهما تدبير. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ما وَعَدَ الخَلْقَ مِنَ الثوابِ، ولا يَرْغَبونَ في ما يُرْجَى، ويُطْمَعُ مِنَ الرَّغائبِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي لا يَخافُونَ لِقاءَنا، وما مِنْ خوفٍ إلّا وفيهِ رَجاءٌ، وما مِنْ رَجاءٍ إلّا وفيهِ خَوفٌ؛ لأنَّ الخوفَ الذي لا رَجاءَ فيهِ، هو إياسٌ، والرَّجاءَ الذي لا خَوفَ فيهِ أَمْنٌ. لكنَّ الغالِبَ في الحَسَناتِ والخَيراتِ الرَّجاءُ، وفيهِ خَوفٌ، والغالِبَ في السَّيِّئاتِ والشُّرورِ الخَوفُ، وفيهِ أدْنى الرَّجاءِ، وهو ما ذَكَرْنا في الشُّكْرِ والصَّبْرِ أنهما واحدٌ؛ لأنَّ الصَّبْرَ هو كَفُّ النَّفْسِ عنِ الشَّهَواتِ واللَّهَواتِ، والشُّكْرَ هو اسْتِعْمالُها في الخَيراتِ. فإذا كَفَّها عنِ الشَّهَواتِ اسْتَعْمَلَها في الخَيراتِ.

لِذلكَ قُلْنا: إنهما في الحقيقةِ واحدٌ؛ لأنَّ الشُّكْرَ هو القَبولُ، وكذلكَ الصَّبْرُ أيضاً. غَيرَ أنَّ الشُّكْرَ في قَبولِ النِّعَمِ والصَّبْرَ في قَبولِ البَلايا والمصائبِ، واللهُ أعْلَمُ، يَصيرُ كأنهُ قالَ: إنَّ الذينَ لا يُؤْمِنونَ بالآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ أيِ اختارُوا المُقامَ في ما عَمِلُوا بها، كأنهمْ مُقيمونَ فيها أبداً. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾.

الآية ٨ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ مِن رَدِّهِمُ الآياتِ وكُفْرِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: سُرُّوا بها، وآثَروا مَحاسِنَ الدنيا على ثوابِ الآخِرَةِ.

والثاني: رِضاهُمْ بالدنيا والطمأنينةُ فيها، مَنَعاهُمْ[1] عنِ التَّفَكُّرِ والنَّظَرِ في أمْرِ الآخِرَةِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[أحَدُها][2]: يَحْتَمِلُ ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ في الدنيا طريقَ الجنةِ في الآخِرَةِ، وهو مَعْنى ما ذُكِرَ في القِصَّةِ: أنَّ المؤمِنَ إذا خَرَجَ مِنَ القَبْرِ يُصَوَّرُ لهُ عَمَلُهُ في صورةٍ حَسَنَةٍ.

والثاني: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ فَيَصيرونَ مُهْتَدِينَ[3] بِهدايَتِهِ إياهُمْ.

والثالثُ[4]: يُشْبِهُ ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ يَدْعُوهُمْ إلى الخَيراتِ في الدنيا بإيمانِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

فهذا على المُعْتَزِلَةِ لأنهمْ يَمْتَنِعونَ عنْ تَسْمِيَةِ صاحِبِ الكَبيرةِ مؤمِناً، ومَعَهُ إيمانٌ، فَيَلْزَمُهُمْ أنْ يَمْتَنِعوا عمّا وُعِدَ لهُ، وإنْ كانَ مَعَهُ إيمانٌ، فإنْ ذُكِرَ لهُ الوَعْدُ مع هذا لَزِمَهُمْ أنْ يُسَمُّوهُ مؤمِناً لِما مَعَهُ مِنَ الإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يقولُ أهلُ التأويلِ: مِنْ تَحْتِ أهلِ الجنةِ، وقد ذَكَرْنا هذا.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ قال قائلونَ: قولُهُ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ دَعْوى الإيمانِ أي يَدْعُونَ في الآخِرَةِ [دَعْوى الإيمانِ إلى التوحيدِ للهِ والتنزيهِ][5] لهُ كما دَعَوا[6] في الدنيا [إلى][7] وحدانيَّةِ اللهِ، ونَزَّهُوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ هو حَرفُ تَنْزيهٍ وتَبْرِئَةِ الربِّ عنِ الأشباهِ[8] وجميعِ الآفاتِ التي وَصَفَتْهُ المُشَبِّهَةُ المُلْحِدَةُ. فهذا يدلُّ أنَّ ما خُرِّجَ مُخرَجَ الدَّعْوَى فإنهُ لا يَخْتَلِفُ باخْتِلافِ الدُّورِ.

وقالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: هو مِنَ الدعاءِ لا مِنَ الدَّعْوَى؛ يقولونَ: إنهمْ إذا اشْتَهَوا طعاماً أو شراباً، وتَمَنَّوا شيئاً، ادَّعَوا[9] بقولِ: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ فَيُؤْتَونَ ما تَمَنَّوا، واشْتَهَوا. ولكنْ ذُكِرَ ألّا تَنْقَطِعَ اللَّذّاتُ في الجنةِ، ولو كانَ ما يقولونَ لكانَ فيهِ انْقِطاعُ اللَّذّاتِ والشَّهَواتِ إلّا أنْ يُقالَ إنهمْ يُلْهَمونَ شَهَواتٍ وأمانِيَّ، فَيَشْتَهونَ: قالَ[10] اللهُ ﷻ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] [وقالَ][11]: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠و٢١] ولا نَعْلَمُ ما أرادَ بهِ.

(١) في الأصل و م: منعهم. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل وم: مهتدون. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل: التوحيد لله والتنزيل، في م: والتوحيد لله والتنزيه. (٦) في الأصل و م: ادعوا. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: الأشياء. (٩) في الأصل و م: فيدعون. (١٠) في الأصل وم: وقال. (١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ يُخرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: يُخبِرُ أنهُ لَيسَ على أهلِ الجنةِ مِنَ العِباداتِ شَيءٌ سِوَى التوحيد.

والثاني: يقولونَ ذلكَ لِعَظيمِ ما رَأوا مِنَ النَّعيمِ وعَجيبِ ما عايَنوا.

والثالثُ: شُكراً لِما أعطاهُمْ مِنَ ألوانِ النَّعيمِ والأطْعِمَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ الملائكةَ يأتونَ مِنَ ألوانِ النَّعيمِ بما اشتَهَوا، ويُسلِّمونَ عليهِمْ، ويَرُدُّونَ السَّلامَ على الملائكةِ. فذلكَ قولُهُ ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ فإذا طَعِموا، وفَرَغُوا، قالوا عندَ ذلكَ: ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهو قولُ ابْنِ عباسٍ وغَيرِهِ مِنْ أهلِ التأويلِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ الكلامُ[1] الذي لا عَيبَ فيهِ، ولا مَطْعَنَ؛ أي كلامُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ مُنزَّهٌ مَنْفيٌّ عنْ جَميعِ العُيوبِ والمَطاعِنِ كقولِهِ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ الآية [مريم: ٦٢] وقولِهِ: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٦] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: يَقولونَ على إثْرِ فَراغِهِمْ مِنَ الطعامِ والشرابِ ذلكَ. وقالَ الحَسَنُ: إنَّ اللهَ رَضِيَ مِنْ عِبادِهِ بالشُّكْرِ لِما أنْعَمَ عليهِمْ في الدنيا والآخِرَةِ بـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي دَعْواهُمْ في الآخِرَةِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كما كانَ دَعْواهُمْ في الدنيا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ كأنَّ الآيةَ على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ إذا استَعْجَلوهُ كما يُعَجِّلُ لهمُ الخيرَ إذا استَعْجَلوهُ ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لأنهُ ليسَ يَذْكُرُ في ظاهِرِ الآيةِ استِعجالَهُمُ الشَّرَّ، إنما يَذْكُرُ [تَعْجيلَهُ الخيرَ ولكنْ][2] فيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ الإضمارِ إضمارَ الاستِعجالِ، وهو ماذكَرْنا في غيرِ آيةٍ[3] مِنَ القرآنِ استِعجالَهُمُ العذابَ كقولِهِ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وقولِهِ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ الآية [هود: ٨٢] ونَحْوَ[4] ذلكَ.

كانوا يَسْتَعْجِلونَ العذابَ استِعجالَ تَضَرُّعٍ، فيقولُ: لو عَجَّلَ لهمُ العذابَ إذا استَعْجَلوهُ كما يُعَجِّلُ لهمُ الخيرَ إذا استَعْجَلوهُ ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ يقولُ: لَهَلَكوا، أو فَنُوا. هذا التأويلُ في أهلِ الكُفْرِ خاصةً عندَ استِعْجالِهِمُ العذابَ استِعْجالَ تَضَرُّعٍ وسؤالٍ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا في جُملَةِ الخَلْقِ على غَيرِ تَصْريحِ سُؤالٍ، ولكنْ عندَ ارْتِكابِهِمُ الشَّرَّ يقولُ: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ باكْتِسابِهِمُ الشَّرَّ وبارْتِكابِهِمْ إياهُ وقتَ اكْتِسابِهِمْ [كما يُعَجِّلُ لهمُ الخيرَ وقتَ اكتسابِهِمُ الخيرَ][5] ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لَهُمْ جزاءَ شَرِّهِمْ وقتَ اكْتِسابِهِمُ الشَّرَّ كما يُعَجِّلُ لَهُمْ جزاءَ خَيرِهِمْ؛ لكانَ ما يَسْتَوجِبونَ بارْتِكابِهِمُ الشَّرَّ وقتَ فِعْلِهِمْ إياهُ ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لكنهُ لم يَجْعَلْ لهمْ ذلكَ، وأخَّرَهُ إلى المُدَّةِ التي جَعَلَ لآجالِهِمْ.

ويُمْكِنُ وَجْهٌ آخَرُ، وهو ما يَدْعُو بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ باللَّعْنِ والخِزْيِ؛ يقولُ الرجلُ عندَ شِدَّةِ الغَضَبِ: اللَّهُمَّ الْعَنْ فلاناً، اللَّهُمَّ اخْزِهِ ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الدَّعَواتِ. يقولُ: لو عَجَّلَ لهمْ هذا كما يُعَجِّلُ لهمْ عندَ دعاءِ بعضِهِمْ لِبَعْضٍ بالرَّحْمَةِ والسَّعَةِ ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ يكونُ هذا على وُجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: استِعْجالُ سُؤالٍ وتَضَرُّعٍ [وهو][6] الذي ذَكَرْنا.

والثاني: بأفعالِهِمْ وارْتِكابِهِمُ الشَّرَّ [وقتَ][7] ارْتِكابِهِمْ.

---

(١) في الأصل و م: والكلام. (٢) في الأصل: تعجيل ولكن، في م: تعجيله ولكن ما. (٣) في الأصل وم: آي. (٤) في الأصل: ونحوه.
(٥) ساقطة من م. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من م.

جنة السنة

والثالثُ: في الأسبابِ التي بها يرتكِبونَ، ويَفْعَلُونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ يَحتَمِلُ: لا يُقَدَّمُ، ولا يُؤخَّرُ، وهو ما ذَكَرَ ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤و..]

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنَّ مِنْ حِكْمَتِهِ ألا يُعاقِبَ أحداً مِنَ الكَفَرَةِ في الكُفرِ بِصُنْعِهِ الذي صَنَعَ، وقد يُعَجِّلُ لَهُمْ جَزاءَ خيراتِهِمْ في الدنيا لِما ساقَ إليهِمْ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ. ولكنْ مِنْ حِكْمَتِهِ أنْ يُؤخِّرَ عُقوبَتَهُمْ إلى يومِ القيامَةِ. فذلكَ تأويلُهُ[1]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى/ ٢٢٧ ـ أ/ : ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: جميعُ ما ذُكِرَ في القرآنِ الإنسانُ فالمُرادُ منهُ الكافِرُ. مِنْ ذلكَ قولُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦] وقولُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] وقولُهُ: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١و٢] ونَحوُهُ.

لكنَّ هذا لا نَعْلَمُ أنهُ أرادَ بهِ الكافِرَ. فلَئِنْ كانَ ما ذَكَروا فإنَّ أهلَ الإيمانِ يَدخُلونَ في هذا الخِطابِ إذا كانَ منهُمْ ما يكونُ مِنَ الكَفَرَةِ؛ لأنَّ مِنْ أهلِ الإيمانِ مَنْ يُقبِلُ على الدعاءِ والتَّضَرُّعِ إلى اللهِ عندَ مَسِّ الحاجَةِ والشِّدَّةِ. فإذا انْجَلَى ذلكَ، وانْكَشفَ عنهُ، تَرَكَ ذلكَ الدعاءَ الذي كانَ دَعا وذلكَ التَّضَرُّعَ الذي كانَ يَتَضَرَّعُ إليهِ، فَدَخَلَ في ذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ ليسَ على إرادةِ حقيقَةِ الجَنْبِ والقُعودِ والقِيامِ، ولكنْ على الدعاءِ في كلِّ حالٍ؛ أي يدعُوهُ [الكَفَرَةُ][2] لَمّا عَرَفُوا أنَّ الذينَ[3] كانوا يَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ لا يَمْلِكونَ دَفْعَ ما حَلَّ بِهِمْ مِنَ الشَّدائِدِ والمَضارِّ أقْبَلوا على اللهِ بالتَّضَرُّعِ والدعاءِ إليهِ في كَشْفِ ذلكَ عنهُمْ.

ثم أخبَرَ عَنْ سَفَهِهِمْ وشِدَّةِ تَعَنُّتِهِمْ وَعَودِهِمْ إلى الخِلالِ التي كانوا [عليها][4] مِنْ قَبْلُ، فقالَ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا﴾ قد نَسِينَا في الرَّخاءِ كأنْ لم يَعرِفْنا. وإنَّ التَّعَدِّيَ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ هو[5] وَضْعُ الأموالِ والأنفُسِ في [المَواضِعِ التي][6] لا يَنْتَفِعونَ في عِبادَةِ الأصنامِ وغيرِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ فإنْ قيلَ: قد أهلَكَ مَنْ ظَلَمَ ومَنْ لم يَظْلِمْ، فما يُعلَمُ مَنْ أهلَكَ مِنَ الظَّلَمَةِ أنهُ إنما أهلَكَهُمْ لِظُلْمِهِمْ، أو أهلَكَ لِصَلاحِ مَنْ لم يَظْلِمْ، قيلَ لهُ: أهلَكَ الظَّلَمَةَ إهلاكَ استِئْصالٍ وعُقوبَةٍ، وأهلَكَ مَنْ لم يَظْلِمْ لا إهلاكَ عُقوبَةٍ واستِئْصالٍ، إنما هو إهلاكٌ بآجالِهِمُ التي جَعَلَ لهمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [أنهُ][7] إنما أهلَكَ أولئكَ بِسُؤالِهِمُ الذي سَألوا سُؤالَ تَعَنُّتٍ رُسُلَهُمُ الآياتِ. فإذا جاؤوا بِتلكَ الآياتِ كَذَّبوها، فأُهلِكوا عندَ ذلكَ.

فأنتُمْ يا أهلَ مكَّةَ إذا سألتُمْ رسولَكُمُ الآيةَ، ثم كَذَّبْتُموها[8]، لَعَذَّبَكُمْ كما عَذَّبَ أولئكَ، إذْ مِنْ حِكَمِهِ الإهلاكُ على إثْرِ السؤالِ؛ كأنهُ يَنهَى أهلَ مكةَ عنْ سؤالِ الآياتِ لأنَّ[9] على إثْرِهِ الإهلاكَ إذا لم يَقْبَلُوها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ تَحتَمِلُ البَيِّناتُ التي تُبَيِّنُ ما يُؤتَى وما يُتَّقَى، وقد ذَكَرْناها في غيرِ مَوضِعٍ ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ يُخبِرُ رسولَهُ أنهمْ، وإنْ سألوكَ الآياتِ، فإذا جِئْتَ بها فإنهمْ لا يُؤمِنونَ؛ يعني أهلَ مكةَ ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ كلَّ مُجْرِمٍ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يَحتَمِلُ ﴿خَلَائِفَ﴾ أي جَعَلَ أنفُسَكُمْ خَلَفَ أنفُسِ أولئكَ الذينَ لم يُهلِكْهُمْ. يَخرُجُ هذا مُخرَجَ تَذكيرِ النِّعمَةِ والامتِنانِ والرَّحمَةِ؛ يُذَكِّرُهُمْ أنهُ لو شاءَ أهلَكَ الكُلَّ، فلا يكونُ هؤلاءِ خَلَفَ أولئكَ. ولكنْ بِفَضْلِهِ ورَحمَتِهِ أبقاكُمْ.

---

(١) من م، في الأصل: تأويل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الذي. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل و م: الموضع الذي. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كذبوها. (٩) في الأصل وم: فان.

جنة السنة

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ [أولئك في المِحْنَةِ والعبادَةِ؛ أي جَعَلَ عليكُم مِنَ المِحْنَةِ والعِبادَةِ كما كانَ على آبائكُم مِنَ المِحْنَةِ والعِبادَةِ. ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾][١] الذينَ لم يَظلِموا، فكيفَ لا تَتَّبِعونَهُم؟ لأنَّ الذينَ ظَلَموا قد أهلَكَهُمْ، فأنتمْ خلائِفُ أولئكَ الذينَ لم يَظلِموا، أو يُكذِّبوا الرسُلَ، فكيفَ لا تَتَّبِعونَهُمْ؟ كأنَّهُم ادَّعَوا أنَّ آباءَهُمْ كانوا على ما هُمْ عليه، وأنهُمْ على مذاهِبِ آبائِهِمْ.

يقولُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي لَسْتُ أنا بأوّلِ رسولٍ أُرسِلْتُ إليكُمْ، بل لم يَزَلِ اللهُ يرسِلُ رسولاً في الأُمَمِ، فكانَ فيهِ لهمْ أتباعٌ يَتَّبِعونَ رُسُلَهُمْ إلى ما يَدْعُوهُمْ إليهِ، ويُجيبونَهُمْ، فاتَّبِعوني أنتُمْ يا أهلَ مكةَ في ما دُعِيتُمْ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾لم يَزَلِ اللهُ عالِماً بِما كانَ، ويكونَ منهُمْ مِنَ المَعْصِيَةِ والطاعةِ، ولكنْ لِيَعْلَمَهُمْ عُصاةً ومُطيعينَ؛ لأنَّ المعصِيَةَ إنما تكونُ بَعْدَ ما يكونُ النَّهْيُ، والطاعةُ إنما تكونُ بالأمرِ، فَيَبْتَليكُمْ، وَيَعْلَمُكُمْ عُصاةً كما عَلِمَ أنهُ يكونُ منكُمُ الطاعةُ. وقد ذَكَرْنا أمثالَ هذا في ما تَقَدَّمَ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ البيِّناتُ قد ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ، والبيِّناتُ هي التي تُبَيِّنُ أنها آياتٌ نَزَلَتْ مِنْ عندِ اللهِ، لم يَختَرِعْها أحدٌ مِنَ الخَلْقِ.

وقد ذَكَرْنا قولَهُ أيضاً: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وقولَهُ تعالى: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُمْ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ الا تَرى أنهُ [لمّا][٢] قال: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾؟ إنما[٣] أجابَهُمْ في التبديلِ. دلَّ أنَّ السؤالَ كانَ سؤالَ تَبديلٍ، ولكنْ كانوا يَسألونَ سؤالَ اسْتِهزاءٍ وتكذيبٍ.

ثم اختَلَفَ أهلُ التأويلِ في التبديلِ الذي سألوا: قالَ بعضُهُمْ: سألوا أنْ يُبَدِّلَ، ويَجْعَلَ مكانَ آيةِ العذابِ آيةَ الرحْمَةِ، لو بَدَّلَ أحكامَهُ. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ أي بَدِّلْ أحكامَهُ، واترُكْ رَسْمَهُ.

ويَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا أنهمْ سألوا أنْ يَتْلُوَ مكانَ آيةِ العذابِ آيةَ الرحمةِ ومكانَ ما فيهِ سَبُّ آلِهَتِهِمْ مَدْحَها، ونَحْوَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ونَحْنُ لا نَعْلَمُ ما أرادَ بالتبديلِ تبديلَ الأحكامِ وتبديلَ الرسمِ والنَّظْمِ إنما نَعْلَمُ ذلكَ بالسماعِ.

ثم أخبَرَ أنهُ لا يقولُ، ولا يَتَّبِعُ إلا ما يُوحِي اللهُ، ويؤمِنُ بهِ بقولِهِ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إنْ تركتُ تَبليغَ ما أُمِرْتُ بالتبليغِ إليكُمْ. وهذا كلُّ مَنْ عَرَفَ ربَّهُ خافَهُ إنْ عصاهُ، وخالَفَ[٤] أمرَهُ ونَهْيَهُ، ومَنْ لم يَعْرِفْ ربَّهُ لم يَخَفْهُ إنْ عصاهُ، وخالَفَ [أمْرَهُ ونَهْيَهُ][٥]

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ سؤالُهُمْ سؤالَ تَعَنُّتٍ واسْتِهزاءٍ لأنهُ مَنْفَعةَ لهمْ لواتى بِغَيرِهِ، وبَدَّلَهُ سِوى ما في هذا. ولو جازَ لهمْ هذا السؤالُ لجازَ ذلكَ في كلِّ ما أتى واحداً بَعْدَ واحِدٍ، فذلكَ ممّا [لا][٦] يَنْقَطِعُ أبداً، ولا غايَةَ، ولا نهايَةَ [لَهُ، و هو سؤالُ][٧] تَعَنُّتٍ واسْتِهزاءٍ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ هو صِلَةُ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ حينَ[٨] قالوا: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾قد ذَكَرْنا أنَّ هذا [يحتمِلُ وجهَينِ][٩]:

يَحتَمِلُ أنهمْ سألوهُ أن يُبَدِّلَ أحكامَهُ على تَرْكِ رَسْمِهِ ونَظْمِهِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أي ارفَعْ رَسْمَهُ ونَظْمَهُ وأحكامَهُ، كأنهمُ ادَّعَوا على رسولِ اللهِ اختِراعَ هذا القرآنِ مِنْ نَفْسِهِ واختِلاقَهُ مِنْ عندِهِ، فقالَ: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، لو شاءَ اللهُ ألا يُظْهِرَ دينَهُ فيكمْ ما[١٠] ألزَمَهُ حُجَّةً، ولا بَعَثَني إليكُمْ رسولاً ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي ولا أعلَمَكُمْ بهِ.

---

(١) ساقطة من م. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: ان. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: فسؤال. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: ولا.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾ ولا أعلَمَكُمْ ما فيهِ مِنَ الأحكامِ، أي يقولُ ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لم يُوحِ إليَّ، ولا أمَرَني بتبليغِ ما أُوحَى إليَّ إليكُمْ ولا بالدعاءِ إلى ما أمَرَني أنْ أدعُوَكُمْ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ﴾ فلو لم يَشأْ أنْ [أتلُوَهُ ما تَلَوتُهُ][1]. دلَّ أنَّ ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لم يَشَإِ اللهُ لم يكُنْ. وذلكَ يَرُدُّ على المُعتَزلَةِ قولَهُمْ: شاءَ اللهُ أنْ يؤمِنَ الخلائِقُ كلُّهُمْ، فلم[2] يؤمِنوا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾ فلم أدَّعِ ما أدَّعي الحالَ، ولا تَلَوتُ ما أتْلُو ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أني لم أختَرِعْ هذا مِنْ نفسي، ولكنْ أوحِيَ إليَّ؛ إذْ لو كانَ اختِراعاً منّي لَكانَ ذلكَ مِنّي في ما مَضَى مِنَ الوقتِ، وكُنتُ لابثاً فيكم. فإذا لم يكُنْ ذلكَ مني ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾/ ٢٢٧ ـ ب/ أني لم أختَرِعْ مِنْ نفسي.

يَحتَمِلُ هذا الكلامُ وجوهاً:

أحَدُها: أنهمْ لمّا ادَّعَوا عليهِ الاختِراعَ مِنْ عندِهِ قالَ: إني قد ﴿لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾ أي قَبلَ أنْ يُوحى هذا إليَّ؛ فلم تَروني خَطَطتُ بِيَميني، ولا اختَلَفتُ إلى أحدٍ في التَّعلُّمِ والدراسةِ، فكيفَ أختَرِعُ مِنْ عندي، والتأليفُ لا يَلْتَئِمُ، ولا يَتِمُّ إلا بأسبابٍ مُتَقدِّمةٍ؟

والثاني: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا﴾ سِنينَ لم تَعرِفوني، و لا رَأيتُموني كَذَبْتُ قطُّ، فكيفَ أفتَري على اللهِ،وأختَرِعُ القرآنَ مِنْ عندِ نَفسي؟ ألا تَرَى أنهُ قالَ على إثرِهِ: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ؟[يونس:١٧].

والثالث: يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾ فلم أسمَعْ أحداً ادَّعى البَعثَ، ولا أقامَ حُجَّةً عليهِ، وأنا قدِ ادَّعَيتُ البَعثَ، وأقَمتُ على ذلكَ حُجَّةً ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [بَعدَ][3] هذا أني لم أختَرِعْ مِنْ عندِ نَفسي؟

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ يُشبِهُ أنْ [يكونَ][4] هذا صِلَةَ قولِهِ: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ أي كيفَ تَطلُبونَ مِنّي إتيانَ غيرِهِ وتبديلَ أحكامِهِ، وأنتمْ[5] تَعرِفونَ قُبحَ الكَذِبِ وفُحشَهُ؟ فكيفَ تَسألونَني الافتِراءَ على اللهِ وتكذيبَ آياتِهِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ صِلَةَ ما ادَّعَوا عليه[6] أنهُ افتِراءٌ مِنْ عندِ نفسِهِ؛ يقولُ: إنكُمْ لم تأخذوني بِكَذِبٍ قطُّ ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا﴾ فكيفَ تَنسِبونني إلى الكَذِبِ على اللهِ، وقد عَرَفتُمْ قُبحَ الكَذِبِ على اللهِ وفُحشَهُ. ويَحتَمِلُ[أنْ يكونَ][7] على الابتِداءِ.

ثم قد ذَكَرنا أنَّ قولَهُ: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ استِفهامٌ، وجوابُهُ[8] ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: لا أحَدَ أبيَنُ ظُلماً وأفحَشُ ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ لأنَّ تفسيرَهُ ما قالوهُ، وقد ذَكَرنا هذا في غيرِ مَوضِعٍ. ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ الافتِراءُ على اللهِ تكذيبٌ بآياتِهِ، وتكذيبُ آياتِهِ افتِراءٌ على اللهِ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

[أحَدُهما][9]: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾ لو تَركوا عبادَتَهُ ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ إنْ عَبَدوهُ.

والثاني: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾ ما يَملِكونَ الضَّرَرَ بِهِمْ ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ أي ولا يَملِكونَ جَرَّ النَّفعِ إليهِمْ.

يُسَفِّهُهُمْ في عبادَتِهِمْ مَنْ لا يَملِكُ دَفعَ الضُّرِّ عنهمْ[10]، ولا يَملِكُ جَرَّ النَّفعِ [إليهِمْ][11] وتركِهِمْ عبادةَ مَنْ بِهِ يكونُ جميعُ مَنافِعِهِمْ وغِذائِهِمْ، ومنهُ يكونُ كلُّ خوفٍ وضُرٍّ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: يتلوه ما تلاه. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وقد. (٦) في الأصل وم: إليه. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فجوابه. (٩) ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: بهم مدرجة قبل دفع. (١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ يَحتمِلُ هذا القولُ منهُمْ تقليداً(١) لآبائهِمْ كقولِهِمْ: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ظَنُّوا أنَّ آباءَهُمْ لِما [لم يَتْرُكوا](٢) ما هم عليهِ لم يُعَذَّبوا، وأنهُمْ على الحَقِّ، وأنَّ اللهَ قد رَضِيَ بذلكَ، أو قالوا ذلكَ لِما [لم](٣) يَرَوا أنْفُسَهُمْ أهلاً لِعبادةِ اللهِ والقِيامِ بِخدمَتِهِ، وقد يكونُ مِثْلُ هذا في ملوكِ الأرضِ؛ إذ كُلُّ أحدٍ لا [يَرى](٤) نَفْسَهُ، يَصلُحُ لِخدمَةِ المَلِكِ، فَيَخدُمُ مَنْ دُونَهُ المُتَّصِلِينَ بهِ رَجاءَ أنْ يكونَ مَنْ خَدَمَهُ شَفيعاً لهُ عندَ المَلِكِ.

فَعَلَى ذلكَ هؤلاءِ ظَنُّوا(٥) أنَّ عِبادَتَهُمْ هؤلاءِ تُقَرِّبُهُمْ ﴿إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ويكونونَ(٦)، لهُمْ شُفعاءَ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ عندَ اللهِ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحدُهما](٧): يقولُ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أي تُعلِمونَ أنهُ عالِمٌ؛ أي أتُعلِمونَ مَنْ يعلمونَ أنه يَعْلَمُ ما ذَكَرَ، وأنتمْ لا تَعْلَمونَ ذلكَ، وقد تَعلَمونَ أنهُ لو كانَ كذلكَ لكانَ هو أعلَمَ بهِ منكُمْ.

والثاني: أنْ تقولوا ما لا يُعْلَمُ أنهُ ليسَ كما تقولونَ كقولِ الناسِ: ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لا يَشاءُ لا يكونُ؛ أي وما يَشاءُ ألّا يكونَ لا يكونُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ كلمةٌ جُعِلَتْ لإجلالِ اللهِ عمّا لا يَحْتَمِلُهُ غَيرُهُ(٨) مِنَ الأشكالِ والأضدادِ ومِنَ العُيوبِ والآفاتِ، وهو في هذا المَوضِعِ يَتَوَجَّهُ إلى وجهَينِ:

أحَدُهما: إذا كانوا يَعْبُدونَ ما ذَكَرَ ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فيقولُ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أنْ يَجعَلَ لأمثالِ أولئكَ شَفاعَةً عندَهُ؛ إذِ الشَّفيعُ أنهُ يكونُ مَنْ لهُ مَنزِلَةٌ وقَدْرٌ عند مَنْ يَشفَعُ لهُ، والمَنْزِلَةُ تكونُ لِلْعَبْدِ بما يَتْبَعُهُ. [أمّا](٩) هم فَيَقومونَ بتوفيرِ ما يَحتَمِلُ وُسعُهُمْ مِنَ العبادةِ. فأمّا مَنْ لا يَحتَمِلُ التَّعَبُّدَ فهو بَعيدٌ عما ذُكِرَ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أنْ يَجعَلَ الشفاعةَ لِمَنْ ذَكَرَ دونَ الأنبياءِ والرسُلِ، وهمْ قد أُخبِروا أنها لا تَملِكُ ضَرّاً ولا نَفْعاً، وفي الشفاعةِ ذلكَ.

والثاني: أنْ يكونَ عمّا أشرَكوا في العِبادةِ، فَسُبحانَهُ عَنْ أنْ يكونَ معهُ مَعْبُودٌ، أو يأذَنَ لأحدٍ بِعبادةِ غيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي أهلُ مكةَ؛ كانوا كُلُّهُمْ أهلَ شِركٍ عُبّادَ الأوثانِ والأصنامِ، لم يكنْ فيهمُ اليهوديَّةُ ولا النصرانيَّةُ ولا شيءٌ مِنِ اختِلافِ المذاهبِ. فلمّا بُعِثَ محمدٌ ﷺ اختَلَفوا: فمنهمْ مَنْ آمَنَ بهِ، وصَدَّقَهُ، وأخلَصَ دينَهُ للهِ، ومنهمْ مَنْ عانَدَ، وكابَرَ في تكذيبِهِ بَعْدَ أنْ عَرَفَ أنهُ رسولُ اللهِ، ومنهمْ مَنْ شَكَّ فيهِ، ومنهمْ مَنْ لم يَنْظُرْ في أمرِهِ قَطُّ، ولا تَفَكَّرَ فيهِ، فَصاروا أربعَ فِرَقٍ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بالفِطْرَةِ؛ أي كانوا جميعاً على الفِطْرَةِ، وفي فِطْرَةِ كلٍّ الشهادةُ على وحدانيةِ اللهِ تعالى وألوهيَّتِهِ كقولِهِ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣] وقولِهِ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ في خِلقَةِ كلِّ أحدٍ الشهادةُ للهِ بالوَحدانيَّةِ لهُ والألوهيَّةِ.

﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ فمنهُمْ مَنْ كانَ على تلكَ الفِطْرَةِ، ومنهمْ مَنْ كَذَّبَ، واختارَ الكُفْرَ، وهو ما رُوِيَ: «كُلُّ مولودٍ يولَدُ على الفِطْرَةِ إلّا أنَّ أبَوَيهِ يُهَوِّدانِهِ، ويُنَصِّرانِهِ» [البخاري١٣٨٥] أخبَرَ أنهمْ على الفِطْرَةِ لو تُرِكوا على ذلكَ، [لكنَّ](١٠) أبَوَيهِ يَمْنَعانِهِ عنِ الكونِ عليها.

وقيلَ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي كانَ الخلائقُ جُمْلَةً أُمَمٍ كقولِهِ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] كأنهُ يُعاتِبُ هذهِ الأمَّةَ؛ يَقولُ: إنَّ الأُمَمَ مع اختِلافِ جواهِرِها وأجناسِها كانوا

---

(١) من م، في الأصل: تقليد. (٢) في الأصل و م: تركوا. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: طعموا، في م: طمعوا. (٦) في الأصل وم: ويكونوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل و م. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

خاضِعينَ للهِ مُخْلِصينَ لهُ، فأنتُمْ أيُّها الناسُ أمَّةٌ مِنْ تِلْكَ الأممِ، فكيفَ اختلَفْتُمْ، وأشرَكْتُمْ غيرَهُ في الوهيّتِهِ وربوبيّتِهِ مع ما رَكَّبَ فيكُمْ مِنَ العقلِ[١] والتَّمْييزِ بَيْنَ ما هو حِكْمَةٌ، وما هو سَفَهٌ، وفَضَّلَكُمْ على غيرِها مِنَ الأممِ في خَلْقِ ما خَلَقَ في السمواتِ وفي[٢] الأرضِ لكُمْ، وسَخَّرَ لكُمْ ذلكَ كُلَّهُ ما لم يَفْعَلْ ذلكَ بِغَيرِها مِنَ الأُمَمِ؟

ومنهُمْ مَنْ قالَ مِنْ أهلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ زَمَنَ نوحٍ، ومَنْ دخلَ معهُ في السفينةِ كانوا على دينٍ واحدٍ، فاختلَفوا بَعْدَ ما خرَجوا، ومنهُمْ مَنْ قالَ [كانوا زَمَنَ][٣] آدمَ، فاختلَفَ أولادُهُ، ومنهمْ مَنْ قالَ: [كانوا زَمَنَ][٤] إبراهيمَ. لكنّا نَشْهَدُ كيفَ كانَ الأمرُ، فلا نَعْلَمُ إلّا بِخَبَرٍ مِنَ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحدُهما][٥]: قيلَ: لولا أنَّ مِنْ حِكَمِهِ ألّا يُعَذِّبَ هذه الأمّةَ عندَ تكذيبِهِمُ الآياتِ [إذا سألوها][٦] ولكنْ أخَّرَ تَعْذيبَ هذه الأمّةِ إلى يومِ القيامةِ.

والثاني: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ ألّا يَسْتأصِلَ هذِهِ الأُمَّةَ عندَ تكذيبِ الرسلِ والعِنادِ لهمْ.

أحَدُ التأويلَينِ في تركِ استِئصالِهِمْ، والآخَرُ في تأخيرِ العذابِ إلى وقتٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بِبيانٍ يَضْطرُّهُمْ إلى القَبولِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ جوابُهُ، واللهُ أعلمُ، ما ذَكَرَ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ ألّا يُعَذِّبَ هذهِ الأمّةَ بتكذيبِ الآياتِ عندَ السؤالِ./ ٢٢٨ ـ أ/

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي إنكم تَعْلَمونَ أنَّ عِلْمَ الغيبِ للهِ، وقد أنْزَلَ مِنَ الآياتِ ما يُبيِّنُ، ويَدُلُّ على رسالتي.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ قيلَ: انتَظِروا هَلاكي إني مُنْتَظِرٌ هَلاكَكُمْ؛ لأنهمْ كانوا يُوعِدونَهُ الهلاكَ. وقيلَ: انتَظِروا مَواعيدَ الشيطانِ إني مُنْتَظِرٌ مواعيدَ[٧] اللهِ، وهو حرفُ وَعيدٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ ﴿أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ يعني أهلَ مكةَ إذا أصابَهُمْ سَعَةٌ وفَرَحٌ ونَجاةٌ مِمّا يَخافونَ عادوا إلى ما كانوا مِنَ التكذيبِ وعِبادةِ الأصنامِ. ولكنَّ أهلَ مكةَ وغيرَهُمْ كانوا[٨] إذا أيِسوا مِمّا يَعْبُدونَ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ فَزِعوا إلى اللهِ، يُخْلِصونَ[٩] لهُ الدينَ كقولِهِ: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآيةَ [العنكبوت: ٦٥] وقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ الآيةَ [يونس: ١٢] وقولِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ الآيةَ [الروم: ٣٣] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ مِمّا يَكْثُرُ عددُها، كانَتْ عادَتُهُمُ الفَزَعَ إلى اللهِ عندَ إصابتِهِمُ الشدائدَ والبلايا لِعِلْمِهِمْ أنَّ الأصنامَ التي كانوا يَعْبُدونَها لا تَدْفَعُ عنهمْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ المَكْرُ في الآياتِ تكذيبُها وردُّها. فَيُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيةُ ههنا [في محمدٍ كما كانَ][١٠] مِنْ أوّلِ أمْرِهِ إلى آخِرِهِ آيةً، فَمَكَروا بِهِ لمّا هَمّوا بِقَتْلِهِ غيرَ مَرّةٍ بقولِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآيةَ [الأنفال: ٣٠]

ويَحْتَمِلُ سائرَ الآياتِ والحُجَجِ؛ مَكَروا فيها، أي كذَّبوها، وردُّوها ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ المكرُ الأخذُ مِنْ غيرِ أنْ يَعْلَمَ هو بِهِ. يقولُ: ﴿ٱللَّهُ أَسْرَعُ﴾ أخذاً، يأخُذُكُمْ[١١]، وأنتمْ لا تَعْلَمونَ بِهِ، ولا تَقْدِرونَ أنْ تأخُذوا رسولَ اللهِ، وتَمْكُروا بِهِ إلّا وهو يَعْلَمُ بذلكَ، وهو أسْرَعُ أخذاً منكُمْ ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ فَهُمُ الحَفَظَةُ.

---

(١) في الأصل وم: القول. (٢) في الأصل وم: وما في. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) من م، في الأصل: عند السؤال. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٨) في الأصل و م: أنهم. (٩) في الأصل و م: ويخلصون. (١٠) في الأصل و م: محمداً كما هو. (١١) من م: في الأصل: يأخذهم.

جنة السنة

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي أسرَعُ [جزاءً ومكراً][(١)] منكُمْ وأسرَعُ أخذاً مِن حيثُ لا تعلَمونَ أنتم. وقالَ بعضُ أهلِ اللغةِ: المَكْرُ بالآياتِ هو الرَّدُّ والجحودُ لها، وقالَ بعضُهُمْ: استِهزاءٌ بها، فهو واحدٌ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ اختُلِفَ فيهِ؛ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ أي هو الذي سَخَّرَ لكُمْ ما به[(٢)] تَسيرونَ في البرِّ والبحرِ، وهو الدَّوابُّ والسُّفُنُ التي تُقطَعُ بها البَراري والبحارُ، وهو كقولِهِ ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣].

وقيلَ: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [أي سَخَّرَ لكُمُ البَرَّ والبَحرَ، وهما][(٣)] مكانُ الخَوفِ والهلاكِ؛ أي حَفِظَكُمْ [فيهما حتى تقضُوا][(٤)] فيهما حوائجَكُمْ، وليسَ في وُسعِ الخَلقِ حِفظُ البَراري والبِحارِ عمّا فيهما مِنَ الأهوالِ، فتَوَلّى اللهُ تعالى بِفَضْلِهِ حِفظَ السائرينَ [فيهما حتى يَقضُوا][(٥)] فيهما حوائجَهُمْ، وهو كقولِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ [مِنْ][(٦)] أنواعِ المَنافعِ.

فلولا أنَّ اللهَ سَخَّرَ لهمْ ذلكَ، وحَفِظَهُمْ فيهِ، وإلّا لم يكنْ في وُسْعِهِمْ[(٧)] القيامُ بذلكَ وحِفْظُ أنفُسِهِمْ فيهِ مِنَ الأهوالِ التي فيهِ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ ومِنَنَهُ التي أنعَمَها لِيُوَجِّهوا شُكْرَ نِعَمِهِ إليهِ.

ثم قولُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يَحتَمِلُ: يَخلُقُ، ويُنْشِئُ سَيْرَكُمْ في البَرِّ والبَحرِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ﴾ الآية [سبأ: ١٨] والتقديرُ هو التخليقُ، والمُقَدَّرُ المَخلوقُ.

ففيهِ دلالةُ خَلْقِ أفعالِ الخَلْقِ لأنَّ السَّيْرَ هو فِعْلُ الخَلْقِ، أضافَهُ إلى نَفْسِهِ، دلَّ أنهُ مُنْشِئُ فعلِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويُشْبِهُ أن يكونَ قولُهُ: ﴿يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ لم يُرِدْ بهِ البَرَّ والبَحرَ نَفْسَيهِما[(٨)]، ولكنهُ أرادَ تذكيرَ نِعَمِهِ عليهِمْ في كلِّ حالٍ وكلِّ وقتٍ لِيَشكُروا لهُ في كلِّ حالٍ، وهو كقولِهِ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١] لم يردْ بهِ البَرَّ والبَحرَ نَفْسَيهِما[(٩)]، ولكنْ أرادَ المكانَ الذي فيهِ المِياهُ والمكانَ الذي لا مِياهَ فيهِ، أي ظَهَرَ الفسادُ في الأماكِنِ كلِّها. فعَلى ذلكَ الأوَّلُ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ التي أنعَمَها عليهِمْ في الأماكِنِ كُلِّها والأحوالِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي تجري بِهِمُ السفُنُ بريحٍ طَيِّبَةٍ؛ يُخبِرُ أنَّ السُّفُنَ لَيسَتْ تَجري في البحارِ بِجَرَيانِ الماءِ لأنها ماءَها راكِدٌ في الظاهِرِ، لكنَّ الريحَ هي التي تُجريها، وتُسَيِّرُها، وكذلكَ الأمواجُ التي تكونُ فيها لَيسَتْ لِشِدَّةِ جَرَيانِ الماءِ، ولكنَّ الريحَ هي التي تَهيجُ [الأمواجَ، وتزعِجُها لا نَفْسَ الماءِ ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ قيلَ: ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ وسُرُّوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ﴾][(١٠)] أخبَرَ أنَّ الريحَ [مِنها ما][(١١)] هي طَيِّبَةٌ تجري[(١٢)] بها السفُنُ، ومنها ما هي عاصِفةٌ قاصِفةٌ، تكسِرُ، وتُغرِقُ السفُنَ، وتُهلِكُ أهلَها، لِيُعلِمَ أنَّ الأشياءَ تَصلُحُ مَرَّةً، وتَفسُدُ أُخرى لا لأنفسِها، ولكنْ لِحِفظِ الحدودِ فيها، وكذلكَ الماءُ مَرَّةً يَصلُحُ، ومَرَّةً يَفسُدُ؛ وذلكَ إذا حُفِظَ في الحَدِّ صَلَحَ[(١٣)]، وإنْ لم يُحفَظْ فَسَدَ[(١٤)]، وإلّا لا يَحتَمِلُ الشيءُ الواحدُ لِنَفسِهِ [أنْ][(١٥)] يَصلُحَ مَرَّةً، ويَفسُدَ تارةً ولكنْ لِحِفظِ الحدودِ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ قيلَ: أيقَنوا أنهمْ مُهلَكونَ، ولكنَّ الإيقانَ بالشَّيءِ الذي يُصيبُ بهِ في حادثِ الأوقاتِ إنما يكونُ بالخَبَرِ لأنهُ لا ندري لَعَلَّ اللهَ يَصرِفُ ذلكَ عنهُمْ، فلا يَقَعُ الإيقانُ، ولكنْ جَعَلَ غالبَ الظَّنِّ فيهِ في كثيرٍ مِنَ الأشياءِ كالإيقانِ بهِ.

---

(١) في الأصل و م: الجزاء والمكر. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل: وهو، في م: أي سخر لكم البر والبحر وهو. (٤) في الأصل وم: فيها حتى قضيتم. (٥) في الأصل وم: تقضوا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وسعه. (٨) في الأصل وم: نفسه. (٩) في الأصل وم: أنفسهما. (١٠) ساقطة من م. (١١) في الأصل وم: إما. (١٢) أدرج قبلها في الأصل م: هي. (١٣) في الأصل وم: أصلح. (١٤) في الأصل وم: أفسده. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ألا ترى أنّ الله أباحَ المَيتةَ في حالِ الضّرورةِ لِغالِبِ الظّنّ؛ إذ قد يَجوزُ ألّا يُهلِكَ بذلك؟

وكذا ما أُبيحَ لِلْمُكْرَهِ بالقتلِ أن يُجْرِيَ كلمةَ الكُفرِ على لسانِهِ لِغالبِ الظّنّ؟ وإلّا ليسَ يَعلَمُ بالإحاطةِ أنهُ يَقتُلُهُ لا محالةَ. لكنْ جَعَلَ لِغالبِ الظّنّ في بعضِ المَواضعِ حُكْمَ اليَقينِ والإحاطةِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُم: أيقَنوا أنهمْ أُحيطَ بهِمْ لِغالبِ الظّنّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ إنهمْ لمّا أيِسوا مِنَ الأصنامِ التي عَبَدوها في دَفْعِ ما حَلَّ بهِمْ عنهمْ فَزِعوا إلى اللهِ، وأخلَصوا الدعاءَ لهُ، وقالوا: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

الآية ٢٣ ثم أخبَرَ عن سَفَهِهِمْ بَعَودِهِمْ إلى ما كانوا [عليهِ][1] مِن قَبلُ: ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهكذا كانَتْ عادَتُهُمْ؛ كانوا يَفزَعونَ إلى اللهِ عندَ خوفِ الهلاكِ والإياسِ[2] مِنَ آلهتِهِمُ التي عَبَدوها، ويُخلِصونَ الدعاءَ. فإذا كَشَفَ ذلكَ الكَرْبَ عنهمْ، ودَفَعَ، عادوا إلى ما كانوا [عليهِ][3] مِن قَبلُ. والبَغْيُ في الأرضِ هو الفَسادُ فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ أي [بَغْيُ][4] بَعضِكُمْ على بَعضٍ. ويَحتَمِلُ ﴿عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ أي حاصلُ بَغيِكُمْ يَرجِعُ على أنفُسِكُمْ. والبَغْيُ هو الظلمُ.

فإنْ كانَ التأويلُ في قولِهِ ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ حاصلَ[5] بَغيِكُمْ يَرجِعُ إلى أنفُسِكُمْ في العاقبةِ فيكونُ الوَعيدُ لهمْ في ذلكَ بعينِهِ. وإنْ كانَ التأويلُ [بَغيَ][6] بَعضِكُمْ على بعضٍ فيكونُ الوَعيدُ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هذا قد ذَكَرْنا، وهو حَرْفُ وَعيدٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ الآيةَ: في ضَرْبِ مَثَلِ الحياةِ الدنيا بالزَّرعِ الذي ذَكَرَ بوجوهٍ: قالَ بَعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في سُرعَةِ فَنائِها وانقِطاعِها وَوَجْهِ زوالِها مَثَلُ ذلكَ الزَّرعِ الذي ذَكَرَ في سُرعَةِ هَلاكِهِ وانقِطاعِهِ وزَوالِهِ عن صاحبِهِ أو أن يُقالُ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في ما يُسِرُّ، ويَبهجُ، مَثَلُ صاحبِ/٢٢٨ - ب/ الزرعِ الذي ذُكِرَ في ما سُرَّ بهِ، وابتَهَجَ، ثم كانَ ما ذَكَرَ ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾.

وقالَ بَعضُهُمْ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مَثَلُ الحياةِ الدنيا في ما يُنفِقونَ فيها مَثَلُ صاحبِ الزرعِ الذي ذَكَرَ، يُنفِقُ عليهِ لِما يَأمُلُ مِنَ المنافعِ، ويَطمَعُ منهُ، ثم كانَ. ولو عَلِمَ في الابتِداءِ أنّ أمْرَ [زرعِهِ يُؤولُ][7]، ويَصيرُ إلى ما صارَ لَكانَ لا يُنفِقُ. فَعَلَى ذلكَ صاحِبُ الحياةِ الدنيا لو عَلِمَ أنّ عاقبةَ أمرِ نَفَقَتِهِ تَصيرُ حَسْرَةً عليهِ وندامةً ما أنفَقَ كما أنّ صاحبَ الزرعِ الذي ذَكَرَ لو عَلِمَ أنّ عاقِبَتَهُ كما كانَ ما أنفَقَ عليهِ، أو [لو][8] عَلِمَ أنهُ لا يَنتَفِعُ بهِ ما أنفَقَ تلكَ النَّفَقَةَ؛ أي لو عَلِمَ أنّ سُرورَهُ وابتِهاجَهُ بهِ لا يَبقَى، ولا يَدومُ إلى آخِرَتِهِ[9] ما تَكَلَّفَ ذلكَ، أو لو عَلِمَ أنها تزولُ عنهُ، وتَنقَطِعُ في تلكَ السرعةِ ما أنفَقَ ذلكَ وما تَكَلَّفَ. ويَحتَمِلُ ضَرْبُ مَثَلِ الحياةِ الدنيا بما ذَكَرَ مِنَ النباتِ وجهَينِ:

أحدُهُما: [أنهُ يُعَبِّرُ][10] عن سُرعَةِ زوالِها وانقِطاعِها بالنباتِ[11].

[والثاني: أنها][12] تَتَغَيَّرُ في أدنى مُدَّةٍ وَوَقتٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ وحَسُنَتْ، فأنبَتَتْ مِنَ ألوانِ النباتِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ ﴿زُخْرُفَهَا﴾ زِينَتَها مِنَ النَّبْتِ، و ﴿حَصِيدًا﴾ أي مَحصوداً كما يَحصُدُ الحَصّادُ الزَّرعَ ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ أي لم تَعِشْ، والمَغاني هي[13] المَواضِعُ التي يَعيشُ فيها الناسُ. قالَ: وواحدُ المَغاني المَغْنَى.

وقالَ القُتَبِيُّ: وأصلُ الزُّخرُفِ الذَّهَبُ، يُقالُ لِلنَّقشِ والذَّهَبَةِ، وكلُّ شَيءٍ زُيِّنَ زُخرُفٌ. وقالَ: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ والمَغاني المَنازِلُ، واحِدُها مَغْنَىً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: والأيس. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج قبلها من الأصل وم: أي. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: زرعه يول، في م: زرع يومل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: آخره. (١٠) في الأصل وم: ان يغير. (١١) في الأصل وم: كالبنات. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: هو.

جنة السنة

وقالَ بعضُهُم: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي لم تَنْعَمْ، وقيلَ: لم تَعْمَرْ[(١)]، وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنَ الغِنَى؛ أي لم تكنْ غَنِيًا بالأمسِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي ظَنَّ أهلُ الدنيا في ما يُنْفِقونَ أنهمْ قادِرونَ على تلكَ النَّفَقَةِ كما [ظَنَّ][(٢)] صاحِبُ الزرعِ أنهُ قادرٌ على ذلكَ الزرعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ قيلَ: عذابُنا: سَمَّاهُ[(٣)] أمراً لأنهُ بأمرِهِ [أتاها، وقيلَ][(٤)]: إنهُ لم يأتِهِ عن غَفْلَةٍ وسَهْوٍ، ولكنْ عن عِلْمٍ وأمْرٍ عِظَةٍ لهم وتنبيهاً. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؟ كأنَّ الآياتِ في هذا المَوضعِ المَواعِظُ أي في ما ذَكَرَ مِنْ ضَرْبِ مَثَلِ الحياةِ الدنيا بالنباتِ والزرعِ الذي ذَكَرَ عِظَةٌ وتنبيهٌ لِمَنْ تَفَكَّرَ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قيلَ: الجنةُ هي[(٥)] السَّلامُ، اللهُ أضافَها إلى نَفْسِهِ كقولِهِ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] فأضافَ الجنةَ إلى السَّلامِ، إنْ كانَتْ دارُ السَّلامِ هي الجنةُ؛ فهو، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ المساجدَ هي أمْكِنَةٌ تُقامُ فيها القُرَبُ، والجنةُ هي مكانُ اللَّذةِ وقَضاءِ الشَّهْوَةِ، أضافَها[(٦)] إلى السَّلامِ لِما يَسْلَمُ أهلُها مِنْ جميعِ الآفاتِ. والمساجِدُ خُصَّتْ بالإضافةِ إلى اللهِ لأنها أمكنَةٌ تُقامُ فيها القُرَبُ.

وقالَ بعضُهُمْ: دارُ السَّلامِ الإسلامُ. ثم يَحْتَمِلُ كلُّ واحدٍ مِنَ التأويلَينِ [وُجوهاً]:

أحَدُهما[(٧)]: بما سَمَّى الإسلامَ دارَ السَّلامِ [سَمَّى الجنةَ][(٨)] دارَ السَّلامِ لأنهُ يأْمَنُ، ويَسْلَمُ كلُّ مَنْ دخَلَ فيهِ [أمِنَ][(٩)] مِنْ جميعِ الأهوالِ والآفاتِ التي تكونُ.

والثاني: [بما][(١٠)] سَمَّى الإسلامَ دارَ السَّلامِ أضافَهُ[(١١)] إلى نفسِهِ كقولِهِ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ الآية [الزمر: ٢٢] أخْبَرَ أنهُ ﴿عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] فَعَلَى ذلكَ إضافةُ الإسلامِ لأنَّ كلَّ مَنْ دَخَلَ الجنةَ سَلِمَ، وأمِنَ مِنَ الأهوالِ كلِّها والآفاتِ جميعاً.

والثالثُ[(١٢)]: دارُ الجنةِ والسَّلامِ [للهِ؛ أضافَها][(١٣)] إليهِ لأنها دارُ أوليائِهِ، وقد تُضافُ إلى اللهِ على إرادةِ أوليائِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ورُوِيَ في بَعْضِ الأخبارِ عن أبي قِلابَةَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «قيلَ لي لِتَنَمْ عَينُكَ وليَعْقِلْ قَلْبُكَ، ولْتَسمَعْ أُذُنُكَ، فنامَتْ عيني، وعَقَلَ قلبي، وسَمِعَتْ أُذُني، ثم قيلَ لي: سَيِّدٌ بَنَى داراً، وجَعَلَ مائدةً، وأرسَلَ داعياً، فَمَنْ أجابَ الداعِيَ دَخَلَ الدارَ، وأكَلَ مِنَ المائدةِ، ورَضِيَ عنهُ السَّيِّدُ، ومَنْ لم يُجِبْ لم يدخُلِ الدارَ، ولم يأكُلْ مِنَ المائدةِ، ولم يَرْضَ عنهُ السَّيِّدُ» [الدارمي ١١] فاللهُ السَّيِّدُ، والدارُ الإسلامُ، والمائدةُ الجنةُ، والداعي محمدٌ ﷺ.

إنْ ثَبَتَ هذا الخبرُ ففيهِ أنَّ الدارَ الإسلامُ على ماقالَهُ بَعْضُ أهلِ التأويلِ في خَبَرٍ آخَرَ عنْ جابرِ بْنِ عبد اللهِ: قالَ «خَرَج علينا رسولُ اللهِ ﷺ يوماً، فقالَ: رأيتُ في المنامِ كأنَّ جبريلَ عندَ رأسي وميكائيلَ عندَ رجلَيَّ، قالَ أحدُهُما لِصاحِبِهِ: اضْرِبْ لهُ مثلاً، فقالَ: اسْمَعْ سَمِعَتْ أُذُنُكَ، واعْقِلْ عَقَلَ قلبُكَ؛ إنما مَثَلُكَ ومَثَلُ أُمَّتِكَ كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ داراً، ثم بَنَى فيها بُنْياناً، فأتَمَّهُ، ثم جَعَلَ فيها مائدةً، ثم بَعَثَ رسولاً يَدْعُو الناسَ إلى طعامِهِ، فمنهُمْ مَنْ أجابَ الرسولَ، ومنهُمْ مَنْ تَرَكَهُ. فاللهُ المَلِكُ، والدارُ الإسلامُ، والبيتُ الجنةُ، وأنتَ يا محمدُ الرسولُ مَنْ أجابَكَ دَخَلَ الإسلامَ، ومَنْ دَخَلَ الإسلامَ دَخَلَ الجنةَ، ومَنْ دَخَلَ الجنةَ أكلَ ما فيها» [الترمذي: ٢٨٦٠] يدلُّ أيضاً إنْ ثَبَتَ أنَّ الدارَ التي ذَكَرَ في الآيةِ هو الإسلامُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل: تعم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: سمى. (٤) في الأصل وم: أتاه و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: فأضافها. (٧) في الأصل وم: وجهين. (٨) في الأصل وم: والجنة كذلك سمى الإسلام. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: والثاني. (١٣) في الأصل وم: الله أضاف.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ الآية ذَكَرَ الاسْتِثْناءَ في الهدايةِ، ولم يَذْكُرْ في الدعاءِ لِيُعْلِمَ أنْ لا كلَّ مَنْ يَدْعو إلى دارِ السَّلامِ يَهديهِ، وإنما يَهْدي[1] مَنْ يَعْلَمُ منهُ أنهُ يختارُ الهُدَى. وذلكَ على القَدَرِيَّةِ.

ثم الهُدى على وُجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: الدعاءُ كقولِهِ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] والثاني: هو البَيانُ كقولِهِ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأعراف: ٥٢] يَعْني القرآنَ. والثالثُ: التوفيقُ والعِصْمَةُ؛ إذا وُفِّقَ اهْتَدَى، والهُدَى ههنا التوفيقُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ في الدنيا لهمُ الحُسْنَى في الآخِرَةِ جَزاءُ ذلكَ الإحسانِ، وهي الجنةُ، سَمَّى الجنةَ الحُسْنَى لأنها جَزاءُ الإحسانِ كما سَمَّى النارَ السُّوأى كقولِهِ: ﴿أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: ١٠] لأنها جزاءُ السُّوءِ كقولِهِ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ قيلَ: المحبةُ في قلوبِ العِبادِ، يُحِبُّهُ كلُّ مُحْسِنٍ، وهَيبَةٌ لهُ في قلوبِ الناسِ؛ يَهابُهُ كلُّ أحدٍ على غَيرِ سلطانٍ لهُ.

وقالَ قائلونَ: قولُهُ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أي مِثْلُ تلكَ الحَسَنَةِ ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ أي مِثْلُ تلكَ الحَسَنَةِ ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ التضعيفُ حتى تكونَ عَشراً، أو سَبْعَ مِئَةٍ، وما شاءَ اللهُ. يدلُّ على ذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس: ٢٧].

وقالَ قائلونَ: قولُهُ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الرُّؤيَةُ: رُؤيَةُ الرَّبِّ والنَّظَرُ كقولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢و٢٣]

وقالَ قائلون: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ قَبولُ حَسَناتِهِ مَعَ ما فيها مِنَ الخَلْطِ بالسَّيِّئاتِ يَقْبَلُ حَسَناتِهِ بِفَضْلِهِ، وإنْ كانَتْ تَشوبُها السَّيِّئاتُ، ورِضاهُ منهُ؛ وذلكَ طريقةُ الفَضْلِ والإحسانِ، إذْ قد سُبِقَ مِنَ النِّعَمِ ما لا يَقْدِرُ القِيامَ على وفاءِ نِعْمَةٍ منها طُولَ عُمُرِهِ.

وعن عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ﷺ [أنهُ][3] قالَ: الزيادةُ غرفةٌ مِنْ لؤلؤةٍ واحِدَةٍ، لها أربعةُ أبوابٍ. فلا نَدري ما الزيادةُ التي ذَكَرَها ﷻ في الآيةِ إلّا بالخَبَرِ عنِ اللهِ.

وقالَ قائلونَ: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ما تَقْدِرُ العقولُ، وتُدْرِكُها، وتَصَوَّرُها. وأمّا الزيادةُ فهيَ التي لا تَقْدِرُها العقولُ، ولا تُدْرِكُها، ولا تَصَوَّرُها الأوهامُ كقولِهِ ﷺ «ما لا عَينٌ، رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ» [مسلم٢٨٢٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ قيلَ: لا يَغْشى وجوهَهُمُ النارُ والوَهَجُ على ما وَصَفَ وُجوهَ أهلِ النارِ، وهو قولُهُ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠و٤١].

ولكنْ على ما وَصَفَ وُجوهَ أهلِ الجنةِ بقولِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ/ ٢٢٩ ـ أ/ مُّسْفِرَةٌ﴾ ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨و٣٩] وتلكَ، واللهُ أعلَمُ آثارُ إحسانِهِمُ التي أحْسَنوا في الدنيا، ولما لم يَرَوُا النِّعَمَ التي كانَتْ لَهُمْ مِنْ سِواهُ، ولم يَصْرِفوا شُكْرَها إلى غَيرِهِ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

والغَبَرَةُ والقَتَرَةُ التي ذَكَرَ لأهلِ النارِ هي آثارُ السَّيِّئاتِ التي عَمِلوها في الدنيا مِنْ عِبادَتِهِمْ دونَ اللهِ وصَرْفِهِمْ شُكْرَ النِّعَمِ إلى غيرِهِ؛ نَحْوُ ذلكَ مِنْ صَنيعِهِمُ الذي صَنَعوا في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ جزاءُ سَيِّئَةٍ ممّا تُوجِبُ الحِكْمَةُ أنْ يُجْزَى بِمِثْلِها. وأمّا جزاءُ الإحسانِ والخيرِ فطريقُ[4] وجوبِهِ [الإفضالُ والإحسانُ، ليسَ طريقُ وُجوبِهِ][5] الحكمةَ؛ إذْ سَبَقَ مِنَ اللهِ إلى كلِّ أحدٍ مِنَ النِّعَمِ ما ليسَ في وُسْعِهِ القِيامُ بِمُكافأةِ واحدةٍ منها عُمُرَهُ، وإنْ طالَ، واجْتَهَدَ كلَّ جَهْدِهِ فَضْلاً أنْ يَسْتَوجِبَ قِبَلَهُ جَزاءَ ما كانَ منهُ مِنَ الخيراتِ.

---

(١) في الأصل و م: يهديه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) الفاء ساقطة من الأصل و م. (٥) ساقطة من م.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ هو ما ذَكَرَ مِنْ آثارِ السَّيِّئاتِ التي عَمِلوها[1] في الدنيا ذُلّاً وهَواناً لهم ﴿مَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ وذلكَ أنهمْ، واللهُ أعلَمُ، كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ رَجاءَ أنْ يكونوا لهمْ شُفعاءَ، فأخبَرَ أنْ ليسَ لهمْ مِنْ عذابِ [اللهِ][2] مانِعٌ يَمْنَعُ ذلكَ عنهُمْ كقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١٨]

وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قيلَ: أُلبِسَتْ، وأُغْطِيَتْ، قِطَعاً مُثَقَّلاً[3] ومُخَفَّفاً قِطْعاً؛ قيلَ: القِطَعُ بالتثقيلِ هو جَمْعُ القِطْعَةِ، والقِطْعُ بالتخفيفِ جُزْءٌ مِنَ الليلِ. يُقالُ: سِرْنا بِقِطْعٍ مِنَ الليلِ أي بِجُزْءٍ مِنَ الليلِ، وقولُهُ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ٨١] أي بِجُزْءٍ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم شبَّهَ وجوهَهُمْ بِظُلْمَةِ الليلِ، ولم يُشَبِّهْ بسوادِ الوُجوهِ على ما يكونُ مِنْ سَوادِ الوُجوهِ في الدنيا، فذلكَ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ سوادَ الوجوهِ على ما يكونُ في الدنيا لا يَبْلُغُ مِنَ القُبْحِ غايَتَهُ؛ إذْ قد يَرْغَبُ مَنْ كانَ جِنْسُهُ ونوعُهُ في ذلكَ، ويَحْسُنُ ذلكَ عندَهُ. فإذا كانَتِ الرغبةُ قد تَقَعُ لِبَعْضِهِمْ في بَعْضٍ لم يَبْلُغْ في القُبْحِ غايَتَهُ. وأمّا ظلمةُ الليلِ فإنَّ الطباعَ تَنْفِرُ عنها، ولا تَقَعُ الرغبةُ بحالٍ. لذلكَ شَبَّهَ وجوهَ أهلِ النارِ بها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: يَعني العابدَ [والمَعبودِينَ الذينَ][5] عَبَدوا دونَهُ. ولكنْ يَحشُرُ الخلائقَ جميعاً ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾. وقولُهُ ﷻ ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ هذا الحَرْفُ هو حَرْفُ وعيدٍ. يُقالُ: مكانَكَ أنتَ كذلكَ، وإنْ كانَ هذا الحَرْفُ يَجوزُ أنْ يُستَعْمَلَ في الكراماتِ وبِرِّ بَعْضِهِمْ. ولكنْ إنما يُعرَفُ ذا بالمُقَدِّماتِ. فما تَقَدَّمَ ههنا يدلُّ أنهُ لم يُرِدْ بِهِ الكرامةَ، ولكنْ أرادَ به الوَعيدَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ قيلَ: فَرَّقْنا بينَهُمْ أي بينَ العابِدِ والمعبودِ. ثم يَحْتَمِلُ التَّفْريقُ بينَهُمْ وُجوهاً:

أحدُها: فَرَّقْنا بينَهُمْ في الحِسابِ مِمّا عَمِلَ ومِمّا صَحِبَ.

والثاني: يَحْتَمِلُ فَرَّقْنا بينَهُمْ لمّا طَمِعوا بعبادتِهِمْ إياها الشفاعةَ أنْ يَكونوا لهمْ شُفَعاءَ عندَ اللهِ، فَفَرَّقَ بينَهُمْ في الشفاعةِ.

والثالثُ[6]: يَحْتَمِلُ فَرَّقْنا بينَهُمْ في ما ضَلَّ عنهمْ ما كانوا يَفْتَرونَ، فصارَ ما عَبَدوا تراباً، وهُمْ في النارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ [يحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما:][7] سَمّاهُمْ شُرَكاءَ، وإنْ لم يكونوا شُرَكاءَ في الحقيقةِ لِما عندَهُمْ أنهمْ شُرَكاءُ كما سَمّى الأصنامَ آلِهَةً لِما عندَهُمْ أنهُمْ آلِهَةٌ.

والثاني: ﴿شُرَكَآؤُهُم﴾ لِما أشرَكوها في العبادةِ، فهمْ شركاؤُهُمْ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ يُنطِقُ اللهُ ﷻ هذهِ الأصنامَ يومَ القيامةِ، وإنْ لم يكُنْ في خَلْقِها النُّطقُ في الدنيا كقولِهِ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] وقولِهِ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ الآية [النور: ٢٤] أنطَقَهُمْ لِيَشْهَدوا عليهِمْ ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾

ويَحْتَمِلُ[9] الملائكةَ أنْ يكونوا عليهِمْ شهداءَ[10] لأنَّ فيهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الملائكةَ؛ أنكَروا أنْ يكونوا يَعْبُدونَهُمْ لأنَّ العِبادةَ لآخَرَ إنما تكونُ عبادةً إذا كانَ مِنَ المعبودِ أمرٌ بها.

وكانَتْ عبادتُهُمُ الأصنامَ عبادةً للشيطانِ لأنهُ هو الآمِرُ لهمْ بالعبادةِ للأصنامِ كقولِهِ ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤] ولا أحدَ يَقْصِدُ قَصْدَ عبادةِ الشيطانِ، لكنّهُ لمّا كانَ الآمرَ لهمْ بالعبادةِ للأصنامِ صارَ كأنهُمْ عَبَدوهُ، وإنْ لم يَقْصِدوهُ.

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ الإنكارِ مِنَ الأصنامِ.

---

(١) في الأصل و م: علموها. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) يقصد محركاً، انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٧١. (٤) ساقطة من الأصل و م. (٥) في الأصل: المعبود الذي، في م: والمعبود الذين. (٦) في الأصل و م: و. (٧) ساقطة من الأصل و م. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: الذين أنكروا.

جنة السنة

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي كَفَى اللهُ القاضيَ والحاكمَ بينَنا وبينَكُمْ، إنا لم نأمُرْكُمْ بعبادَتِنا، وهو العالمُ بأنّا ﴿كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ﴾ قيلَ: عندَ ذلكَ، وقيلَ: يومَئذٍ؛ أي يومَ القيامَةِ. وقولُهُ يَبْلُو بالياءِ، و ﴿تَبْلُوا۟﴾ بالتاءِ[١]؛ وقيلَ: تَقرَأُ في الصُّحُفِ ما كُتِبَ مِنْ أعمالِهِمْ، ﴿تَبْلُوا۟﴾ بالتاءِ مِنَ الابتِلاءِ؛ يُقالُ: بَلَوتُهُ، وابتَلَيْتُهُ واحدٌ، وخَبَرْتُهُ، واختَبَرْتُهُ أيضاً. وقيلَ: تَبْلُو تَجِدُ، وتَعْلَمُ كلُّ نفسٍ ما قدَّمَتْ مِنَ الأعمالِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ قيلَ: مَلِكُهُمُ الحقُّ لأنَّ غَيرَهُ مِنَ الآلهةِ التي عَبَدوها قد بَطَلَ عنهُمْ، وضلَّ في الآخِرَةِ. ويَحتَمِلُ ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي حَقَّ ما تَجِدُ كلُّ نفسٍ ما قَدَّمَتْ مِنْ أعمالِها، أو حَقَّ أنْ تَقرَأَ كلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ مِنَ العِبادةِ للأصنامِ وقولِ الكفرِ [وقولُهُ تعالى][٢]: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ يَحتَمِلُ الوجهَينِ:

أحدُهما[٣]: رُدُّوا إلى ما أعدَّ لهمْ مَولاهُمُ الحقُّ.

والثاني: رُدُّوا إلى أمرِ مولاهُمُ الحقِّ لا إلى أمرِ الأصنامِ التي كانوا يَعْبُدونَها.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ الآية يُحاجُهُمْ، يَعْني أهلَ مكَّةَ في التوحيدِ لأنها مَكِّيَّةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية أي مَنْ يدبِّرُ [الرِّزقَ في السماءِ، ومَنْ يُدبِّرُ الرِّزقَ][٤] في الأرضِ؟ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما[٥]: مَنْ نَزَّلَ لكُمُ الرزقَ مِنَ السماءِ، ومَنْ يَستَخرِجُ لكُمُ الرزقَ [مِنَ الأرضِ][٦]؟

والثاني: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مَنْ يُدَبِّرُ الرزقَ في السماءِ، ومَنْ يُدَبِّرُ الرزقَ في الأرضِ؟ لا أحَدَ يَمْلِكُ اسْتِنزالَ الرزقِ مِنَ السماءِ واستِخراجَ الرزقِ مِنَ الأرضِ. وكذلكَ لا أحدَ يَمْلِكُ تدبيرَهُ في السماءِ والأرضِ سِواهُ، ولا أحَدَ يَمْلِكُ إنشاءَ السَّمعِ والبَصَرِ، ولا[٧] أحَدَ يَمْلِكُ إخراجَ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ولا تَدبيرَ الأمرِ؛ يعرفونَ حقيقةَ ماهِيَّةِ السَّمْعِ والبَصَرِ، ولا [يَعْرِفونَ كَيْفِيَّتَها][٨]، فكيفَ يَمْلِكونَ إنشاءَ السمعِ والبَصَرِ ونَصْبَهُما؟ ولا يَمْلِكُ أحدٌ سِواهُ إصلاحَ ما ذَكَرَ إذا فَسَدَ ذلكَ. فأقَرُّوا أنهُ لا يَمْلِكُ أحدٌ سِوَى اللهِ ذلكَ، وهو قولُهُمْ: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ بوائِقَهُ ونِقمَتَهُ.

أو يقولُ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عبادةَ غيرِهِ دونَهُ وإشراكَ غيرِهِ في ألوهِيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ؟ أو يقولُ[٩]: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ صَرْفَ شكرِهِ إلى غَيرِهِ، وقد أقرَرْتُمْ أنهُ المُنْعِمُ عليكُمْ هذهِ [النِّعَمَ][١٠] لا مَنْ تَعْبُدونَ دونَهُ؟ أو يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إذا عَرَفْتُمْ ما ذَكَرَ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مُخالَفَتَهُ وعِصْيانَهُ؟

فإذا أقَرُّوا أنَّ الذي يَمْلِكُ تدبيرَ ما بَيْنَ السماءِ والأرضِ، وهو الذي يَستَحِقُّ العبادةَ والقيامَ بِشُكْرِهِ، فإذا ضَيَّعوا ذلكَ جَمَعَهُمْ عليهِ اسْمُ الضلالِ، فذلكَ قولُهُ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ أي ذلكُمُ الذي ذُكِرَ ربُّكُمْ بالحُجَجِ والبراهينِ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ [الذي][١١] هو حقٌّ بالحُجَجِ والبراهينِ ﴿إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ لأنَّ ما لا حُجَجَ لهُ، ولا بُرهانَ، فهو الضلالُ.

وقولُهُ تعالى ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عن عبادتِهِ إلى عبادةِ غيرِهِ؟ أو ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عن شُكرِ المُنعِمِ إلى شُكرِ غيرِ المُنعِمِ، أو يقولُ: فأنّى تَعْدِلونَ مَنْ لا يَمْلِكُ ما ذَكَرَ بِمَنْ يَمْلِكُ؟ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٧٢. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أعني. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أي. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يكتفيهما. (٩) في الأصل وم: يقولون. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ حقَّتْ وجبتْ، وقيلَ: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ ختموا بالفِسْقِ ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يَنْتَفِعونَ بإيمانِهِمْ بَعْدَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ؛ يَحْتَمِلُ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ حُجَجَ /٢٢٩ - ب/ رَبِّكَ، ويَحْتَمِلُ[1] براهينَهُ على الذينَ فَسَقُوا.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ البَعْثُ بَعْدَ الموتِ؛ أي لا أحدَ مِنْ شُرَكائِكُمُ الذينَ تَعْبُدونَ يَمْلِكُ بَدْءَ الخَلْقِ ولا بَعْثَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لا يَحْتَمِلُ البَعْثَ لأنهمْ كانوا لا يُقِرّونَ بالبَعْثِ، فلا يَحْتَمِلُ الاحتِجاجُ عليهِمْ بذلكَ.

ولكنَّ قولَهُ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ما سِوَى البَشَرِ لأنهمْ كانوا إنما يُنْكِرونَ إعادةَ البَشَرِ. فأمّا إعادةُ غيرِهِ مِنَ الأشياءِ [فلا يُنْكِرونَها][2] نَحْوُ إعادةِ الليلِ والنهارِ وإعادةِ الأنزالِ والنباتِ ونَحْوُ الأشياءِ التي يُشاهِدونَها؛ أي ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ مِثْلَهُ: الليلَ ليلاً مِثْلَهُ والنهارَ نهاراً مِثْلَهُ؛ وكذلكَ الخَلائِقُ تَفْنَى، ثم [يُعيدُها مِثْلَها][3] فإذا ثَبَتَ في غيرِ البَشَرِ ثَبَتَ في البَشَرِ.

ويَحْتَمِلُ الأمْرَينِ جميعاً عندَنا البَعْثَ وأشياءَ مثلَهُ لأنهُ تعليمٌ منهُ لهمْ. ألا تَرَى أنهُ قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟ قيلَ: تُكَذِّبونَ بتوحيدِ اللهِ، وقد عَرَفْتُمْ أنهُ هو بَدَأَ الخَلْقَ، ثم يُعيدُهُ، لا أحَدَ يَمْلِكُ ذلكَ.

ألا تَرَى أنهُ احتَجَّ عليهِمْ بما[4] يُلْزِمُهُمْ ذلكَ بقولِهِ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية؟ [البقرة: ٢٨]

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ يَدْعو إلى الحَقِّ. فإذا كانَ هؤلاءِ الأصنامُ التي تَعْبُدونَها لا يَمْلِكونَ الدعاءَ إلى شَيءٍ، ولا يَمْلِكونَ الضَّرَّ والنَّفْعَ، ومِنَ الخَلائقِ مَنْ لا يَمْلِكُ النَّفْعَ والضُّرَّ، ويَمْلِكُ الدعاءَ إلى خيرٍ أو إلى نَفْعٍ، فهؤلاءِ دونَ الخلائقِ جميعاً؛ إذْ لا يَمْلِكونَ نَفْعاً ولا ضَرّاً، فكيفَ يَمْلِكونَ [الدعاءَ إلى شيءٍ][5]؟ يُبَيِّنُ ﷺ سَفَهَهُمْ بعبادَتِهِمْ هؤلاءِ الأصنامَ لِيُعَلِّمَهُمْ أنهمْ لا يملِكونَ نفعاً ولا ضَرّاً.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي يُبَيِّنُ، ويُقيمُ الدلائلَ والبراهينَ على استِحقاقِ العبادةِ لهمْ؟ فإذا لم يَمْلِكوا الدعاءَ إلى العبادةِ لهمْ فكيفَ يَمْلِكونَ نَصْبَ الدلائلِ والحججِ على استِحقاقِ العبادةِ؟

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أخبرَ أنَّ اللهَ هو الذي يَهْدي لِلْحقِّ. ثم يَحْتَمِلُ الوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْنا: هو يَمْلِكُ الدعاءَ إلى الحقِّ، ويُقيمُ[7] الدلائلَ والحُجَجَ على ما دعا[8] إليهِ، وهو يَسْتَحِقُّ العبادةَ لهُ والربوبيَّةَ.

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ الذي يُبَيِّنُ البراهينَ والحُجَجَ ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾؟ أي لا يُبَيِّنُ، ولا يَدْعو ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ فإنْ قيلَ: ما مَعْنَى الاستِثناءِ، وهو[10]، وإنْ هُدِيَ لا يَهْتَدِ[11]؟ قيلَ: يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا صلةَ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] يُنْطِقُهُمُ اللهُ ﷻ يومَ القيامةِ، فَيَشْهَدونَ عليهِمْ أنهُمْ لم يأمُروهُمْ بالعبادةِ لهمْ، ولا دَعوهُمْ لإشراكِهِمْ في العبادةِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ لِما أنْ يَجْعَلَهُمُ اللهُ بحيثُ يَهْتَدونَ إذا هُدُوا، ويُجيبونَ إذا دُعُوا ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ بالجَوْرِ وصَرْفِ العبادةِ والشكرِ إلى مَنْ لا يَمْلِكُ ما ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ لا يَحْتَمِلُ الصَّنَمُ والوثَنُ الاهتِداءَ، وإنْ هُدِيَ، ولكنَّ المُرادَ منهُ الإنسانُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ إلا أنْ يُحْمَلَ الصَّنَمُ، ويُوضَعَ. فأمّا أنْ يَهْتَدِيَ هو بنفسِهِ فلا. لكنْ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا إذا صَيَّرَهُ بحيثُ يَتَكَلَّمُ ومِنْ جِنْسِ ما يَنْطِقُ، وأَذِنَ لهُ في النُّطْقِ، احتَمَلَ الإجابةَ والاهتِداءَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل و م: و. (٢) في الأصل وم: ينكرونه. (٣) في الأصل وم: يعيد مثله. (٤) الباء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الضر والنفع. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ويقيموا. (٨) في الأصل وم: دعاه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وهي. (١١) في الأصل و م: يهتدي.

جنة السنة

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا في الأئِمَّةِ والرُّؤساءِ منهُمْ حينَ[1] عَبَدوا الأصنامَ والأوثانَ، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونحوَ ذلكَ مِنَ القولِ؛ يقولُ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في عبادَتِهِم بأنهُمْ يكونونَ لهمْ شُفعاءَ عندَ اللهِ ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ ظَنُّوهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هذا في الأتباعِ والعَوامِّ، ليسَ في الأئِمَّةِ؛ وذلكَ[2] أنَّ الأئِمَّةَ قد عَرَفوا البراهينَ والحجَجَ التي قامَتْ عليهِمْ والآياتِ التي جاءَ بها رسولُ اللهِ ﷺ لكن ما قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠و...] ﴿وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣] وقالوا[3]: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ ونحوَ ذلكَ مِنَ الكلامِ؛ أرادوا أنْ يُلَبِّسوا على العَوامِّ، ويُشَبِّهوا عليهِمْ، فاتَّبَعَ العوامُّ[4] الأئمَّةَ في ما قالوا وأنهُ كذا، وصدَّقوهُمْ. يقولُ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ ظَنُّوا.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ يَعْني أهلَ مَكَّةَ أهلَ الأوائلِ والأسلافَ في عبادةِ الأصنامِ والأوثانِ ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ لأنهُمْ عَبَدوا الأصنامَ [وهُمْ][5] يقولونَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ الآيةَ [الزخرف: ٢٢و٢٣] وآباؤنا كذلكَ يفعَلونَ.

ثم أخبرَ أنَّ ﴿الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي الظَّنُّ لا يُدرَكُ بهِ الحقُّ باليَقينِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ هو حَرفُ وَعيدٍ لِيكونوا أبداً على حَذَرٍ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥] فيقولُ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ كقولِهِ ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ كفارَ قريشٍ قالوا: إنَّ محمداً افْتَرى هذا القرآنَ مِنْ عندِ نَفْسِهِ، وتَقَوَّلَهُ من نَفْسِهِ، فقالَ ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أنْ يُضافَ إلى غيرِهِ، أو يُختَلَقَ ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي يُصَدِّقُ هذا القرآنُ الكتبَ التي كانَتْ مِنْ قَبْلُ. ولو كانَ محمدٌ هو الذي افْتَراهُ، واخْتَلَقَهُ مِنْ عندِ نَفْسِهِ، لَكانَ خَرَجَ هو وسائرُ الكتبِ المتقدمَةِ مُخْتلِفَةً؛ إذْ لم يَعْرِفْ محمدٌ سائرَ الكتبِ المُتَقَدِّمَةِ؛ إذ كانَتْ بِغَيرِ لسانِهِ، ولم يكُنْ لهُ اختِلافٌ إلى مَنْ يَعْرِفُها لِيَتَعَلَّمَ. ثم خَرَجَ هو، أعني القرآنَ، مُصَدِّقاً ومُوافِقاً للكتُبِ. دلَّ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ جاءَ كقولِهِ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ الآيةَ [العنكبوت: ٤٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [يَخْرُجُ على وجهَينِ:

أحَدُهُما: ما كانَ هذا القرآنُ بالذي يَحْتَمِلُ الافْتِراءَ مِنْ دونِ اللهِ][6] لِخروجِهِ عنْ طَوقِ البَشَرِ وَوُسْعِهِمْ؛ فذلكَ بالذي يُحيلُ كونَهُ مُفترًى بِجَوهَرِهِ.

والثاني: لِما أُودِعَ فيهِ الحكمةَ والصدقَ يدلُّ على كونِهِ منْ عندِ اللهِ؛ إذْ كلامُ غيرِهِ يَحتَمِلُ السَّفَهَ والكذبَ، ويَحْتَمِلُ الاختِلاقَ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قيلَ: فيهِ بَيانُ الكُتُبِ التي نَزَلَتْ قَبْلَهُ وتمامُها[8]. إنَّ هذا، وإنْ كانَ في اللفظِ مُختلِفاً فهو في الحكمةِ والصدقِ مُبيِّنٌ مُوافِقٌ للأوَّلِ. وقيلَ: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ أي تفصيلَ ما كُتِبَ لهمُ، وما عليهِمْ. أو أنْ يُقالَ: إلى اللهِ تفصيلُ الكتابِ ليسَ إلى غيرِهِ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنهُ مِنْ عندِ ربِّ العالمينَ، أو يُقالُ: مُفَصَّلٌ في اللوحِ المحفوظِ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ يقولُ: إنْ كانَ محمدٌ افتَراهُ مِنْ عندِ نفسِهِ فأتوا أنتُمْ بِمِثْلِهِ؛ إذْ لسانُهُ ولسانُكُمْ واحدٌ، فأنتُمْ قد عُرِفْتُمْ بالفِرْيَةِ والكَذِبِ، ومحمدٌ لم يُعْرَفْ بهِ قطُّ، ولا أُخِذَ عليهِ كَذِبٌ قطُّ، فأنتُمْ أولَى أنْ تأتوا بسورةٍ مِثْلِهِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) الواو ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: و. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: إلى. (٥) في الأصل وم: و. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: يقول. (٨) في الأصل وم: وتمامه.

جنة السنة

[وقولُهُ تعالى](1): اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: ادْعُوا آلهَتَكُمُ التي تَعبُدونَها لِيُعينوكُمْ على إتيانِ مِثْلِهِ، وقالَ بعضُهُمْ: ادْعُوا مَنِ استَطَعْتُمْ أي مَنْ لِسانُهُ مِثْلُ لِسانِكُمْ لِيُعينوكُمْ على ذلكَ، أو يقولُ: استَعينوا بدراسةِ الكُتُبِ لِتُعينَكُمْ(2) على مثلِهِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّ محمداً افْتراهُ مِنْ نفسِهِ. فَدَلَّ تركُ اشتِغالِهِمْ بذلكَ على أنهُمْ قد عَرَفوا أنهُ ليسَ بِمُفْتَرًى وأنهُ سماويٌّ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما لم يَحفَظوا نَظْمَهُ ولا لَفْظَهُ، ولا نَظَروا فيهِ، ولا تَدَبَّروا لِيَعْلَموا ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ بالبديهةِ. والشيءُ/ ٢٣٠ ـ أ/ إنما يُعرَفُ كَذِبُهُ وصِدقُهُ بالنظرِ فيهِ والتفكُّرِ والتَّدَبُّرِ لا بالبديهةِ.

فذلكَ، واللهُ أعلَمُ، تأويلُ قولِهِ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ كَذَّبوا على عِلْمٍ منهُمْ أنهمْ كَذَبةٌ في مايقولونَ، ويَنْقُلونَ أنهُ مُفْتَرًى ليسَ بِمُنْزَلٍ ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي ولمّا يَأْتِهِمُ العلمُ بتأويلِهِ أي بتأويلِ القرآنِ.

ومعناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنهمْ كَذَّبوهُ مِنْ غيرِ أنْ حَفِظوا نَظْمَهُ، ووَعَوا لَفْظَهُ، ولا أتاهُمُ العلمُ بعاقِبَتِهِ وآخِرِهِ.

قيلَ: التأويلُ هو رَدُّ كلِّ شيءٍ إلى أَوَّلِيَّةِ الأمرِ. وقالتِ الحكماءُ: التأويلُ آخِرُ كلِّ فِعْلٍ: هو قَصْدٌ في أوَّلِهِ، وقَصْدُ كلِّ شيءٍ في أوَّلِهِ هو آخِرٌ في فعلِهِ أو نَحوِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ ما(3) وَعَدَ اللهُ أنْ يكونَ قَبْلَ أنْ يكونَ، وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: تأويلُ القرآنِ بما يكونُ منهُ في الدنيا وبما يكونُ منهُ يومَ القيامةِ، وهو العذابُ الذي وَعَدَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تَأْوِيلُهُۥ﴾ ثوابُهُ، وقيلَ: عاقبَتُهُ. وقالَ الواقديُّ: لم يأتِهِمْ عاقبةُ بَيانِ ما وَعَدَ اللهُ في القرآنِ في الآخرةِ مِنَ الوعيدِ.

وأصلُ التأويلِ هو النظرُ إلى ما تَؤولُ عاقبةُ الأمرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما](4): أي كذلكَ كَذَّبَ الأُمَمُ السالِفَةُ رسلَهُمْ كما كَذَّبَ كفارُ مكةَ رسولَهُمْ؛ أي لَسْتَ أنتَ بأوَّلِ مُكَذَّبٍ، بل كُذِّبَ مَنْ كانَ قَبْلَكَ مِنْ إخوانِكَ لِيكونَ لهُ التَّسَلّي عمّا هو فيهِ مِنْ تكذيبِهِمْ إياهُ وردِّهِمْ عليهِ أنهُ يَنْزِلُ بهِمْ ما نَزَلَ بأولئكَ، إنْ هُمْ أقاموا على ما هم عليهِ.

والثاني: أنْ يكونَ الخطابُ، وإنْ كانَ خارجاً لِرسولِ اللهِ ﷺ فهو راجعٌ إلى قومِهِ، يأمُرُ بالنظرِ في ما نَزَلَ بالأممِ السالفةِ، وأنْ يتأمَّلوا أحوالَهُمْ لِيكونَ ذلكَ سَبَباً لِزَجْرِهِمْ عمّا هُمْ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالتكذيبِ؛ أي كيفَ يُعاقَبونَ، ويُعَذَّبونَ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ قيلَ: أهلُ مكةَ مَنْ يُؤمِنُ بهذا القرآنِ، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ وهُمْ كذلكَ كانَ(5) منهُمْ مَنْ قد آمَنَ بهِ، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي مَنْ لم يؤمِنْ بهِ. ويَحتَمِلُ على الوعيدِ في ما يُستَقْبَلُ؛ أي منهُمْ مِنْ أهلِ [مكةَ](6) مَنْ يؤمِنُ بهذا القرآنِ ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾، وهُمْ كذلكَ كانَ(7) منهُمْ مَنْ قد آمَنَ بهِ، ومنهُمْ مَنْ لَمْ يؤمِنْ بهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: وهي في اليهودِ ليسوا(8) مِنْ أهلِ مكةَ، وظاهِرُهُ أنْ تكونَ في كفارِ [مكةَ](9). وعلى ذلكَ قولُ عامّةِ أهلِ التأويلِ؛ كانَ يُخَرَّجُ على البِشارةِ أنَّ منهُمْ مَنْ يؤمِنُ بهِ لئلا يَقْطَعَ، ويَمْنَعَ دعاءَهُمْ، وأخْبَرَ أنَّ منهُمْ مَنْ لا يؤمِنُ بهِ يُؤْيِسُهُ حتى لا يَشْتَدَّ حزنُهُ على كُفرِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا: أي منهُمْ مَنْ قد يُولَدُ مِنْ بَعْدُ، ويُؤمِنُ(10)، ومنهمْ مَنْ يُولَدُ، فلا يؤمِنُ.

---

(1) ساقطة من الأصل وم. (2) في الأصل وم: ليعينوكم. (3) أدرج قبلها في الأصل وم: قال. (4) ساقطة من الأصل وم. (5) في الأصل وم: كانوا.
(6) من م، ساقطة من الأصل. (7) في الأصل وم: كانوا. (8) في الأصل وم: ليست. (9) من م، ساقطة من الأصل. (10) في الأصل وم: ومن يؤمن.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ معناهُ أي على عِلْمٍ بما يكونُ منهُمْ مِنَ الفسادِ؛ خلقَهُمْ، وأنشأَهُمْ ليسَ[1] عنْ غفلةٍ وجَهْلٍ بالفسادِ، ولكنْ عنْ عِلْمٍ بذلكَ لِما لا يَضُرُّهُ فسادُ مُفْسِدٍ، ولا يَنْفَعُهُ صلاحُ مصلحٍ، إنما عليهِمْ ضَرَرُ فسادِهِمْ، ولَهُمْ مَنْفَعَةُ صلاحِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الوعيدِ أي عالِمٌ بفسادِهِمْ، فَيَجزِيَهُمْ جزاءَ الفسادِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: أي إنْ كَذَّبْتُ في ما أخبَرْتُكُمْ أنهُ جاءَ مِنْ عندِ اللهِ فلي عَمَلي في ما أبلِغُكُمْ أي فِعْلَيَّ وِزْرُ عَمَلي ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي فَعَلَيكُمْ جُرْمُ ما رَدَدْتُمْ عليَّ في ما بَلَّغْتُكُمْ عنِ اللهِ، وهو كقولِهِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥] أي عليَّ جُرْمُ ما افْتَرَيْتُ إنِ افْتَرَيْتُ، وعليكُمْ جُرْمُ ما رَدَدْتُمْ عليَّ في ما بلَّغْتُكُمْ عَنِ اللهِ.

ويَحْتَمِلُ ما قالَهُ أهلُ التأويلِ ﴿لِّي عَمَلِي﴾ أي لي ديني ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي ولكمْ دينُكُمْ؛ أنتمْ بَريئونَ ممّا أعمَلُ، وأنا بريءٌ ممّا تعملونَ.

تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أي أنا لا أُآخَذُ بما دِنْتُمْ أنتمْ، ولا أنتمْ مُؤاخَذونَ بما دِنْتُ أنا، وعملتُ[2]، وهو كقولِهِ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢] وكقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ الآية [النور: ٥٤] وكقولِهِ[3] ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩] وكقولِهِ ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ الآية [سبإ: ٢٥].

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أخبَرَ أنَّ منهُمْ مَنْ يَستَمِعُ إليهِ؛ يعني إلى رسولِ اللهِ تعالى وإلى ما يَتلو مِنَ القرآنِ، لكنهُ يُخبِرُ أنهُ لا كلُّ مُستَمِعٍ إلى شيءٍ يَنْتَفِعُ بما يَسْتَمِعُ، أو يَعْقِلُ ما يَستَمِعُ، ويَفْهَمُ. إنما يُنْتَفَعُ بالاستِماعِ إليهِ، ويُعْقَلُ قَدْرُ المقصودِ والحاجةِ إليهِ.

ومنهُمْ مَنْ كانوا يَسْتَمِعونَ لِمعانٍ: مَرَّةً يَسْتَمِعونَ بِقبولِ القولِ لهمْ والمَنْزِلَةِ، ومنهُمْ مَنْ كانَ يَستَمِعُ إليهِ لِيُسْمِعَ غيرَهُ كقولِهِ: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [المائدة: ٤١] ومنهُمْ مَنْ كانَ يَسْمَعُهُ، ويُطيعُهُ في ذلكَ، فإذا خَرَجَ مِنْ عندِهِ غَيَّرَهُ، وبدَّلَهُ، كقولِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ [النساء: ٨١] ومنهُمْ مَنْ كانَ يَستَمِعُ إليهِ اسْتِهزاءً منهُ وطَلَبَ الطَّعْنِ فيهِ والعَيبِ؛ كانوا مُختَلِفينَ في الاستِماعِ.

ثم نَفَى عنهمُ السَّمْعَ والعَقْلَ والبَصَرَ لِوَجهَينِ:

أحدُهُما: ما ذَكَرْنا أنهمْ لِما لم يَنْتَفِعوا بأسماعِهِمْ وعقولِهِمْ وأبصارِهِمْ، وبهذِهِ[4] الحواسِّ انْتِفاعٌ، كَمَنْ[5] ليسَتْ لهُ. هذهِ الحواسُّ إنما جُعِلَتْ لِيُنْتَفَعَ بها لا لِتُتْرَكَ سُدًى، لا يُنْتَفَعُ بها.

والثاني: كانَ العقلُ والسمعُ والبَصَرُ، وهذهِ يكونُ منها مُكْتَسَبٌ[6] ومنها ما يكونُ غريزةً. فهمْ تركوا اكْتِسابَ ذلكَ.

يَحْتَمِلُ نَفْيُ هذهِ الحواسِّ لِهذينِ الوجهَينِ اللَّذينِ ذكَرْتُهما، واللهُ أعلَمُ.

ثم نَفَى عَمَّنْ لا يَسْتَمِعُ العقلَ حينَ[7] قالَ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ ونَفَى عنهُمُ الاهْتِداءَ والإبْصارَ بِتَرْكِ النظرِ.

الآية ٤٣ فقالَ: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ لأنَّ البَصَرَ يُوصِلُ إلى اهْتِداءِ الطُّرُقِ والسلوكِ فيها.

ألا تَرى أنَّ البهائِمَ قد تُبْصِرُ الطُّرُقَ، وتَسْلُكُ بها، وتَتَّقي بها المَهالِكَ، ولا تَعْقِلُ لِما ليسَ لها سَمْعُ العقلِ، فلا تَعْقِلُ لِما يُسْمِعُ القَلْبُ؛ [إذْ بالعقلِ][8] وبظاهِرِ البَصَرِ تُبْصَرُ الأشياءُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يُخبِرُ أنَّ ما حَلَّ بأولئكَ مِنْ عذابِ اسْتِئصالٍ وعقوبَةٍ إنما حَلَّ بظُلْمِهِمْ [لا][9] مِنَ اللهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: وليس. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في م: وهذه. (٥) الكاف ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: مكتسباً. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: بعقل. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ قالَ [بَعْضُهُمْ][1] في قبورِهِمْ ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ إذا خَرجوا مِنْ قبورِهِمْ. وقالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ في الدنيا.

وأصلُهُ: كأنهمُ اسْتَقَلُّوا طُولَ مُقامِهِمْ في الدنيا وما أُنعِموا فيها لِما عايَنوا مِنْ أهوالِ ذلكَ اليوْمِ وشدائِدِهِ؛ واسْتَقَلُّوا لَبْثَهُمْ في الدنيا ومُقامَهُمْ لِطُولِ مُقامِهِمْ في الآخِرَةِ والعذابِ.

وفيهِ وجهٌ ثانٍ، وهو أنْ يُذْكَرَ مِنْ شدةِ سَفَهِهِمْ وغايةِ جَهْلِهِمْ أنَّ ما بَعْدَهُمْ مِنَ الحشرِ والعذابِ الأبدِ كأنهمْ لا يلبثونَ فيها إلا ساعةً مِنْ نهارٍ حتى لا ينالوا[2] ما يَلْحَقُهُمْ مِنْ ذلكَ وما يَسْتَوجِبونَ عليهِ مِنَ العذابِ باكْتِسابِهِمْ تلكَ الأسبابَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي يَعْرِفُ بعضُهُمْ بَعْضاً على قَدْرِ ما يَتَبَرَّأُ بعضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، ثم يُفَرِّقُ بينَهُمْ كقولِهِ: ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [يونس: ٢٨] أي فَرَّقْنا بينَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي خَسِروا بما وُعِدوا في الآخِرَةِ مِنَ النِّعَمِ الدائمةِ بِتَرْكِ اكْتِسابِهِمْ إيّاها إذ قد أُعْطُوا ما يكتَسِبونَ بهِ نِعَمَ الآخِرَةِ، فاكْتَسَبوا ما بهِ خَسِروا ذلكَ. فهو كقولِهِ: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] على اكتِسابِ ما بهِ يَسْتَوجِبونَ النارَ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ/ ٢٣٠ ـ ب/ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ حَرْفُ إمّا حَرْفُ شَكٍّ، وكذلكَ حَرْفُ أو. ولكنْ يكونُ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، على حَذْفِ ما وإضمارِ حَرْفِ إنْ؛ كأنْ يقولَ: إنْ أريناكَ [فإنما نُريكَ][3] بَعْضَ ما نَعِدُهُمْ لا كلَّ ما نَعِدُهُمْ ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ ولا نُريكَ شيئاً، أو أنْ يكونَ [معنى قولِهِ تعالى: إنا نُريكَ بَعْضَ][4] ما نَعِدُهُمْ أي لقد نُريكَ بَعْضَ ما نَعِدُهُمْ، وهو كقولِهِ: ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ [الإسراء: ١٠٨]

فَعَلى هذا التأويلِ يُريهِ بَعْضَ ما يَعِدُهُمْ، ولا يُريهِ كلَّ ما وَعَدَهُمْ. وعلى التأويلِ الأوّلِ إنْ أراهُ فإنما[5] يُريهِ بَعْضَ ذلكَ، أو لا[6] يُريهِ شيئاً.

فإنْ قيلَ: حَرْفُ إمّا شَكٌّ وكذلكَ حَرْفُ أو، كيفَ تستقيمُ إضافتُهُ إلى اللهِ، وهو عالِمٌ بما كانَ، ويكونُ، وإنما تستقيمُ إضافتُهُ إلى اللهِ، وهو عالِمٌ بما كانَ، ويكونُ، وإنما تستقيمُ إضافتُهُ إلى مَنْ يجهَلُ العواقبَ؟ قيلَ: جميعُ حروفِ الشَّكِّ الذي أُضيفَ إلى اللهِ هو على اليَقينِ والوُجوبِ نَحْوُ حَرْفِ عسى ولعلَّ ونَحْوُ ذلكَ. فَعَلى ذلكَ حَرْفُ إمّا و أو، أي[7] هو لم يَزَلْ عالِماً بما كانَ، ويكونُ في أوقاتِهِ.

وأمّا حَرْفُ الإسْتِفهامِ والشَّكِّ فيُخَرَّجُ على مُخْرَجِ الإيجابِ والإلزامِ على ما ذَكَرْنا في حَرْفِ التَّشْبيهِ، أو يكونُ رسولُ اللهِ وَعَدَ أنْ يُريَهُمْ شيئاً، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ يقولُ[8]: ليسَ إليكَ ما وَعَدْتَهُمْ، إنما ذلكَ إلينا كقولِهِ ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]

وقولُهُ تعالى ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ ثم اللهُ شهيدٌ لكَ يومَ القيامةِ على ما فَعَلوا مِنَ التكذيبِ بالآياتِ وردِّها، وهو كقولِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ الآية [الأنعام: ١٩] ويَحْتَمِلُ أنهُ عالِمٌ بما يَفْعَلُ، لا يَغيبُ عنهُ شيءٌ، وهو وعيدٌ كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨]، [وقولِهِ][9]: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٩] ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ﴾ أي لِكلِّ أمّةٍ في ما خَلا رسولُ اللهِ بُعِثَ إليهِمْ؛ لَسْتُ أنا أوّلَ رسولٍ بُعِثَ إليكُمْ كقولِهِ: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ [الأحقاف: ٩]

[وقولُهُ تعالى][10]: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي يُقْضَى بينهمْ بالقِسْطِ يَحْتَمِلُ هذا وجهَيْنِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ينالون. (٣) في الأصل وم: إنما نرينك. (٤) في الأصل وم: قوله: إن نرينك بعد. (٥) في الأصل وم: إنما. (٦) في الأصل وم: ولا. (٧) في الأصل وم: و. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: شيئاً. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عليه.

جنة السنة

يَحتَمِلُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي يُقضى بينَ الرسلِ وبينَ الأممِ بالعَدْلِ بما كانَ مِنَ الرسلِ مِن تَبليغِ الرسالةِ إليهِمْ والدعاءِ إلى دينِ اللهِ ومِنَ الأممِ مِنَ التكذيبِ لِلرُّسُلِ والرَّدِّ للآياتِ؛ قُضِيَ بينَهُمْ بالعَدْلِ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يُزادُ على ما كانَ، ولا يُنْقَصُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي يُهلَكُ المُكذِّبونَ منهُمْ، ويُنَجّى مَنْ صَدَّقَهُمْ كقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية [يونس: ١٠٣]. ويجوزُ أنْ يُقضى بَينَ المُعْرِضينَ وبَينَ المُجيبينَ و المُطيعينَ يومَ القيامةِ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وذلكَ أنهمْ لمّا أوعدَهُمُ العذابَ قال: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ مِنَ العذابِ فقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي تُوعِدُنا يا محمدُ إنْ كُنْتَ صادقاً بأنَّ العذابَ نازلٌ بنا في الدنيا، وهو على التأويلِ الثاني الذي ذَكَرْنا: لقد نُريكَ بَعضَ ما وَعَدْتُهُمْ.

الآية ٤٩

فقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولا أملِكُ جَرَّ مَنْفَعَةٍ إليها. يقولُ: لا أقدِرُ على أنْ أُوقِعَ عن نفسي سُوءاً حينَ يَنْزِلُ بي، ولا أملِكُ أنْ أسوقَ إليها خيراً البَتَّةَ. فإذا لم أملكْ هذا كيفَ أملِكُ إنزالَ العذابِ عليكُمْ؟ إنما ذلكَ إلى اللهِ، هو المالكُ لهُ[1] والقادرُ على ذلكَ، لا يملكُ أحدٌ ذلكَ سِواهُ، وهو كقولِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي إذا جاءَ أجَلُهُمْ لا يَقدِرونَ على تقديمِهِ: ليسَ على أنهمْ لا يُبْطِلونَ تأخيرَهُ ولا تقديمَهُ، فَيَسألونَ ذلكَ، ولكنْ لا يُؤخَّرُ إذا جاءَ، ولا يُقَدَّمُ قَبلَ أجَلِهِ.

وفيهِ دلالةُ ألّا يُهلَكَ أحدٌ قَبلَ أجلِهِ؛ وهو ردٌّ على المعتزلةِ حينَ[2] قالوا: مَنْ قَتَلَ آخَرَ فإنما قَتَلَهُ قبلَ أجَلِهِ، واللهُ يقولُ: ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وهمْ يقولونَ: يَسْتَقدِمونَ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلمُ: أيُّ[3] مَنْفَعةٍ لكُمْ إنْ أتاكُمْ عذابُهُ؟ لا مَنْفعَةَ لكُمْ في ذلكَ، بل فيهِ ضَرَرٌ لكُمْ. فاستِعْجالُ ما لا مَنْفَعَةَ فيهِ سَفَهٌ وجَهلٌ، يُسَفِّهُهُمْ في سُؤالِهِمُ العذابَ، ويُخبِرُ في قولِهِ: ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أنَّ عذابَ اللهِ إذا نَزَلَ، وجاءَ وقتُهُ، لا يملِكُ أحدٌ تَقديمَهُ ولا تأخيرَهُ، ولا يُحتَمَلُ استِقدامُهُ ولا استِئخارُهُ بالقَدْرِ والمَنْزِلَةِ كما لا يُحتَمَلُ ذلكَ في الدنيا التقديمُ والتأخيرُ بالشفاعةِ والفِداءِ.

ويذكُرُ عَجْزَهُ في إنزالِ العذابِ عليهِمْ في قولِهِ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔنَ﴾ قيلَ: أيِ العذابَ إذا نزلَ بكُمْ آمنْتُمْ بهِ الآنَ. يُخبِرُ عنهُ أنهمْ إذا نَزَلَ بهمُ العذابُ يؤمنونَ.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ أي باللهِ وبرسولِهِ كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤] ثم أخبَرَ أنَّ إيمانَهُمْ لا يَنفَعُهُمْ عندَ معايَنَتِهِمُ العذابَ، وهو كقولِهِ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] وقولِهِ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔنَ﴾ أي بالعذابِ لأنهمْ يُكَذِّبونَ رسولَ اللهِ في ما يدعوهُمْ بالعذابِ، وهمْ يَستَعجِلونَ بهِ استِهزاءً وتكذيباً. فإذا نَزَلَ بهمْ آمنوا، أي صَدَّقوا بذلكَ العذابِ؛ يقولُ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ استِهزاءً وتكذيباً أنهُ غَيرُ نازلٍ بكمْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ قيلَ: أشركوا في ألوهيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ وعبادَتِهِ غَيرَهُ ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ لأنهمْ يُخلَّدونَ فيهِ؛ يُقالُ ذلكَ بَعْدَ ما أُدخِلوا النارَ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي لا تُجزَونَ إلّا بما كَسَبْتُمْ في الدنيا.

---

(١) في الأصل وم: عليه. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: اية.

جنة السنة

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ أي يَستخبِرونَكَ ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجوهاً:

يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ العذابَ الذي كانَ يوعِدُهُم أنهُ يَنزِلُ بهِمْ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ، ثم قالَ: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أي قُلْ نعمْ وربّي إنهُ لَحَقٌّ أنهُ نازلٌ بكُمْ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي بِفائِتينَ عنهُ ولا سابِقينَ لهُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ ما يَدعوهُمْ إليهِ مِنَ التوحيدِ كقولِهِمْ لإبراهيمَ: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ الآية [الأنبياء: ٥٥و٥٦] فَعَلى ذلكَ قولُهُمْ: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ ثم أخبَرَ ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ بقولِهِ ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ غائِبينَ فائِتينَ عنهُ.

ويَحتَمِلُ الآياتِ أو محمداً أو القرآنَ ﴿أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ قُلْ نعمْ إنهُ لَحَقٌّ كقولِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] أخبَرَ أنَّ ما يأمُرُهُم بهِ، ويَدعوهُمْ [إليهِ][1] ليسَ هو هُزُواً ولا لَعِباً، ولكنْ حقٌّ أمرٌ مِنَ اللهِ تعالى. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ هذا الحرفُ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ مِنَ الشاكِّينَ منهُم في ذلكَ؛ طَلَبوا منهُ أنهُ [أحقٌّ ذلكَ أم][2] لا؟ ومِنَ المُعانِدينَ بهِ كقولِهِ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨]

كانوا فِرَقاً ثلاثةً: فِرْقَةٌ قد آمَنوا بهِ، وفِرْقَةٌ قد شَكُّوا فيهِ، وفِرْقَةٌ قد كَذَّبوهُ.

الآية ٥٤ وقولُهُ/ ٢٣١ ـ أ/ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ يُخبِرُ عنهُمْ أنهمْ يَفْدونَ، ويَبْذُلونَ جميعَ ما في الأرضِ، لو قَدَروا عليهِ عندَ نزولِ العذابِ بهِمْ لِشِدَّةِ العذابِ، ولو كانَ الذي مَنَعَهُمْ عنِ الإيمانِ هو حُبُّهُمُ الدنيا، وبُخْلُهُمْ عليها وما فيها بقولِهِ: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ [يونس: ٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ الندامةُ لا تكونُ إلّا سِراراً بالقلْبِ؛ فكأنهُ قالَ: حَقَّقوا الندامةَ في قُلوبِهِمْ على[3] ما كانَ منهُمْ مِنَ التكذيبِ بالآياتِ والعِنادِ في رَدِّها.

وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي أظْهَروا الندامةَ، وهو ما يُستَعْمَلُ في الإظهارِ والإخفاءِ كقولِهِ: شَعْبٌ جَمْعٌ وشَعْبٌ فَرْقٌ ونَحْوُهُ. وبَعْدُ فإنهُ إذا أسَرَّ في نَفْسِهِ لابُدَّ مِنْ أنْ يَضَعَ ذلكَ في آخَرَ، ويُخْبِرَهُ بذلكَ. فذلكَ منهُ إظهارٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [ما تُوجِبُهُ الحكمةُ؛ لأنَّ الحِكْمَةَ توجِبُ تَعْذيبَ كلِّ كافرٍ نِعْمَةً وكلِّ قائلٍ في اللهِ ما لا يَليقُ بهِ، أو أنْ يكونَ تفسيرُ قولِهِ: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ ما ذَكَرَ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾][4] ما ذَكَرَ ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] والقِسْطُ هو العَدْلُ، وهمْ يومئذٍ عَرَفوا أنهُ كانَ يَقْضي بالعَدْلِ في الدنيا والآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إنَّ ما في السمواتِ والأرضِ [للهِ][5] كلُّهُمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ ومُلْكُهُ لا لِمَنْ تَعبدونَ دونَهُ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ. فَمِنْ عِنْدِ مَنْ يَمْلِكُ الدنيا والآخِرَةَ اطلُبوا ذلكَ منهُ لا[6] مِنْ عِنْدِ مَنْ لا يَمْلِكُ. يُبَيِّنُ سَفَهَهُمْ في طَلَبِهِمُ الدنيا مِنْ عندِ مَنْ يَعْلَمونَ أنهُ لا يملِكُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ في كلِّ وَعْدٍ وَوَعيدٍ إنهُ كائنٌ لا مَحالَةَ عذاباً أو رَحْمَةً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يَنْتَفِعونَ بِعِلْمِهِمْ. فَنَفَى عنهُمُ العِلْمَ، وإنْ عَلِموا، لِما لم يَنْتَفِعوا بهِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لم يَكْتَسِبوا سَبَبَ العِلْمِ، وهو التأويلُ والنَّظَرُ في آياتِهِ وحُجَجِهِ، ويَحتَمِلُ نَفْيَ العلمِ عنهُمْ لِما [لم][7] يُعْطَوا أسبابَ العِلْمِ، فلم يَعْلَموا. فإنْ كانَ على هذا فيكونونَ مَعْذورينَ، وإنْ كانَ على الوجهَينِ الأوَّلَينِ فلا عُذْرَ لهمْ في ذلكَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل و م: حق ذلك أو. (٣) ساقطة من م. (٤) ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من م. (٦) في الأصل وم: لأن. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وفي قولِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ دلالةُ إثباتِ البَعْثِ مِنْ وجهَيْنِ:

أحدُهما: في ما يَذْكُرُ مِنْ قُدرتِهِ مِنْ [خلقِ][(١)] السمواتِ والأرضِ وما بينَهما بِغِلَظتِهما وكَثافتِهما وشِدَّتِهما وعِظَمِ خِلْقتِهما. وأنَّ تلكَ القُدرَةَ خارجةٌ عَنْ وُسْعِ البَشَرِ وتوهُّمِهِ. فَمَنْ قَدَرَ على ذلكَ فهو قادرٌ على إحياءِ الخَلْقِ بعدَ فنائِهِمْ.

والثاني: يُخْبِرُ عَنْ حكمَتِهِ مِنْ تعليقِ مَنافِعِ الأرضِ بالسماءِ على بُعْدِ ما بينَهما والإفضالِ على الخَلْقِ بأنواعِ النِّعَمِ التي تَكْبُرُ [على][(٢)] الإحصاءِ، وأنَّ كلَّ شيءٍ منها قد وُضِعَ مَواضِعَها.

فلا يَحْتَمِلُ مَنْ هذا وَصْفُهُ في الحِكْمَةِ [أنْ][(٣)] يَخْلُقَ الشيءَ عَبَثاً باطلاً، ولو كانَ[(٤)] للفناءِ، لا حياةَ بَعْدَهُ، كانَ يكونُ خارجاً عنِ الحكمةِ، فَظَهَرَ أنهُ خَلَقَهُمْ لأمرٍ أرادَ بِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي تَعْلَمونَ أنهُ هو أحْيا الأحياءَ، ويُميتُ الأمواتَ أيضاً [بقولِهِ:][(٥)] ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] فإذا عَرَفْتُمْ أنهُ يُميتُ الأحياءَ، وهو يُحْيي الأمواتَ، لا غيرُهُ[(٦)]، فاعْلَموا أنهُ هو يَبْعَثُكُمْ ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ ألْزَمَهُمُ الحُجَّةَ دلالةً بالكائنِ، ثم أخْبَرَ عمّا يكونُ بالحُجَّةِ التي ذَكَرَ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وهو هذا القرآنُ. قالَ بعضُهُمْ: المَوْعِظَةُ النهيُ كقولِهِ ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧] قيلَ: نهاكُمْ أنْ تعودوا لِمِثْلِهِ. وقالَ آخرونَ: المَوعِظَةُ هي التي تَدعو إلى كلِّ مَرْغوبٍ، وتَزْجُرُ عَنْ كلِّ مَرهوبٍ. وقالَ بَعْضُهُمْ: العِظَةُ هي التي تُلينُ كلَّ قَلْبٍ قاسٍ، وتَجْلي كلَّ قاتِمٍ[(٧)] مظلِمٍ. وفي القرآنِ جميعُ ما ذُكِرَ؛ فيهِ النَّهْيُ، وفيهِ الدعاءُ إلى كلِّ مَرغوبٍ والزَّجْرُ عَنْ كلِّ مَرهوبٍ، وهو يُلينُ القلوبَ القاسيَةَ [ويُدْمِعُ العُيونَ اليابِسَةَ][(٨)] ويَجْلي الصدورَ المُظْلِمَةَ [إذا تأمَّلوا فيهِ، ونَظَروا، وتَفَكَّروا][(٩)] تفكيرَ المُسْتَرْشِدِ وطالبِ الحقِّ. وقيلَ: الموعِظَةُ هي التي [تُلينُ][(١٠)] القلوبَ القاسيةَ وتُدْمِعُ العيونَ اليابِسَةَ، وتَجْلي الصدورَ المُظْلِمَةَ][(١١)].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ إنَّ لِلدِّينِ آفاتٍ وأدواءً تَضُرُّ بِهِ، وتُتْلِفُهُ كما لهذهِ الأبدانِ آفاتٌ وأمراضٌ، تَعْمَلُ في إتلافِها وإهلاكِها. ثم جُعِلَتْ لآفاتِ الأبدانِ وأمراضِها أدويةٌ، تُشْفَى بها الأبدانُ المَؤوفةُ المريضةُ. فَعَلى ذلكَ جُعِلَ هذا القرآنُ لهذا الدينِ دواءً يُداوَى بهِ، فيذهَبُ بآفاتِ الدينِ وأمراضِهِ كما تَعْمَلُ الأدويةُ في دَفْعِ آفاتِ الأبدانِ وأمراضِها. لِذلكَ سَمّاهُ مَوعِظَةً وشِفاءً لِما في الصدورِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ قيلَ هُدىً مِنَ الضلالةِ ورحمةٌ مِنْ عذابِهِ. أو يقولُ: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ ﴿وَهُدٗى﴾ أي يَدْعو إلى كلِّ خيرٍ، ويَهْدي إليهِ ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ لِمَنْ تَبِعَهُ هو ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، وتَمَسَّكَ بهِ، وعَمىً وضَلالٌ لِمَنْ خالَفَهُ، وتَرَكَ اتباعَهُ، وهو ما ذَكَرَ ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ [فصلت: ٤٤] وقالَ: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [التوبة: ١٢٤] أي زادَتِ المُؤمنينَ إيماناً إلى إيمانِهِمْ، وقالَ[(١٢)]: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا﴾ أي زادَتِ الكافِرينَ رِجْساً ﴿إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ [التوبة: ١٢٥] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ قالَ بعضُهُمْ: فضلُ اللهِ ورَحمَتُهُ القرآنُ، وقالَ قائلونَ: فَضْلُ القرآنِ ورَحْمَتُهُ الإيمانُ، وفيهِ أنهُ بإنزالِ القرآنِ مُفَضَّلٌ؛ إذْ لهُ ألّا يُنَزِّلَهُ، وفيهِ أنَّ أهلَ الفَتْرَةِ يُؤاخَذونَ في حالِ فَتْرَتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ أي في حُكْمِ ما[(١٣)] ذَكَرَ ﴿هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ مِنَ الدنيا. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ إنما خاطبَ المؤمنينَ؛ يقولُ للمؤمنينَ ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ الإسلامُ ﴿وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ يعني القرآنَ ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ يعني فبذلكَ الفَضْلِ والرحمةِ، ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ يعني المؤمنينَ ﴿هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ يعني مِمّا يَجْمَعُ الكفارُ مِنَ الأموالِ مِنَ الذهبِ والفضةِ وغيرِهما[(١٤)].

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كانوا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: قاس. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل: و. (١٠) ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من م. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: بما. (١٤) في الأصل وم: وغيره.

جنة السنة

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ يحتمِلُ ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أضافَ إنزالَهُ إلى السماءِ، وإنْ كانتِ الأرزاقُ إنما تَخرُجُ مِنَ الأرضِ لِما كانَتْ أسبابُها مُتعلّقَةً بالسماءِ [بها][1] يكونُ نُضجُ الأنزالِ ويَنعُ الأعنابِ[2] وإصلاحُ الأشياءِ كلِّها؛ يَعني أسبابَ الأرزاقِ مِن نَحوِ المطرِ الذي بهِ تُنبِتُ الأرضُ النَّباتَ، وبهِ تَخرُجُ جميعُ أنواعِ الخَرجِ[3] ممّا يكونُ فيهِ غِذاءُ البَشرِ والدَّوابِّ، ومِن نَحوِ الشمسِ التي[4] بها تَنضَجُ الأنزالُ، وبها تَينَعُ الأعنابُ وجميعُ الفواكِهِ، ونَحوِهِ.

أضافَ ذلكَ إلى السماءِ لِما ذَكَرْنا، وكذلكَ قولُهُ ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] أي أسبابُ ذلكَ في السماءِ، لا أنَّ عَينَ ذلكَ في السماءِ.

ويَحتمِلُ قولُهُ ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أي ما خَلَقَ اللهُ، وكذلكَ جميعُ ما يُضافُ إلى اللهِ إنما يُضافُ إليهِ بِحَقِّ الخَلْقِ؛ أي خَلَقَهُ مُنزَلاً كقولِهِ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] ونَحوُ ذلكَ أي خَلَقَ لكُم مِنَ الأنعامِ ما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ قالَ[5] بعضُهُمْ: ما حَرَّموا مِنَ البَحيرةِ والسائبةِ والوصيلةِ وما ذَكَرَ في سورةِ الأنعامِ والمائدةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ما حَرَّموا لِلآلهةِ التي كانوا عَبَدوها أي جَعلوها للأصنامِ، وهو ما ذَكَرَ في الأنعامِ، وهو قولُهُ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ الآية [الأنعام: ١٣٦] نحوُ ما ذَكَرْنا في الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ أي ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في تَحريمِ ما حَرَّمْتُمْ وتَحليلِ ما حَلَّلْتُمْ ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ وذلكَ أنَّ هذهِ السورةَ نَزَلَتْ في مُحاجَّةِ أهلِ مكّةَ، وهُمْ لم يكونوا/ ٢٣١ - ب/ مؤمنينَ بالرسلِ والكُتُبِ. وإنما يُوصَلُ إلى مَعرفةِ المُحرَّمِ والمُحلَّلِ بالرسلِ والكُتُبِ والخَبَرِ عنِ اللهِ، وهُمْ لم يكونوا مؤمنينَ بواحدٍ ممّا ذَكَرْنا، فكيفَ جَعَلْتُمْ منهُ حراماً وحلالاً، وأنتُمْ لا تؤمنونَ بما[6] بهِ يُعرَفُ الحلالُ والحرامُ؟ فكيفَ حَرَّمْتُمْ ما أحَلَّ لكُمْ أو أحلَلْتُمْ ما حَرَّمَ عليكُمْ؟ يُخبِرُ عنْ سَفَهِهِمْ وعِنادِهِمْ وافتِرائِهِمْ على اللهِ. فإذا اجتَرَؤوا أنْ يَفتَروا على اللهِ [فَهُمْ على][7] غيرِهِ أجرأُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ أُوعِدوا بِيومِ القيامةِ، وهُمْ كانوا لا يؤمنونَ بالبعثِ؟ قيلَ: قد ألزَمَهُمُ الحُجَّةَ؛ [إذ][8] يكونُ البعثُ بما أظهَرَ مِن كَذِبِهِمْ وافتِرائِهِمْ على اللهِ في التحريمِ والتحليلِ، فذلكَ يُظهِرُ كذِبَهُمْ بِتَكذيبِهِمُ البَعثَ.

وبَعْدُ فإنهُ قد يُوعَدُ المرءُ بما لا يَتَيَقَّنُ بهِ، ويُخوَّفُ منهُ[9]، ويُحذَّرُ، وإنْ لم يُحِطْ عِلْمُهُ بهِ، فكذلكَ هذا.

وبَعْدُ فإنهُ قد جَعَلَ في عقولِهِمْ ما يُلزِمُهُمُ الإيمانَ بالبعثِ والجزاءِ للأعمالِ؛ إذْ ليسَ مِنَ الحِكمةِ خَلْقُ الخَلْقِ لِلفَناءِ خاصّةً.

ويَحتمِلُ وجهاً آخرَ، وهو أنْ يقولَ: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ لو خَرَجَ الأمرُ حقّاً، وكانَ صِدْقاً على ما أخبَرَ رسولُ اللهِ، وقالَ: عنِ البَعثِ والجَزاءِ لِما اكتَسَبوا؟

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ هو ذو فَضلٍ على الناسِ مِنْ جِهةِ ما ساقَ إلى الكلِّ مِنَ الرزقِ كافرِهِمْ ومؤمنِهِمْ وأنواعِ النِّعَمِ، وما أخَّرَ عنهُمُ العذابَ إلى وقتٍ، أو لِما بَعَثَ إليهِمُ الرسلَ والكُتُبَ مِنْ غيرِ أنْ كانَ منهُمْ إلى اللهِ سابِقَةُ صُنعٍ، يَستوجِبونَ بهِ ذلكَ. ومنهُ ذلكَ خُصوصُ فَضلٍ على المؤمنينَ، ليسَ ذلكَ على الكافرينَ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لِفَضلِهِ وما أنعَمَ عليهِمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الأعشاب. (٣) في الأصل وم: الخارج. (٤) في الأصل وم: الذي. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في الأصل وم: ما. (٧) في الأصل وم: فعلى. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: عليه.

جنة السنة

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: ﴿فِي شَأْنٍ﴾: في أمرِكَ وحالاتِكَ ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ تُبَلِّغُهُمُ الرسالةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي في عبادةٍ ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ تُبَلِّغُهُمْ بهِ الرسالةَ ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ يُخاطِبُ نَبِيَّهُ تنبيهاً منهُ وإيقاظاً. والمُرادُ منهُ هو وغيرُهُ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أعمالَكُمْ[1] جميعاً؟ في ذلكَ يُخبِرُ أنكُمْ في كلِّ أمرٍ يكونُ بينَكُمْ وبينَ ربِّكُمْ، وفي كلِّ أمرٍ بينَكُمْ وبَينَ الناسِ فاللهُ لَكُمْ وعليكُمْ شهوداً، وكلَّ عملٍ تعملونَ لكُمْ وعليكُمْ ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ يُنَبِّهُهُمْ، ويوقِظُهُمْ ليكونوا على حَذَرٍ أبداً مُنْتَبِهِينَ. وقيلَ: تُكْثِرونَ ﴿فِيهِ﴾ وكُلُّهُ واحدٌ.

ثم يَحْتَمِلُ ﴿فِيهِ﴾ في الحقِّ، ويَحْتَمِلُ في الدينِ، ويَحْتَمِلُ في القرآنِ، ويَحْتَمِلُ في رسولِ اللهِ. يقولُ: أنا شاهِدٌ في ما تَخوضونَ وفي ما تقولونَ في رسولِ اللهِ أو في دينِهِ أو في ما يَتْلُو عليكُمْ ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ لا يَعْزُبُ عنْ ربِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ [في الأرضِ][2] ولا في السماءِ في لا أمرَ فيهِ ولا نَهيَ ولا كُلْفَةَ. فالذي فيهِ السؤالُ والأمرُ والنَّهيُ والكُلْفَةُ أحْرَى وأولَى ألّا[3] يَغيبَ عنهُ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ هو تَحذيرٌ وتَخويفٌ بِتَمْثيلٍ، لا وعيدٌ بِتَقريرٍ وتَصريحٍ؛ لأنَّ الوَعيدَ على وجهَينِ: أحَدُهُما على التَّمْثيلِ[4] والآخَرُ على التقريرِ في عينِهِ والتَّصريحِ[5].

وقولُهُ تعالى ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ قيلَ: ما قَلَّ[6]، وما كَثُرَ ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي إلّا في اللوحِ المحفوظِ ﴿مُّبِينٍ﴾ ويَحتمِلُ: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي في الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ مِنَ السماءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ في قولِهِ ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي تَنْتَشِرونَ فيهِ، وتأويلُهُ: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ﴾ تَنْتَشِرونَ فيهِ ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قالتِ المُعتَزِلَةُ: دَلَّتِ الآيةُ على أنَّ أصحابَ الكبائرِ ليسُوا بِمؤمنِينَ لأنهمْ لو كانوا مؤمنِينَ لَكانوا أولياءَ اللهِ، وكانوا[7] لا خوفٌ عليهِمْ، ولا حُزنٌ. فإذا كانَ فلا[8] شَكَّ أنَّ على أصحابِ الكبائرِ [خوفاً وحزناً][9] في وقتٍ دونَ وقتٍ وليسَ في الآيةِ أنْ ليسَ على أولياءِ اللهِ خوفٌ ولا حُزنٌ مِنْ أوَّلِ الأمرِ إلى آخِرِهِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما يكونُ لأهلِ الدنيا في الدنيا مِنَ الخوفِ والحُزنِ. إنما خوفُهُمْ وحُزنُهُمْ لِعاقِبَتِهِمْ.

ويُشْبِهُ أنْ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الجنةِ. وهكذا يكونُ إذا دخَلُوا الجنةَ يأمنونَ مِنْ جميعِ ما يُنَغِّصُهُمْ[10].

الآية ٦٣ [وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾][11] قالَ بَعضُهُمْ: أولياءُ اللهِ همْ أهلُ التوحيدِ، لكنَّ تلكَ البِشارةَ وذلكَ الوَعْدَ لأهلِ[12] التوحيدِ في الاعتِقادِ والوفاءِ جميعاً لا لأهلِ الاعتِقادِ خاصَّةً.

الآية ٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الرُّؤيا الصالحةُ. وعلى ذلكَ رُوِيَتِ الأخبارُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنْ هذهِ الآيةِ، فَفَسَّرَها[13] بالرؤيا الصالحةِ. فإنْ ثَبَتَ فهو الحَقُّ. وقالَ[14] بعضُهُمْ: لا تَحْتَمِلُ الرُّؤيا الصالحةَ لأنهُ نَسَقَ البُشْرَى في الآخِرَةِ على البُشْرَى في الحياةِ الدنيا، ولا شَكَّ أنهُ لا يكونُ في الآخرةِ الرؤيا الصالحةُ. ولكنْ إنْ ثَبَتَ ما ذَكَرْنا في الخَبَرِ فهو ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: عملهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: لا. (٤) في الأصل وم: التمثال. (٥) في الأصل وم: وتصريح. (٦) من م، في الأصل: قال. (٧) في الأصل وم: لكان. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: خوف وحزن. (١٠) في الأصل وم: ينفعهم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: كأهل. (١٣) في الأصل وم: ففسر. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ويُشبهُ أن تكونَ البشارةُ التي ذَكَرَ هَهُنا نَحْوَ قولِهِ ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ الآية [الزمر: ١٧و١٨] وقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]. وقولِهِ ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٣] وأمثالَ ذلكَ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يُبشِّرُهُمُ الملائكةُ عندَ الموتِ، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الجنةُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مِنْ وَعْدِهِ ووَعيدِهِ. وذلكَ ممّا لا تَبديلَ، ولا تَحويلَ. ويَحتَمِلُ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآنَ؛ لا تبديلَ لِما فيهِ مِنَ الوَعْدِ والوَعيدِ وغيرِهِ. ويَحتَمِلُ: لا تَبديلَ لِما مَضى مِنْ سُنَنِهِ في الأوّلينَ والآخِرينَ مِنَ الهلاكِ والاستئصالِ بتكذيبِهِمُ الرسلَ والآياتِ كقولِهِ: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] وقولِهِ: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تَبديلَ لِبُشرى الذينَ ذَكَرَ هؤلاءِ الذينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ. ويَحتَمِلُ لا تَبديلَ لِحُجَجِ اللهِ وبَراهينِهِ، أو لا تَبديلَ لِوَعْدِ اللهِ وَوَعيدِهِ ونَحوِهِ[1]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ﴿ذَٰلِكَ﴾ البُشرى، هو الفوزُ العظيمُ، أو ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدينُ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إذْ لا خوفَ بَعْدَهُ. وقالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: لا خَوفٌ عليهِمْ مِنَ النارِ، ولا هُمْ يَحزنونَ أنْ يَخرجوا مِنَ الجنةِ أبداً. [وهذا][2] الوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ يَحتَمِلُ ﴿قَوْلُهُمْ﴾ ما قالوا في اللهِ ما[3] لا يَليقُ بهِ مِنَ الوَلَدِ والشريكِ؛ يقولُ: لا يَحْزُنْكَ ذلكَ ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ الذي قالوا في القرآنِ: إنهُ سِحْرٌ، وإنهُ مُفْتَرىً، أو [الذي][4] قالوا في رسولِ اللهِ: إنهُ ساحرٌ، وإنهُ يَفتري على اللهِ كَذِباً.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ مَكْرَهُمُ الذي مَكَروا بهِ وكيدَهُمُ الذي كادوهُ. ويُؤيِّدُ ذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي إنَّ العِزَّةَ في المَكْرِ والكيدِ للهِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢]؛ أي مَكْرُهُ يَنْقُضُ مَكْرَهُمْ، ويَمْنَعُهُ، وكيدُهُ يَفسَخُ كَيدَهُمْ.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي يَنْقُضُ جميعَ ما يَمْكُرونَ/ ٢٣٢ ـ أ/ بكَ، ويَكيدونَ لكَ. والعِزَّةُ القُوَّةُ. يقولُ: إنَّ القُوَّةَ لِلَّهِ؛ يَنصُرُكَ على أعدائكَ، ويَدفَعُ عنكَ كيدَهُمْ ومَكْرَهُمُ الذي هَمّوا بكَ ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لِقَولِهِمُ الذي قالوا. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالِحِهِمْ، أو ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ المجيبُ للدعاءِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يكونُ منهُمْ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي تَعلَمونَ أنَّ للهِ مَنْ في السمواتِ ومَنْ في الأرضِ: كلُّهُمْ عَبيدُهُ وإماؤهُ، فكيفَ قُلْتُمْ: إنَّ فلاناً ولدُهُ؟ وإنَّ لهُ شريكاً؟ ولا أحدَ منكُمْ يَتَّخِذُ مِنْ عَبيدِهِ وإمائِهِ ولداً ولا شريكاً كقولِهِ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية [الروم: ٢٨] فَعَلى ذلكَ هذا. وكيفَ يَحتَمِلُ أنْ يَتَّخِذَ ولداً، ولهُ مُلْكُ ما في السمواتِ والأرضِ؟ وإنما يُتَّخَذُ في الشاهدِ الولدُ لإحدى خِصالٍ ثلاثٍ: إمّا لِلاستنصارِ على غيرِهِ، وإمّا لحاجةٍ تَمَسُّهُ، وإمّا لِوَحْشَةٍ أصابَتْهُ.

فهو غَنِيٌّ لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ؛ لا حاجةَ تَمَسُّهُ، فكيفَ نَسَبْتُمُ الولدَ إليهِ والشريكَ؟ وما قالوا فيه ممّا لا يَليقُ بهِ، وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ. ويُخبِرُ[5] عن غِناهُ عمّا يأمُرُهُمْ، وينهاهُمْ، ويَتَعَبَّدُهُمْ؛ أي ليسَ يأمُرُ، ويَنْهى، ويَتَعَبَّدُ بأنواعِ العباداتِ، ويَمْتَحِنُهُمْ بأنواعِ المِحَنِ لِحاجةٍ لهُ أو لِمَنفَعَةٍ لهُ في ذلكَ، ولكنْ لِمَنفَعَةٍ لهمْ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي ما يَتَّبِعونَ في ما يَدعونَ مِنْ دونِ اللهِ مِنَ الشركاءِ

---

(١) من م، في الأصل: ونحو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بما. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل و م: يخبره.

جنة السنة

بالحُجَجِ والبراهينِ أو الكتابِ بيقينٍ أو رسولٍ، إنما يَتَّبِعونَ بالظَّنِّ والحَذَرِ ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ إي ما هُمْ إلا يكذِبونَ في ما يَتَّبِعونَ بدعائِهِمْ دونَ اللهِ لأنهُمْ كانوا أهلَ شِرْكٍ لم يكونوا أهلَ كتابٍ ولا آمَنوا برسولٍ، فهمْ قد عَرَفوا أنهمْ مُفْتَرونَ كاذِبونَ في اتِّباعِهِمْ دونَ اللهِ؛ إذْ سبيلُ مَعرفةِ ذلكَ الكتابُ أو الرسولُ، ولم يكنْ لهمْ واحدٌ مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يُبْصَرُ فيهِ، وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [القصص: ٧٣] يَعْني في النهارِ، فهو في مَوضِعِ الامْتنانِ وتذكيرِ النِّعَمِ؛ يَستَأدي بذلكَ شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِ.

وفيهِ أنَّ الليلَ والنهارَ يَجريانِ على التدبيرِ والتقديرِ لأنهما لو كانا يَجْريانِ على غيرِ تدبيرٍ ولا تقديرٍ لَكانا لا يَجْريانِ على تقديرٍ واحدٍ [ولا سَنَنٍ واحدٍ][1] ولكانَ يدخُلُ فيهما الزيادةُ والنقصانُ، ولا يَجْريانِ على تقديرٍ واحدٍ، وإنْ كانَ يدخلُ بعضُهُ في بعضٍ. فدلَّ جرَيانُهما على تقديرٍ واحدٍ أنهما يجريانِ على تدبيرِ آخَرَ فيهما، إذْ لو كانَ على غيرِ تدبيرٍ [لكانا][2] يَجْريانِ على انحرافٍ على الزيادةِ والنُّقْصانِ على القِلَّةِ والكثرةِ.

وفيهِ أيضاً أنَّ مُدَبِّرَهما واحدٌ لأنهُ لو كانَ مدبِّرَهما عَدَداً لكانَ إذا غَلَبَ أحدُهُما الآخَرَ دامَتْ غَلَبَتُهُ، ولا يَصيرُ الغالبُ مغلوباً والمغلوبُ غالباً. فإذا صارَ ذلكَ ما ذَكَرْنا دلَّ أنَّ مُدبِّرَهما واحدٌ لا عَدَدٌ.

وفيه دلالةُ البعثِ بَعْدَ الموتِ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما إذا جاءَ أتْلَفَ صاحِبَهُ تَلَفاً حتى لا يَبْقَى لهُ أثرٌ، ولا شيءٌ منهُ، ثم يكونُ مِثْلَهُ حتى يَخْتَلِفَ الذاهبُ مِنَ[3] الحادثِ لا الأوَّلُ مِنَ الثاني. فَدَلَّ أنَّ الذي قَدَرَ على إنشاءِ ليلٍ قد ذَهَبَ أثرُهُ[4] وأصْلُهُ قادرٌ على البعثِ، ومَنْ قدرَ على إحداثِ نهارٍ، قد[5] فَنِيَ، وهَلَكَ قادرٌ على إحداثِ ما ذَكَرْنا مِنَ الموتِ.

وفيهِ أنَّ الشيءَ إذا كانَ وُجوبُهُ بِشَرْطَينِ[6] لم يَجِبْ إذا عَدِمَ أحدُهُما لأنهُ قالَ ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وإنما يُبْصَرُ بنورِ البَصَرِ ونورِ النهارِ جَميعاً لأنهُ إذا فاتَ أحدُ النُّورَينِ لم يُبْصَرْ شَيْءٌ مِنَ النورِ نورِ البَصَرِ أو[7] نورِ النهارِ. دلَّ أنَّ الحُكْمَ إذا وَجَبَ بِشَرطَينِ لا يُوجِبُ إلَّا باجتماعِهِما جميعاً: الليلُ يَسْتُرُ وُجوهَ الأشياءِ لأنهُ لا يُرَى نفسُهُ، والنهارُ يَكشِفُ وجوهَ الأشياءِ، وفي الليلِ تُسْتَرُ وجوهُ الأشياءِ دلالةُ أنَّ الحكمَ إذا كانَ وجوبُهُ بشرطَينِ يجوزُ صُنْعُهُ بِعِلَّةٍ واحدةٍ لأنهُ يَسْتُرُ نورَ النهارِ ونورَ البَصَرِ جميعاً.

وفي قولِهِ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وجوهٌ مِنَ الدلالةِ:

أحدُها: ما ذَكَرْنا مِنْ تَذكيرِ النِّعَمِ؛ يدعوهُمْ بهِ إلى شُكْرِهِ، ويَنْهاهُمْ عنِ الكُفرانِ.

والثاني[8]: فيهِ تذكيرُ القُدْرةِ لهُ حينَ[9] أنشأ هذا، وأحْدَثَهُ، وأتْلَفَ الآخَرَ. فَمَنْ قَدَرَ على هذا لا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

والثالثُ[10]: فيهِ دليلُ السلطانِ حينَ[11] يأخُذُهُم، ويُسَيِّرُ عليهمُ الأشياءَ شاؤوا، أو أبَوا. وكذلكَ النهارُ يأتيهِمْ حتى يَكْشِفَ وجوهَ الأشياءِ، ويُجْلِيَ، شاؤوا، أو أبَوا.

والرابعُ[12]: فيهِ دليلُ التدبيرِ والعِلْمِ لِما ذَكَرْنا مِنِ اتِّساقِ جَرَيانِهِما على سَنَنٍ واحدٍ ومَجرىً واحدٍ.

والخامسُ[13]: فيهِ دلالةُ وحدانيَّةِ مُنْشِئِهِما؛ بَيَّنَ ههنا في ما جَعَلَ الليلَ حينَ[14] قالَ: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أخبَرَ أنهُ جَعَلَ الليلَ للسكونِ والراحةِ. فدلَّ ذِكْرُ السكونِ في الليلِ على أنهُ جَعَلَ النهارَ لِلسَّعْيِ وطَلَبِ العيشِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ في النهارِ ﴿مُبْصِرًا﴾؟ أي يُبصِرون فيهِ ما يعيشونَ، وهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أخرَى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ الآيةَ [القصص: ٧٣].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في م: و. (٤) ساقطة من م. (٥) في م: وقد. (٦) في الأصل وم: بشيئين.
(٧) من م، في الأصل: أي. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ولم يَقُلْ: يُبْصِرونَ. فظاهِرُ ما سَبَقَ مِنَ الذِّكْرِ يَجِبُ أنْ يُقالَ: لِقومِ يُبْصِرونَ لأنهُ قالَ: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾. لكنْ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ أي يَعْقِلونَ كقولِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢] ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ أي يُجيبونَ كقولِهِ [ﷺ][1] «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» [البخاري ٦٩٠] أي أجابَ اللهُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: أرادوا بِقولِهِمْ ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ حقيقةَ الولدِ كقولِهِ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ [النحل: ٥٧] وقولِهِ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١٨] كذا [وقولِهِ][2]: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] كذا، فَنَزَّهَ ﷻ نَفْسَهُ عمّا يقولونَ بقولِهِ: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ إنهُ لم يَلِدْ أحداً، ولا وُلِدَ هو منْ أحدٍ. ولهذا قالَ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] إذ في الشاهدِ لا يَخْلُو إمّا أنْ يكونَ وُلِدَ مِنْ آخَرَ أو والداً[3]، والخَلْقُ كُلُّهُ لا يَخْلُو مِنْ هذا، فأخبرَ أنهُ لم يَلِدْ هو أحداً، ولا وُلِدَ مِنْ أحدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعْلَمُ، أنَّ في الشاهدِ مَنِ اتَّخذَ ولداً إنما يَتَّخِذُ لأحدِ وجوهٍ ثلاثةٍ: إمّا لحاجةٍ تَمَسُّهُ، أو لِشَهْوَةٍ تَغْلِبُهُ، أو لِما يَسْتَنْصِرُ بهِ على آخرَ مِمّا يَخافُهُ. فإذا كانَ لهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ ومُلْكُ ما فيهما: كُلُّهُمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ فلا حاجَةَ تَقَعُ لهُ إلى الوَلَدِ؛ إذْ هو الغَنِيُّ، ولهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ.

ومَنْ هذا وصفُهُ فلا يحتاجُ إلى الوَلَدِ، ولأنهُ لا أحَدَ في الشاهدِ يَحْتَمِلُ طبعُهُ اتِّخاذَ الوَلَدِ مِنْ عَبيدِهِ وإمائِهِ، فإذا كانَ لِلَّهِ، سُبْحانَهُ، الخلائقُ: كلُّهُمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ، كيفَ احْتَمَلَ اتِّخاذَ الوَلَدِ منهمْ لو جازَ؟ وقد بيَّنّا إحالَةَ[4] ذلكَ وفسادَهُ، ولأنَّ الوَلَدَ يكونُ مِنْ شَكْلِ الوالِدِ ومِنْ جِنْسِهِ كالشريكِ يكونُ مِنْ شَكْلِ الشريكِ ومِنْ جِنْسِهِ، فكانَ نَفْيُ الشريكِ نَفْيَ الوَلَدِ لأنَّ مَعْناهما واحدٌ، وكلُّ ذي شَكْلٍ، لهُ ضِدٌّ أو شَكْلٌ، فإنهُ لا رُبوبيَّةَ لهُ ولا أُلوهيَّةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُمْ: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ لم يُريدوا حقيقةَ الوَلَدِ، ولكنْ أرادوا مَنْزِلَةَ الوَلَدِ وكَرامَتَهُ، فهو أيضاً مَنْفِيٌّ عنهُ لأنَّ مَنْ لا يَحْتَمِلُ الحَقيقَةَ؛ أعني حقيقةَ الوَلَدِ، امْتَنَعَ عَنْ مَنْزِلَتِهِ وكَرامَتِهِ لأنَّ الحَقيقَةَ انْتَفَتْ لِعَيْبٍ يدخُلُ فيهِ. فإذا ثَبَتَتْ لهُ مَنْزِلَةُ تلكَ الحَقيقةِ والكرامةِ [دَخَلَتْ فيهِ عِنْدَئِذٍ][5] الحقيقةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا﴾ قيلَ: ما عندَكُمْ مِنْ حُجَّةٍ على ما تقولونَ: إنَّ لهُ وَلَداً لأنهمْ كانوا أهلَ تَقْليدٍ لآبائِهِمْ وأسلافِهِمْ، وكانوا لا يؤمنونَ بالرُّسُلِ والكُتُبِ والحُجَجِ. وإنما كانَ يُسْتَفادُ ذلكَ مِنْ جهةِ الرسالةِ والكتبِ، وهُمْ كانوا يُنْكِرونَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾/ ٢٣٢ ـ ب/ أي تقولونَ على اللهِ: اتَّخذَ الوَلَدَ ما تَعْلَمونَ أنهُ لم يَتَّخِذْ.

الآية ٦٩ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهمْ عَلِموا أنهُ لم يَتَّخِذْ ولداً، لكنْ مَنْ قالوا ذلكَ افْتِراءً على اللهِ ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ في الآخِرَةِ لِما طَمِعوا في الدنيا بِعبادَتِهِمْ دونَ اللهِ الأصنامَ بقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ[7]: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي لا يَظْفَرونَ بما طَمِعوا في الآخِرَةِ.

الآية ٧٠ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي ذلكَ لهمْ مَتاعٌ في الدنيا، ليسَ لهمْ مَتاعٌ في الآخِرَةِ ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: والد. (٤) في الأصل وم: إحالته. (٥) في الأصل وم: دخل فيه عيبٌ. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقوله. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

أحدُهما:][١] يخاطِبُ رسولَهُ بذلكَ، لم يُخاطِبْهُمْ: إلينا مَرْجِعُكُمْ. فهو، واللهُ أعْلَمُ، لَمّا اشْتَدَّ على رسولِ اللهِ ما افْتَرَوا بِهِ على اللهِ يقولُ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فَنَجْزِيهِمْ جزاءَ فِرْيَتِهِمْ.

والثاني: يقولُ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ لا ما طَمِعوا مِنَ الشفاعَةِ عندَنا والزُّلْفَى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي خَبَرَهُ وحديثَهُ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: إنْ كانَ كَبُرَ عليكُمْ طُولُ مَقامي ومُكْثي فيكُمْ ودُعائي إياكُمْ إلى عِبادةِ اللهِ وإطاعَتِكُمْ[٢] لَهُ وَتَذكيري إياكُمْ بآياتِهِ. وقالَ بعضُهُمْ ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ بِعَذابِهِ بِتَرْكِكُمْ إجابتي ودُعائي.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ بما أدعو[٣] مِنَ الرسالةِ ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بِحُجَجِ اللهِ على ما أدعو[٤] مِنَ الرسالةِ.

وقولُهُ[٥] تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ فيه وجوهٌ:

أحدُها: اتْلُ مُنابَزَةَ نوحٍ قومَهُ وما أرادوا بهِ مِنَ الكيدِ والمَكْرِ بهِ،

والثاني: اذْكُرْ عَواقِبَ قومِ نوحٍ وما حلَّ بهمْ مِنْ سُوءِ مُعامَلَتِهِمْ رسولَهُمْ.

والثالثُ: اذْكُرْ لهمْ عواقِبَ[٦] مُتَّبِعي قومِهِ ومُخالِفيهِ[٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي اجْتَمِعوا أنتمْ وشركاؤُكُمْ، ثم كِيدوني ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي اجْعَلوا ما تُريدونَ مِنَ الكيدِ والمَكْرِ فيَّ ظاهراً غيرَ مُلْتَبِسٍ ولا مُشْتَبِهٍ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ أي اعِدُّوا أمْرَكُمْ، وادْعوا شُرَكاءَكُمْ. وكذلكَ رُوِيَ في حرفِ أبيٍّ [ابْنِ كَعْبٍ][٨] ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ وادعوا شُرَكاءَكُمْ ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي اقْضوا ما أنتمْ قاضونَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي لا يَكْبُرُ عليكُمْ أمْرُكُمْ. وقالَ الكِسائيُّ: هو مِنَ التغطيَةِ واللُّبْسِ؛ أي لا تُغَطُّوهُ، ولا تُلْبِسوهُ، اجْعَلوا كلمتَكُمْ ظاهرةً واحدةً.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنه][٩] قالَ: لا يكنْ أمْرُكُمُ اغْتِماماً عليكُمْ، أي فَرِّجوا عن أنفسِكُمْ كقولِهِ ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ الآية [الحج: ١٥]

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي اعْمَلوا بي ما تريدونَ، ولا تُنْظِروني، وهو كقولِهِ: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] وقالَ الكسائيُّ: هو الإنهاءُ والإبلاغُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية [الإسراء: ٤] [وقولِهِ:][١٠] ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ [الحجر: ٦٦] [أي أنهينا إليهِ][١١] وأبلَغْنا إليهِ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: إنْ شِئْتَ جعلتَها ظُلْمَةً فلا يُبصِرونَ أمرَهُمْ؛ يَعْني غُمَّةً، وإنْ شِئْتَ جَعَلْتَها شَكًّا، واشْتِقاقُ الغُمَّةِ مِنْ غَمَّ يَغُمُّ غَمًّا أي غَطّى يُغَطّي، تقولُ: غَمَمْتُ رأسَهُ أي غَطَّيْتُهُ ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ﴾ أي افْعَلوا بي ما أرَدْتُمْ.

وفي قولِ نوحٍ لقومِهِ: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ وقولِ هودٍ: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥] وقولِ رسولِ اللهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥] دلالةُ إثباتِ رسالَتِهِمْ لأنهمْ قالوا ذلكَ لقومِهِمْ، وهُمْ بَيْنَ أظْهُرِهِمْ، ولم يكُنْ معهُمْ أنصارٌ ولا أعوانٌ. دلَّ أنهمْ إنما قالوا ذلكَ اعْتِماداً على اللهِ واتّكالاً [على معونَتِهِ][١٢] ونُصْرَتِهِ إياهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ﴾ أي فافْرَغوا إليَّ، أنْ يُقالُ: قَضَى فَرَغَ، وهو قولُ أبي بَكْرٍ الأصَمِّ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وإطاعته. (٣) في الأصل وم: ادعى. (٤) في الأصل وم: ادعيت. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: لا. (٧) في الأصل وم: ومخالفة. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: بمعونته.

جنة السنة

[وقالَ بعضُهُم: قولُهُ:][1] ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ كقولِهِ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ [الذاريات: ٢٦] وقولِهِ[2]: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] ونَحْوُهُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ التَّوَلِّي اسْمٌ لأمرينِ: اسْمٌ للإعراضِ والإدبارِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٠٥] واسْمٌ للإقبالِ والقَبولِ أيضاً كقولِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية [المائدة: ٥٦] ونَحْوُهُ.

فَهَهُنا يَحْتَمِلُ [الأمرَينِ جميعاً]:

أحَدُهما[3]: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أقبَلْتُم، وقَبِلْتُم ما أعرِضُهُ عليكُم، وأدعوكُم إليهِ ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

والثاني[4]: إنْ كانَ في الإعراضِ فكأنَهُ يقولُ: كيفَ أعْرَضْتُمْ عنْ قبولِهِ، ولم أسألْكُمْ على ذلكَ أجراً، فيكونَ لكُمْ عذرٌ في الإعراضِ والرَّدِّ كقولِهِ ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ الآية؟ [الطور: ٤٠] أي لم أسألْكُمْ [أجراً][5] على ما أعرِضُهُ عليكُم، وأدعوكُمْ إليهِ حتى يَثْقُلَ عليكُمْ ذلكَ الغُرْمُ عنِ الإجابَةِ.

ففي هذهِ الآيةِ وغيرِها دلالةُ مَنْعِ أخذِ الأجرِ على تَعليمِ القرآنِ والعِلْمِ لأنهُ لو جازَ أخذُ الأجرَةِ على ذلكَ لكانَ لهمْ عُذرٌ[6] ألّا يَبْذُلوا ذلكَ، ولا يَتَعلَّموا شَيئاً مِنْ ذلكَ، وفي ذلكَ هَدْمُ شرائعِ اللهِ وإسقاطُها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي مُسْلِماً نفسي إلى اللهِ سالماً لا أجْعَلُ لأحدٍ سِواهُ فيها حَقًّا ولا حَظًّا، وأُمِرْتُ أنْ أكونَ مِنَ المُخْلِصينَ لِلّهِ والخاضِعينَ لهُ. يَحْتَمِلُ ذلكَ كُلَّهُ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يَعني نوحاً، كَذَّبَهُ قومُهُ في ما ادَّعى مِنَ الرسالةِ أو ما آتاهُم مِنَ الآياتِ أو ما أوعَدَهُمْ مِنَ العذابِ بِتكذيبِهِمْ إيّاهُ ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ يَعني نوحاً ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ أي مَنْ رَكِبَ مَعَهُ الفُلْكَ مِنَ المؤمنينَ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي خَلَفَ قوم أُهْلِكوا، واسْتُؤصِلوا بالتكذيبِ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تَحْتَمِلُ الآياتُ الحُجَجَ والبراهينَ التي أقامَها على[8] ما ادَّعوا على الرسالةِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ العذابَ الذي أوعَدَهُمْ بِتكذيبِهِمْ إيّاهُ في ما وعَدَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ كانَ إنذارَ الفريقَينِ جميعاً المؤمنَ والكافرَ[9] كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] فإذا كانَ ما ذَكَرْنا فيكونُ تأويلُهُ: فانْظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ مَنْ أجابَ ومَنْ لم يُجِبْ؟ عاقبةُ مَنْ أجابَ الثوابُ وعاقبةُ مَنْ لم يُجِبِ العذابُ.

ويَحْتَمِلُ ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ الذينَ لم يَقْبَلوا الإنذارَ، ولم يُجيبوا؛ أي انْظُرْ كيفَ كانَتْ عاقِبَتُهُمْ بالهلاكِ والاسْتِئصالِ، ويكونُ تأويلُ قولِهِ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] أي إنما يَقْبَلُ الإنذارَ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، أي إنما يَنْتَفِعُ بالإنذارِ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ. وأمّا مَنْ لم يَتَّبِعِ الذِّكْرَ فلم[10] يَنْتَفِعْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا﴾ أي مِنْ بَعْدِ نوحٍ ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي بَعَثْنا إلى كلِّ قومٍ رسولاً [أي إنهُ بَعَثَ الرسُلَ إلى أقوامِهِمْ واحداً][11] على إثْرِ واحدٍ ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ تَحْتَمِلُ البَيِّناتُ الحُجَجَ والبراهينَ التي أقاموها على ما ادَّعَوا على[12] الرسالةِ والنُّبُوَّةِ، وتَحْتَمِلُ البَيِّناتُ بيانَ ما عليهِمْ أنْ يَأْتوا ويَتَّقُوا، وتَحْتَمِلُ البَيِّناتُ [ما أخْبَروا، وأنْبَؤوا قومَهُمْ][13] بالعذابِ أنهُ نازلٌ بهمْ في الدنيا.

---

(١) في الأصل وم: وبعضهم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: أمرين جميعاً أي. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: عذراً. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: من. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: جميعاً. (١٠) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل: إلا أنه بعث الرسول إلى قومهم ولكن واحداً، في م: إلا أنه بعث الرسل قومهم ولكن واحد. (١٢) في الأصل وم: من. (١٣) في الأصل: بما أخبروا وأبناؤهم معهم، في م: بما أخبروهم وأنبأوا قومهم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما كانَ كُفّارُ مكّةَ لِيُؤمِنُوا ولِيُصَدِّقوا بالبيِّناتِ كما لم يُصَدِّقْ بها[1] أوائلُهُمْ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ بَعْثُ الرسُلِ. ففيهِ دلالةٌ أنّ أهلَ الفَتْرةِ يُؤاخَذونَ بالتكذيبِ في حالِ الفَتْرةِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ إتيانَ البيِّناتِ؛ أي ما كانوا يؤمنونَ بَعْدَ ما جاؤوهُمْ[2] بالبيِّناتِ بما كَذَّبوا به مِنْ قَبْلِ مجيءِ البيِّناتِ.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي هكذا نَطْبَعُ على قُلوبِ أهلِ مكّةَ كما طَبَعْنا على قلوبِ أوائلِهِمْ؛ عَلِمَ أنهُمْ لا يَقْبَلونَ الآياتِ، ولا يؤمِنونَ بها. والاِعتداءُ هو الظلمُ مَعَ العِنادِ والمُجاوَزَةُ عنِ الحدِّ الذي جُعِلَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا/ ٢٣٣ ـ أ/ بِمَا كَذَّبُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ هو يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ بالبيِّناتِ إذا جاءتْهُمُ البيِّناتُ على السؤالِ. وهكذا عادتُهُمْ أنهمْ لا يؤمنونَ بالآياتِ إذا أتَتْهُمْ[4] على السؤالِ.

والثاني: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِۦ﴾ على عِلْمٍ منهُمْ أنها آياتٌ وأنهُ رسولٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي مِنْ بَعْدِ ما ذَكَرْنا مِنَ الرسُلِ ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ بَعَثَهُما إلى المَلإِ وغيرِ المَلإِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يَحْتَمِلُ الوجوهَ التي ذَكَرْنا ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ هذا يدلُّ أنهُمْ قد عرَفوا أنَّ ما جاءَهُمُ الرسولُ مِنَ الآياتِ أنها آياتٌ، لكنهُمْ عانَدوا، وكابَروا، ولم يَخضَعوا في قَبولِها ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي الحُجَجُ والآياتُ ﴿مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا إِنَّ هَٰذَا﴾ يَعنونَ الحُجَجَ والبراهينَ التي [جاءَهُمْ بها][5] موسى ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يُسَمّونَ الحُجَجَ والبراهينَ سِحراً لِما أنَّ السِّحْرَ عندَهُمْ باطلٌ، لذلكَ قالوا [عنِ الحُجَجِ][6]: إنها سِحرٌ، وذلكَ تَمْويهٌ منهُمْ، يُمَوِّهونَ على الناسِ لئلا يَظْهَرَ الحقُّ عندَهُمْ، فيَتَّبِعوهُ[7].

وقالَ بعضُهُمْ: الحقُّ هو الإسلامُ والدينُ كقولِهِ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿قَالُوٓا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يَعنونَ الحُجَجَ والآياتِ التي [جاءَهُمْ بها للدينِ لأنهُ جاءَ بالدينِ][8] وجاءَهُمْ أيضاً بِحُجَجِ الدينِ وآياتِهِ، قالوا [عنْ حُجَجِ][9] الدينِ والإسلامِ: [إنها سِحرٌ][10]. ففي التأويلَينِ جميعاً سَمَّوُا الحُجَجَ سِحراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي بأمرِنا، وكذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] أي الإسلامُ هو الدينُ الذي أمَرَ اللهُ بِهِ لا أنهُ يُفهَمُ لِلْعِنْدِ مَكانٌ، [يَنْتَقِلُ مِنْ مَكانٍ][11] إلى مَكانٍ. ولكنْ مَعْنى العِنْدِ مَعْنى الأمرِ. وعلى هذا يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يَعْني الملائكةَ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] أي إنَّ الذينَ بأمرِ ربِّكَ يَعْبُدونَهُ، ولا يَستَكبِرونَ عن عبادتِهِ لِما أنهُ لم يُفهَمْ مِنْ مَجيءِ الحقِّ مِنْ عندِهِ مَكانٌ. فَعَلى ذلكَ لا يجوزُ أنْ يُفهَمَ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] المَكانُ [أو قُرْبُ][12] المكانِ منهُ. ولكنَّ التأويلَ ما ذَكَرْنا أنَّ المَفهومَ مِنْ عندِ اللهِ أمْرُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ والحقُّ ما ذَكَرْنا ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّٰحِرُونَ﴾ الإفلاحُ هو الظَّفَرُ بالحاجةِ. يقولُ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّٰحِرُونَ﴾ أي لا يَظفَرونَ بالحاجةِ، ولا يَغْلِبونَ[13] لأنَّ السِّحْرَ باطلٌ، ولا يَغْلِبُ الباطلُ، بلِ الحقُّ هو الغالبُ، والسِّحْرُ هو المَغْلوبُ على ما غَلَبَ الحقُّ الذي جاءَ بِهِ موسى السِّحْرَ الذي جاءَ [بِهِ][14]

---

(١) في الأصل وم: به. (٢) في الأصل وم: جاؤوا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أتاهم. (٥) في الأصل وم: جاء بهم.
(٦) في الأصل وم: للحجج. (٧) في الأصل وم: فيتبعونه. (٨) في م: جاء بها للدين. (٩) في الأصل وم: لحجج. (١٠) في الأصل وم: سحراً. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: أقرب. (١٣) في الأصل وم: يغلب. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

سَحرَةُ فِرْعَونَ. أو يقولُ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ في الآخِرَةِ بِسِحرِهِمْ في الدنيا، ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ بِسِحرِهِمْ في حالِ سِحرِهِمْ كقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١و..] وقولِهِ[1] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧و...] أي لا يُفلِحون بِظُلمِهِمْ في حالِ ظُلمِهِمْ. وأمّا إذا تَركوا الظلْمَ فقد أفلَحوا. فَعلى ذلكَ السَّحرَةُ إذا تَركوا السِّحرَ فقد أفلَحوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ قيلَ: لِتَصْرِفَنا، وتَصُدَّنا. قالَ القُتَبيُّ: لَفَتُّ فلاناً عن كذا إذا صَرَفْتُهُ، والالْتِفاتُ منهُ، وهو الانصِرافُ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ لِتَرُدَّنا، وتَصرِفَنا على ما قالَ القُتَبيُّ: يُقالُ: لَفَتَهُ تَلْفِتُهُ لَفتاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ مِنْ عِبادةِ الأصنامِ والأوثانِ. ويَحتَمِلُ ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ مِنْ عِبادةِ فِرْعَونَ والطاعةِ لهُ ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: الكِبْرِياءُ المُلْكُ والسلطانُ والشَّرَفُ، أي المُلْكُ الذي كانَ لِفِرْعَونَ والسلطانُ يكونُ لكما باتّباعِ الناسِ لكما لأنَّ كلَّ مَتبوعٍ مُطاعٌ مُعظَّمٌ مُشرَّفٌ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي الألوهيّةُ التي [كانَ يَدّعيها][2] فِرْعَونُ لِنَفسِهِ لكما لأنَّ عِندَهُمْ أنَّ كُلَّ مَنْ أُطيعَ، واتُّبِعَ، فقد عُبِدَ، ونُصِّبَ إلهاً ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بِمُصَدِّقينَ في ما تَدْعُوانِنا[3] مِنَ الرسالةِ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ هذا مِنْ فِرْعَونَ يَنْقُضُ ما ادَّعى مِنَ الألوهيّةِ لِما[4] أظهَرَ الحاجةَ إلى غَيرِهِ[5]، ولا يجوزُ أنْ يكونَ المُحتاجُ إلهاً.

الآيتان ٨٠ و٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ أي سَيُبْطِلُ عَمَلَ السِّحرِ الذي قَصَدوا بهِ؛ أي يَجْعَلُهُ[6] مَغلوباً كقولِهِ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧] ولا يظفَرونَ بالحاجةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ هو ما ذَكَرْنا، أي لا يَجْعَلُهُمْ بأعمالِهِمُ الفاسِدَةِ صالحينَ، أو لا يَجعَلُ أعمالَهُمُ الفاسِدَةَ صالحَةً. وقالَ بعضُهُمْ ﴿لَا يُصْلِحُ﴾ أي لا يَرْضَى بِعَمَلِ المُفْسِدينَ.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذَكَرَ أنهُ[7] يُحِقُّ الحقَّ، والحَقُّ حقٌّ، وإنْ لم يَحِقَّ الحَقُّ، وذَكَرَ ذلكَ في الباطِلِ لِيُبْطِلَ الباطلَ، والباطِلُ باطلٌ، وإنْ لم يَبْطُلْ، ولكن يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الأنفال: ٨] [أي لِيَجعلَ الحقَّ][8] في الابْتِداءِ حقّاً، ويَجعَلَ الباطِلَ في الابْتِداءِ باطلاً، فيكونُ باطلاً بإبطالِهِ الباطِلَ[9].

وبِتحقيقِهِ الحقَّ يكونُ حقّاً، ويُقالُ[10]: هَداهُ، فاهْتَدَى، وأضَلَّهُ، فَضَلَّ؛ أي بِهِدايَتِهِ اهْتَدَى، وبإضلالِهِ ضَلَّ. فَعلَى ذلكَ بإبطالِهِ الباطِلَ بَطَلَ، وبِتحقيقِهِ الحَقَّ حَقَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ[11] ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ما وَعَدَ موسى قومَهُ مِنَ العذابِ وما وَعَدَ مِنَ النعمةِ لهمْ كقولِهِ: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾ مِنْ قومِ موسى لِما قيلَ: إنَّ موسى كانَ مِنْ أولادِ إسرائيلَ، فَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ. مِنْ هذا الوجهِ يُقالُ: أهلُ بَيتِ فلانٍ، وإنْ لم يكنِ البيتُ لهُ. ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ مِنْ قومِ فِرْعَونَ، فهو نُسِبَ إليهِ لِما ذَكَرْنا.

وقالَ أهلُ التأويلِ: أرادَ بالذُّرِّيَّةِ القليلَ منهُمْ؛ أي ما آمَنَ منهُمْ إلّا القليلُ، ولكنْ لا ندري ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿فَمَآ ءَامَنَ﴾ مَنْ آمَنَ ﴿مِّن

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: كانت يدعي. (٣) في الأصل: تدعون، في م: تدعوننا. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، في الأصل: غير. (٦) في الأصل وم: يجعلوه. (٧) في الأصل وم: أن. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: يكون باطلاً. (١٠) في الأصل وم: وهو يقال. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: يحتمل وجوهاً.

جنة السنة

قَوْمِهِ. ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ أي آمَنوا، وإنْ خافوا مِنْ فِرْعَونَ وملئِهِمْ. ويَحْتَمِلُ ما تَرَكَ مِنْ قومِهِ الإيمانَ بموسى مَنْ تَرَكَ إلّا على خوفٍ مِنْ فِرْعَونَ ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي يَقْتُلَهُمْ، ويُعَذِّبَهُمْ.

ففيهِ دلالةٌ أنَّ الخوفَ لا يُعْذِرُ المَرْءَ في تركِ الإيمانِ حقيقةً، وإنْ كانَ يُعْذِرُ في تَرْكِ إظهارِهِ لأنَّ التَّصْديقَ يكونُ بالقَلْبِ، ولا أحَدَ مِنَ الخلائِقِ يَطَّلِعُ على ذلكَ. لِذلكَ لم يُعْذَرْ في تَرْكِ إيمانِهِ[1] لأنهُ يَقْدِرُ على إسرارِهِ. ألا تَرى إلى قولِهِ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾؟ [غافر: ٢٨] كانَ مؤمناً في ما بَيْنَهُ [وبينَ][2] ربِّهِ، ولكنْ[3] لم يظهِرْ [إيمانَهُ][4].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو ما قالَ ﷻ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] أي قَهَرَ، وغَلَبَ على أهلِ الأرضِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ فيهِ دلالةٌ أنَّ الإيمانَ والإسلامَ واحدٌ في الحَقيقةِ لأنهُ بَدَأَ بالإيمانِ بقولِهِ [﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾ وخَتَمَ بالإسلامِ بقولِهِ][5] ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ دلَّ أنهما واحدٌ.

فالإيمانُ[6] اعْتِقادٌ وتَرْكُ[7] تَضْييعِ كلِّ حقٍّ، والإسلامُ اعْتِقادُ كلِّ حقٍّ وتَرْكُ تَضْييعِهِ، واللهُ أعلَمُ. والإسلامُ هو جَعْلُ كُلِّيَّةِ الأشياءِ في ما فيها مِنَ الشهادةِ لِلهِ بالرُّبُوبِيَّةِ لهُ والألوهيَّةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَيْنِ:

أحَدُهما[8]: أنْ يكونَ قالَ ذلكَ لمّا خافوا مَواعيدَ فِرْعَونَ وعُقوباتِهِ كقولِهِ لِلسَّحَرَةِ لمّا آمَنوا ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ﴾ الآية [الأعراف: ١٢٤] فقالَ عندَ ذلكَ ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾ في دَفْعِ ذلكَ ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الآية ٨٥]

[والثاني: ما قالَ][9] ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ لما[10] قيلَ: /٢٣٣ ـ ب/ يَقْتُلُهُمْ[11]، ويُعَذِّبُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾][12] هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: أي لا تَجْعَلْ لهمْ علينا الظَّفَرَ والنَّصْرَ فَيَظُنوا[13] أنهمْ على هُدىً وعلى حقٍّ[14]، ونحنُ على ضَلالٍ وباطلٍ.

والثاني: لا تَجْعَلْنا تحتَ أيدي الظَّلَمَةِ فَيُعَذِّبونا، فيكونَ ذلكَ فتنةً لنا ومِحْنَةً على ما فَعَلَ فِرْعَونُ بالسَّحَرَةِ لمّا آمَنوا.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [أي ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ وهما][15] واحدٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ الآيةُ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي اتَّخِذا لِقومِكُما مَساجِدَ تُصَلّونَ فيها ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ﴾ أي اجْعَلوا في بيوتِكُمْ التي [اتَّخَذْتُموها مساجِدَ ﴿قِبْلَةً﴾ فيكونُ قولُهُ][16]: ﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [الأمرَ باتِّخاذِ المساجِدِ، ويكونُ في قولِهِ ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ الأمرُ باتِّخاذِ القِبْلَةِ في المساجِدِ التي أمَرَ بِبِنائها.

والثاني: [يَحْتَمِلُ][17] قولُهُ: [﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾][18] أي اتَّخِذا لِقومِكُما بِمِصْرَ مَساجِدَ على ما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل وم: إتيانه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وإن. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: هو. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يحتمل. (٩) في الأصل: يحتمل ما قالوا. (١٠) في الأصل وم: ما. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: إن. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: فيظنون. (١٤) في الأصل وم: خوف. (١٥) في الأصل وم: فيه قوله ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ و﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾. (١٦) في الأصل وم: اتخذتم المساجد قبلة. (١٧) ساقطة من الأصل. (١٨) ساقطة من م.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي اجعَلوا بيوتَكُمُ التي بَنَيْتُم لأنفُسِكُم قِبْلَةً تَتَوجَّهونَ إليها. ويكونُ فيهِ دلالةُ أنّ نَصْبَ الجماعةِ واتِّخاذَ المَساجِدِ والقِبْلَةِ مُتوارِثَةٌ لَيسَتْ بِبَديعةٍ لنا وفي شَريعَتنا خاصَّةً، ويُؤيِّدُ ما ذَكَرْنا أنَّ فيهِ الأمرَ باتِّخاذِ المساجِدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ دلَّ الأمرُ بإقامةِ الصلاةِ على أنَّ الأمرَ بِتَبْوِئَةِ البيوتِ أمرٌ باتِّخاذِ المساجِدِ، والآيةُ التي ذَكَرَ فيها اتِّخاذَ المَساجِدِ تَخْرُجُ مُخْرَجَ الإباحةِ لنا، وهو قولُهُ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦] هو في الظاهرِ إباحةٌ، وقيلَ[1]: هو أمرٌ في الحقيقةِ، وإنْ كانَ في الظاهرِ إباحةً. ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾الآيةَ؟ [النور: ٣٦] ولا شَكَّ أنَّ ذِكْرَ اسْمِهِ والتسبيحَ لهُ أمرٌ فيهِ، دلَّ أنهُ ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا أهلُ التأويلِ فإنهم قالوا: إنهمْ كانوا يَخافونَ فِرْعَونَ ومَلأَهُ، فأُمِروا أنْ يَجْعَلوا في بيوتِهِمْ مَساجِدَ مُسْتَقْبِلَةَ الكعبةِ، يُصَلّونَ فيها سِرّاً خَوفاً مِنْ فِرْعَونَ، هذا يَحْتَمِلُ إذا كانَ قَبْلَ هَلاكِ فِرْعَونَ وقَبْلَ أنْ يَسْتَولوا على مِصرَ. وإذا كانَ بَعْدَ هلاكِهِ وبَعْدَ ما اسْتَولَوا، ومَلَكوا، على مِصْرَ وأهلِهِ فالأمرُ فيهِ ما ذَكَرْنا أمرٌ باتِّخاذِ المساجِدِ ونَصْبِ الجماعاتِ فيهِ وإقامةِ الصلاةِ فيها.

وقالَ بعضُهُمْ منَ أهلِ التأويلِ: وَجِّهوا بيوتَكُمْ ومَساجِدَكُمْ نَحْوَ القِبْلَةِ. لكنَّ هذا بَعيدٌ لأنهُ لا يكونُ بيتاً إلّا وتكونُ جهةٌ مِنْ جِهاتِهِ إلى القِبْلَةِ، فلا مَعْنَى لهُ، والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

ويَحْتَمِلُ الأمرُ بِتَبْوِئَةِ البيوتِ لِقومِهِما بِمِصْرَ وجَعْلِ البيوتِ قِبْلَةً وجهَينِ:

أحدُهما: الأمرُ بالانْفِصالِ مِنْ فِرْعَونَ وقومِهِ حتى إذا أرادوا الخروجَ مِنْ عندِهِمْ قَدَروا على ذلكَ، ولا يكونُ المرورُ عليهِمْ. وكانَ ذلكَ الانْفِصالُ؛ إنما كانَ مِنْ جهةِ القِبْلَةِ.

والثاني: ما ذَكَرَ [أنهم][2] أرادوا أنْ يَعْتَزِلوهُمْ حتى يَتَهَيّأَ لهمُ الصلاةُ فيها، وكانت[3] لا تَتَهَيّأُ لهمْ في بيوتِ فِرْعَونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ البِشارةَ في الآخرةِ [بالجنة][4] وأنواعِ النِّعَمِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يُبَشِّرَهُمْ بالملكِ في الدنيا والظَّفَرِ على فِرْعَونَ وأنواعِ النِّعَمِ بعدَ ما أصابَتْهُمُ[5] الشدائدُ مِنْ فِرْعَونَ كقولِهِ: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

وقالَ أبو عوسَجَةَ: قولُهُ: ﴿أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا﴾ تُهَيِّئا مِنَ التَّهْيِئَةِ؛ أي هَيِّئا لهمْ مَوضِعاً كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٩٣] أي هَيَّأْنا لهمْ مُهَيّأً صِدْقٍ.

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿زِينَةً﴾ مِنْ أنواعِ ما آتاهُمْ مِنَ الأنزالِ والنباتِ كقولِهِ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤] ونَحْوُهُ. ويَحْتَمِلُ الزينةَ التي كانوا يَتَزَيَّنونَ بها مِنَ المراكبِ والمَلْبَسِ وما يَتَحَلَّونَ بها مِنْ أنواعِ الحُلِيِّ وأموالٍ كثيرةٍ سِوَى ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ قالتِ المُعْتَزِلَةُ: تأويلُ قولِهِ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ أي آتاهُمْ لئلا يُضِلّوا الناسَ عن سَبيلِهِ، ولكنْ أضَلّوهُمْ، وقالوا: هذا كما يُقالُ: لم يَكُ هذا كذا [لِتَفْعَلَ كذا][6]، ولكنْ فَعَلْتَ، ونَحْوُهُ مِنَ الكلامِ.

ولكنْ عندَنا هو ما ذَكَرْنا: هي[7] الأموالُ، وما ذَكَرَ: ﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ لأنه إذا عَلِمَ أنهمْ يُضِلّونَ الناسَ عنْ سَبيلِهِ ما آتاهُمْ لِيُضِلّوا، وهو كما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقولِهِ: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ الآيةَ [المؤمنون: ٥٦] وأمثالُهُ كذا[8]، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: قيل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وكان. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أصابوا.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: هم. (٨) في الأصل وم: فكذا.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يَحتمِلُ هذا وجهَين:

أحدُهما[1]: أي ﴿ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ واجعَلْ في قلوبِهِمْ قَساوةً وغِلْظَةً، تنفِرُ الأتباعُ ومَنْ يُقلِّدُ مِنْ أتباعِهِمْ[2] فيكونَ ذلكَ أهونَ علينا في استِنْقاذِ الأتباعِ وأدْعَى لهمْ إلى الإيمانِ؛ أعني بالأتباعِ[3] مَنْ يُقلِّدُهُمْ، ويكونُ ذلكَ سبباً لإبعادِهِمْ عنْ أتباعِهِمْ وتقليدِهِمْ إيَّاهُمْ، هذا وجهٌ.

والثاني: قولُهُ: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي اجعَلْ ذلكَ آيةً تَضْطَرُّهُمْ إلى الإيمانِ، فإنهمْ لم يُؤمِنوا بالآياتِ التي أرسلَها عليهِمْ مِنَ الطوفانِ والجَرادِ وما ذُكِرَ مِنَ البلايا. فيكونُ قولُهُ: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ هذا مِنْ طَمْسِ الأموالِ وقَساوةِ القلوبِ وشِدَّتِها، واللهُ أعلَمُ.

قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ واطْبَعْها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وهو الغرَقُ، عند ذلكَ يؤمنونَ. أمّا بهذِهِ الآياتِ فلا يَحتمِلُ إذا كانَ ﷻ أخبَرَ أنهمْ لا يؤمنونَ، فَيَسَعُ لهُ هذا الدعاءُ. وأمّا ما قَبْلَ أنْ يُخبِرَهُ بذلكَ فلا يَسَعُ لهُ أنْ يَدْعُوَ بهذا، وهو إنما أرسلَهُ عليهِمْ لِيَدْعُوَهُمْ إلى الإيمانِ.

والطَّمْسُ: قالَ أبو عوسَجَةَ: هو الذهابُ بها، أي اذْهَبْ بها. قالَ القُتَبيُّ: قولُهُ: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي أهْلِكْها، وهو مِنْ قولِكَ: طَمَسَ الطريقُ؛ إذا عفا، ودَرَسَ. وقالَ غيرُهُ: الطَّمْسُ هو المَسْخُ، وهو[4] كقولِهِ ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦] أي مَسَخْناهُمْ، وقالَ بعضُهُمْ: الطَّمْسُ هو التَّغْييرُ عَنْ جَوهَرِها. دعا موسى بهذا الدعاءِ بالأمرِ [وهو][5] آيِسٌ مِنْ إيمانِهِمْ، وهو كقولِ نوحٍ: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ الآيةَ [نوح: ٢٦و٢٧] عندَ الإياسِ منهُمْ. فَعَلَى ذلكَ موسى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ موسى كانَ يَدْعو، وهارونُ يُؤَمِّنُ على دعائِهِ، فقالَ اللهُ ﷻ ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ سَمَّى كلامَهُما[6] دعاءً. ولهذا قالَ محمدُ بْنُ الحَسَنِ، رحِمَهُ اللهُ، في بعضِ كتبِهِ: إنَّ الإمامَ يدعو في القنوتِ في الوِترِ، والقومُ يُؤَمِّنونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ على الرسالةِ وما أمَرْتُكُما بهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهو كقولِهِ لمحمدٍ ﷺ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨] ونحوَهُ. وإنْ كانَ العِلْمُ مُحيطاً أنَّ الأنبياءَ، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، لا يَتَّبِعونَ سبيلَ أولئكَ، ولا يَتَّبِعونَ أهواءَهُمْ لِما عَصَمَهُمْ ﷻ ولكنْ ذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، لِيُعْلَمَ أنَّ العِصْمَةَ لا تُزيلُ النَّهْيَ والأمرَ، بل تَزيدُ حَظْراً ونَهْياً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ هذا ظاهرٌ. وفي قولِهِ ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ دلالةُ خَلْقِ أفعالِ العبادِ لأنهُ أضافَ إلى نَفْسِهِ؛ جاوزَ بِهِمْ، وبَنو إسرائيلَ هُمُ الذينَ تَجاوَزوا. دلَّ ذلكَ أنهُ خالقُ فِعْلِهِمْ.

وأما قولُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ أي حتى إذا غرِقَ لأنهُ ذُكِرَ في بعضِ القصةِ أنَّ فِرعَونَ لمّا ساحَلَ البَحْرَ، فرأى البحرَ مُنْفَرِجاً، قالَ[7]: إنما انفرَجَ/ ٢٣٤ ـ أ/ البحرُ لي، فلمّا دَخَلَ غَرِقَ، فَعِنْدَ ذلكَ قالَ غريقاً ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ثم إيمانُهُ لم يُقبَلْ في ذلكَ الوقتِ لوجهَينِ:

أحَدُهما: لِما يَحتمِلُ أنْ يكونَ إيمانُهُ عندَ رُؤيَةِ البَأسِ وخوفِ الهلاكِ، فهو إيمانُ دفعِ البَأسِ لا إيمانُ حقيقةٍ، وهو على ما أخبَرَ عنْ إيمانِ الكفَرةِ في الآخِرَةِ لمّا عايَنوا العذابَ كقولِهِمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] وكقولِهِ ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩و١٠٠] وكقولِهِمْ ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] وكقولِهِمْ:

---

(١) في الأصل وم: يحتمل. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: وتقليدهم. (٣) الباء ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: كلهما. (٧) في الأصل وم: فقال.

جنة السنة

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] وأمثالُهُ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] فما عاينوا هم مِنَ العذابِ أكبرُ وأشدُّ ممّا عايَنَ فرعونُ.

ثم أخبرَ أنهمْ ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ إلى ما كانوا يَعْمَلونَ، لكنهُمْ قالوا ذلكَ قولَ دفعٍ. فَعَلى ذلكَ إيمانُ فِرْعَونَ إيمانُ دفعِ البأسِ عنْ نَفْسِهِ لا إيمانُ حقيقةٍ واختيارٍ.

والثاني: إنَّ الإيمانَ والإسلامَ هو تسليمُ النَّفْسِ إلى اللهِ، فإذا آمَنَ في وقتٍ خَرَجَتْ نَفْسُهُ مِنْ يدِهِ لم يَصِرْ مُسْلِماً نفسَهُ إلى اللهِ؛ إذْ نفسُهُ ليسَتْ في يدِهِ، ولذلكَ لم يُقْبَلِ الإيمانُ في ذلكَ الوقتِ وقتِ الإشرافِ على الهلاكِ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخرَ، وهو أنَّ الإيمانَ باللهِ لا يكونُ بالإسْتِدْلالِ بالشاهدِ على الغائبِ في ذلكَ الوقتِ؛ إذْ لا يكونُ ذلكَ إلّا بالنَّظَرِ والتَّفَكُّرِ، وفي ذلكَ الوقتِ لا يمكنُ النَّظَرُ والتَّفَكُّرُ. لِذلكَ لم يكنْ إيمانَ حقيقةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٩١ و٩٢ [وقولُهُ تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾][1] وقولُهُ[2] تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ قيلَ [فيهِ بوجوهٍ]:

أحدُها[3]: قولُهُ: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ مِنَ النَّجْوَةِ، أي نُلْقيكَ على النَّجْوَةِ، وهو مكانُ الإرْتِفاعِ والإشرافِ لِيراهُ كلُّ أحدٍ أنهُ هَلَكَ لِيُظْهِرَ لهمْ أنهُ لم يكنْ إلهاً على ما ادَّعى، وأنَّ[4] سائرَ أبدانِ قومِهِ لم تُلْقَ على النَّجْوَةِ، ولكنْ بَقِيَتْ في البَحْرِ.

والثاني: قولُهُ[5]: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ أي نُخرِجُكَ مِنَ البحرِ، لا نَتْرُكُكَ فيهِ ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

والثالثُ: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ ولا نُتْبِعُ بدَنَكَ روحَكَ لأنهُ ذُكِرَ في القصةِ أنهمْ لمّا [غَرِقوا هَوَوا][6] إلى النارِ كقولِهِ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ إنهُ أخبَرَ [أنهُ][7] لم يَهْوِ جَسَدُهُ بروحِهِ إلى النارِ، ولكنْ أُخرِجَ بَدَنُهُ[8]، وهَوَتْ روحُهُ إلى النارِ مَعَ سائرِ قومِهِ، واللهُ أعلَمُ، لِيُرى جَسَدُهُ، ويَظْهَرَ كَذِبُهُ، ولا يُشْتَبَهَ أمْرُهُ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: يَحْتَمِلُ لِيكونَ هلاكُكَ آيةً، فلا يَدَّعِيَ أحدٌ الرُّبوبيَّةَ والألوهيَّةَ مثلَ ما ادّعى هو، أو يقولُ: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي مَنْ شاهدَكَ كذلكَ غريقاً مُلْقىً كانَ آيةً لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: يعني أهلَ مكةَ ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ عنْ هلاكِ فِرعَونَ، وقومَهُ لِما قالوا ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣] يقولُ: همْ غافلونَ عمّا أصابَ أولئكَ؛ إذْ مثلُ هذا لا يُفْتَرى، أعني هذِهِ القصصَ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ أي كثيراً منهُمْ كانوا غافلينَ عمّا أصابَهُمْ. والغَفْلَةُ تكونُ على وجهَينِ:

أحدُهما: غَفْلَةُ إعراضٍ وعِنادٍ بَعْدَ العِلْمِ ومعرفةِ أنَّ ذلكَ حقٌّ.

والثاني: [غَفْلَةُ تَرْكِ][9] النظرِ والتَّفَكُّرِ، فكلا الوجهَينِ مذمومٌ.

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: بَوّأنا: أنزلنا بني إسرائيلَ مَنْزِلَ صِدْقٍ. وقالَ بعضُهُمْ: بَوّأنا: هَيّأنا لِبني إسرائيلَ ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ مُهَيّأً صِدْقٍ حَسَناً كقولِهِ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [آل عمران: ١٢١] أي تُهَيِّئُ لِلمؤمنينَ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي مَكَّنّاهُمْ تمكينَ صِدْقٍ، وهو كقولِهِ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [القصص: ٥و٦] يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ التَّبوئةِ التَّمكُّنَ الذي ذَكَرَ في هذِهِ الآيةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: و أما قوله. (٣) في الأصل وم: بوجوه. (٤) في الأصل وم: وأما. (٥) في الأصل وم: قيل. (٦) في الأصل: هووا غرقوا، في م: هم واغرقوا. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: بدونه. (٩) في الأصل وم: بغفل بترك.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مَنْزِلَ صِدْقٍ أي كريمٍ، وقالَ: مَنْزِلَ صِدْقٍ: أي حُسْنٍ، ويَحْتَمِلُ وجهَينِ آخرينِ.

أحدُهما: أنهُ وَعَدَ لهمْ أنْ يُمَكِّنَ لهمْ في الأرضِ، فأنجزَ ذلكَ الوعدَ، فهو مُبَوَّأُ صِدْقٍ أي مُمَكَّنٌ[١] صِدْقٍ حينَ[٢] أنجزَ ذلكَ الوعدَ، وصَدَقَ الوعدُ ما ذُكِرَ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧]

والثاني: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي مُبَوَّأَ أهلِ صِدْقٍ لأنَّ الشامَ كانَ لم يَزَلْ مَنْزِلَ أهلِ صِدْقٍ، وعلى هذا يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ الآيةَ [الإسراء: ٨٠] أي أخرجني مُخْرَجَ أهلِ صِدْقٍ، وادخِلْني مُدْخَلَ أهلِ صدقٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: يعني المَنَّ والسَّلْوَى، ولكنَّ الطَّيِّباتِ هي التي طابَتْ بها الأنفُسُ ممّا حلَّ بالشَّرْعِ ممّا لا تَبِعَةَ على أربابِها ممّا لم يُعْصَ فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي فما اختَلَفوا في الدينِ إلّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ أنهُ حقٌّ، وقيلَ: فما اختَلَفوا في محمدٍ في أنهُ رسولُ اللهِ إلّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ أنهُ رسولُ اللهِ، وقيلَ: فما اختَلَفوا في القرآنِ والآياتِ التي أنزَلَها على رسولِهِ إلّا من بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ أنهُ مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في موسى أنهُ رسولُ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ الآيةُ ظاهرةٌ مِنَ الوجوهِ التي ذَكَرْتُ[٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: الجزاءُ والثوابُ، والثاني: في تَبْيِينِ المُحِقِّ والمُبْطِلِ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الخطابُ بِهِ والمُرادُ بِهِ رسولُ اللهِ: إنْ كُنْتَ في شكٍّ ممّا أخبَرْتُهُمْ، وأنبأتَهُمْ. فَمَنْ قالَ: الخِطابُ لرسولِ اللهِ والمُرادُ بِهِ غَيرُهُ، فهو[٤] ما ظَهَرَ في الناسِ [أنهُ يُخاطِبُ][٥] مَنْ هو أعظمُ مَنْزِلَةً عندَهُمْ وقدراً، ويُريدُ[٦] بِهِ غَيرَهُ، وإلّا لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ يَشُكُّ في ما أُنزِلَ إليهِ قَطُّ، أو يَرْتابُ، كقولِهِ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ الآية [الإسراء: ٢٣] ومعلومٌ أنهُ في وقتِ ما خاطبَ بِهِ لم يكُنْ أبواهُ حَيَّينِ[٧]. دلَّ أنهُ أرادَ بِهِ غَيرَهُ.

فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ. ومَنْ قالَ: الخِطابُ والمُرادُ بِهِ مَنْ حَضَرَ رسولَ اللهِ يَقُولُ: إنَّ الوفودَ مِنَ الكَفَرَةِ كانوا يَتَقَدَّمونَ مِنْ رسولِ اللهِ، فيسألونَهُ شيئاً، فيخاطبُ الذي[٨] يَتَقَدَّمُ، وكانَ يَحْضُرُهُ الوفدُ والجماعةُ، يقولُ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ على هذا التأويلِ هو مُنْزَلٌ إليهِ؛ إذ كلُّ مُنْزَلٍ على رسولِ اللهِ [هو مُنْزَلٌ][٩] عليهِ وإليهِ وإلى كلِّ أحدٍ لِقولِهِ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣] أمَرَ باتِّباعِ ما أُنزِلَ إليهِمْ. دلَّ أنَّ كلَّ مُنْزَلٍ على رسولِ اللهِ مُنْزَلٌ[١٠] عليهِمْ.

ومَنْ قالَ: الخطابُ لرسولِ اللهِ، والمرادُ بهِ غَيرُهُ لِما[١١] لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ يَشُكُّ في شَيءٍ ممّا أُنزِلَ إليهِ، ولكنهُ يريدُ بِهِ التقريرَ عندَهُ[١٢] لِقولِ الكفارِ: الذي يُلْقِي على محمدٍ شيطانٌ، فيريدُ بِهِ التقريرَ عندَهُ، أو يُخاطبُ بِهِ كلَّ شاكٍّ كقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] هو يخاطبُ إنساناً، ولكنَّ المُرادَ منهُ كلُّ إنسانٍ/ ٢٣٤ ـ ب/ مَغرورٍ وكلُّ كافرٍ، وذلكَ جائزٌ في القرآنِ، كثيرٌ أنْ يُخاطِبَ كُلّاً في نَفْسِهِ.

---

(١) في الأصل وم: تمكين. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: ذكر. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) في الأصل وم: أنهم مخاطبون. (٦) في الأصل وم: ويريدون. (٧) في الأصل وم: أحياء. (٨) في الأصل وم: الذين. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: نزل. (١١) في الأصل: ما، في م: مما. (١٢) من م، في الأصل: عنه.

جنة السنة

ومَنْ قالَ: خاطبَ بهِ رسولَهُ، وأرادَهُ أيضاً، وهو كانَ في الابْتِداءِ على غيرِ يقينٍ أنهُ يُوحَى إليهِ أو لا كقولِهِ: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] فقالَ ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الأنباءَ التي أخبَرتْهُمْ، وانبأتْهُمْ، وادَّعيتَ أنها أُوحِيَتْ إليكَ [يُخْبِروكَ أنها على ما أخبَرتْهُمْ][1].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾قال بعضُهُمْ: فاسألْ أهلَ الكتابِ منهمْ [يخبِروكَ أنهُ][2] مكتوبٌ عندَهُمْ كقولِهِ: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]

وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ قيلَ: الحقُّ: القرآنُ، جاءَ مِنْ ربِّكَ، وقيلَ: جاءَ البيانُ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكّينَ.

الآية ٩٥ [وقولُهُ تعالى][3]: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ يريدُ بالخِطابِ غيرَهُ، وإلّا لا يَحتمِلُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ مِنَ الشاكّينَ أو يكونَ مِنَ الذينَ يُكذِّبونَ بآياتِ اللهِ أو يكونَ مِنَ الخاسِرينَ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قولُهُ: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هو قولُهُ ﷺ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩و...] هذا يكونُ في الخَتْمِ: مَنْ يَخْتُمْ بهِ؛ يعني بالكُفرِ، فقد حقَّتْ [عليهِ][4] كلمةُ ربكَ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ أو ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية [الأعراف: ٣٧] وكلمةُ ربِّكَ ما ذَكَرَ ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقولُهُ تعالى: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي عِلْمُ ربِّكَ بأحوالِهِمْ، أي مَنْ كانَ عَلِمَهُ أنهُ لا يؤمِنُ وقتَ اختيارِهِ الكُفرَ كقولِهِ: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وقتَ اختيارِهِ الكُفرَ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وقتَ اختيارِهِ الظلمَ ونحوُ ذلكَ.

فالتأويلُ الأوَّلُ: يرجِعُ إلى الخَتْمِ بهِ، والثاني: إلى وقتِ مَنْ يَثْبُتُ عليهِ عِلْمُ ربِّهِ أنهُ لا يؤمِنُ في ذلكَ الوقتِ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾قيلَ: في الدنيا إيمانُ دفعِ العذابِ، ويَحتمِلُ: في الآخِرَةِ[5]، وقد ذكَرْنا هذا.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ الآية؛ أي لم تكُنِ القُرى آمنتْ عندَ مُعايَنةِ البأسِ [ولم يكُنْ][6] إيمانُها نفَعها، إلّا إيمانَ قومِ يونُسَ فإنهمْ آمَنوا إيمانَ حقيقةٍ، وعَلِمَ اللهُ صدقَهُمْ في[7] إيمانِهِمْ، فنَفَعَهُمْ إيمانُهُمْ. هذا يُخرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ سائرَ القُرى كانَ إيمانُها عندَ إقبالِ العذابِ إليهِمْ ووقوعِهِ عليهِمْ، فلم يَنْفَعْهُمْ إيمانُهُمْ إلا قومَ يونُسَ فإنَّ إيمانَهُمْ إنما كانَ [بتخويفِ العذابِ، فنَفَعَهُمْ][8].

والثاني: يَحتمِلُ أنْ يكونَ قومُ يونُسَ كانَ نزولُ العذابِ بهمْ على التخييرِ والتمكينِ: إنْ قَبِلوا الإيمانَ، وآمَنوا، دُفِعَ العذابُ عنهُمْ، وإنْ لم يَقْبَلوا أُنْزِلَ بهِمْ.

والثالث: كانَ[9] إيمانُ سائرِ القُرى بَعْدَ [ما][10] عايَنوا مُقامَهُمْ في النارِ، فكانَ[11] إيمانُهُمْ إيمانَ اضطِرارٍ، وقومُ يونُسَ آمنوا قبلَ أنْ يُعايِنوا ذلكَ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ بَعْدَ وقوعِ العذابِ والبأسِ ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ فإنهمْ آمَنوا

---

(١) في الأصل وم: ليخبروكم على ما أخبرتم. (٢) في الأصل وم: يخبرونك لأنه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) في الأصل وم: الدنيا. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل وم: من. (٨) في الأصل وم: لتخويف العذاب فينفعهم. (٩) أدرج قبلها في م: إنما. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: فيكون.

جنة السنة

[قبلَ أنْ يُعاينوا][(1)] العذابَ قَبْلَ أنْ يَقَعَ بِهِمْ، وإيمانُ فِرْعَونَ وقومِهِ إنما كانَ بَعْدَ ما عَرَفوا وبَعْدَ ما خَرَجَتْ أنْفُسُهُمْ مِنْ أيديهِمْ، فلم يُقْبَلْ. وإيمانُ قومِ يونُسَ كانَ [قَبْلُ][(2)] أنْ يَقَعَ العذابُ بهِمْ، وأنْفُسُهُمْ في أيديهِمْ بَعْدُ، فَقُبِلَ، وهو ما ذَكَرَ ﷻ ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ الآيةَ[الأعراف: ١٧١] آمَنوا عندما عايَنوا قَبْلَ أنْ يَقَعَ بهِمُ [العذابُ][(3)] وسائرُ الأممِ الخاليةِ كانَ منهُمُ الإيمانُ بعدَ وقوعِ العذابِ بهِمْ مِنْ نَحْوِ عادٍ وثَمودَ وأمثالِهِ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا آنفاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قولُهُ ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾ الوعدَ بحلولِ العذابِ بهِمْ، وعذابُ الخِزْيِ هو العذابُ الفاضِحُ، وإلا الخزيُ هو العذابُ.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ قالتِ المُعْتَزِلَةُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ مَشيئةَ الاختيارِ، لكنهمْ لم يؤمنوا، واستَدَلّوا على ذلكَ بقولِهِ: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

فَيُقالُ لهمْ: إنَّ مَشيئةَ الاختيارِ هي الظاهرةُ عندكُمْ، ومَشيئةَ الجَبْرِ والقَهْرِ غايتُهُ. فإذا وُجِدَ منهُ مَشيئةُ الاختيارِ، فلم يؤمنوا، ولم تَنْفُذْ مشيئتُهُ فيهِمْ، كيفَ يُصَدَّقُ هو في الإخبارِ عنِ المَشيئةِ التي هي غايتُهُ أنها لو كانَتْ لآمَنوا؟ هذا فاسدٌ على قولِهِمْ.

وبَعْدُ فإنَّ المَشيئةَ لو كانَتْ مشيئةَ القَهْرِ لكانوا مؤمنينَ بِتلكَ المَشيئةِ وفي خَلْقِهِ لأنَّ كلَّ كافرٍ مؤمنٌ بِخِلْقَتِهِ لأنَّ خِلْقَةَ كلِّ أحدٍ تَشْهَدُ على وحدانيّةِ اللهِ. فإذَنْ كانوا مؤمنينَ بالخِلْقَةِ.

ثم إنهُ لو شاءَ لآمَنوا؛ دلَّ أنهُ لم يُرِدْ بهِ مشيئةَ الاختيارِ.

وتأويلُهُ عندَنا هو أنَّ عندَ اللهِ تعالى لُطْفاً، لو أعطاهُمْ كلَّهُمْ لآمَنوا جميعاً، لكنهُ إنْ عَلِمَ منهُمْ أنهمْ لا يُؤْمنونَ شاءَ ألّا يُؤْمِنوا.

ثم لا يَحْتَمِلُ أنْ يَتَحَقَّقَ الإيمانُ بالجَبْرِ والقَهْرِ لأنهُ عملُ القَلْبِ، والجَبْرُ والإكراهُ لا يَعْمَلُ على القَلْبِ؛ فهو إنْ يَتَكَلَّمْ بكلامِ الإيمانِ فلا يكونُ مؤمناً حتى يؤمِنَ بالقلبِ. فيكونُ التأويلُ على قولِهِمْ: ولو شاءَ ربكَ فلا يؤمنونَ. فهذا مُتناقِضٌ فاسدٌ.

وبَعْدُ فإنَّ الإيمانَ لا يكونُ في حالِ الإكراهِ والإجبارِ لأنَّ الإكراهَ يُزيلُ الفِعْلَ عنِ المُكْرَهِ كأنْ لا فِعْلَ لهُ في الحكمِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. فإنْ قيلَ: أليسَ قالَ اللهُ ﷻ ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] حتى يُسْلِموا، وذلكَ إكراهٌ، وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ «أُمِرْتُ أنْ أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا لا إلهَ إلا اللهُ» [البخاري: ٢٥] فذلكَ إكراهٌ، فكيفَ يُجْمَعُ بينَ آيتَينِ؟ قيلَ: لوجهَينِ:

أحدُهما: ما ذُكِرَ أنَّ هذهِ السورةَ مكيّةٌ، وقولُهُ: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ مَدَنيّةٌ، فَيَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي لا تُكْرِهُهُمْ، ثم أمَرَ بالمدينةِ بالقتالِ والحربِ والإكراهِ عليهِ.

والثاني: يجوزُ أنْ يَجْمَعَ بينَ الآيتينِ، وهو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي تُقاتِلونَهُمْ حتى يقولوا قولَ إسلامٍ، ويَتَكَلَّموا بكلامِ الإيمانِ؛ دليلُهُ ما رُوِيَ «حتى يقولوا لا إلهَ إلا اللهُ»

والقولُ بقولِ: لا إلهَ إلا اللهُ على غيرِ حقيقةِ ذلكَ في القلبِ ليسَ بإيمانٍ. وفي هذهِ الآيةِ ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وبالإكراهِ لا يكونونَ مؤمنينَ حقيقةً لأنهُ عملُ القلبِ، والإكراهُ ممّا لا يَعْمَلُ عليهِ، واللهُ أعلمُ.

وتأويلُ[(4)] قولِهِ: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾؟ أي لا تَمْلِكُ أنْ تُكْرِهَهُمْ، وكانَ رسولُ اللهِ لشدةِ حِرْصِهِ ورغبتِهِ[(5)] في إيمانِهِمْ كادَ أنْ يُكْرِهَهُمْ على الإيمانِ إشفاقاً عليهِمْ كقولِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

---

(1) في الأصل وم: إذا عاينوا. (2) من م، ساقطة من الأصل. (3) ساقطة من الأصل وم. (4) في الأصل وم: تأويله. (5) في الأصل وم: ورغبة.

جنة السنة

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قيل: بِمَشيئةِ اللهِ، وقيلَ: بِعِلْمِ [اللهِ][1] وبإرادتِهِ، وهو ما ذَكَرْنا: / ٢٣٥ ـ أ/ لا تؤمنُ نفسٌ إلا بمشيئةِ اللهِ وإرادتِهِ في ذلك. ولا يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ سِوَى المشيئةِ والإرادةِ لأنهُ كمْ مِنْ مأمورٍ بالإيمانِ لم يؤمنْ؟ فلم يَحْتَمِلِ الأمرَ. ولا يَحْتَمِلُ الإباحةَ؛ لا يُباحُ تَرْكُ الإيمانِ في حالٍ.

[وأصلُهُ ما ذَكَرْنا لأنهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ﷻ يَعْلَمُ مِنْ خَلْقِهِ اختيارَهُ عداوتَهُ والخلافَ لهُ، ويَسْأَلُهُمُ[2] الوِلايَةَ؛ يُخرِجُ ذلكَ مُخرَجَ العَجْزِ لأنَّ في الشاهِدِ اختيارَ[3] عَداوةِ أحدٍ، والآخَرُ يختارُ وِلايتَهُ؛ إنهُ إنما يَختارُ لِضَعْفِهِ وعَجزِهِ فيهِ، واللهُ أعلمُ][4].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قيلَ [ويَجعَلُ][5] الإثمَ على الذينَ لا يَعْقِلونَ، وقيلَ: ويَجعَلُ العذابَ على الذينَ لا يَعْقِلونَ؛ أي لا يَسْتَعمِلونَ عقولَهُمْ حتى يَعْقِلوا[6]، أو على الذينَ لا يَنْتَفِعونَ بعقولِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ عندَ نزولِ العذابِ ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ إذا رأتْ بأسَنا فكانَتْ مثلَ قومِ يونُسَ، فإنهمْ آمَنوا حينَ رَأَوُا[7] العذابَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: وما كانَ لِنَفْسٍ في علمِ اللهِ أنها لا تُؤمِنُ، فَتُؤمِنُ؛ أي لا تؤمِنُ نَفْسٌ في عِلْمِ اللهِ أنها لا تُؤمِنُ، إنما يؤمِنُ [مَنْ][8] في عِلْمِ اللهِ أنهُ يُؤمِنُ. وأمّا مَنْ في عِلْمِ اللهِ أنهُ لا يؤمِنُ فلا يؤمِنُ. وقيلَ: وما كانَ لنفسٍ؛ أي لا تؤمِنُ نفسٌ إلا بِمَشيئَةِ اللهِ؛ أي إذا آمنَتْ إنما تُؤمِنُ بِمَشيئَةِ اللهِ؛ ما تَفْعَلُ إنما تَفْعَلُ بِمَشيئَةِ اللهِ. كقولِهِ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩] وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ. بإذنِ اللهِ؛ أي بأمرِ اللهِ، فمَعناهُ: إذا آمنَتْ إنما تؤمنُ بأمرِهِ، لا تؤمِنُ بِغَيرِ أمرِهِ. فالأوَّلُ أقربُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي يَجعَلُ جزاءَ الرِّجْسِ، أي يَجعَلُ جَزاءَ الكُفْرِ على الذينَ لا يَعْقِلونَ، أيِ الذينَ لا يَنْتَفِعونَ بعقولِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أيِ انْظُروا إلى آثارِ نِعَمِهِ وإحسانِهِ التي في السمواتِ والأرضِ [تَشْكُروهُ[9]؛ يقولُ: انظُروا إلى رُبوبيَّتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ في السمواتِ والأرضِ][10] فَتُوَحِّدوهُ، وتُؤمِنوا بهِ، أو يقولُ: انظُروا إلى آثارِ سُلْطانِهِ وقدرَتِهِ، فتخافوا نَقمَتَهُ وعِقابَهُ، أوِ انْظُروا إلى أجناسِ الخَلْقِ واتِّساقِهِ على تقديرٍ واحدٍ لِيَدُلَّكُمْ على وَحدانيَّتِهِ، ونَحْوُ ذلكَ [ما][11] شيءٌ في السمواتِ والأرضِ يَقَعُ عليهِ البَصَرُ إلا وفيهِ دلالةُ الرُّبوبيَّةِ حتى طَرْفَةُ العينِ ولَحْظَةُ البَصَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[أحدُها][12]: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ﴾ هَمُّهُمُ المُكابَرَةُ والمُعانَدَةُ، إنما تُغْني الآياتُ مَنْ هَمُّهُ القَبولُ والانْقِيادُ. وأمّا مَنْ هَمُّهُ المُكابَرَةُ والعِنادُ فلا تُغْني، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية [الأنعام: ١١١].

والثاني[13]: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ [في الآخِرةِ][14] ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ في الدنيا، إنما تَنْفَعُ، وتُغْني لقومٍ يؤمنونَ، وأمّا مَنْ لا يؤمِنُ فلا تغني.

والثالثُ: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ يَحْتَمِلُ[15] الرسُلَ، ويَحْتَمِلُ المَواعيدَ[16] التي أُوعِدوا، والأحوالَ التي تَغَيَّرَتْ على أوائِلِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج في الأصل وم قبلها: من. (٤) أدرجت هذه العبارة في الصفحة التالية أيضاً بعد: حين رأوا العذاب فحذفناها. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يعقلون. (٧) في الأصل وم: يروا. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج قبلها في الأصل: لكن. (١٠) ساقطة من م. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: ويحتمل. (١٤) في الأصل: و الآخرة. (١٥) أدرج قبلها في الأصل: ثم النذر. (١٦) في الأصل: وم: الوعيد.

جنة السنة

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ يوماً مِنَ الهلاكِ ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي إلا مثلَ [ما انتظرَ][1] الذينَ مِنْ قبلِهِمْ برسلِهِمْ مِنَ الهلاكِ. فهو يُخرَّجُ على التوبيخِ لانتظارِهِمْ هلاكَ الرسُلِ وذهابَ أمرِهِمْ.

ويَحتَمِلُ وجهاً آخرَ ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ مِنْ نزولِ العذابِ بهِمْ إلا مثلَ ما انتظرَ أولئكَ مِنْ نزولِ العذابِ بهِمْ؟ إلى هذا يذهبُ بعضُ أهلِ التأويلِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ مِنْ تأخيرِهِمُ الإيمانَ إلى وقتِ نزولِ العذابِ بهِمْ. فهذا يُخرَّجُ على الإياسِ مِنْ إيمانِهِمْ؛ أي لا يُؤمنونَ إلى ذلكَ الوقتِ الذي لا يَنفَعُهُمْ إيمانُهُمْ فيهِ، والوجهُ الأوّلُ على التّوبيخِ والتَّعْيِيرِ. وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ ذلكَ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قولُهُ: ﴿نُنَجِّى﴾ أي أنجينا الرسلَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأنهُ لم يكنْ بعدَهُ رسولٌ. وتأويلُهُ، واللهُ أعلمُ [أنهُ وَعدَ][2] أنْ يُنجّيَ الرسلَ والذينَ آمنوا ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أنْ نُنجزَ ما وَعدْنا أنْ نُنجيَ الرسلَ، واللهُ أعلمُ][3].

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ [قولُهُ ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ الذي أدينُ بهِ، أو ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾][4] الذي أدعوكُمْ إليهِ ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إذا شَكَكْتُمْ في ديني الذي أدعوكُمْ إليهِ كُنْتُمْ شاكّينَ في دينِكُمُ الذي أنتمْ عليهِ. [فتَرْكُهُمْ ديني الذي أنا عليهِ بالشَّكِّ ودعاؤُهُمْ إلى دينِهِمْ][5] بالشَّكِّ [يُظْهِرُ][6] سَفَهَهُمْ بتَرْكِهِمْ إجابتَهُ بالشَّكِّ][7] ودعائِهِمْ إياهُ بالشّكِّ [لأنَّ الشَّكَّ][8] يُوجِبُ الوقفَ في الأشياءِ، ولا يُوجِبُ الدعاءَ إليهِ وبُطلانَ غيرِهِ[9].

هذا، واللهُ أعلَمُ، مُحْتَمَلٌ، وهو يُخرَّجُ على وجهَينِ أيضاً: أحدُهما على الإضمارِ، والآخرُ على المُنابَذَةِ.

والإضمارُ ما ذَكَرْنا ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ الذي أدينُ بهِ [وأدعوكُمْ إليهِ، فأنا لا أشُكُّ فيهِ. هذا وجهُ الإضمارِ.

وَوَجهُ المُنابَذَةِ يقولُ: ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ﴾ ممّا أعبدُ، وأدينُ بهِ][10] فلا تعبدونَ ذلكَ، ولا تَدينونَ بهِ، فأنا لا أعبدُ ما تَعْبُدونَ، ولا أدينُ بما تدينونَ، وهو كقولِهِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ والتَّوَفّي هو النهايةُ والغايةُ في الإضرارِ، وما تَعبدونَ مِنَ الأصنامِ دونَهُ لا يَملِكونَ [المَنفَعَةَ][11] ولا الإضرارَ لكُمْ إنْ لم تَعْبُدوها، يُظْهِرُ[12] سَفَهَهُمْ، ويُلْزِمُهُمُ الحجةَ؛ [وهي أنَّ][13] الذي يَتَوَفّاكُمْ هو المُسْتَحِقُ لِلْعِبادَةِ، لا الأصنامُ التي تَعْبُدونَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مِنَ المُرسَلِينَ كقولِهِ: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٣] وقولُهُ[14] ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٨١و...] فَعَلَى ذلكَ هذا. ويَحتَمِلُ الإيمانَ نَفْسَهُ على ما نَهَى أنْ يكونَ مِنَ المُشركينَ والشاكّينَ. فَعَلَى ذلكَ أُمِرَ أنْ يكونَ مِنَ المؤمنينَ المُخْلِصينَ لهُ المُسلِمينَ أنفُسَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي أُمِرْتُ أنْ أُقيمَ نفسي لِلَّهِ خالِصةً سالِمَةً لا أُشْرِكُ فيها غيرَهُ ولا أجْعَلُ لِسِواهُ فيها نصيباً، أو يَقولُ[15]: إني أُمِرْتُ أنْ أُقيمَ نَفْسي على ما عليها شهادةُ خَلْقِها؛ إذْ خِلْقَةُ كلِّ نفسٍ تَشْهَدُ على وَحدانِيَّةِ اللهِ وألوهِيَّتِهِ، أو يقولُ: ﴿أَقِمْ﴾ وَجْهَ أمْرِكَ لِما تَدينُ بهِ، وتُقيمُ عليهِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هذا ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل: ايالم نظروا، في م: ما نظروا. (٢) في م: وعده. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م: فتركتم ديني الذي أنتم عليه، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل: يذكر. (٧) ساقطة من م. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: لا الشك. (١٠) ساقطة من م. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: يذكر. (١٣) في م: أن، ساقطة من الأصل. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٥) أدرج قبلها في الأصل وم: أنه.

جنة السنة

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إنْ أطعْتَهُ، ولا يَضُرُّكَ إنْ تَرَكْتَ إجابتَهُ وطاعتَهُ.

وقولُهُ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ لا تَعْبُدْ مِنْ دونِ اللهِ مالا يملكُ جرَّ المَنفَعَةِ، ويَحْتَمِلُ الدعاءَ نَفْسَهُ؛ أي لا تُسَمِّ مِنْ دونِ اللهِ إلهاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ذَكَرَ ههنا الظلمَ إنْ فَعَلَ ما ذَكَرَ، والمُرادُ منهُ الشِّرْكُ. وذَكَرَ في قصةِ آدمَ وحوّاءَ ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥و...] وقد قَرِبا، ولم يكونا مُشركَيْن إنما كانا عاصِيَيْن[١] لِيُعْلِمَ أنْ ليسَ في المُوافقةِ في الأسماءِ مُوافقةٌ في الحقائقِ والمعاني، إنما تكونُ المُوافقةُ في الحقائقِ في موافقةِ/ ٢٣٥ ـ ب/ الأسبابِ. لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ[٢]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ فيهِ نَهْيُ الرَّجاءِ والطَّمَعِ إلى مَنْ دونَهُ إذْ[٣] أخْبَرَ أنهُ لا يوجَدُ ذلكَ مِنْ عندِ غيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ أخبَرَ أنهُ [إنْ][٤] أرادَ خيراً وفضلاً فلا رادَّ لذلكَ الفَضْلِ والخَيرِ. والإيمانُ مِنْ أعظمِ الخَيراتِ وأفْضَلِها. فإذا أرادَ [اللهُ بهِ][٥] الإنسانَ كانَ، لا يملكُ أحدٌ دفعَ ما أرادَ ولا رَدَّهُ. دلَّ أنهُ إذا أرادَ الإيمانَ لأحدٍ كانَ مؤمناً.

فهو يَنْقُضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ[٦]: إنهُ أرادَ الإيمانَ لِلْخَلْقِ كلِّهِمْ لكنهُمْ لم يؤمِنوا؛ إذْ أخْبَرَ أنهُ [إذا][٧] أرادَ بهِ خيراً ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ وهم يقولونَ: بل يَمْلِكُ العبدُ ردَّ ما أرادَ لهُ ودفْعَهُ.

وباللهِ العصمةُ. وفيهِ أنْ ليسَ على اللهِ فِعْلُ ذلكَ[٨]؛ أعني فِعْلَ الخيراتِ لأنهُ سمّاهُ فَضلاً، والفَضلُ هو فِعْلُ ما ليسَ عليهِ، وهو المفهومُ في الناسِ أنَّ ما عليهِمْ مِنَ الفِعْلِ لا يُسَمُّونَهُ فَضلاً، إنما يُسَمُّونَ الفَضلَ ما ليسَ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يُصيبُ بهِ مَنْ يَشاءُ مِنَ الفَضْلِ والخَيرِ أو الشَّرِّ.

وفيهِ تخصيصُ بعضٍ على بعضٍ حينَ[٩] قالَ: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لا يُعَجِّلُ بالعقوبةِ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ قيلَ: الحقُّ محمدٌ ﷺ وقيلَ: الحقُّ القرآنُ الذي أُنزِلَ عليهِ.

وأمكنَ أنْ يكونَ الحقُّ هو الدينَ الذي كانَ[١٠] يدعوهُمْ رسولُ اللهِ إليهِ لأنهُ قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ [الآية: ١٠٤] فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ الحقُّ هو الدينَ [حينَ][١١] شَكُّوا فيهِ؛ أي قد جاءَكُمْ ما يُزيلُ عنكُمْ ذلكَ الشَّكَّ، إنْ لم تكابِروا، لمّا أقامَ عليهِمُ الحُجَجَ والبَراهينَ.

ويَحْتَمِلُ الحقُّ محمداً ﷺ على ما ذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ [مِنْ أوّلِ نُشوئِهِ إلى آخِرِ عُمُرِهِ][١٢] ويَحْتَمِلُ الحقُّ [القرآنَ][١٣] على ما ذَكَرَهُ بعضُهُمْ، وهو ما ذُكِرَ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] سمّاهُ بأسماءٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ سمّاهُ حقّاً، وسمّاهُ نوراً وشِفاءً ورحمةً وهُدىً ونَحْوَهُ. وفيهِ كلُّ ما ذَكَرَ؛ مَنْ تأمَّلَهُ، وتفكَّرَ فيهِ، تَمَسَّكَ[١٤] بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي مَنِ اهْتَدى فإنما مَنْفَعَةُ اهْتِدائِهِ لهُ في الدنيا والآخِرَةِ، ومَنْ ضَلَّ فإنما يرجِعُ ضَرَرُ ضَلالتِهِ إليهِ ضَلالةً عليهِ؛ أي يأمُرُ، ويَنْهى، لا[١٥] لِمَنْفَعَةٍ تَحْصَلُ لهُ أو لِحاجةِ نَفْسِهِ، إنما يأمُرُ، ويَنْهى لِمَنْفَعَةِ الخَلْقِ ولِحاجَتِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: عصاة. (٢) في الأصل وم: ذكروا. (٣) في الأصل وم: إذا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث قالوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: لهذا، في م: لهم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: كانوا. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: في أول نشوئه إلى آخره. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: وتمسك. (١٥) من م، في الأصل: ليس يأمر وينهى.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ أي بِمُسَلَّطٍ. قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: هو منسوخٌ؛ نَسَخَتْهُ آيةُ القتالِ. لكنَّهُ لا يَحْتَمِلُ، وإنْ كانَ مأموراً بالقتالِ فهو ليسَ بوكيلٍ ولا مُسَلَّطٍ على حِفْظِ أعمالِهِمْ. إنما عليهِ التبليغُ كقولِهِ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [آل عمران: ٢٠] وكقولِهِ ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ [النور: ٥٤] وكقولِهِ: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ الآية: [الأنعام: ٥٢]

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ يَحْتَمِلُ القرآنَ وغيرَهُ مِنَ الوَحْيِ غيرَ القرآنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ أي اصْبِرْ على أذاهُمْ لأنهمْ كانوا يُؤذونَهُ، ويقولونَ فيه مالا يَليقُ به.يقولُ: اصْبِرْ على أذاهُمْ، ولا تَعْجَلْ عليهِمْ بالعقوبةِ حتى يحكُمَ اللهُ عليهم بالعقوبةِ وقتَ عقوبَتِهِ ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ واصْبِرْ على تكذيبِهِمْ إياكَ حتى يحكُمُ اللهُ بَيْنَكَ وبينَ مُكَذِّبيكَ ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ واصْبِرْ على تبليغِ الرسالةِ والقيامِ كما أُمِرْتَ بهِ، واللهُ الموفقُ.

جنة السنة

السورة التي ذكر فيها هود عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

وبهِ نَسْتَعِينُ

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ قال الحَسَنُ ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بالأمرِ والنَّهي ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بالوَعْدِ والوعيدِ. وقالَ بعضُهُمْ ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ حتى لا يأتيها الباطلُ مِنْ بينِ يَدَيها ولا مِنْ خَلْفِها، ولا يَملِكُ أحدٌ التبديلَ ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بَيَّنَتْ ما يُؤْتَى، وما يُتَّقَى، أو بَيَّنَتْ ما لَهُمْ، وما عليهِمْ، وما لِلّهِ عليهِمْ. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ فلمْ تُنْسَخْ ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بالحَلالِ والحرامِ.

وقيلَ: ﴿فُصِّلَتۡ﴾ أي فُرِّقَتْ في الإنزالِ؛ أُنزِلَ شَيءٌ بَعْدَ شَيءٍ على قَدْرِ النوازِلِ والأسبابِ؛ فلم يَنْزِلْ جملةً لأنهُ لو أُنزِلَ جُمْلَةً لاحتاجوا أنْ يعرفوا لِكُلِّ سَبَبُهُ وشأنَهُ وخُصوصَهُ وعُمومَهُ.

فإذا أُنزِلَ مُتَفَرِّقاً في أوقاتٍ مُختَلِفةٍ على النوازِلِ والأسبابِ عَرَفوا ذلكَ على غَيرِ إعلامٍ ولا بَيانٍ. والتفصيلُ اسمُ التفريقِ واسمُ التبيينِ. وذلكَ يَحْتَمِلُ المَعْنَيَينِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي أُحكِمَتْ حتى [لا][1] يَرِدَ عليها النَّقضُ والانتِقاصُ، أو ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ حتى لا يملكَ أحدٌ التبديلَ والتَّغييرَ، أو ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ عن أنْ يَقَعَ فيها الاختلافُ.

وقالَ بَعضُهُمْ: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بالفرائضِ ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بالثوابِ والعقابِ.

ثم الآياتُ تَحْتَمِلُ وجوهاً: أحدُها: العِبَرُ، والثاني: الحُجَجُ، والثالثُ: العلاماتُ[2]. ثم الآيةُ كلُّ كلمةٍ في القرآنِ تَمَّتْ، فهي عِبْرَةٌ أو حُجَّةٌ أو علامةٌ لا تَخْلو مِنْ أحَدِ هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ مِنْ عِنْدِ حكيمٍ خبيرٍ جاءَتْ هذهِ الآياتُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ أي مِنَ اللهِ يُنْذِرُ مَنْ يُنْذِرُ، ومِنْ عندِهِ يُبَشِّرُ مَنِ اتَّبَعَ، ويُنْذِرُ مَنْ خالَفَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ في شهادةِ خِلْقَتِكُمْ هو المُسْتَحِقُّ لِلعبادةِ. ويَحْتَمِلُ ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ أي ألا تُوَحِّدوا إلا الذي في شهادةِ خِلْقَتِكُمْ وَحدانيَّتُهُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ إنْ كانَتِ الآيةُ في الكفارِ فيكونُ قولُهُ ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أي أسلِموا ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي ارجِعوا إليهِ عنْ كلِّ معصيةٍ وكلِّ مأثَمٍ تأتُمونَهُ[3]. وإنْ كانَ في المسلِمينَ فهو ظاهِرٌ، ويكونُ قولُهُ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ وقولُهُ[4]: ﴿تُوبُوٓاْ﴾ واحداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ أي يُمَتِّعْكُمْ في الدنيا مَتاعاً، تَسْتَحْسِنونَ في الآخِرَةِ ذلكَ التَّمَتُّعَ. وأمّا الكفارُ فإنهمْ لا يَستَحْسِنونَ في الآخِرَةِ ما مُتِّعوا في الدنيا لأنَّ تَمَتُّعَهُمْ في الدنيا [للدنيا، والمؤمنُ ما يَتَمَتَّعُ بهِ في الدنيا إنما يَتَمَتَّعُ بهِ][5] لأمرِ الآخِرَةِ والتَّزَوُّدِ لها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ﴾ في الدنيا جَزاءَ فَضْلِهِ في الآخِرَةِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: العلامة. (٣) في الأصل وم: تأتونها. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ويَحتمِلُ ﴿وَيُؤْتِ﴾ بِمَعْنَى أتى، أي ما أَتَى كلُّ ذي فَضلٍ في الدنيا إنما أتاهُ بِفَضلِهِ. ويَحتَمِلُ[١] قولُهُ: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ أي ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ في دِينِهِ في الدنيا ﴿فَضْلَهُۥ﴾ في الآخِرَةِ، أو يقولُ: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ في الدنيا والآخِرَةِ ﴿فَضْلَهُۥ﴾ لأنَّ أهلَ الفَضلِ في الدنيا همْ أهلُ الفضلِ في الآخرةِ.

[وقولُهُ تعالى][٢]: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ ولم يُسلِموا ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ الآيةُ ظاهرةٌ. وقالَ في مواضِعَ[٣] أُخَرَ: ﴿عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩والشعراء: ١٣٥ والأحقاف: ٢١] هذا لِما يَكْبُرُ على الخَلْقِ، ويَعْظُمُ ذلكَ اليومُ.

قالَ بعضُ أهلِ الفِقْهِ في قولِهِ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ دلالةُ تأخيرِ البيانِ لأنهُ قالَ: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ وحَرْفُ ثم/ ٢٣٦ ـ أ/ مِن حروفِ الترتيبِ، فيهِ[٤] جوازُ تأخيرِ البيانِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي إلى ما وَعَدَ لكُمْ مَرْجِعُكُمْ مِنْ وَعْدٍ وَوَعِيدٍ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وهو على كلِّ ما وَعَدَ وأوعَدَ قديرٌ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ عن عبدِ اللهِ بنِ شَدَّادٍ [أنهُ قالَ][٥]: كانَ أحدُهُمْ إذا مرَّ بالنَّبِيِّ تَغَشَّى بثوبِهِ، وحَنَى صَدْرَهُ، وقالَ قتادةُ: كانوا يُحْنونَ صدورَهُمْ لِكَيلا يَسْمَعوا كتابَ اللهِ وذِكْرَهُ.

قالَ بعضُهُمْ: نَزَلَتِ الآيةُ في رجلٍ يُقالُ لهُ: الأخنَسُ بنُ شُرَيقٍ الثَّقَفِيُّ؛ كانَ يُجالِسُ النَّبِيَّ، ويُظْهِرُ لهُ أمراً حَسَناً، وكانَ حَسَنَ المَنْظَرِ حَسَنَ الحديثِ، وكانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ حديثُهُ، [ويُقَرِّبُهُ في][٦] مجلِسِهِ، وكانَ يُضمِرُ خِلافَ ما يُظْهِرُهُ، فأنزلَ اللهُ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يقولُ: يَكْتُمونَ مافي صدورِهِمْ، ويَسْتَرونَ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ.

وأصلُ ثَنْيَةِ الصدرِ هو أنْ يُضَمَّ أحدُ طَرَفَي الصدرِ إلى الآخرِ لِيكونَ ما أُضْمِرَ أسَرَّ وأخفى. ويُشْبِهُ ما ذَكَرَ مِنْ ثَنْيِ الصدورِ أنْ يكونَ كِنايةً عن ضيقِ الصُّدورِ كقولِهِ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] أو كِنايةً[٧] عنِ الكِبْرِ كقولِهِ: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الحج: ٩].

وكأنَّ أصلَهُ المَيلُ إلى غيرِهِ، وهو ما قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ أي يَميلونَ إلى غيرِهِ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مِنَ اللهِ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مِنْهُ﴾ أي مِن رسولِ اللهِ. لكنْ إنْ كانتِ الآيةُ في المُنافقينَ على ما ذَكَرَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ فهوَ الِاسْتِسرارُ والِاسْتِتارُ مِنْ رسولِ اللهِ لأنهمْ كانوا يُظْهِرونَ المُوافَقَةَ، ويُضمِرونَ لهُ العداوةَ، وإنْ كانتِ الآيةُ في المُشْرِكينَ فهوَ الِاسْتِسرارُ والِاسْتِتارُ مِنَ اللهِ لأنهمْ لا يُبالونَ الخلافَ لرسولِ اللهِ وإظهارَ العداوةِ، وعندَهُمْ أنَّ اللهَ لا يَطَّلِعُ [على][٨] ما يُسِرّونَ، ويُضمِرونَ في قلوبِهِمْ، فأخبَرَ أنهُ يَعْلَمُ ما أسَرُّوا، وما أعلَنوا.

وفيهِ[٩] دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهمْ كانوا يُسِرّونَ ذلكَ، ويُضمِرونَ، فأخبَرَهُمْ بذلكَ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي يَسْتَتِرونَ بها. قالَ الحَسَنُ: ﴿حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ في ظلمةِ الليلِ وفي أجوافِ بيوتِهِمْ يَعْلَمُ في تلكَ الساعةِ ما يُسِرّونَ، وما يُعلِنونَ.

وأصلُهُ أنهمْ يَعْلَمونَ أنَّ اللهَ هو الذي أنشأ هذهِ الصدورَ والقلوبَ، والثيابَ هُمُ الذينَ نَسَجوها، واكْتَسبوها، ثم لا يملِكونَ الِاسْتِتارَ بما كَسَبوا هُمْ، فَلِأنْ لا يَملِكوا[١٠] الِاسْتِتارَ بما تَوَلّى هو إنشاءَهُ أحَقُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾: ﴿أَلَآ﴾ إنما هو تأكيدُ الكلامِ، وهو قولُ أبي عُبَيدةَ وغيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ عليمٌ [بما في][١١] الصدورِ لكنهُ يُشبِهُ أنْ [يكونَ][١٢] قولُهُ: ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كِنايةً[١٣] عن صدورٍ لها تدبيرٌ وتمييزٌ، [وهي صدورُ][١٤] البَشَرِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: موضع. (٤) في الأصل وم: ففيه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ويقرأ به. (٧) في الأصل وم: عبارة. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ففيه. (١٠) في الأصل وم: يملكون. (١١) في الأصل وم: بذات. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: عبارة. (١٤) في الأصل وم: وهو.

جنة السنة

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: عَنَى بالدابّةِ المُمْتَحَنَ بها، وهي[1] البَشَرُ. وأمّا غيرُهُ مِنَ الدَّوابِّ فقدْ سَخَّرَهُ[2] لِلْمُمْتَحَنِ بِهِ. وقالَ قائلونَ: أرادَ كلَّ دابّةٍ تَدُبُّ على وجهِ الأرضِ مِنَ المُمْتَحَنِ بِهِ وغيرِهِ. وتَمامُهُ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جَعَلَ قِوامَها وحياتَها بالرزقِ ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ إنشاءُ ذلكَ الرزقِ لَها. ثم مِنَ الرزقِ ما جَعَلَهُ بِسَبَبٍ، ومنهُ ما جَعَلَهُ بِغَيرِ سَبَبٍ.

وقولُهُ تعالى ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ اختُلِفَ [فيهِ][3] أيضاً: قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ أي على اللهِ إنشاءُ رِزْقِها، وخَلْقُهُ لها الذي بهِ قِوامُها وحَياتُها، وهو كقولِهِ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ [الذاريات: ٢٢] أي يُنْشِئُ، ويَخْلُقُ رزقَنا بِسَبَبٍ مِنَ السماءِ مِنَ المطرِ وغيرِهِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ أي على اللهِ إنشاءُ رِزْقِها وخَلْقُهُ لها. وقيلَ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ أي على اللهِ أنْ يَبْلُغَ إليها رِزْقُها، وما قُدِّرَ لها، وما بهِ مَعاشُها.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما جاءَها مِنَ الرزقِ إنما جاءَ مِنَ اللهِ، لم يأتِها مِنْ غَيرِهِ، و ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ بِمَعْنى مِنَ اللهِ. وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [المطففين: ٢] وهو قولُ مجاهدٍ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ أي على اللهِ وفاءُ ما وَعَدَ، وقد كانَ وَعَدَ أنْ يَرْزُقَها، فَعَلَيهِ وفاءُ وَعْدِهِ وإنجازُهُ. ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنهُ لمّا خَلَقَها لِيُبْقِيَها[4] إلى وقتٍ عليهِ إبلاغُ ما بهِ تعيشُ إلى ذلكَ الوقتِ والأجَلِ الذي خَلَقَها [لهُ][5] لِيُبْقِيَها إلى ذلكَ [الوقتِ][6]. وبعضُهُ قريبٌ مِنْ بعضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بَعْضُهُمْ ﴿مُسۡتَقَرَّهَا﴾ بالليلِ ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾ بالنهارِ في مَعاشِها، وقالَ بَعْضُهُمْ: المُسْتَقَرُّ: الرَّحِمُ، والمُسْتَوْدَعُ: الصُّلْبُ، وقالَ بعضُهُمْ: المُسْتَقَرُّ الصُّلْبُ، والمُسْتَوْدَعُ الرَّحِمُ. وقالَ بَعْضُهُمْ: المُسْتَقَرُّ المُنْقَلَبُ في الدنيا، والمُسْتَوْدَعُ مَثْواها في الآخِرَةِ، كقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾ في الدنيا وتَحَرُّكَكُمْ في معاشِكُمْ ﴿وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [محمد: ١٩] أي قرارَكُمْ ومُقامَكُمْ في الآخِرَةِ، وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿مُسۡتَقَرَّهَا﴾ في الدنيا ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾ في القَبْرِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا [إخباراً][7] عنِ العِلْمِ بها في كلِّ حالٍ [في حالِ][8] سُكونِها وفي حالِ حَرَكَتِها لأنها لا تَخْلو؛ إمّا أنْ تكونَ ساكنةً تارةً أو مُتَحَرِّكَةً [تارةً أُخْرى][9] أي يَعْلَمُ عنها كلَّ أحوالِها[10].

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ صِلَةَ ما تَقَدَّمَ، وهو قولُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ الآية [الآية: ٥] يُخْبِرُ أنهُ إذا لم يَخْفَ عليهِ كَوْنُ كلِّ دابّةٍ في الأرضِ ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ [الرعد: ٨] وما استُودِعَ في الأصلابِ، كيف يَخْفَى عليهِ أعمالُكُمُ التي عليها العِقابُ، ولكُمْ بها الثوابُ، وفيها الأمرُ والنَّهْيُ؟ واللهُ أعلَمُ، و ﴿كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ أي مُبَيَّنٌ في كتابِهِ؛ قيلَ: في اللَّوحِ المَحْفوظِ، ويَحْتَمِلُ القرآنَ وغيرَهُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وما بينَهُما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ وقالَ في مَوضِعٍ آخَرَ ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ٩] وقالَ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ١٢] وقالَ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ [فصلت: ١٠] يجوزُ أنْ يكونَ جَعَلَ للأرضِ[11] يومَينِ يوماً لِوُجودِها ويوماً لِعَدَمِها، وكذلكَ السماءُ جَعَلَ يوماً لِوُجودِها ويوماً لِعَدَمِها كقولِهِ: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٨] وكقولِهِ: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] [وكقولِهِ][12]: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥] وكذلكَ ما بَيْنَهما؛ جَعَلَ يوماً لِوُجودِهِ ويوماً لِعَدَمِهِ، فيكونُ اليومُ[13] السابعُ يومَ البعثِ؛ يكونُ لِكُلٍّ مِنْ [تلكَ يَومانِ: يومٌ لِوُجودِها ويومٌ][14] لِعَدَمِها. وقد ذَكَرْنا شيئاً في ذلكَ ممّا احْتَمَلَ وُسْعُنا في سورةِ الأعرافِ[15].

---

(١) في الأصل وم: وهو. (٢) في الأصل وم: سخرها. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أنه يبقيها. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حالها.
(١١) في الأصل وم: الأرض. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: يوم. (١٤) في الأصل وم: ذلك يومين يوماً لوجودها ويوماً.
(١٥) المقصود الآية (٤٥).

جنة السنة

وفي الآيةِ دلالةٌ أنّ السماءَ والأرضَ دَخَلَتا تحتَ الأوقاتِ بقولِهِ: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إذِ الأيامُ عندَ الناسِ إنما هي مُضِيُّ الأوقاتِ. فإنْ دَخَلَتا[1] تحتَ الأوقاتِ فَلَيستا بِأزَلِيَّتَينِ [لا][2] على ما يقولُ بعضُ المُلْحِدَةِ: إنهما [أزَلِيّانِ كانتا][3] كذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ اليومُ السابعُ هو اليومَ الذي [خَلَقَ][4] المُمْتَحَنَ فيهِ، وهو المقصودُ في خَلْقِ ما ذَكَرَ مِنَ الأشياءِ؛ أعني البَشَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ إنْ كانَ العَرْشُ اسْمَ المُلْكِ والسلطانِ على ما قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ فَتَأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، كانَ أظْهَرَ مُلْكَهُ عنِ الماءِ [و ﴿عَلَى﴾][5] بِمَعْنَى عَنْ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ، لأنهُ بالماءِ ظهورُ كلِّ شيءٍ وبَدْؤُهُ كقولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وإنْ كانَ العَرْشُ اسْمَ السريرِ والكرسِيِّ على ما قالهُ بَعْضُ الناسِ فهو عَرْشُ المُلْكِ وسَريرُهُ؛ خَلَقَهُ لِيُكْرِمَ بهِ أولياءَهُ، لِيَمْتَحِنَ ملائِكَتَهُ بِحَمْلِهِ والخِدْمَةِ لهُ على ما يكونُ لملوكِ الأرضِ سُرُرٌ[6] يَسْتَخْدِمونَ خدمَهُمْ في ذلكَ.

وهو خَلْقٌ مِنْ خَلائِقِهِ أضافهُ إليهِ كما تُضافُ الأشياءُ إليهِ مَرَّةً بالإجمالِ جُمْلَةً، ومَرَّةً[7] بالإشارةِ/ ٢٣٦ ـ ب/ والإفرادِ. ولكنْ ما أُضيفَ إليهِ بالإشارةِ فهو على تَعْظيمِ ذلكَ الشيءِ، وما أُضيفَ إليهِ الأشياءُ بالإجمالِ والإرسالِ فهو على ذِكْرِ عَظَمَتِهِ وكبريائِهِ كقولِهِ: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧] ونَحْوُهُ، فيهِ ذِكْرُ سلطانِهِ وعَظَمَتِهِ وقولُهُ: ﴿بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥] [وقولُهُ][8]: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] ونحوُهُ[9] يُخَرَّجُ على تَعْظيمِ البيتِ والمساجِدِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وما فيهما لِلْمُمْتَحَنِ، لم يَخْلُقْ هذهِ الأشياءَ لأنفُسِها إنما خَلَقَها لِلْمُمْتَحَنِ فيها كقولِهِ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: ١٣] لأنَّ خَلْقَها لأنفُسِها عَبَثٌ، [لا أنها][10] مخلوقةٌ لِلْفَناءِ خاصةً. فكلُّ مَخْلُوقٍ للفناءِ خاصةً فهو عَبَثٌ. لِذلكَ كانَ ما ذكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قولُهُ: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ هذا القولُ نفسُهُ ﴿إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ ليس [ما][11] يقولونَ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ولكنْ إذا أخبَرَهُمْ أنهمْ مَبْعوثونَ مِنْ بَعْدِ الموتِ، وأقامَ الحُجَجَ والبراهينَ على البعثِ، حينَئِذٍ قالوا [عَنْ حُجَجِ][12] البعثِ وبراهينِهِ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنْ يَذْكُرَ سَفَهَهُمْ أنهمُ اعْتادوا نِسْبَةَ كلِّ شيءٍ إلى السِّحْرِ حتى الأشياءِ التي لا تَحْتَمِلُ السِّحْرَ، وهي[13] الأخبارُ لأنَّ السِّحْرَ في تَقْليبِ الأشياءِ، وأمّا في ما يُخْبِرُ عنْ شيءٍ يكونُ فلا.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ قيلَ: إلى وقتٍ مَعْلومٍ، هو البَعْثُ كرامةً، واللهُ أعلَمُ، لأنهُ وقتٌ بهِ تَنْقَضي آجالُ الأممِ جميعاً ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ أي كانوا يقولونَ: ما يَحْبِسُ عنا العذابَ الذي يَعِدُنا، لم تَزَلْ عادَتُهُمُ اسْتِعْجالَ العذابِ، اسْتِهْزاءً بهِ[14].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ ذلكَ إذا جاءَ لا يَمْلِكُ أحدٌ صَرْفَهُ عنهُمْ كقولِهِ: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام ٥١] وقولِهِ: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤] ونَحْوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ قيلَ: نَزَلَ بهِمْ، وقيلَ: يَحِقُّ عليهِمْ[15] ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ جزاءَ اسْتِهْزائِهِمْ بالرسولِ والكتابِ.

---

(١) في الأصل وم: دخلت. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أزليين كانا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: سرير. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: وهو. (١٠) في الأصل وم: لأنها. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: الحجج. (١٣) في الأصل وم: وهو. (١٤) و (١٥) في الأصل وم: بهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي لا يُصْرَفُ عنهُمْ بشفاعةِ مَنْ طَمِعوا بشفاعتِهِ كقولِهِ[١]: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤] ونَحْوُ ذلكَ لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ رجاءَ أن تَشْفَعَ لهمْ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ قيلَ: سَعَةً في المالِ ونِعْمةً ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ إياسُهُ ذهابُ ذلكَ المالِ عنهُ ونَزْعُهُ منهُ، [وعَدَمُ عَودِ][٢] ذلكَ إليهِ يُقْنِطُهُ[٣].

والإياسُ قد يكونُ كُفْراً كقولِهِ: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ في حالِ ذهابِ النِّعْمَةِ، و ﴿كَفُورٌ﴾ في حالِ النِّعْمَةِ والسَّعَةِ؛ ﴿كَفُورٌ﴾ لمّا رَأى نَزْعَ ذلكَ المالِ والسَّعَةِ منهُ جَوراً وظُلْماً فهو كَفورٌ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ [أنهُ][٤] قالَ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ يعني الكافرَ ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ يقولُ: نعمةُ العافيةِ وسَعَةُ المالِ وما يُسَرُّ بهِ ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ يعني [قنوطاً آيِساً][٥] مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

الآية ١٠ [وقولُهُ تعالى][٦]: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ الفَرَحُ هو الرِّضا كقولِهِ: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الرعد: ٢٦] أي رَضُوا بها. وقيلَ: الفَرِحُ البَطِرُ؛ يَبْطَرُ في حالِ السَّعَةِ والرَّخاءِ كقولِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] والفَرَحُ قد يَبْلُغُ كُفْراً، ويكونُ الفَرَحُ سُروراً، ولا يكونُ كُفْراً.

[وقولُهُ تعالى][٧]: ﴿فَخُورٌ﴾ يَفْتَخِرُ على الفقراءِ بالمالِ الذي أُعْطِيَ، أو يَفْتَخِرُ على الأنبياءِ والرُّسُلِ بالتكذيبِ. وكذلكَ كانَتْ عادةُ رُؤَسائِهِمْ أنهمْ كانوا ذَوِي مالٍ وسَعَةٍ، فلا يَرَونَ الرسالةَ تكونُ في مَنْ دونَهُمْ في المالِ كقولِهِمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وكقولِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [سبأ: ٣٥] ونحوُهُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَيَئُوسٌ﴾ في حالِ الشدةِ ﴿كَفُورٌ﴾ للهِ في [حالِ النِّعْمَةِ][٨] والرَّخاءِ.

وأصلُهُ أنهمْ[٩] كانوا لا يَنْظُرونَ في [حالِ][١٠] النِّعَمِ والرَّخاءِ إلى مَنْ أنْعَمَ عليهِمْ إنما [كانوا][١١] يَنْظُرونَ إلى أعيُنِ النِّعَمِ وأنفُسِها. لِذلكَ حَمَلَهُمْ على الإياسِ والقُنوطِ، وإعطاؤُهُمْ إياها على الكُفْرانِ والفَرَحِ والفَخْرِ. ولو نَظَروا في تلكَ النِّعَمِ إلى المُنْعِمِ لم يَقَعْ لهمُ الإياسُ[١٢] عندَ النَّزْعِ ولا الكُفْرانُ والفَرَحُ عندَ النَّيلِ، بل يَصْبِرونَ عندَ النَّزْعِ مِنْ أيديهِمْ، ويَشْكُرُونَ لِلْمُنْعِمِ عليهِمْ في حالِ النَّيلِ.

الآية ١١ ثم اسْتَثْنَى، فقالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قالَ بَعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي آمَنوا على ما ذَكَرَ في غيرِ واحدةٍ[١٣] مِنَ الآياتِ [كقولِهِ][١٤]: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] وكقولِهِ[١٥]: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ٢و٣] يكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ عنِ المَعاصي، فلم يَرْتَكِبوها ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي الطاعاتِ، والإيمانُ نَفْسُهُ هو اعْتِقادُ الانْتِهاءِ عنِ المَعاصي كلِّها واتِّقاءُ[١٦] جميعِ ما يُدْخِلُ نقصاً [في الطاعاتِ][١٧] وإتيانُ الطاعاتِ جميعاً.

وهكذا يَعْتَقِدُ كلُّ مؤمنٍ أنْ يَتَّقِيَ، ويَنْتَهِيَ [عنْ][١٨] كلِّ مَعْصِيَةٍ، ويأتِيَ بكلِّ طاعةٍ، ويَعْمَلَ بها. هذا اعْتِقادُ كُلِّ مؤمنٍ، وحقيقَتُهُ وفاءُ[١٩] ذلكَ كلِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لِما ارتَكَبوا مِنَ الصِّغارِ مِنَ الذُّنوبِ، وانْتَهَوا عنِ الكبائرِ منها ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما أَتَوا، وعَمِلوا مِنَ الكبائِرِ مِنَ الطاعاتِ.

---

(١) في الأصل وم: قوله. (٢) في الأصل وم: عن العود. (٣) في الأصل وم: ويقنطه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: قنوط آيس واقنطه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: نعمه. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: وذلك. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: إياس. (١٣) في الأصل وم: واحد. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: والاتقاء عن. (١٧) في الأصل وم: فيها. (١٨) ساقطة من الأصل وم. (١٩) في الأصل وم: الوفاء.

جنة السنة

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ السَّترَ في الدنيا؛ سَتَرَ عليهِمْ تلكَ الذنوبَ في الدنيا، فلم يُطْلِعْ عليها الخَلْقَ، ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ بما أظهَرَ منهُمْ ما كانَ مِنَ الطاعاتِ والخَيراتِ حتى نَظَرَ الناسُ إليهِمْ بِعَينِ تَعْظيم[١] بما ظَهَرَ منهُمْ مِنَ الخيراتِ، [وأخفى عليهِمْ ما][٢] ارتَكَبُوا مِنَ المَعاصي. وهذا التأويلُ يكونُ في الدنيا، والأوّلُ في الآخرة.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ حَرْفُ لَعَلَّ يَحتمِلُ وجهَين:

[أحدُهما: يَحتمِلُ][٣] النَّهيَ؛ أي لا تَترُكْ بعضَ ما يُوحَى إليكَ، وإنْ كانَ مَعلوماً أنهُ لا يَترُكُ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤][وقولِهِ:][٤] ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]وأمثالِهِما[٥]. نَهاهُ، وإنْ كانَ معلوماً أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يَفعَلُ ذلكَ، وإنما احتَمَلَ النَّهيَ كما يَقولُ[٦] الرجلُ لآخَرَ: لَعَلَّكَ تُريدُ أنْ تَفعَلَ كذا، فيكونُ[٧] نَهاهُ عنْ ذلكَ.

والثاني: يُقالُ عندَ القربِ مِنَ الفِعْلِ والدُّنُوِّ منهُ كقولِهِ: ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] يُقالُ: حَرْفُ كادَ عندَ المَيلِ إليهِ والقُرْبِ منهُ طَمَعاً منهُ في إيمانِهِمْ.ذلكَ في ما يَحِلُّ لهُ التَّرْكُ، وذلكَ ما قيلَ مِنْ نَحوِ سَبِّ آلهتِهِمْ وذِكْرِ العَيبِ فيها، ويَحِلُّ لهُ تَرْكُ سَبِّ آلهتِهِمْ وشَتْمِها.

وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ [الشعراء: ٣]على هذينِ الوجهَينِ:

[أحدُهُما][٨]: على المَنْعِ: ألّا يَحْمِلَ على نفسِهِ إشفاقاً على أنفُسِهِمْ ألّا يؤمِنوا لِما يُوجِبُ تَلَفَهُ.

والثاني: على التخفيفِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ الآية[النحل: ١٢٧]. [وقولِهِ][٩]: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ﴾ [القصص: ٧] هو على التخفيفِ ليسَ على النَّهيِ.

وفي قولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ﴾ الآية وجهٌ آخَرُ، وهو نَهيٌ يُخَرَّجُ مُخرَجَ البِشارةِ ممّا كانَ يَخافُ مِنْ ضيقِ صَدْرِهِ واشتِغالِ قلبِهِ عندَ سُوءِ معامَلَتِهِمْ إياهُ [في وجهَينِ:

أحدُهما: ما يَقَعُ][١٠] لهُ فيهِ في إبلاغِ ما أمرَ تبليغَهُ[البِشارةِ][١١]، فأمَّنَهُ اللهُ عَنْ ذلكَ، وعَصَمَهُ.

والوجهُ الثاني: في النَّهيِ عنْ ذلكَ هو ما يَقَعُ لهُ فيه الرجاءُ؛ وذلكَ أنَّ الأخيارَ إذا ابْتُلُوا بالأشرارِ، وقد يُؤذَنُ لهُ في حالٍ مِنَ الأحوالِ بتأخيرِ التَّبليغِ، /٢٣٧ - أ/ فأياسَهُ عَنْ ذلكَ، وكلَّفَهُ بتبليغِ ما أمَرَ لهُ في جميعِ أحوالِهِ.

[وقولُهُ تعالى:][١٢] ﴿بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ يَحتمِلُ ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ مِنْ سَبِّ آلهتِهِمْ وعَيبِها وما تدعو إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ يضيقُ صدرُهُ بما يَقولونَ لهُ استِهزاءً. وكذلكَ الحقُّ أنَّ كلَّ مَنِ استَهزَأَ بِهِ يُضيِّقُ[١٣] صَدْرَهُ، أو يَضيقُ صَدْرُهُ لِما لا يَقْدِرُ على إتيانِ ما طَلَبوا منهُ مِنَ المُلْكِ وإنزالِ المَلَكِ وقد وَعَدوا أنْ يؤمِنوا إنْ فَعَلَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ لأنَّ لِلكَنزِ والمَلَكِ مَحَلّاً[١٤] في قلوبِ أولئكَ وقَدْراً[١٥]، فقالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ [فيُعَظِّموهُ، ويُصَدِّقوا ما يُوحَى إليهِ][١٦] ويَدْعو. وكذلكَ المَلَكُ له مَحَلٌّ عظيمٌ عندَهُمْ؛ إذا كانَ معهُ عظَّموهُ، وصَدَّقوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾ على إثرِ قولِهِمْ: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ أي ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾ ليسَ عليكَ إتيانُ ما سألوا، إنما ذلكَ تَحكُّمٌ منهُمْ على اللهِ وأماني، فعليكَ إبلاغُ ما أُنزِلَ إليكَ كقولِهِ: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨] ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ أي حفيظٌ لكلِّ ما يقولونَ فيكَ، ويَتَفَوَّهونَ بهِ، أو هو الوكيلُ أو الحفيظُ لا أنتَ كقولِهِ: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]وقولِهِ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ [الأنعام: ١٠٧] ونَحْوَهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: عظيم. (٢) في الأصل وم: وخفي عليهم بما. (٣) في الأصل وم: يحتمل على. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وأمثاله. (٦) في الأصل وم: يقال. (٧) في الأصل وم: فهو. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فيقع. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ادرج في الأصل وم قبلها: أن. (١٤) في الأصل وم: محل. (١٥) في الأصل وم: وقدر. (١٦) في الأصل وم: فيعظمونه فيصدق ما يوحى.

جنة السنة

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ﴾ أي قالوا: إنهُ افتراهُ، أي محمدٌ افترى هذا القرآنَ مِنْ عندِ نَفْسِهِ ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ إنْ [كُنْتُ افتريتُهُ][1] على ما تقولونَ ﴿فَأْتُوا﴾ أنتمْ ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ لأنكُمْ أقدرُ على الافتِراءِ مِنْ محمدٍ لأنكُمْ قد عوَّدتُمْ أنفسَكُمُ الكَذِبَ والافتِراءَ، ومحمدٌ لم تأخذوهُ بكَذِبٍ قطُّ، ولا ظَهَرَ منهُ افتِراءٌ. فَمَنْ عوَّدَ نَفْسَهُ الافتِراءَ والكَذِبَ أقدرُ عليهِ مِمَّنْ لم يَعْرِفْ [ذلكَ][2] قطُّ. ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَادْعُوا﴾ أيضاً شُهداءَكُمْ مِنَ الجِنِّ والإنسِ ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ يُعينوكُمْ[3] على إتيانِ مِثْلِهِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنهُ افتراهُ مِنْ عندِهِ.

أو يقولُ ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ أي إنَّ محمداً قد جاءَ بِسُوَرٍ فيها[4] أنباءُ ما أسْرَرْتُمْ، وأخفيتُمْ ما لا سبيلَ إلى معرفةِ ذلكَ والاطِّلاعِ عليهِ إلَّا مِنْ جِهةِ الوَحْيِ مِنَ السماءِ وإطلاعِ اللهِ إياهُ ﴿فَأْتُوا﴾ أنتمْ ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ فيها أنباءُ ما أضمَرَ هو، وأسَرَّ، واطَّلَعْتُمْ[5] أنتمْ على سرائرِهِ [كما][6] اطَّلَعَ هو على سَرائرِكُمْ. ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم﴾ مَنْ تعبدونَ ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ مِنْ آلهةٍ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنهُ افتراهُ.

أو يقولُ: إنَّ لِسانَكُمْ مِثْلُ لِسانِ محمدٍ، فإنْ قَدَرَ هو على الافتِراءِ افتِراءَ مِثْلِهِ مِنْ عندِهِ، وتَقْدِرونَ أنتمْ على الافتِراءِ مِثْلِهِ، فَأْتُوا بهِ، وادعُوا أيضاً مَنْ لِسانُهُ مِثْلُ لِسانِكُمْ حتى يُعينوكُمْ على ذلكَ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنهُ افتراهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ وقولُهُ[7] تعالى في موضعٍ آخَرَ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] قالَ بعضُهُمْ [قولُهُ][8]: ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ نَزَلَ قبلَ [قولِهِ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ ولم يَقْدِروا على مِثْلِهِ][9]؛ دُعُوا أوَّلاً أنْ يأتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ، فلما عَجِزوا عنْ ذلكَ عندَ ذلكَ قالَ[10] لهم: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [إنْ قيلَ: كيفَ ذُكِرَ ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾][11]؟ قيلَ: مَعناهُ: إنْ كانَ هذا ممّا يَحتَمِلُ الافتِراءَ على ما تَزْعُمونَ فأتوا بِمِثْلِهِ أنتمْ لأنكمْ أقدرُ على الافتِراءِ مِنْ محمدٍ، فإنْ لم تَقْدِروا[لم يَقْدِرْ][12] أحدٌ على ذلكَ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما:][13] فإنْ لم تَقْدِروا أنتمْ، ولم يُجيبوكُمْ أولئكَ على الإعانةِ على البَيانِ مِثْلِهِ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ وبأمرِهِ أتاهُ، ومنْ عندِهِ نَزَلَ، لَيسَ بِمُفْتَرىً على ما تَزْعُمونَ ﴿وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا أُلوهِيَّةَ لِمَنْ تَعبدونَ دونَهُ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ.

والثاني: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ يا أصحابَ رسولِ اللهِ، ولم يَقْدِروا على مثلِهِ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ ومِنْ عندِهِ نَزَلَ على التنبيهِ والتذكيرِ لهمْ. وإنْ كانوا عَلِموا أنهُ مِنْ عندِهِ نَزَلَ كقولِهِ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] على التنبيهِ والتذكيرِ لَيسَ على أنهُ يُعْلَمُ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ خاضِعونَ لهُ مُخْلِصونَ. وعلى التأويلِ الأوَّلِ على حقيقةِ الإسلامِ والإيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآيةَ[اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: الآيةُ][14] في أهلِ الإيمانِ الذينَ[15] عَمِلوا الصالحاتِ مُراآةً لِلْخَلْقِ، يقولُ ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ [مِنَ الذِّكْرِ فيها][16] والشَّرَفِ، وما طَلَبوا بأعمالِهِمْ في الدنيا مِنَ المباحاتِ [وغيرِها آتاهُمُ][17] اللهُ في الدنيا جزاءً لتلكَ الأعمالِ التي عَمِلوها، وأبْطَلَ ما كانوا يَعْمَلونَ لأنهمْ عَمِلوا لِغَيرِ اللهِ، فلا يُجْزَوْنَ في الآخِرَةِ بأعمالِهِمْ تلكَ. وإلى هذا يذهبُ ابنُ عباسٍ.

---

(١) في الأصل وم: كان افتراه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يعينونكم (٤) في الأصل وم: فيه. (٥) في الأصل وم: وتطلعون. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ولم يقدروا على مثله، وقوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾. (١٠) في الأصل وم: قبل. (١١) ساقطة من م. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: أي (١٤) من م: ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: الذي. (١٦) من م، ساقطة من الأصل. (١٧) في الأصل وم: وغيره اتاه.

جنة السنة

ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ «أنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ سُئِلَ: مابالُ العبدِ المَعروفِ بالخيرِ يُشَدَّدُ عليهِ عندَ الموتِ، والرجلِ المعروفِ بالشَّرِّ يُهَوَّنُ عليهِ الموتُ؟ فقالَ: المؤمنُ تكونُ لهُ ذنوبٌ، فيُجازَى بها عندَ موتِهِ، فيَقْضِي إلى اللهِ في الآخِرَةِ، ولا ذَنْبَ عليهِ، والكافرُ يكونُ لهُ الحسناتُ، فيجازَى عندَ الموتِ؛ يُخَفَّفُ عنهُ كُرَبُ الموتِ، ثم يَقْضِي إلى الآخرةِ، ولَيسَتْ لهُ حَسَنَةٌ» [بنحوه السيوطي في الدر المنثور ج٤/٤٠٨ و٤٠٩] أو كلامٌ نَحْوَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الآيةُ في أهلِ الكُفرِ؛ يَعْمَلونَ أعمالاً في الظاهرِ صالحةً نَحْوَ التَّصدُّقِ على الفقراءِ وعماراتِ الطُّرُقِ واتِّخاذِ القَناطِرِ والرِّباطاتِ[1]، هي في الظاهِرِ صالحةٌ، يقولُ: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ نوفِّ لَهم جزاءَ أعمالِهِمُ التي عَمِلوها في الدنيا: لا نُنْقِصُ منها شيئاً، فهو ما وَسَّعَ عليهِمُ الدنيا.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ أي نَرُدُّ[2] إليهِمْ أعمالَهُمُ التي عَمِلوها، فلا نَقْبَلُها[3]، ويكونُ إيفاءُ أعمالِهِمُ الرَّدَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي لا يُنْقَصونَ ما قُدِّرَ لهمْ مِنَ الرزقِ إلى انْقِضاءِ مُدَّتِهِمْ وآجالِهِمْ بِشِرْكِهِمْ باللهِ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [لأنَّ مَنْ][4] إذا راأى فيها لم يُخْلِصْها للهِ، وضَيَّعَ أمرَهُ، وكلُّ مَنْ ضَيَّعَ أمرَ اللهِ وفَرِيضَتَهُ يَسْتَوجِبُ التعذيبَ عليهِ، ولهُ العَفْوُ، ولَيسَ في الآيةِ أنهُ لا مَحالةَ يُعَذِّبُهُمْ بعملِهِمُ المُراءاةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤]فيه دلالةُ نَقْضِ قولِ الجَهْمِيَّةِ والمُعْتَزِلَةِ بِنَفْيِهِمُ العِلْمَ عنِ اللهِ. وفي الآيةِ إثباتُ العِلْمِ لهُ بقولِهِ: ﴿أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ قولُهُ: ﴿أَفَمَن﴾ حرفٌ يَقْتَضِي الجوابَ لهُ، [وهو لم][5] يُخْرَجْ في الظاهِرِ لأنَّ جوابَهُ أنْ يقولَ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كَمَنْ ليسَ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كما قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] وكقولِهِ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩] لا يَعْلَمُ. فَعَلَى ذلكَ جوابُ قولِهِ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ كَمَنْ لا يكونُ على بَيِّنَةٍ من رَبِّهِ.

لكنَّ الجوابَ عندَنا يكونُ على وجوهٍ: مَرَّةً يكونُ بالتَّصريحِ، وهو ما ذَكَرْنا، ومَرَّةً بالإشارةِ، ومَرَّةً بالكِنايَةِ على غيرِ تَصْريحٍ.

ثم منهمْ مَنْ يَجْعَلُ جوابَهُ ما تَقَدَّمَ، وهو قولُهُ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآيةَ أي لا يكونُ كذلكَ .ومنهمْ مَنْ يَجْعَلُ جوابَهُ في ما تأخَّرَ، وهو قولُهُ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ كأنهُ يقولُ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كَمَنْ يَكْفُرُ بهِ مِنَ الاحزابِ؛ أي لا يكونُ كذلكَ. وقالوا: يجوزُ تقديمُ الجوابِ وتأخيرُهُ كقولِهِ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] لم يُخْرَجْ لهذا جوابٌ بالتصريحِ.

ثم اختَلَفوا في جوابِهِ في ما تأخَّرَ في قولِهِ: /٢٣٧ ـ ب/ ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩] وصفُ الذينَ يَعْلَمونَ، فكأنهُ يقولُ: أفَمَنْ يَعْلَمُ كَمَنْ لا يَعْلَمُ.

ومنهمْ مَنْ يَجْعَلُ جوابَهُ في قولِهِ: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨] يقولُ: أمَنْ[6] جَعَلَ للهِ أنداداً، وأضَلَّ عنْ سَبيلِهِ، وصارَ مِنْ أصحابِ النارِ كَمَنْ هو قانِتٌ؟ أي لَيسا بِسواءٍ.

وقالَ مقاتلٌ: ليسَ الذي على بَيانٍ مِنْ رَبِّهِ كالذي مَوعِدُهُ النارُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: الربات. (٢) من م، في الأصل: يرد. (٣) في الأصل وم: يقبلوها. (٤) في الأصل وم: لأنه. (٥) في م: لم، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: من.

جنة السنة

وجائزٌ أنْ يكونَ على طرحِ الألفِ: فَمَنْ ﴿كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ الآية؛ يقولُ: فَمَنْ كانَ على بيانٍ مِنْ ربِّهِ أولئكَ يؤمنونَ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كانَ على دينٍ مِنْ ربِّهِ، أي مَنْ كانَ على دينٍ مِنَ[1] اللهِ، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ يَتْلو لِما هو عليهِ مِنَ الدينِ شاهدٌ منهُ كَمَنْ كانَ على دينِ الشيطانِ، ولا شاهِدَ لهُ عليهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي على بُرهانٍ مِنْ ربِّهِ وحُجَجٍ ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ على ذلكَ كَمَنْ لا على برهانٍ مِنْ ربِّهِ ولا حُجَجٍ وشاهِدٍ لهُ على ذلكَ؟

ثم قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ جبريلُ أو مَلَكٌ غيرُهُ، يَتْلو عليهِ القرآنَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ هو القرآنُ ونَحوُهُ.

ثم قولُهُ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يَحتَمِلُ أصحابَ عيسى الذينَ آمَنوا بهِ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أصحابُ التوراةِ الذينَ آمَنوا بهِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي هؤلاءِ الذينَ آمَنوا بهؤلاءِ هُمُ الذينَ يؤمنونَ بمحمدٍ عليهِ [أفضلُ الصلاة والسلام][2] وبما جاءَ بهِ محمدٌ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ:

قيلَ: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ مِنْ قَبْلِ القرآنِ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ جاءَ بهِ جبريلُ إلى موسى كما جاءَ بهذا القرآنِ ﴿إِمَامًا﴾ يُقْتَدى بهِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ مِنَ العذابِ لهمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ التوراةُ ﴿إِمَامًا﴾ فيها أنباءُ هذا القرآنِ وأنباءُ محمدٍ أنهُ رسولُ اللهِ كقولِهِ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقولِهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] وأمثالِهِما[3].

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾][4]: كانَ كتابُ موسى، وهو التوراةُ، إماماً يُقْتَدى بهِ، وكانَ رحمةً أولئكَ [الذينَ][5] يؤمنونَ بهِ. قالَ: أصحابُ محمدٍ ﷺ الذينَ آمَنوا بهِ مِنْ أهلِ الكتابِ وغيرِهِمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي مُؤمِنو[6] أهلَ التوراةِ؛ يؤمنونَ بالقرآنِ، ويَقتَدونَ بهِ كما آمَنوا بالتوراةِ، واقْتَدَوا بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي بالقرآنِ ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ الأحزابُ: الفِرَقُ والأصنافُ.

يَحتَمِلُ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي بالقرآنِ مِنَ الفِرَقِ، ويَحتَمِلُ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي بمحمدٍ، ويَحتَمِلُ الدينَ الذي هو عليهِ، ويَدعوهُمْ إليهِ ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ إنْ ماتَ على ذلكَ. وأمّا إذا أسْلَمَ، وماتَ على الإسلامِ، فلا تكونُ النارُ مَوعِدَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ يَحتَمِلُ الوجوهَ[7] الثلاثةَ التي[8] ذكَرْنا مِنَ الدينِ والقرآنِ والنبيِّ [ويَحتَمِلُ الخِطابَ نفسَهُ، ويَحتَمِلُ][9] غيرَهُ لِما ذكَرْنا في قولِهِ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧و...] [وقولِهِ][10]: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤و...] [وقولِهِ][11]: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] وأمثالِها[12]. فكذلكَ هذا. وقد ذكَرْنا أنَّ العِصْمَةَ لا تُزيلُ النَّهْيَ والأمرَ، بل تزيدُهما، لأنَّ بالعِصْمَةِ تَظْهَرُ موافَقَةُ الأمرِ و مخالَفَةُ النَّهْيِ والمَحْظورِ.

---

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل: الصلاة والسلام، في م: أفضل الصلاة. (٣) في الأصل وم: وأمثاله. (٤) في الأصل: وعن ابن عباس ﷺ قال إماماً ورحمة، ساقطة من م. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: مؤمني. (٧) ادرج قبل هذه الكلمة في الأصل وم: في قوله. (٨) في الأصل وم: الذي. (٩) في الأصل وم: يحتمل هو نفسه ويحتمل الخطاب. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: وأمثاله.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ يَحْتَمِلُ الدينَ الذي [هو][1] عليهِ، ويدعوهُمْ إليهِ، ويحتملُ هو نفسُهُ الحقَّ مِنْ ربِّهِ[2] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ هو ما ذَكَرْنا أنْ لا أحدَ أظلَمُ على نفسِهِ مِمَّنْ أخذَ نفسَهُ مِنْ مَعْبودِهِ، وشَغَلَها في عِبادةِ مَنْ لا يَمْلِكُ نفعاً إنْ عَبَدَهُ، ولا ضَرًّا إنْ تَرَكَ عِبادَتَهُ. أو يقولُ: لا أحدَ أظلَمُ على نَفْسِهِ مِمَّنْ ألقَى نَفْسَهُ الطاهرةَ في عذابِ اللهِ ونَقْمَتِهِ أبداً بافْترائِهِ على اللهِ، وباللهِ العصمةُ والقوةُ. وفي التأويلِ: لا أحدَ أظلَمُ على نَفْسِهِ مِمَّنِ افْتَرى على اللهِ كَذِباً مَعْنًى[3]: لا أحدَ أفحشُ ظلماً مِمَّنِ افْتَرى على اللهِ كَذِباً بَعْدَ معرفتِهِ أنَّ جميعَ مالَهُ مِنَ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئكَ الذينَ تُعْرَضُ أعمالُهُمْ على أنفُسِهِمْ عندَ ربِّهِمْ؛ فإنْ وافَقَتْ أعمالُهُمْ ما في شهادةِ خِلْقَتِهِمْ أُدْخِلوا الجَنَّةَ، وإنْ خالَفَتْ أعمالُهُمْ شهادةَ خِلْقَتِهِمْ أُدْخِلوا النارَ.

تُعْرَضُ على أنفسِهِمْ عندَ ربِّهِمْ لأنَّ اللهَ ﷻ عالِمٌ بما كانَ منهمْ مِنَ الأعمالِ والأقوالِ ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي عندَ ربِّهِمْ كقولِهِ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٧ و٣٠] أي عندَ ربِّهِمْ؛ وتأويلُهُ ما ذَكَرْنا: يُعْرَضونَ على ربِّهِمْ لأنفسِهِمْ لأنهمْ إنما يُؤْمَرونَ، ويُنْهَونَ، ويُمْتَحَنونَ لأنفسِهِمْ ولِمَنْفَعَةِ أنفسِهِمْ؛ فيكونُ عَرْضُهُمْ لهمْ: أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أولئكَ يُعْرَضونَ على [ما][4] وَعَدَهُمْ ربُّهُمْ؛ في الدنيا، أو يقولُ: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ﴾ لأنفسِهِمْ ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مِنْ غيرِ غيبةٍ كانَتْ[5] منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قيلَ: الأشهادُ الرسُلُ والأنبياءُ، وقالَ بعضُهُمْ: الأشهادُ الملائكةُ، وقالَ بعضُهُمْ: الأشهادُ المؤمنونَ.

فمَنْ قالَ: همُ الأنبياءُ والمؤمنونَ فهو كقولِهِ[6]: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وكقولِهِ ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] ومَنْ قالَ: همُ الملائكةُ [فهو][7] كقولِهِ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وكقولِهِ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠و١١]ونحوُهُ. ومعناهُ، واللهُ أعلَمُ: تُعْرَضُ أعمالُهُمْ وأقوالُهُمْ على أنْفُسِهِمْ؛ فإنْ أقرّوا بها بُعِثوا إلى النارِ، وإنْ أنكَروها[8] يَشْهَدُ عليهِمْ ما ذَكَرْنا[9] مِنَ الشهداءِ، فإنْ أنكروا ذلكَ فعندَ ذلكَ تَشْهَدُ عليهِمْ جوارِحُهُمْ كقولِهِ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ الآيةَ[النور: ٢٤]

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الملائكةُ نادَوا في مَلَإِ الخَلْقِ قَبْلَ أنْ يَدْخُلوا النارَ: هؤلاءِ الذينَ كَذَبوا على ربِّهِمْ.ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا[10] في شهادةِ الذينَ كانوا مُوَكَّلينَ بكتابةِ أعمالِهِمْ وأقوالِهِمْ، يُخْبِرونَ ممّا كَتَبوا[11] في الكتبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ اللعنةُ: قالَ بعضُهُمْ: هي الطردُ عن جميعِ المَنافعِ، والإبعادُ عن رحمةِ اللهِ في الدنيا وفي الآخِرةِ عن ثوابِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: اللعنةُ: هي العذابُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يَصُدُّونَ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: [يَحْتَمِلُ أنْ يُعْرِضوا][12] هم بأنفسِهِمْ عن دينِ اللهِ، ويَحْتَمِلُ صَرْفَ الناسِ عن دينِ اللهِ. لكنهُ يَتَبَيَّنُ ذلكَ بالمصدرِ أنهُ أرادَ ذا أو ذا؛ يُقالُ في الإعراضِ بنفسِهِ: صَدَّ يَصُدُّ صُدوداً كقولِهِ ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، ويُقالُ في صَرْفِ غيرِهِ: صَدَّ يَصُدُّ صَدًّا.

وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: بَغَى[13] على دينِ اللهِ بالجَورِ، وقالَ بعضُهُمْ: يَبْغونَ مِنَ النساءِ: المَيلَ عن دينِ اللهِ إلى دينِهِمْ، فذلكَ هو بَغْيٌ. العِوَجُ كلُّ سَبيلٍ غيرُ سَبيلِ [اللهِ][14] فهو عِوَجٌ وبَغْيٌ؛ كأنهُ قالَ: يَبْغونَ سَبيلاً غيرَ سَبيلِ اللهِ ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ في الدنيا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: ربك. (٣) في الأصل وم: وفي المعنى. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: كانَ. (٦) من م، في الأصل: لقوله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أنكروا . (٩) في الأصل وم: ذكر. (١٠) في الأصل وم: ذكر. (١١) من م، في الأصل: يكتبوا. (١٢) في الأصل: إذا عرضوا، في م: أن عرضوا. (١٣) في الأصل وم: بغاة. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يحتمِلُ وجهَين

أحدُهما](1): أولئكَ لم يكونوا مُعجِزي اللهِ في الدنيا مِنْ أنْ يُعذِّبَهُم، ويَنتَقِمَ منهُم، إن شاء.

والثاني: أولئكَ لم يكونوا سابِقي اللهِ في الآخِرَةِ في دفعِ العذابِ عن أنفُسِهِم.

وجائزٌ أنْ تكونَ الآيةُ في الأئمَّةِ منهُم والجبابرةِ؛ يُخبِرُ أنهمْ غيرُ مُعجِزي اللهِ في ما يريدُ منهم مِنَ التعذيبِ لهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ هم حَسِبوا أنَّ أولئكَ الذينَ عَبَدوا دونَ اللهِ يَكونونَ لهمْ أولياءَ لأنهمْ/٢٣٨ ـ أ/ يَقولونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ويقولون(2): ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] كانوا يَطْمَعونَ في شفاعةِ الأصنامِ التي يَعْبُدونَها، والذينَ اتَّبَعوهُمْ يكونونَ لهمْ أولياءَ، فأخبَرَ أنْ ليسَ لهمْ أولياءُ على [ما](3) ظنّوا، وحَسِبوا، بل يَكونونَ لهمْ أعداءً كقولِهِ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ الآية[الأحقاف: ٦] وأمثالُهُ كثيرٌ كقولِهِ(4): ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: ٢٥] وكقولِهِ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا﴾ [مريم: ٨١] أي لم يكنْ لهمْ ما طَمِعوا، وكقولِهِ(5): ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]صاروا لهمْ أعداءً على ما ذُكِرَ.

ويَحتَمِلُ ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي ما لا يَنفَعُهُمْ وَلايةُ مَنِ اتَّخذوا أولياءَ كقولِهِ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] ونَحْوَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ يَدُلُّ على أنَّ قولَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٩] في الأئمَّةِ الذينَ صَرَفوا الناسَ عنْ دينِ اللهِ لأنهُ أخبَرَ أنهُ ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ وهو يَحتَمِلُ وجهَين:

أحدُهما: لِما ضَلّوهُمْ بأنفُسِهِمْ، والآخرُ لِما صَرَفوا الناسَ عنْ دينِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ قالَ المعتزلةُ: فيهِ وجهانِ(6):

أحدُهما: أنهمْ كانوا يَسْمَعونَ، ويُبْصِرونَ، لكنهُمْ قالوا: لا يَستَطيعونَ السمعَ، ولا يُبْصِرونَ استِثْقالاً منهمْ لذلكَ، وهو كما يقولُ [القائلُ](7): ما أستطيعُ أنْ أنظُرَ إلى فلانٍ، ولا أسمعَ كلامَهُ، و هو ناظرٌ إليهِ، سامعٌ كلامَهُ. فعلى ذلكَ الأوَّلُ؛ كانوا يَسْمَعونَ، ويُبْصِرونَ، لكنهُمْ كانوا يَستَثقِلونَ السَّمْعَ والنَّظَرَ إليهِمْ[فَنَفَى عنهُمْ](8) ذلكَ.

والثاني: كانوا لا يَستَطيعونَ السمعَ؛أي كانوا كأنهمْ لا يَستَطيعونَ السَّمْعَ، ولا النَّظَرَ، وهو ما أخبَرَ ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: ١٨ و ١٧١] كانوا يَتَصامُّونَ [ويتعامَونَ عنِ](9) الحقِّ.

وأمّا عندنا فالجوابُ(10) للتأويلِ: **الأوّلُ**: أنهمْ لايَستَطيعونَ السمعَ وما كانوا يُبْصِرونَ. السماعُ سَمْعُ الرحمةِ، والنظرُ إليهِ بِعَينِ الرحمةِ والقَبولِ. فَهُمْ مِنْ ذلكَ الوجهِ كانوا لا يَستَطيعونَ.

والثاني: يَحتَمِلُ سَمْعَ القلبِ وبَصَرَ القلبِ، وهُمْ كانوا لا يَستَطيعونَ السَّمْعَ سَمْعَ القَلْبِ وبَصَرَ القَلْبِ كقولِهِ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وهذهِ الاِستِطاعةُ عندَنا هي استِطاعةُ الفِعْلِ لا استِطاعةُ الأحوالِ؛ إذ جوارِحُهُمْ كانَتْ سَليمةً صَحيحةً. فدلَّ أنها الاِستِطاعةُ التي يكونُ بها الفِعْلُ لِما ذَكَرْنا.

وفي حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ بما كانوا يَستَطيعونَ السَّمْعَ. ثم سُئِلَ الحَسَنُ عنْ ذلكَ، فقالَ: هو قولُ اللهِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ [الكهف: ١٠١] إذا سَمِعوا الوَحْيَ تَقَنَّعوا في ثيابِهِمْ، فلم يَستَطيعوا احتِمالَ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: أي (٢) في الأصل وم: و. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وكقوله. (٥) في الأصل وم: وقوله. (٦) في الأصل وم: وجهين. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: فنفاهم. (٩) في م: ويتعامون، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: الجواب.

جنة السنة

وفي حَرْفِ حَفْصَةَ: وما كانوا يَسْتَطيعونَ السمعَ بالواوِ. وأمّا في حَرْفِ ابنِ مسعودٍ فظاهِرٌ[1] تأويلِهِ: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بما كانوا يَسْتَطيعونَ السمعَ، فلم يَسْمَعوا عِناداً وإبطالاً.

وأصْلُهُ: ما كانوا يَسْتَطيعونَ السمعَ المُكْتَسَبَ والبَصَرَ المُكْتَسَبَ عندنا. وما ذُكِرَ مِنَ السمعِ والبَصَرِ هو السمعُ المُكْتَسَبُ والبَصَرُ المُكْتَسَبُ لأنَّ سَمْعَ الآخِرَةِ وحياتَها مُكْتَسبانِ[2]، وحياةَ الدنيا والسمعَ والبَصَرَ [فيها][3] مخلوقةٌ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ في الدنيا والآخِرَةِ؛ أمّا في الدنيا فَعِبادَتُهُمْ[4] غيرَ مَعْبودِهِمُ الذي كانَ منهُ جميعُ النِّعَمِ والمَنافِعِ، وما لَحِقَهُمْ بذلكَ مِنَ الذُّلِّ والصَّغارِ.

وأمّا في الآخِرَةِ فالعذابُ والهوانُ الدائمُ بَدَلاً عنِ النَّعيمِ الدائمِ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي بَطَلَ عنهمْ ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [مِنْ قولِهِمْ][5]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] [وقولِهِمْ][6]: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ الآيةَ [الزمر: ٣] وأمثالِهِما[7].

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ قالَ أبو عَوسَجَةَ ﴿لَا جَرَمَ﴾ واجبٌ مِنَ الكلامِ؛ أي الحَقُّ ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي نَعَمْ ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

وقالَ الفَرّاءُ: قولُهُ ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي لا بُدَّ، ولكنَّ الناسَ أكْثَروا اسْتِعمالَهُ، فصارَ في مُتَعارَفِهِمْ حقًّا، ولا بُدَّ [أنَّ][8] في الحقيقةِ حَقًّا؛ لأنهُ إذا كانَ لا بُدَّ فهو حَقٌّ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ باللهِ وبجميعِ ما أنْزَلَ على رسولِهِ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولَزِموا ذلكَ حتى صاروا إلى اللهِ أولئكَ أصحابُ الجنةِ. وهو كقولِهِ: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] أي مَنْ تابَ مِنَ الشِّرْكِ، وآمنَ باللهِ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي ثم لَزِمَ ذلكَ حتى صارَ إلى هكذا. فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لَزِموا ذلكَ كلَّهُ حتى صاروا إلى اللهِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ سُنَنَ الدينِ: أولئكَ كذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: الإخباتُ التَّخَشُّعُ والتواضُعُ أي تَخَشَّعوا، وتواضَعوا فَرَقاً مِنْ رَبِّهِمْ، وقالَ بعضُهُمْ: أخْبَتوا أي اطْمَأنّوا على ذلكَ، أولئكَ كذا.

وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ قالَ: أخْبَتوا][9]: خافوا مِنْ رَبِّهِمْ. وقالَ القُتَبِيُّ: أخْبَتوا أي تَواضَعوا لِرَبِّهِمْ، وقالَ: الإخباتُ التواضُعُ والوَقارُ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: الإخباتُ التوبَةُ، والمُخْبِتُ التائبُ. وقالَ غيرُهُمْ: الإخباتُ هو التواضُعُ والخُشوعُ فمعناهُ، واللهُ أعلَمُ: أي تَواضَعوا، وخَشَعوا بالإجابةِ إلى ما دَعاهُمْ إليهِ ربُّهُمْ، ونَدَبَهُمْ إليهِ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي الصِّنْفَينِ[10] اللَّذينِ سَبَقَ وَصْفُهُما، وهو قولُهُ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [الآية: ١٥] فهو وَصْفُ الكافِرِ. والفريقُ الآخَرُ قولُهُ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ [الآية: ١٧] وفيهِ وَصْفُ المؤمِنِ.

أو يكونُ وَصْفُ الكافِرِ ما ذَكَرَ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الآيات: ١٨ـ ٢١] هو وَصْفُ أحدِ الفريقَينِ، وهُمُ الكُفّارُ.

والفريقُ الآخَرُ ما ذَكَرَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الآية: ٢٣].

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: مكتسبة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: وأمثاله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أخبتوا قال. (١٠) من م، في الأصل: صنفين.

جنة السنة

هذا، واللهُ أعلَمُ، [وَصفُ][1] الفريقَينِ اللَّذَينِ ضَرَبَ مَثَلَهُما بالأعمَى والبَصيرِ والسَّميعِ [وَ الأصَمِّ][2]. ثم وجَّهَ ضَرْبَ مَثَلِ الكافِرِ بالأعمى والأصَمِّ، والمؤمِنِ بالبَصيرِ والسَّميعِ.

فهو، واللهُ أعلَمُ، أنَّ الكافِرَ أعمَى القَلْبِ وأصَمُّ السمعِ؛ لم يُبْصِرْ ما غابَ عنهُ مِنَ الموعودِ، ولا يَسْمَعُ ما غابَ عنهُ مِنَ الموعودِ، وإنما أبْصَرَ ظواهِرَ الأمرِ، وكذلكَ إنما سَمِعَ ظواهِرَ مِنَ الأمورِ وبادِيَها، لم يَنْظُرْ إلى الغائِبِ [مِنَ المَوعودِ، ولا يَسْمَعُ ذلكَ، وهو لم يُخلَقْ لِمَعْرِفَةِ ذلكَ الظاهِرِ خاصةً، وإنما خُلِقَ لِما وُعِدَ][3] في الغائبِ.

والمؤمِنُ أبْصَرَ ذلكَ الغائبَ][4] وسَمِعَ ما غابَ مِنَ المَوعودِ، فيقولُ: كما يَسْتَوِي[5] عندَكُمْ في الظاهِرِ البَصيرُ والأعمَى والسميعُ والأصَمُّ، لم يُسوَّ[6] مَنْ كانَ عَمِيَّ القلبِ بِمَنْ[7] كانَ بَصيرَ القَلْبِ بذلكَ، ولم يُسوَّ[8] أيضاً مَنْ بهِ صَمَمُ القَلْبِ بِمَنْ كانَ سَميعاً بذلكَ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنهما لم يَسْتَوِيا[9].

أو يقولُ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتَّعِظونَ بما نَزَلَ مِنَ القرآنِ [وتَنْتَهونَ عما تُنْهَونَ][10]؟ واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وجوهٌ مِنَ الأسئِلَةِ:

أحَدُها: أنْ يُقالَ: كيفَ احتَجَّ عليهِمْ، [وهُمْ على][11] ما ذَكَرَ أنهمْ عُمْيانٌ وصُمٌّ أو كالعُميانِ والصُّمِّ، ولا يُكَلَّفُ الأعْمَى الإبصارَ والنَّظَرَ ولا الأصَمُّ السماعَ؟

والثاني: [كيفَ][12] يقولونَ إنا بُصَراءُ وسُمَعاءُ، لَيسَ بنا صَمَمٌ ولا عَمىً، بل أنتمُ العُمْيانُ والصُّمُّ؟/ ٢٣٨ ـ ب/

والثالثُ: كيف ذَكَرَ المَثَلَ لهمْ، وهُمْ لا يَتَفَكَّرونَ، ولا يَنْظُرونَ في المَثَلِ، ولا يَلْتَفِتونَ إليه؟

أمّا جوابُ **الأوَّلِ** بأنهُ احتَجَّ عليهِمْ لأنهمْ تَركوا اكْتِسابَ بَصَرِ الآخِرَةِ[13] وسَماعَ سَمْعِ الآخِرَةِ، فَنَفَى عنهُمُ السمعَ والبَصَرَ والحياةَ [فهو][14] لأنهُ يُبصِرُ المَخلوقَ، فَيَكْتَسِبُ بَصَراً في الدينِ وسَمْعاً في أمرِ الدينِ وحياةَ الدينِ، [فَيَصيرُ بذلكَ][15] مُكْتَسِباً الحياةَ الدائمةَ والبَصَرَ الدائمَ والسَّمْعَ الدائِمَ، فيكونونَ في الآخِرَةِ بُصَراءَ سُمَعاءَ أحْياءً كقولِهِ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. نَفَى منهُمْ هذهِ الحواسَّ لأنهمْ لم يَنْتَفِعوا بها لأنَّ هذهِ الحواسَّ إنما أُنْشِئَتْ لهمْ، وخُلِقَتْ، لِيَنْتَفِعوا بها، وهو المَقصودُ بإنشائِها. فإذا تَرَكوا الانْتِفاعَ بها [صارَتْ][16] كأنها لَيسَتْ لهمْ.

وأمّا جوابُ [الثاني، وهو][17] ما قالوا: إنا بُصَراءُ وسُمَعاءُ، وأنتمُ العُمْيانُ والصُّمُّ، [ففيهِ وجهانِ:

أحدُهُما: يُقالُ][18] لهمْ: إنَّ أهلَ الإسلامِ إذا سَمِعُوا ذلكَ فَقَدِ[19] اشْتَغَلوا بالتَّفَكُّرِ في ما قَرَعَ أسماعَهُمْ مِنَ الآياتِ والنَّظَرِ فيها، وأنتمْ [لا، بل تَعامَيْتُمْ عنها، وتصامَمْتُمْ. ودلَّ][20] تفكيرُهُمْ ونَظَرُهُمْ فيها على أنهمْ بُصَراءُ وسُمَعاءُ وأحْياءٌ، وأنتمْ يا أهلَ الكُفْرِ العُمْيانُ والصُّمُّ والأمواتُ.

والثاني: أنَّ هذهِ الآياتِ إنما نزلَتْ في مُحاجَّةِ أهلِ مكَّةَ، وهُمْ قد عَلِموا أنَّ آباءَهُمْ لو يكونوا حُكَماءَ ولا [عُلَماءَ، ولم][21] يكونوا ما ذَكَرَ بُصَراءَ ولا أحْياءً ولا سُمَعاءَ، فصاروا صُمّاً عُمياناً أمواتاً.

ولأنَّ أحَدَ الفريقَينِ، لا مَحالةَ ما ذَكَرَ، نحنُ أو هُمْ، ثم قدِ اسْتَوَوا في هذهِ الدنيا، وفي العقلِ والحكمَةِ التفريقُ بَينَهما، دلَّ[22] أنهمْ بما ذَكَرَ أولَى.

وأمّا جوابُ ذِكْرِ المَثَلِ لَهُمْ على عِلْمٍ منهُمْ أنهمْ لا يَقْبَلونَ المَثَلَ، ولا يَنْظُرونَ [فيهِ، فهو لأنهُ][23] ذُكِرَ لأهلِ الإسلامِ ولأنَّ ذِكْرَ المَثَلِ أنهمْ رُبَّما يَبْعَثُهُمْ على النَّظَرِ فيهِ والتَّفَكُّرِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في م: وعدوا. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: يسبق. (٦) في الأصل وم: يستو. (٧) في الأصل وم: بما. (٨) في الأصل وم: يستو. (٩) في الأصل وم: يستويان. (١٠) في الأصل وم: وتنهون عما تنتهون. (١١) في الأصل وم: وهو. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: الآخر. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل: مكتسب، في م: فيصير بذلك مكتسب. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) ساقطة من الأصل وم. (١٨) في الأصل وم: فيقال. (١٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢٠) في الأصل: الإبل تعاموا عنها وتصاموا فدل، في م: لابل تعاموا عنها وتصاموا فذل. (٢١) في الأصل وم: عالماً فلم. (٢٢) في الأصل وم: فدل. (٢٣) في الأصل وم: بأنه.

جنة السنة

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ أخبرَ أنهُ أرسَلَهُ إلى قومِهِ، ولم يُفهَمْ منهُ الإرسالُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] ولم يكنْ مَجيئُهُ مِن مكانٍ. فهذا يَدُلُّ أنهُ لا يُفْهَمُ مِنْ ذِكْرِ المَجيءِ الانتِقالُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، وكذلكَ الإرسالُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي نذيرٌ لِمَنْ عَصَى بالنارِ، وعقابُهُ بَيِّنُ الإنذارِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي لا تَجْعَلوا عِبادَتَكُمْ إلّا لِمَعْبودٍ، هو مَعْبودٌ بِشهادةِ خِلْقَتِكُمْ [التي][1] تَشْهَدُ على أنهُ هو المُسْتَحِقُّ لِلعِبادةِ لا مَنْ تَعبدونَ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ تعالى أي وَحِّدوا اللهَ، ولا تَصْرِفوا الأُلوهِيَّةَ إلى غَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أضافَ الألمَ إلى اليومِ، واليومُ لَيسَ بمؤلمٍ، لكنهُ، واللهُ أعلَمُ، [أضافَهُ إليهِ لِما فيهِ ما يُؤلِمُ كقولِهِ:][2] ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦] والليلُ لا يَسْكُنُ، ولا يُوصَفُ [بالسُّكونِ][3] لكنهُ يُسْكَنُ فيهِ، وكذلكَ قولُهُ[4]: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] والنهارُ لا يُبْصِرُ، لكنهُ يُبْصَرُ فيهِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ لِما فيهِ يكونُ العذابُ الأليمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ أي الخوفُ في غيرِهِ لا يكونُ في الحقيقةِ خوفاً، وكذلكَ الرجاءُ في غَيرِهِ لا يكونُ في الحقيقةِ رَجاءً، وفي نفسِهِ يكونُ في الحقيقةِ خوفاً ورَجاءً لِما يَلْحَقُهُ ضَرَرٌ في نفسِهِ إنْ [حَلَّ بهِ ذلكَ لا بِغَيرِهِ، ولا][5] يَلْحَقُهُ نَفْعٌ، فيكونُ الخوفُ في نفسِهِ حقيقةَ خَوفٍ، والرجاءُ حقيقةَ رَجاءٍ.

وأمّا في غَيرِهِ [فلا][6] لِما لا يَلْحَقُهُ ضَرَرٌ، وإنْ حَلَّ ذلكَ [بغيرِهِ فلا][7] يَنالُ مِنَ النَّفعِ في الرجاءِ إنْ نالَ ذلكَ الغَيرُ.

لكنهُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: على العِلْمِ أي إني أعلَمُ أنهُ يَنْزِلُ بكُمُ العذابُ نَحْوُ قولِهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: ٣٥] أي عَلِمْتُمْ وقولِهِ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] أي فإنْ عَلِمْتُمْ أنْ يُضَيِّعا حدودَ اللهِ.

والثاني: يَخافُ عليكُمْ إشفاقاً منهُ لأنَّ الخَلْقَ جُبِلوا على أنْ يَتَألَّمَ [بعضٌ][8] بما يَحِلُّ بِغَيرٍ حتى لا يكونَ في وُسْعِ بَعْضٍ أنْ يَرَوا ذلكَ في غَيرِهِمْ[9].

على هذينِ الوجهَينِ يُخَرَّجُ الخوفُ على الغَيرِ[10]. وفي الخوفِ رَجاءٌ، وفي الرجاءِ خَوفٌ لأنَّ الخوفَ إذا لم يكنْ فيهِ رجاءٌ فهو إياسٌ، وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] والرجاءُ إذا لم يكُنْ فيهِ خَوفٌ فهو أمْنٌ، وقالَ [اللهُ ﷻ][11]: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ قيلَ: أشرافُ قومِهِ وأئِمَّتُهُمْ ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ وكذلكَ قالَ عامَّةُ القومِ لِرُسُلِهِمُ الذينَ بُعِثوا إليهِمْ ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] كانَ هذا احْتِجاجَهُمْ في رَدِّ الرسالةِ، يَحْتَجُّونَ على الرسُلِ، فَيَقولونَ، واللهُ أعلَمُ: إنَّ الرسُلَ في الشاهِدِ إنما يَجيئونَ مِن عندِ المُرْسِلِ، وأنتُم نَشَأْتُم مِن بينِ أَظْهُرِنا، لم تأتونا مِنْ أحَدٍ في الظاهِرِ، والرسولُ هو الذي يأتي مِنْ عندِ غَيرٍ، ويكونُ لِلرُّسُلِ خُصوصِيَّةٌ عندَ المُرسِلِ، ولا نَرَى لكَ خُصوصِيَّةً لا في الخِلْقَةِ ولا في القُدْرَةِ والمالِ وغيرِهِ. فكيفَ بُعِثْتُم إلينا رُسُلاً دونَ أنْ نُبْعَثَ نَحنُ إليكُم رُسُلاً، إذْ أنتمْ ونحنُ في الخِلْقَةِ سَواءٌ، وفي الأمورِ الظاهرةِ سَواءٌ؟ أو نَحْوُهُ[12] مِنَ الكلامِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أضاف إليه لما فيه يؤلم وكقوله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: قال. (٥) في الأصل وم: جعل به ذلك لغيره، و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: لغيره لا. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: غيره. (١٠) في الأصل وم: غيره. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، في الأصل: نحو.

واحتَجُّوا على رُسُلِهِمْ في ردِّ الرسالةِ، وكذلكَ كانَتْ[١] عادةُ الكَفَرَةِ؛ كانوا يَقولونَ: إذا لَزِمَتْهُمُ الحُجَّةُ، وأُقيمَتْ[٢] عليهِمْ، نَسَبوها إلى السِّحْرِ، ونَسَبوا الرسُلَ أنهم بَشَرٌ مِثْلُهُمْ.

فجوابُ هذا كُلِّهِ ما ذُكر: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١] وما قالَ لهمْ نوحٌ: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ [هود: ٢٨].

بِمِثْلِ هذا يُحْتَجُّ عليهِمْ، ويُقالُ أيضاً: إنكُمْ لا تُنْكِرونَ فَضْلَ اللهِ وتَخصيصَ بعضٍ على بعضٍ بِفَضْلِ الدينِ والرسالةِ؟

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ احتَجُّوا أيضاً في ردِّ الرسالةِ؛ يَقولونَ: إنَّ الأراذِلَ هُمْ أتباعٌ لكلِّ مَنْ دَعاهُمْ، وأهلُ طاعةٍ لكلِّ مَتْبوعٍ، فَليسَ في اتِّباعِ الأراذِلِ إيّاكَ والضُّعَفاءِ دلالةُ ثُبوتِ رسالَتِكَ؛ إذْ هُمْ يَتْبَعونَ بلا دليلٍ ولا حُجَّةٍ، وهمْ فُروعٌ وأتباعٌ لِغَيْرٍ، ولَم يَتْبَعْكَ أحدٌ مِنَ الأصولِ.

لكنْ يُقالُ: إنَّ هؤلاءِ الأراذِلَ لمّا اتَّبعوا الرسُلَ، ولم يَتَّبِعوا الأئِمَّةَ والرؤساءَ الذينَ مَعهمُ الأموالُ والدنيا، ولم يكُنْ في أيدي الرسُلِ ثَمَّ ذلكَ، ثم تركوا اتِّباعَ أولئكَ، وفي أيديهِمْ ما يَدعوهُمْ إليه، واتَّبَعوا الرسُلَ دلَّ أنهُمُ اتَّبعوا الرسُلَ [بالحُجَجِ والبراهينِ][٣] التي أقاموها عليهِمْ أو نَحْوِها[٤].

والأراذِلُ قيلَ: هُمُ السَّفَلَةُ والضُّعَفاءُ، وقالَ القُتَبِيُّ: أراذِلُنا شِرارُنا.

[وقولُهُ تعالى][٥]: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ظاهِرَ الرأيِ، مِنْ قولِكَ: بدا لي ما كانَ خَفِيًّا، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ مِنْ قولِكَ: بدا لي ما كانَ خَفِيّاً، وقالَ بعضُهُمْ: خفيفَ الرَّأْيِ، لا يَعْرِفونَ حَقائِقَ الأمورِ، وإنما يَعْرِفونَ ظواهِرَها كأنهمْ يَقولونَ: إنما اتَّبَعَكَ مَنْ كانَ خَفيفَ الرأيِ وبادِيَهُ، لم يَتَّبِعْكَ[٦] مَنْ يَعْرِفُ حَقائِقَ الأمورِ والأصولِ.

وقد قُرِئَ ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ بالهَمْزِ[٧]، وقد قُرِئَ بِغَيرِ هَمْزٍ. ومَنْ قَرَأَ بالهَمْزِ فهوَ مِنَ الابتِداءِ أي في أوّلِ الرأيِ وابتِدائِهِ، لا يَنْظُرُ في عواقِبِ الأمورِ. ومَنْ قَرَأَ بِغَيرِ هِمْزٍ فهو مِنَ الظهورِ أي ظاهِرِ الرأيِ[٨] على تَفَكُّرٍ ونظرٍ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ الآيةَ؛ يَحْتَمِلُ هذا أيَّ فَضْلٍ[٩] في الخِلْقَةِ أو في مِلْكٍ أو مالٍ ولا في شَيءٍ. ولكنَّ جوابَ هذا ما سَبَقَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ هكذا كانَتْ عادةُ الكَفَرَةِ يَرُدّونَ دلالاتِ الرسُلِ والحُجَجِ بالظَّنِّ، لم يَرُدُّوا بحقيقَةٍ ظَهَرَتْ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أي على بَيانٍ مِنْ ربّي أو على حُجَّةٍ وبرهانٍ في ما آتاني مِنْ رَحْمَتِهِ. والرَّحْمَةُ تحتَمِلُ النُّبُوَّةَ لأنهم كانوا يُنْكِرونَ/ ٢٣٩ ـ أ/ رسالَتَهُ لِما أنهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، فكيفَ خُصَّ هو بها دونَهُمْ، وهو مِثْلُهُمْ؟

فيقولُ: ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ أي النُّبُوَّةَ. وآتاني أيضاً على ذلكَ بَيِّنَةً وحُجَّةً. وتَحْتَمِلُ الرَّحْمَةُ الدينَ الذي كانَ يدعوهُمْ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ قُرِئَ بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ؛ [فَمَنْ قَرَأَ بالتخفيفِ فهو يعني][١٠] أي لُبِسَتْ أوِ التَبَسَتْ عليكُمْ حينَ[١١] أعْرَضْتُمْ عنهُ؛ ومَنْ قَرَأَ بالتَّشديدِ ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ يُرْجِعُ إلى الأتباعِ والسَّفَلَةِ أي عُمِّيَتْ عليهِمْ: القادةِ والرُّؤساءِ[١٢] ولُبِسَتْ، وعُمِيَتْ بالتخفيفِ أيِ التَبَسَ، وعُمِيَ، على القادةِ والرُّؤساءِ.

---

(١) في الأصل وم: كان. (٢) في الأصل وم: وأقيم. (٣) في الأصل وم: بالحجة والبرهان. (٤) في الأصل وم: نحوه. (٥) ساقطة من الأصل: وم. (٦) في الأصل وم: يتبعوك. (٧) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ١٠٦. (٨) في الأصل وم: بالرأي. (٩) في الأصل وم: فضلاً. (١٠) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ١٠٧. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) أدرج بعدها في الأصل وم: منهم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي أنوجبُها عليكُم؟ وهي التي ذَكَرَ أنهُ آتاهُ[1] البيِّنَةَ التي ذَكَرَ أيضاً والدينَ الذي كانَ يَدْعوهُمْ إليهِ، أي لا نوجِبُها عليكُمْ، ولا نُلْزِمُها ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ أي لا نُلْزِمُها لكمْ بلا حُجَّةٍ شِئْتُمْ، أو أبَيْتُمْ، ولكنْ بِحُجَّةٍ. وفيهِ أنَّ الدينَ لا يُقْبَلُ بالإكراهِ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما:][2] على تبليغِ الرسالةِ إليكُمْ أو على إقامةِ الحُجَّةِ على ما [أُبَلِّغُكُمْ مِنَ][3] الرسالةِ أو على الدينِ الذي أدعوكُمْ[4] إليهِ؛ أي لا أسألُكُمْ على ذلكَ أجراً. فلماذا تُعْرِضونَ عمّا أدعوكُمْ إليهِ، وأُقيمُهُ عليكُمْ ليكونَ لكُمُ الاحتِجاجُ أوِ الاعتِذارُ؟ وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠ والقلم: ٤٦] أي لا نَسْألُكُمْ[5] أجراً على ما نُبَلِّغُهُ إليكُمْ، وندعوكُمْ إليهِ، فَيَمْنَعَكُمْ ثِقَلُ ذلكَ الغُرْمِ إجابَتَكُمْ إياهُ.

فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ؛ ذَكَرَ هذا لأنَّ ما يَلْحَقُ الإنسانَ مِنَ الضَّرَرِ إنما يَمْنَعُهُ عنِ الإذعانِ لِلْحَقِّ[6] والإقبالِ إليهِ والقيامِ بِوَفائِهِ، أو يَمْنَعُ ذلكَ بما لا يَتَبَيَّنُ لهُ الحقُّ لئلا يكونَ لهمُ الاحتِجاجُ والاعتِذارُ عندَ اللهِ، وإنْ لم يكُنْ لهمْ حُجَّةٌ كقولِهِ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] ليسَ على انهُ إذا سألَهُمْ على ذلكَ أجراً يكونُ لهمْ عُذرٌ في ردِّ ذلكَ وتَرْكِ الإجابةِ؛ إذْ لِلّهِ أنْ يُكَلِّفَهُمُ الإجابةَ والطاعةَ لهُ.

والثاني بقولِهِ: ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ على ما أدعوكُمْ إليهِ، وأُبَلِّغُهُ إليكُمْ مالاً مَعَ حاجَتي وقِلَّةِ مالي، فَيَقَعَ عندَكُمْ أني أدعوكُمْ إليهِ رغبةً في ما في أيديكُمْ مِنَ الأموالِ أو لِمَنْفَعَةِ نفسي، بل إنما أدعوكُمْ إليه لمنفعةِ أنفُسِكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي ما أجرِي إلّا على اللهِ في ذلكَ ليسَ عليكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فيهِ دلالةٌ: كأنهمْ كانوا سألوا رسولَهُمْ أنْ يَتَّخِذَ لهمْ مَجْلِساً على حِدَةٍ، ويُفْرِدَ لهمْ ذلكَ دونَ الأراذلِ والضُّعفاءِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ الآيةَ [الأنعام: ٥٢].

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي ما أنا بالذي لا أقبلُ الإيمانَ مِنَ الأراذلِ والضعفاءِ مِثْلَكُمْ[7]: لِقولِهِمُ الذي[8] قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧] لأنهمْ يقولونَ: اتَّبَعَكَ الأراذلُ ظاهراً، وأمّا في الباطنِ فَليسوا على ذلكَ. ولذلكَ قالَ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [هود: ٣١] يَعْني ما في قلوبِ السَّفَلَةِ، فيقولُ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ ظاهراً: اللهُ أعلَمُ بما في قلوبِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ.

أحدُهما: أي مُلاقوا ربِّهِمْ، فَيَشْكونَ مني إليهِ في رَدِّ إيمانِهِمْ، ويُخاصِمونَني في ذلكَ، ويُطالِبونَني] في طَرْدي إياهُمْ.

والثاني: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ ظاهراً كانَ إيمانُهُمْ أو باطناً؛ أي في أيِّ حالٍ هُمْ مُلاقو ربِّهِمْ، فَيَجْزيهِمْ بما هُمْ عليهِ كقولِهِ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ ما أدعوكُمْ إليهِ، أو ﴿تَجْهَلُونَ﴾ في قولِكُمْ: إنهمْ آمَنوا، واتَّبَعوا في ظاهِرِ الحالِ، وأمّا في السِّرِّ فلا، أو ﴿تَجْهَلُونَ﴾ مايَلْحَقُني في طردِكُمْ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي مَنْ يَمْنَعُني مِنْ عذابِ اللهِ إنْ أنا طَرَدْتُهُمْ على ما تَدْعونَني إليهِ، أو مَنْ يَمْنَعُني مِنْ عذابِ اللهِ إنْ لم أقبَلْ منهُمُ الإيمانَ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه لا يَسْمَحُ[9] لي بما[10] تَدْعونَني إليهِ مِنْ طَرْدِ هؤلاءِ أو رَدِّ إيمانِهِمْ، أو ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فَتُؤْمِنوا[11].

---

(١) في الأصل وم: اتاها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ادعي من. (٤) في الأصل وم: يدعوكم. (٥) في الأصل وم: تسالهم. (٦) في الأصل وم: بالحق. (٧) في الأصل وم: عندكم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: يسمع. (١٠) في الأصل وم: ما. (١١) في الأصل وم: فتؤمنون.

وما رُوِيَ في حرفِ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ: أَنُلْزِمُكُموها شَطْرَ أنفُسِنا؛ فَمَعْناهُ: أَنُلْزِمُكُموها نَحْوَ أنفسِنا، وأنتمْ قومٌ مُعانِدونَ. وفي حرفِ ابنِ عباسٍ: أَنُلْزِمُكموها مِنْ شَطْرِ أنفُسِنا؛ أي مِنْ تِلقاءِ أنفُسِنا؛ أي لا نَقدِرُ أنْ نُلْزِمَكُمْ ذلكَ مِنْ تِلقاءِ أنفُسِنا، وأنتمْ كارِهونَ لِذلكَ.

الآية ٣١ وقولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ يُخرَّجُ على وجوهٍ.

أحَدُها: يقولُ: ليسَ عندي خزائنُ اللهِ والسَّعَةُ، فأبذُلَ لكُمْ لِتؤمِنوا رَغْبَةً في المالِ والسَّعَةِ.

والثاني: يقولُ: ليسَ عندي سَعَةٌ، فَيَقَعَ عندَكُمْ أني أدعوكُمْ إلى ما أدعوكُمْ إليهِ افْتِعالاً لا رَغْبَةً في المالِ على مايَفْعَلُ المُفْتَعِلونَ لِلرَّغْبَةِ في المالِ، ولكنْ لِتَعْلَموا أني مُكَلَّفٌ في ذلكَ.

والثالثُ: يَحْتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ أسئِلَةٍ كانَتْ منهُمْ(١).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ هذا القولُ منهُ لهمْ يَحْتَمِلُ الوجهَينِ:

أحَدُهما: أنه قالَ ذلكَ على إثْرِ أمورٍ، [والثاني: أنه قالَ ذلكَ على إثْرِ](٢) أسئِلَةٍ كانَتْ منهُمْ مِنْ نَحْوِ قولِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [الآية: ١٢] وقولِهِمْ لِرسولِ اللهِ ﷺ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ [الإسراء: ٩٠و٩١]. وقولِهِمْ: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣] وأمثالِ ما كانَ منهُمْ، فيقولُ لهمْ: ليسَ عندي، وبِيَدي، إنما ذلكَ عندَ اللهِ وبِيَدِهِ.

[وقولُهُ تعالى](٣): ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونوا(٤) سألوهُ أنْ يُخبِرَهُمْ عنْ أمورٍ تَسْتَقْبِلُهُمْ قبلَ أنْ تَستَقْبِلَهُمْ، إنْ [كانَتْ شَرًّا يُعِدُّوا](٥) لهُ في دفعِهِ، وإنْ كانَتْ مَنافِعَ يَسْتَقْبِلوها(٦)، وَيَتأهَّبوا لها. فَيقولُ لهمْ: ذا غيبٌ، فأنا لا أعلَمُ الغيبَ، إنما العِلْمُ في ذلكَ إلى اللهِ.

[وقولُهُ تعالى](٧): ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أعلَمُ أخبارَ السماءِ والأمورَ التي فيها ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠ وفصلت: ٦].

وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ](٨) قالَ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي مَفاتيحُ اللهِ في الرزقِ. فهذا كأنهمْ سألوهُ السَّعَةَ لِيَتَّبِعوهُ(٩)، فيقولُ: ليسَ عندي ذلكَ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قالَ لهمُ الرسولُ هذا لِدَفْعِ الشُّبَهِ عنهُمْ؛ وذلكَ أنَّ مِنَ الكفارِ مَنِ اتَّخذَ الرسولَ إلهاً، فَعَبدوهُ بَعْدَما عايَنوا أنهُ مِنَ البَشَرِ، ومنهُمْ مَنْ قالَ: إنهُ ابنُ اللهِ، ومنهُمْ مَنْ قالَ: إنهُ مَلَكٌ، وكانوا يَعْبُدونَ الملائكةَ، [وكانَ يُخبِرُهُمْ](١٠) عنْ أشياءَ غابَتْ عنهُمْ، وظَنُّوا أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ لأنهُ إلهٌ، فيقولُ لهم ذلكَ لِيَدْفَعَ عنهُمْ تلكَ الشُّبَهَ، ويَتَبَرَّأَ مِنْ ذلكَ.

ولذلكَ قالَ عيسى: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ [مريم: ٣٠و٣١] هو ﷺ كانَ يَعْلَمُ في نَفْسِهِ أنهُ عبدُ اللهِ، ولكنْ يقولُ لئلا يَنْسِبوهُ إلى الألوهِيَّةِ والرُّبوبِيَّةِ على ما نَسَبوا إليهِ، فأقَرَّ بالعُبوديَّةِ لهُ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي مَفاتيحُ اللهِ بأنهُ يَهْدي السَّفَلَةَ دونَكُمْ ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي لا أقولُ: إنَّ عندي غيبَ ذلكَ. إنَّ اللهَ يَهْديهِمْ، وهُمْ مؤمِنونَ في السِّرِّ. وذلكَ كقولِهِ: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢] وقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ مِنَ الصِّدْقِ ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي إنما أنا بَشَرٌ كقولِهِمْ(١١): ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا﴾ [الآية: ٢٧] إلى آخِرِ الآيةِ.

ثم قالَ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ قيلَ: الذينَ حَقَرْتُموهُمْ، يعني السَّفَلَةَ والأتباعَ.

---

(١) ذلك في تفسير الآية/ ٢٤. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يكون. (٥) في الأصل وم: كان شراً فيعدوا. (٦) في الأصل وم: فيستقبلوا لها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: فيتبعونه. (١٠) في الأصل وم: وكانوا يخبرونهم. (١١) في الأصل وم: لقولهم.

جنة السنة

وقال ابنُ عباسٍ: الذينَ لم تأخُذْهُمْ ﴿أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ يَعْني إيماناً ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ /٢٣٩ - ب/ مِنَ الصدقِ ﴿إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لهمْ إنْ لم أقبلْ منهمُ الإيمانَ، أو طَرَدْتُهُمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ قالوا ذلكَ لأنهُ قد كانَ طالَ عُمْرُهُ، وهو بينَ أظْهُرِهِمْ، ويدْعوهُمْ إلى الإيمانِ، فأكْثَرَ حِجاجَهُ ومُجادلَتَهُ إياهُمْ، فقالوا: ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وكانَ يَعِدُهُمُ العذابَ إنْ لم يُجيبوهُ كقولِهِ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الآية: ٢٦] وما كانَ وَعَدَ لهمْ في غيرِ آيةٍ مِنَ القرآنِ إنْ لم يُجيبوهُ، فقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ مِنَ العذابِ.

الآية ٣٣ فقالَ: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي ليسَ لي إتيانُ ذلكَ، إنما ذلكَ إلى اللهِ؛ إنْ شاءَ عَجَّلَ، وإنْ شاءَ أخَّرَ إلى ما بَعْدَ الموتِ؛ وهو كقولِ رسولِ اللهِ لقومِهِ: ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لا تُعْجِزونَ اللهَ عَنْ تَعْذيبِكُمْ، فتَفوتونَ عنهُ. وقيلَ: وما أنتُمْ بِسابقي اللهِ بأعمالِكُمُ الخبيثةِ حتى [لا][(١)] يَجْزيَكُمْ بها، وهو واحدٌ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلمُ، لا يَنْفَعُكُمْ دُعائي إلى ما بهِ نَجاتُكُمْ ﴿إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحي لكُمْ إنْ كانَ اللهُ [يُريدُ][(٢)] أنْ يُعَذِّبَكُمْ في نارِ جَهَنَّمَ. ويكونُ[(٣)] الغَيُّ العذابَ كقولِهِ: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] أي عذابَ جَهَنَّمَ ونَحْوَهُ مِنَ الكلامِ.

وأمّا عندَنا فهو على ما أخْبَرَ: إنْ كانَ اللهُ يُريدُ إغواءَ قومٍ أبداً فهمْ في الغِوايةِ. وأصلُهُ أنَّ اللهَ [إنْ][(٤)] أرادَ غِوايةَ مَنْ في عِلْمِهِ أنهُ يَخْتارُ الغِوايةَ والضلالَ اختارَ عَداوَتَهُ. ولا يَجوزُ أنْ يُريدَ هو هدايةَ مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يَختارُ عَداوَتَهُ لأنَّ ذلكَ يكونُ مِنَ الضَّعْفِ أنْ يَخْتارَ المَرْءُ وَلايةَ مَنْ يَختارُ عداوَتَهُ. فَدَلَّ أنهُ لم يُرِدِ الهدايةَ لِمَنْ عَلِمَ منهُ اختيارَ الغِوايةِ والضلالِ.

ثم إضافةُ الإغواءِ والإزاغةِ والإضلالِ إلى اللهِ تُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنهُ يُنْشِئُ ذلكَ الفِعْلَ منهمْ غَيّاً وزَيْغاً وضَلالاً لأنَّ فِعْلَهُمْ فِعْلُ غِوايةٍ وزَيْغٍ.

والثاني: أنهُ خذَلَهُمْ، ولم يُوَفِّقْهُمْ، ولم يُرْشِدْهُمْ، ولم يَعْصِمْهُمْ، ولا سَدَّدَهُمْ. فَمِنْ ذلكَ الوجهِ ليسَ فِعْلُهُ فِعْلَ الذَّمِّ عليهِ حتى يَتَحَرَّجُ بالإضافةِ إلى الخَلْقِ ومِنَ الإضافةِ إلى الخَلْقِ يكونُ على الذمِّ لأنَّ فِعْلَهُمْ نَفْسَهُ فِعْلُ الغِوايةِ والضلالِ، فاستَوجبوا الذَّمَّ عليهِ بذلكَ.

والإغواءُ مِنَ الخَلْقِ هو الدعاءُ إلى ذلكَ أوِ الأمْرُ بهِ، فهو مذمومٌ، يُذَمّونَ على ذلكَ، وليسَ على [اللهِ][(٥)] ذلكَ، وليسَ مِنَ اللهِ مِنْ هذا الوجهِ. ولكنْ على الوجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْناهما.

وفي قولِهِ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ دلالةُ تَعليقِ الشَّرطِ على الشَّرطِ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي بل يَقولونَ ﴿افْتَرَاهُ﴾ مِنْ عندِ نفسِهِ ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: قالَ قومُ نوحٍ [عن نوحٍ][(٦)] ﷺ إنهُ افترى على اللهِ أنهُ رسولٌ إليهِمْ مِنَ اللهِ على ما سَبَقَ مِنْ دعائِهِ قومَهُ إلى دينِ اللهِ، فقالوا: إنهُ ﴿افْتَرَاهُ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: هو قولُ قومِ محمدٍ ﷺ قالوا: افترى محمدٌ هذا القرآنَ مِنْ نَفْسِهِ، ليسَ هو مِنَ اللهِ على ما يَزْعُمُ؛ وهو ما قالَ في صَدْرِ السورةِ، وهو قولُهُ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ إلى آخرِ ما ذَكَرَ [الآية: ١٣].

فَعَلى ذلكَ هذا هو قولُهُمْ [عَنْ رسولِ][(٧)] اللهِ ﷺ إنهُ افترى هذا القرآنَ الذي يقولُ: هو مِنَ اللهِ، مِنْ نَفْسِهِ، فقالَ: ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ﴾ جُرْمُ افْترائي وجَزاؤُهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ويقول. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: لنوح. (٧) في الأصل وم: لرسول.

جنة السنة

[وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ معْناه، واللهُ أعلَمُ، أي لا تُؤاخِذوني أنتمْ بِجُرْمِ أفْتري إنِ افْتريْتُهُ، وأنا لا أُآخَذُ بإجرامِكُمْ كقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ [النور: ٥٤] وكقولِهِ: ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٥٢] فَعَلَى ذلكَ إجرامي.

وأمْكَنَ أنْ يكونَ هذا القَولُ لهمْ لمّا أَيِسَ مِنْ إيمانِهِمْ كقولِهِ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ [الشورى: ١٥] لمّا أَيِسَ مِنْ إيمانِهِمْ، وانْقَطَعَ طَمَعُهُ ورَجاؤُهُ عنْ إسلامِهِمْ قالَ لهمْ ذلكَ: أنْ لا مُحاجَّةَ بَيْنَنا وبَيْنَكُمْ بَعْدَ هذا، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ نوحاً ﷺ لم يَدْعُ على قومِهِ بالهلاكِ مادامَ يَرْجو، ويَطْمَعُ مِنْ قومِهِ الإيمانَ، فإذا أَيِسَ، وانْقَطَعَ رَجاؤُهُ فَحينَئذٍ دَعا عليهِمْ بالهلاكِ بقولِهِ[2]: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي أحداً ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ الآية [نوح: ٢٦ و٢٧] وعَرَفَ الإياسَ مِنْ إيمانِهِمْ بقولِهِ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ الآية، وكذلكَ سائرُ الأنبياءِ والرُّسُلِ لم يُؤْذَنْ لهمْ بالدعاءِ على قومِهِمْ بالهلاكِ والخروجِ مِنْ بَينِ أظْهُرِهِمْ مادامُوا يَرْجونَ، ويَطْمَعونَ منهمُ الإيمانَ والإجابَةَ لهمْ، إذا أَيِسوا، وانقطَعَ رجاؤُهُمْ وطَمَعُهُمْ عَنْ ذلكَ. فعندَ ذلكَ أذِنَ لهمْ بالدعاءِ عليهِمْ بالهلاكِ والخروجِ مِنْ بَينِ أظْهُرِهِمْ.

وفي قولِهِ: ﴿لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ دلالةُ أنَّ لِلإيمانِ حُكْمَ التَّجَدُّدِ والابْتِداءِ في كلِّ وقتٍ وكلِّ حالٍ لأنهُ أخْبَرَ أنَّ الذي قد آمَنَ قد يُؤْمِنُ في حادثِ الوقتِ. وعلى ذلكَ تُخرَّجُ الزياداتُ التي ذُكِرَتْ في الإيمانِ [كقولِهِ][3]: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] ونَحْوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ قيلَ: لاتَحْزَنْ بما كانوا يَفْعَلونَ. فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: لا تَحْزَنْ بكفرِهِمْ باللهِ وتكذيبِهِمْ إياكَ، ليسَ على النَّهْيِ عنِ الحزنِ في ذلكَ، ولكنْ على دَفْعِ الحُزْنِ عنهُ والتَّسلّي بهِ لأنَّ الأنبياءَ ﷺ كانوا يَحْزَنونَ بِكُفْرِ قومِهِمْ باللهِ وجَعْلِهِمْ أنفُسَهُمْ أعداءً لهُ كقولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ الآية [الكهف: ٦ والشعراء: ٣] وقولِهِ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨] وأمثالُهُ.

كانَ الأنبياءُ ﷺ أشَدَّ الناسِ حُزْناً بِكُفْرِ قومِهِمْ باللهِ وتكذيبِهِمْ آياتِهِ وأشَدَّهُمْ رغبَةً في إيمانِهِمْ. وكانَ حُزْنُهُمْ لم يَكُنْ على هلاكِهِمْ. ألا تَرى أنَّ نوحاً دَعا عليهِمْ بالهلاكِ، وكذلكَ سائرُ الأنبياءِ ﷺ [كانَ حُزْنُهُمْ][4] لِمَكانِ كُفْرِهِمْ باللهِ وتكذيبِهِمْ آياتِهِ لا لِمَكانِ هَلاكِهِمْ إشفاقاً على أنْفُسِهِمْ؟

والثاني: قولُهُ: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أنهمْ كانوا هَمُّوا قَتْلَهُ والمَكْرَ بِهِ، فقالَ: لا تَحْزَنْ بما كانوا يَسْعَونَ في هلاكِكَ، فإني كافيهِمْ.

قالَ أبو عوسَجَة: قولُهُ: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ هو مِنَ الحزنِ؛ يُقالُ: يَبْتَئِسُ ابْتِئاساً؛ وقالَ[5] الكسائيُّ: أيضاً ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ أي لا تَحْزَنْ؛ هو مِنَ البأسِ، يُقالُ: لا تَبْتَئِسْ بهذا الأمرِ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ بأمْرِنا ﴿وَوَحۡيِنَا﴾. وقالَ بعضُهُمْ: بِمَنْظَرِنا ومَرْأى مِنّا.

ولكنَّهُ[6] عندَنا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهُما: قولُهُ ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي بِحِفْظِنا ورِعايَتِنا؛ يُقالُ: عَينُ اللهِ عليكَ، أي حِفْظُهُ عليكَ. ثم لا يُفْهَمُ مِنْ قولِهِ: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ [العينُ نَفْسُها على ما يُفْهَمُ][7] مِنْ قولِهِ: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٨٢ و الأنفال: ٥١] ولكنْ ذَكَرَ الأيدي لِما في الشاهِدِ أنَّ ما يُقَدَّمُ باليَدِ، ويُكْتَسَبُ باليَدِ. فَعَلى ذلكَ ذَكَرَ العَينَ لِما بالعَينِ يُحْفَظُ في الشاهِدِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: كقوله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: إن حزنهم كان. (٥) سقطت الواومن الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ولكن. (٧) في الأصل وم: نفس العين على ما يفهم.

جنة السنة

والثاني: قولُهُ: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بإعلامِنا أيَّدَكَ لأنهُ لولا تعليمُ اللهِ إياهُ اتخاذَ السفينةِ ونَجْرَها لم يكنْ لِيَعْرِفَ أنْ كيفَ يَتَّخِذُ؟ وكيفَ يَنْجُرُ، إنما عَرَفَ ذلكَ بِتَعليمِ اللهِ إياهُ، واللهُ أعْلَمُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

[أحَدُهما][١]: يَحْتَمِلُ أي لا تَشْفَعْ إليَّ في نَجاةِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ في حُكْمِ اللهِ.

والثاني: لا تُخاطِبْني في هدايةِ الذينَ هُمْ في حُكْمِ اللهِ أنهمْ يَموتونَ ظَلَمَةً؛ أي لا تَسْألْني إيمانَ مَنْ في عِلْمِ اللهِ أنهُ لا يؤمِنُ.

وفيهِ نَهْيٌ [عنِ][٢] السؤالِ عمّا في عِلْمِ اللهِ أنهُ لا يكونُ لأنهُ/ ٢٤٠ ـ أ/ إذا أخبَرَ أنهُ لا يكونُ، أو لا يَفْعَلُ، فإذا سألَهُ كانَ يَسْألُهُ أنْ يُكَذِّبَ خَبَرَ أنهُ لا يكونُ.

وفيهِ أنَّ مَنْ أرادَ اللهُ إيمانَهُ[٣] آمَنَ، ومَنْ لم يُرِدْ إيمانَهُ لا يُؤمِنُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ المَلأُ هُمُ الأشرافُ والرُّؤساءُ مِنْ قومِهِ ﴿سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ هُمُ الذينَ سَخِروا منهُ.

قالَ بعضُهُمْ: سُخْرِيَّتُهُمْ منهُ أنْ قالوا: صارَ نَجّاراً بعدَ ما ادَّعَى لنفسِهِ الرسالةَ. وقالَ بعضُهُمْ: سُخْرِيَّتُهُمْ منهُ لمّا رَأوْهُ يَتَّخِذُ الفُلْكَ، ولم يكُنْ هنالكَ بَحْرٌ، ولا وادٍ، ولا مياهٌ جاريةٌ، إنما هي آبارٌ لهمْ، فَقالوا: يَتَّخِذُ[٤] السفينةَ لِيُسَيِّرَها في البراري والمَغاوِرِ، ونَحْوَهُ منَ الكلامِ. وقالَ: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾.

وقالَ [بَعضُهُمْ][٥]: سُخْرِيَّتُهُ منهُمْ أنه إذا رَكِبوا الفُلْكَ، ورَأوهُمْ يَغْرَقونَ، قالوا: كُنْتُمْ على حقٍّ وعلى هُدىً، ونَحْوَهُ مِنَ الكلامِ.

لكنَّ هذا لا يُعْلَمُ، ولا حاجةَ لنا إلى معرفةِ سُخْرِيَّتِهِمْ أنْ كيفَ كانَتْ؟ سِوَى أنَّ فيهِ سُخْرِيَةً منهُ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ أي نَجْزيهِمْ جزاءَ سُخْرِيَّتِهِمْ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هو وعيدٌ؛ أي سوفَ تَعْلَمونَ أنَّ حاصِلَ سُخْرِيَّتِكُمْ رَجَعَ إليكُمْ كقولِهِ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية [البقرة: ٩] أي سوفَ تَعْلَمونَ إذا نَجَونا نَحْنُ، وغَرِقْتُمْ أنتمْ ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي عذابٌ يَفْضَحُهُ، ويُهْلِكُهُ، وهو الغَرَقُ ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي عذابٌ يَدومُ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ هو عذابُ الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

وأمّا قولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ سفينةَ نوحٍ كانَ طولُها كذا، وعَرضُها كذا، فليسَ لنا بذلكَ عِلْمٌ، ولا حاجةَ لنا إلى معرفةِ ذلكَ. فإنْ صَحَّ ذلكَ فهو ما قالوا، وقولُهُمْ: كانَ لها ثلاثةُ أبوابٍ وثلاثةُ أطباقٍ. فذلكَ أيضاً لا نَعْرِفُهُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ قولُهُ: ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي جاءَ وقتُ أمرِنا بالعذابِ الذي اسْتَعْجَلوهُ كقولِهِمْ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] وكذلكَ كانَتْ عادةُ الأُمَمِ السالِفَةِ اسْتِعجالَ العذابِ مِنْ رُسُلِهِمْ.

سَمّى العذابَ أمْرَ اللهِ لِما لا صُنْعَ لأحدٍ فيهِ، وكذلكَ المَرَضُ سَمّاهُ أمْرَ اللهِ لِما لا صُنْعَ لأحدٍ مِنَ الخلائقِ فيهِ، وسَمّى الصلاةَ أمْرَ اللهِ لِما بِأمْرِهِ يُصَلّى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ يُقالُ إذا فارَ الماءُ إذا خَرَجَ يَفورُ فَوراً أي غَلَى كما تغلي القِدْرُ، وتَصْديقُهُ [قولُهُ][٦]: ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ ﴿تَكَادُ﴾ [الملك: ٧و٨] قالوا: فارَ أي خَرَجَ، وظَهَرَ.

والتَّنُّورُ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قالَ بَعْضُهُمْ: التَّنُّورُ هو وَجْهُ الأرضِ؛ قالُوا: إذا رأيتَ الماءَ قد خَرَجَ، ونَبَعَ، وظَهَرَ على وَجْهِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إيمان أحد. (٤) في الأصل وم: يتخذوا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

الأرضِ، فارْكَبْ، وقالَ بعْضُهُمْ: التّنُّورُ هو التّنُّورُ الخابِزَةُ التي يُخبَزُ فيها؛ قالوا: إذا رأيتَ الماءَ نَبَعَ مِنْ تَنورِكَ فارْكَبْ؛ قالوا: كانَ الماءُ يَنزِلُ مِنَ السماءِ، ويَنبُعُ مِنَ الأرضِ كقولِهِ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١١و١٢] لكنْ جَعَلَ علامةَ وقتِ ركوبِهِ السفينَةَ هو خروجُ الماءِ مِنَ الأرضِ، ونبعُهُ منها.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ويَحتَمِلُ هذا وجهَينِ: يَحتَمِلُ أنْ كنا قُلْنا لهُ إذا فارَ التّنُّورُ ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ويَحتَمِلُ أنْ قُلْنا لهُ وقتَ فورِ الماءِ مِنَ التّنُّورِ ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الزّوجُ هو اسمُ فردٍ لِذي شَفْعٍ، ليسَ هو اسْمَ الشَّفْعِ حتى يُقالَ عندَ الاجْتِماعِ ذلكَ، ولكنْ ما ذَكَرْنا أنهُ اسْمٌ لِذي شَفْعٍ؛ كأنَّ الإناثَ صِنفٌ وزوجٌ، والذكورَ صِنفٌ وزوجٌ، فيكونُ الذَّكَرُ والأُنثى زوجَينِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي مِنْ ذَكَرٍ وأُنثى. ثم يَحتَمِلُ زوجَينِ مِنْ ذوي الأرواحِ التي يكونُ لهمُ النّسْلُ لئلا يَنْقَطِعَ نَسْلُهُمْ، ويَحتَمِلُ ذوي الأرواحِ وغيرَها[1]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أرادَ أهْلَهُ والذينَ آمَنوا مَعَهُ؛ يقولُ ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ واحْمِلْ أهلَكَ أيضاً ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أي إلّا مَنْ كانَ في عِلْمِ اللهِ أنهُ لا يؤمِنُ، وإلّا مَنْ كانَ في عِلْمِ اللهِ أنهُ يَهْلِكُ.

وقالَ بعضُهُم: قولُهُ: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أرادَ أهلَهُ خاصَّةً، ثم استثنى مَنْ سَبَقَ عليهِ القولُ، وهما[2] ابنُهُ وزوجَتُهُ، وهما مِنْ أهلِهِ. ألا تَرى أنهُ ذَكَرَ مَنْ آمَنَ مَعَهُ؛ وهو قولُهُ: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي احْمِلْ أهلَكَ الذينَ آمَنوا مَعَكَ ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ مِنْ أهلِكَ وغيرِهِ[3] إنهُ في الهالكينَ؟ أو يقولُ: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ إنهُ لا يؤمِنُ؛ فهذا يَدُلُّ أنَّ في أهلِهِ مَنْ كانَ ظالِماً كافراً حينَ[4] اسْتَثْنى مِنْ أهلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][5]: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ يَذْكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ، تذكيراً لِرسولِ اللهِ ﷺ مِنَّتَهُ ونِعمَهُ التي أنْعَمَها عليهِ؛ لأنَّ نوحاً ؈ مَعَ طُولِ مُكْثِهِ بَينَ أظْهُرِ قومِهِ وكَثْرَةِ دُعائِهِ قومَهُ إلى دينِ اللهِ ومَواعِظِهِ لم يؤمِنْ إلّا القليلُ منهُم. ورسولُ اللهِ ﷺ مَعَ قِلَّةِ مُكْثِهِ وقِصَرِ عُمُرِهِ آمَنَ مِنْ قومِهِ الكثيرُ؛ يُعَرِّفُهُ نِعَمَهُ عليهِ.

وفيهِ دلالةُ رَدِّ قولِ مَنْ يقولُ: إنَّ المَواعِظَ إنما تَنْفَعُ المَوعوظَ على قَدْرِ استِعمالِ الواعِظِ، وليسَ هكذا، ولكنْ على قَدْرِ قَبولِ المَوعوظِ إياها وقَدْرِ الإقبالِ إليها؛ لأنَّ نوحاً ؈ كانَ أشَدَّ الناسِ استِعمالاً لِلمواعِظِ وأكْثَرَهُمْ، ثم لم يؤمِنْ مِنْ قومِهِ إلا القليلُ. دلَّ أنهُ ليسَ لِما فَهِموا، ولكنْ لِما ذَكَرْنا.

وأمّا ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنهُ حَمَلَ في السفينةِ حَبّاتِ العِنَبِ، فأخَذَهُ إبليسُ، فلم يُعطِهِ، إلّا أنْ يُعطِيَ[6] لهُ الشَّرِكَةَ، فذلكَ شيءٌ، لا عِلْمَ لنا بِهِ. فإنْ ثَبَتَ ذلكَ فيكونُ فيه دلالةُ أنْ ليسَ لهُ في سائِرِ الأنبِذَةِ والأشرِبَةِ نَصيبٌ، إنما يكونُ لهُ في مايَخرُجُ مِنَ العِنَبِ وتقديرِ الثُّلُثِ والثُّلُثَينِ، إنما يكونُ في عَصيرِ العِنَبِ خاصَّةً، ليسَ في غيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أنهُ قالَ لهمْ نوحٌ ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ وقولوا[7]: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ وهو كقولِ الناسِ: بِسْمِ اللهِ مِنْ أوّلِهِ على مايُقالُ، ويُذكَرُ اسْمُ اللهِ في افتِتاحِ كلِّ أمْرٍ وكلِّ عملٍ مِنْ ركوبٍ ونزولٍ وغيرِهِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي باللهِ مَجراها ومُرْساها، أي بِهِ تَجري، وبِهِ تَرْسو، وإنهُ ليسَ كسائِرِ السُّفُنِ التي بأهلِها تَجري، وبهِمْ تَقِفُ، وهُمُ الذينَ يَتَوَلَّونَ، ويَتَكَلَّفونَ إجراءَها ووُقوفَها. وأمّا سفينةُ نوحٍ كانَتْ جَرْيَتُها باللهِ، وبهِ رُسُوُّها، لا صُنْعَ لهمْ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هو ظاهرٌ [أنَّ مَنْ][8] آمَنَ بِهِ، وصَدَّقَ رسولَهُ، يُنجِهِ[9] مِنَ الغَرَقِ والهلاكِ.

---

(١) في الأصل: غيره، في م: وغيره. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) من م، في الأصل: غيره. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أعطى. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لمن. (٩) في الأصل وم: ينجيه.

جنة السنة

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ هذا يَدُلُّ على ماذَكَرْنا أنها كانَتْ باللهِ تَجْري، وبهِ تَرْسُو، حينَ[1] لم يَخافوا الغَرَقَ [مَعَ][2] ما كانَ مِنَ الأمواجِ.

وأمّا سائرُ السُّفُنِ فإنَّ أهلَها خافوا مِنْ أمواجِها لِما كانوا هُمُ الذينَ يَتَوَلَّوْنَ، ويَتَكَلَّفونَ إجراءَها وَوُقوفَها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ هذا يَدُلُّ على أنها كانَتْ آيَةً لأنَّ الأمواجَ تَمْنَعُ مِنْ جَرَيانِ السفينَةِ وسَيْرِها. فإذا أخْبَرَ أنها لم تُمْنَعْ هذهِ مِنْ جَرَيانِها دَلَّ أنهُ أرادَ أنْ تصيرَ آيَةً لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ أي بِمَعْزِلٍ مِنْ نوحٍ، أو كانَ بِمَعْزِلٍ مِنَ السفينَةِ، أو ما كانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فَتَغْرَقَ[3]، أو ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لِنِعَمِ اللهِ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ أي سأنْضَمُّ/ ٢٤٠ ـ ب/ ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ ظَنَّ مِسكينٌ أنَّ هذا الماءَ كغيرِهِ مِنَ المياهِ التي يُسْلَمُ منها[4] بالالْتِجاءِ إلى الجبالِ. فأخْبَرَهُ[5] ﷺ أنهُ ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي مِنْ عذابِ اللهِ.

سَمّى عذابَهُ أمرَ اللهِ لِما ذَكَرْنا [أنَّ][6] أمْرَ اللهِ أمْرُ تكوينٍ لأنهُ هو النهايَةُ في الاحتِجاجِ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ الآيةَ [النحل: ٤٠] وهو كما يُسَمّى البَعْثُ لقاءَ اللهِ لأنهُ هو النهايَةُ في الاحتجاجِ على مَنْ يُنْكِرُ البَعْثَ. فَعَلى ذلكَ سَمّى عذابَهُ أمْرَ اللهِ، وهو أمْرُ تكوينٍ لأنهُ هو النهايَةُ في الاحتِجاجِ على مَنْ يُنْكِرُ العَذابَ.

وقولُهُ تعالى ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ اللهُ بهدايتِهِ إياهُ؛ إلّا مَنْ سَبَقَتْ لهُ الرحمةُ مِنَ اللهِ بالهدايَةِ لهُ والنجاةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ بَيْنَ [نوحٍ وبَيْنَ ابنِهِ][7]. ويَحْتَمِلُ بَيْنَهُ وبَيْنَ السفينَةِ ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ يَحْتَمِلُ صارَ مِنَ المُغْرَقينَ. ويَحْتَمِلُ كانَ في عِلْمِ اللهِ أنهُ يَغْرَقُ.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ قولَهُ في إبليسَ: إنهُ ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧٤] أنهُ يَخْرُجُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: أنهُ كانَ في عِلْمِ اللهِ أنهُ يَكْفُرُ.

والثاني[8]: صارَ مِنَ الكافرينَ كما ذُكِرَ ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ ولم يكنْ مِنَ المُغْرَقينَ في الأزلِ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ قالَ بعضُهُمْ: عادَ كلُّ ماءٍ إلى مِنْ حَيْثُ خَرَجَ: ما أُرسِلَ مِنَ السماءِ عادَ إليها، وما خَرَجَ مِنَ الأرضِ غاضَ في الأرضِ، وغارَ فيها. وقالَ بعضُهُمْ: لا، ولكنْ أمْسَكَتِ السماءُ عنْ إرسالِهِ، وأمْسَكَتِ الأرضُ عنْ نَبْعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ ليسَ على القولِ لهمْ، ولكنَّ اللهَ أمْسَكَهُما عنْ إرسالِهِ ونَبْعِهِ. ويَحْتَمِلُ على القولِ منهُمْ لهمْ باللطفِ وجَعْلِ فيهِمْ ما يَفْهَمُ هذا ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي غارَ الماءُ في الأرضِ ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ بِهلاكِ قومِ نوحٍ. ويَحْتَمِلُ على التكوينِ على ما ذُكِرَ ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ أي اسْتَقَرَّتْ على الجُودِيِّ، وهو جَبَلٌ ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي هلاكاً. ويَحْتَمِلُ ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِنْ رحمةِ اللهِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي مَوْقِفُها[9]، وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ يَمْنَعُني مِنَ الماءِ، وقولُهُ[10]: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: لا مَعصومَ اليومَ مِنْ عذابِ اللهِ كقولِهِ: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] أي مدفوقٍ.

وأصْلُهُ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي لا شَيءَ يَمْنَعُ اليومَ مِنْ نُزولِ عذابِ اللهِ عليهِمْ، ولا دافِعَ لهمْ منهُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لتغرق. (٤) في الأصل وم: إليها. (٥) في الأصل وم: فأخبر.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ابنه وبين نوح. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: تقف. (١٠) في الأصل وم: و.

جنة السنة

الآيتان ٤٥ و٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الآية، فقالَ ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

هذا، واللهُ أعْلَمُ كانَ عندَ نوحٍ أنَّ ابنَهُ كانَ على دينِهِ لِما لَعَلَّهُ كانَ يُظْهِرُ الموافَقَةَ لهُ، وإلّا لا يَحْتَمِلُ أنْ يقولَ ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ ويَسْألَهُ نَجاتَهُ، وقد سَبَقَ منهُ النَّهْيُ في سؤالِ مِثْلِهِ [حينَ قالَ:][1] ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

ولا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يَعْلَمُ أنهُ على غيرِ دينِهِ، ثم يَسْألُ لهُ النجاةَ بَعْدَ مانهاهُ عنِ المُخاطَبةِ في الذينَ ظَلَموا، فقالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ في الباطنِ والسِّرِّ، وإلّا خُرِّجَ هذا القولُ مُخْرَجَ تكذيبِ رسولِهِ.

لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا أنهُ كانَ في الظاهرِ عندَهُ أنهُ على دينِهِ لِما كانَ يُظْهِرُ لهُ المُوافَقَةَ، وكانَ لا يَعْرِفُ مايُضْمِرُهُ، فَسَألَهُ على الظاهِرِ الذي عندَهُ أنهُ على دينِهِ لِما كانَ يُظْهِرُ لهُ الموافَقَةَ، وكانَ لا يَعْرِفُ مايُضْمِرُهُ، فَسألَهُ على الظاهِرِ الذي عندَهُ.

وكذلكَ أهلُ النفاقِ كانوا يُظْهِرونَ المُوافَقَةَ لِرسولِ[2] اللهِ ﷺ وأصحابِهِ، ويُضْمِرونَ [الخِلافَ لهُمْ][3]، وكانوا لا يَعْرِفونَ نِفاقَهُمْ إلّا بَعْدَ إطْلاعِ اللهِ إياهُ.

فَعَلى ذلكَ نوحٌ كانَ [لا][4] يَعْرِفُ ما يُضْمِرُ؛ لذلكَ خَرَجَ سؤالُهُ، فقالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذينَ[5] وَعَدَ النجاةَ لهمْ، أو ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لأنهُ لم يُؤْمِنْ بي، ولم يُصَدِّقْكَ في ما أخْبَرْتَ ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ كانَ يقرأُ: عَمِلَ غيرَ صالحٍ بغيرِ تنوينٍ[6].

وعَنِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ أنهُ قرأ [﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ بالتَّنْوينِ. فَمَنْ قَرَأَ بالنصبِ عَمِلَ][7] غيرَ صالحٍ أي إنَّ ابْنَكَ عَمِلَ غيرَ صالحٍ. ومَنْ قَرَأَ: عَمَلٌ فَمَعْناهُ[8]، واللهُ أعلَمُ، أنَّ سؤالَكَ عَمَلٌ غَيْرُ صالحٍ بالتنوينِ. وكُلٌّ [منَ][9] القراءَتَينِ يَجوزُ أنْ يُصرَفَ إلى ابْنِهِ أي انهُ عَمِلَ غيرَ صالحٍ، وهو عَمَلُ الكُفْرِ، وعَمَلٌ غَيْرُ صالحٍ أيِ الذي كانوا عليهِ عَمَلٌ غَيْرُ صالحٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ ثم قولُهُ[10]: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ هذا في الظاهِرِ يُخَرَّجُ على التكذيبِ لهُ. لكنَّ الوجهَ فيهِ أنهُ مِنْ أهلِكَ على ما عندَكَ، وليسَ مِنْ أهلِكَ في ما بَشَّرْتُكَ مِنْ نَجاةِ أهلِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ يَحْتَمِلُ [وجهَينِ:

[أحدُهُما][11]: وإنَّ وعْدَكَ بإغراقِ الظَّلَمَةِ حَقٌّ.

والثاني][12]: وإنَّ وَعْدَكَ بِنَجاةِ المؤمنينَ حَقٌّ ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يَحْتَمِلُ هذا نَهْياً عَنْ سُؤالٍ مِمّا لم يُؤْذَنْ لهُ مِنْ بَعْدُ، لأنَّ الأنبياءَ عليهم السلام كانوا لا يَسْألونَ شيئاً إلّا بَعْدَ الإذْنِ لهمْ في السؤالِ، وإنْ كانَ يَسَعُ لهمُ السؤالُ، أو أنْ يكونَ عِتاباً لِما سَبَقَ، والأنبياءُ عليهم السلام كانوا يُعاتَبونَ في أشياءَ تَحُلُّ بهِمْ. ذلكَ نَحْوُ قولِهِ لرسولِ اللهِ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [التوبة: ٤٣] وقد كانَ منهُ الأمرُ بالقعودِ والنَّهْيُ عنِ الخروجِ بقولِهِ: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٣] ونَحْوِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ هو كما نَهَى رسولَ اللهِ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] وأمثالُهُ، وإنْ كانَ معلوماً أنهُ لا يكونُ مِنَ الجاهلينَ، وهو ما ذَكَرْنا أنَّ العِصْمَةَ لا تَمْنَعُ النَّهْيَ عنِ الشَّيءِ، بلِ النَّهْيُ يُظْهِرُ العِصْمَةَ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم العبارة التالية: وكان لا يعرف ما يضمره فسأله على الظاهر الذي عنده وكذلك أهل النفاق يظهرون. (٣) في الأصل: الخلافة له، في م: الخلاف له. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: الذي. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ١١٤. (٧) من م، في الأصل: بالنصب على. (٨) في الأصل وم: يكون معناه. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قال. (١١) ساقطة من م. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾ إني أعوذُ بكَ أنْ أعودَ إلى سُؤالٍ، لا أعلَمُ بالإذنِ في السؤالِ. هذا يُحتَمَلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إنْ لم تغفِرْ لي بالعِصمَةِ مِنَ العَودِ إلى مِثْلِهِ ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ هذا يُشبِهُ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا لِما لا يَستوجِبونَ الغُفرانَ والرحْمَةَ إلّا بِرَحْمَةِ اللهِ وفضلِهِ على ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ أنهُ قالَ: «لنْ تُدخِلَ الجنَّةُ إلّا برحمةِ اللهِ، قيلَ: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: ولا أنا إلّا أنْ يَتَغَمَّدَني اللهُ برحمتِهِ» [مسلم ٢٨١٦/٧١و...٢٨١٨/٧٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ هو طَلَبُ المَغْفِرَةِ بالكِنايَةِ، وهو أبلَغُ وأكبَرُ [مِنْ قولِهِ][1]: اللهمَّ اغفِرْ لي؛ كأنَّ في قولِهِ ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ قَطْعَ المَغْفِرَةِ عنْ[2] غيرِهِ، وإخباراً[3] ألّا يَملِكَ أحدٌ ذلكَ، وليسَ في قولِهِ ﴿ٱغْفِرْ لِي﴾ [الأعراف: ١٥١و...] قَطْعُ كونِ ذلكَ عنْ غيرِهِ. لذلكَ كانَ ذلكَ أبلَغَ مِنْ هذا. وكذلكَ سؤالُ آدمَ وحَوّاءَ المَغْفِرَةَ حينَ[4] قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآيةَ [الأعراف: ٢٣] هو سؤالٌ بالكِنايةِ، فهو أبلَغُ في السؤالِ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ قالَ بعضُهُم: أيِ انزِلْ مِنَ الجُوديِّ إلى مكانِ قرارِ الأرضِ. وقالَ بعضُهُم: قولُهُ: ﴿ٱهْبِطْ﴾ أيِ انزِلْ، وأقِمْ على المُقامِ، وامْكُثْ في المكانِ، ليسَ على الهبوطِ مِنْ مكانٍ مُرتَفِعٍ إلى مكانٍ مُنحَدِرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ السلامةُ [هي أنْ يَسْلَمَ مِنَ][5] الشُّرورِ والآفاتِ، والبَرَكَةُ هي نَيلُ كلِّ خيرٍ وبرٍّ على غيرِ تَبِعَةٍ. ثم هما في التَّحصيلِ واحدٌ؛ لأنهُ إذا سَلِمَ [المَرْءُ مِنَ][6] كلِّ شرٍّ وآفةٍ نالَ كلَّ خيرٍ وبرٍّ، وإذا نالَ كلَّ خيرٍ سَلِمَ منْ[7] كلِّ شرٍّ. هما في الحقيقةِ واحدٌ، لكنهما في العبارةِ [مُختَلِفانِ، وهما][8] كالبِرِّ والتَّقوى مِنَ العَبْدِ: البِرُّ هو كَسْبُ كلِّ خيرٍ، والتَّقوى هو اتِّقاءُ كلِّ شرٍّ ومَعْصِيَةٍ؛ هما في العبارةِ مُختَلِفانِ، وفي الحقيقةِ واحدٌ؛ لأنهُ إذا اتَّقى كلَّ شرٍّ عَمِلَ كلَّ خيرٍ وبرٍّ، وإذا كسِبَ كلَّ خيرٍ وبرٍّ اتَّقى كلَّ مَعْصِيَةٍ وشرٍّ.

وعلى ذلكَ يُخرَّجُ الشُّكرُ والصَّبرُ؛ [فالصَّبْرُ][9] هو كفُّ النَّفْسِ عن كلِّ مأثمٍ،/ ٢٤١ ـ أ/ والشكرُ هو اسْتِعْمالُ النفسِ في كُلِّ طاعةٍ. هما أيضاً في العبارةِ مُختَلِفانِ، وفي الحقيقةِ واحدٌ لأنهُ إذا كَفَّ نَفْسَهُ عَنْ كُلِّ مأثمٍ واسْتَعْمَلَها في الطاعةِ كَفَّها عَنْ كُلِّ مأثمٍ ومعصيَةٍ.

وعلى ذلكَ يُخرَّجُ الإسلامُ والإيمانُ: الإسلامُ [هو تَسْليمُ][10] النَّفْسِ للهِ خالِصَةً سالِمَةً، لا تُجْعَلُ لِغيرِهِ فيها حقّاً، والإيمانُ هو أن يُصَدِّقَ اللهَ بالربوبيَّةِ في نَفْسِهِ وفي كلِّ شيءٍ، وهما في الحقيقةِ واحدٌ، وفي العبارةِ مُختَلِفانِ؛ لأنهُ إذا جعلَ نَفْسَهُ وكلَّ شيءٍ سالماً للهِ أقَرَّ بالربوبيَّةِ في نَفْسِهِ وفي كلِّ شيءٍ، وإذا صَدَّقَهُ، وأقَرَّ لهُ بالربوبيَّةِ في نفسِهِ، [وجعلَ نَفْسَهُ وكلَّ شيءٍ للهِ فَقَدْ آمَنَ][11]. هذهِ الأشياءُ في العِبارةِ مُختَلِفَةٌ وفي التَّحصيلِ واحدٌ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ [يحتَمِلُ وجهين:

أحدُهما][12]: جائزٌ أنْ يكونَ جوابَ قولِهِ ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ﴾ أمَّنَهُ مِمّا[13] خافَ، وطَلَبَ منهُ المَغْفِرَةَ والرّاحمة.

والثاني: السلامُ[14] منهُ هو الثناءُ الحَسَنُ كقولِهِ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ جوابَ قولِهِ: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ [المؤمنون: ٢٩] والبركةُ هو اسْمُ كلِّ خيرٍ لا انْقِطاعَ لهُ، أوِ اسْمُ كلِّ شَيءٍ لا تَبِعَةَ لهُ عليهِ فيه.

---

(١) في الأصل وم: عن قولهم. (٢) في الأصل وم: من. (٣) في الأصل وم: وأخبار. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: هو أن يسلم عن. (٦) في الأصل وم: عن. (٧) في الأصل وم: عن. (٨) في الأصل وم: مختلف، وهو. (٩) في م: الصبر، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل: هو التسليم، في م: تسليم. (١١) في الأصل وم: وكل شيء جعلها لله وكل شيء له. (١٢) في الأصل وم: و. (١٣) في الأصل وم: عما. (١٤) في الأصل وم: السلامة.

جنة السنة

ثم قولُهُ: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ على قولِ بعضِ أهلِ التأويلِ: ذلكَ السلامُ[1] لِما سَلِموا مِنَ الغَرَقِ، والبركاتُ ما نالوا في الدنيا مِنَ الخيراتِ والمَنافِعِ.

وعلى قولِ بَعْضِهِمْ: السلامُ والبركاتُ جميعاً في الآخِرةِ.

ثم جَعَلَ ﷻ المؤمنَ والكافِرَ مُشتَرِكَيْنِ في مَنافِعِ الدنيا وبركاتِها، وجَعَلَ مَنافعَ الآخِرةِ وبركاتِها لِلمؤمنينَ خاصةً بقولِهِ: ﴿ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨ وهود: ٤٩ والقصص: ٨٣] وبقولِهِ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ[2] هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] أشرَكَ المؤمنَ والكافِرَ في زينةِ الدنيا، ثم جَعَلَها للمؤمنينَ خالصةً يومَ القيامةِ.

فذلكَ قولُهُ: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أخبَرَ أنهُ يُمتِّعُهُمْ، ثم يُصيبُهُمْ عذابٌ أليمٌ، ويُمَتِّعُ المؤمنَ أيضاً في هذهِ الدنيا بأنواعِ المنافعِ.

ثم أخبَرَ أنَّ ﴿ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ثم جَعَلَ العاقبةَ بإزاءِ ما جَعَلَ لهمْ عذاباً أليماً؛ أعني الكَفَرةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ ولم يكُنْ معَ نوحٍ أُمَمٌ يومئذٍ، إنما كانَ[3] مَعَهُ نفَرٌ، ولكنهُ أرادَ، واللهُ أعلَمُ، الأُمَمَ التي كانوا مِنْ بَعْدِهِ. كأنهُ قالَ: وعلى أُمَمٍ يكونونَ مِنْ بَعْدِكَ.

فهذا يدلُّ أنَّ دينَ الأنبياءِ والرسلِ ﷺ [دينٌ واحدٌ][4] وإنِ اختَلَفَ شرائعُهُمْ لأنَّ تلكَ الأُمَمَ لم يكونوا بأنفُسِهِمْ معَ نوحٍ، ولا كانوا معهُ في العِباداتِ التي كانَ فيها نوحٌ. دلَّ أنهمْ كانوا جميعاً على دينِهِ، وهو واحدٌ، وعلى ذلكَ يُخرَّجُ دعاؤهُ ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ الآيةَ [نوح: ٢٨] دعاءٌ بالمَغفِرةِ لهُ ولكلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، يكونُ مِنْ بَعْدِهِ، وكذلكَ يَلْحَقُ كلَّ[5] كافرٍ دعاؤهُ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: ٢٨].

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿تِلْكَ﴾ أي قصةُ نوحٍ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ غابَتْ عنكَ، لم تَشهدْها، ولم تَعلَمْها ﴿أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾.

إنْ كانَ المُرادُ مِنْ قولِهِ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ قصةُ نوحٍ خاصّةً وأنباؤهُ كانَ يَجيءُ أنْ يقولَ: هذهِ مِنْ أنباءِ الغيبِ، نُوحيها إليكَ، لكنهُ كأنهُ على الإضمارِ؛ أي هذهِ الأنباءُ تلكَ الأنباءُ التي ذُكِرَتْ في كُتُبِهِمْ. وإنْ كانَ المُرادُ هذهِ وغيرُها مِنَ الأنباءِ [كانَ][6] يصيرُ كأنهُ قالَ: هذهِ مِنْ تلكَ الأنباءِ.

ويَحتمِلُ قولُهُ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ القِصَصَ كلَّها قصةَ نوحٍ وغيرِهِ مِنَ الأنبياءِ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ غابَتْ عنكَ، لم تَشهدْها، ولا تَعلَمُها ﴿أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ خصَّ قومَهُ لأنَّ غيرَهُ مِنَ الأقوامِ قد كانوا عَرَفوا تلكَ الأنباءَ، فيُخبِرونَهُمْ، فيَعرِفونَ بهِ صِدْقَ رسولِ اللهِ ﷺ.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخبَرَهُمْ على ما أخبَرَ أولئكَ الذينَ عَرَفوا تلكَ الأنباءَ بِكُتُبِهِمْ لِيُعلَمَ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ؛ إذْ تلكَ الأنباءُ كانَتْ بغيرِ لسانٍ، ولم يُعرَفْ أنهُ اختَلَفَ لأحدٍ منهُمْ. دلَّ أنهُ إنما عَرَفَ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على تكذيبِهِمْ إياكَ وعلى أذاهُمْ، أوِ اصْبِرْ على ما أُمِرْتَ، ونُهيتَ، أوِ اصْبِرْ على [ما][7] صَبَرَ إخوانُكَ مِنْ قَبْلُ كقولِهِ ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ونحوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذينَ اتَّقَوُا الشِّرْكَ، والذينَ[8] اتَّقَوُا الشِّركَ والمَعاصيَ كُلَّها. والأشبَهُ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ اتّقاءَ الشِّركِ لأنهُ ذَكَرَ بإزاءِ قولِهِ: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهو في العَقْدِ أشبَهُ.

---

(١) في الأصل وم: الاسلام. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: ثم قال. (٣) في الأصل وم: كانوا. (٤) في الأصل وم: عما. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: وأمكن الذين.

جنة السنة

وقال بَعْضُ أهلِ التأويلِ في قولِهِ: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾ مِنَ السفينةِ ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ فَسَلَّمَهُ اللهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الغَرَقِ ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ يَعْني بالبَرَكَةِ أنهمْ توالَدوا، وكَثُروا، بَعْدَما خَرَجوا مِنَ السفينةِ.

وعَنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ][1] في قولِهِ: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ مِمَّنْ سَبَقَ لهُ في عِلْمِ اللهِ البَرَكاتُ والسعادَةُ مِنَ النَّبِيِّينَ وغَيرِهِمْ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ واللهُ أعلَمُ، صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [الآية: ٢٥] فيقولُ: وقد أرسَلْنا هوداً إلى عادٍ أخاهُمْ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿أَخَاهُمْ﴾ الأُخُوَّةَ؛ تكونُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أُخُوَّةُ جِنْسٍ؛ يُقالُ: هذا أخو هذا [نَحْوُ مِصراعَيِ البابِ؛ يُقالُ لأحَدِهِما: هذا أخو هذا][2] وَنَحْوُ أحَدِ زَوجَيِ الخُفِّ وأمثالُهُ.

والثانيةُ[3]: أُخُوَّةٌ في النسبِ.

والثالثةُ[4]: أُخُوَّةٌ في الدينِ كقولِهِ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ٤٩] فهو [إنْ][5] لم يكنْ أخاً لهمْ في الدينِ فهو يَحْتَمِلُ أنهُ أخوهُمْ في الجِنْسِ وفي النَّسَبِ لأنَّ الناسَ كلَّهُمْ يُنْسَبونَ إلى آدمَ، فَيُقالُ: بَنو آدمَ مع بُعْدِ ما بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ. فَعَلَى ذلكَ يكونُ بعضُهُمْ لِبعضٍ إخوَةً معَ بُعدِ النَّسَبِ الذي بَيْنَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ يُعْبَدُ؛ أيِ الذينَ تَعْبُدونَ ليسوا بآلهةٍ، لا يَسْتَحِقُّون العِبادةَ. إنما الإلهُ الذي يَسْتَحِقُّ العبادةَ الذي خَلَقَكُمْ، وخَلَقَ لكُمُ الأشياءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي ما أنتُمْ إلا مُفترونَ. لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هو[6] قد قالَ لهمْ هذا في أوَّلِ ما دَعاهُمْ إلى التوحيدِ وفي أوَّلِ ما رَدُّوا إجابَتَهُ، وكَذَّبوهُ، [لأنَّ الأنبياءَ][7] أُمِروا بلينِ القولِ لهمْ وتَذْكيرِ النعمَةِ عليهِمْ كقولِهِ لِموسَى وهارونَ حينَ[8] بَعَثَهُما إلى فِرْعَونَ بقولِهِ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ الآية [طه: ٤٤] ولكنْ كأنهُ قالَ لهمْ ذلكَ لِما سَبَقَ منهُ إليهِمْ دعاءٌ غَيرَ مَرَّةٍ، وأقامَ عليهِمُ الحُجَّةَ والبراهينَ، فَرَدُّوها. فعندَ ذلكَ قالَ لهمْ هذا حينَ[9] ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [الآية: ٥٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ في تَسْمِيَتِهِمُ الأصنامَ التي عَبَدوها؛ يقولُ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ في ذلكَ. ويَحْتَمِلُ أنْ سَمَّاهُمْ مُفْتَرينَ[10] في ما قالوا: اللهُ أمَرَهُمْ بذلكَ: أنتُمُ افْتَرَيتُمْ في ما ادَّعَيتُمُ الأمرَ بذلكَ،[11] أو مُفْتَرون في إنكارِكُمُ[12] البَعْثَ والرسالَةَ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ هذا قد ذُكِرَ في غيرِ مَوضعٍ؛ يقولُ لهمْ، واللهُ أعلَمُ، إني لا أسألُكُمْ على ما أدعوكُمْ إليه أجراً يَمْنَعُكُمْ ثِقَلُ ذلكَ الأجرِ وغُرْمُهُ عنِ الإجابةِ. فما الذي يَمْنَعُكُمْ عنِ الإجابةِ لي، ولا يَحْمِلُكُمْ[13] على الرَّدِّ؟ بل أدعوكُمْ [إلى ما أدعوكُمْ][14] إليهِ ما ترغبونَ فيه، فكيفَ يَمْنَعُكُمْ عنِ الإجابةِ والنظرِ في ما أدعوكُمْ إليهِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أني رسولُ اللهِ إليكُمْ بآياتٍ وحُجَجٍ، جِئْتُ بها؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنها آياتٌ وحُجَجٌ / ٢٤١ ـ ب/ ونَحْوُها؟[15]

أو يقولُ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ اللهَ واحدٌ، وأنهُ ربُّ كلِّ شيءٍ وخالقُ كلِّ شيءٍ ومُنْشِئُهُ؟

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: لأحدهما. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: لأنهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: مفترون.
(١١) إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] (١٢) في الأصل وم: إنكارهم. (١٣) في الأصل وم: ويحملكم. (١٤) في الأصل: على ما أدعوكم، ساقطة من م. (١٥) في الأصل وم: ونحوه.

جنة السنة

الآية ٥٢ وقولُه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ يحتمِلُ أن يكون قولُه: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [وقولُه][1] ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ واحداً، ويَحتمِلُ على التقديمِ والتأخيرِ: توبوا إليهِ، ثم استغفِروا ما كانَ منكُمْ مِنَ المَساوِئِ: أي أقبِلوا إلى طاعةِ اللهِ، واندَموا على أفعالِكُم.

وقولُه تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ معلومٌ أنَّ هوداً لم يُرِدْ بقولِهِ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أنْ يَقولوا: نَستَغفِرُ اللهَ، ولكن أمَرَهُمْ أنْ يَطلُبوا السَّبَبَ الذي يُوجِبُ لهمُ المَغفِرَةَ، ويُحِقُّ، وهو التوحيدُ. كأنهُ قالَ: وَحِّدوا ربَّكُمْ، وآمِنوا بهِ، ثم توبوا إليهِ، أو يقولُ: اطلُبوا المَغفِرَةَ بالانتهاءِ عنِ الكُفرِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقولُه تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنهُ كانَ قد انقَطَعَ عنهمُ المطرُ، وانقَطَعَ نَسلُهُمْ، فأخبَرَ أنكم إنْ تُبتُم إلى اللهِ، واستغفَرتُم ربَّكُمْ ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ الآية حتى تَتَناسَلوا، وتَتَوالَدوا.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ أي يَزِدْكُمْ قُوَّةً [في][2] أفعالِكُمْ إلى قُوَّةِ أبدانِكُمْ لأنهمْ كانوا أهلَ قُوَّةٍ وأهلَ بَطشٍ بقولِهِمْ: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

ويَحتمِلُ على الابتداءِ: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ:

فقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ﴾ عَمّا أدعوكُمْ إليهِ، فتكونوا ﴿مُجۡرِمِينَ﴾ المجرمُ: قالَ أبو بكرٍ: هو الوثّابُ في الإثمِ، وقيلَ: هو المُكتَسِبُ.

الآية ٥٣ وقولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ على ما تدعونا إليهِ أو على ما تدَّعي مِنَ الرسالةِ؛ فعندَ ذلكَ قالَ لهمْ هودٌ: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ [الآية: ٥٠] [وقالوا][3]: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا﴾ أي ما نحنُ بتارِكي عبادةِ آلهتِنا ﴿عَن قَوۡلِكَ﴾ أي بقولِكَ. كانَ لا يَدعوهُمْ هودٌ إلى تَركِ عبادةِ آلهتِهِمْ بقولِهِ خاصَّةً، ولكنْ قد دعاهُمْ، وأقامَ على فسادِ [تلكَ العبادةِ][4] الحُجَجَ والبراهينَ. لكنهُمْ قالوا مُتعَنِّتينَ مُكابِرينَ ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ في ما تَدعونا إليهِ، وتَنهانا أنْ نَعبُدَ ما يَعبُدُ آباؤُنا.

الآية ٥٤ وقولُه تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ قيلَ: هو كانَ يَسُبُّ آلهَتَهُمْ، ويذكُرُهُمْ بالعَيبِ، فَيقولونَ: إنهُ يَعترِيكَ مِنْ [ذِكرِ بَعضِ آلهتِنا سوءٌ، أو تُصيبُكَ][5] بجنونٍ أو خَبَلٍ، فلا نُحِبُّ أنْ يُصيبَكَ منها [شيءٌ][6]، فاجتَنِبْها سالماً. فذلكَ يُخرَّجُ منهمْ مُخرَجَ الامتِنانِ؛ أي إنما نَنهاكَ عن سَبِّ آلهتِنا وذِكرِ العَيبِ فيها إشفاقاً عليكَ لئلا يُصيبَكَ شيءٌ منها.

وقالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما قالوا: شَتَمتَ آلهَتَنا، فخَبَلَتْكَ، وأصابَتْكَ بالجُنونِ؛ فتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: أنكَ إنما تدعونا إليهِ، وتَدَّعي ما تَدَّعي لِما أصابَتْكَ آلهتُنا بسوءٍ، واعتَرَتْكَ بِجنونٍ؛ كانوا يُخَوِّفونَهُ أنْ تُصيبَهُ[7] آلهتُهُمْ بِسوءٍ بِتَركِ عبادَتِها على ما كانوا يَرجونَ، ويَطمَعونَ بعبادَتِهِمْ إياها وشفاعتِها[8] لهم.

[وقولُهُ تعالى][9] ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ بهِ، وتَعبُدونَهُ مِنَ الآلهةِ.

الآية ٥٥ واشهَدوا أنتمْ أيضاً بأني بريءٌ مِنْ ذلكَ [وقولُهُ تعالى][10] ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ أنتمْ وآلهتُكُمْ في ما تَدعونَني مِنَ الهلاكِ والسوءِ ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي لا تُمهِلوني في ذلكَ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ أنتمْ وآلهتُكُمْ جميعاً [يقولُ][11]: اعمَلوا أنتمْ وآلهتُكُمْ جميعاً التي تَزعُمونَ أنها

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ذلك. (٥) في الأصل وم: بعض آلهتنا بسوء أو يصيبوك. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: تصيب. (٨) في الأصل وم: شفاعتهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

خبَلْتني واختبَرْتني ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي لا تُمْهِلوني. وهذا مِنْ أشَدِّ آياتِ النُّبُوَّةِ لأنهُ يقولُ [لهم، وهو بيْنَ أظهُرِهِمْ وَحيداً، فلولا أنهُ يقول][١] ذلكَ لهمْ بِقُوَّةٍ مِنَ اللهِ والاعْتِمادِ لهُ عليهِ والانْتِصارِ بهِ، وإلا ما اجْتَرَأ أحدٌ أنْ يقولَ مِثْلَ هذا بيْنَ أعدائِهِ.

عُلِمَ أنهُ قالَ ذلكَ باللهِ تعالى، وكذلكَ قولُ رسولِ اللهِ: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ﴾ الآية [الأعراف: ١٩٥] وقولُ نوحٍ ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١] وقولُ شُعَيبٍ ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [الآية: ٩٣] وأمثالُهُ قالوا ذلكَ بيْنَ أظهُرِ الأعداءِ، ولم يكُنْ معهمْ أنصارٌ ولا أعوانٌ. دلَّ أنهمْ قالوا ذلكَ باللهِ، وذلكَ مِنْ آياتِ النُّبُوَّةِ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فَوَّضْتُ أمْري إليهِ، أو [وَكَّلْتُهُ جميعَ أعمالي][٢]، أو وَثِقْتُ بهِ، واعْتَمَدْتُ عليهِ في ما تُوعِدُونني مِنَ الهَلاكِ، أو توكَّلْتُ عليهِ في دفعِ ما أوعَدْتُموني ﴿رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أي كيفَ تُوعِدونني بآلهتِكُمُ التي تَعْبُدونَ؟ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ٨١].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ يُميتُها متى شاءَ. وقولُهُ: ﴿آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي في مُلْكِهِ وسلطانِهِ، يُقالُ: فلانٌ آخِذٌ بِحُلقومِ فلانٍ، وفلانٌ بِقَبْضَةِ فلانٍ، ليسَ أنهُ في قَبْضَتِهِ بِنَفْسِهِ، وآخِذٌ بِحُلقومِ فلانٍ، ولكنْ يُرادُ أنهُ في سلْطانِهِ وفي مُلْكِهِ وفي قَبْضَتِهِ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي على الذي أمَرَني ربي، ودعاني إليهِ. أو يكونُ قولُهُ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي إنَّ الذي أمَرَني ربي، ودعاني إليهِ، هو صراطٌ مستقيمٌ كقولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الاعْتِراءُ هو الأخذُ؛ يُقالُ: اعْتَرَتْهُ الحُمّى، أي أخذَتْهُ، وقالَ القُتَبيُّ: الاعْتِراءُ الإصابةُ؛ يقولُ: ﴿إِلَّا اعْتَرَاكَ﴾ إلا أصابَكَ، يُقالُ: اعْتَرَيْتُ أصَبْتُ، وهو ماذَكَرْنا.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ على الإضمارِ؛ أي فإنْ تولَّوا عنْ إجابَتِكَ وطاعَتِكَ [فَقُلْ: قد أبْلَغْتُكُمْ][٣] رسالاتِ ربي لأنَّ قولَهُ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ إنما هو خَبَرٌ، وقولُهُ: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ خِطابٌ. وأمكَنَ أنْ يكونا جَميعاً على الخِطابِ؛ يقولُ: فإنْ تَوَلَّيتُمْ عنْ إجابتي في ما أدعوكُمْ إليهِ ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ وليسَ عليَّ إلّا تبليغُ الرسالةِ إليكُمْ كقولِهِ: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤] وكقولِهِ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨] يقولُ: إنما عليَّ إبلاغُ الرسالةِ إليكُمْ، ليسَ عليَّ جُرْمُ تَوَلّيكُمْ عنْ إجابتي كقولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] ونحوُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ خَلَفَكُمْ لأنهمْ كانوا يقولونَ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] يقولُ، واللهُ أعلم: إنَّ قُوَّةَ أبدانِكُمْ وبَطْشَكُمْ، لا يُعْجِزُ اللهَ عنْ إهلاكِكُمْ. وفيهِ أنَّ عاداً ليسوا همُ النهايةَ في العالَمِ، بل يكونُ بَعْدَهُمْ قومٌ غيرُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ [يحتملُ وجوهاً:

أحدُها][٤]: لا تَضُرُّونَهُ بِتَوليَتِكُمْ عنْ إجابتي وردِّكُمْ رسالةَ اللهِ إليكُمْ؛ ليسَ كملوكِ الأرضِ إذا تَوَلّى عنهُمْ خَدَمُهُمْ وحَشَمُهُمْ ضَرَّهُمْ ذلكَ.

والثاني: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ﴾ كما يَضُرُّ ملوكُ الأرضِ بالقتالِ والحربِ بَعْضُهُم بعضاً.

والثالثُ: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ لأنهُ لا مَنْفَعَةَ لهُ[٥] في ما يَدْعوكُمْ حتى يَضُرَّهُ ذلكَ؛ إذْ ليسَ يَدْعوكُمْ إلى ما يَدْعو لحاجةِ نَفْسِهِ ولا لِمَنْفَعَةٍ [لهُ][٦]، إنما يأمُرُكُمْ، ويَدْعوكُمْ لحاجةِ أنفسِكُمْ والمَنْفَعَةِ لكُمْ.

والرابعُ[٧]: أنْ يكونَ ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ جوابَ قولِهِ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ الآية [هود: ٥٥].

[وقولُهُ تعالى][٨] ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ لا يَخفى عليهِ شيءٌ، وإنْ لَطُفَ، فكيفَ يَخفى عليهِ أعمالُكُمْ وأحوالُكُمْ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: في جميع عملي إليه. (٣) في الأصل: فقال: قد أبلغتك، في م: فقل قد أبلغتك. (٤) في الأصل وم: أي. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: فيه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ويحتمل. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

مع ظُهورِها وبَدْوِها؟ أو يقولُ: إنّ ربي على كلّ شيءٍ حفيظٌ، فَيَجزي عليه؛ أي لا يذهبُ عنهُ شيءٌ، أي لا يَفوتُهُ، والله أعلَمُ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ قولُهُ: ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أمرُ تَكوينٍ لا أمرٌ يَقْتَضِي الساعةَ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فَعَلَى ذلكَ هذا هو أمرُ تَكوينٍ، وقد ذَكَرْناهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ هذا يدلُّ أنَّ مَنْ نجا فإنما نجا برحمةٍ منهُ، لا بِعِلْمِهِ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ «لا يَدْخُلُ أحدٌ الجنةَ إلا برحمةِ اللهِ، قيلَ: ولا أنتَ يا رسولَ / ٢٤٢ - أ/ اللهِ؟ قالَ: ولا أنا إلا أنْ يَتَغَمَّدَني اللهُ برحمتِهِ» [مسلم ٢٨١٦/ ٧١ و . . و٢٨١٨/٧٨] لا على ما يقولُ المعتزلةُ: إنَّ مَنْ نجا فإنما ينجو بِعِلْمِهِ لا بِرَحْمَتِهِ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [وجهَين]:

أحَدُهما][1]: الرحمةُ ههنا [هودٌ أي رَحِمَهُمْ بهِ حينَ بَعثَهُ][2] إليهِمْ رسولاً، فَنَجا مَنِ اتَّبَعَهُ.فإنْ كانَ هذا ففيهِ أنَّ أهلَ الفَتْرَةِ مُعاقَبونَ في حالٍ لأنهُ أخبَرَ أنَّ مَنْ نجا فإنما نَجَا بهودٍ، فَدَلَّ أنهمْ مُعاقَبونَ قَبْلَ بَعْثِ الرسلِ إليهِمْ.

والثاني[3]: قولُهُ ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي بتوفيقٍ مِنّا إيّاهُمْ نَجا مِنْ نَجا منهُمْ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَجّيناهُ مِنَ العذابِ الذي أهلَكَ هؤلاءِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على الوعدِ أي يُنَجّيهِمْ في الآخرةِ ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟﴾ أي وتلكَ أهلُ قريةِ عادٍ ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ والكُفْرُ[5] بالآياتِ كُفْرٌ بجميعِ الرُّسُلِ، والكُفْرُ بواحدٍ منَ الرُّسُلِ كُفْرٌ بالرسُلِ جميعاً، وباللهِ التوفيقُ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ الرُّسُلِ، يَدْعُو إلى الإيمانِ باللهِ وبجميعِ الرُّسُلِ. فالإيمانُ بواحدٍ منهُمْ إيمانٌ باللهِ وبجميعِ الرُّسُلِ والآياتِ، والكُفْرُ بواحدةٍ[6] منها كُفْرٌ باللهِ وبجميعِ الرُّسُلِ.

وإنما كانَ الكُفْرُ بالآياتِ كُفْراً باللهِ لأنَّ اللهَ إنما يُعْرَفُ مِنْ جِهَةِ الآياتِ، والكفرُ بالآياتِ كُفْرٌ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ قيلَ: أخْبَرَ أنهمُ اتَّبعوا أمْرَ الجَبابِرَةِ، وأطاعوهُمْ، وترَكوا اتّباعَ الرُّسُلِ، وطاعَتَهُمْ. قيل: [الجَبّارُ][7] هو المُتَجبِّرُ الذي يَتَجَبَّرُ على الرُّسُلِ، ويَتَكَبَّرُ عليهِمْ؛ لأنَّ الرؤساءَ منهمْ كانوا يَتَجبَّرونَ على الرُّسُلِ، ويَتَكَبَّرونَ. والأتباعُ اتَّبَعوا الرُّؤساءَ في عمَلِهِمْ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: الجَبّارُ هو المُتَجَبِّرُ، والعَنيدُ هو المُعانِدُ المُخالِفُ، وقالَ القُتَبِيُّ: العَنودُ والعَنيدُ والمُعانِدُ المعارِضُ لكَ بالخِلافِ عليكَ، وقالَ أبو عُبيدةَ: العَنيدُ والمُعانِدُ هو الجَبّارُ.

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: اللَّعْنُ هو العذابُ؛ أي أُتبِعوا في الدنيا وفي الآخِرَةِ [العذاب][8] كقولِهِ ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] أي عَذابُ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟﴾ أي أُلْحِقوا. وقيلَ: إنَّ اللعنَ هو الطردُ، طُرِدوا مِنْ رحمةِ اللهِ حتى لا ينالوها[9] لا في الدنيا ولا في الآخِرَةِ ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أي ألا بُعْداً مِنْ رحمةِ اللهِ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ هو ما ذَكَرْنا؛ أي أرسَلْنا إلى ثمودَ أخاهُمْ صالحاً، وقولُهُ: ﴿أَخَاهُمْ﴾ قد ذكَرْنا أيضاً أنَّ الأُخُوَّةَ تَتّجِهُ إلى وجوهٍ ثلاثةٍ: أُخُوَّةٌ في الدينِ وأُخُوَّةُ الجِنْسِ وأُخُوَّةٌ في النسبِ.

---

(١) في الأصل وم: وجوها. (٢) في الأصل وم: هوداً أي رحمهم به حيث بعث. (٣) في الأصل وم: ويحتمل. (٤) في الأصل وم: والثالث.
(٥) في الأصل وم: بالكفر. (٦) في الأصل وم: بواحد. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ينالونها.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ إنَّ الرُّسُلَ جميعاً، صلواتُ اللهِ عليهِمْ، أوَّلُ ما دَعَوا قومَهُمْ إنما دَعَوا إلى توحيدِ اللهِ، وجَعْلِ العِبادةِ لهُ لأنَّ غيرَها[1] مِنَ العِباداتِ إنما تقومُ بالتوحيدِ، وكانَ أوَّلُ ما دَعَوا قومَهُمْ إليهِ لم يَزَلْ عادةَ الرُّسُلِ، وعَلَّموهُمْ[2] الدعاءَ إلى توحيدِ اللهِ والعبادةَ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يقولُ: هو خلَقَكُمْ مِنْ آدمَ، وخلَقَ آدمَ مِنَ الأرضِ. لكنهُ أضافَ خَلْقَ الخلائقِ إليها كما أضافَ في قولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ الآية [الأعراف: ١٨٩] أخبَرَ أنهُ خلَقَنا مِنْ نفسِهِ أي آدمَ، وإنْ لم تكنْ أنْفُسُنا فيهِ.

فَعَلى ذلكَ إضافَتُهُ إيانا بالخَلْقِ مِنَ الأرضِ، وإنْ لم يَخْلُقْ أنفُسَنا منها؛ أي خَلَقَ أصْلَنا، وأنشأهُ مِنَ الأرضِ، فأضافَ إنشاءَنا إلى ما أنشأَ أصْلَنا.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي جَعَلَ نَشأَ الخلائقِ كلِّهِمْ ونماءَهُمْ وحياتَهُمْ ومَعاشَهُمْ بالخارجِ مِنَ الأرضِ؛ إذْ بهِ نَشأَتُهُمْ و نَماؤُهُمْ وحياتُهُمْ وقِوامُهُمْ منها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أسكنَكُمْ فيها، وقالَ بعضُهُمْ: استَخْلَفَكُمْ فيها، وقالَ غيرُهُمْ[3]: قولُهُ ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي جعَلَكُمْ عُمّارَ الأرضِ؛ تَعْمُرونها [لِمعادِكُمْ ومعاشِكُمْ][4] جعَلَ عَمارةَ هذهِ الأرضِ إلى الخَلْقِ؛ هُمُ الذينَ يَقومونَ بِعمارَتِها وبِنائِها وأنواعِ الانتِفاعِ بها، ويَرْجِعُ كُلُّهُ إلى واحدٍ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي جعَلَ عُمْرَكُمْ طويلاً

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ هذا قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ في قصةِ نوحٍ: أي كونوا بحالٍ، يَغْفِرُ لكم هو كقولِهِ: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] كأنهُ قالَ: فإنِ انْتَهَوا عنِ الكُفْرِ يُغْفَرْ لهمْ[5].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ لِحِفْظِ الخَلائقِ، أو قريبٌ لِمَنْ أنْعَمَ عليهِمْ وأمثالِهِمْ[6]، أو قريبٌ إلى كلِّ مَنْ يَفْزَعُ إليهِ، مُجيبٌ لِدُعاءِ كلِّ داعٍ، استَجابَ لهُ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى﴾ الآية [البقرة: ١٨٦] وكقولِهِ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ الآية [البقرة: ٤٠].

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُمْ: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ كُنْتَ تَرْحَمُ الضُّعفاءَ، وتَعودُ المَرْضى، ونَحْوَهُ مِنَ الكلامِ، فالساعةَ صِرْتَ على خِلافِ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ كُنّا نرجو أنْ تَرْجِعَ إلى دينِنا قَبْلَ هذا الذي تَدْعونا إليهِ، فالساعةَ صِرْتَ، تَشْتُمُ آلِهَتَنا، وتَذْكُرُها بِعَيْبٍ ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي ما كُنّا نَعْرِفُ أنَّ آباءَنا عندكَ سُفَهاءُ مِنْ قَبْلِ هذا، فالساعةَ تُسَفِّهُ أحلامَهُمْ في عِبادَتِهِمُ الأصنامَ ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أو كانوا يذكرونَ هذا لهُ احْتِجاجاً لهمْ عليهِ في ما دَعاهُمْ إلى توحيدِ اللهِ وعبادتِهِمْ إياهُ، فقالوا: إنّا على يَقينٍ أنَّ آباءَنا قد عَبَدوا هذهِ الأصنامَ ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي يُريبُنا أمْرُكَ ودُعاؤُكَ لنا إلى هذا الدينِ.

قد قيلَ هذا، ولكنّا لا نَعْلَمُ ما كانوا يَرْجونَ فيهِ، وما المَعْنى الذي قالوا لهُ: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ سوى أنا نَعْلَمُ أنهُ كانَ مَرْجُوّاً فيهِمْ في العقلِ والدينِ والعِلْمِ والبَصيرةِ ونَحْوِهِ؟ فكانَ مَرْجُوّاً فيهِمْ بالأشياءِ التي ذَكَرْنا.

هذا [ما][7] نَعْلَمُ، ولا نَعْلَمُ ما عَنى أولئكَ بقولِهِمْ ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ: أحَدُهُما][8] أي كُنْتُ على حُجَّةٍ وبُرْهانٍ وبَيانٍ مِنْ رَبّي في ما أدعوكُمْ إلى توحيدِ اللهِ وصَرْفِ العِبادةِ إليهِ

(١) في الأصل وم: غيره. (٢) في الأصل وم: وعلمهم. (٣) في الأصل وم: غيره. (٤) في الأصل وم: لمعادهم ومعاشهم. (٥) في الأصل وم: لكم. (٦) في الأصل وم: وأمثاله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

والثاني: قولُهُ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ يَحتمِلُ قولُهُ ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي آتاني هُدىً ونُبُوَّةً مِن عندِهِ ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي مَنْ يَمنَعُني مِنْ عذابِ اللهِ ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ ورَجَعْتُ إلى دينِكُمْ؟ أي لا أحدَ يَنصُرُني لو أجَبْتُكُم إلى ما دَعَوتُموني إليهِ؛ أي لا أحدَ يَنصُرُني دونَ اللهِ لو أجَبْتُكُم، وأطَعْتُكُم في ما دَعَوتُموني إليهِ.

ثم الذي دَعَوهُ إليهِ يَحتَمِلُ تَرْكَ تبليغِ الرسالةِ إليهِمْ أو دَعْوَتَهُ إلى عِبادةِ الأصنامِ التي عَبَدوها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ: قيلَ: فما تزيدونني بمُجادَلَتِكُمْ إيايَ في ما تُجادِلونَني إلّا خُسراناً. وقالَ بعضُهُمْ: فما تزيدونني بِمَعْصِيَتِكُمْ إيايَ إلا خُسراناً لأنفسِكُمْ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي[1] غيرَ نُقصانٍ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ هو مِنَ الخُسْرانِ؛ خَسَّرْتُهُ أي ألزَمْتُهُ الخُسْرانَ.

الآية ٦٤ وقولُه تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ قالَ لهمْ هذا حينَ سألوا منهُ الآيةَ، فقالَ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ أي لكُمُ الآيةُ[2] التي سَألْتُموها مِنَ الرسالةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ أضافَها[3] إليهِ لِخُصوصِيَّةٍ كانَتْ فيها،/ ٢٤٢ ـ ب/ نحنُ لا نعرفُها[4]. لَيسَتْ تلكَ الخُصوصِيَّةُ في غَيرِها مِنَ النوقِ لمّا جعَلَها آيةً لِرسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ خارجةً عمّا عايَنوا مِنَ النوقِ، وشاهَدوها. وهكذا كانَتْ آياتُ الرُّسُلِ؛ كانَتْ خارجةً عَنْ وُسْعِ البَشَرِ. وطَوقِهِمْ لِيُعلَمَ أنها سَماوِيَّةٌ.

ثم لا نَعرِفُ [لها خُصوصِيَّةً سِوى][5] عِظَمِ جِسْمِها وغِلَظِ بَدَنِها حينَ[6] قَسَمَ الشِّرْبَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَها حتى جَعَلَ يوماً لها ويوماً لهمْ بقولِهِ: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] ولم يَقْسِمْ مَراعِيَها بَيْنَها وبَيْنَهُمْ بقولِهِ ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾

وأمّا ما قالَهُ بَعْضُ الناسِ أنها خَرَجَتْ مِنْ صَخرَةٍ كذا وأنها كانَتْ تَحْلِبُ كلَّ يوم كذا، وأشياءُ أُخرى ذَكَروها، فإنا لا نَعرِفُ ذلكَ، ولا نَقْطَعُ القولَ فيهِ: إنهُ كانَ كذلكَ سِوى أنا نَعرِفُ أنَّ لها خصوصِيَّةً[7]، لَيسَتْ تلكَ الخُصوصِيَّةُ لِغَيرِها مِنَ النوقِ. ولو كانَتْ لنا حاجةٌ[8] إلى تلكَ الخُصوصيَّةِ لَبَيَّنَها لنا.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا أنهُ إذا أُضيفَتْ[9] جُزئِيَّةُ الأشياءِ إلى اللهِ فهي[10] على تَعظيمِ تلكَ الجُزئياتِ المُضافَةِ إليهِ، وإذا [أُضيفَتْ كُلِّيَّةُ الأشياءِ إليهِ][11] فهي على إرادةِ التعظيمِ للهِ والتَّبجيلِ لهُ نَحْوُ قولِهِ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧ و..][12].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ نهاهُمْ [أنْ يَمَسُّوها][13] بِسوءٍ، ولم يُبَيِّنْ ما ذلكَ السوءُ، فَيَحتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ [أشيئاً عَرَفوهُ، ونَهاهُمْ عنهُ][14].

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي لا تَعْقِروها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ كانَ[15] ذلكَ على إثرِ عَقرِهِمُ الناقةَ بثلاثةِ أيامٍ حينَ[16] قالَ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [الآية: ٦٥] وما ذُكِرَ أيضاً أنَّ وُجوهَهُمُ اصْفَرَّتْ في اليومِ الأوّلِ، ثم احْمَرَّتْ في اليومِ الثاني، ثم اسْوَدَّتْ في اليومِ الثالثِ، ثم نَزَلَ بِهِمُ العذابُ في اليومِ الرابعِ، فذلكَ أيضاً مما لا نَعْرِفُهُ.

وقولُهُ تعالى ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ قيلَ: سَريعاً؛ لا تُمْهَلُوا حتى تُعَذَّبوا.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ﴾ مِنَ اللهِ ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ لَيسَ فيهِ كَذِبٌ. وكانَ عذابُهُمْ إنما نَزَلَ على إثرِ

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: آية. (٣) في الأصل وم: أضاف. (٤) في الأصل وم: نعرف ذلك. (٥) في الأصل وم: أنه خصوصية كانت لها. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: كانت. (٨) أدرجت في الأصل وم بعد: الخصوصية. (٩) في الأصل وم: أضيف. (١٠) في الأصل وم: فهو. (١١) في الأصل وم: أضيف إلى كلية الأشياء. (١٢) أدرج بعد هذا القول في الأصل وم: وله كل شيء ونحوه. (١٣) في الأصل وم: يمسوا. (١٤) في الأصل وم: شيء عرفوا هم ونهاهم عن ذلك. (١٥) أدرج قبلها في الأصل وم: لما. (١٦) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

السؤالِ الآيةَ؛ سألوا ذلكَ، فلما أنْ جاءَهُمْ بها كذَّبوها، فنزَلَ بهِمُ العذابُ، وهكذا السُّنَّةُ في الأُمَمِ السالِفَةِ أنهُمْ إذا سألوا الآيةَ، فجاءَتْهُمْ، فلم يُؤمِنوا بها، نزَلَ بِهِمُ العذابُ، وهو قولُهُ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ الآية [الإسراء: ٥٩] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أي جاءَ ما أمَرَ بهِ كما يُقالُ: جاءَ وعْدُ ربِّنا، أي جاءَ موعودُ ربِّنا لأنَّ وعْدَهُ وأمْرَهُ لا يَجيءُ، ولكنْ جاءَ ما أمَرَ بهِ وما وَعَدَ بهِ، وهو العذابُ. أو يقولُ: جاءَ أي أتى وَقْتُ وُقوعِ ما أمَرَ بهِ، وَوَعَدَ، وهو العذابُ الذي وَعَدَ، وأمَرَ بهِ، واللهُ أعلَمُ، ﴿نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ بِنِعْمَةٍ مِنّا أو بِفَضْلٍ مِنّا. وقد ذَكَرْنا هذا في ما تقدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾ قيلَ: الخِزْيُ العذابُ الذي يَفْضَحُهُمْ، وقيلَ: كلُّ عذابٍ فهو خِزْيٌ؛ أي نَجّاهُمْ مِنْ خِزْيِ ذلكَ اليومِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ قيلَ: ﴿ٱلۡقَوِيُّ﴾ هو الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، و﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ هو الذي يُذِلُّ مَنْ دونَهُ، وقيلَ: ﴿ٱلۡقَوِيُّ﴾ المُنْتَقِمُ المُنْتَصِرُ[1] لأوليائِهِ مِنْ أعدائِهِ، ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ هو المَنيعُ في مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ الذي لا يُعْجِزُهُ [شيءٌ][2].

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ قيلَ: عذابُهُمْ كانَ صَيْحَةً؛ صاحَ بِهِمْ جبريلُ، وقيلَ: الصَّيْحَةُ الصاعقةُ؛ وكلُّ عذابٍ فهوَ صَيْحَةٌ. لكنْ لا ندري كيفَ كانَ؟ أو أنْ يكونَ عذابُهُمْ قَدْرَ صَيْحَةٍ لِسُرْعَةِ وقوعِهِ بهِمْ، أو ما يُسَمّي ذلكَ العذابَ صَيْحَةً [بما رَأَوا][3] ما يَصيحونَ في ما بينَهُمْ، أو ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ قالَ ههنا ﴿دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ وقالَ في سورةِ الأعرافِ ﴿دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [الآيتين: ٧٨ و٩١ والعنكبوت: ٣٧] والقصةُ واحدةٌ. قالَ بَعْضُهُمْ: دارُهُمْ قرارُهُمْ، ودِيارُهُمْ منازِلُهُمْ. ولكنْ هو واحدٌ، أصْبَحوا جاثِمينَ في دارِهِمْ ومنازِلِهِمْ، سَواءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ قيلَ: جامِدينَ مَوتى. وأصْلُ قولِهِ: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ أي مُنْكَبّينَ على وجوهِهِمْ؛ يُقالُ: جَثَمَ الطائرُ إذا انْكَبَّ على وجهِهِ مَخافَةَ الصيدِ. وقد ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ قيلَ: كأنْ لم يَعيشوا فيها، وقيلَ: كأنْ لم يَعْمُروا فيها. وأصْلُهُ: أنهمْ صاروا كأنْ لم يكونوا فيها لِما لا يُذْكَرونَ بَعْدَ هلاكِهِمْ، فصاروا مِنْ [حِينِ كانوا][4] لم يكونوا.

وأمّا الأخيارُ والأبرارُ فإنهمْ وإنْ ماتَتْ أبدانُهُمْ، وصارَتْ كأنْ لم تكُنْ، ففي الذِّكْرِ كأنهمْ أحياءٌ حِينَ[5] تُذْكَرُ بعدَ موتِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ قيلَ: كَفَروا نعمةَ ربِّهِمْ، أو كَفَروا بآياتِ ربِّهِمْ. فذلكَ كلُّهُ كُفْرٌ باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ أي ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ مِنْ رحمةِ اللهِ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ اختلَفوا في هذهِ البِشارةِ؛ قالَ بعضُهُمْ: جاؤوهُمْ بِبِشارةِ إسحاقَ وحافِدِهِ[6]، وهو قولُهُ: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [الآية: ٧١]، وقالَ بعضُهُمْ: جاؤوا بِبِشارةِ إهلاكِ قومِ لوطٍ وإنجاءِ لوطٍ وأهلِهِ؛ قيلَ: لأنَّ لوطاً كانَ ابْنَ أخي إبراهيمَ، وكانَ لوطٌ، فزِعَ إلى اللهِ بِسُوءِ عَمَلِ قومِهِ وصُنْعِهِمْ، ودَعا بالنجاةِ منهُمْ، وهو قولُهُ: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ﴾ الآية [الشعراء: ١٦٨] حتى ذُكِرَ في بَعْضِ القصةِ أنَّ سارةَ قالَتْ لإبراهيمَ: ضُمَّ ابْنَ أخيكَ إلى نَفْسِكَ فإنَّ قومَهُ يُعَذِّبونَهُ، كأنها عَرَفَتْ أنهُ لا يَتْرُكُهُمْ على ما هُمْ عليهِ بِسُوءِ عَمَلِهِمْ.

---

(١) من م، في الأصل: المنتظر. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: لما رأوه. (٤) في الأصل وم: حيث كان. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وحافد.

جنة السنة

قالوا بالبِشارَتَين جميعاً ببشارةِ الولدِ والحافِدِ وبشارةِ هَلاكِ قومِ لوطٍ ونجاةِ لوطٍ وأهلِهِ. إلى هذا يَذْهَبُ بَعْضُ أهلِ التأويلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ هذا يدلُّ أنَّ السلامَ هو سُنَّةُ الأنبياءِ والرُّسُلِ والملائكةِ في الدنيا والآخِرَةِ، لم تُخصَّ هذهِ الأُمَّةُ، بل كانَتْ[1] سُنَّةَ الرُّسُلِ الماضيةِ والأُمَمِ السالِفَةِ. هو تَحِيَّةُ أهلِ الجَنَّةِ كقولِهِ[2]: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] ونَحْوُهُ. هذا يدلُّ ماذكَرْنا.

ثم انْتِصابُ قولِهِ: ﴿سَلَامًا﴾ وارْتِفاعُ الثاني لأنَّ الأوَّلَ انْتَصَبَ لوقوعِ القولِ كقولِكَ: قالَ: قولاً، [وارْتَفَعَ الثاني][3] حكايةً لقولِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ وقولُهُ: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ﴾ أي مالَبِثَ عندَهُمْ حتى اشْتَغَلَ بِتقديمِ شيءٍ إليهِمْ، وإلّا قد يكونُ في ذبحِ العِجْلِ وشَيِّهِ لَبْثٌ إلّا أنْ يكونَ العِجْلُ مَشْوِيّاً. فإنْ لم يكنْ مَشْوِيّاً فَتأويلُهُ ما ذكَرْنا أنْ لم يَلْبَثْ عندَهُمْ في المُؤانَسَةِ والحديثِ مَعَهُمْ على ما يُفْعَلُ مَعَ الأضيافِ حتى جاءَ بِما ذَكَرَ.

وفيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ الأدبِ، وفيهِ دلالةٌ في مَنْ نَزَلَ بِهِ ضَيفٌ ألّا يَشْتَغِلَ بالسؤالِ عنْ أحوالِ ضَيفِهِ: مِنْ أينَ؟ وإلى أينَ؟ وما حاجَتُهُمْ؟ ولكنْ يَشْتَغِلُ بِقِراهُمْ وإزاحةِ حاجَتِهِمْ؛ لأنَّ إبراهيمَ، صلواتُ اللهِ تعالى عليهِ، إنما اشْتَغَلَ بِقِراهُمْ، لم يَشْتَغِلْ بالسؤالِ عنْ أحوالِهِمْ، ولكنِ اشْتَغَلَ بما ذَكَرَ: ﴿أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ وهذا هو الأدبُ لِلضَّيفِ[4]. ألا تَرَى أنهُ لو كانَ سألَ عنْ أحوالِهِمْ، فَعَرَفَ أنهمْ مِنَ الملائكةِ لكانَ لا يَشْتَغِلُ بما ذَكَرَ إذا عَرَفَ أنهمْ مِنَ الملائكةِ، لا يَتَناوَلونَ شَيئاً مِنَ الطعامِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿بِعِجْلٍ/ ٢٤٣ ـ أ/ حَنِيذٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الحَنيذُ السمينُ، وهو ما ذُكِرَ في مَوضعٍ آخرَ ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]. وقالَ بعضُهُمْ: الحَنيذُ المَشْوِيُّ الذي حُنِذَ في الأرضِ؛ حُنِذَ فَحْمِيٌّ: شُوِيَ بالحَجَرِ المَحْمِيِّ.

وقالَ بعضُهُمْ: الحَنيذُ هو المَشْوِيُّ الذي يَسيلُ منهُ الماءُ. وقالَ ابْنُ عباسٍ: هو نَضيجٌ، الحَنيذُ النَّضيجُ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَكِرَهُمْ أي أنْكَرَهُمْ، واسْتَنْكَرَهُمْ واحدٌ، وهو مِنَ الإنكارِ؛ أي لم يَعْرِفْهُمْ، ظَنَّ أنهمْ لُصوصٌ لأنَّ اللُّصوصَ مِنْ عادَتِهِمْ أنهمْ كانو إذا أرادوا السَّرِقَةَ مِنْ قومٍ لم يَتَناوَلوا مِنْ طعامِهِمْ، ولم يأكُلوا شَيئاً عندَهُمْ.

وقيلَ: ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أنهمْ مِنَ البَشَرِ ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ قالَ بعضُهُمْ: خافَ لَمّا ظَنَّ أنهمْ سُرّاقٌ ولُصوصٌ حِينَ[5] لم يَتَناوَلوا شَيئاً مِمّا قَدَّمَ إليهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿خِيفَةً﴾ أي وَحْشَةً، أي أضْمَرَ وَحْشَةً حِينَ[6] لم يَتَناوَلوا [شَيئاً مِمّا][7] قَرَّبَ إليهِمْ، فحينئذٍ عَلِمَ أنهمْ لَيسوا مِنَ البشرِ لأنَّ منزلَ إبراهيمَ كانَ يَنأى عنِ البلدِ، ولا[8] يَنزِلُهُ أحدٌ مِنَ البَشَرِ إلّا وقد احتاجَ إلى الطعامِ. فلما لم يَتَناوَلوا عَلِمَ أنهمْ ليسوا مِنَ البَشَرِ، فما جاؤوا إلّا لأمْرٍ عظيمٍ لِتَعْذيبِ قومٍ وهلاكِهِمْ، فخافَ لِذلكَ.

فَقالوا ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ ...﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٨..و٣١] يَذْكُرُ هَهنا أنَّ قولَهُمْ: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾ على إثْرِ سؤالٍ، وفي ما نَحْنُ فيهِ، لا كذلكَ.

فالمَعْنَى فيهِ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ ذلكَ كانَ على إثْرِ سؤالِ إبراهيمَ بقولِهِ: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ لكنهُ جَمَعَ ذلكَ في ما نحنُ فيهِ بالحِكايةِ عنْ قولِهِمْ، وإنْ كانَ مَفْصولاً عنهُ، وخَرَجَتِ الحِكايةُ في مَوضعٍ آخَرَ على ما كانَ في الحقيقةِ. وذلكَ مُسْتَقيمٌ في كلامِ العربِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: كان. (٢) في الأصل وم: بقوله. (٣) في الأصل وم: والثاني. (٤) في الأصل وم: بالضيف. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في م: شيئاً. (٨) في الأصل وم: ولم.

جنة السنة

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ﴾ قالَ بعضُهُم: ﴿قَآئِمَةٞ﴾ على رُؤوسِ الأضيافِ لأنها كانَتْ عَجوزاً، ولا بَأسَ لِعَجوزٍ ذلكَ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؟ الآية [النور: ٦٠]

وقالَ بعضُهُمْ ﴿قَآئِمَةٞ﴾ مِنْ وراءِ البابِ. لكنْ لَسْنا ندري أيَّ ذلكَ كانَ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ضَحِكَتْ تَعَجُّباً مِنْ خَوفِ إبراهيمَ أنهمْ لُصوصٌ، وهمْ كانوا ثلاثةً أو أربعةً دونَ عَشَرَةٍ، وكانَ خَدَمُ إبراهيمَ عليه السلام يَبْلُغُ عَدَدُهُم ثلاثمئةٍ على ماذُكِرَ في القصةِ: ضَحِكَتْ تَعَجُّباً أنهُ كيفَ يَخافُ مِنْ نَفَرٍ، عَدَدُهُم دونَ عَشَرَةٍ، وعندَهُ مِنَ الخَدَمِ ما يَبْلُغُ عَدَدُهُم ما ذَكَرْنا؟

وقالَ بعضُهُمْ: ضَحِكَتْ ممّا بَشَّروها بالولدِ، وقد بَلَغَتْ سِنُّها ما بَلَغَتْ مِنَ الكِبَرِ، وهو كذلكَ، وقالَتْ: أحَقٌّ أنْ ألِدَ وقد كَبِرْتُ في السنِّ كذا؟

وقالَ بعضُهُمْ: ضَحِكَتْ أي حاضَتْ مِنْ قولِهِمْ: ضَحِكَتِ الأرنبُ إذا حاضَتْ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ وعِكْرِمَةَ. وقالَ الفَرّاءُ: ضَحِكَتْ: حاضَتْ غيرُ مَسْموعٍ ولا مَعْروفٍ.

فَعَلى تأويلِ مَنْ قالَ: إنها ضَحِكَتْ تَعَجُّباً ممّا بُشِّرَتْ بالولدِ فهو على التقديمِ والتأخيرِ؛ كأنهُ قالَ: فَبَشَّرْناها بإسحاقَ ومِنْ وراءِ إسحاقَ يعقوبَ، فَضَحِكَتْ.

وقالَ بعضُهُمْ: ضَحِكَتْ سُروراً بالأمنِ منهُمْ، وهو قولُهُ تعالى ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ فَضَحِكَتْ. وقالَ بعضُهُم؛ ضَحِكَتْ: ظاهرُ هذا أنها بُشِّرَتْ بإسحاقَ ومِنْ وراءِ أولادِ إسحاقَ بأولادِ[1] يعقوبَ، ولكنْ لم يكنْ يَعْقوبُ وُلِدَ مِنْ إبراهيمَ، إنما وُلِدَ مِنْ إسحاقَ، وهو حافِدُ إبراهيمَ، ابنُ إسحاقَ.

فتأويلُهُ: مِنْ وراءِ إسحاقَ حافدٌ، فإنما البِشارةُ بالوَلَدِ وبالحافِدِ. وهو كقولِهِ: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗ﴾ [الأنبياء: ٧٢] وقالَ في هذهِ السورةِ ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ﴾ وقالَ في مَوضعٍ آخرَ ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ [الذاريات: ٢٩].

فإنْ كانَ على ما قالوا أنها كانَتْ قائمةً وراءَ البابِ فيكونُ إقبالُها خُروجَها إلى القومِ. وإنْ كانَ قِيامُها على رُؤوسِهِمْ فيكونُ مَعْنى الإقبالِ في ضَرْبِ وجهِها وصَكِّها، لكنَّ ذلكَ [لَيسَ][2] مِنَ القُدومِ، لكنَّهُ على الإقبالِ بِفِعْلِ ما أخرَعَها مِنْ صَكِّ وجهِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ هي لم تَتَعَجَّبْ [مِنْ][3] قدرةِ اللهِ أنهُ قادرٌ على أنْ يَهَبَ الوَلَدَ في كُلِّ وقتٍ، ولكنَّها تَعَجَّبَتْ لِما رأتِ العادةَ في النساءِ والرجالِ أنهمْ إذا بَلَغوا المَبْلَغَ الذي [كانا هما عليهِ][4] لم يَلِدوا. فَتَعَجُّبُها أنها لم تَلِدْ في الحالِ التي هما عليها أو يُرَدّا[5] إلى حالِ الشبابِ. فَعِنْدَ ذلكَ يُولَدُ لهما[6]، وكِلاهُما عَجيبٌ بِحيثُ الخروجُ على خِلافِ العادةِ لا بِحيثُ قُدْرَةُ الربِّ، وهو كما ذَكَرْنا مِنْ قولِ زكريّا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ﴾ [آل عمران: ٤٠] وفي موضعٍ آخرَ: ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ [مريم: ٨] قولُهُ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ في الحالِ التي أنا عليها أو يُرَدُّ إليَّ شبابي. فَعَلى ذلكَ قولُها: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أتَعْجَبينَ مِنْ قدرةِ اللهِ [على][7] هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ﴾ لأنهُ مَعلومٌ أنهمْ لم يقولوا سَلاماً حَسْبُ، لم يَزيدوا على هذا، بل زادوا. فكأنهمْ قالوا: سلامٌ عليكُمْ ورحمةُ اللهِ وبَركاتُهُ، أو قالوا: سلامُ اللهِ ورَحْمَتُهُ

(١) في الأصل وم: بولاد. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: كانوا هم. (٥) في الأصل وم: تردان.
(٦) في الأصل وم: هما. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وبَرَكاتُهُ عليكُمْ أهلَ البيتِ بالنصبِ، [كأنهم قالوا:](1) يا أهلَ البيتِ كقولِهِ ﷺ حينَ(2) قال: «تَرَكْتُ فيكُمُ الثَّقَلَينِ كتابَ اللهِ وعِتْرَتي أهلَ بيتي» [الترمذي٣٧٨٦] أي يا أهلَ بيتي.

[وقولُهُ تعالى](3): ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ يَحتَمِلُ ﴿حَمِيدٌ﴾ الذي يَقبَلُ اليسيرَ مِنَ المَعروفِ، ويُعطي الجَزيلَ كالشَّكورِ. والمجيدُ مِنَ المَجْدِ والشَّرَفِ. وقيلَ: الحَميدُ المَحْمودُ، والمَجيدُ الماجِدُ، وهو الكريمُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ هو الفرَقُ والفزَعُ الذي دَخَلَ فيهِ بِمَجيءِ الملائكةِ ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ في الوَلَدِ والحافِدِ وفي نجاةِ لوطٍ وأهلِهِ، وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ [هود: ٦٩] وقولُهُ تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: مُجادَلَتُهُ إياهُمْ في قومِ لوطٍ ما ذُكِرَ في القصةِ أنهُ قالَ لهمْ: أرأيتُمْ إنْ كانَ فيهِمْ مِنَ المؤمنينَ كذا أتُعذِّبونَهُمْ؟ قالوا: لا، ونَحْوُهُ مِنَ الكلامِ.

فإنْ ثَبَتَ هذا، وإلّا لا نَعْلَمُ مُجادَلَتَهُ إياهُمْ في دَفْعِ العذابِ عنهُمْ أو تأخيرِهِ؛ دليلُهُ قولُهُ: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

ويَحتَمِلُ مجادَلَتُهُ إياهُمْ في استِبْقاءِ قومِ لوطٍ شَفَقَةً عليهِمْ ورَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يُؤْمِنونَ، ويَقْبَلُونَ ما يُدعَونَ إليهِ لئلا يَنزِلَ بهِمْ عذابُ(4) ما أُوعِدُوا؛ يَتَشفَّعُ إليهِمْ، لِيَسألوا ربَّهُمْ أنْ يُبْقِيَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ قيلَ: الحليمُ هو الذي لا يُكافِئُ مَنْ ظَلَمَهُ، ولا يُجازيهِ بهِ، أو يَحْلُمُ عَنْ سَفَهِ كلِّ سَفيهٍ.

والأوّاهُ(5) المُوقِنُ بِلُغَةِ الحَبَشِ، وقيلَ: الأوّاهُ المُتأوِّهُ، وهو الدَّعّاءُ وكثيرُ الدُّعاءِ. وقيلَ: الأوّاهُ: المُتَّقي الذي لا يَفتُرُ لسانُهُ عنْ ذِكْرِهِ. وقيلَ: الأوّاهُ الحزينُ في ما بينَهُ وبَيْنَ ربِّهِ. جَمَعَ في هذهِ الأحْرُفِ الثلاثةِ: جميعَ أنواعِ الخَيرِ والطاعةِ ما كانَ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الخَلْقِ حِينَ(6) ذَكَرَ أنهُ حليمٌ وأنهُ أوّاهٌ وأنهُ مُنيبٌ.

والمُنيبُ: قيلَ: المُخلِصُ للهِ، وقيلَ: هو المُقبِلُ إلى اللهِ بقَلْبِهِ وبَدَنِهِ، وقد ذَكَرْنا هذا في سورةِ التوبةِ(7).

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ يَعْني عنِ المُجادَلَةِ التي كانَ يُجادِلُهُمْ ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي جاءَ ما أَمَرَ بهِ رَبُّكَ، وجاءَ مَوعودُ [ربِّكَ](8) ﴿وَإِنَّهُمْ/ ٢٤٣ ـ ب/ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾، أي غَيرُ مَدْفوعٍ، لا يَحْتَمِلُ الرَّدَّ بالشَّفاعةِ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ عنِ المُجادَلةِ التي ذَكَرَ ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بالانْصِرافِ والرجوعِ عنكَ. ويَحتَمِلُ ﴿جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ مِنْ إنزالِ العذابِ بهِمْ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ قولُهُ: ﴿سِىٓءَ بِهِمْ﴾ قيلَ: أي ساءَ مَجيئُهُمْ ومَكانُهُمْ وكُرْهُهُمْ لِصَنيعِ قومِهِ بالغُرَباءِ مَخافَةَ أنْ يَفْضَحوهُمْ ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي لم يَدْرِ كيفَ يَصْنَعُ بهِمْ؟ وكيفَ يَحتالُ لِيَدْفَعَ عنْ ضَيفِهِ سوءَ قومِهِ؟

والذَّرعُ هو المَقْدِرَةُ والقُوَّةُ؛ أي ضاقَتْ(9) مَقْدِرَتُهُ وقُوَّتُهُ ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ قيلَ: فَظيعٌ شديدٌ لأنهُ يومٌ يَهْتِكُ الأستارَ، ويَفْضَحُ الرجالَ. وفيهِ دليلُ جَوازِ الاجْتِهادِ لأنهُ قالَ: ﴿يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ فَبَعْدُ لم تَظْهَرْ لهُ شدتُهُ، لكنهُ قالَ: اجْتِهاداً، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ بِسُوءِ صَنيعِ قومِهِ بأضيافِهِ. الحرفانِ جميعاً ينصرفانِ(10) إلى لوطٍ لِمَكانِ قومِهِ ولِمَكانِ(11) أضيافِهِ؛ أو يكونُ أحدُ الحَرْفَينِ لِمَكانِ ضَيفِهِ والآخرُ لِمكانِ قومِهِ(12) وما يَنْزِلُ بقومِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: كأنه قال. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: العذاب. (٥) في الأصل وم: وأواه. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في تفسير الآية (١١٤) منها. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ضاق. (١٠) في الأصل وم: ينصرف. (١١) في الأصل وم: ولمكان. (١٢) في الأصل وم: ضيفه.

جنة السنة

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يُسْرِعونَ إليهِ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ أي يُهَرْوِلونَ إليهِ، وهو سَيْرٌ بَيْنَ السَّعْيِ وبَيْنَ المَشْيِ، بَيْنَ بَيْنَيْنِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ أي يُرَوَّعونَ إليه؛ مِنَ الرَّوعِ أي فَزِعينَ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

[أحَدُهما: يَحْتَمِلُ][1] مِنْ قَبْلِ أنْ يُبْعَثَ لوطٌ رسولاً إليهِمْ كانوا يَعْمَلونَ السَّيِّئاتِ.

والثاني[2]: يَحْتَمِلُ مِنْ قَبْلِ نُزولِ الأضيافِ بلوطٍ كانوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ. والسَّيِّئاتُ تَحْتَمِلُ الشِّرْكَ وغَيْرَهُ مِنَ الفَواحِشِ التي يَرْتَكِبونَها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أرادَ بَناتِ قومِهِ لأنَّ الرُّسُلَ هُمْ كالآباءِ لأولادِ قومِهِمْ؛ يُنْسَبونَ إليهِمْ. ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾؟ [الأحزاب: ٦] وفي حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ وهو أبٌ لهُمْ ممّا أزواجُهُ أُمَّهاتُهُم، والنَّبِيُّ أبٌ[3] لهم. فَعَلى ذلكَ يَحْتَمِلُ قولُ لوطٍ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ أرادَ بَناتِ قومِهِ، فَنَسَبَهُنَّ إلى نَفْسِهِ لِما ذَكَرْنا أنهُ كالأبِ لهم.

ثم يَحْتَمِلُ مَعْنَى جَعْلِ النَّبِيِّ أولادَ[4] قومِهِ كالأبِ وأزواجِهِ كالأُمَّهاتِ[5] وجهَيْنِ:

أحَدُهما: نُسِبُوا إليهِ لِلشَّفَقَةِ؛ هو أشْفَقُ بهِمْ مِنَ الأبِ والأُمِّ.

والثاني[6]: لِحَقِّ التربيةِ وتعليمِ الدينِ كالأبِ لهُمْ، فهو أولَى بهِمْ مِنْ أنْفُسِهِمْ لِهَذينِ الوجهَيْنِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أرادَ بَناتِ نَفْسِهِ. ثم اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: كانَ ذلكَ منهُ تَعْريضاً[7] لهم لِلنِّكاحِ بقولِهِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ نِكاحاً إنْ كُنْتُمْ مائلِينَ للإيمانِ.

ومنهُمْ مَنْ قالَ: هو تَعْريضٌ منهُ لِما هو زِنًى عندَهُمْ، لا أنهُ عَرَّضَ ذلكَ عندَ نَفْسِهِ.

وهذا كما يقولونَ: إنَّ مَنْ أُكْرِهَ أنْ يَشْتُمَ محمداً ﷺ فلا بأسَ بأنْ يَشْتُمَ، ويَقْصِدَ بِشَتْمِهِ محمداً آخَرَ، يَحِلُّ لهُ شَتْمُهُ، وإنْ كانَ عندَ المُكْرِهِ أنهُ يَشْتُمُ رسولَ اللهِ بعدَ أنْ أخْطَرَ الشاتِمُ في قَلْبِهِ غَيْرَهُ.

وكذلكَ إنْ أُكْرِهَ على أنْ يَشْتُمَ الإلهَ، يَقْصِدُ[8] بالشَّتْمِ شَتْمَ آلهتِهِمْ، وإنْ كانَ عندَهُمْ أنهُ إنما يَشْتُمُ إلهَهُ الذي يَعْبُدُهُ.

فَعَلى ذلكَ يَحْتَمِلُ قولُ لوطٍ: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ تَعْريضُ زِنًى عندَهُمْ، وإنْ كانَ عندَهُ أنهُ ليسَ لِذلكَ يَقْصِدُ.

وقالَ قائلونَ: قالَ هذا لِيُرِيَهُمْ قُبْحَ الفِعْلِ الذي كانوا يَقْصِدونَ بأضيافِهِ لأنَّ الزِّنَى كانَ عندَهُمْ مُحَرَّماً[9]، فَعَرَضَ عليهِمْ بناتِهِ لِيَعْرِفوا قُبْحَ ذلكَ الفِعْلِ حينَ[10] احْتَمَلَ قَلْبُهُ في بناتِهِ ولم يَحْتَمِلْهُ[11] في أضيافِهِ لِيَمْتَنِعوا عن ذلكَ.

أو يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قالَ ذلكَ، وإنْ كانَ كلاهُما لا يَحِلّانِ، لكنَّ أحَدَهُما أيْسَرُ وأهْوَنُ، ويَجوزُ الجمعُ بَيْنَ شَرَّيْنِ، فيقالُ: هذا أطْهَرُ وأحَلُّ مِنْ هذا، وهذا أيْسَرُ مِنْ هذا وأهْوَنُ، وإنْ كانَ كلاهُما شَرَّيْنِ. فالزِّنَى، وإن كانَ حَراماً فذلكَ ممّا يَحِلُّ، وأدبارُ الرجالِ لا تَحِلُّ بِحالٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنهم كانوا يَخْطُبونَ بَناتِهِ، وكانَ أبَى أنْ يُزَوِّجَهُنَّ منهُمْ لِما لم يكونوا أكفاءً[12] لَهُنَّ، ثم عَرَضَ عليهِمْ [ذلكَ][13] في ذلكَ الوقتِ لِيَعْلَموا قُبْحَ ذلكَ الفِعْلِ الذي قَصَدوا بأضيافِهِ، أو كلاماً[14] نَحْوَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ وقالَ في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ [الحجر: ٦٨] لِيُعْلِمَ أنَّ الإخزاءَ هو الفَضيحةُ. هذا يدلُّ أنَّ الخِزْيَ هو الذي يَفْضَحُ مَنْ نَزَلَ بهِ.

---

(١) في الأصل وم: قوله. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: أباً. (٤) في الأصل وم: لأولاد. (٥) في الأصل وم: كالأم. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: تعريض. (٨) في الأصل وم: فيقصد. (٩) في الأصل وم: محرم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: يحتمل. (١٢) في الأصل وم: كفوا. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: كلام.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هَمَّ أنْ يُزَوِّجَ بَعْضَ بناتِهِ مَنْ يَصْدُرُ لِرأيِهِ، فَيَمْنَعَهُمْ عنهُ؛ كأنهُ يقولُ: أليسَ منكُمْ مَنْ يَرْشُدُ؟ ويَصْدُرُ لِرأيِهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي لَيسَ منكُمْ رَجُلٌ يَقْبَلُ الموعِظَةَ؟ ويُرْشِدُكُمْ؛ ويَعِظُكُمْ؟ أو يقولُ: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ على النَّفْيِ، فَيَمْنَعُهُمْ عَمّا يُريدونَ، ويَقْصِدونَ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ على التأويلَينِ اللَّذينِ ذَكَرْنا هما: الأولُ حقُّ[١] النكاحِ والثاني[٢] حقُّ الاستِمتاعِ. وفي بعضِ التأويلاتِ: ﴿مِنْ حَقٍّ﴾ مِنْ حاجةٍ لهُ. وبذلكَ يقولُ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي مِنْ حاجةٍ ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ يَعْنونَ الأضيافَ.

الآية ٨٠ [وقولُهُ تعالى][٣]: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي قُوَّةً في نفسي ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ قيلَ: عَشيرتُهُ، والرُّكْنُ الشديدُ عندَ العربِ العَشيرةُ؛ يقولُ: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ في نفسي وعَشيرَتي[٤] يُعينونني لَقاتَلْتُكُمْ. فيهِ دلالةُ أنَّ مَنْ رأى [مِنْ][٥] آخَرَ فاحشةً فَلَهُ أنْ يُقاتِلَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلمُ: إنكَ تَعْلَمُ أنْ لَيسَ لنا في بَناتِكَ مَنْ حَقٍّ كما لَيسَ لنا في أضيافِكَ حقٌّ، فكيفَ [تَمْنَعُنا عنهُمْ][٦] وتَعرِضُ علينا بناتِكَ؟ فهنَّ في ما لَيسَ لنا فيهنَّ حَقٌّ كأولئكَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٨١

[وقولُهُ تعالى][٧]: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ قيلَ: قالوا ذلكَ لِلوطٍ: ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ لمّا طُمِسَتْ أعيُنُهُمْ، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧] وقالَ قائلونَ: قالوا ذلكَ لِلوطٍ حينَ طُمِسَتْ أعيُنُهُمْ: إنَّ ضَيفَكَ سَحَروا أبصارَنا، فَسَتَعْلَمُ غداً ما تَلْقَى أنتَ وأهلُكَ، فقالوا عندَ ذلكَ: ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ بِسوءٍ غداً بأنهمْ يَهْلِكونَ.

ودلَّ قولُهُ: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ على أنهمْ قد هَمُّوا لِلوطٍ، وأوعَدوهُ، حتى قالَ ما قالَ. ألا تَرى أنَّ الملائكةَ قالوا لهُ: إنهمْ ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ ؟ فهذا ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قيلَ: قِطَعٌ مِنَ الليلِ آخِرُهُ، وهو وقتُ السَّحَرِ، وقيلَ: هو ثُلُثُ الليلِ أو رُبُعُهُ مِنْ آخِرِهِ، وهو واحدٌ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ قيلَ: لا يَتَخَلَّفْ أحدٌ منكُمْ إلّا امْرأتَكَ، فإنها تَتَخَلَّفُ، ويُصيبُها ما أصابَ أولئكَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ مِنَ الالْتِفاتِ والنَّظَرِ؛ قيلَ: لا يَتْرُكْ أحدٌ مُتابَعَتَكَ إلّا امرأتَكَ، فإنها لا تَتْبَعُكَ، فيُصيبُها ما أصابَ أولئكَ.

وقولُهُ تعالى ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ يَحْتَمِلُ النَّهْيَ عنِ الالْتِفاتِ؛ كأنهُ يقولُ: لا يَلْتَفِتْ أحدٌ.

ويَحْتَمِلُ الخَبَرَ: كأنهُ يقولُ: لا يَلْتَفِتُ مِنكُمْ أحدٌ إلّا مَنْ ذَكَرَ/ ٢٤٤ ـ أ/؛ وهيَ[٨] زوجتُهُ، فذلكَ علامةٌ لِخِلافِها لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [فقالَ لوطٌ][٩]: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ كأنَّ لوطاً اسْتَبْطأَ الصُّبحَ لِعَذابِهِمْ، فقالَ[١٠]: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ هذا مِنْ لوطٍ لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ قالَ ذلكَ، وهو بَيْنَ أظْهُرِهِمْ، ويَعْلَمُ أنَّ قُراهُ سَتُقْلَبُ أعلاها أسفَلَها وأسفَلُها أعلاها. ولكنْ قالَ، واللهُ أعلمُ، بَعْدَما أخرَجوهُ وأهلَهُ مِنْ بَيْنِ أظْهُرِهِمْ. فَعِنْدَ ذلكَ قالَ ما قالَ، واسْتَبْطأَ وقتَ نُزولِ العذابِ بهمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ يَحْتَمِلُ جاءَ الأمرُ بالمُرادِ بأمرِنا، أو أمْرُهُ هو جَعْلُهُ عالِيَها سافِلَها.

---

(١) في الأصل وم: الحق. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: عشيرة. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: تمنعها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وهو. (٩) و(١٠) في الأصل وم: فقالوا.

جنة السنة

ثم قالَ أهلُ التأويلِ: قولُهُ: ﴿جَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أدخَلَ جبريلُ جناحَهُ تَحتَ قُرَياتِ لوطٍ، فَرفَعَها إلى السماءِ، ثم قَلَبَها، فَجعَلَ ما هو أعلاها أسفَلَها، فَهوَتْ إلى الأرضِ. فذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣] قيلَ: أهْوَاها جبريلُ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ. وأمْكَنَ أنْ تكونَ إذْ أهْلَكَهُمْ جَعَلَهُمْ تَحتَ الأرضِ، فذلكَ جَعْلُ أعلاها أسْفَلَها.

لكنَّ أهلَ التأويلِ حَمَلوا على ما ذَكَرْنا، وأجْمَعوا على ذلكَ. وقالَ بعضُهُمْ: قُلِبَتِ القُرَى، وجُعِلَ أعلاها أسْفَلَها على ما ذَكَرْنا، وأُرْسِلَتِ الحجارةُ على مَنْ كانَ غائباً عنها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أمْطَرَ الحِجارةَ عليها، ثم قَلَبَها جبريلُ. وقالَ بعضُهُمْ: أمْطَرَ عليها الحِجارةَ بَعْدَ ما قَلَبَها جِبْريلُ، فَسوّاها، وكلُّ واحِدٍ منهُمْ كانَ غائباً عن بلدِهِ [جاءَهُ حَجَرٌ مكتوبٌ عليهِ][(١)] اسْمُهُ، فَقَتَلَهُ حيثَ كانَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: السِّجِّيلُ هو اسْمُ المكانِ الذي منهُ رَفَعَ الحَجَرَ الذي أمْطَرَهُ[(٢)]. قالَ بعضُهُمْ: هو طينٌ مَطْبوخٌ كالآجُرِّ. وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][(٣)] قالَ: [سَنْكْ وجَلْ][(٤)] ﴿مَّنضُودٍ﴾ نُضِدَ الحجرُ بالطِّينِ وأُلْصِقَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ.

الآية ٨٣ [وقولُهُ تعالى][(٥)]: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مُعلَّمةً مُخطَّطةً بالسَّوادِ والحمرةِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي مَكتوباً عليها اسْمُ صاحِبِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما هي مِنْ ظَلَمَةِ قومِ لوطٍ بِبَعيدٍ. وقالَ بعضُهُمْ: ما هي مِنْ ظالِمي أهلِ مكةَ وحَوالَيهِمْ بِبَعيدٍ؛ أي عذابُ اللهِ لَيسَ بِبَعيدٍ؛ يُعَذِّبُهُمْ إنْ شاءَ اللهُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي تلكَ القُرَى والأمكنةُ التي أهلَكَ أهلَها ليسَتْ بِبَعيدةٍ مِنْ مُشرِكي أهلِ مكةَ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات: ١٣٧].

وفيهِ تذكيرٌ منهُ على هذهِ الأمةِ حينَ[(٦)] لم يَجْعَلْ عذابَهُمْ عذابَ اسْتِئصالٍ بحيثُ لا يَمْلِكونَ العَوْدَ عنهُ[(٧)] والرجوعَ، ولكنْ جَعَلَ عذابَهُمُ الجهادَ حتى لو أرادوا الرجوعَ عنهُ ما مَلَكوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أي إلى مَدْيَنَ أرسَلْنا ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ هذا قد ذَكَرْنا في ما تَقدَّمَ: أنَّ كلَّ نَبيٍّ أوّلَ ما دعا قومَهُ إنما دعا إلى توحيدِ اللهِ وجعلِ العبادةِ لهُ.

وفي قولِهِ: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وما ذَكَرَ في غيرِهِ مِنَ الأُخُوَّةِ دلالةٌ على أنَّ الرُّسُلَ مِنْ قَبْلُ كانوا مِنَ البَشَرِ مِنْ جِنْسِ قومِهِمْ لا مِنَ الملائكةِ حينَ[(٨)] قالَ: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ومعلومٌ أنهمْ لم يكونوا إخْوةً لهمْ في الدينِ.

وفيهِ أنَّ الأُخُوَّةَ لا تُوجِبُ فَضيلَةَ المُؤاخي لهُ؛ لأنَّ الرسُلَ إخْوةُ أولئكَ الأقوامِ، وهمْ كَفَرةٌ. وذلكَ يَرُدُّ قولَ الرَّوافِضِ في تفضيلِ عليٍّ على أبي بكرٍ بالمُؤاخاةِ التي كانَتْ بَيْنَ رسولِ اللهِ وبَيْنَ عليٍّ. والخُلَّةُ توجِبُ الفضيلَةَ. وقد جاءَ عنهُ ﷺ أنهُ قالَ: «لو اتَّخذْتُ سِوَى ربّي خليلاً لاتَّخذْتُ أبا بكرٍ خليلاً» [بنحوه مسلم ٥٣٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ ذَكَرَ أنهمْ يُنْقِصونَ المِكيالَ والميزانَ، ولا يُوفونَ الناسَ حقوقَهُمْ، فَنهاهُمْ عنْ ذلكَ، فهو، واللهُ أعلَمُ، لوجهَيْنِ:

أحَدُهُما: أنهمْ إنما نُهوا عنْ ذلكَ بِحقِّ الرِّبا لأنَّ النقصانَ إذا كانَ بِرِضاً مِنْ صاحِبِهِ يَجوزُ، فَدَلَّ أنهُ إنما نَهاهُمْ بِحَقِّ الرِّبا، وفيهِما يجري الرِّبا.

والثاني: فيهِ أنَّ هِبةَ المُشتَري للبائعِ وتَقَلُّبَهُ قبلَ قَبْضِهِ على قيامِ البيعِ في ما بَيْنَهُما غيرُ جائزٍ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: جاءت عجلاً مكتوب عليها. (٢) في الأصل وم: أمطرنا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) هذه عبارة فارسية، معناها: حجر وطين، انظر تفسير الطبري ج١٥/ ٤٣٤. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، في الأصل: عنهم. (٨) في الأصل وم: حيث.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ قيلَ: في سَعَةٍ مِنَ المالِ، وقيلَ: في رُخصٍ منَ السَّعَةِ. وإنما يَحْمِلُ المَرْءَ على النقصانِ والظلمِ على آخَرَ عِزَّةُ الشيءِ وضيقُ الحالِ، فكيفَ تُنقِصونَ أنتُمْ في حالِ السَّعَةِ ورُخصِ السَّعَةِ؟ أو يقولُ ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ في غيرِ هذا، فلا تَظْلِموا الناسَ في هذا، وتَمْنَعوا حقوقَهُمْ.

[وقولُهُ تعالى](١) ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي يوم يُحيطُ بهمُ العذابُ. إنْ كانَتِ الإحاطَةُ مُضافةً إلى اليومِ فهو مُحيطٌ بالكُلِّ، وإنْ كانتِ الإحاطَةُ مُضافةً إلى العذابِ فهو مُحيطٌ بالكَفَرَةِ خاصةً.

وهو، واللهُ أعلَمُ، أنهُ ما مِنْ جارحةٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ إلّا وقد يُصيبُها العذابُ، ويُحيطُ بها، ليسَ كعذابِ الدنيا، يأخُذُ جُزْءاً دونَ جُزْءٍ، بل يُحيطُ بهِ.

والنَّهْيُ(٢) بتخصيصِ النقصانِ [في](٣) الكيلِ والميزانِ لا يدلُّ على أنه لم يكنْ فيهِ مِنَ المآثمِ والأجرامِ سِوَى ذلكَ، لكنهُ خَصَّ هذا لِما كانَ الظاهِرُ فيهِمْ نُقصانَ الكيلِ والوزنِ، فَذَكَرَ ذلكَ، وهو ما خَصَّ قومَ لوطٍ بقولِهِ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥] [وقولِهِ](٤) ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ الآية [العنكبوت: ٢٨].

ذَكَرَ هذا، وخَصَّهُمْ على أنهمْ لم يكونوا يأتونَ مِنَ الفواحشِ غيرَها، لكنْ خَصَّ هذا لأنَّ الظاهرَ فيهِمْ هذا. فَعَلى ذلكَ نُقصانُ الكيلِ والميزانِ في قومِ شُعيبٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ خَصَّ المِكْيالَ والميزانَ لِما كانوا يُطفِّفونَ المِكْيالَ، ويُنْقِصونَ الميزانَ، رغبةً فيهما، وفيهما يجري الرِّبا لِما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ فيهِ دلالةُ أنَّ المُشتَرِيَ يَمْلِكُ المَبيعَ قَبْلَ أنْ يَقْبِضَ لأنهُ قالَ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أضافَ إلى الناسِ أشياءَهُمْ. فلو كانَ لا يملكُ لم تكنْ أشياءَ الناسِ، إنما كانَتْ أشياءَهُ(٥)، فإنما نَقَصَ مالَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وهو ما ذَكَرَ في مَوضِعٍ آخَرَ ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦ و٨٥].

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ما أبْقَى اللهُ لكُمْ مِنْ ثوابِهِ في الآخِرَةِ خيرٌ لكُمْ إنْ آمَنْتُمْ بهِ، وأطَعْتُموهُ، ممّا تَجمعونَ مِنَ الأموالِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي ما جَعَلَ لكمْ ممّا يُحِلُّ خيرٌ لكُمْ ممّا يُحَرِّمُ عليكُمْ مِنْ نُقصانِ الكيلِ والوزنِ إنْ كُنْتُمْ مؤمنينَ بالحَلالِ أو بالآخِرَةِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: طاعةُ اللهِ، وهي(٦) ما يأمُرُكُم بهِ، ويَدعوكُمْ إليهِ خيرٌ لكُمْ مِمّا تَفْعَلونَ.

وقالَ الحَسَنُ: رِزْقُ اللهِ خيرٌ لكُمْ مِنْ بَخْسِكُمُ الناسَ حقوقَهُمْ. لكنَّ هذا يرجِعُ إلى ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ يَحْتَمِلُ [وجهَينِ:

أحدُهما](٧): ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي لَسْتُ أشهَدُ بِياعاتِكُمْ وأشرِيَتَكُمْ حتى أعلَمَ بِبَخْسِكُمُ الناسَ المِكيالَ والميزانَ. لكنْ إنما أعرِفُ ذلكَ باللهِ. وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالتِهِ.

والثاني: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي بِمُسَلَّطٍ عليكُمْ؛ إنما أُبَلِّغُ إليكُمْ كقولِهِ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ أقِراءَتُكَ تأمُرُكَ هذا.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أشياءهم. (٦) في الأصل وم: وهو. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقالَ ابنُ عباسٍ: قالوا ذلكَ لهُ لأنَّ شُعَيباً كانَ يُكثِرُ الصلاةَ، كأنهُ يُخرَّجُ على الإضمارِ؛ يقولونَ: أصلاتُكَ تأمُرُكَ بأنْ تأمُرَنا بِتَرْكِ عبادةِ ما عَبَدَ آباؤنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ [يَحتمِلُ: صلاتُكَ وصَلَواتُك][١]: أنْ يكونَ لهُ صلاةٌ معروفةٌ، يَفعَلُها /٢٤٤ ـ ب/، فيَقولونَ: أصلاتُكَ التي تَفعَلُها تأمُرُكَ أنْ نَترُكَ كذا؟ أو صلاةٌ واحدةٌ تُكثِرُها؟ فقالوا ذلكَ. فتَخصيصُ الصلاةِ مِنْ بَينِ غيرِها مِنَ الطاعاتِ لِما لَعلّها كانَتْ مِنْ أظهَرِ طاعاتِهِ عندَهُمْ، فقالوا لهُ هذا.

ثم يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: كأنهم قالوا: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ أو أنْ نَفعَلَ كذا على التَّسفيهِ لهُ [أوِ التَّجهيلِ][٢] كَمَنْ يُوَبِّخُ آخرَ، ويُسَفِّهُهُ، ويقولُ: أعِلمُك يأمُرُكَ بذلكَ؟ وإيمانُكَ يأمُرُك. هذا كقولِهِ ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ [البقرة: ٩٣] ونَحوُهُ مِنَ الكلامِ يُخرَّجُ على التَّسفيهِ لهُ أوِ التَّجهيلِ.

والثاني: يُقالُ ذلكَ على الإنكارِ؛ يقولُ الرجلُ لآخَرَ: إيمانُكَ يأمُرُكَ بذلكَ، أو عِلمُكَ يأمُرُكَ بهذا؛ أي لا يأمُرُكَ بذلكَ، يَحتَمِلُ قولُ هؤلاءِ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ أي لا يأمُرُكَ بذلكَ هذا إذا كانَتِ الصلاةُ التي ذَكَروها مَرْضِيَّةً عندَهُمْ. فإنْ لم تكنْ مَرضِيَّةً فالتأويلُ هو الأوّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ الآيةَ: حُبِّبَ إليهِمْ تقليدُ آبائِهِمْ في عبادةِ الأصنامِ، واتّباعُهُمْ إيّاهمْ[٣]، والأموالُ التي كانَتْ لهمْ، فَمَنَعَهُمْ هذا[٤] عنِ النَّظَرِ في الحُجَجِ والآياتِ لِما حُبِّبَ إليهِمْ ذلكَ. وهكذا جميعُ الكَفَرَةِ إنما مَنَعَهُمْ عنِ النَّظَرِ في آياتِ اللهِ والتأمُّلِ في حُجَجِهِ أحدُ هذهِ الوجوهِ التي ذَكَرْنا: حُبُّ الذاتِ[٥] ودوامُ الرئاساتِ والمَيلُ إلى الشَّهَواتِ. ظَنّوا أنهمْ لوِ اتَّبَعوا رُسُلَ اللهِ، وأجابوهُمْ إلى ما دَعَوهُمْ إليهِ لَذَهَبَ عنهُمْ ذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ يَحتَمِلُ قضاءَ جميعِ الشَّهَواتِ، ويَحتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ نُقصانِ المِكْيالِ والميزانِ [ما يقولونَ: أموالُنا][٦] ليسَ لأحدٍ فيها حقٌّ، نَفعَلُ فيها ما نَشاءُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ﴾ [الألفُ صِلَةٌ][٧] و﴿أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ قالَ [بعضُ][٨] أهلِ التأويلِ: قالوا ذلكَ لهُ اسْتِهزاءً بهِ وسُخْرِيَةً؛ كَنَوا بالحليمِ عَنِ السفيهِ وبالرشيدِ عَنِ الضالِّ؛ أي أنتَ السَّفيهُ حينَ[٩] سَفَّهْتَ آباءَنا في عبادَتِهِمُ الأصنامَ، الضالُّ حينَ[١٠] تَرَكْتَ مِلَّتَهُمْ ومذهبَهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: على النَّفيِ والإنكارِ: أي ما أنتَ الحَليمُ الرشيدُ. ويُشبِهُ أنْ يكونَ على حقيقةِ الوصفِ لهُ بالحِلْمِ والرُّشْدِ لأنهمْ لم يأخذوا عليهِ كَذِباً قَطُّ، ولا رَأَوهُ على خِلافٍ ولا على سَفاهةٍ قَطُّ، فقالوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أي كُنْتَ هكذا، فكيفَ تَرَكْتَ ذلكَ؟ وهو ما قالَ قومُ صالحٍ لصالحٍ حينَ[١١] قالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ [الآية: ٦٢].

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي على عِلْمٍ وبَيانٍ وحُجَجٍ وبُرهانٍ مِنْ رَبّي: أي تَعْلَمونَ أني كُنْتُ على بَيانٍ مِنْ رَبّي وحُجَجٍ ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ يَحتَمِلُ هذا منهُ ما كانَ ما قالَ [ذلكَ النَّبيُّ صالحٌ][١٢] ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [الآية: ٢٨] أي قالَ: هو رَزَقَني رِزْقاً حَسَناً: الدينَ والهُدى والنُّبُوَّةَ على ما ذَكَرْنا. وأمكَنَ أنْ يكونَ الرزقُ الحَسَنُ هو الأموالَ الحلالَ الطَّيِّبَةَ التي لا تَبِعَةَ عليهِ [فيها][١٣]، فقالَ ذلكَ، وما رَزَقَ أولئكَ عليهِمْ تَبِعَةٌ في ذلكَ لأنهمُ اكْتَسَبوها مِنْ وجهٍ لا يَحِلُّ.

---

(١) في الأصل وم: وقوله: صلاتك وصلواتك يحتمل. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: أباءهم. (٤) في الأصل وم: هذان. (٥) في الأصل وم: اللذات. (٦) في الأصل: يقولون اموالنا لما، في م: يقولون أموالنا. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في م: بعضهم مِنْ. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: أولئك الأنبياء. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

[وقولُهُ تعالى][(١)]: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: قالَ لهمْ ذلكَ بإزاءِ ما قالوا في ما ذَكَرَ في الأعرافِ ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الآية: ٨٨] يقولُ: أدعوكُمْ إلى الإيمانِ، وأنهاكُمْ عنِ الكُفرِ بهِ، ثم أرتكِبُ ما أنهاكُمْ عنهُ، وأترُكُ ما أدعوكُمْ إليهِ.

وقالَ قتادةُ: لم أكُنْ أنهاكُمْ عنْ أمرٍ، وأركَبُهُ، وهو واحدٌ ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ وفيهِ دلالةُ أنَّ الاِستِطاعةَ تكونُ معَ الفِعلِ، لا تَخلو؛ إمّا أنْ يكونَ أرادَ استِطاعةَ الإرادةِ أوِ استِطاعةَ الفِعْلِ، فكيفَ ما كانَ، فقد أخبَرَ أنهُ يُريدُ لهمْ منَ الصلاحِ ما استَطاعَ، ففيهِ ما ذَكَرَ.

وهو يَنقُضُ على المُعتزلةِ مذهبَهُمْ لأنهمْ يقولونَ: الاِستِطاعةُ تتقدَّمُ على الفِعْلِ، وهي لا تَبقَى وَقتَينِ، فَيَصيرُ قولُهُمْ إرادةَ الصلاحِ لهمْ بما عُدِمَ مِنَ الاِستِطاعةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: التوفيقُ هو صفةُ كلِّ مُطيعٍ، والخِذلانُ هو صفةُ كلِّ عاصٍ. وقالَ بعضُهُمْ: التوفيقُ هو ما يُوافِقُ قولُهُ فِعْلَهُ في الطاعةِ، والخِذلانُ هو ما يُفَرِّقُ بينَ قولِهِ وفِعْلِهِ في المَعْصِيَةِ.

وقالَ الحُسَينُ النَّجّارُ: التوفيقُ هو قُدْرَةُ كلِّ خيرٍ وطاعةٍ، والخِذلانُ هو قُدْرَةُ كلِّ شرٍّ ومَعْصِيَةٍ.

وعندَنا: التوفيقُ هو أنْ يُوَفِّقَ بينَ عَمَلِ الخيرِ والاِستِطاعةِ، والخِذلانُ هو أنْ يُفَرِّقَ بينَ عملِ الخيرِ والاستطاعةِ، أو أنْ يقولُ: هو أنْ يُوَفِّقَ بينَ عَمَلِ الشَّرِّ والاِستِطاعةِ، وهما واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي عليهِ اعْتَمَدْتُ في جميعِ أمري ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجِعُ، أو يقولُ: إليهِ أُقْبِلُ بالطاعةِ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ بالغَرَقِ ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ بالريحِ الصَّرْصَرِ ﴿أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ بالصَّيْحَةِ على ما ذَكَرَ. قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يَحْمِلَنَّكُمْ ﴿شِقَاقِىٓ﴾ قيلَ: خِلافي ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ﴾ أولئكَ. وقيلَ: لا يُكْسِبَنَّكُمْ عداوَتي.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿شِقَاقِىٓ﴾ ضِراري. لكنْ يَرْجِعُ إلى مَعْنىً واحدٍ لأنهُ إذا ثَبَتَتِ العَداوةُ ثَبَتَتِ المُخالَفَةُ والبُغْضُ والضَّرَرُ، فَكُلُّ ما ذُكِرَ فهو واحدٌ. وأصلُ الجُرْمِ الإثْمُ والكَسْبُ.

ثم يُخَرَّجُ إنذارُهُ إيّاهُمْ بِمَنْ هَلَكَ مِنَ الأُمَمِ على وجهَينِ:

أحدُهُما: أنَّ قومَ شُعَيبٍ قومٌ لايؤمِنونَ بالبَعْثِ وبالقيامةِ، فأنْذَرَهُمْ بمَنْ هَلَكَ منَ الأممِ السالِفَةِ؛ لأنهُ لو كانَ [لا][(٢)] يُنْذِرُهُمْ بالبَعْثِ لَكانَ لا يَنْجَعُ فيهِمْ أنهمْ لا يؤمنونَ بهِ.

والثاني: أنْذَرَهُمْ بأولئكَ لأنهمْ كانوا يُقَلِّدونَ آباءَهُمْ في عِبادةِ الأوثانِ، ويَتَّبِعونَهُمْ، فيقولُ: إنكُمْ تُقَلِّدونَ آباءَكُمْ، وتَتَّبِعونَهُمْ في عبادةِ الأوثانِ، فاتَّبِعوهُمْ أيضاً بما بَلَغَ[(٣)] إليكمْ مِنْ هلاكِ أولئكَ بِعبادَتِهِمُ الأوثانَ وتكذيبِهِمُ الرسلَ. فإذا قَلَّدْتُموهُمْ في ذلكَ فهلّا تُقَلِّدونَهُمْ، وتَتَّبِعونَهُمْ في ما أصابَهُمْ. أو يقولُ: إنكُمْ تُقَلِّدونَ آباءَكُمُ الذينَ عَبَدوا الأوثانَ، وقد هَلَكوا، فلا تُقَلِّدونَ مَنْ لم يَعْبُدْها[(٤)] منهُمْ، ونَجا، وقد عَرَفْتُمْ أنَّ مَنْ هَلَكَ [منهمْ بِمَ هلكَ؟][(٥)] ومَنْ نَجا منهم[(٦)] بِمَ نَجا؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ أي [إنْ][(٧)] نَسِيتُمْ مَنْ مَضَى منهُمْ فلا تَنْسَوا[(٨)] ما نَزَلَ بقومِ لوطٍ، وليسُوا هم ببعيدٍ منكُمْ.

الآية ٩٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي اطْلُبُوا السببَ الذي يَصْنَعُ لكُمُ المغفِرَةَ مِنْ ربِّكُمْ، وهو التوحيدُ ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي ارجِعوا إليهِ، ولا تَعودوا إلى ما كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بلغوا. (٤) في الأصل وم: يعبد. (٥) في م: منكم بم هلك، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: معكم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: تنسون.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ أي ارجِعوا إليهِ رُجوعاً حتى لا تَعودوا إلى مِثْلِ صَنيعِكُمْ أبداً ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ﴾ يَرْحَمُ مَنْ تابَ إليهِ[1] ﴿وَدُودٞ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحَدُهما:][2] أي حَقٌّ أنْ تَوَدُّوا منهُ كُلَّ شيءٍ وكُلَّ إحسانٍ. والناسُ جُبِلوا على حبِّ مَنْ أحْسَنَ إليهِمْ.

والثاني: ﴿وَدُودٞ﴾ لِمَنْ توسَّلَ إليهِ، وتقرَّبَ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ قولُهُ: ﴿مَا نَفۡقَهُ﴾ يَحْتَمِلُ ما نَفْهَمُ، وما نَعْقِلُ ﴿كَثِيرٗا﴾ مِمّا تقولُ لأنَّ كلامَكَ كلامُ مجانينَ، وهذهِ هي عادةُ القومِ؛ كانوا ينسِبونَ الرُّسُلَ إلى الجُنونِ. ويَحْتَمِلُ ﴿مَا نَفۡقَهُ﴾ ما نَقبلُ ﴿كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ فإنْ كانَ على الفَهْمِ فهو كقولِهِ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وهُمْ كانوا فريقَين:

[فريقٌ][3] كانوا يَقولونَ: قُلوبُنا أوعِيةُ العِلْمِ كقولِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾ [البقرة: ٨٨] فإنْ كانَ ما تقولُ حقًّا نَفْهَمُ، ونَعْقِلُ كما نَعْقِلُ غيرَهُ، وفريقٌ/ ٢٤٥ ـ أ/ قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥] كانوا يَعقِلونَ أنهم لا يَفْهَمونَ، ولا يَفْقَهونَ، لأنَّ قلوبَهُمْ في أكِنَّةٍ، وفي آذانِهِمْ وَقْراً.

والفريقُ الأوَّلُ يقولونَ: إنَّ قلوبَنا أوعيةٌ لِلعِلْمِ. فلو كانَ [قولُكَ][4] حقاً لَعَقَلْنا[5] كما عَقَلْنا غيرَهُ، فهؤلاءِ يَصْرِفونَ العَيْبَ إلى الرسولِ وأولئكَ إلى أنفُسِهِمْ. فَعَلى ذلكَ قومُ شُعَيبٍ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ كذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ

أحَدُهما: أي إنكَ لَسْتَ مِنْ كُبَراتِنا وأجِلَّتِنا، إنما أنتَ مِنْ أوساطِنا. وعلى ذلكَ الأنبياءُ إنما بُعِثوا مِنْ أوساطِ الناسِ لا مِنْ كُبَرائِهِمْ في أمرِ الدنيا. فالقَوِيُّ والعزيزُ عندَ أولئكَ القومِ مَنْ عندَهُ الدنيا والمالُ. وأمّا مَنْ لم يكُنْ عندَهُ المالُ فهو عندَهُمْ ضعيفٌ ذليلٌ، لأنهمْ لا يَعْرِفونَ الدينَ، ولا يؤمِنونَ بالآخِرةِ. لِذلكَ قالوا ما قالوا.

والثاني: لَسْتَ أنتَ بِذي قوةٍ وبَطْشٍ في نَفْسِكَ، وقد ذُكِرَ أنهُ كانَ ضَعيفاً في بَصَرِهِ ونَفْسِهِ. يَحْتَمِلُ وصفُهُمْ [إياهُ][6] بالضعيفِ لِهذينِ الوجهَينِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ أي قبيلَتُكَ وقيلَ: عشيرَتُكَ ﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ الرَّجْمُ يَحْتَمِلُ القَتْلَ، ويَحْتَمِلُ اللعْنَ والشتْمَ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ وجهَينِ

أحَدُهما: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ أي لولا حُرْمَةُ رهطِكَ لَرَجَمْناكَ كأنهمْ كانوا يُحَرِّمونَ [رجمَهُ][7] لِموافَقَةِ رَهْطِهِ إيّاهُمْ في العِبادةِ؛ أعني عِبادةَ الأوثانِ، وعلى ما هُمْ عليهِ.

والثاني: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ خوفاً منهُمْ لِما ذُكِرَ أنهُ كانَ كثيرَ العشيرةِ والقبيلةِ، كانوا يَخافونَ عشيرَتَهُ، فلم يُؤذوهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ أي ما أنتَ [مِنْ][8] أجِلَّتِنا وكُبَراتِنا، إنما أنتَ مِنْ أوساطِنا، [لَسْتَ][9] علينا بِعزيزٍ، لأنَّ العزيزَ عندَهُمْ مَنْ كانَ عندَهُ المالُ والدنيا، لا يَعْرِفونَ العِزَّ بِغيرِ ذلكَ، ولم يكنْ عندَ شُعَيبٍ الدنيا، لِذلكَ نَسَبوهُ إلى ما ذَكَروا[10]، أو أنتَ ذليلٌ عندَنا، لَسْتَ بعزيزٍ. فيكونُ صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: والله يرحمه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لنعقل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ذكر.

جنة السنة

[أحدهما:][1] يَحتَمِلُ: يا قومِ أرهطي أعظمُ حقاً عليكُم مِنَ اللهِ وأكثرُ حُرمَةً حتى تَركتُم ما أوعدتُموني مِنَ النَّقمَةِ لِحقِّهِمْ وحُرمَتِهِمْ؟

والثاني: قولُهُ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم﴾ أي أرهطي أشدُّ خوفاً عليكُم وأكثرُ نِكايَةً مِنَ اللهِ؛ لأنا قُلنا في قولِهِ: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَ﴾ إنهُ يُخرَّجُ على وجهَينِ؛ أحدُهما: الاحترامُ لِرَهطِهِ لِمُوافَقَتِهِمْ إياهُمْ في جَميعِ ما هُمْ عليهِ والمساعدةِ لهمْ. والثاني: على الخوفِ والنكايةِ لِقُوَّتِهِمْ وكَثرَتِهِمْ وفَضلِ بَطشِهِمْ تَركُوا ما أوعَدوا لهُ خوفاً مِنْ رَهطِهِ.

فقالَ: خوفُكُمْ مِنْ رَهطي أشدُّ وأكثرُ عليكُمْ مِنَ الخوفِ مِنَ اللهِ، وقد بَلَغَكُمْ مِنْ نِكايَةِ اللهِ ونَقمَتِهِ ما[2] حلَّ بالأُمَمِ الماضِيَةِ، أو حُرمَةُ رَهطي عندَكُمْ وحقُّهُمْ أعظَمُ مِنْ حَقِّ اللهِ وحُرمَتِهِ، وأنتمْ[3] تَعلَمونَ إحسانَهُ إليكُمْ وإنعامَهُ عليكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ أي حَمَلتُموهُ على ظَهرِكُمْ. وحَملُهُمْ إياهُ على ظَهرِهِمْ إسخاطُهُمْ إياهُ. قالَ: تقولُ العربُ: حَمَلَ الناسَ على ظَهرِهِ، أي أسخَطَهُمْ على نَفسِهِ. ولكنْ لا ندري أيُقالُ هذا، أم لا؟ فإنْ قيلَ: هذا فهو مُحتَمَلٌ ما قالَ، وهو قولُ أبي بَكرٍ الأصَمِّ.

وقالَ غيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ: قولُهُ: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ أي نَبَذتُمُ اللهَ وراءَ ظَهرِكُمْ أي نَبَذتُمْ حَقَّ اللهِ وكتابَهُ الذي أنزَلَ إليكُمْ وراءَ ظَهرِكُمْ؛ لا تَعلَمونَ بهِ، ولا تكتَرِثونَ إليهِ؛ هو كالمَنبوذِ وراءَ ظَهرِكُمْ.

هذا على التَّمثيلِ، أي جَعَلوا أمرَ اللهِ ودينَهُ الذي دُعوا إليهِ كالمَنبوذِ وراءَ ظُهورِهِمْ، لا يَنظُرونَ إليهِ، ولا يَكتَرِثونَ. وما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ [الأنفال: ٤٨] وقولِهِ: ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤] على التمثيلِ؛ أي الذي أنتمْ عليهِ في القُبحِ كالانقِلابِ على الأعقابِ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ أيضاً: أي إنَّ ربي بما تَعمَلونَ مِنَ الأعمالِ الخبيثةِ مُحيطٌ، فَيَجزيكُمْ بها، أو يقولُ: إنَّ ربِّي بما تَعمَلونَ مِنَ الكَيدِ برسولِ اللهِ والمَكرِ بهِ مُحيطٌ، فَيَنصُرُهُ عليكُمْ.

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ كونوا على دينِكُمُ الذي أنتمْ عليهِ، وأنا أكونُ على ديني كقولِهِ: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] لأنَّ قومَ شُعَيبٍ قالوا لِشُعَيبٍ: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٨] فقالَ لهمْ عندَ ذلكَ. وهذا إنما يُقالُ عندَ [الإياسِ مِنْ][5] إيمانِهِمْ كقولِهِ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ [الشورى: ١٥] وأمثالُهُ.

والثاني: قولُهُ: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ أي اعمَلوا في كَيدي والمَكرِ في هلاكي ﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ ذلكَ بكُمْ. وهو كما قالَ غيرُهُ مِنَ الرُّسُلِ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [الآية: ٥٥] وقولِهِ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] ونَحوُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ في العاقبةِ وعيدٌ ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ أو ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ في العاقبةِ مَنْ يأتي مِنّا عذابٌ يُخزيهِ، نحنُ أم[6] أنتمْ؟ مَنْ هو كاذبٌ؟ وتَعلَمونَ في العاقبةِ مَنِ الكاذبُ مِنّا، نحنُ أم[7] أنتمْ؟ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ الفريقَينِ يَدَّعي على الفريقِ الآخرِ الكَذِبَ والافتراءَ على اللهِ، فيقولُ ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ في العاقبةِ مَنِ الكاذبُ مِنّا والمُفتري على اللهِ؟ والصادقُ عليهِ ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ ارتَقِبوا هلاكي، وأنا أرتَقِبُ هلاكَكُمْ، أوِ ارتَقِبوا لِمَنِ العاقبةُ مِنّا، لنا أم[8] لكمْ، ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ هذا، قد ذَكَرنا في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ قيلَ: الصَّيحَةُ صَيحَةُ جبريلَ؛ أي هَلَكوا بِصَيحَتِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: الصَّيحَةُ اسمُ كلِّ عذابٍ، وكذلكَ الرجفَةُ. سَمَّى العذابَ بأسماءٍ مختلفةٍ، مَرَّةً صاعقةً، ومَرَّةً صَيحَةً، ومَرَّةً رَجفَةً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: في ما. (٣) في الأصل وم: وقد. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الآيس عن.
(٦) و(٧) و(٨) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ هذا أيضاً قد ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ.

قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: قولُهُ: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ في الهلاكِ ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ كما أُهْلِكَتْ ثَمودُ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما هَلَكَ بالصَّيْحَةِ. فَمِنْ ثَمَّ اخْتَصَّ ذِكْرَ ثَمودَ مِنْ بَيْنِ الأُمَمِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما [أنهُ قالَ][1] لم يُعَذَّبْ بعذابٍ واحدٍ إلّا قومُ شُعيبٍ وصالحٍ. فأمّا قومُ صالحٍ فأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مِنْ تحتِهِمْ، وقومُ شُعيبٍ مِنْ فوقِهِمْ، قالَ: فَنَشَأَتْ لهمْ سحابةٌ، فيها عذابُهُمْ، فلم يَعْلَموا، كَهَيْئَةِ الظُّلَّةِ، فيها ريحٌ. فلما رَأَوها أَتَوها يَسْتَظِلُّونَ تَحْتَها مِنْ حَرِّ الشمسِ، فسالَ عليهِمُ العذابُ مِنْ فوقِهِمْ.

فذلكَ قولُهُ: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ مِنْ رحمةِ اللهِ ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ مِنْ رَحْمَتِهِ. ويَحْتَمِلُ الهلاكَ الذي ذَكَرْنا، واللهُ أعلمُ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ واحداً[2] على التكرارِ. فإنْ كانتِ الآياتُ هي[3] الأوامِرَ والمَناهِيَ وما يُؤْتَى وما يُتَّقَى. فقولُهُ: ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ هي الحُجَجُ والبراهينُ على ذلكَ.

الآية ٩٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ المَلأَ هو اسْمُ الجماعةِ واسْمُ الأجلّةِ والأشرافِ. وهو كانَ مَبْعوثاً إلى الأشرافِ مِنْ قومِهِ وإلى الجماعةِ جميعاً؛ خَصَّ بَعْثَهُ إلى فِرْعَونَ ومَلَئِهِ، وإن كانَ مَبْعوثاً إلى الكُلِّ/ ٢٤٥ ـ ب/ لِما العُرْفُ في المُلوكِ أنهمْ إنما يُخاطِبونَ الكُبراءَ منهُمْ والأشرافَ، وإنْ كانَ المقصودُ مِنَ الخِطابِ الكُلَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو ما ذُكِرَ في حم المؤمن حينَ[4] قالَ: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [الآية: ٢٩] فأطاعوا فِرْعَونَ في قولِهِ.

يقولُ اللهُ: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي بِهُدىً. أو يقولُ: ما الأمرُ الذي عليهِ فِرْعَونُ بِرَشيدٍ، بل هو ضلالٌ.

ولكنْ عندَنا أنهمْ أطاعوا فِرْعَونَ في جميعِ أمْرِهِ ونَهْيِهِ في عبادةِ الأصنامِ وغيرِهِ، وهو ما ذَكَرْنا ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي لَيسَ بِهُدىً، بل كانَ أمرُهُ [ضلالاً؛ إذ][5] كانَ هو ضالاً مُضِلاً.

الآية ٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي صارَ قُدّامَهُمْ، وقالَ بعضُهُمْ: يَقودُ قومَهُ إلى النارِ حتى يُورِدَهُمْ إلى النارِ. ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ أي يكونُ إماماً لهمْ في الآخِرةِ، يَتَّبِعونَ أَثَرَهُ كما كانَ إمامَهُمْ في الدنيا، فاتَّبَعوهُ كقولِهِ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] وكقولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١] أخبَرَ أنهمْ يكونونَ أئِمّةً لهمْ في الآخِرةِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي دعاهُمْ في الدنيا، وأمَرَهُمْ بأمورٍ، تورِدُهُمُ النارَ، تلكَ الأعمالَ؛ ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] أي ما أصْبَرَهُمْ على عَمَلِ أهلِ النارِ. قالَ بعضُهُمْ: يَتَّبِعونَهُ حتى يدخلَهُمُ النارَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: بِئْسَ المَدْخَلُ المَدْخولُ، والوُرودُ هو الدخولُ، والمَورودُ المَدْخولُ. سَمّى الجزاءَ بِاسْمِ سَبَبِهِ.

قالَ ابْنُ عباسٍ رضي الله عنهما: جميعُ ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ الوُرودِ فهو دخولٌ منهُمْ كقولِهِ: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ وقولِهِ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] وقولِهِ: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] [وقولِهِ:][6] ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] فقالَ، واللهُ [أعلمُ:][7] لَيَرِدَنَّها كلُّ بَرٍّ وفاجرٍ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: واحد. (٣) من م، في الأصل: فهي. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل: ضلال حيث، في م: ضلالاً حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تَحتَمِلُ اللعنةُ في الدنيا العذابَ الذي نَزَلَ بهِمْ، وتَحتَمِلُ لَعْنَ الخَلائِقِ أيضاً مَنْ رآهُمْ يَلْعَنُهُمْ، ومَنْ ذَكَرَهُمْ، وفي الآخِرَةِ يَحتَمِلُ الوجهَينِ جميعاً؛ يَحتَمِلُ يُعَذَّبونَ في الآخِرَةِ أيضاً كما عُذِّبوا في الدنيا، ويَحتَمِلُ لَعْنَ الخَلائِقِ أيضاً: مَنْ رآهُمْ، [يَلْعَنُهُمْ](١).

واللَّعْنُ هو الطَّرْدُ في اللغةِ؛ طُرِدوا مِنْ رحمةِ اللهِ، ولم يُرْحَموا في عذابِ الدنيا، ولا يُرْحَمونَ في عذابِ الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ [رضي الله عنه أنهُ قالَ:](٢) ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ يقولُ: لعنةُ الدنيا والآخِرَةِ. قالَ قَتادةُ: ترادَفَتْ عليهِمْ لَعْنَتانِ مِنَ اللهِ لَعْنَةُ الدنيا ولَعْنَةُ الآخِرَةِ، ولكنْ [على](٣) زعْمِهِمْ بِحَيثُ أنْ يُقالَ: الرِّدْفُ مِنَ الترادُفِ، وقالَ بعضُهُمْ: الرِّدْفُ العَونُ، وهو قولُ القُتَبيِّ. وقالَ القُتَبيُّ: الرِّفْدُ العَطيَّةُ والمَرفودُ المُعْطَى؛ يقالُ: رَفَدْتُهُ إذا أعطيتُهُ، وأعَنْتُهُ، كما يُقالُ: بئسَ العطاءُ المُعْطَى. ولذلكَ قالَ أبو عَوسَجَةَ: بئسَ ما أُعْطُوا، وأُعِينُوا، وبئسَ المُعْطَى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ ذلكَ ما سَبَقَ مِن ذِكْرِ القُرَى والقرونِ(٤) في هذهِ السورةِ مِنْ أنباءٍ نَقُصُّهُ عليكَ لِتُعْلِمَ بها رسالَتَكَ، ولتكونَ آيةَ لِنُبُوَّتِكَ لأنكَ لم تُشاهِدْها، ولا اختَلَفْتَ(٥) لأحدٍ منهمْ، فَتَعَلَّمْتَ منهمْ، ولا كانَتِ الكتبُ بلسانِكَ، فيقولونَ: نظَرْتَ فيها، فأخَذْتَ ذلكَ منها، ثم أنْبَأتَ على ما كانَ، وقَصَصْتَ عليهِمْ لِتُعْلِمَ أنكَ إنما عَرَفْتَ باللهِ، فتكونَ آيةً لرسالَتِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ههنا قائمٌ تَرَى [مكانَهُ، وتَنْظُرُ إليهِ، ومنهُ](٦) حَصيدٌ لا تَرَى لهُ أثراً ولا مكاناً. وقالَ بعضُهُمْ: قائمٌ أي خاويةٌ على عُروشِها، وحصيدٌ مُسْتَأصَلَةٌ.

وعنِ الحَسَنِ [أنهُ](٧) قالَ: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ﴾ وما حَصَدَ اللهُ أكثَرُ؛ أي ما أهلَكَ اللهُ مِنَ القُرَى أكثَرُ.

وأصلُهُ عندَنا: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ﴾ نَحْوُ قُرَى عادٍ وثَمودَ ومَدْيَنَ؛ أهلَكَ أهلَها، وبَقِيَتِ القُرى لأهلِ الإسلامِ؛ لأنهُ يقولُ في قُرَى عادٍ: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ الآيةَ [الأحقاف: ٢٥]. ومنها حصيدٌ ما أهْلَكَ أهلَها والقُرى جميعاً نَحْوُ قومِ نوحٍ أُهْلِكوا بِبُنيانِهِمْ ونَحْوُ قرياتِ قومِ لُوطٍ أُهْلِكَتْ بأهلِها أيضاً حتى لم يَبْقَ لا الأهلُ ولا البُنيانُ. فذلكَ، واللهُ أعلَمُ تأويلُ قولِهِ: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ﴾ هَلَكَ أهلُها، وبَقِيَ البُنيانُ ﴿وَحَصِيدٌ﴾ هو ما أُهْلِكَ البُنيانُ بأهلِهِ حتى لم يَبْقَ لهُ(٨) أثرٌ.

وفيهِ وجوهٌ ثلاثةٌ:

أحَدُها: [أنهُ](٩) آيةُ الرسالةِ.

[والثاني: أنهُ](١٠) عِبْرَةٌ لأهلِ التَّقْوى، وهو ما ذَكَرَ في آخِرِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣].

[والثالثُ: أنهُ زَجْرٌ](١١) لأهلِ الشِّرْكِ والكُفْرِ لأنهمْ يَذْكُرونَ ما نَزَلَ بأولئكَ، فَيَنْزَجِرونَ عن صَنيعِهِمْ فيهِ. هذهِ الوجوهُ التي ذَكَرَها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ قولُهُ(١٢) ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ فيهِ وجهانِ:

أحَدُهُما(١٣): لم يَظْلِمْهُمْ لأنهمْ وبُنيانُهُمْ مُلْكُ اللهِ تعالى، وكلُّ ذي مُلْكٍ لهُ أنْ يُهْلِكَ مُلْكَهُ، ولا يُوصَفُ بالظُّلْمِ مَنْ أتْلَفَ مُلْكَهُ. وهمْ ظَلَموا أنفسَهُمْ [وهي](١٤) ليسَتْ لهمْ في الحقيقةِ، وكذلكَ بُنيانُهُمْ، ومَنْ أتْلَفَ مُلْكَ غيرِهِ فهو ظالِمٌ.

والثاني: أنَّ الظلمَ وَضْعُ الشيءِ [في](١٥) غيرِ موضِعِهِ. يقولُ: وما ظَلَمْناهُمْ بالعذابِ؛ إذْ يَسْتوجبونَ ذلكَ بما ارْتَكَبوا،

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) المقصود قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [الآية: ١١٦]. (٥) في الأصل وم: اختلف. (٦) في الأصل وم: مكانها وتنظر إليها ومنها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لها. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: وزجراً. (١٢) في الأصل وم: وقوله. (١٣) في الأصل وم: أي. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

فلم نَضَعِ العذابَ في غَيرِ موضِعِهِ، بل هُمُ الذينَ وَضَعُوا أنفُسَهُمْ في غَيرِ مَوضِعِها حينَ[1] صَرَفُوها إلى غَيرِ مالِكِها، وَعَبَدُوا غَيرَهُ، فهو ظُلمٌ. هذا التأويلُ في أنفسِهِمْ. وأمّا البُنيانُ فهو أنهُ إذا جعلَهُ لهمْ، فإذا هَلَكوا هُمْ أَهلَكَ ما جُعِلَ لهمْ، إنما أبقى لهمْ ما داموا. فأمّا إذا بادوا هُمْ فلا مَعْنى لإبقاءِ البُنيانِ.

وما ذَكَرَ مِنْ ظُلمِهِمْ أنفسَهُمْ يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: ظَلَموا أنفُسَهُمْ بِعِبادَتِهِمْ غَيرَ اللهِ.

والثاني: ظَلَموا أنفسُهُمْ بِصَرْفِهِمُ الناسَ وصَدِّهِمْ عَنْ سبيلِ اللهِ عن عبادةِ اللهِ وتوحيدِهِ إلى عبادةِ غَيرِ اللهِ.

والثالثُ: ظَلَموا أنفُسَهُمْ بسؤالِهِمُ العذابَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ في هذا وجهانِ:

أحدُهما: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى﴾ عَبَدوها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي عذابُ ربِّكَ كقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ الآية [الزمر: ٣] يُخبِرُ أنَّ عبادَتَهُمُ الأصنامَ لا تنفعُهُمُ المَنفَعَةَ التي طَمِعوا.

والثاني: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ أنفسُ آلهتِهِمْ في دفعِ العذابِ عنهُمْ في أحْوَجِ حالٍ إليها لِعَجْزِهِمْ في أنفسِهِمْ وضَعْفِهِمْ كقولِهِمْ: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فإذا لم يَمْلِكوا ذلكَ في وقتِ الحاجةِ إليهِمْ فكيفَ يَمْلِكونَ في غيرِهِ مِنَ الحالِ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ يَحتَمِلُ ما زادتْ[2] عبادَتُهُمْ إيّاها غيرَ تتبيبٍ، أو ما زادتْ[3] آلهتُهُمُ التي عَبَدوها غيرَ تَتبيبٍ. والتَّتبيبُ: قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: هو التَّخسيرُ. وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ غيرَ فسادٍ، والتَّتبيبُ الفَسادُ. وكذلكَ قالَ في قولِهِ: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧] أي فسادٍ وقالَ غيرُهُ: إلّا في خسارٍ. وقالَ غيرَ تَخسيرٍ، وكذلكَ قالوا في قولِهِ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] أي خَسِرَتْ. وقالَ أبو عُبَيدَةَ: ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ غيرَ تَدميرٍ وأهلاكٍ، وكذلكَ قالوا في قولِهِ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] وكذلكَ قالوا في [قولِ الناسِ][4] تبّاً لَكَ. وقالَ بعضُهُمْ: غيرَ شَرٍّ، والتَّتبيبُ الشَّرُّ، والتَّبُّ الشَّرُّ والخُسرانُ، وهما واحدٌ.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي هكذا يأخُذُ/ ٢٤٦ ـ أ/ كُفّارَ هذهِ الأُمَّةِ كما أخذَ أولئكَ؛ أي كما عذَّبْنا الأُمَمَ الخاليةَ، وهي ظالمةٌ مُشركةٌ كافرةٌ، كذلكَ عذابُ[5] هذهِ الأُمَّةِ، لَيسَ[6] فيهِ رحمةٌ ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ إنَّ أخذَهُ بالعذابِ أليمٌ شديدٌ. الأخذُ نَفسُهُ يوصَفُ بالشِّدَّةِ، ولكنْ لا يُوصَفُ بالألمِ، والعذابُ يُوصَفُ بالألمِ والشِّدَّةِ. دلَّ أنَّ الأخذَ أخذٌ بعذابٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ هو ما ذَكَرْنا؛ فيهِ عِبرَةٌ لأهلِ التَّقوى ولِمَنْ خافَ عذابَ الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ خصَّ الناسَ بالذِّكْرِ، وإنْ كانَ الجَمْعُ لهمْ ولِغَيرِهِمْ؛ لأنَّ الآيةَ التي ذَكَرَ تكونُ لهمْ آيةً أو لِما هُمُ المَقصودونَ بالجمعِ وبذلكَ اليومِ، واللهُ أعلَمُ.

قيلَ: يُجمَعُ فيهِ الأوّلونَ والآخرونَ ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: يَشْهَدُهُ أهلُ السماءِ وأهلُ الأرضِ لِلعَرْضِ والحِسابِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي ما نُؤَخِّرُهُمُ العذابَ مِنْ هذهِ ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ وذَكَرَ هذا، واللهُ أعلَمُ، جوابَ ما استَعجَلوهُ بقولِهِمْ: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: زاد. (٣) في الأصل وم: زاد. (٤) في الأصل وم: قوله. (٥) في الأصل: العذاب، في م: نعذب. (٦) في الأصل وم: و.

جنة السنة

ونَحْوِه. فقالَ: وما نؤخِّرُ العذابَ عنهُمْ إلّا لأجَلٍ مَعْدودٍ، إلّا لِوَقْتٍ مَوقوفٍ، أي لأجلٍ معدودٍ عندَ اللهِ. ولو كانَ ما ذَكَرَ ابْنُ عباسٍ أنهُ سَبْعةُ آلافٍ، فيكونُ مَعْدوداً عندَ الناسِ، ويكونُ وقتُ القيامةِ مَعْلوماً على قولِهِ، وقد أخْبَرَ: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي لا تَكَلَّمُ نفسٌ بالشفاعةِ لأحدٍ إلّا بإذنِهِ كقولِهِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] لا تكَلَّمُ نفسٌ لأهوالِ ذلكَ اليومِ ولِفَزَعِهِ كقولِهِ: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] وكقولِهِ[١]: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [عم: ٣٨]، أو ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ مِنَ الأجِلّةِ والعظماءِ لأحدٍ مِنْ دونِهِمْ بالشَّفاعةِ ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فمنهُمْ شَقِيٌّ بأعمالِهِ[٢] الخبيثةِ التي إذا اختارَها، وعَمِلَها، أدخلَتْهُ النارَ، ومنهُمْ سَعيدٌ بما أُكْرِمَ مِنَ الطاعةِ والخَيراتِ التي إذا اختارَها، وعَمِلَها، أدخلَتْهُ الجنةَ. وكلُّ عَمَلٍ يَعْمَلُ، فَيُدْخِلُهُ الجنةَ، فهو سعيدٌ. وكلُّ عملٍ يَعْمَلُ، فَيُدْخِلُهُ النارَ، فهو شَقِيٌّ بِهِ.

رُوِيَ في ذلكَ خَبَرٌ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «روِيَ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه لَمّا نَزَلَتْ هذِهِ الآيةُ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [أنهُ قالَ][٣]: سألتُ النَّبِيَّ ﷺ فقُلْتُ يا نَبِيَّ اللهِ فَعَلامَ[٤] نَعْمَلُ؟ على شَيْءٍ قد فُرِغَ منهُ أو شيءٍ لم يُفْرَغْ منهُ؟ قالَ: بل على شَيْءٍ قد فُرِغَ منهُ، وجَرَتْ بِهِ الأقلامُ يا عُمَرُ، ولكنْ كلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لهُ» [مسلم ٢٦٤٩] فإنْ ثَبَتَ فهو يدلُّ لِما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ﴾ لِما ذَكَرَ[٥] ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الزفيرُ هو كَزَفيرِ الحِمارِ في الصَّدْرِ، وهو أوَّلُ ما يَنْهَقُ، وأمّا الشَّهيقُ فهو كَشهيقِ الحمارِ في الحَلْقِ، فهو آخِرُ ما يَفْرَغُ مِنْ نَهيقِهِ، فهو شَهيقٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: الزفيرُ هو مالا يُفْهَمُ منهُ شَيْءٌ، إنما هو كالأنينِ والجَزَعِ مِنْ شَيْءٍ يُصيبُهُ، لا يُتَبَيَّنُ منهُ، كقولِهِ: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] والشهيقُ هو ما يَرْتَفِعُ منهُ الصوتُ، يُسَمَّى شَهيقاً.

ويَحْتَمِلُ ما ذُكِرَ مِنَ الزَّفيرِ والشَّهيقِ أنهمْ يَصيرونَ بعدَ كَثْرَةِ دعائِهِمْ وندائِهِمْ حتى يكونَ منهُمُ الزفيرُ والشَّهيقُ لا يُفْهَمُ كَصَوتِ الدوابِّ إذا أصابَها ألَمٌ.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ عنِ الحَسَنِ [أنهُ][٦] قالَ: ما دامتِ السمواتُ والأرضُ تُبَدَّلُ وتُبَدَّلُ، كقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ [الفرقان: ٢٥] [وقولِهِ][٧]: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقولِهِ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ونَحْوُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ إنما [هو][٨] صِلَةُ الكلامِ؛ كأنهُ قالَ: خالدينَ فيها إلّا ما شاءَ ذلكَ. وقد يُتَكَلَّمُ بِمِثْلِ هذا على الصِّلَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: يدومُ لهمُ العذابُ أبداً ما دامَتِ السمواتُ والأرضُ [لأهلِ الدنيا ما داموا فيها لأنهما إنما يَفْنَيانِ بَعْدَ فناءِ أهلِهِما، وبَعْدَ إحياءِ الأهلِ والبعثِ، فأخْبَرَ أنَّ العذابَ يَدومُ لهمْ كما تدومُ لأهلِ الدنيا السماءُ والأرضُ][٩] وقالَ بعضُهُمْ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي ما دامَتْ سَماءُ الجنّةِ وأرضُ الجنّةِ وسَماءُ النارِ وأرضُ النارِ لكنْ ذَكَرَ هذا لِئَلّا يَتَوَهَّمَ أهلُ الجنةِ والنارِ قَبْلَ هلاكِ سَمائِها وأرضِها على ما يُتَوَهَّمُ هلاكُ أهلِ الدنيا قبلَ هلاكِ سمائها وأرضِها.

وقالَ بعضُهُمْ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي ما دامَتِ الأرضُ أرضاً والسماءُ سَماءً يَتَكَلَّمونَ على ما بَعُدَ مِنْ أوهامِهِمْ فَناؤها أو على الصلةِ؛ يقولُ الرجلُ لآخَرَ: لا أُكَلِّمُكَ ما دامَ الليلُ والنهارُ، أي أبداً.

هذا تأويلُ قولِهِ: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: بأعمال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فعلى من. (٥) في الأصل وم: ذكرنا. (٦) و(٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) و(٩) ساقطة من م.

جنة السنة

وأمَّا قولُهُ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [فقد][1] قالَ بعضُهُمْ: إنَّ ناساً مِنْ أهلِ التوحيدِ يُعَذَّبونَ في النارِ على قَدْرِ ذنوبِهِمْ وخطاياهُمْ، ثم يُخرَجونَ منها.

وقد رُوِيَ في ذلكَ، رُوِيَ عن أبي سعيدِ الخُدْريّ وأبي هُرَيْرَةَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: «الإستِثناءُ في الآيتَينِ كِلْتَيهما لأهلِ الجنةِ» [البيهقي في البعث والنشور٦٠٤] يعني الذينَ يُخرَجونَ مِنَ النارِ مِنْ أهلِ التوحيدِ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ يقولُ: لم يَشقَوا شَقاءَ مَنْ يَخلُدُ في النارِ قالَ في الذينَ سَعِدوا ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هم أولئكَ الذينَ لم يَنالوا مِنَ السعادةِ ما نالَ أهلُ الجنةِ الذينَ لم يدخُلوا النارَ.

وفي بعضِها عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «أمّا مَنْ يُريدُ اللهُ إخراجَهُ مِنَ النار فإنهمْ يُماتونَ إماتةً» وقالَ في خَبَرٍ آخَرَ: «أمّا مَنْ يُرِدِ اللهُ لهُ الخلودَ فلا يُخرَجُ منها» [بنحوه عن ابن عباسٍ: البيهقي في البعث والنشور٦٠٦] وأمثالُ هذا مِنَ الأخبارِ. فإنْ ثَبَتَ هذا فهو المُعْتَمَدُ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أي قد شاءَ لأهلِ النارِ الأبَدَ والخُلودَ، وشاءَ لِأهلِ الجنَّةِ ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود: ١٠٨] أي غَيرَ مُنقَطِعٍ. ويُؤيِّدُ هذا التأويلَ ما ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ وأُبَيِّ [بْنِ كَعْبٍ][3] ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ في الآيتَينِ، وفي الأولى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ وفي الأخرى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ وأُبَيٍّ[بْنِ كَعْبٍ][4] أنهما لم يَذْكُرا[5] الثُّنْيا في أهلِ الجَنَّةِ.

وأصلُ هذا ما ذَكَرَ أبو عُبَيدٍ؛ قالَ: الإستِثناءُ الذي هو في أهلِ السعادةِ فهو المُشكِلُ لأنهُ يُقالُ: كيفَ يَستَثْني، وقد وَعَدَهُمْ خُلودَ الأبَدِ في الجنَّةِ. وقالَ في ذلكَ أقوالاً لا أدري إلى مَنْ [يُسْنِدُها؟ إلا أنَّ لها مَخارِجَ][6] في كلامِ العربِ وشواهِدَ في الآثارِ.

وإنما يَتَكَلَّمُ الناسُ في هذا على مَعاني العربيةِ، واللهُ أعلَمُ، بما أرادَ.

قالَ: فأحَدُ هذهِ الوجوهِ في الإستِثناءِفي ما يُقالُ: كالرجلِ يُوجِبُ على نَفْسِهِ الشيءَ، ثم يقولُ: إنْ شاءَ اللهُ، وعَزْمُهُ ضَميرُهُ مَعَ اسْتِثنائِهِ أنهُ فاعِلُهُ، لا يُريدُ غيرَهُ

وممّا[7] يُقَوّي هذا المذهبَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ﴾ [الفتح: ٢٧] فاستَثْنى، وقد عَلِمَ أنهمْ داخِلوهُ البَتَّةَ.

ومنهُ مارُوِيَ في حديثِ مكةَ عنِ النَّبِيِّﷺ حينَ قالَ: «ولا تَحِلُّ لُقَطَتُها إلا لِمُنشِدٍ» [البخاري ١٨٣٣] وقالَ بعضُهُمْ: استَثْنى المُنْشِدَ/ ٢٤٦ ـ ب/ ، وهي لا تَحِلُّ لهُ كما لا تَحِلُّ لِغَيرِهِ.

والوجهُ الثاني: بأنْ يكونَ إلا في معْنى سِوَى؛ فإنَّ العَرَبَ تَفْعَلُ ذلكَ، تقولُ: عليكَ ألفُ درهمٍ مِنْ قَبْلِ كذا وكذا إلا الألفَ التي قَبْلَ ذلكَ، أي سِوَى الألفِ التي قَبْلَ ذلكَ. فيكونُ المَعْنى على هذا أنهُ وَعَدَهُمْ خلودَ الأبَدِ سِوَى ما أعَدَّ لهمْ مِنَ الزيادةِ في الكَرامةِ والمَنْزِلَةِ التي لم يَذْكُرْها لهمْ.

وممّا يُقَوّي هذا التأويلَ مارُوِيَ عن نَبِيِّ اللهِ ﷺ [أنهُ][8] قالَ: قالَ اللهُ تعالى: «أعْدَدْتُ لِعِبادي الصالِحينَ ما لا عَيْنٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، بَلْهَ الذي ما أُطْلِعْتُمْ عليهِ. ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾» الآيةَ[السجدة: ١٧] [مسلم: ٢٨٢٤]. ألا تَرَى أنَّ ههنا مِنَ الزيادةِ مالم يُطْلِعْهُمْ عليهِ؟

والوجهُ الثالثُ: أنْ يكونَ الإستِثناءُ مِنْ خُلودِهِمْ في الجنةِ احْتِباسَهُمْ عنها ما بَيْنَ البَعْثِ والحِسابِ.وقد قيلَ ما ذَكَرْنا أنهُ ما بَيْنَ المَوتِ والبَعْثِ، وهو البَرْزَخُ الذي ذَكَرَ إلى أنْ يَصيروا إلى الجنةِ، ثم هو خُلودُ الأبَدِ؛ يقولُ: فلم

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يذكر (٦) في الأصل: يسند إلا لها مخارجا، في م: يسند إلا أن لها مخارجا. (٧) في الأصل وم: وهما. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

يَغيبوا عنِ الجنةِ إلا بِقَدْرِ إقامَتِهِمْ في الحِسابِ. ومِمّا يُقَوّي هذا المذهبَ ما قيلَ في قولِهِ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] قيلَ: ما بَيْنَ الموتِ والبَعْثِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ فقدِ اختَلَفَ القُرّاءُ في قراءتِها؛ قَرَأها الكِسائيُّ وحمزةُ بضمِّ السينِ: سُعِدُوا، وأمّا أبو عَمْرٍو وأهلُ المدينةِ وغيرُهُمْ مِنَ القُرّاءِ[فقد][1] قرؤوا بفتحِ السينِ[2]: سَعِدُوا على قياسِ شَقُوا. قالَ أبو عوسَجَةَ: لا أعرِفُ: سُعِدُوا بضمِّ السينِ، وإنما هو بفتحِ السينِ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي غيرَ مَقْطوعٍ كقولِهِ: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ [الأنبياء: ٥٨] أي قُطاعاً. وقد ذَكَرْنا قولَهُمْ في الزفيرِ والشهيقِ على قَدْرِ حِفْظِنا لهُ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلمُ: لا تكنْ يامحمدُ في شَكٍّ بأنَّ هؤلاءِ قد بَلَغُوا في عبادَتِهِمُ الأصنامَ والأوثانَ الحَدَّ الذي بَلَغَ آباؤُهُمْ في عبادَتِهِمُ الأصنامَ والأوثانَ، فأهلِكوا: إذْ بَلَغُوا ذلكَ الحَدَّ. فهؤلاءِ أيضاً قد بَلَغُوا ذلكَ المَبْلَغَ أي مَبْلَغَ الهلاكِ، لكنَّ اللهَ برحمتِهِ وفضلِهِ أخَّرَ عنهُمُ [العذابَ][3] إلى وقتٍ.

أو يُقالُ: إنَّ هؤلاءِ قد بَلَغُوا في العبادةِ لِغَيرِ اللهِ بَعْدَ نزولِ القرآنِ والحُجَّةِ المَبْلَغَ الذي بَلَغَ آباؤُهُمْ قبلَ نزولِ الحُجَّةِ والبرهانِ في عِبادَتِهِمْ غيرَ اللهِ.

أو كانَ [قولُهُ][4] في قومٍ قد أظهَرُوا المُوافَقَةَ لهمْ، وكانوا يَعْبُدُونَ الأصنامَ في السِّرِّ على ما كانَ يعبدُ آباؤُهُمْ، فقالَ: هؤلاءِ، وإنْ أظهَرُوا المُوافَقَةَ لكَ فقد بَلَغُوا بِصَنيعِهِمْ في السِّرِّ مَبْلَغَ آبائِهِمْ، واللهُ أعلَمُ. هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: إخبارٌ عنْ قومٍ خاصٍّ أنهُ لا يُؤمِنُ أحدٌ منهُمْ لِيَجْعَلَ شُغْلَهُمْ بِغَيرِهِمْ.

والثاني: إخبارٌ ألّا يُؤمِنَ جميعُ قومِكَ كما لم يُؤمِنْ قومُ موسى بأجمَعِهِمْ. بلْ قد آمَنَ منهمْ فريقٌ، ولم يُؤمِنْ فريقٌ، فَعَلَى ذلكَ يكونُ قومُكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ في الدنيا مِنَ الأرزاقِ، وما قُدِّرَ لهمْ مِنَ النِّعَمِ ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ ولا يُنْقِصُ ما قَدَّرَ لهمْ؛ أي لا يَهْلِكونَ حتى يُوَفَّى لهمْ.

وقالَ قائلونَ: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ بأعمالِهِمْ غيرَ مَنْقوصٍ؛ أي لا يُنْقَصونَ مِنْ أعمالِهِمْ شيئاً، ولا يُزادونَ عليهِ[5]؛ إنْ كانَ حَسَناً فَحَسَنٌ، وإنْ كانَ شَرًّا فَشَرٌّ؛ هو على الجزاءِ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ يقولُ: إنّا نُوَفّي لهمْ حظَّهُمْ مِنَ العذابِ في الآخِرَةِ ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾. عنهمْ ذلكَ العذابَ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ إنْ كانَ التأويلُ في قولِهِ: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ على الإياسِ مِنْ قومٍ، عَلِمَ اللهُ أنهمْ لا يؤمِنُونَ، فيكونُ تأويلُهُ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الآيةَ[هود: ١٥]

وإنْ كانَ الثاني فهو ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [هود ١١١]

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراةَ ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي اختُلِفَ في الكتابِ. والاختلافُ فيهِ يَحْتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً:

أحدُها: في الإيمانِ بهِ والكُفرِ؛ منهُمْ منْ آمَنَ بهِ، ومنهُمْ مَنْ كَفَرَ.

والثاني: اختَلَفوا فيهِ في الزِّيادةِ والنُّقصانِ والتَّبديلِ والتَّحويلِ والتَّحريفِ كقولِهِ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنيةج٣/ ١٣٥. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: عليهم.

جنة السنة

﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية[آل عمران:٧٨] وكقولِهِ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة:٧٩] وكقولِهِ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦] وأمثالُهُ مِنَ الآياتِ.

والوجهُ الثالثُ: مِنَ الاختِلافِ: اختِلافُهُمْ[١] في تأويلِهِ وفي معناهُ بَعْدَ ما آمنوا بهِ، وقَبِلوهُ. فالاختِلافُ في التأويلِ ممّا احتَمَلَ كتابُنا. وأمّا التّبديلُ والتّحريفُ والزيادةُ والنُّقصانُ فإنهُ لا يَحْتَمِلُ لِما ضَمِنَ اللهُ حِفْظَ هذا الكتابِ بقولِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩] وقولِهِ[٢]: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ الآية [فصلت: ٤٢] وجعلِهِ مُنْتَشِراً على ألسنِ الناسِ وقلوبِهِمْ، حتى مَنْ زادَ، أو نَقَصَ، أو بَدَّلَ، أو حَرَّفَ شيئاً، أو قَدَّمَ، أو أخَّرَ، عُرِفَ ذلكَ.

فهو، واللهُ أعلمُ، لا يَحْتَمِلُ هذا: نَسْخَها، ولا شرائِعُهُ تَبْديلَها وأمّا الكُتُبُ السالفةُ فإنما جَعَلَ حِفْظَها إليهِمْ بقولِهِ: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] فهو، واللهُ أعلَمُ، لِما احْتَمَلَ شرائِعَها وأحكامَها بنَسْخِها و تَبْديلِها، لذلكَ كانَ الأمرُ ما ذَكَرْنا قولَهُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ ذَكَرَ هذا لرسولِ اللهِ، يُصَبِّرُهُ على ما اخْتَلَفَ قومُهُ في الكتابِ الذي نَزَلَ عليهِ؛ يقولُ: وقد اختُلِفَ في ما أُنزِلَ على مَنْ كانَ قبلَكَ كما اختُلِفَ في ما أُنزِلَ عليكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بالهلاكِ هلاكَ استِئصالٍ واستيعابٍ.

وكلمتُهُ التي سَبَقَتْ تَحْتَمِلُ [وجوهاً]:

أحدُها[٣]: ما كانَ مِنْ حكمِهِ أنْ يَخْتُمَ الرسالةَ بمحمدٍ، وأنْ يَجْعَلَهُ خاتَمَ النَّبِيِّينَ، وأمّتُهُ آخِرَ الأُمَمِ؛ بهِمْ تقومُ الساعةُ؛ يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ كلمتُهُ التي ذَكَرَ هذا الذي ذَكَرْنا.

والثاني[٤]: أنْ كانَ مِنْ حكمِهِ أنهمْ إذا اختلفوا في الكتابِ والدينِ، وصاروا بحيثُ لا يَهْتَدونَ إلى شيءٍ، ولا يَجِدونَ سَبيلاً إلى الدينِ أنْ يَبْعَثَ رسولاً، يُبيِّنُ لهمُ الدينَ، ويَدْعوهمْ إلى الهُدَى؛ لولا هذا الحُكْمُ سَبَقَ، وإلا لَقَضَى بَيْنَهُمْ بالهلاكِ.

والثالثُ: لولا ما سَبَقَ منهُ أنْ يُؤَخِّرَ العذابَ عنْ هذهِ الأمّةِ إلى وقتٍ، وإلا لَقَضَى بَيْنَهُمْ بالهلاكِ.

والرابعُ[٥]: تَحْتَمِلُ الكلمةُ التي ذَكَرَ أنها سَبَقَتْ في قومِ موسى، وهو أنهُ لا يُهْلِكُهُمْ بَعْدَ الغَرَقِ إهلاكَ استِئصالٍ، والتوراةُ إنما أُنزِلَتْ مِنْ بَعْدِ[الغرقِ][٦]، وقد آمَنَ مِنْ ﴿قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية[الأعراف:١٥٩] وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ في الدينِ ﴿مُرِيبٍ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ مِنَ العذابِ ﴿مُرِيبٍ﴾ وقد ذَكَرْنا الفَرْقَ بينَ الشَّكِّ والرَّيْبِ في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ في الآخِرةِ؛ إنْ كانَ شرّاً فَشَرٌّ، وإنْ كانَ حَسَناً فَحَسَنٌ. ومَنْ قرأَ لمّا بالتشديدِ فإنهُ[٧] يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهُما: إلّا.

والثاني: لمّا أي لَمِمّا اجْتَمَعَ فيها ميماتٌ؛ طُرِحَتِ الواحدةُ، وأُدْغِمَتْ إحداهما في الأخرَى.

وقولُهُ تعالى: /٢٤٧ ـ أ/ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هو وعيدٌ.

الآية ١١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ وقالَ في مَوضِعٍ آخَرَ ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ الاستِقامةُ هو التوحيدُ، أيِ استَقِمْ عليهِ حتى تأتيَ بهِ ربَّكَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت:٣٠] على ذلكَ حتى أتوا على اللهِ بهِ.

---

(١) في الأصل وم: اختلفوا. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وتحتمل وجها آخر وهو. (٥) في الأصل وم: وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و، انظر معجم القراءات القرآنيةج٣/١٣٦ وحجة القراءات ص ٣٥١.

جنة السنة

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ بما تَضمَّنَ قولُهُ: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ لأنَّ قولَهُ: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ إقرارٌ منهُ لهُ بالرُّبوبيَّةِ، فَيَجعَلُ [المَرْءُ][1] في نَفْسِهِ وجَميعِ أمورِهِ الرُّبوبيَّةَ لِلّهِ والألوهيَّةَ لهُ، ويأتي ما يَجِبُ أنْ يُؤتَى، ويَنْتَهِي عمّا[2] يَجِبُ ما يُنْتَهى، ويَتَّبِعُ جميعَ أوامِرِهِ ونَواهِيَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾ لِرسولِ اللهِ [الذي][3] يَحتَمِلُ على تبليغِ الرسالةِ إليهِمْ. وقولُهُ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: استَقِمْ على ما ﴿أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أيضاً لِيَستَقِيموا على ما أُمِروا.

والثاني: يقولُ: امْضِ إلى ما أُمِرْتَ؛ حَرْفٌ كما يُخَرَّجُ على هذينِ الوجهَينِ [اللَّذَينِ][4] ذَكَرْنا؛ على ما أُمِرْتَ، وإلى ما أُمِرْتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ادْعوهُمْ على أنْ يَستَقِيموا على ما أُمِرُوا، ودُعُوا[5] بلسانِهِمْ ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ وقالَ بعضُهُمْ: الطُّغيانُ هو المُجاوَزَةُ عنِ الحَدِّ الذي جُعِلَ لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا وعيدٌ.

الآية ١١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ قالَ الحَسَنُ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ قالَ الحَسَنُ: بَيْنَهما دينُ اللهِ؛ بَيْنَ الرُّكونِ إلى الظَّلَمَةِ والطُّغيانِ في النعمةِ.

الآيةُ، وإنْ كانَتْ في أهلِ الشِّرْكِ، فهيَ فيهِمْ، وفي غَيرِهِمْ مِنَ الظَّلَمَةِ؛ إنَّ كلَّ مَنْ رَكَنَ إلى الظَّلَمَةِ، يُطيعُهُمْ، أو يَوَدُّهُمْ، فهو يُخَوَّفُ[6] أنْ يكونَ في وعيدِ هذهِ الآيةِ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ في دفعِ العذابِ عنكُمْ[7] أو إحداثِ نَفْعٍ لكُمْ[8] ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ لا ناصِرَ لكُمْ[9] دونَهُ، ولا مانِعَ، واللهُ أعلَمُ.

وتأويلُ قولِهِ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ في ظُلْمِهِمْ وفي ما يدعونَكُمْ إليهِ ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ الآية.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: نَزَلَ قولُهُ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ في رسولِ اللهِ حينَ دعاهُ أهلُ الشركِ، ولا تَلْحَقوا بهِمْ.

الآية ١١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ ظاهِرُ هذا أن يكونَ [في ما][10] ذِكْرَ صَلَواتٍ ثلاثٍ: صلاةُ الفَجْرِ في الطَّرَفِ الأوَّلِ، وصلاةُ العَصْرِ في الطَّرَفِ الأخيرِ، ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ صلاةُ المَغْرِبِ، لأنهُ ذَكَرَ زُلَفاً مِنَ اللَّيلِ، والزُّلَفُ القُرَبُ، لأنَّ الزُّلْفَةَ، هي القُرْبَةُ والوَسيلةُ، ويكونُ[11] قولُهُ ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي قريباً مِنْ طَرَفِ النهارِ [وقريباً مِنْ طَرَفِ][12] الليلِ، وهو المَغْرِبُ.

ويكونُ ذِكْرُ سائِرِ الصلواتِ في قولِهِ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] ذَكَرَ دُلوكَ الشمسِ إلى غَسَقِ الليلِ، ذَكَرَ دُلوكَ الشمسِ، وهو زوالُ الشمسِ، وغَسَقَ الليلِ، [وهو][13] العِشاءُ، أو في قولِهِ ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ و١٨].

﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ صلاةُ العَصْرِ و ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاةُ الفَجْرِ ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاةُ العِشاءِ ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ صلاةُ الظُّهرِ. ولَيسَ لِصلاةِ المَغرِبِ ذِكْرٌ في الآيةِ، لكنها ذُكِرَتْ في قولِهِ ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾

وقالَ بَعْضُهُمْ ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاتٌ مِنَ الليلِ. إلا أنَّ بَعْضَ أهلِ التأويلِ صَرَفوها إلى الصَّلَواتِ الخمسِ، وقالوا: قولُهُ: ﴿طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ﴾ صلاةُ الصُّبْحِ والظُّهرِ[14] والعَصْرِ ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ صلاةُ المَغرِبِ والعِشاءِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ما. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وادوا. (٦) في الأصل وم: يخاف. (٧) في الأصل وم: عنهم. (٨) في الأصل م م: لهم. (٩) في الأصل وم: لهم. (١٠) من م، في الأصل: فيها. (١١) في الأصل وم: ليكون. (١٢) في الأصل وم: من. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقالَ الحَسَنُ: هما زُلفتانِ مِنَ الليلِ صلاةُ المَغرِبِ والعِشاءِ. على ذلكَ جاءتِ الآثارُ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الحَسناتُ هي الصَّلَواتُ الخَمسُ. «ورُوِيَ أنَّ رجلاً أصابَ مِنِ امْرَأةٍ كلَّ شيءٍ إلّا الجِماعَ، فَنَدِمَ على ذلكَ، فأتى رسولَ اللهِ، فسألَهُ، فقالَ رسولُ اللهِ: ما أدري ما أرُدُّ عليكَ حتى يأتيَ فيكَ شيءٌ مِنَ اللهِ. قالَ فبينما هما[1] كذلكَ إذ حضرَتِ الصلاةُ، فلما فرَغَ مِنْ صلاتِهِ نزَلَ عليهِ جبريلُ، فقالَ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ غَدْوةً وعَشِيَّةً: صلاةَ الغَداةِ والظُّهرِ والعَصرِ ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ صلاةَ المَغرِبِ والعِشاءِ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يعني الصَّلَواتِ الخَمسَ ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ قالَ: توبةً للتائبِ، فقَرَأَ رسولُ اللهِ ﷺ، فقالَ عمرُ: يا رسولَ اللهِ. أخاصٌّ لهُ، أم عامٌّ؟ قالَ: لا بلْ عامٌّ للناسِ كُلِّهِمْ» [ابن حبان: ١٧٣٠] فإنْ ثَبَتَ هذا فهو الأصلُ في ذلكَ.

وعنْ عثمانَ في بَعْضِ الأخبارِ أنهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «الصَّلَواتُ الخمسُ الحَسناتُ ﴿يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فقالوا: فما الباقياتُ الصالحاتُ يا عثمانُ؟ فقالَ: لا إلهَ إلّا اللهُ وسُبْحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلّا اللهُ، واللهُ أكبرُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلّا باللهِ العَلِيِّ العظيمِ» [أحمد١/ ٧١].

وعنْ أبي هُرَيرَةَ [أنهُ][2] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «الصلواتُ كَفّارَةٌ للخَطايا، واقْرَؤوا إنْ شِئْتُمْ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾» [بنحوه عن أنس: أبو نعيم في الحلية ٩/ ٢٥٠]

وعنِ ابْنِ عباسٍ [في قولِهِ][3] ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [أنهُ][4] قالَ: الصلواتُ الخَمسُ. وعنْ جابرٍ [أنهُ][5] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الصلواتِ الخَمسِ كَمَثَلِ نَهرٍ جارٍ على بابِ أحدِكُمْ يَغْتَسِلُ منهُ كلَّ يومٍ خَمسَ مراتٍ» [مسلم ٦٦٨] والأخبارُ في هذا كثيرةٌ.

وقالَ بعضُهُمْ: فيهِ ذِكْرُ أربعِ صلواتٍ؛ يقولُ: ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ الفجرُ والعَصرُ ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ المَغرِبُ والعِشاءُ. وقد جاءتِ الآثارُ في أنَّ الحَسَناتِ هُنَّ[6] خَمسُ صَلَواتٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: فِعْلُ الصلواتِ نَفْسِها، وهو ما ذَكَرْنا مِنَ الأخبارِ إنْ ثَبَتَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَفْسُ الصلاةِ لاتُكَفِّرُ، ولكنْ تُذَكِّرُ ما ارْتَكَبَ مِنَ الذنوبِ، فَيَندَمُ عليها، فذلكَ يُكَفِّرُ، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٥]؛ أخبَرَ أنَّ الصلاةَ تنهى، ولا تَنْهى إلّا بَعْدَ أن تُذَكِّرَ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ أي ما دامَ فيها. ويَحتَمِلُ قولُهُ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الصَّلَواتِ وغيرَها مِنَ الحَسَناتِ، وفيهِ[7] إخبارٌ أنَّ مِنَ الحَسَناتِ [ما][8] تُكَفِّرُ شيئاً مِنَ السَّيِّئاتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ ذلكَ الذي سَبَقَ ذِكْرُهُ[9] ذِكرى: عِظَةٌ لِلْمُتَّقينَ.

الآية ١١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ظاهِرُ ما ذَكَرَ مِنَ الكلامِ أنْ يقولَ: فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ الصابِرينَ لأنهُ ذَكَرَ الصَّبْرَ بقولِهِ: ﴿وَٱصْبِرْ﴾.

لكنْ يَحْتَمِلُ قولُهُ الصَّبْرَ مِنَ الشُّرورِ كُلِّها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بل يَجْزيهِمْ جَزاءَ حَسَناتِهِمْ. أو يقولُ: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على أداءِ ما كُلِّفْتَ مِنَ الطاعاتِ أو تبليغِ ما كُلِّفْتَ [مِنَ][10] التبليغِ إليهِمْ.

ويَحتَمِلُ وجهاً آخَرَ: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على أذاهُمْ، ولا تُكافِئْهُمْ، [فقد أحْسَنْتَ إليهِمْ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ويَصِلُهُ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: هم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: من. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ذكرها. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

قالَ أبو عوسَجَةَ: قولُهُ: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ ساعاتٍ مِنَ الليلِ، وقالَ: الزُّلَفُ القُرْبةُ، والزُّلْفةُ القُرْبَةُ كقولِهِ تعالى][1]: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ [ص: ٢٥و٤٠] أي القُرْبى[2].

وقالَ أبو عُبَيدةَ: الزُّلَفُ [مُفْرَدُها][3] زُلْفَةٌ، وهي الساعةُ، وهي المَنزِلَةُ.

الآية ١١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ظاهِرُ هذا يُخرَّجُ على المُعاتَبَةِ والتَّنبيهِ/ ٢٤٧ ـ ب/ والتَّذْكيرِ لأنهُ يقولُ: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ أي لِمَ لا يكونُ[4] كذا؟ فَلَيسَ ثَمَّ مِن أولئكَ مَنْ يُعاتَبُ أو يُنَبَّهُ. لكنها تُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ﴾ أي فَهَلّا كانوا ذوي بَقِيّةٍ ﴿يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معناهُ، واللهُ أعلمُ، هَلّا كَثُرَ أهلُ الإسلامِ فيهِمْ حتى يَقْدِرُوا على النَّهْيِ عَنِ الفسادِ في الأرضِ؛ لأنهمْ إذا كانوا قليلاً لم يَقْدِروا على النَّهْيِ عنِ الفسادِ، نَحْوَ لوطٍ وأهلِهِ، كانوا عَدَداً قليلاً، كيفَ كانَ يَقْدِرُ على النَّهْيِ عَنِ الفسادِ أو المَنْعِ عنْ ذلكَ؟ وكَنوحٍ أيضاً كانَ معهُ [نفرٌ قليلٌ][5] عَدَدُهُمْ، لم يَقْدِرْ على مَنْعِ قومِهِ عَنِ الفسادِ، ونَحْوَهُ.

فإذا كانَ فكانَهُ، واللهُ أعلمُ، يقولُ: هلا كَثُرَ أهلُ الإسلامِ ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؟

والثاني: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي قد كانَ منهمْ أولو بَقِيّةٍ، لكنهُمْ لم يَنْهَوا عنِ الفسادِ في الأرضِ، فأُهْلِكوا جميعاً ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ﴾ وذلكَ القليلُ قد نَهَوا عَنِ الفسادِ في الأرضِ؛ فيجوزُ بَينَ أولئكَ حاصلُ هذا [القليلِ][6] يُخرَّجُ على هذينِ الوجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْناهما:

[أحَدُهما][7]: لم يكنْ منهمْ ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ﴾ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ.

والثاني: كانَ فيهِمْ أُولو بَقِيّةٍ، لكنهُمْ لم يَنْهَوهُمْ عنِ الفسادِ في الأرضِ إلّا قليلاً منهُمْ فإنهمْ قد نَهَوهُمْ عن ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾ هو يُخرَّجُ [على وجهَينِ:

أحَدُهما][8]: يَحتَمِلُ ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ الأتباعُ والسَّفَلَةُ الذينَ ظَلَموا مَنْ أُتْرِفوا فيهِ مِنَ الأموالِ؛ أي [وَسَّعُوا عليهِمْ][9]، وأعطوهُمُ الأموالَ، وهُمُ الأجِلّةُ والأئِمّةُ منهُمْ؛ أي آثَروا اتِّباعَ الأئمّةِ والأجِلّةِ الذينَ أُتْرِفوا فيهِ على اتِّباعِ الرسُلِ والأنبياءِ.

والثاني: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وهمُ الأجِلّةُ والأئِمّةُ ﴿مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾ أي أعطوا مِنَ الأموالِ، آثَروا الدنيا وما فيها على اتّباعِ الرسُلِ والأنبياءِ.

على أحدِ التأويلَينِ يَرْجِعُ إلى السَّفَلَةِ والأتباعِ، وهو الأوّلُ. والثاني إلى الأجِلّةِ والأئِمّةِ، وهم آثَروا اتّباعَ الدنيا على اتّباعِ الرسلِ، ثم تَبِعَهُمُ الأتباعُ والسَّفَلَةُ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ أي ما كانَ ربُّكَ لِيُهْلِكَ القُرى إهلاكَ اسْتِئصالٍ وانْتِقامٍ، وأهلُها كُلُّهُمْ مُصْلِحونَ. إنما نُهْلِكُ القرى إذا كانَ أهلُها كلُّهُمْ مُفْسِدينَ، أو عامّةُ أهلِها مُفْسِدينَ.

هذا يدلُّ أنَّ الحُكْمَ في الدارِ إنما يكونُ بِغَلَبَةِ أهلِها، إنْ كانَ أكثرُ أهلِها أهلَ الإسلامِ، فالحُكمُ حُكْمُ الإسلامِ وإنْ كانَ عامّةُ أهلِها أهلَ الحربِ والكُفرِ، فالحُكمُ[10] حُكمُهُمْ، ولا يُسَمّى أهلُها كُلُّهُمْ بالكفرِ والفسادِ إذا كانَ أكثَرُ أهلِها مصلِحينَ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ في قومِ لوطٍ ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؟ [العنكبوت: ٣٤] سَمّى أهلَ قريةٍ، وإنْ كانَ فيها لوطٌ، وأهلُهُ مُصْلِحونَ، لم يَعُدْ لوطٌ وأهلُهُ مِنْ أهلِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ﴾ أي لا يكونُ في إهلاكِهِمْ ظالماً. ثم يُخرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: القربة. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يكونوا. (٥) في الأصل وم: يقل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في م: وجهين، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: وسع إليهم. (١٠) في الأصل وم: والحكم.

أحدُهما: أنَّ الخَلْقَ لهُ، فهو بإهلاكِهِ لم يكُنْ ظالماً لأنهُ أهلكَ مالَهُ. والثاني: أنهُ إنما يُهلِكُهُمْ بظُلْمٍ كانَ منهُمْ كقولِهِ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨].

الآية ١١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قالتِ المُعتزِلَةُ: هذهِ المَشيئةُ مَشيئةُ القَهْرِ والقَسْرِ، وذلكَ ممّا يَدفَعُ المِحْنَةَ، وتزولُ لَدَيهِ المَثوبَةُ والعقوبَةُ، وكذلكَ في قولِهِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وأمّا عندَنا فلو شاءَ لَجَعَلَهُمْ أمّةً واحدةً مَشيئةً لا تزولُ مَعَها المِحْنَةُ. والذي يدلُّ عليهِ خِصالٌ:

أحدُها: أنَّ اللهَ قد عرَّفَنا الإيمانَ والدينَ الذي يَقَعُ بهِ اجْتِماعٌ، أو فيهِ الاخْتِلافُ بما ركَّبَ فينا مِنَ العقولِ التي بها تُعرَفُ حَقائِقُ الأشياءِ ومُجازاتُها ومَحاسِنُ الأمورِ وقُبحُها بمعونَةِ السَّمْعِ أو بالتأمُّلِ في ما يَحسُنُ بالأمْرَينِ جميعاً، أنهُ[1] لا يكونُ إلّا بالاخْتِيارِ، ولا يُوصِلُ إلى السببِ الذي بهِ يُدانُ إلّا بالاسْتِدْلالِ أوِ التَّعليمِ؛ إذْ هو طاعةٌ وتَصديقٌ، وذلكَ يكونُ ممَّنْ لا يُحْسِنُ، وطريقُهُ الاجْتِهادُ وكُلُّ ذي أضدادِ القَسْرِ.

فَمُحالٌ أنْ يعودَ الكونُ، لو شاءَ، على وجهٍ قد عرَّفَنا أنهُ لا يكونُ سَمْعاً وعقلاً. فيكونُ في الحقيقةِ كأنهُ قالَ لو شاءَ أنْ يكونَ لا يكونُ. على أنَّ ذا مَنْ يُقبَلُ عنهُ هذهِ الدَّعْوى على قولِهِمْ، وهو منذُ كانَ الخَلْقُ بَيَّنَ أنْ كانَ في ما شاءَ إثباتَهُ مِنْ أفعالِ الخَلْقِ، فلم يكُنْ، ولم يَشَأْ، فكانَ عندَهُمْ. فهو كَمَنْ ظَهَرَ عَجزُهُ بجميعِ أدِلّةِ العَجزِ، ثم يَدَّعي أنَّ لهُ القدرةَ؛ بها يَقهَرُ ما يَشاءُ. فذلكَ كَمَنْ لا يقومُ لِلانْتِصابِ والنُّهوضِ، فَيَدَّعي أنهُ يَقدِرُ على الصُّمودِ، أو مَنْ لا يَملِكُ إمساكَ مِثْلِ ذَرَّةٍ، أنهُ مُمسِكُ السمواتِ والأرضَ.

على أنهُ لو كانَ كذلكَ لَيَجيءُ أنْ يكونَ يَقدِرُ على فِعْلِ الكُفرِ والسَّفَهِ والكَذِبِ؛ إذ مَنْ يَقدِرْ على فِعْلِ شيءٍ، لا يَقدِرْ على فِعْلِ ضِدِّهِ عِندَهُمْ، ليسَ ذلكَ بِقُدرَةٍ.

ثم لو كانَ ذلكَ كلُّهُ بلاءً غيرَ تَصْييرٍ لهُ فِعلاً، لَكانَ يكونُ في الحقيقةِ سَفيهاً كَذوباً. ومَنْ كانَ ذلكَ وصفُهُ فهو ربٌّ، ولا حكيمٌ. ومَنْ رُبوبيّتُهُ تحتَ قُدرةِ غيرِهِ، أو حكمتُهُ تَحتَمِلُ المُضاداتِ فهو مسؤولٌ عمّا يَفعَلُ مُطالَبٌ بالحُجّةِ. فأنّى يكونُ لِمَنْ ذلكَ وصفُهُ رُبوبيّةٌ؟ جَلَّ عنْ ذلكَ.

والثاني: أنَّ الذي يكونُ بالقَسْرِ والقَهْرِ يكونُ أمْرَ الخليقةِ لا أمْرَ فِعْلِ العبدِ؛ وذلكَ في الحقيقةِ للهِ، لا لِلْبَشَرِ، وما هو لهُ مِنْ جِهَةِ الخِلْقَةِ موجودٌ لأنَّ نَفْسَ كلِّ أحدٍ، بالخِلْقَةِ مؤمنٌ. وقد شاءَ اللهُ تلكَ المَشيئةَ. فالقولُ بـ: لو شاءَ، لا مَعْنى لهُ، بل قد شاءَ، وكانَ، ولا قُوّةَ إلّا باللهِ.

والثالثُ: أنهُ وَعَدَ أنْ لو شاءَ أنْ يَجعَلَ كذا، وهو، لو فَعَلَ لكانَ يَجعَلُ مَنْ قد آمَنَ منهُمْ في الحقيقةِ مؤمناً في المَجازِ كافراً في الحقيقةِ؛ لأنهمْ بهذا يَصيرونَ أمّةً واحدةً؛ إذْ صارَ كثيرٌ منهُمْ مؤمنينَ بالاخْتيارِ، لا يَحْتَمِلُ أنْ يَجعَلَهُمْ على غيرِ ذلكَ، فيكونَ مَحموداً عَدْلاً، واللهُ المُوَفِّقُ.

ثم الأصلُ أنَّ اللهَ تعالى قد جَعَلَ أدِلّةَ كلِّ موعودٍ في الحُسْنِ ظاهراً، وكلَّ مَقدورٍ عليهِ بالوعدِ، والدَّعْوى لهُ ممّا جَبَلَ عليهِ أمراً بَيِّناً. وهذا النوعُ مِنَ المَشيئةِ عندَهُمْ والدَّعْوى بما جَعَلَ جميعَ [ذلكَ][2] مانعاً لأنْ يكونَ كائناً، فَيَصيرُ بالذي بهِ ادَّعى لِنَفسِهِ مِنَ القُدرَةِ مُكَذِّباً بما جَعَلَ لِمَنْعِ مِثْلِهِ الأدِلّةَ. ومَنْ ذلكَ وصفُهُ فهو غيرُ حكيمٍ. جَلَّ اللهُ عنْ هذا.

على أنَّ المُتأمِّلَ بما اخْتَبَرَ يَجِدُ حَقيقَتَهُ دونَ أنْ يحتاجَ إلى دليلٍ يُوَضِّحُ قُدرَتَهُ على ما ادَّعى على بَقاءِ المِحْنَةِ سبيلاً سَهْلاً بِحَمْدِ اللهِ لا يَحتاجُ إلى ما ذَكَروا مِنَ المُكابَرَةِ، وهو ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الزخرف: ٣٣]. ومَعْلومٌ أنهمْ لو كَفَروا جميعاً بما ذَكَرَ لَكانوا مُختارينَ، وإلى ماجاؤوا بهِ غيرَ مُضطَرّينَ، وإذا استقام

---

(١) من م، في الأصل: به. (٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

كونُهُمْ على دينِ الكُفرِ بذلكَ لا يَحْتَمِلُ إلّا [أنْ][1] يوجبَ ذلك بعثاً على الإيمانِ لو كانوا مُختارينَ، لذلكَ يَسْتَقيمُ كونُهُمْ على دينِ الإيمانِ مُختارينَ، أو لو جَعَلَ ذلكَ لِلمؤمنينَ، لَقَدَرَ[2] على قولِهِمْ أنْ يَجْعَلَهُمْ كُفّاراً بالمِحْنَةِ لا يَقْدِرُ على أنْ يَجْعَلَهُمْ مؤمِنينَ بها؛ لأنَّ ذلكَ وَصْفُ العَجْزِ عندَهُمْ، وإنْ كانَ لا يكونُ كذلكَ/ ٢٤٨ ـ أ/ عندَنا؛ لأنهُ يَسْتَقيمُ القولُ بالإقدارِ على إحداثِ غيرِهِ.

ومحالٌ القولُ على جَعْلِ غيرِهِ قائماً أو على إخراجِ غيرِهِ إليهِ، لا يَحْتَمِلُ الوَصْفَ بالقُدْرَةِ على إغناءِ غيرِهِ عنهُ، وعليهِمْ أوضَحُ، إذْ أجازُوا لهُ القُدْرَةَ على كلِّ حَرَكَةٍ لِلْعَبْدِ وسُكونٍ بالاضْطِرارِ، ولم يُجَوِّزوا في ذلكَ الاخْتيارَ اللّهُمَّ إلّا أنْ يَقولوا: لا يجوزُ أنْ يكونَ لِلْعَبْدِ غيرُ كامِلِ القُدْرَةِ، وهي القُدْرَةُ على مُضاداتِ الأشياءِ، واللهُ يُجَوِّزُ الوَصْفَ له بالقدرةِ الناقصةِ فيكونُ قريباً مما جعلوا للعبدِ قدرةً[3] على ما يَجْهَلُ، ويَجْعَلُهُ كاذباً[4] في ما يُخْبِرُ على بَقاءِ الرُّبوبيَّةِ لهُ، واللهُ لا يَقْدِرُ على مِثْلِهِ في العَبْدِ على بَقاءِ العُبودَةِ لهُ بالمِحْنَةِ، أو بما قَدَرُوا لعبدٍ على إهلاكِ مَنْ وَعَدَ اللهُ فيهِ الإبقاءَ، ويُؤيِّدُ ذلكَ وذلكَ فضلُهُ وَوَعْدٌ لهُ معَ ذلكَ أنْ يُعْطِيَهُ كذا. فَيأتي مُعانِدٌ، فَيَقْتُلُ، ويَمْنَعُ الرَّبَّ على إنجازِ وَعْدِهِ. وعَنْ سلطانِ بقائِهِ. جَلَّ الرَّبُّ عنْ هذا.

وذلكَ في قولِهِمْ في ما يَضْرِبُ اللهُ لِنَبِيٍّ أو صِدِّيقٍ أجلاً، يَرى بهِ مَصْلَحَةَ عبادِهِ، يَقْدِرُ الكافرُ على قَتْلِهِ قَبْلَ مَجيءِ ذلكَ الأجلِ وإبطالِ ما وَعَدَ والإبقاءِ بما هو صَنيعُهُ مِنْ إبقاءِ الحياةِ فيهِ، ولا يَقْدِرُ اللهُ على إنجازِ ما وَعَدَ على ما أرادَ. والعبدُ يُحالُهُ إلّا أنْ يُعْجِزَهُ، أو يُميتَهُ، أو يَجْعَلَهُ زَمِناً، واللهُ والمُسْتَعانُ.

ثم الأصلُ أنَّ كلَّ مُريدٍ بِفِعْلِهِ في ما فِعْلُهُ أمْرٌ إلا [أنْ][5] يكونَ ذلكَ، وهو لم يَكُنْ فَعَلَهُ إلا لِذلكَ، يُوجِبُ أحَدَ أمرينِ في الحِكْمَةِ: إمّا جَهْلاً بالعواقِبِ وإمّا[6] خَطأً بالفِعْلِ، كَمَنْ يَفْعَلُ فِعْلاً يَحْزَنُ عليهِ، يَلْحَقُهُ بهِ مَكْروهٌ؛ فهو لا يَفْعَلُهُ لهُ؛ يُظْهِرُ فاعلَهُ أنهُ عن جَهْلٍ فَعَلَ، وعنِ الخَطَإِ يُخْرِجُ فِعْلَهُ.

وعلى ذلكَ مَعْنى التحذيرِ في الخَلْقِ والتنبيهِ بقولِهِمْ: لِدوا لِلْمَوتِ، وابْنوا للخرابِ، و: سَرَقَ لِتُقْطَعَ، [يَدُهُ][7] وبارَزَ لِيُقْتَلَ، مِنْ حَيثُ كانَ الثاني مُتَّصِلاً بالأوَّلِ، يُنَبِّهُ عنِ الغَفْلَةِ، على إرادةِ التحذيرِ أنهُ إليهِ يَؤولُ أمْرُ فِعْلِهِ.

على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ الآيةَ[القصص: ٨] أو أنْ يُقالَ ذلكَ على أنهُ كذلكَ في فِعْلِهِ عندَ اللهِ، وإنْ جَهِلَهُ هو، أو يُوجِبُ السَّفَهَ في الفِعْلِ والعَبَثَ، إذْ هو يَقْصِدُ بِفِعْلِهِ ما يَعْلَمُ أنهُ لا يكونُ، أو يريدُ ما يَتَيَقَّنُ أنهُ لا يَبْلُغُ. وإذْ كانَ كذلكَ فأعطاهُ اللهُ تعالى القُدْرَةَ لِيُؤمِنَ، أو خَلَقَهُ لِيَعْبُدَ، وأرادَ أنهُ يَفْعَلُ ذلكَ، واختارَ ذلكَ الفِعْلَ، لِذلكَ يُوجِبُ ذَينِكَ الوجهَينِ، جَلَّ اللهُ عنهُما، وتعالى.

وقد ثَبَتَ أنَّ اللهَ عالمٌ بالعواقِبِ مُتعالٍ عنِ العَبَثِ، ثَبَتَ أنهُ خَلَقَ، وأعْطى ما أعْطى لِما عَلِمَ أنهُ يكونُ، وقد عَلِمَ أنهُ ما يكونُ. وعلى هذا التقديرِ يُخَرَّجُ الأمْرُ في قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ الآيةَ [الأعراف: ١٧٩] وقولِهِ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ الآيةَ [التوبة: ٥٥ و ٨٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أنهُ خَلَقَهُمْ للدينِ؛ عَلِمَ أنهمْ يَصيرونَ إليهِ مِنِ اختلافٍ أو اتِّفاقٍ أو عَداوَةٍ أو وَلايَةٍ لا يُريدُ غيرَ الذي عَلِمَ، ولا يَعْلَمُ غيرَ الذي يكونَ مِمَّنْ يَعْلَمُ ما يكونُ، ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

الآية ١١٩ وقالتِ المُعْتَزِلَةُ: قولُهُ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي لِلرَّحْمَةِ خَلَقَهُمْ فقالَ بَعْضُ مُتَكلِّمي أصحابِنا: إنَّ الرحمةَ تُذَكَّرُ بالتأنيثِ، وهو إنما ذَكَرَ بالتذكيرِ حينَ[8] قالَ: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [ولم يَقُلْ: وَلِتِلْكَ خَلَقَهُمْ][9] دَلَّ أنهُ ليسَ على ما يقولونَ.

قالَ قائلونَ: لِلاختِلافِ خَلَقَهُمْ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾. وقالَ بعضُهُمْ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]أي خَلَقَهُمْ لئلا يُهْلِكَ ﴿ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فيقدرون. (٣) في الأصل وم: قدراً. (٤) من م، في الأصل: كادكا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وعندنا ما ذكَرْنا؛ أي خَلَقَهُمْ لِلذي عَلِمَ أنهُ يكونُ منهُمْ، وأنهمْ يَصيرونَ إليهِ مِنَ الاختلافِ أوِ الاتِّفاقِ، والعَدَاوَةِ أو[1] الوَلايَةِ، لا يَخْلُقُهُمْ لِغَيرِ الذي عَلِمَ أنهُ يكونُ منهُمْ، ولا يُريدُ أيضاً غَيرَ ما عَلِمَ أنهمْ يَصيرونَ إليهِ، ولا يَعْلَمُ غَيرَ ما يكونُ منهُمْ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وتأويلُ المُعْتَزِلَةِ في قولِهِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أنها مَشيئةُ القَسْرِ والقَهْرِ، فذلكَ بعيدٌ لأنهُ لا يكونُ في حالِ القَهْرِ والاضطِرارِ إيمانٌ لأنَّ مَنْ أُكْرِهَ، واضْطُرَّ على الإيمانِ حتى آمَنَ، فإنهُ لا يكونُ؛ إنما يكونُ الإيمانُ إيماناً في حالِ الاختيارِ؛ إذا آمَنَ يختارُ مُمْتَحناً فيه. فعندَ ذلكَ يكونُ إيمانُهُ إيماناً. دلَّ أنَّ تأويلَهُمْ فاسدٌ.

الآية ١٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، كلُّ الذي نَقُصُّ عليكَ، أو قَصَصْنا عليكَ مِنْ أنباءِ الرُّسُلِ [نبأً][2] بعدَ نبإٍ ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ﴿نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ لِما يَحْتَمِلُ أنَّ نَفْسَهُ كانَتْ تُنازِعُهُ، وتُناقِشُهُ بأنَّ الذي أُنْزِلَ، أو يأتي بهِ مَلَكٌ، أو كانَ ذلكَ مِنْ إيحاءِ[3] الشيطانِ وإلقائِهِ عليهِ وَساوِسَهُ، فقَصَّ عليهِ مِنْ أنباءِ الرسلِ وأخبارِهِمْ ليكونَ لهُ آيةً بَيِّنَةً[بيِّنَهُ][4] وبَيْنَ ربِّهِ، لِيَعْلَمَ أنَّ ما أُنْزِلَ عليهِ إنما هو مَلَكٌ مِنَ اللهِ لِيَدْفَعَ بهِ نوازِعَ نَفْسِهِ و خَطَراتِهِ؛ إذْ لا سَبيلَ للشيطانِ إلى معرفَةِ تلكَ الأنباءِ، ولا في وُسْعِهِ إلقاؤُها عليهِ، فيكونُ لهُ بها طُمَأنينةُ قَلْبِهِ، وهو كَقولِ إبراهيمَ حينَ[5] قالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠] كانَتْ نَفْسُ إبراهيمَ تُنازِعُهُ في كيفِيَّةِ إحياءِ المَوتى، فَسَأَلَ ربَّهُ لِيُرِيَهُ ذلكَ لِيَطْمَئِنَّ بذلكَ قَلْبُهُ، وإنْ كانَ يَعْلَمُ أنهُ يُحْيِي المَوتَى، وأنهُ قادرٌ على ذلكَ.

والثاني: قَصَّ عليهِ أنباءَ الرُّسُلِ واحداً بَعْدَ واحدٍ لِيُثَبِّتَ بهِ فؤادَهُ لِيَعْلَمَ كَيفِيَّةَ مُعامَلَتِهِمْ، وماذا لَقُوا مِنْ قومِهِمْ وكيفَ صَبَروا على أذاهُمْ لِيَصْبِرَ هو على ما صَبَرَ أولئكَ، ولِيُعامِلَ هو قومَهُ بِمِثْلِ معامَلَتِهِمْ؟

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ نَبأً بَعْدَ نَبإٍ لِيَنْظُرَ، ويتفكَّرَ [في][6] كلِّ نَبإٍ وخَبَرٍ، ويَعْرِفَ ما فيهِ، فيكونُ ذلكَ أثْبَتَ في قَلْبِهِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] بإنزالِ الآياتِ[7] واحدةً بَعْدَ واحدةٍ وسورةً بَعْدَ سُورةٍ. وذلكَ أثْبَتُ في فؤادِهِ مِنْ إنزالِهِ جُمْلَةً لأنهُ يَزْدَحِمُ في مسامِعِهِ وفؤادِهِ. وإذا كانَ بالتَّفاريقِ نَظَرٌ وتَفَكُّرٌ فهو أثبَتُ في قلبِهِ وفؤادِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ﴾ أي في هذهِ الأنباءِ التي قَصَّها عليكَ؛ جاءَكَ فيها ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وهو ماذكَرْنا. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ﴾ أي في هذهِ الدنيا ﴿ٱلْحَقُّ﴾ يعني الآياتِ والحُجَجَ والبَراهينَ لِرسالتِهِ ودينِهِ ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي جاءَكَ ما تَعِظُ بهِ قَومَكَ وتُذَكِّرُ بهِ المؤمنينَ.

وقولُهُ تعالى ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ خَصَّ المؤمنينَ بذلكَ لِما تكونُ مَنْفَعَةُ الموعظةِ والذِّكْرَى[8] للمؤمنينَ، وإلا فهو موعظةٌ وذكْرَى لِلْكُلِّ.

الآية ١٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ المكانَةُ المَنْزِلَةُ والقُدْرَةُ. يقولُ: اعْمَلوا أنتمْ على مكانَتِكُمْ ومَنْزِلَتِكُمْ التي عندَ أتباعِكُمْ؛ كأنهُ يُخاطِبُ بهِ الأشرافَ منهُمْ والرُّؤَساءَ ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ على المكانَةِ والمَنْزِلَةِ لنا عندَ اللهِ، فَنَنْظُرُ أيُّنا أرجَحُ نَحْنُ أمْ[9] أنتمْ؟ وأيُّنا أخسَرُ نَحْنُ أمْ[10] أنتمْ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ يَخْرُجُ على وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الجاه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: الآية. (٨) من م، في الأصل: وذكرى. (٩) و(١٠) في الأصل وم: أو.

أحدُهما: على التوبيخ/٢٤٨ ـ ب/ والتخويفِ عندما بَلَغَ في الحِجاجِ، فلم يَنْجَعْ فيهِمْ، فقالَ ذلكَ[1] كقولِهِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] ونَحْوَهُ.

والثاني: على الإعجازِ لِما أرادوا بهِ مِنَ المَكْرِ والكَيْدِ بقولِهِ: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ اعْمَلوا ما تُريدونَ، وأنا أعْمَلُ.

الآية ١٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَانتَظِرُوا﴾ أنتُمْ بِنا ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ بكُمْ ذلكَ. أو يقولُ هذا لِما كانوا يُوعِدونَهُ، ويُخَوِّفونَهُ، مِنْ أنواعِ الوعيدِ، فَيقولُ: ﴿وَانتَظِرُوا﴾ بِنا ذلكَ ما تُخَوِّفونَ بِنا ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ بِكُمْ ما نُخَوِّفُكُمْ نحنُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ولِلَّهِ غَيْبُ نُزولِ العذابِ وغَيْبُ ما في الأرضِ كأنهُ خَرَّجَ جوابَ ما سَألوهُ مِنَ العذابِ كقولِهِ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣] وكقولِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨و٠٠] وكقولِهِ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] قالَ[2]: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي عِلْمُ ذلكَ عندَ اللهِ؛ وهو[3] كقولِهِ ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٨] وأمثالِهِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ جوابَ ما تَحَكَّموا على اللهِ مِنْ إنزالِ القرآنِ وجَعْلِ الرسالةِ في غَيرِهِ كقولِهِ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وكقولِهِ[4]: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] فقالَ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ الآية [الزخرف: ٣٢] وقالَ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فَعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا إلى الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ بما أرادَ.

[وقولُهُ تعالى][5] ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ إليهِ يَرْجِعُ أمْرُ الخَلْقِ كلِّهُ وتدبيرُهُمْ ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ أي اعْبُدْهُ في خاصِّ نَفْسِكَ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ في تبليغِ الرسالةِ إليهِمْ؛ أي لا يَمْنَعْكَ كيدُهُمْ ومكرُهُمْ بكَ عن تبليغِ الرسالةِ، ولا تَخافَنَّ منهُمْ، فإنَّ اللهَ يَحْفَظُكَ مِنْ كيدِهِمْ ومكرِهِمْ بكَ كقولِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

[وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا ما يُؤَيِّدُ ما ذَكَرْنا؛ أي ما ربُّكَ بغافلٍ عمّا يُريدونَ بكَ مِنْ كيدِهِمْ ومكرِهِمْ، بل يَعْلَمُ ذلكَ، ويَنْصُرُكَ، ويَنْتَصِرُ منهُمْ. وهو كقولِهِ لِموسى وهارونَ: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٤و٤٥و٤٦] أي أسْمَعُ قولَهُ وجوابَهُ إيّاكما، وأَرَى ما يَفْعَلُ؛ أي أنْصُرُكما، فلا تخافا. فَعلى ذلكَ الأوّلُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: عند. (٢) في الأصل وم: فقال. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

السورة التي ذكر فيها يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ[1] تعالى: ﴿الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ ذَكَرَ ﴿تِلۡكَ﴾ وهي كلمةُ إشارةٍ إلى شيءٍ، سَبَقَ ذِكْرُهُ، ولم يَتَقَدَّمْ فيهِ ذِكْرُ شيءٍ يُشارُ إليهِ، وذِكْرُ آياتٍ أيضاً، ولَيسَ هناكَ ذِكْرُ آياتٍ أو شيءٍ يكونُ آيةً في الظاهرِ. لكنْ يُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تِلۡكَ﴾ بمَعْنَى هذهِ آياتٌ. ويجوزُ استِعمالُ تلكَ مَكانَ هذهِ على ما يجوزُ ذِكْرُ ذلكَ مَكانَ هذا كقولِهِ: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١ و٢] أي هذا الكتابُ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تِلۡكَ﴾ إشارةً إلى ما في السماءِ أي الذي في السماءِ ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أو يقولَ: ﴿تِلۡكَ﴾ إشارةً إلى ما في الكُتُبِ[2] المُتقدِّمةِ، أي تلكَ آياتُ [الكُتُبِ المُبيِّنةِ، ويَحتَمِلُ قولُهُ][3] ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ أنها آياتُ الرسالةِ، أو تُبيِّنُ أنها مِنْ عندِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هذا أيضاً يُشبِهُ أنْ يُخرَّجَ على وجهَينِ:

أحَدُهما: إشارةٌ إلى الحروفِ المُقَطَّعَةِ المُعْجَمَةِ؛ فقالَ: إذا جُمِعَتْ كانَتْ ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

[والثاني][4]: أنْ يكونَ اللهُ أرادَ أمراً لا نَعْلَمُ ما أرادَ، فنقولَ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي ذلكَ الذي أرادَ هو آياتُ الكتابِ، واللهُ أعْلَمُ بما أرادَ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ أي لِيُبَيِّنَ فيهِ الحلالَ والحرامَ وما يُؤتَى وما يُتَّقَى كقولِهِ: ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩]. وقالَ بعضُهُمْ: لِيُبَيِّنَ بركَتَهُ وهُداهُ ورُشْدَهُ، أو لِيُبَيِّنَ فيهِ الحقَّ مِنَ الباطلِ والعَدْلَ مِنَ[5] الجورِ.

والكتابُ هو اسْمُ ما يُكْتَبُ؛ سَمَّاهُ قرآناً لِما يُقْرأُ، وكتاباً لِما عنْ كتابٍ أُخِذَ، ورُفِعَ، والقرآنُ لِما قُرِئَ عليهِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ قولُهُ: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ بالهاءِ[6] كنايةٌ عنِ الكتابِ الذي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ أنْزَلَهُ بلسانِ العَرَبِ، ولا نَدْري بأيِّ لسانٍ كانَ في اللوحِ المحفوظِ؟ غيرَ أنهُ أخبَرَ أنهُ أنزَلَهُ بلسانِ العَرَبِ. وهكذا كلُّ كتابٍ أنْزَلَ إنما أنْزَلَ بلسانِ المُنْزَلِ عليهِمْ، لم يُنْزِلْهُ[7] بغيرِ لسانِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ مالكُمْ، وما عليكُمْ، وما تأتونَ، وما تتَّقونَ، أو تَعْقِلونَ أنَّ هذهِ الأنباءَ التي يُخبِرُكُمْ بها محمدٌ ﷺ مِنَ اللهِ تعالى لأنها كانَتْ في كُتُبِهِمْ بِغيرِ لسانِهِ، فأخبَرَ على ما كانَتْ في كُتُبِهِمْ. دلَّ أنهُ إنما عَرَفَ ذلكَ باللهِ تعالى.

أو ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ بأنَّ فيهِ شَرَفَكُمْ لأنكُمْ تَصيرونَ مَتبوعينَ لِما يحتاجُ الناسُ إلى مَعْرِفةِ ما فيهِ، ولا يُوصَلُ لذلكَ[8] إلا بكُمْ، فتكونونَ متبوعينَ، والناسُ أتباعٌ لكُمْ، وهو كقولِهِ: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ [الأنبياء: ١٠] قالَ أهلُ التأويلِ: أي فيهِ شَرَفُكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ أحْسَنَ البيانِ ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ﴾ أي نُخبِرُكَ أحْسَنَ ما في كُتُبِهِمْ مِنَ القِصَصِ وأحْسَنَ ما في كُتُبِهِمْ مِنَ الأنباءِ والأحاديثِ.

---

(١) من م، في الأصل: وقوله. (٢) في الأصل وم: الكتاب. (٣) في الأصل وم: الكتاب المبين يحتمل. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: بها. (٧) في الأصل وم: ينزل. (٨) في الأصل وم: ذلك.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ أصدقَهُ، وكذلكَ قولُهُ[1] ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾ [الزمر: ٢٣] وأحسنُ الحديثِ أصدقُهُ؛ هو أحسَنُ القَصصِ، أي أصدقُهُ[2].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عنْ [هؤلاءِ الأنبياءِ][3] وعنْ قَصَصِهِمْ. فهذا يدُلُّ أنَّ الإيمانَ إيمانٌ[4] بجملةِ الأنبياءِ والرسلِ، وإنْ لم تُعرَفْ أنفُسُ الأنبياءِ وأنفُسُ الرسلِ وأساميهِمْ لأنهُ أخبَرَ أنهُ كانَ غافلاً عنْ أنبائِهِمْ وعنْ قَصَصِهِمْ، ولا شكَّ أنهُ كانَ مؤمناً باللهِ مُخلِصاً، وباللهِ العصمةُ.

وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ كلامُ الرحمنِ، وقالَ مجاهدُ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾ [الزمر: ٢٣] كلامُ ربِّ العالمينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: أنْ يكونَ الذي سألوا عنهُ رسولَ اللهِ ﷺ عنْ قصةِ يوسفَ وصَيرورةِ بني إسرائيلَ بمصرَ، وقد كانوا مِنْ قَبْلُ بالشامِ، فقالَ: تلكَ الأنباءُ والقِصَصُ يَجعلُها آياتِ هذهِ السورةِ التي هي مِنَ الكتابِ المُبينِ.

والثاني[5]: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ حُجَجُ وبراهينُ رسالةِ[6] محمدٍ ﷺ إذ هيَ مِنْ أنباءِ الغَيبِ عنهُمْ، يَعلَمُ الأنباءَ عنها باللهِ ﷻ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ/ ٢٤٩ ـ أ/ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ قولُهُ: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ إنَّ إخوةَ يوسفَ كانوا علماءَ وعُيونَ الأرضِ نُجوماً يُقتَدى بهِمْ، ويُهتَدى[7]، إذْ بالنجومِ يُقتَدى في الأرضِ، وبها تُهتَدى[8] الطرقُ والمسالكُ.

ودَلَّ قولُهُ: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ وخُرِّجَ على أبويهِ، أنهُ كانَ بهما جميعُ مَنافِعِ الخَلْقِ، إذْ بهما صلاحُ جميعِ الأغذيةِ في الأرضِ، ونُضجُ جميعِ الفواكهِ، والأنزالُ، وجميعُ المَنافعِ التي [بالناسِ حاجةٌ إليها][9].

ودَلَّ قولُهُ: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ أنَّ الرُّؤيا تُخرَّجُ على عَينِ ما رَأى، وتُخرَّجُ على غَيرِهِ بالمَعنى الذي يَتَّصِلُ بهِ؛ لأنهُ رَأى الكواكبَ والشمسَ والقمَرَ، فَخُرِّجَ على إخوتِهِ وأبويهِ، وكانَ[10] المُرادُ بالكواكبِ [والشمسِ والقمرِ غيرَ الكواكبِ والشمسِ][11] والقمرِ، وذلك بالمَعنى. وذَكَرَ السجودَ، وخُرِّجَ على عَينِ السجودِ وحقيقتِهِ، وكذا ما رَأى إبراهيمُ في المنامِ ذَبحَ ولدِهِ، خُرِّجَ الذَبحُ على حقيقةِ [الذبحِ وهو][12] ذبحُ الكبشِ، وَ رأى ابنَهُ، وكانَ المُرادُ منهُ الكبشَ.

فهذا أصلٌ لنا؛ أنَّ الخطابَ يُخرَّجُ، والمُرادُ منهُ على عَينِ ذلكَ الخطابِ، لا غَيرُهُ، وقد يُخرَّجُ لِمَعنىً فيهِ. فإذا اتَّصَلَ ذلكَ المَعنى [بِغَيرِهِ وَجَبَ][13] ذلكَ الحكمُ، وفيهِ جوازُ الاجتهادِ وطلبُ المَعنى في المُخاطَباتِ، وذلكَ ما ظَهَرَ في الناسِ مِنْ تعبيرِ الرؤيا على الاجتِهادِ يدلُّ على جَوازِ العَمَلِ بالاجتهادِ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ يوسفَ لما قَصَّ رؤياهُ على أبيهِ بينَ يَدَي إخوَتِهِ قالَ لهُ: هذهِ رؤيا النهارِ، ولَيسَتْ[14] بشيءٍ، وقالَ ليوسفَ في السِّرِّ: إذا رأيتَ رؤيا بعدَ هذا فلا تَقُصَّها على إخوتكَ، لكنَّ هذا كذبٌ؛ فلا يجوزُ أنْ يُكَذِّبَ رسولُ اللهِ يعقوبُ؛ يقولُ لهُ: رؤيا النهارِ ليسَتْ[15] بشيءٍ، ثم يُعَبِّرُ لهُ في السِّرِّ، ولا يُتَوَهَّمُ [في شَيءٍ مِنْ نَبِيٍّ مِنْ أنبياءِ][16] اللهِ الكذبُ، وهو كذبٌ، فإنْ كانَ فهو بالأمرِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾، دلَّ قولُهُ: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ على أنَّ ما رَأى يوسفُ مِنْ سجودِ الكواكبِ وسُجودِ الشمسِ والقمَرِ أنهُ إنما كانَ رَأى ذلكَ في المَنامِ.

(١) في الأصل وم: قول. (٢) ادرج بعدها في الأصل وم: وأحسن الحديث أصدقه. (٣) في الأصل وم: هذه الأنباء. (٤) أدرجت في الأصل وم بعد: والرسل. (٥)في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: الرسالة. (٧) و(٨) في الأصل وم: يهتدون. (٩) في الأصل وم: ما بالناس حاجة إلى ذلك. (١٠) الواو ساقطه من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: غير الشمس. (١٢) في الأصل وم: هو. (١٣) في الأصل وم: بغير وجبت. (١٤) في الأصل وم: ليس. (١٥) في الأصل وم: ليس. (١٦) في الأصل وم: على نبي.

جنة السنة

وَيَدُلُّ ما ذُكِرَ في آخرِهِ أيضاً على ذلكَ، وهو قولُهُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾ [الآية: ١٠٠]

ودلَّ قولُهُ: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أنَّ يعقوبَ إنما عَرَفَ ذلكَ بالوَحْيِ حينَ[1] قَطَعَ القولَ في قولِهِ: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ ولم يَسْتَثْنِ في ذلكَ، وقد فَعَلوا بِهِ ما قالَ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ إخوتَهُ قد كانوا يَعْرِفونَ تَعْبيرَ الرُّؤيا، وكانوا عُلماءَ حُكماءَ حينَ[2] قالَ: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ لأنهمْ لو كانوا لا يَعْرِفونَ تأويلَها، ولا عَلِموا تَعبيرَها، لم يكنْ لِيَنْهاهُ عنْ أنْ يَقُصَّ على إخوَتِهِ؛ لأنهُ، لو قَصَّها، أو لم يَقُصَّها، إذا لم يَعْلَموا، سَواءٌ.

وفيه دلالةٌ أنَّ الأخَ يُتَّهَمُ[3] في أخيهِ، ويكونُ مِنَ الأخِ الخيانةُ إلى أخيهِ، والأبَ والأمَّ لا يُتَّهمانِ في الابْنِ، والوَلَدَ لا يُتَّهَمُ في والِدَيهِ، ولا يكونُ مِنْ بعضٍ إلى بعضٍ خِيانةٌ في الغالبِ؛ لأنَّ يعقوبَ نَهى وَلَدَهُ يوسفَ أنْ يَقُصَّها على إخوَتِهِ، وأخْبَرَ أنهمْ إذا عَلِموا بذلكَ كادوهُ، وحسَدوهُ، ولم يَنْهَهُ بِمِثْلِهِ في أمِّهِ. ودلَّ أنَّ الأخَ؛ لا يُتَّهَمُ في [شهادَتِهِ لِأخيهِ، ويُتَّهَمُ الأبُ والأمُّ][4] في شهادتِهما لِوَلَدِهما، وكذلكَ الولدُ في [شهادتِهِ لوالِدَيهِ][5].

ولهذا قالَ أصْحابُنا: إنَّ شهادَةَ الوالِدِ لولدِهِ لا تُقْبَلُ، وكذلكَ شهادةُ الولَدِ لِوالِدَيهِ، وشهادةُ الأخِ لأخيهِ تُقْبَلُ، لِما يَنْتَفِعُ الولَدُ بمالِ والِدَيهِ، والوالِدُ بمالِ وَلَدِهِ، ولا يَنْتَفِعُ الأخُ بمالِ أخيهِ. وكلُّ مَنِ انْتَفَعَ بمالِ آخَرَ اتُّهِمَ في شهادتِهِ، أو لم تُقْبَلْ شهادَتُهُ. وكلُّ مَنْ لم يَنْتَفِعْ به قُبِلَتْ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهِرُ العداوةِ. وقالَ موسى حينَ قَتَلَ: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥] بَدْوُ كلِّ شَرٍّ يكونُ مِنَ الشيطانِ، يَقْذِفُ في القلوبِ، ويَخْطِرُ في الصدورِ، ثم تكونُ العزيمةُ على ذلكَ، والفِعْلُ مِنَ العبدِ، وهو ما قالَ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠١] والطيفُ [والطائفُ][6] القَذْفُ والوَسْوَسَةُ. فإذا ذَكَرَ اللهَ ذهبَ. وقيلَ: الكَيدُ والمَكْرُ سَواءٌ، وهو قولُ أبي عوسَجَةَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الكَيدُ هو الاحْتِيالُ والاغْتِيالُ، وقيلَ: الكَيدُ هو أنْ يُطْلَبَ إيصالُ شَرٍّ بِهِ على غيرِ عِلْمٍ منهُ، وكذلكَ المَكْرُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلمُ، أي كما اجْتَبى ربُّكَ أبَوَيكَ بالرسالةِ والنُّبُوَّةِ واصْطفاهما[7] بأنواعِ الخَيراتِ، وأتَمَّ نعمَتَهُ عليكَ وعلى آلِ يعقوبَ.

وَيَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي كما اجْتَباكَ ربُّكَ بالرُّؤيا التي أراكَ يَفْعَلُ ذلكَ بك.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قيلَ: تَعْبيرُ الرُّؤيا، وقالَ بعضُهُمْ: عَلَّمَهُ تأويلَ الصُّحُفِ التي كانَتْ لإبراهيمَ وَ غيرِهِ، وعلَّمَهُ تأويلَ الصُّحُفِ والأحاديثِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ حينَ أراهُ ذَبْحَ ابنِهِ، فَجَعَلَ مكانَهُ كَبْشاً. فَعَلى ذلكَ ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ ويَسْجُدُ لكَ إخوَتُكَ وأبواكَ[8].

ثم مِنَ الناسِ مَنِ اسْتَدَلَّ بهذا أنَّ الذبيحَ كانَ إسْحاقَ لأنهُ ذَكَرَ إتمامَ نِعْمَتِهِ على إبراهيمَ وإسحاقَ.

ودَلَّ قولُهُ: ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ على أنهُ قد اجْتَباهُمْ بالنُّبُوَّةِ مِنْ بَعْدُ؛ أعني أولادَ يعقوبَ؛ لأنَّ وَلَدَهُ مِنْ آلِهِ. وقد أخْبَرَ أنْ يَجْتَبِيَهُمْ، ويُتِمَّ نعمَتَهُ عليهِمْ كما فَعَلَ بأبَوَيهِمْ إبراهيمَ وإسحاقَ. وكذلكَ رَوَى الحَسَنُ أنهُ قالَ في إخْوَةِ يوسفَ: نُبِّئوا بَعْدَ ما صَنَعوا بيوسفَ ما صَنَعوا.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) أدرج قبلها في الأصل: لا. (٤) في م: شهادة أخيه، ويتهم الأب والأم، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: والديه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: واصطفاهم. (٨) في الأصل وم: وأبويك.

جنة السنة

وقالَ بَعْضُهُمْ: تأويلُ الأحاديثِ العلمُ والكلامُ؛ قالَ: وكانَ يوسفُ أعْبَرَ الناسِ، وهو ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الآية: ٢٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بما صَنَعَ بهِ إخوتُهُ، وعليمٌ بما ذُكِرَ مِنَ التمامِ ﴿حَكِيمٌ﴾ بِوَضْعِ[1] كلِّ شيءٍ مَوضِعَهُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ الآيةُ آيةٌ للسائلِ إذا كانَ السائلُ يَسْتَرْشِدُ، وكذلكَ القرآنُ كلُّهُ، هو حُجَّةٌ وآيةٌ لِلْمُسْتَرْشِدِ. وأمّا المُتَعَنِّدُ[2] فهو آيةٌ عليهِ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ السائلينَ الذينَ سألوا على ما ذُكِرَ في بعضِ القصةِ لأنَّ اليهودَ سألوا النبيَّ عن أمرِ يوسفَ ونَبَئِهِ، فأخبَرَهُمْ بالحقِّ في ذلكَ على ما كانَ؛ فهو آيةٌ لهمْ، إنْ ثَبَتَ ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ السائلينَ الذينَ يَسْألونَ مِنْ بَعْدُ إلى آخِرِ الدهرِ عنْ نَبَإِ يوسفَ؛ كلُّ مَنْ سألَ عنْ خَبَرِهِ ونَبَئِهِ، فهو آيةٌ لهُ، إنْ ثَبَتَ ذلكَ.

ثم جَعْلُهُ[3] آياتٍ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُهما: أنهُ جَعَلَ قصةَ يوسفَ ونَبَأَهُ سورةً، وتلكَ السورةُ هي آياتُ الكتابِ على ما ذُكِرَ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الآية: ١] جَعَلَ قصةَ يوسفَ ونَبَأَهُ آياتٍ.

[والثاني: أنهُ جَعَلَهُ][4] آيةً أي حُجَّةً لِنُبُوَّةِ رسولِهِ ورسالتِهِ؛ لأنَّ قِصَّتَهُ وَنَبَأَهُ كانَ في كُتُبِهِمْ. بِغَيرِ لسانِهِ مِنْ غيرِ ترجمةِ أحَدٍ منهُمْ ولا تَعْليمٍ / ٢٤٩ ـ ب/ ثم أخبَرَهُمْ على ما كانَ في كتبِهِمْ مِنْ غَيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ. دَلَّ [أنهُ][5] إنما عَلِمَهُ باللهِ تعالى ما أخَذَهُ مِنْ كُتبِهِمْ، وهو ما ذُكِرَ في القصةِ أنَّ اليهودَ سَمِعوا النبيَّ يَقْرَأُ سورةَ يوسفَ، فقالوا[6]: يا محمدُ مَنْ عَلَّمَكَ؟ قالَ: اللهُ عَلَّمَنيها، فَعَجِبوا مِنْ قراءتِهِ إياها على ما كانَتْ في كُتُبِهِمْ، دلَّ أنهُ إنما عَرَفَها باللهِ.

والثالثُ[7]: أنهُ يكونُ آيةً لِمَنْ سألَ عنْ حُجَّةِ رسالتِهِ، أو هي آيةٌ لِمَنْ يسألُ عنها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ الآية دلالةُ أنْ لا بأسَ للرجلِ أنْ يَخُصَّ بَعضَ وَلَدِهِ بالعطفِ عليهِ والمَيلِ إليهِ، إذا كانَ فيهِ مَعْنىً، ليسَ ذلكَ في غَيرِهِ. ولهذا قالَ أصحابُنا: إنهُ لا بأسَ للرجلِ أنْ يَخُصَّ بعضَ وَلَدِهِ بالهِبَةِ لهُ أوِ الصَّدَقةِ عليهِ، إذا لم يَقْصِدْ بها الجَورَ على غَيرِهِمْ مِنَ الأولادِ.

ثم يَحْتَمِلُ تخصيصُ يعقوبَ يوسفَ وأخاهُ بالحبِّ لهما وُجوهاً:

أحدُها: لما رَأى فيهما مِنَ الضَّعْفِ في [نَفْسَيهما والعَجْزِ في بَدَنَيهما ازدادَتْ][8] شَفَقَتُهُ لهما، وعطفُهُ عليهما لذلكَ، وهذا ممّا يكونُ في ما بَينَ الخَلْقِ، وكانَ ذلكَ منهُ لهما لِصِغَرِهما، وهذا أيضاً معروفٌ في الناسِ: أنَّ الصِّغارَ مِنَ الأولادِ يكونونَ[9] عندهُمْ أحَبَّ، وقلوبُهُمْ إليهِمْ [أمْيَلُ، وعليهِمْ أعطفُ][10] ولهمْ أرحَمُ مِنَ الكبارِ[11].

والثاني[12]: خَصَّهُما بذلكَ لِفَضْلِ خُصوصيَّةٍ كانَتْ لهما مِنْ جهةِ الدينِ أو العلمِ أو غَيرِهما[13]؛ أمَرَهُ اللهُ بذلكَ لِذلكَ مِنْ دونِ غَيرِهما.

والثالثُ[14]: لِما يُشيرُ يعقوبُ بِنُبُوَّةِ يوسفَ، فكانَ يُفَضِّلُهُ على سائرِ أولادِهِ، ويُؤْثِرُهُ عليهِمْ لذلكَ. وإنما ﴿قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ بآثارٍ تَظْهَرُ عندهُمْ، وإلّا حقيقةُ المَحَبَّةِ لا تُعْرَفُ.

---

(١) في الأصل وم: وصنع. (٢) في م: المتعنت. (٣) ادرج قبلها في الأصل: وجه. (٤) في الأصل وم: ويحتمل أيضا أنه جعل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: فقال. (٧)في الأصل وم: ثم يحتمل. (٨) في الأصل وم: لأنفسهم والعجز في أبدانهما فازدادت. (٩) في الأصل وم: يكون. (١٠) في الأصل: وعليه، في م: أميل وعليه. (١١) في الأصل وم: الكبائر. (١٢) في الأصل وم: أو. (١٣) في الأصل وم: غيره. (١٤) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ قيلَ: العُصْبَةُ الجماعةُ، وقالَ أصحابُنا: إنَّ التِّسْعَةَ مع الإمامِ مَنَعَةٌ يَسْتوجِبونَ ما يَسْتوجِبُ السَّرِيَّةُ إذا دَخَلَتْ دارَ الحربِ، فَغَنِمَتْ غنائِمَ، يُخَمَّسُ منها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لم يَعْنُوا ضلالَ الدينِ؛ إنما قالوا ذلكَ، واللهُ أعلمُ، إنا جماعةٌ، نَقْدِرُ على دفعِ مَنْ يَرومُ الضَّرَرَ بهِ، ويَقْصِدُ قَصْدَ الشرِّ بِنَفْسِهِ ومالِهِ، ونحنُ أُولو قُوَّةٍ؛ بِنا يَقومُ مَعاشُهُ وأسبابُهُ، فكيفَ يُؤْثِرُ هؤلاءِ علينا. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] لم يُرِدْ بهِ ضلالَ الدينِ، ولكنْ وجهاً آخَرَ.

وقالوا: لمّا كانَتْ [لهُ][1] مَنافِعُ مِنْ أنفسِهِمْ، لم تكنْ تلكَ المنافِعُ مِنْ يوسفَ وأخيهِ. وأبداً إنما يُؤْثِرُ المرءُ حُبَّ مَنْ لهُ مَنافِعُ مِنْ قِبَلِهِ لا حُبَّ مِنْ لا مَنْفَعَةَ لهُ منهُ، فهو فيه في ضلالٍ مُبينٍ حينَ[2] يُؤْثِرُ مَنْ لا مَنْفَعَةَ لهُ منهُ على مَنْ كانَتْ لهُ منهُ مَنافِعُ وأمثالِهِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٩ وقولُهُ[3] تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونوا عَزَمُوا على قَتْلِهِ، ولكنْ على المُشاوَرَةِ في ما بينَهُمْ؛ نَفْعَلُ ذا أو ذا، كقولِهِ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] ليسَ على واحدٍ، ولكنْ على المَشورَةِ في ما بَيْنَهُمْ. يَدُلُّ على ذلك قولُهُ: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أنهُمْ أرادوا أنْ يَخْلُوَ وَجْهُ أبيهِمْ لهمْ لا قَتْلَهُ، إنما أرادوا غَيْبَتَهُ عنهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي يُقْبِلْ عليكُمْ أبوكُمْ بوجهِهِ، وقالَ بعضُهُمْ: أي يَفْرَغْ لكمْ مِنَ الشُّغْلِ بيوسُفَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿صَٰلِحِينَ﴾ أي تائبينَ. وقالَ بعضُهُمْ: تكونوا صالحِينَ عندَ أبيكُمْ مِنْ بَعْدُ. وقالَ بعضُهُمْ: يَصْلُحْ أمرُكُمْ وحالُكُمْ مِنْ[4] أبيكُمْ بَعْدَ ذهابِ يوسفَ.

وجائزٌ أنْ يكونوا قوماً صالِحينَ في الآخرةِ وقالَ [بعضُهُمْ:][5] إنهمْ تابوا قبلَ أنْ يَزِلُّوا، فَيَعْصُوا[6].

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ الْجُبِّ﴾ قالَ أبو عوسَجَةَ: يَعْني قَعْرَ البئرِ، والغَيابَةُ: ما يُغَيِّبُهُ، ويُواريهِ، والجُبُّ البئرُ، والجِبابُ جَمْعٌ.

وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: الغَيابَةُ: كلُّ شيءٍ غَيَّبَ عنكَ شيئاً فهو غَيابَةٌ.

وقولُهُ تعالى ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي يَرْفَعْهُ بعضُ السَّيَّارَةِ، ولذلكَ يُقالُ [عنِ الطائرِ][7] يَلْتَقِطُ الحبَّ، ويَلْتَقِطُ أي يرفَعُ ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أنْ تُغَيِّبوهُ عنهُ.

وأمّا قولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ قولَهُ: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ قالَهُ فُلانٌ أو فلانٌ فذلكَ ممّا لا نَعْرِفُهُ، وليس لنا إلى مَعرِفَةِ ذلكَ حاجَةٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: السَّيَّارَةُ أصلُها مِنَ السَّيرِ، هو مثلُ المُسافِرَةِ[8]، وهي القافلةُ؛ يَعْني العيرَ. وقيلَ: الجُبُّ الرَّكِيَّةُ التي لم تُطْوَ بالحجارةِ، فإذا طُوِيَتْ فَلَيْسَتْ[9] بِجُبٍّ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [دلَّ قولُهُمْ[10] ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾][11] على أنهمْ طَلَبوا إخراجَهُ مِنْ أبيهِمْ غيرَ مَرَّةٍ؛ لأنَّ هذا الكلامَ لا يُتَكَلَّمُ بهِ مُبْتَدأً غيرَ مُسابِقَةِ شيءٍ مِنْ أمثالِهِ، فَدَلَّ أنهمْ قد استَأذَنوهُ في إخراجِهِ غيرَ مَرَّةٍ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ الناصِحُ هو الدالُّ على كلِّ خيرٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ كانَ يعقوبُ خافَ على نَفْسِهِ، أعني يوسفَ، الضَّيعةَ بِتَرْكِهِمْ حِفْظَهُ، فأَمَّنوهُ على ذلكَ بقولِهِمْ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ وخافَ عليهِ الضَّياعَ مِنْ جهةِ الجوعِ بِتَرْكِهِمْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وقالوا. (٤) في الأصل وم: منه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ويعصوا. (٧) في الأصل وم: للطائر. (٨) في الأصل وم: المسافر. (٩) في الأصل وم: فليس. (١٠) في م: قوله. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

حِفْظَهُ أوقاتَ الأكلِ، فأمَّنوهُ على ذلكَ بقولِهِم ﴿يَرْتَعْ﴾ أي يأكلْ، وخافَ قلبُهُ أنْ يُكلِّفوهُ أمراً يَشُقُّ عليهِ، ويَشْتدُّ، فأمَّنوهُ[1] أيضاً على ذلكَ بقولِهِمْ: ﴿وَيَلْعَبْ﴾ لأنهُ ليسَ في اللَّعِبِ مَشَقَّةٌ ولا شِدَّةٌ. فخافَ عليهِ الضَّياعَ بالوجوهِ التي ذَكَرَ، فأمَّنوهُ[2] على تلكَ الوجوهِ كلِّها حتى اسْتَنْقَذوهُ مِنْ يَدَيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [قالَ بعضُهُمْ: ﴿يَرْتَعْ﴾ يأكلْ ﴿وَيَلْعَبْ﴾ يَلْهُ][3] كأنهُ خرجَ جواباً [لقولِهِ][4] ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣] قالوا لهُ: لا تَحْزَنْ عليهِ فإنهُ يرتَعُ، ويلْعَبُ، على التقديمِ والتأخيرِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَرْتَعْ﴾ يَنْبسِطْ[5] ﴿وَيَلْعَبْ﴾ يَتَلَهَّ وقُرِئَ بالنونِ[6] ﴿نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾. قالَ القُتَبِيُّ: نَرْتَعْ أي نأكُلْ؛ يُقالُ: رَتَعَتِ الإبلُ إذا رَعَتْ، وارْتَعْتُها إذا تَرَكْتُها تَرْعَى. ويُقرأُ: نَرْتَعِ بكسرِ العَينِ والمُرادُ منهُ أنْ نَتَحارَسَ، ويَرْعَى بَعْضُنا بعضاً، أي نَحْفَظُهُ، ومنهُ يُقالُ: رعاكَ اللهُ أي حَفِظَكَ اللهُ، وقالوا: ﴿وَيَلْعَبْ﴾ في ما يَحِلُّ، ويَسَعُ، مِنْ نَحْوِ الاسْتِباقِ وغيرِهِ، وهو ما ذَكَروا ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ [الآية: ١٧] واللَّعِبُ في مِثْلِ هذا يَحِلُّ.

وقد رُوِيَ أيضاً في الخَبَرِ أنهُ قالَ: «لا يَحِلُّ اللَّعِبُ إلا في ثلاثٍ: مُعالَجةِ الرجلِ فَرَسَهُ او قوسَهُ وملاعبةِ الرجلِ امْرأتَهُ» [بنحوه الترمذي ١٦٣٧] أخبَرَ أنهُ لا يَحِلُّ إلّا ثلاثٌ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ قالَ: إني لَيَحْزُنُني عندَ الواقعِ بهِ والغائبِ عنهُ مِنَ النِّعْمةِ التي أنعمَها عليهِ لأنهُ كانَ نعمةً عظيمةً لهُ. فإنَّ النَّظَرَ إليهِ وذِكْرَ الحُزْنِ على ما فاتَ عنهُ، وذِكْرَ الخوفِ لما خافَ وقوعَهُ في وقتٍ يأتي، وما سيَقَعُ. فهذا تفسيرُ قولِهِ: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] لأنهُ موجودٌ للحالِ غيرُ فائتٍ، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي يخافونَ فوتَهُ لأنَّ خوفَ فوتِ النعمةِ يُنَغِّصُ على صاحبِهِ النعمةَ، فأمَّنَهُمْ على ذلكَ. وهو ما ذَكَرْنا أنَّ الحزنَ يكونُ بالواقعِ للحالِ، والخوفَ على ما سيَقَعُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: كانَ يَعقوبُ/ ٢٥٠ ـ أ/ ﷺ رأى في المَنامِ أنَّ يوسفَ أخَذَهُ الذئبُ، فلذلكَ[7] قالَ: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لكنَّ هذا لا يُحْتَمَلُ لأنَّ رؤيا الأنبياءِ، أكْثَرُها صِدْقٌ وحقٌ، فلا يُحْتَمَلُ أنهُ رأى ذلكَ، ثم يقولُ: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ أو يَدَعُهُ يَذْهَبُ معهمْ. لكنهُ خافَ عليهِ أكْلَ الذئبِ على ما يُخافُ على الصِّبْيانِ في المَفاوِزِ والبَراري؛ إذِ الخوفُ على الصِّبيانِ في المَفاوِزِ والبَراري، والضَّياعُ يكونُ بالذئبِ أكْثَرَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ لأنهُ جائزٌ أنْ يَفْتَرِسَهُ سَبُعٌ مِنَ السِّباعِ عندَ مُعاقَصَةِ إخوتِهِ واشْتِغالِهِم بما ذَكَرَ مِنَ الاسْتِباقِ، لا يَحْتَمِلُ الضَّياعُ مِنَ الناسِ يأخُذُهُ واحدٌ مِنْ بَيْنِ نَفَرٍ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ قولَهُ ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ كِنايةٌ عن بَنيهِ؛ أي أخافُ أنْ تُهْلِكوهُ، وتُضَيِّعوهُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أولو قُوَّةٍ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ وتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي جماعةٌ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي كانّا نحنُ سلَّمْناهُ إلى الذئبِ، وعَرَّضْناهُ للضَّياعِ. هذا، واللهُ أعلمُ، مَعْنى الخُسْرانِ الذي ذَكَروا، وإلّا لم يَلْحَقْهُمُ الخُسْرانُ إذا أكَلَهُ الذئبُ؛ لأنهُ إذا كانَ بهِمْ قوةُ المَنْعِ، فلم يَمْنَعوهُ، فكأنهُمْ ضَيَّعوهُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ قد ذَكَرْناهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ وَحيَ نُبُوَّةٍ أو وَحيَ بِشارةِ النجاةِ مِنْ ذلكَ الجُبِّ أو بِشارةِ المُلْكِ لهُ والعِزِّ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هو قولُ يوسفَ حينَ[8] قالَ لهمْ: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ

---

(١) من م، في الأصل: فامنوا. (٢) من م، في الأصل: فامنوا. (٣) في الأصل: يله، ساقطة من م. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في م: ينشط. (٦) معجم القراءات القرآنية ج٣/ ١٥٢. (٧) في الأصل وم: فمن ثم. (٨) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وَأَخِيهِ﴾ الآية [الآية: ٨٩] ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ [يوسف: الآية] هذا الذي نَبَّأَهُمْ يوسف ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي إلى يعقوبَ ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هو ما قال لهم: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ الآية [الآية: ٨٧] أمَرَهُمْ أنْ يطلُبُوهُ، ويَتَحسَّسوا مِنْ أمرِهِ؛ كأنَهُ عَلِمَ أنهُ حَيٌّ كقولِهِ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنه حَيٌّ.

ألا تَرَى أنهُ قال: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾؟ [الآية: ٩٤] ولهذا قالَ حينَ أُلقِيَ الثوبُ على وجهِهِ، وارْتَدَّ بَصيراً: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الآية: ٨٦] وذلكَ تأويلُ قولِهِ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. إنْ كانَتِ الآيةُ في يعقوبَ، وإنْ كانَتْ في يوسفَ فهو ما ذَكَرْناهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ في الآيةِ دلائلُ:

أحدُها: أنَّ مَنِ ارْتَكَبَ صَغيرةً فإنهُ يُخافُ عليهِ التعذيبُ، ولا يَصيرُ كافراً.

[والثاني: أنَّ][1] مِنِ ارْتَكَبَ كَبيرةً لم يَخْرُجْ مِنَ الإيمانِ؛ لأنَّ إخوةَ يوسفَ هَمّوا بِقَتْلِ يوسفَ أو طَرْحِهِ في الجُبِّ أوِ التَّغْييبِ عنْ وجهِ أبيهِ وإخلائِهِ عنهُ.

وذلكَ لا يَخْلو منهُمْ: إمّا أنْ يكونَ صَغيرةً وإمّا[2] كَبيرةً.

فإنْ كانَتْ صغيرةً فقدِ اسْتَغْفَروا عليها بقولِهِمْ[3]: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ الآية [الآية: ٩٧] دلَّ أنهمْ إنما اسْتَغْفَروا لمّا خافوا العذابَ عليها.

وإنْ كانَتْ كبيرةً فلم يَخْرُجوا مِنَ الإيمانِ لأنهمْ[4] صاروا أنبياءَ مِنْ بَعْدُ، وصاروا قوماً صالحينَ حينَ[5] قالوا: ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [الآية: ٩].

[والثالثُ][6]: دلَّ ما ذَكَرْنا على نَقْضِ المُعْتَزِلَةِ في صاحبِ الصغيرَةِ: أنْ لا تعذيبَ عليهِ، وفي[7] صاحبِ الكبيرةِ: أنهُ خَرَجَ مِنَ الإيمانِ، ونَقْضِ قولِ الخوارجِ في قولِهِمْ: إنهُ إذا ارْتَكَبَ كبيرةً أو صغيرةً صارَ بهِ كافراً أو مُشْرِكاً.

والرابعُ[8]: فيهِ نَقْضُ قولِ مَنْ يقولُ: إنَّ مَنْ كَذَبَ، أو وَعَدَ، فأخلَفَ، وائْتُمِنَ، فخانَ، يَصيرُ[9] منافقاً؛ لأنَّ إخوةَ يوسفَ ائْتُمِنوا، فخانوا، وَوَعَدوا، فأخلفوا، وحَدَّثوا، فكذبوا، فلم يَصيروا مُنافِقينَ؛ لأنهمْ قالوا: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [الآية: ١٧] ولم يأكُلْهُ، وهو كَذِبٌ، وائْتُمِنوا، فخانوا، حينَ ألقَوْهُ في الجُبِّ، وَوَعَدوا أنهمْ يحفظونَهُ، ولم يَحْفظوهُ.

فإنْ قيلَ: رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ «ثلاثٌ مِنْ علاماتِ النفاقِ: مَنْ إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا ائْتُمِنَ خانَ، وإذا وَعَدَ أخلَفَ» [مسلم ٥٩] فكيفَ يُوَفَّقُ بينَ الآيةِ والخبرِ؛ إذ هو لا يَحْتَمِلُ النسخَ، لأنهُ خَبَرٌ، والخَبَرُ لا يَحْتَمِلُ النسخَ؟

قيلَ: يُشْبِهُ أنْ يكونَ في قومٍ خاصٍّ مِنَ الكَفَرَةِ ائْتُمِنوا بما أودَعَ اللهُ في التوراةِ مِنْ بَعْثِ محمدٍ، فغَيَّروهُ، وَوَعَدوا أنْ يُبَيِّنوهُ، فأخلَفوا، وكَتَموهُ، وحَدَّثوا أنهمْ بيَّنوهُ، فكَذَبوا. فيَصيرُ مُنافقاً بما ذَكَرَ إذا كانَ ذلكَ في أمرِ الدينِ، وأمّا في غيرِهِ فإنهُ لا يَصيرُ منافقاً، ولا تكونُ تلكَ مِنْ أعلامِ المنافقِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ هذا القولُ منهمْ لهُ في الظاهرِ عظيمٌ لأنهمْ قالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ في هذا وما كُنّا صادقينَ عندَكَ مِنْ قبلُ في غيرِ هذا.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي تَتَّهِمُنا، ولا تُصَدِّقُنا؛ لأنهُ اتَّهَمَهُمْ حينَ[10] ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [الآية: ١٣] فاعْتَرَضَتْ لهُ التُّهَمَةُ، وليسَ في الاتِّهامِ تكذيبٌ. إنما هو في الوقفِ؛ لأنَّ مَنِ ائْتَمَنَ

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: بقوله. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: يصير. (١٠) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

آخرَ في شيءٍ، ثم اتَّهَمَهُ فيهِ، لا يكنْ(١) في اتهامِهِ إياهُ تكذيبٌ. فَعَلى ذلكَ قولُهُمْ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ أي تتَّهِمُنا لِما سَبَقَتْ مِنّا(٢) التُّهَمَةُ ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

على هَذينِ الوجهَينِ يُخرَّجُ تأويلُ الآيةِ، وإلّا لم يَجُزْ أنْ يكونَ نَبِيٌّ مِنَ الأنبياءِ يُكَذِّبُ مَنْ يَعْلَمُ أنهُ صادقٌ في خَبَرِهِ وقولِهِ.

فإنْ قيلَ قولِهِ: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [الآية: ١٣] كيفَ كذلكَ؟ وقد قالَ لهُ يعقوبُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ [الآية: ٦] فكيفَ خافَ أكلَ الذئبِ والضَّياعَ؟ وذلكَ لا يُحتَمَلُ أنْ يقولَهُ(٣) لهُ إلّا بِعِلْمٍ مِنَ اللهِ والوَحْيِ إليهِ. قيلَ: يُحتَمَلُ [ذلكَ بوجهَينِ:

أحدُهما](٤): أنْ يكونَ ما ذَكَرَ على شَرْطِ الخوفِ أنهُ يَخافُ ممّا ذَكَرَ، فيكونَ لهُ ما قالَ مِنَ الاِجْتِباءِ وتعليمِ الأحاديثِ وإتمامِ النِّعْمَةِ عليهِ.

[والثاني: أن يكونَ](٥) خافَ ذلكَ على ما خافوا جميعاً ما هُمْ عليهِ مِنَ الدينِ، وإنِ اعْتَصَموا عمّا خافوا جميعاً: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ومَعلومٌ أنَّ إبراهيمَ لا يَعْبُدُ الأصنامَ، وقالَ يوسفُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية: ١٠١] ومِثالُهُ: هو ما ذَكَرْنا في غيرِ مَوضِعٍ: أنَّ العِصْمَةَ لا تُزيلُ الخوفَ، ولا تُؤْمِنُ مِنِ(٦) ارتكابِ مُضادّاتِهِ، بل تَزيدُ الخوفَ على(٧) الأخيارِ والأبرارِ؛ كأنَّ خَوفَهُمْ وإشفاقَهُمْ على دينِهِمْ أكثرُ مِنْ غيرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَسۡتَبِقُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَشْتَدُّ إلى الصيدِ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿نَسۡتَبِقُ﴾ هذا مِنَ السباقِ أي يَعْدونَ حتى يَنْظُروا إليهِمْ؛ يَستَبِقُ أي يَتَقَدَّمُ مِنْ صاحبِهِ، ويَغْلِبُهُ في العَدْوِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿نَسۡتَبِقُ﴾ أي نَنْتَضِلُ: يُسابِقُ بَعْضُنا بعضاً في الرَّمْيِ. يُقالُ: سابَقْتُهُ، فَسَبَقْتُهُ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ الدمُ لا يكونُ كَذِباً، لكنهُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ﴾ قد كَذَبوا فيهِ أنهُ دَمُ يوسفَ، وأنَّ الذئبَ أكلَهُ، ولم يكُنْ. وقالَ الفرّاءُ: ﴿بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ بِدَمٍ مكذوبٍ؛ والعربُ قد تَستَعمِلُ المَصْدَرَ في مَوضِعِ المَفعولِ.

ثم ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ﴾ والتَّسْويلُ هو التَّزيينُ / ٢٥٠ ـ ب/ في اللغةِ. وتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: أي زَيَّنَتْ لكُمْ أنفسُكُمْ، ودَعَتْكُمْ إلى أمرٍ تَفْصِلونَ، وتُفَرِّقونَ بيني وبينَ ابني. لكنا [لا](٨) نعلَمُ ما ذلكَ الأمرُ الذي زَيَّنَتْ أنفُسُهُمْ لهُمْ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ذلكَ قولَهُ: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ [الآية: ٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

[أحدُهُما:](٩) ﴿فَصَبۡرٞ﴾ لا جَزَعَ فيهِ ﴿جَمِيلٞ﴾ نَرْضى بما ابْتُلينا بهِ؛ لأنَّ الصَّبْرَ هو كَفُّ النفسِ عنِ الجَزَعِ بذلكَ.

والثاني(١٠): ﴿جَمِيلٞ﴾ لا مكافآتِ فيهِ لأنهمْ بما فَعَلوا بيوسفَ كانوا مُستَوجِبينَ للمُكافآتِ، فقالَ: ﴿فَصَبۡرٞ﴾ كَفُّ النفسِ عنِ الجَزَعِ بذلكَ، وقالَ(١١): ﴿جَمِيلٞ﴾ لا مُكافأةَ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي وباللهِ أستَعينُ على الصبرِ بما تَصِفونَ، أو يقولُ: بهِ أستَعينُ على ما تقولونَ مِنَ الكَذِبِ حينَ تَزْعُمونَ أنَّ الذئبَ أكلَهُ ونَحْوَهُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ السَّيّارةُ هي جَماعةُ السائرينَ كالمسافرةِ(١٢) ﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ الواردُ هو

---

(١) في الأصل وم: يكون. (٢) في الأصل وم: من. (٣) في الأصل وم: يقول. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: عن. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: ذلك. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: كالمسافر.

جنة السنة

طالبُ الماءِ ومُستقِيه ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي أرسلَ دَلْوَهُ في البئرِ [فلما][1] وجدَهُ ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ قالَ بعضُهُم: ﴿يَٰبُشْرَىٰ﴾ هو اسمُ ذلكَ الرجلِ الذي كانَ معَ المُدْلي الدلْوَ، فقالَ لهُ: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ كما يُقالُ: يا فلانُ هذا غلامٌ. وقالَ بعضُهُم: هو مِنَ البِشارةِ؛ كأنهُ قالَ: أبْشِرْ بهذا الغلامِ.

وفي بعضِ القراءاتِ[2]: ﴿يا بُشْرايَ﴾ على الإضافةِ[3] إلى نفسِهِ؛ فكأنهُ بَشَّرَ نفسَهُ، أي البُشْرى لي بهذا الغلامِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ كِنايةَ كلامٍ كانَ هنالكَ، لم يُبيِّنْ لنا ذلكَ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ، كقولِهِ: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢١] أُخْبِرَ أنهُ أقْسَمَ، لكنْ لم يُبيِّنْ لنا ما ذلكَ القسَمُ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ قالَ بعضُهُم: الإسرارُ هو اسمُ الإخفاءِ والإظهارِ جميعاً كقولِهِ ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ [سبأ: ٣٣] أي أظهَروا الندامةَ. فإنْ كانَ ما ذَكَرَ أنهُ اسمٌ لهما جميعاً فكأنهُ قالَ: أظْهَروهُ[4] بضاعةً. فإنْ كانَ على حقيقةِ الإخفاءِ والإسرارِ[5] فهو على الإضمارِ كأنهُ قالَ: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ على ما كانَ، وأظهَروا ﴿بِضَٰعَةً﴾ لئلا يطلُبَ أصحابُهُم في ذلكَ شِرْكَةً ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي عليمٌ بما عَمِلَ إخوةُ يوسفَ بيوسفَ، أو عليمٌ بما عَمِلَ السَّيارةُ مِنَ الإسرارِ والإظهارِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ أي باعوهُ ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ قالَ بعضُهُم: البَخسُ هو النُّقصانُ أي باعوهُ بِثَمَنٍ لا يُباعُ مِثلُهُ [بِمِثلِهِ][6]. وقالَ بعضُهُم: البَخسُ الظُّلْمُ؛ باعوهُ[7] ظُلْماً، وأخذوا ثَمَنَهُ ظُلماً لأنهُم باعوهُ حَراماً، وبَيعُ الحَرامِ حَرامٌ، وأخذوا ثَمَنَهُ حَراماً، لأنَّ ثَمَنَ الحَرامِ حَرامٌ.

وقالَ بعضُهُم: ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ﴾ مُبَهْرَجَةٍ وزَيفٍ ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [حينَ باعوهُ][8] بِثَمَنِ الدُّونِ والنُّقصانِ بما لا يُباعُ مِثلُهُ بِمِثلِ ذلكَ الثمَنِ خَشْيَةَ أنْ يَجيئَهُم طالبٌ لِما علموا أنَّ مثلَ هذا، لو كانَ مَملوكا لا يُتْرَكُ هكذا، لا يُطْلَبُ، فباعُوهُ بأدنى ثَمَنٍ يكونُ لهُم، لا كما يبيعُ الرجلُ ملكَهُ على رَغبةٍ منهُ خَشْيَةَ الطَّلَبِ والاستِنقاذِ مِن أيديهِم.

وقالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: قولُهُ ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ إنَّ إخوَةَ يوسفَ هُمُ الذينَ باعوهُ مِنَ السيارةِ ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي لم يَعْرِفوا مَنزِلَتَهُ ومكانَهُ، والأوَّلُ أشبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي كانوا في شِرائِهِ مِنَ الزاهدِينَ، أي خافوا مِنَ الثمنِ أن كانَ مَسروقاً.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أي مُقامَهُ ومَنزِلَتَهُ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ إنْ صَدَقَ التُّجّارُ[9] أنهُ بِضاعةٌ عندهُم ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ إنْ ظَهَرَ أنهُ مَسروقٌ وأنهُ حُرٌّ لِما وَقَعَ عندهُم أنَّ البِضاعةَ لا تُباعُ بِمِثلِ ذلكَ الثمنِ باعوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ تأويلُهُ: كما مَكَّنّا ليوسفَ عندَ العزيزِ وامرأتِهِ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية: ٢٢] نُمكِّنُكَ عندَ أهلِ [الأرضِ][10]. ولكنْ ذَكَرَ ﴿مَكَّنَّا﴾ على الخَبَرِ لأنهُ كانَ مُمَكَّناً في هذا اليومِ عندَ العزيزِ والمَلِكِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ[11] ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ أي وكذلكَ جعَلْنا ليوسفَ مكاناً عندَ الناسِ وفي قلوبِهِمْ مكانَ ما خَذَلَهُ إخوَتُهُ، ولم يَعْرِفوا مَكانَهُ ومَنزِلَتَهُ بَعْدَ ما كانَ شِبْهَ المَملوكِ عندَ أُولئكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ هذا قد ذَكَرْناهُ في ما تقدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ أي لا مَرَدَّ لِقَضائِهِ إذا قَضى أمراً كانَ لِقولِهِ: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: القراءة. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/١٥٧. (٤) في الأصل وم: أظهروا. (٥) من م، في الأصل: والإظهار. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: باعوا. (٨) في الأصل وم: حيث باعو. (٩) من م، في الأصل: التجارة. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: قولنا.

جنة السنة

وقولُ أهلِ التأويلِ: إنهُ بِيعَ بِعشرينَ درهماً أو بِعِشرينَ ونَيِّفٍ؛ ذلكَ ممّا لا يُعلَمُ إلا بِخَبَرٍ سِوى أنَّ فيهِ أنهُ بِيعَ بِثَمَنِ الدُّونِ والنُّقصانِ بقولِهِ: ﴿بَخۡسٍ﴾ والبَخْسُ هو النُّقصانُ. يُقالُ: بَخَسْتُهُ أي نَقَصْتُهُ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ [الأعراف: ٨٥ و...] وهو ما قالَ: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ﴾ [هود: ٨٤] وقيلَ: البَخْسُ الظُّلْمُ والحَرامُ، وقد ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ الأشُدُّ هو اشْتِدادُ كلِّ شيءٍ ونهايتُهُ[١] في الكمالِ. ويَحتمِلُ ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ انتِهاءَ بلوغِهِ وانتِهاءَ شبابِهِ أوِ انتِهاءَ عقلِهِ في التمامِ؛ لا يَخلو مِن هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ.

وقولُ أهلِ التأويلِ: ثمانيَ عَشْرَةَ سنةً إلى أربعينَ سنةً لأنهُ بهِ يَتِمُّ، ويَكْمُلُ كلُّ نوعٍ من ذلكَ إلى ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ قولُهُ ﴿حُكۡمٗا﴾ في[٢] الناسِ ﴿وَعِلۡمٗاۚ﴾ في الحُكْمِ. ويَحتمِلُ قولُهُ ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا﴾ أي أعطيناهُ[٣] النُّبُوَّةَ ﴿وَعِلۡمٗاۚ﴾ عِلْمَ الأحاديثِ وتأويلَها على ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ؛ إذا أعطاهُ الحُكْمَ أعطاهُ العِلْمَ، وإذا أعطاهُ العِلْمَ أعطاهُ الحُكْمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يَحتمِلُ الإحسانَ في الأعمالِ أي [مَنْ][٤] عَمِلَ أعمالاً حَسَنَةً صالِحَةً، ويَحتمِلُ الإحسانَ إلى الناسِ [وإلى النفسِ أي مَنْ][٥] أحْسَنَ إليهِمْ، أو أحْسَنَ إلى نَفْسِهِ؛ لا يَخلو مِنَ الأوْجُهِ[٦] الثلاثةِ.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي كذلكَ نَجْزي مَنْ أحْسَنَ صُحْبَةَ نِعَمِ اللهِ وإحسانِهِ، وقامَ بِشُكْرِ ذلكَ. كذلكَ أي مِثْلُ الذي جَزاءُ يوسفَ لا يُريدُ أنْ تَجْزيَ غيرَهُ عينَ ما جَزى يوسفَ، ولكنْ يَجْزيهِ جزاءَ الإحسانِ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿فِي بَيۡتِهَا﴾ أنَّ البيتَ قد يجوزُ أنْ يُضافَ إلى المرأةِ، وإنْ كانَ البَيْتُ في الحقيقةِ لِزَوجِها، على ما أضافَ اللهُ بَيْتَ زوجِها إليها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ المُراوَدَةُ قيلَ: هي الدَّعْوَةُ والطَّلَبَةُ ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ أي دَعَتْهُ إلى نَفْسِها[٧]. وقالَ أهلُ التأويلِ: راوَدَتْهُ، أي أرادَتْهُ ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾.

قيلَ: إنَّ هذهِ الكلمةَ أُخِذَتْ مِنَ الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ، لَيْسَتْ بِعَرَبِيَّةٍ، ونحنُ لا نعرفُ ما أرادَتْ بها. لكنَّ أهلَ التأويلِ: قالَ بعضُهُمْ: تَهَيَّأْتُ لكَ. وفي بعضِ القراءاتِ: هِئْتُ[٨] لكَ بالهمزِ؛ ومَعْناهُ ما ذُكِرَ؛ أي تَهَيَّأْتُ لكَ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ ها أنا لكَ.

[وقولُهُ تعالى][٩]: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ أي أعوذُ باللهِ، وألْجأُ إليهِ ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿رَبِّيٓ﴾ سَيِّدي الذي اشْتَراني[١٠] ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ أي أكْرَمَ مُقامي ومَكاني. دليلُهُ قولُهُ لِزَوجَتِهِ: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [الآية: ٢١] هذا يَدُلُّ أنَّ قولَهُ ﴿أَكۡرِمِي/ ٢٥١ ـ أ/ مَثۡوَىٰهُ﴾ أي أحْسِني مَثْواهُ.

ولكنْ يُشْبِهُ أنْ يكونَ أرادَ بقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ ربُّهُ الذي خَلَقَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بِظُلْمِهِمْ وقتَ ظُلْمِهِمْ. والمَثْوى: المَوضِعُ الذي يُثْوى فيهِ، والثَّواءُ: المُقامُ، والثاوي: المُقيمُ، و﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ قيلَ: أعوذُ باللهِ، وألْجأُ إليهِ، وأتَحَصَّنُ بهِ، و﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إذا خَتَموا بالظُّلْمِ. وأمّا إذا انْقَلَعوا عنهُ فقد أفْلَحوا.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ أمّا ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنها أسْلَمَتْ لهُ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي حَلَّ سَراويلَهُ، وأمثالُ هذا، مِنَ الخُرافاتِ فهذا كلُّهُ ممّا لا يَحِلُّ أنْ يُقالَ في شيءٍ مِنْ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: ونهاية. (٢) في الأصل وم: من. (٣) في الأصل وم: أعطينا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أي. (٦) في الأصل وم: أوجه. (٧) في الأصل وم: نفسه. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/١٥٩. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: اشتراه.

جنة السنة

والدلالةُ على فسادِ ذلكَ [في][1] وجوه:

أحدُها: قولُهُ: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [الآية: ٢٦] ولو كانَ منهُ الإرادةُ والمُراوَدَةُ لم يكنْ لِيَقولَ ذلك عنها[2]، ويُبَرِّئَ نَفْسَهُ مِنْ ذلكَ.

والثاني: قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [الآية: ٢٤] ولو كانَ شيءٌ ممّا ذَكروا مِنْ حَلِّ السَّراويلِ والجُلوسِ بينَ رِجْلَيها لم يكنِ السوءُ مَصْروفاً عنهُ.

والثالثُ: قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الآية: ٥٢] ولو كانَ منهُ ما ذَكَروا لقد خانَهُ.

والرابعُ: [قولُ النِّسْوةِ][3]: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ وقولُها: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [الآية: ٥١].

هذا كلُّهُ يدلُّ أنَّ ما قالَهُ أهلُ التأويلِ فاسدٌ، لا يَحِلُّ أنْ يُتَكَلَّمَ فيهِ بشيءٍ مِنْ ذلكَ. وليسَ في ظاهرِ الآيةِ شيءٌ ممّا قالوا مِنْ قليلٍ ولا كثيرٍ؛ إذْ ليسَ فيهِ سِوَى أنْ ﴿هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾.

ثم تَحْتَمِلُ الآيةُ وجوهاً عندنا:

أحدُها: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾ هَمَّ: عَزْمٍ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هَمَّ: خَطَرٍ، ولا صُنْعَ للعَبْدِ في ما يَخْطِرُ بالقلبِ، ولا مُؤاخَذَةَ عليهِ، [وهو قولُ الحَسَنِ.

والثاني: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾ هَمَّ الإرادةِ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هَمَّ دَفْعٍ. لكنهُ يدخلُ عليهِ][4] قولُهُ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ لو كانَ هَمُّهُ بها هَمَّ دفعٍ لم يكنْ لقولِهِ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ مَعْنًى، لكنهُ يُشْبِهُ أنْ يكونَ: هَمَّ بها [هَمَّ بِقَتْلِها][5] فإذا كانَ هَمَّ بِقَتْلِها، فَرَأى بُرْهانَ ربِّهِ، تَرَكَها[6] لِما لا يَحِلُّ قَتْلُها.

[والثالثُ: كادَ][7] يَهُمُّ بها ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ على الشرطِ؛ كادَ[8] يَهُمُّ بها لولا ما رَأى مِنْ بُرْهانِ ربِّهِ. وهو كقولِهِ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] لولا [أنْ][9] كانَ مِنْ تَثْبيتِنا إياكَ. وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُ إبراهيمَ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] أي لو كانَ هو الذي يَنْطِقُ لَفَعَلَ هو.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: رَأى يَعقوبَ عاضًّا على شَفَتَيهِ. وقالَ بعضُهُمْ: مُثِّلَ لهُ يَعقوبُ، وصُوِّرَ لهُ، فرَآهُ[10] عاضاً على إصْبَعِهِ. وقالَ بعضُهُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: رَأى آيةً مِنْ كتابِ اللهِ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ الآية [الإسراء: ٣٢]. هذا كلُّهُ لا يُدْرَى.

وأصلُ البُرْهانِ الحُجَّةُ، أي لولا ما رَأى مِنْ حُجَّةِ اللهِ، وإلّا كانَ يَهُمُّ بها، ولكنْ لا ندري ما تلكَ الحجَّةُ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

والبُرْهانُ هو الحُجَّةُ والآيةُ: لولا أنْ رَأى حُجَّةَ ربِّهِ وبرهانَ ربِّهِ وآياتِهِ أوِ الرسالةَ. وتُشْبِهُ الحُجَّةُ النُّبُوَّةَ[11].

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ استبقَتْ هي لِتُغْلِقَ الباب، واستَبَقَ هو لِيَخْرُجَ، ويَفِرَّ. لكنَّ قولَهُ: لِتُغْلِقَ البابَ لا يُحْتَمَلُ لأنَّ الأبوابَ كانتْ مُغلَّقةً بقولِهِ: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ ولكنِ استَبَقَتْ هي لِتَحْبِسَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ أي وَجَدا سَيِّدَها، هذا يَدُلُّ أنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [الآية: ٢٣] أي لم يُرِدْ بهِ العزيزَ الذي اشْتَراهُ، ولكنْ [أرادَ][12] العزيزَ الذي خَلَقَهُ لأنهُ قالَ: سَيِّدَها، ولم يَقُلْ سَيِّدَهُما.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: لها. (٣) في الأصل وم: قولها. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: أو هم قتلها، في م: أي هم قتلها. (٦) في الأصل وم: فتركها. (٧) في الأصل وم: والثاني: كان. (٨) في الأصل وم: كان. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فرأى. (١١) في الأصل وم: أي النبوة. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ الإرادة تكونُ معَ الفِعْلِ لأنها كانَتْ لا تَعْلَمُ إرادةَ ضَميرِهِ، فإذَنْ أخبَرَتْ عمَّا عَرَفَتْ مِنَ المَيلِ وإظهارِ الفِعْلِ. وكذلكَ قولُ إخوَةِ يوسفَ ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [الآية: ٨] وكانوا هُمْ لا يَعْرِفونَ ما في ضَميرِهِ مِنَ الحبِّ سِوَى ما ظَهَرَ لهمْ منهُ مِنَ المَيلِ إليهِ وإبداءِ الشَّفَقَةِ لهُ. فهذا يَدُلُّ على ما ذَكَرْنا مِنْ كونِ الإرادةِ معَ الفِعْلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ أي دَعَتْني، والمُراوَدَةُ قد ذَكَرْنا أنها هي الدَّعْوَةُ كقولِهِ: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [الآية: ٦١] أي [سَنَدْعوهُ، ونَطْلُبُ منهُ][١].

فإنْ قيلَ: كيفَ هَتَكَ سِتْرَها بقولِهِ: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾؟ قيلَ: لَيسَ فيهِ هَتْكُ السِّتْرِ عليها، بل فيهِ نَفْيُ العَيبِ والطَّعْنِ عنْ نَفْسِهِ. فالواجبُ على المَرْءِ أنْ يَنْفِيَ العَيبَ، وما يَشينُهُ عنْ نَفْسِهِ على ما فَعَلَ يوسفُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن﴾ كذا، وإنْ كانَ كذا فهو كذا. قالَ بَعضُ أهلِ التأويلِ ذلكَ الشاهدُ هو ابنُ عمٍّ لها، رجلٌ حليمٌ، يقالُ: كذا. وقالَ بعضُهُمْ: شَقُّ القميصِ مِنْ دُبُرٍ هو الشاهدُ وأمثالُهُ. لكنَّ هذا لا يُعْلَمُ مَنْ كانَ ذلكَ الشاهدُ. وقيلَ: صَبِيٌّ في المَهْدِ. ولَيسَ لنا إلى مَعْرفَةِ ذلكَ حاجةٌ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ هذا لأنَّ القَميصَ إذا كانَ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فهو إنما [يَنْقَدُّ مِنْ دَفْعِهِ][٢] عنْ نَفْسِها، وإذا كانَ القَميصُ مَقدوداً مِنْ دُبُرٍ فهو إنما يَنْقَدُّ[٣] مِنْ جَرِّها إيَّاهُ إلى نفسِها لا مِنْ دَفْعِها إيَّاهُ عنْ نَفْسِها. هذا هو الظاهرُ في العُرْفِ. لذلكَ قالَ الشاهدُ ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾ فهو مِنْ كذا ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

الآية ٢٨ [وقولُهُ تعالى][٤]: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ الآية استَدَلَّ على أنهُ إنما تَمَزَّقَ مِنْ جَرِّها إيَّاهُ [إلى نَفْسِها لا مِنْ دَفْعِها إيَّاهُ عنْ نَفْسِها][٥].

ففيهِ دلالةُ جوازِ العملِ بالاجْتِهادِ لأنَّ القَميصَ في الغالبِ لا يَتَمَزَّقُ مِنْ دُبُرٍ إلَّا عنْ [جَرٍّ مِنْ وَراءٍ][٦]، ولا مِنْ قُبُلٍ إلا عَنْ دَفْعٍ مِنْ قُدَّامٍ. لذلكَ دلَّ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ، وإنْ كانَ يجوزُ أنْ يكونَ في الحقيقةِ على غيرِ ذلكَ، لكنْ نَظَرَ إلى الغالبِ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: قولُهُ: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ﴾ [الآية: ٢٥] أي شَقَّتْ ومَزَّقَتْ، ومَقدودٌ أي مَشقوقٌ ﴿مِن دُبُرٍ﴾ أي مِنْ خَلْفٍ، و﴿مِن قُبُلٍ﴾ أي مِنْ قُدَّامٍ، وهو مأخوذٌ مِنَ القُبُلِ مِنْ قُبُلِ المَرأةِ. وقولُهُ: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ ولم يَقُلْ سَيِّدَهُما. فهذا يدلُّ على ما ذَكَرْنا أي عندَ البابِ، وهو ظاهرٌ، أي وجَدَ سَيِّدَها عندَ الباب.

وفي قولِهِ: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ فهو كذا [وقولِهِ][٧] [﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ فهو مِنْ كذا][٨] دلائلُ يُسْتَدَلُّ بها [في مَسائِلَ][٩] لأصحابِنا.

مِنْ ذلكَ قولُهُمْ: في حانوتٍ فيه لُؤْلُؤٌ وإهابٌ، تَنازَعَ فيهِ دَبَّاغٌ ولُؤْلُئِيٌّ، فإنهُ يُقْضَى باليَدِ لِكُلِّ واحدٍ منهما في ذلكَ: لِلُّؤْلُئِيِّ باللُّؤْلُؤِ ولِلدَّبَّاغِ بالإهابِ، باليَدِ يُسْتَدَلُّ بغالِبِ الأمرِ، وظاهِرُ اليَدِ الغالبَةُ، وإنْ كانَ يجوزُ في الحقيقةِ على خِلافِ الظاهِرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ كَيدُها أنها لمَّا راوَدَتْهُ[١٠] عنْ نَفْسِهِ، وامْتَنَّهُ على إظهارِ ذلكَ وعَدَمِ[١١] إفشائِهِ عليهِ، أفْشَتْ[١٢] عليهِ ذلكَ. حينَ[١٣] أبى إجابَتَها، فقالَتْ: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ/ ٢٥١ ـ ب/ سُوٓءًا﴾ [الآية: ٢٥] ذلكَ القولُ منها مِنْ كَيدِهِنَّ.

---

(١) في الأصل وم: سندعومنه ونطلب. (٢) في الأصل وم: يتقدم من دفعها. (٣) في الأصل وم: يتقدم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لا من دفعها عن نفسه. (٦) في الأصل: دفع من وراءه، في م: دفع من وراء. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: المسائل. (١٠) في الأصل وم: راودتها. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: فأفشت. (١٣) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وأصْلُ الكَيدِ والمَكْرِ هو الأخذُ على الأمنِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيةِ دلائلُ لِقولِ أصحابِنا في المَتاعِ، يَخْتَلِفُ فيه الزوجان؛ فإنْ كانَ مِنْ مَتاعِ الرجالِ فهو في يَدِ الرجلِ، وإنْ كانَ [مِنْ مَتاعِ النساءِ][1] فهو في يَدِ المرأةِ، وهو[2] قولُ أبي يوسفَ ومحمدٍ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي عنْ قولِهِ: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [الآية: ٢٦] ويُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ عَنْ جميعِ ما كانَ بَينَهما؛ أي اسْتُرْ عليها، ولا تَهْتِكْ عليها سِتْرَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ قالَ لِيوسفَ ذلكَ القائلُ: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ وقالَ للمرأةِ: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ لِما ظَهَرَ عندَهُ أنها التي راوَدَتْهُ، ودَعَتْهُ إلى[3] نفسِها.

ثم اخْتُلِفَ في تأويلِ هذا القولِ: قالَ بعضُهُمْ: هو زوجُها، قالَ لِيوسفَ: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ ولا تَهْتِكْ عليها سِتْرَها، لكنهُمْ قالوا: إنهُ كانَ قليلَ الغَيرةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ذلكَ القائلُ هو رجلٌ آخرُ، هو ابنُ عمٍّ لها، وهذا أشبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: قالَ هذا لها لأنهمْ، وإنْ كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ فإنما[4] يَعْبُدونها لِتُقَرِّبَهُمْ[5] إلى اللهِ زُلْفَى حينَ[6] قالَ لها: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ وقالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: قالَ[7]: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ إلى زوجِكِ لأنكِ[8] خُنْتِهِ.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا يدلُّ أنَّ القائلَ ذلكَ[9] رجلٌ آخرُ لا زوجُها. وإنْ كانَ التأويلُ هو الأوَّلَ فإنهُ يَحْتَمِلُ كِلَيهِما، أيُّهُما كانَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ اسْتَكْتَمَتْ سِرَّها عندَ نِسْوةٍ في المدينةِ، فأفْشَينَ سِرَّها عندَ أهلِ المدينةِ لِيَبْلُغَ ذلكَ الخَبَرُ المَلِكَ، أو إنْ لم تكنْ أعْلَمَتْ ذلكَ النِّسْوَةَ فلا بدَّ مِنْ أنْ يَعْلَمَ ذلكَ بَعْضُ خَدَمِها، فالخادمُ أعْلَمَتْ سِرَّها، وأفْشَتْ عندَ نِسْوةٍ في المدينةِ، فَقُلْنَ عندَ ذلكَ: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي تَدْعو عبدَها إلى نفسِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ قالَ بعضُهُمْ: الشِّغافُ هو حِجابُ القَلْبِ وغِلافُهُ ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي بَلَغَ حُبُّها إياهُ الشِّغافَ، والمَشْغوفُ: قيلَ: المَجْنونُ حباً، وهو من العِشْقِ.

قالَ الحَسَنُ: الشَّعفُ أنْ يكونَ قد بَطَّنَ قَلْبَها[10] حُبُّهُ، والشَّغفُ أنْ يكونَ مَشْغوفاً به.

قالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي دَخَلَ الحبُّ في شَغافِ القَلْبِ، وهو غِطاؤُهُ، وقالَ: مَنْ قَرَأَها: شَعَفَها[11] حُبّاً، أي ذهبَ بِعَقْلِها، أي عَشِقَتْهُ[12].

لكنَّ هذا قولُ أُولئكَ النِّسْوَةِ. فلا نَدري ما أرَدْنَ بذلكَ. إنما ذلكَ خَبَرٌ، أو خَبَرٌ عن قولٍ: قُلْنَ هُنَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حينَ[13] خانَتْ زوجَها، أو ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في حَيرةٍ مِنْ حُبِّهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي بقولِهِنَّ. المَكْرُ هو الأخذُ في حالِ الأمنِ، وهو الخيانةُ في ما ائْتُمِنَ، واسْتُكْتِمَ. فهذهِ كأنها اسْتَكْتَمَتْ سِرَّها وحبَّها لِيوسفَ عنِ الناسِ، وأفْشَتْ ذلكَ النِّسْوَةُ في المدينةِ على أنْ يَسْتَكْتِمْنَ عنِ الناسِ، فأفْشَينَ عليها ذلكَ، فذلكَ المَكْرُ الذي سَمِعَتْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: متاع الناس. (٢) في الأصل وم: في. (٣) في الأصل وم: في. (٤) من م: في الأصل: كأنما. (٥) في الأصل وم: ليقربوهم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: قوله. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: لذلك. (١٠) في الأصل وم: لها. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ١٦٤. (١٢) في الأصل وم: عشقها. (١٣) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

إلى هذا ذهبَ بعضُ أهلِ التأويلِ، وأمكنَ أنْ تكونَ المرأةُ لم تُفْشِ سِرَّها إليهنَّ، لكنَّ بعضَ خَدَمِها التي[1] اطَّلَعتْ على ذلكَ هي التي أفْشَتْ إليهنَّ، فلمّا سَمِعَتْ ذلكَ منهنَّ ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ إمّا تَنويشاً ودُعاءً لِلضِّيافةِ وإمّا استِزادةً يَزِدْنَها.

وأمّا قولُ أهلِ التأويلِ: إنَّ النِّسْوَةَ كانتِ امرأةَ الخبازِ والساقي، ولا [نَدري مِمَّنْ][2] فذلكَ لا نَعْلَمُهُ، وليسَ لنا إلى معرفةِ ذلكَ حاجةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ قالَ الحَسَنُ: مُتَّكَأً: طعاماً وشراباً وتُكأةً. وقالَ بعضُهُمْ: الأُتْرُجُ والتُّرُنْجُ، وقالَ بعضُهُمْ: مُتَّكَأً: وسائدَ وما يُتَّكأُ عليهِ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: مِتْكاءٌ ممدوداً، يعني هَيْئاتٍ لِلمجلِسِ ما يُتَّكأُ عليهِ. ومَنْ قَرأَ مِتْكئ[3] [مقصوراً فهو][4] الأُتْرُجُ، وطعامٌ على ما قالَ الحَسَنُ. وكذلكَ قالَ القُتَبيُّ: قالَ: ويُقالُ: الزماوردُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ أي أعطتْ كلَّ واحدةٍ منهن سِكّيناً، ظاهِرٌ ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ ههنا كلامٌ: أنْ كيفَ أطاعَ يوسفُ بالخروجِ على النساءِ بقولِها إليهِ[5]: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾؟ فذلكَ ممّا لا يَحِلُّ. لكنهُ يُخرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: أنهُ إنما يُكرَهُ الدخولُ عليهِنَّ والخَلْوَةُ بِهِنَّ. وأمّا الخروجُ عليهِنَّ فهو لَيسَ بِمَكْروهٍ؛ إذْ فيهِ الخروجُ [مِنْ عِندِهِنَّ][6] لأنَّهُ إذا خَرَجَ عليهنَّ كانَ يَقْدِرُ أنْ يَخرُجَ [مِنْ عِندِهِنَّ][7]. فكأنهُ لمّا[8] أذِنَتْ لهُ بالخروجِ عليهنَّ خَرَجَ رَغْبةً أنْ يَخرُجَ مِنْ عندِهِنَّ إذْ لم يَقْدِرْ أنْ يَخرُجَ مِنَ البيتِ عليهنَّ بغيرِ إذنٍ منها.

[والثاني: الأمرُ][9] بالخروجِ عليهِنَّ أفادَ لهُ إذناً بالخروجِ مِنَ البَيْتِ إذْ لا سَبيلَ لهُ إلى الخروجِ منهُ بلا إذنٍ لهُ منها، فَخرَجَ عليهِنَّ ثَمَّةَ مِنْ عندِهِنَّ إلى غَيرِهِ مِنَ المكانِ، وذلكَ ممّا لا يُكرَهُ إذا كانَ لا سَبيلَ إلى سِواهُ.

[والثالثُ: يُشْبِهُ][10] أنْ يكونَ منها الأمرُ بالخروجِ حَسَباً إذا خَرَجَ، ولم تَقُلْ عليهِنَّ، ولم تُعْلِمْ يوسفَ أنها تأمُرُهُ بالخروجِ على النساءِ فَخرَجَ. لكنَّ اللهَ ﷻ أخبَرَ عن مَقْصُودِها، وكانَ مَقْصُودُها مِنَ الأمرِ بالخروجِ خُروجاً عليهِنَّ، فأخبَرَ عن مَقْصُودِها بقولِهِ: ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ ومثلُ هذا قد يكونُ في الكلامِ.

[والرابعُ: جائزٌ][11] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أي عَنْهُنَّ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ: على مَكانَ عن كقولِهِ ﴿إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [المطففين: ٢] أي عنِ الناسِ، وأمثالُهُ كثيرٌ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ مُشْتَرِيَ يوسفَ [كانَ يَمْنَعُ يوسفَ][12] عن أنْ يَخرُجَ إلى البَلَدِ والسوقِ ومن أنْ يُخالِطَهُ الناسُ إمّا إشفاقاً على نَفْسِهِ، أو لئلّا تُفْتَنَ بهِ النساءُ، أو لئلّا يَطَّلِعَ على نَفْسِ يعقوبَ لِما وَقَعَ عندَهُ أنهُ مَسْروقٌ. فكيفَ ما كانَ ففيهِ أنَّ على المَرْءِ أن يَحْفظ ولَدَهُ، أو عبدَهُ إشفاقاً عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي أكبَرْنَهُ، وأعظَمْنَهُ مِنْ حُسْنِهِ أنْ يكونَ مِثْلُ هذا بَشَراً.

ألا تَرى أنهنَّ قُلْنَ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ و﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؟ قيلَ: حَزَزْنَ[13] حَزًّا بالسكينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾قالَ أهلُ التأويلِ: أي معاذَ اللهِ. وقالَ بعضُهُمْ ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ كلمةُ تَنْزيهٍ مِنَ القُبْحِ.

وَدَلَّ هذا القولُ منهنَّ أنهنَّ كُنَّ يُؤمِنَّ باللهِ حينَ[14] قُلْنَ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

[ودَلَّ قولُهُنَّ][15]: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [أنَّ المَلَكَ كانَ، وإنْ لم يَرَوْهُ، حَسَناً][16] عندَهُمْ، ويَنسُبونَ[17] كلَّ حَسَنٍ إلى الملائكةِ، والشيطانُ، لَعَنَهُ اللهُ، قبيحٌ، فَنَسَبوا كلَّ قَبيحٍ إليهِ.

(١) في الأصل وم: الذي. (٢) في الأصل وم: أدري من ماذا. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ١٦٥. (٤) في الأصل وم: مقصور هو.
(٥) في الأصل وم: إياه. (٦) و(٧) في الأصل وم: منهن. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: أما الخروج. (٩) في الأصل وم: فالأمر. (١٠) في الأصل وم: يشبه. (١١) في الأصل وم: وجائز. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: حزا. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل وم: قوله. (١٦) في الأصل وم: كان الملك وإن لم يرونه حسن. (١٧) الواو ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقولُهُ(١) تعالى: ﴿بَشَرًا﴾ قَرَأ بعضُهُم بِشرىً(٢) بالتنوينِ أي ما هذا بِمُشترىً.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ بقولِهِنَّ: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي إنكُنَّ لُمتُنَّني فيهِ/ ٢٥٢ ـ أ/ [أني راوَدْتُهُ](٣) عن نَفْسِهِ، وأنتنَّ قَطَّعْتُنَّ أيديَكُنَّ إذ رأيتنَّهُ(٤)، وأنكَرْتُنَّ أن يكونَ هذا بَشراً، فذلكَ أعظَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي دَعَوتُهُ إلى نفسي ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ قيلَ: امْتَنَعَ كقولِهِ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٤٣] أي لا مانِعَ.

ويُشْبِهُ قولُهُ: ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ باللهِ أو بدينِهِ ونُبُوَّتِهِ أو بِعَقْلِهِ. هذا يَدُلُّ على أنهُ لم يكُنْ منهُ ما قالَ أهلُ التأويلِ مِن حَلِّ السراويلِ ونَحْوِهِ حينَ(٥) قالَتْ ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ قالَتْ ذلكَ امرأةُ العزيزِ ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُها ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ في السجنِ، أو ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ﴾ المُذَلِّينَ ﴿ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [والصاغِرُ](٦) هو الذليلُ لأنهُ قالَ ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [الآية: ٢١] فكانَ مُكرَّماً عندَها مُعَظَّماً.

فلمّا [أبى ما راوَدَتْهُ قالَتْ](٧) ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي مِنَ الذليلينَ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ فيهِ دلالةُ أنهُ قد كانَ منهنَّ مِنَ المُراوَدَةِ والدعاءِ ما كانَ مِنِ امرأةِ العزيزِ مِنَ المُراوَدَةِ والدعاءِ إلى نفسِها حينَ(٨) ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾.

ألا ترى أنهُ قالَ في مَوضِعٍ آخرَ: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾؟ [الآية: ٥١] وكذلكَ قالتِ امرأةُ العزيزِ: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [الآية: ٣٢] أي كُنتُنَّ لُمتُنَّني فيهِ أني راوَدْتُهُ عن نفسِهِ، وأنتُنَّ قد راوَدْتُنَّهُ عن نفسِهِ، وقولُ يوسفَ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ أي ذلكَ الذلُّ والصَّغارُ أحبُّ إليَّ أي آثَرُ عندي وأخيَرُ ممّا يَدعونَني إليهِ؟ وإنْ كانَ ما يَدْعونَهُ إليهِ تهواهُ نفسُهُ، وتَميلُ إليهِ، وتحبُّهُ. فأخبَرَ أنَّ السِّجنَ أحبُّ إليهِ أي آثَرُ وأخيَرُ في الدينِ؛ إذِ النَّفْسُ تَكرَهُ السِّجنَ، وتَنفُرُ عنهُ.

ألا ترى أنهُ قالَ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؟ فهذا يدلُّ على أنَّ ما ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ إنما أرادَ بهِ مَحبّةَ الاختيارِ والإيثارِ في الدينِ لا مَحبَّةَ النفسِ واختيارَها. بل كانتِ النفسُ تُحِبُّ، وتَهْوى ما يَدْعونهُ إليهِ. دليلُهُ قولُهُ: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وليسَ الدعاءُ في قولِهِ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ كما يقولُ بعضُ الناسِ: إنهُ إنما وَقَعَ في السجنِ لأنهُ سألَ ربَّهُ السِّجنَ، فاستَجابَ(٩) لهُ في ذلكَ، ولكنَّ الدعاءَ في قولِهِ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ وهو كقولِ آدمَ وحواءَ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآية [الأعراف: ٢٣].

ليسَ الدعاءُ في قولِهِما(١٠): ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [لأنهُ إخبارٌ عمّا كانَ منهُم، إنما الدعاءُ في قولِهِ: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وكذلكَ قولُ نوحٍ: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وفي](١١) قولِهِ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ دلالةُ أنَّ عندَ اللهِ لطفاً(١٢)، لم يكُنْ أعطى يوسفَ ذلكَ؛ إذ لو كانَ أعطاهُ لكانَ كَيدُهُنَّ وشَرُّهُنَّ مصروفاً [عنهُ حينَ](١٣) قالَ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ ولو كانَ أعطى ذلكَ لم يكنْ لِسُؤالِهِ ذلكَ مَعنىً.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ١٦٨. (٣) من م، في الأصل: أراوده. (٤) في الأصل وم: رأيتن. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أتى ما راودته فقالت. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: فاستجيب. (١٠) في الأصل وم: قوله. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: لطف. (١٣) في الأصل وم: عند حيث.

جنة السنة

فهذا يَنقُضُ على المُعتَزِلةِ قولَهُمْ حينَ[1] قالوا: إنَّ اللهَ قد أعطى كُلًّا قُدرَةَ كلِّ طاعةٍ وقُوَّةَ كلِّ خيرٍ والدَّفعَ عن كلِّ شرٍّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي لا أحدَ يَملِكُ صَرفَ كيدِهِنَّ عني إنْ[2] لم تَصرِفْهُ أنتَ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾ [هود: ٤٧] وهو أبلَغُ في الدعاءِ مِن قولِهِ: اللهمَّ اغفِرْ لي وارْحَمْني.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أمِلْ إليهِنَّ، وقالَ بعضُهُمْ: قال: لو لم تَصرِفْ عني كيدَهنَّ لَتابَعتُهُنَّ؛ ويقالُ: الصَّبْوُ هو الخروجُ مِنَ الأمرِ؛ يقالُ: كلُّ مَن خرَجَ مِن دينِهِ فقد صَبَأَ، وبهذا كانَ المشركونَ يُسَمّونَ النبيَّ ﷺ صابِئاً، أي خَرَجَ مِمّا نَحنُ عليهِ. وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: الأَصْبُ هو الأمرُ المُعجِبُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي يكُنْ فِعلي فِعلَ الجُهّالِ لا فِعلَ العُلَماءِ والحُكَماءِ إنْ لم تَصرِفْ عني كيدَهُنَّ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ أي أجابَ لهُ ربُّهُ، فصَرَفَ عنهُ كيدَهُنَّ.

هذا يدلُّ على أنَّ الدعاءَ كانَ في قولِهِ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ ليسَ في قولِهِ: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ إنما هو خَبَرٌ أخبَرَهُ حين[3] أخبَرَ أنهُ أجابَ لهُ ربُّهُ، فصَرَفَ كيدَهُنَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميعُ لكلِّ قولٍ وكلامٍ، خفيًّا كانَ على الخَلْقِ أو ظاهراً. العليمُ بهِ لا يَخفى عليهِ شيءٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ دلالةٌ أنهنَّ كنَّ يَدعونَهُ إلى ذلكَ مِن وجهٍ، كانَ يَخفى[4] عليهِ، ولم يَشعُرْ بهِ، فالتَجأَ إلى اللهِ في صرفِ ذلكَ عنهُ.

الآية ٣٥ [وقولُهُ تعالى][5]: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ذُكِرَ في بعضِ القصةِ أنها قالَتْ لِزَوجِها: ما زالَ يوسفُ يُراوِدُني عن نفسي، فأبَيتُ عليهِ، فصَدَّقَها، فحَبَسَهُ في السجنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: هو قَدُّ القميصِ مِن دُبُرِهِ وخَمْشُ الوجهِ [وغيرُ ذلكَ][6].

ولكنهُ يُشبِهُ أنْ تكونَ الآياتُ التي رَأوها، هي آياتُ نُبُوَّتِهِ ورسالَتِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: حَبَسوهُ لِيَنفُوا عنِ المرأةِ ما رُمِيَتْ بهِ، ولِيَنقَطِعَ ذلكَ عنِ الناسِ، ويموتَ ذلكَ الخَبَرُ، ويذهبَ فيهِ أنهم حَبَسوهُ بعدَ ما رَأوا آياتِ عصمَتِهِ وبراءَتِهِ عمّا اتَّهَموهُ وأنهم ظَلَمَةٌ في حَبْسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ الفَتَيانِ: قيلَ: عبدانِ[7] لِلْمَلِكِ، غَضِبَ عليهِما المَلِكُ ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أرضٌ، يُدعى العِنَبُ بها خمراً، أو سُمِّيَ خمراً باسْمِ سَبَبِهِ أو باسْمِ أصْلِهِ. وجائزٌ في اللُّغَةِ تَسمِيَةُ الشَّيءِ باسْمِ سَبَبِهِ أو باسْمِ أصْلِهِ.

[وقولُهُ تعالى:][8] ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾ كانَ أحدُهُما خَبّازاً للملكِ، والآخَرُ ساقِيَهُ ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إحسانُهُ في السِّجنِ لِما كانوا رَأَوهُ يُداوي المَرضَى، ويُعَزّي حزينَهُمْ، ويَجتَهِدُ في نفسِهِ في العِبادةِ لربِّهِ. هذا يُحتَمَلُ، [أو][9] لَعَلَّهُ كانَ يَبَرُّ أهلَ السِّجنِ، ويَصِلُهُمْ، ويَجتَهِدُ في العِبادةِ للهِ في الصلاةِ لهُ والصومِ وأنواعِ العِبادةِ التي تكونُ في ما بَينَهُ وبينَ ربِّهِ، فَسَمَّياهُ[10] مُحسِناً لذلكَ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ [ما][11] قالوا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لِما آتاهُ ربُّهُ سِيماءَ الخَيرِ وآثارَهُ، أو يَدعوهُمْ إلى توحيدِ اللهِ والعِبادةِ لهُ [وخَلْعِ أنفُسِهِمْ][12] عن عبادةِ الأصنامِ والأوثانِ والانتِزاعِ مِن ذلكَ، فَسَمَّوهُ[13] مُحسِناً لذلكَ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لِما رَأَوهُ أحسَنَ إلى أهلِ السجنِ، ويَحتَمِلُ الإحسانُ ههنا العِلْمَ: إنا نَراكَ مِنَ العالِمينَ، وهو قولُ الفَرّاءِ.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: لو. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: لا. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم: وغيره. (٧) في الأصل وم: عبدين. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فسماه. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: وخلقهم. (١٣) في الأصل وم: فسمياه.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ سَمّى التَّعبيرَ تأويلاً؛ لأنَّ التأويلَ هو الإخبارُ عنِ العواقبِ. لِذلكَ سَمَّياهُ[1] تأويلاً، ثم خَرَّجَ تأويلَ الذي كانَ يَعْصِرُ الخَمْرَ على العَوْدِ إلى ما كانَ في أمْرِهِ مِنَ السَّقْيِ للملكِ، وهو كانَ ساقِيَهُ على ما ذَكَرنا. فلما رأى أنهُ دامَ على أمرِهِ أوَّلَ بالعَوْدِ إلى أمْرِهِ الذي كانَ فيهِ.

والآخَرُ كانَ خبّازاً على ما ذُكِرَ، وهو إنما كانَ يَخْبِزُ للناسِ. فلمّا رأى أنهُ حَمَلَ الخُبْزَ على رأسِهِ، وأنهُ تأكُلُ الطيرُ منهُ، عَلِمَ أنهُ يُخْرَجُ مِنَ الأمرِ الذي كانَ فيهِ. وخُروجُهُ يكونُ بِهلاكِهِ؛ لأنهُ كانَ / ٢٥٢ ـ ب/ مِنْ قَبْلُ يَخْبِزُ للناسِ، فصارَ يَخْبِزُ لِغَيرِهِمْ. فاسْتَدَلَّ بذلكَ على خُروجِهِ مِنْ أمرِهِ وعَمَلِهِ. لكنهُ أخْبَرَ أنهُ يُصْلَبُ لأنهُ كانَ قائماً مُنْتَصِباً، فأوَّلَ على ما كانَ أمْرُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ هذا، واللهُ أعلَمُ، كانَ يقولُ لهمْ ذلكَ لِيُعَرِّفَهُمْ أنَّ عندَهُ عِلْمَ ما لا يَحتاجُ إليهِ. فَعِلْمُ ما يَحتاجُ إليهِ أحْرى أنْ يَعْلَمَ ذلكَ. وهذا، واللهُ أعلَمُ، منهُ احْتِيالٌ لِيَنْزِعَهُمْ عمّا همْ فيهِ مِنْ عبادةِ الأوثانِ عبادتِهِمْ غيرَ اللهِ، ويُرَغِّبَهُمْ في توحيدِ اللهِ وصَرْفِ العِبادةِ إليهِ.

ولهذا قالَ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ هذا باللطفِ ما أضافَ إليهِ أنهُ علَّمَهُ، وإلّا باخْتِلافِ الملائكةِ إليهِ، وذلكَ لُطْفٌ مِنَ اللهِ تعالى للرسلِ، عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، اي لا يأتيكُما طعامٌ، رأيتُما آثارَ ذلكَ في المَنامِ، إلّا نَبّأتُكما بِتأويلِ ذلكَ [قبلَ أنْ يأتيَ ذلكَ][2].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أخبَرَ أنهُ ترَكَ ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وقولُهُ: ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ ليسَ أنهُ كانَ [فيها، ثم ترَكَها، ولكنْ تَرَكَها ابْتِداءً ما لو لم يَكُنْ تَرَكَها][3] كانَ آخِذاً بِغَيرِها.

وهو كقولِهِ: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الرعد: ٢] ليسَ أنها كانَتْ مَوضوعةً، فَرَفَعها، ولكنْ رَفَعَها أوّلَ ما خَلَقَها، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠] ليسَ أنها [كانَتْ مَرفوعةً، ثم وَضَعَها، اي أنشَأها][4] مَرفوعةً ومَوضوعةً، وكقولِهِ ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ليسَ أنهمْ كانوا فيها، فأخرَجَهُمْ، ولكنْ عَصَمَهُمْ حتى لم يدخُلوا فيها. فَعَلى ذلكَ الآيةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قالَ في الآيةِ الأولى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وأخبَرَ أنهمْ ﴿كَٰفِرُونَ﴾ [الآية: ٣٧] باللهِ واليومِ الآخِرِ [وفيهِ أنَّ مَنْ لم يُؤمِنْ باللهِ واليومِ الآخِرِ][5] فهو كافرٌ.

فهذا يَنْقُضُ على المُعْتَزِلَةِ [قولَهُمْ حينَ][6] جَعلوا بينَ الكُفرِ والإيمانِ رُتْبَةً ثالثةً، ويوسفُ يُخْبِرُ أنَّ مَنْ لمْ يؤمِنْ باللهِ [واليومِ الآخِرِ][7] فهو كافرٌ. وهُمْ يقولونَ: صاحِبُ الكبيرةِ غيرُ مؤمنٍ باللهِ، وهو ليسَ بكافرٍ.

ثم أخبَرَ أنهُ تَرَكَ مِلَّةَ أولئكَ الذينَ لا يؤمنونَ باللهِ، واتَّبَعَ مِلَّةَ آبائِهِ إبراهيمَ ومَنْ ذَكَرَ. ثم أخبَرَ عنْ مِلَّةِ آبائِهِ، وهي[8] ما ذَكَرَ: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ عَرَّفَهُمْ مِلَّةَ آبائِهِ ودينَهُمْ، وهو تَرْكُ الإشراكِ باللهِ، وجَعْلُ الألوهيَّةِ لهُ، وصَرْفُ العبادةِ إليهِ.

وفيهِ أنَّ المِلَّةَ ليسَتْ إلّا مِلَّتَينِ: مِلَّةَ كُفْرٍ ومِلَّةَ [إسلامٍ][9] وأخبَرَ أنَّ مَنْ لم يَكُنْ في مِلَّةِ الإسلامِ كانَ في مِلَّةِ الكُفْرِ، ثم خَصَّ بالذِّكْرِ هؤلاءِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ لأنَّ هؤلاءِ كانوا مُكَرَّمينَ عندَ الناسِ كافَّةً، كلُّ أهلِ الدينِ يَدَّعونَ أنهمْ على دينِ أولئكَ، فأخبَرَ أنهمْ على دينِ الإسلامِ.

---

(١) في الأصل وم: سموا. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: فيه ثم تركه، في م: فيه ثم تركه ولكن ابتداء ما لو لم يكن تركه. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وهو. (٩) في م: الإسلام، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

والحنيفُ المُخلِصُ ليسَ ما تزعُمونَ [أنهُ غيرُ مُسلِمٍ](١) ولهذا قالَ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وفي قولِهِ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ دلالةُ أنَّ الكفرَ كُلَّهُ مِلَّةٌ واحدةٌ حينَ(٢) أخبرَ أنهُ تركَ ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ على اختلافِ مذاهبِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أي ذلكَ الدينُ والمِلَّةُ التي أنا عليها وآبائي ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ لأنهُ ﷻ فطرَ الناسَ على فِطرَةٍ، يَعرِفونَ وَحدانيَّةَ اللهِ ورُبوبيَّتَهُ بِعُقولٍ، ركَّبَ فيهِمْ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضلَ اللهِ وما ركَّبَ فيهِمْ مِنَ العقولِ. أو ذلكَ الدينُ والهدايةُ الذي أعطاهُمْ مِنْ فضلِ اللهِ، لكنَّ الناسَ يَترُكونَ ذلكَ [الدينَ](٣) وتلكَ الهدايةَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحدُهما: لمّا سُئِلَ يوسفُ](٤) عنْ تأويلِ الرُّؤْيا دعاهُمْ إلى توحيدِ اللهِ، ودلَّهُمْ عليهِ، فقالَ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ وقالَ: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي عبادةُ ربٍّ واحدٍ وإرضاؤُهُ خيرٌ أم عبادةُ عددٍ وإرضاءُ نفرٍ؛ لأنهُ إذا عَبَدَ بعضاً، واجتَهَدَ في إرضائِهِمْ أسخَطَ الباقينَ. فلا سَبيلَ إلى الوصولِ إلى مقصودِهِ والظَّفَرِ بحاجتِهِ إذاً(٥) لم يَقدِرْ على إرضائِهِمْ جميعاً، وإنِ اجتَهَدَ، وأمّا الواحدُ فإنهُ يَقدِرُ على إرضائِهِ إذاً(٦) لا يزالُ في عبادتِهِ وإرضائِهِ، فَيَصِلُ إلى حاجتِهِ والظَّفَرِ بمقصودِهِ.

والثاني: يُخبِرُ أنَّ الواحدَ القهّارَ يَقهَرُ غيرَهُ مِنَ الأربابِ ومَنْ تَعبُدونَ. فعبادةُ الواحدِ القهّارِ خيرٌ مِن عبادةِ عددٍ مقهورينَ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ﴾ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ ﴿إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾ آلهةً ﴿أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ ولا يَستَحِقّونَ العِبادةَ ولا التَّسميةَ بالألوهيَّةِ. إنما المُستَحِقُّ لذلكَ الذي خلَقَكُمْ وخلَقَ السمواتِ والأرضَ ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي ما أنزَلَ اللهُ على ما عَبَدتُمْ(٧)، وسَمَّيتُمْ أنتمْ وآباؤُكُمْ آلهةً. مِنْ حُجَّةٍ [وبرهانٍ.

وقولُهُ تعالى:](٨) ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحُكْمُ في الألوهيَّةِ والربوبيَّةِ والعبادةِ إلّا للهِ.

أو يقولُ: ما الحُكْمُ في الخلقِ إلّا للهِ كقولِهِ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] أي لهُ الخلقُ، ولهُ الأمرُ في الخلقِ. وأمرَ ألّا تعبُدوا إلا إيّاهُ. حُكمُهُ هذا أمرُ ألّا تعبُدوا إلّا إيّاهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي عبادةُ اللهِ وتوحيدُهُ هو الدينُ القيِّمُ؛ لأنهُ دينٌ قامَ عليهِ الحُجَّةُ والبُرهانُ. وأمّا سائرُ الأديانِ فليسَتْ بِقَيِّمَةٍ؛ إذْ لا حُجّةَ قامَتْ عليها، ولا بُرهانَ. والقَيِّمُ هو القائمُ الذي قامَ بِحُجَّةٍ وبُرهانٍ. وقالَ أهلُ التأويلِ: القَيِّمُ المُستقيمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَحتَمِلُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لِما [لم](٩) يَتفكَّروا فيهِ، ولم يَنظُروا، فلم يَعلَموا. ولو نظَروا فيهِ، وتفكَّروا لَعَلِموا. وهذا يَدُلُّ أنَّ العُقوبةَ تَلزَمُ، وإنْ جَهِلَ، إنْ أمكَنَ لهُ العِلْمُ بهِ، فلا عُذرَ لهُ في الجَهلِ إذاً(١٠) أمكَنَ لهُ العِلْمُ.

[ويَحتَمِلُ](١١): عَلِموا، لكنَّهُمْ لم يَنتفِعوا بِعِلمِهِمْ، فَنَفى عنهُمُ العِلْمَ لِذلكَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنهُ أوَّلُ رُؤْيا الساقي، وعبَّرَها على العَودِ إلى ما كانَ مِنْ قبلُ لِما رَأى أنهُ كانَ عَمِلَ على ما كانَ يَعمَلُ مِن قَبلُ.

---

(١) في الأصل وم: أنهم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يوسف لما سئل. (٥) في الأصل وم: إذ. (٦) في الأصل وم: إذ. (٧) في الأصل وم: عبدتموهم. (٨) في الأصل وم: ولا برهان. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: إذ. (١١) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

وعَبَّرَ رؤيا الخبازِ بالهلاكِ لِما رأى أنهُ حَمَلَ الخُبْزَ على رأسِهِ[1]. والخُبْزُ إذا خَبَزَ الخبازُ لا يَحْمِلُهُ على رأسِهِ. فرأى أنهُ قدِ انتهى أمرُهُ أنْ عَمِلَ على خِلافِ ما كان يَعْمَلُ مِنْ قَبْلُ ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ فَعَبَّرَ أنهُ يُصْلَبُ ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ لِما رَأى أنهُ حَمَلَ الخُبْزَ على رأسِهِ، لِما كانَ يَخْبِزُ مِنْ قَبْلُ للعبادِ. فلما رَأى أنهُ خَبَزَ لِغَيْرِهِمْ[2] عَبَّرَ أنهُ يُصْلَبُ[3] ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: إنهُ لمّا عَبَّرَ لهما رُؤْياهما قالَ الذي عَبَّرَ لهُ الصَّلْبَ والقَتْلَ: لم أرَ شيئاً، إنما كُنّا نَلْعَبُ، فقالَ لهما يوسفُ: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي فَرَغَ، وانْتَهى. لكنّ هذا لا يُعْلَمُ، أقالا ذلكَ أم لم يَقولا سِوَى أنّ فيهِ أنهُ عَبَّرَ رُؤْياهما؟ وكانَ ما عَبَّرَ لهما. وقد عَلِمَ ذلكَ بِتَعْليمٍ مِنَ اللهِ إيّاهُ بقولِهِ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [الآية: ٣٧].

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: [إن كانَ الظانُّ][4] الذي صَدَّقَ، هو ذلكَ الرجلَ، كانَ[5] الظَّنُّ في مَوضِعِ الظَّنِّ/ ٢٥٣ - أ/ وإنْ كانَ الظانُّ هو يوسفَ فهو عِلْمٌ ويقينٌ؛ أي عَلِمَ وأيقَنَ ﴿أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ لأنهُ لا يَحْتَمِلُ على حقيقةِ الظَّنِّ مِنْ يوسفَ. أي وقالَ للذي، ناجٍ منهما، ظَنَّ أنهُ يذكُرُهُ عندَ ربِّهِ، وهو على التقديمِ والتأخيرِ: قولُهُ تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ يوسفَ لما فَزِعَ إلى غيرِ اللهِ، وطلبَ إخراجَهُ مِنَ السجنِ مِنَ الملكِ أنساهُ اللهُ ذِكْرَهُ[6]، وأفْتَرَهُ فيهِ عقوبةً لهُ حينَ رَجا غَيرَ ربِّهِ. لكنَّ هذا لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يوسفُ يَفْزَعُ إلى غيرِ اللهِ، ويدفَعُ قلبَهُ عنِ اللهِ، ويَشْغَلُهُ بِمَنْ دونَهُ.

لكنَّهُ رَأى، واللهُ أعلَمُ، أنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ سَبَبَ نَجاتِهِ على يَدَيهِ، وأنهُ بَقِيَ فيهِ مَنْسِيّاً لِما عَلِمَ أنهُ لم يكنْ منهُ سَبَبٌ يُلْزِمُهُمُ الحبسَ سِوَى الاعتِذارِ إلى الناسِ والاعتِلالِ لهمْ على نَفْيِ ما اقْتَرَفَتْ زوجَتُهُ، أو لينقَطِعَ ذلكَ الخَبَرُ عن ألسُنِ الناسِ، ويَبْعُدَ عنْ أوهامِهِمْ، فَرَأى أنهُ إذا ذَكَرَهُ لَعَلَّهُ أخرَجَهُ مِنْ ذلكَ لمّا رأى أنهُ جَعَلَ سَبَبَ نَجاتِهِ على يَدَيهِ لأنهُ رَأى ذلكَ منهُ، [وفَزَعَ قلبُهُ إلى][7] اللهِ.

وهكذا جَعَلَ اللهُ تعالى أمورَ الدنيا كلَّها، وعلى ذلكَ تَعَبَّدَ عبادَهُ باستِعْمالِ الأسبابِ مَعَ اعتِقادِ القَلْبِ القَدَرَ مِنَ اللهِ نَحْوَ ما جَعَلَ الأنزالَ والزراعةَ بأسبابٍ يَكْتَسِبونَها ونَحْوَ الأسلحةِ التي اتَّخذوها[8] للحربِ والقِتالِ بها ممّا يكثُرُ عَدَدُ ذلكَ.

وإنما يُحاربونَ باللهِ، وبهِ يُقاتِلونَ، ومِنْ عندِهِ يُنْصَرونَ. وقد أمَرَ بذلكَ[9] كلِّهِ وبتلكَ الأسبابِ، فقالَ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وليسَ كلُّ مَنْ فَعَلَ هذا كانَ فَزِعَ إلى غيرِ اللهِ، أو رأى النَّصْرَ والنجاةَ مِنْ ذلكَ الشيءِ والسَّبَبِ، بل رأى ذلكَ كلَّهُ مِنَ اللهِ ومِنْ عندِهِ. فَعَلى ذلكَ يوسفُ. لا يَجوزُ أنْ يُتَوَهَّمَ أنهُ فَزِعَ إلى مَخلوقٍ مِثْلِهِ، ورأى نَجاتَهُ مِنْ عندِ ذلكَ، ولكنْ للوجهِ الذي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ لَعَلّي حُبِسْتُ بلا عِلْمٍ منهُ وبغيرِ أمْرِهِ، لأنَّ تلكَ المرأةَ هي التي أوعَدَتْ لهُ السجنَ، فَوَقَعَ عندَهُ أنها التي احتالَتْ في حَبْسِهِ، فقالَ لِذلكَ ما قالَ.

والثاني: يقولُ: اذكُرْني بالذي رَأيتَ مني، وسَمِعْتَ، لأنهُ دعاهما في السجنِ إلى التوحيدِ حينَ[10] قالَ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الآية: ٣٩].

---

(١) في الأصل وم: الرأس. (٢) في الأصل وم: لغيره. (٣) في الأصل وم: يهلك. (٤) في الأصل وم: ظن. (٥) في الأصل وم: فكان.
(٦) في الأصل وم: وفيه. (٧) في الأصل وم: ووقع قلبه عن. (٨) في الأصل وم: اتخذت. (٩) في الأصل وم: ذلك. (١٠) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: أنسَى الشيطانُ يوسفَ دُعاءَ ربِّهِ الذي أنشأهُ، وخَلَقَهُ، فلم يَدْعُ ربَّهُ الذي هو في الحقيقةِ ربٌّ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [أنسَى الشيطانُ](١) الذي قالَ لهُ يوسفُ ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ ذِكْرَ ربِّهِ، وهذا أشبهُ. والأوّلُ بعيدٌ لأنهُ قالَ في آخِرِهِ: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي بَعْدَ حينٍ ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [الآية: ٤٥] دلّ هذا أنهُ إنما أنسَى الشيطانُ ذلكَ(٢) الرجلَ، فلم يَذْكُرْهُ عندَهُ حيناً.

وقالَ بعضُهُمْ: لم يُنْسِهِ الشيطانُ، ولكنْ تَرَكَهُ عَمْداً، فلم يذْكُرْهُ عندَهُ لعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ما تقدَّمَ مِنَ المَقالِ، فيَزْدادُ غضباً عليهِ، فتَرَكَهُ عَمْداً إلى أنْ جاءَ وَقْتُهُ، واللهُ أعلَمُ، لأنّ بَدْءَ كلِّ شرٍّ يكونُ مِنَ الشيطانِ. وأضافَ الإنسانَ إلى الشيطانِ، وكذلكَ قالَ موسى ﷺ ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣] فهو، واللهُ أعلَمُ، لأنّ بَدْءَ كلِّ شرٍّ يكونُ مِنَ الشيطانِ، لأنهُ يُخطِرُ ببالِهِ، ويَقْذِفُ في قلبِهِ، ويُوَسْوِسُهُ، ثم يكونُ مِنَ العبدِ العزيمةُ على ذلكَ والفعلُ.

وفائدةُ النسيانِ، واللهُ أعلَمُ، هي أنّ اللهَ تعالى أرادَ أنْ يُظْهِرَ آيةَ رسالَتِهِ وحُجَّةَ نُبُوَّتِهِ بكونِهِ(٣) في السجنِ، ويُظْهِرَ براءَتَهُ في شأنِ تلكَ المرأةِ بشهادةِ أولئكَ النِّسْوانِ، وذلكَ علمُ الأحاديثِ التي ذَكَرَ والرُّؤيا التي عَبَّرَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: خَمْسَ سِنِينَ، وقالَ بعضُهُمْ: سَبْعَ سِنِينَ، ونَحْوَ ذلكَ. ولكنْ لا نَعْلَمُ ذلكَ، وليسَ لنا الى مَعْرفةِ ذلكَ حاجةٌ سِوَى أنّ فيهِ أنهُ لَبِثَ فيهِ حيناً.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: قولُهُ: صاحِبا(٤) السجنِ بالألِفِ. فلمّا لم يَقُلْ هذا دلّ أنهُ أضافَ الى نفسِهِ؛ كأنهُ قالَ: يا صاحِبَيَّ في السجنِ، لأنهما كانا مَعَهُ في السجنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ قيلَ: فَرَغَ، وقيلَ: انتَهَى الأمْرُ الذي فيه تَسْتَفْتِيانِ، وأُنْهِيَ [الأمرُ](٥) كقولِهِ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية [الإسراء: ٤] وقولِهِ(٦): ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ كأنهُ بَلَّغَ إليهما وحياً إليهِ وأمراً(٧) بِهِ؛ أي هو كائنٌ مِنْ غيرِ رجوعٍ يكونُ(٨) منهما على ما يقولُهُ أهلُ التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ ذَكَرَ أنهُ رأى [وليسَ فيهِ ذِكْرُ أنهُ رأى](٩) في المنامِ. ولكنْ ذَكَرَ في آخِرِهِ(١٠) الرُّؤيا. دلّ أنهُ رأى في المَنامِ بقولِهِ: ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ وفيهِ أنّ مِنَ الرُّؤيا ما هو حقٌّ(١١)، ولها حقيقةٌ، ومنها [ما هو](١٢) باطلٌ، لا حقيقةَ لها؛ لأنهُ قالَ: ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [الآية: ٤٤].

فكانتِ الرُّؤيا، هي حقٌّ، ولَها حقيقةٌ بتأويلِ عواقبِها. وقولُهُ(١٣): ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ لا حقيقةَ لها.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ أمّا البَقَراتُ فهي(١٤) السُّنونَ، والسِّمانُ هي المُخصِباتُ الواسِعاتُ ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ العِجافُ هنّ المُجْدِباتُ ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ السُّنْبُلاتُ سُنبلاتٌ، و﴿خُضْرٍ﴾ عِبارةٌ عمّا يُحْصَدُ ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ عبارةٌ عمّا لا يُحْصَدُ.

وفيهِ(١٥) دلالةُ أنّ مِنَ الرُّؤيا ما تكونُ مُصَرَّحاً [بها مُشاراً](١٦) إليها، تُعْرَفُ بالبَديهَةِ، ومنها ما تكونُ [عبارةً مُبْهَمَةً غيرَ مُفَسَّرَةٍ](١٧) لا تُعلَمُ إلّا بالنَّظَرِ فيها والتَّفَكُّرِ والتَّأمُّلِ؛ لأنهُ قالَ: ﴿أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ و﴿سَبْعَ﴾ هو سَبْعٌ، لا غيرَ، و﴿بَقَرَٰتٍ﴾ هُنّ كنايةٌ عنِ السِّنينِ، و﴿سِمَانٍ﴾ كنايةٌ عنِ الخِصْبِ والسَّعةِ ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ على حقيقةِ الأكلِ. وكذلكَ ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ السَّبْعُ هو سَبْعٌ، لا غيرَ، و﴿عِجَافٌ﴾ كنايةٌ عنِ الشِّدَّةِ والجَدْبِ ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ﴾ هُنّ عَينُ السنبلاتِ، و﴿خُضْرٍ﴾ هُنّ كنايةٌ عمّا يُحْصَدُ، و﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ كنايةٌ عمّا لا يكونُ فيهِ ما يُحْصَدُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (٣) في م: يكون. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: يا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: وأمر. (٨) في الأصل وم: كان. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، في الأصل: آخر. (١١) من م، في الأصل: أحق. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: و. (١٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل: مشار، في م: مشارا. (١٧) في الأصل وم: كناية مبهما غير مفسر.

جنة السنة

ففيهِ أنَّ مِنَ الخطابِ ما يكونُ مُصرَّحاً [بِهِ](١) مُبيَّناً مُشاراً إليهِ، يُفهَمُ المُرادُ منهُ بالبَديهةِ وَقتَ قَرْعِ الخطابِ السَّمْعَ، ومنهُ ما يكونُ مُبهَماً غَيرَ مُفسَّرٍ. فهو على وجهَينِ:

[أحدُهما](٢): ما يُفهَمُ بالنَّظرِ والتَّفكُّرِ.

[والثاني: لا يُفهَمُ بالبَديهةِ ولا بالنَّظرِ والتَّأمُّلِ فيه والتَّفكُّرِ](٣) إلّا بِبيانٍ، يُقرَنُ به سِوَى ذلكَ.

على هذا تُخرَّجُ المُخاطباتُ في ما بَيْنَ اللهِ وبَيْنَ الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ خاطبَ الأشرافَ مِنْ قومِهِ والعلماءَ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ على ما ذَكرْنا في ما تقدَّمَ أنَّ المَلأَ هو اسمٌ للأشرافِ منهمْ والرُّؤساءِ. وهكذا العادةُ في الملوكِ أنهمْ إنما يُخاطِبونَ أعقلَهُمْ وأعظمَهُمْ مَنزِلةً عندهُمْ وأكرمَ [مَثوىً لهمْ](٤).

ودَلَّ قولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أنهُ إنما رَأى ذلكَ في المَنامِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ الآية كأنهُ نهاهُمْ أنْ يتكلَّفوا التَّعبيرَ لِلرُّؤيا التي رآها، إذا لم يكُنْ لهمْ بها عِلْمٌ، وكذلكَ الواجبُ على كلِّ مَنْ سُئِلَ(٥) عن شيءٍ، لا يَعلَمُ، ألّا يَشتغِلَ به، ولا يَتكلَّفَ عِلْمَهُ، إذا لم يكُنْ لهُ بهِ عِلْمٌ، حينَ(٦) قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا / ٢٥٣ ـ ب/ تَعْبُرُونَ﴾.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أباطيلُ أحلامٍ كاذبةٌ(٧)، وقالَ بعضُهُمْ: أخلاطُ أحلامٍ كاذبةٍ(٨)، مِثْلُ أضغاثِ النباتِ تُجمَعُ، فيكونُ فيها ضروبٌ مُختلِفةٌ، وهو كما قيلَ في قولِهِ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤] أي جماعةً مِنَ أغصانِ الشَّجرِ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ الضِّغثُ والأضغاثُ ما لا يكونُ لهُ تأويلٌ، ويُقالُ لِنوعٍ مِنَ الكَلإِ(٩): ضِغثٌ، وهو الحَلْفاءُ شِبْهُ البَرْدِيِّ وغيرِهِ. وقيلَ: إنَّ الضِّغثَ والأحلامَ، هما اسْمانِ لشيءٍ، لا معنى لهُ، ولا تأويلَ، وهما واحدٌ، وأصلُ الأحلامِ يُخرَّجُ(١٠) مِنْ وجهَينِ:

أحدُهما: العقولُ؛ دليلُهُ قولُهُ: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ [الطور: ٣٢] أي عقولُهُمْ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢].

والثاني: مِنَ الاحتلامِ، وهو ما ذَكرْنا مِنَ الحُلُمِ كقولِهِ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ الآية [النور: ٥٩] فَيُشبِهُ أنْ يكونَ يُخرَّجُ على هذا؛ لأنَّ الصَّبيَّ ما لم يَعقِلْ لا يَلعَبُ بهِ الشيطانُ، ولا يَحتلِمُ؛ كأنَّ الاحتلامَ هو مِنْ لُعَبِ الشيطانِ بهِ، فَسمَّى الرُّؤيا الباطِلةَ الكاذبةَ أحلاماً؛ لأنها مِنْ لُعَبِ الشيطانِ بهِ كما سَمَّى احتلامَ الصَّبيِّ حُلُماً؛ لأنهُ إذا بَلَغَ العقلَ لَعِبَ بهِ الشيطانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ لِما لا تأويلَ لها كقولِهِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقولِهِ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] أي لا شَفيعَ لهمْ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ لها تأويلٌ، ولكن نحنُ لا نَعلَمُهُ(١١)، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ مِنَ الهلاكِ، وهو الساقي الذي ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي تذكَّرَ بعدَ أُمَّةٍ. [قالَ بعضُهُمْ: الأُمَّةُ](١٢) ههنا الحينُ؛ أي ذَكَرَ بَعدَ حِينٍ وَوَقتٍ كقولِهِ: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨] قيلَ حِينٍ وَوَقتٍ مَعدودٍ.

وقالَ الحسَنُ: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ مِنَ الناسِ، ويُقرأُ: بَعدَ أَمَهٍ وأَمْهٍ(١٣).

قالَ أبو عوسَجَةَ: الأَمَهُ النِّسيانُ والسَّهْوُ؛ أي تذكَّرَ بَعدَ نِسيانٍ وسَهْوٍ كقولِهِ: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: مثواهم. (٥) في الأصل وم: سأل.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) و(٨) في الأصل وم: الكاذبة. (٩) في الأصل وم: الكلام. (١٠) في الأصل وم: كان يخرجه. (١١) في الأصل وم: نعلمها. (١٢) في م: قال الأمة، ساقطة من الأصل. (١٣) انظر غريب القرآن للسجستاني ص ١٢٣ ومعجم القراءات القرآنية ٣/ ١٧٣.

جنة السنة

[الآية: ٤٢]، يُقالُ في[1] الكلام: أَمِهَ يَأْمَهُ أَمَهاً، فهو أَمِهٌ، وأَمِهَ أي نَسِيَ، والأُمَّةُ مِنَ الأُمَمِ والقُرونِ التي مَضَتْ، والإِمَّةُ النِّعْمَةُ، والإِمَمُ جَمْعٌ، والإِمَّةُ أيضاً الدينُ والسُّنَّةُ كقولِهِ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ إِمَّةٍ [وأُمَّةٍ][2] ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢ و٢٣] أي على دينٍ، ويُقالُ: الأُمَّةُ القامةُ أيضاً؛ يُقالُ: فلانٌ حَسَنُ الأُمَّةِ أي حَسَنُ القامةِ، ويقالُ: الأُمَمُ القُرْبُ.

فهو يَحْتَمِلُ ههنا الوجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْناهما؛ أي ذَكَرَ بَعْدَ [أُمَّةٍ بالضمِّ][3] حِينٍ وَوَقْتٍ، أو بعدَ نِسيانٍ: مَنْ قَرَأَهُ بالنَّصْبِ [أَمَهٍ][4] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ معناهُ: أنا أُنَبِّئُكُمْ بِبَيانِ تأويلِهِ، لا لأنهُ كانَ يُنَبِّئُهُمْ هو بِنَفْسِهِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ ﴿يُوسُفُ﴾؟

الآية ٤٦ [وقولُهُ تعالى: ﴿يُوسُفُ﴾][5] فيهِ إضمارٌ كأنهُ قالَ: فأرسِلُونِ إلى يوسف. وليسَ في تلاوةِ الآيةِ أنهُ أُرْسِلَ إليهِ، ولا إتيانُهُ إليهِ، ولكنْ فيهِ دليلٌ [أنهُ][6] أُرسِلَ إليهِ، فأتاهُ، فلمَّا أتاهُ قالَ لهُ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ قيلَ: الصِّدِّيقُ هو كثيرُ الصِّدْقِ كما يُقالُ: شِرِّيبٌ وفِسِّيقٌ وسِكِّيرٌ إذا كَثُرَ ذلكَ منهُ.

والصِّدِّيقُ الذي لم يُؤْخَذْ عليهِ كَذِبٌ قَطُّ، أو سَمَّاهُ صِدِّيقاً لِما عَرَفَ أنهُ رسولُ اللهِ، وهو ما قالَ في إبراهيمَ [وإدريسَ][7]: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١ و٥٦].

أو يقولُ: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [الآية: ٤٥] أي أنا أتعلَّمُ منهُ، فأُنَبِّئُكُمْ بتأويلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ فأفتاها لهُ، وعَبَّرَها عليهِ، وهو ما ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ الآيةَ[8] [الآية: ٤٧] وقولُهُ: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [الآية: ٤٨] هذا تعبيرُ رُؤيا المَلِكِ الذي سألَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها[9]: يَعْلَمونَ أنَّ هذهِ الرؤيا حقٌّ، ولها حقيقةٌ، ليسَ كما قالَ أولئكَ: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [الآية: ٤٤].

والثاني: يَعْلَمونَ فضلَكَ على غيرِكَ[10] مِنَ الناسِ.

[والثالثُ: يَعْلَمونَ أنكَ][11] تَصْلُحُ لِحاجَتِهِمْ التي في حالِ يَقَظَتِهِمْ، فَيَرْفَعونَها إليكَ، كما صَلَحْتَ لِما كانَ لهمْ في حالِ نومِهِمْ.

الآية ٤٧ [وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾][12] عَلَّمَهُمُ الزراعةَ وجَمْعَ الطاعاتِ والادِّخارَ؛ أنْ كيفَ تُدَّخَرُ حتى تَبْقَى إلى ذلكَ الوقتِ؟ فقالَ: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾.

قالَ بعضُهُمْ: ﴿دَأَبًا﴾ أي دائماً، أي تُداوِمونَ الزراعةَ فيها. وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿دَأَبًا﴾ مِنَ الدَّوبِ، وهو[13] الجِدُّ والتَّعَبُ. وقالَ القُتَبِيُّ ﴿دَأَبًا﴾ أي جِدّاً في الزراعةِ ومُتابَعَةً. وكُلُّهُ واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ لا تُنَقُّوهُ[14] لأنَّ ذلكَ أبْقَى لهُ منهُ إذا نُقِّيَ[15]، ومُيِّزَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ فَتُنَقُّونَهُ إنْ شِئْتُمْ أي قَدْرَ ما تأكلونَ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ قيلَ: مُجدِباتٌ مِنَ الشِّدَّةِ ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ﴾ أي ما ادَّخَرْتُمْ ﴿لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: تَدَّخِرونَ. وقالَ أبو عوسَجَةَ: أحْصَنْتُهُ: أي ادَّخَرْتُهُ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: منه. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٦/ ١٠٧ و١٠٨. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: إلى آخر ما ذكر. (٩) في الأصل وم: يحتمل. (١٠) في الأصل وم: غيرهم. (١١) في الأصل: أو يعلمون فضلك، في م: أو يعلمون أنك. (١٢) في الأصل وم: ثم. (١٣) في الأصل وم: من. (١٤) في الأصل وم: لا تبقوه. (١٥) في الأصل وم: بقي.

جنة السنة

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ قالَ بعضُهُم: هو مِنَ الغيثِ، وهو المطرُ؛ أي يُمطَرونَ. وقيلَ يُغاثونَ بالمطرِ مِنَ الإغاثةِ والغَوثِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ قالَ بعضُهُم: هو من عَصْرِ الأعنابِ والدُّهنِ والزَّيتِ وغيرِهِ؛ إنما هو إخبارٌ عنِ الخِصْبِ والسَّعَةِ. وقالَ بعضُهُم: قولُهُ: ﴿يَعْصِرُونَ﴾ أي يَنْجُونَ؛ يقولُ: مِنَ العَصَرِ؛ يعني المَلْجأ؛ أي يَلْجَؤونَ إلى الغيثِ، والعَصَرَةُ المَنْجاةُ، وهو قولُ أبي عُبَيدَةَ.

وأمّا قولُ غيرِهِ مِن أهلِ الأدبِ والتأويلِ فهو مِنَ العَصْرِ، ويعني عَصْرَ العِنبِ وغيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ يعني يوسف.

[وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فيهِ دلالةٌ أنَّ قولَ يوسفَ][(١)] للرجلِ: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ إنما طَلَبَ بذلكَ براءةَ نفسِهِ في ما اتُّهِمَ بهِ، ليسَ كما قالَهُ أهلُ التأويلِ؛ لأنهُ لو كانَ غيرَ ذلكَ [لكانَ][(٢)] لا يَرُدُّ الرسولَ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ يَحتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهما: أهُنَّ على كَيدِهِنَّ بَعْدُ أمْ رجَعْنَ على ذلكَ؟

والثاني: لِيَعْلَمَ المَلِكُ براءتَهُ مِمّا قُرِفَ بهِ، واتُّهِمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أنهنَّ كذَبْنَ.

الآية ٥١ ثم قالَ لهنَّ المَلِكُ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ هذا يَدُلُّ أنَّ المَلِكَ قد عَلِمَ أنهنَّ راوَدْنَ يوسفَ عن نفسِهِ؛ لأنهُ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ﴾ ولم يَقُلْ لهنَّ: أراوَدْتُنَّ أم لا؟ ولكنهُ قَطَعَ القولَ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ بَدَأ بِهِنَّ حتى أقرَرْنَ أنهُ كانَ بريئاً مِمّا قُرِفَ بهِ، واتُّهِمَ. ثم أقَرَّتِ امرَأةُ المَلِكِ بعدَ ذلكَ لمّا أقَرَّ النِّسوَةُ، فقالَتْ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ قيلَ: الآنَ تَبيَّنَ الحقُّ، وتَحَقَّقَ ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قولِهِ ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [الآية: ٢٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ ما شأنُكُنَّ وأمرُكُنَّ. والخَطْبُ الشأنُ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ﴾ قد ذَكَرْناهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: الزِّنى. ولكنَّ قولَهُ: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ هو الذي ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [الآية: ٢٥] هو ذلكَ السُّوءُ [الذي][(٣)] قالَتْ: إنهُ أرادَ بهِ بها. قُلْنَ: ما عَلِمنا منهُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ قد ذَكَرْنا أنهُ تَبَيَّنَ الحَقُّ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ دلالةٌ أنْ لم يكُنْ منهُ ما قالَهُ أهلُ التأويلِ مِن حلِّ السراويلِ وغيرِهِ؛ لأنهُ لو كانَ منهُ ذلكَ لَكُنَّ قد عَلِمْنَ منهُ السُّوءَ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾. قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرَّدُّ الذي كانَ منهُ، وتركُ الإجابةِ لرسولِ المَلِكِ[(٤)] حِينَ[(٥)] قالَ: ﴿ٱئْتُونِي / ٢٥٤ ـ أ/ بِهِۦ﴾ [الآية: ٥٠] ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ في أهلِهِ إذا غابَ عني [كانَ][(٦)] رداً لِقولِها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [الآية: ٢٥] وتصديقاً لقولِهِ حينَ[(٧)] قالَ: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [الآية: ٢٦].

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ يعني الزوجَ ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ لكنَّ هذا بعيدٌ لأنه[(٨)] قد عَلِمَ يوسفُ أنَّ اللهَ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: الله. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: أنه.

جنة السنة

قد عَلِمَ أنهُ لم يَخُنْهُ بالغَيبِ. وقولُ أهلِ التأويلِ لمّا قالَ يوسفُ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قالَ لهُ المَلِكُ: ولا حينَ هَمَمْتَ ما هَمَمْتَ؟ فقالَ: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [الآية: ٥٣] هذا ممّا لا نَعْلَمُهُ، وقد ذكَرْنا التأويلَ في قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ ما يَحِلُّ ويَسَعُ أنْ يُتكلَّمَ بهِ وفسادَ تأويلِ أهلِ التأويلِ مِنَ الوُجوهِ التي ذكَرْنا.

الآية ٥٣ ومَعْنى قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي عَصَمَ ربّي، واللهُ أعلَمُ أنهُ إنما[1] قالَ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ لِما عَصَمَني اللهُ عنْ ذلكَ، ولو لم يكُنْ عَصَمني لكُنْتُ خُنْتُهُ[2]: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي ما عَصَمَ ربّي؛ لأنَّ النَّفسَ جُبِلَتْ، وطُبِعَتْ على المَيلِ إلى الشهواتِ واللذاتِ والهُوِيِّ فيها والرَّغْبَةِ والتَّوَقّي عنِ المكروهاتِ والشدائدِ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ﴾ ﴿الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ و٤١] [وقال][3]: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ و٣٨ و٣٩] فأثبتَ[4] للنفسِ الهَوَى وإيثارَ الحياةِ الدنيا وشَهَواتِها؟

هذا يدلُّ أنَّ قولَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [الآية: ٣٣] هو مَحَبَّةُ الاختيارِ والإيثارِ في الدينِ لا ما تَختارُ النفسُ، وتُؤثِرُ؛ أبداً تَختارُ، وتُؤثِرُ ما هو ألَذُّ وأشهى، وتَنفُرُ عنِ الشدائدِ والمَكروهاتِ، على هذا طُبِعَتْ، وجُبِلَتْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي لا يَجْعَلُ فِعْلَ الكَيدِ والخِيانةِ هُدىً ورُشْداً، إنما يَجْعَلُ فِعْلَ الكيدِ والخيانةِ ضَلالاً وغَوايَةً.

الآية ٥٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أصدُرُ لِرأيِهِ، وأطيعُ أمْرَهُ. في هذا يَقَعُ اسْتِخلاصُهُ إيّاهُ، ولذلكَ قالَ: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ الآيةَ [الآية: ٢١ و٥٦] لا أنْ يَجْعَلَهُ لِحاجةِ نفسِهِ خالصاً دونَ الناسِ، لا يُشرِكُ غيرَهُ. وفيهِ[5] دلالةُ ما ذُكِرَ في حَرْفِ حَفْصَةَ: إنكَ اليومَ لَدينا مُطاعٌ أمينٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ ولم يَذْكُرْ فيهِ أنهُ أُتِيَ بهِ، ولكنْ قالَ: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ فهذا يدلُّ أنهُ قد أُتِيَ بهِ، وإنْ لم يَذْكُرْ أنهُ أُتِيَ بهِ حينَ[6] قالَ: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ قيلَ: المَكينُ الوجيهُ، وقيلَ: المَكينُ الأمينُ المَرْضِيُّ عندَنا والأمينُ على ما اسْتَأْمَنّاكَ.

الآية ٥٥ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ سألَ هذا لمّا عَلِمَ أنهُ ليسَ في وُسْعِهِمُ القِيامُ بإصلاحِ ذلكَ الطعامِ، وعَلِمَ أنهُ لو وُلِّيَ غيرُهُ الخزائنَ لم يَعرِفْ إنزالَ الناسِ منازلَهُمْ في تقديمِ مَنْ يَجِبُ تقديمُهُ، والقِيامَ بِحاجةِ الأحَقِّ مِنْ غيرِهِ، وعَلِمَ أنهُ إليهِ يَرْجِعُ، وتَقَعُ حَوائجُ أكثرِ الناسِ [في][7] منازلِهِمْ، وبهِ قِوامُ أبدانِهِمْ، فَسَألَهُ لِيَقومَ بذلكَ كلِّهِ، وعلى يديهِ يَجْري

وكذلكَ قالَ: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿حَفِيظٌ﴾ بما وُلِّيتُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بأمرِهِ. وقيلَ ﴿حَفِيظٌ﴾ لِما في الأرضِ [مِنْ][8] غَلَّةٍ ﴿عَلِيمٌ﴾ بها.

وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما ﴿حَفِيظٌ﴾ لِما تحتَ يَدَيَّ ﴿عَلِيمٌ﴾ بالناسِ. وقيلَ: ﴿حَفِيظٌ﴾ بصيرٌ بتقديرِهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِساعاتِ الجوعِ حينَ يَقَعُ ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لِما اسْتُحْفِظْتُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِحَوائجِ الناسِ، أو ﴿عَلِيمٌ﴾ بِتَقْديمِ الأحَقِّ.

الآية ٥٦ قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كما بَرَّأنا يوسُفَ ممّا قُرِفَ بهِ، وأظْهَرْنا براءَتَهُ منهُ مَكَّنّا لهُ

في الأرضِ حتى احْتاجَ أهلُ نواحي مصرَ وأهلُ الآفاقِ إليهِ. أو أنْ يُقالَ: كما حَفِظْناهُ، وأنْجَيناهُ ممّا قَصَدَ بهِ إخوتُهُ مِنَ الهلاكِ، مَكَّنّا لهُ[9] في الأرضِ.

---

(١) في الأصل وم: لما. (٢) في الأصل وم: أخونه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: تمكن.

جنة السنة

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ جوابُهُ كما مكّنّا ليوسفَ بعدَ ما [أخرجْناهُ مِنْنا][(١)] عليهِ، بالإبراءِ والضَّمِّ، كذلكَ نُمكِّنُكَ في الأرضِ، ونُؤْوِي بعدما أخرجَكَ، ومَنَّ [عليكَ، أبَوَيكَ][(٢)].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي يَنْزِلُ منها حيثُ يَشاءُ، أو يَسْكُنُ منها حيثُ يَشاءُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ يَحْتمِلُ قولُهُ: ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ سَعَةَ الدنيا ونعيمَها كقولِهِ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢] ويَحتمِلُ ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ أمرَ الدينِ مِنَ النُّبوَّةِ والعِصمةِ.

وهو على المعتزلةِ؛ لأنهمْ يقولونَ: ليسَ [للهِ][(٣)] أنْ يَخْتصَّ أحداً برحمتِهِ، ولا يُصيبَ مِنْ رحمتِهِ إنساناً دونَ إنسانٍ.

وعلى قولِهِمْ: لم يكنْ مِنَ اللهِ إلى [رسولِهِ][(٤)] مِنَ الرحمةِ إلّا وكانَ لإبليسَ مِثْلُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي [لا][(٥)] نُضيعُ أجرَ مَنْ أحسَنَ صُحْبَةَ اللهِ في الدنيا؛ أي نَجزيهِ جَزاءَ إحسانِهِ، أو يقولُ: ولا نُضيعُ أجرَ مَنْ أحسَنَ صُحْبَةَ نِعَمِ اللهِ، وتقبَّلَها[(٦)] بالشُّكرِ لهُ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي ثوابُ الآخرةِ وأجرُها خَيرٌ لهمْ مِنْ ثوابِ الدنيا وأجرِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صدَّقُوا ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الشِّركَ، أو ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صدَّقُوا ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ المعاصيَ والفواحِشَ.

الآية ٥٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لمّا أرادَ اللهُ أنْ يُبَلِّغَ أمرَ يوسفَ في ما أرادَ أنْ يُبَلِّغَ جَعَلَهُمْ بحيثُ لا يعرفونَهُ. لذلكَ قالَ: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي لا يَعرفونَهُ كقولِهِ: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥] أي غيرُ مَعروفِينَ عندَ إبراهيمَ؛ والمُنكَرُ هو الذي لا يُعْرَفُ في الشرعِ ولا في العَقلِ.

الآية ٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي أعطى لهمُ الطعامَ الذي طَلَبوا منهُ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: الجَهازُ المَتاعُ، والجَهازُ أيضاً مَتاعُ المرأةِ التي تُجَهَّزُ بهِ، ولا يُقالُ: جِهازٌ بِخفضِ الجيمِ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ يوسفَ ﷺ قالَ لهمْ حينَ دَخَلُوا عليهِ: أنتُمْ عيونٌ، بَعَثَكُمْ مَلِكُكُمْ تَنْظُرونَ إلى أهلِ مِصرَ، ثم تأتونَهُ بالخُبْرِ، وتأتونَنا بكذا، ذلكَ مما لا نَعْلَمُهُ أنهُ قد كانَ؛ أقالَ[(٧)] لهمْ ذلكَ أم لا؟ وغيرُ ذلكَ مِنَ الكلماتِ التي قالوا: إنهُ قالَ لهمْ كذا، وقالوا هم لهُ: [كُنّا كذا][(٨)] رجلاً، فهَلَكَ مِنّا كذا، ولَنا أبٌ كذا. مِثْلُ هذا لا يكونُ [إلّا][(٩)] كلامَ بعضِ العَوامِّ الغَوغاءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ مِثْلُ هذا لا يُحْتَمَلُ أنْ يقولَهُ يوسفُ ابْتِداءً على غيرِ سَبَبٍ أو كلامٍ، كانَ هنالكَ، لكنهُ لم يَذْكُرِ الذي كانَ، ونحنُ لا نَعْرِفُ ما الذي كانَ هنالكَ في ما بَيْنَهُمْ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [الآية: ٦٠].

أمّا أهلُ التأويلِ فإنهمْ قالوا: قالَ لهمْ: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ إلى آخرِ ما ذَكَرَ؛ لأنهُ لمّا قالَ: إنكمْ جِئْتُمْ عيوناً لِمَلِكِكُمْ، فأمرَ بحَبسِهِمْ، فقالوا: نَحْنُ بنو يعقوبَ النَّبيِّ، وكُنّا اثْنَي عَشَرَ رجلاً، فهَلَكَ منّا رجلٌ في الغَنَمِ، ووَجَدْنا على قميصِهِ دماً، فأتينا أبانا، فقُلْنا كذا. وقد خَلَّفْنا عندَ أبينا أخاً لهُ مِنْ أُمِّهِ الذي هَلَكَ. فعندَ ذلكَ قالَ لهمْ: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

لكن هذا الذي ذَكَرُوا[(١٠)] لا يكونُ سَبباً لقولِهِ، ولا جَواباً. وقد ذَكَرْنا / ٢٥٤ ـ ب/ أنهُ لا يَصِحُّ هذا الكلامُ مُبْتَدَأً. لكنا نَعْلَمُ بالتَّعَقُّلِ أنهُ كانَ هنالكَ سَبَبٌ ومَعْنًى، أمَرَ يوسفَ أنْ يقولَ لهمْ ذلكَ. وإلّا لا يَحْتَمِلُ أنْ [قالَ][(١١)] لهمْ يوسفُ: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [الآية: ٦٠] وهو كانَ يَعْلَمُ أنَّ أباهُ يَعْقوبَ يَحتاجُ إلى طعامٍ، ويَعْرِفُ حاجَتَهُمْ في ذلكَ. هذا لا يَسَعُ إلّا بِسَبَبٍ، كانَ ثَمَّ، فأمَرَ يوسفَ بذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: أحوج من. (٢) في الأصل وم: عليه أبواك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وقلبها. (٧) الهمزة ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: كذا وكذا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في م: ذكر. (١١) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٦٠ وقولهُ تعالى: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ في ما يُستَقبَلُ؛ [إلا أن][1] تأتوني، واللهُ أعلَم.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ وجهَين:

أحدُهما: قالَ ذلكَ لهمْ: إنهُ يُوفي لهمُ الكيلَ؛ لأنَّ أهلَ ذلكَ المكانِ كانوا، يُنقِصونَ، ويُخسِرونَ الكَيلَ في الضِّيقِ، فقالَ هو: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ ولا أَبخَسُ.

والثاني: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ على غَيرِ المُحاجَّةِ، وكانَ يَجعَلُ لِغَيرِهِمُ الطعامَ على المُحاجَّةِ لِضيقِ الطعامِ، ﴿أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ على قَدرِ الحاجةِ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ في الإحسانِ إليكُمْ والتوسيعِ عليكُمْ؛ لأنَّ أهلَ ذلكَ المكانِ لا يُحسِنونَ إلى النازلينَ بهِمْ، ولا يُوَسِّعونَ عليهِمْ لِضيقِ الطعامِ.

وكانَ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ مُؤخَّرٌ عنْ قولِهِ: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ كأنهُ ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ﴾ هذا الكلامُ في الظاهرِ، ليسَ هو جوابَ قولِ يوسفَ، [وليسَ قولُهُمْ][3] ﴿وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ﴾ جواباً؛ فلا يَحتمِلُ حينَ[4] ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ جوابُهُ[5] أنْ يَقولوا لَهُ: نأتي بهِ، أو لا نأتي. فأمّا أنْ يُجعَلَ قولُهُمْ: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ﴾ جواباً لهُ فلا يُحتَمَلُ مَعَ ما [في قولِهِمْ][6]: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [مِنِ اضطِرابِ أنهمْ][7] يَملِكونَ أو لا يَملِكونَ، قولَهُمْ: ﴿وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ﴾ على القَطعِ.

لكنْ يُشبِهُ أنْ يُخرَّجَ على وجهَينِ:

أحدُهما: على الإضمارِ: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ فإنْ أذِنَ لهُ ﴿وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ﴾ ذلكَ.

[والثاني][8]: على التقديمِ والتأخيرِ؛ يكونُ جوابُ؟ قولِهِ: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُمْ﴾ في قولِهِمْ: ﴿وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ﴾ ثم قالوا ما بَينَهُمْ: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾.

على هذينِ الوجهَينِ يُشبِهُ أنْ يُخرَّجَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ قالَ أبو عوسَجةَ: المُراوَدةُ المُمارَسَةُ، وهي شِبْهُ المُخادَعَةِ، وهي المُعالَجَةُ. وقيلَ: ﴿سَنُرَٰوِدُ﴾ أي سَنَجِدُّ، وسَنَطلُبُ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ﴾ ولِفِتْيَتِهِ[9]. الفِتيَةُ: الخَدَمُ، والفِتيانُ: المَماليكُ [﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ قيلَ][10]: اجعَلوا دراهِمَهُمْ في أوعيَتِهِمْ. في الآيةِ دلالةُ أنَّ الهِبَةَ، قد تَصِحُّ، وإنْ لم يُصَرَّحْ بها، إذا وقَعَتْ[11] في يَدَي الموهوبِ، لهُ، وقَبضُهُ بيانٌ[12]، وإنْ لم يَعْلَمْ هو بذلكَ وقتَ ما جُعِلَ لَهُ. لأنَّ يوسفَ جَعَلَ بضاعَتَهُمْ في رحالِهِمْ هِبَةً لهمْ منهُ، وهمْ لم يَعلَموا بذلكَ، [وقتَ ما جعَلَ يوسفُ ذلكَ ملكاً لهمْ][13].

ولهذا قالَ أصحابُنا: إنَّ مَنْ وَضَعَ [مالَهُ في طريقٍ][14] مِنْ طُرُقِ المُسلِمينَ لِيكونَ ذلكَ مُلكاً لِمَنْ رفَعَهُ، كان ما فَعَلَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ هذا يَحتمِلُ وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: أي لا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وجوابه.
(٦) في الأصل وم: أن في قلوبهم. (٧) في الأصل وم: اضطرب. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/١٧٨.
(١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: وقع. (١٢) ساقطة من م. (١٣) في الأصل وم: وهو وقت ما جعل ذلك لهم ملكاً ليوسف.
(١٤) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

أحدُهما: يرجعونَ مَخافَةَ أنْ يُعْرَفوا بالسرقةِ.

والثاني: ما قالهُ أهلُ التأويلِ: لِما تَخوَّفَ يوسفُ الا[1] يكونَ عندَ أبيهِ مِنَ الوَرِقِ ما يَرجِعونَ بهِ مرّةً أُخرى، فجَعَلَ دراهِمَهُمْ في أوعيَتِهِمْ لكي يَرجِعوا إليهِ[2]، فلا يَحْبِسُهُمْ عنهُ[3] عدمُ الدراهمِ لأنهمْ كانوا أهلَ ما يُشْبِهُ.

الآية ٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ في ما يُستَقبَلُ، ويُستأنَفُ، لِقولِهِ: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [الآية: ٦٠] ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ بالنونِ أقربُ لأنهمْ قالوا: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ يُشْبِهُ: يَكتلْ هو إنْ أرسلْتَهُ.

[وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يقولوا هذا مِنْ غيرِ سَبَبٍ، كانَ هنالكَ [أكثرُ][5] مِنْ خوفٍ خافَ عليهِ أبوهمْ مِنْ ناحيَتِهِمْ، وتُهمَةٍ ممّا اتّهمَهُمْ، لأنهُ كانَ أخاهمْ[6] مِنْ أبيهِمْ، خافَ عليهِ أنْ يُضيِّعوهُ، أو إنِ استَقبَلَهُ أمرٌ [لا يُعينوهُ][7] أو أمرٌ كانَ لم يَذكُروهُ[8]. ولَسْنا نَدري ما ذلكَ المعْنى؟ واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٦٤ [وقولُهُ تعالى][9]: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ وفي حرفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ هل تَحفَظونَهُ إلّا كما حَفِظْتُمْ أخاهُ يوسفَ مِنْ قَبْلُ. في هذا دلالةُ أنَّ مَنْ ظَهرَتْ منهُ تُهمَةٌ أو خيانةٌ في أمرٍ يجوزُ أنْ يُتّهَمَ في ما لم يَظهَرْ [منهُ شيءٌ حينَ][10] اتّهمَهُمْ يعقوبُ في بنيامينَ بخيانةٍ كانَتْ منهُمْ في يوسفَ، وإنْ لم يَظهَرْ لهُ منهُمْ في أخيهِ شيءٌ، وهو حُجّةٌ لأصحابِنا أنَّ مَنْ ظَهرَ فِسقُهُ في شيءٍ أو كَذِبُهُ في شيءٍ صارَ مَجروحَ الشهادةِ في غيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي إنْ أرسلْتُهُ فإنما أعتمِدُ على حِفظِ اللهِ، وإليهِ أكِلُ حفظَهُ[11]، لستُ أعتمدُ على حِفظِكُمْ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي بكلِّ مَكروبٍ ومَلهوفٍ أرحَمُ مِنْ كلِّ راحمٍ. لأنَّ كلَّ مَنْ يرحمُ إنما يَرحَمُ[12] برحمةٍ نالَها منهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ هذا قد ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ سِوى الثمنِ؛ فقد رُدَّ إلينا دراهِمُنا. أو يكونُ قولُهُ: ﴿مَا نَبْغِي﴾ وراءَ هذا أكبرَ شيءٍ، إنما نَبغي ثمنَ بَعيرٍ واحدٍ، و﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ لأنهُ قد رُدّتْ بِضاعتُنا، وهي ثمنُ عشَرةِ أبعُرٍ.

[وقولُهُ تعالى][13]: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [إنهمْ ذَكَروا][14] أنَّ يوسفَ كانَ لا يُعطي كلَّ رجلٍ إلّا حِملَ بَعيرٍ واحدٍ، ولا يُعطي أكثرَ مِنْ ذلكَ، فقالوا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ بهِ ومِنْ أجلِهِ.

[وقولُهُ تعالى][15]: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي سريعٌ، لا حَبْسَ فيهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي يَسيرٌ علينا الكَيلُ، ولا يُحبَسُ علينا الطعامُ، ولا يَثقُلُ عليهِ ذلكَ لِقولِهِ[16]: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرٌ﴾؟ ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾ [الآية: ٥٩ و٦٠] وقد حُبِسْنا عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ فيهِ وجهٌ آخرُ أقربُ ممّا قالوا: وهو أنَّ قولَهُ: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي طلبُ ثمنِ كيلِ بَعيرٍ واحدٍ يَسيرٌ، وتَكلُّفُهُ سهلٌ، وهو ثمنُ كَيلِ بَعيرِ بنيامينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي حتى تُؤتوني بِمَواثيقَ مِنَ اللهِ وبِعهودٍ منهُ.

[وفي قولِهِ تعالى: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾][17]: دلالةُ أنهُ وإنْ قالَ[18]: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الآية: ٦٤] واعتَمَدَ في الحِفظِ [على اللهِ، ورَأى الحِفْظَ][19] منهُ، لم يُرْسِلْهُ معهمْ إلّا بالمَواثيقِ والعُهودِ مِنَ اللهِ. وهذا أمرٌ ظاهرٌ بَيِّنَ

---

(١) في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: إلينا. (٣) في الأصل وم: عنا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أخوهم. (٧) في الأصل وم: يعينونه. (٨) في الأصل وم: يذكر. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: شيء. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (١٢) في الأصل وم: يرحمه. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: أنه ذكر. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: بقوله. (١٧) في الأصل وم: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ فيه. (١٨) في الأصل وم: كان. (١٩) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

الناسِ، وإنْ كانَ اعْتِمادُهُم على اللهِ، وإليهِ يَكِلُونَ جميعَ[1] أمورِهِمْ في الأموالِ والأنفسِ، ومنهُ يَرَونَ الحِفْظَ، فإنهُ يأخذُ بعضُهُمْ مِنْ بعضِ المَواثيقَ والعهودَ. فَعَلَى ذلكَ يَعقوبُ؛ إنهُ أخْبَرَ أنَّ اعْتِمادَهُ وتوكُّلَهُ[2] في حِفْظِ وَلَدِهِ على اللهِ، لم يُرْسِلْهُ مَعَهُمْ إلّا بَعْدَ ما أخَذَ منهُمُ العهودَ والمواثيقَ [بقولِهِ][3]: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي إلّا أنْ يَجْمَعَكُمْ أمرٌ، ويَعُمَّكُم، ويُحيطَ بكمُ الهلاكُ / ٢٥٥ ـ أ/ جميعاً، فَعِنْدَ ذلكَ تكونونَ مَعْذورينَ. وأمّا أنْ يُخَصَّ بهِ أمرٌ فلا؛ أي[4] إلّا يَجيءَ أمرٌ عظيمٌ، يَمْنَعُكُمْ عنْ رَدِّهِ [إليَّ][5] كأنهُ خافَ عليهِ مِنَ المَلِكِ [حينَ طلبَ منهم][6] أنْ يأتوهُ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ﴾ يَعْقوبُ ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي اللهُ على المواثيقِ والعهودِ التي أخذْتُها منكُمْ شَهيدٌ. أو يقولُ: اللهُ لهُ حَفيظٌ كما قالَ: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ [الآية: ٦٤] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: إنَّ يَعْقوبَ خافَ عليهِمُ العَيْنَ، لأنهمْ كانوا ذَوي صُورةٍ وجَمالٍ وبَهاءٍ، فَخَشِيَ عليهِمُ العينَ، لذلكَ أمَرَهُمْ أنْ يدخلوا مُتَفرِّقينَ.

وقالَ بعضُهُمْ: خَشِيَ عليهِمُ البَياتَ والهلاكَ؛ لأنهمْ كانوا أهلَ قوةٍ ومَنَعَةٍ، فيخافُهُمْ أهلُ البَلَدِ، ويَفْرَقونَ منهمْ [خَوْفَ][7] السَّرِقَةِ، فأمَرَهُمْ بالتَّفَرُّقِ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ. فإذا كانوا مُتَفرِّقينَ فلا يهلِكُ[8] الكلُّ، وإنما يَهْلِكُ بعضٌ، ويَنْجو بعضٌ، أو لا يُدْرَى، ما أرادَ بهذا.

وقالَ بعضُهُمْ: عَلِمَ يَعقوبُ أنهمْ لا يَهْلِكونَ لِما رَأى يوسفُ مِنَ الرُّؤْيا أنْ يَسْجُدَ لهُ إخوتُهُ، ولكنْ خافَ عليهِمْ أنْ يَصيبَهُمُ النكبةُ، لذلكَ أمَرَهُمْ أنْ يدخُلوا مِنْ أبوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ أو سِكَكٍ متفرِّقةٍ أو مِنْ طُرُقٍ مُتَفرِّقةٍ، أو ما قالوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي لا أدفعُ عنكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شيءٍ إنْ أصابكُمْ نكبةٌ أو عَينٌ.

فإنْ قِيلَ: لو كانَ أمْرُهُ إياهمْ بالتفريقِ لِخَوفِ العَينِ أو لِخَوفِ أهلِ البَلَدِ منهمُ السَّرِقَةَ والإغارةَ كيفَ لم يأمُرْهُمْ بذلكَ في المرةِ الأولَى؟ لم يَخْشَ ذلكَ لِما قد يقَعُ [في][9] الاجتماعِ ما ذَكَرَ ابنُ عباسٍ ﷺ أنهُ يَخافُهُمْ أهلُ البَلَدِ إذا رَأوهُمْ مجتمِعينَ أنهمْ لصوصٌ، وأنهمْ كذا.

[قيلَ: إنْ يكنْ][10] في المرةِ الأولَى لم يَخْشَ ذلكَ لِما قد يَقَعُ الاجتماعُ في أمثالِ ذلكَ مِنَ الرُّفقاءِ والصحابةِ فلا يكونُ في ذلكَ الخوفُ الذي ذَكَرُوا، وإذا عادوا في المرةِ الثانيةِ قد يَحْتَمِلُ ذلكَ الخوف مِنَ العينِ وغيرَهُ إذا عَلِمَ أهلُ البلدانِ ذلكَ العَدَدَ تحتَ أبٍ واحدٍ. أو أمَرَهُمْ بالتَّفَرُّقِ [في الأبوابِ لِمِحْنَةٍ][11]، امْتُحِنَ بذلكَ، وأُمِرَ بهِ، أو لِمَعْنىً غابَ عنا. لا نَحتاجُ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي لا أدفعُ عنكُمْ بِما أحتالُ ما قَدَّرَ اللهُ، وقَضاهُ، أنْ يُصيبَكُمْ؛ [إنهُ][12] يُصيبُكُمْ، لا مَحالةَ، ويَنْزِلُ بكمْ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ أي ما الحُكْمُ في ذلكَ ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ ما في حُكْمِهِ وقضائِهِ أنْ يُصيبَكُمْ، يُصيبُكُمْ[13]، لا مَحالةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ هذا أصلُ كلِّ أمرٍ يَخافُ المرءُ: أنْ يأخُذَ بالحَذَرِ، ويَتَوكَّلَ مَعَ ذلكَ على اللهِ على ما أمرَ يَعقوبُ ﷺ بنيهِ بالحَذَرِ في ذلكَ. ثم التَّوَكُّلُ[14] على اللهِ. والحَذَرُ هو العادةُ في الخَلْقِ، والتَّوَكُّلُ تَفويضُ الأمرِ إلى اللهِ، والاعتِمادُ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ مِنْ أبوابٍ مُتَفرِّقةٍ ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي ما كانَ يدفعُ عنهُمْ ما حَكَمَ اللهُ عليهِمْ أنْ يُصيبَهُمْ.

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٢) في الأصل وم: وكلامه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: والثاني. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث طلب منكم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يهلكون. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: ولكن أن يكون. (١١) في الأصل وم: الأبواب بمحنة. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: فيصيبكم. (١٤) في الأصل وم: توكل.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ الحاجةُ في النفسِ أحدُ شيئَينِ: إمّا الرغبةُ وإمّا الرهبةُ كقولِهُ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ [الحشر: ٩] فَعلى ذلكَ حاجةُ يعقوبَ، لا تخلو إمّا أنْ كانَتْ رغبةً منهُ في تفرُّقِهِمْ وإمّا[1] رهبةً في اجتِماعِهِمْ قَضى تلكَ الحاجةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ يُشبهُ أنْ يكونَ هذا صلةَ ما قالَ يعقوبُ لِبَنيهِ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ أي وإنهُ لذو عِلْمٍ لِما أمَرَهُم بالدخولِ على التَّفَرُّقِ ونَهاهُمْ[2] عنِ الاجتماعِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما[3] أرادَ بِقولِهِ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾.

وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ قالَ:][4] ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ مِنَ السككِ المُتفرِّقَةِ ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ مِنْ قضاءِ اللهِ شيئاً ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ يقولُ: أدّاها، فتكلَّمَ بها ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ يقولُ: حافظاً لِما علَّمْناهُ.

وقيلَ: حافظاً لهُ عالماً بهِ. وقيلَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي [عَمِلَ بجميعِ][5] ما عَلِمَ، وانتفَعَ بهِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لم ينتفِعوا بما عَلِموا.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ بقصةِ يوسفَ مِنْ أوَّلِها إلى آخِرِها لِما أخبَرْناهُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي ما أصابَ مِنَ الحزنِ بذهابِ يوسفَ وأخيهِ وما أصابَهُ مِنَ الشدةِ والنكبَةِ لم يُؤثِّرْ ذلكَ في عِلْمِهِ الذي علَّمْناهُ، وإنَّ أثَّرَ ذلكَ في نفسِهِ وبدَنِهِ، أي عِلْمُهُ بما علَّمْناهُ بَعْدَ ما أصابَهُ كهو ما كانَ قَبْلَ ذلكَ، لم يَعْمَلْ فيهِ، ولم يُؤثِّرْ.

وعنِ الحَسَنِ في ما ظَنَّ[6] في قولِ يعقوبَ لِبَنيهِ ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [أنهُ][7] قالَ: أما واللهِ ما كانَتْ بهِ طِيَرَةٌ، تَطَيَّرَ بها، ولكنْ قد عَلِمَ، أو ظَنَّ، أنَّ يوسفَ سَيلْقى أخاهُ، فيقولُ: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ [الآية: ٦٩].

وأكثرُ أهلِ التأويلِ قالوا: قولُهُ: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أي خِيفَةَ العَينِ على بَنيهِ لِجمالِهِمْ وحُسْنِ صُوَرِهِمْ أو لِما يكونُ لِواحِدٍ كذا وكذا مِنَ البَنينَ، فيَقصِدونَ قَصْدَهُمْ [بالكنايةِ فيهِمْ على ما][8] ذكَرْنا، أو ما أرادَ بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ هذا يَحتمِلُ وجهَينِ: يَحتمِلُ أنهمْ لَمّا دخلوا البلَدَ الذي فيهِ دعا يوسفُ أخاهُ، وضَمَّهُ إليهِ. ويَحتمِلُ أنهمْ [لمّا][9] دخلوا جميعاً على يوسفَ، فضمَّ أخاهُ إلى نفسِهِ، ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾.

قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ، لم يقلْ لهُ أنا أخوكَ بالنسبةِ، ولكنهُ قالَ: أنا أخوكَ، مكانَ أخيكَ الهالكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ يقولُ: لا تَحزَنْ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذا يَحتمِلُ وجهَينِ: لا تبتئِسْ بما كانَ عَمِلَ إخوتُكَ؛ كأنهُ لمّا دعاهُ، فضمَّهُ إلى نفسِهِ، شكا إليهِ عنْ إخوتِهِ، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. ويَحتمِلُ: فلا تبتئِسْ بما سَيَعْمَلُ[10] بكَ هؤلاءِ، أي خدَمُهُ وعُمّالُهُ؛ كأنهُ أخبَرَهُ بما كانَ يريدُ أنْ يكيدَ بهمْ مِنْ جَعْلِ الصاعِ في رحلِهِ، فقالَ: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بكَ، لأنهُ يجوزُ أنْ يَجعَلَ أخاهُ مُتَّهَماً، يَعترِفُ بهِ مِنْ غيرِ أنْ يَظهَرَ منهُ شيءٌ، وقد أخبَرَهُ أنهُ أخوهُ، واللهُ أعلَمُ. دلَّ أنهُ يُريدُ أنْ يُعلِمَهُ بما يريدُ أنْ يكيدَ بهمْ ليكونَ هو على علمٍ مِنْ ذلكَ.

الآية ٧٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ قيلَ: هي الإناءُ الذي كانَ يَشرَبُ فيهِ الملكُ. وقيلَ: هو الصاعُ الذي كانَ يُكالُ بهِ الطعامُ. ولكن لا نَعْلَمُ ما كانَ ذلكَ سِوى أنا نَعْلَمُ أنها كانَتْ ذاتَ قيمةٍ وثمنٍ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: والنهي. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: أنه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: محل بجمع، في م: محل بجميع. (٦) في الأصل وم: أظن. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: بالكناية عليهم لما، في م: بالكناية عليهم لما. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يعمل.

جنة السنة

ألا ترى أنَّ ذلكَ الرسولَ قالَ: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ [الآية: ٧٢] فلو لا أنها كانَتْ ذاتَ قيمةٍ وثمنٍ لم يُعْطِ لمنْ جاءَ بها[١] حِمْلَ بَعيرٍ، وكانَتْ[٢] قيمةُ الطعامِ عِندَهُمْ في ذلكَ الوقت ما كانَتْ[٣].

[وقولُهُ تعالى][٤]: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي نادى مُنادٍ ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يوسفُ يأمُرُ رسولَهُ أنْ يقولَ لهمْ ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ وقد عَلِمَ أنهمْ ليسوا بسارقينَ. ولكنْ قالَ لهمْ ذلكَ المنادي، فأدّاهُ، واللهُ أعلَمُ، ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ مِنْ نفسِهِ، وهو مِنْ بَعضِ مَنْ يَتولّى كيلَ الطعامِ للناسِ[٥]، وأمثالُهُ لا يُبالونَ الكَذِبَ.

أو قالَ لهمْ ذلكَ قومٌ، كانوا بِحَضْرَتِهِمْ: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾، أو يكونُ على الاِسْتِفهامِ والتقريرِ. فإنْ كانَ هذا فهو يُحْتَمَلُ مِنْ يوسفَ، وأمّا مِنْ غَيرِهِ فلا؛ لأنهُ كَذِبٌ.

وضَمُّ يوسفَ أخاهُ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: يَحْتَمِلُ لِمكانِ سؤالِهِ إياهُمْ أنْ يأتوا بِهِ، أو لِمكانِ فَضْلِهِ ومَنْزِلَتِهِ لِيَعْلَموا[٦] أنَّ ما كانَ ليوسفَ وأخيهِ عندَ أبيهِمْ مِنْ فَضْلٍ / ٢٥٥ ـ ب/ المحبَّةِ والمَنْزِلَةِ مِنَ اللهِ إذْ جَعَلَ ذلك لهما عندَ الملكِ وغَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٧١ و٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ أي إناءَ الملكِ؛ سَمّاهُ مَرَّةً صاعاً ومَرَّةً سِقايةً، فيجوزُ أنْ يُستَعْمَلَ في الأمرَينِ جميعاً، في الاِسْتِسقاءِ والكيلِ جميعاً. قالوا لِمناديهِ: ماذا تَفْقِدونَ؟

قالَ أبو عوسَجَةَ: أي أضلَلْتُمْ؛ يُقالُ: افتَقَدْتُكَ، وتَفَقَّدْتُكَ، أي تَعَهَّدْتُكَ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ هو مِنَ البؤسِ، والسِقايةُ المِكيالُ، وقيلَ: مَشْرَبةُ المَلِكِ، وصُواعُ المَلِكِ وصاعُهُ واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ قيلَ: ضَمينٌ لذلكَ الطعامِ وكفيلٌ بِهِ. والزعيمُ كأنهُ أيضاً اسمٌ لرئيسٍ مِنَ القومِ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجوهاً:

[أحدُها:][٧] أنهمْ قالوا: ذلكَ لأنكُمْ رَدَدْتُمْ إلينا الدراهمَ، وجَعَلْتُمْ في أوعِيَتِنا، ثم رَدَدْنا مَخافةَ أنْ نُقْرَفَ بالسرقةِ والفسادِ. فكيفَ تَقْرِفونَنا بهذا؟

والثاني: أنكُمْ تَعْلَمونَ أنا أبناءُ النبيِّ، والرسولُ والأنبياءُ لا يكونُ منهمُ السَّرِقةُ والفسادُ في الأرضِ، ومِثْلُ هذا لم يَظْهَرْ في أهلِ بَيتِنا قطُّ، ولا قُرِفْنا بِهِ، فكيفَ قَرَفْتُمونا بهذا؟

والثالثُ: أنكُمْ تَرَوْنَنا صَوّامينَ قَوّامينَ. ومَنْ هذا فِعْلُهُ فإنهُ لا يُتَّهَمُ بالسَّرِقةِ.

والرابعُ[٨]: أنْ يكونَ قولُهُ ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لمّا رَأَوهُمْ دَخَلوا مِنْ أبوابٍ مُتَفَرِّقةٍ. ولو كانوا سُرّاقاً لَدَخَلوا مجموعينَ، لأنَّ عادةَ السُّرّاقِ الاِجتماعُ لا التَّفَرُّقُ.

الآية ٧٤ [وقولُهُ تعالى:][٩] ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ أي إنْ كانَ فيكم مَنْ يكذِبُ، ويَظْهَرُ ذلكَ منهُ فما جَزاؤُهُ؟

الآية ٧٥ ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ: يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي يصيرُ رقيقاً مَمْلوكاً بها لهُ، ويَحْتَمِلُ[١٠] يَصيرُ محبوساً بها عندَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ظاهرُ هذا الكلامِ أنْ يكونَ يوسفُ هو الذي فَتَّشَ أوعيَتَهُمْ، وطَلَبَ ذلكَ فيها حينَ[١١] نُسِبَ ذلكَ إليهِ بقولِهِ: ﴿قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لكنهُ نُسِبَ إليهِ [لأنهُ][١٢] بأمرِهِ؛ إذِ الملوكُ لا يأتونَ ذلكَ بأنفسِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: به. (٢) في الأصل وم: الطعام وكان. (٣) في الأصل وم: كان. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: على الناس. (٦) ساقطة من م. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: ثم. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: لما.

وفيه أنهُ قد فَصَلَ بينَهُمْ وبَينَ بنيامينَ؛ سَمَّى هذا أخاهُ، ولم يُسَمِّ أولئكَ بقولِهِ ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ وهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ.

أحدُهما: أنهُ قد ذَكَرَ هذا أنهُ أخوهُ حينَ[1] قالَ لهُ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ [الآية: ٦٩]، ولم يذكُرْ أولئكَ، فَسَمَّى هذا أخاً لهُ، ونَسَبَهُ إليهِ بالأُخُوَّةِ لِما كانَ ذَكَرَ لهُ، ولم يُسَمِّ أولئكَ لِما لم يذكُرْ لهمْ أنهُ أخوهُمْ.

والثاني: أنهُ لم يكنْ لهذا؛ أعني بنيامينَ [في حقِّ][2] يوسفَ سُوءُ صنيعٍ، ولا شريكٍ، بل هو على الأُخُوَّةِ والصداقةِ التي كانَتْ بَيْنَه وبينَهُ. وأمّا أولئكَ؛ أعني غَيرَهُ مِنَ الإخوةِ، فقد كانَ منهمْ إليهِ ما كانَ مِنْ سُوءِ صَنيعِهِمْ وقُبحِ فِعالِهِمْ، فَخَرَّجَ ذلكَ مُخرَجَ التَّبَرّي مِنَ الأُخُوَّةِ بِسُوءِ ما كانَ إليهِ.

وهو كقولِهِ تعالى لنوحٍ ﷺ حينَ قالَ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٥ و٤٦] نَفَى أنْ يكونَ مِنْ أهلِهِ بِسُوءِ عملِهِ، وفِعْلُهُ غَيرُ صالحٍ.

فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ، يُشبِهُ أنْ يكونَ على هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ دلَّ هذا أنهُ قد كانَ منهُ أيضاً التفتيشُ والطلبُ في وعاءِ أخيهِ على ما كانَ في أوعيَتِهِمْ، لا يَسْتَخرِجُها على غيرِ تفتيشٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ هذا يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما[3]: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي عَلَّمْنا يوسفَ مِنْ أوَّلِ الأمرِ إلى آخرِهِ ما يَكيدُ، ويَحتالُ في إمساكِ أخيهِ عندَهُ ومَنْعِهِ عنهمْ [لِئلّا يَخلُوَ][4] لهمْ وجهُ أبيهِمْ جزاءَ ما طَلَبوا هُمْ أنْ يَخلُوَ لهمْ وجهُ أبيهِمْ بِتَغْييبِ يوسفَ عنْ أبيهِ لأنَّ أباهُمْ قالَ: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [الآية: ٦٦] فلما بَلَغَهُ ذلكَ الخَبَرُ تَوَلّى عنهمْ، وهو قولُهُ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الآية [الآية: ٨٤].

هذا واللهُ أعلَمُ، جزاءُ كيدِهِمُ الذي كادوا بيوسفَ لِيَخلُوَ لهمْ وجهُ أبيهِمْ، لِيَتَوَلّى عنهمْ أبوهُمْ. هذا يُشبِهُ أنْ يكونَ.

والثاني: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي عَلَّمْناهُ أنْ كيفَ يُفَتِّشُ أوعيَتَهُمْ لئلا يَشْعُروا عن علمِ اسْتَخرَجَها مِنْ وعاءِ أخيهِ لا عَنْ جَهْلٍ وظنٍّ؟ عَلَّمْناهُ[5] البِدايَةَ في التفتيشِ بأوعيَتِهِمْ لئلا يَقَعَ عندَهُمْ أنهُ عنْ عِلْمٍ ويَقينٍ بأخْذِهِ.

يُشبِهُ، واللهُ أعلَمُ، أنْ يُخرَّجَ قولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ على هذينِ الوجهَينِ، أو ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ بالكيدِ بهمْ جزاءَ ما عَمِلوا بِحَقِّهِ لَمّا اهْتَمّوا بإمساكِ أخيهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي في حُكْمِ المَلِكِ؛ ذُكِرَ أنَّ حُكْمَ إخوةِ يوسفَ وقضاةَهُمْ فيهمْ أنَّ مَنْ سَرَقَ يكنْ[6] عبداً بِسَرِقَتِهِ لِلْمَسروقِ، ويُسْتَعْبَدُ[7] بِسَرِقَتِهِ. ومِنْ حُكْمِ المَلِكِ أنْ يُغَرَّمَ[8] السارقُ ضِعْفَي ما سَرَقَ، ويُضْرَبَ، ويُؤَدَّبَ، ثم يُخَلّى عنهُ. ولا نَعْلَمُ ما حُكْمُ المَلِكِ في السَّرِقَةِ سِوى أنهُ أخبَرَ أنْ ليسَ لهُ أخذُ أخيهِ في دِينِ المَلِكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنْ يَجْعَلَ ذلكَ الحُكمَ حُكمَ المَلِكِ، أو يَجْعَلَ لهُ حَقَّ الأخذِ وحَبْسِهِ، وإنْ لم يكُنْ ذلكَ في حُكْمِهِ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ على ما كانَ الأنبياءُ، صَلَواتُ اللهِ عليهمْ، وسلامُهُ، يَذكُرونَ الثُّنيا على حقيقةِ المشيئةِ، أو يقولُ: إلا أنْ يكونَ في عِلْمِ اللهِ مني زَلَّةٌ، فأستوجِبَ عندَ ذلكَ الكونَ في دِينِ[9] المَلِكِ، فَيَشاءُ ما عَلِمَ مني.

وكذلكَ قولُ إبراهيمَ حينَ[10] قالَ: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ٨٠] أي لا أخافُ ما تُشرِكونَ بهِ إلا أنْ يكونَ مني ما أستوجِبُ ذلكَ بِزَلَّةٍ، فَيَشاءُ اللهُ ذلكَ مني.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: لمكان. (٣) في الأصل وم: يحتمل. (٤) في الأصل وم: لأن يخلو. (٥) في الأصل وم: لعلمه. (٦) في الأصل وم: يكون. (٧) من م، في الأصل: ويستبعد. (٨) في الأصل وم: يفرق. (٩) من م، في الأصل: ذلك. (١٠) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ الدرجاتُ هُنَّ الفضائلُ؛ نرفَعُ بعْضَهُمْ فوقَ بعضٍ بالنُّبُوَّةِ والعِلْمِ وفي كلِّ شيءٍ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ ما مِنْ عالمٍ، وإنْ لَطُفَ عِلْمُهُ، وكَثُرَ إلّا وقد يكونُ فوقَهُ مَنْ هو ألطفُ عِلْماً منهُ وأكثَرُ وأعْلَمُ في شيءٍ. أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ هو اللهُ تعالى فوقَ كلِّ ذي عِلْمٍ؛ يُعَلِّمُهُمُ العِلْمَ، واللهُ أعلَمُ.

ومَنْ يقولُ: إنهُ عالمٌ، [وهو لا يَعْلَمُ كلَّ شيءٍ][١] يَحْتَجُّ بظاهرِ هذهِ الآيةِ حينَ[٢] قالَ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أثْبَتَ لِغَيْرِهِ العلْمَ، ولم يَذْكُرْهُ[٣] لِنَفْسِهِ؛ كأنهُ[٤] قالَ: [إنهُ ذو عِلْمٍ. ولو قالَ إنهُ][٥] عليمٌ أثْبَتَ العِلْمَ [لنفسِهِ لأنهُ][٦] إذا قالَ: وفوقَ كلِّ العلماءِ عليمٌ يكونُ كذلكَ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: كانَتْ سَرِقَتُهُ أنهُ كانَ صنمٌ مِنْ ذَهَبٍ لِجَدِّهِ أبي أمِّهِ، يَعْبُدُهُ، فَسَرَقَ ذلكَ لئلا يَعْبُدَهُ دونَ اللهِ، ولكنا لا نَعْلَمُ ذلكَ، ونعلَمُ أنهمْ كَذَبوا في قولِهِمْ: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ وأرادوا أنْ يَتَبَرَّؤوا منهُ، ويَنْفُوا ذلكَ [عنْ][٧] أنفسِهِمْ لِيُعْلَمَ أنهُ ليسَ منهمْ.

[وقولُهُ تعالى][٨]: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ قيلَ إنَّ يوسفَ أسَرَّ [هذهِ الكلمةَ][٩] في نَفْسِهِ، ولم يُظْهِرْها لهمْ، أو أسَرَّ[١٠] ما اتَّهَمُوهُ بالسَّرِقَةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ [قولُهُمْ][١١]: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ خاطَبوا بهِ أخاهُ بنيامينَ دونَ يوسفَ / ٢٥٦ - أ/ ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يقولونَ في ما بَيْنَهُمْ

وقد ذُكِرَ في بعضِ الحروفِ: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ﴾ سُرِّقَ ﴿أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ بالتشديدِ[١٢]. فإنْ ثَبَتَ فالتأويلُ هو لقولِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي انتمْ أشَرُّ صُنْعاً بيوسُفَ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ مِنَ الكذبِ أنهُ ﴿سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ أرادوا، واللهُ أعلَمُ، أنْ يُرَقِّقُوا قَلْبَهُ بهذا ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ لِما يكونُ قلبُ الشيخِ لِولدِهِ الصغيرِ أمْيَلَ، ويكونُ عندَهُ آثَرَ وأكثَرَ مَنْزِلَةً ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لِما أحْسَنَ إليهِمْ في الكيلِ والإنزالِ في المَنْزِلِ والضِّيافةِ والقِرى؛ قد رأوهُ، وعَلِموهُ مُحْسِناً.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ قيلَ: هذا قولُ يوسفَ: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي أعوذُ باللهِ أنْ نأخُذَ، ونحبِسَ، بالسَّرِقةِ ﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾.

[فإنْ قيلَ: كيفَ تَعَوَّذَ على تَرْكِ أخْذِهِ وأخذِ غيرِهِ مكانَهُ، ولم يكنْ وَجَبَ لهُ حقُّ الأخذِ، إذْ لم تكُنْ سَرِقةٌ، وإنما يُتَعَوَّذُ على تَرْكِ ما لا يَسَعُ تَرْكُهُ؟ قيلَ: إنهُ لم يَتَعَوَّذْ على تَرْكِ أخذِ أخيهِ، إنما تَعَوَّذَ على غيرِ ما وَجَدَ المَتاعَ عندَهُ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ عندَكُمْ لو أخذنا غيرَ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عندَهُ. إذْ في حكمِهِمْ أخْذُ مَنْ سَرَقَ بالسَّرِقةِ][١٣] والحَبْسُ بها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ قيلَ: أيِسوا مِنْ أنْ يُرَدَّ إليهِمْ أخوهُمْ ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ قيلَ: خَلَوا مِنَ الناسِ، وخَلَصوا منهمْ، يَتَناجَونَ في ما بَيْنَهمْ في أمرِ أخيهِمْ أو في الإنصرافِ إلى أبيهِمْ أو في المُقامِ فيهِ.

[وقولُهُ تعالى][١٤]: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿كَبِيرُهُمْ﴾ في العقلِ، ليسَ في السِّنِّ، وهو فلانٌ. وقالَ بعضُهُمْ: هو يهوذا، وقالَ بعضُهُمْ: هو شَمعونُ، ولكنْ لا نَعْلَمُ مَنْ كانَ قائلُ هذا لهمْ؟

---

(١) في الأصل وم: لا يعلم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: يذكر. (٤) في الأصل وم: بل. (٥) في الأصل وم: عليم لكنه إذا قال. (٦) في الأصل وم: ولأنه. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في م: هذا القول. (١٠) في الأصل وم: أسروا. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/١٨٦. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ولا نحتاجُ إلى معرفةِ ذلكَ سِوَى أنَّ فيهِ: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ إمّا أنْ كانَ كبيرَهُمْ في العقلِ وإمّا[1] كبيرَهُمْ في السِّنِّ ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ﴾ ألم تعلَموا؟ أو لم ترَوا؟ حرفانِ يُستعمَلانِ في أحدِ أمرَينِ: في الأمرِ: أنِ اعْلَموا كذا، أو في موضعِ التنبيهِ والتقريرِ. وههنا كأنهُ قالَ ذلكَ على التقريرِ والتنبيهِ؛ أي قد علِمْتُمْ ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾.

هذا يدلُّ أنَّ التأويلَ في قولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ هو[2] أنْ يَعُمَّكُمْ أمرٌ، ويَجمعَكُمْ، فتَهلِكوا[3] فيهِ جميعاً وليسَ كما قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إلا أنْ يَجيءَ ما يَمنعُكُمْ عن ردِّهِ؛ إلا أنْ تُغلَبوا، فتَعجَزوا عن ردِّهِ لأنهُ قد جاءَ ما يَمنعُهُمْ عن ردِّهِ.

ثم أبَى أكبَرُهُمُ الرجوعَ إلى أبيهِ. دلَّ أنَّ التأويلَ هو هذا.

ومَنْ يقولُ: إنَّ التأويلَ في قولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أنْ يَجيءَ ما يَمنعُكُمْ عنِ الرّدِّ استدَلَّ بقولِهِ: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ [الآية: ٨١] فلو كانَ على ما يَعُمُّهُمْ لم يكنْ لِيَأمُرَهُمْ بالرجوعِ إلى أبيهِمْ. دلَّ أنهُ ما ذكَرَ.

وأمّا أهلُ التأويلِ الأوّلِ [فهمْ][4] يقولونَ: إنَّ قولَهُ: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ ليسَ على الأمرِ، ولكنْ [على الخبرِ][5] إذا رجعتُمْ ﴿إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ وكذلكَ يُخرَّجُ قولُهُ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ ليسَ على الأمرِ، ولكنْ [على الخبَرِ][6] لو سألْتَ أهلَ القريةِ وأهلَ العيرِ لأخبَروكَ أنهُ كما قُلْنا.

فعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟﴾ ليسَ على الأمرِ ولكنْ [على الخبَرِ][7] لو رَجعْتُمْ إليهِ فقولوا كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ﴾ أي مِنْ قبلُ ما ضيَّعتُمْ أمرَ أبيكُمْ في يوسفَ، أو ضيَّعتُمْ [أمرَ][8] اللهِ ووعْدَهُ ﴿فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ هذا يَحتمِلُ وجهَينِ.

يَحتمِلُ ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ بالرجوعِ إليهِ إذا ظَهرَ عندَهُ عُذرُنا وصِدقُنا في أمرِ ابنِهِ.

ويَحتمِلُ[9]: ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ بالمنازَعةِ في القِتالِ معَ المَلِكِ حتى أستَنقِذَ أخي، وأستَخلِصَهُ منهُ ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ في الرجوعِ[10] أو في القِتالِ معَهُ ﴿وَهُوَ خَيْرُ﴾: ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بإظهارِ عُذرِنا وصِدقِنا عندَ أبينا ﴿وَهُوَ خَيْرُ﴾ في إظهارِ العُذرِ لأنهُ [إذا حكَمَ بإظهارِ العذرِ][11] ظَهرَ ذلكَ في الخَلقِ جميعاً.

وكذلكَ حُكمُ غيرِهِ لأنَّ مَنْ حكَمَ بِحُكمٍ يجوزُ، فإنما يَحكُمُ بِحُكمٍ، هو حكمُ اللهِ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الآيتان: ٦٤ و٩٢] لأنَّ مَنْ رَحِمَ [أحداً][12] مِنَ الخَلقِ فإنما يرحَمُ برحمتِهِ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ يَحتمِلُ على الأمرِ على ما هو في الظاهرِ، ويَحتمِلُ ما ذكَرْنا؛ أي لو رَجعتُمْ إليهِ ﴿فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ هذا منهُ تَعريضاً في التخطئةِ على ما كانَ يُؤثِرُهُ على غيرِهِ مِنَ الأولادِ، أي الذي كُنتَ تُؤثِرُهُ علينا بالمَحبّةِ ومَيلِ القلبِ إليهِ قد سرَقَ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ ليسَ على التَّعريضِ، ولكنْ على الإخبارِ على ما ظَهرَ عندَهُمْ مِنْ ظاهرِ الأمرِ ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ بما أُخرِجَ المَتاعُ مِنْ وعائِهِ ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ هذا على التأويلِ الذي قيلَ في قولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي يَعُمَّكُمْ، ويَجمعَكُمْ؛ أي ما كُنّا نَعلَمُ وقتَ إعطاءِ العهدِ[13] والميثاقِ أنهُ يَسرِقُ، وإلّا لم نُعطِكَ العَهْدَ على ذلكَ.

ويَحتمِلُ ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ وقتَ ما أُخرِجَ المَتاعُ مِنْ وعائِهِ، واتُّهِمَ أنهُ سرَقَ، أهو[14] لم يَسرِقْ؟ أم[15] هو وَضعَ الصاعَ في رَحلِهِ؟ أو غيرُهُ وَضعَ؟ أي ما كُنّا نَعلَمُ في الابتداءِ أنَّ الأمرَ يَرجِعُ إلى هذا. وإلّا لم نُخرِجْهُ معنا.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: هؤلاء. (٣) في الأصل وم: فتهلكون. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) و(٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) أدرج بعدها في الأصل وم: أيضاً. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: الوقت. (١٣) في الأصل وم: الوقت. (١٤) في الأصل وم: أو. (١٥) في الأصل وم: أو.

جنة السنة

الآية ٨٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي [لو](١) سألتَ أهلَ القريةِ وأهلَ العِيرِ لأخبروكَ أنهُ على ما نقولُ ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ على ذلكَ على ما ظَهَرَ لنا مِنِ استِخراجِ الإناءِ مِنْ وعائِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ قالَ لهمْ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وجَعَلَ ما أخبروهُ مِنْ تَسويلِ أنفسِهِمْ وتَزيينِها [وهُمْ لم يُخالِفوهُ](٢) في ما أمَرَهُمْ في أمْرِ بنيامينَ، ولا تَرَكوا شيئاً ممّا أمَرَهُمْ بهِ؟

وليسَ هذا كالأوّلِ الذي قالَ لهمْ في أمْرِ يوسفَ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [الآية: ١٨] لأنهُ قد كانَ منهُمْ خِلافٌ لِما أمَرَهُمْ بهِ، والسَّعْيُ إلى إهلاكِهِ، فكانَ ما ذَكَرَ مِنْ تَسويلِ أنفسِهِمْ وتزيينِها في مَوضِعِ التسويلِ والتزيينِ. وأمّا ههنا فلم يأتِ منهُمْ إليهِ خِلافٌ ولا تَرْكٌ لأمرِهِ.

فكيفَ قالَ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؟ قيلَ(٣) يُشبِهُ أنْ يكونَ قالَ ذلكَ لأنهمْ لمّا اتُّهِموا جميعاً بالسَّرِقَةِ، فقيلَ: ﴿إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ [الآية: ٧٠] ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ﴾ [الآية: ٧٣] قَطَعوا فيهِ القولَ: إنهمْ لم يكونوا سارِقينَ، وهو كانَ فيهِمْ.

فكيفَ قَطَعْتُمْ فيهِ القولَ بالسَّرِقةِ ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾؟ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ مِنَ البُغْضِ والعداوةِ مِنَ الإيثارِ لهُ وليوسفَ [عليكُمْ والمَيلِ إليهِما دونَكُمْ حينَ](٤) ﴿قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [الآية: ٨] واللهُ أعلَمُ. فَسَوّلَتْ لكُمْ أنفسُكُمْ بِبُغْضِكُمْ وعداوَتِكُمْ حتى تَرَكْتُمُ الفَحصَ عنْ حالِهِ وأمْرِهِ [إذْ لا](٥) كُلُّ مَنْ وُجِدَ في رَحْلِهِ شيءٌ يكونُ هو واضِعَ ذلكَ الشيءِ، بل قد يَضَعُهُ(٦) غيرُهُ فيهِ على غيرِ عِلْمٍ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قد ذَكَرْناهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: قالَ: ﴿يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ لأنهمْ صاروا جماعةً: يوسفُ، وبنيامينُ أخوهُ، ويهوذا، وشمعونُ، قد تَخَلّفا بسببِ حَبْسِ يوسفَ أخاهُ، أو يوسفُ وأخوهُ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ جبريلَ أتى يَعقوبَ على أحْسَنِ صورةٍ، فسألَهُ عنْ يوسفَ: أفي الأحياءِ [هوَ أم في الأمواتِ](٧)؟ فقالَ: بل هو في الأحياءِ، فقالَ عند ذلكَ: ﴿عَسَى/ ٢٥٦ ـ ب/ ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أو عَلِمَ يَعقوبُ أنَّ يوسفَ في الأحياءِ، وأنهُ غيرُ هالِكٍ، لِما رَأى يوسفَ مِنَ الرؤيا مِنْ سُجودِ الكواكبِ والشمسِ والقمرِ لهُ عَلِمَ أنهُ في الأحياءِ، وأنهُ لا يهلِكُ إلّا بَعْدَ خروجِ رؤياهُ، وغيرَ ذلكِ مِنَ الدلائلِ.

لكنهُ كانَ لا يَعْلَمُ أينَ هو، فقالَ ذلكَ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

الآية ٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي أعرَضَ عنهمْ، وعاتَبَهُمْ، حينَ أخبروهُ أنَّ ابنهُ سَرَقَ ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قيلَ: يا حُزنا على يوسفَ، وقيلَ: يا جَزَعا [على يوسفَ](٨).

وقالَ القُتَبيُّ: الأسفُ أشَدُّ الحَسْرَةِ، وأصلُهُ أنَّ الأسفَ أنهُ النهايةُ في الحُزْنِ إذا بَلَغَ غايَتَهُ ونهايَتَهُ؛ يُقالُ: أسِفَ، وهو النهايةُ في الغضبِ أيضاً كقولِهِ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي أغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ [لا](٩) على إظهارِ القولِ باللسانِ، ولكنْ إخبارٌ عمّا في ضميرِهِ، وذلكَ جائزٌ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩] أخبَرَ عمّا في قلوبهِمْ لأنْ قالوا ذلكَ باللسانِ. ويَحتَمِلُ القولُ بهِ على غيرِ قَصْدٍ منهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ولم يخالفوا هم. (٣) في الأصل وم: لكن. (٤) في الأصل وم: عليهم والميل إليها دونهم حيث. (٥) في الأصل وم: إلا. (٦) في الأصل وم: يضع. (٧) في الأصل: أم الأموات، في م: أم في الأموات. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ الكَظْمُ[1] هو كفُّ النفسِ عنِ الجزَعِ، وترديدُ الحُزنِ في الجوفِ على غيرِ إظهارٍ في أفعالِهِ[2]. والجزَعُ هو ما ظَهَرَ في أفعالِهِ، والذي يَهيجُ الغَضبَ؛ إلّا أنَّ الحُزنَ يكونُ على مَن فوقَهُ، والغَضبَ [على][3] مَن تحتَ يدِهِ، وسَبَبُ هَيَجانِها واحدٌ، أو أنْ يكونُ الكظيمُ هو الذي يَستُرُ، ويُغَطّي [في القَلْبِ ما][4] حَلَّ بهِ. والهَمُّ هو ما يَبعَثُ على القَصْدِ مِنْ [مُباشَرَةِ سَبَبِ دفعِهِ، وهو مأخوذٌ مِنَ][5] الهَمِ بهِ. والحُزنُ هو ما يُؤثِّرُ التغييرَ في الخِلْقةِ، ولا يَظْهَرُ في الأفعالِ. والجَزَعُ يَظْهَرُ في الأفعالِ، ولا يُغَيِّرُ الخِلقَةَ عَنْ حالِها. لِذلكَ [عَمِلَ الحُزنُ][6] في ضَعْفِ نَفْسِ يعقوبَ، وعَمِلَ في [إهلاكِ بعضِهِ حينَ][7] ذَهَبَتْ عيناهُ، وابيَضَّتْ مِنَ الحُزنِ. والكظيمُ ما ذَكَرْنا؛ هو الذي يُرَدِّدُ الحُزنَ في جَوفِهِ، ولا يُظْهِرُهُ[8]، ويَكُفُّهُ عنِ الجزَعِ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ﴾ يمينُهُمْ مكانَ: واللهِ، أو باللهِ. وكذلكَ قالَ إبراهيمُ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي لا تَزالُ تذكُرُ يوسفَ، ولا تَنسى ذكرَهُ، حتى تَسلُوَ منْ حزنِكَ[9] كأنهمْ دَعَوهُ الى السُّلُوِّ مِنْ حزنِهِ، لأنهُ بالذكرِ يَتجدَّدُ الحزنُ، ويَحدُثُ، فقالوا لهُ: لا تزالُ ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ قيلَ: دَنِفاً، وقيلَ: ﴿حَرَضًا﴾ هَرِماً.

وأصلُ الحَرَضِ الضَّعفُ ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ كذلكَ صارَ يَعقوبُ: ضَعُفَ بَدَنُهُ مِنَ الحُزنِ، وصارَ بعضُ بَدَنِهِ مِنَ الهالكينَ حينَ[10] ابيَضَّتْ عيناهُ، وذهبتْ[11] مِنَ الحُزنِ.

الآية ٨٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قالَ القُتَبيُّ: الحَرَضُ الدَّنَفُ والبَثُّ أشَدُّ الحزنِ؛ لأنَّ صاحِبَهُ لا يَصْبِرُ عليهِ حتى يَبُثَّهُ أي يَشْكوهُ. وكذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ: «مَنْ بَثَّ لمْ يَصْبِرْ» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٨/٤٨] أي شَكا. وما ذَكَرَ مِنَ الشكايةِ الى اللهِ ليسَ على إظهارِ ذلكَ باللسانِ ولكنْ [على][12] إمساكٍ في القَلْبِ. وقالَ الحَسَنُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى﴾ أي حاجتي ﴿وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ البَثُّ والحُزنُ واحداً، ذَكَرَهُ[13] على التكرارِ. وقالَ بعضُهُمْ: الحَرَضُ الذي ذهبَ عقلُهُ مِنَ الكِبَرِ ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ فتموتَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال بعضُ أهلِ التأويلِ: قولُهُ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ مِنْ تَحقيقِ رؤيا يوسفَ أنهُ كائنٌ ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنتم، وأنا سَنَسْجُدُ [لهُ][14].

وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ قولُهُ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنهُ حيٌّ، لم يَمُتْ، وهو ما ذَكَرَ أنهُ كانَ يَعْلَمُ مِنَ اللهِ مالا يَعْلَمُونَ هُمْ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي أنتفِعُ بِعِلْمٍ ما لا تَنتفِعونَ أنتمْ.

وأصلُهُ: أنَّ إخوةَ يوسفَ لو عَلِموا أنَّ أمرَ يوسفَ يَبْلُغُ ما يَبْلُغُ مِنَ المُلْكِ والعِزِّ ما قَصَدوا قَصْدَ تَغييبِهِ عن والدِهِ، ولا سَعَوا فيهِ في ما سَعَوا مِنْ إفسادِ أمرِهِ. لكنهُمْ لم يَعْلَموا، واللهُ أعلَمُ، أو عَلِمَ مِنَ اللهِ شيئاً، لم يُبَيِّنْ ما لا يَعْلَمونَ هُمْ كقولِ إبراهيمَ[15].

وما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ يَعقوبَ قالَ كذا مِنَ النِّياحِ على يوسفَ والجزعِ عليهِ، لا يَحْتَمِلُ ذلكَ؛ لأنهُ قالَ حينَ أخبَروهُ بذلكَ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. وما ذَكَروا هُمْ منهُ، ليسَ هو بِصَبْرٍ، فَضْلاً أنْ يكونَ جميلاً.

---

(١) في الأصل وم: الكظيم. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: غير. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: القلب إذا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: الهلاك بعضه حيث. (٨) في الأصل وم: يظهر. (٩) حزنه. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: ذهب. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: ذكر. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) لعلهُ يشير إلى الآيات (٥٤) و(٥٦) و(٥٧) من سورة الأنبياء.

جنة السنة

الآية ٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ اطلُبوهُ، واستَخبِروا عنهُ وعنْ أخيهِ. لكنَّ غيرَ هذا كأنهُ أقرَبُ، وهو مِنْ وقوعِ الحِسِّ عليهِ؛ كأنهُ قالَ: اذهبوا، فانْظُروا إليهِ وإلى أخيهِ؛ لأنهُمْ إنْ لم يكونوا يَعْلَمونَ أنَّ يوسفَ أينَ هو؟ فَلَقَدْ كانوا يَعْلَمونَ مِنْ حالِ أخيهِ بنيامينَ أنهُ أينَ هو؟

فلو كانَ على الطَّلَبِ والبَحْثِ والاِسْتِخبارِ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنِ احْتُمِلَ في يوسفَ فذلكَ لا يُحْتَمَلُ في أخيهِ؛ إذْ هُمْ كانوا يَعْلَمونَ مكانَهُ، وأينَ هو؟ وإذْ كانوا لا يَعْلَمونَ مكانَ يوسفَ، ولا أينَ هو؟ وهو إنما أمَرَهُمْ أن يَتَحَسَّسوا عنهما جميعاً. فدلَّ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ مِنْ وقوعِ الحِسِّ والبَصَرِ عليهما لا مِنَ البَحْثِ والطَّلَبِ، واللهُ أعلَمُ.

فكأنهُ عَلِمَ بالوحيِ أنهُ هنالكَ، وأخاهُ[1] مَعَهُ. لكنهُ لم يُخبِرْ بَنيهِ أنهُ هنالكَ لِما عَلِمَ أنهم يَتَكاسَلونَ، ويَتَثاقَلونَ عنِ الذهابِ إليهِ، وإنما أمَرَهُمْ[2] بذلكَ أمْرَ تعريضٍ لا أمْرَ تصريحٍ.

ويَحْتَمِلُ[3] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾ على الإضمارِ، أي تَحَسَّسوا أمْرَ[4] يوسفَ، واسألوا منهُ ردَّ أخيهِ لِما عَلِمَ أنَّ أخاه يكونُ معهُ.

وقالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنما قالَ لهمْ هذا، وعَلِمَ أنهُ في الأحياءِ لأنهُ رأى مَلَكَ الموتِ، فقالَ لهُ: هل قَبَضْتَ رُوحَ يوسفَ ممّا قَبَضْتَ مِنَ الأرواحِ؟ قالَ: لا.

وقالَ بعضُهُمْ: رأى في المَنامِ مَلَكَ الموتِ، فقالَ لهُ ما ذَكَرْنا، فعندَ ذلكَ قالَ هذا القولَ.

لكنا نقولُ: إنهُ كانَ عالماً [أنهُ][5] في الأحياءِ، ليسَ بهالكٍ، لِما رأى [يوسفُ][6] مِنَ الرُّؤيا وغيرِها[7]، فَعَلِمَ أنهُ لا يَهْلِكُ إلّا بَعْدَ خُروجِ رؤياهُ على الصِّدْقِ والحقِّ. لكنهُ لم يكُنْ يَعْلَمُ أنهُ أينَ هو من قَبْلُ، ثم عَلِمَ مِنْ بَعْدُ بالوَحْيِ عنْ مكانِهِ وحالِهِ؟ فأمَرَ بَنيهِ أنْ يأتوهُ، فَيَنْظُروا إليهِ وإلى أخيهِ.

وأصلُ هذا أنَّ ما حلَّ بيعقوبَ مِنْ فوتِ يوسفَ وغيبَتِهِ عنهُ مِحْنةٌ، امْتَحَنَهُ ربُّهُ، وبَلِيَّةٌ، ابتلاهُ بها؛ [مِمّا يَبْتَلي الأخيارَ][8].

ألا ترى أنَّ يوسفَ لو أرادَ أنْ يُعْلِمَ أباهُ يعقوبَ عنْ مكانِهِ وحالِهِ لَقَدَرَ عليهِ؛ لأنهُ كانَ يَعْلَمُ بمكانِ أبيهِ؟ وأنَّ يعقوبَ لا يَعْلَمُ بمكانِ يوسفَ، فلم يَعْلَمْهُ[9] إلّا بعدَ الأمرِ بالإعلامِ، واللهُ أعلَمُ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ مِنْ رحمةِ اللهِ ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أخبَرَ أنهُ لا يَيْأسُ مِنْ رَحمةِ اللهِ إلّا القومُ الكافِرونَ؛ مَنْ آمَنَ يَعْلَمُ أنهُ مُتَقَلِّبٌ في رحمةِ اللهِ ونِعْمَتِهِ. وأمّا الكافرُ فإنهُ لا يَعْرِفُ رحمةَ اللهِ ولا تَقَلُّبَهُ في رحمتِهِ، فَيَيْأسُ مِنْ رحمتِهِ.

نَهاهُم عنِ الإياسِ لِما كانَ عندَهُمْ أنهُ هالكٌ حينَ[10] ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [الآية: ٩٥] لمّا قالَ لهمْ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ وأخوهُ كانَ مَحْبوساً بالسَّرِقَةِ. والمَحْبوسُ لا يُرَدُّ في حكمِهِمْ.

أو يقولُ: نَهاهُمْ، وإنْ لم يكونوا آيِسينَ، ثم يقولُ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

خَبَّرَ عنِ اللهِ؛ أخبَرَ أنهُ ﴿لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وكذلكَ ما بَشَّرَ إبراهيمَ بالوَلَدِ حينَ[11] /٢٥٧ ـ أ/ ﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٥] نَهاهُ عنِ القنوطِ. ولا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ إبراهيمُ قانطاً مِنَ[12] ذلكَ، لكنهُ نَهاهُ، ثم أخبَرَ، فقالَ: ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

والآيةُ تَرُدُّ على المعتزلةِ قولَهُمْ لِقولِهِمْ: إنَّ صاحبَ الكبيرةِ خالدٌ[13] مُخَلَّدٌ في النارِ، وإنهُ ليسَ بكافرٍ، وهو آيِسٌ على

---

(١) في الأصل وم: وأخوه. (٢) من م، في الأصل: أخبرهم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: من. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وغيره. (٨) في الأصل وم: يبتلي بذلك حسرة عليهما. (٩) في الأصل وم: يفعله. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) في الأصل وم: عن. (١٣) في الأصل وم: خالدا.

قولِهِمْ مِنْ روحِ الله(١)، وقد أخبرَ أنهُ ﴿لَا يَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (٢).

الآية ٨٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ أي على يوسفَ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ سَمَّوهُ عزيزاً لِما لَعَلَّهُمْ يُسَمُّونَ كلَّ مَلِكٍ عزيزاً، أو سَمَّوهُ عزيزاً لِما كانَ عندَ الملكِ(٣) عزيزاً بقولِهِ: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [الآية: ٢١] أو(٤) لِما كانَ للناسِ إليهِ حاجةٌ بالطعامِ الذي في يدِهِ، وهو كانَ غنياً عمّا في أيديهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُمْ: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أصابنا الشدةُ والبَلاءُ والجوعُ ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ قيلَ: دراهمُ نَفايَةٌ مُبَهرَجٌ، لا تَنْفُقُ في الطعامِ، كاسِدَةٌ، لأنهُ كانَ في عِزَّةٍ، وتَنْفُقُ في غيرِهِ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أي قليلةٍ، وكذلكَ قالَ القُتَبِيُّ: أي قليلةٍ. وقالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما هي الوَرَقُ الرديئةُ، لا تَنْفُقُ حتى تُوضَعَ. وقالَ أبو عُبَيدةَ: الإزجاءُ في كلامِ العربِ الدَّفْعُ والسَّوقُ، وهو كقولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣] أي يَسوقُ، ويَدفَعُ.

وقالَ بعضُهُمْ: جاؤوا بسمنٍ وصوفٍ، وقيلَ جاؤوا بِصَنَوبَرٍ وحبِّ(٥) الخضراءِ، أو أمثالِ هذا. ويشبهُ أنْ يكونَ [قولُهُمْ](٦): ﴿مُّزْجَىٰةٍ﴾ كما يُقالُ: تُزجَى يوماً بيومٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أوفِ لنا الكيلَ بِسِعْرِ الجيادِ، وتأخذُ النُّفايَةَ، وتَكيلُ لنا الطعامَ بسعرِ الجيادِ. ولكنَّ قولَهُ: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أي سَلِّمْ لنا الكيلَ تامّاً لأنَّ الإيفاءَ هو التسليمُ على الوَفاءِ كقولِهِ: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

[وقولُهُ تعالى](٧): ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ بِفَضلِ ما بَينَ الثمنَينِ في الوزنِ، وقيلَ: ما بَينَ الكَيلَينِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي رُدَّ لنا شيئاً، يكونُ ذلكَ صدقةً لنا منكَ. لكنْ يُشبِهُ على ما قالوا، وطلبوا منهُ، الصَّدَقةُ حَطُّ الثمنِ، لأنَّ الصدقةَ لا تَحِلُّ للأنبياءِ، ويجوزُ الحَطُّ لأولادِهِمْ(٨)، ويجوزُ حطُّ مَنْ لا تَجوزُ صَدَقَتُهُ نَحْوَ العبدِ المأذونِ لهُ في التجارةِ؛ يجوزُ حطُّهُ، ولا تجوزُ صدقَتُهُ. وكذلكَ نَبِيُّ اللهِ كانَ يجوزُ الشراءُ لهُ(٩) بدونِ ثمنِهِ، ولا تَحِلُّ لهُ الصدقةُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ بذهابِ بَصَرِ أبيهِمْ، مَسَّهُمْ بذلكَ وأهلَهُمُ الضُّرُّ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي رُدَّ علينا بنيامينَ لعلَّ اللهَ يَرُدُّ بَصَرَهُ عليهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [قالَ أهلُ التأويلِ: إنْ كانوا على دينِ الإسلامِ، فكأنهُمْ ظَنّوا أنهُ ليسَ على دينِ الإسلامِ](١٠) ولو أنهمْ ظَنّوا أنهُ(١١) مسلمٌ لَقالوا: إنَّ اللهَ يَجزيكَ بالصدقةِ.

الآية ٨٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ هو ظاهرٌ لا يحتاجُ إلى ذكرِهِ. وأمّا ما فَعَلوا بأخيهِ [فقد](١٢) قالَ أهلُ التأويلِ: هو ما قالوا: إنهُ سَرَقَ، لكنهمْ لم يقولوا إلّا قَدْرَ ما ظَهَرَ عندَهُمْ، فلم يَلْحَقْهُمْ بذلكَ القولِ فَضلُ تَعْييرٍ. لكنْ يُشبِهُ أنْ يكونوا آذَوهُ بأنواعِ الأذى، ولا شكَّ أنهمْ كانوا يُبْغِضونَ يوسفَ وأخاهُ حينَ(١٣) ﴿قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [الآية: ٨]. وقولُهُ: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قد كانوا عَلِموا هُمْ ما فَعَلوا بيوسفَ، لكنهُ كأنهُ قالَ: هل تذكُرونَ ما فَعَلْتُمْ بيوسفَ أو أنتمْ جاهلونَ ذلكَ ناسونَ(١٤)؟

يقولُ لهمْ: اذكُروا ما فَعَلْتُمْ بيوسُفَ، وتوبوا إلى اللهِ عنْ ذلكَ، ولا تكونوا جاهلينَ عنْ ذلكَ. أو يقولُ لهمْ: هل رَجَعْتُمْ، وتُبْتُمْ عنْ ذلكَ، أمْ(١٥) أنتمْ بَعْدُ فيهِ.

---

(١) أدرجت بعدها العبارة التالية: وهم يقولون إن صاحب الكبيرة آيس من روح الله. (٢) أدرجت بعدها العبارة التالية: وهم يقولون إن صاحب الكبيرة آيس من روح الله وهو ليس بكافر في الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ذلك. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: وحبة. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لهم. (٩) أدرجت في م قبل: الشراء. (١٠) من م، في الأصل: إن كانوا على دين الإسلام. (١١) من م، في الأصل أنهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: يائسون. (١٥) في الأصل وم: أو.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ أي مُذْنِبون. ولكنْ [عندنا][1] ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ قَدْرَ يوسفَ ومَنْزِلَتَهُ، لأنهم لو عَلِموا ما قَدْرُ يوسفَ عندَ اللهِ؟ وما مَنْزِلَتُهُ؟ ما ﴿قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [الآية: ٨] وما خطَّؤوا أباهُمْ في حُبِّهِ إياهُ حينَ[2] قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الآية: ٨] وما فَعَلُوا [بهِ ما فَعَلُوا][3] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٠ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿قَالُوٓا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ كأنهمْ عَرَفوا أنهُ يوسفُ، بقولِ يوسفَ لهمْ: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [الآية: ٨٩] أو عَرَفوا بقولِ أبيهِمْ حينَ[5] قالَ: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [الآية: ٨٧] [أو][6] لمّا ذَكَرَ أخاهُ، ورَأَوهُ مَعَهُ، عَرَفوا أنهُ يوسفُ. لذلكَ قالوا [ذلكَ][7] واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ يَحتمِلُ ﴿مَن يَتَّقِ﴾ مَعاصِيَهُ ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على بَلاياهُ، أو [مَنِ][9] اتَّقى مَناهِيَهُ، وصَبَرَ على أداءِ ما أَمَرَ بهِ، أو مَنِ اتَّقى، وصَبَرَ، فقد أحسَنَ، أو يقولُ: إنهُ مَنْ يَتَّقِ الجَفا، ويَصْبِرْ على البلاءِ، فقد أحسنَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي رُدَّ أخانا علينا، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ قَسَمٌ قدِ اعتادوهُ في فَحْوَى كلامِهِمْ على غيرِ إرادةِ يمينٍ بذلكَ. هكذا عادةُ العربِ، وإلا كانَ يعلَمُ يوسفُ أنَّ اللهَ قد آثَرَهُ عليهِمْ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ القسمُ ههنا على تأكيدِ معرفتِهِمْ فَضْلَهُ ومَنزِلَتَهُ؛ أي لم تَزَلْ [كما][10] كُنْتَ مُؤْثَراً مُفَضَّلاً علينا.

[وقولُهُ تعالى][11]: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي وقد كنا خاطئينَ في ما كانَ مِنّا إليكَ مِنَ الصنيعِ.

[ويَحتمِلُ][12] أنْ يكونَ قولُهُمْ[13] ﴿ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ في ما ﴿قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [الآية: ٨] أي لِما كانَ يُؤْثِرُهُما عليهِمْ قالوا[14]: كُنْتَ مُؤْثَراً [علينا][15] على ما كانَ أبونا يُؤْثِرُكَ علينا، وقد كنّا خاطئينَ.

الآية ٩٢ فقالَ يوسفُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾ أي لا تَعْيِيرَ عليكُمْ بعدَ هذا اليومِ بِما صَنَعْتُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي لا تَنْغيصَ عليكُمْ.

وقيلَ: أصلُ التثريبِ الإفسادُ؛ يقالُ: ثَرَّبَ علينا الأمرَ أفْسَدَهُ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: التثريبُ الملامةُ؛ يقولُ: لا لَومَ عليكُمْ في صَنيعِكُمْ. وقالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي لا أُعَيِّرُكُمْ بعدَ هذا اليومِ أبداً، ولا أعيدُهُ[16] عليكُمْ.

وهو يَحتمِلُ هذينِ الوجهَينِ:

أحدُهما: لا تَعْييرَ عليكُمْ، ولا مَلامةَ؛ أي ليسَ في العَقْلِ تَعْييرٌ، ولا مَلامةٌ إذْ أتيتُمْ، وأقرَرْتُمْ بالخَطإِ.

وهكذا كلُّ مَنْ أذنَبَ ذنباً، أوِ ارتَكَبَ كبيرةً، ثم انتَزَعَ عنها، وتابَ منها، لا يُعَيَّرُ هو عليهِ، ولا يُلامُ. وكذلكَ قيلَ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات: ١١] ذُكِرَ أنهمْ كانوا يُعَيِّرونَ أهلَ الكفرِ في كُفْرِهِمْ، ويُنابِزونَهُمْ، ثم أسْلَموا، فَنُهُوا أنْ يُنابِزوهُمْ، ويَصْنَعوا بهمْ مثلَ صنيعِهِمْ بهمْ في كفرِهِمْ. ولو وَجَبَ التَّعْييرُ والمَلامةُ بعدَ الانتِزاعِ عنهُ والتوبةِ، أو جازَ[17] ذلكَ لَكانَ أصحابُ رسولِ اللهِ مُعَيَّرينَ ملامينَ لأنهمْ كانوا أهلَ الكُفْرِ في الابتِداءِ. فهذا مِمّا لا يَحِلُّ في العقلِ.

والثاني قولُهُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ لا أُعَيِّرُكُمْ على ما قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنه أي لا ذِكْرَ ما كانَ منكُمْ إلينا. أَمَّنَهُمْ عن أنْ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.
(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: قوله. (١٤) في الأصل وم: فقالوا. (١٥) ساقطة من الأصل وم.
(١٦) في الأصل وم: أعبره. (١٧) في الأصل وم: يجوز.

جنة السنة

يذكُرَ شيئاً مِمّا كانَ منهمْ إليهِ. ولذلكَ قالَ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [الآية: ١٠٠] ذَكَرَ /٢٥٧ ـ ب/ أنَّ الشيطانَ هو الذي فَعَلَ ما كانَ بَيْنَهُ وبَينَ إخوتِهِ. وكذلكَ فَعَلَ حينَ[1] قالَ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ أضافَ ذلكَ إلى الشيطانِ، ولم يُضِفْ إلى إخوتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ قَطَعَ فيهِ القولَ بالمغفرةِ حينَ أقَرُّوا بالخطايا، وتابوا عمّا فَعَلوا. وهكذا كلُّ مَنْ تابَ عَنْ ذنبٍ ارْتَكَبَهُ، ونَزَعَ عنهُ، أنْ يُقْطَعَ القولُ فيهِ بالمغفرةِ والرحمةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ يُخَرَّجُ على الدعاءِ لهمْ وعلى الإخبارِ بالوحيِ أنهُ يَغْفِرُ لهمْ، أو قد غَفَرَ لهمْ، أو يقولُ: استَغْفِروا اللهَ [مِنَ][2] الذي كانَ بَينَ اللهِ وبينَكُمْ يَغْفِرْ لكمْ ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لأنَّ كلَّ مَنْ يرحَمُ مِنَ الخلائقِ إنما يرحَمُ برحمةٍ منهُ إليهِ. فهو أرحمُ الراحمينَ بما قُلْنا على ما قُلْنا في قولِهِ: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧] لأنَّ مَنْ يحكُمُ مِنَ الخلائقِ عليكُمْ إنما يحكُمُ بِحُكْمٍ نالَهُ منهُ.

الآية ٩٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ دلَّ هذا مِنْ يوسفَ حينَ[3] قَطَعَ فيهِ القولَ: إنهُ يَصيرُ بصيراً أنهُ [بأمرِهِ][4] ﷺ قالَ هذا لا عَنْ رأيٍ منهُ واجْتِهادٍ إذْ قَطَعَ القولَ فيهِ: إنهُ إذا أُلْقِيَ على وجهِهِ يَصيرُ بَصيراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَصِيرٗا﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَيْنِ.

أحدُهما: [يَصيرُ][5] ﴿بَصِيرٗا﴾ على ما ذَكَرْنا.

والثاني: يأتيني ﴿بَصِيرٗا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أرادَ، واللهُ أعلَمُ، حينَ[6] أمَرَهُمْ أنْ يأتوا بأهلِهِمْ أجمَعَ أنْ يَبَرَّهُمْ، ويُكْرِمَهُمْ، حينَ تابوا عمّا فَعَلوا بهِ، وأقَرّوا بالخَطَإِ في أمرِهِ.

الآية ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ قيلَ: خَرَجَتْ، وفَصَلَتْ، وانفَصَلَتْ واحدٌ ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: كانَ بَيْنَهُما ثمانونَ[7] فَرْسَخاً، تُعْبَرُ بَينَ مِصْرَ وبَينَ كنعانَ مكانِ يعقوبَ. وقيلَ: مَسيرةُ أيامٍ [قَدْرَ ما][8] بينَ الكوفةِ والبصرةِ. ولا حاجةَ لنا إلى معرفةِ ذلكَ: أنْ كَمْ كانَ بَيْنَهُما سِوَى أنّا نعلَمُ أنهُ كانَ بَيْنَهُما مَسيرةُ أيامٍ.

ثم وَجَدَ يعقوبُ ريحَ يوسفَ مِنْ ذلكَ المكانِ، ولم يَجِدْ غيرُهُ مِمَّنْ كانَ معهُ، فذلكَ آيةٌ مِنْ آياتِ اللهِ، حينَ[9] وَجَدَ ريحَهُ مِنْ مكانٍ بعيدٍ، لم يَجِدْ ذلكَ غيرُهُ. وذلكَ مِنْ آياتِ[10] البِشارةِ والسرورِ الذي يدخلُ فيهِ بقدومِهِ.

قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ذلكَ القميصُ هو مِنْ كُسْوَةِ الجنةِ، كانَ اللهُ كَساهُ إبراهيمُ إسحاقَ، وكَساهُ إسحاقُ يعقوبَ، وكَساهُ [يعقوبُ][11] يوسفَ. كذلكَ وَجَدَ ريحَهُ لأنهُ كانَ مِنْ ثيابِ الجنةِ. فهو، وإنْ ثبتَ ما قالوا، [أنهُ آيةٌ][12]، ولم يَجِدْ غيرُهُ، وكانَ أيضاً هو لا يَجِدُ ذلكَ الريحَ قبلَ فُصولِ العِيرِ، وكانَ [ذلكَ القميصُ][13] معَ يوسفَ. احْتَمَلَ ما قالوا، أوِ احْتَمَلَ أنْ يكونَ قميصاً [مِنْ قُمُصِهِ][14] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قيلَ: تُخَرِّفونِ، وقيلَ: تُهَرِّمونِ، وقيلَ: تُكَذِّبونِ، وقيلَ: تُضْعِفونِ، وقيلَ: تُعْجِزونِ، وقيلَ: تُجَهِّلونِ، وقيلَ: تُسَفِّهونِ، وقيلَ: تُحَمِّقونِ، وقيلَ: لولا أنْ تقولوا: ذهبَ عقلُكَ.

والمُفَنَّدُ معروفٌ عندَ الناسِ، هو الذي يَبْلُغُ في الكِبَرِ غايَتَهُ كقولِهِ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوۡلَآ﴾ إذا كانَ على الابْتِداءِ فهو على النَّهْيِ، أي لا تُفَنِّدونِ، وإذا كانَ على الخَبَرِ فهو على النَّفْيِ كقولِهِ: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ [يونس: ٩٨] أي لم يَنْفَعْ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: ثمانين. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: آثار.
(١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: فذلك. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ هو ما ذكَرْنا أنهُ يمينٌ اعتادوهُ في كلامِهِمْ على غيرِ إرادةِ القسمِ بهِ ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ قيلَ: في حبِّ يوسفَ وذِكْرِهِ القديمِ. كانَ عندَهُمْ بأنهُ هالكٌ، لذلكَ[1] أنكروا عليهِ، وخطَّؤوهُ في ما يَجِدُ مِنْ ريحِهِ، وعندَهُ أنهُ في الأحياءِ[2]. لذلكَ كانَ ما ذكَروا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ﴾ أي رَجَعَ بصيراً على ما قالَ أهلُ التأويلِ: البشيرُ كانَ يهوذا، وقيلَ: البريدُ، ولا ندري مَنْ كانَ. وليسَ بنا إلى معرفةِ ذلكَ حاجةٌ سِوى أنَّ المدفوعَ إليهِ الثوبُ، كانَ واحداً، وإنْ قالَ في الابتداءِ: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾ [الآية: ٩٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ذلكَ أنَّ يعقوبَ قالَ لهمْ قبلَ ذلكَ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الآية: ٨٦] أنتمْ مِنْ تصديقِ رؤيا يوسفَ، وأنهُ حيٌّ، وكانَ يعلَمُ هو منَ اللهِ أشياءَ [لا يعلمونَها][3].

الآيتان ٩٧ و٩٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ يعقوبُ ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ طلبوا منْ أبيهِمُ الاستِغفارَ، فأخَّرَ لهمْ[4] ذلكَ إلى وقتٍ[5]، وطلبوا مِنْ يوسفَ العفوَ، وأقَرّوا لهُ بالخطإِ والذنبِ، فَعَفا[6] عنهم وقتَ سُؤالِهِمُ العفوَ.

فمِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنما أخَّرَ يعقوبُ الاستِغفارَ، وعفا عنهمْ يوسفُ، لأنَّ قلبَ الشابِّ يكونُ ألْيَنَ وأرَقَّ مِنْ قلبِ الشيخِ، لذلكَ كانَ ما كانَ. لكنَّ هذا ليسَ بشيءٍ، إنما يكونُ هذا في عوامِّ مِنَ الناسِ.

أمّا الأنبياءُ، كلما مَضى وقتٌ فتزدادُ قلوبُهُمْ ليناً ورقَّةً وخُشوعاً.

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: إنما كانَ كذلكَ لأنَّ وَجْدَ يعقوبَ كانَ أكثرَ مِنْ وَجْدِ يوسفَ، لذلكَ كانَ أجابَهُمْ يوسفُ وقتَ سؤالِهِمُ العفوَ، وأخَّرَهُ[7] يعقوبُ إلى وقتٍ.

قالَ الشيخُ أبو منصورٍ، رحمَهُ اللهُ: والوَجْهُ فيهِ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، أنهمْ إنما سألوا يعقوبَ، وطلبوا منهُ الاستِغفارَ مِنْ ربِّهِمْ ليكونَ لهمْ شفيعاً، فأخَّرَ ذلكَ إلى وقتِ الاستِغفارِ والشفاعةِ؛ إذْ ليستْ[8] كلُّ الأوقاتِ تكونُ وقتاً لِلاستِغفارِ. وطلبوا مِنْ يوسفَ العفوَ منهُ، فَعَفا وقتَ طلبِهِمْ منهُ العفوَ.

لهذا الوَجهِ يَحتمِلُ أنْ يُخرَّجَ معناهُ، واللهُ أعلَمُ، وأنْ يكونَ يعقوبُ أخَّرَ الاستِغفارَ لأنَّ الذنبَ في ذلكَ كانَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ ربِّهِمْ، وأخَّرَ [الاستِغفارَ][9] إلى أنْ يَجيءَ الإذنُ مِنْ ربِّهِ. وأمّا الذنبُ في يوسفَ [فهو][10] في ما بَيْنَهُمْ وبَيْنَ يوسفَ، فَعَفا عنهمْ مِنْ ساعتِهِ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إنِ استَغفَرْتُمْ أنتمْ، أو ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓۖ﴾ إذا جاءَ وَقْتُهُ. فهو ما قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ إنهُ أخَّرَهُ [إلى][11] وقتِ الاستِغفارِ إلى السَّحَرِ، أو أنْ يكونَ أخَّرَهُ إلى أنْ يُقدِّمَ شيئاً بينَ يَدَيِ الاستِغفارِ والشفاعةِ لِيكونَ أسرعَ إجابةً.

الآية ٩٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ظاهرُ هذا أنَّ يوسفَ كانَ تَلَقّاهُمْ خارجاً مِنَ المِصْرِ، فقالَ لهمْ: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ثم لمّا دَخلوا المِصْرَ آوَى إلى نفسِهِ أبوَيْهِ، وضَمَّهُما إليهِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قالَ لهمْ هذا القولَ وقتَ ما قالَ لهمْ: ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الآية: ٩٣]. ثم[12] جاؤوا همْ،

---

(١) في الأصل وم: لذكر. (٢) في الأصل وم: الأخبار. (٣) في الأصل وم: ما لا يعلمون هم. (٤) في الأصل وم: هم. (٥) من م، في الأصل: الوقت. (٦) من م، في الأصل: ضعفا. (٧) في الأصل وم: وأخر. (٨) في الأصل وم: ليس. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) أدرج في الأصل وم قبلها قوله تعالى: و﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

جنة السنة

ودَخلوا مِصْرَ، ضَمَّ إليهِ أَبَوَيهِ، وأمْرُهُ[١] إياهُمْ أنْ يدخُلوا مِصْرَ آمِنينَ لأنَّ المِصْرَ كانَ أهلُهُ أهلَ كُفرٍ، فكأنَّهُمْ خافوا المَلِكَ الذي كانَ فيهِ، فَذَكَرَ لهمُ الأمنَ لذلكَ، واللهُ أعلَمُ، وذِكْرُ الثُّنيا فيهِ لأنهُ وَعْدٌ منهُ وَعَدَ لهمْ، والأنبياءُ ﷺ كانوا [لا][٢] يَعِدونَ شيئاً إلّا ويَسْتثْنونَ في آخِرِهِ كقولِهِ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ و٢٤] وإنما ذَكَرَ الثُّنيا في الأمْنِ، لم يذكُرْهُ[٣] في الدخولِ، لأنَّ الدخولَ منهُ أمْرٌ، وما ذَكَرَ مِنَ الأمْنِ، فهو وَعْدٌ، فهو ما ذَكَرْنا أنهُ يُسْتثْنى في الوَعْدِ، ولا يُسْتثْنى في الأمرِ.

الآية ١٠٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ / ٢٥٨ - أ/ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ هو ما ذَكَرَ مِنْ رَفْعِهِ إياهما على العرشِ، وخَصَّ بالذكْرِ[٤] أبويهِ بالرفعِ على العرشِ.

فَيَحتَمِلُ أنْ يكونَ رَفَعَ أبوَيهِ وإخوتَهُ[٥] جميعاً لأنهُ لو لم يرفعْهُمْ، وقد كانَ قد عَفا عنهُمْ لمّا أقرّوا بالخَطإِ، وقالَ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [الآية: ٩٢] لكانَ يقعُ عندَهمْ أنهُ قد بقيَ شيءٌ ممّا كانَ منهُمْ إليهِ. لكنهُ خَصَّ أبويهِ بالذكرِ منهُمْ، ومَجَّدَهُما، على ما يُخَصُّ الأشرافُ والأعاظمُ نَحْوَ قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [هود: ٩٦ و٩٧] ونَحْوَهُ.

ودلَّ رفعُ أبوَيهِ على العرشِ على أنَّ اتّخاذَ العرشِ والجلوسَ عليهِ لا بأسَ بهِ؛ إذ لو كانَ لا يَحِلُّ، ولا يُباحُ ذلكَ لكانَ يوسفُ لا يَتَّخِذُهُ، ولا كانَ يعقوبُ يَجْلِسُ عليهِ. دلَّ ذلكَ منهُما أنَّ ذلكَ مباحٌ، لا بأسَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ قالَ بعضُهُمْ مِنْ أهلِ التأويلِ: كانَتْ تَحِيَّتُهُمْ يومئذٍ في ما بينهُمُ السجودَ [يَسْجُدُ][٦] بَعضُهُمْ لبعضٍ مَكانَ ما يُسَلِّمُ بعضُنا على بعضٍ. وأمّا اليومَ فهو غيرُ مُباحٍ، وإنما التحيّةُ في السلامِ. لكنَّ السجودَ لِدونِ اللهِ ليسَ يُكْرَهُ لِنَفْسِ السجودِ، وإنما يُكْرَهُ، ويُنْهَى عمّا في السجودِ، وهو العبادةُ.

والتَّسَفُّلُ لا يَحِلُّ لأحدٍ أنْ يَجْعَلَ العبادةَ والتَّسَفُّلَ لهُ دونَ اللهِ. وأمّا نفسُ السجودِ فإنهُ كالقيامِ والقعودِ وغيرِهِ مِنَ الأحوالِ يكونُ فيها المرادُ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أي خَرّوا لهُ خاضِعينَ لهُ ذليلينَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أي خَرّوا لهُ سُجّداً شُكراً لهُ لِما جَمَعَ بينَهُمْ، ورفَعَ ما كانَ بينَهُمْ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي حَقَّقَ تلكَ الرؤيا التي رأيتُها مِنْ قَبْلُ، وجَعَلَها صِدْقاً. رأى يوسفُ رؤياهُ [فتحقّقتْ][٧] بعدَ حينٍ ووَقْتٍ وزمانٍ طويلٍ.

فهذا يدلُّ أنَّ الخِطابَ إذا قَرَعَ السمعَ يجوزُ أنْ يأتيَ بيانُهُ[٨] مِنْ بعدِ حينٍ وزمانٍ، ويجوزُ أن يكونَ مقروناً بهِ. وليسَ في تأخُّرِ بيانِ الخطابِ تَلْبيسٌ ولا تَشْبيهٌ على ما قالَ بعضُ الناسِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يَقُلْ: سُجِنْتُ، وحُبِسْتُ، وأمثالَهُ ممّا كانَ ابتلاهُ اللهُ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ قيلَ: مِنَ الباديةِ لأنهمْ كانوا أهلَ باديةٍ أصحابَ المواشي.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَزَغَ أي فَرَّقَ؛ بَعْدَ ما فَرَّقَ بيني وبَينَ إخوتي. وكانَ النزغُ هو الإفسادَ على ما ذَكَرَهُ أهلُ التأويلِ؛ أي بَعْدَ ما أفْسَدَ الشيطانُ بَيني وبَينَ إخوتي. وأضافَ ذلكَ إلى الشيطانِ لِما كانَ قالَ لهمْ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [الآية: ٩٢] حينَ أقرّوا لهُ بالفَضْلِ والخَطإِ في فِعْلِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ لطيفٌ هو اسمٌ لِشَيئَينِ:

[أحدُهما:][٩] اسمُ البِرِّ والعطفِ. يُقالُ: فلانٌ لطيفٌ أي بارٌّ عاطفٌ.

---

(١) في الأصل وم: وأمرهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يذكر. (٤) في الأصل وم: يذكر. (٥) في الأصل وم: والإخوة. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: بنائه. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

الثاني: يُقالُ: لطيفٌ أي عالمٌ بما يلطُفُ مِنَ الأشياءِ، ويَصْغُرُ كما يَعْلَمُ بما يعظُمُ، ويَجْسُمُ، أو يقالُ: لطيفٌ أي يَعلَمُ المستورَ مِنَ الأمورِ الخفيَّةِ على الخَلْقِ كما يَعْلَمُ الظاهِرَةَ منها والبادية، لا يَخْفى عليهِ شيءٌ، ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

يقالُ: إنهُ عظيمٌ ولطيفٌ لِيُعْلَمَ أنْ ليس يُفْهَمُ من عِظَمِهِ ما يُفْهَمُ مِنْ عِظَمِ الخَلْقِ؛ إذ لا يجوزُ في [أحدٍ مِنَ][1] الخَلْقِ أنْ يكونَ عظيماً لطيفاً، ويجوزُ في اللهِ لِيُعْلَمَ أنَّ ما يُفْهَمُ مِنْ هذا غيرُ ما يُفْهَمُ مِنَ الآخَرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بما كانَ، ويكونُ، وما ظَهَرَ، وما بَطَنَ، وما يُسَرُّ، وما يُعْلَنُ، وبكلِّ شيءٍ عليمٌ: بعواقِبِ الأمورِ وبدايَتِها ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ حَكَمَ بِعِلْمٍ، وَوَضَعَ كُلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ، لم يحكُمْ بِجَهْلٍ ولا غَفْلَةٍ ولا سَفَهٍ على ما يحكُمُ الخَلْقُ. تعالى اللهُ عنْ ذلكَ عُلُوّاً كبيراً.

ثلاثُ آياتٍ في سورةِ يوسفَ على المعتزلَةِ: قولُهُ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [الآية: ٣٣] أخبرَ أنهُ لو لم يَصْرِفْ عنهُ[2] كيدَهُنَّ مالَ إليهِنَّ، وهمْ يقولونَ: قد صَرَفَ عنْ كلِّ أحدٍ السوءَ والكيدَ، لكنْ لم يَصْرِفْ عنهُ.

كذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [الآية: ٥٣] أخبرَ [أنهُ][3] إذا رَحِمَهُ امْتَنَعَ عنِ السوءِ والأمرِ بهِ، وهمْ يقولونَ: إنهُ، وإنْ رَحِمَهُ[4]، لا يَمْتَنِعُ عنِ السوءِ ولا الأمرِ بهِ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ [الآية: ٥٦] وهم يقولونَ: ليسَ لهُ أنْ يُصيبَ أحداً دونَ أحدٍ مِنْ رحمتِهِ، ولا أنْ يَخُصَّ أحداً بذلكَ.

الآية ١٠١ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: ذَكَرَ ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ لأنهُ لم يُؤْتِهِ كلَّ المُلْكِ، إذ كانَ فوقَهُ مَلِكٌ أكبَرُ منهُ. لكنْ لا لهذا ذَكَرَ ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ إذْ معلومٌ أنهُ لم يُؤْتِ لأحدٍ كلَّ مُلْكِ الدنيا. قالَ اللهُ تعالى: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] ويكونُ في وقتٍ واحدٍ ملوكٌ.

وقالَ مُقاتلٌ: مِنْ صلةٌ؛ كأنهُ قالَ: ربِّ قد آتيتَني الملكَ[5].

لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ قَدَّمَ [على دعائِهِ وسؤالِهِ][6] ربَّهُ ما سألَ إحسانَهُ إليهِ ومحامِدَهُ وصَنائِعَهُ ليكونَ ذلكَ لهُ وسيلةً إلى ربِّهِ في الإجابةِ.

وفي ذلكَ دلالةُ نقضِ قولِ المعتزلةِ مِنْ وجهَينِ:

أحدُهما: يقولونَ: إنَّ كُلَّ أحدٍ، شفيعُهُ عملُهُ، فيوسفُ لم يذكُرْ ما كانَ منهُ أني فعلْتُ كذا، فافعلْ بي كذا، ولكنْ ذَكَرَ نِعَمَ اللهِ وإحسانَهُ إليهِ.

والثاني: مِنْ قولِهِمْ: إنهُ لا يؤتي أحداً مُلْكاً ولا نُبُوَّةً إلّا بعدَ الاستِحْقاقِ، ومِنْ قولِهِمْ: إنَّ كلَّ أحدٍ هو المتعلِّمُ، لا[7] أنَّ اللهَ يُعَلِّمُ أحداً. وقد أضافَ يوسفُ التعليمَ إلى اللهِ حينَ[8] قالَ: ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ وهمْ يقولونَ: لم يُعَلِّمْهُ، ولكنْ هو تَعَلَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: تعبيرُ الرؤيا، ولكنَّ الأحاديثَ، هي الأنباءُ، والتأويلُ هو علمُ العاقبةِ، وعلمُ ما يَؤولُ إليهِ الأمرُ؛ كأنهُ قالَ: عَلَّمْتَني مُسْتَقَرَّ الأنباءِ ونهايتَها كقولِهُ تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧] واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عني. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: رحم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: من. (٦) في الأصل وم: دعاءه سؤاله. (٧) من م، في الأصل: إلا. (٨) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ كأنهُ على النداءِ والدعاءِ ذُكِرَ؛ يا فاطرَ السمواتِ والأرضِ، لذلكَ انْتَصَبَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ تأويلُهُ: أنتَ وَلِيُّ نعمتي في الدنيا والآخِرة كما يُقالُ: فلانٌ وَلِيُّ نِعمةِ فلانٍ. ويَحْتَمِلُ: أنتَ أولى بي في الدنيا والآخرةِ، أو أنتَ ربي وسَيِّدي في الدنيا والآخِرةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تمنّى ﷺ التوفّي على الإسلامِ والإخلاصَ لله[1] والإلحاقَ بالصالِحينَ. فهو، واللهُ تعالى أعلَمُ بذلكَ، أنَّ اللهَ قد آتاهُ النهايةَ في الشرفِ والمجدِ في الدنيا دِيناً ودُنيا لأنَّ نهايةَ الشرفِ في الدينِ، هي النُّبُوَّةُ والرسالةُ، ونهايةَ الشرفِ في الدنيا المُلْكُ، فأحَبَّ لهُ أنْ يكونَ لهُ في الآخرةِ مِثْلُهُ، فقالَ: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ثم يَحْتَمِلُ سؤالُهُ أنْ يُلحِقَهُ بالصالِحينَ بكلِّ صالحٍ، ويَحْتَمِلُ أنهُ سألَهُ أنْ يُلْحِقَهُ بالصالِحينَ بآبائِهِ وأجدادِهِ وبجميعِ الأنبياءِ والرسلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هو يَنْقُضُ على المعتزلةِ أيضاً لأنَّ مِنْ[2] قولِهِمْ: أنهُ أعطى كلَّ أحدٍ، ليسَ لهُ ألّا يَتوفّاهُ مسلماً؛ فيكونُ في دعائِهِ عابِثاً على قولِهِمْ: لا يملِكُ أنْ يَتَوفّاهُ مسلماً لأنَّ مِنْ قولِهِمْ: أنهُ أعطى كلَّ أحدٍ ما بِهِ يكونُ مؤمناً حتى لم يُبقِ عندَهُ شيئاً، ومَنْ سألَ /٢٥٨ ـ ب/ آخَرَ شيئاً، يَعْلَمُ أنهُ ليسَ عندَهُ، فهو يَهْزَأُ بهِ، أو يكونُ كاتماً[3] النعمةَ، وفي كِتمانِ النعمةِ كُفرانُها.

الآية ١٠٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾ الآية ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي خَبَرُ يوسفَ وإخوتِهِ، وقَصَصُهُمْ التي قَصَصْنا عليكَ، وأخبَرْناكَ، مِنْ أوّلِهِ إلى آخِرِهِ ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ لم تَشْهَدْها أنتَ، ولم تَحْضُرْها لقولِهِ: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ [هود: ٤٩] لِيُعْلَمَ أنكَ إنما علِمْتَ، وعرَفْتَها، باللهِ وحياً، لِيَدُلَّهُمْ على رسالتِكَ ونُبُوَّتِكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ بأبيهِمْ وأخيهِمْ. أمّا مَكْرُهُمْ بأبيهِمْ [فهو حينَ][4] ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [الآية: ١١] أخبَروهُ أنهم لهُ ناصِحونَ، فخانوهُ، ومَكْرُهُمْ بأخيهِمْ حينَ[5] قالوا ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الآية: ١٢] ضَمِنوا لهُ الحِفْظَ، فلم [يَحْفَظوهُ، بل مَكَروا بهما][6] جميعاً. والمَكْرُ هو الاحتيالُ في اللغةِ والأخذُ على جِهَةِ الأمنِ، [وقد فَعَلوهُ][7] بأبيهِمْ يعقوبَ وأخيهِمْ يوسفَ ﷺ.

الآية ١٠٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ أي ما أكْثَرَ الناسِ بمؤمنينَ، ولو حَرَصْتَ يا محمدُ أنْ يكونوا مؤمنينَ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦] كانَ النبيُّ ﷺ بَلَغَ مِنْ شَفَقَتِهِ ورحمتِهِ على الخَلْقِ ورغبتِهِ في إيمانِهِمْ حتى كادَتْ نفسُهُ تَهْلِكُ في ذلكَ [حتى قالَ لهُ][8] ﷻ ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ الآية [الكهف: ٦، والشعراء: ٣] وقالَ[9]: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨] [وقالَ:][10] ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ١٢٧].

كانَ حِرْصُهُ على إيمانِهِمْ بَلَغَ ما ذُكِرَ حتى خَفَّفَ ذلكَ عليهِ بهذهِ الآيةِ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ يعني أهلَ مكةَ ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ وهمْ كذلكَ كانوا؛ كانَ أكثَرُهُمْ غيرَ مؤمنينَ، وأهلُ مكةَ وغيرُهُمْ سَواءٌ، كلُّهُمْ كذلكَ كانوا.

الآية ١٠٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ﴾ أي على ما تُبَلِّغُ إليهِمْ، وتدعوهُمْ الى طاعةِ اللهِ وجَعْلِ العبادةِ لهُ وتوجيهِ الشكرِ إليهِ، لا تَسْألُهُمْ على ذلكَ أجراً. فما الذي يَمْنَعُهُمْ عنِ الإجابةِ لكَ والإئْتِمارِ بأمرِكَ؟

---

(١) في الأصل وم: بالله. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: كتمان. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: يحفظوا مكروا بها. (٧) في الأصل وم: قد فعلوا هم، في م: وقد فعلوا هم. (٨) في الأصل وم: حيث قال. (٩) في الأصل وم: وقوله. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

هذا يدلُّ أنهُ لا يجوزُ أخذُ الأجرِ على الطاعاتِ والعباداتِ [حينَ نَهاهُ، وأمَرَهُ أنْ][1] لا يَسْألَهُمْ على ما يُبَلِّغُهُمْ[2] أجراً، وهو لم يَتَوَلَّ تبليغَ جميعِ ما أمرَهُ[3] بتبليغِهِ بنفسِهِ إلى الخَلْقِ كافةً بقولِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ الآية [سبأ: ٢٨] ولكنَّهُ [تَوَلَّى التبليغَ إلى البعضِ، وَوَلَّى البعضَ غيرَهُ بقولِهِ ﷺ][4]: «ألا فَلْيُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ» [البخاري: ١٠٥].

[فإنهُ إذا][5] لم يُجِزْ لهُ أخذَ الأجرِ في ما يُبَلِّغُ هو فالذي كانَ مأموراً أنْ يُبَلِّغَ عنهُ أيضاً لا [يُجيزُ لهُ][6] أنْ يأخذَ الأجرَ [على][7] ما يُبَلِّغُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وجهانِ:

أحدُهما: أنهُ ليسَ يَسْألُهُمْ على الذي يُبَلِّغُهُ، ويَدْعُوهُمْ [إليهِ][8] أجراً، حتى يَمْنَعَ بَذْلَ ذلكَ وَثِقَلَهُ عنِ الإجابةِ.

والثاني: إخبارٌ أنْ ليسَ لهُ أنْ يأخذَ، وأنْ يَجْمَعَ مِنَ الدنيا شيئاً كقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية [الحجر: ٨٨].

ومعلومٌ أنهُ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا﴾ لا يَحِلُّ، فيكونُ النهيُ [عَنْ أخذِ غيرِ][9] المباحِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي هذا القرآنُ الذي تُبَلِّغُهُمْ ليسَ إلّا ذِكْرى للعالَمينَ، وهو عِظَةٌ للعالَمينَ، أو هو نفسُهُ عِظَةٌ وذِكْرٌ للعالَمينَ؛ أعني النبيَّ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي شَرَفٌ وذِكْرى لِمَنِ اتَّبَعَهُ، [وقام بهِ][10]، وهو ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] وقولِهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧] أي مَنْفَعَةً لِمَنِ اتَّبَعَهُ، فَعَلَى ذلكَ هذا.

الآية ١٠٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ الآية؛ أي كَمْ من آيةٍ ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: الآياتُ التي في السماءِ: الشمسُ والقمرُ والنجومُ والسحابُ وأمثالُها[11]، والآياتُ التي في الأرضِ: مِنْ نَحْوِ الجبالِ والأنهارِ والبحارِ والمَدايِنِ ونَحْوِها. لكنَّ السماءَ نفسَها آيةٌ، والأرضَ نفسَها وما يَخْرُجُ منها آيةٌ مِنَ النباتِ ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي هُمْ عنها مُعْرِضونَ عمّا جُعِلتْ هُنَّ آياتٍ لأنها إنما جُعِلَتْ آياتٍ لِوَحدانيَّةِ اللهِ وأُلوهيَّتِهِ. فهُمْ عمّا جُعِلَتْ هُنَّ مِنْ آياتٍ مُعْرِضونَ، وباللهِ الهِدايةُ والعِصْمةُ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أي كَمْ مِنْ دليلٍ وعلامةٍ على وَحدانيَّةِ اللهِ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ، وهو قريبٌ ممّا ذَكَرْنا.

وقالَ بعضُهُمْ: آياتُ السماءِ ما ذَكَرْنا مِنْ نَحْوِ الشمسِ والقمرِ والكواكبِ، وآياتُ الأرضِ مِثْلُ[12] آياتِ الأممِ التي أُهْلِكوا مِنْ قَبْلُ مِنْ نَحْوِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ وغيرِهِمْ مِمَّنْ قد أُهْلِكوا ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ ويَرَونَها، ولا يَتَّعِظونَ بهِمْ.

والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا أنهمْ مُعْرِضونَ عمّا جُعِلَتْ تلكَ آياتٍ، وإنما جُعِلَتْ آياتٍ لِوَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وأُلوهيَّتِهِ، أو مُعْرِضونَ عنِ التَّفَكُّرِ فيها والنَّظَرِ إعراضَ مُعانَدَةٍ ومُكابَرَةٍ.

ثم يَحْتَمِلُ الإعراضُ وجهَينِ:

أحدُهما: أعْرَضوا أي لم يَنْظُروا فيها، ولم يَتَفَكَّروا، لِيَدُلَّهُمْ على وَحدانيَّةِ اللهِ وأُلوهيَّتِهِ، وهو إعراضٌ عنها.

والثاني: نَظَروا، وعَرَفوا أنها آياتٌ لِوَحدانيَّتِهِ، لكنهُمْ أعرَضوا مُكابِرينَ مُعانِدينَ: ليسَ في السمواتِ ولا في الأرضِ شيءٌ، وإنْ لَطُفَ، إلّا وفيهِ دلالةٌ على وَحدانيَّةِ اللهِ وأُلوهيَّتِهِ.

الآية ١٠٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: حيث نهى وأخبر أنه. (٢) في الأصل وم: يبلغ إليهم. (٣) في الأصل وم: أمر. (٤) في الأصل وم: ولى بعضه غيره كقوله تعالى. (٥) في الأصل وم: فإذا. (٦) في الأصل وم: يجوز. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: من أخذ. (١٠) في الأصل وم: وما قام. (١١) في الأصل وم: وأمثاله. (١٢) في الأصل وم: فمثل.

جنة السنة

أحدُهما: [إشراكٌ][(١)] في الاعتِقادِ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ بأنهُ الإلهُ، وهمْ مُشرِكونَ الأصنامَ والأوثانَ في التَّسميَةِ، حينَ[(٢)] سمَّوها آلِهةً كقولِهِ تعالى ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾ إلّا اللهِ ﴿كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

والثاني: إشراكٌ في الفِعلِ أي ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ ﷻ إلّا وهمْ عَبَدوا غيرَهُ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ، أو يكونُ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ تعالى بِلسانِهِمْ ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بقلوبِهِمْ، أو يقولُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ في النعمةِ أنها مِنَ اللهِ ﷻ ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ في الشكرِ لهُ تعالى.

الآية ١٠٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي كيفَ أمِنوا أنْ يأتِيَهمْ عذابُ اللهِ ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ وقد سَمِعوا بإتيانِ العذابِ بِمَنْ قبلَهُمْ وهلاكِهِمْ، وقد جاءَ ما يُخوِّفُهُمْ إتيانَ الساعةِ، وخافوا [بها؟ ولو][(٣)] لم يَعلَموا بها حقيقةً لَما تَركوا العِلْمَ بها تَرْكَ[(٤)] مُعانَدَةٍ ومكابرةٍ لا تَرْكَ مَنْ[(٥)] لم يُبيَّنْ لهمْ. ومَنْ لم يأتِ لهُ التخويفُ والإعلامُ؟

[وقولُهُ تعالى][(٦)]: ﴿غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ قالَ أبو عوسجةَ، رَحِمَهُ اللهُ: أي مُجلِّلَةٌ تَغْشاهُمْ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١] وهو ما يأتيهمْ مِنَ العذابِ، أي عذابٌ مِنْ عذابِ اللهِ ﷻ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء: ٤٦] يَجِبُ أنْ يكونَ أهلُ الإسلامِ مُعتَبِرينَ بِقولِهِ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ وكذلكَ بقولِهِ: ﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ وإنْ كانتِ الآياتُ نَزَلَتا فيهِمْ لأنهمْ يَمُرّونَ بما ذُكِرَ مِنَ الآياتِ، ولا يَعْتَبِرونَ بما ذُكِرَ، ليكونوا[(٧)] آمنينَ/ ٢٥٩ ـ أ/ مِنْ غاشيةٍ مِنْ عذابِ اللهِ، سبحانَهُ.

الآية ١٠٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قيلَ: السبيلُ يُؤنَّثُ، ويُذكَّرُ، وتَحتَمِلُ هذهِ الطاعةَ أو العِبادةَ للهِ تعالى. يَحْتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ التي أنا عليها، ويَحتَمِلُ ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ التي أدعوكُمْ ﴿إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ البصيرةُ العِلْمُ والبيانُ والحُجَّةُ النَّيِّرَةُ؛ أي هذهِ سَبيلي التي أنا أدعوكُمْ إليها، إنما أدعوكُمْ ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي على عِلْمٍ وبيانٍ وحُجَّةٍ قاطعةٍ وبُرهانٍ نيِّرٍ ليسَ كسائِرِ الأديانِ التي يُدْعَى إليها على الهَوَى والشهوةِ بِغَيرِ حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ أيضاً فإنما يدعونَكُمْ[(٨)] أيضاً على حُجَّةٍ وبُرهانٍ؛ إذْ مَنْ يُجيبُني فإنما يُجيبُ على بَصيرةٍ وبيانٍ وحُجَّةٍ.

[وقولُهُ تعالى][(٩)]: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قيلَ: هذهِ صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيهاً لِما قالوا أو تَبرِئةً عمّا قالوا في اللهِ بما لا يَليقُ بهِ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في ألوهيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ غيرَهُ، أو في عبادتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ ذَكَرَ رجالاً، واللهُ أعلَمُ؛ أي لم نَبْعَثْ رسولاً مِنْ قَبْلُ إلا بَشَراً، لم نبعَثْ مَلَكاً ولا جِنّاً، فكيفَ أنكَرْتُمْ رسالةَ محمدٍ [بِعِلَّةِ][(١٠)] أنهُ بَشَرٌ؟

ولم يَرَوا رسولاً مِنْ قَبْلُ [ولم يَسْمَعوا إلّا مِنَ][(١١)] البَشَرِ لِقولِهِمْ: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وكقولِهِ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩].

هذا، واللهُ أعلَمُ، ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ مِثْلَكَ بَشَراً لا مَلَكاً ولا جِنّاً، أو ذَكَرَ رجالاً لأنهُ لم يَبْعَثِ امرأةً رسولاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي إنما أرسَلَ جُمْلَةً مِنْ أهلِ الأمصارِ والمُدُنِ، لم يَبْعَثْهُمْ[(١٢)] مِنْ أهلِ البوادي وأهلِ البراري [وإنما أرادَ بالقُرَى][(١٣)] الأمصارَ والبنيانَ. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢] قيلَ: هي مكةُ. وجميعُ[(١٤)] ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ القريةِ والقُرَى

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: عنها وأن. (٤) في الأصل وم: نزل. (٥) في الأصل وم: ما. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: وكذلك يكونون. (٨) في الأصل وم: يدعوكم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، في الأصل: ولا سمعوا إلا به. (١٢) في الأصل وم: يبعثوا. (١٣) في الأصل: ولقرى، في م: إنما يريد. (١٤) الواو ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

يريدُ بهِ الأمصارَ والمُدُنَ. وإنما بَعَثَ الرسلَ والأنبياءَ منَ الأمصارِ، ولم يَبْعَثْهُمْ مِنَ البَوادي ومِنْ أهلِ البراري لِوَجهَينِ، واللهُ أعلَمُ:

أحَدُهما: لأنَّ لأهلِ الأمصارِ والمُدُنِ اختِلاطاً بأصنافِ الناسِ وامْتِزاجاً بأنواعِ الخَلْقِ، ويكونُ لهمْ تَجارِبُ بالخَلْقِ. فهمْ أعقَلُ وأحلَمُ وأبصَرُ مِنْ أهلِ الباديةِ والبَرِّيَّةِ؛ إذِ اختِلاطُهُمْ وامْتِزاجُهُمْ إنما يكونُ [بالماشيةِ وأنواعِ البهائمِ][1]، لِذلكَ بُعِثوا مِنَ الأمصارِ دونَ الباديةِ.

وبَعْدُ فإنَّ الرسُلَ يكونُ لهمْ أسبابٌ وأعلامٌ تَتَقَدَّمُ عنْ وقتِ الرسالةِ، ويُحتاجُ[2] إلى أنْ يَظْهَرَ ذلكَ لِلْخَلْقِ لِيكونَ ذلكَ أسْرَعَ إلى الإجابةِ لهمْ وأدْعَى وأنْفَذَ إلى القَبولِ. فإذا كانوا مِنْ أهلِ البوادي لا يظْهَرُ ذلكَ في الخَلْقِ.

والثاني: لأنهُ[3] يرادُ مِنَ الرسالةِ إظهارُها في الخَلْقِ في الآفاقِ والأطرافِ، والأمصارُ والمُدُنُ هي الأمكنةُ التي يَنْتابُ الناسُ إليها في التجارةِ[4] وأنواعِ الحوائجِ مِنَ الآفاقِ والأطرافِ، فيظهَرُ ذلكَ فيها، وفي أهلِ الآفاقِ والبوادي والبَراري ليسَ يدخُلُها، ولا يَنْتابُ إليها إلّا الشاذَّةُ مِنَ الناسِ، ولا تُقْضى فيها الحوائجُ، فلا تَظْهَرُ في الخَلْقِ الرسالةُ وما يُرادُ بها.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي لم يَنْظُروا، ولم يَتَفَكَّروا في مَنْ هَلَكَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الأُمَمِ بتكذيبِهِمُ الرسُلَ أنْ كيفَ كانَ عاقِبَتُهُمْ بالتكذيبِ في الدنيا لِيَمْتَنِعوا عنْ تكذيبِ رسولِهِمْ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أي قد ساروا، ونَظَروا كيفَ كانَ عاقبةُ المُكَذِّبينَ، لكنهمْ عاندوا، ولم يَعْتَبِروا.

والثاني: أي سيروا في الأرضِ، وانْظُروا، ولكنْ ليسَ على نَفْسِ السيرِ في الأرضِ، ولكنْ على السؤالِ عمّا نَزَلَ بأولئكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشِّرْكَ أو خِلافَ اللهِ ورسولِهِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ ذلكَ أفضَلُ وأخيَرُ مِمَّنْ لم يَتَّقِ ذلكَ[5]، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ وكُذِّبوا كلاهُما لُغَتانِ[6].

قالَ بعضُهُمْ: أيِسَ الرسُلُ مِنْ إيمانِ قومِهِمْ وعنْ تصديقِهِمُ الرسلَ. ثم يَحْتَمِلُ اسْتِيآسُهُمْ مِنْ إيمانِهِمْ لِكثرةِ ما رَأَوا مِنِ اعْتِنادِهِمُ الآياتِ وتفريطِهِمْ بِرَدِّها[7]، أيِسوا مِنْ إيمانِهِمْ، وكانَ إياسُهُمْ بالخَبَرِ عنِ اللهِ أنهمْ لا يؤمنونَ كقولِهِ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ الآية [هود: ٣٦] وأمثالِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ قالَ بعضُهُمْ: وظَنَّ[8] الرسُلُ أنَّ أتباعَهُمْ قد كَذَّبوهمْ لِكثرةِ ما أصابَهُمْ مِنَ الشدائدِ، وطالَ عليهِمُ البلاءُ، واسْتَأخَرَ النصرُ، فَوَقَعَ عندَ الرسلِ أنَّ أتباعَهُمْ قد كَذَّبوهُمْ لِكثرةِ ما أصابَهُمْ، وإنْ كانَ مِنَ الأعداءِ، فقدِ اسْتَيْقَنَ الرسُلُ أنهمْ قد كَذَّبوهُمْ.

ورُوِيَ عنْ عُرْوَةَ بنِ الزبيرِ أنهُ سألَ عائشةَ، قالَ: قُلْتُ[9] أرَأيتِ قولَ اللهِ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾؟ قالَ: فقالَتْ[10]: بل كَذَّبَهُمْ قومُهُمْ، قالَ: فَقُلْتُ[11] أرأيتِ قولَ اللهِ: ﴿حَتَّىٰ﴾ واللهِ لقدِ اسْتَيقَنوا أنَّ قومَهُمْ قد كَذَّبوا، وما هو بالظَّنِّ. فقالَتْ: يا عُرَيَّةُ لقدِ اسْتَيقَنوا بذلكَ. قالَ: فَقُلْتُ[12]: فَلَعَلَّهُمْ ظَنّوا أنهمْ قدْ كُذِبوا، قالَتْ[13] معاذَ اللهِ، لم تكنِ الرسُلُ لِتَظُنَّ ذلكَ بربِّها [قُلْتُ: فما][14] هذهِ الآيةُ؟ قالَتْ: همْ أتباعُ الرسلِ الذينَ آمَنوا بربِّهِمْ،

---

(١) في الأصل: الماشية وأنواع، في م: بالماشية في أنواع. (٢) في الأصل وم: يحتاج. (٣) في الأصل وم: أنه. (٤) في الأصل وم: التجارب. (٥) في الأصل وم: بذلك. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ١٩٧. (٧) من م، في الأصل: وردوها. (٨) من م، في الأصل: وظنوا. (٩) في م: فقلت. (١٠) في الأصل وم: فقال. (١١) في الأصل وم: قلت. (١٢) في الأصل وم: قلت. (١٣) في الأصل وم: قال. (١٤) في الأصل وم: وما.

جنة السنة

وصدَّقوهُمْ، وطالَ عليهِمُ البلاءُ، واستأخرَ عنهُمُ النصرُ، حتى إذا استَيأَسَتِ الرسلُ مِمَّنْ كذَّبَهُمْ مِن قومِهِمْ، وظَنّوا أنَّ أتباعَهُمْ قد كذَّبُوهُمْ، جاءَهُمْ نَصْرُ اللهِ عندَ ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ مِنْ إيمانِ قومِهِمْ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ وظَنَّ قومُهُمْ أنَّ الرسُلَ قد كُذِبوا في ما وَعَدوا مِنَ العذابِ أنهُ نازلٌ لمّا أبطأَ عليهِمُ العذابُ.

وقال بعضُهُمْ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ﴾ أي ظَنَّ قومُهُمْ أنَّ رسُلَهُمْ قد كَذَّبوهُمْ خبَرَ السماءِ ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾.

فإنْ كانتِ[1] الآيةُ في أتباعِ الرسُلِ على ما ذَكَرَ بعضُهُمْ فهو كقولِهِ: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤] وإنْ كانَتْ في غيرِهِمْ مِنَ المُكَذِّبينَ فقد جاءَ الرسلَ نَصْرُ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ مِنَ المؤمنينَ. فهو في ظاهِرِهِ خَبَرٌ على المستَقبَلِ أنهُ يُنَجّي مَنْ يَشاءُ مِنْ هؤلاءِ المؤمنِينَ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ على الخَبَرِ في أُولئكَ. فإنْ كانَ على هذا [فإنهُ يَجيءُ][2] أنْ يكونَ نَجَّينا مَنْ نَشاءُ منهُمْ، [وأهلَكْنا مَنْ نشاءُ منهُم][3] لكنْ يجوزُ هذا في اللغةِ، أو يكونُ في الآخِرَةِ؛ نُنَجّي مَنْ نَشاءُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي لا يُرَدُّ عذابُنا إذا نَزَلَ عنِ المجرِمِينَ.

الآية ١١١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﴿فِي قَصَصِهِمۡ﴾ قصةَ يوسفَ وإخوتِهِ ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ ويَحتَمِلُ قَصَصَ الرسُلِ والأُمَمِ السالفةِ جَميعاً ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ والاعْتِبارُ إنما يكونُ لِأولي الألبابِ الذينَ يَنْتَفِعونَ بِلُبِّهِمْ وعَقلِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ يَحتَمِلُ: أي ما حديثُ محمدٍ ﷺ وما أخبَرَ مِنَ القَصَصِ وأخبارِ الرسلِ والأُمَمِ السالفةِ بالذي افتَرَى، بل إنما أخبَرَ ما كانَ في الكُتُبِ السالفةِ على غيرِ تَعَلُّمٍ منهُ ولا دراسةٍ. ويَحتَمِلُ ما كانَ هذا القرآنُ بالذي يُقدَرُ / ٢٥٩ ـ ب/ أنْ يُفتَرَى

[وقولُهُ تعالى]: [4]﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي [هذا القرآنُ][5] الذي نزلَ على رسولِ اللهِ [تَصْديقُ][6] الكتُبِ التي كانَتْ مِنْ قَبْلُ ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي تفصيلَ ما للناسِ حاجةٌ إليهِ[7] ﴿وَهُدٗى﴾ مِنَ الضلالةِ لِمَنِ اهْتَدَى ﴿وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

وفي ما ذَكَرَ مِنْ قصةِ يوسفَ وإخوتِهِ على رسولِ اللهِ دلالةُ التصبيرِ [لهُ][8] على أذَى قُرَيشٍ؛ يقولُ: إنَّ إخوةَ يوسفَ مع مُوافَقَتِهِمْ إياهُ في الدينِ والنَّسَبِ والمُوالاةِ عَمِلوا بيوسفَ ما عَمِلوا مِنَ الكيدِ والمَكْرِ بهِ. فقومُكَ مع مُخالَفَتِهِمْ إياكَ في الدينِ أحْرَى أنْ تَصْبِرَ على أذاهُمْ.

---

(١) في الأصل وم: كان. (٢) في الأصل وم: فيجيء. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: تصديق.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: إليهم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

سورة الرعد

ذكر أنها مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحدُهُما:](١) يَحتمِلُ أن يكونَ قولُهُ: ﴿الٓمٓرۚ﴾ كِنايةً عنِ الأحرفِ المُقطَّعةِ المُعجَمةِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ تفسيرَ ﴿الٓمٓرۚ﴾ هذا هو الظاهرُ أنْ يقالَ في كلِّ الحروفِ المُعجَمةِ والمُقطَّعةِ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ بَعدِها على إثرِها كانَ تفسيراً لها.

والثاني: يُشبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿الٓمٓرۚ﴾ كنايةً عنِ الحججِ والبراهينِ وسائرِ الكتبِ جَعَلْناها آياتِ القرآنِ وحُجَجَهُ وقد ذَكَرْنا القولَ في الحروفِ المُقطَّعةِ في ما تَقدَّمَ.

[ثم](٢) اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ قالَ بعضُهُم: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ التوراةُ والإنجيلُ وسائرُ الكتبِ المتقدمةِ، وقولُهُ: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ هو القرآنُ الذي أُنزِلَ على محمدٍ ﷺ.

وقالَ بعضُهُم: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ هو القرآنُ. لكنهُ أُخبِرَ أنهُ مُنزَّلٌ مِن ربِّكَ الحقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ يَحتمِلُ هو الحقُّ، أي مُنزَّلٌ مِنَ اللهِ، ليسَ كما قالَ أولئكَ: إنه ليسَ مِنَ اللهِ، إنما يقولُهُ محمدٌ مِنْ تِلقاءِ نفسِهِ. ويَحتمِلُ الحَقُّ أي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصلت: ٤٢] واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أنهُ مِنَ اللهِ، أو أكثرَ الناسِ لا يؤمنونَ انهُ آياتُ اللهِ وحُجَجُهُ واللهُ أعلمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قولُهُ: ﴿رَفَعَ﴾ أي أنشاها مرفوعةً، لا أنها كانتْ موضوعةً، فرَفَعَها، ولكنْ جَعَلَها في الابتِداءِ مرفوعةً، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠] [وقولُهُ](٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الرعد: ٣] [وقولُهُ](٤) ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢] ونَحوُ ذلكَ، أي أنشاها مرفوعةً محدودةً، لا أنها كانتْ مرفوعةً، فوَضَعَها، أو كانتْ مُنقبِضةً، فبَسطَها، ولكنْ أنشاها.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هي بِعَمَدٍ، لكنْ لا تَرَونَها، أي تَرَونَها بِغيرِ عَمَدٍ. وقالَ بعضُهُمْ: هي بِغَيرِ عَمَدٍ على ما أخبَرَ، ولكنَّ اللطفَ والأعجوبَةَ في ما يُمْسِكُها بِعَمَدٍ لا تُرَى كاللطفِ والأعجوبةِ في ما يُمْسِكُها بِغيرِ عَمَدٍ، لأنَّ في الشاهدِ لم يُعرَفْ، ولا قُدِرَ على رفعِ سَقْفٍ، فيهِ سَعةٌ وبُعْدٌ بِغَيرِ عَمَدٍ، لا تُرَى، لكنْ ما يُرْفَعُ، إنما يُرفَعُ بِعَمَدٍ تُرَى. فاللطفُ في هذا كاللطفِ في الآخَرِ.

وفيهِ دلالةُ قُدرَتِهِ على البَعْثِ لأنهُ ذَكَرَ هذا، ثم قال: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ [إنَّ](٥) مَنْ قَدَرَ على رفعِ السماءِ مَعَ سَعَتِها وبُعْدِها بلا عَمَدٍ لَقادرٌ على إعادةِ الخلقِ وبَعثِهِمْ وإحيائِهِمْ بَعْدَ الموتِ. بل رفعُ السماءِ مَعَ سَعَتِها وبُعْدِها بلا عَمَدٍ أكبَرُ مِنْ إعادةِ الشيءِ بَعْدَ فَنائِهِ، إذ في الشاهدِ مَنْ قَدْ يَقْدِرُ على إعادةِ أشياءَ بَعْدَ فَنائِها، ولا يَقْدِرُ على رفعِ سَقْفٍ ذي سَعَةٍ وبُعْدٍ بِغَيرِ عَمَدٍ. مِنْ ذا الوجهِ يُمكِنُ(٦) أنْ يُحتَجَّ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أمكن.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ لمّا لم يُفهَمْ مِنْ قولِهِ ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [وقولِهِ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾][(1)] المكانُ، وإنْ كانَ في الشاهدِ يُفهَمُ عنهُ المكانُ إذا أُضيفَ إلى المخلوقِ، لم يَجُزْ أنْ يُفهَمَ [منهُ استواءُ الخالقِ][(2)].

وبَعْدُ فإنَّ في الشاهدِ إذا قيلَ: فلانٌ استولى أمرَ بلدةِ كذا، فاستوَى أمرُهُ، لم يُفهَمْ، منهُ نَفاذُ الأمرِ والسلطانِ والمشيئةِ. فَعلى ذلكَ لمْ يَجُزْ أنْ يُفهَمَ مِنَ اللهِ إذا أُضيفَ إليهِ [الاستِواءُ][(3)] المكانُ.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ أنهُ أخبرَ أنهُ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١] فهو في كلِّ شيءٍ وكلِّ وجهٍ لا يُشْبِهُ الخَلْقَ، إذِ الخلْقُ في الشاهدِ، ليسَ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضاً مِنْ جميعِ الجهاتِ، إنما يُشْبِهُ بعضُهُمْ بعضاً بجهةٍ. ثم صاروا جميعاً أشكالاً وأشباهاً بتلكَ الجهةِ التي [وَقَعَ بها التشابُهُ][(4)] فإذَنِ اللهُ ﷻ لمّا أخبرَ أنهُ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١] دلَّ أنهُ إنما نَفَى عنهُ الجهاتِ التي يَقَعُ بها التشابُهُ والمَثَلُ، فهو يخالفُ الخَلْقَ مِنْ جميعِ الوجوهِ. وهذهِ مسألةٌ مذكورةٌ في ما تَقدَّم.

[ثم][(5)] اختُلِفَ في العرشِ، قالَ بعضُهُمْ: العرشُ، هو المُمْتَحَنونَ [مِنَ الخَلْقِ][(6)] بِهِمُ استَوَى تدبيرُ إنشاءِ غيرِهِمْ مِنَ العالَمِ، لأنهمْ هُمُ المقصودونَ في إنشاءِ ذلكَ كلِّهِ.

وقالَ بعضُهم: العَرْشُ البعثُ، بهِ استوَى، وتَمَّ، إنشاءُ الخلائقِ ما لولا البَعْثُ يكونُ إنشاؤُهُمْ عَبَثاً باطلاً كقولِهِ: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] جَعَلَ عدمَ الرجوعِ إليهِ وإنشاءَهُ الخَلْقَ عَبَثاً.

وقالَ بعضُهُمْ: العرشُ، هو المُلْكُ؛ وبهِ تَمَّ ما ذُكِرَ. وقيلَ: هو سريرُ المُلْكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ على ما في العقلِ أنهُ عن تدبيرِ مُدَبِّرٍ خَرَجَ، وعنْ علمٍ وحكمةٍ وُضِعَ ليسَ على الجُزافِ بلا تدبيرٍ ولا عِلْمٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ يَحْتَمِلُ: يُبَيِّنُ الحُجَجَ والبراهينَ، ويَحْتَمِلُ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي آياتِ القرآنِ أَنْزَلَها بالتفاريقِ، لامَجْمُوعةً ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ هو ما ذَكَرْنا أنَّ ما ذَكَرَ مِنَ الآياتِ والتدبيرِ ورَفْعِ السماءِ بلا عَمَدٍ دَلالةُ البعثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ﴾ هو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾ [يونس: ٤] [وقولِهِ: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨و...] وقولِهِ: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ [غافر: ١٦]][(7)] وأمثالِهِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ وقولُهُ[(8)] في آيةٍ أخرى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] وقولُهُ[(9)] في مَوضعٍ آخرَ ﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ [الغاشية: ٢٠] وكُلُّهُ واحد، وقولُهُ:[(10)]: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [البقرة: ٢٢] يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ التي أَنْعَمَها عليهِمْ.

[وقولُهُ تعالى][(11)] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي بَسَطَها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ ذَكَرَ أنها بُسِطَتْ على الماءِ، فكادَتْ[(12)] تُكْفَؤُ بأهلِها، وتضطَرِبُ كما تُكْفَؤُ السفينةُ، فأرساها بالجبالِ الثِّقالِ، فاستقَرَّتْ، وثَبَتَتْ. وذُكِرَ أنها مُدَّتْ، وبُسِطَتْ على الهواءِ، ثم أثبتَها بما ذَكَرَ مِنَ الجبالِ. ولكنْ لو، كانَ، أنها ما ذَكَرَ لكانَ يَجِيءُ ألّا يكونَ بالجبالِ ثَباتُها واستِقرارُها؛ لأنَّ الأرضَ والجبالَ مِنْ طَبْعِها التَّسَفُّلُ والانحدارُ في الماءِ والهواءِ. فكلما زِيدَ مِنْ ذلكَ النوعِ كانَ[(13)] التَّسَفُّلُ والانحدارُ أكثرَ وأزيدَ، فلا يكونُ[(14)] بها الثباتُ والاستِقرارُ، بل إنما يكونُ الثباتُ والاستِقرارُ بشيءٍ، مِنْ طَبْعِهِ العُلُوُّ والارتِفاعُ، فَيَمْنَعُ/ ٢٦٠ - أ/ ذلكَ الشيءُ، الذي طَبْعُهُ العُلُوُّ، عنِ التَّسَفُّلِ والانحدارِ إلّا أنْ يُقالَ: إنها كانتْ لا تَتَسَفَّلُ، ولا تَتَسَرَّبُ، ولكنْ تَضْطَرِبُ،

(١) في الأصل وم: مدبر. (٢) في الأصل وم: من استوائه الخلق. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقعت بينهم تشابه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ومصيرهم وبروزهم. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: وقال. (١٠) في الأصل وم: وقال. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: فكانت. (١٣) أدرج بعدها في الأصل وم: في. (١٤) في الأصل وم: فيكون.

جنة السنة

وتميدُ بأهلها على ما ذَكَرَهُ ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١] فإن كانَ على هذا فبالجبالِ[١] ثباتُها واستِقرارُها ومَنعُها عنِ الاضطرابِ والمَيَلانِ، وذَكَرَ[٢] هذا لِيُعْلَمَ لطفُهُ وقدرتُهُ حينَ[٣] أمسَكَها بشيءٍ، مِنْ طبعِهِ [العُلُوُّ عنِ][٤] التَّسَفُّلِ والانحِدارِ، وهي في نفسِها كذلكَ، لِتُعْلَمَ قُدْرَةُ اللهِ ولطفُهُ في كلِّ شيءٍ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أنشأها مَمْدودةً [لا أنها][٥] كانَتْ مجموعةً في مكانٍ، فَبَسَطها على ما ذَكَرَ مِنْ رفعِ السماءِ ونَحْوِهِ.

[وقولُهُ تعالى][٦]: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ جَعَلَ اللهُ ﷻ الأشياءَ أكثَرَها بأسبابٍ تعليماً منهُ الخَلْقَ ليَكونَ ذلكَ عليهِمْ أهْوَنَ، وإنْ كانَ جَعْلُ الأشياءِ عليهِ بأسبابٍ [وبغيرِ أسبابٍ][٧] سَواءً؛ إذْ هو قادرٌ بذاتِهِ. يذكُرُ هذا إمّا بحقِّ النِّعَمِ التي أنعَمَها عليهِمْ مِنْ مَدِّ الأرضِ أو بَسْطِها وإثباتِها بالرواسي التي ذَكَرَ، وجَعلِ الأنهارِ فيها لِيَصِلوا إلى الانتِفاعِ بها لِيَسْتَأدِيَ بذلك شُكْرَهُ، وإمّا[٨] بحقِّ الإخبارِ عنْ قدرتِهِ وسلطانِهِ لأنهُ جعلَ الأرضَ بحيثُ لا يدخُلُ فيها شيءٌ، فأخبَرَ أنهُ أدخلَ فيها الجبالَ معَ كثافتِها وعظَمَتِها لِتُعرَفَ قدرتُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي جَعَلَ فيها أنهاراً؛ أخبَرَ أنهُ[٩] مدَّ الأرضَ، وبَسَطَها، وجَعلَها مُستَقِرَّةً ثابتةً لِيَقَرّوا هم عليها، ثم أخبَرَ أنهُ جَعَلَ فيها أنهاراً لِيَنْتَفِعوا بها مِنْ جميعِ أنواعِ المنافعِ، ثم أخبَرَ أنهُ جَعَلَ فيها ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي لَوْنَينِ. وقالَ بعضُهُمْ: ذَوَي طَعْمَينِ [لَكنْ][١٠] يكونُ فيها ألوانٌ، أكثرُ مِنِ اثْنَينِ: أحْمَرَ وأبْيَضَ وأسْوَدَ وأصفَرَ ونَحْوُها. وكذلكَ الطعمُ، يكونُ [حامِضاً وحُلْواً ومُرّاً ومَزّاً][١١] إلاّ أنْ يُقالَ ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الطَّيِّبِ والخبيثِ [فلا يكونُ لهما][١٢] ثالثٌ. وأمّا اللونُ فإنّهُ يكونُ [ذا ألوانٍ وذا][١٣] طُعومٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: الذكَرُ والأنثى، فهذا يَصِحُّ إذا أرادَ بهِ الشجَرَ؛ فمنهُ ما يُثْمِرُ، ومنهُ ما لا يُثْمِرُ. فالذي يُثْمِرُ هو أنثى. والذي لا يُثْمِرُ هو ذَكَرٌ. وأمّا على غيرِ هذا فهو لا يَصِحُّ.

وأصلُ الزوجَينِ: هو اسمُ أشكالٍ وأمثالٍ، واسمُ أضدادٍ، ففيهِ دليلُ نَفْيِ ذلكَ كلِّهِ عنِ اللهِ.

وأصلُ الزوجِ: هو منْ لهُ المقابِلُ مِنَ الأشكالِ والأضدادِ؛ أخبَرَ أنهُ جَعَلَ الخَلْقَ كلَّهُ ذا أشكالٍ وأضدادٍ مِنْ نَحْوِ الليلِ والنهارِ والذكرِ والأنثى؛ فهو في حقِّ المنافعِ كشيءٍ واحدٍ، وفي حقِّ أنفسِهِمْ كالأشياءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يُذهِبُ ظُلمَةَ الليلِ بضَوءِ النهارِ وضوءَ النهارِ بظُلمَةِ الليلِ، أو يُلبِسُ أحدَهُما الآخَرَ، أو يُغطّي الليلُ ما هو [بادٍ ظاهرٌ للخَلْقِ بالنَّهارِ، ويكشِفُ النهارُ][١٤] ما هو مَستورٌ خَفِيٌّ على الخَلْقِ [بالليلِ][١٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ما ذَكَرَ دلالةُ البعثِ والإحياءِ ودلالةُ التدبيرِ والعلمِ والحكمَةِ ودلالةُ الوحدانيَّةِ لِقَومٍ يَتفكَّرون في آياتِهِ وحُجَجِهِ لا لقومٍ يُعانِدونَ آياتِهِ، ويُكابِرونَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ذَكَرَ أنَّ الآياتِ تكونُ آياتٍ لهمْ بالتَّفكُّرِ والنظرِ، واللهُ أعلمُ، لا أنها[١٦] تَصيرُ آياتٍ مَجانَةً[١٧] بالبَديهةِ، أو يقولُ: إنّ منفعَةَ الآياتِ تكونُ لِمَنْ تفكَّرَ فيها لا لِمَنْ تَرَكَ التَّفَكُّرَ والنَّظَرَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أنَّ التجاوُرَ إنما يُذْكَرُ، ويَثْبُتُ، إذا كانتِ الأرضُ أرضاً واحدةً فإنهُ لا يُقالُ فيها الشَّرْكةُ[١٨]، فهذا يُبْطِلُ قولَ مَنْ يقولُ: إنَّ التجاوُرَ إنما

---

(١) في الأصل وم: بالجبال. (٢) في الاصل وم: أو ذكر. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، في الأصل: لأنها. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أو يذكر. (٩) في الأصل وم: أنها. (١٠) من م، ساقطة في الأصل. (١١) في الأصل وم: حامض وحلو ومر ومز. (١٢) في الأصل: قد يكون، في م: فلا يكون. (١٣) في الأصل وم: ذو ألوان وذو. (١٤) في الأصل وم: باديا ظاهراً للخلق وبالنهار. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: ان. (١٧) في الأصل وم: مجاناً. (١٨) في الأصل وم: التجاور.

جنة السنة

يُذكَرُ في ما فيهِ الشَّرِكةُ، فتجبُ الشفعَةُ في ما فيهِ الشركةُ، وأمّا في غَيرِهِ فلا تَجبُ. وأمّا عندَنا فهو[1] ما ذُكِرَ ﷺ أنهُ إنما أثبتَ التجاوُرَ في الأرضِ التي صارَتْ قِطَعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ القِطَعُ المُتجاوِراتُ هي الأرضونَ الضواحي التي تَصْلُحُ لِلزَّرعِ ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ التي تَنْبُتُ وَحْدَها. وقيلَ: ﴿صِنْوَانٌ﴾ هي النخلةُ، تَخرُجُ، فإذا خَرَجَتِ انْشَعَبَتْ بعدَ خُروجِ الأصلِ، فهو الصِّنوانُ، ولهذا قيلَ: عَمُّ الرجلِ صِنْوُ أبيهِ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ أي يُسقَى ما ذُكِرَ مِنَ الزرعِ والنخلِ والجناتِ بماءٍ واحدٍ ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ يُذكِّرُ هذا، واللهُ أعلَمُ أنَّ جَواهِرَ الأرضِ كلِّها واحدةٌ، وهي قِطَعٌ مُتجاوِراتٌ[3] بعضُها ببعضٍ، ثم هي مختلفةٌ في حقِّ الثمارِ والفواكِهِ. وكذلكَ الأشجارُ والنخيلُ كلُّها مِنْ جوهَرٍ مِنْ جِنْسٍ واحدٍ، والأرضُ في جَوهَرِها [واحدةٌ][4] وتُسقى كلُّها بماءٍ واحدٍ، ثم تَخرُجُ [الثمارُ مُختلِفَةً][5] في ألوانِها وطُعومِها وطيبِها وخُبثِها ومناظِرِها لِيُعلَمَ أنها لم تكنْ بِنَفْسِها ولا بالأسبابِ التي جعَلَها، ولكن بِلُطفِ واحدٍ مُدَبِّرٍ عليمٍ حكيمٍ لأنها[6] لو كانتْ بأنفُسِها وطِباعِها وبالأسبابِ لكانتْ كلُّها واحدةً مُتَّفِقَةً في طيبِها وخُبثِها وألوانِها وطُعومِها. فلمّا لم يَكُنْ ما ذكرْنا على لونٍ واحدٍ ولا طَعْمٍ واحدٍ ولا منظرٍ واحدٍ دلَّ أنهُ كان بتدبيرِ مُدَبِّرٍ واحدٍ عليمٍ لطيفٍ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ قيلَ في الحَمْلِ: بَعْضُها أكثرُ حَمْلاً مِنْ بَعْضٍ، وبَعْضُها يَحمِلُ، وبعضُها لا. ولكنْ ما ذَكَرْنا في الطَّيِّبِ والخبيثِ والطَّعْمِ واللونِ والمَنْظَرِ مُفَضَّلٌ بعضُهُ على بَعْضٍ. وأصلُهُ أنَّ الأرضَ واحدةٌ [قِطَعُها][7] مُتجاوِرَةٌ مُتَصِلَةٌ بَعْضُها بِبَعْضٍ، والماءُ واحدٌ أيضاً. ثم خَرَجَتِ الثِّمارُ والفواكهُ والزروعُ مُختلِفَةً مُتفرِّقَةً لِيُعلَمَ أنَّ ذلكَ ليسَ هو عَمَلَ الأرضِ ولا عَمَلَ الماءِ ولا عملَ الأسبابِ والطِّباعِ، ولكنْ باللطفِ مِنَ اللهِ لأنهُ لو كانَ بالماءِ أو بالأرضِ أو بالأسبابِ أوِ الطِّباعِ لكانَتْ مُتَّفِقَةً مُستَوِيةً.

[وقولُهُ تعالى:][8] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ﴾ لِما ذَكَرْنا مِنْ وَحدانيَّتِهِ وتدبيرِهِ وعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي لِقَومٍ هِمَّتُهُمُ العَقلُ والفَهمُ والنَّظَرُ والتَّفَكُّرُ في الآياتِ، لا لِقَومٍ هِمَّتُهُمُ العِنادُ والمُكابَرَةُ، أو لِقَومٍ يَنْتَفِعونَ بِعَقلِهِمْ وعَمَلِهِمْ.

وقالَ الحَسَنُ: هذا مَثَلٌ ضُرِبَ لِقلوبِ بَني آدَمَ: كانَتِ الأرضُ في الأصلِ طِينَةً[9] واحدةً، فَسَطَحَها الرحمنُ، ثم بَطَحَها، فصارتِ الأرضُ قِطَعاً مُتجاوِراتٍ، فَيُنْزِلُ عليها الماءَ مِنَ السماءِ؛ فَتُخرِجُ هذهِ زهرَتَها وثَمَرَتَها وشَجَرَها، وتُخرِجُ نباتَها، وتُحيي مَواتَها، وتُخرِجُ هذهِ سَبَخَها ومِلْحَها، وكِلْتاهما تُسقَى بماءٍ واحدٍ؛ فلو كانَ الماءُ مالحاً قيلَ: اسْتَسْبَخَتْ هذهِ مِن قِبَلِ الماءِ.

كذلكَ الناسُ، خُلِقوا مِنْ آدمَ ﷺ [فَيُنزِلُ عليهِم مِنَ السماءِ ذُكرَةً][10] واحدةً، فَترِقُّ قُلوبٌ[11]، فَتَخشَعُ، وتَخضَعُ، وتَقسو قلوبٌ[12]، فَتَسهو، وتَلهو، وتَجفو. / ٢٦٠ ـ ب/ أو كلامٌ نَحْوُه.

ثم قالَ الحَسَنُ: واللهِ ما جالسَ القرآنَ أحدٌ إلاّ قامَ مِنْ عندِهِ بزيادةٍ أو نقصانٍ، ثم تلا قولَهُ تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ قالَ الحَسَنُ: إنْ تَعجَبْ يا محمدُ مِنْ تكذيبِهِم إياكَ في الرسالةِ فَعَجَبٌ قولُهُم حينَ[13] قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمدُ ممّا أوحينا إليكَ مِنَ القرآنِ كقولِهِ في الصافاتِ: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ [الآية: ١٢] ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي فأعْجَبُ أيضاً قولُهُمْ؛ يقولُ: لكنَّ قولَهُمْ أعجبُ حينَ قالوا ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ تكذيباً للبعثِ.

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في م: متجاوره. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: مختلفاً. (٦) في الأصل وم: لا أنها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: طيبة. (١٠) في الأصل وم: من السماء تذكرة. (١١) في الأصل وم: قلوبا. (١٢) في الأصل وم: قلوباً. (١٣) في الأصل وم: حيث.

جنة السنة

وأصلُهُ، واللهُ أعلَمُ، يقولُ: إنْ عَجِبْتَ مِنْ[1] قولِهِمْ في تكذيبِهِمْ إياكَ في الرسالةِ، ولم تكنْ رسولاً مِنْ قَبْلُ، فقولُهُمْ وإنكارُهُمْ قدرةَ اللهِ على البعثِ والإحياءِ بَعْدَ الموتِ أعْجَبُ، إذْ قد رَأوا، وشاهَدوا مِنْ قدرةِ اللهِ وآياتِهِ بَعْدَ الهلاكِ أعْجَبَ مِنْ تكذيبِهِمْ ما لو تَفَكَّروا، وتأمَّلوا، ولم يُعانِدوا، وعَرَفوا أنهُ قادرٌ على ذلكَ كلِّهِ.

فَوَصَفَهُمُ اللهُ تعالى بالعَجْزِ وأنهُ لا يَقْدِرُ على البَعْثِ والإحياءِ بَعْدَ الهَلاكِ أعْجَبَ مِنْ تَكْذيبِهِمْ إياكَ في الرسالةِ. ولم يَكُنْ سَبَقَ منكَ إليهِمْ ما يُوجِبُ رسالتَكَ وتصديقَكَ، وقد سَبَقَ مِنَ اللهِ إليهِمْ ما يُعَرِّفُهُمْ قدرتَهُ على ذلكَ أو على أكْثَرَ منهُ.

وأصلُهُ، واللهُ أعلَمُ: وإنْ تَعْجَبْ لإنكارِهِمْ وتكذيبِهِمْ إياكَ، ولم يَكُنْ منكَ إليهِمْ حقيقةُ الهدايةِ والنعمِ والآياتِ والحُجَجِ، وإنما كانَ منكَ البيانُ والدعاءُ، فأعْجَبُ قولُهُمْ في إنكارِهِمْ قدرةَ اللهِ على البعثِ، وقولُهُمْ في اللهِ ما قالوا فيهِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِمْ حقيقةَ ذلكَ كلِّهِ باللهِ إليهِمْ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونوا لمّا كَفَروا بالبَعْثِ كانَ كُفْرُهُمْ بالبَعْثِ كُفْراً باللهِ لأنهُمْ عَرَفوهُ عاجزاً حينَ[2] قالوا: لا يَقْدِرُ على بَعْثِ الخَلْقِ. ومَنْ عَرَفَ ربَّهُ عاجزاً فهو لم يَعْرِفِ الربَّ [حقيقةً والإلهَ حقيقةً][3].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: صارَ للكَفَرَةِ في أعناقِهِمْ أغلالٌ حينَ][4] أنكروا الرسالةَ في البشَرِ، ثم جعلوا الأصنامَ والأوثانَ معبودَهُمْ، يَعْكِفونَ لها، ويَخْضَعونَ، هي الأغلالُ. وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْۖ﴾ في الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ الآية [الحاقة: ٣] ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ الاسْتِفْعالُ يكونُ على وجهينِ:

[أحدُهما: الفعلُ نَفْسُهُ.

والثاني: : طَلَبُ الفعْلِ][5] كقولِهِ تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] قيلَ: أُجِبْ لكمْ، وقولِهِ تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ [البقرة: ١٨٦] أي فَلْيُجيبوا لي وقولِهِ تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾.

فإنْ كانَ على طَلَبِ الفِعْلِ فهو ما سألوا رسولَ اللهِ العذابَ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج: ١] ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] وقولُهُمْ: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] فَبَدؤوا بسؤالِهِمُ [العذابَ قَبْلَ سؤالِهِمْ][6] تأخيرَهُ وإمهالَهُ، وتأخيرُ العذابِ عنهمْ[7] مِنَ الحسنةِ، فاسْتَعْجَلوا بهذا قَبْلَ هذا.

وإنْ كانَ الفعلَ نفسَهُ فقولُهُ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي عَجَّلوكَ يا محمدُ ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ إليكَ قَبْلَ أنْ تكونَ منهمْ إليكَ حسنةٌ حينَ[8] كَذَّبوكَ في الرسالةِ، وآذَوْكَ في نفسِكَ، ولم يَكُنْ منهُمْ إليكَ إحسانٌ مِنْ قَبْلُ، واللهُ أعلمُ بذلكَ. وقيلَ: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ العذابَ على ما ذَكَرْنا ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي قبلَ العفوِ. وسؤالُهُمُ السَّيِّئَةَ والعذابَ بِجَهْلٍ[9] منهم أنهُ رسولُ اللهِ وأنه صادقٌ في ما يُخْبِرُ، ويوعِدُ مِنَ العذابِ. كانوا لا يسألونَ [العذابَ][10] لأنهمْ يَعْلَمونَ أنَّ اللهَ يَقْدِرُ على أنْ يُنْزِلَ عليهِمُ العذابَ، لكنْ سَألوا ذلكَ بجهلِهِمْ بأنهُ رسولُ اللهِ سؤالَ اسْتِهْزاءٍ وسُخْرِيَةٍ. وإنْ كانَ على هذا سؤالُهُمْ كانَ فيهِ دلالةٌ أنَّ العقوبةَ والعذابَ قد يلزَمُ مَنْ جَهِلَ الأمْرَ، إذْ كانَ سَبيلُ العِلْمِ بهِ بالنَّظَرِ والتَّفَكُّرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ﴾ قالَ بعضُهُمْ: العقوباتُ أي قد كانَ في الأُمَمِ الخاليةِ العقوباتُ بسؤالِهِمُ العذابَ والمعانَدَةِ في الآياتِ إذا جاءتْ. كأنَهُ، واللهُ أعلَمُ، يُصَبِّرُ رسولَهُ على سَفَهِ قومِهِ[11] بسؤالِهِمُ العذابَ والآياتِ ثم المُعانَدَةِ فيها؛ يقولُ: كانَ في الأُمَمِ الماضيةِ سؤالُ العذابِ والآياتِ ثم المُعانَدَةُ مِنْ بَعْدِ نزولِها، فَلَزِمَتْ[12] لهمُ العقوباتُ. فَعَلى ذلكَ هؤلاءِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل: الحقيقة، في م: الحقيقة والاله الحقيقة. (٤) في الأصل وم: أغلالا حيث. (٥) في الأصل وم: يكون طلب الفعل نفسه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: عندهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: بجعل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قومهم. (١٢) في الأصل وم: فنزلت.

جنة السنة

وقالَ بعضُهُم ﴿ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ الأمثالُ والأشباهُ، وكذلكَ ذُكِرَ في حرْفِ حَفْصَةَ: (وقد خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الأمثالُ) ما لوِ اعْتَبَروا بها كانَ مَثَلاً لهمْ. ولكن لا يَعْتَبِرونَ، فَيَمْنَعُهُمْ عنْ أمثالِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾ أي ذو سَتْرٍ على ظُلْمِهِمْ وتأخيرِ العذابِ إلى وقتٍ كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾[إبراهيم: ٤٢] وقولِهِ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾ [هود: ١٠٤]. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾ للكفارِ لِمَنْ لم يَتُبْ، وماتَ على الظُّلْمِ والشِّرْكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ للكفارِ؛ وعلى التأويلِ الأوّلِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ إذا عاقبَ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾ كقولِهِ[1] في موضعٍ آخرَ: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] وقولِهِ في آيةٍ أُخرَى ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخر ما ذَكَرَ.

فَيَحْتَمِلُ سؤالُهُمُ الآيةَ كما سَأَلَ[2] الأوّلونَ [عينَ تلكَ الآياتِ التي أتَتْ بها الرسلُ الأوّلُونَ][3]؟ وليسَ عليهِ أن يأتيَ [عينَ تلك الآياتِ][4] إنما عليه أنْ يأتيَ بآيةٍ تَخرُجُ عن عُرْفِهِمْ وطباعِهِمْ، والرسلُ جميعاً لم يأتوا بآيةٍ واحدةٍ إنما جاؤوا بآياتٍ مختلفاتٍ؛ كُلٌّ جاءَ بآيةٍ سِوَى ما جاءَ بها الآخرُ، فقالَ لهُ: ليسَ عليكَ هذا ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾.

[ويَحتَمِلُ سؤالُهُمْ][5] آياتِ سؤالَ الاعْتِنادِ، لَدَيها هلاكُهُمْ، على ما فَعَلَ الأوّلونَ، فقالَ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾ قد كفى[6] هذهِ الأمةَ إحضارُ آياتٍ وإنزالُها، لَدَيها هلاكُهُمْ، وإنْ كانوا هُمْ في سؤالِهِمُ الآياتِ مُعانِدِينَ لأنهمْ قد جاءَ هُمْ مِنَ الآياتِ على إثباتِ رسالتِهِ وإظهارِها[7] ما كَفَتْهُمْ، لكنهُمْ يُعانِدونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾ لا تَمْلِكُ إتيانَ الآياتِ ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ [الأنعام: ١٠٩] كقولِهِ ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ الآية [الأنعام: ٥٨] أو يقولُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾ ليسَ إليكَ إنشاءُ الآياتِ واختراعُها ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ أي داعٍ يَدْعو إلى توحيدِ اللهِ ودينِهِ كقولِهِ: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ يَحْتَمِلُ، لكلِّ وقتٍ هادٍ.

ثم اختلفوا [في][8] أنهُ مَنْ ذلكَ الداعي؟ قالَ بعضُهُمْ: اللهُ، وقالَ بعضُهُمْ: نَبيٌّ مِنَ الأنبياءِ، وقالَ بعضُهُمْ: داعٍ، دليلٌ سِوى النَّبيِّ، وقالتِ الباطِنيةُ: هو /٢٦١ ـ أ/ إمامٌ يكونُ معصوماً مثلَ النَّبيِّ لئلا يزيغَ عنِ الحقِّ.

ولكنْ عندنا مَعْصوماً [كانَ أو لم يكُنْ][9] فإنَّ في القرآنِ ما يَمْنَعُ عنِ الزيغِ، ويَعْرِفُ ذلكَ منهُ إذا زاغَ، وضَلَّ عنِ الحقِّ ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ أي داعٍ، وهوكما قالَ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤]

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ قيلَ: يَعْلَمُ أنها حَمَلَتْ أُنثى أو ذَكَراً، مُسْتَوِياً أوغيرَ مُسْتوٍ مَؤوفاً؛ يُخبِرُ ﷺ عن علمِهِ وقدرتِهِ أنهُ لا يَخْفى عليهِ شيءٌ، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ.

فإنْ قيلَ: هذا دَعْوَى، ما الذي يُعْلِمُنا أنهُ يَعْلَمُ ذلكَ؟ قيلَ: اتِّساقُ تدبيرِهِ ولُطْفِهِ يَدُلُّ على عِلْمِ ذلكَ فيهِ حينَ[10] ربّاهُ فيهِ، وأنشأهُ مُسْتَوِياً غيرَ مَؤوفٍ سليماً منَ الآفاتِ، ونَماءُ الحوائجِ كلِّها على الاسْتِواءِ؛ لا يكونُ بَعْضُها أنقصَ مِنْ بَعْضٍ، وبَعْضُها أتَمَّ [مِنْ بَعْضٍ][11] نَحْوُ العَيْنَينِ، تَراهما مُسْتَوِيَتَينِ، لا زيادةَ في إحداهما دونَ الأخرى، بل تَنْمُوانِ على الاسْتِواءِ، وكذلكَ [اليدانِ والرجلانِ والأُذنانِ وأمثالُها][12].

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: أرسل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: بعض تلك الآية. (٥) في الأصل وم: أو سألوا. (٦) في الأصل وم: عفى. (٧) من م، في الأصل: وإظهار. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: اليدين والرجلين والأذنين وأمثاله.

جنة السنة

فدلَّ ذلكَ على العِلْمِ لهُ بهِ والتدبيرِ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي يَعْلَمُ ما تَنْقُصُ[1] وما تزدادُ. قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ ما تَنْقُصُ عن تِسْعَةِ[2] الأشهرِ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ على تِسْعَةِ[3] الأشهرِ؛ فكانَ الحسَنُ يقولُ: غَيضوضةُ الرَّحِمِ أنْ تضعَ لِسِتَّةِ أشهرٍ أو ثمانيةٍ، وأمّا الزيادةُ فما زادَ على تِسْعَةِ أشهرٍ.

وفي حرفِ أُبَيٍّ [بنِ كعبٍ][4]: (اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كلُّ أنثى وما تضعُ). ولكنْ يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ وجهَينِ:

أحدُهما: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي ما لا تَحْمِلُ شيئاً، وهي التي تكونُ عَقيماً لا تَلِدُ، والغيضوضةُ تكونُ [في][5] ذهابِ الشيءِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ [هود: ٤٤] أي ذَهَبَ. ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي ما تَحْمِلُ ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ فتَلِدُ بِدونِ الوقتِ الذي تَلِدُ النساءُ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ في زيادةِ عَدَدِ الأولادِ ونُقصانِهِمْ ما تَحْمِلُ واحداً أو أكثرَ مِنْ واحدٍ.

والثاني[6]: يكونُ في زيادةِ قَدْرِ الولدِ ونُقصانِهِ؛ لأنَّ مِنَ الولَدِ ما يُصيبُهُ في البَطْنِ آفةٌ، فلا يَزالُ يَزدادُ، أو لَهُ[7] نقصانٌ في البَطْنِ، ومنهُ ما ينمو، ويزدادُ، وأمثالُهُ، واللهُ أعلمُ.

[وقولُهُ تعالى][8] ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ مُقَدَّرٌ بالتقديرِ، ليسَ على الجُزافِ على ما يكونُ عندَ الخَلْقِ، ولكنهُ بتقديرٍ وتدبيرٍ.

الآية ٩ [وقولُهُ تعالى][9]: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: لا يَغيبُ عنهُ شيءٌ، ولكنْ هو عالمٌ بالذي يغيبُ عنِ الخَلْقِ، ويَشْهَدُهُ الخَلْقُ؛ أي ما يغيبُ عنهُمْ، وما يَشْهَدونَهُ، عندَهُ بِمَحَلٍّ واحدٍ في العِلْمِ بِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما غابَ بنفسِهِ، وما شَهِدَ بنفسِهِ، هو مالم يوجَدْ يَعْلَمُ[10] أنهُ يوجَدُ أو لا يوجَدُ، وإذا وُجِدَ كيفَ يوجَدُ؟ وفي أيِّ وقتٍ يوجَدُ؟ وما وُجِدَ[11]، وشَهِدَ بعِلْمِهِ، يَعْلَمُهُ شاهداً موجوداً؛ على هذينِ الوجهَينِ يجوزُ أنْ تُخَرَّجَ الآيةُ، واللهُ أعلمُ.

ويَعْلَمُ ما غابَ عنهُمْ ممّا شَهِدوا مِنْ نَحْوِ قوةِ الطعامِ والقوةِ التي في الماءِ وماهيةِ البَصَرِ والسمعِ والعَقْلِ والروحِ وكيفيَّتِها. وهذا كلُّهُ ممّا غابَ عنِ الخَلْقِ.

وقولُهُ تعالى ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ المُتَعالي عنْ جميعِ ما يَحتَمِلُهُ الخَلْقُ. يُقالُ: هذا عظيمُ القومِ وكبيرُهُمْ، وهذا واحدُ زمانِهِ، لا يَعْنونَ [بهِ عِظَمَ][12] النفسِ وكِبَرَهُ أو تَوَحُّدَهُ مِنْ حيثُ نَفاذُ الأمرِ لهُ والمشيئةُ فيهِمْ والعِزُّ والسلطانُ وذِلَّةُ[13] الخَلْقِ والخضوعُ لهُ.

فعلى ذلكَ لا يُفْهَمُ في ما وُصِفَ بهِ ما يُفْهَمُ مِنَ الخَلْقِ مِنْ عِظَمِ الجِسْمِ وكِبَرِ النفسِ، وعلى ذلكَ ما وُصِفَ هو بأسماءِ لا يَحتَمِلُ ذلكَ في الخَلْقِ؛ يُقالُ: أوّلٌ وآخِرٌ وظاهِرٌ وباطِنٌ وعظيمٌ ولطيفٌ لِيُعْلَمَ أنهُ ليسَ يُفْهَمُ ممّا أُضيفَ إليهِ، وَوُصِفَ هو بهِ ما يُفْهَمُ ممّا يُضافُ إلى الخَلْقِ، إذْ مَنْ قيلَ [عنهُ][14] في الشاهدِ: إنهُ عظيمٌ، لم يُقَلْ: إنهُ لطيفٌ، ومَنْ قيلَ: إنهُ أولٌ، لم يُقَلْ: إنهُ[15] آخِرٌ، وكذلكَ الظاهِرُ والباطِنُ إذا وُصِفَ بأحدِهِما انْتَفَى عنهُ الآخَرُ، وكذلكَ ممّا وُصِفَ بهِ الغائبُ، وأُضيفَ إليهِ، لِيُعْلَمَ أنهُ لا يُفْهَمُ ممّا يُوصَفُ هو بهِ، ويُضافُ إليهِ، ما يُفْهَمُ ممّا وُصِفَ بهِ الخَلْقُ وأُضيفَ إليهِمْ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ في نفسِهِ في حالِ انفرادِهِ ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ لِغَيرِهِ[16] ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ في ظُلْمَةِ الليلِ ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ قيلَ: ظاهِرٌ بالنهارِ.

---

(١) في الأصل وم: تغيض. (٢) و(٣) في الأصل وم: التسعة. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: وله. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: بعد. (١١) في الأصل وم: جد. (١٢) في الأصل وم: عظيم. (١٣) في الأصل وم: وله. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: به. (١٦) في الأصل وم: بغيره.

جنة السنة

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ يكونُ في السَّرْبِ، وهو الغارُ، بالنهارِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ [أي ساكنٌ، بالليلِ][1] مَقرُّهُ ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي مُتصرِّفٌ مُتقلِّبٌ بالنهارِ في حوائجِهِ، [وقالَ بعضُهُمْ][2] هذا صلةُ ما تقدَّمَ، وهو قولُهُ: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ وقولُهُ[3] ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾. يقولُ: أيضاً يَعْلَمُ ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ. وَمَنْ﴾ كانَ مُستخفِياً بالليلِ أو سارباً بالنهارِ أي يَعْلَمُ كلَّ شيءٍ، لا يَخفَى عليهِ شيءٌ ممَّنْ[4] عَمِلَ سرّاً مِنَ الخَلْقِ، أوعَمِلَ ظاهراً[5] منهمْ. يذكُرُ هذا، واللهُ أعلمُ، لِيكونوا على حَذَرٍ مِنَ المَعاصي، لأنَّ [مَنْ][6] عَلِمَ أنَّ عليهِ رقيباً حفيظاً فيكونُ أحْذَرَ وأخْوَفَ مِمَّنْ يَعْلَمُ أنْ ليسَ عليهِ ذلكَ.

وقالَ مقاتلٌ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ عندَ اللهِ ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ وسواءٌ منكُمْ مَنْ ﴿هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي مُستخفٍ بالمعصيةِ في ظُلمةِ الليلِ، أو هو مُنتشرٌ بتلكَ المعصيةِ في ظلمةِ الليلِ، أو هو مُنتشِرٌ بتلكَ المعصيةِ بالنهارِ، مُعْلِنٌ بها فَعِلْمُ ذلكَ كلِّهِ عندَ اللهِ سَواءٌ؛ يُذَكِّرُهُمْ[7] أمرَينِ:

أحَدُهما: يُذَكِّرُهُمْ نِعْمَةَ التي أنعَمَها عليهِمْ مِنْ أوَّلِ حالِهِمْ إلى آخِرِ ما يَنْتهونَ إليهِ لِيَسْتأدِيَ بذلكَ شكرَهُ لِيَسْتديمَ بذلكَ تلكَ النعمَ أبداً ما كانوا.

والثاني: يُذَكِّرُهُمْ علمَهُ بجميعِ أحوالِهِمْ وأفعالِهِمْ ليكونوا أبداً على حَذَرٍ مِنْ مَعاصيهِ والخِلافِ لَهُ.

أمّا عِلْمُهُ فهو[8] ما ذَكَرَ ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ إلى قولِهِ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ الآيةَ [الآيات: ٨ و٩ و١٠] وأمّا نِعْمَتُهُ [فهي][9] ماذكرَ ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١١].

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ قال بعضُهُمْ: هُمُ الأمراءُ والشُّرَطُ الذينَ يَحفظونَهُ في ظَواهرَ مِنْ أمرِهِ؛ يُخبرُ أنهُ محفوظٌ عليهِ الخَفيّاتُ من أمرِهِ حينَ[10] قالَ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ الآيةَ؛ حينَ أخبرَ أنهُ يُعلَمُ ذلكَ، ومحفوظٌ عليهِ [الخَفيّاتُ و][11] الظواهرُ مِنْ أمرِهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ الملائكةُ الذينَ يَحفظونَهُ. وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخبرِ عنِ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ [أنهُ][12] قالَ: «يَجتمعونَ فيكمْ عندَ صلاةِ الصبحِ وعندَ صلاةِ العصرِ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٨/١١٦] [وقولُهُ تعالى][13] ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ مثلُ قولِهِ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]. قالَ: الحسناتُ مِنْ بَينِ يديهِ والسَّيِّئاتُ مِنْ خلْفِهِ، الذي عنْ يمينِهِ.

وَقولُهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ يَحتمِلُ أي للهِ مُعقِّباتٌ يَحفظُونَهُ، ويَحتمِلُ مِنْ كلِّ ذَكَرٍ وأنثى، يكونُ مِثْلَهُ قولُهُ: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الآية: ٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يَحتمِلُ قولُهُ ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي يَحفَظُونَ نفسَهُ مِنَ البلايا والنكباتِ التي تَنزِلُ على بني آدمَ. فإنْ كانَ في حِفْظِ نفسِهِ فقولُهُ ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي مِنْ عذابِ اللهِ وبَلاياهُ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٤٠] وهو عذابُنا.

وَيَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ﴾ يَحفَظونَ أعمالَهُ بأمرِ اللهِ. ثم يَحتمِلُ قولُهُ: ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ الشرورَ والسَّيِّئاتِ. ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ ما قَدَّمَ مِنَ الأعمالِ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ ما بَقِيَ، وأخَّرَ كقولِهِ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] ويَحتمِلُ ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ ما مَضى مِنَ الوقتِ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ ما بَقِيَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: /٢٦١ ـ ب/ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يُشبِهُ أنْ تكونَ هذهِ النعمةُ نِعْمَةَ الدينِ مِنْ رسولِ اللهِ أو القرآنِ أو مَا كانَ في أمْرِ الدينِ، لايُغيِّرُ ذلِكَ عَلَيهِمْ إلاّ بِتَغْييرٍ يكونُ مِنهُمْ كَقولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧] وَكَقولِهِ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ذكر. (٣) في الأصل وم: وما ذكر أنه. (٤) في الأصل وم: من. (٥) في الأصل وم: بظاهر. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: تذكيرهم. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيثُ. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وَيحتَمِلُ أنْ يَكونَ ذلِكَ في النِعْمَةِ الدُنياوِيَّةِ مِنَ الصِّحَّةِ والسَّلامَةِ والمالِ، لايُغيِّرُ ذلِكَ عَلَيْهِمْ إلّا بِتَغْييرِ ذلِكَ مِنْ أنفُسِهِمْ.

فَإنْ قِيلَ: إنَّ الأنبياءَ قَدْ كَانوا بُلُوا بِشَدائدَ وَبَلايا، وَلا يَحْتَمِلُ أنْ يَكونَ ذَلِكَ مِنهُمْ في التَّغْيِيرِ، قِيلَ: أُبْدِلَتْ لَهُمْ مَكانَ تِلكَ النِعمَةِ خيرٌ مِنهَا، فَلَيسَ ذَلِكَ بِتَغيِيرٍ، ولَكن لمّا ذَكَرْنا أنَّهُ أُبْدِلَتْ لَهُمْ مَكانَ النِعمةِ نِعمةٌ هِيَ خيرٌ مِنهَا ثُمَّ [مَا][1] كَانَ مِنَ النِّعمِ والأفْضالِ مِنَ الطَّاعَاتِ [التي][2] لَهَا حَقُّ التَجدُّدِ والحُدوثِ يَكونُ التَّغْيِيرُ عَلَيهِم حَالَةَ اختِيارِهِمْ وتَغْيِيرِهِمْ عَلى أنْفُسِهِمْ.

وَأمَّا الأفعَالُ الَّتي لَهَا حَقُّ البَقَاءِ فَيَكونُ التَّغْيِيرُ مِنَ اللهِ مِن بَعدُ، وَهيَ[3] مِن نَحوِ السَّلامَةِ والصِّحَّةِ والسَّعَةِ [والتي لها][4] حَقُّ التَّجَدُّدِ والحُدوثِ الطاعاتُ والمَعاصي.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ الآيَةُ تَرُدُّ على المعتزِلَةِ قولَهُمْ، لأنَّهُم يَقُولونَ: إنَّهُ لا يُريدُ إلّا مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُم في الدِينِ، وَقَدْ أخبَرَ أنَّهُ إذا أرادَ بِهِم سُوءاً فلا مَرَدَّ لَهُ. دَلَّ هَذا أنَّهُ قَدْ يُرِيدُ بِهِمُ السُّوءَ إذا غَيَّرُوا هُم مَا أَنعمَ اللهُ عَلَيهِمْ، أرَادَ أنْ يُغيِّرَ عليهِمْ [وَ تَرُدُّ أيضاً][5] على المعتزِلَةِ قولَهُمْ لِأنَّهُمْ يَقُولُونَ: يملِكُ الخَلقُ دَفعَ سوءٍ أرادَهُ اللهُ بِهِمْ، وإذا أرَادَ الخَيرَ يملِكُونَ رَدَّ ذَلك، واللهُ يَقُولُ: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس: ١٠٧] ويقولُ[6]: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي ليسَ [لهم منْ][7] دفعِ العَذابِ الَّذي أرادَ بِهِم وليٌّ، يدفَعُ عَنهُمْ، أو نصيرٌ يَنْصُرُهُمْ كقولِهِ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧].

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ أي مَخوفاً ومَطْمُوعاً، أو تَخافُونَ، وتَطمَعُونَ.

وَقَالَ أَهلُ التَّأوِيلِ: خَوفاً للمُسافِرِ وطَمَعاً للمُقيم. وقِيلَ: خوفاً لِأَهلِ البُنيَانِ وطَمَعاً لِأَهْلِ الأَنزالِ.

وعِندَنا [يَطمعُونَ، ويَخافُونَ في وَقتٍ وَاحدٍ][8]، يَطْمَعُونَ نَفعَهُ في وَقتِ المنفعَةِ، وَيخافُونَ ضَرَرَهُ في غَيرِ وَقتِ النفعِ، أو يَطمعونَ نَفعَهُ، وَيخافُونَ ضَرَرَهُ، أو يَطمَعونَ مَضيَّهُ، وَيخافونَ نُزُولَهُ والضَّررَ بِهِ في غيرِ وَقتِ النَّفعِ ونحوِهِ ويَحتَمِلُ وَجهاً آخرَ قولُهُ[9]: ﴿يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ أي يُرِيكُمْ خوفاً مَوعُوداً وطَمَعاً مَوعُوداً لأن البرقَ نُورٌ ونَارٌ، ويَطْمَعُ النُّورُ الموعُودُ في الجَنةِ، وَالنَّارُ تُخوِّفُ النَّارَ الموعُودةَ في الآخِرةِ [لأنَّ][10] فيهَا ناراً. الا تَرَى أنَّهُ إذا اشتَدَّ خِيفَ على [مَنْ][11] أصابَهُ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ يُقالُ: نَشأَتِ السَّماءُ إذا ارتفَعَ الغَيمُ فيهَا، ويُسمَّى الغَيمُ نَشأً، وقولُهُ: أنشأَ: أي أخذَ فيهِ، ويُقَال: أنشأَ اللهُ الخلقَ: أي خَلَقَهُمْ، نَشأَ: ارتفَعَ، وأنشَأَ: رَفَعَ، وَهُوَمِنْ هَذا، والله أعلَمُ.

الآية ١٣ [وقولُهُ تعالى][12]: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ اخْتُلِفَ في الرَّعدِ والبرقِ: قالَ بعضُهُمْ: هُوَ اسْمُ مَلَكٍ مِنَ الملائكَةِ مُوكَّلٍ بِالسَّحَابِ، صوتُهُ تَسبيحُهُ.

رُوِيَ عَنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][13] قالَ «أقبلتْ يهودُ إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم أخبِرنا عنِ الرَّعْدِ، ما هو؟ قالَ: مَلَكٌ مِنَ الملائكةِ مُوكَّلٌ بالسحابِ، معهُ مَخاريقُ مِنْ نارٍ، يَسوقُ بها السحابَ حيثُ شاءَ اللهُ، فقالوا: فما هذا الصوتُ الذي نَسمَعُ؟ قالَ: زَجْرَةُ السحابِ، إذا زَجَرَهُ، حتى يَنْتَهِيَ إلى حيثُ أمَرَ، قالوا: صَدَقْتَ» [أحمد: ١/ ٢٧٤] فإنْ ثَبَتَ هذا فهو هو.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وهو. (٤) في الأصل وم: والذي. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في م: يطمعون ويخافون قوم واحد، ساقطة من الأصل. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وَعَنْ عَلِيٍّ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنِ البرقِ والرعدِ، قالَ: الرَّعْدُ المَلَكُ، والبَرْقُ ضَرْبَةُ السحابِ بِمِخْراقٍ مِن حديدٍ. وقيلَ: الرَّعْدُ مَلَكٌ على ما ذَكَرْنا، يَزْجُرُ السحابَ بالتسبيحِ، ويَسوقُهُ. فإذا شَذَّتْ سَحابَةٌ ضَمَّها. و إذا اشْتَدَّ غضبُهُ أصْدَرَ[1] مِنْ فيهِ النّارَ، فهيَ الصواعِقُ، وقيلَ: هو الريحُ، تَسوقُ السحابَ، [فإذا تراكَمَتِ السُّحبُ][2] فلم تَجِدْ مَنْفَذاً، صَوَّتَتْ، فذلكَ صوتُها.

وَقالَ بَعْضُ الفلاسفةِ: الرعدُ اصْطِكاكُ الأجرامِ، فَيَحْدُثُ [بهذا صوتٌ كالحَجَرِ][3] يَصُكُّ الحَجَرَ، وقالَ بعضُهُمْ مِنَ الفلاسفةِ: إنما هي ريحٌ تَخْتَنِقُ تحتَ السحابِ، فَتَصْدَعُهُ، فذلكَ الصوتُ منهُ. وأيَّ شيءٍ كانَ الرَّعدُ: المَلَكَ أو الريحَ، أو ما كانَ، فالتسبيحُ يَحْتَمِلُ مِنْ كلِّ شيءٍ على ما أَخْبَرَهُ اللهُ تَعالى: التسبيحِ مِنْ كلِّ شيءٍ حينَ[4] قالَ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فَيَحْتَمِلُ تَسبيحُ الخِلْقَةِ [ما][5] جَعَلَ في خِلْقَةِ كلِّ شيءٍ حَمْدَ صانِعِه وبَراءَةَ مُنْشِئِهِ مِنْ كلِّ ما وَصَفَهُ المُلْحِدُون ودلالةَ ألوهِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ.

وَ يَحْتَمِلُ التسبيحُ [ما][6] جَعَلَ في سِرِّيَّةِ كلِّ شيءٍ تَسْبيحَهُ وتَنْزِيهَهُ مالا يَفْهَمُهُ الخَلْقُ.

وعنْ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: «الرعدُ مَلَكٌ، وهذا تَسْبيحُهُ، والبرقُ سوطُهُ الذي يُزْجي بهِ السحابَ» [السيوطي في الدر المنثور٤/ ٦٢٢] قِيلَ: أمثالُ ذلكَ كثيرٌ، واللهُ أعلمُ بذلك، وليسَ لنا إلى معرفةِ ذلكِ حاجةٌ سِوَى أنّهُ هولٌ هائلٌ، يَهولُ الخَلقَ، ويُذَكِّرُهُمْ سلطانَهُ وعَظَمَتَهُ، ولولا أنَّهمُ اعتادوا ذلكَ، وإلاّ لم تَقُمْ أنفسُهُمْ لسماعِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي يُذَكِّرُهُمْ سلطانَهُ وعظمتَهُ، فيكونُ ذلكَ تَسْبيحَهُ وما ذَكَروا مِنْ سلطانِهِ وعظمتِهِ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي تُسَبِّحُ الملائكةُ مِنْ خوفِهِ، [والرَّعدُ يُسَبِّحُ][8]، ويُذَكِّرُ الخَلْقَ عَظَمَةَ اللهِ وسلطانَهُ [فَيَدُلُّ على][9] الثناءِ عليهِ.

وَالملائكةُ يُسَبِّحونَهُ في ما بينَهُمْ وبَينَ رَبِّهِمْ [مِنْ خِيفَتِهِ، أي مِنْ خَوفِهِ][10] ولَم يُذْكَرْ فيهِمُ التسبيحُ بحمدِهِ، وذُكِرَ في الرعدِ[11].

ثُمَّ الخوفُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: خوفٌ مِنْ عقوبتِهِ لأنَّهُ قد جاءَ فيهِمُ الوعيدُ إذا زَلُّوا كقولِهِ: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

والثاني: خَوفُ رهبَةٍ وهيبَةٍ، لا خَوفُ عقوبةٍ، لأنَ اللهَ تعالى وَصَفَهُمْ بالطَاعةِ والاسْتِسلامِ كَقولِهِ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وقولِهِ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياءِ: ١٩] ونحوَ ذلكَ.

ثُمَّ خوفُ الهيبَةِ لا يَزولُ في الآخرةِ ، وخوفُ العقوبةِ يَزولُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ قيلَ: الصَّعْقَةُ الصيحةُ التي فيها مَوتُ البَعْضِ وذهابُ[12] عَقْلِ البعضِ كقولِهِ: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] وقيلَ: هي اسْمُ العذابِ، وقد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ [ما][13] ذُكِرَ في بَعْضِ الأخبارِ أنَّ رجلاً أَتى النَّبِيَّ ﷺ فسألَهُ عَنْ شيءٍ مِنْ أمرِ الرَّبِّ، فَجاءَتْ صاعِقَةٌ، فأحْرَقَتْهُ، ونَزَلَ ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي في توحيدِ اللهِ لأنَّ أهلَ الكفرِ كُلَّهُمْ كانَتْ مجادَلَتُهُمْ في توحيدِ اللهِ وأُلوهيَّتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: شديدُ الانْتِقامِ والعقوبةِ. وقيلَ: شديدُ القوةِ، وقيلَ: شديدُ الأخذِ.

---

(١) في الأصل وم: صار. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: هذا الصوت. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الرعد ويسبح. (٩) في الأصل وم: فدل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾أي من خوفه. (١٢) في الأصل وم: ويذهب. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

وقالَ القُتَبِيُّ: المِحالُ مِنَ الكَيدِ والمَكرِ. وأصلُ المِحالِ: الحيلةُ [لكنْ سَمّى باسْمِ الأوَّلِ لأنَّهُ جَزاءُ الحيلةِ][١] فَيكونُ كَتَسْمِيَةِ جزاءِ السيئةِ سَيِّئَةً، وجزاءِ الاعْتِداءِ اعْتِداءً. والمكرُ ما ذَكَرْنا أنَّهُ الأخذُ مِن حيثُ لا يَشْعُرُونَ بِهِ. وقالَ أبو عَوْسَجَةَ: المِحالُ عِندي [مِنَ المَكرِ][٢].

وقالَ أبو عوسَجَةَ: ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ الحَفَظَةُ الذينَ ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] يَحفَظُونَهُ بأمرِ اللهِ، ويُقالُ: عَقَبَةٌ أي حَفَظَةٌ، وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرَّعد: ٤١] / ٢٦٢ ـ أ/ فمعناهُ[٣] لا رادَّ لِحُكْمِهِ، قالَ: ويقالُ [في][٤] غَيرِ هذا: عَقَبَ فُلانٌ فُلاناً، أي ذَهَبَ هو، وجاءَ هذا، ويُقالُ: عَقَبْتُ أي رَجَعْتُ، ومأخَذُهما مِنَ العَقِبِ ويُقالُ: رَجَعَ على عَقِبَيْهِ أي مِن حيثُ جاءَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ ملائِكَةٌ يَعْقُبُ بَعْضُهُم بعضاً في الليلِ والنهارِ، إذا مَضى فَريقٌ خَلَفَ بَعْدَهُ فريقٌ آخَرُ ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي بِأمرِ اللهِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي وَلِيٍّ، مِثْلُ: قادِرٍ، وقَديرٍ، وحافِظٍ، وحَفيظٍ، وذَلِكَ جائِزٌ في اللُّغَةِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ.

[أحدُهما][٥]: أي لَهُ عِبادةُ الحَقِّ، وليسَ لِمَنْ دونَهُ عِبادَةُ الحقِّ، أي هو المُسْتَحِقُّ للعبادَةِ، ليسَ مَنْ[٦] يُعْبَدُ دونَهُ بالذي يستَحِقُّ العِبادَةَ، وعِبادَةُ الحقِّ لَهُ، ليسَتْ[٧] لِمِن دونَهُ.

والثاني: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي لَهُ إجابةُ دَعْوَةِ الحقِّ، ليسَ يَمْلِكُ مَنْ دونَهُ إجابةَ مَنْ دَعا بالحَقِّ.

فَعَلَى التأويلِ الأوَّلِ الدعوةُ العِبادَةُ، وعلى الثاني الدعوةُ الإجابةُ. أي له إجابةُ دعوةِ مَن دعا بالحقِّ، واللهُ أعلَمُ.

هو يَمْلِكُ إجابةَ دعوةِ [الحقِّ][٨]. فأمّا مَنْ عَبَدَ [إلهاً][٩] دونَهُ، ودعا دونَهُ فلا[١٠] يَمْلِكُ ذلكَ.

يَدُلُّ على ذلكَ قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ أي والذينَ[١١] يدعونَ مِن دونِهِ لا يَملِكونَ الإجابةَ، أو لا يَملِكونَ ما يَأمُلونَ مِن عبادتِهِمُ الأصنامَ، فَيكونُ مَثَلُ ما ذَكَرَ ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ وَجْهَ ضَرْبِ مَثَلِ مَنْ يَدْعونَ مِن دونِ اللهِ بباسِطِ كَفَّيْهِ إلى الماءِ هوَ، واللهُ أعلَمُ، ليسَ مَن يَدْعونَ مِن دونِ اللهِ إلا كباسِطِ كَفَّيهِ إلى الماءِ، فَيَدعو الماءَ، فلا [١٢] يُجيبُهُ الماءُ. فَعَلَى ذلكَ مَنْ يَدعُ الأصنامَ لا تَمْلِكُ[١٣] إجابَتَهُ، واللهُ أعلَمُ، أو أنْ يكونَ وَجْهُ ضَرْبِ هذا المَثَلِ أنَّ مَن عَبَدَ دونَ اللهِ، أو دعا مَن دونَهُ، ليسَ إلاّ كباسِطِ كَفَّيهِ إلى الماءِ، وهو على بُعْدٍ مِنَ الماءِ، فكما لا يَصِلُ هُوَ إلى الماءِ لا يَصِلُ مَنْ عَبَدَ دُونَ اللهِ إلى ما يَأمُلُ، ويَطْمَعُ، أو يَحْتَمِلُ مِن وَجهٍ آخَرَ، وهو أن الماءَ يُغْتَرَفُ إذا قُبِضَ الكَفُّ، ولا سَبيلَ إلى الاغْتِرافِ إذا بُسِطَتْ. فَعَلَى ذلكَ مَنْ عَبَدَ دونَ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي دُعاؤُهُم وعِبادتُهُم لا يُعقِبُ لَهُمْ إلّا الخَسارَ في الآخِرَةِ، حاصِلُهُ يُضِلُّ ذلكَ كُلَّهُ عنهُمْ، لا يَصِلُونَ إلى ما يَأمُلونَ بالدعاءِ والعِبادةِ كقولِهِ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤و...].

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿يَسْجُدُ﴾ على حقيقةِ السجودِ، يَسْجُدُ لهُ المؤمنُ والكافِرُ جميعاً. أمّا المؤمنُ فإنَّهُ يَسْجُدُ لهُ بالاختيارِ والطوعِ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ السجودِ وجوهاً:

أحَدُها: حقيقةُ السجودِ، فإنْ كانَ هذا فهو في المُمْتَحَنينَ خاصةً.

والثاني: سُجودُ الخِلْقَةِ، فإنْ كانَ على هذا فهو في جميعِ الخلائِقِ؛ جَعَلَ اللهُ في خِلْقَةِ كلِّ شيءٍ دلالةَ وحدانِيَّتِهِ وآيَةَ ألوهِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يحتمل.
(٦) في الأصل وم: ممن. (٧) في الأصل وم: ليس. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لا. (١١) في الأصل وم: والذي. (١٢) في الأصل وم: فكما لا. (١٣) في الأصل وم: يملكون.

جنة السنة

وَالثالث: سُجودُ الأحوالِ؛ فهو في المؤمنِ والكافرِ جميعاً. أمّا المؤمنُ فهو يَسْجُدُ لَهُ في كلِّ حالٍ. وأمّا الكافرُ فإنّهُ يَسجُدُ لَهُ، ويخضعُ في حَالِ الشِّدَّةِ والضِّيقِ، ولا يسجُدُ لَهُ في حالِ السَّعةِ والرَّخاءِ.

وَيُشبِهُ أنْ يَكونَ [في][1] الكافرُ، يكونُ سجودُهُ للهِ اختياراً وطَوعاً حينَ[2] قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا[3]: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] إنَّهُمْ، وإن عَبَدُوا الأصنامَ، يَرون السجودَ والعبادةَ للهِ. لكنَّهُ لَمْ يُقْبَلْ ذلك منهُمْ لإشراكِهِمْ غيرَهُ في ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ أي تَسجُدُ ظِلالُهُمْ بالغُدُوِّ والآصالِ؛ يَنتَقِلُ ظِلُّ كُلِّ أحدٍ بانتِقالِ نَفْسِهِ؛ يَنتَقِلُ حيثُ تَنتَقِلُ نفسُهُ، فذَكَرَ الغُدُوَّ والآصالَ لأنَّهُ[4] بالغُدُوِّ والعَشِيِّ يَظْهَرُ الظِّلُّ.

وَيَحتَمِلُ السجودُ أنَّهُ ﴿يَسْجُدُ﴾ أي يَخْضَعُ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فإنْ كانَ على الخُضوعِ فهُوَ في الخلائِقِ كُلِّهِمْ: في البشرِ وغَيرِ البَشرِ، وذي الرُّوحِ وغيرِ ذي الرُّوحِ ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ أي ظِلالُهُمْ تَخضَعُ لَهُ أيضاً بالغُدُوِّ والآصالِ.

وَيَحتَمِلُ أنْ يكون المُرادُ مِنَ السجودِ سُجودَ[5] الخِلْقَةِ، فتَسْجُدُ لهُ خِلْقَةُ كلِّ أحدٍ. فإنْ قيلَ: ما مَعْنى الغُدُوِّ والآصالِ؟ قيلَ: يَحْتَمِلُ أبداً دائماً ليسَ على [مُرادِ وقتٍ][6]، ولكنْ على الأوقاتِ كلِّها.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ أمَرَهُ أنْ يسألَهُمْ: مَنْ ربُّ السماواتِ والأرضِ؟ ثُمَّ أمرَهُ أنْ يُجيبَ هو لَهُمْ، فَيَقولَ: ﴿ٱللَّهُ﴾ وهو في الظاهرِ دعوى: أكْثَرُ ما في هذِهِ الآيَةِ دعوى، وبعضُهُ حِجاجٌ، وهو قولُهُ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا﴾ وقولُهُ: ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ لأنَّهُمْ يُقِرُّونَ بهذا: لا يخلُقون كَخلقِهِ، ولا يملِكونَ دَفْعَ الضَّرِّ ولا جرَّ النَّفعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿قُلِ﴾ إنما أمَرَهُ أنْ يَسألَهُمْ: مَنْ ربُّ السماواتِ والأرضِ؟ ولم يَقُلْ: مَنْ رَبُّكُمْ؟ فإنما أمَرَهُ أنْ يسألَهُمْ مالا يَتجاسَرُونَ أنْ يقولوا: الأصنامُ التي يَعْبُدونَها هيَ أربابُ السماواتِ، فلا بُدَّ مِنْ أنْ يُقِرُّوا [أنَّ][7] اللهَ ربُّ السماواتِ والأرضِ [فإذا أقرّوا][8] بهذا أنهُ ربُّ السماواتِ والأرضِ فقد دَخَلَ ما في السماواتِ والأرضِ في رُبُوبِيَّتِهِ، أو السماواتُ والأرضُ إنما خَلَقَهُما لأهلِهِما، فإذا كانَ ربُّ السماواتِ والأرضِ كان ربَّ ما فيهما.

وقال بعضُهُمْ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ أمَرَهُ أنْ يَسْألَهُمْ وأنْ[9] يَسْبِقَهُمْ بالإجابةِ لأنَّهُ هو السابقُ بكلِّ خيرٍ، وهمْ يُجيبونَ لهُ أنَّهُ ربُّ السماواتِ والأرضِ. دليلُهُ حَرْفُ أُبيِّ [بْنِ كعبٍ وعبدِ اللهِ بنِ][10] مسعودٍ وحفصةَ حينَ[11] قرؤوا: (مَنْ ربُّ السماواتِ والأرضِ قالوا: اللهُ) يدلُّ أنَّهُ أمَرَهُ أنْ يسبِقَهُمْ بالإجابةِ كما كانَ هو السابقَ بكلِّ خيرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، إذا أقْرَرْتُمْ أنَّ ربَّ السماواتِ والأرضِ، هو اللهُ، وهو الإلهُ، فكيف اتَّخذْتُمْ مِنْ دونِهِ هذِهِ الأصنامَ آلهةً أرباباً، وعَبَدْتُموها؟ أو كيفَ جعَلْتُمْ مَنْ ليسَ هو ربَّ السماواتِ والأرضِ أولى مِمَّنْ[12] أقرَرْتُمْ بالعبادةِ لهُ أنَّهُ ربُّهُما ؟ واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي[13] لا يملِكُونَ نفعاً لأنفسِهِمْ ولا دَفْعَ الضَّرَرِ عنها، فكيفَ يَمْلِكُونَ نَفْعَ غيرِهِمْ أو دَفْعَ ضَرٍّ عن غَيْرِهِمْ ؟ فَعَرَّفَهُمْ أنَّهُمْ[14] لا يَمْلِكُونَ ذلكَ، وأنَّ اللهَ، هو المالكُ؟ فكيفَ تركْتُمْ عبادةَ مَنْ يَمْلِكُ ذلكَ، وعَبَدْتُمْ مَنْ لا يَمْلِكُ؟ فَيُخَرَّجُ تأويلُهُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: يقولُ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فكيفَ اتَّخذْتُمْ دونَ اللهِ آلهةً؟

والثاني: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ مع وُجودِ الحاجةِ، فكيفَ تَعْبُدونَ على رَجاءِ النَّفعِ لكُمْ بِقولِكُمْ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾؟ [يونس: ١٨]؟

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: مراد وقت. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: أن. (١٠) في الأصل وم: وابن. (١١) في الأصل وم: من. (١٢) في الأصل وم: من. (١٣) في الأصل وم: أو. (١٤) في الأصل وم: أنه.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي تَعلَمُونَ أنَّ الأصنامَ التي تَعبُدُونها عُميٌ[1]، لا تُبصِرُ شيئاً، واللهُ هو البصيرُ، فكيفَ تَرَكتُمْ عِبادَةَ مَنْ يُبصِرُ، وعبَدْتُم مَنْ لا يُبصِرُ؟ هل يَستَوي ذلكَ؟ أي لا يَستَوي، أو يقولُ لهُمْ: إنَّكم بِعبادَتِكُمُ الأصنامَ طَمِعتُمْ بشَفَاعتِهِمْ عندَ اللهِ، وهمْ عُميٌ، وأنتُمْ بُصَراءُ، فهل رأيتُمْ أعمَى يَقودُ بصيراً في الشاهِدِ؟ أرأيتُم[2] مَنْ لا يُبصِرُ يكونُ / ٢٦٢ ـ ب/ دليلاً لِبَصيرٍ؟ فكيفَ طَمِعتُمْ مِنَ الأصنامِ بذلكَ؟

وقالَ أهلُ التأويلِ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ الأعمَى الكافرُ، والبَصيرُ المُؤمِنُ ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ الظُّلماتُ الكُفرُ، والنُّورُ الإيمانُ.

وَوَجْهُ قولِهِم حينَ[3] شَبَّهوا الكُفرَ بالظُّلمَةِ والإيمانَ بالنُّورِ لأنَّ الظُّلمَةَ تَحجُبُ، وتَستُرُ كُلَّ شيءٍ، والنُّورَ يرفَعُ ذلكَ الحجابَ وذلكَ السِّترَ. فالإيمانُ لهُ دلائلُ وحُجَجٌ، ترفَعُ تلكَ الحُجُبَ والسُّتُرَ، فَيُنَوِّرُ بِهِ كُلَّ شيءٍ، والكُفرُ، ليسَ لهُ حُجَجٌ ودلائلُ، تَرْفَعُ ذلكَ، فهو ظُلْمَةٌ، لم يُضِئْ لهُ شيئاً، والإيمانُ نورٌ حِينَ[4] أضاءَ بِهِ، ونَوَّرَ كلَّ شيءٍ بالدلائلِ والحُجَجِ التي ذَكَرْنا. فصارَ الكافرُ كالأعمى، لايُبْصِرُ شيئاً، لأنَّهُ في الظلمةِ، والمؤمِنُ كالبصيرِ لأنَّ[5] مَعَهُ الدلائلَ والحُجَجَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي بل جَعَلُوا للهِ شُركاءَ في العبادةِ بَعْدَما عَلِموا أنَّهُمْ لا يَملِكُون نَفعاً، إنْ عَبَدوها، ولا ضَرّاً، إنْ تَرَكوا العبادَةَ لها.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي خَلَقَ هؤلاءِ الأصنامُ التي عَبدوها، وأشركوها في أُلوهيَّتِهِ، كَخَلْقِ اللهِ، فتَشابَهَ عليهِمْ [خَلْقُهُ][6] مِنْ خَلْقِ الأصنامِ، أي عَرَفوا أنها لم تَخلُقْ شيئاً كما خَلَقَ اللهُ، فكيفَ أشرَكُوا هذهِ الأصنامَ في عبادةِ اللهِ وألوهيَّتِهِ؟ وهمْ كانوا[7] قد أقرُّوا أنَّ اللهَ هو خالقُ كلِّ شيءٍ.

وهذا يَنقُضُ على المُعتزلَةِ قولَهُمْ حينَ[8] قالوا: إنَّ اللهَ لم يَخلُقْ أفعالَ الخَلقِ، ولا يَقدِرُ على خَلقِها. فإذا كانَ اللهُ لم يَخلُقْها، فهمْ خَلَقوها على زعمِهِمْ، فيكونُ مَوضِعُ تَشابُهِ الخَلقِ عليهِمْ على قولِهِمْ، فَيَدُلُّ على بُطلانِ قولِهِمْ وفَسادِ مذهَبِهِمْ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ في السماواتِ والأرضِ ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ أي كلُّ شيءٍ تحتَ قُدرَتِهِ وقَهرِهِ وسُلطانِهِ، والأصنامُ التي تَعبُدونَها مَقهورَةٌ مَغلوبَةٌ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ مِنَ الأمثالِ إلى قولِهِ ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ بَعضُ أهلِ التأويلِ: هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ للْيَقينِ والشَّكِّ، فاحتَمَلَتْ منهُ القلوبُ على قَدْرِ يَقينِها وشَكِّها.

فأمَّا الشَّكُّ فلا يَنفَعُ منهُ عَمَلٌ، وأمَّا اليَقينُ فَيَنفَعُ اللهُ بِهِ أهلَهُ؛ وهو قولُهُ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ وهو الشَّكُّ ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو اليَقينُ.

وكما يُجعَلُ الحَليُ في النارِ، فَيُؤخَذُ خالِصُهُ، ويُترَكُ[9] خَبيثُهُ في النارِ، كذلكَ يَقبَلُ اللهُ اليَقينَ، ويَترُكُ الشَّكَّ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ.

وقالَ قَتادةُ: قولُهُ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ الصَغيرُ بِصِغرِهِ، والكَبيرُ بِكِبَرِهِ. ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ يقولُ: عالياً ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ[10] عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ والجُفاءُ ما يَتَعلَّقُ بالشَّجَرِ مِنَ الزَّبَدِ ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فَضَرَبَ المَثَلَ لِلْحَقِّ والباطِلِ.

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: كما اضمَحَلَّ هذا الزَّبَدُ الذي ظَهَرَ على فوقِ الماءِ، فصارَ جُفاءً، لا يُنتَفَعُ بِهِ، ولا تُرْجَى بَرَكَتُهُ،

---

(١) في الأصل وم: أنها أعمى. (٢) همزة الإستفهام ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: والمؤمن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: كأنهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: وينزل. (١٠) في الأصل وم: توقدون، وهي قراءة ابن كثير وابن عامر، انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٢١٤.

كذلك يَضمَحِلُّ الباطِلُ عَن أهلِهِ كما اضمَحَلَّ هذا الزَّبَدُ، وكما مَكَثَ هذا الماءُ في الأرضِ، وقَرَّ قرارُها، فَأمْرَعَتْ، ورُجِيَتْ بَرَكَتُهُ كذلك، وأخرَجَتْ لَهُ نَبَاتَها، كذلكَ يَبْقى الحَقُّ لأهلِهِ كما يبقى هذا الماءُ في الأرضِ.

[وقولُه تعالى](١): ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ يقولُ: يَبْقى هذا الذَّهَبُ والفِضَّةُ حينَ أُدخِلَ في النارِ، وذَهَبَ خَبَثُهُ، كذلكَ يَبْقى الحقُّ لأهلِهِ ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ يَعْني هذا الحديدَ والصُّفْرَ الذي يُنْتَفَعُ بِهِ، وفيهِ مَنافِعُ.

يقولُ: كما بَقِيَ خالِصُ هذا الحديدِ وهذا الصُّفرِ حين أُدخِلَ النارَ، وذَهَبَ خَبَثُهُ، كذلكَ يَبْقى الحقُّ لأهلِهِ كما بَقِيَ خالِصُهما.

وقالَ الكَلْبيُّ: قولُهُ: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو القرآنُ، فاحْتَمَلَهُ القلوبُ بأهوائِها: ذو(٢) اليقينِ على قَدْرِ يَقينِهِ، وذو الشَّكِّ(٣) على قَدْرِ شَكِّهِ. فاحْتَمَلَتِ الأهواءُ باطلاً كثيراً وجُفاءً. فالماءُ هو الحقُّ، والأوديةُ هي القلوبُ، والسَّيلُ الأهواءُ، والزَّبَدُ الباطلُ، والحقُّ المَتاعُ والحِلْيَةُ.

قـالَ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ فـالـزَّبَـدُ، هـو(٤) خَبَثُ الحديدِ، وخَبَثُ المتاعِ هو الباطلُ؛ مَنْ أصابَ مِنْ هذا لم يَنْتَفِعْ بِهِ، فكذلكَ الباطلُ يومَ القيامةِ لا يَنْتَفِعُ بباطلِهِ. وأمّا الحِلْيَةُ والماءُ والمتاعُ، فهو الحقُّ، مَنْ أصابَ شيئاً مِنهُ انتفَعَ بهِ، وكذلكَ صاحِبُ الحقِّ يومَ القيامةِ يَنْتَفِعُ بالحقِّ. أمّا الحِلْيَةُ فالذهبُ والفضةُ، وأمّا المَتاعُ فالصُّفرُ(٥) والحديدُ والرصاصُ والنحاسُ ونَحوُهُ، ليسَ شيءٌ مِنْ هذا يُنْتَفَعُ بهِ حتى يَدْخُلَ النارَ، فَيَمَيَّزُ صَفْوُهُ مِن خَبَثِهِ.

وقالَ الحُسَينُ بنُ واقِدٍ: وهو قولُ مقاتِلٍ: ضَرَبَ اللهُ [مَثَلَ](٦) الكُفرِ والإيمانِ ومَثَلَ الحقِّ والباطِلِ ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ سالَ الوادي الكبيرُ على قَدْرِ كِبَرِهِ، والصَّغيرُ على صِغَرِهِ(٧) ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي عالياً.

ثُمَّ قالَ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ [مِنَ](٨) الذهبِ والفضةِ. ثُمَّ قالَ: ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ [مِنَ](٩) الشَّبَهِ والحديدِ والصُّفرِ والرصاصِ ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ أي للسيلِ زَبَدٌ، لا يُنْتَفَعُ بهِ، والماءُ يُنْتَفَعُ بهِ، ولِلحَلْيِ والمتاعِ أيضاً زَبَدٌ مِثْلُ زَبَدِ السيلِ، إذا أُدخِلَ النارَ، وهو خَبَثُهُ، لا يُنْتَفَعُ بهِ، والحَلْيُ والمَتاعُ ما خَلَصَ منهما يُنْتَفَعُ بهِ.

فَمَثَلُ الأوديةِ مَثَلُ القلوبِ، ومَثَلُ السيلِ مَثَلُ الأهواءِ، ومَثَلُ الماءِ والحَلْيِ والمَتاعِ الذي لا يُنْتَفَعُ بِهِ مَثَلُ الباطِلِ. فكما يُنْتَفَعُ بالماءِ وما خَلَصَ مِنَ الحَلْيِ والمَتاعِ الذي يَنْتَفِعُ بهِ أهلُهُ(١٠) في الدنيا، فكذلكَ الحقُّ يَنْفَعُ أهلَهُ في الآخِرةِ. وكما لا يَنفَعُ الزَّبَدُ وخَبَثُ الحَلْيِ وخَبَثُ المَتاعِ أهلَهُ في الدنيا، فكذلكَ الباطلُ لا يَنفَعُ أهلَهُ في الآخرةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي هكذا ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي يُبَيِّنُ اللهُ ما ذَكَرَ مِنْ مَثَلِ الحقِّ والباطلِ ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ قال: يعني يابساً، فلا يُنْتَفَعُ بهِ ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ مِنَ الماءِ ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ فَيَسْقُونَ، ويَزْرَعونَ عليهِ، ويَنْتَفِعونَ بهِ.

فهذهِ ثلاثةُ أمثالٍ ضَرَبَها في مَثَلٍ واحِدٍ. يقولُ: هكذا يُبَيِّنُ اللهُ الأمثالَ والأشباهَ ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ أي أجابوا ﴿لِرَبِّهِمُ﴾ في الدنيا بالإيمانِ والتوحيدِ ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ لهم، وهي الجنَّةُ في الآخرة.

فَضَرَبَ اللهُ مَثَلَ الإيمانِ والحقِّ، ووَصَفَهُما بالثباتِ والقرارِ والطِّيبِ بالأرضِ الطَّيِّبَةِ مَرَّةً [والشجرةِ الطَّيِّبَةِ](١١) ثانياً.

وضَرَبَ مَثَلَ الكُفرِ والباطلِ بالأرضِ الخبيثةِ والشجرةِ الخبيثةِ، ووَصَفَهُما بالخُبْثِ والذهابِ، فقالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا/ ٢٦٣ - أ/ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤ و٢٥] وقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [ابراهيم: ٢٦].

وقال: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٥٨].

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: دون. (٣) في الأصل وم: شك. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: فالصفرة.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: صغرها. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: أصله.
(١١) في الأصل وم: وشجرة طيبة.

جنة السنة

وضَرَبَ مَثَلَ المؤمِنِ مَرَّةً بالبصيرِ والسَّميعِ [ثانياً](١)، ومَثَلَ الكافرِ بالأعمَى والأصَمِّ [فقالَ](٢) ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ [هود: ٢٤]

وضَرَبَ مَثَلَ الكُفرِ مَرَّةً بالظلماتِ ومَرَّةً بالرمادِ والموتِ، ومَثَلَ الإيمانِ بالنورِ والضياءِ والحياةِ ونَحْوِهُ.

فهذِهِ الأمثالُ [التي ضَربَها](٣) اللهُ ﷻ تَخرُجُ كُلُّها مُخرَجَ الدعوَى في الظاهِرِ؛ إذ ليسَ فيها بَيانُ الحقِّ منها وبَيانُ المُحِقِّ مِنْ غَيْرِ المُحِقِّ سِوَى أنَّ فيها: هل يَستَوي ذا مَعَ ذا؟ لايَسْتَوي على ما ذَكَرَ، وهل يَسْتَوي الطَّيِّبُ والخبيثُ، أوِ البصيرُ [والأعمَى، أوِ السميعُ والأصمُّ](٤) أو الميِّتُ والحَيُّ، أوِ الظلماتُ والنورُ وأمثالُها(٥)؟ وكلُّ أهلِ الأديانِ، وإنِ اختَلَفَتْ مذاهِبُهُمْ(٦)؛ يقولُ: كلُّ [الذي](٧) أنا عليهِ هو الحقُّ، والباطلُ هو الذي عليهِ غَيري، وينفي كلٌّ عن نفسِهِ العمَى(٨) والصَّمَمَ وكونَهُ في ظُلْمَةٍ، ويَدَّعي كونَهُ في النورِ، ونَحْوَهُ.

فليسَ في نَفْسِ الأمثالِ التي ضُرِبَتْ بَيانُ الحقِّ مِنَ الباطلِ والمُحِقِّ مِنْ غيرِهِ. فذلكَ يُعْرَفُ بِغَيرِها بالدلائلِ والحُجَجِ والبراهينِ، وهو ما ذُكَرَ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ﴾ [العنكبوت: ٤٣ والحشر: ٢١].

فبالدلائلِ والحُجَجِ والبراهينِ يُعرَفُ الحقُّ مِنَ الباطلِ، والمُحِقُّ مِنْ غيرِ المُحِقِّ. فَللإيمانِ والحقِّ دلائلُ وحُجَجٌ، يَعرِفُ ذَوُو العقولِ بالعقولِ حُسْنَهُ وطيبَهُ وما يَعْقُبُ مِنْ ثُمْرِهِ(٩)، ويُبَيِّنُ قُبْحَ الكُفرِ والباطلِ لِذَوي العقولِ بالعقولِ، واسْتِخْباءَهُمُ الباطلَ، ومايَعْقُبُ لأهلِهِ مِنَ الخُبْثِ والقُبْحِ والشَّرِّ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿زَبَدًا رَّابِيًاۚ﴾ أي عالياً على الماءِ ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي حَلْيٍ ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ آنيةٍ؛ يَعْني مِنْ فِلِزِّ الأرضِ وجَواهِرِها مِثْلِ الرصاصِ والحديدِ ونَحْوِهِما(١٠) والذهبِ والفضةِ حينَ(١١) يَعلوها إذا أُذيبَتْ مِثْلُ زَبَدِ الماءِ، والجُفاءُ ما رَمَى بِهِ الوادي إلى جَنَباتِهِ، يُقالُ: أجْفَأَتِ القِدْرُ بِزَبَدِها، إذا ألقَتْ زَبَدَها عنها.

وقالَ أبوعوسَجَةَ: ﴿رَّابِيًاۚ﴾ أي مُرْتَفِعاً فوقَ ظهرِ الماءِ، ويُقالُ: أزْبَدَ الماءُ، إذا صارَ لهُ زَبَدٌ ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ هو مِنَ الحَلْيِ مِنَ الذهبِ والفضةِ مِمَّا يُتَحلَّى بِهِ ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ أي باطلاً لا يُنْتَفَعُ بِهِ. وأمَّا الجفاءُ فهو إظهارُ التهاوُنِ وقلةُ الاكتِراثِ لَهُ والاسْتِخفافُ. وقالَ: الجُفاءُ هو الغُثاءُ، ويقالُ: قدِ انْجَفَى الوادي، إذا علاهُ ذلكَ، ثم جَرَى بِهِ الماءُ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: والغُثاءُ عندي ما حَمَلَهُ السيلُ مِنَ العيدانِ والبَعْرِ وما يُشْبِهُ ذلكَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: قولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ٥]أي يَبِساً.

قالَ أبو عُبَيْدَةَ: الجُفاءُ(١٢) الجَمَدُ، ويذهبُ إلى أنَّ الزَّبَدَ يَجْمُدُ، ويَجْتَمِعُ على الماءِ، ثُمَّ يَذْهَبُ بمائِها.

وقالَ الفَرَّاءُ: ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ﴾ أي يذهبُ سريعاً كما جاءَ.

وقالَ الشيخُ، رحمَهُ اللهُ: ويُشْبِهُ أنْ يكونَ المَثَلُ الذي ضَرَبَ بالماءِ، هو للدينِ، وهو أنَّ الدينَ الحقَّ الذي أُنزِلَ مِنَ السماءِ واحدٌ، لكنَّ الناسَ اتَّخذوا أدياناً مُتَفرِّقَةً ومَذاهِبَ مُختَلِفةً كقولِهِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فالدينُ الذي أمَرَ لسلوكِهِ واتِّباعِهِ واحدٌ، وهو كالماءِ الذي أُنزِلَ مِنَ السماءِ واحدٌ صافٍ، وهو الأصْلُ، فَحَدَثَ منهُ أشياءُ لا يُعْبَأُ [بها، ولا](١٣) يُكْتَرَثُ؛ فَعَلَى ذلكَ السبيلُ [الحقُّ](١٤) واحدٌ، أوأنْ يكونَ وجْهُ ضَرْبِ مَثَلِهِ بالماءِ؛ وهو أنَّ الماءَ إذا أُنزِلَ مِنَ السماءِ أُنزِلَ طَيِّباً عَذْباً، لكنِ اخْتَلَفَتْ ألوانُهُ وطعومُهُ باخْتِلافِ جَواهِرِ الأرضِ، بعضُهُ خَرَجَ مالحاً أُجاجاً، وبعضُهُ مُرًّا، لا يُنْتَفَعُ بِهِ، وبعضُهُ عَذْبٌ، وذلك على اخْتِلافِ، جَواهِرِ الأرضِ، وإلاّ كانَ المُنَزَّلُ مِن السماءِ كُلُّهُ عَذْبٌ طَيِّبٌ، فالذي يُنْتَفَعُ بِهِ واحدٌ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ضرب. (٤) في الأصل وم: والسميع الأصم والأعمى. (٥) في الأصل وم: وأمثاله. (٦) في الأصل وم: مذاهبه هو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الأعمى. (٩) في الأصل وم: ثمرته. (١٠) في الأصل وم: ونحوه. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) من م، في الأصل: الجود. (١٣) في الأصل: به، في م: به ولا. (١٤) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

فَعلَى ذلكَ الدينُ الذي يُنْتَفَعُ بهِ واحدٌ، والبواقي لا يُنْتَفَعُ بها كالمياهِ المُرَّةِ والمالحةِ، أو يكونُ غيرَ هذا، ونحنُ لا نَعرِفُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أي أجابوا ربَّهُمْ في مادعاهُمْ إليهِ .وإنما دعاهُمْ إلى السببِ الذي يوجبُ لهمْ دارَ السلامِ، وهي الجنةُ، بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] دعاهُمْ إلى دارِ السلامِ، ومكَّنَ لهمْ مِنَ الإجابةِ لهُ والرَّدِّ .فَمَنْ أجابَهُ في مادعاهُ كانَ لهُ دارُ السلامِ والحُسْنَى الذي ذَكَرَ.

ومَنْ ردَّ دعاءَهُ كانَ لهُ النارُ ودارُ الهوانِ. فأيُّهما اختارَ [فَلَهُ][1] الموعودُ الذي وُعِدَ؛ إنِ اختارَ إجابَتَهُ [إلى][2] ما دعاهُ فَلَهُ النعيمُ الدائمُ الذي وُعِدَ ودارُ[3] السلامِ، وإنِ اختارَ الرَّدَّ وتَرْكَ الإجابةِ فَلَهُ ما وُعِدَ مِنَ العذابِ الدائمِ والهوانِ.

والأمثالُ التي ذَكَرَ أنها ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي[4] هكذا للمؤمنينَ، لأنهمْ همُ المُنْتَفِعُونَ بها.

وكذلكَ ما ذُكِرَ مِنَ القرآنِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧] وأمّا على أهلِ الكُفرِ فهو عَمىً وضَلالٌ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] وأمّا قلوبُ الكَفَرةِ ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] وقولُهُ[5] ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] وأمثالُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أي ضِعْفُهُ معهُ ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ يذكُرُ هذا، واللهُ أعلَمُ: أنَّ الذي[6] كانَ يَمْنَعُهُمْ عنِ الإجابةِ إلى ما دَعاهُمْ إليهِ رَغْبَتُهُم في الدنيا ومَيْلُهُمْ إليها، يَتَمَنَّونَ لمَا يَحُلُّ فيهِمْ مِنَ العذابِ والشدائدِ أنْ يكونَ لهمْ ما في الأرضِ جميعاً؛ أنْ يَفْتَدوا بهِ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي[8] يُحاسَبونَ حِساباً يَسُوؤُهُم، لأنَّ حَسناتِهِمُ التي عَمِلوها، وطَمِعوا بالانتِفاعِ بها لم تَنْفَعْهُمْ، بل صارَتْ كالسرابِ الذي ذَكَرَ ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩] ولم يَتجاوزْ عنْ سَيِّئاتِهِمْ ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الذي يأوونَ إليهِ، هو ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ لِما يَسوؤُهُمْ ذلكَ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ أي أمَنْ[9] يَعْلَمُ الحقَّ حقاً كَمَنْ هو يَعْمى عنهُ، ولا [يَعْلَمُهُ حقّاً؟ أوأمَنْ][10] يَعْلَمُ الحقَّ أنهُ حقٌّ كمَنْ يَعْلَمُهُ باطلاً؟ لَيس بِسَواءٍ كقولِهِ: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي إنما يَتذكَّرُ بالتذكيرِ أُولو الألبابِ وذَوُو العقولِ الذينَ يَنْتَفِعونَ بعقولِهِمْ والبابِهِمْ[11].

الآية ٢٠ ثم بَيَّنَ مَنْ هُمْ فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ [عَهْدُ اللهِ][12] عَهْدَ خَلْقِهِ ﴿يُوفُونَ﴾ مافي خَلْقِهِمْ؛ إذْ في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ دلالةُ وحدانيَّتِهِ وشهادةُ أُلوهيَّتِهِ، فَوَفَوا ذلكَ العَهْدَ.

ويَحتَمِلُ عَهْدُ اللهِ ما جَرَى على أَلْسُنِ الرسلِ، وقد ذَكَرْنا هذا في ما تَقَدَّمَ، وهو ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٨١] ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠] العَهْدُ والمِيثاقُ واحدٌ، وسَمَّى العَهْدَ مِيثاقاً لأنهُ يُوثِقُ المَرْءَ، ويَمْنَعُهُ عنِ الاشتِغالِ بِغَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ الصِّلاتُ التي أمَرَ اللهُ بها أنْ[13] تُوصَلَ على جهاتٍ ومَراتبَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: هو. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: الذين. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: أو. (٩) همزة الإستفهام ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يعلم أو من. (١١) في الأصل وم: ولبهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، في الأصل: أي.

أمّا بَيْنَهُ وبَيْنَ المؤمنين [فالّا يُحِبَّ لهم][1] إلا ما يُحِبُّ، ولا يَصْحَبُهُمْ إلّا بما يُحِبُّ هو أنْ يُصْحَبَ.

وأمّا في ما بَيْنَهُ/ ٢٦٣ ـ ب/ وبَيْنَ مَحارِمِه فانْ[2] يُؤدّيَ، ويَحْفَظَ الحقوقَ التي جَعَلَ اللهُ لبَعْضِهِمْ على بَعْضٍ، ولا يُضَيِّعَها.

وأمّا في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الرسلِ فهو أنَّ مِنْ حَقِّهِمْ أنْ يوصِلَ الإيمانَ بالنَّبِيِّينَ جميعاً والكتبِ كلِّها. [هذه، واللهُ أعلمُ، الصِّلاتُ][3] التي أمَرَ اللهُ أنْ يوصَلَ بها ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ إمّا في التَّقْصيرِ في ما أمَرَ أنْ يوصَلَ وإمّا بالتَّفْريطِ في ذلكَ وتَرْكِ الصِّلَةِ ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي شِدَّةَ الحسابِ حينَ لم تَنْفَعْهُمْ حسناتُهُمْ، ولا يَتَجاوَزُ عَنْ شيءٍ مِنْ سَيِّئاتِهِمْ، فذلكَ يَسُوؤُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا﴾ قد ذكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنَّ الصَّبْرَ هو كَفُّ النفسِ وحَبْسُها عمّا تَهواهُ على ما تَكْرَهُ، وتَثْقُلُ عليها.

ثم يَحْتَمِلُ كَفَّها وحَبْسَها عنِ الجَزَعِ وعلى أداءِ ما افْتَرَضَ اللهُ عليهِمْ، وأمَرَهُمْ بها، أو كَفّوا أنْفُسَهُمْ، وحَبَسوها عنِ المعاصي. فيكونُ الصبرُ على الوجوهِ الثلاثةِ التي ذَكَرْنا، اللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ: يَحْتَمِلُ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ، ويَحْتَمِلُ ابْتِغاءَ وَجْهٍ، يكونُ لهمْ عندَ اللهِ وهو المَنْزِلَةُ[والرفعةُ، ولذلكَ سَمّى الرفيعَ من المَنْزِلَةِ وَجيهاً كقولِهِ:][4] ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥] أي ذا[5] مَنْزِلَةٍ ورِفْعَةٍ في الدنيا والآخرةِ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] أي ثَمَّ الجِهَةُ التي أمَرَ اللهُ أنْ يُتَوَجَّهَ إليها. فَعَلى ذلكَ هذا ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي ابْتِغاءَ المَنْزِلَةِ والرفعةِ التي عندَ ربِّهِمْ وابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ ومرضاتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي داوَموا على إقامَتِها، ليسَ أنهمْ أقاموها[6] مَرَّةً، ثم تَرَكوها، ولكنْ داوَموا على إقامَتِها. وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣ و..] أي داوِموا على إقامَتِها.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي جَعَلوها قائمةً أبداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يَحْتَمِلُ كلَّ نَفَقَةٍ: الصدقةَ والزكاةَ وما يُنْفِقُ [المَرْءُ][7] على عيالِهِ وَوَلَدِهِ سِرًّا وعَلانِيَةً، أي يُنْفِقُ في كلِّ وقتٍ سِرًّا مِنَ الناسِ وعَلانِيَةً منهمْ، أي يُنْفِقُ على جَهْلٍ مِنَ الناسِ وعلى عِلْمٍ منهمْ؛ يُنْفِقونَ على كلِّ حالٍ، لا يَمْنَعُهُمْ عِلْمُ الناسِ بذلكَ عنِ الإنفاقِ بَعْدَ أنْ يكونَ ابْتِغاءَ وَجْهِ ربِّهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي يَدْفَعونَ بالحسنةِ السيِّئةَ. ثم يَحْتَمِلُ وَجهَيْنِ:

أحَدُهما: أي يدفعونَ بالإحسانِ إليهِمُ العداوةَ التي كانَتْ بينَهُمْ كقولِهِ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ الآية [فصلت: ٣٤].

والثاني: ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ الإساءةَ التي كانَتْ لهمْ بالخيرِ إليهِمْ بالمعروفِ، ولا يُكافِؤونَ السَّيِّءَ بالسَّيِّءِ والشَّرَّ بالشَّرِّ، ولكنْ يدفَعُونَهُ بالخيرِ.

وقالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي إذا سَفِهَ عليهِمْ حَلِموا، والسَّفَهُ سَيِّئَةٌ والحِلْمُ حسنةٌ.

[وقولُهُ تعالى]:[8] ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما][9]: عُقْبى أولئكَ الذينَ صَبَروا على ما ذُكِرَ مِنْ وفاءِ العَهْدِ والصِّلَةِ التي أُمِروا بها أنْ يَصِلوا والصَّبْرِ على أداءِ

---

(١) في الأصل وم: ألا يحبهم. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: هذا والله أعلم الصلة. (٤) في الأصل: وجيهاً كقوله، في م: ولذلك سمى الرفيع وذو منزلة وجيها. (٥) في الأصل وم: ذو. (٦) في الأصل وم: أقاموا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

جنة السنة

ما أمَرَ بهِ، وافترَضَ عليهِمْ[1] والانتهاءِ عمّا نَهى عنهُ: الدارُ الذي دعاهُمْ إليها بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ [يونس: ٢٥].

والثاني: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي عُقْبى حَسَناتِهِمْ دارُ الجنةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ الجنةُ. أو عاقِبَتُهُمْ دارُ الجنةِ.

الآية ٢٣ ثم نَعَتَ تلكَ الدارَ، فقالَ: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿عَدْنٍ﴾ هو بُطْنانُ الجَنّةِ، وهو وَسَطُها. وقالَ بعضُهُم: ﴿عَدْنٍ﴾ هو الإقامةُ، أي جَنّاتٌ يُقيمونَ فيها، يُقالُ: عَدَنَ أي أقامَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾ فإنْ قيلَ: كيفَ خَصَّ بالذكرِ الآباءَ والأزواجَ والذُّرِّيَّةَ؟ وهمْ قد دخلُوا في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٢٠] وفي قولِهِ: ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الآيتين: ٢١ و٢٢] فما مَعْنى تخصيصِهِمْ بالذكرِ؟ [قيلَ][2] هذا يَحْتَمِلُ [وجهَين]:

أحدُهما[3]: أنهمْ أسلَموا، فاختُرِموا أي ماتوا لمّا أسلَموا، ولم يكُنْ لهمْ ممّا ذُكِرَ مِنَ الخيراتِ والحسناتِ. فأخبَرَ أنّ هؤلاءِ يَدْخُلونَها، ويَلْحَقونَ بأولئكَ.

والثاني: لم يَبْلُغوا الدرجةَ التي بَلَغَ أولئكَ، فأخبَرَ ﷻ أنهُ يُبَلِّغُهُمْ درجةَ أولئكَ، ويُلْحِقُهُمْ بهِمْ[4] كقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية [الطور: ٢١] يضمُّ بعضَهُمْ إلى بعضٍ في الآخرةِ كما كانوا في الدنيا يَضُمُّ كُلُّ ذي قرينٍ في الدنيا قرينَهُ إليهِ في الآخرةِ.

وفي قولِهِ: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ، وهو ما قالَ لنوحٍ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦] دلَّ هذا أنَّ صلاحَ والدِهِ أو قريبِهِ لا يُجْدي لهُ نَفْعاً في الآخرةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ هذا يَحْتَمِلُ [وجهَين]:

أحدُهما[5]: أنْ يكونَ لِمُقامِهِمْ ومَنازِلِهِمْ أبوابٌ، فيدخُلُ عليهِمْ مِنْ كلِّ بابٍ مَلَكٌ.

والثاني[6]: أنْ يكونَ يأتي كلُّ مَلَكٍ بالتُّحْفَةِ التي أتى بها الآخَرُ على اختِلافِ خَيْراتِهِمْ وقَدْرِ أعمالِهِمْ مِنْ كلِّ بابٍ أي مِنْ كلِّ نوعٍ مِنَ التُّحَفِ. وفيهِ وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ الملائكةَ يكونونَ خَدَمَ أهلِ الجنةِ، وفي ذلكَ تَفْضيلٌ عليهِمْ.

[والثاني: أنْ يكونوا][7] على حَقِّ المُصاحبةِ لمّا أحبُّوا هم أهلَ الخيرِ مِنَ البَشَرِ في الدنيا، فَجَعَلَ اللهُ بينَهُمُ الرُّفْقَةَ والصُّحبةَ في الآخرةِ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ كقولِهِ ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ هو ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ﴾ العَهْدُ قد ذَكَرْنا في غيرِ مَوْضِعٍ، وكذلكَ النقضُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلُّ حَرْفٍ مِنْ هذهِ الحُروفِ يَقْتَضي مَعْنى الحرفِ الآخَرِ: إذا نَقَضوا العَهْدَ والميثاقَ فقد قَطَعوا ما أمَرَ اللهُ بهِ أنْ يُوصَلَ، وسَعَوا في الأرضِ بالفسادِ، وإذا قَطَعوا ما أمَرَ اللهُ بهِ أنْ يُوصَلَ نَقَضوا العَهْدَ، وسَعَوا في الأرضِ بالفسادِ إلّا أنْ يُقالَ: إنَّ نَقْضَ العَهْدِ يكونُ بالاعتقادِ وذلكَ يكونُ منهُمْ وبَيْنَ نسائِهِمْ، وكذلكَ قطعُ ما أمَرَ بهِ أمْرَ صِلَةِ الإيمانِ بالتَّبيينِ والكتبِ جميعاً.

فإنْ كانَ صِلَةَ الأرحامِ فهو فعلٌ، والسَّعْيُ في الأرضِ فِعْلٌ أيضاً مِنْ زِنىً أو سَرِقَةٍ أو قَطْعِ الطريقِ وغيرِ ذلكَ مِنَ المعاصي.

---

(١) في الأصل وم: وجوها أحدها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وجوها أحدها. (٤) في الأصل وم: به. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: يحتمل. (٧) في الأصل وم: أو أن يكون.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ما ذكَرْنا مِنْ وَصْلِ الإيمانِ ببعضِ الرسلِ[وبكلِّ الرسلِ وبجميعِ][1] الكتبِ، ويَحْتَمِلُ صِلَةَ الأرحامِ التي فرضَ عليهِمْ[صِلَتَها، فقَطعوها][2] وأَمَرَهُمْ أنْ يَصِلوا أعمالَهُمْ بما اعْتَقَدوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ اللعنةُ هي الطردُ في اللغةِ والإبعادُ؛ كأنهمْ طُرِدوا، وأُبعدوا عنْ رحمةِ اللهِ في الآخِرةِ، أو طُرِدوا، وأُبعِدوا مِنْ هِدايَةِ اللهِ وإرشادِهِ في الدنيا ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ قد ذَكَرْنا أنهمْ دُعُوا إلى دارٍ، وحُذِّروا عنْ دارٍ؛ دُعُوا إلى دارِ الإسلامِ، فإنْ أجابوا فلهمُ الحُسْنى على ما ذُكِرَ، وحُذِّروا / ٢٦٤ ـ أ/ عَنْ دارِ الهَوانِ، فلم يَحْذَروا[3] دارَ السوءِ والهَوانِ، وسَمّاها[4] سُوءَ الدارِ لِما يَسوءُ مُقامُهُمْ فيها، أو ذَكَرَ لأهلِ النارِ سُوءَ الدارِ مُقابِلَ ما ذَكَرَ لأهلِ الجنةِ حُسْنَ المآبِ وحُسْنَ الثوابِ والحُسْنى.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يُرَغِّبُهُمْ في ما عندَهُ، ويُؤْيِسُهُمْ عمّا في أيدي الخَلْقِ، ويَقْطَعُ رجاءَهُمْ عنْ ذلكَ، لأنَّ الذي كانَ يَمْنَعُهُمْ عنِ الإيمانِ، ويَحْمِلُهُمْ على تكذيبِ الرسلِ وتَرْكِ الإجابةِ، هذهِ الأموالُ التي كانَتْ في أيدي أولئكَ، وبها رَأَوا دَوامَ الرئاسةِ والعِزِّ والشَّرَفِ لهمْ في هذِهِ الدنيا، فقالَ: هو الباسطُ لذلكَ، القاتِرُ [على][5] أولئكَ، هو يُوَسِّعُ على مَنْ يشاءُ، ويُقَتِّرُ على مَنْ يَشاءُ، ليسَ ذلكَ إلى الخَلْقِ.

وذكَرَ أنَّهُ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ أوليائِهِ وأعدائِهِ، ويُقَتِّرُ على مَنْ يَشاءُ مِنْ أعدائِهِ وأوليائِهِ، لِيَعْلَموا أنَّ التَّوسِيعَ في الدنيا أوِ البَسْطَ لا يَدُلُّ على الوَلايةِ، ولا التَّقْتِيرُ والتَّضييقُ [يدلُّ][6] على العَداوةِ، ليسَ كما يكونُ في الشاهدِ يُوَسِّعُ على الأولياءِ، ويَبْسُطُ، ويُضَيِّقُ على الأعداءِ، لأنَّ التَّوسيعَ في الدنيا والتَّضييقَ بِحَقِّ المِحْنَةِ في الآخِرةِ بِحَقِّ الجَزاءِ، ويُسَوّي في المِحْنَةِ الوَلِيَّ والعَدُوَّ، ويَجْمَعُ بَيْنَهُما في المِحْنَةِ، ويُفَرِّقُ بَيْنَهُما في الجَزاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ صِلَةَ ما تَقَدَّمَ، وهو قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢٥] ويَفْرَحونَ بالحياةِ الدنيا.

ثم الفَرَحُ يَحْتَمِلُ وجوهاً: يَحْتَمِلُ ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي رَضُوا بها كقولِهِ: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ [يونس: ٧] أو ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ سُروراً بها.

فإنْ قيلَ: إنَّ المؤمنَ قد يُسَرُّ بالحياةِ الدنيا، قيلَ: يُسَرُّ، ولكنْ لا يُلْهيهِ[7] سُرورُهُ بِها، ولا يَغْفُلُ عنِ الآخرةِ.

وأمّا الكافرُ فإنَّهُ[8] لِشِدَّةِ سُرورِهِ بِها وفرحِهِ عليها يَلهو عنِ الآخِرةِ وعنْ جميعِ الطاعاتِ. وهكذا يَعْرِفُ الناسَ أنَّهُ إذا اشْتَدَّ بالمرءِ السرورُ بالشيءِ فإنَّهُ يَلْهو عنْ غيرِهِ، ويَغْفُلُ عنهُ.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَفَرِحُواْ﴾ أي أَشِروا، وبَطِروا كقولِهِ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] والفرحُ هو[9] الأشِرُ أوِ البَطِرُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلمُ، أي ما الحياةُ الدنيا مَعَ طولِ تَمَتُّعِهِمْ بها [بِمُقابلةِ تَمتُّعِ][10] الآخرةِ إلا كَمتاعِ ساعةٍ أو كَمتاعٍ بشيءٍ يسيرٍ، وهو كقولِهِ: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] وكقولِهِ: ﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥] يَظُنّونَ مَعَ طولِ ما مُتِّعوا في هذهِ الدنيا عندَ مَتاعِ الآخِرةِ كأنهمْ ما مُتِّعوا بها إلّا ساعةً.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ وهو ما ذَكَرَ في موضعٍ آخرَ: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] عندَ مَتاعِ الآخِرةِ [لأنَّ مَتاعَ الآخِرةِ][11] ونَعيمَها دائمٌ مُتَّصِلٌ غيرُ مُنْقَطِعٍ، لا يَشوبُهُ آفةٌ ولا حُزْنٌ ولا خوفٌ، ومتاعُ الدنيا مُنْقَطِعٌ غيرُ مُتَّصِلٍ مَشوبٌ بالآفاتِ والأحزانِ، لذلكَ[كانَ][12] قليلاً عندَ مَتاعِ الآخِرةِ ونَعيمِها.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ أي إلّا لَهْوٌ وباطلٌ، لكنَّ الوجهَ فيهِ ما ذَكَرْنا.

---

(١) في الأصل وم: مالكل وجميع. (٢) في الأصل وم: صلتهم قطعوا ذلك. (٣) في الأصل وم: يحذر. (٤) في الأصل وم: أو سماها. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يلهي. (٨) في الأصل وم: فإنها. (٩) في الأصل وم: وهو. (١٠) في الأصل: يتمتع، في م: تمتع. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

جنة السنة

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يَحْتَمِلُ سؤالُهُمُ الآيةَ نفسَ الآياتِ التي أتَتْ بها الرسلُ مِنْ قَبْلُ قومَهُمْ، أو سألوا آياتٍ سَمَّوها كقولِهِ: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا [مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ وكقولِهِ][1] ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ من الآياتِ سَألوها منهُ، أو سألوهُ آياتٍ تَضطرُّهُمْ، وتَقْهَرُهُمْ على الإيمانِ كقولِهِ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

وفيهِ دلالةٌ أنهُ لو شاء لأنزَلَ عليهِمْ آياتٍ لآمنوا كُلُّهُم بِها، واهْتَدَوا [وأنَّ][2] عندَهُ أشياءَ لو أعطاهُمْ لكانَ ذلكَ سَبَبَ اهتدائِهِمْ وتَوحيدِهِمْ، وكذلكَ لو أعطى أشياءَ لكانَ ذلكَ سببَ كُفرِهِمْ جميعاً كقولِهِ: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ الآيةَ[الزخرف: ٣٣] لكنهُ لا يُنزِلُ الآيةَ على شَهَواتِهِمْ وأمانيهِمْ، ولكنْ يُنزِلُ أشياءَ تكونُ عندَ التأمُّلِ[3] والنظرِ حُجَّةً. فَمَنْ تأمَّلَ فيها، وتفكَّرَ، اهْتَدَى[4]، وآمَنَ بالإختيارِ، ومَنْ أعْرَضَ عنها، ولم يتفكَّرْ، ضلَّ، وزاغَ، بالإختيارِ.

ويَحْتَمِلُ[5] قولُهُ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً﴾ أي إنْ نَشأْ إيمانَهُمْ واهْتِداءَهُمْ نُنَزِّلْ عليهِمْ آيةً. وذلكَ تأويلُ قولِهِ على إثْرِ سُؤالِهِمُ الآيةَ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي يُنزِلُ مِنَ الآياتِ ما يَهْتَدي بها المنيبُ إليها والمُقْبِلُ، ويُضِلُّ[6] المُعْرِضَ عنها والصادرَ بالإختيارِ ويكونُ اهْتِداؤُهُمْ بِإختيارِهِمْ وضَلالُهُمْ باختيارِهِمْ لا [باضطرارِهِمْ وقَهرِهِمْ][7].

الآية ٢٨ الا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾؟ وهو القرآنُ الذي أنْزَلَهُ على رسولِهِ، وهو وصفُ المُقْبِلِ المُنيبِ إلى ذكرِ اللهِ؛ تَسْكُنُ، وتَطْمَئِنُّ قلوبُهُمْ بالتأمُّلِ والتفكُّرِ فيهِ[8].

وأصلُهُ أنَّ اللهَ ﷻ شاءَ هدايةَ[9] مَنْ عَلِمَ أنهُ يَختارُ الإهْتِداءَ والإيمانَ، وشاءَ ضلالَ مَنْ عَلِمَ أنهُ يَختارُ فِعْلَ الضلالِ والزَّيغِ؛ يَشاءُ لِكلٍّ لِما عَلِمَ أنهُ يَختارُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وتسكُنُ إليهِ. وقالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: هو في الحَلْفِ في الخُصوماتِ؛ ألا في الحَلْفِ باللهِ تَطْمَئِنُّ، وتَسْكُنُ قلوبُ الذينَ آمَنوا، لا تَطْمَئِنُّ بالحَلْفِ بِغيرِ اللهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ألا بالقرآنِ وبما في القرآنِ مِنَ الثوابِ تَسْكُنُ، وتَطْمَئِنُّ قلوبُ الذينَ آمَنوا.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أن[10] تَفرَحَ، وتَسْتَبْشِرَ قُلوبُ الذينَ آمَنوا بِذِكْرِ اللهِ، ألا بِذِكْرِ اللهِ تَسْتَبْشِرُ، وتَفْرَحُ قلوبُ الذينَ آمَنوا؛ لأنهُ ذَكَرَ في الكفَرةِ الفرَحَ بالحياةِ الدنيا، وهو قولُهُ: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الآية: ٢٦] واطْمَأنُّوا بها، وذَكَرَ في المؤمنينَ الإسْتِبْشارَ والفرَحَ بِذِكْرِ اللهِ، وفي أولئكَ ذَكَرَ أنَّ قلوبَهُمْ تَشْمَئِزُّ بِذِكْرِ الرحمنِ، وتَسْتَبْشِرُ بِذِكْرِ مَنْ دونَهُ، وهو قولُهُ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] أخْبَرَ ﷻ أنَّ قلوبَ المؤمنينَ تَسْتَبْشِرُ، وتَفرَحُ بِذِكْرِ اللهِ، وقلوبَ أولئكَ تَشْمَئِزُّ [بِذِكْرِ اللهِ][11] وتَسْتَبْشِرُ بِذِكْرِ[مَنْ][12] دونَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ يَخرُجُ على وجهَينِ:

أحدُهُما: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ لَهُمْ، وذِكْرُ اللهِ لهمُ التوفيقُ والتسديدُ والعصمةُ [ونحوُ ذلكَ][13].

والثاني: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ وذِكرُهُمُ اللهَ[ذِكْرَ][14] إحسانِهِ وعظمتِهِ وجلالِهِ[ونحوُ ذلكَ][15].

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ قيلَ: هو اسْمُ الجنةِ بِلسانِ الحبشةِ،

---

(١) في الأصل وم: الآية. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: التأويل. (٤) في الأصل وم: لاهتدى. (٥) الواو ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: ويضر. (٧) في م: بالإضطرار والقهر. (٨) في الأصل وم: فيها. (٩) في الأصل وم: اهتدى. (١٠) في الأصل وم: أي. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: ونحوه. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: ونحوه.

جنة السنة

وقيلَ: بالهِنْدِيَّةِ، وقيلَ [اسْمُ شجرةٍ](١) في الجنةِ؛ أصلُها في دارِ رسولِ اللهِ ﷺ وأغصانُها في دارِ آمِنَة، فإنْ كانَ هذا، وهو اسْمُ شجرةٍ، فذلكَ لا يَسْتَقيمُ إلّا بِقِدَمِهِ، كانَ أهلُ الكتابِ ادَّعَوها لأنفسِهِمْ، فأخبَرَ أنها للذين / ٢٦٤ ـ ب/ آمَنوا، لا لهمْ، كقولِهِمْ: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] ثم قالَ ﷻ ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢].

ادَّعَوُا الجنةَ لأنفسِهِمْ، فأخبَرَ أنَّها ليسَتْ لهمْ، ولكنْ للذي أسْلَمَ، وأخلَصَ وجهَهُ للهِ. فَعَلَى ذلكَ يُشْبِهُ أنْ يكونوا ادَّعَوا طُوبى لأنفسِهِمْ، فأخبَرَ أنَّها ليسَتْ لهمْ، ولكنْ للذينَ آمَنوا.

وإنْ كانَ في مُشرِكي العربِ، فهمْ يُنْكِرُونَ البعثَ والجنةَ والنارَ، فَيُشْبِهُ أنْ يكونوا قالوا: إنْ كانَ بَعْثٌ على ما يقولونَ، وجنةُ طُوبَى، فهي لنا كقولِهِ: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿طُوبَىٰ﴾ كلمةٌ مَدَحَ اللهُ بها ثوابَهُمْ، وغَبَطَهُمْ بِها. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿طُوبَىٰ﴾ كرامةٌ أعَدَّها(٢) اللهُ لأوليائِهِ، وهي مذكورةٌ في الكتبِ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أي كما أرسَلْنا إلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي كلُّ رسولٍ كانَ أُرسِلَ قَبْلَكَ، كانَ أُمِرَ أنْ يقولَ ما ذُكِرَ، كذلكَ أرسَلْناكَ إلى قومِكَ رسولاً، وإنْ كانوا يكفرونَ بالرحمنِ، فَقُلْ أنتَ ما قالَ أولئكَ الرسلُ ﴿رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية.

لم تَخْلُ أمةٌ عنْ رسولٍ كقولِهِ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

[وقولُهُ تعالى](٣): ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا صلةَ قولِهِ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [يونس: ٢٠] يقولُ: أرسَلْناكَ لِتتلُوَا أنباءَ الرسلِ والأممِ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِكَ عليهمْ لتكونَ آيةً لرسالتِكَ، لِيَعْلَموا أنكَ إنما عَلِمْتَ تلكَ الأنباءَ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، هُمْ يَكفُرونَ بالرحمنِ، وفي كلٍّ مِنَ الخَلائقِ آيةُ توحيدِ اللهِ والوهيَّتِهِ، ولا في كلِّ الخلائقِ آيةٌ لرسالتِكَ، وهُمْ معَ هذا كلِّهِ يكْفُرونَ بالرحمنِ. فَعَلَى ذلكَ يكفرونَ بآياتِ رسالتِكَ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرعد: ٢٧] وكانوا أهلَ التَّعَنُّتِ(٤) مِنَ الكِبْرِ فقالَ: لو جِئْتَهُمْ بقرآنٍ ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الآية: ٣١].

يقولُ: لو جئتَ بذلكَ كلِّهِ كانَ أمْرُهُمْ بالتكذيبِ والعنادِ. وهو كقولِهِ: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ الآية [الأنعام: ١١١] وقولِهِ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [الحجر: ١٤] يُخْبِرُ ﷻ عن عِنادِهِمْ أنهمْ لا يؤمنونَ بالآيةِ، وإنْ عَظُمَتْ، إلّا أنْ يَشاءَ اللهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ كقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [الأنعام: ١١١] أي الأمْرُ للهِ مَنْ شاءَ أنْ يُؤمِنَ يؤمِنُ، ومَنْ شاءَ ألّا يؤمِنَ فلا يؤمِنُ البَتَّةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي يكفُرونَ باسْمِ الرحمنِ لأنهمْ قالوا: إنَّ محمداً كانَ يَدْعونا إلى عبادةِ اللهِ وتوحيدِهِ، فالساعةَ يَدْعونا إلى عبادةِ الرحمنِ وألوهيَّتِهِ، فذلكَ عبادةُ اثْنَينِ، فقالَ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي دعائي إلى عبادةِ الرحمنِ وألوهيَّتِهِ، هو دعائي إلى عبادةِ اللهِ، هو واحدٌ، ليسَ باثْنَينِ ولا عَدَدٍ، كقولِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] أي عَدَدُ الأسماءِ لا يُوجِبُ عَدَدَ [الذواتِ، بل](٥) يكونُ لشيءٍ واحدٍ في الشاهِدِ [له](٦) أسماءٌ مختلفةٌ. فاختِلافُ الأسماءِ لا يوجِبُ اختِلافَ الذاتِ، فَعَلَى ذلكَ في اللهِ.

---

(١) من م، في الأصل: شجر. (٢) في الأصل وم: أعداء. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: التعهد. (٥) في الأصل وم: الذات أو. (٦) ساقطة من الأصل و م.

جنة السنة

وقالَ بعضُهُم: الرحمنُ اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ في الكُتُبِ الأُوَلِ، قالوا: كَتَبها رسولُ اللهِ، أبوا أنْ يَقْرَؤوا بِهِ، ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] إنا لا نَعْرِفُهُ، فَنَزَلَ: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ. قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: تأويلُهُ: لو أنَّ قُرآنًا ما غَيْرَ قرآنِكَ سُيِّرَتْ بِهِ الجبالُ مِنْ أماكِنِها ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ لَفَعَلْنا[1] بِقُرآنِكَ أيضاً ذلكَ. ولكنْ لم نَفْعَلْ بكتابٍ مِنَ الكتبِ التي أنْزَلْتُها على الرسلِ الذينَ مِنْ قبلِكَ، ولكنْ شيءٌ أعْطَيْتُهُ أنبيائي ورسُلي ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾.

يقولُ: بل جميعُ ذلكَ الأمرِ كانَ مِنَ اللهِ، وليسَ مِنْ قِبَلِ القرآنِ، أي لو فَعَلَ بالقرآنِ ذلكَ كانَ جميعُ ذلكَ مِنَ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ إنْ شاءَ فَعَلَ ما سألتُم، وإنْ شاءَ لم يَفْعَلْ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ غيرُ هذا أقربَ أنْ يكونَ صِلَةَ ما تقدَّمَ مِنْ سؤالِهِمُ الآياتِ، وهو قولُهُ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ [الرعد: ٢٧] فيقولُ: لو أنَّ قرآنَكَ الذي تقرأ عليهِمْ ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ لَما آمَنوا بكَ، ولَما صَدَّقوكَ على رسالتِكَ على ما لا يؤمنونَ بالرحمنِ، وكُلٌّ مِنَ الخلائقِ لهُ آيةٌ لِوَحدانيَّتِهِ، يُخْبِرُ عن شدةِ تَعَنُّتِهِمْ وتَمَرُّدِهِمْ في تكذيبِهِمْ رسولَ اللهِ ﷺ أنَّ سؤالَهُمُ الآيةَ سؤالُ تَعَنُّتٍ وتَمَرُّدٍ، ليسَ سؤالَ استِرْشادٍ واستِهْداءٍ.

وقالَ بعضُهُم: قولُهُ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ أي لو أنَّ قرآناً ما عَمِلَ ما ذَكَرَ لكانَ هذا القرآنُ تعظيماً لهذا القرآنِ، والتأويلُ الذي ذَكَرْنا قَبْلَ هذا كأنهُ أقربُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قالَ بعضُهُمْ هو صِلَةُ ما تقدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠] ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ الآية؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مِنْ إيمانِ مَنْ كانَ على ما وَصَفَ اللهُ؟

وتَمامُ هذا: كأنَّ المؤمنينَ سألوا لهمُ الآياتِ لِيُؤمِنوا كما[2] سألواهُمْ آياتٍ مِنْ رسولِ اللهِ، فيقولُ: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مِنْ إيمانِ هؤلاءِ، وهو كما قالَ: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٠٩] كانَ المؤمنينَ سألوا لهمُ الآياتِ لِيُؤمِنوا، فقالَ: ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩] أي يؤمنونَ على طَرْحِ ﴿لَا﴾ على هذا التأويلِ.

وقالَ بعضُهُم: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أفَلَمْ يَتَبَيَّنْ للذينَ آمنوا أنَّهمْ لا يُؤمِنونَ لِكَثْرَةِ ما رَأوا منهمْ مِنَ العنادِ والمكابَرَةِ؟ فَسَّروا الإياسَ بالعِلْمِ والأيْسِ[3] لأنَّ الإياسَ إذا غَلَبَ يَعْمَلُ عَمَلَ العِلْمِ كالخوفِ، والظَّنُّ [ونَحْوُ ذلكَ][4] جَعَلوهُ يَقيناً وعِلْماً لِلْغَلَبَةِ لأنهُ إذا غَلَبَ يَعْمَلُ عَمَلَ اليقينِ والعِلْمِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ﴾ أي أفَلَمْ يَعْلَمِ ﴿لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ أنَّ اللهَ يَفْعَلُ لو شاءَ.

قالتْ عائشةُ ﵂ قولُهُ: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ﴾ خطأٌ مِنَ الكاتِبِ إنما هو أفَلَمْ يَتَبَيَّنْ للذينَ ﴿ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ فَمَعْناهُ: أي قد يَتَبَيَّنُ للذينَ آمَنوا.

وقالَ بعضُهُمْ: قولُهُ: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ﴾ أي أفَلَمْ يَعْلَمِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي قد عَلِمَ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ إيمانَ الناسِ واهْتِداءَهُمْ ﴿لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ لآمنوا، واهْتَدَوا.

وقالَ صاحبُ [هذا[5]] التأويلِ: جائزٌ[6] في اللغةِ: يَيْأَسُ يَعْلَمُ، وذَكَرَ أنها لُغَةُ نَخَعٍ وغَيرِها، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضهم: قولُهُ: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مقطوعٌ مِنْ قولِهِ ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ الآية [وقولُهُ:

---

(١) في الأصل وم: لفعلناه. (٢) في الأصل وم: لما. (٣) الأيس: القهر. (٤) في الأصل وم: ونحوه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: إن.

جنة السنة

﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ هذا][(١)] موصولٌ بما تقدَّمَ مِن قولِهِ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرعد: ٢٧] ثم قالوا [جواباً لِما قالوا][(٢)].

كأنهُ قالَ: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ ولكن ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الآية: ٢٧] أي [مَنْ][(٣)] عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ الضلالَ، ويُؤْثِرُهُ، يَشأْ ذلكَ لهُ، ومَنْ[(٤)] عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ الهُدَى يَشأْ / ٢٦٥ ـ أ/ [ذلكَ[(٥)]]لهُ. ويكونُ قولُهُ: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ مقطوعاً[(٦)]، لا جوابَ لهُ.

كأنهُ قالَ: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ مِنْ إيمانِهِمْ لكثرةِ ما رَأَوا منهمْ مِنَ العِنادِ والتَّعنُّتِ بَعْدَ رُؤيَتِهِمُ الآياتِ والحُجَجَ؛ كأنَّ أهلَ الإيمانِ والإسلامِ سألوا رسولَ اللهِ ﷺ الآياتِ التي سألوا هُمْ رغبةً في إسلامِهِمْ وإشفاقاً عليهِمْ، فيقولُ، واللهُ أعلمُ، ألَمْ يأْنِ للذينَ آمَنوا الإياسُ مِنْ إيمانِهِمْ؛ أي قد آنَ[(٧)] للذينَ آمنوا أنْ يَيْأسوا مِنْ إيمانِهِمْ كقولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ الآية [الأنعام: ١١١].

فَعَلَى ذلكَ هذا؛ يقولُ: قد آنَ[(٨)] للذينَ آمنوا أنْ يَيْأسوا مِنْ إيمانِهِمْ، ولو شاءَ اللهُ لَهَدَى الناسَ جميعاً، كقولِهِ: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام١١١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قالَ بعضُهُمْ: الذينَ حارَبوا رسولَ اللهِ ﷺ ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ هي اسْمُ ما يَقْرَعُ القلوبَ، ويَكْسِرُها،

ثم قَرْعُهُمْ يكونُ بعذابِ [وقتْلٍ وغيرِهِ][(٩)] مِنَ الهزيمةِ [وسَبْيِ ذَرارِيهِمْ، وغُنْمِ][(١٠)] المسلِمينَ أموالَهُمْ ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: أو تكونُ القارعةُ بجيرانِهِمُ الذينَ قَرُبَ منكُمْ دارُهُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: لا تَزالُ سَرِيَّةٌ مِنْ سَرايا رسولِ اللهِ ﷺ تَحُلُّ ببعضِهِمْ، أو يَنْزِلُ هو قريباً منهُمْ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ يكونُ بوجهَيْنِ:

أحدُهما: أنْ يُظْفِرَهُ بهِمْ جميعاً، وأنْ يُورِثَ المؤمنِينَ أرضَهُمْ وديارَهُمْ وأموالَهُمْ.

والثاني: يكونُ وَعْدُ اللهِ فَتْحَ مكةَ كقولِهِ: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ الآية [الفتح ١٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ما وَعَدَ رسولَهُ مِنَ الفَتْحِ والنَّصْرِ وغيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ مُحتَمِلٌ ما ذَكَرَ مِنْ إصابةِ القارعةِ الجوعَ والشدائدَ التي أصابَتْهُمْ، ويَحتَمِلُ القتالَ والحروبَ التي [كانت بينَهُ][(١١)] وبينَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ نُزولُ السرايا يقرُبُ مِنْ دارِهِمْ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ فَتْحَ مكةَ؛ أي تَحُلُّ قريباً مِنْ دارِهِمْ حتى يأتيَ ما وَعَدَ اللهُ مِنْ فَتْحِ مكةَ عليكَ، أو يكونُ وعدُ اللهِ هو البعثَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يقولُ: ولقد اسْتُهزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ قومُهُمْ كما اسْتَهزَأَ بكَ قومُكَ؛ يُعزِّي نَبِيَّهُ لِيَصْبِرَ على تكذيبِهِمْ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الرُّسُلِ، سألَهُمْ قومُهُمُ الآياتِ والعذابَ بالهُزْءِ، ثم بَيَّنَ بهذا أنَّ ما سألوهُ مِنَ الآيةِ أرادوا الهُزْءَ، وهو صلةُ ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرعد: ٢٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يقولُ: أمهَلْتُهُمْ في كُفرِهِمْ وهُزْئِهِمْ. هذا يدلُّ أنَّ تأخيرَ العذابِ عنهُمْ لا يُؤَمِّنُهُمْ.

---

(١) في الأصل وم: وهذا. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: مقطوع. (٧) و(٨) في الأصل وم: أنى. (٩) في الأصل وم: وقيل غيره، في م: وقيل غيره. (١٠) في الأصل وم: ويسبى ذراريهم ويغنم. (١١) في الأصل وم: كان بينهم.

جنة السنة

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ وهُم آمنونَ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها يقولُ: أمْلَيتُ لهُمْ][1] جزاءَ ما كانوا يَهْزَؤُونَ منهُ.

[والثاني: ما][2] قالَ بعضُهُمْ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فكيفَ عِقابُ اللهِ؟ أي شديدٌ عِقابُهُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٨] وقيلَ: كيفَ رأيتَ عذابي لهمْ؟ أي أليسَ[3] وَجَدوهُ شديداً؟

والثالثُ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي أليسَ[4] ما أوْعدَهُمُ الرُّسُلُ مِنَ العذابِ كانَ حقاً صِدقاً.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: يقولُ: مَنِ الذي ﴿هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾؟ اللهُ أم شُركاؤكُمْ؟ فالقائمُ هو المُدَبِّرُ الحافظُ لِكلِّ ما فيهِ الخَلْقُ.

ويُشبِهُ أنْ يكونَ تأويلُهُ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أي حافظٌ وعالمٌ ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أو بالرزقِ لهمْ والدَّفعِ عنهمْ كَمَنْ هو أعمى عنْ ذلكَ مِنْ ذلكَ؟ ليسا بِسَواءٍ كقولِهِ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ الآيةَ[الآية: ١٩] أو يقولُ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ كَمَنْ هو غيرُهُ قائمٌ عليهِ؟ لَيسا بِسَواءٍ.

وقالَ مُقاتلٌ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ [على][5] رِزْقِهِمْ وطعامِهِمْ، ثم قالَ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي وضَعُوا للهِ شُركاءَ، وعَبَدوها، واللهُ أحقُّ أنْ يُعْبَدَ مِنْ غيرِهِ. يقولُ اللهُ ﷻ: أنا القائمُ على كلِّ نفسٍ أرزُقُهُمْ، وأُطْعِمُهُمْ، أفأكونُ أنا وشُركائي الذينَ لا يَعقِلونَ ذلكَ سَواءً؟ والوَجْهُ فيه ما وَصَفْنا: أفَمَنْ هذا؟ ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي يَرْزُقُ، ويُبْصِرُ، ويَعْلَمُ[6] ما تَعْمَلُ، ويَكْتُبُ،[ويَحْفَظُ][7] من أنواعِ البلايا ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الآية: ١٩] جاهلٌ عاجزٌ عنْ ذلكَ كلِّهِ، أي ليسَ هذا كذلكَ، ويُسَفِّهُهُمْ في إشراكِهِمُ الأصنامَ التي عَبَدوها في الألوهيَّةِ والعبادةِ، وهي بالوصفِ الذي ذَكَرَ ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ عاجزٌ عنْ ذلكَ، أي لَيسا بِسَواءٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ في ما قَدَّرَ لها، وقَوّاها، أو في الجَزاءِ؛ يَجزي على ما تَكْسِبُ. ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ في العبادةِ وفي تَسميَتِهِمْ آلهةً، لا يَعْلَمونَ ما كُسِبَ لها، ولا يَمْلِكونَ جَزاءَ ما كَسَبوا لها أيضاً.

يُبَيِّنُ سَفَهَهُم في جَعْلِهِمْ هذهِ الأصنامَ والأوثانَ شُركاءَ اللهِ في العبادةِ وتَسْمِيَتِهِمْ آلهةً مَعَ علمِهِمْ أنهمْ لا يَقْدِرونَ، ولا يَمْلِكونَ شيئاً مِنْ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ: قولُهُ: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ بذلكَ الاسْمِ، ولو سَمَّوهُمْ بِكَذِبٍ وباطلٍ وزُورٍ.

وعندَنا قولُهُ: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي إنْ[8] سَمَّيْتُمُوها آلهةً، واتَّخَذْتُموها [مَعْبوداتٍ فَسَمُّوها][9] أيضاً بأسماءٍ سَمَّيْتُموها[10] اللهَ مِنْ نَحْوِ الخالقِ والرازقِ والرحمنِ والرحيمِ [ونحوِ ذلكَ، يقولُ][11] واللهُ أعلَمُ: إنْ[12] سَمَّيْتُمْ هذهِ الأصنامَ آلهةً[ومَعْبوداتٍ فسَمُّوها][13] أيضاً خالقاً ورازقاً ورحمانَ ورحيماً، [وأنتمْ تَعْلَمونَ][14] أنها ليستْ كذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى الْأَرْضِ﴾ [ويَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما:][15] أي أمْ تُنَبِّئونَ اللهَ، وهو عالمٌ بما في السماواتِ وما في الأرضِ، وعالمٌ بكلِّ شيءٍ، أنهُ[16] لا يَعْلَمُ في

(١) في الأصل وم: يقول أمللت بهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ليس. (٤) في الأصل وم: ليس. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ويعمل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: لو. (٩) في الأصل وم: معبودا فسموهم. (١٠) في الأصل: سميتم. (١١) في الأصل وم: ونحوه. (١٢) في الأصل وم: لو. (١٣) في الأصل وم: ومعبودا سموهم. (١٤) في الأصل وم: وهم يعلمون. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: وهو.

جنة السنة

الأرضِ ما[1] تقولونَ مِنَ الآلهةِ وما تصفونَهُ بالشركاءِ؟ وكذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] أم تُنَبِّئُونَهُ بما ليسَ في الأرضِ شيءٌ مما تقولونَ، وتصفونَهُ بالشركاءِ[2]؟ أي يقولُ: أتُنَبِّئونَ اللهَ بما لا يَعْلَمُ في السمواتِ والأرضِ، وهو عالمٌ بكلِّ شيءٍ، وأنهُ[3] لا يَعْلَمُ ما تقولونَ، وتُسَمُّونَهُ مِنَ الشركاءِ [وغيرَ ذلكَ][4].

والثاني: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ليسَ في الأرضِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي بل بباطلٍ منَ القولِ وزُورٍ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ بضعيفٍ[5] مِنَ القولِ أو خفيفٍ. يُسَمُّونَ الشيءَ الذي لا حقيقةَ لهُ، ولا ثُبوتَ[6]، ظاهراً بادياً كقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧] أي ضعيفَ الرأيِ خفيفَهُ، لا حقيقةَ لهُ، ولا قرارَ.

ويَحتمِلُ قولُهُ: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ في الخلْقِ والأسلافِ، أي لم يُظْهِرْ ما يقولونَ، ويُضيفونَ: إشراكَ هذهِ الأصنامِ وتَسْمِيَتَها آلهةً ومعبوداتٍ[7]، فيكونُ ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ في موضعِ حقيقةٍ ويَقينٍ على هذا التأويلِ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿مَكْرُهُمْ﴾ قولُهُمُ الذي قالوهُ مِنَ الكَذِبِ والزُّورِ: إنها آلهةٌ، وإنها شركاءُ اللهِ.

لكنْ يُشْبِهُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مَكْرُهُمْ﴾ مَكْرُهُمْ[8] برسولِ اللهِ ﷺ حينَ[9] احتالوا حِيَلاً / ٢٦٥ ـ ب/ لِيَقْتُلُوهُ لِئلا يَظْهَرَ هذا الدينُ في الأرضِ، ويُطْفِئوا[10] هذا النورَ لِيَدومَ عِزُّهُمْ وشَرَفُهُمْ في هذهِ الدنيا، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٣٠] والمَكْرُ هو الاحتيالُ والأخذُ مِنْ حيثُ الأمنُ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ صَدُّوا بما[11] بما عُلِمَ مِنْ مَكْرِهِمْ واختيارِهِمْ ما اختاروا. والسبيلُ المطلَقُ سبيلُ اللهِ، وإلا كانَتْ جميعُ الأديانِ والمذاهبِ تُسَمَّى سُبُلاً كقولِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ منْ أضلَّهُ اللهُ فلا يَمْلِكُ أحدٌ هِدايَتَهُ، [ومَنْ][12] هداهُ فلا يَمْلِكُ أحدٌ إضلالَهُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ العذابُ لهمْ في الحياةِ الدنيا، يَحتمِلُ القتْلَ والقِتالَ والخوفَ والجوعَ وأنواعَ البَلايا كقولِهِ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي أشدُّ ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي ما لَهُمْ مِنْ عذابِ اللهِ مِنْ واقٍ يَقيهِمْ مِنْ عذابِهِ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ يَحتمِلُ وَصْفَ الجنةِ التي وُعِدَ المُتَّقونَ، أو صِفَةَ الجنةِ التي وُعِدَ المُتَّقونَ، ويَحتمِلُ الجنةَ ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ الآية [محمد: ١٥] يقولُ، واللهُ أعلمُ: كَشَبَهِ النارِ التي وُعِدَ الكافرونَ، أي لَيسا بشبيهَينِ ولا مَثيلَينِ، لا تكونُ هذهِ مثلَ هذهِ، ولا شَبيهَتَها[13] كقولِهِ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ الآية [محمد: ١٥] يقولُ، واللهُ أعلمُ: الذي وَصْفُهُ كذا مِنَ النِّعَمِ الدائمةِ كالذي يكونُ عذابُهُ وَوَصْفُهُ كذا؟ أي لايكونُ، فَعَلى ذلكَ الأوَّلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ أي ثِمارُها دائمةٌ، لاتزولُ، ولاتنْقَطِعُ، ليسَ كثِمارِ الدنيا، إلا وهي تَزُولُ، وتَنْقَطِعُ في وقتٍ. فأخبَرَ أن ثِمارَ الآخِرَةِ، وما فيها مِنَ النِّعَمِ، دائمةٌ باقيَةٌ غَيرُ زائلةٍ ولا مُنْقَطِعَةٍ وكذلكَ عذابُها دائمٌ، لا يَزولُ ﴿وَظِلُّهَا﴾ أيضاً.

---

(١) في م: مما. (٢) في الأصل وم: شيء. (٣) في الأصل وم: وهو. (٤) في الأصل وم: وغيره. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٦) في الأصل وم: ثابت. (٧) في الأصل وم: معبودا. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: أي. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: ويطفئون. (١١) في الأصل وم: لما. (١٢) في الأصل وم: أو. (١٣) في الأصل وم: شبيهها.

جنة السنة

أخبرَ أنَّ ظِلَّ الجنةِ لايَزولُ، ولايَنْقَطِعُ، لا يكونُ فيها شمسٌ، يزولُ ظِلُّها بزوالِها، وَصَفَ جميعَ ما فيها بالدوامِ والمَنْفَعَةِ؛ الظِّلُّ شيءٌ، لا أذى فيه، وفيهِ مَنافِعُ، والشمسُ فيها أذىً ومَنافِعُ، وكذلكَ جميعُ ما يكونُ مِنَ الأشياءِ في الدنيا، يكونُ [فيها منافِعُ ومَضارُّ، وإنها][1] تَزولُ، وتَنقَطِعُ. فأخبرَ أنَّ ظِلَّ الآخِرةِ، وما فيها مِنَ النِّعَمِ دائمةٌ باقيةٌ غيرُ زائلةٍ ولامنقطعةٍ، ولامَضَرَّةَ فيها، ليسَ كنعيمِ الدنيا وظِلِّها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ظاهِرٌ[2] هذا أنْ تكونَ [عُقبى][3] الذين اتَّقَوُا الشِّرْكَ لأنهُ ذَكَرَ ﴿وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ أي جزاءُ وعُقْبَى ما ذَكَرْنا، أي تلكَ الجنةُ جَزاءُ الذين اتَّقَوُا الشِّرْكَ، ﴿وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ أي جَزاؤُهُم[4] النارُ، أو عُقْبَى [هؤلاءِ الذينَ][5] اتَّقَوا [الشِّرْكَ][6] الجنةُ، وعُقْبَى أولئكَ النارُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أي عاقبةُ أعمالِهِمْ وحَسَناتِهِمُ الجنةُ، وعاقبةُ أعمالِ الذينَ كَفَروا بتوحيدِ اللهِ النارُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يُشْبِهُ أنْ تكونَ الآيةُ صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الآية: ٣٠] فأخبَرَ ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ بِذِكْرِ الرحمنِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أصحابُ محمدٍ فَرِحوا بما أُنزِلَ إلى رسولِ اللهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أهلُ التوراةِ ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يَذْكُرُ ههنا أنَّهمْ يَفرَحونَ بما أُنزِلَ إليكَ، ويَذْكُرُ في مَوْضِعٍ آخرَ: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقالَ بعضُهُمْ في مَوضِعٍ آخرَ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١] فَمَنْ تَلا منهُمُ الكتابَ حَقَّ تِلاوَتِهِ، ولم يُبَدِّلْهُ، ولم يُغَيِّرْهُ، فهو يؤمِنُ بهِ، ويَفْرَحُ بما أُنزِلَ على محمدٍ، ومَنْ غَيَّرَهُ، وبَدَّلَهُ، فهو لم يَفْرَحْ بما أُنزِلَ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: والذينَ آتينا مَنافِعَ الكتابِ أولئكَ ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو ما قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١] لأنَّ أكثرَهُمْ يَفرَحونَ بما أنزلَ على محمدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ يَحتَمِلُ أهلَ الكتابِ؛ كانوا يُنْكِرونَ بعضَ ما أُنزِلَ إليهِ، لا يُنْكِرونَ كُلَّ ما أُنزِلَ إليهِ، وإنما كانوا يُنْكِرونَ بَعْثَهُ[7] وصفتَهُ لأنهم كَتَموا بَعْثَهُ[8] وصفتَهُ التي في كتبِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ مُشرِكي العَرَبِ، وهُمْ أيضاً أنكروا بَعْضَ ما أُنزِلَ إليهِ، وهو ما ذَكَرَ ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الآية: ٣٠] وقولُهُ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥] ونَحْوُهُ، لم يُنْكِروا كلَّهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو﴾ كانَ هذا [الذي][9] قالَ على إثْرِ قولٍ كانَ منهُمْ؛ كأنهمْ دَعَوْهُ إلى أنْ يُشارِكَهُمْ في عبادةِ الأصنامِ، أودَعَوْهُ أنْ يكونَ على ما كانَ آباؤُهُمْ، فقالَ: ﴿وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ [أنهُ قالَ ذلكَ في][10] نفسِهِ ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾ يقولُ: إلى توحيدِ اللهِ أدعو غيري، ثم أخالِفُ، وأعبدُ غيرَهُ ﴿وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ أي إليهِ المَرجِعُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ﴾ أي كما عَلَّمْناكَ آداباً، وأعطيناكَ النُّبُوَّةَ، كذلكَ أنزلْناهُ عليكَ ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ قيلَ: حِكْمَةٌ عَرَبِيَّةٌ، وكانتِ العَرَبُ تَفْهَمُ[11] الحِكْمَةَ، أو أنزَلْنا ما فيهِ حِكَمٌ.

---

(١) في الأصل وم: من الأشياء فيها منافع ومضار إنها. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: أي جزاء الكافرين النار. (٣) ساقطة من الأصل وم.
(٤) في الأصل وم: جزاء، في م: جزاؤه. (٥) في الأصل وم: هذه للذين. (٦) ساقطة من الأصل م. (٧) في الأصل وم: نعته. (٨) في الأصل وم: نعته. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قال ذلك من. (١١) أدرج قبلها في الأصل وم: لا.

جنة السنة

وتفسيرُ قولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى، وهو قولُهُ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ و﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الآية: ١ و٢] سمّى القرآنَ حُكماً لأنهُ لِلْحُكمِ [أنزلَهُ اللهُ](١).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ هذا يدلُّ أنهم كانوا يَدْعونَ إلى أنْ يُشارِكَهُمْ في بَعْضِ ما هم فيهِ ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يَنْصُرُكَ، ويَمْنَعُكَ مِنْ عذابِ اللهِ ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يَقيكَ(٢) العذابَ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: نَزَلَ هذا؛ وذلكَ أنَّ اليهودَ عَيَّروا رسولَ اللهِ، وطَعَنوهُ(٣) في كَثْرةِ النساءِ والأولادِ، وقالوا: لو كانَ نبيًّا على ما يَزْعُمُ لكانَ لا يَتَمَتَّعُ بالنساءِ، ولا يَطْلُبُ الأولادَ، كما يَفْعَلُهُ غيرُهُ، وما كانتِ النُّبُوَّةُ تَشغلُهُ عنْ ذلكَ، فأنزلَ اللهُ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ الآية: أيِ الاِسْتِمْتاعُ بالنساءِ، واسْتِكْثارُهُ(٤) منهنَّ لمْ يمنعْهُ(٥) عنِ الاختصاصِ بالنبوّةِ والرسالةِ على ما لم يَمْنَعْ غيرَهُ مِنَ الرسُلِ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يَملِكونَ إنزالَ الآياتِ مِنْ أنفسِهِمْ. إنما يَتَوَلَّى اللهُ إنزالَها إنْ(٦) شاءَ ذلكَ، وهو قولُ عيسى حينَ(٧) قالَ: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ الآية [آل عمران: ٤٩] أخبرَ أنَّ ما يأتي مِنَ الآياتِ إنما يَأتيها بإذنِ اللهِ وبأمرِهِ لا مِنْ نفسِهِ.

ويَحتَمِلُ(٨) أنْ يكونَ جوابَ ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ وجوابَ غيرِ ذلكَ أيضاً، وهو طَعْنُهُمُ الرسولَ بالأكلِ والشربِ والمَشْيِ في الأسواقِ، وسؤالُهُمُ الآياتِ التي سألوهُمْ، وجوابُ/ ٢٦٦ ـ أ/ إنكارِهِمُ الرسلَ مِنَ البَشَرِ.

يقولُ: لستَ أنتَ بأوّلِ رسولٍ، طُعِنْتَ بما طَعَنَكَ بهِ قومُكَ، ولكنْ ما كانَ قَبْلَكَ رسولُ طَعَنَهُمْ(٩) قومُهُمْ بما طَعَنَكَ(١٠) بهِ قومُكَ، وسألوهُمْ مِنَ الآياتِ ما سألَكَ(١١) بهِ قومُكَ، فلم يكنْ ذلكَ لهمْ عُذراً في ردِّ ما رَدُّوا وتَرْكِ ما تَرَكوا، بل نَزَلَ بهمُ العذابُ، فَعَلَى ذلكَ قومُكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ: قالَ قائلونَ: لِكلِّ كتابٍ أجلٌ، وهي الكتبُ التي أُنْزِلَتْ على الرسلِ، يُعْمَلُ بها إلى وقتٍ ثم تُنْسَخُ، أو يُتْرَكُ العملُ بها.

وقالَ قائلونَ: هو ما قالَ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لِكلِّ ذي أجلٍ أجَلُهُ إلى وقتِ انْقِضائِهِ، ليسَ يُرادُ بهِ الكتابةُ باليدِ، ولكنِ الإثباتُ كقولِهِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي أثْبَتَ، ليسَ أنْ كُتِبَ هنالك باليدِ. فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي إثباتٌ إلى وَقْتٍ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لِكلِّ كتابٍ أجلٌ، أي لِكلِّ ما كُتِبَ لهُ الأجَلُ، وجُعِلَ لهُ الوقتُ مِنَ العذابِ، يَنْزِلُ بالمُعانِدينَ(١٢)، والنصرُ لِلرُّسُلِ، فإنهُ لا يكونُ قَبْلَ ذلكَ الوقتِ، ولا يَتأخَّرُ أيضاً عنْ ذلكَ الوقتِ، وهو كقولِهِ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً﴾ الآية [الأعراف: ٣٤].

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قالَ(١٣) قائلونَ: قولُهُ: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ المَحْوُ ههنا إنْ شاءَ في الاِبْتِداءِ يَمْحو، ليسَ على أنْ كانَ مُثْبَتاً، فَمَحاهُ(١٤)، ولكنْ أنْشأَهُ هكذا يَمْحو، وهو كقولِهِ: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ١٢] ليسَ أنهُ كانَ مُثْبَتاً كذا، ثم مَحاهُ(١٥) ولكنْ أنْشأَهُ في الاِبْتِداءِ(١٦) يَمْحو، وكقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الرعد: ٢] ليسَ أنها كانَتْ موضوعةً، ثم رَفَعَها، ولكنْ أنْشأها مُرْتَفِعةً كما هي: فَعَلَى ذلكَ هذا.

ثم يَحْتَمِلُ ذلكَ الأعمالَ التي كانَتْ مَعْفُوَّةً في الأصلِ مِنْ أعمالِ الصِّبيانِ والأعمالَ التي لا جزاءَ عليها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يقي. (٣) في الأصل وم: وطعنوا. (٤) في الأصل وم: واستكثارهم. (٥) في الأصل وم: يمنع. (٦) من م، في الأصل: إذا. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: طعن. (١٠) في الأصل وم: طعن. (١١) في الأصل وم: سأل. (١٢) في الأصل وم: من المعاندين. (١٣) أدرج قبلها في الأصل وم: ذلك. (١٤) في الأصل وم: فمحا. (١٥) في الأصل وم: محا. (١٦) في الأصل وم: الآية.

جنة السنة

وقال قائلون: على إحداثِ مَحْوٍ بعدَ إثباتٍ، ثم يَحْتَمِلُ [ذلكَ وجوهاً]:

أحدُها: يَمْحُو اللهُ[(١)] ما يَنْسَخُ مِنَ الأحكامِ: فهو على مَحْوِ الحُكْمِ بهِ والعملِ، ليسَ على مَحْوِ نَفْسِهِ، ويُثْبِتُ: وهو ما لا يَنْسَخُ، ولا يَتْرُكُ العملَ بهِ والحُكْمَ.

والثاني[(٢)]: مَحْوُ الأحوالِ، وهو ما يَنْقُلُ، ويُحَوِّلُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ: مِنْ حالِ النُّطْفَةِ إلى حالِ العَلَقَةِ، ومِنْ حالِ العَلَقَةِ إلى حالِ المُضْغَةِ؛ يُحَوِّلُهُ، ويَنْقُلُهُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ أُخرى، فذلكَ هو المَحْوُ.

والثالثُ[(٣)]: هو ما يَخْتِمُ بهِ العُمُرَ [مِنَ][(٤)] السعادةِ أو الشقاوةِ: إذا كانَ كافراً، ثم أسْلَمَ في آخِرِ عُمُرِهِ، مُحِيَتِ الأعمالُ التي كانَتْ لهُ في حالِ كُفْرِهِ، فَأُبدِلَتْ حَسَناتٍ، وإذا كانَ مُسْلِماً، ثم خَتَمَ [عُمُرَهُ][(٥)] بالكُفرِ مُحِيَتْ أعمالُهُ التي كانَتْ لهُ مِنَ الصالحاتِ، فلم يَنْتَفِعْ[(٦)] بها.

أو أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنَ المَحْوِ والإثباتِ هو ما يَكْتُبُ الحَفَظَةُ مِنَ الأعمالِ، يُمْحَى عنها ما لا جَزاءَ لها ولا ثوابَ، ويُبْقَى ما لهُ الجَزاءُ والثوابُ، ويُتْرَكُ مكتوباً كما هو.

أو أنْ يكونَ لِلْخَلْقِ مَقاصِدُ في أفعالِهِمْ، والحَفَظَةُ لا يَطَّلِعونَ على مَقاصِدِهِمْ، فَيَكْتبونَ هُمْ ما هو في الحقيقةِ حَسَنَةٌ بِقَصْدِهِ سَيِّئَةً على ظاهِرِ ما عَمِلَ، أو حسنةً في الظاهرِ، هو في الحقيقةِ سَيِّئَةٌ، فَيَغْفِرُ ذلك، فَيَجْعَلُ ما هو في الحقيقةِ شَرٌّ، وفي الظاهِرِ خَيْرٌ، شَرًّا بالقَصْدِ، وما هو في الحقيقةِ خَيْرٌ، وفي الظاهِرِ شَرٌّ، خَيْراً، ويكونُ في كتابةِ الحَفَظَةِ، لكنهُ مِنْ وجهٍ آخَرَ، وهو أنَّ الحَفَظَةَ يكتبونَ الأعمالَ، ثم يُعارَضُ ذلكَ بما في اللوحِ المحفوظِ، فَيُمْحَى مِنْ كتابةِ الحَفَظَةِ مِنَ الزِّيادةِ، ويُثْبَتُ فيها ما كانَ مِنَ النُّقصانِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هذا يَحْتَمِلُ ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي يُعارَضُ بهِ كتبُ الملائكةِ، ويَحْتَمِلُ ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي تُسْتَنْسَخُ منهُ الكتبُ التي أُنزِلَتْ على الأنبياءِ والرسلِ، وهو اللوحُ المحفوظُ.

وفيه دلالةٌ أنَّ اختِلافَ الألسنِ، لا يُوجِبُ تَغْييرَ المَعْنَى، لأنهُ لا يُدْرَى أنَّ تلكَ الكتبَ في اللوحِ المحفوظِ بأيِّ لسانٍ هي؟ ثم أُنزِلَ منهُ كلُّ كتابٍ على لسانِ الرسولِ الذي نَزَلَ عليهِ، وكذلكَ الملائكةُ الذينَ يكتبونَ أعمالَ بني آدمَ، ولا يُحْتَمَلُ أنْ يكتبُوا بلسانِ الخَلْقِ، لأنهُ يظْهَرُ، لو كانوا يكْتُبونَ بلسانِ هؤلاءِ. فَدَلَّ أنهُمْ إنما يكتبونَ بِلِسانِ أنفسِهِمْ. فهذا كلهُ يدلُّ أنَّ اختِلافَ اللسانِ لا يُوجِبُ اختِلافَ المَعْنَى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ كأنه ﷺ طَمِعَ، أو سَأَلَهُ أنْ يُرِيَهُ جميعَ ما وَعَدَ لهُ مِنْ إنزالِ العذابِ عليهِمْ وأنواعِ ما وَعَدَ، فقالَ: إنْ شِئنا ﴿نُرِيَنَّكَ بَعْضَ﴾ ما وَعَدْنا، وإنْ شِئنا ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ ولم نُرِكَ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي ليسَ لكَ مِنَ الأمرِ شيءٌ، أي ليسَ إليكَ هذا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ وهو كقولِهِ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

[وقولُهُ تعالى][(٧)]: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ فَيَخْرُجُ مُخرَجَ العِتابِ والتوبيخِ، ليسَ مُخرَجَ الوَعْدِ والعِدَةِ؛ إذ قولُهُ: ذا أو ذا بِحَرْفِ شَكٍّ، فهو يُخَرَّجُ على الوَعْدِ أو على النَّهْيِ عنْ سؤالٍ كانَ مِنْ رسولِ اللهِ، فإنْ كانَ على النَّهْيِ، فكأنَّهُ نَهاهُ أنْ يَسْأَلَ إنزالَ العذابِ عليهِمْ [فهو][(٨)] يقولُ: إنْ شِئنا أنْزلنا، وإنْ شِئنا لم نُنْزِلْ.

وإنْ كانَ على الوَعْدِ [فهو][(٩)] يقولُ: نُريكَ بعضَ ما وَعَدْنا، ولا نُريكَ كُلَّهُ، وإلّا فظاهِرُهُ[(١٠)] حَرْفُ شَكٍّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ يَحْتَمِلُ ما وَعَدَ وجزاءَهُ، ويَحْتَمِلُ الحسابَ المعروفَ الذي يحاسِبُهُمْ يومَ القيامةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وجوهاً. (٢) في الأصل وم: ويحتمل المحو. (٣) في الأصل وم: ويحتمل المحو أيضاً. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ينتفعوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.
(١٠) في الأصل وم: ظاهره.

جنة السنة

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنَّهُ إنما هو حَرْفُ تَعْجيبٍ وتَنْبيهٍ، فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: على الخَبَرِ؛ أي قد رَأَوا أنّا فَعَلْنا ما ذَكَرْنا[1].

والثاني: على الأمرِ، أي رُوا أنّا فَعَلْنا ما ذَكَرْنا[2]، وهو ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٩]. أي قد ساروا في الأرضِ، أي سِيروا.

[وقولُهُ تعالى][3]: ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو ما جَعَلَ مِنْ أرضِ الكفرةِ لِلْمُسلِمينَ بالفَتْحِ لهمْ والنَّصْرِ على أولئكَ والإخراجِ مِنْ سلطانِ أولئكَ الكَفَرةِ وأيديهِمْ وإدخالِها في أيدي المُسلِمينَ. فذلكَ النُّقصانُ، واللهُ أعلَمُ: لمّا وَعَدَ [اللهُ][4] لرسولِهِ أنْ يُرِيَهُ بَعْضَ ما وَعَدَ لهمْ قالَ[5] الكَفَرةُ عندَ ذلكَ: أينَ ما وَعَدَ [اللهُ][6] أنْ يُريَكَ، فقالَ عندَ ذلكَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: ألَمْ يَرَوا أنهُ جَعَلَ بَعْضَ ما كانَ لهمْ مِنَ الأرضِينَ لِلْمُسلِمينَ. فإذا قَدَرَ على جَعْلِ البَعْضِ الذي كانَ لهمْ لهؤلاءِ [فإنهُ][7] لقادرٌ أنْ يَجْعَلَ الكُلَّ لهمْ، أفَلا يَعْتَبِرونَ؟ هذا، واللهُ أعلَمُ، ما أرادَ بما ذَكَرَ مِنَ النُّقصانِ.

وقالَ قائلونَ: نُقصانُ الأرضِ، مَوتُ [فُقَهائِها وعُلَمائِها وفَناؤُهُمْ][8] ووجهُ هذا هو[9] أنَّ الفُقَهاءَ والعُلَماءَ هُمْ عُمّارُ الأرضِ، وأهلُها[10]، وبِهِمْ صلاحُ الأرضِ، فَوَصَفَ الأرضَ بالنُّقصانِ بذهابِ أهلِها، وهو كما وَصَفَ الأرضَ بالفسادِ، وهو قولُهُ: ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقولُهُ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١] فالأرضُ لا تَفْسُدُ بِنَفْسِها، ولكنْ وُصِفَتْ بالفَسادِ لِفَسادِ أهلِها.

فَعَلى ذلكَ لا تَنْقُصُ هي بِنَفْسِها، ولكنْ وُصِفَتْ بالنُّقصانِ لِذَهابِ أهلِها وعُمّارِها: فُقَهائِها وعُلَمائِها.

ثم يَحْتَمِلُ ذهابَ العلماءِ المُتَقَدِّمينَ الذينَ تَقَدَّموا رسولَ اللهِ في الأُمَمِ السالفةِ، وهُمْ علماءُ أهلِ الكتابِ. فنقولُ: ألا يَعْتَبِرونَ بأولئكَ الذينَ قُبِضوا، وتفانَوا، مِنْ علمائِهِمْ؟ فلا بُدَّ مِنْ رسولٍ يُعَلِّمُهُمُ الآدابَ والعلومَ، ويُجَدِّدُ لهمْ ما دَرَسَ مِنَ الرسومِ، وذَهَبَ مِنَ الآثارِ.

فكيفَ أنْكَروا رسالَتَهُ؟ وفي بعثِ الرسولِ حُدوثُ العلماءِ، وذلكَ وقتُ حُدوثِ العلماءِ وزمانُهُ.

فإنْ كانَ أرادَ العلماءَ المتأخرينَ وفُقَهاءَهُمْ [يُخَرَّجُ ذلكَ مُخرَجَ][11] التَّعْزِيَةِ لهُ؛ أي تصيرُ الأرضُ بحالٍ، يُوصَفُ بالنُّقصانِ بذهابِ العلماءِ/٢٦٦ ـ ب/ والفقهاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ قيلَ: لا رادَّ لِحُكْمِهِ، وحُكْمُهُ يَحْتَمِلُ العذابَ الذي حَكَمَ على الكَفَرةِ. يقولُ: لا رادَّ للعذابِ الذي حَكَمَ عليهِمْ، وهو كقولِهِ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] أي احْكُمْ بالعذابِ الذي حَكَمْتَ عليهِمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ أي لا يَتَعَقَّبُ أحدٌ حُكْمَهُ، ولا يُعَقِّبُ أحدٌ سلطانَهُ، كما يكونُ في حُكْمِ الخلائِقِ، يَتَعَقَّبُ بَعْضٌ عنْ بَعْضٍ، وكما ذَكَرَ في الحَفَظَةِ ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [الرعد: ١١] يَتَعَقَّبُ بَعْضٌ عنْ بَعْضٍ في الحِفْظِ وفي ما سُلِّطوا، واللهُ أعلَمُ ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ هذا قد ذَكَرْنا في غيرِ مَوضعٍ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مَكَرَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ بِرُسُلِهِمْ، كَمَكْرِ هؤلاءِ بكَ، يُصَبِّرُ رسولَهُ على أذاهُمْ بهِ، ثم يَحْتَمِلُ المَكْرُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: مَكَروا بنفسِهِ: هَمّوا قَتْلَهُ وأهلاكَهُ.

---

(١) و(٢) في الأصل وم: ذكر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فقال. (٦) ساقطة من الأصل وم.
(٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: فقهاؤها وفناها، في م: فقهائها وعلمائها. (٩) في الأصل وم: وهو. (١٠) في الأصل وم: وأهلهم. (١١) في الأصل: فيخرج، في م: فيخرج ذلك مخرج.

جنة السنة

والثاني: مَكَروا بدينِهِ الذي دعاهُمْ إليهِ، وأرادَ إظهارَهُ، فَهَمُّوا[١] هُمْ إطفاءَ ذلكَ وإبطالَهُ، وكذلكَ ﴿مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ برسُلِهِمْ يُخرَّجُ على هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ وهذا أيضاً يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ: فَلِلّهِ جزاءُ المَكرِ جميعاً؛ يَجزي كُلّا بِمَكرِهِ.

والثاني: أي للهِ حقيقةُ المَكرِ؛ يأخُذُهُمْ جميعاً بالحَقِّ مِنْ حَيثُ لا يَشعُرونَ.

وأمّا هُمْ فإنما يأخذونَ[٢] ما يأخذونَ لا بالحَقِّ، ولكنْ بالباطلِ، ولا يَقدِرونَ على الأخذِ مِنْ حَيثُ لا يُشعِرونَ إلّا قليلاً مِنْ ذلكَ. فحقيقةُ المَكرِ الذي هو مَكرٌ بالحقِّ في الحقيقةِ للهِ، لا لَهُمْ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ أي للهِ تدبيرُ المَكرِ جميعاً، إنْ شاءَ أمضاهُ وإنْ شاءَ مَنَعَهُ، إليهِ ذلكَ، لا إليهِمْ، أو للهِ حقيقةُ المَكرِ يَغلِبُ مَكرُهُ مَكرَ أولئكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾ مِنْ خيرٍ أو شرٍّ ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ يُشبِهُ أنْ يكونَ عُقبى الدارِ مَعروفاً عندَهُمْ، وهي الجنةُ، فيكونُ صِلَةَ قولِهِمْ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة: ١١١] فيقولُ، واللهُ أعلَمُ: سَيَعلَمونَ هُمْ ﴿لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أهي لهمْ، أم هي للمؤمنينَ؟ أو أنْ يكونَ جوابَ ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٦] لمّا رَأَوا أنفسَهُمْ[٣] مُفضَّلينَ في أمرِ الدنيا، وَوُسِّعَ عليهِمُ الدنيا، ظَنّوا أنَّ لهمْ في الآخِرةِ كذلكَ، فقالَ ذلكَ جواباً لهمْ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي قالوا ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ أي لم[٤] يَبعَثْكَ اللهُ رسولاً، وهمْ كانوا يقولونَ كذلكَ لهُ، أمَرَهُ[٥] أنْ يقولَ لهمْ: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ أني نَبيٌّ، ورسولُ[٦] اللهِ إليكُمْ بالآياتِ التي آتي بها.

أو كانَ قالَ لهمْ هذا لمّا بالغَ في الحِجاجِ والبراهينِ في إثباتِ الرسالةِ والنُّبُوَّةِ، فلم يَقبَلُوا ذلكَ، فَأيِسَ مِنْ تصديقِهِمْ. فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي يَعلَمُ مَنْ كانَ عندَهُ عِلمُ الكتابِ؛ يعني التوارةَ [والإنجيلَ][٧] فَيَشهَدُ أيضاً أني رسولٌ، ونبيٌّ[٨]، أي يَعلَمُ مَنْ كانَ عِندَهُ عِلمُ الكتابِ أني على حقٍّ، وأني رسولُ اللهِ، وهو كقولِهِ: [﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]][٩] وقولِهِ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، والأنبياء: ٧].

ومَنْ قَرأَ بالخَفضِ: ومِنْ عِندِهِ: ﴿عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ: أي مِنْ عِندِ اللهِ جاءَ عِلمُ هذا الكتابِ ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصلت: ٤٢] وكذلكَ رُوِيَ في بَعضِ الأخبارِ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ كانَ يَقرأُ ومِنْ عِندِهِ ﴿عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بالخَفضِ.

وأمّا القُرّاءُ جميعاً فإنهمْ يختارونَ بالنصبِ ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

قالَ أبو عُبَيدٍ: ومِنْ عِندِهِ بِخفضِ الميمِ والدالِ، ورَفعِ العينِ [عُلِمَ الكتابُ][١٠]، قالَ: لا أدري عَمَّنْ هو.

ورُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ أنهُ قالَ: فِيَّ نَزَلَ: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هذا يُؤيِّدُ أنْ يُثبِتَ قولَ أهلِ التأويلِ حينَ[١١] قالوا: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ عبدُ اللهِ بنُ سَلامٍ وأصحابُهُ [واللهُ أعلَمُ بالصوابِ][١٢].

تم بعون الله

المجلد الثاني

ويليه الثالث وأوله سورة إبراهيم

---

(١) في الأصل وم: هموا. (٢) في الأصل وم: يأخذوه. (٣) في الأصل وم: هم. (٤) في الأصل وم: لن. (٥) في الأصل وم: فأمره. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ﴾ [الروم: ١٣]. (١٠) ساقطة من الأصل و م انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٢٢٢. (١١) في الأصل وم: حيث. (١٢) ساقطة من م.

جنة السنة

سورة المائدة ٥
سورة الأنعام ٩٥
سورة الأعراف ٢٠٥
سورة الأنفال ٣٢٩
سورة التوبة ٣٧٩
سورة يونس ٤٦١
سورة هود ٥٠٧
سورة يوسف ٥٦٥
سورة الرعد ٦١٣

جنة السنة

جنة السنة